lisanarabs.blogspot.com

شرح نهج البلاغة

لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني
ت ٦٧٩ هـ

١ ـ ٥

مكتبة لسان العرب

دار الحبيب

مكتبة
لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

شرح
نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

شرح نهج البلاغة

لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني
ت ٦٧٩هجرية

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

١ - ٥

دار الحبيب
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ابن میثم، میثم بن علی، ٦٣٦-٦٨٩ ق. شارح
شرح نهج البلاغه / مؤلف : کمال الدین میثم بن علی بن میثم البحرانی.
قم : نشر حبیب ، ١٣٨٦.

ISBN: 978-964-6119-12-3

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
کتابنامه

١- علی بن ابیطالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ٤٠ ق.- نهج البلاغه، نقد و تفسیر. ٢- علی بن ابیطالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ٤٠ ق.- نهج البلاغه، خطبه ها. ٣- علی بن ابیطالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ٤٠ ق.- کلمات قصار. ٤- علی بن ابیطالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ٤٠ ق.- نامه ها. الف. علی بن ابیطالب(ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت-٤٠ ق. نهج البلاغه. شرح. ب. عنوان. ج. عنوان: نهج البلاغه. شرح.
نشر حبیب. ١٣٨٦

BP٢ الف/٠٢/٣٨ ٢٩٧/٩٥١٥

شرح
نهج البلاغة

ابن ميثم البحراني

الناشر: دار الحبيب
المطبعة: عترة
العدد: ٢٠٠٠
الطبعة: الثانية - ١٤٣٠ هـ ق
ردمك: ٣ - ١٢ - ٦١١٩ - ٩٦٤ - ٩٧٨
ISBN: 978 - 964 - 6119 - 12 - 3

جميع حقوق الطبع محفوظة لمكتبة فخراوي - مملكة البحرين
تم اتخاذ إذن خطي من السادة مكتبة فخراوي - لإعادة طبع هذا الكتاب الشريف في إيران لدى مؤسسة دار الحبيب

دار الحبيب
قم - ص.ب: ٧٩١/ ٣٧١٨٥ - هاتف: ٧٧٣٢٠٠٩ (٠٢٥١) - جوال: ٠٩١٢٧٤٧٤٥٧٢
www.habib-pub.com
E-mail: info@habib-pub.com

lisanarabs.blogspot.com

مقدمة الناشر

بسمه تعالى

دأبت مكتبة فخراوي ضمن مشروعها الثقافي الرائد المتمثل في دعم ونشر كل ما هو جاد وجديد في دنيا العلم والمعرفة والأدب، والثقافة الإسلامية وتراثها العظيم، إيماناً منها بأهمية العمل على إعادة طباعة وإصدار ونشر التراث العربي الإسلامي بصورة عامة، والتراث الثقافي المحلي بصورة خاصة. وإنطلاقاً من تلك الرؤى والتوجهات التي تبنتها مكتبة فخراوي، فقد عقدت العزم على التصدي بكل ما تملكه من إمكانيات لإحياء تراث علمائنا الأعلام وفق منهجية علمية ذات صبغة ثقافية.

وها هي تحط الرحال عند رائد، وعالم، وفيلسوف متكلم، من أعظم علماء هذا البلد العريق في القرن الثامن الهجري.. إنه فخر العلماء والمحققين والمتكلمين، العالم الفذ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، الذي قدم خدمة جليلة للأمة الإسلامية بشرحه الوافي والرصين لكتاب (نهج البلاغة) للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

لقد تم طبع الكتاب عدة مرات وفي بلدان عربية وإسلامية مختلفة، في أكثر من مجلد، وهو الأمر الذي دفع بالقائمين على مكتبة فخراوي لتبني إعادة طباعته في حلة قشيبة، وأن تعيد إخراجه إخراجاً فنياً في مجلد واحد أنيق، مراعية ضمن ذلك تصحيح ما أستطاعت من أخطاء، ليتسنى لجميع القراء إمكانية إقتنائه وتداوله.

إن مكتبة فخراوي وهي تقدم هذا التراث الفكري الإسلامي لسيد البلغاء والخطباء والمتكلمين الإمام علي عليه السلام، فهي تهدف إلى رفد الساحة الثقافية العربية والإسلامية بكتب ومصادر معرفية مختلفة تساهم في نشر الوعي الثقافي بين أبناء الأمة العربية الإسلامية، مركزة في ذات الوقت على إحياء التراث الثقافي البحريني، وإصداره من جديد وفق تقنية حديثة في الطباعة والإخراج.

مقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وله الحمد، طلبَ منّي مَنْ لا أستطيع ردّه، وهو من أفاضل الأخلاّء أن أتولى شرف التمهيد لكتاب له قيمة علمية لمؤلّف له فضل كبير وهو كتاب «شرح نهج البلاغة» للعلامة الحكيم كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم بن المعلّي البحراني - شكر الله سعيه - فأجبته وإن لا أستحق رعاية لسنّة الصداقة في سبيل الله.

ومعلوم أن تمهيد الكتاب بتفسير ما اصطلح عليه في الفن، وشرح مضامين بعض الكلمات التي يدور عليها، وتقديم ما يرتبط به من التقييم بالمميزات، أو النقد، والبحث عما يوجب زيادة البصيرة، ثم الحديث عن شخصية المؤلّف وترجمة أحواله، موضوع يمكن فيه الإجمال والتفصيل، والإجمال قد لا يضر بمفاد التفصيل، والتفصيل قد لا يزيد على ما أفاده الإجمال، وإنّما هما على حسب الإقتضاء. وعلى حسبه ما يهمنا ولا يعنينا غيره بعد تفصيل المؤلّف تفسير ما اصطلح عليه في الفن، وشرح ما يدور عليه الكتاب. إنّما هو التكلّم عن حياة المؤلف وترجمة أحواله.

ما يجوز الصبر عليها من الحوائج كبعض المعائش والأدواء يقود ويسوق إلى كشف ما جعل الله له من الأسرار والرموز في عالم الخلق والطبع مصدراً وقضاءً، والعاقل قد يجهل وجودها ويعيش بجهله ما لم يكن له إليها حاجة، ومتى مست الحاجة يجدّ حتى يجدها ليسدّها.

وما لا يجوز الصبر عليها متى ضغطت الحاجة بوطأتها لم يجعله في أكمّة الرموز وأكنّة الأسرار بل جعله من واضح الآيات، وإن نساه بعدما شعر به في سالف الدهر، ومرّ عليه مرور الكرام بعد ما فطن به وعثر عليه.

ومن القسم الثاني علم المبدأ والمعاد، والعقيدة بما يوجب القرب إلى الله والبعد عنه، ومعرفة طرق سعادة الأرواح وشقاوتها.

وقد أرسل الله أنواراً ساطعة وسرجاً منيرة ودعاة حق إلى سبيله، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليحكموا بين الناس بالقسط. وجاء الإسلام وختم به الشرائع والإنباء بكتاب وأحكام، وطلب ممّن يتديّن به العدل والإحسان، وأن يقوموا لله مثنى وفرادى، وألّف بين قلوبهم وجعلهم أشداء على الكفّار رحماء بينهم، وجعل بعضهم أولياء بعض وخير أُمّة أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وجعل لهم العزّة ولله ولرسوله، وجعل كلمتهم العليا.

لا أريد أن أخوض بك إلى أعمق النواحي، ولكن الباحث إذا وصل إلى القعر والغور يرى أن ليس - قل أو أكثر - بيدنا شيء من حقيقة ما جاء به الإسلام، وربّى به أبناءه الأولين، وغرس في نفوس من نفتخر بهم ونتبجّح: وهذا هو الداء والشقاء. وهذا هو ميعة الفساد ومنبثق المأساة.

لا تمرّ على جليسين إلاّ وتسمع يشكو أحدهما المآسي والآلام من استهتار أهل العصر، وشيوع الخلاعة بينهم، واندناحهم عند المطامع، وموت الشعور فيهم. قبال ما كان عليه السلف من الشجاعة والشرف، والعزّة والكرامة، وصلابة العود وقوّة العقيدة.

نعم إنّ جيوش الشهوات استلبت ثروة العقول والعقائد، فانطمست فضائل الأخلاق واندرست محامد الآداب، أُخذت أعالي الصفات وأُهملت أماجد الخصال، وذهب الخير الساري ذهاب الأمس الدابر. أبدل هناء العيش والحياة من الصدق والصفاء بالشرور والشقاء، لا تخصّ بذلك بلدة دون أُخرى، بل لا تجد قرية ولا قطراً إلاّ ونشب البلاء والعناء مخالبها فيها، وأخذت الفتن والمحن وافر حظّها منها، غرست بذور الرذائل وقلعت أصول العدل وجذور الفضائل، بلغ سوء الحال وتردّي الوضع وسرعة الإستجابة إلى الشهوات العارمة إلى أبعد الحدود، وأمهى، لا يقنع المقلّ ولا يبذل المكثر يطلب ذلك بآخرته أرخص بهاء وأبخس ثمن ويرى العيش والترف الغاية والشرف، ويبذل ذاك على أخسّ شيء آخرته التي هي أغلى وأقيم ويرى الفقر والقلّة الشقاء والذلّة، انبثق سيل ناجخ الخنى فما أبدى أحد ودّاً لصديق إلاّ ويمانيه، ولا يرى نعمة على حميم إلاّ ويناتته، وما مضح قويّ عن مغلوب إلاّ ليمصخه، والناس لا منعى لهم عمّا يشين ويمين، أخذت غيوم الجهل والضلال سماء عقولهم لا تنجد ولا تصحو، نابأهم الخير وهم في الغيّ والبغي متمادون، دهر ما صع رزيء أهله بتفشية الفساد وابتلوا بساسة أغبياء لا يهمّهم إلاّ مصّ دماء الضعفاء، فهم والناس بين نحيص ونحيض، ولا واعظ ولا زاجر بل هم والفساد في هياط ومياط، ليس منهم من يسكّن اللوعة ولا من يهدّيء الفورة. فرحوا بما أُوتوا وغرّتهم الحياة الدنيا ونسوا ما ذكّروا به أنّ وعد الله حقّ وما علموا أن الله أمهلهم ومههم إرهاصاً. ولا سمح الله سوف يأخذهم بغتة وهم مبلسون. تدقعهم البلاء وتدغمهم العناء وهم يتناخسون وبأنفسهم يستدفئون. ولا دفء ولا علاج.

ولو أنّ الناس حين تنزل عليهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى بارئهم بصدق من نيّاتهم ووله من قلوبهم لردّ الله عليهم كلّ شارد وأصلح لهم كل فاسد، وهذا هو الدواء والشفاء وريع الصلاح وروى الرحمة.

كم من منادٍ باكٍ ربِّ زدني علماً فاستجاب له وعلّمه من لدنه علماً، وكم من متبتّل واك ربّ هب لي ملكاً فأفاض عليه وآتاه ملكاً عظيماً، وكم من مسّه الضرّ وقدر عليه ففرّ إلى الله وأناب فاستجاب له ونجّاه رحمة من عنده وذكرى للعابدين، وكذلك يجزي الله المؤمنين.

اللهم نستنجح المواعد ونتضرّع إليك أن تناش الحق وتؤنف أهله، وتكسر صولة الباطل وتسكت نأمته.

وأحسن دليل وأهدى قائد إلى الحقّ وسبيله بعد كلام الله وكلام رسوله - ولا أستثني - كلام نحيت كرم ما دلّ بعطائه ولم ينحط سائل عن بابه، ونجيد عزّ نخبت قلوب النجد عن مرأى معاركه، من بولائه تمّت النعمة وكمل الدين، جامع شمله ومعظم أهله، أفقه الناس فيه وأعرفهم بحلاله وحرامه، أقرأهم لكتاب الله وأعظمهم جهاداً في سبيله، من جعل حبّه عنوان صحيفة الأبرار وبغضه علامة لأهل النار، باب العلم وعيبة علم الله. وليد البلاغة الذي بكلامه بقيت لها الدولة والصولة، وخطيب الحكمة الذي بكلامه زهق الباطل وحقت للحق الكلمة، كلامه كلام لا ترى فيه من فطورات ولا تفاوت، فارجع البصر ثم ارجع البصر، زيّن سماء كلامه بمصابيح الهداية لا يخطفه الهائمون والغاوون إلاّ وأتبعه شهاب ثاقب، كم من نجّده الكلام وهمّوا بخيلهم ورجلهم أن يأتوا بمثل كلامه وينسجوا على منواله فلم يأتوا وكان بعضهم لبعض ظهيراً، وكم من أوهبه الله الذكاء والقريحة وجعل بين جنبيه البيان والبلاغة وأيّده ببصيرة المعريّ وأنفة الرضيّ وشجاعة أبي الطيب وفخر ابن أبي فراس وطبع ابن برد فرأى نفسه متوقاً إذا قاس كلامه بكلامه.

رحمك الله أيّها الشريف الرضيّ وجزاك جزاء المحسنين. أرويت بدهاق ماء جودك القلوب، وأخصبت

بدفاق سيل فضلك الأرواح، وأهديت بأغلى التحف وأثمنها العقول، أنهجت نهج العدل بما وعيت وبلّغت، ونثرت لآلي الحكم ودرر البلاغة وأنعمت. قصر المادح عن بلوغ مدى محاسنك، وعجز الخائض عن استكناه قعر فضائلك. فجزاك الله أحسن جزاء المحسنين.

وقد اهتمّ بحفظ كتاب «نهج البلاغة» حملة العلم وأبطال الأدب بشرح ما لاح لهم من رموزه، وكشف ما تنبّهوا عليه من كنوزه.

منها:

١ - «أعلام نهج البلاغة» وهو أوّل الشروح وأقدمها للسيد عليّ بن الناصر المعاصر للسيد الشريف الرضيّ.

٢ - شرح أحمد بن محمد الوبري من أعلام القرن الخامس.

٣ - شرح ضياء الدين أبي الرضا فضل الله الراوندي.

٤ - «معارج نهج البلاغة» لأبي الحسن علي بن أبي القاسم البيهقي النيشابوري.

٥ - «منهاج البراعة» لأبي الحسين قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي.

٦ - «حدائق الحقائق» لأبي الحسين محمد بن الحسين الشهير بقطب الدين الكيدري.

٧ - شرح القاضي عبد الجبّار المردّد بين سبعة من الفقهاء المعاصرين المشاركين في الاسم.

٨ - شرح أبي حامد عزّ الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي.

٩ - تلخيص شرح ابن أبي الحديد للقاضي محمود الطبسي.

١٠ - تلخيص آخر لفخر الدين عبد الله بن المؤيد بالله سمّاه «العقد النضيد المستخرج من شرح ابن أبي الحديد».

١١ - شرح العلاّمة جمال الدين الحسن بن يوسف الحلّي.

١٢ - شرح كبير في أربع مجلّدات لكمال الدين بن عبد الرحمن الحلّي. اختاره من الشروح الأربعة: شرح قطب الدين الكيدري، وشرح القاضي عبد الجبار، وشرح ابن أبي الحديد، والشرح الكبير لابن ميثم.

وشروح أُخرى تربو على السبعين أرضتنا عن عدّها رغبة الإيجاز.

وشرحه فيمن شرحه من انشرح صدره للإسلام وكان على نور من ربّه الشيخ المحقق العلاّمة غواص بحر المعارف كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم بن المعلى البحراني - شكر الله سعيه - بشرحين:

الشرح الكبير وهو كتاب ممتع مشحون بدقائق العلم والحكمة، يطفح من غرر حقائقها أعلاها، ومن درر نوادرها أغلاها، تريك العناية بتحقيق المطالب مبلغ علم مؤلّفه وسعة باعه. دعاه إلى تأليفه ما رآه من تشوّق علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد الجويني إلى كشف حقائق كتاب «نهج البلاغة».

وهو من الأماجد والأشراف، ومن الذين جمع الله لهم الدين والدنيا، وحازوا شرف الدارين وحبوا بالعلم الناجع والعقل الراجح، ومن الذين ازدهت بحسن سيرتهم وازدانت بفضل تدبيرهم الأمور والبلاد. حكم بإقامة العدل وسياسة مرضيّة، ونشر الأمن ومداراة الرعيّة، سهل اللقاء لهم، سمح العطاء إليهم، يفدون إلى

سيبه الهامر ونداه الوافر ولا يخيب أمل آمل. فوّض إليه حكومة بغداد «هلاكو» سنة ٦٦١ هـ، وبقي عليها من بعده في سلطنة «أباقا» إلى سنة ٦٧٥ هـ فأخذ أخذة رابية لسعاية بعض الحسّاد وكان في أسوء حال إلى أن مات أباقا واستخلفه أخوه «تكودار» سنة ٦٨١ هـ فأعاده إلى بغداد وفوّض إليه حكومتها ثانياً، ولما يكمل السنة إلا ونودي عليه بالرحيل إلى لقاء ربه.

والشرح الصغير وهو ملخص الشرح الكبير، لخّصه بإشارة علاء الدين المذكور لولديه: نظام الدين أبي منصور محمد ومظفر الدين أبي العبّاس علي. فرغ من التلخيص في آخر شوال سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وذكر له شرح آخر وسيط لم نظفر به ولم نسمع من أحد يدّعي الظفر.

يهدينا إلى مقامه المحمود وتبرزه في المعارف الحقّة وقدره الرفيع وتضلّعه من العلوم، ويغنينا عن سير كتب التراجم وسيرها النظر في الكتابين وفي سائر ما بأيدينا من مؤلفاته. وهي:

١ - «آداب البحث».

٢ - «استقصاء النظر في إمامة الأئمة الإثني عشر» ذكره صاحب مجمع البحرين. وقال إنّه لم يعمل مثله.

٣ - «البحر الخِضمّ».

٤ - «تجريد البلاغة» ويقال له أُصول البلاغة أيضاً. ألّفه باسم نظام الدين أبي منصور محمد الجويني، وشرحه الفاضل المقداد، وسمي شرحه «تجويد البراعة».

٥ - «شرح الإشارات» لشيخه المحقق علي بن سليمان البحراني.

٦ - «قواعد المرام» كتاب جامع في علم الكلام، نصّ الفقيه الشهيد الإمام أحمد بن علي العاملي أنه قرأ ذاك الكتاب على السيد الحسن بن السيد جعفر الموسوي الكركي العاملي.

٧ - «النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة» ذكره وحكى عنه الشيخ الفاضل علي بن محمد بن الحسن بن الشهيد في كتابه «درّ المنثور».

وقد عدّ الشيخ سليمان بن عبدالله في رسالته «السلافة البهيّة» من مؤلفات ميثم بن علي «الإستغاثة في بدع الثلاثة» ووصفه بأنّه لم يعمل مثله.

وقال صاحب اللؤلؤة: إن ما ذكره صاحب السلافة البهيّة من انتساب كتاب الإستغاثة إلى ميثم بن علي غلط، وإنّما هو لأبي القسم علي بن أحمد العلوي الكوفي.

وقال صاحب الرياض: يمكن أن يكون له أيضاً كتاب بهذا الإسم فإنّ الإشتراك في الأسماء غير عزيز.

وقال صاحب مستدرك الوسائل: لا يصح انتساب الكتاب إلى ميثم بن عليّ وإنما هو لأبي القسم العلوي، وأنكر على صاحب كتاب «بحار الأنوار» ما ذكره في الأصل الأول من أول كتابه: «كتاب شرح نهج البلاغة وكتاب الإستغاثة في بدع الثلاثة للحكيم المدقق العلامة كمال الدين ميثم بن علي البحراني» وما ذكره في الفصل الثاني منه: «والمحقق البحراني من أجلّة العلماء ومشاهيرهم، وكتاباه في غاية الإشتهار» وتعجب من خفاء الأمر عليه من أنه من أكمل المطلعين على طريقة الأصحاب، وقال: لولا كلامه الأخير لاحتملنا كما قال صاحب الرياض أن يكون له كتاب باسم الإستغاثة أيضاً، ولكن المتداول المعروف ليس من مؤلفاته قطعاً، وعدّ شواهد من الكتاب على مدّعاه.

ظهر في مرآة هذه الكتب بأكمل صورة ناطقة يغنينا عن سير كتب تراجم الرجال وسبرها.

طريقته وغايته التي يسعى لها في التأليف:

الغاية التي يسعى لها ويدفع عنها هي إعلاء كلمة الحق، ونشر لواء العلم والحكمة، والإيقاظ من السبات لفهم حقائق الدين المودعة في الصحف، والصرف عن المزوّر والمزيّف مما هرع إليها أهل الغفلة وأصحاب الغرض الذين كادوا أن يقضوا على ما للدين من القوة وروعة الجمال.

وطريقته الجدال من دون أن يزيغ أو يفزع إلى ما يوجب إرضاء الغرور، وإسدال الستار على الحق، والجدال بالتي هي أحسن أقصر طريق للبلوغ إلى الحق، وأفضل عامل للجهاد في سبيله، وقد عاهد الله في أول كتابه «الشرح الكبير» أن لا ينصر فيه مذهباً غير الحق، ولا يرتكب هوى لمراعاة أحد من الخلق، ووفى بما عاهد - فجزاه الله أحسن الجزاء على ما قدّم في سبيل العلم والدين من صادق الجهود - والشاهد على أنّ الحق هو الرائد المالك لزمامه ما قيل: إنّ ابن أبي الحديد قد يتوهم من شرحه أنّه من الإمامية وليس منهم، عكس ابن ميثم لأنّه كثيراً ما يسلّط يد التأويل حتى فيما لا مجال فيه للتأويل.

وأهم المنابع التي يستقي منها هو الشرع، واعتماده على ما ورد من الآيات، وتعقيبها بسرد ما جاء من الأحاديث والآثار، ثم ينطلق بعد ذلك في ذكر ما أحكمه من دلائل الحكمة وشواهدها. من دون أن يدخل في مضائق شعاب الحدس والتخمين. وما أُخذ عليه من كثرة التأويل فالحق أنها تأويلات أُحكمت آياتها واعتاصت على الأفهام، مشحونة بدقائق دلائل الحكمة، لا كالوساوس المغشّاة بالفتن. وهذا منهج جميل.

علماء عصره:

الذي يهمّنا منهم إنّما هم مشايخه الذين يروي عنهم، وتلامذته الذين يروون عنه. ومن مشايخه:

نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن الهذلي الحلي المعروف بالمحقق صاحب التصانيف القيمة. منها: شرائع الإسلام، والنافع، ونكت النهاية، والمعتبر. توفي سنة ست وسبعين وستمائة.

ومن مشايخه أبو السعادات أسعد بن عبد القاهر بن أسعد الأصفهاني، ومشاركه في الرواية عنه والمتتلمذ عنده السيد رضي الدين علي بن طاووس، والشيخ إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي. ولم يظهر سنة وفاته إلاّ أنه يظهر مما ذكره السيد رضي الدين: «ومن طرقي في الرواية ما أحضرني الفاضل أسعد بن عبد القاهر الأصفهاني في مسكني بالجانب الشمالي من بغداد الذي أسكنني به الخليفة المستنصر - جزاه الله جلّ جلاله عنّا جزاء المحسنين - في صفر سنة خمس وثلاثين وسبعمائة» أن وفاته كانت بعد تلك السنة.

ومن مشايخه كمال الدين علي بن سليمان البحراني صاحب كتاب «الإشارات» الذي شرحه المحقق ميثم ابن علي، و«شرح قصيدة ابن سينا في النفس» و«مفتاح الخير في شرح رسالة الطير» لابن سينا أيضاً. توفي سنة اثنين وسبعين وستمائة، ودفن في قرية «مصترة» في مقبرة أستاذه أبي جعفر أحمد بن علي بن سعيد أحد فحول العلماء.

ومن الراوين عنه نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، وهو الساعي في إعلاء الكلمة بعد اشتداد غياهب الضلال، والحامل لعرش التحقيق في العلوم والمعارف، صاحب الرصد في مراغة والتصانيف الكثيرة منها: «شرح رسالة العلم» لكمال الدين أبي جعفر أحمد بن علي شيخ الشيخ علي بن

سليمان المتقدم ذكره، و«شرح الإشارات والتنبيهات» لأبي علي بن سينا، و«نقد المحصّل» لمحمد بن عمر الرازي، و«قواعد العقائد»، و«التجريد». إلى غير ذلك من الكتب المشحونة بالدقة والتحقيق. توفي سنة اثنين وسبعين وستمائة في بغداد.

ومن الراوين عنه جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف الحلي المعروف بالعلامة صاحب التصانيف الكثيرة، وله في ترويج الحق وإرشاد السلطان الجايتو محمد المغولي الملقب بشاه خدابنده ومناظرته مع من أحضره السلطان المذكور للبحث عن المذهب الحق، وإثباته ببراهينه القاطعة ما هو القطع والفصل يوم مشهود معروف، وكان له من القرب عنده بحيث لا يرضى بمفارقته في الحضر والسفر وأمر له ولروّاد منهل علمه بترتيب مدرسة سيارة تحمل معه في كل منزل ومصير. توفي سنة ست وعشرين وسبعمائة.

ومن الراوين عنه الشيخ الإمام الزاهد الورع الحافظ كمال الدين أبو الحسن علي بن الشيخ شرف الدين الحسين بن حمّاد بن أبي الخير الليثي الواسطي.

ومن الراوين عنه السيد الشريف غياث الدين أبو المظفر عبد الكريم بن جمال الدين أبي الفضائل أحمد بن طاووس المتوفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

العصر الذي عاش فيه:

ضمّ البحث عن العصر إلى البحث عن سائر الأحوال إنّما هو للفحص عن الموانع والبواعث للإقدام والإمساك، ولعل لا ربط له بما سجّلت عليه الأنفس والأرواح مما يقتضيهما فإنّ من الناس من يعيش في عصر ولا يحس بما يحس به معاصروه من الأفكار والآراء، ويعيش بأفكار من عاش قبله بأجيال، أو بفكر أعلى ورأي أرقى لا يماثلهم فيه. فكما لا يكون الفرد صورة صادقة للحكم على مشاركيه فيما أحاط عليهم من الأمكنة والأزمنة، كذلك البحث عن العصر بالبحث عن أحوال مشاركيه فيه لا يكون مناطاً للحكم عليه. نعم لا ينكر التأثير إلى حدّ.

فلا يريد الباحث عن العصر الذي عاش من يبحث عن أحواله الحكم عليه بما استنبط، ولا رفع الستار عنهم بما استقصاه. فما أذكره بالإجمال بحث عن المؤثرات في هذه الناحية قريبة أو بعيدة.

ما يبعث الألم في القرن السابع من الحوادث.

تضمن القرن السابع من الحوادث والمصائب ما يستعظمه السامع ولا يهون ذكره، وهذه المصائب وإن عمّت إلاّ أنه بلى المسلمون منها ما لم يبتل أحد من الأمم. أما في الشرق فعيث التتار، أقبلوا من الشرق واجتاحوا آسيا إلى مغاربها، ووقع الناس بأيدي أعداء لا يرضون إلاّ بالقتل والسبي، وسيّسوا بأيدي ملوك لا يمكنهم الذب والدفع. أصبحت البلاد سائبةً لا مانع عنها فجاسوا خلالها وأخذوا في إبادتها وفعلوا من النهب والفساد ما لم يطرق الأسماع مثله. بذلوا السيف وقتلوا الناس لم ينجوا منهم إلاّ المختفون في الخفايا والآبار.

بويع الناصر لدين الله أحمد سنة ٥٧٥ هـ، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ، واستخلف بعده من آل عبّاس ثلاثة: الظاهر بالله، والمستنصر بالله، والمعتصم بالله الذي انتهى به المُلك سنة ٦٥٦ بأيدي المغول.

وورث الملك علاء الدين خوارزم شاه محمد من أبيه تكش سنة ٥٩٦ وأوسع ملكه من أقصى الشرق إلى

حدّ العراق، وأفنى الملوك وبقي وحده ملك البلاد جميعها، وكان ذلك سوء تدبير انجرّ بعد انهزامه من التتار إلى استيلائهم على البلاد لأنه لم يبق فيها من يمنعهم ولا من يحميها. توفي سنة ٦١٧ واستخلفه ابنه جلال الدين واجتمع إليه الجند وحارب التتار وكان النصر له، ولكن جرت بين الجند فتنة انجرّت إلى التفرقة، وهرب جلال الدين إلى الهند ورجع سنة ٦٢٢ واستولى على البلاد واستجابه المسلمون إلى حرب التتار من بعد ما مسّهم القرح وحاربوهم بحروب كثيرة ولم يمسسهم السوء وانقلبوا بنعمة من الله وفضل، وأخذ في النكث بعدما قاتل المسلمين: حارب الملك الأشرف، وأخذ الخلاط، وطمع في قونية وملطية وأقصر، ولما أحس به صاحبها كيقباد السلجوقي اصطلح والملك الأشرف فالتقياه وكسراه فانهزم بأسوء حال وقد تمزق جنده، ولما علمت التتار بضعفه بادروا إليه وعاثوا في بلاده وفعلوا أنحس من فعلتهم الأولى. وقتل جلال الدين سنة ٦٢٨ وانقضى ملك خوارزم.

وفي الوقت الذي سعرت نار التتار وعمّت أمِنَ معتنقو عقائد ابن الصبّاح جانب الأعداء ولم يألوا جهداً عن الحيل والغيل ونشر أضاليلهم ووسائهم بعناية الدعاة حتى قضى الله عليهم بأيدي التتار سنة ٦٥٤ وحقّت عليهم كلمة العذاب.

دعِ الشرق ولِّ وجهك نحو الغرب تراه في مثل ما فيه الشرق أو أشد.

مات صلاح الدين يوسف سنة ٥٨٩ وقسّم ملكه بين أبنائه الثلاثة وأخيه الملك العادل أبي بكر، ومات العادل سنة ٦١٥ وورث ملكه أبناؤه الخمسة، وكانت البغضاء بينهم في غاية الشدة، والفتنة قائمة على الساق، وكلما يرث الأبناء ملك الآباء يرثونه مع تلك العداوة والبغضاء.

وقسّم صاحب الروم قلج أرسلان السلجوقي ملكه في حياته بين أبنائه الثمانية وابن أخ له، ولم يمت إلاّ ورأى السيف بينهم مسلول، وكان هو نفسه عاشر العشرة في النزاع والفتنة.

وكان اختلاف الكلمة بين ملوك مغارب ممالك الإسلام هو الذي أدّى إلى اشتداد كارثة متفيء ظل الصليب وجرأتهم حتى استنفروا بخيلهم ورحلهم وقضوا على العباد وحكموا البلاد وأكثروا فيها الفساد واستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى. وقد يحرجهم الإختلاف إلى الإلتجاء بالأعداء، والركون إلى الذين سفكوا دماء الآباء، والاستعانة بهم وإعانتهم على السفك والقتل.

والمحصّل أن الناس بين المشرق والمغرب يدفرهم عيث التتار ويدغمهم عسف الإفرنج، ومن سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على الساق.

فما ظنك بالعائش في عصر يرى مثوى العباد مسعى الفساد، وأعزّة الأهل أذلّة: ضحايا نبال الظلم وسبايا يده. وما ظنك فيمن امتلأت حياته من متكدسات الأشواك بعضها فوق بعض لورام زهرتها لم يكد يجنيها. لو أنصفت لرأيت سلاسل موانع تأخذ قوّة العمل وتعطي خيبة الأمل إلاّ من دعاة حق لهم قلوب اطمأنت بذكر الله فقاموا يجاهدون في سبيله بمهجهم ودمائهم أو بلسانهم ومدادهم.

مما يحزّ النفس ويبعث الأسف أن المعتنين بضبط أحوال رجال العلم والفضل ما اعتنوا بحفظ دقائق تراجم الكثيرين منهم حق الرعاية والإعتناء، واكتفوا بالجرح والتعديل كي يؤخذ بمروياتهم في استنباط الأحكام الشرعية أم لا، وترى في كثير من كتب التراجم الإهمال والإشارة بأقصر لفظ إلى أنه ثقة يروى عن... ويروى عنه... وأهملوا في ترجمة المحقق المترجم ذاك الإهمال: لم يستقصوا كتبه، حتى لم يعلم

أن له كتاب باسم «الإستغاثة» أم لا، ولم يذكروا أساتذته ومشايخه حتى قال المتّبع العلامة النوري: وهذا الشيخ يروي عن جماعة عثرنا على اثنين منهم. ولم يذكروا تلامذته والراوين عنه حتى لم يعلم منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة مع أنه بحر خضم كثر في مناهله الواردون والصادرون، ولم يذكروا سائر أحواله. ولذا لم نظفر على تاريخ ميلاده، ولا على تاريخ سفره إلى بغداد، ولا على عدد أسفاره إليها، ولا على سائر أسفاره وتقلّباته ولا على تاريخ الشروع في كتابه «الشرح الكبير» ولا في أكثر كتبه ولا الفراغ منها إلاّ بالحدث والظن.

والمعلوم عن مقدمة الكتاب أن أحد أسفاره كان بعد سنة ٦٦١ بعد إمارة علاء الدين الجويني.

ومن المعلوم من مقدمة الكتاب أيضاً أن شروعه فيه كان بعدما أحكم ربط الأنس بينه وبين الجويني المذكور، وأيضاً من المعلوم أنّه كان ساكن بغداد سنة ٦٨١ لأنه سنة الفراغ من تلخيص الكتاب بإشارة الجويني لولديه النظام والمظفر كما قدّمناه، ولم يعلم هل بقي في بغداد بعدما أخذ الجويني؟ أو رحل عنها ورجع إليها بعدما عاد الجويني إليها.

نقل أنّه كتب إليه عدّة علماء حلّة وهو في البحرين أنّه لا يحسن بك الإنزواء والإعتزال مع مهارتك في تحقيق مطالب العلوم ودعوه إلى حلّة مهد العلم وأحد مراكزه في ذاك اليوم، فاعتذر، وكرّروا الدعوة فأجاب. ولم يعلم إن صحّ النقل أن سفره هذا هو السفر المذكور أو سفراً آخر قبله أو بعده.

ومما أُسدل عليه الستر ولا يرفع عنه معرفة آبائه وبيته وأُسرته ومولده ومنشأه وسنة وفاته.

المسلّم أنه ولد في البحرين ولم يعلم في أيّة بلدة أو قرية منها بل في أيّة جزيرة من تلك الجزر. والبحرين اليوم اسم لمجموعة جزر بالقرب من الشاطىء الغربي للخليج وهي «المنامة» و«المحرق» و«صترة» و«النبي صالح» و«أُمّ نسعان» و«جدّة» وعدد سكانها ٠٠٠، ١٢٠, وقديماً كان يطلق على ناحية أوسع مما يطلق عليه اليوم وهي مجموعة المدن والقرى الواقعة بين بصرة وعمّان.

توفي في البحرين، ودفن في مقبرة جده المعلّى في قرية «هلتا» والظاهر أن وفاته كانت بعد وفاة علاء الدين بسنين لأنه صنّف بعض كتبه باسم نظام الدين محمد بن علاء الدين، والسمة بالابن مع كمال القرب إلى علاء الدين ينبىء التأخر عن موته.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبحانك اللهمّ وبحمدك توحّدت في ذاتك فحسر عن إدراكك إنسان كل عارف وتفردت في صفاتك فقصر عن مدحتك لسان كل واصف. ظهرت في بدائع جودك فشهدت بوجوب وجودك حاجة كل قائل، وبهرت بعزّ جلالك فالكل في نور جمالك مضمحل باطل. أحاط علمك فلم يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وتعدّدت آلاؤك فتعدّت أنواعها حدّ التحديد والإحصاء. خلقت الدنيا مضماراً يستعد فيه خلقك للسباق إلى حضرة قدسك، وأيّدتهم بالرسل ليسلكوا بهم أفضل السبل إلى بساط أُنسك، ويسرّت كلاً لما خلق له، فبعض لنعمائك منكرون، وعن عبادتك مستكبرون، وبعض بضروب إحسانك معترفون، وعلى باب كعبة جودك معتكفون. سبحانك أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. سبحانك عمّا يقول الظالمون وتعاليت عمّا يصفون. أُسبّحك بلسان الحال والمقال بالعشي والإبكار، وأحمدك على كل حال آناء الليل وأطراف النهار، وأشهد أن لا إله إلاّ أنت حاذفاً كل ما سواك عن درجة الإعتبار مخلصاً لجلال وجهك في طوري الإعلان والإسرار، وأشهد أنّ محمداً عبدك المختار، وصفوة أنبيائك الأطهار الذي بعثته بالأنوار الساطعة، وأيّدته بالبراهين والحجج القاطعة، وجعلته للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إليك بإذنك وسراجاً منيراً. اللهمّ فصلّ عليه صلاة دائمة نامية وافية كافية ما تعاقبت الأوقات ودامت الأرض والسماوات، وعلى آله الطاهرين المنتجبين ينابيع الحكمة وأساطين الدين، وعلى أصحابه الأكرمين، وسلّم عليهم أجمعين.

أمّا بعد، فلما كان المقصود الأوّل من بعثه الأنبياء والرسل بالكتب الإلهية والنواميس الشرعية إنما هو جذب الخلق إلى الواحد الحق، ومعالجة نفوسهم من داء الجهل وعشق هذه الدار وإلفاتها إلى حظائر القدس ومنازل الأبرار، وحمايتها أن ترد موارد الهلاك إذ كانت من ذلك على خطر، وتشويقها إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وتنبيهها من مراقد الطبيعة ونوم الغافلين بتذكير ما أُخذ عليها من العهد القديم ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٠] ثمّ ما يلزم ذلك المقصود من تدبير أحوال المعاش البدني وسائر أسباب البقاء للنوع الإنساني، وكان إمامنا سيد الوصيّين وأمير المؤمنين، ذو الآيات الباهرة والأنوار الظاهرة علي بن أبي طالب عليه السلام في جميع ما ورد عنه من الكلام، وصدر عنه من الأفعال والأحكام قاصداً لجميع ما تضمنه الشرع الكريم من الأغراض والمقاصد باسطاً لما اشتمل عليه القرآن الحكيم من القوانين والقواعد، حتى لن توجد له كلمة في غير هذا السبيل كما سنبيّن ذلك عن قليل ونوضحه بالتفصيل، فلا جرم كان كلامه الكلام الذي عليه مسحة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي. ولم يزل كلامه عليه السلام مبدداً في صدور الرّواة منتشراً في أيدي المهتدين والغواة، تحاول أعداؤه أن يخفى مشهوره ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره، إلى أن عضد الله الإسلام بوجود السيد الإمام الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي - قدس الله سره، ونوّر ضريحه - فأحيى من كلام جدّه الزفات، وجمع منه ما كان في حيّز الشتات، وبالغ في تدوين محاسنه بقدر الإستطاعة، وسمى مجموعه بنهج البلاغة فجاء الإسم وفق المسمى، واللفظ طبق المعنى فجزاه الله عن العلماء خير الجزاء، وحباه من وظائف الفضل أجزل الحباء.

ثم إني لما كنت عبداً من عباد الله آتاني رحمة من عنده، وملّكني قوّة أسلك بها سبيل قصده، وكنت قد جعلت هذا الكتاب بعد كتاب الله وكلام رسوله مصباحاً أستضيء به في الظلمات، وسلّماً أعرج به إلى طباق السماوات، كنت في أثناء وقوفي على شيء من أسراره، واكتحالي بسواطع أنواره، أتأسف على من يعرض عنه جهلاً، وأتلّهف لو أجد له أهلاً، إلى أن قضت صروف الزمن بمفارقة الأهل والوطن، وأوجبت تقلّبات الأيام دخول دار السلام فوجدتها نزهة للناظر، وآية للحكيم القادر بانتهاء أحوال تدبيرها وإلقاء مقاليد أُمورها إلى من

خصّه الله تعالى بأشرف الكمالات الإنسانية، وملّكه ملكات الفضائل النفسانية فهو امرؤٌ مثلت طبيعته من طينة الفضل حين ينتسب فالعلم والجود والشجاعة والفقه والعدل منه يكتسب، نعم هو من رشّحه الله لاستكفاء أمور عباده وبلاده، وجعلها مطاوعة لأزمة قياده، فأوامره الغالبة تسري فيها مسرى الأرواح في الأجسام وآراؤه الصائبة تجري فيها مجرى الصحة بعد السقام الذي حاز أعلى المناقب ففاز بأسنى المطالب وسما بهممه الثواقب فأمن من غوائل العواقب الذي بدرت أقمار العلوم بدولته السعيدة بعد الأفول في غيابة الجهالة، وسطع صبح الحق بطلعته الحميدة من أفق الضلالة، ورفع ذيول ظلام فجر عدله، وأزهرت روض الرغائب بغيض سحائب فضله المشيّد لأركان الإسلام بعد التداعي للإنهدام المجدد من آثار الإيمان ما محاه طوفان الطغيان. صاحب ديوان الممالك السالك إلى الله أقرب المسالك علاء الحق والدين عطاء ملك بن الصاحب المعظّم والمولى المكرم الفائز بلقاء ربّ العالمين، ومجاورة الملائكة المقرّبين، بهاء الدنيا والدين محمد الجويني ضاعف الله جلاله وخلّد إقباله، وحرّس عزّه وكماله، وأيّد فضله وإفضاله وفسح في مدّ عمره وأمدّه بتوفيقه وشدّ أزره بدوام عزّ صنوه وشقيقه الذي فاق ملوك الآفاق بعلوّ القدر، وكمال العز والفخر، ورصانة العلم والأدب ورزانة العقل والحسب الذي ملأ الأسماع بجميل أوصافه، وأفاض أوعية الأطماع بجزيل ألطافه وأنسى بهاطل وابل بذله ما قيل من قبله في الكرم وأهله.

هو البحر من أيّ النواحي أتيته
فلجّته المعروف والجود ساحله
تعوّد بسط الكفّ حتى لو أنه
ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفّه غير نفسه
لجاد بها فليتّق الله سائله

نعم هو من جمع الله له بين الحكمة والسلطان، وزاده بسطة في المرتبة وعلو الشأن ذو النفس القدسية، والخلافة الإنسيّة، والأعراق الزكية، والأخلاق الرضية، والهمم الأبيّة، والمقاصد السنيّة. مولى ملوك العرب والعجم صاحب ديوان ممالك العالم شمس الحق والدين غياث الإسلام والمسلمين محمد بلغه الله أقصى مراتب الكمال، ورزقه بلوغ الآمال في الحال والمآل فإنهما لهذه الأمّة بدران مشرقان يستضاءُ بأنوارهما بحران زاخران يغترف من تيارهما، وطودان شامخان يستعاذ بأقطارهما، وعمادان يقوم بهما في الوجود أركان الإيمان، وصارمان يصول بهما الدين القيّم على سائر الأديان، فجزاهما الله من الإسلام وأهله أفضل جزاء المحسنين، وخصّهما من وظائف فضله بأكمل ما أعدّه لعباده الصالحين، وقرن سعادتهما بالدوام والإستمرار، وعضد آراءهما بمطاوعة الأقضية والأقدار، وصان دولتهما عن حوادث الأيام وآفاتها، وجعل نتائج أفعال أعدائهما تابعة لأخسّ مقدماتها. هذا.

ولما اتفق اتصالي بخدمته وانتهيت إلى شريف حضرته أحلّني من أنسه محلاً ألهى النفس عن أشهى مآربها، وأمطرني من سحائب جوده نعماء تشبه الصور الفائضة من واهبها فأجرى في بعض محاوراته الكريمة من مدح هذا الكتاب وتعظيمه وتفضيله وتفخيمه ما علمت معه أنّه أهله الذي كنت أطلب، والعالم بقدره ومحلّه من بين الكتب، وتوسمت في تضاعيف ذلك تشوق خاطره المحروس إلى كشف حقائقه، والوقوف على أسراره ودقائقه، فأحببت أن أجعل شكري لبعض نعمه السابقة، ومننه المتوالية المتلاحقة، أن أخدم سامي مجلسه بتهذيب شرح مرتب على القواعد الحقيقية مشحون بالمباحث اليقينيّة أنبّه فيه على ما لاح لي من رموزه، وأكشف ما ظهر لي من دفائنه وكنوزه. وقد سبق إلى شرح هذا الكتاب جماعة من أولي الألباب، والناقد المسدّد للصواب يميّز القشر من اللباب، والسراب من الشراب، وشرعت في ذلك بعد أن عاهدت الله سبحانه أني لا أنصر فيه مذهباً غير الحق، ولا أرتكب هوى لمراعاة أحد من الخلق، فإن وافق الرأي الأعلى فذلك هو المقصد الأقصى، وإلاّ فالعذر ملتمس مسؤول، والعفو مرجو مأمول، والرغبة إلى أهل الفضل في سدّ ما

يجدونه من خلل، وستر ما يقفون عليه من زلل، فإني مع ضعف جناحي من سلوك هذا المطار الذي هو مسرح نفوس الأولياء الأبرار، ومحال أنظار الحكماء الكبار مقسّم الأفكار راكب المطايا والأسفار، وعلى الله قصد السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل. وقبل الخوض في المطلوب لا بد من تقديم مقدمة يستعان بها على ما عسى أن أذكره من المباحث في هذا الشرح إن شاء الله تعالى.

أما المقدمة فاعلم أن كلامه عليه السلام يشتمل على مباحث عظيمة تنشعب عن علوم جليلة يحتاج المتصدي للخوض فيه وفهم ما يشرح منه بعد جودة ذهنه، وصفاء قريحته إلى تقديم أبحاث تعينه على الوصول إلى تلك المقاصد. ولما أبرز عليه السلام مقاصده في ألفاظ خطابية إما منطوق بها أو مكتوبة، تعيّن أن أذكر من مباحث الألفاظ قدراً تمسّ الحاجة إليه، ثمّ أُشير إلى بيان معنى الخطابة وما يتعلق بها ليكون ذلك معيناً للناظر في كلامه على ملاحظة دقائقه، ومطالعة أسراره وحقائقه، ثمّ أُلحق ذلك بالإشارة إلى ما يتعلق به عليه السلام من الفضائل، فلا جرم رتبت هذه المقدمة على ثلاث قواعد:

القاعدة الأُولى: في مباحث الألفاظ وهي مرتبة على قسمين:

القسم الأول: في دلالة الألفاظ وأقسامها وأحكامها وفيه فصول.

الفصل الأول: في دلالة اللفظ على المعنى وفيه أبحاث.

البحث الأول: دلالة اللفظ إما على تمام مسماه أو على جزء مسماه من حيث هو جزؤه، أو على الأمر الخارج عن مسمّاه اللازم له في الذهن من حيث هو لازم له؛ والدلالة الأولى هي دلالة المطابقة كدلالة لفظ الإنسان على الحيوان الناطق، والثانية دلالة التضمّن كدلالته على الحيوان وحده أو على الناطق وحده، والثالثة دلالة الإلتزام كدلالته على الضاحك واحترزنا في الدلالتين الأخيرتين بقولنا من حيث هو جزؤه ومن حيث هو لازمه على دلالة اللفظ بالمطابقة على جزء المسمى أو على لازمه بحسب الإشتراك اللفظي؛ بيانه أنه إذا جاز أن يوضع اللفظ الواحد للمعنى ولجزئه كلفظ الممكن مثلاً للممكن الخاص والعام وللمعنى ولازمه كلفظ الشمس على جرم الشمس والنور اللازم عنه، فلو اقتصرنا في تعريف دلالتي التضمن والإلتزام على التعريفين المذكورين دون هذين القيدين لشمل ذلك دلالة المطابقة على تقدير وضع اللفظ لجزء المعنى أو لازمه كما هو موضوع له إذا كانت أيضاً دلالة اللفظ على جزء مسمّاه وعلى لازم مسمّاه.

المبحث الثاني: الدلالة الأولى هي التي بحسب الوضع الصرف وأما الباقيتان فزعم الإمام فخر الدين وجماعة من الفضلاء أنهما عقليان وفيه نظر، لأنهم إن أرادوا أنهما حاصلتان عن صرف العقل من دون مشاركة الوضع فهو باطل، لأنه لولا ارتسام المعنى في الذهن عن اللفظ لما حصلت هاتان الدلالتان، وأيضاً فإنهم صرحوا بأنهما من دلالات الألفاظ فلا يمكن مع ذلك دعوى حصولهما عن مجرد العقل، وإن أرادوا بذلك أن الذهن عند تصور المعنى من لفظه ينتقل منه إلى جزئه أو إلى لازمه فهو حق وحينئذ تكون هاتان الدلالتان بشركة من الوضع والعقل، ثمّ إنهما مستلزمتان للدلالة الوضعية من غير عكس لجواز خلو المهيّة عن التركيب وعن اللازم البيّن ولا يجب أيضاً أن تلزم إحداهما الأُخرى وهو ظاهر مما مرّ.

البحث الثالث: ظهر مما ذكرنا أنّه يعتبر في الدلالة التضمنية كون المعنى المدلول عليه بالمطابقة مركباً وأما في الإلتزامية فالمعتبر فيه كونه ملزوماً في الذهن لأمر بين الثبوت له، إذ لولا اللزوم الذهني لم يفد إطلاق اللفظ في المعنى الخارج عن المهية لعدم الوضع بإزائه وعدم انتقال الذهن عن موضوعه إليه فلم يكن دالاً عليه، إذ المراد بدلالة اللفظ على المعنى فهمه عند إطلاقه بالنسبة إلى من يعلم الوضع ولا يعتبر اللزوم الخارجي لجواز دلالة اللفظ على ما يلزم مسمّاه في الخارج إذا لزم من تصوره تصور مسماه كدلالة لفظ عدم الملكة عليها كلفظ العمى على البصر، ثم اللزوم الذهني ليس موجباً لانتقال الذهن من الملزوم إلى لازمه إذ ليس هو تمام ما يتوقف عليه دلالة الإلتزامية بل لا بد من تصور الملزوم أولاً

وذلك متوقف على وضع اللفظ بإزائه والعلم بالوضع وسماع اللفظ أو حضوره بالبال فهو إذن أحد الشروط المعدّة لتصور اللازم.

البحث الرابع: دلالة الحقيقية هي الدلالة الوضعية الصرفة وأما الباقيتان فليستا بحقيقيتين وهو ظاهر ولا مجازيتين أيضاً لأن من شرط المجاز استعمال اللفظ في غير ما وضع له استعمالاً مقصوداً بالذات، وهاتان الدلالتان قد تحصلان من استعمال اللفظ في مسماه حصولاً عرضياً لأن الذهن قد ينتقل عند إطلاق اللفظ لإرادة مسمّاه إلى جزئه أو إلى لازمه إنتقالاً عرضياً وكذلك إلى جزء جزئه وإلى لازم لازمه في مراتب كثيرة، ومعلوم أن اللفظ أطلق لإرادة مسماه واستعمل فيه بالذات لا فيما انتقل الذهن إليه من الأجزاء واللوازم وإن كانت له سببيّة في ذلك الإنتقال فلم تكن الدلالة بواسطة اللفظ محصورة في الحقيقية والمجازية، نعم استعمال اللفظ الموضوع وإطلاقه بالذات لإرادة المعنى لا يخلو من أن يكون حقيقياً أو مجازياً.

الفصل الثاني: في تقسيم الألفاظ وفيه أبحاث.

البحث الأول: اللفظ إمّا أن لا يراد بالجزء منه دلالة أصلاً على شيء وهو المفرد أو يراد بالجزء منه دلالة على شيء وهو المركب. لا يقال: هذا منقوض بعبد الله وما يجري مجراه فإنه مفرد مع أن كل واحد من أجزائه دالّ لأنّا نقول: قد يراد بالجزء من عبد الله وأمثاله دلالة ولا نسلّم أنه بذلك الإعتبار يكون مفرداً بل مركباً، وقد لا يراد به الدلالة فيكون مفرداً فإذا قلنا في رسمه إنّه الذي لا يراد بالجزء منه دلالة أصلاً كان ذلك معياراً لكل لفظ بالنسبة إلى مراد اللافظ به فكل لفظ لا يقصد بجزئه دلالته كان مفرداً وهذا هو الرسم القديم للمفرد والمركب، وقد تبيّن أنه لا حاجة فيه إلى القيد الذي زاده المتأخرون وهو قولهم من حيث هو جزؤه فإنّ الرسمين متساويان.

البحث الثاني: اللفظ المفرد إمّا أن يكون نفس تصوّر معناه مانعاً من وقوع الشركة فيه وهو الجزئي أو غير مانع وهو الكلي. أما الجزئي فيقال بمعنيين؛ أحدهما ما ذكرناه ويخصّ باسم الجزئي الحقيقي، والثاني أنه كل أخصّ تحت أعمّ، والفرق بينهما أن الأول غير مضاف ولا كلي، والثاني مضاف إلى ما فوقه وقد يكون كلياً، فأما الكلي فإما أن يعني به نفس الحقيقة التي لا يمنع تصورها وقوع الشركة فيها ويسمى كلياً طبيعياً، أو النسبة التي تعقل لها بالقياس إلى جزئياتها المعقولة وتسمى تلك النسبة كلياً منطقياً، أو المجموع المعقول من الحقيقة والنسبة العارضة لها ويسمى كلياً عقلياً. ثم للكلي اعتبارات ستة وذلك لأنه إما أن يكون ممتنع الوجود أو ممكنه؛ والأول كشريك الإله، والثاني إما أن لا يعرف وجوده أو يعرف فالأول كجبل من ياقوت وبحر من زيبق، والثاني إمّا أن يمتنع أن يكون في الوجود منه أكثر من واحد أو يمكن والأول كالإله تعالى، والثاني إمّا أن يكون في الوجود واحد منه فقط وإن جاز وجود مثله أو أكثر من واحد والأول كالشمس عند من يجوز وجود مثلها، والثاني إمّا أن يكون الموجود منه أشخاصاً كثيرة متناهية أو غير متناهية، والأول كالكواكب والثاني كأشخاص الإنسان.

البحث الثالث: الكلي إمّا أن يدل على ماهية شيء أو على ما يكون داخلاً فيها أو على ما يكون خارجاً عنها أما الدال على المهية فإما على ماهية شيء واحد أو على مهية أشياء كثيرة؛ والأول إما أن يكون كلياً أو جزئياً؛ والثاني إمّا أن يكون تلك الأشياء مختلفة الحقائق أو متّفقة الحقائق، فهذه أقسام أربعة الأول هو المقول في جواب ما هو بحسب الخصوصية المطلقة كالجواب بالحد، والثالث هو القول في جواب ما هو بحسب الشركة المطلقة والثاني والرابع هو المقول في جواب ما هو بحسب الشركة والخصوصية معاً. مثال الأول قولنا في جواب من يسأل فيقول: ما الإنسان إنّه حيوان ناطق، فخصوصيّة هذا الجواب ليست لغير الإنسان إذ لا يشاركه في حدّه غيره، والثالث كقولنا في جواب من يسأل عن جماعة هم إنسان وفرس وثور ما هم إنها حيوانات، إذ كان هذا الجواب كمال الجزء المشترك بينها. فهو إذن مقول بالشركة المطلقة، والثاني والرابع كقولنا في جواب من يسأل عن زيد وحده ما هو إنّه إنسان، أو عن جماعة هم زيد وعمرو وخالد ما هم

إنّهم أناس، فيكون الجواب في الموضعين واحد أو هو بحسب الخصوصية والشركة معاً إذ كل ما لكل واحد منها من الأجزاء حاصل للآخر ولأن خصوصية هذا الجواب ليست لغير المسؤول عنه، وأما الدال على جزءاً المهيّة فإمّا أن يدل على كمال الجزء المشترك بينها وبين غيرها وهو الجنس القريب أو على كمال الجزء المميّز لها وهو الفصل القريب أو على ما يتركب منها وهو النوع أولاً على واحد من هذه فيكون ذلك جزءاً للجزء وهو إما جنس الجنس أو جنس الفصل أو فصل الجنس أو فصل الفصل كما هو مذكور في مظانه، وأما الدال على الخارج عن المهية فيختص باسم العرضي، واعتباره من وجهين أحدهما أنه إما أن يكون لازماً أو لا يكون، والثاني هو العارض، والأول إما أن يكون لازماً للمهية أو للوجود والأول إما أن يكون بيّناً للمهية كالفردية للثلاثة أو غير بيّن كالتناهي للجسم والثاني كالسواد للغراب، وأما العارض فإمّا سريع الزوال كالقيام والقعود أو بطيئه كالشباب، الوجه الثاني العرضي إمّا أن يختص بنوع واحد لا يوجد لغيره، سواءٌ عم أفراده أو لم يعمّ ويسمى خاصة كالضاحك للإنسان بالقوة والفعل أو لا يختص به بل يعمّ وغيره ويسمى عرضاً عاماً كالماشي للإنسان.

البحث الرابع: اللفظ والمعنى إما أن يتّحدا أو يتكثّرا أو يتكثّر اللفظ ويتحد المعنى أو بالعكس، أمّا الأول فمعناه إما أن يكون كلياً أو جزئياً فإن كان الأول فإما أن يكون نسبته إلى أفراده المعقولة بالسوية وهو المتواطىء كالإنسان بالنسبة إلى أشخاصه أو لا بالسويّة بل في بعضها أول وأولى وأشد وأضعف وهو المشكك كلفظ الوجود، والثاني هو العلم كزيد، والثاني الأسماء المتباثنة سواءٌ تفاصلت مفهوماتها كالإنسان والفرس أو تواصلت على أن بعضها اسم للذات والآخر اسم للصفة كالسيف والصارم أو على أن بعضها اسم للصفة والآخر لصفة الصفة كالناطق والفصيح، والثالث الأسماء المترادفة سواءٌ كانت من لغة واحدة كالليث والأسد أو من لغتين كالماء وآب، وأما الرابع فإما أن يكون قد وضع اللفظ أولاً لأحد المعنيين ثم نقل منه إلى الآخر أو وضع لهما معاً، أما الأول فذلك النقل إن كان لا لمناسبة بين المعنيين فهو مرتجل وإن كان لمناسبة فإما أن يكون دلالة اللفظ على المنقول إليه بعد النقل أقوى من دلالتها على المنقول عنه أو لا يكون فإن كان الأول سمي اللفظ بالنسبة إلى المنقول إليه منقولاً فإن كان الناقل هو الشارع سميّ لفظاً شرعياً كالصلاة والزكاة، وأهل العرف ويسمى عرفياً سواء كان العرف العام كالدابة للفرس بعد وضعها لكل ما يدبّ وكالغائط للفضلة الخارجة من الإنسان بعد وضعها للمكان المطمئن، والخاص كالإصطلاحات الخاصة بطائفة طائفة من أهل العلم مثلاً كالرفع والنصب والجر عند النحاة، وكالجمع والقلب والفرق عند الفقهاء، وكالموضوع والمحمول والجنس والفصل عند المنطقيين وأمثاله، وأما إن لم يكن دلالته على الثاني أقوى فإما أن يتساوى بالنسبة إليهما عند الفهم أو يكون في الأول أقوى فإن كان الأول كان ذلك لفظاً مشتركاً، وإن كان الثاني كان اللفظ بالنسبة إلى الأول حقيقة، وإلى الثاني مجازاً أما إذا كان اللفظ موضوعاً لهما معاً فإمّا أن يتساوى دلالته عليهما عند الفهم أو ترجح في أحدهما فإن كان الأول سميّ اللفظ بالنسبة إليهما مشتركاً وبالنسبة إلى كل واحد منهما مجملاً لأنّ كون اللفظ موضوعاً لكل واحد منهما هو الإشتراك وكونهما بحيث لا يدري عين المراد منهما هو الإجمال.

تذنيب ظهر من هذا التقسيم أن الأقسام الثلاثة الأولى مشتركة في أنها ليست بمشتركة فكانت نصوصاً، وأما الرابع فله اعتبارات ثلاثة أحدها اعتبار كون إفادته أرجح في بعض مفهوماته وبذلك يسمى ظاهراً والثاني اعتبار كونها مرجوحة في المفهوم المقابل للراجح وبذلك يسمى مأوّلاً، والثالث كونها متساوية بالنسبة إلى المفهومين بحيث لا يدري المراد منهما وبذلك يسمى مجملاً، فالرجحان إذن قدر مشترك بين الظاهر والنص وعدم الرجحان قدر مشترك بين المجمل والمأوّل فيسمى المشترك الأوّل محكماً والثاني متشابهاً.

البحث الخامس: اللفظ المفر إمّا أن لا يستقل معناه بالمفهومية أو يستقل والأول هو الحرف، والثاني فإمّا

أن يستلزم معناه الوقوع في أحد الأزمنة الثلاثة المعيّنة وهو الفعل أو لا يستلزم وهو الإسم، وهو إمّا أن يدل على معنى هو نفس الزمان كالزمان أو على جزء الزمان كاليوم والغد أو على معنى جزء الزمان كالصبوح والغبوق أولاً على واحد منها وهو إمّا أن يكون اسماً لجزئي شخصي فإن كان مضمراً فهو المضمرات أو مظهراً فهو العلم كما مرّ وإن كان اسماً لكليّ فإمّا أن يكون اسماً لنفس المهيّة كلفظ السواد والمسمى باسم الجنس في اصطلاح النحاة أو لأمر ما له صفة كذا وهو الإسم المشتق كلفظ الضارب فإنّ مفهومه أنّه أمر ما له صفة الضرب.

البحث السادس: اللفظ المركّب إما أن يكون قابلاً للتصديق والتكذيب لذاته وهو الخبر أولاً لذاته وهو إمّا أن يكون مفيداً لطلب شيء إفادة أوّلية أو ليس كذلك والأول إن كان على طريقة الإستعلاء فهو الأمر، وإن كان على طريق التساوي فهو الإلتماس، وإن كان على طريقة الخشوع والتضرع فهو السؤال، والثاني هو التنبيه ويدخل فيه التمني والترجي والقسم والنداء.

البحث السابع: اللفظ قد يكون مدلوله لفظاً مفرداً أو مركباً وعلى التقديرين فإمّا أن يدل على معنى أو لا يدل فهذه أقسام أربعة الأول لفظ مفرد دالّ على معنى مفرد كلفظ الكلمة والإسم والفعل والحرف، والثاني لفظ مفرد دال على لفظ مركب دال على معنى مركب كلفظ الخبر والكلام والقول الدال على قولنا زيد كاتب الدال على معانيه الثالث لفظ مفرد دال على لفظ مفرد غير دال على معنى كقولنا - أ، ب - وسائر حروف المعجم الرابع لفظ مفرد دال على لفظ مركب غير دال كلفظ الهذيان والهذر.

البحث الثامن: اللفظ المفرد إذا دلّ بالإلتزام على معنى فذلك المعنى إمّا أن يكون شرطاً للمدلول عليه بالمطابقة أو تابعاً له والأول يسمى دلالة الإقتضاء وتلك الشرطية إمّا عقلية كشرطية نصب السلم لصعود السطح عند الأمر به أو شرعية كشرطية الوضوء للصلاة عند الأمر بها، وأما التابع فكنفي الحكم المذكور لشيء حال تخصيصه بذكره من غيره عند من يقول به فإنّ معنى التخصيص مستلزم للنفي المذكور وكذلك اللفظ المركب إذ استلزم تركيبه معنى فإمّا أن يكون من متممات المعاني المذكورة بالمطابقة أو من توابعها، والأول كدلالة تحريم التأفيف على تحريم الضرب، وأما الثاني كأستلزام قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾[البقرة: الآية ١٨٧] لعدم فساد صوم من أصبح جنباً وإلاّ لحرم الوطي في آخر جزء من الليل يتسع للغسل وبالله التوفيق.

الفصل الثالث: في الإشتقاق وفيه أبحاث:

البحث الأول: في حقيقة الإشتقاق: الإشتقاق أخذ أحد اللفظين من الآخر لمشاركة بينهما في الإشتمال على المعنى والحروف الأصلية، وأركان الإشتقاق أربعة الأول اسم موضوع لمعنى، الثاني مسمى آخر له نسبة إلى ذلك المعنى، الثالث مشاركة بين الإسمين في الحروف الأصلية، الرابع تغيير يلحق الاسم الثاني إما في حروف فقط أو في حركة فقط أو فيهما معاً وكل واحد من هذه الأقسام فإما بالزيادة وحدها أو بالنقصان وحده أو بهما، وظنّ الإمام أن الحاصل من هذه القسمة تسعة أقسام فقط وهو سهو نتحققه عند الإعتبار بأنّ الحاصل منها خمسة عشر قسماً (آ) زيادة الحرف، (ب) زيادة الحركة، (ج) زيادتهما معاً، (د) نقصان الحرف، (هـ) نقصان الحركة، (و) نقصانهما معاً، (ز) زيادة الحرف مع نقصانه، (ح) زيادة الحرف مع نقصان الحركة، (ط) زيادة الحرف مع نقصانهما، (ي) زيادة الحركة مع نقصانها، (يا) زيادة الحركة مع نقصان الحرف، (يب) زيادة الحركة مع نقصانهما، (يج) زيادتهما معاً مع نقصان الحرف، (يد) زيادتهما معاً مع نقصان الحركة، (ير) زيادتهما معاً مع نقصانهما معاً فهذه هي الأقسام الممكنة وعلى اللغوي طلب الأمثلة.

البحث الثاني: اختلف الناس في أنّه هل يجوز صدق المشتق منفكاً عن صدق المشتق منه أم ل؟ والحق أنه يجوز. لنا أنّ الإشتقاق يكفي فيه أدنى ملابسة بين المشتق والمشتق منه فلا يشترط صدقه على ما يصدق عليه المشتق فإنّ المهلك والمميت والضار والمذل مما يصدق على ذات الله تعالى مع أنّ الأمور المشتق منها

وهي الهلاك والموت والضرر والذلّ غير صادقة ولا جائزة عليه لا يقال: المشتق مركب من المشتق منه ومن شيء آخر، ومتى صدق المركب صدق كل واحد من أجزائه لأنّا نقول: لا نسلم أنّ المشتق منه من حيث هو مشتق منه جزء من المشتق وحاصل فيه بل الحاصل فيه شيء من أجزائه وهي الحروف الأصلية، وبعض الحركات فإنا بيّنا أن المشتق لا بد وأن يلحقه تغيير بأحد الوجوه المذكورة والقدر المتغيّر منه لا شك أنه كان معتبراً في حقيقته المشتق منه فبعد التغيير لم تبق تلك الحقيقة فلم يلزم صدقها حال صدق المشتق.

البحث الثالث: اختلفوا أيضاً في أنه هل يشترط في صدق المشتق بقاء صدق المعنى المشتق منه من لفظه أم لا والحق أنه لا يشترط لوجوه أحدها أنّا نعلم بالضرورة إطلاق أهل اللغة لفظ المشتق على الشيء حال ما لا يكون وجه الإشتقاق باقياً كإطلاقهم لفظ القاتل في الحال على من فعل القتل فيما قبل. الثاني أنّ الضارب مثلاً هو من حصل منه الضرب ولابسه ملابسة فعلية وهو أعمّ من حصوله له في الحال أو في الماضي لإمكان تقسيمه إليهما ولا يلزم من نفي الخاص نفي العام فلا يلزم من نفي الضرب في الحال نفي مطلق الضرب فلا يلزم من صدق المشتق بقاء وجه الإشتقاق الثالث المشتقات من المصادر السيّالة كالمتكلم والمخبر لا يمكن بقاء وجه الإشتقاق فيها فإنّ الإنسان حال ما يتكلم بالحرف الثاني فات الحرْف الأول فلا يمكن تحقق مهية الكلمة في الخارج فضلاً أن يقال إنّها تبقى مع أنها صادقة بالإتفاق. لا يقال: الضارب مثلاً بعد انقضاء الضرب يصدق عليه أنه ليس بضارب في الحال وقولنا ليس بضارب جزء من قولنا ليس بضارب في الحال، ومتى صدق المركب صدق كل واحد من أجزائه فإذن صدق عليه أنّه ليس بضارب فوجب أن لا يصدق عليه أنّه ضارب لتناقضهما في العرف لأنّا نقول: إن كانت القضيتان موقتتين منعنا التناقض في العرف والحقيقة لأنّ المكذب لقولنا إنّه ليس بضارب في الحال قولنا إنّه ضارب في الحال ونحن ما ادّعينا صدق قولنا إنّه ضارب في الحال بل إنّه في الحال يصدق عليه أنّه ضارب ولا تناقض لعدم اتحاد الوقت وإن كانتا مطلقتين فدعوى التناقض إمّا حقيقة وهو ظاهر الفساد لأنّ المطلقتين لا تتناقضان، أو عرفاً وهو أيضاً ممنوع وبتقدير تسليمه نمنع صدق قولنا بعد انقضاء الضرب أنّه ليس بضارب لصدق قولنا في تلك الحال إنّه ضارب، وتناقضهما عرفاً وبالله التوفيق.

البحث الرابع: اختلفوا أيضاً في أنّ المعنى القائم بالمحلّ هل يجب أن يشتق منه اسم أم لا؟ والحق أن يقال: المعاني إن لم يكن لها أسماء كأنواع الروائح لم يجب ذلك فيها وإن كان لها أسماء لم يجب أيضاً أن يشتق لمحالها منها أسماء، وهل يجوز أن يشتق لغير محالها منها أسماء أم لا، والحق جوازه في الموضعين خلافاً لقوم من الأشعرية فإنّهم قالوا يجب الإشتقاق منها لمحالها ولا يجوز لغيرها، لنا أنّ الجواز متفق عليه، وأمّا الجواب وتخصيصه بالمحل فلم يذكر الخصم فيه دليلاً، وأما جواز الثاني فلأن الإشتقاق يكفي فيه أدنى ملابسة فإن المشتق هو شيءٌ ما ذو المشتق منه، ولفظة ذو لا يقتضي الحلول، ومن الأمثلة المشهورة اللابن والتآمر فإنّهما مشتقان من اللبن والتمر وهما غير قائمين بذات المشتق له.

البحث الخامس: مفهوم المشتق كالماشي مثلاً إنه شيءٌ ما ذو مشي فإما ذلك الشيء فغير داخل في مفهومه وإن علم فإنما يعلم بطريق الإلتزام برهانه أنك تقول الماشي حيوان فلو كان مفهوم الماشي أنه حيوان ذو مشي لكان ذلك بمنزلة قولك الحيوان ذو المشي حيوان وهو هذر بل إنما يعلم كونه حيواناً بدليل من خارج وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في الترادف والتوكيد وفيه أبحاث:

البحث الأول: في ماهيتهما أما الترادف فهو كون لفظين مفردين أو ما زاد عليهما دالين بالوضع على معنى واحد باعتبار واحد، وبالإفراد احترزنا عن الاسم والحدّ وباعتبار واحد من اللفظين إذا دلّا على شيء واحد باعتبارين كالصارم والسيف وباعتبار الصفة وصفة الصفة كالناطق والفصيح فإن تلك متباينة، وإمّا التأكيد فهو تقوية ما يفهم من اللفظ بلفظ آخر، وللإمام فخر

الدين ﷺ تساهل في هذا المقام إذ يحدّ التأكيد بأنه اللفظ بالموضوع لتقوية ما يفهم من لفظ آخر ولم يفرّق بين التوكيد وبين نفس المؤكد وهو ظاهر.

البحث الثاني: في أسباب الترادف إنه يجوز وقوع الألفاظ المترادفة من واضع واحد، ويجوز وقوعها من واضعين ويشبه أن يكون الأول أقلّ وجوداً وله سببان الأول التسهيل والإقدار على الفصاحة لأنه ربما يمتنع وزن البيت وقافيته مع بعض أسماء الشيء دون اسمه الآخر، وربما حصلت رعاية السجع والمقلوب والجنس وسائر أصناف البديع مع بعض أسماء للشيء ولا يحصل مع الآخر الثاني التمكن من تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند الغفلة عن الأخرى، وأما الثاني وهو السبب الأكثري فيجوز أن تصطلح إحدى قبيلتين على اسم للشيء غير الاسم الذي اصطلحت عليه القبيلة الأخرى ثم يشتهر الوضعان بعد ذلك معاً.

البحث الثالث: أنه هل يصح إقامة كل واحد من المترادفين مقام الآخر دائماً أم لا؟ الظاهر في بادئ الرأي ذلك لأنّ المترادفين هما اللذان يفيد كل واحد منهما عين فائدة الآخر فلما صحّ أن يقسم المعنى المدلول عليه بأحد اللفظين إلى معنى آخر فلا بد وأن تبقى الصحة حال ما يدل عليه باللفظ الثاني لأنّ صحة الإقتران من عوارض المعاني وفيه نظر، لأنّ صحة الإقتران كما يكون من عوارض المعاني كذلك يكون من عوارض الألفاظ فإنك لو أبدلت لفظ من بمرادفه من الفارسية لم يصح فكان هذا الإمتناع من قبل الألفاظ أيضاً قال الإمام فخر الدين: وإذا عقل ذلك في لغتين فلم لا يجوز مثله في لغة واحدة؟ والحق أنّه يصح إقامة أحد المترادفين مقام الآخر بشرطين أحدهما أن يكونا من لغة واحدة، والثاني أن يتساويا في فهم المعنى منهما حال التخاطب بهما أو يقربا من التساوي.

تذنيب إذا كان أحد المترادفين أظهر في الإستعمال عند قوم كان الجلي بالنسبة إلى الخفي شرحاً له، وربما انعكس الأمر بالنسبة إلى قوم آخرين.

البحث الرابع: في أقسام التوكيد المؤكد إمّا أن يكون متقدماً على المؤكد أو مؤخراً عنه والأوّل كصيغة إنّ وما في حكمها ممّا يدخل على الجمل، وأما الثاني فإمّا أن يؤكد الشيء بنفسه أو بغيره، والأوّل كقوله ﷺ والله لأغزونّ قريشاً ثلاثاً، والثاني إما أن يختص بالمفرد كلفظ النفس والعين أو المثنى ككلا وكلتا أو الجمع كأجمعون وأكتعون أبتعون أبصعون وكل هي أم الباب.

البحث الخامس: في حسن استعماله والخلاف فيه مع الملحدة الطاعنين في الوحي والنزاع إمّا في الجواز وهو معلوم بالضرورة لأن شدّة اهتمام القائل بالكلام يدعوه إلى تأكيده، وإما في الوقوع وهو أيضاً معلوم من اللغات بعد تصفحها وهو وإن كان حسناً إلا أنه إذا تعارض حمل الكلام على التأكيد أو على فائدة زائدة وجب صرفه إلى الفائدة الزائدة.

الفصل الخامس: في المشترك وفيه أبحاث:

البحث الأول: في حقيقته وإمكانه ووجوده أما حقيقته فهو اللفظ الواحد الموضوع لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وضعاً أولاً من حيث هو كذلك، وقولنا موضوع لحقيقتين مختلفتين احتراز عن الأسماء المفردة، وقولنا وضعاً أوّلاً احتراز عمّا يدل على الشيء بالحقيقة وعلى غيره بالمجاز، وقوله من حيث هو كذلك احتراز عن اللفظ المتواطئ فإنه يتناول المهيّات المختلفة لكن لا من حيث هي مختلفة بل من حيث أنها مشتركة في معنى واحد، وأما إمكانه فمن وجوه:

أحدها أنّ الوضع تابع لغرض المتكلم، وقد يكون للإنسان غرض في تعريف غيره شيئاً على التفصيل، وقد يكون غرضه تعريفه على سبيل الإجمال بحيث يكون ذكره بالتفصيل سبباً للمفسدة، والثاني أنه ربما لا يكون المتكلم واثقاً بصحة الشيء على التعيين إلا أنه يكون واثقاً بصحة أحد المعنيين لا محالة فحينئذ يطلق اللفظ المشترك كيلا يعدّ بتصريحه بأحد المعنيين كاذباً وبسكوته جاهلاً، الثالث أنه يجوز أن تضع أحدى قبيلتين ذلك اللفظ لمعنى ثمّ تضعه قبيلة أخرى لمعنى آخر ثمّ يشبه الوضعان ويخفي كونه موضوعاً منهما، وأما وجوده فهو معلوم بالضرورة إذ من خواص اللفظ المشترك أنه إذا أُطلق لم يتبادر الذهن إلى أحد مفهوميه دون الآخر بل يبقى الذهن عند سماعه متردداً في تعيين المراد منه إلى

ظهور القرينة المعينة له وذلك ظاهر الوجود كلفظ القرء للحيض والطهر وإن كان ذلك أيضاً قد يختلف بحسب كثرة الإستعمال في أحد المعنيين وقلّته إلا أنه يكفينا في ذلك تردّد بعض الأذهان فيه.

البحث الثاني: في أقسامه مفهوماً اللفظ المشترك إما أن يكونا متباينين أو متواصلين والأول كالطهر والحيض، والثاني إما أن يكون أحدهما جزءاً من الآخر أو لا يكون، والأول كالممكن لغير الممتنع ولغير الضروري، والثاني إما أن يكون أحدهما علّة للآخر أو صفة له والأول كلفظ الواجب للواجب بالذات والواجب بالغير، والثاني كلفظ الأسود لذي السواد المسمى أسود.

تنبيهان أحدهما إذا نسبت ذا السواد المسمى أسود إلى ما يشاركه في لونه كالقار كان إطلاق لفظ الأسود عليهما من تلك الجهة بالتشكيك وإن اعتبرته من جهة اسمه كان مقولاً عليهما بالإشتراك، الثاني قال فخر الدين (رحمه الله): النقيضان لا يجوز أن يوضع لهما لفظ واحد لأنَّ المشترك لا يفيد إلا الأسباب التي ذكرنا أنه يجوز أن يكون أسباباً لوضع اللفظ المشترك عامة لا تخص ببعض المعاني دون البعض ولأنه إذا جاز وضع اللفظ الواحد للمعنى وضده الذي هو في قوّة نقيضه كالقرء للحيض والطهر إذا كان المحل لا يخلو عن أحدهما والترديد بينهما معلوم لكل أحد فلم لا يجوز مثله في النقيضين والله أعلم.

البحث الثالث: في أسبابه أما أسباب وجوده فيشبه أن يكون السبب الأكثري فيه هو أن تضعه كل واحدة من قبيلتين لمعنى ثم يشيع الوضعان ولا يتميزان، وأما السبب الأقلي فإن يضعه واحد لمعنيين لغرض التكلم باللفظ المجمل، وقد مرّ أنَّ التكلم باللفظ المجمل من مقاصد العقلاء. وأما السبب الذي يعرف به وجوده فإمّا تصريح أهل اللغة بذلك أو تساوي المفهومين بالنسبة إلى السامع عند إطلاق اللفظ وتردّد ذهنه في أيهما المراد بعد العلم بالوضع لهما.

البحث الرابع: في أنه هل يجوز استعمال اللفظ المشترك في معانيه على الجمع أم لا؟ جوّز ذلك الشافعي وأبو بكر الباقلاني وأبو علي الجبائي والقاضي عبد الجبار، ومنع منه أبو هاشم وأبو الحسين البصري والكرخي ثم منهم من منع منه لأمر يرجع إلى القصد ومنهم من منع منه لأمر يرجع إلى الوضع وهو اختيار الإمام فخر الدين ﷺ حجة المجوزين من وجهين أحدهما أنَّ الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ثم إنَّ الله تعالى أراد بهذه اللفظ كلي معنييها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦] الثاني قوله تعالى: ﴿تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: الآية ١٨] الآية والسجود هاهنا مشترك بين الخشوع لأنه هو المتصور من الملائكة وبين وضع الجبهة على الأرض في حق الناس وبين شهادة الحال بالحاجة إلى الصانع لأنه هو المتصور من الجمادات، ثم إنَّ الله تعالى أراد به كل معانيه في هذه الآية.

حجة المانعين أنّ المجموع غير كل واحد واحد فالواضع إذا وضع لفظ المعنيين على الإنفراد فإمّا أن يضعه مع ذلك لمجموعها أو لا يضعه فإنّ لم يضعه له كان استعماله فيه استعمالاً للفظ في غير ما وضع له وأنه غير جائز وإن وضعه له فإذا استعمله فيه فإما أن يستعمله فيه لإفادته بإنفراده فيكون ذلك استعمالاً للفظ في أحد مفهوماته لا في كلها، وإن استعمله لإفادته مع إفادة الأفراد فهو محال لأنَّ استعماله لإفادة المجموع يستلزم عدم الإكتفاء بكل واحد من الأفراد واستعماله لإفادة الأفراد يستلزم الإكتفاء بكل واحد من الأفراد والإكتفاء بكل واحد من الأفراد مع عدم الإكتفاء بكل واحد منها ممّا لا يجتمعان، وأقول: إنَّ محل النزاع في هذا البحث غير ملخّص، فإنّه إن أُريد أنه يجوز استعماله في مدلولاته على الجميع مطابقة فليس بحق لما يلزم المستعمل له كذلك من التناقض في القصد إلى المجموع وإلى الأفراد، وإن أُريد أنّه يجوز استعماله فيها على الجميع لإفادتها كيف اتفق فذلك جائز إذ يصح استعماله في المجموع مطابقة مع دلالتها على الأفراد تضمناً، وقول المانع إنّه إذا لم يكن الواضع وضع اللفظ للمجموع كما وضعه للأفراد امتنع استعماله فيه إن أراد

به حقيقة فهو حق، وإن أراد أنه يمتنع استعماله فيه مجازاً فهذا مما لا يقتضيه حجته.

وأما حجج المجوزين فضعيفة أما الأُولى فلأنَّ ضمير الجمع في قوله تعالى يصلّون بمنزلة الضمائر المتعددة المقتضية للأفعال المتعددة التي يراد بكل واحد منها معنى غير ما يراد بالآخر والتقدير إنَّ الله يصلّي وملائكته تصلّي، وأما الثانية فلأنَّ العطوف المتعددة تستدعي تعدد الأفعال فتقدير قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩] أي ويسجد من في الأرض وكذا الباقي، والمراد بكل منها المعنى الذي تقتضيه القرينة ثمَّ لو سلمنا أنّها استعملت في كل مفهوماتها لكنه يكون مجازاً وإلاّ لزم التناقض كما هو مذكور في حجة المانعين وبالله التوفيق.

البحث الخامس: فيما يتعيّن به مراد اللافظ باللفظ المشترك. اللفظ المشترك إن لم تقرن به قرينة تخصص أحد معنييه بالمراد به بقي مجملاً وإن وجدت قرينة كذلك فإمّا أن تقتضي الإعتبار أو الإلغاء وعلى التقديرين فإمّا لكل المسميات أو لبعضها فهذه أقسام أربعة، فالأول أن تفيد اعتبار كل واحد فتلك المسميات إما أن تكون متنافية بحيث لا يمكن الجمع بينها فيبقى اللفظ مجملاً إلى ظهور المرجح وإن لم تكن متنافية حمل اللفظ على مجموعها مجازاً، الثاني أن تفيد إلغاء كل واحد فحينئذ يجب حمل اللفظ على مجازات تلك الحقائق الملغاة ثمَّ إما أن يكون بعض تلك الحقائق أرجح من بعض لو لم يقم الدليل على عدم إرادتها أو لا يكون فإن كان الأول فمجازاتها إما أن يتساوى في القرب من الحقائق فيتعيّن حمل اللفظ على مجاز الحقيقة الراجحة أو يتفاوت المجازات فإن كان الراجح منها هو مجاز الحقيقة الراجحة تعيّن الحمل عليه أو مجاز الحقيقة المرجوحة فيقع التعارض بينه وبين مجاز الحقيقة الراجحة لاختصاص كل منهما بنوع ترجيح إلى أن يظهر مرجّح آخر، ومّا إن تساوت الحقائق فإن اختلفت مجازاتها بالقرب والبعد منها حمل اللفظ على المجاز الأقرب وإن لم يختلف بقي التعارض بين مجازات تلك الحقائق لتساويها وتساوي حقائقها إلى أن يظهر الترجيح.

الثالث أن تفيد إلغاء البعض فإن كانت اللفظة مشتركة بين معنيين فقط تعيّن الحمل على الثاني وإن كانت لأكثر من معنيين فعند إلغاء بعضها إن كان الباقي واحد تعيّن الحمل عليه أو أكثر من واحد فيبقى اللفظ مجملاً فيها.

الرابع أن تفيد اعتبار البعض فيتعيّن الحمل عليه سواءٌ كانت اللفظة لمعنيين أو أكثر.

القسم الثاني: في كيفيات تلحق الألفاظ بالنسبة إلى معانيها فتوجب لها الحسن والزينة وتعدّها أتمّ الأعداد لأداء المعاني وتهيء الذهن للقبول وهو مرتب على مقدمة وجملتين.

أما المقدمة ففيها بحثان:

البحث الأول: في حدّ البلاغة والفصاحة، أما البلاغة فهي مصدر قولك بلغ الرجل بالضم إذا صار بليغاً وهو أن يبلغ بعبارته أقصى مراده باللفظ من غير إيجاز مخلّ ولا تطويل مملّ؛ وأما الفصاحة فهو خلوص الكلام من التعقيد وأصله من الفصيح وهو اللبن إذا أُخذت رغوته وذهب لباؤه وقد فصح وأفصح إذا صار كذلك وأفصحت الشاة فصح لبنها ثم قالوا أفصح العجمي فصاحة فهو فصيح إذا خلصت لغته عن اللكنة واللحن، ثمَّ إن الفصاحة عند أربابها ليست باستعمال الشوارد التي لا تفهم وإنما هي باستعمال ما يقرب فهمه ويعذب استماعه ويعجب ابتداعه وتدل مطالعه على مقاطعة وتتم مباديه على تواليه، وأكثر البلغاء لا يكادون يميّزون بين البلاغة والفصاحة بل يستعملونهما استعمال اللفظين المترادفين على معنى واحد ومنهم من يجعل البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ؛ والأقرب أن الفصاحة سبب للبلاغة، والبلاغة أعمّ منها لغة إذ قد يبلغ غير الفصيح بعبارته أقصى مراده، ومساوية لها في عرف العلماء. وتلخيص مفهوميهما أن الفصاحة هي خلوص الكلام في دلالته على معناه من التعقيد الموجب لقرب فهمه ولذاذة استماعه، والبلاغة هي كون الكلام الفصيح موصلاً للمتكلم إلى أقصى مراده وبالله التوفيق.

البحث الثاني: في موضوع علم الفصاحة والبلاغة لما كان المقصود من الكلام هو إفادة المعنى وكانت هذه الإفادة كما علمت قد تكون وضعية صرفة وقد تكون

بمشاركة من الوضع والعقل فنقول: موضوع علم الفصاحة هو الكلام الدالّ على معناه بإحدى الدلالات الثلاث من حيث هو على حالة موجبة لقرب فهمه ولذاذة استماعه، وموضوع البلاغة هو الكلام الفصيح، وقال الإمام: إنَّ الفصاحة والبلاغة إنما يكون موضوعهما الكلام من جهة دلالته بالإلتزام وذلك لأنَّ الإفادة الوضعية يستحيل تطرق الزيادة والنقصان إليها فإنَّ السامع للفظ الموضوع إن كان عالماً بكونه موضوعاً لمعناه علم مفهومه بتمامه وإن لم يكن عالماً بالوضع لم يتصور منه شيئاً مثاله أنّك إذا أردت تشبيه زيد بالأسد في الشجاعة وقصدت التعبير عن هذا المعنى بالدلالة الوضعية فقلت زيد يشبه الأسد في شجاعته فالزيادة والنقصان في هذه الإفادة بما يعود إلى مفردات هذه الألفاظ غير متصورين ولو أقمت مقام هذه الألفاظ ما يرادفها فالحال كذلك للدليل المذكور، وتبيّن من هذا أن الإيجاز والإختصار والحذف والإضمار يستحيل تطرقها إلى الدلالات الوضعية، ولهذا كان أكثر ما يستعمل في العلوم العقلية الدلالات الوضعيّة لعدم احتمالها الزيادة والنقصان الموجبين للغلط والشبهة، وأما الإفادة الأُخرى فلأجل أن حاصلها يعود إلى انتقال الذهن من مفهوم اللفظ إلى ما يلازمه، ثمَّ إنَّ اللوازم كثيرة وهي تارة تكون قريبة وتارة تكون بعيدة فلا جرم صح تأدية المعنى الواحد بطرق كثيرة وصح في تلك الطرق أن يكون بعضها أكمل في إفادة ذلك المعنى وبعضها أنقص. فهذا ما يتعلق بالفصاحة من جهة المفردات. وأقول: إنَّ التحقيق يقتضي أنَّ الزيادة والنقصان مما يتطرقان إلى الإفادة الوضعية أيضاً فإنّ الإمام سلّم أن بعض الحروف أفصح جرساً وألذّ سماعاً كالعين، وبعضها أسهل على اللسان كحروف الذلاقة وبعضها أثقل، ولا شكّ أنَّ الكلام المركب عن أسهل الحروف وألذّها سماعاً أفصح وألذّ سماعاً عند النفس مما لا يكون كذلك، وسلّم أيضاً أن الأفصح أدلّ على المعنى وأسرع إلى قبول النفس له مما لا يكون كذلك وليس سبق العلم بالوضع قادحاً فيما ذكرناه لأنَّ الإنسان قد يسبق علمه بوضع اللفظ ثم يذهل عنه فعند سماعه يجد نفسه مسارعة إلى قبول المعنى من الأفصح دون غيره وملتذّة بسماعه بسبب فصاحته ولا معنى لزيادة الإفادة ورجحانها إلا ما يحصل للنفس من اللذة بالمعنى والمسارعة إلى قبوله بتمامه من اللفظ الأسهل. والله أعلم. وأما البلاغة العائدة إلى النظم والتركيب فتحقيق القول فيها أنَّ الكلام المنظوم لا محالة مركب من المفردات، والمفردات يمكن تركيبها على وجه لا يفيد المقصود، وقد يمكن تركيبها على وجه يفيده ثمّ للتركيب المفيد مراتب كثيرة ولها طرفان ووسط فالطرف الأعلى هو أن يقع ذلك التركيب على وجه يمتنع أن يوجد ما هو أشد تناسباً واعتدالاً منه في إفادة ذلك المعنى والطرف الأدنى هو أن يقع على وجه لو صار أقل تناسباً منه لخرج عن كونه مفيداً لذلك المعنى وبين هذين الطرفين مراتب واختيار أحسنها يقتضي الفصاحة في النظم وهذا معنى قول عبد القاهر الجرجاني ﷺ النظم عبارة عن توخي معاني النحو فيما بين الكلم. إذا ثبت هذا فنقول: أما الطرف الأدنى فليس من البلاغة في شيء وأمّا سائر المراتب فإن كل واحد منها إذا اعتبرته بالنسبة إلى ما تحته يكون مستلزماً للبلاغة والفصاحة، وأما الطرف الأعلى وما يليه فهو المعجز فهذا هو التحقيق في البلاغة والفصاحة في المفردات والمركبات.

الجملة الأُولى في المفردات وفيها مقدمة وأبواب.

أما المقدمة فاعلم أنَّ للأشياء في الوجود أربع مراتب الأول وجودها وتحقّقها في الأعيان، الثاني وجودها في الذهن، الثالث وجودها في اللفظ الدالّ على ما في الذهن، الرابع وجودها في الكتابة الدالة على ما في اللفظة، ومزية الكلام في الحسن تارة تكون بسبب الكتابة وتارة تكون بسبب اللفظ من حيث هو لفظ وتارة بحسب اللفظ من حيث له الدلالة الوضعية وتارة بحسبه من حيث له الدلالة الإلتزامية، ولما كانت المحاسن العائدة إلى الكتابة لا تخلو من تكلّفٍ ما وكان الكلام الذي نحن بصدد شرحه بريئاً عن التكلف خالياً عن جهات التعسف لا جرم كان ذكرنا لها قليل الجدوى فلذلك تركناه.

الباب الأول: في المحاسن العائدة إلى اللفظ من

حيث هو لفظ، واعلم أنّ المحاسن العائدة إلى اللفظ إما أن تعود إلى آحاد الحروف أو إلى حال تركيبها أو إلى الكلمة الواحدة أو إلى الكلمات الكثيرة فلا جرم اشتمل هذا الباب على فصلين.

الفصل الأول: فيما يتعلق بآحاد الحروف وتركيبها وحال الكلمة وفيه أبحاث:

البحث الأول: في مخارج الحروف وهي ستة عشر (أ) أقصى الحلق وهو مخرج ثلاثة حروف الهمزة والألف والهاء. (ب) وسط الحلق وهو مخرج الحرفين العين والهاء. (ج) أدناه إلى الفم وهو مخرج الغين والخاء. (د) اللسان فما فوقه من الحنك وهو مخرج القاف. (هـ) أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك وهو مخرج الكاف. (و) من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك وهو مخرج الجيم والشين والياء. (ز) أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس وهو مخرج الضاد. (ح) حافة اللسان من أدناه إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى فما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية وهو مخرج اللام. (ط) من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون. (ي) مخرج النون غير أنه دخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللازم وهو مخرج الراء. (يا) فيما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الطاء والتاء والدال. (يب) فيما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الزاء والسين والصاد. (يج) فيما بين طرف اللسان والطرف الأدنى من الثنايا مخرج الظاء والثاء والذال. (يد) من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء. (يه) ما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو. (يو) من الخياشيم مخرج النون الخفيفة. قال الخليل: الذلاقة في النطق إنّما هي بطرف أسلّة اللسان، وذلق اللسان تحديد طرفه كذلق السنان قال: لا ينطق طرف شباة اللسان إلا بثلاثة أحرف وهي الراء واللام والنون فلذلك تسمى هذه حروف الذلاقة وتلحق بها الحروف الشفهيّة وهي ثلاثة الفاء والباء والميم قال: ولما ذلقت هذه الحروف وسهلت على اللسان في المنطق كثرت في أبنية الكلام فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى عنها فإن وردت عليك كلمة خماسية أو رباعيّة معراة عن حروف الذلق أو عن الحروف الشفهيّة فاعلم أنّ تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب، وقال أيضاً: العين والقاف لا يدخلان في بناء إلا حسّناه لأنهما أطلق الحروف أما العين فأفصح الحروف جرساً وألذّها سماعاً، وأما القاف فأمتن الحروف وأوضحها جرساً فإذا كانتا أو إحديهما في بناء حسن البناء، وكذلك السين والدال في البناء إذا كان اسماً لأن الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء فصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاء كذلك قال: والهاء تحتمل في البناء للينها وهشاشتها، ولا بدّ من رعاية هذه الإعتبارات ليكون الكلام سلساً على اللسان وهي كالشروط للفصاحة والبلاغة.

البحث الثاني: في المحاسن بسبب آحاد الحروف وشروط تركيبها أمّا الأول فمنها الحذف، وهو أن يحترز عن حرف أو حرفين في الكلام إظهاراً للمهارة في تلك اللغة كان واصل ألثغ وكان يحترز عن الراء فجرّب في أنه كيف يعبر عن معنى قولنا اركب فرسك واطرح رمحك فقال في الحال إلق قناتك واعل جوادك، والحريري بلغ الغاية حيث ذكر أشعاراً حذف عنها الحروف المنقوطة وأشعاراً حذف عنها غير المنقوطة، ومنها الأعنات وهو التزام حرف قبل حرف الروي أو الردف من غير أن يجب ذلك في السجع كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩-١٠] وقول علي عليه السلام في مدح النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عن ربه معذراً ونصح لأمته مبذراً وأما الثاني فالشرط أن يكون التركيب معتدلاً فإن من التركيب ما يكون متنافراً كقوله:

وقبر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبر

وأن يكون خفيفاً فإنّ منها ما يكون ثقيلاً وإن كان دون الأول كقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى
جميعاً ومهما لمته لمته وحدي

ومنها ما يكون فيه بعض الكلفة إلا أنه لا يبلغ أن يعاب والسبب في هذا التنافر إما تقارب مخارج الحروف فيحتاج فيها إلى جنس الصوت في زمانين متلاصقين فلا يظهر الحرف الأول، وإمّا وجوب العود إلى ما منه الإبتداء كقولهم: الهعخع وهذه الدرجات كما تترتب في جانب الثقل فهي موجودة في جانب السلاسة حتى أنّ الكلمة تكون في غاية السلاسة.

البحث الثالث: فيما يتعلّق بالكلمة الواحدة وهو من وجهين الأول أن تكون متوسطة في قلة الحروف وكثرتها فأمّا الحرف الواحد فلا يفيد وأما المركبة عن الحرفين فليس في غاية العذوبة بل البالغ في ذلك الثلاثيات لاشتمالها على المبدء والوسط والنهاية وعلّته أنّ الصوت من عوارض الحركة والحركة لا بدّ لها من هذه الثلاثة فمتى ظهرت هذه الثلاثة فيها كان الكلام أسهل جرياناً على اللسان، وأمّا الرباعيات والخماسيّات فلا يخفى ثقلها لزيادتها على الدرجات الثلاث التي يتعلّق بها كمال الصوت، الثاني الإعتدال في حركات الكلمة فإذا توالت خمس حركات كان ذلك في غاية الخروج عن الوزن ولذلك لا يحتملها الشعر، وأمّا أربع حركات فهي في غاية الثقل أيضاً بل المعتدل توالي حركتين يعقبها سكون وإن كان ولا بدّ فإلى ثلاث حركات.

الفصل الثاني: فيما يتعلق بالكلمات المركبة وفيه نوعان:

النوع الأول: ما يكفي في تحققه اعتبار حال كلمتين وفيه أربعة أبحاث.

البحث الأول في التجنيس: المتجانسان إن كانا مفردين فإن تساويا في نوع الحروف والحركات وعدادها وهيئاتها فهو التجنيس التام كقولهم: حديث حديث، وكقول الحريري: ولإملاء الراحة من استوطأ الراحة وإن اختلفا فإمّا في هيئة الحركة كقولهم: جبّة البرد جنّة البرد، أو في الحركة والسكون كقولهم: البدعة شرك الشرك أو في التخفيف كقولهم: الجاهل إما مفرّط وإمّا مفرط ويسمى ذلك التجنيس الناقص، أو في أعداد الحروف بأن تتساوى الكلمتان في نفس الحروف وهيئاتها ثم تزيد في إحديهما حرف ليس في الأخرى أو يسمى المزيل فإمّا في أول الكلمة كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠] أو في وسطها كقولهم: كبد كبيد، أو في آخرها كقول بعضهم فلان سالم من أحزانه سالم من زمانه، وقول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم
تصول بأسياف قواض قواضب

وأمّا أن يختلفا في أنواع الحروف وقد يكون بحرف واحد وقد يكون بحرفين ويسمى المضارع والمطرف وما به الإختلاف قد يكون في أول الكلمة كقولهم بيني وبينهم ليلٌ دامسٌ وطريق طامس، أو في وسطها من حرفين متقاربين كقولهم ما خصّصتني ولكن خسّستني، أو في آخرها كقول النبي ﷺ: الخير معقود بنواصي الخيل، وقد يكون الإختلاف بحرفين غير متقاربين وهو إما في آخر الكلمة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ﴾ [النساء: الآية ٨٣] أو في وسطها كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ [العاديات: ٧] أو في أوّلها كقول الحريري لا أعطي زمامي من يخفر ذمامي، ثم المتجانسات إما أن يكون بعضها في مقابلة البعض حال التسجيع وهو ظاهر أو يضم بعضها إلى بعض في أواخر الأسجاع ويسمى مزدوجاً ومكرّراً كقولهم: النبيذ بغير نغم غمّ وبغير دسم سم وكقولهم: من طلب شيئاً وجدّ وجد: ومن قرع بابا ولجّ ولج، ومن التجنيس ما يكون بالإشارة من دون التصريح كقولهم: حلقت لحية موسى باسمه وبهارون إذا ما قلّبا، وقد يكون التجنيس بحيث يتجاذبه أصلان ويسمى المشوش كقولهم فلان مليح البلاغة كامل البراعة فلو اتّحدت عينا الكلمتين كان مصحفاً ولو اتفقت لاماهما كان مضارعاً، وأما إن كان المتجانسان مركبين فإمّا أن يكونا متشابهين خطاً فقط من دون اللفظ ويسمى المصحف كقول علي عليه السلام: قصر ثيابك فإنّه أبقى وأتقى وأنقى، كقولهم: عزّك غرّك فصار قصار ذلك ذلّك فاخش فاحش فعلك فعلّك تهدا بهذا، أو لفظاً فقط ويسمى المفروق كقوله:

كلكم قد أخذ الجام فلا جام لنا
ما الذي ضرّ مدير الجام لو جاملنا

أو خطاً ولفظاً ويسمى المقرون كقوله إذا لم يكن ملك ذاهبة فدعه فدولته ذاهبة.

البحث الثاني: في الإشتقاق وأمّا الإشتقاق فهو أن تأتي بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: الآية ٤٣] وقول النبي ﷺ: الظلم ظلمات يوم القيامة، وقول علي عليه السلام: جاهل خباط جهلات عاش ركاب عشوات، وأمّا ما يشبه المشتق كقوله تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤] وقال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٦٨].

البحث الثالث: في ردّ العجز على الصدر، ورسمه أنه كل كلام وجد في نصفه الأخير لفظ يشبه لفظاً موجوداً في نصفه الأول وله عدة أقسام (أ) أن يتفق لفظا الصدر والعجز صورة ومعنى ويكونان طرفين الأول في أول الكلام، والثاني في آخره كقولهم: الحيلة ترك الحيلة، وقولهم: القتل أنفى للقتل، وكقول القائل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة
أنّى يفيق فتى به سكران

(ب) أن يتفقا صورة لا معنى وهما طرفان كقوله:

يسار من سجيتها المنايا
ويمني من عطيتها اليسار

(ج) بالعكس ويكونان طرفين أيضاً كقول عمر بن أبي ربيعة:

واستبدّت مرة واحدة
إنّما العاجز من لا يستبد

(د) أن يلتقيا في الإشتقاق لا في الصورة وهما طرفان أيضاً كقول السري:

ضرائب أبدعتها في السماح
فلسنا نرى لك فيها ضريباً

(هـ) أن يلتقيا صورة ومعنى ويكون أحدهما حشواً في صدر البيت والآخر طرفاً في عجزه كقول أبي تمام:

ولم يحفظ مضاع المجد شيء
من الأشياء كالمال المضاع

(و) أن يقعا كذلك ويتفقا صورة لا معنى كقول بعضهم:

لا كان إنسان يتمّ صائداً
صيد المها فاصطاده إنسانها

(ز) أن يقعا كذلك ويلتقيا معنى لا صورة كقول امرىء القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه
فليس على شيء سواه بخزّان

(ح) أن يقعا طرفين في آخر الصدر والعجز ويتفقا صورة ومعنى كقول أبي تمام:

ومن كان بالبيض الكواكب مغرماً
فما زلت بالبيض الغواضب مغرماً

(ط) أن يقعا كذلك ويتفقا صورة لا معنى كقول الحريري:

فمشعوف بآيات المثاني
ومفتون برنّات المثاني

(ي) أن يقعا كذلك ويتفقا في الإشتقاق ويختلفا في الصورة كقول البحتري:

ففعلك إن سألت لنا مطيع
وقولك إن سُئلت لنا مطاع

(يا) أن يتفقا في شبه الإشتقاق ويختلفا صورة ومعنى كقول الحريري:

ومضطلع بتلخيص المعاني
ومطلع إلى تخليص عاني

(يب) أن يقع أحدهما في أول العجز والثاني في آخره كقول الحماسي:

وإن لم يكن إلا معرج ساعة
قليلاً فإنّي نافع لي قليلها

(يخ) أن يقعا ويلتقيا في الإشتقاق دون الصورة كقول أبي تمام:

ثوى بالثرى من كان يحيى به الورى
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

ووراء هذه الأقسام أقسام أُخر لهذا النوع وفيما ذكرناه كفاية.

البحث الرابع: في القلب وهو إما في كلمة أو كلمات والأول فإمّا أن يتقدم كل واحد من حروفها على ما كان متأخراً عنه ويسمى مقلوب الكل كالفتح والحتف في قوله:

حسامك فيه للأحباب فتح
ورمحك فيه للأعداء حتف

ثم إن وقع مثل هاتين الكلمتين على طرفي البيت سمي مقلوباً مجنّحاً كقوله:

ساق هذا الشاعر الحين إلى من قلبه قاسي
سارخي القوم فالهم علينا جبل راسي

أو يكون بعض حروفها كذلك فيسمى مقلوب البعض كقوله عليه السلام: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، وأما في الكلمات بحيث يكون قراءتها من أولها كقراءتها من آخر فكقول الحريري: آس أرملا إذا عرا، وارع إذا المرء أساء.

النوع الثاني: ما يحتاج إلى أزيد من كلمتين وفيه أبحاث:

البحث الأول: في السجع وهو ثلاثة أقسام أحدها يسمى المتوازي وهو أن تتساوى الكلمتان في عدد الحروف ونوع الحرف الأخير كقول علي عليه السلام: كثرة الوفاق نفاق وكثرة الخلاف شقاق، وكقوله عليه السلام: في أهل البصرة عهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق.

وثانيها: المطرف وهو أن يختلفا في العدد ويتفقا في الحرف الأخير كقوله عليه السلام لا حم صدوع إنفراجها ولائم بينها وبين أزواجها.

وثالثها: المتوازن وهو أن يتفقا في عدد الحروف ولا يتفقا في الحرف الأخير كقول علي عليه السلام: الحمد لله غير مفقود الإنعام ولا مكافىء الإفضال، ويعرف المتكلف من السجع بأمرين أحدهما أن يكون الحرف الأخير إنما يحتاج إليه للتقفية لا للمعنى، الثاني أن يترك معناه الأول لأجل التقفية.

البحث الثاني: في تضمين المزدوج وهو أن يجمع المتكلم بعد رعاية السجع في أثناء القرائن بين لفظتين متشابهتي الوزن والروي كقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: الآية ٢٢] وقوله صلى الله عليه وآله: المؤمنون هيّنون ليّنون وكقول علي عليه السلام: كثرة الوفاق نفاق.

البحث الثالث: في الترصيع وهو أن تتساوى أوزان الألفاظ وتتفق أعجازها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] وقول علي عليه السلام: علا بحوله ودنا بطوله مانح كل غنيمة وفضل وكاشف كل عظيمة وأزل، وقوله في صفة الدنيا: أولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، وقد يجيء مع التجنيس كقوله عليه السلام: في كتاب الله بيت لا تهدم أركانه وعزّ لا تهزم أعوانه.

الباب الثاني: فيما يتعلق بالدلالة الوضعيّة والمعنوية واعلم أنّ البحث عن حسن الدلالة اللفظية يرجع إلى اشتراط أربعة أمور.

الأول: أن تكون الكلمة عربية غير مولدة ولا صادرة عن خطأ العامة، **الثاني:** أن يكون أجرى على مقاييس العرب وقوانينها، **الثالث:** المحافظة على قوانين النحو، **الرابع:** الإحتراز عن الألفاظ الغريبة الوحشية ولذلك كانت في الكتاب العزيز نادرة.

وأمّا الكلام في الدلالة المعنوية فاعلم أنه لما كانت الألفاظ المفردة لا تستعمل لإفادة مدلولاتها الإلتزامية إلا عند التركيب وكان الأصل في أصناف التراكيب هو الخبر وهو الذي يتصوّر بالصور الكثيرة وتظهر فيه الأسرار العجيبة من علم المعاني والبيان رأينا أن نشير إلى قدر من مباحثه قبل الخوض في سائر الأقسام وقد رتبنا هذا الباب على فصول.

الفصل الأول: في أحكام الخبر وفيه أبحاث:

البحث الأول: في رسم الخبر وقد رسم بأنه القول الذي يقال لقائله إنه صادق فيما قاله أو كاذب، وأورد الإمام فخر الدين عليه شكاً فقال: الصدق والكذب لا يمكن تعريفهما إلاّ بالخبر إذ يقال في الصدق إنّه الخبر المطابق وفي الكذب إنّه الخبر غير المطابق، وتعريف الخبر بهما دور، وأجاب أفضل المتأخرين نصير الدين الطوسي - رحمه الله - عنه فقال: الحق أنّ الصدق والكذب من الأعراض الذاتية للخبر فتعريفه بهما رسمي أورد تفسيراً للاسم وتعييناً لمعناه من بين سائر المركبات

ولا يكون ذلك دوراً لأنّ الشيء الواضح بحسب مهيّته ربما يكون ملتبساً في بعض المواضع بغيره ويكون ما يشتمل عليه من أعراضه الذاتية الغنيّة عن التعريف أو غيرها مما يجري مجراها عارياً عن الإلتباس فإيراده في الإشارة إلى تعيين ذلك الشيء إنّما يلخّصه ويجرده عن الإلتباس وإنّما يكون دوراً لو كانت تلك الأعراض أيضاً مفتقرة إلى البيان بذلك الشيء وهاهنا إنّما يحتاج إلى تعيين صنف واحد من أصناف المركبات فيه اشتباه لأنه لم يتعيّن بعد وليس في الصدق والكذب اشتباه فيمكننا أن نقول: إنّا نعني بالخبر التركيب الذي يشتمل حدّ الصدق والكذب عليه كما لو وقع اشتباه في معنى الحيوان فيمكننا أن نقول: إنّا نعني به ما يقع في تعريف الإنسان موقع الجنس ولا يكون دوراً، وقيل في تعريفه أيضاً: إنّه القول المقتضي بصريحه إسناد أمر إلى أمر بالنفي أو الإثبات وأما تسمية النحاة أحد جزء الخبر خبراً فمجاز.

البحث الثاني: أنّه ليس الغرض الأول من وضع الألفاظ المفردة إفادتها لمسمّياتها المفردة بيان ذلك أنّ إفادتها لها موقوفة على العلم بكونها موضوعة لها وهو مستلزم للعلم بها قبل الوضع فلو توقفت إفادتها على الوضع لزم الدور وإنّه محال بل الغرض الأول منها تمكن الإنسان من تفهّم ما يتركب من تلك المسمّيات بواسطة تركيب تلك الألفاظ المفردة لا يقال: ما ذكرتموه قائم بعينه في المركبات لأن اللفظ المركب لا يفيد مدلوله إلا عند العلم تكون تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني فلو استفدنا العلم بتلك المعاني من تلك الألفاظ لزم الدور لأنّا نقول: لا نسلّم أن الألفاظ المركبة لا تفيد مدلولها إلا عند العلم بكون الألفاظ المركبة موضوعة له بيان ذلك أنّا متى علمنا وضع كل واحد من تلك الألفاظ المفردة لكل واحد من تلك المعاني المفردة فإذا توالت الألفاظ المفردة بحركاتها المخصوصة على السمع ارتسمت المعاني المفردة في الذهن مستلزمة للعلم بنسبة بعضها إلى بعض استلزاماً عقلياً وذلك هو التركيب فظهر أنّ استفادة العلم بالمعاني المركبة لا يتوقف على كون الألفاظ المركبة موضوعة لها وبالله التوفيق.

البحث الثالث: في الفرق بين الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل قد عرفت أنّ الفعل مشعر بالزمان المعيّن دون الاسم فلذلك ظهر الفرق بين الإخبار به والإخبار بالاسم فإنّك إذا قصدت بالأخبار والإثبات المطلق غير المشعر بالزمان وجب أن تخبر بالاسم كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: الآية ١٨] إذ ليس الغرض إلا إثبات البسط لذراعي الكلب فأمّا تعريف زمان ذلك فغير مقصود فأمّا إن قصدت الإشعار بزمان ذلك الثبوت فالصالح له هو الفعل كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآية ٣] فإن تمام المقصود إنّما يتحصل بكونه معطياً في كل حين وأوان لا بمجرد كونه معطياً.

البحث الرابع: في حكم المبتدأ والخبر: متى اجتمعت الذات والصفة فالذات أولى بالمبتدئية والصفة أولى بالخبرية ثمّ إما أن يكون الأمر في اللفظ كذلك أو بالعكس، والأول إما أن لا يدخل لام التعريف في الخبر كقولك زيد منطلق وذلك يفيد ثبوت مطلق الإنطلاق لزيد من غير أن يفيد دوام ذلك الثبوت أو انقطاعه أو يدخله لام التعريف كقولك زيد المنطلق أو زيد هو المنطلق فاللام في الخبر يفيد انحصار المخبرية في الخبر عنه ثم إما أن يكون لام العهد كما إذا اعتقدت وجود انطلاق معيّن ولكن لا تعلم أن المنطلق زيد أو عمرو فإذا قلت زيد المنطلق عنيت أنّ صاحب ذلك الإنطلاق هو زيد فقد انحصر ذلك الإنطلاق في زيد، وإمّا لتعريف الطبيعة فيفهم من وصفه الحصر ثم هو للحصر إن أمكن ترك الكلام على حقيقته كقولك زيد هو الوفيّ إذا لم تظن بأحد خيراً غيره وإلاّ حمل الكلام على المبالغة كقولك زيد هو العالم وهو الشجاع لامتناع حصر الحقيقة فيه وأمّا إذا عكس وأُخرت الذات عن الصفة كقولك المنطلق زيد فذاك إنّما يقال إذا اعتقد معتقد أنّ إنساناً انطلق ولكن لا يعلم شخصه فيقال له المنطلق زيد أي الذي تعتقد انطلاقه هو زيد ثمّ الضابط أن الإخبار يجب أن يكون عمّا يعرف بما لا يعرف له.

الفصل الثاني في الحقيقة والمجاز وفيه أبحاث:

البحث الأول: في معنى الحقيقة والمجاز وحدهما.

الحقيقة فعلية بمعنى مفعولة من الحق وهو الثبات وسمي ما خالف المجاز حقيقة لأنّه مثبت معلوم الدلالة، والمجاز مفعل من جازه يجوزه إذا تعدّاه، وإذا عدل باللفظ عن وضعه اللغوي وصف بأنّه مجاز بمعنى أن الذهن انتقل من لفظة إلى معنى غير معناه فصار موضع الإنتقال والمجاوزة؛ وأما حدّ الحقيقة فأمّا في المفردات فهي كل كلمة أفيد بها ما وضعت له في أصل الإصطلاح الذي وقع التخاطب به ويدخل في ذلك الحقيقة اللغوية والعرفية والشرعية فأمّا في الجمل فكل جملة وضعتها على أنّ الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل واقع موقعه فهي حقيقة كقولنا: خلق الله العالم؛ وأما حدّ المجاز فأما في المفرد أيضاً وهو ما أفيد به معنى غير ما اصطلح عليه في أصل المواضعة التي وقع التخاطب بها لعلاقة بينه وبين الأول ويدخل في ذلك المجاز اللغوي والعرفي والشرعي وأمّا في الجمل فكل جملة خرج الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل بضرب من التأويل فهو مجاز كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: الآية ٢].

البحث الثاني: فيما به يتحقق المجاز لا بدّ فيه من أمرين أحدهما أن يكون منقولاً عن معنى وضع اللفظ بإزائه وإلاّ لبقي حقيقته، الثاني أن يكون ذلك النقل لمناسبة بين المعنيين وإلاّ لكان في الثاني مرتجلاً، وبهذا يظهر الفرق بين المجاز والكذب والدعوى الباطلة، وذلك لأن المبطل إذا أخرج الحكم عن موضعه وأعطاه غير المستحق لم يعرف أنه إنما أعطاه لكونه فرعاً لأصل بل يجزم بأنّ ثبوت الحكم في ذلك الموضع ثبوت أصلي وكذلك الكاذب يدعي أن الأمر على ما وضعه وليس هو من التأويل في شيء والمجاز لم يكن مجازاً لأنّه إثبات الحكم لما لا يستحقه للمناسبة بينه وبين المستحق.

البحث الثالث في أقسام المجاز: المجاز إما أن يقع في اللفظ المفرد فقط أو في المركب فقط أو فيهما معاً مثال الأول إطلاق لفظ الأسد على الرجل الشجاع والحمار على البليد، وأما الثاني وهو أن يستعمل كل واحد من الألفاظ المفردة في موضعه الأصلي لكن التركيب لا يكون مطابقاً لما في الوجود مثاله قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: الآية ٢] وقول الشاعر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير
كرّ الغداة ومرّ العشي

وهذا المجاز عقلي لأنّ نسبة الإخراج إلى الأرض والإشابة إلى كرّ الغداة ومرّ العشي حكم عقلي عدل به عن الفاعل الحقيقي وهو الله سبحانه إلى غير من هو له وهو الأرض والغداة والعشي مثال الثالث كقولك لمن تحبّه أحياني اكتحالي بطلعتك فإنّ لفظي الإحياء والإكتحال مفردان استعملا في غير موضعهما الأصلي ثم نسب الإحياء إلى الإكتحال مع عدم المطابقة لما في نفس الأمر أيضاً وهذا التلخيص لعبد القاهر النحوي.

البحث الرابع: في أصناف المجاز والذي ذكره الإمام فخر الدين منها إثنتا عشر صنفاً (أ) إطلاق اسم السبب على المسبب، والأسباب أربعة أحدها الفاعليّ كإطلاق اسم النظر الذي هو تقليب الحدقة نحو المرئي على الرؤية كقولك نظرته أي رأيته، الثاني الغائي كتسميتهم العنب بالخمر، الثالث الصوري كتسميتهم القدرة يد، الرابع القابلي كقولهم سال الوادي. (ب) إطلاق المسبب على السبب كتسميتهم المرض الشديد بالموت والأول أولى لاستلزام السبب المعيّن للمسبب المعيّن من غير عكس، وأولى الأسباب بذلك هو السبب الغائي لحصول علاقة العلية والمعلولية اللتين كل واحدة منهما علّة لحسن المجاز فيه دون باقي الأسباب. (ج) إطلاق اسم الشيء على ما يشابهه كإطلاق لفظ الحمار على الرجل البليد وهو الإستعارة كما سيجيء بيانها. (د) تسمية الشيء باسم ضده كتسمية العقاب بسبب الجريمة بالجزاء المختص بمقابلة الإحسان بمثله. (هـ) تسمية الجزء باسم الكل كإطلاق لفظ العام على الخاص. (و) العكس كإطلاق لفظ الأسود على الزنجي لسواد جلده والأول أولى لاستلزام الكل للجزء من غير عكس. (ز) إطلاق ما بالفعل على ما بالقوة كتسمية الخمر في الدنّ مسكراً وهو قريب من إطلاق السبب الغائي على مسبّبه. (ح) إطلاق المشتق بعد زوال المشتق منه كإطلاق لفظ ضارب على من فرغ من

الضرب وقد عرفت أن ذلك هل هو مجاز أم حقيقة. (ط) إطلاق اسم المجاور على مجاوره كإطلاق لفظ الراوية وهو الجمل الذي يحمل عليه الماء على المزادة. (ي) إطلاق اسم الحقيقة العرفية كالدابة للفرس على الحمار وغيره مجازاً عرفياً. (يا) المجاز بسبب النقصان والزيادة قال الإمام وتحقيقه أنّ الكلمة كما أنها توصف بالمجاز لنقلها عن معناها فقد توصف بالمجاز لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هي بحقيقة فيه كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا﴾ [يوسف: ٨٢] التقدير: وأسأل أهل القرية والذي يستحقه في الأصل الجرّ، والنصب فيها مجاز وفيه نظر، لأنّ الإعراب لا يراعى فيه صدق النسبة وكذبها والمطابقة وعدمها فإنك لو قلت لمست السماء كان السماء مفعولاً به للفعل المتقدم ويستحق النصب حقيقة وكذلك القرية هَهُنَا تستحق النصب حقيقة بالمفعولية أما أن النسبة في نفسها صادقة أم لا فذاك بحث آخر بل الحق أنه مجاز في التركيب والنسبة فإنّ نسبة السؤال إلى أهل القرية حقيقة فيكون إليها مجازاً وإن قطعنا النظر عن مباحث النحاة أمكن أن يكون الحق ما قاله الإمام، وأما المجاز بسبب الزيادة فالحقّ أن الزيادة إن غيّرت معنى الكلام الذي يتم بدونها ولا يحتاج فيه إليها كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] فالمجاز حاصل في النسبة إذ كانت نسبة النفي إلى من ليس له وإن لم تغيّر كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٩] لم يتصور المجاز هاهنا. (يب) إطلاق اسم المتعلّق على المتعلّق كتسمية المقدور قدرة.

البحث الخامس: المجاز بالذات لا يدخل إلا على أسماء الأجناس وبيانه أمّا الحرف فلأن معناه في غيره فإنّ ضم على حقيقة فهو حقيقة أو إلى مجاز كان مجازاً في التركيب فلم يدخله بالذات، وأما الفعل فلأنّ معناه مركب من المصدر وغيره فما لم يكن المصدر متجوّزاً به لم يكن الفعل كذلك فكان داخلاً فيه بالعرض، وأما الاسم فإمّا علم ولا يدخله المجاز لأنّه مشروط بالعلاقة بين الأصل والفرع وليست موجودة في الأعلام أو مشتق ومعلوم أنه لولا تطرّق المجاز إلى المشتق منه لم يتطرق إلى المشتق فلم يبق إلا أسماء الأجناس.

البحث السادس في الداعي إلى التكلم بالمجاز: العدول إلى المجاز إما لأجل اللفظ أو المعنى أولهما أمّا الأول فإمّا لأجل جوهر اللفظ أو لأحوال عارضة له أمّا الأول فأن يكون اللفظ الدال بالحقيقة ثقيلاً على اللسان إما لثقل أجزائه أو لتنافر تركيبه أو لثقل وزنه ويكون المجاز عذباً وأما الثاني فأن يكون المجاز صالحاً للشعر أو للسجع وأصناف البديع دون الحقيقة وأما الذي لأجل المعنى فقد يقصد المجاز لتعظيم ليس في الحقيقة كما يقال سلام على المجلس السامي أو لتحقير يكون فيها كما يعبّر بالغائط عن قضاء الحاجة أو لزيادة بيان إما تقويةً لحال المذكور كقولك رأيت أسداً للإنسان الشجاع فإنّه أتم من قولك رأيت إنساناً يشبه الأسد في الشجاعة، أو تقويةً لحال الذكر وهو المجاز الذي يذكر للتأكيد أو لتطليف الكلام قال الإمام: وتقريره أن النفس إذا وقفت على كلام فلو وقفت على تمام المقصود لم يبق لها إليه شوق أصلاً لأنّ تحصيل الحاصل محال، وإنّ لم يقف على شيء منه أصلاً لم يحصل لها أيضاً إليه شوق. أما إذا وقفت عليه من بعض الوجوه دون البعض فإنّ القدر المعلوم يشوقها إلى غير المعلوم فيحصل لها بسبب علمها بالقدر المعلوم لذّة وبسبب حرمانها عن الباقي ألم فيحصل هناك تعاقب آلام ولذات؛ واللذة إذا حصلت عقيب الألم كانت أقوى وشعور النفس بها أتمّ. إذا عرفت ذلك فنقول: إذا عبّر عن الشيء باللفظ الدالّ عليه على سبيل الحقيقة حصل تمام العلم به فلا تحصل اللذة القوية أما إذا عبّر عنها بلوازمها الخارجية عرفت لا على سبيل الكمال فتحصل الحال المذكورة التي هي كالدغدغة النفسانية. مثال هذا إنّك إذا قلت رأيت إنساناً يشبه الأسد في شجاعته فقد حصلت المعاني بتمامها من ألفاظها الموضوعة لها فلم يحصل من اللذة ما يحصل من قولك رأيت أسداً في يده سيف فإن الذهن هَهُنَا يتصور من لفظ الأسد معناه ولوازمه البينة كالشجاعة ثمّ ينتقل بسبب القرينة إلى ملاحظة وجه الشبه في الإنسان الذي هو الشجاعة فذلك الإنتقال هو محل الدغدغة واللذة النفاسنية.

البحث السابع: فيما تنفصل به الحقيقة عن المجاز. إنّه إما أن يقع بالتنصيص أو الإستدلال أما التنصيص فمن وجوه: أحدها أن يقول الواضع هذا حقيقة وذاك مجاز، وثانيها أن يذكر واحداً منهما، وثالثها أن يذكر خواصهما، وأمّا الإستدلال فالحقيقة تعرف من وجهين أحدهما أن يسبق المعنى من ذلك اللفظ إلى فهم بعض السامعين من أهل تلك اللغة فيحكم بأنه حقيقة فيه إذ لولا اضطراره إلى فهم ذلك المعنى من قصد الواضعين لما فهمه دون غيره، وثانيهما أنّ أهل اللغة إذا أرادوا إفهام غيرهم معنى اقتصروا على عبارات مخصوصة وإذا قصدوا بالتعبير الحسن بعد الفهم عبّروا بعبارات أُخرى وقرنوا بها قرائن فيعلم أن الأول حقيقة إذ لولا أنه استقر في قلوبهم استحقاق ذلك اللفظ لذلك المعنى لما اقتصروا عليه، وأمّا المجاز فيعرف أمّا أولاً فمن عكوس ما ذكرناه في تعريف الحقيقة، وأمّا ثانياً فلأنّ الكلمة إذا علّقت بما يستحيل تعليقها به علم أنّها في أصل اللغة غير موضوعة له فيعلم أنّها مجاز فيه كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وأما ثالثاً فأن يعلم أن الواضع وضع لفظاً لمعنى ثم استعمله في بعض موارده ثم استعمله بعد ذلك في غير ذلك الشيء كلفظ الدابة الذي وضع لكل ما يدب ثمّ خص بالفرس فصار حقيقة عرفيّة ثم استعمل بعد ذلك في الحمار فيعلم أنه مجاز فيه إلى أن يغلب الإستعمال عليه فيصير حقيقة عرفيّة أيضاً.

الفصل الثالث: في التشبيه وفيه أربعة أركان.

الركن الأول: في المتشابهين.

إنّهما إما محسوسان أو معقولان أو المشبّه به محسوس والمشبّه معقول أو بالعكس أمّا الأول فكقول علي عليه السلام لأهل البصرة: كأني بمسجدكم هذا كجؤجؤ سفينة. وقوله عليه السلام في وصف الأتراك: كأني أراهم قوماً كأن وجوههم المجانّ المطرقة، وأما الثاني فكقوله عليه السلام: أُداريكم كما تداري البكار العمدة والثياب المتداعية فإنّ المتشابهين هَهُنَا هو مداراته ومدراة أهل البكار لها؛ والمداراة معنى إضافي معقول، وما به المشابهة هو الصعوبة هَهُنَا كالصعوبة هناك، وأما الثالث فكقوله عليه السلام في حق مروان: أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه فإنّ الإمرة حالة معقولة أشبهت لعقة الكلب أنفه في السرعة وهي أمر محسوس وقوله عليه السلام: أما بعد فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر، وكقوله كأنّي بك يا كوفة تمدّين مدّ الأديم العكاظي، وأما الرابع فكقول الشاعر:

كأنّ بصاص البدر من تحت غيمه
نجاة من البأساء بعد وقوع

وكقول الصاحب بن عباد وقد أهدى عطراً إلى القاضي أبي الحسن.

أهديت عطراً كان مثل سنائه
فكأنّما أهدى له أخلاقه

وقد منع الإمام فخر الدين من جواز هذا القسم من التشبيه اعتماداً منه على أن العلوم العقلية مستفادة من الحواس فكأن المحسوس أصلاً للمعقول فتشبيهه به يقتضي جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً وهو محال. وهذا سهو؛ فإنّ الحواس وإن كانت طرقاً للعلم إلا أنّها ليست كل الطرق له سلّمناه لكنّ الممنوع إنّما هو جهة ما هو فرع لذلك الأصل لا مطلقاً وهيهنا ليس كذلك فإنّ المعقول فرع للمحسوس من جهة ما هو مستفاد عنه فيمتنع أن يعود أصلاً من تلك الجهة لكنه لا يمتنع أن يكون فرعاً له من تلك الجهة ومع ذلك يكون أصلاً له في التشبيه والملاحظات الذهنية.

الركن الثاني: فيما به التشبيه وفيه أبحاث:

البحث الأول: في أقسامه، إنه إما أن يكون صفة حقيقية أو إضافية، والأول إما كيفية جسمانية أو نفسانية، والأول إما كيفية محسوسة إحساساً أولاً أو ثانياً، والأول إما بحس البصر كتشبيه الخد بالورد في الحمرة وتشبيه الوجه بالنهار والشعر بالليل، أو بحس السمع كتشبيه أطيط الرجل بأصوات الفراريج، وكتشبيه الصوت المنكر بصوت الحمار، أو بحس الذوق كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر، أو بحس الشمّ كتشبيه بعض الرياحين بالمسك والكافور، أو بحسّ اللمس كتشبيه الجسم اللين الناعم بالخز والخشن بالمسح، وأما المحسوسة ثانياً فهي الأشكال والمقادير والحركات، والأشكال إما مستقيمة أو مستديرة مثال

التشبيه في الإستقامة تشبيه الرجل المعتدل القامة بالرمح، ومثال التشبيه في الإستدارة المستدير بالكرة تارة وبالحلقة أُخرى، ومثال التشبيه في المقادير تشبيه عظيم الجثّة بالجمل والفيل ومثاله في الحركة تشبيه السريع بالسهم، وأما الإشتراك في كيفية جسمانية غير محسوسة فكما يقال فلان كالحمار أي في بلادته أو شبقه وهو كالنمر أي في غضبه، وأما في الكيفية النفسانية فكالإشتراك في الغرائز والأخلاق كالكرم والحلم والشجاعة والذكاء والفتنة والعلم والزهد كقولك هو كالحاتم أي في جوده وكعمرو بن معدي كرب أي في شجاعته، وأما الإشتراك في الحالة الإضافية فكقولهم هذه الحجة كالشمس فالإشتراك هَهُنَا في الجلاء بالنسبة إلى البصر والفهم وهي حالة إضافية وقد يكون جليّة كما ذكرنا وكقولهم ألفاظ فلان كالماء أي في السلاسة وكالنسيم أي في الرقة وذلك أنه إذا لم تتنافر حروفه بل خففت على اللسان، ولم يكن غريباً وحشياً ارتاح له القلب فلسرعة وصوله إلى النفس صار كالماء الذي يسرع نفوذه إلى الحلق والنسيم الذي يسري في البدن وقد يكون خفيّة كقول من ذكر بني المهلب هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ألا ترى أنه لا يفهم المقصود من ذلك إلا من كان له ذهن يرتفع عن درجة العامة.

البحث الثاني: في تقسيمه بوجه آخر - إنّه قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً والأول كما إذا خطرت ببالك استدارة للشمس واستنارتها فإنّه يخطر بقلبك المرآة المجلوّة وتلاحظ الشبه بينهما وكذلك إذا نظرت إلى الوشي المنشور لاح لك شبهه الروض الممطور المفتر عن أزهاره وأمّا الغريب البعيد فهو الذي يحتاج في إدراكه إلى دقّة نظر كتشبيه الشمس بالمرآة في كفّ الأشلّ وتشبيه البرق بإصبع السارق كقول كشاجم:

أرقت أم نمت لضوء بارق
مؤتلفاً مثل الفؤاد الخافق
كأنّه إصبع كفّ السارق

ثم السبب في القرب والبعد أمران: أحدهما أن الحس لا يعطي التميز بين جهة الإشتراك والإمتياز وإنما يدرك المركب من حيث هو شيء واحد وأما التفصيل والتمييز فذاك حظ العقل وأيضاً فشعور الحس بالإجمال أقدم من شعوره بالتفصيل فإنّ المرئي في أول النظر إليه لا يدرك البصر تفاصيله حتى يتكرر وكذلك المسموع فإنّك تقف في إعادة الصوت على ما لم تقف عليه بالسماع الأول وبإدراك التفاصيل يقع التفاضل بين سامع وسامع وإذن كان إدراك الجملة أسهل وأقرب من إدراك التفصيل.

البحث الثالث: في بيان أن التشبيه بالوجه العقلي أعمّ من التشبيه بالوجه الحسيّ أما تشبيه المحسوس بالمحسوس فيمكن أن يكون لأجل الإشتراك في وجه محسوس ويمكن أن يكون لأجل الإشتراك في وجه معقول ويمكن لأجلهما جميعاً مثل الأول تشبيه الخد بالورد مثال الثاني قوله ﷺ: إيّاكم وخضراء الدمن فالتشبيه مأخوذ للمرأة من النبات وهما محسوسان ولكن وجه المشابهة هو مقارنة الحسن الظاهر للقبح الباطن وهو أمر عقلي ومثال الثالث تشبيه الشخص الرفيع القد الحسن الوجه بالشمس لاشتراكهما في النباهة التي هي أمر عقلي وفي الضياء الذي هو أمر حسي، وأما تشبيه المعقول بالمعقول والمعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول فيمتنع أن يكون وجه المشابهة غير عقلي كأنّ وجه المشابهة مشترك بين الجانبين فلو كان محسوساً لم يصحّ وصف المعقول به وأما العقلي فيصح لصحة أن يصدر عما لا يكون محسوساً أمر محسوس فثبت أن التشبيه بالوجه المعقول أعم.

البحث الرابع: التشبيه بالوصف المحسوس أتمّ من التشبيه بالوصف المعقول بيانه من وجهين أحدهما أن أكثر الفرض في التشبيه التخيّل الذي يقوم مقام التصديق في الترغيب والترهيب، والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة منه على الأمور الإضافية، الثاني أن الإشتراك في نفس الصفة أسبق من الإشتراك في مقتضاها لما أن الصفة في نفسها متقدمة في التصور على مقتضاها فكانت الصفة المحسوسة أتمّ في التشبيه من الأمر المعقول.

البحث الخامس: في تقسيم ما به المشابهة إلى

المفرد والمركب: المشابهة إما أن تكون في أمر واحد أو في أمور كثيرة والأول إما أن لا يكون مقيداً بالنسبة إلى شيء أو يكون فالأول كتشبيه الكلام بالعسل في أن كل واحد منهما يوجب للنفس لذة وحالة محمودة وأما الثاني فما إليه الإنتساب أربعة أمور إما المفعول به فكقولهم أخذ القوس باريها لأنّ المقصود وقوع الأخذ في موقعه ووجوده من أهله وهذا لا يحصل من الأخذ المطلق ولكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من باريء القوس عليه، وإمّا إلى ما يجري مجرى المفعول به وهو الجار والمجرور، كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد هو كالراقم على الماء. فالتشبيه ليس بمنتزع من الرقم المطلق بل منه على الماء، وإمّا إلى المفعول به والجار والمجرور معاً كقولهم هو كمن يجمع السيفين في غمد وهو كمن ينثر الجوز على القبة فالجمع المعدي إلى السيفين لا يكفي في التشبيه ما لم يشترط كونه جامعاً لهما في الغمد ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجُمُعَة: ٥] فإنّه تضمن التشبيه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل المطلق بل لأمرين آخرين أحدهما تعديته إلى الأسفار والآخر إقتران الجهل بما فيها لأن الغرض توجيه الذم إلى من أتعب نفسه بحمل ما يتضمن المنافع العظيمة ثمّ لم ينتفع به بجهله وهذا المقصود لا يحصل من الحمل المطلق بل منه مشروطاً بالشرطين الآخرين ثمّ إذا كان ما به المشابهة وصفاً مقيداً فقد يمكن إفراد أحد جزأيه بالذكر وقد لا يمكن أما الأول فكقوله:

فكأن أجرام النجوم لوامعا
درر نثرن على بساط أزرق

فإنك لو قلت كأن النجوم درر وكأن السماء البساط أزرق كان التشبيه معقولاً وإن تغيّر المعنى المراد للقائل إذ مقصوده من التشبيه هَهُنَا ذكر الأمور العجيبة من طلوع النجوم مؤتلقة مفترقة في أديم السماء وهي زرقاء زرقتها الصافية والنجوم تتلألأ في تلك الزرقة ومعلوم أن هذا المقصود لا يبقى إذا فرق التشبيه وأما الثاني فكقوله:

كأنما المريخ والمشتري
قدامه في شامخ الرفعة
منصرف بالليل عن دعوة
قد أسرجت قدامه الشمعة

فلو قلت كأن المريخ منصرف عن دعوة وتركت حديث المشتري والشمعة كان خلفاً من القول إذ التشبيه للمريخ حيث الحالة الحاصلة له من تقدم المشتري له فإذن لا يمكن إفراده بالذكر.

البحث السادس: في التشبيهات المتعددة المجتمعة. إنما يكون الأمر كذلك إذا كان التشبيه من أمور كثيرة لا يتقيّد بعضها بالبعض وحينئذ يكون التشبيهات مضموماً بعضها إلى بعض لأغراض كثيرة كل واحد منها قائم بنفسه ولهذا النوع خاصيتان الأولى أنه لا يجب فيها الترتيب فإنّك لو قلت زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء والبدر بهاء لم يجب عليك أن تحفظ في هذه التشبيهات نظاماً مخصوصاً، الثانية إذا سقط البعض فإنّه لا يتغيّر حال الباقي كقولهم: هو يصفو ويكدر ويحلو ويمرّ، ولو تركت ذكر للكدورة والمرارة لكان المعنى في تشبيه بالماء الصافي والعسل في الحلاوة باقياً.

البحث السابع: يجب مراعاة جهة التشبيه ولا يجوز تعديها وإلاّ وقع الخطأ مثاله ما قيل: النحو في الكلام كالملح في الطعام فإنّ جهة التشبيه هَهُنَا هي الإصلاح والمقصود أن الطعام كما لا يصلح إلا بالملح كذلك الكلام لا يصلح إلا بالنحو فأما ما ظنه بعضهم أن المقصود هو أن القليل من النحو مغن والكثير مفسد كما أن القليل من الملح مغن والكثير مفسد فهو ظن فاسد لأن النحو علم بمجموع قوانين مضبوطة يمتنع تطرق الزيادة والنقصان إلى جريانها في الكلام كقولك كان زيد قائماً فإنّه لا بدّ فيه من رفع الاسم ونصب الخبر فإن وجدا وجد النحو من غير زيادة ولا نقصان وإن لم يحصلا عدم النحو فلا زيادة ولا نقصان أيضاً.

البحث الثامن: في اكتساب وجه المشابهة، الطريق إليه تميّز ما به المشابهة عما به الإمتياز مثلاً من أراد تشبيه شيء بشيء في هيئة الحركة وجب أن يطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة المجردة عن الجسم وسائر ما فيه من الأعراض كما فعل ابن المعتز في قوله:

وكـــان الـــبـــرق مـــصـــحـــف قـــارٍ
فـــانـــطـــبـــاقـــا مـــرّة وانـــفـــتـــاحـــا

فلم ينظر في جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين من انبساط يعقبه انقباض ثم لما بحث عن أوصاف الحركات لينظر أيها أشبه بها أصاب ذلك فيما يفعله القارىء بأوراق المصحف من فتحها مرة وطبقها أُخرى ولم يكن حسن التشبيه لكونه جامعاً بين مختلفين بل لحصول الإتفاق بينهما من ذلك الوجه ولأجل اجتماع الأمرين أعني الإتفاق التام والإختلاف التام كان حسناً ومما يناسب ذلك في كونه جامعاً بين المختلفين محاولة الشاعر جعل الشيء سبباً لضده كقوله:

أعـتـقـنـي سـوء مـا صـنـعـت مـن الـرق
فـــيـــا بـــروزا عـــلـــى كـــبـــدي
فـصـرت عـبـداً لـلـسـوء فـيـك
ومـا أحـسـن سـوء قـبـلـي إلـى أحـد

الركن الثالث: في غرض التشبيه

إنّه إما أن يكون عائداً إلى المشبه، أو إلى المشبّه به أما الأول فقد يكون غرضه بيان الحكم المجهول وقد لا يكون أمّا الأول فإمّا أن يقصد بيان إمكانه عندما لا يكون بيناً فيحتاج إلى التشبيه لبيانه كقوله:

فـــإن تـــفـــق الأنـــام وأنـــت مـــنـــهـــم
فـــإنّ الـــمـــســـك بـــعـــض دم الـــغـــزال

فإنّ مقصوده أن يقول إنّ الممدوح فاق الأنام حتى لم يبق بينهم وبينه مشابهة بل صار أصلاً بنفسه ولما كان هذا في الظاهر كالممتنع إذ يبعد أن يتناهى إنسان في الفضائل إلى أن يخرج من نوعه احتج لدعواه بأن المسك وإن كان بعض دم الغزال في أصله فقد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى صار لا يعد دماً، وإما أن يقصد بيان مقداره كقولك للشيء الأسود إنه كحلك الغراب فإنّ المقصود من هذا التشبيه بيان مقدار السواد في الحلوكة لا إمكان وجوده، وأما الثاني وهو أن لا يكون غرضه بيان حكم مجهول فقد يكون غرضه أحد أمرين أحدهما نقل النفس من الغريب إلى القريب لأنّ ألْف النفس مع الحسيّات أتم من العقليات لتأخر كثير من العلوم العقلية عن الحسية. فإذا ذكرت المعنى العقلي الجبلي ثم عقّبه بالتمثيل الحسي، فقد نقلت النفس من الغريب إلى الغريب، الثاني أن يقصد المباعدة بين المتشابهين لأنّ التشابه حينئذ يكون أغرب فيكون إعجاب النفس بذلك التشبيه أكثر لأن شغف النفس بالغريب الذي لم يعهد أكثر من المألوف المعتاد، وأما الأغراض العائدة إلى المشبّه به فقد يقصد المادح على طريق التخيل أن يوهم في الشيء القاصر عن نظيره أنه زائد عليه ويشبه الزائد بذلك الناقص يقصد به إعلاء شأن ذلك الناقص أي هو بالغ إلى حيث صار أصلاً للشيء الكامل في ذلك الأمر كقوله:

وبـــدا الـــصـــبـــاح كـــأنّ غـــرتـــه
وجـــه الـــخـــلـــيـــفـــة حـــيـــن يـــمـــتـــدح

ألا ترى أنه جعل وجه الخليفة أعرف وأتم وأشهر في النور والضياء من الصباح حتى شبّه الصباح به، وقد يقصد الذام عكس ذلك.

الركن الرابع: في التشبيه نفسه وفيه أبحاث:

البحث الأول: التشبيه ليس من المجاز لأنه معنى من المعاني وله حروف وألفاظ مخصوصة كالكاف وكأنّ ونحو ومثل تدلّ عليه وضعاً فإذا صرح بالألفاظ الدالّة عليه كان حقيقة فإذا قلت زيد كالأسد لم يكن نقلاً للفظ عن موضوعه الأصلي فلا يكون مجازاً.

البحث الثاني: في التشبيه الذي يصح عكسه والذي لا يصح، قد يكون الغرض من التشبيه إلحاق الناقص بالزائد مبالغة في إثبات الحكم للناقص كما إذا شبّهت شيئاً أسوداً بخافية الغراب أو وجهاً حسن البياض والصورة بالبدر والشمس ومثل هذا يمتنع العكس فيه لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة الأُولى وقد يكون المقصود الجمع بين الشيئين، في مطلق الصورة أو الشكل واللون كتشبيه الصبح بغرة الفرس، لا لأجل المبالغة في الضياء بل لأجل ظهور بياض في سواد مع كون البياض قليلاً بالإضافة إلى السواد والعكس حينئذ جائز كما لو شبهت غرّة الفرس بالصبح.

البحث الثالث: في التشبيه الواقع في الهيئات، إنّه

قد يقع في الهيئات التي يقع عليها الحركات، وقد يقع في الهيئات التي يقع عليها السكنات أمّا الأول فعلى وجهين أحدهما أن يقرن الحركة بغيرها من الأوصاف والشكل واللون كقول ابن المعتز: والشمس كالمرآة في كفّ الأشل، أراد أن لها من الإستدارة والإشراق الحركة التي تراها إذا أمعنت التأمل وذلك أنّ للشمس حركة دائمة متصلة ولنورها بسبب ذلك تموّج ولا يحصل هذا التشبيه إلا أن تكون المرآة في كفّ الأشل لدوام حركته فيتموج بسببه نور المرآة وتلك حال الشمس، وثانيها أن يكون التشبيه في هيئة الحركة مجردة من كل وصف يقارنها مثال قول الأعشى يصف السفينة وتلعب الأمواج بها:

نقص السفين بجانبيه
كما ينزو الرباح خلاله الكرع

والربّاح القرد في لغة أهل اليمن واصله بتشديد الباء فخفّفه وقيل أراد الربح وهو الفصيل فأشبع فتحة الباء فحدثت الألف والكرع ماء السماء، يكرع فيه شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات القرد إذا نزا في الماء فإنه يكون له حركات مختلفة في جهات مختلفة ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وهو أشبه شيء بحركات السفينة حين يتدافعها الموج، وأمّا التشبيه الواقع في الهيئات التي يقع عليها السكنات فكقول الأخطل في صفة المصلوب.

كأنه عاشق قد مدّ صفحته
يوم الوداع إلى توديع مرتجل
أو قائم من نعاس فيه لوثته
مواصل لتمطيه من الكسل

فلطفه بسبب ما فيه من التفاصيل ولو قال كأنّه متمط من نعاس واقتصر عليه لكان قريب التناول لأنّ هذا القدر من التشبيه يحصل في نفس الرائي للمصلوب لكونه من باب الجملة، وأمّا على التفصيل الذي قيّد به استدامة تلك الهيئة فلا يحصل إلا مع التأمل لحاجته إلى أن ينظر إلى أحوال المتمطي من مدّ ظهره ويده ويزيد على ذلك النظر إلى استدامته لذلك وإلى علته وهي قيام اللوثة والكسل في القائم من النعاس وهذا أصل فيما يراد به التفصيل وهو أن يثبت في الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب علّته.

البحث الرابع في مراتب التشبيه في الخفاء والظهور: التشبيه قد يكون التخيل الذي لا وجود له في الأعيان كتشبيه الشقائق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد، وقد يكون بماله وجوده في الأعيان وحينئذ فالهيئة المغيّرة في ذلك إما أن توجد قليلاً أو كثيراً بيانه أنّك إذا قايست بين قوله:

وكأنّ أجرام النجوم لوامعا
درر نشرن على بساط أزرق

وبين قول ذي الرمة كأنها فضة قد مسّها ذهب. عرفت أن الأول أغرب من الثاني لأنّ الهيئة الأولى وهي وجود درر منثور على بساط أزرق أقل وقوعاً من فضة أجرى عليها الذهب؛ وكلما كان الشيء عن الوقوع أبعد كان أغرب فكان التشبيه به ألذ وأعجب.

البحث الخامس في التمثيل والمثل: قد خصّ التشبيه المنتزع من اجتماع أمور يتقيّد بعضها بالبعض باسم التمثيل وقد يكون ذلك على وجه الإستعارة كقولك للمتردد في الأمر أراك تقدم رِجلاً وتؤخّر أُخرى تريد أنك في تردّدك كمن يقدم رِجلاً ويؤخر أُخرى وقد لا يكون كما إذا أبرزت ألفاظ التشبيه كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [الجُمُعَة: ٥]، وأما المثل فهو تشبيه سائر أي يكثر استعماله على معنى أن الثاني بمنزلة الأول والأمثال كلها حكايات لا تغيّر لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعيّنة إنّها بمنزلة ما يقال فيه هذا القول كقولك لمن لم يسمع رأيك لا يطاع لقصير أمر. ألا ترى أنك تقول ذلك بالألفاظ التي قالها مُنشىء هذا المثل ولو غيّرت هذه الألفاظ لم يسم مثلاً.

الفصل الرابع: في الإستعارة وفيه ثلاثة أركان:

الركن الأول في حقيقتها وأحكامها وفيه أبحاث:

البحث الأول: أجود ما قيل في حدّ الإستعارة إنها استعمال اللفظ في غير ما اصطلح عليه في أصل المواضعة التي بها التخاطب لأجل المبالغة في التشبيه، وبالقيد الأول احترزنا عن الحقائق الثلاث اللغوية والعرفيّة والشرعيّة وبقولنا لأجل المبالغة في التشبيه عن

سائر وجوه المجاز، واعلم أن المستعار وإن كان صفة للفظ إلا أنه صفة للمعنى أولاً فإنّ المعنى أولاً يعار ثم بواسطته يعار اللفظ. بيانه من وجهين أحدهما أنه حيث لا يكون نقل الاسم تبعاً لنقل المعنى تقديراً لم يكن ذلك استعارة كالأعلام المنقولة فإنّك إذا سميت إنساناً بيزيد أو يشكر فإنّه لا يقال لهذه الألفاظ مستعارة إذا لم يكن نقلها تبعاً لنقل معانيها تقديراً، الثاني أنّ العقلاء يجزمون بأن الإستعارة أبلغ من الحقيقة فإن لم يكن نقل الاسم تبعاً لنقل المعنى لم يكن فيه مبالغة إذ لا مبالغة في إطلاق الاسم المجرد عارياً عن معناه.

البحث الثاني الفرق بين الإستعارة والتشبيه: إن التشبيه حكم إضافي يستدعي مضافين وليس الإستعارة كذلك فإنّك إذا قلت رأيت أسداً لم يذكر شيئاً آخر حتى تشبه بالأسد فلم يكن ذلك تشبهاً بل أُعطي المعنى لفظاً ليس له لأجل المشابهة بينه وبين معناه الأصلي وما هو لأجل شيء آخر لا يكون نفس ذلك الشيء، واعلم أنه متى قويت المشابهة بين الشيئين كان التصريح بالتشبيه قبيحاً وذلك لقرب الشبه من حقيقة المشبّه به مثاله إطلاق لفظ النور على العلم والإيمان والظلم على الكفر والجهل فلا يحسن هَهُنَا لقوّة المشابهة أن يقول العلم كالنور وبالجملة فالإستعارة إنّما تحسن حيث يكون التشبيه متقرراً بين الناس ظاهراً فأمّا إذا خفي واحتاج إلى كلفة فلا بدّ من التصريح فإنك لو قلت في قوله ﷺ: مثل المؤمن كمثل النخلة رأيت نخلة وأردت المؤمن كنت كما قال سيبويه ملغزاً تاركاً لكلام العرب.

البحث الثالث: في ترشيح الإستعارة وتجريدها، أما ترشيح الإستعارة فأن تراعي جانب المستعار وتوليه ما يستدعيه وتضم إليه ما يقتضيه كقول كثير: رمتني بسهم ريشة الكحل لم يضر، فاستعار الرمي للنظر وراعى ما يستدعيه فأردفه بلفظ السهم، وقول امرء القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه
أو أردف إعجاز أو ناء بكلكل

لما جعل الليل صلباً قد تمطى به أردفه بما يقتضيه من الإعجاز والكلكل، وأمّا تجريدها فأن يراعي جانب المستعار له كقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] وكقول زهير: لدي أسد شاكي السلاح مقذّف. لو نظر إلى المستعار هَهُنَا لقيل فكساهم لباس الجوع، ولقال زهير لدى أسد في المخالب والبرائن.

البحث الرابع في الإستعارة بالكناية وتنزيلها منزلة الحقيقة: وأمّا الإستعارة بالكناية فهو أن يذكر بعض لوازم المستعار للتنبيه عليه دون التصريح بذكره كقول أبي ذويب: وإذا المنية أنشبت أظفارها. فكأنه حاول استعارة السبع للمنية لكنه لم يصرح بها بل ذكر بعض لوازمها تنبيهاً لها على المقصود؛ وأما تنزيلها منزلة الحقيقة فاعلم أنهم قد يستعيرون الوصف للشيء المعقول ويجعلون ذلك كالثابت لذلك الشيء في الحقيقة وكأنّ الحقيقة لم توجد وذلك كإستعارة العلو لزيادة الرجل على غيره في الفضل ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً مكانياً كقول أبي تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول
بأنّ له حاجة في السماء

فقصد هَهُنَا أن ينسى التشبيه ويرفعه رأساً ويجعل الممدوح صاعداً في السماء صعوداً مكانياً وهكذا إذا استعاروا اسم الشيء لغيره من نحو بدر أو أسد فإنّهم يبلغونه إلى حيث يعتقد أن ليس هناك استعارة كقوله:

قامت تظلّلني ومن عجب
شمس تظلّلني من الشمس

فلولا أنه أنسى نفسه أنّ هَهُنَا إستعارة لما كان لهذا التعجب معنى ومدار أكثر هذا النوع على التعجب وقد يجيء على عكس مذهب التعجب كقوله:

لا تعجبوا من بلى غلالته
قد زرّ أزراره على القمر

فقد ذكر كما ترى شيئاً هو من خاصة القمر فهو ينهاهم عن التعجب من بلي الكتان بسرعة ويقول إنّه قد زرّ على القمر ومن شأن القمر ذلك وهذا إنّما يتم بالجزم بكونه قمراً لأنه لو اعترف بأنه ليس بقمر وإنّما يشبه القمر لبطل كلامه.

البحث الخامس في شرط حسن الإستعارة: واعلم أنّ الإستعارة إنّما تحسن بالمبالغة في التشبيه مع الإيجاز كقوله: أيا من رمى قلبي بسهم فأنفذ. لا كقول أبي تمام:

لا تسقني ماء الملام فإنّني
صبّ قد استعذبت ماء بكائي

فإنّ قوله ماء الملام ليس فيه لذاذة ولو أتى بالحقيقة فقال لا تلمني لكان أوجز. وقد تكون الإستعارة عاميّة كقولك رأيت أسداً أو وردت بحراً وقد يكون خاصية كقوله سالت بأعناق المطي الأباطح، شبّه سيرها الحثيث وغاية سرعته في لين وسلاسة بسبيل وقع في الأباطح فجرت به.

الركن الثاني في أقسام الإستعارة وفيه أبحاث:

البحث الأول في الإستعارة: قد تعتمد نفس التشبيه كما إذا اشترك شيئان في وصف هو في أحدهما أزيد فتعطي الناقص اسم الزائد كقولك رأيت أسداً وتريد رجلاً شجاعاً وعنّت لنا ظبية وتريد امرأة وقد تعتمد لوازم التشبيه وهو إذا كانت جهة الإشتراك إنما يثبت كمالها في المستعار منه بواسطة أمر آخر فيثبت ذلك الأمر للمستعار له مبالغة في إثبات المشترك كقوله: إذ أصبحت بيد الشمال زمامها، فالشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالحيوان المنصرف إلا أنّ تصرف الحيوان لما كان من أكثر الأحوال باليد كانت اليد كالآلة التي يكمل بها التصريف، ولما كان الغرض هَهُنَا بإثبات التصرف وهو لا يكمل إلا بثبوت اليد لاجزم أثبت للريح يداً تحقيقاً للغرض وكذلك قوله:

إذا هزّة في عظم قرن تهلّلت
نواجذ أفواه المنايا الضواحك

لما شبّه المنايا عقد هزة السيف بالمسرور كمال الفرح إنّما يظهر بالضحك الذي تتهلّل فيه النواجذ أثبت الضحك مع تهلّل النواجذ تحقيقاً للوصف المقصود.

البحث الثاني: واعلم أنّ القسم الأول على أربعة أقسام، أحدها أن يستعار لفظ المحسوس للمحسوس وحينئذ فالإشتراك بينهما إما في الذوات دون الصفات أو بالعكس فالأول. كحقيقة تفاوتت آحادها في الفضيلة والنقص والقوة والضعف فيستعار لفظ الأكمل في ذلك النوع للأنقص كاستعارة الطيران للعدو بسرعة فيقال للعدو سريع الطيران إذ الطيران والعدو يشتركان في الحقيقة وهي الحركة المكانية ويختلفان في القوة والضعف، وأما الثاني فكقولهم: رأيت شمساً ويريد إنساناً يتهلل وجهه فهيهنا الإنسان مخالف للشمس في الحقيقة مشارك لها في الوصف، وكقول علي عليه السلام في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: اختاره من شجرة الأنبياء. فإنّ الشجرة وأصل النبوة يختلفان بالحقيقة لكنهما يشتركان في أن كل واحد منهما أصل يتفرع عليه الفروع، وثانيها استعارة لفظ المعقول للمعقول وهو أيضاً إنّما يكون في أمرين يشتركان في وصف أحدهما به أولى وهو فيه أكمل فينزل الناقص منزلة الكامل ثمّ إنّ المشتركين قد يكونان متعاندين إما تعاند النقيضين وهو كإستعارة المعدوم للموجود عندما لا يكون في ذلك الموجود فائدة. فيشارك المعدوم في عدم الفائدة فيستعار لفظه له أو كإستعارة الموجود للمعدوم عندما يكون للمعدوم آثار باقية يشارك بها الموجود إلا أن الموجود بمثلها أولى فيستعار لفظه له، وأما تعاند الضدين حقيقة كان أو ظاهراً وهو كتشبيه الجاهل بالميت لأنّ الموت والحياة للجاهل اشتراكاً في عدم الفائدة المطلوبة منه وهي الإدراك والعقل إلا أن الموت بها أولى فيستعار لفظه لها، ومنه قول علي عليه السلام الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وقد لا يكونان متعاندين وهو كما يشترك موجودان في وصف معقول إلا أن أحدهما أولى به فينزل الناقص بمنزلة الزائد كقولهم فلان لقي الموت إذا لقي شيئاً من الشدائد لاشتراك الموت والشدائد في المكروهية لكن الموت أولى بها فينزل الشدائد منزلة الموت فيستعار لفظ الموت لها، وثالثها استعارة لفظ المحسوس للمعقول وهو كإستعارة لفظ النور المحسوس للحجة الواضحة واستعارة لفظ القسطاس المحسوس للعدل، ومنه قوله عليه السلام في مدح القرآن: وإنّه حبل الله المتين وفيه ربيع القلب وينابيع العلم فاستعار لفظ الحبل والربيع والينابيع لمعاني القرآن، ورابعها استعارة لفظ المعقول

للمحسوس وهو أن يجعل المعقول أصلاً في التشبيه ويبالغ في تشبيه المحسوس به كقوله: فمنظرها شفاءً من سقام ومخبرها حياة من حمام فإنّ الموضع المنظور إليه منهما لما شارك الشفاء في الإلتذاذ الحاصل عنهما وكان الشفاء أولى بذلك بالغ في تشبيه المنظر به فأعاره اسمه وكذلك المخبر وهو محل الإخبار وهو إما أقوالها وأفعالها المحسوسة أو شيء آخر لما شارك الحياة في الإلتذاذ الحاصل عنهما وكانت الحياة أولى به من المخبر بالغ في تشبيه المخبر بها فاستعار له لفظها.

الفصل الخامس في الكناية وفيه بحثان:

البحث الأول في حقيقتها: أما حقيقتها فاعلم أن اللفظة إذا أطلقت وأريد بها غير معناها فإمّا أن يراد بها مع ذلك معناها أو لا يراد، والأول هو الكناية كقولك فلان طويل النجاد كثير رماد القدر فقولنا طويل ليس الغرض الأصلي به معناه بل ما يلزمه من طول القامة وكذلك المثال الآخر فإنّ المقصود منه ما يلزمه من إطعام الخلق والتكرّم عليهم فهذه هي الكناية في المفرد، وأما في المركب فهي أن يحاول إثبات معنى من المعاني لشيء فيترك لتصريح بإثباته له ويثبته لمتعلّقه كقوله:

إنّ المروّة والسماحة والندى

في قبّة ضربت على ابن الحشرج

لما أراد إثبات هذه المعاني للممدوح لم يصرح بها بل عدل إلى ما ترى من الكناية فجعلها في قبّة ضربت عليه، ومنه قولهم المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه، ومثاله في جانب النفي قول من يصف امرأةً بالعفة.

تبيت بمنجاة من اللوم بيتها

إذا ما بيوت بالملامة حلّت

فتوصّل إلى نفي اللوم عنها بأن نفاه عن بيتها.

البحث الثاني في الفرق بينها وبين المجاز: الفرق بينهما أن الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود وإذا أفدت المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبراً فلم تكن قد نقلت اللفظة عن موضوعها فليست مجازاً مثاله إنّك إذا قلت فلان كثير الرماد فأنت تريد أن تجعل كثرة الرماد دليلاً على جوده فقد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصليّة وقصدت بكونه كثير الرماد معنى ثانياً يلزم الأول وهو الجواد بخلاف المجاز فإنّك تنقل اللفظة عن معناها الأصلي. وبالله التوفيق.

الجملة الثانية في النظم وفيها فصول:

الفصل الأول: في حقيقته: إنّه وضع الكلام على النهج الذي يقتضيه علم النحو والعمل فيه بقوانيه وأصوله بيانه أنّك تنظر في وجوه كل باب وفروقه فتنظر في الخبر مثلاً إلى الفرق بين ما إذا كان الخبر المبتدأ اسماً مشتقاً أو صريحاً أو فعلاً ماضياً أو مستقبلاً، وبين إدخال الألف واللام عليه أو عدمها، والفصل بالضمير وعدمه، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي مختلف بحسب اختلاف كون الجملتين فعليّتين أو إحديهما فعليّة والأخرى اسميّة، وإن كانتا فعليّتين فتنظر الفرق بين ما إذا كان الفعلان ماضيين أو مستقبلين أو أحدهما ماضياً والآخر مستقبلاً، وفي الحال إذا كان اسماً أو فعلاً وفي الحروف المشتركة في معنى. أين يكون وضعها أليق نحو أن تجيء بما في نفي الحال أو الماضي وبلا في نفي الإستقبال وبإن فيما يتردّد بينهما وبإذا فيما علم أنه كائن، وأن تعرف مواضع الفصل والوصل ومواضع التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإضمار والإظهار فتضع كل شيء مكانه، واعلم أنه ليس إذا حسن التنكير مثلاً أو التعريف أو أحد هذه الأمور في موضع حسن في كل موضع بل إنّما يحسن بحسب الموضع الذي يقصد، وحاصل هذا التقرير أن النظم إنّما يحصل في كلمات تضمّ بعضها إلى البعض، وذلك النظم تعبّر فيه أحوال المفردات وأحوال انضمام بعضها إلى بعض فأمّا أحوال المفردات فإمّا أن يعتبر حال دلالة الألفاظ أو حال دلالة أحوالها وحركاتها وسكناتها فهذه هي أقسام الإعتبار والنظم الكامل إنّما يحصل إذا اختير من هذه الأمور الثلاثة في كل موضع ما هو الأليق به.

الفصل الثاني: في أقسام النظم:

إنّ الجمل الكثيرة إذا نظمت نظماً واحداً فإمّا أن تتعلق بعضها بالبعض أو ليس فإن كان الثاني لم يحتج

ذلك النظم إلى فكر في استخراجه مثاله قول علي عليه السلام: لا مال أعود من العقل ولا داء أعيى من الجهل، ولا عقل كالتدبير ولا كرم كالتقوى، وإن كان الثاني فكلما كانت أجزاء الكلام أشد ارتباطاً كان أدخل في الفصاحة وليس له قانون يحفظ لمجيئه على وجوه شتى، ولنذكر بعض ما يعتبر منها وهو عشرون وجهاً.

الوجه الأول المطابقة: وهي الجمع بين المتضادين في الكلام مع مراعاة التقابل حتى لا يضمّ الاسم إلى الفعل كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾[التوبة: ٨٢] وقوله: ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾[الرعد: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾[آل عمران: ٢٦].

الوجه الثاني المقابلة: وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين وبين ضديهما ثمّ إذا شرطتهما بشرط وجب أن تشترط ضديهما بضدّ ذلك الشرط كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۞ ﴾[الليل: ٥-١٠] فلما جعل التيسر مشتركاً بين الإعطاء والإتقاء والتصديق جعل ضده وهو التعسير مشتركاً بين أضداد تلك الأمور وهي المنع والإستغناء والتكذيب.

الوجه الثالث المزاوجة: بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى
أصاخت إلى الواشي فلجَّ بها الهجر

الوجه الرابع الإعتراض: وهو أن يدرج في الكلام ما يتم به الغرض دونه كقوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ ﴾[الواقعة: ٧٥-٧٦] وقول علي عليه السلام: أما بعد فإن الله خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم.

الوجه الخامس الإلتفات: وهو العدول عن مساق الكلام إلى مساق آخر غير مناف للأوّل في المعنى بل متمم له على جهة الميل أو غيره كالعدول عن الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ﴾[الفاتحة: ٤-٥] وبالعكس كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[يونس: ٢٢] وقول علي عليه السلام: وبنا انفجرتم عن السرار وقر سمع لم يفقه الواعية.

الوجه السادس الإقتباس: وهو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزييناً لنظامه كقول ابن شمعون في وعظه: اصبروا عن المحرمات وصابروا على المفترضات ورابطوا بالمراقبات واتقوا الله في الخلوات يرفع لكم الدرجات.

الوجه السابع التمليح: وهو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر وشعر نادر كقول علي عليه السلام في خطبة الشقشقية:

شتّان ما يومي على كورها
ويوم حيّان أخي جابر

الوجه الثامن إرسال المثلين: وهو الجمع بين المثلين كقوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكلّ نعيم لا محالة زائل

الوجه التاسع اللفّ والنشر: وهو أن تلفّ شيئين وتورد تفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يميّز ما لكل منهما كقوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾[القصص: ٧٣]. ويقرب منه أن تذكر لفظاً يتوهم أنه يحتاج إلى البيان فتقصده مع تفسيره كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ﴾[هود: ١٠٥-١٠٦] الآية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ ﴾[هود: ١٠٨].

الوجه العاشر التعديد: وهو إيقاع الأعداد من الأسماء المفردة في النظم والنثر على مساق واحد فإن روعي فيه ازدواج أو تجنيس أو مطابقة أو مقابلة حسن جداً مثاله من النثر قولهم فلان إليه الحل والعقد والقبول والرّد والأمر والنهي والإثبات والنفي، ومن النظم قول المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

الوجه الحادي عشر تنسيق الصفات: كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] الآية. وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] الآية، والتنسيق في أوائل الخطب كثير.

الوجه الثاني عشر الإبهام: وهو أن يكون للفظ ظهر وتأويل فيسبق إلى فهم السامع الظاهر مع أن المراد هو التأويل كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

الوجه الثالث عشر مراعاة النظير: وهو جمع الأمور المناسبة المتوازنة كقول علي عليه السلام: الحمد لله غير مقنوط من رحمته ولا مخلو من نعمته ولا مأيوس من مغفرته.

الوجه الرابع عشر المدح الموجه: وهو أن يمدح بشيء يقتضي المدح بشيء آخر كقول المتنبي.

نهبت من الأعمار ما لو حويته

لهنئت الدنيا بأنك خالد

فأوله مدح بالشجاعة وآخره مدح بعلوّ الدرجة.

الوجه الخامس عشر المحتمل للضدين: وهو أن يكون الكلام محتملاً للمدح والذم على السواء كمن قال لرجل أعور: ليت عينيه سواء.

الوجه السادس عشر تجاهل العارف: كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وكقول المتنبي: أريقك أم ماء الغمامة أم خمر.

الوجه السابع عشر السؤال والجواب: كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

الوجه الثامن عشر الحذف: وهو أن يتكلّف حذف حرف من حروف المعجم كما حذف علي عليه السلام الألف في خطبة المسماة بالموقصة.

التاسع عشر التعجب: كقوله فيا خجل المقصرين من التوبيخ في محفل القيامة! ويا حسرة الظالمين إذا عاينوا أهل السلامة!.

العشرون: الإغراق في الصفة كقول امرء القيس:

من القاصرات الطرف لو دبّ محوّل

من الذر فوق الأتب منها لآثر

وقول المتنبي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل

لولا مخاطبتي إيّاك لم ترني

الحادي والعشرون في حسن التعليل: وهو أن يذكر وصفان أحدهما علّة للآخر والغرض منهما ذكرهما جميعاً كقول علي عليه السلام في ذم الدنيا: هانت على ربّها فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرها، وكقوله:

فإن غادر الغدران في صحن وجنتي

فلا غرو منه لم يزل كان قادراً

واعلم أن وجوه النظم كثيرة ولما كانت كثيرة منها قلما يوجد في كلام المطبوعين من المتقدمين وإنما هي صناعات تكلّفها المحدثون لا جرم ذكرنا ما كان غالباً في القرآن الكريم والكلمات النبوية وكلام علي عليه السلام والمطبوعين على الكلام من سائر الفصحاء. وما أحدثه المتأخرون وإن كان لا ينخرط في سلك الأولين إلا أنه يدل على ذكاء مبتدعه وفطنة مخترعه وبالله التوفيق.

الفصل الثالث في التقديم والتأخير وفيه أبحاث:

البحث الأول في فائدتهما: إذا قام اللفظ على غيره فإمّا أن يكون في النيّة مؤخراً كخبر المبتدأ إذا قدم عليه والمفعول على الفاعل، وإمّا أن لا يكون على نيّة التأخير ولكن على أن ينقل الشيء من حكم إلى حكم آخر مثاله أن تذكر اسمين كل واحد منهما يصلح أن يكون مبتدأ والآخر خبراً فتقدم هذا تارة وذاك أخرى كقولك زيد المنطلق وعكسه. قال سيبويه عندما يذكر الفاعل والمفعول: كأنّهم يقدمون الذي بيانه أهمّ وهم ببيانه أعنى، وإن كانا معاً يهمانهم مثاله إذا أرادوا الإخبار عن قتل شخص خارجي لا من حيث هو شخص معين قالوا قتل الخارجي زيد، وإذا صدر عن بعض الفضلاء قبيحة وأرادوا الإخبار عن ذلك قدّموا اسمه على فعله لأن ذكره أولاً ثم نسبة الفعل عليه أوقع في

النفوس من العكس فكان عند المخبر أهم. ولتذكر ما يهمُّ تقديمه وما لا يهم في الإستفهام والخبر والنفي.

البحث الثاني في التقديم والتأخير في الإستفهام: المذكور عقيب حرف الإستفهام إما الفعل أو الاسم فإن كان الأول كان هو المشكوك في وجوده والمسؤول عن معرفته مثاله قولك أبَنى زيدٌ داره؟ فإن السؤال واقع عن وجود البناء والشك في وجوده، وإن كان الثاني فالسؤال واقع عن تعيين الفاعل كقولك أنت بنيت هذه الدار، ثم الإستفهام قد يجيء للإنكار تارة وللتقرير أخرى والحال فيهما ما ذكرناه أمّا الإنكار فكقوله تعالى:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠] ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصّافات: ١٥٣] والإنكار هَهُنَا للفعل فإذا قدّم الاسم كان الإنكار للفاعل كقولك لمن انتحل شعراً أأنت قلت هذا الشعر، وأما التقرير فكقوله تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١] ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]. فإن المقصود تقرير الخرق والقتل عليه تمهيداً لتوجيه اللوم إليه، وأما تقديم الاسم فكقولك أأنت الذي قتلت زيداً؟ فإنّه سؤال على سبيل التقرير لتعيينه للقتل، واعلم أن حال المفعول فيما ذكرنا كحال الفاعل فإذا قدمت المفعول توجه الإنكار إلى كونه بمثابة أن يوقع به مثل هذا الفعل ولذلك قدّم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤] وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠] وقوله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤].

البحث الثالث في التقديم والتأخير في حرف النفي: إذا أدخلته على الفعل كقولك ما ضربت زيداً كنت قد نفيت فعلاً لم يثبت أنه فعل لأنّ نفيك لضرب زيد عن نفسك لا يقتضي وقوع الضرب به ولا نفيه عنه لأنّ نفي الخاص لا يدل على نفي العام ولا على ثبوته، وإذا أدخلته على الاسم كقولك ما أنا ضربت زيداً فهم من ذلك أنه وقع به الضرب وكان القصد نفي كونك أنت الضارب، والشاهد بهذه الفروق هو الذوق السليم.

البحث الرابع في التقديم والتأخير في الخبر المثبت والمنفي: هو كالتقديم والتأخير في الإستفهام فإنّك إذا قدمت الاسم فقلت زيد قد فعل اقتضى أن يكون القصد إلى الفاعل إما لتخصيص الفعل به كقولك أنا كتبت في معنى هذا الأمر تريد أنك اختصصت بذلك دون غيرك، وإمّا لأجل تقديم ذكر المحدث عنه آكد لإثبات ذلك الفعل له كقولهم فلان يعطي الجزيل فلا يقصد الحصر بل أن يتحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه؛ وبيان ذلك أنك لما ذكرت الاسم المحدث عنه والاسم لا يعرى عن العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه فإذا قلت عبدالله فقد استشعرت بأنك تريد الحديث عنه فيحصل شوق إلى معرفة ذلك فإذا أفدته ذلك قبله الذهن قبول العاشق لمعشوقه فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة، وإن قدمت الفعل اقتضى أن يكون القصد إلى ذكر الفعل كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإن القصد هَهُنَا إلى ذكر القضاء ونسبته إلى الله تعالى، ويقرب من ذلك حكم المنفي كقولك أنت لا تحسن هذا الفعل، أو لا تحسن أنت هذا الفعل.

البحث الخامس في تقديم حرف السلب على العموم وتأخره عنه: أما الأول فإذا قدمت حرف السلب على صيغة العموم فقلت ما أفعل كل كذا كان سلباً للعموم وذلك لا يناقضه الإثبات الخاص حتى لو قلت وافعل بعضه لم يكن تناقضاً أما إذا قدمت صيغة العموم على السلب فقلت كل كذا ما أفعله فهم منه عموم السلب وحينئذ يناقضه قولك وأفعل بعضه في العرف، وعلى هذا يظهر الفرق بين الرفع والنصب في قول أبي النجم:

قد أصبحت أم الخيار تدعي
علـيّ ذنبـاً كلـه لـم أصنـع

فإن نصب كلّ يقتضي سلب العموم
ورفعه يقتضي عموم السلب

البحث السادس في استيفاء أقسام التقديم والتأخير: واعلم أنه قد يختلف حال الكلام في التقديم والتأخير اختلافاً كثيراً وقد يدق الفرق بين تقديم الكلمة وتأخيرها كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] فبتقديم شركاء يفهم أنه ما ينبغي أن يكون له شريك لا من الجن ولا من غيرهم. والذم إنّما توجه إليهم لإثباتهم شركاء أما لو قدم الجن لم يفهم إلا أنهم عبدوا الجن، وأما إنكار المعبود الثاني فغير مفهوم منه ويكون الذمّ

إنما توجه عليهم لعبادة الجن دون غيرهم، فينبغي أن تلمح الفروق في تقديم بعض الكلام على بعض وتأخيره، ولنذكر مواضع حسن التقديم والتأخير أما التقديم ففي مواضع عشرة.

الأول: أن تكون الحاجة إلى ذكره أتم والعلم به أهمّ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. فإن تقديم الشركاء أولى لأجل أن المقصود التوبيخ على جعل مطلق الشريك بخلاف ما لو أخر.

الثاني: أن يكون التأخير أليق بإتصال الكلام كقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فهذا أليق بما قبله وبما بعده من تأخير المفعول.

الثالث: أن يكون الأول أعرف من الثاني كتقديم المبتدأ على الخبر والموصوف على الصفة فينبغي أن تبتدىء في قولك زيد قائم بزيد لتتوصل النفس بذكر ما يعرف إلى الإخبار عنه بما لا يعرف فتقع الفائدة حينئذ على حدها وفي مرتبتها قال الإمام: ولا ينتقض هذا بتقديم الفعل لأنّ الفعل لفظ دال على ثبوت معنى لموضوع غير معيّن في زمان معيّن من الثلاثة والإسناد كالجزء الذاتي لمفهوم الفعل والإسناد أمر إضافي، والعقل إذا حصل له الشعور بالإضافة فلو توقف هناك ولم ينتقل إلى ما إليه الإسناد كانت الإضافة مستقلة بالمفهومية وهو محال، وإن انتقل إلى ما أُسند إليه الفعل فذلك الشيء هو الفاعل فإذن من ضرورة الإسناد فهم المسند إليه وإذا أوجب هذا الترتيب في الذهن وجب أيضاً في الألفاظ لمطابقة ما في الذهن لما في الخارج، وأقول: قد سبق أن الفعل إذا قدم في الإخبار كان لأجل أن ذكره أهمّ لأن المقصود من ذكر الجملة الفعلية لا ذات الفاعل بل ذكر الحدث المخصوص في الزمان المعيّن ونسبته على الفاعل وإذا كان كذلك جاز أن يقال: إنّ تقديم الأعرف يكون واجباً وإذا كانت الكلمتان متساويتين في الإهتمام بذكرهما وأما إذا كان ذكر أحدهما أهم كان تقديمه أولى.

الرابع: تقديم الحروف التي لها صدر الكلام كحروف الإستفهام والنفي والنهي قال الإمام: تحقيقه أن الإستفهام طلب فهم الشيء وهو حالة إضافية إذا أدركها العقل انتقل منها إلى معروضها وإذا أوجب أن يتقل منها إلى معروضها وجب أن يكون في اللفظ كذلك فيقدم ما يدل على الإضافة فيلحق بما يدل على معروضها، وأقول: يمكن أيضاً أن يكون تقديم هذه الحروف من باب ما كان أهم وذلك أن الإستفهام والنفي والنهي معان معقولة وهي المطلوبة من الجملة الداخلة عليها بالذات فكانت أهم فكانت أولى بتقديم الذكر وكذلك الأدوات الدالة على أحوال النسب بين أجزاء الكلام كأن وأخواتها، وكان وأخواتها، وعسى وبابها، ونعم وبئس فإنّها تقدم لأن معانيها هي المقصودة بالقصد الأول من الجمل الداخلة عليها.

الخامس: تقديم الكلي على جزئياته لأنّ الكلي أعرف عند العقل وتقديم الأعرف أولى.

السادس: تقديم الدليل على المدلول.

السابع: تقديم الناقص على تمامه كتقديم الموصول على الصلة، والمضاف على المضاف إليه لأن تمام الشيء لا يتقدم عليه.

الثامن: تقديم الأسماء المتبوعة على توابعها لأن التابع لا يتقدم متبوعه.

التاسع: تقديم المظهر على ضميره لأن الحاجة إلى الضمير إنّما هو لإلحاق أمر من الأمور بذي الضمير وذلك يتأخر عن تحقق ذي الضمير في العقل فيجب كذلك في الوضع كقولك ضرب زيد غلامه، وقضى زيد حاجته.

العاشر: تقديم الفاعل على المفعولات وما في حكمها لأنها أُمور تلحق الفاعل بالنسبة إلى فعله فكانت متأخرة عنه وإذا علمت من ذلك ما يجب تقديمه علمت من ذلك ما يجب تأخيره.

الفصل الرابع في الفصل والوصل: حاصل معرفة الفصل والوصل يعود إلى معرفة مواضع العطف والإستئناف والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف مواقعها، وهو باب عظيم عند البلغاء ولذلك جعله بعضهم حدّ البلاغة فقال: إذا سئل عن معناها أنها معرفة الفصل والوصل ما ذاك إلا لغموضه وكون معرفته مؤدية للمعاني كما هي، وذلك هو المقصود من علم البلاغة ولنحقق الكلام فيه في بحثين.

البحث الأول: فائدة العطف التشريك في الحكم بين المعطوف والمعطوف عليه فمن أدواته ما لا يفيد إلا هذا القدر كالواو، ومنها ما يدل على زيادة عليه كالفاً وثم فإنّهما يدلان على التعقيب وإن كانت ثم تختص بالتراخي ومثل أو فإنّها تدل على الترديد، فلنبحث عن مطلق الإشتراك فنقول: العطف إما أن يكون في المفردات وهو يقتضي التشريك في الإعراف، وإمّا في الجمل وحينئذ فالجملة إن كانت في قوة المفرد كقولك مررت برجل خلقه حسن وخلقه قبيح كانت الشركة في الإعراب أيضاً حاصلة لكون الجملتين وصفين للنكرة، وإن لم يكن فإمّا أن يكون إحدى الجملتين متعلقة لذاتها بالأخرى أو لا يكون فإن لم يكن فإمّا أن يكون بينهما مناسبة أو لا يكون فهذه اقسام ثلاثة.

أما الأول: فأن يكون إحدى الجملتين تأكيداً للأخرى كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾ [البقرة: ١-٢] فقوله لا ريب تأكيد للأول، ولا يجوز إدخال العاطف عليه لأنّ التأكيد يتعلّق بالمؤكد لذاته فيستغني عن لفظ يدل على التعلّق.

الثاني: أن لا يكون بينهما مناسبة أصلاً وهيهنا أيضاً يجب ترك العاطف لأنّ العطف يستلزم المناسبة فيلزم من عدمها عدمه.

الثالث: أن تصدق المناسبة بينهما مع عدم التعلق الذاتي فههنا يجب ذكر العاطف ثم إما أن يكون المخبر عنه في الجملتين شيئين أو شيئاً واحداً أما الأول فالمناسبة إما بين المخبر بهما فقط أو بين المخبر عنهما فقط أو بينهما معاً، والأول والثاني يختل معهما النظم لأنّك إذا قلت زيد طويل والخليفة قصير مع عدم تعلّق حديث زيد بحديث الخليفة اختلّ، وكذلك لو قلت زيد طويل وعمرو شاعر اختل أيضاً لعدم المناسبة بين طول القامة والشعر فتعيّن أن الواجب حصول المناسبتين، فأما إن كان المخبر عنه فيهما شيئاً واحداً كقولك فلان يضر وينفع ويأمر وينهى ونحوه تعيّن دخول العاطف لأنّك إذا قلت هو يضر وينفع أفاد العاطف أنه هو الجامع لهما بخلاف ما لو حذفته.

البحث الثاني في عطف الجمل على الجمل: إنّه كما يجوز أن يعطف جملة على جملة كذلك يجوز أن يعطف مجموع جمل على مجموع جمل أُخر؛ وبيان ذلك ظاهر في صورة الشرط والجزاء فإنّه قد يجعل مجموع جملتين شرطاً ومجموع أخريين جزاء كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ [النساء: ١١٥]. فإذا ظهر ذلك في الشرط والجزاء ظهر مثله في العطف كقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٥]. فقوله وما كنت ثاوياً عطف على قوله وما كنت من الشاهدين مع ما يتعلق بها إذا لو عطفتها على ما يليها لدخلت في حكم لكن فصار التقدير لكنك ما كنت ثاوياً وهو باطل، ولو عطفتها على وما كنت من الشاهدين دون ولكنّا أنشأنا لكان في ذلك إزالة لكن عن موضعها وهو غير جائز.

الفصل الخامس في الحذف والإضمار وفيه بحثان:

البحث الأول في حذف المفعول والمبتدأ والخبر: أما الأول فلأنّ الفعل المتعدي قد يكون المقصود من ذكره مجرد نسبته إلى الفاعل وحينئذ يكون حاله كحال غير المتعدي في عدم الحاجة إلى المفعول والتعرض له كقولك فلان يحلّ ويعقد ويأمر وينهى ويضرّ وينفع وقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الزُمَر: ٩] وقد يلاحظ مع ذلك في ذكره النسبة إلى المفعول إلا أن المفعول يحذف لأحد غرضين. أحدهما أن يكون المقصود ذكره لكن يحذف لإبهام التعظيم والتفخيم كقول البحتري:

شجو حسّاده وغيظ عداه
أن يرى مبصر ويسمع واع

فإنّ المرئي والمسموع لا بد وأن يكون شيئاً معيناً فحذفه، وأوهم بذلك أن كل ما يرى منه ويسمع عظيم وأنه فضيلة تشجو حساده، وتغيظ عداه، ومن هَهُنَا تحصل البلاغة ولو أبرز ذلك المفعول المعيّن لما حصل ذلك التعظيم الوهمي لتخصيص الذهن للتعظيم بالمفعول

المذكور دون ما عداه، وقد يكون ذكر المفعول أولى وأبلغ وذلك إن كان أمراً عظيماً بديعاً كقوله: ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته، لما كان بكاء الدم أمراً عجيباً كان ذكره أولى، الثاني أن يحذف للعلم به كقول علي عليه السلام إن أشنق لها خرم أي أنفها، وأن أسلس لها أي قيادها تقحم أي المهالك، الثالث أن يضمر على شريطة التفسير كقوله أكرمني وأكرمت عبدالله، وأما المبتدأ والخبر فقد ورد حذف كل واحد منهما تارة أما المبتدأ فكقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النّور: ١] وأما الخبر فقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محَمَّد: ٢١] وأمثاله كثير وقد حكم بحسن ذلك البلغاء قال عبد القاهر رحمه الله ما من اسم حذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وجدته أحسن من ذكره، وحسنها في المواضع التي يفهم عنها البلاغة.

البحث الثاني في الإيجاز وحده: التعبير عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال مثاله قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩] وقد كان المثل يضرب بقولهم: القتل أنفى للقتل إلى أن أوردت هذه الآية والترجيح للآية ظاهر من وجهين، أحدهما أنه أوجز فإنَّ حروفها عشرة وحروف المثل أربعة عشر، الثاني أنَّ القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً من حيث إنّه قتل بل من حيث إنه قصاص وهذه الجهة غير معتبرة في كلامهم ولها ترجيحات أُخر، لا نطول بذكرها، ومن ذلك قول علي عليه السلام: قيمة كل امرئ ما يحسنه، وقوله المرء عدوّ لما جهله، وقوله: الجزع أتعب من الصبر، وقوله: تخففوا تلحقوا.

الفصل الثالث في أحكام إنَّ وإنما وما في حكمها وفيه أبحاث:

البحث الأول في فوائد إنَّ، وهي أربع: الأولى أنها قد تربط إحدى الجملتين بالأخرى فيحصل النظم كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فَاطِر: ٥] وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحَج: ١] وقول علي عليه السلام أيها الناس إنّه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته، وقوله: عباد الله إنَّ من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فلو أسقطت إنَّ في هذه المواضع لزالت المناسبة التي كانت بين الجملتين معها، واعلم أنك متى أسقطت إنَّ من الجملة الثانية فإن كانت إنما ذكرت لتعليل الحكم في الجملة الأولى فلا بد أن يعوض منها الفاء كقوله: ﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، الفائدة الثانية: إنك تجد لدخولها على ضمير الشأن المعقب بالجملة الشرطية وغيرها من الحسن والمزية ما لم تجده عند عدمها كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يُوسُف: ٩٠] وقول علي عليه السلام أيها الناس إنّه لا يستغني الرجل كما ذكرناه.

الفائدة الثالثة: إنها تهيء النكرة لأن يحدث عنها كقوله عليه السلام: إنَّ من أحب عباد الله إلى الله عبداً كما مرَّ ولو أسقطتها لسقطت الحسن والبلاغة وقد يسقط المعنى أصلاً كما لو أسقطتها من قول الشاعر: إنّ شواء ونشوة وخبب البازل الأمون.

الفائدة الرابعة: إذا دخلت على الجملة فقد تغني عن الخبر كقولك إنَّ مالاً وإنَّ ولداً على تقدير إنَّ لهم مالاً وكقول الأعشى.

إنّ محلاً وإن مرتحلاً
وإنَّ في السفر إذ مضوا مهلاً

والحق أنها لتأكيد النسبة وإذا كان الخبر تاماً ليس للمخاطب ظنّ أو وهم في خلافه فلا حاجة إلى أنَّ هناك ولذلك تزداد حسناً إذا كان الخبر أمراً يبعد مثله، وقد يجمع مع اللام للتأكيد في خبرها إذا كانت في جواب المنكر لشدة الحاجة هناك إلى التأكيد.

البحث الثاني في فائدة إنما: اتفق جمهور النحاة على أنها للحصر وهو المفهوم منها مثاله قول علي عليه السلام: وإنما سميت الشبهة شبهة لإنها تشبه الحق، وكقوله عليه السلام: إنّا لم نحكم الرجال وإنّما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خطه مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان وإنما ينطق عنه الرجال، ومراده بالحصر في هذه الصور ظاهر، وقال بعضهم، إنها ليست للحصر محتجاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] وبقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] مع أنَّ الإجماع على أنَّ من لم يوجل من

ذكر الله قد يكون مؤمناً، وأنّ الأخوة غير منحصرة في المؤمنين، والجواب أن منشأ الشكّ هو الغفلة عن ضابط الحصر، وضابطه أن الجزء الأخير من الكلام الوارد عقيب إنّما هو المخصوص بحصر الحكم فيه سواءٌ كان هو الموضوع كقولك إنّما قام زيد فإنّ المقصود حصر القيام في زيد أو كان هو المحمول كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] فإنّ المقصود حصر النبي في البشرية ونفي كونه غير بشر، وإذا تبيّن ذلك ظهر أنها في الصورتين المذكورتين تفيد الحصر أما في الأولى فلأنه يجوز أن يكون المقصود من الإيمان هناك أقوى مراتبه وهو الإخلاص، وحينئذ يتبيّن أنّ المؤمنين منحصرون في الوجلين من ذكر الله، وأما في الثانية فلأنّ المؤمنين منحصرون في صفة الأخوة في الدين كما هو المقصود من الأخوة ههنا، وأعلم أنه قد تستعمل في مفهومها عبارتان أُخريان إحدهما قولك جاءني زيد لا عمرو وهو أضعف منها لأنه يفيد حصر المجيء في زيد بالنسبة إلى من أخرجه حرف النفي، الثانية ما جاءني إلا زيد، ومفهومها مفهوم إنّما في الحصر والتخصيص كقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] وفرّق الإمام بينهما فقال: إنّ دلالة إنّما على نفي غير المذكور بالإلتزام، ودلالة ما وإلاّ على نفي الغير بالمطابقة فكانت أقوى في ذلك من دلالة إنّما ولذلك يصح أن يقال إنما زيد قائم لا قاعد ولا يصح أن يقال ما زيد إلا قائم لا قاعد، وأقول إن صحّ ما ادعاه من عدم الصحة في الصورة الثانية كان للمانع أن يمنع تعليل ذلك المنع بكون ما وإلاّ دالّة على نفي الغير بالمطابقة ويصرف ذلك القبح إلى قرب لا المقتضية لنفي الغير إلى إلا المقتضية للحصر وبعدها عن إنّما فكان التأكيد عقيب إنما حسناً لطول الزمان بينهما على أنّا لا نسلّم عدم الصحة هَهُنَا بل قد يورد للتأكيد وإن كان عقيب إنما أحسن، وقد يقام غير مقام إلا فيفيد الحصر، وقد لا يكون كذلك كقولك ما جاءني غير زيد تريد نفي مجيء الغير فقط دون إثبات زيد.

البحث الثالث: إنّ ما وإلاّ إذا دخلت على الجملة كان المقصود بالحصر فيه هو ما يلي إلا بعدها سواءٌ كان مرفوعاً كقولك ما ضرب زيداً إلا عمرو أو منصوباً كقولك ما ضرب زيد إلا عمرواً، وهكذا إن كان المنصوب حالاً أو ظرفاً فإن تأخر مثلاً الفاعل والمفعول معاً عن إلا فالمقصود هو ما يليها أيضاً كقولك ما ضرب إلاّ زيد عمرواً، وكذلك لو قدمت المفعول على الفاعل فهو المقصود وهكذا حكم المفعولين كقولك لم أكس إلاّ زيداً جبّة فالذي يلي إلاّ هو المقصود بالتخصيص، وهكذا المبتدأ والخبر أيهما أخرته عن إلاّ فهو المراد بالتخصيص كقولك ما زيد إلاّ قائم فالمراد تخصيص هيئة القيام دون سائر الأحوال أو ما القائم إلاّ زيد فهو تخصيص لزيد دون غيره، وأما تحقيق ذلك في إنّما فأما في الفاعل والمفعول فأيهما أخرته عن صاحبه فهو المقصود أيضاً كقولك إنما ضرب عمرواً زيد فالمقصود تخصيص زيد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ولو قدم العلماء لكان المقصود تخصيص خشية الله وكذا الحال في المبتدأ إن تركته على حاله فالإختصاص للخبر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ [التوبة: ٩٣] وإن أخرته عن الخبر صار التخصيص له كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] فإنّ التخصيص في الأول للخبر وفي الثاني للمبتدأ هذا بحسب المتبادر إلى المفهوم من ذوق العربية وبالله التوفيق.

القاعدة الثانية في الخطابة وفيه أبحاث وخاتمة.

البحث الأول في حقيقة الخطابة وفائدتها: الخطابة صناعة يتكلّف فيها الإقناع الممكن للجمهور فيما يراد أن يصدقوا به، وقولنا يتكلّف فيها الإقناع أردنا أنه يتعاطى فيها هذا الفعل المخصوص بأبلغ قصد ليتم، والإقناع الممكن هو الفعل الذي يتكلف وأردنا به ما يمكن من الإقناع، والخطاب في الإقناع أنجح من غيرها وفائدتها في تقرير المصالح الجزئية، وقد تفيد أيضاً تقرير القوانين الكلية لتلك المصالح كالعقائد الإلهية والقوانين العملية وهي عظيمة النفع جداً لأن الأحكام الصادقة مما هو عدل وحسن أتم نفعاً وأعود على الناس فائدة وأعمّ جدوى من أضدادها لأنّ نوع الإنسان إنما هو مستبقي بالتشارك؛ والتشارك يحوج إلى التعامل

والتحاور وهما محوجان إلى أحكام صادقة في الأمور العملية ليثق كل بصاحبه وينتظم شمل المصلحة بينهم وبأضداد الأحكام الصادقة يشتّت فيحتاج أن تكون هذه الأحكام مقررة في النفوس متمكنة من العقائد، والخطاب هي المتكفّلة بحمل الجمهور على التصديق بها فإنّ البرهان والجدل وإن قصد بهما التصديق إلاّ أنّ الجمهور قاصرون عن درجة البرهان والجدل وإن كان صناعة ضعيفة بالقياس إلى البرهان فهو أيضاً يسير الفائدة العامة صعب بالقياس إلى فطنهم وهم عاجزون عن قبوله، والمخاطبة التي يجب أن يتلقاها العامي بعاميته ينبغي أن تكون من الجنس الذي لا يرتفع عن مقامه ارتفاعاً بعيداً بل تكون بألفاظه عذبة غير ركيكة عامية ولا متينة ينبو فهمه عن قبوله كما سنذكره إن شاء الله تعالى، وقد أشار التنزيل الإلهي إلى هذه الصناعة في قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] فسبيل ربك هو الديانة الحقيقية؛ والحكمة هي البرهان، وذلك لمن يحتمله؛ والموعظة الحسنة هي الخطابة وهي لمن قصر عن درجة البرهان؛ أو جاد لهم بالتي هي أحسن أي بالمشهورات المحمودة وأخر الجدل عن الصناعتين لأنهما مصروفتان إلى الفائدة، والمجادلة مصروفة إلى المقاومة والغرض الأول من المخاطبة إنّما هو الإفادة، والغرض الثاني هو مجاهدة من ينتصب للمعاندة فإذن الخطابة صناعة وافرة النفع في مصالح المدن وبها تدمر العامة وتنتظم أحوالهم.

البحث الثاني: في موضع الخطابة وأجزائها وليس للخطابة نظر في موضوع معين؛ وذلك لأنّ العامة لا يهتدون إلى تمييز بعض الموضوعات عن بعض إذ كان تخصيص الكلام في موضوع معين مبني على مبادئ تليق بذلك الموضوع وحده لا يعرفها العامي، ونظر الخطابة بالذات في الجزئيات من أي مقولة اتفقت ولا يخص جزئياً دون آخر بل يقصد بها الإقناع من أي جزئي اتفق على أنّ لها أن تنظر بالغرض في الأمور الكلية من الإلهيات والطبيعيات والخلقيات والسياسيات، والخطابة لها أصل ومتممات تتمّمها وتعين عليها أما الأصل فهو القول الذي يظن أنه لذاته يفيد إقناعاً وأما المتممات فجملتها ترجع إلى حرف واحد وهو أنه لما كان الغرض من الخطابة ليس إلاّ الإقناع كان كل مقنع ناسب الغرض منها فهو من متمماتها والأمور المقنعة إما قولية يراد بها صحة قول آخر كالقول الذي يقصد به الخطيب تقرير فضيلته عند السامعين أو القول الذي يروم به إثبات أنّ الشهادة مقنعة أو كون المعجزة حجة، وإما شهادة، وإما حيلة أما الشهادة فإما قوليّة وإمّا حاليّة أما القولية فكالاستشهاد بقول نبي أو إمام أو حكيم أو شاعر وتسمى شهادة مأثورة، أو الإستشهاد بأقوال قوم يحضرون فيصدقون قول القائل إنّ الأمر كان، أو الإستشهاد بشهادة الحاكم أو السامعين بأنّ القول مقنع وتسمى شهادة محصورة، أما الحالية فإمّا أن تدرك بالعقل أو بالحس والأولى فضيلة القائل واشتهاره بالصدق والتميز، وأما الحال التي تدرك بالحس فإمّا بواسطة القول أو بدونه أما الأول فكالاستشهاد بالمعجزة عقيب التحدي على صدق قول المدعي، وكشهادة حال الحالف عقيب يمينه على قبول قوله، وكشهادة حال المتعاهدين على قبول أقوالهما بعد وضع العهود التي هي أقوال مدونة مكتوبة، وأما الحال المدركة بالحس من غير القول فإمّا أحوال تتبع إنفعالاً نفسانياً كشهادة سخنة وجه المخبر ببشارة على قبول قوله أو شهادة سخنة المذعور الخائف المخبر عن نزول عذاب أو حلول آفة على قبول قوله، أو تكون طارئة من خارج كشهادة جراح القائل أو غيره على قدوم العدو للحرب، وأما الحيلة فتفيد الإعداد، والإعداد إما للقائل بحيث يكون مقبول القول أو للقول بحيث يصير أنجح وأنفع أو للسامع بحيث يكون أقبل وأما القائل فإن يتكلف الإستشهاد على فضيلة نفسه والدلالة عليها أو يتهيىء بهيئة ويتزيّى بصورة تجعل مثله مقبول القول وأما القول فإن يحسن فيه تصرفه فتارة يرفع به صوته وتارة يخفضه وتارة يثقله وتارة يليّنه ويحزنه ويلاحظ في ذلك حال من يقصد إسماعهم كما سيأتي في التزئينيات، وأما السامعون فإما مخاطب بالقصد الأول، وإمّا حاكم يحكم بين المتخاطبين وإمّا نظارة أمّا المخاطب فيحتاج أن يستعطف ويستمال ليخنع

إلى تصديق القائل وكذلك الحاكم، وأما الناظر فيكفي فيه أن يهيىء بالحيلة بهيئة مذعن مصدق وإن لم يقع له التصديق، والتأثر الحاصل للمستمع إما إنفعال كالرقة والرحمة في الإستعطاف، والقساوة والغضب في الإغراء، وإما إيهام خلق كإيهام الشجاعة أو السخاوة أو غيرهما فعاد الأمر إلى أن الأقوال الخطابية التي يقصد بها التصديق ثلاثة أصناف أصل ويسمى عموداً وهو القول الذي يراد به التصديق نفسه، والثاني النصرة وهي القول الذي ينصر به ماله تصديق كالشهادة، والثالث الحيلة وهي قول يفاد به إنفعال شيء أو إيهام الخلق وهما متمّمات للأصل فهذه أجزاؤها.

البحث الثالث في مبادئ الخطابة: واعلم أن مبادئ الأقوال الخطابية ثلاثة أحدها المشهورات المحمودة وهي إما حقيقية اتفق عليها الجمهور وتطابقت عليها الشرائع والسنن وهي التي إذا تعقبت بالنظر لم يزل حمدها وإن اطلع على كذبها كحسن الصدق وقبح الكذب والظلم وغيرها، وإمّا محمودة ظاهرة في بادئ الرأي وهي التي تعافص الذهن فيحكم بصدقها قبل التفطن لها فإذا تعقبت زال حمدها لظهور كذبها وشنعتها كقوله أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً وهذه أعمّ من التي قبلها وكل محمود حقيقي محمود في الظاهر ولا ينعكس واستعمال الخطابي للأولى لا من جهة كونها حقيقية بل لكونها ظاهرة، وإمّا محمودة بحسب قوم أو شخص وينتفع بها في مخاطبتهم، ومثل هذه وإن نفعت في الخطابة إلاّ أنها لا تكون عمدة في صناعة الخطابة لكونها غير متناهية أو غير مضبوطة فإنّ كل شخص يرى ما يهوى وتختلف الآراء بحسب الأهواء، وثانيها المقبولات إما عن جماعة أو عن نفر أو عن نبي أو عن إمام كالشرائع والسنن أو عن حكيم كالطب المقبول عن جالينوس وبقراط أو عن شاعر كأبيات تورد شواهد وتكون مقبولة فقط من غير أن تنسب إلى مقبول منه كالأمثال المضروبة، وثالثها المظنونات وهي الأحكام التي يتبع الإنسان فيها غالب الظن من دون جزم العقل بها كقولك زيد يسار العدو جهاراً فهو عدو ربما يكون مقابله مظنوناً كقولك زيد يسار العدو جهاراً ليخدعه فهو صديق، وأما تأليفات هذه فهي ما يظن منتجاً وهي مقنعة بحسب الموارد والصور معاً ويشتمل القياس والتمثيل والإستقراء وما يشبه الخلف فيها؛ أما القياس فيسمى ضميراً لحذف كبراه وتفكيراً لاشتماله على أوسط يستخرج بالفكر، وهو إما على هيئة الشكل الأول كقول علي عليه السلام مضوا قدماً على الطريقة وأوجفوا على المحجة فظفروا بالعقبى الدائمة والكرامة الباردة، فإنّ تقدير الكبرى وكل من كان كذلك ظفر بالعقبى الدائمة ويسمى هذا دليلاً، وإما على هيئة الشكل الثاني كقولك فلان له إيمان في يقين فليس من الفساق فإنّ تقدير الكبرى، ولا واحد من الفساق كذلك، أو على هيئة الشكل الثالث كقولك العارف شجاع جواد فالشجاع جواد لأنّ تقدير الكبرى العارف جواد ويسمى ما كان على هيئة هذين الشكلين علامة، والقياس الظني قد لا يكون منتجاً في نفس الأمر إذ ليس من شرط الخطابة أن تكون على هيئة منتجة كموجبتين في الشكل الثاني كقولك هذه منتفخة البطن فهي إذن حبلى وتقدير الصدق والحبلى منتفخة البطن، ويسمى هذا رواسم لرسمها في الذهن ظناً ما، وأما التمثيل فيسمى اعتباراً لعبور الذهن من المشبه إلى المشبه به ويسمى المنتج منه بسرعة برهاناً واستعمال التمثيل والقياس يسمى تثبيتاً، والتمثيل إما أن يكون بأصول متفق على القياس عليها سواءً كانت أموراً موجودة أو حوادث ماضية أو أمثالاً مضروبة سائرة وإمّا أن لا يكون كذلك بل أمور يخبر عنها الخطيب كمثل وحكاية إما ممكنة أو غير ممكنة والأول كاستشهاد علي عليه السلام في تحذير أصحابه من الدنيا بالقرون الماضية وأحوالهم، وأما الثاني فالممكن كما يقول المشير على صديقه لا تعاشر الجهال فإنّي عاشرتهم فندمت وقد لا يكون عاشرهم، وأما غير الممكن فكالإستشهاد بأقوال الحيوانات الموضوعة في كتاب كليلة ودمنة وأمثاله؛ وأما الإستقراء فيقع بجزئيات كثيرة كقولك لمن تشير عليه حصل السيادة بتحصيل الفضيلة لأن فلاناً فضلوا فسادوا وستعرفه في كلام علي عليه السلام كثيراً، وأما ما يشبه الخلف فكتنصله عليه السلام من دم عثمان بقوله: لو أمرت به لكنت قاتلاً فإنه أراد تقرير عدم الأمر بإبطال لازم الأمر

وهو كونه قاتلاً المستلزم لإبطال الأمر المستلزم لإثبات المطلوب وهو عدم الأمر وكذلك التوبيخ كقوله عليه السلام في توبيخ العلماء في اختلاف الفتيا أفأمرهم الله تعالى بالإختلاف فأطاعوه فإنّه أراد بيان عدم صحة اختلافهم بإبطال أمر الله تعالى إياهم المستلزم لإبطال نقيض المطلوب وهو صحة الإختلاف، والمقدمة التي من شأنها أن تصير جزءاً تثبيت تسمى موضعاً، وحقها أن لا تكون دقيقة علمية ولا واضحة يستغنى عن ذكرها كالضروريات، والقوانين التي يستنبط منها المواضع تسمى أنواعاً، والبحث في الخطابة عن الضروريات أقل بل إنما يبحث فيها في الأكثر عن الأكثريات، والرأي قضية كلية ينتفع بها في أمور عملية فيختار أو يجتنب ونتائج الآراء آراء مثلها إلاّ أنها غير مقنعة ما لم تقرن إليها العلة كقولك لصديقك مثلاً لا تحرص في جمع المال فإنّه لا يقبل ما لم تقل ذلك لأنك تشقى بجمعه في الآخرة خصوصاً إذا كان الرأي شنيعاً كقولك لا تحصل الفضائل فإنه ما لم تقرن به العلة كقولك كيلا تحسد لا يقبل ذلك والرأي إما لا يحتاج إلى كلام يقرن به لظهوره في نفسه أو عند أهل العقل أو عند المخاطب، أو يحتاج إلى ما يقرن به ليؤدي إلى المطلوب وحينئذ فالقرينة إما نتيجة الرأي أو ما ينتجه فإن كانت نتيجة الرأي كقولنا الأصدقاء ناصحون فصديقك زيد ناصح فالضمير المقنع هَهُنَا ليس الرأي وحده بل مع نتيجته وهو جزء من الضمير وإن كان ما ضمّ إليه هو المنتج له كقولك لا تكتسب الفضائل فتحسد كان الرأي هو الضمير القريب فإنّه المقنع لذاته وبالله التوفيق.

البحث الرابع في أقسام الخطابة بحسب أقسام أغراضها: واعلم أن جميع المغارضات الخطابية ثلاثة مشاورة ومنافرة ومشاجرة ولكل واحد من هذه الأقسام غرض خاص. أمّا المشورة فهي مخاطبة يراد بها الإقناع في أن الأمر الفلاني ينبغي أن يفعل وأن الأمر الفلاني لا ينبغي أن يفعل لضرره، وأما المنافرة فمخاطبة يراد بها الإقناع في مدح شيء بفضيلته أو ذمه بنقيصته، وأما المشاجرة فمخاطبة يراد بها الإقناع في شكاية ظلم أو اعتذار بأنه لا ظلم، وربما لم يقع الإعتذار في وقوع الأمر نفسه ولكن في كونه نافعاً أوضاراً أو ظلماً أو غير ظلم كاعتذار الظالم أو من ينصره بأن الذي يعلمه ليس بظلم أو باعتذار المذموم بأن الذي فعله ليس بنقيصة أو أنه فضيلة. أما المشورة إنّما هي مشورة بسبب إقناعها في أمر هو نافع بالحقيقة فإنّه قد لا يكون نافعاً بالحقيقة ولا عند المشير لكنه إن تبيّن أنه نافع رام الإقناع به فيكون المخاطبة مع ذلك مشورة. وقد لا يكون المشورة بالنافع بل بالجميل الذي ربما كان في العاجل ضار أوله نفع من جهة أُخرى، وكذلك المدح والذم ولا يلاحظ فيه دائماً النافع والضار حتى يكون المدح بالنافع والذم بالضار، بل ربما كان المدح أيضاً كاقتحام الأذى والضرر والركوب الأهوال للذكر الجميل فإنّه يشار به ويمدح فاعله ويعظم كالذين يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وكثيراً ما يحمد العاقل بإيثار الموت على الحياة، والأُمور المشورية عظيمة تبتني عليها الشرائع والسنن والسياسات، وأقسام الأمور المشورية العظيمة التامة النفع دون الجزئيات النافعة بحسب أحوال الأشخاص خمسة العدة والحرب والسلم وحماية المدنية ومراعاة أمر الدخل والخرج وتفريع الشرائع ووضع المصالح، والخطيب المشير في أمر العدة ينبغي أن يكون بصيراً بجنس ارتفاع المدنية وكميّته وكمية النفقات إذا جرت على القسط ليوازي الدخل الخرج ويشير بنفي البطالة عن حرفة تعود بنفع المدنية وبالحجر على المسرف وتوقيفه على القدر العادل ويتحفظ بجزئيات الأخبار وبالعوائد التجربية لأنها تذاكير وأمثال وعلى المشير في أمر الحرب بعد أن يكون له بصيرة بأنواع الحروب وسماع أخبار المتقدمين من المقاتلة في مدينته وما يليها ورسومهم ومذاهبهم أن يحيط به علمه خيراً بمدينته ومحاربيها وعدتهم وعددهم ودرايتهم بالحرب وعادتهم ونقاء دخيلة قومهم وصفاء نيّتهم، أو ضد ذلك ويوقع نظيره عليهم في كل وقت ويقيسهم إلى مقاتليهم. وأن يعتبر الجزئيات السالفة فإن الأمور في أشباهها وتحذو حذو أشكالها فإنه يستنبط من هذه الأحوال مقدمات ينتفع بها في المشورة.

وأما المشير في حفظ المدينة فينبغي أن يعلم أنواع

الحفظ لأنواع البلاد المختلفة سهليتها وجبليتها وبريتها وبحريتها، وما يحيط بها ومواقع المسالح قرباً وبعداً والمدارج المخوفة والتي يرتادها المغتالون فيشير فيها بالإرصاد. فإن ذلك قد يقف عليه من لم يشاهد المدينة، وأن يعلم عدد الحفظة والرصدة ونيّاتهم ليمدّ قلتهم ويبدل خائنهم بالناصح وأن يعرف الحاصل من القوت. وما يحتاج إلى جلبة وإعداده من خارج المدينة.

فإن القوت وما يجري مجراه إذا انحسمت مادته لم يكن حفظ المدينة وتدبيرها، فينبغي أن يكون المشير عارفاً بمقدار حاجة كل إلى كل وبأحوال أهل الفضائل والثروة منهم فيشير بما ينبغي أن يستعان به فيه من أهل الفضائل وما ينبغي أن يستعان به فيه بأهل الثورة فيما ينتظم به أمر المصلحة.

وأما الخامس فهو المشورة في أمر السنن وهو من أعظم الأبواب خطباً وأحوجها إلى فضل قوة الخطابة وعلى الإنسان أن يتحقق عدد أنواع الإشتراكات المدنية وما يتولد من تركيبها، وأن يعلم ما يناسب كل أمة من الإشتراك بحسب عادتها والأسباب الحافظة لذلك الإشتراك والقاسمة له وفساد المدينة التي لم يحكم تدبيرها يقع من أحد أمرين:

إما عنف المدبرين لهم في الحمل على الواجبات أو من إهمالهم ومسامحتهم، فينبغي أن يكون المشير بصيراً بأصناف السياسات وما يعرض لكل واحد منها من العوارض وما يؤول إليه كل واحد منها فيوضع كل واحد منها في موضعه فلا يستعمل القهر والغلبة في موضع الرفق ومراعاة مصلحة المرؤوسين لإكرامهم وتعظيمهم. ولا بالعكس فلا يحصل هناك قانون ناظم فقد عرفت بما ذكرنا المواضع التي منها ينتزع المقدمات المشورية في الأمور العظام. ومما يعين على وضع السنن وتفريعها تأمل قصص الماضين وأحوالهم.

وأما الأمور المشورية النافعة بحسب أحوال شخص شخص، فهي وإن كانت غير مضبوطة إلاّ أن جميعها يشترك في أنها يقصد بها صلاح الحال. كان بالحقيقة أو بالظن ونعني بصلاح الحال هو الفعل الممكن عن فضيلة النفس وامتداد العمر مشفوعاً بمحبة القلوب وتوافر الكرامة من الناس. وفي رفاهية وطيب عيش ووقاية وسعة ذات اليد في المال والعقد وتمكن من استدامة هذه الأحوال والإستزادة منها.

وأما أجزاؤه، فمنها ما ينسب إلى الخير ومنها ما ينسب إلى الشر أما الخيرية فإما بدنية كذكاء الأصل وكثرة الأخوان والأولاد وصلاحهم واليسار والأنعام والقوة والصحة والجمال والفصاحة، وجميل الأحدوثة والجاه والبخت، وإما نفسانية كالعلم والذكاء والزهد والشجاعة والعفة وحسن السيرة والأخلاق المرضية وحصول التجارات والصناعات فعلى الخطيب أن يشير بأعداد هذه الأنواع، وكذلك ما ينسب إلى النافع وهو كل ما يوصل إلى شيء من الخيرات كالجد والطلب وتحصيل الأسباب والوسائل وانتهاض الفرص ومواتاة الحظ، وأما الأمور الشرية فهي ما يقابل هذه وعلى المشير أن يشير باجتناب عللها وما يعوق عن الخيرات كإيثار اللذة والكسل واللهو والبطالة وفوات الأسباب، وضياع الفرص وسوء التوفيق، وكذلك قد يحتاج الخطيب إلى إعداد مقدمات في أن هذا الخير أفضل وأن هذا النافع أنفع كالحكم بأن أفضل الخيرات أعمها وأدومها وأكثرها نفعاً وأولاها بالقصد لنفسه وأعزّها وأعظمها وأشهرها وأكثرها استلزاماً للحاجة إليه وأكثرها استلزاماً لرغبة الجمهور والأكابر فيه، وكذلك يحتاج إلى مقدمات بعدها في أن هذا الشر أضر كالحكم بأن أشر الشرور أعمها وأدومها وأولاها بالهرب منه وأكثرها استتباعاً للشرور، ويجب أن يستكثر من ضرب الأمثال وإيراد التذاكير واقتصاص أحوال الماضين.

وأما المنافرات وهو باب المدح والذم فعلى الخطيب تحصيل الأنواع النافعة في المدح والذم المتعلقة بالفضيلة والرذيلة وأجزاء الفضيلة هي البر والشجاعة والعفة والمروءة وكبر الهمة والسخاوة والحلم والثبات واللب والحكمة، وقد يلزم بعض هذه خيرات تتعدى إلى غير الفاضل، كالخبر المتعدي من البر والشجاع والسخي إلى غيرهم. وأجزاء الرذيلة أضداد ما ذكرنا كالجور المقابل للبر والجبن للشجاعة والفجور للعفة والدناءة للسخاء والسفالة لكبر الهمة والنذالة

للمروءة والطيش للثبات والبلاهة للب، فهذه هي الفضائل والرذائل وما عداها فأسباب لها وعلامات عليها. مثلاً كإيجاب الغنى والخشية من الله تعالى والعلم وطلب الذكر الجميل للعدل وإيجاب الإحتياج والوثوق بأن لا مقاوم له وعدم المبالاة بالعاقبة وأمثالها للجور، وكذلك في سائر الأسباب وكالإنفعالات اللازمة للعادل عن لزوم العدل حتى يحتمل شدة العذاب. مثلاً في انتزاع ما في يده من الأمانة ولا يسلمها إلى غير ربها، ومن الممادح الشجاع الغلبة والكرامة، وأن يفعل أفعالاً يذكر وينشر ويسهل تخليدها فيرثها الأعقاب، ومن الممادح أيضاً علامات تختص الأشراف بها كإرسال شعر العلوي وطرحه العالم فإنّ ذلك من علامات شرفهم، ومن الممدوحات أيضاً الإستغناء عن الناس في أي باب كان وقد يذكر المدح على سبيل التزويج والمغالطة فيعبر عن الرذيلة بعبارة تنظمها في سلك الفضيلة إذا كانت قريبة من الفضيلة، أو كانا تحت حكم يعمهما، وهذا لا يحتاج الخطيب إلى مدح الناقصين فيجعل القدر المشترك بين الفضيلة والرذيلة مكان الفضيلة فيمدح المتجربز بأنه حسن المشورة والفاسق بأنه لطيف العشرة والغني بأنه حليم والغضوب بأنه نبيل والأبله الغافل عن اللذات بأنه عفيف والمتهور بأنّه شجاع والماجن بأنه ظريف والمبذر في الشهوات بأنه سخي.

وفي عكس ذلك إذا قصد ذم الفاضلين فيذكر الفضيلة في معرض الرذيلة، فيذم لطيف العشرة بالفسق، والحليم بالغباوة، والنبيل بالغضوب، والعفيف بالأبله، والشجاع بالمتهور، والظريف بالماجن وكذلك في سائرها.

وأما الأمور المشاجرية فعلى الخطيب إعداد أنواع أسباب الجور؛ والجور هو الإضرار الرافع بالقصد والمشيئة ولم ترخص الشريعة فيه بوجه. وأما الأسباب المحركة إليه فكالكسل من الكسلان فإنّه عندما يتخيل الدعة التي يهواها يكون سبباً لخذلان صديقه، وكالجبن الذي يكون سبباً لإضاعة الحريم وهلاكهم وكإيثار الراحة من التعب وحب البطالة واللهو المؤدي إلى ترك اكتساب الفضائل وكالغضب المؤدي إلى العسف، وعدم الظفر بالمطلوب عند الغلبة والإقتحام وكاستباحة التصرف في مال الغير وعرضه ودمه والإستهزاء بالخلق والحرص والوقاحة، وأسباب العدل هو ما يقابل هذه الأسباب فهذه أمور إذا علمها الخطيب أخذ منها مقدمات في أنه لما كان الجائر كذا أقدم على الجور وللجور أسباب كثيرة مذكورة في الكتب المبسوطة.

البحث الخامس في أنواع مشتركة للأمور الخطابية الثلاثة: وههنا أنواع مشتركة لأصناف الخطابة يجب على الخطيب إعدادها لينتفع بها فمنها ما يعدّ لاستدراجات من مبادئ الإنفعالات والأخلاق مثلاً ما يعد للغضب كالإستهانة، والعنت، والشتيمة، وقطع العادة في الإحسان. ومقابلة النعمة بالسيئة، أو بالكفران والقعود عن جزاء الجميل، بمثله أو يعد لضده، وهو فتور الغضب كالإعتذار بعدم معرفة من قصده بالإستهانة أو بعد قصد الإهانة وكالإعتراف بالذنب والإستغفار بالتوبة، والتذلل والتلقي بالبشاشة. وكذلك هيبة المهيب والإستحياء من المستحي منه فإنّ الغضب لا يجامعها، أو يعد للحزن كالأنواع التي توجب تصور فوت المرغوب فيه. أو حصول المحذور منه أو عدم الإنتفاع بالحياة والتدبير أو لضده وهو التسلية كالتي يوجب الإقناع في أن هذا الأمر يمكن أن يدفع أو يرجى التلافي في التدارك أو باعتبار حال الغير فإنه المصيبة إذا عمّت هانت، أو بالإرشاد إلى الحيل بتحصيل الأمر الذي لأجله الحزن، أو يعد للخجل والإستحياء كالفرار من الزحف وخيانة الأمانة وارتكاب المظالم ومعاشرة الفساق ومداخلتهم في مواضع الريبة والحرص على المحقرات، ومقارنة الدنيا كسلب السكين ونبش الكفن والتقية مع اليسار ومعارضة اللئام بالإستماحة وكاستشعار الشماتة من الأعداء. أو يعد لإبطال الخجل وهو أضداد هذه الأسباب أو للإهتمام بالغير والشفقة عليه أو الأسباب الباعثة على الإهتمام. كالعذاب المهلك والأوجاع، والجهد، والكبر، والسقم، والخصاصة، وسوء البخت وعدم الأنصار، وعلامات الإهتمام كإيثار المهم له على النفس والإحسان إليه بغير

منَّة وستر عيوبه ونصرته في مغيبه والوفاء له أو لضدّه وهو الحسد كوصول خير إلى غير يرى الحاسد أنه أولى به منه أو إلى من لا يحبه أو للغيرة كتخيل مشاركة من لا حق له في الحق من غير أن يدخله صاحبه فيه، أو لشكر النعمة، وهو أن يقول الخطيب:

إنما أُعطي فلان لنفس النفع لا لجزاء يتوقعه، أو يقول: إنّه نفع في وقت الحاجة أو في وقت تعسر المعونة من الناس أو أنه أنعم بما لم تسمح نفس غيره به أو أنه أولى من أنعم فيحرك غيره للإنعام أو أنه لم يرد بالصيغة ذكراً أو أنه يستر الصيغة ستراً أو للكفران وتحقير النعمة كأن يقول لم ترد بعطائك إلاّ غرضاً وإنك لم تتم النعمة وإنك قصرت عن الواجب عليك بمثله. وإنك لم تصطنع بقصد بل لضرورة أو إنفاق أو لرعية في محاذات. فإنّ ذلك كله مما يبطل المنّة أو الشجاعة. كأن تقول المكروه عنك بعيد أو لا وجود له عندك ولا محل عندك للأقران والمبارزين، وكقوله أنت كثير الأنصار قويهم وإنك بريءٌ عن الظلم قليل الإحتمال له، أو لضدها وهو الجبن كقوله إنّ في المقاومات حصول المكاره وإن خصمك في غاية القوة فلا طاقة لك به لو أن أنصارك قليلون أو ضعفاء وأمثال ذلك، وكذلك يجب على الخطيب أن يحصل أنواعاً تعين على كل خلق يختص بصنف من الناس.

إما باعتبار الأسنان كأن يقول للشاب الذي يغلب عليه طلب اللذة إن هذا وقت السرور والزمان المساعد والشباب بعد فنائه غير عائد، وهذا الربيع قد أشرقت أنواره وتصنفت أزهاره، وكمدح المآكل والمشارب والملابس والمراكب، ويقول للشيخ الذي يغلب على طباعه طلب النفع والحرص على الدنيا ينبغي أن تقتصر على تحصيل منافعك واللهو غير لائق بك، وينبغي أن تقلّل البذل لئلا يستضرّ عيالك وينبغي أن لا تنخدع لفلان ولا تغلط معه لأنك جربت الخداع، أو باعتبار أخلاقهم في البلدان كأن يقول للعربي الذي طبعه الفصاحة إنك لذو فضيلة عظيمة. ولو لم يكن من فضل الفصاحة إلاّ أنها وجه إعجاز القرآن لكفي وأمثاله.

وكأن يقول للقرب من جهة ما هم غلاظ الطباع كثيرو الأطماع إنّ بني فلان أعداؤكم، ولا ناصر لهم أو هم قليلون أو نعمهم كثيرة، أو إن القفل الفلاني كثير النعمة، ولا حارس له فيغر بهم بذلك، وكما تحرك طباع الفرس إلى حسن التدبير الذي هو عادتهم بما يناسبه أو إلى الملال الذي هو طباعهم بما يناسبه، أو باعتبار الهمم كما يحرك ما في طباع الملوك من الكبر وعدم الإلتفات إلى الغير بما يناسبه وما في طباع الساقتين من الدناءة بما يليق به. ومن جملة الأمور المشتركة ما يتعلق بالممكن من الأمور وغير الممكن. كأن يقول الخطيب:

إذا أراد أن يقنع بأن الأمر الفلاني ممكن فيقول هذا الأمر مما يستطاع فهو ممكن أو نقيضه ممكن فهو ممكن أو شبهه ممكن فهو ممكن أو الأصعب منه ممكن فهو ممكن، أو أراد أن يقنع بأنه متوقع كونه فيقول: الأمر الفلاني مقدور عليه ومراد فلا بد أن يكون والنادر يكون فالأكثري يكون ويمكنك أن تعلم أنواع ما لا يكون وأنواع ما لا يمكن من أنواع ما يكون وأنواع ما يمكن. فهذه جملة من الأمثلة تهدي الخطيب إلى أمثالها، وليس يجب عليه أن يضبط ما لا يتناهى من الأمور بحسب شخص في كل واحد من أموره الجزئية. فإن ذلك غير ممكن بل يضبط القوانين الكلية المتعلقة بالأجناس الثلاثة للخطابة ويجتهد في أن يخصصها مهما أمكن فإنه كلما كان الحكم بالجزئي المتكلم فيه أخص كان أنفع وأقنع مثاله إذا أردت أن تمدح زيداً فقلت هو شجاع، لأنه مستكمل الفضائل بأسرها فهذا وإن كان مقنعاً إلا أنك لو خصصت فقلت لأنه هزم جيش العدو، وقت كذا أو قتل البطل الفلاني يوم كذا، لكان ذلك أقنع وأليق بالممدوح، وقد تقع في الخطابة القضايا المتقابلة والمغالطة بها للإقناع فيستعمل الضدان في إيجاب كل واحد من النقيضين، كقولك أسكت في المحافل لأنك إن صدقت أبغضك الناس، وإن كذبت أبغضك الله. ثم تقول تكلم في المحافل لأنك إن صدقت أحبك الله وإن كذبت أحبك الناس، والمقابلة هَهُنَا إن أفادت إقناعاً كانت من صناعة الخطابة مثالها إما من باب اشتراك الاسم كقولك بالذهب يبصر الإنسان لأنه عين، أو من باب تركيب المفصل كقولك فلان شاعر جيد فيوهم ذلك

التركيب مدح الشعر بالجودة والتقدير فلان جيد، أو من باب وضع ما ليس بعلة علة، كما يقال فلان مبارك القدم لأنه مع قدومه تيسر كذا، أو من باب المصادرة على المطلوب. كما يقال زيد يشرب الخمر فيقال لأن أخاه يشرب الخمر، وأما إن لم يوقع إقناعاً كما يقال فلان لم يذنب باختياره لأنه زنا وهو سكران لم يكن من صناعة الخطابة وبالله التوفيق.

البحث السادس في تحسينات الخطابة: الأمور المحسنة للخطابة إما أن تتعلق بالألفاظ، وإما أن تتعلق بالترتيب، وإما أن تتعلق بهيئة الخطيب، أما الأول فاعلم أن تحسين الألفاظ في الخطابة عظيم النفع فإن جزالة اللفظ توهم جزالة المعنى وركاكة اللفظ تذهب ذوق المعنى، ومحسنات اللفظ أمور الأول أن يكون اللفظ فصيحاً عذباً غير ركيك صرف العامية ولا متين مرتفع عن أن يصلح المخاطبة الجمهور لأن الطباع العامية تنفر عن العبارة العلمية ولا ملحون لأن اللحن يهجن كلاماً ويرد له، وهذه الإعتبارات موجودة في كلام علي عليه السلام كثيراً، الثاني أن يراعي تمام الرباطات وهي الحروف التي يقتضي ذكرها أن تكرر كقوله عليه السلام في صفة الملائكة: منهم سجود لا يركعون ومنهم ركوع لا يسجدون. وكذلك باقي الأقسام فلو لم يحصل التكرار هَهُنَا لنقص الكلام، وكذلك قوله عليه السلام: المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر أحد الحسنيين إما داعي الله فما عند الله خير له، وإما رزق الله وإذا هو ذو أهل ومال. اللهم إلاّ أن يكون تكراره معلوماً كقوله عليه السلام: في كثير من خطبه أما بعد، فإن هذا الجزء مسبوق بأما قبل وإن لم يذكر لوضوحه.

الثالث: أن لا يباعد ما بين الرباطين بحشو دخيل ينسى الوصلة بينهما.

الرابع: أن يراعى حقه من التقديم والتأخير فإن تأخير الشرط عن المشروط وتقديم لإن على الدعوى قبيح سمج، وبعض هذه الأحكام قد يختص ببعض اللغات.

الخامس: أن يزين بالتشبيه والإستعارة. وتكون تلك الألفاظ المستعارة خاصة غير مشتركة ولا مغلطة فقد يورد اللفظ موهماً للشيء وضده كقول المنجم: إذا دخلت سنة كذا يتجدد للإسلام أمر عظيم فذلك محتمل للخير والشر موهم لهم، وفائدة التشبيه والإستعارة هَهُنَا الإستعانة بالتخييل الحاصل منه على ترويق المعنى. فإنه يحصل له رونقاً لا يحصل بدونه والألفاظ المستعارة والمخيّلة وإن كانت أصلاً في الشعر فقد يستعملها الخطيب بالعرض فيكون في الخطابة كالأبازير.

السادس: أن يراعي لفظ الواحد والتثنية والجمع وما يخصها من التصاريف وكذلك التذكير والتأنيث ذي العلامة وغيره رفعاً للغلط.

السابع: قد يزين اللفظ بالإيجاز إذا اعتمد على فهم السامع من تعقب الإقناع فرد الحدود والرسوم هناك إلى اللفظ المفرد، وقد يزين بالبسط فينعكس ذلك، وقد يبدل اللفظ المفرد العلم لشناعته كما يقال عورة المرء، ووطيها، ودمها، عوض أسمائها الصريحة، أكثر ما يستعمل أمثال هذه في الإفراطات في المدائح، فيكره التصريح بالأسماء الصريحة احتشاماً وتنزيهاً للمجالس عن ذكرها وكذلك يستعمل في الإعتذار كثيراً وحيث يراد التهويل للتخويف في المشروبات.

الثامن: أن يزين بالمفاصل أي يكون ذا مصاريع وتسجيع ووزنٍ ما، لا الوزن الحقيقي وذلك كقول علي عليه السلام: أما بعد فإنّ الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع. وقد عرفت المتوازن فإن ذلك أقرب إلى ثبات اللفظ في الخيال ثم تلك المفاصل ينبغي أن لا تطول لئلا ينسي الأول ولا تقصر جداً فلا تحفل به النفس فيجعل انقطاعه عن استثبات النفس له. ثم المفاصل قد تكون أقساماً ويسمى المقسم كما مرّ في المثال في صفة الملائكة، وقد تكون تلك الأقسام متقابلة كقوله عليه السلام:

أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقي وأما الإمرة الفاجرة فيمتنع فيها الشقي، ولكل واحدة من الخطابة المسموعة والمكتوبة أسلوب خاص، وكذلك أصنافهما، وأما الثاني وهو الترتيب واعلم أن للأقاويل الخطابية صدراً ووسطاً وخاتمة، فالصدر كالرسم الذي ينقش عليه ويعرف السامع منه الغرض إجمالاً.

وأما الوسط فقد يكون اقتصاصاً لأمر واقع ليحكم بأنه حسن أو قبيح كما في المنافرة وعدل أو جور كما في المشاجرة. وقد يقدم على الصدر اقتصاص لأمور تسلتزم الشكر والمدح من القائل وتهيىء السامع لذلك كما جرت العادة بتقديم اقتصاص صفات الله وحمده وصفات رسله عليهم السلام.

يكون الوسط غير اقتصاص بل دالة على مصلحة وحث عليها كما في المشورة إذ ليس فيها ما يحكي ويشتكي ويحمد ويذم وليس فيها منازعة ومواثبة والصدر فيها حسن ليكون المشار عليه قد وعى الغرض واستعد للقبول، وهو في المشاجرة قبيح.

وأما الخاتمة فهي حسنة في المشورة أيضاً والذي يليق بها أن تكون أجزاؤها مفصلة غير مخلوطة بما قبلها وخصوصاً في المشوريات وهو أن يقول المشير: قد قلت ما عندي من النصيحة والرأي ما ترون، وكما يقول الخطيب: أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم إنه هو الغفور الرحيم ونحو ذلك.

وأما الثالث وهو الأمور التي تتعلق بهيئة الخطيب فيخيّل معاني أو يخيّل أخلاقاً واستعدادات الأفعال وانفعالات ويسمي ذلك نفاقاً والأخذ بالوجوه فهي إما أن يتعلق بصوته كرفعه في موضع الرفع وخفضه في موضع الخفض وبتزكية نفسه أو بكونه على زيٍّ وهيئة وسمت حسن يصيد به القلوب، وهذا القسم إنما يكثر الإنتفاع باستعماله مع ضعفاء العقول إذا كانوا للإستدراجات بالأمور المحسوسة أطوع ولذلك يكبر في أعينهم من كان يرى النساك والمستكثرين من العبادة والخشوع الظاهر. وإن كان جاهلاً مرائياً، ولما لم يكن غرضنا من التعرض بذكر الخطابة هَهُنَا إلاّ الإشارة إلى أقسامها الكلية لنبيّن معنى الخطابة وما عسى أن نذكره من أن الخطابة التي نحن شارعون في بيانها من أي اقسام الخطابة هي وليتفطن المطلع على ما ذكرناه هَهُنَا لما لم نبيّنه من ذلك لا جرم اقتصرنا على هذا القدر من الإيراد، وأما البسط ففي الكتب المطولة، واعلم أن الغالب على كلام علي عليه السلام: هو المشوريات. وأما المنافريات والمشاجريات فهما أقل كما ستعرف ذلك عند تصفّح أقواله إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

خاتمة لهذه القاعدة:

وأما الخاتمة ففي بيان غايته عليه السلام من الخطابة: واعلم أنه لما كان الغرض من وضع الشرائع والسنن إنما هو نظام الخلق وجذبهم إلى الجناب المقدس عن دار الغرور وتذكيرهم لمعبودهم الحق وتعليمهم كيفية السلوك للصراط المستقيم كما أومأنا إليه، وعلم من ذلك أن علياً عليه السلام كان مقرراً للشريعة ومثبتاً لها وموضحاً لمقاصد سنن الرسول صلى الله عليه وآله ومفرّعاً لأحكامها، إذ كان هو الممنوح بجوامع العلم والمطلع على الأسرار الإلهية لم يكن مقصوده من جميع الأقوال المنقولة عنه إلاّ الغرض الأول من وضع الشرائع والسنن، بيان ذلك أنك قد علمت أن الأقوال الخطابية تنقسم بحسب أغراضها ثلاثة أقسام: مشاورة، ومنافرة، ومشاجرة.

وأما المشورة فإنها الجزء الأكبر من كلامه عليه السلام وأنت تعلم من تصفح كلامه أن كل ما يشير به بالقصد الأول، فإنما هو الإقبال على الله تعالى بترك الدنيا والإعراض عنها والإستكمال في الفضائل وترك الرذائل والمنقصات الجاذبة إلى الخيبة، السافلة المانعة عن الوصول إلى الله سبحانه، فإن عرض في كلامه أمر بجزئي أو نهي عن أمر جزئي لا يلوح للغافلين منه هذا الشر كمصالح الحرب والعدة والمدنية وغير ذلك فإنه عند الإعتبار يرجع إليه، لأن كل ذلك يرجع إلى نصرة الدين وتقويته ونظام أمر العالم وترتيب مصالحه.

وأما المنافرة فقد عرفت أن جميع ما ورد في كلامه عليه السلام من الذم إنما هو للدنيا واتباع الهوى، وارتكاب الرذائل الموبقة ومن ارتكبها وأشباه ذلك مما يبعد عن الله تعالى وما ورد فيه من المدح فإنما هو لله سبحانه وللملائكة ورسله والصالحين من عباده، وما هم عليه من الفضائل وترك الهوى والإعراض عن الدنيا وما ينبغي أن يكون الخلق عليه من ذلك، ولا شك أن الأول جذب للخلق بتحقير ما تميل طباعهم إليه من الأمور الفانية وتصغيره وذمه والتنفير عنه وذمهم على ارتكابه

ليتقهقروا عنه إلى ما ورائهم من النعيم الأبدي والخير السرمدي، وليتذكروا معبودهم الحق سبحانه ولا يكونوا من المعرضين الهالكين.

والثاني أيضاً جذب لهم بتعظيم ما ينبغي أن يلتفتوا إليه وتكبيره ومدحه والترغيب فيه وفيما يكون وسيلة من الفضائل والإعراض عن الدنيا وغير ذلك.

وأما الأمور المشاجرية فيما كان في كلامه عليه السلام منها فإمّا بيان للظلم والجور وأسبابهما وما يؤولان إليه من سوء العاقبة وقبح الخاتمة عند الله تعالى أو بيان للعدل وأسبابه. وما يؤول إليه من حسن العاقبة وحميد المنقلب إلى الله، كما يشتمل عليه كثير من كتبه إلى عماله ومحاربيه، ولا شك أن كل ذلك جذب إلى الله تعالى بالتصريح والإشارة وأما تظلم من ظالم خرج عن ربقة الدين وأتبع هواه وشكاية عن أفعاله الخارجة عن نظام الشريعة المؤدية إلى ضد مقاصد الشارع. ولا يخفى أنّ مقصوده من ذلك التظلّم والشكاية إقناع الخلق بأن فلاناً ظالم آخذ لما لا يستحقه ليثبتوا على الحق، ويفيئوا إليه وينكسر وهم من عساه ويتوهم أن خصمه على الحق فربما كان بقاء ذلك الوهم سبباً للّحوق به، وذلك بالحقيقة تثبيت على الحق وجذب عن الباطل وهو في نفس الأمر مقصود الشارع وغايته.

وإما إعتذار مما يتخيله الجاهلون في حقه ظلماً وجوراً كاعتذاره عليه السلام عما تخيّله جماعة في حقه ظلماً من القعود عن نصرة عثمان حتى نسبوه إلى أنه قاتله وتظلّمه من ذلك، وكذلك اعتذاره فيما تخيّله الخوارج ذنباً من تحكيم الحكمين وغير ذلك. فإن الإعتذار في هذه المواضع وأمثالها جذب إلى الحق وصرف عن الباطل إذ كان الإعتذار منه طلباً لإقناع من تخيل فيه ظلماً بأنّه ليس كما خيّل إليهم، وأن ما صدر ليس بظلم ولا جور ليفيئوا إلى طاعته والإقتداء به فيما هو عليه من اتباع الحق والنصرة للدين والذب عنه، ومعلوم أن ذلك كله جذب إلى الله سبحانه وإلى أسباب ما يوصل إليه فقد علمت من هذا البيان أن غايته عليه السلام من جميع أقواله إنّما هو توجيه الخلق إلى جناب الله والتفاتهم إلى حضرته القدسية. وهذه هي الغاية التي إتفق عليها الأنبياء والرسل وتطابقت عليها الشرائع والسنن ومن تأمل ما قلناه وترك متابعة هواه وطبق ما أوردناه من القانون الكلي على كلامه علم صحة ما ادّعيناه وبالله التوفيق.

القاعدة الثالثة في بيان أن علياً عليه السلام كان مستجمعاً للفضائل الإنسانية وفيها فصول:

الفصل الأول في فضائله اللاحقة له من خارج: ولنذكر منها وجوهاً (أ) نسبه من رسول الله صلى الله عليه وآله. وهو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً وكان علي عليه السلام أصغر أولادها وعقيل أسنّ منه بعشر سنين وطالب أسن من عقيل بعشر سنين، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النساء وكان صلى الله عليه وآله يكرمها ويدعوها أمه، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها، ويروى أنه نزل لحدها واضطجع معها بعد أن ألبسها قميصه فقال له أصحابه في تخصيصها بذلك فقال إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبّر بي منها وإنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة. وإنما أضطجعت معها لتأمن ضغطه القبر. (ب) سبقه إلى الإسلام وفضيلته في ذلك ظاهرة. (ج) مجاهدته أعداء الله ونصرته للدين وذبّه عنه ومقاماته في ذلك مشهور مأثور تكاد لا تحصى كثرة. (د) تخصيص الرسول صلى الله عليه وآله تزويجه فاطمة دون من خطبها من أكابر المهاجرين والأنصار. (هـ) كون الحسن والحسين اللذين هما سيدا شباب أهل الجنة ولديه فضل عظيم. (و) قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. قيل إنها نزلت في علي عليه السلام، وفي جعل عيسى عليه السلام مثلاً له فضل عظيم، ويؤيد ذلك في قول النبي صلى الله عليه وآله له: لولا أن تقول فيك طوائف أمتي ما قالت النصارى في عيسى لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بعده بملإ منه إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك، وهذا الكلام يقتضي أنه لو وصفه بشيء لما وصفه إلاّ بأوصاف عيسى عليه السلام، التي لأجلها قالت النصارى فيه ما قالوا: (ز) قوله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٨-٩]. اتفق المفسرون على أنها نزلت في علي عليه السلام وأهل بيته وسبب نزولها مشهور في كتب التفسير وغيرها وكفى بذلك شرفاً. (ح) روى أنه لما نزلت ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]. قال النبي صلى الله عليه وآله: اللهم اجعلها أُذن علي؛ ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وآله كان مجاب الدعوة ولذلك قال علي عليه السلام: فما شككت في شيء سمعته بعد ذلك وذلك من أعظم الفضائل. (ط) من طرق الكل قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه: اللهم أدر الحق مع علي حيث دار، ولا شك في إستجابة دعائه، ومن كان الحق وجه أقواله وأفعاله فلا مزيد على فضله. (ي) من طرف الكل قوله صلى الله عليه وآله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي، والإستثناء هنا يشهد بإثبات جميع المنازل التي كانت لهارون من موسى إلاّ النبوة، وما علم نفيه من الأخوة فبقي كونه وزيراً وناصراً وقائماً بناموس الشريعة ومفرعاً لأحكامها الكلية وخليفة له كما كان هارون كذلك ومن هنا تمسكت الشيعة بهذا الخبر في استحقاقه للخلافة وكفى بهذه فضيلة. (يا) من طريق الكل قوله صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعلي مولاه، وسواءٌ كان المراد هَهُنَا بالمولى الأولى بالتصرف أو الناصر فإن الفضل حاصل. (يب) قوله صلى الله عليه وآله في حقه: أقضاكم علي، ولا شك أن القضاء محتاج إلى أنواع العلوم وكفى بشهادة الرسول صلى الله عليه وآله له بذلك فضلاً. (يج) قوله صلى الله عليه وآله أُعطيت جوامع الكلم وأُعطي علي جوامع العلم، وكفى بهذه الشهادة فضلاً. (يد) من طرق الشيعة أنه خوطب بإمرة المؤمنين في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وأنكره المحدثون من غيرهم وروى أحمد في مسنده وفي كتابه في فضائل الصحابة، وكذلك أبو نعيم الحافظ الأصفهاني في كتاب حلية الأولياء أن رسول الله صلى الله عليه وآله خاطبه بيعسوب المؤمنين، واليعسوب أمير النحل وكل ذلك إشارة إلى فضله. (يه) تربية رسول الله صلى الله عليه وآله له من أول عمره إلى أن أعده لأعلى مراتب الكمالات النفسانية قال عليه السلام: في تربية النبي صلى الله عليه وآله واتباعه أثره في خطبة المسماة بالقاصعة وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به من طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم علماً من أخلاقه ويأمرني بالإقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولا يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله. وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة. ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد آيس من عبادته إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنك لست بنبي ولكنك وزير وإنك لعلى خير إلى آخر الكلام. حتى صار بهذه التربية أستاذ العالمين بعده صلى الله عليه وآله في جميع العلوم، وبيان ذلك إما جملة فلقول النبي صلى الله عليه وآله: أنا مدينة العلم وعلي بابها، ولا شك أن المقصود أنه صلى الله عليه وآله هو المنبع الذي تفيض عنه العلوم الإسلامية والأسرار الحكيمة التي اشتمل عليها القرآن الحكيم والسنّة الكريمة وهو مصدرها والمحيط بها لأن شأن المدينة بما تحتوي عليه كذلك، وأن علياً عليه السلام هو المفرع لتلك الأسرار والمهتدي لتفاصيل جملها وأحكامها الكلية بحسب ما له من كمال الحدس وقوة الإستعداد بحيث تصير تلك الأسرار سهلة التناول قريبة المأخذ بسائر الخلق لأن الباب هو الجهة التي منها ينتفع الخلق من المدينة. ويمكنهم تناول ما أرادوه منها.

وأما تفصيلاً فإنا بحثنا العلوم بأسرها فوجدنا أعظمها وأهمها هو العلم الإلهي، وقد ورد في خطبه عليه السلام من أسرار التوحيد والنبوات والقضاء والقدر وأسرار المعاد كما سنبيّنه ما لم يأت في كلام أحد من أكابر العلماء وأساطين الحكمة، ثم وجدنا جميع فرق الإسلام تنتهي في علومهم إليه؛ أما المتكلمون، فإما معتزلة وانتسابهم إليه ظاهر فإن أكثر أصولهم مأخوذة من

ظواهر كلامه في التوحيد والعدل، وأيضاً فإنهم ينتسبون إلى مشايخهم كالحسن البصري وواصل بن عطا، وكانوا منتسبين إلى علي عليه السلام ومتلقفين عنه العلوم، وإما أشعرية ومعلوم أنّ أستاذهم أبو الحسن الأشعري وقد كان تلميذاً لأبي علي الجبائي وهو من مشايخ المعتزلة، إلاّ أنه تنبه لما وراء أذهان المعتزلة فخالف أستاذه في مواضع تعلّمها من مذهبه.

وأما الشيعة فانتسابهم إليه ظاهر فإنهم يتلقفون العلوم عن أئمتهم وأئمتهم يأخذ بعضهم عن بعض إلى أن ينتهي إليه وهو إمامهم الأول.

وأما الخوارج فهم وإن كانوا في غاية من البعد عنه إلاّ أنهم ينتسبون إلى مشايخهم وقد كانوا تلامذة علي عليه السلام وأما المفسرون فرئيسهم ابن عباس (رضي الله عنه) وقد كان تلميذ علي عليه السلام.

وأما الفقهاء فمذاهبهم المشهورة أربعة: أحدها مذهب أبي حنيفة ومن المشهور أنّ أبا حنيفة قرأ على الصادق عليه السلام وأخذ عنه الأحكام وانتهاء الصادق عليه السلام إلى علي عليه السلام ظاهر، الثاني مذهب مالك وقد كان مالك تلميذ ربيعة الرأي وربيعة تلميذ عكرمة، وعكرمة تلميذ عبدالله بن عباس وكان تلميذاً لعلي عليه السلام. الثالث مذهب الشافعي، وقد كان الشافعي تلميذاً لمالك. الرابع مذهب أحمد بن حنبل، وكان أحمد تلميذ الشافعي فرجع انتساب فقه الجميع إلى علي عليه السلام ومما يؤيد كماله في الفقه قول الرسول صلى الله عليه وآله: أقضاكم علي والأقضا لا بد وأن يكون أفقه وأعلم بقواعد الفقه وأصوله، وأما الفصحاء فمعلوم أنّ جميع من ينسب إلى الفصاحة يملأون أوعية أذهانهم من ألفاظه ويضمنونها كلامهم وخطبهم فتكون منها بمنزلة ورد العقود كابن نباته وغيره والأمر في ذلك ظاهر، وأما النحويون فأول واضع للنحو هو أبو الأسود الدُؤلي. وكان ذلك بإرشاده له إلى ذلك، وبداية الأمر أن أبا الأسود سمع رجلاً يقرأ «إن الله بريء من المشركين ورسوله» بالكسر فأنكر ذلك وقال نعوذ بالله من الجور بعد الكور أي من نقصان الإيمان بعد زيادته وراجع علياً عليه السلام في ذلك فقال له نحوت أن أضع للناس ميزاناً يقوّمون به ألسنتهم فقال له عليه السلام: أنح نحوه وأرشده إلى كيفية ذلك الوضع وعلمه إيّاه وأما علماء الصوفية وأرباب العرفان فنسبتهم إليه في تصفية الباطن، وكيفية السلوك إلى الله تعالى ظاهرة الإنتهاء، وأما علماء الشجاعة والممارسون إيّاه للأسلحة والحروب فهم أيضاً ينتسبون إليه في علم ذلك فثبت بذلك أنه كان أستاذ الخلق وهاديهم إلى طريق الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ومناقبه وفضائله أكثر من أن تحصى وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في بيان فضائله النفسانية وهي إما أن يعتبر بالنسبة إلى قوته النظرية وإلى قوته العملية فإذن هٰهُنَا بحثان:

البحث الأول: في أنه عليه السلام كان مستجمعاً لكمال قوته النظرية قد علمت أن كمال القوة النظرية، إنما هو باستكمال الحكمة النظرية وهي استكمال النفس الإنسانية بتصور المعارف الحقيقية والتصديق بالحقائق النظرية بقدر الطاقة البشرية، ولا شك أن هذه الدرجة كانت ثابتة له عليه السلام. وبيان ذلك ببيان أنه عليه السلام كان سيد العارفين بعد سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وأنه كان متسنماً لدرجة الوصول، وتحقيق ذلك أنه قد ثبت في علم كيفية السلوك أن وصول العارف إنما يحق إذا غاب عن نفسه فلحظ جناب الحق من حيث إنه هو فقط وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظ لا من حيث هي متزينة بزينة الحق. ثم إنه قد وجد في كلامه وإشاراته ما يستلزم حصول هذه المرتبة له، ولنذكر منها مواضع ثلاثة، الأول قوله عليه السلام لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً؛ وقد عرفت أن ذلك إشارة إلى أن الكمالات النفسانية المتعلقة بالقوة النظرية قد حصلت له بالفعل وذلك يستلزم تحقق الوصول التام الذي ليس في قوة الأولياء نيله، الثاني قوله عليه السلام حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حقه إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلاّ أنك لست بنبي. ولا إشكال في أن النبي صلى الله عليه وآله كان له الإتصال التام بالحق تعالى، فكان هذا الاتصال والوصول حاصلاً لعلي عليه السلام بمقتضى شهادة الرسول وإن كان التفاوت بين المرتبتين قائماً لأن للإتصال بالجناب الأقدس درجات لا تتناهى ولذلك قال

إلاّ أنك لست بنبي، وستعلم من تفاصيل كلامه عند الإنتهاء إليه تحقق هذه المرتبة له.

الثالث قوله عليه السلام إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رغبة في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك، وجه الإستدلال أنه حذف كل قيد دنياوي وأخروي عن درجة الإعتبار سوى الحق تعالى. وذلك مما يتحقق له الوصول، ومما يؤيد ذلك أننا سنبيّن إن شاء الله تعالى تمكنه عليه السلام من الكرامات وصدورها عنه وذلك من خواص الواصلين.

البحث الثاني: في بيان كماله في قوته العلمية، وكما علمت أنّ كمال القوة النظرية إنما هو باستكمال الحكمة النظرية فكذلك كمال القوة العملية إنما هو باستكمال الحكمة العملية وهي استكمال النفس بكمال الملكة التامة على الأفعال الفاضلة، حتى يكون الإنسان ثابتاً على الصراط المستقيم متجنباً لطرفي الإفراط والتفريط في جميع أفعاله ثم قد ثبت في علم الأخلاق أن أُصول الفضائل الخلقية ثلاثة أحدها الحكمة الخلقية وهي الملكة التي تصدر عنها الأفعال المتوسطة بين الجربذة والغباوة، اللّذين هما طرفا الإفراط والتفريط، وأنت تعلم من تصفح أفعاله وأقواله وتدابيره في أمور الحرب ونظام أمور العالم ما تضطر معه إلى الحكم بأنه كان مستلزماً لهذه الفضيلة وغير واقف دونها في حدّ الغباوة ولا متجاوز لها إلى طرف الجربذة. لأن خبث المتجربذ يمنعه عن الترقي إلى درجة الكمال ويأبى طبعه إلاّ الشر.

وثانيها العفة وهي الملكة الصادرة عن اعتدال حركة القوة الشهوية بحسب تصريف العقل العملي لها على قانون العدل، وبها تصدر الأفعال المتوسطة بين الجمود والفجور الذين هما طرفا الإفراط والتفريط ونبيّن أن هذه الملكة كانت ثابتة له عليه السلام من وجهين الأول: أنه كان أزهد الخلق في الدنيا بعد الرسول صلى الله عليه وآله. وفيما عدا القبلة الحقيقية وأقدر على حذف الشواغل الملفتة عن لقاء الله وكل من كان كذلك كان مالكاً لهواه مصرفاً لشهوته بيد عقله. أما المقدمة الأولى فمعلومة بالتواتر. وأمّا الثانية فضرورية أيضاً.

الثاني قول النبي صلى الله عليه وآله: اللهم أدر الحق مع علي حيث دار، ولا شك في استجابة دعائه ومن كان الحق لازماً لحركاته وتصرفاته استحال أن يلزمها باطل لأنّ الأمر الواحد لا يلزمه لازمان مختلفان فاستحال أن يكون متبعاً للهوى البتة وهو معنى العفة، ومما يؤكد حصول هذه الملكة ما روي أنه عليه السلام ما شبع من طعام قطّ وأنه كان من أخشن الناس ملبساً ومأكلاً يقنع بقرص الشعير ولا يأكل اللحم إلاّ نادراً وكان يقول: لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان، ويقصد بذلك التنفير عنه وكل ذلك زهادة في الدنيا ولذاتها.

وثالثها الشجاعة وهي الملكة الحاصلة للنفس عن اعتدال القوة الغضبية بحسب تصريف العقل فيما يضبطه لها، وبها تصدر الأفعال المتوسطة بين أفعال الجبن والتهور، وثبوت هذه الفضيلة له عليه السلام معلوم بالتواتر حتى صارت شجاعته يضرب بها المثل مبالغة في حق الرجل الشجاع، وإذا عرفت أن هذه الملكات الثلاث ثابتة له كأتم ما يمكن وثبت أنها مستلزمة لفضيلة العدالة ثبت أن فضيلة العدالة ثابتة له. وأما باقي أقسام الحكمة العملية كالحكمة السياسة والمنزلية، فقد علمت أن فائدتهما أن يعلم الإنسان وجه المشاركة التي ينبغي أن تكون من أشخاص الناس ليتعاونوا على مصالح الأبدان، ونظام مصالح المنزل والمدينة.

وقد كان عليه السلام في ذلك سبّاق غايات وصاحب آيات، ويكفيك في معرفة ذلك منه أما على سبيل الجملة فلأن الشريعة المصطفوية سلام الله على شارعها واردة بمقاصدها بين الحكمتين على أتمّ الوجوه وأكملها بحيث يرجع أكابر الحكماء إليها في تعلّمها، ومعلوم أن علياً عليه السلام كان متمسكاً ومقرراً لها وباسطاً لأحكامها الكلية ومفصلاً لإشاراتها الجملية لم يغيّر منها حرفاً، ولم يقف فيها دون غاية وذلك يستلزم ثبوتهما له على أكمل وجه وأتمه.

وأما على سبيل التفصيل فعليك في معرفة أنه كان أكمل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا العلم بمطالعة كتبه وعهوده إلى عمّاله وولاته وأمرائه وقضاته خصوصاً العهد الذي كتبه للأشتر النخعي. فإنّ فيه من

لطائف تدبير أمر المدنية ونظام أحوال الخلق ما لا يهتدي لحسنه ولا يوجد عليه مزيد في هذا الباب، هذا مع ما تواتر من رجوع أكابر الصحابة المعترف بحسن تدبيرهم وإيالتهم إلى استشارته في أمورهم وتعرف كيفية تدبير العساكر والحروب والمصالح الكلية، والجزئية منه في مواضع كثيرة تعلمها في هذا الكتاب وفي غيره كرجوع عمر إلى رأيه في الخروج مع المسلمين إلى غزو الروم، وغير ذلك مما هو مشهور مأثور وما أشار عليهم به من الآراء الكافلة بحسن التدبير والإيالة الوافية بنظام الحركات المدنية كما ستعلم إن شاء تعالى وبالله التوفيق.

الفصل الثالث في صدور الكرامات عنه وفيه بحثان:

البحث الأول: في إخباره عن الأمور الغيبية والنظر إما في إمكان ذلك أو في سببه أو في وقوعه منه فهيهنا إذن ثلاثة مقامات.

المقام الأول في إمكانه: يجب عليك أيها الأخ المتلقي لنفحات الله إذا ذكر أن خليفة من خلفاء الله أو ولياً من أوليائه أخبر عن أمر سيكون مبشراً به أو منذراً مما لا تفي تدركه قوتك وأنت أنت فالصواب أن لا تبادر إلى التكذيب بأمثال ذلك وتستنكره، فإنك عند مراجعة عقلك وتصفحك لأحوال نفسك تجد كل ذلك ممكناً وإليه سبيلاً. بيان ذلك أن معرفة الأمور الغيبية في النوم ممكنة فوجب أن تكون في اليقظة كذلك. أما الأول فلأن الإنسان كثيراً ما يرى في نومه شيئاً ويقع بعده. أما صريح تلك الرؤيا أو تعبيرها وذلك يوضح ما قلنا إما في حق الرائي ظاهر، وإما من لم يرزق ذلك في حال النوم فإنه يعلمه بالتواتر من أكثر الخلق. وأما الثاني فلأن ذلك لما صح في حال النوم لم يكن الجزم بامتناعه حال اليقظة، فإن الناس لو لم يجربوا ذلك في حال النوم لكان استبعادهم له في تلك الحال أشد من استبعادهم لوقوعه في حال اليقظة، فإنه عند عدم التجربة لو قيل لإنسان إن جماعة من الأولياء اجتهدوا في تلويح مفكراتهم الصافية حال ما هم أيقاظ في تحصيل حكم غيبي فعجزوا. ثم إن واحداً من الكفّار لما نام وصار كالميت حصل له ذلك الحكم فلا بد وأن يكذب بذلك ويستنكره لعدم حصوله مع كمال الحركة وسلامة الحواس عن العطلة وكمال العبادة، وحصوله مع أضداد ذلك فقد بان بذلك أنه لما كان في حال النوم ممكناً كان في حال اليقظة كذلك.

وأما المقام الثاني وهو بيان السبب في الإطلاع على الأمور الغيبية: فأما في حال النوم فهو أنه قد ثبت في العلم الإلهي أن جميع الأمور التي يصدق عليها أنها كانت أو ستكون معلومة لله تعالى، وثبت أن النفس الإنسانية من شأنها الإتصال بجناب الله تعالى وإنما يعوقها عن ذلك استغراقها في تدبير البدن. فإذا حصل لها أدنى فراغ من ذلك كما في حال النوم وانغلقت عنها أبواب الحواس الظاهرة رجعت بطباعها إلى الإتصال بالجناب المقدس فينطبع فيها من الصور الحاصلة هناك ما هو أليق بها من أحوالها وأحوال ما يقرب منها من الأهل والولد وما يهتم به، ثم إن المتخيّلة التي من طباعها المحاكاة تحاكي تلك المعاني الكلية الحاصلة للنفس وتمثّلها بصورة جزئية وتخطها إلى لوح الخيال للصور فتبقى تلك الصورة شاهدة للحس المشترك.

ثم إن كانت المناسبة حاصلة بوجهٍ ما كما إذا تصوّر المعنى بصورة ضده أو لازم من لوازمه احتيج حينئذٍ إلى التعبير، وفائدة التعبير التحليل ورجوع الفكر بالعكس من الصورة الخيالية إلى المعنى النفساني، وإن لم تكن هناك مناسبة أصلاً كانت الرؤيا أضغاث أحلام. وأما في حال اليقظة فالسبب في ذلك هو أن النفس الناطقة متى قويت وكانت وافية بضبط الجوانب المتجاذبة، ولم يكن اشتغالها بتدبير البدن عائقاً لها عن ملاحظة مبادئها والإتصال بالحضرة الإلهية، وكانت المتخيلة بحيث تقوى على استخلاص الحس المشترك وضبطه عن الحواس الظاهرة، فإن النفس والحال هذه إذا توجهت إلى الجناب المقدس لاستعلام ما كان أو ما سيكون أُفيضت عليها الصور الكلية لتلك الأمور، ثم إن النفس تستعين في ضبط تلك الأمور الكلية بالقوة المتخيّلة فتحاكي تلك المعاني بما يشبهها من الأمور المحسوسة ثم تحطه إلى خزانة الخيال فيصير مشاهداً للحسّ فربما سمع الإنسان كلاماً منظوماً وشاهد منظراً بهياً يخاطبه

بكلام فيما يحبه من أفعاله، فإن كان لا تفاوت بين تلك المعاني والصور إلاّ في الكلية والجزئية، كان ذلك وحياً صريحاً وإلهاماً وإلاّ احتاج إلى التأويل.

وأما المقام الثالث: وهو صدور الإخبار بالأمور الغيبية عنه فستعلمها في مواضع كثيرة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى لا يقال: لا نسلم أن ذلك علم ألهمه الله إيّاه وأفاضه عليه بل الرسول ﷺ أخبره بوقائع جزئية من ذلك وحينئذ لا يبقى بينه وبين غيره فرق في هذا المعنى. فإن الواحد منّا لو أخبره الرسول ﷺ بشيء من ذلك لكان له أن يحكي ما قال الرسول، وأن وقع المخبر به على وفق قوله، ويدل على ذلك قوله بعد وصف الأتراك وقد قال له بعض أصحابه في ذلك المقام: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فضحك وقال لرجل وكان كلبياً: يا أخا كلب ليس هذا بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] من ذكر وأنثى وقبيح وجميل وشقي وسعيد ومن يكون للنار حطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله وما سوى ذلك فعلم علّم الله نبيه ﷺ فعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي. وهذاتصريح بأنه تعلم من رسول الله ﷺ لأنا نقول: إنا لم ندّع أنه عليه السلام يعلم الغيب بل المدعى أنه كانت لنفسه القدسية استعداد أن تنتقش بالأمور الغيبية عن إفاضة جود الله تعالى، وفرق بين الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وبين ما ادّعيناه، فإن المراد بعلم الغيب هو العلم الذي لا يكون مستفاداً عن سبب يفيده، وذلك إنما يصدق في حق الله تعالى إذ كل علم لذي علم عداه فهو مستفاد من جوده، إما بواسطة أو بغير واسطة، فلا يكون علم غيب وإن كان اطلاعاً على أمر غيبي لا يتأهل للإطلاع عليه كل الناس بل يختص بنفوس خصت بعناية إلهية كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

فإذا عرفت ذلك ظهر أن كلامه عليه السلام صادق مطابق لما أردناه فإنه نفى أن يكون ما قاله علم غيب لأنه مستفاد من جود الله تعالى، وقوله وإنما هو تعلم من ذي علم إشارة إلى وساطة تعليم الرسول له وهو إعداد نفسه على طول الصحبة بتعليمه وإشارة إلى كيفية السلوك وأسباب التطويع والرياضة حتى استعد للإنتقاش بالأمور الغيبية والإخبار عنها، وليس التعليم هو إيجاد العلم وإن كان أمراً قد يلزمه إيجاد العلم فتبيّن إذن أن تعليم رسول الله ﷺ له لم يكن مجرد توقيفه على الصور الجزئية بل إعداد نفسه بالقوانين الكلية، ولو كانت الأمور التي تلقاها عن الرسول ﷺ صوراً جزئية لم يحتج إلى مثل دعائه في فهمه لها فإن فهم الصور الجزئية أمر ممكن سهل في حق من له أدنى فهم وإن ما يحتاج إلى الدعاء وإعداد الأذهان له بأنواع الإعدادات هو الأمور الكلية العامة للجزئيات وكيفية انشعابها عنها وتفريعها وتفصيلها وأسباب تلك الأمور المعدة لإدراكها، ومما يؤيد ذلك قوله عليه السلام علّمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم فانفتح لي من كل باب ألف باب، وقول الرسول ﷺ: أعطيت جوامع الكلم وأعطي علي جوامع العلم، والمراد بالإنفتاح ليس إلاّ التفريع وانشعاب القوانين الكلية عما هو أهم منها وبجوامع العلم، ليس إلاّ ضوابطه وقوانينه، وفي قوله وأعطي بالبناء للمفعول دليل ظاهر على أن المعطي لعلي جوامع العلم ليس هو النبي، بل الذي أعطاه ذلك هو الذي أعطى النبي ﷺ جوامع الكلم وهو الحق سبحانه وتعالى.

وأما الأمور التي عددها الله سبحانه فهي من الأمور الغيبية، وقوله لا يعلمها أحد إلاّ الله كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وهو محتمل للتخصيص كما في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] وهذا الأمر واضح لا يحتاج العاقل في استكشافه إلى كلفة، وسيجيء في أثناء الشرح ما يزيد ذلك وضوحاً إن شاء الله تعالى.

البحث الثاني: في بيان صدور الأفعال الخارقة للعادة عنه والنظر إما في إمكان ذلك أو في سببه أو في نفس وقوعه منه.

المقام الأول في إمكانه أسبابه: واجب على من أهّله الله سبحانه لاستشراق أنواره إذا سمع أن ولياً من الأولياء أتى بفعل ليس في وسع غيره من أبناء نوعه الإتيان بمثله، كالإمساك عن الطعام المدّة المديدة التي ليست في وسع أبناء نوعه، وكالتحريك على الحركة الخارجة عن وسع مثله كما يشاهد من طوفانات تقع باستدعائهم وزلازل واستنزال عقوبات، وخسف قوم حق عليهم القول، واستشفاء المرضى، واستسقاء العطشى، وخضوع عجم الحيوانات وغيرها أن لا يبادر إلى التكذيب فإنه عند الإعتبار يجد تلك الأمور ممكنة في الطبيعة.

أما الإمساك عن القوت فتأمل إمكانه فينا بل وجوده عند عروض عوارض غريبة لنا إما بدنية كالأمراض الحادة. وإما نفسانية كالخوف والغم، وسبب الإمساك في حال المرض. أما في الأمراض البدنية، فإن القوى الطبيعية تشتغل بهضم المواد الرديئة عن تحريك المواد المحمودة فتجد المواد المحمودة حينئذ محفوظة قليلة التحلل غنية عن طلب البدل لما يتحلل، فربما انقطع الغذاء عن صاحبها مدة لو انقطع مثله عنه في غير حالته تلك عشر تلك المدة هلك وهو مع ذلك محفوظ الحياة. وأما النفسانية فإنه قد يعرض بعروض الخوف للخائف سقوط الشهود وفساد الهضم والعجز عن الأفعال الطبيعية التي كان متمكناً منها قبل الخوف لوقوف القوى الطبيعية عن أفعالها بسبب اشتغال النفس بما أهمها عن الإلتفات إلى تدبير البدن، وإذا عرفت إمكان ذلك بسبب العوارض الغريبة فاعلم أن سبب تحققه في حق العارف هو توجه نفسه بالكلية إلى عالم القدس المستلزم لتشييع القوى البدنية لها؛ وذلك أن النفس المطمئنة إذا راضت القوى البدنية انجذبت القوى خلفها في مهماتها التي تنزعج إليها واشتداد ذلك الإنجذاب بشدة الجذب فإذا اشتد الإشتغال عن الجهة المولى عنها وقفت الأفعال الطبيعية المتعلقة بالقوة النباتية، فلم يكن من التحليل إلاّ دون ما يكون في حال المرض لإختصاص المرض في بعض بما يقتضي الإحتياج إلى الغذاء كتحلل رطوبات البدن بسبب عروض الحرارة الغريبة المسماة بسوء المزاج الحار، لأن الغذاء إنما يكون لسدّ بدل ما يتحلل من تلك الرطوبات، وشدة الحاجة إلى الغذاء إنما بحسب كثرة التحليل وكقصور القوى البدنية بسبب المرض المضاد له، وإنما الحاجة إلى حفظ تلك الرطوبات لحفظ تلك القوى إذا كانت مادة الحرارة الغريزية المقتضية لتعادل الأركان الذي لا تقوم تلك القوى إلاّ معه وشدة الحاجة إلى ما يحفظ تلك القوى إنما هي بحسب شدة فتورها.

وأما العرفان فإنه مختص بأمر يوجب الإستغناء عن الغذاء وهو سكون البدن عند إعراض القوى البدنية عن أفعالها حال متابعتها للنفس وانجذابها خلفها حال توجيهها إلى الجناب المقدس، وتطعمها بلذة معرفة الحق وإليه الإشارة بقوله: لست كأحدكم أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، وإذا عرفت ذلك ظهر أن المرض وإن اقتضى الإمساك الخارق للعادة إلاّ أن العرفان بذلك الإقتضاء أولى.

وأما القدرة على الحركة التي تخرج عن وسع مثله فهي أيضاً ممكنة؛ وبيانها أنك علمت أن مبدأ القوى البدنية هو الروح الحيواني فالعوارض الغريبة التي تعرض للإنسان تارة يقتضي انقباض الروح بحركة إلى داخل كالخوف والحزن يقتضي انحطاط القوة وسقطوها، وتارة يقتضي حركة إلى خارج كالغضب وانبساطاً معتدلاً كالفرح المطرب والإنتشار المعتدل وذلك يقتضي ازدياد القوة ونشاطها، وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه لما كان فرح العارف ببهجة الحق أعظم من فرح من عداه بما عداها وكانت الغواش التي تغشاه وتحركه اعتزازاً بالحق ربانية أعظم مما يعرض لغيره لا جرم كان اقتداره على حركة غير مقدورة لغيره أمكن.

وأما السبب في الأمور الباقية فهو أنه قد ثبت في غير هذا الموضع أن تعلق النفس بالبدن ليس تعلق انطباع فيه إنما هو على وجه أنها مدبرة له مع تجرّدها، ثم إنّ الهيئات النفسانية قد تكون مبادئ لحدوث الحوادث؛ وبيانه أما أولاً فلأنك تشاهد إنساناً يمشي على جذع ممدود على الأرض ويتصرف عليه كيف شاء، ولو عرض ذلك الجذع بعينه على جدار عال لوجدته عند

المشي عليه راجفاً متزلزلاً يواعده وهمه بالسقوط، مرة بعد أخرى لتصوّره وانفعال بدنه عن وهمه حتى ربما سقط.

وأما ثانياً فلأن الأمزجة تتغير عند العوارض النفسانية كثيراً، كالغضب والخوف والحزن والفرح وغير ذلك وهو ضروري.

وأما ثالثاً فلأن توهم المرض أو الصحة قد يوجب ذلك وهو أيضاً ضروري. إذاً عرفت ذلك فنقول: إنه لما كانت الأمزجة قابلة هذه الإنفعالات عن هذه الأحوال النفسانية فلا مانع أن يكون لبعض النفوس خاصية لأجلها تتمكن من التصرف في عنصر هذا العالم بحيث تكون نسبتها إلى كلية العناصر كنسبة أنفسنا إلى أبداننا، فيكون لها حينئذ تأثير في إعداد المواد العنصرية، لأن يفاض عليها صور الأمور الغريبة التي تخرج عن وسع مثلها فإذا انضمت إلى ذلك الرياضات فانكسرت صورة الشهوة والغضب وبقيتا أسيرتين في يد القوة العاقلة. فلا شك أنها حينئذ تكون أقوى على تلك الأفعال، وتلك الخاصية إما بحسب المزاج الأصلي، أو بحسب مزاج طار غير مكتسب أو بحسب الكسب والاجتهاد في الرياضة وتصفية النفس، والذي تكون بحسب المزاج الأصلي فذو المعجزات من الأنبياء أو الكرامات من الأولياء. فإن انضم إليها الإجتهاد في الرياضة بلغت الغاية القصوى في ذلك الكمال، وقد يغلب على مزاج من له هذه الخاصية أن يستعملها في طرف الشر، وفي الأمور الخبيثة، وكان يزكي نفسه كالساحر فيمنعه خبثه عن الترقي إلى درجة الكمال. واعلم أنّ الشروط الأولى للنبوة أن يكون الشخص مأموراً من السماء بإصلاح النوع ثم من لواحق مرتبة الأولياء أمور.

الأول: أن يستغنوا في أكثر علومهم من معلم بشري بل يحصل لهم بحسب قواهم الحدسية الشريفة البالغة وشدة اتصال نفوسهم بالحق سبحانه.

الثاني: أن يكون هيولى العالم طوعاً لما أرادوا من الأمور العجيبة الخارقة للعادة كالخسف والتحريكات والتسكينات.

الثالث: أن يتمكنوا من الإخبار عن المغيبات والأمور الجزئية الواقعة إما في الماضي أو في المستقبل، والشرط الأول وهو العمدة في تمييز درجة الأنبياء عن غيرهم ولا شك أن اختصاصهم به إنما هو لشدة اتصالهم. فإذن هم أشد اتصالاً بالمبدأ الأول، وأكمل قوة من غيرهم، وكذلك اختلاف مراتبهم عائد أيضاً إلى تفاوت نفوسهم في قربها من البدء واتصالها به.

وأما باقي الخصال فقد يشاركهم فيها الأولياء ويجتمع فيهم، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، وكان التفاوت بين المعجزة والكرامة. إنما يرجع إلى أن الخصال المذكورة إن صدرت عمن له الشرط الأول سمّيناها معجزاً وإن صدرت عن غيرهم كانت في حقه كرامة وتحقيق هذه المباحث مبنيّ على مقدمات وأصول ليس هذا موضع ذكرها فليطلب ذلك من مظانها وبالله التوفيق.

المقام الثاني في وقوع الفعل الخارق عنه عليه السلام:

واعلم أن الطريق إلى ذلك هو النقل، وقد نقل عنه ذلك في صور ثبت بعضها بحسب التواتر وبعضها بخبر الآحاد. فمن الأمور الخارقة المنقولة عنه بحسب التواتر قلعه لباب خيبر لما انتهى إليه، وكان من صخرة واحدة يعجز الجماعة عن تحريكه. وروى في كيفيّة حاله في ذلك أنه لما اقتلعه رمى به أذرع واجتمع عليه سبعون رجلاً، وكان جهدهم أن عادوه إلى مكانه. وروى أنه قال: عالجت باب خيبر وجعلته مجنّاً لي وقاتلت فلما أخزاهم الله وضعت الباب على حصنهم طريقاً ثم رميت به في خندقهم فقال له رجل: لقد حملت يا أمير المؤمنين منه ثقلاً فقال: ما كان إلاّ مثل جنتي التي في يدي في غير ذلك المقام، ومعلوم أن ذلك لم يصدر عن قوة بدنية، وإلاّ لقدر على ذلك من هو أقوى صورة منه ولذلك قال عليه السلام: ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية، ولكن قلعته بقوة ربانية، وللشعراء في هذه الآية أشعار كثيرة، والقصة مشهورة فهذا القدر يكفينا في بيان فضائله عليه السلام وعليك في باقي الأمور المنقولة عنه في ذلك بالكتب المصنفة في بيان معجزات الأنبياء

وكرامات الأولياء، ولقد اجتهد بنو أميّة في إخفاء فضائله وإطفاء نوره بالتحريف ووضع المعائب والمثالب حتى سبّوه على جميع المنابر، ومنعوا أن يروى حديث يتضمن له فضيلة وأن يسمى باسمه أحد فلم يزدد بذلك الإخفاء إلاّ ظهوراً، ولم يثمر ذلك الإطفاء إلاّ نوراً ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] وكان مولده عليه السلام قبل ظهور دعوة النبي صلى الله عليه وآله بثلاث عشرة سنة، وقيل إثنتي عشرة سنة وقيل عشر سنين، وقتل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقين من شهر رمضان من سنة أربعين من هجرة الرسول بجامع الكوفة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، فهذا ما أوردنا من هذه المقدمة، ولنشرع بعدها في تقرير المطالب وقبله نذكر نسب السيد الرضي الدين ونبين ما عساه أن يشكل من لفظه في خطبة الكتاب أما نسبه، فهو السيد الشريف رضيّ الدين ذو الحسبين محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وصف بذي الحسبين لاجتماع أصله الفاخر الذي هو منبع الحسب مع فضيلة نفسه وكمالها بالعلم والأدب، وكان مولده ببغداد سنة تسع وخمسين وثلاث مائة وتوفي في المحرم سنة ست وأربع مائة بالكرخ من بغداد. ودفن مع أخيه المرتضى في جوار جده الحسين عليه السلام .

خطبة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد حمد الله الذي جعل الحمد ثمناً لنعمائه ومعاذاً من بلائه، ووسيلاً إلى جنانه، وسبباً إلى زيادة إحسانه، والصلاة على رسوله نبي الرحمة، وإمام الأئمة، وسراج الأمة، المنتخب من طينة الكرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق، وعلى أهل بيته مصابيح الظلم، وعصم الأمم، ومنار الدين الواضحة، ومثاقيل الفضل الراجحة صلّى الله عليهم أجمعين صلاة تكون إزاءً لفضلهم، ومكافأة لعملهم، وكفاء لطيب فرعهم وأصلهم. ما أنار فجر ساطع، وخوى نجم طالع، فإنّي كنت في عنفوان السن، وغضاضة الغصن ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام ، وعاقت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان، وكنت قد بوبت ما خرج من ذلك أبواباً، وفصّلته فصولاً، فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجبين ببدائعه، ومتعجبين من نواصعه، وسألوني عنه ذلك أن أبتدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه، متشعبّات غصونه من خطب وكتب، ومواعظ وآداب علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية، والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتأخروا؛ لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي، ومذخور الأجر، واعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفضيلة مضافة إلى المحاسن الدثرة، والفضائل الجمة، وأنه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها من جميع السلف الأولين الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه عليه السلام فهو البحر الذي لا يساجل، والجمّ الذي لا يحافل، وأردت أن يسوغ لي التمثيل في الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة أولها الخطب، والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها

الحكم والمواعظ، فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الإبتداء باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصلاً فيه أوراقاً لتكون لإستدراك ما عساه يشذ عني عاجلاً ويقع إليّ آجلاً، وإذا جاء شيء من كلامه الخارج في أثناء حوار أو جواب كتاب (سؤال: ن خ) أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها، وقررت القاعدة عليها نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدها ملامحة لغرضه، وربما جاء فيما اختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة، لأني أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالي والنسق، ومن عجائبه عليه السلام التي انفرد بها، وأمن المشاركة فيها أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل، وفكّر فيه المتفكر، وخلع من قبله أنه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه، لم يتعرضه الشك في أنه من كلام من لا حظّ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة قد قبع في كسر بيت، أو انقطع إلى سفح جبل لا يسمع إلاّ حسه ولا يرى إلاّ نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه فيقطّ الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال، وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد، وألّف بين الأشتات وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها، وربما جاء في أثناء هذا الإختيار اللفظ المردّد، والمعنى المكرر، والعذر في ذلك أن روايات كلامه عليه السلام تختلف اختلافاً شديداً فربما اتفق الكلام المختار في رواية فنقل على وجهه، ثمّ وجد بعد ذلك في رواية أُخرى موضوعاً غير موضعه الأول إما بزيادة مختارة أو لفظ أحسن عبارة، فتقتضي الحال أن يعاد استظهار للإختيار، وغيرة على عقائل الكلام، وربما بعد العهد أيضاً بما اختير أولاً فأُعيد بعضه سهواً أو نسياناً لا قصداً واعتماداً، ولا أدعي مع ذلك أني أُحيط بأقطار جميع كلامه عليه السلام، حتى لا يشذّ عني منه شاذ ولا يندّ ناد بل لا أبعد أن يكون القاصر عني فوق الواقع إليّ، والحاصل في ربقتي دون الخارج من يدي، وما عليَّ إلا بذل الجهد، وبلاغ الوسع، وعلى الله سبحانه نهج السبيل، ورشاد الدليل إن شاء الله. ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب بنهج البلاغة إذا كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طلاّبها، وفيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه من شبه الخلق ما هو بلال كل غلة، وشفاء كل علّة، وجلاء كل شبهة، ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، وأنتجز التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان قبل خطأ اللسان، ومن زلّة الكلم قبل زلّة القدم، وهو حسبي ونعم الوكيل.

أقول: أما حرف يبتدأ به الكلام المقسم إلى قسمين أو أكثر وتصدر به الجمل فتخصص معه كل واحدة بحكم ليس للأخرى، فقوله أما بعد حمد لله هو الجزء الثاني من الكلام، وتقدير الكلام مع الجزء الأول إما قبل الشروع في المطلوب فالحمد لله، وإما بعد حمد الله فإني كنت في عنفوان السن، وإنما حذف الجزء الأول اختصاراً للكلام؛ وإيجازاً له. ثم استمر ذلك الحذف، وحسن استعماله في الكلمات الخطابية وغيرها حتى صار إظهار المحذوف هَهُنَا مستهجناً بقدر ما يستحسن الحذف، وقال سيبويه: إنه مع الجملة التي يدخل عليها في قوّة شرطي متّصل فقال: إذا قلت أمّا زيد فمنطلق: فكأنّك قلت مهما يكن من شيء فزيد منطلق ونبّه على ذلك بلزوم الفاء بجوابها، وجعل فيها الكلام مشتملاً على جملتين شرط وجزاء والمذكور هَهُنَا ليس إلاّ الجملة الجزائيّة وأما الشرط فمحذوف للاختصار، وهذا الحرف ينوب عنه كما ناب يا للنداء مناب أدعو ونعم مناب الجواب، وإنّما زحلفت الفاء عن موضعها وهو المبتدأ إلى الخبر لئلاّ يقع في صدر الكلام مع أنّ حقّها التوسط ما بين مفردين أو جملتين، وقوله بعد ظرف يستدعي متعلّقاً وتقديره، وأمّا قولي بعد حمد الله فهو كذا وكذا والحمد لفظ مشكّك يصدق على معنى الشكر الذي هو الاعتراف بالنعمة المتقدّمة والثناء والتعظيم

لربّها من الشاكر وعلى الثناء المطلق ابتداء والتعظيم لغير المحسن إلى المحامد إذا رأى منه فعلاً جميلاً دون أن يكون في حقه فهو إذن أعمّ من الشكر وهو أخصّ من المدح لاختصاص إطلاقه في حق العقلاء دون غيرهم إذ يقال مدحت الفرس ولا يقال حمدته، والمعاذ الملجأ، والوسيل جمع وسيلة وهي كلّ ما قرّبك إلى الله تعالى أو إلى غيره، والصلاة لفظ مشترك بين معان وهو من الله تعالى رحمة، والنبيّ مأخوذ إمّا من النبوّة والنباءة وهي الارتفاع لكونه مرتفعاً على الخلق رئيساً لهم فيكون أصله غير الهمزة، وإمّا من النبأ وهو الخبر لأنّه يخبر عن الله تعالى، والأمّة الجماعة، والمنتجب المستخلص المصطفى، وسلالة الشيء ما استلّ منه واستخرج والنطفة سلالة الإنسان ومنه السليل للولد، والمجد في الأصل الكرم والمجيد الكريم وكذلك الماجد، وأعرق الرجل إذا صار عريقاً وهو الذي له عرق في الكرم وأصل، والعصم جمع عصمة وهي المنع وفلان عصمة الخلق إذا منع الأذى عنهم وحماهم منه، والمنار علم الطريق وهو لفظ مفرد وأصل ألفه الواو وقد يستعمل جمعاً لمنارة كما أراده الرضيّ هنا ولذلك أنّث صفته، وهذا الجمع على غير قياس فإنّ وزن منارة مفعله وقياس مفعله في الجمع مفاعل ولذلك كان الجمع الأصلي لمنارة مناور قال الجوهري ومن قال منائر وهمّز فقد شبّه الأصلي بالزائد وأراد في حذفه في الجمع، والمثاقيل جمع مثقال وهو ما يوزن به الذهب والفضة ويكون حذاء لها ثمّ كثر استعماله حتى عدّي إلى الموزون أيضاً فيقال مثقال مسك ونحوه ثمّ عديّ إلى الأمور المعقولة والمقادير منها فقيل مثقال فضل وهذا الشيء إزاء لذلك حذاء له مقابل وكذلك المكافأة، والكفاء يقال كافأت فلاناً بالشيء إذا قابلته به وجزيته عليه وكفاء الشيء بالمدّ والهمزة مثله ونظيره من جزاء ونحوه ومنه كفأت الإناء إذا ملأته، وخوى النجم بالتخفيف سقط وبالتشديد إذا مال للمغيب، وعنفوان الشباب والسن أوله، والغضّ الطري وغضاضة الغصن طراوته ولينه، وحداني على كذا أي بعثني وحملني عليه وهو مأخوذ من حداء الإبل وهو رجزها، والغناء لها الباعث لها على السير والحامل لها على السرعة فيه، والخصائص جمع خصيصة فعيلة بمعنى فاعلة وهي ما يختصّ بالإنسان من كمال وغيره، والمحاجزات جمع محاجزة وهي الممانعة من الطرفين كان الأيّام ممانعة عن العمل وهو يمانعها منعها له، والمماطلات جمع مماطلة مفاعلة أيضاً من الطرفين كأن الزمان لاغتراره بطوله يعده بإنجاز العمل فيخلف وكأنه هو لطول أمله بعد الزمان بوقوع العمل فيه فيخلف، وأعجب فلان بكذا على البناء للمفعول فهو معجب إذا أحبّه ومال إليه وصار عنده في محلّ أن يتعجّب منه، ومنه قولهم أعجب فلان برأيه وعقله، والبدائع جمع بديعة فعلية بمعنى مفعوله وهي الفعل على غير مثال ثمّ صار يستعمل في الفعل الحسن وإن سبق إليه مبالغة في حسنه فكأنه لكمال حسنه لم يسبق إليه، والتعجّب قولك ما أحسن كذا ونحوه من الألفاظ، والنواصع جمع ناصعة والناصع من كل شيء خالصه ونصع الأمر وضح وبان، ومعجبين ومتعجّبين منصوبان على الحال والعجب بالشيء سبب للتعجّب، وفنون الكلام أنواعه وأساليبه المختلفة، وعلماً منصوباً على المفعول له أو على أنّه مصدر سدّ مسدّ الحال أي عالمين، والعامل فيه قوله سألوني، والقوانين جمع قانون وهو كل صورة كليّة يتعرف منها أحكام جزئيّاتها المطابقة لها، ولفظه معرّب سريانيّ وقيل إنّه عربيّ مأخوذ لكونه ثابتاً باقياً إما من القنّ وهو العبد الذي ملك هو وأبواه فهو ثابت في الملك من جهتين، أو من القنقن وهو الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى وكذلك القناقن بضم القاف لكون القانون هادياً في تعرّف جزئيّاته، ويقال على فلان مسحة من جمال أي أثر وعلامة وهو خاصّ بالمدح قال رسول الله ﷺ في جرير بن عبدالله البجلي: عليه مسحة من ملك أي أثر ذلك وقال ذو الرمة:

على وجه ميّ مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الشين لو كان بادياً

وعبق به الطيب أي لزق به وانتشرت عنه رائحته، والعبقة واحدة العبوق، واعتمدت أي قصدت، والدثرة الكثيرة وكذلك الجمّة، والأثر ما تبقى من رسم الشيء، وسنن رسول الله ﷺ آثاره ويؤثر عنهم ينقل عنهم من

الآثار، والشاذ المنفرد الذي لا يصحب أمثاله، وشرد البعير نفر عن الإبل وخرج عن نظامها، والمساجلة المغالبة والمفاخرة في سقي أو جري وأصله من السجل وهو الدلو العظيمة إذا كان فيها ماء، قال الفضل بن عباس:

من يساجلني يساجل ماجدا
يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وحفل القوم واختلفوا أي اجتمعوا والمحافلة مفاعلة من الطرفين، وقوله لا يحافل أي ليس في كلام غيره مجمع للفضائل يقابل كلامه، وقطب الرحى المسمار الذي عليه تدور ثم استعمل في كل أصل ينتهي إليه ويرجع فقيل قطب القوم لسيدهم لكونه عليه مدار أمورهم وقطبا الفلك لنهايتي محوره وهو الخط الذي يتوهم ماراً بمركز الفلك منتهياً في الجهتين إلى طرفيه وعليه يدور ولأقسام الكلام التي تدخل أجزاءه، وتحتها وتدور عليه والخطبة أعمّ من الوعظ؛ والوعظ التخويف ويختص في العرف بالتذكير بأيام الله وأمر الآخرة وعذاب النار ونحوه، والرسالة أعم من الكتاب لجواز أن تكون بالقول دون كونها مكتوبة، والصنف والنوع في اللغة واحد وإن كان بينهما في عرف آخر فرق، والإجماع تصميم العزم على الأمر وخلوصه من الترديد، وأثناء الشيء تضاعيفه وهو جمع ثِنْي بكسر الثاء وسكون النون تقول أنفذت كذا بثني كتابي أي في طيّه، والحوار والخطاب والجواب، والمحاورة والمجاوبة والتراد في الكلام يقال كلمته فلم يحر جواباً، والأنحاء جمع نحو وهو المقصد. وقواعد البيت الأحجار التي يؤسس عليها بناؤه وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البَقَرَة: ١٢٧] وقواعد الهودج أخشابه الأربع المعترضات في أسفله ثم عديّ إلى كل أصل يبني عليه من كلام أو غيره، والملامحة المشابهة من قولهم في فلان ملامح من أبيه أي مشابه، وأصله من لمح البصر وهو النظر الخفيف السريع الزوال وذلك أن الملمح مفعل وهو موضع اللمح والمشابه محال اللمح. فلذلك اشتقّت منها الملامحة.

وروى ملاحمة وهي الملائمة وروى ملائمة أيضاً، والمتّسق المنتظم يتلو بعضه بعضاً وأصله المنتسق فأدغمت النون في التاء، والنكت جمع نكتة وهي الأثر في الشيء يتميّز بعض أجزائه عن بعض ويوجب له الإمتياز والتفات الذهن إليه كالنقطة في الجسم والأثر فيه الموجب للإختصاص بالنظر ومنه رطبة منكتة إذا بدا أرطابها ثم عديّ إلى الكلام والأمور المعقولة التي يختص بعضها بالدقة الموجبة لمزيد العناية والفكر فيها فسمى ذلك البعض نكتة، واللمع جمع لمعة؛ وهي البقعة من الكلاء، وكذلك الجماعة من الناس وأصله من اللمعان، وهو الإضاءة والبريق، لأن البقعة من الأرض ذات الكلاء كأنها تضيء لخضرتها ونضارتها دون سائر البقاع وعديّ إلى محاسن الكلام وبليغه لإستنارة الأذهان به ولتمييزه عن سائر الكلام فكأنه في نفسه ذو ضياء ونور واعتراض الشك. خطوره بالبال المانع للجزم بأحد طرفي المشكوك فيه، وقبع القنفذ قبعاً وقبوعاً إذا أدخل رأسه في جلده وكذلك الرجل إذا أدخل رأسه في قميصه وأصله من قبوع القنفذ، وكسر البيت أسفل شقة البيت التي تلي الأرض من حيث تكسر جانباه من عن يمينك وشمالك.

حكاه ابن السكيت، وسفح الجبل سطوحه وجوانبه التي يسيل عليها الماء من أعلاه، وقد يقال بالصاد أيضاً، ويوقن يعلم يقيناً وإنما صارت الياء التي هي الأصل واواً للضمة قبلها، وانغمس في الأمر دخل فيه بكلّيته وأصله من الدخول في الماء ونحوه من المائعات، وأصلّت سيفه جرده عن غمده، وقطّ الشيء قطعه عرضاً وقده وشقّه قطعه طولاً والبطل الشجاع، وجدّ له أي ألقاه على الجدالة وهي الأرض، ونطف ينطف بضم الطاء في المستقبل نطفاناً أي سئل، والمهج جمع مهجة وهي الدم ويقال هي دم القلب خاصة، والمهجة الروح أيضاً، ودماً ومهجاً منصوبان على التمييز، والأبدال قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم وإذا مات واحد بدّل الله مكانه بآخر قال ابن دريد: الواحد بديل وقيل بدل أيضاً، والعبرة الاسم من الإعتبار، وهو انتقال الذهن من أمر إلى أمر، والظهير المعين والاستظهار للشيء الإستعانة بغيره لحفظه

وبالشيء الإستعانة به وعلى الشيء الإستعانة بغيره لدفعه، والغيرة بفتح الغين مصدر قولك غار الرجل على أهله يغار غيرة وغارا ورجل غيور وامرأة غيورة أيضاً إذا كانا كثيري الغيرة؛ والغيرة ألم نفساني يعرض لذي الحق عن تخيّل مشاركة غير المستحق لذلك الحق له فيه، والعقائل جمع عقيلة، وعقيلة كل شيء أكرمه وأحسنه، والأقطار جمع قطر؛ وهي الناحية والجانب وندّ البعير يندّ ندّاً وندوداً نفر وشرد والربق بكسر الراء وسكون الباء حبل فيه عرى كثيرة تشد به البهم، الواحدة من العرى ربقة وفي الحديث من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، والجد الحرص والإجتهاد، والبلاغ الاسم من التبليغ والبلوغ أُقيم مقام المصدر، والنهج الطريق الواضح، والبغية بكسر الباء وضمّها ما يراد ويبتغي من الشيء، والبلال بكسر الباء القدر الذي يبل به الحلق من ماء أو لبن، والغلة والغليل والعطش الشديد، وجلاء السيف وغيره صقاله وإزالة ما يعرض له من الكدر وجلاء القلب والنفس إزالة ما يعرض لهما من كدر الشبهة والجهل، وتنجزت الأمر سألت إنجازه وقضاه، والإستعاذة طلب العوذ، وهو الإلتجاء كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] وزلّة اللسان الخطأ في القول وزلّة القدم خطأ الطريق والإنحراف عنه وعدم التثبت على الصراط المستقيم إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى المعنى.

فقوله أما بعد حمد الله إلى قوله وزيادة إحسانه أقول: إن حمد الله تعالى سواءً كان عبارة عن الثناء والتعظيم المطلق أو عن الشكر المستلزم لتقدم النعمة والإعتراف بها وتعظيم ربها فإنّ المستحق له في الحقيقة ليس إلاّ الله سبحانه، ومع ذلك فهو من أجل العبادات له وأكملها.

أما الأول فلأنّ كل محسن من الخلق إما يحسن طلباً لجلب منفعة أو رفع مضرة وهذا الإحسان في الحقيقة معاملة وإن عد في العرف إحساناً أما الحق سبحانه فلما كان منزهاً عن طلب المنفعة ودفع المضرة لم يكن إحسانه استفادة لأحدها فكان المحسن الحق ليس إلاّ هو فكان المستحق لكل أقسام الحمد ليس إلاّ هو.

وأما الثاني فبيانه أمّا في الثناء المطلق لله تعالى وتعظيمه، فلاستلزامه ملاحظة جلال الله وكبريائه وتصور الجهة التي باعتبارها كان مستحقاً للثناء والتعظيم دون غيره. وهو كونه إلهاً ورباً وخالقاً لكل ما سواه ومنزهاً عن كل نقص مبرّءً عن كل عيب وهذه الملاحظة والإعتبار هو مطلوب الله سبحانه من جميع العبادات وهو جار منها مجرى الروح للجسد، وكذلك الشكر لله سبحانه فإنه مستلزم لمعرفته ومحبته والإلتفات إليه وملاحظة الجهة التي بها كان مستحقاً للشكر، وهي إفاضة النعم التي لا تحصى على العبد ولا يقدر غيره على مثلها وهذه الملاحظات هي الأسرار المطلوبة من العبادات وبها تكون نافعة، وإذا علمت أن الحمد من أكمل العبادات وأتمها لله. ثم علمت أن عبادته سبحانه هي المطلوبة له من خلقه دون غيرها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] علمت أنّ الحمد من أكمل المطالب لله فالإتيان به يكون مستلزماً لرضوان الله وما يستلزمه الرضوان من الخيرات الدائمة والنعم الباقية، وإذا عرفت ذلك فاعلم أن السيد رضي الدين أشار بهذه الفصول الأربعة إلى أربعة أنواع من تلك الخيرات:

الأول: قبول الحمد ورضاء من العبد مع كونه أيسر شيء مؤنة وأخفه على اللسان كلفة ثمناً مقابلاً كافياً لنعماء الله تعالى في حقه، وذلك في الحقيقة نعمة أُخرى وموهبة كبرى يستدعي حمداً آخراً وهلم جرا، فسبحان الذي لا تحصى نعماؤه ولا تستقصى آلاؤه، وقوله ثمناً إستعارة لطيفة ووجه المشابهة أن الثمن لما كان مستلزماً لرضا البائع به، عوضاً من مبيعه وكان الحمد مستلزماً لرضا الحق سبحانه في مقابلة نعمه لا جرم أشبه الثمن فاستعير لفظه له، وفي الخبر، إن الله تعالى أوحى إلى أيوب عليه السلام إني رضيت الشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل.

الثاني: جعله الحمد معاذاً من بلائه، وبيانه أما أولاً فلقوله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] . فإنه تعالى لما توعد بالعذاب فمن كفر نعمته مع إرادته للحمد والشكر وأمره بهما في غير موضع علمنا أنّ

الشكر والحمد من أسباب الخلاص من العذاب الأليم والبلاء العظيم لاستلزامهما عدم سببه وهو الكفران، وأما ثانياً فلأنك علمت أن الآتي بالحمد مستحق لرضوان الله تعالى من جهة ما هو حامد والمستحق لرضوان الله ناج من عذاب الله فكان الحمد محلاً للعوذ به من بلائه وسخطه.

الثالث: جعله الحمد وسيلاً إلى جنانه؛ وبيانه وأما أولاً فلكونه من أتمّ العبادات وكون العبادة وسيلة إلى الجنة ظاهر، وأما ثانياً فما روى أن النبي ﷺ ينادي يوم القيامة ليقم الحمّادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمّادون؟ قال: الذين يشكرون الله على كل حال فحكم بأنّ الحمّادين يدخلون الجنة بسبب حمدهم.

الرابع: جعله الحمد سبباً لزيادة إحسانه؛ وبيانه أما أولاً فلقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فعلّق زيادة النعمة بمجرد الشكر؛ وأما ثانياً فلأن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع. وإنما النقصان من جهة العبد لعدم الإستحقاق، وإذا استعد لقبول النعم بالحمد أفاض الله تعالى عليه نعمة ثم لا يزال يستعد بالحمد والشكر على النعم السابقة للمزيد بالنعم اللاحقة إلى أن يخرج كل كمال له بالقوة إلى الفعل، فيلحق بدرجة الكروبيّين ومجاورة الملائكة المقربين المعتكفين في حظيرة الجبروت، وقد عرفت من هذا البيان أن كون هذه الأمور لازمة للحمد إنما هو بجعل الله تعالى ملاحظة العبادة يعين عنايته وشمولاً لهم بسعة رحمته.

قوله والصلاة على رسوله نبي الرحمة إلى قوله وهوى نجم طالع.

أقول: أردف حمد الله تعالى بالصلاة على رسوله محمد ﷺ وذلك من الآداب الدينية التي استمرت عليها العادة في الخطب وذكر له ﷺ أوصافاً سبعة.

الأول: كونه نبي الرحمة ملاحظة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وتفصيل هذه الرحمة من وجوه. أحدها أنه الهادي إلى سبيل الرشاد والقائد إلى رضوان الله سبحانه وبسبب هدايته يكون وصول الخلق إلى المقاصد العالية ودخول جنّات النعيم التي هي غاية الرحمة.

الثاني: أن التكاليف الواردة على يديه ﷺ أسهل التكاليف وأخفّها على الخلق بالنسبة إلى سائر التكاليف الواردة على أيدي الأنبياء السابقين لأممها قال ﷺ: بعثت بالحنيفية السهلة السمحة، وذلك عناية من الله ورحمة اختص بها أمته على يديه.

الثالث: أنّه ثبت أن الله يغفر عن عصاة أُمته ويرحمهم بسبب شفاعته.

الرابع: أنه رحم كثيراً من أعدائه كاليهود والنصارى والمجوس ببذل الأمان لهم وقبول الجزية منهم وقال: من آذى ذمياً فقد آذاني ولم يقبل الله من الأنبياء الجزية قبله.

الخامس: أنه سأل الله تعالى أن يرفع عن أمّته بعده عذاب الإستئصال ودفع العذاب رحمة.

السادس: أن الله تعالى وضع في شرعه الرخص تخفيفاً ورحمة لأمته. الثاني كونه إمام الأئمة أما صدق كونه إماماً فلوجهين أحدهما أن الإمام هو الرئيس المقتدى به في أقواله وأفعاله والأنبياء ﷺ، أحق الخلق بهذه الصفة إذ هم الأصل في ذلك.

الثاني: قوله تعالى لإبراهيم ﷺ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وأما كونه إمام الأئمة فلقوله ﷺ: آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة.

الثالث: كونه سراج الأمة، وبيانه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. وهذه إستعارة لطيفة له ﷺ. فإن السراج لما كان من خاصيته إضاءة ما حوله واهتداء الخلق به في الظلمة، وكان النبي ﷺ قد أضاء قلوب العالم بأنوار الوحي والرسالة حتى اهتدى الخلق به في ظلمة الجهالة لا جرم حسنت استعارة لفظ السراج، وهو إستعارة لفظ المحسوس للمعقول على سبيل الكناية عن كونه هادياً للخلق ومرشداً لهم إلى الطريق الحق.

الرابع: كونه منتجباً ومختاراً من طينة الكرم، وطينة الكرم كناية عن أصله، والكرم حقيقة في السخاء ومجاز

في مطلق الشرف، والمراد أن الله سبحانه اصطفاه من أصل هو محل الكرم والشرف.

الخامس: كونه سلالة المجد الأقدم وإضافة سلالة إلى المجد إما على تقدير حذف المضاف الأصلي حتى يكون التقدير سلالة أهل المجد الأقدم.

وإمّا أن يكون قد استعار لفظ المجد لأصله عليه السلام فكأنه خيّل أن الأصل كله مجد فأعطاه لفظة المجد وأضاف إليه بعد الإستعارة، ثم وصف المجد بكونه أقدم لزيادته في الفضل على المحدث بل على القديم.

السادس: كونه مغرس الفخار المعرق، وقد استعار لفظ المغرس الذي هو حنيفة في الأرض لطبيعته وجبلته إستعارة على وجه الكناية عن شرفه وكماله ووجه المشابهة أنّ طبيعته عليه السلام لظهور الفخار عنها كما أن الأرض الحرة محل لظهور النبات الطيب الحسن عنها؛ ووصفه بكونه معرقاً لزيادته على ما ليس كذلك وهذا من قبيل ترشيح الإستعارة فإنه لما جعل للفخار مغرساً جعل له عرقاً.

السابع: كونه فرع العلاء المثمر المورق لما استعار لفظ الفرع الذي هو حقيقة في أغصان الشجرة المتفرعة عن أصلها له عليه السلام من جهة ما هو فرع في الوجود عن آبائهم أهل العلو والشرف أتى بما هو من كمال الفروع، وهو كونه مثمراً مورقاً وهو ترشيح للإستعارة أيضاً. فإن الغصن الخالي عن الثمر والورق أو عن أحدهما ناقص الكمال والحسن وهي إستعارة على سبيل الكناية عن شرفه بالنظر إلى شرف أصله. وإضافة الفرع هَهُنَا إلى العلا كإضافة لفظ السلالة إلى المجد فالكلام فيهما واحد.

وأما بيان صدق الأوصاف الأربعة الأخيرة فمن وجوه.

الأول: ما روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: لم يزل الله تعالى ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات لم يدنسني بدنس الجاهلية، وكفى بذلك شرفاً وكرماً.

الثاني: أنه صلى الله عليه وآله من ولد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام وكرمهما مشهور قال وهب: وكان إبراهيم عليه السلام أول من أضاف الضيف وأول من ثرد الثريد وأطعمه المساكين.

الثالث: نسبه صلى الله عليه وآله من قريش وشرف قريش في العرب ظاهر فمنهم قصيّ الذي جمع قبائل قريش وأنزلها مكة، وبنى دار الندوة، وأخذ مفتاح الكعبة من خزاعة، ومنهم هاشم بن عبد مناف الذي هشم الثريد لقومه في عام المحل ومنه سميّ هاشماً، وأصل اسمه عمرو وقال الشاعر فيه:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف

ومنهم عبد المطلب بن هاشم وكان من حكماء العرب ومحصليها، وهو سيد الوادي وشيبة الحمد سجد له الفيل الأعظم وببركة النور الذي كان في صلبه دفع الله عن بيته كيد أصحاب الفيل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، وببركة ذلك النور رأى الرؤيا في تعريف موضع زمزم وهو الذي أُلهم النذر لما نذر أن يذبح العاشر من أولاده وكيفية الفداء له حتى افتخر رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك وقال: أنا ابن الذبيحين وكان يأمر أولاده بترك الظلم والزيغ ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيّات الأمور، وكان لشرفه وفضل عقله قد سلّم إليه النظر في حكومات العرب وفصل الخصومات بينهم فكان يوضع له وسادة عند الملتزم فيستند إلى الكعبة، ويحكم بينهم وجزئيات فضله وشواهد عقله كثيرة، وله أشعار كثيرة وأخبار تدل على أنه كان مقراً بالصانع الحكيم موحداً له معترفاً بأمر المعاد من رامها طالع كتب التاريخ.

قوله وعلى أهل بيته إلى قوله ومثاقيل الفضل الراجحة.

أقول: اختلف الناس في المراد بأهل البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فقال الجمهور: إن نساء النبي صلى الله عليه وآله مرادات بهذه الآية ومن الناس من خصصها بهنّ مستدلينّ بسياق الكلام قبلها وبعدها، واتفقت الشيعة على أنها خاصة بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. وهو قول أبي سعيد الخدري وهو مراد

الرضي هَهُنَا مع من بعدهم من الأئمة الإثني عشر، وقد وصفهم بأربعة أوصاف. أحدها كونهم مصابيح وهي إستعارة لهم يكنى بها عن كونهم مهتدى بهم من ظلمات الجهل كما يهتدى بالمصباح في الظلمة.

وثانيها: كونهم عصماً للأمم أي مانعين لهم بسبب هدايتهم لهم إلى سلوك الصراط المستقيم عن التورط في أحد طرفي الإفراط والتفريط.

وثالثها: كونهم منار الدين والواضحة وقد عرفت أن المنار هي محال الأنوار وهي أيضاً إستعارة حسنة كما مرّ.

ورابعها: كونهم مثاقيل الفضل الراجحة وهذه الإضافة إما بمعنى اللام أي مثاقيل للفضل أي إذا اعتبر فضل غيرهم ونسب بعضه إلى بعض كانوا مثاقيل راجحة لذلك الفضل بغير رجحان بعضه على بعض بالنسبة إليه أو بمعنى من أي مثاقيل من الفضل متبوعة ترجح على غيرها، ولفظ المثاقيل هَهُنَا مستعار لهم أيضاً ووجه المشابهة كونهم معياراً للخلق وموازين لهم كما أن المثقال كذلك.

قوله وصلّى الله عليهم أجمعين إلى قوله نجم طالع.

أقول: لما دعى الله سبحانه لهم بالصلاة نبّه على استحقاقهم لها باعتبار ثلاثة أُمور أحدها اعتبار فضائلهم النفسانية كالعلوم والملكات الخلقية الفاضلة، وثانيها اعتبار أعمالهم الظاهرة كالعبادات الدنية، وثالثها اعتبار طيب أُصولهم الزكية المطهرة وتفرعهم عنها بأنّ هذه الأُمور هي جهات استحقاق الرحمة.

قوله فإني كنت في عنفوان شبابي إلى آخر الكلام.

أقول: لما صدر الخطبة بذكر الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله وأهل بيته ﷺ، شرع في اقتصاص حاله في جمع هذا الكتاب وذكر الأسباب الحاملة له على ذلك وفي مدح كلام علي عليه السلام ثم ذكر في ذلك الإقتصاص أموراً تحتاج إلى التنبيه.

الأول: أن أبتدأ بتأليف كلام يحتوي على مختار كلام أمير المؤمنين وذلك أمر ظاهر قال قطب الدين الراوندي رحمه الله سمعت بعض العلماء بالحجاز يقول إني وجدت بمصر مجموعاً من كلام علي عليه السلام في نيف وعشرين مجلد.

الثاني: أن قوله جواهر العربية ويواقيت الكلم الدينية والدنيوية إستعارتان لطيفتان لهذين اللفظين من الحجرين المخصوصين للمعنيين اللذين هما فصاحة الألفاظ العربية والحكمة الفاضلة، التي يشتمل عليها كلامه عليه السلام ووجه المشابهة هو ما اشتركا فيه من العزة والنفاسة كل بالنسبة إلى جنسه فعزة الحجرين بالنسبة إلى مطلق الأحجار وعزّة الألفاظ الفصيحة والحكمة البالغة بالنسبة إلى سائر الألفاظ والمعاني المعقولة.

الثالث: كونه عليه السلام مشرعاً للفصاحة ومورداً لها وهي أيضاً إستعارة لهذين اللفظين اللذين هما حقيقة في النهر والعين ونحوهما له عليه السلام ووجه المشابهة أن الشريعة من الماء كما يردها العطشى للتروي والإستقاء كذلك هو عليه السلام مرجع للخلق في استفادة الفصاحة، ولو قال مصدرها وموردها لكان أبلغ إذ كان المشرع والمورد مترادفين أو قريبين من الترادف، وكذلك قوله منشأ البلاغة ومولدها إستعارة أيضاً تشبيهاً لذهنه عليه السلام، بالأم وتشبيهاً للفصاحة بالولد في الصدور عنه.

الرابع: قوله لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي قدر العلم الإلهي كله حسناً وجمالاً حتى جعل في كلامه عليه السلام، أثراً منه وقدر الكلام النبوية طيباً كالمسك الأذفر حتى جعل في كلامه عليه السلام عبقة منه واستلزم ذلك تخيّل حاستي البصر والشم للعقل، ليدرك بالأولى المسحة من العلم الإلهي، وبالثانية العبقة من الكلام النبوي وهي إستعارة على طريق الكناية. فكنى بالمسحة عمّا أدركه العقل في كلامه من الحكمة المشار إليها في القرآن الكريم والفصاحة، وكنى عما أدركه من الأسلوب والطريقة الموجودة فيه مع الفصاحة والحكمة في الكلام النبوي. فكان العقل يبصر ويسمع بقوته أثر العلم الإلهي فيه، ويشم رائحة الكلام النبوي منه قال أبو الحسن الكيدري رحمه الله إنما خصّ الكلام الإلهي بالمسحة والكلام النبوي بالعبقة لأن كلامه عليه السلام، شديد الشبهة بكلام الرسول ﷺ. فهو كالجزء منه لأنهما غصنا دوحة

وفرعا أرومة؛ ولما كان معنى عبوق الشيء بالشيء لزومه له وإلتصاقه به صار لشدة اتصاله به كالجزء منه. فلذلك قال عبقة من الكلام النبوي، ولما كان معنى المسحة الأثر من الجمال ولم يكن مجرد الأثر من الشيء في الشيء يوجب لزومه له وشدة المشابهة به، وكان كلام الباري سبحانه بعيد الشبه بكلام الخلق لا جرم خصه بالمسحة دون العبقة، وهذا الفرق مع تلخيصنا له في تكلّف؛ ويمكن أن يقرر على وجه آخر فيقال: إن العبقة أدلّ على وجود العائق من المسحة على ما في وجود ما هي منه فإن العبقة تدل على وجود العائق للمحل في الظاهر وفي نفس الأمر وأما المسحة من الشيء وهي الأثر منه فإنما تدل على وجوده للمحل في الظاهر فقط ألا ترى إلى قوله:

على وجه سيء مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الشين لو كان بارياً

وأيضاً فإنّ أثر الجمال أو الثروة والملك قد يدل عند بعض الأذهان، ولا يدل عند بعض آخر، وإذا عرفت ذلك فنقول: لما كان كلام علي عليه السلام شديد المناسبة بكلام النبوة في الأسلوب الظاهر وفي الحكم الباطن، كان كالجزء منه فكانت استعارة لفظة العبقة لكلام النبوة أولى لدلالتها على شدة تخيّل وجود ما هي منه. وهو كلام النبوة في كلام علي عليه السلام حتى كأنه جزءٌ منه، ولما كان الكلام الإلهي بعيد المناسبة لكلام الخلق وكانت نسبة كلام علي عليه السلام إليه في بعض الجهات.

إمّا في اشتماله على بعض الحكم أو على الفصاحة دون الأسلوب، وكانت المسحة من الشيء إنما تدلّ على وجوده من بعض الجهات وهي الظاهر فقط كانت إستعارة لفظ المسحة للكلام الإلهي أولى والله أعلم.

الخامس: قوله: فهو البحر الذي لا يساجل إستعار لفظ البحر لكلامه عليه السلام وأشار إلى وجه المشابهة بقوله لا يساجل فإنّ المساجلة لما كانت هي المبالغة في السقي والجري، وكان كلامه عليه السلام أكثر جرياناً في كلام البلغاء من غيره وكانت أوعية أذهانهم قد امتلأت من فيضه لا جرم أشبه البحر الذي لا يغلبه بحر آخر في سقي ولا جري أي لا يقاوم في فصاحة ولا حكمة، وكذلك قوله لا يحافل إستعارة للفظ المحافلة التي هي وصف من أوصاف الإنسان لكلامه تشبيهاً له بالرجل ذي المحفل الجم والجماعة الكثيرة التي لا يمكن أن يكاثر بمثلها.

السادس: قوله، يسوغ إلى التمثل. مجاز في الإسناد فإنّ السوغ حقيقة في الشراب فإسناده إلى التمثّل مجاز؛ ووجه العلاقة أن التمثيل بما يزيد إذا حسن بين الناس وصار كان ذلك لذيذاً عنده فأشبه في لذاذته وجريانه بين الناس الماء الزلال في لذاذته وسهولة جريانه في الحلق فحسن إسناد لفظ السوغ إليه.

السابع: قوله، وخلع من قلبه إنه كلام مثله إلى قوله لم يعترضه الشك الضمير في مثله راجع إلى علي عليه السلام ومن في قوله ممن لبيان الجنس، ومعنى الكلام أنّ المفكر في كلامه إذا فرضنا أنه لم يعرف أنه أو كلام شخص آخر مثله في كونه عظيم القدر نافذ الأمر خائضاً في غمرات الحروب مشانها بنفسه من كلامه تدبير أُمور الخلق ونظام أحوالهم، قد ملك الأرض بل يفرض أنه وجد هذا الكلام غير منسوب إلى شخص معروف الحال. فإنه والحال هذه لا يعترضه شك في أنه كلام مخلص معرض عن غيره تعالى بقلبه غير مشغول بغيره بصدق نيته إذا الشك الذي عساه يعترض لبعض الأذهان الضعيفة في أنه ليس بكلامه إنما ينشأ من معرفته بأنه كلام شخص خائض في تدبير الدنيا وأحوالها فتكون تلك المعرفة منشأ لعروض الشك، في أن هذا الكلام ليس بكلام رجل بهذه الحال.

وإنما قال: قد قبع في كسر بيت وانقطع إلى سفح جبل لأن ذلك من شعار الزهّاد المعرضين عن الدنيا، والضمير في قوله يسمع وحسّه عائدان إلى من أي لا يسمع هو إلاّ حس نفسه.

الثامن: قوله، ينغمس في الحرب مصلتاً استعارة حسنة في النسبة أي في نسبة الإنغماس إلى الحرب فإن الإنغماس حقيقة في الدخول في الماء وما في معناه إلاّ أن الحرب لما كانت في غمارها واختلاط المتحاربين فيما تشبه الماء المتراكم الجم صحّت نسبة الإنغماس إليها كما صحّت إليه فيقال: انغمس في الحرب وخاض

فيها ونحوه، وقوله يقطر مهجاً إن فسّرنا المهجة بالدم كانت نسبة القطر إليها حقيقة وإن فسرناها بالروح كانت مجازاً تشبيهاً للروح بالمائعات الخارجة من الإنسان كالدم ونحوه.

التاسع: قوله، وهو مع ذلك زاهد الزهّاد وبدل الأبدال الواو للحال وثبوت هذين الوصفين له عليه السلام معلوم من انتساب الصوفية وأهل التجريد إليه، وقد بيّنا في مقدمة الكتاب أنه عليه السلام كان سيد العارفين بعد سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وبيّنا أيضاً أن نفسه القدسية كانت وافية بضبط الجوانب المتجاذبة قوية عليها، فلذلك لم يكن اشتغاله بتدبير أُمور الدنيا، ومعالجات الحروب، ونظام شمل المصلحة مانعاً من الإشتغال بالعبادة التامة، والإقبال بوجه نفسه القدسيّة على الإنتقاش بأنوار الله، والإخلاص له، والإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها، وهذه من فضائل نفوس الأنبياء وكمالات نفوس الأولياء أما الزهد فهو الإعراض من غير الله وقد يكون ظاهراً، وقد يكون باطناً إلاّ أن المنتفع به هو الباطن قال صلى الله عليه وآله: إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم بل ينظر إلى قلوبكم ونيّاتكم، وإن كان لا بدّ من الزهد الظاهري أولاً: إذ الزهد الحقيقي في مبدأ السلوك لا يتحقق؛ والسبب فيه أن اللذات البدنية حاضرة، والغاية العقلية التي يطلبها الزاهد الحقيقي غير متصورة له في مبدأ الأمر، وأما الظاهري فهو ممكن متيسر لمن قصده ليسير غلبته وهي الرياء والسمعة ولذلك قال صلى الله عليه وآله: الرياء قنطرة الإخلاص، ولما بيّنا أن علياً عليه السلام كان سيد العارفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. فلا بد وأن يكون زهده حقيقياً، وستعرف في أثناء كلامه بلوغه في درجة الزهد والغاية، وأما كونه مع ذلك بالشجاعة المشهورة فهو أنّك علمت أن نفس العارف يجب أن تكون مستلزمة للملكات الخلقيّة، وقد عرفت أن الشجاعة أصل منها ولأن المانع من الإقدام على الأهوال والمكاره، إنما هو خوف الموت وحب البقاء، والعارف بمعزل عن تقيّة الموت إذ كانت محبّة الله تعالى شاغلة عن الإلتفات إلى كل شيء، بل ربما يكون الموت مشتهى له لكونه وسيلة إلى لقاء محبوبه الأعظم وغايته القصوى، وقد بيّنا ذلك في تفصيل أخلاق منهم أربعون بالشام، والثلاثون في سائر البلاد، وفي الحديث عن علي عليه السلام الأبدال بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق يجتمعون فيكون بينهم حرب.

العاشر: قوله، وقد استخرج عجبهم أي تعجّبهم منها من القوة إلى الفعل، ومن روى عُجبهم بضم العين فالمراد أني أذاكرهم بهذه الفضيلة لتظهر محبّتهم لها وميلهم إليها قال أبو الحسن الكيدري: واستخرج عجبهم أي أعرفهم أنّهم عاجزون عن أمثالها فلا يبقى لهم حينئذٍ عجب بأنفسهم منها أي من أجل معرفتها، والظاهر أن هذا اللفظ لا يعطي هذا المعنى.

الحادي عشر: قوله، والعذر في ذلك أنّ روايات كلامه عليه السلام تختلف إختلافاً شديداً. أقول: سبب الإختلاف يحتمل الوجهين:

أحدهما أنه عليه السلام ربّما تكلم بالمعنى الواحد مرتين أو أكثر بألفاظ مختلفة، كما هو شأن البلغاء وأهل الفصاحة، فينقله السامعون باللفظ الأول والثاني: فتختلف الرواية.

الثاني: أن الناس في الصدر الأول كانوا يتلقّون الكلام من أفواه الخطباء ويحفظونها على الولاء فربما لا يتمكن السامع من حفظ كل لفظ ومراعاة ترتيبه فيقع بسبب ذلك اختلاف في الترتيب أو نقصان في الرواية، وربما راعى بعضهم حفظ المعنى من دون ضبط الألفاظ فأورد في اللفظ زيادة ونقصانا.

الثاني عشر: قوله، نهج البلاغة إستعارة لطيفة لهذا الكتاب لأن النهج حقيقة في الطريق الواضحة المحسوسة، ووجه المشابهة أن الطريق لما كانت محل الإنتقال بالمشي وقطع الأحياز المحسوسة من واحد إلى آخر. كذلك الذهن ينتقل في هذا الكتاب من بعض لطائف البلاغة وشعب الفصاحة إلى بعض انتقالاً سهلاً فلذلك صحّ نقل لفظ النهج إليه وإستعارته له، وبالله التوفيق.

فهذا بيان ما عساه يشكل في هذه الخطبة وباقي كلامه ظاهر ولنشرع في شرح كلام علي عليه السلام.

باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وأوامره

ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب في المقامات المحصورة، والمواقف المذكورة والخطوب الواردة

١ - ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض، وخلق آدم. وفيها ذكر الحج. الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ، وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ. أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ. وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ، الإِخْلاَصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلاَصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ. فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ. وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ «عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لاَ عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُزَايَلَةٍ. فَاعِلٌ لاَ بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لاَ مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلاَ يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ.

أقول: اعلم أن هذه الخطبة مشتملة على مباحث عظيمة ونكت مهمّة على ترتيب طبيعي فلنعقد فيها خمسة فصول:

الفصل الأول: في تصديرها بذكر الله جلّ جلاله وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله وهو قوله: الحمد لله إلى قوله: ولا يستوحش لفقده.

أقول: المدح والمديح الثناء الحسن؛ والمدحة فعلة من المدح وهي الهيئة والحالة التي ينبغي أن يكون المدح عليها، والإحصاء إنهاء العدّ والإحاطة بالمعدود يقال: أحصيت الشيء أي أنهيت عدّه، وهو من لواحق العدد ولذلك نسبه إلى العادّين، والنعماء النعمة، وهو اسم يقام مقام المصدر؛ وأدّيت حق فلان إذا قابلت إحسانه بإحسان مثله، والإدراك للحقوق والنيل والإصابة والوصول والوجدان، والهمّة هي العزم الجازم والإرادة يقال: فلان بعيد الهمّة إذا كانت إرادته تتعلق بعليّات الأمور دون محقّراتها، والغوص الحركة في عمق الشيء من قولهم غاص في الماء إذا ذهب في عمقه، والفطن جمع فطنة وهي في اللغة الفهم، وهو عند العلماء عبارة عن جودة إستعداد الذهن لتصور ما يرد عليه، وحدّ الشيء منتهاه؛ والحدّ المنع، ومنه سمىّ العلماء تعريف الشيء بأجزائه حداً. لأنه يمنع أن يدخل في المحدود ما ليس منه أو يخرج منه ما هو منه، والنعت الصفة، والأجل المدّة المضروبة للشيء، والفطرة الشقّ والإبتداع قال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] حتى جاءني أعرابيان يختصمان على بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدعتها.

والخلائق جمع خليقة وهي إما بمعنى المخلوق يقال: هم خليقة الله وخلق الله أي مخلوقه أو بمعنى الطبيعة لأنّ الخليقة هي الطبيعة أيضاً، والنشر البسط، وتد بالفتح أي ضرب الوتد في حائط أو في غيره، والصخورة الحجارة العظام، والميدان الحركة بتمايل وهو الاسم من ماد يميد ميداً ومنه غصن ميّاد متمائل، والدين في أصل اللغة يطلق على معان، منها العادة، ومنها الإذلال يقال دانه أي أذلّه وملّكه ومنه بيت

الحماسة دنّاهم. كما دانوا، ومنها المجازاة كقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي مجزيّون، والمثل المشهور كما تدين تدان، ومنها الطاعة يقال: دان له أي أطاعه كقول عمرو بن كلثوم: عصينا لملك فينا أن تدينا؛ ويطلق في العرف الشرعي على الشرائع الصادرة بواسطة الرسل عليهم السلام وقرنه أي جعل له قريناً، والمقارنة الإجتماع مأخوذ من قرن الثور وغيره ومنه القرن للمثل في السنّ وكذلك القرن من الناس أهل الزمان الواحد قال:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم
وخلّفت في قرن فأنت قريب

والمزايلة المفارقة وهي مفاعلة منالطرفين والمتوحّد بالأمر المنفرد به عمّن يشاركه فيه، والسكن بفتح الكاف كل ما سكّنت إليه، والإستئناس بالشيء ميل الطبع إليه وسكون وكذلك التأنّس ومنه الأنيس وهو المؤنس، والإستيحاش ضدّ الإستئناس وهو نفرة الطبع بسبب فقد المؤانس، واعلم أنّا نفتقر في بيان نظام كلامه عليه السلام في هذا الفصل إلى تقديم مقدمة فنقول:

الصفة أمر يعتبره العقل لأمر آخر ولا يمكن أن يعقل إلاّ باعتباره معه، ولا يلزم من تصوّر العقل شيئاً لشيء أن يكون ذلك المتصوّر موجوداً لذلك الشيء في نفس الأمر بيان ذلك ما قيل في رسم المضاف: إنّه الأمر الذي تعقّل ماهيته بالقياس إلى غيره وليس له وجود سوى معقوليّته بالقياس إلى ذلك الغير، والصفة تنقسم باعتبار العقل إلى حقيقية وإضافية وسلبية؛ وذلك لأن نسبة العقل للصفة إلى غيرها إما أن يعقل معها نسبته من المنسوب إليه أو لا يعقل.

فإن كان الأول فهو المضاف الحقيقي وحقيقته أنه المعقول بالقياس إلى غير يكون بإزائه يعق له إليه نسبة ولا يكون له وجود سوى معقوليته بالقياس إليه، ككونه تعالى خالقاً ورازقاً وربّاً. فإن حقيقة هذه الصفات هي كونها معقولة بالقياس إلى مخلوقية ومرزوقية ومربوبية موازية.

وإن كان الثاني فالمنسوب إليه إما أن يكون موجوداً للمضاف أو ليس بموجود له. والأول هو الصفات الحقيقة ككونه تعالى حياً. فإنه أمر يعقل بالقياس إلى صحة العلم والقدرة له. وليس بإزاء أمر يعقل منه نسبة إليه، والثاني هو الصفات السلبية ككونه تعالى ليس بجسم ولا بعرض وغيرها.

فإنها أمور تعقل له بالقياس إلى أمور غير موجودة له تعالى ثم نقول: إنّه لا يلزم من اتصاف ذاته سبحانه بهذه الأنواع الثلاثة من الصفات. تركيب ولا كثرة في ذاته، لأنها اعتبارات عقلية تحدثها عقولنا عند المقايسة إلى الغير. ولم يلزم من ذلك أن تكون موجودة في نفس الأمر وإن لم تعقل، ولما كان دأب العقلاء أن يصفوا خالقهم سبحانه بما هو أشرف طرفي النقيض لما تقرر في عقولهم من أعظميته ومناسبة أشرف الطرفين للأعظميّة.

كان ما وصف به تعالى من الصفات الحقيقية والإضافية والسلبية كلها كذلك، فإذا عرفت ما قلناه فاعلم أنه عليه السلام شرع أولاً في الإعتبارات السلبية وقدّمها على الثبوتية لدقيقة وهي أنه قد ثبت في علم السلوك إلى الله أن التوحيد المحقق والإخلاص المطلق لا يتقرر إلاّ بنقض كل ما عداه عنه وتنزيهه على كل لاحق له وطرحه عن درجة الإعتبار، وهو المسمى في عرف المجردين أهل العرفان بمقام التخليّة والنقض والتفريق، وما لا يتحقق الشيء إلاّ به. كان اعتباره مقدماً على اعتباره، ولهذا الترتيب كان أجلّ كلمة نطق بها في التوحيد قولنا: لا إله إلا الله. إذ كان الجزء الأول منها مشتملاً على سلب كل ما عدا الحق سبحانه مستلزماً لغسل درن كل شبهة لخاطر سواه، وهو مقام التنزيه والتخلية حتى إذا أنزح كل ثان عن محل عرفانه استعد بجوده للتخلية بنور وجوده، وهو ما اشتمل عليه الجزء الثاني من هذه الكلمة.

ولما بيّنا أنه عليه السلام كان لسان العارفين الفاتح لإغلاق الطريق إلى الواحد الحق تعالى والمعلّم المرشد لكيفية السلوك، وكانت الأوهام البشرية حاكمة بمثليته تعالى لمدركاتها والعقول قاصرة عن إدراك حقيقته والواصل إلى ساحل عزّته والمنزه له، عما لا يجوز عليه إذا أمكن وجوده نادراً لم يكن للأوهام الواصفة له

تعالى، بما لا يجوز عليه معارض في أكثر الخلق بل كانت جارية على حكمها قائدة لعقولها إلى تلك الأحكام الباطلة كالمشبهة ونحوهم. لا جرم بدؤه عليه السلام بذكر السلب إذ كان تقديمه مستلزماً لغسل درن الحكم الوهمي في حقه تعالى عن لوح الخيال، والذكر حتى إذا أورد عقب ذلك ذكره تعالى بما هو أهله ورد على ألواح صافية من كدر الباطل فانتقشت بالحق.

كما قال: فصادف قلباً خالياً فتمكنا، ثم أنّه عليه السلام بدأ بتقديم حمد الله تعالى على الكلّ هَهُنَا وفي سائر خطبه جرياً على العادة في افتتاح الخطب وتصديرها، وسرّ ذلك تأديب الخلق بلزوم الثناء على الله تعالى، والإعتراف بنعمته عند افتتاح كل خطاب لاستلزم ذلك ملاحظة حضرة الجلال والإلتفات إليها عامة الأحوال. وقد بيّنا أنَّ الحمد يفيد معنى الشكر، ويفيد ما هو أعمّ من ذلك وهو التعظيم المطلق وبجميع أقسامه مراد هَهُنَا لكون الكلام في معرض التمجيد المطلق.

قوله الذي لا يبلغ مدحته القائلون:

أقول أراد تنزيهه تعالى عن اطلاع العقول البشرية على كيفية مدحه سبحانه كما هي؛ وبيان هذا الحكم أن الثناء الحسن على الشيء. إنّما يكون كما هو إذا كان ثناء عليه بما هو كذلك في نفس الأمر، وذلك غير ممكن في حق الواجب الوجود سبحانه إلاّ بتعقل حقيقته، وما لها من صفات الجلال ونعوت الكمال، كما هي وعقول البشر قاصرة عن هذا المقام فالقول وإن صدر عن المادحين بصورة المدح المتعارف بينهم وعلى ما هو دأبهم من وصفه تعالى بما هو أشرف من طرفي النقيض، فليس بكمال مدحه في نفس الأمر لعدم اطلاعهم على ما به يكون المدح الحق في حقه تعالى. وإن تصوّر بصورة المدح الحق وأشار إلى تأديب الخلق وتنبيههم على بطلان ما تحكم به أوهامهم في حقه تعالى من الصفات. وأنه ليس الأمر كما حكمت به إذ قال في موضع آخر، وقد سأله بعضهم عن التوحيد فقال: التوحيد أن لا تتوهّمه، فجعل التوحيد عبارة عن سلب الحكم الوهمي في حقه تعالى فاستلزم ذلك أن من أجرى عليه حكماً وهمياً، فليس بموحّد له على الحقيقة، وإلى هذا النحو أشار الباقر محمد بن علي عليه السلام مخاطباً وهل سمي عالماً قادراً إلاّ لأنه وهب العلم للعلماء، والقدرة للقادرين فكل ما ميّزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، والباري تعالى واهب الحياة ومقدر الموت، ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيين كما لها فإنها تتصوّر أن عدمها نقصان لمن لا يكونان له، فهكذا شأن الخلق فيما يصفون به بآرائهم. فإن أوهامها حاكمة له بكل ما يعدّونه كمالاً في حقهم ما لم تقو عقولهم على ردّ بعض تلك الأحكام الوهمية ولولا رادع الشرع كقوله عليه السلام تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق لصرّحوا بكثير من تلك الأحكام في حقه سبحانه وتعالى عما يصفون؛ ويحتمل أن يكون المراد تنزيهه تعالى عن بلوغ العقول والأوهام تمام الثناء الحسن عليه وإحصائه أي أن العبد كان كلما بلغ مرتبة من مراتب المدح والثناء كان وراءها أطوار من استحقاق الثناء والتعظيم أعلى، كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله بقوله: لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وفي تخصيصه عليه السلام القائلين دون المادحين بالذكر نوع لطف، فإن القائل لما كان أعم من المادح، وكان سلب العام مستلزماً لسلب الخاص من غير عكس كان ذكر القائلين أبلغ في التنزيه إذاً التقدير لا واحد من القائلين ببالغ مدحه الله سبحانه.

قوله ولا يحصى نعماؤه العادّون.

أقول: المراد أن جزئيات نعم الله وأفرادها لا يحيط بها حصر الإنسان وعدّه لكثرتها وبيان هذا الحكم بالنقل والعقل أما النقل فقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهذه الآية هي منشأ هذا الحكم ومصدره، وأمّا العقل فلأن نعم الله تعالى على العبد منها ظاهرة ومنها باطنة كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ويكفينا في صدق هذا الحكم التنبيه على بعض جزئيات نعم الله تعالى على العبد فنقول: إنّ من جملة نعمه تعالى على الإنسان أن أكرمه بملائكته وجعله مسجوداً لهم ومخدوماً، وجعلهم في ذلك على مراتب فلنذكر أقربهم إليه وأخصّهم به،

وهم الملائكة الذين يتولّون إصلاح بدنه والقيام بمهمّاته وحوائجه، وإن كانوا في ذلك أيضاً على مراتب فجعل سبحانه لهم رئيساً هو له كالوزير الناصح المشفق من شأنه تمييز الأصلح والأنفع له والأمر به، وجعل بين يدي ذلك الوزير ملكاً آخراً هو كالحاجب له والمتصرف بين يديه من شأنه تمييز صداقة الأصدقاء للملك من عداوة الأعداء له، وجعل لذلك الحاجب ملكاً خازناً يضبط عنه ما يتعرفه من الأمور ليطالعها الوزير عند الحاجة، ثم جعل بين يديه ملكين آخرين أحدهما: ملك الغضب وهو كصاحب الشرطة موكل بالخصومات والغلبة والبطش والإنتقام. والثاني: ملك اللذة والمتولي لمشتهيات الإنسان بالطلب والأمر بالإستحضار، وبين يديه ملائكة أخرى تسعى في تحصيل ما يأمر به ويطلبه، ثم جعله سبحانه وراء هؤلاء سبعة أخرى من الملائكة دأبهم إصلاح غذاء الإنسان.

الأول: موكل بجذب الغذاء إلى داخل المعدة إذ الغذاء لا يدخل بنفسه فإنّ الإنسان لو وضع اللقمة في فيه، ولم يكن لها جاذب لم تدخل.

والثاني: موكل بحفظه في المعدة إلى تمام نضجه وحصول الغرض منه.

والثالث: موكل بطبخه وتنضيجه.

والربع: موكل بتفريق صفوته وخلاصته في البدن سدّ البدل ما يتحلّل منه.

والخامس: موكل بالزيادة في أقطار الجسم على التناسب الطبيعي، بما يوصله إليه الرابع فهما كالباني والمناول.

والسادس: موكل بفصل صورة الدم من الغذاء.

والسابع: الذي يتولى دفع الفضلة غير المنتفع بها عن المعدة، ثم وكّل تعالى خمسة أخرى في خدمته شأنهم أن يوردوا عليه الأخبار من خارج، وجعل لكل واحد منهم طريقاً خاصاً وفعلاً خاصاً به، وجعل لهم رئيساً يبعثهم ويرجعون إليه بما عملوه، وجعل لذلك الرئيس خازناً كاتباً يضبط عنه ما يصل إليه من تلك الأخبار، ثم جعل بين هذا الخازن وبين الخازن الأول ملكاً قوياً على التصرف والحركة سريع الإنتقال بحيث ينتقل في اللحظة الواحدة من المشرق إلى المغرب، ومن تخوم الأرض إلى السماء العليا قادراً على التصرفات العجيبة، وجعله مؤتمراً للوزير تارة وللحاجب أخرى وهو موكل بتفتيش الخزانتين ومراجعة الخازنين بإذن الوزير وواسطة الحاجب، إذا أراد استعلام أمر من تلك الأمور، فهذه الملائكة التي خصّ الله تعالى بها بدنه وجعلها أقرب الملائكة المتصرفين في خدمته إليه.

ثم إنّ وراء هؤلاء أطوار أخرى من الملائكة الأرضية كالملائكة الموكلين بأنواع الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان وبها تكون مسخّرة له وأنواع النبات والمعادن والعناصر الأربعة والملائكة السماوية التي لا يعلم عددهم إلاّ الله سبحانه وتعالى. كما قال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر: ٣١] فإنّ كل واحد منها موكل بفعل خاص وله مقام خاص لا يتعداه ولا يتجاوزه كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وهم بأسرهم متحركون بمصالح الإنسان ومنافعه من أول حياته إلى حين وفاته بإذن المدبر الحكيم دع ما سوى الملائكة من سائر الموجودات في هذا العالم المشتملة على منافعه وما أفاض عليه من القوة العقلية التي هي سبب الخيرات الباقية والنعم الدائمة التي لا تنقطع موادها ولا يتناهى تعدادها.

فإن كل ذلك في الحقيقة نعم إلهية ومواهب ربانية للعبد بحيث لو اختلّ شيء منها لاختلّت منفعته من تلك الجهة، ومعلوم أنه لو قطع وقته أجمع بالنظر إلى آثار رحمة الله تعالى في نوع من هذه النعم لانتهى دونها فكره وقصر عنها إحصاؤه وحصره، وهو مع ذلك كله غافل عن شكر الله جاهل بمعرفة الله مصرّ على معصية الله فحق أن يقول سبحانه وتعالى بعد تنبيهه له على ضروب نعمه والإمتنان بها عليه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [ابراهيم: ٣٤] ظلوم لنفسه بمعصية الله معتاد للكفر بآلاء الله قتل الإنسان ما أكفره إنّ الإنسان لكفور مبين فسبحان الذي لا تحصى نعماؤه ولا تستقصى آلاؤه، وغاية هذا الحكم تنبيه الغافلين من مراقد الطبيعة على لزوم شكر الله سبحانه، والإعتراف بنعمه المستلزم لدوام إخطاره بالبال.

قوله ولا يؤدي حقّه المجتهدون.

أقول: هذا الحكم ظاهر الصدق من وجهين أحدهما أنه لما كان أداء حقّ النعمة هو مقابلة الإحسان بجزاء مثله وثبت في الكلمة السابقة أن نعم الله سبحانه لا تحصى لزم من ذلك، أنه لا يمكن مقابلتها بمثل: الثاني أن كل ما نتعاطاه من أفعالنا الإختيارية مستنداً إلى جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وسائر أسباب حركاتنا وهي بأسرها مستندة إلى وجوده ومستفادة من نعمته، وكذلك ما يصدر عنّا من الشكر والحمد وسائر العبادات نعمة، فتقابل نعمةً بنعمةٍ.

وروى أن هذا الخاطر خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك، وفي رواية أُخرى وشكري ذلك نعمة أُخرى توجب عليّ الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني، وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعم منّي رضيت منك بذلك شكراً.

فأما ما يقال في العرف: من أن فلاناً مؤدّ لحق الله تعالى فليس المراد منه جزاء النعمة بل لما كانت المطلوبات لله تعالى من التكاليف الشرعية والعقليّة تسمى حقوقاً له لا جرم سميّ المجتهد في الإمتثال مؤدّياً لحق الله، وذلك الأداء في الحقيقة من أعظم نعمه تعالى على عبده إذ كانت الإمتثال وسائر أسباب السلوك الموصل إلى الله تعالى، كلها مستندة إلى جوده وعنايته وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. وما كان في الحقيقة نعمة الله لا يكون أداء لنعمة الله وجزاء لها، وإن أُطلق ذلك في العرف إذ كان من شأن الحق المفهوم المتعارف بين الخلق استلزامه وجوب الجزاء والأداء ليسارعوا إلى الإتيان به رغبة ورهبة فيحصل المقصود من التكليف حتى لو لم يعتقدوا أنه حق لله بل هو مجرد نفع خالص لهم لم يهتموا به غاية الإهتمام إذ كانت غايته غير متصورة لهم كما هي، وقلما تهتم النفوس بأمر لا تتصور غايته ومنفعته خصوصاً مع المشقة اللازمة في تحمله إلاّ بباعث قاهر من خارج.

قوله الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن.

أقول: إسناد الغوص هَهُنَا إلى الفطن على سبيل الإستعارة إذ الحقيقة إسناده إلى الحيوان بالنسبة إلى الماء وهو مستلزم لتشبيه المعقولات بالماء، ووجه الإستعارة هَهُنَا أن صفات الجلال ونعوت الكمال لما كانت في عدم تناهيها والوقوف على حقائقها وأغوارها تشبه البحر الخضم الذي لا يصل السائح له إلى ساحل، ولا ينتهي الغائص فيه إلى قرار، وكان السائح لذلك البحر والخائض في تياره هي الفطن الثاقبة لا جرم كانت الفطنة شبيهة بالغائص في البحر، فأسند الغوص إليها، وفي معناه الغوص في الفكر والغوص في النوم، ويقرب منه إسناد الإدراك إلى بعد الهمم إذ كان الإدراك حقيقة في لحوق جسم لجسم آخر وإضافة الغوص إلى الفطن والبعد إلى الهمم إضافة لمعنى الصفة بلفظ المصدر إلى الموصوف، والتقدير لا تناله الفطن الغائصة ولا تدركه الهمم البعيدة، ووجه الحسن في هذه الإضافة وتقديم الصفة أن المقصود لما كان هو المبالغة في عدم إصابة ذاته تعالى بالفطنة من حيث هي. ذات غوص بالهمة من حيث هي. بعيدة كانت تلك الحيثية مقصودة بالقصد الأول.

وقد بيّنا أن البلاغة تقتضي تقديم الأهمّ والمقصود الأول على ما ليس كذلك، وبرهان هذا المطلوب ظاهر فإنّ حقيقته تعالى لما كانت بريّة عن جهات التركيبات عريّة عن اختلاف الجهات مترعة عن تكثر المتكثرات. وكانت الأشياء إنّما تعلم بما هي من جهة حدودها المؤلفة من أجزائها. فإذن صدق أن واجب الوجود ليس بمركب. وما ليس بمركب ليس بمدرك الحقيقة، وصدق أن واجب الوجود ليس بمدرك الحقيقة، فلا تدركه همة وإن بعدت ولا تناله فطنة وإن اشتدت، فكل سائح في بحار جلاله غريق، فكل مدّع للوصول فبأنوار كبريائه حريق لا إله إلاّ هو سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً.

قوله الذي ليس لصفته حدّ محدود ولا نعت موجود.

أقول: لمراد ليس لمطلق ما تعتبره عقولنا له من

الصفات السلبية والإضافية نهاية معقولة تقف عندها فيكون حداً له، وليس لمطلق ما يوصف به أيضاً وصف موجود يجمعه فيكون نعتاً له ومنحصراً فيه قال أبو الحسن الكندري ﷺ ويمكن أن يؤول حدّ محدود على ما يأول به كلام العرب: ولا يرى الضب بها ينحجر، أي ليس بها ضبّ فينحجر حتى يكون المراد أنه ليس له صفة فتحدّ إذ هو تعالى واحد من كل وجه منزّه عن الكثرة بوجهٍ ما فيمتنع أن يكون له صفة تزيد على ذاته كما في سائر الممكنات، وصفاته المعلومة ليست من ذلك في شيء.

إنما هي نسب وإضافات لا يوجب وصفه بها كثرة في ذاته قال: ومما يؤكد هذا التأويل قوله بعد ذلك فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، وهذا التأويل حسن وهو راجع إلى ما ذكرناه في المعنى. وأما وصفه الحدّ بكونه محدوداً فللمبالغة على طريقة قولهم شعر شاعر، وعلى هذا التأويل يكون قوله ولا نعت موجود سلباً للنعت عن ذاته سبحانه إذ التقدير ليس له صفة تحدّ ولا نعت، وقيل معنى قوله ليس لصفته حدّ أي ليس لها غاية بالنسبة إلى متعلّقاتها كالعلم بالنسبة إلى المعلومات والقدرة إلى المقدورات.

قوله ولا وقت معدود ولا أجل ممدود.

أقول: وصف الوقت بكونه معدوداً كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وكقوله ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤] وهو المعلوم الداخل في الإحصاء والعدّ، وذلك أن العدّ لا يتعلّق بالوقت الواحد من حيث هو واحد فإنّه من تلك الحيثية ليس معدوداً بل مبدأ للعدد. وإنما يتعلّق به من حيث إنه داخل في الأوقات الكثيرة الموجودة في الزمان إما بالفرض أو بالفعل التي يلحق جملتها عند اعتبار التفصيل كونها معدودة إذ يقال: هذا الفرد معدود في هذه الجملة أي داخل في عدّها ومراده في هذين الحكمين نفي نسبة ذاته وما يلحقها إلى الكون في الزمان، وأن يكون ذات أجل ينتهي إليه فينقطع وجودها بإنتهائه وبيان ذلك من وجهين أحدهما أن الزمان من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم فلما كان الباري سبحانه منزّهاً عن الجسمية استحال أن يكون في زمان.

الثاني: أنه تعالى إن أوجد الزمان وهو في الزمان لزم كون الزمان متقدماً على نفسه وإن أوجده بدون أن يكون فيه كان غنياً في وجوده عنه فهو المطلوب فإذن صدق هذين السلبين في حقّه معلوم، وقد حصل في هذه القرائن الأربع السجع المتوازي مع نوع من التجنيس.

قوله الذي فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته ووتد بالصخور ميدان أرضه.

أقول: لما قدم الصفات السلبية شرع في الصفات الثبوتية وهذه الإعتبارات الثلاثة موجودة في القرآن الكريم.

أما الأول: فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١].

وأما الثاني: فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وأما الثالث: فقوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥]. وقوله: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ [النبإ: ٧]. أما المراد بقوله؛ فطر الخلائق بقدرته فاعتباره من حيث إستناد المخلوقات إلى قدرته ووجودها عنها.

ولما كانت حقيقة الفطر الشق في الأجسام كانت نسبته هَهُنَا إلى الخلق إستعارة، وللإمام فخر الدين في بيان وجه الإستعارة في أمثال هذا الموضع بحث لطيف قال: وذلك أن المخلوق قبل دخوله في الوجود كان معدوداً محضاً والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا إنفراج فيها ولا شق.

فإذا أخرج الموجد المبتدع من العدم إلى الوجود فكأنّه بحسب التخيّل والتوهم شق ذلك العدم وفطره وأخرج ذلك الموجود منه. قلت: إلاّ أن ذلك الشق والفطر على هذا التقدير لا يكون للموجود المخرج، بل للعدم الذي خرج هذا الموجود منه. اللهم إلاّ على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه حتى يكون التقدير الذي فطر عدم الخلائق، وهو استعمال شائع في

العرف والعربية كثيراً وحسنه بين الناس ظاهر ومثله فالق الحب والنوى على قول بعض المفسرين كما سنبيّنه، وقال ابن الأنباري: لما كان أصل الفطر شق الشيء عند ابتدائه فقوله فطر الخلائق أي خلقهم وأنشأهم بالتركيب والتأليف الذي سبيله أن يحصل فيه الشق والتأليف، عند ضمّ بعض الأشياء إلى بعض.

ثم إن الفطر كما يكون شقّ إصلاح كقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] كذلك يكون شق إفساد كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

وأما قوله ونشر الرياح برحمته فبيانه أن نشر الرياح وبسطها لما كان سبباً عظيماً من أسباب بقاء أنواع الحيوان والنبات واستعدادات الأمزجة للصحة والنمو وغيرها، حتى قال كثير من الأطباء: إنها تستحيل روحاً حيوانياً، وكانت عناية الله سبحانه وتعالى وعموم رحمته شاملة لهذا العالم، وهي مستند كل موجود لا جرم كان نشرها برحمته، ومن أظهر آثار الرحمة الإلهية بنشر الرياح حملها للسحاب المقرع بالماء وإثارتها له على وفق الحكمة، ليصيب الأرض الميتة فينبت بها الزرع ويملأ الضرع. كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقال: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦] وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] والمراد تنبيه الغافلين على ضروب نعم الله بذكر هذه النعمة الجليلة ليستديموها بدوام شكره والمواظبة على طاعته.

كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١] ولقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

قال إن بعض العرب يستعمل الريح في العذاب والرياح في الرحمة. وكذلك نزل القرآن الكريم قال تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة: ٦] وقال: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وقال: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] ﴿ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] وأمثاله.

قوله ووتد بالصخور ميدان أرضه.

أقول: المراد نسبة نظام الأرض إلى قدرته سبحانه، وهيهنا بحثان:

البحث الأول: في أن قول القائل وتدت كذا بكذا معناه جعلته وتداً له والموتود، هَهُنَا في الحقيقة، إنما هو الأرض وقد جعل الموتود هنا هو ميدان الأرض، وهو عرض من الأعراض لا يتصور جعل الجبل وتداً له، إلاّ أنّا نقول: لما كان الميدان علّة حاملة على إيجاد الجبال وإيتاد الأرض بها، كان الإهتمام به أشد فلذلك قدمه وأضافه إضافة الصفة إلى الموصوف. وإن كان التقدير وتد بالصخور أرضه المائدة.

البحث الثاني: أن تعليل وجود الجبال بميدان الأرض ورد هَهُنَا وفي القرآن الكريم في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وكقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]. ولا بدَّ من البحث عن وجه هذا التعليل، وفيه خمسة أوجه:

الوجه الأول: قال المفسرون في معنى هذه الآيات: إن السفينة إذا أُلقيت على وجه الماء، فإنّها تميل من جانب إلى جانب وتتحرك فإذا وضعت الأجرام الثقيلة فيها استقرت على وجه الماء وسكنت، قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت فخلق الله عليها هذه الجبال ووتدها بها فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل الجبال. قال الإمام فخر الدين: ويتوجه على هذا الكلام أن يقال: لا شك أنّ الأرض أثقل من الماء والأثقل يغوص فيه، ولا يبقى طافياً عليه. وإذا لم يبق كذلك امتنع أن يقال: إنها تميد وتميل بخلاف السفينة إذ كانت مركبة من الأخشاب وداخلها مجوّف مملوء من الهواء. فلذلك تبقى طافية على الماء فلا جرم تميل وتضطرب إلى أن ترسى بالأجرام الثقيلة فإذن الفرق ظاهر.

الوجه الثاني: ما ذكره هو قال: إنه قد ثبت بالدلائل اليقينيّة أن الأرض كرة، وثبت أيضاً أن هذه الجبال على سطح الأرض جارية مجرى خشونات وتضريسات حاصلة على وجه الكرة. فإذا ثبت هذا فلو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة

حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات، لصارت بحيث تتحرك بالإستدارة بأدنى سبب لأن الجرم البسيط المستدير يجب كونه متحركاً على نفسه، وإن لم يجب ذلك عقلاً إلاّ أنها تصير بأدنى سبب تتحرك على هذا الوجه. أما إذا حصل على سطح كرة الأرض هذه الجبال، فكانت كالخشونات الواقعة على وجه الكرة، فكل واحد من هذه الجبال، إنما يتوجه بطبعه إلى مركز العالم وتوجّه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة، يكون جارياً مجرى الوتد الذي يمنع كرة الأرض من الإستدارة. وكان تخليق هذه الجبال على الأرض كالأوتاد المعدودة في الكرة المانعة من الحركة المستديرة.

الوجه الثالث: أن نقول: لما كانت فائدة الوتد أن يحفظ الموتود في بعض المواضع عن الحركة والإضطراب حتى يكون قاراً ساكناً؛ وكان من لوازم ذلك السكون في بعض الأشياء صحة الإستقرار على ذلك الشيء والتصرف عليه. وكان من فائدة وجود الجبال والتضريسات الموجودة في وجه الأرض أن لا تكون مغمورة بالماء ليحصل للحيوان الإستقرار والتصرف عليها لا جرم كان بين الأوتاد والجبال الخارجة من الماء في الأرض اشتراك في كونهما مستلزمين لصحة الاستقرار مانعين من عدمه لا جرم حسنت إستعارة نسبة الإيتاد إلى الصخور والجبال.

وأما إشعاره بالميدان، فلأن الحيوان كما يكون صادقاً عليه أنه غير مستقّر على الأرض بسبب انغمارها في الماء لو لم توجد الجبال، كذلك يصدق على الأرض أنّها غير مستقرة تحته ومضطربة بالنسبة إليه فثبت حينئذٍ أنه لولا وجود الجبال في سطح الأرض، لكانت مضطربة ومائدة بالنسبة إلى الحيوان لعدم تمكنه من الإستقرار عليها.

الوجه الرابع: قال بعض العلماء: إنّه يحتمل أن تكون الإشارة بالصخور إلى الأنبياء والأولياء والعلماء وبالأرض إلى الدنيا. أما وجه التجوّز بالصخور عن الأنبياء والعلماء فلأن الصخور والجبال لما كانت على غاية من الثبات والإستقرار مانعة لما يكون تحتها من الحركة، والإضطراب عاصمة لما يلتجأ إليها من الحيوان عما يوجب له الهرب فيسكن بذلك اضطرابه وقلقه أشبهت الأوتاد من بعض هذه الجهات، ثم لما كانت الأنبياء والعلماء هم السبب في انتظام أمور الدنيا وعدم اضطراب أحوال أهلها كانوا كالأوتاد للأرض فلا جرم صحّت إستعارة لفظ الصخور لهم، ولذلك يحسن في العرف أن يقال: فلان جبل منيع يأوي إليه كل ملهوف إذا كان يرجع إليه في المهمات والحوائج والعلماء أوتاد الله في الأرض.

الوجه الخامس: أن المقصود من جعل الجبال كالأوتاد في الأرض أن يهتدي بها على طرقها والمقاصد فيها فلا تميد جهاتهاالمشتبهة بأهلها ولا تميل بهم فيتيهون فيها عن طرقهم ومقاصدهم وبالله التوفيق.

قوله أول الدين معرفته.

أقول: لما كان الدين في اللغة الطاعة كما سبق وفي العرف الشرعي هو الشريعة الصادرة بواسطة الرسل عليهم السلام وكان اتباع الشريعة طاعة مخصوص كان ذلك تخصيصاً من الشارع للعام بأحد مسمّياته ولكثرة استعماله فيه صار حقيقة دون سائر المسمّيات لأنه المتبادر إلى الفهم حال إطلاق لفظة الدين، واعلم أن معرفة الصانع سبحانه على مراتب فأولها وأدناها أن يعرف العبد أن للعالم صانعاً، الثانية أن يصدق بوجوده، الثالثة أن يترقى بجذب العناية الإلهيّة إلى توحيده وتنزيهه عن الشركاء، الرابعة مرتبة الإخلاص له، الخامسة نفي الصفات التي تعتبرها الأذهان له عنه وهي غاية العرفان ومنتهى قوّة الإنسان، وكل مرتبة من المراتب الأربع الأولى مبدىء لما بعدها من المراتب، وكل من الأربع الأخيرة كمال لما قبلها، ثم إنّ المرتبتين الأوليين مركوزتان في الفطر الإنسانية، بل فيما هو أعم منها وهي الفطر الحيوانية. ولذلك فإن الأنبياء عليهم السلام لم يدعوا الخلق إلى تحصيل هذا القدر من المعرفة، وأيضاً فلو كان حصول هذا القدر من المعرفة متوقفاً على دعوة الأنبياء وصدقهم مع أن صدقهم مبني على معرفة أن هَهُنَا صانعاً للخلق أرسلهم للزم الدور.

وإنما كانت أول مرتبة دعوا إليها من المعرفة هي توحيد الصانع ونفي الكثرة عنه المشتمل عليها أول كلمة نطق بها الداعي إلى الله وهي قولنا: لا إله إلاّ الله فقال صلى الله عليه وآله من قال: لا إله إلاّ الله خالصاً دخل الجنة. ثم استعدت أذهان الخلق بما نطقت به من التوحيد الظاهر نبّههم على أن فيها قوّة إعداد لتوحيد أعلى وأخفى من الأول فقال: من قال لا إله إلا الله خالصاً مخلصاً دخل الجنة، وذلك إشارة إلى حذف كل قيد من درجة الإعتبار مع الوحدة المطلقة إذا عرفت ذلك فاعلم أنه يحتمل أن يكون مراده بالمعرفة المرتبة الأولى من مراتب المعرفة وحينئذ يكون معنى قوله أول الدين معرفته ظاهراً فإن ذلك القدر أول متحصّل في النفس من الدين الحق، ويحتمل أن يكون مراده المعرفة التامة التي هي غاية العارف ونهاية مراتب السلوك وحينئذ يكون المراد من كونها أول الدين هو أوليّتها في العقل وهو إشارة إلى كونها علّة غائية إذ العلّة الغائية متقدمة في العقل على ما هي علّة له وإن تأخرت في الوجود.

وبيان ذلك أن المعرفة التامة التي هي غاية سعي العارف غير حاصلة في مبدأ الأمر بل يحتاج في كمال ما حصل له من مراتب المعرفة، وتحصيل المعرفة التامة إلى الرياضة بالزهد والعبادة وتلقي الأوامر الإلهية بالقبول التي هي سبب إتمام الدين فيستعد أولاً بسببها للتصديق بوجوده يقيناً ثم لتوحيده ثم للإخلاص له، ثم لنفي كل ما عداه عنه فيغرق في تيّار بحار العظمة وكل مرتبة أدركها فهي كمال لما قبلها إلى أن تتم المعرفة المطلوبة له بحسب ما في وسعه وبكمال المعرفة يتمّ الدين وينتهي السفر إلى الله.

قوله وكمال معرفته التصديق إلى قوله نفي الصفات عنه.

أقول: ترتيب هذه المقدمات على هذا الوجه يسمى قياساً مفصولاً وهو القياس المركب الذي تطوى فيه النتائج وعند ذكرها يتبيّن أن المقصود منها بيان أن كمال معرفته نفي الصفات عنه، وهذا القياس ينحلّ إلى قياسات تشبه قياس المساواة لعدم الشركة بين مقدمتي كل منها في تمام الأوسط فيحتاج في إنتاج كل منها إلى قياس آخر، والمطلوب من التركيب الأول وهو قوله وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده أن كمال معرفته توحيده، وإنما يلزم عنه هذا المطلوب بقياس آخر؛ صورته أن معرفته كمال وكمالها توحيده وكلما كان كمال كماله توحيده، كان كماله توحيده فينتج أن كمال معرفته توحيده.

أما المقدمة الأولى: فإن التوحيد كمال التصديق وهو كمال المعرفة.

وأما الثانية فلأن كمال كمال الشيء، كمال للشيء وهكذا في باقي التركيب والمطلوب من تركيب هذه النتيجة مع المقدمة الثالثة: وهي قوله وكمال توحيده الإخلاص له أن كمال معرفته الإخلاص له، ومن تركيب هذه النتيجة مع المقدمة الرابعة: وهي قوله كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه يحصل المطلوب، واعلم أن في إطلاق الكمال هَهُنَا تنبيهاً على أن معرفة الله تعالى مقولة بحسب التشكيك إذ كانت قابلة للزيادة والنقصان.

وبيان ذلك أن ذات الله تعالى لما كانت بريّة عن أنحاء التركيب لم تكن معرفته ممكنة إلاّ بحسب رسوم ناقصة تتركب من سلوب وإضافات تلزم ذاته المقدسة لزوماً عقلياً فتلك السلوب والإَضافات لما لم تكن متناهية، لم يمكن أن تقف المعرفة بحسبها عند حدّ واحد، بل تكون متفاوتة بحسب زيادتها ونقصانها وخفائها وجلائها، وكذلك كمال التصديق والتوحيد والإخلاص، وإذا تقرر ذلك فلنشرع في تقدير المقدمات. أما المقدمة الأولى: وهي أن كمال معرفته التصديق به.

وبيان ذلك أن المتصور لمعنى إله العالم عارف به من تلك الجهة معرفة ناقصة تمامها الحكم بوجوده ووجوبه إذ من ضرورة كونه موحداً للعالم كونه موجوداً. فإن ما لم يكن موجوداً استحال بالضرورة أن يصدر عنه أثر موجود فهذا الحكم اللاحي هو كمال معرفته.

وأما الثانية وهي قوله وكمال التصديق به توحيده، فبيانها أن من صدق بوجود الواجب ثم جهل مع ذلك كونه واحداً كان تصديقه به تصديقاً ناقصاً تمامه توحيده. إذا كانت الوحدة المطلقة لازمة لوجود الواجب فإن

طبيعة واجب الوجود بتقدير أن تكون مشتركة بين اثنين فلا بدّ لكل واحد منهما من مميّز وراء ما به الإشتراك. فيلزم التركيب في ذاتيهما وكل مركب ممكن فيلزمه الجهل بكونه واجب الوجود. وإن تصور معناه وحكم بوجوده.

وأما الثالثة وهي قوله وكماله توحيده الإخلاص له ففيها إشارة إلى أن التوحيد المطلق للعارف إنّما يتم بالإخلاص له وهو الزهد الحقيقي الذي هو عبارة عن تنحية كل ما سوى الحق الأول عن سنن الإيثار.

وبيان ذلك أنه ثبت في علم السلوك أن العارف ما دام ملتفتاً مع ملاحظة جلال الله وعظمته إلى شيء سواه فهو بعد واقف دون مقام الوصول جاعل مع الله غيره حتى أن أهل الإخلاص ليعدّون ذلك شركاً خفياً كما قال بعضهم: من كان في قلبه مثقال خردلة سوى جلالك فاعلم أنه مريض وإنهم ليعتبرون في تحقق الإخلاص أن يغيب العارف عن نفسه حال ملاحظته لجلال الله وأن لحظها فمن حيث هي لاحظة لا من حيث هي متزيّنة بزينة الحق. فإذن التوحيد المطلق أن لا يعتبر معه غيره مطلقاً، وذلك هو المراد بقوله وكمال توحيده الإخلاص له.

وأما المقدمة الرابعة وهي أن كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه فقد بيّن عليه السلام صدقها بقياس برهاني مطوي النتائج أيضاً، استنتج منه أن كل من وصف الله سبحانه فقد جهله، وذلك قوله عليه السلام لشهادة كل صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة إلى قوله: ومن جزّاه فقد جهله؛ وبيان صحة المقدمات أما قوله لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وبالعكس فهو توطئة الإستدلال ببيان المغائرة بين الصفة والموصوف؛ والمراد بالشهادة هَهُنَا شهادة الحال، فإن حال الصفة تشهد بحاجتها إلى الموصوف وعدم قيامها بدونه وحال الموصوف تشهد بالإستغناء عن الصفة والقيام بالذات بدونها فلا تكون الصفة نفس الموصوف.

وأما قوله فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه فهو ظاهر لأنه لما قرّر كون الصفة مغائرة للموصوف لزم أن تكون زائدة على الذات غير منفكة عنها فلزم من وصفه بها أن تكون مقارنة لها وإن كانت تلك المقارنة على وجه لا يستدعي زماناً ولا مكاناً.

وأما قوله ومن قرنه فقد ثنّاه فلأن من قرنه بشيء من الصفات فقد اعتبر في مفهومه أمرين أحدهما الذات، والآخر الصفة. فكان واجب الوجود عبارة عن شيئين أو أشياء فكانت فيه كثرة وحينئذ ينتج هذا التركيب أن من وصف الله سبحانه فقد ثنّاه، وأما قوله ومن ثناه فقد جزّاه فظاهر أنه إذا كانت الذات عبارة عن مجموع أمور كانت تلك الأمور أجزاء لتلك الكثرة من حيث إنها تلك الكثرة وهي مبادئ لها، وضم هذه المقدمة إلى نتيجة التركيب الأول ينتج أن من وصف الله سبحانه فقد جزاه.

وأما قوله ومن جزاه فقد جهله فلأن كل ذي جزء فهو يفتقر إلى جزء وجزئه غيره فكل ذي جزء فهو مفتقر إلى غيره. والمفتقر إلى الغير ممكن فالمتصور في الحقيقة لأمر هو ممكن الوجود لا الواجب الوجود بذاته فيكون إذن جاهلاً به وضم هذه المقدمة إلى نتيجة ما قبلها ينتج أن من وصف الله سبحانه فقد جهله. وحينئذ يتبيّن المطلوب وهو أن كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه إذ الإخلاص له والجهل به مما لا يجتمعان، وإذا كان الإخلاص منافياً للجهل به الذي هو لازم لإثبات الصفة له كان إذن منافياً لإثبات الصفة له، لأن معاندة اللازم تستلزم معاندة الملزوم، وإذ بطل أن يكون الإخلاص في إثبات الصفة له تثبت أنه في نفي الصفة عنه وعند هذا يظهر المطلوب الأول وهو أن كمال معرفته نفي الصفات عنه وذلك هو التوحيد المطلق والإخلاص المحقق الذي هو نهاية العرفان وغاية سعي العارف من كل حركة حسيّة وعقليّة، وما يكون في نفس الأمر من غير تعقّل نقص كل ما عداه عنه معه فهو الوحدة المطلقة المبراة عن كل لاحق، وهذا مقام حسرت عنه نوافذ الأبصار، وكلّت في تحقيقه صوارم الأفكار، وأكثر الناس فيه الأقوال فانتهت بهم الحال إلى إثبات المعاني وارتكاب الأحوال فلزمهم في ذلك الضلال ما لزمهم من المحال. فإن قلت: هذا يشكل من وجهين أحدهما أن الكتب الإلهية والسنن النبوية مشحونة بوصفه تعالى بالأوصاف المشهورة كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر

وغيرها، وعلى ما قلتم يلزم أن لا يوصف سبحانه بشيء منها.

الثاني: أنه عليه السلام صرّح بإثبات الصفة له في قوله ليس لصفته حدّ محدود ولو كان مقصوده بنفي الصفات ما ذكرتم لزم التناقض في كلامه عليه السلام. فالأولى إذن أن يخصّ قوله نفي الصفات عنه بنفي المعاني كما ذهب إليه الأشعري، ونفي الأحوال كما ذهب إليه المثبتون من المعتزلة وبعض الأشعرية ليبقى للصفات المشهورة الجارية عليه تعالى ولإثباته عليه السلام الصفة لله في موضع آخر محمل، أو يختص بنفي صفات المخلوقين.

كما أشار عليه السلام في آخر الخطبة لا يجرون إليه صفات المصنوعين، وكما ذكره الشيخ المفيد من الشيعة في كتاب الإرشاد عنه جلّ أن تحلّه الصفات لشهادة العقول أن كل من حلّته الصفات مصنوع. قلت: قد سبق منّا بيان أن كل ما يوصف به تعالى من الصفات الحقيقية والسلبية والإضافية اعتبارات تحدثها عقولنا عند مقايسة ذاته سبحانه إلى غيرها، ولا يلزم تركيب في ذاته ولا كثرة فيكون وصفه تعالى بها أمراً معلوماً من الدين ليعم التوحيد والتنزيه كل طبقة من الناس.

ولما كانت عقول الخلق على مراتب من التفاوت كان الإخلاص الذي ذكره عليه السلام أقصى ما تنتهي إليه القوة البشرية عند غرقها في أنوار كبرياء الله وهو أن تعتبره فقط من غير ملاحظة شيء آخر. وكان إثباته عليه السلام الصفة في موضع آخر ووصفه في الكتاب العزيز والسنن النبوية إشارة إلى الإعتبارات التي ذكرناها إذ كان من هو دون درجة الإخلاص لا يمكن أن يعرف الله سبحانه بدونها وبالله التوفيق.

قوله ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه.

أقول: يشير إلى البرهان على أحد أمرين أحدهما أنه يحتمل أن يكون مراده امتناع الإشارة العقليّة إليه وتعلقها به. فعلى هذا يكون تقرير المقدمة الأولى من هذا البرهان أن من وجّه ذهنه طالباً لكنه ذاته المقدسة وزعم أنه وجدها وأحاط بها وأشار إليها من جهة ما هي فقد أوجب له حداً يقف ذهنه عنده، إذ الحقيقة إنما تعلم من جهة ما هي ويشير العقل إلى كنهها إذا كانت مركبة وقد علمت أن كل مركب محدود في المعنى. ولأن الإشارة العقلية ملوثة بالإشارة الوهمية والخيالية مشوبة بهما وهما مستلزمان لإثبات الحد كما سيأتي. وأما تقرير المقدمة الثانية فظاهر إذ كان حدّ الشيء، إنما يتألف من كثرة معتبرة فيه وكل ذي كثرة معدودٌ في نفسه ونتيجة هذا البرهان أن من أشار إليه فقد عدّه. وأما استحالة أن يكون معدوداً فلما علمت فيما سبق أن الكثرة مستلزمة للإمكان.

الثاني: أنه يحتمل أن يكون مراده أيضاً نفي الإشارة الحسية الظاهرة والباطنة إليه وبيان تنزيهه عن الوحدة العددية، ويكون تقرير المقدمة الأولى أن من أشار إليه بأحد الحواس فقد جعل له حداً أو حدوداً أو نهايات تحيط به؛ وذلك أن كل ما يشار إليه بالحس أيضاً أو الباطن فلا بد وأن يشار إليه في حيّز مخصوص وعلى وضع مخصوص. وما كان كذلك فلا بد وأن يكون له حد أو حدود فإذن لو كان مشار إليها بأحدها لكان محدوداً.

وأما تقرير المقدمة الثانية فالمراد بالعد هَهُنَا جعله مبدأ كثرة يصلح أن يكون عاداً لها، وذلك أن كل ما أدرك على وضع مخصوص وفي جهة فالعقل حاكم بإمكان وجود أمثاله فمن حدّه بالإشارة الحسيّة فقد جعله مبدأ كثرة يصلح أن يعدّ بها ويكون معدوداً بالنسبة إليها.

وأما كونه في نفسه معدوداً وذلك كونه مركباً من أمور لأنّ الواحد بهذا المعنى ليس مجرد الوحدة فقط وإلاّ لما تعلّقت الإشارة الحسية به بل لا بد معها من الوضع كما علمت وعلى الوجهين يكون مجتمعاً من أمرين أو أمور فيكون مركباً وكل مركب ممكن على ما مرّ. وإذا استحال أن يكون واحداً بهذا المعنى كانت الإشارة إليه مطلقاً يستلزم الجهل به من حيث هو واحد واجب الوجود، واعلم أنه ليس إذا بطل أن يكون واحداً. فإن للواحد مفهومات أخر بها يقال له واحد فإنه يقال واحد لما لا يشاركه في حقيقته الخاصة به غيره ويقال واحد لما لا تتركب حقيقته وتأتلف من معاني متعددة الأجزاء قوام ولا أجزاء حدّ ويقال واحد لما لم يفته من كماله شيء بل كل كمال ينبغي أن يكون له فهو

حاصل له بالفعل والباري سبحانه واحد، بهذه الإعتبارات الثلاثة:

قوله ومن قال فيم فقد ضمنّه ومن قال علام فقد أخلى منه.

أقول: أصل فيمَ وعلام فيما وعلى ما حرفان دخلا على ما الإستفهامية فحذف ألفها لاتصالها بهما تخفيفاً في الإستفهام خاصة وهاتان القضيتان في تقدير شرطيتين متصلتين يراد منهما تأديب الخلق أن يستفهموا عنه سبحانه على هذين الوجهين؛ وبيان المراد منهما باستثناء نقيضي تاليهما وحذف الإستثناء هَهُنَا الذي هو كبرى القياس على ما هو المعتاد في قياس الضمير، واعلم أن تقدير المتصلة الأولى لو صحّ السؤال منه بفيم لكان له محل يتضمنه ويصدق عليه أنه فيه صدق العرض بالمحل، لكنه يمتنع كونه في محل فيمتنع السؤال عنه بفيم. بيان الملازمة أن مفهوم في لما كان موجوداً في ما كان الإستفهام بفيم استفهاماً عن مطلق المحل والظرف ولا يصح الإستفهام عن المحل لشيء إلاّ إذا صحّ كونه فيه بيان بطلان التالي أنه لو صحّ كونه في محل لكان.

إما أن يجب كونه فيه فيلزم أن يكون محتاجاً إلى ذلك المحل والمحتاج إلى الغير ممكن بالذات وإن لم يجب حلوله فيه جاز أن يستغني عنه والغني في وجوده عن المحل يستحيل أن يعرض له وإذا استحال أن يكون في محل كان السؤال عنه بفيم جهلاً. وأما تقدير المتصلة الثانية فهو أنه لو جاز السؤال عنه بعلام لجاز خلوّ بعض الجهات والأماكن عنه لكنه لا يجوز خلوّ مكان عنه فامتنع الإستفهام عنه بعلام بيان الملازمة هو أن مفهوم على وهو العلوّ والفوقانية لما كان موجوداً في ما كانت استفهاماً عن شيء هو فوقه وعال عليه، وذلك يستلزم أمرين أحدهما بواسطة الآخر ولازم له فالذي هو بواسطة ولا لازم له هو أخلى سائر الجهات عنه وهو ما ذكره عليه السلام. وأما الواسطة الملزومة فهي إثبات الجهة المعينة وهي جهة فوق إذا كان اختصاصه بجهة معينة يستلزم نفي كونه في سائر الجهات.

وإنما جعل عليه السلام لازم هذه المتصلة كونه قد أخلى منه ليستلزم من إبطال اللازم وهو الخلو عنه بطلان اختصاصه بالجهة المعيّنة ليلزم منه بطلان المقدم وهو صحة السؤال عنه بعلام. فأما بطلان التالي فلقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فإن قلت: إن مثبت الجهة لا يجهل هذه الآيات بل له أن يقول: لا تنافي بين إثبات الجهة المعيّنة وبين مقتضي هذه الآيات لأن المقصود من كونه في السماء والأرض أي بعلمه وكذلك من معيّته للخلق وكونه في جهة فوق إنما هو بذاته فحينئذ لا تكون هذه الآيات منافية لغرضه. قلت: إنما جعل عليه السلام قوله فقد أخلى منه لازماً في هذه القضية لأن نفي هذا اللازم بهذه الآيات ظاهر وكذلك إنَّ مثبت الجهة، إنما يعتمد في إثباتها على ظواهر الآيات الدالة على ذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فكانت معارضة مقتضاها بظواهر هذه الآيات أنفع في الخطابة وأنجع في قلوب العامة من الدلائل العقليّة على نفي الجهة، ودلالة هذه الآيات على عدم خلو مكان من الأمكنة منه تعالى يستلزم دلالتها على عدم اختصاصه بجهة فوق، والمعارضة كما تكون بما يقتضي إبطال مقتضي الدليل كذلك تكون بما يقتضي إبطال لازم مقتضاه فكانت مستلزمة لعدم جواز الإستفهام عنه بعلام ولو قال: ومن قال علام فقد أثبت له جهة لم يمكن إبطال هذا اللازم إلاّ بالدليل العقلي لكون الظواهر النقلية مشعرة بإثبات الجهة له فلذلك عدل عليه السلام إلى هذا اللازم كما بيّنه لوجود ما يبطله في القرآن الكريم وهي الآيات المذكورة حتى إذا عدل المثبت للجهة عن ظواهر هذه الآيات إلى التأويل بإحاطة العلم مثلاً، ألزمناه مثله في نحو قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقلنا: المراد من الإستواء الإستيلاء بالقدرة أو العلم كما هو مذكور في الكتب الكلامية، وإنما خصّ عليه السلام جهة العلو بإنكار اعتقادها والتحذير منه لكون كل معتقد لله جهة يخصصه بها لما يتوهم من كونها أشرف الجهات ولأنها نطق بها القرآن الكريم فكانت الشبهة في إثباتها أقوى فلذلك خصّها بالذكر.

قوله كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم.

أقول: الكائن اسم الفاعل من كان وهو يستعمل في اللغة على ثلاثة أوجه، أحدها أن تكون بصيغتها دالة على الحدث والزمان ويسمى في عرف النحاة كان التامة كقوله؛ إذا كان الشتاء فادفئوني أي إذا حدث ووجد.

الثاني: أن تدل على الزمان وحده ويحتاج في الدلالة على الحدث إلى خبر يتم به وهي الناقصة واستعمالها هو الأكثر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[النحل: ١٢٠] .

الثالث: أن تكون زائدة خالية عن الدلالة على حدث أو زمان كقوله: على كان المسوّمة العراب أي على المسوّمة. إذا عرفت ذلك فاعلم أن مفهوم كائن أنه شيءٌ ما له كون، ولما كان ذلك الشيء هو ذات الله تعالى وكانت ذاته مقدسة عن الزمان استحال أن يقصد وصفه بالكون الدال على الزمان. ولما احترز بقوله لا عن حدث استحال أن يدل كونه على الحدث وهو المسبوقية بالعدم أيضاً وإذا بطل أن يكون كونه مستلزماً للزمان ومسبوقية العدم لم يكن له دلالة إلاّ على الوجود المجرد عن هذين القيدين، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] وأمثاله وقول الرسول صلى الله عليه وآله كان الله ولا شيء، وأما قوله موجود لا عن عدم فالمراد أيضاً أن وجوده ليس بحادث؛ وبيانه أن الموجود من حيث هو موجود. إما أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم وحاصلاً عنه وهو المحدث أو لا يكون وهو القديم فأما كلية هذا الحكم فلأنه لو كان محدثاً لكان ممكناً ولو كان ممكناً لما كان واجب الوجود فينتج أنه لو كان محدثاً لما كان واجب الوجود لكنه واجب الوجود فينتج أنه ليس بمحدث.

أما المقدمتان فجليّتان. وأما بطلان تالي النتيجة فمقتضى البراهين الإلهية، واعلم أن هذه القضية مؤكدة لمقتضى القضية الأولى وليس مقتضاها عين ما أفادته الأولى إذ كان في الكلمة الأولى مقصود آخر، وهو تعليم الخلق كيفية إطلاق لفظة الكون على الله تعالى وإشعارهم أن المراد منها ليس ما يتبادر إليه الذهن من مفهومها حال إطلاقها وهو الحدوث ويحتمل أن يكون مراده في الأولى نفي الحدوث الذاتي أو ما أعمّ منه ومن الزمان، وفي الثانية نفي الحدوث الزماني والله أعلم.

قوله مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة.

أقول: إن كوّنه تعالى مع غيره وغيره غيره إضافتان عارضتان له بالنسبة إلى جميع الموجودات إذ كلها منه ويصدق عليه أن يقال: إنه معها وإنّه متقدم عليها ولكن باعتبارين مختلفين. فإن المعيّة نفس إضافة تحدثها العقول بنسبته إلى آثاره ومساوقة وجوده لوجوداتها وإحاطة علمه بكليّتها وجزئيتها، كما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤] والتقدم نسبة تحدثها له باعتبار كونه علّة لها ثم لما كانت المعية أعمّ من المقارنة لاعتبار الزمان والمكان في مفهومها المتعارف لم يكن معيّة للأشياء على سبيل المقارنة لها لبراءة ذاته المقدسة عن الزمان والمكان فلذلك احترز بقوله لا بمقارنة.

وأما أنه غيرها لا بمزايلة فيحتمل وجهين، أحدهما وهو الأظهر أن المغايرة لما كانت أعم من المزايلة لدخول الزمان والمكان في مفهومها أيضاً كانت مغائرته للأشياء غير معتبر فيها المزايلة لتقدس ذاته عن الزمان والمكان فلذلك احترز بقوله لا بمزايلة.

الثاني: أن يقال: إن كونه تعالى غير كل شيء معناه أنه مميّز بذاته عن كل شيء إذ لا يشارك شيئاً من الأشياء في معنى جنسي ولا نوعي فلا يحتاج أن ينفصل عنها بفصل ذاتي أو عرضي بل هو مبائن لها بذاته لا بمزايلة، ويكون معنى المزايلة المفارقة بأحد الأمور المذكورة بعد الإشتراك في أحد الأمور المذكورة، واعلم أن هذين القيدين كاسران للأحكام الوهمية باعتبار الزمان والمكان والأوصاف المخلوقة المتعارفة بين الخلق المعتبرة بينهم في مفهوم المعيّة والغيرية منبّهان للعقول على ما وراء حكم الوهم من عظمة الله سبحانه، وتقدس ذاته عن صفات الممكنات وكذلك قوله كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم فإنه ردّ للوهم الحاكم بمماثلته تعالى للمحدثات.

قوله فاعل لا بمعنى الحركات والآلة.

أقول: الحركة عبارة عن حصول المتحيّز في حيّز

بعد أن كان في حيّز آخر إن قلنا بثبوت الجوهر الفرد وإلاّ فهي عبارة عن انتقال المتحيّز من حيز إلى حيّز آخر أو غيره من التعريفات، والآلة هي ما يؤثر الفاعل في منفعله القريب منه بواسطة، والمراد بيان أنه فاعل إلاّ أن ما صدر عنه تعالى من الآثار ليس بحسب حركة ولا بتوسط آلة كما يفتقر غيره في نسبة صدور الفعل عنه إليه.

أما أنه لا يفتقر إلى الحركة فلأن معنى الحركة إنما يعرض للجسم والباري تعالى منزّه عن الجسمية فيستحيل صدق مسمى الحركة في حقه. وأما أن فعله ليس بتوسط آلة فبيانه من وجهين: أحدهما لو كان كذلك لكانت تلك الآلة إن كانت من فعله فإما بتوسط آلة أخرى أو بدونها فإن كانت بدونها فقد صدق أنه فاعل لا بمعنى الآلة، وإن كان فعله لها بتوسّط آلة أُخرى فالكلام فيها كالكلام في الأولى ويلزم التناقض. وأما إن لم تكن تلك الآلة من فعله ولم يمكنه الفعل بدونها كان الباري تعالى مفتقراً في تحقق فعله إلى الغير والمفتقر إلى الغير ممكن بالذات فالواجب بالذات ممكن بالذات هذا خلف.

الثاني: أنه تعالى لو فعل بالآلة لكان بدونها غير مستقل بإيجاد الفعل فكان ناقصاً بذاته مستكملاً بالآلة، والنقص على الله تعالى محال فتوقف فعله على الآلة محال، فإذن هو الفاعل المطلق بالإبداع ومحض الإختراع المبرء عن نقصان الذات المنزه عن الحاجة إلى الحركات والآلات.

قوله بصير إذ لا منظور إليه من خلقه.

أقول: البصير فعيل بمعنى الفاعل من البصر، والبصر حقيقة في حاسة العين مجاز في القوة التي بها العلم، والمنظور إليه هو المشاهد بتقليب الحدقة نحوه، والمراد وصفه تعالى بكونه بصيراً حال ما لا يتحقق المبصرات، وإذ ليس كونه بصيراً بمعنى أن له آلة البصر لتنزهه عن الحواس وجب العدول إلى المجاز، وهو أن يكون بصيراً بمعنى أنه عالم، وقرينة ذلك. قوله إذ لا منظور إليه من خلقه لأنَّ البصر أمر إضافي يلحق ذاته بالنسبة إلى مبصر وهو أمر يلحق ذاته أزلاً وأبداً ولا شيء من المبصرات بالحس، موجود أزلاً لقيام البراهين العقلية على حدوث العالم حتى يمكن أن يلحقه النسبة بالقياس إليه، فوجب أن لا يكون من حيث هو بصيراً بهذا المعنى، ويحتمل أن الإشارة بإذ في قوله إذ لا منظور إليه إلى اعتبار كونه مقدماً على آثارة من جهة، ما هو مقتدم فإنّه بالنظر إلى تلك الجهة لا منظور إليه من خلقه معه وهو عالم لذاته وبذاته مطلقاً، وإذ ليس بصيراً بالمعنى المذكور فهو إذن بصير بالصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات، وبها تظهر الأسرار والخفيّات فهو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى وهذه الآلة وإن عدّت كمالاً فإنما هي كمال خاص بالحيوان، وكماله بها وإن كان ظاهراً إلاّ أنه ضعيف قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ولا يتغلغل في باطن وإن قرب بل يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن، وقد قيل: إن الحظ الذي للعبد من البصر أمران، أحدهما أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وعجائب ملكوت السماوات فلا يكون نظره إلاّ اعتبار. حكي أنه قيل لعيسى عليه السلام هل أحد من الخلق مثلك؟ فقال: من كان نظره عبرة صمته فكرة وكلامه ذكراً فهو مثلي.

الثاني: أن يعلم أنه من الله بمرآى ومسمع فلا يستهين بنظره إليه وإطلاعه عليه ومن أخفى من غير الله ما لا يخفيه من الله تعالى فقد استهان بنظر الله تعالى إليه، والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة فمن قارب معصيته وهو يعلم أن الله يراه فما أجراه وما أخسره، ومن ظن أن الله تعالى لا يراه فما أكفره.

قوله متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده.

أقول: المراد وصفه تعالى بالتفرد بالوحدانية وأشار بقوله إذ لا سكن إلى اعتبار أن تفرده بالوحدانية لذاته فهو من تلك الحيثية متفرد بالوحدانية لا على وجه الإنفراد عن مثل له كما هو المفهوم المتعارف من انفراد بعض الناس عن بعض ممن عادته مشاركته في مشاوراته ومحادثاته، وإنفراد أحد المتألفين من الحيوانات عن الآخر، وهو الأنيس الذي يستأنس بوجوده معه، ويستوحش لفقده وغيبته عنه إذ كان الإستئناس والإستيحاش متعلّقين بميل الطبع إلى الشيء ونفرته عنه

وهما من توابع المزاج، ولما كان الباري سبحانه منزهاً من الجسمية والمزاج وجب أن يكون منزهاً على الإستئناس والتوحش فهو المنفرد بالوحدانية المطلقة لا بالقياس إلى شيء يعقل ذلك التفرد بالنسبة إليه.

واعلم أن القيود الثلاثة الزائدة على قوله فاعل وبصير ومتوحد في الفصول الثلاثة مستلزمة للتنبيه على عظمة الله تعالى كما بيّناه في قوله لا بمقارنة ولا بمزايلة، وذلك لأن الأوهام البشرية حاكمة بحاجة الفاعل إلى الآلة والبصير إلى وجود المبصر والمتوحد إلى أن يكون في مقابلته أنيس مثله انفرد عنه.

ولما كانت ذات الله سبحانه منزهة عن جميع ذلك أراد عليه السلام كسر الوهم ومعارضة أحكامه بتنبيه العقول عليها فذكر هذه القيود الثلاثة وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في نسبة إيجاد العالم إلى قدرة الله تعالى جملاً وتفصيلاً وفي كيفية ذلك وهو اقتصاص في معرض المدح.

أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلاَ حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلاَ هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا. أَحَالَ الأَشْيَاءَ لأَوْقَاتِهَا، وَلأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا. ثُمَّ أَنْشَأَ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وَشَقَّ الأَرْجَاءِ، وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ. الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ، وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ، جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا، وَلاَ دِسَارٍ يَنْظِمُهَا، ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً: فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ. ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمٰوَاتِ الْعُلاَ، فَمَلأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لاَ يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لاَ يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لاَ يَسْأَمُونَ، لاَ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ الأَبْدَانِ، وَلاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ. وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ. وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لأَبْوَابِ جِنَانِهِ. وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَالْخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ، وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ. لاَ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلاَ يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، وَلاَ يَحُدُّونَهُ بِالأَمَاكِنِ، وَلاَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ.

أقول: لم أجد لأهل اللغة فرقاً بين الإنشاء والابتداء وهو الإيجاد الذي لم يسبق بمثله إلاّ أنه يمكن أن يفرق هَهُنَا بينهما صوناً لكلامه عليه السلام عن التكرار بأن يقال: المفهوم من الإنشاء هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إليه والمفهوم من الإبتداء هو الإيجاد الذي لم يقع من الموجد قبل، والرويّة الفكر، وهمامة النفس اهتمامها بالأمور ومن روى همامة نفس فالمراد ترديد العزوم مأخوذ من الهمهمة وهي ترديد الصوت الخفي، وروى أيضاً همّة نفس، والإحالة التحويل والنقل والتغير والإنقلاب من حال إلى آخر.

وروى أجال بالجيم، وروى أيضاً أجّل أي وقت، والملاءمة الجمع، والغرائز جمع غريزة وهي الطبيعة التي طبع عليها الإنسان كأنها غرّزت فيه، والنسخ الأصل، وروى أشباحها جمع شبح وهو الشخص، والقرائن جمع قرينة وهي ما يقترن بالشيء، والأحناء جمع حنو وهي الناحية، والأجواء جمع جوّ وهو الفضاء الواسع، وفتقها شقّها، والأرجاء جمع رجاء مقصور وهي الناحية، والسكائك جمع سكاكة كذوابة وذوائب وهي الفضاء ما بين السماء والأرض، وكل مكان خال فهو هواء، وأجار أي أجرى ومن روى أحار أي أدار وجمع، وتلاطم الماء تراد أمواجه وضرب بعضها بعضاً، والزخّار مبالغة في الزاخر وهو الممتلئ، ومتن كل شيء ما صلب منه واشتد، وعصف الريح شدّة جريانها، وريح زعزع تحرّك الأشياء بقوة وتزعزها، والريح العاصفة الشديدة. كأنها لشدّتها تكسر الأشياء وتقصفها، وسلّطها أي جعل لها سلاطة وهي القهر، والفتيق المنفتق والدقيق المندفق. والإعتقام الشدّ والعقد واعتقم الأرض مهبّها أي جعله خالياً لا نبت به من قولهم عقمت الرحم، إذا لم يقدر بها ولد، وروى بغير تاء أي جعلها عقيمة لا تلقح شجراً ولا سحاباً، والمربّ المجمع، والعصف الجري بشدة وقوّة. والصفق والتصفيق الضرب المتراد المصوت، وإثارة الموج رفعه وهيّجه، وأصل البحر الماء المتّسع الغمر، وربما خصص في العرف بالمالح، وتموّج البحر اضطرابه وتوجه ما ارتفع منه حال هيجانه وحركته، والمخض التحريك، والسقاء وعاء اللبن والماء أيضاً، والمائر المتحرك، والعُباب بالضم معظم الماء وعبّ أي علا وتدفق، والركام الماء المتراكم، والمنفهق الواسع، والتسوية التعديل، والمكفوف الممنوع من السقوط الجوهري، السقف اسم للسماء، وسمك البيت سقفه والسموك الإرتفاع، والعمد جمع كثرة لعمود البيت وعامة البيت عموده، وما يمنعه من السقوط، والدسار كلُّ شيء أدخلته في شيء لشده كمسمار وحبل ونحوهما، والمستطير المنتشر، والفلك من أسماء السماء قيل مأخوذ من فلكة المغزل في الإستدارة، والرقيم اسم للفلك أيضاً واشتقاقه من الرقم وهو الكتابة والنقش، لأن الكواكب به تشبه الرقوم، والأطوار الحالات المختلفة والأنواع المتباتنة قال الكسائي: أصل الملائك مئالك بتقديم الهمزة من الألوك، وهي الرسالة ثم قلّبت وقدّمت اللام، وقيل ملأك ثم تركت همزته لكثرة الإستعمال فقيل ملك. فلما جمعوه ردّوها إليه فقالوا ملائكة وملائك، والسأم الملال، والسدنة جمع سادن وهو الخازن، ومرق السهم من الرمية إذا خرج من الجانب الآخر، والقطر الناحية، والركن الجانب، وتلفع بثوبه التحف به، والنظائر الأمثال؛ ولنرجع إلى المعنى فنقول: أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداءً يشير إلى كيفية إيجاد الخلق على الجملة عن قدرة الله تعالى بعد أن ينبّه على أصل الإيجاد بقوله فطر الخلائق بقدرته وأتى بالمصدرين بعد الفعلين تأكيداً لنسبة الفعلين إلى الله تعالى، وصدق هاتين القضيّتين ظاهر. فإن الباري تعالى لما لم يكن مسبوقاً بغيره لا جرم صدق الإنشاء منه، ولما لم يكن العالم موجوداً قبل وجوده لا جرم صدق ابتداؤه له.

قوله بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها ولا حركة أحدثها ولا همامة نفس اضطراب فيها.

أقول: لما كانت هذه الكيفيات الأربع من شرائط علوم الناس وأفعالهم التي لا يمكن حصولها إلاّ بها أراد تنزيه الله سبحانه عن أن يكون إيجاده للعالم موقوفاً على شيء منها.

أما الرويّة والفكر فلما كانت عبارة عن حركة القوة المفكّرة في تحصيل مبادئ المطالب والإنتقال منها إليها أو عن تلك القوة أيضاً نفسها. كان ذلك في حق الله تعالى محالاً لوجهين:

أحدهما: أن القوة المفكرة من خواص نوع الإنسان.

الثاني: أنّ فائدتها تحصيل المطالب المجهولة والجهل على الله تعالى محال، وأما التجربة فلما كانت عبارة عن حكم الفعل بأمر على أمر بواسطة مشاهدات متكررة معدّة لليقين بسبب انضمامه قياس خفي إليها وهو أنه لو كان هذا الأمر اتفاقياً، لما كان دائماً ولا أكثرياً

كان توقف فعل الله تعالى على استفادة الأحكام منها محالاً لوجهين:

أحدهما: أنها مركبة من مقتضى الحس والعقل، وذلك أن الحس بعد مشاهدته وقوع الإسهال مثلاً عقيب شرب الدواء مرة ومرة، ينتزع العقل منها حكماً كلياً بأن ذلك الدواء مسهل، ومعلوم أنَّ اجتماع الحس والعقل، من خواص نوع الإنسان.

الثاني: أنَّ التجربة إنما تفيد علماً لم يكن فالمحتاج إلى التجربة لإستفادة العلم بها ناقص بذاته مستكمل بها، والمستكمل بالغير محتاج إليه، فيكون ممكناً على ما مرّ وذلك على الله محال. وأما الحركة فقد عرفت أنها من خواص الأجسام والباري سبحانه منزه عن الجسمية فيمتنع صدق المتحرك عليه وإن صدق أنه محرّك الكل لأن المتحرك ما قامت به الحركة والمحرك أعمّ من ذلك. وأما الهمامة أو الهمّة فلما كانت مأخوذة من الإهتمام؛ وحقيقة الميل النفساني الجازم إلى فعل الشيء المتألّم والغم بسبب، فقد كان ذلك في حق الله تعالى محالاً لوجهين:

أحدهما: أن الميل النفساني من خواص الإنسان طلباً لجلب المنفعة والباري سبحانه منزّه عن الميول النفسانيّة وجلب المنافع.

الثاني: أنه مستلزم للتألّم المطلوب، والتألّم على الله تعالى محال، وإذ ليس إيجاده تعالى للعالم على أحد الأنحاء المذكورة فهو إذن بمحض الإختراع والإبداع البريء من الحاجة إلى أمر من خارج ذاته المقدسة. بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون، فاعلم أنه عليه السلام أردف كلاً من هذه الأمور بما هو كيفية في وجوده فأردف الرويّة بالإحالة والتجربة بالإستفادة والحركة بالإحداث والهمامة بالإضطراب لتنتفي الكيفية بانتفاء ما هي له عن ذاته المقدسة وبالله التوفيق.

قوله أجال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها وغرّز غرائزها وألزمها أشباحها.

أقول: لما نبّه على نسبة إيجاد العالم إلى الله تعالى جملة أشار بعده إلى أن ترتيبه وما هو عليه من بديع الصنع والحكمة، كان مفصلاً في علمه وعلى وفق حكمته البالغة قبل إيجاده، والمراد بقوله أجال الأشياء لأوقاتها الإشارة إلى ربط كل ذي وقت بوقته بحسب ما كتب في اللوح المحفوظ بالقلم الإلهي بحيث لا يتأخر متقدم ولا يتقدّم متأخّر منها، ومعنى الإجالة نقل كل منها إلى وقته، وتحويله من العدم والإمكان الصرف إلى مدته المضروبة لوجوده، واللام في لأوقاتها لام التعليل أي لأجل أوقاتها إذ كل وقت يستحق بحسب قدرة الله وعلمه أن يكون فيه ما لا يكون في غيره، وعلى النسخة الأخرى فمعنى تأجيلها جعل أوقاتها أجلاً لها لا تتقدم عليها، ولا تتأخر عنها كما قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ونبّه بقوله ولاءم بين مختلفاتها على كمال قدرة الله تعالى؛ وبيان ذلك في صورتين:

إحديهما: أن العناصر الأربع متضادة الكيفيات، ثم إنّها إذا اجتمعت بقدرة الله تعالى وعلى وفق حكمته حتى انكسرت صورة كل واحد منها بالآخر وهو المسمى بالتفاعل حصلت كيفية متوسطة بين الأضداد متشابهة وهي المزاج فامتزاج اللطيف بالكثيف على ما بينهما من تضادّ الكيفيّات وغاية البعد بقدرته التامة من أعظم الدلائل الدالّة على كماله.

الثانية: أن الملائكة بين الأرواح اللطيفة والنفوس المجرّدة التي لا حاجة بها في قوامها في الوجود إلى مادة أصلاً وبين هذه الأبدان المظلمة الكثيفة واختصاص كل نفس ببدن منها وتدبيره واستعماله فيما يعود إليها من المصالح على النظام الأقصد، والطريق الأرشد مما يشهد بكمال قدرته ولطيف حكمته، وقوله وغرّز غرائزها إشارة إلى ركن القوى الجسمانية النفسانية فيما هي قوى له تتعلق كل ذي طبيعة على خلقه، ومقتضى قواه التي غرّزت فيه من لوازمه وخواصه مثار كقوة التعجب والضحك للإنسان، وقوّة الشجاعة للأسد والجبن للإرنب، والمكر للثعلب وغير ذلك، وعبّر عن إيجادها فيها بالغرز وهو الركز استعارة لما يعقل من المشابهة بينها وبين العود الذي يركز في الأرض من جهة المبدأ ومن جهة الغاية، وذلك أن الله سبحانه لما غرّز هذه

الغرائز في محالها وأُصولها، وكانت الغاية من ذلك ما يحصل منها من الآثار الموافقة لمصلحة العالم أشبه ذلك غرز الإنسان العود في الأرض لغاية أن يثمر ثمرة منتفعاً بها، وقوله وألزمها أشباحها إشارة إلى أنها لا تفارق أُصولها ولا يمكن زوالها عنها لأنّ اللازم هذا شأنه، ومن روي أشباحها بالشين المعجمة فالمراد أن ما غرّز في الأشخاص من اللوازم والغرائز لا تفارقها سواءٌ كانت تلك الغرائز من لوازم الشخص كالذكاء والفطنة بالنسبة إلى بعض الناس والبلادة والغفلة لآخر أو من لوازم المهيّات وطباعها لوجود المهيّات في أشخاصها، هذا إن قلنا إنّ الضمير في قوله وألزمها عائد إلى الغرائز.

أما إن قلنا إنّه عائد إلى الأشياء كان المراد أن الله سبحانه لما أجال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها وغرّز غرائزها في علمه وقضائه، ألزمها بعد كونها كليّة أشخاصها الجزئيّة التي وجدت فيها. لا يقال: إن لوازم المهيّات مقتضى المهيّات فكيف يمكن نسبة إلزامها لأُصولها إلى قدرة الله تعالى لأنّا نقول: المستند إلى مهية الملزوم ليس إلاّ مهيّة لازمه، وأما وجوده له فبقدرة الله تعالى فيكون معنى إلزامها لأُصولها إيجادها في أُصولها تبعاً لإيجاد أُصولها على تقدير وجودها.

قوله عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها وأحنائها.

أقول: المنصوبات الثلاثة وهي قوله عالماً ومحيطاً وعارفاً منصوبة على الحال، والعامل فيها قوله ألزمها إعمالاً للأقرب، والأحوال الثلاثة مفسّرة لمثلها عقيب الأفعال الثلاثة الأول إذ كانت صالحة لأن تكون أحوالاً عنها؛ والمراد في القضية الأُولى إثبات الأفعال الأربعة له حال كونه عالماً بالأشياء قبل إيجادها حاضرة في علمه بالفعل كليّها وجزئيّها.

وفي القضية الثانية نسبة تلك الأفعال إليه حال إحاطة علمه بحدودها، وحقائقها المميّزة لبعضها عن بعض، وإن كلاً منته بحدّه واقف عنده وهو نهايته وغايته، ويحتمل أن يريد بانتهائها انتهاء كل ممكن إلى سببه وانتهاء الكلّ في سلسلة الحاجة إلى الله.

وفي القضية الثالثة: نسبة الأفعال إلى قدرته حال علمه بما يقترن بالأشياء من لوازمها وعوارضها، وعلمه بكل شيء يقترن بشيء آخر على وجه التركيب أو المجاورة كاقتران بعض العناصر ببعض، في أحيازها الطبيعية على الترتيب الطبيعي، وعلمه بأحنائها وجوانبها التي بها تنتهي وتقارن غيرها.

وبيان هذه الأحكام له تعالى ببيان أنه عالم بكل المعلومات من الكليات والجزئيّات وذلك مما علم في العلم الإلهي. فإن قلت: إطلاق اسم العارف على الله تعالى لا يجوز لقول النبي ﷺ: أنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، وإجماع علماء النقل على أنّ هذا الاسم ليس منها قلت: الأشبه أنّ أسماء الله تعالى تزيد على التسعة والتسعين لوجهين:

أحدهما: قول النبي ﷺ أسألك بكل اسم سميّت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، واستأثرت به في علم الغيب عندك، فإنّ هذا صريح في أنه استأثر ببعض الأسماء.

الثاني: أنه ﷺ قال في رمضان: إنه اسم من أسماء الله تعالى، وكذلك كان الصحابة يقولون فلان أُوتي الاسم الأعظم وكان ذلك ينسب إلى بعض الأنبياء والأولياء وذلك يدلّ على أنه خارج من التسعة والتسعين، فإذا كان كذلك كان كل الكلام في قوله ﷺ إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة. قضية واحدة معناها الإخبار بأن من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين من أحصاها يدخل الجنّة. ويكون تخصيصها بالذكر لاختصاصها بمزيد شرف لا يكون لباقي الأسماء وهي كونها مثلاً جامعة لأنواع من المعاني المنبئة عن الكمال بحيث لا يكون لغيرها لا لنفي أن يكون لله تعالى اسم غيرها، وإذا كان كذلك جاز أن يكون العارف من تلك الأسماء. لا يقال: إن الاسم الأعظم غير داخل فيها لاشتهارها واختصاص معرفته بالأنبياء والأولياء. وإذا كان كذلك فكيف يصدق عليها أنها أشرف الأسماء. لأنّا نقول: يحتمل أن يكون خارجاً منها ويكون شرفها حاصلاً بالنسبة إلى باقي الأسماء التي هي غيره ويحتمل أن يكون داخلاً فيها إلاّ

أنّا لا نعرفه بعينه ويكون ما يختص به النبي أو الوليّ إنما هو تعيينه منها.

قوله ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء إلى قوله فسوّى منه سبع سماوات.

أقول: لما أشار عليه السلام في الفصل المتقدم إلى نسبة خلق العالم إلى قدرة الله تعالى على سبيل الإجمال شرع بعده في تفصيل الخلق وكيفية إيجاده والإشارة إلى مبادئه ولذلك حسن إيراد ثم هيهنا. وفي هذا الفصل أبحاث:

البحث الأول: اعلم أن خلاصة ما يفهم من هذا الفصل أنّ الله قدّر أحيازاً وأمكنة أجرى فيها الماء الموصوف وخلق ريحاً قويّة على ضبطه وحفظه حمله عليها وأمرها بضبطه، ويفهم من قوله الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق، أنّ تلك الأحياز والأمكنة تحتها وأنها أُمرت بحفظه وضبطه لتوصله إلى تلك الأحياز، وربما فهم منه أنّ تلك الأحياز تحتها للماء، وهي سطح الريح الحاوي له، وأنَّ تحت تلك الريح فضاء آخراً واسعاً وهي محفوظة بقدرة الله تعالى. كما ورد في الخبر ثمَّ خلق سبحانه ريحاً آخراً لأجل تموّج ذلك الماء فأرسلها وعقد مهبّها أي أرسلها بمقدار مخصوص على وفق الحكمة والمصلحة التي أرادها بإجرائها ولم يرسلها مطلقاً، ومن روى بالتاء فالمراد أنه أخلى مهبّها عن العوائق أو أنه أرسلها بحيث لا يعرف مهبّها وأدام حركتها، وملازمتها لتحريك الماء وأعصف جريانها وأبعد مبتدأهما. ثم سلّطها على تموج ذلك الماء فلما عبّ عبابه وقذف بالزبد رفع تعالى ذلك الزبد في الفضاء وكوّن منه السماوات العلى.

البحث الثاني: أن هذه الإشارة وردت في القرآن الكريم فإنه أُشير فيه إلى أن السماوات تكوّنت من الدخان كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] والمراد بخار الماء كذلك وردت في أقوال كثيرة:

(أ) ما روي عن الباقر محمد بن علي عليه السلام قال: لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق السماء أمر الرياح فضربنَ البحر حتى أزبد فخرج من ذلك الموج والزبد دخان ساطع من وسطه من غير نار فخلق الله منه السماء.

(ب) ما نقل أنه جاء في السفر الأول من التوراة أن مبدأ الخلق جوهر خلقه الله. ثم نظر إليه نظرة الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماءً فثار من الماء بخار كالدخان فخلق منه السماوات وظهر على وجه الماء زبد البحر، فخلق منه الأرض ثمّ أرساها بالجبال.

وفي رواية أخرى فخلق منه أرض مكة ثمَّ بسط الأرض من تحت الكعبة ولذلك تسمى مكة أُمُ القرى. (ج) نقل عن كعب ما يقرب من ذلك قال إنَّ الله خلق ياقوتة خضراء ثمَّ نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. (د) ما نقل عن تاليس الملطي، وكان من مشاهير الحكماء القدماء، فإنه نقل عنه بعد أن وحّد الصانع الأول للعالم وتنزّه أنه قال: لكنّه أبدع العنصر الذي فيه صور الموجودات والمعلومات كلها وسماه المبدع الأول. ثم نقل عنه أنَّ ذلك العنصر هو الماء قال: ومنه أنواع الجوهر كلها من السماء والأرض وما بينهما وهو علّة كل مبدع وعلّة كل مركب من العنصر الجسماني، فذكر أن من جمود الماء تكوّنت الأرض ومن انحلاله تكوّن الهواء ومن صفوته تكوّنت النار ومن الدخان والأبخرة تكوّنت السماء، وقيل: إنه أخذ ذلك من التوراة. (هـ) ما وجدته في كتاب بلينوس الحكيم الذي سماه الجامع لعلل الأشياء قريباً من هذه الإشارة وذلك أنه قال: إن الخالق تبارك وتعالى كان قبل الخلق وأراد أن يخلق الخلق فقال: ليكن كذا وكذا فكان ما أراد بكلمته فأوّل الحدث كلمة الله المطاعة التي كانت بها الحركة ثم قال بعده: إن أول ما حدث بعد كلام الله تعالى الفعل فدل بالفعل على الحركة ودلّ بالحركة على الحرارة. ثم لما نقصت الحرارة جاء السكون عند فنائها فدلّ بالسكون على البرد، ثم ذكر بعد ذلك أن طبائع العناصر الأربعة إنما كانت من هاتين القوتين أعني الحر والبرد قال: وذلك أنَّ الحرارة حدث منها اللين، ومن البرودة اليبس. فكانت أربع قوى مفردات فامتزج بعضها ببعض فحدث من امتزاجها الطبائع الأربع. وكانت هذه الكيفيّات قائمة بأنفسها غير مركبة فمن امتزاج الحرارة

واليبس حصلت النار ومن الرطوبة والبرودة حدث الماء، ومن الحرارة والرطوبة حدث الهواء، ومن امتزاج البرد واليبس حصلت الأرض ثم قال: إن الحرارة لما حرّكت طبيعة الماء والأرض تحرك الماء للطفه عن ثقل الأرض، وأثقلت ما أصابه من الأرض فصار بخاراً لطيفاً هوائياً رقيقاً روحانياً، وهو أول دخان طلع من أسفل الماء وامتزج بالهواء فسما إلى العلو لخفته ولطافته، وبلغ الغاية في صعوده على قدر قوته ونفرته من الحرارة. فكان منه الفلك الأعلى وهو فلك زحل، ثم حركت النار الماء أيضاً فطلع منه دخان هو أقلّ لطفاً مما صعد أولاً وأضعف، فلما صار بخاراً سما إلى العلو بجوهره ولطافته ولم يبلغ فلك زحل لعلّة لطافته عمّا قبله، فكان منه الفلك الثاني وهو فلك المشتري. وهكذا بيّن في طلوع الدخان مرّة مرّة وتكون الأفلاك الخمسة الباقية عنه. فهذه الإشارات كلها متطابقة على أن الماء هو الأصل الذي تكونت عنه السماوات والأرض وذلك مطابق لكلامه عليه السلام

البحث الثالث: قوله وأدام مربّها. قال قطب الدين الراوندي: أي أدام جمع الريح للماء وتسويتها له. قلت: تقرير ذلك أن الماء لما كان مقر الريح الذي انتهت إليه وعملت في تحريكه. كان ذلك هو مربّها. أي الموضع الذي لزمته وأقامت به، فقوله وأدام مربّها، أي أدام حركة الماء واضطرابه، ومخضته وهو محلّ إربابها ويحتمل أن يكون قد استعمل اسم الموضع استعمال المصدر، والتقدير أدام إربابها أي ملازمتها لتحريك الماء وأيضاً فيحتمل أن يكون قد شبّهها في كونها سبباً للآثار الخيرية وفي كثرتها وقوتها بالمديمة. فكان محلها ومقرها الذي تصل إليه وتقيم بها قد أدامه الله أي سقاه الله ديمة، وقوله وأبعد منشأها قال: أي أبعد ارتفاعها قلت: المنشأ محلّ النشوء وهو الموضع الذي أنشأها منه فلا يفهم منه الإرتفاع، اللهم إلاّ على تقدير استعماله لموضع الإنشاء استعمال المصدر أي بلغ بإنشائها غاية بعيدة، والأقرب أنه يشير إلى أنها نشأت من مبدأ بعيد ولا يمكن الوقوف على أوله وهو قدرة الحق سبحانه وجوده، وقوله وأمرها. قال رحمه الله أمر الموكلين بها من الملائكة بضرب الماء بعضه بعضاً وتحريكه كمخض اللبن للزبد وأطلق الأمر عليها مجازاً لأنّ الحكيم لا يأمر الجماد. قلت: بل حمله على أمر الريح أولى، لأن في التقدير الذي ذكره يكون التجوّز في لفظ الأمر لعدم القول المخصوص هناك فيحمل على قهر ملائكتها وفي نسبته إلى الريح أيضاً مجاز إذا أريد ملائكتها أما إذا حملناه على ظاهره كان التجوّز في لفظ الأمر دون النسبة فكان أولى، وقوله مخض السقاء وعصفها بالفضاء أي مثل مخض السقاء، ومثل عصفها فحذف المضاف الذي هو صفة المصدر وأقام المضاف إليه مقامه فلذلك نصبه نصب المصادر، واعلم أن اللام في قوله بتصفيق الماء لمعهود السابق في قوله ماء متلاطماً. لأن الماءين واحد، ومثل هذا التكرار جاز في الكلام الفصيح كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥-١٦] فإن قلت: إنّ الأجواء والأرجاء وسكائك الهواء أمور عدميّة فكيف يصح نسبتها إلى الإنشاء عن القدرة. قلت: إن هذه الأشياء عبارة عن الخلاء والأحياز، والخلاف في أن الخلاء والحيّز، والمكان هل هي أمور وجوديّة أو عدميّة مشهور.

فإن كان وجوديّة كانت نسبتها إلى القدرة ظاهرة، ويكون معنى فتقها وشقّها ونسبتها إلى القدرة تقديرها وجعلها أحيازاً للماء ومقراً له، لأنه لما كان تميزها عن مطلق الهواء والخلاء بإيجاد الله فيها الماء صار تعيّنها له بسبب قدرته تعالى فيصحّ نسبتها إلى إنشائه. فكأنه سبحانه شقّها وفتقها بحصول الجسم فيها، روي أن زرارة وهشاماً اختلفا في الهواء أهو مخلوق أم لا؟ فرفع بعض موالي الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إليه ذلك وقال: إنّي متحيّر وأرى أصحابنا يختلفون فيه فقال عليه السلام: ليس هذا بخلاف يؤدّي إلى الكفر والضلال، واعلم أنه عليه السلام: إنما أعرض عن بيان ذلك لأن أولياء الله الموكلين بإيضاح سبيله وتثبيت خلقه على صراط المستقيم لا يلتفتون بالذات إلاّ إلى أحد أمرين:

أحدهما: ما يؤدي إلى الهدى أداءً ظاهراً واضحاً.

والثاني: ما يصرف عن الضلال ويردّ إلى سواء

السبيل؛ وبيان أن الهواء مخلوق أو غير مخلوق لا يفيد كثير فائدة في أمر المعاد فلا يكون الجهل به مما يضرّ في ذلك فكان ترك بيانه والإشتغال بما هو أهمّ منه أولى.

البحث الرابع: أنّ القرآن الكريم نطق بأن السماء تكوّنت من الدخان وكلامه عليه السلام ناطق بأنها تكونت من الزبد وما ورد في الخبر أن ذلك الزبد هو الذي تكوّنت منه الأرض فلا بد من بيان وجه الجمع بين هذه الإشارات. فنقول: وجه الجمع بين كلامه عليه السلام وبين لفظ القرآن الكريم ما ذكره الباقر عليه السلام وهو قوله فيخرج من ذلك الموج والزبد دخان ساطع من وسطه من غير نار فخلق منه السماء ولا شك أن القرآن الكريم لا يريد بلفظ الدخان حقيقته، لأن ذلك إنما يكون عن النار. واتفق المفسّرون على أن هذا الدخان لم يكن عن نار بل عن تنفّس الماء. وتبخيره بسبب تموّجه، فهو إذن استعارة للبخار الصاعد من الماء وإذا كان كذلك فنقول: إن كلامه عليه السلام مطابق للفظ القرآن الكريم وذلك أنّ الزبد بخار يتصاعد على وجه الماء عن حرارة حركته. إلاّ أنه ما دامت الكثافة غالبة عليه وهو باق على وجه الماء لم ينفصل فإنه يخص باسم الزبد وما لطف وغلبت عليه الأجزاء الهوائية فانفصل خصَّ باسم البخار، وإذا كان الزبد بخاراً والبخار هو المراد بالدخان في القرآن الكريم. كان مقصده ومقصد القرآن واحد فكان البخار المنفصل هو الذي تكوّنت عنه السماوات والذي لم ينفصل هو الذي تكوّنت عنه الأرض وهو الزبد. وأما وجه المشابهة بين الدخان والبخار الذي صحّت لأجله إستعارة لفظه فهو أمران:

أحدهما: حسّي وهو الصورة المشاهدة من الدخان والبخار حتى لا يكاد يفرق بينهما في الحس البصري.

والثاني: معنويّ وهو كون البخار أجزاء مائية خالطت الهواء بسبب لطافتها عن حرارة الحركة. كما أن الدخان كذلك ولكن عن حرارة النار فإن الدخان أيضاً أجزاء مائيّة انفصلت من جرم المحترق بسبب لطافتها عن حرّ النار فكان الإختلاف بينهما ليس إلاّ بالسبب فلذلك صحّ إستعارة إسم أحدهما للآخر وبالله التوفيق.

البحث الخامس: قال المتكلّمون إنّ هذه الظواهر من القرآن وكلام علي عليه السلام لما دلّت على ما دلّت عليه من كون الماء أصلاً تكوّنت عنه السماوات والأرض وغير ذلك، وثبت أنّ الترتيب المذكور في المخلوقات أمر ممكن في نفسه، وثبت أن الباري تعالى فاعل مختار قادر على جمع الممكنات ثم لم يقم عندنا دليل عقلي يمنع من أجزاء هذه الظواهر على ما دلّت عليه بظاهرها، وجب علينا القول بمقتضى تلك الظواهر، ولا حاجة بنا إلى التأويل. لا يقال: إنّ جمهور المتكلّمين يتفقون على إثبات الجواهر الفرد وأنّ الأجسام مركبة عنه فبعضهم يقول: إنّ الجواهر كانت ثابتة في عدمها والفاعل المختار كساها صفة التأليف والوجود، وبعضهم وإن منع ثبوتها في العدم إلاّ أنه يقول: إن الله تعالى يوجد أولاً تلك الجواهر ثم يؤلف بينها فيوجد منها الأجسام فكيف يقال إن السماوات والأرض تكوّنت من الماء. لأنّا نقول: هذا ظاهر لأنه يجوز أن يخلق الله تعالى أول الأجسام من تلك الجواهر ثم تكون باقي الأجسام عن الأجسام الأولى.

وأمّا الحكماء فلما لم يكن الترتيب الذي اقتضته هذه الظواهر في تكوين الأجسام موافقاً لمقتضى أدلّتهم لتأخر وجود العناصر عندهم عن وجود السماوات لا جرم عدل بعضهم إلى تأويلها توفيقاً بينها وبين مقتضى أدلتهم وذكروا من التأويل وجهين:

الوجه الأول: قالوا: العالم عالمان عالم يسمى عالم الأمر وهو عالم الملائكة الروحانية والمجردات، وعالم يسمى عالم الخلق وهو عالم الجسمانية، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ثمّ قالوا: ما من موجود في عالم الجسمانية إلاّ وله نسبة إلى عالم الروحانية وهو مثال له بوجه ما ولولا ذلك لانسدّ طريق الترقي إلى العالم الروحاني، وتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهية، ثم كان من بحثهم أن بينّوا أن قدرة الله سبحانه ترجع إلى كون ذاته عالمة بالكل علماً هو مبدأ الكل مبدئيةً بالذات غير مأخوذة عن شيء، ولا متوقفة على وجود شيء، ثم لما دلّ دليلهم على أنّ رتبة صدور عالم الأمر أعلى في الوجود، وأسبق نسبة إلى

قدرة المبدع الأول من عالم الخلق إذ كان صدور عالم الخلق. إنما هو بواسطة عالم الأمر كان اعتبار إيجاد عالم الأمر عن القدرة أمراً أولاً، وإعتبار ايجاد عالم الخلق عنها أمراً ثانياً، متأخراً عنه فعند ذلك قالوا: إن الذي أشار إليه عليه السلام هَهُنَا موافق لما أصلناه ومتناسب له، وذلك أنه أشار بالأجواء والأرجاء وسكائك الهواء إلى سلسلة وجود الملائكة المسماة بالعقول الفعّالة على مراتبها متنازلة، وبإنشائها إلى إيجادها، وبفتقها وشقها إلى وجودها، وبالماء المتلاطم المتراكم إلى الكمالات التي وجبت عنه سبحانه وبإجرائها فيها إلى إفاضته على كل واحد منها ما استحقه بواسطة ما قبله، وبالريح العاصف إلى الأمر الأول الذي أشرنا إليه عن القدرة.

وأما وجه المناسبة بين هذه الأمور وبين ما ذكره فأما في التعبير عن العقول بالأرجاء والأجواء والسكائك. فمن جهة أنها قابلة للفيض والكمالات عن مبدئها الأول كما أن الأرجاء والأجواء وسكائك الهواء قابلة للماء. عما يخرج عنه من سحاب أو ينبوع. وأما في تشبيه الفيض بالماء فلأنه لما لم يكن بحيث يتوقف إلاّ على تمام القابل فحيث وجد سال بطبعه إليه كذلك الفيض الإلهي لا يتوقف صدوره عن واهبه إلاّ على تمام القابل لكون الفاعل تام الفاعلية في ذاته، ولأن الماء لما كان به قوام كل حيّ جسماني في عالم الكون، كذلك الفيض الإلهي هو مبدأ قوام كل موجود قالوا: ومثل هذا التشبيه جاء في القرآن الكريم قال جمهور المفسرين ومنهم ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]: إنّ المراد بالماء هو العلم، وبالأودية قلوب العباد، وبإنزاله إفاضته على القلوب، وبقوله فسالت أودية بقدرها أن كل قلب منها يصل إليه مقدار ما يستحقه ويقبله. قالوا: وذلك أن الله سبحانه أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء بيان القرآن وعلومه على قلوب العباد، لأن القلوب يستقر فيها أنوار علوم القرآن كما أن الأودية يستقر فيها المياه النازلة من السماء، وكما أن كل واد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته وضيقه. فكذلك هَهُنَا كل قلب إنما يحصل فيه أنوار علم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وبصره وتمام التشبيه في الآية مذكور في التفاسير.

وأما تشبيه الأمر الأول بالريح العاصفة فلأن وقوعه، لما كان دفعة غير منسوب إلى زمان، يتوقف عليه كان أنسب ما يشبه به من الأجسام في السرعة والنفوذ وهو الريح العاصف لكونها أسرع الأجسام حركة ولذلك أكّدها بوصف العصف تقريراً للسرعة التامة، وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح البصر وبوصف الزعزعة والقصف تحقيقاً للقوة العالية والشدّة الشديدة.

وأمّا أمره لها بردّه وتسليطها على شدة فلأنه لما صوّرها بصورة الريح ساغ أن يقال: إنّه أمرها وهو عبارة عن نسبة ذلك الأمر إلى ذاته تعالى النسبة التي تحدثها عقولنا الضعيفة، وفائدة الردّ والشدّ هَهُنَا ضبط أمره سبحانه على وفق حكمته الكمالات الفائضة عنه على كل مورد مورد بحسب نوعه المستلزم لردّه عمن ليس له ذلك الكمال المعيّن. وأما قرنها إلى حدّه فإشارة إلى إحاطة أمره سبحانه بما لتلك القوابل من الكمالات الفائضة واشتماله عليها، وقوله الهواء من تحتها فتيق إشارة إلى قبول القوابل المذكورة، والماء من فوقها دفيق إشارة إلى ما يحمله أمر الله من الفيض المذكور ويلقيه على تلك القوابل وكل ذلك بترتيب عقلي لأزمان تلحقه فيعقل فيه التراخي.

وأما الريح الثانية: فأشار بها عليه السلام إلى الأمر الثاني ووصفها باعتقام مهبّها إشارة إلى عقد ذلك الأمر وإيقاعه على وفق الحكمة الإلهية، وإلى عدم مانع لجريان ذلك الأمر، وبإدامة مرّ بها إلى إفاضة مقار ذلك الأمر فكأنه شبّه الفيض الصادر بهذا الأمر على هيولى الأجسام الفلكية بالديمة الهاطلة على الأماكن التي يجتمع بها ويقيم، أو أراد أنّ المحال القابلة لذلك الأمر المستلزمة له ذاتيّة دائمة، وأشار بعصف مجراها إلى سرعة ذلك الأمر كما وصف به الريح الأولى، وببعد منشئها إلى عدم أوّلية مبدئه، وبأمره لهذه الريح إلى نسبة ذلك الأمر إلى ذاته كما مرّ، وبتصفيق الماء الزخّار وإثارة أمواج البحار إلى نسبة فيضان صور الأفلاك وكمالاتها إلى أمره سبحانه بواسطة تلك الكمالات الفعليّة للملائكة، وأنها

غير مستقلة بإيجاد شيء بل على شرائط بعضها لبعض ولغيرها، وبالبحار إلى تلك الملائكة وبمخضها له مخض السقاء وعصفها به، كعصفها بالفضاء وترديد بعضه على بعض وإلى قوّة أمر الله عليها وتصريفها على حسب علمه بنظام الكل، وتقدير ما لكل فلك من الكمالات في ذات كل مبدأ من تلك المبادئ، وقوله حتى عبّ عبابه إشارة إلى بلوغ كمالات تلك الملائكة الحاصلة لها بالفعل عن أمر الله إلى رتبة أن يعطى بواسطتها الفيض لغيرها، وكذلك قوله ورمى بالزبد ركامه إشارة إلى إعطاء صورة الأفلاك وكمالاتها بواسطتها.

ولمّا كانت صور الأفلاك محتاجة في قيامها في الوجود إلى الهيولى كانت نسبتها إلى الملائكة المجردة نسبة أخسّ إلى أشرف فبالحريّ أنّ أُطلق عليها اسم الزبد، ولأن هذه الصور حاصلة من تلك الكمالات العقليّة، وفائضة عنها كما أن الزبد منفصل عن الماء ومكوّن عنه فتشابها.

وأما رفعه في هواء منفتق وجو منفهق فإشارة إلى إلحاق صور الأفلاك بموادها المستعدة أو إلى تخصيص وجودات الأفلاك بأحيازها ورفعها إليها، وقوله فسوى عنه سبع سماوات إشارة إلى كمال الأفلاك بما هي عليه من الوضع والتعديل والترتيب.

وأما تخصيصه بالسبع فلأن الفلكين الباقيين في الشريعة معروفان باسمين آخرين وهما العرش والكرسي، ثم قالوا: وإلى هذا أشار الحكماء السابقون أيضاً، فإذا مراد تاليس الملطي بالعنصر الأول هو المبدع الأول وكونه هو الماء، لأن المبدع الأول واسطة في باقي الموجودات وفيه صورها وعنه تفاض كمالاتها كما أنّ بالماء قوام كل حي عنصري وبواسطته تكون وكذلك سرّ ما جاء في التوراة، فإن المراد بالجوهر المخلوق لله أولاً هو المبدع الأول وكونه تعالى نظر إليه نظر الهيبة، وذوبان أجزائه إشارة إلى صدور الفيض عنه بأمر الله سبحانه وقدرته، والزبد الذي تكوّنت منه الأرض والدخان الذي تكوّنت منه السماوات. إشارة إلى كمالات السماوات والأرض وصورها الصادرة عن كمالات عللها صدور البخار والزبد عن الماء وكل هذا تجوّزات وإستعارات يلاحظ في تفاوت حسنها قرب المناسبة وبعدها.

الوجه الثاني: قالوا: يحتمل أن يكون مراده بالريح الأولى هو العقل الأول. فإنّه الحامل للفيض الإلهي إلى ما بعده وهو المحيط بصور الموجودات، ويؤيّد ذلك قوله الهواء من تحتها فتيق والماء من فوقها دفيق. فإن الهواء إشارة إلى القوابل بعده وبواسطته، وبالماء إشارة إلى الفيض الصادر عن الأول سبحانه. فإن التدفق لما كان مستلزماً لسرعة حركة الماء وجريانه عبّر به عن الفيض الذي لا توقف فيه.

والريح الثانية عن العقل الثاني فإنّه هو الواسطة في إفاضة أنوار الله سبحانه على ما بعده من العقول التي بواسطتها تصوّر السماوات السبع، ووصف الريحين بالعصف والقصف إشارة إلى ما يخص هذين المبدأين من القدرة، وأمره للريح الثانية بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار إشارة إلى تحريك العقل الثاني للعقول التي بعده إلى إفاضة كمالات الأفلاك بأمر الله تعالى وباقي التأويل كما في التأويل الأول.

قوله جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً إلى قوله وسقف سائر ورقيم مائر.

أقول: ههنا أبحاث.

البحث الأول: هذا الكلام يجري مجرى الشرح والتفسير لقوله فسوّى لأن التسوية عبارة عن التعديل والوضع والهيئة التي عليها السماوات إنّما فيهنّ، والغرض بهذا التفصيل تنبيه الأذهان الغافلة عن حكمة الصانع سبحانه في ملكوت السماوات، وبدائع صنعه وضروب نعمه ليتذكروا نعمة ربهم فيواظبوا على عبادته وحمده على تمام ذلك الإحسان كما قال تعالى: ﴿تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

فإن كل هذه نعم على العباد وهي إن كان فيها ما يبعد عن الأذهان الضعيفة كونه نعمة على العباد كحركات السماوات مثلاً، فإني أحسب أن كثيراً من الغافلين يقولون: وما فائدة حركة السماء في حقّنا لكنه

إذا انتبهت أذهانهم لذلك علمت أنه لولا تلك الحركة لم يحصل شيء من المركبات في هذا العالم أصلاً. فلم يكن العبد في نفسه فضلاً عمّا يجري عليه من النعم الخارجة عنه إلاّ أنّ تلك الحركة قد تستلزم نعمة هي أقرب إلى العبد من غيرها كالإستضاءة بنور الكواكب والإهتداء بها في ظلمات البر والبحر، وإعدادها الأبدان للصحة ونحو ذلك، يستلزم نعماً أخرى إلى أن يتصل بالعبد كإعدادها الأرض مثلاً لحصول المركبات التي منها قوام حياة العبد، واعلم أن الله سبحانه ذكر أمر السماوات في كتابه في مواضع كثيرة، ولا شك أن إكثاره من ذكرها دليل عظم شأنها، وعلى أنّ له سبحانه فيها أسرار لا تصل إليها عقول البشر. إذا عرفت ذلك فاعلم أن قوله عليه السلام: وعلياهنّ سقفاً محفوظاً كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] وقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصّافات: ٧] وقوله: وسمكاً مرفوعاً بغير عمد تدعمها ولا دسار ينتظمها كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠] وقوله ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] وقوله: ثم زيّنها بزينة الكواكب وضياء الثواقب كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصّافات: ٦] وقوله: فأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

البحث الثاني: في هذا الفصل إستعارات: **الأولى** قوله: جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً. إستعار لفظ الموج للسمْكَة لما بينهما من المشابهة في العلو والإرتفاع وما يتوهم من اللون، وقال بعض الشارحين: أراد أنها كانت في الأولى موجاً ثم عقدها وكفّها أي منعها من السقوط.

الثانية: قوله، سقفاً محفوظاً استعار لفظ السقف من البيت للسماء في الأصل لما بينهما من المشابهة في الإرتفاع والإحاطة ثمّ كثر ذلك الإستعمال حتى صار اسماً من أسماء السماء، ويحتمل أن لا يكون منقولاً، وأراد بقوله محفوظاً أي من الشياطين قال ابن عباس رضي الله عنه: كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات وكانوا يدخلونها ويختبرون أخبارها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات فلما ولد محمد صلى الله عليه وآله منعوا من السماوات كلها فما منهم أحد استرق السمع إلا رُمي بشهاب فلذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٧-١٨] وسنشير إلى سرّ ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله بغير عمد تدعمها ولا دسّار ينتظمها.

أقول: لما كان مقتضى قدرة العبد وغايتها إذا تمكن من بناء بيت وإنشاء سقف أنه لا بدّ له من أساطين وعمد يقوم عليها ذلك السقف وروابط تشدّ بعضه إلى بعض وكانت قدرة الحق سبحانه وتعالى أجل وأعلى من الحاجة إلى أمثال ذلك. أراد أن يشير إلى عظمته سبحانه وقوة قهره بسلب صفات المخلوقين عنه وشرائط آثارهم عن قدرته والمعنى أن هذه الأجرام العظيمة بقيت واقعة في الجو العالي ويستحيل أن يكون وقوفها هناك لذواتها. لأن الأجسام متساوية في الجسميّة، فلو وجب حصول جسم في حيّز لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيّز. ولأن الأحياز والخلاء متشابهة فلا إختصاص فيه لموضوع دون آخر ولا يجوز أن يقال: إنها معلّقة بجسم آخر وإلاّ لكان الكلام في وقوف ذلك الجسم في الجو كالكلام في الأول ويلزم التسلسل فلم يبق إلاّ أن يقال: إنّ وقوفها بقدرة الصانع الحكيم القادر المختار، وإن قلت: قوله تعالى ترونها يفهم منه أنّ هناك عمد ولكنها غير مرئية لنا وذلك ينافي سلبه عليه السلام للعمد مطلقاً قلت: الجواب عنه من وجوه.

أحدها: أنه يحتمل أن يكون قوله ترونها كلاماً مستأنفاً والتقدير غير عمد وأنتم ترونها كذلك.

الثاني: يحتمل أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كما نقل عن الحسن البصري أنه قال: التقدير ترونها بغير عمد.

الثالث: وهو الألطف ما ذكره الإمام فخر الدين رحمه الله فقال: إنّ العماد هو ما يعمد عليه والسماوات معتمدة

وقائمة على قدرة الله تعالى فكانت هي العمد التي لا ترى وذلك لا ينافي كلامه عليه السلام.

الرابع: وهو الأحق ما ذكرته وهو أنه قد ثبت في أُصول الفقه أن تخصيص الشيء بحكم لا يدلّ على أنّ حكم غيره بخلاف ذلك الحكم فتخصيص العمد المرئية للسماوات بالسلب لا يستلزم ثبوت العمد غير المرئية لها.

الثالثة: الثواقب إستعارة في الأصل للشهب عن الأجسام التي يثقب جسماً آخر وينفذ فيه، ووجه المشابهة التي لأجلها سميّ الشهاب ثاقباً أنه يثقب بنوره الهواء. كما يثقب جسم جسماً لكنه لكثرة الإستعمال فيه صار إطلاقه عليه حقيقة أو قريباً منها.

الرابعة: قوله، سراجاً مستطيراً إستعارة للشمس ووجه المشابهة أن السراج القوي المستطير لما كان من شأنه أن يضيء ما حوله وينتشر في جميع نواحي البيت ويهتدى به من الظلمة. كذلك الشمس مضيئة لهذا العالم ويهتدي بها المتصرف فيه.

الخامسة: رقيم إستعارة أصلية للفلك تشبيهاً له باللوح المرقوم فيه ثم كثر استعمال هذا اللفظ في الفلك حتى صار اسماً من أسمائه.

البحث الثالث: اعلم أن هذه الإستعارات تستلزم ملاحظة أُخرى وهو تشبيه هذا العالم بأسره ببيت واحد فالسماء كقبّة خضراء نصبت على الأرض وجعلت سقفاً محفوظاً محجوباً عن أن تصل إليه مردة الشياطين. كما تحمى غرف البيت بالسهام والحراب عن مردة اللصوص، ثم هو مع غاية علوّه وارتفاعه غير محمول بعمد يدعمه ولا منظوم بدسار يشده بل بقدرة صانعه ومبدعه، ثم إنّ القبّة متزينة بالكواكب وضيائها الذي هو أحسن الزينة وأكملها فلو لم يحصل صور الكواكب في الفلك ليبقى سطحاً مظلماً، فلما خلق الله تعالى هذه الكواكب المشرقة في سطحه لا جرم استنار وازدان بذلك النور والضوء كما قال ابن عباس في قوله بزينة الكواكب أي بضوئها، وأنت إذا تأملت هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك وجدتها عند النظر إليها كجواهر مرصوصة في سطح من زمرّد على أوضاع اقتضتها الحكمة أو كما قال:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً
درر نثرن على بساط أزرق

ثم جعل من جملتها كوكبين هما أعظم الكواكب جرماً وأشدها إشراقاً وأتمّها ضياءً مع اشتمالهما على تمام الحسن، والزينة جعل أحدهما ضياء للنهار والآخر ضياء لليل ثم لم يجعل ذلك السقف ساكناً بل جعله متحركاً ليكون أثر صنعه فيه أظهر وصنع حكمته فيه أبدع، ولم يجعل ذلك السقف طبقاً واحداً بل طباقاً أسكن في كل طبق ملأً من جنوده، وخواص ملكه الذين ضربت بينهم وبين من دونهم حجب العزّة وأستار القدرة. فلا يستطيع أحد أن ينظر إليهم فضلاً عن أن يتشبّه بمالكهم وخالقهم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، هذا هو الحكمة الظاهرة التي يتنبّه لها من له أدنى فطنة فيحصل منها عبرة شاملة لأصناف الخلق بحيث إذا لاحظوا مع جزئيّ من جزئيات آثار هذه القدرة، أي أثر كان استعظم واستحسن من أي ملك فرض من ملوك الدنيا لم يكن بينهما من المناسبة إلاّ خيال ضعيف، فإن أي ملك فرض إذا هم بوضع بنيان وبالغ في تحسينه وتزويق سقوفه وترصيعها بأنواع الجواهر، وتزيينه بالأوضاع المعجبة لأبناء نوعه وبذل فيه جهده واستفرغ فيه فكره لم يكن غايته إلاّ أن يلحظ مما عمله نسبة خيالية بعيدة إلى ظاهر هذا الصنع العجيب والترتيب اللطيف هذا مع ما اشتمل عليه من الحكم الخفيّة والأسرار الإلهية التي تعجز القوى البشرية عن إدراكها، وتحتاج فيما لاح منها إلى لطف قريحة وتوقد ذهن فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون فانظر أيها المستبصر بعين بصيرتك المناسبة بين بيتك الذي تبنيه وهذا البيت العظيم وقسّ سراجك إلى سراجه وزينتك إلى زينته. ثم لاحظ مع ذلك أنه إنّما خلقه لك ولأبناء نوعك ليكون فيه ومنه قوام حياتكم ووجودكم، ولتستدلوا بملكوت ما خلق على كمال قدرته وحكمته لترجعوا بذلك إلى حضرته طاهرين من الرجس

متشبّهين بسكان سقف هذا البيت، وغرفه لا أن له حاجة إليه، فإنه الغني المطلق الذي لا حاجة به إلى شيء.

والعجب من الإنسان أنه ربما رأى خطاً حسناً، أو تزويقاً على حائط فلا يزال يتعجب من حسنه وحذق صانعه ثم يرى هذا الصنع العجيب والإبداع اللطيف فلا يدهشه عظمة صانعه وقدرته ولا يحيّره جلال مبدعه وحكمته.

البحث الرابع: الشرع والبرهان قد تطابقا على أن هَهُنَا تسع أفلاك بعضها فوق بعض، فمنها سبع سماوات ثم الكرسيّ والعرش بعبارة الناموس الإلهي. ثم أكثرها يشتمل على الكواكب وهي أجرام نورانية مستديرة مصمتة مركوزة في أجرام الأفلاك. فأول الأفلاك مما يلينا ليس فيه من الكواكب إلاّ القمر، وليس في الثاني إلاّ عطارد، وليس في الثالث إلاّ الزهرة، وليس في الرابع إلاّ الشمس، وليس في الخامس إلاّ المريخ، وليس في السادس إلاّ المشتري، وليس في السابع إلاّ زحل، وهذه هي المسماة بالكواكب السبعة السيارة وما سواها من الكواكب، فيشتمل عليها الفلك الثامن. وأما التاسع فخال عن الكواكب وإن كان فليس بمدرك لنا، ثم قد دلّ البرهان على أن الأفلاك هي المتحركة بما فيها من الكواكب. وأنّ تلك الحركة دوريّة وكان كلامه عليه السلام مطابقاً لذلك حيث قال: في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن الله سبحانه خلق الموجودات كلها على أتم أنحاء الوجود وأكمله فجميع الموجودات من الأفلاك، ومقاديرها وأعدادها وحركاتها المختلفة وهيئاتها، وهيئة الأرض وما عليها من حيوان ونبات ومعدن ونحوه. إنما وجد على الوجه الذي وجد عليه لحصول النظام الكلي للعالم ولو كان بخلاف ما عليه لكان شراً وناقصاً، فخلق الأفلاك والكواكب وما هي عليه من الحركات والأوضاع، وجعلها أسباباً لحدوث الحوادث في عالم الكون، والفساد بواسطة كيفيّات تحدثها فيها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة يوجب ذلك امتزاج بعضها ببعض امتزاجات مختلفة، ومستعدة لقبول صور مختلفة من حيوان ونبات ومعدن،

وأظهر الكواكب تأثيراً هو الشمس والقمر. فإن بحركة الشمس اليومية يحصل النهار والليل. فالنهار هو زمان طلوعها يكون زمان التكسب والطلب للمعاش الذي به يحصل قوام الحياة، ويكون سبباً إلى السعادة الأخرويّة.

ثم إنها في مدّة حركتها اليومية لا تزال تدور فتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب، وقد أخذت كل جهة من الجهات حظاً من الإشراق والإستعداد به، وأما الليل وهو زمان غروبها فإنّ فيه هدوء الخلق وقرارهم الذي به تحصل الراحة وإنبعاث القوة الهاضمة وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء. كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ۝١١﴾ [النبا: ١٠-١١].

ثم كانت الشمس من جهة ضوئها كسراج يرتفع لأهل كل بيت بمقدار حاجتهم ثم يرفع عنهم فصار النور والظلمة على تضادّهما متظاهرين على ما فيه مصلحة هذا العالم، وأما بحسب حركاتها الجنوبية والشمالية، فقد جعل سبحانه ذلك سبباً لإقامة الفصول الأربعة. ففي الشتاء تغور الحرارة والنبات فيتولد منها مواد البحار، ويكثر السحاب والأمطار، وتقوى أبدان الحيوانات بسبب احتقان الحرارة الغريزية في البواطن. وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينوّر الشجر ويهيجّ الحيوان للسفاد. وفي الصيف يحتدم الهواء فينضج الثمار وتنحل فضول الأبدان ويجفت وجه الأرض، ويتهيأ للبناء والعمارة، وفي الخريف يظهر اليبس والبرد فينتقل في الأبدان على التدريج إلى الشتاء. فإنه لو وقع الإنتقال دفعة لهلكت وفسدت.

وأما القمر فإنّ بحركته تحصل الشهور والأعوام كما قال سبحانه: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] . فيتمكن العبد بالحساب من ترتيب معاشه بالزراعة والحراثة، وإعداد مهمّات الشتاء والصيف، وبإختلاف حاله في زيادته ونقصانه تختلف أحوال الرطوبات في هذا العالم، فلو أنه سبحانه خلق الأفلاك دون الكواكب لكان إن خلقها مظلماً لم يحصل ما ذكرنا من اختلاف الفصول والحر والبرد، فلم يتم في هذا العالم ما كانت

أسباباً فيه من الاستعدادات، ولم يتميّز لها فصل عن فصل. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] وقوله: وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وإن خلقها مضيئة تشابه أثرها في الأمكنة والأزمنة.

بل خلق فيها الكواكب ولم يخلقها ساكنة، وإلاّ لأفرط أثرها في موضع بعينه فيفسد استعداده ويخلو موضع آخر عن التأثيرات، ولما تميّزت فصول السنة ولما حصل البرد المحتاج إليه والحرّ المحتاج إليه فلم يتمّ نشوء النبات والحيوان، وعلى الجملة فالنظام الكلي لا يحصل إلاّ بهذا الوجه فهو أكمل أنحاء الوجود، كل ذلك يدل على كمال رحمة الله بخلقه وشمول عنايته لهم إذ كان جميع ما ذكرناه من المنافع الحاصلة في هذا العالم مستندة إلى علوّ تدبيره وكمال حكمته. كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٣-٣٤] لا يقال: السؤال على ما ذكرتم من وجهين أحدهما أن الترتيب الذي ذكرتموه في تخصيص كل فلك ببعض الكواكب يشكل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [المُلك: ٥].

الثاني: أن الشهب الثواقب التي جعلت رجوماً للشياطين على ما نطق به القرآن الكريم. إما أن يكون من الكواكب التي زيّنت بها السماء أو لا تكون، والأول: باطل لأن هذه الشهب تبطل بالإنقضاض وتضمحل، فكان يلزم من ذلك على مرور الزمان فناء الكواكب، ونقصان أعدادها، ومعلوم أنه لم يوجد ذلك النقصان البتة. والثاني: أنه يشكل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَـٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥] فإنّه نصّ على كون الشهب التي جعلت رجوماً للشياطين هي تلك المصابيح والكواكب، التي زيّنت بها السماء لأنّا نجيب عن الأول بأنه لا تنافي بين ظاهر الآية، وبين ما ذكرناه: وذلك أنّ السماء الدنيا لما كانت لا تحجب ضوء الكواكب، وكانت أوهام الخلق حاكمة عند النظر إلى السماء، ومشاهدة الكواكب بكونها مزيّنة بها لا جرم صحّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. لأن الزينة بها إنما هي بالنسبة إليّ أوهام الخلق للسماء الدنيا.

وعن الثاني أنّا نقول: هذه الشهب غير تلك الثوابت الباقية. فأما قوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَـٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥] فنقول: كل مضيء حصل في الجو العالي أو في السماء فهو مصباح لأهل الأرض إلاّ أن تلك المصابيح منها باقية على طول الزمان وهي الثوابت، ومنها متغيّرة وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين، ويصدق عليها أنها زينة للسماء أيضاً بالنسبة إلى أوهامنا وبالله التوفيق.

قوله: ثم فتق ما بين السماوات العلى إلى قوله ولا يشيرون إليه بالنظائر، وفيه أبحاث.

البحث الأول: هذا الفصل أيضاً من تمام التفسير لقوله فسوىّ منه سبع سماوات إذ كان ما أشار إليه هَهُنَا من فتق السماوات إلى طبقاتها، وإسكان كل طبقة منها مَلأً معيناً من ملائكته هو من تمام التسوية، والتعديل لعالم السماوات فإن قلت: لِمَ أخّر ذكر فتق السماوات وإسكان الملائكة لها عن ذكر إجراء الشمس والقمر فيها وتزيينها بالكواكب، ومعلوم أن فتقها متقدم على اختصاص بعضها ببعض الكواكب. قلت: إنّ إشارته عليه السلام إلى تسوية السماوات إشارة جميلة. فكأنه قدّر أولاً أن الله خلق السماوات كرة واحدة، كما عليه بعض المفسّرين لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ثم ذكر علياهنّ وسفلاهنّ لجريانهما مجرى السطحين الداخل والخارج لتلك الكرة، ثم أشار إلى بعض كمالاتها وهي الكواكب والشمس والقمر جملة، ثم بعد ذلك أراد التفصيل فأشار إلى تفصيلها وتمييز بعضها عن بعض بالفتق، وإسكان كل واحدة منهنّ ملأ معيّناً من الملائكة، ثم عقّب ذلك بتفصيل الملائكة، ولا شك أن تقديم الإجمال في الذكر وتعقيبه بالتفصيل أولى في الفصاحة والبلاغة في الخطابة من العكس. إذا عرفت ذلك فنقول: قوله عليه السلام ثم فتق ما بين السماوات العلى كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقوله: فملأهنّ أطواراً من ملائكته منهم سجود لا يركعون كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥] وقوله: وله يسجدون ونحوه وقوله: وصافّون لا يتزايلون كقوله تعالى: ﴿يسبّحون الليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ وقوله: ولا فترة الأبدان كقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقوله: ومنهم أمناء على وحيه كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقوله: وألسنة إلى رسله كقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] وقوله: مختلفون بقضائه وأمره كقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] وقوله: ومنهم الحفظة لعباده كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: وإنّ عليكم لحافظين، وقوله: له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، وقوله: والسدنة لأبواب جنانه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الزمر: ٧١] وقوله: والمناسبة لقوائم العرش أكنافهم كقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله: بأجنحتهم كقوله تعالى: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١].

البحث الثاني: اعلم أن للناس في تفسير قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] أقوالاً: أحدها قال ابن عباس والضحّاك وعطاء وقتادة: إنّ السماء والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزمتين ففصل الله بينهما في الهواء.

الثاني: قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحاً توسطها ففتحها بها.

الثالث: قال مجاهد والسدي: كانت السماوات طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سماوات وكذلك الأرض.

الرابع: قال عكرمة وعطيّة وابن عباس برواية أُخرى عنه: إنّ معنى كون السماء رتقاً، أنها كانت لا تمطر وكانت الأرض رتقاً أي لا تنبت نباتاً ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات، ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ونظيره قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢] وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ [عبس: ٢٥-٢٧]

الخامس: قال بعض الفضلاء: إنّ معنى قوله كانتا رتقاً أي كانت أُموراً كلية في علم الله تعالى وفي اللوح المحفوظ، وقوله ففتقناهما إشارة إلى تشخّصاتها في الوجود الخارجي، وتمييز بعضها عن بعض، وهذا القول مناسب للأقوال الثلاثة: الأول ويصح تحقيقاً لها، ويحمل الريح التي ذكرها كعب على أمر الله تعالى إستعارة لما بينهما من المشابهة في السرعة.

السادس: قال بعضهم: إنّ معنى الرتق في هذه الآية هو انطباق دائرة معدل النهار على تلك البروج، ثم إن الفتق بعد ذلك عبارة عن ظهور الميل قالوا: ومما يناسب ذلك قول ابن عباس وعكرمة. فإنهم لما قالوا إن معنى كون السماء رتقاً أنها لا تمطر ومعنى كون الأرض رتقاً أنها لا تنبت، كان الفتق والرتق بالمعنى الذي ذكرناه إشارة إلى أسباب ما ذكروه. إذ انطباق الدائرتين وهو الرتق يوجب خراب العالم السفلي وعدم المطر، وظهور الميل الذي هو الفتق يوجب وجود الفصول وظهور المطر، والنبات وسائر أنواع المركبات. إذا عرفت ذلك فاعلم أن قوله عليه السلام ثم فتق ما بين السماوات العلى، إنما هو موافق للأقوال الثلاثة. الأول مع القول الخامس والتحقيق به أليق.

وأما القول السادس فهو بعيد المناسبة لقوله عليه السلام وبيان ذلك أن قوله ثم فتق ما بين السماوات العلى، إنما هو في معرض بيان كيفية تخليق العالم الأعلى ولذلك أردفه وعقبه بالفاء في قوله فملأهنّ أطواراً من ملائكته، والرتق والفتق في هذا القول متأخر عن كلام الأجرام العلوية، بما فيها وما يتعلق بها ولا يقبل تقدم ظهور الميل بوجهٍ ما على وجود الملائكة السماوية، وإسكانها أطباق السماوات وبالله التوفيق.

البحث الثالث: الملائكة على أنواع كثيرة ومراتب متفاوتة.

فالمرتبة الأولى: الملائكة المقربون كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء: ١٧٢].

الثانية: الملائكة الحاملون للعرش كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾[غافر: ٧] وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٧].

الثالثة: الحافون حول العرش كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[الزمر: ٧٥]. وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[غافر: ٧].

الرابعة: ملائكة السماوات والكرسي.

الخامسة: ملائكة العناصر.

السادسة: الملائكة الموكلون بالمركبات من المعدن والنبات والحيوان.

السابعة: الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١] ويدخل فيهم المعقّبات المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد: ١١].

الثامنة: ملائكة الجنة وخزنتها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[الزمر: ٧٣].

التاسعة: ملائكة النار كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[التحريم: ٦] وقال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]. إذا عرفت ذلك فنقول اتفق الكل على أن الملائكة ليس عبارة عن أشخاص جسمانية كثيفة تجيء وتذهب كالناس والبهائم، بل القول المحصل فيها قولان:

الأول: هو قول المتكلمين إنها أجسام نورانية إلهية خيّرة سعيدة قادرة على التصرفات السريعة، والأفعال الشاقة ذوات عقول وأفهام وبعضها أقرب عند الله من البعض، وأكمل درجة كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات: ١٦٤].

والقول الثاني: قول غيرهم وهي أنها ليست بأجسام لكن منها ما هو مجرد عن الجسمية وعن تدبير الأجسام، ومنها من له الأمر الأول دون الثاني، ومنها من ليس بمجرد بل جسماني حالّ في الأجسام وقائم بها ولهم في تنزيل المراتب المذكورة على قولهم تفصيل.

أما المقربون فإشارة إلى الذوات المقدسة عن الجسميّة والجهة وعن حاجتها إلى القيام بها وعن تدبيرها، وأما حملة العرش فالأرواح الموكلة بتدبير العرش، وقيل هم الثمانية المذكورة في القرآن الكريم: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٧] وهم رؤساء الملائكة المدّبرين للكرسي والسماوات السبع. وذلك أن هذه الأجرام لها كالأبدان فهي بأبدانها أشخاص حاملون للعرش فوقهم، وأما الحافون حول العرش هي الأرواح الحاملة للكرسي، والموكلة والمتصرفة فيه. وأما ملائكة السماوات فالأرواح الموكلة بها والمتعرفة فيها بالتحريك والإرادة بإذن الله عزّ وجل، كذلك ملائكة العناصر والجبال والبحار والبراري والقفار وسائر المركبات من المعدن، والنبات، والحيوان، المسخر كل منها لفعله المخصوص على اختلاف مراتبها. فأما الملائكة الحافظون الكرام الكاتبون فلهم فيها أقوال.

أحدها: قال بعضهم: إنّ الله تعالى خلط الطبائع المتضادة ومزج بين العناصر المتنافرة حتى استعد ذلك الممتزج بسبب ذلك الإمتزاج لقبول النفس المدبرة والقوى الحسية والمحركة، فالمراد بتلك الحفظة التي أرسلها الله هي تلك النفوس والقوى التي تحفظ تلك الطبائع المقهورة على امتزاجاتها وهي الضابطة على أنفسها وأعمالها، والمكتوب في ألواحها صور ما تفعله لتشهد به على أنفسها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[الأنعام: ١٣٠]. وهي المعقبات من بين يدي الإنسان ومن خلفه الحافظون له من أمر الله، وقيل: الحفظة للعباد غير الحفظة على العباد والكاتبين لأعمالهم، وسنشير إلى ذلك.

الثاني: قال بعض القدماء: إنّ هذه النفوس البشرية والأرواح الإنسانية مختلفة بجواهرها، فبعضها خيّرة وبعضها شريرة، وكذا القول في البلادة والذكاء والفجور

العفة والحرية والنذالة والشرف والدناءة، وغيرها من الهيئات، ولكل طائفة من هذه الأرواح السفليّة روح سماوي هو لها كالأب المشفق والسيد الرحيم يعينها على مهمّاتها في يقظتها ومناماتها تارة على سبيل الرؤيا وأخرى على سبيل الإلهامات، وهي مبدأ لما يحدث فيها من خير وشرّ، وتُعرّف تلك المبادىء في مصطلحهم بالطباع التام يعني أن تلك الأرواح الفلكية في تلك الطباع، والأخلاق تامة كاملة بالنسبة إلى هذه الأرواح السفليّة وهي الحافظة لها وعليها كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٣-١٦].

الثالث: قول بعضهم: إنّ للنفوس المتعلّقة بهذه الأجساد مشاكلة ومشابهة مع النفوس المفارقة عن الأجساد فيكون لتلك المفارقة ميل إلى النفوس التي لم تفارق فيكون لها تعلّق أيضاً بوجه ما بهذه الأبدان بسبب ما بينها وبين نفوسها من المشابهة والموافقة فتصير معاونة لهذه النفوس على مقتضى طباعها، وشاهدة عليها كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

وأما ملائكة الجنة فاعلم أن الجنان المذكورة في القرآن ثمان، وهي جنة النعيم، وجنة الفردوس، وجنة الخلد، وجنة المأوى، وجنة عدن، ودار السلام، ودار القرار. وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين، ومن وراء الكل عرش الرحمن ذي الجلال والإكرام. إذا عرفت ذلك فاعلم أن لهذه الجنان سكّاناً وخزاناً من الملائكة.

أما السكان فهم الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحضرون، يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، وهم الذين يتلقّون عباد الله الصالحين المخلصين بالشفقة والبشارة بالجنة، وذلك أن الإنسان الطائع إذا أُكملت طاعته وبلغ النهاية في الصورة الإنسانية واستحق بأعماله الصالحة وما اكتسبه من الأفعال الزكية، صورة ملكية ورتبة سماوية تلقّته الملائكة الطيبون بالرأفة والرحمة والشفقة، وتقبّلوه بالروح والريحان، وقبلوه كما تقبل القوابل والدايات أولاد الملوك بفاخر أُمور الدنيا، وطيبات روائحها من مناديل السندس والإستبرق، وبالفرح والسرور مرّوا به إلى الجنة، فيعاين من البهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويبقى معهم عالماً درّاكاً ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ، ويتصل بإخوانه المؤمنين في الدنيا أخباره وأحواله ويتراءى لهم في مناماتهم بالبشارة والسعادة، وحسن المنقلب، وإذا كانت يوم القيامة الكبرى عرجت به ملائكة الرحمة إلى جنان النعيم والسرور المقيم لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى في غرف من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتهم الأنهار وآخر دعاويهم أن الحمد لله رب العالمين.

قال بعض حكماء الإسلام: إن تلك الملائكة المتلّقية له بالروح والريحان هي روحانيّات الزهرة والمشتري وكأن القائل يقول: إنّ النفوس الإنسانية السعيدة، إذا فارقت أبدانها وحملت القوّة المتوهمة معها والهيئات المتخيّلة التي حصلت من الوعد الكريم في دار الدنيا من الجنان، والحدائق، والأنهار، والأثمار، والحور العين والكأس المعين واللؤلؤ والمرجان والولدان والغلمان، فإنه يفاض عليها بحسب استعدادها وطهارتها ورجاء ثواب الآخرة صور عقليّة في غاية البهاء، والزينة مناسبة لما كانت متخيّلة من الأُمور المذكورة مناسبةً ما، ولما كان لهذين الكوكبين أثر تام في إعداد النفوس للمتخيّلات البهيّة الحسنة، وللفرح والسرور كما ينسب في المشهور إلى روحانيّتهما من الأفعال الحسنة نسب تلقى الإنسان بعد المفارقة بالرأفة، والرحمة والشفقة إلى روحانيتهما، والله أعلم.

وأما الخزنة للجنان فيشبه أن يكون هم السكان لها أيضاً باعتبار آخر؛ وذلك أنه لما كان الخازن هو المتولي لأحوال أبواب الخزانة بفتحها وتفريق ما فيها على مستحقها بإذن رب الخزانة، ومالكها وغلقها ومنعها عن غير مستحقها. وكانت الملائكة هم المتولون لإفاضة الكمالات وتفريق ضروب الإحسان والنعم على مستحقيها وحفظها ومنعها من غير مستحقيها والمستعدين بالطاعة لها، بإذن الله وحكمته لا جرم صدق أنهم خزّان

الجنان بهذا الإعتبار، وهم الذين يدخلون على المؤمنين من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

قال بعض الفضلاء: إن العبد إذا راض نفسه حتى استكمل مراتب القوة النظرية ومراتب القوة العملية فإنه يستعد بكل مرتبة من تلك المراتب لكمال خاص يفاض عليه من الله تعالى وتأتيه الملائكة فيدخلون عليه من كل باب من تلك الأبواب بالسلام والتحيّة والإكرام. ثم إنّ الرضاء بقضاء الله من خير وشر باب عظيم من تلك الأبواب فالملك الذي يدخل على الإنسان منه برضاء الله كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] هو رضوان خازن الجنان والله أعلم. وأما ملائكة النار فقال بعض الفضلاء: هي تسعة عشر نوعاً من الزبانية لا يعصون الله ما أمرهم وهم الخمسة الذين ذكرنا أنهم يوردون عليه الأخبار من خارج، ورئيسهم والخازنان والحاجب والملك المتصرف بين يديه بإذن ربه، وملكا الغضب والشهوة، والسبعة الموكلون بأمر الغذاء، وذلك أنه إذا كان يوم الطامة الكبرى وكان الإنسان ممن طغى وآثرالحياة الدنيا حتى كانت الجحيم هي المأوى كان أولئك التسعة عشر من الزبانية هم الناقلين له إلى الهاوية، وبسبب ما استكثر من المشتهيات، واقترف من السيئات وأعرض عن قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢﴾ [النجم: ٣٩-٤٢]. واعلم وفقك الله أن هؤلاء الذين ذكر هذا القائل أنهم ملائكة النار، ربما كانوا أيضاً مع إنسان آخر من ملائكة الجنان، وذلك إذا استخدمهم ذلك الإنسان في دار الدنيا على وفق أوامر الله، وأوقفهم على طاعة الله دون أن يطلب منهم فوق ما خلقوا لأجله وأمروا به من طاعته ويعبّر بهم إلى معصية الله وارتكاب نواهيه ومحارمه وبالله التوفيق.

البحث الرابع: أنّه عليه السلام ذكر من الملائكة أنواعاً وأشار بالسجود والركوع والصف والتسبيح إلى تفاوت مراتبهم في العبادة والخشوع؛ وذلك أنّ الله سبحانه قد خصّ كلا منهم بمرتبة معينة من الكمال في العلم والقدرة لا يصل إليها من دونه، وكل من كانت نعمة الله عليه أكمل وأتمّ كانت عبادته أعلى وطاعته أوفى ثم إنّ السجود والركوع والصف والتسبيح عبادات متعارفة بين الخلق ومتفاوتة في استلزام كمال الخضوع والخشوع، ولا يمكن حملها على ظواهرها المفهومة منها لأن وضع الجبهة على الأرض وإنحناء الظهر والوقوف في خط واحد وحركة اللسان بالتسبيح أمور مبنية على وجود هذه الآلات التي هي خاصة ببعض الحيوانات، فبالحري أن يحمل تفاوت المراتب المذكورة لهم على تفاوت كمالاتهم في الخضوع والخشوع، لكبرياء الله وعظمته إطلاقاً للفظ الملزوم على لازمه على أن السجود في اللغة، هو الإنقياد والخضوع كما مر. إذا عرفت ذلك فنقول: يحتمل أن يكون قوله عليه السلام منهم سجود إشارة إلى مرتبة الملائكة المقربين لأن درجتهم أكمل درجات الملائكة. فكانت نسبة عبادتهم وخضوعهم إلى خضوع من دونهم كنسبة خضوع السجود إلى خضوع الركوع.

فإن قلت إنه قد تقدم أن الملائكة المقربين مبرؤون عن تدبير الأجسام والتعلق بها، فكيف يستقيم أن يكونوا من سكان السماوات ومن الأطوار الذين ملأت بهم. قلت: إن علاقة الشيء بالشيء وإضافته إليه، يكفي فيها أدنى مناسبة بينهما، والمناسبة هَهُنَا حاصلة بين الأجرام السماوية وبين هذا الطور من الملائكة، وهي مناسبة العلّة للمعلول أو الشرط للمشروط. فكما جاز أن ينسب الباري جل جلاله إلى الإختصاص بالعرش، والإستواء عليه في لفظ القرآن الكريم مع تنزيهه تعالى وتقدسه من هذا الظاهر ولم يجر في الحكمة أن يكشف للخلق من عظمة الحق سبحانه أكثر من هذا القر، فكذلك جاز أن ينسب الملائكة المقربون إلى الكون في السماوات بطريق الأولى وإن تنزّهوا عن الأجسام وتدبيرها لأن علياً عليه السلام قاصد قصد الرسول صلى الله عليه وآله، وقصد القرآن الكريم وناطق به فليس له أن يفصح بما تنبو عنه الأفهام، وبالله التوفيق.

قوله وركوع يشبه أن يكون إشارة إلى حملة العرش إذ كانوا أكمل ممّن دونهم فكانت نسبة عبادتهم إلى عبادة من دونهم كنسبة خضوع الركوع إلى خضوع الصف.

قوله وصافّون يحتمل أن يكون إشارة إلى الملائكة

الحافين من حول العرش قيل: إنهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة. كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وتحقيق ذلك أن لكل واحد منهم مرتبة معينة، ودرجة معيّنة من الكمال يخصه وتلك الدرجات باقية غير متغيّرة، وذلك يشبه الصفوف، ومما يؤيد القول بأنهم الحافّون حول العرش ما جاء في الخبر أن حول العرش سبعين ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صفاً قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبّح.

قوله ومسبّحون يحتمل أن يكون المراد بهم الصافون وغيرهم من الملائكة؛ والواو العاطفة وإن اقتضت المغايرة، إلاّ أن المغايرة حاصلة إذ هم من حيث هم صافون غيرهم من حيث هم مسبّحون وتعدد هذه الإعتبارات يسوغ تعديد الأقسام بحسبها وعطف بعضها على بعض، ويؤيد ذلك الجمع بين كونهم صافين، وبين كونهم مسبّحين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦] ويحتمل أن يريد نوعاً وأنواعاً أُخر من ملائكة السماوات. فأما سلب الركوع عن الساجدين، وسلب الإنتصاب عن الراكعين، وسلب المزايلة عن الصافّين، وسلب السأم عن المسبّحين فإشارة إلى كمال في مراتبهم المعيّنة كل بالنسبة إلى من هو دونه وتأكيد لها بعدم النقصانات اللاحقة. فإن الركوع وإن كان عبادة إلاّ أنه نقصان بالنسبة إلى السجود، والإنتصاب نقصان في درجة الراكع بالنسبة إلى ركوعه، وكذلك التزايل عن مرتبة الصف نقص فيها، وكذلك السأم في التسبيح نقصان فيه وإعراض عن الجهة المقصودة به وأيضاً فالسأم والملال عبارة عن إعراض النفس عن الشيء بسبب كلال بعض القوى الطبيعية عن أفعالها، وذلك غير متصوّر في حق الملائكة السماوية.

وأما سلب غشيان النوم عنهم في قوله لا يغشاهم نوم العيون فهو ظاهر الصدق؛ وبيانه أن غشيان النوم لهم مستلزم لصحة النوم عليهم واللازم باطل في حقهم فالملزوم مثله، أما الملازمة فظاهرة، وأما بطلان اللازم فلأن النوم عبارة عن تعطيل الحواس الظاهرة عن أفعالها لعدم انصباب الروح النفساني إليها ورجوعها بعد الكلال والضعف، والملائكة السماوية منزّهون عن هذه الأسباب والآلات، فوجب أن يكون النوم غير صحيح في حقهم فوجب أن لا يغشاهم، وأما سلب سهو العقول وغفلة النسيان. فاعلم أن الغفلة عبارة عن عدم التفطن للشيء، وعدم تعقله بالفعل، وهي أعمّ من السهو والنسيان وكالجنس لهما، بيان ذلك أن السهو هو الغفلة عن الشيء مع بقاء صورته أو معناه في الخيال أو الذكر بسبب اشتغال النفس والتفاتها إلى بعض مهماتها.

وأما النسيان فهو الغفلة عنه مع إنمحاء صورته أو معناه عن إحدى الخزانتين بالكلية ولذلك يحتاج الناسي للشيء إلى تجشّم كسب جديد وكلفة في تحصيله.

ثانياً: وبهذا يظهر الفرق بين الغفلة والسهو والنسيان، وإذا عرفت ذلك ظهر أن هذه الأمور الثلاثة من لواحق القوى الإنسانية فوجب أن تكون مسلوبة عن الملائكة السماوية لسلب معروضاتهم عنهم، ولما ذكر سهو العقول ونفاه عنهم أردفه بسلب ما هو أعمّ منه وهو الغفلة لاستلزام سلبها سلب النسيان. وقد كان ذلك كافياً في سلب النسيان إلاّ أنّه أضاف الغفلة إليه ليتأكد سلبه بسلبها، وأما قوله ولا فترة الأبدان، فلأن الفترة هي وقوف الأعضاء البدنية عن العمل وقصورها بسبب تحلل الأرواح البدنية وضعفها ورجوعها للإستراحة، وكل ذلك من توابع المزاج الحيواني فلا جرم صدق سلبها عنهم.

قوله ومنهم أُمناء على وحيه وألسنة إلى رسله مختلفون بقضائه، وأمره يشبه أن يكون هذا القسم داخلاً في الأقسام السابقة من الملائكة. وإنما ذكره ثانياً باعتبار وصف الأمانة على الوحي والرسالة والإختلاف بالأمر إلى الأنبياء عليهم السلام وغيرهم، لأن من جملة الملائكة المرسلين جبرائيل عليه السلام وهو من الملائكة المقربين، واعلم أنه لما ثبت أن الوحي وسائر الإفاضات من الله تعالى على عباده، إنما هو بواسطة الملائكة كما علمت كيفية ذلك لا جرم صدق أن منهم أُمناء على وحيه وألسنة إلى رسله إذا كان الأمين هو

الحافظ لما كلف بحفظه على ما هو عليه ليؤديه إلى مستحقه، وإفاضة الوحي النازل بواسطة الملائكة محفوظة نازلة، كما هي مبرّأة عن الخلل الصادر عن سهو لعدم معروضات السهو هناك أو عن عمد لعدم الداعي إليه ولقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] .

وأما كونهم ألسنة إلى رسله فهي إستعارة حسنة إذ يقال: فلان لسان قومه أي المفصح عن أحوالهم والمخاطب عنهم فيطلق عليه اسم اللسان لكونه مفصحاً عما في النفس، ولما كانت الملائكة وسائط بين الحق سبحانه وبين رسله في تأدية خطابه الكريم إليهم لا جرم حسن إستعارة هذا اللفظ لهم لمكان المشابهة، والمراد هَهُنَا بالإختلاف: التردد بأمر الله، وما قضى به مرة بعد أخرى، وبالقضاء: الأمور المقضية إذ يقال: هذا قضاء الله أي مقضي الله، ولا يراد به المصدر، فإن معنى ذلك هو سطر ما كان وما يكون في اللوح المحفوظ بالقلم الإلهي، وذلك أمر قد فرغ منه كما قال ﷺ: جف القلم بما هو كائن، فإن قلت: كيف يصح أن يكون هذا القسم داخلاً في السجود لأن من كان أبداً ساجداً كيف يتصور أن يكون مع ذلك متردداً في الرسالة، والنزول، والصعود، مختلفاً بالأوامر والنواهي إلى الرسل عليهم السلام قلت: إنّا بيّنا أنه ليس المراد بسجود الملائكة هو وضع الجبهة على الأرض بالكيفية التي نحن عليها؛ وإنّما هو عبارة عن كمال عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم تحت قدرته وذلّتهم في الإمكان، والحاجة تحت ملك وجوب وجوده، ومعلوم أنه ليس بين السجود بهذا المعنى وبين تردّدهم بأوامر الله تعالى واختلافهم بقضائه على وفق مشيئته وأمره منافاة بل كل ذلك من كمال عبوديتهم وخضوعهم لعزته واعترافهم بكمال عظمته.

قوله: ومنهم الحفظة لعباده، فاعلم أن في هذا القسم مطلوبين أحدهما ما الحفظة؟ والثاني ما المراد منهم؟ ثم الحفظة منهم حفظة للعباد كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] ، ومنهم حفظة على العباد كما قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] والمراد من الأولين حفظ العباد بأمر الله تعالى من الآفات التي تعرض لهم، ومن الآخرين ضبط الأعمال والأقوال من الطاعات والمعاصي. كما قال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١١-١٢] وكقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] قال ابن عبّاس: إن مع كل إنسان ملكين أحدهما على يمينه والآخر على يساره فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على يمينه. وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار: انتظر لعله يتوب منها فإن لم يتب كتبت عليه قال المفسرون: فائدة ذلك أن المكلّف إذا علم أن الملائكة موكلون به يحصون عليه أعماله ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في موقف القيامة كان ذلك أزجر له عن القبائح.

واعلم أنه يحتمل أن يكون التعدد المذكور في الحفظة تعدداً بحسب الذوات، ويحتمل أن يكون بحسب الإعتبار. قال بعض من زعم أن الحفظة للعباد هي القوى التي أرسلها الله تعالى من سماء جوده على الأبدان البشرية: يحتمل أن تكون الحفظة على العباد هي مبادئ تلك القوى، ويكون معنى كتبه السيئات والحسنات وضبطهما على العباد إما باعتبار ما يصدر، ويتعدد عن العبد من السيئات والحسنات في علم تلك المبادئ أو يكون معناها كتبه صور الأفعال الخيرية والبشرية إلى العبد بقلم الإفاضة في لوح نفسه بحسب استعدادها لذلك قال: ويشبه أن تكون إشارة ابن عباس بانتظار ملك اليسار كاتب السيئات توبة العبد إلى أنه ما دامت السيئة حالة غير ممكنة من جوهر نفس العبد، فإن رحمة الله تعالى تسعه فإذا تاب من تلك السيئة لم تكتب في لوح نفسه. وإن لم يتب حتى صارت ملكة راسخة في نفسه كتبت وعذب بها يوم تقوم الساعة.

قال: ويحتمل أن يكون الحفظة على العباد هم بأعيانهم من الحفظة لهم فإن النفس تحفظ في جوهرها ما يفعله من خير وشر وتحصيه يوم البعث على نفسها إذ زالت عنها الغواشي البدنية، وتجده مصوّراً مفصلاً لا يغيب عنها منه شيء. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ

بيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[آل عمران: ٣٠] . وكما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. وكما قال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾[العاديات: ٩-١٠]. وقال: وأما معنى كونهم من ملائكة السماء، فلأن أصلهم من ملائكة السماء ثم أرسلوا إلى الأرض، والله أعلم، وأما السدنة لأبواب جنانه فقد عرفت ما قيل فيهم.

قوله فمنهم الثابتة في الأرضيين السفلى أقدامهم المارقة من السماء العليا أعناقهم والخارجة من الأركان أقطارهم والمناسبة لقوائم العرش أكنافهم: فاعلم أن هذه الأوصاف وردت في صفة الملائكة الحاملين للعرش في كثير من الأخبار فيشبه أن يكونوا هم المقصودون بها هيهنا.

وروى عن ميسرة أنه قال: أرجلهم في الأرض السفلى رؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء السادسة. وهكذا إلى سماء الدنيا، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لا تتفكروا في عظمة ربكم ولكن تفكروا فيما خلق من الملائكة فإن خلقاً منهم يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سماوات وأنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع؛ والوصع طائر صغير. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: لما خلق الله تعالى حملة العرش قال لهم احملوا عرشي فلم يطيقوا فقال لهم: قولوا لا حول ولا قوة إلا بالله فلما قالوا ذلك استقل فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الثرى فلم تستقر فكتب في قدم كل ملك منهم اسماً من أسمائه فاستقرت أقدامهم، ووجه هذا الخبر أن وجودهم وبقاءهم وحولهم وقوتهم التي بها هم على ما هم إنما هو من حوله وقوته وهيبته فلو أنه سبحانه خلقهم وقال لهم: احملوا عرشي ولم تكن لهم استعانة ولا مدد بحول الله وقوته ومعونة، لم ينتهضوا بحمل ذرّة من ذرات مبدعاته ومكوناته فضلاً عن تدبير العرش الذي هو أعظم الأجرام الموجودة في العالم. إذا عرفت ذلك فنقول:

أما من قال بأن الملائكة أجسام كان حمل صفاتهم المذكورة في هذه الأخبار في كلامه عليه السلام على ظاهرها أمراً ممكناً وأنه تعالى قادر على جميع الممكنات. وأما من نزّههم عن الجسمية فقال إن الله سبحانه لما خلق الملائكة السماوية مسخرين لأجرام السماوات مدبّرين لعالمنا، عالم الكون والفساد وأسباباً لما يحدث فيه كانوا محيطين بإذن الله علماً بما في السماوات والأرض فلا جرم كان منهم من ثبت في تخوم الأرض السفلى أقدام إدراكاتهم التي ثبتت واستقرت باسم الله الأعظم وعلمه الأعز الأكرم، ونفذت في بواطن الوجودات الموجودات خبر أو مرقت من السماء العليا أعناق عقولهم، وخرجت من أقطارها أركان قواهم العقلية، وقوله المناسبة لقوائم العرش أكتافهم يريد أنهم مشبهون ومناسبون لقوائم العرش في بقائهم وثباتهم عن الزائل من تحته أبداً إلى ما شاء الله. فإن قلت: فهل هناك قوائم غير الحاملين للعرش الذي أشار إليهم، وتكون هذه الطائفة من الملائكة مناسبة لتلك القوائم أم لا، قلت: قد جاء في الخبر أن العرش له قوائم.

روي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عليه السلام عن جده ﷺ أنه قال: إن بين القائمين من قوائم العرش والقائمة الأخرى خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام، قال بعض المحققين: إن هناك قوائم ثمان قد فوض الله تعالى إلى كل ملك من الملائكة الثمانية الحاملين للعرش تدبير قائمة منها وحملها ووكّله بها. إذا عرفت ذلك فنقول: يحتمل أن يكون قد أشار عليه السلام بقوله تلك القوائم ووجه المناسبة أن الكتف لما كان محلّ القوة والشدة استعاره عليه السلام هَهُنَا للقوة والقدرة التي يخص كل ملك من تلك الملائكة، وبها يدبّر تلك القوائم من العرش، ولا شك أن بين كل قائمة من تلك القوائم وبين كل قدرة من تلك القدرة مناسبة ما لأجلها خص الله سبحانه ذلك الملك بحمل تلك القائمة، وذلك معنى قوله المناسبة لقوائم العرش أكتافهم ويحتمل أن يكون كما استعار لهم لفظ الأقدام استعار لهم أيضاً لفظ

الأكتاف ثم شبّه قيامهم بأمر الله في حملهم للعرش بقيام الأساطين التي يبني عليها الواحد منّا عرشه، فهم مناسبون مشابهون لقوائم العرش التي يبنى عليها من غير أن يكون هناك تعرض لإثبات قوائم بل ما يشبه القوائم.

قوله ناكسة دونه أبصارهم متلفّعون تحته بأجنحتهم: الضميران في دونه وتحته راجعان إلى العرش. وقد جاء في الخبر عن وهب بن منبّه قال: إن لكل ملك من حملة العرش ومن حوله أربعة أجنحة. أما جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق. وأما جناحان فيفهو بهما ليس لهم كلام إلاّ التسبيح والتحميد، وكنى عليه السلام بنكس أبصارهم عن كمال خشيتهم لله تعالى واعترافهم بقصور أبصار عقولهم عن إدراك ما وراء كمالاتهم المقدرة لهم وضعفها عما لا يحتمله من أنوار الله، وعظمته المشاهدة في خلق عرشه وما فوقهم من مبدعاته. فإن شعاع أبصارهم منته واقف دون حجب عزّة الله.

وعن بريد الرقاشي: أن لله تعالى ملائكة حول العرش يسمعون المخلخلين تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنما تنقضهم الرياح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب جل جلاله ملائكتي ما الذي يخيفكم؟ فيقولون: ربّنا لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ما ساغوا طعاماً ولا شراباً ولا انبسطوا في فرشهم ولخرجوا إلى الصحراء يخورون كما يخور الثور. واعلم أنه لما كان الجناح من الطائر والإنسان عبارة عن محل القوة والقدرة والبطش صح أن يستعار للملائكة على سبيل الكناية عن كمالهم في قدرتهم وقوتهم التي يطيرون في بيداء جلال الله وعظمته، وتصدر بواسطتهم كمالات ما دونهم من مخلوقات الله، وصح أن توصف تلك الأجنحة بالقلة والكثرة في آحادهم، ويكون ذلك كناية عن تفاوت قرابتهم وزيادة كمال بعضهم على بعض، ولما استعار لفظ الأجنحة استلزم ذلك أن يكون قد شبّههم بالطائر ذي الجناح، ثم لما كان الطائر عند قبض جناحه يشبه المتلفع بثوبه والملتحف به، وكانت أجنحة الملائكة التي هي عبارة عن كمالهم في قدرهم وعلومهم مقبوضة قاصرة عن التعلق بمثل مقدورات الله، ومبدعاته واقفة دون جلاله وعظمته في صنعه لا جرم أشبه ذلك قبض الأجنحة المشبه للتلفّع بالثوب فاستعار عليه السلام لفظ التلفع أيضاً، وكنى به عن كمال خضوعهم، وانقهارهم تحت سلطان الله وقوته والمشاهدة في صورة عرشه. فإن قلت: إنك بيّنت أن المراد بالركوع هم حملة العرش فكيف يستقيم مع ذلك أن يقال: إن هذا القسم هم حملة العرش أيضاً. فإن من كان أقدامهم في تخوم الأرضين، وأعناقهم خارجة من السماوات السبع ومن الكرسي، والعرش كيف يكون مع ذلك راكعاً؟ قلت: الجواب عنه قد سبق في قولهم ومنهم أُمناء على وحيه. فإن الركوع أيضاً المقصود منه الخشوع لعزّة الله وعظمته، وذلك غير مناف للأوصاف المذكورة هيهنا، وبالله التوفيق.

قوله مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزّة وأستار القدرة إشارة إلى أن الآلات البشرية قاصرة عن إدراكهم والوصول إليهم، وذلك لتنزههم عن الجسمية والجهة وقربهم من عزة مبدعهم الأول جل جلاله، وبعد القوى الإنسانية عن الوقوف على أطوارهم المختلفة ومراتبهم المتفاوتة. وإذا كان الحال في الملك العظيم من ملوك الدنيا إذا بلغ في التعزّز والتعظيم إلى حيث لا يراه إلاّ أجلاء خواصه، وكان الحال أيضاً في بعض خواصه كذلك كالوزير والحاجب والنديم، فإنهم لا يصل إليهم كل الناس بل لا يصل إليهم إلاّ من كانت له إليهم وسيلة تامة، وعلاقة قوية، وكان منشأ ذلك إنما هو عظمة الملك وهيبته، وقربهم منه فكان الحائل بينهم وبين غيرهم إنما هو حجب عزّة الملك وأستار قدرته وقهره، فكيف الحال في جبّار الجبابرة ومالك الدنيا والآخرة، وحال ملائكته المقرّبين ومن يليهم من حملة العرش الروحانيين، فبالحري أن ينسب عدم وصول قوانا الضعيفة إليهم وإدراكها لمراتبهم إلى حجب عزّة الله وعظمته لهم، وكمال ملكه وتمام قدرته، وما أهلهم له من قربه ومطالعة أنوار كبريائه عزّ سلطانه ولا إله إلاّ هو.

قوله ولا يتوهّمون ربهم بالتصوير إشارة إلى تنزيههم عن الإدراكات الوهمية والخيالية في حق مبدعهم عزّ

سلطانه. إذ كان الوهم إنما يتعلق بالأمور المحسوسة ذات الصور والأحياز والمحال الجسمانية، فالوهم وإن أرسل طرفه إلى قبلة وجوب الوجود، وبالغ في تقليب حدقه فلن يرجع إلاّ بمعنى جزئي يتعلق بمحسوس، حتى أنه لا يقدر نفسه ولا يدركها إلاّ ذات مقدار وحجم، ولما كان الوهم من خواص المزاج الحيواني لا جرم سلب التوهم عن هذا الطور من الملائكة لعدم قوة الوهم هناك. فإن هذه القوة لما كانت موجودة للإنسان لا جرم كان يرى ربه في جهة، ويشير إليه متحيّزاً ذا مقدار وصورة، ولذلك وردت الكتب الإلهية والنواميس الشرعية مشحونة بصفات التجسيم كالعين واليد والإصبع، والإستواء على العرش، ونحو ذلك خطاباً للخلق بما تدركه أوهامهم وتوطيناً لهم وإيناساً، حتى أن الشارع لو أخذ في مبدأ الأمر بيّن لهم أن الصانع الحكيم ليس داخل العالم، ولا خارجه، ولا في جهة، وليس مجسم، ولا عرض لاشتد نفار أكثرهم من قبول ذلك وعظم إنكارهم له، فإن الوهم في طبيعته لا يثبت موجوداً بهذه الصفة ولا يتصوره، ومن شأنه أن ينكر ما لا يتصور فكان منكراً لهذا القسم من الموجودات والخطابات الشرعية، وإن وردت بصفات التجسيم إلاّ أن الألفاظ الموهمة لذلك لما كانت قابلة للتأويل محتملة له كانت وافية بالمقاصد إذ العامي المغمور في ظلمات الجهل يحمله على ظاهره، ويحصل بذلك تقييده عن تشتت اعتقاده وذو البصيرة المترقي عن تلك الدرجة يحمله على ما يحتمله عقله من التأويل، وكذلك حال من هو أعلى منه، والناس في ذلك على مراتب فكان إيرادها حسناً وحكمة.

قوله ولا يجرون عليه صفات المصنوعين.

أقول: إجراء صفات المصنوعين عليه إنّما يكون بمناسبته ومماثلته مع مصنوعاته ومكنوناته وكل ذلك بقياس من الوهم ومحاكاة من المتخيّلة له بصورة المصنوع، فكان الوهم يحكم أولاً بكون البارئ عز سلطانه مثلاً لمصنوعاته التي يتعلق إدراكه بها من المتحيّزات وما يقوم بها ويخيّله بصورة منها ثم يساعده العقل في مدمة أخرى هي أن حكم الشيء حكم مثله فيجري حينئذ عليه صفات مصنوعاته التي حكم بمثليّته لها، ولما كانت الملائكة السماوية منزّهين عن الوهم والخيال لا جرم وجب تنزيههم عن أن يجروا عليه صفات مصنوعاته سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وكذلك قوله ولا يحدّونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر. فإن الحاكم بحده في مكان وتحيّزه فيه والمشير إليه بالمثل المتصور له بالقياس إلى نظير يشاكله ويشابهه، إنما هو الوهم والخيال، ولما عرفت أنهما يخصان للحيوان العنصري لا جرم كانت هذه الأحكام مسلوبة عن الملائكة السماوية مطلقاً وبالله التوفيق.

الفصل الثالث في كيفية خلق آدم عليه السلام:

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ؛ ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا. وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالأَضْدَادِ المتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلاَطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿اسجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَهْوَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾. ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ

دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالاغْتِرَارِ نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ.

قوله منها في خلق آدم عليه السلام ثم جمع سبحانه من حزن الأرض إلى قوله وتناسل الذرية.

أقول: الحزن من الأرض ما غلظ منها واشتد كالجبل، والسهل ما لان، وعذبها ما طاب منها واستعد للنبات والزرع، والسبخ ما ملح منها، والمسنون الطين الرطب في قول ابن عباس، وعن ابن السكيت عن أبي عمرو أنه المتغيّر، وقول ابن عباس أنسب إلى كلام علي عليه السلام لأن قوله: سنّها بالماء حتى لزبت أي أنه خلّطها بالماء حتى صارت طيناً رطباً يلتصق، وصلصلت قال بعضهم: الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل إذاً أنتن. وقيل هو الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، وقيل إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، ولاطها بالبلّة أي خلطها بالرطوبة ومزجها بها؛ والبلّة بالكسر النداوة، وبالفتح واحدة البل، واللازب اللاصق، وأصل الباء الميم، وجبل أي خلق، والأحناء جمع حنو وهي الجوانب، والوصول جمع كثرة للوصل، وهي المفاصل وجمع القلّة أوصال، والأعضاء جمع عضو بالكسر والضم كاليد والرجل للحيوان، وأصلدها أي جعلها صلداً، وهي الصلبة الملساء، والذهن في اللغة الفطنة والحفظ، وفي الإصطلاح العلمي عبارة عن القوى المدركة من العقل والحس والباطن، والفكر جمع فكرة وهي قوة للنفس بها تحصل الإدراكات العقلية، ويشبه أن يكون أصل الإنسان أنس وهو الأنيس، والألف والنون في أصل لحوقها له للتثنية؛ وذلك لأن الأنس أمر نسبي لا يتحقق إلاّ بين شيئين فصاعداً.

ولما كان كل واحد من الناس يأنس بصاحبه قيل إنسان ثم كثر استعماله مثنى فأجريت على النون وجوه الإعراب، والمساءة الغم، والجوارح الأعضاء، والإختدام، والإستخدام بمعنى، والأدوات جمع أداة، وأصلها الواو، ولذلك ردّت في الجمع، والإستيداء طلب الأداء، والخنوع الخضوع، واشتقاق إبليس من الإبلاس، وهو اليأس والبعد لبعده من رحمة الله، والحميّة الأنفة، واعترتهم أي غشيتهم، والوهن الضعف، والنظرة بفتح النون وكسر الظاء الإمهال والسخط والغضب، واغترّه أي استغفله ونفست عليه بالأمر نفاسة، إذا لم تره مستحقاً له، والعزيمة الإهتمام بالشيء، والجذل السرور، والإهباط الإنزال. إذا عرفت ذلك فنقول: للناس في هذه القصة طريقان.

الطريق الأول: أن جمهور المسلمين من المفسرين والمتكلمين حملوا هذه القصة على ظاهرها ثم ذكروا فيها أبحاثاً.

البحث الأول: أن هذه قد كررها سبحانه في كتابه الكريم في سبع سور؛ وهي سورة البقرة، والأعراف، والحجر، وسورة بني إسرائيل، والكهف، وطه، وسورة ص، وذلك لمن يشتمل عليه من تذكير الخلق وتنبيههم من مراقد الطبيعة التي جذبهم إليها إبليس، والتحذير من فتنته وفتنة جنوده والجذب إلى جناب الله ومطالعة أنوار كبريائه، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]. الآية فقوله عليه السلام وتربة كقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩] . وقوله: سنّها بالماء كقوله تعالى: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦] وقوله: لاطها بالبلّة حتى لزبت كقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصّافات: ١١] وقوله: حتى صلصلت كقوله تعالى: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ [الحجر: ٢٦] وقوله: ثم نفخ فيه من روحه كقوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] وقوله: ونفخ فيه من روحه وقوله: ذا أذهان يجيلها وفكَر يتصرف بها وجوارح يختدمها كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨] وقوله: واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيّته إليهم كقوله تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

[الحجر: ٢٩] وقوله: اسجدوا وقوله: إلاّ إبليس كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣٠-٣١]، وقوله اعترته الحمية إلى قوله وتعزّز بخلقة النار واستهون خلق الصلصال كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وقوله: أأسجد لبشر خلقته من صلصال وقوله فأعطاه الله النظرة حذف قبله تقديره فسأل النظرة وذلك قوله أنظرني فأعطاه الله النظرة إلى يوم الوقت المعلوم كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨]. وقوله: ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد عيشه كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] وقوله: وحذّره إبليس وعداوته كقوله: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] وقوله: فاغترّه إبليس نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار كقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠] الآية وقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢] وقوله فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه، كقوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وقوله: واستبدل بالجذل وجلاً وبالإغترار ندماً كقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقوله: ثم بسط الله في توبته ولقاه كلمة رحمته كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وقوله ووعده المردّة إلى جنته ذلك الوعد في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وقوله: فأهبطه إلى دار البلّية كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [طه: ١٢٣].

البحث الثاني: أن الله تعالى أشار في مواضع من كتابه الكريم إلى خلق آدم من تراب فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال في موضع آخر ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

قال المتكلمون: وإنما خلقه الله على هذا الوجه إما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة على كمال قدرته وعجيب صنعه لأن خلق الإنسان في هذه المراتب أعجب عندهم من خلقه من جنسهم. إذا عرفت ذلك فاعلم أن كلامه عليه السلام هٰهُنَا يجري مجرى التفسير لهذه الآيات. فإنّه أشار أولاً إلى كونه من تراب بقوله ثم جمع سبحانه من سهل الأرض وحزنها وعذبها وسبخها تربة، ونحو ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب، واعلم أن جمهور المفسرين على أن الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] هو أبونا آدم عليه السلام. ونقل عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم وأكثر قال بعض العلماء: وهذا لا ينافي حدوث العالم فإنه كيف كان لا بد من الإنتهاء إلى إنسان هو أول الناس. فأما أن ذلك الإنسان هو أبونا آدم فلا طريق إلى إثباته إلاّ من جهة السمع.

البحث الثالث: أجمع المسلمون على أن سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة لأن العبادة لغير الله كفر، ثم اختلفوا على ثلاثة أقوال:

الأول: أن ذلك السجود كان لله وكان آدم كالقبلة وكما يحسن أن يقال سجدوا لآدم كذلك يحسن أن يقال سجدوا للقبلة بدليل قول حسان بن ثابت:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف
عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أول من صلى لقبلتكم
وأعرف الناس بالآيات والسنن

فقوله صلى لقبلتكم نصّ على المقصود الثاني أنّ السجود كان لآدم تعظيماً له وتحيّة كالسلام منهم عليه، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك كما يحيّي المسلمون بعضهم بعضاً. وعن صهيب أن معاذاً رضي الله عنه لما تقدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وآله فقال له: يا معاذ ما هذا؟ فقال: رأيت اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها، ورأيت النصارى تسجد لقسّيسها وبطارقتها فقلت: ما هذا؟ فقالوا: تحية الأنبياء فقال صلى الله عليه وآله كذبوا على أنبيائهم.

الثالث: أنّ السجود في أصل اللغة عبارة عن الإنقياد والخضوع الكامل قال الشاعر: ترى الأكم فيها سجداً للحوافر أي أن تلك الجبال الصغار كانت مذللة لحوافر الخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦] والقول الثاني هو مقتضى كلامه عليه السلام إذ فسّر السجود به فقال والخضوع لتكرمته، وبالله التوفيق.

البحث الرابع: اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فاستعظم بعضهم سجود ملائكة السماء له، وقالوا المأمورون بذلك هم الملائكة الذين أهبطوا مع إبليس إلى الأرض، قالوا وذلك أن الله تعالى لما خلق السموات والأرض وخلق الملائكة أهبط منهم ملأً إلى الأرض يسمون بالجن رأسهم إبليس، وأسكنهم إياها وكانوا أخف الملائكة عبادة فأعجب إبليس بنفسه، وتداخله الكبر فاطلع الله سبحانه على ما انطوى عليه فقال له ولجنده: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢] وقال بعضهم: إن المأمورين بالسجود لآدم هم كل الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] فأكد جميعهم بأكمل وجوه التأكيد.

البحث الخامس: أكثر المتكلمين لا سيما المعتزلة على أن إبليس لم يكن من الملائكة وقال جمهور المفسرين ومنهم ابن عباس: إنه كان من ملائكة الأرض الذين أهبطوا قبل آدم. حجة الأولين قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] والجن لم يكونوا من الملائكة بدليل قوله تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقول الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١] واحتج من قال إنه منهم باستثناء إبليس من الملائكة في غير موضع من القرآن الكريم، والإستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، وذلك يدل على أن إبليس من الملائكة، وأجابوا عن حجة الأولين من وجهين: أحدهما المعارضة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصّافات: ١٥٨] وذلك الجعل هو قول قريش: الملائكة بنات الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرُف: ١٩] فهذه الآية تدل على أن الملائكة من الجن.

الثاني: أن كون إبليس من الجن لا ينافي كونه من الملائكة يصدق عليهم اسم الجن لأن الجن مأخذ من الاجتنان وهو الإستتار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه ومنه المجنون لاستتار العقل والملائكة مستترون عن الأعين فوجب جواز إطلاق لفظ الجن عليهم، واعلم أن الخلاف لفظي فإنه إذا ثبت أن الملائكة الذين أهبطوا إلى الأرض قبل آدم هم المسمون بالجن وإبليس من الجن ثبت أن إبليس من الملائكة وليس النزاع في أنه من ملائكة الأرض أو من ملائكة السماء بل في كونه من الملائكة مطلقاً فإذن ليس بينهم خلاف المعنى.

البحث السادس: اختلفوا في سبب عداوة إبليس لآدم فقال بعضهم: إنه الحسد وذلك أن إبليس لما رأى ما أكرم الله به آدم من إسجاد الملائكة وتعليمه ما لم يطلع عليه الملائكة حسده وعاداه، وقال آخرون: إن السبب تباين أصليهما ولمنافرة الأصلين أثر قوي في منافرة الفرعين قالوا وتباين أصليهما هو منشأ القياس الفاسد من إبليس حين أمر بالسجود وذلك قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وكأنه في خطابه يقول إن آدم جسماني كثيف وأنا روحاني لطيف، والجسماني أدون حالاً من الروحاني، والأدون كيف يليق أن يكون مسجوداً للأعلى، وأيضاً فإن أصل آدم من صلصال من حمأ مسنون، والصلصال في غاية الدناءة وأصلي من أشرف العناصر، وإذا كان أصلي خيراً من أصله وجب أن أكون خيراً منه وأشرف، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون. قالوا: فكان ذلك قياساً منه، فأول من قاس هو إبليس، فأجابه الله تعالى جواباً على سبيل التنبيه دون التصريح أخرج منها مذموماً مدحوراً، قال بعض الفضلاء: وتقريره أن الذي قال تعالى نصّ بحكم الحكمة الإلهية والقدرة الربانية، والذي قاله إبليس قياس ومن عارض النص بالقياس كان مرجوماً ملعوناً.

البحث السابع: احتجّت الأشعرية على أنه تعالى قدير أن يلقي الكفر في الكافرين من هذه القصة بوجهين:

أحدهما: أنه تعالى أنظر إبليس مع أنه يعلم أنه إنما قصده إغواء بني آدم ولو أهلكه لاستراحوا، وعدم الشر الحاصل منه ومن ذريته.

الثاني: قال أغويتني فنسب الإغواء إلى الله تعالى مع أنه لم ينكر عليه هذا الكلام وهذا صريح في أنه تعالى يفعل الإغواء. أجابت المعتزلة عن الأول بأن الله تعالى خلق آدم وذريته قادرين على رفع إبليس عن أنفسهم فهم الذين اختاروا الكفر والفساد. أقصى ما في الباب أن يقال إن الإحتراز عن القبيح حال عدم إبليس أسهل منه حال وجوده، إلاّ أن على هذا التقدير تصير وسوسته سبباً لزيادة المشقة في أداء الطاعات. فيزداد المكلف بتكلفها ثواباً. كما قال عليه السلام: أفضل الأعمال أحمزها أي أشقها وذلك لا يمنع الحكيم من فعله كما أن إنزال المشاق والآلام وإنزال المتشابهات صار سبباً لزيادة الشبهات ومع ذلك لم يمتنع فعلها من الله تعالى وهذا الوجه قريب من قوله عليه السلام استماماً للبليّة.

وعن الثاني: أن المراد من قوله بما أغويتني أي بما خيبّتني من رحمتك، وقيل معنى إضافة غوايته إلى الله تعالى أن الله تعالى لما أمره بالسجود لآدم عصى وغوى، فكان الباري هو الأصل في حصول الإغواء له فلذلك نسبه إليه، واحتج أيضاً من جواز الخطأ على الأنبياء عليهم السلام من هذه القصة بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وأجاب من أوجب عصمتهم من حين الولادة بأنه لما دلّ الدليل على وجوب عصمتهم وجب صرف هذا اللفظ ونحوه على ترك الأولى وهو في حقهم سيئة ومعصية وإن كان في حق غيرهم حسنة. كما قال حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن أوجب عصمتهم من حين الرسالة فله أن يحمل هذه المعصية على ما قبل الرسالة، والمسألة مستقصاة في الكلام.

البحث الثامن: قال القفّال أصل التلقي في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] وقوله عليه السلام ولقّاه كلمة رحمته هو التعرض للقادم وضع في موضع الإستقبال للمسيء والجاني ثم وضع موضع القبول والأخذ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ [النمل: ٦] أي تلقنه ويقال تلقينا الحجّاج أي استقبلناهم وتلقيت هذه الكلمة من فلان أي أخذتها منه، وإذا كان هذا أصل الكلمة وكان من تلقى رجلاً فتلاقيا لقي كل واحد منهما صاحبه، وأضيف بالإجتماع إليهما معاً فصلح أن يشتركا في الوصف بذلك فكل ما تلقيته فعد تلقاك فجاز أن يقال تلقى آدم ربه كلمات أي أخذها ووعاها واستقبلها بالقبول، ولقاه الله إياها أي أرسلها إليه وواجهه بها، ثم ذكر المفسرون في ذلك الكلمات أقوالاً:

الأول: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أن آدم عليه السلام قال يا رب ألم تخلقني بيدك بلا واسطة قال: بلى، قال: ألم تسكنّي جنتك، قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك غضبك، قال: بلى، قال: إن تبت وأصلحت أتردّني إلى الجنة، قال: نعم، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

الثاني: قال النخعي: أتيت ابن عباس فقلت: ما الكلمات التي تلقاها آدم من ربه؟ قال: علّم الله تعالى آدم وحواء أمر الحج؛ والكلمات التي يقال فيه فحجّا فلما أفرغا أوحى الله تعالى إليهما إني قد قبلت توبتكما.

الثالث: قال مجاهد وقتادة وفي إحدى الروايتين عنهما: هي قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

الرابع: قال سعيد بن جبير: إنها قوله لا إله إلا أنت سبحانك، وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين. لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنّك أرحم الراحمين، لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنت التواب الرحيم.

الخامس: قول عائشة: لما أراد الله تعالى أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعاً، والبيت حينئذ ربوة حمراء. فلما صلى ركعتين استقبل القبلة (البيت) وقال: اللهم إنّك تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي

فاعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسالك إيماناً تباشر به قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لم يصبني إلاّ ما كتبت لي، ورضّني بما قسمت لي، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد غفرت لك ذنبك ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل ما دعوتني به إلاّ قد غفرت ذنبه وكشفت همومه ونزعت الفقر من بين عينيه وجاءته الدنيا وهو لا يريدها.

البحث التاسع: في حقيقة التوبة قال الإمام الغزالي: التوبة عبارة عن معنى مركب من ثلاثة أمور مترتبة: علم ثم حال ثم ترك.

أما العلم فأن يعلم العبد ضرر الذنوب وكونه حجاجاً بينه وبين الله تعالى وقيداً يمنعه من دخول الجنة. فإذا علم ذلك بيقين غالب على قلبه فإن ذلك يوجب له تألماً نفسانياً بسبب فوات الخير العظيم المطلوب لكل عاقل فيسمى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ومطلوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب أوجب له القصد إلى أمرين:

أحدهما: ترك الذنوب التي كان ملابساً لها أولاً.

والثاني: العزم على ترك الذنب المفوت لمطلوبه في المستقبل إلى آخر العمر فهذه حقيقتها، وينشأ من ذلك تلافي ما فات بالجبر والقضاء، وإن كان قابلاً للجبر، والعلم هو الأصل في إظهار هذه الخيرات فإن القلب إذا أيقن بأن الذنوب كالسموم المهلكة والحجب الحائلة بينه وبين محبوبه، فلا بد أن يتم نور ذلك اليقين فتشتعل فيه نيران الندم فيتألم به القلب وحينئذ ينبعث من تلك النار طلب الإنتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والإستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مترتبة يطلق اسم التوبة على مجموعها، وربما أطلق اسم التوبة على الندم وحده وجعل العلم كالباعث والترك كالثمرة المتأخرة، ولهذا الإعتبار قال صلى الله عليه وآله: الندم توبة إذ الندم مستلزم لعلم أوجبه ولعزم يتبعه، وأما وجوبها فمن وجهين:

أحدهما: أن التوبة مرضاة للرحمن مسخطة للشيطان مفتحة لأبواب الجنان معدة لإشراق شموس المعارف الإلهية على ألواح النفوس مستلزمة للمواهب الربانية من الملك القدوس.

الثاني: الأوامر الواردة بها في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] والوعد الصادق على فعلها ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨] والوعيد الحتم على تركها ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ونحو مما يدل على وجوبها فأما قبولها فمن وجهين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفرح بتوبة من العبد المذنب؛ والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول، وقال صلى الله عليه وآله: لو عَلَتكم الخطايا إلى السماء ثم ندمتم عليها لتاب الله عليكم.

البحث العاشر: فيما عساه يبقى من المقاصد المشكلة في هذه القصة.

الأول: الوديعة والوصية التي استأداها الله سبحانه من الملائكة في قوله عليه السلام واستأدى الله سبحانه من الملائكة وديعته لديهم إشارة إلى قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. فكان تعالى قد عهد إليهم بهذا القول، وأوصاهم بمقتضاه ثم استأداه منهم بما ذكره عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].

الثاني: قوله فاغتر إبليس فالإغترار طلب العزّة من آدم والتماسها منه بالوسوسة التي ألقاها إليه، كما سنبيّن معنى الوسوسة إن شاء الله.

الثالث: قوله دار المقام هي جنة الخلد، ومرافقة الأبرار إشارة إلى مصاحبة الملائكة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

الرابع: قوله فباع اليقين بشكه للشارحين فيه أقوال: أحدها أن معيشة آدم كانت في الجنة على حال يعلمها يقيناً ما كان يعلم كيف معاشه في الدنيا إذا انتقل إليها ولا حاله بعد مفارقة الجنة، ثم إن إبليس شككه في صدق مقاله إني لكما لمن الناصحين فنسي ما كان عنده يقيناً مما هو فيه من الخير الدائم، وشك في نصح

إبليس. فكأنه باع اليقين بالشك بمتابعته، وهي إستعارة حسنة على سبيل الكناية عن استيعاض آدم الشك عن اليقين.

الثاني: قالوا لمّا أخبره الله تعالى عن عداوة إبليس تيقّن ذلك فلما وسوس له إبليس شكّ في نصحه فكأنه باع يقين عداوته بالشك في ذلك.

الثالث: قول من نزّه آدم عليه السلام: إن ذلك مثل قديم العرب لمن عمل عملاً لا يفيده، وترك ما ينبغي له أن يفعله تمثل به أمير المؤمنين عليه السلام هَهُنَا، ولم يرد أن آدم عليه السلام شك في أمر الله تعالى.

الرابع: قوله والعزيمة بوهنه قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥]: أي لم نجده حفظاً لما أمر الله به، وقال قتادة صبراً، وقال الضحاك ضريمة أمر، وحاصل هذه الأقوال يعود إلى أنه لم يكن له قوة على حفظ ما أمر الله فكأنه باع العزم الذي كان ينبغي له والقوة التي كان ينبغي أن يتحفظ بها عن متابعة إبليس بالضعف والوهن عن تحمل ما أمر الله به.

الخامس: قوله دار البليّة هي دار الدنيا إذا كانت دار المحنة والإبتلاء بمقاساة إبليس ومجاهدته، وسجن الصالحين كما قال عليه السلام: الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، واعلم أن في ذكر هذه القصّة تحذيراً عظيماً عن المعاصي وذلك من وجوه، أحدها أن من تصوّر ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلّة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر:

يـا نـاظـراً نـوراً بـعـيـنـي راغـد
ومـشـاهـداً لـلأمـر غـيـر مـشـاهـد
تـصـل الـذنـوب إلـى الـذنـوب وتـرتـجـي
درك الـجـنـان ونـيـل نـور الـعـابـد
أنـسـيـت أن الله أخـرج آدمـاً
مـنـهـا إلـى الـدنـيـا بـذنـب واحـد

وعن فتح الموصلي أنه قال: كنّا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلاّ الهم والحزن حتى نرّد إلى الدار التي أخرجنا منها.

وثانيها: التحذير عن الإستكبار والحسد والحرص عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[البقرة: ٣٤] قال: حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله تعالى من الكرامة فقال أنا ناري وهذا طيني ثم ألقى الحرص والحسد في قلب ابن آدم حتى حمله على ارتكاب المنهي عنه.

وثالثها: أنّه تعالى بيّن العداوة الشديدة بين ذرّية آدم وإبليس هذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر وبالله التوفيق، الطريق الثاني: واعلم أن من الناس من سلّط التأويل على هذه القصة، وقبل بيان تأويلها ذكروا مقدمات، المقدمة الأولى في الإشارة إلى أجزاء التركيب الخارجي للإنسان وكيفية تركيبها قالوا: إن العناصر الأربعة أجسام بسيطة وهي أجزاء أولية لبدن الإنسان فمنها إثنان خفيفان؛ وهما النار والهواء وإثنان ثقيلان وهما الأرض والماء قالوا: والموضع الطبيعي للأرض هو وسط الكلّ وهي باردة يابسة في طبعها ووجودها في الكائنات مفيد للإستمساك والثبات وحفظ الشكل والهيئة والموضع الطبيعي للماء هو أو يكون شاملاً للأرض وثقله إضافي وطبعه بارد رطب ووجوده في الكائنات لتسهل الهيئات التي يراد تكوينها من التشكيل، والتخطيط والتعديل. فإن الرطب كما أنه سهل الترك للهيئات الشكلية فإنه سهل القبول لها. كما أن اليابس عسر القبول للهيئات الشكليّة عسر الترك لها، ومهما تخمّر اليابس بالرطب استفاد اليابس منه قبول التمديد والتشكيل بسهولة واستفاد الرطب من اليابس حفظاً لما حدث فيه من التعديل بقوة فاجتمع اليابس بالرطب عن تشتته، واستمسك الرطب باليابس عن سيلانه والموضع الطبيعي للهواء فوق الماء، وتحت النار وخفته إضافيّة وطبعه حار رطب ووجوده في الكائنات ليتخلخل ويلطف ويسفل، والموضع الطبيعي للنار فوق الأجرام العنصرية كلها، ومكانها الطبيعي هو مقعّر فلك القمر وخفتها مطلقة وطبعها حار يابس، ووجودها في الكائنات ليصلح المركبات ويجري فيها الجوهر الحيواني، ولتكسر من يرد العنصرين الثقيلين بردّهما عن العنصرية إلى المزاجية، والثقيلان أنفع في تكوين الأعضاء وفي سكونها، والخفيفان أنفع في كون

الأرواح وتحريكها وتحريك الأعضاء ثم قالوا: والمزاج كيفية تحدث من تفاعل الكيفيات المتضادة في هذه العناصر إذا تفاعلت بقواها بعضها في بعض فانكسرت صورة كل واحد منها بالآخر، حدثت عنها كيفية متشابهة في جميعها هي المزاج، والقوى الأولية في تلك الأركان أربع الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وهي التي يكون عنها المزاجات في الأجسام الكائنة الفاسدة ثم إن واهب الوجود أعطى كل حيوان وكل عضو من المزاج ما هو أليق وأصلح لأفعاله بحسب احتمال الإمكان له، وأعطى الإنسان أعدل الأمزجة الممكنة في هذا العالم مع مناسبة لقواه التي بها يفعل وينفعل، وأعطى كل عضو ما يليق به من أفعاله فجعل بعض الأعضاء أحرّ وبعضها أبرد وبعضها أرطب وبعضها أيبس وأمدّها بالأخلاط وهي أجسام رطبة سيّالة يستحيل إليها الغذاء أولاً، وهي منحصرة في أربعة أجناس:

أحدها: الدم وهو أفضلها.

والثاني: البلغم.

والثالث: الصفراء.

والرابع: السوداء.

ثم قسّم الأعضاء إلى عظام وغضاريف وأعصاب وأوتار وجعل أول الأعضاء المتشابهة الأجزاء العظم، وخلق صلباً لأنه أساس البدن ودعامة الحركات ثم الغضروف، وهو ألين من العظم وفائدته أن يحسن به اتصال العظام بالأعضاء اللينة فلا يتأذى اللّين بالصلب عند الضغطة والضربة بل متوسط بينهما ما يناسب كلاً منهما وليحسن به تجاوز المفاصل المحاكة فلا تتراض لصلابتها، ثم العصب وهي أجسام تنبت من الدماغ والنخاع بيض لدنة في الإنعطاف صلبة في الإنفصال، وفائدتها أن تتم به الأعضاء للإحساس والحركة، ثم الأوتار وهي أجسام تنبت من أطراف العضل شبيهة بالعصب تلاقي الأعضاء المتحركة فتجذبها تارة، وتبسطها أخرى بحسب انبساط العضلة، وانقباضها، ثم الرباطات وهي أيضاً أجسام شبيهة بالعصب والحكمة فيها ظاهرة، وهي ارتباط بعض الأعضاء إلى بعض واستمساكها وليس لشيء منها حسّ لئلا يتأذى بكثرة ما يلزمه من الحركة والحكّ، ثم الشريانات وهي أجسام نابتة من القلب ممتدة مجوفة طولاً عصبانية رباطيّة الجوهر لها حركات منبسطة ومنقبضة خلقت لترويح القلب ونقض البخار الدخاني عنه، ولتوزيع الروح إلى أعضاء البدن، ثم الأوردة وهي تشبه الشريانات ونباتها من الكبد، وفائدتها توزيع الدم على أعضاء البدن، ثم الأغشية وهي أجسام منتسجة من ليف عصباني غير محسوس رقيقة مستعرضة تغشى سطوح أجسام أُخرى، ولها فوائد: منها أن يحفظ جملتها على شكلها وهيئتها. ومنها أن تعلّقها على أعضاء أخرى، وتربطها بواسطة العصب، ومنها أن يكون للأعضاء العديمة الحسّ في جواهرها سطح حساس بالذات لما تلافيه وبالعرض لما يحدث في الجسم الملفوف فيه كالرئة والطحال والكبد والكليتين. فإنّها لا تحس بجواهرها، وإنما يحس بالأمور المصادمة لها الأغشية التي عليها بالذات ويحس أيضاً بالعرض ما يحدث فيها مثلاً الريح للتمدد الذي يحدث فيها، ثم اللحم وهو حشو خلل وضع الأعضاء في البدن، فصار البدن مشتملاً على ثلاثة ضروب من الأعضاء.

أحدها: آلات الغذاء وهي المعدة والكبد وجداولها كالعروق والطرق إليها كالفم والمري وعنها كالأمعاء.

والثاني: آلات الحرارة الغريزية وحفظتها؛ وهي القلب والرأس والرئة والصدر وسائر آلات النفس.

والثالث: آلات الحسّ والحركة والأفعال العقليّة وهي الدماغ والنخاع والعصب والعضل والأوتار ونحوها مما يحتاج إليه في المعونة على تمام فعل العقل، ثم لما كان من ضرورة البدن أن تقع فيه أفعال مختلفة وجب في الحكمة أن يكون هناك استعداد لقوى متعددة هي مبادئ تلك الأفعال أحدها النفس الطبيعية، وتخصّها قوى منها مخدومة، ومنها خادمة. أما المخدومة فجنسان:

أحدهما: يتصرف في الغذاء وتحته نوعان:

أحدهما: القوة المسمّاة بالغاذية، وغايتها أن تغذو الشخص مدة بقائه بإحالة الغذاء إلى مشابهة المتغذي ليخلف بدل ما يتحلّل.

والثاني: القوة المسماة بالنامية، وغايتها أن تزيد في أقطار البدن على التناسب الطبيعي إلى تمام نشوئه، والجنس الثاني يتصرف في الغذاء لبقاء النوع وتحته نوعان:

أحدهما: القوة المسماة بالمولدة وهي المتصرفة في أمر التناسل ليفصل من أمشاج البدن جوهر المني.

والثاني: القوة المسماة بالمصورة وهي التي تفيد المني بعد إستحالته في الرحم الصور والقوى والأعراض الحاصلة للنوع الذي انفصل عنه المني.

وأما الخادمة الصرفة في القوى الطبيعية فهي خوادم القوة الغاذية وهي أربع:

أحدها: الجاذبة وهي خلقت لتجذب النافع إلى محلها وهي موجودة في المعدة والمريء والكبد والرحم وسائر الأعضاء.

والثاني: الماسكة وهي خلقت لتمسك المنافع ريثما تتصرف فيه القوى المغيّرة والمحيّلة.

الثالث: الهاضمة وهي التي تحيّل ما أمسكته الماسكة إلى قوام مهيّئ لفعل القوة المغيّرة فيه، وإلى مزاج صالح للإستحالة إلى الغذائية بالفعل.

الرابع: الدافعة وهي التي تدفع الفاضل من الغذاء الذي لا يصلح للاغتذاء أو يفضل على الكافي أو يستغنى عنه بعد الفراغ من استعماله كالبول، ولهذه الأربع أيضاً خوادم أربع أعني الكيفيّات الأربع؛ وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة على تفصيل يعلم في مظانه.

الثاني: النفس الحيوانية وتختص بها قوتان محركة ومدركة؛ والمحركة إما باعثة أو فاعلة، والباعثة هي القوّة النزوعية المذعنة للمدركات كالوهم والخيال أو النفس فيحمل الإدراك لها على البعث إلى طلب أو هرب بحسب السوائح، ولها شعبتان شهوانيّة وهي الباعثة على التحريك إلى جانب أشياء ضرورية أو نافعة نفعاً ما طلباً للذّة وغضبية وهي الحاملة على دفع وهرب عما لا يلائم طلباً للغلبة، وتخدمها القوّة المسماة بالقدرة وهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضل من شأنها أن تشنّج العضلات بجذب الأوتار والرباطات وإرخائهما، والقوى المدركة قسمان: ظاهرة وباطنة.

أما الظاهرة فالحواس الخمس، أحدهما اللمس وهو قوة منبثة في جلد البدن كله، تدرك ما تماسه، وتؤثر فيه بالمضادة كالكيفيّات الأربع وغيرها. وثانيها الذوق وهو قوة مرتبة في العصب المفروش على سطح اللسان بها تدرك الطعوم من الأجرام المماسة المخالطة للرطوبة العذبة التي في الفم. وثالثها: الشم وهي قوة مرتبة في زائدتي مقدم الدماغ الشبيهتين بحلمتي الثدي بها تدرك الروائح بتوسّط الهواء المنفصل عن ذي الرائحة. ورابعها: السمع وهي قوة في العصب المفروش في باطن الصماخ وهي تدرك الأصوات والحروف بواسطة الهواء. وخامسها: البصر وهي قوّة مرتبة في العصبتين المجوّفتين تدرك ما يتطبّع في الرطوبة الجليدية من الصور بتوسط جرم شفاف.

وأما الباطنة من القوى فهي أيضاً خمس، وهي إما مدركة فقط إما للصور الجزئية وهي القوة المسماة حساً مشتركاً المرتبة في التجويف الأول من الدماغ عندها تجتمع صور المحسوسات، ثم القوّة الموسومة خيالاً، وهي خزانة الحسّ المشترك مودعة في آخر التجويف المقدم من الدماغ تجتمع فيها مثل المحسوسات، وتبقى فيها بعد الغيبة عن الحواس. وإما مدركة للمعاني الجزئية، وهي إما الوهم وهي قوة مرتبة في التجويف الأوسط من الدماغ تدرك المعاني الجزئية غير المحسوسة الموجودة في المحسوسات. كإدراك الشاة معنى في الذئب يوجب لها الهرب.

وأما الحافظة وهي قوة مرتبة في التجويف الأخير من الدماغ تحفظ الأحكام الجزئية المدركة للوهم وهي خزانة له. وإما مدركة ومتصرفة وهي القوة المسماة متخيّلة باعتبار استعمال الوهم لها، ومفكرة باعتبار استعمال العقل لها ومحلّها مقدم البطن الأوسط من الدماغ من شأنها التركيب والتفصيل لبعض الصور ببعض وعن بعض وكذا المعاني والمعاني بالصورة وهي الحاكية للمدركات والهيئات المزاجية. والحكمة الإلهية اقتضت أن تكون متوسطة بين مقتضى الصور الجرمانية والمعاني الروحانية متصرفة في خزانتهما بالحكم والإسترجاع للأمثال المنمحيّة من الجانبين. ثم إن لكل

واحد من هذه الآلات روح يختص به وهو جرم حار لطيف متكون عن لطافة الأخلاط على نسبة محدودة وهو حامل للقوى المدركة وغيرها.

الثالث: النفس الناطقة ونسبتها إلى هذا البدن نسبة الملك إلى المدينة والبدن وجميع أجزائه وقواه المذكورة آلات لها، ورسمها أنها جوهر مجرد يتعلّق بالأبدان تعلّق التدبر وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]. وبقوله عليه السلام: الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر فيها اختلف فيها، ولهذا الجوهر قوتان يختص بهما نظرية وعمليّة، وقد سبقت الإشارة إليهما في مقدمة الكتاب وتحقيق الكلام في هذا الجوهر والبرهان على وجوده وتجرده وكمالاته من العلوم والأخلاق مستقصى في مظانّه وبالله التوفيق.

المقدمة الثانية: قد علمت أن الملك عندهم اسم مشترك يقع على حقائق مختلفة، فأما لفظ الجن فهو وإن صدق في أصل اللغة على كل الملائكة لكونه مأخوذاً من الإجتنان وهو الإستتار، وكون الملائكة مستترين على الأعين، فإنّهم يخصّون في عرفهم هذا اللفظ بالأرواح التي تخصّ عالم العناصر فتارة يطلقون عليها أنّها ملائكة باعتبار كونهم مرسلين من عند الله فاعلين لما أمر الله جارين على نظام العقل، وتارة يطلقون عليها أنها جنّ باعتبار الإجتنان، وهم جنّ مسلمون باعتبار موافقة العقل والتصرف على وفق مصلحة العالم ونظامه، وكفّار وشياطين باعتبار مخالفتها لذلك.

فأما صدق اسم الجن على النفوس الناطقة الإنسانية فقد تعتبر من جهة أُخرى، وهي كونها عالمة ترى بنور العلم من حيث لا ترى فهي مجتنة محجوبة عن أبصار الجاهلين. ثم هي إمّا أن تكون عالمة أو جاهلة وعلى التقديرين فإما أن تكون موافقة لظواهر الشريعة منقادة لها متمسكة بها أو ليس كذلك فهذه أقسام أربعة:

أولها: النفوس العالمة العاملة بمقتضى الشريعة، وهذه الطائفة هم الجن المسلمون والمؤمنون قالوا: وهم الذين أمر الله تعالى نبيّه بالإخبار عنهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢] إلى آخر الآيات قالوا: وممّا يبيّن ذلك أن السماء التي أخبر الجن عنها أنّهم لمسوها هي سماء الحكمة وهي الشريعة التي استترت فيها قالوا: ولمسهم لها عبارة عن اعتبارهم أمر الشريعة في مبدأ ظهورها هل يصح لهم معها إظهار الحكمة ويمكنهم أخذها، وإعطاؤها بالتعلم والتعليم كما كان يفعل قبل ذلك أم لا، وقولهم: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]. إشارة إلى حفظة الشريعة وهم علماء الشريعة والملوك الصالحون اللازمون لناموس الشريعة وقوانينها.

وقولهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩]. إشارة إلى أنهم كانوا قبل ظهور الشرائع يتدارسون الحكمة ويتعلّمونها ولم يكن عليهم إنكار، وقولهم: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]. إشارة إلى أن المظهر للحكمة بعد وجود الشريعة التارك لظواهر ما جاءت به الأنبياء يجد من حرسة الدين وحفظته شهاباً يحرقه ويؤذّيه.

وثانيها: النفوس العالمة المخالفة للشريعة والنواميس الإلهية التابعة لقواها في مقتضى طباعها وهؤلاء هم من شياطين الجن ومردتها.

وثالثها: النفوس الجاهلة إلاّ أنها متمسكة بظواهر الشريعة منقادة لها، وهؤلاء هم المسلمون من الإنس.

ورابعها: النفوس الجاهلة التاركة للشريعة والعمل بها التابعة لمقتضى الطبيعة، وهؤلاء هم شياطين الإنس، قالوا: وبهذا البيان لا يبقى بين قول الله سبحانه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] وبين استثنائه من الملائكة المقتضى لدخوله فيهم، وكونه منهم فرق بل هو من الملائكة باعتبار من الجن باعتبار ومن الشياطين باعتبار، والشيطان قد يكون ملكاً في أصله ثم ينتقل إلى الشيطانية باعتبار فسوقه عن أمر ربه وكذلك الجنّي والله أعلم.

المقدمة الثالثة: قالوا: كل ما يتوالد فلا يستحيل في أصله أن يكون متولداً ثم ضربوا لذلك أمثلة فقالوا: إنّ العقرب تتولد من البادروج ولباب الخبز، والنحل من العجل المحرق المكيس عظامه، والفار من المدر

والطين ونحو ذلك ثم يتوالد عن هذا المتولد أشخاص أخرى ويبقى نوعه متوالداً فلا مانع إذن أن يكون الإنسان في أول خلقه كذلك فيحدث شخص من نوعه ويتكون من التراب ثم يحصل ما بعده من نوعه عنه بالتوالد إذا عرفت ذلك فاعلم أن لفظ آدم إذا أطلق في عباراتهم، فتارة يراد به أمر جزئي وتارة يراد به أمر كلي.

أما الجزئي فيراد به أول شخص تكوّن من هذا النوع، وعلى ذلك يحملون قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. ويحملون قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢] وما في معناه على ما توالد منه، وقد يراد منه أول شخص استخلف في الأرض وأمر بنشر الحكمة وناموس الشريعة.

وأما الكليّ فتارة يراد بآدم مطلق نوع الإنسان، وعلى ذلك كلّه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥]. وقد يراد به صنف الأنبياء والدعاة إلى الله كما نقل عن سيد المرسلين ﷺ كل نبي فهو آدم وقته وقوله ﷺ: أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة، ويمكن أن يكون قول الباقر محمد بن علي عليه السلام: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم وأكثر على هذا المعنى إذا ثبت هذا فنقول: إنّ لكل آدم بالمعاني المذكورة ملائكة تخصّه وهي مأمورة بالسجود له، وإبليس في مقابلته ومعارضته.

أما آدم بالمعنى الأول والثاني فملائكته المأمورون بالسجود له هي قواه البدنية ونفوس أهل زمانه المأمورين باتباعه المستمعين لقوله، وسائر القوى في أقطار هذا العالم، فإنها بأسرها ملائكة مأمورة بالخضوع له والسعي في مهماته وحوائجه بين يديه والمعونة على مراده.

وأما إبليس المعارض له القوّة الوهمية منها المعارضة لمقتضى عقله العملي الساعية في الأرض فساداً والنفوس المتمردة عن قبول الحق، والإستماع لقوله الخارجة عن طاعته وهم شياطين الإنس والجن الذي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وكذلك ملائكة آدم وإبليس آدم الذي هو صنف الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما آدم الذي هو نوع الإنسان فكل الملائكة الذين ذكرناهم في هذا العالم هم المأمورون بالسجود له، وإبليس كل شخص من هذا النوع هو وهمه المعارض لعقله، وجنوده ما تحته من القوى الشهوية والغضبيّة وغيرها. إذا عرفت هذه المقدمات فليرجع إلى المتن فنقول: الأولى أن يحمل آدم فيما ذكره عليه السلام هَهُنَا من هذه القصة على مطلق النوع الإنساني.

فقوله ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنّها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبلّة حتى لزبت إشارة إلى أصل امتزاج العناصر، وإنما خص هذين العنصرين وهما الأرض والماء دون الباقيين. لأنهما الأصل في تكوّن الأعضاء، المشاهدة التي تدور عليها صورة الإنسان المحسوسة، وقوله حتى خلصت وحتى لزبت إشارة إلى بلوغها في الإستعداد الغاية التي معها تفاض صورة ما يتكوّن منها، وقوله فجبل منها صورة ذات أحناء، ووصول وأعضاء وفصول إشارة إلى خلق الصورة الإنسانية وإفاضتها بكمال أعضائها ومفاصلها وما تقوم به صورة، وقوله منها الضمير راجع إلى التربة ويفهم من ظاهر اللفظ أن الصورة الإنسانية هي المفاضة على كمال استعداد التربة من غير واسطة انتقالات أخر في أطوار الخلقة. وإنما يتم ذلك إذا حملنا آدم على أول شخص يكون من هذا النوع. فأما إذا حملنا على مطلق النوع كان المراد أنه جبل منها الصورة الإنسانية بوسائط من صور ترددت في أطوار الخلقة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣]. فالصورة الإنسانية جبلت من النطفة المتولدة من فضل الهضم الرابع المتولد من الأغذية؛ وهي إما حيوانية، أو نباتية. والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنباتية إنما تتولد من صفو الأرض والماء، وهي التربة المستعدة للإنبات وليس في ذلك مخالفة الظاهر. فإن تلك التربة بعد أن تواردت عليها أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيّاً فصدق عليها أن الصورة الإنسانية جبلت منها، وقوله أجمدها حتى

استمسكت وأصلدها حتى صلصلت الضمير في الجملتين راجع إلى الصورة وما يتعلق بها من الأعضاء فالإجماد لغاية الإستمساك راجع إلى بعضها كاللحم والأعصاب والعروق وأشباهها، والأصلاد لغايته راجع إلى بعض آخر كالعظام والأسنان وإسناد ذلك إلى المدبر الحكيم سبحانه لأنه العلّة الأولى. وإن كان هناك لهذه الآثار أسباب قريبة طبيعية كالحار الغريزي، فإنه المستعد لتحريك المواد ويتبعه البرد ليسكنه عند الكمالات من الخلق، وكالرطوبة فإنها هي التي تتخلق وتتشكل ويتبعها اليبوسة لحفظ الأشكال. وإفادة التماسك وقوله لوقت معدود وأجل معلوم يحتمل أن يراد به أن لكل مرتبة من مراتب تركيب بدن الإنسان، وانتقاله في أدوار الخلقة وقتاً معدوداً يقع فيه وأجلاً معلوماً يتم به. ويحتمل أن يراد بالوقت المعدود والأجل المعلوم الوقت الذي يعلم الله سبحانه انحلال هذا التركيب فيه كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

قوله ثم نفخ فيها من روحه.

أقول: الضمير المؤنث راجع إلى الصورة وقد علمت أن هذه الإشارة جارية في القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. والمراد بالتسوية إفاضة تمام إعداد البدن وتهيؤه لقبول النقش، والمراد بالنفخ هَهُنَا هو إفاضة النفس عليه عند كمال ذلك الإستعداد، واستعمال النفخ هَهُنَا إستعارة حسنة. فإنّ النفخ له صورة وهو إخراج الهواء من فم النافخ إلى المنفوخ فيه ليشتعل فيه النار، ولما كانت حقيقة النفخ ممتنعة في حق الله تعالى وجب العدول إلى حمل لفظه على ما يشبهه.

ولما كان اشتغال نور النفس في فتيلة البدن عن الجود الإلهي المعطي لكل قابل ما يستحقه يشبه بحسب محاكاة خيالنا الضعف ما نشاهد من اشتغال النار في المحل القابل لها عن صورة النفخ لا جرم حسن التعبير والتجوّز بلفظ النفخ عن إفاضة الجود الإلهي للنفس على البدن لمكان المشابهة المتخيّلة، وإن كان الأمر أجلّ مما عندنا وأعلى. وأما نسبة الروح إلى الله فاعلم أن الروح يحتمل أن يراد به أحد ثلاثة معان.

الأول: جبرائيل عليه السلام وهو روح الله الأمين ونسبته إليه ظاهرة. وأما نسبة النفخ إلى الله حينئذ فلكونه العلّة الأولى وجبرائيل واسطة جعله الله تعالى مبدأ في هذا اللفظ لنفخ النفس في صورة آدم منه.

الثاني: جود الله ونعمته وفيضه الصادر على آدم وغيره، وإنما كان ذلك روح لأنه مبدأ كل حياة فهو الروح الكلية التي بها قوام كل وجود ونسبته إليه ظاهرة، ويكون من هَهُنَا للتبعيض.

الثالث: أن يراد بالروح النفس الإنسانية ويكون من زائدة. وإنما نسب إليه دون سائر مصنوعاته اللطيفة لما علمت أن الروح منزّه عن الجهة والمكان وفي قوّته العلم بجميع الأشياء والإطلاع عليها، وهذه مضاهاة ومناسبة بوجهٍ ما مع العلّة التي ليست حاصلة لما عدا هذا الجوهر مما هو جسم أو جسماني، فلذلك شرّفها بالإضافة إليه وقوله فمثلت إنساناً إشارة إلى الصورة المجبولة، وفيه لطيفة وهي أنها إنّما كانت إنساناً وينفخ الروح فيها، ولذلك رتّب وصيرورتها إنساناً بالفاء على نفخ الروح فيها، وقوله ذا أذهان يجيلها إشارة إلى ما للإنسان من القوى الباطنة المدركة والمتصرفة ومعنى إجالتها تحريكها وبعثها في انتزاع الصور الجزئية كما للحس المشترك والمعاني الجزئية كما للوهم. وقوله وفكر يتصرف بها إشارة إلى القوى المفكرة في آحاد النوع الإنساني وتصرّفها في تفتيش الخزانتين وتركيب بعض مودوعاتها ببعض وتحليله، وقوله وجوارح تختدمها إشارة إلى عامة الأعضاء التي بيّنا أنها كلها خدم للنفس والأدوات التي تقلبّها من تلك يشبه أن يختص بالأيدي كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] ويمكن أن يكون أعمّ من ذلك كالبصر والقلب كقوله عليه السلام: «يا مقلّب القلوب والأبصار» فيصدق عليها اسم التقليب. وقوله ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل إشارة إلى إستعداد النفس لدرك المعقولات الثانية المسمى عقلاً بالملكة بحسب ما لها من المعارف الأولى، أعني البديهيّات.

فإنّ الحق والباطل أمور كلية وليس للقوى البدنية في إدراك الأمور الكلية حظّ يحتمل أن يشير بالمعرفة إلى القوة الإستعدادية الأولى للإنسان المسمّاة عقلاً هيولانياً، وقوله والأذواق والمشام والألوان والأجناس نبّه هَهُنَا على ثلاث أمور:

أحدها: إن للإنسان آلة بها يدرك المذوقات، وأُخرى بها يدرك المشمومات، وأُخرى بها يدرك الألوان، وقد بيّنا ذلك.

الثاني: نبّه على أن النفس مدركة للجزئيات بواسطة هذه القوى إذ عدّها في نسق ما تتصرف فيه النفس وتفرق بينه وبين غيره.

الثالث: أنه أخر قوله والأجناس تنبيهاً على أن النفس تنتزع الأمور الكلية من تصفّح الجزئيات. فإن الأجناس أمور كليّة والنفس بعد إدراك الجزئيات وتصفحها تتنبّه لمشاركات بينها ومباتنات فتنتزع منها تصوّرات كلية وتصديقات كليّة، وكأنه عنى بالأجناس هَهُنَا الأمور الكلية مطلقاً لا بعضها كما هو في الإصطلاح العلمي، وقوله معجوناً بطينة الألوان المختلفة النصب على الحال من قوله إنساناً أو الصفة له. والمراد الإشارة إلى أن اختلاف أبدان النوع بعضها من بعض. بالألوان بسبب قوة استعداداتها، لذلك كما قال صلى الله عليه وآله: فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، كما سبق وطينة الألوان وأصلها؛ وعجنه بها مزجه بها وتهيّئه وإعداده لقبولها على اختلافها، وكذلك الحال في البدن الواحد، فإنه ليس لجملة أجزائه لون واحد. فإن امتزاج بعض الأعضاء يقتضي أن يكون أبيض كالعظام والأسنان، وبعضها أحمر كالدم وبعضها أسود كالحدقة والشعر، وكذلك اختلاف الأشخاص في الصفات المكنى بها عن الإختلاف الواردة في تمام الخبر من قوله: والسهل والحزن والخبيث والطيب يرجع إلى الأرض.

لما كانت أكثر العناصر شركة في هذه الأبدان كان لإختلاف بقاعها أثر تام في تفاوت الإمتزاج لقبول الأخلاق بالسهولة والحزونة والخبيث والطيب، وقوله والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والأخلاط المتباننة من الحر والبرد والبلّة والجمود والمساءة والسرور. أما الأشباه المؤتلفة فكالعظام والأسنان وأشباهها. فإنها أجسام متشابهة ائتلف بعضها مع بعض، وبها قامت الصورة البدنية وامتزجت بطينتها. وأما الأضداد المتعادية فكالكيفيات الأربع التي ذكرها عليه السلام، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة التي هي البلّة واليبس الذي هو الجمود، وعبّر عنه بلازمه وهو الجمود على أن الجمود في اللغة هو اليبس أيضاً. وأما الأخلاط المتباننة فهي الأخلاط الأربعة كما عرفت من الدم والبلغم والصفراء والسوداء.

وأما المساءة والسرور فهما من الكيفيّات النفسانية ومهيّة كل منهما ظاهرة. وأما أسبابهما فاعلم أن للسرور سبباً جسمانياً معداً وهو كون حامله الذي هو الروح النفساني على كمال أحواله في الكميّة لأن زيادة الجوهر في الكم يوجب زيادة القوّة في الكيفية وهي أن يكون معتدلاً في اللطافة والغلظ وأن يكون شديد الصفا.

وأما السبب الفاعلي له فالأصل فيه تخيّل الكمال كالعلم والقدرة والإحساس بالمحسوسات الملائمة والتمكن من تحصيل المرادات والقهر والإستيلاء على الغير والخروج عن المولم وتذكر الملذّات، وأما أسباب الغم فمقابلات هذه أما السبب المعد الجسماني فهو إما قلة الروح كما للناقهين والمنهوكين بالأمراض والمشايخ.

وأما غلظة فكما للسوداويين، وأما رقّة كما للنساء. وأما الفاعلي فمقابل أسباب السرور، وقد يشتد كل منهما بعد الأسباب المذكورة بتكرره فيصير السرور أو الغم ملكة ويسمى صاحبه مفراحاً أو محزاناً، ومقصوده عليه السلام التنبيه على أن طبيعة الإنسان فيها قوّة قبول واستعداد لهذه الكيفيّات وأمثالها، وتلك القوة هي المراد بطينة المساءة والسرور والفرق بينها وبين الإستعداد أن القوة تكون على الضدين والإستعداد لا يكون إلاّ لأحدهما.

وقوله استأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم إلى قوله إلاّ إبليس.

أقول: لما كان الذي يشير إليه كل إنسان بقوله أنا

هو النفس الناطقة كان آدم عندهم عبارة عن النفس الناطقة ثم قالوا: المراد بالملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم هي القوى البدنية التي أُمرت بالخضوع والخشوع لتكرمه النفس العاقلة، والإنقياد تحت حكمها وهو الأمر الذي لأجله خلقوا أما عهد الله لديهم ووصيّته إليهم فهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢]، والخطاب هَهُنا خطاب الحكمة الإلهية بالقضاء الأزلي قبل الوجود والإستيذاء لذلك العهد وتلك الوصية هو طلب المأمور به أولاً من الإنقياد والخضوع من تلك القوى بعد الوجود على ألسنة الرسل عليهم السلام بالوحي المنزل وهو قوله فاسجدوا لآدم، قوله فسجدوا إشارة إلى القوى المطيعة لنفوسها العاقلة في أشخاص عباد الله الصالحين، قوله إلاّ إبليس وقبيله إشارة إلى الوهم وسائر القوى التابعة له في معارضة العقل في أشخاص الكفّار والفاسقين عن أوامر الله سبحانه، وقد عرفت أن الوهم رئيس القوى البدنية فهي إذن عند معارضته للعقل ومتابعتها له جنود إبليس وقبيله.

وأما قوله اعترته الحميّة وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلق النار، واستهون خلق الصلصال، فقالوا: إنّ المراد بكون إبليس وجنوده خلقوا من نار أن الأرواح الحاملة لهذه القوى كما عرفت أجسام لطيفة تتكون عن لطافة الأخلاط، وهي حارة جداً مائلة في الإفراط والنارية والهوائية عليها أغلب وتولّدها عنهما أسهل وهي آخر أجزاء البدن، وكذلك القلب الذي هو منبعها فكانت تلك الأرواح كالأبدان لهذه القوى فلذلك نسب إبليس إلى النار فقال تعالى حكاية عنه: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ﴾ [الحجر: ٢٧]، أي قدرنا قبل وجوده أن تكون النارية والهوائية على وجود أغلب، وقال بعضهم: إنّه لما كانت النار ألطف العناصر وكانت هذه القوى وأرواحها ألطف الأمور الجسمانية وتكوّنها عن ألطف الأخلاط كانت نسبتها إلى النار أولى من سائر العناصر لمكان المشابهة في اللطافة فجاز أن يطلق على أصله أنه نار. لا يقال: إذا كان آدم هو النفس الناطقة فما معنى قول إبليس وخلقته من طين. لأنّا نقول: كما صدق أن إبليس مخلوق من نار بمعنى أن الغالب على الروح الحامل له عنصر النار، كذلك يصدق أن آدم من طين، بمعنى أن الغالب على بدنه الأرضيّة، وأيضاً فإن الوهم لا يدرك إلاّ المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات فلا يصدق حكمه ومساعدته إلاّ فيما كان محسوساً.

ولما ثبت أن النفس جوهر مجرد لم يكن إعتقاد إبليس أن الإنسان شيء غير هذا البدن المتكوّن عن الطين. إذا ثبت ذلك فنقول: اعتراء الحميّة والتعزز بالإنتساب إلى عنصر النار نسبة مجازية إذ العادة جارية بأن يأنف الإنسان من الأصل الناقص، وأن يفتخر ويتعزز بالأصل الشريف والإنتساب إليه فكان لسان حال إبليس والقوى المتابعة له يقول على جهة الإستنكار. أأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون، وأنا مخلوق من النار التي هي أشرف العناصر قالوا: ولما علم الله ذلك من حال إبليس لعنه وطرده وأخرجه من الجنة وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: ٣٤] ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]. قالوا وذلك أنك علمت أنّ الجنة تعود إلى معارف الحق سبحانه والإبتهاج بمطالعة أنوار كبريائه ودرجات الجنة هي المراتب التي ينتقل العقل فيها في مقامات السلوك إلى حظائر القدس، ومجاورة الملأ الأعلى، وعلمت أن حال الوهم قاصر عن الإنتقال على تلك المراتب فطرده، ولعنه وتحريم الجنّة عليه يعود إلى تكوينه على الطبيعة التي هو عليها القاصرة عن إدراك العلوم الكلية التي هي ثمار الجنة وقطوفها والقضاء عليه بذلك قالوا: ومما ينبّه على ذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]. أي بما خلقتني على هذه الجبلة لا أهتدي لدخول الجنة ولا أتمكن منها لأجذبنّهم إلى المشتهيات، وتزيين الملذات الجاذبة لهم عن عبادتك حتى لا يهتدوا إلى الجنة التي لأجلها خلقتهم، ولا يلتفتوا إليها إلاّ من عصمته مني وجعلت له سلطاناً على قهري وغلبتي، وهم عبادك المخلصون. أي النفوس

الكاملة المطهرة عن متابعة قواها المسلّط على قهر شياطينها وقهرها وكذلك قوله:

قال انظرني إلى يوم يبعثون فإنّه لما كان البعث الأول هو مفارقة النفوس لأبدانها وانبعاثها إلى عالمها، وكانت طبيعة الوهم قاضية بمحبّة البقاء في دار الدنيا إذ لاحظ له في غيرها أحسن من لسان حاله أن يقول رب انظرني إلى يوم يبعثون، وقوله فأعطاه الله النظرة لما كان الوهم باقياً في البدن هو وجنوده إلى يوم الوقت المعلوم، وذلك معنى إعطائه النظرة، وقوله استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبليّة وإنجازاً للعدة فقد عرفت أن البليّة نصب على المفعول له ثم إنّ فساد الوهم وابتلاء الخلق به والشر الصادر عنه أمور داخلة في القضاء الإلهي بالعرض فيصدق عليه أنه مراد، وأن الإنظار والإمهال له، وكذلك استحقاق السخطة، وإنجاز العدة وإطلاق لفظ السخطة إستعارة.

فإن السخط لما كان عبارة عن حالة للإنسان يستلزم وجود مغضوب عليه غير مرضي بأفعاله، وكان حال إبليس في إنظار الله إيّاه وفسوقه عن أمر ربه مستلزماً لإعراض الله سبحانه عنه، وعمّن عصاه بمتابعته كان هناك نوع مشابهة، فحسن لأجلها إطلاق لفظ السخطة. أما العدة فتعود إلى قضاء الحكمة الإلهية ببقاء الوهم إلى يوم البعث، وإنجازها يعود إلى موافقة القدر لذلك القضاء، وقال بعضهم: إنه لما كان هَهُنَا صورة مطرود ومبعدّ وملعون حسن إطلاق لفظ السخطة واستحقاقها وأنه إنّما أنظر لأجلها وهو ترشيح للإستعارة.

قوله ثم أسكن الله سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلّته، وحذره إبليس وعداوته.

أقول: الدار التي أسكن فيها آدم هي الجنة والإشارة هَهُنَا إلى أن الإنسان من أول زمان إفاضة القوة العاقلة عليه إلى حين استرجاعها، ما دام مراعياً لأوامر الحق سبحانه غير منحرف عن فطرته الأصلية، ولا معرض عن عبادته ولا يلتفت إلى غيره، فإنه في الجنة، وإن كانت الجنة على مراتب كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[الزمر: ٢٠]. ولذلك قال ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه إذ كانت نفسه قبل الجواذب الخارجية عن القبلة الحقيقية غير مدنسة بشيء من الإعتقادات الفاسدة والهيئات الرديئة.

وإن كانت المرتبة السامية والغرفة العالية، إنما تنال بعد المفارقة، واستصحاب النفس لأكمل زاد، وأما إرغاد العيش فيعود إلى ابتهاجه بالمعقولات والمعارف الكلية. وأمان المحلة أمان مكانه في الجنة أن يعرض له خوف أو حزن ما دام فيها، وأما تحذيره من إبليس وعداوته فظاهر من الأوامر الشرعية، ولسان الوحي ناطق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[طه: ١١٧]. ووجه العداوة ظاهر مما قلنا فإن النفس لما كانت من عالم المجردات، وكان الوهم بطبعه منكراً لهذا القسم من الممكنكات كان منكراً لما تأمر به النفس من الأمور الكلية التي لاحظ له في إدراكها، وذلك من مقتضيات العداوة، ولأن نظام أمر النفس ومصلحتها لا يتم إلاّ بقهر الوهم والقوى البدنية عن مقتضيات طباعها، وتمام مطالب القوى لا يحصل إلاّ بانقهار النفس فكانت بينهما مجاذبة طبيعية وعداوة أصلية إذ لا معنى للمعاداة إلاّ المجانبة لما يتصوّر كونه مؤذياً.

قوله فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الأبرار.

أقول: يقال: إن الله تعالى لما حذّره إبليس وعداوته كان قد نهاه عن أكل شجرة يقال إنها شجرة البر، وأعلمه أنه إن أكل منها كان ظالماً لنفسه مستحقاً لسخط الله عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٣٥] قالوا: وتلك الشجرة هي الشجرة الخبيثة التي اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار وهي عائدة إلى المشتهيات الدنيوية الفانية واللذات البدنية الخارجة عن المحدودات في أوامر الله، وتناولها هو العبور فيها إلى طرف الإفراط عن وسط القانون العدل.

وأما كونها شجرة البر فقالوا: إنّ البر لما كان هو قوام الأبدان وعليه الإعتماد في أنواع المطعومات والملاذ البدنية حسن أن يعبر به عنها فيقال هي شجرة البر كناية عن الفرع بالأصل، فأما اغترار إبليس له فاعلم أن حقيقة الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى،

ويميل إليه بالطبع عن شبهة وخدعة من إبليس فاغتراره يعود إلى استغفال النفس بالوسوسة التي حكى الله تعالى عنها بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] ولنبحث حقيقة الوسوسة فنقول: إن الفعل إنما يصدر عن الإنسان بواسطة أُمور مترتبة ترتيباً طبيعياً أو لها تصور كون الفعل ملائماً وهو المسمى بالداعي.

ثم إن ذلك الشعور يترتب عليه ميل النفس إلى الفعل المسمى ذلك الميل إرادة فيترتب على ذلك الميل حركة القوة النزوعية المحركة للقوة المسماة قدرة المحرك للعضل إلى الفعل. إذا عرفت ذلك فنقول: صدور الفعل عن مجموع القدرة والإرادة أمر واجب فليس للشيطان فيه مدخل، ووجود الميل عن تصور كونه نافعاً وخيراً أمر لازم فلا مدخل للشيطان أيضاً فيه فلم يبق له مدخل إلاّ في إلقاء ما يتوهم كونه نافعاً أو لذيذاً إلى النفس. مما يخالف أمر الله سبحانه فذلك الإلقاء في الحقيقة هو الوسوسة وهو عين ما حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. إذا عرفت ذلك فاعلم أن متابعة إبليس يعود إلى إنقياد النفس لجذب الوهم، والقوى البدنية التي هي الشياطين عن الوجهة المقصودة والقبلة الحقيقية، وهي عبادة الحق سبحانه وفتنتها لها بتزيين ما حرّم الله عليها فأما ما يقال:

إنّ إبليس لم يكن له تمكن من دخول الجنة وإنما توسل بالحيّة ودخل في فمها إلى الجنة حتى تمكن من الوسوسة لآدم عليه السلام واغتراره فقالوا: المراد بالحية هي القوة المتخيّلة، وذلك أن الوهم إنما يتمكن من التصرف وبعث القوى المحركة، كالشهوة والغضب التي هي جنوده وشياطينه على طلب الملاذ البدنية والشهوات الحسيّة الدنية، وجذب النفس إليها بتصوير كونها لذيذة نافعة بواسطة القوة المتخيّلة، ووجه تشبيهها بالحية، أن الحية لما كانت لطيفة سريعة الحركة تتمكن من الدخول في المنافذ الضيقة، وتقدر على التصرف الكثير وهي مع ذلك سبب من أسباب الهلاك بما تحمله من السم، وكانت المتخيّلة في سرعة حركتها وقدرتها على التصرف السريع والإدراك ألطف من سائر القوى، وهي الواسطة بين النفس والوهم، وكانت بما اشتملت عليه من تحمل كيد إبليس وإلقاء الوسوسة بواسطتها إلى النفس سبباً قوياً للهلاك السرمد والعذاب المؤبد لا جرم كان أشبه ما يشبه الحية لما بينهما من المناسبة فحسن إطلاق لفظ الحيّة عليها.

قوله نفاسة عليه ترشيح للإستعارة لأنه لما كان جذب الوهم للنفس إلى الجنة السافلة مانعاً لها من الكرامة بدار المقامة ومستنزلاً عن درجة مرافقة الملأ الأعلى. وكان ذلك أعظم ما تنفس به كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وعرفت أن ذلك الجذب عن صورة معاداة. كما سبق وكان من لوازم المعاداة النفاسة على العدو بكل ما يعد كمالاً لا جرم حسن إطلاق النفاسة هَهُنَا ترشيحاً لإستعارة العداوة، والنصب على المفعول له.

قوله فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه أي لما حصلت الوسوسة والإغترار لآدم فانقاد لها، كان قد بدل ما تيقنه من أن شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى هو نور الحق والبقاء في جنته، ودوام مطالعة كبريائه بالشك فيه بواسطة وسوسة إبليس، وذلك أن الأُمور الموعودة من متاع الآخرة، وما أعدّه الله لعباده الصالحين أُمور خفيت حقائقها على أكثر البصائر البشرية، وإنما الغاية في تشويقهم إليها أن يمثل لهم بما هو مشاهد لهم من اللذات البدنية الحاضرة فترى كثيراً منهم لا يخطر بباله أن يكون في الجنة. أمر زائد على هذه اللذات فهو يجتهد في تحصيلها، إذا لا يتصوّر وراءها أكثر منها. ثم إن صدق بها على سبيل الجملة تصديقاً للوعد الكريم. فإنه لا يتصور كثير تفاوت بين الموعود به والحاضر بحيث يرجح ذلك التفاوت عنده ترك الحاضر لما وعد به بل يكون ميل طبعه إلى الحاضر، وتوهم كونه أنفع وأولى به أغلب عليه، وأن تيقن بأصل عقله أن الأولى به والأنفع له والأبقى هو متاع الآخرة فتارة يطرأ على ذلك اليقين غفلة عنه، ونسيان له بسبب الإشتغال باللذات الحاضرة والإنهماك فيها، وذلك معنى قوله تعالى: فنسي، وتارة لا تحصل الغفلة الكلية بل يكون الوهم

المذكور قوياً فيعارض ذلك اليقين بحيث يوجب في مقابلته شبهة وشكّاً وذلك معنى قوله عليه السلام فباع اليقين بشكّه ولا منافاة بين قوله تعالى فنسي وبين الشك هيهنا.

وقوله والعزيمة بوهنه أي تعوض من العزم والتصميم الذي كان ينبغي له في طاعة الحق سبحانه بالضعف والتعاجز عن تحمله كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وإطلاق لفظ البيه هَهُنَا استعارة حسنة إذ كان مدار البيع على استعاضة شيء بشيء سواءٌ كان المستعاض أجل أو أنقص، ومثله قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وقوله فاستبدل بالجذل وجلاً وبالإغترار ندماً إلى قوله وتناسل الذرية فيه تقديم وتأخير وتقديره، والعزيمة بوهنه فأهبطه الله إلى دار البلية وتناسل الذريّة فاستبدل بالجذل وجلاً وبالإغترار ندماً، ثم أناب إلى الله فبسط له في توبته ولقاه كلمة رحمته ووعده المردّ إلى جنّته؛ وذلك لأن الإهباط عقيب الزلّة واستبدال الجذل بالوجل بعد الإهباط من الجنة والإخراج منها، وقد ورد القرآن الكريم بهذا النظم في سورة البقرة وهو قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦] ثم قال عقيبه: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وورد أيضاً على النظم الذي ذكره عليه السلام في سورة طه وذلك قوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا﴾ [طه: ١٢١-١٢٣]. فقدم الإجتباء والتوبة على الإهباط وكلاهما حسن. قالوا: ومعنى الإهباط له هو إنزاله عن دار كرامته واستحقاق إفاضة نعيم الجنة؛ وذلك أنّ النفس الناطقة إذا أعرضت عن جناب الحق سبحانه، والتفتت إلى متابعة الشياطين وأبناء الجن، وموافقة إبليس بعدت عن رحمة الله وتسود لوحها عن قبول أنوار الإلهية.

وأما دار البليّة وتناسل الذرية فإشارة إلى الدنيا فإن الإنسان إذا التفت بوجهه إليها، وأقبل بكليته عليها هبط من أعلى عليّين إلى أسفل سافلين، ولم يزل ممنوّاً ببلاء على أثر بلاء إذ لا يقدم في كل لحظة ووقت فوت مطلوب أو فقد محبوب يطلب ما لا يدرك ويجد ما لا يطلب وكفى بانقطاعه عن الله تعالى بالتفاته إليها بلاءً وأعظم به شقاءً.

إذ كان سبب البعد عن رحمته والطرد عن أبواب جنته. فإن قلت لم ذكر تناسل الذرية في معرض الإهانة لآدم مع أنه في الحقيقة من الأمور الخيرية المندرجة في سلك العناية الإلهية، فإن به بقاء النوع ودوام الإفاضة.

قلت: إنّه وإن كان كذلك إلاّ أنه لا نسبة له في الحقيقة إلى الخير الذي كان في الجنة. فإن تناسل الذريّة خير إضافي عرضيّ بالنسبة إلى الكمال الذي يحصل لأبناء النوع وذريته، ثم النسبة إن حصلت فنسبة أخص إلى أشرف فإن إنزاله وإهباطه عن استحقاق تلك المراتب السامية والإفاضات العالية إلى هذه المرتبة التي يشارك فيها البهيمة وسائر أنواع الحشرات نقصان عظيم وخسران مبين.

قوله واستبدل بالجذل وجلاً وبالإغترار ندماً ظاهر فإن المقبل بوجهه على عبادة الحق سبحانه المستشرق لأنوار كبريائه المعرض عما سواه أبداً مسرور مبتهج فإذا أعرض عما يوجب السرور والفرح، والتفت إلى خسائس الأمور بسبب شيطان قاده إليها وزينها لعينه فانكشف عنه ستر الله وبدت سوءته للناظرين بعين العاقبة من عباد الله الصالحين، ثم أخذت بضبعه العناية الإلهية، وتداركته الرحمة الربانية فانتبه من رقدة الغافلين في مراقد الطبيعة فرأى السلاسل والأغلال قد أحاطت به وشاهد الجحيم مسعرةً عن جنبتي الصراط المستقيم، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]. الآيات فلا بد وأن يصيح وجلاً قلقاً كفيه حسرةً وندماً وجلاً مما يلحقه من سخط الله نادماً على ما فرط في جنب الله.

وقوله ثم بسط الله في توبته ولقاه كلمة رحمته فالمراد الإشارة إلى أن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع من جهته، وإنما النقصان من جهة القابل وعدم استعداده. فإذا استعدت النفس لتدارك رحمة الله وجذبتها العناية

الإلهية من ورطات الهلاك الأبدي فأيدتها بالمعونة على إبليس وجنوده، وبصرتها بمقابح أحواله (أفعاله) وما يدعو إليه، فأخذت في مقاومته والترصد لدفع مكائده، فذلك هو معنى إنابتها وتوبتها.

وأما كلمة رحمة الله التي لقاها آدم فتعود إلى السوانح الإلهية التي تنسخ للعبد فتكون سبباً لجذبه عن مهاوي الهلاك وتوجيهه عن الجنة السافلة إلى القبلة الحقيقية وإمداده بالملائكة حالاً فحالاً، ورفعه في مدارج الجلال التي هي درجات الجنة، وقوله ووعده المرد إلى جنته فإشارة إلى وعد القضاء الإلهي الناطق عنه لسان الوحي الكريم: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طـه: ١٢٣] ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وكذلك سائر أنواع وعد التائبين فهذا ما يتعلق بهذه القصة من التأويل وبالله العصمة والتوفيق.

الفصل الرابع قوله:

وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ؛ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ؛ وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ: رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ: مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ: عَلَى ذٰلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الْآبَاءُ، وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ. إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلَادُهُ. وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ. ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً، بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ. وَلَا عَلَمٍ قَائِمٍ. كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ، وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ، وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ، وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ، وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ، وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ، وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ. وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ، وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ، مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ.

أقول: الإصطفاء الإستخلاص، والأنداد الأمثال، واجتالتهم أي أدارتهم واجتذبتهم، وواتر أي أرسل وتراً بعد وتر أي واحداً بعد آخر، والفطرة الخلقة، والمهاد الفراش، والأوصاب الأمراض، والأحداث المصائب وتخصيصها بذلك عرفيّ، والحجة ما يحج به الإنسان غيره أي يغلبه به، والمحجة جادّة الطريق، والغابر الباقي والماضي أيضاً وهو من الأضداد، والقرن الأمة، ونسلت أي درجت، ومضت مأخوذ من نسل ريش الطائر

ونسل الوبر إذا وقع، والعدة الوعد وإنجازها قضاؤها، والسمة العلامة، وميلاد الرجل محل ولادته من الزمان والمكان، والملحد العادل عن الإستقامة على الحق، والنسخ في اللغة الإزالة، والرخصة التساهل في الأمر، والعزيمة الهمّة، وهذه الألفاظ الثلاثة مخصوصة في العرف على معان أخرى كما نذكره، وأرصدت له كذا أي هيّأته له، وههنا أبحاث.

البحث الأول: الضمير في ولده راجع إلى آدم عليه السلام ثم إن كانت الإشارة بآدم إلى النوع الإنساني فنسبة الولادة إليه في العرف ظاهرة صادقة.

فإن كل أشخاص نوع هم أبناء ذلك النوع في اصطلاح أهل التأويل، وكذلك إن كان المراد به أول شخص وجد، واعلم أن اصطفاء الله للأنبياء يعود إلى إفاضة الكمال النبوي عليهم بحسب ما وهبت لهم العناية الإلهية من القبول والإستعداد، وأخذه على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم هو حكم الحكمة الإلهية عليهم بالقوّة على ما كلّفوه به من ضبط الوحي في ألواح قواهم، وجذب سائر النفوس الناقصة إلى جناب عزته بحسب ما أفاضهم من القوة على ذلك الإستعداد له، وما منحهم من الكمال الذي يقتدرون معه على تكميل الناقصين من أبناء نوعهم، ولما كانت صورة العهد وأخذ الأمانة في العرف أن يوغر إلى الإنسان بأمر، ويؤكد عليه القيام به بالإيمان وإشهاد الحق سبحانه.

وكان الحكم الإلهي جارياً بإرسال النفوس الإنسانية إلى هذا العالم وكان مراد العناية الإلهية من ذلك البعث أن يظهر ما في قوة كل نفس من كمال أو تكميل إلى الفعل.

وكان ذلك لا يتمّ إلاّ بواسطة بعضها للبعض كان الوجه الذي بعثت عليه مشبهاً للعهد والميثاق المأخوذ والأمانة المودعة كل لما في قوته، وما أعدّ له فحسن إطلاق هذه الألفاظ واستعارتها هيهنا.

قوله لما بدل أكثر خلق الله عهدهم إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته إلى آخره إشارة إلى وجه الحكمة الإلهية في وجود الأنبياء عليهم السلام ولوازمه وهي شرطية متصلة قدم فيها التالي لتعلّق ذكر الأنبياء عليهم السلام بذكر آدم. والتقدير لما بدل أكثر خلق الله عهده إليهم اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم فبعثهم في الخلق، وذلك العهد هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢].

قال ابن عباس: لما خلق الله آدم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال: ألست بربكم قالوا: بلى، فنودي يومئذ جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، واعلم أنّ أخذ الذرية يعود إلى إحاطة اللوح المحفوظ بما يكون من وجود النوع الإنساني بأشخاصه، وانتقاشه بذلك عن قلم القضاء الإلهي؛ ولما كان بالإنسان تمام العالمين في الوجود الخارجي فكذلك هو في التقدير القضائي المطابق له، وبه يكون تمام التقدير وجفاف القلم.

وأما إشهادهم على نفسهم فيعود إلى إنطاق إمكانهم بلسان الحاجة إليه وأنّه الإله المطلق الذي لا إله غيره، وأما بيان ملازمة الشرطية فلأنه لما كان الغالب على الخلق حب الدنيا، والإعراض عن مقتضى الفطرة الأصلية التي فطرهم عليها، والإلتفات عن القبلة الحقيقية التي أمروا بالتوجه إليها، وذلك بحسب ما ركب فيهم من القوى البدنية المتنازعة إلى كمالاتها لا جرم كان من شأن كونهم على هذا التركيب المخصوص أن يبدل أكثرهم عهد الله سبحانه إليهم من الدوام على عبادته والإستقامة على صراطه المستقيم، وعدم الإنقياد لعبادة الشيطان كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَٰنَ﴾[يس: ٦٠]. وأن يجهلوا حقه للغفلة بحاضر لذاتهم عما يستحقّه من دوام الشكر، وأن يتخذوا الأنداد معه لنسيانهم العهد القديم، وأن تجتذبهم الشياطين عن معرفته التي هي ألذّ ثمار الجنة، وأن تقتطعهم عن عبادته التي هي المرقاة إلى إقتطاف تلك الثمرة. ولما كان من شأنهم ذلك وجب في الحكمة الإلهية أن يختص صنفاً منهم بكمال أشرف يقتدر معه أبناء ذلك الصنف على ضبط الجوانب المتجاذبة، وعلى

تكميل الناقصين ممن دونهم، وهم صنف الأنبياء عليهم السلام، والغاية منهم ما أشار إليه ليستأدوهم ميثاق فطرته أي ليبعثوهم على أداء ما خلقوا لأجله وفطروا عليه من الإقرار بالعبودية لله، ويجذبوهم عما التفتوا إليه من أتباع الشهوات الباطنة، وإقتناء اللذات الوهمية الزائلة، وذلك البعث والجذب تارة يكون بتذكيرهم نعم الله الجسمية، وتنبيههم على شكر ما أولاهم به من منته العظيمة، وتارة يكون بالترغيب فيما عقده سبحانه مما أعده لأوليائه الأبرار، وتارة بالترهيب مما أعده لأعدائه الظالمين من عذاب النار، وتارة بالتنفير عن خسائس هذه الدار، وبيان وجوه الإستهانة بها والإستحقار، وإلى ذلك أشار بقوله؛ ويذكّروهم منسي نعمته، ولا بد للمجادلة والمخاطبة من احتجاج مقنع ومفحم فيحتجّوا عليهم بتبليغ رسالات ربهم وإنذارهم لقاء يومهم الذي يوعدون.

ويشيروا لهم وجوه الأدلة على وحدانية المبدع الأول، وتفرّده باستحقاق العبادة، وهو المراد بدفائن العقول وكنوزها، واستعمال الدفائن هٰهُنَا إستعارة لطيفة فإنه لما كانت جواهر العقول ونتائج الأفكار، موجودة في النفوس بالقوة أشبهت الدفائن فحسن إستعارة لفظ الدفينة لها.

ولما كانت الأنبياء هم الأصل في استخراج تلك الجواهر لإعداد النفوس لإظهارها حسنت إضافة إثارتها إليهم، وكذلك ليرشدهم إلى تحصيل مقدمات تلك الأدلة والبراهين وموادها، وهي آيات القدرة الإلهية وآثارها من سقف فوقهم محفوظ مرفوع مشتمل على بدائع الصنع وغرائب الحكم، ومهاد تحتهم موضوع فيه ينتشرون وعليه يتصرفون، ومعائش بها يكون قوام حياتهم الدنيا، وبلاغاً لمدة بقائهم لما خلقوا له، وآجال مقدرة بها يكون فناؤهم ورجوعهم إلى بارئهم، وأعظم بالأجل آية رادعة وتقديراً جاذباً إلى الله تعالى، ولذلك قال عليه السلام: أكثروا من ذكر هادم اللذات إلى غير ذلك من الأمراض التي تضعف قواهم وتهرمهم، والمصائب التي تتابع عليهم فإن كل هذه الآثار مواد احتجاج الأنبياء على الخلق لينبهونهم بصدورها عن العزيز الجبّار

عزّ سلطانه على أنه هو الملك المطلق الذي له الخلق والأمر، وليقرروا في أذهانهم صورة ما نسوه من العهد المأخوذ عليهم في الفطرة الأصلية من أنه سبحانه هو الواحد الحق المتفرد باستحقاق العبادة، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] الآية وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٩]. إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على احتجاج الخالق سبحانه على خلقه بألسنة رسله وتراجمة وحيه وجذبهم بهذه الألطاف إلى القرب من ساحل عزته والوصول إلى حضرة قدسه سبحانه وتعالى عما يشركون. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قوله ولم يخل الله سبحانه خلقه إلى قوله وخلقت الأبناء.

أقول: المقصود الإشارة إلى بيان عناية الله سبحانه بالخلق حيث لم يخل أمة منهم من نبي مرسل يجذبهم إلى جناب عزته كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وكتاب منزل يدعوهم إلى عبادته ويذكرهم فيه منسي عهده ويتلى عليهم فيه أخبار الماضين والعبر اللاحقة للأولين ويحتج عليهم فيه بالحجج البالغة والدلائل القاطعة، ويوضح لهم فيه أمور نظامهم وينبههم على مبدئهم ومعادهم، والإنفصال هٰهُنَا انفصال مانع من الخلو كما هو مصرح به.

قوله رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم أي هم رسل كذلك، والمراد الإشارة إلى أنهم وإن كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى كثرة الخلق، وكان عدد المكذبين لهم كثيراً كما هو المعلوم من أن كل نبي بعث إلى أمّة فلا بد فيهم فرقة تنابذه وتعانده، وتكذب مقاله. فإن ذلك لا يوليهم قصوراً عن أداء ما

كلفوا القيام به من حمل الخلق على ما يكرهون مما هو مصلحة لهم في معاشهم ومعادهم.

بل يقوم أحدهم وحده ويدعو إلى طاعة بارئه ويتحمل أعباء المشقة التامة في مجاهدة أعداء الدين، وينشر دعوته في أطراف الأرض بحسب العناية الأزلية والحكمة الإلهية، وتبقى آثارها محفوظة وسنّتها قائمة إلى أن يقتضي الحكمة وجود شخص آخر منهم يقوم ذلك المقام ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥].

قوله من سابق سمي له من بعده تفضيل للأنبياء، ومن هَهُنَا للتميز والتبيين، والمراد أن السابق منهم قد أطلعه الله تعالى على العلم بوجود اللاحق له بعده فبعضهم كالمقدمة لتصديق البعض كعيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف: ٦]. وبين لاحق سمّاه من قبله كمحمد صلى الله عليه وآله وعلى ذلك أي على هذه الوتيرة والأسلوب والنظام الإلهي.

قوله مضت الأمم وسلفت الآباء وخلفت الأبناء إلى أن بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله إلى قوله من الجهالة، واعلم أنه عليه السلام ساق هذه الخطبة من لدن آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى محمد صلى الله عليه وآله، كما هو الترتيب الطبيعي إذ هو الغاية من طينة النبوة وخاتم النبيّين كما نطق به القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ثم شرع بعد ذلك في التنبيه على كيفيّة اهتداء الخلق به، وانتظام أمورهم في معاشهم ومعادهم بوجوده كل ذلك استدراج لأذهان السامعين وتمهيد لما يريد أن يقرره عليهم من مصالح دينيّة أو دنيوية. فأشار إلى أنه الغاية من طينة النبوة وتمام لها بقوله إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته لخلقه على ألسنة رسله السابقين بوجوده وإتمام نبوته صلى الله عليه وآله.

قوله مأخوذاً على النبيّين ميثاقه، النصب هَهُنَا على الحال من بعث وذو الحال محمد صلى الله عليه وآله، وكذلك الحال في المنصوبين الباقيين، والمراد بأخذ ميثاقه عليهم ما ذكر وقرّر في فطرتهم من الإعتراف بحقيّة نبوته صلى الله عليه وآله وتصديقه فيما سيجيء به إذ كان ذلك من تمام عبادة الحق سبحانه فبعث صلى الله عليه وآله حال ما كان ذلك الميثاق مأخوذاً على الأنبياء ومن عداهم، وحال ما كانت إمارات ظهوره والبشارة بمقدمة مشهورة بينهم مع ذكاء أصله وكرم مادة حملته وشرف وقت سمح به. ثم أراد عليه السلام بعد ذلك أن يزيد بعثة محمد صلى الله عليه وآله تعظيماً، ويبيّن فضيلة شرعه وكيفية انتفاع الخلق به فقال: وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطوائف متشتتة، والواو في قوله وأهل الأرض للحال أيضاً، وموضع الجملة نصب، وقوله وأهواء خبر مبتدأ محذوف تقديره أهواؤهم أهواء متفرقة، وكذلك قوله وطوائف أي وطوائفهم طرائق متشتّتة أي بعثه وحال أهل الأرض يوم بعثه ما ذكر من تفرّق الأديان وانتشار الآراء واختلافها وتشتت الطرق والمذاهب، واعلم أن الخلق عند مقدم محمد صلى الله عليه وآله إما من عليه اسم الشرائع أو غيرهم أما الأوّلون فاليهود والنصارى والصابئة والمجوس، وقد كانت أديانهم أضمحلّت من أيديهم. وإنما بقوا متشبّهين بأهل الملل، وقد كان الغالب عليهم دين التشبيه، ومذهب التجسيم كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة: ١٨]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣٠] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾[المائدة: ٦٤] والمجوس أثبتوا أصلين أسندوا إلى أحدهما الخير وإلى الثاني الشر. ثم زعموا أنه جرت بينهما محاربة ثم إن الملائكة توسطت وأصلحت بينهما على أن يكون العالم السفلي للشرير مدة سبعة آلاف سنة إلى غير ذلك من هذيانهم وخبطهم، وأما غيرهم من أهل الأهواء المنتشرة والطوائف المتشتتة فهم على أصناف شتّى فمنهم العرب أهل مكة وغيرهم، وقد كان منهم معطلة ومنهم محصّلة نوع تحصيل.

أما المعطّلة فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهم الذين حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]. وقصروا الحياة والموت على تحلل الطبائع المحسوسة وتركبها

فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق عنه، وأنكروا البعث والإعادة وهم المحكي عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

وصنف منهم اعترفوا بالخالق ونوع من الإعادة لكنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنها شفعاؤهم عند الله كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ومن هؤلاء قبيلة يقف وهم أصحاب اللات بالطائف وقريش وبنو كنانة وغيرهم أصحاب العزى، ومنهم من كان يجعل الأصنام على صور الملائكة، ويتوجه بها إلى الملائكة، ومنهم من كان يعبد الملائكة كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١].

وأما المحصّلة فقد كانوا في الجاهلية على ثلاثة أنواع من العلوم:

أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان.

والثاني: علم تعبير الرؤيا.

والثالث: علم الأنواء؛ وذلك بما يتولاّه الكهنة والقافة منهم، وعن النبي صلى الله عليه وآله: من قال: مطرنا نبوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمد، ومن غير العرب البراهمة من أهل الهند ومدار مقالتهم على التحسين والتقبيح العقليّين والرجوع في كل الأحكام إلى العقل وإنكار الشرائع وانتسابهم إلى رجل منهم يقال له براهام. ومنهم أصحاب البددة والبدّ عندهم شخص في هذا العالم لا يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت.

ومنهم أهل الفكرة: وهم أهل العلمُ منهم بالفلك وأحكام النجوم. ومنهم أصحاب الروحانيّات الذين أثبتوا وسائط روحانية تأتيهم بالرسالة من عند الله في صورة البشر من غير كتاب فتأمرهم وتنهاهم. ومنهم عبدة الكواكب، ومنهم عبدة الشمس، ومنهم عبدة القمر، وهؤلاء يرجعون بالآخرة إلى عبادة الأصنام، إذ لا يستمر لهم طريقة إلا بشخص حاضر ينظرون إليه ويرجعون إليه في مهماتهم، ولهذا كان أصحاب الروحانيات والكواكب يأخذون أصناماً على صورها فكان الأصل في وضع الأصنام ذلك إذ يبعد ممن له أدنى فطنة أن يعمل خشباً بيده ثمّ يتخذه إلهاً إلاّ أن الخلق لما عكفوا عليها وربطوا حوائجهم بها من غير إذن شرعي ولا حجة ولا برهان من الله تعالى، كان عكوفهم ذلك وعبادتهم لها إثباتاً لإلهيّتها.

ووراء ذلك من أصناف الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة أكثر من أن تحصى مذكورة في الكتب المصنّفة في هذا الفن، وإذا عرفت ذلك ظهر معنى قوله عليه السلام من مشيئة الله بخلقه كالبقيّة من أصحاب الملل السابقة. فإنهم وإن أثبتوا صانعاً إلاّ أنّ أذهانهم مكيّفة بكيفيّة بعض مصنوعاته في نفس الأمر من الجسمية وتوابعها، ومن ملحد في إسمه كالذين عدلوا عن الحقّ في أسمائه بتحريفها عما هي عليه إلى أسماء اشتقوها لأوثانهم وزادوا فيها ونقصوا كاشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز ومناة من المنّان.

وهذا التأويل مذهب ابن عباس، ومنهم من فسر الملحدين في أسماء الله بالكاذبين في أسمائه وعلى هذا كل من سمّى الله بما لم يسمّ به ذهنه ولم ينطق به كتاب ولا ورد فيه إذن شرعي، فهو ملحد في أسمائه، وقوله ومن مشير إلى غيره كالدهرية وغيرهم من عبدة الأصنام، والإنفصال هَهُنَا لمنع الخلو أيضاً.

فلما اقتضت العناية بعثته صلى الله عليه وآله ليهتدوا سبيل الحق ويفيئوا من ضلالهم القديم إلى سلوك الصراط المستقيم، ولينقذهم ببركة نوره من ظلمات الجهل إلى أنوار اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فجلى الله بنوره صداء قلوب الخلق، وأزهق باطل الشيطان بما جاء به من الحق والصدق وأنطلقت الألسن بذكر الله واستنارت البصائر بمعرفة الله وكمل به دينه في أقصى بلاد العالم، وأتمّ به نعمته على كافة عباده كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. أحبّ الله سبحانه لقاءه كما أحب هو لقاء الله كما قال صلى الله عليه وآله: من أحبّ

لقاء الله أحب الله لقاءه ورضي له ما عنده من الكرامة التامة، والنعمة العامة في جواره الأمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فأكرمه عن دار الدنيا ورغب به من مجاورة البلوى ومقام الأذى فقبضه الله إليه عند انتهاء أجله كريماً عن أدناس الذنوب طاهراً في ولادته الجسمانية والروحانية ﷺ ما برق بارق وذرّ شارق.

قوله وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم.

أقول: لما كان هذا الشخص الذي هو النبي ليس مما يتكون وجود مثله في كل وقت لما أنّ المادة التي تقبل كمال مثله إنما يقع في قليل من الأمزجة، وجب إذن أن يشرع للناس بعده في أُمورهم سنّة باقية بإذن الله وأمره ووحيه وإنزاله الروح القدس عليه، وواجب أن يكون دبّر لبقاء ما يسنّه ويشرعه في أمور المصالح الإنسانية تدبيراً والغاية من ذلك التدبير هو بقاء الخلق واستمرارهم على معرفة الصانع المعبود ودوام ذكره وذكر المعاد، وحسم وقوع النسيان فيه مع انقراض القرآن الذي يلي النبي ومن بعده فواجب إذن أن يأتيهم بكتاب من عند الله، ويكون وافياً بالمطالب الإلهية والأذكار الجاذبة إلى الله سبحانه ولإخطاره بالبال في كل حال مشتملاً على أنواع من الوعد على طاعة الله ورسوله بجزيل الثواب عند المصير إليه، والوعيد على معصيته بعظيم العقاب عند القدوم عليه ولا بد أن يعظم أمره ويسنّ على الخلق تكراره وحفظه، أو بحثه ودراسته وتعلمه وتعليمه وتفهم معانيه ومقاصده ليدوم به التذكر لله سبحانه، والملأ الأعلى من ملائكته ثم يسنّ عليهم أفعالاً وأعمالاً تتكرر في أوقات مخصوصة تتقارب ويتلو بعضها بعضاً مشفوعة بألفاظ تقال ونيّات تنوى في الخيال ليحصل بها دوام تذكر المعبود الأول وينتفع بها في أمر المعاد وإلاّ فلا فائدة فيها، وهذه الأفعال كالعبادات الخمس المفروضة على الناس، وما يلحقها من الوظائف، ولما بدأ عليه السلام هٰهُنا بذكر الكتاب العزيز لكونه مشتملاً على ذكر سائر ما جاء به الرسول ﷺ: إمّا مطابقة أو التزاماً في بسط قوانينه الكلية بحسب السنّة النبوية وفاءً بجميع المطالب الإلهية، فنحن نبدأ بذكر شرفه ووظائفه وشرائط تلاوته ونؤخّر الكلام في باقي العبادات إلى مواضعها.

البحث الثاني: في فضيلة الكتاب أما الفضيلة فمن وجوه.

الأول: قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧].

الثاني: قال رسول الله ﷺ: من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أُوتي أفضل مما أُوتي فقد استصغر ما عظم الله تعالى.

الثالث: قوله ﷺ: ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره، ويلوح لك من سرّ هذه الإشارة أن ذلك إمّا هو في حق من تدبره، وسلك النهج المطلوب منه المشتمل عليه، ووصل به إلى جناب الله في جوار الملائكة المقربين، ولا غاية من الشفاعة إلاّ الوصول إلى نيل الرضوان من المشفوع، وعلمت أنّ تمام رضوان الله بغير سلوك الطريق المشتمل عليها الكتاب العزيز لا يحصل، ولا ينفع فيه شافعة شافع كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر: ٤٨-٤٩].

الرابع: قال ﷺ: لو كان القرآن في آحاب لما مسّته النار، والمراد أي ظرف وعاه وتدبره وسلك طريقه لم تمسه النار. أما نار الآخرة فظاهر؛ وأما نار الدنيا فلأن الواصلين من أولياء الله الكاملين في قوتهم النظرية والعملية يبلغون حداً تنفعل العناصر عن نفوسهم فتتصرف فيها كتصرفها في أبدانها فلا يكون لها في أبدانهم تأثير، وقد عرفت أسباب ذلك في المقدمات.

الخامس: قال ﷺ: أفضل عبادة أُمتي قراءة القرآن، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، والمقصود مع شرائطه التي سنذكرها.

البحث الثالث: في وظائفه أما مداومة الكتاب بالتلاوة والدرس فيحتاج إلى وظائف وإلاّ لم يتنفع بها

كما قال أنس: ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه، والذي ينبغي أن يوظف في ذلك ما لخصه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب الأحياء، فإنه لا مزيد عليه وهي أمور عشرة:

الأول: أن يتصور الإنسان حال سماعه للتلاوة عظمة كلام الله سبحانه وإفاضة كماله ولطفه بخلقه، في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام الخلق في إيصال عاني كلامه إلى أذهانهم، وكيف تجلّت لهم الحقائق الإلهية في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى مدارج الجلال ونعوت الكمال إلاّ بوسيلة، ولولا استنار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره فالصوت والحرف للحكمة جسد، وهي بالنسبة إليه نفس وروح، ولما كان شرف الأجساد وعزّتها بشرف أرواحها فكذلك شرف الحرف والصوت بشرف الحكمة التي فيها.

الثاني: التعظيم للمتكلم؛ وينبغي أن يحضر في ذهن القارئ عظمة المتكلم، ويعلم أنّ ما يقرأه ليس بكلام البشر، وأنّ في تلاوة كلام الله غاية الحظر فإنه تعالى قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: ٧٩]. وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس غير المتطهّر فكذلك باطن معناه كلمة عزّه وجلاله محجوب عن باطن القلب إذ لا يستضيء بنوره إلاّ إذا كان متطهراً عن كل رجس مستنيراً بنور التعظيم والتوفير عن ظلمة الشرك، وكما لا تصلح للمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل إنسان ولا لحمل أنواره كل قلب، ولأجل هذا الإخلال كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف يغشى عليه ويقول: هو كلام ربيّ فيعظم الكلام بتعظيم المتكلم وعلمت أن عظمة المتكلّم لا تخطر في القلب بدون الفكر في صفات جلاله ونعوت كماله وأفعاله، وإذا خطر ببالك الكرسي والعرش والسماوات والأرضون وما بينهما، وعلمت أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها هو الله الواحد القهّار، وأنّ الكلّ في قبضته والسماوات مطويات بيمينه، والكل سائر إليه وأنه الذي يقول: هؤلاء في الجنة، ولا أبالي فإنك تستحضر من ذلك عظمة المتكلم ثم عظمة الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس. قيل في تفسير قوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أي بجد واجتهاد، وأخذه بالجد أن يتجرد عند قراءته بحذف جميع المشغلات والهموم عنه، وهذه الوظيفة تحصل مما قبلها فإنّ المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به، ويستأنس إليه ولا يغفل فإنّ في القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي له أهلاً، وكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره، وفيه بساتين العارفين، ورياض الأولياء وميادين أولي الألباب.

الرابع: التدبير وهو طور وراء حضور القلب فإن الإنسان قد لا يتفكّر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره، والمقصود من التلاوة التدبر قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] تمكن الإنسان من تدبر الباطن وقال صلى الله عليه وآله: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبّر فيها، وإذا لم يمكن التدبّر إلاّ بالترديد فليردّد. قال أبو ذر: قام رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة يردّد قوله تعالى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

الخامس: التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله تعالى وأفعاله وأحوال أنبيائه والمكذبين لهم وأحوال ملائكته، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار، والوعد والوعيد، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لتكشف له أسرارها، فتحتها دفائن الأسرار وكنوز الحقائق وإلى ذلك أشار علي عليه السلام بقوله ما أسرّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً كتمه عن الناس إلاّ أن يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه فليكن حريصاً في طلب ذلك الفهم. وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فعليه بالقرآن، واعلم أن أعظم علوم القرآن تحت أسماء الله

تعالى وصفاته ولم يدرك الخلق منها إلاّ بقدر أفهامهم وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧]. فالماء هو العلم أنزله من سماء جوده أودية القلوب كل على حسب استعداده وإمكانه وإن كان وراء ما أدركوه أطوار أخرى لم يقفوا عليها، وكنوز لم يعثروا على أغوارها. أما أفعاله تعالى وما أشار إليه من خلق السماوات والأرض وغيرها فالذي ينبغي أن يفهم التالي منها وهو صفات الله وجلاله لاستلزام الفعل الفاعل فيستدل بعظمة فعله على عظمته ليلاحظ بالآخرة الفاعل دون الفعل فيقرأ في المقام الأول: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]. ويقرأ في المقام الثاني: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. فمن عرف الحق رآه في كل شيء، ومن بلغ إلى حدّ العرفان عن درجة الإعتبار لم ير معه غيره فإذا تلا قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]، فلا ينبغي أن يقصر نظره على النطفة والماء والنار بل ينظر في المني وهو نطفة، ثم في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعصب والعروق وغيرها، ثم في كيفية أشكال أعضائها المختلفة من المستدير والطويل والعريض والمستقيم والمنحني والرخو والصلب والرقيق والغليظ، وما أودع في كل من القوة وهيأ له من المنفعة التي لو اختل شيء منها لاختلّ أمر البدن، ومصالح الإنسان. فليتأمل في هذه العجائب وأمثالها يترقى فيها إلى عجيب قدرة الله تعالى والمبدأ الذي صدرت عنه هذه الآثار، فلا يزال مشاهداً لكمال الصانع في كمال صنعه.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام فليفهم من سماع كيفية تكذيبهم وقتل بعضهم صفة استغناء الله تعالى عنهم، ولو هلكوا بأجمعهم لم يتضرر بذلك ولم يؤثر في ملكه فإذا سمع نصرتهم فليفهم أنّ ذلك بتأييد إلهي. كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠].

وأما أحوال المكذبين لهم كعاد وثمود وكيفية إهلاكهم فلينبه من سماعه لاستشعار الخوف من سطوة الله ونقمته وليكن حظه منه الإعتبار في نفسه، وأنه إن غفل وأساء الأدب فربما أدركته النقمة ونفذت فيه القضية حيث لا ينفع مال ولا بنون، وكذلك إذا سمع أحوال الجنة والنار فليحصل منهما على خوف ورجاء وليتصور أنه بقدر ما يبعد عن أحدهما يقرب من الآخر، وليفهم منها ومن سائر القرآن أن استقصاء ما هناك من الأسرار الإلهية غير ممكن لعدم نهايته قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال علي عليه السلام لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب، فمن لم يتفهم معاني القرآن في تلاوته وسماعه ولو في أدنى المراتب ودخل في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٣-٢٤] وتلك الأقفال هي الموانع التي سنذكرها.

السادس: التخلي عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا من فهم القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فحجبت عن عجائب أسراره قال صلى الله عليه وآله: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت، ومعاني القرآن وأسراره من جملة الملكوت والحجب المانعة. أولها الإشتغال بتحقيق الحروف وإخراجها والشدق بها عن ملاحظة المعنى، وقيل: إن المتولي لحفظ ذلك شيطان وكّل بالقراء ليصرف عن معاني كلام الله فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف ويحيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فيكون تأمله مقصور على مخارج الحروف. فمتى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذه التلبيس، وثانيها أن يقلّد مذهباً سمعه وتفسيراً ظاهراً نقل إليه عن ابن عباس أو مجاهد أو غيرهما فيحمل على التعصب له من غير علم فيصير نظره موقوفاً على مسموعه حتى لو لاح له بعض الأسرار حمل عليه شيطان التقليد جهله، ولم يسوغ له مخالفة آبائه ومعلّميه في ترك ما هو عليه من الإعتقاد، وإلى مثل هذا أشارت الصوفية بقولهم: العلم حجاب، وعنوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بالتعليم والتقليد أو بمجرد

كلمات جدليّة حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم لا العلم الحقيقي الذي هو المشاهدة بأنوار البصيرة، ثم ذلك التقليد قد يكون باطلاً كمن يحمل الإستواء على العرش على ظاهره فإن خطر له في القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من استقرار ذلك الخاطر في نفسه حتى ينساق إلى كشف ثان وثالثاً، ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره ويجعله وسوسة. وقد يكون حقاً ويكون أيضاً مانعاً من الفهم لأن الحق الذي كلف الخلق طلبه له مراتب ودرجات وظاهر وباطن. فجمود الطبع على ظاهره يمنع من الوصول إلى الباطن.

فإن قلت: كيف يجوز أن يتجاوز الإنسان المسموع وقد قال صلى الله عليه وآله: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. وفي النهي عن ذلك آثار كثيرة، قلت: الجواب عنه من وجوه.

الأول: أنه معارض بقوله صلى الله عليه وآله: إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً، وبقول علي عليه السلام: إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، ولو لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما فائدة ذلك الفهم.

الثاني: أنه لو لم يكن غير المنقول لاشترط أن يكون مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك مما لا يصادف إلاّ في بعض القرآن، وأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي.

الثالث: أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله محال فكيف يكون الكل مسموعاً.

الرابع: أنه عليه السلام دعا لابن عباس فقال: اللهم فقّهه في الدين، وعلّمه التأويل، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل، ومحفوظاً مثله فلا معنى لتخصيص ابن عباس بذلك.

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فأثبت للعلماء استنباطاً، ومعلوم أنه وراء المسموع. فإذن الواجب أن يحمل النهي عن التفسير بالرأي على أحد معنيين: أحدهما أن يكون للإنسان في الشيء رأي وله إليه ميل بطبعه فيتأوّل القرآن على وفق رأيه حتى لو لم يكن له ذلك الميل لما خطر ذلك التأويل له، وسواء كان ذلك الرأي مقصداً صحيحاً أو غير صحيح؛ وذلك كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيستدل على تصحيح غرضه من القرآن بقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤] ويشير إلى أن قلبه هو المراد بفرعون كما يستعمله بعض الوعّاظ تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع.

الثاني: أن يتسرّع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة وما يتعلق من الإختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير والمجاز. فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي مثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. فالناظر إلى ظاهر العربية ربما يظنّ أن المراد أنّ الناقة كانت مبصرة، ولم تكن عمياء والمعنى آية مبصرة، ثم لا يدري أنهم إذا ظلموا غيرهم ومن ذلك المنقول المنقلب كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢] وكذلك باقي أجزاء البلاغة، فكل مكتف في التفسير بظاهر العربية من غير استظهار بالنقل فهو مفسر برأيه. فهذا هو النهي عنه دون التفهم لأسرار المعاني وظاهر أنّ النقل لا يكفي فيه. وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر صفاء عقولهم وشدة استعدادهم له، وللطلب والفحص والتفهم وملاحظة الأسرار والعبر، ويكون لكل واحد منهم جد في الترقي إلى درجة منه بعد الإشتراك في الظاهر ومثاله ما فهم بعض العارفين من قوله صلى الله عليه وآله في سجوده: أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض، فإنّ الرضا والسخط وصفان متضادان، ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقي إلى اللذات، فقال: أعوذ بك منك ثم زاد قربه مما

استحيا به على سائر القرب فالتجأ إلى الثناء، فأثنى بقوله: لا أحصي ثناء عليك، ثم علم أن ذلك قصور، فقال: أنت كما أثنيت على نفسك، فهذه خواطر نسخ للعارفين لا يفهم من تفسير الظاهر وليس مناقضاً له، وإنما هو استكمال لما تحته من الأسرار.

الثالث: من الموانع أن يكون مبتلى من الدنيا بهوى متاع فإن ذلك سبب لظلمة القلب وكالصداء على المرآة فيمنع جليّة الحق يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون: وكلما كانت الشهوات أكثر تراكماً على القلب كان البعد عن أسرار الله أكثر، ولذلك قال ﷺ: الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من إحديهما تبعد من الأخرى.

السابع: أن يخصص نفسه بكل خطاب في القرآن من أمر أو نهي أو وعد أو عيد، ويقدّر أنه هو المقصود به كذلك إن سمع قصص الأولين والأنبياء عليهم السلام علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود الإعتبار فلا يعتقد أن كل خطاب خاص في القرآن فالمراد به الخصوص، فإن القرآن وسائر الخطابات الشرعية واردة بإيّاك أعني واسمعي يا جارة، وهي كلها نور وهدى ورحمة للعالمين، ولذلك أمر الحق تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وإذا قدر أنه المقصود لم يتخذ دراسة القرآن عملاً بل قراءة كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتدبره ويعمل بمقتضاه، كما قال حكيم: هذا القرآن وسائل أتتنا من قبل ربنا بعهوده نتدبّرها في الصلاة، ونقف عليها في الخلوات، ونعتّها في الطاعات بالسنن المتبعات.

الثاني: التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به عندما يوجّه نفسه في كل حالة إلى الجهة التي فهمها من خوف أو حزن أو رجاء أو عبرة. فيستعد بذلك وينفعل ويحصل له التأثر والخشية، ومهما قويت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على العارفين فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلاّ مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. فإنه قرن المغفرة بهذه الشروط الأربعة وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] السورة ذكر فيها أربعة شروط وحيث أوجزه، واقتصر ذكره شرطاً واحداً جامعاً للشرائط فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

إذ كان الإحسان جامعاً لكل الشرائط، وتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد يتضاءل من خشية الله وعند الوعد يستبشر فرحاً بالله وعند ذكر صفات الله واسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله وعند ذكر الكفّار في حق الله ما يمتنع عليه كالصاحبة والولد يعضّ صورته (صوته) وينكسر في باطنه من قبح أفعالهم، ويكبّر الله ويقدسه عما يقول الظالمون، وعند ذكر الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند ذكر النار ترعد فرائصه خوفاً منها. ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: اقرأه عليّ قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] رأيت عينيه تذرفان من الدمع، فقال لي: حسبك الآن، وذلك لاستغراق تلك الحالة بقلبه بالكلية، وبالجملة فالقرآن إنما يراد بهذه الأحوال واستجلابها إلى القلب والعمل بها قال رسول الله ﷺ: اقرأوا القرآن ما أتتلفت عليه قلوبكم ولانت عليه جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرأونه، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وإلاّ فالمؤونة في تحريك اللسان خفيفة. قال بعضهم قرأت على شيخ لي، ثم رجعت أقرأ عليه ثانياً فانتهرني وقال: جعلت القرآن عليّ عملاً اذهب فاقرأ على الله تعالى، وانظر ماذا يأمرك، وماذا يفهمك، ومات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يكن ليحفظ القرآن منهم غير ستة، واختلف منهم في اثنين وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين.

وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم كل ذلك لاشتغالهم بتفهّم معاني القرآن عن حفظه كله،

وجاء إليه واحد ليعلمه القرآن فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. فقال: يكفيني هذا وانصرف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله انصرف الرجل وهو فقيه فالعزيز مثل تلك الحالة التي يمنّ الله تعالى بها على القلب عقيب تفهّم الآية.

وأما التالي باللسان المعرض عن العمل فجدير بأن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآية. وإنما حظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظّ العقل تفسير المعاني، وحظّ القلب الإتعاظ والتأثر بالإنزجار والإئتمار.

التاسع: الترقي وهو أن يوجه قلبه وعقله إلى القبلة الحقيقية فيسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه. ودرجات القراءة ثلاث: أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرأ على الله واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتضرع والابتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأنه سبحانه يخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، وهو في مقام الحياء والتعظيم لمنن الله والإصغاء إليه والفهم عنه.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات ولا ينظر إلى قلبه ولا إلى قراءته ولا إلى التعلق بالإنعام من حيث هو منعم عليه، بل يقصر الهمّ على المتكلم ويوقف فكره عليه ويستغرق في مشاهدته. هذه درجة المقربين، عنها أخبر الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقال: لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون، وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه، فلما أفاق قيل له في ذلك فقال: ما زلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته. ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة، وبهذا الترقي يكون العبد ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وبمشاهدة المتكلم دون ما عداه يكون ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١].

فإذن رؤية غير الله معه شرك خفيّ لا مخلص منه إلاّ برؤيته وحده.

العاشر: التبري؛ والمراد به أن يبرأ من حوله وقوته ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا تلا آيات الوعد ومدح الصالحين حذف نفسه عن درجة الإعتبار وشهد فيها الموقنين والصديقين، ويتشوق إلى أن يلحقه الله تعالى بهم، وإذا تلا آيات المقت والذم في المقصرين شهد نفسه هناك وقدّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. قيل ليوسف بن أسباط إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ قال: بماذا أدعو؟ أستغفر الله عن تقصيري سبعين مرة. ومن رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة، كان ذلك سبب قربه، فإنَّ من شهد البعد في القرب لطف له بالخوف حتى يسوقه إلى درجة أعلى في القرب، ومن شهد القرب في البعد ردّه أمنه إلى درجة أدنى في البعد مما هو فيه، ومهما شهد نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه فإذا جاوز حدّ الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلاّ الله في قراءته انكشف له الملكوت، والمكاشفات تابعة لحال المكاشف، فحيث يتلو آيات الرجاء يغلب عليه استبشار وتنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله تعالى وارد باللطف والسهولة والشدة والعسف والرجاء والخوف، وذلك بحسب أوصافه إذ منها الرحمة واللطف والإنعام والبطش، فبحسب مشاهدة الكمالات والصفات يتقلّب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد لنوع من المكاشفة مناسب لتلك الحالة إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحد والمسموع مختلف؛ إذ فيه كلام رضى وكلام غضب وكلام إنعام وكلام انتقام وكلام جبروت وتكبر وكلام جنة وتعطف، فهذه هي وظائف التلاوة. ولنرجع إلى المتن فنقول:

قوله: وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ولا علم قائم. إشارة إلى وضع ما يجب في الحكمة الإلهية على ألسنة الرسل عليهم السلام من العبادات الشرعية والقوانين الكلية التي بها يبقى ذكر الله سبحانه محفوظاً، واستعمال لفظ العلم القائم هَهُنا استعارة حسنة للآثار الباقية عن الأنبياء التي يهتدي بها الأوصياء والأولياء الذين يرجع إليهم الخلق.

قوله: كتاب ربكم. عطف بيان لما في قوله ما خلّفت الأنبياء، ولا ينبغي أن يفهم مما شخص الكتاب حتى يكون ما أتى به محمد ﷺ من الكتاب هو عين ما أتت به الأنبياء السابقون عليهم السلام وشخصه فإنّ ذلك محال، بل المراد بما نوع ما خلّفت الأنبياء في أممها من الحق، وما جاء به محمد ﷺ شخص من أشخاص ذلك النوع؛ وبيان ذلك أن القوانين الكلية التي اشتركت في الإتيان فيها جميع الأنبياء عليهم السلام من التوحيد والتنزيه لله تعالى، وأحوال البعث والقيامة وسائر القواعد الكلية التي بها يكون النظام الكلّي للعالم كتحريم الكذب والظلم والقتل والزنا وغير ذلك مما لم يخالف فيه نبي نبياً بمنزلة مهيّة واحدة كليّة وجدت في أشخاص، وكما تعرض لبعض أشخاص المهيّة عوارض لا تكون لشخص الآخر وبها يكون اختلاف بين الأشخاص بحسب المواد التي نشأت منها الصور الشخصية كذلك الكتب المنزلة على ألسنة الأنبياء عليهم السلام بمنزلة أشخاص اشتملت على مهيّة واحدة تختلف بحسب الزيادات والعوارض على تلك المهيّة بحسب اختلاف الأمم والأوقات المشتملة على المصالح المختلفة باختلافها.

قوله: مبيناً. منصوب على الحال والعامل خلّف وذو الحال الفاعل وهو ضمير النبي ﷺ.

قوله وحلاله وحرامه وفضائله وفرائضه إشارة إلى الأحكام الخمسة الشرعية التي يدور عليها علم الفقه، وهي الوجوب والندب والحظر والكرامة والإباحة، وعبّر بالحلال عن المباح والمكروه، وبالحرام عن المحظور، وبالفضائل عن المندوب، وبالقرائن عن الواجب، وبالنسخ عن رفع الحكم الثابت بالنص المتقدم بحكم آخر مثله؛ فالناسخ هو الحكم الرافع كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] والمنسوخ هو الحكم المرفوع كقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وبالرخص عما أُذن في فعله مع قيام السبب المحرم لضرورة أو غيرها كقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآية. وبالعزائم عما كان من الأحكام الشرعية جارياً على وفق سببه كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وبالعام هٰهُنا عن اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح به بحسب وضع واحد كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وبالخاص عما لم يتناول الجميع بالنسبة إلى ما يتناوله كقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] والخاص المطلق هو ما يمنع تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه كما عرفته، والعبر جمع عبرة وهي الإعتبار واشتقاقها من العبور وهو انتقال الجسم من موضع إلى آخر.

ولما كان الذهن ينتقل من الشيء إلى غيره حسن إطلاق العبرة عليه، وأكثر ما يختص إطلاق العبرة بانتقال ذهن الإنسان من المصائب الواقعة بالغير أو الأمور المكروهة له إلى نفسه فيقدرها كأنّها نازلة به فيحصل له بسبب ذلك انزعاج عن الدنيا وانتقال ذهن إلى ما ورائها من أمر المعاد والرجوع إلى بارئه ويسمى ذلك عبرة، وكذلك من المصائب اللاحقة في نفسه المذكرة له بجناب العزّة والملفتة له بتكرارها عن دار البلوى والمحن، فينتقل ذهنه بسببها إلى أن الدنيا دار البوار وأن الآخرة هي دار القرار، وذلك كقصة أصحاب الفيل، وكقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٤-٢٦] فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾. وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وإن كان قد تستعمل العبرة في كل ما يفيد اعتبار من طرف الإحسان أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١] الآية. وكقوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]. فجعل سبحانه نصر المؤمنين على ملّتهم وخذلان المشركين على كثرتهم ومشاهدة المسلمين لكونهم مثليهم محلاً للعبرة إذ يحصل بذلك انتقال الذهن من نعمه إلى أنه الإله المطلق المستحق للعبادة المتفرّد بالقدرة على ما يشاء أهل الرحمة والجود، وإفاضة تمام الوجود.

وأما الأمثال فظاهرة كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] الآية. وكقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ونحوه، وأراد بالمرسل الألفاظ المطلقة والمهملة وهي الألفاظ التي لا تمنع نفس مفهوماتها وقوع الشركة فيها لكنها لم يبيّن فيها كمية الحكم ومقداره ولم تقيّد بقيد يفيد العموم ولا الخصوص، وهو محتملة لها كأسماء الجموع في النكرات كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] وكالمفرد المعرّف باللام أو المنكر كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝﴾ [العصر: ١-٢] وكقوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ [الحجرات: ٦] وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣] فإنّ كل هذه الألفاظ يراد بها الطبيعة دون الكل أو البعض إلاّ بدليل منفصل، والفرق بينهما وبين العام أن لكل شيء مهيّة هو بها ما هو وهي مغائرة لكل ما عداها. فإنّ مفهوم الإنسان مثلاً ليس إلاّ أنه الإنسان، وأمّا أنه واحد أو أكثر أو ليس أحدهما فمفهوم آخر مغائر لمهيّته، إذا عرفت ذلك فاللفظ الدال على الحقيقة من حيث هي من غير دلالة على شيء آخر معها. هو اللفظ المطلق والمهمل، والدالّ معها على قيد العموم بحيث يفهم منه تعدّد المهيّة وتكثرها في جميع مواردها فهو اللفظ العام، أو في بعض مواردها وهو الخاص، وإن كان العموم والخصوص بالذات للمعاني، وأراد بالمحدود المقيّد كقوله تعالى في الكفّارة في موضع آخر: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وأما المحكم والمتشابه والمجمل والمبيّن فقد سبق بيانها في المقدمة مثال المحكم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مثال المتشابه قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] مثال المجمل قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] مثال المبيّن قوله بعد ذلك: «أن تنفقوا بأموالكم» الآية. والتفسير هو التبيين والغوامض دقائق المسائل. وإنما أضاف هذه المعاني كلها إلى الكتاب لاشتماله عليها وكونه مبدئاً لها، ولما كانت محتاجة إلى البيان كان الرسول صلى الله عليه وآله هو المبيّن لها بسنّته الكريمة.

وقوله بين مأخوذ ميثاق علمه وموسّع على العباد في جهله إلى آخره، الضمائر تعود إلى الأحكام المذكورة المشتمل عليها الكتاب العزيز وذكر منها أنواعاً:

أحدها: ما يجب تعلّمه وغير موسع للخلق في جهله كوحدانية الصانع وأمر المعاد والعبادات الخمس وشرائطها.

وثانيها: ما لا يتعيّن على كافة الخلق العلم به بل يعذر بعضهم في الجهل ويوسّع لهم في تركه كالآيات المتشابهات، وكأوائل السور كقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] ﴿حم ۝ عسق ۝﴾ [الشورى: ١-٢] ونحوها.

وثالثها: ما هو مثبت في الكتاب فرضه معلوم في السنّة نسخه وذلك كقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٥-١٦]. فكانت الثيّب إذا زنت في بدء الإسلام تمسك في البيوت إلى الممات، والبكر تؤذى بالكلام ونحوه بمقتضى هاتين الآيتين، ثم نسخ ذلك في حقّ الثّيب بالرجم وفي حق البكر بالجلد والتعذيب بحكم السنّة.

ورابعها: ما هو بعكس ذلك أي مثبت في السنّة أخذه مأذون في الكتاب تركه وذلك كالتوجه إلى بيت المقدس في ابتداء الإسلام، فإنه كان ثابتاً في السنّة ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وكثبوت صلاة الخوف في القرآن حال القتال الرافع لجواز تأخيرها في السنة إلى انجلاء القتال.

وخامسها: ما يجب لوقته ويزول في مستقبله كالحج الواجب في العمر مرة والكنذور المقيدة بوقت معين وأمثالها فإن وجوبها تابع لوقتها المعيّن ولا يتكرر بتكرر أمثالها.

قوله ومباين بين محارمه عطف على المجرورات السابقة والباء مفتوحة وفي معنى الكلام وتقديره لطف فإنّ المحارم لما كانت هي محال الحكم المسمّى

بالحرمة صار المعنى وبين حكم مباين وبين محاله هو الحرمة، وقوله من كبير أوعد عليه نيرانه أو صغير أرصد له غفرانه بيان لتلك المحال وإشارة إلى تفاوتها بالشدة والضعف في كونها مبعّدة عن رحمة الله على سبيل الجملة. فالأول كالقتل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] الآية. وكذلك سائر الكبائر من الظلم والزنا وغيرها. والثاني قال الفقهاء كالتطفيف بالحبة وسرقة باقة من بصل ونحو ذلك وإرصاد الغفران بإزاء هذه. وأمثالها في الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] وسائر آيات الوعد بالمغفرة فإنها إن كانت عامة في كل الذنوب فالصغائر داخلة بطريق أولي وإلاّ كانت محمولة على الصغائر وسرّ أولويّتها بالغفران أنها لا تكاد تكسب النفس ملكة الإفراط والجور إلاّ عن بعد بعيد وتكرار طويل بخلاف الكبائر فإن الأحوال لا يقع إلاّ على نفس مستعدة للشر بعيدة عن رحمة الله، وبالعصمة والتوفيق.

الفصل الخامس منها قوله:

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعَامِ، وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ، وجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلاَمَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ، وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلاَئِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَ مَوْعِدِ مَغْفِرَتِهِ، جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلامِ عَلَماً، وَلِلعائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

أقول: يألهون إليه أي يشتد وجدهم وشوقهم إليه وأصل الهمزة هَهُنَا الواو من وله إذا تحيّر من شدة الوجد، والسماع جمع سامع كسامر وسمار والمبادرة المسارعة، والوفادة القدوم للإسترفاد والإنتفاع، واعلم أنّا لمّا بيّنا وجوب العبادات وأشرنا إلى وجه الحكمة فيها فبالحري أن نشير إلى وجه الحكمة في خصوص الحج من جملتها، ونؤخّر تفصيل باقيها إلى موضعه إن شاء الله.

فأما الحجّ فإنك لما عرفت أن الغرض الأول من العبادات هو جذب الخلق إلى جناب الحق بالتذكير له ودوام إخطاره بالبال لتجلّى لك الأسرار على طول التذكار، وينتهي في ذلك من أخذت العناية بيده إلى مقام المخلصين فمن جملة أسرار الله سبحانه المنزلة على لسان رسوله تعيين موضع من البلاد أنه أصلح المواضع لعبادة الله، وأنّه خاص له، ولا بدّ أن تبنى مثل هذه الأوضاع على إشارات ورموز إلى مقاصد حقيقية يتنبّه لها من أخذ التوفيق بزمام عقله إليها، ولا بد من تعيين أفعال تفعل في ذلك المكان، وأنّها إنّما تفعل في ذات الله سبحانه، وأنفع المواضع المعيّة في هذا الباب ما كان مأوى الشارع ومسكنه فإنّ ذلك مستلزم لذكره، وذكره مستلزم لذكر الله سبحانه وذكر ملائكته واليوم الآخر، ولما لم يمكن في المأوى الواحد أن يكون مشاهداً لكل أحد من الأمة فالواجب إذن أن يفرض إليه مهاجرة وسفر وإن كان فيه نوع مشقّة وكلفة من تعب الأسفار وإنفاق المال ومفارقة الأهل والولد والوطن والبلد، ونحن نذكر فضيلته من جهة السمع ثمّ نشير إلى ما ينبغي أن يوظف فيه من الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة عند كل حركة وركن من أركان الحجّ مما يجري من تلك الأركان مجرى الأرواح للأبدان، فإذن هَهُنَا أبحاث.

البحث الأول: أما الفضيلة فمن وجوه: الأول قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]. قال قتادة: لما أمر الله ﷻ خليله إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن في الناس ونادى أيها الناس إن لله بيتاً فحجّوه، وقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] قيل: التجارة في المواسم والأجر في الآخرة، ولما سمع بعض السلف هذا قال غفر لهم وربّ الكعبة.

الثاني: قال صلى الله عليه وآله: من حجّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وقد عرفت كيفية نفع العبادات في الخلاص من الذنوب.

الثالث: قال صلى الله عليه وآله: ما رأى الشيطان في يوم هو أصغر ولا أحقر ولا أغيض منه يوم عرفة، وما ذلك إلاّ لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إذ يقال من الذنوب ما لا يكفّرها إلاّ الوقوف بعرفة. أسنده الصادق عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وآله. وكان سرّ ذلك ما يحصل من رحمة الله ويفاض على أسرار العبادة التي قد صفّت بشدّة الإستعداد الحاصل من ذلك الموقف العظيم الذي يجتمع فيه العالم أشد اجتماع.

فإن الإجتماع سبب عظيم في الإنفعال والخشية لله وقبول أنواره كما سنبيّنه إن شاء الله.

الرابع: قال صلى الله عليه وآله: حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها، وحجة مبرورة ليس لها أجر إلاّ الجنة. قال صلى الله عليه وآله: الحجّاج والعمّار وفد الله وزوّاره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دعوه استجاب لهم، وإن شفعوا إليه شفّعهم.

السادس: روي عنه صلى الله عليه وآله من طرق أهل بيته عليهم السلام أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة وظنّ أن الله لم يغفر له. وفي فضل جزئيات الحج أخبار كثيرة تطلب من مظانها.

البحث الثاني: في الآداب الدقيقة وهي عشرة: الأول أن تكون النفقة حلالاً ويخلو القلب عن تجارة تشغله سوى الله تعالى. وفي الخبر من طريق أهل البيت إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج على أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة وقرّاؤهم للسمعة، وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تتّصل بالحج، فكل ذلك مانع لفضيلة الحج ومقصود الشارع منه.

الثاني: أن لا يساعَدَ الصادين عن سبيل الله والمسجد الحرام بتسليم المكوس إليهم فإن ذلك إعانة على الظلم وتسهيل لأسبابه وجرأة على سائر السالكين إلى الله، وليحتل في الخلاص فإن لم يقدر فالرجوع أولى من إعانة الظالمين على البدعة وجعلها سنّة.

الثالث: التوسع في الزاد وطيب النفس في البذل، والإنفاق بالعدل دون البخل والتبذير. فإن بذل الزاد في طريق مكة إنفاق في سبيل الله قال صلى الله عليه وآله: الحجّ المبرور ليس له أجر إلاّ الجنة، فقيل يا رسول الله ما برّ الحجّ؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام.

الرابع: ترك الرفث والفسوق والجدال كما قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والرفث كل لغو وفحش من الكلام، ويدخل في ذلك محادثة النساء بشأن الجماع المحرم، فإنها تهيّج داعيته وهي مقدمة له فتحرم. ومن لطف الشارع إقامة مظنّة الشيء مقام الشيء حسماً لمادّته، والفسوق الخروج عن طاعة الله، والجدال هو المماراة والخصومة الموجبة للضغائن والأحقاد وافتراق كلمة الخلق (الحق)؛ وكلّ ذلك ضد مقصود الشارع من الحج وشغل عن ذكر الله.

الخامس: أن يحجّ ماشياً مع القدرة، ونشاط النفس فإن ذلك أفضل وأدخل للنفس في الإذعان لعبودية الله، وقال بعض العلماء: الركوب أفضل لما فيه من مؤونة الإنفاق. ولأنه أبعد من الملال وأقل للأذى وأقرب إلى السلامة وأداء الحج. وهذا التحقيق غير مخالف لما قلناه، والحق التفصيل، فيقال: من سهل عليه المشي فهو أفضل فإنْ أضعف وأدى إلى سوء خلق وقصور عن العمل فالركوب أفضل لأنّ المقصود توفّر القوى على ذكر الله تعالى وعدم المشتغلات عنه.

السادس: أن يركب الزاملة دون المحمل لاشتماله على زيّ المترفين والمتكبّرين، ولأنه أخفّ على البعير، اللهم إلاّ لعذر. حج رسول الله صلى الله عليه وآله على راحلته وكان تحته رحل رثّ وقطيفة خلقه قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هيئته وشمائله، وقال: خذوا عنّي مناسككم.

السابع: أن يخرج رث الهيئة أقرب إلى الشعث غير مستكثر من الزينة وأسباب التفاخر فيخرج بذلك عن حزب السالكين، وشعار الصالحين. روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّما الحاج الشعث إلتفت يقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى زوّار بيتي قد جاؤوني شعثاً غبراً من كل فج، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:

٢٩] والتفث الشعث والإغبرار وقضاؤه بالحلق وتقليم الأظفار.

الثامن: أن يرفق بالدابّة ولا يحملها ما لا تطيق. كان أهل الورع لا ينامون على الدابّة إلاّ غفوة من قعود. قال ﷺ: لا تتخذوا ظهور دوّابكم كرسي، ويستحب أن ينزل عن دابته غدوّة وعشيّة يروحها بذلك فهو سنّة؛ وسرّ ذلك مراعاة الرقة والرحمة والتخلي عن القسوة والظلم ولأنه يخرج بالعسف عن قانون العدل، ومراعاة عناية الله وشمولها، فإنها كما لحقت الإنسان لحقت سائر الحيوان.

التاسع: أن يتقرب بإراقة دم ويجتهد أن يكون سميناً ثميناً. روي أن عمر أهدى نجيبه فطلبت منه بثلاثة مائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه رسول الله ﷺ وقال: بل أهدها وذلك لأن المقصود ليس تكثير اللحم، وإنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن رذيلة البخل، وتزيينها بجمال التعظيم لله لن ينال الله لحومها ولا دماءها، ولكن يناله التقوى منكم قال ﷺ: ما من عمل آدمي يوم النحر أحبّ إلى الله عز وجلّ من إهراقه دماً، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأضلافها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع الأرض فطيبّوا بها نفساً.

العاشر: أن يكون طيّب النفس بما أنفقه من هدى وغيره، وبما أصابه من خسران ونقيصة مال إن أصابه ذلك فإنّه بذلك يكون مكتفياً إلى الله سبحانه عن كل ما أنفقه متعوضاً عنه ما عند الله وذلك علامة لقبول حجّه.

البحث الثالث: في الوظائف القلبيّة عند كل عمل من أعمال الحج. اعلم أنّ أول الحج فهم موقع الحج في الدين ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة عنه ثم تهيئة أسباب الوصول إليه من الزاد والراحلة ثم السير ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال المشهورة.

وفي كل حالة من هذه الحالات تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر ونيّة للمريد الصادق وإشارة للفطن الحاذق إلى أسرار يقف عليها بصفاء قلبه وطهارة باطنه إن ساعده التوفيق.

أما الفهم فاعلم أنه لا وصول إلى الله إلاّ بتنحية ما عداه عن القصد من المشتهيات البدنية واللذات الدنيوية والتجريد في جميع الحالات والإقتصار على الضروريات، ولهذا انفرد الرهبان في الأعصار السالفة عن الخلق في قلل الجبال توحشاً من الخلق وطلباً للأنس بالخالق وأعرضوا عن جميع ما سواه، ولذلك مدحهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات والإقبال على الدنيا والإلتفات عن الله بعث نبيه ﷺ لإحياء طريق الآخرة، وتجديد سنّة المرسلين في سلوكها فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة في دينه فقال: أبدلنا بها الجهاد، والتكبير على كل شرف يعني الحج. وسئل عن السائحين فقال: هم الصائمون فجعل سبحانه الحج رهبانية لهذه الأمة فشرّف البيت العتيق بإضافته إلى نفسه ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حوله حرماً لبيته تفخيماً لأمره وتعظيماً لشأنه، وجعل عرفات كالميدان على باب حرمه وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فجّ عميق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت مستكينين له خضوعاً بجلاله واستكانة لعزته مع الإعتراف بتنزيهه عن أن يحومه مكان ليكون ذلك أبلغ في رقّهم وعبوديتهم، ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرقّ والعبودية بخلاف سائر العبادات كالزكاة التي هي إنفاق في وجه معلوم وللعقل إليه ميل، والصوم الذي هو كسر للشهوة التي هي عدوّ لله وتفرّغ للعبادة بالكفّ عن الشواغل، وكالركوع والسجود في الصلاة الذي هو تواضع لله سبحانه بأفعال على هيئات التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله تعالى.

وأما أمثال هذه الأعمال فإنه لا اهتداء للعقل إلى أسرارها فلا يكون للإقدام عليها باعث إلاّ الأمر المجرد وقصد امتثاله من حيث هو واجب الإتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه

المعين على الفعل من حيث هو فإن كل ما أدرك العقل وجه الحكمة في فعله مال الطبع إليه ميلاً تاماً فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والإنقياد، ولذلك قال صلى الله عليه وآله في الحج على الخصوص: لبيّك بحجة حقاً تعبداً ورقاً، ولم يقل ذلك في الصلاة وغيرها. وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه ربط نجاة الخلق بكون أعمالهم على خلاف أهوية طباعهم وأن يكون أزمتها بيد الشارع فيترددون في أعمالهم على سنن الإنقياد، ومقتضى الإستبعاد كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبّدات وصرفها عن مقتضى الطبع إلى مقتضى الإسترقاق، ولهذا كان مصدر تعجب النفوس من الأفعال العجيبة هو الذهول عن أسرار التعبدات.

وأما الشوق فباعثه الفهم أن البيت بيت الله وأنّه وضع على مثال حضرة الملوك فقاصده قاصد لله تعالى ومن قصد حضرة الله تعالى بالمثال المحسوس فجدير أن يترقىّ منه بحسب سوق شوقه إلى الحضرة العلوية والكعبة الحقيقية التي هي في السماء، وقد بنى هذا البيت على قصدها فيشاهد وجه ربه الأعلى بحكم وعده الكريم. وأما العزم فليستحضر في ذهنه أنه لعزمه مفارق للأهل والولد، هاجر للشهوات واللذات مهاجر إلى ربه، متوجه إلى زيارة بيته، وليعظم قدر البيت لقدر رب البيت، وليخلص عزمه لله ويبعده عن شوائب الرياء والسمعة. فإن ذلك شرك خفيّ، وليتحقق أنه لا يقبل من عمله وقصده إلاّ الخالص وأن من أقبح المقابح أن يقصد بيت الملك وحرمه مع اطلاع ذلك الملك على خائنة الأعين، وما تخفي الصدور ويكون قصده غيره. فإن ذلك استبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير.

أما قطع العلائق فحذف جميع الخواطر عن قلبه غير قصد عبادة الله والتوبة الخالصة له عن الظلم وأنواع المعاصي، فكل مظلمة علاقة وكل علاقة خصم حاضر متعلق به ينادي عليه ويقول أتقصد بيت الملوك وهو مطّلع على تضييع أمره لك في منزلك هذا وتستهين به ولا تلتفت إلى نواهيه وزواجره، ولا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيغلق دونك أبواب رحمته ويلقيك في مهاوي نقمته. فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فابرز إليه من جميع معاصيك واقطع علاقة قلبك عن الإلتفات إلى ما ورائك لتتوجه إليه بوجه قلبك كما أنت متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك. وليذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة.

فإن كل هذه أمثلة قريبة يترقى منها إلى أسرارها. وأما الزاد فليطلبه من موضع حلال فإذا أحسّ من نفسه بالحرص على استكثاره وطيبه وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغيّر قبل بلوغ المقصد فليذكر أنّ سفر الآخرة أطول من هذا السفر وأنّ زاده التقوى، وأما ما عداه لا يصلح زاداً ولا يبقى معه إلاّ ريثما هو في هذا المنزل. وليحذر أن يفسد أعماله التي هي زاده إلى الآخرة بشوائب الرياء وكدورات التقصير فيدخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا مَنَافِعَ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا لَهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]. وكذلك فليلاحظ عند ركوب دابته تسخير الحيوان له وحمله عنه الأذى، ويتذكر منّته تعالى لشمول عنايته ورأفته حيث يقول: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن﴾ [النحل: ٧]. فيشكره سبحانه على جزيل هذه النعمة وعظيم هذه المنّة، ويستحضر نقلته من مركبه إلى منازل الآخرة التي لا شك فيها، ولعله أقرب من ركوبه الحاضر فيحتاط في أمره، وليعلم أن هذه أمثلة محسوسة يترقى منها إلى مراكب النجاة من الشقّة الكبرى وهي عذاب الله سبحانه.

وأما ثوب الإحرام وشراؤه ولبسه فليتذكر معه الكفن ودرجه فيه ولعله أقرب إليه وليتذكر منها التسربل بأنوار الله التي لا مخلّص من عذابه إلاّ بها فيجهد في تحصيلها بقدر إمكانه، وأما الخروج من البلد فليستحضر عنده أنه يفارق الأهل والولد متوجهاً إلى الله سبحانه في سفر غير أسفار الدنيا، ويستحضر أيضاً غايته من ذلك السفر وأنّه متوجّه إلى ملك الملوك وجبّار الجبابرة في جملة الزائرين الذين نودوا فأجابوا وشوّقوا ما اشتاقوا، وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله طلباً لرضى الله وطمعاً في النظر إلى وجهه الكريم.

وليحضر أيضاً في قلبه رجاء الوصول إلى الملك والقبول له بسعة فضله. وليعتقد أنه إن مات دون الوصول إلى البيت لقي الله وافداً عليه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[النساء: ١٠٠] وليتذكر في أثناء طريقه من مشاهدة عقبات الطريق عقبات الآخرة ومن السباع والحيّات وحشرات القبر، ومن وحشة البراري وحشة القبر وانفراده عن الأنس فإن كل هذه الأمور جاذبة إلى الله سبحانه ومذكرة له أمر معاده، وأما الإحرام والتلبية من الميقات فليستحضر أنه إجابة نداء الله تعالى وليكن في قبول إجابته بين خوف ورجاء مفوضاً أمره إلى الله متوكلاً على فضله.

قال سفيان بن عيينة حج زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبيّ، فقيل له ألا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقول لا لبيّك ولا سعديك. فلما لبّى غشي عليه وسقط عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجّة فانظر (رحمك الله) إلى هذه النفس الطاهرة حيث بلغ بها الإستعداد لإفاضة أنوار الله، لم تزل الغواشي الإلهية والنفحات الربّانية تغشيها فيغيب عن كل شيء سوى جلال الله وعظمته، وليتذكر عند إجابته نداء الله سبحانه إجابة ندائه بالنفخ في الصور، وحشر الخلق من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة مجيبين لندائه منقسمين إلى مقرّبين وممقوتين ومقبولين ومردودين، ومردّدين في أول الأمر بين الخوف والرجاء تردّد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج أم لا؟

أما دخول مكة، فليستحضر عنده أنه قد انتهى إلى حرم الله الآمن وليرج عنده أن أمن بدخوله من عقاب الله وليخشَ أن لا يكون من أهل القرب، وليكن رجاؤه أغلب فإنّ الكريم عميم وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي وذمام اللائذ المستجير غير مضيّع خصوصاً عند أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، ويستحضر أنّ هذا الحرم مثال للحرم الحقيقي لترقي من الشوق إلى دخول هذا الحرم، والأمن بدخوله من العقاب إلى الشوق إلى دخول ذلك الحرم والمقام الأمين، وإذا وقع بصره على البيت فليستحضر عظمته في قلبه وليترق بفكره إلى مشاهدة حضرة رب البيت في جوار الملائكة المقربين وليتشوق أن يرزقه النظر إلى وجهه الكريم كما رزقه الوصول إلى بيته العظيم وليتكثّر من الذكر والشكر على تبليغ الله إيّاه هذه المرتبة، وبالجملة فلا يغفل عن تذكّر أحوال الآخرة في كل ما يراه فإن كل أحوال الحج ومنازله دليل يترقى منه إلى مشاهدة أحوال الآخرة.

وأما الطواف بالبيت، فليستحضر في قلبه التعظيم والخوف والخشية والمحبة، وليعلم أنه بذلك متشبّه بالملائكة المقربين الحافّين حول العرش الطائفين حوله ولا تظنّن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدئ بالذكر إلاّ منه ولا تختم إلاّ به. كما تبدأ بالبيت وتختم به، واعلم أن الطواف المطلوب هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي هي عالم الغيب. كما أن الإنسان الظاهر مثال الظاهر في عالم الشهادة للإنسان الباطن الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب وأنّ عالم الملك والشهادة مرقاة ومدرج إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له باب الرحمة وأخذت العناية الإلهية بيده لسلوك الصراط المستقيم، وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة الإلهية بأن البيت المعمور في السماء بإزاء الكعبة، وأنّ طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت. ولما قصرت مرتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أُمروا بالتشبّه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأنّ من تشبّه بقوم فهو منهم ثم كثيراً ما يزداد ذلك التشبيه إلى أن يصير في قوة المشبه به والذي يبلغ تلك المرتبة فهو الذي يقال إنّ الكعبة تزوره وتطوف به على ما رواه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله.

وأماالإستلام فليستحضر عنده أنه مبائع لله على طاعته مصمم عزيمته على الوفاء ببيعته ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠]. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه كما

يصافح الرجل أخاه. ولما قبّله عمر قال: إني لأعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلك لما قبلتك فقال له علي عليه السلام مه يا عمر، بل يضرّ وينفع، فإن الله سبحانه لما أخذ الميثاق على بني آدم حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية. ألقمه هذا الحجر ليكون شاهداً عليهم بأداء أمانتهم وذلك معنى قول الإنسان عند استلامه أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي عند ربك بالموافاة.

وأما التعلّق بأستار الكعبة والإلتصاق بالملتزم، فليستحضر فيه طلب القرب حباً لله وشوقاً إلى لقائه تبركاً بالمماسة ورجاء للتحصن من النار في كل جزء من البيت، ولتكن النيّة في التعلّق بالستر الإلحاح في طلب الراحة (الرحمة) وتوجيه الذهن إلى الواحد الحق، وسؤال الأمان من عذابه كالمذنب المتعلق بأذيال من عصاه المتضرع إليه في عفوه عنه المعترف له بأنه لا ملجأ إلاّ إليه، ولا مفزع له إلاّ عفوه وكرمه، وأنّه لا يفارق ذيله إلاّ بالعفو وبذل الطاعة في المستقبل، وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت فمثال لتردد العبد بفناء دار الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أُخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاءً لملاحظته بعين الرحمة كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي الملك في حقه من قبول أو ردّ فيكون تردّده رجاء أن يرحمه في الثانية إن لم يكن رحمه في الأولى. وليتذكر عند تردّده بين الصفة والمروة تردّده بين كفتي الميزان في عرصة القيامة، وليمثّل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات، وليتذكر تردّده بين الكفتين ملاحظاً للرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران.

وأما الوقوف بعرفه، فليتذكر بما يرى من ازدحام الناس وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم في التردّدات على المشاعر اقتفاءً لهم وسيراً بسيرتهم عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أُمّة أثر نبيّها وطمعهم في شفاعتهم وتجرّهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرّد والقبول، وإذا تذكر ذلك فليلزم قلبه الضراعة والإبتهال إلى الله أن يحشره في زمرة الفائزين المرحومين، ولكن رجاءه أغلب فإن الموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلائق بواسطة النفوس الكاملة من أوتاد الأرض ولا يخلو الموقف عن طائفة من الأبدال والأوتاد، وطوائف من الصالحين وأرباب القلوب. فإن اجتمعت همّهم وتجرّدت للضراعة نفوسهم، وارتفعت إلى الله أيديهم وامتدت إليه أعناقهم يرمقون بأبصارهم جهة الرحمة طالبين لها فلا تظنّن أنه يخيّب سعيهم من رحمة تغمرهم ويلوح لك من اجتماعهم الأُمم بعرفات والإستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد وهو السر الأعظم من الحج ومقاصده فلا طريق إلى استنزال رحمة الله واستدرارها أعظم من اجتماع الهمم، وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد. وأما رمي الجمار، فليقصد به الإنقياد لأمر الله وإظهار الرقّ والعبودية ثمّ ليقصد به التشبّه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله. فإن خطر له أنّ الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام ولم يعرض له فليعلم أنّ هذا الخاطر من الشيطان وهو الذي ألقاه على قلبه ليخيّل إليه أنه لا فائدة في الرمي، وأنه يشبه اللعب، وليطرده عن نفسه بالجد والتشمير في الرمي فيه يرغم فيه برغم أنف الشيطان. فإنه وإن كان في الظاهر رمياً للعقبة بالحصى فهو في الحقيقة رمي لوجه إبليس وقصم لظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثال أمر الله تعظيماً لمجرد الأمر. وأما ذبح الهدي. فليعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الإمتثال فليكمل الهدي، وأجزاه وليرج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً من النار.

هكذا ورد الوعد فكلما كان الهدي أكثر وأوفر كان الفداء به من النار أتمّ وأعمّ وهو يشبه التقرب إلى الملك بالذبح له وإتمام الضيافة والقرى والغاية منه تذكر المعبود الأول سبحانه عند النية في الذبح واعتقاد أنه متقرب به بأجزائه إلى الله فهذه هي الإشارة إلى أسرار الحج وأعماله الباطنة. إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى المتن.

قوله وفرض عليكم حج بيته الحرام إشارة إلى وجوب الحج على الخلق وهو معلوم بالضرورة من الدين ووصفه بالحرام لأنّه يحرم على الخلق أن يفعلوا فيه ما لا ينبغي من مناهي الشرع، وقوله الذي جعله قبلة للأنام مستندة قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وقوله يردونه ورود الأنعام مبالغة في تشبيه ورود الخلق البيت بورود الأنعام، ووجه الشبه أن الخلق يردّون البيت بازدحام عن حرص وشوق إليه كحال الأنعام عند ورودها الماء، وقيل: إنّ وجه الشبه هو ما بيّناه من عدم اطلاع الخلق على أسرار الحج وعلى ما تشتمل عليه المناسك من الحكمة الإلهية، ولما كان العقل الذي به تميّز الإنسان عن الأنعام وسائر الحيوان معزولاً عن إدراك هذه الأسرار كاد أن لا يكون بين الإنسان وبين مركوبه فرق في الورود إلى البيت وسائر المناسك وفيه بعد، وقوله ويألهون إليه ولوه الحمام إشارة إلى شوق الخلق في كل عام إلى ورود البيت كما يشتاق إليه الحمام الذي يسكنه، وقد راعى عليه السلام في هذه القرائن الأربع السجع. قوله جعله علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزته إشارة إلى ما ذكرنا من أن العقل لما لم يكن ليهتدي إلى أسرار هذه الأعمال لم يكن الباعث عليها إلاّ الأمر المجرّد وقصد امتثاله من حيث هو واجب الإتباع فقط، وفيه كمال الرق وخلوص الإنقياد، فمن فعل ما أمر به من أعمال الحج كذلك فهو المخلص الذي ظهرت عليه علامة المخلصين والمذعن المتواضع لجلال رب العالمين، ولما كان الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة لم يمكن أن يقال إن تلك العلامة مما يستفيد بها علماً بأحوال عبيده من طاعتهم ومعصيتهم فإذن يتعيّن أن يكون معناها راجعاً إلى ما به تتميز النفوس الكاملة التي انقادت لأوامر الله وأخلصت له العبادة عما عداها. فإنّ هذه العبادة من أشرف ما استعدت به النفس الإنسانية وإفادتها كمالاً تميّزت به عن أبناء نوعها فهي إذن علامة بها تميّز من اتّسم بها عن غيره، وقوله واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، إشارة إلى الحاج في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]. وفي الآثار أنّ إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت جاءه جبرائيل عليه السلام فأمره أن يؤذّن الناس بالحج فقال إبراهيم عليه السلام: يا رب وما يبلغ صوتي، قال الله أذّن وعليّ البلاغ، فعلا إبراهيم عليه السلام المقام وأشرف به حتى صار كأطول الجبال وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ونادى: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء لبيّك اللهم لبيّك. وفي الأثر إشارات لطيفة فإنه يحتمل أن يراد بقول إبراهيم وما يبلغ صوتي إشارة إلى حكم الوهم الإنساني باستبعاد عموم هذه الدعوة وانقياد الخلق لها وقصور الطبع عن ذلك، وبقول الحق سبحانه وعلى البلاغ الإشارة إلى تأييد الله سبحانه بما أوحى إليه من العلم ببسط دعوته وإبلاغها إلى من علم بلوغها إليه، وبعلوّ إبراهيم المقام حتى صار كأطول الجبال، وإقباله بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ودعوته إشارة إلى اجتهاده في التبليغ للدعوة وجذب الخلق إلى هذه العبادة بحسب إمكانه واستعانته في ذلك بأولياء الله التابعين له.

وأما إجابة من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء له فإشارة إلى ما كتبه الله سبحانه بقلم فضائه في اللوح المحفوظ من طاعة الخلق، وإجابتهم لهذه الدعوة على لسان إبراهيم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء وهم المراد بالسماع الذين اختارهم الله سبحانه من خلقه حتى أجابوا دعوته إلى بيته بحجّهم إليه بعد ما أهّلهم لذلك قرناً بعد قرن وأمّة بعد أخرى، وقوله وصدقوا كلمته إشارة إلى مطابقة أفعالهم لِما جاءت به الأنبياء من كلام الله سبحانه وعدم مخالفتهم وتكذيبهم لهم، وقوله ووقفوا مواقف الأنبياء إشارة إلى متابعتهم لهم أيضاً في مواقف الحج في ذكر الأنبياء هٰهُنا استدراج حسن للطباع اللطيفة المتشوقة إلى لقاء الله والتشبّه بأنبيائه عليهم السلام وملائكته، وقوله وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه إشارة إلى ما ذكرناه من أن البيت المعمور بإزاء الكعبة في السماء وأن طواف الخلق بهذا البيت يشبه طواف

الملائكة، وإحداقهم بالبيت المعمور والعرش فهم متشبّهون بالملائكة في الطواف.

والغاية أن يترقى من أخذ العناية بيده من هذا الطواف إلى أن يصير من الطائفين بالعرش والبيت المعمور، وقوله يحرزون الأرباح في متجر عبادته ويبادرون عنده موعد مغفرته شبّه عليه السلام العبادة بالبضاعة التي يتّجر بها. فالتاجر هو النفس ورأس المال هو العقل، ووجوه تصرفاته حركاته وسكناته الحسية والعقلية المطلوبة منه بالأوامر الشرعية والعقلية والأرباح هي ثواب الله وما أعدّه للمحسنين في جنّات النعيم وأقبح بمملوك يعدّ تصرفه في خدمة سيده متجراً يطلب به التكسب والربح وأحسن به إذا نظر إلى أنه أهل العبادة فحذف جميع الأعراض والخواطر في خدمته عن درجة الإعتبار وجعلها خالصة له لأنه هو، فأما كلامه عليه السلام بذكر الربح هَهُنَا فاستدراج حسن لطباع الخلق بما يفهمونه ويميلون إليه من حبّ الأرباح في الحركات ليشتاقوا فيعبدوا، وقوله وجعله للإسلام علماً أي علماً للطريق إلى الله وسلوك صراطه المستقيم؛ وهي الإسلام الحقيقي يهتدي عليها كما يهتدي بالعلم المرفوع للعسكر والمارة على مقاصدهم، وقوله فرض عليكم حجّه وأوجب حقّه وكتب عليكم وفادته إلى آخره تأكيد لما سبق وذكر للخطاب الموجب للحج وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧] وبالله العصمة والتوفيق.

٢ - ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين

أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، وَاسْتِسْلاَماً لِعِزَّتِهِ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ؛ إِنَّهُ لاَ يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، وَلاَ يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ، وَلاَ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاَصُهَا، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً مَا أَبْقَانَا، وَنَدَّخِرُهَا لأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا، فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الإِيمَانِ، وَفَاتِحَةُ الإِحْسَانِ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمٰنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَالأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلاَتِ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالْهُدَى خَامِلٌ، وَالْعَمَى شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمٰنُ، وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَخُذِلَ الإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ. أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلاَمُهُ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ، فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلاَفِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُون جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ، وَشَرِّ جِيرَانٍ. نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ.

أقول: صفين اسم موضع بالشام والإستسلام الإنقياد ووال فلان يئل وإلاً وعلى فعول إذا لجأ فنجا ومنه الموئل الملجأ، والفاقة الفقر ولا فعل لها، ومصاص كل شيء خالصه والذخيرة الجنينة، والأهاويل الأمور المخوّفة التي يعظم اعتبار النفس لها، وعزيمة الإيمان عقد القلب عليه، والمدحرة محل الدحر وهو الطرد والإبعاد، والمأثور المقدّم على غيره، والمأثور أيضاً المنقول، والمثلات جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء وهي العقوبة، والفتن جمع فتنة وهي كل أمر صرف عن قصد الله واشتغل عنه من بلاء ومحنة وهوى متّبع، وانجذم انقطع، والزعزعة الإهتزاز والإضطراب، والسواري الأساطين، والنجر الطبع والأصل، والخامل الساقط، وانهارت انهدمت، والمعالم الآثار لأن بها

يعلم الشيء ويستدل عليه، والشرك جمع شركة بفتح الشين والراء وهي معظم الطريق ووسطها، والمناهل المشارب، والسنابك أطراف مقدم الحوافر، الواحد سنبكة، والسهود مصدر كالجمود مرادف للسهاد والأرق، واعلم أنّ المراد بالحمد هٰهُنَا الشكر، واستتماماً وما بعدها من المنصوبات منصوبات على المفعول له. وقد جعل عليه السلام لحمده هٰهُنَا غايتين.

الأولى: منهما الإستتمام لنعمة الله وذلك لأن العبد يستعد بمزيد الشكر لمزيد النعمة وهو في ذلك ناظراً إلى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، لما تشتمل عليه الآية من البعث على رجاء المزيد.

والثانية الإستسلام لعزّته فإن العبد أيضاً يستعد بكمال الشكر لمعرفة المشكور وهو الله سبحانه، وهي مستلزمة للإنقياد لعزته والخشوع لعظمته وهو في ذلك ناظر إلى قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] لما تشتمل عليه الآية من التخويف المانع من مقابلة نعم الله تعالى بالكفر، ثم لما كان الإستعداد لتمام النعم والتأهّل لكمال الخضوع والإنقياد لعزّة الله سبحانه، إنما يتم بعد أن تكون العناية الإلهية آخذة بضبعي العبد وجاذبة له عن ورطات المعاصي مبعّدة له عن أسباب التورط فيها بكفاية المؤن والأسباب الداعية إلى ارتكاب أحد طرفي الإفراط والتفريط جعل عليه السلام للحمد غاية أُخرى هي الوسيلة إلى الغايتين المذكورتين وهي الإستعصام بالله سبحانه من معصيته، وعقّب ذلك الشكر بطلب المعونة منه على تمام الإستعداد لما سأل وشكر لأجله، وجعل لتلك الإستعانة علّة حاملة وهي الفاقة نحو غاية هي كفاية دواعي التفريط والإفراط بالجذبات الإلهية ولا شك أن الغايتين المذكورتين لا تتمّان بدون عصمته والمعونة بكفايته، وذلك قوله واستعصاماً من معصيته وأستعينه فاقة إلى كفايته.

قوله: إنّه لا يضل من هداه ولا يئل من عاداه ولا يفتقر من كفاه تعليل لطلبه المعونة على تحصيل الكفاية. فإنّه لما كان حصول الكفاية مانعاً من دواعي طرفي التفريط والإفراط كان العبد مستقيم الحركات على سواء الصراط وذلك هدى الله يهدي به من يشاء فكأنّه قال: وأستعينه على أن يرزقني الكفاية المستلزمة للهداية التي هي الغنى الحقيقي والملك الأبدي فإنّه لا يضل من هداه ولا ينجو من عذابه من عاداه وأعرض عن شكره والإستعانة به، وقد أطلق عليه السلام هٰهُنَا لفظ المعاداة لله كما أطلقها القرآن الكريم على ما هو من لوازمها وهو الإعراض عن عبادته والبغض لها ولمن تلبّس بها من عباده مجازاً. قوله فإنّه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن الضمير يعود إلى الله سبحانه، ولما كانت ذاته مقدسة عن الوزن والخزن. اللذين هما من صفات الأجسام فبالحري أن يكون المقصود رجحان عرفانه في ميزان العقل إذ لا يوازيه عرفان ما عداه. بل لا يخطر ببال العارف عند الإخلاص سواه حتى يصدق هناك موازنة يقال فيها أرجح، ويكون المراد بالخزن خزن ذلك العرفان في أسرار النفوس القدسيّة، وقيل: الضمير يرجع إلى ما دلّ عليه قوله أحمده من الحمد على طريقة قولهم من كذب كان شراً له.

قوله وأشهد أن لا إله إلا الله، هذه الكلمة أشرف كلمة وحّد بها الخالق عزّ اسمه وقد أشرنا في الخطبة الأولى إلى ما تضمنه تركيبها من حسن الوضع المؤدي للمقصود التام منها، وبالجملة هي منطبقة على جميع مراتب التوحيد، وقد زعم النحويّون أن فيها شيئاً مقدراً يكون خبراً للأبد. قالوا: وتقديره لا إله لنا إلا الله أو لا إله موجوداً إلاّ الله، واعلم أنّ كل تقدير يقدّر هٰهُنَا فهو مخرج لهذه الكلمة عما يفيد إطلاقها ويفيدها تخصيصاً لم يكن وهو مما يجده الإنسان من نفسه عند الإعتبار. فالأولى أن يكون خبر لا قولنا إلاّ الله ولا حاجة إلى تقدير أمر زائد، وقد وردت لهذه الكلمة فضائل:

الأولى: قوله صلى الله عليه وآله: أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله.

الثانية: عن ابن عمر قال: قال صلى الله عليه وآله: ليس على أهل لا إله إلا الله وحشية في الموت، ولا عند النشر وكأنّي أنظر إلى أهل لا إله إلاّ الله عند الصيحة ينفضون شعورهم من التراب ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن.

الثالثة: يروى أن المأمون لما انصرف من مرو يريد

العراق واجتاز بنيسابور، وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا عليه السلام فقام إليه قوم من المشايخ، وقالوا: نسألك بحق قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله أن تحدثنا بحديث ينفعنا فروى عنه أبيه عن آبائه رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرائيل عن ربّه أنه قال: لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي.

الرابعة: قال صلى الله عليه وآله: أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله. قال بعض العلماء: إن الله تعالى جعل العذاب عذابين:

أحدهما: السيف في يد المسلمين.

والثاني: عذاب الآخرة، والسيف في غلاف يرى والنار في غلاف لا يرى فقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وآله: من أخرج لسانه من الغلاف المرئي وهو الفم فقال: لا إله إلا الله أدخلنا السيف في الغمد المرئي، ومن أخرج لسان قلبه من الغلاف الذي لا يرى وهو غلاف الشرك فقال: لا إله إلاّ الله أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة واحدة بواحدة جزاء، ولا ظلم اليوم.

قوله شهادة ممتحناً إخلاصها معتقداً مصاصها، مصدر وصف بوصفين جرياً على غير من هماله، والممتحن المختبر أراد أنه مختبر نفسه في إخلاص هذه الشهادة واجد لها عريّة عن شبهات الباطل، معرضة عن كل خاطر سوى الحق سبحانه متمثلة فيها حلية التوحيد وخالصة مبرّاة عن شوائب الشرك الخفيّ. كما عرفت من التوحيد المطلق والإخلاص المحقّق.

قوله نتمسك بها أبداً ما أبقانا وندّخرها لأهاويل ما يلقانا فإنها عزيمة الإيمان إلى قوله ومدحرة الشيطان. إشارة إلى أنه يجب التمسك بها مدّة البقاء في دار الدنيا لعزائم الأمور والإستعداد بها لأحوال الآخرة، وشدائدها ثم عقبّها بذكر علّة التمسك بها وإدّخارها، وذكر أربعة أوصاف يوجب ذلك:

أولها: أنّها عقيدة الإيمان وعزيمته المطلوبة لله سبحانه من خلقه وكل ما عداها مما وردت به الشريعة من قواعد الدين وفروعه فهي حقوق لها وتوابع ومتممّات ومعيّنات على الوقوف على سرّها والوصول إلى إخلاصها.

وثانيها: أنها فاتحة الإحسان فإنّها أول كلمة افتتحت به الشريعة واستعد العبد بالسلوك في طريق إخلاصها لإفاضة إحسان الله ونعمه شيئاً فشيئاً، وكما أنّها أوّل مطلوب لله من خلقه في فطرتهم الأصلية وعلى ألسنة رسله عليهم السلام فهي أيضاً غايتهم التي ينالون بإخلاصها واستصحاب مصاصها السعادة الباقية.

وثالثها: أنها مرضاة الرحمن، وذلك ظاهر إذ هي محل رضوان الله والسبب المستنزل لتمام رحمته ومزيد نعمته علي محل تنور بها، ورفع السخط عنه كما قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله الخبر.

ورابعها: أنها مدحرة الشيطان وذلك أيضاً ظاهر فإن غاية دعوة الشيطان هو الشرك الظاهر أو الخفيّ، وهذه الكلمة إنّما وضعت في مقابلة دعوته فظاهرها دافع لظاهر ما يدعو إليه، وباطنها قامع لباطن ما يدعو إليه، وكما أن الشرك على مراتب لا تتناهى فكذلك الإخلاص في هذه الكلمة فبقدر كل مرتبة من السلوك في إخلاصها يسقط في مقابلته مرتبة من الشرك، ويبطل سعي الشيطان في بناء تلك المرتبة إلى أن يتمّ الإخلاص بقدر الإمكان، وقد انهدمت قواعد الشيطان بكلّيتها وصار أبعد مطرود عن قبول ما يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

قوله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله فجرى بها لسانه وأطمأن بها قلبه حرمت النار عليه، وإنّما قرنت هذه الكلمة بكلمة التوحيد. لأنّك عرفت أن غرض الشريعة إنما هو إخلاص تلك الكلمة، ولن يحصل إخلاصها إلاّ بسلوك مراتبها، ولن يحصل ذلك إلاّ بمعرفة كيفية السلوك، وعلمت أن مدار إرسال الرسل ووضع الشرائع كيفيّة السلوك في درجات الإخلاص فكانت الشهادة والإقرار بصدق المبلّغ لهذه الرسالة والمبيّن لطريق الإخلاص أجل كلمة بعد كلمة الإخلاص لأنها بمنزلة الباب لها فلأجل ذلك قرنت بها.

قوله أرسله بالدين المشهور إلى قوله والأمر الصادع، إشارة إلى تعظيم الرسول ﷺ بما جاء به، وأشار بالدين المشهور إلى دينه المشتمل على تعريف كيفية سلوك الصراط المستقيم، وبالعلم المأثور إلى إعتبار كون ذلك الدين هادناً قائداً للخلق يهتدون به إلى حضرة القدس التي هي مقصد جميع الشرائع إذ ذلك هو شأن العلم، وكونه مأثوراً إشارة إمّا إلى كونه مقدماً على سائر الأديان، كما يقدم العلم ويهتدي به قوم بعد قوم أو إلى نقله من قرن إلى قرن، وبالكتاب المسطور إلى القرآن المسطور حقائقه في ألواح النفوس، وبالنور الساطع والضياء اللامع إلى السر الذي جاء به الرسول ﷺ يحب هذه الطريقة وأمر بقصده منها وهو نور يستشرقه مرآى النفوس الصافية عن صداء الشبهات وكدورات الشرك بخصوصية الأمر، ووصفه بكونه صادعاً إلى اعتبار قهره بأوامر الله وردعه لمن لم يسلك الطريق المأمور بسلوكها عن رغبة واختبار حتى شقّ بالأمر الإلهي وجه باطله وصدع ما كان ملتئماً من بناء فساده كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

قوله إزاحة للشبهات إلى قوله وتخويفاً بالمثلات إشارة إلى الوجوه القريبة لمقاصد البعثة، وذكر عليه السلام منها ثلاث مقاصد:

أولها: إزاحة الشبهات وهو أهمها فإنّ حذف شواغل الدنيا وشبهات الباطل عن قلوب الخلق أهم مقاصد الشارع.

الثاني: سبب تلك الإزاحة وهو الإحتجاج على الخلق بالحجج الواضحة لهم والخطابات الواصلة إلى أقصى أذهانهم كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

الثالث: التحذير بالآيات النازلة بالعصاة، والتخويف بالعقوبات الواقعة بأهل الجنايات كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]. وهذا الإنذار مؤيد للحجج والخطابات الشرعية في حق من لم يرزق صفاء ذهن يؤثر فيه مجرد الخطابات فيحتاج إلى التحذير والإنذار.

قوله والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين إلى قوله وقام لواؤه.

أقول: يحتمل أن يكون الواو في قوله والناس للإبتداء، ويكون ذلك منه عليه السلام شروعاً في ذم أحوال زمانه وما هم فيه من البلاء والمحنة والمخاوف والحروب بسبب تشتت أهوائهم واختلاف آرائهم، وغرضه عليه السلام تنبيه السامعين على ما عساهم غافلين عنه مما فيه من الفتن المشتملة على المذام التي عدّدها لينبهوا من رقدة الغفلة، ويشمّروا في سلوك سبيل الحق عن ساق الجد والإجتهاد، وذكر من المذام التي حصل الناس عليها بسبب ما هم فيه من الفتن أموراً يرجع حاصلها، وإن تعددت إلى ترك مراسم الشريعة، وعدم سلوك سبيل الحق، وإرتكاب طريق الباطل فانقطاع حبل الدين إشارة إلى انحراف الخلق عن سواء السبيل وعدم تمسّكهم بأوامر الله سبحانه حال وقوع تلك الفتن، واستعمال لفظ الحبل هَهُنَا وفي التنزيل الإلهي: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. إستعارة لقانون الشريعة المطلوب منها لزومه والتمسك به، وكذلك استعمال السواري إما لقواعد الدين وأركانه المأمور بتشييدها كالجهاد الذي هو أقوى مطالبة لذلك الوقت من الناس، ويكون المراد بتزعزعها عدم استقامتها واستقرار الناس عليها مجازاً.

وإما لأهل الدين الذي به يقوم ورجاله العاملين به الذين لم يأخذهم في الله لومة لائم، وتزعزعها موت أولئك أو خوفهم من الأعداء المارقين وكل ذلك إستعارة لطيفة ووجوه المشابهة فيها ظاهرة، وأشار باختلاف النجر إلى اختلاف الأصل الذي كان يجمع الخلق والفطرة التي فطر الناس عليها ووردت الشريعة بلزومها فإنها كانت متفقة بوجود الرسول ﷺ فاختلف بعده بسلوك كل فرقة مذهباً غير الأخرى على أن النجر هو الحسب ايضاً؛ والحسب هو الدين، فيحتمل أن يريد واختلف الدين، وأشار بتشتت الأمر إلى تفرّق كلمة المسلمين، وبقوله وضاق المخرج وعمي

المصدر إلى أن الخلق بعد تورطهم في فتن الشبهات الموجبة لتفرّق كلمتهم ضاق مخرجهم منها وعمي عليهم طريق صدورهم منها، والعمى هٰهُنَا هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهو إستعارة حسنة إذ العمى حقيقة عبارة عن عدم ملكية البصر، ووجه المشابهة أن الأعمى كما لا يهتدي لمقاصده المحسوسة بالبصر لعدمه كذلك أعمى البصيرة لا يهتدي لمقاصده المعقولة لاختلال بصيرته وعدم عقله لوجوه رشده، وأشار بخمول الهدى إلى عدم ظهوره بينهم حال عمّاهم عن مصدرهم من ضلالهم إذ كان ضَوْؤه ساقطاً بينهم غير موجود، والفاء لعطف الجملة الأسميّة على الفعليّة، وأشار بشمول العمي إلى اشتراكهم في عدم رؤيتهم لسبيل الحق الذي به يخرجون من شبهات الباطل وظلمته.

ثم أشار بعصيانهم للرحمن ونصرهم للشيطان إلى أن ما هم فيه جور عن الحق ونصرة للباطل الذي هو مأمول الشيطان فبالحري أن يكون نصرة للشيطان وعصياناً للرحمن ومن نصر الشيطان بالذبّ على الباطل فقد خذل الإيمان بتركه تشييد قواعده والذب عنه، وبترك الإيمان وخذلانه لا يبقى له دعامة يقوم بها وتحمله، والإشارة بالدعائم والمعالم إلى دعاة الحق وحملة الإيمان وبإنهيارها إلى عدمهم أو عدم قبول قولهم، وبتنكّر المعالم إلى عدم معرفتهم في الخلق لقلتهم، ويحتمل أن يراد بالدعائم القواعد التي للدين كالجهاد وغيره وإنهيارها عدم القيام بها، وبتنكّر المعالم إلى انمحائه من القلوب التي هي معالم الدين ومحاله، وبدروس سبله وعفاء شركه إلى أنه لم يبق له أثر يعرف به، وكلُّ ذلك مبالغة في ضعف الدين ومسالك الشيطان، ومناهله ما يجرّهم إليه من مناهي الله سبحانه فيتّبعونه فيها، وأعلام الشيطان ولواؤه إما القادة إليه والدعاة إلى باطله المقتدى بهم أو صور الباطل التي تصورت في أذهان الخلق، وصارت غاياتاً لهم فانقادوا لها واتّبعوها فهم كالأعلام والألوية في الحروب وغيرها.

قوله في فتن داستهم بأخفافها ووطِأتهم بأظلافها وقامت على سنابكها يحتمل أن يكون في فتن متعلقاً بهم سارت أعلامه وقام لواؤه، ويحتمل أن يتعلق بمقدر يكون خبراً ثانياً لقوله والناس، وهذه الفتنة هي التي أشار إليها أولاً وإنما أوردها ثانياً بزيادة أوصاف فبالغ عليه السلام في تشبيهها بأنواع الحيوان فاستعار لها أخفافاً وأظلافاً وحوافراً وجعل لها دوساً ووطأً وقياماً على الحوافز، ويحتمل أن يكون هناك إضمار أي داستهم بأخفاف إبلها ووطِأتهم بأظلاف بقرها وقامت على سنابك خيلها فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه وحينئذ يكون التجوّز في نسبة الوطئ والدوس والقيام إليها فقط وهو المجاز في الإسناد.

قوله فهم فيها تائهون. الفاء للتعقيب وأشار بتيههم إلى ضلالهم عن القصد في ظلمات الفتن وبحيرتهم إلى تردّدهم في أن الحق في أي جهة وعدم درايتهم أهو مع عليّ أم مع معاوية وبجهلهم إلى عدم عملهم بالحق واعتقاد بعضهم الباطل عن شبهة تحكيم الحكمين واعتقاد آخرين له عن شبهة دم عثمان؛ وأمثال ذلك مما هو جهل مركب وبكونهم مفتونين إلى فتنة غيرهم لهم وإضلاله عن الحق وهو الشيطان واتباعه.

قوله في خير دار وشرّ جيران هذا الظرف يجوز أن يكون كالذي قبله في كونه خبراً ثالثاً، ويجوز أن يتعلّق بقوله تائهون أو ما بعده من الأفعال، وقد اختلف الشارحون لكلام علي عليه السلام في مراده بخير دار فقال بعضهم: أراد الشام لأنها الأرض المقدسة وأهلها القاسطون، وقال معنى قوله نومهم سهود وكحلهم دموع أنهم لا ينامون اهتماماً بأمورهم وإعداد أنفسهم للقتال ويبكون قتلاهم، وقوله بأرض عالمها ملجم يريد نفسه والناصرين للحق، وجاهلها مكرم يريد معاوية، وقال آخرون: اراد بخير دار العراق وشرّ جيران يعني أصحابه المستصرخ بهم للجهاد، وإنّما كانوا شر جيران أي شر متجاورين لتخاذلهم عن الحق ونصرة الدين لأن خير المتجاورين المتعاضدون في الله، وقوله ونومهم سهود أي خوفاً من الحرب وحيرة في التدبير، وكحلهم دموع أي يبكون قتلاهم أيضاً، وقيل نفاقاً لأن من تمّ نفاقه ملك عينيه، وقال آخرون أراد بها دار الدنيا لأنها دار

العمل وأكثر الخلق بها أشرار جهّال وليس المقصود بكونها خيراً تفضيلها على غيرها ليوهم أنها أفضل من الآخرة، بل إثبات فضيلتها فقط فإنّ أفعل التفضيل كما يرد لإثبات الأفضلية كذلك يرد لإثبات الفضيلة والدنيا دار فاضلة لمن قام فيها بأوامر الله وراعى ما خلق لأجله وهي مزرعة الآخرة كما ورد به الحديث وكون أهلها شرّ جيران. فأما شر متجاورين كما سبق أو شرّ جيران لمن التجأ إليهم وجاورهم للإنتصار بهم على أعداء الدين وذلك لعدم نصرتهم له والقيام معه.

وقوله نومهم سهود، وكحلهم دموع ظاهرة عموم لفظ الناس في أصحابه وأصحاب معاوية ومن عناه أمر الحرب ودخل فيها، وقد بالغ عليه السلام في وصفهم بقلّة النوم لخوف الحرب وهجوم بعضهم على بعض وشدّة اهتمامهم بأمر القتال وحيرتهم في تيه الباطل حتى ألحق قلة نومهم بالسهد لاستلزامه عدم النوم فاستعار له لفظه وصيّر هو هو.

وقوله وكحلهم دموع بالغ في تشبيه دموعهم بالكحل وصيّره هو هو.

ووجه المشابهة أن الدموع لكثرته منهم وملازمته أجفانهم أشبه في ذلك الأمر الكثير المعتاد لعيونهم وهو الكحل فلذلك استعار لفظ الكحل له، وقوله بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرّم الجار والمجرور حكمه حكم الظرف الذي قبله فيما يتعلّق به ثم إن حملنا خير دار على الدنيا. كان قوله بأرض تخصيصاً لمكان الناس من الدنيا فكأنه قال والناس في خير دار هي الدنيا، وهم منها بأرض من حالها أن عالمها ملجم بلجام الذل من أهلها عن المر بالمعروف والنهي عن المنكر لعدم العلم بينهم وغلبة الجهل عليهم، وجاهلها مكرّم لمناسبته لهم في الجهل وموافقته لهم على الباطل، ويكون المراد بتلك الأرض إمّا الشام أو العراق، وإن حملنا خير دار الشام أو العراق كان قوله بأرض من حالها كذا يجري مجرى البيان، ويكون الذم اللاحق من هذا الكلام راجعاً إلى أهل تلك الأرض لتعلق إلجام العالم، وإكرام الجاهل بهم وإن نسب ذلك إليها لكونهم بها إذ لو رددنا الذم إلى الأرض لنافى ذلك وصفه لها بأنّها خير دار،

ويحتمل أن يكون الواو في قوله والناس للحال والعامل أرسله، والفتن المشار إليها هي فتن العرب في الجاهلية وحال البعثة وخير دار يعني مكة وشرّ جيران يعني قريشاً، والعالم الملجم هو من كان حينئذ عالماً بصدق الرسول وحقّ بعثته فهم ملجم بلجام التقية والخوف. والجاهل المكرّم هو من كذبه وهذا الإحتمال حسن، واعلم أنّ الذي يتبادر إلى الذهن أن هذا القدر الذي أورده السيد من هذه الخطبة فصول ملفقة ليست على نظامها التي خرجت عليه وإن كان كذلك فربما يلوح لها لو انتظمت مقاصد توضح ما أورده الناس، واختلفوا فيه منها، والله أعلم.

ومنها يعني آل النبي عليه الصلاة والسلام:

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حِكَمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ.

أقول: واللجأ الملجأ، والموئل المرجع من آل يؤول إلى كذا إذا رجع وانتهى إليه، والإنحناء الإعوجاج، والفرائص جمع فريضة وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف لا تزال ترعد من الدابة، وقد وردت هذه القرائن الأربع بالسجع المتوازي، والضمائر المفردة هَهُنَا كلها راجعة إلى الله تعالى إلاّ الضمير في ظهره وفرائضه فإنهما للرسول صلى الله عليه وآله كما سبق ذكر الله ورسوله في صدر الخطبة، وقيل الكل للرسول صلى الله عليه وآله، وأشار بكونهم موضع سرّه إلى كمال استعداد نفوسهم عليهم السلام لأسرار الله وحكمته إذ الموضع الحقيقي للشيء هو ما قبله واستعد له، وبكونهم ملجأ أمره إلى أنهم الناصرون له والقائمون بأوامر الله والذابّون عن الدين فإليهم يلتجأ وبهم يقوم سلطانه، وكونهم عيبة علمه مرادف لكونهم موضع سرّه إذ يقال في العرف فلان عيبة العلم إذا كان موضع أسراره، ولفظ العيبة إستعارة لنفوسهم الشريفة ووجه المشابهة ظاهر إذ العيبة لما كان من شأنها حفظ ما يودع فيها وصائنه عن التلف والأدناس، وكانت أذهانهم الطاهرة حافظة للعلم عن عدمه وصائنة له عن تدنّسه بأذهان غير أهله لا جرم

حسنت إستعارة لفظ العيبة لأذهانهم، ويكونهم موئل حكمه إلى كونهم مرجعاً لحكمته إذا ضلّت عن أذهان غيرهم فمنهم تطلب وعنهم تكتسب، وبكونهم كهوف كتبه إلى أنهم أهل حفظها ودراستها وتفسيرها وعندهم علمها وتأويلها، والكتب إشارة إلى القرآن وما قبله من كتب الله كما نقل عنه عليه السلام في موضع آخر لو كسرت إلى الوسادة ثم جلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم، والله ما من آية نزلت في برّ أو بحر أو سهل أو جبل أو سماء أو أرض أو ليل أو نهار، إلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت وفي أي وقت نزلت، وإستعارة لفظ الكهف قريبة من إستعارة لفظ العيبة، وبكونهم جبال دينه إلى دين الله سبحانه بهم يعتصم عن وصمات الشياطين وتبديلهم وتحريفهم كما يعتصم الخائف بالجبل ممن يؤذيه وهي استعارة لطيفة، وقوله بهم أقام إنحناء ظهره إشارة إلى أن الله سبحانه جعلهم له أعضاداً يشدّون أزره، ويقوّمون ظهره ويؤيدون أمره؛ وإنحناء الظهر كناية عن ضعفه في بدء الإسلام فبالحري أن يكون إقامتهم لإنحناء ظهره تقويتهم ذلك الضعف بالنصرة للدين والذب عنه، وقوله وأذهب ارتعاد فرائصه أي أن الله أزال عنه بمعونتهم خوفه الذي كان يتوقعه من المشركين على حوزة الدين وهو كناية عن الشيء ببعض لوازمه إذ كان ارتعاد الفرائص من لوازم شدة الخوف، وكل هذه الأمور ظاهرة لأهله الأدنين من بني هاشم كالعباس وحمزة وجعفر وعلي بن أبي طالب في الذب عن الرسول صلى الله عليه وآله والهداية إليه والبلاء في الدين والله أعلم.

ومنها يعني قوماً آخرين:

زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ لاَ يُقَاسُ بَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلاَ يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً: هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ. إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي. وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلاَيَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ، الآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!

أقول: الغرور الغفلة، والثبور الهلاك، والقياس نسبة الشيء إلى الشيء وإلحاقه به في الحكم، وفاء يفيء رجع، والغلوّ تجاوز الحدّ الذي ينبغي إلى ما لا ينبغي، والتالي التابع، والولاية الاسم من قولك ولّيت الأمر إليه وليّاً، وأصله القرب من الشيء والدنو منه، والخصائص جمع خصيصة وهي فعلية بمعنى فاعلة أي خاصة أو مختصة، واعلم أن قوله زرعوا الفجور وسقوه الغرور استعارة لطيفة. فإن الفجور لما كان هو الخروج عن ملكة العفّة والزهد وتجاوزها إلى طرف الإفراط منهم، وكان معنى الزرع إلقاء الحبّ في الأرض إستعارة عليه السلام لفظ الزرع لبذر الفجور في أراضي قلوبهم، ولأن انتشاره عنهم ونموّه فيهم يشبه نمو الزرع وانتشاره في الأرض.

ولما كان غرورهم وغفلتهم عن الطريق المستقيم بسبب عدولهم عنها وتجاوزهم إلى طرف الإفراط ومهاوي الهلاك وهو مادة تماديهم في غيّهم وزيادة فجورهم وعدولهم عن سواء السبيل أشبه الماء الذي هو سبب حياة الزرع ونموه ومادة زيادته ولأجلها يناسب إستعارة لفظ السقي الذي هو خاصة الماء له، ونسبته إليهم، ثم لما كانت غاية ذلك الفجور هلاكهم في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بعذابها لا جرم أشبهت تلك الغاية الثمرة فاستعير لكونها غاية لهم لفظ الحصاد ونسب إليهم، وقد اشتملت لفظ هذه الألفاظ مع حسن الإستعارة على الترصيع، قال الوبري رحمه الله الإشارة بهذا الكلام إلى الخوارج، وقيل في المنافقين كما ورد مصرّحاً به في بعض النسخ، وأقول: يحتمل أن يكون متناولاً لكل من نابذه عليه السلام وخرج عن طاعته زاعماً أنه بذلك متعصب للدين وناصر له؛ وذلك لأن الفجور كما عرفت عبور وتجاوز إلى طرف الإفراط وكل من نابذه وهو مدعي أنه طالب للحق فقد خرج في طلبه للحق عن حاق العدل وتعدّاه إلى طرف الفجور والغلو، ويدخل في ذلك القاسطون وهم أصحاب معاوية، والمارقون وهم الخوارج ومن في معناهم إذ زعم الكل أنهم بقتاله طالبون للحق ناصرون له.

قوله لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد إلى آخره، مدح لهم مستلزم لإسقاط غيرهم عن بلوغ درجتهم واستحقاق منزلتهم، والكلام وإن كان عاماً في تفضيل آل محمد على كل من عداهم من أمته إلاّ أنه خرج على سبب وهو قتاله عليه السلام مع معاوية فهو إذن مشير إلى تفضيل نفسه على معاوية وعدم ترشحه للخلافة فقوله لا يقاس بآل محمد من هذه الأمّة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، إشارة إلى عدم مناسبة غيرهم لهم في الفضل، والنعمة هَهُنَا نعمة الدين والإرشاد إليه، والحكم ظاهر الصدق فإن المنعم عليه بمثل هذه النعمة التي لا يمكن أحداً أن يقابلها بجزاء لا يتأهل أبداً أن يصير في قوة المنعم، وخواصّه الذين اختصهم بمزيدها على حسب استحقاقهم واستعدادهم التام الوافر على تأهّل غيرهم لها، ولا يبلغ درجتهم حتى يقوم مقامهم مع وجودهم في إفاضة هذه النعمة، وإعداد سائر الأُمّة لها وتعليمهم وإرشادهم إلى كيفية الوصول بها إلى الله سبحانه.

وقوله هم أساس الدين إشارة إلى أن بهم استقامته وثباته، وتفرعه عنهم كما يقوم البناء على أساسه، وكذلك قوله وعماد اليقين، وقوله إليهم يفيء الغالي إشارة إلى أنَّ المتجاوز للفضائل الإنسانية التي مدارها على الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة إلى طرف الإفراط منها يرجع إليهم ويهتدي بهم يلحق التالي إلى أن المقصر عن بلوغ هذه الفضائل المرتكب لطرف التفريط في تحصيلها يلحق بهم عند طلبه لها، ومعونة الله له بالهداية إلى ذلك، وقوله ولهم خصائص حق الولاية، إشارة إلى أن ولاية أُمور المسلمين وخلافة رسول الله ﷺ، لها خصائص هي موجودة فيهم وشروط بها يتأهل الشخص لها، ويستحقها، وتلك الخصائص ما نبّهنا عليها من الفضائل الأربع النفسانية، ولا شك في صدقه عليه السلام في ذلك فإنّ هذه الفضائل وإن وجد بعضها أو كلها في غيرهم فعنهم أُخذ وإليهم فيها انتسب، وهل يقايس بين البحر والوشل، وقوله وفيهم الوصية والوراثة إشارة إلى إختصاصه عليه السلام بوصية رسول الله ﷺ واختصاص أهله بوراثته وقيل أراد بالوراثة ما يراه هو أنه أولى به من أمر الخلافة، قوله الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله (في بعض النسخ قد رجع) وذلك إشارة منه عليه السلام إلى أن الإمامة كانت في غير أهلها وأنّه هو أهلها والآن وقت رجوعها إليه بعد انتقالها عنه، ولفظ الحق وإن كان يحتمل حقاً آخر غير الإمامة إلاّ أنها المتبادرة إلى الذهن من اللفظ هَهُنَا وبالله التوفيق والعصمة.

٣ - ومن خطبة له عليه السلام

وهي المعروفة بالشقشقية:

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلاَنٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى. يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ؛ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً. وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذىً، وَفِي الْحَلْقِ شَجاً، أَرَىٰ تُرَاثِي نَهْباً، حَتَّى مَضَىٰ الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلاَنٍ بَعْدَهُ. (ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الأَعْشَىٰ):

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا
وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآِخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلاَمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا، وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ؛ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ؛ حَتَّى إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا للهِ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ

الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هٰذِهِ النَّظَائِرِ! لٰكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا؛ فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ، وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ، إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ!. فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلاَمَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا!. أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لاَ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ!

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، قال له ابن عباس رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين، لو اطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: هَيْهَاتَ يَابْنَ عَبَّاسٍ، تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ.

قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام أن لا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

أقول: اعلم أن هذه الخطبة وما في معناها مما يشتمل على شكايته عليه السلام وتظلمه في أمر الإمامة هو محل الخلاف بين الشيعة وجماعة من مخالفيهم. فإن جماعة من الشيعة ادّعوا أنّ هذه الخطبة وما في حكمها مما اشتمل عليه هذا الكتاب منقول على سبيل التواتر وجماعة من السنة بالغوا في إنكار ذلك حتى قالوا: إنه لم يصدر عن علي عليه السلام شكاية في هذا الأمر ولا تظلم أصلاً، ومنهم من أنكر هذه الخطبة خاصة ونسبها إلى السيد الرضي والتصدّر للحكم في هذا الموضع هو محل التهمة للشارحين، وأنا مجدّد لعهد الله على أنّي لا أحكم في هذا الكلام إلاّ بما أجزم به أو يغلب على ظني أنه من كلامه أو هو مقصوده عليه السلام ، فأقول: إن كل واحد من الفريقين المذكورين خارج عن العدل.

أما المدّعون لتواتر هذه الألفاظ من الشيعة فإنّهم في طرف الإفراط وأما المنكرون لوقوعها أصلاً فهم في طرف التفريط، أما ضعف كلام الأولين فلأن المعتبرين من الشيعة لم يدّعوا ذلك ولو كان كل واحد من هذه الألفاظ منقولاً بالتواتر لما اختص به بعض الشيعة دون بعض، وأما المنكرون لوقوع هذا الكلام منه عليه السلام فيحتمل إنكارهم وجهين:

أحدهما: أن يقصدوا بذلك توطية العوام، وتسكين خواطرهم عن إثارة الفتن والتعصبات الفاسدة ليستقيم أمر الدين ويكون الكل على نهج واحد فيظهروا لهم أنه لم يكن بين الصحابة الذين هم أشراف المسلمين وساداتهم خلاف ولا نزاع ليقتدي بحالهم من سمع ذلك، وهذا مقصد حسن ونظر لطيف لو قصد.

والثاني: أن ينكروا ذلك عن اعتقاد أنه لم يكن هناك خلاف من الصحابة ولا منافسة في أمر الخلافة والإنكار على هذا الوجه ظاهر البطلان لا يعتقده إلاّ جاهل بسماع الأخبار لم يعاشر أحداً من العلماء فإن أمر السقيفة، وما جرى بين الصحابة من الإختلاف وتخلف علي عليه السلام عن البيعة أمر ظاهر لا يدفع ومكشوف لا يتقنع حتى قال أكثر الشيعة، إنه لم يبايع أصلاً، ومنهم من قال إنه بايع بعد ستة أشهر كرهاً، وقال مخالفهم إنه بايع بعد أن تخلف في بيته مدة ودافع طويلاً، وكل ذلك

مما تقضي الضرورة معه بوقوع الخلاف والمنافسة بينهم والحق أنّ المنافسة كانت ثابتة بين علي عليه السلام وبين من تولى أمر الخلافة في زمانه، والشكاية والتظلم الصادر عنه في ذلك أمر معلوم بالتواتر المعنوي. فإنّا نعلم بالضرورة أن الألفاظ المنقولة عنه المتضمنة للتظلم والشكاية في أمر الخلافة قد بلغت في الكثرة والشهرة بحيث لا يكون بأسرها كذباً بل لا بد وأن يصدق واحد منها، وأيها صدق ثبتت فيه الشكاية، أما خصوصيات الشكايات بألفاظها المعيّنة فغير متواترة، وإن كان بعضها أشهر من بعض، فهذا ما عندي في هذا الباب بعد التحري والإجتهاد، وعلى هذا التقرير لا يبقى لإنكار كون هذه الخطبة صادرة عنه عليه السلام ونسبتها إلى الرضيّ معنى فإنَّ مستند هذا الإنكار هو ما يشتمل عليه من التصريح بالتظلم والشكاية، ومستند إنكار ذلك منه عليه السلام هو اعتقاد أنه لم تكن له منافسة في هذا الأمر، وأنت تعلم أنَّ ذلك اعتقاد فاسد على أن هذه الخطبة خاصة قد اشتهرت بين العلماء قبل وجود الرضي، روي عن مصدق بن شبيب النحوي قال: لما قرأت هذه الخطبة على شيخي أبي محمد بن الخشّاب ووصلت إلى قول ابن عباس: ما أسفت على شيء قط كأسفي على هذا الكلام قال: لو كنت حاضراً لقلت لابن عباس، وهل ترك ابن عمك في نفسه شيئاً لم يقله في هذه الخطبة فإنّه ما ترك لا الأولين ولا الآخرين. قال مصدق: وكانت فيه دعابة، فقلت له يا سيدي فلعلها منحولة إليه فقال: لا والله إنّي أعرف أنها من كلامه كما أعرف أنك مصدق قال: فقلت: إنَّ الناس ينسبونها إلى الشريف الرضي فقال: لا والله ومن أين للرضي هذا الكلام وهذا الأسلوب، فقد رأينا كلامه في نظمه ونثره لا يقرب من هذا الكلام ولا ينتظم في سلكه على أني قد رأيت هذه الخطبة بخطوط العلماء الموثوق بنقلهم من قبل أن يخلق أبو الرضي فضلاً عنه، وأقول: وقد وجدتها في موضعين تاريخها قبل مولد الرضي بمدة:

أحدهما: أنها مضمّنة كتاب الإنصاف لأبي جعفر بن قبة تلميذ أبي القاسم الكعبي أحد شيوخ المعتزلة، وكانت وفاته قبل مولد الرضي.

الثاني: أنّي وجدتها بنسخة عليها خط الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات، وكان وزير المقتدر بالله وذلك قبل مولد الرضي بنيّف وستين سنة، والذي يغلب على ظني أن تلك النسخة كانت كُتبت قبل وجود ابن الفرات بمدّة. إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى المتن فنقول:

قوله تقمصّها، أي لبسها كالقميص، وقطب الرحا مسمارها الذي عليه تدور، وسدلت الثوب أرخيته، والكشح بفتح الكاف الخاصرة، وطفقت أخذت وجعلت، وارتأى في الأمر إذا فكر طلباً للرأي الأصلي، وصال حمل نفسه على الأمر بقوة، ويد جذاء بالذال المهملة والمعجمة مقطوعة أو مكسورة، والطخية الظلمة كقولهم ليلة طخياء أي ظلمة، وتركيب هذه الكلمة يدل على ظلمة الأمور وانغلاقها، ومنه كلمة طخياء أي أعجمية لا تفهم، والهرم شدة كبر السن، والكدح السعي والعمل، وهاتا لغة في هاتي وهي لغة في هذي وهذه، وأحجى أولى بالحجى أو خلق وهو العقل، والقذى هو ما تتأذى به العين من غبار ونحوه، والشجى ما نشب في الخلق من غصّة غبن أو غمّ، والتراث كالميراث وهو اسم ما يورث، وأدلى فلان بكذا تقرب به وألقاه، وشتان ما هما أي بعد، وشتّان ما عمر وزيد أي بعد ما بينهما، وكور الناقة رحلها، والإقالة فك عقد البيع ونحوه والإستقالة طلب ذلك، وشدّ الأمر صعب وعظم، وتشطّرا أي أخذ كل شطراً وهو البعض، والحوزة الطبيعة والحوزة الناحية، والكلم بفتح الكاف الجرح، وعثر يعثر عثوراً وعثاراً إذا أصابت رجله في المشي حجراً ونحوه، والصعبة الناقة لم تذلل بالمحمل ولا بالركوب، وشنق الناقة بالزمام وأشنق لها إذا جذبه إلى نفسه وهو راكب ليمسكها عن الحركة العنيفة، والخرم الشق، وأسلس لها أي أرخى، وتقحم في الأمر إذا ألقى نفسه فيه بقوة، ومني الناس أي ابتلوا، والخبط الحركة على غير استقامة، والشماس بكسر الشين كثرة النفار والإضطراب، والتلوّن اختلاف الأحوال، والإعتراض ضرب من التلوّن، وأصله المشي في عرض الطريق خابطاً عن فرح ونشاط، والشورى مصدر

كالنجوى مرادف للمشاورة، وأسف الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه، والصغو الميل بكسر الصاد، والضغن بكسر الضاد وسكون الغين، وفتحها أيضاً الحقد، والأصهار عن ابن الأعرابي المتحرمون بجوار أو نسب أو تزوّج، وبعض العرب لا يطلقه إلاّ على أهل بيت الزوجين، وعن الخليل أنه لا يطلق إلاّ على من كان من أهل المرأة، وهنٌ على وزن أخ كلمة كناية عن شيء قبيح وأصله هنو تقول هذا هنك أي شينك، والحضن الجانب ما بين الإبط والخاصرة، والنفج قريب من النفخ. والنثيل الروث، والمعتلف موضع الإعتلاف، والخضم الأكل بجميع الفم، وقيل: المضغ بأقصى الأضراس يقول خضم بكسر الضاد يخضم، والنبتة بكسر النون النبات، وانتكث انتقض، وأجهز على الجريح قتله وأسرع، وكبا الفرس سقط لوجهه، والبطنة شدّة الإمتلاء من الطعام، والروع الخلد والذهن وراعني أفزعني، وانثال الشيء إذا وقع يتلو بعضه بعضاً، والعطاف الرداء وروى عطفاي وعطفاً الرجل جانباه من لدن رأسه إلى ركبته، والربيض والربيضة الغنم برعاتها المجتمعة ومرابضها، ومروق السهم خروجه من الرمية وراقه الأمر أعجبه، والزبرج بكسر الزاء والراء الزينة، والنسمة الإنسان، وقد يستعمل فيما عداه من الحيوان، والمقارّة إقرار كل واحد صاحبه على الأمر وتراضيهما به، والكظّة البطنة، والغارب أعلى كتف الناقة، والعفطة من الشاة كالعطاس من الإنسان، وقيل: هي الجيفة، والشقشقة لها البعير، ويقال للخطيب شقشقة إذا كان صاحب وربة وبضاعة من الكلام، واعلم أن المشار إليه بقوله فلان هو أبو بكر كما هو مصرح به في بعض النسخ، ولما بلغ عليه السلام في تلبّس أبي بكر بالخلافة استعار لها وصف القميص وكنى عن تلبسه بها بالتقمص، والضمير المنصوب راجع إلى الخلافة. ولم يذكرها لظهورها كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] ويحتمل أن يكون ذكرها فيما قبل ذلك، والواو في قوله وإنه ليعلم أن محلي منها واو الحال، ولما كان قطب الرحى هو الذي به نظام حركاتها وبه يحصل الغرض منها وكان هو عليه السلام الناظم لأمور المسلمين على وفق الحكمة الإلهية، والعالم بكيفية السياسة الشرعية لا جرم شبّه محلّه من الخلافة بمحلّ القطب من الرحى، وقد جمع هذا التشبيه أنواع التشبيه الموجودة في كلام العرب وهي ثلاثة:

أحدها: تشبيه محله بمحل القطب من الرحى وهو تشبيه للمعقول بالمعقول فإنّ محل القطب هو كونه نظام أحوال الرحى وذلك أمر معقول.

وثانيها: تشبيه نفسه بالقطب وهو تشبيه للمحسوس بالمحسوس.

وثالثها: تشبيه الخلافة بالرحى وهو تشبيه المعقول بالمحسوس، ولما كانت حاجة الرحى إلى القطب ضرورية ولا يظهر نفعها إلاّ به فهم من تشبيه محله بمحله أنه قصد أن غيره لا يقوم مقامه في أمر الإمامة، ولا يتأهل لها مع وجوده كما لا يقوم غير القطب مقامه في موضعه ثم أكد ذلك بقوله ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير فاستعار لنفسه وصفين:

أحدهما: كونه ينحدر عنه السيل وهو من أوصاف الجبل والأماكن المرتفعة، وكنّى به عن علوّه وشرفه مع فيضان العلوم والتدبيرات السياسية عنه، واستعار لتلك الكمالات لفظ السيل.

والثاني: أنه لا يرقى إليه الطير وهو كناية عن غاية أُخرى من العلو إذ ليس كل مكان علا بحيث ينحدر عنه السيل وجب أن لا يرقى إليه الطير فكان ذلك علواً أزيد كما قال أبو تمام:

مكارم لجت في علو كأنما
تحاول ثاراً عند بعض الكواكب

قوله: فسدلت دونها ثوباً، كناية عن احتجابه عن طلبها، والمبالغة فيها بحجاب الإعراض عنها، واستعار لذلك الحجاب لفظ الثوب استعارة لفظ المحسوس للمعقول، وكذلك قوله وطويت عنها كشحاً تنزيل لها منزلة المأكول الذي منع نفسه من أكله فلم يشتمل عليه كشحه، وقيل: أراد بطيّ الكشح إلتفاته عنها كما يفعل المعرض عمّن إلى جانبه قال: طوى كشحه عني وأعرض جانباً.

قوله وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يريد أنّي جعلت أجيل الفكر في تدبير أمر الخلافة وأردّه بين طرفي نقيض إمّا أن أصول على من حازها دوني أو أن أترك، وفي كل واحد من هذين القسمين خطر أما القيام فبيد جذاء، وهو غير جائز لما فيه من التغرير بالنفس وتشويش نظام المسلمين من غير فائدة، واستعار وصف الجذّاء لعدم الناصر، ووجه المشابهة أن قطع اليد لما كان مستلزماً لعدم القدرة على التصرف بها والصولة وكان عدم الناصر بها والمؤيد مستلزماً لذلك لا جرم حسنت الإستعارة.

وأما الترك ففيه الصبر على مشاهد إلتباس الأمور واختلاطها وعدم تمييز الحق وتجريده عن الباطل وذلك في غاية الشدة والبلاء أيضاً، واستعار لذلك الإلتباس لفظ الطخية، وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول، ووجه المشابهة أن الظلمة كما لا يهتدي فيها للمطلوب كذلك اختلاط الأمور هَهُنَا لا يهتدي معها لتمييز الحق وكيفية السلوك إلى الله، ووصف الطخية بالعمى أيضاً على وجه الإستعارة فإن الأعمى لما لم يكن ليهتدي لمطالبه كذلك هذه الظلمة لا يهتدى فيها للحق ولزومه، ثم كنى عن شدّة ذلك الإختلاط ومقاساة الخلق بسبب عدم انتظام الأحوال وطول مدة ذلك بأوصاف، أحدها أنه يهرم فيها الكبير.

والثاني: أنّه يشيب فيها الصغير.

والثالث: أن المؤمن المجتهد في لزوم الحق والذب عنه يقاسي من ذلك الإختلاط شدائد ويكدح فيها حتى يلقى ربه، وقيل: يدأب ويجتهد في الوصول إلى حقه فلا يصل حتى يموت، ثم أشار بعد ذلك إلى ترجح رأيه في إختيار القسم الثاني، وهو الصبر وترك القيام في هذا الأمر بقوله: فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى وأليق بنظام الإسلام، ووجه الترجيح ظاهر فإنه لما كان مقصود علي عليه السلام من هذا المنافسة إنما هو إقامة الدين وإجراء قواعده على القانون المستقيم ونظام أمور الخلق كما هو المقصود من مقالات الشارعين صلوات الله عليهم أجمعين.

وكانت صولته ومحاربته لمنافسيه في الإمامة بغير ناصر لا تثمر القيام به ومع ذلك ففيه انشعاب أمور المسلمين وتفرّق كلمتهم، وثوران الفتن بينهم خصوصاً، والإسلام غضّ لم ترسخ محبته في قلوب كثير الخلق ولم يطعموا حلاوته وفيهم المنافقون والأعداء المشركون في غاية القوة من كل الأقطار لا جرم لم يمكنه مع ملاحظة هذه الأحوال إثارة الحرب والمنازعة لأداء ذلك إلى ضد ما هو مقصود له بحركته ومحاربته.

وأما الصبر وترك المقاومة وإن كان فيه بحسب رأيه ما ذكره من اختلال الدين وأنه لو كان هو القائم لهذا الأمر لكان انتظامه به أتمّ وقوامه أكمل إلاّ أنه أقلي بالنسبة إلى الإختلال الذي كان يحصل لو نازع في هذا الأمر وقام في طلبه وبعض الشر أهون من بعض.

قوله فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى. الواو للحال والجملتان كنايتان عن شدّة ما أضمره من التأذي والغبن بسبب سلبه ما يرى أنه أولى به من غيره وما يعتقده من الخبط في الدين بيد غيره.

قوله أرى تراثي نهباً قيل أراد بتراثه ما خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله لابنته كفدك فإنه يصدق عليها أنه ميراثه لأن مال الزوجة في حكم مال الزوج، والنهب إشارة إلى منع الخلفاء الثلاثة لها بالخبر الذي رواه أبو بكر نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة، وقيل: أراد منصب الخلافة ويصدق عليه لفظ الإرث. كما صدق في قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] فإنه أراد يرث علمي ومنصبي في نبوته فكان اسم الميراث صادقاً على ذلك.

قوله حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده. أراد بالأول أبا بكر وبفلان عمر، وأشار بالإدلاء إلى نص أبي بكر على أن يكون عمر هو الخليفة بعده ومضيّه لسبيله انتقاله إلى دار الآخرة وسلوكه السبيل الذي لا بد منه لكل إنسان، وأما البيت فهو لأعشى قيس، واسمه ميمون بن جندل من بني قيس من قصيدة أولها:

علقم ما أنت إلى عامر
الناقض الأوتار والواتر

وحيّان وجابر ابنا السمين بن عمرو من بني حنيفة،

وكان حيان صاحب الحصن باليمامة. وكان سيداً مطاعاً يصله كسرى في كل سنة وكان في نعمه ورفاهيته مصوناً من وعثاء السفر لأنه ما كان يسافر أبداً، وكان الأعشى ينادمه وأراد ما أبعد ما بين يومي يومي على كور المطيّة أداب وأنصب في الهواجر، وبين يومي منادماً حيّان أخي جابر، وادعاً فأراني نعمة وخفض، ويروى أن حيّان عاتب الأعشى في تعريفه بنسبته إلى أخيه فاعتذر إليه الأعشى بأنّ القافية قادته إلى ذلك فلم يقبل عذره، واليوم الأول في موضع رفع باسم الفعل.

والثاني: بالعطف عليه، وأما غرض التمثيل بالبيت فأفاد السيد المرتضى أراد بذلك أن القوم لما فازوا بمقاصدهم، ورجعوا بمطالبهم فظفروا بها وهو في أثناء ذلك كله محقق في حقه مكذب في نصيبه كما أشار إليه بقوله: وفي العين قذى وفي الحلق شجى كان بين حالهم وحاله بعد بعيد وافتراق شديد فاستشهد عليه السلام بهذا البيت واستعار لفظ اليومين، وكني بهما عن حاله وحالهم. ووجه المشابهة في هذا المثل أنّ حالهم استلزم حصول المطالب والرفاهية كيوم حيّان وحاله عليه السلام استلزم المتاعب كيومه على كور الناقة مسافراً قلت: ويحتمل أن يكون قد استعار يوم حيّان لعهده مع رسول الله صلى الله عليه وآله وما كان يحصل له في مدة صحبته من الفوائد الجسمية، والكمالات من العلوم والأخلاق، ويوم كونه على كور الناقة لزمانه بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وما لحقه فيه من مقاساة المحن ومتاعب الصبر على الأذى. ووجه المشابهة ما يشتمل عليه يوم حيّان وعهد الرسول من المسار وما يشترك فيه يوم كونه على كور الناقة وأوقاته بعد الرسول من المضار.

قوله فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذا عقدها لآخر بعد وفاته. إشارة إلى أبي بكر، وطلبه الإقالة هو قوله: أقيلوني فلست بخيركم، ووجه التعجب هَهُنَا أن طلب أبي بكر للإقالة من هذا الأمر إنما هو لثقله وكثرة شرائطه وشدة مراعاة إجراء أحوال الخلق مع اختلاف طباعهم وأهوائهم على قانون واحد، وخوفه أن تعثر به مطايا الهوى فترديه في موارد الهلاك، وعلى هذا التقدير فكلما كانت مدة ولاية الإنسان لهذا الأمر أقصر كان خوفه أقلّ وكانت متاعبه أيسر وأسهل، وسبيل طالب الإقالة من هذا الأمر، وأمثاله ومقتضى طلبه لذلك أن يتحرّى قلة متاعب هذا الأمر، ويجتهد في الخلاص منه مهما أمكنه ذلك. فإذا رأيناه متمسكاً بهذا الأمر مدة حياته وعند وفاته يعقده لآخر بعده فيتحمل مضار هذا الأمر في حال الحياة وبعد الوفاة فلا بد وأن يغلب على الظن أن طلبه للإقالة لم يكن عن قصد صحيح، فيصير ذلك الظن مقابلاً لما اشتهر عنه من العدالة وذلك محلّ التعجب، وهذا بخلاف ما اشتهر بالفسق والنفاق فإنّه لا يتعجب من فعله لو خالف قوله:

قوله لشدّ ما تشطرا ضرعيها. اللام للتأكيد وما مع الفعل بعدها في تقدير المصدر وهو فاعل شد والجملة من تمام التعجب، وقد استعار عليه السلام لفظ الضرع هَهُنَا للخلافة، وهي إستعارة مستلزمة لتشبيهها بالناقة. ووجه المشاركة المشابهة في الإنتفاع الحاصل منها، والمقصود وصف إقتسامهما لهذا الأمر المشبه لإقتسام الحالبين أخلاف الناقة بالشدة على من يعتقد أنه أحق بها منهما أو على المسلمين الذين يشبهون الأولاد لها، وقوله: فصيّرها في حوزة خشناء كنّى بالحوزة عن طباع عمر. فإنها كانت توصف بالجفاوة والغلظ في الكلام والتسرع إلى الغضب وذلك معنى خشونتها.

قوله: يغلظ كلامها ويخشن مسّها. استعار لتلك الطبيعة وصفين:

أحدهما: غلظ الكلم وهو كناية عن غلظ المواجهة بالكلام والجرح به. فإنّ الضرب باللسان أعظم من وخز السنان.

والثاني: جفاوة المس وهي كناية عن خشونة طباعه المانعة من ميل الطباع إليه المستلزمة للأذى كما يستلزم مسّ الأجسام الخشنة.

قوله: ويكثر العثار والإعتذار منها. إشارة إلى ما كان يتسرع إليه عمر من الأحكام ثم يعاود النظر فيها فيجدها غير صائبة فيحتاج إلى الإعتذار، والضمير في منها يعود إلى الطبيعة المعبر عنها بالحوزة فمن ذلك ما

روي أنه أمر برجم امرأة زنت وهي حامل فعلم علي عليه السلام بذلك فجاء إليه وقال له:

إن كان لك سلطان عليها فما سلطانك على ما في بطنها، دعها حتى تضع ما في بطنها ثم ترضع ولدها فعندها قال عمر: لولا علي لهلك عمر، وتركها، وكذلك ما روي أنه أمر أن يؤتى بامرأة لحال اقتضت ذلك وكانت حاملاً فانزعجت من هيبته فأجهزت جنيناً فجمع جمعاً من الصحابة وسألهم ماذا يجب عليهم فقالوا: أنت مجتهد ولا ترى أنه يجب عليك شيء فراجع علياً عليه السلام في ذلك وأعلمه بما قال بعض الصحابة فأنكر ذلك وقال: إن كان ذلك عن اجتهاد منهم فقد أخطأوا وإن لم يكن عن اجتهاد فقد غشّوك. أرى عليك الغرّة فعندها قال لا عشت لمعضلة لا تكون لها يا أبا الحسن، ومنشأ ذلك وأمثاله غلبة القوة الغضبية وغلظ الطبيعة.

قوله فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم قيل الضمير في صاحبها يعود إلى الحوزة المكنّى بها عن طبيعة عمر وأخلاقه، والمراد على هذا الوجه أنّ للصاحب تلك الأخلاق في حاجة إلى المداراة في صعوبة حاله كراكب الصعبة، ووجه المشابهة أنَّ راكب الصعبة كما يحتاج إلى الكلفة الشاقّة في مداراة أحوالها فهو معها بين خطرين إن والى الجذبات في وجهها بالزمام خرم أنفها، وإن أسلس لها في القياد تقحّمت به المهالك كذلك مصاحب أخلاق الرجل والمبتلى بها إن أكثر عليه إنكار ما يتسرع إليه أدى ذلك إلى مشاقته، وفساد الحال بينهما، وإن سكت عنه وتركه وما يصنع أدّى ذلك إلى الإخلال بالواجب، وذلك من موارد الهلكة، وقيل الضمير في صاحبها للخلافة وصاحبها هو كلّ من تولى أمرها إذا كان عادلاً مراعياً لحق الله، ووجه شبهه براكب الصعبة أنَّ المتولي لأمر الخلافة يضطر إلى الكلفة الشاقة في مداراة أحوال الخلق، ونظام أُمورهم على القانون الحق وأن يسلك بهم طريق العدل المحفوشة (المحسوسة) بطرف التفريط والتقصير المشبه لإسلاس قياد الصعبة، وبطرف الإفراط في طلب الحق واستقصاء فيه الذي يشبه شنقها. فإن المتولي لأمر الخلافة إن فرّط في المحافظة على شرائطها وأهمل أمرها ألقاه التفريط في موارد الهلكة كما نسبه الصحابة إلى عثمان حتى فعل به ما فعل.

فكان في ذلك كراكب صعبة أسلس قيادها، وإن أفرط في حمل الخلق على أشد مراتب الحق، وبالغ في الإستقصاء عليهم في طلبه أوجب ذلك تضجّرهم منه ونفار طباعهم وتفرقهم عنه وفساد الأمر عليه لميل أكثرهم إلى حب الباطل وغفلتهم عن فضيلة الحق، وإن صعب فيكون في ذلك كمن أشنق الصعبة التي هو راكبها حتى خرم أنفها، وهو من التشبيهات اللطيفة، وقيل: أراد بصاحبها نفسه وتشبّه براكب الصعبة لأنه أيضاً بين خطرين: إما أن يبقى ساكتاً عن طلب هذا الأمر والقيام فيتقحّم بذلك في موارد الذلّ والصغار، كما يتقحّم راكب الصعبة المسلس لها قيادها. وإما أن يقوم فيه ويتشدد في طلبه فينشعب أمر المسلمين بذلك وينشق عصاهم فيكون في ذلك كمن أشنق لها فخرم أنفها، والأول أليق بسياق الكلام ونظامه، والثاني: أظهر. والثالث: محتمل.

قوله فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلوّن واعتراض إشارة إلى ما ابتلوا به من اضطراب الرجل وحركاته التي كان ينقمها عليه فكنى بالخبط عنها، وبالشماس عن جفاوة طباعه وخشونتها وبالتلوّن والإعتراض عن انتقاله من حالة إلى أُخرى في أخلاقه، وهي إستعارات، ووجه المشابهة فيها أن خبط البعير وشماس الفرس واعتراضها في الطريق حركات غير منظومة فأشبهها ما لم يكن منظوماً من حركات الرجل التي ابتلي الناس بها، ولا شك أنه كان صعباً عظيم السطو والهيبة وكان أكابر الصحابة يتحامونه، وقيل لابن عباس لما أظهر قوله في مسألة العول بعد موت عمر: هلاّ قلت ذلك وعمر حي قال هبته، وكان رجلاً مهيباً، وقيل: إنّ ذلك إشارة إلى ما ابتلي به الناس من اضطراب الأمر وتفرق الكلمة وجرى أُمورهم على غير نظام بسبب تفرق كلمتهم، ثم أردف ذلك بتكرير ذكر صبره على ما صبر عليه مع الثاني كما صبر مع الأول، وذكر أمرين: أحدهما طول مدّة تخلّف الأمر عنه.

والثاني: شدة المحنة بسبب فوات حقه وما يعتقد من لوازم ذلك الفوت وهو عدم انتظام أحوال الدين وإجرائه على قوانينه الصحيحة، ولكل واحد من هذين الأمرين حصة في استلزام الأذى الذي يحسن في مقابلته الصبر.

قوله حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم.

أقول: حتى هنا لإنتهاء الغاية، والغاية لزوم تالي الشرطية لمقدمها أعني جعله لها في جماعة لمضيّه لسبيله، وأشار بالجماعة إلى أهل الشورى؛ وخلاصة حديث الشورى أن عمر لما طعن دخل عليه وجوه الصحابة، وقالوا له: ينبغي لك أن تعهد عهدك أيها الرجل وتستخلف رجلاً ترضاه، فقال: لا أحب أن أتحمّلها حياً وميتاً، فقالوا: أفلا تشير علينا فقال: أما أن أُشير فإن أحببتم قلت فقالوا: نعم، فقال: الصالحون لهذا الأمر سبعة نفر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنهم من أهل الجنة أحدهم سعيد بن زيد، وأنا مخرجه منهم لأنه من أهل بيتي، وسعد بن أبي وقّاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وزبير وعثمان وعلي.

فأما سعد فلا يمنعني منه إلاّ عنفه وفظاظته، وأما من عبد الرحمن بن عوف فلأنه قارون هذه الأمّة، وأما من طلحة فتكبّره ونخوته. وأما من الزبير فشحه ولقد رأيته بالبقيع يقاتل على صاع من شعير ولا يصلح لهذا الأمر إلاّ رجل واسع الصدر، وأما عن عثمان فحبه لقومه وعصبيّته لهم، وأما من علي فحرصه على هذا الأمر ودعابة فيه، ثم قال: يصلّي صهيب بالناس ثلاثة أيام وتخلو الستة نفر في البيت ثلاثة أيام ليتّفقوا على رجل منهم فإن استقام أمر خمسة وأبى رجل فاقتلوه، وإن استقر أمر ثلاثة وأبى ثلاثة فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، ويروى فاقتلوا الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن بن عوف، ويروى فتحاكموا إلى عبدالله بن عمر فأي الفريقين قضى له فاقتلوا الفريق الآخر.

فلما خرجوا عنه واجتمعوا لهذا الأمر قال عبد الرحمن: إن لي ولابن عمي من هذا الأمر الثلث فنحن نخرج أنفسنا منه على أن نختار رجلاً هو خيركم للأمة فقال القوم: رضينا، غير عليّ فإنه أتهمه في ذلك، وقال: أرى وأنظر، فلما أيس من رضى عي رجع إلى سعد فقال: هلّم نعيّن رجلاً ونبايعه، فالناس يبايعون من بايعته فقال سعد: إن بايعك عثمان فأنا لكم ثالث، وإن أردت أن تولي عثمان فعليّ أحبّ إليّ، فلما آيس من مطاوعة سعد كف عنهم وجاءهم أبو طلحة في خمسين رجلاً من الأنصار، يحثهم على التعيين فأقبل عبد الرحمن إلى علي عليه السلام وأخذ بيده، وقال: أُبايعك على أن تعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين أبي بكر وعمر.

فقال علي عليه السلام: تبايعني على أن أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وأجتهد رأيي فترك يده، ثم أقبل على عثمان فأخذ بيده وقال له مثل مقاله لعلي عليه السلام فقال: نعم فكرر القول على كل منهما ثلاثاً فأجاب كل بما أجاب به أولاً فبعدها قال عبد الرحمن: هي لك يا عثمان وبايعه ثمّ بايعه الناس، وفي النسخ زعم أنيّ سادسهم، ثمّ أردف حكاية الحال بالإستعانة بالله للشورى، والواو إمّا زائدة أو للعطف على محذوف مستغاث له أيضاً كأنه قال: فيالله لعمر وللشورى أولى، وللشورى ونحوه، والإستفهام عن وقت عروض الشك لأذهان الخلق في أنّ الأوّل هل يساويه في الفضل أو لا يساويه استفهاماً على سبيل الإنكار والتعجب من عروضه لأذهانهم إلى غاية أن قاسوه بالخمسة المذكورين وجعلوهم نظراء وأمثالاً له في المنزلة واستحقاق هذا الأمر.

قوله لكنني أسففت إذ أسفّوا وطرت إذ طاروا، إستعارة لأحوال الطائر من الإسفاف والطيران لأحواله من مقارنته لمراده وتصرفه على قدر اختيارهم أولاً وآخراً.

قوله فصغى رجل منهم لضغنه. إشارة إلى سعد بن أبي وقّاص فإنه كان منحرفاً عنه عليه السلام وهو أحد المتخلّفين عن بيعته بعد قتل عثمان، وقوله ومال الآخرة لصهره. إشارة إلى عبد الرحمن بن عوف فإنه مال إلى عثمان لمصاهرة كانت بينهما وهي أن عبد الرحمن كان زوجاً لأم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط وهي أُخت عثمان لأمه أروى بنت كريز. قوله مع هن وهن يريد أن

ميله إليه لم يكن لمجرد المصاهرة، بل لأشياء أُخرى يحتمل أن يكون نفاسة عليه وغبطة له بوصول هذا الأمر إليه أو غير ذلك. وقوله إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، أراد به عثمان وكنّى بقيامه عن حركته في ولايته أمر الخلافة وأثبت له حالاً يستلزم تشبيهه بالبعير، وإستعارة وصفه وهو نفج الحضين، وكنى بذلك عن إستعداده للتوسع ببيت مال المسلمين وحركته في ذلك كما نسب إليه تشبيهاً له بالبعير ينتفج جنباه بكثرة الأكل، كذلك المتوسّع في الأكل والشرب، وربما قيل ذلك لمتكبّر المنتفج كبراً، وكذلك قوله بين نثيله ومعتلفه، وهو متعلق بقام أي قام بين معتلفه، وروثه وهو من أوصاف البهائم، ووجه الإستعارة أن البعير والفرس كما لا إهتمام له أكثر من أن يكون بين أكل وروث، كذلك نسبة إلى أنه لم يكن أكبر همّه إلاّ الترفة والتوفر في المطعم والمشرب وسائر مصالح نفسه، وأقاربه دون ملاحظة أُمور المسلمين ومراعاة مصالحهم كما نقم عليه.

قوله وقام بنو أُمية يخضمون مال الله تعالى خضم الإبل نبتة الربيع يخضمون في موضع الحال، وعنى بمال الله بيت المال، وأراد ببني أبيه بني أمية بن عبد شمس، ويحتمل أن يريد أقرباءه مطلقاً وخصّ بني أبيه تغليباً للذكورة، وكنّي بالخضم عن كثرة توسعهم بمال المسلمين من يد عثمان، وقد نقلت عنه من ذلك صور:

أحدها: أنه رفع إلى أربعة نفر من قريش زوّجهم بناته أربعمائة ألف دينار.

وثانيها: أنه لما فتح أفريقية أعطى مروان بن الحكم مائة ألف دينار ويروى خمس أفريقية.

وثالثها: روي من عدّة طرق أن أبا موسى الأشعري بعث إليه بمال عظيم من البصرة فجعل يفرّقه في ولده وأهله وكان ذلك بحضرة زياد بن عبيد مولى حرث بن كلاة الثقفي فبكى زياد لما رأى فقال له: لا تبكِ فإنّ عمر كان يمنع قرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أُعطي أهلي وقرابتي ابتغاء وجه الله.

ورابعها: روي أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف فوهبها له حين أتاه بها.

وخامسها: روى أبو مخنف أن عبدالله بن خالد بن أسيد قدم على عثمان من مكة ومعه ناس فأمر لعبدالله بثلاث مائة ألف ولكل واحد منهم بمائة ألف. وصك بذلك على عبدالله بن الأرقم وكان حينئذ خازن بيت المال فاستكثر ذلك وردّ الصك فقال له عثمان: ما حملك على ردّه؟ وإنما أنت خازن، قال: كنت أرابي بيت مال المسلمين، وإنما خازنك غلامك وأنّه لا ألي لك بيت المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المنبر فدفعها عثمان إلى مولاه نائل، وروى الواقدي أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت المال إلى عبدالله بن أرقم عقيب ما فعل ثلاث مائة ألف درهم.

فلما دخل عليه بها قال له: يا أبا محمد إنّ أمير المؤمنين أرسل إليك يقول إنّا شغلناك عن التجارة ولك ذوو رحم أهل حاجة ففرّق هذا المال فيهم واستغن به على عيالك، فقال عبدالله: ما لي إليك حاجة، وما عملت لأن يثيبني عثمان فإن كان هذا من بيت المال لما بلغ قدر عملي أن أُعطى ثلاث مائة ألف درهم، وإن كان من ماله فلا حاجة لي به، وبالجملة فمواهبه لأهله وذويه مشهورة، وقد شبّه عليه السلام خضمهم لمال الله بخضم الإبل نبت الربيع. ووجه التشبيه أنّ الإبل لما كانت تستلذ نبت الربيع بشهوة صادقة وتملأ منه أحناكها، وذلك لمجيئه عقيب يبس الأرض طول مدّة الشتاء، ومع ذلك طيبه ونضارته، كان ما أكله أقارب عثمان من بيت المال مشبهاً لذلك من جهة كثرته وطيبه لهم عقيب ضرّهم وفقرهم؛ وكل ذلك في معرض الذم والتوبيخ المستلزم لارتكاب مناهي الله المستلزم لعدم التأهّل لأمر الخلافة.

وقوله إلى أن انتكث فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته. إشارة إلى غايات من قيامه في الحال المذكورة وإستعار لفظ الفتل وهو يرمي الحبل، لما كان يبرمه من الرأي والتدبير ويستبد به دون الصحابة، وكنّي به عنه، وكذلك لفظ الإنتكاث لإنتقاض تلك التدابير ورجوعها عليه بالفساد والهلاك؛ وقوله وأجهز عليه عمله يشتمل

على مجاز في الإفراد والتركيب أما في الإفراد فلأن استعمال الإجهاز إنما يكون حقيقة في قتل تقدّمه جرح المقتول وإثخان بضرب ونحوه، ولما كان قتل عثمان مسبوقاً بطعن أسنّة الألسنة والجرح بحد أو سيوفها لا جرم أشبه قتله الإجهاز فأطلق عليه لفظه، وأما في التركيب فلأنّ إسناد الإجهاز إلى العمل ليس حقيقة لصدور القتل عن القاتلين. لكن لما كان عمله هو السبب الحاصل لهم على قتله صحّ إسناد الإجهاز إليه إسناد الفعل إلى السبب الفاعلي أي إلى السبب الحامل، وهو من وجوه المجاز، وكذلك قوله وكبت به بطنته مجاز أيضاً في الإسناد والتركيب، وذلك لأنّ الكبو إنما هو حقيقة في الإسناد إلى الحيوان، ولما كانت ارتكابه للأمور التي نقمت عليه وتوسعه ببيت المال المكنّى عن ذلك بالبطنة واستمراره على ذلك مدة خلافته سليماً يشبه ركوب الفرس واستمرار مشيه سليماً من العثار والكبو كانت البطنة مشبّهة للمركوب من هذه الجهة فلذلك صحّ إسناد الكبو إليها جازاً.

قوله فما راعني إلاّ والناس كعرف الضبع إليّ ينثالون عليّ من كل جانب إلى متعلق بمحذوف تقديره مقبلون إليّ وفاعل راعني إمّا الجملة الإسمية وهو مقتضى قول الكوفيّين إذ جوّزوا كون الجملة فاعلاً أو ما دلّت عليه هذه الجملة، وكانت مفسرة له من المصدر أي فما راعني إلاّ إقبال الناس إليّ وهو فرع مذهب البصريين إذ منعوا كون الجملة فاعلاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]. وينثالون إما خبر ثان للمبتدأ أو حال عن راعني أو العامل في إليّ والإشارة إلى وصف ازدحام الناس عليه للبيعة بعد قتل عثمان، وقد شبّههم في إقبالهم إليه وازدحامهم عليه بعرف الضبع، ووجه ذلك أن الضبع ذات عرف كثير قائم الشعر والعرب يسمي الضبع عرفاً لعظم عرفها فكان حال الناس في إقبالهم عليه متتابعين يتلو بعضهم بعضاً قياماً يشبه عرف الضبع.

قوله حتى لقد وطىء الحسنان وشقّا عطفاي. إشارة إلى غاية ازدحامهم عليه، وهي وطي ولديه الحسن والحسين عليهما السلام وشق ردائه بالجذب عند خطابه والجلوس على جانبيه. وأما على الرواية الأخرى فالمراد بالشق إمّا الأذى الحاصل للصدر والمنكبين، أو شق قميصه بالجلوس على جانبيه، وإطلاق لفظ العطفين على جانبي القميص مجاز إطلاقاً لاسم المجاور على مجاوره أو المتعلق على متعلّقه، ومن عادة العرب أن يكون أمراؤهم كسائرهم في قلة التوقير والتعظيم في المخاطبات، وفعلهم ذلك إما فرح به عليه السلام، أو لجلافة طباع رعاعهم. وحكى السيد المرتضى (رضوان الله عليه) أنّ ابا عمر محمد بن عبد الواحد غلام ثعلب روى في قوله عليه السلام وطىء الحسنان إنهما الإبهامان، وأنشد المشنفري، مهضومة الكشحين خرماء الحسن.

وروى أن أمير المؤمنين عليه السلام إنما كان يومئذ جالساً محتبياً وهي جلسة رسول الله صلى الله عليه وآله المسماة بالقرفصاء وهي جمع الركبتين وجمع الذيل فلما اجتمعوا ليبايعوه زاحموه حتى وطأوا إبهاميه وشقّوا ذيله بالوطىء، ولم يعن الحسن والحسين و وهما رجلان كسائر الحاضرين، وهذا القول يؤيد الرواية الأولى، واعلم أن إرادته للحسن والحسين عليهما السلام أظهر.

قوله مجتمعين حولي كربيضة الغنم. مجتمعين منصوب على الحال كالذي قبله والعامل واحد أو بقوله وطىء وشق، وقد شبّه إجتماعهم حوله بربيضة الغنم ووجه التشبيه ظاهر، ويحتمل أن يلاحظ في وجه التشبيه مع الهيئة زيادة وهي أنه شبّههم بالغنم لغفلتهم عن وضع الأشياء في مواضعها، وقلة فطانتهم وعدم استعمالهم للأدب معه أو مطلقاً والعرب تصف الغنم بالغباوة وقلّة الفطانة.

قوله فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أُخرى وفسق آخرون. أراد بالناكثين طلحة والزبير لأنهما بايعاه ونقضا بيعته بخروجهما عليه وكذلك من تبعهما ممن بايعه، وبالمارقين الخوارج، وبالقاسطين أو الفاسقين أصحاب معاوية، وهذه الأسماء سبقت من الرسول صلى الله عليه وآله إذ حكى في موضع آخر أنه أخبره بأنّه سيقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين بعده، وإنما خصّ الخوارج بالمروق لأن المروق وهو مجاوزة السهم للرمية وخروجه منها، ولما كانت الخوارج أولاً

منتظمون في سلك الحق، إلاّ أنهم بالغوا بزعمهم في طلبه إلى أن تعدوه وتجاوزوه لا جرم حسن أن يستعار لهم لفظ المروق لمكان المشابهة، وقد أخبر الرسول ﷺ عنهم بهذا اللفظ إذ قال: يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وأما تخصيص أهل الشام بالفاسقين فلأن مفهوم الفسق أو القسط هو الخروج عن سنن الحق وقد كانوا كذلك بمخالفته عليه السلام والخروج عن طاعته فكان إطلاق أحد اللفظين عليهم لذلك.

قوله كأنهم لم يسمعوا الله يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. تنبيه لأذهان الطوائف الثلاث المذكورة ومن عساه يتخيّل أنّ الحق في سلوك مسالكهم على أنّ ما فعلوه من المخالفة عليه والقتال له إنّما هو طلب للعلو والمفاخرة في الدنيا المستلزم للسعي في الأرض بالفساد وإعراض عن الدار الآخرة وحسم لمادة إعذارهم أن يقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين فيقولوا عند لقاء ربهم لو سمعنا هذه الآية ووعيناها لما ارتكبنا هذه الأفعال، ويزعمون أن الحق في هذه المتصلة هو استثناء نقيض تاليها لينتج لهم نقيض مقدمها، وتقديره عليه السلام لهذا العذر لهم، على سبيل التهكم بهم وأنّه لا عذر لهم في الحقيقة مما فعلوه، ثم أراد عليه السلام تكذيبهم في ذلك العذر على تقدير إعتذارهم به فأشار إلى مكذب النتيجة بوضع نقيضها مؤكداً بالقسم البار، وإلى منع لزوم هذه المتصلة بقوله بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنه حليت الدنيا في أعينهم، ونبّه على أن وضع المقدم المذكورة في المتصلة لا يستلزم تاليها مطلقاً بل استلزامه له موقوف على زوال مانع هو حاصل لهم الآن، وذلك المانع هو غرور الدنيا لهم بزينتها وإعجابهم بها وعلى تقدير حصول المانع المذكور جاز أن يجتمع هذا المقدم مع نقيض التالي المذكور وهو إرتكاب ما ارتكبوه من الأفعال.

قوله أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء إلى آخره.

أقول: لما ذكر من حال القوم وحاله معهم ما ذكر من الشكاية والتظلم في أمر الخلافة وذم الشورى، وما انتهى إليه من الحال التي أوجبت نزوله عن مرتبته إلى أن قرن بالجماعة المذكورين أردف ذلك ببيان الأعذار الحاملة على قبول هذا الأمر والقيام به بعد تخلّفه عنه إلى هذه الغاية، وقدم على ذلك شاهداً هذا القسم العظيم بهاتين الإضافتين وهما فالق الحبة وبارىء النسمة، واعلم أن الوصف الأول قد ورد في القرآن الكريم وهو قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وإنما خصّ الحبة والنسمة بالتعظيم بالنسبة إلى الله تعالى لما يشتملان عليه من لطف الخلقة وصغر الحجم من أسرار الحكمة وبدائع الصنع الدالة على وجود الصانع الحكيم.

أما فالق الحبّ ففيه قولان: أحدهما قال ابن عباس والضحاك: فالق الحبّ أي خالقه فعلى هذا يكون معنى قوله عليه السلام فلق الحبّة كقوله فطر الخلائق بقدرته.

الثاني: وهو الذي عليه جمهور المفسرين أنّ فلق الحبة هو الشق الذي في وسطها؛ وتقرير هذا القول أن الحبة من الحنطة مثلاً لما كانت من غايتها أن تكون شجرة مثمرة ينتفع بها الحيوان جعل الله سبحانه في وسطها ذلك الشق حتى إذا وقعت في الأرض الرطبة ثم مرت بها مدة من الزمان جعل سبحانه الطرف الأعلى من ذلك الشق مبدأ لخروج الشجرة الصاعدة إلى الهواء والطرف الأسفل مبدأ للعروق الهابطة إلى الأرض التي منها مادة تلك الشجرة، وفي ذلك بدائع من الحكمة شاهدة بوجود المدبر الحكيم:

أحدها: أن تكون طبيعة تلك الحبة إن كانت تقتضي الهوى في عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء وعلى العكس، فلما تولد منها أمران متضادان علمنا أن ذلك ليس لمجرد الطبيعة بل بمقتضى الحكمة الإلهية.

وثانيها: أنّا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلكها الإنسان بأدنى قوة دلكاً لصارت كالماء ثم إنها مع غاية تلك اللطافة تقوى على خرق الأرض الصلبة وتنفذ في مسام الأحجار فحصول

هذه القوة الشديدة لهذه الأجرام اللطيفة الضعيفة لا بدّ وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم.

وثالثها: أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة في الفاكهة الواحدة كالأترج فإن قشره حارّ يابس، ولحمه بارد رطب، وحماضه بارد يابس، وبزره حار يابس. فتوّلد هذه الطبائع المتضادة من الحبة الواحدة لا بد وأن يكون بتقدير الفاعل الحكيم.

ورابعها: أنك إذا نظرت إلى ورقة من أوراق الشجرة المبدعة عن الحبة وجدت في وسطها خطاً مستقيماً كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان ثم لا تزال تنفصل عنها شعب، وعن الشعب شعب أخرى إلى أن تستدق، وتخرج تلك الخطوط عن إدراك البصر، والحكمة الإلهية إنما اقتضت ذلك لتقوى القوة الجاذبة المركوزة في جرم تلك الورقة على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجاري الضيقة، وإذا وقفت على عناية الله سبحانه في تكوّن تلك الورقة الواحدة الواقعة علمت أن عنايته في جملة الشجرة أكمل. وأنَّ عنايته في جملة النبات أكمل، ثم إذا علمت أنه إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوانات علمت أن عنايته في خلق الحيوان أكمل، وإذا علمت أن المقصود من خلق الحيوان إنما هو الإنسان علمت أن الإنسان هو أعزّ مخلوقات هذا العالم عند الله وأكرمه عليه وأنه قد أكرمه بأنواع الإكرام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] الآية. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم: ٣٤].

وأمّا النسمة فعليك في مطالعة عجائب صنع الله ببدن الإنسان بكتب التشريح، وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في الخطبة الأولى. إذا عرفت ذلك فاعلم أنه عليه السلام ذكر من تلك الأعذار ثلاثة:

أحدها: حضور الحاضرين لمبايعته.

والثاني: قيام الحجة عليه بوجود الناصر له في طلب الحق لو ترك القيام.

الثالث: ما أخذ الله على العلماء من العهد على إنكار المنكرات وقمع الظالمين ودفع الظلامات عند التمكن، والعذران الأوّلان هما شرطان في الثالث إذ لا ينعقد ولا يجب إنكار المنكر بدونهما وكنّى بكظة الظالم عن قوة ظلمه وبسغب المظلوم عن قوة ظلامته.

قوله لألقيت حبلها على غاربها. إستعارة وصف من أوصاف الناقة للخلافة أو للأمة كنّى بها عن تركه لها وإهماله لأمرها. ثانياً كإهماله أولاً، ولما استعار لها لفظ الغارب جعل لها حبلاً تلقى عليه وهو من ترشيح الإستعارة وأصله أنَّ الناقة يلقى زمامها على غاربها وتترك لترعى.

قوله ولسقيت آخرها بكأس أولها، استعار لفظ السقي للترك المذكور أيضاً ورشح تلك الإستعارة بذكر الكأس، ووجه تلك الإستعارة أنَّ السقي بالكأس لما كان مستلزماً لوجود السكر غالباً. وكان إعراضه أولاً مستلزماً لوقوع الناس فيما ذكر من الطخية العمياء المستلزمة لحيرة كثير من الخلق وضلالهم الذي يشبه السكر وأشد منه لا جرم حسن أن يعبّر عن ذلك الترك بالسقي بالكأس.

قوله: ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندي من عطفة عنز عطف على ما قبله ويفهم منه أنه عليه السلام طالب للدنيا ولها عنده قيمة إلاّ أن طلبه لها والحرص على الإمرة فيها ليس لأنها هي؛ بل لما ذكرنا من نظام الخلق وإجراء أمورهم على القانون العدل المأخوذ على العلماء، كما أشار إليه، ونظم هذا الكلام في صورة متصلة هكذا: لو لم يحضر الحاضر، ولم يقم الناصر، وما أخذ الله على العلماء ما أخذ عليهم من إنكار المنكر إذا تمكن لتركت آخراً كما تركت أولاً، ولوجدتم دنياكم هذه أهون عندي مما لا قيمة له وهو عفطة العنز، وأما الحكاية المتعلقة بهذه الخطبة فأراد بأهل السواد سواد العراق.

قال أبو الحسن الكيدري رحمه الله وجدت في الكتب القديمة أنَّ الكتاب الذي دفعه الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه عدة مسائل:

أحدها: ما الحيوان الذي خرج من بطن حيوان آخر وليس بينهما نسب؟ فأجاب عليه السلام: بأنه يونس بن متى عليه السلام خرج من بطن الحوت.

الثانية: ما الشيء الذي قليله مباح وكثيره حرام؟

فقال عليه السلام: هو نهر طالوت لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الثالثة: ما العبادة التي لو فعلها واحد استحق العقوبة وإن لم يفعلها استحق أيضاً العقوبة؟ فأجاب: بأنها صلاة السكارى.

الرابعة: ما الطائر الذي لا فرخ له ولا فرع ولا أصل؟ فقال: هو طائر عيسى عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

الخامسة: رجل عليه من الدَّين ألف درهم وله في كيسه ألف درهم فضمنه ضامن بألف درهم فحال عليه الحول فالزكاة على أي المالين تجب. فقال: إن ضمن الضامن بإجازة من عليه الدين فلا يكون عليه، وإن ضمنه من غير إذنه فالزكاة مفروضة في ماله.

السادسة: حجّ جماعة ونزلوا في دار من دور مكة وأغلق واحد منهم باب الدار وفيها حمام فمتن من العطش قبل عودهم إلى الدار فالجزاء على أيهم يجب؟ فقال عليه السلام: على الذي أغلق الباب، ولم يخرجهنّ، ولم يضع لهنّ ماء.

السابعة: شهد شهداء أربعة على محضر بالزنا فأمرهم الإمام برجمه، فرجمه واحد منهم دون الثلاثة الباقين ووافقهم قوم أجانب في الرجم فرجع من رجمه عن شهادته والمرجوم لم يمت ثم مات. فرجع الآخرون عن شهادتهم عليه بعد موته فعلى من تجب ديته؟ فقال: يجب على من رجمه من الشهود ومن وافقه.

الثامنة: شهد شاهدان من اليهود على يهودي أنه أسلم فهل يقبل شهادتهما أم لا؟ فقال: لا تقبل شهادتهما لأنهما يجوّزان تغيير كلام الله وشهادة الزور.

التاسعة: شهد شاهدان من النصارى على نصراني أو مجوسي أو يهودي أنه أسلم فقال: تقبل شهادتهما لقول الله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢] الآية. ومن لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد شهادة الزور.

العاشرة: قطع إنسان يد آخر فحضر أربعة شهود عند الإمام وشهدوا على قطع يده، وأنه زنى وهو محصن فأراد الإمام أن يرجمه فمات قبل الرجم فقال علي: من قطع يده دية يد حسب ولو شهدوا أنه سرق نصاباً لم يجب دية يده على قاطعها. والله أعلم.

٤ - ومن خطبة له عليه السلام

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيَاءِ، وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ. وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ، وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟ رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ. مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ. وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، حَتَّى سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ. أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلاَ دَلِيلَ. وَتَحْتَفِرُونَ وَلاَ تُمِيهُونَ. اَلْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ! عَزَبَ رَأْيُ امْرِىءٍ تَخَلَّفَ عَنِّي! مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلاَلِ! اَلْيَوْمَ تَوَافَقْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ!.

أقول: روي أن هذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد قتل طلحة والزبير تسنمتم أي ركبتم سنامها، وسنام كل شيء أعلاه، والسرار الليلة أو الليلتان يكون في آخر الشهر يستتر فيها القمر ويخفي، والوقر الثقل في السمع، وفقهت الأمر فهمته، والواعية الصارخة، والنبأ الصوت الخفي، والسمة العلامة، وسنن الحق وجهه وطريقه، وماهت البئر خروج مائها، وغرب أي غاب، وأوجس هجس وأحسّ، والظماء العطش، واعلم أن هذه الخطبة من أفصح كلامه عليه السلام، وهي مع اشتمالها على كثرة المقاصد الواعظة المحركة للنفس في غاية وجازة اللفظ، ثم من عجيب فصاحتها وبلاغتها أن كل كلمة منها تصلح لأن تفيد على سبيل الإستقلال، وهي على ما نذكره من حسن النظم وتركيب بعضها مع بعض.

قوله بنا اهتديتم في الظلماء الضمير المجرور راجع

إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله والخطاب لحاضري الوقت من قريش المخالفين له مع طلحة والزبير وإن صدق في حق غيرهم، والمراد أنّا سبب هدايتكم بأنوار الدين، وما أنزل الله من الكتاب والحكمة هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان حيث كنتم في ظلمات الجهل، وتلك الهداية هي الدعة إلى الله وتعليم الخلق كيفية السلوك إلى حضرة قدسه.

وقوله تسنمتم العلياء. أي بتلك الهداية وشرف الإسلام علا قدركم وشرف ذكركم، ولما استعار وصف السنام للعلياء ملاحظة لشبهها بالناقة رشح تلك الإستعارة بذكر التسنم وهي ركوب السنام وكنى به عن علوهم.

قوله وبنا انفجرتم عن السرار. إستعار لفظ السرار لما كانوا فيه من ليل الجهل في الجاهلية وخمول الذكر، ولفظ الإنفجار عنه لخروجهم من ذلك إلى نور الإسلام واشتهارهم في الناس، وذلك لتشبيههم بالفجر الطالع من ظلمة السرار في الضياء والإشتهار. قوله وقر سمع لم يفقه الواعية، إلتفات إلى الدعاء بالوقر على سمع لا يفقه صاحبه بواسطته علماً ولا يستفيد من السماع به مقاصد الكتب الإلهية وكلام الأنبياء عليهم السلام، والدعاء إلى الله، وحق لذلك السمع أن يكون أصماً إذ كانت الفائدة منه المقصودة إلى الحكمة الإلهية اكتساب النفس من جهته ما يكون سبباً لكمالها وقوتها على الوصول إلى جناب الله وساحل عزّته، فإذا كانت النفس معرضة عما يحصل من جهته من الفائدة، وربما كانت مع ذلك متلقّية منه ما يؤديه من الشرور الجاذبة لها إلى الجهة السافلة فحقيق به أن يكون موقوراً. ومن روى وقر على ما لم يسمّ فاعله فالمراد وقره الله وهو كلام على سبيل التمثيل أورده في معرض التوبيخ لهم، والتبكيت بالإعراض عن أوامر الله وطاعته، وكنّى بالواعية عن نفسه إذ صاح فيهم بالموعظة الحسنة والحث على الألفة، وأن لا يشقوا عصى الإسلام فلم يقبلوا.

ووجه نظام هذه الكلمة مع ما قبلها أنه لما أشار أولاً إلى وجه شرفه عليهم وأنه ممن اكتسب عنه الشرف والفضيلة وكان ذلك في مقابلة نفارهم واستكبارهم عن طاعته أردف ذلك بهذه الكلمة المستلزمة للدعاء عليهم كيف لم يفقهوا بيانه للوجوه الموجبة لإتباعه ويقبلوه بعد أن سمعوه، وهذا كما يقول أحد العلماء لبعض تلاميذه المعاند له المدّعي لمثله فضيلته: إنّك بي اهتديت من الجهل وعلا قدرك في الناس، وأنا سبب لشرفك أفتكبّر عليّ وقر سمعك لم لا تفقه قولي وتقبله، وقوله كيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة، إستعار لفظ النبأة لدعائه لهم وندائه إلى سبيل الحق والصيحة لخطاب الله ورسوله وهي إستعارة على سبيل الكناية عن ضعف دعائه بالنسبة إلى قوة دعاء الله ورسوله لهم، وتقرير ذلك أن الصوت الخفي لما كان لا يسمع عند الصوت القوي إذ من شأن الحواس أن لا يدرك الأضعف مع وجود الأقوى المماثل في الكيفية لإشتغالها به، وكان كلامه عليه السلام أضعف في جذب الخلق وفي قبولهم له من كلام الله وكلام رسوله وكلامهما مجرى الصوت القوي في حقهم، وكلامه مجرى الصوت الخفي بالنسبة إليه، وإسناد الإصمام إلى الصيحة من ترشيح الإستعارة وكنى به عن بلوغ تكرار كلام الله على أسماعهم إلى حد أنها محلّت وملّت سماعه بحيث لا تسمع بعد ما هو في معناه خصوصاً ما هو أضعف كما لا يسمع الصوت الخفي من أصمّته الصيحة، وقد وردت هذه الكلمة مورد الإعتذار لنفسه في عدم فائدة وعظه لهم، والإعتذار لهم في ذلك أيضاً على سبيل التهكم والذم، وجه نظامها مع ما قبلها. أنه لما كان تقدير الكلمة الأولى وقرت أسماعكم كيف لا تقبلون قولي إلتفت عنه وقال كيف يسمع قولي من لم يسمع كلام الله ورسوله على كثرة تكراره على أسماعهم وقوّة اعتقادهم وجوب قبوله، وكيف يؤاخذون بسماعه وقد أصمّهم نداء الله.

قوله ربط جنان لم يفارقه الخفقان، الخفقان دعاء للقلوب الخائفة الوجلة التي لا تزال تخفق من خشية الله والإشفاق من عذابه بالثبات والسكينة والإطمئنان.

والتقية ربط جنان نفسه، ومن روى بضم الراء على ما لم يسم فاعله فالتقدير رابط الله جناناً كذلك، وهو جذب لهم إلى درجة الخائفين وتنبيه على ملاحظة نواهي الله فيفيئوا على طاعته، ووجه إتصاله بما قبله أن ذكر

الشريف وصاحب الفضيلة في معرض التوبيخ لمن يراد منه أن يسلك مسلكه ويكون بصفاته من أعظم الجواذب له إلى التشبه به، ومن أحسن الإستدراجات له فكأنّه قال وكيف يلتفت إلى قولي من لا يلتفت إلى كلام الله، لله درّ الخائفين من الله المراعين لأوامره الوجلين من وعيده ما ضركم لو تشبهتم فرجعتم إلى الحق وقمتم به قيام رجل واحد.

قوله ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر وأتوسمّكم بحلية المغتربين. إشارة إلى أنه عليه السلام كان يعلم عاقبة أمرهم، إما باطلاع الرسول صلى الله عليه وآله على أنهم بعد بيعتهم له يغدرون به، أو لأنه كان يلوح له من حركاتهم وأحوالهم بحسب فراسته الصائبة فيهم. كما أشار إليه بقوله وأتوسّمكم بحلية المغتربين؛ وذلك لأنّه فهم أنهم من أهل الغرة وقبول الباطل عن أدنى شبهة بما لاح له من صفاتهم الدالّة على ذلك، وكان علمه بذلك منهم مستلزماً لعلمه بغدرهم بعهده ونقضهم لبيعته فكان ينتظر ذلك منهم.

قوله سترني عنكم جلباب الدين. وارد مورد الوعيد للقوم في قتالهم ومخالفتهم لأمره والمعنى أن الدين حال بيني وبينكم وسترني عن أعين بصائركم أن تعرفوني بما أقوى عليه من العنف بكم والغلظة عليكم، وسائر وجوه تقويمكم وردعكم عن الباطل وراء ما وقّفني عليه الدين من الرفق والشفقة وشهب ذيل العفو عن الجرائم. فكان الدين غطاء حال بينهم وبين معرفته فاستعار له لفظ الجلباب، وروى ستركم عنّي أي عصم الإسلام مني دماءكم واتباع مدبركم وأن أجهز على جريحكم وغير ذلك مما يفعل من الأحكام في حق الكفار وقوله وبصرّنيكم صدق النية أراد بصدق النية إخلاصه لله تعالى. وصفاء مرآة نفسه وأنه بحسب ذلك أُفيض على بصر بصيرته نور معرفة أحوالهم وما تؤول إليه عاقبة أمرهم. كما قال النبي صلى الله عليه وآله: المؤمن ينظر بنور الله. وقوله أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة تنبيه لهم على وجوب اقتفاء أثره والرجوع إلى لزوم أشعة أنواره في سلوك سبيل الله وإعلام لهم على سواء السبيل الحق وفي الطريق التي هي مزال الأقدام ليرّدهم عنها، ولنبيّن ذلك في المثل المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

روي أنه قال: ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سور في أبواب مفتّحة وعلى تلك الأبواب ستور مرخاة وعلى رأس الصراط داع يقول: ادخلوا الصراط ولا تعرجوا، قال: فالصراط هو الإسلام والستور حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي هو القرآن. فنقول: لما كان علي عليه السلام هو الواقف على أسرار الكتاب والمليء بجوامع علمه وحكمته والمطلع على أُصول الدين وفروعه. كان هو الناطق بالكتاب والداعي به الواقف على رأس سبيل الله والمقيم عليها، ولما كان سبيل الله وصراطه المستقيم في غاية الوضوح والبيان له وكان مستبيناً ما لها من الحدود والمقدمات مستجلباً لمزال الأقدام فيها وما ينشأ عليها من الشكوك والشبهات كان بحسب قوته المدبرة لهذا العالم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو الواقف على تلك الأبواب المفتحة التي هي موارد الهلاك، وأبواب جهنم وجواد المضلّة والسائر لها بحدود الله. وبيان نواهيه والتذكير بعظيم وعيده والقائد لأذهان السالكين للصراط عنها؛ وذلك حيث تلتفت أذهانهم في ضلماء الجهل فلا تبصر دليلاً هناك سواه ويطلبون ماء الحياة بالبحث والفحص من أودية القلوب فلا يجدون بها ماء إلاّ معه، وإستعار لفظ الإحتفار للبحث من مظان العلم ولفظ الماء للعلم كما سبق بيان وجه المشابهة.

قوله اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان. كنّى بالعجماء ذات البيان على الحال التي يشاهدونها من العبر الواضحة والمثلات التي حلّت بقوم فسقوا أمر ربهم وعمّا هو واضح من كمال فضله عليه السلام بالنسبة إليهم وما ينبغي لهم أن يعتبروا من حال الدين، ومقتضى أوامر الله التي يحثّهم على اتباعها. فإن كل هذه الأحوال أُمور لا نطق لها مقالي فشبّهها لذلك بالعجماء من الحيوان، واستعار لها لفظها ووصفها بكونها ذات البيان لأنّ لسانها الحال مخبر بمثل مقاله عليه السلام ناطق بوجوب اتّباعه شاهد لهم، ودليل على ما ينبغي أن يفعلوه في كل باب وذلك هو البيان فكأنّه عليه السلام أنطق العجماء إذ عبّر

هو بلسان مقاله عنها ما كانت تقتضيه، ويشاهده من نظر إليها بعين بصيرته وهو كقولهم سل الأرض من شقّ أنهارك وأخرج ثمارك فإن لم تجبك لساناً أجابتك إعتباراً، وكقولهم قال الحائط للوتد، لِمَ تشقني؟ قال سل من يدقني، وقال بعضهم العجماء صفة لمحذوف تقديره الكلمات العجماء وأراد بها ما ذكر في هذه الخطبة من الرموز وشبّهها بالحيوان إذ لا نطق لها في الحقيقة ومع ذلك يستفيد الناظر فيها أعظم الفوائد فهي ذات بيان عند اعتبارها.

قوله غرب رأي امرئ تخلّف عنّي. إشارة إلى ذم من تخلّف عنه وحكم عليه بالسفه وعدم إصابة الرأي حال تخلّفه عنه، وذلك أن المتخلّف لما فكر في أيّ الأُمور أنفع له أن يكون متابعيه أو المتخلفين عنه ثم رأى أن التخلف عنه أوفق له كان ذلك أسوء الآراء وأقبحها، فهو في الحقيقة كمن أقدم على ذلك بغير رأي يحضره أو لأن الرأي الحق كان غارباً عنه، وهو ذمّ في معرض التوبيخ للقوم على طريقة قولهم إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

قوله ما شككت في الحق مذ أُريته. بيان لبعض أسباب وجوب اتباعه وعدم التخلّف عنه، واعلم أن التمدح بعد الشك مما أراه الله من الحق، وما أفاضه على نفسه القدسيّة من الكمال مستلزم للإخبار بكمال قوته على استثبات الحق الذي رآه وشدّة جلائه له بحيث لا يعرض له شبهة فيه، والإمامية تستدل بذلك على وجوب عصمته وطهارته عن الأرجاس التي منشؤها ضعف اليقين.

قوله لم يوجس موسى خيفة على نفسه أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال. أشفق أفعل التفضيل منصوب على الصفة لخيفة. لأن الإشفاق خوف، والتقدير ولم يوجس موسى إشفاقاً على نفسه أشد من غلبة الجهال، والمقصود التنبيه على أن الخوف الذي يخافه عليه السلام منهم ليس على مجرد نفسه بل كان أشدّ خوفه من غلبة أهل الجهل على الدين وفتنة الخلق بهم وقيام دول الضلال، فتعمى طريق الهدى وتنسدّ مسالك الحق، كما خاف موسى عليه السلام من غلبة جهّال السحرة حيث ألقوا حبالهم وعصيّهم ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقيل إنّ أشفق فعل ماض والمعنى أن خوف موسى عليه السلام من السحرة لم يكن على نفسه. وإنما خاف من غلبة الجهال فكأنه قال لكن أشفق وإنما الشفق، ودول الضلال كدولة فرعون وأتباعه الضالين عن سبيل الله، وقوله اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل الموافقة مفاعلة من الطرفين، والخطاب لمقابليه في القتال، والمراد أنّي واقف على سبيل الحق وأنتم واقفون على سبيل الباطل داعون إليه وهو تنفير لهم عما هم عليه إلى ما هو عليه.

قوله: من وثق بماء لم يظمأ. مثل نبّه به على وجوب الثقة بما عنده أي إنكم إن سكنتم إلى قولي ووثقتم به كنتم إلى اليقين والهدى وأبعد عن الضلال والردى كما أن الواثق بالماء في أدواته آمنٌ من العطش، وخوف الهلاك وبعيد عنهما بخلاف من لم يثق بذلك وكنّى بالماء عما اشتمل عليه من العلم بكيفية الهداية إلى الله فإنّه الماء الذي لا ظمأ معه.

٥ - ومن خطبة له عليه السلام

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وخاطبه العباس وأبو سفيان ابن حرب في أن يبايعا له بالخلافة:

أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. هٰذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ. فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ. وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي! وَاللهِ لابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ!.

أقول: سبب هذا الكلام ما روى أنه لما تم في سقيفة بني ساعدة لأبي بكر أمر البيعة أراد أبو سفيان بن

حرب أن يوقع الحرب بين المسلمين ليقتل بعضهم بعضاً فيكون ذلك دماراً للدين فمضى إلى العباس، فقال له: يا أبا الفضل إن هؤلاء القوم قد ذهبوا بهذا الأمر من بني هاشم وجعلوه في بني تيم وأنّه ليحكم فينا غداً هذا الفظّ الغليظ من بني عديّ فقم بنا حتى ندخل على علي ونبايعه بالخلافة وأنت عمّ رسول الله وأنا رجل مقبول القول في قريش، فإن دافعونا عن ذلك قاتلناهم وقتلناهم، فأتيا أمير المؤمنين عليه السلام فقال له أبو سفيان: يا أبا الحسن لا تغافل عن هذا الأمر متى كنّا تبعاً لتيم الأرذال، وكان عليه السلام يعلم من حاله أنه لا يقول ذلك غضباً للدين بل للفساد الذي رآه في نفسه فأجابه عليه السلام بهذا الكلام عرجوا أي ميلوا وانحرفوا، والفلاح الفوز والنجاة، والأجون تغيّر الماء وفساده، وغصّ باللقمة يغصّ بفتح الغين إذا وقفت في حلقه فلم يسغها، وإيناع الثمرة إدراكها، واندمجت على كذا انطويت عليه وسترته في باطني، وباح بالشيء أظهره، والطوي البرء، والرشا حبلها.

قوله شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة. شبّه عليه السلام الفتنة بالبحر المتلاطم فلذلك استعار له لفظ الأمواج وكنى بها عن حركة الفتنة وقيامها، ووجه المشابهة ظاهر لاشتراك البحر والفتنة عند هياجهما في كونهما سبباً لهلاك الخائضين فيهما، واستعار بسفن النجاة لكل ما يكون وسيلة إلى الخلاص من الفتنة من مهادنة أو حيلة مخلّصة أو صبر، ووجه المشابهة كون كل منهما وسيلة إلى السلامة إذ آحاد الطرق المذكورة طرق إلى السلامة من ثوران الفتنة والهلاك فيها كما أن السفينة سبب للخلاص من أمواج البحر، قوله وعرّجوا عن طريق المنافرة أمر لهم بالعدول عن طريق المنافرة إلى السكون، والسلامة وما يوجب سكون الفتنة.

وكذلك قوله وضعوا تيجان المفاخرة أمر بطريق آخر من طرق النجاة وهي ترك المفاخرة. فإن المفاخرة مما تهيّج الأضغان وتثير الإحقاد وتوجب قيام الفتنة، ولما كان أكبر ما ينتهي إليه أرباب الدنيا من المفاخرة هو لبس التيجان وكانت الأصول الشريفة والأبوات الكريمة والقنيات الحسنة هي أسباب الإفتخار الدنيوي، ومنشأة كانت المشابهة بينها وبين التيجان حاصلة فاستعار عليه السلام لفظها لها وأمرهم بوضعها.

قوله أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح. لما نهى عليه السلام عن الفتنة وبيّن أن المفاخرة والمنافرة ليستا طريقتين محمودتين أردف ذلك بالإشارة إلى أنه كيف ينبغي أن يكون حال المتصدي لهذا الأمر، وكيف يكون طريق فوزه بمقاصده أو النجاة له، فحكم بالفوز لمن نهض بجناح، واستعار لفظ الجناح للأعوان والأنصار، ووجه المشابهة ظاهر فإن الجناح لما كان محلّ القدرة على الطيران والتصرف وكانت الأعوان والأنصار بهم القوه على النهوض إلى الحرب والطيران في ميدانها لا جرم حصلت المشابهة فاستعير لهم لفظ الجناح، وحكم بالنجاة للمستسلم عند عدم الجناح، وكلاهما يشملهما اسم الفلاح.

وفي هذا الكلام تنبيه على قلة ناصره في هذا الأمر. تقدير الكلام أنه ليس الطريق ما ذكرتم بل الصواب فيما يفعل ذو الرأي في هذا الأمر أنه إما أن يكون ذا جناح فينهض به فيفوز بمطلوبه أو لا يكون فيستسلم وينقاد فينجو ويريح نفسه من تعب الطالب.

قوله ماء آجن ولقمة يغصّ بها آكلها، تنبيه إلى أن المطالب الدنيوية وإن عظمت فهي مشوبة بالكدر والتغيّر والنقص، وأشار إلى أمر الخلافة في ذلك الوقت، وتشبّهها بالماء واللقمة ظاهر إذ عليهما مدار الحياة الدنيا، وأمر الخلافة أعظم أسباب الدنيا فتشابها فاستعار لفظهما لما يطلب منها وكنّى بهما عنه. ولما كان أجون الماء والغصص باللقمة ينقضهما ويوجب نفار النفس عن قبولهما، وكانت المنافسة في أمر الخلافة والتجاذب والمنافرة بين المسلمين فيها وكونها في معرض الزوال. مما يوجب التنفير عنها وتنقيصها وعدم الإلتذاذ بها نبّه عليه السلام بالأجون والغصص باللقمة على تلك الأمور، وكنى بهما عنها ليسكن بذلك فورة من استنهضه في هذا الأمر من بني هاشم فكأنه قال إنها لقمة منغّصة وجرعة لا يسيغها شاربها.

قوله ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه. تنبيه على أن ذلك الوقت ليس وقت الطلب لهذا

الأمر إما لعدم الناصر أو لغير ذلك، وكنّى لمجتني الثمرة عن طالبها فاستلزم ذلك تشبيهها بالثمرة أيضاً لاشتراكهما في كونهما محلاً للإلتذاذ أو نحوه، ثمّ شبّه مجتني الثمرة لغير وقتها بالزارع بغير أرضه ووجه الشبه عدم الإنتفاع في الموضعين إذ كان الزارع بغير أرضه في محل أن يمنع من ذلك التصرّف فيبطل سعيه، ولا ينتفع بزرعه فكذلك مجتني الثمرة لغير وقتها لا ينتفع بها فكذلك طلبه للخلافة في ذلك الوقت.

قوله فإن أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت. شكاية من الألسنة والأوهام الفاسدة في حقه وردت في معرض الكلام، وإشارة إلى أنه سواءٌ طلب الأمر وسكت عنه فلا بد من أن يقال في حقّه وينسب إلى أمر، ففي القيام والطلب ينسب إلى الحرص والإهتمام بأمر الدنيا، وفي السكوت ينسب إلى الذلّة والعجز وخوف الموت. وأوهام الخلق وألسنتهم لا تزال مولعة بأمثال ذلك بعضهم في حق بعض في المنافسات.

قوله هيهات بعد اللتيا والتي والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه. ورد مورد التكذيب للأوهام الحاكمة في سكوته بجزعه أي بعدما يقولون، واللتيا والتي كنايتان عن الشدائد والمصائب العظيمة والحقيرة، وأصل المثل أن رجلاً تزوج امرأة قصيرة صغيرة سيئة الخلق فقاسى منها شدائد فطلقها وتزوج طويلة فقاسى منها أضعاف ما قاسى من الصغيرة فطلقها وقال بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً، فصار ذلك مثلاً للداهية الكبيرة والصغيرة، وتقدير مراده بعد ملاقاة كبار الشدائد وصغارها أُنسب إلى الجزع من الموت. بعدما يقولون ثم أكد تكذيبهم في دعوى جزعه من الموت بالقسم البارّ أنه آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه وذلك أمر بيّن من حاله عليه السلام إذ كان سيّد العارفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ورئيس الأولياء، وقد عرفت أن محبة الموت والأنس به متمكن من نفوس أولياء الله لكونه وسيلة لهم إلى لقاء أعظم محبوب والوصول إلى أكمل مطلوب.

وإنما كان آنس به من الطفل بثدي أمّه لأنّ محبة الطفل للثدي وأنسه به وميله إليه طبيعي حيواني في معرض الزوال، وميله إلى لقاء ربه والوسيلة إليه ميل عقلي باق فأين أحدهما من الآخر.

قوله بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة. إشارة إلى سبب جملي لتوقفه عن الطلب والقيام غير ما نسبوه إليه من الجزع والخوف من الموت وهو العلم الذي انطوى عليه. فإنّ علمه بعواقب الأمور وأدبارها وتطلعه إلى نتائج الحركات بعين بصيرته التي هي كمرآة صافية حوذي بها صور الأشياء في المرآة العالية فارتسمت فيها كما هي مما يوجب توقفه عما يعلم أن فيه فساداً، وتسرعه إلى ما يعلم فيه مصلحة بخلاف الجاهل الذي يقدم على عظائم الأمور بقصر الرأي لا عن بصيرة قادته إلى ذلك ثم نبّه على عظيم قدر العلم الذي اندمج عليه بقوله لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة، والجملة الشرطية في موضع الجر صفة لعلم. وأشار باضطرابهم على ذلك التقدير إلى تشتّت آرائهم عند أن يكشف لهم ما يكون من أمر الخلافة وإلى من ينتهي وإلى ما يؤول إليه حال الناس إذ كان ذلك مما وقّفه عليه الرسول صلى الله عليه وآله وأعده لفهمه، فإنّ كثيراً منهم في ذلك الوقت كان نافراً عن عمر وآخرون عن عثمان فضلاً عن معاوية، ومنهم من كان يؤهل نفسه للخلافة في ذلك الوقت ويطلبها لنفسه وبعد عقدها لأبي بكر كان يرجو أن يؤول إليه بعده، وإذا كان الأمر كذلك فظاهر أنه عليه السلام لو باح لهم بما علمه من عاقبة هذا المر لم يكن لهم ذلك النظام الحاصل في ذلك الوقت ليأس بعضهم من وصول هذا الأمر إليه، وخوف بعضهم من غلظة عمر ونفرتهم منه، ونفار آخرين من بني أمية وما يكون منهم، وشبّه اضطراب آرائهم على ذلك التقدير باضطراب الأرشية في الطوى البعيدة مبالغة، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس؛ وذلك أن الطوى كلما كانت أعمق كان اضطراب الحبل فيها أشد لطوله فكذلك حالهم حينئذ أي يكون لكم اضطراب قوي واختلاف شديد، وقيل: أراد أن الذي يمنعني من المنافسة في هذا الأمر والقتال عليه شغلي بما انطويت عليه من العلم بأحوال الآخرة، وما شاهدته من نعيمها وبؤسها مما لو

كشفته لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعدية خوفاً من الله ووجلاً من عتابه وشوقاً إلى ثوابه ولذهلتم عما أنتم فيه من المنافسة في أمر الدنيا، وهذا الوجه محتمل الإرادة من هذا الكلام، ولعل في تمام هذا الكلام لو وجد ما يوضح المقصود منه ولم أقف عليه.

٦ - ومن خطبة له عليه السلام

لما أشير عليه بأن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال:

وَاللّهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا، وَلٰكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَداً، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي. فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ، مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا.

أقول: روى أبو عبيد قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام الطواف وقد عزم على اتباع طلحة والزبير وقتالهما فأشار إليه ابنه الحسن عليه السلام أن لا يتبعهما ولا يرصد لهما القتال. فقال في جوابه هذا الكلام.

وروي في سبب نقضهما لبيعته أنهما دخلا عليه بعد أن بايعاه بأيام وقالا: قد علمت جفوة عثمان لنا وميله إلى بني أميّة مدة خلافته، وطلبا منه أن يوليهما المصرين؛ الكوفة والبصرة، فقال لهما حتى أنظر ثم استشار عبدالله بن عباس فمنعه من ذلك فعاوداه فمنعهما فسخطا وفعلا ما فعلا، قال الأصمعي: اللدم بسكون الدال ضرب الحجر أو غيره على الأرض وليس بالقوى. ويحكى أن الضبع تستغفل في جحرها بمثل ذلك فتسكن حتى تصاد، ويحكى في كيفية صيدها أنهم يصنعون في جحرها حجراً ويضربون بأيديهم بابه فتحسب الحجر شيئاً تصيده فتخرج فتصاد.

ويقال إنها من أحمق الحيوان ويبلغ من حمقها أن يدخل عليها فيقال هذه ليست أمّ عامر أو يقال خامر أمر عامر فتسكن حتى توثق رجلها بحبل معد لصيدها، والختل الخديعة، واستأثرت بالشيء انفردت به، وأشار أولاً إلى ردّ ما أشير عليه به من تأخر القتال، ومفهوم التشبيه أنه لو تأخر لكان ذلك سبباً لتمكن الخصم مما قصده فيكون هو في ذلك شبيهاً بالضبع التي تنام، وتسكن على طول حيلة راصدها فأقسم عليه السلام أنه لا يكون كذلك أي لا يسكن على كثرة الظلم والبغي وطول دفاعه عن حقه ثمّ أردف ذلك بما هو الصواب عنده وهو المقاومة والقتال بمن أطاعه لمن عصاه فقال لكني أضرب بالمقبل إلى الحق وجه المدبر عنه، وبالسامع المطيع وجه العاصي المريب أبداً، وراعى المقابلة هَهُنَا فالعاصي في مقابلة المطيع والمريب في مقابلة السامع لأنّ المرتاب في الحق مقابل للقابل له ثم فسر الأبد بغاية عمره لأنه الأبد الممكن له، وذلك قوله حتى يأتي عليّ يومي، وأشار بيومه إلى وقت ضرورة الموت كناية، ثم أردف ذلك بالتظلم والشكاية في دفاعه عن هذا الأمر والإستئثار عليه المحوج له إلى هذه المقاومات والشكايات، وأشار إلى مبدأ ذلك الدفاع ومنتهاه، وأكد ذلك بالقسم البار والإشارة بالحق المدفوع عنه إلى أمر الخلافة وهي شكاية مؤكدة للشكايات السابقة، وبالله التوفيق.

٧ - ومن خطبة له عليه السلام

اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مِلاَكاً، واتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ!

أقول: ملاك الأمر ما يقوم به ومنه القلب ملاك الجسد، والأشراك يجوز أن يكون جمع شريك كشريف وأشراف، ويجوز أن يكون جمع شرك وهو حبائل الصيد كحبل وأحبال، والدبيب المشي الخفيف، والدرج أقوى منه، والخطل الفاسد من القول، وشركه بفتح الشين

وكسر الراء شاركه، وهذا الفصل من باب المنافرة وهو ذمّ للمنابذين له والمخالفين عليه، فأشاروا أولاً إلى إنقياد نفوسهم لشياطينهم إلى حدّ جعلوها مدبّرة لأمور فيها قوام أحوالهم وعزلوا عقولهم عن تلك المرتبة فهم أولياؤهم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٧].

ثم أردف ذلك بالإشارة إلى بعض لوازم تمليك الشيطان لأمورهم بقوله اتخذهم له أشراكاً؛ وذلك أنه إذا ملك أمورهم وكان قيامه بتدبيرها صرفهم كيف شاء، واستعمال الأشراك هَهُنَا على تقدير كونها جمع شرك إستعارة حسنة، فإنه لما كانت فائدة الشرك اصطياد ما يراد صيده، وكان هؤلاء القوم بحسب ملك الشيطان لآرائهم وتصرفه فيهم على حسب حكمه أسباباً لدعوة الخلق إلى مخالفة الحق، ومنابذة إمام الوقت وخليفة الله في أرضه أشبهوا الأشراك لاصطيادهم الخلق بألسنتهم وأموالهم، وجذبهم إلى الباطل بالأسباب الباطلة التي ألقاها إليهم الشيطان ونطق بها على ألسنتهم فاستعار لهم لفظ الأشراك.

وأما على التقدير الثاني فظاهر، ثم أردف ذلك ببيان ملازمته لهم فشبّهه بالطائر الذي بنى عشه في قلوبهم وصدورهم، واستعار لفظ البيض والأفراخ، ووجه المشابهة أن الطائر لما كان يلازم عشه فيبيض ويفرخ فيه أشبهه الشيطان في إقامته في صدورهم وملازمته لهم، وكذلك قوله ودبّ ودرج في حجورهم إستعارة كنّي بها أيضاً عن تربيتهم للباطل وملازمة إبليس وعدم مفارقته لهم ونشوءه معهم. كما يتربّى الولد في جحر والديه، وراعى في هذه القرائن الأربع: السجع ففي الأولين السجع المسمى مطرّفاً وفي الأخيرين المسمى متوازياً، قوله فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم إشارة إلى وجود تصرفه في أجزاء أبدانهم بعد إلقائهم مقاليد أمورهم إليه وعزل عقولهم عن التصرف فيها بدون مشاركته ومتابعته.

قوله فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل. إشارة إلى ثمرة متابعته وهي إصابة مقاصده منهم من الخروج عن أوامر الله في الأفعال، وهو المراد بارتكابه بهم الزلل، وفي الأقوال وهو المشار إليه بتزيينه لهم الخطل. قوله فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه. إشارة إلى أن الأفعال والأقوال الصادرة عنهم على خلاف أوامر الله إنما تصدر عن مشاركة الشيطان ومتابعته، والضمير في سلطانه يعود إلى من قد شاركه الشيطان في سلطانه الذي جعله الله له على الأعمال والأقوال، وانتصاب فعل على المصدر. إما عن فعل محذوف تقديره فعلوا ذلك فعل، أو عن قوله اتّخذوا لأنه في معنى فعلوا فهو مصدر له من غير لفظه، وراعى في هاتين القرينتين أيضاً السجع المطرّف، والله أعلم بالصواب.

٨ - ومن كلام له عليه السلام

يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك:

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ، وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ؛ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ. فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ؛ وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

أقول: الوليجة الدخيلة في الأمر، وهذا الفصل صورة مناظرة له مع الزبير وهو مشتمل على تقرير حجة سابقة له عليه، وصورة نقض لتلك الحجة من الزبير، وصورة جواب له عليه السلام عن ذلك.

أما الحجة فكأنه عليه السلام لما نكث الزبير بيعته وخرج لقتاله احتجّ عليه بلزوم البيعة له أولاً. فكان جواب الزبير ما حكاه عنه بقوله إنه بايع بقلبه إشارة إلى التورية والتعريض في العهود والأيمان ونحوهما، وهما من الزبير أن ذلك أمر تقبله الشريعة فأجابه عليه السلام بقياس حذف كبراه كما علمت من قياس الضمير؛ وهو ما أشار إليه بقوله فقد أقرّ بالبيعة، وادّعى الوليجة أي أقر بما هو مقبول ومحكوم بلزومه له شرعاً وادّعى أنه ادّخر في باطنه ما يفسده من الوليجة. فهذه صغرى القياس، وتقدير الكبرى وكل من فعل ذلك احتاج في بيان دعواه إلى بيّنة تعرف صحتها فينتج أنه محتاج إلى بيّنة كذلك، وأشار إلى هذه النتيجة بقوله فليأت عليها بأمر يعرف أي على دعواه الوليجة، وهيهات له ذلك إذ التورية أمر باطن لا يمكن الاحتجاج ولا إقامة البرهان عليه، ثم

أشار بقوله وإلاّ فليدخل فيما خرج منه أمر بالدخول في طاعته، وحكم بيعته التي خرج منها على تقدير عدم قدرته على برهان دعواه. وبالله التوفيق.

٩ - ومن كلام له عليه السلام

وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ؛ وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ، وَلاَ نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ.

الفشل، الجبن والضعف، والإشارة إلى طلحة والزبير وأتباعهما، والكلام في معرض الذم، واستعار لفظ الإرعاد والإبراق لوعيدهم وتهديدهم له بالحرب. يقال أرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وتوعد. قال الكميت:

أرعد وأبرق يا يزيد
فما وعيدك لي بضائر

ووجه الإستعارة كون الوعيد من الأمور المزعجة كما أن الرعد والبرق كذلك.

قوله ومع هذين الأمرين الفشل إشارة إلى وجه الرذيلة، وذلك أن التهديد والتوعد قبل إيقاع الحرب والضوضاء، والجلبة أمارة للجبن والعجز، والصمت والسكون أمارة الشجاعة كما أشار إليه عليه السلام في تعليم كيفية الحرب مخاطباً لأصحابه وأميتوا أصواتكم فإنه أطرد للفشل، وروى أن أبا طاهر الجبائي سمع جلبة عسكر المقتدر وهو في ألف وخمسمائة فارس والمقتدر في عشرين ألفاً فقال لبعض أصحابه ما هذا الزجل؟ قال: فشل. قال أجل وكانت الغلبة له فاستدل عليه السلام بتلك الأمارة على الفشل.

قوله ولسنا نرعد حتى نوقع ولا نسيل حتى نمطر. إشارة إلى نفي تلك الرذيلة عن نفسه وأصحابه وإثبات الفضيلة لهم، وكما أن فضيلة السحاب أن يقترن وقوع المطر منه برعده، وبرقه وإسالته بإمطاره كذلك أقواله مقرونة بأفعاله لا خلف فيها وغسالة عذابه مقرونة بإمطاره ومفهم ذلك أنّ خصمه يهدده بالحرب من غير قوّة نفس ولا إيقاع لها فأشبه ذلك الرعد من غير إيقاع للمطر، والسيل من غير مطر. فكأنّه قال: كما لا يجوز سيل بلا مطر فكذلك ما يوعدونه ويهدّدون به من إيقاع الحرب بلا شجاعة ولا قوة عليها، وفي ذلك شميمة التحدي.

١٠ - ومن خطبة له عليه السلام

أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي: مَا لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِي، وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ. وَأَيْمُ اللّهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ! لاَ يَصْدِرُونَ عَنْهُ، وَلاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

أقول: هذا الفصل ملتقط ملفق من خطبة له عليه السلام لما بلغه أن طلحة والزبير خلعا بيعته وهو غير منتظم، وقد أورد السيد منها فصلاً آخر وسنذكرها بتمامها إذا انتهينا إليه إن شاء الله تعالى. الإستجلاب في معنى الجمع، والبصيرة العقل، وأفرطت الحوض أُفرِطه بضم الهمزة ملأته والماتح بالتاء المستقي، وربما يلتبس بالمائح وهو الذي ينزل البئر فيملأ الدلو، والفرق بينهما أن نقطتي الفوق للفوقاني، والصدور الرجوع عن الماء وغيره ويقابله الورود وهو العود إليه، ومدار هذا الفصل على ثلاثة أمور:

أولها: الذم لأصحاب الجمل والتنفير عنهم.

والثاني: التنبيه على فضيلة نفسه.

والثالث: الوعيد لهم، وأشار إلى الأول بقوله ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله وأراد أن الباعث لهم والجامع على مخالفة الحق. إنما هو الشيطان بوسوسة لهم وتزيينه الباطل في قلوبهم، وقد عرفت كيفية وسوسته وإضلاله فكل من خالف الحق ونابذه فهو من حزب الشيطان وجنده خيلاً ورجلاً.

وأما الثاني فأشار أولاً إلى كمال عقله وتمام استعداده لاستجلابه الحق واستيضاحه بقوله وإن معي لبصيرتي ثم أكد ذلك بالإشارة إلى عدم انخداع نفسه القدسيّة للشيطان فيما يلبس به من الحق من الشبه الباطلة على البصائر الضعيفة فيعميها بذلك عن إدراكه وتمييزه من الباطل سواءً كانت مخادعة الشيطان وتلبيسه بغير واسطة، وهو المشار إليه بقوله وما لبست على نفسي أي

لا يلتبس على نفسي المطمئنة ما يلقيه إليها نفسي الأمارة، أو بواسطة وهو المشار إليها بقوله ولا لبّس عليّ أي إن أحداً ممن تبع إبليس وتلفف عنه الشبه وصار في قوّة أن يلبس الحق صورة الباطل لا يمكنه أن يلبس عليّ.

وأما الثالث: فأشار إليه بقوله وأيم الله لأُفرِطَنّ لهم حوضاً أنا ماتحه إلى آخره، واستعار إفراط الحوض لجمعه الجند وتهيئة أسباب الحرب، وكنّى بقوله أنا ماتحه أنه هو المتولي لذلك، ولما كانت الحرب قد شبهت بالبحر وبالماء الجمّ فيستعار لها أوصافه فيقال فلان خواض غمرات وفلان منغمس في الحرب جاز أن يستعار هَهُنَا لفظ الحوض وترشح تلك الإستعارة بالمتح والفرط والإصدار والإيراد، وفي تخصيص نفسه بالمتح تأكيد تهديد لعلمهم بداسه (ببأسه خ م) وشجاعته وقد حذف المضاف إليه ماتح في الحقيقة، وتقديره أنه ماتح ماءه إذ الحوض لا يوصف بالمتح. ثم أردف ذلك بوصف استعداد لهم بالشدة والصعوبة عليهم فكنّى بقوله لا يصدرون عنه عن أن الوارد منهم إليه لا ينجو منه فهو بمنزلة من يغرق منه فلا يصدر عنه ويقول ولا يعودون إليه أي إنّ من نجا منهم لا يطمع في الحرب مرة أُخرى فلا يردّون إلى ما أعدّ لهم مرّة ثانية، وأكد ذلك الوعيد بالقسم البار، وأصل أيم أيمن جمع يمين حذفت النون تخفيفاً كما حذفت في لم يكن، وقيل هو اسم برأسه وضع للقسم وتحقيقه في مسائل النحو.

١١ - ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل:

تَزُولُ الْجِبَالُ وَلاَ تَزُلْ! عُضَّ عَلَى نَاجِذِكَ. أَعِرِ اللّهَ جُمْجُمَتَكَ. تِدْ فِي الأَرْضِ قَدَمَكَ. ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

أقول: الناجذ السن بين الناب والضرس، وقال الجوهري: هو أقصى الأضراس، وقيل الأضراس كلها نواجذ، واعلم أنه عليه السلام أشار في هذا الفصل إلى أنواع آداب الحرب وكيفية القتال، فنهاه أولاً عن الزوال وأكد عليه ذلك بقوله تزول الجبال ولا تزل، والكلام في صورة شرطية متصلة محرفة تقديرها لو زالت الجبال لا تزال وهو نهي الزوال مطلقاً. لأن النهي عنه على تقديرها لو زالت الجبال مستلزم للنهي عنه على تقدير آخر بطريق الأولى، إذا القصد به المبالغة في النهي، ثمّ أردف ذلك بخمسة أوامر:

أحدها: أن يعضّ على ناجذه وذلك لاستلزامه أمرين:

أحدهما: ربط الجاش في الفشل والخوف، والإنسان يشاهد ذلك في حال البرد والخوف الموجبين للرعدة فإنّه إذ عضّ على أضراسه تسكن رعدته ويتمالك بدنه.

الثاني: أن الضرب مع ذلك في الرأس لا يؤثر كثير ضرر كما قال عليه السلام: في مواضع أُخر وعضّوا بالنواجذ فإنه أنبا للسيوف عن الهام، وكان ذلك لما فيه من جمع القوة والتصلب.

الثاني: أن يعير الله جمجمته وهي إستعارة لطيفة وتشبيه لجمجمته بالآلة التي تستعار للإنتفاع بها ثم ترّد، فانتفاع دين الله وحزبه بمحمد رضي الله عنه على هذا الوجه يشبه للإنتفاع بالعارية.

قال بعض الشارحين: وفي ذلك تنبيه لمحمد رضي الله عنه على أنه لا يقتل في ذلك الحرب إذ ما أعير الله لا بد من رده بكمال السلامة، وفيه تثبيت لجأشه وربط لقلبه.

الثالث: أن يلزم قدمه الأرض. ويجعلها كالوتد وذلك لاستلزام أمرين:

أحدهما: ربط الجأش واستصحاب العزم على القتال.

الثاني: أن ذلك مظنة الشجاعة والصبر على المكاره فيكون من موجبات انفعال العدو وانقهاره.

الرابع: أن يرمي ببصره أقصى القوم وذلك ليعلم على ماذا يقدم ولينظر مخاتل المخاتل ومقاتل المقاتل.

الخامس: أن يغضّ بصره بعد مدّه وذلك لكونه

علامة السكينة والثبات وعدم الطيش، ولأن مدّ النظر إلى بريق السيوف مظنة الرهبة، وربما خيف على البصر أيضاً، والنظر المحمود في الحرب أن يلحظ شزراً فعل الحنق المترصد للفرصة كما قال عليه السلام: في غير هذا الموضع ولاحظوا الشزر. ثم لمّا نبّه بهذه الأوامر الخمسة أمره أن يعلم أنّ النصر من عند الله. كما قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ليتأكد ثباته بثقته بالله عند ملاحظة قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

١٢ - ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك:

فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ شَهِدَنَا! وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هٰذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ، وَيَقْوَى بِهِمُ الإِيمَانُ.

أقول: أهوى أخيك معنى أي محبته وميله.

قوله فقد شهدنا. حكم بالحضور باقوة أو بحضور نفسه وهمته على تقدير محبته للحضور وكم إنسان يحضر بحضور همته وإن لم يحضر ببدنه كثير نفع. إما باستجلاب الرجال أو بتأثير الهمة في تفريق أعداء الله كما تفعله همم أولياء الله بحيث لا يحصل مثل ذلك النفع من أبدان كثيرة حاضرة وإن قويت وعظمت.

قوله ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء. تأكيد لحضور أخ القائل بالإشارة إلى من سيوجد من أنصار الحق الذابّين عنه وعباد الله الصالحين الشاهدين معه عليه السلام أيضاً، والشهادة شهادة بالقوة أي أنهم موجودون في أكمام المواد بالقة، ومن كان في قوة أن يحضر من أنصار الله فهو بمنزلة الحاضر الموجود بالفعل في نصرته إذا وجد.

قوله سيرعف بهم الزمان. إستعار لفظ الرعاف وهو الدم الخارج من أنف الإنسان لوجودهم وفيه تشبيه للزمان بالإنسان، وإنما نسب وجودهم إلى الزمان لأنه من الأسباب المعدة لقوابل وجودهم، ونحوه قول الشاعر:

وما رعف الزمان بمثل عمرو
ولا تلد النساء له ضريبا

قوله ويقوى بهم الإيمان ظاهر. وبالله التوفيق.

أقول: هذا الفصل مع فصول بعده من خطبة خطبها عليه السلام بالبصرة بعد ما فتحها روى أنه لما فرغ من حرب أهل الجمل أمر منادياً ينادي في أهل البصرة أن الصلاة الجامعة لثلاثة أيام من غد إن شاء الله ولا عذر لمن تخلّف إلاّ من حجة أو علة فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً فلما كان في اليوم الذي اجتمعوا فيه خرج فصلى في الناس الغداة في المسجد الجامع فلمّا قضى صلاته قام فأسند ظهره إلى حائط القبلة عن يمين المصلّى فخطب الناس فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ثمّ قال يا أهل المؤتفكة ائتكفت بأهلها ثلاثاً وعلى الله تمام الرابعة، يا جند المرأة وأعوان البهيمة رغا فأجبتهم وعقر فانهزمتم أخلاقكم دقاق وماؤكم زعاق بلادكم أنتن بلاد الله تربة وأبعد من السماء، بها تسعة أعشار الشر، المحتبس فيها بذنبه، والخارج منها بعفو الله.

١٣ - ومن كلام له عليه السلام

في ذم أهل البصرة:

كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ؛ رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا.

وفي رواية: وَايْمُ اللهِ لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ. أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ.

وفي رواية: كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

كأني أنظر إلى قريتكم هذه وقد طبّقها الماء حتى ما يرى منها إلاّ شرف المسجد كأنّه جؤجؤ طير في لجّة بحر فقام إليه الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين متى ذاك؟ فقال إذا صارت أجمتكم قصوراً، واعلم أن بعد هذا الفصل من الخطبة فصول لا تعلّق لها بهذا الموضع. وربما تعلقت بفصول أوردها السيد بعد هذا الفصل وسنذكرها معها إن شاء الله. أصل البصرة الحجارة البيض الرخوة، وصارت علماً للبلدة لوجدان تلك الحجارة بها. قيل إنها بالمربد كثيرة، وائتفكت البلدة بأهلها انقلبت بهم، والمؤتفكة من الأسماء القديمة للبصرة كما سنذكره في تمام هذه الخطبة، والرغا صوت الإبل خاصة، والعقر الجرح، والدقّ من كل شيء حقيره وصغيره، والشقاق الخلاف والإفتراق، والنفاق الخروج من الإيمان بالقلب وأصله أن اليربوع يرقق موضعاً من الأرض من داخل جحره فإذا أوتي من قبل بابه وهو القاصعاء ضرب ذلك الموضع برأسه فانتفق أي خرج، ويسمى ذلك النافقاء فاشتق لفظ النفاق منه، والزعاق المالح، وطبقها الماء أي عمّها، وأتى على جميعها وجؤجؤ السفينة صدرها وكذلك الطائر، واعلم أنه عليه السلام ذكر في معرض ذمّهم أموراً نبّه فيها على وجه ارتكابهم الزلل، أولها كونهم أهل المؤتفكة ئتفكت أهلها ثلاثاً ومعلوم أنه إئتفاك البلد بأهلها وخسفها بهم، إنما يكون لفسادهم واستحقاقهم بذلك عذاب الله، وقوله وعلى الله تمام الرابعة دعاء عليهم بإيقاع الخسف بهم.

الثاني: كونهم جند المرأة وأراد عائشة فإنهم جعلوها عقد نظامهم، ولما كانت قول النساء وآراؤهن أموراً مذمومة بين العرب وسائر العقلاء لضعف آرائهنّ ونقصان عقولهنّ كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: إنهنّ ناقصات العقول ناقصات الدين ناقصات الحظ.

أما نقصان عقولهنّ فلأن شهادة إثنتين منهنّ بشهادة رجل واحد لتذكر إحديهما الأخرى.

وأما نقصان دينهنّ فلأنّ إحديهنّ تقعد في بيتها شطر دهرها أي في أيام حيضها لا تصوم ولا تصلي.

وأما نقصان حظّهن فلأن ميراثهنّ على النصف من ميراث الرجال، وكان مع ذلك مستثيرهنّ ويايعهنّ أضعف رأياً منهنّ. كما هو شأن التابع بالنسبة إلى متبوعه لا جرم حسن توبيخه لهم بكونهم جنداً وأعواناً.

الثالث: كونهم اتباع البهيمة وأراد بالبهيمة الجمل الذي كان تحت عائشة فإن حالهم شاهدة باتباعه مجيبين لرغائه وهاربين لعقره، وهو أشنع من الأول، وأدخل في الذم، وكنى برغائه عن دعوتها لهم إلى القتال إذ قدمت عليهم راكبة له.

الرابع: دقة أخلاقهم وأشار بها إلى كونهم على رذائل الأخلاق دون حاق الوسط. ولما كانت أصول الفضائل الخلقية كما علمت ثلاثة: الحكمة والعفة والشجاعة وكانوا على طرف الجهل بوجوه الأراء المصلحيّة، وهو طرف التفريط من الحكمة العملية وعلى طرف الجبن وهو طرف التفريط من الشجاعة، وعلى طرف الفجور وهو طرف الإفراط من ملكة العفة والعدالة لا جرم صدق أنّهم على رذائل الأخلاق ودقاقها.

الخامس: الشقاق في العهود والنكث لها ومصداق ذلك نكثهم لعهده وخلافهم لبيعته وذلك من الغدر الذي هو رذيلة بإزاء ملكة الوفاء.

السادس: النفاق في الدين، ولما كانوا خارجين على الإمام العادل محاربين له لا جرم كانوا خارجين عن الدين، وربما كان ذلك خطاباً خاصاً لبعضهم إذ المنافق العرفي هو الخارج من الإسلام بقلبه المظهر له بلسانه فيكون ذلك خطاباً لمن كان منهم بهذه الصفة.

السابع: ما يتعلق بذم بلدهم وهو كون مائهم مالحاً وسبب ملوحته قربه من البحر وامتزاجه به، ودخول ذلك في معرض ذمّهم ربما يكون لسوء اختيارهم ذلك المكان والإقامة به مع كون مائهم بهذه الحال المستلزمة لأمراض كثيرة في استعماله كسوء المزاج والبلادة وفساد الطحال والحكّة وغير ذلك مما يذكره الأطباء، ولأن ذلك من أسباب التنفير عن المقام معهم وتكثير سوادهم.

الثامن: كونها أنتن البلاد تربة وذلك لكثرة ركوب الماء لها وتعفنها به.

التاسع: كونها أبعد البلاد عن السماء وسيجيء بيانه.

العاشر: كونها بها تسعة أعشار الشر ويحتمل أن يريد به المبالغة في ذمّها دون الحصر، وذلك أنه لما عدّد بها شروراً لا تكاد تجتمع في غيرها حكم بأن فيها تسعة أعشار الشر مبالغة كنّى به عن معظم الشر، ويحتمل أن يريد بالشر مجموع الرذائل الخلقية المقابلة لأصول الفضائل النفسانية التي هي العلم والشجاعة والعفّة والسخاء والعدل وكل منها مقابل برذيلتين. كما علمت فتلك عشر رذائل، وأشبه ما يخرج عنهم ما لا يناسب غرضه هَهُنَا ذمهم به كالتبذير أو نحوه وهذا الإحتمال وإن كان لطيفاً إلا أن فيه بعداً.

الحادي عشر: كون المقيم بين أظهرهم مرتهناً بذنبه وذلك أن المقيم بينهم لا بدّ وأن ينخرط في سلكهم ويستعد لقبول مثل طباعهم وينفعل عن رذائل أخلاقهم وحينئذٍ يكون موثوقاً بذنوبه.

الثاني عشر: كون الشاخص عنهم متداركاً برحمة من ربه وذلك لإعانة الله له بالخروج يسلم من الذنوب التي يكتسبها المقيم بينهم وتلك رحمة من الله، وأيّةُ رحمة، وكل ذل في معرض التنفير عنهم، والمفهوم من الرواية الثانية وهي قوله المحتبس فيها بذنبه والخارج منها بعفو الله غير ما ذكرناه إذ يفهم من قوله المحتبس فيها بذنبه أن احتباسه بينهم يجري مجرى العقوبة له بذنب سبق منه، والخارج منها قد عفا الله عنه بخروجه، وقد راعى في هاتين القرينتين السجع المتوازي وكذلك في القرائن الأربع قبلهما.

ثم أشار بعد ذلك إلى أنّ بلدتهم سيخربها الماء، شبّه يقينه بذلك، ومشاهدته بنور بصيرته لمسجدهم مغموراً بالماء، وقد طبق أرضهم بمشاهدته الحسيّة في الجلاء والظهور. وقد حكى توقيف الرسول ﷺ على أحوالهم في فصل آخر من هذه الخطبة وذلك أنه عقيب ذمّه لأهل البصرة وجوابه للأحنف في الفصل الذي ذكرناه قال مادحاً لهم: يا أهل البصرة إنّ الله لم يجعل لأحد من أمصار المسلمين خطة شرف ولا كرم إلاّ وقد جعل فيكم أفضل ذلك وزادكم من فضله بمنّه ما ليس لهم أنتم أقوم الناس قبلة قبلتكم عن المقام حيث يقوم الإمام بمكة. وقارئكم أقرأ الناس، وزاهدكم أزهد الناس، وعابدكم أعبد الناس، وتاجركم أتجر الناس وأصدقهم في تجارته، ومصدّقكم أكرم الناس صدقة، وغنيّكم أشدّ الناس بذلاً وتواضعاً، وشريفكم أحسن الناس خلقاً، وأنتم أكرم الناس جواراً وأقلّهم تكلّفاً لما لا يعنيه وأحرصهم على الصلاة في جماعة، ثمرتكم أكثر الثمار وأموالكم أكثر الأموال وصغاركم أكيس الأولاد ونساؤكم أقنع النساء وأحسنهنّ تبعّلاً، سخّر لكم الماء يغدو عليكم ويروح صلاحاً لمعاشكم والبحر سبباً لكثرة أموالكم فلو صبرتم واستقمتم لكانت شجرة طوبى لكم مقيلاً وظلاً ظليلاً غير أنّ حكم الله فيكم ماض وقضاءه نافذ، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨] وأقسم لكم يا أهل البصرة ما الذي ابتدأتكم به من التوبيخ إلاّ تذكيراً وموعظة لما بعد، لكيلا تسرعوا إلى الوثوب في مثل الذي وثبتم وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. ولا الذي ذكرت فيكم من المدح والنظرية بعد التذكير، والموعظة رهبة مني لكم ولا رغبة في شيء مما قبلكم فإني لا أريد المقام بين أظهركم إن شاء الله لأمور تحضرني قد يلزمني القيام بها فيما بيني وبين الله لا عذر لي في تركها ولا علم لكم بشيء منها حتى يقع مما أُريد أن أخوضها مقبلاً ومدبراً فمن أراد أن يأخذ بنصيبه منها فليفعل. فلعمري إنه للجهاد الصافي صفّاه لنا كتاب الله، ولا الذي أردت به من ذكر بلادكم موجودة مني عليكم لما شافهتموني غير أن رسول الله ﷺ قال لي يوماً وليس معه غيري: يا علي إن جبرائيل الروح الأمين حملني على منكبه الأيمن حتى أراني الأرض ومن عليها، وأعطاني

أقاليدها وعلّمين ما فيها وما قد كان على ظهيرها، وما يكون إلى يوم القيامة ولم يكبّر ذلك عليّ كما لم يكبر على أبي آدم علّمه الأسماء، ولم يعلّمه الملائكة المقربون وإني رأيت بقعة على شاطىء البحر تسمى البصرة فإذن هي أبعد الأرض من السماء وأقربها من الماء وأنها لأسرع الأرض خراباً وأخبثها تراباً وأشدها عذاباً، ولقد خسف بها في القرون الخالية مراراً وليأتين عليها زمان. وإن لكم يا أهل البصرة وما حولكم من القرى من الماء ليوماً عظيماً بلاؤه، وإني لأعرف موضع منفجره من قريتكم هذه ثمَّ أمور قبل ذلك تدهمكم عظيمة أخفيت عنكم وعلمناها فمن خرج عنها عند دنو غرقها فبرحمة من الله سبقت له ومن بقي فيها غير مرابط بها فبذنبه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وأما تشبيه ما يخرج من الماء من شرفات المسجد بصدر السفينة وفي الرواية الأخرى بالنعامة الجاثمة. وفي الرواية الثالثة بالطائر في لجّة البحر فتشبيهات ظاهرة، وأما وقوع ذلك الغرق المخبر فالمنقول أنّها غرقت مرّة في أيام القادر بالله، ومرّةً في أيام القائم بأمر الله غرقت بأجمعها وغرق من في ضمنها وخربت مع دورها ولم يبق منها إلاّ علوّ مسجدها الجامع حسب ما أخبر به عليه السلام، وكان غرقها من قبل بحر فارس ومن ناحية الجبل المعروف بجبل الشام، فكان ذلك مصداق كلامه عليه السلام، وفي ذلك نظر وذلك لأنه أشار إلى أن ذلك الماء ينفجر من أرضهم بقوله: وإني لأعرف موضع منفجره من قريتكم هذه، وظاهر ذلك يقتضي أنه لا يكون من ناحية أُخرى والله أعلم.

١٤ - ومن كلام له عليه السلام

في مثل ذلك:

أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْماءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ.

أقول: السفه رذيلة تقابل الحلم وتعود إلى الطيش وعدم الثبات، والآكلة اسم للمأكول، وقد علمت أن قوله أرضكم قريبة من الماء بعيدة من السماء مما حكاه عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الفصل المتقدم. أما قرب أرضهم من الماء فإشارة إلى أنها موضع هابط مستفل من الأرض وقريب من البحر فهو بصدد أن يعلوها بملاقاة دجلة وذلك مشاهد في دخول الماء حدائقهم وسقيه بساتينهم في كل يوم مرَّة أو مرتين، أما كونها بعيدة من السماء فبحسب استفالها عن غيرها من الأرض، وقيل إنَّ من أبعد موضع في الأرض عن السماء الإبلّة، وأن ذلك مما دلت عليه الأرصاد وبرهن عليه أصحاب علم الهيئة، وقال بعضهم: إنَّ كون ذلك في معرض الذم يصرفه عن مظاهره. وإنما الإشارة إلى أنهم لما كانوا بالأوصاف المذمومة التي عددها فيهم كانوا بعداء عن نزول الرحمة عليهم من سماء الجود الإلهي مستعدين لنزول العذاب، ويصدق في العرف أن يقال فلان بعيد من السماء إذا كان كما ذكرناه، قوله خفّت عقولكم إشارة إلى قلة استعدادهم لدرك وجوه المصالح وضعف عقولهم عن تدبير أحوالهم وتسرّعهم إلى ما لا ينبغي لغفلتهم عما ينبغي وهو وصف لهم برذيلة الغباوة، قوله وسفهت حلومكم إشارة إلى وصفهم برذيلة السفه والخفة المقابلة للحلم، قوله فأنتم غرض لنابلٍ وأكلة لآكل، وفريسة لصائل هذه الأوصاف الثلاثة لازمة عن خفّة عقولهم وسفه حلومهم ولذلك عقبها بها لأن طمع القاصد لهم بأنواع الأذى إنما ينشأ من العلم بقلة عقليتهم لوجوه المصالح وسفههم فيقصدهم بحسن تدبيره.

والأول: من هذه الأوصاف كناية عن كونهم مقصداً لمن يريد أذاهم.

والثاني: كناية عن كونهم في معرض أن يطمع في أموالهم ونعمتهم ويأكلها من يقصد أكلها.

والثالث: عن كونهم بصدد أن يفترسهم من يقصد قتلهم وإهلاكهم. واستعار لفظ الغرض والآكلة والفريسة لهم، ووجوه المشابهة فيها ظاهرة. وقد راعى في هذه القرائن السجع ففي الأوليين السجع المطرّف وفي الآخرين بعدهما والثلاث السجع المتوازي.

١٥ - ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان:

وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ؛ لَرَدَدْتُهُ؛ فَإِنَّ فِي العَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ العَدْلُ، فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!

أقول: هذا الفصل مع فصول بعده من خطبة خطبها بالمدينة لما قتل عثمان وبويع له: وقد ورد هنا بزيادة ونقصان، وأول هذا الفصل من الخطبة ألا وإنَّ قطيعة قطعها عثمان أو مال أخذه من بيت مال المسلمين فمردّود عليهم في بيت مالهم، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرّق في البلدان فإنّه إن لم يسعه الحق فالباطل أضيق عنه. وسنورد الخطبة بتمامها في أحد الفصول التي يجيء منها إن شاء الله تعالى. واعلم أنه أشار إلى العزم الجازم المؤكد بالقسم على ردّ القطائع التي كان عثمان أقطعها أقاربه ثم نبّه المقتطعين بقوله: فإنَّ في العدل سعة ألا إن عدل الله يسعهم في ردّ ما اقتطعوه، وكنّى بسعته عن اقتضاء أمر العدل ردّ ذلك وغيره من المظالم فعليهم أن يدخلوا في مقتضى أوامر الله وعدله، فإنّ فيه سعة لهم إذ به نظام العالم بأسره وهو محل لرضا المظلوم بإيصال حقّه إليه ولرضا الظالم لعلمه بأنّه عند الإنتزاع منه أخذ لما ليس له، وتأكد ذلك العلم بالوعيد الصادق فهو وإن قام شيطانه حال انتزاع الظلامة وضاق عليه العدل فهو في محل الرضا. فإن لم يرض لضيق العدل عليه فالجور عليه أضيق في الدنيا والآخرة لأنه ربما انتزعت منه قهراً وكان جوره سبباً للتضييق عليه في ذلك، ولأن الأوامر والنواهي الإلهية محيطة به سادّة عليه وجوه التصرف الباطل، ولأنه إذا نزل عليه عدل اعتقد أنه قد أخذ من ما ينبغي أخذه منه وإذا نزل عليه جور اعتقد أنه أُخذ منه ما لا ينبغي أخذه، ولا شك أن أخذه ما لا ينبغي أخذه أصعب على النفس، وأضيق من أخذ ما ينبغي وهو أمر وجداني. والمعنى في الألفاظ التي أوردناها من الخطبة قريب مما ذكرناه هٰهُنَا غير أن الضمائر في قوله فإنه إن لم يسعه تعود إلى المال، واعلم أنه قد كان عثمان أقطع جماعة من بني أمية وغيرهم من أصحابه كثيراً من أرض بيت المال، وكذلك فعل عمر ذلك مع قوم لهم وقائع مشهورة في الجهاد في سبيل الله وترغيباً في الجهاد، ولكن لما اختلف غرضا الإمامين لم يردّ علي عليه السلام إلاّ ما أقطعه عثمان، وبالله التوفيق.

١٦ - ومن خطبة له عليه السلام

لما بويع بالمدينة:

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ العِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ. ألا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ الله نَبِيَّكُم صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ، وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلاَ كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذَا الْمَقَامِ وَهٰذَا الْيَوْمِ. أَلاَ وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. أَلاَ وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ!

قال السيد الشريف: وأقول: إن في هذا الكلام الأدنى من مواقع الإحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإن حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به؛ وفيه، مع الحال التي وصفنا زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يَطّلع فَجّها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلا من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

أقول: في هذا الفصل فصول من الخطبة التي أشرنا إليها في الكلام الذي قبله، وكذلك في الفصل الذي بعده، ونحن نوردها بتمامها ليتضح ذلك، وهي الحمد لله أحق محمود بالحمد وأولاه بالمجد إلهاً واحداً صمداً أقام أركان العرش فأشرق لضوء شعاع الشمس خلق فأتقن وأقام فذلّت له وطأة المستمكن، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالنور الساطع والضياء المنير أكرم خلق الله حسباً وأشرفهم نسباً لم يتعلق عليه مسلم ولا معاهد بمظلمة بل كان يُظلم.

أما بعد فإن أول من بغى على الأرض عناق ابنة آدم كان مجلسها من الأرض جريباً وكان لها عشرون إصبعاً. وكان لها ظفران كالمخلبين فسلّط الله عليها أسداً كالفيل وذئباً كالبعير ونسراً كالحمار، وكان ذلك في الخلق الأول فقتلها وقد قتل الله الجبابرة على أسوأ أحوالهم، وإن الله أهلك فرعون وهامان وقتل قارون بذنوبهم ألا وإن بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم عليه السلام والذي بعثه بالحق لتبلبلنّ بلبلة، ولتغربلنّ غربلة ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا وليقصرّن سبّاقون كانوا سبقوا والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة ولقد نبئت بهذا اليوم وهذا المقام ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمّت بهم في النار فهم فيها كالحون، ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها فسارت بهم تأوّداً حتى إذا جاؤوا ظلاً ظليلاً فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ألا وقد سبقني هذا الأمر من لم أُشركه فيه ومن ليست له منه توبة إلاّ بنبي مبعث ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله أشفى منه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم.

أيها الناس كتاب الله وسنّة نبيّه لا يرعى مرع إلاّ على نفسه شغل من الجنة والنار أمامه ساع نجا وطاب يرجو ومقصر في النار ولكل أهل، ولعمري لئن أمر الباطل لقديماً فعل ولئن قل الحق لربما ولعل، ولقلّما أدبر شيء فأقبل، ولئن ردّ أمركم عليكم إنكم السعداء وما علينا إلاّ الجهد قد كانت أمور مضت ملتم فيها ميلة كنتم عندي فيها غير محمودي الرأي ولو أشاء أن أقول لقلت عفى الله عما سلف. سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب همه بطنه ويله لو قصّ جناحاه وقطع رأسه كان خيراً له شغل من الجنة والنار أمامه ساعي مجتهد وطالب يرجو ومقصّر في النار ثلاثة وإثنان خمسة، وليس فيهم سادس ملك طائر بجناحيه ونبي آخذ بضبعيه هلك من ادعى وخاب من افترى اليمين والشمال مضلّة ووسط الطريق المنهج عليه باقي الكتاب وآثار النبوة ألا وإن الله قد جعل أدب هذه الأمة السوط والسيف ليس عند إمام فيهما هوادة. فاستتروا بيوتكم واصلحوا ذات بينكم، والتوبة من ورائكم من أبدى صفحته للحق هلك. ألا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان، وما أخذه من بيت مال المسلمين فهو مردود عليهم في بيت مالهم ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرّق في البلدان فإنه إن لم يسعه الحق فالباطل أضيق عنه أقول قولي هذا واستغفر الله ولي ولكم(١).

ولقد ذكرنا هذا الفصل فيما قبل ولنرجع إلى التفسير فنقول: الذمة الحرمة، والذمة أيضاً العهد، والرهينة المرهونة، والزعيم الكفيل، وفي الحديث الزعيم غارم، والمثلات العقوبات، والحجز المنع، وقحّم في الأمر وتقحمه رمى بنفسه فيه، والهيئة الصفة، والبلبلة الإختلاط، والغربلة نخل الدقيق وغيره والغربلة القتل أيضاً، وساط القدر إذا قلّب ما فيها من طعام بالمحراك وأداره، والوشمة بالشين المعجمة الكلمة وبغير المعجمة العلامة والأثر، والشُمُس جمع شموس، وهي الدابة تمنع ظهرها، والتأوّد السير الثقيل بالثبات، والذلول الساكنة، والكلوح تكسر في عبوس، وأمر الباطل بكسر الميم كثر وفلان يرعى على نفسه إذا كان يتفقد أحوالها واعلم أنه أشار أولاً في هذا الفصل إلى وجوب الإعتبار لوجوب التقوى ونبه على أنه وسيلة إليه ومستلزم له في صورة شرطية متّصلة، وهي قوله من صرّحت له العبر

---

(١) الخطبة مذكورة في الإرشاد للمفيد وشرح ابن أبي الحديد مغايراً في ألفاظها.

عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات، وبيان الملازمة أن من أخذت العناية بزمام عقله فأعدت نور بصيرته لمشاهدة ما صرّحت به آفات الدنيا، وكشفت عبرها من تبدل حالاتها وتغيّراتها على من أوقف عليها همّه واتخذها دار الإقامة فشاهد أنّ كل ذلك أمور باطلة وأطلال زائلة، فلا بد أن يفيض الله على قلبه صورة خشيته وتقواه فتستلزم تلك الخشية توقّفه وامتناعه عن أن يلقي نفسه في تلك الأمور الزائلة والشبهات الباطلة لإشراق نور الحق الواضح على لوح نفسه بالاعتبار. فالتقوى اللازمة له هي الحاجز عن ذلك التقحم، وأشار بالشبهات إلى ما يتوهم كونه حقاً ثابتاً باقياً من الأمور الفانية الزائلة واللذات الدنيوية الباطلة فالوهم يصوّرها ويشبّهها بالحق. فلذلك سميت شبهات، والعقل الخارج من أسر الهوى قوّي على نقد الحق وتمييزه عن الشبهة، وأكد هذه الملازمة، برهن ذمته على صحتها وكفالته بصدقها، وذلك قوله ذمّتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم واستعمال الرهن استعارة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] واعلم أنه ربما التبس عليك حقيقة التقوى.

فنقول: التقوى بحسب العرف الشرعي تعود إلى خشية الحق سبحانه المستلزم للإعراض عن كل ما يوجب الإلتفات عنه من متاع الدنيا وزينتها وتنحية ما دون وجهه عن جهة القصد. ولما كان الترك والإعراض المذكور هو الزهد الحقيقي كما علمت، وكانت التقوى وسيلة إليه علمت أنّه من أقوى الجواذب إلى الله الرادعة عن الإلتفات إلى ما سواه وقد ورد التقوى بمعنى الخشية من الله تعالى في أول النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] ومثله في أول الحج، وفي الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، وكذلك قول هود وصالح ولوط وشعيب لقومهم، وفي العنكبوت، وإبراهيم، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦] وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وكذلك في سائر آيات القرآن وإن كان قد حمله بعض المفسرين تارة على الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] وتارة على التوبة كما في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦] وتارة على ترك المعصية كما في قوله: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩] وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه لما نبههم على لزوم التقوى، وأنه مخلص من تقحّم الشبهات نبّههم بعده على أنّهم في الشبهات مغمورون بقوله ألا، وإن بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه. وأشار ببليّتهم إلى ما هم عليه من اختلاف الأهواء وتشتت الآراء وعدم الألفة والإجتماع في نصرة الله عن شبهات يلقيها الشيطان على الأذهان القابلة لوسوسته المقهورة في يده.

وذلك من أعظم الفتن التي بها يبتلى الله عباده ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وهي أمور تشبه ما كان الناس عليه حال بعثة الرسول ﷺ وفي ذلك تنبيه لهم على أنهم ليسوا من تقوى الله في شيء إذا عرفت أن مجانبة الشبهة من لوازم التقوى فكان وقوعهم فيها مستلزماً لسلب التقوى عنهم ثم لما بيّن وقوعهم في البليّة كما كانت أقسم بالقسم البار لينزلنّ بهم ثمرة ما هم فيه من عدم الناصر واتباع الأهواء الباطلة وذكر أموراً ثلاثة:

أحدها: البلبلة وكني بها عما يوقع بنو أمية وغيرهم من أمراء الجور من الهموم المزعجة وخلط بعضهم ببعض ورفع أراذلهم وحطّ أكابرهم عما يستحق كل من المراتب.

الثاني: الغربلة وكأنّها كناية عن التقاط آحادهم وقصدهم بالأذى والقتل كما فعل بكثير من الصحابة والتابعين وفي ذلك تشبيه لفعلهم ذلك بغربلة الدقيق ونحوه لتميز شيء منه عن شيء، ولذلك استعير له لفظها وفي هاتين القرينتين السجع المتوازي.

الثالث: أن تساطوا كما تساط القدر إلى أن يعود أسفلهم أعلاهم وبالعكس واستعار لفظ السوط هٰهُنا مع غايته المذكورة لتصريف أئمة الجور لهم ممّن يأتي بعده بسائر أسباب الإهانة وتغيير القواعد عليها في ذلك الوقت وهو قريب من الأول.

قوله: وليسبقنّ سابقون كانوا قصروا وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا إشارة إلى بعض نتائج تقلب الزمان

بهم قال بعض الشارحين: إنه أشار بالمقصرين الذين يسبقون إلى قوم قصروا عن نصرته في مبدأ الأمر حين وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ثم نصروه في ولايته وقاتلوا معه في سائر حروبه وبالسابقين الذين يقصّرون إلى من كانت له في الإسلام سابقة ثم يخذله وينحرف عنه ويقاتله ويشبه أن يكون مراده أعمّ من ذلك فالمقصرون الذين يسبقون كل من أخذت العناية الإلهية بيده وقاده زمام التوفيق إلى الجد في طاعة الله واتباع سائر أوامره والوقوف عند نواهيه وزواجره بعد تقصيره في ذلك، وعكس هؤلاء من كان في مبدأ الأمر مشمراً في سلوك سبيل الله ثم جذبه هواه إلى غير ما كان عليه وسلك به الشيطان مسالكه فاستبدل بسبقه في الدين تقصيراً وإنحرافاً عنه.

قوله والله ما كتمت وشمة ولا كذبت كذبة أقسم أنه لم يكتم أثراً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى وكلمة مما يتعيّن عليه أن يبوح به، وأنه لم يكذب قطّ، وهذا القسم شهادة لما قبله من الإخبار بما سيكون أنه كان قال، وتوطئة لما بعده أنه كما هو وذلك قوله: ولقد نبأت بهذا المقام أي مقام بيعة الخلق له وهذا اليوم أي يوم اجتماعهم عليه وكل ذلك تنفير لهم عن الباطل إلى الحق وتثبيت لهم على اتباعه ثمّ لما أمرهم بالتقوى وأنبأهم بما سيكون عاقبة أمرهم في لزومهم لبليّتهم وتورطهم في الشبهات أردف ذلك بالتنفير عن الخطايا والترغيب في التقوى بالتنبيه على ما يقود إليه كل منهما.

قوله ألا وإنّ الخطايا خيل شُمُس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النار. إستعمال لفظ الخيل للخطايا ثم وصفها بالوصف المنفّر وهو الشموس والهيئة المانعة لذي العقل من ركوبها، وهي كونها مع شموسها مخلوعة اللجم، ووجه الإستعارة ظاهر فإن الفرس الشموس التي خلع لجامها لما كانت تتقحم براكبها المهالك وتجري به على غير نظام، فكذلك راكب الخطيئة لماجرى به ركوبها على غير نظام الشريعة وخلع بذلك لجام الأوامر الشرعية وحدود الدين لا جرم كانت غايته من ركوبه لها أن يتقحّم أعظم موارد الهلاك وهي نار جهنم، وذلك من لطيف الإستعارة.

قوله ألا وإن التقوى مطايا ذللٌ حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة إستعار ايضاً لفظ المطايا بالوصف الحسن الموجب للميل إليها وهو كونها ذللاً، وبالهيئة التي ينبغي للراكب وهو أخذ الزمام وأشار بالأزمة إلى حدود الشريعة التي يلزمها صاحب التقوى ولا يتجاوزها، ولما كانت المطية الذلول من شأنها أن تتحرك براكبها على وفق النظام الذي ينبغي ولا يتجاوز الطريق المستقيم بل يصرفها بزمامها وتسير به على تؤده فيصل بها إلى المقاصد. كذلك التقوى فسهولة طريق السالك إلى الله بالتقوى وراحته عن جموح الهوى به في موارد الهلكة يشبه ذلّة المطية، وحدود الله التي بها يملك التقوى ويستقر عليه يشبه أزمة المطايا التي بها تملك، وكون التقويم وصلاً لصاحبه بسلامة إلى السعادة الأبدية التي هي أسنى المطالب يشبهه غاية سير المطي الذلول براكبها، والإستعارة في الموضعين إستعارة لفظ المحسوس للمعقول ثم لما بيّن أن هَهُنَا طريقين مركوبين مسلوكين طريق الخطايا وطريق التقوى ذكر بعده أنهما حق وباطل فكأنّه قال وهما حق وهو التقوى وباطل وهو الخطايا.

ثم قال ولكل أهل أي ولكل من طريقي الحق والباطل قوم أعدّهم القدر لسلوكها بحسب ما جرى في اللوح المحفوظ بقلم القضاء الإلهي. كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: كلٌّ ميسر لما خلق له، قوله فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ولئن قل الحق فلربما ولعل، أردف لذلك بما يشبه الإعتذار لنفسه ولأهل الحق في قلته، وذمّ وتوبيخ لأهل الباطل على كثرة الباطل، وقلة الحق في ذلك الوقت ليس بدعاً حتى أجهد نفسي في الإنكار على أهله ثم لا يسمعون ولا ينتهون، وفي قوله لربما ولعل تنبيه على أنّ الحق وإن قل فربما يعود يسيراً ثمّ أردف حرف التقليل وهو ربما بحرف التمني. وكان في هذه الأحرف الوجيزة إخبار بقلة الحق، ووعد بقوته مع نوع تشكيك في ذلك وتمنيّ لكثرته.

قوله ولقلما أدبر شيء فأقبل استبعاد لرجوع الحق إلى الكثرة والقوة بعد قلته وضعفه على وجه كليّ فإن زوال الإستعداد للأمر مستلزم لزوال صورته وصورة

الحق إنما أُفيضت على قلوب صفت واستعدت لقبوله فإذا أخذ ذلك الإستعداد في النقصان بموت أهله أو بموت قلوبهم، وتسوّد ألواح نفوسهم بشبه الباطل فلا بد أن ينقض نور الحق وتكثر ظلمة الباطل بسبب قوة الإستعداد لها وظاهر أن عود الحق وإضاءة نوره بعد إدباره، وإقبال ظلمة الباطل أمر بعيد وقلّ ما يعود مثل ذلك الإستعداد لقبول مثل تلك الصورة للحق ولعله يعود بقوة فيصبح ألواح النفوس وأرضها مشرقة بأنوار الحق ويكرّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وما ذلك على الله بعزيز، وفي ذلك تنبيه لهم على لزوم الحق وبعث على القيام به كيلا يضمحل بتخاذلهم عنه فلا يمكنهم تداركه، وبالله التوفيق.

ومن هذه الخطبة

شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ! سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ. هَلَكَ مَنِ ادَّعَى، وَخَابَ مَنِ افْتَرَى. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلا يَلُمْ لاَئِمٌ إِلاَّ نَفْسَهُ.

أقول: عرفت كون هذا الفصل من الخطبة التي ذكرناها، والجادّة معظم الطريق، والصفحة الجانب، والسنخ الأصل، وذات البين حقيقته، والخيبة عدم حصول المطلوب، واعلم أن تقدير القضية الأولى أن من كان النار والجنة أمامه فقد جعل له بهما شغل يكفيه عن كل ما عداه فيجب عليه أن لا يشتغل إلاّ بهما، وأشار بذلك الشغل إلى ما يكون وسيلة إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار مما نطقت به الكتب المنزلة وحثّ على لزومه الرسل، وأشار بكون الجنة والنار أمامه إلى أحد أمرين:

أحدهما: أن يكون المراد كون الجنة والنار ملاحظتين له متذكراً لهما مدة وقته فهما أمامه ونصب خياله ومن كان كذلك فهو في شغل بهما عن غيرهما.

الثاني: أن يكون كونهما أمامه أي أنه لما كان الإنسان من مبدأ عمره إلى منتهاه مسافراً إلى الله تعالى فهو في انقطاع سفره لا بد وأن ينتهي إما إلى الجنة أو إلى النار فكانتا أمامه في ذلك السفر وغايتين يؤمّهما الإنسان وينتهي إليهما ومن كان أبداً في السفر إلى غاية معيّنة فكيف يليق به أن يشتغل بغير مهمات تلك الغاية والوسيلة إليهما، وإنما قال شغل بالبناء للمفعول لأن المقصود هَهُنَا ليس إلاّ ذكر الشغل أو لأنه لما كان الشاغل هو الله تعالى بإيجاد الجنة والنار والترغيب في إحديهما والترهيب من الأخرى كان ترك ذكره للتعظيم والإجلال أو لظهوره. ثم أنه لما نبّه على وجوب الإشتغال بالجنة والنار عن غيرهما قسم الناس بالنسبة إلى ذلك الإشتغال إلى ثلاثة أقسام: وذلك قوله ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصّر في النار هوى؛ ووجه الحصر في هذه القسمة أنّ الناس بعد الأنبياء عليهم السلام إما طالبون لله أو تاركون، والطالبون إما بغاية جدّهم واجتهادهم وبذل وسعهم وطاقتهم في الوصول إلى رضوانه أو بالبطء والتأني، فهذه ثلاثة أقسام لا مزيد عليها وإن كان قسم الطالبين على مراتب ودرجات متفاوتة.

القسم الأول: هم الفائزن بقصب السبق والناجون من عذاب النار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الطور: ١٧-١٨]. وهذا القسم يشمل الأنبياء لولا إفرازه لهم في رابع إذا قسّم الخلق في الخطبة إلى خمسة أقسام.

والثالث: المقصّر الذي وقف به الشيطان حيث أراد آخذاً بحجزته عن سلوك سبيل الله قاذفاً به في موارد الهلاك ومنازل الشقاء، وظاهر أنه في النار ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧].

أما القسم الثاني: فذو وصفين يتجاذبانه من جهتي السفالة والعلو فطلب الجنة إلى جهة بحركته وسلوكه إلى الله وإن ضعف جاذب له إلى جهة العلو، ويد الشيطان جاذبة إلى جهة السفالة، إلاّ أن رجاه لعفو الله ونظره إليه بعين رحمته إذا إنضاف إلى حركته البطيئة كانت السلامة عليه أغلب وجهة العلو منه أقرب، وينبغي أن نشير إلى حقيقة الرجاء ليتّضح ما قلناه، فنقول: الرجاء هو ارتياح النفس لانتظار ما هو محبوب عندها فهو حالة لها تصدر عن علم، وتقتضي عملاً. بيان ذلك أن ما تتصوره النفس من محبوب أو مكروه فإما أن يكون موجوداً في الماضي أو في الحال أو يوجد في الإستقبال، والأول يسمى ذكراً وتذكيراً. والثاني يسمى وجداً لوجدان النفس له في الحال. والثالث وهو أن يغلب على ظنك وجود شيء في الإستقبال لنفسك به تعلّق فسمي ذلك انتظاراً وتوقعاً فإن كان مكروهاً حدث منه في القلب تألم يسمى خوفاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به لذة للنفس وارتياح بإخطار وجوده بالبال، يسمى ذلك الإرتياح رجاءً، ولكن ذلك المتوقع لا بد وأن يكون لسبب فإن كان توقعه لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء صادق عليه.

وإن كان انتظاره مع العلم بانتفاء أسبابه فاسم الغرور والحمق عليه أصدق، وإن كانت أسبابه غير معلومة الوجود ولا الإنتفاء فاسم التمنّي أصدق على انتظاره. إذا عرفت ذلك، فاعلم أنَّ أرباب العرفان قد علموا أن الدنيا مزرعة الآخرة فالنفس هي الأرض وبذرها حب المعارف الإلهية. وسائر أنواع الطاعات جارية مجرى إصلاح هذه الأرض من تقليبها وإعدادها للزراعة، وسياقه الماء إليها، والنفس المتسغرقة بحب الدنيا والميل إليها كالأرض السبخة التي لا تقبل الزرع، والإنبات لمخالطة الأجزاء الملحيّة، ويوم القيامة يوم الحصاد إلاّ من زرع ولا زرع إلاّ من بذر. وكما لا ينفع الزرع في أرض سبخة كذلك لا ينفع إيمان مع خبث النفس وسوء الأخلاق، فينبغي أن يقاس رجاء العبد لرضوان الله برجاء صاحب الزرع، وكما أن من طلب أرضاً طيبة، ويبذرها في وقت الزراعة بذراً غير متعفّن ولا يتكاهل ثم أمدّه بالماء العذب وسائر ما يحتاج إليه في أوقاته ثم طهره عن مخالفة ما يمنع نباته من شوك ونحوه ثم انتظر من فضل الله رفع الصواعق والآفات المفسدة إلى تمام زرعه وبلوغ زرعه غايته. كان ذلك رجاء في موضعه واستحق اسم الرجاء إذ كان في مظنة أن يفوز بمقاصده من ذلك الزرع.

ومن بذر في أرض كذلك إلاّ أنه بذر في أُخريات الناس ولم يبادر إليه في أول وقته أو قصر في بعض أسبابه ثم أخذ ينتظر ثمرة ذلك الزرع ويرجو الله في سلامته له فهو من جملة الراجين أيضاً، ومن لم يحصل على بذر أو بذر في أرض سبخة أو ذات شاغل من الإنبات ثم أخذ ينتظر الحصاد فذلك الإنتظار حمق.

فكان اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار ما حصل جميع أسبابه أو أكثرها الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلاّ ما لا يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، كذلك حال العبد إن بذر المعارف الإلهية في أرض نفسه في وقته وهو مقتبل العمر ومبتدأ التكليف، ودام على سقيه بالطاعات واجتهد في طهارة نفسه عن شوك الأخلاق الرديئة التي تمنع نماء العلم وزيادة الإيمان وانتظر من فضل الله تعالى أن يثبته على ذلك إلى زمان وصوله وحصاد عمله فذلك الإنتظار هو الرجاء المحمود وهو درجة السابقين. وإن ألقى بذر الإيمان في نفسه لكنه قصر في بعض أسبابه، إما ببطئه في البذر أو في السقي إلى غير ذلك مما يوجب ضعفه ثمَّ أخذ ينتظر وقت الحصاد ويتوقع من فضل الله تعالى أن يبارك له فيه ويعتمد على أنه هو الرزاق ذو القوة المتين فيصدق عليه أيضاً أنه راج إذ أكثر أسباب المطلوب التي من جهته حاصلة، وهذه درجة القسم الثاني وهو الطالب الراجي البطيء، وإن لم يزرع من قواعد الإيمان فينفسه شيئاً أصلاً أو زرع ولم يسقه بماء الطاعة أو ترك نفسه مشغولة بشوك الأخلاق الرديئة وانهمك في طلب آفات الدنيا ثم انتظر المغفرة والفضل من الله فذلك الإنتظار غرور وليس برجاء في الحقيقة

وذلك هو القسم الثالث وهو المقصّر في أسباب الزراعة وتحصيل زاد الآخرة الهالك أسفاً يوم الحسرة والندامة يقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٤-٢٦].

وفي المعنى ما قيل: إذا أنت لم تزرع وعاينت حاصداً، ندمت على التفريط في زمن البذر. قال رسول الله ﷺ: الأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] وإنما خصصّ عليه السلام القسم الثاني بالرجاء إذ كان كما علمت عمدته لضعف عمله وقلّة الأسباب من جهته، وإلى هذه الأقسام الثلاثة أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. وإن اختلف مبدأ الرتبتين.

قوله: اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة. لما قسم الناس إلى سابقين ولاحقين ومقصرين أشار لهم إلى الطريق التي أخذ الله عليهم سلوكها ونصب لهم عليها أعلام الهدى ليصلوا بها إلى جناب عزته سالمين عن تخطفات الشياطين، وميزها عن طريق الضلال. ولما علمت أن طريق السالكين إلى الله إما العلم أو العمل، فالعلم طريق القوة النظرية، والعمل طريق القوة العملية، وكل منهما محتوٍ برذيلتين هما طرفا التفريط والإفراط كما علمته والوسط منهما هو العدل والطريق الوسطى وهي الجادة الواضحة لمن اهتدى وهي التي عليها ما في الكتاب الإلهي من المقاصد الحكمية عليها آثار النبوة ومنفذ السنّة أي طريقها ومبدؤها الذي منه تخرج وإليها مصير عاقبة الخلق في الدنيا والآخرة. فإن من العدل بدأت السنة وانتشرت في الخلق، وإليه مرجع أمورهم.

أما في الدنيا فلأن نظام أمورهم في حركاتهم وسكناتهم مبنى عليه في القوانين الشرعية إلى تلك القوانين والقواعد ترد عواقب أمورهم وعليها يحملون.

وأما في الآخرة فبالنسبة إليه يتبيّن خسران الخاسرين وفوز الفائزين فتحكم لمن سلك وتمسك به أوقات سفره إلى الله بجنات النعيم ولمن انحرف عنه وتجاوزه بالعذاب الأليم في نار الجحيم وكل واحد من طرفي الإفراط والتفريط بالنسبة إليه هو المراد باليمين والشمال من ذلك الوسط وهما طريقا المضلّة لمن عدل إليهما، وموردا الهلاك لمن سلكهما.

قوله هلك من ادعى وخاب من افترى يحتمل أن تكون القضيتان دعاءً، ويحتمل أن تكون إخباراً أي هلك من ادّعى ما ليس له أهلاً وعنى الهلاك الأخروي، وخاب من كذب أي لن يحصل مطلوبه إذا جعل الكذب وسيلة إليه، واعلم أن الدعوى إمّا أن تكون مطابقة لما في نفس الأمر أو ليست كذلك.

والثانية: محرمة مطلقاً.

وأما الأولى: فإما أن يدعو إليها حاجة أو ليس.

والقسم الأول: هو المباح فقط دون الثاني. وإنما حرم هذا القسمان.

أما الأول: وهي الدعوة غير المطابقة فلأنها تصدر عن ملكة الكذب تارة وعن الجهل المركب تارة أخرى كالجهل بالأمر المدّعى لحصوله عن شبهة رسخت في ذهنه وكلاهما من أكبر الرذائل وأعظم المهلكات في الآخرة.

وأما الثانية: وهي المطابقة لا عن حاجة فلأنها تكاد لا تصدر عن الإنسان إلاّ عن رذيلة العجب وستعلم أنه من المهلكات. قال رسول الله ﷺ: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وأما خيبة المفتري فلأن الفرية اختلاق ما ليس بحق وظاهر أن الكذب لا ثمرة له أما في الآخرة فظاهر وأما في الدنيا فقد يكون وقد لا يكون وإن كانت ففي معرض الزوال ومستلزمة لسخط الله فهي بمنزلة ما لم يكن وصاحبها أشد خيبة من عادمها، وطالب الأمر بالفرية على كل تقدير خاسر خائب. قال بعض الشارحين: أراد هلك من ادعى الإمامة من غير استحقاق، وخاب من افترى في دعواه لها لأن كلامه في هذه الخطبة كثيراً ما يعرض فيه بأمر الإمامة.

قوله من أبدى صفحته للحق هلك (عند جملة - جهلة خ - الناس) وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره،

تنبيه على أن المتجرد لإظهار الحق في مقابلة كل باطل ورد من الجهال، وحملهم على مرّ الحق وصعبه في كل وقت يكون في معرض الهلاك بأيديهم وألسنتهم إذ لا يعد منهم من يوليه المكروه ويسعى في دمه، ثم أراد التنبيه على الجهل فذكر أدنى مراتبه ونبّه بها على أن أقل الجهل كاف في الرذيلة فكيف بكثيره، وذلك قوله وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره وأراد مرتبته في الناس وعدم تصوّره لدرجة نفسه ومنزلتها بالنسبة إلى آحادهم وكفى بهذا القدر مهلكاً فإنّه منشأ كثير من الرذائل المهلكة كالكبر والعجب وقول الباطل وادعاء الكمال للناقصين وتعدي الطور في أكثر الأحوال. كما قال عليه السلام في موضع آخر: رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعد طوره. وفي هذه الكلمة تنفير للسامعين عن الجهل بقدر ما يتصورونه من وجوب التجرد للحق ونصرته. وربما يستفهم منها تعليم كيفية استجلاب طباع الجهّال وتأنيسهم وهو أنهم لا ينبغي أن يقابلوا بالحق دفعة ويتجرد في مقابلتهم به على كل وجه. فإن ذلك مما يوجب نفارهم وعدم نظام أحوالهم بل ينبغي أن يؤنسوا به على التدريج قليلاً قليلاً.

وربما لم يكن تأنيسهم بالحق في بعض الأمور إما لغموض الحق بالنسبة إلى أفهامهم أو لقوّه اعتقادهم الباطل في مقابلته فينخدعوا عن ذلك بالحق في صورة الباطل وظاهره، وذلك كما ورد في القرآن الكريم والسنن النبوية من صفات التجسيم وما لا يجوز أن يحمل على ظاهره في حق الصانع الحكيم. فإن حمله على ظاهره كما يتصوّره جهّال الناس أمر باطل لكنه لما كان سبب إيناسهم وجمع قلوبهم على اعتقاد الصانع وبه نظام أمورهم ورد الشرع به.

قوله لا يهلك على التقوى سنخ أصل ولا يظمأ عليها زرع قوم. تنبيه على لزوم التقوى باعتبارين:

أحدهما: أن كل أصل بني على التقوى فمحال أن يهلك ويلحق بانيه خسران كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الثاني: أن من زرع زرعاً أخروياً كالمعارف الإلهية في أرض نفسه مثلاً أو دنيوياً كالأعمال التي بها تقوم مصالح الإنسان في الدنيا وسقاها ماء التقوى وجعله مادّتها فإنه لا يلحق ذلك الزرع ظمأ بل عليه ينشأ بأقوى وأزكى ثمرة، واستعمال الزرع والأصل كناية عما ذكرناه.

قوله فاستتروا ببيوتكم وأصلحوا ذات بينكم والتوبة من ورائكم. قد عرفت أن هذا الفصل مقدّم في الخطبة على قوله من أبدى صفحته للحق هلك، وهو مسبوق بالتهديد ووارد في معرضه وهو قوله ألا وإن الله قد جعل أدب هذه الأمة السوط والسيف ليس عند إمام فيهما هوادة أي مصالحة وسكون فاستتروا ببيوتكم وهو حسم لمادة الفتنة بينهم بلزوم البيوت عن الإجتماع للمنافرات والمفاخرات والمشاجرات، ولذلك أردفه بقوله وأصلحوا ذات بينكم فإنّ قطع مادة الفتنة سبب لإصلاح ذات البين قوله والتوبة من ورائكم تنبيه للعصاة على الرجوع إلى التوبة عن الجري في ميدان المعصية، واقتفاء أثر الشيطان وكونها وراء. لأن الجواذب الإلهية إذا أخذت بقلب العبد فجذبته عن المعصية حتى أعرض عنها والتفت بوجه نفسه إلى ما كان معرضاً عنه من الندم على المعصية، والتوجه إلى القبلة الحقيقية فإنه يصدق عليه إذن أن التوبة وراءه. أي وراءً عقلياً وهو أولى من قول من قال من المفسرين إن ورائكم بمعنى أمامكم.

قوله ولا يحمد حامد إلاّ ربّه ولا يلم لائم إلا نفسه. تأديب لهم بالتنبيه على قصر الحمد والثناء على الله دون غيره وأنه مبدأ كل نعمة يستحق بها الحمد كما سبقت إليه الإشارة، وعلى قصر اللائمة على النفس عند انحرافها عن جهة القبلة الحقيقية إلى متابعة إبليس وقبولها لدعوته من غير سلطان، وإلى أصل هاتين الكلمتين أشار القرآن الكريم: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. فكل حسنة أصابت العبد من ربه فهي مبدأ لحمده وشكره، وكل سيئة أصابته من نفسه فهو مبدأ للائمة نفسه، فأما قول السيد رحمه الله إن في الكلام من مواقع الإحسان ما لا تبلغه مواقع الإستحسان إما سائر محاسن كلام العرب أي أن شيئاً من محاسن كلام العرب وما يقع عليه الإستحسان

منها لا يوازي هذا الكلام ولا يبلغه، وأشير بمواقع الإستحسان إلى الفكر من الناس فإنها محال الإستحسان أيضاً. إذ الإستحسان من صفات المستحسن. أي أن الفكر لا يصل إلى محاسن هذا الكلام، وقوله وإنّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به يريد أن تعجب الفصحاء من حسنه وبدائعه أكثر من عجبهم باستخراج محاسنه، وذلك لأن فيه من المحاسن وراء ما يمكنهم التعبير عنها أمور كثيرة فهم يجدونها من أنفسهم وإن لم يمكنهم التعبير عنها فيكون تعجبهم من محاسنه أكثر من إعجابهم من أنفسهم بما يقدرون على استخراجه منها. أو أُريد بأكثر من عجبهم به أي أكثر من محبتهم له وميلهم إليه، وباقي كلامه ظاهر وبالله التوفيق.

١٧ - ومن كلام له عليه السلام

في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل:

إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلائِقِ إِلَى اللهِ رَجُلانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلامِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ. وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً، مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الأُمَّةِ، عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ؛ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ؛ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءٍ آجِنٍ، وَاكْتَنَزَ مِن غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ؛ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يَذْرُو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ. لا مَلِيٌّ ـ وَاللهِ ـ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُرِّضَ بِهِ، لا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ. وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ. إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلاّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلاَ أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ!

أقول: وكله إلى نفسه جعل توكله عليها، والجائر العادل عن الطريق وفلان مشغوف بكذا بالغين المعجمة إذا بلغ حبه إلى شغاف قلبه وهو غلافه، وبغير المعجمة إذا بلغ إلى شعفة قلبه وهي عند معلق النيّات، والقمش جمع الشيء المتفرق والمجموع قماش، والموضع بفتح الضاد المطرح وبكسرها المسرع، والغارّ الغافل، وأغباش الليل ظلمته، وقال أبو زيد: الغبش البقية من الليل وروى أغطاش الفتنة والغطش الظلمة، والهدنة الصلح، والمبهمات المشكلات وأمر مبهم إذا لم يعرف، والرث الضعيف البالي، وعشوت الطريق بضوء النار إذا تبيّنته على ضعف، والهشيم اليابس من نبت الأرض المتكسر، والعج رفع الصوت، والبائر الفاسد. واعلم أنه أخذ أولاً في التنفير على الرجلين المشار إليهما بذكر أنهما من أبغض الخلائق إلى الله تعالى، ولما كانت إرادة الله للشيء ومحبته له عائدة إلى علمه بكونه على وفق النظام الكلي التام للعالم كانت كراهيته وبغضه له عائدة إلى علمه بكونه على ضدّ مصلحة العالم وخارجاً عن نظامه فبغضه إذن لهذين الرجلين علمه بكون افعالهما وأقوالهما خارجة عن المصلحة.

قوله رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل إلى قوله بخطيئته. بيان لأحد رجلين وتمييز له، وذكر له أوصافاً:

الأول: أنه وكله الله إلى نفسه أي جعله متوكلاً عليها دونه، واعلم أن التوكيل مأخوذ من الوكالة يقال: وكّل فلان أمره إلى فلان. إذاً فوضه إليه واعتمد عليه، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده. إذا عرفت ذلك فنقول: من اعتقد جزماً وظناً بأنّ نفسه أو أحداً غير الله تعالى ممّن ينسب إليه التأثير والقدرة، هو المتمكن من الفعل. وأنه تام القدرة على تحصيل مراده والوفاء به، فإن ذلك من أقوى الأسباب المعدة لأن يفيض الله على قلبه صورة الإعتماد على المعتقد فيه، والتوكل عليه فيما يريده، وذلك معنى قوله وكّله الله إلى نفسه، وكذلك معنى الوكول إلى الدنيا وذلك بحسب اعتقاد الإنسان أن المال والقينات الدنيوية وافية بمطالبه وتحصيلها مغنية له عما وراءها، وبحسب قوة ذلك التوكل وضعفه يكون تفاوت بغض الله تعالى للعبد ومحبّته له، وبعده وقربه منه فلن يخلص إذن العبد من بغض الله إلاّ بالتوكل عليه حق توكله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وهو أعظم مقام وسم صاحبه بمحبة الله فمن كان الله حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه، فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يبغض ولا يعذب ولا يبعد ولا يحجب.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من انقطع إلى الله كفاه كل مؤونته ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكلّه الله تعالى إليها، وصورة المتوكل عليه أن تثبت في نفسك بكشف أو اعتقاد جازم أن إستناد جميع الأسباب والمسببات إليه سبحانه وأنه الفاعل المطلق تام العلم والقدرة على كفاية العباد تام العفو والرحمة والعناية بخلقه حيث لا يكون وراء قدرته وعلمه وعنايته رحمة وعناية، ولم يقع في نفسك إلتفات إلى غيره بوجه حتى نفسك وحولك وقوتك، فإنك والحال هذه تجد من نفسك تسليم أُمورها بالكلية إليه والبراءة من التوكل على أحد إلا عليه، فإن لم تجد من نفسك هذه الحال فسبب ذلك ضعف الأسباب المذكورة أو بعضها وغلبة الوهم على النفس في معارضته لذلك اليقين، وبحسب ضعف تلك الأسباب وشدّتها وزيادتها ونقصانها يكون تفاوت درجات التوكل على الله تعالى.

الثاني: كونه جائراً عن قصد السبيل أي قصد سبيل الله العدل وصراطه المستقيم، وعلمت أن الجور هو طرف الإفراط من فضيلة العدل.

الثالث: كونه مشغوفاً بكلام بدعة أي معجب بما يخطر له ويبتدعه من الكلام الذي لا أصل له في الدين ويدعو به الناس إلى الضلالة والجور عن القصد، وهذا الوصف لازم عما قبله. فإن من جار عن قصد السبيل بجهله فهو يعتقد أنه على سواء السبيل فكان ما يتخيّله من ذلك الكمال الذي هو نقصان في الحقيقة مستلزماً لمحبة قول الباطل وابتداع المحال فهو من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

الرابع: كونه فتنة لمن افتتن به وهو أيضاً لازم عن الوصف الثالث فإن محبة قول الباطل والدعوة إلى الضلالة سبب لكونه فتنة لمن اتبعه.

الخامس: كونه ضالاً عن هدى من كان قبله وهذا الوصف كالثاني فإن الضال عن الهدى جائر عن قصد السبيل، إلا أن هَهُنَا زيادة إذ الجائر عن القصد قد يجور ويضل حيث لا هدى يتبعه، والموصوف هَهُنَا جائر وضال مع وجود هدى قبله مأمور باتباعه وهو كتاب الله وسنّة رسوله وإعلام هداه الحاملون لدينه، الناطقون عن مشكاة النبوة، وذلك أبلغ في لائمته وآكد في وجوب عقوبته.

السادس: كونه مضلاً لمن اهتدى به في حياته وبعد وفاته وهذا الوصف مسبب عما قبله إذ ضلال الإنسان في نفسه سبب لإضلاله غيره ويفهم منه ما يفهم من الرابع مع زيادة فإن كونه فتنة لغيره وهو كونه مضلاً لمن اهتدى به. وأما الزيادة فكون ذلك الإضلال في حياته وهو ظاهر وبعد موته لبقاء العقائد الباطلة المكتسبة عنه فهي سبب ضلال الضالين بعده.

السابع: كونه حمّالاً لخطايا غيره وهو لازم عن السادس فإنّ حمله لأوزار من يضلّه إنما هو بسبب إضلاله له.

الثامن: كونه رهناً بخطيئته أي موثوق بها عن الصعود إلى حضرة جلال الله وإلى هذين الوصفين أشار

القرآن الكريم بقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وقول رسول الله ﷺ: أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع كان له مثل أجر من تبعه لا ينقص من أجرهم شيء وأيما داع دعا إلى الضلالة فاتبع كان عليه مثل وزر من تبعه ولا ينقص منه شيء، واعلم أنه ليس المراد من ذلك أنه تعالى يوصل العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى القادة والرؤساء لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]. ولما دخل أحد من الناس النار أبداً بل كانت مقصورة على إبليس وحده بل المعنى أن الرئيس المضل إذا وضع سيئة تكون فتنة للناس وضلالاً لهم لم تصدر تلك السيئة إلاّ عن نفس قد استولى عليها الجهل المركب المضاد لليقين وصار ملكة من ملكاتها فيسود لوحها به عن قبول الأنوار الإلهية، وصار ذلك حجاباً بينها وبين الرحمة بحيث يكون ذلك الحجاب في القوة والشدة أضعاف حجب التابعين له والمقتدين به الناشئة عن فتنته فإنّ تلك الحجب الطارئة على قلوب التابعين مستندة إلى ذلك الحجاب وهو أصلها فلا جرم يكون وزره وسيئته في قوة أوزار أتباعه وسيئاتهم التي حصلت بسبب إضلاله لا كل سيئاتهم من كل جهة ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: ٢٥] أي بعض أوزارهم وهي الحاصلة بسبب المضلين.

وقال الواحدي: إنّ من في هذه الآية ليست للتبعيض بل لبيان الجنس وإلاّ لخفّ عن الأتباع بعض أوزارهم وذلك يناقض قوله ﷺ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. قلت: هذا وإن كان حسناً إلاّ أن الإلزام الذي ذكره غير لازم على كونها للتبعيض لأن القائل بكونها كذلك يقول: إن المراد وليحملوا بعض أمثال أوزار التابعين لا بعض أعيان أوزارهم، وإذا فهمت ذلك في جانب السيئات فافهم مثله في جانب الحسنات، وهو أن الواضع لحسنة وهدى يُهتدى به إنما تصدر عن نفس ذات صفاء وإشراق فأشرق على غيرها من النفوس التابعة لها فاستضاءت به وتلك السنّة المأخوذة من جملة أنوارها الفائضة عنها على نفس اقتبسها. فكان للنفس المتبوعة من الإستكمال بنور الله الذي هو رأس كل هدى ما هو في قوة جميع الأنوار المقتبسة عن تلك السنّة ومثل لها فكان لها من الأجر والثواب مثل ما للتابعين لها من غير نقصان في أجر التابعين وهداهم الحاصل لهم، وإلى هذا المعنى الإشارة الواردة في الخبر إنّ حسنات الظالم تنقل إلى ديوان المظلوم، وسيئات المظلوم تنقل إلى ديوان الظالم فإنك إن علمت أن السيئة والحسنة أعراض لا يمكن نقلها من محل إلى محل فليس ذلك نقلاً حقيقياً بل على وجه الإستعارة كما يقال: انتقلت الخلافة من فلان إلى غيره، وإنما المقصود من نقل سيئات المظلوم إلى الظالم حصول أمثالها في قلب الظالم ونقل حسنات الظالم إلى المظلوم حصول أمثالها في قلبه؛ وذلك لأنّ للطاعة تأثيراً في النفس بالتنوير، وللمعاصي تأثيراً بالقسوة والظلمة وبأنوار الطاعة تستحكم مناسبة النفس من استعدادها لقبول المعارف الإلهية ومشاهدة حضرة الربوبية، وبالقسوة والظلمة تستعد للبعد والحجاب عن مشاهدة الجمال الإلهي فالطاعة مولدة لذّة المشاهدة بواسطة القسوة والظلمة التي تحدث فيها. وبين الحسنات والسيئات تضاد وتعاقب على النفس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وقال ﷺ: اتبع السيئة بالحسنة تمحها والآلام ممحّصات للذنوب، ولذلك قال ﷺ: إنّ الرجل يثاب حتى بالشوكة التي تصيب رجله، وقال: الحدود كفارات لأهلها فالظالم يتبع شهوته بالظلم، وفيه ما يقسي القلب ويسوّد لوح النفس فيمحو أثر النور الذي فيه من طاعته. فكأنه أحبط طاعته، والمظلوم يتألم وتنكسر شهوته ويستكين قلبه، ويرجع إلى الله تعالى فتفارقه الظلمة والقسوة التي حصلت له من اتباع الشهوات، فكأن النور انتقل من قلب الظالم إلى قلب المظلوم، وانتقل السواد والظلمة من قلب المظلوم إلى قلب الظالم، وذلك انتقال على سبيل الإستعارة كما علمت وكما يقال انتقل ضوء الشمس من مكان إلى مكان، وقد تلخص من هذا التقرير

أن الحسنات المنقولة إلى المظلوم من ديوان الظالم هي استعداداته لقبول الرحمة والتنوير الحاصل له بسبب ظلم الظالم.

والسيئات المنقولة من ديوان المظلوم إلى الظالم هي استعداداته بالحجب والقسوة عن قبول أنوار الله، والثواب والعقاب الحاصلان لهما هو ما استعدا له من تلك الأنوار والظلمات، واعلم أن ذلك النقل وحمل الظالم أوزار المظلوم، وإن كان أمراً حاصلاً في الدنيا إلاّ أنه لما لم ينكشف للبصائر إلاّ في يوم القيامة لا جرم خصص بيوم القيامة. وإنما قال حمّال وزن فعّال للمبالغة والتكثير أي أنه كثيراً ما يحمل خطايا غيره.

وأما الرجل الثاني فميّزه بعشرين وصفاً (أ) كونه قمش جهلاً؛ وهي استعارة لفظ الجمع المحسوس للجمع المنقول. (ب) كونه موضعاً في جهّال الأمة مطرحاً ليس من أشراف الناس، ويفهم من هذا الكلام أنه خرج في حق شخص معيّن وإن عمّه وغيره. (ج) كونه غادياً في أغباش الفتنة أي سائراً في أوائل ظلماتها، وروى غارّاً أي غافلاً في ظلمات الخصومات لا يهتدي لوجه تخليصها. (د) كونه أعمى البصيرة بما في عقد الصلح والمسالمة بين الناس من نظام أمورهم ومصالح العالم فهو جاهل بوجوه المصالح مثير للفتن بينهم. (هـ) كونه قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس بعالم، والواو للحال وأشباه الناس الجهّال وأهل الضلال وهم الذين يشبهون الناس الكاملين في الصورة الحسية دون الصور التمامية التي هي كمال العلوم والأخلاق. (و) كونه بكّر فاستكثر من جمع ما قلّ منه خير مما كثر.

روى من جمع منوّناً وغير منوّن أما بالتنوين فالجملة بعده صفة له واستعمل المصدر وهي جمع في موضع اسم المفعول أي من مجموع، ويحتمل أن يكون المقصود هي المصدر نفسه، وأما مع الإضافة فقيل: إن ما هَهُنَا يحتاج في تمام الكلام إلى تقدير مثلها معها حتى يكون ما الأول هي المضاف. والثانية هي المبتدأ، والتقدير من جمع ما الذي قلّ منه خير مما كثر لكنه لما كان إظهار ما الثانية يشبه التكرار ويوجب هجنة في الكلام، وكانت ما الواحدة تعطي المعنى عن المقدرة كان حذفها أولى، وقيل: إن المقدّر المحذوف أن على طريقة تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أي من جمع ما أن قلّ منه خير مما كثر، وعنى بالتكسير إلى الإستكثار من ذلك السبق في أول العمر إلى جمع الشبهات والآراء التي قليلها خير من كثيرها وباطلها أكثر من حقها. (ز) كونه إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس بين الناس قاضياً. ولما كان الأجون صفة للماء والكمالات النفسانية التي هي العلوم كثيراً ما يعبر عنها بالماء الصافي والزلال وكان الجهل والآراء التي حصل عليها يجمعها مع العلم جامع الإعتقاد فهي والعلم داخلان تحت جنس الإعتقاد.

كان الماء الآجن أشبه ما يستعار لتلك الآراء التي ليست بنصيحة ولا متينة فهي تشبه الماء الآجن الذي لا غناء فيه للشارب، ورشح، تلك الإستعارة بذكر الإرتواء، وجعل غايته المشار إليها من ذلك الإستكثار جلوسه بين الناس قاضياً. (ح) كونه ضامناً لتخليص ما التبس على غيره أي واثق من نفسه بفصل ما يعرض بين الناس من القضايا المشكلة، وضامناً حال ثان أو صفة للأول. (ط) كونه إذا نزلت به إحدى القضايا المبهمة الملتبس وجه فصلها هيأ لها حشواً ضعيفاً من رأيه ثم جزم به والحشو الكلام الكثير الذي لا طائل تحته وليس حلاً لتلك المبهمة. (ي) كونه من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت. نسج العنكبوت مثل للأمور الواهية، ووجه هذا التمثيل أن الشبهات التي تقع على ذهن مثل هذا المصوف إذا قصد حل قضية مبهمة تكثر فيلبس على ذهنه وجه الحق منها فلا يهتدي له لضعف ذهنه.

فتلك الشبهات في الوها يشبه نسج العنكبوت وذهنه فيها يشبه الذباب الواقع فيه فكما لا يتمكن الذباب من خلاص نفسه من شبّاك العنكبوت لضعفه كذلك ذهن هذا الرجل إذا وقع في الشبهات لا يخلص وجه الحق منها، لقلة عقله وضعفه عن إدراك وجوه الخلاص. (يا) أنه لا يدري أصاب فيما حكم به أم أخطأ. فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب، وخوف الخطأ ورجاء الإصابة من لوازم الحكم مع عدم

الدراية. (يب) كونه جاهلاً خبّاط جهالات، والجهالات جمع جهلة فعلة من الجهل، وقد تقدم أنَّ وزن فعّال يبنى للفاعل من الأمور المعتادة التي يكثر فعلها، وذكرالجهل هَهُنَا بزيادة وهي كثرة الخبط فيه وكنّي بذلك عن كثرة الأغلاط التي يقع فيها في القضايا والأحكام فيمشي فيها على غير طريق حق من القوانين الشرعية وذلك معنى خبطه. (يج) كونه عاشياً ركّاب عشوات.

وهي إشارة إلى أنه لا يستليح نور الحق في ظلمات الشبهات إلاّ على ضعف لنقصان ضوء بصيرته فهو يمشي فيها على ما يتخيّله دون ما يتحققه وكثيراً ما يكون حاله كذلك، ولما كان من شأن العاشي إلى الضوء في الطرق المظلمة تارة يلوح له فيمشي عليه وتارة يخفى عنه فيضلّ عن القصد ويمشي على الوهم والخيال كذلك حال السالك في طرق الدين من غير أن يستكمل نور بصيرته بقواعد الدين ويعلم كيفية سلوك طرقه فإنه تارة يكون نور الحق في المسألة ظاهراً فيدركه وتارة يغلب عليه ظلمات الشبهات فتعمى عليه الموارد والمصادر فيبقى في الظلمة خابطاً وعن القصد جائراً. (يد) كونه لم يعض على العلم بضرس قاطع كناية عن عدم إتقانه للقوانين الشرعية وإحاطته بها، يقال فلان لم يعضّ على الأمر الفلاني بضرب إذا لم يحكمه، وأصله أن الإنسان يمضغ الشيء ثم لا يجيد مضغه فمثل به من لم يحكم ما يدخل فيه من الأمور. (يه) كونه يذري الروايات إذراء الريح الهشيم، ووجه التشبيه أن الريح لما كانت تذري الهشيم وهو ما تكسر من نبت الأرض ويبس فتخرجه عن حد الإنتفاع به، كذلك المتصفح للروايات لما لم يهتد إلى وجه العمل بها ولم يقف على الفائدة منها فهو يقف على رواية أُخرى ويمشي عليها من غير فائدة. (يو) أنه غير مليء بإصدار ما يرد عليه إشارة إلى أنه ليس له قوة على إصدار الأجوبة عما يرد عليه من المسائل فهو فقير منها. (يز) كونه لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، يقال فلان لا يحسب فلاناً في شيء بالضم من الحساب أي لا يعده شيئاً ويعتبره خالياً من الكمال والفضيلة، والمراد أنه ينكر العلم كسائر ما أنكره فهو لا يعده شيئاً ولا يفرده بالحساب والإعتبار، وعني بالعلم الحقيقي الذي ينبغي أن يطلب ويجتهد في تحصيله لا ما يعتقده الموصوف علماً مما قمشه وجمعه. فإن كثيراً من الجهال ممن يدعي العلم بفنٍّ من الفنون قد ينكر غيره من سائر الفنون ويشنّع على معلّميه كأكثر الناقلين للأحكام الفقهية، والمتصدّرين للفتوى والقضاء بين الخلق في زماننا وما قبله. فإنهم يبالغون في إنكار العلوم العقلية ويفتون بتحريم الخوض فيها وتكفير من يتعلّمها وهم غافلون عن أن أحدهم لا يستحق أن يسمى فقيهاً إلاّ أن يكون له مادة من العلم العقلي المتكفّل ببيان صدق الرسول ﷺ، وإثبات النبوة الذي لا يقوم شيء من الأحكام الفقهية التي يدعون أنها كل العلم، إلاّ بعد ثبوتها.

وروي يحسب بكسر السين من الحسبان وهو الظن أي لا يظن العلم ذا فضيلة يجب اعتقادها واعتباره بها فهو مما أنكره. (يح) كونه لا يرى أن من وراء ما بلغ منه مذهباً لغيره أي أنه إذا غلب على ظنه حكماً في القضية جزم به، وربما كان لغيره في المسألة قول أظهر من قوله يعضده دليلٌ فلا يعتبره، ويمضي على ما بلغ فهمه إليه. (يط) كونه إن أظلم عليه أمراً اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه وكثيراً ما يراعي قضاة السوء وعلماؤه اكتتام ما يشكل عليهم أمره من المسائل والتغافل عن سماعها إذا أُوردت عليهم لئلا يظهر جهلهم بين أهل الفضل مراعاة لحفظ المناصب. (ك) كونه تصرخ من جور قضائه الدماء وتعجّ منه المواريث نسبة الصراخ إلى الدماء والعجيج إلى المواريث إما على سبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي أهل الدماء وأولياء المواريث فيكون حقيقة، أو على سبيل استعارة لفظ الصراخ والعجيج لنطق الدماء والمواريث بلسان حالها المفصح عن مقالها، ووجه الإستعارة عن الصراخ والعجيج لما كانا إنّما يصدر عن تظلم وشكاية وكانت الدماء المهراقة بغير حق والمواريث المستباحة بالأحكام الباطلة ناطقة بلسان حالها مفصحة بالشكاية والتظلم لا جرم حسنت إستعارة اللفظين هيهنا، ثم بعد أن خص الرجلين المذكورين بما ذكر فيها من الأوصاف المنفرة على سبيل التفصيل أردف ذلك بالتنفير عنهما على سبيل

الجملة ما يعمّها وغيرهما من الجهّال من التشكي والبراءة وذلك قوله إلى الله من معشر أي إلى الله أشكو كما في بعض النسخ أو إلى الله أبرء، وذكر أوصافاً مبدؤها البقاء على الجهل والعيش فيه وكنى بالعيش عن الحياة وقابله بذكر الموت، وقوله يموتون ضلالاً وصف لازم عن الوصف الأول فإن من عاش جاهلاً مات ضالاً.

قوله ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته إلى آخره. أي إذا فسر الكتاب وحمل على الوجه الذي أنزل اعتقدوه فاسداً وأطرحوه بجهلهم عن درجة الإعتبار على ذلك الوجه، وإذا حرّف عن مواضعه ومقاصده ونزل على حسب أغراضهم ومقاصدهم شروه على ذلك الوجه بأغلى ثمن، وكان من أنفق السلع بينهم، وإستعارة له لفظ السلعة، ووجه المشابهة ظاهر ومنشأ كل ذلك هو الجهل، وكذلك ليس عندهم أنكر من المعروف، وذلك أنه لما خالف أغراضهم ومقاصدهم أطرحوه حتى صار بينهم منكراً يستقبحون فعله، ولا أعرف من المنكر لموافقة أغراضهم ومحبتهم له لذلك، واعلم أنه عليه السلام قسّم الناس في موضع آخر إلى ثلاثة أقسام: عالم ومتعلّم وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق، والرجلان المشار إليهما بالأوصاف المذكورة هَهُنَا ليسا من القسم الأول لكونهما على طرف الجهل المضاد للعلم، ولا من القسم الثالث لكونهما متبوعين داعيين إلى اتباعهما وكون الهمج تابعين كما صرح به فتعيّن أن يكونا من القسم الثاني وهم المتعلّمون، وإذا عرفت ذلك فنقول: المراد بالمتعلّم هو من ترفع عن درجة الهمج من الناس بطلب العلم واكتسب ذهنه شيئاً من الإعتقادات عن مخالطة من اشتهر بسمة العلم ومطالعة الكتب ونحو ذلك ولم ينته إلى درجة العلماء الذين يقتدرون على التصرف والقيام بالحجة فاعتقاداته حينئذ إما أن تكون مطابقة كلها أو بعضها أو غير مطابقة أصلاً. وعلى التقديرات فإما أن لا ينصب نفسه لشيء من المناصب الدينية كالفتوى والقضاء ونحوهما أو يتصدر لذلك فهذه أقسام ستة:

أحدها: من اعتقد اعتقاداً مطابقاً ولم يعرض نفسه لشيء من المناصب الدينية.

الثاني: من كان اعتقاده كذلك لكنه نصب نفسه للإفاضة.

الثالث: من اعتقد جهلاً ولم ينصب نفسه لها.

الرابع: من اعتقد جهلاً وعرض نفسه لها.

الخامس: من اعتقد جهلاً وغير جهل ولم ينصب نفسه للإفادة.

السادس: من كان اعتقاده كذلك ونصب نفسه لها.

والقسم الأول وحده هو الخارج عن هذين الرجلين بأوصافهما. والثاني والرابع والسادس منهم يكون الرجلان المذكوران. فالأول منهما في ترتيبه هو من نصب نفسه لسائر مناصب الإفادة دون منصب القضاء، والثاني هو من نصب نفسه له، وإنما بالغ في ذمّهما ونسبتهما إلى الجهل والضلال، وإن كان بعض اعتقاداتهما حقاً لكون القدر الذي حصلا عليه مغموراً في ظلمة الجهل فضلاً لهما وإضلالهما أغلب وانتشار الباطل فيهما أكثر.

وأما القسم الثالث والخامس فداخلان فيمن برىء إلى الله منهم وذمّهم أخيراً بالعيش في الجهل والموت على الضلال وما بعده، والله أعلم بالصواب.

١٨ - ومن كلام له عليه السلام

في ذم اختلاف العلماء في الفتيا:

تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلٰهُهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ. أَفَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالاخْتِلاَفِ فَأَطَاعُوهُ، أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ، أَمْ أَنْزَلَ اللهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ، أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ

شَيْءٍ﴾ ﴿وفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾. وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلاَ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِهِ.

أقول: الأنيق الحسن المعجب، وفي هذا الكلام تصريح بأنه عليه السلام كان يرى أن الحق في جهة وأن ليس كل مجتهد مصيباً، وهذا المسألة مما انتشر الخلاف فيها بين علماء أصول الفقه فمنهم من يرى أن كل مجتهد مصيب إذا راعى شرائط الإجتهاد وأن الحق بالنسبة إلى كل واحد من المجتهدين ما أدّى إليه إجتهاده وغلب في ظنه فجاز أن يكون في جهتين أو جهات وعليه الإمام الغزالي رحمه الله وجماعة من الأصوليين، ومنهم من ينكر ذلك ويرى أن الحق في جهة والمصيب له واحد وعليه اتفاق الشيعة وجماعة من غيرهم، وربما فصّل بعضهم. والمسألة مستقصاة في أصول الفقه. واعلم أن قوله ترد على أحدهم القضية إلى قوله فيصوّب آراءهم جميعاً بيان لصورة حالهم التي ينكرها، وقوله وإلههم واحد وكتابهم واحد ونبيهم واحد شروع في دليل بطلان ما يرونه، وهذه هي المقدمة الصغرى من قياس الضمير، وتقدير كبراه وكل قوم كانوا كذلك فلا يجوز لهم أن يختلفوا في حكم شرعي.

وقوله أفأمرهم الله سبحانه بالإختلاف فأطاعوه إلى آخر حجة في تقدير المقدمة الكبرى إذ الصغرى مسلّمة، وتقريرها أن ذلك الإختلاف إما أن يكون بأمر من الله أطاعوه فيه، أو بنهي منه عصوه فيه، أو بسكوت منه عن الأمرين، وعلى التقدير الثالث فجواز اختلافهم في دينه والحاجة إلى ذلك إما أن يكون مع نقصانه أو مع تمامه وتقصير الرسول في أدائه، وعلى الوجه الأول فذلك الإختلاف إنما يجوز على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون إتماماً لذلك النقصان أو على وجه أعمّ من ذلك وهو كونهم شركاؤه في الدين فعليه أن يرضى بما يقولون ولهم أن يقولوا إذ شأن الشريك ذلك فهذه وجوه خمسة، وحصر الأقسام الثلاثة الأخيرة ثابت بحسب استقراء وجوه الحاجة إلى الإختلاف. والأقسام كلها باطلة وأشار إلى بطلانها ببقية الكلام: أما بطلان الأول فلأنّ مستند الدين هو كتاب الله تعالى ومعلوم أنه يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه ولا يتشعب عنه عن الأقوال والأحكام إلاّ ما يكون كذلك ولا شيء من أقوالهم المختلفة كذلك فينتج أنه لا شيء مما استند إلى كتاب الله تعالى بقول لهم فلا يكون أقوالهم من الدين.

وأما بطلان القسم الثاني فلأن عدم جواز المعصية لله بالإختلاف مستلزم لعدم جواز الإختلاف وهو غني عن الدليل.

وأما بطلان الثالث وهو نقصان دين الله فلقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وأما الرابع والخامس: فظاهر البطلان فلا يمكنهم دعواهما فلذلك لم يورد في بطلانهما حجة ثم أردف بتنبيههم على أن الكتاب وافٍ بجميع المطالب إذا تدبروا معناه ولاحظوا أسراره وتطلعوا على غوامضه فيحرم عليهم أن يتسرعوا إلى قول ما لم يستند إليه وذلك في قوله ظاهره أنيق حسن معجب بأنواع البيان وأصنافه وباطنه عميق لا ينتهي إلى جواهر أسراره إلاّ أولو الألباب، ومن أيّد من الله بالحكمة وفصل الخطاب ولا تفنى الأمور المعجبة منه ولا تنقضي النكت الغريبة فيه على توارد صوارم الأذهان وخواطف الأبصار ولا تكشف ظلمات الشبه الناشئة من ظلمة الجهل إلا بسواطع أنواره ولوامع أسراره وقد راعى في هذه القرائن الأربع السجع المتوازي وبالله التوفيق.

١٩ - ومن كلام له عليه السلام

قاله الأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فقال:

يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك فخفض (عليه السلام) إليه بصره ثم قال:

مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي؟ عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَةُ اللاَّعِنِينَ! حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ! مُنَافِقٌ ابْنُ كَافِرٍ! وَاللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالإِسْلامُ أُخْرَى! فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلا حَسَبُكَ! وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الأَقْرَبُ، وَلا يَأْمَنَهُ الأَبْعَدُ!

قال السيد الشريف: أراد بقوله: دلّ على قومه السيف؛ ما جرى له مع خالد بن الوليد باليمامة، فإنه غرَّ قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه عُرف النار وهو اسم للغادر عندهم.

أقول: الكلام الذي اعترضه الأشعث أنه عليه السلام كان في خطبة يذكر أمر الحكمين فقام إليه رجل من أصحابه وقال له: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد، فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى، وقال: هذا جزاء من ترك العقدة أي جزائي حيث وافقتكم على ما ألزمتموني به من التحكيم، وتركت الحزم. فوجد الأشعث بذلك شبهة في تركه عليه السلام وجه المصلحة واتباع الآراء الباطلة، وأراد إفهامه فقال: هذه عليك لا لك، وجهل أو تجاهل أن وجه المصلحة قد يترك محافظة على أمر أعظم منه ومصلحة أهم فإنه عليه السلام لم يترك العقدة إلاّ خوفاً من أصحابه أن يقتلوه. كما سنذكره في قصتهم، وقيل: كان مراده عليه السلام هذا جزاؤكم حيث تركتم الحزم فظن الأشعث هذا جزائي فقال الكلمة: والحتف بالتاء الهلاك، وروي بالياء وهو الميل، والمقت البغض، قوله وما يدريك ما عليّ مما لي إشارة إلى أنه جاهل وليس للجاهل أن يعترض عليه وهو أستاذ العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما استحقاقه اللعن فليس بمجرد اعتراضه ولا لكونه ابن كافر بل لكونه مع ذلك من المنافقين بشهادته عليه السلام، والمنافق مستحق للعن، والإبعاد عن رحمة الله بشهادة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

قوله حائك بن حائك. إستعارة أشار بها إلى نقصان عقله وقلّة استعداده لوضع الأشياء في مواضعها، وتأكيد لعدم أهليّته للإعتراض عليه إذ الحياكة مظنّة نقصان العقل، وذلك لأنّ ذهن الحائك عامة وقته متوجه إلى جهة صنعته مصبوب الفكر إلى أوضاع الخيوط المتفرقة، وترتيبها ونظامها يحتاج إلى حركة رجليه ويديه، وبالجملة فالشاهد له بعلم من حاله أنه مشغول الفكر عما وراء ما هو فيه، فهو أبله فيما عداه، وقيل لأن معاملة الحائك ومخالطته لضعفاء العقول من النساء والصبيان، ومن كانت معاملته لهؤلاء فلا شك في ضعف رأيه وقلّة عقله للأمور.

روي عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: عقل أربعين معلماً عقل حائك وعقل حائك عقل امرأة والمرأة لا عقل لها، وعن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: لا تستشيروا المعلمين ولا الحوكة. فإن الله تعالى قد سلبهم عقلهم، وذلك محمول على المبالغة في نقصان عقولهم، وقيل: إنما عيّره بهذه الصنعة لأنها صنعة دنيّة تستلزم صغر الهمة وخسّتها وتشتمل على رذائل الأخلاق فإنها مظنة الكذب والخيانة.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى حائك من بني النجّار غزلاً لينسج له صوفاً فكان يماطله ويأتيه صلى الله عليه وآله متقاضياً ويقف على بابه فيقول ردّوا علينا ثوبنا لنتجمل به في الناس، ولم يزل يماطله حتى توفي صلى الله عليه وآله، وقد علمت أن الكذب رأس النفاق ومن كانت لوازم هذه الصنعة أخلاقه فليس له أن يعترض في مثل ذلك المقام، وقد اختلف في أن الأشعث هل كان حائكاً، أو ليس. فروي قوم أنه كان هو وأبوه ينسجان برود اليمن. وقال آخرون: إن الأشعث لم يكن حائكاً فإنه كان من أبناء ملوك كندة وأكابرها، وإنما عيّره بذلك لأنه كان إذا مشى يحرك منكبيه ويفحج بين رجليه، وهذه المشية، تعرف بالحياكة يقال: حاك يحيك حيكاناً وحياكة فهو حائك إذا مشى تلك المشية، وامرأة حائكة إذا تبخترت في مشيتها، والأقرب أن ذلك له على سبيل الإستعارة كنّى بها نقصان عقله كما سبق أولاً. فأما قوله والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أُخرى. فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك فتأكيد لنقصان عقله وإشارة إلى أنه لو

كان له عقل لما حصل فيما حصل فيه من الأسر مرتين، ما فداه أي ما نجاه من الوقوع في واحدة منهما ما له ولا حسبه ولا يرد الفداء بعد الأسر فإنّ الأشعث فدى في الجاهلية، وذلك أنّ مراداً لما قتل أباه خرج ثائراً طالباً بدمه فأسر ففدى نفسه بثلاثة آلاف بعير، ووفد على النبي ﷺ في سبعين رجلاً من كندة فأسلم على يديه وذلك الأمر هو مراده ﷺ بأسر الكفر له.

وأما أسره في الإسلام فإنه لما قبض رسول الله ارتدّ بحضرموت ومنع أهلها تسليم الصدقة وأبى أن يبايع لأبي بكر فبعث إليه زياد بن لبيد بعد رجوعه عنهم. وقد كان عاملاً قبل ذلك على حضرموت ثم أردفه بعكرمة بن أبي جهل في جمع عظيم من المسلمين فقاتلهم الأشعث بقبائل كندة قتالاً شديداً في وقائع كثيرة.

وكانت الدائرة عليه فالتجأ قومه إلى حصنهم فحصرهم زياد حصراً شديداً وبلغ بهم جهد العطش فبعث الأشعث إلى زياد يطلب منه الأمان لأهله ولبعض قومه، وكان من غفلته أنه لم يطلب لنفسه بالتعيين. فلما نزل أسره وبعث به مقيّداً إلى أبي بكر بالمدينة فسأل أبا بكر أن يستبقيه لحربه ويزوجه أمّ فروة ففعل ذلك أبو بكر، ومما يدل على عدم مراعاته لقواعد الدين أنه بعد خروجه من مجلس عقده بأمّ فروة أصلت سيفه في أزقة المدينة، وعقر كل بعير رآه وذبح كل شاة استقبلها للناس والتجأ إلى دار من دور الأنصار فصاح به الناس من كل جانب وقالوا: قد ارتد الأشعث مرّة ثانية، فأشرف عليهم من السطح وقال: يا أهل المدينة إني غريب ببلدكم وقد أولمت بما نحرت وذبحت، فليأكل كل إنسان منكم ما وجد وليغد إليّ من كان له عليّ حق حتى أرضيه، وفعل ذلك فلم يبق دار من دور المدينة، إلاّ وقد أوقد فيها بسبب تلك الجهلة فضرب أهل المدينة به المثل، وقالوا: أولم من الأشعث، وفيه قال الشاعر:

لقد أولم الكندي يوم ملاكه
وليمة حمّال لثقل العظام

قوله: وإن امرأ دلّ على قومه السيف وقاد إليهم الحتف لحريّ أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد. إشارة إلى غدره بقومه، وذلك أنه لما طلب الأمان من زياد بن لبيد طلبه لنفر يسير من وجوه قومه فظنّ الباقون أنه أخذ الأمان لجميعهم فسكتوا ونزلوا من الحصن على ذلك الظن. فلما خرج الأشعث ومن طلب الأمان له من قومه دخل زياد إلى الحصن فقتل المقاتلة صبراً فذكروه الأمان فقال لهم:

إنّ الأشعث لم يطلب الأمان إلاّ لعشرة من قومه فقتل من قتلهم منهم ثم وافاه كتاب أبي بكر بالكف عنهم وحملهم إليه فحملهم، وذلك معنى قوله ﷺ دلّ على قومه السيف وقاد إليهم الحتف إذ قادهم إلى الحرب وأسلمهم للقتل، ولا شك أن من كان كذلك فحقيق أن يمقته قومه ولا يأمنه غيرهم. فأما ما حكاه السيد رحمه الله من أنه أراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة وأنّه غرّ قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد فلم أقف على شيء من ذلك في وقائع خالد باليمامة، وحسن الظن بالسيد يقتضي تصحيح نقله ولعل ذلك في وقعة لم أقف على أصلها. وأعلم أنه ﷺ ذمه في هذا الفصل بجميع الرذائل النفسانية ونسبه إلى الجهل والغباوة الذي هو طرف التفريط من الحكمة بالحياكة التي هي مظنّة لقلّة العقل، وأشار إلى الفجور الذي هو طرف الإفراط من فضيلة العفّة بكونه منافقاً، وكونه ابن كافر تأكيداً لنسبة النفاق إليه، وأشار إلى الفشل قلّة التثبت التي هي طرف التفريط والإفراط من فضيلة الشجاعة بكونه قد أسر مرتين.

وكما أن فيه إشارة إلى ذلك ففيه أيضاً إشارة إلى نقصان عقله كما قلنا، وأشار إلى الظلم والغدر الذي هو رذيلة مقابلة لفضيلة الوفاء بقوله: وإنّ امرأ دلّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف، وباستجماعه لهذه الرذائل كان مستحقاً للّعن، وأما تستعاردتهم له عرف النار فلأنّ العرف عبارة عن كل عال مرتفع، والأعراف في القرآن الكريم سور بين الجنة والنار، ولما كان من شأن كل مرتفع عال أن يستر ما وراءه، وكان الغادر يستر بمكره وحيلته أموراً كثيرة، وكان هو قد غرّ قومه بالباطل وغدر بهم صدق عليه بوجه الإستعارة لفظ عرف النار لستره عليهم لما وراءه من نار الحرب أو نار الآخرة إذ حملهم على الباطل والله أعلم.

٢٠ - ومن خطبة له عليه السلام

فَإِنَّكُمْ لَوْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلٰكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ. وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلاَّ الْبَشَرُ.

أقول: الوهل بالتحريك الفزع يقال وهل يوهل وهلاً: فزع، واعلم أن الإنسان ما دام ملتحفاً بجلباب البدن فإنه محجوب بظلمة الهيئات البدنية والمعارضات الوهمية والخيالية عن مشاهدة أنوار عالم الغيب والملكوت، وذلك الحجاب أمر قابل للزيادة والنقصان والقوة والضعف، والناس فيها على مراتب فأعظمهم حجباً وأكثفهم حجاباً الكفّار كما أشار إليه القرآن الكريم مثلاً في حجبهم: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] الآية. فمثل الكافر كرجل وقع في بحر لجيّ صفته كذلك فأشار بالبحر اللجيّ إلى الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة، والموج الأول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية، وبالحري أن يكون هذا الموج مظلماً إذ حبّك الشيء يعمي ويصم، والموج الثاني موج الصفات السبعيّة الباعثة على الغضب والعداوة والحقد والحسد والمباهاة فبالحري أن يكون مظلماً لأن الغضب غول العقل وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى لأن الغضب في الأكثر مستول على الشهوات حتى إذا هاج أذهل عنها، والسحاب هو الإعتقادات الباطلة والخيالات الفاسدة التي صارت حجاباً لبصيرة الكافر عن إدراك نور الحق. إذ خاصيّة الحجاب أن يحجب نور الشمس عن الأبصار الظاهرة، وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحري أن يكون ظلمات بعضها فوق بعض. وأما أخفّهم حجباً وأرقّهم حجاباً فهم الذين بذلوا جهدهم في لزوم أوامر الله ونواهيه وبالغوا في تصفية بواطنهم وصقال ألواح نفوسهم، وإلقاء حجب الغفلة وأستار الهيئات البدنية فأشرقت عليهم شموس المعارف الإلهية، وسالت إلى أودية قلوبهم مياه الجود الرباني المعطي لكل قابل ما يقبله، فهؤلاء وإن كانوا قد بلغوا الغاية من الجهد في رفع الحجب وغسل دون الباطل عن نفوسهم إلاّ أنهم ما داموا في هذه الأبدان فهم في أغطية من هيئاتها وحجب من أستارها، وإن ضعفت تلك الحجب ورقّت تلك الأغشية، وما بين هاتين المرتبتين درجات من الحجب متفاوتة ومراتب متصاعدة متنازلة وبحسب تفاوتها يكون تفاوت النفوس في الإستضاءة بأنوار العلوم وقبول الإنتقاش بالمعارف الإلهية، والوقوف على أسرار الدين، وبحسب تفاوت هذه الحجب تكون تفاوت ورود النار. كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

ولن يخلص الإنسان من شوائب هذه الحجب وظلمتها إلاّ بالخلاص عن هذا البدن، وطرحه، وحينئذ ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. فتكون مشاهدة بعين اليقين ما أعدّ لها من خير وما هيىء لها من شر بحسب استعدادها بما كسبت من قبل.

فأما قبل المفارقة فإن حجاب البدن مانع لها عن مشاهدة تلك الأمور كما هي وإن حصلت على اعتقاد جازم برهاني أو نوع من المكاشفة الممكنة كما في حق كثير من أولياء الله إلاّ أن ذلك الوقوف والإطلاع يكون كالمشاهدة لا أنها مشاهدة حقيقية خالصة إذ لا تنفك عن شائبة الوهم والخيال، ولذلك قال صلى الله عليه وآله حاكياً عن ربه: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. بل ما اطلعتهم عليه أي وراء ما اطلعتهم عليه، وهو إشارة إلى طور المشاهدة الخالصة عن الشوائب التي هي عين اليقين بعد الموت، وقد يسمى ما أدركه أهل المكاشفات بمكاشفاتهم في حياتهم الدنيا عين اليقين، فأما إدراك من دون هؤلاء لتلك الأمور، فما كان منها مؤكداً بالشعور بعدم إمكان

النقيض فهو علم اليقين، وقد يختص علم اليقين في عرف الصوفية، بما تميل النفس إلى التصديق به ويغلب عليها ويستولي حتى يصير هو المتحكم المتصرف فيها بالتحريص والمنع فيقال فلان ضعيف اليقين بالموت إذا لم يهتم بالإستعداد له فكأنه غير موقن به مع أنه لا يتطرق إليه فيه شك، وقويّ اليقين به إذا غلب ذلك على قلبه حتى استغرق همته بالتهيؤ له. إذا عرفت ذلك فاعلم أن قوله عليه السلام فإنكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم. شرطية متصلة نبّه فيها على أن وراءهم من أهوال الآخرة، وعذابها مما شاهده من سبق منهم إلى الآخرة ما لا يشاهدونه الآن بعين وإن علموه يقيناً، وبيّن فيها لزوم جزعهم وفزعهم وسمعهم وطاعتهم لداعي الله على تقدير مشاهدتهم بعين اليقين تلك الأمور، وهذه الملازمة مما شهد البرهان بصحتها وأشار التنزيل الإلهي إلى حقيقتها، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وذلك مقتضى شهادتهم لأهوال الآخرة، وجزعهم من تلك المشاهدة فيجيبهم لسان العزّة ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

قوله ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا. استثناء لملزوم نقيض تالي هذه المتصلة إذ حجب تلك الأحوال عن بصائرهم مستلزم لعدم فزعهم وجزعهم وهو في صورة اعتذار منهم نطق به لسان حالهم. قوله وقريب ما يطرح الحجاب. ما مصدرية في موضع رفع بالإبتداء وقريب خبره، وهو إشارة إلى نحو تزييف لذلك العذر في صورة التهديد لهم إن جعلوا ذلك الخيال عمدة في التقصير عن العمل فإنّه عما قليل يرفع حجب الأبدان عن أحوالهم القيامة وأهوال يوم الطامّة، وتكشط سماء أغطيتها من بصائر النفوس فتشاهد الجحيم قد سعّرت والجنة قد أزلفت ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ [التكوير: ١١-١٤] وكما قال تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢].

قوله ولقد بُصِّرتم إن أبصرتم وأسمعتم إن سمعتم وهُديتم إن اهتديتم، إشارة إلى ما يشبه جواباً ثانياً عن صورة العذر السابق لحالهم وهو وجود الحجاب المانع عن مشاهدة ما يوجب الجزع والفزع؛ وذلك أن الحجاب وإن كان قائماً الآن وساتراً لتلك الأمور عنكم فقد بصرتم بها، وأوضحت لكم بالعبر والأمثال على ألسنة الرسل عليهم السلام، وأسمعتم إيّاها في الكتب الإلهية والسنن النبوية، وهديتم عليها بالدلائل الواضحة والحجج القاطعة بحيث صارت كالمشاهدة لكم والمعلومة عياناً لا شك فيها، فلا عذر إذن بالحجاب، وتخصيص السمع والبصر بالذكر، لأنهما الآلتان اللتان عليهما مدار الإعتبار بأُمور الآخرة. وأشار بالهداية إلى حظّ العقل من غير نظر إلى آلة، ونبّه بإيراد إن الشرطيّة في المواضع الثلاثة على أنه يجد الشك في إبصارهم لما بصروا به وسماعهم لما أُسمعوا واهتدائهم بما هدوا به، وكل ذلك تنفير لهم على القرار على الغفلة وتنبيه على الفرار إلى الله في طرق الإعتبار.

قوله بحق أقول لكم لقد جاهرتكم العبر وزجرتم بما فيه مزدجر. لما قدم أنهم بصروا وأُسمعوا أردف ذلك ببيان ما بصروا به وأُسمعوا إلى ما بصروا به بمجاهرة العبر بالمصائب الواقعة بهم وبمن خلا قبلهم من القرون، وإلى ما أُسمعوا به بالزجر بما فيه مزدجر، وهي النواهي المؤكدة المردفة بالوعيدات الهائلة والعقوبات الحاضرة التي في أقلها ازدجار لذوي الألباب. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٤-٥] وقوله وما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلاّ البشر. إشارة إلى أنه ليس في الإمكان وراء ما جذبتم به إلى الله تعالى على ألسنة رسله طريقة أُخرى تدعون بها؛ إذ ما يمكن دعوتكم إلاّ بالوعد والوعيد والأمثال والتذكير بالعبر اللاحقة لقوم حقّت عليهم كلمة العذاب، ونحو ذلك لا يمكن إيضاحه لكم مشاهدة إلاّ على ألسنة الرسل البشرية عليهم السلام فلا يمكن أن يبلغ إليكم رسالات ربكم بعد رسل السماء التي هي الملائكة إلاّ هم فينبغي أن يكون ذلك أمراً كافياً لكم في الإلتفات إلى الله.

٢١ - ومن خطبة له عليه السلام

فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

قال الشريف: أقول: إن هذا الكلام لو وزن، بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، بكل كلام لمال به راجحاً، وبرز عليه سابقاً. فأما قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً وما أبعد غورها من كلمة، وأنقع نطفتها من حكمة، وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها وشرف جوهرها.

أقول: لا شك أن هذه الكلمات اليسيرة قد جمعت وجازة الألفاظ وجزالة المعنى المشتمل على الموعظة الحسنة والحكمة البالغة وهي أربع كلمات:

الأولى: أن الغاية أمامكم. واعلم أنه لما كانت الغاية من وجود الخلق أن يكونوا عباد الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وكان المقصود من العبادة إنما هو الوصول إلى جناب عزته والطيران في حظائر القدس بأجنحة الكمال مع الملائكة المقرّبين، وكان ذلك هو غاية الإنسان المطلوبة منه والمقصودة له والمأمور بالتوجه إليها بوجهه الحقيقي. فإن سعى لها سعيها أدركها وفاز بحلول جنّات النعيم وإن قصر في طلبها وانحرف سواء الصراط الموصل إليها، وقد علمت أن أبواب جهنم عن جنبتي الصراط مفتحة كان فيها من الهاوين، وكانت غايته فدخلها مع الداخلين. فإذن ظهر أن غاية كل إنسان أمامه إليها يسير وبها يصير.

الثانية: قوله وإن وراءكم الساعة تحدوكم، والمراد بالساعة القيامة الصغرى وهي ضرورة الموت. فأما كونها وراءهم فلأن الإنسان لما كان بطبعه ينفر من الموت ويفرّ منه وكانت العادة في الهارب من الشيء أن يكون وراءه مهروب منه، وكان الموت متأخراً عن وجود الإنسان ولاحقاً تأخراً ولحوقاً عقلياً أشبه المهروب منه المتأخر اللاحق تأخراً ولحوقاً حسياً، فلا جرم استعير لفظ الجهة المحسوسة وهي الوراء.

وأما كونها تحدوهم فلأن الحادي لما كان من شأنه سوق الإبل بالحداء، وكان تذكر الموت وسماع نواد به مقلقاً مزعجاً للنفوس إلى الإستعداد الأمور الآخرة والأهبّة للقاء الله سبحانه فهو يحملها على قطع عقبات طريق الآخرة. كما يحمل الحادي الإبل على قطع الطريق البعيدة الوعرة لا جرم أشبه الحادي فأُسند الحداء إليه.

الثالثة: قوله تخففوا تلحقوا. ولما نبّههم بكون الغاية أمامهم وأن الساعة تحدوهم في سفر واجب، وكان السابق إلى الغاية من ذلك السفر هو الفائز برضوان الله، وقد علمت أن التخفيف وقطع العلائق في الأسفار سبب للسبق والفوز بلحوق السابقين لا جرم أمرهم بالتخفيف لغاية اللحوق في كلمتين:

فالأولى: منهما، قوله تخففوا وكنى بهذا الأمر عن الزهد الحقيقي الذي هو أقوى أسباب السلوك إلى الله سبحانه وهو عبارة عن حذف كل شاغل عن التوجه إلى القبلة الحقيقية، والإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها وتنحيه كل ما سوى الحق الأول عن مستن الإيثار. فإن ذلك تخفيف لأثقال الأوزار المانعة عن الصعود في درجات الأبرار الموجبة لحلول دار البوار وهي كناية باللفظ المستعار، وهذا الأمر في معنى الشرط.

والثانية: قوله تلحقوا وهو جزاء الشرط أي أن تخففوا تلحقوا؛ والمراد تلحقوا بدرجات السابقين الذين هم أولياء الله والواصلون إلى ساحل عزته، وملازمة هذه الشرطية قد علمت بيانها فإنّ الجود الإلهي لا بخل فيه ولا قصور من جهته والزهد الحقيقي أقوى أسباب السلوك إلى الله. كما سبق فإذا أنوار كبريائه فلا بد أن يفاض عليها ما تقبله من الصورة التمامية فيلحق بدرجة السابقين ويتصل بساحل العزة في مقام أمين.

الرابعة: فإنما ينتظر بأوّلكم آخركم أي إنما ينتظر بالبعث الأكبر والقيامة الكبرى للذين ماتوا أولاً وصول الباقين وموتهم، وتحقيق ذلك الإنتظار أنه لما كان نظر العناية الإلهية إلى الخلق نظراً واحداً والمطلوب منهم

واحد وهو الوصول إلى جناب عزّة الله الذي هو غايتهم أشبه طلب العناية الإلهية وصول الخلق إلى غايتهم انتظار الإنسان لقوم يريد حضور جميعهم، وترقبه بأوائلهم وصول أواخرهم فأطلق عليه لفظ الإنتظار على سبيل الإستعارة، ولما صور هَهُنَا صورة انتظارهم لوصولهم جعل ذلك علة لحثّهم على التخفيف وقطع العلائق، ولا شك أنّ المعقول لأولي الألباب من ذلك الإنتظار حاث لهم أيضاً على التوجه بوجوه أنفسهم إلى الله والإعراض عما سواه. فهذا ما حضرني من أسرار هذه الكلمات. وكفى بكلام السيد عليه السلام مدحاً لها وتنبيهاً على عظم قدرها، وقد إستعار لفظ النطفة وهو الماء الصافي للحكمة. وبالله التوفيق والعصمة.

٢٢ - ومن خطبة له عليه السلام

أَلا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ. وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ. وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ: فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ. يَاخَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلامَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ. فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَأَنْ اَصْبِرْ لِلْجِلادِ! هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي.

أقول: أكثر هذا الفصل من الخطبة التي ذكرنا أنه عليه السلام خطبها حين بلغه أن طلحة والزبير خلعا بيعته، وفيه زيادة ونقصان، وقد أورد السيد بعضه فيما قبل وإن كان قد نبّه في خطبته على سبب التكرار والإختلاف بالزيادة والنقصان، ونحن نورد الخطبة بتمامها ليتضح المقصود وهي بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله أيها الناس إنّ الله افترض الجهاد فعظمه وجعله نصرته، وناصره والله ما صلحت دنيا ولا دين إلا به، وقد جمع الشيطان حزبه واستجلب خيله ومن أطاعه ليعود له دينه وسنته وخدعه، وقد رأيت أموراً قد تمحضت والله ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وإنهم ليطلبون حقاً تركوه ودماً سفكوه. فإن كنت شريكهم فيه فإن لهم لنصيبهم منه، وإن كانوا ولّوه دوني فما الطلبة إلا قبلهم، وإنّ أول عدلهم لعلى أنفسهم، ولا أعتذر مما فعلته ولا أتبرأ مما صنعت، وإن معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس عليّ وإنها للفئة الباغية، فيها الحمّ والحمة طالت جلبتها وانكفت جونتها ليعودن الباطل في نصابه يا خيبة الداعي من دعا لو قيل لو أنكر في ذلك، وما أمامه وفيمن سنّته، والله إذن لزاح الباطل عن نصابه وانقطع لسانه، وما أظن الطريق له فيه. اضح حيث نهج، والله ما تاب من قتلوه قبل موته ولا تنصل من خطيئته وما اعتذر إليهم فعذّروه، ولا دعا فنصروه.

وأيّم الله لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرون عنه بري ولا يعبّون حسوة أبداً، وإنّها لطيبة نفسي بحجّة الله عليهم وعلمه فيهم، وإني داعيهم فمعذر إليهم فإن تابوا وقبلوا وأجابوا وأنابوا فالتوبة مبذولة والحق مقبول وليس عليّ كفيل، وإن أبوا أعطيتهم حدّ السيف وكفى به شافياً من باطل وناصر المؤمن، ومع كل صحيفة شاهدها وكاتبها والله إنّ الزبير وطلحة وعائشة ليعلمون أنّي على الحق وهم مبطلون. ذمر مخففاً ومشدداً أي حثّ، والجلب الجماعة من الناس وغيرهم تجمع وتؤلّف، وتمحّضت تحركت، والنصف بكسر النون وسكون الصاد النصفة، وهي الاسم من الإنصاف، والتبعة ما يلحق الإنسان من درك، والحم بفتح الحاء وتشديد الميم بقية الإلية التي أذيبت وأخذ دهنها، والحمة السواد وهما استعارتان لأرذال الناس وعوامهم، والجلبة الأصوات، وجونتها بالضم سوادها، وانكفت واستكفت أي استدارت، وزاح وانزاح تنحّى، والنصاب الأصل، وتنصّل من الذنب تبرّأ منه، والعب

الشرب من غير مصّ، والحسوة بضم الحاء قدر ما يحسي مرة، والجلاد المضاربة بالسيف، والهبول الثكلى، والهبل الثكل. واعلم أنه عليه السلام نبّه أولاً على فضل الجهاد لأنّ غرضه استنفارهم لقتال أهل البصرة. فأشار أولاً إلى وجوبه من الله تعالى والكتاب العزيز مشحون بذلك كقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١] ونحوه، ثم أردفه بذكر تفضيل الله تعالى له وذلك كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

ثم يذكر أن الله جعله نصرةً له وناصراً وذلك كقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] والمراد نصرة دين الله وعباده الصالحين إذ هو الغني المطلق الذي لا حاجة به إلى مُعين وظهير، ثم بالقسم الصادق أنه ما صلحت دنيا ولا دين إلا به. أما صلاح الدنيا به فلأنه لولا الجهاد في سبيل الله ومقاومة أهل الغلبة لخربت الأرض والبلاد. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وأما صلاح الدين فظاهر أنه إنّما يكون بمجاهدة أعداء دين الله الساعين في هدم قواعده، فأما قوله وقد ذمر الشيطان حزبه، واستجلب جلبه ومن أطاعه. فقد سبق بيانه، وقوله ليعود له دينه وسنته وخدعه فظاهر أن غاية سعي الشيطان من وسوسته تمكّنه من الخداع وعود المذاهب الباطلة التي كانت قبل الرسول صلى الله عليه وآله دينه وطريقته، وكلّ ذلك تنفير للسامعين عمّا له من خالقه وجذب لهم إلى الحرب.

قوله وقد رأيت أُموراً قد تمحضت. إشارة إلى تعيين ما يستنفرهم إليه، وتلك الأمور هي ما يحس به من مخالفة القوم وأهبّتهم لقتاله. قوله والله ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفا وإنهم إلى قوله سفكوه. إشارة إلى إنكار ما ادّعوه منكراً ونسبوه إليه من قتل عثمان والسكوت عن النكير على قاتليه فأنكر أولاً إنكارهم عليه تخلّفه عن عثمان الذي زعموا أنه منكر، ولما لم يكن منكراً كما ستعلم ذلك كان الإنكار عليه هو المنكر.

وأشار بقوله ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً إلى أنهم لو وضعوا العدل بينهم وبينه لظهر أن دعواهم باطلة وقوله وإنهم ليطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه. إشارة إلى طلبهم لدم عثمان مع كونهم شركاء فيه.

روى أبو جعفر الطبري في تاريخه أن علياً عليه السلام كان في ماله بخيبر لما أراد الناس حصر عثمان فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة في داره فبعث عثمان إليه يشكو أمر طلحة فقال عليه السلام: أنا أكفيكه، فانطلق إلى دار طلحة وهي مملوءة بالناس فقال له: يا طلحة ما هذا الأمر الذي صنعت بعثمان؟ فقال طلحة: يا أبا الحسن، بعدما مسّ الحزام طبيين، فانصرف علي عليه السلام إلى بيت المال فأمر بفتحه فلم يجدوا المفتاح فكسرّ الباب وفرّق ما فيه على الناس فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده فسرّ عثمان بذلك، وجاء طلحة إلى عثمان فقال له: يا أمير المؤمنين، إني أردت أمراً فحال الله بيني وبينه وقد جئتك تائباً. فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً، الله حسيبك يا طلحة. وروى أبو جعفر أيضاً أنه كان لعثمان على طلحة بن عبد الله خمسون ألفاً فقال له يوماً قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك معونة على مروّتك فلما حصر عثمان قال علي عليه السلام بطلحة أنشدك الله إلاّ كففت عن عثمان، فقال لا والله حتى تعطي بني أمية الحق من أنفسها فكان علي عليه السلام يقول بعد ذلك ألحا الله ابن الصعبة أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به ما فعل، وروى أن الزبير لما برز لعلي عليه السلام يوم الجمل قال له: ما حملك يا عبد الله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، فقال له: أنت وطلحة ولّيتماه وإنما توبتك من ذلك أن تقدّم نفسك وتسلّمها إلى ورثته، وبالجملة فدخولهم في قتل عثمان ظاهر وهذه مقدمة من الحجّة عليهم.

وقوله فلئن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولّوه دوني فما التبعة إلا عندهم. تمام للحجة

وتقريرها أنهم دخلوا في دم عثمان وكلّ من دخل فيه فإمّا بالشركة أو بالإستقلال وعلى التقديرين فليس لهم أن يطلبوا بدمه، وأشار إلى القسم الأول بقوله فإن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه أي على تقدير كونهم شركائي في ذلك فعليهم أن يبدأوا بتسليمهم أنفسهم إلى أوليائه، وأشار إلى الثاني بقوله وإن كانوا ولّوه دوني فما الطلبة إلا قبلهم، وقوله وإنّ أوّل عدلهم لعلى أنفسهم زيادة تقرير للحجة أي أن العدل الذي يزعمون أنهم يقيمونه في الدم المطلوب ينبغي أن يصنعوه أولاً على أنفسهم، وقوله ولا أعتذر مما فعلت ولا أبرأ مما صنعت أي أن الإعتزال الذي فعلته في وقت قتل عثمان لم يكن على وجه تقصير في الدين يوجب الإعتذار والتبرؤ منه. فأعتذر وأتبرأ كما سنبيّن وجه ذلك إن شاء الله قوله وإنّ معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس عليّ. تقدم بيانه، وقوله وإنها للفئة الباغية فيها الحمّ والحمة. إستعار هاتين اللفظتين لأسقاط الناس وأرذالهم الذين جمعوا لقتاله؛ ووجه الإستعارة مشابهتهم فحم الإلية، وما اسوّد منها في قلة المنفعة والخير، وقوله طالت جلبتها أي ارتفعت أصواتها، وهي كناية عما ظهر من القوم من تهديدهم وتوعيدهم بالقتال، وقوله وانكفت جونتها أي استدار سوادها واجتمع، وهو كناية أيضاً عن مجمع جماعتهم لما يقصدون.

وقوله يرتضعون أمّا قد فطمت، استعار لفظ الأم لنفسه عليه السلام أو للخلافة فبيت المال لبنها، والمسلمون أولادها المرتضعون، وكنّى بارتضاعهم لها وقد فطمت عن التماسهم منه عليه السلام من الصلات والتفضيلات مثل ما كان عثمان يصلهم به، ويفضّل بعضهم على بعض ومنعه لهم من ذلك.

وقوله ويحيون بدعة قد أميتت إشارة إلى ذلك التفضيل فإنّه كان بخلاف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسنّة الشيخين والبدعة مقابلة للسنّة، وإماتتها تركه عليه السلام في ولايته وقوله ليعودنّ الباطل في نصابه توعّد لهم بعود ما كانوا عليه من الباطل في الجاهلية، واستنفار للسامعين إلى القتال، وقوله يا خيبة الداعي من دعا خرج مخرج التعجب من عظم خيبة الدعاة إلى قتاله ومن دعا، وإلى ما أُجيب استفهام على سبيل الإستحقار للمدعوين لقتاله والناصرين إذا كانوا عوام الناس ورعاعهم وللمدعو إليه وهو الباطل الذي دعوا لنصرته.

وقوله لو قيل ما أنكر في ذلك وما إمامه وفيمن سنّته والله إذن لزاح الباطل عن نصابه وانقطع لسانه متّصلة معناها لو سأل سائل مجادلاً لهؤلاء الدعاة إلى الباطل عمّا أنكروه من أمري وعن إمامهم الذي به يقتدون، وفيمن سنّتهم التي إليها يرجعون لشهد لسان حالهم بأنّي أنا إمامهم وفي سنتهم فانزاح باطلهم الذي أتوا به وانقطع لسانه، واستعمال لفظ اللسان هَهُنَا حقيقة على تقدير حذف المضاف أي انقطع لسان صاحبه عن الجواب به، وتكون الإستعارة في لفظ الإنقطاع للسكوت، أو مجاز في العبارة عن الباطل والتكلم به أي انقطع الجواب الباطل.

وقوله ما أظن الطريق له فيه واضح حيث نهج الجملة عطف على قوله وانقطع لسانه، وواضح مبتدأ وفيه خبره والجملة في موضع النصب مفعول ثانٍ لأظن أي وما أظن لو سأل السائل عن ذلك أن الطريق الذي يرتكبه المجيب له فيه مجال بيّن ومسلك واضح حيث سلك. بل كيف توجه في الجواب انقطع.

وقوله والله ما طاب من قتلوه إلى قوله فنصروه. إشارة إلى عثمان وذمّ لهم من جهة طلبهم بدء من اعتذر إليهم قبل موته فلم يغدروه، ودعاهم إلى نصرته في حصاره فلم ينصروه مع تمكنهم من ذلك، وقوله وأيّم الله لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه ثم لا يصدرون عنه بريّ. قد تقدم تفسيره، وقوله ولا يعبّون حسوة أبداً كناية عن عدم تمكينه لهم من هذا الأمر أو شيء منه كما تقول لخصمك في شيء والله لا تذوق منه ولا تشرب منه جرعة، وقوله أنها لطيبة نفسي بحجة الله عليهم وعلمه فيهم. نفسي منصوب بدلاً من الضمير المتصل بأن أو بإضمار فعل تفسيراً له، وحجة الله إشارة إلى أوامر الله الصادرة بقتال الفئة الباغية كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وكذلك كل أمر لله أو نهي عصى فيه فهو حجة للحق، وكل حجّة للحق فهي حجة لله أي أنّي راض بقيام حجة الله عليهم وعلمه بما يصنعون، وأي رضى للعاقل أتم وطيبة نفس أعظم من كونه لازماً للحق، وكون خصمه على الباطل خارجاً من طاعة الله وهو القائم على كل نفس بما كسبت، وقوله وإنّي داعيهم فمعذّر إلى قوله وناصر المؤمن واضح بيّن، وقوله وليس على كفيل أي لا أحتاج فيما أبذله لهم من الصفح والأمان على تقدير إنابتهم إلى ضامن، وشافياً وناصراً منصوبان على التمييز؛ وقوله ومع كل صحيفة شاهدها وكاتبها الواو للحال أي أنهم إن لم يرجعوا أعطيتهم حد السيف، والملائكة الكرام الكاتبون الذين يعلمون ما نفعل يكتب كل منهم أعمال من وكل به في صحيفته ويشهد بها في محفل القيامة، وقوله ومن العجب بعثهم إلى أن أبرز للطعان وأن أصبر للجلاد تعجّب من تهدّدهم له بذلك مع علمهم بحاله في الشجاعة والحرب والصبر على المكاره، وهو محلّ الإستهزاء والتعجب منهم، وقوله هبلتهم الهبول أي ثكلتهم الثواكل، وهي من الكلمات التي تدعو بها العرب، وقوله لقد كنت وما أهدّد بالحرب ولا أرهب بالضرب أي من حيث أنا كنت كذلك، وقوله وإنّي لعلى يقين من ربي وفي غير شبهة من أمري تأكيد لقوّته على الحرب وإقدامه على الجلاد وجذب لقلوب السامعين إلى الثقة بأنهم على بيّنة من الله وبصيرة في متابعته على القتال والحرب. فإن الموقن بأنه على الحق ناصر لله ذاب عن دينه عار عن غبار الشبه الباطلة في وجه يقينه يكون أشد صبراً وأقوى جلداً وأثبت في المكاره ممن لا يكون كذلك فيقدم على القتال بشبهة غطّت على عين بصيرته أو هوى لزخرف الدنيا وباطلها قاده إلى ذلك، وبالله التوفيق.

هذا آخر المجلد الأول ويتلوه
أول المجلد الثاني من هذا الكتاب.

٢٣ - ومن خطبة له عليه السلام

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ، كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ. وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ. وإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تعالىٰ لأَقْوَامٍ، فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلاَ سُمْعَةٍ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ الأَنْبِيَاءِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عَشِيرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِيطَةً مِنْ وَرَائِهِ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُوَرِّثُهُ غَيْرَهُ.

أقول: الغفيرة: الكثرة والزيادة. وروي عِفوة بكسر العين؛ وعفوة كلّ شيء صفوته، وغرى يغري بالأمر إذا ولع به، وأغريته به: إذا حثثت له الدخول فيه. والفالج: الفائز. والياسر: اللاعب بالميسر، وسنذكر كيفيّته. والقداح سهام الميسر التي يلعب بها، والتعذير إظهار العذر ممّن لا عذر له في الحقيقة، وعشيرة الرجل: قبيلته والمعاشرون له، والحِيطة بالكسر: الحفظ

والرعاية، واللّم: الجمع. والشعث: تفرّق الأمر وانتشاره.

واعلم أنّ مدار هذا الفصل على تأديب الفقراء بترك الحسد ونحوه أوّلاً، وعلى تأديب الأغنياء بالشفقة على الفقراء ومواساتهم بالفضل من المال وتزهيدهم جمعه ثانياً.

فقوله: أمّا بعد، فإنّ الأمر ينزل، إلى قوله: أو نقصان. صدر الخطبة. أورده ليبني عليه غرضه، وحاصله الإشارة إلى أنّ كلّ ما يحدث من زيادة أو نقصان ويتجدّد فيما يكون به صلاح حال الخلق في معاشهم ومعادهم من صحّة أو مال أو علم أو جاه أو أهل فإنّه صادر عن القسمة الربّانيّة المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ الذي هو خزانة كلّ شيء. والمراد بالأمر حكم القدرة الإلهيّة على الممكنات بالوجود وهو المعبّر عنه بقوله تعالى: كن: في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] وبنزوله نسبة حصوله إلى كلّ نفس بما قسم لها وهي النسبة المسمّاة بالقدر في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] والمراد بالسماء سماء الجود الإلهي وبالأرض عالم الكون والفساد على سبيل استعارة هذين اللفظين للمعنيين المعقولين من المحسوسين، ووجه الاستعارة في الموضعين مشاركة المعنيين المذكورين للسماء والأرض في معنيي العلّو والاستفال كلّ بالنسبة إلى الآخر، وإنّما لم تكن الحقيقة مرادة لأنّ الأمر النازل ليس له جهة هي مبدأ نزوله وإلاّ لكان الأمر في جهته - تعالى الله عن ذلك - ويحتمل أن يراد حقيقة السماء والأرض على معنى أنّ الحركات الفلكية لمّا كانت شرائط معدّة يصدر بواسطتها ما يحدث في الأرض كانت السماء مبادئ على بعض الوجوه لنزول الأمر. فأمّا تشبيهه بقطر المطر فوجه التشبيه أنّ حصول الرزق والأهل ونحوهما لكلّ نفس وقسمها منها مختلف بالزيادة والنقصان كما أنّ قطر المطر بالقياس إلى كلّ واحدة من البقاع كذلك. وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس.

وقوله: فإذا رأى أحدكم لأخيه المسلم غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكوننّ له فتنة. شروع في تأديب من حصل في حقّه النقصان في أحد الأمور المذكورة بالنهي لهم عن الافتتان بحال من حصلت له الزيادة والنفاسة في أحدها: من المال أو الأهل أو النفس. قال بعض الشارحين: إنّه أراد بالنهي عن الفتنة هاهنا النهي عن الحسد. والتحقيق أن يقال: إنّ الفتنة هي الضلال عن الحقّ بمحبّة أمرٍ ما من الأمور الباطلة، والاشتغال به عمّا هو الواجب من سلوك سبيل الله. ولمّا كان حال الفقراء من أحد الأمور المذكورة بالنسبة إلى من عرضت له الزيادة في أحدها، فمنهم من يؤهّل نفسه لتلك الزيادة فيرى أنّه أحقّ بها ممّن عرضت له فيعرض له أن يحسده، أو يرى أنّه يستحقّ مثلها فيعرض له أن يغبطه، ومنهم من يقصّر نفسه عن ذلك لكن يميل بطبعه إلى خدمة من له تلك الزيادة، وينجذب بكلّيته إلى موالاتهم ككثير من الفقراء الذي يمليون بطباعهم إلى خدمة الأغنياء، ويخلصون السعي لهم ليس لأمر سوى ما حصلوا عليه من مال أو جاه أو نحو ذلك. ولعلّ تلك الغاية يشوبها توهّم الانتفاع بهم ممّا حصلوا عليه. ولمّا كانت هذه الأمور ونحوها أعلى الحسد والغطبة، والميل إليهم لأجل ما حصلوا عليه من الزيادة في أحد الأمور المذكورة رذائل أخلاق مشغلة عن التوجّه إلى الله تعالى ومقبلة عن سواء السبيل كان المنهيّ عنه في الحقيقة هو الضلال بأحد الرذائل المذكورة. وهو المراد بلفظ الفتنة هاهنا.

وقوله: فإنّ المرء المسلم. إلى قوله: ومعه دينه وحسبه.

أقول: إعراب هذا الفصل أنّ ما هاهنا بمعنى المدّة. وكالفالج خبر أنّ. وتظهر صفة لدناءة. وقوله فيخشع إن حملنا الخشوع على المعنى اللغوي هو غضّ الطرف مثلاً والتطامن، كان عطفاً على تظهر، وإن حملناه على المعنى العرفيّ وهو الخضوع لله والخشية منه فالفاء للابتداء. والياسر صفة للفالج. وإذا للمفاجأة. إذا عرفت ذلك.

فاعلم أنه عليه السلام لمّا نهى عن الفتنة بأحد الأمور المذكورة والشغل بها أراد أن ينبّه على فضيلة الانتهاء

عنها فنبّه على كونها دنايا بقوله: ما لم يغش دناءة، ثمّ عقّب بالتنفير عن الدناءة والترغيب في التنزّه عنها بما ذكره. ومعناه أنّ المسلم مهما لم يرتكب أمراً خسيساً يظهر عنه فيكسب نفسه خلقاً رديئاً، ويلزمه بارتكابه الخجل من ذكره بين الخلق إذا ذكروا الحياء من التعيير به، ويغري به لئام الناس وعوامّهم في فعل مثله، وقيل: في هتك ستره، فإنّه يشبه الفالج الياسر، هذا إن حملنا الخشوع على معناه اللّغوي. وإن حملناه على المعنى العرفي الشرعيّ كان المراد أنه ما لم يغش دناءة فيخشع لها: أي بل يخشع لله ويخضع له عند ذكرها ويتضرّع إليه هرباً من الوقوع في مثلها وخوفاً من وعيده على المعاصي فيكون كالفالج الياسر.

فلنشر أوّلاً إلى كيفية اللعب المسمّى ميسراً ليتّضح به وجه التشبيه. فنقول: إنّ الخشبات المسمّيات قداحاً وهي التي كانت لأيسار الجزور سبعة: أوّلها: الفذّ بالذال المعجمة وفيه فرض واحد. وثانيها: التوأم. وفيه فرضان. وثالثها: الضريب بالضاد المعجمة وفيه ثلاثة فروض. ورابعها: الحلس بكسر الحاء، ونقل أحمد بن فارس في المجمل: الحلس بفتح الحاء وكسر اللام. وفيه أربعة فروض. وخامسها: النافس وفيه خمسة فروض. وسادسها: المسبل وهي ستّة فروض. وسابعها: المعلّى وله سبعة فروض. وليس بعده قدح فيه شيء من الفروض، إلاّ أنّهم يدخلون مع هذه السبعة أربعة أخرى تسمّى أوغاداً لا فروض فيها، وإنّما تثقل به القداح. وأسماؤها: المصدر، ثمّ المضعف، ثمّ المنيح، ثمّ الصفيح. فإذا اجتمع أيسار الحيّ أخذ كلّ منهم قدحاً: وكتب عليه اسمه أو علّم بعلامة، ثمّ أتوا بجزور فينحرها صاحبها ويقسمها عشرة أجزاء: على الوركين، والفخذين، والعجز، والكاهل، والزور، والملحاء، والكتفين. ثمّ يعمد إلى الطفاطف وحرز الرقبة فيقسّمها على تلك الأجزاء بالسويّة. فإذا استوت وبقي منها عظم أو بضعة لحم انتظر به الجازر من أراده ممّن يفوز قدحه فإن أخذه عيّر به وإلاّ فهو للجازر، ثمّ يؤتى برجل معروف أنّه لم يأكل لحماً قطّ بثمن إلاّ أن يصيبه عند غيره ويسمّى الحرضة. فيجعل على يديه ثوب، وتعصّب رؤوس أصابعه بعصابة كيلا يجد مسّ الفروض، ثمّ يدفع إليه القداح، ويقوم خلفه رجل يقال له الرقيب، فيدفع إليه قدحاً قدحاً منها من غير أن ينظر إليها، فمن خرج قدحه أخذ من أجزاء الجزور بعدد الفروض التي في قدحه، ومن لم يخرج قدحه حتّى استوفيت أجزاء الجزور غرّم بعدد فروض قدحه كأجزاء تلك الجزور من جزور أخرى لصاحب الجزور الذي نحرها. فإن اتّفق أن خرج المعلّى أوّلا فأخذ صاحبه سبعة أجزاء من الجزور، ثمّ خرج المسبل فلم يجد صاحبه إلاّ ثلاثة اجزاء أخذها، وغرّم له من لم يفز قدحه ثلاثة أجزاء من جزور أخرى. وأمّا القداح الأربعة الأوغاد فليس في خروج أحدها غنم، ولا في عدم خروجه غرم. والمنقول عن الأيسار أنّهم كانا يحرّمون ذلك اللحم على أنفسهم، ويعدّونه للضيافة. إذا عرفت ذلك.

فاعلم أنّ وجه الشبه هو ما ذكره عليه السلام وذلك أنّ الفائز الياسر الذي ينتظر قبل فوزه أوّل فورة من قداحه أوجب له فوزه المغنم ونفى عنه المغرم فكذلك المسلم البريء من الخيانة الضابط لنفسه من ارتكاب مناهي الله لمّا كان لا بدّ له في انتظاره لرحمة الله وصبره عن معصيته أن يفوز بإحدى الحسنيين: وهي إمّا أن يدعوه الله إليه بالقبض عن الشقاء في هذه الدار، فما عند الله ممّا أعدّه لأوليائه الأبرار خير له، فيفوز إذن بالنعيم المقيم. ولمّا كان فوزه مستلزماً لعدم خسرانه ظهر حسن تشبيهه بالياسر الفالج في فوزه المستلزم لعدم غرمه. ويحتمل أن يريد بداعي الله لا الموت؛ بل الجواذب الإلهيّة، والخواطر الربّانيّة التي تسنح له فتجذبه إلى طرف الزهد الحقيقيّ والالتفات عن خسائس هذه الدار إلى ما وعد به المتّقون، وإمّا أن يفتح الله عليه أبواب رزقه فيصبح وقد جمع الله له بين المال والبنين مع حفظ الحسب والدين. فيفوز الفوز العظيم ويأمن العقاب الأليم. فالتشبيه أيضاً هاهنا واقع موقعه، وكلا الوصفين أفضل عند العاقل من الفتنة بالغير، والالتفات عن الله تعالى، وتدنيس لوح النفس برذائل الأخلاق من الحسد ونحوه. وكما أنّ الفصل مستلزم للنهي عن الحسد

ونحوه من الفتن المضلّة كذلك هو مستلزم للأمر بالصبر على بلاء الله وانتظار رحمته.

قوله: إنّ المال والبنين حرث الدنيا. إلى قوله: لأقوام.

أقول: لمّا بيّن فيما سبق من التشبيه وغيره أنّ تارك الرذائل المذكورة ونحوها المنتظر للحسنى من الله فائز، أردف ذلك بالتنبيه على تحقير المغشيات التي ينشأ منها التنافس، ومنها الرذائل المذكورة، فذكر أعظمها وأهمّها عند الناس وهو المال والبنون، فإنّهما أعظم الأسباب الموجبة لصلاح الحال في الحياة الدنيا وأشرف القينات الحاضرة. كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] ونبّه على تحقيرهما بالنسبة إلى العمل بكونهما من حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة. والمقدّمة الأولى من هذا الاحتجاج صغرى كبراه ضمير تقديرها وحرث الدنيا حقير عند حرث الآخرة، فينتج أنّ المال والبنين حقيران بالنسبة إلى حرث الآخرة. وقد ثبت في المقدّمة الثانية أنّ حرث الآخرة هو العمل الصالح. فإذن المال والبنون حقيران بالنسبة إلى العمل الصالح.

أمّا المقدّمة الأولى فظاهرة إذ لا حصول للمال والبنين في غير الدنيا.

وأمّا بيان الثانية فمن وجهين: أحدهما: قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] وظاهر أنّه لا يريد قلّة الكمّيّة، بل المراد حقارته بالنسبة إلى متاع الآخرة ولذّتها. الثاني: أنّ حرث الدنيا من الأمور الفانية، وحرث الآخرة من الأمور الباقية الموجبة للسعادة الأبديّة، والفانيات الطالحات ظاهرة الحقارة بالنسبة إلى الباقيات الصالحات كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] ثمّ نبّه السامعين بقوله: وقد يجمعهما الله لأقوام على وجوب الالتفات إلى الله تعالى والتوكّل عليه، وذلك أنّ الجمع بين حرث الدنيا والآخرة لمّا كان في طباع كلّ عاقل طلب تحصيله، وكان حصوله إنّما هو من الله دون غيره لمن يشاء من عباده، ذكر عليه السلام ذلك ليفرغ الطالبون للسعادة إلى جهة تحصيلها وهو التقرّب إلى الله بوجوه الوسائل، والإعراض عمّا لا يجدي طائلاً من الحسد ونحوه، ثمّ أكد ذلك الجذب بالتحذير ممّا حذّره الله من نفسه، والأمر بالخشية الصادقة البريئة من التعذير المستلزمة لترك محارمه، ولزوم حدوده الجاذبة إلى الزهد الحقيقي، ثمّ أردف ذلك بالأمر بالعمل لله البريء من الرياء والسمعة وهو إشارة إلى العبادة الخالصة لله، والمستلزمة لتطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة، وقد ثبت في علم السلوك إلى الله تعالى أنّ الزهد والعبادة يوصلان إلى السعادة التامّة الأبديّة.

وقوله: فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له.

تعليل لوجوب ترك الرياء والسمعة في العمل. فإنّ العامل للرياء والسمعة قاصد أن يراه الناس ويسمعوا بحاله ليعود إليه منهم ما يتوقّعه من مال أو جاه ونحوه من الأغراض الباطلة والأعراض الزائلة. وقد علمت أنّ التفات النفس إلى شيء من ذلك شاغل لها عن تلقّي رحمة الله والاستعداد لها، محجوبة به عن قبول فضله. ولمّا كان هو مسبّب الأسباب ومنتهى سلسلة الممكنات لا جرم كانت المطالب منه لا من غيره فجرى منه التحديد بالوكول إلى من سواه ممّن عمل له العاملون لاستلزامه الخيبة والحرمان، وخسر العاملون إلاّ له، وخاب المتوكّلون إلاّ عليه. وقد سبق منّا بيان معنى كون العامل لغير الله موكولاً إلى نفسه وإلى من عمل له في الفصل الذي ذمّ فيه عليه السلام من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس من أهله.

قوله: نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء.

لمّا كانت همّته عليه السلام مقصورة على طلب السعادة الأخروية طلب هذه المراتب الثلاث، وفي ذلك جذب للسامعين إلى الاقتداء به في طلبها والعمل بها. وبدأ عليه السلام بطلب أسهل المراتب الثلاث للإنسان، وختم بأعظمها. فإنّ من حكم له بالشهادة غايته أن يكون سعيداً، والسعيد غايته أن يكون في زمرة الأنبياء رفيقاً لهم، وهذا هو الترتيب اللائق من المؤدّب الحاذق، فإنّ المرتبة العالية لا تنال دفعة دون نيل ما هو أدون منها.

قوله: أيّها الناس. إلى قوله: يورّثه غيره.

أقول: لمّا أشار إلى تأديب الفقراء عن التعرّض للأغنياء بما يوجب لهم ملكات السوء من الحسد ونحوه أردف ذلك بتأديب الأغنياء واستدراجهم في حقّ الفقراء ذوي الأرحام وأهل القبيلة ونحوهم من الأصحاب بالأمر بالمواساة في المال والمؤونة لهم لينتظم شمل المصلحة من الطرفين. فاستدرجهم بأمرين:

أحدهما: ببيان أنّهم لا يستغنون عنهم وإن كانوا أصحاب ثروة. فإنّ الرجل لا يستغني بماله عن أعوان له يذبّون عنه بأيديهم صولة قبائل، ويدفعون عنه بألسنتهم مسبّة قائل، بل من المعلوم أنّ أشدّ الناس حاجة إلى الأعوان والأصحاب والمعاضدين هم أكثر الناس ثروة وانظر إلى الملوك والمتشبّهين بهم من أرباب الأموال. وأحقّ الناس بعدم الاستغناء عنهم عشيرة الرجل وأصحابه. فإنّهم أعظم الناس شفقة عليه، وأشدّهم دفاعاً عنه وحفظاً لجانبه، وألمّهم لشعثه أي أشدّهم جمعاً لمتفرّق حاله، وأعطفهم عليه إن نزلت به نازلة من فقر ونحوه. وذلك أنّ قربهم منه باعث لدواعي الشفقة عليه.

الثاني: التنبيه بذكر غايتي إنفاق المال وجمعه، وتفضيل أحدهما على الآخر. وذلك قوله: ولسان الصدق يجعله الله للمرء الخ. فلسان الصدق هو الذكر الجميل بين الناس وهو من غايات البذل والانفاق، وغاية جمع المال هي توريثه للغير. وأمّا أفضليّة البذل على الجمع فظاهرة من تصوّر هاتين الغايتين. وإنّما رغّب عليه السلام في البذل بما يستلزمه من غاية الذكر الجميل بين الناس وإن لم يكن مقصوده من الحثّ على البذل إلاّ مصلحة الفقراء وسداد خلّتهم، وتأديب الأغنياء وتعويدهم بالبذل والنزول عن محبّة المال. لأنّ توقّع الذكر الجميل من الناس أدعى إلى البذل وأكثر فعلاً في النفوس من الغايات التي يقصدها عليه السلام، وذلك من الاستدراجات الحسنة، حتّى إذا انفتح باب البذل وتمرّنت النفوس عليه وجدت أنّ أولى المقاصد التي يصرف فيها المال هي المقاصد التي يقصدها الشارع ويحثّ عليها من سدّ خلّة الفقراء التي ينتظم بها شمل المصلحة ويتّحد الناس بعضهم ببعض خصوصاً العشيرة. فإنه من الواجب في السيرة العادلة التي بها صلاح حال الإنسان في الدارين أنّه لمّا كان لا غناء له عن عشيرته وأصحابه، وكان إكرامهم ومواساتهم بالمال هو الذي يؤكّد الانتفاع بهم ويستحقّونه في مقابلة حفظهم لجانبه وحياطتهم له فبالحريّ أن تجب مواساتهم وإكرامهم بما تنتظم به أحوالهم من فضل المال، وكفى بذكر غاية جمع المال وهي توريث غير المستلزمة لذكر هادم اللذّات باعثاً على بذل المال والنزول عن محبّته وجمعه لمن لمح بعين بصيرته عاقبة أمره. وبالله التوفيق.

ومنها: أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ؛ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ؛ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ.

قال الشريف: أقول: الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة من قولهم للجمع الكثير: الجمّ الغفير، والجمّاء الغفير. ويروى «عفوة من أهل أو مال» والعفوة الخيار من الشيء، يقال: أكلت عفوة الطعام، أي: خياره، وما أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله: **«ومن يقبض يده عن عشيرته إلى تمام الكلام»**.

فَإِنَّ الْمُمْسِكَ خَيْرَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ إِنَّمَا يُمْسِكُ نَفْعَ يَدٍ وَاحِدَةٍ؛ فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى نُصْرَتِهِمْ، وَاضْطُرَّ إِلَى مُرَافَدَتِهِمْ، قَعَدُوا عَنْ نَصْرِهِ، وَتَثَاقَلُوا عَنْ صَوْتِهِ، فَمُنِعَ تَرَافُدَ الأَيْدِي الْكَثِيرَةِ، وَتَنَاهُضَ الأَقْدَامِ الْجَمَّةِ.

أقول: العدول: الانحراف، والخصاصة: الفقر والحاجة، وحاشية الرجل: جانبه، وحاشيته: أيضاً أخدامه وأتباعه الذين هم حشو بيته، وقوله: يرى، في موضع النصب على الحال، وأن يسدّها، في موضع الجرّ بدلا من القرابة.

واعلم أنّ المقصود بهذا الفصل هو ما ذكرناه قبله، ولو وصلناه به لصلح تتمّة له. وحاصله إلى قوله: أيد

كثيرة. النهي عن العدول عن سدّ خلّة الأقرباء وأولي الأرحام ذوي الحاجة بالفضل من المال، وصرفه في غير وجهه من المصارف غير المرضيّة لله سبحانه، وكنّى بالسدّ الذي هو حقيقة في منع جسم لجسم عن المنع المعقول وهو منع الاختلال في حال الإنسان كناية بالمستعار. وقوله: لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه على ظاهره إشكال فإنّه يحتمل أن قال: كلّ جزء من المال فإنّ بقاءه زيادة فيه وعدمه نقصان منه. وجوابه من وجهين: أحدهما أن يقال أنه عليه السلام لم يرد هاهنا مطلق الزيادة والنقصان في المال بالنسبة إلى المال. فإنّ الضميرين المصوبين في يزيده وينقصه عائدان إلى الشخص المعبّر عنه بأحدكم المأمور بالإنفاق، وإنّما أراد الزيادة والنقصان فيه الذين لا يعتبر تأثيرهما في صلاح حال الإنسان وعدم صلاحه، فإنّ الفضل الزائد في مال الإنسان على القدر الذي يدفع ضرورته بحسب الشريعة ليس زيادته معتبرة في صلاح حاله، ولا نقصانه معتبراً في فساد حاله. فلا يزيده إذن إن أمسكه، ولا ينقصه إن أهلكه. وهذا كما يقول الإنسان لمن يريد أن يسهّل عليه أمراً حقيراً يتشدّد في طلبه: إنّ هذا الأمر لا يضرّك إن تركته ولا ينفعك إن أخذته أي بالنسبة إلى صلاح حالك. الثاني أنّه يحتمل أن يريد الزيادة والنقصان في الثواب والأجر في الآجل، والثناء والذكر في العاجل أي لا يزيده صلاح حال عند الله، وعند الناس يكون سبباً لفساد حاله: أمّا عند الله فلأنّ إمساك الفضل من المال عمّن له إليه ضرورة من عباد الله سبب للشقاء العظيم والعذاب الأليم في الآخرة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وأمّا عند الناس فعليك بمطالعة مقالاتهم في ذمّ البخل والبخلاء. وكذلك لا ينقصه، أي المعطي، لا ينقص من صلاح حاله: أمّا عند الله فبما وعد به أهل الإنفاق في سبيله من الأجر الجميل والثواب الجزيل كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢] الآية ونحوها، وأمّا عند الناس فبما اتّفقوا عليه من مدح أهل الكرم والسخاء وملأوا به الصحف من النظم والنثر فيهم. فأمّا قوله: ومن يقبض يده عن عشيرته... إلى آخره، فمعناه ما ذكره السيّد الرضيّ وهو أنّ الممسك خيره عن عشيرته إنّما يمسك عنهم نفع يد واحدة، فإذا احتاج إلى نصرتهم قعدوا عن نصرته وتثاقلوا عنه، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة؛ إلاّ أنّ هذا البيان يحتاج إلى تقرير؛ وهو أنّ الإنسان لمّا كان انتفاعه بالأيدي الكثيرة أتمّ وأولى بصلاح حاله، وأكثر من النفع الحاصل له بقبض يده عن النفع بها. وجب عليه أن يستجلب بمدّ يده بالنفع مدّ الأيدي الكثيرة إلى نفعه وإلاّ لكان بسبب طلبه لنفع ما من إمساك يده الواحدة عنهم المستلزم لإمساك أيديهم الكثيرة عنه مضيّعاً على نفسه منافع عظيمة فيكون بحسب قصده لنفع ما مضيّعاً لما هو أعظم منه فيكون مناقضاً لغرضه، وذلك جهل وسفه. وقوله: ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودّة، من تمام تأديب الأغنياء بما يعود عليهم منافعه وينتظم به شمل المصلحة في العالم من التواضع ولين الجانب للخلق فاستدرجهم إلى التواضع بذكر ثمرته اللازمة عنه التي هي مطلوبة لكلّ عاقل، وهي استدامة مودّة الناس المستلزمة لنفعهم ولعدم نفرتهم المستلزمين لصلاح حال التواضع فيما يقصده، وبمثل ذلك أدّب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله حيث قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقد عرفت أنّ سرّ ذلك استجلاب الألفة لهم والمحبّة بينهم عند سكونهم إليه ليجتمعوا على قبول أقواله، وظهر أنّ شيئاً من ذلك لا يحصل عند جفاوة الخلق والتكبّر كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وإن حمل لفظ الحاشية على الأتباع والأخدام كان ذلك تأديباً لهم بالتواضع من جهة أخرى، وذلك أنّ حاشية الرجل وخاصّته هم حرسة عرضه وميزان عقله وعليهم يدور تدبير صلاح حاله فبحسب شدّتهم وغلظتهم ولينتهم وتواضعهم للناس يكون قرب الناس وبعدهم منه، وبغضهم ومحبتهم له، وأنسهم ونفارهم عنه. وقال بعض الحكماء: إنّ سبيل الخدم والقوم من الإنسان سبيل الجوارح من الجسد؛

فحاجب الرجل وجهه، وكاتبه قلبه ورسوله لسانه، وخادمه يده ورجله وعينه. لأنّ من كفاه تعاطي كلّ واحد من الأفعال المحتاج إليها فقد قام مقامه فيها، وكما يلحقه الذمّ من العقلاء بترك إصلاح أفعاله الصادرة عن أحد جوارحه كذلك يلحقه الذمّ على ترك إصلاح من يقوم مقامه في تلك الأفعال بتوليته إياها، وكما يستديم مودّة إخوانه ويتسجلب مودّة النسا بتواضعه بنفسه ولين جانبه لهم كذلك يستديمها بتأديب حاشيته وخدمه بالآداب المتّفق على حسنها بين الناس. وأهمّها وأنفعها في ذلك لين الجانب وترك الكبر المنفّر فإنّ أوهام الخلق حاكمة بنسبة كلّ خير وشرّ يجري من حاشية الرجل إليه. وإن كان صدق هذا الحكم أكثريّاً، وبالله التوفيق.

٢٤ - ومن خطبة له عليه السلام

لَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلا إِيهَانٍ. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجلاً، وَإِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً.

أقول: الإدهان والمداهنة: المصانعة، والإيهان مصدر أوهنه أي أضعفه، وخابط الغيّ بلفظ المفاعلة: يخبط كلّ منهما في الآخر. وقد مرّ أنّ الخبط: هو المشي على غير استقامة، والغيّ: الجهل. ونهجه: أي أوضحه. وعصبه بكم أي علقه بكم وربطه. والفلج الفوز، والمنحة: العطيّة. وفي هذا الفصل ردّ لقول من قال إنّ متابعته عليه السلام لمحاربيه ومخالفيه ومداهنتهم أولى من محاربتهم فردّ ذلك بقوله: لعمري ما عليّ... إلى قوله: ولا إيهان. أي ليس مصانعتهم بواجبة عليّ من طريق المصلحة الدينيّة، وليسوا بمضعفين لي، ولا عليّ في قتالهم عجز. وفي ذكره عليه السلام لهم بصفة مخالفة الحقّ ومخابطة الغيّ والبغي تنبيه للسامعين واستدراج لهم لقيام عذره في قتالهم إذ كانت مقاتلة من هذه صفته واجبة فلا يمكن إنكار وقوعها منه. ثمّ أردف ذلك بأوامر:

أوّلها: الأمر بتقوى الله، وقد علمت أنّ تقوى الله هي خشيته المستلزمة للإعراض عن كلّ مناهيه المبعّدة عنه وهو الزهد الحقيقي كما سبقت الإشارة إليه.

الثاني: الأمر بالفرار إلى الله وهو أمر بالإقبال على الله وتوجيه وجه النفس إلى كعبة وجوب وجوده، واعلم أنّ فرار العبد إلى الله تعالى على مراتب:

فأُوليها: الفرار عن بعض آثاره إلى بعض كما يفرّ من أثر غضبه إلى أثر رحمته كما قال تعالى حكاية عن المؤمنين في التضرّع إليه: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ فكأنّهم لم يروا إلاّ الله وأفعاله ففرّوا إلى الله من بعضها إلى بعض.

الثانية: أن يفنى العبد عن مشاهدة الأفعال ويترقّى في درجات القرب والمعرفة إلى مصادر الأفعال؛ وهي الصفات فيفرُّ من بعضها إلى بعض ما ورد عن زين العابدين عليه السلام: اللّهم اجعلني أسوة من قد أنهضته بتجاوزك من مصارع المجرمين فأصبح طليق عفوك من أسر سخطك، والعفو والسخط صفتان فاستعاذ بإحديهما من الأخرى.

الثالثة: أن يترقّى عن مقام الصفات إلى ملاحظة الذات فيفرّ منها إليها كقوله تعالى: ﴿لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾[التوبة: ١١٨] وكالوارد في الدعاء في القيام إلى الصلاة: منك وبك ولك وإليك. أي منك بدء الوجود، وبك قيامه، ولك ملكه، وإليك رجوعه. ثمّ أكّد ذلك بقوله لا ملجأ ولا منجا ولا مفرّ منك إلاّ إليك. وقد جمع الرسول صلى الله عليه وآله هذه المراتب حين أمر بالقرب في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[العلق:١٩] وقال في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك. وهو كلام من شاهد فعل الله فاستعاذ ببعض أفعاله من بعض، والعفو كما يراد به صفة العافي كذلك قد يراد به الأثر الحاصل عن صفة العفو في المعفوّ عنه كالخلق والصنع، ثمّ لمّا قرب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقّى إلى مصادرها وهي الصفات قال: وأعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان، ثمّ لمّا رأى ذلك نقصاناً في التوحيد اقترب وترقّى عن مقام مشاهدة الصفات إلى ملاحظة الذات فقال: وأعوذ بك منك، وهذا فرار إليه

منه مع قطع النظر عن الأفعال والصفات، وهو أوّل مقام الوصول إلى ساحل العزّة. ثمّ للسباحة في لجّة الوصول درجات أخر لا تتناهى. ولذلك لمّا ازداد عليه السلام قرباً قال: لا أحصي ثناء عليك. فكان ذلك حذفاً لنفسه عن درجة الاعتبار في ذلك المقام واعترافاً منه بالعجز عن الإحاطة بما له من صفات الجلال ونعوت الكمال، وكان قوله بعد ذلك: أنت كما أثنيت على نفسك. كمالاً للإخلاص وتجريداً للكمال المطلق الذي به هو، هو أجلّ من أن يلحقه لغيره حكم وهميّ أو عقلي. إذا عرفت ذلك ظهر أنّ مقصوده عليه السلام قوله: وفرّوا إلى الله من الله. أمر بالترقّي إلى المرتبة الثالثة من المراتب المذكورة.

الثالث: الأمر بالمضيّ فيما نهجه لهم من السبيل الواضح العدل الذي هو واسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، والصراط المستقيم المدلول عليه بالأوامر الشّرعية. وقد علمت أنّ الغرض من سلوك هذا السبيل وامتثال التكاليف التي ألزم الإنسان بها وعصبت به إنّما هو تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة بحيث تصير مؤتمرة لها ومتصرّفة تحت حكمها العقليّ منقادة لها عن الانهماك في ميولها الطبيعيّة ولذّاتها الفانية. وحينئذ تعلم أنّ هذا الأوامر الثلاثة هي التي عليها مدار الرياضة والسلوك إلى الله تعالى، فالأمر الأوّل والثالث أمر بما هو معين على حذف الموانع عن الالتفات إلى الله تعالى، وعلى تطويع النفس الإمّارة، والأمر الثاني أمر بتوجيه السير إلى الله. وقد تبيّن فيما مرَّ أنّ هذه الأمور الثلاثة هي الأغراض التي يتوجّه نحوها الرياضة المستلزمة لكمال الاستعداد المستلزم للوصول التامّ. ولذلك قال عليه السلام: فعليّ ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً. أي إذا قمتم بواجب ما أمرتم به من هذه الأوامر كان ذلك مستلزماً لفوزكم في دار القرار بجنّات تجري من تحتها الأنهار التي هي الغايات الحقيقية ولمثلها يعمل العاملون وفيها يتنافس المتنافسون إن لم يتمّ تأهّلكم للفوز في الدار العاجلة فمنحوه فيها، وقد يتمّ الفوز بالسعادتين العاجليّة والآجليّة لمن وفت قوّته بالقيام بهما وكمل استحقاقه لذلك في علم الله. ولمّا كان حصول السعادة والفوز عن لزوم الأوامر المذكورة أمراً واجباً واضح الوجوب في علمه عليه السلام لا جرم كان ضامناً له. فإن قلت: فما وجه اتّصال هذه الأوامر بصدر هذا الفصل قلت: لمّا كان مقتضى صدر الفصل إلى قوله: ولا إيهان. هو الإعذار إلى السامعين في قتال مخالفي الحقّ، وكان مفهوم ذلك هو الحثّ على جهادهم والتنفير عمّا هم عليه من الطريق الجائر كان تعقيب ذلك بذكر الطريق الواضح المأمور بسلوكه ولزوم حدود الله فيه لهو اللائق الواجب. وبالله التوفيق.

٢٥ - ومن خطبه له عليه السلام

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد وقدم عليه عاملاه على اليمن، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمْرَان لما غلب عليهما بُسْرُ بن أبي أرطأة، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي، فقال:

مَا هِيَ إِلاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلاَّ أَنْتِ، تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللَّهُ!

وتمثّل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرَ يَا عَمْرُو إِنَّنِي
عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الإِنَاءِ قَلِيلِ

ثمّ قال عليه السلام:

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ، وَإِنِّي وَاللهِ لأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاحِهِمْ فِي بِلادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قُعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِهِ. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا

يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بنِ غَنْمٍ.

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ
فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ

ثمّ نزل عليه السلام من المنبر.

قال الشريف: أقول: الأرمية جمع رَمِيّ وهو السحاب، والحميم هاهنا: وقت الصيف، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً وأسرع خفوفاً لأنه لا ماء فيه. وإنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون في الأكثر إلا زمان الشتاء، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، والإغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

أقول: السبب: أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان يعظّمون قتله فبايعوا علياً عليه السلام على دغل. فلمّا اختلف الناس عليه بالعراق، وكان العامل له يومئذ على صنعاء عبيد الله بن عباس، وعلى الجند بها سعيد بن نمران، ثمّ قتل محمّد ابن أبي بكر بمصر وكثرت غارات أهل الشام، تكلّم هؤلاء ودعوا إلى الطلب بدم عثمان فأنكر عليهم عبيد الله بن عباس فتظاهروا بمنابذة عليّ عليه السلام فحبسهم فكتبوا إلى أصحابهم الجند، فعزلوا سعيد بن نمران عنهم وأظهروا أمرهم فانضمّ إليهم خلق كثير إرادة منع الصدقة. فكتب عبيد الله وسعيد إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبرانه الخبر فكتب إلى أهل اليمن والجند كتاباً يهددهم فيه ويذكّرهم الله تعالى فأجابوه بأنّا مطيعون إن عزلت عنّا هذين الرجلين: عبيد الله وسعيداً. ثمّ كتبوا إلى معاوية فأخبروه فوجّه إليهم بسر بن أرطاة وكان فظّاً سفّاكاً للدماء فقتل في طريقه بمكّة داود وسليمان ابني عبيد الله بن عباس، وبالطائف عبد الله بن المدان وكان صهراً لابن عبّاس ثمّ انتهى إلى صنعاء وقد خرج منها عبيد الله وسعيد، واستخلفا عليها عبد الله بن عمرو بن أراكة الثقفي فقتله بسر، وأخذ صنعاء فلمّا قدم ابن عبّاس وسعيد على عليّ عليه السلام بالكوفة عاتبهما على تركهما قتال بسر فاعتذرا إليه بضعفهما عنه. فقام عليه السلام إلى المنبر ضجراً من مخالفة أصحابه له في الرأي فقال: ما هي إلاّ الكوفة. الفصل.

إذا عرفت ذلك فنقول: الإعصار: ريح تهبّ فتثير التراب. والوضَر: بفتح الضاد الدرن الباقي في الإناء بعد الأكل ويستعار لكلّ بقيّة من شيء يقلّ الانتفاع بها. والأناء: بالفتح شجر حسن المنظر مرّ الطعم. واطّلع اليمن: أي غشيها. سيدالون: أي يصير الأمر إليهم والدولة لهم. والقعب: القدح الضخم. وماث الشيء: أذابه. واعلم أنّ الضمير في قوله ما هي إلاّ الكوفة وإن لم يجر لها ذكر في اللفظ إلاّ أن تضجّره من أهلها قبل ذلك وخوضه في تدبيرها مراراً، وحضورها في ذهنه يجري مجرى الذكر السابق لها، وأقبضها خبر ثاني لمبتدأ محذوف تقديره: أنا، ويحتمل أن يكون هي ضمير القصّة وأقبضها خبر عن الكوفة. ونظيره في الاحتمالين قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ [المعارج: ١٥-١٦] ويفهم من هذا الكلام حصر ما بقي له من البلاد التي يعتمد عليها في الحرب ومقابلة العدوّ في الكوفة. وهو كلام في معرض التحقير لما هو فيه من أمر الدنيا وما بقي له من التصرّف الحقّ بالنسبة إلى ما لغيره من التصرّف الحقّ بالنسبة إلى ما لغيره من التصرّف الباطل. وأقبضها وأبسطها كنايتان عن وجوه التصرّف فيها أي إنّ الكوفة والتصرّف فيها بوجوه التصرّف حقير بالنسبة إلى سائر البلاد التي عليها الخصم. فما عسى أصنع بتصرّفي فيها، وما الذي أبلغ به من دفع الخصم ومقاومته. وهذا كما يقول الرجل في تحقير ما في يده من المال القليل إذا رام به أمراً كبيراً: إنّما هو هذا الدينار فما عسى أبلغ به من الغرض، وقوله: إن لم تكوني إلاّ أنت تهبّ أعاصيرك. عدول من الغيبة إلى الخطاب، والضمير بعد إلاّ تأكيد للذي قبلها والجملة الفعليّة بعده في موضع الحال، وخبر كان محذوف. ولفظ الأعاصير يحتمل أن يحمل على حقيقته فإنّ الكوفة معروفة بهبوب الإعصار فيها، ويحتمل أن يكون مستعاراً لما يحدث من آراء أهلها المختلفة التي هي منبع الغدر به، والتثاقل عن ندائه. ووجه المشابهة ما يستلزمه المستعار منه وله من الأذى والإزعاج.

وتقدير الكلام فإن لم تكوني إلاّ أنت عدّة لي وجنّة ألقى بها العدوّ، وحظّاً من الملك والخلافة مع ما عليه حالك من المذامّ فقبحاً لك. وهو ذمّ لها بعد ذكر وجه الذمّ. ولأجل استصغاره لأمرها تمثّل بالبيت: لعمر أبيك. الخبر. ومعنى تمثيله به أنّي على بقيّة من هذا الأمر كالوضر القليل في الإناء، وهو تمثيل على وجه الاستعارة فاستعار لفظ الإناء للدنيا ولفظ الوضر القليل فيه للكوفة، ووجه المشابهة ما يشرك فيه الكوفة والوضر من الحقارة بالنسبة إلى ما استولى عليه خصمه من الدنيا وما اشتمل عليه الإناء من الطعام، ومن روى الأناء فإنّما أراد أنّي على بقيّة من هذا الأمر كالقدر الحاصل لناظر الأناء من حسن المنظر مع عدم انتفاعه منه بشيء آخر. ويكون قد استعار لفظ الأناء لسائر بلاد الإسلام، ولفظ الوضر لما في يده هو من حسن المنظر استعارة في الدرجة الثانية، وإنّما خصّص الكوفة دون البصرة وغيرها لأنّ جمهور من كان يعتمد عليه في الحرب إذن هم أهل الكوفة، وقوله: أنبئت بسراً. إلى قوله: منكم. شروع من استنفارهم إلى الجهاد. فأعلمهم أوّلاً بحال بسر وخروج اليمن من أيديهم، ثمّ خوّفهم بما حكم به من الظنّ الصادق أن سيدال القوم منهم، ثمّ أعقب ذلك بذكر أسباب توجب وقوع ما حكم به وهي الأمارات التي عنها حكم، فذكر أربعة أمور من قبلهم هي أسباب الانقهار، وأربعة أمور من قبل الخصم مضادّة لها هي أسباب القهر، ورتّب كلّ أمر عقيب ضدّه ليظهر لهم المناسبة بين أفعالهم وأفعال خصومهم فيدعوهم داعي الدين والمروّة إلى الفرار من سوء الرأي.

فالأول من أفعال الخصم: الاجتماع والتوازر وإن كانوا على الباطل وهو التصرّف غير الحقّ في البلاد، والأوّل من أفعالهم ما يضادّ ذلك: وهو تفرّقهم عن حقّهم أي تصرفهم المستحقّ لهم بإذن وليّ الأمر.

الثاني من أفعال الخصم: الطاعة للإمام الجائر فيما يأمر به من الباطل، ومن أفعالهم: معصية إمام الحقّ في أمره بالحقّ.

الثالث للخصم: تأديتهم للأمانة إلى صاحبهم وهي لزوم عهده والوفاء ببيعته، ومن أفعالهم: ضدّ ذلك من الغدر والخيانة في العهد بتركهم لمؤازرته في القتال وعصيانهم لأمره حتّى صار الغدر مثلاً لأهل الكوفة.

الرابع: صلاح القوم في بلادهم أي انتظام أمورهم فيها الناشئ عن طاعة إمامهم، ومن أفعالهم: ما يضادّ ذلك من فسادهم في بلادهم لخروجهم عن طاعة إمامهم. وظاهر أنّ الأمور الأربعة المذكورة من أفعال الخصم من أسباب صلاح الحال وانتظام الدولة والغلبة والقهر، وأنّ الأمور الأربعة المضادّة لها من أفعالهم من أقوى الأسباب الموجبة للانقلاب والانقهار، وقوله: ولو ائتمنت أحدكم على قعبٍ لخشيت أن يذهب بعلاقته. مبالغة في ذمّهم بالخيانة على سبيل الكناية عن خيانتهم لأمانتهم في عهده على قبول أوامر الله. وقوله: اللّهم إنّي قد مللتهم وملّوني. شكاية إلى الله سبحانه منهم وعرض لما في ضميره وضمائرهم بحسب ما شهدت به قرائن أحوالهم، والملال والسأم مترادفان. وحقيقته إعراض النفس عن شيء إمّا لفتور القوى البدنيّة وكلالها عن كثرة الأفاعيل. وإمّا لاعتقاد النفس عن دليل وإمارة يتبيّن لها أنّ ما يطلبه غير ممكن لها. وهذان السببان كانا موجودين: أمّا سأمه عليه السلام من أفعالهم (أفعاله خ) فإنّه لم يشك منهم ولم يدعُ عليهم حتّى عجزت قواه عن التطلّع إلى وجوه إصلاحهم وانصرفت نفسه عن معالجة أحوالهم لاعتقاد أنّ تقويمهم غير ممكن له، وأمّا سأمهم منه فإمّا لاعتقادهم أنّ مطلوباتهم التي كانوا أرادوه لها غير ممكنة منه، أو لكثرة تكرار أوامره بالجهاد والذبّ عن دين الله والمواظبة على أوامر الله وزيادتها على قواهم الضعيفة التي هي مع ضعفها مشغولة بغير الله. فلذلك تنصرف نفوسهم عن قبول قوله وامتثال أوامره، ثمّ أردف تلك الشكاية بالتضرّع إلى الله تعالى في الخلاص منهم، ثمّ الدعاء عليهم فدعا الله لنفسه أوّلاً أن يبدله خيراً منهم إمّا في الدنيا: قوماً صالحين ينظرون بنور الله نعمه عليهم فيخلصوا له الدين، وإمّا في الآخرة: قوماً غرقوا في مطالعة أنوار كبرياء الله فأعطاهم أعلى منازل جنّته وأسنى مراتب كرامته: قوماً أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وطلبه الخير منهم في

الدنيا هو الأرجح في الذهن. لما يتمنّاه بعد من فوارس بني فراس. ثمّ دعا الله عليهم أن يبدلهم شرّاً منه. فإن قلت: إنّ صدور مثل هذا الدعاء منه عليه السلام مشكل من وجهين: أحدهما: أنّه يقتضي أن يكون هو ذا شرّ. وقد ثبت أنّه كان منزهاً عن الشرور، الثاني: أنّه كيف يجوز منه أن يدعو بوجود الشرور ووجود الأشرار. قلت: الجواب عن الأوّل من وجهين: أحدهما: أنّ صيغة أفعل التفضيل كما ترد لإثبات الأفضلية كذلك قد ترد لإثبات الفضيلة. وحينئذ يحتمل أن يكون مراده من قوله: شراً منّي: أي أبدلهم بمن فيه شرّ غيري، الثاني: أن يكون شرّاً منّي على عقائدهم أنّ فيه شرّاً عليهم. واعتقادهم أنّه ذو شرّ لا يوجب كونه كذلك، وعن الثاني من وجهين: أحدهما: أنّه لمّا كان في دعاء الله أن يبدلهم من هو شرّ من مصلحة تامّة حسن منه ذلك، وبيان المصلحة من وجهين: أحدهما: أنّ ذلك الدعاء منه عليهم بمشهد منهم ومسمع من أعظم الأسباب المخوّفة الجاذبة لأكثرهم إلى الله تعالى وذلك مصلحة ظاهرة، الثاني أنّ نزول الأمر المدعوّ به عليهم بعده مما ينبّههم على فضله، ويذكّرهم أنّه لم يصبهم ذلك إلاّ لتركهم أوامر الله تعالى وخروجهم عن طاعته فيتقهقرون عن مسالك الغيّ والفساد إلى واضح سبيل الرشاد، ويكون ذلك بلاء من الله لهم. الثاني: لعلّه إنّما دعا عليهم لعلمه أنّه لا يرجى صلاحهم فيما خلقوا لأجله ممّا يدعوهم إليه. ومن لا يرجى صلاح حاله مع فساد نظام العالم بوجوده ولزومه لما يضادّ مطلوب الله منه فعدمه أولى من وجوده. فكان دعاءه عليهم إذن مندوباً إليه. وعلى ذلك يحمل أيضاً دعاؤه عليهم: اللهمّ مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء. ونحوه. وذلك تأسّ منه عليه السلام بالسابقين من الأنبياء عليهم السلام في التضجّر من قومهم والشكاية منهم إلى الله تعالى ودعائهم عليهم كنوح عليه السلام إذ قال: ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً، إلى قوله إنّهم عصوني، ثمّ ختم بالدعاء على من لم يرج له صلاحاً، فقال: ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً الآية.

وكلوط عليه السلام إذ قال لقومه: إنّي لعملكم من القالين، وغيرهما من الأنبياء والمراد بالميث المدعوّ به يشبه أن يكون ما يحصل في القلب من الانفعال عن الغمّ والخوف ونحوهما، وذلك أنّ الغمّ إذا وقع لزمه تكاثف الروح القلبي للبرد الحادث عند انطفاء الحرارة الغريزيّة لشدّة انقباض الروح واختناقه فيحسّ في القلب بانفعال شبيه بالعصر والمرس. وذلك في الحقيقة ألم أو مستلزمة له فيحسن أن يكون مراداً له، ويحتمل أن يكون كناية عن أسبابه من الغمّ والخوف فكأنّه طلب من الله أن يقتص له منهم إذ ماثوا قلبه بفساد أفعالهم، ويروى أنّ اليوم الذي دعا عليهم فيه ولد فيه الحجّاج بن يوسف، وروي أنّه ولد بعد اليوم بأوقات يسيرة. وفعل الحجّاج بأهل الكوفة ظاهر، ودماره لها مشهور.

وقوله: أما والله لوددت أنّ لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم.

يصلح تعيينه لمن ذكر بياناً للخير الذي طلبه أوّلاً من الله مجملاً عوضاً بهم. وبنو فراس حي من تغلب أبوهم غنم بفتح الغين وسكون النون، وهو غنم بن تغلب بن وائل، وإنما خصّ هذا البطن لشهرتهم بالشجاعة والحميّة وسرعة إجابة الداعي، وأمّا البيت: هنالك لو دعيت فمعناه ما ذكره السيد الرضي رحمه الله ووجه تمثيله عليه السلام بهذا البيت أنّ هؤلاء القوم الذين ودّ أنّهم كانوا له عوضاً عن قومه هم بصفة الفوارس الذين أشار إليهم الشاعر في المبادرة إلى إجابة الداعي والاجتماع على دفع الضيم عنهم ونصرة حقّهم فلذلك تمنّاهم عوضاً، ومقصوده في جميع ذلك ذمّهم وتوبيخهم وتحقيرهم بتفضيل غيرهم عليهم تنفيراً لطباعهم عمّا هي عليه من التثاقل عن دعوته للذبّ عن دين الله، وبالله التوفيق والعصمة.

٢٦ - ومن خطبة له عليه السلام

إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ

الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ. الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ.

أقول: الإناخة: المقام بالمكان. والحيّة الصمّاء: هي التي لا تنزجر بالصوت كأنّها لا تسمع، وربّما يراد بها الصلبة الشديدة. والجشب: هو الطعام الغليظ الخشن، ويقال: هو الذي لا إدام معه، ومعصوبة: مشدودة.

واعلم أنّه عليه السلام اقتص أموراً وقعت ليحسن مدحها وذمّها. فبدأ بذكر النبي صلى الله عليه وآله وذكر بعض أسباب غاية البعثة، فإنّه لمّا كانت الغاية منها هو جذب الخلق عن دار الغرور إلى دار الواحد الحقّ وكان ذلك الجذب تارة بالنذارة وتارة بالبشارة، وذكر هنا النذارة، وخصّها بالذكر لأنّها السبب الأقوى في الردع فإنّ عامّة الخلق وجمهورهم قلّما يلتفتون إلى ما وعدوا به في الآخرة إذا قابلوا ذلك بلذّاتهم الحاضرة فإنّ تلك أمور غير متصوّرة لهم إلاّ بحسب الوصف الذي إنّما ينكشف لهم عن أمور محسوسة تشبه ما هم فيه أو أضعف عندهم. ثمّ إنّ نيلها مشروط بشرائط صعبة في الدنيا تكدّر عليهم ما هم فيه من حاضر لذّتهم مع براءتها عن الشروط والتكاليف الشاقة فلذلك قلّما يلتفتون إلى الوعد عمّا هم فيه. فكان السبب الأقوى في الردع والالتفات إلى الله إنّما هو الإنذار والتخويف فإذا انضمّ إليه الوعد أفاد المجموع الغاية. ولمّا كان مقصوده عليه السلام في هذا الموضع التوبيخ المطلق للعرب وترقيق قلوبهم المشتملة على الفظاظة والقسوة كان الأليق هاهنا ذكر إنذار النبي للعالمين ليتذكّروا بذلك تفصيل الإنذارات الواردة في القرآن والسنّة، ثمّ أردف ذلك بذكر كونه أميناً على التنزيل ليتذكّروا أنّ الإنذارات الواردة هي من عند الله تعالى التي بها الرسول غير خائن فيها بتبديل أو زيادة أو نقصان فيتأكّد في قلوبهم ما قد علموه من ذلك ليكون أدعى لهم إلى الانفعال عن أقواله، ثمّ شرع بعده في اقتصاص أحوالهم التي كانوا عليها، والواو في قوله: وأنتم. للحال أي حال ما كنتم بهذه الصفات بعث محمّداً صلى الله عليه وآله، وذكر أحوالهم في معرض الذمّ لهم. فذكر أنّهم كانوا على شرّ دين؛ وهو عبادة الأصنام من دون الله. وأعظم بذلك افتضاحاً لمن عقل منهم أسرار الشريعة وعرف الله سبحانه. فلا أحسبه عند سماع هذا التوبيخ إلاّ خجلاً ممّا فرّط في جنب الله ويقول: يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً، ثمّ أردف ذلك بتذكيرهم ما كانوا فيه من شرّ دار. وأراد نجد أو تهامة وأرض الحجاز، وبيّن كونها شرّاً ببيان فساد أحوالهم، أمّا في مساكنهم فبإناختهم بين الحجارة السود الخشن التي لا نداوة بها ولا نبات، والحيّات الصمّ التي لا علاج لسمومها. ووصفها بالصمّ. لأنّ حيات تلك الأرض إلى غاية من القوّة وحدّة السموم لاستيلاء الحرارة واليبس عليها، وأمّا في مشربهم فلأنّ الغالب على المياه التي يشربونها أن تكون كدرة لا يكاد غير المعتاد بها أن يقبل عليها مع العطش إلاّ عند الضرورة، والسبب الغالب في ذلك عدم إقامتهم بالمكان الواحد بل هم أبداً في الحلّ والارتحال، ولا يحتفرون المياه ويصلحونها إلاّ ريثما هم عليها. فبما كان بعضهم يحتفر وبعضهم يشرب. ومشاهدتهم توضح ذلك، وأمّا في مأكلهم فجشوبتها ظاهرة فإنّك تجد عامّتهم يأكل ما دبّ من حيوان، وسئل بعض العرب أي الحيوانات تأكلون في البادية؟ فقالوا: نأكل كلّ ما دبّ ودرج إلاّ أمّ حبين (أمّ جبين خ) فقال السائل: ليت تدري أمّ حبين السلامة. قال صاحب الجمل: وأمّ جبين: دويبة قدر كفّ الإنسان. وبعضهم يخلط الشعر بنوى التمر ويطحنها ويتّخذ منهما خبزاً، وروي أنّهم كانوا في أيّام المجاعة يلوّثون أوبار الإبل بدم القراد ويجفّفونها فإذا يبست دقوها وصنعوها طعاماً، وأمّا في سفكهم الدماء بعضهم لبعض وقطع أرحامهم فظاهر أيضاً فإنّ الولد كان يقتل أباه وبالعكس، وأمّا نصبهم للأصنام وعصب الآثام بهم في جاهليّتهم فغني عن البيان، ولفظ العصب مستعار للزوم الآثام لهم في تلك الحال عن معناه الأصلي وهي استعارة لفظ للنسبة بين محسوسين للنسبة بين معقولين أو بين معقول ومحسوس، وإنّما ذكرهم عليه السلام بهذه الأحوال لينبّههم لنسبة ما كانوا عليه في الجاهليّة إلى ما هم عليه في تلك الحال من أضداد ذلك كلّه. إذ بدّلوا ممّا كانوا فيه من فساد أحوالهم في الدنيا إلى صلاح حالهم فيها ففتحوا

المدن وكسروا الجيوش وقتلوا الملوك وغنموا أموالهم كما قال تعالى في المنّة عليهم وتذكيرهم أنواع ما أنعم عليهم به ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الاحزاب: ٢٧] وجعل لهم الذكر الباقي والشرف الثابت. كلّ ذلك زيادة على هدايته لهم إلى الإسلام الذي هو طريق دار السلام وسبب السعادة الباقية. وإنّما كان ذلك لسبب مقدم محمّد صلى الله عليه وآله إليهم. واعلم أنّ سياق هذا الكلام يقتضي مدح النبي صلى الله عليه وآله فيما حذف من الفصل بعده ليبني عليه مقصوداً له، وفيه تنبيه على دوام ملاحظة السامعين لنعماء الله عليهم فيلاحظوا استحقاقه لتمام العبادة عامّة أحوالهم، ويكونون في وجل من خوفه وفي شوق إليه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومنها: فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ.

أقول: ضننت بكسر النون: أي بخلت، ونقل الفرّاء بالفتح أيضاً. وأغضيت على كذا: أي أطبقت عليه جفني. والقذى: ما يسقط في العين فيؤذيها. والشجى: ما يعرض في الحلق عن الغبن ونحوه لا يكاد يسيغ الإنسان معه الشراب، وقد مرّ تفسيرهما. وأخذ بكظمه: أي بمجرى نفسه، والعلقم: شجر بالغ المرارة، ويصدق بالعرف على كلّ مرّ.

واعلم أن هذا الفصل يشمل على اقتصاص صورة حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر الخلافة وهو اقتصاص في معرض التظلّم والشكاية ممّن يرى أنّه أحقّ منه بالأمر. فأشار إلى أنّه فكّر في أمر المقاومة والدفاع عن هذا الحقّ الذي يراه أولى فرأى أنّه لا ناصر له إلاّ أهل بيته وهم قليلون بالنسبة إلى من لا يعنيه ومن يعين عليه. فإنّه لم يكن له معين يغلب على الظنّ إلاّ بني هاشم كالعبّاس وبنيه وأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ومن يخصّهم، وضعفهم وقلّتهم عن مقاومة جمهور الصحابة ظاهر، فضنّ بهم على الموت لعلمه أنه لو قاوم بهم لقتلوا ثمّ لا يحصل على مقصوده، ولمّا ضنّ بهم عن الموت لزمه ما ذكر من الأمور وهي الإغضاء على القذى، وكنّى بالإغضاء على القذى عن صبره عن المقاومة كناية بالمستعار، ووجه المشابهة بينهما استلزامهما للألم البالغ، وبالقذى عمّا يعتقده ظلماً في حقّه وكذلك قوله: وشربت على الشجى. ملاحظة لوجه الشبه بين ما يجري له من الأمور التي توجب له الغضب والغبن وبين الماء الذي يشرب على الشجى وهو استلزامهما الأذى وعدم التلذّذ والإساغة. ولذلك استعار له لفظة الشرب. وكذلك قوله: وصبرت على أخذ الكظم وعلى أمرّ من طعم العلقم. فيه استعارات حسنة للفظ أخذ الكظم كنّى بها عن أخذ الوجوه عليه وتضييق الأمر فيما يطلبه، ولفظ المرارة التي هي حقيقة في الكيفيّة المخصوصة للأجسام لما يجده من التألم بسبب فوت مطلوبه، ووجه المشابهة في هاتين الاستعارتين لزوم الأذى أيضاً، وأمّا أنّ الذي وجده أمرّ من العلقم فظاهر إذ لا نسبة للألم البدنيّ في الشدّة إلى الألم النفسانيّ. واعلم أنّه قد اختلف الناقلون لكيفيّة حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فروى المحدّثون من الشيعة وغيرهم أخباراً كثيرة ربما خالف بعضها بعضاً بحسب اختلاف الأهواء: منها - وهو الذي عليه جمهور الشيعة - أنّ عليّاً عليه السلام امتنع من البيعة لأبي بكر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وامتنع معه جماعة بني هاشم كالزبير وأبي سفيان بن الحرث والعبّاس وبنيه وغيرهم وقالوا: لا نبايع إلاّ عليّاً عليه السلام وأنّ الزبير شهر سيفه فجاء عمر في جماعة من الأنصار فأخذ سيفه فضرب به الحجر فكسره وحملت جماعتهم إلى أبي بكر فبايعوه وبايع معهم عليّ إكراهاً، وقيل: إنّ عليّاً عليه السلام اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام وعلموا أنّه مفرد فتركوه، وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفّين أنّه كان يقول: لو وجدت أربعين ذوي عزم لقاتلت، ومنها - وهو الذي عليه جمهور المحدّثين من غير الشيعة - أنّه امتنع من البيعة ستّة أشهر حتّى ماتت فاطمة عليها السلام، فبايع بعد ذلك طوعاً. وفي صحيحي مسلم والبخاري: كانت وجوه الناس تختلف إليه وفاطمة لم تمت بعد فلمّا ماتت

انصرفت وجوه الناس عنه، فخرج وبايع أبا بكر. وعلى الجملة فحال الصحابة في اختلافهم بعد وفاة رسول الله ﷺ وما جرى في سقيفة بني ساعدة وحال عليّ في طلب هذا الأمر ظاهر، والعاقل إذا طرح العصبيّة والهوى عن نفسه ونظر فيما نقله الناس في هذا المعنى علم ما جرى بين الصحابة من الاختلاف والاتّفاق، وهل بايع عليّ طوعاً أو كرهاً وهل ترك المقاومة عجزاً أو اختياراً. ولمّا لم يكن غرضنا إلاّ تفسير كلامه كان الاشتغال بغير ذلك تطويلاً وفضولاً خارجاً عن المقصود. ومن رام ذلك فعليه بكتب التواريخ.

ومنها: وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلا ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا، وَعَلا سَنَاهَا، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ، فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ.

أقول: خزيت: أي ذلّت وهانت، والأهبة: الإستعداد، وأعدّوا: أي هيّئوا، وعدّة الحرب: ما يعدّلها من الآلات والسلاح. وشبّ لظاها: أي أوقدت نارها وأثيرت، وروي شبّ بالبناء للفاعل أي ارتفع لهبها. والسنا مقصوراً: الضوء. والشعار: نداء مخصوص يعرف القوم به بعضهم بعضاً أو يتنادون به للحرب أو الغزو.

اعلم أنّ الفصل من الكلام اقتصاص ذكر عليه السلام فيه حال عمرو بن العاص مع معاوية. فذكر أنّه لم يبايعه حتّى شرط أن يؤتيه على بيعته ثمناً؛ وذلك أنّه لمّا نزل عليه السلام بالكوفة بعد فراغه من أمر البصرة كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه فيه إلى البيعة فأهمّه ذلك. فدعا قوماً من أهل الشام إلى الطلب بدم عثمان فأجابوه وأراد الاستظهار في أمره فأشار عليه أخوه عتبة بن أبي سفيان بالاستعانة بعمرو بن العاص وكان بالمدينة فاستدعاه فلمّا قدم عليه وعرف حاجته إليه تباعد عنه وجعل يمدح عليّاً عليه السلام في وجهه ويفضّله ليخدعه عمّا يريد منه. فمن ذلك أنّ معاوية قال له يوماً: يا أبا عبد الله إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة وقطع الرحم. فقال عمرو: من هو؟ قال: عليّ. فقال: والله يا معاوية ما أنت وعليّ حملي بعير، ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا علمه، والله إنّ له مع ذلك لحظّاً في الحرب ليس لأحد غيره. ولكني قد تعوّدت من الله إحساناً وبلاءً جميلاً. فما تجعل لي إن بايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرور والخطر؟ قال له: حكمك. قال له: مصر الطعمة. فلم يزل معاوية يتلكّأ عليه ويماطله وهو يمتنع عن مساعدته حتّى رضي معاوية أن يعطيه مصر. فعاهده على ذلك وبايع عمرو معاوية، وكتب له بمصر كتاباً فذلك معنى قوله عليه السلام: ولم يبايع معاوية حتّى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً، ثمّ أردف ذلك بالدعاء على البايع لدينه وهو عمرو بعدم الظفر في الحرب أو بالثمن بقوله: فلا ظفرت يد البايع، وألحقه بالتوبيخ والذمّ للمبتاع بذكر هوان أمانته عليه وهي بلاد المسلمين وأموالهم التي أفاءها الله عليهم، ويحتمل أن يكون إسناد الخزي إلى الأمانة إسناداً مجازيّاً أو على سبيل إضمار الفاعل يفسّره المبتاع أي والخزي المبتاع في أمانته بخيانته لها، وذهب بعض الشارحين إلى أنّ المراد بالبايع معاوية وبالمبتاع عمرو. وهو ضعيف. لأنّ الثمن إذا كان مصراً فالمبتاع هو معاوية. ثمّ لمّا ظهرت دعوة معاوية لأهل الشام ومبايعة عمرو له كان ذلك من دلائل الحرب فلذلك أمر عليه السلام أصحابه بالتأهّب لها وإعداد عدّتها، وكنّى عمّا ذكرناه من أمارات وقوعها بقوله: وقد شبّ لظاها وعلا سناها. كناية بالمستعار. ووجه المشابهة بين لهب النار وسناها وأمارات الحرب كونها علامات على أمرين هما مظنّة الهلاك ومحلّ الفتنة، ويحتمل أن يكون إطلاق للفظ السنا ترشيحاً للاستعارة، ثمّ أردف ذلك بالأمر بالصبر في الحرب واستشعاره إمّا أن يراد به اتّخاذه علامة لأنّ شعار القوم علامتهم أيضاً، وإما أن يكون اشتقاقه من الشعور أي ليكن في شعوركم الصبر وإن كان الاشتقاقيّون يردّون الشعار بالمعنى الثاني إلى الشعور.

وقوله: فإنّ ذلك أدعى إلى النصر. بيان لفائدة اتّخاذ الصبر شعاراً أو علامة، أمّا إن كان المقصود أنّ

الزموا أنفسكم الصبر فظاهر أنّ لزوم الصبر من أقوى أسباب النصر، وإن كان المقصود اتّخذوه علامة فلأنّ من كان الصبر في الحرب علامة له يعرفه الخصم بها كان الخصم يتصوّرها منه أدعى إلى الانقهار فكان المستشعر لتلك العلامة أدعى إلى القهر والنصر، وإن كان المراد إخطاره بالبال فلأنّه سبب لزومه. وبالله التوفيق.

٢٧ - ومن خطبة له عليه السلام

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ. فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالأَسْدَادِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ. أَلا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ. وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلائِدَهَا وَرِعَاثَهَا، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاسْتِرْجَاعِ وَالاسْتِرْحَامِ. ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ؛ فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً؛ فَيَا عَجَباً! عَجَباً - وَاللهِ - يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنِ اجْتِمَاعِ هٰؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلا تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ! فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ: هٰذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ [ينسلخ] عَنَّا الْحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ، كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ(١)، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ! يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلا رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً - وَاللهِ - جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً. قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلانِ؛ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلٰكِنْ لا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ.

للهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ! وَلٰكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ!

أقول: هذه الخطبة مشهورة ذكرها أبو العباس المبرّد وغيره، والسبب المشهور لها أنّه ورد عليه علج من أهل الأنبار فأخبره أنّ سفيان بن عوف الغامديّ قد ورد في خيل لمعاوية إلى الأنبار وقتل عامله حسّان بن حسّان البكري. فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس وقال: إنّ أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار وهو مغترّ لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدنيا، فانتدبوا إليهم حتّى تلاقوهم فإن أصبتهم منهم طرفاً انكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا. ثمّ سكت رجاء أن يجيبوه بشيء فلم يفه أحد منهم بكلمة. فلمّا رأى صمتهم نزل وخرج يمشي راجلاً حتّى أتى النخيلة والناس يمشون خلفه حتّى

(٢) (فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ن ل).

أحاط به قوم من أشرافهم وقالوا: ترجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك. فقال: ما تكفوني ولا تكفون أنفسكم. فلم يزالوا به حتّى ردّوه إلى منزله. فبعث سعيد بن قيس الهمداني في ثمانية آلاف في طلب سفيان بن عوف فخرج حتّى انتهى إلى أداني أرض قنّسرين وقد فاتوه. فرجع وكان عليّ عليه السلام في ذلك الوقت عليلاً فلم يقوَ على القيام في الناس بما يريده من القول. فجلس بباب السدّة التي تصل إلى المسجد ومعه الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر، ودعى سعداً مولاه فدفع إليه كتاباً كتب فيه هذه الخطبة وأمره أن يقرأها على الناس بحيث يسمع عليه السلام ويسمعون. وفي رواية المبرّد فجرّ رداءه حتّى أتى النخيلة ومعه الناس فرقى رباوة من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ثمّ قال الخطبة. ورواية المبرّد أليق بصورة الحال وأظهر. وروي أنّه قام إليه رجل في آخر الخطبة ومعه ابن أخ له فقال: يا أمير المؤمنين: إنّي وابن أخي هذا كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥] فمرنا بأمرك فوالله لننهينّ إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد، فدعا لهما بخير وقال: وأين أنتما مما أريد.

ولنرجع إلى التفسير فنقول: الجنّة: ما استترت به من سلاح أو غيره، وديّث: أي ذلّل، ومنه الديوث: الذي لا غيرة له. والصَّغار: الذلّ والضيم، والقماء ممدود مصدر قمأ قماءة فهو قميء: الحقارة والذلّ؛ وروى الراوندي القما بالقصر وهو غير معروف. وأسدل الرجل بالبناء للمفعول إذا ذهب عقله من أذى يلحقه. وأديل الحقّ من فلان أي غلبه عليه عدوّه، وسامه خسفاً بضمّ الخاء وفتحها: أي أولاه ذلاً وكلّفه المشقّة، والنصف بكسر النون وسكون الصاد: الاسم من الانصاف، وضمّ النون لغة فيه، وعقر الشيء: أصله، والتواكل: أن يكل كلّ واحد منهم الأمر إلى صاحبه ويعتمد عليه فيه. وشنّ الغارة وأشنّها: فرّقها عليهم من كلّ وجه. وغامد: قبيلة من اليمن وهي من الأزد ازد شَنوءة، والمسالح جمع مسلحة وهي الحدود التي ترتّب فيها ذوو الأسلحة مخافة عادية العدوّ كالثغر، والمعاهدة: الذميّة، والحجل بكسر الحاء وفتحها: الخلخال، والقلب السوار المصمت، والرعاث جمع رعثة بفتح الراء وسكون العين وفتحها: وهي القرط، والرعاث أيضاً: ضرب من الخرز والحلي، والاسترجاع قول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والاسترحام: مناشدة الرحم، والوافر: التامّ، والكلم: الجرح. والترح: الحزن. والغرض: الهدف، وحمارّة القيظ بتشديد الراء: شدّة حرّه: وسبخ الحرّ: فتر، وخفّ، وصبارّة القرّ بتشديد الراء أيضاً: شدّة البرد، وينسلخ: ينقضي، وربّات الحجال: النساء، والحجال جمع حجلة: وهي بيت العروس ويزيّن بالستور والثياب، والسدم: الحزن عن الندم، والقيح: ما يكون في القرحة من المدّة والصديد، وشحنتم: ملأتم والنغب جمع نغبة بضم النون وهي الجرعة، والتهمام بالفتح الهمّ، والمراس العلاج، وذرّفت على الستّين بتشديد الراء أي زدت.

واعلم أنّ قوله: أما بعد. إلى قوله: ومنع النصف. صدر الخطبة بيّن فيه غرضه إجمالاً وهو الحثّ على الجهاد، فإنّه ممّا ذكر من أمر الجهاد وتعظيمه وخطأ من قصر عنه علم أنّه يريد أن يحثّ السامعين على جهاد عدوّهم فذكر من ممادح الجهاد أموراً.

أحدها: أنّه باب من أبواب الجنّة. وبيانه أنّ الجهاد تارة يراد به جهاد العدوّ الظاهر كما هو الظاهر هاهنا، وتارة يعني به جهاد العدوّ الخفيّ وهو النفس الأمارة بالسوء. وكلاهما بابان من أبواب الجنّة، والثاني منهما مراد بواسطة الأوّل إذ هو لازمة له، وذلك أنّك علمت أنّ لقاء الله سبحانه ومشاهدة حضرة الربوبيّة هي ثمرة الخلقة وغاية سعي عباد الله الأبرار، ثمّ قد ثبت بالضرورة من دين محمّد صلى الله عليه وآله أنّ الجهاد أحد العبادات الخمس، وثبت أيضاً في علم السلوك إلى الله أنّ العبادات الشرعيّة هي المتمّة والمعينة على تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنّة، وأنّ التطويع كيف يكون وسيلة إلى الجنّة التي وعد المتّقون. فيعلم من هذه المقدّمات أنّ الجهاد الشرعيّ باب من أبواب الجنّة إذ منه يعبر المجاهد السالك إلى الله إلى الباب الأعظم للجنّة وهو الرياضة وقهر الشيطان. ومن وقوفك على هذا السرّ تعلم

أنّ الصلاة والصوم وسائر العبادات كلّها أبواب للجنّة إذ كان امتثالها على الوجه المأمور بها مستلزماً للوصول إلى الجنّة. فإنّ باب كلّ شيء هو ما يدخل إليه منه ويتوصّل به إليه. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله في الصلاة: إنّها مفتاح الجنّة، وفي الصوم إنّ للجنّة باباً يقال له الريّان لا يدخله إلا المصلون.

الثاني: من أوصاف الجهاد: أنّه باب فتحه الله لخاصّة أوليائه. والمراد بخواص الأولياء المخلصون له في المحبّة والعبادة. وظاهر أنّ المجاهدة لله لا لغرض آخر من خواصّ الأولياء، وذلك أنّ المرء المسلم إذا فارق أهله وولده وماله وأقدم على من يغلب على ظنّه أنّه أقوى منه كما أمر المسلمون بأن يثبت أحدهم لعشرة من الكفّار، ثمّ يعلم أنّه لو قهره لقتله واستباح ذرّيته وهو في كلّ تلك الأحوال صابر شاكر ومعترف بالعبوديّة لله مسلّم أمره إلى الله فذلك هو الوليّ الحقّ الذي قد أعرض عن غير الله رأساً، وقهر شيطانه قهراً، وآيسه أن يطيع له أمراً.

فإن قلت: إذا كان الغرض من العبادات هو جهاد الشيطان والإخلاص لله كان التخصيص بالوصفين المذكورين لاستلزامه ذلك المعنى لم يبق حينئذ لسائر العبادات مزيّة عليه فما معنى قول الصحابة وقد رجعوا من جهاد المشركين: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؟.

قلت: يحتمل معنيين:

أحدهما: أنّ الجهاد الظاهر ليس كلّ غرضه الذاتي هو جهاد النفس؛ بل ربّما كان من أعظم أغراضه الذاتيّة هو قهر العدوّ الظاهر ليستقيم الناس على الدين الحقّ، وينتظم أمرهم في سلوكه. ولذلك دخل فيه من أراد منه إلاّ ذلك كالمؤلّفة قلوبهم وإن كانوا كفّاراً. وذلك بخلاف سائر العبادات إذ غرضها ليس إلاّ جهاد النفس ولا شك أنّه هو الجهاد الأكبر: أمّا أولاً فباعتبار مضرّة العدوّين فإنّ مضرّة العدوّ الظاهر مضرّة دنياويّة فانية، ومضرّة الشيطان مضرّة أخرويّة باقية. ومن كانت مضرّته أعظم كان جهاده أكبر وأهمّ، وأمّا ثانياً فلأنّ مجاهدة الشيطان مجاهدة عدوّ لازم ومع ذلك فلا يزال مخادعاً غرّاراً لا ينال غرضه إلاّ بالخروج في زيّ الناصحين الأصدقاء، ولا شك أنّ الاحتراز من مثل هذا العدوّ أصعب، وجهاده أكبر من جهاد عدوّ مظهر لعداوته يقاتله الإنسان في عمره مرّة أو مرّتين. فحسن لذلك تخصيص الجهاد بالأصغر، ومجاهدة النفس بالأكبر.

المعنى الثاني: أنّا وإن قلنا: إنّ الغرض من الجهاد الأصغر هو جهاد النفس إلاّ أنّ جهادها في حال جهاد العدوّ الظاهر قد يكون أسهل وذلك أنّ القوى البدنيّة كالغضب والشهوة تثوران عند مناجزة العدوّ طلباً لدفعه، وتصيران مطيعتين للنفس الإنسانيّة فيما تراه وتأمر به فلا يكون عليها كثير كلفة في تطويع تلك القوى، بخلاف سائر العبادات فإنّ طباع تلك القوى معاكسة فيها لرأي النفس. فلذلك كان جهادها في سائر العبادات أصعب وأكبر من جهادها في حال الحرب. والله أعلم.

الثالث: كونه لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة. واستعار لفظ اللباس والدرع والجنّة ثمّ رشّح الاستعارتين الأخيرتين بوصفي الحصانة والوثاقة ووجه المشابهة أنّ الإنسان يتّقي شرّ العدوّ أو سوء العذاب يوم القيامة كما يتّقي بثوبه ما يؤذيه من حرّ أو برد وبدرعه وجنّته ما يخشاه من عدوّه، ثمّ أردف عليه السلام ممادح الجهاد بتوعيد من تركه رغبة عنه من غير عذر يوجب تخلّفه بأمور منفور عنها طبعاً: منها: أنّه يستعدّ بالترك لأن يلبسه الله ثوب الذلّ. واستعار لفظ الثوب للذل ولفظ اللباس لشموله له. ووجه المشابهة إحاطة الذلّ به إحاطة الصفة بالموصوف كإحاطة الثوب بملابسه، وأن يشمله بلاء العدوّ فيذلّله بالصغار والقماء، وأن يضرب على قلبه بالأسداد، أي بالحُجب التي تحول دون بصيرته والرشاد. أمّا لحوق الذلّ به فذلك أنّ كثرة غارات العدوّ وتكرّرها منه موجب لتوهّم قهره وقوّته وذلك ممّا تنفعل عنه النفس بالانقهار والذلّ. وحينئذ تذعن لشمول بلائه، وتذهب وجه عقلها في استخراج وجوه المصالح في دفعه ومقاومته إمّا لقلّة اهتمامها بذلك عن عدم طمعها في مقاومته أو لتشويشها لخوفه عن ملاحظة وجه المصلحة. وفي إطلاق لفظ الضرب على قلبه استعارة كقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ

وَالْمَسْكَنَةُ﴾[البقرة: ٦١] ووجه الشبه فيها إحاطة القبّة المضروبة بمن فيها، أو لزوم قلّة العقل له كلزوم الطين المضروب على الحائط. ويحتمل أن يراد بالإسهاب كثرة الكلام من غير فائدة فإنّ الإنسان حال الخوف والذلّ كثيراً ما يخبط في القول ويكثر من غير إصابة فيه. وكذلك لحوق باقي الأمور به كإدالة الحقّ منه، وغلبة العدوّ له، وعدم انتصافه منه أمر ظاهر عن ترك جهاد عدوّه مع التمكن من ذلك. وهي أمور منفور عنها طبعاً ومضرّة بحال من تلحقه في الدارين. وقد ورد في التنزيل الإلهي من فضل الجهاد والحثّ عليه أمور كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[النساء: ٩٥] إلى قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦] ونحو ذلك.

قوله: ألا وإنّي قد دعوتكم. الخ. لمّا ذكر صدر الخطبة أردفه بتفصيل غرضه ممّا أجمله فيه وهو حثّهم على الجهاد وتوبيخهم على تركه. فنبّههم أوّلاً على ما كان دعاهم إليه قبل من قتال معاوية وأصحابه مراراً كثيرة، وذكّرهم نصيحته السابقة لهم في أمرهم بغزو عدوّهم قبل أن يغزوهم، ويذكّرهم بما كان أعلمهم أولاً من القاعدة الكلّيّة المعلومة بالتجربة والبرهان وهو أنّه ما غُزيَ قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذُلّوا. وقد أشرنا إلى علة ذلك: وهو أنّ للأوهام أفعالاً عجيبة في الأبدان تارة بزيادة القوّة وتارةً بنقصانها حتّى أنّ الوهم ربّما كان سبباً لمرض الصحيح لتوهّمه المرض، وبالعكس. فكان السبب في ذلّ من غزي في داره وإن كان معروفاً بالشجاعة هو الأوهام: إمّا أوهامهم فلأنّها تحكم بأنّها لم تقدم على غزوهم إلاّ لقوّة غازيهم، واعتقادهم فيهم الضعف بالنسبة إليهم، فتنفعل إذن نفوسهم عن تلك الأوهام وتنقهر عن المقاومة وتضعف عن الانبعاث وتزول غيرتها وحميّتها، فتحصل على طرف رذيلة الذلّ، وإمّا أوهام غيرهم فلأنّ الغزو الذي يلحقهم يكون باعثاً لكثير الأوهام على الحكم بضعفهم ومحرّكاً لطمع كلّ طامع فيهم، فيثير ذلك لهم أحكاماً وهميّة بعجزهم عن المقاومة. ثمّ إنّه أردف ذلك بما قابلوا به نصيحته من تواكلهم وتخاذلهم عن العمل بمقتضى أمره إلى غاية ظهور العدوّ عليهم وتفريق الغارات من كلّ جانب على أوطانهم وحدودهم. ثمّ عقّب ذكر العدوّ المطلق بذكره في شخص معيّن مشاهد، ونبّههم عليه ليكونوا إلى التصديق بظهور العدوّ عليهم أقبل، وقصّ عليهم ما أحدث من ورود خيله ديارهم وقتله لعاملهم وإزالة خيلهم عن ثغورهم ومسالحهم وهتك المسلمات والمعاهدات وسلب أموال المسلمين وسائر ما عدّده على الوجه المذكور ممّا هو مستغن عن الإيضاح. ثمّ ختم ذلك القصص بما الأولى أن يلحق المسلم الحقّ ذا الغيرة والحميّة لله من الأسف والحزن المميت له بسبب ما يشاهد من الأحوال المنكرة الواقعة بالمسلمين مع تقصيرهم عن مقاومة عدوهم. كلّ ذلك التقرير ليمهّد قانوناً يحسن معه توبيخهم وذمّهم على التقصير فيما ينبغي لهم من امتثال أمره وقبول شوره فيما هو الأولى والأصح لهم.

ثمّ أردف ذلك بالتعجّب من حالهم تأكيداً لذلك التمهيد. فنادى: العجب من حالهم منكراً ليحضر له كأنّه غير متعيّن في حال ندائه، ثمّ تعيّن بندائه وحضر فكرّره ليصفه بالشدّة. ونصبه على المصدر كأنّه لمّا حضر وتعيّن قال عجبت عجباً من شأنه كذا. ونحو هذا المنادى قوله تعالى: يا بشرى في قراءة من قرأ بغير إضافة، ويحتمل أن يكون العجب الأوّل نصباً على المصدر أيضاً والثاني للتأكيد أو لما ذكرناه، ويكون المنادى محذوفاً تقديره يا قوم أو نحوه، وأمّا وصفه له بأنّه يميت القلب ويجلب الهمّ: فاعلم أنّ السبب في التعجّب من الأمور عدم اطّلاع النفس على أسباب لغموضها مع كونه في نفسه أمراً غريباً. ولذلك وضع أهل اللغة قولهم ما أفعله صيغة للتعجّب كقولك ما أحسن زيداً، وعلمت أن التقدير فيها السؤال عن أسباب حسنه. وكلّما كان الأمر أغرب وأسبابه أخفى كان أعجب. فإذا كان أمراً خطراً مهمّاً وانبعثت النفس في

طلب سببه فقد تعجز من تحصيله وتكلّ القوّة المتخيّلة عن تعيينه فيحدث بسبب عدم الاطّلاع على سببه همّ وغمّ لأنّه كالمرض الذي لا يمكن علاجه إلاّ بالوقوف على سببه فيسمّى ذلك الهمّ موتاً للقلب تجوّزاً بلفظ الموت في الهمّ والغمّ تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه، وإطلاقاً لاسم المسبّب على السبب.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ حال قوله عليه السلام في تفرّقهم عن حقّهم مع علمهم بحقيّته، وحال اجتماعهم على باطلهم مع اشتراكهم في الشجاعة وكون قومه واثقين برضاء الله لو امتثلوا أمره من العجب المميت للقلب الذي لا يهتدى بسببه.

وأمّا أنه يجلب الهمّ فظاهر إذ كان حاله عليه السلام معهم كحال طبيب لمرضى ألزم بعلاجهم مع خطر أمراضهم وعدم لزومهم لما يأمر به من حمية أو شرب دواء. وظاهر أنّ تلك الحال ممّا يجلب همّ الطبيب. ثمّ لمّا أظهر لهم التعجّب ووصفه بالشدّة أعقبه بذكر الأمر المتعجّب منه ليكون في نفوسهم أوقع. ثمّ أردف ذلك المتعجّب بالدعاء عليهم بالبعد عن الخير وبالحزن بسبب تفريطهم، وأعقبه بالتوبيخ لهم والتبكيت بما يأنف منه أهل المروّة والحميّة ويوجب لهم الخجل والاستحياء من صيرورتهم بسبب تقصيرهم غرضاً للرماة يغار عليهم وقد كان الأولى بهم أن يغزوا، ويغزون وقد كانوا هم أولى بأن يغزوا، ويعصى الله مع رضاهم بذلك. ثمّ حكى صور أعذارهم في التخلّف عن أمره وهي تارة شدّة الحرّ وتارة شدّة القرّ ونحوها من الأعذار التي يذوق العاقل منها طعم الكسل والفتور، وأنّه لم يكن لهم بها مقصود إلاّ المدافعة. ثمّ تسلّم تلك الأعذار منهم واستثبتها وجعلها مهاداً للاحتجاج عليهم بقوله: فأنتم والله من السيف أفرّ. وذلك أن الفارّ من الأهون فارّ من الأشدّ بطريق الأولى إذ لا مناسبة لشدّة الحرّ والبرد مع القتل والمجالدة بالسيف. ثمّ أردف ذلك التبكيت بالذمّ لهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنّه نفى عنهم صفة الرّجولية. لاستجماعها ما ينبغي من صفات الكمال الإنساني كالشجاعة والأنفة والحميّة والغيرة. وعدم هذه الكمالات فيهم وإن كانوا بالصورة المحسوسة للرجال الموجبة لشبههم بهم. وذلك قوله: يا أشباه الرجال ولا رجال.

وثانيها: أنّه وصفهم بحلوم الأطفال. وذلك أن ملكة الحلم ليس بحاصل للطفل وإن كانت قوّة الحلم له لكن قد يحصل لهم ما يتصوّر بصورة الحلم كعدم التسرّع إلى الغضب عن خيال يرضيه وأغلب أحواله أن يكون ذلك في غير موضعه، وليس تحصل له ملكة تكسب نفسه طمأنينة كما في حقّ الكاملين. فهو إذن نقصان. ولمّا كان تاركو أمره عليه السلام بالجهاد قد تركوا المقاومة حلماً عن أدنى خيال كتركهم الحرب بصفّين عن خدعة أهل الشام لهم بالمسالمة وطلب المحاكمة إلى كتاب الله ورفع المصاحف فقالوا: إخواننا في الدين فلا يجوز لنا قتالهم. كان ذلك حلماً في غير موضعه حتّى كان من أمرهم ما كان. فأشبه رضى الصبيان فأطلق اسمه عليه.

وثالثها: إلحاق عقولهم بعقول النساء. وذلك للمشاركة في النقصان وعدم عقليّتهم لوجوه المصالح المختصّة بتدبير المدن والحرب. ثمّ عرّفهم محبّته لعدم رؤيتهم وعدم معرفتهم لاستلزامها ندمه على الدخول في أمرهم والحزن من تقصيرهم في الذّب عن الدين لأنّ المتولّي لأمر يغلب على ظنّه استقامته حتّى إذا دخل فيه وطلب انتظامه ووجده غير ممكن له لا بدّ وأن يندم على تضييع الوقت به، ويحزن على عدم إمكانه له. وهذه حاله عليه السلام مع أصحابه. ولذلك حزنت الأنبياء عليهم السلام على تقصير أممهم حتّى عاتبهم الله تعالى على ذلك كقوله لمحمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النحل: ١٢٧] ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٣] ثمّ عاد إلى الدعاء عليهم والشكاية منهم؛ وذلك قوله: قاتلكم الله. إلى آخره. وأعظم بما دعا عليهم به فإنّ المقاتلة لمّا كانت مستلزمة للعداوة، والعداوة مستلزمة لأحكام كاللعن والطرد والبعد من الشفقة والخير من جهة العدوّ، وكان إطلاق المقاتلة والعداوة على الله بحسب حقيقتهما غير ممكن كان إطلاق لفظ المقاتلة والعداوة مقصوداً به لوازمهما كالإبعاد عن الرحمة مجازاً. قال المفسّرون: معنى قول العرب: قاتلكم الله: أي لعنكم. وقال ابن الأنباري:

المقاتلة من القتل، فإذا أخبر الله بها كان معناها اللعنة منه وأنّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

وقوله: لقد ملأتم قلبي قيحاً إشارة إلى بلوغ الغاية في التألم الحاصل له من شدّة الاهتمام بأمرهم مع تقصيرهم وعدم طاعتهم لأوامره. فعبّر بالقيح عن ألم قلبه مجازاً من باب إطلاق اسم الغاية على ذي الغاية. إذ كان غاية العضو أن يتقيّح. وكذلك إطلاق لفظ الشجن على فعلهم المؤلم لقلبه مجاز لأنّ الشجن حقيقة في نسبة بين جسمين، وكذلك قوله: وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً: أي جلبتم لي الهمّ وقتاً فوقتاً. مجاز لأنّ التجريع عبارة عن إدخال الماء أو نحوه في الحلق. وطريان الهمّ على نفسه وما يلزم الهمّ من الآلام البدنيّة على بدنه، وتكرار ذلك منهم يشبه طريان المشروب وتجريعه. وقوله: أنفاساً. مجاز في الدرجة الثانية فإنّ النفس حقيقة لغويّة في الهواء الداخل والخارج في الحيوان من قبل الطبيعة. ثمّ استعمل عرفاً لمقدار ما يشرب في مدّة إدخال الهواء بقدر الحاجة إطلاقاً لاسم المتعلّق على المتعلّق، ثمّ استعمل هاهنا في كلّ مقدار من الهمّ يرد عليه من قبل أصحابه وقتاً فوقتاً وهي درجة ثانية من المجاز.

وقوله: وأفسدتم رأيي بالعصيان. من تمام شكايته منهم. ومعنى إفسادهم له خروجه بسبب عدم التفاتهم إليه عن أن يكون منتفعاً به لغيرهم حتّى قالت قريش: إنّه وإن كان رجلاً شجاعاً إلاّ أنّه غير عالم بالحرب. فإنّ الخلق إذا رأوا من قوم سوء تدبير أو مقتضى رأي فاسد كان الغالب أن ينسبوه إلى رئيسهم ومقدّمهم ولا يعلمون أنّه عليه السلام الألمعيّ الذي يرى الرأي كأن قد رأى وقد سمع، وأنّ التقصير من قومه. ثمّ أردف ذلك بالردّ على قريش في نسبتها له إلى قلّة العلم بالحرب بقوله: لله أبوهم. إلى آخره. وهي كلمة من ممادح العرب. ثمّ سألهم عن وجود من هو أشدّ للحرب معالجة أو أقدم منه فيها مقاماً سؤالاً على سبيل الإنكار عليهم، ونبّه على صدقه بنهوضه في الحرب ومعاناة أحوالها عامّة عمره وهو من قبل بلوغ العشرين إلى آخر عمره. ثمّ بيّن أنّ السبب في فساد حال أصحابه ليس ما تخيّله قريش فيه من ضعف الرأي في الحرب كما يزعمون؛ بل عدم طاعتهم له فيما يراه ويشير عليهم به وذلك قوله: ولكن لا رأي لمن لا يطاع. فإنّ الرأي الذي لا يقبل بمنزلة الفاسد وإن كان صواباً. والمثل له عليه السلام.

٢٨ - ومن خطبة له عليه السلام

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاعٍ، أَلا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ، وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ؛ أَفَلاَ تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ! أَلاَ عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ؛ فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ. أَلا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ. أَلا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، أَلا وَإِنَّهُ مَنْ لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لا يَسْتَقِمْ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلالُ إِلَى الرَّدَى. أَلا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً.

قال الشريف: أقول: لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار، ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألاَ وإنَّ اليَوْمَ المضمار وغداً السباق والسبقة الجنة والغاية النار» فإن فيه - مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سراً عجيباً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسبقة الجنة، والغاية النار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، ولم يقل «السبقة النار»، كما قال «السبقة الجنة»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة وليس

هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها، فلم يجز أن يقول «والسبقة النار» بل قال «والغاية النار»؛ لأن الغاية ينتهي إليها من لا يسره الانتهاء ومن يسره ذلك، فصلح أن يعبر بها عن الأمرين معاً، فهي في هذا الموضع كالمصير والمآل، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ولا يجوز في هذا الموضع أن يقال: سبقتكم - بسكون الباء - إلى النار، فتأمل ذلك فباطنه عجيب وغوره بعيد. وكذلك أكثر كلامه عليه السلام، وفي بعض النسخ، وقد جاء في رواية أخرى «والسبقة الجنة» - بضم السين - والسبقة عندهم: اسم لما يجعل للسابق إذا سبق من مال أو عرض، والمعنيان متقاربان لأن ذلك لا يكون جزاء على فعل الأمر المذموم، وإنما يكون جزاء على فعل الأمر المحمود.

أقول: هذا الفصل من الخطبة التي في أوّلها الحمد لله غير مقنوط من رحمته. وسيجيء بعد، وإنّما قدّمه الرضيّ عليها لما سبق من اعتذاره في خطبة الكتاب أنّه لا يراعى التتالي والنسق في كلامه عليه السلام. وقوله: قد أدبرت أي ولّى دبره. وآذنت أي أعلمت. وأشرفت أي اطّلعت، والمضمار: المدّة التي يضمر فيها الخيل للمسابقة أي تعلف حتّى تسمن ثمّ تردّ إلى القوت والمدّة أربعون يوماً، وقد يطلق على الموضع الذي يضمر فيه أيضاً. والسباق: مصدر مرادف للمسابقة وهو أيضاً جمع سبقة كنطفة ونطاف، أو سبقة كحجلة وحجال، أو سبق كجمل وجمال. والثلاثة اسم لما يجعل للسابق من مال أو غرض، والمنيّة: الموت، والبؤس: شدّة الحاجة، وتحرزون: تحفظون.

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على أحد عشر تنبيهاً:

الأوّل: على وجوب النفار عن الدنيا وعدم الركون إليها. وذلك بقوله: ألا وإنّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع. وأشار بإدبار الدنيا وإعلامها بالوداع إلى تقضّي الأحوال الحاضرة بالنسبة إلى كلّ شخص من الناس من صحّة وشباب وجاه ومال وكلّ ما يكون سبباً لصلاح حال الإنسان، وأنّ كلّ ذلك في هذه الحياة الدنيا لدنوّها من الإنسان. ولمّا كانت هذه الأمور أبداً في التغيّر والتقضّي المقتضي لمفارقة الإنسان لها وبعدها عنه لا جرم حسن إطلاق اسم الإدبار على تقضّيها وبعدها استعارة تشبيهاً لها بالحيوان في إدباره. فقيل لكلّ أمر يكون الإنسان فيه من خير وشرّ إذا كان في أوّله: أقبل، وإذا كان في آخره وبعد تقضّيه: أدبر، وكذلك اسم الوداع فإنّ التقضّي لمّا استلزم المفارقة وكانت مفارقة الدنيا مستلزمة لأسف الإنسان عليها ووجده لها أشبه ذلك ما يفعله الإنسان في حقّ صديقه المرتحل عنه في وداعه له من الأسف على فراقه والحزن والبكاء ونحوه. فاستعير اسم الوداع له، وكنّى بإعلامها بذلك عن الشعور الحاصل بمفارقتها من تقضّيها شيئاً فشيئاً، أو هو إعلام بلسان الحال.

الثاني: التنبيه على الإقبال على الآخرة والتيقّظ للاستعداد لها بقوله: ألا وإنّ الآخرة - قد أقبلت - وأشرفت باطّلاع. ولمّا كانت الآخرة عبارة عن الدار الجامعة للأحوال التي يكون الناس عليها بعد الموت من سعادة وشقاوة وألم ولذّة، وكان تقضّي العمر مقرّباً للوصول إلى تلك الدار والحصول فيما يشمل عليه من خير أو شرّ حسن إطلاق لفظ الإقبال عليها مجازاً. ثمّ نزّلها لشرفها على الدنيا في حال إقبالها منزلة عال عند سافل. فأسند إليها لفظ الإشراف. ولأجل إحصاء الأعمال الدنيويّة فيها منزلة عالم مطّلع. فأطلق عليها لفظ الاطّلاع، ويحتمل أن يكون إسناد الإشراف بكيفيّة الاطّلاع، إلى ربّ الآخرة، وإنّما عبّر بالآخرة عنه تعظيماً لجلاله كما يكنّى عن الرجل الفاضل بمجلسه وحضرته ويكون كيفيّة الاطّلاع قرينة ذلك.

الثالث: التنبيه على وجوب الاستعداد بذكر ما يستعدّ لأجله وهو السباق، وذكر ما يستبق إليه وما هو غاية المقصّر المتخلّف عن نداء الله. وذلك قوله: وإنّ اليوم المضمار. إلى قوله: والغاية النار. كنّى باليوم عن عمر الإنسان الباقية له وأخبر بالمضمار عنها. واعلم أنّه قد ورد المضمار والسباق مرفوعين ومنصوبين: فأمّا رفع المضمار فلأنّه خبر إنّ، واليوم اسمها، وإنّما أطلق اسم المضمار على تلك المدّة لما بينهما من المشابهة فإنّ الإنسان في مدّة عمره يستعدّ بالتقوى ويرتاض بالأعمال

الصالحة لتكميل قوّته فيكون من السابقين إلى لقاء الله والمقرّبين في حضرته كما يستعدّ الفرس بالتضمير لسبق مثله، وأمّا نصبه ففيه شكّ. إذ يحتمل أن يقال: إنّ المضمار زمان واليوم زمان فلو أخبرنا عنه باليوم لكان ذلك إخباراً بوقوع الزمان في الزمان فيكون الزمان محتاجاً إلى زمان آخر. وذلك محال: وجوابه: لا نسلّم أنّ الإخبار بوقوع الزمان في الزمان محوج للزمان إلى زمان آخر. فإنّ بعض أجزاء الزمان قد يخبر عنها بالزمان بمعنى أنّها أجزاؤه والجزء في الكلّ لا بمعنى أنّها حاصلة في زمان آخر. وإن كان إنّما يحسن الإخبار عنها به إذا قيّدت بوصف واشتملت على أحداث يتخصّص بها كما تقول: إنّ مصطبح القوم اليوم. فكذلك المضمار لمّا كان وقتاً مشتملاً على التضمير وهو حدث صحّ الإخبار عنه باليوم، وأمّا رفعه فلا وجه له إلاّ أن يكون مبتدأ خبره غداً ويكون اسم إنّ ضمير الشأن. وقال بعض الشارحين: يجوز أن يكون خبر إنّ. وهو ظاهر الفساد لأنّ الحكم بشيء على شيء إمّا بمعنى أنّه هو هو كما يقال: الإنسان هو الضحّاك. وهو ما يسمّيه المنطقيّون حمل المواطاة، أو على أنّ المحكوم عليه ذو المحكوم به كما يقال: الجسم أبيض أي ذو بياض. وهو ما يسمّونه حمل الاشتقاق. ولا واحد من المعنيين بحاصل في الحكم بالسباق على غد. فيمتنع أن يكون خبر إنّ؛ اللّهم إلاّ على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه: أي وإنّ غداً وقت السباق، لكن لا يكون السباق هو الخبر في الحقيقة. ثمّ إن قلنا: إنّ السباق مصدر. كان التقدير ضمّروا أنفسهم اليوم فإنّكم غداً تستبقون. وتحقيق ذلك أنّ الإنسان كلّما كان أكمل في قوّتيه النظريّة والعمليّة كان وصوله إلى حضرة القدس قبل وصول من هو أنقص منه. ولمّا كان مبدأ النقصان في هاتين القوّتين إنّما هو محبّة ما عدا الواحد الحقّ، واتّباع الشهوات، والميل إلى أنواع اللّذات الفانية، والإعراض بسبب ذلك عن تولّي القبلة الحقيقيّة. ومبدأ الكمال فيهما هو الإعراض عمّا عدا الواحد الحقّ من الأمور المعدودة، والإقبال عليه بالكلّية. وكان الناس في محبّة الدنيا وفي الإعراض عنها، والاستكمال بطاعة الله على مراتب مختلفة ودرجات متفاوتة كان كون اليوم هو المضمار وغدا السباق متصوّراً جليّاً. فإنّ كلّ من كان أكثر استعداداً وأقطع لعلائق الدنيا عن قلبه لم يكن له بعد الموت عائق يعوقه عن الوصول إلى الله وما أعدّ له في الجنّة من الثواب الجزيل؛ بل كان خفيف الظهر ناجياً من ثقل الوزر كما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: نجا المخفّون. وكما سبق من إشارة عليّ عليه السلام إلى ذلك بقوله: تخفّفوا تلحقوا. فيكون بعد الموت سابقاً ممّن كان أضعف استكمالاً منه، وممّن لسعت عقارب الهيئات البدنيّة والملكات الرديئة قلبه وأثقلت الأوزار ظهره وأوجب له التخلّف عن درجة السابقين الأوّلين. وكذلك يكون سبق هذا بالنسبة إلى من هو أقلّ استعداداً منه وأشدّ علاقة للدنيا بقلبه. فكان معنى المسابقة ظاهراً إن كان استعارة من السباق المتعارف بين العرب. وإن قلنا: إنّ السباق جمع سبقة: اسم لما يستبق إليه ويجعل للسابق. فالمعنى أيضاً ظاهر فإنّ ما يستبق إليه إنّما يكمل الوصول إليه بعد المفارقة، ويكون الاستباق إمّا قبل المفارقة وهو السعي في درجات الرياضات كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحديد: ٢١] الآية، وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. أو بعد المفارقة كما أشرنا إليه. ويكون قوله بعد ذلك: والسبقة الجنّة، تعييناً للمستبق إليه بعد التنبيه عليه إجمالاً. وأمّا قوله: والغاية النار. فالذي ذكره الرضي رحمه الله في تخصيص الجنّة بالسبقة والنار بالغاية حسن وكاف في بيان مراده عليه السلام إلاّ أنّه يبقى هاهنا بحث وهو أن هذه الغاية من أي الغايت هي؟ وهل هي غاية حقيقيّة أو لازمة لغاية؟ فنقول: إنّ ما ينتهي إليه قد يكون بسوق طبيعي، وقد يكون بسوق إرادي. وكل واحد منهما قد يكون ذاتيّاً، وقد يكون عرضيّاً. فالسوق الذاتيّ منهما يقال له غاية إمّا طبيعيّة كاستقرار الحجر في حيّزه عن حركته بسوق طبيعته له إليه وإمّا إراديّة كغايات الإنسان من حركاته المنتهى إليها بسوق إرادته. وأما المنتهى إليه بالسوق العرضيّ فهو من لوازم إحدى الغايتين وقد يسمّى غاية عرضيّة. فاللازم عن الطبيعية

كمنع الحجر غيره أن يحلّ بحيث هو فإنّ ذلك من لوازم استقراره في حيّزه، وعن الإراديّة كاستضاءة الجار بسراج جاره فإنّ ذلك من لواحق استضاءته وكهلاك الطير في حبائل الصيّاد عن الميل إلى التقاط حبّة. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ كون النار غاية بهذا المعنى الرابع. وبيانه: أن محبّة الدنيا والميل إليها والانهماك في مشتهياتها سواء كان معها مسكة للإنسان بالله تعالى أو لم يكن فإنّ من لوازمها الانتهاء إلى النار إلاّ أن يشاء الله كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وكان المقصود الأوّل للإنسان هو تناول اللّذات الحاضرة لكن لمّا كان من لوازم الوصول إلى تلك اللذّات والإقبال عليها دخول النار والانتهاء إليه كانت عرضيّة.

الرابع: التنبيه على التوبة قبل الموت وهو قوله: أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته. ولا شكّ أنّها يجب أن تكون مقدّمة على الأعمال لأنّك علمت أنّ التوبة هي انزجار النفس العاقلة عن متابعة النفس الأمّارة بالسوء لجاذب إلهيّ اطّلعت معه على قبح ما كانت عليه من اتّباع شياطينها وهو من مقام الزهد والتخلّي. وقد علمت في بيان كيفيّة السلوك إلى الله تعالى أنّ مقام التخلية مقدّم على مقام التحلية. فكان الأمر بها مقدّماً على الأمر بسائر الطاعات.

الخامس: التنبيه على العمل للنفس قبل يوم البؤس، والإشارة إلى ما بعد الموت من العذاب اللازم للنقصان اللازم عن التقصير في العمل إذ الواصل إلى يوم بؤسه على غير عمل أسير في يد شياطينه. وقد علمت أن غاية الاسترسال في يد الشيطان دخول النار والحجب عن لقاء ربّ العالمين. ولمّا كان العمل هو المعين على قهر الشياطين والمخلص من أسره نبّه عليه، ثمّ أردفه بالتنبيه على وجود الزمان الذي يمكنهم فيه العمل وهو أيّام آمالهم للعمل وغيره على أنّ ذلك الزمان منقطع بلحوق الأجل، ثمّ أردفه ببيان فائدة العلم في ذلك الزمان وهي المنفعة بالثواب في الآخرة وما يلزمها من عدم مضرّة الأجل، وبيان ثمرة التقصير في العمل فيه وهي خسران العمل المستلزم لمضرّة الأجل. وأحسن باستعارته عليه لفظ الخسران لفوات العمل فإنّ الخسران في البيع لمّا كان هو النقصان في رأس المال أو ذهاب جملته، وكان العمل هو رأس مال العامل الذي يكتسب الكمال والسعادة الأخرويّة لا جرم حسن استعارة لفظ الخسران لعدم العمل، وأمّا استلزام المنفعة لعدم مضرّة الموت واسلتزام الخسران لمضرّته فهو أمر ظاهر إذ كان الكامل في قوّتيه المعرض عن متاع الدنيا غير ملتفت إليها بعد المفارقة فلم يحصل لها بسببها تعذيب. فكانت المضرّة منفيّة عنه. وكان المقصّر عن الاستكمال فيهما من ضرورة طباعه الميل إلى اللّذات الحسّية. فإذا قصر عن العمل والتعلّق بطاعة الله الجاذبة إليه فلا بدّ وأن يستضرّ بحضور الأجل إذ كان الأجل قاطعاً لزمان الاستكمال وحائلاً بين الإنسان وبين ما هو معشوق له من حاضر اللّذات.

السادس: التنبيه على وجوب التسوية للعامل بين العمل في الرغبة والعمل في الرهبة. وفيه شميمة التوبيخ للعبد على غفلته عن ذكر الله وإعراضه عن عبادته في حال صفاء اللّذات الحاضرة له، ولجاه إليه وفزعه عند نازلة إن نزلت به. فإنّ ذلك ليس من شأن العبوديّة الصادقة لله. وإلى مثل هذا التوبيخ أشار التنزيل الإلهيّ بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وغيره من الآيات؛ بل من شأن العابد لله القاصد له أن تتساوى عبادته في أزمان شدّته ورخائه. فيقابل الشدّة بالصبر، والرخاء بالشكر، وأن يعبده لا لرغبة ولا رهبة وأن يعبده فيهما من غير فرق.

السابع: قوله: ألا وإنّي لم أرَ كالجنّة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها. واعلم أنّ الضمير في طالبها وهاربها يعود إلى المفعول الأوّل لرأيت المحذوف المشبّه في الموضعين والتقدير لم أرَ نعمة كالجنّة نام طالبها ولا نقمة كالنار نام هاربها، ونام في محلّ النصب مفعولاً ثانياً. ومغزى هذا الكلام أنّه نفى علمه بما يشبه الجنّة وما يشبه النار ولم ينف علمه بذات التشبيه بل علمه من جهة الشبه وهي نوم الطالب والهارب. ولذلك استدعت أرى بمعنى أعلم هنا مفعولين أي لم أرَ نعمة كالجنّة

بصفة نوم الطالب لها. فنبّه على وجه الشبه بقوله: نام طالبها، ثمّ نفى التشبيه من تلك الجهة. وكذلك قوله: ولا كالنار بصفة نوم هاربها. والمفعول الثاني في الجملتين صفة جارية على غير من هي له. وهي تنبيه للموقنين بالجنّة والنار على كونهم نائمين في مراقد الطبيعة لينتبهوا منها ويتفطّنوا [يتّعظوا خ] للاستعداد بالعلم التّام لما وراءهم من مرغوب ومرهوب. وفيه شميمة التعجّب من جمع الموقن بالجنّة والنار بين علمه بما في الجنّة من تمام النعمة وتقصيره عن طالبها بما يؤدّي إليها من الأعمال الصالحة، وجمع الموقن بالنار بين علمه بما فيها من عظيم العذاب وبين تقصيره وغفلته عن الهرب إلى ما يخلص منها.

الثامن: قوله ألا وإنّه من لم ينفعه الحقّ يضرّه الباطل. فالضمير في أنّه ضمير الشأن. وأراد بالحقّ الإقبال على الله بلزوم الأعمال الصالحة المطابقة للعقائد المطابقة، وبالباطل الالتفات عنه إلى غير ذلك ممّا لا يجدي نفعاً في الآخرة. وهو تنبيه على استلزام عدم منفعة الحق لمضرة الباطل في صورة شرطية متصلة وبيان الملازمة فيها ظاهر، فإن وجود الحق مستلزم لمنفعته فعدم منفعته إذاً مستلزم لعدمه وعدمه مستلزم لوجود الباطل، لأن اعتقاد المكلّف وعمله إمّا أن يطابقا أوامر الله تعالى، أو ليس. والأوّل هو الحق، والثاني هو الباطل. وظاهر أن عدم الأوّل مستلزم لوجود الثاني، ثمّ إنّ وجود الباطل مستلزم لمضرّته، فيظهر بهذا البيان أنّ عدم منفعة الحقّ مستلزم لوجود مضرّة الباطل. وإذا ثبت ذلك فنقول: مراده عليه السلام بلزوم الحقّ ما هو المستلزم لمنفعته وبنفي الباطل ما هو المستلزم لعدم مضرّته. فإنّ لزوم الطاعة لله بامتثال أوامره والإقبال عليه مستلزم للوصول إلى جواره المقدّس، والالتفات إلى ما عداه المعبّر عنه بالباطل مستلزم للنقصان الموجب للتخلف عن السابقين والهوي في درك الهالكين. وذلك محض المضرّة. فظهر إذن سرّ قوله عليه السلام: من لم ينفعه الحقّ يضرّه الباطل. ومن غفلة بعض من يدّعي العلم عن بيان هذه الملازمة ذهب إلى أنّ الوعيدات الواردة في الكتب الإلهية إنما جاءت للتخويف دون أن يكون هناك شقاوة للعصاة. محتجاً على ذلك بتمثيلات خطابيّة عن مشهورات في بادئ الرأي إذا تعقّبها النظر زالت شهرتها.

التاسع: ومن لا يستقيم به الهدى يجرّ به الضلال إلى الردى. أراد بالهدى نور العلم والإيمان، وبالضلال الجهل والخروج عن أمر الله. والمعنى أنّ من لم يكن الهدى دليله القائد له بزمام عقله في سبيل الله ويستقيم به في سلوك صراطه المستقيم فلا بدّ وأن ينحرف به الضلال عن سواء الصراط إلى أحد جانبي التفريط والإفراط. وملازمة هذه الشرطيّة أيضاً ظاهرة. لأنّ وجود الهدى لمّا استلزم وجود استقامة بالإنسان على سواء السبيل كان عدم استقامة الهدى به مستلزماً لعدم الهدى المستلزم لوجود الضلال المستلزم للجرّ بالإنسان إلى مهاوي الردى، والعدول به عن الصراط المستقيم إلى سواء الجحيم.

العاشر: قوله ألا وإنّكم قد أمرتم بالظعن ودللتهم على الزاد. وهو تنبيه على ملاحظة الأوامر الواردة بالظعن كقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] وكقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١] على الأمر باتّخاذ الزاد كقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وأحسن باستعارته الظعن للسفر إلى الله واستعارة الزاد لما يقرّب إليه. ووجه درجه الاستعارة الأولى: أنّ الظعن لمّا كان عبارة عن قطع المراحل المحسوسة بالرجل والجمل ونحوه فكذلك السفر إلى الله عبارة عن قطع المراحل المعقولة بقدم العقل، ووده الثانية أنّ الزاد لمّا كان إنما يعدّ لتقوى به الطبيعة على الحركة الحسّية وكانت الأمور المقرّبة إلى الله تعالى ممّا تقوى به النفس على الوصول إلى جنابه المقدّس كان ذلك من أتمّ المشابهة التي يقرّب معها اتّحاد المتشابهين. وبحسب قوّة المشابهة يكون قوّة حسن الاستعارة.

الحادي عشر: التنبيه على أخوف الأمور التي ينبغي أن تخاف لتجتنب وهو الجمع بين اتّباع الهوى وطول الأمل. وسيذكر عليه السلام هذا الكلام في موضع آخر مع ذكر علّة التحذير من هذين الأمرين، وسنوضح معناه

هناك. ويكفي هاهنا أن يقال: إنّما حذّر منهما عقيب التنبيه على الظعن والأمر باتّخاذ الزاد لكون الجمع بينهما مستلزماً للإعراض عن الآخرة فيكون مستلزماً لعدم الظعن وعدم اتّخاذ الزاد. فخوّف منهما ليجتنبا. فيحصل مع اجتنابهما الإقبال على اتّخاذ الزاد والأهبة للظعن ولذلك أردف التخويف منهما بالأمر باتّخاذ الزاد. وفي قوله: من الدنيا في الدنيا لطف. فإنّ الزاد الموصل إلى الله تعالى إمّا علم أو عمل وكلاهما يحصلان من الدنيا: أمّا العمل فلا شك أنّه عبارة عن حركات وسكنات تستلزم هيئات مخصوصة إنّما تحصل بواسطة هذا البدن وكلّ ذلك من الدنيا في الدنيا، وأمّا العلم فلأنّ الاستكمال به إنّما يحصل بواسطة هذا البدن أيضاً إمّا بواسطة الحواسّ الظاهرة والباطنة، أو بتفطّن النفس لمشاركات بين المحسوسات ومباينات بينها وظاهر أنّ ذلك من الدنيا في الدنيا وأشار بقوله: ما تحرزون أنفسكم به غداً. إنّ كلّ زاد عدّ به الإنسان نفسه للوصول إلى جوار الله فقد تدرع به من عذابه وحفظ به نفسه يوم لا ينفع مال ولا بنون. وقد اشتمل هذا الفصل على استدراجات لطيفة لانفعالات عن أوامر الله وزواجره، وإذا تأمّلت أسلوب كلامه عليه السلام، وراعيت ما فيه: من فخامة الألفاظ، وجزالة المعاني المطابقة للبراهين العقليّة، وحسن الاستعارات والتشبيهات ومواقعها، وصحّة ترتيب أجزائه، ووضع كلّ مع ما يناسبه، وجدته لا يصدر إلاّ عن علم لدني وفيض ربّانيّ. وأمكنك حينئذٍ الفرق بين كلامه عليه السلام وكلام غيره والتمييز بينهما بسهولة. وبالله العصمة والتوفيق.

٢٩ - ومن خطبة له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ(١) وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ. لا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ! وَلا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ! أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللهِ بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. أَصْبَحْتُ وَاللهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ. مَا بَالُكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ. أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ! وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ! وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ!؟

أقول: روي أنّ السبب في هذه الخطبة هو غارة الضحّاك بين قيس بعد قصّة الحكمين وعزمه على المسير إلى الشام. وذلك أنّ معاوية لمّا سمع باختلاف الناس على علي عليه السلام، وتفرّقهم عنه، وقتله من قتل من الخوارج بعث الضحّاك بن قيس في نحو من أربعة آلاف فارس وأوعز إليه بالنهب والغارة، فأقبل الضحّاك يقتل وينهب حتّى مرّ بالثعلبيّة. فأغار على الحاجّ فأخذ أمتعتهم. وقتل عمرو بن عميس بن مسعود ابن أخي عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وقتل معه ناساً من أصحابه. فلمّا بلغ عليّاً عليه السلام ذلك استصرخ أصحابه على أطراف أعماله واستشارهم إلى لقاء العدوّ فتلكأوا. ورأى منهم تعاجزاً وفشلاً. فخطبهم هذه الخطبة. ولنرجع إلى المتن.

فالأهواء: الآراء، والوهي: الضعف. وكيت وكيت: كناية عن الحديث. وحاد عن الأمر: عدل عنه. قال الجوهري: قولهم حيدي حياد كقولهم: فيحي فياح، ونقل أنّ فياح اسم للغارة كقطام. فحياد أيضاً اسم لها. والمعنى: إعزلي عنّا [عنها خ] أيّتها الحرب، ويحتمل أن يكون حياد من أسماء الأفعال كنزال. فيكون

(٣) الأضاليل: جمع أضلولة، والأضاليل متعلقة بالأعاليل أي أنكم تتعللون بالأضاليل التي لا جدوى لها.

قد أمر بالتنحي مرّتين بلفظين مختلفين. وأعاليل وأضاليل: جمع أعلال وأضلال وهما جمع علّة: اسم لما يتعلّل به من مرض وغيره، وضلّة: اسم من الضلال بمعنى الباطل، والمطول: كثير المطال وهو تطويل الوعد وتسويفه، والجدّ: الاجتهاد، والأخيب: أشدّ خيبة وهي الحرمان، والأفوق: السهم المكسور الفوق وهو موضع الوتر منه، والناصل: الذي لا نصل فيه. والمقصود أنّه عليه السلام نبّههم على ما يستقبح في الدين، ومراعاة حسن السيرة من أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم: أمّا أحوالهم فاجتماع أبدانهم مع تفرّق آرائهم الموجب لتخاذلهم عن الذبّ عن الدين والمفرّق لشمل مصالحهم. وأمّا أقوالهم فكلامهم الذي يضعف عند سماعه القلوب الصلبة الثابتة ويظنّ سامعه أن تحته نجدة وثباتاً وهو قولهم مثلاً في مجالسهم: إنّه لا محلّ لخصومنا، وإنّا سنفعل بهم كذا، وسيكون منّا كذا، وأمثاله. واستعار لفظي الصمّ الصلاب من أوصاف الحجارة للقلوب التي تضعف من سماع كلامهم كما شبّه القرآن الكريم بها: فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة. وأمّا أفعالهم فهو تعقيب هذه الأقوال عند حضور القتال ودعوتهم إلى الحرب بالتخاذل وعدم التناصر والتقاعد عن إجابة داعي الله وكراهيّة الحرب والفرار عن مقاتلة العدوّ، وكنّى بقوله: قلتم حيدي حياد، عن ذلك، وهي كلمة كانت تستعملها العرب عند الفرار. ثمّ أردف ذلك بما العادة أن يأنف منه من يطلب الانتصار به على وجه التضجّر منهم عن كثرة تقاعدهم عن صوته. وذلك قوله: ما عزّت دعوة من دعاكم. المستلزم للحكم بذلّة داعيهم، ولا استراح قلب من قاساكم. المستلزم للحكم بتعبه، وقوله: أعاليل بأضاليل. خبر مبتدأ محذوف أي وإذا دعوتكم إلى القتال تعلّلتم بأعاليل هي باطلة ضلالاً عن سبيل الله وسألتموني التأخير وتطويل المدّة دفاعاً، وقوله: دفاع ذي الدين المطول. يحتمل أن يكون تشبيهاً لدفاعهم له بدفاع ذي الدين فيكون منصوباً محذوف الجار، ويحتمل أن يكون قد استعار دفاع ذي الدين المطول لدفاعهم فيكون مرفوعاً، ووجه الاستعارة أنّ المدين المطول أبداً مشتهي لعدم المطالبة وتودّ نفسه أن لا يراه غريمه، فكذلك فهم عليه السلام منهم أنّهم كانوا يحبّون أن لا يعرض لهم بذلك القتال ولا يطالبهم به، فاستعار لدفاعهم الدفاع المذكور لمكان المشابهة، ثمّ نبّههم على قبح الذلّ ليفيؤوا إلى فضيلة الشجاعة بذكر بعض لوازمه المنفرة وهو أنّ صاحبه لا يتمكّن من رفع الضيم عن نفسه، وعلى قبح التواني والتخاذل بأنّه لا يدرك الإنسان حقّه إلاّ بضدّ ذلك وهو الجدّ والتشمير في طلبه، ثمّ أعقب ذلك بالسؤال على جهة الإنكار والتقريع عن تعيين الدار التي ينبغي لهم حمايتها بعد دار الإسلام التي لا نسبة لغيرها إليها في العزّ والكرامة عند الله ووجوب الدفع عنها والتي هي موطنهم ومحلّ دولتهم. كذلك قوله: ومع أي إمام بعدي تقاتلون. وفيه تنبيه لهم على أفضليّته وما وثق به من إخلاص نفسه لله في جميع حركاته، وتثبيت لهم على طاعته إذ كان عليه السلام يتوهّم في بعضهم الميل إلى معاوية والرغبة فيما عنده من الدنيا. ثمّ أردف ذلك بذمّ من اغترّ بكلامهم ونسبه إلى الغرور والغفلة. ثمّ بالإخبار عن سوء حال من كانوا حزبه ومن يقاتل بهم:

أمّا الأوّل: فهو قوله: المغرور والله من غررتموه. والمقصود بالحقيقة ذمّهم وتوبيخهم على خلف المواعيد والمماطلة بالنفار إلى الحرب لأنّه إنّما ينسب من وثق بهم إلى الغرور بعد خلفهم في وعدهم له بالنهوض معه. وجعل المغرور مبتدأ ومن خبره أبلغ في إثبات الغرّة لمن اغترّ بهم من العكس لاقتضاء الكلام إذن انحصار المغرور في من اغترّ بهم. ولا كذلك لو كان من مبتدئ.

وأمّا الثاني: فهو قوله: ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل. وقد شبّه نفسه وخصومه باللاعبين بالميسر، ولاحظ شبه حصولهم في حقّه بخروج أحد السهام الخائبة التي لا غنم لها أو الأوغاد التي فيها غرم كالتي لم يخرج حتّى استوفيت أجزاء الجزور فحصل لصاحبها غرم وخيبة. فلأجل ملاحظة هذا الشبه استعار لهم لفظ السهم بصفة الأخيب، وإطلاق الفوز هنا مجاز في حصولهم له من باب إطلاق اسم أحد الضدّين على الآخر كتسمية السيّئة جزاء. كذلك لاحظ المشابهة بين رجال الحرب وبين

السهام في كون كلّ منهما عدّة للحرب ودفع العدوّ ولاحظها أيضاً بين إرسالهم في الحرب وبين الرمي بالسهام. فلأجل ذلك استعار أوصاف السهم من الأفوق والناصل، واستعار لفظ الرمي لمقاتلته بهم ثمّ خصّصهم بأردأ أوصاف السهم التي يبطل معها فائدته لمشابهتهم ذلك السهم في عدم الانتفاع بهم في الحرب. وكأنّه أيضاً خصّص بعثه لهم إلى الحرب باستعارة الرمي بالسهم الموصوف لزيادة الشبه وهي عدم انبعاثهم عن أمره، وتجاوزهم أوطانهم كالرمي بالسهم الذي لا فوق له ولا نصل فإنّه لا يكاد يتجاوز عن القوس مسافة، وهي من لطائف ملاحظات المشابهة والاستعارة عنها. والمعنى أنّ من حصلتم في حربه فالخيبة حاصلة له فيما يطلب بكم، ومن قاتل بكم عدوّه فلا نفع له فيكم. ثمّ أردفه بالإخبار عن نفسه بأمور نشأت عن إساءة ظنّه بهم وعدم وثوقه بأقوالهم بكثرة خلفهم ومواعيدهم الباطلة بالنهوض معه وهي أنّه لا يصدّقهم لأنّه من أكثر من شيء عرف بهم. ومن أمثالهم: إنّ الكذوب لا يصدّق وأنّه لا يطمع في نصرهم وأنّه لا يوعد بهم عدوّهم إذ كان وعيده بهم مع طول تخلّفهم وشعور العدوّ بذلك ممّا يوجب جرأته وتسلّطه وأمانه من المقاومة. ثمّ أردفه بالاستفهام على سبيل الاستنكار والتقريع عن حالهم التي توجب لهم التخاذل والتصامم عن ندائه وهو قوله: ما بالكم. ثمّ عن دوائهم الصالح للمرض الذي هم فيه. ثمّ عن كيفيّة علاجهم منه بقوله: ما دواؤكم ما طبّكم. وقيل أراد بقوله ما طبّكم أي ما عادتكم والأوّل أظهر وأليق. ثمّ نبّههم على ما عساهم يتوهّمونه من قوّة خصومهم وبأسهم بأنّهم رجال أمثالكم في الرجوليّة التي هي مظنّة الشجاعة والبأس فلا مزيّة لهم عليكم فلا معنى للخوف منهم. ثمّ عاد إلى سؤالهم على جهة التقريع ونبّههم به على أمور لا ينبغي، منفور عنها، مستقبحة في الشريعة والعادة.

فأوّلاً: عن قولهم ما لا يفعلون وهو إشارة إلى ما يعدون به من النهوض إلى الحرب ثمّ لا يفعلون وذلك بقوله: أقولاً بغير عمل؟ تذكيراً لهم بما يستلزم ذلك من المقت عند الله كما أشير إليه في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣] وعلى الرواية الثانية وهي أقولاً بغير علم؟ أي أتقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم ولا تعتقدونه وتجزمون به من أنّا سنفعل كذا. ويحتمل أن يكون معناه أتقولون إنّا مخلصون لله وإنّا مسلمون ولا تعلمون شرائط الإسلام والإيمان.

وثانياً: عن غفلتهم التي ليست عن ورع وهي عدم تعقّلهم للمصالح التي ينبغي أن يكونوا عليها وهي طرف التفريط من فضيلة الفطانة. وهذه بخلاف الغفلة مع الورع. فإنّ تلك نافعة في المعاد إن كان الورع عبارة عن لزوم الأعمال الجميلة المستعدّة في الآخرة فالغفلة معه عن الأمور الدنيويّة والمصالح المتعلقة بجزئيّاتها ليست بضارّة؛ بل ربما كانت سبباً للخلاص من عذاب ما في الآخرة.

وثالثاً: عن طمعهم في غير حقّ أي في أن يمنحهم ما لا يستحقّونه لينهضوا معه ويجيبوا دعوته، وكأنّه عليه السلام عقل من بعضهم أنّ احد أسباب تخلّفهم من ندائه إنّما هو طمعهم في أن يوفر عطيّاتهم ويمنحهم زيادة على ما يستحقّون كما فعل غيره مع غيرهم فأشار إلى ذلك ونبّههم على قبحه من حيث إنّه طمع في غير حقّ. والله أعلم.

٣٠ - ومن كلام له عليه السلام في معنى قتل عثمان

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ: اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ، وَللهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ.

أقول: المستأثر بالشيء: المستبدّ به. ومقتضى هذا الفصل تبرّؤه عليه السلام من الدخول في دم عثمان بأمر أو نهي كما نسبه إليه معاوية وغيره.

وقوله: لو أمرت به لكنت قاتلاً. قضيّة شرطيّة بيّن فيها لزوم كونه قاتلاً لكونه آمراً. وهذا اللزوم عرفي. إذ يقال في العرف للآمر بالقتل قاتل. والآمر شريك الفاعل وإن كان القاتل في اللغة هو المباشر للفعل والذي صدر عنه. وكذلك بيّن في قوله: أو نهيت عنه لكنت ناصراً، لزوم كونه ناصراً لكونه ناهياً. وهو ظاهر، وقد عرفت أنّ استثناء نقيض اللازم يستلزم نقيض الملزوم، واللازمان في هاتين القضيّتين هما القتل والنصرة، ومعلوم أنّ القتل لم يوجد منه عليه السلام بالاتّفاق فإنّ غاية ما يقول الخصم أنّ قعوده عن نصرته دليل على إرادته لقتله. وذلك باطل. لأنّ القعود عن النصرة قد يكون لأسباب أخرى كما سنبيّنه. ثمّ لو سلّمنا أنّ القعود عن النصرة دليل إرادة القتل لكن إرادة القتل ليس بقتل. فإنّ كلّ أحد يحبّ قتل خصمه لكن لا يكون بذلك قاتلاً. وكذلك ظاهر كلامه يقتضي أنّ النصرة لم توجد منه، وإذا انتفى اللازمان استلزم نفي أمره بقتله ونهيه عنه. ويحتمل أن يريد في القضيّة الثانية استثناء عين مقدّمها لينتج تاليها: أي لكنّي نهيت عنه فكنت ناصراً. لا يقال: لا يخلو إمّا أن يكون مرتكب المنكر هو عثمان أو قاتليه وعلى التقديرين فيجب على عليّ عليه السلام القيام والإنكار إمّا على عثمان بالمساعدة عليه إن كان هو مرتكب المنكر، أو على قاتليه بالإنكار عليهم ونصرته. فقعوده عن أحد الأمرين يستلزم الخطأ؛ لكنه لم يخطئ فلم يكن تاركاً لأحد الأمرين، فلا يثبت التبرّؤ. والجواب البريء من العصبيّة في هذا الموضع: أنّ عثمان أحدث أموراً نقمها جمهور الصحابة عليه، وقاتلوه أحدثوا حدثاً يجب إنكاره: أمّا أحداث عثمان فلم تنته في نظر علي عليه السلام إلى حدّ يستحقّ بها القتل وإنّما استحقّ في نظره أن ينبّه عليها. فلذلك ورد في النقل أنّه أنكرها عليه وحذّره من الناس غير مرّة كما سيجيء في كلامه عليه السلام. فإن صحّ ذلك النقل ثبت أنّه انكر عليه ما أحدثه لكنه لا يكون بذلك داخلاً في دمه لاحتمال أنّه لمّا حذّره الناس ولم ينته اعتزله. وإن لم يثبت ذلك النقل فالإنكار ليس من فروض الأعيان بل هو من فروض الكفايات إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وقد ثبت أنّ جمهور الصحابة أنكروا تلك الأحداث من عثمان فلا يتعيّن وجوب الإنكار على عليّ عليه السلام، وأمّا حدث قاتليه فهو قتله. فإن ثبت أنّه عليه السلام ما أنكر عليهم، قلنا: إنّ من جملة شروط إنكار المنكرات أن يعلم المنكر أو يغلب على ظنّه قبول قوله، أو تمكّنه من الدفع بيده فلعلّه عليه السلام علم من حالهم أنّه لا يفيد إنكاره معهم. وظاهر أنّ الأمر كان كذلك: أمّا عدم فائدة إنكاره بالقول معهم فلأنّه نقل عنه عليه السلام أنّه كان يعد الناس بإصلاح الحال بينهم وبين عثمان وإزالته عمّا نقموه عليه وتكرّر منه وعده لهم بذلك ولم يتمكن منه.

وظاهر أنّهم بعد تلك المواعيد لا يلتفتون إلى قوله، وأمّا إنكاره بيده فمعلوم بالضرورة أنّ الإنسان الواحد أو العشرة لا يمكنهم دفع الجمع العظيم من عوامّ العرب ودعاتهم خصوصاً عن طباع ثارت وتألّفت وجمعها أشدّ جامع وهو ما نسبوه إليه حقّاً وباطلاً. ثمّ من المحتمل من تفرّقه مال المسلمين الذي هو قوام حياتهم سواء كان ما نسبوه إليه حقّاً أم لا أن يكون قد غلب على ظنّه أنّه لو قام في نصرته لقتل معه ولا يجوز للإنسان أن يعرض نفسه للأذى والقتل في دفع بعض المنكرات الجزئيّة. وأمّا إن ثبت أنّه أنكر عليهم ما نقلنا حملنا ذلك النهي على نهيه لهم حال اجتماعهم لقتله قبل حال قتله، وقوله: ولو نهيت عنه لكنت ناصراً على عمد المنع من قتله حال قتله لعدم تمكّنه من ذلك وعدم إفادة قوله. قال بعض الشارحين: هذا الكلام بظاهره يقتضي أنّه ما أمر بقتله ولا نهى عنه. فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها ولا ينهى عنها. قلت: هذا سهو لأنّ التبرّؤ من الأمر بالشيء والنهي عنه غاية ما يفهم منه عند الدخول فيه والسكوت عنه ولا يلزم من ذلك الحكم بأنّه من الأمور المباحة لاحتمال أنّ اعتزاله هذا الأمر كان لأحد ما ذكرناه. وبالجملة فإنّ أهل التحقيق متّفقون على أنّ السكوت على الأمر لا يدلّ على حال الساكت بمجرّده وإن دلّ بقرينة أخرى. وممّا يدلّ على أنّه كان متبرّئاً من الدخول في دم عثمان بأمر أو نهي ما نقل عنه لمّا سئل: أساءك قتل عثمان أم سرّك؟ فقال: ما ساءني ولا سرّني. وقيل: أرضيت بقتله؟ فقال: لم

أرض. فقيل: أسخطت قتله. فقال: لم أسخط. وهذا كلّه كلام حقّ يستلزم عدم التعرّض بأمره فإنّ من أعرض عن شيء ولم يدخل فيه يصدق أن يقول: إنّي لم أسخط به ولم أرض ولم أسأ به ولم أسرّ، فإنّ السخط والرضا والإساءة والسرور حالات تتوارد على النفس بأسباب تتعلّق بها فخالع تلك الأسباب عن نفسه في أمر من الأمور كيف يعرض له أحد هذه الحالات فيه. فإن قلت: إن كان قتل عثمّان منكراً كان مستلزماً لسخطه عليه السلام ومساءته منه وقد نقل عنه أنّه لم يسخط له وذلك يقتضي أحد الأمرين: أحدهما أنّه عليه السلام لا يسخط للمنكر وهو باطل بالاتّفاق، والثاني أن قتل عثمّان لم يكن عنده منكراً، والتقدير أنّه منكر. قلت: إن قتل عثمّان يستلزم سخطه لكن لا من حيث أنه قتل عثمّان بل من جهة كونه منكراً، والمنقول أنّه لم يسخط لقتل عثمّان ولا ساءه ذلك أي من جهة كونه قتل عثمّان وذلك لا ينافي أن يسوءه ويسخطه من جهة كونه منكراً. وفي الجواب غموض. فلتفطّن. ولأجل اشتباه الحال خبط الجهّال. وفيها يقول شاعر أهل الشام:

وما في عليّ لمستعتبٍ مقالٌ سوى صحبة المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سئل عنه حدا شبهةً وعمّى الجواب على السائلينا
وليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساءه ولا [هو] سرّه ولا بدّ من بعض ذا أن يكونا

فأمّا تفصيل الاعتراضات والأجوبة في معنى قتل عثمان وما نسب إلى عليّ عليه السلام من ذلك فمبسوط في كتب المتكلّمين كالقاضي عبد الجبّار وأبي الحسين البصريّ والسيّد المرتضى وغيرهم فلا نطول بذكرها، وربّما أشرنا إلى شيء من ذلك فيما بعد.

وقوله: غير أنّ من نصره لا يستطيع... إلى قوله: خير منّي. فاعلم أنّ هذا الفصل ذكره عليه السلام جواباً لبعض من أنكر بحضرته قعود من قعد عن نصرة عثمان وجعلهم منشأ الفتنة، وقال: إنّهم لو نصروه وهم أكابر الصحابة لما اجترأ عليه طغام الأمّة وجهّالها، وإن كانوا رأوا أنّ قتله وقتاله هو الحقّ فقد كان يتعيّن عليهم أن يعرّفوا الناس ذلك حتّى ترتفع عنهم الشبهة، وفهم عليه السلام أنّ القائل يعنيه بذلك. فأجابه بهذا الكلام تلويحاً لا تصريحاً. إذ كان في محلّ يلزمه التوقّي. فقرّر أوّلاً أنّه ما أمر في ذلك بأمر ولا نهى ثمّ عاد إلى الاستثناء فقرّرها في هاتين القضيّتين: إن الذين خذلوه كانوا أفضل من الناصرين له إذ لا يستطيع ناصروه كمروان وأشباهه أن يفضّلوا أنفسهم على خاذليه كعليّ عليه السلام بزعم المنكر وكطلحة وسائر أكابر الصحابة إذ العقل والعرف يشهد بأفضليّتهم، وكذلك لا يستطيع الخاذلون أن يفضّلوا الناصرين على أنفسهم اللّهم إلاّ على سبيل التواضع. وليس الكلام فيه. فكأنّه عليه السلام سلّم تسليم جدل أنّه دخل في أمر عثمّان وكان من الخاذلين له. ثمّ أخذ في الرّد على المنكر بوجه آخر فقال: غير أنّي لو سلّمت أنّي ممّن خذله لكنّ الخاذلون له أفضل من الناصرين وأثبت المقدّمة بهاتين القضيّتين وحذف التالية للعلم بها، وتقديرها: والأفضل يجب على من عداه اتّباعه والاقتداء به، فينتج هذا القياس أنّه كان يتعيّن على من نصره أن يتبع من خذله. وهذا عكس اعتقاد المنكر. وقال بعض النقّاد: إنّ هذه كلمة قرشيّة، وأراد بذلك أنّه عمّى على الناس في كلامه. قال: ولم يرد التبرّؤ من أمره، وإنّما أراد أنّ الخاذلين لا يلحقهم المفضوليّة بكونهم خاذلين له، وإنّ الناصرين له لا يلحقهم الأفضلية بنصرته. والذي ذكره بعيد الفهم من هذا الكلام. ويمكن أن يحمل على وجه آخر وذلك أنّه إنّما قرّر أفضليّة الخاذلين على الناصرين ليسلم هو من التخصيص باللائمة في القعود عن النصرة فكأنّه قال: وإذا كان الخاذلون له أفضل ممّن نصره. تعيّن عليهم السؤال عن التخلّف، وأن يستشهد عليهم بحال الناصرين له مع كونهم مفضولين. فلم خصّصت باللائمة من بينهم والمطالبة بدمه؟ لولا الأغراض الفاسدة.

وقوله: وأنا جامع لكم أمره... إلى قوله: الأثرة.

أشار عليه السلام في هذا اللفظ الوجيز إجمالاً إلى أنّ كلّ واحد من عثمان وقاتليه كان على طرف الإفراط من فضيلة العدالة: أمّا عثمان فلاستيثاره واستبداده برأيه فيما الأمّة شركاء فيه والخروج في ذلك إلى حدّ الإفراط الذي فسد معه نظام الخلافة عليه وأدّى إلى قتله، وأمّا قاتلوه فلخروجهم في الجزع من فعله إلى طرف التفريط عمّا كان ينبغي لهم من التثبّت وانتظار صلاح الحال بينهم وبينه بدون القتل؛ حتّى استلزم ذلك الجزع ارتكابهم لرذيلة الجور في قتله. فلذلك كان فعله إساءةً للاستيثار، وفعلهم إساءة للجزع، وقيل: أراد إنّكم أسأتم الجزع عليه بعد القتل. وقد كان ينبغي منكم ذلك الجزع له قبل قتله.

وقوله: ولله حكم واقع في المستأثر والجازع.

المفهوم من ذلك أنّه يريد بالحكم الواقع لله في المستأثر هو الحكم المقدّر اللاحق لعثمان بالقتل المكتوب بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ، وفي الجازع هو الحكم اللاحق لقاتليه من كونهم قاتلين، أو قالين وجازعين. وفي نسبة هذه الأحكام إلى الله تنبيه على تبرّئه من الدخول في أمر عثمان وقاتليه بعد الإشارة إلى السبب المعدّ لوقوعها في حقّهم وهو الإساءة في الاستيثار والجزع، ويحتمل أن يريد الحكم في الآخرة اللاحق للكلّ: من ثواب أو عقاب عمّا ارتكبه. وبالله التوفيق والعصمة.

٣١ - ومن كلام له عليه السلام

لابن عباس لما أرسله إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل

لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ: هُوَ الذَّلُولُ. وَلٰكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا.

قال الشريف: أقول: هو أول من سمعت منه هذه الكلمة، أعني «فما عدا مما بدا».

أقول: يستفيئه: أي يسترجعه، من فاء إذا رجع. وفي رواية إن تلقه تلقه من الفيته على كذا إذا وجدته عليه. والعقص: الاعوجاج، وعقص الثور قرنيه: بالفتح متعدّ، وعقص قرنه: بالكسر لازم. والصعب: الدابّة الجموح السغبة. والذلول: السهلة الساكنة. والعريكة: فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل الاسم من الوصفية إلى الاسمية الصرفة وأصل العرك دلك الجلد بالدباغ وغيره. وعدا: جاوز. وبدا: ظهر.

وأعلم أنّه عليه السلام لمّا نهى ابن عباس عن لقاء طلحة بحسب ما رأى في ذلك من المصلحة نبّهه على علّة وجه نهيه عنه بقوله: فإنّك إن تلقه تجده كذا. وقد شبّهه بالثور، وأشار إلى وجه الشبه بعقص القرن. استعار لفظ القرن وكنّى به عن شجاعته، ولفظ العقص لما يتبع تعاطيه بالقوّة والشجاعة من منع الجانب وعدم الانقياد تحت طاعة الغير اللازم عن الكبر والعجب بالنفس الذي قد تعرض للشجاع. ووجه الاستعارة الأولى أنّ القرن آلة للثور بها يمنع ما يراد به عن نفسه. وكذلك الشجاعة يلزمها الغلبة والقوّة ومنع الجانب، ووجه الاستعارة الثانية أنّ الثور عند إرادة الخصام يعقص قرنيه أي يرخي رأسه ويعطف قرنيه ليصوّبهما إلى جهة خصمه. ويقارن ذلك منه نفخ صادر عن توهّم غلبته لمقاومه وشدّته عليه وأنّه لا قدر له عنده كذلك المشبّه هاهنا علم منه عليه السلام أنّه عند لقاء ابن عباس له يكون مانعاً جانبه، متهيّئاً للقتال، مقابلاً للخشونة وعدم الانقياد له الصادر عن عجبه بنفسه وغروره لشجاعته. فذلك حسن التشبيه، ويحتمل أن يكون وجه الشبه التواء طلحة في آرائه وانحرافه عنه عليه السلام الشبيه بالتواء القرن. وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس. ويقال: إنّ الكبر الذي تداخل طلحة لم يكن فيه قبل يوم أحد. وإنّما حدث به في ذلك اليوم وذلك أنّه أبلى فيه بلاءً حسناً. ثمّ أشار إلى ابن عباس بلقاء الزبير، وأشار إلى وجه الرأي في ذلك، وهو كونه ألين عريكة، ويكنّى بالعريكة عن الطبع

والخلق كناية بالمستعار. فيقال: فلان لين العريكة إذا كان سهل الجانب لا يحتاج فيما يراد منه إلى تكلّف ومجاذبة قويّة كالجلد اللّين الذي يسهل عركه. وفلان شديد العريكة: إذا كان بالضدّ بذلك، وظاهر أنّ الزبير كان سهل الجانب، فلأجل ذلك أمره بلقائه لما عهد من طبيعته أنّها أقبل للاستدراج، واقرب إلى الانفعال عن الموعظة، وتذكّر الرحم. وأحسن بهذه الاستمالة له بذكر النسب المستلزم تصوّره للميل والانعطاف من الطبائع السليمة: ونحوه قوله تعالى حكاية قول هارون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤] ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠] فإن فيه من الاستمالة والاسترقاق بتذكيره حقّ الأخوّة ممّا يدعو إلى عطفه عليه ممّا لم يوجد في كلام آخر. وأمّا كون عليّ عليه السلام ابن خال الزبير فإنّ أبا طالب وصفيّة أمّ الزبير من أولاد عبد المطلب بن هاشم.

وقوله: فما عدا ممّا بدا.

قال ابن أبي الحديد. عدا بمعنى صرف. ومن: هاهنا بمعنى عن. ومعنى الكلام فما صرفك عمّا كان بدا منك أي ظهر: أي ما الذي صدّك عن طاعتي بعد إظهارك لها، وحذف الضمير المفعول كثير كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ [الزخرف: ٤٥] أي أرسلناه.

وقال القطب الراوندي: له معنيان: أحدهما: ما الذي منعك ممّا كان قد بدا منك من البيعة قبل هذه الحالة، الثاني: ما الذي عاقك من البداء الذي يبدو للإنسان، ويكون المفعول الثاني لعدا محذوفاً يدلّ عليه الكلام أي ما عداك يريد ما شغلك وما منعك عمّا كان بدا لك من نصرتي.

قال ابن أبي الحديد: ليس في الوجه الثاني ممّا ذكره القطب زيادة على الوجه الأوّل إلاّ زيادة فاسدة. أمّا أنّه لا زيادة. فلأنّه فسّر عدا في الوجهين بمعنى منع، وفسّر قوله ممّا كان بدا منك من الوجهين أيضاً بتفسير واحد. فلم يبق بينهما تفاوت، وأمّا الزيادة الفاسدة فظنّه أنّ عدا يتعدّى إلى مفعولين وهو باطل بإجماع النحاة.

وأقول: الوجه الذي ذكره ابن أبي الحديد هو الوجه الأوّل من الوجهين اللذين ذكرهما الراوندي لأنّ الصرف والمنع لا كثير تفاوت بينهما وإن كان قد يفهم أنّ المنع أعمّ. وأمّا اعتراضه عليه بأنّه لا فرق بين الوجهين اللذين ذكرهما فهو سهو. لأنّ معنى بدا في الوجه الأوّل ما ظهر للناس منك من البيعة لي. ومراده به في الثاني ما ظهر لك في الرأي من نصرتي وطاعتي. وفرق بين ما يظهر من الإنسان لغيره، وبين ما يظهر له من نفسه أو من غيره، وأمّا ما ذكره من أنّه زيادة فاسدة فالأظهر أنّ لفظه الثاني في قوله المفعول الثاني زيادة من قلمه أو قلم الناسخ سهواً، ويؤيّده إظهاره للمفعول الأوّل تفسيراً لقوله ويكون المفعول لعدا محذوفاً.

ثمّ أقول: وهذه الوجوه وإن احتملت أن يكون تفسيراً إلاّ أنّ في كلّ واحد عدولاً عن الظاهر من وجه: أمّا الوجه الذي ذكره المدائني فلأنّه لمّا حمل عدا على حقيقتها وهي المجاوزة، وحمل ما بدا على الطاعة السابقة، احتاج أن يجعل من بمعنى عن، وهو خلاف الظاهر. وأمّا الراوندي فإنّه فسّر عدا بمعنى منع أو عاق وشغل، وحمل ما بدا على الطاعة السابقة أو على البيعة، ولا يتمّ ذلك إلاّ أن يكون من بمعنى عن. والحقّ أن يقال: إنّ عدا بمعنى جاوز. ومن البيان الجنس. والمراد ما الذي جاوز بك عن بيعتي ممّا بدا لك بعدها من الأمور التي ظهرت لك. وحينئذ تبقى الألفاظ على أوضاعها الأصليّة مع استقامة المعنى وحسنه. وروي عن الصادق جعفر ابن محمّد عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: سألت ابن عباس رحمه الله عن تلك الرسالة فقال: بعثني فأتيت الزبير فقلت له. فقال: إنّي أريد ما يريد. كأنّه يقول: الملك. ولم يزدني على ذلك. فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته. وعن ابن عباس أيضاً أنّه قال: قلت الكلمة لزبير فلم يزدني على أن قال: أنا مع الخوف الشديد لنطمع. وسئل ابن عباس عمّا يعني الزبير بقوله هذا. فقال: يقول: أنا على الخوف لنطمع أن نلي من الأمر ما وليتم، وقد فسّر غيره ذلك بتفسير آخر، فقال: أراد أنا مع الخوف الشديد من الله نطمع أن يغفر لنا هذا الذنب.

٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً، لا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا. فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلالَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً! وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَلا يَطْلُبُ الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ على حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذٰلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلا مَغْدًى. وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا. فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ، وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ، وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ.

قال الشريف: أقول: هذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، والعذب من الأجاج؟ وقد دل على ذلك الدليل الخرِّيت، ونقده الناقد البصير عمرو بن بحر الجاحظ؛ فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب البيان والتبيين، وذكر من نسبها إلى معاوية، ثمّ قال: هي بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس، وبالإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف - أليقُ، قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد؟؟!!

أقول: عنود: جائر. وكنود: كفور. والعتوّ: الكبر. والقارعة: الخطب العظيم. ومهانة النفس: حقارتها. وكلّ حدّ السيف وغيره: إذا وقف عن القطع. ونضيض وفره: قلّة ماله. والمصلت بسيفه: الماضي في الأمور بقوّته. والمجلب: المستعين على الأمر بالجمع. والرجل: جمع راجل. وأشرط نفسه لكذا: أي أعلمها وأعدّها له. وأوبق دينا: أي أهلكه. والحطام: متاع الدنيا، وأصله ما تكسر من اليبس. والانتهاز: الاختلاس والاستلاب بقدر الامكان. والمقنب بكسر الميم وفتح النون: الجمع من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين. وفرع المنبر يفرعه: أي علاه. وطامن من شخصه: أي خفض، والاسم الطمأنينة. وشمر من ذيله: إذا رفعه. وزخرف: أي زيّن ونمّق. وضؤولة نفسه: حقارتها. المراح: المكان الذي تأوي إليه الماشية بالليل. والمغدى: هو الذي يأوى إليه بالغداة. والشريد. المشرّد: وهو المطرود. والنادّ: الذاهب على وجهه. والقمع: الإذلال. والمعكوم: الذي لا يمكنه الكلام كأنّه سدّ فوه بالكمام؛ وهو شيء يجعل في فم البعير عند الهياج. والثكل: الحزن على فقد بعض المحابّ. واخملتهم: أي أسقطتهم وأرذلتهم بين الناس. والتقيّة والتقوى: الخوف. والأجاج: الملح. والضامز: بالزاء: الساكت. والحثالة الثفل. والقرظ، ورق السلم يدبغ به. والجلم: المقراض تجزّ به أوبار الإبل، وقراضته ما تساقط من قرضه.

واعلم أن نسبة الخير إلى بعض الأزمنة والشر إلى بعض آخر، وتفضيل بعض الأزمنة على بعض نسبة

صحيحة لما أنّ الزمان من الأسباب المعدّة لحصول ما يحصل في هذا العالم من الامتزاجات وما يتبعها ممّا يعدّ خيراً أو شرّاً. وقد تتفاوت الأزمنة في الإعداد لقبول الخير والشرّ ففي بعضها يكون بحسب الاستقراء ما يعدّ شراً كثيراً فيقال: زمان صعب وزمان جائر. وخصوصاً زمان ضعف الدين والنواميس الشرعيّة التي هي سبب نظام العالم وبقائه وسبب الحياة الأبديّة في الدار الآخرة، وفي بعضها يكون ما يعدّ خيراً كثيراً فيقال: زمان حسن وزمان عادل، وهو الزمان الذي تكون أحوال الخلق فيه منتظمةً صالحة خصوصاً زمان قوّة الدين وظهوره وبقاء ستر ناموس الشريعة مسدولاً. هذا. وإن كنّا إذا اعتبرنا أجزاء الخير وأجزاء الشرّ الواقعة في كلّ العالم بحسب كلّ زمان لم يكن هناك كثير تفاوت بين الأزمنة فيما يعدّ خيراً فيها وشرّاً. ولذلك قال أفلاطون: الناس يتوهّمون بكلّ زمان أنّه آخر الأزمنة ويثبتون تقصيراً عمّا تقدّمه وليس يوفون الزمان الماضي والمقيم حقّيهما من التأمّل. وذلك أنّهم يقيسون الأحداث في الزمان المقيم إلى من تناهت سنّه وتجاربه في الزمان الماضي، وينظرون إلى قصور المروّات في الزمان المقيم واتّساعها في الماضي من غير أن ينظروا إلى الأغراض في الزمانين وما يوجبه كلّ واحد منهما. وإذا تتبّع هذا بعدل واستقصي تصريف الزمانين من القوى والجدات، والأمن والخوف، والأسباب والأحوال كانا متقاربين. إذا عرفت هذا فنقول:

قوله عليه السلام إنّا قد أصبحنا. إلى قوله: حتّى تحلّ بنا.

ذمّ للزمان بوصفي الجور والشدّة لمّا أعدله ممّا عدّد فيه من الأوصاف المعدودة شرّاً بالقياس إلى نظام العالم وبقائه. وذكر من تلك الأوصاف خمسة:

أوّلها: أنّه يعدّ فيه المحسن سيئاً. وذلك من حساب المسيئين الكسالى عن القيام بطاعة الله فيعدّون إنفاق المحسن لماله رياءً وسمعةً أو خوفاً أو رغبة في مجازاة، وكذلك سائر فضائله رذائل. كلّ ذلك طعناً في فضيلته وحسداً أن ينال رتبة أعلى. فيلحقونه بدرجاتهم في الإساءة.

وثانيها: أنّه يزداد الظالم فيه عتواً. وذلك أنّ منشأ الظلم هو النفس الأمّارة بالسوء وهي في زمان العدل تكون مقهورة دائماً أو في أكثر الأحوال. وثورانها في ذلك الوقت طالبة للظلم يكون فلتةً وانتهاز فرصة. فالظالم في زمان العدل إن ظلم أو تجاوز حدّه فكالسارق الذي لا يأمن في كلّ لحظة أن يقع به المكروه فكذلك الظالم في زمن العدل مقموع بحرسة الشريعة مرصود بعيون طلائعها. أمّا في زمان ضعف الشريعة فالظالم فيه كالناهب معطٍ لقوّته سؤلها، غير ملتفت إلى وازع الدين فلا جرم كان عتوّه فيه أزيد. وقد كان في زمانه بالنسبة إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله كذلك.

وثالثها: أنّه لا ينتفع أهله فيه بما علموا. وهو توبيخ للمقصّرين في أعمال الآخرة على وفق ما علموا من الشريعة ممّا ينبغي أن يعمل لها إذ الانتفاع بالعلم إنّما يكون إذا وافقه العمل، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام في موضع آخر: العلم مقرون بالعمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل. فإنّ المراد بارتحال العلم هو عدم الانتفاع به وبهتفه بالعمل اقتضاؤه ما ينبغي من مقارنة العمل له.

ورابعها: أنّهم لا يسألون عمّا جهلوا. وهو توبيخ للمقصّرين في طلب العلم بعدم السؤال عمّا جهلوا منه، وقلّة الالتفات لقصور أفهامهم عن فضيلته، واشتغالهم بحاضر اللّذات الحسيّة.

وخامسها: كونهم لا يتخوّفون قارعة حتّى تحلّ بهم. وذلك لعدم فكرهم في عواقب أمورهم واشتغالهم بحاضرها عن الالتفات إلى مصالحهم وتدبيرها وهو توبيخ للمقصّرين في أمر الجهاد وتنبيه لهم بذكر القارعة وحلولها بهم. وكلّ هذه أمور مضادّة لمصلحة العالم. فلذلك عدّ الزمان الواقعة فيه عنوداً شديداً.

قوله: فالناس على أربعة أصناف. إلى قوله: قلّوا.

أقول: وجه هذه القسمة أنّ الناس إمّا مريدون للدنيا أو لله. والمريدون لها فإمّا قادرون عليها أو غير قادرين. وغير القادرين إمّا غير محتالين لها، أو محتالون. والمحتالون إمّا أن يؤهّلوا نفوسهم للإمرة والملك، أو لما هو دون ذلك. فهذه أقسام خمسة مطابقة لما

ذكره عليه السلام من الأوصاف الأربعة الذين عرضهم للذّم مع الصنف الخامس الذين أفردهم بالمدح.

فالصنف الأوّل: فهم المريدون للدنيا القادرون عليها المشار إليه في القسم الثاني من قسمته بقوله: ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشرّه. إلى قوله: يفرعه. والمقصود بهذا الصنف القادرون على الدنيا المطلقون لعنان الشهوة والغضب في تحصيل ما يتخيّل كمالاً من القينات الدنيويّة. فإصلات السيف كناية عن التغلّب وتناول ما أمكن تناوله بالغلبة والقهر وإعلان الشرّ والمجاهرة بالظلم وغيره من رذائل الأخلاق. والإجلاب بالخيل والرجل كناية عن جمع أسباب الظلم والغلبة والاستعلاء على الغير. وإشراط نفسه: تأهيلها وإعدادها للفساد في الأرض. وظاهر أنّ من كان كذلك فقد أوبق دينه وأفسده.

وقوله: لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه.

إشارة إلى بعض العلل الغائية للصنف المذكور من كونهم بالأوصاف المذكورة. واستعار لفظ الحطام للمال. ووجه المشابهة أنّ اليبس من النبات كما أنّه لا نفع له بالقياس إلى ما يبقى خضرته ونضارته أو يكون ذا ثمرة كذلك المال بالنسبة إلى الأعمال الصالحة الباقي نفعها في الآخرة، وإنّما خصّ هذه الأمور الثلاثة لأنّها الأغلب فيما يسعى أهل الدنيا لأجله إذ الغالب أنّ السعي فيها إمّا لجمع المال أو لرئاسة دنيويّة باقتناء الخيل والنعم، أو دينيّة كإفتراع المنابر والترؤس بناموس الدين مع قصد الدنيا.

وقوله: ولبئس المتجر. إلى آخره.

تنبيه لهذا الصنف من الناس على خسرانهم في أفعالهم الشبيهة بالتجارة الخاسرة فإنّ طالب الدنيا المحصّل لها كيف ما اتّفق هالك في الآخرة. فهو كالبائع لها بما حصل له من دنياه، والمعتاض بما له عند الله من الأجر الجزيل لو أطاعه حطاماً تفنى عينه وتبقى تبعته. ولذلك استعار لفظ التجارة لها.

الصنف الثاني: وهم المريدون لها غير القادرين عليها وغير المحتالين لها وهو المشار إليه بقوله: منهم من لا يمنعه من الفساد [في الأرض] إلاّ مهانة نفسه وكلالة حدّه ونضيض وفره. وكنّى بقوله: كلالة حدّه. عن عدم صراحته في الأمور وضعفه عنها. وظاهر أنّ المريد للدنيا المعرض عن الله لو خلّي عن الموانع المذكورة ووجد الدنيا لم يكن سعيه فيها إلاّ فساداً.

الصنف الثالث: غير القادرين على الدنيا مع احتيالهم لها وإعداد أنفسهم لأمور دون الملك وهو المشار إليه بقوله: ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا. إلى آخره.

وقوله: يطلب الدنيا بعمل الآخرة إشارة إلى الحيلة للدنيا كالرياء والسمعة.

وقوله: ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا إشارة إلى أنّه مريد للدنيا فقط.

قوله: قد طامن من شخصه. إلى آخره.

تفصيل لكيفيّة الحيلة فإنّ خضوع الإنسان وتطامن شخص والمقاربة بين خطوه وتشمير ثوبه وزخرفته لنفسه بما هو شعار الصالحين من عباد الله وستر الله الذي حمى به أهل التقوى أن يردوا موارد الهلكة يقع من صنف من الناس التماساً لدخولهم في عيون أهل الدنيا وأرباب أهل القينات ليسكنوا إليهم في الأمانات ونحوها ويجعلون ذلك ذريعة لهم إلى ما أمّلوه من الدنيا الفانية فيكونون قد اتّخذوا ستر الله وظاهر دينه وسيلة إلى معصيته.

الصنف الرابع: غير القادرين عليها، المحتالون لها، المؤهّلون أنفسهم للملك والإمرة، وهو المشار إليهم بقوله:

ومنهم من أقعدهم عن طلب الملك ضؤولة نفسه. إلى آخره. وذكر من موانع هذا الصنف عمّا رامه مانعين: أحدهما ضؤولة نفسه وقصورها عن المناواة تخيّلها العجز عن طلب الملك وإن كان مطلوباً له، الثاني سبب ذلك الضعف وهو انقطاع سببه من قلّة المال وعدم الأعوان والأنصار في الطلب. فلذلك وقفت به حال القدر على حالته التي لم يبلغ معها ما أراد، وقصّرته عليها. فعدل لذلك إلى الحيلة الجاذبة لرغبات الخلق إليه من التحلّي بالقناعة والتزيّن بلباس أهل

الزهادة من المواظبة على العبادات ولزوم ظواهر أوامر الله وإن لم يكن ذلك عن أصل واعتقاد قاده إليه.

وقوله: وليس [هو] من ذلك في مراح ولا مغدىً. كناية عن أنه ليس من القناعة والزهد في شيء أصلاً، ويحتمل أن يكون هذا الصنف من غير القادرين وغير المحتالين.

الصنف الخامس: وهم المريدون لله تعالى وهم المشار إليهم بقوله عليه السلام: وبقي رجال... إلى آخره. وذكر لهم أوصافاً:

الأوّل: كونهم قد غضّ أبصارهم ذكر المرجع. وذلك أنّ المريد لله إذا التفت إلى جنابه المقدّس واستحضر أنه راجع إليه بل مايل بين يديه. فلا بدّ أن يعرض عن غيره حياء منه وابتهاجاً بمطالعة أنواره وخوفاً أن يحمّج به بصره عن صعود مراتب الأملاك إلى مهاوي الهلاك، ولأنّ الحسّ تابع للقلب فإذا كان بصر القلب مشغولاً غريقاً في جلال الله كان مستتبعاً للحسّ فلم يكن له التفات من طريقه إلى أمر آخر وهو المراد بالغضّ.

الثاني: كونهم قد أراق دموعهم خوف المحشر.

واعلم أنّ خوف الخائفين قد يكون لأمور مكروهة لذاتها، وقد يكون لأمور مكروهة لأدائها إلى ما هو مكروه لذاته، وأقسام القسم الثاني كثيرة كخوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض القربة، أو خوف الانحراف عن القصد في عبادة الله، أو خوف استيلاء القوى الشهوانيّة بحسب مجرى العادة في استعمال الشهوات المألوفة، أو خوف تبعات الناس عنده، أو خوف سوء الخاتمة، أو خوف سبق الشقاوة في علم الله تعالى. وكلّ هذه ونحوها مخاوف عباد الله الصالحين. وأغلبها على قلوب المتّقين خوف الخاتمة فإنّ الأمر فيه خطر، وأعلى الأقسام وأدلّها على كمال المعرفة خوف السابقة لكون الخاتمة تبعاً لها ومظهرة لما سبق في اللوح المحفوظ. وقد مثّل من له خوف السابقة ومن له خوف الخاتمة برجلين وقع لهما ملك بتوقيع يحتمل أن يكون لهما فيه غناء أو هلاك فتعلّق قلب أحدهما بحال نشر التوقيع وما يظهر فيه من خير أو شرّ، وتعلّق قلب الآخر بما خطر للملك حالة التوقيع من رحمة أو غضب. وهذا التفات إلى السبب، فكان أعلى. فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزليّ الذي جرى بتوقيعه القلم الإلهيّ في اللوح المحفوظ أعلى من الالتفات إلى الأبد. وإلى ذلك أشار الرسول صلى الله عليه وآله حيث كان على المنبر فقبض كفّه اليمنى ثمّ قال: هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنّة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيه ولا ينقص. وليعمل أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتّى يقال: كأنّهم منهم بل هم هم ثمّ يستخرجهم (يستنقذهم خ) الله قبل الموت ولو بفواق ناقة، وليعمل أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتّى يقال: كأنّهم منهم بل هم هم ثمّ يستخرجهم الله قبل الموت ولو لفواق ناقة. السعيد من سعد بقضاء الله، والشقيّ من شقي بقضاء الله، والأعمال بالخواتيم. وأمّا أقسام القسم الأوّل فمثل أن يتمثّل في نفوسهم ما هو المكروه لذاته كسكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف السرّ والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدّته وكيفيّة العبور عليه، أو من النار وأغلالها وأحوالها، أو من حرمان الجنّة، أو من نقصان الدرجات فيها، أو خوف الحجاب من الله تعالى. وكلّ هذه الأسباب مكروهة في نفسها ومختلف حال السالكين إلى الله فيها، وأعلاها رتبةً خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك وهو خوف العابدين والصالحين والزاهدين ومن لم تكمل معرفته بعد.

إذا عرفت ذلك فنقول: الخوف الذي أشار إليه عليه السلام من هذا القسم إذ خوف المحشر يشمل ما ذكرناه من أقسامه.

الثالث: كونهم بين شريد نادّ: أي مشردّ في البلاد مطرود إمّا لكثرة إنكاره المنكر أو لقلّة صبره على مشاهدة المنكر، وخائف مقموع وساكت مكعوم: أي كأنّ التقيّة سدّت فاه عن الكلام. وهو من باب الاستعارة، وداع مخلص لله وثكلان موجع إمّا لمصابه في الدين أو من كثرة أذى الظالمين. وهذا تفصيل حال آحاد المتّقين، ويحتمل أن يكون ذلك تفصيلاً لحالهم بالنسبة إلى خوف المحشر أي أنّ خوف المحشر أراق

دموعهم وفعل بكلّ واحد منهم ما ذكر عنه من الحالة التي هو عليها.

الرابع: كونهم قد أخملتهم التقيّة: أي تقيّة الظالمين وهو تأكيد لما سبق.

الخامس: كونهم قد شملتهم الذلّة: أي بسبب التقيّة.

السادس: كونهم في بحر أجاج، واستعار لفظ البحر بوصف الأجاج لما فيه من أحوال الدنيا الباطلة. ووجه المشابهة أنّ الدنيا كما لا تصلح للاقتناء والاستمتاع بها بل تكون سبباً للعذاب في الآخرة كذلك البحر لا يمكن سابحه إن بلغ به جهد العطش مبلغه شربه والتروّي به.

وقوله: أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة.

أي إنّهم لمّا فطموا أنفسهم عن لذّاتها ومخالطة أهلها فيما هم فيه من الانهماك فيها لا جرم كانت أفواههم ضامرة لكثرة صيامهم بعيدة العهد بالمضغ، وقلوبهم قرحةً جوعاً أو خوفاً من الله أو عطشاً إلى رحمته ورضوانه أو لما يشاهدونه من كثرة المنكرات وعدم تمكّنهم من إنكارها. ومن روى ضامزة بالزاى المعجمة أراد سكوتهم وقلّة كلامهم.

السابع: كونهم قد وعظوا حتّى ملّوا:

أي ملّوا وعظ الخلق لعدم نفعه فيهم.

الثامن: كونهم قد قهروا حتّى ذلّوا.

التاسع: كونهم قد قتلوا حتّى قلّوا: أي قتلهم الظالمون لعدم سلكهم في انتظامهم فإن قلت: كيف يقال قتلوا مع بقائهم؟ قلت: إسناد الفعل إلى الكلّ لوجود القتل في البعض مجازاً من باب إسناد حكم الجزء إلى الكلّ، ولأنّ الكلّ لمّا كان مقصوداً بالقتل كان كونهم مقتولين علّة غائيّة فجاز إسناد القتل إليهم وإن كان المقتول بعضهم.

وقوله: فلتكن الدنيا في أعينكم. إلى آخره.

أمر للسامعين باستصغار الدنيا واحتقارها إلى حدّ لا يكون في أعينهم ما هو أحقر منها فإنّ حثالة القرظ وقراضة الجلم في غاية الحقارة، والمراد من هذا الأمر. وغايته الترك لها فإنّ استحقار الشيء واستصغاره يستتبع تركه والإعراض عنه، ثمّ أمرهم بالاتّعاظ بالأمم السابقة فإنّ في الماضين عبرة لأولي الأبصار، ومحلّ الاعتبار ما كانوا فيه من نعيم الدنيا ولذّاتها والمباهاة بكثرة قيناتها ثمّ مفارقتهم لذلك كلّه بالموت وبقاء الحسرة والندامة للمستكثرين منها حجباً حائلة بينهم وبين الوصول إلى حضرة جلال الله، ونبّههم بقوله: قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم. على أنّهم مضطّرون إلى مفارقة ما هم فيه وسيصيرون عبرة لغيرهم. وفائدة الأمر بالاتّعاظ أيضاً الإعراض عنها والاقلاع وعدم الاغترار بها، ثمّ لمّا أمرهم بهذه الأوامر التي ليست صريحة في الترك أردف ذلك بالأمر الصريح بالترك فقال: وارفضوها ذميمة: أي أتركوا ما حاله الحقارة والذمامة، ثمّ نبّه بعده على ما يصلح علّة لتركها وهو عدم دوام صحبتها وثباتها لمن كان أحبّ منهم لها: أي ولو دام سرورها ونعيمها لأحد لدام لأحبّ الخلق لها وأحرصهم على المحافظة عليها فلمّا لم تدم لمن هو أشدّ حبّاً لها منكم فبالأولى أن لا تدوم لكم، وإذا كان طباعها رفض كلّ محبّ فالأحرى بذي المروّة اللبيب الترفّع والإعراض عمّن لا تدوم صحبته ولا تصفو محبّته. وبالله التوفيق.

٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصرة

قال عبد الله بن العباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من إمْرَتِكُمْ إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً، ثمّ خرج فخطب الناس فقال:

إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ. أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا: مَا ضَعُفْتُ وَلا جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا؛ فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ. مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ!

وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ!

أقول: ذو قار: موضع قريب من البصرة، وهو الموضع الذي نصرت فيه العرب على الفرس قبل الإسلام. ويخصف نعله: أي يخرزها. وبوّأهم: أسكنهم. والمحلّة: المنزلة. والنجاة: موضع النجاة. والقناة: الرمح، وعمود الظهر المنتظم للفقار. والصفاة: الحجر الأملس المنبسط. والساقة: جمع سائق. وتولّت بحذافيرها: أي بأسرها.

واعلم أنّه عليه السلام قدّم لنفسه مقدّمة من الكلام أشار فيها إلى فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله في مبعثه وهو سوقه للخلق إلى الدين والحقّ ليبني عليها فضيلة نفسه. وكانت غايته من ذلك توبيخ من خرج عليه من قريش والاستعداد عليهم.

فقوله: إنّ الله بعث محمّداً. إلى قوله: صفاتهم.

صدر الكلام. أشار فيه إلى فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله. والواوان الداخلتان على حرفي النفي للحال. فإن قلت: كيف يجوز أن يقال إنّه لم يكن أحد من العرب في ذلك الوقت يقرأ كتاباً وكانت اليهود يقرأون التوراة والنصارى الإنجيل. قلت: إنّ الكتاب الذي تدّعيه اليهود وتسمّيه في ذلك الوقت التوراة ليس هو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام فإنهم كانوا حرّفوه وبدّلوه فصار كتاباً آخر بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] وظاهر أنّه من حيث هو مبدّل ومحرّف ليس هو المنزّل على موسى عليه السلام، وأمّا الكتاب الذي تدّعي النصارى بقاءه في أيديهم فغير معتمد على نقلهم فيه لكونهم كفّاراً بسبب القول بالتثليث، وأمّا النافون للتثليث فهم في غاية القلّة فلا يفيد قولهم: إنّ ما في أيديهم هو إنجيل عيسى. علماً. فإذن لا يكون المقرر لهم حال مبعث محمّد صلى الله عليه وآله كتاباً هو من عند الله. سلّمناه لكن يحتمل أن يريد بالعرب جمهورهم فإنّ أكثرهم لم يكن له دين ولا كتاب وإنّما كان بعضهم يتمسّك بآثار من شريعة اسماعيل وبعضهم برسوم لهم.

وقوله: فساق الناس حتّى بوّأهم محلّتهم.

الإشارة بسوقه لهم إلى سوقه العقليّ لأذهانهم بحسب المعجزات إلى تصديقه فيما جاء به بحسب ما جاءهم من القرآن الكريم والسنّة النبويّة وإلى معرفة سبيل الله، ثمّ بحسب الترغيب لبعضهم والترهيب للبعض إلى سلوك تلك السبيل. فأصبحوا وقد تبوّأوا محلّتهم: أي منزلتهم ومرتبتهم التي خلقوا لأجلها، وكانت هي مطلوب العناية الأزليّة بوجودهم في هذا الدار وهي لزوم القصد في سبيل الله المسمّى إسلاماً وديناً وإيماناً وهو في الحقيقة المنجاة التي لا خوف على سالكها ولا سلامة للمنحرف عنها، وذلك معنى قوله: وبلّغهم منجاتهم.

وقوله: واستقامت قناتهم.

المراد بالقناة: القوّة والغلبة والدولة التي حصلت لهم مجازاً وهو من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب فإنّ الرمح أو الظهر سبب للقوّة والشدّة، ومعنى إسناد الاستقامة إليها انتظام قهرهم ودولتهم.

وقوله: واطمأنّت صفاتهم.

استعارة للفظ الصفاة لحالهم التي كانوا عليها، ووجه المشابهة أنّهم كانوا قبل الإسلام في مواطنهم وعلى أحوالهم متزلزلين لا يقرّ بعضهم بعضاً في موطن ولا على حال بل كانوا أبداً في الغارة والنهب والجلاء. فكانوا كالواقف على حجر أملس متزلزل مضطرب. فاطمأنّت أحوالهم وسكنوا في مواطنهم. كلّ ذلك بسبب مقدم محمّد صلى الله عليه وآله.

وقوله: أمّا والله إن كنت لفي ساقتها. إلى قوله: ولا جبنت.

تقرير لفضيلته. فأثبت لنفسه أنّه كان من ساقتها إلى أن تولّت بأسرها من غير عجز اعتراه ولا جبن، والضمير في ساقتها لكتائب الحرب وإن لم يجر لها ذكر صريح بل ما يحصل منه معنى الذكر وهو الناس فكأنّه قال: فساق الناس وهم يومئذ كتائب عليه فكنت في ساقتها حتّى تولّت ذلك الكتائب بأسرها لم يبق منها من يغالبه، وقد علمت أنّ السوق قد يكون سوق طرد وهزيمة، والأوّل هو غايته عليه السلام من السوق الثاني إذ لم يكن مقصوده من حروبه إلاّ السوق إلى الدين، ولمّا لم يمكن حصول

الهداية للخلق إلاّ بوجود النبي صلى الله عليه وآله، وإيضاح سبيل الحقّ كان ذبّه وطرده الكتائب حتّى تولّت بحذافيرها حماية عن النبي صلى الله عليه وآله وعن حوزة الدين أمراً واجباً لا لذاته لكن لغرض تمام الهدى الذي هو غاية وجود النبي صلى الله عليه وآله.

وقوله: ما عجزت [ما ضعفت خ] ولا جبنت.

تمام لإثبات الفضيلة المذكورة له، وتقرير لما علم من شجاعته، وتأكيد لعدم العجز والجبن الذي هو طرف التفريط من فضيلة الشجاعة.

وقوله: وإنّ مسيري هذا لمثلها.

أي لمثل تلك الحال التي كنت عليها معهم زمان كفرهم من سوق كتائبهم وطردها من غير جبن ولا ضعف. وهو في معنى التهديد الذي عساه أن يبلغ خصومه وتقوى به نفوس أوليائه، أيضاً في معنى التهديد، وتنبيه على ما عليه خصومه من الباطل.

وقوله: مالي ولقريش.

استفهام على سبيل الإنكار لما بينه وبينهم ممّا يوجب الاختلاف وجحد فضيلته، وحسم لاعذارهم في حربه.

وقوله: والله لقد قاتلتهم كافرين.

إظهار للمنّة عليهم بسوقه لهم إلى الدين أوّلا وتعيير لهم بما كانوا عليه من الكفر ليعترفوا بفضيلته ونعمة الله عليهم به وليخجلوا من مقابلته بالباطل وهو إظهار الإنكار عليه إذ كانوا أولى بإتيان المكر منه وهو أولى بردّهم عنه آخراً كما كان أوّلاً. وكذلك قوله: وقاتلتهم مفتونين. على أحد الروايتين، وأمّا على رواية ولأقاتلنّهم مفتونين فهو تهديد بأن يوقع بهم القتال على فتنتهم وضلالتهم على الدين. وكافرين ومفتونين نصباً على الحال، وفي ذكر هذين الحالين تنبيه على علّة قتاله لهم في الحالتين وهو طلبه لاستقامتهم على الدين ورجوعهم إلى الحقّ عن الضلال وإغراء السامعين بهم.

وقوله: وإنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم.

إشارة إلى أنّه لم تتغيّر حالته التي بها قاتلهم كافرين، وفائدته تذكير الخصم الآن بابتلاء الكفّار به في ذلك الوقت ليتقهقروا عن محاربته إذ في تذكّر وقائعه في بدو الإسلام وشدّة بأسه ما تطير منه القلوب وتقشعّر منه الجلود. وقد نقلت في تمام هذه الخطبة في بعض النسخ:

لتضجّ قريش ضجيجها إن تكن فينا النبوّة والخلافة، والله ما أتينا إليهم إلاّ أنّا اجترأنا عليهم.

وذلك إشارة إلى السبب الأصليّ لخروج طلحة والزبير وغيرهما من قريش عليه. وهو الحسد والمنافسة إن تكن الخلافة والنبوّة في بني هاشم دونهم. والضجيج: الصراخ القويّ. وهو كناية عن أشدّ مخاصماتهم ومنافراتهم معه على هذا الأمر.

تأكيد لما نسبه إليهم من سبب الخروج بالقسم البارّ على أنّه لم يكن الباعث لهم على قتاله أو على حسده والبغي عليه أمراً من قبله سوى الاجتراء عليهم أي الشجاعة والإقدام عليهم في منعهم عمّا يريدون من قول أو فعل لا تسوّغه الشريعة فإنّه لمّا لم يكن ذلك في الحقيقة إساءة في حقّهم يستحقّ بها المكافأة منهم بل إحسان وردع عن سلوك طرق الضلال تعيّن أنّ السبب في الخروج عليه ونكث بيعته هو الحسد والمنافسة. وبالله التوفيق.

٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام

في استنفار الناس إلى أهل الشام

أُفٍ لَكُمْ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً؟ وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً؟ إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ، يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ، فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ، فَأَنْتُمْ لا تَعْقِلُونَ. مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلا زَوَافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ. مَا أَنْتُمْ إِلاّ كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ. لَبِئْسَ - لَعَمْرُ اللهِ -

سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! تُكَادُونَ وَلا تَكِيدُونَ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلا تَمْتَعِضُونَ؛ لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ، غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ! وَايْمُ اللهِ إِنِّي لأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ. وَاللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذٰلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَا يَشَاءُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعَلَّمُوا، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالمغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ.

أقول: روي أنّه عليه السلام خطب بهذه الخطبة بعد فراغه من أمر الخوارج وقد كان قام بالنهروان فحمد الله وأثنى عليه وقال: أمّا بعد، فإنّ الله تعالى قد أحسن بناصرتكم فتوجّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم من أهل الشام. فقالوا له: قد نفدت نبالنا وكلّت سيوفنا ارجع بنا إلى مصرنا لنصلح عدّتنا، ولعلّ أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منّا لنستعين به. فأجابهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] الآية فتلكّأوا عليه وقالوا: إنّ البرد شديد. فقال: إنّهم يجدون البرد كما تجدون أفّ لكم ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] الآية. فقام منهم ناس واعتذروا بكثرة الجراح في الناس وطلبوا أن يرجع بهم إلى الكوفة أيّاماً، ثمّ يخرج بهم. فرجع بهم غير راض وأنزلهم نخيلة. وأمرهم أن يزمّلوا معسكرهم ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم ويقلّوا زيارة أهلهم. فلم يقبلوا وجعلوا يتسلّلون ويدخلون الكوفة حتّى لم يبق معه إلاّ القليل منهم. فلمّا رأى ذلك دخل الكوفة فخطب الناس. فقال: أيّها الناس استعدّوا لقتال عدوّ في جهادهم القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده قوم حيارى عن الحقّ لا ينصرونه، موزعين بالجور والظلم لا يعدلون به. جفاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون في الطغيان، ويتسكّعون في غمرة الضلال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] قال: فلم ينفروا. فتركهم أيّاماً ثمّ خطبهم هذه الخطبة فقال: أفّ لكم. الفصل.

أفّ: كلمة تضجّر من الشيء. وغمرات الموت: سكراته التي يغمر فيها العقل. والذهول: النسيان والسهو. ويرتج عليكم: أي يغلق. والحوار: المخاطبة. وتعمهون: تتحيّرون وتترددون. والمألوس: المجنون والمختلط العقل. سجيس الليالي وسجيس الأوجس: أي أبدا مدى الليالي. والزوافر: جمع زافرة، وزافرة الرجل أنصاره وعشيرته. وسعر: جمع ساعر، وإسعار النار تهييجها وإلهابها. والامتعاض: الغضب. وحمس الوغى: اشتداد الحرب وجلبة الأصوات. وعرقت اللحم أعرقه: إذا لم أبق على العظم منه شيئاً. والمشرفية: سيوف منسوبة إلى مشارف: قرى من أرض العرب تدنو من الريف. وفراش الهام: العظام الرقيقة تلي القحف.

واعلم أنّه عليه السلام لمّا أراد استنفارهم إلى الحرب - وكانوا كثيراً ما يتثاقلون عن دعوته - استقبلهم بالتأنيف والتضجّر بما لا يرتضيه من أفعالهم.

وقوله: لقد سئمت عتابكم.

تفسير لبعض ما تأنف منه.

وقوله: أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذلّ من العزّ خلفاً.

استفهام على سبيل الإنكار عليهم يستلزم الحثّ على الجهاد فإنّ الجهاد لمّا كان مستلزماً لثواب الآخرة ولعزّة الجانب، وخوف الأعداء، والقعود عنه يستلزم في الأغلب السلامة في الدنيا والبقاء فيها لكن مع طمع العدوّ فيهم وذلّتهم له كانوا بقعودهم عنه كمن اعتاض

الدنيا من الآخرة، واستخلف الذلّ من العزّة. وذلك ممّا لا يرضى به ذو عقل سليم. وعوضاً وخلفاً منصوبان على التميز.

قوله: إذا دعوتكم إلى جهاد عدوّكم. إلى قوله: لا تعقلون.

تبكيت لهم وتوبيخ برذائل تعرض لهم عند دعائه لهم إلى الجهاد.

الأولى: بأنّه تدور أعينهم حيرة وتردّداً وخوفاً من أحد أمرين: إمّا مخالفة دعوته، أو الإقدام على الموت. وفي كلا الأمرين خطر. ثمّ شبّه حالتهم تلك في دوران أعينهم وحيرتهم بحال المغمور في سكرات الموت، الساهي فيه عن حاضر أحواله، المشغول بما يجده من الألم. ونحوه قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

الثانية: أنّه يرتج عليهم حواره، ويرتج في موضع الحال وتعمهون عطف عليه أي يرتج عليكم فيتحيّرون. ثمّ شبّه حالهم عند دعائه إلى الجهاد تشبيهاً ثانياً بحال من اختلط عقله أي أنّهم في حيرتهم وتردّدهم في جوابه كمختلط العقل ما يفقه ما يقول.

الثالثة: أنّهم ليسوا له بثقة أبداً. وهو وصف لهم برذيلة الخلف والكذب المستلزم لعدم ثقته بأقوالهم.

الرابعة: كونهم ليسوا بركن يميل به المستند إليه في خصمه. يقال: فلان ركن شديد. استعارة له من ركن الجبل وهو جانبه لما بينهما من المشاركة في الشدّة وامتناع المعتصم به. ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي قويّ يمنعني منكم وهو وصف بالتخاذل والعجز.

الخامسة: ولا زوافر عزّ يفتقر إليهم. وهو وصف لهم برذيلة الذلّ والحقارة.

السادسة: تشبيههم بإبل ضلّ رعاتها، والإيماء إلى وجه الشبه وهو أنّها كلّما جمعت من جانب انتشرت من جانب. إشارة إلى أنّهم ضعيفوا العزوم متشتّتوا الآراء لا يجتمعون على مصلحة بها يكون نظام أحوالهم في الدارين. وقد علمت أنّ ذلك من نقصان القوّة العلميّة فكانوا منها على رذيلة البله.

السابعة: كونهم ليسوا بسعر نار الحرب: أي ليسوا من رجالها. وذلك أنّ مدار الحرب على الشجاعة والرأي. وقد سبقت منه الإشارة إلى ذمّهم بالفشل وضعف الرأي. فإذن ليسوا من رجال الحرب، ولمّا استعار لهيجان الحرب لفظ النار لما يستلزمانه من الأذى الشديد رشّح تلك الاستعارة بذكر الإسعار ووصف رجالها به.

الثامنة: كونهم يكادون ولا يكيدون: أي يخدعون ويمكر بهم عدوّهم في إيقاع الحيلة، وليس لهم قوّة المكر والحيلة به. وذلك أيضاً من رذيلة ضعف الرأي.

التاسعة: كونهم تنقص أطرافهم فلا يمتعضون: أي يغار العدوّ في كلّ وقت على بعض بلادهم فيحوزها فلا يشقّ ذلك عليكم ولا يدرككم منه أنفة ولا حميّة، وهو وصف لهم برذيلة المهانة.

العاشرة: كونهم في غفلة ساهون مع انتباه عدوّهم. وهو وصف لهم برذيلة الغفلة أيضاً عمّا يراد بهم، وقلّة عقليّتهم لمصالح أنفسهم، وكلّ هذا التوبيخ تثقيف لهم وتنبيه لنفوسهم الراقدة في مراقد طبائعها على ما ينبغي لهم من المصالح التي يكون بها نظام أحوالهم على قانون الدين.

وقوله: غلب والله المتخاذلون.

تنبيه على أنّهم بتخاذلهم سيغلبون. وأورد الغلب المطلق بعلّة التخاذل لأنّهم للحكم العامّ أشدّ قبولاً منهم له على أنفسهم إذ لو خصّصهم به فقال غلبتم والله أو تخاذلتم لم يكن وقعه في الذوق كوقعه عامّاً.

وقوله: وأيم الله. إلى قوله: انفراج الرأس.

أقسم أنّه ليظنّ بهم أنّهم عند اشتداد الحرب وحرارة الموت ينفرجون عنه انفراج الرأس: أي يتفرّقون أشدّ تفريق. وانفراج الرأس مثل. قيل: أوّل من تلكّم به أكثم بن صيفي في وصيّة له: يا بني لا تنفرجوا عند الشدائد انفراج الرأس فإنّكم بعد ذلك لا تجتمعون على عزّ. وفي معناه أقوال.

أحدها: قال ابن دريد: معناه أنّ الرأس إذا انفرج عن البدن لا يعود إليه ولا يكون بعده اتّصال وذلك أشدّ انفراج.

الثاني: قال المفضّل: الرأس اسم رجل ينسب إليه قرية من قرى الشام يقال لها بيت الرأس وفيها يباع الخمر. قال حسّان: كان سببه من بيت رأس يكون مزاجها عسلاً وماء.

وهذا الرجل قد انفرج عن قومه ومكانه فلم يعد إليه فضرب به المثل في المباينة والمفارقة.

الثالث: قال بعضهم: معناه أنّ الرأس إذا انفرج بعض عظامه عن بعض كان ذلك بعيد الالتيام والعود إلى الصحّة.

الرابع: قال بعضهم: معناه انفرجتم عنّي رأساً أي بالكلّيّة.

الخامس: قيل معناه: انفراج من يريد أن ينجو برأسه.

السادس: قيل معناه: انفراج المرأة عن رأس ولدها حالة الوضع فإنّه يكون في غاية من الشدّة وتفرّق الاتّصال والانفراج. ونحوه قوله عليه السلام في موضع آخر: انفراج المرأة عن قبلها، وعلى كلّ تقدير فمقصوده شدّة انفصالهم وتفرّقهم عنه لهم أحوج ما يكون إليهم، واستحرار الموت يحتمل أن يراد به شدّته الشبيهة بالحرارة مجازاً كما سبق، ويحتمل أن يراد به خلوصه وحضوره فيكون اشتقاقه من الحريّة، والجملة الشرطية خبر أن المخفّفة من المثقّلة. واسمها الضمير الشأن وهي مع اسمها وخبرها قائمة مقام مفعولي ظنّ، وفيه توبيخ لهم على التقصير البالغ في حقّه إلى حدّ أن يظنّ بهم الظنّ المذكور.

وقوله: والله إنّ امرءاً. إلى قوله: إن شئت.

من لطيف الحيلة في الخطاب الموجب للانفعال عنه؛ وذلك أنّه صوّر لهم أفعالهم من التخاذل على العدوّ والضعف وسائر أفعالهم المذمومة الّتي ألفوا التوبيخ والتعنيف بعبارة تريهم إيّاها في أقبح صورة وأشدّها كراهة إليهم وأبلغها نكاية فيهم وهو تمكينهم للعدوّ من أنفسهم فإنّ أفعالهم من التخاذل ونحوه. وهي بعينها تمكين للعدوّ فيما يريد بهم وإعداد له وتقوية لحاله، ولمّا كان من عادة ظفر العدوّ احتياج المال والقتل وتفريق الحال كنّى عن الأوّل بقوله: يعرق لحمه، ووجه استعارة عرق اللحم لسلب المال بكلّيّته ظاهر، وكذلك كنّى عن القتل وسائر أسباب الهلاك من فعل العدوّ بهشم العظم، وعن تمزيق الحال المنتظم بفري الجلد. ثمّ لمّا كان من البيّن أنّ تخاذلهم تمكين لعدوّهم منهم وكان تمكين الإنسان لعدوّ من نفسه يفعل به الأفعال المنكرة لا يكون إلّا عن عجز عظيم وضعف في القلب عن مقاومته لا جرم أثبت العجز وضعف القلب لامرىء مكن عدوّه من نفسه وأكّد ذلك بأنّ، وبالقسم البارّ، وكنّى بضعف القلب عن الجبن وأتى بذلك الإثبات على وجه عامّ لكلّ امرئ فعل ذلك ولم يخصّهم بالخطاب ولا نسب تمكين العدوّ إليهم صريحاً وإن كانوا هم المقصودين بذلك رجاء لنفارهم عن الدخول تحت هذا العموم بالانقياد لأمره والجهاد. ثمّ أردفه بالأمر أن يكونوا ذلك المرء الذي وصفه بما وصفه أمراً على سبيل التهديد والتنفير، وذلك قوله: أنت فكن ذاك إن شئت. أي ذاك المرء الموصوف بالعجز والضعف. خطاب للشخص المطلق الصادق على أي واحد منهم كان وأمر له أن يكون بصفة المرء الموصوف أو لا تنفيراً له عمّا ذكره ممّا يلزم الإنسان من الأحوال الرديئة عند تمكينه عدوّه من نفسه وروي: أنّه خاطب بقوله: أنت فكن ذاك. الأشعث ابن قيس. فإنّه روي: أنّه قال وهو يخطب ويلوم الناس عن تقاعدهم عن الحرب: هلاّ فعلت فعل ابن عفان فقال عليه السلام له: إنّ فعل ابن عفان مخزاة على من لا دين له ولا وثيقة معه، وإنّ امرءً أمكن عدوّه من نفسه يهشم عظمه ويفري جلده لضعيف رأيه ما فوق عقله أنت فكن ذاك إن شئت. الفصل.

وقوله: فأمّا أنا. إلى قوله: ما يشاء.

لما خيّرهم أن يكونوا ذلك المرء على سبيل التهديد أردف ذلك بالتبرّؤ من حال المرء المذكور ليكون لهم به عليه السلام أسوة في النفار عن تمكين العدوّ من أنفسهم إلاّ بعد بذل النفس في الجهاد أي على تقدير اختيار المخاطب تلك الحال فإنّه هو لا يختار ذلك الحال بل دون أن يعطي عدوّه من نفسه ذلك التمكين ضرب بالمشرفيّة يطير منه الهام وتطيح منه السواعد والأقدام، وكلّ ذلك كناية عن أشدّ المجاهدة، ويفعل الله بعد ذلك

الجهاد والمناجزة ما يشاء من تمكين العدوّ أو عدم تمكينه فإنّ إليه مصير الأمور وعواقبها.

وقوله: أيّها النّاس. إلى آخره.

ذكر ما لهم عليه من الحقّ وما له عليهم منه ليعرفهم أنّه أدّى ما عليه من الواجب لهم فينبغي لهم أن يخرجوا إليه من واجب حقّه الذي فرض الله عليهم فبدأ ببيان حقّهم عليه أدباً واستدراجاً لطباعهم فإنّ البداءة بحقّ الغير قبل حقّ النفس أليق بالأدب وهم لسماعه أقبل. فذكر منها أربعة أمور بها يكون صلاح حالهم في الدارين:

أحدها: النصيحة لهم وهي حثّهم على مكارم الأخلاق وجذبهم إلى ما هو الأليق بهم في معاشهم ومعادهم.

الثاني: توفير فيئهم عليهم بترك ظلمهم فيه وتفريقه في غير وجوهه ممّا ليس بمصلحة لهم كما نسبوه إلى من كان قبله.

الثالث: تعليمهم كيلا يجهلوا. وإنّما لم يقل كيما يعلموا لأنّ ظهور المنّة عليهم بذكر نفي الجهل عنهم أشدّ من ظهورها في ذكر عرض إيجاد العلم لهم ولذلك كان تأذّي الرجل وأنفته من أن يقال له: يا جاهل، أشدّ بكثير من نفار من يقال له: لست بعالم.

الرابع: تأديبهم كيما يعلموا. فهذه الأمور الأربعة هي الواجبة على الإمام للرعيّة واحد منها يرجع إلى صلاح أبدانهم وقوامها: وهو توفير فيئهم عليهم بضبطه، وعدم التصرف فيه لغير وجوه مصالحهم. وإثنان يرجعان إلى صلاح حال نفوسهم إمّا من جهة إصلاح القوّة النظريّة: وهو التعليم لغرض العلم، أو من جهة إصلاح القوّة العمليّة وهو التأديب لغرض العمل، وواحد مشترك بين مصلحتي البدن والنفس ونظام أحوالهما وهو النصيحة لهم. ثمّ أردف ذلك ببيان حقّه عليه السلام وذكر أيضاً أربعة.

الأوّل: الوفاء بالبيعة وهي أهمّ الأمور إذ بها النظام الكلّي الجامع لهم معه.

الثاني: النصيحة له في غيبته وحضوره والذبّ عنه إذ بذلك نظم شمل المصلحة بينهم وبينه أيضاً.

الثالث: إجابته حين يدعوهم من غير تثاقل عن ندائه فإنّ للتثاقل عن دعوته ما علمت من قهر العدوّ. وغلبته عليهم وفوات مصالح عظيمة.

الرابع: طاعتهم له حين يأمرهم، وظاهر أنّ شمل المصلحة لا ينتظم بدون ذلك. وأنت تعلم بأدنى تأمّل أنّ هذه الأمور الأربعة وإن كانت حقوقاً له عليهم إلاّ أنّه إنّما يطلبها منهم لما يعود عليهم به من النفع في الدنيا والآخرة، فإنّ الوفاء ملكة تحت العفّة والنصيحة له سبب لانتظام أمورهم به وإجابة دعوته إجابة لداعي الله الجاذب إلى الخير والمصلحة، وكذلك طاعة أمره طاعة لأمر الله إذ هو الناطق به، وقد علمت ما تستلزمه إطاعة الله من الكرامة عنده. وبالله التوفيق والعصمة.

٣٥ - ومن خطبة له عليه السلام

بعد التحكيم:

الْحَمْدُ للهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَى الْغَدِ

أقول: روي أنّ عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري لمّا التقيا بدومة الجندل وقد حكما في أمر الناس كان عليّ يومئذ قد دخل الكوفة ينتظر ما يحكمان به. فلمّا تمّت خدعة عمرو لأبي موسى وبلغه ذلك عليه السلام اغتمّ له غمّاً شديداً ووجم منه وقام فخطب الناس.

فقال: الحمد لله. الفصل. وزاد بعد الاستشهاد ببيت دريد في بعض الروايات: ألا إنّ هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب وأحييا ما أمات واتّبع كلّ واحدٍ منهما هواه وحكم بغير حجّة ولا بيّنة ماضية واختلفا فيما حكما فكلاهما لم يرشدا الله. فاستعدّوا للجهاد وتأهّبوا للمسير وأصبحوا في معسكركم يوم كذا. وأمّا قصّة التحكيم وسببها فمذكور في التواريخ.

والخطب: الأمر العظيم. وفدحه الأمر: إذا عاله وأبهظه. والجافي: خشن الطباع الذي ينبو طبعه عن المؤانسة فيقاطع ويباين.

فقوله: الحمد لله. إلى قوله: الجليل.

قد عرفت نسبة الخير والشرّ إلى الدهر على أيّ وجه هي، ومراده أحمد الله على كلّ حال من السرّاء والضرّاء. وإن هنا للغاية. ويفهم من هذا الصدر وقوع الخطب الفادح وهو ما وقع من أمر الحكمين. وحمد الله عليه.

وقوله: ليس معه إله غيره.

تأكيد لمعنى كلمة التوحيد وتقريرٌ لمقتضاها.

وقوله: أمّا بعد. إلى قوله: الندامة.

القيود الأربعة التي ذكرها من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قبوله: أمّا كونه ناصحاً فلأنّ الناصح يصدق الفكر ويمحض الرأي وغير الناصح ربّما يشير بفطير الرأي فيوقع في المضرّة، وأمّا كونه شفيقاً فلأنّ الشفقة تحمل على النصح فتحمل على حسن التروّي في الأمر وإيقاع الرأي فيه من تثبّت واجتهاد. والباعث على هذين - أعني النصح والشفقة - إمّا الدين أو محبّة المستشير، وأمّا كونه عالماً ففائدته إصابته لعلمه وجه المصلحة في الأمر فإنّ الجاهل أعمى ولا يبصر وجه المصلحة فيه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا، وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمّد: احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوة العدوّ العاقل فإنّه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك أن يورّطك شور الجاهل، وأمّا كونه مجرّباً فلأنّه لا يتمّ رأي العالم ما لم ينضمّ إليه التجربة. وذلك أنّ العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر إلاّ أنّ ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد لا يطّلع عليه إلاّ بالتجربة مرّة ومرّة فالمشورة من دون تجربة مظنّة الخطأ، وقيل في منثور الحكم: كلّ شيء محتاج إلى العقل والعقل محتاج إلى التجارب. وإذا عرفت أنّ طاعة المشير الموصوف بالصفات المذكورة مستلزمة في أغلب الأحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز به لا جرم كان معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة.

وقوله: وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري.

لمّا قدّم أنّ معصية المشير المذكور تعقب الحسرة والندامة أردف ذلك ببيان أنّه هو المشير وأنّه أشار عليهم فخالفوه ليتّضح لهم أنّهم عصوا مشيراً قد استكمل شرائط الرأي فيتوقّعوا الندم على معصيته.

وقوله: ونخلت لكم مخزون رأيي.

استعارة للفظ النخل لاستخلاص أسدّ آرائه وأجودها لهم بحسب اجتهاده، ووجه المشابهة أنّ أجود ما ينتفع به ممّا ينخل من دقيق ونحوه هو المنخول كذلك الرأي أجوده وأنفعه ما استخلص وصفي من كدورات الشهوة والغضب.

وقوله: لو كان يطاع لقصيرٍ أمر.

مثلٌ. وقصير هذا هو قصير بن سعد اللخميّ مولى جذيمة الأبرش بعض ملوك العرب. وأصل المثل أنّ جذيمة كان قتل أبا الزباء ملكة الجزيرة فبعثت إليه عن حين ليتزوّج بها خدعة وسألته القدوم فأجابها إلى ذلك، وخرج في ألف فارس وخلّف باقي جنوده مع ابن أخته عمرو بن عديّ، وكان قصير أشار إلى جذيمة أن لا يتوجّه إليها فلم يقبل رأيه فلمّا قرب جذيمة من الجزيرة استقبله جنود الزباء بالعدّة ولم ير منهم إكراماً له فأشار عليه قصير بالرجوع عنها، وقال: إنّها امرأة ومن شأن النساء الغدر. فلم يقبل. فلمّا دخل إليها غدرت به وقتلته. فعندها قال قصير: لا يطاع لقصير أمر. فذهبت مثلاً لكلّ ناصح عصي وهو مصيب في رأيه. وقد يتوهّم أنّ جواب لو هاهنا متقدّم، والحقّ أنّ جوابها محذوف والمعنى يتّضح بترتيب الكلام، والتقدير إنّي كنت أمرتكم أمري في هذه الحكومة ونصحت لكم فلو

أطعتموني لفعلتم ما أمرتكم به ومحضت لكم النصيحة فيه، فقولنا: لفعلتم هو تقدير الجواب، وممّا ينبّه عليه أنّ قوله: فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة. وهو في تقدير استثناء نقيض ذلك التالي، وتقديره لكنّكم أبيتم عليّ إباء من خالف الأمر وجفا المشير وعصاه حتّى شكّ في نصحه هل كان صواباً أو خطأ. وهذا الحكم حقّ فإنّ المشير بالرأي الصواب إذا كثر مخالفوه فيه قد يتّهم نفسه في صحّة ذلك الرأي وصوابه لأنّ استخراج وجه المصلحة في الأمر أمر اجتهاديّ يغلب على الظنّ بكثرة الأمارات اللائحة للمشير فإذا جوّز المشير أن يكون خلاف ما رآه هو، المصلحة فلا مانع إذن أن يعرض لغيره، أمارات أخرى يغلب على ظنّه أنّ ما رآه هو ليس بمصلحة فيعارض بها ما رآه الأوّل حقّاً ويخالفه في رأيه فإذا كثرت تلك المخالفة من جمع عظيم جاز أن يتشكّك الإنسان فيما ظنّه من المصلحة أنّه ليس بمصلحة وأنّ الأمارات التي اقتضت ذلك الظنّ غير صحيحة فلذلك قال عليه السلام: حتّى ارتاب الناصح بنصحه. وعنى بالناصح نفسه أو من رأى رأيه لإطباق أكثر أصحابه على مخالفتهم، وقال بعض الشارحين: يحمل ذلك على المبالغة لأنّه عليه السلام منزّه عن أن يشكّ فيما يراه صواباً بعد شوره به.

وقوله: وضنّ الزند بقدحه.

وقيل: هو مثل يضرب لمن يبخل بفوائده إذا لم يجد لها قابلاً عارفاً بحقّها أو لم يتمكّن من إفادتها فإنّ المشير إذا اتّهم واستغشّ أو خطّئ في رأيه ربما لا ينقدح له بعد ذلك رأي صالح لحكم الغضب عليه من جهة مخالفته وعدم قبول رأيه. ولمّا كان غرضه أن يقرّر عليهم الندامة في مخالفة رأيه ويريهم ثمرة عصيان أمره الصادر عن معاينة وجه المصلحة كما هو قال: فكنت وإيّاكم كما قال أخو هوازن: أمرتهم أمري. البيت، وهو لدريد ابن الصمة من قصيدة له في الحماسة أوّلها:

نصحت لعارض وأصحاب عارض
ورهط بني السوداء والقوم شهّد

وقصّته في هذه القصيدة أنّ أخاه عبد الله بن الصمة غزا بني بكر ابن هوازن بن غطفان فغنم منهم واستاق إبلهم فلمّا كان بمنعجر اللوى قال: لا والله لا أبرح حتّى أنحر البقيعة وهي ما ينحر من النهب قبل القسمة، وأحيل السهام. فقال له أخوه دريد: لا تفعل. فإنّ القوم في طلبك. فأبى عليه وأقام ونحر البقيعة وبات فلمّا أصبح هجم القوم عليه وطعن عبد الله بن صمة فاستغاث بأخيه دريد فنهنه عنه القوم حتّى طعن هو أيضاً وصرع وقتل عبد الله وحال الليل بين القوم فنجا دريد بعد طعنات وجراح حصل له فقال القصيدة، وإنّما قال عليه السلام: أخو هوازن. لنسبته إليهم فإنّ دريداً ابن الصمة ابن بني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] لنسبته فيهم وكذلك قال لهم أخوهم لوط ويكفي في إطلاق لفظ الأخّة مجازاً مجرّد الاتّصال بهم والملابسة لهم وقد عرفت ذلك، ووجه تمثّله عليه السلام بالبيت: إنّي كنت وإيّاكم في نصيحتي ونهيي من الحكومة ومخالفتكم أمري المستلزمة لندامتكم على التفريط كهذا القائل مع قومه حيث نصح لهم فعصوه فلحقهم من الندامة الهلاك.

واعلم أنّ الذي كان أشار به على أصحابه: هو ترك الحكومة والصبر على قتال أهل الشام. ومجمل السبب أنّ أمارات الغلبة ليلة الهرير كانت لائحة على أهل الشام فلمّا عاينوا الهلاك استشار معاوية بعمرو بن العاص في كيفيّة الخلاص فقال عمرو: إنّ رجالك لا تقوم لرجاله، ولست مثله إنّه يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره وأنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم؛ ولكن ألق إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا: ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنّك بالغ به حاجتك فإنّي لم أزل أدّخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه فعرف معاوية ذلك فلمّا أصبحوا رفعوا المصاحف على أطراف الرماح وكان عددها خمس مائة مصحف ورفعوا مصحف المسجد الأعظم على ثلاثة رماح مشدودة يمسكها عشرة رهط ونادوا بأجمعهم: الله الله معشر العرب في النساء والبنات الله الله دينكم هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال عليه السلام: اللّهم إنّك تعلم أنّهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا

وبينهم إنك أنت الحكم الحقّ المبين، وحينئذ اختلف أصحابه فقالت طائفة: القتال القتال، وقال أكثرهم: المحاكمة إلى الكتاب ولا يحلّ لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب وتنادوا من كلّ جانب الوادعة فقال عليه السلام في جوابهم: أيّها الناس إنّي أحقّ من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنّي أعرف بهم منكم صحبتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شرّ صغار وشرّ رجال ويحكم إنّها كلمة حقّ يراد بها الباطل إنّهم ما رفعوها إنّهم يعرفونها ولا يعملون بها ولكنّها الخديعة والمكيدة والوهن أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعةً واحدة فقد بلغ الحقّ مقطعه ولم يبق إلاّ أن يقطع دابر القوم الظالمين، فجاءه عشرون ألفاً من أصحابه ونادوه باسمه دون إمرة المؤمنين: أجب اليوم إلى كتاب الله إذا دعيت وإلاّ قتلناك كما قتلنا عثمان. فقال عليه السلام: ويحكم أنا أوّل من أجاب إلى كتاب الله، وأوّل من دعا إليه فكيف لا أقبله وإنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ولكني قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم وليس العمل بالقرآن يريدون. فقالوا: ابعث إلى الأشتر يأتيك. وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد اشرف على عسكر معاوية ليدخله ولاح له الظفر فبعث إليه فرجع على كره منه ووقع بينه وبين من أجاب إلى الحكومة من أصحاب عليّ عليه السلام مسابّ ومجادلات على ما اختاروا من ترك الحرب وتنادوا من كلّ جانب رضي أمير المؤمنين بالتحكيم وكتبوا عهداً على الرضا به، وسنذكر كيفيته إجمالاً إن شاء الله تعالى. وبالله التوفيق.

٣٦ - ومن خطبة له عليه السلام

(في تخويف أهل النهروان)

فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هٰذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هٰذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هٰذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ؛ وَلَمْ آتِ - لا أَبَا لَكُمْ - بُجْراً، وَلاَ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً.

أقول: الخطاب للخوارج الذين قتلهم عليه السلام بالنهروان، وقد كان القضاء الإلهي سبق فيهم بما كان منهم من الخروج. روي في صحيح الأخبار أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بينا هو يقسم قسماً جاءه رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة فقال: اعدل يا محمّد، فقال صلى الله عليه وآله: قد عدلت. فقال له ثانية: اعدل يا محمّد فإنك لم تعدل. فقال صلى الله عليه وآله: ويلك من يعدل إذا لم أعدل. فقام عمر وقال: يا رسول الله ائذن لي في ضرب عنقه. فقال: دعه فسيخرج من ضنضيء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرجون على خير فرقة من الناس تحتقر صلاتكم عند صلاتهم وصومكم عند صومهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم فيهم رجل أسود مخدج اليد، إحدى يديه كأنّها ثدي امرأة أو بضعة يقتله أولى الفريقين بالحقّ. وفي مسند أحمد عنه عن مسروق قال: قالت لي عائشة: إنّك من ولدي وأحبّهم إليّ فهل عندك علم من المخدج؟ فقلت: نعم، قتله علي بن ابي طالب على نهر يقال لأعلاه تأمر ولأسفله النهروان بين لخاقيق وطرفاء. فقالت: ائتني على ذلك بيّنة. فأقمت على ذلك رجالاً شهدوا عندها بذلك ثمّ قلت لها: سألتك بصاحب القبر ما الذي سمعت منه فيهم. فقالت: سمعته يقول: إنّهم شرّ الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة. وأقربهم عند الله وسيلة. فأمّا سبب خروج هؤلاء القوم فهو أنّه عليه السلام لمّا قهره أصحابه على التحكيم وأظهروا عنه الرضى به بعد أنّ حذّرهم ووعظهم فلم يلتفتوا كتبوا كتاب التحكيم وأخذه الأشعث بن قيس فطاف به على أصحاب معاوية فرضوا به، وطاف به على أصحاب علي فرضوا به حتّى مرّ برايات عنزة وكان مع علي عليه السلام منهم بصفّين أربعة آلاف فارس فلمّا قرأ الكتاب عليهم قال فتيان منهم: لا حكم إلاّ لله ثمّ حملا على أصحاب معاوية فقتلا فهما أوّل من حكم، ثمّ مرّ على مراد، ثمّ على رايات بني راسب، ثمّ على بني تميم فكلّ فرقة قرأه عليهم قالوا: لا

حكم إلاّ لله لا نرضى ولا نحكّم الرجال في دين الله، فرجع الأشعث فأخبر عليّاً عليه السلام بذلك فاستصغر أمرهم وظنّ أنّهم قليلون، فلمّا بلغهم أمر الحكمين ما راعه إلاّ والناس يتنادون من كلّ جانب لا حكم إلاّ لله الحكم لله يا علي لا لك وقد كنّا أخطأنا حين رضينا بالحكمين فرجعنا إلى الله وتبنا فارجع أنت وتب إلى الله كما تبنا وإلاّ برئنا منك. فأبى عليه السلام الرجوع، وقال: وَيْحَكُم، أبعد العهد نرجع؟ فما نصنع بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] الآية وأبت الخوارج إلاّ تضليل التحكيم والطعن فيه فبرئوا من علي وبرئ منهم ثمّ كان اجتماعهم بحرور فسمّاهم عليه السلام لذلك الحروريّة فناظرهم بها فرجع منهم ألفان ثمّ مضوا إلى النهروان وكان أميرهم يومئذ عبد الله بن الكوّا، وحين القتال عبد الله ابن وهب الراسبي فسار إليهم فخطبهم وقال: نحن أهل بيت النبوّة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة، أيّها القوم إنّي نذير لكم. الفصل، وروي أنّه عليه السلام لمّا قتلهم طلب ذو الثدية فيهم طلباً شديداً فلم يجده فجعل يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، اطلبوا الرجل وإنّه لفي القوم. فلم يزل يطلبه حتّى وجده في وهدة من الأرض تحت القتلى وهو رجل مخدج اليد كأنّها ثدي في صدره وعليها شعرات كسبال الهرّة فكبّر علي عليه السلام وكبّر الناس معه وسرّوا بذلك.

الأهضام: جمع هضم وهو المطمئنّ من الوادي. والغائط: ما سفل من الأرض. وطوّحت بكم: أي توّهتكم في أموركم ورمت بكم المرامي. واحتبلكم: أوقعكم في الحبالة. والنكر: المنكر، ويروى بحراً. والبحر: الأمر العظيم والداهية، ويروى هجرا: وهو الساقط من القول، ويروى عرّا. والعرّ والمعرّة: الإثمّ. والعرّ أيضاً: داء يأخذ الإبل في مشافرها ويستعار للداهية.

واعلم أن حاصل هذا الفصل تحذير للقوم من الهلاك وهم على غير بيّنة من ربّهم ولا حجّة واضحة يحتجّون بها على ما يدّعونه حقاً ويقاتلون عليه وذلك ممّا يجب الحذر منه إذ فيه حرمان سعادة الدارين، وإنّما سمّيت الحجّة نفسها سلطاناً لأنّ بها الغلبة والتسلّط وهو من باب الاستعارة.

وقوله: قد طوّحت بكم الدار.

كنّى بالدار عن الدنيا وإنّما نسب هلاكهم أو إبعادهم ورميهم إليها لأنّ المهلك لهم والموجب لتيههم إنّما هو اتّباع أهوائهم الباطلة التي منشأها إنّما هو تحصيل أمر دنيويّ من مال أو جاهٍ ونحوه فكانت الدنيا هي التي رمت بهم المرامي عن رحمة الله وأخرجتهم عن طاعته.

وقوله: واحتبلكم المقدار.

استعارة حسنة لإحاطة القدر النازل عن قضاء الله بهم فهو كحبالة الصائد التي لا يخرج الطائر منها إذا نزلت به.

وقوله: كنت نهيتكم عن هذه الحكومة. إلى قوله: إلى هواكم.

تقرير للحجّة عليهم وكأنّه يقول لهم: إن كان الحقّ هو عدم الحكومة فلمَ طلبتموها وأبيتم عليّ إباء المخالفين المنابذين لما نهيتكم عنها حتّى صرت إلى أهوائكم فيها، وإن كان الحقّ هو إيقاعها فلم شاققتموني الآن لمّا أوقعتها وجعلت لله عليّ بها عهداً. وعلى التقديرين يلزمهم الخطأ.

وقوله: وأنتم معاشر أخفّاء الهام سفهاء الأحلام.

الواو للحال والعامل صرفت، والإضافة في أخفّاء وسفهاء غير محضة ولذلك صحّ كونهما وصفين لمعاشر، وخفّة الهامة كناية عن رذيلة الطيش المقابلة لفضيلة الثبات، والسفه رذيلة مقابلة للحلم، والثبات والحلم فضيلتان تحت ملكة الشجاعة، ولمّا كانت لهاتين الرذيلتين نسبة إلى الفضيلتين صحّ إضافتها إليهما.

وقوله: ولم آتِ - لا أبا لكم - بجراً ولا أردت بكم ضرّاً.

خرج مخرج الاعتذار إليهم واستدراجهم ببيان تحسين فعله ونفي المنكر عنه وعدم قصد الإساءة إليهم ليرجعوا عمّا شبّه إليهم، وقوله: لا أباً لكم كلمة اعتيدت في ألسنة العرب. قال الجوهري: يراد بها المدح، وقال غيره: يراد بها الذمّ فإنّ عدم اللحوق بأب يستلزم العار

والسبّة، وقيل: هي دعاء على المرء أن لا يكون له أب يعزّه ويشدّ ظهره ونفي الأب يستلزم نفي العشيرة له فكأنّه دعاء بالذل وعدم الناصر. والله أعلم.

٣٧ - ومن كلام له عليه السلام

يجري مجرى الخطبة

فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلاهُمْ فَوْتاً، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ وَلا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ. رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا للهِ أَمْرَهُ. أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ وَاللهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، فَلا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي.

أقول: التعتعة: الاضطراب في الكلام عند الحصر. وتطلّع الأمر: اختباره وتعرّفه والتقبّع: التقبّض. يقال: قبع القنفذ إذا قبض رأسه بين كتفيه. والاستبداد: الانفراد. والرهان: ما يرهن ويستبق عليه. والهمز: الغيبة بالعيب، وكذلك الغمز.

قال بعض الشارحين: هذا الفصل فيه فصول أربعة التقطها الرضي رحمه الله من كلام طويل له عليه السلام قاله بعد وقعة النهروان ذكر فيه حاله منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر وقته.

الفصل الأوّل: فقمت بالأمر حين فشلوا. إلى قوله: برهانها.

هذا الكلام ورد في معرض افتخاره وإثبات فضيلته على سائر الصحابة لغاية قبول رأيه. فقيامه بالأمر حين فشلهم إشارة إلى فضيلة شجاعته: أي فقمت بأمر الله بين يدي رسوله وبعده في الحروب والمقامات الصعبة التي ضعفوا عنها والأوقات التي فشلوا فيها وأمره في ذلك ظاهر.

وقوله: ونطقت حين تعتعوا [تمنّعوا خ].

إشارة إلى ملكة الفصاحة المستتبعة لملكة العلم: أي نطقت في القضايا المهمّة والأحكام المشكلة والمقاول التي حصرت فيها بلغاؤهم، فكنّى بنطقه وتعتعتهم عن فصاحتهم وعيّهم.

وقوله: تطلّعت حين تقبّعوا.

إشارة إلى كبر الهمّة في تحصيل ما ينبغي للإنسان أن يحصّله من تعرّف الأمور واختبارها والنظر في مصادرها ومواردها؛ وهي ملكة تحت الشجاعة، ولمّا كان التطلّع على الأمر يحتاج الإنسان فيه إلى نحو من التطاول ومدّ العنق وتحديق العين ونحوه، وكان تعرّف الأمور واختباره لا بدّ فيه من بعث رائد الفكر الذي هو عين النفس التي بها يبصر وتحديقه نحو الأمور المعقولة وإرسال المتخيّلة لتفتيش خزائن المحسوسات أشبه ذلك التطلّع فاستعار له لفظ التطلّع وكنّى به عنه، وقوله: حين تقبّعوا. أي كان تعرّفي للأمور حين قصورهم عن ذلك، ولمّا كان التقبّع يقابل مدّ العين والتطاول إلى رؤية الأشياء المسمّى تطلّعاً، وكان قصور أفكارهم وعدم اعتبارهم للأشياء يقابل مدّ الفكر وتطاول الذهن إلى معرفة الأمور وكان قصور الفكر أيضاً والعجز عن المعرفة يشبه التقبّع، استعار لفظ التقبّع وكنّى به عنه.

وقوله: ومضيت بنور الله حين وقفوا.

إشارة إلى فضيلة العلم أي كان سلوكي لسبيل الحقّ على وفق العلم وهو نور الله الذي لا يضلّ من اهتدى به. وذلك حين وقفوا حائرين متردّدين جاهلين بالقصد وكيفيّة سلوك الطريق. وإنّما أثبت لنفسه هذه الفضائل وقرن كلّ فضيلة له برذيلة فيهم يقابلها لتبيّن فضله بالنسبة إليهم إذ كان الغرض ذلك.

وقوله: وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً.

كنّى بخفض الصوت عن ربط الجأش في الأمور والثبات فيها والتصميم على فعل ما ينبغي من غير التفات إلى الحوادث [الجواذب خ] والموانع على فعل ما هو

خير ومصلحة فإنّ كثرة الأصوات وعلّوها في الأفعال التي هي مظنّة الخوف دليل الفشل، ولا شكّ أنّ من كان أشدّ في ذلك كان أعلى صوتاً وأشدّ سبقاً إلى مراتب الكمال ودرجات السعادة ممّن كان أضعف فيه.

وقوله: فطرت بعنانها واستبددت برهانها.

الضميران يعودان إلى الفضيلة وإن لم يجر لها ذكر لفظي فاستعار هاهنا لفظ الطيران للسبق العقليّ لما يشتركان فيه من معنى السرعة، استعار لفظي العنان والرهان اللذين هما من متعلّقات الخيل للفضيلة التي استكملتها نفسه تشبيهاً لها مع فضائل نفوسهم بخيل الحلبة، ووجه المشابهة أنّ الصحابة - رضي الله عنهم - لمّا كانوا يقتنون الفضائل ويستبقون بها إلى رضوان الله وسعادات الآخرة كانت فضائلهم التي عليها يستبقون كخيل الرهان، ولمّا كانت فضيلته عليه السلام أكمل فضائلهم وأتمّها كانت بالنسبة إلى فضائلهم كالفرس الذي لا يشقّ غباره. فحسن منه أن يستعير لسبقه بها لفظ الطيران، ويجري عليها لفظ العنان والرهان.

الفصل الثاني: قوله: لا تحرّكه القواصف. إلى قوله: آخذ الحقّ منه.

وهذا الفصل يحكي فيه قيامه بأعباء الخلافة حين انتهائها إليه وجريه فيها على القانون العدل والأوامر الإلهيّة. فقوله: كالجبل، تشبيه له في الثبات على الحقّ بالجبل فكما لا تحرّكه قواصف الرياح وعواصفها كذلك هو لا تحرّكه عن سواء السبيل مراعاة هوى لأحد أو اتّباع طبع يخالف ما تقتضيه سنّة الله وشرعه بل هو ثابت على القانون العدل وموافقة الأمر الإلهي.

وقوله: لم يكن لأحد فيّ مهمز ولا لقائل فيّ مغمز.

أي لم يكن فيّ عيب أعاب به. وقد راعى في هذه القرائن الأربع مع الأربع الأخيرة من الفصل الأوّل السجع المتوازي.

وقوله: الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحقّ له.

إعزازه للذليل اعتناؤه بحاله واهتمامه بأمر ظلامته، ومن اعتنى بحال إنسان فقد أعزّه ثمّ جعل لإعزازه غاية هي أخذ الحقّ له، وكذلك قوله: والقويّ عندي ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه، فإنّ ضعف القوي هو قهره تحت حكمه إلى غاية يستوفي منه حقّ المظلوم.

فإن قلت: يفهم من هاتين الغايتين أنّ نظره إلى الذليل بعد استيفاء حقّه وإلى القويّ بعد أخذ الحقّ منه لا يكون على السواء بل يكون التفاته إلى القويّ أكثر وذلك ليس من العدل.

قلت: إنّه لمّا لم يكن الغرض من الأمر بمساواة النظر بين الخلق إلاّ أخذ حقّ الضعيف من القويّ وعد التظالم بينهم لم تجب مساواة النظر بين الضعيف والقويّ إلاّ من تلك الجهة. ولم يكن إعزازه وإكرامه في غير وجه الظلم قبيحاً لجواز انفراده بفضيلة يوجب إعزازه من جهة الدين أيضاً.

الفصل الثاني: قوله: رضينا عن الله قضاءه وسلّمنا لله أمره. إلى قوله: من كذب عليه.

قيل: ذكر ذلك عليه السلام لما تفرّس في طائفة من قومه أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبي صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحم في الأمور المستقبلة، وقد كان منهم من يواجهه بذلك كما روي أنّه لمّا قال: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها، قام إليه أنس النخعيّ فقال: أخبرني كم في رأسي ولحيتي طاقة شعر. فقال عليه السلام: والله لقد حدّثني حبيبي أنّ على كلّ طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأنّ على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وكان ابنه سنان بن أنس قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو، وسيأتي بعض تلك الأخبار.

فقوله: رضينا عن الله قضاءه وسلّمنا لله أمره.

قد عرفت أن الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره باب من أبواب الجنّة يفتحه الله لخواصّ أوليائه، ولمّا كان عليه السلام سيّد العارفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وكان قلم القضاء الإلهي قد جرى على قوم بالتكذيب له والتهمة فيما يقول لا جرم هو كان عليه السلام أولى الناس بلزوم باب الرضا.

وقوله: أتراني أكذب. إلى قوله: عليه.

استنكار لما صدر منهم في حقّه من التكذيب، وإيراد

حجّة لبطلان أوهامهم في حقّه بصورة قياس الضمير مع نتيجته، وتقديره والله لنا أوّل من صدّقه وكلّ من كان أوّل مصدّق له فلن يكون أوّل مكذّب له ينتج أنّي لا أكون أوّل مكذّب له.

الفصل الرابع: قوله: فنظرت في أمري. إلى آخره.

فيه احتمالان: أحدهما قال بعض الشارحين: إنّه مقطوع من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وأنّه كان معهوداً إليه أن لا ينازع في أمر الخلافة بل إن حصل له بالرفق وإلاّ فليمسك. فقوله: فنظرت فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي: أي طاعتي لرسول الله صلى الله عليه وآله فيما أمرني به من ترك القتال قد سبقت بيعتي للقوم فلا سبيل إلى الامتناع منها.

وقوله: وإذا الميثاق في عنقي لغيري.

أي ميثاق رسول الله صلى الله عليه وآله وعهده إليّ بعد المشاقّة، وقيل: الميثاق ما لزمه من بيعة أبي بكر بعد إيقاعها: أي فإذا ميثاق القوم قد لزمني فلم يمكنني المخالفة بعده.

الإحتمال الثاني: أن يكون ذلك في تضجّره وتبرّمه من ثقل أعباء الخلافة، وتكلّف مداراة الناس على اختلاف أهوائهم. ويكون المعنى إنّي نظرت فإذا طاعة الخلق لي واتّفاقهم عليّ قد سبقت بيعتهم لي، وإذا ميثاقهم قد صار في عنقي فلم أجد بدّاً من القيام بأمرهم ولم يسعني عند الله إلاّ النهوض بأمرهم ولو لم يكن كذلك لتركت كما قال من قبل: أما والله لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها. والأوّل أشهر بين الشارحين. والله أعلم بالصواب.

٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى. وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلالُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى، فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلا يُعْطَى مِنَ الْبَقَاءِ مَنْ أَحَبَّهُ.

أقول: يحتمل أن يكون هذا الكلام فصلين:

أحدهما: قوله: وإنّما سمّيت الشبهة. إلى قوله: ودليلهم العمى، والثاني: الباقي. فالفصل الأول إشارة إلى علّة تسمية الشبهة شبهة، ثمّ إلى بيان حال الناس فيها.

أمّا الأوّل: فالشبهة عبارة عمّا يشبه الحقّ ممّا يحتجّ به إمّا في صورته أو في مادّته أو فيهما معاً، وظاهر أنّ علّة تسميتها شبهة هو ذلك الشبه. فلذلك حصرها فيه.

وأمّا الثاني: فلأنّ الناس إمّا أولياء الله أو أعداء له. أمّا أولياؤه فلمّا كانت نفوسهم مشرقة بنور اليقين مستضيئة بمصباح النبوّة في سلوك الصراط المستقيم كان بتلك الأنوار هدى أذهانهم في ظلمات الشبهات وحرزهم عن الهوي في مهاوي الجهالات كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢] الآية. وهو الهدى المأمور بلزوم سمته والسلوك إلى المطالب الحقّة، وهو المراد بقوله: فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأمّا أعداؤه فليس دعاؤهم إلى ما يدعون إليه إلاّ ضلالاً عن القصد القويم، وإضلالاً للخلق عن الطريق الحقّ وليس ما يعتمدونه دليلاً يزعمون أنّهم يهدون به السبيل إلاّ شبهة هي في نفسها عمى لأبصارهم [لبصائرهم خ] عن مطالعة نور الحقّ وطمس لأذهان من استجاب لهم عند اهتداء سلوك سبيل الله ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأمّا الفصل الثاني: وهو قوله: فما ينجو. إلى آخره.

فصدق القضيّة الأولى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨] الآية. وحاصله التذكير بهادم اللذّات، والتخويف بذكره،

والتنفير عن محبّة ما لا بدّ من زواله ليفرغ السامعون إلى العلم لما بعده إن أخذ التوفيق بأزمّة عقولهم فإنّ خوفه ومحبّة ضدّه وهو البقاء لا ينفعان في الخلاص منه لكونه ضرورياً في الطبيعة، ويحتمل أن يكون الكلام متّصلاً ويكون الفصل الثاني قد سبق له قبل الأوّل كلام يحسن تعلّقه به، وبالله التوفيق.

٣٩ - ومن خطبة له عليه السلام

مُنِيتُ بِمَنْ لا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ، وَلا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لا أَبَا لَكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ الأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ، دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

أقول: يروى أنّ هذه الخطبة خطب بها عليه السلام في غارة النعمان بن بشير بعين التمر. والسبب أنّ معاوية بعث النعمان بن بشير في ألفي فارس لإرهاب أهل العراق فأقبل حتّى دنا من عين التمر، وكان عاملها يومئذ من قبل عليّ عليه السلام مالك بن كعب الأرجيّ ولم يكن معه إذ ذاك سوى مائة رجل ونحوها فكتب مالك إليه عليه السلام يعلمه الخبر. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم فإنّ نعمان ابن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم لعلّ الله يقطع بكم طرفاً من الكافرين. ثمّ نزل فتثاقلوا فأرسل إلى وجوههم فأمرهم بالنهوض فتثاقلوا ولم يجتمع منهم إلاّ نفر يسير نحو ثلاث مائة رجل فقام عليه السلام وقال: [ألا إنّي منيت]. الفصل، ويروى أن الدائرة كانت لمالك بمن معه على النعمان وجمعه.

منيت: أي ابتليت. ويحمشكم: أي يغضبكم. والمستصرخ: المستجلب بصوته من ينصره. والغوث: الصوت يستصرخ به، وقيل: هو قول الرجل: واغوثاه. والثار: الذحل.

والجرجرة: ترديد صوت البعير في ضجرته عن عسفه. والسرّ: داء يأخذ البعير في سرّته يقال منه جمل أسرّ. والنضو من الإبل: البالي من تعب السير. والأدبر: الّذي به دبر وهي القروح في ظهره. وفي الفصل مطالب:

الأوّل: قوله: منيت بمن لا يطيع. إلى قوله: دعوت.

وهو إظهار لعذر نفسه على أصحابه لينسب إليهم التقصير دونه ويقع عليهم لائمة غيرهم.

الثاني: قوله: لا أبا لكم. إلى قوله: مرام.

وهو استنهاض لهم إلى نصرة الله بسؤالهم عن سبب تثاقلهم عن نصرته والذبّ عن دينه سؤالاً على سبيل الإنكار للسبب، وتنبيه لهم على الأسباب التي توجب اجتماعهم لنصرة الله والغضب له بسؤالهم عنها هل هي موجودة لهم أم لا سؤالاً على لسبيل الإنكار أيضاً إذ هم يدّعون وجودها لهم وهي الدين الّذي أمروا بلزومه والاتّحاد فيه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥] الآية. ثمّ الحميّة وهي ملكة تحت الشجاعة، وكذلك قوله: أقوم فيكم. إلى قوله: أمراً. من الأسباب الباعثة لهم أيضاً على الاجتماع فإنّ ذكر حاله من استصراخه لهم واستغاثته بهم مع ذكر حالهم في مقابلة ذلك من تثاقلهم عن ندائه وعدم طاعتهم له ممّا ينبؤهم على خطئهم وتقصيرهم.

وقوله: حتّى تكشّف الأمور عن عواقب المساءة.

ذكر لغاية تثاقلهم عن دعوته وتنبيه بذكر استعقابه للمساءة على خطأهم فيه، وكذلك قوله: فما يدرك بكم ثار ولا يبلغ بكم مرام. عتاب وتوبيخ يبعث طباع العرب على التألّف في النصرة إذ من شأنهم ثوران الطباع بمثل هذه الأقوال.

وقوله: دعوتكم. إلى قوله: الأدبر.

استعار لفظ الجرجرة لكثرة تملّلهم وقوّة تضجّرهم من ثقل ما يدعوهم إليه، ولمّا كانت جرجرة الجمل الأسرّ أشدّ من جرجرة غيره لاحظ شبه ما نسبه إليهم من التضجّر بها. وكذلك تشبيهه تثاقلهم بتثاقل النضو الأدبر وذكرهم ما دعاهم إليه من نصرة إخوانهم أعني أصحاب مالك بن كعب المذكور وجوابهم له بالتبرّم من ذلك والتثاقل ثمّ أردف ذلك بتصغير من خرج منهم من الجند ووصفه بالاضطراب والضعف. وتشبيههم بمن يساق إلى الموت وهو ينظر في تثاقله واضطرابه وضعفه عن الحركة إلى ما يساق إليه لشدّة خوفه. كلّ ذلك ذمّ وتوبيخ يستثير به طباعهم عمّا هي عليه من التثاقل عن ندائه والتقصير في إجابة دعائه. وبالله التوفيق.

٤٠ - ومن كلام له عليه السلام

في الخوارج لما سمع قولهم لا حكم إلا لله

قال عليه السلام: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إلاّ للهِ، وَلٰكِنَّ هٰؤُلاءِ يَقُولُونَ: لا إِمْرَةَ إلاّ للهِ، وَإِنَّهُ لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بِهِ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ.

وفي رواية أُخرى أنه عليه السلام لمّا سمع تحكيمهم قال: «حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ». وقال: أَمَّا الإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ. وَأَمَّا الإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ؛ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ.

أقول: قوله: كلمة حقّ يراد بها باطل. هذه كلمة ردّ لما انغرس في أذهان الخوارج من حقيّة دعاء أصحاب معاوية إلى كتاب الله: أي أنّ دعاءهم لكم إلى كتاب الله كلمة حقّ لكن ليس مقصودهم بها كتاب الله بل غرض آخر باطل وهو فتور الحرب عنهم وتفرّق أهوائكم ونحوه ممّا لا يجوز أن يفعل.

قوله: لا حكم إلا لله.

تصديق لقولهم لكن لما عليه الكلمة في نفس الأمر لا لما رأوه حقّاً من ظاهرها فإنّ حصر الحكم ليس بحقّ على معنى أنّه ليس للعبد أن يحكم بغير ما نصّ كتاب الله عليه فإنّ أكثر الأحكام الفروعيّة غير منصوص عليها مع أنّها أحكام الله بل تكون منتزعة بحسب الاجتهاد وسائر طرقها لمن كان أهلاً لذلك، ويجب على من ليس له أهليّة الاجتهاد امتثالها، ولمّا تصوّر الخوارج تلك الكلمة بمعنى أنّه لا يصحّ حكم لم يوجد في كتاب الله ولا يجوز امتثاله والعلم به لا جرم قال: نعم لا حكم إلاّ لله لكن هؤلاء القوم يقولون: لا إمرة: أي لمّا نفوا أن يكون لغير الله حكم لم ينصّ عليه فقد نفوا الإمرة لأنّ استنباط الأحكام والنظر في وجوه المصالح من لوازم الإمرة التي هي حال الأمير في رعيّته، ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم، ولمّا كانوا قد نفوا الإمرة كذّبهم عليه السلام بقوله: ولا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر. فكان جملة الكلام في معنى شرطيّة متّصلة هكذا: إذا قالوا لا حكم إلاّ لله كما تصوّروه فقد قالوا بنفي الإمرة لكنّ القول بنفي الإمرة باطل فالقول بنفي الحكم إلاّ لله كما تصوّروه باطل. فقوله: ولا بدّ للناس من أمير. في معنى استثناء نقيض تالي المتّصلة، وتقريره: أنّ الإنسان خلق ممنوّا بمقارنة النفس الأمّارة بالسوء محتاجاً إلى مجموع قوى في بدنه هي منابع الشرّ. فأهواء الخلق لذلك مختلفة، وقلوبهم متفرّقة فكانت طبيعة نظام أحوالهم في معاشهم وبقائهم محوجة إلى سلطان قاهر تأتلف برهبته الأهواء، وتجتمع بهيبته القلوب، وتنكفّ بسطوته الأيدي العادية إذ في طباع الخلق من حبّ المغالبة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفّون عنه إلاّ بمانع قويّ ورادع مليّ. وقد أفصح المتنبّي عن ذلك حيث يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتّى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فإن
تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

وهذه العلّة المانعة من الظلم عند الاستقراء ترجع

إلى أمور أربعة: إمّا عقل زاجر، أو دين حاجز، أو عجز مانع، أو سلطان رادع. والسلطان القاهر أبلغها نفعاً لأنّ العقل والدين ربّما كانا مغلوبين بدواعي الهوى فيكون رهبة السلطان أقوى ردعاً وأعمّ نفعاً وإن كان جائراً فإنّه روي عن رسول الله ﷺ: إنّ الله ليؤيّد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم في الآخرة، وروي: بالرجل الفاسق، وروي عنه أنّه قال: الإمام الجائر خير من الفتنة فكلّ لا خير فيه وبعض الشرّ خيار: أي وأنّ وجود الإمام وإن كان جائراً خير من عدمه المستلزم لوجود الفتنة ووقوع الهرج والمرج بين الخلق إذ كان بوجوده صلاح بعض الأمور على أنّه وإن كان لا خير فيه أيضاً من جهة ما هو جائر كما قال: وكلّ لا خير فيه إلاّ أنّ هيبته ووجوده بين الخلق ممّا يوجب الانزجار عن إثارة الفتن ويكون ذلك خيراً وقع في الوجود بوجوده لا يحصل مع عدمه فوجوده مطلقاً واجب وذلك معنى قوله عليه السلام: لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر.

وقوله: يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر.

الضمير في إمرته لمّا عاد إلى الأمير، وكان لفظ الأمير محتملاً للبرّ والفاجر كان المراد بالإمرة التي يعمل فيها المؤمن إمرة الأمير من حيث هو برّ، والتي يستمتع فيها الكافر إمرته من حيث هو فاجر، وهذا أولى من قول بعض الشارحين: إنّ الضمير يعود إلى الفاجر فإنّ إمرة الفاجر ليست مظنّة تمكن المؤمن من عمله، والمراد يعمل المؤمن في إمرة البرّ عمله على وفق أوامر الله ونواهيه إذ ذلك وقت تمكّنه منه، والمراد باستمتاع الكافر في إمرة الفاجر انهماكه في اللّذات الحاضرة التي يخالف فيها أوامر الله وذلك في وقت تمكّنه من مخالفة الدين.

وقوله: يبلّغ الله فيها الأجل.

أي في إمرة الأمير سوءاً كان برّاً أو فاجراً، وفائدة هذه الكلمة تذكير العصاة ببلوغ الأجل وتخويفهم به.

وقوله: ويجمع به الفيء. إلى قوله: القويّ.

الضمائر المجرورة كلّها راجعة إلى الأمير المطلق إذ قد تحصل الأمور المذكورة كلّها من وجوده كيف كان برّاً أو فاجراً. وممّا يؤيد ذلك أن أكثر الخلق متّفقون على أنّ أمراء بني أميّة كانوا فجّاراً عدا رجلين أو ثلاثة: كعثمان وعمر بن عبد العزيز وكان الفيء يجمع بهم، والبلاد تفتح في أيّامهم، والثغور الإسلاميّة محروسة، والسبل آمنة، والقويّ مأخوذ بالضعيف، ولم يضرّ جورهم شيئاً في تلك الأمور.

وقوله: حتّى يستريح به برّ ويستراح من فاجر.

غاية من الأمور المذكورة: أي غاية صدور هذه الأمور أن يستريح برّ بوجودها ويستراح من تعدّي الفاجر وبغيه، وقيل: أراد أنّ هذه الأمور لا تزال تحصل بوجود الأمير برّاً أو فاجراً إلى أن يستريح برّ بموته، ويستراح من فاجر بموته أو بعزله، وأمّا الرواية الأخرى فمعنى الكلام فيها ظاهر، وبالله التوفيق.

٤١ - ومن خطبة له عليه السلام

إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَما يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ.

أقول: الجنّة: ما استترت به من سلاح ونحوه. والحوّل القلّب: الذي يكثر تحوّله وتقلّبه في اختيار الأمور، وتعرّف وجوهها. والانتهاز: المبادرة إلى الأمر والفرصة وقت الإمكان. والحريجة: التحرّج وهو التحرّز من الحرج والإثم.

واعلم أنّ الوفاء ملكة نفسانيّة من لزوم العهد كما ينبغي، والبقاء عليه، والصدق ملكة تحصل من لزوم الأقوال المطابقة؛ وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفّة متلازمتان ولمّا كان التوأم هو الولد المقارن لولد آخر في بطن واحد أشبهه الوفاء لمقارنته الصدق تحت العفّة، فاستعار لفظه له. ثمّ لمّا كانت فضيلة الوفاء مقابلة برذيلة الغدر وفضيلة الصدق مقابلة برذيلة الكذب

ورذيلتا الغدر والكذب أيضاً توأمين تحت رذيلة الفجور المقابلة لفضيلة العفّة.

قوله: ولا أعلم جنّة أوقى منه.

حكم ظاهر فإنّ الوفاء وقاية تامّة للمرء أمّا في آخرته فلاستتاره به من عذاب الله الذي هو أعظم محذور، وأمّا في دنياه فلاستتاره به من السبّ والعار وما يلزمه عدم الوفاء من الغدر والكذب الملطخين لوجه النفس. وإذا علمت أنّه لا نسبة لشيء ممّا يجتنّ منه بالأسلحة وغيرها إلى ما يتوقّى بالوفاء علمت أنّه لا جنّة أوقى من الوفاء، وممادح الوفاء ومذامّ الغدر كثيرة قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية وقال في تمدّحه بالوفاء ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] ومن الخبر في ذمّ الغدر: لكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة.

وقوله: ولا يغدر مَنْ علم كيف المرجع.

أقول: العلم بكيفيّة المرجع إلى الله تعالى والاطّلاع على منازل السفر إليه وعلى أحوال الآخرة التي هي المستقرّ صارف قويّ عن ارتكاب الرذائل التي من جملتها الغدر وإنّما خصّ الغدر بنسبة أهله إلى الجهل بأمر المعاد لكونه في معرض مدح الوفاء والترغيب فيه.

قوله: ولقد أصبحنا في زمان. إلى قوله: الحيلة.

أقول: إنّما اتّخذ أهل الزمان الغدر كيساً ونسبهم كثير إلى حسن الحيلة لجهل الفريقين بثمرة الغدر ولعدم تمييزهم بين الغدر والكيس فإنّه لمّا كان الغدر كثيراً ما يستلزم الذكاء والفطنة لوجه الحيلة وإيقاعها بالمغدور به وكان الكيس أيضاً عبارة عن الفطانة والذكاء وجودة الرأي في استخراج وجوه المصالح التي تنبغي كانت بينهما مشاركة في استلزام مفهومهما للتفطّن والذكاء في استخراج وجه الحيلة وإيقاع الآراء إلاّ أنّ تفطّن الغادر يستعمله في استنباط الحيلة وإن خالفت القوانين الشرعيّة وفاتت المصالح الكليّة في جنب مصلحة جزئيّة تخصّه، وتفطّن الكيّس إنّما يستعمله في إيقاع رأي أو حيلة تنتظم مصلحة العالم وتوافق القوانين الشرعيّة، ولدقّة الفرق بينهما استعمل الغادرون غدرهم في موضع الكيس، ونسبهم أيضاً الجاهلون في غدرهم إلى حسن حيلتهم كما نسب ذلك إلى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه ونحوهما، ولم يعلموا أنّ حيلة الغادر تخرجه إلى رذيلة الفجور، وأنّه لا حسن في حيلة جرّت إلى رذيلة.

وقوله: ما لهم قاتلهم الله قد يرى. إلى آخره.

دعاء عليهم بقتال الله لهم بعد استفهامه عن خوضهم في أمره استفهاماً على سبيل الإنكار، وقد علمت أن قتال الله كناية عن عداوته والبعد عن رحمته، وظاهر أنّ أهل الغدر بعداء عن رحمة الله، ثمّ أردف ذلك الدعاء بالإشارة إلى أنّه لا فضيلة لهم فيما يفتخرون به من الذكاء في استنباط وجوه الحيلة إذ كانت غايتهم الغدر والخيانة فإنّ الحوّل القلّب في الأمور قد يرى وجه الحيلة عياناً إلاّ أنّه يلاحظ في العمل بها مانع من الله ونهيه عن ارتكابها لما يؤدّي إليه من ارتكاب الرذائل الموبقة فيتركها رأي عينه: أي حال ما هي مرئيّة له وبعد القدرة عليها خوفاً من الله تعالى. ثمّ يراها من لا يعتقد إثماً في خرم قواعد الدين فيبادر إليها حال إمكانها وليس ذلك لفضيلة بل الفضل في الحقيقة لتاركها عن وازع الدين، والإشارة بالحوّل القلّب إلى نفسه فإن شيمه الكريمة كانت كذلك.

٤٢ - ومن كلام له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ ٱثْنَانِ: ٱتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأَمَلِ؛ فَأَمَّا ٱتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ. أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا. أَلا وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابٌ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ.

أقول: حذّاء: خفيفة مسرعة لا يتعلّق أحد منهما بشيء. والصبابة: بقيّة الماء في الإناء.

والمقصود بهذا الفصل النهي عن الهوى وطول الأمل في الدنيا فإنّهما من أشدّ أسباب الهلاك فكان الجلاء عنهما من أشدّ أسباب النجاة كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] ثمّ التذكير بأمور الآخرة.

فاعلم أنّ الهوى هو ميل النفس الأمّارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللّذات الدنيويّة إلى حدّ الخروج عن حدود الشريعة، وأمّا الأمل فقد سبق بيانه، ولمّا كانت السعادة التامّة إنّما هي في مشاهدة حضرة الربوبيّة ومجاورة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وكان اتّباع النفس الأمّارة بالسوء في ميولها الطبيعيّة والانهماك في ملذّاتها الفانية أشدّ مهلك جاذب للإنسان عن قصد الحقّ، وصادّ له عن سلوك سبيله وعن الترقّي في ملكوت السماوات إلى حضيض جهنّم كما قال سيّد المرسلين ﷺ: ثلاثٌ مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه، وكما قال: حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وقال: الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد عن الأخرى. لا جرم كان أخوف ما ينبغي أن يخاف من الأمور المهلكة اتّباع الهوى، وأما الأمل فمراده به أيضاً الأمل لما لا ينبغي أن يمدّ الأمل فيه من المقتنيات الفانية وظاهر أنّ طول الأمل فيها يكون مطابقاً لاتّباع الهوى وبه ويكون نسيان الآخرة لأنّ طول توقّع الأمور المحبوبة الدنيويّة يوجب دوام ملاحظتها، ودوام ملاحظتها مستلزم لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة وهو مستعقب لانمحاء ما تصوّر في الذهن منها وذلك معنى النسيان لها وبذلك يكون الهلاك الأبديّ والشقاء الأشقى، ولمّا كان عليه السلام هو المتولّي لإصلاح حال الخلق في أمور معاشهم ومعادهم كان الاهتمام بصلاحهم منوطاً بهمّته العليّة فلا جرم نسب الخوف عليهم إلى نفسه.

قوله: ألا وإنّ الدنيا قد ولّت. إلى قوله: صابّها.

أقول: الدنيا بالنسبة إلى كلّ شخص مفارقة له وخفيفة سريعة الإجفال لم يبق منها بالقياس إليه إلاّ اليسير، وإطلاق الصبابة هاهنا استعارة لبقيّتها القليلة، والقلّة هي وجه تشبيهها بصبابة الإناء أيضاً.

وقوله: ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت.

لمّا نبّه على أنّ الدنيا سريعة الإجفال أردف ذلك بالتنبيه على سرعة لحوق الآخرة وإقبالها، وكلّ ذلك قطع للآمال الفانية وردع عن اتّباع الهوى. ومن آثار الصالحين: إذا كان العمر في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى. والموت هو دهليز الآخرة.

وقوله: ولكلّ منهما بنون. إلى قوله: يوم القيامة.

من لطائف كلامه. فاستعار لفظ الأبناء للخلق بالنسبة إلى الدنيا والآخرة، ولفظ الأب لهما، ووجه الاستعارة أنّ الإبن لمّا كان من شأنه الميل إلى والده إمّا ميلاً طبيعيّاً أو بحسب تصوّر المنفعة منه. وكان الخلق منهم من يريد الدنيا، ومنهم من يريد الآخرة، ويميل كلّ منهما إلى مراده مع ما يحصل من طرف الدنيا للراغبين فيها ممّا يتوهّمونه لذّة وخيراً، وما يحصل من طرف الآخرة للراغبين فيها من اللّذات والسعادة أشبه كلّ بالنسبة إلى ما رغب فيه واستفاد منه الخير الابن بالنسبة إلى الأب. فاستعير لفظه لتلك المشابهة، ولمّا كان غرضه حثّ الخلق على السعي للآخرة والميل إليها والإعراض عن الدنيا، قال عليه السلام: فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا. ثمّ ذكر فائدة رأيه عليهم بأن يكونوا كذلك. وهي أنّ كلّ ولد سيلحق بأمّه يوم القيامة، وأشار: إلى أنّ أبناء الآخرة والطالبين لها والعاملين لأجلها مقرّبون في الآخرة لا حقوق لمراداتهم فيها، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم ما يدّعون نزلاً من غفور رحيم، وأمّا أبناء الدنيا فإنّ نفوسهم لمّا كانت مستغرقة في محبتها وناسية لطرف الآخرة ومعرضة عنها لا جرم كانت يوم القيامة مغمورة في محبّة الباطل مغلولة بسلاسل السيئات البدنيّة والملكات الرديئة المتمكّنة من جواهرها فهي لتعلّقها بمحبّة الدنيا حيث لا يتمكّن من محبوبها بمنزلة ولد لا تعلّق له ولا مسكة إلاّ بوالده ولا إلف له إلاّ هو ولا أنس إلاّ معه، ثمّ حيل بينه وبينه مع

شدّة تعلّقه به وشوقه إليه واخذ إلى أضيق الأسجان، ويذّل بالعزّ الهوان فهو في أشدّ ولهٍ ويتم وأعظم حسرة وغمّ، وأمّا أبناء الآخرة ففي حضانة أبيهم ونعيمه قد زال عنهم بؤس الغربة وشقاء اليتم وسوء الحضن. فمن الواجب إذن تعرّف أحوال الوالدين واتّباع أبرّهما وادومهما شفقة وأعظمهما بركة وما هي إلاّ الآخرة فليكن ذو العقل من أبناء الآخرة وليكن برّاً بوالده متوصّلاً إليه بأقوى الأسباب وأمتنها.

وقوله: وإنّ اليوم عمل. إلى آخره.

كنّى باليوم عن مدّة الحياة وبغد عمّا بعد الموت، وراعى المقابلة فقابل اليوم بالغد، والعمل بلا عمل، ولا حساب بالحساب. واليوم: اسم إنّ، وعمل: قام مقام الخبر استعمالا للمضاف إليه مقام المضاف: أي واليوم يوم العمل، ويحتمل أن يكون اسم إنّ ضمير الشأن، واليوم عمل جملة من مبتدأ وخبر هي خبرها، وكذلك قوله: وغداً حساب ولا عمل، وصدق هذين الحكمين ظاهر وفائدتهما التنبيه على وقتي العمل وعدمه ليبادروا إلى العلم الذي به يكونون من أبناء الآخرة في وقت إمكانه قبل مجيء الغد الذي هو وقت الحساب دون العمل، وبالله التوفيق.

٤٣ - ومن كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية.

إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلاقٌ لِلشَّامِ، وَصَرْفٌ لأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَلٰكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلاَّ مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا، وَلا أَكْرَهُ لَكُمُ الإِعْدَادَ.

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هٰذَا الأَمْرِ وَعَيْنَهُ. وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلاَّ الْقِتَالَ أَوِ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَأَوْجَدَ لِلنَّاسِ مَقَالاً، فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا.

أقول: وقد كان في ظنّ كثير من الصحابة بعد ولاية عليّ عليه السلام أنّ معاوية لا يطيع له بأمارات كثيرة، ولذلك أشار عليه أصحابه وبعد إرسال جرير إليه بالاستعداد لحربه، وروي أنّ جريراً لمّا أراد بعثه قال: والله يا أمير المؤمنين ما أدّخرك من نصرتي شيئاً، وما أطمع لك في معاوية، فقال عليه السلام: قصدي حجّة أقمتها. ثمّ كتب معه: أمّا بعد، فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يحتار ولا للغائب أن يردّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار إذا اجتمعوا على رجل فسمّوه إماماً كان ذلك رضا فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردّوه إلى مما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتّباع غير سبيل المؤمنين وولاّه الله ما تولّى ويصليه جهنّم وساءت مصيراً، وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثمّ نقضا بيعتي فكان نقضهما كردّتهما فجاهدتهما على ذلك حتّى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإنّ أحبّ الأمور إليّ فيك العافية إلاّ أن تتعرّض للبلاء فإن تعرّضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك. وقد أكثرت في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس ثمّ حاكموا القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله فأمّا تلك التي تريدها فخدعة الصبيّ عن اللبن، ولعمري وإن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمّان، واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا يتحلّى لهم الخلافة ولا يتعرّض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوّة إلاّ بالله. وربّما جاء شيء من هذا الكتاب في كتبه عليه السلام إلى معاوية. فأجابه معاوية: أمّا بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمّان ولكنّك أغريت بعثمان وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. ولعمري ما حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة

والزبير لأنّهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة لأنّهم أطاعوك ولم يطعك أهل الشام. فأمّا شرفك في الإسلام وقرابتك من النبي صلى الله عليه وآله وموضعك من قريش فلست أدفعه، وكتب في آخر الكتاب قصيدة كعب بن جميل:

أرى الشام تكره أهل العراق
وأهل العراق لها كارهونا

وقد ذكرنا بعضها قبل، ويروى أنّ الكتاب الذي كتبه عليه السلام مع جرير كانت صورته: إنّي قد عزلتك ففوّض الأمر إلى جرير والسلام.

وقال لجرير: صن نفسك عن خداعه فإن سلّم إليك الأمر وتوجّه إليّ فأقم أنت بالشام، وإن تعلّل بشيء فارجع. فلما عرض جرير الكتاب على معاوية تعلّل بمشاورة أهل الشام وغير ذلك فرجع جرير فكتب معاوية في أثره على ظهر كتاب علي عليه السلام: من ولاّك حتّى تعزلني والسلام.

وأقول: الاستعداد: التهيّؤ للأمر. والخداع: الأخذ بالحيلة. والأناة: الاسم من التأني والرفق. وأرودوا: أمهلوا. ونقمت الأمر بفتح القاف: أنكرته.

فقوله: إنّ استعدادي. إلى قوله: إن أرادوه.

المراد أنّ أهل الشام في زمان كون جرير عندهم في مقام التروّي والتفكّر في أي الأمرين يتّبعون، وإن لم يكن كلّهم فبعضهم كذلك فلو اعتدّ هو للحرب في تلك الحال لبلغهم ذلك فاحتاجوا إلى الاستعداد أيضاً والتأهّب للقائه فكان ذلك الاستعداد سبباً لغلق الشام بالكليّة، وصرفاً لمن يكون في ذهنه تردّد في هذا الأمر أو في قلبه اللحوق به عمّا يريد وذلك مناف للحزم.

وقوله: قد وقّتّ. إلى قوله: عاصياً.

أي قد وقّتّ له وقتاً يصل إلينا فيه لا يتخلّف عنه إلاّ لأحد مانعين: إمّا خداع فيهم له ومواعيد مخلّفة بالجواب ليهيّئوا أمورهم في تلك المدّة، وإمّا عصيان منه ومخالفة.

فإن قلت: حصر تخلّف جرير في هذين المانعين غير صحيح لجواز أن يتخلّف لمرض أو موت أو غرض آخر.

قلت: إنّه عليه السلام لم يقصد الحصر اليقيني وإنّما أراد الحصر بحسب غلبة الظنّ الناشئ من الأمارات والقرائن الحاليّة ثمّ كلامه عليه السلام ليس في الأسباب الاضطراريّة التي من قبل الله تعالى فإنّ ذلك أمر مفروغ منه لا يحسن ذكره، وأمّا الموانع الاختياريّة فإمّا منهم وغالب الظنّ هو الخداع، وإمّا منه وغالب الظنّ أنّه العصيان إذ لا يتصوّر من مثل جرير وقد أرسل في مثل هذه الأمر المهمّ أن يعدل عنه إلى شغل اختياري لنفسه أو لغيره إلاّ أن يكون عاصياً.

وقوله: والرأي عندي مع الأناة.

رأي حقّ أجمع الحكماء على صوابه فإنّ إصابة المطالب والظفر بها في الغالب إنّما هو مع التثبّت والتأنّي في الطلب، وذلك انّ أناة الطالب هي مظنّة فكره في الاهتداء إلى تلخيص الوجه الأليق والأقيس والأشمل للمصلحة في تحصيل مطلوبه، ولذلك أكّد بعض الحكماء الأمر بالتأنّي بقوله: من لم يتثبّت في الأمور لم يعص مصيباً وإن أصاب. فالغرض وإن كان هو الإصابة إلاّ أنّها وإن حصلت من غير التأنّي كان مفرطاً وثمرة التفريط غالباً الندامة وعدم الإصابة، والإصابة منه نادرة والنادر غير منتفع به ولا ملتفت إليه.

وقوله: فأرودوا ولا أكره لكم الإعداد.

لمّا نبّههم على فضيلة الأناة أمرهم بها وإن لم يأمرهم مطلقاً بل نبّههم بقوله ولا أكره لكم الإعداد على أمور ثلاثة:

أحدها: أنّه ينبغي لهم أن يكونوا على يقظة من هذا الأمر حتّى يكونوا حال إشارته إليهم قريبين من الاستعداد.

الثاني: أن لا يتوهّم أحد منهم فيه مداخلة ضعف عن مفارقة أهل الشام فيداخلهم بسبب ذلك فشل وضعف عزيمة.

الثالث: ذكر شارح ابن أبي الحديد هو أنّه عليه السلام وإن كان كره الاستعداد الظاهر إلاّ أنّ قوله: ولا أكره لكم الإعداد تنبيه لهم على الاستعداد الباطن والتهيّؤ في السرّ وربما كان فرار الشارح بهذا الوجه ممّا يتوهّم تناقضاً وهو كونه قد أشار بترك الاستعداد، ثمّ قال

لأصحابه: ولا أكره لكم الإعداد، وقد علمت أنّ تركه للاستعداد في ذلك الوقت واختياره تركه لا ينافي تنبيههم على عدم كراهيّته له ليكونوا منه على يقظة كما أومأنا إليه.

وقوله: ولقد ضربت. إلى قوله: أو الكفر.

أقول: استعار لفظ العين والأنف والظهر والبطن التي هي حقائق في الحيوان لحاله مع معاوية في أمر الخلافة وخلاف أهل الشام له استعارة على سبيل الكناية. فكنّى بالعين والأنف عن المهمّ من هذا الأمر وخالصه فإنّ العين والأنف من أعزّ ما في الوجه، وكنّى بالضرب بهما عن قصده للمهمّ منه على سبيل الاستعارة أيضاً، وكنّى بلفظ الظهر والبطن لظاهر هذا الأمر وباطنه ووجوه الرأي فيه، ولفظ التقليب لتصفّح تلك الوجوه وعرضها على العقل واحداً واحداً.

قوله: فلم أر لي فيه إلاّ القتال أو الكفر.

تعيين لما اختاره بعد التقليب والتصفّح لوجوه المصلحة في أمر مخالفيه وهو قتالهم، ونبّه على وجه اختياره له بقوله: أو الكفر: أي أنّ أحد الأمرين لازم إمّا القتال أو الكفر؛ وذلك أنّه إن لم يختر القتال لزم تركه وتركه مستلزم للكفر لكن التزام الكفر منه محال فتعيّن اختياره للقتال، ومراده بالكفر الكفر الحقيقيّ فإنّه صرّح بمثله فيما قبل حيث يقول: وقد قلّبت هذا الأمر بطنه وظهره حتّى منعني القوم فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله.

فإن قلت: ما وجه الحصر في القتال والجحود مع أنّ ترك القتال بدون الجحد ممكن.

قلت: بيانه من وجهين.

أحدهما: قال الشارحون: إنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان قد أمره بقتال من خالفه، لقوله: أمرت أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. فلو ترك قتالهم مع ما عليه أمر الإسلام من الخطر لكان قد خالف أمر الرسول وظاهر أنّ مخالفة مثله عليه السلام لأوامر الرسول لا يتصوّر إلا عن عدم اعتقاد صحّتها وذلك جحد به وكفر.

الثاني: يحتمل أن يكون قد تجوّز بلفظ الجحود في التهاون بهذا الأمر تعظيماً له في نفوس السامعين وهو من المجازات الشائعة.

وقوله: إنّه قد كان. إلى آخره.

تنبيه على وجه عذره عمّا نسبه إليه معاوية وجعله سبباً لعصيانه له وهو الطلب بدم عثمان وتهمته له بذلك، وأراد بالوالي عثمان. والأحداث التي أحدثها هو ما نسب إليه من الأمور التي أنكروها عليه كما سنذكرها. وأوجد الناس مقالاً: أي جعل لهم بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا، ثمّ أنكروا ما فعل فغيّروه وأزالوه. فأمّا الأحداث المنقولة عنه فالمشهور منها بين أهل السير عشرة: الأولى: توليته أمور المسلمين من ليس أهلاً من الفسّاق مراعاةً للقرابة دون حرمة الإسلام كالوليد بن عقبة حتّى ظهر منه شرب الخمر، وسعيد بن العاص حتّى ظهرت عنه الأمور التي أخرجه أهل الكوفة منها بسببها، وعبد الله ابن أبي سرح مع قوّة ظلمه وتظلّم المصريّين منه وهو الذي اتّهمه المسلمون بمكاتبته بقتل محمّد ابن أبي بكر، ونقل أنّهم ظفروا بالكتاب ولأجله عظم التظلّم وكثر الجمع واشتدّ الحصار عليه.

الثانية: ردّه للحكم ابن أبي العاص إلى المدينة بعد طرد رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعد امتناع أبي بكر وعمر من ردّه. فخالف في ذلك سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين، وعمل بدعواه مجرّدة من البيّنة.

الثالثة: أنّه كان يؤثر أهله بالأموال العظيمة من بيت المال من غير استحقاق وذلك في صور: منها أنّه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوّجهم ببناته أربع مائة ألف دينار، ومنها أنّه أعطى مروان مائة ألف دينار، وروي خمس أفريقيّة وذلك مخالف لسنّة الرسول صلى الله عليه وآله ومن بعده من الخلفاء.

الرابعة: أنّه حمى الحمى عن المسلمين بعد تسوية الرسول بينهم في الماء والكلاء.

الخامسة: أنّه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها وذلك ممّا لا يجوز في الدين.

السادسة: أنّه ضرب عبد الله بن مسعود رحمه الله وهو من أكبر الصحابة وعلمائها، حتّى كسر بعض أضلاعه وذلك ظلم ظاهر.

السابعة: أنّه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصّة وأحرق المصاحف وأبطل ما لا شكّ أنّه من القرآن المنزل وذلك مخالفة لله وللرسول ولمن بعده.

الثامنة: أنّه أقدم على عمّار بن ياسر رضي الله عنه بالضرب - مع أنّه من أشرف الصحابة، ومع علمه بما قال الرسول صلى الله عليه وآله: عمّار جلدة ما بين عينيّ تقتله الفئة الباغية لا أنالها الله شفاعتي - حتّى أصابه الفتق، ولذلك صار عمّار مظاهراً لبعض المتظلّمين منه على قتله، وروي أنّه كان يقول: قتلناه كافراً.

التاسعة: إقدامه على أبي ذر - مع ثناء الرسول صلى الله عليه وآله وصحبته له، وقوله فيه: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر - حتّى نفاه إلى الربذة.

العاشرة: تعطيله الحدّ الواجب على عبيد الله بن عمر بن الخطاب فإنّه قتل الهرمزان مسلماً بمجرّد تهمته أنّه أمر أبا لؤلؤة بقتل أبيه ثمّ لم يقده به وقد كان عليّ عليه السلام يطلبه بذلك. فهذه هي المطاعن المشهورة فيه. وقد أجاب الناصرون لعثمان عن هذه الأحداث بأجوبة مستحسنة وهي مذكورة في المطوّلات من مظانّها وإنّما ذكرنا هذه الأحداث وأوردناها مختصرة لتعلّق المتن بذكرها.

٤٤ - ومن كلام له عليه السلام

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام:

قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَاتِ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَهُ.

أقول: مصقلة هذا كان عاملاً لعليّ عليه السلام على أردشير خرّه. وبنو ناجية: قبيلة نسبوا أنفسهم إلى سامة بن لؤيّ بن غالب فدفعتهم قريش عن هذا النسب وسمّتهم بني ناجية وهي أمّهم سامة، وأمّا سبب هربه إلى الشام فهو أنّ الحريث أحد بني ناجية كان قد شهد مع عليّ عليه السلام صفّين ثمّ استهواه الشيطان فصار من الخوارج بسبب التحكيم، وخرج هو وأصابه إلى المدائن مفارقاً لعلي عليه السلام فوجّه إليهم معقل بن قيس في ألفي فارس من أهل البصرة ولم يزل يتبعهم بالعسكر بعد العسكر حتّى ألحقوهم بساحل فارس، وكان به جماعة كثيرة من قوم الحريث وكان فيهم من أسلم عن النصرانيّة فلمّا رأوا ذلك الاختلاف ارتدّوا واجتمعوا عليه فزحف إليهم معقل بمن معه فقتل الحريث وجماعة منهم وسبى من كان أدرك فيهم من الرجال والنساء، ونظر فيهم فمن كان مسلماً أخذ بيعته وخلّى سبيله واحتمل الباقين من النصارى وعيالهم معه وكانوا خمسمائة نفر حتّى مرّوا بمصقلة فاستغاث إليه الرجال والنساء ومجّدوه وطلبوا منه أن يعتقهم فأقسم ليتصدّقن عليهم بذلك، ثمّ بعث إلى معقل بن قيس، فابتاعهم منه بخمسمائة ألف درهم ثمّ وعده أن يحمل المال في أوقات مخصوصة فلمّا قدم معقل على عليّ عليه السلام وأخبره القصّة شكر سعيه وانتظر المال من يد مصقلة فأبطأ به فكتب إليه باستعجاله أو بقدومه عليه فلمّا قرأ كتابه قدم عليه وهو بالكوفة فأقرّاه أياماً ثمّ طالبه بالمال فأدّى منه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي وخاف فلحق بمعاوية فبلغ عليّاً عليه السلام فقال الفصل. ولنرجع إلى المتن.

قبّحه الله: أي نحّاه عن الخير. والتبكيت: كالتقريع واللائمة. والوفور: مصدر وفر المال أي نما وزاد، ويروى موفورة.

ومقصوده عليه السلام بعد أن قدّم الدعاء على مصقلة بيان خطأه فإنّه أشار إلى جهة الخطأ وهي جمعه بين أمرين متنافيين في العرف: وهما فعل السادة وذي المروّة والحميّة حيث اشترى القوم وأعتقهم، مع الفرار الذي هو شيمة العبيد. ثمّ أكد عليه السلام ذلك بمثلين:

أحدهما: ما أنطق مادحه حتّى أسكته، ويفهم منه معنيان.

أحدهما: أن يكون حتّى بمعنى اللام: أي أنّه لم ينطق مادحه حتّى يقصد إسكاته بهربه فإنّ إسكات المادح

لا يتصوّر قصده إلاّ بعد إنطاقه وهو لم يتمّم فعله الذي يطلب به إنطاق مادحه بمدحه من الكرم والحميّة والرقّة ونحوها، فكأنّه قصد إسكات مادحه بهروبه فأزوى عليه ذلك، وقال: إنّه لم ينطقه بمدحه فكيف يقصد إسكاته بهروبه، وإن كان العاقل لا يتصوّر منه قصد إسكات مادحه عن مدحه إلاّ أنّه لاختياره الهروب المستلزم لإسكات المادح صار كالقاصد له فنسب إليه.

الثاني: أن يكون المراد أنّه قد جمع بين غايتين متنافيتين: إنطاقه لمادحه بفداء للأسرى، مع إسكاته بهربه قبل تمام إنطاقه. وهو وصف له بسرعة إلحاقه لفضيلته برذيلته حتّى كأنّه قصد الجمع بينهما، وهذا كما تقول في وصف سرعة تفرّق الأحباب عن اجتماعهم: ما اجتمعوا حتّى افترقوا: أي لسرعة افتراقهم كأنّ الدهر قد جمع لهم بين الاجتماع والافتراق.

الثاني: وقوله: ولا صدّق واصفه حتّى بكّته.

والمفهوم منه كالمفهوم من الذي قبله.

قوله: ولو أقام. إلى آخره.

لمّا أشار إلى خطأه أردفه بما يصلح جواباً لما عساه يكون عذراً له لو اعتذر وهو توهّمه التشديد عليه في أمر الباقي من المال حتّى كان ذلك الوهم سبب هزيمته، وفي بعض الروايات: لو أقام لأخذنا منه ما قدر عليه فإن أعسر أنظرناه فإن عجز لم نأخذ بشيء. والأوّل هو المشهور. وبالله التوفيق.

٤٥ - ومن خطبه له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاَ مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ. وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلاءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلاَ تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاغِ.

أقول: هذا الفصل ملتقط من خطبة طويلة له عليه السلام خطب بها يوم الفطر. وهو غير متّسق بل بين قوله: نعمة، وقوله: والدنيا. فصل طويل. وهذه الخطبة تنتظم الفصل المتقدّم، وهو قوله: أمّا بعد، فإنّ الدنيا قد أدبرت وهو فيها بعد هذا الفصل ولم نذكرها كراهة التطويل، ولنعد إلى الشرح فنقول:

القنوط. اليأس. والاستنكاف: الاستكبار. ومني لها: أي قدر. والجلاء بالفتح والمدّ: الخروج عن الوطن. والتبست: امتزجت. والكفاف: ما كفّ عن الناس أي أغنى عنهم من المال. والبلاغ: ما بلغ مدّة الحياة منه وكفى.

واعلم أنّه نبّه على استحقاق الله تعالى للحمد ودوامه باعتبار ملاحظة ستّة أحوال:

فأشار إلى الحالة الأولى بقوله: غير مقنوط من رحمته مقرّراً لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ولقوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وهذه الحال ممّا يشهد بإثباتها العقل إذ كان العبد عند أخذ العناية الإلهيّة بضبعيه يعلم استناد جميع الموجودات كلّيها وجزئيّها إلى مدبّر حكيم، وأنّه ليس شيء منها خالياً عن حكمة فيستليح من ذلك أنّ إيجاده له وأخذ العهد إليه بالعبادة ليس إلاّ لينجذب إلى موطنه الأصليّ ومبدئه الأوّلي بالتوحيد المحقّق والحمد المطلق عن نار أجّجت وجحيم سعّرت، وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون، فلا ييأس من روح الله عند نزول أمر واجب النزول به ممّا يعدّه شرّاً بل يكون برجائه أوثق وقلبه بشموله العناية له أعلق فإنّه لا ييأس من روح الله إلاّ الذين عميت أبصار بصائرهم عن أسرار الله، فهم في طغيانهم يعمهون وأولئك هم الخاسرون.

وأشار إلى الحالة الثانية بقوله: ولا مخلوّ من نعمته تقريراً لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ [النحل: ٥٣] فسبوغ نعمته دائم لآثار قدرته التي استلزمت طبائعها الحاجة إليه فوجب لها فيض جوده فاستلزم ذلك وجوب تصريحها بلسان حالها ومقالها بالثناء المطلق عليه ودوام

الشكر له وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وأشار إلى الحالة الثالثة بقوله: ولا مأيوس من مغفرته تقريراً لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية. وهي شهادة بشمول ستره وجميل عفوه وغفره لمن جذبت بعقله أيدي شياطينه لتحطّه إلى مهاوي الهلاك فعجز عن مقاومتها بعد أن كانت له مسكة بجناب الله فضعفت تلك المسكة عن أن تكون منجاة له حال مجاذبته لهواه وإن كان ذلك الغفران متفاوتاً بحسب قوّة تلك المسكة وضعفها، والعقل ممّا يؤيّد ذلك ويحكم بصحّة هذه الشهادة فإنّ كلّ ذي علاقة بجناب الله سيخلص من العقاب وإن بعد خلاصه على ما نطق به البرهان في موضعه، وذلك يستلزم الاعتراف بالإحسان ودوام الثناء والحمد.

ثمّ أشار إلى الرابعة بقوله: ولا مستنكف عن عبادته تقريراً لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] الآية. وكونه تعالى غير مستنكف عن عبادته شاهد عظيم على كمال لعظمته وأنّه المستحقّ للعبادة دون ما عداه إذ هو المجتمع للكمال المطلق فلا جهة نقصان فيه إليها يشار فيكون سبباً للاستنكاف والاستكبار. وغير، مع محالّ السلوب الثلاثة بعدها منصوبات على الحال.

وقوله: الذي لا تبرح منه رحمة ولا تفقد له نعمة.

اعتباران آخران يستلزمان في ملاحظتهما وجوب شكره تعالى. ونبّه بقوله: لا تبرح على دوام رحمة الله لعباده، وقوله: لا تفقد له نعمة كقوله: ولا مخلّو من نعمته، ثمّ أعقب ذلك بالتنبيه على معائب الدنيا للتنفير عنها فذكر وجوب الفناء لها ثمّ حذّر بذكر العيب الأكبر لها الذي ترغب مع ذكره وملاحظته من له أدنى بصيرة عن الركون إليها ومحبّة قيناتها وهو مفارقتها الواجبة والجلاء عنها، ثمّ أردف ذلك بذكر جهتين من جهات الميل إليها:

إحديهما: منسوبة إلى القوّة الذائقة وهي حلاوتها، والأخرى إلى القوّة الباصرة وهي خضرتها. وإطلاق لفظيهما مجاز كنّى به عن جهات الميل إليها من باب إطلاق لفظ الجزء على الكلّ. وإيراده لهذين الوصفين اللذين هما وصفا مدح في معرض ذمّها كتقدير اعتراض على ذمّها لغرض أن يجيب عنه، ولهذا عقّب ذكرهما بما يصلح جواباً وبيّنة على ما يصرف عن الميل إليها من هاتين الجهتين وهو كونهما معجّلة للطالب. إذ كان من شأن المعجّل أن ينتفع به في حال تعجيله دون ما بعده خصوصاً في حقّ من أحبّ ذلك المعجّل ولم يلتفت إلى ما سواه. والدنيا كذلك كما أشار إليه بقوله: والتبست بقلب الناظر، وإنّما خصّ الناظر لتقدّم ذكر الخضرة التي هي من حظّ النظر فمن عجّلت له منحة والتبست بقلبه وكان لا بدّ من مفارقتها لم ينتفع بما بعدها بل بقي في عذاب الفراق منكوساً وفي ظلمة الوحشة محبوساً، وإليه أشار التنزيل الإلهيّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] ثمّ لمّا نبّه على معائبها أمر بالارتحال عنها ولم يأمر به مطلقاً بل لا بدّ معه من استصحاب أحسن الأزواد إذ كانت الطريق المأمور بسلوكها في غاية الوعارة مع طولها وقصر طولها وقصر المدّة التي يتّخذ فيها الزاد فلا ينفع إذن إلاّ التقوى الأبقى الذي لا يتطرّق إليه فناء. ولا تفهمنّ - أعدّك الله لافاضة رحمته - من هذا الارتحال الحسيّ الحاصل لك من بعضها إلى بعض، ولا من الزاد المأكول الحيوانيّ فإنّ أحسن ما يحضرنا منه ربّما كان منهيّاً عنه؛ بل المأمور به ارتحال آخر يتبيّنه من تصوّر سلوك طريق الآخرة. فإنّك لمّا علمت أنّ الغاية من التكاليف البشريّة هي الوصول إلى حضرة الله ومشاهدة جلال كبريائه علمت من ذلك أنّ الطريق إلى هذا المطلوب هي آثار جوده وشواهد آلائه وأنّ القاطع لمراحل تلك الطريق ومنازلها هو قدم عقلك مقتدياً بأعلامها الواضحة كلّما نزل منها منزلاً أعدّته المعرفة به لاستلاحة أعلام منزل آخر أعلى وأكرم منه كما قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] إلى أن يستقرّ في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وإذا تصوّرت معنى الارتحال وقد علمت أنّ لكلّ ارتحال

وسفر زاداً علمت أنّ أكرم الزاد وأحسنه في هذا الطريق ليس إلاّ التقوى والأعمال الصالحة التي هي غذاء للعقول ومادّة حياتها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وأشار بقوله: ما بحضرتكم إلى ما يمكننا أن نأتي به من الأعمال الصالحة في حياتنا الدنيا، ثمّ عقّب الأمر باتّخاذ الزاد بالنهي عن طلب الزيادة على ما يقوّم به صورة البدن من متاع الدنيا إذ كان البدن بمنزلة مركوب تقطع به النفس مراحل طريقها فالزيادة على المحتاج إليه ممّا يحوج الراكب إلى الاهتمام به والعناية بحفظه المستلزم لمحبّته. وكلّ ذلك مثقل للظهر ومشغل عن الجهة المقصودة. وذلك معنى قوله: ولا تسألوا منها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ، ولا تمدّن أعينكم فيها إلى ما متّع المترفون فتقصروا في الرحيل وتشغلوا بطلب مثل ما شاهدتم، وبالله التوفيق.

٤٦ - ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، وَلاَ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ؛ لأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً.

أقول: روي: أنّه عليه السلام دعا هذا الدعاء عند وضعه رجله في الركاب متوجّها إلى حرب معاوية.

ووعثاء السفر مشقّته، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله، وغوص الأرجل فيه: والكآبة: الحزن.

يشتمل هذا الفصل على اللجأ إلى الله في خلاص طريقه المتوجّه فيها بدءاً وعوداً من الموانع الصارفة عن تمام المقصود، وفي سلامة الأحوال المهمّة التي تتعلّق النفس بها عن المشتغلات البدنيّة المعوّقة عن عبادة الله. وأعظمها أحوال النفس، ثمّ ما يصحبها من أهل ومال وولد. ثمّ ما عقّب ذلك بالإقرار بشمول عنايته وجميل رعايته وصحبته تقريراً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] إذ شأن الصاحب العناية بأمور صاحبه، وشأن الخليفة على الشيء العناية بذلك وحفظه ممّا يوجب له ضرراً، واستلزم جمعه له بين هذين الحكمين وهما الخلافة والاستصحاب بقوله: ولا يجمعهما غيرك. كونه تعالى بريئاً عن الجهة والجسميّة إذ كان اجتماعهما ممتنعاً للأجسام. إذ لا يكون جسم مستصحباً مستخلفاً في حال واحد، وأكّد ذلك وبيّنه بقوله: لأنّ المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً.

فإن قلت: هذا الحصر إنّما يتمّ لو قلنا: إنّ كلّ ما ليس بذي جهة هو واجب الوجود. وهذا مذهبٌ خاص. فما وجه صحته مطلقاً. قلت: الحصر صادق على كل تقدير فإنه على تقدير ثبوت أمور مجردة عن الجسميّة والجهة سوى الحقّ سبحانه فالمستحقّ للجمع بين هذين الأمرين بالذات والأولى هو الله تعالى، وما سواه فبالعرض. فيحمل على ذلك الاستحقاق.

ولنبحث عن فائدة الدعاء وسبب إجابته فإنّه ربما تعرض لبعض الأذهان شبهة فيقول: إما أن يكون المطلوب بالدعاء معلوم الوقوع لله أو معلوم اللاوقوع.

وعلى التقديرين لا فائدة في الدعاء لأنّ ما علم الله وقوعه وجب وما علم عدمه امتنع. فنقول في الجواب عن هذا الوهم: إنّ كلّ كائن فاسد موقوف في كونه وفساده على شرائط توجد وأسباب تعدّ لأحدهما لا يمكن بدونها كمن علمت ذلك في مظانّه. وإذا جاز ذلك فلعلّ الدعاء من شرائط ما يطلب به. وهما وإن كانا معلومي الوقوع لله وهو سببهما وعلّتهما الأولى إلاّ أنّه هو الذي ربط أحدهما بالآخر فجعل سبب وجود ذلك الشيء الدعاء كما جعل سبب صحّة المريض شرب الدواء وما لم يشرب الدواء لم يصحّ. وأمّا سبب إجابته فقال العلماء: هو توافي الأسباب. وهو أن يتوافى سبب دعاء رجل مثلاً فيما يدعو فيه وسائر أسباب وجود ذلك الشيء معاً عن الباري تعالى، لحكمة إلهيّة على ما قدّر وقضى. ثمّ الدعاء واجب، وتوقّع الإجابة واجب. فإنّ انبعاثنا للدعاء سببه من هناك ويصير دعاؤنا سبباً للإجابة. وموافاة الدعاء لحدوث الأمر المدعوّ لأجله

هما معلولا علّة واحدة، وقد يكون أحدهما بواسطة الآخر، وقد يتوهّم أنّ السماويّات تنفعل عن الأرضيّة وذلك أنّا ندعو فيستجاب لنا، وذلك باطل، لأنّ المعلول لا يفعل في علّته البتّة. وإذا لم يستجب الدعاء لداع وإن كان يرى أنّ الغاية التي يدعو لإجابتها نافعة فالسبب في عدم الإجابة أنّ الغاية النافعة ربّما لا تكون نافعة بحسب مراده بل بحسب نظام الكلّ فلذلك تتأخر إجابة دعائه أو لا يستجاب له، وبالجملة يكون عدم الإجابة لفوات شرط من شروط ذلك المطلوب حال الدعاء.

واعلم أنّ النفس الزكيّة عند الدعاء قد يفيض عليها من الأوّل قوّة تصير بها مؤثّرة في العناصر فتطاوعها متصرّفة على إرادتها فيكون ذلك إجابة للدعاء فإنّ العناصر موضوعة لفعل النفس فيها. واعتبار ذلك في أبداننا فإنّا ربّما تخيّلنا شيئاً فتتغيّر أبداننا بحسب ما يقتضيه أحوال نفوسنا وتخيّلاتها، وقد يمكن أن تؤثّر النفس في غير بدنها كما تؤثّر في بدنها، وقد تؤثّر في نفس غيرها، وقد أشرنا إلى ذلك في المقدّمات وقد يستجيب الله لتلك النفس إذا دعت فيما تدعو فيه إذا كانت الغاية التي تطلبها بالدعاء نافعة بحسب نظام الكلّ، وبالله التوفيق.

٤٧ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر الكوفة:

كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلاَزِلِ، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إلاَّ ابْتَلاهُ اللهُ بِشَاغِلٍ، وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ!

أقول: عكاظ بالضمّ: اسم موضع بناحية مكّة كانت العرب تجتمع به في كلّ سنة ويقيمون به سوقاً مدّة شهر، ويتبايعون ويتناشدون الأشعار، ويتفاخرون وفي ذلك قول أبي ذويب:

إذا بـنـي الـقـبـاب عـلـى عـكـاظ
وقـام الـبـيـع واجـتـمـع الألـوف

فلمّا جاء الإسلام رفع ذلك، وأديم عكاظيّ منسوب إليها لكثرة ما كان يباع منه بها. والأديم: واحد وجمعه أدم، وربّما جمع على آدمة كرغيف وأرغفة. والعرك. الدلك. والنوازل: المصائب. والخطاب هنا لشاهد حال المدينة التي هي الكوفة. وبك هو خبر كأنّ، وتمدّين وتعركين وتركبين في موضع النصب على الحال، وتقدير الخطاب كأني حاضر بك ومشاهد لحالك المستقبلة حال تجاذب أيدي الظالمين لأهلك بأنواع الظلم، وهو المكنّى عنه بمدّها، وشبّه ذلك بمدّ الأديم، ووجه الشبه شدّة ما يقع بهم من الظلام والبلاء كما أنّ الأديم مستحكم الدباغ يكون شديد المدّ. واستعار العرك ملاحظةً لذلك الشبه، ولفظ الركوب ملاحظة لشبهها بشقي المطايا وكذلك لفظ الزلازل ملاحظة لشبهها فيما يقع لهم من الظلم الموجب لاضطراب الحال بالأرض ذات الزلازل. ثمّ أشار إلى مشاهدة ثانية لما يقع أراد بهم سوءاً وأوقع بهم ما أوقع من البلاء فأشار إلى كونهم جبابرة ثمّ إلى ابتلاء الله بعضهم بشاغل في نفسه عمّا يريد من سوء أو يهمّ به من حادث خراب ورمى بعضهم بقاتل. فأمّا المصائب التي ابتلي بها أهل الكوفة والنوازل التي عركوا بها فكثيرة مشهورة في كتب التواريخ، وأمّا الجبابرة التي أرادوا بها سوءاً وطغوا فيها فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب وأخذهم بذنوبهم وما كان لهم من الله واق فجماعة فممّن ابتلي بشاغل فيها زياد. روي أنّه كان قد جمع الناس في المسجد ليأمرهم بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه ويبتليهم بذلك فيقتل من يعصيه فيه، فبينا هم مجتمعين إذ خرج حاجبه فأمرهم بالانصراف، وقال: إن الأمير مشغول عنكم وكان في تلك الساعة قد رمي (أصاب خ) بالفالج، ومنهم ابنه عبد الله وقد أصابه الجذم، ومنهم الحجّاج. وقد تولّدت في بطنه الحيّات واحترق دبره حتّى هلك، ومنهم عمرو بن هبيرة وابنه يوسف وقد أصابهما البرص، ومنهم خالد القسريّ وقد ضرب وحبس حتّى مات جوعاً، وأمّا الذي رماهم الله بقاتل فعبيد الله بن زياد، ومصعب ابن الزبير، والمختار ابن أبي عبيدة الثقفيّ، ويزيد بن المهلّب. وأحوالهم مشهورة من رامها طالع التاريخ.

٤٨ - ومن خطبة له عليه السلام

عند المسير إلى الشام

اَلْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ للهِ كُلَّمَا لاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الإِنْعَامِ، وَلاَ مُكَافَأ الإِفْضَالِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هٰذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ، مِنْكُمْ، مُوطِّنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ.

قال الشريف: أقول: يعني عليه السلام بالملطاط السمت الذي أمرهم بنزوله وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض. ويعني بالنطفة ماء الفرات. وهو من غريب العبارات وأعجبها.

أقول: روي أنّ هذه الخطبة خطب بها عليه السلام وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة متوجّهاً إلى صفّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين.

وقب الليل: دخل. وغسق: أظلم. وخفق النجم: غاب. ومقدّمة الجيش: أوّله. والشرذمة: النفر اليسير. والأكناف: النواحي. وطن البقعة واستوطنها: اتّخذها وطنا. والأمداد: جمع مدد، وهو ما يمدّ به الجيش من الجند.

واعلم أنّه قيّد حمد الله باعتبار تكرّر وقتين ودوام حالين. والمقصود وإن كان دوام الحمد لله إلاّ أنّ في التقييد بالقيود المذكورة فوائد:

الأوّل: قوله: كلّما وقب ليل وغسق. فيه تنبيه على كمال قدرة الله تعالى في تعاقب الليل والنهار واستحقاقه دوام الحمد بما يلزم ذلك من ضروب الامتنان.

الثاني: قوله: كلّما لاح نجم وخفق. فيه تنبيه على ما يلزم طلوع الكواكب وغروبها من الحكمة وكمال النعمة كما سبقت الإشارة إليه.

الثالث: الحمد له حال كونه غير مفقود الإنعام. وقد تكرّرت الإشارة إلى فائدة هذا القيد.

الرابع: كونه غير مكافئ الإفضال. وفائدته التنبيه على أنّ إفضاله لا يمكن أن يقابل بجزاء. إذ كانت القدرة على الحمد والثناء نعمة ثانية. وقد سبق بيان ذلك أيضاً.

فأمّا قوله: أمّا بعد. إلى آخره.

فخلاصته أنّه عليه السلام لمّا أراد التوجّه إلى صفّين بعث زياد بن النصر وشريح بن هاني في اثني عشر ألف فارس مقدّمة له وأمرهم أن يلزموا شاطئ الفرات فأخذوا شاطئها من قبل البرّ ممّا يلي الكوفة حتّى بلغوا عانات. فذلك معنى أمره لهم بلزوم الملطاط وهو سمت شاطئ الفرات، وأمّا هو عليه السلام فلمّا خرج من الكوفة انتهى إلى المدائن فحذّرهم ووعظهم ثمّ سار عنهم وخلّف عليهم عديّ بن حاتم فاستخلص منهم ثمّان مائة رجل فسار بهم وخلّف معهم ابنه زيداً فلحقه في أربعمائة رجل منهم فذلك قوله: وقد رأيت [أردت خ] أن أقطع هذه النطفة: أي الفرات إلى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة وهم أهل المدائن. فأمّا المقدّمة فإنّه لمّا بلغهم أنّه عليه السلام ساق على طريق الجزيرة وأنّ معاوية خرج في جموعه لاستقباله كرهوا أن يلقوهم وبينهم وبين عليّ عليه السلام الفرات مع قلّة عددهم فرجعوا حتّى عبروا الفرات من هيت ولحقوا به فصوّب آراءهم في الرجوع إليه. وباقي الكلام ظاهر.

٤٩ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ. وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ؛ فَلا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ: سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ. فَلاَ اسْتِعْلاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ

مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلامُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!.

أقول: يقال بطنت الوادي: دخلته. وبطنت الأمر: علمت باطنه. وفي هذا الفصل مباحث جليلة من العلم الإلهيّ وجملة من صفات الربوبيّة:

أوّلها: كونه تعالى بطن خفيّات الأمور ويفهم منه معنيان:

أحدهما: كونه داخلاً في جملة الأمور الخفيّة، ولمّا كان بواطن الأمور الخفيّة أخفى من ظواهرها كان المفهوم من كونها بطنها أنّه أخفى منها عند العقول.

الثاني: أن يكون المعنى أنّه نفذ علمه في بواطن خفيّات الأمور.

أمّا المعنى الأول فبرهانه أنّك علمت أنّ الإدراك إمّا حسيّ أو عقليّ، ولمّا كان الباري تعالى مقدّساً عن الجسميّة منزّها عن الوضع والجهة استحال أن يدركه شيء من الحواسّ الظاهرة والباطنة، ولمّا كانت ذاته بريئة عن أنحاء التركيب استحال أن يكون للعقل اطّلاع عليها بالكنه فخفاؤه إذن على جميع الإدراكات ظاهر، وكونه أخفى الأمور الخفية واضح.

وأمّا الثاني: فقد سبق منّا بيان أنّه عالم الخفيّات والسرائر.

وثانيها: كونه تعالى قد دلّت عليه أعلام الظهور، وكنّى بأعلام الظهور عن آياته وآثاره في العالم الدالّة على وجوده الظاهر في كلّ صورة منها كما قال:

وفي كلّ شيء له آية
تدلّ على أنّه واحد

وهي كناية بالمستعار، ووجه المشابهة ما بينهما من الاشتراك في الهداية. وإلى هذا الأعلام الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

واعلم أنّ هذا الطريق من الاستدلال هي طريق الملّيّين وسائر فرق المتكلّمين فإنّهم يستدلّون أوّلاً على حدوث الأجسام والأعراض، ثمّ يستدلّون بحدوثها وتغيّراتها على وجود الخالق، ثمّ بالنظر في أحوال المخلوقات على صفاته واحدة واحدة. مثلاً بإحكامها وإتقانها على كون فاعلها عالماً حكيماً، وبتخصيص بعضها بأمر ليس للآخر على كونه مريداً، ونحو ذلك. وكذلك الحكماء الطّبيعيّون يستدلّون أيضاً بوجود الحركة على محرّك، وبامتناع اتّصال المتحرّكات لا إلى أوّل على وجود محرّك أوّل غير متحرّك، ثمّ يستدلّون من ذلك على وجود مبدأ أوّل، وأمّا الإلهيّون فلهم في الاستدلال طريق آخر وهو أنّهم ينظرون أوّلا في مطلق الوجود أهو واجب أو ممكن، ويستدلّون من ذلك على إثبات واجب، ثمّ بالنظر في لوازم الوجوب من الوحدة الحقيقيّة على نفي الكثرة بوجهٍ ما المستلزمة لعدم الجسميّة والعرضيّة والجهة وغيرها، ثمّ يستدلّون بصفاته على كيفيّة صدور أفعاله عنه واحداً بعد آخر، وظاهر أنّ هذا الطريق أجلّ وأشرف من الطريق الأولى، وذلك لأنّ الاستدلال بالعلّة على المعلول أولى البراهين بإعطاء اليقين لكون العلم بالعلّة مستلزماً للعلم بالمعلول المعيّن من غير عكس. ولمّا كان صدر الآية المذكورة إشارة إلى الطريقة الأولى فتمامها إشارة إلى هذه الطريقة وهو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] قال بعض العلماء: وإنّه طريق الصدّيقين الذين يستشهدون به لا عليه: أي يستدلّون بوجوده على وجود كلّ شيء إذ هو منه، ولا يستدلّون عليه بوجود شيء؛ بل هو أظهر وجوداً من كلّ شيء فإن خفي مع ظهوره فلشدّة ظهوره، وظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره إذ كلّ ذرّة من ذرّات مبدعاته ومكوّناته فلها عدّة ألسنة تشهد بوجوده وبالحاجة إلى تدبيره وقدرته. لا يخالف شيء من الموجودات شيئاً في تلك الشهادات ولا يتخصّص أحدها بعدم الحاجات، وقد ضرب العلماء الشمس مثلاً لنوره في شدّة ظهوره فقالوا: إنّ أظهر الإدراكات التي يساعد عليها الوهم إدراكات الحواسّ، وأظهرها إدراك البصر وأظهر مدرك للبصر نور الشمس المشرق على الأجسام، وقد أشكل ذلك على جماعة حتّى قالوا: الأشياء الملوّنة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد ونحوه فأما أن فيها مع ذلك ضوء يقارن

اللون فلا. فإذن أريد تنبيه هؤلاء على سهوهم. فطريقة التنبيه بالتفرقة التي يجدونها بين غيبة الشمس بالليل واحتجابها عن الملوّنات، وبين حضورها بالنهار وإشراقها عليها مع بقاء الألوان في الحالين، فإنّ التفرقة بين المستضيء بها وبين المظلم المحجوب عنها جليّة ظاهرة فيعرف وجود النور إذن بعدمه. ولو فرضت الشمس دائمة الإشراق على الجسم الملوّن لا تغيب عنه لتعذّر على هؤلاء معرفة كون النور شيئاً موجوداً زايداً على الألوان مع أنّه أظهر الأشياء وبه ظهورها، ولو تصوّر الله تعالى وتقدّس عدم أو غيبة لانهدمت السماوات والأرض، وكل ما انقطع نوره عنه لأدركت التفرقة بين الحالين وعلم وجوده قطعاً؛ ولكن لمّا كانت الأشياء كلها في الشهادة به متّفقة، والأحوال كلها على نسق واحد مطّردة متّسقة كان ذلك سبباً لخفائه، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره.

ثالثها: إشارة إلى سلوب توجب ملاحظة تركيبها تعظيمه تعالى.

أحدها: كونه ممتنعاً على عين البصير: أي لا يصحّ أن يدرك بحاسّة البصر. وصدق هذا السلب ظاهر بدليل هكذا: الباري تعالى هو غير جسم وغير ذي وضع، وكلّ ما كان كذلك فيمتنع رؤيته بحاسّة البصر فينتج أنّه تعالى ممتنع الرؤية بحاسّة البصر. والمقدّمة الأولى استدلاليّة، والثانية ضروريّة، وربّما استدلّ عليها. والمسألة مستقصاة في الكلام. وإلى ذلك أشار القرآن الكريم: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وثانيها: قوله: فلا عين من لم يره تنكره: أي إنّه سبحانه مع كون البصر لا يدركه بحاسّة بصره لا ينكره من جهة أنّه لا يبصره. إذ كانت فطرته شاهدة بظهور وجوده في جميع آثاره ومع ذلك ليس له سبيل إلى إنكاره من جهة عدم إبصاره إذ كان حظّ العين أن يدرك بها ما صحّ إدراكه. فأمّا أن ينفي بها ما لا يدرك من جهتها فلا.

وثالثها: قوله: ولا قلب من أثبته يبصره: أي من أثبته مع كونه مثبتاً له بقلب لا يبصره، وإنّما أكّد عليه السلام بهذين السلبين الأخيرين لأنّهما يشتملان عند الوهم في مبدأ سماعها على منافاة وكذب إلى أن يقهره العقل على التصديق بهما فكأنّ الوهم يقول في جواب قوله: فلا عين من لم يره تنكره: كيف لا تنكر العين شيئاً لا تراه، وفي جواب السلب الثاني: كيف يثبت بالقلب ما لم يبصر. فلمّا كان في صدق هذين السلبين إزعاج لأوهام السامعين مفرغ لهم إلى ملاحظة جلال الله وتنزيهه وعظمته عمّا لا يجوز عليه كان ذكرهما من أحسن الذكر، ويحتمل أن يريد بقوله: ولا قلب من أثبته يبصره: أي إنّه وإن أثبته من جهة وجوده فيستحيل أن يحيط به علماً.

ورابعها: كونه تعالى قد سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، وتقريره أنّ العلوّ يقال بالاشتراك على معان ثلاثة:

الأوّل: العلوّ الحسّي المكاني كارتفاع بعض الأجسام على بعض.

الثاني: العلوّ التخيّلي كما يقال للملك الإنساني: إنّه أعلى الناس: أي أعلاهم في الرتبة المتخيّلة كمالاً.

الثالث: العلوّ العقليّ كما يقال في بعض الكمالات العقليّة التي بعضها أعلى من بعض، وكما يقال: السبب أعلى من المسبّب.

إذا عرفت ذلك فنقول: يستحيل أن يكون علوّه تعالى بالمعنى الأول لاستحالة كونه في المكان، ويستحيل أن يكون بالمعنى الثاني لتنزّهه سبحانه عن الكمالات الخياليّة التي يصدق بها العلوّ الخياليّ إذ هي كمالات إضافيّة تتغيّر وتتبدّل بحسب الأشخاص والأوقات، وقد يكون كمالات عند بعض الناس ونقصانات عند آخرين كدول الدنيا بالنسبة إلى العالم الزاهد، ويتطرّق إليه الزيادة والنقصان ولا شيء من كمال الأوّل الواجب سبحانه كذلك لتنزّهه عن النقصان والتغيّر بوجهٍ ما. فبقي أن يكون علوّه علوّاً عقلياً مطلقا بمعنى أنّه لا رتبة فوق رتبته بل جميع المراتب العقليّة منحطّة عنه. وبيان ذلك أنّ أعلى مراتب الكمال العقليّ هو مرتبة العلّيّة، ولمّا كانت ذاته المقدّسة هي مبدأ كلّ موجود حسّي وعقليّ وعلّته التامّة المطلقة لا يتصوّر النقصان فيها بوجهٍ ما لا

جرم كانت مرتبته أعلى المراتب العقليّة مطلقاً، وله الفوق المطلق في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء وعن إمكان أن يكون فوقه ما هو أعلى منه. وذلك معنى قوله: سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، فسبقه في علوّه تفرّده في العلوّ المطلق وفواته لغيره أن يلحقه فيه.

وخامسها: قربه في الدنوّ فلا شيء أدنى منه. وقد أورد عليه السلام القرب هاهنا مقابلاً للبعد اللازم عن السبق في العلوّ فإنّه مستلزم للبعد عن الغير فيه، وأورد الدنوّ مقابلاً للعلوّ، وكما علمت أنّ العلوّ يقال على المعاني الثلاثة المذكورة بحسب الاشتراك فكذلك الدنوّ يقال على معان ثلاثة مقابلة لها. فيقال مكان فلان أدنى من مكان فلان إذا كان أسفل منه. وإن كان يقال بمعنى القرب أيضاً، ويقال رتبة الملك الفلانيّ أدنى من رتبة السلطان الفلاني إذا كان في مرتبته أقلّ منه، ويقال رتبة المعلول أدنى من رتبة علّته. ويقال على معنى رابع فيقال فلان أدنى إلى فلان وأقرب إليه إذا كان خصّيصاً به مطّلعاً على أحواله أكثر من غيره، والباري تعالى منزّه عن أن يراد بدنوّه أحد المفهومات الثلاثة الأول بل المراد هو المفهوم الرابع فقربه في دنوّه إذن بحسب علمه الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وبهذا الاعتبار هو أقرب كلّ قريب وأدنى كلّ داني كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وهو أدنى إلى العبد من نفسه إذ نفس كلّ إنسان لا تعرف نفسها، وهو سبحانه العالم بها الموجد لها فهو إذن القريب في دنوّه الذي لا شيء أقرب منه، وإنّما أورده بلفظ الدنوّ لتحصل المقابلة فتنزعج النفوس السليمة عند إنكار الوهم لاجتماع القرب والبعد والعلوّ والدنوّ في شيء واحد إلى توهّم [تفهّم خ]، المقاصد بها وتطلّع على عظمة الحقّ سبحانه منها.

وقوله: فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به.

تأكيد لردّ الأحكام الوهميّة بالأحكام العقليّة فإنّ الوهم يحكم بأنّ ما استعلى على الأشياء كان بعده عنها بقدر علوّه عليها. وما قرب منها فقد ساواها في أمكنتها، وذلك لكونه مقصور الحكم على المحسوسات، ونحن لمّا بيّنا أنّ علوّه على خلقه وقربه منهم ليس علوّاً وقرباً مكانيّين بل بمعان أخرى لا جرم لم يكن استعلاؤه بذلك المعنى على مخلوقاته مباعداً له عن شيء منها ولم يكن منافياً لقربه بالمعنى الذي ذكرناه بل كان الاستعلاء والقرب مجتمعين له، ولم يكن قربه منها أيضاً موجباً لمساواته لها في المكان عناداً للوهم وردّاً لأحكامه الفاسدة في صفات الجلال ونعوت الكمال.

وسادسها: كونه لم تطلّع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته. ويفهم من صفته معنيان: أحدهما شرح حقيقة ذاته، والثاني شرح ما لها من صفات الكمال المطلق. وظاهر أنّ العقول لم تطلّع على حصر صفته وتحديدها بالمعنى الأوّل إذ لا حدّ لحقيقته، ولا بالمعنى الثاني أيضاً إذ ليس لما تعتبره العقول من كماله سبحانه نهاية يقف عندها فتكون حدّاً له، وأمّا أنّه سبحانه مع ذلك لم يحجبها عن واجب معرفته فلأنّه تعالى وهب لكلّ نفس قسطاً من معرفته هو الواجب لها بحسب استعدادها لقبوله حتّى نفوس الجاحدين له فإنّها أيضاً معترفة بوجوده لشهادة أعلام الوجود وآيات الصنع له على نفس كل جاحد بصدورها عنه بحيث يحكم صريح عقلها وبديهتها بالحاجة لما يشاهده من تلك الآيات إلى صانع حكيم فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب كلّ من جحده بأنّ جحده له إنّما هو رأي اتّبع فيه وهمه مع إقرار قلبه بالتصديق به وشهادة آيات الصنع وشواهد الآثار على صحّة ذلك الإقرار.

واعلم أنّ الجحود على نوعين: أحدهما جحود تشبيه إذ المشبّهون لله بخلقه وإن اختلفوا في كيفيّة التشبيه بأسرهم جاحدون له في الحقيقة. وذلك أنّ المعنى الذي يتصوّرونه ويثبتونه إلهاً ليس هو نفس الإله مع أنّهم ينفون ما سوى ذلك فكانوا نافين للإله الحقّ في المعنى الذي يتصوّرونه، والثاني جحود من لم يثبت صانعاً. وكلا الفريقين جاحد له من وجه، مثبت له من وجه. أمّا المشبّهون فمثبتون له صريحاً جاحدون له لزوماً، وأمّا الآخرون فبالعكس إذ كانوا جاحدين له صريحاً من

الجهة التي تثبته العقلاء بها ومقرّون به التزاماً واضطراراً، ولذلك نزّهه عليه السلام على أحوال الفريقين فقال عليه السلام: تعالى الله عمّا يقول المشبّهون به والجاحدون له علوّاً كبيراً، وحكي أنّ زنديقاً دخل على الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام فسأله عن دليل إثبات الصانع فأعرض عليه السلام عنه، ثمّ التفت إليه، وسأله من أين أقبلت وما قصّتك. فقال الزنديق: إنّي كنت مسافراً في البحر فعصفت علينا الريح ذات يوم وتلعّبت بنا الأمواج من كلّ جانب فانكسرت سفينتنا فتعلّقت بخشبة منها ولم تزل الأمواج تقلّبها حتّى قذفت بها إلى الساحل وسلمت عليها. فقال له عليه السلام: أرأيت الذي كان قبلك إذ تكسّرت السفينة وتلاطمت عليكم أمواج البحر فزعاً إليه مخلصاً في التضرّع له طالباً للنجاة منه فهو إلهك، فاعترف الزنديق بذلك وحسن اعتقاده. وبالجملة فاتّفاق العقول على الشهادة بوجود الصانع سبحانه أمر ظاهر وإن خالطها غواشي الأوهام وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣] وبالله التوفيق.

٥٠ - ومن خطبة له عليه السلام

إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً، عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ. فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ؛ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هٰذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هٰذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى.

أقول: المرتاد الطالب. والضغث: القبضة من الحشيش.

واعلم أنّ مبدأ وقوع المؤدّية إلى خراب العالم وفساده إنّما هو اتّباع الهوى والآراء الباطلة والأحكام المبتدعة الخارجة عن أوامر الله، وذلك أنّ المقصود من بعثة الرسل ووضع الشريعة إنّما هو نظام أحوال الخلق في أمر معاشهم ومعادهم فكان كلّ رأي ابتدع أو هوى اتّبع خارجاً عن كتاب الله وسنّة رسوله سبباً لوقوع الفتنة وتبدّد نظام الموجود في هذا العالم. وذلك كأهواء البغاة وآراء الخوارج ونحوها.

وقوله: فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ. إلى آخره.

إشارة إلى أسباب تلك الآراء الفاسدة. ومدار تلك الأسباب على امتزاج المقدمات الحقّة بالباطلة في الحجج التي يستعملها المبطلون في استعلام المجهولات فبيّن أنّ السبب هو ذلك الامتزاج بشرطيّتين متّصلتين.

إحديهما: قوله: فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين. ووجه الملازمة في هذه المتّصلة ظاهر فإنّ مقدّمات الشبهة إذا كانت كلّها باطلة أدرك طالب الحقّ وجه فسادها بأدنى سعي ولم يخف عليه بطلانها، وأمّا استثناء نقيض تاليها فلأنّه لمّا خفي وجه البطلان فيها على طالب الحقّ لم يكن الباطل فيها خالصاً من مزاج الحقّ فكان ذلك هو سبب الغلط واتّباع الباطل لأنّ النتيجة تتبع أخسّ المقدّمتين.

والثانية: قوله: ولو أنّ الحقّ خلص من [لبس خ] الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ووجه الملازمة أيضاً كما مرّ: أي إنّ مقدّمات الحجّة التي استعملها المبطلون لو كانت كلّها حقّة مرتّبة ترتيباً حقّاً لكانت النتيجة حقّاً تنقطع ألسنتهم عن العناد فيه والمخالفة له. وقد حذف عليه السلام كبرى هذين القياسين لأنّهما قياسا ضمير كما سبق، ثمّ أتى بالنتيجة أو ما في معناها وهو قوله: ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث: أي من الحقّ والباطل فيمزجان، ولفظ الضغث مستعار، ومقصوده بذلك التصريح بلزوم الآراء الباطلة والأهواء

المبتدعة لمزج الحقّ بالباطل. ولذلك قال: وهنالك يستولي الشيطان على أوليائه: أي إنّه يزيّن لهم اتّباع الأهواء والأحكام الخارجة عن كتاب الله بسبب إغوائهم عن تمييز الحقّ من الباطل فيما سلكوه من الشبهة وينجو الذين سبقت لهم منّا الحسنى: أي من أخذت عناية الله بأيديهم في ظلمات الشبهات فقادتهم فيه بإضافة نور الهداية عليهم إلى تميّز الحقّ من الباطل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

٥١ - ومن كلام له عليه السلام

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ؛ أَوْ رَوُّوا ٱلسُّيُوفَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ تُرْوَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَٱلْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلاَ وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَّةً مِنَ ٱلْغُوَاةِ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ ٱلْمَنِيَّةِ.

أقول: اللمة بالتخفيف: الجماعة القليلة. وعمس بالتخفيف والتشديد: عمّى وأبهم، ومنه عمس الليل أظلم. والمحلّة: المنزلة. وفي الفصل لطائف.

الأولى: قوله: قد استطعموكم القتال.

استعار لفظ الاستطعام لتحرّشهم بالقتال في منعهم للمساء. ووجه الاستعارة استسهالهم للقتال وطلبهم له بمنع الماء الذي هو في الحقيقة أقوى جذباً للقتال من طلب المأكول بالأقوال. ولأنّهم لمّا حازوا الماء أشبهوا في ذلك من طلب الطعام له، ولمّا استلزم ذلك المنع طلبهم للقتال تعيّن أن يشبه ما طلبوا إطعامه.

الثانية: قوله: فأقرّوا على مذلّة، وتأخير محلّة. إلى قوله: الماء.

أمر لهم بأحد لازمين عن منعهم الماء واستطعامهم القتال: إمّا ترك القتال، أو إيقاعه. وإنّما أورد الكلام بصورة التخيير بين هذين اللازمين وإن لم يكن مراده إلاّ القتال لعلمه بأنّهم لا يختارون ترك القتال مع ما يلزم من الإقرار بالعجز والمذلّة والاستسلام للعدوّ وتأخير المنزلة عن رتبة أهل الشرف والشجاعة، وإنّما أورد الوصفين اللازمين لترك القتال. وهما الإقرار على المذلّة وعلى تأخير المحلّة لينفّر بهما عنه ويظهره لهم في صورة كريهة، وإنّما جعل الريّ من الماء الذي هو مشتهى أصحابه في ذلك الوقت لازماً لترويتهم السيوف من الدماء الّتي يلزمها القتال ليريهم القتال في صورة محبوبة تميل طباعهم إليها. ونسبة التروّي إلى السيوف نسبة مجازيّة.

الثالثة: قوله: فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين.

من لطائف الكلام ومحاسنه وهو جذب إلى القتال بأبلغ ما يمكن من البلاغة فجذبهم إليه بتصويره لهم أنّ الغاية التي عساهم يفرّون من القتال خوفاً منها وهي الموت موجودة في الغاية التي عساهم يطلبونها من ترك القتال وهي الحياة البدنيّة حال كونهم مقهورين. وتجوّز بلفظ الموت في الشدائد والأهواء التي تلحقهم من عدوّهم لو قهرهم وهي عند العاقل أشدّ بكثير من موت البدن وأقوى مقاساة فإنّ المذلّة وسقوط المنزلة والهضم والاستنقاص عند ذي اللبّ موتات متعاقبة، ويحتمل أن يكون مجازاً في ترك عبادة الله بالجهاد فإنّه موت للنفس وعدم لحياتها برضوان الله، وكذلك جذبه لهم أنّ الغاية التي تفرّون إليها بترك القتال وهي الحياة موجودة في الغاية التي تفرّون منها وهي الموت البدنيّ حال كونهم قاهرين أمّا في الدنيا فمن وجهين: أحدهما: الذكر الباقي الجميل الذي لا يموت ولا يفنى. الثاني أنّ طيب حياتهم الدنيا إنّما يكون بنظام أحوالهم بوجود الإمام العادل وبقاء الشريعة كما هي، وذلك إنّما يكون بإلقاء أنفسهم في غمرات الحرب محافظة على الدين وموت بعضهم فيها. ولفظ الموت مهمل تصدق نسبته إلى الكلّ وإن وجد في البعض، وأمّا في الآخرة فالبقاء الأبدي بالمحافظة على وظائف الله والحياة التامّة في جنّات عدن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩] وفي القرينتين الأوليين السجع المتوازي وفي اللتين بعدهما السجع المطرف، وفي اللتين بعدهما المقابلة.

الرابعة: قوله: ألا وإنّ معاوية.

ذكر للعدوّ برذيلتين، ولأصحابه برذيلتين، أمّا الأوليان فكونه قائد غواة، وكونه قد لبّس عليهم الحقّ بالباطل وأراهم الباطل في صورة الحقّ، وأمّا الأخريان لكونهم غواتاً من الحقّ، وكونهم قد انقادوا للباطل عن شبهة حتّى صار جهلهم مركّبة، والغرض من ذلك التنفير عنهم، وقوله: حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة غاية لأصحاب معاوية من تلبيسه الحقّ عليهم. وكنّى بذلك عن تصدّيهم للموت، ولفظ الغرض مستعار لنحورهم، ووجه المشابهة جعلهم لنحورهم بصدد أن تصيبها سهام المنيّة من الطعن والضرب والذبح ووجوه القتل فأشبهت ما ينصبه الرامي هدفاً. وهي استعارة بالكناية كأنّه حاول أن يستعير للمنيّة لفظ الرامي. وبالله التوفيق.

٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَآذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ. فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ؛ وَلاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الأَمَلُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فيها الأَمَدُ. فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ، الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ، لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ. وَتَاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا، مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلإِيمَانِ.

أقول: آذنت: أعلمت. وتنكّر معروفها: جهل. وحذّاء: سريعة خفيفة، ويروى بالجيم: أي مقطوعة الخبر والعلاقة. والحفز: السوق الحثيث. والحفز أيضاً الطعن، والسملة بفتح الميم: البقيّة من الماء في الإناء. والمقلة بفتح الميم وسكون القاف: حصاة يقسم بها الماء عند قلّته يعرف بها مقدار ما يسقى كلّ شخص. والتمزّز: تمصّص الشراب قليلاً قليلاً. والصديان: العطشان. ونقع ينقع: أي سكن عطشه. وأزمعت الأمر وأزمعت عليه: أي ثبت عزمي على فعله. والمقدور: المقدّر الذي لا بدّ من كونه. والأمد: الغاية. والولّه العجال: جمع واله وعجول، وهما من الإبل النوق تفقد أولادها. وهديل الحمامة: نوحها. والجؤار: الصوت المرتفع. والتبتّل: الانقطاع إلى الله بإخلاص النيّة. وانماث الشيء: تحلّل وذاب.

واعلم أنّ مدار هذا الفصل على أمور ثلاثة:

أحدها: التنفير عن الدنيا والتحذير منها والنهي عن تأملها والأمر بالرحيل عنها.

الثاني: التنبيه على عظيم ثواب الله وما ينبغي أن يرجى منه ويلتفت إليه ويقصد بالرحيل بالنسبة إلى ما الناس فيه ممّا يتوهّم خيراً في الدنيا ثمّ على عظيم عقابه وما ينبغي أن يخاف منه.

الثالث: التنبيه على عظمة نعمة الله على الخالق، وأنّه لا يمكن جزاؤها بأبلغ المساعي وأكثر الاجتهاد.

أمّا الأوّل: فأشار بقوله: ألا وإنّ الدنيا قد تصرّمت. إلى قوله: فيها الأمد.

وقد علمت أن تصرّمها هو تقضّي أحوالها الحاضرة شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى من وجد فيها في كلّ حين، وأنّ إذنها بالانقضاء هو إعلامها بلسان حالها لأذهان المعتبرين أنّها لا تبقى لأحد، فأمّا تنكر معروفها: فمعناه تغيّره وتبدّله، ومثاله أنّ الإنسان إذا أصاب لذّة من لذّات الدنيا كصحّة أو أمن أو جاه ونحوه أنس إليه وتوهّم بقاءه له وكان ذلك معروفها الذي أسدته إليه وعرفه وألفه

منها، ثمّ إنّه عن قليل يزول ويتبدّل بضدّه فيصير بعد أن كان معروفاً مجهولاً. وتكون الدنيا كصديق تنكّر في صداقته ومزجها بعداوته.

وقوله: وأدبرت حذّاء.

أي ولّت حال ما لا تعلّق لأحد بشيء منها مسرعة، واستعار لفظ الإدبار لانتقال خيراتها عمّن انتقلت عنه بموته أو غير ذلك من وجوه زوالها ملاحظة لشبهها بملك أعرض عن بعض رعيّته برفده وماله وبرّه.

قوله: فهي تحفز بالفناء سكّانها وتحدو بالموت جيرانها.

استعار لها وصفي السائق والحادي استعارة بالكناية. ووجه المشابهة كونهم قاطعين لمدّة العمر بالفناء والموت فهي مصاحبته لهم بذلك كما يصحب السائق والحادي للإبل بالسوق والحداء، وإن أريد بالحفز الطعن فيكون قد تجوّز بنسبته إلى البلاء ملاحظة لشبه مصائب الدنيا بالرماح، وكذلك استعار لفظ الفناء والموت لآلة السوق والحداء ونزّلهما منزلة الحقيقة. ووجه المشابهة كون الموت هو السبب في انتقال الإنسان إلى دار الآخرة كما أنّ الصوت والسوط مثلاً للذين هما آلتا الحداء والسوق هما اللذان بهما يحصل انتقال الإبل من موضع إلى موضع.

وقوله: وقد أمرّ فيها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً.

كقوله: وتنكّر معروفها: أي إنّ الأمور التي تقع لذيذة فيها ويجدها الإنسان في بعض أوقاته صافيةً حلوةً خاليةً عن كدورات الأمراض ومرارة التنغيص بالعوارض الكريهة هي في معرض التغيّر والتبدّل بالمرارة والكدر فما من شخص يخاطبه بما ذكر إلاّ ويصدق عليه أنّه قد عرضت له من تلك اللّذات ما استعقب صفوها كدراً وحلاوتها مرارة إمّا من شباب يتبدّل بكبر، أو غنى بفقر، أو عزّ بذل، أو صحة بسقم.

وقوله: فلم يبق منها إلا سملة. إلى قوله: لم ينقع.

تقليل وتحقير لما بقي منها لكلّ شخص شخص من الناس فإنّ بقاءها له على حسب بقائه فيها، وبقاء كلّ شخص فيها يسير ووقته قصير. واستعار لفظ السملة لبقيّتها، وشبّهها ببقية الماء في الإداوة، وبجرعة المقلة، ووجه الشبه ما أشار بقوله لو تمزّزها الصديان لم ينقع: أي كما أنّ العطشان الواجد لبقيّة الإداوة والجرعة لو تمصّصه لم ينقع عطشه كذلك طالب الدنيا المتعطّش إليها الواجد لبقيّة عمره ولليسير من الاستمتاع فيه بلذات الدنيا لا يشفي ذلك غليله ولا يسكن عطشه منها، فالأولى إذن تعويد النفس بالفطام عن شهواتها.

وقوله: فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار.

أمر لهم بعد تحقيرها والتنفير عنها بالإزماع، وتصميم العزم على الرحيل عنها بالالتفات إلى الله والإقبال على قطع عقبات الطريق إليه وهو الرحيل عن الدنيا.

وقوله: المقدور على أهلها الزوال.

تذكير بما لا بدّ من مفارقتها لتحفّ الرغبة فيها ثمّ أعقب ذلك بالنهي عن متابعة الأمل في لذّاتها فإنّه يُنسي الآخرة كما سبقت الإشارة إليه، وذكر لفظ المغالبة تذكير بالأنفة واستثارة للحميّة من نفوسهم ثمّ بالنهي عن توهّم طول مدّة الحياة واستبعاد الغاية التي هي الموت فإنّ ذلك يقسي القلب فيورث الغفلة عن ذكر الله كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وأمّا الثاني: فهو التنبيه على عظيم ثواب الله وعقابه.

فاعلم أنه لمّا حقّر الدنيا، وحذّر منها، وأمر بالارتحال عنها، أشار بعد ذلك إلى ما ينبغي أن يعظّم ويلتفت إليه ويرجى ويخشى؛ وهو ثواب الله وعقابه، فأشار إلى تعظيمها بتحقير الأسباب والوسائل التي يعتمد عليها العباد وهي غايات جهدهم بالنسبة إلى ما ينبغي أن يرجى من ثوابه ويخشى من عقابه وتلك الأسباب من شدّة الحنين والوله إلى الله والدعاء المستمرّ والتضرّع المشبه بتبتّل الرهبان. هذا في طرف العبادة.

وإنما خصّ التشبيه بمتبتّلي الرهبان لشهرتهم بشدّة التضرّع، وكذلك الخروج إلى الله من الأموال والأولاد هو أشدّ الزهد، ورتّب ذلك في صورة متّصلة مقدّمها قوله: ولو حننتم. إلى قوله: رسله، وتاليها قوله: لكان

ذلك قليلاً. إلى قوله: من عقابه. والتماس: مفعول له. وخلاصة هذا المقصود بوجيز الكلام إنّكم لو أتيتم بجميع أسباب التقرّب إلى الله الممكنة لكم من عبادة وزهد ملتمسين بذلك التقرّب إليه في أن يرفع لكم عنده درجة أو يغفر لكم سيّئة أحصتها كتبه وألواحه المحفوظة لكان الذي أرجوه من ثوابه للمتقرّب إليه في أن يرفع منزلته من حضرة قدسه أكثر ممّا يتصوّر المتقرّب أنّه يصل إليه بتقرّبه، ولكان الذي أخافه من عقابه على المتقرّب في غفران سيّئة عنده أكثر من العقاب الذي يتوهم أنّه يدفعه عن نفسه بتقرّبه. فينبغي لطالب الزيادة في المنزلة عند الله أن يخلص بكلّيته في التقرّب إليه ليصل هو إلى ما هو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يصل إليه من المنزلة عنده، وينبغي للهارب من ذنبه إلى الله أن يخلص بكلّيته في الفرار إليه ليخلص من هول ما هو أعظم ممّا يتوهّم أنّه يدفع عن نفسه بوسيلته إليه فإنّ الأمر في معرفة ما أعدّ الله لعباده الصالحين من الثواب العظيم، وما أعدّه لأعدائه الظالمين من العقاب الأليم أجلّ ممّا يتصوره عقول البشر ما دامت في عالم الغربة وإن كانت عقولهم في ذلك الإدراك متفاوتة، ولمّا كانت نفسه القدسيّة أشرف نفوس الخلق في ذلك الوقت لا جرم نسب الثواب المرجوّ لهم والعقاب المخوف عليهم إلى رجائه هو وخوفه. فقال: ما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه. وذلك لقوّة اطّلاعه من ذلك على ما لم يطّلعوا عليه.

وأمّا الثالث: وهو التنبيه على عظيم نعم الله تعالى على العبد فنبّه عليه أنّ كلّ ما أتوا به من الأعمال التي بذلوا جهدهم فيها في طاعة الله وما عساه يمكنهم أن يأتوا به منها فهو قاصر عن مجازاته نعمه العظام. وقد سبق بيان ذلك. ورتّب المطلوب في صورة شرطيّة متّصلة أيضاً مقدّمها مركّب من أمور:

أحدها: قوله: لو انماثت قلوبكم. أي ذابت خوفاً منه ووجداً منه، وكنّى بذلك عن أقصى حال الخائف الراجي لربّه في عبادته.

الثاني قوله: وسالت عيونكم دماً، وهو كالأوّل.

الثالث قوله: ثمّ عمّرتم في الدنيا ما الدنيا باقية أي مدّة بقاء الدنيا. وتاليها قوله: وما جزت أعمالكم. إلى آخره. وأنعمه منصوب مفعول جزت. وهداه في محلّ النصب عطفاً عليه، وإنّما لفرد الهدى بالذكر وإن كان من الأنعم لشرفه إذ هو الغاية المطلوبة من العبد بكلّ نعمة أفضيت عليه فإنّه لم يخلق ولم يفض عليه أنواع النعم الإلهيّة إلاّ لتأهّل [ليستأهل خ] قلبه، وتستعدّ نفسه لقبول صورة الهدي من واهبها فيمشي بها في ظلمات الجهل إلى ربّه ويجوز بها عقبات صراطه المستقيم، وأكّد ملازمة هذه المتّصلة بالقسم البارّ، وكذلك المتّصلة السابقة، وفائدة هذا التنبيه بعث الخلق على الشكر وتوفير الدواعي على الاجتهاد في الإخلاص لله حياءً من مقابلة عظيم إنعامه بالتقصير في شكره والتشاغل بغيره. وبالله التوفيق.

٥٣ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر يوم النحر

وَمِنْ كَمَالِ الأُضْحِيَةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلاَمَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى الْمَنْسَكِ.

أقول: الأضحية: منصوبة إلى الأضحى إذ كان ذبحها في ضحى ذلك اليوم، وقيل إنّه مشتقّ منها. واستشراف أذنها: طولها، وكنّى بذلك عن سلامتها من القطع أو نقصان الخلقة. والعضباء: مسكورة القرن، وقيل القرن الداخل. وكنّى بجرّ رجلها إلى المنسك عن عرجها. والمنسك: موضع النسك، وهو العبادة التقرّب بذبحها.

واعلم أنّ المعتبر في الأضحيّة سلامتها عمّا ينقّص قيمتها، وظاهر أنّ العمى والعور والهزال وقطع الأذن تشويه في خلقتها ونقصان في قيمتها دون العرج وكسر القرن.

وفي فضل الأضحية أخبار كثيرة. روي عن رسول

الله ﷺ قال: ما من عمل يوم النحر أحبّ إلى الله ﷻ من إراقة دم، وإنّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً.

وروي عنه أيضاً أنّ لكم بكلّ صوفة من جلدها حسنة، وبكلّ قطرة من دمها حسنة، وإنّها لتوضع في الميزان فأبشروا، وقد كان الصحابة يبالغون في أثمان الهدي والأضاحي، ويكرهون المماكسة فيها فإنّ أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله. روي أن عمر أهدى نجيبة فطلبت منه بثلاث مائة فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك، وقال: بل اهدها. وسرُّ ذلك أنّ الجيّد القليل خير من الكثير الدون. فثلاث مائة دينار وإن كان قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم، بل المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله فلن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم. وذلك بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أم قلّ.

وأعلم أنّه ربما لاح من أسرار وضع الأضحيّة سنّة باقية هو أن يدوم بها التذكّر لقصّة ابراهيم عليه السلام وابتلائه بذبح ولده وقوّة صبره على تلك المحنة والبلاء المبين ثمّ يلاحظ من ذلك حلاوة ثمرة الصبر على المصائب والمكاره فيتأسّى الناس به في ذلك مع ما في نحر الأضحيّة من تطهير النفس عن رذيلة البخل واستعداد بها للتقرّب إلى الله تعالى. وبالله التوفيق.

٥٤ - ومن كلام له عليه السلام

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضَهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَقَدْ قَلَّبْتُ هٰذَا الأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلاَّ قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ.

أقول: تداكّوا: دكّ بعضهم بعضاً: أي دقّه بالضرب والدفع. والهيم: الإبل العطاش. والمثاني: جمع مثناة وهي الحبل يثنّى ويعقل به البعير.

واعلم أنّ قوله: فتداكّوا. إلى قوله: لديّ.

إشارة إلى صفة أصحابه بصفّين لمّا طال منعه لهم من قتال أهل الشام، وكان عليه السلام يمنعهم من قتالهم لأمرين: أحدهما أنّه كانت عادته في الحرب ذلك ليكون خصمه البادي فتركبه الحجّة، والثاني أنّه كان يستلخص وجه المصلحة في كيفيّة قتالهم لا على سبيل شكّه في وجوب قتال من خالفه فإنّه عليه السلام كان مأموراً بذلك بل على وجه استخلاص الرأي الأصلح أو انتظاراً لانجذابهم إلى الحقّ ورجوعهم إلى طاعته لحقن دماء المسلمين كما سيصرّح به في الفصل الذي يأتي، ثمّ أكد وصفهم بالزحام عليه بأمرين: أحدهما تشبيهه بزحام الإبل العطاش حين يطلقها رعاتها من مثانيها يوم توردها الماء. ووجه الشبه ما لهما من شدّة الزحام، الثاني غاية ذلك الزحام وهو ظنّه عليه السلام أن يقتلوه أو يقتل بعضهم بعضاً.

وقوله: وقد قلّبت هذا الأمر. إلى آخره.

إشارة إلى بعض علل منعه لهم من القتال؛ وهو تقليبه لوجوه الآراء في قتالهم حتّى تبيّن له ما يلزم في ترك القتال من الخطر وهو الكفر. على أنّ في الأمرين خطراً: أمّا القتال ففيه بذلك نفسه للقتل وهلاك جملة من المسلمين، وأمّا تركه ففيه مخالفة أمر الله ورسوله المستلزمة للعقاب الأليم؛ لكن قد علمت أنّ الدنيا لا قيمة لسعادتها ولا نسبة لشقاوتها إلى سعادة الآخرة وشقاوتها عند ذوي البصائر خصوصاً مثله عليه السلام فلذلك قال: فكانت معالجة القتال أهون عليّ من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة. واستعار لفظ الموتات للأهوال والشدائد في الدنيا والآخرة لما بين الموت وبينها من المناسبة في الشدّة.

٥٥ - ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلُّ ذٰلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَاللهِ مَا أُبَالِي؛ دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وَذٰلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلاَلِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا.

أقول: عشا إلى النار: استدل عليها ببصر ضعيف. وباء بإثمه: أي رجع به.

وهذا الفصل مناسب للذي قبله. والسبب فيه أنّ أصحابه لمّا طال منعه لهم عن قتال أهل الشام ألحوا عليه في طلبه حتّى نسبه بعضهم إلى العجز وكراهيّة الموت، ونسبه بعضهم إلى الشكّ في وجوب قتال هؤلاء. فأورد عليه السلام شبهة الأوّلين وهي قوله: أكلّ ذلك كراهيّة الموت، وروي كراهيّة بالنصب على المفعول وسدّ مسدّ الخبر. وأجاب عنها بقول: فوالله ما أبالي. إلى قوله: إليّ، وصدق هذا الدعوى المؤكدة بالقسم البارّ ظاهر منه فإن العارف بمعزل عن تقية الموت خصوصاً نفسه القدسية كما سبق ونسبة الدخول على الموت والخروج إليه نسبة مجازية تستلزم ملاحظة تشبيه بحيوان مخوف. ثمّ أورد الشبهة الثانية وهي قوله: وأمّا قولكم شكّاً في أهل الشام. وأجاب عنها بقوله: فوالله ما دفعت الحرب. إلى آخره، وتقريره أنّ المطلوب الأوّل من الأنبياء والأولياء إنّما هو اهتداء الخلق بهم من ظلمة الجهل، واستقامة أمورهم في معاشهم ومعادهم بوجودهم، وإذا كان هذا هو المطلوب الذاتي له عليه السلام من طلب هذا الأمر والقتال عليه وكان تحصيل المطالب كلّما كان ألطف وأسهل من القتل والقتال كان أولى لا جرم كان انتظاره بالحرب ومدافعتها يوماً فيوماً إنّما هو انتظار وطمع أن يلحق به منهم من تجذب العناية الإلهيّة بذهنه إلى الحقّ فيهتدي به في طريق الله ويعشو إلى ضوء عمله وكماله، وكان ذلك أحبّ إليه من قتلهم على ضلالتهم وإن كان كلّ ضالّ إنّما يرجع بإثمه إلى ربّه ويكون رهين عمله كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

٥٦ - ومن كلام له عليه السلام

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا: مَا يَزِيدُنَا ذٰلِكَ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً، وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ، وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا: أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ. وَايْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً!.

أقول: المنقول أنّ هذا الكلام صدر عنه يوم صفّين حين أقرّ الناس بالصلح. وأوّله:

إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحقّ، ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء حتّى يرموا بالمناسر تتبعها العساكر، وحتّى يرجموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتّى يجرّ ببلادهم الخميس يتلوه الخميس، وحتّى تدعق الخيول في نواحي أراضيهم وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، وحتّى تشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ عميق، وحتّى يلقاهم قوم صدق صبر لا يزيدهم هلاك من هلك من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلاّ جدّاً في طاعة الله وحرصاً على لقاء الله. ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله الفصل.

كلمة سواء: أي عادلة. والمنسر: خيل من المائة إلى مأتين، ويقال بل الجيش ما يمرّ بشيء إلاّ اقتلعه، والخميس: الجيش. وتدعق: تغير على أرضهم فتؤثر فيها حوافرها. وشنّ الغارة: أثارها. واللقم: منهج

الطريق. والمضض: حرقة الألم. ويتصاولان: يتحاملان ويتطاولان. ويتخالسان: ينتهز كلّ منهما فرصة صاحبه، والمنون: المنيّة. والكبت: الصرف والإذلال. وجران البعير: مقدّم عنقه من مذبحه إلى منخره. وتبوّأ وطنه: سكن فيه.

ومقصوده في هذا الفصل توبيخ أصحابه على ترك الحرب والتقصير فيه.

فقوله: ولقد كنّا. إلى قوله: أوطانه.

بيان لفضله وكيفيّة صنيعه هو وسائر الصحابة في الجهاد بين يدي رسول الله ﷺ لغرض قيام الإسلام وظهور أمر الله ليتبيّن للسامعين تقصيرهم بالنسبة إلى ما كان أولئك عليه في جهادهم يومئذ. فبدأ بذكر ما كانوا يكافحونه من الشدائد، وأنّ أحدهم كان يقتل أباه وولده طلباً لرضا الله وذبّاً عن دينه ثمّ لا يزيده ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً لقضائه، ومضيّاً على واضح سبيله، وصبراً في طاعته على مضض الآلام المتواترة، وأنّ أحدهم كان يصاول عدوّه ليختطف كلّ روح صاحبه. وتجوّز بلفظ الكأس فيما يتجرّعه الإنسان من مضض الألم حال القتل، ونبّه بقوله: مرّة لنا ومرّة لعدوّنا. على أنّ إقدامهم على القتال يومئذ لم يكن عن قوّة منهم على العدوّ ويقين بغلبة بل مع غلب العدوّ لهم وقهره. ومرّة منصوب على الظرف وتقديره فمرّة الإدالة تكون لنا من عدونا ومرّة تكون له منّا.

وقوله: فلمّا رأى الله صدقنا. إلى قوله: النصر.

وفيه تنبيه على أنّ الجود الإلهيّ لا بخل فيه ولا منع من جهته وإنّما هو عامّ الفيض على كلّ قابل استعدّ لرحمته، وأشار برؤية الله صدقهم إلى علمه باستحقاقهم واستعدادهم بالصبر الذي أعدّهم به، وبإنزال النصر عليهم والكبت لعدوّهم إلى إفاضته على كلّ منهم ما استعد له.

وقوله: حتّى استقرّ الإسلام. إلى قوله: أوطانه.

إشارة إلى حصول غايتهم التي قصدوها بجهاد العدوّ (الله خ) وهي استقرار الإسلام في قلوب عباد الله. واستعار لفظ الجيران، ورشّح تلك الاستعارة بالإلقاء ملاحظة لشبهه بالبعير الذي أخذ مكانه، وكذلك استعار لفظ التبوّؤ ونسبه إلى الأوطان تشبيهاً له بمن كان من الناس خائفاً متزلزلاً لا مستقرّ له ثمّ اطمأنّ واستقرّ في وطنه. واستعار لفظ الأوطان لقلوب المؤمنين، وكنّى بتبوّؤ أوطانه عن استقراره فيها.

وقوله: ولعمري لو كنّا نأتي. إلى قوله: عود.

رجوع إلى مقصوده الأصلي وهو تنبيه أصحابه على تقصيرهم. والمعنى لو قصّرنا يومئذ كتقصيركم الآن وتخاذلكم لما حصل ما حصل من استقامة الدين، وكنّى بالعمود للدين عن قوّته ومعظمه كناية بالمستعار، وكذلك باخضرار العود للإيمان عن نضارته في النفوس، ولاحظ في الأولى تشبيه الإسلام بالبيت ذي العمود، وفي الثانية تشبيه الايمان بالشجرة ذات الأغصان.

وقوله: وأيم الله لتحتلبنّها دماً.

استعار لفظ حلب الدم لثمرة تقصيرهم وتخاذلهم عمّا يدعوهم إليه من الجهاد، ولاحظ في تلك الاستعارة تشبيههم لتقصيرهم في أفعالهم بالناقة التي أصيب ضرعها بآفة من تفريط صاحبها فيها، والضمير المؤنث مبهم يرجع في المعنى إلى أفعالهم، وكذلك الضمير في قوله: ولتتبعنّها ندماً فإنّ ثمرة التفريط الندامة. ودماً وندماً منصوبان على التميز. وقد اتّفق في هذا الفصل نوعان من السجع فللقم والألم سجع متوازي، وجرانه وأوطانه مطّرف، وكذلك عمود وعود ودماً وندماً. وبالله التوفيق.

٥٧ - ومن كلام له عليه السلام

أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ! أَلاَ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ؛ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلاَ تَتَبَرَّأُوا مِنِّي؛ فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ.

أقول: رحب البلعوم: واسع مجرى الحلق. وبطن مندحق: ناتئ بارز.

وفي هذا الفصل إخبار بما سيكون لأصحابه من الابتلاء بسبّه. والخطاب لأهل الكوفة.

فقوله: أمّا.

يحتمل أن يكون المشدّدة. والتقدير أمّا بعد أنّه كذا، ويحتمل أن يكون مخفّفة وهي ما النافية دخلت عليها همزة الاستفهام، والتقدير أما أنّه سيظهر، واختلف في مراده بالرجل. فقال أكثر الشارحون: المراد معاوية لأنّه كان بطيناً كثير الأكل. روي أنّه كان يأكل فيملّ فيقول: ارفعوا فوالله ما شبعت ولكن مللت وتعبت، وكان ذلك داء أصابه بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله. روي: أنّه بعث إليه مرّة فوجده يأكل فبعث إليه ثانية فوجده كذلك. فقال: اللهم لا تشبع بطنه. ولبعضهم في وصف آخر:

وصاحب لي بطنه كالهاوية
كأنّ في أمعائه معاوية

وقيل: هو زياد ابن أبي سفيان؛ وهو زياد ابن أبيه، وقيل: هو الحجّاج وقيل: المغيرة بن شعبة. وظهوره عليهم بعده. استعلاؤه وتأمّره عليهم. وأكله ما يجد مع طلبه لما لا يجد كناية عن كثرة أكله، وجعل ذلك علامة له.

وقوله: فاقتلوه.

أي لما هو عليه من الفساد في الأرض، ولن تقتلوه. حكم لدنيّ اطّلع عليه.

وقوله: ألا وإنّه سيأمركم بسبّي. إلى آخره.

إشارة إلى ما سيأمرهم به في حقّه من السبّ والبراءة، ووصيّة لهم بما هو المصلحة إذن. وفرّق عليه السلام بين سبّه والبراءة منه بأن رخّص في سبّه عند الإكراه عليه ولم يرخّص في التبرّي منه، وفي الفرق بينهما لطف، وذلك أنّ السبّ من صفات القول اللسانيّ وهو أمري مكن إيقاعه من غير اعتقاده مع احتماله التعريض ومع ما يشتمل عليه من حقن دماء المأمورين ونجاتهم بامتثال الأمر به. وأمّا التبرّؤ فليس بصفة قوليّة فقط بل يعود إلى المجانبة القلبيّة والمعاداة والبغض وهو المنهيّ عنه هاهنا فإنّه أمر باطن يمكنهم الانتهاء عنه ولا يلحقهم بسبب تركه وعدم امتثال الأمر به ضررٌ. وكأنّه لحظ فيها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية وقوله: في السبّ: فإنّه لي زكاة ولكم نجاةٌ. إشارة إلى أسباب ترخيصه في سبّه أمّا نجاتهم بسبّه فظاهرة وأمّا كونه زكاة له فلوجهين:

أحدهما: ما روي في الحديث أنّ ذكر المؤمن بسوء هو زكاة له، وذمّه بما ليس فيه زيادة في جاهه وشرفه.

الثاني: أنّ الطابع تحرص على ما تمنع منه وتلحّ فيه. فالناس لمّا منعوا من ذكر فضائله والموالاة له وألزموا سبّه وبغضه ازدادوا بذلك محبّة له وإظهاراً لشرفه، ولذلك إنّه عليه السلام سبّه بنو أميّة ألف شهر على المنابر فما زاد ذكره على ذلك إلاّ علوّاً ولا ازداد الناس في محبّته إلاّ غلوّاً. والمنقول أنّ الذي أمر بقطع سبّه عمر بن عبد العزيز، ووضع مكان سبّه من الخطبة «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية، ولذلك قال كثير بن عبد الرحمن يمدحه:

وليت فلم تشتم عليّا ولم تخف
برّيا ولم تقبل إساءة مجرم

وفيه يقول الرضيّ الموسوي:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين
فتى من أميّة لبكيتك
أنت نزّهتنا عن الشتم والسبّ
ولو كنت مجزياً لجزيتك
غير أنّي أقول إنّك قد طبت
وإن لم يطب ولم يزك بيتك

وقوله: فإنّي ولدت على الفطرة. إلى آخره.

تعليل لحسن الانتهاء عن البراءة منه ووجوبه. وأراد بالفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي بعثهم إلى عالم الأجسام مأخوذاً عليهم ميثاق العبوديّة والاستقامة على سنن العدل في سلوك صراطه المستقيم، وأراد بسبقه إلى الإسلام والهجرة سبقه إلى طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله فيما جاء به من الدين وصحبته له ومهاجرته

معه مستقيماً في كلّ ذلك على فطرة الله لم يدنّس نفسه بشيء من الملكات الرديئة مدّة وقته. أمّا زمان صغره للخبر المشهور: كلّ مولود يولد على الفطرة، وأمّا بعده فلأنّ الرسول ﷺ هو المتولّي لتربيته وتزكية نفسه بالعلوم والإخلاص من أوّل وقته إلى أن توفيّ ﷺ كما أشرنا إليه قبل، وكما سيذكر هو بعد كيفيّته، وكان قبوله واستعداده لأنوار الله أمراً فطرت عليه نفسه، وجبلت عليه طبيعته حتّى لم يلحقه في ذلك أحد من الصحابة، وظاهر أنّ من كان بهذه الصفة من خلفاء الله وأوليائه كان التبرّؤ منه تبرّءاً من الله ورسوله. فوجب الانتهاء عنه. وبالله التوفيق.

٥٨ - ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلاَ بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ. أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ. فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وَٱرْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الأَعْقَابِ. أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاً شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً.

قال الشريف: قوله عليه السلام «ولا بقي منكم آبر» يروى بالباء والراء من قولهم للذي يأبر النخل - أي: يصلحه - ويروى «آثر» وهو الذي يأثر الحديث. أي: يرويه ويحكيه، وهو أصح الوجوه عندي، كأنه ﷺ قال: لا بقي منكم مخبر. ويروى «آبز» بالزاي المعجمة - وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له آبز.

أقول: المرويّ في السبب أنّه لمّا كتب عهد التراضي بين الحكمين بين عليّ ومعاوية اعتزلت الخوارج وتنادوا من كلّ ناحية لا حكم إلاّ لله، الحكم لله يا علي لا لك، إنّ الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يدخلوا تحت حكمنا وقد كنّا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالتحكيم وقد بان زللنا وخطأنا ورجعنا إلى الله وبنا فارجع أنت كما رجعنا وتب إليه كما تبنا. وقال بعضهم: إنّك أخطأت فاشهد على نفسك بالكفر ثمّ تب منه حتّى نطيعك. فأجابهم بهذا الكلام.

والحاصب: ريح شديدة ترمي بالحصباء وهي صغار الحصى.

فدعا عليهم أوّلاً بريح تحصبهم، ثمّ بالفناء غضباً من مقالتهم ثمّ أخذ في تقريعهم وإنكار مقالتهم وطلبهم شهادته على نفسه في صورة سؤال أعقبه تنبيههم على خطأهم في حقّه ببيان غلطه على نفسه لو أجابهم إلى ما سألوا فإنّ شهادة الإنسان على نفسه بالكفر ضلال عن الحقّ وعدم اهتداء في سبيل الله.

ثمّ أردف ذلك بأمرين:

أحدهما: جذبهم بالغضب والقهر وأمرهم بالرجوع إلى الحقّ على أعقابهم: أي من حيث خرجوا من الحقّ وفارقوه.

الثاني: إخبارهم بما سيلقون بعده من الذل الشامل والسيف القاطع. وهو كناية عمّن يقتلهم بعده كالمهلّب بن أبي صفرة وغيره. وهذا الإخبار لغرض استفاءتهم إليه وجذب لهم برذيلة غيره. وقد كانت دعوته عليه السلام استجيبت فيهم فإنّهم لم يزالوا بعده في ذلّ شامل وقتل ذريع حتّى أفناهم الله تعالى. وأحوالهم في كيفيّة قتالهم وقتلهم من قتلهم مستوفى في كتاب الخوارج. وبالله التوفيق.

٥٩ - وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج وقيل له: إنهم قد عبروا جسر النهروان:

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ.

قال الشريف: يعني بالنطفة ماء النهر، وهو أفصح كناية وإن كان كثيراً جماً.

أقول: خلاصة هذا الخبر أنّه عليه السلام لمّا خرج إلى أصحاب النهر جاءه رجل من أصحابه فقال: البشرى يا أمير المؤمنين إنّ القوم عبروا النهر لمّا بلغهم وصولك فابشر فقد منحك الله أكتافهم. فقال: الله أنت رأيتهم قد

عبروا. فقال: نعم. فقال عليه السلام: والله ما عبروه ولن يعبروه وإنّ مصارعهم دون النطفة والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لم يبلغوا إلاّ ثلاث ولا قصر توران حتّى يقتلهم الله وقد خاب من افترى. قال: ثمّ جاءه جماعة من أصحابه واحداً بعد آخر كلّهم يخبره بما اخبره الأوّل فركب عليه السلام وسار حتّى انتهى إلى النهر فوجد القوم بأسرهم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيولهم وجثوا على الركب وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زجل، وروي أنّ شاباً من أصحابه قال في نفسه حين حكم عليه السلام بما حكم من أمرهم وسار إلى النهر لبيان صدق حكمه: والله لأكوننّ قريباً منه فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سنان رمحي في عينه أيدّعي علم الغيب، فلمّا وجدهم لم يعبروا نزل عن فرسه وأخبره بما ورّى في نفسه، وطلب منه أن يغفر له. فقال عليه السلام: إنّ الله هو الذي يغفر الذنوب جميعاً فاستغفره. فأمّا حكمه بأنّه لا يفلت منهم عشرة ولا يقتل من أصحابه عشرة. فروي أنّه قال لأبي أيّوب الأنصاري وكان على ميمنته: لما بدأت الخوارج بالقتال احملوا عليهم فوالله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة فلمّا قتلهم وجد المفلت منهم تسعة المقتول من أصحابه ثمانية. وهذان الحكمان من كراماته عليه السلام.

٦٠ - وقال عليه السلام

لما قتل الخوارج قيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم!

كَلاَّ وَاللهِ؛ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ.

أقول: نجم: طلع. والسلاّب: المختلس. وكلاّ: ردٌّ لمقالة من حكم بهلاكهم جميعاً.

وأشار بكونهم نطفاً في أصلاب الرجال وقرارات النساء إلى أنّه لا بدّ من وجود قوم منهم يقولون بمثل مقالتهم وأنّهم الآن موجودون في الأصلاب والأرحام بالقوّة. فمنهم نطف برزت إلى الأرحام، وكنّى بالقرارات عنها. ومنهم نطف بعد في الأصلاب، ثمّ ألحقهم أحكاماً أخر تقريراً لبقائهم. منها: أنّه سيقوم منهم رؤساء ذوو أتباع، وعبّر عمّن يظهر منهم بالقرن استعارة مرشّحاً لتلك الاستعارة بقوله: نجم وقطع. لكونهما حقيقتين في النبات وجعل لتراذلهم غاية هي كون أواخرهم لصوصاً سلاّبين: أي قطّاعاً للطريق، وأمّا الذين ظهروا بعده من رؤسائهم فجماعة كثيرة وذلك أنّ التسعة الذين سلموا يوم النهر تفرّقوا في البلاد فانهزم اثنان منهم إلى عمّان، واثنان منهم إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى الجزيرة وواحد إلى تلّ موررون، وقد كان منهم جماعة لم يظفر عليه السلام بهم فظهرت بدعتهم في أطراف البلاد بعده فكانوا نحواً من عشرين فرقة وكبارها ستّ:

إحديها: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق، وكان أكبر الفرق. خرجوا من البصرة إلى الأهواز وغلبوا عليها وعلى كورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيّام عبد الله بن الزبير، وكان مع نافع من أمراء الخوارج عشرة: عطيّة بن الأسود الحنفيّ، وعبد الله بن ماخول، وأخواه: عثمان بن الزبير، وعمر ابن عمير العميري، وقطرى بن فجاءة المازنيّ، وعبدة من الهلال الشيباني، وصخر التميميّ، وصالح العبديّ، وعبد ربّه الكبير، وعبد ربّه الصغير في ثلاثين ونيف ألف فارس منهم فأنفذ إليهم المهلّب ابن أبي صفرة، ولم يزل في حربهم هو وأولاده تسع عشرة سنة إلى أن فرغ من أمرهم في أيّام الحجّاج، ومات نافع قبل وقائع المهذّب وبايعوا قطريّا وسمّوه أمير المؤمنين.

الثانية: النجدات رئيسهم نجدة بن عامر الحنفيّ، وكان معه أميران يقال لأحدهما عطيّة، والآخر أبو فديك. ففارقاه بشبهة ثمّ قتله أبو فديك وصار لكلّ واحد منهما جمع عظيم وقتلا في زمن عبد الملك بن مروان.

الثالثة: البيهسيّة أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر، وكان بالحجاز وقتله عثمان بن حيّان المزنيّ بعد أن قطع يديه ورجليه. وذلك في زمن الوليد بإشارة منه.

الرابعة: العجاردة أصحاب عبد الكريم بن عجرد،

وتحت هذه الفرقة فرق كثيرة لكلّ منهم رئيس منهم مشهور.

الخامسة: الأباضيّة أصحاب عبد الله بن أباض في أيّام مروان بن محمّد فوجّه إليه عبد الله بن محمّد بن عطيّة فقاتله فقتله.

السادسة: الثعالبة أصحاب ثعلبة بن عامر، وتحت هذه الفرقة أيضاً فرق كثيرة، ولكلّ منها رئيس مشهور. وتفصيل رؤسائهم وفرقهم وأحوالهم ومن قتلهم مذكور في كتب التواريخ. وأمّا كون آخرهم لصوصاً سلاّبين فإشارة إلى ما كانوا يفعلونه في أطراف البلاد بإصبهان والأهواز وسواد العراق يعيشون فيها بنهب أموال الخراج وقتل من لم يدن بدينهم جهراً غيلةً وذلك بعد ضعفهم وتفرّقهم بوقائع المهلّب وغيرها كما هو مذكور في مظانّه.

٦١ - وقال عليه السلام

لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ (يعني معاوية وأصحابه).

أقول: نهى عن قتل الخوارج بعده، وأومى إلى علّة استحقاق القتل بأنّها طلب الباطل لأنّه باطل ليتبيّن أنّها منفيّة في حقّهم فينتفي لازمها وهو استحقاق القتل، وأشار إلى أنّ الخوارج لم يطلبوا الباطل مع العلم بكونه باطلاً بل طلبوا الحقّ بالذات فوقعوا بالباطل بالعرض. ومن لم يكن غرضه إلاّ الحقّ لم يجز قتله، وحسن الكلام يظهر في تقدير متّصلة هكذا: لو استحقّوا القتل بسبب طلبهم لاستحقّوه بسبب طلبهم للباطل من حيث هو باطل لكنّهم لا يستحقّونه من تلك الجهة لأنّهم ليسوا بطالبين للباطل من حيث هو باطل فلا يستحقّون القتل، وفرق بين من يطلب الحقّ لذاته فيظهر عنه في صورة باطل، وبين من يطلب الباطل لذاته فيظهره في صورة الحقّ حتّى يدركه، فإنّ الثاني هو المستحقّ للقتل دون الأوّل، وأومى بمن طلب الباطل فأدركه إلى معاوية.

واعلم: أنّ هذا نصّ منه عليه السلام بأنّهم كانوا طالبين للحقّ، وبيانه أنّ معظم رؤسائهم كانوا على غاية من المحافظة على العبادات كما نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله حيث وصفهم فقال: حتّى أنّ صلاة أحدكم لتحتقر في جنب صلاتهم. وكانوا مشهورين بالصلاح والمواظبة على حفظ القرآن ودرسه إلاّ أنّهم بالغوا في التجرّي وشدّة الطلب للحقّ حتّى عبروا عن فضيلة العدل فيه إلى رذيلة الإفراط فوقعوا في الفسق ومرقوا من الدين.

فإن قلت: كيف نهى عن قتلهم.

قلت: جوابه من وجهين:

أحدهما: أنّه عليه السلام إنّما نهى عن قتلهم بعده على تقدير أن يلزم كلّ منهم نفسه ويشتغل بها ولا يعيث في الأرض فساداً وهو إنّما قتلهم حيث أفسدوا في زمانه وقتلوا جماعة من الصالحين كعبد الله بن خبّاب، وشقّوا بطن امرأته وكانت حاملاً ودعوا الناس إلى بدعتهم ومع ذلك كان يقول لأصحابه حين سار إليهم: لا تبدؤوهم بالقتال حتّى يبدؤوكم به ولم يشرع في قتلهم حتّى بدؤه بقتل جماعة من أصحابه.

الثاني: أنّه يحتمل أن يقال: إنّه إنّما قتلهم لأنّه إمام عادل رأى الحقّ في ذلك، وإنّما نهى عن قتلهم بعده لأنّه علم أنّه لا يلي هذا الأمر بعده من له بحكم الشريعة أن يقتل ويتولّى أمر الحدود، ومن لا يعرف مواضعها. وبالله التوفيق.

٦٢ - ومن كلام له عليه السلام

لما خُوِّفَ من الغيلة:

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي، فَحِينَئِذٍ لاَ يَطِيشُ السَّهْمُ، وَلاَ يَبْرَأُ الْكَلْمُ.

أقول: قد كان عليه السلام خوّف من غيلة ابن ملجم - لعنه الله - مراراً. روي: أنّ الأشعث لقيه متقلّداً سيفه فقال له: ما يقلّدك السيف وليس بأوان حرب؟ فقال: أردت أنحر به جزور القرية. فأتى الأشعث عليّاً عليه السلام فأخبره وقال: قد عرفت ابن ملجم وفتكه فقال عليه السلام: ما قتلني بعد، وروي: أنّ عليّاً عليه السلام كان يخطب مرّة

ويذكر أصحابه وابن ملجم تلقاء المنبر فسمع وهو يقول: والله لأريحنّهم منك. فلمّا انصرف عليّ أتوا به ملبّباً. فأشرف عليهم وقال: ما تريدون. فأخبروه بما سمعوا منه. فقال: فما قتلني بعد، خلّوا عنه، وإنّ عليّ من الله جنّة. الفصل.

والغيلة: القتل على غفلة. والجنّة: ما تستر به من سلاح. وطاش السهم: انحرف عن الغرض. والكلم: الجرح.

وكنّى بالجنّة عن عناية الله بحفظ أسباب حياته في المدّة الممكنة له في القضاء الإلهيّ كناية بالمستعار. ووجه الاستعارة أنّ مع بقاء أسباب الحياة محفوظة لا يؤثر في الإنسان شيء من سهام المنيّة أبداً كما أنّ لابس الجنّة محفوظ بها من آثار السهام ونحوها. ووصفها بالحصينة ترشيحاً للاستعارة، وكنّى بها أيضاً عن قوّة ذلك الحفظ. وكنّى بيومه عن وقت ضرورة موته، وبانفراج الجنة عنه عن عدم بعض أسباب الحياة المستلزم لعدم الحياة ولحوق سهام الأمراض وهو تشريح للاستعارة أيضاً، ونسب إليها إسلامها له ملاحظة لتشبيهها بمن يحفظه ثمّ يسلّمه للقتل.

وقوله: وحينئذ لا يطيش السهم.

استعار لفظ السهم للأمراض التي هي أسباب الموت، وكنّى بعدم طيشه عن إنكائه وحصول الموت عنه، ولفظ الكلم للأثر الحاصل عن تلك الأسباب، ووجه الشبه في الأولى كونهما سببين للهلاك، وفي الثانية ما يستلزمانه من التألّم، ورشّح الأولى بذكر الطيش والثانية بذكر البرء. ومن الشعر المنسوب إليه في ذلك:

أيّ يومـيّ من الموت أفرّ
يوم لم يقدر أم يوم قدر
يوم لم يقدر فلا أرهبه
يوم قد قدّر لا يغني الحذر

وهو في ذلك ملاحظ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وبالله التوفيق.

٦٣ - ومن خطبة له عليه السلام

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لاَ يُسْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ فِيهَا، وَلاَ يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا: ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ.

أقول: بينا: أصله بين بمعنى التوسّط فأشبعت الفتحة فحدثت ألف، وقد تزاد ما فيقال بينما والمعنى واحد، وتحقيق الظرفيّة هنا أنّ الظلّ دائر بين السبوغ والتقلّص والزيادة والنقصان. وقلص الظلّ نقص.

والغرض من هذا الفصل التحذير من الدنيا والتنبيه على وجوب لزوم أوامر الله فيها. وأشار إلى ذلك في أوصاف لها:

الأوّل: كونه لا يسلم منها إلاّ فيها. وتحقيق ذلك أنّه لا دار إلاّ الدنيا والآخرة، وقد علمت أنّ أسباب السلامة هي الزهد والعبادة وسائر أجزاء الرياضة وشيء منها لا يمكن في الآخرة بل كلّها أعمال متعلّقة بالبدن فإذن لا يتحقّق ما يلزمها من السلامة من الدنيا إلاّ في الدنيا.

الثاني: كونها لا ينجى بشيء كان لها. وفيه إيماء إلى ذمّ الرياء في الأقوال والأفعال وتحذير من كلّ عمل وقول قصد به الدنيا فإنّ شيئاً من ذلك لا حظّ له في استلزام النجاة في الآخرة بل ربّما كان سبباً للهلاك فيها لما أنّ الاشتغال بمهمّات الدنيا منس للآخرة.

الثالث: كونها قد ابتلي الناس بها فتنة. وفتنة منصوب بالمفعول له، ويحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ولنبحث عن معنى الابتلاء بالدنيا وكونها فتنة.

واعلم أنّه ليس المراد أنّ الله تعالى لا يعلم ما تؤول إليه أحوال العباد وما يكون منهم بعد خلقهم وابتلائهم بالدنيا فإنّه تعالى هو العالم بما كان وما يكون قبل كونه

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] بل الكشف عن حقيقة الابتلاء أنه لما كان الإنسان إنما يكون إنساناً بما خلق فيه من القوى الشهوية والغضبية وما يتبعها، وكان لهذه القوى ميول طبيعيّة إلى حاضر اللّذات الدنيويّة فهي مشتهياتها ولا ابتهاج لها إلاّ بها ولا حظّ لها من غيرها، وكانت النفوس الإنسانيّة مخالطة لهذه القوى وهي آلاتها، ولا وجه لها في تصرّفاتها غالب الأحوال إلاّ هي، وكانت تلك القوى في أكثر الخلق جاذبة لنفوسها إلى مشتهياتها الطبيعيّة بالطبع، وكانت تلك النفوس في أكثر الناس منقادة لقواها معرضة عن الآخرة مشغولة بحاضر ما وجدته من لذّات الدنيا عن تصوّر ما وراءها. ثمّ مع ذلك كان المطلوب منها ما يضادّ ذلك وهو ترك حاضر الدنيا، ومنازعة هذه القوى في مشتهياتها، وجذبها عن التوجّه بكليّتها إليها لمتابعة النفس في التفاتها عن ذلك إلى أمر لا يتصوّر في الدنيا إلاّ بالأوصاف الخياليّة كما هي وظيفة الأنبياء عليهم السلام مع الخلق، كانت إرادته تعالى لذلك الالتفات مع ما هم فيه من منازعة الهوى فإن أطاعوه هلكوا وإن عصوه نجوا صورة امتحان. فأشبه ذلك ما يعتمده أحدنا عند عبده إذا أراد مثلاً اختبار صبره ومحنته له فوهب له جميع ما يشتهيه ثمّ كلّفه مع ذلك بتكاليف شاقّة لا يتمكّن من فعلها إلاّ بالتفاته عن مشتهاه وتنغيصه عليه. فلا جرم صدقت صورة الابتلاء والاختبار من الله في الوجود، وكذلك ظهر معنى كونها فتنة. فإنّ الفتنة الامتحان والاختبار. وإن قدّرناها حالاً فهي بمعنى الضلال ويعود إلى جذبها للنفوس إلى حاضر لذّاتها عن سنن الحقّ.

الرابع: كونهم ما أخذوه منها أخرجوا منه وحوسبوا عليه. وهو تنبيه على وجوب قصد الآخرة بما يؤخذ من الدنيا ويتصرّف فيه، وتنفير أن يجعل المأخوذ منها لمجرّد التمتّع به بذكر وصفين: أحدهما: وجوب مفارقة المأخوذ منها والإخراج منه، والثاني: الحساب عليه في الآخرة.

واعلم أن الحساب على رأي الملّيين ظاهر، قالوا: إنّ الله تعالى قادر على حساب الخلق دفعة واحدة ولا يشغله كلام من كلام كما قال: وهو سريع الحساب. أمّا الحكماء فقالوا: إنّ للحساب معنى، وتقريره بتقديم مقدّمات.

الأولى: أنّ كثرة الأفعال وتكرّرها يوجب حدوث الملكات في النفوس، والاستقراء التامّ يكشف عن ذلك، ومن كانت مواظبته على عمل من الأعمال أكثر كان رسوخ تلك الملكة الصادرة عن ذلك الفعل في نفسه أقوى.

الثانية: أنّه لمّا كان تكرّر العمل يوجب حصول الملكة وجب أن يكون لكلّ عمل يفعله الإنسان أثر في حصول تلك الملكة بل يجب أن يكون لكلّ جزء من أجزاء العمل الواحد أثر في حصول لها بوجهٍ ما وضربوا لذلك مثالاً فقالوا: لو فرضنا سفينة عظيمة بحيث لو ألقي فيها مائة ألف فإنها تغوص في الماء قدر شبر واحد ولو لم يكن فيها إلا حبّة واحدة من الحنطة فذلك القدر من الجسم الخفيف فيها يوجب غوصها في الماء بمقدار ماله من الثقل وإن بلغ في القلّة إلى حيث لا يدركه الحسّ. إذا عرفت ذلك فنقول: ما من فعل من الخير والشر قليل ولا كثير إلاّ ويفيد حصول أثر في النفس إمّا سعادة أو شقاوة. وعند هذا ينكشف سرّ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وكذلك لمّا ثبت أنّ الأفعال إنّما تصدر بواسطة الجوارح من اليد والرجل وغيرهما لا جرم كانت الأيدي والأرجل شاهدة على الإنسان يوم القيامة بلسان حالها على معنى أنّ تلك الآثار النفسانيّة إنّما حصلت في جواهر النفوس بواسطة الأفعال الصادرة عنها فكان صدور تلك الأفعال من تلك الجوارح جارياً مجرى الشهادة على النفس بما اكتسبه بها.

إذا عرفت ذلك فنقول: لمّا كانت حقيقة المحاسبة تعود إلى تعريف الإنسان ما له وما عليه من مال ونحوه، وكان ما يحصل من النفوس من الملكات الخيرية والشرّية أموراً مضبوطة في جوهرها محصاةٍ عليها وإنّما

تنكشف لها كثرة تلك الهيئات وتمكّنها من ذواتها وتضرّرها بها في الآن الذي تنقطع فيه علاقة النفس مع البدن أشبه ذلك ما تبيّن للإنسان عند المحاسبة ممّا أحصي عليه وله. فأطلق عليه لفظ الحساب. وذلك اليقين والاطلاع هو المشار إليه بقوله عليه السلام: وقدموا عليه، وليس المقصود أنّ ما يقدم عليه في الآخرة هو عين ما أخذ من الدنيا بل ثمّرته في النفوس من خير أو شرّ فالذي يتناوله الجاهلون منها لمجرّد التنعم بها فهو الذي يتمكن عنه هيئات السوء في جواهر نفوسهم فيقدمون عليها ويقيمون بها في عذاب جهنّم خالدون لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون.

الخامس: كونها عند ذوي العقول كفيء الظلّ، ونبّه بهذا الوصف على سرعة زوالها، وإنّما خصّص ذوي العقول بذلك الأمرين: أحدهما: أنّ المعتبر لزوالها عامل بمجرد عقله دون هواه فلذلك نسب إلى العقل. الثاني: أنّ حال ذوي العقول مرغوب فيه لمن سمعه. ولمّا كان مقصوده تحذير السامعين من سرعة زوالها ليعملوا فيها لما بعدها نسب ذلك إلى ذوي العقول ليقتفي السامعون أثرهم. ثمّ أشار إلى وجه شبهها للظلّ بقوله: بينا تراه. إلى آخره: أي أنّها يسرع زوالها كما يسرع زواله، وهو من التشبيهات السائرة، ومثله قول الشاعر:

ألا إنّما الدنيا كظلّ غمامة

أظلّت يسيراً ثمّ خفّت فولّت

٦٤ - ومن خطبة له عليه السلام

وَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلاَّ الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ. وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ. وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الأَوْبَةِ. وَإِنَّ قَادِماً يَقْدَمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لأَفْضَلِ الْعُدَّةِ. فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدنيا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً. فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا. فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ! نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَلاَ تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلاَ كَآبَةٌ.

أقول: المبادرة: المسارعة. والسدى: المهمل. وجدير بكذا: أي أولى به، وحريّ: حقيق. والتسويف: قول الإنسان سوف أفعل، وهو كناية عن التمادي في الأمر. والبطر: تجاوز الحدّ في الفرح. والكآبة: الحزن.

وحاصل هذه الموعظة التنفير من الدنيا والترغيب في الآخرة وما يكون وسيلة إلى نعيمها والترهيب ممّا يكون سبباً للشقاء فيها.

فقوله: واتّقوا الله. إلى قوله: بأعمالكم.

فيه تنبيه على وجوب لزوم الأعمال الصالحة، وحثّ عليها بالأمر بمسابقة الآجال وعلى توقّع سرعة الأجل وإخطاره بالبال، وهو من الجواذب القويّة إلى الله تعالى. ونسب المسابقة إلى الآجال ملاحظة لشبهها بالمراهن إذ كان لحوقها حائلاً بينهم وبين الأعمال الصالحة الشبيهة بما يسبق عليه من رهن.

فقوله: وابتاعوا ما يبقى. إلى قوله: عنكم.

إشارة إلى لزوم الزهد في الدنيا، والتخلّي عن متاعها الفاني، وأن يشتري به ما يبقى من متاع الآخرة. وقد عرفت غير مرّة إطلاق لفظ البيع هنا. وقيّد المشتري

بما يبقى، والثمن بما يزول ليكون المشتري أحبّ إلى النفوس لبقائه.

وقوله: وترحّلوا فقد جدّ بكم.

أمر بالترحّل، وهو قطع منزل منزل من منازل السفر إلى الله تعالى في مراتب السلوك لطريقه ونبّه على وجوب الترحّل بقوله: فقد جدّ بكم: أي في السير إلى آجالكم بقوة وذلك الجدّ يعود إلى سرعة توارد الأسباب التي تعدّ المزاج للفساد وتقرّبه إلى الآخرة ملاحظة لشبهها بسائق الإبل ونحوها.

وقوله: واستعدّوا للموت فقط أظلّكم.

الاستعداد له هو باستكمال النفوس كما لها الذي ينبغي حتّى لا يبقى للموت عندها كثير وقع بل يكون محبوباً لكونه وسيلة إلى المحبوب وهو لقاء الله والسعادة الباقية في حضرة الملأ الأعلى، ونبّه بقوله: فقد أظلّكم. على قربه. واستلزم ذلك تشبيهه بالسحاب والطير فاستعير له وصف الإظلال.

وقوله: وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا.

تنبيه لهم على الالتفات إلى منادي الله، وهو لسان الشريعة والانتباه بندائه من مراقد الطبيعة.

وقوله: وعلموا. إلى قوله: سدى.

تنبيه لهم على أنّ الدنيا ليست بدار لهم ليلتفتوا عن الركون إليها ويتوقّعوا الإخراج منها. ثمّ أمرهم بالاستبدال بها ليذكّروا أنّ هناك عوضاً منها يجب أن يلتفت إليه وهو الدار الآخرة، ونبّه بقوله: فإنّ الله لم يخلقكم عبثاً. إلى آخره على وجوب العمل لذلك البدل فإنّهم لم يخلقوا إلاّ لأمر وراء ما هم فيه.

وقوله: ما بين أحدكم. إلى قوله: ينزل به.

تعيين لما خلقوا له ووعدوا بالوصول إليه وأنّه لا حائل بينهم وبينه إلاّ الموت. وقال بعض الشارحين: وهذا الكلام ممّا يصلح متمسّكاً للحكماء في تفسيرهم للجنّة والنار فإنّهم لمّا قالوا: إنّ الجنّة تعود إلى المعارف الإلهيّة ولوازمها، والنار تعود إلى حبّ الدنيا والميل إلى مشتهياتها. وتمكّن الهيئات الرديئة في جوهر النفس وعشقها بعد المفارقة لما لا يتمكّن من العود إليه كمن نقل عن مجاورة معشوقه والالتذاذ به إلى موضع ظلمانيّ شديد الظلمة مع عدم تمكّنه من العود إليه كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] الآية. وكان إدراك لذّة المعارفة التامّة، وإدراك ألم النار بالمعنى أمراً يتحقّق حال مفارقة هذا البدن. إذ كان الإنسان في عالم الشهادة في إدراكه لما حصل في نفسه وتمكّن من الهيئات كعضو مفلوج غطّى خدره على ألمه فإذا أزال الخدر أحسّ بالألم فكذلك النفس بعد الموت تدرك مالها من لذّة أو ألم كما هو لزوال الشواغل البدنيّة عنها.

قلت: وهذا الكلام أيضاً ظاهر على مذهب المتكلّمين إذ جاء في الخبر أنّ العبد يكشف له الموت عمّا يستحقّه من جنّة أو نار ثمّ يؤجّل ذلك إلى قيام القيامة الكبرى.

وقوله: وإنّ غاية. إلى قوله: المدّة.

كنّى بالغاية عن الأجل المعلوم للإنسان ثمّ نبّه على قصره وحقارته بأمرين:

أحدهما: كونه تنقصه اللحظة: أي النظرة. وهو ظاهر فإنّ كلّ جزء من الزمان فرصة قد مضى من مدّة الإنسان منقص لها.

الثاني: كونه تهدمها الساعة. كنّى بالساعة عن وقت الموت، ولا شكّ أنّ الآن الذي تنقطع فيه علاقة النفس مع البدن غاية لأجل الإنسان. وغاية الشيء هي ما يتعلّق عندها الشيء فكنّى بالهدم عن ذلك الانقطاع والانتهاء كناية بالمستعار. وظاهر أنّ مدّة هذا شأنها في غاية القصر.

وقوله: وإنّ غائباً. إلى قوله: الأوبة.

أشار بالغائب إلى الإنسان إذ كانت الدنيا عالم غربته ومحلّ سفره، ومنزله الحقيقيّ إنّما هو منشأه وما إليه مرجعه، وإنّما سمّي الليل والنهار جديدان لتعاقبهما فليس أحدهما مختلقاً للآخر. واستعار لفظ الحدو لما يستلزمانه من إعداد الإنسان لقرب أجله المشبه لصوت الحادي الذي يحدو الإبل لسرعة سيرها وقربها من المنزل المقصود لها. وظاهر أنّ من كان الليل والنهار حادييه فهو في غاية سرعة الرجوع إلى مبدئه ووطنه

الأصلي. وقال بعض الشارحين: أراد بالغائب الموت. وهو وإن كان محتملاً إلا أنّه لا يطابقه لفظ الأوبة لأنّ الموت لم يكن جائياً أو ذاهباً حتّى يرجع.

وقوله: وإنّ قادماً. إلى قوله: العدّة.

أشار بالقادم بالفوز أو الشقوة إلى الإنسان حين قدومه على ربّه بعد المفارقة فإنّه إمّا الفوز بالسعادة الباقية، أو الحصول على الخيبة والشقوة. ونبّه بذكر القدوم على أنّ من هذا شأنه فالواجب عليه أن يستعدّ بأفضل عدّة ليصل بها إلى أحبهما لديه. ويتباعد بها عن أكرههما عنده.

وقوله: فتزوّدوا. إلى قوله: غداً.

فصّل نوع تفصيل أفضل العدّة هو الزاد الذي يحرز الإنسان به نفسه يوم القيامة من السقب في نار جهنّم وغليل حرّها، وأشار بذلك الزاد إلى تقوى الله وخشيته. وقد علمت حقيقة الخشية والخوف وأنّه إنّما يحصل في الدنيا. وأمّا كونه من الدنيا فلأنّ الآثار الحاصلة للنفس من الحالات والملكات كالخشبة والخوف وسائر ما يتزوّده ويستصحبه بعد المفارقة أمور إنّما حصلت عن هذا البدن واستفيدت من الدنيا بواسطته. والمشابهة التي لأجلها استعار لفظ الزاد هنا هو ما يشترك فيه الزاد المحسوس والتقوى من سلامة المتزوّد بهما كلّ في طريقه فذاك في المنازل المحسوسة من عذاب الجوع والعطش المحسوسين، وهذا في المنازل المعقولة ومراتب السلوك ومراحل السفر إلى الله تعالى من عذاب الجوع المعقول.

وقوله: فاتّقى عبد ربّه. إلى قوله: شهوته.

أوامر وردت بلفظ الماضي خالية عن العطف وهي بلاغة تريك المعنى في أحسن صورة. فالأمر بالتقوى تفسير للأمر بالزاد كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] والأمر بنصيحة النفس أمر بالنظر في مصالحها، والشعور عليها أن تعلم ما هو الأولى بها من التمسّك بحدود الله والوقوف عندها، والأمر بتقديم التوبة وغلب الشهوة هو من جملة الأمر بالنصيحة كالتفسير له ومن لوازم التقوى أردفه بهما، وأراد تقديم التوبة على الموت أو بالنسبة إلى كلّ وقت سيحضر.

وقوله: فإنّ أجله. إلى قوله: شقوة.

حثّ على امتثال أوامره السائقة إلى التوبة وغيرها، وتحذير من هجوم المنيّة على غفلة لما يستلزمه ذلك من شدّة الحسرة وطول الندم على التفريط، وذلك أنّ ستر الأجل عن الإنسان موجب للغفلة عنه فإذا انضاف إلى ذلك خداع الأمل الناشئ عن وساوس الشيطان في تزيينه المعصية وتسويفه التوبة مع كونه موكلاً به وقريناً له كما قال سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله: ما من مولود إلاّ ويولد معه قرين من الشيطان. كانت الغفلة أشدّ والنسيان آكد، واستعار لفظ الخداع لصورته من النفس الأمّارة بالسوء وهو قولها للإنسان مثلاً: تمتّع من شبابك واغتنم لذّة العيش ما دمت في مهلة ومستقبل من عمرك وستلحق للتوبة، ونحو ذلك من الأضاليل فإنّ هذه الصورة خداع من الشيطان، وأمّا نسبة ذلك إلى الأمل فلأنّ الأمل هو عزم النفس على فعل تلك الأمور وأمثالها في مستقبل الأوقات عن توهّم مدّة الحياة واتّساعها لما تفعله فيها من معصية وتوبة، وذلك العزم من أسباب الانخداع للشيطان وغروره فلذلك نسب الخداع إلى الأمل مجازاً، وجعل غاية ذلك الخداع هو أن تهجم على المخدوع منيّته حال ما هو في أشدّ غفلة عنها واشتغال بما يؤمّله فيكون ذلك مستلزماً لأعظم حسرة وأكبر ندامة على أن يكون عمره عليه حجّة شاهداً بلسان حاله على ما اكتسب فيه من الآثام فصار بعد أن كان وسيلة لسعادته سبباً لشقاوته. وأغفل نصب على الحال. وحسرةً على التميز للمتعجّب منه المدعوّ. واللام في لها قيل: للاستغاثة. كأنّه قال: يا للحسرة على الغافلين ما أكثرك، وقيل: بل لام الجرّ فتحت لدخولها على الضمير والمنادى محذوف وتقديره يا قوم أدعوكم لها حسرة، وأن في موضع النصب بحذف الجارّ كأنّه قيل: فعلام يقع عليهم الحسرة؟ فقال: على كون أعمارهم حجّة عليهم يوم القيامة.

وقوله: نسأل الله تعالى. إلى قوله: كآبة.

خاتمة الخطبة، وسأل الله الخلاص عن أمور ثلاثة:

الأوّل: أن يخلّصه من شدّة الفرح بنعمة الدنيا فإنّ ذلك من لوازم محبّتها المستلزمة للهلاك الأبديّ.

الثاني: أن لا تقصر به غاية عن طاعة ربّه: أي لا يقصر عن غاية من غايات الطاعة يقال قصرت هذه الغاية بفلان إذا لم يبلغها.

الثالث: أن لا تحلّ به بعد الموت ندامة ولا حزن وذلك سؤال لحسم أسبابهما وهو اتّباع الهوى في الدنيا والعدول عن طاعة الله. وبالله العصمة.

٦٥ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً؛ كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ. لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلاَ اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلاَ شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ، وَلاَ ضِدٍّ مُنَافِرٍ؛ وَلٰكِنْ خَلاَئِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الأَشْيَاءِ فَيُقَالَ: هُوَ كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ. لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلاَ تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، وَلاَ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلاَ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَىٰ وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ. الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، وَالْمَرْجُوُّ مَعَ النِّعَمِ!.

أقول: المثاور: المواثب. والداخر: الذليل، وآده الأمر: أثقله. وذرأ: خلق. والمبرم: المحكم.

وقد اشتملت هذه الخطبة على مباحث لطيفة من العلم الإلهيّ أيضاً لا يطّلع عليها إلاّ المتبحّرون فيه.

الأوّل: الذي لم يسبق. إلى قوله: باطناً.

أقول: إنه لما ثبت أنّ السبق والمقارنة والقبليّة والبعديّة أمور تلحق الزمان لذاته وتلحق الزمانيّات به، وثبت أنّه تعالى منزّه عن الزمان إذ كان من لواحق الحركة المتأخرة عن وجود الجسم المتأخر عن وجود الله سبحانه كما علم ذلك في موضعه لا جرم لم تلحق ذاته المقدّسة وما لها من صفات الكمال ونعوت الجلال شيء من لواحق الزمان. فلم يجز إذن أن يقال مثلاً كونه عالماً قبل كونه قادراً وسابقاً عليه، وكونه قادراً قبل كونه عالماً، ولا كونه أوّلاً للعالم قبل كونه آخراً له قبليّة وسبقاً زمانياً. بقي أن يقال: إنّ القبليّة والبعديّة قد تطلق بمعان آخر كالقبليّة بالشرف والفضيلة والذات والعليّة، وقد بيّنا في الخطبة الأولى أنّ كلّ ما يلحق ذاته المقدّسة من الصفات فاعتبارات ذهنيّة تحدثها العقول عند مقايسته إلى مخلوقاته، وشيء من تلك الاعتبارات لا تتفاوت أيضاً بالقبليّة والبعديّة بأحد المعاني المذكورة بالنظر إلى ذاته المقدّسة فلا يقال مثلاً هو المستحقّ لهذا الاعتبار قبل هذا الاعتبار أو بعده وإلاّ لكان كمال ذاته قابلاً للزيادة والنقصان؛ بل استحقاقه بالنظر إلى ذاته لمّا يصحّ أن يعبّر لها استحقاق واحد لجميعها دائماً فلا حال يفرض إلاّ وهو يستحقّ فيه أن يعتبر له الأوّليّة والأخريّة معا استحقاقاً أوّلياً ذاتياً لا على وجه الترتّب وإن تفاوتت الاعتبارات بالنظر إلى اعتبارنا، وهذا بخلاف غيره من الأمور الزمانيّة فإنّ الجوهر مثلاً يصدق عليه كونه أوّلاً من العرض ولا يصدق عليه مع ذلك أنّه آخر له حتّى لو فرضنا عدم جميع الأعراض وبقاء الجوهر بعدها لم يكن استحقاقه للاعتبارين معاً بل استحقاقه لاعتبار الأوّليّة متقدّم إذ كانت بعض أحواله سابقة على بعض، ولا استحقاقه لهما لذاته بل بحسب بقاء أسبابه. ولا العرض لما صدق عليه أنّه بعد الجوهر يصدق عليه أنّه قبله باعتبار ما، وخلاف المختلفين في أيّ الصفات أقدم مبنيّ على سوء تصوّرهم لصانعهم سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

إذا عرفت ذلك فنقول: أوّليّته هو اعتبار كونه مبدأ لكلّ موجود، وآخريّته هو كونه غاية لكلّ ممكن، وقد سبق معنى كونه ظاهراً وباطناً في الخطبة التي أوّلها: الحمد لله الذي بطن خفيّات الأمور.

الثاني: كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل.

مقصود هذه الكلمة أنّه تعالى لا يوصف بالقلّة وإن كان واحداً؛ وتقرير ذلك أنّ الواحد يقال بمعان والمشهور منها المتعارف بين الخلق كون الشيء مبدءاً لكثرة يكون عادّاً لها ومكيالاً وهو الذي تلحقه القلة والكثرة الإضافيّتان فإنّ كلّ واحد بهذا هو قليل بالنسبة إلى الكثرة التي يصلح أن يكون مبدأ لها والمتصوّر لأكثر أهل العالم صدق هذا الاعتبار على الله بل ربّما لا يتصوّر بعضهم كونه تعالى واحداً إلاّ بهذا الوجه، ولمّا كان تعالى منزّهاً عن الوصف بالقلّة والكثرة لما يستلزمانه من الحاجة والنقصان اللازمين لطبيعة الإمكان أثبت القلّة لكلّ ما سواه فاستلزم إثباتها لغيره في معرض المدح له ونفيها عنه. واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن الواحديّة بالمعنى المذكور. إذ سلب اللازم يستلزم سلب ملزومه، وليس إذا بطل كونه واحداً بهذا المعنى بطل كونه واحداً. فإنّه بيّنا صدق الواحد عليه بمعان آخر في الخطبة الأولى، وقد يفهم من هذا أنّه لمّا نفى عنه القلّة استلزم ذلك أن يثبت له الكثرة، وهو من سوء الفهم وقلّة العلم فإنّ عدم القلّة إنّما يستلزم ثبوت الكثرة عند تعاقبها على محل من شأنه قبولهما. وربّما قيل: إنّ المراد بالقليل هنا الحقير، وهو غير مناسب لذكر الوحدة وإنّما قال عليه السلام: كلّ مسمّى بالوحدة، ولم يقل كلّ واحد ليشعر بأنّ قول الوحدة على واحديّته تعالى وعلى واحديّة غيره قول بحسب اشتراك الاسم.

الثالث: وكلّ عزيز غيره ذليل.

أقول: رسم العزيز بأنّه الخطير الذي يقلّ وجود مثله وتشتدّ الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه. ثمّ في كلّ واحد من هذه القيود الثلاثة كمال ونقصان فالكمال في قلّة الوجود أن يرجع إلى واحد ويستحيل أن يوجد مثله وليس ذلك إلاّ الله سبحانه، والكمال في النفاسة وشدّة الحاجة أن يحتاج كلّ شيء في كلّ شيء، وليس ذلك على الكمال إلاّ الله تعالى، والكمال في صعوبة المنال أن لا يوصل إلى حقيقته على معنى الإحاطة بها، وليس ذلك على كمال إلاّ الله تعالى فهو إذن العزيز المطلق الذي كلّ موجود سواه ففي ذلّ الحاجة إليه وحقارة العبوديّة بالنسبة إلى كمال عزّه. فأمّا العزيز من الخلق فهو الذي توجد له تلك الاعتبارات لكن لا مطلقاً بل بقياسه إلى من هو دونه في الاعتبارات المذكورة فهو إذن وإن صدق عليه أنّه عزيز بذلك الاعتبار إلاّ أنّه في ذلّ الحاجة إلى من هو أعلى رتبة منه وأكمل في تلك الاعتبارات، وكذلك من هو أعلى منه إلى أن ينتهي إلى العزيز المطلق الذي لا يلحقه ذلّ باعتبارٍ ما. فلذلك أثبت عليه السلام الذّل لكلّ عزيز سواه.

الرابع: وكلّ قويّ غيره ضعيف.

القوّة تعود إلى تمام القدرة، ويقابلها الضعف، ولمّا كان استناد جميع الموجودات إلى تمام قدرته علمت أنّه لا أتمّ من قدرته فكلّ قوّة وصف بها غيره فبالنسبة إلى ضعف يقابلها لمن هو دونه وإذا قيس بالنسبة إلى من هو فوقه كان ضعيفاً بالنسبة إليه، وكذلك من هو فوقه إلى أن ينتهي إلى تمام قدرة الله فهو القويّ الذي لا يلحقه ضعف بالقياس إلى أحد غيره كذلك قوله: وكلّ مالك غيره مملوك. فإنّ معنى المالك يعود إلى القادر على الشيء الذي تنفذ مشيّته فيه باستحقاق دون غيره، وغيره بإذنه. ولمّا ثبت أنّ كلّ موجود سواه فهو في تصريف قدرته ومشيئته إذ هما مستند وجوده ثبت أنّه هو المالك المطلق الذي ليست له مملوكيّة بالقياس إلى شيء آخر وأنّ كلّ ما سواه فهو مملوك له وإن صدق عليه بالعرف أنّه مالك بالقياس إلى من هو دونه. ثمّ لا يخفى عليك ممّا سلف أنّ قول القويّ والمالك عليه وعلى غيره قول بحسب اشتراك الاسم أيضاً.

الخامس: وكلّ عالم غيره متعلّم.

لمّا ثبت أنّ علمه تعالى بالأشياء على ما مرّ من التفصيل إنّما هو لذاته، ولم يكن شيء منه بمستفاد من أمر آخر، وكان علم من سواه إنّما هو مستفاد بالتعلّم من الغير ثمّ الغير من الغير إلى أن ينتهي إلى عمله تعالى الفائض بالخيرات لا جرم كان كلّ عالم سواه متعلّماً

وإن سمّي عالماً بحصول العلم له، وكان هو العالم المطلق الذي لا حاجة به في تحصيل العلم إلى أمر آخر.

السادس: وكلّ قادر غيره يقدر ويعجز.

أقول: قدرة الله تعالى تعود إلى اعتبار كونه مصدراً لآثاره. فأمّا قدرة الغير فقد يراد بها قوّة جسمانيّة منبثّة في الأعضاء محرّكة نحو الأفاعيل الاختياريّة. والعجز ما يقابل القدرة بهذا المعنى وهو عدمها عمّا من شأنه أن يقدر كما في حقّ الواحد منّا، وقد يراد بهم اعتباران آخران يتقابلان. إذا عرفت ذلك فنقول: القادر المطلق على كلّ تقدير هو مستند كلّ مخترع وموجود اختراعاً ينفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره وذلك إنّما يتحقق في حقّ الله سبحانه فأمّا كلّ منسوب إلى القدرة سواه فهو وإن كان بالجملة ذا قدرة إلاّ أنّها ناقصة لتناولها بعض الممكنات فقط وقصورها عن البعض الآخر وعدم تناولها له إذا كانت لا تصلح للمخترعات وإن نسب إليه إيجاد شيء فلأنّه فاعل أقرب وواسطة بين القادر الأوّل سبحانه وبين ذلك الأثر لا لذاته استقلالاً وتفرّداً به على ما علم في مظانّه. فكلّ قادر سواه فلذاته يستحقّ العجز وعدم القدرة بالنسبة إلى ما يمكن تعلّق قدرته به من سائر المخترعات والممكنات وإنّما يستحقّ القدرة من وجوده. فهو إذن الفاعل المطلق الذي لا يعجزه شيء عن شيء ولا يستعصي على قدرته شيء.

السابع: وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها.

أقول: حسُّ السمع في الحيوان عبارة عن قوّة تنفذ من الدماغ إلى الأذن في عصبته ثابتة منه إلى الصماخ مبسوطة عليه كجلد الطبل، وهذه العصبة آلة هذه القوّة. والصوت هيئة تحصل في الهواء عن تموّجه بحرة شديدة إمّا من قرع يحصل من اصطكاك جسمين صلبين فيضغط الهواء بينهما وينفلت بشدّة، وإمّا من قلع شديد فيلج الهواء بين الجسمين المنفصلين الصلبين ويحصل عن السببين تموّج الهواء على هيئة مستديرة كما يفعل وقوع الحجر في الماء فإذا انتهى ذلك التموّج إلى الهواء الذي في الأذن تحرّك ذلك الهواء الراكد حركة مخصوصة بهيئة مخصوصة فتنفعل العصبة المفروشة على الصماخ عن تلك الحركة وتدركها القوّة السامعة هناك فهذا الإدراك يسمّى سماعاً. إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ إدراك هذه القوّة للصوت يكون على قرب وبعد وحدّ من القوّة والضعف مخصوص فإنّه إن كان الصوت ضعيفاً أو بعيداً جدّاً لم يحصل بسببه تموّج الهواء فلم يصل إلى الصماخ فلم يحصل السماع وذلك معنى قوله: يصمّ عن لطيف الأصوات، ويذهب عليه ما بعد منها.

فإن قلت: لم خصّص اللطيف بالصمّ عنه والبعيد بالذهاب عليه.

قلت: يشبه أن يكون لأنّ البعيد في مظنّة أن يسمع وإنّما يفوته بسبب عدم وصول الهواء الحامل له إليه، وأمّا الخفيّ فلمّا لم يكن من شأنه أن تدركه القوّة السامعة أشبه عجزها عن إدراكه الصمّ فاستعير لفظه له، وأمّا إن كان الصوت في غاية القوّة والقرب فربّما أحدث الصمّ وذلك لشدّة قرعه للصماخ وتفرّق اتّصال الروح الحامل لقوّة السمع عنه بحيث يبطل استعدادها لتأدية القوّة إلى الصماخ وكلّ ذلك من نقصان الحيوان وضعفه، ولمّا كان الباري تعالى منزّهاً عن الجسميّة وتوابعها لا جرم كانت هذه اللواحق من الصمم عن لطيف الأصوات، وذهاب بعيدها، والصمّ من كبيرها مخصوصة بمن له تلك القوّة المذكورة والسمع المخصوص فكلّ سامع غيره فهو كذلك. واستلزم ذلك في معرض مدحه بتنزيهه سبحانه عنها. وإذ ليس سمعياً بالمعنى المذكورة وقد نطق القرآن بإثبات هذه الصفة له فهو سميع بمعنى أنه لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي فيسمع السرّ والنجوى بل ما يسمع هو أدقّ وأخفى حمد الحامدين ودعاء الداعين، وذلك هو السميع الذي لا يتطرّق إليه الحدثان إذن لم يكن بآلة وآذان.

الثامن: وكل بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام.

أقول: خفيّ الألوان مثلاً كاللون في الظلم، واللطيف قد يكون بمعنى عديم اللون كما في الهواء، وقد يكون بمعنى رقيق القوام كالجوهر الفرد عند المتكلّمين، وكالذّرة، واللطيف بالمعنيين غير مدرك

للحيوان، وأطلق لفظ العمى مجازاً إذ كان عبارة إمّا عن عدم البصر مطلقاً أو عن عدمه عمّا من شأنه أن يبصر ولا واحد من هذين الاعتبارين بموجود للبصير غير الله فلم يكن عدم إدركها عمى حقيقيّاً بل لكون العمى من أسباب عدم الرؤية أطلق لفظه عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب، وهذا الحكم في معرض مدحه إن يستلزم تنزيه بصره عن لاحق العمى ومظنّته إذ كان سبحانه منزّهاً عن معروض العمى والبصر ومتعالياً عن أن يكون إدراكه بحدقة وأجفان وانطباع الصور والألوان وإن كان يشاهد ويرى حتّى لا يعزب عنه ما تحت الثرى. وإذ ليس بصيراً بالمعنى المذكور فهو البصير باعتبار أنه مدرك لكمال صفات المبصرات، وذلك الاعتبار أوضح وأجلى ممّا يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيّات.

التاسع: وكلّ ظاهر غيره باطن.

أقول: ظهور الأشياء هو انكشافها للحسّ أو للعقل فانكشافاً بيّناً، ويقابله بطونها وهو خفاؤها عن أحدهما، ولمّا ثبت أنّه تعالى منزّه عن الجسميّة ولواحقها علم كونه منزّهاً عن إدراك الحواسّ، ولمّا قام البرهان على أنّه تعالى بريء عن أنحاء التراكيب الخارجية والعقليّة وجب تنزّه ذاته المقدّسة عن اطّلاع العقول عليها فعلم من هذا الترتيب أنّه لا يشارك الأشياء في معنى ظهورها وقد وصف نفسه بالظهور فيجب أن يكون ظهوره عبارة عن انكشاف وجوده في جزئيّات آثاره كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وإن كانت مشاهدة الحقّ له على مراتب متفاوتة ودرجات متصاعدة كما أشار إليه بعض مجرّدي السالكين. ما رأينا الله بعده. فلمّا ترقّوا عن تلك المرتبة درجة من المشاهدة والحضور قالوا: ما رأينا شيئاً إلاّ ورأينا الله فيه. فلمّا ترقّوا قالوا: ما رأينا شيئاً إلاّ ورأينا الله قبله. فلمّا ترقّوا قالوا: ما رأينا شيئاً سوى الله. والأولى مرتبة الفكر والاستدلال عليه، والثانية مرتبة الحدس، والثالثة مرتبة المستدلّين به لا عليه، والرابعة مرتبة الفناء في ساحل عزّته واعتبار الوحدة المطلقة محذوفاً عنها كلّ لاحق. وإذا عرفت معنى ظهوره علمت أنّ شيئاً من الممكنات لا يكون له الظهور المذكور فإنّه وإن كان لبعض الأشياء في عقل أو حسّ إلاّ أنّه ليس في كلّ عقل وفي كل حسّ إذ كل مطّلع على شيء فالذي خفي عنه أكثر ممّا اطّلع عليه فكلّ ظاهر غيره فهو باطن بالقياس إليه وهو تعالى الظاهر لكلّ شيء وفي كلّ شيء لكونه مبدأ كلّ شيء ومرجع كلّ شيء.

العاشر: وكلّ باطن غيره فهو ظاهر [فهو غير ظاهر خ].

وقد علمت معنى البطون للمكنات وظهورها، وعلمت أيضاً ممّا سبق أنّ كونه باطناً يقال بمعنيين: أحدهما: أنّه الذي خفي قدس ذاته عن اطّلاع العقول عليه. والثاني: أنّه الذي بطن جميع الأشياء خبره ونفذ فيها علمه. ثمّ علمت الظهور المقابل للمعنى الأوّل، وأمّا المقابل للثاني فهو الذي لم يطّلع إلاّ على ظواهر الأشياء لم يكن له اطّلاع على بواطنها يقال فلان ظاهر وظاهري.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ كلّ باطن غيره سواء كان المراد بالبطون خفاء المتصوّر أو نفوذ العلم في البواطن، فهو ظاهر بالقياس إليه تعالى ظهوراً بالمعنى الذي يقابله. أمّا الأوّل فلأنّ كلّ ممكن وإن خفي على بعض العالمين لم يخف على غيره وإن خفي على الكلّ فهو ظاهر في علمه تعالى وممكن الظهور في علم غيره فليس إذن بخفي مطلقاً وهو تعالى الباطن الذي لا أبطن منه وكلّ باطن غيره فهو ظاهر بالقياس إليه. وأمّا الثاني فلأنّ كلّ عالم وإن جلّ قدره فلا إحاطة له ببعض المعلومات وهو قاصر عن بعضها، وبعضها غير ممكن له وهو تعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وكلّ ظاهر بالقياس إليه، وفي بعض النسخ وكلّ ظاهر غيره غير باطن وكلّ باطن غيره غير ظاهر، ومعنى القضيّتين أنّ كلّ ممكن إن كان ظاهراً منكشفاً لعقل أو حسّ لم يوصف مع ذلك بأنّه باطن كالشمس مثلاً وإن كان باطناً خفيّاً عن العقل والحسّ لم يوصف مع ذلك بأنّه ظاهر، وهو تعالى الموصوف بأنّه الباطن الظاهر معاً. وفي هذه النسخة نظر. فإنّا إنّما أثبتنا كونه تعالى ظاهراً وباطناً معاً

باعتبارين وفي بعض الممكنات ما هو كذلك كالزمان مثلاً فإنّ كلّ عاقل يعلم بالضرورة وجود الزمان وإن خفيت حقيقته على جمهور الحكماء واضطربت عليه أقوال العلماء وكذلك العلم فليس إذن كلّ ظاهر غيره غير باطن ولا كلّ باطن غيره غير ظاهر. والله أعلم.

الحادي عشر: لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان. إلى قوله: منافر.

أقول: إنّه تعالى لا يفعل لغرض ومتى كان كذلك كان منزّهاً عن خصوصيّات هذه الأغراض. أمّا الأوّل فبرهانه أنّه لو فعل لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه تعالى إمّا أن يكونا على سواء، أو ليس. والأوّل باطل وإلاّ لكان حصول الغرض له ترجيحاً من غير مرجّح، والثاني باطل لأنّهما إذا لم يستويا كان حصول الغرض أولى به فحينئذ يكون حصول ذلك الغرض معتبراً في كماله فيكون بدونه ناقصاً تعالى الله عن ذلك.

لا يقال: ليست أولويّة الغرض بالنسبة إلى ذاته بل بالنسبة إلى العبد إذ غرضه الإحسان إلى الغير.

لأنّا نقول: غرض إحسانه إلى الغير وعدمه إن كانا بالنسبة إليه على سواء عاد حديث الرجحان بلا مرجّح، وإن كان أحدهما أولى به عاد حديث الكمال والنقصان. وإذا عرفت أنّه تعالى لا يفعل لغرض، وكلّ ما ذكره عليه السلام في هذا الفصل من تشديد سلطان وتقويته أو تخوّف عاقبة زمان أو استعانة على ندّ وشريك وضدّ أغراض علمت صدق قوله: إنّه لم يخلق شيئاً من خلقه لشيء من هذه الأمور. وهذا تنزيه من طريق نفي الغرض المطلق.

وأمّا تنزيهه تعالى عن خصوصيّات هذه الأغراض فلأنّ تشديد السلطان إنّما يحتاج إليه ذو النقصان في ملكه، ولمّا كان تعالى هو الغنيّ المطلق في كلّ شيء عن كلّ شيء صدق أنّ ذلك بغرض له ممّا خلق، وأمّا التخوّف عن عواقب الزمان فلأنّ التضرّر والانتفاع ولواحقهما من الخوف والرجاء ونحوهما إنّما هي من لواحق الممكنات القابلة للنقصان والكمال وما هو معرض التغيّر والزوال، ولمّا ثبت تنزيهه تعالى عن الانفعال عن شيء لم يتصوّر أن يكون أحد هذه الأمور غرضاً له، ولذلك الاستعانة على الند والضدّ والشريك فإنّ الاستعانة هي طلب العون من الغير وذلك من لوازم الضعف والعجز والخوف وأنّه لا عجز فلا استعانة فلا ندّ ولا شريك ولا ضدّ، وكذلك نقول: لا ندّ ولا شريك ولا ضدّ فلا استعانة والغرض تنزيهه سبحانه عن صفات المخلوقين وخواصّ المحدثين.

وقوله: ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون.

أي بل خلائق خلقهم بمحض جوده وهو فيضان الخير عنه على كلّ قابل بقدر ما يقبله من غير بخل ولا منع وتعويق، وبذلك الاعتبار كان كلّ شيء وكلّ عبد ذليل وهو مالكه ومولاه.

وقوله: لم يحلل في الأشياء فيقال: هو كائن.

إشارة إلى وصفه بسلب كونه ذا محلّ. وللناس في تنزيهه تعالى عن المحلّ كلام طويل. والمعقول من الحلول عند الجمهور قيام موجود بموجود على سبيل التبعية له، وظاهر أنّ الحلول بهذا المعنى على الواجب الوجود محال لأنّ كونه تبعاً للغير يستلزم حاجته إليه وكلّ محتاج ممكن. قال أفضل المتأخرين نصير الدين الطوسي - أبقاه الله -: والحق أنّ حلول الشيء في الشيء لا يتصوّر إلاّ إذا كان الحال بحيث لا يتعيّن إلاّ بتوسّط المحل وإذ لا يمكن أن يتعيّن واجب الوجود بغيره فإذن يستحيل حلوله في غيره.

إذا عرفت ذلك فنقول: لمّا كان الكون في المحلّ والنائي عنه والمباينة له أموراً إنّما يقال على ما يصحّ حلوله فيه ويحلّه وكان هو تعالى منزّهاً عن الحلول وجب أن يمتنع عليه إطلاق هذه الأمور. فإذ ليس هو بحالّ في الأشياء فليس هو بكائن فيها، وإذ ليس بكائن فيها فليس بنائي عنها ولا مباين لها.

وقوله: لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ.

الإعياء إنّما يقال لذي الأعضاء من الحيوان وإذ ليس تعالى بجسم ولا ذي آلة جسمانيّة لم يلحقه بسبب فعله إعياء، وإنّما قيل: ما ابتدأ. ليكون سلب الإعياء عنه أبلغ إذ ما ابتدأ من الأفعال يكون المشقّة فيه أتمّ وتدبيره يعود إلى تصريفه لجميع الذوات والصفات دائماً تصريفاً

كلّياً وجزئيّاً على وفق حكمته وعنايته، ونحوه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقوله: ولا وقف به عجز عمّا خلق.

إشارة إلى كمال قدرته وأنّ العجز عليه محال. وقد سبق بيانه.

وقوله: ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدّر.

إشارة إلى كمال علمه ونفي الشبهة أن تعرض له. واعلم أنّ الشبهة إنّما تدخل على العقل في الأمور المعقولة الصرفة غير الضروريّة. وذلك أنّك علمت أنّ الوهم لا يصدق حكمه إلاّ في المحسوسات فأمّا الأمور المعقولة الصرفة فحكمه فيها كاذب فالعقل حال استفصاله وجه الحقّ فيها يكون معارضاً بالأحكام الوهميّة فإذا كان المطلوب غامضاً فربّما كان في الأحكام الوهميّة ما يشبه بعض أسباب المطلوب فتتصوّره النفس بصورته وتعتقده مبدأ فينتج الباطل في صورة المطلوب وليس به، ولمّا كان الباري تعالى منزّهاً عن القوى البدنيّة وكان علمه لذاته لم يجز أن تعرض لقضائه ولا قدره شبهة، أو يدخل عليه فيه شكّ لكونهما من عوارضها. وقد عرفت معنى القضاء والقدر فيما سبق.

وقوله: بلا قضاء متقن وعلم محكم.

أي بريء من فساد الشبهة والغلط.

وقوله: وأمر مبرم.

إشارة إلى قدره الذي هو تفصيل قضائه المحكم، وظاهر أنّ تفصيل المحكم لا يكون إلاّ محكماً.

وقوله: المأمول مع النقم المرهوب مع النعم [المرجوّ من النعم خ].

أقول: منبع هذين الوصفين هو كمال ذاته وعموم فيضه وأنّه لا غرض له وإنّما الجود المطلق والهبة لكلّ ما يستحقّه، ولمّا كان العبد حال حلول نقمته به قد يستعدّ بالاستغفار والشكر لإفاضة الغفران ورفع النقمة فيفيضها عليه مع بقاء كثير من نعمه لديه كان تعالى مظنّة الأمل والفزع إليه في رفع ما ألقي فيه وإبقاء ما أبقى حتّى أنّه تعالى هو المفيض لصورة الأمل، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وكذلك حال إفاضة نعمته لمّا كان العبد قد يستعدّ بالغفلة للإعراض عن شكرها كان تعالى في تلك الحال أهلاً أن يفيض عليه بوادر نقمته بسلبها فكان هو المأمول مع النقم المرهوب مع النعم فهو المستعان به عليه وهو الذي لا مفرّ منه إلاّ إليه، ومن عداه مخلوق نقمته غير مجامع لأمل رحمته، وقيام نعمته معاند لشمول رهبته. فلا مأمول ولا مرهوب في كلا الحالين سواه. وبالله العصمة والتوفيق.

٦٦ - ومن كلام له عليه السلام

كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ: اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَأَكْمِلُوا اللأْمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا. وَالْحَظُوا الْخَزْرَ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ. فَعَاوِدُوا الْكَرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ. وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَعَلَيْكُمْ بِهٰذَا السَّوَادِ الأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً. فَصَمْداً صَمْداً! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.

أقول: المشهور أنّ هذا الكلام قاله عليه السلام لأصحابه في اليوم الّذي كان مساؤه ليلة الهرير، وروي أنه قال في أول اللقاء بصفّين وذلك في صفر سنة سبع وثلاثين.

استشعرت الشيء: اتّخذته شعاراً: وهو ما يلي الجسد من الثياب، والجلباب: الملحفة. والسكينة: الثبات والوقار. والنواجذ: أقاصي الأضراس. ونبا

السيف: إذا رجع في الضربة ولم يعمل واللأمة بالهمزة الساكنة: الدرع، وبالممدودة مع تضعيف الميم جميع آلات الحرب والقلقلة: التحريك. والخزر بفتح الزاء: ضيق العين وصغرها، وكذلك تضييقها والنظر بمؤخّرها عند الغضب. والطعن الشزر بسكون الزاء: الضرب على غير استقامة بل يميناً وشمالاً. والظبى: جمع ظبّة: وهو طرف السيف والمنافحة: التناول بأطراف السيوف. والأعقاب: جمع عقب أو جمع عقب وهو العاقبة. وسجحاً: أي سهلاً. والسواد: العدد الكثير. والرواق: بيت كالفسطاط يعمل على عمود واحد. وثبجه: وسطه. والكسر: جانب الخباء. والنكوص: الرجوع. والصمد: القصد. ولن يتركم: أي ينقصكم.

واعلم أنّ هذه الأوامر مشتملة على تعليم الحرب والمقاتلة وهي كيفية يستلزم الاستعداد بها إفاضة النصر لا محالة.

فأوّلها: الأمر باستشعار خشية الله كما يلزم الشعار الجسد. وهو استعارة كما سبق. وفايدة هذا الأمر الصبر على الحرب وامتثال جميع الأمور الباقية. إذ خشية الله مستلزمة لامتثال أوامره ولذلك قدّمه.

الثاني: الأمر باتّخاذ السكينة جلباباً تنزيلاً للثياب الشامل للإنسان منزلة الملحفة في شمولها للبدن. والشمول هو وجه الاستعارة، وفايدة هذا الأمر طرد الفشل وإرهاب العدوّ فإنّ الطيش والاضطراب يستلزمان الفشل وطمع العدوّ.

الثالث: الأمر بالعضّ على النواجذ وفايدته وما ذكر وهو أن ينبو السيف عن الهامة. وعلّته أنّ العضّ على الناجذ يستلزم تصلّب العضلات والأعصاب المتّصلة بالدماغ فيقاوم ضربة السيف ويكون نكايته فيه أقلّ، والضمير في قوله: فإنّه يعود إلى الصدر الذي دلّ عليه عضّوا كقولك: من أحسن كان خيراً له. وقال بعض الشارحين: عضّ الناجذ كناية عن تسكين القلب وطرد الرعدة وليس المراد حقيقته. قلت: هذا وإن كان محتملاً لو قطع عن التعليل إلاّ أنه غير مراد هنا لأنه يضيع تعليله بكونه أنبا للسيوف عن الهامّ.

الرابع: الأمر بإكمال اللأمة، وإكمال الدرع البيضة والسواعد، ويحتمل أن يريد باللامة جميع آلات الحرب وما يحتاج إليه فيه وفايدته شدة التحصّن.

الخامس: الأمر بقلقلة السيوف في الأغماد، وفايدته سهولة جذبها حال الحاجة إليه فإنّ طول مكثها في الأغماد يوجب صداها وصعوبة مخرجها حال الحاجة.

السادس: الأمر بلحظ الخزر، وذلك من هيئات الغضب فإنّ الانسان إذا نظر من غضب عليه خزراً، وفائدته أمور:

أحدها: إحماء الطبع واستثارة الغضب.

والثاني: أنّ النظر بكلّية العين إلى العدو أمارة الفشل ومن عوارض الطيش والخوف، وذلك يوجب طمع العدو.

الثالث: أنّ النظر بكلّيتها إليه يوجب له التفطّن والحذر وأخذ الأهبة والتحرّز، والنظر خزراً استغفال له ومظنّة لأخذ عزّته.

السابع: الأمر بالطعن الشزر، وذلك أن الطعن يميناً وشمالاً يوسّع المجال على الطاعن ولأنّ أكثر المناوشة للخصم في الحرب يكون عن يمينه وشماله.

الثامن: الضرب بأطراف السيوف، وفائدته أنّ مخالطة العدوّ والقرب الكثير منه يشغل عن التمكّن من ضربه.

التاسع: الأمر بوصل السيوف بالخطا. وله فايدتان: إحديهما أنّ السيف ربّما يكون قصيراً فلا ينال الغرض به فإذا انضاف إليه مدّ اليد والخطوات بلغ به المراد. وفيه قول الشاعر:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها
خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وقول الآخر:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

وقيل له عليه السلام ما أقصر سيفك؟ فقال: أطوّله بخطوة. الثانية: أنّ الزحف في الحرب إلى العدوّ والتقدم إليه خطوات في حال المكافحة يكسر توهّمه

الضعف في عدوّه ويلقي في قلبه الرعب ويداخله الرهبة، وإليه أشار حميد بن ثور الهذليّ:

ووصل الخطا بالسيف والسيف بالخطا
إذا ظنّ أنّ المرء ذا السيف قاصر

ثمّ لما أراد تأكيد تلك الأوامر في قلوبهم وأن يزيدهم أوامر أخرى أردف ذلك بأمرين:

أحدهما: أنّ الله تعالى يراهم وينظر كيف يعملون، وذلك قوله: واعلموا أنّكم بعين الله والباء هنا كهي في قولك: أنت منّي بمرأى ومسمع.

الثاني: تذكيرهم بكونهم مع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله تنبيهاً لهم على فضيلته، وأنّ طاعته كطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وحربه كحربه كما هو المنقول عنه: حربك يا عليّ حربي. فيثبتوا على قتال عدوّهم كما ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

العاشر: الأمر بمعاودة الكرّ. وذلك عند التحرّف للقتال والانحياز إلى الفئة، وأن يستحيوا من الفرار. ثمّ نبّههم على قبحه بأمرين:

أحدهما: أنّه عار في الأعقاب: أي أنّه عار في عاقبة أمركم وسبّة باقية خلفكم، والعرب تستقبح الفرار كثيراً.

الثاني: كونه ناراً يوم الحساب: أي يوجب استحقاق النار، وهو من كبائر المعاصي، وجعله ناراً مجازاً تسميه له باسم غايته وهو تذكير لهم بوعيده تعالى ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

الحادي عشر: قوله: وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وهو تسهيل للموت عليهم الذي هو غاية ما يلقونه من الشدايد في الحرب بالبشارة بما هو أعظم وأجلّ من الحياة الدنيا المطلوبة بترك القتال وهو ما أعدّ لهم من الثواب الباقي، وهذا كما يقول أحدنا للمنفق ماله مع حبّه له طب نفساً عمّا ذهب منك فإنّ الصدقة مضاعفة لك عند الله وتجدها خيراً وأعظم أجراً. ونفساً منصوب على التمييز، وأشار بها إلى النفس المدبّرة لهذا البدن، وبالأولى إلى الشخص الزايل بالقتل.

الثاني عشر: الأمر بالمشي إلى الموت سجحاً: أي مشياً سهلاً لا تكلّف فيه ولا تخشّع فإنّ المتكلّف سريع الفرار، وهو أمر لهم بالمشي إلى غاية ما يخافون من القتال ليوطّنوا نفوسهم عليه أو لينفروا بسرعة إلى الحرب إذ من العادة أن يستنفر الشجاع بمثل ذلك فيسارع إلى داعيه لما يتصوّره فيه من جميل الذكر وحسن الأحدوثة، وروي سمحاً والمعنى واحد.

وقوله: عليكم بهذا السواد الأعظم إلى قوله: رجلاً.

أقول لمّا شحذهم بالأوامر المذكورة عيّن مقصدهم، وأشار بالسواد الأعظم إلى أهل الشام مجتمعين، وبالرواق المطنّب إلى مضرب معاوية، وكان معاوية إذن في مضرب عليه قبّة عالية بأطناب عظيمة وحوله من أهل الشام مائة ألف كانوا تعاهدوا أن لا ينفرجوا عنه حتّى يقتلوا. وعيّن لهم وسط الرواق وأغراهم به بقوله: إنّ الشيطان كامن في كسره. وأراد بالشيطان معاوية، وقيل عمرو بن العاص، وذلك أنّ الشيطان لمّا كان عبارة عن شخص يضلّ الناس عن سبيل الله، وكان معاوية في أصحابه كذلك عنده عليه السلام لا جرم أطلق عليه لفظ الشيطان، وقد سبقت الإشارة إلى معنى الشيطان، ويحتمل أن يريد الشيطان، ولمّا كانت محالّ الفساد هي مظنّة إبليس، وكان المضرب قد ضرب على غير طاعة الله كان محلاً للشيطان فلذلك استعار له لفظ الجلوس في كسره.

وقوله: وقد قدّم للوثبة يداً وأخّر للنكوص رجلاً.

كناية عن تردد معاوية وانتظاره لأمرهم إن جبنوا وثب، وإن شجعوا نكص وهرب، أو عن الشيطان على سبيل استعارة الوثبة والنكوص واليد والرجل، ويكون تقديم يده للوثبة كناية عن تزيينه لأصحاب معاوية الحرب والمعصية وتأخيره الرجل للنكوص كناية عن تهيئته للفرار إذا التقى الجمعان كما حكى الله سبحانه عنه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية.

فإن قلت: فما معنى نكوص الشيطان على رأي من فسّره بالقوة الواهمة ونحوها.

قلت: لمّا كانت وسوسته تعود إلى إلقائه إلى النفس

صورة ما يحكم بحسنه لها فقط دون أمر آخر كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية كان نكوصه يعود إلى إعراض الوهم عند عضّ الحرب ومشاهدة المكروه عن ذلك الحكم ورجوعه عنه، وهو معنى قوله: إنّي بريء منكم إنّي أرى ما لا ترون، وذلك أنّ الوهم إذن يحكم بالهرب والاندفاع من المخوف بعد أن كان قد زيّن الدخول فيه فيكون إذن قوله إنّي أخاف الله والله شديد العقاب موافقة لحكم العقل فيما كان يراه من طاعة الله بترك المعصية بالحرب. وكلّ ذلك من تمام إغراء أصحابه بأهل الشام وتنبيههم على أنّ باعثهم في الحرب ليس إلاّ الشيطان وأنه لا غرض له إلاّ فتنتهم ثمّ الرجوع والإعراض عنهم.

الثالث عشر: أمرهم بقصد عدوّهم مؤكّداً له بتكريره: أي اصمدوا لهم صمداً إلى غاية أن يظهر لكم نور الحقّ بالنصر، واستعار لفظ العمود للحق الظاهر عن الصبح للمشاركة بينهما في الوضوح والجلاء فالصبح للحسّ، والحق للعقل، ولفظ التجلّي ترشيح الاستعارة كنّى به عن ظهوره ووضوحه، والمعنى: إلى أن يتضح لكم أنّ الحق معكم يظفركم بعدوّكم وقهره. إذ الطالب لغير حقّه سريع الانفعال قريب الفرار في المقاومة.

وقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] الآية.

تسكين لنفوسهم وبشارة بالمطلوب بالحرب، وهو العلوّ والقهر كما بشّر الله تعالى به الصحابة في قتال المشركين وتثبيت لهم على المضيّ في طاعته فإنّ حزب الله هم الغالبون.

وقوله: ولن يتركم أعمالكم.

تذكير لهم بجزاء الله لهم أعمالهم في الآخرة، وبعث لهم بذلك على لزوم العمل له. وبالله التوفيق.

٦٧ - ومن كلام له عليه السلام

في معنى الأنصار، قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. قال عليه السلام: ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير، قال عليه السلام:

فَهَلاَّ احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ وَصَّىٰ بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟ فقال عليه السلام: لَوْ كَانَتِ الإِمَامَةُ فِيهِمْ، لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ.

ثمّ قال عليه السلام: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟ قالوا: احتجّت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام: إِحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ.

أقول: الأنباء الّتي بلغته عليه السلام هي أخبار ما جرى بين الأنصار والمهاجرين من المشاجرة في أمر الإمامة وإيقاعهم البيعة لأبي بكر، وخلاصة القصة أنّه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة: وهي صفّة كانوا يجتمعون بها فخطبهم سعد بن عبادة، ومدحهم في خطبته وأغراهم بطلب الإمامة. وقال: إنّ لكم سابقة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن فما آمن به من قومه إلاّ قليل، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوه ولا يدفعوا عنه ضيماً حتّى أراد الله بكم خير الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، ورزقكم الايمان به والإقرار بدينه. فكنتم أشدّ الناس على من تخلّف عنه منكم، وأثقله على عدوّه من غيركم حتّى استقاموا لأمره ودانت لأسيافكم العرب، وانجز الله لنبيّكم الوعد وتوفّاه وهو عنكم راضٍ. فشدّوا أيديكم لهذا الأمر، فأنتم أحقّ الناس به، فأجابوه جميعاً إن وفّقت وأصبت لم نعدو أن نولّيك هذا الأمر. وأتى الخبر أبا بكر وعمر فجاءا مسرعين إلى السقيفة فتكلّم أبو بكر فقال للأنصار: ألم تعلموا أنّا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاماً؟ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتم أنصار الدين ووزراء رسول الله صلى الله عليه وآله وإخواننا في كتاب الله، وأنتم المؤثرون على أنفسهم وأحقّ الناس بالرضاء بقضاء الله والتسليم لما ساق الله إلى اخوانكم، وأن لا يكون انتقاض هذا الدين على أيديكم، وأنا أدعوكم إلى بيعة أبي عبيدة أو عمر فكلاهما قد رضيت لهذا الأمر. قال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحد من

الناس أن يكون فوقك أنت صاحب الغار، وثاني اثنين، وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة. فأنت أحقّ بهذا الأمر. فقالت الأنصار: نحن أنصار الدار والايمان لم يعبد الله علانية إلاّ عندنا وفي بلادنا، ولا عرف الايمان إلاّ من أسيافنا، ولا جمعت الصلاة إلاّ في مساجدنا. فنحن أولى بهذا الأمر. فإن أبيتم فمنّا أمير ومنكم أمير. فقال عمر: هيهات لا يجمع سيفان في غمد إنّ العرب لا ترضى أن تؤمّركم وبينها من غيركم. فقال الحباب بن المنذر: نحن والله أحقّ بهذا الأمر إنّه قد دان لهذا الأمر بأسيافنا من لم يكن يدين له وإن لم ترضوا أجليناكم عن بلادنا إنّا جذيلها المحنّك وعذيقها المرجّب إن شئتم لنعيدنّها جذعة. والله لا يردّ عليّ أحد ما أقول إلاّ حطمت أنفه بسيفي هذا. فقام بشر بن سعد الخزرجي وكان يحسد سعد بن عبادة أن يصل إليه هذا الأمر وكان سيداً في الخزرج وقال: إنّا لم نرد بجهادنا وإسلامنا إلاّ وجه ربّنا ولا غرضاً من الدنيا، وإنّ محمّداً رجل من قريش وقومه أحق بميراث أمره واتّقوا الله ولا تنازعوهم معشر الأنصار. فقام أبو بكر فقال: هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيّهما شئتم فقالا: لا يتولى هذا الأمر غيرك وأنت أحقّ به، ابسط يدك فبسط يده فبايعاه وبايعه بشر بن سعد وبايعته الأوس كلهم، وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل منزله، وقيل: إنّه بقي ممتنعاً من البيعة حتّى مات بحوران في طريق الشام.

ولنرجع إلى المتن فنقول: أما الخبر الذي رواه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله حجّة عليهم فهو صحيح أخرجه مسلم والبخاري في مسنديهما عن أنس قام أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وهم يبكون فقالا: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخلا على الرسول فأخبراه بذلك فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله معصباً على رأسه حاشية برد فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم. فأمّا وجه احتجاجه بهذا الخبر فهو في صورة شرطية متّصلة يستثنى فيها نقيض تاليها. وتقريرها: لو كانت الإمامة حقاً لهم لما كانت الوصية بهم لكنّها بهم فليست الإمامة لهم. بيان الملازمة أنّ العرف قاض بأن الوصية والشفاعة ونحوها إنما تكون إلى الرئيس في حقّ المرؤوس من غير عكس، وأما بطلان التالي للخبر المذكور.

وأما قوله: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

فأشار بالثمرة إمّا إلى نفسه وأهل بيته فإنهم ثمرة الغصن المورق المثمر لتلك الشجرة، ولما استعير لفظ الشجرة لقريش استعار لفظ الثمرة لنفسه. وقد عرفت فرعيّته عن رسول الله صلى الله عليه وآله وكونه ثمرة. وإضاعتهم لها إهمالهم له من هذا الأمر، ويحتمل أن يريد بالثمرة التي أضاعوها سنّة الله الموجبة في اعتقاده استحقاقه لهذا الأمر وظاهر كونها ثمرة الرسول صلى الله عليه وآله وإهمالهم لها تركهم العمل بها في حقه، وهو كلام في قوة احتجاج له على قريش بمثل ما احتجوا به على الأنصار، وتقديره: أنهم إن كانوا أولى من الأنصار لكونهم شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله فنحن أولى لكوننا ثمرة، وللثمرة اختصاص بالمثمّر من وجهين:

أحدهما: القرب ومزيّته ظاهرة.

والثاني: إنّ الثمرة هي المطلوبة بالذات من الشجرة وغرسها فإن كانت الشجرة معتبرة فبالأولى اعتبار الثمرة، وإن لم يلتفت إلى الثمرة فبالأولى لا التفات إلى الشجرة. ويلزم من هذا الاحتجاج أحد أمرين: إما بقاء الأنصار على حجتهم لقيام هذه المعارضة، أو كونه عليه السلام أحقّ بهذا الأمر وهو المطلوب. والله أعلم بالصواب.

٦٨ - ومن كلام له عليه السلام

لما قلّد محمّد ابن أبي بكر مصر فَمُلِكَتْ عليه فَقُتِلَ

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ؛ وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ، وَلاَ أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً، وَكَانَ لِي رَبِيباً.

أقول: كان عليه السلام ولّى محمّد ابن أبي بكر مصر فلمّا اضطرب الأمر عليه بعد صفّين وقوي أمر معاوية طمع في مصر. وقد كان عمرو بن العاص بايعه على أن يكون معه في قتال عليّ وتكون مصر له طعمة. فبعثه إليها بعد صفّين في ستة آلاف فارس وقد كان فيها جماعة عظيمة ممن يطلب بدم عثمان، وكانوا يزعمون أنّ محمداً قتله فانضافوا إلى عمرو، وكان معاوية كتب إلى وجوه أهل مصر أما إلى شيعته فبالترغيب، وإما إلى أعدائه فبالترهيب، وكتب محمّد ابن أبي بكر إلى عليّ بالقصة يستمدّه بالمال والرجال فكتب إليه يعده بذلك. فجعل محمّد يدعو أهل مصر لقتال عمرو فانتدب معه منهم أربعة آلاف رجل فوّجه منهم ألفين عند كنانة بن بشر لاستقبال عمرو، وبقي هو في ألفين فأبلى كنانة في ذلك اليوم بلاءً حسناً وقتل من عسكر عمرو خلقاً كثيراً، ولم يزل يقاتل حتّى قتل هو ومن معه فلما قتل تفرّق الناس عن محمّد، وأقبل عمرو يطلب محمداً فهرب منه مختفياً فالتجأ إلى خربة اختبأ فيها فدخل عمرو فسطاطه، وخرج معاوية بن خديج الكندي وكان من أمراء جيش عمرو في طلب محمّد فظفر به وقد كاد يموت عطشاً فقدّمه فضرب عنقه ثمّ أخذ جثّته فحشاها في جوف حمار ميّت وأحرقه، وقد كان علي عليه السلام وجّه لنصرته مع مالك بن كعب إلى مصر نحواً من ألفي رجل فسار بهم خمس ليال وورد الخبر إلى علي عليه السلام بقتله وأخذ مصر. فخرج عليه السلام عليه جزعاً ظهر أثره في وجهه ثمّ قال: رحم الله محمداً كان غلاماً حدثاً، وقد كنت أردت. الفصل.

والنهز: النهوض لتناول الشيء. والفرصة، النهضة، وهي ما أمكنك من نفسك. وإنما أراد تولية هاشم لقوّته على هذا الأمر وكثرة تجاربه، وهاشم هذا ابن عتبة ابن أبي وقّاص الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد وكلم شفته، وكان هاشم من شيعة عليّ والمخلصين في ولائه شهد معه حرب صفّين وأبلى فيها بلاءً حسناً واستشهد بين يديه بها.

وقوله: لما خلّى لهم العرصة.

أي عرصة الحرب كما فرّ محمّد، وظنّ أنه ينجو بفراره، ولو ثبت لثبت معه الناس وقتل كريماً.

وقوله: ولا أنهزهم الفرصة.

كنّى الفرصة عن مصر: أي ولم يمكنهم من تناولها كما تمكّنوا مع محمّد.

وقوله: بلا ذمّ لمحمّد.

أي لست في مدحي لهاشم ذامّاً لمحمّد، ونبّه على براءته من استحقاق الذمّ بوجهين:

الأول: أنه كان لي حبيباً. وظاهر أنّه عليه السلام لا يحبّ إلاّ مرضيّاً لله ورسوله بريئاً من العيوب الفاضحة. وقد كان محمّد رحمه الله من نسّاك قريش وعبّادها.

الثاني: أنه كان ربيباً له. وذلك مما يستلزم محبّته وعدم ذمّه فأما كونه ربيباً فلأنّ أم محمّد هي أسماء بنت عميس وكانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له عبد الله بن جعفر وقتل عنها يوم مؤتة فتزوّجها أبو بكر فأولدها محمداً، ثم لمّا مات عنها تزوجها علي عليه السلام فكان محمّد ربيبه ونشأ على ولائه منذ صباه، وكان علي عليه السلام يحبّه ويكرمه ويقول: محمّد ابني من ظهر أبي بكر. وبالله التوفيق.

٦٩ - ومن كلام له عليه السلام

كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ، وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا. الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ. إِنَّكُمْ ـ وَاللهِ ـ لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ، وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلٰكِنِّي لاَ أَرَى إِصْلاَحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي. أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ! لاَ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ

كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ، وَلاَ تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ!.

أقول: البكار: جمع بكر وهو الفتى من الإبل. والعمدة: هي التي شدخ أسنمتها ثقل الحمل. والحوص: الخياطة. وتهتّكت: تخرّقت. وأطلّ: أشرق. والمنسر بكسر الميم وفتح السين، والعكس: القطعة من الجيش من المائة إلى المائتين. وقد سبق. وانجحر الضبّ: دخل جحره وهو في بيته. وبيت الضبع: وجاره. والأفوق الناصل: السهم لا فوق له ولا نصل. والباحة: ساحة الدار. والأود. الاعوجاج. وأضرع: أذلّ. وأتعس: أهلك.

وهذا الفصل يشتمل على توبيخ أصحابه لتقاعدهم عن النهوض معه إلى حرب أهل الشام، وذكر وجوه التوبيخ:

الأول: حاجتهم إلى المداراة الكثيرة. وليس ذلك من شيم الرجال ذوي العقول بل من شأن البهايم ومن لا عقل له، ونبّههم في حاجتهم إلى المداراة بتشبيهين:

أحدهما: بالبكارة التي قد انهكها حملها. ووجه الشبه بينها وبينهم هو قلة صبرهم وشدة إشفاقهم وفرارهم من التكليف بالجهاد واستغاثتهم كما يشتدّ جرجرة البكر العمد، وفراره من معاودة الحمل.

الثاني: بالثياب المتداعية، وهي التي يتبع ما لم يتخرق منها ما انخرق في مثل حاله. ووجه الشبه ما ذكره، وهو قوله: كلما حيصت من جانب تهتّكت من آخر: أي كما أنّ الثياب المتداعية كذلك. فكذلك أصحابه كلما أصلح حال بعضهم وجمعهم للحرب فسد بعض آخر عليه.

الثاني: شهادة حالهم عليهم بالجبن والخوف وهو قوله: كلما أطلّ. إلى قوله: وجارها، وكنّى بإغلاق كلّ منهم بابه عند سماعهم بقرب بعض جيوش الشام منهم عن فرارهم من القتال وكراهية سماعهم للحرب، وشبّههم في ذلك الخوف والفرار بالضبّة والضبع حين ترى الصائد أو أمراً تخافه. وإنّما خصّ الإناث لأنها أولى بالمخافة من الذكران.

الثالث: وصفهم بالذلّة وقلّة الانتفاع بهم. فنبّه على وصف الذلّ بقوله: الذليل والله من نصرتموه. فإنه إنما يكون ذليلاً لكونهم كذلك، ويحتمل أن يشير بذلك إلى سوء آرائهم في التفرّق والاختلاف، ثمّ بالغ في ذلك بحصر الذلّ لكلّ منتصر بهم فيمن نصروه، ونبّه على قلّة الانتفاع بهم بقوله: ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل. استعار لهم من أوصاف السهم أرداها، وكنّى بذلك عن عدم فايدتهم ونكايتهم في العدوّ كما لا فائدة في الرمي بالسهم الموصوف.

الرابع: وصفهم بالكثرة في المجامع والأندية مع قلّتهم في الحرب وتحت الألوية. وذلك يعود إلى الذم بالجبن أيضاً والعار به فإنّ قلّة الاجتماع في الحرب والتفرّق عنه من لوازم الخوف، وكما أنّ مقابل هذا الوصف وهو الاجتماع والكثرة في الحرب مع القلّة في غيره مدح كما قال أبو الطيّب:

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا
قليل إذا عدّوا كثير إذا شدّوا

فبالحريّ أن كان هذا الوصف ذمّاً كما قال عويف القوافي:

ألستم أقل الناس عند لوائهم
وأكثرهم عند الذبيحة والقدر

وقوله: وإنّي لعالم إلى قوله: أودكم.

أراد أنّه يصلحهم إلاّ السياسة بالقتل ونحوه كما فعل الحجّاج حين أرسل المهلّب إلى الخوارج. روي أنّه نادى في الكوفة من تخلّف عن المهلّب بعد ثلاث فقد أحلّ دمه، وقتل جماعة فخرج الناس إلى المهلّب يهرعون، وكما يفعله كثير من الملوك. وقوله: ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي: أي لمّا لم يكن ليستحلّ من دماء أصحابه ما يستحلّ ملوك الدنيا من رعيّتهم إذا أرادوا إثبات ملكهم ولو بفساد دينهم لا جرم لم ير إصلاحهم بالقتل إذ كان إصلاحهم بذلك سبباً لفساد نفسه بلزوم آثامهم لها. ولما كان من الواجب في الحكمة أن يكون إصلاح الانسان للغير فرعاً على إصلاح نفسه أوّلاً لم يتصوّر من مثله عليه السلام أن يفعل فعلاً يستلزم فساد نفسه وإن اشتمل على وجه من المصلحة.

فإن قلت: الجهاد بين يدي الامام العادل واجب وله أن يحملهم عليه. فلم لا يستجيز قتلهم؟

قلت: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنه ليس كل واجب يجب في تركه القتل كالحجّ.

الثاني: لعلّه عليه السلام لو شرع في عقوبتهم بالقتل على ترك الجهاد معه لتفرّقوا عنه إلى خصمه أو سلّموه إليه واتّفقوا على قتله. وكلّ هذه مفاسد أعظم من تقاعدهم عن دعوته لهم في بعض الأوقات.

وقوله: أضرع الله. إلى آخره.

دعا عليهم بالذلّ وهلاك الحظّ، ثمّ نبّههم على علّة استحقاقهم لدعائه وهي الجهل، ثمّ ما ينشأ عنه من ظلم أنفسهم، أمّا الجهل فعدم معرفتهم للحق كمعرفتهم الباطل، وأراد به ما يلزمهم من أوامر الله، وأراد بمعرفتهم الباطل معرفتهم بأحوال الدنيا وباطلها والاشتغال به عن أوامر الله، ويحتمل أن يشير به إلى ما يعرض لبعضهم من الشبه الباطلة في قتال أهل القبلة فيوجب لهم التوقّف والتخاذل عن الحرب، ويكون مكاثرته بين معرفتهم للباطل والحق تنبيهاً على قوّة جهلهم المركّب وهو أشدّ الجهل، وغايته توبيخهم بكونهم على قسمي الجهل. فالبسيط هو عدم معرفتهم للحق، والمركّب هو تصديقهم بالباطل. وأما الظلم فهو إبطالهم للحق وذلك إشارة إلى تعاميهم عن طاعة الله وتصاممهم عن سماع مناديه وإجابته، وعدم إبطالهم للباطل إشارة إلى عدم انكارهم المنكر من أنفسهم وغيرهم. وبالله التوفيق.

٧٠ - وقال عليه السلام

في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَاذَا لَقِيتَ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ»، فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي.

قال الشريف: يعني بالأود الاعوجاج، وباللدد الخصام وهذا من أفصح الكلام.

أقول: السحرة: السحر الأعلى، وأمّا كيفيّة قتله عليه السلام فمذكور في التواريخ.

وقوله: ملكتني عيني.

استعارة حسنة وتجوّز في التركيب أمّا الاستعارة فلفظ الملك للنوم، ووجه الاستعارة دخول النائم في غلبة النوم وقهره ومنعه له أن يتصرّف في نفسه كما يمنع الملك العبد من التصرّف في أمره، وأمّا التجوّز ففي العين وفي الإسناد إليها. أمّا الأول فأطلق لفظ العين على النوم لما بينها من الملابسة إذ إطباق الجفون من عوارضها، وأمّا الثاني فإسناد الملك إلى النوم المتجوّز فيه بلفظ العين. والواو في قوله: وأنا. للحال.

وقوله: فسنح إلى آخره.

أراد بالسنح حضور صورة رسول الله صلى الله عليه وآله في لوح خياله كما علمت وشكايته منهم. وجواب الرسول له يستلزم أمرين: أحدهما أنه عليه السلام كان في غاية الكرب من تقصيرهم في إجابة ندائه ودعوته إلى الجهاد حتّى انتهت الحال إلى قتله. الثاني عدم رضا رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم.

وقوله: أبدلهم بي شرّاً لهم منّي.

لا يستلزم أنّ فيه شرّاً كما قدّمنا بيانه. وبالله التوفيق.

٧١ - ومن خطبة له عليه السلام

في ذم أهل العراق

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيِّمُهَا، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا. أَمَا وَاللهِ مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِيَاراً؛ وَلٰكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً. وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيٌّ يَكْذِبُ. قَاتَلَكُمُ اللهُ تَعَالَى! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أَعَلَى اللهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلاَّ وَاللهِ، لٰكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلاً

بِغَيْرِ ثَمَنٍ! لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

أقول: أملصت: أسقطت. والأيّم: التي لا بعل لها. واللهجة: اللسان والقول الفصيح.

وهذا الكلام صدر عنه بعد حبر صفّين، وفيه مقصودان:

الأول: توبيخهم على تركهم للقتال بعد أن شارفوا النصر على أهل الشام، وتخاذلهم إلى التحكيم. وأبرز هذا المقصود في تشبيههم بالمرأة الحامل، وذكر لها أوصافاً خمسة، وهي وجود الشبه بينها وبينهم فالحمل يشبه استعدادهم وتعبيتهم للحرب، والاتمام يشبه مشارفتهم للظفر، والإملاص يشبه رجوعهم عن عدوّهم بعد طمعهم في الظفر به وذلك رجوع غير طبيعي ولا معتاد للعقلاء كما أنَّ الإملاص أمر غير طبيعي للحامل ولا معتاد لها، ثمّ موت القيّم بأمورها وهو زوجها وطول غربتها، وذلك يشبه عدم طاعتهم له الجاري مجرى موته عنهم وطول ضعفهم لذلك ودوام عجزهم وذلّتهم بعد رجوعهم لتفرّقهم إلى خوارج وغيرهم فإنّ موت قيّم المرأة مستلزم لضعفها ودوام عجزها وذلّتها، ثمّ كونها قد استحق ميراثها البعيد عنها لعدم ولدها وزوجها وذلك يشبه من حالهم أخذ عدوّهم الذي هو أبعد الناس عنهم مالهم من البلاد، واستحقاقه ذلك بسبب تقصيرهم عن مقاومته. وبهذه الوجوه من الشبه أشبهوا المرأة المذكورة وتمّ توبيخهم من هذه الجهة، ثمّ أخبرهم على التضجّر من حاله معهم بأنه لم يأتهم إيثاراً للمقام بينهم ولكن سوقاً قدرياً اضطره إلى ذلك. وصدق إذ لم يكن خروجه من المدينة التي هي دار الهجرة ومفارقة منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وقبره إلى الكوفة إلاّ لقتال أهل البصرة، وحاجته إلى الاستنصار بأهل الكوفة عليهم إذ لم يكن جيش الحجاز وافياً بمقاتلتهم ثمّ اتصلت تلك الفتنة بفتنة أهل الشام فدامت حاجته إلى المقام بينهم، وروي ولا جئت إليكم شوقاً (بالشين المعجمة).

والمقصود الثاني: توبيخهم على ما بلغه من تكذيبهم له، ومقابلته لهم على ذلك بردّ أحكام أوهامهم الفاسدة في حقّه، وذمّهم بجهلهم وقصور أفهامهم عما يفيده من الحكمة: وهو قوله: ولقد بلغني أنّكم تقولون. يكذب صورة دعواهم المقولة وقد كان جماعة من منافقي أصحابه إذا أخبر عن أمور ستكون، أو كانت ثمّ أخبر عنها وأسند ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يتحادثون فيما بينهم بتكذيبه فيبلغه ذلك كإخباره عن قصة الخوارج وما يكون منهم، وعن ذي الثدية، وأنه سيقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ونحو ذلك من الأمور الغريبة التي تستنكرها طابع العوام ولا يعقل أسرارها إلاّ العالمون بل كانوا يكذّبونه بمحضره. وروي أنه لما قال: لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، والله ما من آية نزلت في برٍّ أو بحرٍ أو سهلٍ أو جبلٍ ولا سماءٍ وَلا أرضٍ إلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت وفي أيّ شيء أنزلت. قال رجل من تحت المنبر: يا لله وللدعوى الكاذبة. وكذلك لمّا قال: سلوني قبل أن تفقدوني أما والله لتشغرن الفتنة الغماء برجلها ويطأ في خطامها يا لها فتنة شبّت نارها بالحطب الجزل مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها داعية ويلها بدجلة أو حولها ذاك إذا استدار الفلك وقلتم مات أو هلك بأيّ وادٍ سلك. فقال قوم من تحت منبره: لله أبوه ما أفصحه كاذباً. وكأنها إشارة إلى واقعة التتار. وقابل دعواهم بأمرين:

أحدهما: الدعاء عليهم بقتال الله لهم، وقد علمت أنَّ قتاله يعود إلى قمته وإبعادهم عن رحمته.

الثاني: الحجّة وتقريرها: أنَّ الذي أخبركم به من هذه الأمور إنّما هو عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وآله فلو كذبت فيه لكذبت إمّا على الله وهو باطل لأنّي أوّل من آمن به وأوّل مؤمن به لا يكون أوّل مكذّب له، أو على نبيّه وهو باطل لأنّي أوّل من صدّقه واتّبع ملته.

وقوله: كلاّ والله.

ردّ لصدق دعواهم بعد الحجّة كأنه قال: فإذن دعواكم عليّ الكذب فيما أُخبركم به باطلة.

وقوله: ولكنّها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها.

يريد به بيان منشأ دعواهم الفاسدة لتكذيبه، وذلك كون ما يقوله ويخبر به من الأمور المستقبلة ونحوها

طوراً وراء عقولهم الضعيفة التي هي بمنزلة أوهام ساير الحيوان وليسوا لفهم أسرارها بأهل. وأشار باللهجة إلى تلك الأقوال وأسرارها وبغيبتهم عنها إلى غيبة عقولهم عن إدراكها ومعرفة إمكانها في حقّ مثله أو إلى غيبتهم عنها عند إلقاء الرسول صلى الله عليه وآله قوانينها الكلّية إليه وتعليمه لأبوابها وتفصيل ما فصّل منها له. وظاهر أنّه لمّا كانت عقول أُولئك وأمثالهم مقهورة تحت سلطان أوهامهم وكان الوهم مكذّباً ومنكراً لمثل هذه الأحكام لا جرم لم تنتهض عقولهم لتصديقه عليه السلام فيها ولم تجوّز اطّلاعه عليها بل تابعت أوهامهم في الحكم بتكذيبه. وحاله في ذلك مختصرة من حال رسول الله صلى الله عليه وآله مع منافقي قومه.

وقوله: ويل أُمّه.

فالويل في الأصل دعاء بالشرّ، أو خبّر به. وإضافته إلى الأُمّ دعاء عليها أن تصاب بأولادها، وقيل: إنّها تستعمل للرحمة، وقيل تستعمل للتعجّب واستعظام الأمور.

وقوله: كيلاً بغير ثمن.

إشارة إلى ما يفيضه عليهم من الأخلاق الكريمة والحكم البالغة التي لا يريد بها جزاء ولا ثمناً ثمّ لا يفقهونها ولا يهذّبون بها أنفسهم لكون نفوسهم غير مستعدة لقبولها فليس له إذن من تلك الأنفس وعاء يقبلها. واستعار لفظ الكيل وكنّى به عن كثرة ما يلقيه إليهم منها وهو مصدر استغنى به عن ذكر فعله. فعلى هذا يحتمل أن يكون ويل أُمّه دعاء بالشرّ على من لم يفقه مقاله ولم يقتبس الحكمة منه، والضمير لإنسان ذلك الوقت وإن لم ير له ذكر سابق مفرد يعود إليه لكنّه موجود في كل شخص منهم وكأنه قال: ويل لأمّهم، ويحتمل أن يكون ترحماً لهم فإنّ الجاهل مرحوم، ويحتمل أن يكون تعجّباً من قوّة جهلهم أو من كثرة كيله للحكم عليهم مع إعراضهم عنها.

وقوله: ولتعلمنّ نبأه بعد حين.

اقتباس لهذه الآية المفصحة عن مقصوده: أي ولتعلمنّ نبأ جهلكم وإعراضكم عمّا أمركم به وألقاه إليكم من الحكم والآراء الصالحة، وينكشف لهم ثمرة ذلك بعد حين. وأشار بالحين إمّا إلى مدّة الحياة الدنيا. وثمرة أفعالهم إذن الندامة والحسرة على ما فرّطوا في جنب الله حيث لا ينفع إلاّ الأعمال الصالحة وذلك حين تزول عنهم غواشي أبدانهم وتطرح نفوسهم جلابيبها بالموت، وإمّا إلى مدّة حياته هو: أي ستعلمون عاقبة فعلكم هذا بعد مفارقتي لكم. والعاقبة إذن ابتلاؤهم بمن بعده من بني أُميّة وغيرهم بالقتل والذلّ والصغار. وبالله العصمة والتوفيق.

٧٢ - ومن خطبة له عليه السلام

علّم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا. اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الأَبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلاَتِ الأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَلاَ وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالآثَامِ، وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الأَعْلاَمِ، وَنَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ. اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ؛ وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَاجْزِهِ مِنِ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ. اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ

اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ.

أقول: المدحوّات: المبسوطات. والمسموكات: المرفوعات ودعمها: حفظها بالدعامة. جبل: خلق. والفطرات: جمع فطرة وهي الخلقة. والدمغ: كسر عظم الدماغ، وجيشات: جمع جيشة من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها، واضطلع بالأمر: قوي على حمله والقيام به من الضلاعة وهي القوّة. الاستيفاز: الاستعجال. والنكول: الرجوع. والقدم: التقدّم. والوهى: الضعف. ووعى الأمر: فقهه. والقبس: شعلة النار. وأورى: زكى واشتعل.

وقد اشتملت هذه الخطبة على ثلاثة فصول:

الأول: في صفات المدعوّ وتمجيده وهو الله سبحانه.

الثاني: في صفات المدعوّ له وهو النبي صلى الله عليه وآله.

الثالث: في صفات أنواع المدعوّ به. وذلك هو الترتيب الطبيعي. فبدأ ممجداً لله تعالى باعتبارات ثلاثة:

أحدهما: كونه داحي المدحوّات: أي باسط الأرضين السبع وظاهر كونها مدحوّات فإنّ كل طبقة منها إذا اعتبرت كانت مبسوطة فأما صدق البسط على جملة الأرض مع أنّها كرة وشهادة قوله: والأرض بعد ذلك دحيها. بذلك، وقوله: والأرض مددناها. فهو باعتبار طبقاتها. وقد يصدق عليها البسط باعتبار سطحها البارز من الماء الذي يتصرّف عليه الحيوان فإنّه في الأوهام سطح مبسوط وإن كان عند الاعتبار العقليّ محدّباً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]

الثاني: داعم المسموكات: أي حافظ السماوات أن تقع على الأرض.

فإن قلت: قد قال في الخطبة الأولى: بلا عمد تدعمها ثمّ جعلها هنا مدعومة فما وجه الجمع؟

قلت: لم ينف هناك إلاّ كونها مدعومة بعمد وهذا لا ينافي كونها مدعومة بغير العمد، وقد بيّنا هناك أنّ الدعامة التي تقوم بها السماوات قدرته تعالى.

الثالث: كونه جابل القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها: أي خالق النفوس على ما خلقها عليه من التهيّؤ والاستعداد لسلوك سبيلي الخير والشرّ واستحقاق الشقاوة والسعادة بحسب القضاء الإلهي كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠] وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي ألهمناه معرفة سلوك طريقي الخير والشرّ. وأهل العرفان كثيراً ما يعبرون عن النفس بالقلب. وشقيّها. بدل من القلوب: أي خالق شقيّ القلوب وسعيدها على فطراتها المكتوبة في اللوح المحفوظ فمن أخذت العناية الإلهية بزمام عقله على وفق ما كتب له فأعدّته لقبول الهداية لسلوك سبيل الله فهو السعيد، ومن لحقته حبايل القضاء الإلهي فحطّته إلى مهاوي الهلكة فذلك هو الشقيّ البعيد. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] الآية. وقوله: واجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك على محمّد عبدك ورسولك. بعض مطلوباته من هذا الدعاء. وشرايف صلواته ما عظم من رحمته وكمال جوده على النفوس المستعدّة لها، ونوامي بركاته ما زاد منها.

الفصل الثاني: ذكر للنبي صلى الله عليه وآله أحد وعشرين وصفاً على جهات استحقاق الرحمة من الله وزيادة البركة المدعوّ بها.

الأول: كونه عبداً لله وظاهر كون العبودية جهة لاستحقاق الرحمة.

الثاني: كونه رسولاً له، والرسالة نوع خاص من الاستعباد توجب مزيد الرحمة والشفقة.

الثالث: كونه خاتماً لما سبق من أنوار الوحي والرسالة بنوره وما جاء من الدين الحقّ. وظاهر كون ذلك جهة استعداد منه لقبول الرحمة ودرجات الكمال.

الرابع: كونه فاتحاً لما انغلق من سبيل الله قبله وطريق جنّته وحضرة قدسه باندراس الشرايع ففتح صلى الله عليه وآله تلك السبيل بشرعه وكيفيّة هدايته للخلق فيها.

الخامس: كونه قد أظهر الحقّ بالحقّ. والأول هو الدين وما يدعو إليه، والثاني فيه أقوال: فقيل: هو

المعجزات إذ بسببها تمكّن من إظهار الدين، وقيل: الحرب والخصومة يقال فلان حاقّ فلاناً فحقّه: أي خاصمه فغلبه، وقيل: هو البيان: أي أظهر الدين بالبيان الواضح. وأقول: الأشبه أنّه أراد: أظهر الحق بعضه ببعض. وكل جزئيّ من الحقّ حقّ، وذلك أنّ الدين لم يظهر دفعة وإنما بني الإسلام على خمس ثمّ عثرت فروعه وهو بالأصل يظهر الفرع، وظاهر كون إظهاره للحق جهة لاستحقاقه الرحمة.

السادس: كونه دافعاً لجيشات الأباطيل: أي لثوران فتن المشركين وانبعاثهم لإطفاء أنوار الله، أو لفتنتهم السابقة التي كانت معتادة من الغارات وحروب بعضهم لبعض فإن كل ذلك أُمور باطلة على غير قانون عدلي من الله، وذلك الدفع من جهات قبول الرحمة.

السابع: كونه دامغاً لصولات الأضاليل، وهو قريب من السادس، واستعار لفظ الدفع لهلاك الضلاّل بالكلية ببركة مقدمه ﷺ، ووجه الاستعارة كون الدفع مهلكاً للإنسان فأشبه ما أهلك الباطل ومحاه من أفعال الرسول ﷺ. والضلال هنا الانحراف عن طريق الله اللازم عن الجهل بها، واستعار لفظ وصف الصولات له ملاحظة لشبه المنحرفين عن سبل الله إلى الفساد في قوة انحرافهم وشدة فسادهم بالفحل الصائل.

الثامن: كونه حمل الرسالة فقام بما كلّف به وقوي عليه، وقائماً. نصب على الحال، وكذلك المنصوبات بعده وهي مستوفزاً، وغير ناكل، وكذلك محل لا واهٍ، وواعياً، وحافظاً، وماضياً. وفي قوله: كما حمّل. لطف: أي صلّ عليه صلاة مناسبة مشابهة لتحميلك له الرسالة وقيامه بأمرها لأن الجزاء من الحكيم العدل يكون مناسباً للفعل المجزى ولأجل كونها جهة استحقاق طلب ما يناسبها.

التاسع: كونه عجلاً في رضا الله بامتثال أوامره.

العاشر: كونه غير ناكل ما يتقدم فيه من طاعة الله.

الحادي عشر: كونه ماضي العزم في القيام بأمر الله غير وان فيه.

الثاني عشر: كونه واعياً لوحيه، ضابطاً، قوي النفس على قبوله.

الثالث عشر: كونه حافظاً لعهده المأخوذ عليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وقد سبق بيان معنى العهد في الخطبة الأولى.

الرابع عشر: كونه ماضياً على إنفاذ أمره في العالم وجذب الخلق إلى سلوك سبيله.

الخامس عشر: ما انتهى إليه من الغاية باجتهاده في إرضاء الله، وهو كونه أورى قبس القابس: أي اشتعل أنوار الدين وقدح زناد الأفكار حتّى أظهر أنوار العلوم منها للمقتبسين، واستعار لفظ القبس لنور العلم والحكمة، ولفظ الوري لإظهار الرسول لتلك الأنوار في طريق الله، وقد سبق وجه الاستعارة.

السادس عشر: كونه أضاء الطريق للخابط. فالطريق هي طريق الجنة والحضرة الإلهية، وإضاءته لها بإظهار تلك الأنوار وبيانها بتعليم كيفية سلوكها والإرشاد إليها، والخابط هو الجاهل الذي قصدت الحكمة الإلهية إرشاده حيث كان يخبط في ظلمات الجهل.

السابع عشر: كونه قد هديت به القلوب إلى موضحات الأعلام: أي الأدلة الواضحة على الحق. ونيّرات الأحكام هي المطالب الحقة الواضحة اللازمة من تلك الأدلة بعدما كانت القلوب فيه من خوضات الفتن والآثام اللازمة عما اجترحته من السيئات. وذلك أمر ظاهر.

الثامن عشر: كونه أمين الله: أي على وحيه ورسالته، والمأمون تأكيد لأمانته. وقد عرفت معنى الأمانة.

التاسع عشر: كونه خازن علمه المخزون: أي علومه اللدنيّة الغيبيّة التي لا يتأهل لحملها كل البشر المشار إليها بقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

العشرون: كونه شهيداً يوم الدين كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] أي شاهداً يوم القيامة على أمته بما علم منهم من خير وشر.

فإن قلت: ما حقيقة هذه الشهادة وما فائدتها مع أن الله تعالى عالم الغيب والشهادة؟

قلت: أما حقيقتها فتعود إلى اطلاعه صلى الله عليه وآله على أفعال أمته، وبيان ذلك أنك علمت فيما سلف أن للنفوس القدسية الاطلاع على الأمور الغائبة والانتقاش بها مع كونه في جلابيب في أبدانها فكيف بها إذا فارقت هذا العالم والجسم المظلم فإنها إذن تكون مطلعة على جميع أفعال أممها، ومشاهدة لها من خير أو شر.

وأما فائدتها فقد علمت أن أكثر أحكام الناس وهمية، والوهم منكر للإله على الوجه الذي هو إله فبالحري أن ينكر كونه عالماً بجزئيات أفعال عباده ودقائق خطرات أوهامهم، وظاهر أن ذلك الإنكار يستتبع عدم المبالاة بفعل القبيح، والانهماك في الأمور الباطلة التي نهى الله تعالى عنها فإذا ذكر لهم أن عليهم شهداء ورقباء وكتاباً لما يفعلون مع صدق كل ذلك بأحسن تأويل كان ذلك مما يعين العقل على كسر النفس الأمارة بالسوء، وقهر الأوهام الكاذبة، ويردع النفس عن متابعة الهوى ثمّ لا بد لكل رسول من أمناء على دينه وحفظة له هم شهداء أيضاً على من بعده إلى قيام الساعة، وإذا كان معنى الشهادة يعود إلى اطلاع الشاهد على ما في ذمّة المشهود عليه وعلمه بحقيقته وفائدتها حفظ ما في ذمّة المشهود عليه وتخوفه إن جحده أو لم يوصله إلى مستحقه أن يشهد عليه الشاهد فيفضحه وينتزع منه على أقبح وجه، وكان هذا المعنى والفائدة قائمين في شهادة الأنبياء عليهم السلام إذ بها تتحفظ أوامر الله وتكاليفه التي هي حقوقه الواجبة، ويحصل الخوف للمقصرين فيها بذكر شهادة الرسل عليهم بالتقصير فيفتضحوا في محفل القيامة ويستوفى منهم جزاء ما كلّفوا به فقصروا فيه بالعقاب الأليم لا جرم ظهر معنى كونهم شهداء الله على خلقه.

الحادي والعشرون: كونه مبعوثاً بالحق، وهو الدين الثابت الباقي نفعه وثمرته في الآخرة، ثمّ أعاد ذكر كونه رسول الله إلى خلقه. وإنما كرره لأنه الأصل في باقي الأوصاف، وظاهر أنّ كل هذه الأوصاف جهات استحقاق الحرمة والبركة وإفاضة الصلوات الإلهية على نفسه القدسية.

الفصل الثالث: في تفصيل المطلوب من هذا الدعاء وهو قوله: اللهم افسح. إلى آخر، وطلب أموراً:

أحدها: أن يفسح له مفسحاً في ظله: أي مكاناً متسعاً في حضرة قدسه وظل وجوده، ولفظ الظل مستعار للجود، ووجه المشابهة راحة المستظل بالظل من حرّ الشمس فأشبهها راحة المتلجئ إلى وجود الله المستظل به من حرارة جهنم وسعير عذابه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الثاني: أن يجزيه مضاعفات الخير من فضله: أي ضاعف له الكمالات من نعمه، وقد علمت أن مراتب استحقاق نعم الله غير متناهية.

الثالث: أن يعلي على بناء البانين بناءه، ويحتمل أن يريد ببنائه ما شيّده من الدين فيكون أعلاه المطلوب هو إتمام دينه وإظهاره بعده على الأديان كلها، ويحتمل أن يريد به ما شيّده من الملكات الخيرية واستحقه من مراتب الجنة وقصورها.

الرابع: أن يكرم لديه منزلته وهو إنزاله المنزل المبارك الموعود، وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً.

الخامس: أن يتم له نوره وهو إما النور الذي بعث به وإتمام انتشاره في قلوب العالمين، وإما النور الذي في جوهر ذاته. وتمامه زيادة كماله.

السادس: أن يجيزه عن بعثته قبول شهادته ورضا مقالته، ومقبول مفعول آخر. وذا منطق، نصب على الحال. وقبول شهادته، كناية عن تمام الرضى عنه إذ من كان مقبول الشهادة مرضيّ القول فلا بد وأن يكون بريئاً من جهات الرذائل المسخطة، أو كناية عن كون معتقداته ومشاهداته من أعمال أمته وغيرها بريئة عن كدر الأغاليط وشوائب الأوهام، وكذلك رضا أقواله في شفاعته وغيرها. وكونه ذا منطق عدل: أي لا جور فيه عن الحق، وخطة فصل: أي مميّزة للحق فاصلة له من الباطل، وكل هذه الاعتبارات وإن اختلفت مفهوماتها ترجع إلى مطلوب واحد وهو طلب زيادة كمالاته عليه السلام وقربه من الله تعالى، وقوله: اللهم اجمع. إلى آخر. سأل الله أن يجمع بينه وبين الرسول في أُمور:

أحدها: برد العيش. والعرب تقول: عيش بارد إذا كان لا كلفة فيه من حرب وخصومة. وهو في الآخرة يعود إلى ثمرات الجنة البريئة من كدر الأتعاب.

الثاني: قرار النعمة: أي مستقرها وهو الجنة وحضرة رب العالمين.

الثالث: منى الشهوات، وهو ما تتمناه النفس من المشتهيات وتهواه من اللذات بنعيم الأبد.

الرابع: رخاء الدعة ومنتهى الطمأنينة: أي اتساع سكون النفس بلذة مفارقة الحق والأنس بالملأ الأعلى وأمنها من مزعجات الدنيا وراحتها من معافاة آفاتها.

الخامس: تحف الكرامة. وهي ثمرات الجنة وقطوفها الدانية وسائر ما أعده لتحف أوليائه الأبرار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٧٣ ومن كلام له عليه السلام

قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

قالوا: أخذ مروان بن الحكم أسيراً، يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام فكلماه فيه، فخلى سبيله، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام:

أَوَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ؟ لاَ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسُبَّتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو الأَكْبُشِ الأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَى الأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ!

أقول: السبة: الإست. والإمرة بالكسر: الولاية. وكبش القوم: رئيسهم.

ولما امتنع من بيعة مروان نبّه على سبب امتناعه من ذلك وهو أنه مظنة الغدر وذلك قوله: إنها كفّ يهودية. إذ من شأن اليهود الخبث والمكر والغدر، ثمّ فسر تلك الكناية بقوله: لو بايعني بيده لغدر بسبته، وذكر السبّة إهانة له لأن الغدر من أقبح الرذائل فنسبته إلى السبّة أولى النسب. والعرب تسلك مثل ذلك من كلامها. قال المتوكل يوماً لأبي العيناء: إلى متى تمدح الناس وتذمهم. فقال: ما أحسنوا وأساؤوا، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى رضى فمدح فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وسخط فذم فقال ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] والزنيم ولد الزنا. ثمّ ذكر مما سيكون من أمر مروان ثلاثة أمور:

أحدها: أنه سيصير أميراً للمسلمين ونبه على قصر مدة إمارته بتشبيهها بلعقة الكلب أنفه، ووجه الشبه هو القصر، وكانت مدة إمرته أربعة أشهر وعشراً، وروي ستّة أشهر، وإنما خصه بلعقة الكلب لأنه في معرض الذم، والبحث في أما كهو في قوله: أما أنه سيظهر عليكم.

الثاني: أنه سيكون أباً للأكبش الأربعة. وكان له أربعة ذكور لصلبه وهم عبد الملك وولي الخلافة، وعبد العزيز وولي مصر، وبشر وولي العراق، ومحمّد وولي الجزيرة، ويحتمل أن يريد بالأربعة أولاد عبد الملك وهو الوليد وسليمان ويزيد وهشام كلّهم ولوا الخلافة ولم يلها أربعة إخوة إلاّ هم.

الثالث: ما يصدر منه ومن ذريته من الفساد في الأرض، وما يلقى الناس منهم من القتل وانتهاك الحرمة. وكنى عن قتلهم للناس وشدائد ما يلقون منهم بالموت الأحمر. ومن لسان العرب وصف الأمر الشديد بالأحمر، ولعله لكون الحمرة وصف الدم كنى به عن القتل، وروي يوماً أحمر. وهو كناية عن مدة أمرهم ووصفه بالحمرة كناية عن شدته. وفساد بني أمية ودمارهم للإسلام وأهله مشهور، وفي كتب التواريخ مسطور.

٧٤ - ومن كلام له عليه السلام

لمّا عزموا على بيعة عثمان

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذٰلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ.

أقول: الزخرف: الزينة، ويقال: الذهب. والزبرج: النقش والزينة بالحلية أيضاً.

وقوله: لقد علمتم أني أحق بها.

يشير إلى ما علموه من وجه استحقاقه للخلافة وهو استجماعه للفضائل الداخلية والخارجية، والضمير في بها للخلافة وهو إمّا أن يعود إلى ذكرها في فصل تقدم متصلاً بهذا الفصل أو لشهرتها، وكون الحديث فيها قرينة معيّنة لها كما قال قبل: لقد تقمّصها.

وقوله: والله لأسلّمنّ ما سلمت أُمور المسلمين.

أي لأتركنّ المنافسة في هذا الأمر مهما سلمت أُمور المسلمين من الفتنة. وفيه إشارة إلى أنّ غرضه عليه السلام من المنافسة في هذا الأمر هو صلاح حال المسلمين واستقامة أُمورهم وسلامتهم عن الفتن، وقد كان لهم بمن سلف من الخلفاء قبله استقامة أمر وإن كانت لا تبلغ عنده كمال استقامتها لو ولي هو هذا الأمر فلذلك أقسم ليسلمنّ ذلك الأمر ولا ينازع فيه إذ لو نازع فيه لثارت الفتنة بين المسلمين وانشقت عصا الإسلام وذلك ضدّ مطلوب الشارع، وإنما يتعيّن عليه النزاع والقتال عند خوف الفتنة وقيامها.

فإن قلت: السؤال من وجهين:

الأول: ما وجه منافسته في هذا الأمر مع أنه منصب يتعلّق بأمور الدنيا وصلاحها مع ما اشتهر منه عليه السلام من الزهد فيها والإعراض عنها وذمّها ورفضها؟

الثاني: كيف سلّم هاهنا خوف الفتنة، ولم يسلّم لمعاوية ولطلحة والزبير مع قيام الفتنة في حربهم؟

قلت: الجواب عن الأول: أن منصب رسول الله صلى الله عليه وآله ليس منصباً دنيوياً وإن كان متعلقاً بإصلاح أحوال الدنيا لكن لا لكونها دنيا، بل لأنها مضمار الآخرة ومزرعتها والغرض من إصلاحها إنما هو نظام أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم. فمنافسته عليه السلام في هذا الأمر على هذا الوجه من الأمور المندوب إليها إذا اعتقد أن غيره لا يغني غناه في القيام به فضلاً أن يقال: إنها لا تجوز.

وعن الثاني: أنّ الفرق بين الخلفاء الثلاثة وبين معاوية في إقامة حدود الله والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه ظاهر.

وقوله: ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصّة.

تظلّم ممّن عدل بها عنه، ونسبة لهم إلى الجور دون من استحقّها في أنظارهم. فأوصلها إليه من سائر الخلفاء. وخاصّة نصب على الحال.

وقوله: إليها التماساً لأجر ذلك. إلى آخره.

التماساً مفعول له والعامل لاسلمنّ: أي التمس ثواب الله وفضله بتسليمي وصبري وكذلك قوله: وزهداً. مفعول له، وفيه إيماء إلى أن مقصود غيره من طلب هذا الأمر والمنافسة فيه ليس إلاّ الدنيا وزخرفها. وبالله التوفيق.

٨٥ - ومن كلام له عليه السلام

لمّا بلغه اتّهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

أَوَ لَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي؟ أَوَ مَا وَزَعَ الْجُهَّالُ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي؟ وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي. أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ، وَعَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الأَمْثَالُ، وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ!

أقول: قرفني بكذا: أي اتّهمني به ونسبه إليّ. ووزع: كفّ. وحجيجهم: محاجّهم. والخصيم: المخاصم.

وقوله: أو لم ينه. إلى أو ما وزع.

استفهام من عدم انتهائهم عن نسبته إلى دم عثمان مع علمهم بحاله وقولته في الدين وعصمته عن دم حرام فضلاً عن مثل دم عثمان استفهاماً على سبيل الإنكار عليهم والتعجب منهم، ونسبة لهم إلى الجهل لجهلهم بناسبة حاله وسابقته في الإسلام لبراءته عما قرفوه به.

وقوله: ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني.

تعذير لنفسه في عدم ردعه لهم عن الغيبة وأمثالها: أي إذا كان وعظ الله لهم مع كونه أبلغ من كلامي لا يردعهم فكلامي بطريق الأولى وزواجر كتاب الله كقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] الآية. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] ونحوه من القرآن كثير، وأراد بلسانه وعظه مجازاً، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

وقوله: أنا حجيج المارقين.

أي الخوارج أو كل من خرج عن دين الله، وخصيم المرتابين: أي الشاكين في نسبة هذا الأمر إليّ، وقيل: المنافقين الشاكين في صحة الدين.

وقوله: وعلى كتاب الله تعرض الأمثال. إلى آخره.

إشارة إلى الحجة التي يحتجّ بها. ويخصامهم، وتقريرها: أن تعلّق هذا المنكر به إما من جهة أقواله، أو أفعاله، أو اعتقاداته وإرادته، والثلاثة باطلة فتعلّق هذا المنكر به ونسبته إليه باطلة. بيان الحصر أن هذه الجهات هي جهات صدور المنكر عن الإنسان. بيان بطلان الأول والثاني أنه إن كان قد حصل في أقواله وأفعاله ما يشبه الأمر بالقتل أو فعله فأوقع في نفوس الجهال شبهة القتل نحو ما روي منه لما سئل عن قتل عثمان: الله قتله وأنا معه، وكتخلّفه في داره يوم قتل عن الخروج. فينبغي أن يعرض ذلك على كتاب الله تعالى فإنه عليه تعرض الأمثال والأشباه فإن دلّ على كون شيء من ذلك قتلاً فليحكم به وإلاّ فلا. ولن يدلّ أبداً. فليس لهم أن يحكموا بالقتل من جهة قول أو فعل، وأما بطلان الثالث فلأن علم ما في القلوب إلى الله وهو الجازي بما فيها من خير أو شر، وليسوا مطّلعين على ما هناك حتّى يحكموا بالقتل من جهتها فإذن حكمهم بتعلق هذا المنكر به باطل. وبالله التوفيق.

٧٦ - ومن خطبة له عليه السلام

رَحِمَ اللهُ ٱمْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا. رَاقَبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ. قَدَّمَ خَالِصاً، وَعَمِلَ صَالِحاً. ٱكْتَسَبَ مَذْخُوراً، وَٱجْتَنَبَ مَحْذُوراً، وَرَمَى غَرَضاً، وَأَحْرَزَ عِوَضاً. كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ، وَلَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ. ٱغْتَنَمَ الْمَهَلَ، وَبَادَرَ ٱلأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ ٱلْعَمَلِ.

أقول: الحجزة: معقد الإزار. والمراقبة: المحافظة. والغراء: البيضاء.

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على استنزاله عليه السلام الرحمة لعبد استجمع ما ذكر من الأمور، وهي عشرون وصفاً:

الأول: يسمع الحكم فَيَعِيهِ؛ والحكم الحكمة، ودعاؤه لسامعها وواعيها يستلزم أمره بتعلّمها وتعليمها، وهي أعمّ من العلمية والعملية. ووعاها: أي فهمها كما ألقيت إليه.

الثاني: كونه إذا دعي إلى رشاد دنا من الداعي إليه وأجاب دعاءه. والرشاد يعود إلى ما يهديه ويرشده إلى طريق معاشه ومعاده من العلوم والأعمال التي وردت بها الشريعة.

الثالث: أن يأخذ بحجزة هاد فينجو به: أي يكون في سلوكه لسبيل الله مقتدياً بأستاذ مرشد عالم لتحصل به نجاته، واستعار لفظ الحجزة لأثر الأستاذ وسنّته. ووجه المشابهة كون ذهن المقتدي لازماً لسنّة شيخه في مضائق طريق الله وظلماتها لينجو به كما يلزم السالك لطريق مظلم لم يسلكه قبل بحجزة آخر قد سلك تلك الطريق وصار دليلاً فيها ليهتدي به، وينجو من التيه في ظلماتها. وبين أهل السلوك خلاف أنه هل يضطر المريد إلى الشيخ في سلوكه أم لا؟ وأكثرهم يرى وجوبه. ويفهم من كلامه عليه السلام وجوب ذلك وبمثل شهادته يتبجّح الموجبون له إذ كان لسان العارفين ومنتهى طبقاتهم. وظاهر أن طريق المريد مع الشيخ أقرب إلى الهداية، وبدونه أطول وأقرب إلى الضلال عنها. فلذلك قال عليه السلام: فنجا: أي أن النجاة معلقة به، وقد ذكرنا ما احتج به الفريقان في كتاب مصباح العارفين.

الرابع: أن يراقب ربه.

واعلم أن المراقبة إحدى ثمرات الإيمان وهي رتبة عظيمة من رتب السالكين. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اعبد الله كأنك تراه فإن لم تك تراه فإنه يراك قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] قال الإمام الغزالي: وحقيقتها أنها حالة للنفس بثمرها نوع من المعرفة، وتثمر أعمالاً في الجوارح والقلب:

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به، وأما العلم المثمر لها فهو العلم بأن الله تعالى مطّلع على الضمائر والسرائر قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلوب مكشوف له كظاهر البشرة للخلق. بل هو أشد فهذه المعرفة إذا استولت على القلب ولم يبق فيها شبهة فلا بد أن تجذبه إلى مراعاة الرقيب. والموقنون بهذه المعرفة فمنهم الصديقون ومراقبتهم التعظيم والإجلال واستغراق القلب بملاحظة ذلك الجلال والانكسار تحت الهيبة والعظمة بحيث لا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً. وهي مراقبة مقصورة على القلب.

أما الجوارح فإنها تتعطّل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعة كانت كالمستعمل لها فلا تصلح لغيرها ولا تحتاج إلى تدبير في ضبطها على سنن السداد، ومن نال هذه الرتبة فقد يغفل عن الخلق حتّى لا يبصرهم ولا يسمع أقوالهم. ومثل هذا بمن يحضر في خدمة ملك عظيم فإن بعضهم قد لا يحس بما يجري في حضرة الملك من استغراقه بهيبته، وبمن يشغله أمر مهم يفكر فيه.

وروي: أن يحيى بن زكريا عليه السلام مرّ بامرأة فدفعها على وجهها. فقيل له: لم فعلت؟ فقال: ما ظننتها إلاّ جداراً.

الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب بعض اطلاع الله تعالى على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال. بل بقيت قلوبهم على الاعتدال متسعة للتلفّت إلى الأقوال والأعمال إلاّ أنها مع مدارستها للعمل لا تخلو من المراقبة. وقد غلب الحياء من الله على قلوبهم فلا يقدمون ولا يحجمون إلاّ عن تثبت فيمتنعون عن كل أمر فاضح في القيامة إذ يرون الله تعالى مشاهداً لأعمالهم في الدنيا كما يرونه في القيامة. ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته ولحظاته وجميع اختياراته ويرصد كل خاطر يسنح له فإن كان إلهياً يعجّل مقتضاه وإن كان شيطانياً بادر إلى قمعه واستحيا من ربه ولام نفسه على اتباع هواه فيه، وإن شك فيه توقف إلى أن يظهر له بنور الله سبحانه من أي جانب هو كما قال عليه السلام: الهوى شريك العمى. ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ولا يهمل شيئاً من أعماله وخواطره وإن قلّ ليسلم من مناقشة الحساب. فقد قال الرسول صلى الله عليه وآله: الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتلة الطين بإصبعه وعن لمسه ثوب أخيه.

الخامس: أن يخاف ذنبه. واعلم أن الخوف ليس مما هو ذنب. بل من المعاقب على الذنب، لكن لما كان الذنب سبباً موجباً لسخط المعاقب وعقابه نسب الخوف إليه. وقد سبق منّا بيان حقيقتي الخوف والرجاء.

السادس: أن يقدم خالصاً بأن تكون أحواله كلها خالصة لله من قول أو عمل، وخاطره بريئة عن الالتفات إلى غيره فيها. وقد سبق معنى الإخلاص في الخطبة الأولى.

السابع: أن يعمل صالحاً. وصلاح العمل الإتيان به كما أُمر به وهو نوع مما تقدمه.

الثامن: أن يكتسب مذخوراً. وهو أمر بسائر ما أمرت الشريعة باكتسابه. ونبّه على وجوب السعي فيه بأنه يبقى ذخراً ليوم الفاقة إليه.

التاسع: أن يجتنب محذوراً. وهو أمر باجتناب ما نهت الشريعة عنه، ونبّه على وجوب اجتنابه بكونه محذوراً يستلزم العقاب في الآخرة.

العاشر: أن يرمي غرضاً: أي يحذف أعراض الدنيا عن درجة الاعتبار، وهو إشارة إلى الزهد والتخلي عن موانع الرحمة.

الحادي عشر: أن يحرز عوضاً: أي يذخر في جوهر نفسه ملكات الخير ويوجه سرّه إلى مطالعة أنوار كبرياء الله ويحرز ما يفاض عليه من الحسنات ويثبتها بتكريرها. فنعم العوض من متاع الدنيا وأعراضها الفانية.

الثاني عشر: أن يكابر هواه: أي يطوع نفسه الأمارة بالسوء بالأعمال الدينية ويراقبها في كل خاطر يلقيه إلى نفسه ويقابلها بكسره وقمعه.

الثالث عشر: أن يكذب مناه: أي يقابل ما يلفته إليه الشيطان من الأماني ويعده به بالتكذيب والقمع له بتجويز عدم نيلها. ويحسم مادّة ذلك بالمراقبة فإن الوساوس الشيطانية يتبع بعضها بعضاً، ومن إشاراته عليه السلام إلى ذلك: إيّاكم والمنى فإنها بضائع النوكى: أي الحمقى.

الرابع عشر: أن يجعل الصبر مطية نجاته. والصبر هو مقاومة النفس لئلا تنقاد إلى قبائح اللذات. ولما علمت أن الانقياد في مسلكها إلى اللذات القبيحة هو سبب الهلاك في الآخرة علمت أن مقاومتها ودفعها عنها هو سبب النجاة هناك، وقد استعار لفظ المطية للصبر، ووجه المشابهة كون لزومه سبباً للنجاة كما أن ركوب المطية والهرب عليها سبب النجاة من العدو.

الخامس عشر: أن يجعل التقوى عدة وفاته. ولما كانت التقوى قد يراد بها الزهد، وقد يراد بها الخوف من الله المستلزم للزهد كما علمت وكانت العدة هو ما استعد به الإنسان للقاء الحوادث، وكان الموت أعظم حادث يسبق إلى الإنسان من أحوال الآخرة كانت التقوى عدة الموت. إذ كان المتقي مشغول السر بعظمة الله وهيبته عن كل حالة تلحقه فلا يكون للموت عنده كثير وقع ولا عظيم كرب، وقد يراد بالتقوى مطلق الإيمان، وبالوفاة ما بعدها مجازاً، وظاهر كون الإيمان عدة واقية من عذاب الله.

السادس عشر: أن يرتكب الطريقة الغراء. وهو أن يسلك إلى الله تعالى الطريقة الواضحة المستقيمة وهي سريعة.

السابع عشر: وأن يلزم المحجة البيضاء. والفرق بين هذا الأمر والذي قبله أن الأول أمر بركوب الطريقة الغراء.

والثاني: أمر بلزومها وعدم مفارقتها وأنها وإن كانت واضحة إلاّ أنها طويلة كثيرة المخاوف وسالكها أبداً محارب للشيطان وهو في معرض أن يستزلّه عنها.

الثامن عشر: أن يغتنم المهل: أي أيام مهلته وهي حياته الدنيا واغتنامه العمل فيها قبل يوم الحساب.

التاسع عشر: أن يبادر الأجل: أي يسابقه إلى العمل قبل أن يسبقه فيقتطعه عنه.

العشرون: أن يتزود من العمل. وهو الأمر بما يتبادر إليه من اتخاذ العمل زاداً. وقد سبق وجه استعارة الزاد له. وقد راعى عليه السلام في كل مرتبتين من هذا الكلام السجع المتوازي، وجعل الصدر ثلاثاً والآخر ثلاثاً، وعطف كل قرينة على مشاركتها في الحرف الأخير منها، وحذف حرف العطف من الباقي ليتميّز ما يتناسب منها عن غيره. وكل ذلك بلاغة.

٧٧ - ومن كلام له عليه السلام

إنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيقاً، وَٱللَّهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ ٱلْوِذَامَ ٱلتَّرِبَةَ!

ويروى: «التُّرَابَ الوَذَمَةَ»: وهو على القلب.

قال الشريف: وقوله عليه السلام: «لَيُفَوِّقُونَنِي» أي يعطونني من المال قليلاً كفوق الناقة: وهو الحلبة الواحدة من لبنها. وَالوِذَامُ: جمع وذمة وهي الحزّة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض.

أقول: استعار لفظ التفويق لعطيّتهم له المال قليلاً، ووجه المشابهة هو قلة ما يعطونه منه مع كونه في دفعات كما يعطى الفصيل ضرع أمّه لتدر، ثمّ يدفع عنها لتحلب، ثمّ يعاد إليها لتدر. وتراث محمّد إشارة إلى الفيء الحاصل ببركة محمّد صلى الله عليه وآله وهو التراث اللغوي المكتسب عن الميت بوجه ما، ثمّ أقسم إن بقي لبني أمية ليحرمنّهم التقدم في الأمور، واستعار لفظ النفض لإبعادهم عن ذلك، وشبّه نفضه لهم بنفض القصّاب القطعة من الكبد، أو الكرش من التراب إذا أصابته. وهذه الرواية هي الحق.

والثانية: سهو من الناقلين. وقد ورد عنه هذا الكلام بزيادة ونقصان في رواية أخرى وذلك أن سعيد بن العاص حيث كان أمير الكوفة من قبل عثمان بعث إليه بصلة فقال: والله لا يزال غلام من عثمان بني أمية يبعث

إلينا ما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة، والله لئن بقيت لأنفضنّها نفض القصّاب الوذام التربة.

٧٨ - ومن كلمات كان يدعو بها

اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ. اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي. اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي. اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ، وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ.

أقول: الوأي: الوعد. والرمزات: جمع رمزة وهي الإشارة بالعين أو الحاجب أو الشفة. والسقط من الشيء: رديئه. والهفوة: الزلة.

وقد سأل الله سبحانه في جميع هذا الفصل المغفرة. ومغفرة الله للعبد تعود إلى ستره عليه أن يقع في مهاوي الهلكة في الآخرة أو يكشف مقابحه لأهل الدنيا فيها وكل ذلك يعود إلى توفيقه لأسباب السعادة وجذبه به عن متابعة الشيطان في المعاصي قبل صدورها منه أو قبل صيرورتها ملكات في جوهر نفسه والمطلوب غفره أُمور:

الأول: ما الله أعلم به منه مما هو عند الله معصية وسيئة في حقه وهو لا يعلمها فيفعلها، ثمّ طلب تكرار مغفرة الله لما يعاوده ويتكرر منه كذلك. وإذا تصورت معنى المغفرة تصورت كيف تكرارها.

الثاني: ما وعد نفسه أن يفعله لله ثمّ لم يوف به. وما هاهنا مصدرية. ولا شك أن مطال النفس بفعل الخير وعدم الوفاء به إنما يكون عن خاطر شيطاني يجب أن يستغفر الله له ويسأل ستره ببعث الدواعي الجاذبة عن متابعة الشيطان المحرك له.

الثالث: شوب النفس ما يتقرب به من الأعمال إلى الله بالرياء والسمعة، ومخالفة نيّة القربة إليه بقصد غيره لها. ولا شك أن ذلك شرك خفي جاذب عن الترقي في درجات العلى، ويحتاج إلى تدارك الله بالمغفرة والجذب عنه قبل تمكنه من النفس.

الرابع: الإشارة باللحظ. وهو الإيماء الخارج عن الحدود الشريفة كما يفعل عند التنبيه على شخص ليعاب أو ليضحك منه أو يظلم. وكل تلك عن خواطر شيطانية ينبغي أن يسأل الله تعالى رفع أسبابها وستر النفس عن التدنس بها.

الخامس: سقطات الألفاظ والرديء من القول. هو ما تجاوز حدود الله وخرج بها الإنسان عن مستقيم صراطه.

السادس: شهوات القلوب. فمن روى بالشين المعجمة فالمراد جذب القوة الشهوية للنفس: أي مشتهياتها، ومن روى بالسين فسهوات القلب خواطره التي لا يشعر بتفصيلها إذا خالفت أوامر الله وقد تستتبع حركة بعض الجوارح إلى فعل خارج عن حدود الله أيضاً وذلك وإن كان لا يوجب أثراً في النفس ولا يؤخذ به إلاّ أنه ربما يقوى بقوة أسبابه وكثرتها فيقطع العبد عن سلوك سبيل الله كما في حق المنهمكين في لذات الدنيا المتجردين لها فإن أحدهم ربما رام أن يصلي الفرص فيصلي الصلاة الواحدة مرتين أو مراراً ولا يستثبت عدد ركعاتها وسجداتها، وغفر مثل ذلك بجذب العبد عن الأسباب الموجبة له.

السابع: هفوات اللسان: أي الزلل الحاصل من قبله. ومادته أيضاً خاطر شيطاني، وغفره بتوفيقه لمقاومة هواه.

واعلم أن الشيعة لما أوجبوا عصمته عليه السلام عن المعاصي حملوا طلبه لمغفرة هذه الأمور على وجهين:

أحدهما: وهو الأدق أن طلبه لغفرانها إنما هو على تقدير وقوعها منه فكأنه قال: اللهم إن صدر عني شيء من هذه الأمور فاغفره لي، وقد علمت أنه لا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من جزئيها فلا يلزم من صدق كلامه صدور شيء منها حتّى يحتاج إلى المغفرة.

الثاني: أنهم حملوا ذلك على تأديب الناس وتعليمهم كيفية الاستغفار من الذنوب أو على التواضع والاعتراف بالعبودية وأن البشر في مظنة التقصير والإساءة. وأما من لم يوجب عصمته فالأمر معه ظاهر. وبالله التوفيق.

٧٩ - ومن كلام له عليه السلام

قاله لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قال له: إن سرتَ يا أمير المؤمنين في هذا الوقت، خشيتُ ألاّ تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم.

فقال عليه السلام

أَتَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الإِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ؛ وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ ٱلْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لأَنَّكَ بِزَعْمِكَ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ!!

(ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال):

أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ، وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَٱلْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَٱلسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ! وَٱلْكَافِرُ فِي النَّارِ! سِيرُوا عَلَى ٱسْمِ اللهِ.

أقول: حاق به: أحاط به. ويوليه كذا: يعطيه إيّاه ويجعله أولى به.

وروي أن المشير عليه بذلك كان عفيف بن قيس أخاً للأشعث بن قيس وكان يتعاطى علم النجوم.

واعلم أن الذي يلوح من سر نهي الحكمة النبوية عن تعلم النجوم أمران:

أحدهما: اشتغال متعلّمها بها، واعتماد كثير من الخلق السامعين لأحكامها فيما يرجون ويخافون عليه فيما يسنده إلى الكواكب والأوقات، والإشتغال بالفزع إليه وإلى ملاحظة الكواكب عن الفزع إلى الله والغفلة عن الرجوع إليه فيما يهم من الأحوال. وقد علمت أن ذلك يضاد مطلوب الشارع إذ كان غرضه ليس إلاّ دوام التفات الخلق إلى الله وتذكرهم لمعبودهم بدوام حاجتهم إليه.

الثاني: أن الأحكام النجومية إخبارات عن أمور ستكون وهي تشبه الإطلاع على الأمور الغيبية. وأكثر الخلق من العوام والنساء والصبيان لا يتميّزون بينها وبين علم الغيب والإخبار به. فكان تعلم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لضلال كثير من الخلق موهناً لاعتقاداتهم في المعجزات إذ الإخبار عن الكائنات منها، وكذلك في عظمة بارئهم. ويسلكهم في عموم صدق قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] فالمنجم إذا حكم لنفسه بأنه يصيب كذا في وقت كذا فقد ادعى أن نفسه تعلم ما تكسب غداً وبأي أرض تموت. وذلك عين التكذيب للقرآن، وكأن هذين الوجهين هما المقتضيان لتحريم الكهانة والسحر والعزائم ونحوها، وأما مطابقة لسان الشريعة للعقل في تكذيب هذه الأحكام فبيانها أن أهل النظر أما متكلّمون فإما معتزلة أو أشعرية.

أما المعتزلة فاعتمادهم في تكذيب المنجم على أحد أمرين:

أحدهما: أن الشريعة كذبته. وعندهم أن كل حكم شرعي فيشتمل على وجه عملي وإن لم يعلم عين ذلك الوجه.

والثاني: مناقشته في ضبطه لأسباب ما أخبر عنه من كون أو فساد.

أما الأشعرية فهم وإن قالوا: إنه لا مؤثر له إلاّ الله وزعم بعضهم أنهم خلصوا بذلك من إسناد التأثيرات إلى الكواكب إلاّ أنه لا مانع على مذهبهم أن يجعل الله تعالى اتصال نجم بنجم أو حركته علامة على كون كاين أو فساده وذلك مما لا يبطل على منجم قاعدة. فيرجعون أيضاً إلى بيان عدم إحاطته بأسباب كون ما أخبر عنه. ومناقشته في ذلك.

وأما الحكماء فاعلم أنه قد ثبت في أصولهم أن كل كائن فاسد في هذا العالم فلا بدّ له من أسباب أربعة:

فاعلي، ومادي، وصوري، وغائي: أما السبب الفاعلي القريب فالحركات السماوية والذي هو أسبق منها فالمحرك لها إلى أن ينتهي إلى الجود الإلهي المعطي لكل قابل ما يستحق، وأما سببه المادي فهو القابل لصورته وتنتهي القوابل إلى القابل الأول وهو مادة العناصر المشتركة بينها، وأما الصوري فصورته التي تقبلها مادته، وأما الغائي فهي التي لأجلها وجد. أما الحركات السماوية فإن من الكائنات ما يحتاج في كونه إلى دورة واحدة للفلك، ومنها ما يحتاج إلى جملة من أدواره واتصالاته. وأما القوابل للكائنات فقد تقرر عندهم أيضاً أن قبولها لكل كاين معين مشروط باستعداد معين له وذلك الاستعداد يكون بحصول صورة سابقة عليه وهكذا قبل كل صورة صورة معدة لحصول الصورة بعدها. وكل صورة منها أيضاً تستند إلى الاتصالات والحركات الفلكية، ولكل استعداد معيّن في زمان معيّن وحركة معينة واتصال معيّن يخصه لا يفي بدركها القوة البشرية.

إذا عرفت ذلك فنقول: الأحكام النجومية إما أن تكون جزئية وإما كلية. أما الجزئية فأن يحكم مثلاً بأن هذا الإنسان يكون من حالة كذا وكذا، وظاهر أن مثل هذا الحكم لا سبيل إلى معرفته إذ العلم به إنما هو من جهة أسبابه. أما الفاعلية فأن يعلم أن الدورة المعينة والاتصال المعين سبب لملك هذا الرجل البلد المعين مثلاً وأنه لا سبب فاعلي لذلك إلاّ هو.

والأول: باطل لجواز أن يكون السبب غير ذلك الاتصال أو هو مع غيره. أقصى ما في الباب أن يقال: إنما كانت هذه الدورة وهذا الاتصال سبباً لهذا الكائن لأنها كانت سبباً لمثله في الوقت الفلاني لكن هذا أيضاً باطل لأن كونها سبباً للكائن السابق لا يجب أن يكون لكونها مطلق دورة واتصال. بل لعله أن يكون لخصوصية كونه تلك المعينة التي لا تعود بعينها فيما بعد، وحينئذ لا يمكن الاستدلال بحصولها على كون هذا الكائن لأن المؤثرات المختلفة لا يجب تشابه آثارها.

والثاني: أيضاً باطل لأن العقل يجزم بأنه لا اطلاع له على أنه لا يقتضي لذلك الكائن من الأسباب الفاعلة إلاّ الاتصال المعيّن. كيف وقد ثبت أن من الكائنات ما يفتقر إلى أكثر من اتصال واحد ودورة واحدة أو أقل، وأما القابلية فأن يعلم أن المادة قد استعدت لقبول مثل هذا الكائن واستجمعت جميع شرائط قبوله الزمانية والمكانية والسماوية والأرضية. وظاهر أن الإحاطة بذلك ما لا تفي به القوة البشرية، وأما الصورة والغائية فأن يعلم ما يقتضيه استعداد مادة ذلك المعين وقبولها من الصورة وما يستلزمه من الشكل والمقدار، وأن يعلم ما غاية وجوده وما أعدته العناية له، وظاهر أن الإحاطة بذلك غير ممكنة للإنسان.

وأما أحكامهم الكلية فكأن يقال كلما حصلت الدورة الفلانية كان كذا. والمنجم إنما يحكم بذلك الحكم من جزئيات من الدورات تشابهت آثارها فظنها متكررة ولذلك يعدلون إذا حقق القول عليهم إلى دعوى التجربة، وقد علمت أن التجربة تعود إلى تكرر مشاهدات يضبطها الحسّ. والعقل يحصل منها حكماً كلياً كحكمه بأن كل نار محرقة فإنها لما أمكن العقل استثبات الإحراق بواسطة الحس أمكنه الجزم الكلي بذلك.

فأما التشكلات الفلكية والاتصالات الكوكبية المقتضية لكون ما يكون فليس شيء منها يعود بعينه كما علمت وإن جاز أن يكون تشكلات وعودات متقاربة الأحوال ومتشابهة إلاّ أنه لا يمكن للإنسان ضبطها ولا الاطلاع على مقدار ما بينها من المشابهة والتفاوت، وذلك أن حساب المنجم مبني على قسمة الزمان بالشهور والأيام والساعات والدرج والدقائق وأجزائها، وتقسيم الحركة بإزائها ورفعهم بينها نسبة عددية وكل هذه أمور غير حقيقية وإنما تؤخذ على سبيل التقريب. أقصى ما في الباب أن التفاوت فيها لا يظهر في المدد المتقاربة لكنه يشبه أن يظهر في المدد المتباعدة، ومع ظهور التفاوت في الأسباب كيف يمكن دعوى التجربة وحصول العلم الكلي الثابت الذي لا يتغيّر باستمرار أثرها على وتيرة واحدة.

ثمّ لو سلّمنا أنه لا يظهر تفاوت أصلاً إلاّ أن العلم

يعود مثل الدورة لا يقتضي بمجرده العلم بعود، مثل الأثر السابق لتوقف العلم بذلك على عود أمثال الباقية للأثر السابق من الاستعداد وسائر أسبابه العلوية والسفليّة، وعلى ضبطها فإن العلم التجربي إنما يحصل بعد حصرها ليعلم عودها وتكررها، وكل ذلك مما لا سبيل للقوة البشرية إلى ضبطه فكيف يمكن دعوى التجربة. إذا عرفت ذلك فنقول:

قوله: أتزعم إلى قوله: الضر.

استثبات لما في العادة أن يدعيه الأحكاميون كما ادّعاه المنجم المشير بعدم المسير في ذلك الوقت.

وقوله: فمن صدقك [صدق خ] بهذا إلى قوله: الضرر.

إلزامات له على ما يعتقده عن نفرتها عن قبول أحكام المنجم والاعتقاد فيه.

أولها: أن من صدقه فقد كذب القرآن، ووجه التكذيب ما ذكرناه.

الثاني: كون مصدقه يستغني عن الاستعانة بالله في نيل محبوبه ورفع مكروهه: أي يفزع إليه في كل أمر يهم به ويجعله عمدة له فيعرض عن الفزع إلى الله كما سبق.

الثالث: أنه ينبغي للعامل أن يوليه الحمد دون ربه. وعلل هذا الإلزام بقياس ضمير من الشكل الأول. صورته: تزعم أنك تهدي إلى ساعة النفع والضرر، وكل من زعم ذلك فقد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدقه دون الله. فينتج أنه قد أهّل نفسه لاستحقاق الحمد من مصدقه دون الله. والكبرى من المخيّلات، وقد يستعملها الخطيب للتنفير عن بعض الأمور التي يقصد النهي عنها.

وقوله: أيها الناس. إلى قوله: برّ أو بحر.

تحذير عن تعلّمها لما ذكرناه، واستثنى من ذلك تعلّمها للاهتداء بها في السفر.

واعلم أن الذي ذكرناه ليس إلاّ بيان أن الأصول التي ينبئ عليها الأحكاميون وما يخبرون به في المستقبل أصول غير موثوق بها فلا يجوز الاعتماد عليها في تلك الأحكام والجزم بها. وهذا لا ينافي كون تلك القواعد ممهدة بالتقريب كقسمة الزمان وحركة الفلك بالسنة والشهر واليوم مأخوذاً عنها حساب يبنى عليه مصالح دينية كمعرفة أوقات العبادات كالصوم والحج ونحوهما أو دنيوية كآجال المداينات وسائر المعاملات وكمعرفة الفصول الأربعة ليعمل في كل منها ما يليق به من الحراثة والسفر وأسباب المعاش، وكذلك معرفة قوانين تقريبيّة من أوضاع الكواكب وحركاتها يهتدي بقصدها وعلى سمتها المسافرون في برّ أو بحر. فإن ذلك القدر منها غير محرم، بل لعله من الأمور المستحبة لخلو المصالح المذكورة فيه عن وجوه المفاسد التي تشتمل عليها الأحكام كما سبق. ولذلك امتن الله سبحانه على عباده بخلق الكواكب في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقوله: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقوله: فإنها. إلى آخره.

تعليل للتحذير عن تعلمها وتنفير عنها بقياس آخر موصول يستنتج منه أن المنجم في النار. وعلى تقدير تفصيله فالنتيجة الأولى كون المنجّم كالساحر، وهي مع قوله: والساحر كالكافر. وهذه النتيجة مع قوله: والكافر في النار ينتج المطلوب، وهو أن المنجم في النار، والقياسان الأوّلان من قياس المساواة. وقد علمت أنه عسر الانحلال إلى الحدود المرتبة في القياس المنتج لأن موضوع الكبرى جزء من محمول الصغرى فليس الأوسط بمشترك فهو معدول عن وجهه إلى وقوع الشركة في بعض الأوسط. ولذلك يستحق أن يفرد باسم ويجعل لتحليله قانوناً يرجع إليه في أمثاله. وقد سبق مثله في الخطبة الأولى. وإذا حمل على القياس الصحيح كان تقديره المنجم يشبه الكاهن المشبه للساحر ومشبه الكاهن المشبه للساحر مشبه للساحر فينتج أن المنجم يشبه الساحر.

وهكذا في القياس الثاني المنجم يشبه الساحر المشبه للكافر ومشبه الساحر المشبه للكافر يشبه الكافر فالمنجم يشبه الكافر والكافر في النار فالمنجم كذلك وهو القياس الثالث ونتيجته. فأما بيان معنى الكاهن والساحر والإشارة إلى وجوه التشبيهات المذكورة:

فاعلم أنّا قد أشرنا في المقدمة إلى مكان وجود نفس تقوى على اطلاع ما سيكون وعلى التصرفات العجيبة في هذا العالم فتلك النفس إن كانت كاملة خيّرة مجذوبة من الله تعالى بدواعي السلوك إلى سبيله وما يقود إليه فهي نفوس الأنبياء والأولياء ذوي المعجزات والكرامات، وإن كانت ناقصة شريرة منجذبة عن تلك الجهة وغير طالبة لتلك المرتبة. بل مقتصرة على رذائل الأخلاق وخسائس الأمور كالتكهّن ونحوه فهي نفوس الكهنة والسحرة.

واعلم أن أكثر ما تظهر قوة الكهانة ونحوها من قوى النفس في أوقات الأنبياء وقبل ظهورهم. وذلك أن الفلك إذا أخذ في التشكل بشكل يتم به في العالم حدث عظيم عرض من ابتداء ذلك الشكل وغايته أحداث في الأرض شبيهة بما يريد أن يتم ولكنها تكون غير تامة فإذا استكمل ذلك الشكل في الفلك: وثم وجد به في العالم ما يقتضيه في أسرع زمان لسرعة تبدل أشكال الفلك فتظهر تلك القوة التي يوجبها ذلك الشكل في شخص واحد أو شخصين أو أكثر على حسب ما تقتضيه العناية الإلهية ويستوعب ذلك الشخص تلك القوة على الكمال.

فأما من قرب من ذلك الشكل ولم يستوفه فإنه يكون ناقص القوة بحسب بعده من الشكل. ويظهر ذلك النقصان بظهور النبوة المقصودة من ذلك الشكل، فتبيّن قصور القوى المتقدمة على النبي والمتأخرة عنه ونقصانهما عن ذلك التمام.

فأما صفة الكاهن من أصحاب تلك القوى فإنّ صاحب قوة الكهانة إذا أحس بها من نفسه تحرك إليها بالإرادة ليكملها فيبرزها في أمور حسية ويثيرها في علامات تجري مجرى الفال والزجر وطرق الحصى، وربما استعان بالكلام الذي فيه سجع وموازنة أو بحركة عنيفة من عدو حثيث كما حكي عن كاهن من الترك، وكما نقل إليّ من شاهد كاهناً كان في زماننا وتوفي منذ عشرين سنة يكنى بأبي عمر وكان بناحية من ساحل البحر يقال لها قلهات، وإنه كان إذا سئل عن أمر استعان بتحريك رأسه تحريكاً يقوى ويضعف بحسب الحاجة وأجاب عقيب ذلك، وقيل إنه كان قد يستغني في بعض الإخبارات عن تلك الحركة. والغرض من ذلك اشتغال النفس عن المحسوسات فتداخل نفسه ويقوى فيها ذلك الأثر ويهجس في نفسه عن تلك الحركة ما تقذفه على لسانه، وربما صدق الكاهن، وربما كذب.

وذلك أنه يتمّم نقصه بأمر مباين لكمال غير داخل فيه فيعرض له الكذب ويكون غير موثوق به، وربما تعمد الكذب خوفاً من كساد بضاعته فيستعمل الزرق ويخبر بما لا أثر له في نفسه ويضطر إلى التخمين. ودرجات هؤلاء متفاوتة بحسب قربهم من الأفق الإنساني وبعدهم منه وبقدر قبولهم للأثر العلوي. ويتميّزون عن الأنبياء بالكذب وما يدّعونه من المحالات فإن اتفق أن يلزم أحدهم الصدق فإنه لا يتجاوز قدره في قوته ويبادر إلى التصديق بأول أمر يلوح من النبي صلى الله عليه وآله ويعرف فضله كما روي عن طلحة وسواد ابن قارب ونحوهما من الكهنة في زمان الرسول صلى الله عليه وآله.

إذا عرفت ذلك فنقول: أما قوله: فإنها تدعو إلى الكهانة.

أي أنها تدعو المنجّم في آخر أمره إلى أن يصيّر نفسه كالكاهن في دعوى الإخبار عما سيكون، ثمّ أكد كونها داعية إلى التمكين بتشبيهه بالكاهن.

وأعلم أن الكاهن يتميّز عن المنجم بكون ما يخبر به من الأمور الكائنة إنما هو عن قوة نفسانية له، وظاهر أن ذلك أدعى إلى فساد أذهان الخلق وإغوائهم لزيادة اعتقادهم فيه على المنجم، وأما الساحر فيتميّز عن الكاهن بأن له قوة على التأثير في أمر خارج عن بدنه آثاراً خارجة عن الشريعة مؤذية للخلق كالتفريق بين الزوجين ونحوه وتلك زيادة شرّ آخر على الكاهن أدعى إلى فساد أذهان الناس وزيادة اعتقادهم فيه وانفعالهم عنه خوفاً ورغبةً، وأما الكافر فيتميّز عن الساحر بالبعد الأكبر عن الله تعالى وعن دينه وإن شاركه في أصل الانحراف عن سبيل الله. وحينئذ صار الضلال والفساد في الأرض مشتركاً بين الأربعة إلاّ أنه مقول عليهم بالأشد والأضعف فالكاهن أقوى في ذلك من المنجم، والساحر أقوى من الكاهن، والكافر أقوى من الساحر،

ولذلك التفاوت جعل عليه السلام الكاهن أصلاً في التشبيه للمنجم لزيادة فساده عليه ثمّ ألحقه به، وجعل الساحر أصلاً للكاهن، والكافر أصلاً للساحر. لأن التشبيه يستدعي كون المشبه به أقوى في الوصف الذي فيه التشبيه وأحق به.

وقد لاح من ذلك أن وجه الشبه في الكل هو ما يشتركون فيه من العدول والانحراف عن طريق الله بالتنجيم والكهانة والسحر والكفر وما يلزم من ذلك من صدّ كثير من الخلق عن سبيل الله وإن اختلفت جهات هذا العدول بالشدة والضعف كما بيّناه.

ولما فرغ عليه السلام من تنفير أصحابه عن تعلّم النجوم وقبول أحكامها وغسل أذهانهم من ذلك بالتخويف المذكور أمرهم بالمسير إلى الحرب. وروي: أنه سار في تلك الساعة إلى الخوارج، وكان منه ما علمت من الظفر بهم وقتلهم حتّى لم يفلت منهم غير تسعة أنفار، ولم يهلك من رجاله غير ثمانية أنفار كما سبق بيانه، وذلك يستلزم خطأ ذلك المنجم وتكذيبه في مقاله. وبالله التوفيق.

٨٠ - ومن خطبة له عليه السلام

بعد حرب الجمل في ذم النساء

مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ. فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ.

أقول: لما كانت واقعة الجمل وما اشتملت عليه من هلاك جمع عظيم من المسلمين منسوباً إلى رأي امرأة أراد أن ينبّه على وجوه نقصان النساء وأسبابه فذكر نقصانهنّ من وجوه ثلاثة:

أحدها: كونهنّ نواقص الإيمان، وأشار إلى جهة النقص فيه بقعود إحديهنّ عن الصلاة والصوم أيام الحيض، ولما كان الصوم والصلاة من كمال الإيمان ومتممات الرياضة كان قعودهن عن الإرتياض بالصوم والصلاة في تلك الأيام نقصاناً لإيمانهن، وإنما رفعت الشريعة التكليف عنهنّ بالعبادتين المذكورتين لكونهنّ في حال مستقذرة لا يتأهّل صاحبها للوقوف بين يدي الملك الجبّار، ويعقل للصوم وجه آخر وهو أنه يزيد الحائض إلى ضعفها ضعفاً بخروج الدم. وأسرار الشريعة أدق وأجل أن يطلع عليها عقول سائر الخلق.

الثاني: كونهنّ نواقص حظ، وأشار إلى جهة نقصانه بأن ميراثهنّ على النصف من ميراث الرجال كما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[النساء: ١١] والذي يلوح من سر ذلك كثرة المؤونة على الرجل وهو أهل التصرف وكون المرأة من شأنها أن تكون مكفولة محتاجة إلى قيّم هو لها كالخادم.

الثالث: كونهنّ نواقص عقول. ولذلك سبب من داخل وهو نقصان استعداد أمزجتهنّ، وقصورهنّ عن قبول تصرف العقل كما يقبله مزاج الرجل كما نبّه تعالى عليه بقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢] فإنه نبّه على ضعف الذاكرة فيهنّ، ولذلك جعل شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، وله أيضاً سبب عارض من خارج وهو قلة معاشرتهنّ لأهل العقل والتصرفات وقلّة رياضتهنّ لقواهنّ الحيوانية بلزوم القوانين العقلية في تدبير أمر المعاش والمعاد، ولذلك كانت أحكام القوى الحيوانية فيهنّ أغلب على أحكام عقولهنّ فكانت المرأة أرق وأبكى وأحسد وألجّ وأبغى وأجزع وأوقح وأكذب وأمكر وأقبل للمكر وأذكر لمحقرات الأمور ولكونها بهذه الصفة اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون عليها حاكم ومدبّر تعيش بتدبيره وهو الرجل فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ

أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، ولشدة قبولها للمكر وقلة طاعتها للعقل مع كونها مشتركة وداعية إلى نفسها اقتضت أيضاً أن يسنّ في حقها التستر والتحذّر.

وقوله: فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذر.

لما نبه على جهة نقصانهنّ، وقد علمت أن النقصان يستلزم الشر لا جرم نفر عنهنّ فأمر أولاً بالخشية من شرارهنّ، وهو يستلزم الأمر بالهرب منهنّ وعدم مقاربتهنّ فأما خيارهنّ فإنه أمر بالكون منهنّ على حذر. ويفهم من ذلك أنه لا بد من مقاربتهن، وكان الإنسان إنما يختار مقاربة الخيرة منهنّ فينبغي أن يكون معها على تحرّز وتثبت في سياستها وسياسة نفسه معها إذ لم تكن الخيرة منهنّ خيرة إلاّ بالقياس إلى الشريرة ثمّ نهى عن طاعتهنّ بالمعروف كيلا يطمعن في المنكر، وأشار به إلى طاعتهنّ فيما يشرن به ويأمرن مطلقاً وإن كان معروفاً صواباً، وفيما يطلبنه من زيادة المعروف والإحسان إليهنّ وإكرامهنّ بالزينة ونحوها، فإنّ طاعة أمرائهنّ فيما يشيرون من معروف تدعوهنّ إلى الشور بما لا ينبغي، والتسلّط على الأمر به فإن فعل فليفعل لأنه معروف لا لأنه مقتضى رأيهنّ. وزيادة إكرامهنّ من مقويات دواعي الشهوة والشر فيهنّ حتّى ينتهي بهنّ الطمع إلى الاقتراح وطلب الخروج إلى المواضع التي يرى فيها زينتهنّ ونحو ذلك إذ العقل مغلوب فيهنّ بدواعي الشهوات. وفي المثل المشهور: لا تعط عبدك كراعاً فيأخذ ذراعاً.

وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يخطب يوم عيد فالتفت إلى صفوف النساء فقال: معاشر النساء تصدّقن فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار عدداً. فقالت واحدة منهنّ: ولم يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: لأنكنّ تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وتمكث إحداكن شطر عمرها لا تصوم ولا تصلي.

٨١ - ومن كلام له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ قِصَرُ الأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذٰلِكَ عَنْكُمْ فَلاَ يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَلاَ تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ.

أقول: عزب: ذهب وبعد. وأعذر: أظهر عذره. ومسفرة: مشرقة.

واعلم أن قوله: أيها الناس. إلى قوله: عند المحارم. تفسير للزهد، وقد رسمه بثلاثة لوازم له:

الأول: قصور الأمل. ولما علمت فيما سلف أن الزهد هو إعراض النفس عن متاع الدنيا وطيباتها وقطع الالتفات إلى ما سوى الله تعالى ظهر أن ذلك الإعراض مستلزم لقصر الأمل في الدنيا إذ كان الآمل إنما يتوجه نحو مأمول، والمتلفت إلى الله من الدنيا كيف يتصور طول أمله لشيء منها.

الثاني: الشكر على النعمة. وذلك أن العبد بقدر التفاته عن أعراض الدنيا تكون محبته لله وإقباله عليه واعترافه الحق بآلائه، وذلك أن الشكر حال للقلب يثمرها العلم بالمشكور وهو في حق الله أن يعلم أنه لا منعم سواه، وأن كل منعم يقال في العرف فهو واسطة مسخرة من نعمته. وتلك الحال تثمر العمل بالجوارح.

الثالث: الورع وهو لزوم الأعمال الجميلة والوقوف على حدود عن التورط في محارمه وهو ملكة تحت العفة، وقد علمت أن الوقوف على التورط في المحارم ولزوم الأعمال الجميلة لازمة للالتفات عن محاب الدنيا ولذاتها المنهي عن الميل إليها. وهذا التفسير منه عليه السلام مستلزم للأمر به.

وقوله: بعد ذلك: فإن عزب عنكم. إلى آخره يحتمل معنيين:

أحدهما: وهو الظاهر أنه إن بعد عليكم وشق استجماع هذه الأمور الثلاثة فالزموا منها الورع والشكر. وكأنه رخص لهم في طول الأمل، وذلك أنه قد يتصور طوله فيما ينبغي من عمارة الأرض لغرض الآخرة، ولأن قصر الأمل لا يصدر إلاّ عن غلبة الخوف من الله تعالى على القلب والإعراض بالكلية عن الدنيا

وذلك في غاية الصعوبة. فلذلك نبه على لزوم الشكر والورع ورخص في طول الأمل، وفسر الورع بالصبر إذ كان لازماً للورع، وهما تحت ملكة العفة، ثمّ شجعهم بذكر الغلب عن مقاومة الهوى، ونبّههم بذكر النسيان على لزوم التذكير.

الثاني: يحتمل أن يكون لما فسّر الزهد باللوازم الثلاثة في معرض الأمر بلزومها قال بعدها: فإن صعب عليكم لزوم الشكر والثناء لله ولزوم الأعمال الجميلة فاعدلوا إلى أمور أسهل منها. فرخص لهم في طول الأمل لما ذكرناه، ثمّ في التذكر لنعم الله بحيث لا ينسى بالكلية ويلتفت عنها عوضاً عن دوام الحمد والثناء، ثمّ في الصبر عند المحارم وعند الانقهار لغلبة دواعي الشيطان عوضاً من لزوم الأعمال الجميلة عندها فإن الصبر عند شرب الخمر مثلاً عند حضورها أهون على الطبع من الصوم عن سائر المباحات حينئذ ولزوم سائر الأعمال الجميلة.

وقوله: فقد أعذر. إلى آخره.

تأكيد لما سبق من أمره بالزهد، وجذب إليه. وأشار بالحجج إلى الرسل لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولفظ الحجج مستعار، ووجه المشابهة أنه لما كان ظهور الرسل قاطعاً ألسنة حال الظالمين لأنفسهم في محفل القيامة عن أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] أشبه الحجة القاطعة فاستعير لفظها له، وبإسفارها وظهورها إلى إشراق أنوار الدين عن نفوسهم الكاملة على نفوس الناقصين وهو استعارة أيضاً، وأشار ببروز عذر الكتب إلى ظهورها أعذاراً لله إلى خلقه بتخويفهم وترغيبهم وإرشادهم إلى طريق النجاة، وإسناد الأعذار إلى الله تعالى استعارة من الأقوال المخصوصة التي يبديها الإنسان عذراً لأفعال الله وأقواله التي عرّف خلقه فيها صلاحهم وأشعرهم فيها بلزوم العقاب لهم لو لم يلتفتوا إليها. وبالله التوفيق.

٨٢ - ومن كلام له عليه السلام

في صفة الدنيا

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

قال الشريف: أقول: وإذا تأمّل المتأمل قوله: «مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ»، وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته، ولا يدرك غوره، ولا سيما إذا قرن إليه قوله: «وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ». فإنّه يجد الفرق، بين «أبصر بها» و«أبصر إليها»، واضحاً نيراً، وعجيباً باهراً.

أقول: العناء: التعب؛ وقد ذكر للدنيا في معرض ذمها والتنفير عنها أوصافاً عشرة:

الأول: كون أولها عناء. وهو إشارة إلى أن الإنسان من لدن ولادته في تعب وشقاء، ويكفي في الإشارة إلى متاعب الإنسان فيها ما ذكره الحكيم برزويه في صدر كتاب كليلة ودمنة في معرض تطويع نفسه بالصبر على عيش النساك: أو ليست الدنيا كلها أذى وبلاء؟ أو ليس الإنسان يتقلّب في ذلك من حين يكون جنيناً إلى أن يستوفي أيامه؟ فإنّا قد وجدنا في كتب الطب أن الماء الذي يقدر منه الولد السوي إذا وقع في رحم المرأة اختلط بمائها ودمها وغلظ ثمّ الريح تمحص ذلك الماء والدم حتّى تتركه كالرائب الغليظ ثمّ تقسمه في أعضائه لآناء أيامه فإن كان ذكراً فوجهه قبل ظهر أمّه، وإن كان أنثى فوجهها قبل بطن أمّها، وذقنه على ركبتيه ويداه على جنبيه مقبض في المشيمة كأنه مصرور، ويتنفس من متنفس شاق، وليس منه عضو إلاّ كأنه مقموط، فوقه حرّ البطن وتحته ما تحته، وهو منوط بمعاء من سرّته إلى سرّة أمه منها يمص ويعيش من طعام أمّه وشرابها فهو بهذه الحالة في الغم والظلمات والضيق حتّى إذا كان يوم ولادته سلّط الله الريح على بطن أمه، وقوى عليه

التحريك فتصوب رأسه قبل المخرج فيجد من ضيق المخرج وعصره ما يجده صاحب الرهق [الرمق خ] فإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو مسته يد وجد من ذلك من الألم ما لم يجده من سلخ جلده ثمّ هو في ألوان من العذاب إن جاع فليس له استطعام، وإن عطش فليس له استقاء، أو وجع فليس له استغاثة مع ما يلقى من الرفع والوضع واللفّ والحل والدّهن والمرخ، إذا أُنيم على ظهره لم يستطع تقلباً. فلا يزال في أصناف هذا العذاب ما دام رضيعاً. فإذا أفلت من ذلك أُخذ بعذاب الأدب فأُذيق منه ألواناً، وفي الحمية والأدواء والأوجاع والأسقام. فإذا أدرك فهم المال والأهل والولد والشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي. وكل هذا يتقلّب معه فيها أعداؤه الأربعة: المرة والبلغم والدم والريح، والسمّ المميت والحيات اللادغة مع خوف السباع والناس وخوف البرد والحر ثمّ ألوان عذاب الهرم لمن بلغه.

الثاني: كون آخرها فناء. هو تنفير عنها بذكر غايتها وهو الموت وما يستصحبه من فراق الأهل والأحبة، والإشراف على أهوانه العظيمة المعضلة.

الثالث: كونها في حلالها حساب. وهو إشارة إلى ما يظهر في صحيفة الإنسان يوم القيامة من الآثار المكتوبة عليه بما خاض فيه من مباحات الدنيا، وتوسع فيه من المآكل والمشارب والمناكح والمراكب، وما يظهر في لوح نفسه من محبة ذلك فيعوقه عن اللحوق بالمجردين عنها الذين لم يتصرفوا فيها تصرف الملاك فلم يكتب عليه في شيء منها ما يحاسبون عليه. وإليه إشارة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: إن الفقراء ليدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، وإن فقراء أمتي ليدخلون الجنة سعياً، وعباد الرحمن يدخلها حبواً. وما ذاك إلاّ لكثرة حساب الأغنياء بتعويقهم بثقل ما حملوا من محبة الدنيا وقيناتها عن اللحوق بدرجة المخفّين منها. وقد عرفت كيفية الحساب.

الرابع: كونها في حرامها عقاب. وهو تنفير عما يوجب العقاب من الآثام بذكره.

الخامس: كونها من استغنى فيها فتن: أي كانت محبته لما اقتنى فيها سبباً لفتنته وضلاله عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

السادس: كونها من افتقر فيها حزن. وظاهر أن الفقير الطالب للدنيا غير الواجد لها في غاية المحنة والحزن على ما يفوته منها، وخاصة ما يفوته بعد حصوله له.

السابع: من ساعاها فاتته. وأقوى أسباب هذا الفوات أن تحصيلها أكثر ما يكون بمنازعة أهلها عليها ومجاذبتهم إيّاها، وقد علمت ثوران الشهوة والغضب والحرص عند المجاذبة للشيء وقوة منع الإنسان له. وتجاذب الخلق للشيء وعزته عندهم سبب لتفويت بعضهم له على بعض وفيه تنبيه على وجوب ترك الحرص عليها والإعراض عنها. إذ كان فواتها اللازم عن شدة السعي في فضلها مكروهاً للسامعين.

الثامن: كونها من قعد عنها وأتته. وهو أيضاً جذب إلى القعود عنها وتركها وإن كان الغرض مواتاتها كما يفعله أهل الزهد الظاهري المشوب بالرياء، وقد علمت أن الزهد الظاهري مطلوب أيضاً للشارع إذ كان وسيلة إلى الزهد الحقيقي كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: الرياء قنطرة الإخلاص. وقد راعى في القرائن السجع المتوازي.

التاسع: من أبصر بها بصرته: أي من جعلها سبب هدايته وبصره استفاد منها البصر والهداية، وذلك أنك علمت أن مقصود الحكمة الإلهية من خلق هذا البدن وما فيه من الآلات والمنافع إنما هو استكمال نفسه باستخلاص العلوم الكلية وفضائل الأخلاق من تصفح جزئيات الدنيا ومقايسات بعضها إلى بعض كالاستدلال بحوادثها وعجائب مخلوقات الله فيها على وجوده وحكمته وجوده، وتحصيل الهداية بها إلى أسرار ملكه فكانت سبباً مادياً لذلك فلأجله صدق أنها تبصر من أبصر بها.

العاشر: ومن أبصر إليها أعمته: أي من مدّ إليها بصر بصيرته، وتطلع إليها بعين قلبه محبة وعشقاً أعمت عين بصيرته عن إدراك أنوار الله والاهتداء لكيفية سلوك سبيله. وإليه الإشارة بالنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ

عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] وقد ظهر الفرق بين قوله: من أبصر بها، ومن أبصر إليها، ومدح السيد لهذا الفصل مدح في موضعه.

٨٣ - ومن خطبة له عليه السلام

وهي من الخطب العجيبة. وتسمى: الغراء

اعلم أن في هذه الخطبة فصولاً:

الفصل الأول قوله:

اَلْحَمْدُ للّٰهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ. أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً، وَأَسْتَعِينُهُ قَادِراً قَاهِراً، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً - صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ لإِنْفَاذِ أَمْرِهِ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ.

أقول: الحول: القوة. الطول: الفضل. والمنحة: العطية. والأزل: الشدة. والنذر: النذارة.

وقد أثنى على الله تعالى في هذا الفصل باعتبارات أربعة من نعوت جلاله:

الأول: كونه علياً، وإذ ليس المراد به العلو المكاني لتقدسه تعالى عن الجسمية كما سبق، فالمراد العلو المعقول له باعتبار كونه مبدأ كل موجود ومرجعه فهو العلي المطلق الذي لا أعلى منه في وجود وكمال رتبة وشرف كما سبق بيانه، ولما عرفت أن معنى الدنو إلى كل موجود صدر عن قدرته وقوته لا جرم جعل للحوقه له مبدأ هو حوله.

الثاني: كونه دانياً بطوله. ولما عرفت أن معنى الدنو والقرب في حقه تعالى ليس مكانياً أيضاً كان اعتباراً تحدثه عقولنا له من قرب إفاضة نعمة على قوابلها وقربه من أبصار البصائر في صورة نعمة نعمة منها ولذلك جعل طوله مبدأ لدنوه.

الثالث: كونه مانح كل غنيمة وفضل.

الرابع: كونه كاشف كل عظيمة وأزل. هما إشارة إلى كل نعمة صدرت عنه على قابلها فمبدؤها جوده ورحمته سواء كانت وجودية كالصحة والمال والعقل وغيرها أو عدمية كدفع البأساء والضراء، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤] الآية. وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وقوله: أحمده. إلى قوله: نعمه.

تنبيه للسامعين على مبدأ استحقاقه لاعتبار الحمد، وهو كرمه. قال بعض الفضلاء: الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفا، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولم يبال كم أعطى ولا لمن أعطى، وإن رفع إلى غيره حاجة لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ ويغنيه عن الوسائل والشفعاء. فمن اجتمعت له هذه الاعتبارات حقيقة من غير تكلّف فهو الكريم المطلق. وليس ذلك إلاّ الله تعالى. قلت: والأجمع الأمنع في رسم هذا الاعتبار يعود إلى فيضان الخير عنه من غير بخل ومنع وتعويق على كل من يقدر أن يقبله بقدر ما يقبله. وعواطف كرمه هي نعمه وآثاره الخيرية التي تعود على عباده مرة بعد أُخرى، وسوابغ نعمه السابغة التي لا قصور فيها عن قبول قابلها.

وقوله: وأومن به أولاً بادياً.

نصب أوّلاً بادياً على الحال، وأشار بهذين الوصفين إلى الجهة التي هي مبدأ الإيمان إذ كان منه باعتبار كونه أولاً هو مبدأ لجميع الموجودات، وكونه بادياً هو كونه ظاهراً في العقل في جميع آثاره. فباعتبار ظهوره مع كونه مبدأً لكل موجود وأولاً له يجب الإيمان به والتصديق بإلهيّته.

وقوله: وأستهديه قريباً هادياً.

فاستهداؤه طلب الهداية منه، وقربه هو دنوه بجوده من قابل فضله، وهدايته هبته الشعور لكل ذي إدراك بما

هو أليق به ليطلبه دون ما ليس أليق به. وظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدأ لطلب الهداية منه.

وقوله: وأستعينه قاهراً قادراً.

استعانته طلب المؤونة منه على ما ينبغي من طاعته وسلوك سبيله، والقاهر هو الذي لا يجري في ملكه بخلاف حكمه نفس؛ بل كل موجود مسخّر تحت حكمه وقدرته وحقير في قبضته، والقادر هو الذي إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل وإن لم يلزم أنه لا يشاء فلا يفعل كما سبق بيانه. وظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدأ للاستعانة.

وقوله: وأتوكل عليه كافياً ناصراً.

التوكل كما علمت يعود إلى اعتماد الإنسان فيما يرجو أو يخاف على غيره، والكافي اعتبار كونه معطياً لكل قابل من خلقه ما يكفي استحقاقه من منفعة ودفع مضرة، والناصر هو اعتبار إعطائه النصر لعباده على أعدائهم بإفاضة هدايته وقوته. وظاهر أنه تعالى باعتبار هذين الوصفين مبدأ لتوكل عباده عليه وإلقاء مقاليد أمورهم إليه.

وقوله: وأشهد. إلى آخره.

تقرير للرسالة وتعيين لأغراضها وذكر منها ثلاثة:

أحدها: إنفاذ أمره. والضمائر الثلاثة لله. وإنفاذ أمره إجراؤه لأحكامه على قلوب الخلق ليقرّوا بالعبودية له.

الثاني: إنهاء عذره في أقواله وأفعاله. وقد سبق بيان وجه استعارة العذر.

الثالث: تقديم نذره وهو التخويفات الواردة على ألسنة الرسل عليهم السلام إلى الخلق قبل لقائه الجاذبة لهم إلى لزوم طاعته. وظاهر كون الثلاثة أعراضاً للبعثة.

الفصل الثاني: قوله:

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثَالَ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ، وَأَحَاطَ بِكُمُ الإِحْصَاءَ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ، وَالرِّفَدِ الرَّوَافِغِ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ، وَأَحْصَاكُمْ عَدَداً، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ، وَدَارِ عِبْرَةٍ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا.

أقول: الرياش: اللباس الفاخر. وقيل: الغنى بالمال. وأرصد: أعدّ. والرفد: جمع رفدة وهي العطية. والروافغ: الواسعة الطيبة.

هذا الفصل مشتمل على الوصية بتقوى الله وخشيته والانجذاب إليه باعتبار أمور: الأول: ضرب الأمثال. والأمثال الّتي ضربها الله لعباده في القرآن كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] إلى قوله ﴿يُرْجَعُونَ﴾ [النور: ٦٤] والإشارة بهذا المثل إلى من كان قد طلب المعجزات من الرسول صلى الله عليه وآله. فلما ظهرت لهم لم يقبلوها ورجعوا إلى ظلمة جهلهم فهم صمّ عن سماع دواعي الله بآذان قلوبهم، بكم عن مناجاة الله بأسرارهم، عمي عن مشاهدة أنوار الله بإبصار بصائرهم فهم لا يرجعون عن تماديهم في غيّهم وكفرهم.

ومنها: قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] إلى قوله: ﴿قَامُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠] وهو مثل شبّه فيه القرآن بالمطر نزل من السماء، وشبّه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق، وشبّه تباعد المنافقين عن الإصغاء إلى القرآن وتغافلهم عن سماع الوعظ بمن يجعل أصابعه في آذانه خوف الصواعق، وقوله: يكاد البرق. إلى آخره. إشارة إلى من كان يرق قلبه بسماع الوعظ البالغ إذا قرعه ويميل إلى التوبة ويتجلى عن قلبه بعض الظلمة فإذا رجعوا إلى قرنائهم أشاروا عليهم بالعود إلى دنياهم وبذلوا لهم الجهد في النصيحة وخوفوهم بالعجز فتضعف قصودهم، وتظلم عليهم شبهات الباطل فتغطي ما كان ظهر لهم من نور الحق. وكذلك باقي أمثال الله في كتابه الكريم.

الثاني: قوله: ووقّت لكم الآجال: أي كتبها بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ كل إلى أجل مسمى ثمّ يرجع إليه فيحاسبه بإعلانه وإسراره. فبالحري أن يتقيه ويعمل للقائه.

الثالث: كونه قد ألبسهم الرياش. وهو إظهار للمنّة عليهم كما قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦] الآية. ليذكروا أنواع نعمه فيستحيوا من مجاهرته بالمعصية.

الرابع: كونه قد أرفغ لهم المعاش: أي أطاب معايشهم في الدنيا كما قال تعالى ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وهو كالثالث.

الخامس: إحاطته بهم إحصاءاً كقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم: ٩٤] أي أحاط بهم علمه. وإحصاءاً منصوب على المصدر من غير لفظ فعله، أو على التمييز. وظاهر أن علم العصاة بأنه لا يشذّ أحد منهم عن إحاطة علمه جاذب لهم إلى تقواه.

السادس: كونه قد أرصد لهم الجزاء. كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٨٩-٩٠].

السابع: إيثارهم بالنعم السوابغ والرفد الروافغ. كقوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠].

الثامن: إنذارهم بالحجج البوالغ. وهي رسله ومواعظه وسائر ما جذب به عباده إلى سلوك سبيله، وهو حجة على عصاة أمره أن يقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين.

التاسع: إحصاؤه لعددهم كقوله تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٨].

العاشر: توظيفه لهم المدد، وهو كتوقيته لهم الآجال، وإنما كرر وصف الإحصاء والعدّ وهذين الوصفين أيضاً لأن الوهم كثيراً ما ينكر إحاطته تعالى بالجزئيات مع عدم تناهيها فيكون ذلك مشبّهاً على النفس توقيت الآجال لكل شخص شخص، ويقدح في أمر المعاد والعقوبات اللازمة لكل آحاد الخلق بحسب كل ذرة من الأعمال الطالحة فكررهما طرداً للوهم وكسراً لحكمه، ولأن ذكر توقيت الآجال من أشد الجواذب عن الدنيا إلى الله. وقوله: في قرار خبرة ودار عبرة: أي محل اختبار الله خلقه ومحل عبرتهم: أي انتقال أذهانهم فيما تجري فيها من آيات العبرة وآثار القدرة. والاستدلال بها على وحدانية مبدعها كما سبقت الإشارة إلى معنى الاختيار والاعتبار وكذلك قوله: فأنتم فيها مختبرون وعليها محاسبون قد سبقت الإشارة إليه في قوله: ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلاّ فيها. وفي هذين القرينتين مع السجع المتوازي نوع من التجنيس بين خبرة وعبرة. والاختلاف بالحرف الأول.

الفصل الثالث قوله:

فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَا، وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا. غُرُورٌ حَائِلٌ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا، وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا، وَأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ، وَثَوَابِ الْعَمَلِ، وَكَذٰلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ، لاَ تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً، وَلاَ يَرْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً، يَحْتَذُونَ مِثَالاً، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً، إِلَى غَايَةِ الِانْتِهَاءِ، وَصَيُّورِ الْفَنَاءِ.

قوله: الرنق: الكدر. والردغ: الوحل والتراب المختلط بالماء. ويونق: يعجب. ويوبق: يهلك. وغرور: خدعة مستغفلة للأذهان. والحائل: المنتقلة المحتولة. وقمصت الدابة: رفعت يديها وطرحتهما وعجنت برجليها. وقنصت: صادت. وأقصدت: أصابت القصد. والأوهاق: جمع وهق بالفتح وهو الحبل. والضنك: الضيق. وأقلع عن الشيء: امتنع منه. والاخترام: الموت دون المدة الطبيعية. وارعوى: كفّ ورجع. وحذا حذو فلان: فعل فعله. وأرسال: جمع رسل بالفتح وهو القطيع من الغنم يتبع القطيع. وصيّور الأمر: ما يرجع إليه منه.

ومدار هذا الفصل على التنفير عن الدنيا بذكر معائبها وما يؤول إليه، وذكر لها أوصافاً:

الأول: كونها رنق مشربها. وهو كناية عن كدر لذاتها بشوائب المصائب من الهموم والأحزان والأعراض والأمراض.

الثاني: كونها ردغ مشرعها. ومشرعها محل الشروع في تناولها والورود في استعمالها، وكونه ردغاً وصف للطريق المحسوس استعير له. ووجه المشابهة كون طريق الإنسان في استعمال الدنيا والتصرف فيه ذات مزالق ومزال أقدام تهوى به إلى جهنم لا يثبت فيها إلاّ قدم عقل قد جهد في ضبط قواه وقهر سطوة شياطينه. كما أن الطريق ذات الوحل كذلك، وهو من لطائف إشاراته عليه السلام.

الثالث: كونها يونق منظرها، ويوبق مخبرها. وهو إشارة إلى إعجابها لذوي الغفلة بزينتها الحاضرة مع هلاكهم باختبارها وذوقهم لحلاوتها وغرض الإلتذاذ بها.

الرابع: كونها غروراً حائلاً. يروى بفتح الغين وضمها. ومعنى الأول ذات غرور: أي تغرّ الخلق بزخارفها فيتوهمون بقاءها ثمّ تنتقل عنهم وتحوّل، ومن روى بالضم جعلها نفسها غروراً: والغرور يطلق على ما يغتر به حقيقة عرفيّة.

الخامس: كونها ضوءاً آفلاً استعار لفظ الضوء لما يظهر منها من الحسن في عيون الغافلين يقال على فلان ضوء: أي له منظر حسن، أو لما ظهر لهم من وجوه مسالكها فاهتدوا به إلى تحصيلها ومداخلها ومخارجها. وعلى التقديرين فهو ضوء آفل لا يدوم. ولفظ الأفول أيضاً مستعار.

السادس: وظل زائل. استعار لفظ الظل لما يأوي إليه الإنسان من نعيمها فيستظل به من حرارة بؤسها. وظاهر كونه زائلاً.

السابع: كونه سناداً مائلاً. استعارة أيضاً للفظ السناد فيما يعتمد الغافلون عليه من قيناتها وخيراتها التي لا أصل لها، ولا ثبات بل هي كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وذكر الميل ترشيح للاستعارة.

الثامن: كونها تغرّ الناس بضوئها وظلها وبهجة منظرها إلى غاية أن يستأنس بها من كان بعقله نافراً عنها ويطمئن إليها من كان بمقتضى فطرته منكراً لها حتّى إذا كان ذلك منه طوعاً لها فعلت به أفعال العدو الخدوع، ونسب إليها من الأفعال أموراً:

أحدها: قمصها بالأرجل. واستعار لفظ القمص لامتناعها على الإنسان حين حضور أجله كأنها تدفعه برجليها مولية عنه كما تفعل الدابة، ورشح بذكر الأجل. وإنما جمع لاعتبار اليدين مع الرجلين، وذكره بلفظ الرجلين لأن القمص إليها أنسب.

الثاني: قنصها له بأحبلها. وهو كناية عن تمكن حبائل محبتها. والهيئات الرديئة المكتسبة منها في عنق نفسه كناية بالمستعار.

الثالث: كونها أقصدت له بأسهمها. واستعار لفظ الأسهم للأمراض وأسباب الموت، وإقصادها كناية عن إصابتها بالمستعار لأوصاف الرامي تنزيلاً للدنيا منزلته.

الرابع: كونها أعلقته حبال المنية. وحبالها استعارة لما تجذب به إلى الموت من سائر أسبابه أيضاً، وكذلك لفظ القائد استعارة كنى بها عن انسياق المريض في حبال مرضه الحاصل فيها إلى الأمور المذكورة من ضنك المضطجع، وهو القبر ووحشة المرجع، وهو إشارة إلى ما تجده النفوس الجاهلة عند رجوعها من وحشة فراق ما كان محبوباً لها في الدنيا، وما كانت الفتنة من مال وأهل وولد. وهي استعارات لأوصاف الصائد تنزيلاً للدنيا منزلته ومعاينة المحل: أي مشاهدة الآخرة التي هي محل الجزاء. وثواب العمل: أي جزاؤه من خير أو شر.

وقوله: وكذلك الخلف. إلى آخره.

أي على الأحوال المذكورة للدنيا مضى الخلق يتبع خلفهم من سلف منهم لا المنية تقصر عن اخترام نفوسهم ولا الباقون منهم يرجعون عما هم عليه من ارتكاب الجرائم فيها والغرور بها. بل يقتدون بأمثالهم الماضين في ذلك ويمضون عليه اتباعاً إلى غاية مسيرهم بمطايا الأبدان ومصير أمرهم وهو الفناء والعرض على الملك الديّان. وقد راعى أيضاً مع السجع التجنيس في قوله: يونق ويوبق، ونافرها وناكرها، وقمصت وقنصت، والاختلاف بحرف الوسط. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في الإشارة إلى ما يلحق الناس بعد الموت من أحوال القيامة تذكيراً لهم قوله:

حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ ٱلأُمُورُ، وَتَقَضَّتِ ٱلدُّهُورُ، وَأَزِفَ ٱلنُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ ٱلْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ ٱلطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةِ ٱلسِّبَاعِ، وَمَطَارِحِ ٱلْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ ٱلإِسْتِكَانَةِ، وَضَرَعُ ٱلاسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ. قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ، وَٱنْقَطَعَ الأَمَلُ، وَهَوَتِ الأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً، وَخَشَعَتِ ٱلأَصْوَاتُ مُهَيْمِنَةً، وَأَلْجَمَ ٱلْعَرَقُ، وَعَظُمَ الشَّفَقُ، وَأُرْعِدَتِ الأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ، وَمُقَايَضَةِ ٱلْجَزَاءِ، وَنَكَالِ ٱلْعِقَابِ، وَنَوَالِ الثَّوَابِ.

أقول: تصرّمت: تقضّت. وأزف: دنا. والضرائح: جمع ضريح، وهو الشق في وسط القبر. وأوكار الطيور: أعشاشها. وأوجرة: جمع وجار وهو بيت السبع. مهطعين: مقبلين. ورعيلاً: مجتمعين. اللبوس: ما يلبس. والضرع: الخضوع والانكسار. وكاظمة: ساكنة. والهينمة: صوت خفي. وألجم العرق: بلغ الفم فصار كاللجام. والشفق: الإشفاق وهو الخوف. والزبرة: الانتهار. والمقايضة: المعاوضة. والنكال: تنويع العقوبة.

واعلم أنه قد تطابقت ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام على القول بالمعاد الجسماني، ونطق به الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤] الآية. ونحوه، واتفق المسلمون على القول به.

وأما الحكماء فالمشهور من مذهبهم منع المعاد الجسماني بناء على أن المعدوم لا يعاد بعينه لامتناع عود أسبابه بأعيانها من الوقت والدورة الفلكية المعينة وغيرهما. وربما قال بعض حكماء الإسلام بجواز عود المثل، وربما قلّد بعضهم ظاهر الشريعة في أمر المعاد الجسماني وإثبات السعادة الشقاوة البدنية مع الروحانية، وقال الرئيس أبو علي ابن سينا في كتاب «الشفاء» ما هذه إلا حكاية ألفاظه:

«يجب أن يعلم أن المعاد منه ما هو المقبول من الشرع ولا سبيل إلى إثباته إلاّ من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للبدن عند البعث وخيرات البدن وشروره معلومة لا تحتاج أن تعلم. وقد بسطت الشريعة الحقة التي أتانا بها سيدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وآله حال السعادة والشقاوة اللتين بحسب البدن، ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني، وقد صدقته النبوة وهو السعادة، والشقاوة البالغتان الثابتتان بالمقاييس اللتان للأنفس، وإن كنت الأوهام منّا تقصر عن تصورها الآن لما توضح من العلل، والحكماء الإلهيون رغبتهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية. بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك وإن أعطوها ولا يستعظمونها في جنبة هذه السعادة التي هي مقاربة الحق الأول».

واعلم أن الذي ذكره عليه السلام هنا صريح في إثبات المعاد الجسماني ولواحقه.

فقوله: أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك.

إشارة إلى جمعه لأجزاء أبدان الناس بعد تشذّبها وتفرقها فيخرج من كان قبر من ضريح قبره ومن كان أكيل طير أو سبع أو مقتولاً في مطرح الهلاك من معركة الحرب أو غيرها أخرجه من ذلك المكان وجمع أجزاءه وألّف بينها.

فإن قلت: إذا أكل إنسان إنساناً واغتذى به فصارت أجزاء بدنه أجزاء بدن آكله فكيف يمكن إعادتهما لأن تلك الأجزاء في أي بدن منهما أعيدت لزم نقصان الآخر وبطلانه.

قلت: مذهب محققي المتكلمين أن في كل بدن واحد أجزاء أصلية باقية من أول العمر إلى آخره لا تتغيّر ولا تتبدل، وأجزاء فضلية، فإذا أُعيدا يوم القيامة فما كان أصلياً من الأجزاء لبدن المأكول فهو فضلي لبدن الآكل فيردّ إليه من غير أن ينقص من الأجزاء الأصلية للآكل شيء ولا عبرة بالفاضلة، وباقي الفصل غني عن

البيان، وقال بعض الفضلاء: إنه ربما احتملت هذه الألفاظ أن يسلّط عليها من التأويل ما يناسب مذهب القائلين بالمعاد الروحاني.

فقوله: حتّى إذا تصرمت الأمور.

أي أحوال كل واحد من الخلق في الدنيا.

وقوله: وتقضّت الدهور.

أي انقضت مدة كل شخص منهم.

وقوله: وأزف النشور.

أي دنا انتشار كل واحد في عالم الآخرة من قبور الأبدان.

وقوله: أخرجهم من ضرائح القبور.

استعار لفظة القبور للأبدان وضرائحها ترشيح للاستعارة. ووجه المشابهة أن النفس تكون منغمسة في ظلمة البدن وكدر الحواس متوحشة عن عالمها كما أن المقبور متوهم لظلمة القبر ووحشته، منقطع عن الأهل والمال. وضمير المخرج يعود إلى الله في صدر الخطبة.

وقوله: وأوكار الطيور.

فاعلم أن العارفين وأهل الحكمة كثيراً ما يستعيرون لفظ الطير وأوصافه للنفس الناطقة، وللملائكة كما أشار إليه سيد المرسلين ﷺ في قوله: حتّى إذا حمل الميت على نعشه رفرفت روحه فوق النعش، ويقول: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي. والرفرفة إنما تكون لذي الجناح من الطير، وكما جاء في التنزيل الإلهي في وصف الملائكة ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾[فَاطِر: ١] وكما أشار إليه أبو علي في قصيدة أولها:

هبطت إليك من المكان الأرفع

ورقاء ذات تعزز وتمنع

وأشار بالورقاء إلى النفس الناطقة، وكما أشار إليه في رسالته المسماة برسالة الطير بقوله: برزت طائفة تقنص فنصبوا الحبال ورتّبوا الشرك وهيأوا الطعم، وتواروا في الحشيش وأنا في سربة طير ونحوه. ووجه المشابهة في هذه الاستعارة ما تشترك فيه النفس والطير من سرعة التصرف والانتقال فالنفس بانتقال عقلي، والطير بانتقال حسي، وإذا استعير لفظ الطير للنفس فبالحري أن يستعار لفظ الوكر للبدن لما بينهما من المشاركة وهو كونهما مسكناً لا تسهل مفارقته.

وقوله: وأوجرة السباع.

إستعارة للأبدان أيضاً. والسباع إشارة إلى النفوس المطيعة لقواها الغضبية التي شأنها محبة الغلبة والانتقام كما أن السبع كذلك.

وقوله: ومطارح المهالك.

إشارة إلى الأبدان أيضاً فإنها مطارح مهالك الغافلين الذين اتبعوا الشهوات، أعني أبدانهم.

وقوله: سراعاً إلى أمره.

نصب على الحال بقوله: أخرجهم، وكذلك ما بعده من المنصوبات. وأمره هو حكم قضائه الأزلي عليهم بالرجوع إليه، وعودهم إلى مبدئهم وسرعتهم إليه إشارة إلى قرب وصولهم وهو في آن انقطاع علاقة النفس مع البدن وهو على غاية من السرعة.

وقوله: مهطعين إلى معاده.

إشارة إلى إقبال النفوس بوجوهها على محل عودها وما أعدّ لها فيه من خير وشر.

وقوله: رعيلاً.

إشارة إلى اجتماعهم في حكم الله وقبضته ومحل الاستحقاق لثوابه وعقابه.

وقوله: صموتاً.

إذ لا ألسنة لهم إذن ينطقون بها، ويحتمل أن يكون الصمت كناية عن خضوعهم وانقيادهم في ذلّ الحاجة وهيبة الجلال.

وقوله: قياماً صفوفاً.

فقيامهم استعارة لاستشعار النفوس هيبة الله لعظمته، وقيامها بتصور كماله على مساق العبودية وذلّ الإمكان، وصفوفاً استعارة لانتظامهم إذن في سلك علمه تعالى إذ الكل بالنسبة إلى عمله على سواء كما يستوي الصف المحسوس، ويحتمل أن يكون الصف استعارة لترتبهم في القرب إلى الله تعالى متنازلين متصاعدين.

وقوله: ينفذهم الصبر.

إشارة إلى علمه تعالى بهم.

وقوله: ويسمعهم الداعي.

فالداعي هو حكم القضاء عليهم بالعود، وإسماعهم: عموم ذلك الحكم لهم بحيث لا يمكن أن يخرج عنه منهم أحد.

وقوله: عليهم لبوس الاستكانة وضرع الاستسلام والذلة.

إشارة إلى حالهم التي يخرجون من الأجداث عليه من ذلّ الإمكان ورق الحجة والخوف في قبضة الله وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٦-٧].

وقوله: قد ضلّت الحيل.

أي حيل الدنيا. فلا حيلة لهم في الخلاص مما هم فيه كما كانوا يخلصون بحيل الدنيا من بعض شرورها، وانقطع الأمل: أي أملهم فيها لامتناع عودهم إليها وانقطاع طمعهم في ذلك.

وقوله: وهوت الأفئدة كاظمة.

أي سقطت النفوس في حضيض الذل والفاقة إلى رضا الله وعفوه، ولفظ الكظم مستعار كما سبق.

وقوله: وخشعت الأصوات. هو كقول الله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وهو إشارة إلى سؤالهم بلسان حالهم عفو الله ورحمته على وجه الذلة والضعف ورقّ العبودية في ملاحظة جلال الله.

وقوله: وألجم العرق وعظم الشفق.

استعار لفظ العرق وكنى به عن غاية ما تجده النفس من كرب ألم الفراق وهيبة الله وعدم الأنس بعد الموت إذ غاية الخائف التاعب أن يعرق ويشفق من نزول العقاب به. ونسبة الإلجام إلى العرق نسبة مجازيّة.

وقوله: وأُرعدت الأسماع لزبرة الداعي.

إشارة إلى ما تجده النفس عند تيقنها المفارقة. واستعار لفظ الزبرة لقهر حكم القضاء للأنفس على مرادها قهراً لا يتمكن معه من الجواب بالامتناع، وفصل الخطاب هو إمضاء أحكام الله على نفوس عباده عند الرجوع إليه بتوفيه ما لها، واستيفاء ما عليها. ومقايضة الجزاء: معاوضتها بما أتت به. إما من الملكات الرديئة فبنكال العقاب، وإما من الملكات الفاضلة فبنوال الثواب، وهبة كل بقدر استعداده وقبوله. واعلم أن العدول إلى المجازات والاستعارات عن حقائق الألفاظ وإلى التأويل عن الظواهر إنما يجوز خصوصاً في كلام الله، وكلام رسوله وأوليائه إذا عضده دليل عقلي يمنع من إجراء الكلام على ظاهره. ولما اعترف القوم بجواز المعاد الجسماني تقليداً للشريعة ولم يقم دليل عقلي يمنع منه لا يمكننا الجزم إذن بصحة هذه التأويلات وأمثالها. وبالله التوفيق والعصمة.

الفصل الخامس: في تنبيه الخلق على أوصاف حالهم المنافية لما هم عليه من التجبّر والإعراض عما خلقوا لأجله لعلهم يتذكرون بقوله:

عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً، وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً، وَمَدِينُونَ جَزَاءً، وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً. قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ؛ وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتَبِ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ، وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ، وَرَوِيَّةِ الارْتِيَادِ، وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ، فِي مُدَّةِ الأَجَلِ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ.

أقول: القسر: القهر والجبر. والأجداث: القبور واحده جدث. والرفات: القنات من العظم ونحوه. ومدينون. مجزيّون. والمستعتب: المسترضى. والسدف: جمع سدفة وهي ظلمة الليل. والريب: الشبه والشكوك. والارتياد: الطلب. وذكر من تلك الأوصاف ثلاثة عشر وصفاً:

الأول: كونهم مخلوقون اقتداراً: أي خلقهم ليس لذواتهم بل بقدرة قادر مستقلةً عن مشاركة الغير وذلك مناف لعصيانهم له.

الثاني: كونهم مربوبون اقتساراً؛ أي ليس ملك مالكهم لهم عن اختيار منهم حتّى يكون لهم الخيرة في معصيته وطاعته.

الثالث: كونهم مقبوضون احتضاراً: أي مستحضرون بالموت مقبوضون به إلى حضرة جلال الله.

الرابع: كونهم من شأنهم أن يضمنوا الأجداث.

الخامس: من شأنهم أن يصيروا رفاتاً.

السادس: من شأنهم أن يبعثوا أفراداً كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] أي مجرداً عن استصحاب غيره معه من أهل ومال.

السابع: أنهم مدينون جزاءاً ومن شأنهم ذلك. والجزاء مصدر نصب بغير فعله.

الثامن: أن من شأنهم أن يميّزوا حساباً: أي يحصون عدداً كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤] وحساباً أيضاً مصدر نصب عن غير فعله.

التاسع: كونهم قد أمهلوا في طلب المخرج: أي إنما أمهلوا في الدنيا لطلب خلاصهم وخروجهم من ظلمات الجهل وورطات المعاصي إلى نور الحق ومتسع الجود.

العاشر: كونهم قد هدوا سبيل المنهج: أي أُلهموا بأصل فطرتهم، ودلّوا بالأعلام الواضحة من الأنبياء والشرائع على الطريق إلى حضرة قدس الله والجنة.

الحادي عشر: كونهم قد عمّروا مهل المستعتب. لما كان من يطلب استعتابه ويقصد رجوعه عن غيّه يمهل ويداري طويلاً كانت مهلة الله سبحانه لخلقه مدة أعمارهم ليرجعوا إلى طاعته ويعملوا صالحاً تشبه ذلك فنزلت منزلته. ومهل نصب على المصدر لأن التعمير إمهال.

الثاني عشر: كونهم قد كشفت عنهم سدف الريب: أي أزال عن أبصار بصائرهم ظلم الشكوك والشبهات والجهالات بما وهبه لهم من العقول وأيّدهم من بعثة الرسل.

الثالث عشر: كونهم قد خلّوا لمضمار الجياد: أي تركوا في الدنيا ليضمروا أنفسهم بأزواد التقوى، ولما استعار لفظ المضمار رشح بذكر الجياد، إذ شرف المضمار أن تحل به جياد الخيل. وفيه تنبيه لهم على أن يكونوا من جياد مضمارهم. وقد سبق وجه الاستعارة، ومعنى التضمير في قوله: ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق. وكذلك خلوا لروية الارتياد: أي ليتفكروا في طلب ما يتخلّصون به إلى الله تعالى من سائر طاعاته، وكذلك ليتأنوا أناة المقتبس للأنوار الإلهية الطالب للاستنارة بها في مدة آجالهم ومحل اضطرابهم في مهلتهم وتحصيلهم لما ينبغي لهم من الكمالات. ومن ملك من عبيده هذه الحالات وأفاض عليهم ضروب هذه الإنعامات فكيف يليق بأحدهم أن يجاهره بالعصيان أو يتجاسر أن يقابله بالكفران إن الإنسان لكفور مبين.

الفصل السادس: في التنبيه على فضل موعظته وتذكيره ومدحها بالبلاغة والتعريض بعدم القلوب الحاملة لها، ثمّ الحث على التقوى بقوله:

فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَآرَاءً عَازِمَةً، وَأَلْبَاباً حَازِمَةً! فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ، وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، وَرَاجَعَ فَتَابَ، وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى، وَأُرِيَ فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طَالِباً، وَنَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً، وَأَطَابَ سَرِيرَةً، وَعَمَّرَ مَعَاداً، وَاسْتَظْهَرَ زَاداً، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجْهِ سَبِيلِهِ، وَحَالِ حَاجَتِهِ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ.

فقوله: فيا لها أمثالاً صائبة ومواعظ شافية. أمثالاً ومواعظ نصب على التميز. وصواب الأمثلة: مطابقتها للمثل به. وشفاء الموعظة: تأثيرها في القلوب إزالة مرض الجهل والرذائل الخلقية ورجوع المتعظ بها منيباً إلى ربه.

وقوله: لو صادفت قلوباً زاكية وأسماعاً واعية وآراء عازمة وألباباً حازمة.

فزكاء القلوب: استعدادها لقبول الهداية وقربها من

ذلك. ووعي الأسماع: فهم القلوب عنها، وإنما وصفها بالوعي لأنها أيضاً قابلة لقشور المعاني مؤدية لها إلى قوة الحسّ ثمّ الخيال، وعزم الآراء: توجيه الهمة إلى ما ينبغي والثبات على ذلك. وحزامة الألباب: جودة رأي العقول فيما يختاره. وظاهر أن هذه الثلاثة هي أسباب نفع الموعظة.

وقوله: فاتقوا الله. إلى قوله: مقامه.

أمر بتقوى الله تقية كتقوى من استجمع جميع هذه الأوصاف.

أحدها: تقية من سمع فخشع: أي تقية من استعد قلبه لسماع الموعظة فخشع عنها لله.

الثاني: تقية من اقترف فاعترف: أي اكتسب الذنوب فاعترف بها وأناب إلى الله.

الثالث: تقيّة من وجل: أي خاف ربه. فأقلقه خوفه فعمل: أي فالتجأ إلى الأعمال الصالحة لينجو بها.

الرابع: تقية من حاذر: أي عقاب ربه. فبادر إلى إطاعته.

الخامس: تقية من أيقن: أي بالموت ولقاء ربه فأحسن: أي فأحسن عمله وأخلص له.

السادس: تقية من عبّر: أي رمي بالعبر وذكر بها. فاعتبر: أي فجعلها سلّماً يعبر فيها ذهنه إلى العلم بما ينبغي له.

السابع: وحذر: أي من سخط الله وعقابه. فازدجر: أي فرجع عن معصيته.

الثامن: تقية من أجاب: أي أجاب داعي الله. فأناب: أي رجع إليه بسره وامتثل أمره.

التاسع: تقية من راجع فكره وعقله فتاب: أي فاستعان به على شياطينه وقهر نفسه الأمارة بالسوء فتاب من متابعتها.

العاشر: تقيّة من اقتدى: أي بأنبياء الله وأوليائه وهديهم الذي أتوا به. فاحتذى: أي حذا حذوهم في جميع أحوالهم فطلب قصدهم وفعل فعلهم.

الحادي عشر: تقية من أري: أي أري الخلق فأظهرت بعين بصيرته طريق الله وسبيله فرأى: أي فعرفها وأسرع طالباً لما يسلك له وينتهي إليه ونجا فيها هارباً من ظلمات جهله وثمراته فأفاد ذخيرة: أي فاستفاد سلوكه لها وطاعته لربه في ذلك ذخيرة لمعاده، وأطاب بسلوكها سريرته عن نجاسات الدنيا وعمر بما يكتسبه في سلوكها من الكمالات المستعدة معاده. واستظهر به زاداً ليوم رحيله من دنياه واستعد به لوجه سبيله التي هو سالكها، ومسافر فيها ولحال حاجته ولموطن فاقته. فإن كل مرتبة من الكمالات حصلت للإنسان فهي تعده لرتبة أعلى منها لو لم يحصّلها لظهرت له حاجته في الآخرة إلى أقل منها حيث لا يجد إليها سبيلاً. وكذلك قوله: قدّم: أي ما استظهر به زاداً أمامه: أي تلقاء وجهه التي هو مستقبلها ومته إليها لدار مقامه: أي الآخرة.

وقوله: فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له.

أي باعتبار ما خلقكم له. ولما كان ما خلقهم له إنما هو عرفانه والوصول إليه كان المعنى: اجعلوا تقواكم الله نظراً إلى تلك الجهة والاعتبار لا للرياء والسمعة. وجهة منصوب على الظرف، ويحتمل أن يكون مفعولاً به لفعل مقدر: أي واقصدوا بتقويكم جهة ما خلقكم.

وقوله: واحذروا منه كنه ما حذّركم من نفسه.

أي اسلكوا في حذركم منه حقيقة تحذيره لكم من نفسه بما توعد به. وذلك الحذر إنما يحصل بالبحث عن حقيقة المحذور منه. والسالكون إلى الله في تصور ذلك على مراتب متفاوتة.

وقوله: واستحقوا منه ما أعدّ لكم بالتنجز لصدق ميعاده. استحقاق ما وعد به الله تعالى من جزيل الثواب إنما يحصل بالاستعداد له فهو أمر بالاستعداد له، والاستعداد يحتاج إلى أسباب فذكرها عليه السلام في أمرين:

أحدهما: التنجز لصدق ميعاده. والتنجز طلب إنجاز الوعد وقضائه، وذلك إنما هو بالإقبال على طاعته كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٧٢] الآية، ونحوها.

والثاني: الحذر من أهوال معاده. وذلك باجتناب مناهيه والارتداع بزواجره ونواهيه منها.

قوله: جعل لكم أسماعاً. اعلم أن في هذا الفصل فصلين:

الفصل الأول: في تذكير عباد الله بضروب نعمته عليهم، والتنبيه على الغاية منها، ثمّ التذكّر بحال الماضين من الخلق والتنبيه على الاعتبار بهم. وهو في معرض الامتنان وذلك قوله عليه السلام:

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً لأَحْنَائِهَا، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ عُمُرِهَا، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ. وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ. أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الآمَالِ، وَشَذَّ بِهِمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الآجَالِ. لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ الأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الأَوَانِ. فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ الْهَرَمِ؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ الْفَنَاءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ، وَأُزُوفِ الانْتِقَالِ، وَعَلَزِ الْقَلَقِ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ، وَتَلَفُّتِ الاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالأَقْرِبَاءِ وَالأَعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ! فَهَلْ دَفَعَتِ الأَقَارِبُ؟ أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ؟ وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الأَمْوَاتِ رَهِيناً، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا، وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَالأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّىءِ زَلَلِهَا! أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالآبَاءَ، وَإِخْوَانَهُمْ وَالأَقْرِبَاءَ؟ تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ، وَتَطَؤُونَ جَادَّتَهُمْ؟! فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لاَهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا، سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا! كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا.

أقول: عناها: أهمّها. والعشى: ظلمة تعرض للعين بالليل. والأشلاء: جمع شلو وهوالعضو وهو أيضاً القطعة من اللحم، وكنّى به عن الجسد. والحنو: الجانب. والأرفاق: المنافع، ويروى بأرماقها. والرمق: بقية الروح. والخلاق: النصيب. الخناق: بالكسر حبل يخنق به. والإرهاق: الإعجال. والتشذّب: التفرق. ومهد الأمر، مخففاً ومشدّداً: أي هيأه. وأنف الأوان: أوله. والبضاضة: امتلاء البدن وقوته. والهرم: الكبر. وغضارة العيش: طيبه. وآونة: جمع أوان، كأزمنة جمع زمان. والزيال: المزايلة. وأزف: قرب. والعلزة: كالرعدة تأخذ المريض. والجرض: أن يبتلع ريقه على همّ وحزن. والحفدة: الأعوان. وغودر: تركز. وأنهكه: أخلقه وأبلاه. والمعالم: الآثار. والشحب: البعير الهالك الناحل. والنخرة: البالية. والأعباء: الأثقال. والقدة بكسر القاف والدال المهملة: الطريقة، وروي بضم القاف والذال المعجمة، والأول أصح.

ولنرجع إلى المعنى.

فقوله: جعل لكم. إلى قوله: بأرفاقها.

تذكير بنعمة الله تعالى بخلق الأبدان، وما تشتمل عليه من المنافع. ففائدة الأسماع أن تعي ما خلقت لأجله، وفائدة الأبصار أن يدرك بها الإنسان عجائب مصنوعات الله تعالى فيحصل له منها عبرة. ولفظ العشا يحتمل أن يكون مستعاراً لظلمة الجهل العارض لإبصار القلوب حتّى يكون التقدير لتجلو عشا قلوبها، وحينئذ فإدراك البصر المحصّل عبرة يحصل للقلب به جلاء لذلك العشا فصحّ إذن إسناد الجلاء إلى الأبصار، ويحتمل أن يكون مستعاراً لعدم إدراكها ما تحصل منه العبرة إذ كانت فائدتها ذلك فإذا لم يحصل منها ذلك الإدراك كانت كمبصر أصابه العشا، ووجه المشابهة عدم الفائدة. ونسبة الجلاء إليها بوجود الإدراك المفيد عبرة

عنها وهو استعارة أيضاً. وعن ليست بزائدة لأن الجلاء يستدعي مجلواً ومجلوّاً عنه فذكر عليه السلام المجلوّ وأقامه مقام المجلوّ عنه فكأنه قال: لتجلو عن قواها عشاها.

وأما فائدة البدن وأعضائه فقد أشرنا إليه قبل مفصلاً، وقوله: قائمة بأرفاقها: أي أن كل بدن قائم في الوجود بحسب ما عنى له من ضروب المنافع.

وقوله: وقلوب رائدة. إلى قوله: سترها عنكم. إظهار لمنة الله تعالى على عباده بخلقه لهم وهدايته لنفوسهم لارتياد أرزاقهم التي بها قوام حياتها الدنيا وتمكنها من إصلاح معادها ثمّ باعتبار كونهم في محللات نعمه وسوابغها. فمنها: ستره عليهم قبائح أعمالهم أن تظهر، وهواجس خواطرهم بعضهم لبعض بحيث لو اطّلع كل على ما له في ضمير صاحبه من الغل والحسد وتمنّي زوال نعمته لأفنى بعضهم بعضاً وخرب نظام وجودهم. وموجبات مننه: نعمه التي يستوجب أن يمنّ بها. ومن روى بفتح الجيم فالمراد بالمنن إذن النعم وموجبات ما سقط منها وأفيض على العباد. وحواجز عافيته: ما منع منها عوامل الأمراض والمضار المندفعة بها، وإنما ذكر ستر كمية الأعمار في معرض المنّة لأنه من النعم العظيمة على العبد إذ كان اطلاع الإنسان على كمية عمره مما يوجب اشتغال خاطره بخوفه من الموت من عمارة الأرض ويبطل بسببه نظام هذا العالم.

وقوله: وخلّف لكم عبراً.

وجه من منن الله تعالى على عباده فإن إبقاءه أحوال الماضين وما خلّفوه عبرة للاحقين سبب عظيم لجذبهم عن دار الغرور ومهاوي الهلاك إلى سعادة الأبد. ومستمتع خلاقهم: ما استمتعوا به مما كان نصيباً لكل منهم في مدة بقائه من متاع الدنيا. ومستفسح خناقهم: محل الفسحة لأعناقهم من ضيق حبائل الموت وأغلال الجحيم، وذلك المستفسح هو مدة حياتهم أيضاً ثمّ أردف ذلك بوصف حال الماضين في غرورهم، وذكر إعجال الموت لهم عن بلوغ آمالهم وتشذيبه لهم باخترامهم عنها ونبه به على وجوب تقصير الأمل والاستعداد للموت، وكذلك نبّههم بقوله: لم يمهدوا. إلى قوله: ألا وإن على تقصير الماضين في إصلاح معادهم حيث أمكنهم ذلك في سلامة أبدانهم وأوّل زمانهم ليحصل لهم بذلك التذكر نفرة عن حال السابقين وانزعاج عن الغرور إلى الاستعداد بالتقوى والأعمال الصالحة، ثمّ استفهمهم عما ينتظر الشباب بشبابهم غير حواني الهرم، وأهل الصحة بصحتهم غير الأسقام، والمعمّرون بطول أعمارهم غير الفناء، استفهاماً على سبيل الإنكار لما ينتظرونه غير هذه الأمور وتقريعاً على ذلك الانتظار وتنفيراً عنه بذكر غاياته التي حصره فيها.

واعلم أن ذلك ليس انتظاراً حقيقياً لكن لما كان المنتظر لأمر والمترقب له تاركاً في أحواله لما يعنيه من الاشتغال إلى غاية أن يصل إليه ما ينتظره. وكانت غاية الشباب أن يحني ظهورهم الهرم. وغاية الصحيح أن يسقم، وغاية المعمر أن يفنى أشبه تركهم للعمل وعبادة الله إلى غاياتهم المذكورة الانتظار لها. فاستعير له لفظ الانتظار. ثمّ كنّى عن شدة حال المفارق في سكرات الموت بأوصاف تعرض له حينئذ كالرعدة والغلق والغمّ والخوف والغصص بالريق والتلفّت للاستغاثة بالأعوان الأقرباء والأعزّة. ثمّ نبه بقوله: فهل دفعت الأقارب أو نفعت النواحب: أي البواكي. على أن ما يقع عند نزول الموت من تلك الأحوال لا ينفع في دفعه قريبٌ ولا حبيب على طريق الاستفهام والإنكار.

وقوله: قد غودر.

الجملة في محل النصب على الحال والعامل نفعت: أي لم ينفعه البكاء حال ما غودر في محل الأموات بالأوصاف الكريهة تنفيراً عن أحواله وجذباً إلى الخلاص من أهوالها بالعمل لله والإخلاص له. ورهيناً: أي مقيماً أو مرتهناً بذنوبه وموثوقاً بها. ونصبه على الحال، وكذلك وحيداً، وموضع قوله: قد هتكت، وباقي الأفعال المعطوفة عليه. والهوام: الديدان المتولدة من جيفة أو غيرها.

وقوله: والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها.

إشارة إلى اشتغال النفوس وانحطاطها إلى الجنبة السافلة بثقل ما حملته من الأوزار واكتسبته من الهيئات الرديئة. وما يتحقق غيبه من الأنباء هناك هو الأخبار عن الأحوال اللاحقة بها بعد الموت من خير وشر فإنها

تتيقّن غيبتها عن أهل الدنيا، أو أنباء ما خلّفته من اللواحق الدنيوية فإنها تتيقن بعد الموت غيبتها وانقطاعها عنها. والأول أولى.

وقوله: لا تستزاد من صالح عملها ولا تستعتب من سيئ زللها.

أي لا يطلب منها زيادة من العمل الصالح ولا يقال من سيئ زللها ويرضى عنها كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] وذلك لعدم آلة العمل وامتناع الرجوع إليه وعدم تمكنها من نزع ما صار في عنقها من أطواق الهيئات البدنية كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وقوله: أولستم آباء القوم والأبناء وإخوانهم والأقرباء.

أي أوليس فيكم من هو أب لأحد أولئك أو ابن له أو أخوه أو قريبه، وهو تنبيه للسامعين على وجه العبرة فإنه لما شرح حال الماضين في الموت وما بعده نبههم على أنهم أمثالهم في كل تلك الأحوال ليرجعوا إلى تقوى الله الذي هو سبب النجاة من تلك الأهوال.

وقوله: تحتذون أمثلتهم.

أي تقتدون بهم في أفعالهم وتسلكون مسالكهم في غرورهم ونحوه كما قال تعالى حكاية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقوله: فالقلوب قاسية عن حظها.

أي لا استعداد لها تقبل به حظها الذي ينبغي لها طلبه لاهية عن رشدها غافلة عن طلب هدايتها سالكة في غير مضمارها. المضمار هاهنا: هو الشريعة وأوامر الله، وسلوكها لغيره: ارتكابها لمناهي الله، ورياضتها: هي الأعمال الصالحة التي هي طريق الجحيم.

وقوله: كأن المعني سواها وكأن الرشد في إحراز دنياها.

مبالغة في ذكر إعراض القلوب وغفلتها عن المواعظ وانهماكها في تحصيل الدنيا إلى غاية أن أشبهت من لم يكن معيناً بالخطاب بها، أو أن الرشد الذي جذبت إليه إنما هو تحصيل الدنيا وجمعها الذي جذبت عنه وحذّرت منه.

الفصل الثاني: في التذكير بأمر الصراط والتحذير من أهواله، والحث على التقوى وذلك قوله:

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الأُمُورِ، ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَآمَنِ يَوْمِهِ. قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً، وَقَدَّمَ زَادَ الآجِلَةِ سَعِيداً، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ. فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً! وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً!

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيّاً، وَنَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِيّاً، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى، وَوَعَدَ فَمَنَّى، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ.

أقول: المزلق: الموضع الذي لا تثبت عليه قدم. والدحض: الزلق. والتهجد: العبادة بالليل. والغرار: النوم القليل. وأرجف: أسرع. والمخالج: الأمور المشغلة الجاذبة. وأكمش: أمضى عزمه. ومضى قدماً: لم يعرج.

واعلم أن الصراط الموعود به في القرآن الكريم حق يجب الإيمان به وإن اختلف الناس في حقيقته، وظاهر الشريعة والذي عليه جمهور المسلمين، ومن أثبت المعاد الجسماني يقتضي أنه جسم في غاية الدقة والحدة ممدود على جهنم وهو طريق إلى الجنة يجوزه من أخلص لله. ومن عصاه سلك عن جنبتيه أحد أبواب جهنم.

وأما الحكماء فقالوا بحقيته. وما يقال في حقه: إنه كالشعر في الدقة فهو ظلم بل نسبة الشعرة إليه كنسبتها إلى الخط الهندسي الفاصل بين الظل والشمس الذي ليس من أحدهما فهو كذلك الخط الذي لا عرض له أصلاً، وحقيقته هو الوسط الحقيقي بين الأخلاق المتضادة كالسخاوة بين التبذير والبخل، الشجاعة بين التهور والجبن، والاقتصاد بين الإسراف والتقتير، والتواضع بين التكبّر والمهانة، والعفة بين الشهوة والخمود، والعدالة بين الظلم والانظلام. فالأوساط بين هذه الأطراف المتضادة هي الأخلاق المحمودة، ولكل واحد منها طرفا تفريط وإفراط هما مذمومان، وكل واحد منها هو غاية البعد بين طرفيه وليس من طرف الزيادة ولا من طرف النقصان.

قالوا: وتحقيق ذلك أن كمال الإنسان في التشبّه بالملائكة وهم منفكون عن هذه الأوصاف المتضادة وليس في إمكان الإنسان الانفكاك عنها بالكلية فغايته التباعد عنها إلى الوسط تباعداً يشبه الانفكاك عنها. فالسخي كأنه لا بخيل ولا مبذر. فالصراط المستقيم هو الوسط الحق الذي لا ميل له إلى أحد الجانبين ولا عرض له وهو أدق من الشعر. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩].

وروي عن الصادق عليه السلام وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] قال: يقول: أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلّغ دينك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك. وعن الحسن العسكري عليه السلام الصراط صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة.

فأما الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، والصراط الآخر هو طريق المؤمنين إلى الجنة لا يعدلون عن الجنة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة. والناس في ذلك متفاوتون فمن استقام على هذا الصراط وتعوّد سلوكه مرّ على صراط الآخرة مستوياً ودخل الجنة آمناً.

إذا عرفت ذلك فنقول: مزالق الصراط كناية عن المواضع التي هي مظان انحراف الإنسان عن الوسط بين الأطراف المذمومة، وتلك المواضع هي مظان الشهوات والميول الطبيعية، وأهاويل زلله هي ما يستلزمه العبور إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط من العذاب العظيم في الآخرة. وتارات أهواله تكرار ذلك تارة بعد أُخرى.

وقوله: فاتقوا الله. عود إلى الأمر بتقوى الله تقية من استجمع أوصاف الإيمان:

أحدها: تقية من شغل التفكر قلبه: أي في أمر معاده عن محبة الدنيا وباطلها.

الثاني: وأنصب الخوف بدنه: أي أتعبه وأنحله خوف الله تعالى وما أعد للعصاة من الأهوال.

الثالث: وأسهرت العبادة غرار نومه: أي لم تترك له نوماً.

الرابع: واظمأ الرجاء هواجر يومه: أي اظمأه رجاء ما أعد الله لأوليائه الأبرار عوضاً من طيبات هذه الدار. وظمأه في هواجر يومه كناية عن كثرة صيامه في أشد أوقاته حرارة، وإنما جعل الهواجر مفعولاً إقامة للظرف مقام المظروف، وهو من وجوه المجاز.

الخامس: وظلف الزهد شهواته. استعار لفظ الإطفاء للزهد وهو من أوصاف الماء ونسبته إلى النار نسبة الزهد إلى الشهوات فلاحظ الشبه بين الشهوات والنار في تأثيرهما المؤذي، وبين الزهد والماء لما يستلزمانه من كون الإعراض عن الدنيا يستتبع قهر الشهوات ودفع مضارّها كما يفعله الماء بالنار.

السادس: وأسرع: [أرجف خ] الذكر إلى لسانه: أي لتعوّده إياه وإدمانه فيه.

السابع: وقدّم الخوف لأمانه [لإبانه خ]: أي خوف ربه. فعمل مخلصاً له ليأمن عذابه.

الثامن: وتنكب المخالج: أي عدل عن الأمور المشغلة إلى واضح سبيل الله.

التاسع: وسلك أقصد المسالك: أي أولاها بالقصد إلى النهج الواضح والطريق المطلوب لله من خلقه، وهو سبيله المستقيم فإن للناس في سلوك سبيل الله مذاهب كثيرة ولكن أحبّها إليه أولاها بالقصد إلى طريقه الموصل إليه.

العاشر: ولم تفتله فاتلات الغرور: أي لم تهلكه غفلاته في لذات الدنيا عن ربه إذ لم يغفل عن طاعته.

الحادي عشر: ولم تعم عليه مشتبهات الأمور: أي لم تظلم في وجهه شبهة على حق فيسدّ عليه وجه تخليصه.

الثاني عشر: ظافراً بفرحة البشرى: أي بشرى الملائكة يومئذٍ: بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار.

الثالث عشر: وراحة النعمى، والراحة في مشاق الدنيا ومتاعبها بنعمى الآخرة. ونعيم الله في الآخرة الجنة.

الرابع عشر: في أنعم نومه: أي في أطيب راحته، وأطلق لفظ النوم على الراحة في الجنة مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه.

الخامس عشر: وآمن يومه: أي آمن أوقاته، وأطلق لفظ اليوم على مطلق الوقت مجازاً إطلاقاً لاسم الجزء على الكل.

السادس عشر: قد عبر معبر العجالة: أي الدنيا. حميداً: أي محمود الطريقة.

السابع عشر: وقدم ذات الأجلة سعيداً: أي عمله للآخرة فحصل على السعادة الأبدية، وحميداً وسعيداً حالان.

الثامن عشر: وبادر من وجل: أي إلى الأعمال الصالحة من وجل خوف الله.

التاسع عشر: وأسرع في مهل. أي إلى طاعة ربه أيام مهلته، وهي حياته الدنيا.

العشرون: ورغب في طلب: أي كان طلبه لله عن رغبته له.

الحادي والعشرون: وذهب عن هرب: أي كان ذهابه عما يبعد عن الله عن هرب من خوف الله. وفي كل قرينتين من هذه العشرة السجع المتوازي.

الثاني والعشرون: وراقب في يومه غده: أي توقّع في أيام حياته هجوم آخرته.

الثالث والعشرون: ونظر قدماً أمامه: أي لم يلتفت في نظره عن قصد الله إلى غيره. ثمّ نبّه بقوله: فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً. على وجوب السعي لها دون غيرها، ثمّ تكون النار وبالاً وعقاباً على وجوب الهرب منها دون غيرها، وكفى بالله منتقماً ونصيراً على وجوب الاقتصار على خشيته والاستعانة به، وبقوله: وكفى بالكتاب حجيجاً: أي محتجاً وخصيماً على وجوب الانفعال عنه وملاحظة شهادته في الآخرة على من لم يتبعه. ونسب الاحتجاج والخصام إلى الكتاب مجازاً، والمنصوبات بكفى على التميز.

وقوله: أوصيكم بتقوى الله.

عود إلى الحث على تقوى الله باعتبار أمور ثلاثة:

أحدها: إعذاره إلى الخلق بما أنذرهم به من العقوبات.

الثاني: احتجاجه عليهم بما أوضحه بالدلائل والبيّنات.

الثالث: تحذيره لهم إبليس وعداوته، وقد سبق معناه في الخطبة الأولى. وذكر له أوصافاً هي كونه نفذ في الصدور خفيّاً. والإشارة به إلى النفس الأمارة بالسوء، وتجوّز بلفظ الصدور في القلوب إطلاقاً لاسم المكان على المتمكن، وكونه نفث في الآذان نجيّاً. وهو إشارة إلى ما تلقيه شياطين الإنس بعضهم إلى بعض من زخرف القول وغروره. وقد سبق ذلك في الخطبة الأولى، وكونه أضل: أي جذب عن طريق الحق وأردى: أي فأرداهم في قرار الجحيم، ووعد ومنّى: أي ببلوغ

الآمال الكاذبة، وزيّن سيئات الجرائم: أي قبائح المعاصي، وهوّن موبقات العظائم: أي ما يهلك من عظيم الذنوب. وتهوينه لها بمثل تمنّيه التوبة ومساعدة العقل له بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] وبمثل الاقتداء بالغير الذي هو أولى بالعفة مثلاً أو أكثر قدراً في الدنيا، وسائر أوصاف الوساوس كما عرفت حقيقتها.

وقوله: حتّى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته.

فقرينته هي النفس الناطقة باعتبار موافقته وهي رهينته باعتبار إحاطة الذنوب بها من قبله كما يستغلق الرهن بما عليه من المال ولفظ الرهينة مستعار. واستدراجه لها تزيينه حالاً بعد حال وتعويدها بطاعته.

وقوله: أنكر ما زيّن. إلى آخره.

إشارة إلى غايته من وسوسته وعود من النفس الأمارة بالسوء إلى موافقتها لحكم العقل في قبح ما كانت أمرت به، واستعظام خطره ومساعدتها على التحذير منه بالامتناع من تحسينه بعد أن كانت تحثّ عليه وتزيّنه وتؤمن منه. وذلك إما عند التوبة وقهر العقل لها أو عند معاينة المكروهات الجزئية من العقوبات والآلام إما في الدنيا أو بعد المفارقة والحصول في عذاب الجحيم بسبب الانهماك فيما كانت زيّنته من الباطل، وذلك أن النفس إذا فارقت البدن حملت معها القوة المتوهّمة فتدرك ما يلحقها من جزئيات العقوبات كعذاب القبر وما يتنوع منه كما سبقت الإشارة إليه، وقد يتصور ذلك من شياطين الإنس في تزيينهم الجرائم، وأما من الشيطان الظاهر فظاهر.

ومنها في صفة خلق الإنسان، وفي هذا الفصل فصلان.

الفصل الأول قوله:

أَمْ هٰذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَشُغُفِ الأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً، وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً، وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً، وَيَافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِسَاناً لَافِظاً، وَبَصَراً لَاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً؛ حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وَخَبَطَ سَادِراً، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ؛ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً. دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِراً، وَبَاتَ سَاهِراً، فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، وَلَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً؛ وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِيَةٍ وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ.

ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ، وَنِضْوَ سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ، وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ، إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ، وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ؛ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ الْامْتِحَانِ.

وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ، لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، وَلَا سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ وَعَذَابِ السَّاعَاتِ! إِنَّا بِاللهِ عَائِذُونَ!

أقول: أعلم أن مدار هذا الفصل على وصف حال الإنسان من مبدأ عمره بالنقصان وبيان نعم الله بترديده في أطوار الخلقة، وتبكيته بمقابلة نعمه بالكفر والغفلة في متابعة الشيطان، وتذكيره بما يكون غايته من حياة الدنيا وهو الموت، وما يتبعه من أحوال الميت بين أهله وأقاربه، وحالهم معه، وما يكون بعد الموت من العذاب في القبر والسؤال والحساب وسائر ما ينفّر طبعه منه، ويوجب له الالتفات إلى إصلاح معاده وتذكير مبدئه لعله يتذكر أو يخشى.

والشغف بالغين المعجمة: جمع شغاف بالفتح وهو

غلاف القلب. والدفاق: المفرغة. والمحاق: الناقصة. واليافع: الغلام المرتفع. والسادر: اللاهي الذي لا يهتم بشيء. والماتح: الجاذب للدلو من البئر. والبدوات: الخطرات التي تبدو: أي تظهر للخاطر. ودهمه بالكسر: أي غشيه. وغبر شيء: بقيته. وجماحه: سعيه في ركوب هواه. والسادر ثانياً: المتحيّر. واللدم: ضرب الصدر. وكارثة: موجبة لشدة الغم. والإبلاس: اليأس. والرجيع: من الإبل المردّد في الأسفار. والنضو: الذي قد هزلته. وحفدة الولدان: أعوانهم. والحشدة بفتح الحاء والشين: المجتمعون. والتفجّع: التوجع.

وفي تفصيل هذا الفصل نكت:

الأولى: أم للاستفهام. وهو استفهام في معرض التقريع للإنسان وأمره باعتبار حال نفسه، ودلالة خلقته على جزئيات نعم الله عليه مع كفرانه لها. وكان أم معادلة لهمزة الاستفهام قبلها، والتقدير أليس فيما أظهره الله لكم من عجائب مصنوعاته عبرة؟ أم هذا الإنسان وتقلّبه في أطوار خلقته، وحالاته إلى يوم نشوره؟ كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وفي بعض النسخ: أو هذا. والمعنى واحد.

اعلم أنّ في ملاحظة خلقه الإنسان وما جمع فيها من لطائف الأسرار عبرة تامة حتّى كان عالماً مختصراً كما أومأنا إليه قبل، وسيأتي.

الثانية: قيل أول أحوال تكون الإنسان زبديّة المنيّ، وانتفاخ يظهر فيه فينمو به، وأوّل ما يتكون فيه وعاء الروح بفعل الملك المصور ثمّ تحدث ريح من قبل الطبيعة فتثقب ثقباً أمام فوهات العروق بحيث إذا تخلّقت محسوسة صارت عروقاً ثمّ يبسط النطفة في أقطارها وتحدث في الغشاء ثقباً موازية لثقب العروق التي في الرحم ينفتح عند الحيض، ويحصل لجميعها مجاري في الغشاء المذكور يؤدي إلى مجرى واحد نافذ إلى عمق النطفة مؤدياً إلى باطنه الدم في عرقين أو عرق والنفس في عرقين فإذا تخلّقت هذه المجاري امتصّت النطفة حينئذ الغذاء من فوهات تلك العروق، ونفذ في الصفاق دم يستحيل عن قريب إلى جوهر المنيّ وحدث لها خطوط لها مبادئ دموية، ونقطة أولى هي القلب ثمّ لا تزال الدموية تزداد في النطفة حتّى تصير علقة وتكون مثل الرغوة في الأكثر لستة أيام، وابتداء الخطوط الحمر والنقطة بعد ثلاثة أيام أخرى ثمّ بعد ستة أيام وهو الخامس عشر من حين العلوق تنفذ الدموية في الجميع فتصير علقة، وبعد ذلك بإثني عشر يوماً تصير لحماً وتتميّز قطعة لحم المضغة وتميّز الأعضاء الرئيسة، وتمتد رطوبة النخاع، ثمّ بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن تميزاً يحسّ به في بعضهم ويخفى في بعض حتّى يحس به بعد أربعة أيام أخرى تمام الأربعين فيصير جنيناً، وقد يتم ذلك في ثلاثين يوماً وقد يتم في خمس وأربعين يوماً وقيل: العدل في ذلك خمسة وثلاثون يوماً فيتحرك في سبعين يوماً، ويولد في مائتين وعشرة أيام وذلك سبعة أشهر، وإذا كان الأكثر لخمسة وأربعين يوماً فتحرّك في تسعين يوماً، ويولد في مائتين وسبعين يوماً، وذلك تسعة أشهر فهذه إشارة إلى تنقّله في ظلمات الرحم بتدبير الملك المقتدر وواسطة الملك المصوّر، ولو كشف الغطاء لرأينا هذا التخطيط والتصوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً مع أنّا لا نرى المصور ولا آلته. فسبحان المقتدر على ما يشاء.

الثالثة: إنما وصف العلقة بالمحاق لأنها لم تفض عليها بعد صورة شخص الإنسان فهي بعد منمحقة.

الرابعة: الولد ما دام يرضع فهو رضيع، وبعده وليد، فإذا ارتفع قيل: يافع. فإذا طرّ شاربه فهو غلام، فإذا أدرك فهو رجلٌ، وللرجولية ثلاثة حدود: الشباب وهو إلى تمام النمو، وبعده الكهولة، وبعدها الشيخوخة.

الخامسة: ذكر الحفظ للقلب واللفظ للسان واللحظ للبصر بيان لفوائدها، ثمّ ذكر غاية تلك الفوائد ومقصودها، وهو أن يفهم الإنسان معتبراً أي يستنبط من شواهد آلاء الله دلائل وحدانيته وسائر نعوت جلاله ويعبر فيها إلى استكمال الفضائل النفسانية ويقصر مزدجراً: أي يكفّ عما لا ينبغي من موبقات الأيام وعن الخوض فيما لا يعنيه مزدجراً عنها.

السادسة: قوله حتّى إذا قام اعتداله واستوى مثاله نفر مستكبراً إلى آخر الأوصاف. ربما يعترض أحدهم فيقال: إنّ كثيراً من الناس لا يكون بهذه الصفة وحينئذ لا تصدق عليهم هذه الأحكام. فجوابه: أن إشارته عليه السلام إلى الإنسان المطلق الذي هو في قوة البعض لا الإنسان العام، وذلك أنّ الأوصاف المذكورة إذا صدقت على المطلق فقد صدقت على بعض الناس، وذلك البعض هم العصاة المرادون بهذه الأوصاف، والتوبيخ بها لهم، وفيه تنبيه للباقين على وجوب دوام شكر الله والبقاء على امتثال أوامره ونواهيه.

السابعة: ماتحاً في غرب هواه. لما استعار لفظ الغرب لهواه الذي يملأ به صحائف أعماله من المآثم كما يملأ ذو الغرب غربه من الماء رشح تلك الاستعارة بذكر المتح.

الثامنة: المنصوبات العشرون: نطفة وعلقة وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً ومعتبراً ومزدجراً ومستكبراً وسادراً وماتحاً وكادحاً وغريراً ومبلساً ومنقاداً وسلساً ورجيع وصب ونضو سقم ونجياً. كلها أحوال، والعامل في كل حال ما يليه من الأفعال وسيعاً إما مفعول به والعامل كادحاً أو مصدر استغنى عن ذكر فعله، ويسيراً صفة ظرف محذوف أُقيمت مقامه: أي زماناً يسيراً، وروي أسيراً فعلى هذا يكون حالاً، وجزعاً وقلقاً وتقيّة مفعول له، واستعار أسيراً للعاصي على الرواية الثانية، ووجه المشابهة أن صاحب الزلّة يقوده هواه إلى هوانه كما يقاد الأسير إلى ما يكره.

التاسعة: لم يفد عوضاً: أي لم يستفد في الدنيا عوضاً مما يفوته منها في الآخرة، والعوض الذي ضيّعه هو الكمالات التي خلق ليستفيدها وفرضت عليه من الطاعات ولم يقضها من العلوم والأخلاق.

العاشرة: الواو في المرء للحال والعامل لادمة. والأنّة الموجعة أي لقلوب الواجدين عليه والجذبة المكربة: أي جذب الملائكة للروح كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فينسل روحه كما تسلّ الشعرة من العجين ويقال: أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية إلى روح الله وكرامته فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليه الحريرة وبعث بها إلى علّيين، وإنّ الكافر إذا احتضر أمر الله الملائكة بمسح فيه جمرة فنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال: أيتها النفس الخبيثة ارجعي ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وكان لها نشيش، ويطوى عليها ذلك المسح، ويذهب بها إلى سجّين.

واعلم أن تلك الجذبة تعود إلى ما يجده الميت حال النزع وهو عبارة عن ألم ينزل بنفس الروح يستغرق جميع أجزائه المنتشرة في أعماق البدن وليس هو كسائر ما تجده الروح المختصّ ببعض الأعضاء كعضو شاكته شوكة ونحوه لاختصاص ذلك بموضع واحد، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه وهو المجذوب من كل عرق وعصب وجزء من الأجزاء ومن أصل كل شعرة وبشرة. ولا تسألنّ عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، وقد يمثّل ذلك بشجرة شوك كانت داخل البدن ثمّ جذبت منه فهي الجذبة المكربة، ولما كان موت كل عضو من البدن عقيب الأمراض التي ربما طالت تدريجاً فتلك هي السوقة المتعبة.

الحادية عشرة: قوله: رجيع وصب ونضو سقم استعار له وصفي الجمل، فالرجيع باعتبار كونه قد ردّد في أطوار المرض وتواتر عليه كما يردد الجمل في السفر مرة بعد أُخرى، ولفظ النضو باعتبار نحوله من الأسقام كما ينحل الأسفار الجمل.

الثانية عشرة: قوله: أُقعد في حفرته نجيّاً لبهتة السؤال إلى آخره.

أقول: القول بعذاب القبر وسؤال منكر ونكير حق روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعمر: يا ابن الخطاب، كيف بك إذا أنت متّ فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثمّ رجعوا إليك فغسلوك وكفّنوك ثمّ احتملوك حتّى يضعوك فيه ثمّ يهيلوا

عليك التراب فيدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر منك ونكير، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويحيثان القبر بأنيابهما فيبلبلانك ويزلزلانك فيقولان لك: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ كيف بك عند ذاك يا عمر؟ فقال عمر: فيكون معي عقلي الآن؟ قال صلى الله عليه وآله: نعم، قال: فإذن أكفيهما. وفي وصفهما عنه صلى الله عليه وآله أنهما ملكان أسودان أزرقان أحدهما منكر والآخر نكير.

واعلم أنّ الإيمان بما جاء من ذلك على ثلاث مراتب:

أحدها: وهو الأظهر الأسلم أن يصدّق بأنها موجودة وأن هناك ملكين على الصورة المحكية، وحيات وعقارب تلدغ الميت، وإن كنّا لا نشاهدها إذ لا تصلح هذه العين لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت كما كان الصحابة يؤمنون بنزول جبرائيل، وكان النبي صلى الله عليه وآله يشاهده وإن لم يكونوا يشاهدونه، وكما أن جبرائيل لا يشبه الناس فكذلك منكر ونكير وفعلهما والحيّات والعقارب في القبر ليس من جنس حيّات عالمنا. فتدرك بمعنى آخر.

المقام الثاني: أن يتذكر ما قد يراه النائم من صورة شخص هائل يضربه أو يقتله أو حية تلدغه وقد يتألم بذلك حتّى تراه في نومه يصيح ويعرق جبينه وينزعج من مكانه كل ذلك يدرك من نفسه ويشاهده ويتأذّى به كما يتأذى اليقظان وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حوله شخصاً ولا حيّة، والحية موجودة في حقه متخيّلة له ولا فرق بين أن يتخيّل عدواً أو حية أو يشاهده.

المقام الثالث: أن تعلم أنّ منكراً ونكيراً وسائر أحوال القبر غايته الإيلام والمؤلم في حقه ليس هو الشخص المشاهد ولا الحية، بل ما حصل فيه من العذاب. فالنفس العاصية إذا فارقت البدن حملت القوة المتخيّلة معها ولم يتجرّد عن البدن منزهة عن الهيئات البدنية والأخلاق الرديئة المهلكة من الكبر والرياء والحسد والحقد والحرص وغيرها، وهي عند الموت عالمة بمفارقة البدن متوهمة لنفسها الإنسان الذي مات وعلى صورته كما كان في الرؤيا يتخيّل ويتوهم بدنها مقبورة ويتخيّل الآلام الواصلة إليها عن كل خلق رديء على سبيل العقوبة الحسية لها كما قررته الشريعة الصادقة، وانغرس في الأذهان عنها على صورة شخص منكر هائل الصورة يعنفه في السؤال ويبهته بسوء منظره وهول أصواته ويمتحنه فيتلجلج لسانه فيضربه ويعذبه، وعلى مثال تنّين يلدغه، وإن كانت النفس سعيدة تخيّلت اللذات الحاصلة لها من كل خلق حسن وعمل صالح قدمته في صورة ملائمة فوق ما كانت تعتقده مما كان وصف لها من صور أشخاص بهية يدخل عليهم ويتلقاهم بالبشارة كمبشر وبشير وسائر الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن فسحة القبر والروح والريحان وسائر ما وعد فيه. فهذا عذاب القبر وثوابه وإليه الإشارة بقول الرسول صلى الله عليه وآله: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

فإن قلت: لم جعل أول داخل على الإنسان في قبره سواء كان سعيداً أو شقياً ملكين ولم يكن ثلاثة أو واحد مثلاً.

قلت: قال بعض العلماء: إنه لما كانت السعادة والشقاوة الحاصلتين للنسف إنما يحصل من جهة قوتين نظرية وعملية بهما جعل ما يكتسب عن كل واحدة منهما ملكاً. فإن كان المكتسب جهلاً مركباً ورذائل أخلاق فمنكر ونكير وإن كان علماً ومكارم فمبشر وبشير. والله أعلم بأسرار شريعته.

واعلم أنك متى تصورت معنى ثواب القبر وعذابه في المقامات تصورت معنى ثواب الجنة وعذاب النار.

الثالثة عشرة: قوله لا فترة مزيحة لا قوة حاجزة يجري مجرى آيات الوعيد الناطقة بالتخليد، وهي مخصوصة بالكفّار الذين لا مسكة لنفوسهم بعالم الملكوت ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥] وأما أنه ليس لهم قوة حاجزة فلأن القوة الحاجزة بينهم وبين العذاب مفقودة في حقهم وهي المسكة بالله تعالى ومحبة الالتفات إلى عالم الغيب والملأ الأعلى، وأما عدم الموتة الناجزة فلأن الإنسان غير قابل للفناء مرة أُخرى كما علم ذلك في موضعه،

وأما سلب السنة عنهم إشارة إلى شدة آلامهم، وما يلقونه من أليم العذاب لما أن الألم الشديد يستلزم عدم النوم فلا سلوة إذن بين حالات سكرات العذاب، وإطلاق لفظ الموتات مجاز في شدة العذاب إطلاقاً لذي الغاية على ما يصلح غاية له وقد لاحظ في أكثر هذا الفصل السجع المتوازي. وبالله التوفيق.

الفصل الثاني قوله:

عِبَادَ ٱللَّهِ، أَيْنَ ٱلَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا! أُمْهِلُوا طَوِيلاً، وَمُنِحُوا جَمِيلاً، وَحُذِّرُوا أَلِيماً، وَوُعِدُوا جَسِيماً! ٱحْذَرُوا ٱلذُّنُوبَ ٱلْمُوَرِّطَةَ، وَٱلْعُيُوبَ ٱلْمُسْخِطَةَ.

أُولِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ، وَٱلْعَافِيَةِ وَٱلْمَتَاعِ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ! أَمْ لَا؟ ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ!﴾ أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ! أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ! وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الأَرْضِ، ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ، قِيدُ قَدِّهِ، مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ! ٱلآنَ عِبَادَ اللهِ وَٱلْخِنَاقُ مُهْمَلٌ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ، فِي فَيْنَةِ ٱلْإِرْشَادِ، وَرَاحَةِ ٱلأَجْسَادِ، وَبَاحَةِ ٱلإِحْتِشَادِ، وَمَهَلِ ٱلْبَقِيَّةِ، وَأُنُفِ ٱلْمَشِيَّةِ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ، وَٱنْفِسَاحِ ٱلْحَوْبَةِ، قَبْلَ الضَّنْكِ وَٱلْمَضِيقِ، وَالرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ، وَقَبْلَ قُدُومِ ٱلْغَائِبِ ٱلْمُنْتَظَرِ، وَإِخْذَةِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمُقْتَدِرِ.

أقول: ورّطته في الأمر: خلصته فيه. والمناص: الملجأ. والمحار: المرجع. وأفك: صرف. وقد قده: مقدار قامته. والمعفر: المترب. والعفر: التراب. والفينة: الحين. وأنف الشيء: أوله. والحوبة: الحاجة والمسكنة. والضنك: الضيق. وفي هذا الفصل فوائد:

الأولى: التنبيه والتقريع على كفران جملة من نعم الله، فمنها أن عمّرهم فنعموا، وعلمهم ففهموا، وأنظرهم وسلّمهم من الآفات وأمهلهم طويلاً، ومنحهم الجميل، وحذّرهم أليم العذاب، ووعدهم وعداً حسناً. ومن كفرانهم لتلك لنعمة أن اشتغلوا بلذات الدنيا عن أوامره ولهوا عن الالتفات إليه ونسوا ما ذكرهم به ودعاهم إليه.

الثانية: التحذير من الذنوب المورطة في موارد الهلكة وأنواع العذاب ثمّ من العيوب المسخطة لله وهي اكتساب رذائل الأخلاق.

الثالثة: تنبيه أولي الأبصار والأسماع والعافية والمتاع في الدنيا على أنه لا مناص: أي من أمر الله، ولا خلاص: أي من عذابه لمن حصل فيه، وكذلك لا معاذ ولا ملاذ منه لمن استعدّ له. ولا فرار: أي من حكمه، ولا مرجع: أي بعد الموت. وإنما خصّ أولي الأبصار والأسماع والعافية لكونهم أهل التكاليف التامة، والعقول داخلة في إشارته إما بالأبصار والأسماع مجازاً أو في العافية، وإنما خصّ أولي المتاع لأن أهل الاستمتاع بالدنيا هم المجذوبون عنها من جهة اشتغالهم بمتاعها عن سلوك سبيل الله، وهل استفهام عن الأمور المذكورة على سبيل الإنكار لها ثمّ استفهمهم عن وقت صرفهم، وعن مكان ذلك على سبيل التقريع لهم، ثمّ عما يعتذرون به بعد لقاء الله في ترك أوامره على سبيل الإنكار للأعذار أيضاً. وأم معادلة لهل الاستفهامية.

الرابعة: التذكير بأمر القبر وتعفير الخد فيه مما هو منفور عنه طبعاً وفيه تبينه على وجوب الانتهاء عن الاستكثار من قينات الدنيا وجناتها لوجوب مفارقتها وأنه لا نصيب للمجد في تحصيلها منها إلاّ مقدار قامته وهو كناية عن قبره.

الخامسة: التنبيه على وقت العمل والأحوال التي يمكنهم فيها. وكنّى بالآن عن زمان الحياة الدنيا، وبالخناق عما تؤخذ به أعناق النفوس إلى بارئها وهو الموت كناية بالمستعار، ووجه المشابهة كون كل واحد منهما مكروهاً يقاد به إلى مكروه ورشح الاستعارة بذكر الإهمال، وكنى به عن مدة الإمهال في الحياة الدنيا وكذلك أراد بإرسال الروح إهمالها، ويكون ذلك الإرسال في فينة الارتياد: أي في زمان ارتياد النفوس وطلبها لما تستعد به من الكمال للقاء الله. وروي الإرشاد: أي إرشاد النفوس إلى سبيل الله وجهة السعادة الأبدية وكذلك مهل البقية: أي بقية الأعمار.

السادسة: قوله: وأنف المشية: أي أول الإرادات للنفوس، وذلك أنه ينبغي أن يكون أول زمان الإنسان وأوائل ميول قلبه إلى طاعة الله والانقياد لأوامره ليكون ما يرد على لوح نفسه من الكمالات المسعدة في الآخرة وارداً على لوح صاف عن كدر الباطل وأنه متى عكس ذلك فجعل أوائل ميوله وإرادته لمعاصي الله تسوّد وجه نفسه بملكات السوء فلم يكد يقبل بعد ذلك الاستضاءة بنور الحق فكان من الأخسرين أعمالاً.

السابعة: إنظار التوبة: إمهال الله العصاة لأجلها ولما كان غرض العناية الإلهية سوق كل ناقص إلى كماله حسن أن يعبر عن بقاء العاصي بأنه إنظار للتوبة.

الثامنة: وانفساح الحوبة: اتساع زمان العمل للحاجة في الآخرة. والإضافة يكفي فيها أدنى ملابسة، وذلك أن كل حاجة فرضها الإنسان في الدنيا فقد لا تكون في محل الضرورة، والضيق الكلي منها، وإن كانت في محل الضرورة لكنها في مظنة أن يرجى زوالها بخلاف الحاجة والضرورة في الآخرة إلى صالح الأعمال فإنها لا يمكن زوالها بعد المفارقة ولا متسع للعمل إلاّ في الدنيا وكان أهلها منها في أشد ضرورة وأضيق حال وأقبح صورة، وأشار بالضنك والضيق إلى انحصار الإنسان في أغلال الهيئات البدنية وسجن جهنم، وبالروع والزهوق إلى الفزع الأكبر من أهوال الموت وما بعده.

التاسعة: الغائب المنتظر: كناية عن الموت، وقدومه: هجومه، ولما استعار له لفظ الغائب مراعاة لشبهه بمسافر ينتظر رشح تلك الاستعارة بلفظ القدوم.

العاشرة: أخذة العزيز المقتدر: جذب الأرواح بحكم قدرة الله العزيز الذي لا يلحقه إذلال قاهر، المقتدر الذي لا امتناع له لقدرة قادر. وبالله التوفيق.

٨٤ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر عمرو بن العاص

عَجَباً لاِبْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي ٱمْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ، أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً. أَمَا ـ وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَخُونُ ٱلْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ ٱلإِلَّ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ ٱلْقِرْمَ سُبَّتَهُ.

أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ ٱللَّعِبِ ذِكْرُ ٱلْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَقِّ نِسْيَانُ ٱلآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.

أقول: نبغ الشيء: ظهر وسميت أم عمرو النابغة لشهرتها بالفجور وتظاهرها به. والدعابة: المزاح. والتلعابة: كثير اللعب والتاء للمبالغة. والمعافسة: المداعبة. والممارسة: المعالجة بالمصارعة والقرص ونحوه. والإلّ: القرابة. وسبّته: سوءته. والأتيّة: العطية والوزن واحد وكذلك الرضيخة.

واعلم أن في هذا الفصل ثلاثة فصول:

الأول: ذكر دعوى عمرو في حقه عليه السلام من كونه لعاباً مزاحاً يكثر المعالجة بالمصارعة وذكر هذه الدعوة مصدرة بالتعجب من صدورها في حقه مختومة بالكذب لمدعيها، والرد لمقاله وذلك قوله: عجباً إلى قوله: ونطق آثماً وباطلاً وصف للمصدر، وآثماً حال وإنما كني عنه بأمه لأن من عادة العرب النسبة إلى الأم إذا كانت مشهورة بشرف أو خسة ونحوها.

واعلم أنه عليه السلام قد كان يصدر عنه المزاح بالقدر المعتدل الذي لا يخرج به إلى حدّ رذيلة الإفراط فيه. فمن ذلك ما روي أنه كان جالساً يوماً على ربوة من الأرض، وكان أبو هريرة جالساً معه وأخذ منه لغتة وحذفه بنواة فالتفت إليه أبو هريرة فتبسم عليه السلام فقال أبو هريرة: هذا الذي أخرك عن الناس، وقد علمت أن ذلك من توابع حسن الخلق ولين الجانب فهو إذن فضيلة وليس برذيلة والمدّعى لعمرو إنما هو عبوره في ذلك إلى حد الإفراط الذي يصدق عليه أنه لعب وهزل، وروي أنه كان يقول لأهل الشام:

إنّا إنما أخرنا علياً لأن فيه هزلاً لا جدّ معه ونحوه ما كان يقوله أبوه العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله إنه لساحر ومن أشبه أباه فما ظلم، وتكذيبه عليه السلام لعمرو إنما هو فيما ادّعاه من الخروج إلى اللعب، وأما أصل المزاح فلم ينكره، وكيف وقد كان يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، كما روي أنه قال يوماً لعجوز: إن العجائز لا يدخلنّ الجنة فبكت فتبسم وقال إن الله يجعلهنّ شواب ثمّ يدخلهنّ الجنة وأهل الجنة شباب جرد مرد وإن الحسن والحسين عليهما السلام. سيدي شباب أهل الجنة. وكان يقول: أمزح ولا أقول إلاّ حقاً.

الثاني: قوله: أما وشرّ القول إلى قوله سبّته ويشتمل على ذكر ما اجتمع في هذا المدعي من الرذائل التي توجب فسقه وسقوط دعواه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] الآية. وذكر من تلك الرذائل خمساً.

الأول: الكذب وظاهر كونه شر القول وأنه مفسدة مطلقة في الدين والدنيا أما الدين فللمنقول والمعقول أما المنقول فقول الرسول صلى الله عليه وآله الكذب رأس النفاق، وأما المعقول فلأن الوجدان شاهد بأن الكذب مما يسوّد لوح النفس ويمنعه أن ينتقش بصور الحق والصدق ويفسد المنامات والإلهامات، وأما الدنيا فلأنه سبب عظيم لخراب البلاد وقتل النفوس وسفك الدماء وأنواع الظلم ولذلك اتفق أهل العالم من أرباب الملل وغيرهم على تحريمه وادعى المعتزلة قبحه بالضرورة وهو رذيلة مقابلة للصدق داخلة تحت رذيلة الفجور.

الثانية: الخلف في الوعد.

الثالثة: الغدر في العهد وخيانته وهما رذيلتان مقابلتان للوفاء داخلتان تحت رذيلة الفجور أيضاً والغدر يستلزم رذيلة الخبث وهو طرف الإفراط من فضيلة الذكاء وهما يستلزمان الكذب أيضاً.

الرابعة: قطع الرحم وهي رذيلة الإفراط من فضيلة صلة الرحم وحقيقتها عدم مشاركة ذوي اللحمة في الخيرات الدنيوية وهي رذيلة تحت الظلم مستلزمة للبخل.

الخامسة: رذيلة الجبن وهي طرف التفريط من فضيلة الشجاعة ونبه عليها بقوله: فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو إلى قوله: سبّته، وفيه تنبيه على دناءة همته ومهانة نفسه إذ لو كان عليّ الهمة شهم النفس لا يفرّ من قراع الأقران إلى التخلّص من الموت بأقبح فعل يكون من كشف سوءته وبقاء ذلك سبّة في عقبه على مرور الدهور. والدناءة والمهانة رذيلتان تحت الجبن.

وقوله: فأي زاجر وآمر.

هو استفهام على سبيل التعجب والمبالغة في أمره ونهيه وذكره في معرض الذم هنا وإن كان من الممادح لغرض أن يردفه برذيلته ليكون ذلك خارجاً مخرج الاستهزاء فيكون أبلغ وقعاً في النفوس وأشد عاراً عليه إذ كان الأمر والنهي في الحرب إنما يحسن ممن يشتهر بالشجاعة والإقدام لا ممن يأمر وينهى فإذا اشتد القتال فرّ فرار الحمار من السبع واجتهد في البقاء، ولو بأقبح مذمة فإن عدم الأمر والنهي والخمول بمثل هذا أليق وأولى من وجودها وكأن أبا الطيب حكى صورة حاله إذ قال.

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا

وأما صورة هذه الرذيلة منه فروي أن علياً عليه السلام حمل عليه في بعض أيام صفين فلما تصور أنه قاتله ألقى نفسه عن فرسه وكشف سوءته مواجهاً له عليه السلام فلما رأى ذلك منه غضّ بصره عنه وانصرف عمرو مكشوف العورة ونجا بذلك فصار مثلاً لمن يدفع عن نفسه مكروهاً بارتكاب المذلّة والعار، وفيه يقول أبو فراس.

لا خير في دفع الأذى بمذلة
كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

وروي مثل ذلك لبسر بن أرطاة معه فإنه عليه السلام حمل على بسر فسقط بسر على قفاه ورفع رجليه فانكشفت عورته فصرف عليه السلام وجهه عنه فلما قام سقطت البيضة عن رأسه فصاح أصحابه يا أمير المؤمنين إنه بسر بن أرطاة فقال: ذروه - لعنه الله - فلقد كان معاوية أولى بذلك منه. فضحك معاوية وقال: لا عليك يا بسر ارفع طرفك ولا تستحِ فلك بعمرو أسوة، وقد أراك الله منه

وأراه منك. فصاح فتى من أهل الكوفة: ويلكم يا أهل الشام أما تستحيون لقد علمكم عمرو كشف الأستار ثمّ أنشد:

أفي كل يوم فارس ذو كريهة
له عورة وسط العجاجة بادية
يكف لها عنه عليٌّ سنانه
ويضحك منها في الخلاء معاوية
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه
وعورة بسر مثلها حذو حاذية
فقولا لعمرو وابن أرطاة ابصرا
نشدتكما لا تلقيا الليث ثانية
ولا تحمدا إلاّ الحيا وخصاكما
هما كانتا والله للنفس واقية
ولولاهما لم تنجوا من سنانه
وتلك بما فيها عن العود ناهية

وكان بسر ممن يضحك من عمرو فصار ضحكة له أيضاً.

الثالث: بيان وجه فساد مدعى عمرو في حقه وهو مستند المنع وذكر وجهين:

أحدهما: يرجع إليه وهو أنه عليه السلام دائم الذكر للموت والتفكر في أحوال المعاد والوجدان شاهد بأن المستكثر من إخطار الموت عليه يكون أبداً قصير الأمل وجلاً من الله مترصداً لهجوم الموت عليه مشغولاً بذلك عن الالتفات إلى حظ الشهوات من اللعب ونحوه فكيف يتصور اللعب ممن هذه حاله.

الثاني: يرجع إلى حال عمرو وهو أنه ممن نسي الآخرة، وظاهر أن نسيانها مستلزم للكذب وسائر وجوه خداع أبناء الدنيا من المكر والحيلة وما لا ينبغي من مناهي الله، ومن كانت هذه حاله كيف يوثق بقوله، ثمّ نبه بقوله: ولم يبايع معاوية. إلى آخره على بعض لوازم نسيان الآخرة، وهو أخذه لبيعته وقتاله مع الإمام الحق الذي يخرج به عن ربقة الدين عوضاً وثمناً. وتلك العطية هي مصر كما سبقت الإشارة إليه. وبالله العصمة والتوفيق.

٨٥ - ومن خطبة له عليه السلام

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ: الأَوَّلُ لاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ لاَ غَايَةَ لَهُ، لاَ تَقَعُ الأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلا تَعْقِدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلاَ تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ، وَلاَ تُحِيطُ بِهِ الأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ.

أقول: هذا الفصل يشتمل على إثبات ثماني صفات من صفات الجلال:

الأولى: الوحدانية مؤكدة بنفي الشركاء وذلك قوله: لا شرك له. وقد أشرنا إلى معقد البرهان العقلي على الوحدانية، ولما لم تكن هذه المسألة مما يتوقف إثبات النبوة عليها جاز الاستدلال فيها بالسمع كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

الثانية: إثبات كونه أولاً غير مسبوق بالغير.

الثالثة: إثبات كونه آخراً غير منته وجوده إلى غاية يقف عندها. وقد سبق البحث عنهما مستقصى ونفي قبلية شيء له والغاية عنه تأكيدان.

الرابعة: من السلوب أنه لا تلحقه الأوهام فيقع منه على صفة. وقد علمت فيما سبق أن الأوهام لا يصدق حكمها إلاّ فيما كان محسوساً أو متعلقاً بمحسوس فأما الأمور المجردة من علائق المادة والوضع فالوهم ينكر وجودها أصلاً فضلاً عن أن يصدّق في إثبات صفة لها، وإنما الحاكم بإثبات صفة له العقل الصرف، وقد علمت أن ما يثبته منها ليست حقيقة خارجية. بل أموراً اعتبارية محدثها عقولنا عند مقايسته إلى الغير، ولا يفهم من هذا أنه أثبت له صفة بل معناه أن الأوهام لا يصدق حكمها في وصفه تعالى.

الخامسة: كونه تعالى لا يعقل له كيفية يكون عليها؛ وبيان ذلك ببيان معنى الكيفية فنقول: إنّها عبارة عن هيئة قارة في المحل لا يوجب اعتبار وجودها قسمة ولا نسبة، ولما بيّنا أنه تعالى ليس له صفة تزيد على ذاته، وهي محلّ لها استحال أن يعقد القلوب منه على كيفية.

السادسة: كونه تعالى لا تناله التجزئة والتبعيض، وهو إشارة إلى نفي الكمية عنه إذ كانت التجزئة والتبعيض من لواحقها، وقد علمت أن الكم من لواحق الجسم والباري تعالى ليس بجسم وليس بكم فليس بقابل للتبعيض والتجزئة ولأن كل قابل لهما منفعل من غيره والمنفعل عن الغير ممكن على ما مرّ.

السابعة: كونه تعالى لا تحيط به الأبصار وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهذه المسألة مما اختلف فيها علماء الإسلام وقد سبق فيها الكلام. وخلاصته: أن المدرك بحاسة البصر بالذات إنما هو الالوان والأضواء وبالعرض المتلوّن والمضيء ولما كان اللون والضوء من خواص الجسم وكان تعالى منزهاً عن الجسمية ولواحقها وجب كونه منزهاً عن الإدراك بحاسة البصر.

الثامنة: كونه تعالى لا تحيط به القلوب، والمراد أن العقول البشرية قاصرة عن الإحاطة بكنه ذاته المقدسة وقد سبق تقرير ذلك. وبالله التوفيق.

ومنها: فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ، وَاعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ، وَازدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاَئِقُ الأُمْنِيَّةِ، وَدَهِمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدِ الْمَوْرُودِ، فَـ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا.

أقول: الآي: جمع آية. والساطع: المرتفع. والنذر: جمع نذير. ومفظعات الأمور: شدائدها. والورد: المورد. وفي هذا الفصل فوائد:

الأولى: الأمر بالاتعاظ بالعبر النوافع، واسم العبرة حقيقة في الاعتبار، وقد يطلق مجازاً فيما يعتبر به، ويحتمل أن يراد هاهنا إطلاقاً لاسم الحال على المحل وللاتعاظ سبب وحقيقة وثمرة وأما سببه فالنظر في آثار الماضين وتدبر قصصهم وتصريف قضاء الله وقدرته لأحوالهم وهو الاعتبار، وأما حقيقته فالخوف الحاصل في نفس المعتبر من اعتباره وتأثره عن أن يلحقه ما لحقهم إذ هو مثلهم وأولى بما لحقهم، وأما ثمرته فالانزجار عن مناهي الله وإجابة داعيه والانقياد لسلوك سبيله.

الثانية: الأمر بالاعتبار بالآي السواطع وهو إرداف للأمر بالاتعاظ بالأمر بسببه وأراد بالآي آيات آثار الله وعجائب مصنوعاته أو آيات القرآن المعذرة والمنذرة، واستعار لها لفظ السطوع، ووجه المشابهة ظهور إشراق أنوار الحق منها على مرايا قلوب عباد الله كإشراق نور الصبح وسطوعه وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول واعتباره بها انتقال ذهنه فيها في مقام النظر والاستدلال كما سلف بيانه.

الثالثة: الأمر بالازدجار بالنذر البوالغ وهو أمر بفائدة الاتعاظ والنذر هي زواجر الله ووعيداته البالغة حدّ الكمال في التخويف والزجر عند اعتبارها.

الرابعة: الأمر بالانتفاع بالذكر والمواعظ. وهو أمر بتحصيل ثمرة الذكر والموعظة عنهما، وختم هذا الأمر بذكر الانتفاع ترغيباً وجذباً للنفوس إلى الذكر وقبول المواعظ.

الخامسة: التخويف والتذكير بالموت وما يتبعه ليبادروا إلى امتثال أوامره السابقة فقوله: فكأن قد علقتكم مخالب المنية. استعار لفظ المخالب للمنية استعارة بالكناية ورشح بذكر العلوق ملاحظاً في ذلك تشبيه المنية بالسبع الذي يهجم ويتوقع إفراسه وكأن مخففة من كأنّ واسمها ضمير الشأن، ويحتمل أن يكون أن الناصبة للفعل دخلت عليها كاف التشبيه.

وقوله: وانقطعت عنكم علائق الأمنية.

إشارة إلى ما ينقطع عن الميت بانقطاع أمله من مال وجاه وسائر ما كان يتعلق به آماله من علائق الدنيا ومتاعها.

وقوله: ودهمتكم مفظعات الأمور.

إشارة إلى ما يهجم على الميت من سكرات الموت وما يتبعها من عذاب القبر وأهوال الآخرة.

وقوله: والسياقة إلى الورد المورود.

فالسياقة هي السوقة المتعبة التي سلف ذكرها، والورد المورود هو المحشر.

وقوله: وكل نفس معها سائق وشهيد.

اقتباس للآية: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١] فالسائق الذي يسوقها إلى المحشر هو حكم القضاء الإلهي وأسباب الموت القريبة الحاكمة على النفس برجوعها إلى معادها فإن كانت من أهل الشقاوة فيا لها من سوقة متعبة وجزية مزعجة ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الزمر: ٧١] الآيات، وإن كانت من أهل السعادة ساقها سائق رؤوف سوقاً لطيفاً ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتّى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وأما الشاهد عليها [بعملها] فقد سبقت الإشارة إليه. وبالله التوفيق.

ومنها في صفة الجنة:

دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ، وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ، لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَلاَ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا.

أقول: اعلم أن ألذّ ثمار الجنة هي المعارف الإلهية بالنظر إلى وجه الله ذي الجلال والإكرام. والسعداء في الوصول إلى نيل هذه الثمرة على مراتب متفاوتة ودرجات متفاضلة.

فالأولى: مرتبة من أوتي الكمال في حدس القوة النظرية حتّى استغنى عن معلم بشري رأساً وأوتي مع ذلك ثبات قوته المتفكرة واستقامة وهمه منقاداً تحت قلم العقل فلا يلتفت إلى العالم المحسوس بما فيه حتّى يشاهد العالم المعقول بما فيه من الأحوال ويستثبتها في اليقظة فيصير العالم وما يجري فيه متمثلاً في نفسه فيكون لقوته النفسانية أن يؤثر في عالم الطبيعة حتّى ينتهي إلى درجة النفوس السماوية، وتلك هي النفوس القدسية أولات المعارج وهم السابقون السابقون أولئك المقربون، وهم أفضل النوع البشري، وأحقه بأعلى درجات السعادة في الجنة.

المرتبة الثانية: مرتبة من له الأمران الأولاّن دون الثالث أعني التأثير في عالم الطبيعة، وهذه مرتبة أصحاب اليمين وتحتها مراتب.

فأحدها: مرتبة من له استعداد طبيعي لاستكمال قوته النظرية دون العملية.

الثانية: من اكتسب ذلك الاستكمال في قوته النظرية اكتساباً تكليفياً دون تهيؤ طبيعي ولا حصة له في أمر القوة العملية.

الثالثة: مرتبة من ليس له تهيؤ طبيعي ولا اكتساب تكليفي في قوته النظرية وله ذلك التهيؤ في القوة العمليّة.

الرابعة: مرتبة من له تكلف في إصلاح الأخلاق واكتساب الملكات الفاضلة دون تهيؤ طبيعي لذلك.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن للمقربين البالغين في الملكات الشريفة لذات عظيمة في الجنة قد فازوا بنعيم الأبد والسرور الدائم في حضرة جلال رب العالمين في مقعد صدق عند مليك مقتدر غير مخرجين عن لذاتهم لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون كما قال عليه السلام: لا يظعن مقيمها. جرد عن عوارض الأبدان وشوائب المواد مرد عن مزاحمة القوى المتغالبة المتجاذبة المؤدية إلى الهرم والموت مكحلين بالأنوار الساطعة ينظرون إلى ربهم بوجوههم المفارقة.

وأما أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ولهم لذات دون الوصول إلى مرتبة السابقين، وقد يخالط لذات هؤلاء شوب من لذات المقربين كما أشير إليها في التنزيل الإلهي في وصف شراب الأبرار ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨] ولكل من المراتب كمال يخصه ودرجات من السعادة في الجنة تخصّه كما قال: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: ٤] وقال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وإذا عرفت ذلك فلنرجع إلى المتن فنقول: أما قوله: لا ينقطع نعيمها فلقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود: ١٠٨] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] ولأن الكمال الذي حصل للإنسان فاستحق به سعادة في الجنة ملكات ثابتة في جوهره لا تزول ولا تتغيّر ومهما دام الاستحقاق القابل لجود الله ونعمته وجب دوام ذلك الجود وفيض تلك النعمة إذ هو الجواد المطلق الذي لا بخل من جهته ولا منع.

وأما قوله: ولا يظعن مقيماً فلقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [لقمان: ٨-٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨] ولأنّ النعيم الأبدي مطلوب بالذات غير ممنوع منه فلا يكون مهروباً عنه بالذات.

وأما قوله: ولا يهرم خالدها ولا ييأس ساكنها: أي لا يصيبه بؤس فلأن الهرم مستلزم للتعب والنصب وكذلك البؤس عن الضعف، وهذه اللوازم منفية عن أهل الجنة لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥] وبانتفاء هذه اللوازم ينتفي عنهم ملزومها وهو الهرم. وبالله التوفيق.

٨٦ - ومن خطبة له عليه السلام

وفيه فصول، الأول، قوله:

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وهذا الفصل يشتمل على بعض أوصاف الحق سبحانه:

الأول: كونه عالماً بالسرائر وهو كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

الثاني: كونه خبيراً بالضمائر. وهو قريب من المرادف للعالم بالسرائر فإن الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ولا تضطرب نفس ولا تسكن إلاّ ويكون عنده خبرها وذلك بعينه هو العالم مضافاً إلى السرائر والخفايا الباطنة وإن كان مطلق العلم أعمّ.

الثالث: كونه محيطاً بكل شيء. وهو إشارة إلى علمه بكليّات الأشياء وجزئياتها، وعليه اتفاق جمهور المتكلمين والحكماء: أما المتكلمون فظاهر، وأما المحققون من الحكماء فملخّص كلامهم إجمالاً في كيفية علمه تعالى أنه يعلم ذاته بذاته ويتّحد هناك المدرك والمدرك والإدراك ولا يتعدّد إلاّ بحسب الاعتبارات العقلية التي تحدثها العقول البشرية.

وأما معلولاته القريبة منه فيكون بأعيان ذواتها ويتحد هناك المدرك والإدراك ولا يتعددان إلاّ باعتبار عقلي ويغايرهما المدرك، وأما معلولاته البعيدة كالماديات والمعدومات التي من شأنها إمكان أن توجد في وقت أو يتعلق بموجود فيكون بارتسام صورها المعقولة من المعلولات القريبة التي هي المدركات لها أولاً وبالذات وكذلك إلى أن ينتهي إلى إدراك المحسوسات بارتسامها في آلات مدركاتها. قالوا: وذلك لأن الموجود في الحاضر حاضر والمدرك للحاضر مدرك لما يحضر معه فإذن لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لكون ذوات معلولاته القريبة مرتسمة بجميع الصور وهي التي يعبر عنها تارة بالكتاب المبين وتارة باللوح المحفوظ وتسمى عندهم عقولاً فعالة.

الرابع: كونه تعالى غالباً لكل شيء.

الخامس: كونه قوياً على كل شيء، وهما إشارتان إلى وصف قدرته تعالى بالتمام على كل مقدور فإن القوة عليها والغلبة لها من تمام القدرة ويفهم من الغالب زيادة على القوى ويعود إلى معنى القاهر. وقد سبق بيانه، وأما بيان صدق هاتين القضيتين فبيان أنه تعالى مبدأ كل موجود وأن كل ممكن مفتقر في سلسلة الحاجة إليه، وقد فرغ من ذلك في الكتب الكلامية.

الفصل الثاني قوله:

فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ قَبْلَ إِرْهَاقِ

أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغُلِهِ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ، وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقُدُومِهِ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ. فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَاسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمىً، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ ﴿الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ - فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ - دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ - عَلَى لِسَانِهِ - مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، وَأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ؛ وَلاَ تُرَخِّصُوا لأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ، وَلاَ تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلإِيمَانِ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ. جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَفَا مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ. وَلاَ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، وَلاَ تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ. فَأَكْذِبُوا الأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ.

أقول: الفصل إلى آخره شروع في الموعظة والمشورة، ولمّا قدم الإشعار بأن الله تعالى عالم بما في الصدور وغالب على كل مقدور أمرهم يعده بالعمل وأراد الأعمال الصالحة المطلوبة بالتكاليف الشرعية وأن يجعلوها مهاداً لثبات أقدامهم على الصراط المستقيم المأمور بسلوكه، ثمّ تلطف بالجذب إلى العمل بتذكيرهم بأنهم في أيام مهلة وفراغ ومتنفس خناق يمكنهم فيه العمل وأن الذي يعملونه من الصالحات هو زاد لهم في سفرهم إلى الله وإلى دار إقامتهم وأن وراء هذه المهلة إدراك أجل بعده شغل بأهوال الآخرة وأخذ بالكظم، وكنى به عن عدم التمكن من العمل إذ لم تكن الآخرة دار عمل ثمّ أيّه بالناس وحذّرهم ربهم أن يخالفوا فيما أمرهم بحفظه وهو كتابه، وعنى بحفظه تدبر ما فيه والمحافظة على العمل بأوامره ونواهيه وهي حقوقه التي استودعهم إياها. ثمّ علّل ذلك بتنبيههم على أن الله تعالى لم يخلقهم عبثاً خالياً عن وجه المحكمة.

بل خلقهم ليستكملوا الفضائل النفسانية بواسطة الآلات البدنية ولم يجعلهم في وجودهم مهملين بل ضبط آثارهم وأعمالهم وكتب آجالهم في كتابه المبين والواحه المحفوظة إلى يوم الدين ونظم وجودهم برسول كريم عمّره فيهم وكتاب أوضح لهم فيه السبيل التي لسلوكها خلقهم وأكمل لهم ولنبيّه دينهم الذي ارتضى لهم وما أهلهم له من الكمالات المسعدة في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وبلّغهم على لسانه ما أحب لهم من الخيرات الباقية وكره لهم عن الشرور المشقية في الآخرة كما اشتملت عليه أوامره ونواهيه، وأبان لهم فيه الأعذار وأوضح فيه الحجج وشحنه بالوعيد والنذر بين يدي عذاب شديد، واستعار لفظ اليدين للعذاب وكنّى ببين يديه عن الوقت المتقدم على عذاب الآخرة المشارف له.

ووجه المشابهة أن الإنذار بالمخوف يكون من ذي سطوة بأس شديد فكأنه نزّل العذاب الشديد بمنزلة المعذب فاستعار له يدين وجعل الإنذار والتخويف منه متقدماً له بين يديه وذلك من الجواذب اللطيفة، ثمّ عاد على أمرهم باستدراك بقية أوقاتهم في الدنيا وأن يصبّروا

لها أنفسهم: أي يلزموا أنفسهم فيها الصبر على الأعمال الصالحة، وفي لفظ الاستدراك إشعار بتقديم تفريط منهم في جنب الله ولذلك قال: فإنها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة. وإنما قال: لها. لأن كل وقت يستحق أن يوقع فيه ما ينبغي من الأفعال فصدق عليها أن ذلك الفعل لها.

قوله: ولا ترخصوا لأنفسكم. إلى قوله: المعصية [المصيبة خ].

أقول: ليس المقصود بالرخصة هنا الرخصة الشرعية. بل ما يتساهل الإنسان فيه مع نفسه من تنويع المآكل والمشارب والمناكح والخروج فيها إلى ما لا ينبغي في نفس الأمر ويتأوّل له تأويلاً وحيلة يخيّل أنها جائزة في الشريعة ويروج بها اتباعه لهواه، ونحوه الاجتماع في السماع لغير أهله، وحضور مجالس الفساق، ومعاشر الظالمين. والضابط الكلي في هذا الباب هو توسع الإنسان في الأمور المباحة واستيفاؤه حده فإنه من فعل ذلك شارف المكروه ثمّ ربما لحظ أنه لا عقاب في فعله فقادته شهوته إلى فعله فاستوفى حدّه ثمّ ربما لحظ أنه لا عقاب في فعله فقادته شهوته إلى فعله فاستوفى حدّه فشارف المحظور، وذلك أن العقل إذا أطاع النفس الأمارة بالسوء فيما تأمر به. مرة ومرة لم يبق له نفار عما تقوده إليه لوقوع الأنس به. وظاهر أن ارتكاب بعض مأموراتها يجرّ إلى ارتكاب بعض فيؤدي ذلك إلى تجاوز الحدود الشرعية وعبورها إلى الوقوع في حبائل الشيطان والتهوّر في المحظورات التي هي مهاوي الهلاك، ولذلك ما ورد في الخبر:

من رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه وقد شبّه العارفون القلب بالحصن والشيطان بعدوٍّ يريد أن يدخله ولم يمكن دفع ذلك العدو والتحفّظ منه إلاّ بضبط أبواب ذلك الحصن التي منها الدخول إليه وحراستها وهي أبواب كثيرة كسائر المحرمات ومساهلة النفس في التوسع في المباحات والدخول في الأمور المشتبهة من أعظم تلك الأبواب ودخول الشيطان منه أسهل وهو عليه أقدر ولذلك قال عليه السلام: فتذهب بكم الرخص فيها مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية [المصيبة خ]. ومذاهب الظلمة مسالكها وطرقها العادلة من العدول.

وروي: أن أبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليه السلام فرأى عليه معاليق كل شيء فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه هي الشهوات التي أصيب بهنّ قلوب بني آدم، فقال: هل بي فيها شيء؟ قال: نعم ربما شبعت فشغلناك عن الصلاة، وعن الذكر قال: هل غير ذلك؟ قال: لا قال: لله عليّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً، فقال إبليس: لله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً. ولا تداهنوا: أي لا تسالموا الظلمة وتساهلوا معهم في السكوت عما ترونه من منكراتهم فيهجم بكم الإدهان على المعصية: أي إذا آنستم بمشاهدة المعاصي وألفتم تكرارها كنتم بذلك عصاة وربما ساقكم ذلك إلى فعل المنكر ومشاركتهم فيه.

وقوله: عباد الله. إلى آخره إخبارات في معنى الأوامر والنواهي وأوامر ونواهي صريحة مشتملة على جواذب إلى طاعة الله ولزوم دينه.

فالأول: قوله: إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه، وبيانه أنه لما كان غرض الناصح إنما هو جلب الخير والمنفعة إلى المنصوح، وكان أجل خير ومنفعة هو السعادة الباقية الأبدية ومشاهدة الحضرة الربوبية، وكانت تلك السعادة إنما تنال بطاعة الله تعالى فكل من كانت طاعته لله أتمّ فكان هو أنصح الناس لنفسه بمبالغته في طاعته.

الثاني: قوله: وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه. وهو ظاهر مما قررناه فإنه لما كانت غاية الغش إنما هو جلب الشر والمضرة إلى المغشوش، وكان أعظم شر وضرر يلحق العبد هو الشقاوة الأبدية في قرار الجحيم، وكانت تلك إنما يحصل الإنسان عليها بمعصية الله تعالى فكل من كانت معصيته أتمّ كانت شقاوته أتمّ فكان هو أغش الناس لنفسه بمبالغته في معصيته. وحاصل القضية الأولى الأمر بالطاعة أتمّ ما يمكن والثانية النهي عن المعصية أتمّ ما يمكن. ورغب في الطاعات بذكر نصيحة النفس لما أن النصيحة محبوبة ونفّر عن المعصية بذكر غشها.

الثالث: قوله: والمغبون من غبن نفسه. والمراد من غبنها بالمعصية المستلزمة لدخول النار فكأن الإنسان بمتابعة شيطانه خادع لنفسه، وقد بخسها ما تستحقه من ثواب الله، ولما كانت السعادة الأخروية أعظم ما يتنافس فيه لا جرم كان أعظم مغبون من لم يفز بها فلذلك حصر المغبون فيه على طريق المبالغة وهو خبر في معنى النهي عن المعصية، ونفر عنها بذكر غبن النفس.

الرابع: قوله: والمغبوط من سلم له دينه، والغبطة أن يتمنى الإنسان مثل ما لغيره من حال أو مال مع قطع النظر عن تمني زوال تلك الحال عمّن هي له، وبهذا القيد يتميّز عن الحسد، والقضية ظاهرة مما قبلها فإنه لما كان من سلم دينه فائزاً بالسعادة الكبرى الباقية مع كونها أجل ما يغبط به ويتنافس فيه لا جرم كان هو أعظم مغبوط ولذلك حصر المغبوط فيه مبالغة، ورغب في المحافظة على الدين بكون من سلم له مغبوطاً.

الخامس: قوله: والسعيد من وعظ بغيره، وقد صارت هذه القضية في معنى المثل: أي السعيد في الآخرة من اعتبر حال غيره فشاهد بعين بصيرته مصير الظالمين فخاف عاقبتهم فعدل عن طريقهم وتذكر حال المتقين فمال إلى جادتهم وسلك مسالكهم ورغب في الاتعاظ بالغير بذكر استلزامه للسعادة.

السادس: وكذلك الشقي في الآخرة من انخدع لهواه وغروره ونفّر عن اتباع الهوى بذكر الخداع والغرور.

السابع: التنبيه على أن يسير الرياء شرك. وقد سبق منّا بيان أن الرياء في العبادة وإن قلّ التفات مع الله إلى غيره وإدخال له بالقصد بالعمل والطاعة وذلك في الحقيقة شرك خفي اتفقت عليه أرباب القلوب.

الثامن: قوله: ومجالسة أهل الهوى منسأة للإيمان، ومحضرة للشيطان. أراد بأهل الهوى الفساق المنقادين لدواعي الشيطان إلى الشهوات الخارجة عن حدود الله، ونفّر عن مجالستهم بأنها محل للأمرين:

أحدهما: نسيان الإيمان وهو ظاهر فإن أهل الهوى أبداً مشغولون بذكر ما هم فيه من لعب ولهو خائضون في أصناف الباطل وأنواعه فمجالستهم عن رغبةٍ مظنة الغفلة عن ذكر الله والانجذاب إلى ما هم عليه عن الأعمال الصالحة وتلك أركان الإيمان وقواعده، وقد علمت أن كثرة الغفلات عن الشيء تؤول إلى نسيانه وانمحائه عن لوح الخيال والذكر، وربما يتجوّز في مطلق الغفلة عن أوقات العبادة والذكر بالنسيان تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه.

الثاني: كونها محلاً لحضور الشيطان، وقد علمت معنى الشيطان وأن كل محل عصي الله فيه فهو محضر للشيطان وموطن له.

التاسع: الأمر بمجانبة الكذب ونفّر عنه بقوله: فإنه مجانب للإيمان، وهو حديث نبوي، ومعنى المجانبة كون كل منهما في جانب فإن كانت الأعمال الصالحة داخلة في مسمى الإيمان فالصدق من جملتها ومضاد الصدق مضاد للإيمان وأحد الضدين مجانب للآخر. فالكذب مجانب للإيمان، وإن لم يكن كذلك قلنا: إن الكذب أعظم الرذائل الموبقة والإيمان أعظم الفضائل المنقذة، وبين الفضائل والرذائل منافاة ذاتية فالكذب مناف للإيمان ومجانب له، ويحتمل أن يكون معنى مجانبه له كونه غير لائق أن يجامعه في محل واحد وغير مناسب له، وبالجملة كونه ليس منه في شيء، وقد بيّنا ما يشتمل عليه الكذب من المضار المهلكة.

ثمّ أردف ذلك بالترغيب في الصدق بكون الصادق على شفا منجاة: أي مشارف لنجاة وكرامة أو لمحلّهما وهو الجنة إذ الصدق باب من أبوابها. ثمّ بالتنفير عن الكذب بكون الكاذب على شفا مهواة ومهانة: أي هوى وهوان أو محلهما وهو حضيض الجحيم الذي هو محل الهوان إذ الكذب باب من أبوابها، ومن انتهى إلى الباب فقد شارف الدخول. وعن الرسول صلى الله عليه وآله: إيّاكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذاباً، وعليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليتحرى الصدق حتّى يكتب عند الله مصداقاً. وقال صلى الله عليه وآله: الكذب رأس النفاق.

وهو ظاهر فإن مدار النفاق على المصانعة بالقول غير المطابق لما في نفس الأمر وهو حقيقة الكذب.

العاشر: النهي عن الحسد، وقد اتفق أرباب القلوب على أنه من أعظم أبواب الشيطان التي يدخل بها على القلب وهو أحد العوارض الرديئة للنفس ويتولد من اجتماع البخل والشرية في النفس، وأعني بالشرير من تلتذّ طباعه بمضار تقع بالناس ويكره ما يوافقهم، وإن كانوا ممن لا يرونه ولم يسيئوا إليه، وقد علمت أن من هذه صفته مستحق للمقت من الله ﷻ ، وذلك أنه مضاد لإرادته، إذ هو تعالى المتفضل على المزيد للخير المطلق للكل. وقد رسم الحسد بأنه اغتمام الإنسان بخير يناله غيره من حيث لا مضرة منه عليه، وقد يوجد الحسد ممن له نفع ما من المحسود، ويسمى الحسد البالغ.

وأما تعليله وجوب تركه بأنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب:

فاعلم أن العلماء قد اتفقوا على أن الحسد مضر بالنفس والجسد: أما بالنفس فلأنه يذهلها ويغرق فكرها بالاهتمام بأمر المحسود حتّى لا يفرغ للتصرف فيما يعود نفعه عليها. بل وينسى ما حصلت عليه من الملكات الخيرية التي هي الحسنات المنقوشة في جوهرها ويضمحل على طول تعوّد الحسد واشتغال الفكر فيه وطول الحزن والهم لأن نعم الله على عباده أكثر من أن تحصى فإذا كان الحسد بها دام فانقطع وقت الحاسد به عن تحصيل الحسنات. وأما بالجسد فلأنه يعرض له عند حدوث هذه الأعراض للنفس طول السهر وسوء الاغتذاء ويعقب ذلك رداءة اللون وسوء السجية وفساد المزاج.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنه قد استعار هاهنا لفظ الأكل لكون الحسد ماحياً لما في النفس من الخواطر الخيرية التي هي الحسنات ومانعاً من صيرورتها ملكات وذلك بسبب استغراقها في حال المحسود واشتغالها به، وشبّه ذلك بأكل النار الحطب. ووجه الشبه ما يشترك فيه الحسد والنار من إفناء الحسنات والحطب واستهلاكهما.

الحادي عشر: النهي عن التباغض وتعليله ذلك بأنها الحالقة، واعلم أنه لما كان أمر العالم لا ينتظم إلاّ بالتعاون والتضافر، وكان التعاون إنما يتم بالألفة وكان أقوى أسباب الألفة هو المودة والمؤاخاة بين الخلق كانت المودة من المطالب المهمة للشارع، ولذلك آخى رسول الله ﷺ ، بين أصحابه لتخلص محبتهم وتصفو ألفتهم ويصدق بينهم التعاون والتضافر والاتحاد في الدين، وقال ﷺ : المرء كبير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له. فلذلك كان التباغض بينهم منهياً عنه مكروهاً في الشريعة لما يستلزمه من التقاطع بينهم وعدم تعاونهم وتضافرهم، وبسبب ذلك تتخطف كلاّ منهم أيدي حاسديه وتتحكم فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعم ولا تصفو له مدة. بل يكون بذلك بواره واضمحلال النوع وهلاكه، ولذلك قال ﷺ : فإنها الحالقة.

وأصل هذا اللفظ مستعار مما يحلق الشعر كالموسى ونحوها للدواهي وأسباب الشر ثمّ صار مثلاً وقد وقع هاهنا موقعه من الاستعارة، ووجه المشابهة أن الموسى مثلاً كما أنها سبب لحلق الشعر واستئصاله كذلك التباغض سبب لاستئصال الخلق بعضهم بعضاً.

الثاني عشر: التنبيه على مضار الأمل للدنيا تنفيراً عنه والأمر بتكذيبه المستلزم للنهي عنه فأما مضاره:

فأحدها: أنه يوجب سهو العقل: أي عما هو الأولى بالإنسان في معاشه ومعاده وهو ظاهر فإن الآمل أبداً مشغول الفكر بما يأمله ويرجوه وفي كيفية تحصيله وكيفية العمل به بعد حصوله وشغله بذلك يستلزم إعراضه عن غيره إذ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

الثانية: أنه ينسي الذكر: أي ذكر الله تعالى بعد الموت من أحوال الآخرة، وذلك باستغراقه فيما يأمله من أحوال الدنيا كما مرّ.

الثالثة: أنه غرور وصاحبه مغرور، وروي بفتح الغين من غرور وضمها، ووجه الفتح أن الأمل ليس هو نفس الغفلة عن الذكر وغيره بل مستلزم لها فلذلك صدقت نسبة الغرور إليه، ووجه الضم أنه مجاز من باب إطلاق اسم اللازم على ملزومه، وأما تكذيبه فبذكر الموت ودوام إخطاره بالبال وملاحظة المرجع والمعاد، وإنما

سمي ردّ الأمل تكذيباً له لأن النفس حال توقعها للمأمول تكون حاكمة حكماً وهمياً ببلوغه ونيله فإذا رجعت إلى صرف العقل وملاحظة الموت وجواز الانقطاع به عن بلوغ ما رجته كان تجويزها ذلك مكذباً لما جزم به الوهم من الأحكام وراداً له. وبالله التوفيق.

٨٧ - ومن خطبة له عليه السلام

وفيها فصول:

الفصل الأول: في صفات المتقين وهو قوله:

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ. نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً. قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى. قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، واسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ - سُبْحَانَهُ - فِي أَرْفَعِ الأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ. مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَاوَاتٍ. مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ. دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ. قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ. قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلُ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ. لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا، وَلاَ مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ.

أقول: القرى: الضيافة. والفرات: صادق العذوبة. والنهل: الشرب في أول الورد. والجدد: الأرض المستوية. والسرابيل: القمصان. والمنار: الأعلام. والغمار: جمع غمرة وهي الزحمة من كثرة الناس والماء ونحوه. والعشوات: جمع عشوة وهي ركوب الأمر على جهل به. والغشوة بالغين المعجمة: هي الغطاء. والمبهمة: الأمر الملتبس. والمعضلات: الشدائد.

وذكر من صفاتهم التي هي سبب محبة الله لهم أربعين وصفاً وقد علمت أن محبة الله تعالى تعود إلى إفاضة الكمالات النفسانية على نفس العبد بحسب قربه بالاستعداد لها إلى جوده فمن كان استعداده أتمّ كان استحقاقه أوفى فكانت محبة الله له أكمل.

فالأول من تلك الأوصاف: كونه أعانه الله على نفسه: أي أفاضه قوة على استعداد بقوي به عقله على قهر نفسه الأمارة بالسوء.

الثاني: أن يستشعر الحزن: أي يتخذه شعاراً له. وأراد الحزن على ما فرط في جنب الله واكتسب من الإثم فإنه من جملة ما أعدته المعونة الإلهية لاستشعاره ليستعد به لكمال أعلى.

الثالث: أن يتجلبب الخوف وهو اتخاذه جلباباً. استعار لفظ الجلباب وهو الملحفة للخوف من الله والخشية من عقابه، ووجه المشابهة ما يشتركان فيه من كون كل منهما متلبساً به، وهو أيضاً معونة من الله للعبد على تحصيل السعادة.

الرابع: زهرة مصباح الهدى في قلبه، وهو إشارة إلى شروق نور المعارف الإلهية على مرآة سره، وهو ثمرة الاستعداد بالحزن والخوف ولذلك عطفه بالفاء، واستعار لفظ المصباح لنور المعرفة لما يشتركان فيه من كون كل منهما سبباً للهدى، وهو استعارة لفظ المحسوس للمعقول.

الخامس: كونه أعد القرى ليومه النازل به. استعار لفظ القرى للأعمال الصالحة وأراد باليوم النازل به يوم القيامة واستلزمت الاستعارة تشبيهه لذلك اليوم بالضيف أو بيوم القرى للضيف المتوقع نزوله، ووجه المشابهة أن القرى كما يبيّض به وجه القاري عند ضيفه ويخلص به من ذمه، ويكسبه المحمدة والثناء منه كذلك الأعمال الصالحة في ذلك اليوم تكون سبباً لخلاص العبد من أهواله وتكسبه رضاء الحق سبحانه والثواب الجزيل منه.

السادس: وقرّب على نفسه البعيد. يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يشير بالبعيد إلى رحمة الله فإنها بعيدة من غير مستحقها، والمستحق لقبولها قريبة ممن حسن عمله وكمل قبوله فالعبد إذا راض بالأعمال الصالحة نفسه وأعدّها قرى يومه كانت رحمة الله على غاية من القرب منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الثاني: يحتمل أن يريد بالبعيد أمله الطويل في الدنيا وبتقريبه له على نفسه تقصيره له بذكر الموت دون بلوغه كما سبق.

السابع: كونه قد هوّن الشديد. ويحتمل أيضاً معنيين:

أحدهما: أن يريد بالشديد أمر الآخرة وعذاب الجحيم وتهوينه لها بالأعمال الصالحة واستشراف أنوار الحق وظاهر كونها مهونة لشديد عذاب الله.

الثاني: أن يريد بالشدائد شدائد الدنيا من الفقر والاهتمام بالمصائب التي تنزل به من الظلم وفقد الأحبة والأقرباء ونحو ذلك وتهوينه لذلك تسهيله على خاطره واستحقاره في جنب ما يتصوره من الفرحة بلقاء الله وما أعدّ له من الثواب الجزيل في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

الثامن: كونه نظر: أي تفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء فأبصر: أي فشاهد الحق سبحانه في عجائب مصنوعاته بعين بصيرته.

التاسع: وذكر فاستكثر: أي ذكر ربه ومعاده فاستكثر من ذكره حتّى صار الذكر ملكة له ويجلّي المذكور في أطوار ذكره لمرآة سره. والاستكثار من الذكر باب عظيم من أبواب الجنة.

العاشر: كونه ارتوى من عذب فرات. شبّه العلوم والكمالات النفسانية التي تفاض على العارف بالماء الزلال فاستعار له لفظ العذوبة، ورشح تلك الاستعارة بذكر الارتواء، وقد سبق وجه هذه الاستعارة مراراً.

يا: كونه سهلت له موارده. الفائزون لقصب السبق في طرائق الله لا ينفكون عن تأييد إلهي بخاصية مزاجية لهم بها سرعة الاستعداد لقبول الكمالات الموصلة إليه.

إذا عرفت ذلك فنقول: موارد تلك الكمالات من العلوم والأخلاق هي معادنها ومواطنها المنتزعة منها وهي النفوس الكاملة التي يهتدى به وتؤخذ عنها أنوار الله كالأنبياء، وتصدق تلك الموارد أيضاً على بدائع صنع الله الذي يردها ذهن العبد وتكسب بهما الملكات الفاضلة وسهولة تلك الموارد لهم هو سرعة قبولهم لأخذ الكمالات عنها بسهولة بأذهان صافية هيّأتها العناية الإلهية لقبولها ويسر بها لذلك.

يب: فشرب نهلاً: أي أخذ تلك الكمالات سابقاً إليها كثيراً من أبناء نوعه ومتقدماً فيها لسهولة موردها عليه، وهي ألفاظ مستعارة لأخذه لها وسبقه إليها ملاحظة بشرب السوابق من الإبل إلى الماء.

يج: كونه قد سلك سبيلاً جدداً: أي سبيل الله الواضح المستقيم العدل بين طرفي التفريط والإفراط.

يد: كونه قد خلع سرابيل الشهوات. أكثر الأوصاف السابقة أشار فيها إلى تحصيل العلم والاستعداد له، وأشار بهذا الوصف إلى طرف الزهد، واستعار لفظ السرابيل للشهوات، ووجه المشابهة تلبّس صاحبها بها كما يتلبّس بالقميص، ورشح بلفظ الخلع، وكنّى به عن طرحه لاتّباع الشهوة والتفاته عنها فيما يخرج به عن حد العمل.

يه: وتخلى من الهموم إلاّ هماً واحداً: أي من هموم الدنيا وعلائق أحوالها وطرح كل مقصود عن قصده إلاّ همّاً واحداً انفرد به، وهو الوصول إلى مراحل

عزة الله وتوجيه سرّه إلى مطالعة أنوار كبريائه واستشراقها وهو تمام الزهد الحقيقي وظاهر كونه منفرداً عن غيره من أبناء نوعه.

يو: فخرج عن صفة العمى: أي عمى الجهل بما حصل عليه من فضيلة العلم والحكمة وعن مشاركة أهل الهوى في إفراطهم وفجورهم إذ هو على حاق الوسط من فضيلة العفة.

يز: فصار من مفاتيح أبواب الهدى: فأبواب الهدى هو طرقه وسبله المعدة لقبوله من واهبه وقد وقف عليها العارفون ودخلوا منها إلى حضرة جلال الله فوقفوا على مراحلها ومنازلها ومخاوفها فصاروا مفاتيح لما انغلق منها على أذهان الناقصين، ومصابيح فيها لنفوس الجاهلين، ولفظ المفتاح مستعار للعارف، ووجه المشابهة ظاهر.

يح: ومغاليق أبواب الردى. فأبواب الردى هي أطراف التفريط والإفراط والمسالك التي يخرج فيها عن حدود الله المردي سلوكها في قرار الجحيم. والعارف لما سد أبواب المنكرات التي يسلكها الجاهلون ولزم طريق العدل لا جرم أشبه المغلاق الذي يكون سبباً لسد الطريق أن يسلك فاستعير لفظه له، وفي القرينتين مطابقة فالمغاليق بإزاء المفاتيح والردى بإزاء الهدى.

يط: قد أبصر: أي بنور بصيرته طريقه: أي المأمور بسلوكها والمجذوب بالعناية الإلهية إليها وهي صراط الله المستقيم.

ك: وسلك سبيله: أي لما أبصر السبيل سلكها إذ كان السلوك هو المقصود الأول.

كا: وقد عرف مناره، لما كان السالك إلى الله قد لا يستقيم به طريق الحق اتفاقاً وذلك كسلوك من لم تستكمل قوته النظرية بالعلوم وقد يكون سلوكه بعد استكماله بها. فالسالك كذلك قد عرف بالبرهان مناره: أي أعلامه المقصودة في طريقه التي هي سبب هدايته وهي القوانين الكلية العملية، ويحتمل أن يريد بالمنار ما يقصده بسلوكه وهو حضرة جلال الله وملائكته المقربون.

كب: قد قطع غماره، وأشار بالغمار إلى ما كان مغموراً فيه من مشاق الدنيا، وهمومها والتألم بسبب فقدها ومجاذبة أهلها لها فإنّ العارف بمعزل عن ذلك والتألم بسببه.

كج: واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها. أراد بأوثق العرى وأمتن الحبال سبيل الله وأوامره استعارةً ووجه المشابهة أن العروة كما تكون سبباً لنجاة من تمنسك بها، وكذلك الحبل، وكان أجودها ما ثبت وتمتن ولم ينفصم كذلك طريق الله المؤدي إليه يكون لزومه والتمسك بأوامره سبباً للنجاة من أهوال الآخرة وهي عروة لا انفصام لها وأوامرها حبال لا انقطاع لها، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

كد: فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس: أي فكان بتمسكه بأوامر الله ونواهيه ومجاهدته في سبيله قد استشرق أتم أنوار اليقين فصار شاهداً بعين بصيرته عالم الملكوت رائياً بها الجنة والنار عين اليقين كما يرى بصره الظاهر نور الشمس في الوضوح والجلاء.

كه: قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه وتصيير كل فرع إلى أصله: أي لما كمل في ذاته نصب نفسه لأرفع الأمور من هداية الخلق وإفادتهم لقوانين طريق الله فصار كالمصباح يقتبس منه أنوار العلم فهو لكونه متلبّساً بها [ملياً بها خ] قائم بإصدار الأجوبة عن كل ما ورد عليه من الأسئلة التي استبهم أمرها على الأذهان، وافٍ برد كل فرع من فروع العلم إلى أصله المنشعب عنه.

كو: كونه مصباح ظلمات: أي يهتدي به التائهون في ظلمات الجهل إلى الحق. ولفظ المصباح مستعار له كما سبق.

كز: كونه كشاف عشوات: أي موضح لما أشكل أمره وركب فيه الجهل من الأحكام الملتبسة مميز وجه الحق منها، ومن روى بالغين المعجمة فالمراد كشّاف أغطية الجهالات عن إبصار البصائر.

كح: وكذلك كونه مفتاح مبهمات: أي فاتح لما

انغلق على أذهان الخلق واستبهم وجه الحق فيه من الأحكام.

كط: كونه دفّاع معضلات: أي يدفع كل حيرة في معضلة من معضلات الشرع صعب على الطالبين تميّز وجه الحق ويجيبهم ببيانه عن التردي في مهاوي الجهل.

ل: وكذلك كونه دليل فلوات. واستعار لفظ الفلوات لموارد السلوك وهي الأمور المعقولة، ووجه المشابهة أن الفلوات كما لا يهتدي لسالكها إلاّ الأدلاّء الذين اعتادوا سلوكها وضبطوا مراحلها ومنازلها حتّى كان من لا قائد له منهم لا بدّ وأن يتيه فيها ويكون جهله بطرقه سبباً لهلاكه كذلك الأمور المتصورة المعقولة لا يهتدي لطريق الحق فيها إلاّ من أخذت العناية الإلهية بضبعيه فألقت بزمام عقله إلى أُستاذ مرشد يهديه سبل الحق منها ومن لم يكن كذلك حتّى حاد عن طريق الحق فيها خبط من ظلمات الجهل خبط عشواء، وسلكت به شياطينه أبواب جهنم، والعارفون هم أدلاّء هذا الطريق والواقفون على أخطارها ومنازل السلامة فيها بعيون بصائرهم.

لا: كونه يقول فيفهم، وذلك لمشاهدته عين الحق من غير شبهة تعتريه فيما يقول ولا اختلاف عبارة عن جهل بالمقول.

لب: كونه يسكت فيسلم: أي من خطر القول. ولما كانت فائدة القول الإفهام والإفادة، وفائدة السكوت السلامة من آفات اللسان وكان كلامه في معرض المدح لا جرم ذكرهما مع فائدتهما. والمقصود أنّ العارف يستعمل كلاً من القول والسكوت في موضعه عند الحاجة إليه فقط.

لج: كونه قد أخلص لله فاستخلصه. وقد عرفت أن الإخلاص لله هو النظر إليه مع حذف كل خاطر سواه عن درجة الاعتبار، واستخلاص الحق للعبد هو اختصاصه من بين أبناء نوعه بالرضى عنه، وإفاضة أنواع الكمال عليه وإدناؤه إلى حضرة قدسه وانفراده بمناجاته. وظاهر أن إخلاصه سبب استخلاصه كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: ٥١-٥٢].

لد: فهو من معادن دينه. استعار لفظ المعدن له، ووجه المشابهة اشتراكهما في كون كل منهما أصلاً تنتزع منه الجواهر: من المعادن أنواع الجواهر المحسوسة، ومن نفس العارف جواهر العلوم والأخلاق وسائر ما اشتمل عليه دين الله.

له: كونه من أوتاد أرضه استعار له لفظ الوتد، ووجه المشابهة كون كل منهما سبباً لحفظ ما يحفظ به فبالوتد يحفظ الموتود، وبالعارف يحفظ نظام الأرض واستقامة أمور هذا العالم، وقد سبق مثله في الخطبة الأولى: ووتّد بالصخور ميدان أرضه.

لو: كونه لزم نفسه العدل فكان أدلّ عدله نفي الهوى عن نفسه. لما كان العدل ملكة تنشأ من الملكات الثلاث: وهي الحكمة والعفة والشجاعة، وكان العارفون قد راضوا أنفسهم بالعبادة وغيرها حتّى حصلوا على هذه الملكات الخلقيّة لا جرم كان بسعيه في حصولها قد ألزم نفسه العدل، ولما كان العدل في القوة الشهوية وهو أن يصير عفيفاً لا خامد الشهوة، ولا فاجراً أصعب من العدل على سائر القوى لكثرة موارد الشهوة وميلها بالإنسان إلى طرف الإفراط، ولذلك كان أكثر المناهي الواردة في الشريعة هي موارد الشهوة لا جرم كان مقتضى المدح أن يبدأ بذكر نفي الهوى عن نفسه، ولأن السالك أول ما يبدأ في تكميل القوة العلمية بإصلاح القوة الشهوية فيقف عند حدود الله ولا يتجاوزها في مأكول أو منكوح أو كسب ونحوه.

لز: كونه يصف الحق ويعمل به: أي يتبع قول الحق بعمله فإن الخلف في القول عند الخلق قبيح ومع الله أقبح ولذلك عاتب الله المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف: ٢-٣]، وكانوا قالوا: لنفعلنّ في سبيل الله ما فيه رضاه. فلما كان يوم أُحد لم يثبتوا. وأكد عتابه بشدة مقته لخلفهم وعدم مطابقة أقوالهم لأفعالهم.

لح: كونه لا يدع للخير غاية إلاّ أمّها. لما فرغ من جزئيات أوصاف العارف شرع فيها إجمالاً فذكر أنه

طالب لكل غاية خيرية: أي لا يقنع ببعض الحق ويقف عنده بل يتناهى فيه ويستقصي غاياته.

لط: وكذلك هو قاصد لكل مظنة له: ومظنته كل محل أمكنه أن ينتزعه منه ويستفيده كالأولياء ومجالس الذكر وغيرها.

م: كونه قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده. إلى آخره. فتمكينه الكتاب كناية عن انقياده لما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي، واستعار لفظ الزمام لعقله ووجه المشابهة ما يشتركان فيه كون كل منهما آلة للانقياد، وهي استعارة لفظ المحسوس للمعقول، وكذلك استعار لفظ القائد للكتاب لكونه جاذباً بزمام عقله إلى جهة واحدة مانعاً عن الانحراف عنها وكذلك لفظ الإمام لكونه مقتدياً به، وقوله: يحل حيث حل ثقله وينزل. استعار وصفي الحلول والنزول اللّذين هما من صفات المسافر، وكنى بحلوله حيث حلّ عن لزوم أثره والعمل بمقتضاه ومتابعته له في طريق سفره إلى الله بحيث لا ينفك عنه وجوداً وعدماً، وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: قوله:

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ؛ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ؛ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ؛ وَيَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ؛ فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ. وَذٰلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ!

أقول: وهذا الفصل من صفات بعض الفساق في مقابلة الموصوف السابق، وخصص من تسمى عالماً وليس بعالم بالذكر في معرض الذم لأنه أشد فتنة، وأقوى فساداً للدين لتعدي فتنته من نفسه إلى غيره. وذكر له أوصافاً:

الأول: كونه قد تسمى عالماً وليس بعالم، طلباً للرئاسة وتحصيل الدنيا، وهذا الصنف من الناس كثير والعلماء فيهم مغمورون.

الثاني: كونه قد اقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلال. والجهائل: جمع جهالة، وأراد الجهل المركب؛ وهو الاعتقاد غير المطابق لما في نفس الأمر، وهذا الوصف أحد أسباب الأول. ونسبة الاقتباس إلى الجهل نسبة مجازية لما أن الجهل يشبه العلم في كونه مستفاداً على وجه التعلم والتعليم، والأضاليل من لوازم الجهالات وهو الانحراف عن سواء السبيل.

وإنما قال من جهّال وضلال ليكون إثبات الجهل والضلال له مؤكد، فإن تلقّفهما عن الجهال الضلال واعتقادهما أثبت وأرسخ في النفس من سائر الجهالات.

الثالث: كونه نصب للناس أشراكاً من حبال غرور وقول زور. استعار لفظ الأشراك والحبال لما يغرّ علماء السوء به الناس من الأقوال الباطلة والأفعال المزخرفة، ووجه المشابهة ما يشترك فيه الشرك من الحبال وغيره وسائر ما يجذب به الخلق من أقوالهم وأفعالهم في كونها محصّلة للغرض فالشرك للصيد وغرور هؤلاء لقلوب الخلق، ورشح تلك الاستعارة بذكر النصب.

الرابع: قد حمل الكتاب على آرائه للجاهل في تفسير كتاب الله تعالى مذاهب عجيبة ويكفيك منها ما تعتقده المجسمة من ظواهره المشعرة بتجسيم الصانع جلّت قدرته وتفسيرهم للكتاب على ما اعتقدوه من باطلهم.

الخامس: وعطف الحق على أهوائه من فسّر ألفاظ القرآن على حسب عقيدته الفاسدة ورأيه الباطل فقد عطف الحق على هواه: أي جعل كل هوى له حقاً يتبع بتأويل ما: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

السادس: كونه يؤمن من العظائم ويهوّن كبير الجرائم: أي يسهّل على الناس أمر الآخرة في موضع يحتاجون فيه إلى ذكر وعيد الله وتذكيرهم بأليم عقابه كما يخطئ الجاهلون ويعرضون عن أوامر الله تعالى ونواهيه

فإذا حضروا مجالس جهال الواعظين والزهاد توسلوا إلى استجلاب قلوبهم وتشيد مناصبهم باجتماعهم عليهم بأن ذكروا لهم مواعيد الله كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ونحوه فيهوّن عليهم بذلك عظيم الوعيد وأهوال الآخرة، وتصغّر عندهم جرائمهم التي ارتكبوها في جنب ما تصوروه من الوعد الكريم ويساعدهم ميل طباعهم إلى المشتهيات الخارجة عن حدود الله فيعاودوا ما اقترفوه ولا كذلك العالم إذ من شأنه أن يستعمل كلاً من آيات الوعد والوعيد في موضعها ليبقى السامعون بين خوف ورجاء فلا ينهمكوا في اللذات الفانية اتّكالاً على الوعد ولا يقنطوا من رحمة الله نظراً إلى الوعيد.

السابع: يقول: أقف عند الشبهات، أي إذا انتهيت إلى أمر فيه شبهة لا أقدم عليه وفيها وقع ذلك لجهله بمواقع الشبهة وغيرها.

الثامن: يقول: أعتزل البدع: أي ما يبتدع من الأمور المخالفة لقوانين الشريعة وبينها اضطجع كنّي باضطجاعه بين البدع عن تورطه فيها كناية بالمستعار، وذلك أيضاً لجهله بأصول الشريعة، وكيفية تفريعها.

التاسع: فالصورة صورة الإنسان والقلب قلب حيوان أراد بالحيوان غير الإنسان كما هو مختص في العرف. وأطلق قلبه أنه قلب حيوان كالحمار ونحوه، لما بينهما من المناسبة وهو عدم صلاحيتها لقبول المعارف والعلوم مع ميلهما إلى الشهوات.

العاشر: كونه لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب الردى فيصدّ عنه: أي لا يعرف بجهله قانون الهداية إلى طرق الحق فيسلكه ولا وجه دخوله في الباطل فيعرض عنه، وذلك أن الجاهل الجهل المركب لما حاد عن سبيل الله وجزم بما اعتقده من الباطل امتنع مع ذلك الجزم أن يعرف باب الهدى ومبدأ الدخول إليه فامتنع منه اتباعه، ولما اعتقد أن ما جزم به من الباطل هو الحق امتنع أن يعرف مبدأ دخوله في الجهل وهو باب العمى فامتنع منه أن يصد عنه ثمّ حكم عليه السلام عن تلك الأوصاف أنه ميت الأحياء. أما كونه ميتاً فلأن الحياة الحقيقية التي تطلب لكل عاقل والتي وردت الشرائع والكتب الإلهية بالأمر بتحصيلها هي حياة النفس باستكمال الفضائل التي هي سبب السعادة الباقية، وقد علمت أن الجهل المركب هو الموت المضاد لتلك الحياة فالجاهل بالحقيقة ميت. وأما أنه ميّت الأحياء فأنه في صورة الحي.

الفصل الثالث: قوله:

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ! وَالأَعْلاَمُ قَائِمَةٌ، وَالآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ! وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلاَمُ الدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَاعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَا، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ! وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي، فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ.

أقول: تؤفكون: تصرفون. والتيه: الضلال. والعمه: الحيرة والتردد. وعترة الرجل: أقاربه من ولده وولد ولده وأداني بني عمه. والهيم: الإبل العطاش.

واعلم أنه لما قدم المتقين بصفاتهم والفاسقين بصفاتهم كان في ذكرهما تنبيه على وصفي طريق الحق والباطل ولوازمهما فلذلك أعقبهما بالتنبيه على كونهم في ضلال وتيه، وعمى عن الحق ثمّ بالتخويف والتبكيت والتذكير بكتاب الله وعترة رسوله ليلزموا سمتهم ويسلكوا بهم طريق أهل التقوى ويفيئوا عن ضلالهم إلى اقتباس أنوار الحق من أهله.

فقوله: فأين تذهبون. إلى قوله: منصوبة.

سؤال عما يذهبون إليه وعن وقت صرفهم عن ذلك الغي سؤالاً على سبل الإنكار لما هم عليه من الطريق الجائرة، والواو في قوله: والأعلام. للحال. وإشارة بالأعلام إلى أئمة الدين، ووضوحها ظهورها بينهم. وكذلك المنار، ونصبها قيام الأئمة بينهم ووجودهم فيهم، ثمّ أردف ما أنكره من ذهابهم وتعجب منه بتفسيره فقال: فأين يتاه بكم وكيف تعمهون، ونبّه به إلى أن الذهاب الذي سألهم عنه هو تيه في الضلال وحيرة الجهل والتردد في الغي، وتبيّن منه أن قوله: وأنّى تؤفكون: أي متى تصرفون عن تيهكم وذهابكم في الضلالة.

وقوله: وبينكم عترة نبيكم.

الواو للحال أيضاً فالعامل تعمهون، أو يتاه بكم، وكذلك الواو في قوله: وهم أزمة الحقّ: والمعنى كيف يجوز أن تتيهوا في ظلمات الجهل مع أن فيكم عترة نبيكم، وأراد بعترته أهل بيته عليهم السلام وإليه الإشارة بقول الرسول صلى الله عليه وآله: وخلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض. واستعار لهم لفظ الأزمة، ووجه المشابهة كونهم قادة للخلق إلى طريق الحق كما يقود الزمام الناقة إلى الطريق، وكذلك استعار لهم لفظ الألسنة، ووجه المشابهة كونهم تراجمة الوحي الصادق كما أن اللسان ترجمان النفس، ويحتمل أن يريد بكونهم ألسنة الصدق أنهم لا يقولون إلاّ صدقاً.

وقوله: فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن.

فاعلم أن للقرآن منازل:

الأولى القلب. وهو فيه بمنزلتين: إحداهما منزلة الإكرام والتعظيم، والثانية منزلة التصور فقط من دون تعظيم. الثالثة: منزلته في الوجود اللساني بالتلاوة.

الرابعة: منزلته في الدفاتر والكتب، وأحسن منازله هي الأولى. فالمراد إذن الوصية بإكرامهم ومحبتهم وتعظيمهم كما يكرم القرآن بالمحبة والتعظيم.

وقوله: وردوهم ورود الهيم العطاش.

إرشاد لهم إلى اقتباس العلوم والأخلاق منهم إذ كانوا معادنها. ولما كانت العلماء والأئمة تشبه بالينابيع، والعلم يشبه بالماء العذب، وعادمه بالعطشان، حسن منه أن يأمرهم بورودهم وأن يشبه الورود المطلوب منهم بورود الإبل العطاش.

وقوله: أيها الناس. إلى قوله: ببال.

لما كان عليه السلام في معرض ذكر الفائدة فكأنه قد تقدّم فلذلك أحسن إبراز الضمير في قوله: خذوها. وإن لم يسبق لها ذكر، وإشارة النبي بهذه الكلمة تقرير لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]. ولما اتفقت عليه كلمة العلماء، ونطقت به البراهين العقلية أن أولياء الله لا يموتون ولا يبلون وإن بليت أجسادهم.

قال بعض الخائضين فيما لا يعنيه قوله: ويبلى من بلي منّا نص جلي على أن أجساد الأولياء تبلى وذلك يخالف ما يعتقده الناس من أن أجسادهم باقية إلى يوم القيامة بحالها.

قلت: الاعتقاد المذكور لبعض الناس إنما نشأ من قول الرسول صلى الله عليه وآله في قتلى بدر زمّلوهم بكلومهم ودمائهم فإنهم يحشرون يوم القيامة، وأوداجهم تشخب دماً وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية وليس ولا واحد منهما بدال على أن الأجساد لا تموت ولا تبلى أما الخبر فليس مقتضاه أنها تبقى صحيحة تشخب دماً إلى يوم القيامة. بل ذلك مما يشهد ببطلانه الحس بل يحمل على أنها كما تعاد يوم القيامة تعاد مجروحة تشخب جراحها دماً كهيئتها يوم موتها.

وأما الآية فالذي أجمع عليه علماء المفسرين أن الحياة المذكورة فيها هي حياة النفوس وهو ظاهر في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل

العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلّغ إخواننا عنّا أنّا في الجنة نرزق لئلا يزهد في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية. فإذن لا منافاة بين كلامه عليه السلام وما ورد في القرآن والخبر ومقصوده بهذه الكلمة تقرير فضيلتهم وأنهم أولياء باقون عند ربهم في ظل كرامته.

وقوله: فلا تقولوا بما لا تعرفون.

تنبيه على الرجوع إلى العترة العارفين بما ينبغي أن يقال وقوله: فإن أكثر الحق فيما تنكرون تأكيد للأمر بالتثبّت في الأقوال والنهي عن التسرع إليها، والجاهل قد ينكر الحق إذا خالف طبعه أو نبا عنه فهمه أو سبق اعتقاد ضده إليه بشبهة أو تقليد فنبّه على أن أكثر الحق فيما ينكرونه لئلاّ يتسرعوا إلى القول من غير علم، ولذلك ذكر هذه القضية مرتّبة بفاء التعليل.

وقوله: وأعذروا من لا حجة لكم عليه وهو أنا.

طلب عليه السلام العذر منهم فيما يلحقهم من عذاب الله بسبب تقصيرهم فإن الضرر اللاحق لهم قد أنذروا به وتوعّدوا فلو قصر هو عليه السلام في تذكيرهم بتلك الوعيدات أو الإنذارات مع كون ذلك مأخوذاً عليه من الله تعالى فكانت حجتهم عليه قائمة ولما كان له عذر لكنه بلّغ وحذّر وقد أعذر من أنذر وإنما ذكّرهم بسلب الحجة عنهم في ذلك ليتذكروا خطأهم ولعلهم يرجعون.

وقوله: ألم أعمل فيكم إلى قوله: من نفسي.

تفصيل لما جاءهم به من الجواذب إلى الله فأعذر إليهم بها، وأتى بلفظ الاستفهام على سبل التقريع والتبكيت والثقل الأكبر كتاب الله. وأشار بكونه أكبر إلى أنه الأصل المتبع المقتدى به، والثقل الأصغر الأئمة من ولده عليهم السلام، وكنى براية الإيمان عن سنّته المتبعة وطريقه الواضحة في العمل بكتاب الله وسنّة رسوله كناية بالمستعار، ووجه المشابهة كونه طريقة يهتدى بها إلى سلوك سبيل الله كما يهتدى بالأعلام والرايات أمام الجيش وغيره، ولفظ الركز ترشيح للاستعارة كنى به عن إيضاحها لهم وتوقيفه على حدود الحلال والحرام تعريفهم إيّاها وأراد بالعافية السلامة عن الأذى الحاصل من أيدي الظالمين، واستعار لفظ اللباس لها، ووجه الاستعارة أن العافية تشمل المعافى كالقميص، وكذلك استعار لفظ الفرش للمعروف لكونه إذا وطيت قواعده يستراح به كالفراش.

وقوله: وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي: أي أوضحتها لكم وشاهدتموها مني متكررة.

وقوله: فلا تستعملوا الرأي إلى آخره.

نهي لهم عن الاشتغال بالخوض في صفات الله والبحث عن ذاته على غير قانون وأستاذ مرشد. بل بحسب الرأي والتخمين فإن تلك الدقائق لما كانت لا ساحل لها ولا غاية يقف الفكر عندها وإن تغلغل في أعماقها، وكانت مع ذلك في غاية العسر والدقة وكثرة الاشتباه كان تداولهم للاشتغال بها مؤدياً إلى الخبط وافتراق المذاهب وتشتّت الكلمة والاشتغال بذلك عن الانتظام في سلك الدين والاتحاد فيه كما عليه من ينتسب إلى العلم بعده وكل ذلك منه مطلوب الشارع، فإن الألفة والاتحاد في الدين من أعظم مطلوباته ويحتمل أن يريد مطلق دقائق العلم وتفريع الفقه على غير قانون من إمام هدى. بل الرأي عن أدنى وهم.

ومنها: حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلاَ يُرْفَعُ عَنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلاَ سَيْفُهَا، وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً!

أقول: معقولة: محبوسة. والمجة: الفعلة من مجّ الشراب إذا قذفه من فيه. والبرهة: المدة من الزمان فيها طول. ولفظ كذا: ألقاه من فيه.

وهذا الكلام من فصل يذكر فيه حال بني أمية وطول مدتهم وبلاء الخلق بهم فقوله: يظن الظان. إلى قوله: سيفها. غاية من غايات طول عناء الناس معهم واستعار للدنيا أوصافاً.

أحدها: كونها معقولة، ووجه الاستعارة ملاحظة شبهها بالناقة في كونها محبوسة في أيديهم كما تحبس الناقة بالعقال.

الثاني: كونه ذات درّ تمنحهم إياه، ووجه الاستعارة أيضاً تشبيهها بالناقة في كون ما فيها من فوائدها وخيرها مهيئة لهم ومصبوبة عليهم كما تبذل الناقة درّها حالبها.

الثالث: كونها توردهم صفوها، ونسبة الإيراد إليها مجاز، وتجوّز بالسوط والسيف فيما فيه الأمة معهم من العذاب والقتل ونحوه استعمالاً للفظ السبب في المسبب وقوله: وكذب الظان لذلك. . . إلى آخره ردّ لما عساه يظن من ذل بتحقير ما حصلوا عليه من الأمر ولذتهم به وتحقير مدته، واستعار لذلك لفظ المحبة، وكنى بكونها مطعومة لهم عن تلذّذهم بها مدة إمرتهم، وبكونها ملفوظة عن زوال الآخرة عنهم، وأكد ذلك الزوال بقوله: جملة: أي بكليّتها وهي كناية بالمستعار تشبيهاً لها باللقمة التي لا يمكن إساغتها، وبالله التوفيق.

٨٨ - ومن خطبة له عليه السلام

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاءٍ؛ وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلاَءٍ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ! وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ، وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَلاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ. فَيَا عَجَبِي! وَمَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَأِ هٰذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلاَفِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا! لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَ يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَلاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ. الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلاَتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُبْهَمَاتِ (المهمّات) عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرىً ثِقَاتٍ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ.

أقول: القصم بالقاف: الكسر. والأزل بفتح الهمزة: الضيق والشدة. واقتص أثره: تبعه.

ومقصود هذا الفصل توبيخ الأمة على اختلاف آرائهم في الدين واستبداد كل منهم بمذهب بحسب رأيه في المسائل الفقهية ونحوها مع وجوده عليه السلام بينهم، وإعراضهم عن مراجعته مع علمهم بقيامه بذلك.

فقوله: أما بعد. إلى قوله: ببصير.

صدر الخطبة وكأنه عليه السلام فهم ممن خرجت هذه الخطبة بسببه أنهم إنما يستبدون بآرائهم من دون مراجعة عن كبر منهم على التعلم والاستفادة ومحبة الراحة من تحمل كلفة التحري في الدين والتحرّز من الغلط فيه ومشقة الطلب فلذلك خوّفهم من حال الجبابرة وأن تصيبهم بترك قواعد الدين إلى آرائهم المتفرقة فيستعدّوا للهلاك بقوله: إنّه لم يقصم جباري دهر إلاّ بعد إمهالهم فإنهم إذا أُمهلوا وانغمسوا فيما هم فيه من الرخاء والترف أعرضوا عن الآخرة ونسوا ذكر الله تعالى فاستعدوا بتركهم لقوانين الدين التي بها نظام العالم للهلاك ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وكذلك قوله: ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلاّ بعد أزل وبلاء، كنى بجبران العظم عن قوتهم بعد الضعف كناية بالمستعار، وصدق هذه القضية ظاهر فإن أحداً من الأمم المتبعين لأنبيائهم أو لملوكهم في إظهار دين أو طلب ملك لن يصلوا إلى مطلوبهم إلاّ بعد قوتهم وتضاعفهم وتظاهر بعضهم ببعض ومعاناة بلاء أثر بلاء بحيث يستعدون بذلك للفزع إلى الله تعالى فيهيىء قلوبهم لقبول الألفة ويعدها باجتماع عزائمها لقبول صورة النصر، وفيه تنبيه على وجوب الاتحاد في الدين وعدم تشتّت الآراء فيه فإن ذلك يدعو إلى التحزّب والتفرق ويدخل عليهم الوهن والضعف وكل ذلك ضد مطلوب الشارع كما سبق، ويحتمل أن يكنّى بقوله:

لم يقصم جباري دهر. عن جباري وقته كمعاوية وأصحابه، وبقوله: لم يجبر عظم أحد من الأمم إلاّ بعد أزل وبلاء عن أصحابه فنبههم بالكلمة الأولى عن أن أولئك الجبارين وإن طالت مدتهم وقوت شوكتهم فإنما ذلك إملاء من الله لهم ليستعدوا به للهلاك، وبالكلمة الثانية على أنكم وإن ضعفتم وابتليتم فذاك عادة الله فيمن

يريد أن ينصره ثمّ عقب ذلك بتوبيخهم على الاختلاف وتشعّب الآراء والمذاهب في الدين لما أن ذلك يؤدي إلى طول محنتهم وضعفهم عن مقاومة عدوهم.

وقوله: وفي دون ما استقبلتم من عتب: أي من عتابي لكم، واستدبرتم من خطب: أي من الأهوال التي كنتم ترونها من المشركين في مبدأ الإسلام حيث كنتم قليلين وأمرتم أن يثبت الواحد منكم لعشرة منهم ثمّ أيّدكم الله بنصره بالتأليف بين قلوبكم وجبر عظمكم بمن أسلم ودخل في دينكم، وذلك أي معتبر وفيه أي اعتبار فإنكم لو لم تتحدوا في الدين وتقاسوا مرارة ذلك النصير واختلفت آراؤكم في ذلك الوقت كاختلافها الآن، وكنتم إذن على غاية من الكثرة لم تغن عنكم كثرتكم شيئاً فكأنه قال: فيجب من ذلك الاعتبار أن لا تفترقوا في الرأي وأن تتحدوا في الدين وتراجعوا أعلمكم بأصوله وفروعه.

وقوله: فما كل ذي قلب بلبيب. إلى قوله: ببصير.

أراد بذي القلب الإنسان، وظاهر أن الإنسان قد يخلو عن اللب وأراد باللب العقل والذكاء واستعماله فيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، وبالجملة فاللبيب من ينتفع بعقله فيما خلق لأجله، وكذلك السميع والبصير هما اللذان يستعملان سمعهما وبصرهما في استفادة العبرة وإصلاح أمر المعاد ونحوه قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]. وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وفائدة هذه الكلمات تحريك النفوس إلى الاعتبار كيلا يعدّ التارك له غير لبيب ولا سميع ولا بصير.

وقوله: يا عجبي. إلى آخره.

أردف تعجبه بما يصلح جواب سؤال مقدر عما يتعجب منه فكأنه فهم من تقدير ذلك السؤال تعجّب السائل من تعجبه المستلزم لتبرمه وتضجره حتّى كأن السائل قال: وممّ تتعجب وعلام هذا التبرم والأسف؟ فقال: ما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق. ثمّ شرع في تفصيل الخطايا والمذام التي كان اجتماعها فيهم سبباً لتعجبه منهم فأشار إلى تركهم لما ينبغي وقدم على الكل ذكر اختلاف حججهم في دينهم، وذلك هو الأصل الذي نشأت عنه أكثر هذه الرذائل فأما تركهم لما ينبغي ففي صور:

أحدها: تركهم لاقتصاص أثر نبيهم فإنهم لو اقتصّوا أثره لما اختلفوا إذ لا اختلاف فيما جاء به كما سبق بيانه لكنهم اختلفوا فلم يقتصوا أثر نبيهم.

الثانية: تركهم الاقتداء بعمل الوصي وهو إشارة إلى نفسه وهذه أقطع لأعذارهم فإن الاختلاف في الدين قد يعرض عن ضرورة وهي عدم إصابة الكل للحق مع عدم الشارع الذي يرجع إليه في التوقيف على أسرار الشريعة فأما إذا كان الموقف موجوداً بينهم كمثله عليه السلام امتنع أن يقعوا في تلك الضرورة فيعتذروا بها في الاختلاف.

الثالثة: تركهم الإيمان بالغيب: أي التصديق به والطمأنينة في اعتقاده. وللمفسرين في تفسير الغيب أقوال:

أحدها: عن ابن عباس: هو ما جاء به من عند الله.

الثاني: عن عطاء: هو الله سبحانه.

الثالث: عن الحسن: هو الدار الآخرة والثواب والعقاب والحساب.

الرابع: قيل: يؤمنون بظهر الغيب كقوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩] فالمعنى قوله عليه السلام: أي لا يحفظون شرائط الإيمان في عقيب بعضهم على بعض.

الخامس: عن ابن عيسى: الغيب ما غاب عن الحواس مما يعلم بالدليل.

السادس: عن الأخفش: يؤمنون بما غاب عن أفهامهم من متشابهات القرآن.

الرابعة: تركهم العفة عن عيب وهو إشارة إلى الغيبة وظاهر أنها فجور وعبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العفة. وأما فعلهم لما لا ينبغي فأمور:

أحدها: أنهم يعملون في الشبهات: أي لا يتوقفون فيما أشبه عليهم أمره ولا يبحثون عن وجه الحق فيه بل يعملون فيه بما قادهم إليه الهوى.

الثاني: كونهم يسيرون في الشهوات لما لحظ مشابهة ميل قلوبهم إلى شهواتها الدنيوية وانهماكها فيها قاطعة مراحل الأوقات بالتلذذ لسلوك السائر في الطريق ونحوها استعار لذلك السلوك لفظ السير.

الثالث: كون المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر ما أنكروا: أي أن المعروف والمنكر تابعان لإرادتهم وميولهم الطبيعية فما أنكرته طباعهم كان هو المنكر بينهم وإن كان معروفاً في الشريعة وما اقتضته طباعهم ومالت إليه كان هو المعروف بينهم وإن كان منكراً في الدين، والواجب أن تكون إرادتهم وميولهم تابعة لرواسم الشريعة في اتباع ما كان فيها معروفاً وإنكار ما كان فيها منكراً.

الرابع: كون مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المبهمات إلى آرائهم وهو كناية عن كون أحكامهم في كل ما يرد عليهم من مشكلات الدين ويستبهم من أحكامه تابعة لأهوائهم لا يجرونها على قانون شرعي يعرف حتّى أشبهت نفوسهم الأمارة بالسوء التي هي منبع الأهواء المخالفة للشريعة الأئمة التي يرجع إليهم في استفادة الأحكام فكل منهم يأخذ عن نفسه: أي يتمسك فيما يراه ويحكم به بآراء كأنها عنده عرى وثيقة: أي لا يضل من تمسك بها، وأسباب محكمات: أي نصوص جليّة وظواهر واضحة لا اشتباه فيها، وقد عرفت معنى الحكم، ولفظ العرى مستعار، وقد سبق وجه الاستعارة. وبالله العصمة والتوفيق.

٨٩ - ومن خطبة له عليه السلام

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، وَاعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارٍ مِنَ الأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَاغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا. ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ.

فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ، وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ. وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلاَ بِهِمُ الْعُهُودُ، وَلاَ خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ، وَمَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمَ كُنْتُمْ فِي أَصْلاَبِهِمْ بِبَعِيدٍ. وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلاَّ وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِهِمْ (أَسْمَاعِكُمْ) بِالأَمْسِ، وَلاَ شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصَارُ، وَلاَ جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ فِي ذٰلِكَ الأَوَانِ، إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هٰذَا الزَّمَانِ.

وَاللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلاَ أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

أقول: الفترة: ما بين زماني الرسالة. والهجعة: النومة. والاعتزام: العزم، وروي: اعترام الفتن بالراء المهملة: أي كثرتها، وروي: اعتراض من اعترض الفرس الطريق إذا مشى عرضاً من غير قصد. وتلظت الحرب: تلهّبت. والتجهّم: العبوس. والأحقاب: جمع حقب بضم الحاء والقاف وهو الدهر. والباطن: حزام البعير للقتب.

وصورة هذا الفصل تذكيرهم بنعمة الله تعالى التي نفت ما كانوا فيه من بؤس وهي بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وما استلزمته من الخيرات ليعتبروا فيشكروا ويخلصوا التوجه إلى الله تعالى فأشار أولاً إلى النعمة المذكورة ثمّ أردفها بالأحوال المذمومة التي تبدلت بتلك النعمة الجسيمة، وعدّ منها أموراً:

أحدها: الفترة من الرسل وظاهر أن خلوّ الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود الشرور ووقوع الهرج والمرج، وتلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان به من الذم بمقدار ما يلحق زمان وجود الرسول صلى الله عليه وآله من المدح.

الثاني: طول الهجعة من الأمم، وكنّى بالهجعة عن الغفلة في أمر المعاد وسائر المصالح التي ينبغي.

الثالث: الاعتزام من الفتن، أما على الرواية الأولى فنسبة العزم إلى الفتن مجاز كنّى به عن وقوعها بين الخلق المشبه لقصدها إياهم، وعلى الرواية الثانية: أي على كثرة من الفتن، وعلى الرواية الثالثة فالمعنى أن الفتن لما كانت غير واقعة على قانون شرعي ولا نظام مصلحي ولذلك سميت فتنة لا جرم أشبهت المعترض في الطريق من الحيوان الماشي على غير استقامة، ولذلك استعير لها لفظ الاعتراض.

الرابع: وعلى انتشار من الأمور: أي تفرّق أمور الخلق وأحوالهم وجريان أفعالهم على غير قانون عدلي.

الخامس: التلظّي من الحروب. وقد سبق تشبيه الحرب بالنار فلذلك أسند إليها التلظّي على سبيل الاستعارة، وكنّى بها هيجانها ووجودها بينهم زمان الفترة.

السادس: والدنيا كاسفة، والواو للحال: أي كاسف نورها، ونور الدنيا كناية عن وجود الأنبياء وما يأتون به من الشرائع وما ينتج عنهم من الأولياء والعلماء كناية بالمستعار، ووجه المشابهة ما يستلزم النور ووجود الأنبياء والشرائع من الاهتداء بهما، ورشح تلك الاستعارة بذكر الكسوف، وعبّر به عن عدم ذلك النور منها ملاحظة لشبهها بالشمس.

السابع: ظاهرة الغرور: أي كل قد اغترّ بها وانهمك في مشتهياتها وخدعته بخوادعها.

الثامن: كونه أرسل على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها واغورار من مائها. استعار لفظ الثمرة والورق لمتاعها وزينتها، ولفظ الاصفرار لتغيّر تلك الزينة عن العرب في ذلك الوقت وعدم طلاوة عيشهم إذن وخشونة مطاعمهم كما يذهب حسن الشجرة باصفرار ورقها فلا يتلذذ بالنظر إليها، وعنى بالإياس من ثمرها انقطاع آمال العرب إذن من الملك والدولة وما يستلزمه من الحصول على طيبات الدنيا، وكذلك استعار لفظ الماء لمواد متاع الدنيا وطرق لذّاتها ولفظ الاغورار لعدم تلك المواد من ضعف التجارات والمكاسب وعدم التمليك للأمصار وكل ذلك لعدم النظام العدلي بينهم، وكلّها استعارات بالكناية ووجه الاستعارة الأولى أن الورق كما أنه زينة للشجرة وبه كماله كذلك لذّات الدنيا وحياة الدنيا وزينتها، ووجه الثانية أن الثمر كما أنه مقصود الشجرة غالباً وغايتها كذلك متاع الدنيا والانتفاع به هو مقصودها المطلوب منها لأكثر الخلق، ووجه الثالثة أن الماء كما أنه مادة الشجرة وبه حياتها وقيامتها في الوجود كذلك مولود تلك اللذات هي المكاسب والتجارات والصناعات، وقد كانت العرب خالية من ذلك، ووجوه باقي الاستعارات ظاهرة.

التاسع: دروس أعلام الهدى. وكنى بأعلام الهدى عن أئمة الدين، وكتبه التي بها يهتدى لسلوك سبيل الله وبدروسها عن موت أولئك وعدمهم كناية بالمستعار كما سبق.

العاشر: ظهور أعلام الردى. وهم أئمة الضلال الداعين إلى النار.

الحادي عشر: كون الدنيا متجهمة لأهلها عابسةً في وجوه طلابها، وكنى بذلك عن عدم صفائها فإنّ طيب العيش في الدنيا إنما يكون مع وجود نظام العدل والتصفية بين أهلها وعدم التظالم وذلك في زمان الفترة مفقود بين العرب، وهو كناية بالمستعار، ووجه المشابهة ما يلزمه المستعار عنه وله من عدم تحصيل المطلوب معهما.

الثاني عشر: كون ثمرها الفتنة: أي غاية سعيهم فيها على خبط في ظلمات جهلهم إنما هو الفتنة: أي الضلال عن سبيل الله والتيه في ظلمات الباطل. وغاية كل شيء هو مقصوده فتشبه الثمرة التي هي مقصود الشجرة فلذلك استعير لها لفظها.

الثالث عشر: وطعامها الجيفة، يحتمل أن يكون لفظ الجيفة هنا مستعاراً لطعام الدنيا ولذاتها، ووجه المشابهة أنه لما كانت الجيفة عبارة عما أنتن وتغيّرت رائحته من جثة حيوان ونحوها فخبث مأكله ونفر الطبع عنه كذلك طعام الدنيا ولذاتها في زمان الفترة أكثر ما يكون من النهب والغارة والسرقة ونحوهما مما يخبث تناوله شرعاً وينفر العقل منه وتأباه كرائم الأخلاق فأشبه ما يحصل من متاعها إذن الجيفة في خبثها وسوء مطعمها، وإن كان أحد الخبيثين عقلياً والآخر حسياً

فاستعير لفظها له، ويحتمل أن يكنى بالجيفة عما كانوا يأكلون في الجاهلية من الحيوان غير مذكى وهو ما حرّمه القرآن الكريم من ذلك في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣]. أي المضروبة بالخشب حتّى تموت ويبقى الدم فيها فيكون أطيب كما زعم المجوس، والمتردية: أي التي تردت من علو فماتت. فإن كل ذلك إذا مات فكثيراً ما يتعفّن ويؤكل فيصدق أن طعامهم كان الجيفة.

الرابع عشر: كون شعارها الخوف.

الخامس عشر: كون دثارها السيف. استعار لفظ الشعار للخوف والدثار للسيف، ووجه الاستعارة الأولى أن الخوف وإن كان من العوارض القلبيّة إلاّ أنه كثيراً ما يستتبع اضطراب البدن وانفعاله بالرعدة فيكون شاملاً له شمول ما يتّخذه الإنسان شعاراً. ووجه الثانية أن الدثار والسيف يشتركان في مباشرة المدثر والمضروب من فوقهما. وقوله: فاعتبروا عباد الله شروع في المقصود. فقوله: واذكروا تلك. إشارة إلى وجه العبرة من قبائح الأعمال: أي تلك الأعمال التي كانت عليها آباؤكم وإخوانكم زمان الفترة وزمان دعوة الرسول لكم، وقوله: فهم بها مرتهنون: أي محبوسون في سلاسل الهيئات البدنية وأغلال ما اكتسبوا منها، ومحاسبون عليها. وقوله: ولعمري... إلى قوله: ببعيد. إلحاق بهم بآبائهم في تشبيه زمانهم بزمانهم وتقارب ما بين الزمانين وتشبيه أحوالهم بحالهم في أمور:

أحدها: أن أولئك كانوا آباءكم وليس زمان الابن وحاله ببعيد من حال أبيه فيما يأتي ويذر.

الثاني: أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يسمعهم شيئاً إلاّ وأسمعتكم إيّاه فلا فرق بينكم وبينهم من هذه الجهة.

الثالث: أنه لا تفاوت بين إسماعكم وإسماعهم.

الرابع: أن سائر الآلات البدنية التي كانت لأولئك فاكتسبوا بها كمالاً ولم تكتسبوا حاصلة لكم أيضاً.

الخامس: أنكم لم تعلموا شيئاً كان آباؤكم جهلوه حتّى يكون ذلك سبباً للفرق بينكم وبينهم.

السادس: ولا أصفيتم من الدنيا بشيء لم يكن لآبائكم مثله، وغرضه من إلحاقهم بآبائهم في هذه الأحوال أمران:

أحدهما: التنفير عن حال من سبق من العاصين بمخالفة أوامر الله تعالى.

الثاني: الجذب والترغيب في حال من سبق ممن أطاع الله والرسول فإنه إذا حصلت المشابهة بينهم وبين السابقين، والمتشابهان يتحدان في اللوازم كان من تشبه بسابق في عصيانه لزمه ما لزمه من أليم العقاب، ومن تشبّه به في طاعته وانقياده لله لزمه ما لزمه من الوصول إلى جزيل الثواب.

وقوله: ولقد نزلت بكم الليلة.

يشبه أن يكون إنذاراً بابتلاء الخلق بدولة بني أمية وملوكها، وقوله: جائلاً خطامها. كناية بالمستعار عن خطرها وصعوبة حال من يركن إليها فإنها لما كانت دولة خارجة عن نظام الشريعة جارية على وفق الأوهام كان الراكن إليهم على خطر في دينه ونفسه، كما أن من ركن إلى الناقة التي جال خطامها، أي لم يثبت في وجهها وارتخى حزامها فركبها كان على خطر أن تصرعه فيهلك، ثمّ أردف ذلك بالنهي عن الاغترار بما أصبح فيه أهل الغفلة من متاع الدنيا وطيباتها ونفّر عنه باستعارة لفظ الظل له، ووجه المشابهة ما يشتركان فيه من كونه ممدوداً ينتهي عند أجل ويزول به. وبالله التوفيق.

٩٠ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً؛ إِذْ لاَ سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلا حُجُبٌ ذَاتُ أَرْتَاجٍ، وَلا لَيْلٌ دَاجٍ، وَلاَ بَحْرٌ سَاجٍ، وَلا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَلا فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ، وَلا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ، ذٰلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلٰهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ: يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ. قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ

(أَنْفَاسِهِمْ)، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ.

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ، وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ. مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ.

عِبَادَ اللهِ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظ وَزَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لا زَاجِرٌ وَلاَ وَاعِظٌ.

أقول: الأرتاج: الأغلاق. والساجي: الساكن. والفجاج: الاتساع. والفج: الواسع، ودائبان: مجدّان في سيرهما. وعازه: غالبه والمناواة: المعاداة.

وقد صدر هذا الفصل باعتبارات إضافية للحق سبحانه في معرض تمجيده:

فالأول: كونه تعالى معروفاً من غير رؤية، وقد سبق معنى معرفته تعالى ومراتبها وبيان كونه منزهاً عن الرؤية بحاسة البصر.

الثاني: كونه تعالى خالقاً من غير روية، وقد سبق أيضاً بيانه في قوله في الخطبة الأولى: بلا روية أجالها.

الثالث: كونه لم يزل دائماً. وذلك لكون وجوب وجوده مستلزماً لاستحالة عدمه أزلاً وأبداً.

الرابع: كونه قائماً. يجوز أن يريد به معنى الدائم الباقي، ويجور أن يريد به القائم بأمور العالم، وللمفسرين فيه على هذا الوجه أقوال:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنه كونه عالماً بالخلق أينما كانوا وضابطاً لأحوالهم.

الثاني: قيامه توكيله الحفظة عليهم وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

الثالث: القائم على الشيء هو الحافظ له والمدبر لأمره.

الرابع: هو المجازي بالأعمال.

الخامس: هو القاهر لعبادة المقتدر عليهم، وقوله: إذ لا سماء. إلى قوله: ذو اعتماد، إشارة إلى جهة اعتبار أزلية قيامه بذاته وسبقه لكل ممكن ودوامه تقريراً لقول الرسول صلى الله عليه وآله: كان الله ولا شيء. فأما الحجب ذات الأرتاج فيحتمل أن يريد بها السماوات على ظاهر الشريعة وأنه تعالى في السماء فأشبهت الحجب له فأطلق له لفظها عليها، وكونها ذات أرتاج كناية عن عدم التمكن من فتحها، والدخول فيها كناية بالمستعار، وقال بعض الفضلاء: أراد بها الهيئات البدنية ومحبة الدنيا والظلمات الحاصلة للنفس الحاجبة لها عن مشاهدة أنوار جلال الله حتّى كأنها أقفال عليها كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] وقوله: ولا خلق ذو اعتماد: أي ذو قوة وبطش.

السادس: كونه مبتدع الخلق: أي مخترعه على غير مثال سبق.

السابع: كونه وارثه: أي كما أنه مبدأه فهو مآله ومرجعه، وذلك إشارة إلى كونه دائماً قائماً لم يزل ولا يزال.

الثامن: كونه إله الخلق وهو اعتبار يلحقه بالقياس إلى إيجاده لهم واستعباده إياهم.

التاسع: كونه رازقهم وهو اعتبار له بالقياس إلى إفاضة سائر نعمه عليهم.

أحدها: كون الشمس والقمر دائبين في مرضاته: أي على وفق إرادته للخير المطلق والنظام الكلي، وذكرهما في معرض تمجيده لكونهم من أعظم آيات ملكه، وقوله: يبليان كل جديد. نسب الإبلاء إليهما لكون حركاتهما من الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم وتغيّراته، وكذلك قوله: ويقرّبان كل بعيد، وفيه جذب إلى ذكر المعاد والعلم له فكونهما يبليان كل جديد منبه على عدم الثقة والاعتماد على ما يروق ويعجب من حسن الأبدان وجدتها، وكذلك ما يحدث ويتجدد من قينات الدنيا ولذاتها لوجوب دخولها فيما يبلى، وكونهما

يقربان البعيد تنبيه مع ذلك إلى الحذر مما يستبعده أهل الغفلة من الموت والفناء في صحة أبدانهم وسلامتهم في حياتهم الدنيا.

العاشر: كونه تعالى قسم أرزاقهم كقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الزخرف: ٣٢] أي وهب لكل من الخلق ما كتب له في اللوح المحفوظ.

الحادي عشر: كونه أحصى آثارهم. إلى قوله: من الأرحام والظهور: أي أحصى كل ذلك منهم بقلم القضاء الإلهي في الألواح المحفوظة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[محمد: ٣٠] وقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: ٧٥] وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦] وقوله: إلى أن تتناهى بهم الغايات: أي يعلم كل أحوالهم من حين ابتدائهم إلى أن يقف كل عند غايته المكتوبة له من خير أو شر.

الثاني عشر: هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته وأشار إلى كمال ذاته بالنسبة إلى ملوك الدنيا مثلاً فإن أحدهم في حالة غضبه على عدوه لا يتسع لرحمته ولا رحمة غيره، وكذلك في حال رحمته لأوليائه لا يجتمع معها غضبه عليهم، ولما ثبت أنه تعالى هو الغني المطلق المنزه عن صفات المخلوقين، وأنه المعطي لكل قابل ما يستحقه من غير توقف في وجوده على أمر من ذاته وكان أعداء الله مستعدون ببعدهم عنه لقبول سخطه وشدة نقمته في الآخرة لا جرم أولاهم ذلك وإن كانوا في الدنيا في سعة رحمته وشمول نعمته، وكذلك أولياؤه لما استعدوا لقبول رحمته وشمول نعمته أفاضها عليهم فهم في حضرة قدسه على غاية من البهجة والسعادة وضروب الكرامة وإن كانوا بأجسادهم في ضروب من العذاب وشقاوة الفقر والضنك في الدنيا، وذلك لا يملكه إلاّ حليم لا يشغله غضب عن رحمته، عدل حكيم لا تمنعه رحمته عن إنزال عقوبته سبحانه ليس إلاّ هو.

الثالث عشر: قاهر من عازّه. إنه تعالى قاهر باعتبار أنه قاصم ظهور الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالموت والإذلال كفرعون إذ قال: أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وهو الذي يلحق هذا الاعتبار مطلقاً إذ كل موجود فهو مسخر تحت قدرته وقهره عاجز في قبضته.

الرابع عشر: ومدمر من شاقّه.

الخامس عشر: ومذلّ من ناواه.

السادس عشر: وغالب من عاداه. فمشاقة الله اتباع غير سبيله من بعده ما يتبيّن للمنحرف الهدى، ومناوءته الإعراض عن أوامره واتباع الشهوات وإذلاله تعالى حينئذ هو إفاضته لصورة الحاجة إلى غيره.

السابع عشر: كافي من توكل عليه.

الثامن عشر: ومعطي من سأله.

التاسع عشر: وقاضي من أقرضه.

العشرون: ومجازي من شكره. وهذه الاعتبارات تعود إلى حرف واحد وهو أن العبد إذا استعد بحسن التوكل والسؤال والصدقة والشكر لنعم الله وجب في جود الله وحكمته إفاضة كفايته فيما توكل عليه فيه فكفايته من الكمالات إفاضة تمامها عليه، ومن رفع النقصانات دفعها عنه ثمّ إعطاؤه ما سأل إذا استعد لقبوله ثمّ أداؤه عن قرضه أضعافه ثمّ جزاؤه على شكر زيادة إنعامه، وأطلق لفظ القرض لما يعطى الفقير مجازاً كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[البقرة: ٢٤٥] أي بريئاً من جهات الرياء والسمعة خالصاً لوجه الله فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، ووجه المناسبة كون الفقراء أهل الله وعياله فكان المعطي هو الله تعالى.

وقوله: عباد الله. إلى آخره.

شروع في الشور والموعظة فقوله: زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا. زنة النفوس في الدنيا اعتبار أعمالها وضبطها بميزان العدل: أي مراعاة استقامتها على حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما فالنقصان لازم والخسران قائم. وأما الميزان الأخروي فأما على رأي المتكلمين وظاهر الشريعة فظاهر وأما على رأي محققي السالكين

من الصوفية فما أشار إليه الإمام الغزالي - رحمه الله - كاف في بيانه قال: إن تعلّق النفس بالجسد كالحجاب لها عن حقائق الأمور وبالموت ينكشف الغطاء كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ومما ينكشف له تأثير أعماله فيما يقربه إلى الله تعالى ويبعّده عنه، ومقادير تلك الآثار وأن بعضها أشدّ تأثيراً من بعض، وفي قدرة الله تعالى أن يجري شيئاً يعرف الخلق به في لحظة واحدة مقادير الأعمال بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد فحدّ الميزان ما به يتميّز الزيادة والنقصان، وإن اختلف مثاله في العالم المحسوس فمنه الميزان المعروف ومنه القبّان والأصطرلاب لحركات الفلك، والمسطرة لمقادير الخطوط، والعروض لمقادير حركات الأصوات فهذه كلها أمثلة للميزان الحقيقي، وهو ما يعرف به الزيادة والنقصان وهو موجود فيها بأسرها، وصورته تكون للحس عند التشكيك وللخيال بالتمثيل.

وقوله: وحاسبوها قبل أن تحاسبوا.

محاسبة النفس ضبط الإنسان على نفسه أعمالها الخيرية والشرية ليزكيها بما ينبغي لها ويعاقبها على فعل ما لا ينبغي، وهي باب عظيم من أبواب المرابطة في سبيل الله فإن للعارفين في سلوك سبيل الله ومرابطتهم مع أنفسهم مقامات خمسة:

الأولى: المشارطة ثمّ المراقبة ثمّ المحاسبة ثمّ المعاتبة ثمّ المجاهدة والمعاقبة. وضربوا لذلك مثالاً فقالوا: ينبغي أن يكون حال الإنسان مع نفسه كحاله مع شريكه إذا سلم إليه مالاً ليتّجر به فالعقل هو التاجر في طريق الآخرة، ومطلبه وربحه تزكية النفس إذ بذلك فلاحها كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وإنما علاجه بالأعمال الصالحة فالعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذا يستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج أن يشارطه أولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، ويعاتبه أو يعاقبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف، ويأمرها بسلوك طريق الحق، ويرشدها إليها، ويحرم عليها سلوك غيرها كما يشترط التاجر على شريكه.

الثانية: أن لا يغفل عن مراقبتها لحظة فلحظة عند خوضها في الأعمال ويلاحظها بالعين الكالئة وإلى مقام المراقبة الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] وقوله ﷺ: اعبد الله كأنك تراه، وقد سبق بيان حقيقة المراقبة، ولا بد منها فإن الإنسان لو غفل عن نفسه وأهملها لم ير منها إلاّ الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا انفرد بمال سيده.

الثالثة: ثمّ بعد الفراغ من العمل ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى فتدقيق الحساب في هذا أهم من التدقيق في أرباح الدنيا لحقارتها بالنسبة إلى نعيم الآخرة. فلا ينبغي أن يهمل من مناقشتها في ذرة من حركاتها وسكناتها وخطراتها ولحظاتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من كنوز الآخرة لا يتناهى. قالوا: وينبغي للإنسان أن يخلو عقيب فريضة كل صبح مع نفسه بالوصية ويقول: أي نفس ليس لي بضاعة إلاّ العمر ومهما فنى فقد فنى رأس مالي، ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح، وهذا يوم جديد قد أمهلني الله فيه، وهو صاحب البضاعة وربها ولو توفاني لقلت: رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت: فاحسبي أنك رددت فإياك وتضييع هذا اليوم والغفلة فيه. واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر أنه يفتح العبد في كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح لها فيها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فينال من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار ما لو قسّم على أهل النار لأغناهم عن الإحساس بآلامها.

ويفتح له خزانة أخرى فيراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغّص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أُخرى فارغة ليس

فيها ما يسره وما يسوؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل في شيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوّها ويناله من الغبن الفاحش ما ينال من قدر على ربح كثير. ثمّ ضيّعه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] وقال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه أليس فاته ثواب المحسنين؟ وهو إشارة إلى الغبن والحسرة يومئذ، ثمّ يستأنف وصيته لأعضائه السبعة: وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، ويسلّمها إليها فإنها رعايا خادمة لها في التجارة وبها يتمّ أعمال هذه التجارة، وأن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم.

وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، ويوصي كل عضو بما ينبغي له وينهاه عما لا ينبغي له، ويرجعه في تفصيل تلك الأوامر والنواهي إلى مراسم الشريعة ثمّ يشترط عليها إن خالفت ذلك عاقبها بالمنع من شهواتها، وهذه الوصية قد تكون بعد العمل وقد تكون قبله للتحذير كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

الرابعة: المجاهدة والمعاقبة، وهو بعد المحاسبة إذا رأى نفسه قد تاقت معصية فينبغي أن يعاقبها بالصبر عن أمثاله ويضيّق عليها في مواردها، وما يقود إليها من الأمور المباحة، وإن رآها توانت وكسلت عن شيء من الفضائل وورِدٍ من الأوراد فينبغي أن يؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الطاعات جبراً لما فات. روي: أنّ ابن عمر أخّر صلاة المغرب حتّى طلع كوكبان فأعتق رقبتين.

الخامسة: توبيخ النفس ومعاتبتها، وقد علمت أن لك نفساً أمارة بالسوء ميّالة إلى الشر، وقد أُمرت بتقويمها وقودها [عودهاج] بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها وبمنعها عن شهواتها ولذاتها المألوفة فإن أهملتها شردت وجمحت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة واللائمة، كانت نفسك هي النفس اللوّامة. وسبيل المعاتبة أن نذكّر النفس عيوبها وما هي عليه من الجهل، والحمق وما بين يديها من مغافصة الموت وما تؤول إليه من الجنة والنار وما عليه

اتفاق كلمة أولياء الله الذين هم بتسليمها سادات الخلق، ورؤساء العالم من وجوب سلوك سبيل الله ومفارقة معاصيه، وتذكيرها بآيات الله وأحوال الصالحين من عباده. فهذه محاسبات النفس ومرابطاتها، وأما حسابها الأُخروي فقد سبقت الإشارة إليه.

وقوله: وتنفّسوا من قبل ضيق الخنق.

استعار لفظ النفس لتحصيل الراحة والبهجة في الجنة بالأعمال الصالحة في الدنيا المستلزمة لها كما يستلزم النفس راحة القلب من الكرب، واستعار لفظ الخناق من الحبل المخصوص للموت، ووجه المشابهة ما يستلزمه ضيق الخناق والموت من عدم التمكن والتصرف والعمل: أي انتهزوا الفرصة للعمل قبل تعذُّره بزوال وقته وضيقه.

وقوله: وانقادوا قبل عنف السياق.

أي انقادوا لأوامر الله إلى طاعته قبل السوق العنيف وهو سوق ملك الموت بالجذبة المكربة كما سبق.

وقوله: واعلموا أنه من لم يعن على نفسه. إلى آخره.

أي من لم يعنه الله على نفسه. وإعانته له هو إعداد العناية الإلهية لنفسه الناطقة أن تقبل السوانح الخيرية، وتأييدها بها على النفس الأمارة بالسوء لتقوى بتلك السوانح على قهرها وعلى الانزجار عن متابعتها والانجذاب إلى ما تدعوها إليه من الشهوات فإنه متى لم يكن لها ذلك الاستعداد والقبول لم ينفعها وعظ غيرها ولم يقبله، إذ لا قبول بدون استعداد للمقبول. وفي ذلك تنبيه على وجوب الاستعانة بالله في أحوال النفس ودفع الشيطان عنها. وبالله التوفيق.

٩١ - ومن خطبة له عليه السلام

تُعرف بخطبة الأشباح، وهي من جلائل خطبه، وكان سائلٌ سأله أن يصف الله حتّى كأنه يراه عياناً فغضب لذلك، وقال الخطبة. روى مسعدة ابن صدقة عن الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام أنه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام هذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أن

رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا لنزداد له حباً وبه معرفة فغضب ونادى: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس حتّى غصّ المسجد بأهله فصعد المنبر وهو مغضب متغيّر اللون فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثمّ خطبها.

واعلم أن في الخطبة فصولاً:

الفصل الأول قوله:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلاَ يُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ وَالْجُودُ، إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ، وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسَمِ؛ عِيَالُهُ الْخَلاَئِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ. الأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَالرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحَالُ، وَلاَ كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانْتِقَالُ. وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ، مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذٰلِكَ فِي جُودِهِ، وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الأَنْعَامِ مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الأَنَامِ، لأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَلاَ يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ.

أقول: الأشباح: الأشخاص. ويفره: يزيد ماله وفوراً ويتمّمه. ويكديه: ينقص خيره. وتنفست عنه: انفرجت. والفلز: ما ينقيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض. والعقيان: الذهب الخالص. والمرجان: صغار اللؤلؤ. وألحّ في سؤاله: إذا أدام عليه.

وقد شرع في وصف الله سبحانه باعتبارات له إلى آثاره:

الأوّل: أنّه لا يتزيد بما حرمه ومنعه من فضله.

الثاني: ولا ينقصه عطاؤه وجوده. ثمّ رد حكم الوهم عليه سبحانه بدخوله في عموم المتنقصين بالعطايا بقوله: إذ كلّ معطٍ منتقص سواه، وكذلك قدّسه عن الدخول في زمرة المذمومين بمنعهم ما في أيديهم عن طالبه بقوله: وكلّ مانع مذموم ما خلاه فكانت هاتان القضيّتان مؤكّدتين للأولين، وبرهانهما أنّ التزيّد بالمنع والتنقّص بالإعطاء إنما يطلق في حق من ينتفع ويتضرّر بالزيادة والنقصان والانتفاع والتضرر على الله محال فالتزيد والتنقص عليه محال، ولأنّهما يقضيان عليه بالحاجة والإمكان، ولأن مقدوراته غير متناهية، ونبّه بقوله: إذ على جهة الفرق بينه وبين خلقه، وإنّما انتقص المعطي من خلقه لحاجته إلى ما يعطيه وانتفاعه به، وإنّما استحقّ المانع منهم الذم دونه سبحانه لكون ما يصدر عنه من منع وإعطاء مضبوطاً [منوطاً خ] بنظام الحكمة والعدل دون غيره من المانعين فإنّ غالب منعهم يكون عن شحّ مطاع وهو متّبع. واعلم أن صدق الكليّة في المتنقصين بالعطاء ظاهر.

وأما في المذمومين بالمنع فتحقيقها أن كل مانع للمال فهو إنما يمنعه خوف الفقر ونحوه، وظاهر أن الخائف من الفقر في الدنيا محب لها وهو بمعزل عن عباد الله المتوكلين عليه الزاهدين في متاع الدنيا وقيناتها، وإذا كان العبد مأموراً بأن يكون من هؤلاء وفي زمرتهم فبالحري أن يكون مستحقاً للذم على ما يمنعه من ماله فيكون حجاباً لوجهه عن النظر إلى وجه الله الكريم فصدق الكلية إذن ظاهر. وفي أدعية زين العابدين عليه السلام: يا من لا يزيده كثرة العطاء إلاّ كرماً وجوداً. وفيه سرّ لطيف فإنه لما كان جوده سبحانه غير متوقف إلاّ على وجود الاستحقاق، وكانت كل نعمة صدرت عنه معدة لمحلها ومهيئةً له لقبول نعمة أخرى كانت كثرة عطائه مستلزمة لكثرة الإعداد المستلزمة لزيادة الجود.

الثالث: أنه المنّان بفوائد النعم، والمنة تذكير المنعم للمنعم عليه بنعمته والتطاول عليه بها كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] في غير موضع من كتابه وهي صفة مدح

للحق سبحانه وإن كانت صفة ذم لخلقه، والسبب الفارق كون كل منعم سواه فيحتمل أن يتوقع لنعمته جزاء ويستفيد كمالاً يعود إليه مما أفاده وأيسره توقع الذكر ويقبح ممن يقابل بنعمته ويتوقع لها جزاء أن يمنّ بها لما يستلزمه المنّ من التطاول والكبر، وتوقع الجزاء والحاجة إليه مع التطاول والكبر مما لا يجتمعان في العرف.

إذ التطاول والكبر إنما يلقيان بالغني عن ثمرة ما تطاول به ولأن التطاول مما يتأذى به المنعم عليه فيبطل بذلك استعداد نفس المنعم لقبول رحمة الله وجزائه، ولذلك ورد النهي عن المنّة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فجعلهما سبباً لبطلان الصدقة: أي عدم استحقاق ثوابها، وفوائد النعم: ما أفاد عنها. وعوائد المزيد والقسم: معتادهما.

الرابع: كون الخلائق عياله ضمن أرزاقهم وقدّر أقواتهم، واستعار لفظ العيال للخلق بالنسبة إلى ربهم، ووجه المشابهة أن عيال الرجل هو من جمعهم ليقيتهم ويصلح حالهم كذلك الخلق إنما خلقهم وجمعهم تحت عنايته ليصلح أحوالهم في معاشهم ومعادهم، وكذلك استعار لفظ الضمان لما وجب في الحكمة الإلهية من وجود ما لا بد منه في تدبير إصلاح حالهم من الأقوات والأرزاق، وتقدير أقواتهم إعطاء كلٍّ ما كتب له في اللوح المحفوظ من زائد وناقص.

الخامس: كونه نهج سبيل الراغبين إليه والطالبين ما لديه، وذكر أولاً ما يصلح حالهم في الدنيا وهو ضمان الأرزاق وتقدير الأقوات. ثمّ أردفه بما هو سبب صلاح حالهم في الآخرة من نهج السبيل وإيضاحه وأشار به إلى إيضاح الشريعة لطريق السالكين الراغبين في النظر إلى وجهه الكريم والطالبين لما عنده من النعيم المقيم.

السادس: كونه ليس بما سئل أجود منه بما لم يسأل، ويستلزم بيان هذا الوصف إشارة لطيفة وهو أن فيضان ما صدر عنه سبحانه له اعتباران:

أحدهما: بالنظر إلى جوده وهو من تلك الجهة غير مختلف في جميع الموجودات. بل نسبتها إليه على سواء بذلك الاعتبار. فلا يقال: هو بكذا أجود منه بكذا. وإلاّ لاستلزم ذلك أن يكون ببعض الأشياء أبخل أو إليها أحوج فيلزمه النقصان تعالى الله عن ذلك.

والثاني: بالنظر إلى الممكن نفسه والاختلاف الواقع في القرب والبعد إلى جوده وإنما هو من تلك الجهة فكل ممكن كان أتمّ استعداداً وأقبل للوجود وأقلّ شرطاً ومعانداً كان أقرب إلى جوده. إذا عرفت ذلك فاعلم أن السائل وإن حصل له ما سأل من الله تعالى دون ما لم يسأل فليس منعه ما لم يسأله لعزته عند الله وليس بينه وبين ما سئل بالنسبة إلى جود الله تعالى فرق وتفاوت. بل إنما خصّ بما سئل لوجوب وجوده له عند تمام قبوله له بسؤاله دون ما لم يسأله ولو سئل ما لم يسأله واستحق وجوده لما كان في الجود الإلهي بخل به ولا منع في حقه وإن عظم خطره وجل قدره ولم يكن له أثر نقصان في خزائن ملكه، وعموم جوده. وإلى هذا أشار علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد سئل عن الجواد فقال: لسؤالك وجهان إن أردت المخلوق فالذي يؤدي ما افترض الله عليه والبخيل الذي يمنع ما افترض الله عليه، وإن أردت الخالق فهو الجواد إن أعطى وإن منع لأنه إن أعطى أعطى من له وإن منع منع من ليس له.

فقوله: له. وليس له، إشارتان إلى أن الجود الإلهي إنما يهب. ويتوقف في هبته علىٰ وجود المستحق. وقد نزهه عليه السلام بهذا الوصف عن ضنّة الخلق إذ كان من شأنهم أن يكونوا بما سألوا أجود منهم بما لم يسألوا لكونه أسهل عليهم ومن شأن السائل أن لا يسألهم ما هو أعزّ عندهم ولذلك كانوا بما سئلوا أجود.

السابع: الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله.

الثامن: والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، وقد أشرنا إلى هذين الوصفين فيما سلف ونزيدهما بياناً فنقول: الأولية والآخرية اعتباران إضافيان تحدثهما العقول لذاته المقدسة وذلك أنك إذا لاحظت ترتيب الوجود في سلسلة الحاجة إليه سبحانه وجدته تعالى بالإضافة إليها أول إذ كان انتهاؤها في أول سلسلة الحاجة إلى غناه المطلق فهو أول بالعليّة والذات

والشرف وإذ ليس بذي مكان فالتقدم بالمكان منفيّ عنه والزمان متأخر عنه. إذ هو من لواحق الحركة المتأخرة عن الجسم المتأخر عن علته فلم يلحقه القبلية الزمانية فضلاً أن تسبق عليه فلم يكن شيء قبله مطلقاً لا من الزمانيات ولا من غيرها، وإذا اعتبرته بالنظر إلى ترتيب السلوك ولاحظت مراتب السالكين المسافرين في منازل عرفانه وجدته آخراً إذ هو آخر ما ترتقي إليه درجات العارفين، ومعرفته هي الدرجة القصوى والمنزل الآخر.

ولأن كل موجود سواه فهو ممكن العدم فله من ذاته أن لا يستحق وجوداً فضلاً أن يستحق الآخرية والبعديّة المطلقة، وهو تعالى الواجب لذاته فهو المستحق لبعدية الوجود وآخريته لذاته وبالقياس إلى كل موجود فإذن هو الأول المطلق الذي لا شيء قبله والآخر المطلق الذي لا شيء بعده.

التاسع: الرادع أُناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، وقد سبق أن القوة الباصرة إنما تتعلق بذي وضع وجهة، والباري تعالى منزه عنهما فيستحيل أن يدرك بحاسة البصر وردعه لها قهرها بذلّ النقصان عن قبول إدراكه.

العاشر: كونه لم يختلف عليه دهر فيختلف عليه الحال. لما كان الزمان مبدأ للتغيّرات واختلاف الأحوال، وكان ذاته سبحانه منزه عن لحوق الزمان كانت مبرأة عن تغيّر الأحوال الجارية على الزمانيات واختلافها.

الحادي عشر: ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال. لما كان من شأن ذي المكان جواز أن ينتقل من مكانه، وكان سبحانه منزهاً عن المكان وإلاّ لزمه النقصان اللازم للإمكان لا جرم لم يجز عليه الانتقال.

الثاني عشر: كونه لو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلزّ اللجين والعقيان إلى قوله: مطالب الأنام. إنما عدّد هذه الأشياء في معرض المدح له تعالى لكونها أعظم ما يقتدر عليه الإنسان ويقتنيه وأجلّ ما يتنافس فيه أبناء الدنيا تنبيهاً على كمال قدرته، وعدم تناهي مقدوراته إذ سبق أنه إنما يتأثر بهبة مثل ذلك جود المحتاجين الذين يتعاقب عليهم الانتفاع والتضرر، واستعار لفظ الضحك للأصداف، ووجه الشبه انفتاح الصدفتين وإسفارهما عن اللؤلؤ الشبيه في بدوّه بأسنان الإنسان حال ضحكه وعن لحمة تشبه اللسان في رقة طرفه ولطافته. ومن صادف الصدفة عند فتحها وجدها كالإنسان يضحك، وكذلك استعار لفظ الحصيد لصغار اللؤلؤ ملاحظة لشبهه بما يحصد من الحنطة وغيرها، واعلم أن الصدف وإن كان حيواناً ذو حسّ وحركة إلاّ أن له شبهاً بالنبات ولحوقاً به من جهة أنه ذو عرق في الأرض يتغذى به.

وقد أجمل ما يخرج من معادن البر والبحر لتمييز السامعين بينهما، وقوله: لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحاح الملحين. إنما كان هذا علة لعدم تأثر جوده بهبة ما يعظم قدره ونقصان خزائنه بإخراجه منها لأن الجواد الذي شأنه ما ذكر إنما كان كذلك لكونه ليس من شأنه أن يلحقه النفع والضرر والنقص. بل نعمه غير متناهية، واستعار لفظ الغيض لنعمه ملاحظة لشبهها بالماء الذي له مادة تامة لا ينقص بالنزح، ومن روى: بغضبه. فلأن الغضب من لواحق المزاج، والباري تعالى منزه عنه فيتنزه عن لواحقه، وكذلك البخل رذيلة مكتسبة من البدن والمزاج تبعث إليها الحاجة والنقصان فمن لا يتزيد ولا يتنقص فلا يؤثر في ملكه أن يهب الدنيا لمن سألها.

الفصل الثاني: قوله:

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ: فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ ـ تعالى ـ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً،

فَاقْتَصِرْ عَلَى ذٰلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ.

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ. الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَهُ، وَلاَ مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْهِ، مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَاعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلاَلَتُهُ عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ.

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَتَلاَحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لاَ نِدَّ لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّأُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى، بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً.

أقول: الاقتحام: الدخول في الأمر بشدة دفعه. والسدد: جمع سدة وهي الأبواب والحجب. وجاب البلاد: أي قطعها. والسدف. جمع سدفة وهي الظلمة. والجبه: الرد. واحتذى عليه: أي سلك مسلكه. والحقاق: جمع حق وهو أطراف عظام المفاصل. والعادل: الجاعل لله عديلاً. والقريحة: قوة الفكر.

وصدر هذا الفصل تأديب الخلق في وصفهم لله سبحانه وتعليمهم كيفية السلوك في مدحه والثناء عليه بما هو أهله، وإن كان الخطاب للسائل إذ هو السبب في هذه الخطبة، وذلك على طريقة قولهم: إيّاك أعني واسمعي يا جارة. فأرشده في ذلك إلى كتاب الله، وأمره أن يجعله إماماً يقتدي به ويستضيء بأنواره في سلوك سبل الله وكيفية وصفه فإن أولى ما وصف به تعالى هو ما وصف به نفسه، وأمره بأن يكل علم ما لم يجده مفروضاً عليه علمه في كتاب الله أو في سنّة رسوله، وآثار أئمة الهدى القائمين مقامه في إيضاح الدين وحفظه إلى علم الله تعالى، وهو المراد بالتفويض وذلك أن أئمة الهدى أعلم بوجوه نسبته تعالى إلى خلقه، وبما يناسب تلك الاعتبارات من الألفاظ ويفيدها فيطلق عليه. ونفّر عن طلب ذلك والبحث عنه بإشارته إلى أنه تكليف الشيطان وظاهر أن طلب ما وراء حدود الشريعة التي نهيت عن تجاوزها إنما هو بسبب وسوسة الشيطان وحرص الطبع على ما يمنع منه.

ثمّ اعلم أن ذلك هو منتهى حق الله عليه ومطلوبه منه، ولما كان مطلوب الشارع حين وضع الشريعة وتقرير قواعدها هو جمع قلوب العالم على قانون واحد واتحادهم فيه بحيث لا يفترقوا في اعتقاد أمرٍ ما لئلا يكون ذلك الافتراق سبباً لضعف الدين وعدم تعاونهم على تشييده كما سبق بيانه لا جرم وجب في الحكمة أن يحرم حينئذٍ عليهم الخوض فيما وراء ذلك لتثبت قواعد

الدين في قلوبهم وترسخ ولا يخرج بهم البحث عن ما وراءها إلى أطراحها وفساد اعتقاد كثير من الخلق لها ولغيرها مما وراءها إذ لم يكن فيهم من يستعد لقبول ما وراء تلك الظواهر إلاّ الفرد النادر وإن كنّا نعلم أنه كان ﷺ إذا علم من أحد استعداداً لقبول شيء من أسرار الشريعة ووثق به أن يحمله ألقاه إليه كعلي عليه السلام دون أبي هريرة وأمثاله، ثمّ وصف بعد ذلك الراسخين في العلم الممدوحين في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢] الآية. وقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا﴾ [آل عمران: ٧]، وفسّر معنى الرسوخ فقال: هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب. فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً، ومما: إشارة إلى السدد المضروبة وحجب الغيوب. فلنشر إلى ما كشف عنه بعض العلماء الصوفية هاهنا وأشار إليه الخبر عن سيد المرسلين ﷺ: إن لله تعالى سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدرك بصره. ولما ثبت أن الله تعالى متجلي لذاته بذاته فالحجاب لا بد وأن يكون بالنسبة إلى محجوب فأقسام المحجوبين ثلاثة:

منهم من حجب بمجرد ظلمة. ومنهم من حجب بمجرّد نور، ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة، وتحت كل قسم من هؤلاء أقسام كثيرة لا تحصى فيكفينا الإشارة إلى أصولها فنقول:

القسم الأول: المحجوبون بمجرد الظلمة وهؤلاء هم الملحدة الذين لا يؤمنون بالله وهم صنفان:

فصنف منهم طلبوا للعالم سبباً فأحالوه على الطبع. وقد علمت أن الطبع صفة جسمانية مظلمة خالية عن المعرفة والإدراك.

وصنف منهم لم يتفرغوا لذلك ولم يتنبّهوا لطلب السبب. بل اشتغلوا بأنفسهم وعاشوا عيش البهائم فكانوا محجوبين بكدورات نفوسهم وشهواتهم المظلمة ولا ظلمة أشد من الهوى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وقال النبي ﷺ: الهوى أبغضُ إله عُبد على وجه الأرض. وتحت هؤلاء فرق كثيرة لا حاجة إلى ذكرها.

القسم الثاني: المحجوبون بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف:

فصنف منهم منشأ ظلمته الحس، وصنف منهم منشأها الخيال، وصنف منهم منشأها مقايسات عقلية فاسدة. فالأولون أيضاً طوائف:

الأولى: عبدة الأوثان فإنهم علموا على سبيل الجملة أن لهم ربّاً وأوجبوا إيثاره على أنفسهم واعتقدوا أنه أعزّ وأنفس من كل شيء، ولكنهم حجبوا بظلمة الحس عن أن يتجاوزوا العالم المحسوس في إثبات ربهم فاتخذوا من أنفس الجواهر كالفضة والذهب والياقوت أشخاصاً مصورة بأحسن صورة وجعلوها آلهة فهؤلاء محجوبون بنور العز والجلال من صفات الله لكنهم وضعوها في الأجسام المحسوسة فصارت حجبهم أنواراً مكدرة بظلمة الحس إذ الحس ظلمة بالإضافة إلى عالم المعقولات.

الثانية: طائفة ترقوا عن رتبة الأحجار فكانوا أدخل من عبدة الأوثان في ملاحظة الأنوار كما يحكى عن قوم من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولكن يعتقدون أن لهم ربّاً هو أجمل الأشياء فإذا رأوا إنساناً في غاية الجمال أو فرساً أو شجراً عبدوه، وقالوا: هو ربنا فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس أيضاً.

الرابعة: طائفة ترقّوا عن هؤلاء وقالوا: ينبغي أن يكون الرب نورانياً في صورته ذا سلطان في نفسه مهيباً لا يطاق القرب منه، ولم يترقوا عن درجة المحسوس فعبدوا النار إذ وجدوها بهذه الصفات فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء وكل ذلك من أنوار الله مع ظلمات حسهم.

الخامسة: طائفة ترقوا عن ذلك فرأوا أن النار تطفأ وتقهر فلا تصلح للإلهية فقالوا: بل ما يكون بهذه الصفات ولكن نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفاً بالعلو. وكان المشهور بينهم علم النجوم

وإضافة التأثيرات إليها فعبدوا النجوم فمنهم عبدة المشتري ومنهم عبدة الشعرى وغيرهم فهؤلاء محجوبون مع ظلمة الحس بنور الاستعلاء والإشراف وهي من أنوار الله تعالى.

السادسة: طائفة ترقوا عن هؤلاء فقالوا: وإن وجب أن يكون الرب بالصفات المذكورة إلاّ أنه ينبغي أن يكون أكبر الكواكب فعبدوا الشمس فهؤلاء محجوبون مع ظلمة الحس بنور الكبرياء والعظمة مع بقية الأنوار.

السابعة: طائفة ترقوا عن ذلك: إن الشمس لا تنفرد بالنور بل لغيرها أنوار والإله لا يجوز أن يكون له شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق على كل نور، وزعموا أنه إله العالم والخيرات كلها منسوبة إليه ثمّ رأوا في العالم شروراً فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيهاً له فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة وهؤلاء الثنوية.

الصنف الثاني: المحجوبون ببعض الأنوار مقرونة بظلمة الخيال وهم الذين جاوزوا الحس وأثبتوا وراء المحسوس أمراً لكنهم لم يهتدوا إلى مجاوزة الخيال فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش وأخسّهم رتبة المجسمة ثم أصناف الكرامية وأرفعهم درجة من نفي الجسمية، وجميع عوارضها إلاّ الجهة فخصصوه بجهة فوق، وهؤلاء لم يثبتوا موجوداً غير محسوس ولا متخيّل حتّى ينزهوه عن الجهة.

الصنف الثالث: المحجوبون بأنوار الإلهية مقرونة بمقايسات عقليّة فاسدة مظلمة فعبدوا إلهاً سميعاً بصيراً متكلّماً عالماً قادراً منزّهاً عن الجهات لكن فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم، وربما صرّح بعضهم فقال: كلامه صوت مثل كلامنا. وربّما ترقّى بعضهم فقال: لا بل هو كحديث أنفسنا ولا صوت ولا حرف. ولذلك إذا حقق القول عليهم رجعوا إلى التشبيه في المعنى وإن أنكروه لفظاً إذ لم يدركوا كيفية إطلاق هذه الألفاظ في حق الله. فهؤلاء محجوبون بجمل من الأنوار مع ظلمات المقايسات العقلية.

القسم الثالث: المحجوبون بمحض الأنوار، وهم أصناف لا تحصى أيضاً لكن نذكر منهم ثلاثة أصناف:

الأول: الذين عرفوا معاني هذه الصفات وفرّقوا بين إطلاق أسمائها على الله تعالى وبين إطلاقها على البشر فتحاشوا من تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات فقالوا: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً وهو الرب المنزه عن هذا المفهوم الظاهر وهو محرك السماوات ومدبّرها.

الصنف الثاني: الذين عرفوا أن في السماوات ملائكة كثيرة، وأن محرك كل سماء منها موجود آخر يسمى ملكاً، وأن هذه السماوات في ضمن فلك يتحرك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرة واحدة والرب تعالى هو المحرّك للفلك الأقصى منها المشتمل عليها.

الصنف الثالث: الذين ترقّوا عن هؤلاء وقالوا: إنّ تحريك الأجسام الفلكية من الملائكة يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له، ويكون الرب تعالى هو المحرك للكل بطريق الأمر. فهؤلاء كلهم محجوبون بأنوار محضة وقفت بهم عما وراءها. ووراء هؤلاء صنف رابع تجلّى لهم أن هذا المطاع موصوف بصفة الوحدة المطلقة والكمال البالغ وكشفت عنهم حجب المقايسات والاعتبارات إلى الغير وهم الواصلون. فمنهم من أحرق ذلك التجلي في تلك الأنوار جميع ما أدركه بصره بالكلية وبقي ملاحظاً لرتبة الحق فيها فانمحقت فيه المبصرات دون المبصر.

ومنهم من تجاوز هؤلاء وهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال فانمحقوا وتلاشوا في أنفسهم فلم يبق لهم إليها التفات وملاحظة لفنائهم عن أنفسهم ولم يبق إلاّ الواحد الحق وهؤلاء هم الواصلون. كما سبقت الإشارة إليه، وينتهي الكل إلى حجاب الإمكان الذي يهلك فيه كل موجود ولا يبقى إلاّ وجه الله ذي الجلال والإكرام.

إذا عرفت ذلك فنقول: السدد المضروبة وحجب الغيب التي أشار إليها هي درجات الانتقالات في مفهومات صفات الله تعالى ومراتب عرفانه ومعرفة ملائكته ومراتبهم وكمالاتهم وسائر حجب الأنوار التي حجب بها أهل القسم الثالث، والراسخون الذين أشار إليهم هم في ظاهر كلامه الواقفون في المرتبة الأولى

وهم الذين اقتصروا في صفات الله وملائكته وعالم غيبه على ما وقفتهم الشريعة عليه على سبيل الجملة كما أوصل إلى أفهامهم الرسول ﷺ، وعقلوا في وصفه تعالى بصفات الكمال ونعوت الجلال أنه ليس على حدّ وصف البشر بها ورسخ في أذهانهم ما تصوروه إجمالاً لو فصل لكان مطابقاً.

ومن أعدته العناية الإلهية لقبول التفصيل وصل إليه. وبقي هاهنا بحث لطيف وهو أنه لما كان التكليف في نفس الأمر إنما هو على قدر العقول وتفاوت مراتبها ولذلك قال ﷺ بعثت لأكلّم الناس على قدر عقولهم. كان كل عقل قوي على رفع حجاب من حجب الغيب وقصر عما وراءه واعترف به وبالعجز عنه فذلك تكليفه وهو من الراسخين فعلى هذا الرسوخ ليس مرتبة واحدة هي تقليد ظواهر الشريعة واعتقاد حقيّتها فقط. بل تقليدها مرتبة أولى من مراتب الرسوخ وما وراءها مراتب غير متناهية بحسب مراتب السلوك وقوة السالكين على رفع حجب الأنوار التي أشرنا إليها وكلامه عليه السلام لا ينافي ما قلناه. بل يصدق إذا نزّل عليه فإن قوله: وسمى ترك التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً، صادق أيضاً على من قطع جملة من منازل السلوك وعجز عما وراءها فوقف ذهنه عن التعمق فيه والبحث إذ لا يكلّف بما لا تفي به قوته.

وقوله: فاقتصر على ذلك: أي على ما نطق به الكتاب العزيز ودلّت عليه السنّة النبوية وأرشدت إليه أئمة الهدى.

وقوله: ولا تقدر عظمة الله تعالى على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

فالمقدر لعظمة الله بقدر عقله هو المعتقد أن عقله قدّره وأحاط به علماً وهو تصغير لعظمة الله بحسب عقله الضعيف وعظمة الله تعالى أعظم وأجلّ من أن يضبطها عقل بشري، وإنما ينشأ ذلك الحكم لمن حصل له هو الوهم الحاكم بمثليّة الله تعالى لمدركاته من الأجسام والجسمانيات، وذلك في الحقيقة كفر لاعتقاد غير الصانع صانعاً وضلال عن طريق معرفة الله وهو مستلزم للهلاك في تيه الجهل.

واعلم أن في إحالته عليه السلام لطالب المعرفة على الكتاب والسنة وبيان الأئمة، دلالة على أن مقصوده ليس أن يقتصر على ظاهر الشريعة فقط بل يتبع أنوار القرآن والسنة وآثار أئمة الهدى. وقد ورد في القرآن الكريم والسنّة وكلام الأئمة من الإشارات والتنبيهات على منازل السلوك ووجوب الانتقال في درجاتها ما لا يحصى كثرة، ونبّهوا على كل مقام أهله وأخفوه من غير أهله إذ كانوا أطباء النفوس، وكما أن الطبيب يرى أن بعض الأدوية لبعض المرضى ترياق وشفاء وذلك الدواء لشخص آخر سمّ وهلاك، كذلك كتاب الله والموضحون لمقاصده من الأنبياء والأولياء يرون أن بعض الأسرار الإلهية شفاء لبعض الصدور فيلقونها إليهم، وربما كانت تلك الأسرار بأعيانها لغير أهلها سبباً لضلالهم وكفرهم إذا أُلقيت إليهم. فإذن مقصوده عليه السلام قصر كل عقل على ما هو الأولى به وما يحتمله، والجمع العظيم المخاطبون هم أصحاب الظاهر الذين يجب قصرهم عليه. والله أعلم.

وقوله: هو القادر الذي إذا ارتمت. إلى آخره.

إشارة إلى اعتبارات أُخر جمالية في وصفه تعالى نبه على أن غاية استقصاء العقول وتعمّقها وغوص فطنها طالبة لتفصيل صفات كماله ونعوت جلاله أن تقف خاسئة وترجع حسيرة معترفة بالعجز والقصور، فقوله: إذا ارتمت إلى قوله: ردعها شرطية متصلة في قوة شرطيات متعددة المقدمات وتاليها واحد.

فالمقدم الأول قوله: إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وارتماؤها استرسالها مجدة في المطالعة والتفتيش ومنقطع قدرتها منتهاها.

والمقدم الثاني قوله: وحاول الفكر المبرأ من خطرات وساوس الشيطان وشوائب الأوهام أن يقع عليه ليكيّف ذاته ويستثبتها بكل ما ينبغي لها من الكمالات في عميقات غيوب ملكوته: أي في أسرار عالم الغيب العميقة.

والمقدم الثالث قوله: وتولهت القلوب: أي اشتد شوقها إليه لتجري في كيفية صفاته.

والمقدم الرابع قوله: وغمضت مداخل العقول: أي

وقت مواقع دخولها بحيث لا تبلغه الصفات: أي انتهت العقول إلى حد أنها لا تعتبر مع ملاحظة ذات الحق صفة له بل يحذف كل خاطر وكل اعتبار من صفة وغيرها من ملاحظة قدسه لينال علم ذاته بالكنه.

وقوله: ردعها. هو تالي هذه الشرطيات، وردعها هو ردّها خاسئة حسيرة، وسبب ذلك في كل من هذه المدركات هو خلقها قاصرة عن إدراك ما يطلبه من هذه المطالب العظمية: فالأوهام لقصورها عن إدراك ما ليس بمحسوس ولا متعلقاً بالمحسوس، وردع الفكر أن يقع عليه وتولّه القلوب أن تجري في كيفية صفاته فتحدها وتحصرها لخلقها قاصرة عن الإحاطة بما لا نهاية له إذ كانت صفات الكمال، ونعوت الجلال كذلك، وردع العقول أن تحيط بكنه ذاته لخلقها قاصرة عن إدراك كنه ما ليس بذي حد وتركيب. فكان مستند ذلك الردع هو قدرته فلذلك قدم على الشرطية اعتبار كونه قادراً فقال: هو القادر الذي من شأنه كذا.

وقوله: وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه.

الجملة في موضع الحال والعامل ردعها، واستعار لفظ السدف لظلمات الجهل بكل معنى غيبي من صفات جلاله وطبقات حجبه: أي ردعها عن تلك المطالب حال ما هي قاطعة لمهاوي تلك الظلمات، ووجه الاستعارة ما يشتركان فيه من عدم الاهتداء فيها. ومتخلصة حال أيضاً والعامل إما تجوب أو ردعها. وتخلصها إليه توجهها بكليتها في طلب إدراكه.

وقوله: فرجعت إذ جبهت. إلى قوله: عزته.

معترفة حال والعامل رجعت، وجور الاعتساف شدة جولانها في تلك المنازل وظاهر أن جور الاعتساف غير نافع في تحصيل ما لا يمكن، وأولو الرويات أصحاب الفكر: أي رجعت معترفة بأمرين:

أحدهما: أنه لا ينال كنه معرفته.

والثاني: أن الفكر لا يقدر جلال عزته: أي لا يحيط بكماله خبراً. وظاهر أن صدق هذه الأحكام للنفس موقوف على ارتماء أفكارها في طلب هذه المعارف وعجزها عنها.

وقوله: الذي ابتدع الخلق على غير مثال. إلى قوله: قبله.

إشارة إلى أن الصنائع البشرية إنما تحصل بعد أن يرتسم في الخيال صورة المصنوع بل وكل فعل لا يصدر إلاّ عن تصور وضعه وكيفيته أولاً، وتلك التصورات تارة تحصل عن أمثلة للمصنوع. بل ومقادير له خارجية يشاهدها الصانع ويحذو حذوها، وتارة تحصل بمحض الإلهام والاختراع كما يفاض على أذهان كثير من الأذكياء صورة شكل لم يسبق إلى تصوره فيتصوره ويبرز صورته إلى الخارج، وكيفية صنع الله للعالم وجزئياته منزّهة عن الوقوع على أحد هذين الوجهين:

أما الأول: فلأنّا بيّنا أنه لا قبل له فلا قبل لمصنوعاته فلا مثال امتثله: أي عمل مثله، ولامقدار احتذى حذوه.

وأما الثاني: وإن سمي الفاعل على وفقه مخترعاً لكن التحقيق يشهد بأنه إنما فعل على وفق ما حصل في ذهنه من الشكل والهيئة وهما مستفادان من الصانع الأول جلّت عظمته فكان في الحقيقة فاعلاً على غير مثال سابق محتذياً لمقدار غيره، وعلم الأول سبحانه ليس على النحو المذكور من حصول صورة مساوية للمعلوم في ذاته كما تحققته من قبل فإذن فعله بمحض الإبداع والاختراع على أبعد ما يكون عن حد ومثال.

وقوله: وأرانا من ملكوت قدرته. إلى قوله: معرفته.

ملكوت قدرته ملكها وإنما نسبه إلى القدرة لأن اعتبارها مبدأ الوجود كله فهي مبدأ المالكية، وآثار حكمته ما صدر عنها من الأفعال والأحكام وانقياد كل ناقص إلى كماله، واستعار لفظ النطق للسان حال آثاره تعالى المفصحة عن كمال الحكمة المعجبة بتمام النظام وحسن الترتيب، ووجه المشابهة ما اشترك فيه النطق وحال مصنوعاته من ذلك الإفصاح والبيان، واعتراف عطف على عجائب، وإلى أن متعلق بالحاجة، وما في قوله: وما دلّنا هي المفعول الثاني لأرانا: أي وأرانا من اعتراف الخلق لحاجتهم إلى أن يقيمهم في الوجود بمساك قدرته التي تمسك السماوات والارض أن تزولا ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، وقوله: على

معرفته متعلق بدلنا: أي ما دلّنا على معرفته فلزمت قيام الحجة له بالضرورة.

وقوله: وظهرت في البدائع. إلى قوله: قائمة.

استعار لفظ الأعلام لما يدلّ على حكمة الصانع في فعله من الإتقان والإحكام.

واعلم أن كل ما ظهرت فيه آثار حكمة الله فهو ناطق بربوبيته وكمال ألوهيته فبعض ناطق بلسان حاله ومقاله كالإنسان، وبعض بلسان حاله فقط إذ لا عقل له ولا لسان كالجماد والنبات، والضمير المضاف إليه في قوله: فحجته يحتمل عوده إلى الله، ويحتمل أن يعود إلى الخلق الصامت. وقد علمت أن السالكين في سماع هذا النطق من آثار الله ومشاهدته في مصنوعاته على درجات ومنازل متفاوتة كما أشرنا إليه غير مرة.

وقوله: وأشهد أنّ من شبهك. إلى قوله: برب العالمين.

التفات إلى خطاب الله تعالى على طريق قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] والمشبه به في الحقيقة هو الخلق وإنما جعل المشبه به هو تباين أعضائهم وتلاحم حقاق مفاصلهم لأنه في معرض ذم المشبهة والتنبيه على وجوه أغلاطهم وتباين الأعضاء وتلاحمها من لوازم المشبه به، وهما مستلزمان للتركيب واجتماع المفردات المستلزم لظهور الحاجة إلى المركب والجامع ويمتنع على محل يظهر حاجته أن يتشبّه به الصانع المطلق البريء عن الحاجة بوجه ما فقدّمهما لجريانهما مجرى الأوسط في لزوم التركيب للمشبّه به فيظهر تنزيه الإله عن التشبه به، وإن كان التقدير من شبّهك بخلقك في أعضائهم المتباينة المتلاحمة.

والذي يقال من وجه الحكمة في احتجاب المفاصل هو أنها لو خلقت ظاهرة عريّة عن الأغشية ليبست رباطاتها وقست فيتعذّر تصرف الحيوان بها كما هو الآن، وأنها كانت معرضة للآفات المفسدة لها وغير ذلك من خفي تدبيره ولطيف حكمته. وقد شهد عليه السلام على المشبه لله بخلقه بأمرين:

أحدهما: أنه لم يعرفه.

والثاني: أنه لم يتيقّن تنزيهه عن المثل. والقرآن والبرهان مصدقان لشهادته في الموضعين:

أما القرآن فما نبه عليه بقوله: وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون الآية، ووجه الاستدلال على المطلوب الأول أن المشبهة وعبدة الأصنام ينكشف لهم في الآخرة أنهم كانوا ضالين في تشبيه أصنامهم برب العالمين فيترتب دليل هكذا:

المشبهة ضالون من جهة تشبيههم الله بخلقه وكل من كان كذلك فليس بعارف بالله والمقدمة الأولى ثابتة بمنطوق الآية.

وأما الثانية: فلأنه لو كان المشبه له عارفاً به مع تشبيهه له بخلقه لما كان في ضلال مبين من تلك الجهة، لكنه في ضلال مبين من تلك الجهة، فإذن هو ليس بعارف له. وأما البرهان فلأن الله سبحانه لما تقدس عن أن يشبه خلقاً في شيء كان المشبه له بخلقة والمكيّف له بكيفيّة يحويها وهمه غير عارف به. بل متصور لأمر آخر هو في الحقيقة غير الإله، وأما صدقه في القضية الثانية فلأن المشبه لله ضالّ من جهة ما هو مشبه له وكل من كان كذلك فليس بمنزّه عن الندّ والمثل، وصدق الأولى ظاهر من الآية.

وأما الثانية فلأنه لو كان منزهاً له عن الند بكونه مشبهاً له لما كان ضالاً من تلك الجهة لكنه ضالّ منها فليس بمنزه له عنه. وأما البرهان العقلي فلأن الند والمثل هو الشبيه وكلامنا في المشبه وفي الآية تنفير عن مذهب التشبيه بذكر تبرؤ التابعين ممن اتبعوه وشبهوا به خالقهم، وندامتهم على تفريطهم في ذلك، وحسرتهم على الرجعى لتدارك الأعمال والاعتقادات الصالحة، واعترافهم بأنهم كانوا بتشبيههم في ضلال مبين.

وقوله: كذب العادلون. إلى قوله: عقولهم.

تكذيب للعادلين به وأشار إلى تفصيل جهات كونهم عادلين، وإلى سبب ذلك وهو الوهم، وقد علمت أن منشأ التشبيه هو الوهم إذ كان حكمه لا يترفع [يرتفع خ] عن المحسوسات وما يتعلق بها، فإن حكمه في المجردات بحكم قدرها محسوسة ذات أحجام وألحقها أحكام المحسوس، ولذلك لم يرتفع المشبهة لله عن

تشبيهه بالأصنام، وأشخاص الأجسام كصورة الإنسان وأعضائه، وكذلك غير عبدة الأوثان من سائر فرق المشبهة حتّى كانت غاية تنزيه من نزهه منهم أن توهمه في جهة فوق، وقد علمت أن الجهة والكون من عوارض الأجسام المخلوقة فكانوا عن آخرهم قد تحلّوه حلية المخلوقين وصفاتهم بأوهامهم الفاسدة.

فمنهم من أثبت له أعضاء من يد وساق وعين ووجه وسائر ما ورد في القرآن الكريم والسنّة النبوية حملاً على ظاهرها، ومنهم من تجاسر على وصف هيئته فقال: إنه مجوف الأعلى مصمت الأسفل، وأنه قطط الشعر إلى غير ذلك من هذياناتهم وكفرهم - تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً - وتجزئته بخواطرهم تجزئة المجسمات وهي إثباتهم الأعضاء المذكورة وذلك عن تقديرهم له على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم الجامدة متابعة لأوهامهم الفاسدة وتقليد من سلف من آبائهم فإن الأعضاء إنما تتولد وتكمل بواسطة قوى طبيعية ونباتية وحيوانية وغيرها، وهي قوى مختلفة بحقائقها ومتضادة في أفعالها محتاجة إلى الجامع والمركب مؤذنة بالإمكان الذي تنزه قدس الصانع أن يتطرق إليه بوجه.

وقوله: وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك. إلى قوله: بيّناتك.

شهادة ثانية على من شبهه وجعل له مثلاً بالكفر وإشارة إلى برهانها بقياس من الشكل الأول أسند بيان كبراه إلى كتاب الله ونصوص آياته المحكمة، وبيّناته: الأنبياء. وشواهد حججهم: هي تلك الآيات: أي حججهم الشاهدة هي كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩] وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، والإشراك كفر ونحو ذلك.

وأما المقدمة الأولى فلأن الشبيه هو المثل والعديل وقد علمت أن البرهان العقلي مما يشهد بصدق هذه الشهادة فإن المشبه لله بخلقه مع براءته عن شبهيّة الغير إذا اعتقد أن ذلك الذي يشير إليه بوهمه هو صانع العالم فقد اعتقد غير الصانع صانعاً وذلك عين الكفر والضلال.

وقوله: وإنّك أنت الله لم تتناه في العقول: إلى قوله: مصرفاً.

شهادة ثالثة هي خلاصة الشهادتين الأوليين بتنزيهه عن تناهيه في العقول البشرية وأفكارها: أي إحاطتها بحقيقته وماله من صفات الكمال ونعوت الجلال بحيث لا يكون وراء ما أدركته شيء آخر وتنبيه في هذه الشهادة على ما يلزم ذلك التناهي من كونه ذا كيفية تكيّفها له القوى المتخيّلة لتستثبته بها العقول، ومهاب الفكر جهاتها. فيلزم من ذلك كونه محدوداً إذا كانت الحقائق إنما تدرك بكهنها من حدودها.

وقوله: ومصرفاً: أي محكوماً في ذاته بالتجزئة والتحليل والتركيب إذ كان من شأن المحدود ذلك، ولما كانت هذه اللوازم باطلة لبراءته عن الكيفية والأجزاء والتركيب كان ملزومها وهو التناهي في العقول باطلاً.

الفصل الثالث:

ومنها: **قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَلَمْ يُقَصِّرْ دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ؟ الْمُنْشِىءُ أَصْنَافَ الأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَلاَ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَلاَ شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِىءِ، وَلاَ أَنَاةُ الْمُتَلَكِّىءِ، فَأَقَامَ مِنَ الأَشْيَاءِ أَوَدَهَا، وَنَهَجَ حُدُودَهَا، وَلاَءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالأَقْدَارِ، وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ، بَدَايَا خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا!**

أقول: آل: رجع. وأذعن: خضع وذلّ. والريث: البطء. وكذلك الأناة. والتلكؤ: التباطؤ عن الأمر والتوقف فيه. والأود: الاعوجاج. وبدايا: جمع بدية وهي الخلقة العجيبة.

فقوله: قدر ما خلق فأحكم تقديره. إشارة إلى أن كل مصنوع قدره في الوجود فعلى وفق حكمته بحيث لو زاد على ذلك المقدار أو نقص منه لاختلّت مصلحة ذلك المقدر وتغيّرت منفعته.

وقوله: ودبره فألطف تدبيره إيجاده على وفق المصلحة ولطفه في ذلك تصرفه في جميع الذوات والصفات تصرفات كلية وجزئيه من غير شعور غيره بذلك.

وقوله: ووجهه لوجهته. إلى قوله: إلى غايته: أي ألهم كلاً ويسره لما خلق له ولما كتب له في اللوح فلم يتجاوز مرسوم تلك المنزلة المعلومة له: أي لم يعبرها ولم يقصر دونها وإلاّ لزم التغيّر في علمه سبحانه وإنه محال.

وقوله: ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته: أي لما أمر المخلوق بالتوجه إلى وجهة على وفق إرادة الله وساقت الحكمة الإلهية كلاً إلى غايته لم يمكن تخلّفه واستصعابه عن ذلك الأمر، وأمره له إشارة إلى توجيه أسبابه بحسب القضاء الإلهي عليه بذلك.

وقوله: وكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته: أي وكيف يستصعب. ثمّ أشار إلى علّة عدم استصعابه وسرعة طوعه وانقياده بذكر علته وهو استناد جميع الآثار إلى مشيئته. إذ كل أثر فهو واجب عن مؤثره والكل منته في سلسلة الحاجة إلى إرادته واجب عنها وقد علم ذلك في العلم الإلهي.

وقوله: المنشئ أصناف الأشياء. إلى قوله: عجائب الأمور.

قد سبق في الخطبة الأولى بيان أن الروية والفكر والتجربة مما يلحق الإنسان ويخصه وأن البارئ سبحانه منزّه عن شيء منها في كيفية إبداعه لخلقه، وأما الشريك فمنزّه عنه ببرهان الوحدانية كما سبقت الإشارة إليه أيضاً. وقريحة الغريزة قوة الفكر للعقل.

وقوله: فأتمّ [فتمّ خ] خلقه وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته.

تمام مخلوقاته من جهة جوده بإفادتها ما ينبغي له فإن عرض لشيء منها فوت كمال فلعدم استعداده وقبوله لذلك وإذعانه ذلّته في رق الحاجة والإمكان وتصريف القدر وإجابته إلى دعوته كونه في الوجود عن قوله: كنْ.

وقوله: ولم يعترض دونه ريث المبطئ ولا أناة المتلكئ.

تنزيه لفعله تعالى وأمره أن يعرض في طاعة الأشياء له شيء من هذه الكيفيات إذ كل شيء في قهره وعلى غاية من السرعة إلى إجابة أمره ولما كان تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وفي قوله كنْ هبة ما ينبغي لذلك المأمور وما يعدّه لإجابة أمره بالكون في الوجود، ويجب عنه فكيف يمكن أن يعرض له في إجابة الأمر بطء أو تلكؤ. بل يكون كلمح البصر كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ويحتمل أن يكون ذلك تنزيهاً له تعالى أن يعرض له من جهة ما هو فاعل شيء من هذه الكيفيات فإن البطء والأناة والتلكؤ من عوارض الحركة التي هي من عوارض الجسم، واعتراضها فيمن يفعل بالآلة وتشتد حركته وتضعف، وقد علمت تنزيه الله تعالى عن جميع ذلك.

وقوله: فأقام من الأشياء أودها. إلى قوله: والهيئات.

إقامته لأودها رفعه لاعوجاج كل شيء بإعداده لما ينبغي له وإفاضة كماله، ونهجه لجددها أو لحدودها على الروايتين هو إيضاحه لكل شيء وجهته وغايته التي تيسرها له، وملاءمته بين متضادّها كجمعه العناصر الأربعة على تضادّ كيفيّاتها في مزاج واحد، وقد سبق بيانه، ووصله لأسباب قرائنها إشارة إلى أن الموجودات لا تنفك عن أشياء تقترن بها من هيئة أو شكل أو غريزة ونحوها، واقتران الشيئين لا محالة مستلزم لاقتران أسبابهما واتصالهما لاستحالة قيام الموجود بدون أسبابه، وذلك الوصل مستند إلى كمال قدرته إذ هو مسبّب الأسباب.

وقال بعض الشارحين: أراد بالقرائن النفوس. وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى وصله لأسبابها هدايتها إلى عبادته وما هو الأولى بها في معاشها ومعادها وسوقها إلى ذلك إذ المفهوم من قول القائل: وصل

الملك أسباب فلان. إذا علّقه عليه ووصله إلى برّه وإنعامه. والأول أظهر.

وقوله: وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات.

لا يريد بالأجناس والحدود ما اصطلح عليه قوم في عرفهم. بل ما اختلف بالأمور المذكورة كلها أو بعضها فهو مختلف الجنس لغة، وحدّ الشيء منتهاه وما يحيط به، والأقدار المقادير والأشكال أيضاً، والغرائز القوى النفسانية والأخلاق والهيئات والصفات. وإن حملنا الحدود على ما هو المتعارف كان حسناً فإن حكمة الخالق سبحانه اقتضت تميّز بعض الموجودات عن غيرها بحدودها وحقائقها وبعضها بأشكالها وهيئاتها ومقاديرها وغرائزها وأخلاقها كما يقتضيه نظام الوجود وأحكام الصنع وحكم الإرادة الإلهية.

وقوله: بدايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها.

أي هي بدايا: أي عجائب مخلوقات أحكم صنعها على وفق إرادته وبالله التوفيق.

منها في صفة السماء:

وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا، وَلاَحَمَ صُدُوعَ انْفِرَاجِهَا، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ، حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا، ونَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِهَا، وَفَتَقَ بَعْدَ الإِرْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا، وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لأَمْرِهِ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى إِذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا.

أقول: الرهوات: جمع رهوة وهي الفرجة المتسعة. ومار: تحرك. وناط: علق. والصدوع: الشقوق. ووشّج بالتشديد: أي شبّك. والحزونة: الصعوبة. والأشراج: جمع شرج بالفتح وهي عرى العيبة التي تخاط بها وتنقل ويطلق أيضاً على حروفها التي تخاط. والارتقاق: الالتصاق. والنقاب: جمع نقب بفتح النون وهو الطريق في الجبل. وأيده: قوته. والدراري: الكواكب المضيئة.

وهذا الفصل يشتمل على كيفية خلق السماء فقوله: ونظم بلا تعليق. إلى قوله: انفراجها، يقتضي بظاهره أن السماء كانت ذات فرج وصدوع، وهذا على رأي المتكلمين ظاهر فإنّ الأجسام لما كانت عندهم مركبة من الأجزاء التي لا تتجزأ كانت قبل تأليفها ذات فرج وصدوع، وأما على رأي غيرهم فقالوا: يحتمل أمرين:

أحدهما: أنه لما كانت السماوات مركبة من أجزاء وكانت بين أجزاء كل مركب مباينة لولا المركب والمؤلف استعار عليه السلام لفظ الرهوات والفرج لما يتصور من المباينة بين أجزاء السماء عند قطع النظر عن صانعها ومركبها سبحانه، ونظامه لرهوات فرجها إفاضته لصورها على قوابلها حتّى تمّت مركباً منتظماً متلاحم الصدوع والفرج.

والثاني: يحتمل أن يشير بالفرج إلى ما بين أطباق السماوات من التباين، ونظمه لرهواتها وملاحمة صدوعها خلقها أكراً متماسة لا خلاء بينها، ونبّه على كمال قدرة الله تعالى بقوله: بلا تعليق. فإنّ الأوهام حاكمة بأن السماء واقفة في خلاء كما يقف الحجر في الهواء وذلك منشأ حيرتها وتعجّبها فحركها بذلك القول إلى التعجب والاستعظام.

وقوله: ووشّج بينها وبين أزواجها. أراد بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة السماوية بمعنى قرائنها وكل

قرين زوج: أي ربط ما بينها وبين نفوسها بقبول كل جرم سماوي لنفسه التي لا يقبلها غيره.

وقوله: وذلل للهابطين بأمره. إلى قوله: انفراجها.

قد سبقت الإشارة إلى أن الملائكة ليست أجساماً كسائر الحيوان فإذن ليس هبوطها وصعودها الهبوط والصعود المحسوسين وإلاّ لكان البارئ - جلّ قدسه عن أوهام المتوهّمين - في جهة إليه يصعد وعنه ينزل فإذن هو استعارة لفظ النزول من الجهة المحسوسة إلى أسفل لنزول العقول من سماء الجود الإلهي إلى أراضي المواد القابلة للإفاضات العالية، وبذلك المعنى يكون هبوط الملائكة عبارة عن إيصالها إلى كل ما دونها كماله متوسطةً بينه وبين مبدعه وموجده، وهم المرسلون من الملائكة بالوحي وغيره وكذلك الصاعدون بأعمال الخلق هم الملائكة أيضاً.

وأما معنى الصعود بها فيعود إلى كونها منقوشة في ذوات الصاعدين بها، وقد لاح فيما سبق أن علمه تعالى بمعلولاته البعيدة كالزمانيّات والمعدومات التي من شأنها أن توجد في وقت وتتعلق بزمان يكون بارتسام صورها المعقولة في تلك الألواح، وهو أيضاً مستعار كلفظ الهبوط للمعنى الذي ذكرناه من أراضي النفوس إلى الألواح المحفوظة. فأما الانفراج الذي ذلّل حزونته لهم وسهل عليهم سلوكه فيعود إلى عدم حجبها ومنعها لنفوذ عَلوم الملائكة بأعمال الخلائق، وما يجري في هذا العالم، وكما أن الجسم المتصدّع لا يمنع نفوذ جسم آخر فيه من حيث هو متصدّع والوصول إلى ما وراءه كذلك السماء لا تحجب علوم الملائكة أن تتعلّق بما في هذا العالم من الموجودات فجرت مجرى المنفرج من الأجسام فأُطلق عليه لفظ الانفراج وتذليله لحزونة ذلك الانفراج لهم هو كونها غير مانعة بوجهٍ ما لجريان علوم الملائكة المقرّبين في هذا العالم.

وقوله: وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها وافتتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها.

فيه احتمالان:

الأول: أنك قد علمت مما سبق ما معنى كون السماء من دخان. فأما نداؤه لها فإشارة إلى أمره لها بالإتيان والكون في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وأما التحامها فاعتبار تركيبها بانضمام جزئها الصوري إلى جزئها القابل كما يلتحم طرفا العيبة بتشريج عراها، وافتتاق صوامت أبوابها بعد ذلك الارتتاق هو جعلها أسباباً لنزول رحمته ومدبرات تنزل بواسطة حركاتها على هذا العالم أنواع رحمة الله فكانت حركاتها تشبه الأبواب إذ هي أبواب رحمته، ومفاتيح جوده.

الثاني: أن العرب تقول لكل ما علاك: فهو سماؤك. فعلى هذا يحتمل أن يكون المراد بالسماء ما هو أعمّ من السماء المعهودة، ويكون قوله: وناداها إشارة إلى سماء السحاب وكونها دخاناً هو كونها بخاراً قبل الانعقاد يشبه الدخان فاستعير له لفظه والتحام عرى أشراجها إشارة إلى التحام تلك الأجزاء البخارية، وانعقادها سحاباً وافتتاق صوامت أبوابها هو إنزال المطر منها كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١].

وقوله: وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها.

له معنيان: أحدهما: أن يكون استعار لفظ النقاب لكونها بحيث لا يمنع تعلق العلوم بما وراءها من الأجسام والمجردات، وقد سبق معنى الشهب وإقامتها رصداً.

الثاني: أن يكون استعار لفظ الرصد لهذه الشهب المحسوسة ورشح بذكر النقاب إذ شأن الرصد والحرسة حفظ الفرج والأبواب، ويكون سر ذلك ووجه الحكمة فيه أن العرب كانت تعتقد أن الشياطين تصعد إلى السماء فتسترق الغيب من الملائكة ثمّ تلقيه إلى الكهنة والسحرة ونحوهم فلما آن دور الستر والنهي عن التكهّن ونحوه لما بيّنا فيه من فساد أذهان الخلق، وصرف قلوبهم عن غرض الشريعة ألقى الوحي إليهم أن هذه الشهب التي تنقضّ إنما جعلت رجوماً للشياطين مسترقي السمع كل من استمع منهم رمي بشهاب منها وحجبت السماوات عنهم فلا يصلون إليها لينغرس في أذهان الخلق انقطاع مادة الكهانة ونحوها فنسبوا اعتقادهم فيه فيكون ذلك

كسراً لأوهامهم التي بيّنا أنها شياطين النفوس وقمعاً لها. وبالله التوفيق.

وقوله: وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره.

أي حفظها من أن تحركها الريح المخترعة فيها مجيئاً وذهاباً وحكمت الحكمة الإلهية عليها بالاستقرار انقياداً لقهره، والأمر الأول إشارة إلى حكم القضاء، والأمر الثاني إشارة إلى اعتبار القدرة.

وقوله: وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوة من ليلها.

كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] وكونهما آيتين: أي لدلالتهما على كمال قدرته، ونقل عن أئمة التفسير في إبصار آية النهار ومحو آية الليل وجوه:

أحدها: أن إبصار آية النهار هو بقاء الشمس بحالها وتمام ضيائها في كل حال، ومحو آية الليل هو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقه بحيث لا يبقى ليلتين على حالة واحدة بل كل ليلة في منزل بزيادة أو نقصان.

الثاني: ما نقل أن ابن الكواء سأل علياً عليه السلام عن اللطخة التي في وجه القمر فقال: ذلك محو آية الليل.

الثالث: عن ابن كثير: أن الآيتين هما ظلمة الليل وضياء النهار، والتقدير وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين فقوله: فمحونا آية الليل: أي لم نجعل للقمر نوراً من ذاته بل من ضوء الشمس، وإبصار آية النهار كون الشمس مضيئة بذاتها ومن هنا لابتداء الغاية أو لبيان الجنس متعلق بممحوة أو بجعل، وقيل: أراد من آيات ليلها.

وقوله: فأجراهما في مناقل مجراهما وقدّر سيرهما في مدارج درجهما.

التي قدّر سيرهما فينا هي بروجهما ومنازلهما. ولنشر إلى مفهومات الدرج والبروج والمنازل وهو أن الناس قسموا دور الفلك الذي تسير منه الكواكب باثني عشر قسماً وسمّوا كل قسم برجاً وقسّموا كل برج قسماً وسمّوا كل قسم درجة وسمّوا تلك البروج أسماء:

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.

والشمس تسيّر كل برج منها في شهر واحد، والقمر يسيّر كل برج منها في أزيد من يومين وأنقص من ثلاثة أيام، وأما منازل القمر فثمانية وعشرون وأسماؤها:

الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العوا، السماك، الغفر، الزبانا، الأكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرغ المقدم، الفرغ المؤخر، الرشاء.

والقمر يكون كل يوم في منزل منها: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقوله: ليميّز بين الليل والنهار. إلى قوله: بمقاديرهما.

أي بمقادير سيرهما، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى.

وقوله: ثمّ علّق في جوّها فلكها.

لما أشار أولاً إلى تركيبها أشار إلى إقرارها في أحيازها وهو المشار إليه بتعليق فلكها في جوّها.

فإن قلت: فقد قال أولاً: بلا تعليق ثمّ قال هاهنا: وعلّق. فما وجه الجمع؟

قلت: التعليق أمر إضافي يصدق سلبه وإثباته باعتبارين: فالمراد بالأول أنها غير معلّقة بجسم آخر فوقها. وبالثاني أنه علّقها في جوّها بقدرته. ولا منافاة، وأراد بالفلك اسم الجنس وهو أجسامها المستديرة التي يصدق عليها هذا الاسم.

وقوله: وناط بها زينتها من خفيّات دراريها ومصابيح كواكبها.

كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها كقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] وقد تقدم بيانه،

وإنما أعاد ذكر الشهب لأنه ذكر أولاً أنه أقامها رصداً وذكر هنا أنه جعلها رصداً له: أي لرقي مسترقي السمع بها.

وقوله: وأجراها على إذلال تسخيرها.

كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] والذلة: ذلّة الإمكان والحاجة إلى الإيجاد والتدبير. وأما الثابت والسائر منها، فالسائر: هو الكواكب السبعة: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر. ويسمى الشمس والقمر بالنّيرين والخمسة الباقية بالمتحيّرة لأن لكل واحد منه استقامة ثمّ وقوفاً ثمّ رجوعاً ثمّ وقوفاً ثانياً ثمّ عوداً إلى الاستقامة، وليس للنيّرين غير الاستقامة. وباقي الكواكب التي على السماء غير هذه السبعة تسمى بالثوابت وفلكها الثامن وكل واحد من السبعة يتحرك حركة مخصوصة يخالف حركة الآخر.

فأما صعودها وهبوطها: فصعودها طلبها لشرفها وشرف الشمس في الدرجة التاسعة عشر من الحمل، وشرف القمر في الدرجة الثالثة من الثور، وشرف زحل في الحادية والعشرين من الميزان وشرف المشتري في الخامسة عشر من السرطان، وشرف المريخ في الثامنة والعشرين من الجدي، وشرف الزهرة في السابعة والعشرين من الحوت، وشرف عطارد في الخامسة والعشرين من السنبلة، وشرف الرأس في الثالثة من الجوزاء، وشرف الذنب في الثالثة من القوس، وبرج الشرف كلّه شرف إلاّ أن تلك الدرجات قوية. فما دامت الكواكب متوجهة إلى قوة الشرف فهو في الازدياد والصعود فإذا جاز صار في الانتقاص والهبوط. وهبوط كل كوكب يقابل شرفه وصعوده.

وأما نحوسها وسعودها فقالوا: زحل، والمريخ نحسان أكبرهما زحل، والمشتري والزهرة سعدان أكبرهما المشتري، وعطارد سعد مع السعود ونحس مع النحوس، والنيران سعدان من التثليث والتسديس نحسان من المقابلة والتربيع والمقاربة، والرأس سعد، والذنب والكبد نحسان، ومعنى سعودها ونحوسها كون اتصالاتها أسباباً لصلاح حال شيء من الأشياء من أحوال هذا العالم. وبالله التوفيق.

ومنها في صفة الملائكة:

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، وملأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ، وَسُتُرَاتِ الْحُجُبِ، وَسُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ، وَوَرَاءَ ذٰلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا. أَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ، ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ تُسَبِّحُ جَلالَ عِزَّتِهِ، لاَ يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ. وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلامِ تَوْحِيدِهِ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُوصِرَاتُ الآثَامِ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلاَ قَدَحَتْ قَادِحَةُ الإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلاَ سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلالَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ، وَفِي قَتْرَةِ الظَّلاَمِ الأَبْهَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ

تُخُومَ الأَرْضِ السُّفْلَى، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الإِيقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ، قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَلاَ تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ الإِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُوبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ الأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ، وَلاَ تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلاَدَةُ الْغَفَلاَتِ، وَلاَ تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ. قَدِ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَّمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ، وَلاَ يَرْجِعُ بِهِمُ الاسْتِهْتَارُ بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذٰلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتُ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلا تشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ وَلاَ اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلاَ عُدُولٌ وَلاَ وَنًى وَلاَ فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمٰوَاتِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً.

أقول: الصفيح: السطح. والفجاج: الطريق الواسع. والجوّ: المكان المتسع العالي. والفجوة: الفرجة. والزجل: الأصوات. والسرادق: الستر الذي يمد فوق البيت. والرجيج: الزلزلة والاضطراب. وتستك الأسماع: تصمّ. وخاسئة: متحيّرة. والإخبات: التذلل والإستكانة. وذللاً: سهلة. والموصرات: المثقلات. والعقب: جمع عقبة وهي المدة من التعاقب. والنوازغ: بالغين المعجمة: المفسدة، وبالمهملة: القسيّ. والإحن: جمع إحنة وهي الحقد. ولاق: التصق. وأثناء: جمع ثني وهي تضاعيف الشيء. والرين: الغلبة والتغطية. والدلح: جمع دالحة وهي الثقال. والشمخ: العالية. وقترة الظلام: سواده. والأبهم: الذي لا يهتدى فيه. والتخوم: جمع تخم بفتح التاء وهي: منتهى الأرض وحدودها. والريح الهفافة: الساكنة الطيبة. والوشيجة: عروق الشجرة. والربق: جمع ربقة وهي: الحلقة من الحبل. والدؤوب: الجد في العمل. والأسلة: طرف اللسان. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء ونحوه. والهمس: الخفي من الصوت. والانتضال: الرمي بالسهم. واستهتر بالأمر: أعجبه وتظاهر به. وشيك السعي: مرتبته. والنسخ: الإزالة. والاستحواذ على الشيء: الإحاطة والغلبة عليه. وأخياف الهمم. مختلفاتها واحدتها أخيف. والحفد: السرعة.

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على وصف الملائكة الذين هم أشرف الموجودات الممكنة بكمال العبودة لله إذ كان في معرض تمجيده ووصف عظمته، وقد سبق ذكر أنواع الملائكة وإسكانهم أطباق السماوات، وبيّنا

مقاصده بقدر الإمكان. ولنشر هاهنا إلى ما يختص بهذا الموضع من المباحث:

الأول: ثمّ خلق سبحانه إلى قوله: من ملائكته: يحتمل أن يشير بالصفيح الأعلى إلى الفلك التاسع وهو العرش لكونه أعظم الأجرام وأعلاها وسكانه الملائكة المدبرون له، ويحتمل أن يريد به محل عبادة الملائكة من حضرة جلال رب العالمين، وعالم الملكوت ومقعدهم الصدق من معرفته فإن خلقهم إنما كان لعمارة ذلك المحل وهو البيت المعمور بجلال الله وعبادتهم له، ولما كانوا من أشرف الموجودات كانوا هم الخلق البديع التام المعجب.

الثاني: ملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها: استعار لفظ الفروج والفجاج والفتوق لما يتصوّر بين أجزاء الفلك من التباين لولا الملائكة الذين هم أرواح الأفلاك وبهم قام وجودها وبقاء جواهرها محفوظة بهم. ووجه المشابهة ظاهر، ورشح تلك الاستعارة بذكر الملء والحشو، وأما فجاجها وفروجها فإشارة إلى ما يعقل بين أجزائها وأجوائها المنتظمة على التباين لولا الناظم لها بوجود الملائكة فيكون حشو تلك الفرج بالملائكة كناية عن نظامها بوجودها وجعلها مدبرة لها.

الثالث: وبين فجوات تلك الفروج. إلى قوله: المجد: استعار لفظ الزجل لكمال عبادتهم كما أن كمال الرجل في رفع صوته بالتضرع والتسبيح والتهليل وكذلك لفظ الحظائر لمنازل الملائكة من عالم الغيب ومقامات عبادتهم، وظاهر كونها حظائر القدس لطهارتها وبراءتها عن نجاسات الجهل والنفس الأمارة بالسوء، وكذلك استعار لفظ سترات الحجب والسرادقات لما نبّهنا عليه من حجب النور التي حجبت بها عن الأذهان أو لتجردهم عن المواد والأوضاع المحسوسة، ووجه المشابهة كونهم محتجبين بذلك عن رؤية الأبصار والأوهام. وظاهر كون تلك الحجب سرادقات المجد لكمال ذواتهم وشرفهم بها على من دون تلك الحجب.

الرابع: ووراء ذلك الرجيج الذي تستك إلى قوله: حدودها: استعار لفظ الرجيج لعبادات الملائكة كما استعار لفظ الزجل ورشح استعارة الرجيج بقوله: تستك منه الأسماع وكنى به عن كمال عبادتهم، ويحتمل أن يشير بذلك الزجل والرجيج إلى ما يسمعه الأنبياء من أصوات الملائكة كما علمت كيفيته في سماع الوحي وبيّناه في المقدمة، وأشار بسبحات النور التي وراء ذلك الرجيج إلى جلال وجه الله وعظمته وتنزيهه أن تصل إليه أبصار البصائر، ونبّه بكون ذلك وراء رجيجهم إلى أن معارفهم لا تتعلق به كما هو؛ بل وراء علومهم وعباداتهم أطوار أخرى من جلاله تقصر معارفهم عنها وتردع أبصار البصائر عن إدراكها فترجع حسيرة متحيّرة واقفة عند حدودها وغاياتها من الإدراك.

الخامس: أنشأهم على صور مختلفات إلى قوله: عزته: اختلاف صورهم كناية عن اختلافهم بالحقائق وتفاوت أقدارهم تفاوت مراتبهم في الكمال والقرب منه ولفظ الأجنحة مستعار لقواهم التي بها حصلوا على المعارف الإلهية وتفاوتها بالزيادة والنقصان كما قال تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾[فاطر: ١]. كناية عن تفاوت إدراكهم لجلال الله وعلومهم بما ينبغي له ولذلك جعل الأجنحة هي التي تسبح جلال عزته فإن علمهم بجلاله منزّه عما لا ينبغي لكرم وجهه ولا يناسب جلال عزته.

السادس: لا ينتحلون إلى قوله يعملون: أي لا ينسون بعض مصنوعاته إلى قدرهم وإن كانوا وسائط فيها لا يدّعون أنهم يقدرون على شيء منها إلاّ بإقداره لهم؛ بل غايتهم أنهم وسائط في إفاضة الجود على مستحقه وما لم يجعلهم وسائط فيه. بل انفرد بذاته في إبداعه فلا يدعون القدرة عليه أصلاً وذلك لكمال معارفهم بأقدارهم ونسبتهم إلى بارئهم وقد أكرمهم الله تعالى بالتقديس عن النفوس الأمارة بالسوء التي هي مبدأ مخالفة أمره بالخروج عن طاعته.

السابع: جعلهم فيما هنالك. إلى قوله ونهيه: أي في مقاماتهم من حضرة قدسه. وقد سبقت الإشارة إلى كل ذلك في الخطبة الأولى.

الثامن: وعصمهم إلى قوله مرضاته: منشأ الشكوك والشبهات والزيغ عن سبيل الله هو معارضة النفس

الأمارة للعقل وجذبه له إلى طرق الباطل والملائكة مبرأون عنها فكانوا معصومين ممنوعين مما تقود إليه وتأمر به من الزيغ والانحراف عن قصد الله. وإمدادهم بفوائد المعونة زيادتهم في كمالاتهم على غيرهم ودوام ذلك بدوام وجوده.

التاسع: وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة: استعار لفظ التواضع والاستكانة لحالهم من الاعتراف بذلّ الحاجة والإمكان إلى جوده والانقهار تحت عظمته: أي جعل ذلك الاعتراف شعاراً لازماً لذواتهم، أو من الشعور وهو الإدراك.

العاشر: وفتح لهم أبواباً ذُلُلاً إلى تماجيده: الأبواب الذلّل وجوه معارفهم الإلهية التي بها يمجّدونه حق تمجيده وهي أبوابهم ووسائلهم إلى تنزيهه وتعظيمه وظاهر كونها سهلة إذ حصولها لهم ليس اكتساباً عن طرق توعرت بتراكم الشكوك والشبهات ومنازعات الأوهام والخيالات كما عليه علومنا.

الحادي عشر: ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده: قيل: استعار المنار الواضحة للوسائط من الملائكة المقربين بينهم وبين الحق سبحانه إذ أخباره عن الملائكة السماوية، ولفظ الأعلام لصور المعقولات في ذواتهم المستلزمة لتوحيده وتنزيهه عن الكثرة، ووجه المشابهة أن المنار والأعلام كما تكون وسائط في حصول العلم بالمطلوب كذلك الملائكة المقربون والمعارف الحاصلة بواسطتهم تكون وسائط في الوصول إلى المطلوب الأول محرك الكل عزّ سلطانه.

الثاني عشر: لم تثقلهم موصرات الآثام: لما لم تكن النفوس الأمارة بالسوء موجودة لهم استلزم عدمها نفي آثارها عنهم من الآثام والشرور.

الثالث عشر: ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام: أي لم يستلزم تعاقب الزمان رحيلهم عن الوجود وذاك لتجردهم وبراءة المجردات عن لحوق الزمان والتغيّرات الحادثة بسببه.

الرابع عشر: ولم ترم الشكوك بنوازغها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم: عزيمة إيمانهم ما لزم ذواتهم من التصديق بمبدعهم وما ينبغي له، ومعاقد يقينهم اعتقاداتهم اليقينية، واعتراك الشكوك والظنون منشأة الأوهام والخيالات وعلوم الملائكة المجردين مبرأة عنها، ولفظ الرمي مستعار لانبعاث النفوس الأمارة بالسوء، وإلقائها الخواطر الفاسدة إلى النفس المطمئنة، ومن روى النوازع بالعين المهملة فهو ترشيح للإستعارة وكذلك استعار لفظ الاعتراك لاختلاط الظنون والأوهام على القلوب وجولانها في النفوس. ووجه المشابهة ظاهرة.

الخامس عشر: ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم: أي لم تثر بينهم الأحقاد شيئاً من الشرور كما تثير النار قادحاً لبراءتهم عن قوى الغضب والشهوة.

السادس عشر: ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم إلى قوله: صدورهم: لما كانت الحيرة تردّد العقل في أي الأمرين أولى بالطلب والاختيار وكان منشأ ذلك هو معارضات الوهم والخيال للعقل فحيث لا وهم ولا خيال فلا حيرة تخالط معارفهم وتزيل هيبة عظمته من صدورهم، والهيبة كناية عن استشعار عظمته، ولفظ الصدور مستعار لذواتهم.

السابع عشر: ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم: وقد مرّ تفسير الوسوسة، وفاعل الطمع هاهنا إما مضمر على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه: أي أهل الوساوس وهم الشياطين، أو يكون الفاعل هو الوساوس وإسناد الطمع إليه مجازاً كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] ورينها غلبة الشكوك اللازمة عنها على وجوه عقولهم وأبصار ذواتهم التي بها ينظرون إلى وجه ربهم وانتفاؤها عنهم لانتفاء أسبابها وهي النفوس الأمارة.

الثامن عشر: منهم من هو في خلق الغمام إلى قوله: الأبهم: هذا التقسيم يعود إلى جنس الملائكة، فأما الأوصاف السابقة فكانت خاصة بسكان السماوات منهم وقد وردت في الشريعة أن في الغمام ملائكة تسبّح الله وتقدّسه وكذلك في الجبال والأماكن المظلمة وهم من الملائكة الأرضية، وقد علمت ما قيل فيها في الخطبة الأولى.

التاسع عشر: ومنهم من خرقت أقدامهم تخوم

الأرض السفلى إلى قوله: المتناهية: يشبه أن يكون هذا القسم من الملائكة السماوية أيضاً واستعار لفظ الأقدام لعلومهم المحيطة بأقطار الأرض السفلى ونهاياتها، ووجه المشابهة كون العلوم قاطعة للمعلوم وسارية فيه واصلة إلى نهايته كما أن الأقدام تقطع الطريق وتصل إلى الغاية منها وشبّهها بالرايات البيض النافذة في مخارق الهواء من وجهين:

أحدهما: في البياض فإن البياض لما استلزم الصفاء عن الكدر والسواد، كذلك علومهم صافية من كدورات الباطل وظلمات الشبه.

الثاني: في نفوذها في أجزاء المعلوم كما تنفذ الرايات في الهواء، وأشار بالريح التي تحبس الأقدام على حيث انتهت من الحدود إلى حكمة الله التي أعطت كلاماً يستحقه وقصرت كل موجود على حده، وبهفوفها إلى لطف تصرفها وجريانها في المصنوعات.

العشرون: قد استفرغتهم أشغال عبادته إلى قوله: وشيجة خيفته: أي لم يجعل لهم فراغاً لغيرها، وقد علمت أن تحريك الملائكة السماوية لأجرام الأفلاك الجارية لها مجرى الأبدان بحركة إرادية وشوقية للتشبّه بالملائكة المتوسطة بينها وبين الحق سبحانه في كمال عبادتهم له وتلك الحركات الدائمة الواجبة مستفرغة لهم عن الاشتغال بغيرها كما قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وحقائق الإيمان تصديقهم الحق بوجوده عن شاهد وجودهم وظاهر كونه سبباً لإرادة معرفته التامة والدوام عليها، وإبراز ما في قوتهم من الكمال بها إلى الفعل فإن التصديق بوجود الشيء الواجب تحصيله أقوى الأسباب الباعثة على طلبه.

فصار الإيمان والتصديق الحق اليقين بوجوده وسيلة جامعة بينه وبين معرفته والاستكمال بها وقاطعاً لهم إلى الوله إليه والعشق له وثبات الرغبات على ما عنده دون غيره، ولما استعار لفظ الذوق لتعقّلاتهم ولفظ الشرب بما تمكن في ذواتهم في عشقه وكمال محبته رشّح الاستعارة الأولى بذكر الحلاوة وكنى بها عن كمال ما يجدونه من اللذة بمعرفته كما يلتذّ ذائق الحلاوة بها.

والثانية: بذكر الكأس الروية إذ من كمال الشرب أن يكون بكأس روية: أي من شأنها أن تروي، وكنى بها عن كمال معرفتهم بالنسبة إلى غيرهم وكذلك رشح استعارة لفظ القلوب بذكر سويدائها إذ كان من كمال تمكن العوارض القلبية كالمحبة والخوف أن يبلغ إلى سويدائه، وأشار بوشيجة خيفته إلى العلاقة المتمكنة من ذواتهم لخيفته، وهي كمال علمهم بعظمته، ولفظ الخيفة مستعار كما سبق لانقهارهم في ذلّ الإمكان عند اعتبار عزّه وقهره.

الحادي والعشرون: فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم: تجوز بانحناء الظهور في كمال خضوعهم في عبادتهم وهو إطلاق لاسم المسبب على السبب.

الثاني والعشرون: ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم: لما كان من شأن أحد إذا رغب في أمر إلى بعض الملوك وفزع فيه إليه بالتضرع والخدمة أن ينقطع تضرعه بانقطاع مادته. ومادته إما دواعي نفسه إلى الطلب وميولها وانقطاعها باستيلاء الملال على نفسه وضعفها عن تحمّل المشقة، أو مطلوبه وتصوّره لإمكان تناوله وانقطاعه إما بإياسه منه أو بإعطائه إيّاه، وكانت مادة تضرعهم وعبادتهم له تعالى على التقديرين بريئة عن القواطع، أما من ذواتهم فلأن الكلال والملال من عوارض المركبات العنصرية، وأما مطلوبهم فلأنه كمال معرفة الله بعد تصوّرهم لعظمة ذلك المطلوب. وعلمت أن درجات الوصول إليه غير متناهية لا جرم سلب عنهم في معرض مدحهم انقطاع مادة تضرعهم ليستلزم ذلك سبب انقطاع تضرعهم وعبادتهم له.

الثالث والعشرون: ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم: لما كان من قرب من السلطان مثلاً من شأنه أن يقوي نفسه ويخفّف هيبته منه، وكان ذلك لتناهي ملك ملوك الدنيا وكونه مكتسباً لها وتصوّر المتقرب إليهم مثليّة لهم وإمكان وصوله إلى ما وصلوا إليه. وكان سلطان الله لا يتناهى عظمة وعزّة وعرفاناً لم يتصوّر من العارف المتقرب إليه أن يخفف هيبته أو ينقص خشوعه وعبادته بل كلما ازدادت معرفته به ازدادت عظمته في نفسه إذ كان يقدر في سلوكه عظمة الله بقدر عرفانه به فكلما غيّر منزلاً من منازل المعرفة علم عظمة خالقه

فكمل عقد يقينه بذلك وعلم نقصان ذاته فكمل خشوعه وصدق خضوعه، واستعار لفظ الربق لما حصلوا فيه من الخشوع.

الرابع والعشرون: ولم يتولهم الإعجاب إلى قوله: حسناتهم: أي لم يستولِ عليهم، والإعجاب: هو استعظام الإنسان نفسه عما يتصوّر أنه فضيلة له، ومنشأ ذلك الحكم هو النفس الأمارة فيتوهم الإنسان أن تلك الفضيلة حصلت له عن استحقاق وجب له بسعيه وكده مع قطع النظر عن واهب النعم ومفيضها، والملائكة السماوية مبرّأون عن الأوهام وأحكامها غرقى في الوله إليه، ودوام مطالعة آلائه والاستكانة تحت جلال عزّته فلا يستكثرون ما سلف منهم من عبادة ولا يستعظمون ما صدر عنهم من خير.

الخامس والعشرون: ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم: قد ثبت أن الملائكة السماوية دائمة التحريك لأجرامها حركة لا يتخلّلها سكون ولا يكلّها ويفترها إعياء وتعب، ولبيان ذلك بالبرهان أصول ممهدة في مواضعها، وأما بالقرآن فلقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقد سبق.

السادس والعشرون: ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم: المخالفة عن الشيء العدول عنه، وقد سبق أن رغبات الملائكة السماوية وأشواقها إلى كمالاتها دائمة ثابتة فكانت لذلك دائمة الرجاء لها من واهبها، ولفظ الغيض مستعار كما سبق.

السابع والعشرون: ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم: طول مناجاتهم يعود إلى توجيه وجوههم دائماً إليه، واستعار لفظ الألسنة وترشح بذكر الأسلات ملاحظة للتشبيه بأحدنا في مناجاته، وكنّى بعدم جفاف ألسنتهم عن عدم فتورهم وعدم لحوق الكلال والإعياء لهم ظاهر أنه لا ألسنة لحمانيّة لهم فلا جفاف.

الثامن والعشرون: ولا ملكتهم إلى قوله: أصواتهم: أي لم تضعفهم العبادة فتنقطع أصواتهم فتضعف فتخفى بالضرع إليه. وهو تنزيه لهم عن الأحوال البشرية والعوارض البدنية من الضعف والإعياء وكلال الأعضاء عند كثرة الأشغال وقوتها، وقد مرّ أن الملائكة السماوية لا يجوز عليها شيء من تلك العوارض، واستعار لفظ الأصوات كما استعار لفظ الألسنة.

التاسع والعشرون: ولم تختلف في مقادم الطاعة مناكبهم إلى قوله: رقابهم: استعار لفظ المقادم من ريش الطائر، وهي عشر في كل جناح لما سبق وجوبه من طاعة الله، وكان أهم عباداته كمعرفته في التوجه إليه، ولفظ المناكب وهي أربع ريشات بعد المقادم في كل جناح لذواتهم، ووجه المشابهة أن المناكب تالية للمقادم وعلى نظامها وترتيبها لا يخالف صفّها ونسقها كذلك الملائكة لا تختلف ذواتهم وأجرامهم في نسق ما أهمّ من عبادة ربهم ومعرفته. بل صافّون لا يخالف بعضهم بعضاً في استقامة طريقهم إليه ولا يخرجون عن نظام ترتيبه لهم في التوجه إليه كما أشار إليه في الخطبة الأولى: وصافون لا يتزايلون، وكذلك استعار لفظ الرقاب ولفظ الثني: أي لم يلتفتوا إلى الراحة من تعب العبادة فيقصروا في أوامره، والمقصود نفي الأحوال البشرية عنهم من التعب والراحة لكونهما من توابع هذه الأبدان.

الثلاثون: ولا تعدو إلى قوله: الشهوات: قد عرفت معنى الغفلة فيما سبق. والبلادة هي طرف التفريط من فضيلة الذكاء وكلاهما من عوارض هذا البدن وبواسطته. وكذلك الشهوات والملائكة السماوية بريئة عنها فلم يجز أن يطرأ على قصودهم لما توجهوا له غفلة ولا بلادة حتّى يكون ذلك سبباً لإعراضهم عن التوجه فيه، ولم يجز أن ترمي الشهوات هممهم بسهام خدائعها، ولفظ الانتضال مستعار لنوادر جواذب الشهوة على النفس الناطقة مع كونها مؤدية لها ومردية في قرار الجحيم.

الحادي والثلاثون: قد اتّخذوا إلى قوله: برغبتهم: أشار بيوم فاقتهم إلى حال حاجتهم في الاستكمال إلى جوده وإن كان ذلك دائماً فهو ذخرهم الذي إليه يرجعون، وكذلك الإشارة بقوله: عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين: إلى حال الحاجة أيضاً فإنه إنما يكون ذخيرة

لهم لرجوعهم إليه فيما يحتاجون، وإنما يتحقق قصدهم له برغبتهم حال الحاجة إليه.

الثاني والثلاثون: لا يقطعون إلى قوله: ومخافته: لما كانت غاية عبادته هو الوصول إلى كمال معرفته وكانت درجات المعارف الإلهية غير متناهية لم يكن قطعهم لتلك الغاية ممكناً، ولما كانوا غرقى في محبته عالمين بكمال عظمته وأن ما يرجونه من تمام جوده أشرف المطالب وأربح المكاسب، وما يخشى من انقطاع جوده ونزول حرمانه أعظم المهالك والمعاطب لا جرم دام رجاؤهم له وخضوعهم في رقّ الحاجة إليه والفزع من حرمانه وكان ذلك الرجاء والخوف هو مادة استهتارهم بلزوم طاعته التي يرجعون إليها من قلوبهم فلم ينقطع استهتارهم بلزومها.

الثالث والثلاثون: لم تنقطع أسباب الشفقة منهم، فينوا في جدّهم: الشفقة: الاسم من الإشفاق: أي لم تنقطع أسباب خوفهم له وأسبابه حاجتهم إلى القيام في الوجود إلى الاستكمال بجوده فإن الحاجة الضرورية إلى الغير في مطلوب يستلزم الخوف منه في عدم قضائه، ويوجب الإقبال على الاستعداد بجوده بلزوم طاعته. وحاجتهم إليه دائمة فجدّهم في عبادته دائم فالتواني فيه مفقود.

الرابع والثلاثون: ولم تأسرهم إلى قوله: اجتهادهم: سلب لبعض أوصاف البشر عنهم فإن كثيراً من العابدين قد يصرفهم عن الاجتهاد في طاعة الله سببٌ ما يظهر لهم من كمالات الدنيا وزينتها فيؤثرون ما قرب من السعي في تحصيله على ما يستبعدونه من تحصيل السعادة الأخروية الباقية، وقد عرفت أن ذلك من جواذب الشهوات والغفلة عما وراء هذه الدار والملائكة مبرّأون عن الشهوات، وما يلزمها من أسر الأطماع الكاذبة لهم، ولفظ الأسر استعارة لقود الأطماع إلى ما يطمع فيه.

الخامس والثلاثون: لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم إلى قوله: وجلهم: معنى هذه الشرطية أنهم لو استعظموا ذلك لكان رجاؤهم لثواب عبادتهم عظيماً فكان لقوته ماحياً لإشفاقهم وخوفهم منه، وهذا كما أن الإنسان إذا عمل لبعض الملوك عملاً يستعظمه فإنه يرى في نفسه استحقاقاً أتمّ جزاء له، ويجد التطاول به والدالة عليه فيهوّن ذلك ما يجده من خوفه، وكلما ازداد استعظامه لخدمته ازداد اعتقاده في قربه من الملك قوة وبمقدار ذلك ينقص خوفه وتقلّ هيبته لكن الملائكة خائفون أبداً كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] فينتج أنهم لا يستعظمون سالف عبادتهم.

السادس والثلاثون: ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم: أي في إثباته واستحقاقه كمال العبادة وذلك لعدم سلطان عليهم وهو سلب لبعض أحوال البشر، وكذلك قوله: ولم يفرّقهم إلى قوله: أخياف الهمم. تنزيه لهم عن أمور من عوارض البشرية:

أحدها: سوء التقاطع وهو كتقاطع المتعادين وتباينهم الناشئ عن الغضب والشهوة.

الثاني: غلّ الحسد، وقد علمت أن الحسد رذيلة نفسانية تنبعث عن البخل والشره ومنبعهما النفس الأمارة.

الثالث: تشعب مصارف الريب لهم والريب الشكوك والشبه ومصارفها في الأمور الباطلة التي تنصرف أذهانهم إليها عن الشبه أو تلك الشبهة والشكوك أنفسها وتشعّبها لهم اقتسامها بحيث يذهب كل واحد من شبهة إلى باطل، وقد علمت أن منشأ الشكوك والشبهات هو الوهم والخيال، ولما كانوا مبرئين عن النفوس الأمارة وجب تنزيههم عن هذه الأمور الثلاثة.

الرابع: لما كان معبودهم واحداً وهو غاية مطلوبهم كانت هممهم فيه واحدة فلم يلتفتوا إلى شيء آخر ولم يفترقوا فيها.

السابع والثلاثون: فهم أسراء إيمان. إلى قوله: ولا فتور: استعار لفظ الأسر ورشح بذكر الربقة ونزّههم عن أن يجذبهم عن الإيمان أحد الأمور الأربعة، وقد سبق وجه تنزيههم عنها.

الثامن والثلاثون: وليس في أطباق السماوات إلى قوله: عظماً: المراد أن السماوات مملوءة بالملائكة فبين ساجد لوجه ربه وبين ساع مجد في أمره. واعلم أن في السماء ملائكة مباشرة لتحريكها وملائكة أعلى رتبة

من أولئك هم الآمرون لهم بالتحريك فيشبه أن تكون الإشارة بالساجدين منهم إلى الآمرين، والسجود كناية عن كمال عبادتهم كناية بالمستعار وتكون الإشارة بالساعين المسرعين إلى المتولين للتحريك. فأما زيادتهم بطول الطاعة علماً بربهم. فلما ثبت أن حركاتهم إنما هي شوقيّة للتشبه بملائكة أعلى رتبة منهم في كمالهم بالمعارف الإلهية وظهور ما في ذواتهم بالقوة إلى الفعل. وزيادة عزة ربهم عندهم عظماً بحسب زيادتهم ومعرفتهم له تابعة لها كما نبّهنا عليه قبل. وبالله التوفيق.

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء:

كَبَسَ الأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلاَطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلاَئِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ. فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحَمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلاَمِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَهَا، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا، ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ الأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا. أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بَوَانِيهَا، وَبَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا، وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذٰلِكَ بَلاَغاً لِلأَنَامِ، وَرِزْقاً لِلأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ الْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا.

فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ، فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ ـ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ ـ فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ.

وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا. وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذٰلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا

وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا. وَخَلَقَ الآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا. عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدِ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ الْجُفُونِ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ الْقُلُوبِ وَغَيَابَاتُ الْغُيُوبِ، وَمَا أَصْغَتْ لاسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفِ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي الْهَوَامِّ، وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهَاتِ، وَهَمْسِ الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ غُلُفِ الأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ الْجِبَالِ وَأَوْدِيَتِهَا. وَمُخْتَبَإِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِهَا، وَمَغْرَزِ الأَوْرَاقِ مِنَ الأَفْنَانِ، وَمَحَطِّ الأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الأَصْلاَبِ، وَنَاشِئَةِ الْغُيُومِ وَمُتَلاَحِمِهَا، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا، وَمَا تَسْفِي الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُو الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ نَبَاتِ (بَنَاتِ) الأَرْضِ فِي كُثْبَانِ الرِّمَالِ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الأَجْنِحَةِ بِذُرَى شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ الأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ الأَصْدَافُ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ الْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ؛ أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلاَلَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذٰلِكَ كُلْفَةٌ، وَلاَ اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلاَ اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الأُمُورِ وَتَدَابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ وَلاَ فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَ فِيهِمْ (نَفَذَهُمْ) عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ (عَدَدُهُ) عَدُّهُ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مُؤَمَّلٍ (مَأْمُولٍ)، وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ.

اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلاَ أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الآدَمِيِّينَ، وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ.

اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ.

اللَّهُمَّ وَهٰذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهٰذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ، وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلاَّ فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي هٰذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أقول: كبسها: أغاصها في الماء بقوة. والمور: التردد في المعركة. ومستفحلة: صائلة: والتلاطم: التراد. والأواذي: جمع آذي وهو ما عظم من موج البحر. والاصطفاق: التراد أيضاً. والأثباج: جمع ثبج وهو معظمها وعواليها. وهيج الفرس: إذا غلب صاحبه ولم يملكه. والارتماء: التقاذف والتراد. والكلكل: الصدر. والمستخذي: الخاضع. والتمعّك: التمرغ. واصطخاب أمواجه: غلبتها وأصواتها. والساجي: الساكن والحكمة: ما أحاط من اللجام بحنك الدابة. والدحو: البسط. والتيار: الموج. والنخوة: الكبر والترفع. والبأو: الفخر. وشمخ بأنفه: تكبّر. والغلواء: تجاوز الحد. وكعمته: سددت فاه. والكظة: شدة البطنة. وهمد: سكن وخمد. والنزق: الخفة والطيش.

ولبد: لصق بالأرض ساكناً. والزيفان: التبختر. والبذّخ: العالية. والعرنين: أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين. والسهوب: جمع سهب وهو الفلاة الواسعة. والبيد: جمع بيداء وهي الفلاة أيضاً. والأخدود: الشق في الأرض. والجلاميد: الصخور. والشناخيب: رؤوس الجبال. والشم: العالية. والصيخود: الصخرة الصلبة. وأديمها: سطحها. وتغلغله: دخوله في أعماقها. والتسرب: الدخول في السرب. والجوبة: الفرجة في الأرض. وجراثيم الأرض: أعاليها وما اجتمع منها. وأرض جرز: لا نبات بها لانقطاع الماء عنها. والروابي: عوالي الأرض. والقزع: قطع السحاب الرقيقة، والواحدة قزعة. والكفة بالضم: ما استطال من السحاب وما استدار. وبالكسر: الوميض واللمعان. والكنهور: العظيم من السحاب. والرباب: الغمام الأبيض. والسحّ: الصب. وأسف: دنا من الأرض لثقله. وهيدبه: ما تهدّب منه إلى الأرض أي تدلى. وتمريه: تستخرج ما فيه من الماء. والدرر جمع درّة بالكسر وهي كثرة اللبن وسيلانه. والأهاضيب: جمع هضاب وهو جمع هضب، وهو جلبات القطر بعد القطر. والشآبيب: جمع شؤبوب وهو الرشقة القوية من المطر. والبرك: الصدر. والبواني: ما يلي الصدر من الأضرع. وبعاع السحاب: ثقله بالمطر. والعبء: الثقل. وجبلة زعراء: لا نبت بها. وتزدهي: تتكبّر. والريط: جمع ريطة وهي الأزاهير المنيرة. وسمطت: زينت بالمسط وهو العقد، ومن روى شمطت بالشين المعجمة أراد خلطت. والجبلة: الخلقة. وأوعز إليه بكذا: تقدم إليه به. والعقابيل: بقايا المرض. والترح: الحزن. والفاقة: الفقر. والخلج: الجذب والانتزاع. والأشطان: جمع شطن وهي الحبال. والمرائر: أيضاً الحبال اللطيفة الفتل. والتخافت: المسارة. والرجم بالظن: القول عنه. والغيابة: ظلمة قعر البشر. ومصائخ الأسماع: خروقها. والإصاخة: التسمع. والولائج: المداخل. والأكمام: جمع كمّ بالكسر وهو غلاف الطلع. والمنقمع: محل الانقماع وهو الارتداع. ولحاء الشجرة: قشرها. والأفنان: الأغصان. والأمشاج: النطفة المختلطة بالدم، وتعفو: تمحو. وشناخيب الجبال: رؤوسها. وذراها: أعاليها. والتغريد: ترديد صوت الطائر. والدياجير: جمع ديجور وهو الظلام. والسدفة: الظلمة. وذرّ الشارق: طلع. ورجع الكلمة: جوابها. والنقاعة: نقرة يجتمع فيها الدم. واعتورته: أحاطت به. والعارفة: المعروف. والخلّة: الفقر. وأنعشه: أنهضه من عثرته.

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على فصول:

الفصل الأول: في تمجيد الله تعالى باعتبار خلقه للأرض في الماء وجملة من أحوالها وهو إلى قوله: جواد طرقها، وفيه أبحاث:

البحث الأول: في الاستعارات والتشبيهات وأبحاث لفظية.

الأول: استعارة لفظ الكبس لخلقه لها غائصاً معظمها في الماء كما يغوص بعض الزقّ المنفوخ ونحوه بالاعتماد عليه.

الثاني: استعارة لفظ الاستفحال للموج، ووجه المشابهة ما اشترك فيه الموج والفحل من الاضطراب والهيجان والصولة.

الثالث: تشبيهه بالفحول أيضاً ووجه الشبه ما يظهر على رؤوس الموج عند اضطرابه وغليانه من رغوة الزبد كما يظهر من فم الفحل عند هياجه.

الرابع: استعار لفظ الجماح لحركة الماء على غير نسق واضطراب لا يملك معه تصريفه كما يجمح الفرس.

الخامس: استعار أوصاف الناقة من الكلكل والكاهل للأرض ورشح تلك الاستعارة بالوطء والتمعّك. وإنما خصّ الصدر والكاهل لقوتهما وكنّى بالمجموع عن إلحاقها بالناقة.

السادس: استعار للماء لفظ الاستخذاء والقهر ولفظ الحكمة والانقياد والأسر وكنّى بها عن إلحاقه بحيوان صائل قهر كالفرس وأضاف الحكمة إلى الذلّ إضافة للسبب إلى المسبّب.

السابع: استعار لفظ النخوة، والبأو، وشموخ الأنف، والغلواء، والنزق، والزيفان، والوثبات للماء في هيجانه واضطرابه ملاحظة لشبهه بالإنسان المتجبّر التيّاه في حركاته المؤذنة بتكبّره وزهوه.

الثامن: استعار لفظ الأكتاف للأرض، ووجه المشابهة كون الأرض محلاً لحمل ما يثقل من الجبال كما أن كتف الإنسان وغيره محل لحمل الأثقال.

التاسع: استعار لفظ العرنين والأنف لأعالي رؤوس الجبال كناية عن إلحاقها بالإنسان.

العاشر: كنّى بالتغلغل والتسرب عما يتوهّم من نفوذ الجبال في الأرض وغوصه فيها، واستعار لفظ الخياشيم لتلك الأسراب الموهومة. ولما جعل للجبال أُنوفاً جعل تلك الأسراب المتوهم قيام الجبال فيها خياشيم.

الحادي عشر: استعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرض كناية عن إلحاقهما بالقاهر والمقهور.

الثاني عشر: استعار لفظ الوجدان والذريعة للجداول كناية عن إلحاقها بالإنسان عديم الوسيلة إلى مطلوبه.

الثالث عشر: الضميران في تغلغلها وركوبها والضمير في خياشيمها تعود إلى الأرض وباقي الضمائر ظاهرة.

الرابع عشر: تجوّز في إسناد لفظ الإحياء والاستخراج إلى السحاب إذ المخرج هو الله تعالى.

الخامس عشر: كنّى بعدم النوم عن عدم إخفاء وميض البرق في السحاب كناية بالمستعار.

السادس عشر: استعار لفظ الهدب لقطرات المطر المتصلة يتلو بعضها بعضاً ملاحظة لشبهها بالخيوط المتدلية [المستدلية خ].

السابع عشر: استعار لفظ الدرر والأهاضيب وهي الجلباب للغمام كناية عن إلحاقها بالناقة.

الثامن عشر: أسند المري إلى الجنوب مجازاً أو لأن لها سببيةً ما في نزول الغيث وإنما خصّ الجنوب لأنها في أكثر البلاد حارة رطبة أما الحرارة فلأنها تأتي من الجهة المتسخنة بمقاربة الشمس، وأما الرطوبة فلأن البخار أكثرها جنوبية والشمس تفعل فيها بقوة ويتبخّر عنها أبخرة تخالط الريح، وإذا كان كذلك كان الجنوب أولى بالذكر من وجهين:

أحدهما: أنها أكثر استصحاباً للأبخرة فلذلك كان السحاب أكثر انعقاداً معها ومصاحبة لها.

الثاني: أنها لحرارتها تفتح المسام، ولرطوبتها ترخي فكان درور المطر عنها أكثر.

التاسع عشر: استعار لفظ البرك والبواني للسحاب وأسند إليه الإلقاء كناية عن إلحاقه بالجمل الذي أثقله الحمل فرمى بصدره إلى الأرض.

العشرون: نسب الابتهاج والازدهاء واللبس إلى الأرض ذات الأزاهير مجازاً ملاحظة لشبهها بالمرأة المتبجّحة بما عليها من فاخر الملبوس وجميل الثياب.

البحث الثاني: أن مقتضى الكلام أن الله خلق الماء قبل الأرض ثمّ دحاها فيه وسكن بها مستفحل أمواجه، وهذا مما شهد به البرهان العقلي فإن الماء لما كان حاوياً لأكثر الأرض كان سطحه الباطن المماس لسطحه الظاهر مكاناً لها وظاهر أن للمكان تقدماً باعتبار ما على المتمكن فيه، وإن كان اللفظ يعطي تقدم خلق الماء على خلق الأرض تقدماً زمانياً كما هو المقبول عند السامعين.

البحث الثالث: أنّه أُشير إلى كونها مدحوة في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] مع أن الأرض كرة كما ثبت بيانه في علم الهيئة. فلا بدّ من التأويل وقد نبّهنا إليه في قوله: اللهم داحي المدحوات، وقد ورد في الخبر: أن الأرض دحيت من تحت الكعبة. قال بعض العارفين: الإشارة بالكعبة إلى كعبة وجود واجب الوجود التي هي مقصد وجوه المخلصين التي جعلت هذه الكعبة في عالم الشهادة مثالاً لها ودحوها من تحتها عبارة عن وجودها عن ذلك المبدأ.

البحث الرابع: الإشارة إلى خلق الجبال فيها وكونها سبباً لسكونها. وللناس في تكوين ما تكون من الجبال فيها وجوه:

أحدها: أنه قد يكون عن بخار زالت مياهها.

الثاني: قد يكون عن زلزلة فصلت قطعة على ناحية فارتفعت.

الثالث: قد تكون عن رياح جمعت بهبوبها تراباً فتراكم وعلا.

الرابع: قد تكون لعمارات تراكمت فتخرّبت. فأما كونها أسباباً لسكون الأرض فقد سبقت الإشارة إليه في الخطبة الأولى، واعلم أن البرهان مطابق على الشهادة بسكونها كما أُشير إليه في مظانه.

البحث الخامس: في تفجير ينابيع العيون في الجبال وغيرها، وقد أشار العلماء إلى أسبابه فقالوا: إنّ الأدخنة والأبخرة ما يحتبس منها تحت الأرض وفي ثقب وفرج فيها هواء تبرد الأبخرة والهواء فيصير ماء فما له قوة ومدد يتفجّر عيوناً، ويجري على الولاء لعدم مدخل الهواء بين الخارج وما يتصل به ويتبعه، وما لا مدد له من العيون يركد، وما له مدد إلاّ أن أجزاءه مبددة والأرض واهية لا تحتاج إلى مقاومة يتحصل منه القنوات، وماء البئر أيضاً من قبيل ما له مدد لكنه لم يجد سبيلاً إلى أحد الجوانب لعدم رخاوة أرضه فخالف القنوات.

وإنما خصّ الجبال بتفجّر العيون منها لأن العيون أكثر ما تفجّر من الجبال والأماكن المرتفعة وذلك لشدة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى سائر الأماكن الهابطة الرخوة فإن الأرض إذا كانت رخوة نفضت البخار عنها فلا يكاد يجتمع منه قدر ما يعتد به ولأن هذا التخصيص أدّل على حكمة الصانع وعنايته بالخلق. وهو في معرض تمجيده وتعديد آلائه.

البحث السادس: أنه أعدّ الهواء لساكنها، واعلم أنه سبحانه كما جعل الهواء عنصراً لأبدان الحيوان وأرواحه البدنية كذلك جعله مدداً يصل إلى الأرواح ويكون علة لصلاحها وبقائها بالتعديل، وذلك التعديل يكون بفعلين:

أحدهما: التزويج.

والثاني: التنقية. أما التزويج فهو تعديل مزاج الروح الحار إذا أفرط بالاحتقان في الأكثر فإن الهواء الذي يحيط بنا أبرد بكثير من ذلك المزاج فإذا وصل إليه باستنشاق الرئة ومن مسام منافس النبض وصدمه وخالطه منع عن الاستحالة إلى النارية الاحتقانية المؤدية إلى سوء مزاج يزول به عن الاستعداد لقبول التأثير النفساني الذي هو سبب الحياة، وأما التنقية فهي باستصحابه عند ردّ النفس لما سلّمته إليه القوة المميّزة من البخار الدخاني الذي نسبته إلى الروح نسبة الخلط الفضلي إلى البدن. فكما أن التعديل هو بورود الهواء على الروح عند الاستنشاق فالتنقية بصدوره عنه عند ردّ النفس، وذلك أن الهوء المستنشق إنما يحتاج إليه في تعديله أول وروده لكونه بارداً بالفعل فإذا استحال إلى كيفية الروح بالتسخّن لطول مكثه بطلت فائدته فاستغنى عنه واحتيج إلى هواء جديد يدخل ويقوم مقامه فدعت الضرورة إلى إخراجه لإخلاء المكان لمعاقبه وليندفع معه فضول جوهر الروح. فهذا معنى قوله عليه السلام : وأعدّ الهواء متنسماً لساكنها. واعتبار إعداده لمنفعة الحيوان أعمّ مما ذكرنا فإنه أيضاً معدّ لسائر الأمزجة المعدنية والنباتية والحيوانية التي يحتاج الإنسان في بقائه إليها وكونه عنصراً لها ومعتبراً في بقائها. وعند ملاحظة هذه المنافع عن الهواء يظهر أثر نعمة الله به.

البحث السابع: في إخراجه تعالى أهل الأرض إليها بعد تمام مرافقها كما قال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحجر: ١٩-٢٠]. والإشارة بأهلها المخرجين إليها إلى الحيوان مطلقاً.

واعلم أن أول ارتفاقهم بها أن جعلها قراراً لهم صالحاً للسكنى عليها كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] ولكونها فراشاً شرائط:

أحدها: أن تكون ساكنة ليصح الاستقرار عليها والتصرف فيها بحسب الاختيار وموافقة المصلحة دون كونها متحركة.

الثاني: أن تكون خارجة من الماء وذلك أن الإنسان وغيره من الحيوان البري لا يمكنه أن يعيش في الماء فاقتضت عناية الحق سبحانه بالحيوان أن أبرز بعضها من الماء ليعيش فيه ويتصرف عليه.

الثالث: أن لا تكون في غاية الصلابة كالحجر وإلاّ

لكان النوم والمشي عليها مؤلماً، وأيضاً لم يكن لينبت فيها أنواع النبات والأشجار، وأيضاً لكانت تسخن في الصيف كثيراً وتبرد كثيراً في الشتاء فما كانت تصلح لسكنى الحيوان، أيضاً كان يتعذر حفرها وتركيب بعضها ببعض.

الرابع: أن لا تكون في غاية الرخاوة كالماء وغيره من المائعات التي يغوص فيه الإنسان.

الخامس: أنه سبحانه لم يخلقها في غاية الشفافية واللطافة فإنها إن كانت مع ذلك جسماً سيّالاً كالهواء لم يتمكن من الاستقرار عليه، وإن كان جسماً ثابتاً صيقلاً براقاً احترق الحيوان وما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها كما يحترق القطن إذا قرب من المرايا المحاذية للشمس والبلّور لكنه خلقها غبراء ليستقر النور على وجهها فيحصل فيها نوع من السخونة، وخلقها كثيفة لئلا تنعكس الأشعة عنها على ما فيها فتحرقه فصارت معتدلة في الحر والبرد تصلح أن تكون فراشاً ومسكناً للحيوان.

المنفعة الثانية: خلق الجبال فيها وتفجيرها بالماء كما سبقت الإشارة إليه.

المنفعة الثالثة: ما يتولد فيها من المعادن والنبات والحيوان وفي أنواع كل من هذه الموجودات واختلاف أصنافه وألوانه وروائحه وطعومه ولينه وصلابته وملاسته وخشونته ما لا يحصى من المنافع التي يحتاج إليها الإنسان في بقائه وصلاح حاله.

المنفعة الرابعة: كونها أصلاً لبدن الإنسان، وذلك أن الماء لرقته ورطوبته لا يحفظ الشكل والتصوير فإذا خلط بالتراب حصل له قوام واستمساك وحصل قبول الأشكال والتخطيط كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

المنفعة الخامسة: قبولها للحياة بعد الموت كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣].

البحث الثامن: في تمجيده تعالى باعتبار إنشائه للسحاب والبرق، والنظر في وجه الحكمة فيه وفي أصله وفي حياة الأرض به: أما وجه الحكمة في إنشائه فكونه مادة لما ينبت في الأرض الجرز مما هو قوام بدن الحيوان وغذاء له كما أشار إليه عليه السلام بقوله: ثمّ لم يدع جرز الأرض التي تقصر مياه العيون والأنهار عنها ولا تجد جداول الأرض ذريعة إلى بلوغها إلى قوله: وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام. ونحوه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

البحث التاسع: في تمجيده باعتبار تخريقه للفجاج في آفاقها: أي الطرق الواسعة في نواحيها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١] ثمّ باعتبار إقامته المنار للسالكين فيها. والإشارة بالمنار إما إلى النجوم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] أو إلى الجبال.

الفصل الثاني: في تمجيده تعالى باعتبار خلقه لآدم واختياره له وإتمام نعمته عليه، ومقابلته بالعصيان ومقابلة عصيانه بقبول توبته وإهباطه إلى الأرض، وإكرام ذريته بعده ببعثه الأنبياء منهم وإليهم، وقسمته بينهم معيشتهم وآجالهم بالقلة والكثرة وابتلائه لهم بذلك، وهو من قوله: فلما مهّد أرضه وأنفذ أمره. إلى قوله: وقاطعاً لمرائر أقرانها.

واعلم أن الكلام في قصة آدم عليه السلام قد سبق في الخطبة الأولى مستوفى فلا نعيده غير أن في هذا الكلام فوائد:

الفائدة الأولى: معنى قوله: مهّد أرضه: أي جعلها مهاداً كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦] أو جعلها مهداً كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] وعلى التقدير الأول أراد أنه لما خلقها بحيث يسهل على العباد أن يتصرفوا فيها بالقعود والقيام والزراعة وسائر جهات المنفعة وأنفذ أمره في خلق آدم خلقه بعد ذلك، وعلى التقدير الثاني يكون لفظ المهد استعارة لها ملاحظة لتشبيهها بمهد الصبي في كونه محل الراحة والنوم.

الفائدة الثانية: قوله: وأنفذه أمره: أي في إيجاد مخلوقاته وتمامها فحكم على العالم بالتمام باختيار نوع الإنسان الذي هو تمام دائرة الوجود فقال له كنْ فيكون.

الفائدة الثالثة: قوله: خيرة من خلقه نصب على الحال ويحتمل النصب على المصدر والشاهد على كونه خيرة الله من خلقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] وبيان هذا التكريم من وجهين:

أحدهما: قال أبو يزيد البسطامي: إن أنواع كرامات الله في حق البشر غير متناهية كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] هذا على سبيل الإجمال أما التفصيل فمن وجوه:

الأول: أنه سبحانه يمطر كل ساعة على المتوكلين مطر الكفاية كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

الثاني: أنه يمطر كل ساعة على المطيعين مطر المودة كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

الثالث: أن يمطر على المجتهدين مطر الهداية كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الرابع: أنه يمطر على الشاكرين مطر الزيادة كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

الخامس: أنه يمطر على المتذكرين مطر البصيرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

الثاني: أن التكريم لآدم عليه السلام وذريته إما بأحوال داخلة في الإنسان أو خارجة عنه والداخلة فيها إما بدنية أو غيرها: أما البدنية التي أكرم بها فأمور:

الأول: الصورة الحسنة كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

الثاني: حسن القامة والتعديل كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وذلك أن الشيء كلما كان أكثر علواً وارتفاعاً كان أشرف في نوعه فإن أحسن الأشجار أعلاها امتداداً.

الثالث: أنه أكرمه بتمكينه من القيام والقعود والاستلقاء والانبطاح والاضطجاع وذلك أنه تعالى: ركب الخلق على أصناف أربعة:

أحدها: ما يشبه القائمين كالأشجار.

وثانيها: ما يشبه الراكعين كالبهائم.

وثالثها: ما يشبه الساجدين كالحشرات التي تدب على وجوهها وبطونها.

ورابعها: ومنها ما يشبه القاعدين كالجبال ثمّ إنه سبحانه خلق الإنسان قادراً على جميع هذه الهيئات، ومكنه من ذكره على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأما الأحوال التي أكرم بها غير بدنية فأمور:

أحدها: الروح التي هي محل العلم بأشرف الموجودات ومبدئها وهو الله تعالى كما يقال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩] وشرّفه بإضافة روحه إليه، وبهذا التشريف تميّز عن سائر الموجودات في هذا العالم.

الثاني: العقل وشرفه من وجوه:

الأول: روي أن الله تعالى أوحى إلى داوُد عليه السلام إذا رأيت عاقلاً فكن له خادماً.

الثاني: قول الرسول صلى الله عليه وآله: أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل ثمّ قال له: أدبر فأدبر فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أُثيب وبك أُعاقب. واعلم أن للعقل بداية ونهاية وكلاهما يسمّيان عقلاً:

أما الأول: فهو القوة المهيئة للعلوم الكلية الضرورية كما للطفل، وهو المشار إليه بقول النبي صلى الله عليه وآله.

والثاني: العقل المستفاد وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: إذا تقرّب الناس إلى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت إليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة.

الثالث: العلم والحكمة التي هي ثمرة العقل كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وسماه حياة ونوراً فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وأما التكرمة الخارجة عنه فأمور:

أحدها: أنه خلق ما سواه منفعة له فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣]. ففرش الأرض وجعل السماء سقفاً محفوظاً وجعل ما أخرج من الأرض رزقاً له وما أرسله من السحاب من ماء مادة لذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]. وأكرمه بخلق الشمس والقمر والنجوم كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، وأكرمه بخلق الأنعام فجعل منها غذاءه وملبوسه وراحته وجماله وزينته فقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: ٥-٦] إلى قوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

الثاني: روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أنه قال: بالدعوة إلى الجنة كما قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

الثالث: أنه أكرمهم بتخيّر قلوبهم لمعرفته وألسنتهم لشهادته وأبدانهم لخدمته فشرفهم بتكليفه وبعثه الأنبياء إليهم من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ثمّ جعل آدم والأنبياء من ذريته أكرم عباده لديه فحباهم بالنبوة والرسالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤]. ثمّ فضل أولي العزم منهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ثمّ فضّل بعضهم على بعض وهو الخليل والكليم والروح والحبيب فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ثمّ فضل محمّداً صلى الله عليه وآله على الكل فقال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النّساء: ١١٣]، وجعله غاية طينتهم وخاتمة كمالهم فقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الفائدة الرابعة: قوله: وجعله أوّل جبلّته إشارة إلى ان آدم أول شخص تكون في الوجود من نوع الإنسان، وقوله: والمخاطرة بمنزلته: أي عند الله وكونه مستحقاً للقرب منه، وقوله: موافاةً لسابق علمه إشارة إلى أن وقوعه في الوجود بقدر عن ضابط القلم والقضاء الإلهي السابق.

الفائدة الخامسة: قوله: فأهبطه بعد التوبة. من قال: إن المراد بآدم هو نوع النفوس البشرية، وقد ثبت أنه حادث أو أنه هو الشخص الأول منها قال: إن التوبة قبل الإهباط هي التوبة بالقوة المعلومة لله من عصاة أولاد آدم التائبين إليه قبل إهباط نفوسهم من درجات عرفانه، والتفات وجوههم إلى عمارة الأرض، والاشتغال بالحرث والنسل، والأنبياء عليهم السلام يرجعون عن المباحات إلى ما هو الأولى والأهمّ من عبادة الله ومطالعة أنوار كبريائه ويعدّون ما رجعوا عنه ذنوباً، ورجوعهم عنه توبة كما قال النبي صلى الله عليه وآله:

إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة. وليس ذلك المستغفر منه إلاّ اشتغال ذهنه بتدبير أمور الأرض وعمارتها واشتغاله بذلك عن الخلوة بالله واستشراق أنوار قدسه.

الفائدة السادسة: قوله: وليقيم الحجة به على عباده الذين بعث آدم حجة عليهم أما أولاده الموجودون في زمانه والمنقول أنه مات عن أربعين ولد، أو من بلغته سنّته منهم من بعد وفاته والمنقول أن الله تعالى أنزل من الأحكام تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف

المعجم في إحدى وعشرين ورقة، وهو أول كتاب كان في الدنيا أجرى الله عليه الألسنة كلها.

الفائدة السابعة: قوله: ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته: أي أن حجة ربوبيته قائمة عليهم في كيفية تخليقه لهم، وخلق ما يستدلّون عليه به من صنعه كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] الآية. وغيره من الآيات. وإنما يكون بعثه الأنبياء مؤكدة لتلك الحجج مذكرة للغافلين عنها بها ومنبهة على وجودها وموصولة بينهم وبين معرفته بما جاءت به من الكتب المنزلة والسنن الشرعية، وقوله: بلغ المقطع عذره ونذره: أي إعذاره إلى الخلق وإنذاره لهم بلغ الغاية. ومقطع كل شيء غايته.

الفائدة الثامنة: تقدير الله أرزاقهم تقسيمه لها وإعطاء كل مخلوق ما كتب له في اللوح المحفوظ منها من قليل وكثير وضيّق وواسع ومتيّسر ومتعسر ومعاقبة الأضداد عليهم من تنغيص سعة الغنى بلواحق الفقر والفاقة كما قال: وبينما الإنسان في ملكه أصبح محتاجاً إلى الفلس. وكذلك إلحاقه السلامة في النعم بطوارق الآفات من غرق أو حرق أو غصب ظالم وغلب غاشم وكذلك وسعة الأرزاق وفرج أفراحها وتكديرها بغصص أحزانها وأتراحها ثمّ خلقه الآجال متفاوتة بالطول والقصر والتقدم والتأخر.

الفائدة التاسعة: تقديره للموت متصلاً بأسبابها، ولما كان الأجل عبارة عن وقت ضرورة الموت وكانت أسباب حلول تلك الآفات هي بعض الأمراض أو القتل مثلاً لا جرم صدق أن الموت الذي هو عبارة عن مفارقة الأرواح لأجسادها متصلاً بتلك الأسباب، واستعار لفظ الخلج وهو الجذب للموت، ورشح بذكر الأشطان، ووجه المشابهة ما يستلزمه الموت من قرب الأجل. كما يستلزمه الجاذب من قرب المجذوب إليه فقدّر الموت جاذباً للأجل بالحبال. كما يجذب بها الإنسان ما يريد. وأما كونه قاطعاً لمرائر أقرانها فاستعار أيضاً لفظ المرائر لأسباب العلاقة بين اقتران الآجال وهم المتقاربون في الزمان الواحد الذي يتصل بهم الأجل وتلك الأسباب كالصداقة والأخوة وسائر أسباب العلاقة بين الناس، وظاهر كون الموت قاطعاً لتلك المرائر.

الفائدة العاشرة: أنه عليه السلام جعل قسمة الله تعالى للأرزاق وتقديرها بالكثرة والقلة والضيق والسعة صورة ابتلاء من الله للشكر من الأغنياء والصبر من الفقراء وقد أشرنا في قوله: ألا إن الدنيا دار لا يسلم منها إلاّ فيها. إلى أن المراد بالابتلاء من الله معاملته تعالى لعباده معاملة المبتلين المختبرين لأنه سبحانه عالم الخفيّات والسرائر فلا يتصور في حقه الاختبار حقيقة؛ إلاّ أنا نزيده هاهنا بياناً فنقول: إن العبد إذا تمكن في خاطر أن ما يفعله الله من إفاضة نعمه عليه أو حرمانه لها ابتلاء لشكره أو صبره فشكر أو صبر حصل من شكره أو صبره على ابتلائه ملكات فاضلة في نفسه يستعد بها لمزيد الكمال، وتمام النعمة كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم: ٧] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وأما التحقيق في أمثال هذه القسمة من ضيق رزق أو سعة أو طول أجل أو قصره أو معاقبته شدة لرخاء وحزناً لفرح فهو أن لكل واحد من هذه الأمور أسباب قد تخفى على من تعرض له ولا بد من انتهائها إلى قضاء الله فما عد منها خيراً فهو دخل في الإرادة الكلية للخير المطلق بالذات وما عدّ منها شراً فداخل في القضاء الإلهي بالعرض كما علم ذلك في مظانه، وبالله التوفيق.

الفصل الثالث: في تمجيده سبحانه باعتبار كونه عالماً بالأشياء وعدّ من جزئياتها جملة هي من قوله: عالم السر من ضمائر المضمرين إلى قوله: أو ناشئة خلق وسلالة. ولنشر إلى ما عساه يشكل من ألفاظه:

الأول: خواطر رجم الظنون. لما كان الخاطر الظني للإنسان يتعلق بمظنون لا محالة بعد أن لم يكن أشبه تعلّقه به الرجم وهو الرمي بالحجر ونحوه فاستعير لفظه له، وإنما خصّ الظن بذلك دون العلم لما أن كثيراً ما يظنّ ما لا يجوز ظناً غير مطابق كما يظن ببعض الناس

ما يقبح منه ويصل إليه بسببه أذى وإن لم يكن صدقاً فكان أشبه الأشياء برميه بالحجر المستلزم لأذاه.

الثاني: عقد عزيمات اليقين ما انعقد في النفس من العزم عن يقين.

الثالث: ومسارق إيماض الجفون: لما أشبه شعاع البصر البرق في وميضه واختفائه عند فتح الجفون وطبقها استعار لفظ الوميض لبروزه ولفظ المسارق لمخارجه.

الرابع: استعار لفظ الأكنان للقلوب بالنسبة إلى ما أخفته من الأسرار، ولفظ الغيابات للغيوب، ووجه المشابهة كون القلوب حافظة كالبيوت، وكون الظلمات مانعة من إدراك المبصرات كما تمنع الغيوب إدراك ما فيها.

الخامس: مصائف الذر ومشاتي الهوام: بيوتها وإشرابها الصيفية والشتوية من بطن الأرض الواقية لها حرّ الصيف وبرد الشتاء. ورجع الحنين من المولهة: ترديد صوت الثكلى في بكائها وحنينها إلى من فقدته.

السادس: ولائج غلف الأكمام. إنما حسنت الإضافة هنا لأن كل كمّ غلاف ولا ينعكس فجاز تخصيص العام بالإضافة إلى بعض جزئياته.

السابع: محطّ الأمشاج: محل نزول النطف من الأصلاب، ومساربها، وهي الأوعية التي يتسرب فيها المني والأخلاط التي تتولد عنها.

الثامن: وما تسفي الأعاصير بذيولها: أي ما تثيره وتذروه من التراب، واستعار لفظ الذيول لما أُخذ الأرض منها.

التاسع: استعار لفظ العوم لدخول عروق النبات في نواحي الأرض لملاحظة شبهها بالماء، وروي: بنات الأرض بتقديم الباء: وهي الهوام التي تنشأ في الرمل وتغوص فيه وتسير كالحلكة، وهي دويبة كالعظاءة دون الشبر صفراء ملساء تستعملها العرب للسمنة وكنوع من الحيات وغيرها.

العاشر: وتغريد ذوات المنطق استعار لفظ المنطق للطير، ووجه المشابهة أن مدلول تغريدها معلوم لله فأشبه النطق المفيد من الإنسان.

الحادي عشر: ما أوعبته الأصداف كاللؤلؤ والمرجان وما حضنت عليه أمواج البحار من لؤلؤ وحيوان وغيرهما، ولفظ الحضن مستعار للأمواج ملاحظة لشبهها بالحواضن في انطباقها على البيض والفراخ.

الثاني عشر: سبحات النور ما تنزّه منه عن كدر الظلمة، ولفظ النور مستعار لمعارف جلال الله، والضمير في قوله: عليها: يرجع إلى الأرض، وقرارة النطفة: مستقرها من الأرحام، ولفظ النقاعة: استعارة لمحل دم الحيض، والمضغة: الولد في بعض أطوار خلقته كما عرّفناه قبل، وناشئة الخلق: ما نشأ من مخلوقاته.

الثالث عشر: لم يلحقه في ذلك كلفة. إلى قوله: ولا فترة. الكلفة: كون الفعل مستلزماً لفاعله نوع مشقة وتلك المشقة إمّا لضعف قوة الفاعل أو ضعف آلته أو قصور علمه عن تصوّر ما يفعل، والبارئ تعالى منزّه عن هذه الأمور لاستلزامها الحاجة، وكذلك العارضة من عوارض موانع العلوم ونفوذها يتسلزم وجود المقام المثل وقد تنزّه قدس الحق عنهما، وأما الملالة فالمفهوم انصراف النفس عن الفعل بسبب تحلّل الأرواح الدماغية وضعفها عن العمل أو لعارض آخر لها، وقد علمت أنها من لواحق الأجسام وكذلك الفترة. والبارئ منزه عنهما.

الرابع عشر: قوله: بل نفذ فيهم علمه. إلى قوله: وغمرهم فضله. أثبت كل واحد من هذه القرائن الأربع مقابلة للأربع التي نفاها: فنفاذ علمه فيهم مقابل ما نفاه من لحوق الكلفة في علمه بهم، وإحصاؤهم بعده مقابل للأعراض العارضة في حفظ خلقه، ووسع عدله لهم مقابل لنفي اعتوار الملالة في تنفيذ أموره وتدبير مخلوقاته إذ كان معنى عدله فيهم وضعه لكل موجود في مرتبته وهبته له ما يستحقه من زيادة ونقصان مضبوطاً بنظام الحكمة واعتراض الملالة سبب لاختلاف نظام الفعل، وقوله: وغمرهم فضله مقابل لنفي الفترة فإن فتور الفاعل عن الفعل مانع له عن تتمة فعله وتمام وجوده، وقوله: مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله تنبيه

على حقارة عبادتهم في جنب عظمته واستحقاقه لما هو أهله ليدوم شكرهم وثناؤهم ولا يستكبروا شيئاً من طاعتهم، وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في تمجيده خطاباً له ودعاء وطلباً لجزاء ما سبق من ثنائه وتعديد أوصافه الجميلة وهو رضاه عنه وإغناؤه من غيره. وفيه إشارات:

الأولى: قوله: أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير. إشارة إلى أنه تعالى بحسب استحقاقه الوصف بأشرف طرفي النقيض كان أهل الوصف الجميل وباعتبار تعدد ثنائه وحمده بالنظر إلى كل جزئي من جزئيات نعمه هو أهل التعداد الكثير.

الثانية: وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ولا أثني به على أحد سواك إشارة إلى إذنه له في شكره والثناء عليه بالأوصاف الجميلة التي لا يستحقّها حقيقة إلاّ هو ولا ينبغي أن تطلق إلاّ له. ومعنى هذه الإذن إما إلهام حسن شكر المنعم ومدحه وإذ لا منعم في الحقيقة إلاّ هو فلا يستحق التمجيد المطلق إلاّ هو. ومخاطبته له بإيجاب الشكر كقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢] والتسبيح في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢] واستعار لفظ المعادن للخلق، ووجه المشابهة أن معدن الشيء كما أنه مظنة المطلوب منها كذلك الخلق أرباب النعم الفانية مظانّ خيبة طالبها من أيديهم وحرمانها، وكذلك مواضع الريبة أي الشكّ في منعهم وعطائهم لها ولذلك فسره بقوله: وعدلت بلساني من مدائح الآدميّين والثناء على المربوبين المخلوقين.

الثالثة: قوله: دليلاً نصب على الحال أو المفعول، والمراد برجائه دليلاً على ذخائر الرحمة رجاؤه أن يسوقه بهدايته إلى وجوه الاستعدادات إلى رحمته ويستر عليه بتهيؤه للالتفات إليه عن كل خاطر سواه فإن كل خاطر سوى الحق سبحانه ذنب في حق مثله عليه السلام، ولفظ الذخيرة والكنوز مستعاران لجوده.

الرابعة: قوله: هذا مقام من أفردك بالتوحيد. إشارة إلى مقامه بين يديه بهذا الذكر والتوحيد في خطبته، وهو توطئة لذكر مطلوبه واستنزال رحمة الله ثمّ قال: ولي فاقة إليك، فذكر وجه استحقاقه لجوده أولاً وقصر سدّ تلك الفاقة على فضله إذ لم تكن فاقة في أمر دنيوي يمكن المخلوقين الإتيان به، ثمّ أردفه بذكر مطلوبه وهو رضا الله وإغناؤه عمّن سواه وظاهر أن حصولها مستلزم لما رجاه الله دليلاً عليه من ذخائر رحمته، وكنوز مغفرته. وبالله التوفيق.

٩٢ - ومن خطبة له عليه السلام

لمّا أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً!.

أقول: حاصل هذا الفصل أنه لا بد لكل مطلوب على أمر من تعزّز فيه وتمنّع. والحكمة في ذلك أن الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب فإن الطبع حريص على ما منع سريع النفرة عما سورع إلى إجابته فيه فأراد عليه السلام التمنّع عليهم لتقوى رغبتهم إليه فإنه لم يصل إليه هذا الأمر إلاّ بعد اضطراب في الدين في قتل عثمان والجرأة على الدم فاحتاج في تقويم الخلق وردّهم إلى قواعد الحق إلى أن يزدادوا فيه رغبة بهذا الكلام ومثله فقال: دعوني والتمسوا غيري. ألا ترى أنه نبههم بعد هذا التمنع على أن هاهنا أموراً صعبة مختلفة يريد أن ينكرها عليهم ويقاوم ببعضهم فيها بعضاً ويحملهم على الصلاح، وجعل استقباله لتلك الأمور الصعبة علّة لاستقالته من هذا الأمر فقال: فإنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان لا تقوم له القلوب: أي لا تصبر ولا تثبت عليه العقول. بل تنكره وتأباه لمخالفته الشريفة ومضادته

لنظام العالم، وذلك الأمر هو ما كان يعلمه من اختلاف الناس عليه بضروب من التأويلات الفاسدة والشبهات الباطلة كتهمة معاوية وأهل البصرة له بدم عثمان وكتأويل الخوراج عليه في الرضا بالتحكيم ونحو ذلك، وهو المكنى عنه بالوجوه والألوان كناية بالمستعار.

وقوله: وإنّ الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت.

استعار لفظ الغيم لما غشى آفاق البلاد وأقطار القلوب المتغيّرة العازمة على الفساد من ظلمات الظلم والجهل، ووجه المشابهة ما تستلزمه هذه الظلمات من توقع نزول الشرور منها كما يتوقع نزول المطر والصواعق من الغيم، وأشار بالمحجة إلى واضح طريق الشريعة، وتنكرها جهل الناس بها وعدم سلوكهم لها.

وقوله: واعلموا إلى قوله: عتب العاتب.

لما تمنع عليهم وعلم صدق رغبتهم فيه شرع في تقرير ما يريد أن يفعله تقريراً إجمالياً عليهم مع تمنع دُوين الأول فأعلمهم أنه على تقدير إجابتهم إلى هذا الأمر لا يركب بهم إلاّ ما يعلم من أمر الشريعة ولا يصغي إلى قول قائل خالف أمر الله لمقتضى هواه، ولا عتب عاتب عليه في أنه يفضله أو لم يرضه بما يخالف ما يعلم من الشريعة إذ القائل والعاتب في ذلك مفتر على الله وعاتب عليه، ولقد وفى عليه السلام بما وعدهم به من ذلك كما سنذكره في قصة أخيه عقيل، لما استماحه صاعاً من برّ أو شعير فحمى له حديدة وقرّبها منه فأنّ عقيل فقال له: ثكلتك الثواكل أتَئِنُّ من حديدة أحماها إنسان للعبه لا تَئِنُّ من نار أجّجها جبّارٌ لغضبه. ولفظ الركوب مستعار لاستوائه على ما يعلم.

وقوله: وإن تركتموني إلى آخره.

أي كنت كأحدكم في الطاعة لأميركم بل لعلي أكون أطوعكم له: أي لقوة علمه بوجوب طاعته الإمام، وإنما قال لعلي لأنه على تقدير أن يولّوا أحداً يخالف أمر الله لا يكون أطوعهم له بل أعصاهم، واحتمال توليتهم لمن هو كذلك قائم فاحتمال طاعته وعدم طاعته له قائم فحسن إيراد لعل، والواو في قوله: وأنا للحال، ووزيراً وأميراً حالان، والعامل ما تعلّق بهما الجار والمجرور، وأراد الوزير اللغوي وهو المعين والظهير الحامل لوزر من يظاهره وثقله، وظاهر أنه عليه السلام كان وزيراً للمسلمين وعضداً لهم، والخيريّة ههنا تعود إلى سهولة الحال عليهم في أمر الدنيا فإنه إذا كان أميراً لهم حملهم على ما تكره طباعهم من المصابرة في الحروب والتسوية في العطايا ومنعهم ما يطلبون مما فيه للشريعة أدنى منع، ولا كذلك إذا كان وزيراً لهم فإن حظ الوزير ليس إلاّ الشور والرأي الصالح، والمعاضدة في الحروب. وقد يخالف في رأيه حيث لا يتمكن من إلزام العمل به. وإنما كان هذا لتمنّع دوين الأول لأن قوله: إن أجبتكم فيه إطماع لهم بالإجابة. وبالله التوفيق.

٩٣ - ومن خطبة له عليه السلام

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ، والثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا. فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً، وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الأُمُورِ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ، لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْؤُولِينَ، وَذٰلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلاَءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ.

إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْلَ الرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً. أَلاَ وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ الْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا.

وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ: تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لاَ يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لاَ يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ. وَلاَ يَزَالُ بَلاَؤُهُمْ حَتَّى لاَ يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ.

تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى، وَلاَ عَلَمٌ يُرَى.

نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الأَدِيمِ: بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لاَ يُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ، وَلاَ يُحْلِسُهُمْ إِلاَّ الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ - بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا - لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونِي!

أقول: فقأت عينه: عيّرتها. وماج: اضطرب. والغيهب: الظلمة. والكلب: الشر. والكلب: داء معروف. والفئة: الطائفة. وناعقها: الداعي لها. والمناخ بالضم: محل البروك. وحوازب الخطوب: ما حزب منها: أي أصاب. والتقلص: التقبض. وشبّهت: اشتبهت وأوقعت الشبهة. وحام الطائر: دار. والخطة: الحال والأمر. والناب: الناقة المسنّة. والضروس: التي تعضّ حالبها. والعذم: العض وهو الكدم أيضاً. والزبن: الدفع. وشوها: جمع شوهاء وهي قبيحة المنظر. وسامه خسفاً: أولاه ذلاً. والعنف: شدة السوق. وتحلسهم: أي تلبسهم الحلس وهو الكساء تحت بردعة البعير. والجزر: القطع ومنه الجزور لما ينحر من الإبل.

ومقصود بهذا الفصل التنبيه على فضيلته وشرف وقته به، وعلى رذيلة بني أمية بذكر فتنتهم وما يكون منهم ليشتد النفار عنهم وتقوى الرغبة إليه من وجهين:

أحدهما: بإخباره عما سيكون.

والثاني: بذكر الشرور من غيره. فقوله: فأنا فقأت عين الفتنة. إشارة إلى فتنة أهل البصرة وغيرها، واستعار لها لفظ العين، وإنما خصّ العين لأنها أشرف عضو في الوجه، وبها تصرف الشخص وحركته، ورشح الاستعارة بذكر الفقاء وكنى به عن زوال فتنتهم بسيفه، وقوله: ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري: أي إن الناس كانوا لا يتجاسرون على قتال أهل القبلة ويخافون من ذلك الحرج والإثم، ولا يعلمون كيفية قتالهم هل يتّبعون مدبرهم وهل يجهزون على جريحهم وهل تسبى ذراريهم وتقسم أموالهم إذا بغوا أم لا. حتّى أقدم عليه السلام على فتنتهم ففقأ عينها فسكنت بعد هياجها، ومبدأ ذلك حرب عائشة، وقد صرّح عليه السلام بذلك في ألفاظ أخرى فقال:

أما بعد فأنا فقأت عين الفتنة شرقيّها وغربيّها ومنافقها ومارقها لم يكن ليجتري عليها غيري ولو لم أكن لما قوتل أصحاب الجمل ولا صفين ولا أصحاب النهر، ويحتمل أن يكون المراد فقأت عين أهل الفتنة فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ويكون فقاؤه لعيونهم كناية عن قتلهم.

وروي أن من المتوقفين عن الحرب الأحنف بن قيس وجماعة معه، وكنى بتموّج غيهبها عن انتشار ظلمات الشبهة عن تلك الفتن في أذهان الناس فجهلوا أن خلاف طلحة وخروج عائشة كان حقاً أو باطلاً فكان ذلك سبباً لاضطرابهم وقتالهم وقتلهم، وكذلك كنى باشتداد كلبها عن شدة ما وقع منها من الشرور، وكلب أهلها وحرصهم على القتل والقتال كناية بالمستعار في الموضعين.

وقوله: فاسألوني. إلى قوله: ومن يموت منهم موتاً.

تعرض للأسئلة عما سيكون ولم يكن ليجترئ على ذلك أحد غيره من بين سائر الصحابة والتابعين، ولو ادّعى غير ذلك لكذبه العيان وفضحه الامتحان. وروي أن قتادة دخل الكوفة فالتفت عليه الناس فقال: سلوني عما شئتم. وكان أبو حنيفة حاضراً وهو إذن غلام حدث السن فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى. فسألوه فانقطع فقال أبو حنيفة: كانت أنثى. فقيل له: بم

عرفت فقال: من كتاب الله، وهو قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل: ١٨] ولو كان ذكراً لقال: قال نملة وذلك أن النملة تقع على الذكر والأنثى كالحمامة والشاة، وإنما يميّز بينهما بعلامة التأنيث، فانظر إلى هذا المعجب بنفسه كيف انقطع عن سؤال يمكن الفطن أن يجيب عنه بأدنى سعي فكيف به إذا سئل عن الأمور المستقبلة التي لا يتنزّلها من عالم الغيب إلاّ من أيّد بقوة إلهيّة تكشف لنور بصيرته معها حجب الأسرار، وقد بيّنا فيما سبق وجه تمكنه من الإخبار عما سيكون وكيفية ذلك، وأراد بالساعة القيامة، واستعار أوصاف الإبل ورعاتها وأصحابها من الناعق والقائد والسائق والمناخ والركاب والرحال للفئة المهدية والضالة ومن يهديهم ويضلّهم ملاحظة لشبههم بالإبل في الاجتماع والانقياد لقائد وداعي، والضمير في أهلها يعود إلى الفئة.

وقوله: ولو قد فقدتموني. إلى قوله: المسؤولين.

كرائه الأمور ما يكرهون منها وحوازب الخطوب ما يصيبهم من الأمور العظيمة المهمة وإطراق السائلين لحيرتهم في عواقب تلك الخطوب وما يكون منها وكيفية الخلاص وفشل كثير من المسؤولين: أي جبنوا عن ردّ الجواب لجهلهم بعواقبها وما يسألون عنه منها.

وقوله: ذلك: إشارة في إطراق السائلين وفشل المسؤولين.

وقوله: إذا قلصت حربكم: تفسير لكرائه الأمور النازلة بهم، واستعار لفظ التقليص والتشمير عن ساق الحرب ووجه الاستعارة تشبيهها بالمجد في الأمر الساعي فيه، وكما أنه إذا أراد أن يتوجه قلّص ثيابه وشمّرها عن ساقه لئلا تعوقه وتهيّأ وأجمع عليه كذلك الحرب في كونها مجتمعة عن النزول بهم واللحوق لهم، والواو في قوله: وضاقت للعطف على شمّرت، وموضع تستطيلون النصب على الحال.

وقوله: حتّى يفتح الله لبقية الأبرار منكم.

أي الذين يسلمون بني أُمية في دينهم وأعمارهم ويفتح الله لهم بهلاكهم وزوال دولتهم.

وقوله: إنّ الفتن إذا أقبلت تشبّهت [شبّهت خ].

أي تكون في مبدئها متشبهة بالحق في أذهان الخلق وإذا أدبرت نبّهت لأذهان الخلق على كونها فتنة بعد وقوع الهرج والمرج بين الناس واضطراب أمورهم بسببها وأكثر ما يكون ذلك عند إدبارها كالفساد في الدول مثلاً الذي يعرف به عامة الخلق كونها فتنة وضلالاً عن سبيل الله أكثر ما يكون في آخرها فيكون مؤذناً بزوالها وعلامة مبشّرة.

وقوله: ينكرن مقبلات ويعرفنَ مدبرات.

تفسير له: أي لا يعرف في مبدأ الحال كونها فتنة وتشتبه بكونها حقاً ودعاء هدى فإذا استعقبت عرفت أنها عن الحق بمعزل وأن دعاتها كانوا دعاة ضلالة.

وقوله: ويحمنَ حوم [حول خ] الرياح.

استعار لها اللفظ ملاحظة لشبهها في دورانها الموحوم ووقوعها عن قضاء الله من دعاة الضلال في بلد دون بلد بالطائر والريح، ولذلك شبهها بحومها وكذلك لفظ الخطأ.

وقوله: ألا إن أخوف الفتن عندي إلى قوله: بليّتها.

شروع في تعيين ما يريد أن يخبر به وهو بعض ما تعرّض للسؤال عنه، وإنما كانت هذه الفتن أخوف الفتن لشدتها على الإسلام وأهله وكثرة بلوى أهل الدين فيها بالقتل وأنواع الأذى ويكفي في عظم تلك الفتنة هتكهم حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وقتل الحسين عليه السلام وذريّته عليهم السلام، وهتك حرمة الإسلام بهدم الكعبة وحرقها، وقتل ابن الزبير وسبّ علي عليه السلام ثمانين سنة، وما انتشر من البلاء وعمّ بتوليتهم للحجّاج دماء المسلمين إلى غير ذلك من منكراتهم المسطورة في التواريخ وأشار بكونها فتنة عمياء إلى ذلك، واستعار لفظ العمى لها لجريانها على غير قانون حق كالأعمى المتصرف في حركاته في غير جادة، أو لكونه لا يسلك فيها سبيل الحق كما لا يهتدى بالعين العمياء وكذلك لفظ المظلمة وقوله: عمّت خطتها لكونها ولاية عامة، وخصّت بليّتها: أي بأهل التقوى وشيعة علي عليه السلام، ومن بقي من الصحابة والتابعين الذين هم أعيان الإسلام.

وقوله: أصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ من عمي عنها: أي من اهتدى لكونها فتنة كان فيها في بلاء من

نفسه ومنهم، أما من نفسه فالحزن الطويل من مشاهدة المنكر، وأما منهم فلأن المتقي العالم بكونهم أئمة ضلال منحرف عنهم وغير داخل في تصرفهم الباطل، وكان من شأنهم تتبّع من هذا حاله بالأذى والقتل فكان البلاء به أخصّ، وأما من لم يهتد لكونها فتنة. بل كان في عمى الجهل عنها فهو منقاد لدعوتهم الباطلة منساق تحت رايات ضلالهم جار على وفق أوامرهم فكان سالماً من بلائهم ثم أردف ذلك بالقسم البار ليجدنّهم الناس أرباب سؤلهم وشبّههم في أفعالهم المضرة لهم بالناب الضروس لحالبها.

وأشار إلى وجه الشبه بأوصاف: فكدمها وعضها وخبطها بيدها وزبها برجلها ومنعها درّها إشارة إلى جميع حركاتها المؤذية الرديئة وهي تشبه حركاتهم في الخلق بالأذى والقتل ومنع الوفد والاستحقاق من بيت المال ثمّ أردف ذلك بذكر غايتين لحركاتهم الشرية وبلائهم للناس:

إحداهما: أنهم لا يتركون من الأذى والقتل إلاّ أحد رجلين. إما نافع لهم سالك مسلكهم أو من لا يضرهم بإنكار منكر عليهم. ولا يخافون على دولتهم من سائر العوام والسوقة.

الثانية: أنه لا يكون انتصارهم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من سيده والصاحب ممن استصحبه: أي كما لا يمكن العبد أن ينتصر من سيده والتابع المستصحب الذي من شأنه الضعف وعدم الاستقلال بنفسه، ممن يستصحبه كذلك لا يمكن بقيّة هؤلاء أن ينتصروا من بني أمية أصلاً، ويحتمل أن يريد هناك ما يشبه الانتصار من الغيبة ونحوها كما قال عليه السلام في موضع آخر: ويكون نصرة أحدكم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه.

ثمّ أردف ذلك بذكر فتنتهم وأنها مشتملة على فتن فوق واحدة تأتي شآبيب وقطعاً كقطع الليل المظلم، ومن روى فتنهم بلفظ الجمع فأراد جزئيات شرورهم في دولتهم، واستعار لفظ الشوهاء لقبحها عقلاً وشرعاً، ووجه المشابهة كونها منفوراً عنها كما أن قبيح المنظر كذلك، وكذلك استعار لفظ القطع لورودها عليهم دفعات كقطع الخيل المقبلة في الغارة والحرب.

وأشار بكونها جاهلية إلى كونها على غير قانون عدلي كما أن حركات أهل الجاهلية كانت كذلك، ولذلك قال: ليس فيها منار هدى ولا علم يرى: أي ليس فيها إمام عدل، ولا قانون حق يقتدى به.

وقوله: نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة.

أي إنّا ناجون من آثامها والدخول فيها والدعوة إلى مثلها، وليس المراد أنّا سالمون من أذاهم غير داعين فيها إلى الحق بشهادة دعوة الحسين عليه السلام إلى نفسه وقتله وأولاده وهتك ذريّته، ويحتمل أن يريد أنّا بمنجاة من آثامها ولسنا فيها بدعاة مطلقاً والحسين عليه السلام لم يكن داعياً منبعثاً من نفسه للدعوة، وإنما كان مدعواً إلى القيام من أهل الكوفة ومجيباً لهم.

وقوله: ثمّ يفرّجها [يفرج خ] الله كتفريج الأديم: إلى قوله: إلاّ الخوف.

إشارة إلى زوال دولتهم بظهور بني العباس عليهم وقلعهم واستئصالهم وتتبعهم لآثارهم وحصول الفرج منهم لبقيّة الأبرار من عباد الله المقصودين بأذاهم كما يفرج الجلد: أي يشق عما فيه، ولقد أولاهم بنو العباس من الذل والهوان، وأذاقوهم كأس العذاب طعوماً مختلفة، وأروهم عيان الموت ألواناً شتى كما هو مذكور في كتب التاريخ، ولفظ الكأس والتصبير والعطية مستعار، وكذلك لفظ التحليس. ووجه المشابهة جعلهم الخوف شعاراً لهم كما أن حلس البعير كذلك.

وقوله: حتّى تودّ قريش، إلى آخره.

إشارة إلى غاية هذه الفرقة المتقلّبة من قريش على هذا الأمر أي أن حالهم في التراذل والضعف عن محاربتهم ينتهي إلى أن يحبّوا رؤيته مقاماً واحداً مع أنه أبغض الخلق إليهم ليقبل منهم حينئذ ما يطلب اليوم بغضه من نصرتهم له واتباعهم لأمره وانقيادهم لهداه ويمنعونه إيّاه، وكنى عن قصر ذلك المقام المتمنّى له بمقدار زمان جزر الجزور، وصدقه عليه السلام في هذا الخبر ظاهر فإنّ أرباب السير نقلوا أن مروان بن محمّد آخر

ملوك بني أمية قال يوم الزاب حين شاهد عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العباس: مارّاً به في صفّ خراسان: لوددت أن علي بن أبي طالب تحت هذه الرايات بدلاً من هذا الفتى. والقصة مشهورة. وبالله التوفيق.

٩٤ - ومن خطبة له عليه السلام

فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي لا يَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ حَدْسُ الْفِطَنِ، الأَوَّلُ الَّذِي لاَ غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِيَ، وَلاَ آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِيَ.

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاَبِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ.

حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَخَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ؛ وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لاَ يُنَالُ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ؛ سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلاَمُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ.

اعْمَلُوا، رَحِمَكُمُ الله، عَلَى أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ؛ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ وَالأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ.

أقول: تبارك: قيل: مشتق من البروك المستلزم للمقام في موضع واحد والثبات فيه، وقيل: من البركة وهو الزيادة، وبالاعتبار الأول يكون إشارة إلى عظمته باعتبار دوام بقائه واستحقاقه قدم الوجود لذاته وبقاء وجوده لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع، وبالاعتبار الثاني إشارة إلى فضله وإحسانه ولطفه وهدايته ووجوه الثناء عليه.

وقوله: الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن.

كقوله في صدر الخطبة الأولى الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن إلاّ أنه أبدل الغوص هنا بالحدس: والحدس في اللغة الظن، وفي اصطلاح العلماء لما كان الفكر عبارة عن حركة الذهن منتقلاً من المطالب إلى المبادئ ثمّ منها إلى المطالب كان الحدس عبارة عن جودة هذه الحركة إلى اقتناص الحد الأوسط من غير طلب وتجشّم كلفة، وهو مقول بحسب التشكيك، وهو بجميع اعتباراته وبأعلى رتبته قاصر عن تناول ذات الحق تعالى كما سبق.

وقوله: الأول إلى آخره.

وقد مر تفسير أوليته وآخريته غير مرة. وبالله التوفيق.

أقول: النسخ: النقل. وأفضت: انتهت. والأرومة: الأصل. والصدع: الشق. وعترة الرجل: نسله ورهطه الأدنون. وأسرته: قومه. وبسقت: طالت، والزند: العود الأعلى يقدح به. ونهج: واضح.

وقوله: واستودعهم. إلى قوله: خلف.

إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام القائمين بدين الله. واعلم أن دين الله واحد بعثت جميع الأنبياء لتسليك الخلق إياه وله أصل وفروع فأصله الطرق إلى معرفته، والاستكمال بها، وجماع مكارم الأخلاق، ونظام أمر الخلق في معاشهم ومعادهم وهذه الأمور هي المراد من الشرع وهو أصل لا يخالف فيه نبي نبياً. فأما الاختلافات الواقعة في الشرائع فهي أمور جزئية بحسب مصالح جزئية تتعلق بوقت الرسول المعيّن وحال الخلق المرسل إليهم بوقع عليها ذلك الأصل، وتكون كالمشخصات له

والعوارض التي تختلف بها الطبيعة الواحدة النوعية. وأفضل مستودع استودعهم فيه حظائر قدسه ومنازل ملائكته وهو خير مستقر أقرّهم فيه ومحل كرامته في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وتناسخ الأصلاب لهم إلى مطهرات الأرحام نقلهم إليها نطفاً، وكرائم الأصلاب: ما كرم منها وحق لأصلاب سمحت بمثلهم أن توصف بالكرم. ومطهرات الأرحام: ما طهر منها وحق لما استعد منها لإنتاج مثل هذه الأمزجة وقبولها أن تكون طاهرة من كدر الفساد. والشيعة يطهّرون أصول الأنبياء من طرف الآباء والأمهات عن الشرك ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله: نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية. ويحتمل أن يريد بأفضل مستودع وخير مستقر في مبدئهم أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ويكون قوله: تناسختهم تفسيراً له وبياناً.

وقوله: كلما مضى منهم سلف قام بدين الله منهم خلف.

إشارة إلى ضرورة وجود الأنبياء عند الحاجة إليهم على التعاقب، وقد سبقت الإشارة إليه.

وقوله: حتّى أفضت كرامة الله إلى محمّد صلى الله عليه وآله. إلى قوله: أمنائه.

إشارة إلى غاية سلسلة الأنبياء عليهم السلام وكنى بكرامة الله عن النبوة واستعار لفظ المعدن والمنبت والمغرس لطينة النبوة وهي مادته القريبة التي استعدت لقبول مثله، ووجه الاستعارة أن تلك المادة منشأ لمثله كما أن الأرض معدن الجواهر ومغرس الشجر الطيّب، وظاهر أن أصلاً سمح بمثله أفضل المعادن وأعزّ الأصول، وقيل: أراد بذلك مكة - شرّفها الله تعالى - وقيل: بيته وقبيلته ثمّ ميّزه بما هو أخصّ وأشرف فقال: من الشجرة التي صدع منها أنبياءه فاستعار لفظ الشجرة لصنف الأنبياء، وكما أن الشجرة أشرف من طينتها كذلك صنف الأنبياء أشرف من قوابل صورهم، ووجه الاستعارة هو ما كنى بالانصداع عنه من تفرّع أشخاص الأنبياء عن صنفهم كما يتفرّع أغصان الشجرة منها وأمنائه: أي على رسالته.

وقوله: عترته خير العتر وأُسرته خير الأسر.

بدأ بالعترة لما عرفت أنها أخص، وأقرب من الأسرة، ومصداق أفضلية عترته قوله صلى الله عليه وآله: سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر. ووجه أفضليّة أسرته قوله صلى الله عليه وآله: إن الله اصطفى من العرب معداً، واصطفى من معد بني النضير بن كنانة، واصطفى هاشماً من بني النضير، واصطفاني من بني هاشم. وقوله صلى الله عليه وآله: قال لي جبرائيل: يا محمّد قد طفت الأرض شرقاً وغرباً فلم أجد فيها أكرم منك ولا بيتاً أكرم من بني هاشم. وقوله صلى الله عليه وآله: الناس تبع لقريش برّهم لبرّهم وفاجرهم لفاجرهم.

وقوله: وشجرته خير الشجر.

قيل: أراد بالشجر في الموضعين ابراهيم عليه السلام، وقيل: أراد هاشماً وولده بقرينة قوله: نبتت في حرم وأراد مكة، ورشح تلك الاستعارة بوصف الإنبات والبسق، وكنى بالكرم الذي فيه عن زكاء أصله وما استلزم من الفضل، وكنى بالفروع من أهله صلى الله عليه وآله وذريته وسائر النجباء من بني هاشم، وبوصفهم بالطول عن بلوغهم في الشرف والفضل الغاية البعيدة، وهو ترشيح للاستعارة وكذلك الثمر، وكنى به عن العلوم والأخلاق المتفرعة عنه وعن أئمة أُمته، وبكونها لا تنال عن شرفها وغموض أسرارها: أي أنها لشرفها وعلوها لا يمكن أن يطاول فيها، أو لغموض أسرارها لا تصل الأذهان إليها.

وقوله: فهو إمام من اتقى. إلى قوله: لمعة.

استعار لفظ البصيرة والسراج والشهاب، والزند له صلى الله عليه وآله، ووجه الاستعارة كونه سبب هداية الخلق كما أن هذه الأمور الثلاثة كذلك ورشح استعارة السراج بلمعان الضوء والشهاب بسطوع النور والزند ببروق اللمع، ويحتمل أن يكون وجه استعارة الزند هو كونه مثيراً لأنوار العلم والهداية.

وقوله: سيرته القصد.

أي طريقته العدل والاستواء على الصراط المستقيم وعدم الانحراف إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط، وسنّته الرشد: أي سلوك طريق الله عن هدايته، وكلامه

الفصل: أي الفاصل بين الحق والباطل كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ [الطارق: ١٣] وحكمه العدل الواسط بين رذيلتي الظلم والانظلام.

وقوله: أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة من العمل.

أي زلّة عنه وغباوة من الأمم: أي جهل منهم وعدم فطنة لما ينبغي، وقد سبق بيان الفترة.

وقوله: اعملوا رحمكم الله على أعلام بيّنة.

استعار لفظ الأعلام لأئمة الدين وما بأيديهم من مصابيح الهدى، وكنى بكونها بيّنة عن وجودها وظهورها بين الخلق.

وقوله: والطريق نهج يدعو إلى دار السلام.

فالطريق: الشريعة. ونهجه: وضوحها في زمانه عليه السلام وقرب العهد بالرسول صلى الله عليه وآله وظاهر كون الشريعة داعية إلى الجنة. وإسناد الدعوة إلى الطريق مجاز إذ الداعي قيّم الطريق وواضعها.

وقوله: وأنتم في دار مستعتب.

أي دار الدنيا التي يمكن أن يستعتبوا فيعتبوا: أي يطلبوا رضا الله بطاعته فرضي عنكم، وعلى مهل: أي إمهال وإنظار وفراغ من عوائق الموت وما بعده.

وقوله: والصحف منشورة. إلى آخره.

الواوات السبع للحال، والمراد صحائف الأعمال وأقلام الحفظة على الخلق أعمالهم. وفائدة التذكير بهذه الأمور التنبيه على وجوب العمل معها وتذكر أضدادها مما لا يمكن معه العمل ولا ينفع الندم من الموت وطي الصحف وجفاف الأقلام وفساد الأبدان وخرس الألسنة وعدم سماع التوبة كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧] وبالله التوفيق.

٩٥ - ومن خطبة له عليه السلام

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَخَابِطُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

أقول: الفصل لتقرير فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله، والواو في والناس للحال: أي في حال ما هم ضالّون عن سبيل الله في حيرة من أمرهم ماذا يتبعون. وخابطون في فتنة: أي كانت حركاتهم على غير نظام في ضلال البدع، ومن روى حاطبون فهو استعارة، وجهها كونهم يجمعون في ضلالهم وفتنتهم ما اتفق من أقوال وأفعال كما يجمع الحاطب، ومنه المثل: حاطب ليل. لمن جمع الغثّ والسمين، والحق والباطل في أقواله.

وقوله: قد استهوتهم الأهواء.

أي جذبتهم الآراء الباطلة إلى مهاوي الهلاك أو إلى نفسها، واستزلّتهم الكبرياء: أي قادتهم إلى الزلل والخطل عن طريق العدل واقتفاء آثار الأنبياء في التواضع ونحوه، واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء فطارت بهم إلى ما لا ينبغي من الغارات والفساد في الأرض فكانوا ذوي خفة وطيش، ولفظ الجهلاء تأكيد للأول كما يقال: ليل أليل ووتد واتد.

وقوله: حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل.

أي لا يهتدون لجهلهم إلى مصالحهم فهو منشأ اضطراب أمورهم وبلائهم بالغارات وسبي بعضهم بعضاً وقتلهم.

وقوله: فبالغ إلى آخره.

مضيّه على الطريقة سلوكه لسبيل الله من غير انحراف، ودعوته إلى الحكمة والموعظة هي دعوته إلى سبيل الله بهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فالدعوة بالحكمة الدعوة بالبرهان، وبالموعظة الدعوة بالخطابة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمات. والله ولي التوفيق.

٩٦ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ.

أقول: أثنى على الله سبحانه باعتبارات أربعة:

الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية، وأكد كل واحد منها بكماله فكمال الأولية بسلب قبليّة شيء عنه، وكمال الآخرية بسلب بعديّة كل شيء له، والظاهرية بسلب فوقيّة شيء له، والباطنية بسلب شيء دونه. والمراد بالظاهر هنا العالي فلذلك حسن تأكيده بسلب فوقية الغير له، وبالباطن الذي بطن خفيّات الأمور علماً، وهو بهذا الاعتبار أقرب الأشياء إليها فلذلك حسن تأكيده بسلب ما هو دونه: أي ما هو أقرب إليها منه وحصلت حينئذ المقابلة بين الداني والعالي، ويحتمل أن يريد بالظاهر البيّن، ويكون معنى قوله: فلا شيء فوقه: أي لا شيء يوازي وجوده ويحجبه عن معرفة خلقه به. وبالباطن الخفي ومعنى فلا شيء دونه: أي في الخفاء، وقد سبق بيان هذه الاعتبارات الأربعة غير مرة. وبالله التوفيق.

ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله:

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلاَمَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ، دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ. كَلاَمُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ.

أقول: المماهد: جمع ممهد، والميم زائدة. وثنيت إليه: أي صرفت. والضغائن: الأحقاد. والثوائر: جمع ثائرة، وهي العداوة والمخاصمة. والأقران: الأخوان المقترنون.

وأشار بمستقره إلى مكة وكونها مستقر لكونها أم القرى ومقصد خلق الله ومحل كعبته، ويحتمل أن يريد محلّه من وجود الله وعنايته وظاهر كونه خير مستقر، واستعار لفظ المنبت والمعدن، وقد مرّ بيان وجه استعارتهما، ومماهد السلامة محال التوطئة لها، وهي كناية عن مكة والمدينة وما حولها فإنها محل لعبادة الله والخلوة به التي هي مهاد السلامة من عذابه.

وإنما كانت كذلك لكونها دار القشف خالية عن المشتهيات والقينات الدنيوية، ويحتمل أن يريد بمماهد السلامة ما تقلّب فيه ونشأ عليه من مكارم الأخلاق الممهدة للسلامة من سخط الله، وفي قوله: وقد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، تنبيه على أن الصارف هو لطف الله وعنايته بهم بإلفات قلوبهم إلى محبته والاستضاءة بأنوار هداه، ولما استعار لفظ الأزمة للأبصار ملاحظة لشبهها بمقاود الإبل رشح تلك الاستعارة بذكر الثني وكنى بذلك عن التفات الخلق إليه بأبصار بصائرهم وتلقي الرحمة الإلهية منه ثمّ استعار لفظ الدفن لإخفاء الأحقاد به بعد أن كانت ظاهرة مجاهراً بها. ولفظ الإطفاء لإزالة العداوات بين العرب بالتأليف بين قلوبهم كما قال تعالى في إظهار المنّة على عباده ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والأقران المفرّق لهم هم المتألفون على الشرك.

وقوله: أعز به الذلة.

أي ذلّة الإسلام وأهله. وأذلّ به العزّة: أي عزّة الشرك وأهله، وبين كل قرينتين من هذه الستّ مقابلة ومطابقة فقابل بالتفريق التأليف وبالذلة الإعزاز وبالعزة الإذلال.

وقوله: وكلامه بيان.

أي لما انغلق من أحكام كتاب الله كقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: وصمته لسان.

استعار لفظ اللسان لسكوته، ووجه المشابهة أن سكوته عليه السلام مستلزم للبيان في وجهين:

أحدهما: أنه يسكت عما لا ينبغي من القول فيعلّم الناس السكوت عن الخوض فيما لا يعنيهم.

الثاني: أن الصحابة كانوا إذا فعلوا فعلاً على سابق عادتهم فسكت عنهم ولم ينكره عليهم علموا بذلك أنه على حكم الإباحة. فكان سكوته عنهم في ذلك بياناً له وأشبه سكوته عنه باللسان المعرب من الأحكام. وبالله التوفيق.

٩٧ - ومن كلام له عليه السلام

وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هٰؤُلاَءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ؟ أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ.

أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!.

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاءِ!

يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا، كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ: أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَحَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً. انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا. وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا.

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ! لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ! كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ! إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ!.

أقول: المرصاد: الطريق يرصد بها، والرصد الراقب. والشجى: الغصص بلقمة وغيرها. والحث: السوق الشديد. وأعضل: أشكل. والحية: القوس. ومني: ابتلي. وتربت: أصابت التراب دون الخير. وإخال: أحسب. والوغى: الحرب وأصله من الأصوات. وحمس: اشتد. والسمت: الطريقة. ولبد الطائر: لصق بالأرض.

فقوله: ولئن أمهل الله الظالم. إلى قوله: ريقه.

في معرض التهديد لأهل الشام بأخذ الله لهم وعدم قوتهم، وأنه لهم بالرصد على جميع حركاتهم وعلى

مجاز طريقهم التي هم سالكوها ضلالاً وعلى موضع الشجى من مساغ ريقهم وهو الحلق، وفي ذكر الشجى وكون الله بالرصد تنبيه على أن الله تعالى في مظنة أن يرمي الظالم بعقوباته عند اطلاعه على ظلمه كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٦-٤٧]. ثمّ أردف ذلك بالقسم البار ليظهرنّ أصحاب معاوية عليهم تنفيراً لهم إلى مقاومتهم.

ثمّ نفى ما عساه يتوهمه أنه علّة غلبهم لهم كيلا يتخاذلون بسبب ذلك وهو قوله: ليس لأنهم أولى بالحق منكم، وأردفته بتعيين السبب الحق في ذلك، وهو قوله: لكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم: أي أمره بالباطل وإبطائكم عن حقي إذ كانت النصرة باجتماع الكلمة وطاعة الإمام لا باعتقاد حقيّة إمرته مع التخاذل عنه، ثمّ أردف ذلك بتوبيخهم وتنفيرهم عمّا هم عليه من مخالفة أمره بقوله:

ولقد أصبحت الأمم. إلى قوله: رعيتي. لأن شأن الرعية الخوف من سلطانها فإذا كان حاله مع رعيّته بالعكس كانت اللائمة عليهم بعصيانه دون حجة لهم عليه.

وأما التنفير فيذكر أنهم في محل ظلم نفسه ولقد أشفق عليه السلام منهم في مواطن كثيرة كيوم التحكيم إذ قالوا له: إن لم ترض فعلنا بك كما فعلنا بعثمان ونحو ذلك، ثمّ أردف وجوه تقصيرهم ببيان ما فعل في حقهم من الأيادي الجميلة والهداية إلى وجوه المصالح من استنفارهم لجهاد عدوّهم وحفظ بلادهم وإسماعهم الدعوة إلى مصالحهم سراً وجهراً ونصيحته لهم بالوجوه الصائبة من الرأي وهو كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح: ٥-٧] وقوله ﴿إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩].

ثمّ شبههم بالغياب مع شهادتهم وبالأرباب مع كونهم عبيداً، ووجه الشبه أن الفائدة في شاهد الموعظة دون الغائب عنها هي سماعها، والانتفاع بها فإذا ليسوا كذلك فهم كالغياب عنها في عدم الانتفاع بها.

وأما الثانية فلأنهم رعيّة من شأنهم التعبّد لأوامر أمرائهم ثمّ إنهم لتعزّزهم وشموخهم كبراً وعدم طاعتهم كالأرباب الذين من شأنهم أن يأمروا ولا يأتمروا ثمّ وبّخهم بنفارهم عما يتلو عليهم من الحكم وتفرّقهم عن مواعظه البالغة. وأهل البغي إشارة إلى أهل الشام.

وأيادي سبأ: مثل يضرب في شدة التفرق وضربه لتفرّقهم عن مجالس الذكر وهما لفظان جعلا اسماً واحداً كمعدي كرب، سبأ قبيل من أولاد سبأ بن يشحب بن يعرب ابن قحطان، وأصل المثل أن هذه القبيلة كانت بمأرب فلما آن وقت انفتاح سدّ مأرب ورأت طريقة الكاهنة ذلك الأمر وعرفته ألقته إلى عمرو بن عامر الملقب بمزيقيا فباع أمواله بمأرب وارتحل إلى مكة فأصابت هؤلاء الحمى، وكانوا لا يعرفونها ففزعوا إلى الكاهنة فأخبرتهم بما سيقع، وقالت إنه مفرّق بيننا فاستشاروها في أمرهم فقالت: من كان منكم ذا همّ بعيد، وحمل شديد، ومراد حديد فليلحق بقصر عمّان المشيد. فكانت أزد عمّان، ثمّ قالت: ومن كان منك ذا جلد وقسر، وصبر على أزمات الدهر فعليه بالإدراك من بطن نمر، فكانت خزاعة، ثمّ قالت: ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج، ثمّ قالت: ومن كان منكم يريد الخمر والخمير، والملك والتأمير، ويلبس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغوير، وهما من أرض الشام فكان الذين يسكنونها آل جفنية من غسان، ثمّ قالت: ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق فكانت آل جذيمة الأبرش، ومن كان بالحيرة وآل محرّق. فضربت العرب بتفرّقهم في البلاد هذا المثل وسار فيمن يتفرّق بعد اجتماع.

ثمّ لما كانت المخادعة هي الاستغفال عن المصلحة قال: يتخادعون: أي أنهم إذا رجعوا في مجلس وعظه أخذ كل منهم يستغفل صاحبه عن تذكر الموعظة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث وإن لم يكن عن قصد خداع. بل تقع منهم صور المخادعة، وتقويمه لهم بالغدوة إصلاح أخلاقهم بالحكم والمواعظ ورجوعهم إليه عشية كظهر

الحية: أي معوجّين كظهر القوس وهو تشبيه للمعقول من اعوجاجهم وانحرافهم عن جميل الأخلاق بالمحسوس.

وقوله: عجز المقوّم.

إشارة إلى نفسه واعتراف بعجزه عن تقويمهم وأعضل المقوّم: أي أشكل أمرهم وأعيته أدواؤهم علاجاً، ثمّ عاد إلى ندائهم وتنبيههم بذكر معائبهم لينفر عقولهم عنها فوصفهم بشهادة الأبدان مع غيبة العقول ثمّ باختلاف الأهواء. ثمّ بكونهم ممّن ابتلى بهم أمراؤهم ثمّ نبّههم على رذيلتهم من مخالفة أمره مع كونه مطيعاً لله، وما عليه خصومهم من فضيلة طاعة إمامهم مع كونه عاصياً لله، وجعل ذلك مقايسة بينهم ليظهر الفرق فتدركهم الغيرة. ثمّ أردفه بتحقيرهم وتفضيل عدوّهم عليهم في البأس والنجدة واستقامة الحال فأقسم أنه ليودّ أن يصارفه معاوية بهم صرف الدينار بالدرهم وذلك قوله: رجلاً منهم.

ثمّ أردف ذلك ببيان ما ابتلي به منهم، وأشار إلى خمس خصال، وإنما قال بثلاث واثنتين لتناسب الثلاث وكون الثنتين من نوع آخر فالثلاث: الصمم مع كونهم ذوي أسماع والبكم مع كونهم ذوي كلام والعمي مع كونهم ذوي أبصار، وجمعه لهذه الثلاثة مع أضدادها هو سبب التعجب منهم والتوبيخ لهم وأراد بها عدم انتفاعهم في مصالحهم الدينية ونظام أمور دولتهم بآلة السمع واللسان والعين. فإن من لم يفده سمعه وبصره عبرة ومن لم يكن كلامه فيما لا يعنيه كان كفاقد هذه الآلات في عدم الانتفاع بها. بل كان فاقدها أحسن حالاً منه لأن وجودها إذا لم يفد منفعة أكسب مضرة قد أمنها عادمها، وأما الثنتان فكونهم لا أحرار صدق عند اللقاء: أي أنهم عند اللقاء لا تصدق حريتهم ولا تبقى نجدتهم من مخالطة الجبن والتخاذل والفرار إذ الحرّ هو الخالص من شوب الرذائل والمطاعن، ثمّ كونهم غير إخوان ثقة عند البلاء: أي ليسوا ممّن يوثق باخوتهم في الابتلاء بالنوازل، ثمّ عاد إلى الدعاء عليهم على وجه التضجّر منهم وتشبيههم بالنعم فقوله: تربت أيديكم دعاء بعدم إصابة الخير.

وقوله: يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب.

ذكر للتشبيه والمشبّه به، ووجه الشبه أردفه بذكر رذيلة يظنها منهم بأماراتها وهي تفرّقهم عنه على تقديره اشتباك الحرب، وشبه انفراجهم عنه بانفراج المرأة عن قبلها ليرجعو إلى الأنفة. وتسليم المرأة لقبلها وانفراجها عنه إما وقت الولادة أو وقت الطعان ثمّ عاد إلى ذكر فضيلته ليستثبت قلوبهم، ويتألّفها والبيّنة التي هو عليها من ربه آيات الله وبراهينه الواضحة على وجوده والثقة بما هو عليه من سلوك سبيله وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧] والمنهاج من نبيّه طريقه وسنّته، والطريق الواضح الذي هو عليه سبيل الله وشريعة دينه، والتقاطه له لقطاً تتبعه وتميّزه على طريق الضلال بالسلوك له، ثمّ أردف فضيلته بالأمر باعتبار أهل البيت ولزوم سمتهم واقتفاء أثرهم، وأشار إلى جهة وجوب اتباعهم بكونهم يسلكون بهم سبيل الهدى لا يخرجون عنه ولا يردونهم إلى ردى الجاهلية والضلال القديم، وفيه إيماء إلى أنّ اتباع غيرهم يرد إلى ذلك وقوله: فإن لبدوا: أي إن سكنوا وأحبّوا لزوم البيوت على طلب أمر الخلافة والقيام فيه فتابعوهم في ذلك، فإن سكونهم قد يكون لمصلحة يغيب علمها عن غيرهم وإن نهضوا في ذلك فانهضوا معهم.

ثمّ نهاهم عن أن يسبقوا فيضلوا: أي إلى أمرٍ لم يتقدموكم فيه فإن متقدم الدليل شأنه الضلال عن القصد وأن لا يتأخروا عنهم فيهلكوا: أي لا يتأخروا عن متابعتهم في أوامرهم وأفعالهم بالمخالفة لهم فيكونوا من الهالكين في تيه الجهل وعذاب الآخرة. والإمامية تخصّ ذلك بالإثني عشر من أهل البيت عليهم السلام.

وقوله: ولقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى آخره.

مدح لخواص الصحابة وذكر مكانهم من خشية الله ودينه ترغيباً في مثل تلك الفضائل، وحرّك بقوله: فما أرى أحداً يشبههم. ما عساه يدرك السامعين من الغيرة على تلك الفضائل أن يختصّوا بها دونهم وذكر من ممادحهم أوصافاً:

أحدها: الشعث والاغبرار وهو إشارة إلى قشفهم وتركهم زينة الدنيا ولذاتها.

الثاني: بياتهم سجداً وقياماً، وأشار به إلى إحيائهم الليل بالصلاة وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

الثالث: مراوحتهم بين جباههم وخدودهم، وقد كان أحدهم إذا تعبت جبهته من طول السجود راوح بينها وبين خدّيه.

الرابع: وقوفهم على مثل الجمر من ذكر معادهم وأشار به إلى قلقهم ووجدهم من ذكر المعاد وأهوال يوم القيامة كما يقلق الواقف على الجمر مما يجده من حرارته.

الخامس: كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، ووجه المشابهة أن محالّ سجودهم من جباههم كانت قد اسودّت وماتت جلودها وقست كما أن ركب المعزى كذلك.

السادس: أنهم كانوا إذا ذكر الله هملت أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم، ومن روى جباههم فذلك في حال سجودهم ممكن. ومادوا كما تميد الشجر بالريح العاصف خوفاً من عقاب ربهم ورجاء لثوابه فتارة يكون ميدانهم وقلقهم عن خوف الله، وتارة يكون عن ارتياح واشتياق إلى ما عنده من عظيم ثوابه وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] وبالله التوفيق.

٩٨ - ومن كلام له عليه السلام

يشير فيه إلى ظلم بني أميّة وفيها مواعظ للناس

وَاللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّى لا يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إلاّ اسْتَحَلُّوهُ، وَلاَ عَقْداً إِلاَّ حَلُّوهُ، وَحَتَّى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً، فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ ﴿الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أقول: نبا به المنزل: إذا لم يوافقه. والعناء. التعب.

والإشارة في هذا الفصل إلى بني أُمية فأقسم لا يزالون ظالمين فحذف الخبر للعلم به وذكر لظلمهم غايات:

إحداها: أنهم لا يدعون محرماً إلاّ استحلّوه، وأعظم كبائر المحرمات الظلم وقتل النفس وحالهم فيهما مشهور فما ظنّك بغيرهما، ومعنى قوله: استحلّوه: استعملوه كاستعمال الحلال في عدم التحرّج والتأثّم به.

الثانية: أن لا يدعو عقداً إلاّ حلّوه: أي من عقود الإسلام التي نظم بها أمر العالم من قوانين الشرع وضوابطه، وحلّه كناية عن خرم تلك القواعد بمخالفتها.

الثالثة: أنه لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلاّ دخله ظلمهم، وهو كناية عن عموم عداوتهم وبغيهم على جميع الخلق من البدو الحضر، وقوله: ونبا به سوء رعيهم: أي أوجب سوء رعيهم لأهله نبوءهم عنه.

الرابعة: أن يقوم الباكيان باكٍ يبكي لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه.

الخامسة: وحتّى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، ذكر المشبّه والمشبّه به ثمّ أشار إلى وجه الشبه بقوله: إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه.

السادسة: وحتّى يكون أعظمكم فيها عناءً أحسنكم بالله ظناً، وإنما كان كذلك لأنّ من حسن الظن بالله كان أشد الناس بعداً منهم وتوكلاً عليه فيكونون عليه أشد كلباً وله أقوى طلباً فكان منهم أكثر تعباً، ثمّ أردف ذلك بأمر من أتته العافية أن يقبلها، ويشكر الله عليها نعمة، وأراد العافية من الابتلاء بشرورهم لبعض الناس أو بقائهم عدل مخلص من بلائهم، ويأمر من ابتلى بهم بالصبر على ما ابتلى به ووعده على ذلك حسن العاقبة لازماً للتقوى والصبر كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٩٩ - ومن خطبة له عليه السلام

في التزهيد من الدنيا

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ. وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَبْدَانِ.

عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهٰذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ. وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْماً! فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ. أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى: فَمَيِّتٌ يُبْكَى، وَآخَرُ يُعَزَّى، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ؛ وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي!

أَلا فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الأُمْنِيَاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ؛ وَاسْتَعِينُوا اللهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لاَ يُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ.

أقول: الرفض: الترك. والسفر: المسافرون. وأمّوا: قصدوا. ويعدوه: يتعدّاه. ويحدوه: يسوقه. والمساورة: المواثبة.

فقوله: نحمده. إلى قوله: في الأبدان.

خصّص الحمد بما كان لأن الشكر على النعمة مترتب على وقوعها. والإستعانة على ما يكون لأن طلب العون على أمر هو بصدد أن يفعل. ثم سأل العافية في الأديان كما سألها في الأبدان لأنّ لها سقماً هو في الحقيقة أشدّ، وقيل لأعرابي: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. فقيل: ما تشتهي؟ قال: الجنة. فقيل: أفلا ندعو لك طبيباً؟ فقال: الطبيب أمرضني، وسمعت عصرة (عنترة خ) العابدة البصرية رجلاً يقول: ما أشد العمى على من كان بصيراً فقالت: يا عبد الله غفلت عن مرض الذنوب واهتممت بمرض الأجساد، وعمى القلب عن الله أشدّ. والمعافاة فيها بإمداد العناية الإلهية ببقائها سليمة وبتداركها للمذنبين بجذبهم إلى التوبة. ثمّ أردف ذلك بالرأي الصالح والوصية الناصحة برفض الدنيا، ونفّر عنها بذكر معائب:

أحدها: تركها لهم على كل حال وإن لم يحبّوا تركها، ومن أكبر المصالح ترك محبوب لا بدّ من مفارقته تركاً باستدراج النفس واستغفالها كي لا يقدحها مفارقته دفعةً مع تمكن محبّته عن جوهرها فيبقى كمن نقل من معشوقه إلى موضع ظلماني شديد الظلمة.

الثاني: كونها مبلية لأجسامهم وإن أحبّوا تجديدها وإبلاؤها بالأمراض والهرم، ومن شأن المؤذي أن يجتنب لا أن يحب إصلاحه. ثم أردف ذلك بتمثيلهم في الكون بها فمثلهم بالسفر ومثلها بسبيل هم سالكوه، ومن سلك سبيلاً فكأنهم قطعوه فالمشبّه هم باعتبار سرعة سيرهم وقرب الآخرة منهم وقطع منازل الأعمار، والمشبّه به قاطع ذلك السبيل: أي من سلك سبيلاً أشبه في سرعة سيره من قطعه ثم لما كان لا بدّ لكل طريق سلك من غاية تقصد فمن سلك سبيلاً فكأنّهم بلغوا تلك الغاية: أي أشبهوا في قرب وصولها من بلغها وهو تخويف بالموت وما بعده، وتحقير لمدة البقاء في الدنيا والمقام فيها، وأكّد ذلك بقوله: وما عسى المجري إلى

الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها: أي إجراؤه إليها بسير سريع، وفي بعض النسخ: وكم عسى، والتقدير وكم يرجو الذي يجري إلى غاية من إجرائه إليها حتى يبلغها، وهو استفهام في معنى التحقير لما يرجوه من مدة الجري، وهي مدة الحياة الدنيا، ومفعول المجرى محذوف والتقدير المجري مركوبه.

ولما لم يكن الغرض إلاّ ذكر الإجراء لا جرم حذف المفعول. وقد يجيء لازماً، وكذلك قوله: وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه. إلى قوله: أي وما يرجى ويؤمل أن يكون من ذلك البقاء، وكان هنا تامّة وهو في الموضعين استفهام على سبيل التحقير لما يرجى من البقاء في الدنيا والإنكار على المؤمل الراجي له، وعنى بالطالب الحثيث الموت، وأسند إليه الطلب مجازاً واستعار له لفظ الحدو، وقد علمت وجه هذه الإستعارة، وكنّى بذلك الحد وعما يتوهم من سوق أسباب الموت للبدن إليه.

وقوله: ولا تنافسوا. إلى قوله: إلى فناء.

نهى عن اعتبار شيء من أحوالها: خيرها وشرّها. فمن خيرها عزّها وفخرها وزينتها ونعيمها، ونهى عن المنافسة فيه والإعجاب به، وأمّا شرها فضراؤها وشدائدها، ونهى عن الجزع منها وعلّل وجوب الإنتهاء عمّا نهى عنه بانقطاعه وزواله. وما كان من شأنه الزوال والانقطاع فمن الواجب أن لا يتنافس فيه ولا يعجب به وإن عدّ نافعاً، وأن لا يجزع من وجوده وإن عدّ ضاراً.

وقوله: أوليس لكم في آثار الأوّلين. إلى قوله: لا يبقون.

تذكرة لهم بآثار السابقين لهم والماضين من آبائهم على سبيل استفهامهم عن حصول العبرة لهم بهم استفهام إنكار عليهم أن لا يستفيدوا من ذلك عبرة على تقدير أنّهم عقلاء كما يزعمون ذلك ثم تنبيه لهم على وجه الاعتبار والاتعاظ وهو عدم رجوع الماضي منهم وعدم بقاء الباقي فإنّ ذلك محل العبرة ثم تنبيه لهم على ما يرون من أحوال أهل الدنيا المختلفة ليستدلوا على عدم بقائها باختلاف أحوالها وعلى أنها لا تصلح قراراً فأهلها بين ميّت يبكي، وآخر يعزّى، وآخر صريع مبتلى بالأمراض والأسقام، وآخر يعوده مشغول الخاطر به، وآخر في المعاوقة والإحتضار، والسالم من تلك الأمور طالب للدنيا والموت من ورائه طالب له غافل عما يراد به وليس الله بغافل عنه ثم لا بدّ له أن يمضي على أثر من مضى وإن طال بقاؤه، وما في ما يمضي مصدريّة، وإنما قدّم الميت في أقسام أهل الدنيا لأن ذكره أشد موعظة، واستعار لفظ الجود للمحتضر، ووجه المشابهة أنه يسمح بنفسه ويسلّمها كما يسلم الجواد ما يعطيه من مال ثم أمرهم بذكر الموت ووصفه بلوازمه المنفرة عنه. وهي كونه: هادماً للذّات الدنيويّة، ومنغّصاً لشهواتها وقاطعاً للأمنيات فيها، وعيّن لهم وقت ذكره وهو عند وثباتهم إلى الأعمال القبيحة ليكون ذكره زاجراً لهم عنها ثم بالرغبة إلى الله في طلب معونته بجواذب عنايته وجميل لطفه على أداء واجب حقوقه التي كلّفنا القيام بها بالمواظبة عليها وأداء واجب ما لا يحصى من نعمة. بدوام شكرها والاعتراف بها ملاحظين لجلال كبريائه باعتبار كل جزئي منها. وبالله التوفيق.

١٠٠ - ومن خطبة له عليه السلام

في رسول الله صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام

الْحَمْدُ للهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّى أَمِيناً، وَمَضَى رَشِيداً؛ وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ. فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ، حَتَّى يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ

إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبتَ الأُخْرَى، فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً.

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ: إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

أقول: مرق: خرج من الدين. وزهق: هلك. والمكيث البطيء المتأني. وخوى النجم: سقط للمغيب. والصنيعة: النعمة.

وهذا الفصل يشتمل على إعلامهم بما يكون بعده من أمر الأئمة عليهم السلام وتعليمهم ما ينبغي أن يفعل الناس معهم ويمنّيهم بظهور إمام من آل محمد عقيب آخر، ووعدهم بتكامل صنائع الله فيهم بما يأملونه من ظهور إمام منتظر.

فقوله: الحمد لله. إلى قوله: حقوقه.

شكر له تعالى باعتبار أمرين:

أحدهما: نشره لفضله في خلقه.

الثاني: بسطه فيهم بالجود يده، ويده نعمته مجازاً لتقدسه تعالى عن الجارحة، وهو من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب، وظاهر كون الجود مبدأً للنعمة، والنشر والبسط وإن كانا حقيقةً في الأجسام إلاّ أنهما من الإستعارات الشائعة التي قاربت الحقيقة ثم أكد ذلك الحمد بتعميمه باعتبار كل صادر عنه من رخاء وشدة. إذ الشدائد اللاحقة من نعمه أيضاً فإنها إذا قوبلت بصبر جميل استلزمت ثواباً جزيلاً كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية. وظاهر أن أسباب النعم نعم ولما حمده على ما لحق من نعمائه طلب منه المعونة على رعاية واجب حقوقه، واستعار لفظ الصادع للرسول ووجهها أنه شقّ بأمر الله بيضة الشرك وقلوب المشركين فأخرج ما كان فيها من الكفر والجهل، ونطق بذكره تعالى فأودعها إيّاه فأدّى ما أمر به أميناً عليه وقبضه الله إليه مرشداً له إلى حضرة قدسه ومنازل الأبرار من ملائكته، وصادعاً وناطقاً وأميناً ورشيداً أحوال، وأشار براية الحق التي خلّفها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى كتاب الله وسنّته، وأشار بتقدّمها والتخلّف عنها إلى طرفي الإفراط والتفريط من فضيلة الاستقامة عليها: أي أن من كان تحتها لاحقاً بها فهو على حاقّ الوسط من الفضائل، ومن تقدمها كان على طرف الإفراط، وقد تعدى في طلب الدين وأغلى فيه على جهل فمرق منه. كما فعلت الخوارج، ومن تخلّف عنها كان على طرف التفريط والتقصير فهلك في طريق الضلال والحيرة، ولفظ الراية مستعار.

ووجه المشابهة كون الكتاب والسنّة مقصدين لتابعهما يهتدي بها في سبيل الله كما أن الراية كذلك، وأشار بدليلها إلى نفسه استعارة، ووجهها أنّ الإمام مظهر ومبيّن لأحكام الكتاب والسنّة وما خفي منهما للسالكين إلى الله كما يرفع الراية حاملها لتابعيه ليقتدوا به ثم أشار إلى صفات ذلك الدليل، وكنى بقوله: مكيث الكلام عن ترويه وتثبّته في أقواله وما يشير به ويحكم.

وبقوله: بطيء القيام عن تأنيه في حركته في وجوه المصالح إلى حين استثابته الرأي الأصلح ووجه المصلحة، وبقوله: سريع إذا قام. عن مبادرته إلى وجوه المصلحة وانتهاضه (انتهازه خ) الفرص ثم أخذ يذكرهم بموته، وكنى بقوله: ألنتم له رقابكم. من خضوعهم لطاعته وانقيادهم لأمره، وبقوله: وأشرتم إليه بالأصابع عن اشتهاره فيهم وتعيّنه وتعظيمهم له، وأشار إلى أنّه إذا تمّ الإسلام به توفي، ونبّه بقوله: فلبثتم بعده ما شاء الله. إلى أنهم يخلون عن إمام يجمعهم مدّة، والإشارة إلى مدة بني أمية، وبقوله: حتى يطلع الله لكم. إلى قوله: نشركم. على أنّه لا بدّ لهم بعد تلك المدة من شخص يجمعهم، وطلوعه ظهوره وتعيّنه للرئاسة بعد اختفاء. فقيل: هو الإمام المنتظر. وقيل: هو قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أمية.

وقوله: فلا تطمعوا في غير مقبل.

أي من لم يقبل على طلب هذا الأمر ممن هو أهله ومتعيّن له وآثر تركه إلى الخلوة بالله فلا تطمعوا فيه فإن له بالله شغلاً عن كل شيء. وقيل: المراد بغير المقبل من انحرف عن الدين بارتكاب منكر فإنه لا يجوز الطمع في أن يكون أميراً لكم، وروي فلا تطعنوا في عين

مقبل: أي من أقبل عليكم من أهل البيت طالباً لهذا الأمر وهو أهل له فكونوا معه، وكنّى بالطعن في عينه عن دفعه عما يريد.

وقوله: ولا تيأسوا من مدبر. إلى قوله: تثبتا جميعاً.

أراد أنَّ من أدبر عن طلب الخلافة ممن هو أهل لها فلا ينبغي أن يحصل الإياس من عوده وإقباله على الطلب فلعله إنّما أدبر عن ذلك لاختلال بعض الشرائط التي تعيّن عليه معها القيام، وكنّى عن اختلال بعض أحواله من قلّة ناصر ونحوه بزوال إحدى قائمتيه وبثبات الأخرى من وجود بعض الشرائط كثبات أهليته للطلب أو بعض أنصاره معه، وبقوله: فترجعا حتى تثبتا. عن تكامل شرائط قيامه ولا ينافي النهي عن اليأس هٰهنا النهي عن الطمع في غير المقبل لجواز أن ينهى عن الطمع فيه حال إعراضه وإدباره عن الطلب لاختلال بعض شرائطه والنهي عن الإياس منه لجواز حصول شرائط القيام فيه وتكاملها.

وقوله: إلا أنّ مثل آل محمد عليهم السلام. إلى قوله: طلع نجم.

تعيين للأئمة من آل محمد. قالت الإمامية: هم الإثني عشر من أهل البيت. وشبّههم بالنجوم ووجه التشبيه أمران:

أحدهما: أنهم يستضاء بأنوار هداهم في سبيل الله كما يستضيء المسافر بالنجوم في سفره ويهتدي بها.

الثاني: ما أشار إليه بقوله: كلما خوى نجم طلع نجم وهو كناية عن كونهم كلما خلا منهم سيد قام سيّد، والإمامية يستدلون بهذا الكلام منه عليه السلام على أنه لا يخلو زمان من وجود قائم من أهل البيت يهتدى به في سبيل الله.

وقوله: فكأنكم. إلى آخر.

إشارة إلى منّة الله عليهم بظهور الإمام المنتظر وإصلاح أحوالهم بوجوده. ووجدت له عليه السلام في أثناء بعض خطبه في اقتصاص ما يكون بعده فصلاً يجري مجرى الشرح لهذا الوعد، وهو أن قال: يا قوم اعلموا علماً يقيناً أن الذي يستقبل قائمنا من أمر جاهليتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليتكم وذلك أن الأمة كلها يومئذٍ جاهلية إلاّ من رحم الله فلا تعجلون فيعجل الخرق بكم، واعلموا أن الرفق يمنٌ وفي الأناة بقاء وراحة والإمام أعلم بما ينكر، ولعمري لينزعنّ عنكم قضاة السوء وليقبضنّ عنكم المراضين، وليعزلنّ عنكم أمراء الجور، وليطهرنّ الأرض من كل غاشٍ، وليعملنّ فيكم بالعدل، وليقومنّ فيكم بالقسطاس المستقيم، وليتمنينّ أحياؤكم لأمواتكم رجعة الكرة عما قليل فيعيشوا إذن فإنّ ذلك كائن. لله أنتم بأحلامكم كفّوا ألسنتكم وكونوا من وراء معايشكم فإنّ الحرمان سيصل إليكم وإن صبرتم واحتسبتم وائتلفتم إنه طالب وتركم ومدرك لثاركم وآخذ بحقكم، وأُقسم بالله قسماً حقاً أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

١٠١ - ومن خطبة له عليه السلام

تشتمل على ذكر الملاحم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخِرَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلاَنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَلاَ تَتَرَامَوْا بِالأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ. لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ. فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَا مِنَ الأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا. فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ

الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ. هٰذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ!

أقول: [لا يجرمنّكم: أي لا يحملنّكم خ]. يجرمنّكم: يحق عليكم. واستهواه: أماله. والضليل: الكثير الضلال. ونعق: صاح. وفحص الطائر الأرض برجله: بحثها. والضواحي: النواحي البارزة. وكوفان: اسم للكوفة. فَغَرَفوه: انفتح. وفلان شديد الشكيمة: إذا كان قويّ النفس أبياً والكلوح: تكشر في عبوس. والكدح: فوق الخدش. وأينع الزرع: نضج. والحطم: الدق.

ومضمون هذا الفصل بعد توحيد الله تحذير السامعين عن عصيانه وعن التغامز بتكذيبه فيما بينهم فيما كان يخبرهم به من الأمور المستقبلة. فقوله: الأول والآخر قد مضى تفسيرهما.

وقوله: بأوليّته وجب أن لا أول له.

لما أراد بأوليّته كونه مبدأً لكل شيء، وبآخريّته كونه غاية ينتهي إليها كل شيء في جميع أحواله كان بذلك الاعتبار يجب أن لا يكون له أول هو مبدؤه ولا آخر يقف عنده وينتهي، ووصف شهادته بأنّها التي يوافق السر الإعلان والقلب اللسان كناية عن خلوصها عن شائبة النفاق والجحود بالله، ثم أبّه بالناس وحذّرهم من شقاقه وعصيانه وتكذيبه فيما يقول وهو تقريع لمن ضعفت عين بصيرته عن إدراك فضله وإمكان الإخبار بما سيكون من مثله ثم أسند ما يريد أن يخبر به من ذلك وما أخبر به إلى النبي ﷺ ليكون ذلك شهادة لصدقه، وأكد ذلك بتنزيهه ﷺ وتنزيه السامع يعني نفسه من الكذب فيما بلّغ عن ربه وفيما سمع هو عنه، وقد بيّنا كيفية أخذه لهذه العلوم عنه في المقدمات.

وقوله: لكأني أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام.

من جملة إخباراته بما سيكون، والضليل: قيل: إنّه أشار به إلى السفياني الدجّال. وقيل: إنه إشارة إلى معاوية فإن مبدأ ملكه بالشام ودعوته بها وانتهت غاراته إلى نواحي الكوفة وإلى الأنبار في حياته عليه السلام. كما عرفت ذلك من قبل، وكنّى بفحصه براياته عن بلوغه إلى الكوفة ونواحيها كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالقطاة المتخذة مفحصاً، وكذلك فغرت فاغرته كناية عن اقتحامه للناس كناية بالمستعار أيضاً ملاحظة لشبهه بالأسد في اقتحام فريسته، واشتداد شكيمته كناية عن قوة رأسه وشدة بأسه. وأصله أن الفرس الجموح قوي الرأس محتاج إلى قوة الشكيمة وشدتها، وكذلك ثقل وطأته كناية عن شدة بأسه في الأرض على الناس، والأشبه أنّه إشارة إلى عبد الملك، وقد عرفت أحواله، وثقل وطأته في الأرض فيما سبق، واستعار لفظ العضّ للفتنة ووجه المشابهة ما يستلزمانه من الشدة والألم، ورشح تلك الاستعارة بذكر الأنياب، وأبناء الفتنة أهلها، وكذلك استعار لفظ الموج للحرب، وكنّى به عن الاختلاط الواقع فيها من القتل والأهوال. وللأيام لفظ الكلوح، وكنّى به عن شدة ما يلقى فيها من الشرّ كما يلقى من المعبس المكثر، وكذلك لفظ الكدوح استعارة لما يلقى فيها من المصائب الشبيهة بها، ولفظ الزرع استعارة لأعماله ولفظ الإيناع كناية عن بلوغه غاية أفعاله ولفظ الشقاشق والبروق استعارة لحركاته الهائلة وأقواله المخوفة تشبيهاً بالسحاب ذي الشقاشق والبروق.

وقوله: عقدت رايات الفتن المعضلة.

أي: أن هذه الفتنة إذا قامت أثارت فتناً كثيرة بعدها يكون فيها الهرج والمرج، وشبّه تلك الفتن في إقبالها بالليل المظلم، ووجه المشابهة كونها لا يهتدى فيها لحق كما لا يهتدى في ظلمة الليل لما يراد، بالبحر الملتطم في عظمها وخلطها للخلق بعضهم ببعض وانقلاب قوم على قوم بالمحق لهم والهلاك كما يلتطم بعض أمواج البحر ببعض، ثمّ أشار إلى ما يلحق الكوفة بسبب تلك الفتنة بعدها من الوقائع والفتن، وقد وقع فيها وفق أخباره وقائع جمّة وفتن كثيرة كفتنة الحجّاج والمختار ابن أبي عبيدة وغيرهما، واستعار لفظي القاصف والعاصف من الريح لما يمرّ بها من ذلك ويجري على أهلها من الشدائد.

وقوله: وعن قليل تلتف القرون بالقرون. إلى آخره.

أي عن قليل يلحق قرن من الناس بقرون، وكنّى بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض، واستعار لهم لفظ الحصد والحطم لمشابهتهم الزرع يحصد قائمه ويحطم محصوده فكنى بحصدهم عن موتهم أو قتلهم، ويحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم في التراب.

وأعلم أنه ليس في اللفظ دلالة واضحة على أن المراد بالضليل المذكور معاوية بل يحتمل أن يريد به شخصاً آخر يظهر فيما بعد بالشام كما قيل: إنّه السفيانّي الدجّال وإن كان الاحتمال الأول أغلب على الظن. وبالله التوفيق.

١٠٢ - ومن خطبة له عليه السلام

تجري هذا المجرى وفيها ذكر يوم القيامة وأحوال الناس المقبلة

وَذٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ، خُضُوعاً، قِيَاماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً.

أقول: أشار باليوم إلى يوم القيامة. ونقاش الحساب: المناقشة والتدقيق فيه.

وقد عرفت كيفية ذلك اليوم فيما سبق ونحوه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] الآية: وخضوعاً كقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القمر: ٧] وقياماً كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] وهما كناية عن كمال براءتهم من حولهم وقوّتهم إذن وتيقّنهم أن لا سلطان إلاّ سلطانه. وألجمهم العرق: بلغ منهم مكان اللجام، وهو كناية عن بلوغهم الغاية من الجهد. إذا كانت غاية التاعب أن يكثر عرقه.

وقوله: ورجفت بهم الأرض.

كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤] و﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ [الواقعة: ٤-٥] قال بعضهم: المراد بالأرض الراجفة والمرتجة أرض القلوب عن نزول خشية الله عليها وشدّة أهوال يوم القيامة، وقال آخرون: إنَّ ذلك صرف الكلام عن ظاهره من غير ضرورة فلا يجوز. إذ كل ما أخبر الصادق عنه من جزئيات أحوال القيامة أُمور ممكنة، والقدرة الإلهية وافية بها.

وقوله: فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متّسعاً.

قيل المراد من وجد لقدمي عقله موضعاً من معرفة الله تعالى وعبادته، ومن وجد لنفسه متسعاً في حظائر قدس الله وسعة رحمته. وظاره أن أولئك أحسن الخلق حالاً يوم القيامة، وحمله على ظاهره موافقةً لظاهر الشريعة ممكن.

ومنها: فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً: يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِي الأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ لا رَهَجَ لَهُ، وَلاَ حَسَّ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الأَغْبَرِ.

أقول: يحفزها: يدفعها من خلف. والكلب: الشر. والأذلة: جمع ذليل. والرهج: الغبار. والحس: الصوت الخفّي.

وقد نبّه في هذا الفصل على ما سيقع بعده من الفتن، ويخصّ منها فتنة صاحب الزنج بالبصرة وشبّه تلك الفتن بقطع الليل المظلم، ووجه الشبه ظاهر. ولا تقوم لها قائمة: أي لا يمكن مقابلتها بما يقاومها ويدفعها، وإنما أنّث لكون القائمة في مقابلة الفتنة. وقيل: لا تثبت لها قائمة فرس، واستعار لفظ الزمام والرحل والحفز والقائد والراكب وجهده لها ملاحظة لشبهها بالناقة، وكنى

بالزمام والرحل عن تمام إعداد الفتنة وتعبيتها كما أن كمال الناقة للركوب أن تكون مزمومة مرحولة، وبقائدها عن أعوانها، وبراكبها عن منشئها المتبوع فيها، وبحفزها وجهدها عن سرعتهم فيها، وأهلها إشارة إلى الزنج وظاهر شدة كلبهم وقلّة سلبهم. إذ يكونوا أصحاب حرب وعدة وخيل كما يعرف ذلك من قصتهم المشهورة كما سنذكر طرفاً منها فيما يستقبل من كلامه في فصل آخر، وقد وصف مقاتليهم في الله بكونهم أذلّة عند المتكبرين، وكونهم مجهولين في الأرض: أي ليسوا من أبناء الدنيا المشهورين بنعيمها، وكونهم معروفين في السماء هو إشارة إلى كونهم من أهل العلم والإيمان يعرفهم ربهم بطاعتهم، وتعرفهم ملائكته بعبادة ربهم ثم أردف ذلك بأخبار البصرة مخاطباً لها والخطاب لأهلها بما سيقع بها من فتنة الزنج، وظاهر أنه لم يكن لهم غبار ولا أصوات. إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم فإذن لا رهج لهم ولا حسّ، وظاهر كونهم من نقم الله للعصاة وإن عمت الفتنة. إذ قلما تخص العقوبة النازلة بقوم بعضهم كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقوله: وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر.

قيل: فالموت الأحمر إشارة إلى قتلهم بالسيف من قبل الزنج أو من قبل غيرهم، ووصفه بالحمرة كناية عن شدته وذلك لأن أشدّ الموت ما كان بسفك الدم. وأقول: قد فسّر عليه السلام بهلاكهم من قبل الغرق كما نحكيه عنه وهو أيضاً في غاية الشدة لاستلزمه زهوق الروح، وكذلك وصف الأغبر لأن أشد الجوع ما أغبر معه الوجه وغبر السحنة الصافية لقلة مادة الغذاء أو رداءته فلذلك سمي أغبر، وقيل: لأنّه يلصق بالغبراء وهي الأرض، وقد أشار إلى هذه الفتنة في فصل من خطبة خطب بها عند فراغه من حرب البصرة وفتحها وهي خطبة طويلة حكينا منها فصولاً تتعلّق بالملاحم. من ذلك فصل يتضمن حال غرق البصرة. فعند فراغه عليه السلام من ذلك الفصل قام إليه الأحنف بن قيس فقال له: يا أمير المؤمنين، ومتى يكون ذلك؟ قال: يا أبا بحر، إنّك لن تدرك ذلك الزمان وإنّ بينك وبينه لقروناً ولكن ليبلغ الشاهد منكم الغائب عنكم لكي يبلغوا إخوانهم إذا هم رأوا البصرة قد تحوّلت أخصاصها دوراً وآجامها قصوراً فالهرب الهرب فإنه لا بصيرة لكم يومئذٍ، ثم التفت عن يمينه وقال: كم بينكم وبين الإبلّة؟ فقال له المنذر بن الجارود: فداك أبي وأمي أربعة فراسخ.

قال له: صدقت، فوالذي بعث محمداً وأكرمه بالنبوة وخصّه بالرسالة وعجّل بروحه إلى الجنة لقد سمعت منه كما تسمعون مني أن قال: يا علي، هل علمت أن بين التي تسمى البصرة والتي تسمى الإبلة أربعة فراسخ وقد يكون في التي تسمّى الإبلّة موضع أصحاب القشور يقتل في ذلك الموضع من أمتي سبعون ألفاً شهيدهم يومئذٍ بمنزلة شهداء بدر؟ فقال له المنذر: يا أمير المؤمنين، ومن يقتلهم فداك أبي وأمي؟ قال: يقتلهم إخوان الجن وهم جبل كأنهم الشياطين سود الوانهم منتنة أرواحهم شديد كلبهم قليل سلبهم، طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم هم أذلة عند المتكبرين من أهل ذلك الزمان مجهولون في الأرض معروفون في السماء تبكي السماء عليهم وسكانها والأرض وسكانها، ثم هملت عيناه بالبكاء ثم قال: ويحك يا بصرة، ويلك يا بصرة من جيش لا رهج له ولا حس.

قال له المنذر: يا أمير المؤمنين وما الذي يصيبهم قال له المنذر: يا أمير المؤمنين.

وما الذي يصيبهم من قبل الغرق مما ذكرت، وما الويح، وما الويل؟ فقال: هما بابان فالويح باب الرحمة، والويل باب العذاب يا بن الجارود، نعم ثارات عظيمة منها عصبة يقتل بعضها بعضاً، ومنها فتنة تكون بها خراب منازل وخراب ديار وانتهاك أموال وقتل رجال وسبي نساء يذبحن ذبحاً يا ويل أمرهن حديث عجب منها أن يستحل بها الدجّال الأكبر الأعور الممسوح العين اليمنى والأخرى كأنها ممزوجة بالدم لكأنها في الحمرة علقة تأتي الحدقة كهيئة حبة العنب الطافية على الماء فيتبعه من أهلها عدّة، من قتل بالإبلة

من الشهداء أناجيلهم في صدورهم يقتل من يقتل ويهرب من يهرب ثم رجف ثم قذف ثم خسف ثم مسخ ثم الجوع الأغبر ثم الموت الأحمر وهو الغرق. يا منذر إن للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأول لا يعلمها إلاّ العلماء منها الخريبة، ومنها تدمر، ومنها المؤتفكة، يا منذر والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو أشاء لأخبرتكم بخراب العرصات عرصة عرصة ومتى تخرب ومتى تعمر بعد خرابها إلى يوم القيامة، وإن عندي من ذلك علماً جماً وإن تسألوني تجدوني به عالماً لا أخطئ منه علماً ولا وافياً، ولقد استودعت علم القرون الأولى وما كائن إلى يوم القيامة.

قال: فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين: أخبرني مَنْ أهل الجماعة ومَنْ أهل الفرقة ومَنْ أهل السنّة ومَنْ أهل البدعة؟ فقال: ويحك إذا سألتني فافهم عنّي ولا عليك أن لا تسأل أحداً بعدي: أما أهل الجماعة فأنا ومن اتّبعني وإن قلّوا وذلك الحق عن أمر الله وأمر رسوله.

وأما أهل الفرقة فالمخالفون لي ولمن اتبعني وإن كثروا، وأما أهل السنّة فالمتمسكون بما سنّه الله ورسوله لا العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا، وقد مضى الفوج الأول وبقيت أفواج وعلى الله قصمها واستئصالها عن جديد الأرض. وبالله التوفيق.

١٠٣ - ومن خطبة له عليه السلام

في التزهيد في الدنيا

انْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا، الصَّادِفِينَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ، لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلاَ يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا.

رَحِمَ اللهُ امْرءاً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ. وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ.

أقول: صدف: أعرض. وثوى بالمكان: أقام به. والفجيعة: المصيبة. والجلد: القوة.

وحاصل الفصل تزهيد الدنيا والتحذير منها فأمرهم أن ينظروا إليها نظر الزاهدين فيها المعرضين عنها أمرٌ لهم بتركها واحتقارها إلاّ بمقدار الضرورة إلى ما تقوم به الضرورة ثم أردفه بذكر معائبها المنفرة:

فالأول: إزالتها للمقيم بها المطمئن إليها عمّا ركن إليه منها.

الثاني: فجيعتها للمترف المتنعم بها الذي خدعته بأمانيها حتى أمن فيها بسلب ما ركن إليه وأمن عليه.

الثالث: كونها لا يرجع ما تولى منها فأدبر من شباب وصحة ومال وعمر ونحوه.

الرابع: كونها لا يدري ما هو آتٍ من مصائبها فينتظر ويحترز منه.

الخامس: شوب سرورها بالحزن. إذ كان مسرورها لا يعدم في كل أوان فوت مطلوب أو فقد محبوب.

السادس: انتهاء قوة أهلها وجلدهم إلى الضعف كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] وزهد بعض الصالحين في الدنيا فقال: عيش مشوب بسقم منساق إلى هرم مختوم بعدم مستعقب بندم هل يجوز التنافس فيه! ثم نهى عن الاغترار بكثرة ما يعجبهم منه وعلّل حسن ذلك الانتهاء بقلة ما يصحبهم منها فإنّ المنافسة إنّما ينبغي أن يكون باقياً للإنسان حيث كان كان، وأشار بقليل ما يصحبهم منها إلى الكفن ونحوه. ثم دعا لمن تفكر فأفاده فكره عبرة: أي انتقال ذهن إلى ما هو الحق من وجوب ترك الدنيا والعمل للآخرة فإفادة ذلك الانتقال إدراكاً للحق ومشاهدة ببصر البصيرة له ثم أردفه بتشبيه وجود متاع الدنيا الحاضر بعدمه تنبيهاً على سرعة لحوق عدمه بوجوده. فكأن

وجوده شبيه بأن لم يكن لسرعة زواله وكذلك تشبيه عدم الآخرة الآن وما يلحق فيها من الثواب والعقاب بوجودها الدائم: أي كأنها لسرعة وجودها ولحوقها لم تزل موجودة، ونبّه بقوله: وكل معدود منقض، على انقضاء مدد الأعمار لكونها معدودة الأيام والساعات والأنفاس.

وقوله: وكل متوقع آتٍ وكل آتٍ قريب دانٍ.

في صورة الضرب الأول من الشكل الأول. ونتيجته فكل متوقع قريب دانٍ. والإشارة به إلى الموت وما بعده.

ومنها: الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!

أقول: حصر العالم فيمن عرف قدره، وأراد بقدره مقداره من ملك الله ومحله من الوجود، ولما كان عرفانه بذلك مستلزماً لمعرفته بنسبته إلى مخلوقات الله في العالمين وأنه أي شيء هو منها، ولأي شيء وجد لا جرم كان هو العالم اللازم لحدّه السالك لما أمر به غير المتعدي طوره المرسوم له في كتاب ربه وسنن أنبيائه.

وقوله: وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره.

لما كان العلم مستلزماً لمعرفة القدر كان عدم معرفة القدر مستلزماً لعدم العلم وهو الجهل لأن نقيض اللازم يستلزم نقيض الملزوم، وقوله: وكفى بذلك الجهل، إشارة إلى قوته واستلزامه للعذاب.

وقوله: وإنّ من أبغض الرجال إلى الله. إلى قوله: قصد السبيل.

قد سبق بيانه.

وقوله: سائراً بغير دليل.

كنّى بالدليل عن أئمة الهدى والمرشدين إلى الله، ويدخل في ذلك الكتاب والسنّة. فإنّ من سار في معاملته لله أو لعباده بغير دليل منهما كان من الهالكين.

وقوله: وإن دُعي. إلى آخره.

استعار لفظ الحرث لأعمال الدنيا وأعمال الآخرة، ووجه المشابهة كونها مستلزمة للمكاسب الأخروية والدنيوية كما أن الحرث كذلك، ثم شبّه ما عمل له من حرث الدنيا بالواجب عليه في مبادرته إليه ومواظبته عليه، وشبّه ما قصر عنه من حرث الآخرة بالساقط عنه فرضه في تكاسله وقعوده عنه مع أن الأمر منه ينبغي أن يكون بالعكس. وبالله التوفيق.

ومنها: وَذٰلِكَ زَمَانٌ لاَ يَنْجُو فِيهِ إِلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، «إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولٰئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى» وَأَعْلاَمُ السُّرَى، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ، وَلاَ الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ، أُولٰئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الإِسْلاَمُ، كَمَا يُكْفَأُ الإِنَاءُ بِمَا فِيهِ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

قال السيد الشريف: قوله عليه السلام: «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أراد به الخامل الذكر، القليل الشر، والمساييح: جمع مسياح، وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم، والمذاييع: جمع مذياع، وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها ونوه بها، والبذر: جمع بذور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه.

أقول: النومة: كثير النوم، وروي نومة بسكون الواو. وهو ضعيف. وكفأت الإناء: قلّبته لوجهه، وكنى بالنومة عن خامل الذكر بين الناس المشتغل بربه عنهم كما فسّره عليه السلام بقوله: إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد، وأشار بأولئك إلى كل مؤمن كذلك، واستعار لهم لفظ المصابيح والأعلام لكونهم أسباب الهداية في سبيل الله، وقد سبق ذلك.

وقوله: ليسوا بالمساييح. إلى قوله: ضراء نقمته. ظاهر. وقد فسّر السيد (رضوان الله عليه) مشكله.

وقوله: أيها الناس. إلى قوله: الإناء بما فيه.

إخبار بما سيكون من فساد أهل الزمان وما يكون فيه من الفتن وترك الدين كما سبق إشاراته، وشبّه قلبهم للزمان بقلب الإناء بما فيه، ووجه الشبه خروج الإسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج ما في الإناء الذي كبّ عن الانتفاع. وأحسن بهذا التشبيه. فإنّ الزمان للإسلام كإناء للماء، وأشار إلى أن ذلك ليس بظلم بقوله: إنّ الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. إن ذلك ابتلاء منه يبتلي به عباده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠] فمن صبر نفعه صبره ومن كفر فعليه كفره، وقد عرفت معنى ابتلاء الله لخلقه وفائدته فلا وجه لإعادته. وبالله التوفيق.

١٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام

وقد تقدم مختارها بخلاف هذه الرواية:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلاَ وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ الْحَسِيرُ، وَيَقِفُ الْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلاَّ هَالِكاً لاَ خَيْرَ فِيهِ. حَتَّى أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ. وَايْمُ اللهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا، مَا ضَعُفْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ، وَلاَ خُنْتُ، وَلاَ وَهَنْتُ، وَايْمُ اللهِ، لأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ.

أقول: لنشرح ما انفردت هذه الرواية من الزيادة على الفصل المتقدم: فالحسير: الذي أعيا في طريقه. والرحا: قطعة من الأرض تستدير وترتفع على ما حولها. واستوسقت: اجتمعت وانتظمت. وخمت: جنبت.

فقوله: فقاتل بمن أطاعه من عصاه. معناه ظاهر.

وقوله: ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم.

أي يسارع إلى هديهم وتسليكهم لسبيل الله كيلا تنزل بهم الساعة على عمى منهم عن صراط الله فيقعوا في مهاوي الهلاك.

وقوله: يحسر الحسير ويقف الكسير. إلى قوله: لا خير فيه.

إشارة إلى وصفه عليه السلام بالشفقة على الخلق في حال أسفارهم معه في الغزوات ونحوها: أي أنه كان يسير في آخرهم ويفتقد المنقطع منهم عن عياء وانكسار مركوب فلا يزال يلطف به حتى يبلّغه أصحابه إلاّ ما لا يمكن إيصاله ولا يرجى. قال بعض السالكين: كنى بالحسير والكسير عمن عجز ووقف قدم عقله في الطريق إلى الله لضعف في عين بصيرته واعوجاج في آلة إدراكه، وبقيامه عليه حتى يلحقه إلى غايته عن أخذه له بوجوه الحيل والجواذب إلى الدين حتى يوصله إلى ما يمكن من العقيدة المرضية والأعمال الزكية التي هي الغاية من طريق الشريعة المطلوب سلوكها.

وقوله: إلاّ هالكاً لا خير فيه.

أراد به من كان مأيوساً من رشده لعلمه بأن تقويمه غير ممكن كأبي لهب وأبي جهل ونحوهما.

وقوله: فاستدارت رحاهم.

استعار لهم لفظ الرحا لاجتماعهم وارتفاعهم على غيرهم كما ترتفع القطعة من الأرض عن تألف التراب ونحوه.

وقوله: واستوسقت في قيادها.

إشارة إلى طاعة من أطاع من العرب وانقاد للإسلام، واستعار لفظ الاتّساق والقيادة ملاحظة لتشبيههم بالإبل المجتمعة لسائقها والمنتظمة في قياده لها، واستعار لفظ الخاصرة للباطل، ورشّح تلك الاستعارة بذكر البقر ملاحظة لشبهه بالحيوان المبتلع ما هو أعزّ قيمة منه، وكنى به عن تميّز الحق منه. وبالله التوفيق.

١٠٥ - ومن خطبة له عليه السلام

حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَهِيداً، وَبَشِيراً، وَنَذِيراً، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، أَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً، فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا، فِي لَذَّتِهَا، وَلاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا، قَلِقاً وَضِينُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللهِ، ظِلاًّ مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ. فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ، وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً. وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ! أَلا وَإِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلا إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ!

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ.

عِبَادَ اللهِ، لاَ تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقَادُوا لأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لا يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ! فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لا يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ. إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِمَامِ إِلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الإِبْلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي

أقول: الشيمة: الخلق. واحلولى: حلا. والخلف: حلمة ضرع الناقة. والوضين: حزام الهودج. والمخضود: الذي لا شوك فيه. والماتح: الجاذب للدلو من البئر. والترويق: التصفية. والجرف: المكان يأكله السيل. وهار: أصله هائر وهو المنهدم نقلت من الثلاثي إلى الرباعي كشائك وشاكي. والشجو: الهمّ والحزن. وصوّح النبت: يبس.

وقوله: حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله. إلى قوله: من بعده.

افتخار به صلى الله عليه وآله ومدح له بالقوة في الدين وتوبيخ لجمع الدنيا ومحبيها بعده، وهو غاية لفصل سابق كأنه ذكر فيه ما كانوا عليه من سوء الحال والقشف والفقر، ومن عليهم بذكر هذه الغاية الحسنة لتلك الأحوال، ووصفه بأوصاف:

أحدها: كونه شهيداً، أي على الخلق بأعمالهم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وقد عرفت كيفية هذه الشهادة.

الثاني: وبشيراً للخلق بما أعدّهم من الثواب العظيم.

الثالث: ونذيراً لهم بما أعدّ للعصاة من العذاب الأليم. وينتظم هذه الأوصاف قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]. والثلاثة أحوال.

الرابع: خير البريّة طفلاً، ولما علمت أن الأفضلية إنما هي بالأعمال الصالحة والتسديد لسلوك سبيل الله وكان هو صلى الله عليه وآله منذ صباه وطفوليته أفضل الخلق في لزوم ذلك لا جرم كان خير الناس طفلاً.

الخامس: وأنجبها كهلاً، ولما كانت النجابة

مستلزمة لكرم الخصال والتقاط الفضائل وتتبعه وكان هو عليه السلام في كهولته وزهوته منبع كل فضيلة لا جرم كان أنجبهم كهلاً. وطفلاً وكهلاً منصوبان على الحال أيضاً.

السادس: كونه أطهر المطهرين شيمة، ولما كان عليه السلام متمّم مكارم الأخلاق الظاهرة وكل خلق عدل فمنه مكتسب لا جرم كان أطهر الشيمة وأكرم الخلق.

السابع: أجود المستمطرين ديمة. استعار له وصف السحاب المرجو منه نزول الديمة وهي المطر الذي لا رعد فيه ولا برق، ورشح بلفظ الديمة وكنّى بذلك عن غاية جوده وكرمه، وقد كان عليه السلام إذا أمسى آوى إلى البيت فلا يجد فيه شيئاً من فضة أو ذهب إلاّ تصدق به ولم يبت في بيته منه شيء. وشيمة وديمة تميزان.

وقوله: فما احلولت لكم الدنيا في لذاتها. إلى قوله: من بعد ما.

الخطاب لبني أُميّة ونحوهم وتبكيت لهم بتطعمهم لذة الدنيا وابتهاجهم بها وتمكّنهم منها بعد الرسول عليه السلام وتذكير لهم بمخالفتهم لسنّته في ذلك. واستعار لفظ الأخلاف، وكنّى به عن وجوه مكاسب الدنيا ولذّاتها، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الرضاع، وكنى به عن تناولها ملاحظة لتشبيهها بالناقة.

وقوله: صادفتموها. إلى قوله: غير موجود.

استعار لها لفظ الخطام والوضين ورشحهما بالقلق والجولان، وكنّى بذلك عن مصادفتهم للدنيا بعد رسول الله عليه السلام غير منظومة الحال ولا مضبوطة على ما ينبغي لضعف ولاتها عن إصلاح حالها كما أن الناقة قلقة الحزام، وجائلة الخطام غير منظومة الآلة ولا مضبوطة الحالة فهي بمعرض أن تمشي وتنصرف على غير استقامة فهلك راكبها، ثم ذكر رذيلة القوم فشبّه حرامها بالسدر المخضود معهم، ووجه الشبه أن نواهي الله ووعيداته على فعل المحرمات تجري مجرى الشوك للسدر في كونها مانعة منه كما يمنع شوك السدر جانيه من تناول ثمرته، ولما كان بعض الأمّة قد طرح اعتبار النواهي والوعيد جانباً عن نفسه وفعل ما حرم عليه جرى ذلك عنده مجرى تناوله للسدر الخالي عن الشوك في استسهاله تناوله وإقدامه عليه. وكون حلالها بعيداً غير موجود: أي بين أولئك المشار إليهم. وجائلاً وقلقاً حالان.

قوله: وصادفتموها والله. إلى قوله: مقبوضة.

استعار لفظ الظلّ لها ورشح بالممدود، وكنّى بذلك عن زوالها بعد حين تهديداً لهم به، ثم استعار لفظ الشاغرة للأرض، وكنّى به عن خلوّها لهم. يقال: بقي الأمر الفلاني شاغراً برجله إذا لم يكن له طالب ولا حام يحميه، وكنى ببسط أيديهم فيها عن قدرتهم على التصرف، وأراد بالقادة الخلفاء، وبسلاطة سيوفهم على القادة جرأتهم وحكمهم عليهم، وبقبض سيوف القادة عدم تمكنهم منهم.

وقولهم: ألا إن لكل دم ثائراً. إلى قوله: من لأهوائكم.

تهديد بالله لبني أُمية وتخويف بأخذه وعقابه. وهاتان الكليتان ظاهرتا الصدق فإنه تعالى هو الثائر لكل دم معصوم والطلب به إن عدم طالبه أو ضعف، ولما كان دم مثلهم عليهم السلام وسائر الصحابة ممن عصم الله دمه ومنع منه وحرمه يجري مجرى الحق الثابت المتعارف لله في كونه يطلب به ولا يهمله وهو الحاكم المطلق لا جرم استعار لفظ الثائر، وإنما قال: كالحاكم لأن إطلاق لفظ الحق لله تعالى به ليس بحقيقة. إذ الحق من شأنه أن ينتفع بأخذه ويتضرّر بتركه والباري منزه عن ذلك لكن لما جرى ذلك الدم مجرى الحق له تعالى، به أشبه الحاكم منّا في استيفاء الحق. ووصفه تعالى بأنه لا يعجزه مطلوب ولا يفوته هارب في معرض التهديد لهم بأخذه وقوته. ثم أردف ذلك بالقسم البارّ مخاطباً لبني أُميّة لتعرفنّها: أي الدنيا وإمرتها في يد غيرهم من أعدائهم. وذلك ظاهر الصدق بانتقالها إلى بني العباس، ثم شرع بعده في التنبيه على الفكر في تحصيل السعادة الباقية والخير الدائم وعلى قبول الوعظ والتذكر. فأشار إلى أنه أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير فقبله، وأراد بطرف البصر العقل وسمعه استعارة، أو حسّ البصر والسمع على معنى أن أفضل

إبصار البصر وسماع السمع ما عاد على المبصر والسامع بالفائدة المطلوبة منهما وهي تحصيل الكمالات النفسانية من العلوم والأخلاق، ولما قدم ذلك أمام مقصوده أيّه بالناس بعده إلى قبول قوله والاستصباح بنوره، واستعار لنفسه لفظ المصباح، ورشح بذكر الشعلة والاستصباح، واستعار لفظ العين ورشح بذكر الصفو والترويق والمتح، ووجه الاستعارة الأولى كونه مقتدى به كالمصباح، ووجه الثانية كون المستفاد منه مادة الحياة الأبدية كما أن ماء العين مادة الحياة الدنيوية وكنّى بترويقها من الكدر عن رسوخه فيما علم بحيث لا يتطرق إليه فيه شبهة تكدر يقينه، وهو أمر لهم بالاهتداء به، وأخذ العلوم والأخلاق عنه. ثم لما أمر بأخذهما عنه أردفه بالنهي عن الجهل والركون إليه ثم عن الانقياد للأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق إلى رذائلها وعن حق المصالح إلى باطلها.

وقوله: فإن النازل بهذا المنزل.

أراد المنزل المشير المدّعي للنصيحة لهم عن جهل منه بوجوه المصالح وذلك أنه عليه السلام كان يرى الرأي الصالح، ويشير عليهم به فإذا خلا بعضهم إلى بعض فما كان من ذلك فيه مشقة عليهم من جهاد أو مواظبة على عمل شاق أشار منافقوهم المبغضون المدّعون لأهليتهم لمقامه بعكس ما رأى فيه وأشار به ردّوهم عنه إلى ما يوافق أهواءهم ويلائم طباعهم إفساداً في الدين، وأشار عليه السلام إلى ما نزّل نفسه منزلة المشير الناصح مع أن كل ما يشير به عن هوى متبع وجهل فهو على شفا جرف هار، واستعار لفظ الجرف للآراء الفاسدة الصادرة. فإنها لم تبن على نظام العقل ولم ترخص فيه الشريعة. فكانت منهارة لا يبنى عليها إلاّ ما كان بصدد أن ينهار، وكأن المشير بها واقف على شفا جرف هار منها ينهار به في نار جهنم أو في الهلاك الحاضر.

يقال لمن فعل فعلاً على غير أصل أو يتوقع له منه عقوبة مثلاً: إنّه على شفا جرف هار، ونحوه قوله تعالى: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] الآية.

وقوله: ينقل الردى على ظهره من موضع.

لما كان الردى هو الهلاك وكان الرأي الفاسد يستلزم الهلاك للمشار عليه وللمشير كان المشير على الخلق به، عن هو كالناقل للهلاك من شخص إلى غيره والمقسم له على من يشير عليهم به. وهو في معرض التنفير عنه.

وقوله: لرأي يحدثه بعد رأي يريد أن يلصق ما لا يلتصق.

ذكر غاية تنقله من موضع إلى آخر فإنّ نقله للردى يستلزم أن ينقله، وروي: ولرأى بالواو. وعلى هذا يكون كلاماً مستأنفاً، والتقدير أن بسبب رأي يحدثه يريد إلصاق ما لا يلتصق. واستعار لفظ اللصق للصلح: أي يريد أن يصلح بينكم وبين أعدائكم، وذلك أمر لا ينصلح، ووجه المشابهة كون الخصمين في طرفين يجمعهما الصالح ويوجب لهما الاتحاد كما يجمع اللصاق بين الملتصقين، ويحتمل أن يريد أن يلصق بكم من الآراء الفاسدة ما لا ينبغي أن يلتصق بكم.

وكذلك قوله: ويقرّب ما لا يتقارب.

ويقرّب عليكم ما بينكم وبينهم من البعد والافتراق، وذلك أمر لا يتقارب. ويفهم من هذا أن من كان ينهاهم عن الركون إلى استشارته. كان يخذلهم عن الحرب بذكر الصلح بينهم وبين معاوية والدخول فيه. ثم حذّرهم الله وعقابه في أن يشكوا إلى من لا يشتكى حزنهم، وذلك أن المشتكى إليه والمستشار إذا لم يساهم الشاكي همه لم يكن أهلاً للرأي في مثل ذلك الأمر المشكو، وإن كان معروفاً بجودة الرأي، وسر ذلك أن الاهتمام بالأمر يبعث رائد الفكر على الاستقصاء في تفتيش وجوه الآراء الصالحة فيه فيكون بصدد أن يستخرج منها أصلحها وأنفعها، وإن كان دون غيره في جودة الرأي بخلاف الخلي العديم الباعث على طلب الأصلح. وأردفهم بنهيهم عن أن ينقض برأيه الفاسد ما قد أبرمه هو عليه السلام لهم من الرأي الصائب في التجرد للحرب.

ثم أردفه ببيان ما يجب على الإمام مما هو تكليفه بالنسبة إلى الرعيّة، وفائدة ذلك الإعذار إليهم فيما هم عساهم ينسبونه إليه من تقصير فيركنون إلى غيره في الرأي ونحوه، وذكر أموراً خمسة:

الإبلاغ في موعظة العباد. ثم الاجتهاد في النصيحة لهم. ثم الإحياء لسنّة الله ورسوله فيهم. ثم إقامة الحدود التي يستحقونها بجناياتهم. ثم إصدار السهمان على أهلها. والسهمان: جمع سهم وهو النصيب المستحق به للمسلم من بيت المال. ثم لما سبق نهيه عن الركون إلى الجهل أمر هنا بالمبادرة إلى العلم من قبل تصويح نبته، واستعار لفظ النبت، ورشّح بذكر التصويح، وكنى به عن عدمه بموته عليه السلام.

وقوله: من قبل أن تشغلوا بأنفسكم.

أي: بتخليصها من شرور الفتن التي ستنزل بهم من بني أمية ومعاناتها، ومستشار العلم ما استثير منه واستخرج، وأهله هو عليه السلام ومن في معناه. ثم أمرهم بالانتهاء عن المنكر، ثم ينهى غيرهم فإن النهي عن الشيء بعد الانتهاء عنه هو النهي المثمر المطابق لمقتضى الحكمة. إذ كان انفعال الطباع عن مشاهدة الأفعال والاقتداء بها أقوى وأسرع منها عن سماع الأقوال خصوصاً إذا خالفها فعل القائل. وذلك أمر ظاهر شهدت به العقول السليمة والتجارب وتوافقت عليه الآراء والشرائع، وإليه أشار الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

١٠٦ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الإِسْلامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ. فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ وَاضِحُ الْوَلائِجِ، مُشْرَفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ، رَفِيعُ الْغَايَةِ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ. التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ. وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ.

أقول: الأبلج: الواضح المشرق. والوليجة: بطانة الرجل وخاصته. والمضمار: محل تضمير الخيل للسباق. والحلبة: خيل تجمع من مواضع متفرقة للسباق، وقد تطلق على مجمعها. والسبقة: ما يستبق عليه من الخطر.

وقد حمد الله سبحانه باعتبار ما أنعم به من وضع شريعة الإسلام للعقول لتسلك بها إليه، وأشار بشرائعه إلى موارد العقول من أركانه، وتسهيله لها إيضاح قواعده وخطاباته بحيث يفهمها الفصيح والألكن ويشارك الغبي في ورود مناهلها الفطن الذكي، وإعزاز أركانه حمايتها ورفعها على من قصد هدمه وإطفاء نوره مغالبة من المشركين والجاهلين. ثم مدح الإسلام بأوصاف أسندها إلى مفيضه وشارعه سبحانه وتعالى:

أحدها: جعله أمناً لمن علقه. وظاهر كونه أمناً لمن تعلق به في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب.

الثاني: وسلماً لمن دخله: أي مسالماً له، وفي الأول ملاحظة لتشبيهه بالحرم باعتبار دخوله، وفي الثاني ملاحظة لشبهه بالمغالب من الشجعان باعتبار مسالمته. ومعنى مسالمة الإسلام له كونه محقون الدم مقراً على ما كان يملكه فكأن الإسلام سالمه أو صالحه لكونه لا يقتص ما يؤذيه بعد دخوله فيه.

الثالث: كونه برهاناً لمن تكلم به: أي فيه ما هو برهان.

الرابع: كونه شاهداً لمن خاصم به: والشاهد أعمّ من البرهان لتناوله الجدل والخطابة.

الخامس: كونه نوراً يستضاء به. فاستعار له لفظ النور، ورشحه بذكر الاستضاءة، ووجه المشابهة كونه مقتدى به في طريق الله إلى جنته.

السادس: كونه مفهماً لمن عقل. ولما كان الفهم عبارة عن جودة تهيؤ الذهن لقبول ما يرد عليه كان الدخول في الإسلام ورياضة النفس بقواعده وأركانه

سبباً عظيماً لتهيؤ الذهن لقبول الأنوار الإلهية وفهم الأسرار لا جرم أطلق عليه لفظ الفهم مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب.

السابع: كونه لبّاً لمن تدبر. ولما كان اللبّ هو العقل أطلق عليه لفظ العقل وإن كان مسبباً له كالمجاز الأول، وأراد العقل بالملكة وما فوقه من مراتب العقل فإن الإسلام وقواعده أقوى الأسباب لحصول العقل بمراتبه.

الثامن: كونه آية لمن توسم. وأراد من تفرّس طرق الخير ومقاصده فإن الإسلام آية وعلامة لذلك المتفرّس، إذا اهتدى بها فقد وقع في طريق الهدى.

التاسع: كونه تبصرة لمن عزم. وأراد من عزم على أمر قصده فإن في الإسلام تبصرة لكيفية فعله على الوجه الذي ينبغي.

العاشر: كونه عبرة لمن اتعظ. وذلك ظاهر فإن الإسلام نعم المعبر بنفس المتعظ إلى حضرة قدس الله بما فيه من أحوال القرون الماضية وتصرّف الزمان بهم.

الحادي عشر: كونه نجاةً لمن صدق الرسول ﷺ فيما جاء به. فإنَّ دخوله في الإسلام سبب نجاته من سيوف الله في الدنيا وعذابه في الآخرة، وأطلق عليه اسم النجاة إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب.

الثاني عشر: كونه ثقة لمن توكل: أي هو سبب ثقة المتوكلين على الله لاشتماله على الوعد الكريم وبه يكون استعدادهم للتوكل.

الثالث عشر: كونه راحةً لمن فوّض: أي من ترك البحث والاستقصاء في الدلائل وتمسك بأحكام الإسلام ودلائل القرآن والسنّة المتداولة بين أهله وفوّض أمره إليه استراح بذلك التفويض. وقيل: بل المراد أن فيه الندب إلى تفويض الأُمور إلى الله وعلم ما لم يعلم منها وترك التكليف به وذلك راحته، وقيل: بل المراد أن المسلم إذا كمل إسلامه وفوّض أمره إلى الله كفاه الله جميع أموره وأراحه من الاهتمام بها.

الرابع عشر: كونه جنة لمن صبر: أي صبر على العمل بقواعده وأركانه، وظاهر كونه جنّة من عذاب الله، ولفظ الجنة مستعار.

الخامس عشر: أبلج المناهج، ومناهج الإسلام طرقه وأركانه الذي يصدق على من سلكها أنه مسلم، وهي الإقرار بالله ورسوله والتصديق بما ورد في الشريعة كما يفسره هو به، وظاهر كونها أنوار واضحة الهدى.

السادس عشر: كونه واضح الولائج: واضح البواطن والأسرار لمن نظر إليه بعين الاعتبار.

السابع عشر: كونه مشرف المنار، ومنار الإسلام الأعمال الصالحات التي يقتدي بها السالكون كالعبادات الخمس ونحوها، وظاهر كونه مشرفة عالية على غيرها من العبادات السابقة.

الثامن عشر: كونه مشرق الجواد. وهو قريب من أبلج المناهج.

التاسع عشر: كونه مضيء المصابيح. وكنى بها عن علماء الإسلام وأئمته كناية بالمستعار، ورشّح بذكر الإضاءة، وكنّى بها عن ظهور العلم عنهم واقتداء الخلق بهم، ويحتمل أن يريد بالمصابيح أدلة الإسلام كالكتاب والسنّة.

العشرون: كونه كريم المضمار، ومضمار الإسلام الدنيا كما سنذكره، ولا شك في كونها كريمة باعتبار اقتباس الأنوار منها والعبور بها إلى الله تعالى، ولفظ المضمار مستعار لها، وقد سبق بيانه.

الحادي والعشرون: كونه رفيع الغاية، ولما كانت غايته الوصول إلى حضرة رب العالمين التي هي جنة المأوى لا جرم كان رفيع الغاية. إذ لا غاية أرفع منها وأعلى مرتبة.

الثاني والعشرون: كونه جامع الحلبة، واستعار لفظ الحلبة للقيامة فإنها حلبة الإسلام كما سنبيّنه، ووجه الاستعارة كونها محل الاجتماع بها للسباق إلى حضرة الله التي هي الجنة كاجتماع الخيل للسباق إلى الرهن.

الثالث والعشرون: كونه متنافس السبقة، ولما كانت سبقته الجنة كانت أشرف ما يتنافس فيها.

الرابع والعشرون: كونه شريف الفرسان، واستعار لفظ الفرسان لعلمائه الذين هم فرسان العلوم ورجالها ملاحظة لشبههم بالفرس الجواد الذي يجاري راكبه.

الخامس والعشرون: التصديق منهاجه، وهي إلى آخره تفسير لما أهمل تفسيره من منهاجه ومناره وغايته ومضماره وحلبته وسبقته، وإنما جعل الموت غاية: أي الغاية القريبة التي هي باب الوصول إلى الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالموت موت الشهوات فإنها غاية قريبة للإسلام أيضاً، وكذلك استعار لفظ السبقة للجنة لكونها الثمرة المطلوبة والغاية من الدين كما أن السبقة غاية سعي المتراهنين.

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً. اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَتَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلا نَادِمِينَ، وَلا نَاكِبِينَ، وَلاَ نَاكِثِينَ، وَلا ضَالِّينَ، وَلا مُضِلِّينَ، وَلا مَفْتُونِينَ.

قال الشريف: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم، إلاّ أننا كررناه ههنا لما في الروايتين من الاختلاف.

أقول: القبس: الشعلة. وأورى: أشعل. والحابس: الواقف بالمكان. والنزل: ما يهيأ للنزيل من ضيافة ونحوها. والسناء: الرفعة. والزمرة: الجماعة من الناس. والناكب: المنحرف من الطريق.

فقوله: حتى أورى. إلى قوله: لحابس.

غاية الكلام مدح فيه النبي صلى الله عليه وآله وذكر جهاده واجتهاده في الدين للغاية المذكورة، واستعار لفظ القبس لأنوار الدين المشتعلة لتقتبس منها نفوس الخلائق أنوار الهدى، وكذلك استعار لفظ العلم وأسند إليه تنويره، ويفهم منه أمران:

أحدهما: أنه أظهر أنواراً جعلها أعلاماً يهتدى بها في سبيل الله من حبسته [أجلسته خ] ظلمة الحيرة والشبهة عن سلوكها فهو واقف على ساق التحيّر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢٠]. وكنّى بتلك الأعلام عن آيات الكتاب والسنن.

الثاني: أن يكون المراد بالأعلام أئمة الدين، وتنويره لها تنوير قلوبهم بما ظهر عن نفسه القدسية من الكمالات والعلوم.

وقوله: فهو أمينك المأمون.

أي: على وحيك، وشهيدك يوم الدين: أي على خلقك، وبعيثك نعمةً: أي مبعوثك إليهم نعمة عليهم بهدايتهم به إلى جنتك، ورسولك بالحق رحمة لعبادك أن يقعوا في مهاوي الهلاك بسخطك ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ثم أردفه بالدعاء له صلى الله عليه وآله فدعا الله أن يقسم له مقسماً من عدله، ولما كان مقتضى عدل الله أن يبلغ نفساً هي محل الرسالة أقصى ما استعدت له من درجات الكمال ويعدّها بذلك لكمال أعلى، دعا له أن يقسم له نصيباً وافراً من عدله يعدّه به للدرجات من رتب الوصول غير المتناهية.

وقوله: واجزه مضاعفات الخير من فضلك.

لما دعا له بما يستحقه زاد على ذلك فدعا له بأن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له ما يستحقه من الخيرات.

وقوله: اللهم أعلِ على بناء البانين بناءه.

دعاء ليشيّد ما بناه من قواعد الدين على سائر بناء البانين للشرايع من الرسل قبله، وأراد ما بناه لنفسه من مراتب الكمال، ولفظ البناء مستعار. ثم دعا أن يكرم لديه ما هيأه له من الثواب الجزيل وأن يشرف مقامه في حضرة قدسه وأن يؤتيه ما يتوسل به إليه وَيقرّبه منه، وهو أن يكمل استعداده لما هو أتم القوة على الوصول إليه، وأن يعطيه الرفعة ويشرفه بالفضيلة التامة، وأن يحشره في زمرته على أحوال: غير خازين: أي بقبائح الذنوب، ولا نادمين على التفريط في جنب الله والتقصير في العمل بطاعته، ولا ناكبين منحرفين عن سبيله إلى أحد طرفي التفريط والإفراط، ولا ناكثين لعهوده ومواثيقه التي واثق بها خلقه أن يعبدوه ويخلصوا له الدين، ولا ضالين عن سواء السبيل العدل، ولا مفتونين بشبهات الأباطيل. وبالله التوفيق.

ومنها في خطاب أصحابه:

وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَلا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ. وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ! وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ! وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!

أقول: صدر هذا الفصل بتذكيرهم المنزلة التي أكرمهم الله بها من الإسلام والهداية للإيمان، وما في تلك المنزلة من الفضل حتى عمت حرمتها إماءهم وجيرانهم وإن كانوا غير مسلمين، وعظمهم من لا فضل لهم عليه ولا يدلهم عنده، وهابهم من لا يخاف سطوتهم. وظاهر أن سبب ذلك كلّه هو كرامة الله لهم بالإسلام والهداية للإيمان. ثم لما قرر نعمة الله عليهم أردف ذلك بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقه، وأشار إلى ارتكابهم لبعض مسببات كفران نعمته وهو عدم إنكارهم لما يرون من نقض عهود الله وسكوتهم عليها وعدم غضبهم منها كالراضين بذلك، وأراد بذلك بغي البغاة وخروج الخوارج وسائر المنكرات التي وقعت من أهل الشام وغيرهم، خالفوا فيها أمر الله ونكثوا بيعته التي هي عهد من عهود الله عليهم. فإن السكوت على مثل ذلك مع التمكن من إزالته وإنكاره بالجهاد منكرٌ هم راكبوه، والواو في قوله: وأنتم للحال: أي وأنتم مع ذلك تأنفون لنقض ذمم آبائكم فكان يجب منكم بطريق الأولى أن تأنفوا لعهود الله أن تنقض وذممه أن تخفر.

ثم ذكرهم تفريطهم وتهاونهم في الأمور التي كان الله سبحانه فرضها عليهم وجعلهم موردها ومصدرها من أمور الإسلام وأحكامه والتسلط به على سائر الناس، ويكتهم بتمكينهم الظلمة في منزلتهم تلك من الإسلام، وأراد بالظلمة معاوية وقومه وبتمكينهم لهم تخاذلهم عنهم وإلقائهم أزمة الأمور إليهم بذلك، ولفظ الأزمة مستعار، والأمور التي سلّموها إليهم أحوال بلاد الإسلام. كل ذلك بالتقصير عن مجاهدتهم. وعملهم بالشبهات: عملهم على وفق أوهامهم الفاسدة وآرائهم الباطلة التي يتوهمونها حججاً فيما يفعلون، وسيرهم في الشهوات: قطع أوقاتهم بالانهماك في مقتضيات الشهوة.

وقوله: وأيم الله. إلى آخره.

تحذير لهم وإنذار بما سيكون من بني أمية من جمع الناس في بلائهم وشرورهم وعموم فتنتهم، وكنّى باليوم عن مدة خلافتهم التي كانت شرّ الأوقات على الإسلام وأهله، وإنما نسب التفريق إليهم والجمع إلى الله تقريراً لما سينزل به قدره من ابتلاء الخلق بهم. فإنهم لو فرّقوهم في أطراف البلاد لم يغنهم ذلك التفريق عن لحوق قدر الله لهم ولم يمنعهم من نزوله بجميعهم بما يراد لهم من الابتلاء بدولة بني أمية وشرورها، وأحوال دولتهم مع الخلق خصوصاً الصالحين من عباد الله ظاهرة. وبالله العصمة والتوفيق.

١٠٧ - ومن خطبة له عليه السلام

في بعض أيام صِفِّين

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ، حَسّاً بِالنِّضَالِ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ؛ تَرْكَبُ أُولاَهُمْ أُخْرَاهُمْ، كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ؛ تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا؛ وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا!

أقول: الجولة: الدولة. وانحاز: زلّ. والطغام: أوغاد الناس. واللهاميم: جمع لهموم وهو الجواد من

الناس. واليآفيخ: جمع يأفوخ وهو أعلى الدماغ. والوحاوح: جمع وحوحة وهو صوت فيه بحح يصدر عن المتألم. والحس: الاستئصال. والنضال: جمع نضل السيف. والشجر: الطعن. وتذاد: تساق وتطرد.

وفي هذا الفصل تبكيت لأصحابه بانحيازهم عن عدوّهم وتقريع، ثم تنحية وإغراء كيلا يعادوا إلى الفرّ، وذلك قوله: وقد رأيت. إلى قوله: أهل الشام: أي وقد رأيت تخاذلكم عنهم حتى حازكم أراذل أهل الشام مع أنكم أهل الشرف وسادات العرب، واستعار لفظ اليوافيخ لهم، إذ كانوا بالنسبة إلى العرب في علوّهم وشرفهم كاليوافيخ بالنسبة إلى الأبدان، وكذلك استعار لفظ الأنف والسنام، ووجه المشابهة عزّهم وشرفهم كعزة الأنف وتقدمه، وحسن الوجه به بالنسبة إلى باقي الأعضاء، وكعزّة السنام وعلوه بالنسبة إلى باقي أعضاء الجمل. ثم أردف ذلك التبكيت والتذكير بالرذيلة بذكر فضيلتهم التي ختموا بها، وهي حوزهم لعدوّهم بالأخرة. كحوزهم لهم أولاً وإزالتهم عن مواقفهم كما أزالوهم وحسهم استئصالاً وطعناً يركب مقدمهم بتاليهم، وأولهم آخرهم ليثبتوا على مثل هذه الأفعال في مثل تلك المواقف، وعدّ ذلك شفاء لوحاوح صدره، وكنّى بالوحاوح عما كان يجده من التألم بسبب انقهار أصحابه وغلب عدوهم لهم وشبّههم في تضعضعهم وركوب بعضهم لبعض مولين بالإبل العطاش التي اجتمعت على الحياض لتشرب ثم طردت ورميت عنها بالسهام وذيدت عما وردته فإن طردها على ذلك الاجتماع يوجب لها أن يركب بعضها بعضاً ويقع بعضها على بعض. وبالله التوفيق.

١٠٨ - ومن خطبة له عليه السلام

وهي من خطب الملاحم:

الْحَمْدُ للهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بِذَوِي الضَّمَائِرِ وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ.

أقول: حمد الله تعالى باعتبارات خمسة:

أحدها: اعتبار تجليه لخلقه بخلقه، وقد علمت غير مرة أن تجليه يعود إلى إجلاء معرفته من مصنوعاته لقلوب عباده حتى أشبهت كل ذرّة من مخلوقاته مرآة ظهر فيها لهم. فهم يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتفاوت تلك المشاهدة بحسب تفاوت أشعة أبصار بصائرهم. فمنهم من يرى الصنيعة أولاً والصانع ثانياً، ومنهم من يراهما معاً، ومنهم من يرى الصانع أولاً، ومنهم من لا يرى مع الصانع غيره.

الثاني: الظاهر لقلوبهم بحجته: أي الواضح وجوده لقلوب منكريه بأوهامهم وألسنتهم بقيام حجته عليهم بذلك وهي إحكام الصنع وإتقانه في أنفسهم وإن احتاجوا إلى تنبيه ما. كقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وكذلك في ملكوت السماوات والأرض كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥] . الآية وهو قريب مما مرّ.

الثالث: خلقه الخلق بلا روية وفكر في كيفية خلقه، وأشار إلى برهان سلب الروية عنه بقوله: إذ كانت الرويّات لا تليق إلاّ بذوي الضمائر: أي بذي قلب وحواس بدنيّة، وليس بذي ضمير في نفسه. والقياس من الشكل الثاني، وترتيبه كل روية فلذي ضمير، ولا شيء من واجب الوجود بذي ضمير. فينتج أنه لا شيء من الروية لواجب الوجود سبحانه. والمقدمتان جليتان مما سبق غير مرّة.

الرابع: كون علمه خارقاً لباطن غيب الستارات، وهو إشارة إلى نفوذه في كل مستتر وغائب بحيث لا يحجبه ستر ولا يستره حجاب.

الخامس: كونه محيطاً بغموض عقائد السريرات: أي بما دقّ من عقائد أسرار القلوب كقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧] .

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله:

اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ.

أقول: الذؤابة: ما تدلى من الشعر ونحوه. وبطحاء مكة: بسيط واديها. وسرّة الوادي: أشرف موضع فيه.

وفي الفصل استعارات:

الأولى: لفظ الشجرة لصنف الأنبياء عليهم السلام ووجه المشابهة كون ذلك الصنف ذا ثمر وفروع؛ ففروعه أشخاص الأنبياء، وثمره العلوم والكمالات النفسانية كما أن الشجرة ذات غصون وثمر.

الثانية: لفظ المشكاة لآل إبراهيم، ووجه المشابهة أن هؤلاء قد ظهرت منهم الأنبياء وسطع من بيتهم ضياء النبوة ونور الهداية كما يظهر نور المصباح من المشكاة.

الثالثة: لفظ الذؤابة. ويشبه أن يشير به إلى قريش، ووجه المشابهة تدليهم في أغصان الشرف والعلوّ عن آبائهم كتدلي ذؤابة الشعر عن الرأس.

الرابعة: سرّة البطحاء، وأشار به إلى اختياره من أفضل بيت في مكة.

الخامسة: استعارة لفظ المصابيح للأنبياء أيضاً. ووجه المشابهة ظاهر. وقد مرّ غير مرّة كونهم مصابيح ظلمات الجهل.

السادسة: استعارة لفظ الينابيع، ووجه المشابهة فيضان العلم والحكمة عنهم كفيضان الماء عن ينابيعه.

ومنها: طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمىٰ مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ. قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لأَهْلِ الْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا. مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلا أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلا صَلَاحٍ، وَتُجَّاراً بِلا أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ! رَايَةُ ضَلَالَةٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا. قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ، أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ، وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ، وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ، فَاسْتَمِعُوه مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ. فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ. فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً، وَالْمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً؛ وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً.

أقول: المواسم: المسامير التي تكوي. وانجابت:

انكشفت. والمتوسم: المتفرس. والضلّة: الضلال. والعكم بكسر العين: العدل. والبطينة: الممتلية. والغياهب: الظلم. وتؤفكون: تصرفون. والفنيق: الفحل المكرم. وكظوم الجمل: سكوته عن الجرة.

فقوله: طبيب دوّار بطبه:

كناية عن نفسه كناية بالمستعار فإنه طبيب مرضى الجهل ورذائل الأخلاق، وكنّى بدورانه بطبه تعرضه لعلاج الجهّال من دائهم ونصب نفسه لذلك، واستعار لفظ المراهم لما عنده من العلوم ومكارم الأخلاق، ولفظ المواسم لما يتمكن منه من إصلاح من لا تنفع فيه الموعظة والتعليم بالجلد وسائر الحدود. فهو كالطبيب الكامل الذي يملك المراهم والأدوية والمكاوي لمن لا تنفع فيه المراهم يضع كل واحد من أدويته ومواسمه حيث الحاجة إليه من قلوب عمي يفتح عماها بإعدادها لقبول أنوار العلم والهداية لسلوك سبيل الله، ومن آذان صمّ يعدها لقبول المواعظ، وتجوّز بلفظ الصمم في عدم انتفاع النفس بالموعظة من جهتها فهي كالصماء إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. إذ كان الصمم يستلزم ذلك العدم، ومن ألسنة بكم يطلقها بذكر الله والحكمة، وأطلق لفظ البكم مجازاً في عدم المطلوب منها بوجودها وهو التكلم بما ينبغي فإنها لفقدها ذلك المطلوب كالبكم.

وقوله: متّبع:

صفة لطبيب، ومواضع الغفلة ومواطن الحيرة كناية عن قلوب الجهّال [الجهلة خ] ولذلك أشار إليهم بأنهم لم يستضيؤوا بأضواء الحكمة: أي لم يكسبوا شيئاً من العلوم والأخلاق، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة التي تثقب سترات الحجب كما يستخرج بالزناد النار.

وقوله: فهم في ذلك: أي في عدم استضاءتهم بأضواء الحكمة كالأنعام السائمة والصخور القاسية. ووجه المشابهة بينهم وبين الأنعام استواؤهم في الغفلة والانخراط في سلك الشهوة والغضب دون اعتبار شيء من حظ العقل وعدم التقيّد به كما لا قيد للأنعام السائمة. وبينهم وبين الصخور قساوة قلوبهم وعدم لينها وخشيتها من ذكر الله وآياته كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقوله: قد انجابت السرائر لأهل البصائر:

إشارة إلى انكشاف ما يكون بعده لنفسه القدسية ولمن تفرّس من أُولي التجارب والفطن السليمة مما يكون من ملوك بني أُمية وعموم ظلمهم، ويحتمل أن يريد بالسرائر أسرار الشريعة وانكشافها لأهلها.

وقوله: ووضحت محجّة الحق لخابطها:

إشارة إلى وضوح الشريعة وبيان طريق الله، وفائدة القضية الأولى التنبيه على النظر في العواقب، وفائدة الثانية الجذب إلى اتباع الدين وسلوك سبيل الله إذ لا عذر للخابطين في جهالاتهم بعد وضوح دين الله.

وقوله: وأسفرت الساعة عن وجهها:

أي بدت مقبلة، ولما كان وجه الشيء أول ما يبدو منه وينظر كنّى به عما بدا من أمر الساعة وهو قيام الفتن وإقبالها.

وقوله: وظهرت العلامة لمتوسّمها:

أي علامة قيام الساعة وهي الفتن المتوقعة المتفرّسة (المتغرّسة خ) من بني أُمية ومن بعدهم، وذكره لإسفار الساعة وعلاماتها تهديد وترغيب في العمل لها.

وقوله: ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح:

شبّههم في عدم انتفاعهم بالعقول وعدم تحريك المواعظ والتذكير لهم بالجمادات الخالية من الأرواح، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

وقوله: وأرواحاً بلا أشباح: قيل فيه وجوه:

الأول: أن ذلك مع ما قبله إشارة إلى نقصانهم: أي أن منهم من هو شبح بلا أرواح كما سبق، ومن كان له روح وفهم فلا قوة له بأمر الحرب ولا نهضة معه فهو كروح خلت عن بدن، فهم في طريق تفريط وإفراط.

الثاني: قيل: كنّى بذلك عن عدم نهضة بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما لا يقوم البدن بدون الروح ولا الروح بدون البدن.

الثالث: قال بعضهم: أراد أنّهم إن خافوا ذهلت عقولهم وطارت ألبابهم فكانوا كالأجسام بلا أرواح وإن

أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم وضيّعوا الفرص ومصالح الإسلام حتى كأنهم في ذلك أرواح لا تعلق لها بما تحتاج الأجسام إليه.

وقوله: ونسّاكاً بلا صلاح:

إشارة إلى أن من تزهّد منهم زهده ظاهري ليس عن صلاح سريرته. وقيل: أراد من تزهد منهم عن جهل فإنه وإن عمل إلاّ أن أعماله لما لم تكن عن علم كانت ضائعة واقعة على غير الوجه المرضي والمأمور به. كما روي عن الرسول ﷺ: الزاهد الجاهل مسخرة الشيطان.

وقوله: وتجّاراً بلا أرباح:

إشارة إلى من يتّجر منهم بالأعمال الفاسدة وهو يعتقد كونها قربة إلى الله مستلزمة لثوابه وليس كذلك، ولفظ التجّار والربح مستعاران، ووجه الاستعارتين ظاهر.

وقوله: وأيقاظاً نوماً:

كنّى بنومهم عن نوم نفوسهم في مراقد الطبيعة ومماهد الغفلة فهم بهذا الاعتبار أيقاظ العيون نوم العقول.

وقوله: وشهوداً غيباً:

أي شهوداً بأبدانهم غيّباً بعقولهم عن التفطن لمقاصد الله والتلقي لأنواره من الموعظة والأوامر الإلهية.

وقوله: وناظرة عمياء:

أراد وعيوناً ناظرة عمياء: أي عن تصفّح آثار الله للعبرة بها والانتفاع في أمر الآخرة فهي تشبه العمى في عدم الفائدة بها.

وقوله: وسامعةً صمّاء:

أي: وآذاناً سامعة للأصوات صماء عن نداء الله والنافع من كلامه فهي تشبه الصم في عدم الفائدة المقصودة.

وقوله: وناطقة بكماء:

أي: وألسنة ناطقة بكماء عن النطق بما ينبغي فأشبهت البكم، ولفظ العمياء والصماء والبكماء مستعار للمشابهات المذكورة، وقد راعى في ذلك التضاد في الألفاظ وأراد ذوي عيون وآذان وألسنة بالصفات المذكورة: أي خالية عن الفائدة.

وقوله: راية ضلالة [رأيت ضلالة خ]:

لما نبّههم وأيقظهم بالتوبيخ والتقريع والتنقيص ألقى إليهم ما ينبغي أن يحترزوا منه ويأخذوا أهبتهم له من ظهور الفتن المتوقعة لبني أمية، وكنّى عن ظهورها بقوله: راية ضلالة، والتقدير هذه راية ضلالة، وكنّى بقيامها على قطبها عن اجتماع أهلها على قائد الفتنة ورئيسهم فيها، وكنّى بالقطب عنه كناية بالمستعار. وتفرّقها وتشعبها انتشارها في الآفاق وتولّد فتن أخرى عنها. ثمّ استعار لفظ الكيل لأخذهم وإهلاكهم زمرة زمرة ملاحظة لشبهها بالكيّال في أخذه لما يكيل جملة جملة، ورشّح بلفظ الصاع، وكذلك استعار لفظ الخبط لإيقاع السيف والأحكام الجائرة فيهم على غير قانون ديني ولا نظام حق لشبهها بالبكرة النفور من الإبل التي تخبط ما تلقاه بيديها، ورشح الاستعارة بذكر الباع. ولم يقل بيدها لأن ذكر الباع أبلغ في البعير عن قوة الخبط.

وقوله: قائدها خارج عن الملة:

أي خارج عن الدين والشريعة فاسق عن أمر الله قائم على الضلة: أي مقيم على الضلالة.

وقوله: فلا يبقى يومئذٍ منكم إلاّ ثفالة كثفالة القدر:

استعار لفظ الثفالة وكنّى به عمّن لا خير فيه من الأرذال ومن لا ذكر له ولا شهرة، وشبّه أولئك بثفالة القدر في كونهم غير معتبرين ولا ملتفت إليهم، وكذلك نفاضة العرك وهو ما يبقى في أسفل العدل من أثر الزاد أو الحنطة ونحوها. ثم استعار لفظ العرك لتقليب الفتن لهم ورميهم وتذليلهم بها كما يذلل ويلين الأديم، وكذلك استعار لفظ الدوس لإهانتهم لهم وشدّة امتهانهم إيّاهم بالبلاء، وشبّه ذلك بدوس الحصيد من الحنطة ونحوها وهو ظاهر، ثم أشار إلى استقصاء أهل تلك الضلالة على المؤمنين، واستخلاصهم لهم لإيقاع المكروه بهم، وشبّه ذلك الاستخلاص باستخلاص الطير الحبّة السمينة الممتلئة من الفارغة الهزيلة وذلك أن الطير ترتاز بمنقاره سمين الحب من هزيله فيخلى عن

الهزيل منه. ثم أخذ يسألهم على سبيل التهكّم والتقريع لهم ببقائهم على غوايتهم فسألهم عن غاية أخذ مذاهب الضلال، وعما تتيه بهم ظلم الجهالات، وعمّا تخدعهم أوهامهم الكواذب جاذباً لهم إليه، منكراً عليهم مطلوباً آخر غير الله تعالى، رادعاً لهم من طريق غير شريعته. ثم سألهم عن الجهة التي يؤتون منها: أي من أين أتتكم هذه الأمراض. وهو عليه السلام يعلم أن الداخل إنما دخل عليهم من جهلهم لكن هذا وجه من البلاغة، وذكرنا أنه يسمى تجاهل العارف وهو كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦] وكذلك قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]: أي متى يكون انصرافكم عما أنتم عليه من الغفلة.

وقوله: ولكل أجل كتاب ولكل غيبة إياب:

تهديد بالإشارة إلى قرب الموت وأنهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم فيكونوا من الأخسرين أعمالاً. ثم أمرهم باسماع الموعظة منه. والرباني: العالم علم الربوبية المتبحر فيه. ثم بإحضار قلوبهم وهو التفاتهم بأذهانهم إلى ما يقول: ثم بالاستيقاظ من نوم الغفلة عند هتفه بهم وندائه لهم.

وقوله: وليصدق رائد أهله: مثل نزله هنا على مراده، وأصله: لا يكذب رائد أهله. فاستعار لفظ الرائد للفكر، ووجه المثل أن الرائد لما كان هو الذي يبعثه القوم لطلب الكلاء والماء أشبه الفكر في كونه مبعوثاً من قبل النفس في طلب مرعاها وماء حياتها من العلوم وسائر الكمالات فكنّى به عنه، وأهله على هذا البيان هو النفس فكأنه عليه السلام قال: فلتصدق أفكارهم ومتخيّلاتكم نفوسكم، وصدقها إيّاها تصرفها على حسب إشارة العقل فيما تقوله وتشير به دون التفات إلى مشاركة الهوى فإن الرائد إذا أرسلته النفس عن مشاركة ميل شهواني كذبها ودلّيها بغرور، ويحتمل أن يريد بالرائد أشخاص من حضر عنده فإنّ كلاً منهم له أهل وقبيلة يرجع إليهم فأمرهم أن يصدقهم أمر لهم بتبليغ ما سمع على الوجه الذي ينبغي والنصيحة به والدعوة إليه كما يرجع طالب الكلاء والماء الواجد لهما إلى قومه فيبشّرهم به ويحملهم إليه.

وقوله: وليجمع شمله:

أي: ما تفرّق وتشعب من خواطره في أمور الدنيا ومهماتها، ولحضر ذهنه: أي وليوجهه إلى ما أقول.

وقوله: ولقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة:

أي: أوضح لكم أمر ما جهلتموه من الدين وأحكام الشريعة، وقيل: أمر ما سيكون من الفتن. وشق لكم ظلمة الجهل عنه كي يتضح باطن الخرزة بشقها، وقرفه قرف الصمغة: أي ألقى إليكم علمه بكليته والنصيحة فيه حتى لم يدّخر عنكم شيئاً كما يقرف الصمغة قارفها، يقال: تركته على مثل مقرف الصمغة، إذا لم تترك له شيئاً لأن الصمغة تقتلع من شجرها حتى لا تبقى عليها علقة.

وقوله: فعند ذلك:

متصل بقوله: من بين هزيل الحب: أي فعندما تفعل بكم تلك الفتن وراية الضلال ما تفعل قد أخذ الباطل مآخذه: أي استحكم وثبت وأخذ مقارّه، وكذلك يركب الجهل مراكبه: أي كان ذلك وقت حملته ملاحظة لتشبيهه بالمستعد للغارة قد ركب خيله، وكنّى بمراكبه عن الجهال.

وقوله: وعظمت الطاغية:

أي: الفتنة الطاغية التي تجاوزت في عظمها الحد والمقدار، وقلت الراعية: أي رعاة الدين وأهله الذين يحمون حوزته: أي الفرقة الراعية، وروي الداعية: أي الفرقة الداعية إلى الله.

وقوله: وصال الدهر صيال السبع العقور:

استعار وصف الصيال للدهر ملاحظة لشبهه بالسبع، ووجه الاستعارة كون الدهر مبدأً قوياً لتلك الشرور الواقعة فأشبه السبع الضاري العقور في شدة صياله. ثم استعار لفظ الفنيق للباطل ورشح الاستعارة بذكر الهدير والكظوم، ووجه المشابهة ظهور الباطل وإكرام أهله وتمكّنهم من الأمر والنهي كالفحل المكرّم ذي الشقشقة، وعنى بالهدير ظهورهم وتمكّنهم وبالكظوم خفاء الباطل وخمول أهله في زمان ظهور الحق وقوته.

وقوله: وتواخى الناس على الفجور:

أي: كان اتصالهم ومحبة بعضهم لبعض على

الفجور واتباع الأهواء. وتهاجروا على الدين: أي من أحسوا منه قوّة في دينه هجروه ورفضوه، فهجرهم. والتحاب على الكذب داخل تحت التواخي على الفجور، والتباغض على الصدق داخل تحت التهاجر على الدين، والغرض بتعداد ذلك تنفير السامعين عن تلك الرذائل وتخويفهم بوقوعها.

وقوله: فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً:

أي: إذا أُحدث ذلك اشتغل كل امرىءٍ بنفسه لينجو بها. فيكون الولد الذي هو أعز محبوب غيظاً لوالده: أي من أسباب محنته وغيظه، وأطلق لفظ الغيظ عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

وقوله: والمطر قيظاً:

جعل وقوع المطر قيظاً من علامات تلك الشرور وهو أيضاً مما يعدّ شراً لأنه لا يثير نباتاً ولا يقوم عليه زرع ويفسد الثمار القائمة، وكأنه كنّى به عن انقلاب أحوال الخير شروراً.

وقوله: وكان أهل ذلك الزمان. إلى قوله: أمواتاً:

أهل كل زمان ينقسمون إلى ملوك أكابر، وأوساط، وأداني. فإذا كان زمان العدل كان أهله في نظام سلكه فيفيض عدل الملوك على من يليهم ثم بواسطتهم على من يليهم حتى ينتهي إلى أداني الناس، وإذا كان زمان الجور فاض الجور كذلك فكانت السلاطين سباعاً ضارية مفترسة لكل ذي سمن، وكان أهل ذلك الزمان وأكابره ذئاباً ضارية على أوساط الناس، وكانت الأوساط أكالاً لهم، وكانت الفقراء أمواتاً لانقطاع مادة حياتهم ممن هو أعلى منهم رتبةً، وتجوّز بلفظ الأموات عن غاية الشدة والبلاء لكون الموت غاية ذلك إطلاقاً لاسم السبب الغائي على مسبّبه، ثم استعار لفظ الغيض لقلة الصدق والفيض لظهور الكذب وكثرته ملاحظة لشبهها بالماء، واستعمال المودة باللسان إشارة إلى النفاق وهو التودّد بالقول مع التباعد بالقلوب وعقدها على البغض والحسد، واستعار لفظ التشاجر بالقلوب ملاحظة لشبهها بالرماح، فكما أن الرمح يشجر به، فكذلك قلوب بعضهم تعقد على هلاك بعض والطعن فيه بأنواع المهلكات، وكذلك لفظ النسب للفسوق، ووجه المشابهة كون الفسق بينهم يومئذٍ هو سبب التواصل والتزاور والتحاب كما أن النسب كذلك، وصار العفاف عجباً لقلّة وجوده وندرته بينهم، ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً من أحسن التشبيه وأبلغه والمشبّه به مهنا هو لبس الفرو ووجه الشبه كونه مقلوباً؛ وبيانه أنه لما كان الغرض من الإسلام أن يكون باطناً ينتفع به القلب ويظهر فيه منفعته فقلّب المنافقون غرضه واستعملوه بظاهر ألسنهم دون قلوبهم أشبه قلبهم له لبس الفرو. إذ كان أصله أن يكون حمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الذي هو لباسه فاستعمله الناس مقلوباً. وبالله التوفيق.

١٠٩ - ومن خطبة له عليه السلام

في بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة و أمر البعث

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الأَبَدُ لا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى لاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلا مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ ما أعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الآخِرَةِ!

أقول: هذا الفصل من أشرف الفصول المشتملة على توحيد الله وتنزيهه وإجلاله وتعظيمه.

واللهف: الحزن، والملهوف: المظلوم يستغيث. والأبد: الدائم. والأمد: الغاية. وحاص عن الشيء: عدل وهرب. والمحيص: المهرب.

وفيه اعتبارات ثبوتية وسلبية: أما الثبوتية فعشرة:

الأول: خشوع كل شيء له، والخشوع مراد هنا بحسب الاشتراك اللفظي. إذ الخشوع من الناس يعود إلى تطامنهم وخضوعهم لله ومن الملائكة دأبهم في عبادتهم ملاحظة لعظمته، ومن سائر الممكنات انفعالها عن قدرته وخضوعها في رقّ الإمكان والحاجة إليه، والمشترك وإن كان لا يستعمل في جميع مفهوماته حقيقة فقد بيّنا أنه يجوز استعماله مجازاً فيها بحسب القرينة وهي هنا إضافته إلى كل شيء أو لأنه في قوة المتعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. فكأنه قال: الملك خاشع له والبشر خاشع له، وهذا الاعتبار يستلزم وصفه تعالى باعتبارين:

أحدهما: كونه عظيماً.

والثاني: كونه غنياً.

أما العظيم فينقسم إلى ما يكبر حاله في النفس ولكن يتصور أن يحيط بكماله العقول ويقف على كنه حقيقته، وإلى ما يمكن أن يحيط به بعض العقول وإن فات أكثرها، وهذان القسمان إنما يطلق عليهما لفظ العظمة بالإضافة، وقياس كل إلى ما دونه فيما هو عظيم فيه، وإلى ما لا يتصور أن يحيط به العقل أصلاً وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز حدود العقول أن يقف على صفات كماله ونعوت جلاله، وليس هو إلاّ الله تعالى، وأما الغنى فسنذكره.

الثاني: قيام كل شيء به. واعلم أن جميع الممكنات إما جواهر أو أعراض وليس شيء منها يقوم بذاته في الوجود: أما الأعراض فظاهر لظهور حاجتها إلى المحل الجوهري، وأما الجواهر فلأن قوامها في الوجود إنما يكون بقيام عللها، وتنتهي إلى الفاعل الأول جلّت عظمته فهو إذن الفاعل المطلق الذي به قوام كل موجود في الوجود، وإذ ثبت أنه تعالى غني عن كل شيء في كل شيء وثبت أن به قوام كل شيء ثبت أنه القيوم المطلق. إذ مفهوم القيّوم هو القائم بذاته المقيم لغيره فكان هذا الاعتبار مستلزماً لهذا الوصف.

الثالث: كونه تعالى غنى كل فقير، ويجب أن يحمل الفقر على ما هو أعمّ من الفقر المتعارف وهو مطلق الحاجة ليعم التمجيد كما أن الغنى هو سلب مطلق الحاجة، وإذ ثبت أن كل ممكن فهو مفتقر في طرفيه منته في سلسلة الحاجة إليه، وأنه تعالى المقيم له في الوجود ثبت أنه تعالى رافع حاجة كل موجود بل كل ممكن وهو المراد بكونه غنى له، وأطلق عليه تعالى لفظ الغنى وإن كان الغنى به مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

الرابع: كونه عز كل ذليل، وقد سبق أن معنى العزيز هو الخطير الذي يقلّ وجود مثله وتشتدّ الحاجة ويصعب الوصول إليه فيما اجتمعت فيه هذه المفهومات الثلاثة سمي عزيزاً، وسبق أيضاً أن هذه المفهومات مقولة بالزيادة والنقصان على ما تصدق عليه، وأنه ليس الكمال في واحد منها إلاّ لله سبحانه، ويقابله الذليل وثبت أنه تعالى عزّ كل موجود لأن كل موجود سواه إنما يتحقق فيه هذه المفهومات الثلاثة منه سبحانه الناظم لسلسلة الوجود والواضح لكل من الموجودات في رتبته من النظام الكلّي فمنه عزّ كل موجود، وكل موجود ذليل في رقّ الإمكان والحاجة إليه في إفاضة المفهومات الثلاثة عليه فهو إذن عزّ كل ذليل وإطلاق لفظ العزّ عليه كإطلاق لفظ الغنى.

الخامس: وقوة كل ضعيف: القوة تطلق على كمال القدرة وعلى شدة الممانعة والدفع ويقابلها الضعف وهما مقولان بالزيادة والنقصان على من يطلقان عليه، وإذ ثبت أنه تعالى مستند جميع الموجودات والمفيض على كل قابل ما يستعد له ويستحقه فهو المعطي لكل ضعيف عادم القوة من نفسه كماله وقوته فمنه قوّة كل ضعيف بالمعنيين المذكورين لها، وروي أن الحسن عليه السلام قال: واعجباً لنبي الله لوط عليه السلام إذ قال لقومه: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد أتراه أراد ركناً أشد من الله تعالى. وإطلاق لفظ القوة عليه كإطلاق لفظ الغنى أيضاً.

السادس: كونه مفزع كل ملهوف: أي إليه ملجأ كل مضطر في ضرورته حال حزن أو خوف أو ظلم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] فكل مفزع وملجأ غيره فلمضطر لا لكل مضطر ومجاز لا حقيقة وإضافي لا حقيقي، وهذا الاعتبار يستلزم كمال القدرة لله لشهادة فطرة ذي الضرورة بنسبة جميع أحوال وجوده إلى جوده ويستلزم كمال العلم لشهادة فطرته باطلاعه على ضرورته، وكذلك كونه سميعاً وبصيراً وخالقاً ومجيباً للدعوات وقيّوماً ونحوها من الاعتبارات.

السابع: كونه من تكلم سمع نطقه.

الثامن: من سكت علم سرّه، وهما إشارتان إلى وصفي السميع والعليم، ولما كان السميع يعود إلى العالم بالمسموعات استلزم الوصفان إحاطته بما أظهر العبد وأبداه وما أسرّه وأخفاه في حالتي نطقه وسكوته، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

التاسع: ومن عاش فعليه رزقه.

العاشر: ومن مات فإليه منقلبه، وهما إشارتان إلى كونه تعالى مبدأً للعباد في وجودهم وما يقوم به عاجلاً ومنتهى وغاية لهم آجلاً فإليه رجوع الأحياء منهم والأموات، وبه قيام وجودهم حالتي الحياة والممات.

الحادي عشر: من الاعتبارات السلبية: لم ترك العيون فتخبر عنك. وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا الالتفات وعكسه يستلزم شدّة عناية المتكلّم بالمعنى المنتقل إليه، وحسنه معلوم في علم البيان، واعلم أن هذا الكلام لا بدّ فيه من تجوّز أو إضمار، وذلك إن جعلنا الرائي هو العيون كما عليه اللفظ ويصدق حقيقة لزم إسناد قوله فتخبر إليها مجازاً لكون الإخبار ليس لها، وإن راعينا عدم المجاز لزم أن يكون التقدير: لم ترك العيون فتخبر عنك أربابها، أو لم ترك أرباب العيون فتخبر عنك. فيلزم الإضمار ويلزم التعارض بينه وبين المجاز. لكن قد علمت في مقدمات أُصول الفقه: أنهما سيّان في المرتبة، وغرض الكلام تنزيهه تعالى عن وصف المشبّهة ونحوهم وإخبارهم عنه بالصفات التي من شأنها أن يخبر عنها الراؤون عن مشاهدة حسية مع اعترافهم. بأن إخبارهم ذلك من غير رؤية.

ولما كان الإخبار عن المحسوسات وما من شأنه أن يحسّ إنما يصدق إذا استند إلى الحس لا جرم استلزم سلبه لرؤية العيون له. سلب الإخبار عنه من جهتها، وكذب الإخبار عنه بما لا يعلم إلاّ من جهتها، ويخبر وإن كان في صورة الإثبات إلاّ أنه منفي لنفي لازمه وهي رؤية العيون له. إذ كان الإخبار من جهتها يستلزم رؤيتها، ونصبه بإضمار أن عقيب الفاء في جواب النفي، والكلام في تقدير شرطية متصلة صورتها لو صحّ إخبار العيون عنك لكانت قد رأتك. لكنها لم ترك فلم تصحّ أن تخبر عنك.

فأما قوله: بل كنت قبل الواصفين من خلقك. فتعليل لسلب الرؤية المستلزم لسلب الإخبار عنها بقياس ضمير تقدير كبراه: وكل من كان قبل واصفيه لم يروه فلم يخبروا عنه، وهذه الكبرى من المظنونات المشهورات في بادئ النظر، وهي كما علمت من مواد قياس الخطيب، وإن كانت إذا تعقبت لم يوجد كلية. إذ ليس كلما وجد قبلنا بطل إخبارنا عنه، ويمكن حمل هذا القول على وجه التحقيق وهو أن نقول: المراد بقبليته تعالى للواصفين قبليّة وجوده بالعليّة الذاتية وهو بهذا الاعتبار مستلزمة لتنزيهه تعالى عن الجسمية ولواحقها المستلزم لامتناع الرؤية المستلزم لكذب الإخبار عنه من وجه المشابهة الحسية.

الثاني عشر: كونه لم تخلق الخلق لوحشة، وهو إشارة إلى تنزيهه عن الطبع المستوحش والمستأنس، وقد سبق بيان ذلك في الخطبة الأولى.

الثالث عشر: ولا استعملتهم لمنفعة: أي لم يكن خلقه لهم لمنفعة تعود إليه، وقد سبق بيان أن جلب المنفعة ودفع المضرة من لواحق المزاج - المنزّه قدس الله تعالى عنه -.

الرابع عشر: ولا يسبقك من طلبت: أي لا يفوتك هرباً.

الخامس عشر: ولا يفلتك من أخذت: أي لا يفلت

منك بعد أخذه فحذف حرف الجر، وعدّى الفعل بنفسه كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وهذان الاعتباران يستلزمان كمال ملكه، وتمام قدرته وإحاطة علمه. إذ أي ملك فرض فقد ينجو من يده الهارب ويفلت من أسره المأخوذ بالحيلة ونحوها.

السادس عشر: ولا ينقص سلطانك من عصاك.

السابع عشر: ولا يزيد في ملكك من أطاعك، وهما تنزيه له تعالى من أحوال ملوك الدنيا. إذ كان كمال سلطان أحدهم بزيادة جنوده وكثرة مطيعيه وقلّة المخالف والعاصي له، ونقصان ملكه بعكس ذلك وهو سبب لتسلط أعدائه عليه وطمعهم فيه. فأما سلطانه تعالى فلما كان لذاته ومال قدرته مستولياً وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء. وينزع الملك ممن يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير. لم يتصور خروج العاصي بعصيانه عن سلطانه حتى يؤثر في نقصانه، ولم يكن لطاعة الطائع تأثير في زيادة ملكه.

الثامن عشر: ولا يرد أمرك من سخط قضاءك. يريد بالأمر هنا القدر النازل على وفق القضاء الإلهي، وهو تفصيل القضاء كما بيّناه، وهذا الاعتبار أيضاً يستلزم تمام قدرة الله وكمال سلطانه. إذ كان ما علم وجوده فلا بدّ من وجوده سواء كان محبوباً للعبد أو مكروهاً له كما قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧-٨]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]. وإنما خصّص المتسخط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر. إذ كان من شأنه أن لو قدر لرد القدر.

التاسع عشر: ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك. أراد بالأمر هٰهنا ظاهره، وهو أمر عباده بطاعته وعبادته، وظاهر أن من تولى عن أمر الله فهو إليه أشد فقراً وأنقص ذاتاً ممّن تولى أمره، وهذا الاعتبار يستلزم كمال سلطانه وغناه المطلق.

العشرون: كل سر عندك علانية.

الحادي والعشرون: وكل غيب عندك شهادة. هذا الاعتباران يستلزمان كمال علمه وإحاطته بجميع المعلومات، ولما كانت نسبة علمه تعالى إلى المعلومات على سواء لا جرم استوى بالنسبة إليه السر والعلانية، وأيضاً فإن السر والغيب إنما يطلقان بالقياس إلى مخفي عنه وغائب عنه وهي القلوب المحجوبة بحجب الطبيعة وأستار الهيئات البدنية، والأرواح المستولي عليها نقصان الإمكان الحاكم عليها بجهل أحوال ما هو أكمل منها، وكل ذلك مما تنزّه قدس الصانع عنه.

الثاني والعشرون: أنت الأبد فلا أمد لك: أي أنت الدائم فلا غاية لك يقف عندها وجودك، وذلك لاستلزام وجوب وجوده امتناع عدمه وانتهائه بالغاية، وقال بعض الشارحين: أراد أنت ذو الأبد كما قيل: أنت خيال. أي ذو خيال من الخيلاء وهو الكبر. وأقول في تقرير ذلك: إنه لما كان الأزل والأبد لازمين لوجود الله تعالى أطلق الأبد على وجوده مجازاً للمبالغة في الدوام وكان أحدهما هو بعينه الآخر كقولهم: أنت الطلاق. للمبالغة في البينونة.

الثالث والعشرون: وأنت المنتهى فلا محيص عنك.

الرابع والعشرون: وأنت الموعد فلا منجا منك إلاّ إليك: أما أنّه تعالى المنتهى والموعد فلقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]. والمنتهى في كلامه عليه السلام الغاية، وقد سبق بيان أنه تعالى غاية الكل ومرجعه وأما أنه لا معدل عنه ولا ملجأ منه إلاّ إليه فإشارة إلى ضرورة لقائه كقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

الخامس والعشرون: بيدك ناصية كل دابة: أي في ملكك وتحت تصريف قدرتك كقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] وإنما خصّت الناصية لحكم الوهم بأنّه تعالى في جهة فوق فيكون أخذه بالناصية، ولأنّها أشرف ما في الدابة فلسلطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر والغلبة وتمام القدرة.

السادس والعشرون: وإليك مصير كل نسمة، وقد سبق أنه تعالى منتهى الكل، وإليه مصيره.

وقوله: سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك. إلى آخره.

تنزيه وتقديس لله تعالى عن أحكام الأوهام على صفاته بشبهية مدركاتها وتعجب في معرض التمجيد من عظم ما يشاهد من مخلوقاته كأطباق الأفلاك والعناصر، وما يتركب عنها، ثم من حقارة هذه العظمة بالقياس إلى ما تعبّره العقول من مقدوراته، وما يمكن في كمال قدرته من الممكنات غير المتناهية، وظاهر أن نسبة الموجود إلى الممكن في العظم والكثرة يستلزم حقارته وصغره، ثم من هول ما وصلت إليه العقول من عظمة ملكوته، ثم من حقارته بالقياس إلى ما غاب عنها وحجبت عن إدراكه بأستار القدرة وحجب العزة من الملأ الأعلى وسكان حظائر القدس وحال العالم العلوي، ثم من سبوغ نعمة الله تعالى على عباده في الدنيا وحقارة تلك النعم بالقياس إلى النعمة التي أعدها لهم في الآخرة، وظاهر أن نعم الدنيا إذا اعتبرت إلى نعم الآخرة في الدوام والكثرة والشرف كانت بالقياس إليها في غاية الحقارة. وبالله التوفيق.

ومنها: **مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمٰوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ، لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ وَلَمْ يَشْعَبْهُمْ ﴿رَيْبَ المَنُونِ﴾ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ.**

أقول: المهين: الحقير. والتشعب: الاقتسام والتفريق. والمنون: الدهر. وريبه: ما يكره من حوادثه. والمكانة: المنزلة. وكنه الشيء: نهاية حقيقته. وزريت عليه: عبت فعله.

واعلم أن من في صدر هذا الفصل لبيان الجنس. وذلك أنه عليه السلام لما شرع في بيان عظمة الله تعالى وجلاله جعل مادة ذلك التعظيم تعديد مخلوقاته وذكر الأشرف فالأشرف منها فذكر الملائكة السماوية، وأشار إلى أفضليتهم بأوصاف:

الأول: كونهم أعلم خلق الله به، وهو ظاهر. إذ ثبت أن كل مجرد كان علمه أبعد عن منازعة النفس الأمارة بالسوء التي هي مبدأ الغفلة والسهو والنسيان كان أكمل في معارفه وعلومه ممن عداه، ولأن الملائكة السماوية وسائط لغيرهم في وصول العلم وسائر الكمالات إلى الخلق فكانوا كالأستاذين لمن عداهم، وظاهر أن الأستاذ أعلى درجة من التلميذ، وقد عرفت في الخطبة الأولى أن المعارف مقولة بحسب التشكيك.

الثاني: كونهم أخوف له؛ وذلك لكونهم أعلم بعظمة الله وجلاله وكل من كان أعلم بذلك كان أخوف وأشد خشية:

أما الأولى: فلما مرّ.

وأما الثانية: فلقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فحصر الخشية في العلماء. وبحسب تفاوت العلم بالشدة والضعف يكون تفاوت الخشية بهما.

الثالث: كونهم أقرب منه؛ والمراد لا القرب المكاني لتنزهه تعالى عن المكان بل قرب المنزلة والرتبة منه. وظاهر أن من كان أعلم به وأخوف منه كان أقرب منزلة عنده لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الرابع: من سلب النقصانات البشرية عنهم: كونهم لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين، ولم يختلف عليهم حوادث الدهر. وظاهر كون هذه الأمور الأربعة نقصانات تلزم الحيوان العنصري لاستلزامها التغيّر، ومخالطة المحال المستقذرة ومعاناة الأسقام والأمراض وسائر الهيئات البدنية المانعة عن التوجه إلى الله فكان سلبها عمّن لا يجوز عليه من كمالاته.

وقوله: وإنهم على مكانتهم [مكانهم خ] منك. إلى آخره.

لما بيّن عظمة الملائكة بالنسبة إلى من عداهم شرع

في المقصود وهو بيان عظمة الله تعالى بالنسبة إليهم، وحقارتهم على عظمتهم بالقياس إلى عظمته وكبريائه: أي أنهم مع كونهم على هذه الأحوال التي توجب لهم العظمة والإجلال من قرب منزلتهم منك، وكمال محبتهم لك وغرقهم في أنوار كبريائك عن الالتفات إلى غيرك لو عرفوا كنه معرفتك لصغرت في أعينهم أعمالهم، وعلموا أن لا نسبة لعبادتهم إلى عظمتك وجلال وجهك.

ولما كان كمال العبادة ومطابقتها للأمر المطاع بحسب العلم بعظمته، وكان ذات الحق سبحانه أعظم من أن يطلع عليه بالكنه ملك مقرّب أو نبي مرسل لا جرم كانت عبادة الملائكة بحسب معارفهم القاصرة عن كنه حقيقته. فكل من كانت معرفته أتمّ كانت عبادة من دونه مستحقرة في جانب عبادته حتى لو زادت معارفهم به وأمكن اطلاعهم على كنه حقيقته لزادت عبادتهم وكانت أكمل. فاستحقروا ما كانوا فيه وعابوا أنفسهم بقصور الطاعة والعبادة عما يستحقه كماله المطلق، وعبّر بقلّة الغفلة عن عدمها في حقهم مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه. إذ كان كل معدوم قليل ولا ينعكس، وجعل قلّة الغفلة في مقابلة كثرة الطاعة، ويحتمل أن يريد بقلة الغفلة قوة معرفة بعضهم بالنسبة إلى بعض مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. إذ كانت قلّة الغفلة مستلزمة لقوة المعرفة وزيادتها، وقد سبق ذكر أنواع الملائكة السماوية وغيرهم، وذكر نكت من أحوالهم في الخطبة الأولى.

الفصل الثاني: قوله:

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً: بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ. خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلا فِيمَا رَغَّبْتَ إِلَيْهِ رَغِبُوا، وَلا إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ وَلاَ يَزْدَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ وَلاَ رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ: اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَاهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أُوحِشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي

الأرضِ، وَأسْلَمُوهُ فِيهِ إلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ.

أقول: المأدُبة بضمّ الدال وفتحها: الطعام يصنع ويدعى إليه. والوله: التحيّر لشدة الوجد والمحبة. وأغمض: أي ازداد من مطالبها وتساهل في وجوه اكتسابها ولم يحفظ دينه. والتبعة: ما يلحق من إثم وعقاب. والمهنأ: المصدر من هنوء بالضم وهنيء بالكسر. والعبء: الحمل. وأصحر: انكشف. ورجع الكلام: جوابه وترديده. والإلتياط: الإلتصاق. والمحطّ: موضع الخط كناية عن القبر يخطّ أولاً ثم يحفر، ويروى بالحاء. ومحط القوم: منزلهم.

وفي هذا الفصل نكت:

الأولى: أن خالقاً ومعبوداً حالان انتصبا عما في سبحانك من معنى الفعل: أي أُسبّحك خالقاً ومعبوداً، وأشار بذلك إلى وجوب تنزيهه في هذين الاعتبارين أعني اعتبار كونه خالقاً للخلق، ومعبوداً لهم عن الشركاء والأنداد. فإنه لما تفرّد بالإبداع والخلق، واستحق بذلك التفرّد تفرّده بعبادة الكل له وجب تنزيهه عن مساوٍ له في الاعتبارين.

الثانية: قوله: بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً. الجار والمجرور متعلّق بخلقت، ولفظ الدار مستعار للإسلام، ولفظ المأدبة للجنة، والداعي هو الرسول ﷺ. وقد جمعها الخبر في بعض أمثاله ﷺ إن الله جعل الإسلام داراً والجنة مأدبةً، والداعي إليها محمداً. ووجه الاستعارة الأولى أن الإسلام يجمع أهله ويحميهم كالدار. ووجه الثانية: أن الجنة مجتمع الشهوات ومنتجع اللذات كالمأدبة، ويحتمل أن يريد بالدار الآخرة باعتبار كونها مجمعاً ومستقراً والمأدبة فيها الجنة، والمنصوبات الثمانية مميزات لتلك المأدبة، وظاهر أن وجود الإسلام والجنة والدعوة إليها بلاء حسن من الله لخلقه، وقد عرفت معنى ابتلائه تعالى. قال بعض الشارحين: إن قوله: بحسن بلائك متعلق بسبحانك أو بمعبود وهو بعيد.

الثالثة: قوله: فلا الداعي أجابوا. إلى قوله: بواعظ. شرح لحال العصاة الذين لم يجيبوا داعي الله، وبيان لعيوبهم وغرقهم في حب الباطل من الدنيا وفائدته: أما للمنتهين اللازمين لأوامر الله المجيبين لدعوته فتنفيرهم عن الركون إلى هؤلاء، والوقوع فيما وقعوا فيه.

وأما لهؤلاء فتنبيههم من مراقد غفلاتهم بتذكيرهم عيوبهم لعلهم يرجعون، واستعار لفظ الجيفة للدنيا، ووجه المشابهة أن لذات الدنيا وقيناتها في نظر العقلاء، واعتبار الصالحين منفور عنها ومهروب منها ومستقذرة كالجيفة وإلى ذلك أشار الواصف لها:

وما هي إلاّ جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهنّ اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها

ويمكن أخذ معنى البيت الثاني في وجه الإستعارة المذكورة، وكذلك استعار لفظ الإفتضاح للاشتهار باقتنائها، وجمعها والخروج بها عن شعائر الصالحين، ووجه الاستعارة أنه لما كان الإقبال على جمع الدنيا والاشتغال بها عن الله من أعظم الكبائر والمساوئ في نظر الشارع والسالكين لطريق الله، وكان الافتضاح عبارة عن انكشاف المساوئ المتعارف قبحها لا جرم أشبه الاشهار بجمعها وانكشاف الحرص عليها الافتضاح، ويمكن أن يصدق الافتضاح هيهنا حقيقة، وكنى بأكلها عن جمعها، وتجوّز بلفظ الاصطلاح في التوافق على محبتها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. فإن الاصطلاح عبارة عن التراضي بعد التغاضب ويلزمه الاتفاق على الأحوال، وقوله: من عشق شيئاً أعمى بصره وأمرض قلبه. كبرى قياس دلّ على صغراه قوله: واصطلحوا على حبها. لأن الاصطلاح على محبة الشيء يستلزم شدة محبته وهو معنى العشق ونتيجته أن المذكورين في معرض الذم قد أعشت الدنيا أبصارهم وأمرضت قلوبهم، واستعار لفظ البصر لنور البصيرة ملاحظة لشبه المعقول بالمحسوس، ولفظ العشاء لظلمة الجهل ملاحظة للشبه بالظلمة العارضة للعين بالليل، وإسناد الإعشاء إلى الدنيا يحتلم أن يكون حقيقة لما يستلزمه حبها من الجهل والغفلة عن أحوال الآخرة،

ويحتمل أن يريد بالبصر حقيقته، ويكون لفظ العشاء مستعاراً لعدم استفادتهم بأبصارهم عبرة تصرفهم عن حب الدنيا إلى ملاحظة أحوال الآخرة، ويؤيده قوله: فهو ينظر بعين غير صحيحة، وكنى بعدم صحتها عما يلزم العين غير الصحيحة من عدم الانتفاع بها في تحصيل الفائدة، وكذلك استعار لفظ المرض للداء الأكبر، وهو الجهل استعارة لفظ المحسوس للمعقول.

وقوله: فهو يسمع بأذن غير سميعة، وكنى بذلك عن عدم إفادتها عبرة من المواعظ والزواجر الإلهية كما سبق، وكذلك استعار لفظ التخريق لتفرّق عقله في مهمّات الدنيا ومطالبها.

ووجه الاستعارة أن العقل إذا استعمل فيما خلق لأجله من اتخاذ الزاد ليوم المعاد واقتباس العلم والحكمة من تصفّح جزئيات الدنيا والاستدلال منها على وجود الصانع وما ينبغي له ونحو ذلك مما هو كماله المستعد في الآخرة. فإنه يكون منتظماً منتفعاً به. وأما إن استعمل فيما لا ينبغي من جميع متفرقات الدنيا وتوزيع الهمة في تحصيل جزئياتها وضبطها حتى يكون أبداً في الحزن والأسف على فوات ما فات، وفي الخوف من زوال ما يحصل، وفي الهمة والحرص على جمع ما لم يحصل بعد فإنه يكون كالثوب المخرّق الذي لا ينتفع به صاحبه. ونحوه قال الرسول صلى الله عليه وآله: من جعل الدنيا أكبر همه فرّق الله عليه همه، وجعل فقره بين عينيه. (الحديث).

ونسبة ذلك التخريق إلى الشهوات ظاهرة. إذ كان زمام عقله بيد شهوته فهي تفرّقه وتمزّقه على حسب تصرفاتها وميولها إلى أنواع المشتهيات، وكذلك استعار لفظ الإماتة لقلبه، ووجه المشابهة خروجه عن الانتفاع به الانتفاع الحقيقي الباقي كالميت، والضمير في قوله: عليها يعود إلى الدنيا: أي وولهت الدنيا على نفسها، وكنى بالتولّه عن شدة المحبة لها وأطلقه مجازاً تسمية للشيء بما هو من غاياته، وكذلك استعار لفظ العبد له لكونه محبّها، والمتجرد لتحصيلها متصرفاً بحسب تصريفها ودائراً في حركاته حيث دارت فإن كانت في يده أقبل عليها بالعمارة والحفظ، وإن زالت عنه أنصب إلى تحصيلها وخدمة من كانت في يده لغرضها فهو في ذلك كالعبد لها بل أخسّ حالاً كما قال عليه السلام في موضع آخر: عبد الشهوة أذلّ من عبد الرقّ. إذاً الباعث لعبد الرق على الخدمة والانقياد قد يكون قسرياً، والباعث لعبد الشهوة طبيعي، وشتان ما بينهما.

الرابعة: قوله: وهو يرى المأخوذين على الغرة فالواو في قوله: وهو للحال، وهو شروع في وصف نزول الموت بالغافلين عن الاستعداد له ولما وراءه من أحوال الآخرة، وكيفية قبض الموت لأرواحهم من مبدأ نزوله بهم. إلى آخره. وكيفية أحوالهم مع أهليهم وإخوانهم معه، وهو وصف لا مزيد على وضوحه وبلاغته وفائدته تذكير العصاة بأهوال الموت وتنبيههم من غفلتهم في الباطل بذلك على وجوب العمل له، وتثبيت للسالكين إلى الله على ما هم عليه، ومراده بقوله: ما كانوا يجهلون. لا الموت فإنه معلوم لكل أحد؛ بل تفصيل سكراته وأهواله. وما كانوا يأمنون. إشارة إلى الموت وما بعده فإن الغافل حال انهماكه في لذات الدنيا لا يعرض له خوف الموت. بل يكون في تلك الحال آمناً منه، وقوله: فغير موصوف ما نزل بهم: أي ليس ذلك مما يمكن استقصاؤه بوصف بل غايته التمثيل كما ورد في التوراة: أن مثل الموت كمثل شجرة شوك أدرجت في بدن ابن آدم، فتعلّقت كل شوكة بعرق وعصب ثم جذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع وأبقي ما أبقي، واستعار لفظ الولوج لما يتصور من فراق الحياة لعضوٍ عضوٍ. فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر، وكذلك استعار لفظ العبء للآثام التي تحملها النفس، ورشح بذكر الظهر استعارة لفظ المحسوس للمعقول.

الخامسة: قوله: والمرء قد غلقت رهونه بها. ضربه مثلاً لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه إلى سعادته بعد الموت، وقد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة فأشبه ما جمع من الهيئات الرديئة في نفسه عن اكتساب الأموال فارتهنت بها بما على الرهن من المال، وقال بعض الشارحين: أراد أنه لما أشفى على الفراق صارت

الأموال التي جمعها مستحقة لغيره ولم يبق له فيها تصرف فأشبهت الرهن الذي غلق على صاحبه فخرج عن كونه مستحقاً لصاحبه وصار مستحقاً للمرتهن. وهذا وإن كان محتملاً إلاّ أنه يضيّع فائدة قوله: بها. لأن الضمير يعود إلى الأموال المجموعة وهو إشارة إلى المال الذي تعلّق الرهن به فلا تكون هي نفس الرهن، وقوله: وهو يعض يده. كناية عما يلزم ذلك من الأسف والحزن والندم على تفريطه في جنب الله حيث انكشف له حال الموت انقطاع سببه من الله، وفوت ما كان يتوهم بقاءه عليه مما اشتغل به عن ربّه، وحيث يتحسّر على ذلك التفريق كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]. ويتمنى هداية الله فيقول:

«لو أن الله هداني لكنت من المتقين»، أو الرجعة إلى الدنيا لامتثال ما فرّطت فيه من الأوامر الإلهية فيقول حين يرى العذاب: لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين، وكما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]. وقد نبّه عليه السلام في هذا الكلام على أن آلة النطق تبطل من الإنسان حال الموت قبل آلتي السمع والبصر بقوله: فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله. ثم نبّه على بطلان آلة السمع بعدها قبل آلة البصر، وأنّ آلة البصر تبطل مع المفارقة بقوله: حتى خالط سمعه. إلى قوله: يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم. وذلك لعلمه عليه السلام بأسرار الطبيعة، وليس كلامه مطلقاً بل في بعض الناس وأغلب ما يكون ذلك فيمن تعرض الموت الطبيعي لآلاته، وإلاّ فقد تعرض الآفة لقوة البصر وآلته قبل آلة السمع وآلة النطق، والذي يلوح من أسباب ذلك أنّه لما كان السبب العام القريب للموت هو انطفاء الحرارة الغريزية عن فناء الرطوبة الأصليّة التي منها خلقنا، وكان فناء تلك الرطوبة عن عمل الحرارة الغريزية فيها التجفيف والتحليل، وقد تعينها على ذلك الأسباب الخارجية من الأهوية واستعمال الأدوية المجفّفة وسائر المخففات كان كل عضو أيبس من طبيعته وأبرد أسرع إلى البطلان وأسبق إلى الفساد.

إذا عرفت ذلك فنقول: أما أن آلة النطق أسرع فساداً من آلة السمع فلأن آلة النطق مبنية على الأعصاب المحركة ومركبة منها، وآلة السمع من الأعصاب المحرّكة أيبس وأبرد لكونها منبعثة من مؤخر الدماغ دون الأعصاب المفيدة للحس. فإن جلّها منبعث من مقدم الدماغ، فكانت لذلك أقرب إلى البطلان.

ولأن النطق أكثر شرائط من السماع لتوقفه مع الآلة وسلامتها على الصوت وسلامة مخارجه ومجاري النفس، والأكثر شرطاً أسرع إلى الفساد، وأما بطلان آلة السمع قبل البصر فلأن منبت الأعصاب التي هي محلّ القوة السامعة أقرب إلى مؤخّر الدماغ من منابت محلّ القوة الباصرة فكانت أيبس وأبرد وأقبل لانطفاء الحرارة الغريزية، ولأن العصب المفروش على الصماخ الذي رتّبت فيه قوة السمع احتاج أن يكون مكشوفاً غير مسدود عنه سبيل الهواء بخلاف العصب الذي هو آلة البصر فكانت لذلك أصلب، والأصلب أيبس وأسرع فساداً. هذا مع أنه قد يكون ذلك لتحلّل الروح الحامل للسمع قبل الروح الحامل للبصر أو لغير ذلك. والله أعلم، وأما سبب النفرة الطبيعية من الميت والتوحش من قربه فحكم الوهم على المتخيّلة بمحاكاة حاله في نفس المتوهّم، وعزل العقل في ذلك الوضع حتى أن المجاور لميت في موضع منفرد يتخيّل أن الميت يجذبه إليه ويصيّره بحالة مثل حالته المنفورة عنها طبعاً.

السادسة: قوله: وأسلموه فيه إلى عمله. إشارة إلى أن كل ثواب وعقاب أُخروي يفاض على النفس فبحسب استعدادها بأعمالها السابقة الحسنة والسيئة فعمل الإنسان هو النافع أو الضارّ له حين لا ناصر له، ولما كان ميله عليه السلام في هذا الكلام إلى الانذار والتخويف لا جرم ذكر إسلامهم له إلى عمله لأنّ لإسلام إنما يكون إلى العدو فلما حاول أن ينفّر عن قبح الأعمال نبّه على أن عمل الإنسان القبيح يكون كعدوه القوي عليه يسلم إليه.

الفصل الثالث: قوله

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ،

وَأَلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلالَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ أَخْلاَقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ وَخَبَايَا الأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هٰؤُلاَءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هٰؤُلاَءِ. فَأَمَّا أَهْلُ طَاعَتِهِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلا تَنُوبُهُمُ الأَفْزَاعُ، وَلا تَنَالُهُمُ الأَسْقَامُ، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطَارُ، وَلا تُشْخِصُهُمُ الأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الأَيْدِيَ إِلَى الأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا وَلاَ يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلا تُفْصَمُ كُبُولُهَا. لا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.

أقول: الرجّ، والرجف: الاضطراب الشديد، ويروى رجها بغير همزة، وهو الأشهر، ونسفها: قلعها من أُصولها وبثها. ودكّ بعضها بعضاً: تصادمت. وتنوبهم: تعودهم. والخطر: الإشراف على الهلاك. وَشَخَصَ: خرج من منزله إلى آخر، وأشخصه: غيّره. والكلب: الشدة. والجلب واللجب: الصوت. والقصيف: الصوت الشديد. والكبول: الأغلال واحدها كبل. وفصمها: كسرها.

وأشار بقوله: حتى إذا بلغ الكتاب أجله. إلى غاية الناس في موتهم، وهو بلوغ الوقت المعلوم الذي يجمع له الناس وهو يوم القيامة، وأراد بالأمر القضاة ومقاديره وتفاصيله من الآثار التي توجد على وفقه كما سبق بيانه، ولحوق الخلق بأوّله إشارة إلى توافيهم في الموت، وتساويهم فيه كما نطقت الشريعة به، وتجديد الخلق بعثهم وإعادتهم.

وأما إمادة السماء وشقّها وإرجاج الأرض ونسف الجبال فظاهر الشريعة الناطق بخراب هذا العالم ناطق به، وأما من زعم بقاءه فربما عدلوا إلى التأويل، والذي يحتمل أن يقال في ذلك وجوه:

أحدها: أن القيامة لما كانت عندهم عبارة عن موت الإنسان ومفارقته لهذا البدن ولما يدرك بواسطته من الأجسام والجسمانيّات ووصوله إلى مبدئه الأول كان عدمه عن هذه الأشياء مستلزم لغيبوبتها عنه وعدمها، وخرابها بالنسبة فيصدق عليه أنه إذا انقطع نظره عن جميع الموجودات سوى مبدئه الأول - جلّت عظمته - أنها قد عدمت وتفرّقت، وكذلك إذا انقطع نظره عن عالَمي الحس والخيال ومتعلّقاتهما من الأجسام والجسمانيّات، واتصل بالملأ الأعلى فبالحري أن يتبدل الأرض والسماوات بالنسبة إليه فيصير عالم الأجسام والجسمانيّات أرضاً له وعالم المفارقات سماءه.

الثاني: أن هذه الموجودات المشار إليها لما كانت مقهورة بلجام الإمكان في قبض القدرة الإلهية كان ما نسب إليها من الانشقاق والانفطار والإرجاج والنسف وغيرها أموراً ممكنة في نفسها وإن امتنعت بالنظر إلى الأسباب الخارجية فعبّر عما يمكن بالواقع مجازاً. وحسنه في العربية معلوم، وفائدته التهويل بما بعد الموت والتخويف للعصاة بتلك الأهوال.

الثالث: قالوا: يحتمل أن يريد بالأرض القوابل للجود الإلهي استعارة فعلى هذا إمادة السماء عبارة عن حركاتها واتصالات كواكبها التي هي أسباب معدّة لقوابل هذا العالم، وانفطارها إفاضة الجود بسبب تلك المعدات على القوابل، وإرجاج الأرض إعداد المواد لإعادة أمثال هذه الأبدان أو لنوع آخر بعد فناء النوع الإنساني، وقلع الجبال ونسفها ودقها إشارة إلى زوال موانع الاستعداد لنوع آخر إن كان، أو لإعادة بناء هذا النوع استعارة. ووجهها أن الأرض بنسف الجبال يستوي سطحها ويعتدل فكذلك قوابل الجود يستعدّ

ويعتدل لأن يفاض عليها صورة نوع أخرى لإبناء هذا النوع.

الرابع: قالوا: يحتمل أن يريد بالسماء سماء الجود الإلهي، وبالأرض عالم الإنسان. فعلى هذا تكون إمادة السماء عبارة عن ترتيب كل استحقاق لقابله في الفضاء الإلهي، والفطر عبارة عن الفيض، وإرجاج الأرض وإرجافها عبارة عن الهرج والمرج الواقع بين أبناء نوع الإنسان، وقلع جبالها ونسفها ودكّ بعضها بالبعض عبارة عن إهلاك الجبابرة والمعاندين للناموس الإلهي وقتل بعضهم ببعض. كل ذلك بأسباب قهريّة مستندة إلى هيبة جلال الله وعظمته، وإخراج من فيها وتجديدهم إشارة إلى ظهور ناموس آخر مجدّد لهذا الناموس والمتّبع له إذن قوم آخرون هم كنوع جديد، وتمييزهم فريقين منعم عليهم ومنتقم منهم ظاهر. فإن المستعدين لاتّباع الناموس الشرعي والقائلين به هم المنعم عليهم المثابون، والتاركين له المعرضين عنه هم المنتقم منهم المعاقبون.

فأما صفة الفريقين وما أعدّ لكل منهم بعد الموت فعلى ما نطق به الكتاب العزيز ووصفته هذه الألفاظ الكريمة، وعلى تقدير التأويلات السابقة لمن عدل عن الظواهر فثواب أهل الطاعة جوار بارئهم وملاحظة الكمال المطلق لهم، وخلودهم في داره: بقاؤهم في تلك النعمة غير جائز عليهم الفناء. كما تطابق عليه الشرع والبرهان، وكونهم غير ظاعنين ولا متغيّري الأحوال ولا فزعين ولا ينالهم سقم ولا خطر، ولا يشخصهم سفر. فلأن كل ذلك من لواحق الأبدان والكون في الحياة الدنيا فحيث زالت عوارضها ولواحقها.

وأما جزاء أهل المعصية فإنزالهم شرّ دار؛ وهي جهنم التي هي أبعد بعيد عن جوار الله، وغلّ أيديهم إلى أعناقهم إشارة إلى قصور قواهم العقلية عن تناول ثمار المعرفة، واقتران النواصي بالأقدام إشارة إلى انتكاس رؤوسهم عن مطالعة أنوار الحضرة الإلهية، وإلباسهم سرابيل القطران: استعار لفظ السرابيل للهيئات البدنية المتمكنة من جواهر نفوسهم، ووجه المشابهة اشتمالها عليها وتمكّنها منها كالسربال للبدن، ونسبتها إلى القطران إشارة إلى شدّة استعدادهم للعذاب، وذلك أنّ اشتعال النار فيما يمسح بالقطران أشدّ، ونحوه قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وكذلك مقطعات النيران: إشارة إلى تلك الهيئات التي تمكنت من جواهر نفوسهم، ونسبتها إلى النار لكونها ملبوس أهلها فهي منها كما قال تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

ولما كان سبب الخروج من النار هو الخروج إلى الله من المعاصي بالتوبة، والرجوع إلى تدبر الآيات والعبر النوافع. وكان البدن وحواسه أبواب الخروج إلى الله فبعد الموت تغلق تلك الأبواب فلا جرم يبقى الكفار وراء طبق تلك الأبواب في شدائد حرارة ذلك العذاب، ولهب النار ولجبها وأصواتها الهائلة: استعارة لأوصاف النار المحسوسة المستلزمة للهيبة والخوف حساً للنار المعقولة التي هي في الحقيقة أشد - نعوذ بالله منها - وإنما عدل إلى المحسوس للغفلة عن صفات تلك النار وعدم تصوّر أكثر الخلق لها إلاّ من هذه الأوصاف المحسوسة، وكونها لا يظعن مقيمها كناية عن التخليد، وذلك في حقّ الكفّار، ولفظ الأسير والفدية استعارة، وكذلك لفظ الكبول استعارة لقيود الهيئات البدنية المتمكّنة من جواهر نفوس الكفّار فكما لا ينفصم القيد الوثيق من الحديد ولا ينفك المكبّل به كذلك النفوس المقيدة بالهيئات الرديئة البدنية عن المشي في بيداء جلال الله، وعظمته والتنزه في جنان حظائر قدسه ومقامات أصفيائه.

ولما كان الأجل مفارقة البدن لم يكن لهم بعد موتهم أجل، إذ لا أبدان بعد الأبدان ولا خلاص من العذاب للزوم الملكات الرديئة لأعناق نفوسهم، وتمكنها منها. فهذا ما عساهم يتأوّلونه أو يعبّرون به عن الأسرار التي يدّعونها تحت هذه العبارات الواضحة التي وردت الشريعة بها. لكنّك قد علمت أن العدول إلى هذه التأويلات وأمثالها مبنيّ على امتناع المعاد البدني، وذلك مما صرّحت به الشريعة تصريحاً لا يجوز العدول عنه، ونصوصاً لا يحتمل التأويل، وإذا حملنا الكلام

على ما وردت به الشريعة فهذا الكلام منه عليه السلام أفصح ما يوصف به حال القيامة والمعاد. والتعرض لشرحه يجري مجرى إيضاح الواضحات. وبالله التوفيق.

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله:

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ اخْتِيَاراً، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً.

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ.

أقول: الرياش: اللباس.

والفصل اقتصاص لحال الرسول صلى الله عليه وآله وأوصافه الحميدة ليبني عليها ممادح نفسه بعد. فتحقيره للدنيا وتصغيرها وتهوينها إشارة إلى ما كان يجذب الخلق به عنها من ذكر مذامها وتعديد معايبها، وإهوانه بها إشارة إلى زهده فيها، وعلمه بإزواء الله إيّاها عنه اختياراً إشارة إلى أن زهده فيها كان عن علم منه باختيار الله له ذلك وتسبّب أسبابه وهو وجه مصلحته ليستعد نفسه بذلك لكمال النبوة والقيام بأعباء الخلافة الأرضية، وبسطها لغيره احتقاراً لها، وقد عرفت معنى الاختيار من الله لخلقه غير مرّة.

فكان إعراضه عنها بقلبه إماتة ذكرها عن نفسه، ومحبّته لأن تغيب زينتها عن عينه لئلا يتّخذ منها رياشاً ولا يرجو فيها مقاماً جذباً للعناية الإلهية له عن الالتفات إلى الالتقاط إلى الكمالات المعلومة له، وعن أن ينحط لمحبتها عن مقامه الذي قضت العناية الإلهية بنظام العالم بسببه، ثم أعقب ذلك بذكر ثلاثة أحوال هي ثمرة النبوة التي هي ثمرة الزهد المشار إليه؛ وهي تبليغ رسالة ربه إعذاراً إلى خلقه أن يقولوا يوم القيامة: إنّا كنّا عن هذا غافلين، والنصح لهم إنذاراً بالعذاب الأليم في عاقبة الإعراض عن الله، ودعاؤه إلى الجنّة مبشراً لمن سلك سبيل الله ونهجه المستقيم بما أعدّ له فيها من النعيم المقيم. ثم عقّب اقتصاص تلك الممادح بالإشارة إلى فضيلة نفسه، وذلك منه في معرض المفاخرة بينه وبين مشاجريه كمعاوية. فأشار إلى فضيلته من جهة اتّصاله بالرسول صلى الله عليه وآله إذ كان من البيت الذي هو شجرة النبوة ومحط الرسالة ومعدن العلم وينبوع الحكمة بأفضل مكان بعد الرسول صلى الله عليه وآله كما سبق بيانه في بيان فضائله، ولفظ الشجرة والمعادن والينابيع مستعار كما سبق، وإذا كان من تلك الشجرة كما علمت ولكل غصن من الشجرة قسط من الثمرة بحسب قوّته وقربه من الأصل. وعناية الطبيعة به علمت مقدار فضيلته ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وآله.

وقوله بعد ذلك: ناصرنا ومحبّنا. إلى آخره.

ترغيب في نصرته ومحبته وجذب إليها بالوعد برحمة الله وإفاضة بركاته وتنفير عن عداوته وبغضه بلحوق سطوة الله، ولعل ذلك هو غايته هنا من ذكر فضيلته. وبالله التوفيق والعصمة.

١١٠ - ومن خطبة له عليه السلام

في أركان الإسلام

إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، الإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلامِ، وَكَلِمَةُ الإِخْلاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَحِجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الأَجَلِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ الْعَلانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ.

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَارْغَبُوا

فإن كل العبادات الواجبة كذلك، ولأن الفرض والواجب بمعنى فيكون قوله: فريضة واجبة. تكراراً، وأقول: ما ذكره وجه حسن، وهو إشارة إلى بعض أسرارها كما نبينه، ولهذه العبادة مع السر العام الشامل لجميع العبادات وهو الالتفات إلى الله تعالى ومحبته أسرار:

الأول: أن المراد بكلمة الشهادة التوحيد المطلق وإفراد المعبود بالتوجه إليه وذلك لا يتم إلاّ بنفي كل محبوب عداه فإن المحبة لا تحتمل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الفائدة في الباطن، وإنما تمتحن درجة الحب بمفارقة المحبوبات، والأموال محبوبة عند الخلق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وأُنسهم بها ونفرتهم عن الموت فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو معشوقهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. ولما فهم الناس هذا المعنى انقسموا أقساماً: فطائفة أخلصوا في حب معشوقهم ووفوا بعهده فبذلوا أموالهم ولم يدخروا منها شيئاً حتى قيل لبعضهم: كم تجب من الزكاة في مائتي درهم؟ قال: أما على العوام فبحكم الشرع خمسة دراهم، وأما علينا فيجب بذل الجميع، ومنهم من قعد عن هذه المرتبة وأمسكوا أموالهم وراقبوا مواقيت الحاجة ومواسم الخيرات وجعلوا قصدهم في الادخار الإنفاق على قصد الحاجة دون التنعم، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر، وهؤلاء لا يقتصرون على واجب الزكاة كالنخعي والشعبي ومجاهد، وقيل للشعبي: هل في المال حق سوى الزكاة؟ فقال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. ولم يجعلوا ذلك مخصوصاً بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على المؤسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته بما يفضل عن مال الزكاة، ومنهم من اقتصر على اداء الواجب من الزكاة من غير زيادة ولا نقصان وهي أدون الرتب وقد اقتصر مع العوام على ذلك لجهلهم بسرّ البذل وبخلهم المال، وضعف حبهم للآخرة، ويلزم لهذا السر تطهير ذوي الأموال عن رذيلة البخل. فإنها من المهلكات. قال عليه السلام: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، ووجه كونه مهلكاً أنه إنما يصدر عن محبة المال. وقد علمت أن الدنيا والآخرة ضرتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد من الأخرى فكانت محبة المال صارفة عن التوجه إلى الله ومبعدة منه، وذلك يستلزم الهلاك الأخروي كما بيّناه. وإنما تزول هذه الرذيلة بتعوّد البذل. إذ حبّ الشيء لا ينقطع إلاّ بقهر النفس على مفارقته بالتدريج حتى يصير ذلك عادة فالزكاة بهذا المعنى طهور: أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وفرحه واستبشاره بصرفه في جنب الله طاعة ومحبة له وملاحظة لحذف كل محبوب عداه عن سمت القبلة.

السر الثاني: شكر النعمة فإن لله على العبد نعمة في نفسه وشكرها العبادات البدنية، ونعمة في ماله وشكرها العبادات المالية، وليس أحد أخسّ وأبعد عن رحمة الله ممن ينظر إلى فقر قد ضيّق عليه الرزق ثم اضطر إليه فلم تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على ما أغناه عن السؤال وأحوج غيره إليه بعشر ماله أو بربع عشره.

السر الثالث: يتعلق بإصلاح المدن وتدبير أحوال أهلها وهو أن جعل الله هذا الفرض في أموال الأغنياء شركة للفقراء، لأن يسد به خلتهم، وإليه أشار عليه السلام بكونه فريضة واجبة، وفي هذا السر سران:

أحدهما: أن يكون ذلك عوناً لهؤلاء على عبادة الله كي لا يشتغلوا بالطلب عنها.

الثاني: أن ينكسر هممهم عن حسد أهل الأموال والسعي بالفساد في الأرض فلا ينتظم أمر المدنية، وتكون قلوبهم ساكنة إلى ذلك القدر معلّقة به مستمدة من الله تعالى بالدعاء في حفظه متآلفة مع أهل الأموال منجذبة إليهم فيتمّ بذلك أمر المشاركة والمعاونة والأُنس والمحبة، الموجبات للألفة الموجبة لنظام العالم وقوام أمر الدين وبقاء نوع الإنسان لما لأجله وجد.

السادس: صوم شهر رمضان. وتخصيصه بكونه جنة

كانت فائدة الصلاة هو الالتفات إلى الله تعالى بقمع الشيطان. وكان أحد الرجلين في صلاته خاشعاً لخشية الله مستحضراً لعظمته، والآخر غافل عن هذه الجهة قد صرف الشيطان وجه قلبه إلى غير القبلة فأين أحدهما من الآخر، وكذلك ما أشار إليه من التخويف لمن يحوّل وجهه في الصلاة. فإنه نهي منه عن الغفلة عن الالتفات إلى الله وملاحظة عظمته في حال الصلاة. فإنّ الملتفت يميناً وشمالاً ملتفت عن الله وغافل عن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقليّته للأمور العلوية وعدم إكرامه بشيء من العلوم والقرب إلى الله.

وكذلك غفران ذنب المصلي بسبب تركه حديث نفسه بشيء من الدنيا فإنّه في تلك الحال يلتفت إلى الله تعالى غافلاً عن غيره، والالتفات إليه هو روح العبادة وخلاصتها، ولذلك قال صلى الله عليه وآله: إنّما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله فإذا لم يكن في قلبك المذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمته، ولا هيبته فما فيه ذكرك. وعن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء. وكان علي عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلون فيقال له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. وكان علي بن الحسين عليه السلام إذا حضر للوضوء اصفرّ لونه فيقول أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: ما تدرون بين يدي من أقوم. وكل ذلك إشارة إلى استحضار عظمة الله والالتفات إليه حال العبادة والانقطاع عن غيره.

وأما ما يخصها من الأسرار فقد علمت أن الصلاة ليس إلاّ ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود: أما الذكر فظاهر أنه محاورة ومناجاة الله تعالى وغايتها استلزام الالتفات إليه، وتذكرّ ما ينجذب القوى الشيطانية تحت قيادة العقل ويستمر تعوّدها بذلك وهو المقصود منه الحرف والصوت امتحاناً للسان بالعمل وإن حصلت الغفلة. فإن تحريك اللسان بالهذيان خفيف على الإنسان لا كلفة فيه من حيث إنه عمل، وسنبيّن حال الذكر وفضيلته وفائدته في موضع أليق به إن شاء الله تعالى.

وأما الركوع والسجود والقيام والقعود فالغرض بها التعظيم لله تعالى المستلزم للالتفات إليه وذكره أيضاً. إذ لو جاز أن يكون معظماً لله بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يعظم صنماً موضوعاً بين يديه وهو غافل عنه، ويؤيد ذلك ما روي عن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمداً في الصلاة فلا صلاة له، وقال عليه السلام: إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها، ولما عرفت أن الأصل من أركانها هو الالتفات إلى الله تعالى فاعلم أن الالتفات إليه مستلزم للتذكر والتفهّم لأن الالتفات إليه، إنما يراد لمطالعة كبريائه وعظمته، والمطالعة ليس إلاّ الفكر الذي هو عين البصيرة وحدقة العقل الإنساني.

ثم إن التذكر والتفهم مستلزم للتعظيم فإن مطالعة عظمة الله أعظم من أن لا يعظّمها العارف بها، والتعظيم مستلزم للخوف والرجاء فإنّا نجد عند تصور عظمة ملك من ملوك الدنيا وجداناً ضرورياً أنّا ننقهر عن مكالمته ومحاورته ونلزم معه السكون والخضوع. وربما يتبع ذلك رعدة البدن وتلعثم اللسان، ومنشأ كل ذلك الخوف الحادث عن تصور عظمته فكيف يتصور جبار الجبابرة وملك الدنيا والآخرة، وكذلك الرجاء، فإنّا عند تصور عظمة الله نتصور أن الكل منه وذلك باعث على رجائه، خصوصاً وقد تأكد ذلك بالآيات الواردة في باب الخوف والرجاء، وكذلك يستلزم الحياء لأن المتصور لعظمة الآمر لا يزال مستشعراً تقصيراً ومتوهّماً ذنباً وذلك الاستشعار والتوهم يوجب الحياء من الله سبحانه.

الخامس: إيتاء الزكاة، وهي ركن قوي من أركان الدين، وأشار إلى وجه فضلها بكونها فريضة واجبة. قال قطب الدين الراوندي: أراد بالفريضة السهم المنقطع من المال للفقراء المستحقين المسمى زكاة. قال: وهو عرف شرعي لأن الفريضة بمعنى الواجب.

فإن كل العبادات الواجبة كذلك، ولأن الفرض والواجب بمعنى فيكون قوله: فريضة واجبة. تكراراً، وأقول: ما ذكره وجه حسن، وهو إشارة إلى بعض أسرارها كما نبينه، ولهذه العبادة مع السر العام الشامل لجميع العبادات وهو الالتفات إلى الله تعالى ومحبته أسرار:

الأول: أن المراد بكلمة الشهادة التوحيد المطلق وإفراد المعبود بالتوجه إليه وذلك لا يتم إلاّ بنفي كل محبوب عداه فإن المحبة لا تحتمل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الفائدة في الباطن، وإنما تمتحن درجة الحب بمفارقة المحبوبات، والأموال محبوبة عند الخلق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وأُنسهم بها ونفرتهم عن الموت فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو معشوقهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. ولما فهم الناس هذا المعنى انقسموا أقساماً: فطائفة أخلصوا في حب معشوقهم ووفوا بعهده فبذلوا أموالهم ولم يدخروا منها شيئاً حتى قيل لبعضهم: كم تجب من الزكاة في مائتي درهم؟ قال: أما على العوام فبحكم الشرع خمسة دراهم، وأما علينا فيجب بذل الجميع، ومنهم من قعد عن هذه المرتبة وأمسكوا أموالهم وراقبوا مواقيت الحاجة ومواسم الخيرات وجعلوا قصدهم في الادخار الإنفاق على قصد الحاجة دون التنعم، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر، وهؤلاء لا يقتصرون على واجب الزكاة كالنخعي والشعبي ومجاهد، وقيل للشعبي: هل في المال حق سوى الزكاة؟ فقال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. ولم يجعلوا ذلك مخصوصاً بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على المؤسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته بما يفضل عن مال الزكاة، ومنهم من اقتصر على اداء الواجب من الزكاة من غير زيادة ولا نقصان وهي أدون الرتب وقد اقتصر مع العوام على ذلك لجهلهم بسرّ البذل وبخلهم المال، وضعف حبهم للآخرة، ويلزم لهذا السر تطهير ذوي الأموال عن رذيلة البخل. فإنها من المهلكات. قال عليه السلام: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، ووجه كونه مهلكاً أنه إنما يصدر عن محبة المال. وقد علمت أن الدنيا والآخرة ضرتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد من الأخرى فكانت محبة المال صارفة عن التوجه إلى الله ومبعدة منه، وذلك يستلزم الهلاك الأخروي كما بيّناه. وإنما تزول هذه الرذيلة بتعوّد البذل. إذ حبّ الشيء لا ينقطع إلاّ بقهر النفس على مفارقته بالتدريج حتى يصير ذلك عادة فالزكاة بهذا المعنى طهور: أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وفرحه واستبشاره بصرفه في جنب الله طاعة ومحبة له وملاحظة لحذف كل محبوب عداه عن سمت القبلة.

السر الثاني: شكر النعمة فإن لله على العبد نعمة في نفسه وشكرها العبادات البدنية، ونعمة في ماله وشكرها العبادات المالية، وليس أحد أخسّ وأبعد عن رحمة الله ممن ينظر إلى فقر قد ضيّق عليه الرزق ثم اضطر إليه فلم تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على ما أغناه عن السؤال وأحوج غيره إليه بعشر ماله أو بربع عشره.

السر الثالث: يتعلق بإصلاح المدن وتدبير أحوال أهلها وهو أن جعل الله هذا الفرض في أموال الأغنياء شركة للفقراء، لأن يسد به خلتهم، وإليه أشار عليه السلام بكونه فريضة واجبة، وفي هذا السر سران:

أحدهما: أن يكون ذلك عوناً لهؤلاء على عبادة الله كي لا يشتغلوا بالطلب عنها.

الثاني: أن ينكسر هممهم عن حسد أهل الأموال والسعي بالفساد في الأرض فلا ينتظم أمر المدنية، وتكون قلوبهم ساكنة إلى ذلك القدر معلّقة به مستمدة من الله تعالى بالدعاء في حفظه متآلفة مع أهل الأموال منجذبة إليهم فيتمّ بذلك أمر المشاركة والمعاونة والأُنس والمحبة، الموجبات للألفة الموجبة لنظام العالم وقوام أمر الدين وبقاء نوع الإنسان لما لأجله وجد.

السادس: صوم شهر رمضان. وتخصيصه بكونه جنة

من العقاب مع أن سائر العبادات كذلك لما أنه أشدها وقاية، وبيان ذلك أنه مستلزم لقهر أعداء الله التي هي الشياطين المطيفة بالإنسان. فإن وسيلة الشيطان هي الشهوات وإنما يقوي الشهوة ويثيرها الأكل والشرب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع، وقال صلى الله عليه وآله لعائشة: داومي قرع باب الجنة فقالت: بماذا؟ قال: بالجوع.

فكان الصوم على الخصوص أشد قمعاً للشيطان وأسد لمسالكه وتضييق مجاريه، ولما كان العقاب إنما يلحق الإنسان ويتفاوت في حقه بالشدة والضعف بحسب تفاوت قربه من الشيطان وبعده منه.

وكانت هذه العبادة أبعد بعيد عن الشيطان كان بسببها أبعد بعيد عن العقاب فلذلك خصت بكونها وقاية منه. واعلم أن هذه العبادات وإن كانت عدمية إلاّ أنها ليست عدماً صرفاً بل عدم ملكة يحرك من الطبيعة تحريكاً شديداً ينبه صاحبه أنه على جملة من الأمر ليس هذراً فيتذكر سب ما ينويه من ذلك وأنه التقرب إلى الله سبحانه كما هو غاية للسر العام للعبادات.

السابع: حج البيت واعتماره، وقد سبقت منه الإشارة إلى أسراره في الخطبة الأولى. والذي ذكره هٰهنا كونهما ينفيان الفقر ويغسلان الذنب فجمع فيه بين منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة: أما منفعة الدنيا فكونهما ينفيان الفقر وذلك بسبب التجارة الحاصلة في موسم الحج وقيام الأسواق بمكة حينئذٍ.

وأما منفعة الآخرة لكونهما يغسلان الذنب عن لوح النفس كما علمته في أسرار العبادات وهي هذه المنافع المشار إليها في القرآن الكريم بقوله: ﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] قال أكثر المفسرين: هي منافع الدنيا من التجارة وهو المنقول عن سعيد بن جبير وابن عباس في رواية أبي رزين عنه، ومنهم من جعلها عامة في منافع الدنيا والآخرة كالتجارة والثواب، وهو المنقول عن مجاهد وابن عباس في رواية عطاء عنه.

الثامن: صلة الرحم، وذكر من فوائدها أمرين:

أحدهما: كونها مثراة في المال، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن العناية الإلهية قسمت لكل حي قسطاً من الرزق يناله مدة الحياة الدنيا وتقوم به صورة بدنه فإذا أعدت شخصاً من الناس للقيام بأمر جماعة وكلفته بإمدادهم ومعونتهم وجب في العناية إفاضته أرزاقهم على يده وما يقوم بإمدادهم بحسب استعداده لذلك سواء كانوا ذوي أرحام أو مرحومين في نظره حتى لو نوى قطع أحد منهم فربما نقص ماله بحسب رزق ذلك المقطوع، وذلك معنى كونه مثراة للمال.

الثاني: أن صلة الرحم من الأخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكل فيكون ذلك سبباً لإمداده ومعونته من ذوي الإمداد والمعونات كالملوك ونحوهم فكانت صلة الرحم مظنة لزيادة المال.

والثاني: كونه منسأة للأجل وهو من وجهين:

أحدهما: أن صلة الرحم توجب تعاطف ذوي الأرحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم فيكون عن أذى الأعداء أبعد وفي ذلك مظنة تأخيره وطول عمره.

الثاني: أن مواصلة ذوي الأرحام توجب تعلق هممهم ببقاء واصلهم وإمداده بالدعاء ويكون دعاؤهم له وتعلق هممهم ببقائه من شرائط بقائه وإنساء أجله فكانت مواصلتهم منسأة في أجله.

التاسع: صدقة السر. وذكر من فوائدها كونها تكفر الخطيئة، وإنما خصّها بذلك مع أن سائر العبادات كذلك لكونها أبعد عن الرياء ومخالطة ما لا يراد به إلاّ وجه الله تعالى فكان الإخلاص فيها لله أتمّ فكانت أولى بالتقريب من الله وبمحو الخطيئة.

العاشر: صدقة العلانية، وذكر في فوائدها أنها تدفع ميتة السوء؛ وبيان ذلك أن صدقة العلانية تستلزم الشهرة بفعل الخيرات، وتوجب الذكر الجميل للمتصدق. ولما كانت ميتات السوء كالحرق والغرق والصلب والقتل ونحو ذلك من الأحوال الشنيعة التي تكثر نفرة الناس عن الموت عليها. وكان قليلاً ما يقع شيء منها بقصد من الناس لمن أحبّوه واشتهر بالرحمة واستجلاب قلوب الفقراء بالصدقة والإيثار. فلا جرم كانت تلك الصدقة مظنة الدفع لميتات السوء.

الحادي عشر: صنائع المعروف، وذكر من فوائدها أنها تقي مصارع الهوان، وتقريره قريب مما قبله. إذ كان اصطناع المعروف مستلزماً لتآلف قلوب الخلق وجامعاً لهم على محبة المصطنع فقلما يقع من ذلك نسيبهم في مصرع هوان. ثم لما فرغ من تعداد كمالات الإيمان أمر بما يؤكده في القلوب ويثبته وهي أمور:

أحدها: الاندفاع في ذكر الله. وهو من مؤكدات الإيمان به، ورغّب فيه بكونه أحسن الذكر، وذلك لما يستلزمه من الحصول على الكمالات المسعدة في الآخرة والوصول إلى الله كما سنبيّن فائدته وفضيلته في موضع التوبة.

الثاني: الرغبة فيما وعد المتقين من ثواب الآخرة وأنواعه. وهو أيضاً من مؤكدات طاعته والعمل له، ولما كان الخلف في خبره تعالى محالاً كان وعده أصدق الوعود.

الثالث: الاقتداء بهدي النبي ﷺ.

الرابع: اتباع سنّته. ولما كان أفضل الأنبياء كانت سنّته أشرف السنن والاقتداء به واتباع سنّته أهدى الطرق إلى الله.

الخامس: تعلّم القرآن. وظاهر كونه من مؤكدات الإيمان بالله ورسوله، واستعار له لفظ الربيع، ووجه المشابهة كون القرآن جامعاً لأنواع العلوم الشريفة والأسرار العجيبة اللطيفة التي هي متنزه القلوب. كما أن زمن الربيع محل الأزهار الرائقة التي هي مستمتع النظر ومطرح السرور.

السادس: الاستشفاء بنوره، وظاهر كونه شافياً للقلوب من ظلمة الجهل.

السابع: حسن تلاوته. وذلك لأن حسن تلاوته مظنة تفهم معانيه وتدبرها، وبحسن تلاوته تظهر فائدته وتحصل منفعة قصصه، وإنما يكون أنفع القصص إذا تلي حق تلاوته كما سبق بيانه. ثم أكد الأوامر المذكورة بالأعمال التي عددها مما ينبغي أن يعمل على وفق العلم بالتنبيه على نقصان العالم الذي لا يعمل بعلمه فسوّى أولاً بينه وبين الجاهل العادل عن سواء سبيل الله. ووجه التسوية اشتراكهما في ثمرة الجهل وهو الجور عن قصد السبيل وفي عدم الانتفاع بفائدة العلم وثمرته. وهي الأعمال الصالحة. ثم جعل حال العالم أخس لثلاثة أوجه:

أحدها: أن الحجة عليه أعظم لأن للجاهلين أن يقولوا: إنا كنّا عن هذا غافلين. وليس للعالم ذلك، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع. أي الذي يستلزم الطاعة بالعمل.

الثاني: أن الحسرة له ألزم. وذلك أن النفوس الجاهلة غير عالمة بمقدار ما يفوتها من الكمال بالتحصيل فإذا فارقت أبدانها فهي وإن كانت محجوبة عن ثمار الجنة وما أعدّ الله فيها لأوليائه العلماء إلاّ أنها لما لم تجد لذتها ولم تطعم حلاوة المعارف الإلهية لم تكن لها كثير حسرة عليها ولا أسف على التقصير في تحصيلها. بخلاف العارف بها العالم بنسبها إلى اللذات الدنيوية. فإنه بعد المفارقة إذا علم وانكشف له أنّ الصارف له والمانع عن الوصول إلى حضرة جلال الله هو تقصيره في العمل بما علم مع علمه بمقدار ما فاته من الكمالات والدرجات. كان أسفه وحسرته على ذلك أشد الحسرات. وجرى ذلك مجرى من علم قيمة جوهرة ثمينة يساوي جملة من المال ثم اشتغل عن تحصيلها ببعض لعبه حتى فاتته، فإنه تعظم حسرته عليها وندمه على التفريط فيها بخلاف الجاهل بقيمتها.

الثالث: أنه يكون عند الله ألوم؛ وأشدّية اللائمة بعد المفارقة مجاز في انقطاع لسان حاله عن العذر في معصيته عن علم. وإنما يكون ألوم لأن إقدام العالم على المعصية التي علم قبحها إنما يكون عن نفس في غاية الانقياد للنفس الأمارة بالسوء، والطاعة لإبليس وجنوده طاعة تفضل على طاعة الجاهل وانقياده لقيام الصارف في حق العالم وهو علمه بقبحها، وترجّح الداعي إليها عليه وعدم الصارف في حق الجاهل. ولا شك أن أشدّية اللائمة تابعة لأشدّية الانقياد لإبليس خصوصاً مع العلم بما يستلزم متابعته من الهلاك. وظاهر إذن كونه ألوم عند الله. وبالله التوفيق والعصمة.

١١١ - ومن خطبة له عليه السلام

في ذمّ الدنيا

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لا تَعْدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً إِلاَّ مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً. وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلاَّ هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ! وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى. لا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلاَّ أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً! وَلا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلاَّ أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ! غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلاَّ التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ! وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً! سُلْطَانُهَا دُوَلٌ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ! حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ! مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ! أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلا ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَنَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلاَّ الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلاَّ الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاَّ النَّدَامَةَ! أَفَهٰذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا! فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا، وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً، وَأُنْزِلُوا الأَجْدَاثَ. فَلا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لا يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلا يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَلا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لا يَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ، وَجُهَلاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ. لا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاؤُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً. قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أقول: الحبرة: السرور. والفجعة: الرزية.

وغوّالة: أي تأخذ على غرّة. وأوبى: أمرض. والغضارة: طيب العيش. وقوادم الطير: مقاديم ريش جناحه. وأوبقه: أهلكه. وَالأبّهة: العظمة. ورنق: كدر. ورمام: بالية منقطعة. والمحروب: مسلوب المال. وأرهقتهم: غشيتهم. وفدحه الأمر: اغتاله وأثقله. والقارعة: الداهية الشديدة. وضعضعتهم: أذلّتهم. والمناسم: أخفاف الإبل. والسغب: الجوع. والأجنان: جمع جنن جمع جنّة وهي الستر.

واعلم أن مدار هذا الفصل على التحذير من الدنيا والتنفير عنها بذكر معايبها، وفيه نكت:

فالأولى: استعار لفظ الحلاوة والخضرة المتعلقين بحسي الذوق والبصر لما يروق النفس منها ويلذّ، ووجه المشابهة المشاركة في الالتذاذ به، وإنّما خص متعلق هذين الحسّين لأكثرية تأديتهما إلى النفس والالتذاذ بواسطتهما دون سائر الحواس.

الثانية: وصف الدنيا بكونها محفوفة بالشهوات. وفي الخبر: حفّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات. قال أصحاب المعاني: وفي ذلك تنبيه على أن النار هي الدنيا، ومحبّتها بعد المفارقة هو سبب عذابها. قلت: إن ذلك غير مفهوم من كلامه عليه السلام.

وأما معنى الخبر فجاز أن يراد فيه النار المعقولة فيكون قريباً مما قالوا: وجاز أن يراد بالنار المحسوسة، ويكون المعنى على التقديرين أن النار إنما تدخل بالانهماك في مشتهيات الدنيا ولذاتها والخروج في استعمالها عما ينبغي إلى ما لا ينبغي فكأنها لذلك محفوفة ومحاطة بالشهوات لا يدخل إليها إلاّ منها. وأراد بالعاجلة اللذات الحاضرة التي مالت القلوب إلى الحياة الدنيا بسببها فأشبهت المرأة المتحببة بمالها وجمالها. فاستعير لها لفظ التحبب، وكذلك قوله: راقت بالقليل: أي أعجبت بزينتها القليلة بالنسبة إلى متاع الآخرة كمية وكيفية، وكذلك تجلّيها بالآمال الكاذبة المنقطعة وبزينتها مما هو في نفس الأمر غرور وباطل فإنه لولا الغرور والغفلة عن عاقبتها لما زانت في عيون طالبيها.

الثالثة: استعار لها أوصاف المحتالة الخدوع؛ وهي كونها غرارة وغوّالة: أي كثيرة الاستغفال لأهلها والخداع لهم، ووصف السبع العقور لكونها أكّالة لهم، وكنى بالأوّلين عن كونها كالمخادع في كونها سبباً لغفلتهم عما خلقوا لأجله بالاشتغال بها والانهماك في لذاتها، وبالأكالة عن كونها كالسبع في إفنائهم بالموت وطحنهم تحت التراب.

الرابعة: معنى قوله: لا تعدوا. إلى قوله: مقتدراً. أن غاية صفائها للراغبين فيها والراضين بها وموافقتها لهم لا يتجاوز المثل. وهو: أن تزهر في عيونهم وتروقهم محاسنها، ثم عن قليل تزول عنهم فكأنها لم تكن. كما هو معنى المثل المضروب لها في القرآن الكريم: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ [الكهف: ٤٥] الآية.

الخامسة: كنّى بالعبرة عن الحزن المعاقب للسرور، وتخصيصه البطن بالسراء والظهر بالضراء، ويحتمل أمرين:

أحدهما: أن يريد بطن المجن وظهره، وذلك من العادة في حال الحرب أن يلقى الإنسان ظهر المجن، وفي حال السلم أن يلقى المجن فيكون بطنه ظاهراً. فجرى المثل به في حق المتنكرين والمخاصمين بعد سلم. فقيل: قلب له ظهر المجن. كما قال علي عليه السلام لابن عباس في بعض كتبه إليه: قلّبت لابن عمك ظهر المجن. فكذلك استعمل هٰهنا لقاءها للمرء ببطنها في إقبالها عليه ولقائه منها ظهراً في إدبارها ومحاربتها له.

الثاني: يحتمل أن يريد بطنها وظهرها. وذلك أن العادة فيمن يلقى صاحبه بالبشر والسرور أن يلقاها بوجهه وبطنه وفيمن يلقاه بالتنكير والإدبار أن يلقى بظهره مولياً عنه فاستعير ذلك للدنيا وعبّر به عن إقبالها وإدبارها.

السادسة: وإنما خصّ منها بالجناح. لأن الجناح محل التغيّر بسرعة فنبّه به على سرعة تغيّراتها، وإنّما خصّ الخوف بالقوادم من الجناح لأن القوادم هي رأس الجناح وهي الأصل في سرعة حركته وتغيّره وهو في مساق ذمّها والتخويف منها فحسن ذلك التخصيص،

ومراده أنه وإن حصل فيها أمن فهو في محلّ التغيّر السريع والخوف إليه أسرع لتخصيصه بالقوادم.

السابعة: لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى. استثنى ما هو المقصود من خلق الدنيا وأشار إلى وجود هذا النوع فيها وهو التقوى الموصل إلى الله سبحانه، وإنما كان من أزواد الدنيا لأنه لا يمكن تحصيله إلاّ فيها، وقد سبقت الإشارة إليه في قوله: فتزوّدوا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً. وظاهر أنه لا خير فيما عداه من أزوادها لفنائه ومضرته في الآخرة.

الثامنة: من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه: أي من الزهد فيها، وقد عرفت كيفية الأمان من عذاب الله، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وهو ملكات السوء الحاصلة عن حب قيناتها وملذاتها الفانية الموجبة للهلاك بعد مفارقتها وزوالها.

التاسعة: استعار لفظ العذب والحلو للذاتها، ولفظي الأجاج - وهو المالح - والصبر لما يشوب لذاتها من الكدر بالأمراض والتغيّرات، ووجه الاستعارات الاشتراك في الالتذاذ والإيلام.

العاشرة: استعار لفظ الغذاء، وكنّى به عن لذاتها أيضاً، ولفظ السمام له. ووجه الاستعارة ما يستعقب الانهماك في لذاتها من الهلاك في الآخرة كما يستعقبه شرب السم، والسمام: جمع سمّ. ثم أعقب التحذير منها بالتنبيه على مصارع السابقين فيها ممن كان أطول أعماراً وأشدّ بأساً من تغيّراتها وتنكراتها لهم مع شدة محبتهم، وتعبّدهم لها. والسؤال على سبيل الإنكار عن دوام سرورها لهم وحسن صحبتها إيّاهم، وصرح بعده بالإنكار بقوله: بل أرهقتهم بالفوادح، واستعار لها لفظ الإرهاق والتضعضع والتغير والوطء وإعانة ريب المنون عليهم، وأسند إليها أفعال الأحياء ملاحظة تشبهها بالمرأة المتزيّنة لخداع الرجال عن أنفسهم وأموالهم ونحو ذلك.

الحادية عشر: لما فرغ من ذمها والتنفير عنها بتعديد مذامّها استفهم السامعين على سبيل التقريع لهم عن إيثارهم لها بهذا المذام واطمئنانهم إليها وحرصهم عليها. ثم عاد إلى ذمّها مجملاً بقوله: بئست الدار لمن لم يتهمها: أي لمن اعتقد بصحبتها وأنها مقصودة بالذات فركن إليها. فإنها بذلك الاعتبار مذمومة في حقه إذ كانت سبب هلاكه في الآخرة.

فأما المتهم لها بالخديعة والغرور فإنه يكون فيها على وجل منها عاملاً لما بعدها فكانت محمودة له إذ كانت سبب سعادته في الآخرة. ثم شرع في الأمر بالعمل على وفق العلم بمفارقتها. ، وذلك أن ترك العمل للآخرة إنما يكون للاشتغال بالدنيا فالعالم بضرورة مفارقتها له وما أعد لتاركي العمل من العذاب الأليم إذا نبه على تلك الحال كان ذلك صارفاً له عنها ومستلزماً للعمل لغيرها، وأكد التنبيه على مفارقتها بالتذكر بأحوال المفارقين لها بعد مفارقتها المضادة للأحوال المعتادة للأحياء التي ألفوها واستراحوا إليها. إذ كان من عادتهم إذا حملوا أن يسموا ركباناً، وإذا نزلوا أن يسموا ضيفاناً، وإذا تجاوروا أن يجيبوا داعيهم ويمنعوا عنه الضيم، وأن يفرحوا إن جادهم الغيث، ويقنطوا إن قحطوا منه، وأن يتزاوروا في التداني ويحملوا عند وجود الأضغان، ويجهلوا عند قيام الأحقاد ويخشوا ويرجوا. فسلبت عنهم تلك الصفات وعرفوا بأضداد تلك السمات.

الثانية عشرة: فجاؤوها كما فارقوها: أي أشبه مجيئهم إليها ووجودهم فيها وخروجهم منها يوم مفارقتهم لها، ووجه الشبه كونهم حفاة عراة، وهو كناية عن النفر منها، ودلّ على ذلك استشهاده بالآية الكريمة. وموضع قوله: قد ظعنوا عنها. النصب على الحال. كما انتصب حفاة عراة، والعامل فارقوها. ولا يقدر مثله بعد أن جاؤوها وإن قدر مثل الحالين السابقين. قال الإمام الوبري (رحمة الله عليه): فراقهم من الدنيا إن خلقوا منها ومجيئهم إليها إن دفنوا فيها قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧].

ثم قلت: وكان الحامل لهذا الإمام على هذا التأويل أنه لو كان مراده مجيئهم إليها هو دخولهم فيها حين الولادة مع أنه في ظاهر الأمر هو المشبّه ومفارقتهم هي المشبه به لانعكس الفرض. إذ المقصود تشبيه المفارقة بالمجيء وذلك يستلزم كون المشبّه هو المفارقة والمشبّه

به هو المجيء لكن ينبغي أن يعلم أن المشابهة إذا حصلت بين الشيئين في نفس الأمر جاز أن يجعل أحدهما أصلاً والآخر فرعاً، وجاز أن يقصد أصل المساواة بينهما من دون ذلك فحمله هنا على الوجه الثاني أولى من التعسّف الذي ذكره. فأما الآية فإن - من - فيها لبيان الجنس فلا تدل على المفارقة والانفعال. وبالله التوفيق.

١١٢ - ومن خطبة له عليه السلام

ذكر فيها ملك الموت:

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!

أقول: هذا الفصل من خطبة طويلة ذكره في معرض التوحيد والتنزيه لله تعالى عن اطلاع العقول البشرية على كنه وصفه فقدم التنبيه بالاستفهام على سبيل الإنكار عن الإحساس به في دخول منازل المتوفين وذلك قوله: هل تحسّ به. إلى قوله: أحداً. ونبّه باستنكار الإحساس به على أنه ليس بجسم. إذ كان كل جسم من شأنه أن يحس بإحدى الحواس الخمس. ثم عن كيفية توفيه للجنين في بطن أمه وهو استفهام من قبيل تجاهل العارف بالنسبة إليه، وذلك قوله: بل كيف يتوفى الجنين إلى قوله: في أحشائها.

وجعل الحق من هذه الأقسام في الوسط وهو إجابتها بإذن ربها ليبقى الجاهل في محل الحيرة متردداً، ثم لما بيّن أن ملك الموت لا يتمكن الإنسان من وصفه نبّه على عظمة الله سبحانه بالنسبة إليه، وأنه إذا عجز الإنسان عن وصف مخلوق مثله فبالأولى أن يعجز عن صفة خالقه ومبدعه الذي هو أبعد الأشياء عنه مناسبة، وتقدير البيان بذلك التنبيه أن العبد عاجز عن صفة مخلوق مثله، لما بيّناه من العجز عن صفة ملك الموت وحاله، وكل من عجز من صفة مخلوق مثله فهو من صفة خالق ذلك المخلوق ومبدعه أشدّ عجزاً. ولنشر إشارة خفيفة إلى حقيقة الموت وإلى ما عساه يلوح من وصف ملك الموت إن شاء الله تعالى.

فنقول: أما حقيقة الموت: فاعلم أن الذي نطقت به الأخبار وشهد به الاعتبار أن الموت ليس إلاّ عبارة عن تغيّر حال، وهو مفارقة الروح لهذا البدن الجاري مجرى الآلة لذي الصنعة، وأن الروح باقية بعده. كما شهدت به البراهين العقلية في مظانها، والآثار النبوية المتواترة. ومعنى مفارقتها له هو انقطاع تصرّفها فيه لخروجه عن حد الانتفاع به فما كان من الأمور المدركة لها تحتاج في إدراكه إلى آلة فهي متعطّلة عنه بعد مفارقة البدن إلى أن تعاد إليه في القبر أو يوم القيامة.

وما كان مدركاً لها لنفسها من غير آلة فهو باقٍ معها يتنعم بها ويفرح أو يحزن من غير حاجة إلى هذه الآلة في بقاء تلك العلوم والإدراكات الكلية لها هناك. وقد ضرب للمفارقة التي سمّيناها بالموت مثلاً: فقيل: كما أن بعض أعضاء المريض متعطّل بحسب فساد المزاج يقع فيه أو بحسب شدة تعرّض للأعصاب فتمنع نفوذ الروح فيها فتكون النفس مستعملة لبعض الأعضاء دون ما استقصى عليها منها فكذلك الموت عبارة عن استقصاء جمع الأعضاء كلها وتعطلها، وحاصل هذه المفارقة يعود إلى سلب الإنسان عن هذه الأعضاء والآلات والقينات الدنيوية من الأهل والمال والولد ونحوها، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء عن الإنسان أو يسلب هو عنها. إذ كان المولم هو الفراق، وقد يحصل ذلك بنهب مال الرجل وسبي ذريّته، وقد يحصل بسلبه ونهبه عن ماله وأهله. فالموت في الحقيقة هو سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر. فإن كان له في هذا العالم شيء يأنس به ويستريح إليه فبقدر عظم خطره عنده يعظم تحسّره عليه في الآخرة وتصعب شقاوته في مفارقته، ويكون سبب عظم خطره عنده ضعف تصوره لما أُعدّ للأبرار المتقين في الآخرة، مما يستحقر في القليل منه أكثر نفائس الدنيا.

فأما إن كانت عين بصيرته مفتوحة حتى لم يفرح إلاّ بذكر الله ولم يأنس إلاّ به عظم نعيمه وتمت سعادته. إذ

خلى بينه وبين محبوبه فقطع علائقه وعوائقه الشاغلة له عنه، ووصل إليه وانكشف له هناك ما كان يدركه من السعادة بحسب الوصف انكشاف مشاهدة كما يشاهد المستيقظ من نومه صورة ما رآه في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن ملك الموت عبارة عن الروح المتولى لإفاضة صورة العدم على أعضاء هذا البدن ولحال مفارقة النفس له، ولعله هو المتولي لإفاضة صورة الوجود عليها لكنه بالاعتبار الأول يسمى ملك الموت. ثم لما كانت النفوس البشرية إنما تدرك المجردات ما دامت في هذا العالم وتستثبتها بأن تستصحب القوة المتخيّلة معها فيتحاكى ما كان محبوباً منها للنفس ومستبشراً بلقائه بصورة بهيّة كتصورها لجبرائيل في صورة دحية الكلبي وغيره من الصور البهيّة الحسنة، وما كان مستكرهاً مخوفاً منفوراً من لقائه بصورة هائلة لا جرم اختلفت رؤية الناس لملك الموت. فمنهم من يراه على صورة بهية وهم المستبشرون بلقاء الله الذين قلّت رغبتهم في الدنيا ورضوا بالموت ليصلوا إلى لقاء محبوبهم وفرحوا به لكونه وسيلة إليه كما روي عن إبراهيم عليه السلام أنه لقي ملكاً فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت. فقال له: أتستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، أعرض عني. فأعرض عنه فإذا هو شاب فذكر من حسنه وثيابه (شبابه خ) وطيب ريحه فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن من البشرى إلاّ حسن صورتك لكان حسبه.

ومنهم من يراه على صورة قبيحة هائلة المنظر وهم الفجّار الذين أعرضوا عن لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها. كما روي عن إبراهيم عليه السلام أيضاً أنه قال لملك الموت: فهل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر؟ فقال: لا تطيق ذلك. فقال: بلى قال: فأعرض عني فأعرض عنه. ثم التفت إليه فإذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخره النار والدخان فغشي على إبراهيم عليه السلام. ثم أفاق، وقد عاد ملك الموت إلى حالته الأولى فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق الفاجر عند موته إلاّ هذه الصورة لكفته. وبالله التوفيق.

١١٣ - ومن خطبة له عليه السلام

في ذمّ الدنيا

وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارُها هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ. إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلا تَوَازَرُونَ وَلا تَنَاصَحُونَ، وَلا تَبَاذَلُونَ وَلاَ تَوَادُّونَ. مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ إِلاَّ مَخَافَةُ أَنْ

يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ.

أقول: يقال: هذا منزل قلعة بضم القاف: أي لا يصلح للاستيطان. والنجعة بضم النون: طلب الكلاء. والعتيد: المهيأ المعدّ. واللعقة بالضم: اسم لما تأخذه الملعقة. وفي هذا الفصل نكت:

فالأولى: التحذير من الدنيا والاستدراج إلى تركها بذكر معايبها، وذلك من أول الفصل إلى قوله: انقطاع السير. فأشار أولاً إلى أنه لا تصلح للاستيطان وطلب الكلاء، وكنّى به عما ينبغي أن يطلب من الخيرات الباقية التي هي محل الأمن والسرور الدائم.

وثانياً: إلى أن زينتها سبب لاستغفالها الخلق والاغترار بها سبب لاستحسانها.

فإن قلت: فقد جعل الزينة سبباً للغرور، والغرور سبباً للزينة وذلك دور.

قلت: إنّما جعل الزينة سبباً للاستغرار، والغرور سبباً لاستحسانها وعدم التنبه لمعائبها. فلا دور.

وثالثاً: أنها هانت على ربها: أي لم تكن العناية الإلهية إليها بالذات فلم تكن خيراً محضاً بل كان كل ما فيها ممّا يعدّ خيراً مشوباً بشر يقابله، وذلك بحسب الممكن فيها وزهادة خيرها بالنسبة إلى خير الآخرة.

الثانية: التأديب بأوامر:

أحدها: أن يجلعوا فرائض الله عليهم من جملة ما يطلبونه منه، والغرض أن تصير محبوبة لهم كمحبتهم لما يسألونه من مال وغيره فيواظبوا على العمل بها.

الثاني: أن يسألوه أداء حقه عنهم، وذلك بالإعانة والتوفيق والإعداد لذلك كما سألهم أداء حقه، والغرض أيضاً أن يصير الأداء مهماً لهم محبوباً إليهم، ونحوه في الدعاء المأثور: اللهم إنّك سألتني من نفسي ما لا أملكه إلاّ بك فأعطني منها ما يرضيك عني.

الثالث: أن يسمعوا داعي الموت آذانهم: أي يقصدون سماع كل لفظ يخوف الموت وأهواله، وذلك بالجلوس مجالس الذكر ومحاضرة الزاهدين في الدنيا، وفائدة ذكر الموت تنغيص اللذات الدنيوية كما قال عليه السلام: أكثروا ذكر هادم اللذات.

الثالثة: شرح حال الزاهدين في الدنيا ليهتدي من عساه أن ينجذب إلى الله إلى كيفية طريقتهم فيقتدي بهم. فذكر لهم أوصافاً:

الأول: أنهم تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، وذلك إشارة إلى دوام حزنهم لملاحظتهم الخوف من الله فإن ضحكوا مع ذلك فمعاملة مع الخلق.

الثاني: أنهم يشتد حزنهم وإن فرحوا. وهو قريب مما قبله.

الثالث: أنه قد يكثر لبعضهم متاع الحياة الدنيا ولكنهم يتمردون على أنفسهم فيتركون الالتفات إليها بالزينة وطاعتها فيما تدعوهم إليه من متاع الحياة الدنيا الحاضرة وإن غبطهم غيرهم بما قسم لهم من رزق.

الرابعة: تعنيف السامعين على ما هم عليه من الأحوال المضرة في الآخرة، وذلك بالغفلة عن ذكر الأجل واستحضارهم للآمال الكاذبة وغيرها من الأحوال المذكورة. إلى آخر الفصل، ومحل - تدركونه وتحرمونه ويفوتكم - النصب على الحال، - وقلة صبركم - عطف على وجوهكم: أي حتى يتبيّن ذلك القلق في وجوهكم وفي قلة صبركم عما غيّب عنكم منها.

وقوله: وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه. إلى آخره.

أي ما يمنع أحدكم من لقاء أخيه لعيبه ولائمته عليه إلاّ الخوف منه أن يلقاه بمثله لمشاركته إياه فيه كما صرح به في قوله: تصافيتم على رفض الأجل. إلى آخره، واستعار لفظ اللعقة لما ينطق به من شعار الإسلام والدين كالشهادتين ونحوهما من دون ثبات ذلك في القلب ورسوخه والعمل على وفقه، و- صنيع - نصب على المصدر: أي صنعتم صنيعاً مثل صنيع من أحرز رضا سيده بقضاء ما أمره به، ووجه التشبيه الاشتراك في الترك والإعراض عن العمل. وبالله التوفيق.

١١٤ - ومن خطبة له عليه السلام

في مواعظ الناس

الْحَمْدُ للهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلائِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ، وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَى إِخْلاصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ، وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُبَلِّغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا. عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ؛ فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرِّيَّ بِالظَّمإِ؛ وَاسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الأَمَلَ فَلاحَظُوا الأَجَلَ. ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لا تُخْطِئُ سِهَامُهُ، وَلا تُوسَى جِرَاحُهُ. يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ، وَالصَّحِيحَ بِالسُّقْمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ. آكِلٌ لا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لا يَنْقَعُ. وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ تعالىٰ لا مَالاً حَمَلَ، وَلا بِنَاءً نَقَلَ. وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذٰلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ. وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلا أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا! وَأَظْمَأَ رِيَّهَا! وَأَضْحَى فَيْئَهَا! لا جَاءٍ يُرَدُّ، وَلا مَاضٍ يَرْتَدُّ. فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلاَّ ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا: فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ. وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ؛ فَلا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ، فَإِنَّهُ لا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي. فَ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أقول: لا توسي: أي لا تداوي. ولا ينقع: لا يسكن عطشه. وأضحى: برز لحر الشمس.

وفي الخطبة لطائف:

الأولى: أنه صدر الخطبة بحمد الله تعالى باعتبارين:

أحدهما: وصله حمد حامديه بإفاضة نعمه عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم: ٧] وسرّه أن العبيد يستعد بشكر النعمة.

الثاني: وصله النعم التي يفيضها على عباده بإفاضة الاعتراف بها على أسرار قلوبهم، وقد علمت: أن الاعتراف بالنعم هي حقيقة الشكر فظهر إذن معنى وصله النعم بالشكر، وأن الشكر والتوفيق له نعم أخرى كما سبقت الإشارة إليه في الخطبة الأولى، ويحتمل أن يريد الشكر منه تعالى لعباده الشاكرين كما قال تعالى: ﴿أَللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وظاهر أن وصله نعمه بشكره في نهاية التفضّل والإنعام. فإن الإحسان المتعارف يستتبع الشكر من المحسن إليه فأما من المحسن فذلك تفضل آخر ورتبة أعلى.

الثانية: أنّه نبّه بتسويته بين حمده على النعماء وحمده على البلاء تنبيهاً منه على وجوب ذلك لأن النعمة قد تكون بلاءً من الله كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] والبلاء منه أيضاً نعمة يستحق به الثواب الآجل، وسبب النعمة نعمة، وبهذا الاعتبار يجب الشكر على البلاء أيضاً كما يجب على النعماء. إذ الكل نعمة.

الثالثة: نبّه على وجوب استعانته تعالى على النفوس، وذكر ما لأجله الاستعانة عليها وهو كونها بطاءً عمّا أُمرت به من سائر التكاليف. وذلك لحاجة النفوس إلى مقاومة الطبيعة سراعاً إلى ما نهيت عنه من المعاصي، وذلك لموافقتها مقتضى الطبيعة.

الرابعة: نبّه على وجوب طلب المغفرة من الله لكل ذنب صغير أو كبير مما أحاط به علمه وأحصاه كتابه المبين ولوحه المحفوظ - جبرائيل الأمين - علماً أحاط بكل شيء وكتاباً غير مغادر لشيء.

الخامسة: إنّما خصّ إيمان من عاين الغيوب ووقف على الموعود: أي وقف على ما وعد به المتقون بعين الكشف لكونه أقوى درجات الإيمان. فإن من الإيمان ما يكون بحسب التقليد، ومنه ما يكون بحسب البرهان وهو علم اليقين، وأقوى منه الإيمان بحسب الكشف والمشاهدة، وهو عين اليقين، وذلك هو الإيمان الخالص فيه وبحسب الإخلاص فيه يكون نفي الشرك، وبحسب يقينه يعني اعتقاد أن الأمر كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلاّ كذا يكون نفي الشك، وقد علمت أنه عليه السلام من أهل هذه المرتبة.

السادسة: كون الشهادتين تصعدان القول وترفعان العمل، وذلك أن إخلاص الشهادتين أصل لقبول الأقوال والأعمال الصالحة لا يصعد إلى الله قول وعمل لا تكونان أصلاً له، وأشار إلى ذلك بقوله: لا يخف ميزان توضعان فيه ولا يثقل ميزان ترفعان عنه. وقد أشرنا إلى معنى الوزن فيما سبق وسنزيده بياناً إن شاء الله تعالى.

السابعة: أراد بكون تقوى الله هي الزاد أنها الزاد المبلّغ وأن بها المعاد: أي المعاد المنجح، ولذلك أوردهما تفسيراً.

الثامنة: أراد بأسمع داع أشد الداعين إسماعاً وتبليغاً، وهو الرسول صلى الله عليه وآله وأراد بخير واع المسارعين إلى داعي الله الذين هم أفضل القوابل الإنسانيّة.

التاسعة: وصف ما يستلزم تقوى الله من الآثار في أولياء الله، ووصف الليالي بالسهر، والهواجر بالظماء لكونهما ظرفين. فالليالي لقيام الصلاة والنهار للصوم فكان مجازاً من باب إطلاق صفة المظروف على الظرف، وهو كقولهم: نهاره صائم وليله قائم، وأخذهم الراحة: أي في الآخرة بالنصب: أي بتعب الأبدان من القيام، والري عن عين تسمى سلسبيلاً بالاستعداد بظمأ الصيام، والفاء في فبادروا ولاحظوا للتعليل فإن استقراب الأجل مستلزم للعمل له ولما بعده، وكذلك تكذيب الأمل وانقطاعه ملازم لملاحظة الأجل.

العاشرة: ذكر مذام الدنيا إجمالاً، وهو كونها دار فناء وعناء وغير وعبر. ثم أعقب ذلك الإجمال بتفصيل كل جملة وذلك إلى قوله: ولا مؤمل يترك. واستعار لفظ الإيتار لإيتار الدهر، ورشح بذكر القوس، ووجه الاستعارة أن الدهر كما يرمي بمصائبه المستندة إلى القضاء الإلهي، الذي لا يتغيّر كما يرمي الرامي الذي لا يخطئ، وكذلك استعار لفظ الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام، ورشح بذكر عدم المداواة، وكذلك استعار له لفظ الآكل والشارب عديمي الشبع

والري، ووجه المشابهة كونه يأتي على الخلق فيفنيهم كما يأتي الآكل والشارب المذكوران على الطعام والشراب فيفنيانهما، وأراد بالمرحوم الذي يرى مغبوطاً أهل المسكنة والفقر الذي يتبدل فقرهم بالغنى فيغبطون، وبالمغبوط الذي يرى مرحوماً أهل الغنى المتبدّلين به فقراً بحسب تصاريف الدهر فيصيروا في محل الرحمة، وقوله: ليس ذلك إلاّ نعيماً زلّ: أي عن المغبوطين وبؤساً نزل بهم.

الحادية عشرة: نسب الغرور إلى سرورها والظمأ إلى ريها، والضحى إلى فيئها، وأتى بلفظ التعجب، وكنّى بريها عن استمام لذاتها، وبفيئها عن الركون إلى قنياتها والاعتماد عليها، ووجه هذه النسب أن سرورها وفيئها هي الصوارف عن العمل للآخرة، والملفتات عن الإقبال على الله فكان سرورها أقوى سبب للغرور بها، وريها وفيئها أقوى الأسباب لظمأ منهمك فيها من شراء الأبرار وأوجب لأبراره إلى حرّ الجحيم فلهذه النسبة جازت إضافة الغرور والظمأ والضحى إلى سرورها، وريها وفيئها وقوله: لا جاء يردّ: أي من آفات الدهر كالموت والقتل ونحوهما، ولا ماضٍ يرتد: أي من الأموات والفائت من القنيات.

الثانية عشرة: قوله: إنه ليس شيء بشر من الشر إلاّ عقابه. إلى قوله: سماعه. يحتمل أن يريد الشر والخير المطلقين، ويكون ذلك للمبالغة. إذ يقال للأمر الشريف والشديد: هذا أشد من الشديد وأجود من الجيّد، ويحتمل أن يريد شرّ الدنيا وخيرها فإن أعظم شر في الدنيا مستحقر في عقاب الله، وأعظم خير فيها مستحقر بالنسبة إلى ثواب الله.

ثم أكد ذلك بأعظمية أحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا، ومصداق كلامه عليه السلام أن أعظم شر يتصور الإنسان بالسماع ويستهوله ويستنكره. ممن يفعله صورة القتل والجراح فإذا وقع في مثل تلك الأحوال وشاهدها واضطر إلى المخاصمة والمحاربة سهل عليه ما كان يستصعبه منها، وهان في عينه ذلك الوقع والخوف، وكذلك لا يزال الإنسان يتخوّف المثول بين يدي الملوك ويتصور عظمتهم وبطشهم إلى أن يصل إلى مجالسهم. فإنه يجد من نفسه زوال ذلك الخوف.

فكانت مشاهدة ما كان يتصوزه شراً عظيماً أهون عنده من وصفه والسماع له، وكذلك حال الخير فإنّ الإنسان لا يزال يحرص على تحصيل الدرهم والدينار وغيرهما من سائر مطالب الدنيا، ويكون قلبه مشغولاً بتحصيله فرحاً بانتظار وصوله فإذا وصل إليه هان عليه. وهو أمر وجداني، وأما أحوال الآخرة فالذي يسمعه من شرورها وخيراتها إنما يلاحظها بالنسبة إلى خيرات الدنيا وشرورها، وربما كانت في اعتبار أكثر الخلق أهون من خيرات الدنيا وشرورها لقرب الخلق من المحسوس وقرب الدنيا منهم وذوقهم لها دون الآخرة مع قيام البرهان العقلي على ضعف الأحوال الحاضرة من خير وشر بالقياس إلى أحوال الآخرة فلذلك كان عيان أحوالها أعظم من سماعها. وإذا كانت الحال كذلك فينبغي أن يكتفي من العيان بالسماع، ومن الغيب بالخبر حيث لا يمكن الاطلاع على الغيب ومشاهدة العيان لتلك الأحوال في هذا العالم. ثم نبّه على أفضلية الآخرة بأن ما زاد فيها مما يقرب إلى الله تعالى فإن استلزم نقصان الدنيا من بذل مال أو جاه خير من العكس.

وبيان هذه الخيرية كون خيرات الدنيا في معرض الزوال مشوبة بالأوجاع والأوجال (الأوحال خ) وكون تلك باقية على كل حال مع كونها في نهاية الكمال، وضرب المثل بأكثرية المنقوص من الدنيا الرابح في الآخرة، وهم أولياء الله وأحباؤه الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وبأكثرية المزيد الخاسر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم.

ثم أكد الحث على سلوك طريق الآخرة ببيان اتساعها بالنسبة إلى طريق الدنيا. فقال: إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وذلك ظاهر فإن كبائر ما نهينا عنه خمس: القتل. وفي الحلم والعفو والصبر التي هي من أشرف الأخلاق المحمودة سعة عنه. ثم الظلم. وفي العدل والاقتصار على تناول الأمور المباحة التي

هي أكثر وأوسع سعة عنه. ثم الكذب الذي هو رأس النفاق وعليه يبتني خراب العالم.

وفي المعاريض والصدق الذي هو بضده في عمارة العالم مندوحة عنه. ثم الزنا. ولا شك أن في سائر وجوه النكاحات مع كثرتها وسلامتها عن المفاسد اللازمة عن الزنا سعة عنه. ثم شرب الخمر التي هي أمّ الخبائث ومنشأ كثير من الفساد. وفي تركها إلى ما يقارب أفعالها التي تدعي كونها محمودة من سائر الأشربة وغيرها معدل عنها وسعة. وكذلك قوله: وما أُحلّ لكم أكثر مما حرم عليكم فإن الواجب والمندوب والمباح والمكروه يصدق على جميعها اسم الحلال، وهي أكثر من الحرام الذي هو قسم واحد من الأحكام ثم لما نبه على وجه المصلحة في ترك المنهي والمحرم أردف ذلك بالأمر بتركهما، لأن العقل إذا لاحظ طريقاً مخوفاً واحداً بين طرق كثيرة آمنة اقتضى العدول عن المخوفة لضرورته.

الثالثة عشرة: نبه بالنهي عن ترجيح طلب الرزق على الاشتغال بفرائض الله، وعلى أن الاشتغال بها أولى بكون الرزق مضموناً. فالسعي في تحصيله يجري مجرى تحصيل الحاصل. ثم أردف ذلك بما يجري مجرى التوبيخ للسامعين على ترجيحهم طلب الرزق على الاشتغال بالفرائض فأقسم أن ذلك منهم عن اعتراض الشكّ لهم فيما تَيَقَّنوه من تكفّل الله سبحانه بأرزاقهم ووعده وضمانه لهم بقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي في سماء جوده، وقد علمت أن الجد في طلب الرزق يستند إلى ضعف التوكل على الله وهو مستند إلى ضعف اليقين فيه وسوء الظن به، وذلك يستلزم استناد العبد إلى نفسه، وتوكّله عليها. وجعلهم في طلب الرزق كمن تيقّن المضمون له مفروضاً طلبه عليه، والمفروض عليه طلبه موضوعاً عنه. مبالغة في قلة احتفالهم بفرائض الله عليهم واشتغالهم عنها بطلب الدنيا.

الرابعة عشرة: نبه على وجوب المحافظة على العمر بالعمل فيه للآخرة، وعلى أولوية مراعاته بالنسبة إلى مراعاة طلب الرزق بكون العمر لا يرجى من رجعته ما يرجى من رجعة الرزق. فإن العمر في نقص ونقصان، وما فات منه غير عائد بخلاف الرزق فإنه يرجى زيادته وجبران ما نقص منه في الماضي، ولما كان العمر الذي من شأنه أن لا يعود ما فات منه طرفاً للعمل ويفوت بفواته وجب تدارك العمل بتداركه، وقوله: الرجاء مع الجائي. يريد الرزق، واليأس مع الماضي. يريد العمر. وهو مؤكد لما قبله.

الخامسة عشرة: أنه ختم بالآية اقتباساً من نور القرآن، ووجه هذا الاقتباس أنه لما كان الكلام في معرض جذب السامعين إلى العمل الذي هو سبب تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنّة الذي هو جزء من الرياضة، وكانت التقوى عبارة عن الزهد في الدنيا الذي حقيقته حذف الموانع الداخلية والخارجية عن القلب الذي هو الجزء الثاني من الرياضة، وكان الإسلام هو الدين الحق المركب من ذينك الجزءين لا جرم حسن إيراد الآية المشتملة على الأمر بالتقوى والموت على الإسلام بعد الأمر بالعمل ليكون ذلك أمراً بإكمال الدين وإتمامه. وبالله التوفيق.

١١٥ - ومن خطبة له عليه السلام
في الاستسقاء

اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَائِلُ الْجُودِ، فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلاغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لاَ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحّاً وَابِلاً،

تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ. اللَّهُمَّ سُقْيًا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلادِكَ! اللَّهُمَّ سُقْيًا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا، وَتُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا؛ مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلا جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ.

قال الشريف: قوله عليه السلام: «انصاحت جبالنا» أي: تشققت من المحول.

يقال: انصاح الثوب، إذا انشق. ويقال أيضاً: انصاح النبت وصاح وصوّح إذا جفّ ويبس. وقوله: «وهامت دوابنا» أي: عطشت، والهيام: العطش. وقوله: «حدابير السنين» جمع حدبار: وهي الناقة التي أضناها السير فشبه بها السنة التي فشا فيها الجدب، قال ذو الرمة:

حَـدَابِـيـرُ مَـا تَـنْـفَـكُّ إلاَّ مُـنَـاخَـةً
عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَداً قَفْرا

وقوله: «ولا قزع ربابها»: القزع: القطع الصغار المتفرقة من السحاب، وقوله: «ولا شفان ذهابها» فإن تقديره: ولا ذات شفان ذهابها، والشفان: الريح الباردة، والذهاب: الأمطار اللينة، فحذف «ذات» لعلم السامع به.

وأقول: اعتكرت: اختلطت وازدحمت. والمخائل: جمع مخيلة للسحابة التي ترجى المطر. والمبتئس: الحزين. والمنبعق والمنبعج: السحاب المنصب بشدة. والربيع هنا: المطر. والسقيا بالضم: الاسم من السقي. والمريع: المخصب. والنجاد: جمع نجد وهو المرتفع من الأرض. والضواحي: النواحي البارزة: أي أهل نواحينا. والمرملة: قليلة المطر. والمخضلة: الرطبة. والودق: القطر. والجهام: المظلم الذي لا ماء فيه. والخلّب: التي يكذب الظن فيها. والمستنون: الذين أصابتهم شدّة السنة.

واعلم أنه نبّه بقول ندعوك أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا. على أن للذنوب والأعمال الخارجة عن أوامر الله تأثير في رفع الرحمة. وسرّ ذلك أن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع من قبله. وإنما يكون ذلك بحسب عدم الاستعداد وقلته وكثرته، وظاهر أن المقبلين على الدنيا المرتكبين لمحارم الله معرضون عنه غير متلقين لآثار رحمته بل مستعدون لضد ذلك أعني سخطه وعذابه بحسب استعدادهم بالانهماك في محارمه والجور عن سبيله، وحري بمن كان كذلك أن لا تناله بركة، ولا يفاض عليه أثر رحمة، ونصب سحاً ووابلاً على الحال والعامل أنشر، وأراد بالسماء المخضلة هنا السحاب، والعرب تقول: كل ما علاك فهو سماؤك، ومعنى إنزاله إرسال مائه وإدراره، ويحتمل أن يريد بالسماء المطر نفسه، ونحوه أنزل علينا الغيث، وقد اقتبس من القرآن الكريم ختام هذا الفصل أيضاً، ووجه مناسبته للآية ظاهر. وبالله التوفيق.

١١٦ - ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينصح أصحابه

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ. فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلاَ مُعَذِّرٍ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى.

أقول: الواهن: الضعيف. والمعذر بالتشديد: المقصّر.

واعلم أن الأوصاف التي ذكرها للنبي صلى الله عليه وآله

ظاهرة، وقد سبقت الإشارة إليها غير مرّة. فأما كونه إمام من اتقى فلاستناد أهل التقوى إليه من كيفية سلوك سبيل الله التي هي التقوى، وقد استعار لفظ البصر له. ووجه المشابهة كونه سبباً لاهتداء الخلق إلى سبيل الرشاد كما يهتدي صاحب البصيرة في طريقه المحسوس. وبالله التوفيق.

ومنها: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لا حَارِسَ لَهَا وَلا خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِىءٍ نَفْسُهُ لا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلٰكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَاللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً، عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ. أَمَا وَاللّٰهِ، لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ؛ يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ، إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ!

قال الشريف: أقول: الوذحة: الخنفساء، وهذا القول يومىء به إلى الحجاج، وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضوع ذكره.

أقول: الصعدات: جمع الصعد، وهو جمع صعيد وهو وجه الأرض. واللدم والإلتدام: ضرب الوجه ونحوه. ورأي ميمون: مبارك. وقدماً بضم القاف والدال: أي تقدموا ولم ينثنوا. والوجيف: ضرب من السير فيه قوة. والوذحة: كما قيل - كنية للخنفساء. ولم ينقل ذلك في المشهور من كتب اللغة. وإنما المشهور أنها القطعة من بعر الشاة تنعقد على أصواف أذنابها وتتعلق بها.

وهذا الفصل من خطبة له بالكوفة يستنهض فيها أصحابه إلى حرب الشام، ويتبرم من تقاعدهم عن صوته. فنبههم أولاً على جهلهم بما سيقع من الفتن في الإسلام مما غاب عنهم علمه - وعلمه هو من الله ورسوله - بحيث لو تصوّروا ما علمه منها لاحتال كل منهم في الخلاص لنفسه، ولهاموا على وجه الأرض باكين من تقصيرهم في أعمالهم على وفق أوامره التي بها يكون نظام العالم إلى الأبد، والأمن من تلك الفتن لو فعلوها. ولكنهم نسوا ما ذكروا به من آيات الله وأمنوا التحذير فضلّت عنهم آراؤهم الصالحة التي يكون بها نظام أمورهم فاستعقب ذلك تشتت أمورهم وغلبة العدو على بلادهم.

وقيل: أراد بما طوي عنهم غيبه وعلمه هو ما يلقى المقصرون من أهوال الآخرة. والأول: أنسب لسياق الكلام. ثم عقب ذلك بالتبرم منهم وطلب فراقهم واللحاق بإخوانه من أولياء الله مباركي الآراء، ثقال الحلول لا يستخفنهم جهل الجهّال، ملازمي الصدق ونصيحة الدين من شأنهم ترك البغي على أنفسهم وغيرهم، مضوا على الطريقة الحميدة، سالكين لمحجة الله غير ملتفتين عنها فوصلوا إلى الثواب الدائم والنعيم المقيم. وقرينة الظفر تخصص العقبى بالثواب. والعرب تصف النعمة والكرامة بالبرد. ثم بيّن لهم بعض ما سيلحقهم من الفتن العظيمة مما طوي عنهم غيبه وهي فتنة الحجاج بن يوسف بن الحكم ابن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب ابن ملك بن كعب بن الأخلاف - قوم من ثقيف -. وكان ضعيف العين، دقيق الصوت، ذيالاً: أي طويل الذيل يصحبه تبختراً، ميالاً؛ أي يكثر التمايل كبراً، وأخبر أنه يأكل خضرتهم، وكنّى بها عما هم عليه من الأُبهة وسلامة النفوس، والأموال وحسن الأحوال وبأكله لها عن إزالة تلك وتغييرها إلى أضدادها، ولفظ الأكل مستعار لذلك، ووجه الاستعارة ظاهر، وكذلك استعار الشحمة لثرائهم وقوتهم ووصف الإذابة لإفناء ذلك بالقتل والإهانة، ومصداق ذلك المشهور من فعله بأهل العراق كما سبق بيانه في ذكر الكوفة. ثم قال: إيه أبا وذحة. وكلمة إيه اسم من أسماء فعل الأمر. يستدعي بها الحديث المعهود من الغير - إن سكنت - وإن نونت كانت لاستدعاء قول أو فعل ما.

وقيل: التسكين للوقف والتنوين للدرج. فأما تلقيبه عليه السلام له بأبي وذحة فروي في سبب ذلك أنه كان يوماً يصلي على سجادة له فدبت إليه خنفساء. فقال: نحوها عني فإنها وذحة من وذح الشيطان. وروي أنه قال: قاتل الله قوماً يزعمون أن هذه من خلق الله. فقيل له: مما هي؟ فقال: من وذح إبليس، وكأنه شبهها بالوذحة المتعلقة بذنب الشاة في حجمها أو شكلها فاستعار لها لفظها ونسبته لها إلى إبليس لاستقذاره إيّاه واستكراهه لصورتها أو لأنها تشوشه في الصلاة، وروى أبو علي بن مسكويه: أنه نحّاها بقصبته وقال: لعنك الله وذحة من وذح الشيطان، ونقل بعض الشارحين ودجة بالدال والجيم، وكنّى بذلك عن كونه سفاكاً للدماء قطاعاً للأوداج، وفيه بعد.

١١٧ - ومن كلام له عليه السلام

فَلا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا. تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلاَ تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ. فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ!

أقول: مدار هذا الفصل على التوبيخ بالبخل بالأموال والأنفس، وفي قوله: للذي رزقها وخلقها. استدراج حسن. فإن البخيل إنما يستقبح بذله لملاحظة أمرين:

أحدهما: خوف الفقر.

والثاني: أنه كثيراً ما يتوهم الأشحاء أن لا مستحق للمال إلاّ هم فيكون ذلك وأمثاله عذراً لهم مع أنفسهم في عدم البذل، وكذلك الشحيح بنفسه إنما يشحّ بها خوف الموت وأن لا يكون له من هذه الحياة عوض يساويها فإذا علم أن بذل المال لرازقه إيّاه بعد أن يكون حسن الظن به زال عذره في البخل لعلمه بتعويضه خيراً منه وبأنه أحقّ منه. إذ كان المملوك وما يملك لمولاه، وكذلك يزول عذر الشحيح بنفسه لعلمه أن الطالب لبذلها هو الأحق بها وأنه القادر على أن يوصله إلى ما هو خير له من هذه الحياة الفانية، وفي انقطاع ما يتوهمونه عذراً في البخل بالمال والنفس يكون سهولة بذلهما في سبيل الله.

وقوله: تكرمون بالله على عباده.

أي تفخرون وتشرفون على الخلق بأنكم أهل طاعة الله وعباده. ثم لا تكرمونه فيما يدعوكم إليه ولا تجيبون داعيه في إكرام عباده والالتفات إلى فقرائهم باليسير مما رزقكم. ثم أمرهم باعتبار نزولهم منازل الدارجين، وانقطاعهم عن أوصل إخوانهم تنبيهاً لهم على أنهم أمثالهم في اللحاق بمن سلف والانقطاع عمّن يبقى، وروي عن أصل إخوانكم: أي أقربهم أصلاً إليكم، وفائدة هذا الاعتبار تذكر الموت والعمل لما بعده.

١١٨ - ومن كلام له عليه السلام

أَنْتُمُ الأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ، فَوَاللهِ إِنِّي لأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!

أقول: الجنن: جمع جنة وهي ما استترت به من سلاح. وبطانة الرجل: خاصّته.

وقد اشتمل هذا الفصل على استمالة طباع أصحابه إلى مناصحته في الحرب. فمدحهم بكونهم من أهل الدين. ثم بالشجاعة. ثم بإعلامهم أنهم من أهل خاصته الذين يعتمد عليهم في ضرب المدبر وطاعة المقبل، وطلب منهم الإعانة بمناصحة صادقة سليمة من الشك في صحة إمامته وأنه أولى الأمر من غيره فلذلك أقسم أنه كذلك. وقد سبق بيانه.

١١٩ - ومن كلام له عليه السلام

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا ملياً.

فَقَالَ عليه السلام: **أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟** فقال قوم منهم: يا أمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك؛ فقال عليه السلام:

مَا بَالُكُمْ! لا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ!

أَفِي مِثْلِ هٰذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هٰذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هٰذَا - لَعَمْرُ اللهِ - الرَّأْيُ السُّوءُ. وَاللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ. طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ، إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ. لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!

أقول: الكتيبة: الجيش. والقدح: السهم قبل أن يراش. والجفير: كالكنانة أو أوسع منها. وثفال الرحى: الجلد الذي يوضع عليه ليسقط عليه الدقيق. وحمّ الأمر: قدر.

ومدار هذا الفصل على الدعاء عليهم مصدّراً بالاستفهام عن حالهم القبيحة التي هم عليها من مخالفته على سبيل الإنكار عليهم. ثم عمّا أشاروا به من خروجه بنفسه إلى الحرب منكراً لذلك أيضاً. ثم على الإشارة إلى من ينبغي أن يخرج عوضاً له. ثم بيّن وجه المفسدة في خروجه بنفسه وهو تركه للمصالح التي عددها مما يقوم به أمر الدولة ونظام العالم. وقبح ذلك ظاهر.

وشبّه خروجه معهم بالقدح في الجفير. ووجه الشبه أنه كان قد نفذ الجيش قبل ذلك وأراد أن يجهز من بقي من الناس في كتيبة أُخرى فشبّه نفسه في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدم أكابر جماعته وشجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل.

وفي العرف أن يقال للشريف إذا مشى في حاجة ينوب فيها من هو دونه، وترك المهام التي لا تقوم إلاّ به: ترك المهم الفلاني ومشى يتقلقل على كذا. ثم استعار لنفسه لفظ القطب ملاحظة لدوران الإسلام ومصالحه عليه كما تدور الرحى على قطبها وذلك هو وجه الاستعارة، واستلزم ذلك تشبيه الإسلام وأهله بالرحى، وأنه إذا أهملها بخروجه إلى الحرب اضطربت كاضطراب الرحى وخروج مدارها واستحارته عن الحركة المستديرة إلى المستقيمة، ولما بيّن وجه المفسدة في رأيهم حكم برداءته، وأكد ذلك بالقسم البار. ثم أقسم أنه لولا رجائه لقاء الله بالشهادة في لقاء العدو. لو قدر له ذلك لفارقهم غير متأسف عليهم ولا طالب للعود إليهم أبداً تبرّماً من سوء صنيعهم وكثرة مخالفتهم لأوامره. وبالله التوفيق.

١٢٠ - ومن كلام له عليه السلام

بذكر فضله ويعظ الناس

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا - أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحِكَمِ وَضِيَاءُ الأَمْرِ. أَلا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، «وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ». وَمَنْ لا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ، وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لا يَحْمَدُهُ.

أقول: صدّر الفصل بذكر فضيلته وهي علمه بكيفية تبليغ الرسالات وأدائها، وعلمه بإتمام الله تعالى ما وعد به المتقين في دار القرار. فتمام وعده أن لا خلف فيه، وتمام إخباره أن لا كذب فيها، وتمام أوامره ونواهيه اشتمالها على المصالح الخاصة والغالبة. وهكذا ينبغي أن يكون أوصياء الأنبياء وخلفاؤهم في أرض الله

وعباده. ثم أردف ذلك بالإشارة إلى فضل أهل البيت عاماً، وأراد بضياء الأمر أنوار العلوم التي تبتنى عليها الأمور والأعمال الدينية والدنيوية، وما ينبغي أن يهتدي الناس به في حركاتهم من قوانين الشريعة وما يستقيم به نظام الأمر من قوانين السياسات وتدبير المدن والمنازل ونحوها.

إذ كان كل أمر شرع فيه على غير ضياء من الله ورسوله أو أحد أهل بيته وخلفائه الراشدين فهو محل التيه والزيغ عن سبيل الله، واستعار لفظ الشرائع وهي موارد الشاربة لأهل البيت. ووجه الاستعارة كونهم موارد لطلاب العلم كما أن الشرائع موارد طلبة الماء، وكونها واحدة إشارة إلى أن أقوالهم لا تختلف في الدين بل لما علموا أسراره لم تختلف كلمتهم فيه فكلّمهم كالشريعة الواحدة، وكذلك استعار لهم لفظ السبل، ووجه المشابهة كونهم موصلين إلى المطالب على بصيرة وقصد كما يوصل الطريق الواضح.

وقوله: من أخذ بها لحق.

أي: من أخذ عنهم واقتدى بهم لحق بالسابقين من سالكي سبيل الله وندم على تفريطه بتخلّفه. وقيل: أراد بشرائع الدين وسيلة قوانينه الكلية فإن أي قانون عمل به منها فإنّه مستلزم لثواب الله فهي واحدة في ذلك وموصل إلى الجنة من غير جور ولا عدول، وذلك معنى كونها قاصدة، والأول أظهر لكونه في معرض ذكر فضيلتهم. ولما كان غرض الخطيب من إظهار فضيلته قبول قوله شرع في الأمر بالعمل ليوم القيامة. والذخائر: الأعمال الصالحة. ومعنى قوله: ومن لا ينفعه حاضر لبّه. إلى قوله: أعوز: أن اعتبروا حال حضور عقولكم فإنها إن لم تنفعكم الآن كانت أعوز وأعجز عن نفعكم إذا عزبت عند حضور الموت ومقاساة أهواله وما بعده من أحوال الآخرة. ثم أكد التخويف بمناقشة الحساب بالتخويف بالنار، وأراد بحليتها من الحديد ما أعدّ فيها للعصاة من الأغلال والأصفاد والمقامع والسلاسل التي تشبه الحلية.

وقوله: ألا وإن اللسان. إلى آخره.

تنبيه لهم على طلب الذكر الجميل من الناس في العقبى وتهوين للمال، وقد سبقت الإشارة إلى هذا في قوله: أما بعد فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض.

١٢١ - ومن خطبة له عليه السلام

بعد ليلة الهرير

وقد قام إليه رجل من أصحابه: فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

هٰذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ! أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ (بِمَا أَمَرْتُكُمْ) بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى، وَلٰكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا.

اللّٰهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هٰذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ! أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الإِسْلامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ. وَهِيجُوا إِلَى الجِهادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَصفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا. لاَ يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ، وَلا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى. مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ. أُولٰئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الأَيْدِيَ عَلَى فِرَاقِهِمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الفِتْنَةَ. فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ.

أقول: الضلع بفتح الضاد وسكون اللام: الميل والهوى. والداء الدوي: الشديد - وصف بما هو من لفظه - والدوي: اسم فاعل من دوى إذا مرض. والنزعة: المستقون. والركي: جمع ركيّة وهي البئر. ومره: جمع مارهة وهي العين التي فسدت: أي عيونهم مارهة. وسنّى له كذا: حسّنه وسهّله. وعقلت عليه كذا: أي حبسته عليه.

وكان هذا الكلام منه عليه السلام بصفين حين أمرهم بالحكومة بعد أن نهاهم عنها، والسبب أن معاوية لما أحس بالعجز وظفر علي عليه السلام به ليلة الهرير راجع عمرو بن العاص. فقال: إني خبأت لك رأياً لمثل هذا الوقت وهو أن تأمر أصحابك برفع المصاحف على الأرماح ويدعوا أصحاب علي إلى المحاكمة إلى كتاب الله، فإنهم إن فعلوا افترقوا وإن لم يفعلوا افترقوا، وكان الأشتر صبيحة تلك الليلة قد أشرف على الظفر فلما أصبحوا رفعوا المصاحف الكبيرة بالجامع الأعظم على عشرة أرماح وهم يستغيثون: معاشر المسلمين الله في إخوانكم في الدين حاكمونا إلى كتاب الله، الله الله في النساء والبنات. فقال أصحاب علي عليه السلام: إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحونا إلى كتاب الله، فالرأي النفيس كشف الكربة عنهم فغضب عليه السلام من هذا الرأي.

فقال: إنها كلمة حق يراد بها باطل. كما سبق القول فيه. فافترق أصحابه فريقين: منهم من رأى رأيه عليه السلام في الإصرار على الحرب، ومنهم من رأى ترك الحرب والرجوع إلى الحكومة وكانوا كثيرين فاجتمعوا إليه عليه السلام. فقالوا: إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان فرجع إلى قولهم وأمر بردّ الأشتر عن الحرب. ثم كتبوا كتاب الصلح وطافوا به في أصحابه عليه السلام واتفقوا على الحكومة فخرج بعض أصحابه من هذا الأمر وقالوا: كنت نهيتنا عن الحكومة، ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد. وهذا يدل على أنك شاكّ في إمامة نفسك.

فصفق بإحدى يديه على الأخرى فعل النادم غضباً من قولهم، وقال: هذا جزاء من ترك العقدة: أي عقدة الأمر الذي عقده وأحكمه وهو الرأي في الحرب والإصرار عليها، والذي كان أمرهم به هو البقاء على الحرب، وهو المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً من الظفر وسلامة العاقبة. وقومتكم: أي بالقتل والضرب ونحوه، وكذلك معنى قوله: تداركتكم.

وقوله: لكانت الوثقى.

أي الفعلة المحكمة.

وقوله: ولكن بمن؟

أي بمن كنت أستعين عليكم، وإلى من؟ أي إلى من أرجع في ذلك.

وقوله: أُريد أن أُداوي بكم.

أي أُريد أن أُداوي ما بي من بعضكم ببعض، وأنتم دائي. فأكون في ذلك كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أن ضلعها معها، وهذا مثل تضربه العرب لمن يستعان به في إصلاح من يراد إصلاحه وميله إلى المستعان عليه يقال: لا تنقش الشوكة بالشوكة. فإنّ ضلعها معها. يقول: إن استعانتي ببعضكم في إصلاح بعض كنقش الشوكة بالشوكة، ووجه المشابهة أن طباع بعضكم يشبه طباع بعض ويميل إليها كما تشبه الشوكة الشوكة وتميل إليها، فربما انكسرت معها في العضو واحتاجت إلى منقاش آخر.

ثم رجع إلى الشكاية إلى الله، وأراد بالداء الدوي ما هم عليه من الاعتياد المخالفة لأمره وتثاقلهم عن صوته، وبالأطباء نفسه. فإن داء الجهل وما يستلزمه أعظم من سائر الأدواء المحسوسة، وفضل أطباء النفوس على أطباء الأبدان بقدر شرف النفوس على الأبدان، وهي استعارة تكاد أن تكون حقيقة، وكذلك استعارة لفظ النزعة له مثلٌ ضربه لنفسه معهم. فكأنهم عن المصلحة في قعر بئر عميق قد كلّ هو من جذبهم إليها. ثم أخذ في السؤال عن إخوانه من أكابر الصحابة الذين بذلوا جهدهم في نصرة الدين وأعرضوا عن الدنيا استفهاماً على سبيل التوبيخ لفقدهم، وهذا كما يقول أحدنا إذا وقع في شدة أين أخي عنّي؟ ثم وصفهم بالأوصاف الحميدة ترغيباً للسامعين في مثل حالهم وإزراءً عليهم حيث لم يكونوا بهذه الأوصاف، وذلك بطريق المفهوم.

وقوله: أولادها.

نصب بإسقاط الجار. إذ الفعل وهو قوله: ولهوا. غير متعدي إلى مفعولين بنفسه، وفي الخبر: لا توله والدة بولدها. وتولههم لها بركوبهم إيّاها عند خروجهم للجهاد.

وقوله: وأخذوا بأطراف الأرض.

أي أخذوها بأطرافها، وزحفاً زحفاً وصفاً صفاً: مصدران مؤكدان بمثليهما قام مقام الحال.

وقوله: لا يبشرون بالأحياء ولا يعزّون عن القتلى [الموتى خ].

أي كانوا في تلك الحال غير ملتفتين إلى حيّهم ولا مراعين ولا محافظين على حياته حتى يبشرون ببقائه، أو يجزعون لموته فيعزّون عليه بل مجرّدون للجهاد في سبيل الله، ولعلهم يفرحون بقتل من يقتلونه في سبيله وإن كان ولداً لوالده أو بالعكس، وإنما كان السهر موجباً لصفرة اللون لأن يهيّج الحرارة ويفسد السحنة وينحف البدن ويكثر فيه المرة، والصفرة من توابع ذلك لا سيما في الأبدان النحيفة كما عليه أهل المدينة ومكة والحجاز. وغبرة الخاشعين قشف الزاهدين الخائفين من الله لعدم تحليهم بالدنيا، واستعار لفظ الظمأ للشوق إليهم ملاحظة لشبههم بالماء في شدة الحاجة إليه فنزل الشوق إليهم.

والحاجة إلى لقائهم منزلة العطش إلى الماء فأعطاه لفظه، وأراد بعقدة الدين ما أُحكم منه من القوانين والقواعد، وبحلّ الشيطان لها تزيينه ترك قانون قانون. وسنّة الاجتماع عقدة عقدها الشارع لما سبق فيها من المصالح وأكدها. فكانت الفرقة حلاً لتلك العقدة، ونزغات الشيطان حركاته بالإفساد، ونفثاته إلقاؤه الوسوسة في القلوب مرة بعد أُخرى، وعنى بمن أهدى إليهم النصيحة نفسه. وبالله التوفيق.

١٢٢ - ومن كلام له عليه السلام

قاله للخوارج، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة فقال عليه السلام:

أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ: فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاً مِنْكُمْ بِكَلامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِكَلاَمٍ طَوِيلٍ، مِنْهُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هٰذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا. وَاللهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلاَ حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَهَا. وَوَاللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ، وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ: فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ. وَلٰكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا رَغِبْنَا فِيهَا، أَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا.

أقول: التنفيس: التفريج، وأكثر هذا الفصل ظاهر مما سبق.

وقوله: هذا أمر ظاهره إيمان.

أي: رفع أولئك للمصاحف وطلبهم للحكومة فإن ظاهره منهم الاجتهاد في الدين بالرجوع إلى كتاب الله، وباطنه منهم عدوان: أي حيلة للظلم والغلبة، وأوله رحمة منكم لهم برجوعكم إلى قولهم، وآخره ندامة لكم عند تمام الحيلة عليك فأقيموا على شأنكم: أي ما كنتم عليها من الاجتهاد في الحرب. والناعق إشارة إلى طالبي الحكومة أو المشير عليهم بذلك الراي وهو عمرو بن العاص، وأخرجه في أوصاف إبليس.

وقوله بعد ذلك: ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ: إلى قوله: مضض الجراح استدراج لهم بشرح حاله وحال الصحابة. حيث كانوا في الجهاد مع الرسول ﷺ على الحالة التي شرحها لعلم يتأسّون بالماضين فيها.

وقوله: ولكنّا إنما إصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام. إلى آخره.

تنبيه على اعتراض عساهم يقولونه وجواب عنه وهو أن يقولوا: إنما فعل إخواننا السابقون ما فعلوا لقينهم بما هم عليه من الدين الحق وتيقّنهم ضلال الكفّار والمحاربين لهم فأما نحن فإنما نقاتل بعضنا بعضاً فكيف يجوز لنا قتل قوم مسلمين استسلموا إلينا ودعونا إلى المحاكمة إلى كتاب الله. فأجاب بما معناه إنّا إنما نقاتل في مبدأ الأمر ومنتهاه دعوةً إلى الإسلام، ورغبة في رسوخ قواعده ففي المبدأ قاتلنا لتحصل ماهيته في الوجود. وفي الثاني: قاتلنا لحفظ ماهيته وبقائها، وحيث دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل ما دخل فإذا طمعنا في خلّة محمودة يجمع الله بها تفرّقنا ونتقارب بها إلى ما بقي فيما بيننا من الإسلام والدين رغبنا فيها وقاتلنا طمعاً في تحصيلها، وكأنه عنى بالخصلة رجوع محاربيه إلى طاعته واتفاقهم عليه، وهذا الكلام في قوة صغرى قياس ضمير احتج عليهم به، وتقديرها إنّكم حين قلت لكم إن رفعهم للمصاحف خدعة منهم أجبتموني بهذا الجواب، وتقدير الكبرى وكل من أجاب بهذا الجواب فليس له أن ينكر الحكومة، إذ كان قد رضي بها. فينتج أنه ليس لهم أن يأبوا الحكومة. وبالله التوفيق.

١٢٣ - ومن كلام له عليه السلام

قاله لأصحابه في ساعة الحرب:

وَأَيُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ. فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، ولا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ.

أقول: نجدته: شجاعته. والتذبيب: الدفع والمنع.

وقد أمرهم في هذا الفصل بمساعدة بعض لبعض في الحرب ومنع بعضهم عن بعض منعاً صادقاً كما يمنع عن نفسه، وبذلك يكون انعقاد الاجتماع وتعاون الهمم حتى يكون الجميع كنفس واحدة، وبذلك يكون الظفر والغلبة واستمال ذوي النجدة بذكر فضيلة تخصّهم دون من يذبّون عنه استثارة لنجدتهم وتعطيفاً لهم.

وقوله: إن الموت طالب حثيث. إلى قوله: إن أكرم الموت القتل:

تسهيل للقتل والموت بذكر أنه لا بد، وتسهيل للحرب عليهم. أما أن أكرم الموت القتل فأراد القتل في سبيل الله، وذلك لاستلزامه الذكر الجميل في الدنيا والثواب الدائم في الأخرة. ثم أكد ذلك بالقسم لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش. وصدق ذلك في حق من نظر إلى الدنيا بعين الاستحقار في جنب نعيم الأبد في الآخرة والذكر الجميل في الدنيا وحصلت له ملكة الشجاعة ظاهر. وبالله التوفيق.

ومنه: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ: لا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلا تَمْنَعُونَ ضَيْماً. قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ.

أقول: كشيش الضباب: حك جلودها بعضها بالبعض عند الازدحام. والتلوّم: الانتظار والتوقف.

وأشار بهذا الكلام إلى أنه ستلحقهم غلبة من العدو وتعضّهم الحروب بحيث يعضون [يضعفون خ] ويأخذون في الهرب والتخفي فلا ينتفع بهم في أخذ حق أو دفع ضيم، ووصف الكشيش مستعار لهم باعتبار هيئاتهم في الحيد عن العدو والهرب منه، وهو وجه الشبه بكشيش الضباب.

وقوله: قد خلّيتم والطريق.

أي: وطريق الآخرة. فالنجاة للمقتحم: أي مقتحمها والمبادر إلى سلوكها، والهلكة للمتوقف عن ذلك. والطريق منصوب على المفعول معه.

١٢٤ - ومن كلام له عليه السلام

في حث أصحابه على القتال:

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ؛ وَالْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلأَسِنَّةِ؛ وَغُضُّوا الأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ؛ وَأَمِيتُوا الأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلا تُمِيلُوهَا وَلا تُخِلُّوهَا، وَلا تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا، وَأَمَامَهَا؛ لا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا.

أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ. وَايْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ، وَالذُّلَّ اللاَّزِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. مَنِ الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمَ تُبْلَى الأَخْبَارُ! وَاللهِ لأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ. اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ: يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا الْحَلائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلادِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ.

قال الشريف: أقول: الدعق: الدق، أي: تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها، يقال: منازل بني فلان تتناحر، أي: تتقابل. أقول: هذا الكلام قاله في صفين.

أمور: أشد حركة ونفوذاً. والجاش: روعة القلب واضطرابه عند الخوف. والذمار: ما وراء الرجل مما يجب عليه حمايته، وحفافا الشيء: جانباه. ولهاميم العرب: أجوادهم. والموجدة: الغضب. وأبسلهم: أسلمهم للهلكة. والعوالي: جمع عالية: الرمح؛ وهو ما دخل منه إلى ثلثه. والنسيم: النفس. والمنسر: القطعة من الجيش، وكذلك الخميس: الجيش. والنواحر: جمع نحيرة وهي آخر ليلة من الشهر مع يومها كأنها تنحر الشهر المستقبل فيكون مراده بنواحر أرضهم أقاصيها. وأعنان مساربهم: أقطارها وما اعترض منها. ومساربهم: مراعيهم واحدتها مسربة وهكذا مسارحهم: واحدتها مسرحة.

وقد أمرهم بأوامر في مصلحة الحرب وكيفيتها ونهاهم مناهي:

فأولها: الأمر بتقديم الدارع وتأخير الحاسر. والمصلحة فيه ظاهرة.

الثاني: العض على الأضراس. وحكمته ما سبق في

قوله: معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وفي قوله لابنه محمد بن الحنفية، تزول الجبال ولا تزل، وقد كرّره هنا أيضاً.

الثالث: الالتواء في أطراف الرماح. وعلّته ما ذكر، وهو أنه إذا التوى الإنسان مع الرمح حال إرساله كان الرمي به أشد، وذلك لحركة صدر الإنسان بعد التوائه مع حركة يده حين الإرسال فكانت حركته أشد وأقوى نفوذاً.

الرابع: غضّ الأبصار. وفائدته ما ذكر من كونه أربط لاضطراب القلب وأسكن، وضدّ ذلك مدّ البصر إلى القوم فإنّه مظنّة الخوف والفشل وعلامة لهما عند العدو.

الخامس: إماتة الأصوات. وفائدته أضاً طرد الفشل، إذ كانت كثرة اللغط (اللفظ خ) والصياح علامة لخوف الصائح، وذلك مستلزم لطمع العدو فيه وجرأته عليه.

السادس: قوله: ورايتكم فلا تميلوها. فإن إمالتها مما يظن به العدو تشويشاً واضطراب حال فيطمع ويقدم، ولأنها إذا أُميلت تغيب عن عيون الجيش فربما لا يهتدي كثير منهم للوجه المطلوب.

السابع: ولا تخلّوها. وسيفسر هو التخلية.

الثامن: لا تجعلوها. إلى قوله: منكم. وذلك أنها أصل نظام العسكر وعليها يدور وبها يقوي قلوبهم ما دامت قائمة فيجب في ترتيب الحرب أن يكون حاملها أشجع القوم. وقوله: فإن الصابرين. إلى قوله: فيفردوها. تخصيص لمن يحفظ الراية ويحفّها بوصف الصبر على نزول الحقائق: أي الشدائد الحقة المتيقنة التي لا شك في نزولها، كي يسارعوا إلى حفظها والإحاطة بها رغبةً في تلك المحمدة، وبيّن بقوله: لا يتأخرون عنها. إلى قوله: فيفردوها. معنى التخلية التي نهاهم عنها، وقوله: فيسلموها ويفردوها. نصب الفعلان بإضمار أن عقيب الفاء في جواب النفي.

التاسع: قوله: أجزأ امرؤ قرنه.

العاشر: آسى أخاه بنفسه فعلان ماضيان في معنى الأمر، والتقدير وليجزي امرؤ قرنه وهو خصمه وكفوه في الحرب: أي ليقاومه وليواسي أخاه بنفسه في الذبّ عنه ولا يفرّ من قرنه اعتماداً على أخيه في دفعه فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه. ثم ذكّرهم عدم الفائدة في الفرار. إذ كانت غاية الفرار السلامة من الموت وهو لا بد منه كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]. واستعار لفظ سيف الآخرة للموت. ووجه المشابهة كونهما مبطلين للحياة. وإنما كان سيف الآخرة لأنها غايته. ثم مدحهم بأوصاف يستقبح معها الفرار، وهي كونهم أجواد العرب والسنام الأعظم، واستعار لهم لفظ السنام لمشاركتهم إيّاه في العلو والرفعة. ثم أكد تقبيح الفرار بذكر معايبه، وإنه لا فائدة فيه أيضاً.

أما معائبه فكونه يستلزم غضب الله فإن الفار من الجهاد في سبيله عاص لأمره والعاصي له مستحق لغضبه وعقابه. ثم كونه مستلزماً للذل اللازم والعار الباقي في الأعقاب وهو ظاهر، وأما أنه لا فائدة فيه فلأن الفار لا يزاد في عمره لفراره. إذ علمنا أنه بفراره لم يبلغ إلاّ أجله المكتوب له فكان بقاؤه في مدة الفرار من عمره لا زيادة فيه وإن له يوماً في القضاء الإلهي لا يحجز بينه وبينه فرار. وفيه تخويف بالموت.

وقوله: رائح إلى الله كالظمآن يرد الماء. استفهام عمّن يسلك سبيل الله ويروح إليه كما يروح الظمآن استفهاماً على سبيل العرض لذلك الرواح، ووجه الشبه القوة في السير والسعي الحثيث، وأشار بقوله: الجنة تحت أطراف العوالي. إلى أن مطلوبه الرواح إلى الله بالجهاد وجذب إليه بذكر الجنة، وخصّها بجهة تحت لأن دخول الجنة غاية من الحركات بالرماح في سبيل الله وتلك الحركات إنّما هي تحت العوالي، وقد أطلق لفظ الجنة على تلك الأفعال التي هي غاية منها مجازاً تسمية باسم غايته. ثم أعقب ذلك بدعاء الله على محاربيه إن ردّوا دعوته الحق بالتفريق والإهلاك. ثم حكم بأنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون ما ذكر حكماً على سبيل التهديد والوعيد لهم. والطعن الدراك: المتدارك. وكنّى بخروج النسيم منه عن كونه يخرق الجوف والأمعاء بحيث يتنفس المطعون من الطعنة، وروي النسم، وروي القشم

بالقاف والشين المعجمة وهو اللحم والشحم وهو بعيد. وبالله التوفيق.

١٢٥ - ومن كلام له عليه السلام

في التحكيم:

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هٰذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّي عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلاهُمْ بِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ؛ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَلا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لأَوَّلِ الْغَيِّ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! إِسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لا يَعْدِلُونَ بِهِ. جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَلا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ!

أقول: هذا الفصل من كلام له بعد سماعه لأمر الحكمين وخدعة عمرو بن العاص لأبي موسى.

كرثه الأمر. اشتد عليه. وأوزع له بكذا فهو موزع: إذا أغرى به. ونكب بتشديد الكاف: جمع ناكب وهو العادل عن الطريق كباذل وبذل. وزوافر الرجل: أنصاره وعشيرته. والحشاش: جمع حاش وهو موقد النار، وكذلك الحشاش بكسر الحاء وتخفيف الشين كنائم ونوّام ونيام، وقيل: هو ما يحشّ به النار: أي يوقد. والبرح بسكون الراء: الشدة والأذى. يقال: لقيت منه برحاً بارحاً، وروي ترحاً وهو الحزن.

وهذا الفصل من أوله. إلى قوله: أولاهم به. جواب له عن شبهة التحكيم للخوارج عن أمره بالحرب بعد أن رضي بالتحكيم. وتقدير الشبهة أنك رضيت بتحكيم رجلين في هذا الأمر وعاهدت على ذلك، وكل من رضي بأمر وعاهد عليه فليس له أن ينقض عهده. فقدح في صغرى هذه الشبهة بقوله: إنّا لم نحكم الرجال: أي لكونها رجالاً، وإنما حكمنا القرآن لكن لما كان القرآن لا بد له من ترجمان يبيّن مقاصده، ودعانا القوم إلى حكم القرآن ولم نكن نحن الفريق الكاره لكتاب الله، المتولى عنه بعد أمره تعالى بالرجوع إليه وإلى رسوله في الكتاب والسنّة فيما اشتبه أمره بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.

فإذا حكم بالصدق عن علم بكتابه فنحن أحق الناس به: أي أولاهم باتباعه وأولاهم بأن ينصّ على كون الأمر لنا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجرات: ٩] إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وظاهرٌ كون أُولئك بعد عقد الإمامة بغاة عليه فوجب بنص الكتاب قتالهم، وكذلك الآيات الدالّة على وجوب الوفاء بالعهود والعقود وكان هو أولى بالحق الذي يجب قتالهم عليه فكان الحاكم لهم مخطئاً مخالفاً لكتاب الله غير عامل به فوجبت مخالفة حكمه، وإن حكم بسنّة رسول الله فنحن أولى الناس برسول الله للقرابة وللعمل بسنته لموافقتها الكتاب ونصه على وجوب متابعة الإمام العادل فكان الحاكم لغيره مخالفاً للسنّة أيضاً.

فصارت خلاصة هذا الجواب أنّا لم نرض بتحكيم الرجلين ولكن بتقدير حكمهما بكتاب الله الذي هما ترجمان عنه وهو الحاكم الذي دعانا الخصم إليه وحيث خالفاه لم يجب علينا قبول قولهما.

وقوله: وأما قولكم. إلى قوله: لأول الغي.

فتقدير سؤال آخر لهم مع جوابه، وذلك أنهم حين اتفقوا على التحكيم كتبوا كتاب الصلح وضربوا لحكم الحكمين أجلاً مدّة سنة، وصورة الكتاب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي بن أبي طالب على أهل العراق، ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان من شيعته من المؤمنين والمسلمين. إنما ننزل عند حكم الله تعالى وكتابه ولا يجمع بيننا إلاّ إيّاه، وإنّ كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا القرآن، ونميت ما أمات القرآن. فإن وجد الحكمان ذلك في كتاب الله اتبعاه، وإن لم يجداه أخذا بالسنّة العادلة غير المفرقة، والحكمان عبد الله وعمرو بن العاص، وقد أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين أنهما آمنان على أنفسهما وأموالهما والأمّة لهما أنصار، وعلى الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعمل بما يقضيان عليه. مما وافق الكتاب والسنّة، وإن الأمن والموادعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم، وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكمن بين الأمّة بالحق لا بما يهوى، وأجل الموادعة سنة كاملة فإن أحب الحكمان أن يعجلا الحكم عجّلاه، وإن توفي أحدهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً لا يألوا الحق والعدل وإن توفّي أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممن يرتضون أمره ويحمدون طريقته.

اللهم إنّا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً وظلماً. وشهد فيه من أصحاب علي عليه السلام عشرة، ومن أصحاب معاوية عشرة. فذلك معنى الأجل في التحكيم. وتقدير هذا السؤال إنّك حين رضيت بالتحكيم لم ضربت بينك وبينهم أجلاً، وما الحكمة في ذلك. فأجاب إنّما فعلت ذلك ليتبين الجاهل: أي في وجه الحق، ويتثبّت العالم: أي في أمره بحيث يخلص من الشبهة، ورجاء إصلاح هذه الأمّة بهذا الصلح.

وقوله: ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل. إلى آخره.

فعبّر بأخذ الكظم عن الأخذ بغتة وعلى غرّة، وهؤلاء القوم لما أخذوا لأول شبهة عرضت من رفع المصاحف وهو أوّل الغي ولم يتثبتوا في أمرهم أشبهوا من أخذ بمجرى نفسه فلم يتمكن من الاستراحة إلى التنفيس فاستعير وصف الكظم لهم.

وقوله: إن أفضل الناس. إلى قوله: وزاده.

جذب إلى الحق وإن أدى إلى الغاية المذكورة وتنفير عن الباطل وإن استلزم الغاية المذكورة بذكر الأفضلية عند الله.

وقوله: من الباطل. متعلّق بأحب إليه.

وقوله: وإن نقصه وكرثه.

اعتراض بينهما. والحكم في هذه القضية ظاهر الصدق. إذ كان ملازم الحق أتقى الخلق، والأتقى أفضل عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقوله: فأين يتاه بكم؟

يريد إلى أي غاية يكون هذا التيه الذي أخذتم فيه، وفيه تنبيه على أن ذلك التيه فعل الغير بهم. ومن أين أتيتم؟ أي من أي وجه دخلت عليكم الشبهة. ويشبه هذا السؤال تجاهل العارف. إذ كان يعلم وجه الداخل عليهم. ثم أعقب ذلك التعنيف لهم بالأمر بالمسير إلى أهل الشام. ووصفهم بالحيرة عن الحق والعمى عنه والإغراء بالجور عن طريق الله بحيث لا مثل للجور عندهم، وبجفاوة الطباع عن فهم كتاب الله ونبوء الأفهام عنه وبعدولهم عن طريقه كل ذلك إغراء بهم.

وقوله: ما أنتم بوثيقة: أي بعروة وثيقة. إلى آخره وهو عتاب لهم وتضجّر منهم على قلّة طاعته.

وقوله: يوماً أناديكم.

أي: أدعوكم إلى النصرة وأستغيث بكم، ويوماً أناجيكم: أي أعاتبكم وأجادلكم على تقصيركم.

وقوله: فلا أحرار صدق عند النداء.

لأن الحر من شأنه إجابة الداعي والوفاء بالوعد ولستم كذلك، ولا إخوان ثقة عند النجاء لأن أخا الثقة

إذا زلّ وعوتب عن أخيه انعتب، وإذا أحوج واعتذر إليه رجع إلى صفاء الأخوة لمكان وثاقتها ولستم من ذلك في شيء. وبالله التوفيق.

١٢٦ - ومن كلام له عليه السلام

لما عوتب على التسوية في العطاء:

أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ، وَاللهِ مَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ! أَلا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ. وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلأَمُ خَدِينٍ!

أقول: لا أطور به: أي لا أقر به. والسمير: الدهر. يقال: لا أفعله ما سمر سمير: أي الدهر كله، وكذلك لا أفعله ما سمر ابنا سمير: أي الدهر كله، وابناه: الليل والنهار. والخدين: الصديق.

والتسوية في العطاء من سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وكان أبو بكر كذلك على تلك السنّة فلما فضل من بعدهما أهل السابقة والشرف في العطاء على غيرهم اعتاد المفضلون بذلك إلى زمانه عليه السلام. ولما كان سالكاً مسالك رسول الله صلى الله عليه وآله ومقتفياً أثر سنّته لم يمكنه إلاّ التسوية فطلب المفضّلون عادتهم من التفضيل عند ولايته لهذا الأمر فقال الكلام.

فقوله: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور.

جواب لمن أشار عليه بالتفضيل، وكأن المشير قال له: إن فضلت هؤلاء كانوا معك بقلوبهم ونصروك. فأجابهم بذلك. والجور: العدول عن سبيل الله بالتفضيل حيث كان خارجاً عن سنّة الرسول. ثم أقسم أنه لا يقرب التفضيل أبداً، وأنّ المال لو كان له لكان من العدل أن يسوي بينهم فيه فكيف والمال لله ولهم.

ووجه ذلك أن التسوية هي العدل الذي تجتمع به النفوس على النصرة وتتألف الهمم على مقاومة العدو دون التفضيل المستلزم لانكسار قلوب المفضولين مع كثرتهم. فلو كان المال له مع كونه بطباع البشرية الميّالة إلى شخص دون شخص لم يسوّ بينهم فكيف والمال لله الذي تساوى نسبة الخلق إليه ومالهم الذي فرضه الله لهم على سواء، وهو كالاعتذار الحاسم لمادة الطمع في التفضيل.

ثم نبّه على قبح وضع المال في غير أهله وعلى غير وجهه. وغير أهله: هم غير المفروض لهم: وغير وجهه: غير حقه الذي يفرضه الشارع، وأشار إلى وجوه المفاسد ففي غير أهله تبذير، وفي غير وجهه إسراف، وعرفت أنهما طرفا الإفراط والتفريط من فضيلة السخاء.

وقوله: يرفع صاحبه في الدنيا.

أي يحصل له بالتبذير ذكر الكرم بين العوام والغاغة، ومن لا يعرف حقيقة الكرم، ويضعه في الآخرة. إذ كان به على رذيلة، وكذلك يكرمه عند الناس ويهينه عند الله، وأما حكمه عليه السلام بأن الواضع لماله في غير حقه وعند غير أهله محروم شكرهم ولغيره ودّهم، وعلى تقدير وقوع الزلة منه التي يحتاج فيها إلى مساعدتهم يتقاعدون عنه فذلك أمر يحصل بالاستقراء، وربما بلغ التجربة، وأمّا سرّ ذلك فيحتمل أن يكون لأنهم لما كانوا غير أهل لوضع المعروف لم يكونوا أهلاً للاعتراف به إمّا لجهلهم وغفلتهم أو لاعتقادهم أن المسدي إليهم غير أهل لشكرهم، وأنهم على مرتبته وأحقّ بالمال منه. وأكثر ما يكون عدم الشكر من هؤلاء لنظر كل منهم إلى أن غيره من المسدى إليه غير أهل، وأنه هو أحق فيرى نفسه دائماً مبخوس الحظ من باذل المعروف فلا يزال متسخّطاً عاتباً عليه ذاماً للزمان، وحينئذٍ لا يتحقق اعترافه بنعمة الباذل فإذا أصابه من غيره أدنى معروف أو لم يصبه بل سمع مدح أحد وشكر الناس له ساعد على مدحه وأظهر فضله، وقال: إنّه ممن يضع المعروف في أهله فيكون ذلك كالمستنهض لهمّة الباذل أو كالمزري

عليه والمغاير له، وكنّى بزلّ النعل عن خطئه وعثاره في المصائب. وبالله التوفيق.

١٢٧ - ومن كلام له عليه السلام

أيضاً للخوارج:

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِضَلالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ. وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ، وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ. فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الإِسْلامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ. ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ!

وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الأَوْسَطُ، فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلا مَنْ دَعَا إِلَى هٰذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ.

وَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ - لاَ أَبَا لَكُمْ - بُجْراً، وَلا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ - سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.

أقول: البجر: الشر والأمر العظيم. والختل: الخديعة. والصمد: القصد. وهذا الفصل مشاجرة مع الخوارج وهو منع لشبههم التي بها كفّروا أصحابه عليه السلام وصورتها إنكم ضللتم بالتحكيم، وكل ضال كافر ينتج أنهم كفّار.

فقوله: فإن أبيتم. إلى قوله: وضللت.

يجري مجرى تسليم جدل لما منعه أولاً في الفصول السابقة من صغرى شبههم وبين أن التحكيم لم يكن منه خطأ ولا ضلالاً. فكأنه يقول: وهب أني أخطأت كما زعمتم.

وقوله: فلم تضللون عامة أمّة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي.

منع لصغرى هذه الشبهة.

وقوله: وتكفرونهم بذنوبي. إلى قوله: بمن لم يذنب.

منع للكبرى. فكأنه يقول: وهب أنكم ضلّلتموهم بضلالي فلم تكفرونهم، وتقتلون بسبب تكفيرهم المذنب وغير المذنب.

وقوله: وقد علمتم. إلى قوله: بين أهله.

استشهاد عليهم بفعل الرسول صلى الله عليه وآله فيمن أخطأ، وأنه لم يكفرهم بذنوبهم بل أجرى عليهم أحكام الإسلام، ولم يسلبهم اسمه، وهذا الاستشهاد يجري مجرى ذكره مستند المنع. والزاني الذي رجمه هو المحصن، ولم يمنعه استحقاقه الرجم صدق الإسلام عليه ولحوق أحكامه له من الصلاة عليه وتوريث ماله لأهله، وكذلك الباقون من أهل الكبائر من الأمّة لم يمنعهم ذلك من إجراء أحكام الإسلام عليهم، وصدق

اسمه المنافي لصدق الكفر عليهم، وضمير الإثنين في نكحا يرجع إلى السارق والزاني: أي لم يمنعهم استحقاق القطع والجلد من حصتهما من الفيء ولا من نكاح المسلمات، وضمائر الجمع في قوله: فأخذهم الله بذنوبهم. إلى قوله: بين أهله راجعة إلى كل من جرى ذكره من المذنبين، والكلام المذكور حكاية لحالهم، والضمير في أهله يرجع إلى الإسلام. ثم لما فرغ من بيان غلطهم ذمهم ونسبهم إلى الانفعال عن الشيطان. إذ كانت وساوسه مبادئ الأغلاط والشبه. ثم عقّب ذلك بالإخبار عن هلاك من سلك طريق الإفراط في حبه أو بغضه لخروجهما عن الحق والعدل إلى الباطل والجور، وإفراط الحب أن جعل إلهاً كالمنسوب إلى النصيرية ونحوهم من الغلاة، وإفراط البغض أن نسب إلى الكفر كالمنقول عن الخوارج، وجعل خير الناس فيه حالاً النمط الأوسط في المحبة، وهم أهل العدل فيه. والنمط الأوسط الجماعة من الناس أمرهم واحد.

وفي الحديث خير هذه الأمّة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي. فالتالي هو المقصر الواقف في طرف التفريط، والغالي هو العابر إلى طرف الإفراط. وأمر بلزوم ذلك النمط ولزوم طريقة السواد الأعظم: أي أكثر المسلمين المتفقين على رأي واحد، ورغب في لزوم طريقتهم بأنّ يد الله على الجماعة فتجوز بلفظ اليد في قدرة الله وحراسته للجماعة إذ كانوا أمنع وأبعد عن الانفعال للعدو، وآمن من الغلط والخطأ لكثرة آرائهم واتفاقها فلا تكاد تتفق على أمر لا مصلحة فيه مع كثرتها واختلافها.

وحذّر من الفرقة والشذوذ عن الجماعة بأن الشاذ من الناس: أي المتفرد المستبد برأيه للشيطان: أي محل تطرق الشيطان لانفراده، وشبّه ذلك بالشاذ من الغنم، ووجه الشبه كون انفراده محلاً لتطرق الهلاك إليه باستغواء الشيطان له كما أن الشاة المنفردة في مظنة الهلاك لانفرادها ووحدتها للذئب.

ثم أمر بقتل من دعا إلى هذا الشعار وهو مفارقة الجماعة والاستبداد بالرأي.

وقوله: ولو كان تحت عمامتي هذه.

مبالغة في الكلام كنّى بها عن أقصى القرب من عنايته: أي ولو كان ذلك الداعي إلى هذا الحد من عنايتي به، وقيل: أراد ولو كان ذلك الداعي أنا.

وقوله: وإنما حكم الحكمان.

اعتذار عن شبهة التحكيم، وأسند إليهما لفظي الإحياء والإماتة مجازاً باعتبار كونهما في الاجتماع عليه والعمل به مظهرين لمنفعته وفائدته كما يفعله موجد الحياة، وكونهما في تركه والإعراض عنه سبباً لبطلان منفعته وعدم منفعته كما يفعله مميت الشيء ومبطل حياته.

فلم آت - لا أبا لكم - بجراً: إلى آخر.

لما بيّن وجه عذره في التحكيم أنكر أن يكون فعله ذلك مشتملاً على قصد شر أو خديعة لهم أو تلبيساً عليهم في التحكيم من غير اتفاق منهم ومراجعة لهم بل إنما كان ذلك عن اجتماع آراء قومهم على اختيار حكمين أُخذت عليهما الشرائط المعدودة في كتاب الصلح، وفي نسبته اختيار الحكمين إلى مَلَئهم، ونسبة أخذ العهد عليهما في اتباع الكتاب إلى نفسه أو إلى جماعة هو أحدهم تنبيه على أن أخذ العهد عليهما كان منه أو بشركته دون تعيينهما للحكومة لما نقل إنه كان غير راضٍ بنصب أبي موسى نائباً عنه.

وإنما أكره على ذلك وكان ميله واختياره في ذلك لابن عباس. وتلخيص الكلام: إنّا إنما رضينا بالحكمين بشرط أن يعملا بكتاب الله، والمشروط بشرط عدم عند عدم ذلك الشرط. فحيث خالفا الشرط عمداً بعد أن سبق استثناؤنا عليهما سوء رأيهما وجبت مخالفتهما، وانتصب سوء رأيهما لأنه مفعول به عن سبق. وبالله التوفيق والعصمة.

١٢٨ - ومن كلامه له عليه السلام

فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة:

يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلا لَجَبٌ، وَلا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلا

حَمْحَمَةُ خَيْلٍ. يُثِيرُونَ الأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ.

يُومئ بذلك إلى صاحب الزنج. ثم قال عليه السلام:

وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ، مِنْ أُولئِكَ الَّذِينَ لا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا.

أقول: الملحمة: الوقعة العظيمة.

وهذا الفصل من خطبة له عليه السلام بالبصرة بعد وقعة الجمل ذكرنا منها فصولاً فيما سبق، والخطاب مع الأحنف بن قيس لأنه كان رئيساً ذا عقل وسابقة في قومه، وكان اسمه صخر بن قيس بن معاوية بن حصن بن عباد بن مرة بن عبيد بن تميم، وقيل: اسمه الضحّاك، وكنيته أبو بحر. وبسببه كان إسلام بني تميم حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجيبوا. فقال لهم الأحنف: إنه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملاعبها فأسلموا. وأسلم الأحنف وشهد مع علي عليه السلام صفيّن ولم يشهد الجمل مع أحد الفريقين، والضمير في قوله: كأني به. لصاحب الزنج واسمه علي بن محمد علوي النسب، والجيش المشار إليه هم الزنج، وواقعتهم بالبصرة مشهورة وأخبارهم وبيان أحوالهم، وتفصيل واقعتهم يشتمل عيلها كتاب منفرد في نحو من عشرين كراسة فليطلب علمها من هنا.

وأما وصف ذلك الجيش بالأوصاف المذكورة فلأن الزنج لم يكونوا أهل خيل ولا جند من قبل حتى يكون بالأوصاف المشار إليها، وإثارتهم التراب بأقدامهم كناية عن كونهم حفاة في الأغلب سائرين بالأقدام فهي [من اعتياد الحفاة - خ -] باعتبار الحفاء ومباشرة الأرض بالخشب ونحوه فكانت مظنة إثارة التراب عوضاً من حوافر الخيل، ووجه شبهها بأقدام النعام أن أقدامهم في الأغلب قصار عراض منتشرة الصدور ومفرقات الأصابع فهي من عرضها لا يتبيّن له طول فأشبهت أقدام النعام في بعض تلك الأوصاف، ثم أخبر بالويل لمحال البصرة ودورها المزوقة من أولئك، واستعار لدورها لفظ الأجنحة، وأراد بها القطانيّات التي تعمل من الأخشاب والبواري بارزة عن السقوف كالوقاية للمشارف والحيطان عن آثار الأمطار وهي أشبه الأشياء في هيئتها وصورة وضعها بأجنحة كبار الطير كالنسور، وكذلك استعار لفظ خراطيم الفيلة للميازيب التي تعمل من الخوض على شكل خرطوم الفيل وتطلى بالقار يكون نحواً من خمسة أذرع أو أزيد تدلى من السطوح حفظاً للحيطان من أذى السيل أيضاً، وهي أشبه الأشياء في صورتها بخراطيم الفيلة.

وأما وصفه لهم بأنه لا يندب قتيلهم ولا يفتقد غائبهم. قال بعض الشارحين: ذلك وصف لهم بشدة البأس والحرس على الحرب والقتال وأنهم لا يبالون بالموت ولا يأسفون على من فقد منهم.

وأقول: والأشبه أن ذلك لكونهم لا أصول لهم ولا أهل لأكثرهم من أمّ أو أخت أو غير ذلك ممن عادته أن ينوح ويندب قتيله ويفتقد غائبة لكون أكثرهم غرباء في البصرة فمن قتل منهم لا يكون له من يندبه ومن غاب لا يكون له من يفتقده.

وقوله: أنا كابّ الدنيا لوجهها.

إشارة إلى زهده فيها، وتنبيه على فضيلته. يقال: كببت فلاناً لوجهه إذا تركته وما التفت إليه، وقادرها بقدرها: أي معامل لها بمقدارها، ولما كان مقدارها حقيراً عنده كان التفاته إليها التفاتاً حقيراً حسب ضرورة البقاء فيها، وكذلك ناظرها بعينها: أي معتبرها بالعين التي ينبغي أن تعتبر بها الدنيا من كونها غرّارة غدّارة حائلة إلى غير ذلك من أوصافها، وأنها مزرعة الآخرة وطريق إليها غير مطلوبة لذاتها. وبالله التوفيق.

ومنه يؤمي به إلى وصف الأتراك:

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً «كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ» يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ. وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ.

فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام، وقال للرجل وكان كلبياً:

يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...﴾ الآيَةَ، فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ، وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ، فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي.

أقول: المجان بالفتح: جمع مجن بكسر الميم وهو الترس. والمطرقة بفتح الراء والتخفيف: التي تطبق وتخصف كطبقات النعل. يقال: أطرقت بالجلد إذا ألبست. والسرق بفتح السين والراء: شقق الحرير واحدتها سرقة. قال أبو عبيدة: هي البيض منها، وهو فارسي معرّب أصله سره: أي جيد كالاستبرق الغليظ من الديباج. ويعتقبون الخيل: يحتبسونها ويرتبطونها. واستحر القتل وحرّ: أي اشتد.

واعلم أنه عليه السلام من عاداته إذا أراد الإخبار عن أمر سيكون فإنه يصدره بقوله: كأني كما سبق من إخباره عليه السلام عن الكوفة كأني بك يا كوفة، وكقوله: كأني به وقد نعق بالشام. ووجه ذلك أن مشاهدته بعين بصيرته لما أُفيض على نفسه القدسية من أنوار الغيب على سبيل الإلهام بواسطة الأستاذ المرشد صلى الله عليه وآله تشبه المشاهدة بعين البصر في الجلاء والظهور الخالي عن الشك فلذلك حسن حرف التشبيه صدراً، وضمائر الجمع في الفصل تعود إلى الأتراك، وشبّه وجوههم بالتروس المطبقة، ووجه الشبه في تشبيهها بالتروس الاستدارة والعظم والانبساط، وفي كونها مطرقة الخشونة والغلظة وهو تشبيه للمحسوس بالمحسوس، وأما وصفه لهم بمراعاة لبس السرق والديباج، واعتقاب الخيل فاعتبار أحوال الترك تشهد بصدقه.

وأما إخباره عن استحرار القتل إلى الغاية المذكورة حين ظهورهم فمما يشهد بصدقه التواريخ بالوقائع المشهورة بينهم وبين العرب وغيرهم من المسلمين في أيام عبد الله بن الزبير، وفي أيام قتيبة بن مسلم، ويكفي في صدق ذلك إلى الغاية المذكورة ما شهدناه من وقائع التتار مع المسلمين وقتلهم إياهم بالعراقين وخراسان وغيرها من البلاد.

فأما جوابه عليه السلام للكلبي: إن ذلك ليس بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، وتعديده للمعلومات بعلم الغيب الذي لا يعلمها إلاّ الله سبحانه فحق وصدق، وقد نبّهنا على الفرق بين علم الغيب والإخبار عن المغيبات في المقدمات لكن ينبغي أن يعلم أن التعلّم الحاصل له من قبل الرسول صلى الله عليه وآله ليس على سبيل أن كل ما أُلقي إليه صور جزئية، ووقائع جزئية بل معناه هو إعداد نفسه القدسية على طول الصحبة من حيث كان طفلاً إلى أن توفي الرسول صلى الله عليه وآله لهذه العلوم بالرياضة التامة، وتعليم كيفية السلوك وأسباب تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة حتى استعدت نفسه الشريفة للانتقاش بالأُمور الغيبية، وانتقشت فيها الصور الكليّة فأمكنه الإخبار عنها وبها، ولذلك قال: ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي: أي يضبطه قلبي ويشتمل عليه، وكنى بالجوانح عن القلب لاشتمالها عليه ولو كانت تلك العلوم صوراً جزئية لم يحتج إلى مثل هذا الدعاء فإنّ فهم الصور الجزئية وضبطها والإخبار عنها ممكن لكل الصحابة من العوام وغيرهم، وإنما الصعب المحتاج إلى الدعاء بأن يعيه الصدر ويستعد الأذهان لقبوله هو القوانين الكلية، وكيفية انشعابها وتفصيلها وأسباب تلك الأمور المعدة لإدراكها حتى إذا استعدت النفس بها أمكنه أن ينتقش بالصور الجزئية من مفيضها كما سبقت الإشارة إليه.

١٢٩ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر المكاييل والموازين:

عِبَادَ اللهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا - أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيِّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَلا الشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَلا الشَّيْطَانُ فِي هَلاكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً. فَهٰذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ. اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً! أَيْنَ خِيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ، وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلاَّ فِي حُثَالَةٍ لا تَلْتَقِي إِلاَّ بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَـ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ فَلا مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهٰذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللهُ الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!

أقول: أثوياء: جمع ثوى على فعيل وهو الضعيف. والدائب: المجد في العمل. والكدح: العمل. والوقر: الصمم. والحثالة: الثفل، وكأنه الرديء من كل شيء.

وقد نفر عليه السلام عن الدنيا بذكر عدّة من معايبها:

أحدها: كونهم فيها ضيفاناً، واستعار لهم لفظ الضيف وكذلك لما يأملون منها ووجه الاستعارة مشابهتهم للضيف في تأجيل الإقامة وانقطاع وقته وقرب رحيله، ومؤجلون ترشيح للاستعارة.

الثانية: كونهم مدينون فيها، واستعار لفظ المدين باعتبار وجوب الفرائض المطلوبة منهم وعهد الله المأخوذ عليهم أن يرجعوا إليه طاهرين عن نجس الملحدين، ورشّح بذكر المقتضين لما أن شأن المدين أن يقتضي فيه الدين. ثم لما ذكر كونهم مؤجلين ومدينين كرّر ذكر الأجل بوصف النقصان، ولا شك في نقصان ما لا يبقى، وذكر العمل الذي خالصه وصالحه هو الدين المقتضى منهم بوصف كونهم محفوظاً عليهم ليجذب بنقصان الأجل إلى العمل، وبحفظ العمل إلى إصلاحه والإخلاص فيه. وأجل وعمل: خبران حذف مبتدأهما، أي أجلكم أجل منقوص، وعملكم عمل محفوظ. ونبّه بقوله: فرب دائب مضيع، ورب كادح خاسر: أن العمل وإن قصد فيه الصلاح أيضاً إلاّ أنه قد يقع على وجه الغلط فيحصل بذلك انحراف عن الدين وضلال عن الحق فيضيّع العمل ويخسر الكدح كدأب الخوارج ونحوهم فربما دخل الكادح في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] وذلك ككدح أهل الكتاب ونحوهم.

وقوله: وقد أصبحتم. إلى قوله: إقبالاً.

شكاية للزمان وذمّ له، وهو كقوله: إنّا قد أصبحنا في زمن كنود، ودهر عنود. وذلك لأخذ الزمان في البعد عن وقت ظهور الشريعة وطراوتها وجرأة الناس على هتك الدين وارتكاب مناهي الله، وكذلك طمع الشيطان في هلاكهم: أي في هلاك دينهم الذي يكون غايته هلاكهم في الآخرة، وأشار إلى أن ذلك الوقت هو أوان قوة عدته وعموم مكيدته وإمكان عمله فما ظنك بزماننا هذا وما بعده، واستعار لفظ الفريسة لمطاوعي الشيطان والمنفعلين عنه، ووجه الاستعارة بلوغه منهم مراده وتصريفه لهم لغاية هلاكهم كالأسد مع فريسته.

وقوله: اضرب طرفك. إلى قوله: وقراً.

شرح لما أجمله أولاً من ازدياد إقبال الشر وإدبار

الخير، وكفر الغنى تركه وإعراضه عن شكر نعم الله سبحانه عليه.

وقوله: بحق الله متعلق بالبخل.

أي: أن البخيل يقصد ببخله بحق الله على مستحقه توفير المال والزيادة فيه.

وقوله: أين خياركم. إلى قوله: مذاهبم.

سؤال من باب تجاهل العارف تنبيهاً لهم على ما صاروا إليه من الفناء وفراق الدنيا، وعلى أنه لم يبق فيهم من أولي الأعمال الصالحة أحد لعلهم يرجعون إلى لزوم الأعمال الصالحة، وأراد بالأحرار الكرماء، والمتورّعون في مكاسبهم الملازمون للأعمال الجميلة فيها من التقوى والمسالمة وإخراج حقوق الله تعالى، والمتنزّهون في مذاهبهم الممتنعون عن ولوج أبواب المحارم والشبهات في مسالكهم وحركاتهم.

وقوله: أليس. إلى قوله: المنغصة.

سؤال على سبيل التقرير لما نبّههم عليه من فراق الدنيا ودناءتها بالنسبة إلى عظيم ثواب الآخرة وتنغيصها بالآلام ونحوها حتى قال بعض الحكماء: إنّ كل لذة في الدنيا فإنما هي خلاص من ألم.

وقوله: وهل خلقتم. إلى قوله: عن ذكرهم.

سؤال على سبيل التقرير لما ذكر أيضاً، واستعار لفظ الحثالة لرعاع الناس وهمجهم.

وقوله: لا تلتقي بذمهم الشفتان.

أي: إنهم أحقر من أن يشتغل الإنسان بذمّهم. وانتصب استصغاراً وذهاباً على المفعول له، وحسن اقتباس القرآن هٰهنا لما أن هذه الحال التي الناس عليها من فقد خيارهم وبقاء شرارهم مصيبة لحقتهم، ومن آداب الله للصابرين على نزول المصائب أن يسلموا أنفسهم وأحوالهم إليه فيقولوا عندها: إنّا لله وإنّا إليه راجعون كما قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية. ثم حكم على سبيل التوجه والأسف بظهور الفساد وبنفي المنكر المغيّر للفساد المزدجر عنه تنبيهاً لهم على أنهم وإن كان فيهم من ينكر ويزجر إلاّ أنه لا يغيّر ما ينكره ولا يزدجر عن مثله، وذلك من قبائح الأعمال والرياء فيها.

وقوله: أفبهذا.

أي: بأعمالكم هذه المدخولة وبتقصيركم. ومجاورة الله: الوصول إليه والمقام معه في جنته التي هي مقام الطهارة عن نجاسات الهيئات البدنية ومقام تنزيه ذات الله تعالى وطهارتها عن اتخاذ الشركاء والأنداد، وهو استفهام على سبيل الإنكار ولذلك عقبه بقوله: هيهات. إلى آخره.

ولما كان ذلك يجري مجرى الزهد الظاهر مع النفاق في الباطن أعني أعمالهم المدخولة من إنكار المنكر وارتكابهم نبّههم على أن فعلهم كخداع الله عن جنّته، وصرّح بأن الله لا يخدع لعلمه بالسرائر وأنّه لا تنال مرضاته إلاّ بطاعته: أي الطاعة الحقيقية الخالصة دون الظاهرة. ثم ختم بلعن الآمرين بالمعروف مع تركهم للعمل به، والناهين عن المنكر المرتكبين له لأنهم منافقون مغرون بذلك لمن يقتدي بهم والنفاق مستلزم اللعن والبعد عن رحمة الله. وبالله التوفيق.

١٣٠ - ومن كلام له عليه السلام

لأبي ذر رحمه الله لما أخرج إلى الربذة:

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ. فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ. وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالأَكْثَرُ حُسَّداً. وَلَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَى اللّٰهَ لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! وَلا يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ الْحَقُّ، وَلا يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ الْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمَّنُوكَ.

أقول: أبو ذرّ: اسمه جندب بن جنادة، وهو من بني غفار قبيلة من كنانة، وأسلم بمكة ولم يشهد بدراً ولا الخندق لأنه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه فأقام حتى مضت [قامت خ] هذه المشاهد. ثم قدم المدينة على

رسول الله ﷺ وكان يتولى علياً وأهل بيته، وهو الذي قال الرسول ﷺ في حقه: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر، وروى ابن المعمّر عنه قال: رأيت أبا ذرّ آخذاً بحلقة باب الكعبة وهو يقول: أنا أبو ذرّ الغفاري فمن لم يعرفني فأنا جندب صاحب رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق.

وكان قد أخرجه عثمان إلى الربذة، وهي موضع قريب إلى المدينة. واختلف في سبب إخراجه فروي عن زيد بن وهب أنه قال: قلت لأبي ذر - رحمة الله عليه - وهو بالربذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: أخبرك أني كنت بالشام في أيام معاوية فذكرت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية فقال معاوية هذه نزلت في أهل الكتاب. قلت: بل فينا وفيهم. فكتب معاوية إلى عثمان يشكو مني في ذلك فكتب إليّ أن أقدم عليّ فقدمت عليه فانثال الناس عليّ كأنهم لم يعرفوني فشكوت ذلك إلى عثمان فخيّرني فقال: إنزل حيث شئت فنزلت الربذة. وهذا قول من نزّه عثمان عن ظلم أبي ذر ونفيه. إذ كان خروجه إلى الربذة باختياره، وقيل: بل كان يغلّظ القول في إنكار ما يراه منكراً وفي حق عثمان، ويقول: لم تبق أصحاب محمد على ما عهد. وينفّر بهذا القول وأمثاله عنه. فأخرجه لذلك، وخطابه عليه السلام لأبي ذرّ أليق بالقول الثاني.

فقوله: إنّك غضبت لله.

شهادة له أن إنكاره لما ينكره إنما يقصد به وجه الله تعالى.

وقوله: إنّ القوم خافوك على دنياهم.

أي: على أمر الخلافة بالتنفير عنهم، وخفتهم على دينك باجتناب موافقتهم وأخذ عطائهم على غير السنّة.

وقوله: فاترك. إلى قوله: منعوك.

أي: أترك لهم دنياهم وانج بدينك فما أحوجهم إلى دينك وأغناك عن دنياهم.

وقوله: ستعلم من الرابح غداً والأكثر حسّداً.

أشار به إلى يوم القيامة، وظاهر كون تارك الدنيا أربح من المقبل عليها. وأكثرية الحسد من لواحق أكثرية الربح.

وقوله: ولو أن السماوات. إلى قوله: مخرجاً.

بشارة له بخلاصه مما هو فيه من ضيق الحال بسبب الإخراج، وشرط في ذلك تقوى الله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] قال ابن عبّاس قرأ رسول الله ﷺ ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً، قال: من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة. وظاهر كون التقوى عند استشعارها سبباً قاطعاً لطمع المتقي من الدنيا وقيناتها، وهو مستلزم لراجيه من مجاذبة النفس الأمارة بالسوء عن الوقوع في شبهات الدنيا، وهي في استلزام الخلاص من غمرات الموت وشدائد يوم القيامة أظهر، وكنّى عليه السلام بالغاية المذكورة وهي رتق السماوات والأرض على العبد عن غاية الشدة مبالغة ليتبيّن فضل التقوى، ثم أمره بالاستئناس بالحق وحده، والاستيحاش من الباطل وحده. وأكد الحصر في الموضعين بقوله: وحده. تنفيراً عن أن يستوحش من حق ما فيترك وينفر عنه وإن صعب وشق على النفس، أو يستأنس بباطلٍ ما فيفعل أو يسكت عليه وإن لذّلها. ونبّه على علّة بغضهم وإخافتهم له وهو عدم مشاركتهم في دنياهم والانفراد بالإنكار وغلظة القول عليهم، وكنّى بالقرض من الدنيا عن الأخذ. وبالله التوفيق.

١٣١ - ومن كلام له عليه السلام

وفيه يبيّن سبب طلبه الحكم ويصف الإمام بالحق

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي

كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلاةِ.

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِيَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلا الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ.

أقول: أظاركم: أعطفكم. ووعوعة الأسد: صوته. وسرار العدل: ما خفي منه، والنهمة: الحرص على الدنيا.

وقد أيّه بالنفوس بصفة الاختلاف: أي اختلاف الأهواء والقلوب المتشتتة: أي المتفرقة عن مصالحها وما خلقت لأجله. وأراد بغيبة عقولهم ذهولها عن رشدها، وإصابة وجه الحق بانصرافها عن دعائه إلى ما ينبغي، وشبّه نفارهم بنفور المعزة عن صوت الأسد، ووجه التشبيه شدة نفارهم عن الحق، ثم استبعد إظهاره للعدل وإقامة الدين بمثلهم على ما هم عليه من قلّة طاعته. ثم عقّب ذلك باستشهاد الله سبحانه على أن قصده بمنافسته في أمر الخلافة لم يكن في سلطان ولا لفضل حطام دنيوي، ولكن للغاية التي ذكرها من ردّ معالم الدين وهي الآثار التي يهتدى بها وكذا سائر ما عدّده من المصالح. ثم تلا ذلك الاستشهاد باستشهاده على أنه أول من أناب. أي رجع إلى الله تعالى عما لعله كان يعدّ في حقه ذنباً، وسمع: أي أطاع الله وأجاب: أي داعي الله. ثم استثنى سبق الرسول صلى الله عليه وآله إلى الدين بالصلاة وذلك أمر معلوم من حاله، وإنما يقول خصمه: إنّه حين تبع الرسول صلى الله عليه وآله كان طفلاً لا عتداد بإسلامه.

وسنذكر ذلك في موضعه من الخطبة المسماة بالقاصعة، وغرضه من هذا الاستشهاد مع ما بعده من الإشارة إلى الرذائل التي ينبغي أن يكون الإمام منزّهاً عنها تقرير فضيلته، ونبّه على أن فيه من الفضائل ما يقابل تلك الرذائل بتعديدها ونفيها عن الإمام الوالي لأمور المسلمين، والإشارة إلى وجوه المقاصد اللازمة عنها، وتذكيرهم بما علموه من ذلك بقوله: وقد علمتم. إلى آخره.

أما البخيل فلشدّة حرصه على ما في أيدي الناس من الرعية وقد عرفت ما يستلزمه من نفارهم عنه وعدم انتظام الأحوال به، وأما الجاهل فلأنه لجهله بقوانين الدين وتدبير أمور العالم ضالّ وضلاله يستلزم ضلال من اقتدى به، وذلك ضد مقصود الشارع، وأما الجافي فلأنّ جفاءه يستلزم النفرة والانقطاع عنه، وذلك ضد الألفة والاجتماع المطلوب للشارع، وأما الخائف من الدول فيخصّص بعنايته من يخافه دون غيره، وذلك ظلم لا ينتظم معه نظام العالم، وأما المرتشي في الحكم فلظلمه وذهابه بالحقوق والوقوف فيها على الحيف دون المقاطع الحقة. فترى أحد هؤلاء إذا أراد فصل قضية دافع بها طويلاً وصعّب الحق وعرّض بغموضه وأشار بالصلح بين الخصمين مع ظهور الحق لأحدهما وكانت غايته من ذلك تخويف صاحب الحق من فواته ليجنح إلى الإصلاح [الصلح. خ] والرضى ببعض حقه مع أنه قد يأخذ منه رشوة أيضاً، وربما كانت في المقدار كرشوة المبطل منهما. ولهم في ذلك حيل يعرفها من عاناهم. والله المستعان على ما يصفون، وأما المعطل للسنّة فلتضييعه قوانين الشريعة وإهمالها المستلزم لفساد النظام في الدنيا والهلاك الدائم في الآخرة. وبالله التوفيق.

١٣٢ - ومن كلام له عليه السلام

يعظ فيها ويزهد في الدنيا

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى

وَابْتَلَى. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، الْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَما تَخُونُ الْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ وَبَعِيثُهُ شَهَادَةً يُوافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ.

أقول: الضمير في قوله: نحمده. يعود إلى اسم الله في كلام سابق لم يذكر، وقد علم شكر الله تعالى على أخذه وإعطائه وعلى إبلائه بالخير وابتلائه بالشر، ونبه بذلك على وجوب شكر الله تعالى في طوارئ السراء والضراء وحالتي الشدة والرخاء، فأما وصفه له بالباطن والحاضر والعالم فقد سبق شرحه غير مرة ومصداق الوصفين الأولين قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ومصداق الأخيرين قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وكذلك سبقت الإشارة إلى سر الشهادتين. ونجيبه وبعيثه: منتجبه ومبعوثه. فعيل بمعنى مفعول.

وقوله: شهادة يوافق فيها. إلى آخره.

أي: شهادة خالصة من النفاق والرياء. وبالله التوفيق.

ومنها: **فَإِنَّهُ وَاللهِ الْجِدُّ لا اللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لا الْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلاَّ الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ، وَحَذِرَ الإِقْلالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ! فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ.**

أقول: المشيد: المعلى. والاهتبال في الأمر: السعي في إحكامه، وهبلها مصدر مضاف إلى ضمير التقوى مؤكد للفعل: أي احكموها إحكاماً. والأوفاز: جمع وفزة وهي العجلة، والضمير في قوله: فإنه. إما أن يرجع إلى مذكور سابق أو إلى معنى كلامه وهو التحذير والإنذار، وكذلك الذي في قوله: وما هو إلاّ الموت. يحتمل أن يعود إلى ملفوظ به سابق، ويحتمل أن يعود إلى المعنى بالتحذير منه والإنذار به: أي وما الذي أحذّركم هجومه عليكم إلاّ الموت، وأسمع وأعجل محلّهما النصب على الحال من معنى الإشارة.

وقوله: فلا يغرّنك. إلى قوله: وأمن العواقب.

أي: فلا يغرّنّك من نفسك الأمّارة بالسوء، وسوستها واستغفالها لك عن ملاحظة الموت برؤية سواد الناس: أي كثرتهم. إذ كثيراً ما يرى الإنسان الميت محمولاً فيتداركه من ذلك رق وروعة. ثم يعاوده الوسواس الخنّاس ويأمره باعتبار كثرة المشيّعين له من الناس وأن يجعل نفسه من الأحياء الكثيرين بملاحظة شبابه وصحته ويأمره باعتبار أسباب موت ذلك الميت من القتل وسائر الأمراض وباعتبار زوال تلك الأسباب في حق نفسه، وبالجملة فيبعد في اعتباره الموت بكل حيلة. فنهى السامعين عن الانخداع للنفس بهذه الخديعة، وأسند الغرور إلى سواد الناس لأنه مادته.

ثم نبههم بقوله: وقد رأيت. إلى قوله: يستعتبون - على كذب تلك الخديعة مشاهدة، والواو في قوله: وقد، واو الحال، ومن في قوله: من جمع. بدل البعض من الكل من قوله: من كان قبلك. والمعنى أنّه كما نزل بأولئك الموت وأزعجهم عن أوطانهم فكذلك أنتم.

وقوله: طول أمل. نصب على المفعول له.

أي: فعلوا ذلك لأجل طول الأمل، ويحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال، ويحتمل أن يكون ظرفاً والعامل أمن، وقيل: هو بدل من قوله: من كان قبلك:

أي رأيت طول أمل من كان قبلك، ويروى بطول أمل. وأعواد المنايا: النعوش، ويتعاطى به الرجال الرجال: أي يسلّمه الحاملون له بعضهم إلى بعض، والخطاب بالكاف لنوع المخاطب أو لشخص على طريقة قولهم: إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

وقوله: أما رأيتم؟

استفهام على سبيل التقرير، وإنما كانوا لا يستطيعون زيادة في حسنة ولا استعتاباً من سيئة لأن محل الأعمال هي الدنيا دون ما بعدها.

وقوله: فمن أشعر التقوى قلبه.

أي: من اتقى تقوى حقيقة برزت تؤدته: أي ظهرت عليه آثار الرحمة الإلهية في السكينة والوقار والحلم والأناة عن التسرع إلى مطالب الدنيا، وعلمت راحته في الآخرة، وفاز عمله فيها بالجزاء الأوفى. ثم أمرهم بإحكام التقوى: أي أن تتقوا الله تقوى حقيقية فإنّها التي يستحق بها الثواب الدائم، وأن يعملوا للجنة عملها التي تستحق به. ثم نبّههم على وجوب العمل للجنة بالتصريح بما لأجله خلقت الدنيا، وأنها لم تخلق دار إقامة بل طريقاً يعبر بها إلى الآخرة كما يعبر المسافرون، ويتزوّد منها الأعمال الصالحة الموصولة إلى الجنة، وأمرهم أن يكونوا فيها على سرعة في قطع عقباتها وعجل في الارتحال عنها لأن التأني فيها يستلزم الالتفات إلى لذاتها والغفلة عن المقصد الحق، واستعار لفظ الظهور وهي الركوب لمطايا الآخرة وهي الأعمال الصالحة، وتقريبها للزيال هو العناية الإلهية بالأعمال المقرّبة إلى الآخرة المستلزمة للبعد عن الدنيا والإعراض عنها ومفارقتها.

١٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام

يعظّم الله سبحانه ويذكر القرآن والنبي ويعظ الناس

وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرَضُونَ مَقَالِيدَهَا، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ الأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ.

أقول: المقاليد: المفاتيح جمع مقلد بكسر الميم. واليانع من الثمار: المدرك.

وهذا الفصل يشتمل على تمجيد الله سبحانه وإظهار عظمة سلطانه. فانقياد الدنيا والآخرة له بأزمتها: دخولها ذلّ الإمكان والحاجة إليه.

وقوله: وقذفت إليه السماوات والأرضون مقاليدها.

كقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣] قال ابن عبّاس ومقاتل: المراد بمفاتيح السماوات والأرض الرزق والرحمة، وقال الليث: القلاد: الخزانة. ومقاليد السماوات والأرض خزائنهما، وأقول: لفظ القذف مجاز في تسليمها وانقيادها بزمام الحاجة والإمكان إلى قدرته مع جميع ما هي سبب في وجوده في هذا العالم مما هو رزق ورحمة للخلق، وكذلك لفظ المفاتيح على رأي ابن عباس استعارة للأسباب المعدة للأرزاق والرحمة، وتلك الأسباب كحركات السماوات واتصالات بعض الكواكب ببعض وكاستعدادات الأرض للنبات وغيره، ووجه الاستعارة هذه الأسباب بإعدادها المواد الأرضية تفتح بها خزائن الجود الإلهي كما تفتح الأبواب المحسوسة بمفاتيحها، وكلها مسلّمة إلى حكمه وجريانها بمشيئته، وعلى قول الليث فلفظ الخزائن استعارة في موادها واستعداداتها، ووجه الاستعارة أن تلك المواد والاستعدادات تكون فيها بالقوة والفعل جميع المحدثات من الأرزاق وغيرها كما يكون في الخزائن ما يحتاج إليه. وسجود الأشجار الناضرة له بالغدو والآصال: خضوعها وذلّها تحت قدرته وحاجتها إلى جوده، ونسب قدح النيران إليها لما أنها السبب المادي، وإن كان القدح حقيقة في فعال السبب الفاعلي القريب، وجعل ذلك له تعالى لأنه الفاعل الأول.

وقوله: وآتت. إلى آخر:

فأراد بكلماته أوامره وأحكام قدرته المعبّر عنها

بقوله: كن، وإطلاق الكلمات عليها استعارة وجهها نفوذ تلك الأحكام في المحكومات كنفوذ الأوامر القولية في المأمورات، وأراد بإتيان الثمار دخولها طوعاً في الوجود المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وبالله التوفيق والعصمة.

منها: وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لا يَعْيَى لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ.

أقول: هذا الفصل كأنه في معرض التوبيخ على ترك أوامر الله ومخالفة أحكامه، ويشبه أن يكون الواو للحال كأنه يقول: تفعلون كذا وكتاب الله بين أظهركم ناطق، وكونه بين أظهرهم كناية عن وجوده بينهم مع أن من شأنه أن يستند إليه، واستعار لفظ الناطق للكتاب باعتبار أن المكتوب يعبّر عن المقصود كما أن الناطق كذلك، ولفظ اللسان وأنه لا يعيى ترشيح للاستعارة كنى بها عن بيان الكتاب على مرور الأوقات، ويحتمل أن يريد باللسان نفسه عليه السلام مجازاً. إذ كان هو لسان الكتاب الذي لا يفتر ولا يقصر عن بيان مقاصده، وكذلك استعار لفظ البيت باعتبار كونه حافظاً لحافظيه والعاملين به كما يحفظ البيت أهله، وأركانه: قواعده الكلية التي يبنى عليها نظام العالم من الأوامر والنواهي والمواعظ والحكم، وتلك القواعد لا تكاد تنهدم في وقت من الأوقات: إذ الحكم الكلية صالحة لجميع الأوقات، وكونه عزاً مجاز إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه. إذ كان حفظه والعمل به مستلزماً للعز الدائم الذي لا يعرض له ذلّ، وأعوانه هم الله وملائكته ورسله وأولياؤه. وأولئك أعوان لا خوف عليهم ولا انهزام لجمعيتهم من أمر. وبالله التوفيق.

منها: أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ، فَجَاهَدَ فِي اللهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ.

أقول: قفّى به: اتبع به من قبله. وغرض الفصل الثناء على الرسول صلى الله عليه وآله.

فقوله: أرسله. إلى قوله: الألسن.

بيان لبعض أمارات النبوة فإن منها الزمان المتطاول الذي تندرس فيه الشريعة السابقة والقوانين التي بها نظام العالم ويحتاج الخلق إلى قوانين مجدّدة لنظام أحوالهم. وحينئذٍ تجب بعثة رسول. وكانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستّمائة وعشرين سنة، ومنها تنازع الألسن واختلاف الخلق في الآراء والمذاهب وقلّة الاتفاق على قانون شرعي جامع لهم.

فقوله: فقفّى به الرسل.

كقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقوله: وختم به الوحي.

كقوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وهذا الختام مستفاد من الشريعة وليس للعقل في الحكم بانقطاع الرسل فيما بعد مجال بل ذلك من الأمور الممكنة عنده. والمدبرون عن الله: المعرضون عن اتباع أوامره ونواهيه. والعادلون به: الجاعلون له عديلاً وهو الندّ والمثل كالمشركين - تعالى عما يقولون علواً كبيراً - ونسبة المجاهدة إلى الله تعالى استعارة، ووجهها أنه تعالى رمى بمحمد صلى الله عليه وآله المشركين كما يرمي المجاهد بنفسه وأعوانه مجاهديه. وبالله التوفيق.

منها: وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الأَعْمَى، لا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ. وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ.

أقول: الشاخص: الذاهل والمسافر، والشاخص أيضاً الذي يرفع بصره إلى الشيء ويمدّه إليه.

وهذا الفصل مع قلّة ألفاظه يشتمل على لطائف:

فالأولى: أن الدنيا منتهى بصر الأعمى شيئاً. واستعار لفظ الأعمى للجاهل كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ووجه الاستعارة أن الجاهل لا يدرك بعين بصيرته الحق كما لا يدرك الأعمى من المبصرات، وأشار بقوله: لا يبصر من ورائها شيئاً إلى جهله بأحوال الموت وما بعده من سعادة الآخرة وشقاوتها.

فإن قلت: إنّه أثبت للأعمى العمى، وأثبت أنه يبصر الدنيا وذلك نوع مناقضة.

قلت: إنه لما أراد بالأعمى أعمى البصيرة وهو الجاهل استعارة لم يكن في إثبات البصر الحسي له ونظر الدنيا به مناقضة، ويحتمل أن يريد ببصره أيضاً بصر بصيرته استعارة، وظاهر أن منتهى بصر بصيرة الجاهل التصرف في أحوال الدنيا وكيفية تحصيلها والتمتّع بها دون أن يفيده عبرة لما وراءها من أحوال الآخرة.

الثانية: قوله: والبصير ينفذها بصره. استعار لفظ البصير للعالم، ونفوذ بصره كناية عن إدراكه ما وراء الدنيا من أحوال الآخرة وعلمه أنها دار القرار.

الثالثة: قوله: فالبصير منها شاخص: أي راحل مسافر قد جعلها طريقاً له إلى الآخرة، والأعمى إليها شاخص: أي متطلع إليها بعين بصيرته ووهمه وإن كان أعمى عن مصالحه الحقيقية وعن آفاتها وطرقها المخوفة، وفي هذه الكلمة مع التي قبلها من أقسام البديع التجنيس التام والمطابقة بين الأعمى والبصير.

الرابعة: قوله: والبصير منها متزوّد: أي بالتقوى والأعمال الصالحة في سفره إلى الله تعالى، والأعمى لها متزوّد: أي متّخذ للذاتها وقيناتها زاداً له في قطعها مدة عمره قد جعل ذلك هو الزاد الحقيقي والكمال الذي ينبغي له وهي في البديع كالتي قبلها. وبالله التوفيق.

منها: وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلاَّ الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلامَةُ. كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، ولا يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ.

قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الأَمْوَالِ. لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ.

أقول: الدمن: ما تلبد من آثار الناس وما اسودّ وهو جمع دمنة: والغلّ: الغش والحقد.

وقد استثنى الحياة مما يشبع منه ويملّ ثم علل عدم ملال الحياة بفقدان الراحة في الموت. قال بعض الشارحين: إن فقدان الراحة في الموت مخصوص بأهل الشقاوة في الآخرة فأمّا أولياء الله وعباده الصالحون فلهم في الموت الراحة الكبرى كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله. وقال بعضهم: بل يحمل على العموم مراعاة لظاهر الكلام وذلك من وجهين:

أحدهما: أن بالموت يفوت متجر الآخرة وينقطع الاستعداد لكمال أشرف مما حصل عليه الميت وإن كان ولياً فلا جرم لا يجد الراحة التي تلحقه بما يفوته من ذلك الكمال.

الثاني: أن النفوس البشرية لما لم تكن معارفها ضرورية، ولم تتمكن ما دامت في هذه الأبدان من الاطلاع على ما بعد الموت من سعادة أو شقاوة فبالحري أن لا تجد لها راحة تتصورها في الموت. قال: وذلك لا ينافي الخبر: ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله.

أما على الوجه الأول: فلأن الراحة الحاصلة من الكمال الفائت بالموت لا تحصل له، وإن حصل على راحةٍ ما بحسب طاعته السابقة.

وأما على الثاني: فلأن المؤمن لا يجد له ما دام في الدنيا راحة في الموت وذلك لا ينافي أن تحصل له الراحة عند لقاء الله كما نقل أن الحسن عليه السلام لما آن سفره إلى الآخرة بكى فقال له أخوه الحسين عليه السلام: ما لي أراك تكاد تجزع مع يقينك بأنك تقدم حيث تقدم على جدك وأبيك. فقال: نعم يا أخي لا شك في ذلك إلاّ أنني سالك مسلكاً لا أسلكه من قبل. وأقول: إن كان مراده عليه السلام بقوله: لا يجد في الموت راحة: أي في

نفس الموت مع قطع النظر عن غيره من أحوال الآخرة. فالحق قول من عمّم فقدان الراحة في حق الجميع. إذ الموت من حيث هو موت لا راحة فيه لأحد من الناس كافة، وإن كان مراده فقدان الراحة في الموت ومابعده فالحق التخصيص بأهل الشقاوة الدائمة. فإن شدة محبة الحياة ونقصانها متفاوتة بحسب تصوّر زيادة الراحة في الآخرة ونقصانها، وذلك ظاهر عند اعتبار أهل الدنيا المقبلين عليها بالكلية، وأهل الآخرة المقبلين عليها بالكلية، ومن بينهم من طبقات السالكين.

وقوله: وإنّما ذلك.

أي: الأمر الذي هو أحق بأن لا يملّ ولا يشبع منه بمنزلة الحكمة: أي ما كان بمنزلة الحكمة، والحكمة في لسان الشريعة هي العلم النافع في الآخرة، وقد يطلق على ما هو أعمّ من ذلك. ثم ذكر لها أوصافاً:

الأول: أنها حياة للقلب الميت، وقد مرّ أن القلب في عرف العارفين هي النفس الإنسانية، واستعار للحكمة لفظ الحياة، ووجه المشابهة كون الحياة بها وجود القلب وبقاؤه كما أن الحكمة بها بقاء الإنسان وسعادته في الدارين، وكذلك استعار لفظ الميت للقلب الجاهل باعتبار أنّه غير مطلع على وجوه مصالحه ومفاسده في الدارين غير مهتدٍ لانتفاع أو دفع تضرر كالميت.

الثاني: استعار لفظ البصر للحكمة، ووصف العمياء لعين الجاهل. ثم يجوز أن يكون لفظ العين أيضاً استعارة في بصيرة الجاهل، ويجوز أن يكون المراد حقيقته، ووجه الاستعارة الأولى: أن بالحكمة يبصر الإنسان مقاصده ويهتدي وجوه مصالحه الدنيوية والأخروية، كما يهتدي البصير بعينه وجوه مسالكه ومقاصده، ووجه الثانية: أن بصيرة الجاهل لا تهتدي لتلك الوجوه كما لا تهتدي العين العمياء إلى شيء، ووجه الثالثة: أن بصر الجاهل تابع لبصيرته فإقدامه وإحجامه وتصرفاته المنسوبة إلى حسّ البصر وغيره تابعة لما يتصوّره، ولما كانت تلك التصرفات غير نافعة في الأكثر بل قد تكون ضارة لا جرم أشبهت عينه الباصرة التي وقع بها سوء ذلك التصرف العين العمياء فاستعير لها لفظها، وكذلك استعار لفظ السمع ولفظ الصماء للأذن، ووجه الاستعارات ما سبق فإن المراد بالسمع إدراك البصيرة. والأذن يحتمل أن يراد بها البصيرة استعارة، أو الأذن المحسوسة، وكذلك استعار لفظ الري للحكمة، ولفظ الظمآن للجاهل، ووجه الأولى: أن الحكمة تملأ النفس وتجدها شفاء لها من داء الجهل كما يملأ الماء جوف الظمآن وينقع غلّته ويشفي من ألم الظماء، ووجه الثانية: أن الجاهل يلحقه ألم الجهل ويكون سبباً لموته في الآخرة كما يلحق الظمآن ألم الظماء.

الثالث: أن فيها الغنى كلّه والسلامة، وأراد بالغنى غنى النفس عن كل شيء وكمالها بها فإن غاية الحكمة الوصول إلى الحق سبحانه والغرق في بحار معرفته وفي ذلك غنى العارفين عن كل شيء، وأراد بالسلامة سلامة النفوس من عذاب الجهل. إذ ثبت في أُصول الحكمة أنه السبب الأكبر في الهلاك الأُخروي.

قوله: كتاب الله.

خبر مبتدأ: إما خبر ثانٍ لذلك، وما كان بمنزلة الحكمة خبر أول، أو لمبتدأ محذوف تقديره وهو كتاب الله، ويحتمل أن يكون عطف بيان لما كان بمنزلة الحكمة. وذكر له أوصافاً:

الأول: قوله: تبصرون به. إشارة إلى اشتمال الكتاب على الحكمة، ووجه شبهه بها أن به إبصار الجاهلين لمقاصدهم الدنيوية والأُخروية لما فيه من الحكمة.

الثاني: وكذلك ينطقون به.

الثالث: ويسمعون به.

الرابع: قوله: ينطق بعضه ببعض. أي يفسر بعضه ببعض كالمبين المفسّر للمجمل، والمقيّد المبيّن للمطلق، والمخصص المبين للعام.

الخامس: ويشهد بعضه على بعض: أي يستشهد ببعضه على أن المراد ببعض آخر وهو قريب مما قبله.

السادس: قوله: ولا يختلف في الله. أي لما كان مدار الكتاب على بيان القواعد الكلية التي بها يكون

صلاح حال نوع الإنسان في معاشه ومعاده وكانت غاية ذلك الجذب إلى الله سبحانه والوصول إلى جواره لم يكن فيه لفظ يختلف في الدلالة على هذه المقاصد بل كله متطابق الألفاظ على مقصود واحد وهو الوصول إلى الحق - سبحانه - بصفة الطهارة عن نجاسات هذه الدار وإن تعددت الأسباب الموصلة إلى ذلك المقصود.

السابع: قوله: ولا يخالف بصاحبه عن الله. أي لا يجوز بالمهتدين بأنواره في سلوك سبيل الله عن الغاية الحقيقية وهو الله - سبحانه -.

وقوله: قد اصطلحتم. إلى آخره.

توبيخ للسامعين على ارتكاب رذائل الأخلاق، واستعار لفظ الاصطلاح لسكوتهم عن إنكار بعضهم على بعض ما يصدر عنه من المنكر كالغش والحقد والحسد، واشتراكهم في تلك الرذائل.

وقوله: ونبت المرعى على دمنكم.

يضرب مثلاً للمتصالحين في الظاهر مع غلّ القلوب فيما بينهم، ووجه مطابقة المثل أنّ ذلك الصلح سريع الزوال لا أصل له كما يسرع جفاف النبات في الدمن.

وقوله: تصافيتم على حبّ الآمال.

إشارة إلى وجه الصلح الذي ذكره ولذلك أُسقط حرف العطف هنا.

وقوله: وتعاديتم في كسب الأموال.

إشارة إلى وجه الغلّ الذي أشار إليه:

أما الأول: فلأن الجامع للناس في الظاهر هو ما يؤمل كل من صاحبه من الانتفاع به أو دفع شره فيما هو بصدده من المأمولات الدنيوية وإن انطوى له على غلّ كما هو المتعارف في زماننا.

وأمّا الثاني: فلأن الأحقاد والعداوات أغلب ما تكون على مجاذبة أموال الدنيا وقيناتها.

وقوله: لقد استهام بكم الخبيث.

أي: اشتد عشقه لكم ولازمكم، وأراد بالخبيث إبليس، وذلك تنبيه على ما يظهر منهم من آثار وسوسته وملازمتهم لما ينهون عنه، وكذلك قوله: وتاه بكم الغرور: أي استغفلكم فتهتم في استغفاله لكم عن سواء سبيل الله، والغرور هو الشيطان كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. ثم ختم باستعانة الله تعالى له ولهم على النفوس الأمّارة بالسوء: أما في حقه عليه السلام ففي دوامها مقهورة لعقله، وأما في حقّهم قهرها وقمعها. وبالله التوفيق.

١٣٤ - ومن كلام له عليه السلام

وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه:

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لأَهْلِ هٰذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لا يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لا يَمُوتُ. إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هٰذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَى بِلادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

أقول: ذلك حين خرج قيصر الروم في جماهير أهلها إلى المسلمين، وانزوى خالد بن الوليد فلازم بيته وصعب الأمر على أبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وغيرهما من أمراء سرايا الإسلام.

وحوزة كل شيء: بيضته وجمعيته. وكنفه: حفظه وآواه. والمحرب بكسر الميم: الرجل صاحب حروب. وحفز كذا: أي دفعه. وحفزه: ضمّه إلى غيره. وأظهر الله على فلان: نصر عليه. والردء: العون. والمثابة: المرجع.

وقوله: وقد توكل الله. إلى قوله: لا يموت.

صدر لهذه النصيحة والرأي، نبّه فيه على وجوه التوكل على الله والاستناد إليه في هذا الأمر، وخلاصتها أنه ضمن إقامة هذا الدين وإعزاز حوزة أهله، وكنّى بالعورة عن هتك الستر في النساء، ويحتمل أن يكون استعارة لما يظهر عليهم من الذلّ والقهر لو أُصيبوا

فضمن سبحانه ستر ذلك بإفاضة النصر عليهم، وهذا الحكم من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: والذي نصرهم. إلى آخر الصدر.

احتجاج في هذه الخطابة يشبه أن يكون تمثيلاً، وتلخيصه أن الذي نصرهم حال قلّتهم حي لا يموت فهو ينصرهم حال كثرتهم. فأصل التمثيل هو حال قلتهم وفرعه حال كثرتهم، وحكمه النصر وعلة ذلك الحكم هو حياته الباقية التي لا يعاقبها موت.

وقوله: إنّك متى تسر. إلى آخره.

نفس الرأي وخلاصة المشورة بعدم خروجه بنفسه، ووجه هذا الرأي تجويز النكبة وانقهاره عند ملاقاة العدو مع أنه يومئذٍ ظهر المسلمين الذين يلجأون إليه. فلو انكسر لم تبق لهم كانفة قوام يحوطهم، ولا جمع يستندون إليه. ثم بإخراج من يقوم مقامه من أهل النجدة ممن عرف بكثرة الوقائع والحروب فيكون على بصيرة في أمر الحرب، وأن يضم إليه أهل البلاء: أي المختبرون في النصيحة والمجربون في الوقائع. ثم استنتج من هذا الرأي أنه إن نصر الله المسلمين فذاك الذي تحبّ، وإن تكن الأخرى: أي الانكسار وعدم الانتصار كان للمسلمين ظهر يستندون إليه ومأمن يأوون إليه.

١٣٥ - ومن كلام له عليه السلام

قد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان فقال المغيرة بن أخنس لعثمان: أنا أكفيكه. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

يَا ٱبْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لا أَصْلَ لَهَا وَلا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي فَوَاللهِ مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ. اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ، ثُمَّ أَبْلُغْ جُهْدَكَ، فَلا أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!

أقول: هذه المشاجرة كانت في زمن ثوران الفتنة على عثمان في خلافته، وكان الناس يستسفرونه عليه السلام إليه.

والأبتر: كل أمر انقطع من الخير أثره. والنوى: المقصد الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد. والنوى: لغة في النأي: وهو البعد.

وقد ذمّ المغيرة بسقوط الأصل، ولعنه، واستعار لبيته لفظ الشجرة، وكنّى بنفي أصلها وفرعها عن سقوط بيته ودناءته وحقارته في الناس. ثم استفهمه عما ادعى من الكفاية له استفهاماً على سبيل الإنكار والاستحقار له، وأقسم أن الله لا يعزّ من هو ناصره، وإنما يعزّ الله من نصره أولياء الله وأهل عنايته، ومن لم يعزّ الله لم يقم من نهضته كقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. ثم دعا عليه بإبعاد الله مقصده.

وقوله: أبلغ جهدك.

أي: في الأذي فلا أبقى عليك إن أبقيت؛ أي لا رعاك ولا رحمك إن راعيتني. يقال: أبقيت على فلان إذا راعيته ورحمته.

١٣٦ - ومن كلام له عليه السلام

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ! أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَايْمُ اللهِ لأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ، حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً.

أقول: الفلتة: الأمر يقع بغير تدبر ولا روية. والخزامة: الحلقة من الشعر يجعل في أنف البعير.

ومفهوم قوله: لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة. أنها لما كانت عن تدبر واجتماع رأي منكم لم يكن لأحدكم بعدها أن يخالف أو يندم عليها، وفيه تعريض ببيعة أبي بكر حيث قال عمر فيها: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها.

وقوله: وليس أمري وأمركم واحداً.

إشارة إلى الاختلاف بين حركاته ومقاصدهم. ثم بيّن الفرق بقوله: إني أريدكم لله: أي إنما أريد طاعتكم لإقامة دين الله، وإقامة حدوده، وأنتم تريدونني لأنفسكم: أي لحظوظ أنفسكم من العطاء والتقريب وسائر منافع الدنيا. ثم لما وبّخهم بذلك أيّه بهم، وطلب منهم الإعانة على أنفسهم: أي بالطاعة له وامتثال أوامره. فأقسم لينصفنّ المظلوم وليقودنّ الظالم بخزامته، واستعار وصف القود في تذليل الظالم وإذعانه للحق، ورشح بذكر الخزامة، وكذلك استعار لفظ المنهل للحق. ووجه الاستعارة كونه مورداً يشفي به ألم المظلوم كما يشفي به ألم العطشان. وبالله التوفيق.

١٣٧ - ومن كلام له عليه السلام

في معنى طلحة والزبير:

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي مَا لَبَسْتُ وَلا لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَّةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الأَمْرَ لَوَاضِحٌ، وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَايْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لا يُصْدِرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ!

أقول: النصف: النصفة. والطلبة بكسر اللام: المطلوب. والحمأ: الطين الأسود المنتن كما قال تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ويروى الحما بألف مقصورة. والحمة بضم الحاء وتخفيف الميم وفتحها: اسم العقرب. والمغدفة بالدال والفاء: المظلمة. يقال: أغدف الليل إذا اشتد ظلامه، وروي: المغدفة بفتح الدال: الخفية. وأصله أن المرأة تغدف وجهها بالقناع. وزاح الباطل: انحرف. ونصابه: أصله ومقره. ولأفرطنّ: لأملأن. والشغب بالتسكين: المشاغبة وتهييج الشر. والماتح بنقطتين من فوق: المستقي، وبنقطتين من تحت: الذي يملأ الدلو في البئر. والعب: الشرب. والحسي بكسر الحاء وسكون السين: الماء الذي يشربه الرمل فينتهي إلى أرض صلبة تحفظه ثم يحفر عنه فيستخرج.

واعلم أن قوله: والله. إلى قوله: ولا لُبس عيل. قد تقدّم تفسيره في قوله: ألا وإن الشيطان قد ذمّر حزبه. وفي فصل قبله برواية أخرى فلا حاجة إلى إعادته. وأما قوله: وإنّها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة. فقال بعض الشارحين: في تعريف الفئة بالألف واللام تنبيه على أنه كان عنده علم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه ستبغي عليه فئة من غير تعيين لها. فلما خرجت هذه الفئة علمها بأماراتها، وقد سبق أيضاً تفسير الحمأ والحمة على بعض الروايات، وأما على هذه الرواية فاستعارة للغل والفساد الذي كان في صدور هذه الفئة، ووجه الاستعارة استلزامه لتكدير الإسلام وإثارة الفتنة بين المسلمين كما تكدّر الحمأ وتخبثه، واستلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سمّ العقرب، وأشار بالشبهة المغدفة إلى شبهتهم في الطلب بدم عثمان، واستعار لها وصف الظلمة لعدم اهتداء أكثر الخلق فيها حتى قتلوا بسببها كما لا يهتدى في الليل المظلم.

وقوله: وإن الأمر لواضح. إلى قوله: شغبه.

نفي لتلك الشبهة عن نفسه وولايته، وأن الحق واضح في حاله لا أصل للباطل فيه ولا لسان يشغب به، ولفظة اللسان استعارة، والشغب ترشيح لها. وباقي الفصل قد تقدم تفسيره أيضاً في الفصل المذكور.

ومنه: **فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلا وَعَمِلا. وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا**

قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ.

أقول: العوذ: جمع عوذة وهي الناقة المسنّة. والمطافيل: جمع مطفل بضم الميم وهي قريبة العهد بالنتاج. والتأليب: التحريض. وأبرمت الأمر: أحكمته. واستثبتهما بالثاء المعجمة بثلاث نقط: طلبت رجوعهما، ويروى بالتاء من التوبة. واستأنيت: انتظرت.

وهذا الفصل احتجاج على طلحة والزبير ومن تابعهما على نكث بيعته.

فقوله: فأقبلتم. إلى قوله: فجاذبتموها.

يجري مجرى صغرى قياس ضمير من الشكل الأول، وتلخيصها أنكم اجتهدتم عليّ في طلب البيعة حتى بايعتكم وأخذت عهودكم. وتقدير الكبرى وكلّ من اجتهد اجتهادكم إلى تلك الغاية فيجب عليه الوفاء بعهده. والصغرى مسلّمة منهم. وبرهان الكبرى الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] و﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١] الآية: وقد شبّه إقبالهم عليه طالبين للبيعة بإقبال مسنّات النوق على أطفالها، ووجه التشبيه شدّة الإقبال والحرص على مبايعته، وخصّ المسنّات لأنها أقوى حنّة على أولادها، ونصب البيعة على الإغراء، وفائدة التكرير في الإغراء تأكيد الأمر الدال على شدة الاهتمام بالمأمور به. وقال بعض الشارحين: فائدة التكرار دلالة المنصوب الأول على تخصيص الأمر الأول بالحال، ودلالة الثاني على تخصيص الأمر الثاني بالمستقبل: أي خذ البيعة في الحال وخذها للاستقبال. قال: وكذلك قوله: الله الله: أي اتّقوا الله في الحال واتقوه في الاستقبال.

وأقول: إنّ ذلك غير مستفاد من اللفظ بإحدى الدلالات.

وقوله: اللهم. إلى قوله: عليّ.

شكاية إلى الله منهم في أمور ثلاثة: قطع رحمه وظلمهما له بمطالبتهما له بغير حق لهما عنده. ثم نكث بيعته. ثم جمع الناس على قتاله.

وقوله: فاحلل.

دعاء عليهما بأمور ثلاثة: أن يحلّ ما عقدا من العزوم الفاسدة التي فيها هلاك المسلمين، وأن لا يحكم ما أبرماه من الإغراء في حربه، وأن يريهما المساءة في آمالهما وأعمالهما: أي عكس أغراضهما فيهما. واستجابة دعائه ظاهرة بقتلهما.

وقوله: ولقد استثبتهما. إلى قوله: الوقاع.

إظهار لعذره مع الناس في حقهما قبل وقاع الحرب بتأنيه فيه في حقهما، واستعطافه لهما في الرجوع إلى الحق، واستتابته لهما من ذنبهما في نكث البيعة.

وقوله: فغمطا. إلى آخره.

بيان لجوابهم عن إعذاره إليهم وهو مقابلتهم نعمة الله: أي قسمهما من الفيء بالاحتقار لها والنظر عليها. إذا كان أحد الأسباب الباعثة لهما على منافرته هو التسوية بينهم وبين غيرهم في العطاء، وكذلك مقابلتهم للسلامة والعافية من بلاء الحرب والشقاق وهلاك الدين والنفس في عاقبة فعلهما بردّهما لهما والإصرار على الحرب والمنابذة من غير نظر في عاقبة أمرها. وبالله التوفيق.

١٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام

في ذكر الملاحم:

يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ.

أقول: الإشارة في هذا الفصل إلى وصف الإمام المنتظر في آخر الزمان الموعود به في الخبر والأثر.

فقوله: يعطف الهوى على الهدى.

أي: يردّ النفوس الحائرة عن سبيل الله المتبعة لظلمات أهوائها عن طرقها الفاسدة ومذاهبها المختلفة إلى سلوك سبيله واتباع أنوار هداه، وذلك إذا ارتدّت تلك النفوس عن اتباع أنوار هدى الله في سبيله الواضح إلى اتباع أهوائها في آخر الزمان، وحين ضعفت الشريعة وزعمت أن الحق والهدى هو ذلك.

وكذلك قوله: ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي: أي يردّ على كل رأي رآه غيره إلى القرآن فيحملهم على ما وافقه منها دون ما خالفه، وذلك إذا تأوّل الناس القرآن وحملوه على آرائهم وردّوه إلى أهوائهم كما عليه أهل المذاهب المتفرقة من فرق الإسلام كل على ما خيل إليه، وكل يزعم أن الحق الذي يشهد به القرآن هو ما رآه وأنه لا حق وراءه سواه. وبالله التوفيق.

ومنها: **حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلافُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا. أَلا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا. فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ. وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.**

أقول: أخلاف الناقة. حلمات ضرعها. وأفاليذ: جمع الجمع لفلذة، وهي القطعة من الكبد وجمعها فلذ.

فقوله: حتى تقوم الحرب بكم على ساق. إلى قوله: عاقبتها.

كأنه غاية لتخاذلهم عن طاعته في أمر الحرب ولقاء العدو. كأنه يقول: إنّكم لا تزالون متخاذلين متقاعدين حتى يشتد العدو ويقوم بكم الحرب على ساق. وقيامها على الساق كناية عن بلوغها الغاية في الشدة، وبدو نواجذها كناية عما يستلزمه من الشدة والأذى، وهو من أوصاف الأسد عند غضبه. لأنه حاول أن يستعير لها لفظ الأسد فأتى بوصفه.

وقال بعض الشارحين: بدو النواجذ في الضحك: أي تبلغ بكم الحرب الغاية كما أن غاية الضحك أن تبدو النواجذ. فهي أقصى الأضراس. فكنّى بذلك عن إقبالها.

قلت: هذا وإن كان محتملاً إلاّ أن الحرب مظنة إقبال الغضب لا إقبال الضحك. فكان الأول أنسب.

وكذلك قوله: مملوءة أخلافها. استعارة لوصف الناقة لحال استعداد الحرب واستكمالها عدتها ورجالها كاستكمال ضرع الناقة اللبن.

وقوله: حلواً رضاعها.

استعارة لوصف المرضع لها، وكنّى بحلاوة رضاعها من إقبال أهل النجدة في أول الحرب عليها. فكلّ منهم يحب أن يناجز قرنه ويستحلي مغالبته كما يستحلي الراضع لبن أمّه، وكذلك استعار لفظ العلقم لعاقبتها، ووجه الاستعارة المشابهة بين المرارتين الحسية والعقلية، والمنصوبات الأربعة: بادياً، ومملوءة، وحلواً، وعلقماً، أحوال. والمرفوعات بعد كل منها فاعله، وإنما ارتفع عاقبتها عن علقماً مع أنه اسم صريح لقيامه مقام اسم الفاعل كأنه قال: مريرة عاقبتها.

وقوله: ألا وفي غدٍ. إخبار عن بعض الأُمور التي ستكون.

وقوله: وسيأتي غد بما لا تعرفون.

المراد به تعظيم شأن الموعود بمجيئه. وبيان لفضيلته عليه السلام بعلم ما جهلوه. وهو جملة اعتراضيّة كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧] فقوله: وإنه لقسم. اعتراض.

وقوله: يأخذ الوالي من غيرها عمالها.

يشبه أن يكون قد سبقه ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمرة فأخبر عليه السلام أن الوالي من غير تلك الطائفة - يومي به إلى الإمام المنتظر - يأخذ عمّالها على مساوئ أعمالها: أي يؤاخذهم بذنوبهم.

وقوله: وتخرج الأرض أفاليذ كبدها.

إستعار لفظ الكبد لما في الأرض من الكنوز والخزائن، ووجهها مشابهة الكنوز للكبد في العزة والخفاء، ورشح بذكر الأفاليذ. وقد ورد ذلك في الخبر المرفوع، ومن لفظه: وقادت له الأرض أفلاذ كبدها. وفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] بذلك. فأما كيفية ذلك الإخراج: فقال بعض المحققين: هو إشارة إلى أن جميع ملوك الأرض تسلّم إليه مقاليد ممالكها طوعاً وكرهاً وتحمل إليه الكنوز

والذخائر، وأسند الإخراج إلى الأرض مجازاً لأن المخرج أهلها. واستبعد أن يكون الأرض بنفسها هي المخرجة لكنوزها. ولأهل الظاهر أن يقولوا إنّ المخرج يكون هو الله تعالى، ويكون ذلك من معجزات الإمام ولا مانع.

وقوله: وتلقي إليه سلماً مقاليدها.

أسند أيضاً لفظ الإلقاء إلى الأرض مجازاً لأن الملقي للمقاليد مسالماً هو أهل الأرض، وكنّى بذلك عن طاعتهم وانقيادهم أجمعين لأوامره وتحت حكمه، وسلماً مصدر سدّ مسدّ الحال. ثم أخبر أنه سيريهم عدل سيرته، وأنه يحيي ميّت الكتاب والسنّة. ولفظ الميت استعارة لما ترك منهما فانقطع أثره والانتفاع به كما ينقطع أثر الميت.

فإن قلت: قوله: ويريكم. يدلّ على أن المخاطبين يدركون المخبر عنه ويرون عدله مع أنكم قلتم أنه يكون في آخر الزمان فكيف وجه ذلك.

قلت: خطاب الحاضرين من الأمّة كالعام لكل الأمّة، وذلك كسائر خطابات القرآن الكريم مع الموجودين في عصر الرسول ﷺ فإنه يتناول الموجودين إلى يوم القيامة. ثم يخرج المخاطبون بدليل العادة. إذ من عادتهم أن لا تمتد أعمارهم إلى وقت ظهوره فبقي الموجودون في زمانه. وبالله التوفيق.

ومنها: **كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ الأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدُ الْجَوْلَةِ، عَظِيمُ الصَّوْلَةِ. وَاللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلا تَزَالُونَ كَذٰلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلامِهَا! فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ.**

أقول: نعق الغراب ونعق الراعي بغنمه بالعين والغين: صاح. وفحص المطر التراب: قلبه، والفحص: البحث. وكوفان: اسم للكوفة. وضواحيها: نواحيها البارزة. الضروس: الناقة السيئة الخلق تعض حالبها. وفغرت فاغرته: انفتح فوه. وأكد الفعل بذكر الفاعل من لفظه. ويسني: يسهل. والعقب بكسر القاف: مؤخّر القدم.

وقد أخبر في هذا الفصل أنه سيظهر رجل بهذه الصفات. قال بعض الشارحين: هو عبد الملك بن مروان، وذلك لأنه ظهر بالشام حين جعله أبوه الخليفة من بعده وسار لقتال مصعب بن الزبير إلى الكوفة بعد أن قتل مصعب المختار ابن أبي عبيدة الثقفي فالتقوا بأرض مسكن - بكسر القاف - من نواحي الكوفة. ثم قتل مصعباً ودخل الكوفة فبايعه أهلها وبعث الحجّاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير بمكة فقتله وهدم الكعبة. وذلك سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، وقتل خلقاً عظيماً من العرب في وقائع عبد الرحمن بن الأشعث، ورمى الناس بالحجاج بن يوسف، وفي الفصل لطائف:

الأولى: أطلق لفظ النعيق لظهور أوامره ودعوته بالشام مجازاً. وكذلك استعار لفظ الفحص لقلبه أهل الكوفة بعضهم على بعض ونقصه لحالاتهم التي كانوا عليها. ثم شبّه عطفه وحمله عليها بعطف الناقة الضروس، ووجه التشبيه شدة الغضب والحنق والأذى الحاصل منها.

الثانية: فرشه الأرض بالرؤوس كناية عن كثرة قتله فيها، وذلك مما تشهد به التواريخ. وفغر: فيه استعارة ببعض أوصاف السبع الضاري كنّى به عن شدة إقدامه على القتل وإقباله على الناس بشدة الغضب والأذى، وكذلك ثقل وطأته في الأرض كناية عن شدة بأسه وتمكنه في الأرض.

الثالثة: بعد جولته كناية عن اتساع ملكه وجولان خيله ورجله في البلاد البعيدة، وبعيد وعظيم حالان، ومن روى بالرفع فهما خبرا مبتدأ محذوف.

الرابعة: لما فرغ من صفاته العامة بيّن لهم ما سيفعله معهم من التشريد والطرد في أطراف البلاد، وأكد ذلك بالقسم البار، وذلك إشارة إلى ما فعله عبد الملك ومن

ولي الأمر من ولده في باقي الصحابة والتابعين، وأحوالهم معهم في الانتقاص والاحتقار والطرد والقتل ظاهرة، وشبّه البقية منهم بالغبار الذي يكون في العين من الكحل، ووجه التشبيه الاشتراك في القلة.

الخامسة: أخبر أنهم لا يزالون كذلك: أي بالحال الموصوفة مع عبد الملك ومن بعده من أولاده حتى تعود إلى العرب عوازب أحلامها: أي ما كان ذهب من عقولها العمليّة في نظام أحوالهم، والعرب هم بنو العباس، ومن معهم من العرب أيام ظهور الدولة كقحطبة بن شبيب الطائي وابنيه حميد والحسن، وكبني زريق أبي طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبي ومن في عدادهم من خزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العباس. وقيل: إنّ أبا مسلم أصله عربي. وكل هؤلاء كانوا مستضعفين مقهورين مقمورين في دولة بني أمية لم ينهض منهم ناهض إلى أن أفاء الله تعالى عليهم ما كان عزب عنهم من حمياتهم فغاروا للدين وللمسلمين من جور بني مروان وأقاموا الأمر وأزالوا تلك الدولة.

فإن قلت: إن قوله: تؤوب. يدل على أن انقطاع تلك الدولة بظهور العرب وعود عوازب أحلامها، وعبد الملك مات وقامت بنوه بعده بالدولة، ولم يزل الملك عنه بظهور العرب فأين فائدة الغاية؟

قلت: إن تلك الغاية ليست غاية لدولة عبد الملك بل غاية من كونهم لا يزالون مشردين في البلاد، وذلك الانقهار وإن كان أصله من عبد الملك إلاّ أنه استمر في زمن أولاده إلى حين انقضاء دولتهم فكانت غايته ما ذكر، وقال بعض الشارحين في الجواب: إنّ ملك أولاده ملكه وما زال الملك عن بني مروان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها. وهذا جواب من لم يتدبر كلامه عليه السلام، ولم يتتبّع ألفاظ الفصل حتى يعلم أن هذه الغاية لأي شيء منه فيلحقها به. ثم أمرهم بلزوم سنن الله ورسوله القائمة فيهم من بعده وآثاره البيّنه فيهم وعهده القريب بينهم وبينه. ووجه عليهم ذلك الأمر في الحال وعند نزول تلك الشدائد بهم: أي إذا نزل بكم منه ما وصف فلتكن وظيفتكم لزوم ما ذكرت. ثم نبّههم على ما في سهولة المعاصي وفي تسهيل نفوسهم الأمارة بالسوء عليهم طرق المحارم من المحذور، وهو أن تنقاد لها النفوس العاقلة فتضلّها عن سبيل الله ويقودها الضلال إلى الهلاك الأخروي. وبالله التوفيق.

١٣٩ - ومن كلام له عليه السلام

في وقت الشورى:

لَمْ يُسْرِعْ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي. عَسَى أَنْ تَرَوْا هٰذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلالَةِ، وَشِيعَةً لأَهْلِ الْجَهَالَةِ.

أقول: هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى، وقد ذكرنا طرفاً من أخبارها.

فقوله: لن يسرع أحد. إلى قوله: وعائدة كرم.

تقرير لفضيلته ليسمع قوله، ولذلك قال بعده: فاسمعوا قولي وعوا منطقي، وذكر فضائل ثلاثاً: الدعوة إلى الحق الذي لن يسارعه أحدٌ إليها إلاّ سرعه، وهي ثمرة العدالة، وصلة الرحم، وعائدة الكرم. وهما فضيلتان تحت ملكة العفة. والذي أمرهم بسماعه هو التنبيه على عاقبة أمر الخلافة، وما يقع فيها من الهرج والمرج بعدهم بناءً على ما حضر من الخبط والاختلاط فيها فكأنه يقول: إذا كان حال هذا الأمر هذه الحال من الخبط ومجاذبة من لا يستحقه [لمن يستحقّه خ] والتغلب فيه على أهله فعسى أن ترونه بعد هذا اليوم بحال يختصم الناس فيه بالسيوف وتخان فيه العهود، وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة والخوارج عليه والناكثين لعهد بيعته.

فقوله: حتى يكون بعضهم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة. غاية للتغالب على هذا الأمر، وأشار بالأئمة إلى طلحة والزبير، وبأهل الضلالة إلى أتباعهم، وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر أمراء بني أمية، وبشيعة أهل الجهالة إلى أتباعهم. وبالله التوفيق.

١٤٠ - ومن كلام له عليه السلام

في النهي عن غيبة الناس:

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذٰلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَايْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!

يَا عَبْدَ اللهِ، لا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ. وَلا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ.

أقول: أهل العصمة هم الذين أعانهم الله سبحانه على قهر نفوسهم الأمارة بالسوء حتى صارت أسيرة في أيدي نفوسهم العاقلة فحصلوا من ذلك على ملكة ترك الذنوب والانزجار عن ولوج أبواب المحارم، وأولئك هم الذين اصطنع الله إليهم السلامة من الانحراف عن سبيله والوقوع في مهاوي الهلاك. فنبّههم أولاً على ما ينبغي لهم وهو أن يرحموا أهل الذنوب. وحصول تلك الرحمة منهم باعتبارهم حال العصاة ووقوعهم في مهاوي الهلاك. ومن عادة عباد الله الرحمة لمن يرونه في مهلكة بإنقاذه وإعانته على الخروج منها، وأن يكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم، وذلك باعتبارهم عند مشاهدة أهل المعاصي لما أنعم الله به عليهم من إعانته لهم على قهر شياطينهم التي هي مواد الذنوب.

وقوله: فكيف بالغائب.

شروع في تنبيه من هو دون أهل العصمة ممّن يرتكب كبيرة أو صغيرة على ما ينبغي له من ترك الغيبة فكأنه قال: فهذا هو ما ينبغي لأهل العصمة فكيف يليق بغيرهم ممّن يعيب أخاه ويعيّره ببلواه بل ينبغي لمثله أن يترك الغيبة ويشكر الله بالطريق الأولى. وذلك باعتبار ستر الله عليه من ذنوبه ما هو أعظم مما عيّر أخاه به. وتلك نعمة الله يجب شكره عليها، وأشار بموضع ستر الله عليه إلى النعمة المصطنعة عنده وهي تأهيله وإعداده له، والاستفهام على سبيل الإنكار أخذ بالتعجب من ذم الغائب لأخيه على ذنب. وهو في صورة احتجاج عليه في ارتكابه لهذا الذنب وذلك قوله: وكيف يذمّه. إلى قوله: يا عبد الله. فكأنه يقول: لا يجوز لأحد أن يعيب أخاه لأنه إما أن يكون بذنب قد ركب العائب مثله أو أكبر منه أو أصغر. فإن كان بذنب قد ركب مثله أو أكبر كان له في عيبه لنفسه شغل عن عيب غيره، وإن كان ارتكب أصغر منه فهو ممنوع على تقدير جرأته على الغيبة وصدوره عنه لأنها من الكبائر، وإنما قال: هي أكبر ما عند الله. إما مبالغة أو لأن المفاسد التي يشتمل عليها ارتكاب سائر المنهيّات جزئية ومفسدة الغيبة كلية لأنه لما كان من المقاصد المهمّة للشارع اجتماع النفوس على همّ واحد وطريقة واحدة وهي سلوك سبيل الله بسائر وجوه الأوامر والنواهي، ولن يتم ذلك إلاّ بتعاون هممهم وتصافي بواطنهم واجتماعهم على الأُلفة والمحبة حتى يكونوا بمنزلة عبد واحد في طاعة مولاه، ولن يتمّ ذلك إلاّ بنفي الضغائن والأحقاد والحسد ونحوه، وكانت الغيبة من كل منهم لأخيه مثيرة لضغنه ومستدعية منه مثلها في حقه لا جرم كانت ضد المقصود الكلي للشارع فكانت مفسدة كليّة، ولذلك أكثر الله تعالى ورسوله من النهي عنها كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] . حتى استعار لما يقترضه الغائب من عرض أخيه لفظ اللحم وزاده تقبيحاً وتكريهاً بصفة الميت فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] .

وقال عليه السلام: إيّاكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا إنّ الرجل يزني فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه، وعنه عليه السلام مررت ليلة

أُسري بي فرأيت قوماً يخمشون وجوههم بأظافيرهم فسألت جبرائيل عنهم. فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس، وفي حديث البراء بن عازب: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أسمع العواتق في بيوتهنّ. فقال: ألا لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فمن تتبعّ عورة أخيه تتبّع الله عورته ومن تتّبع الله عورته يفضحه في جوف بيته، ثم نهى عن الاستعجال والتسرع إلى العيب، ونبّه على وجوب ذلك الاحتمال [الانتهاء - خ] باحتمال أن يكون الذنب الذي يعيب أخاه به مغفوراً له وإن كان كبيراً، وذلك لاحتمال أن يكون حالة لم تتمكن من جوهر نفسه، ونهى عن أن يأمن على نفسه صغير معصية يرتكبها لاحتمال أن يعذّب عليها لصيرورتها ملكة متمكنة من جوهر نفسه. ثم عاد إلى الأمر بالكف عن العيب باعتبار ما يعلم الإنسان من عيب نفسه، وأن يكون الشكر لله دأبه على السلامة من التورط في مورد الهلكة الذي سلكه صاحب الذنب وابتلاه الله به.

واعلم أن تعريف الغيبة يعود إلى ذكر الإنسان بما يكره نسبته إليه مما يعدّ نقصاناً في العرف ذكراً على سبيل قصد الانتقاص والذم سواء كان ذلك النقصان عدم كمال بدني كالعور والعمى، أو نفساني كالجهل والشره والظلم، أو عدم كمال من خارج كسقوط الأصل ودناءة الآباء. واحترزنا بالقيد الأخير في تعريفها وهو قصد الانتقاص عن ذكر العيب للطبيب مثلاً أو لاستدعاء الرحمة من السلطان في حق الزمن، والأعمى بذكر نقصانهما. ثم الغيبة قد تكون باللسان وهي الحقيقة، وقد تكون بالإشارة وغيرها من سائر ما يعلم به انتقاص أخيك والتنبيه على عيبه، وتسمى غيبة مجازاً لقيامها مقام الغيبة. ولها أسباب غائبة:

أحدها: شفاء الغيظ. فإنّ الإنسان كثيراً ما يشفي غيظه بذكر مساوئ من غاظه.

الثاني: المباهاة والتفاضل كما يقول من يتعاطى الإنشاء والشعر: كلام فلان ركيك وشعره بارد.

الثالث: اللعب والهزل وترجية الوقت فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين.

الرابع: أن يستشعر من غيره أنه سيذمّه عند السلطان مثلاً فيقصد سبقه بذكر مساوئه ليسقط شهادته عنده عليه، وقد تكون لها غايات أُخر.

وقد وردت الرخصة في غيبة الفاسق المتجاهر بفسقه كالخمّار والمخنّث والعشّار الذي ربما يفتخر بعيبه ولا يستحيي منه. قال النبي صلى الله عليه وآله: من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له. لكن تركها إلى السكوت أولى. وبالله التوفيق.

١٤١ - ومن كلام له عليه السلام

في النهي عن سماع الغيبة وفي الفرق بين الحق والباطل

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخْطِىءُ السِّهَامُ، وَيَحِيلُ الْكَلامُ، وَبَاطِلُ ذٰلِكَ يَبُورُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلاّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

قال الشريف: فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه، ثم قال: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ.

أقول: أحاك الكلام يحيك: إذا عمل وأثّر وكذلك حاك، وروي: يحيل: أي يبطل ولا يصيب.

وهذا الفصل نهي عن التسرّع إلى التصديق بما يقال في حق مستور الظاهر المشهور بالصلاح والتديّن من العيب والقدح في دينه، وهو نهي عن سماع الغيبة بعد نهيه عنها نفسها، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. ثم نبّه على جواز الخطأ على المتسرعين إلى الغيبة بالمثل. فقال: أما إنّه قد يرمي الرامي وتخطئ السهام. ووجه مطابقة هذا المثل أن الذي يرمى بعيب قد يكون بريئاً منه فيكون الكلام في حقه غير مطابق ولا صائب. كما لا يصيب السهم الذي يرمي به فيخطئ الغرض. وعلى الرواية بالكاف، ويحيك الكلام: أي أن السهم قد يخطئ فلا

يؤثر، والكلام يؤثر على كل حال، وإن لم يكن حقاً فإنه يسوّد العرض ويلوّثه في نظر من لا يعرفه.

وقوله: وباطل ذلك يبور والله سميع وشهيد.

يجري مجرى التهديد وتحقير ثمرة ذلك القول الكاذب الذي لا يبقي من مال أو جاهٍ أو نحوهما بالنسبة إلى عظم عقوبة الله وغضبه الباقي فإن سمعه وشهادته مستلزمان لغضبه المستلزم لعقوبته.

وقوله: أما إنّه ليس بين الحق والباطل إلاّ مقدار أربع أصابع.

فتفسيره الفعل المذكور، وتفسير ذلك الفعل هو قوله: الباطل أن تقول: سمعت، والحق أن تقول: رأيت. ثم هٰهنا لطيفتان:

فالأولى: أن قوله: الباطل أن تقول سمعت. لا يستلزم الكلية حتى يكون كل ما سمعه باطلاً فإنّ الباطل والمسموع مهملان.

الثانية: أن الحق ليس هو قوله: رأيت. بل المرئي له، والباطل هو قوله. سمعت بل القول المسموع له، وإنّما قوله: رأيت وسمعت. إخبار عن وصول المرئي والمسموع إلى بصره وسمعه فأقام هذين الخبرين مقام المخبر عنهما مجازاً. وبالله التوفيق.

١٤٢ - ومن كلام له عليه السلام

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إلاّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ!! فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإنَّ فَوْزاً بِهٰذِهِ الخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا وَدَرَكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ؛ إنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: لما كان لواضع المعروف سواء كان في أهله أو غير أهله ثناء من الناس ومدح له بالكرم والبذل. كان مما يتميّز به وضعه في غير أهله عن وضعه في أهله أن الأول إنما يحصل به لواضعه الحمد من لئام الناس: أي ساقطي الأصول والسفهاء والأشرار والجهال لعدم معرفتهم بوضع الأشياء في مواضعها التي هي مقتضى العقل الذي به نظام أمور الدنيا، وقوام نوع الإنسان في الوجود مع أنه في الحقيقة وعند أولي الألباب العارفين بمواقع المعروف بخيل في جنب الله تعالى.

وأما الثاني: فتحصل له المحمدة من الكل في الدنيا محمدةً مطابقة للحق مع الثواب الجزيل في الأخرى فلا جرم أشار إلى الأول بقوله: فليس لواضع المعروف. إلى قوله: وهو عن ذات الله بخيل.

وقوله: ما أجود يده.

متعلّق بمقالة: أي ذلك هو الأمر الذي يقولونه ما دام منعماً عليهم، وإنما قيّد بهذا القيد لأن الجاهل قد يعتقد أن ما يسدى إليه حق له فربما دام حمده بدوام ذلك الإنعام لكن ينقطع بانقطاعه، وأمّا الجاهل الشرير فكثيراً ما يعتقد أنه إنما يسدى إليه لشره وخوف أذاه فربما يشكر المنعم ما دام منعماً حتى إذا انقطع إنعامه جعل شرّه عوض شكره استجلاباً لذلك الإنعام المنقطع واستعادة له.

وأما الثاني: فنبّه أولاً على مواضع المعروف وأمر بوضعه فيها، وذكر منها خمسة:

الأول: صلة الرحم.

الثاني: حسن الضيافة.

الثالث: فكّ الأسير والعاني. وإنما اختلف اللفظ.

والرابع: إعطاء الفقير والغارم وهو من عليه دين.

الخامس: الحقوق الواجبة على أهلها كالزكاة، والمستحبة كالصدقات.

وأشار بالنوائب إلى ما يلحق الإنسان من المصادرات والغرامات التي يفكّ بها الإنسان من أيدي الظالمين وألسنتهم، والإنفاق في ذلك من الحقوق الواجبة على الإنسان. والفضائل الخمس داخلة تحت فضيلة الكرم، والإشارة إلى ذلك بقوله: فمن آتاه الله. إلى قوله: ابتغاء الثواب. ونبّه بهذه الغاية أعني المفعول

له على أن الإنفاق في هذه الوجوه. إنما يكون وضعاً للمعروف في موضعه إذا قصد به وجه الله تعالى. فأمّا إذا قصد به الرياء والسمعة فهو وإن عدّ في ظاهر الشريعة مجزياً إلاّ أنه غير مجز ولا مقبول في باطنها. ثم أشار بقوله: فإنّ فوزاً بهذه الخصال. إلى آخره إلى ما يتميّز به وضع المعروف في أهله وهو شرف مكارم الدنيا من الذكر الجميل بين الناس، والجاه العريض، ودرك فضائل الآخرة وهي درجات الثواب الجزيل الموعود لأولي الفضائل النفسانية. وإنما نكّر الفوز لأن تنكيره يفيد نوع الفوز فقط الذي يحصل بأي شخص كان من أشخاصه، وهذا وإن كان حاصلاً مع الألف واللام لتعريف تلك الطبيعة إلاّ أن ذلك التعريف مشترك بين تعريف الطبيعة والمعهود الشخصي فكان موهماً لفوز شخصي ولذلك كان الإتيان به منكراً أفصح وأبلغ. وبالله التوفيق.

١٤٣ - ومن كلام له عليه السلام

في الاستسقاء

أَلا وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تُقِلُّكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا.

إِنَّ اللّٰهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِغْلاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سبحانه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ وَالأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ.

اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ وَلا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ وَلا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلا تُؤَاخِذْنَا ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لا يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلاحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعِبَةُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلاَّ تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ. وَلا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلا تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا.

اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ، وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ. وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى، تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الأَسْعَارَ، إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

أقول: أقلع عن خطيئته: إذا رجع عنها وتاب. والمثاور: المواثب. والزلفة: القربى والمنزلة. والواجم: الذي اشتد حزنه حتى سكت من الكلام. والنافعة: المروية. والقيعان: جمع قاع: وهو المستوى من الأرض. والبطنان: جمع البطن: وهو ما انخفض من الأرض.

واعلم أنّا بيّنا فيما سبق أن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع من جهته، وإنما يكون منع الكالات في هذه الحياة بعدم الاستعدادات لها فكل مستعد لأمر ملاق له وفائض عليه. إذا عرفت ذلك فاعلم أنه عليه السلام صدّر هذا الفصل بتنبيه العباد على وجوب الاستعداد لرحمة الله التي ارتفعت عنهم بحسب المطر، وذلك في قوله: ألا وإن الأرض. إلى قوله: وبادر منيّته. فنبّههم أولاً في

ذلك الصدر على أن الأرض التي هي كالأمّ للنبات والزرع، والسماء التي هي كالأب مطيعتان لربهم، وأشار بالسماء إلى السحاب أو إلى السماوات لكونها بحركاتها أسباباً معدة لكل ما في هذا العالم من الحوادث، وأشار بطاعتهما إلى دخولهما تحت حكم القدرة الإلهية، وأشار بقوله: وما أصبحنا. إلى قوله: ترجو أنه منكم. إلى لطيفة: وهي أن الحوادث الحادثة في هذا العالم من العاليات ليست مقصودة بالذات لها فيكون ذلك منها لأجل توجع للناس أو لأجل قرابة ومنزلة بينهم وبينها، ولا لخير ترجوانه منهم كما هو المتعارف من منافع الناس بعضهم لبعض لأن السماوات والأرض غنيّة عنها لكن لما كانت السماوات متحركة دائماً طلباً لكمالاتها اللائقة بها من واهبها - جلّ وعلا - ومسخّرة بأمره عرض عن هذه الحركات والاتصالات إعداد الأرض لقبول النبات والزرع ووجود الحيوانات التي هي أرزاق لها وبها قوام وجودها. فكانت مصالح هذه الحيوانات إذن منوطة بتلك الحركات وجارية على وفقها بإذن المدبر العزيز الحكيم سبحانه.

وإلى ذلك أشار بقوله: ولكن. إلى قوله: فأقامتا، وغرضه مما سبق إلى هٰهنا أن يقرّر في النفوس عظمة الله سبحانه، وأن الأرزاق وأسبابها منسوبة إليه ومنه حتى تتوجه النفوس إليه بالإقلاع عن الذنوب التي هي حجب لها عن إفاضة الرحمة عليها منه.

ثمّ بيّن بعده أن الله سبحانه إنما يفعل ما يفعل من نقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات عن الخلق عند أعمالهم السيئة ابتلاءً لهم كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقد علمت معنى ابتلائه لهم. ثم بيّن أن غاية العناية الإلهية من ذلك الابتلاء رفع حجب النفوس التي هي الذنوب والمعاصي واستعدادها بذلك لقبول رحمة الله بالتوبة والإقلاع منها والازدجار عنها والتذكر للمبدئ الأول - جلّت عظمته - وما أعد لأوليائه الأبرار في دار القرار ولأعدائه الأشرار في دار البوار.

ثم بيّن لهم أن الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً لدرور الرزق والرحمة، ولما كان الاستغفار هو طلب غفر الذنوب وسترها على العبد أن يفتضح بها وذلك إنّما يكون بمحوها من لوح نفسه لا جرم كان المستغفر المخلص ماحياً لخطيئته باستغفاره عن لوح نفسه، وبذلك يكمل استعداده لإفاضة رحمة الله عليه في الدنيا بإنزال البركات وفي الآخرة برفع الدرجات، وإلى ذلك الإشارة بالشاهد العدل قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١٠-١١]. الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]. وقوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]. ثم دعا لمن استقبل توبته وشرع في الاستعداد بها، ولمن استقال خطيئته: أي طلب الإقالة من الإلزام بعاقبتها وثمرتها وهو العقاب عليها والمؤاخذة بها، ولمن واثب منيّته وعاجلها قبل إدراكها له بالتوبة. كل ذلك تنبيه على الاستعداد وطلب له منهم. إذا كان لا يتم المطلوب بدونه، ولفظ الإقالة استعارة، ووجهها أن المخطئ كالمعاهد والملتزم لعقاب أُخروي بلذّة عاجلة لما علم استلزام تلك اللذّة المنهي عنها للعقاب فهو يطلب الإقالة من هذه المعاهدة [المعاصي - خ] كما يطلب المشتري الإقالة من البيع.

وقوله: اللهم. إلى آخره.

لما قدم الأمر بالاستعداد لرحمة الله رجع إليه في استنزالها عليهم فقدم في الدعاء ما عادته أن يقدم بين يدي الملوك من الكلام المرفق للطباع والموجب للعفو والرحمة. فذكر الخروج من تحت الأستار والأكنان التي ليس من شأنها أن يفارق إلاّ لضرورة شديدة، وكذلك عجيج البهائم والولدان وأصواتها المرتفعة بالبكاء وذكر الغاية من ذلك وهي الرغبة في رحمته والرجاء لفضل نعمته والخوف من عذابه ونقمته. وهذه جهات المساعي البشرية.

ثم سأل بعد ذلك المطالب: وهي السقيا وعدم

الهلاك بالجدب، وأن لا يؤاخذهم بأفعال السفهاء من المعاصي المبعّدة عن رحمته كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم عاد إلى تكرير شكوى الجدب بذكر أسبابها الحاملة عليها ليكون أقوم للعذر. والمقاحط: أماكن القحط أو سني القحط، وظاهر كون الجوع والعري وسائر المسببات عن القحط فتنة: أي صارفة للقلوب عما يراد بها. ثم عاد إلى طلب إجابة دعائه.

وقوله: ولا تخاطبنا بذنوبنا: أي لا تجعل جوابنا الاحتجاج علينا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا: أي لا تجعل فعلك بنا مقائساً لأعمالنا السيئة ومشابهاً لها وسيئة مثلها. ثم عاد إلى طلب أنواع ما يطلب منه سبحانه بأتم ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. إلى آخره. وهو ظاهر. وبالله التوفيق.

١٤٤ - ومن خطبة له عليه السلام

بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلا إِنَّ اللهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً وَالْعِقَابُ بَوَاءً. أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هٰذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ. لا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلا تَصْلُحُ الْوُلاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

أقول: هذا الفصل منافرة بينه وبين جمع من الصحابة الذي كانوا ينازعونه الفضل. والبواء: الكفو.

فقوله: بعث رسله. إلى قوله: سبيل الحق.

كقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ولسان الصدق هو لسان الشريعة الناطقة عن مصباح النبوة المشتعل عن نور الحق سبحانه، وسبيل الحق هو الطريق الموصلة إليه تعالى التي تطابقت على الهداية إليها ألسنة الرسل والأولياء. وصدّر الفصل بذلك لاشتماله على فضيلة الأنبياء ليبني عليه فضيلة نبيه.

وقوله: ألا إن الله. إلى قوله: بواء.

كلام يجري مجرى التهديد لمن نافره باطلاع الله على أسرارهم، وأن ما كلّفهم به إنما هو ابتلاء منه لهم أيهم أحسن عملاً، وقد عرفت معنى ابتلاء الله لخلقه مراراً، وأراد بالكشفة الاختبار والابتلاء أيضاً. ثم عقب ذلك بالاستفهام عن الذين زعموا أنهم أفضل منه، وذلك أن قوماً من الصحابة كان منهم من يدعي الأفضلية في فنّ من العلم. فمنهم من كان يدعي أنه أفرض، ومنهم من كان يدعي أنه أقرأ، ومنهم من كان يدعي أنه أعلم بالحلال والحرام. ورووا أفرضكم زيد بن ثابت وأقرأكم أُبيّ، ورووا مع ذلك أقضاكم علي. وذلك الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم ولذلك أردفه بالتكذيب لهم فيما ادّعوه من الأفضلية. ثم إن كان ما رووه حقاً مع أن القضاء يحتاج إلى جميع ما ادّعوه فضيلة لهم ثبت أنه عليه السلام أفضلهم لاستجماعه ما تفرق فيهم من الفضائل فيهم، وإن لم يكن حقاً مع أن أنوار فضائله مستطيرة في آفاق الصدور فقد ظهر فضله عليهم، وذلك وجه التكذيب لهم. ثم أشار إلى العلة الحاملة لهم على الكذب فيما ادعوه.

وهو قوله: أن رفعنا الله: أي رفع درجاتنا في الدنيا والآخرة على الكافة ووضعهم دوننا، وأن وما بعدها نصب على المفعول له، وأعطانا: أي الملك والنبوة وحرمهم ذلك، وكذلك أدخلنا بعنايته الخاصة بنا فيما أعطانا وأخرجهم من ذلك.

قوله: بنا يستعطى الهدى، ويستجلى العمى.

فاستعار لفظ العمى للجهل، ورشح بذكر الاستجلاء، ولما كانوا عليهم السلام المعدّين لأذهان الخلق لقبول أنوار الله والمرشدين لنفوسهم إلى سبيل الله لا جرم كان بهم يستعطى الهدى من الله. إذ بواسطة

استعدادهم يفاض على النفوس هداها، وبواسطة إعطائهم القوانين الشرعية الكلّية والجزئية يستجلى الجهل من واهب ذلك الجلاء. وهو كناية عن الاستعداد أيضاً.

وقوله: إن الأئمة من قريش. إلى آخره.

لفظ النص المشهور عن الرسول ﷺ الأئمة من قريش وتخصيصه ذلك بهذا البطن من هاشم: أما على مذهب الشيعة فهو نصّ يجب اتباعه كما يجب اتباع نص الرسول ﷺ لاعتقادهم عصمته، وأما على مذهب الباقين من المسلمين فواجب الاتباع أيضاً لقوله عليه الصلاة والسلام: إنّه لمع الحق وإن الحق معه يدور حيث دار. ومراده بذلك البطن: أما على مذهب الإثني عشرية فنفسه مع الأحد عشر من ولده بنص كل منهم على من بعدهم من كونهم معصومين، وأما على مذهب الباقين من الإمامية فكل منهم يحمل هذا الكلام على من اعتقد إمامته. لا يصلح على سواهم: أي لا يكون لها صلاح على يد غيرهم، ولا يصلح الولاة غيرهم.

ومنها: آثَرُوا عَاجِلاً وَأَخَّرُوا آجِلاً، وَتَرَكُوا صَافِياً، وَشَرِبُوا آجِناً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِىءَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لا يُبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ!! أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالأَبْصَارُ اللاَّمِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ ودَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!

أقول: بسئ به: آلفه واستأنس به.

واعلم أن ضمير الجمع في آثروا وأخّروا وما بعدهما ضمائر مهملة يصدق إطلاقها على الجماعة وإن كان المعنيّ بها بعضهم، وهذا الكلام يصدق على من تخلّف من الناس إلى زمانه ممن هو غير مرضيّ الطريقة وإن كان معدوداً من الصحابة بالظاهر كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم ومعاوية ونحوهم من أمراء بني أميّة ممّن آثر عاجل الدنيا وثاروا إليه وأخّر آجل ثواب الأخرى فنبذه وراء ظهره، وترك ما وعد به من تلك اللذات الصافية عن كدورات الدنيا والعلائق البدنية إلى اللذات الوهمية الآجنة بشوب الأعراض والأمراض والتغيّر والزوال، واستعار لفظ الآجن للذات الدنيا ملاحظة لتشبيهها بالماء الذي لا يسوغ شربه لتغيّر طعمه، ورشح بذكر الشوب.

وقوله: كأنّي أنظر إلى فاسقهم.

يحتمل أن يريد فاسقاً معيناً كعبد الملك بن مروان ويكون الضمير عائداً إلى بني أُميّة ومن تابعهم، ويحتمل أن يريد مطلق فاسق: أي من يفسق من هؤلاء فيما بعده ويكون بالصفات التي ذكرها من صحبة المنكر وأُلفة له وموافقته لطبعه إلى غاية عمره، وكنّى عن تلك الغاية بشيب المفارق. وصبغت به خلائقه: أي صار المنكر ملكة له وخلقاً، واستعار لفظ الإزدياد تشبيهاً له بالبحر الطامي، ووجه التشبيه كونه عند غضبه لا يحفل بما يفعله في الناس من المنكرات كما لا حفلة للبحر بمن غرق فيه.

وكذلك شبّه حركته في المنكرات والظلامات بوقع النار في الحطب، ووجه الشبه كونه لا يبالي بتلك الحركات. كما لا تبالي النار بما أحرقت. ثم أخذ يسأل عن العقول المستكملة بأنوار الله، واستعار لفظ مصابيح الهدى: إما لأئمة الدين أو لقوانينه الكلية. والاستصباح بها: الاقتداء بها. والأبصار اللامحة إلى منار التقوى: أي الناظرة إلى أعلام التقوى، واستعارة لفظ المنار كاستعارة لفظ المصابيح. ثم عن القلوب التي وهبها لله أهلها: أي جعلوا هممهم مطالعة أنوار كبريائه والتوجه إلى كعبة وجوب وجوده. وعوقدت على طاعة الله: أي أخذ خلفاء الله عليهم العهد بطاعته والمواظبة عليها.

ثم عاد إلى ذم السابقين وتوبيخهم بازدحامهم على حطام الدنيا، واستعار لفظ الحطام لمقتنيات الدنيا،

ووجه الاستعارة سرعة فنائها وفسادها كما يسرع فساد النبت اليابس وتكسيره، وبتشاحهم على الحرم: أي كل واحد يشاح صاحبه على الحرام ويبخل به عليه، وأشار بعلم الجنة إلى قانون الشريعة القائد إلى الجنة وبعلم النار إلى الوساوس المزينة لقينات الدنيا. والعلم الأول بيد الدعاة إلى الله وهم الرسول ﷺ ومن بعده من أولياء الله من أهل بيته والتابعين لهم بإحسان.

والعلم الثاني بيد إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس الداعين إلى النار. ثم ذمّهم بصرفهم وجوههم عن الجنة وإقبالهم بأعمالهم على النار حين رفع العلمين من قبل الدعاة، وإنما قال: وأقبلوا بأعمالهم. ولم يقل بوجوههم. كما قال: فصرفوا وجوههم، لأن إقبالهم بوجوه نفوسهم على لذات الدنيا واقتنائها يستلزم صرفها عن الأعمال الموصلة إلى الجنة وذلك يستلزم إعراضها عن الجنة. ثم لما كانت الغاية التي يطلبها الإنسان من الدنيا هو الحصول على لذاتها، وكانت النار لازمة للأعمال الموصلة إلى تلك الغاية لزوماً عرضياً لم تكن النار غاية ذاتية قد أقبلوا بوجوههم عليها. بل كان إقبالهم عليها بأعمالهم، إذ كانت هي المستلزمة لها. ثم أخبر في معرض الذم لهم عن مقابلتهم لدعاء ربهم لهم بالنفار عنه، ولدعاء الشيطان لهم باستجابتهم لدعوته وإقبالهم إليه.

وفي قوله: ودعاهم. إلى آخره تنبيه أن الرافع لعلم الجنة هو الله بأيدي خلفائه، والرافع لعلم النار هو الشيطان بأيدي أوليائه. وبالله التوفيق.

١٤٥ - ومن خطبة له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ. وَلا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلاَّ بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ؛ وَلا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلاَّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ؛ وَلا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ. وَلا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلاَّ وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!!؟

أقول: الغرض: الهدف.

وغرض هذا الفصل ذم الدنيا وتقبيحها بذكر معائبها لتخفّ الرغبات فيها وتنصرف إلى ما ورائها من الأمور الباقية. فاستعار لهم لفظ الغرض، ووجه الاستعارة كونهم مقصودين بسهام المنية من سائر الأمراض والأغراض كما يقصد الغرض بالسهام، وأسند الانتضال إلى المنايا مجازاً لأن القاصد لهم بالأمراض هو فاعلها بهم. فكان المجاز هٰهنا في الإفراد والتركيب. ثم كنّى بالجرعة والأكلة عن لذات الدنيا، وبالشرق والغصص عما في كل منها من شوب الكدورات اللازمة لها طبعاً من الأمراض والمخاوف وسائر المنغصات لها.

وقوله: لا تنالون نعمة إلاّ بفراق أُخرى.

فيه لطف: وهو إشارة إلى أن كل نوع من نعمة فإنّما يتجدد شخص منها ويلتذّ به بعد مفارقة مثله كلذة اللقمة مثلاً فإنها تستدعي فوت اللذة بأختها السابقة، وكذلك لذة ملبوس شخصي أو مركوب شخصي، وسائر ما يعدّ نعماً دنيوية ملتذاً بها فإنها إنما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها بل وأعمّ من ذلك فإن الإنسان لا يتهيّأ له الجمع بين الملاذ الجسمانية في وقت واحد بل ولا اثنين منها فإنه حال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً أو حال ما هو في لذة الأكل لا يكون يلتذ بمشروب، وحال ما يكون جالساً على فراشه الوثير لا يكون راكباً للنزهة. ونحو ذلك. وبالجملة لا يكون مشغولاً بنوع من الملاذ الجسمانية إلاّ وهو تارك لغيره، وما استلزم مفارقة نعمة أُخرى لا يعد في الحقيقة نعمة ملتذاً بها.

وكذلك قوله: ولا يعمّر معمّر منكم. إلى قوله: أجله. لأن السرور بالبقاء إلى يوم معين لا يصل إليه إلاّ بعد انقضاء ما قبله من الأيام المحسوسة من عمره. فإذا هدم من عمره يوماً فتكون لذته في الحقيقة ببقائه مستلزماً لقربه من الموت، وما استلزم القرب من الموت فلا لذة فيه عند الاعتبار، وكذلك قوله: ولا تجدد له زيادة في أكله إلاّ بنفاد ما قبلها من رزقه: أي من رزقه المعلوم أنه رزقه وهو ما وصل إلى جوفه مثلاً. فإن ما لم يصل جاز

أن يكون رزقاً لغيره. وقد علمت أن الإنسان لا يأكل لقمة حتى يفني ما قبلها فهو إذن لا يتجدّد له زيادة في أكله إلاّ بنفاد رزقه السابق، وما استلزم نفاد الرّزق لم يكن لذيذاً في الحقيقة، وروي: أُكلة. ويحتمل أن يريد أنه إذا تجددت له جهة رزق فتوجه فيها طالباً له كان ذلك التوجه مستلزماً لانصرافه عما قبلها من الجهات وانقطاع رزقه من جهتها، واللفظ مهمل يصدق ولو في بعض الناس فلا تجب الكلية.

وكذلك **قوله**: ولا يحيا له أثر إلاّ مات له أثر. وأراد بالأثر الذكر أو الفعل فإنّ ما كان يعرف به الإنسان في وقتٍ ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح ويحيا له بين الناس يموت منه ما كان معروفاً به قبله من الآثار وينسى، وكذلك لا يتجدد له جديد من زيادات بدنه ونقصانه وأوقاته إلاّ بعد أن يخلق له جديد بتحلل بدنه ومعاقبة شيخوخته بشبابه ومستقبل أوقاتها لسالفها، وكذلك لا تقوم له نابتة إلاّ بعد أن تسقط منه محصودة، واستعار لفظ النابتة لمن ينشأ من أولاده وأقربائه، ولفظ المحصودة لمن يموت من آبائه وأهله. ولذلك قال: وقد مضت أصول يعني الآباء ونحن فروعها. ثم استفهم على سبيل التعجب عن بقاء الفرع بعد ذهاب أصله. وقد صرح أبو العتاهية بهذا المعنى حيث قال:

كل حياة إلى ممات
وكل ذي جدة يحول
كيف بقاء الفروع يوماً
وذوّب قبلها الأصول

ومنها: **وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدَعَ، وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ. إِنَّ عَوَازِمَ الأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا.**

أقول: المهيع. الطريق الواسع. والعوازم: جمع عوزم وهي العجوز المسنّة. والمراد بالبدعة كل ما أُحدث مما لم يكن على عهد الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد اشتمل هذا الفصل على وجه ترك البدعة، وبرهان استلزام إحداث البدعة لترك السنّة أن عدم إحداث البدع سنة لقوله صلى الله عليه وآله: كل بدعة حرام. فكان إحداثها مستلزماً لترك تلك السنّة. ثم على أمرهم بتقوى البدع: أي خشية عواقبها. ثم بلزوم الطريق الواضح، وهي سبيل الله وشريعته، وأراد بعوازم الأمور؟ إما قديمها وهو ما كان عليه عهد النبوة. وإمّا جوازمها وهي المقطوع بها دون المحدثات منها التي هي محل الشبهة والشك. ويرجّح الأول المقابلة بمحدثاتها. وجهة وصفها بكونها شراراً كونها محل الشبهة وخارجة عن قانون الشريعة فكانت مستلزمة للهرج والمرج وأنواع الشرور. وبالله التوفيق.

١٤٦ - ومن كلام له عليه السلام

لعمر بن الخطاب، وقد استشاره في غزو الفرس بنفسه.

إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلا خِذْلانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ. فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا قَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ

نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

أقول: اختلف الناقلون لهذا الكلام في الوقت الذي قاله لعمر فيه. فقيل: إنه قاله في غزوة القادسية. وهو المنقول عن المدائني في كتاب الفتوح. وقيل: في غزوة نهاوند. وهو نقل محمد بن جرير الطبري. فأما وقعة القادسية فكانت سنة أربع عشرة للهجرة استشار عمر المسلمين في خروجه فيها بنفسه. فأشار عليه علي عليه السلام بالرأي المسطور فأخذ عمر به ورجع عن عزم المسير بنفسه، وأمّر سعد ابن أبي وقاص على المسلمين. ويروى في تلك الواقعة أن رستم أمير العسكر من قبل يزدجرد أقام بريداً من الرجال الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسية إلى المدائن كلما تكلّم رستم بكلمة أدّاها بعضهم إلى بعض حتى يصل إلى سمع يزدجرد، وقصص الواقعة مشهورة في التواريخ.

وأما وقعة نهاوند فإنّه لما أراد عمر أن يغزو العجم، وجيوش كسرى قد اجتمعت بنهاوند استشار أصحابه فأشار عثمان عليه بأن يخرج بنفسه بعد أن يكتب إلى جميع المسلمين من أهل الشام واليمن والحرمين والكوفة والبصرة ويأمرهم بالخروج، وأشار علي عليه السلام بالرأي المذكور: وقال: أما بعد وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه. الفصل.

فقال عمر: أجل هذا الرأي، وقد كنت أحب أن أتابع عليه فأشيروا علي برجل أولّيه ذلك الثغر. فقالوا: أنت أفضل رأياً. فقال: أشيروا عليّ به واجعلوه عراقياً. فقالوا له: أنت أعلم بأهل العراق وقد وفدوا عليك فرأيتهم وكلّمتهم. فقال: أما والله لأولين أمرهم رجلاً يكون غداً لأول الأسنّة. قيل: ومن هو؟ فقال: النعمان بن مقرن. قالوا: هو لها. وكان نعمان يومئذٍ بالبصرة فكتب إليه عمر فولاّه أمر الجيش.

ولنرجع إلى المتن. فقوله: بحذافيره: أي بأسره.

وقوله: إن هذا الأمر. إلى قوله: بالاجتماع.

صدر الكلام أورده ليبتني عليه الرأي فقرر فيه أولاً أن هذا الأمر: أي أمر الإسلام ليس نصره بكثرة ولا خذلانه بقلّة، ونبّه على صدق هذه الدعوى بأنه دين الله الذي أظهره وجنوده، وهي جنده الذي أعدّه وأمدّه بالملائكة والناس حتى بلغ هذا المبلغ، وطلع في آفاق البلاد حيث طلع. ثم وعدنا بموعود وهو النصر والغلبة والاستخلاف في الأرض كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية، وكلّ وعد من الله فهو منجز لعدم الخلف في خبره.

وقوله: وناصر جنده.

يجري مجرى النتيجة. إذ من جملة وعده نصر جنده، وجنده هم المؤمنون. فالمؤمنون منصورون على كل حال سواء كانوا قليلين أو كثيرين. ثم شبّه مكان القيّم بالأمر بمكان الخيط من العقد، ووجه التشبيه هو قوله: يجمعه ويضمّه. إلى قوله: أبداً.

وقوله: لم يجتمع بحذافيره أبداً.

وذلك أنّهم عند فساد نظامهم بقتل الإمام مثلاً يقع بهم طمع العدو وظفره فيكون ذلك سبب استئصالهم. ثم رفع عنه الشبهة في عدم الحاجة إلى اجتماع كل العرب في هذه الواقعة، وذلك لكثرتهم بالإسلام واستقبال الدولة وعزّتهم باجتماع الرأي واتفاق القلوب الذي هو خير من كثرة الأشخاص، وأراد بالكثرة القوة والغلبة مجازاً إطلاقاً لاسم مظنّة الشيء على الشيء.

وقوله: فكن قطباً.

شروع في الرأي الخاص بعمر. فأشار عليه أن يجعل نفسه مرجعاً للعرب تؤول إليه، وتدور عليه، واستعار له لفظ القطب ولهم لفظ الرحى، ورشّح بالاستدارة، وكنّى بذلك عن جعل العرب دربة دونه وحيطة له ولذلك قال: وأصلهم دونك نار الحرب. لأنهم إن سلموا وغنموا فذلك الذي ينبغي، وإن انقهروا كان هو مرجعاً لهم وسنداً يقوي ظهورهم به بخلاف شخوصه معهم. فإنّهم إن ظفروا فذلك وإن انقهروا لم يكن لهم ظهر ليلجأون إليه كما سبق بيانه.

وقوله: فإنك إن شخصت. إلى قوله: فيك.

بيان للمفسدة في خروجه بنفسه من وجهين:

أحدهما: أن الإسلام كان في ذلك الوقت غضاً، وقلوب كثير من العرب ممّن أسلم غير مستقرة بعد فإذا انضاف إلى من لم يسلم منهم وعلموا خروجه وتركه للبلاد كثر طمعهم وهاجت فتنتهم على الحرمين، وبلاد الإسلام فيكون ما تركه وراءه أهم عنده بما يستقبله ويطلبه ويلتقي عليه الفريقان من الأعداء.

الثاني: أن الأعاجم إذا خرج إليهم بنفسه طمعوا فيه وقالوا المقالة. فكان خروجه محرّضاً لهم على القتال وهم أشدّ عليه كلباً وأقوى فيه طمعاً.

وقوله: فأما ما ذكرت من مسير القوم. إلى آخره.

فهو أنه قال له: إن هؤلاء الفرس قد قصدوا المسير إلى المسلمين وقصدهم إيّاهم دليل قوتهم، وأنا أكره أن يغزونا قبل أن نغزوهم. فأجابه بأنّك إن كرهت ذلك فإنّ الله تعالى أشد كراهية، وأقدر منك على التغيّر والإزالة. وهذا الجواب يدور على حرف وهو أن مسيرهم إلى المسلمين. وإن كان مفسدة إلاّ أن لقاءه لهم بنفسه فيه مفسدة أكبر، وإذاً ان كذلك فينبغي أن يدفع العظمى، ويكل دفع المفسدة الأخرى إلى الله تعالى فإنه كاره لها ومع كراهيته لها فهو أقدر على إزالتها.

وقوله: وأما ما ذكرت من عددهم. إلى آخره.

فهو أن عمر ذكر كثرة القوم وعددهم فأجابه عليه السلام بتذكير قتال المسلمين في صدر الإسلام فإنه كان من غير كثرة، وإنّما كان بنصر الله ومعونته فينبغي أن يكون الحال الآن كذلك. وهو يجري مجرى التمثيل كما أشرنا إليه في المشورة الأولى، وبوعد الله تعالى المسلمين بالاستخلاف في الأرض، وتمكين دينهم الذي ارتضى لهم وتبديلهم بخوفهم أمناً كما هو مقتضى الآية.

١٤٧ - ومن خطبة له عليه السلام

فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!.

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلا فِي الْبِلادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ: فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لأَنَّ الضَّلالَةَ لا تُوَافِقُ الْهُدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ، وَلا يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ.

وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فَإِنَّ جَارَ اللهِ آمِنٌ وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ

الأَجْرَبِ، وَالْبَارِي مِنْ ذِي السَّقَمِ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَن تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ.

أقول: الأوثان: الأصنام. وزبره: كتبه. ومثّلوا: بفتح الميم والثاء: أي نكّلوا. والاسم المثلة بضم الميم وسكون الثاء. والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر.

ومدار هذا الفصل على بيان بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وبيان غاية البعثة، والسبب المعد للوصول إلى تلك الغاية، ثم بيان غاية تلك الغاية. والإشارة إلى البعثة بقوله: فبعث. إلى قوله: بالحق، وأشار إلى غايتها بقوله: ليخرج إلى قوله: طاعته. وقد علمت أن طاعته بسلوك الصراط المستقيم في الدنيا وهو اتباع الدين القيّم، والعدول عن طاعة الشيطان التي هي بالخروج إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط. فأشار إلى سبب تلك الغاية بقوله: بقرآن قد بيّنه وأحكمه. وقد علمت اشتمال القرآن الكريم على الجواذب الإلهية إلى طاعة الله، وسلوك صراطه المستقيم، وأشار إلى غاية تلك الغاية أعني طاعة الله بقوله: ليعلم العباد. إلى قوله: أنكروه. وهي مسألتان من أمهات العلم الإلهي:

فالأولى: معرفتهم له بعد جهلهم به.

والثانية: الإقرار به بعد جحدهم له وإثباتهم له بعد إنكارهم إيّاه. والمعنى واحد وإن اختلفت العبارتان وهو التصديق بوده إلاّ أن يحمل الإقرار على الإقرار باللسان والجحد به، ويحمل الإثبات والإنكار على إثباته بالقلب بعد الإنكار به وحينئذٍ يتغاير المعنيان، وأشار بتجلّيه - سبحانه - في كتابه إلى ظهوره لهم في تذكيرهم فيه بما أراهم من عجائب مصنوعاته، وبما خوّفهم به من وعيده، وبتذكيرهم أنه كيف محق من محق من القرون الماضية بالعقوبات واحتصد من احتصد منهم بالنقمات. كل ذلك الظهور والجلاء من غير رؤية له. إذ تعالى عن إدراك الحواس. وقال بعض الفضلاء: يحتمل أن يريد بتجلّيه في كتابه ظهوره في عجائب مصنوعاته ومكنوناته، ويكون لفظ الكتاب استعارة في العلم، ووجه المشابهة كونه محلاً قابلاً لآثار الصنع المختلفة وعجائب الصور المنقوشة فيه كما أن الكتاب محلّ لنقش الحروف كل ذلك من غير رؤية بحاسة البصر له لتعاليه وتقدسه عن ذلك.

وقوله: سيأتي إلى قوله: المنكر.

إخبار عن زمان يأتي بعده بالصفات المذكورة، وقد رأيناه ورأته قرون قبلنا فإن إخفاء الحق وظهور الباطل عليه أمر ظاهر، وكون الحق لا شيء أخفى منه، والباطل لا شيء أظهر على سبيل المبالغة، وكذلك لا أكثر من الكذب على الله وعلى رسوله. روي عن شعبة وكان إمام المحدثين أنه قال: تسعة أعشار الحديث كذب. وعن الدارقطني: ما الحديث الصحيح إلاّ كالشعرة البيضاء في الثور الأسود.

وقوله: وليس عند أهل. إلى آخره.

قد مرّ تفسيره في الفصل الذي يذمّ من يتصدى للحكم بين الأمّة وليس له بأهل، ونبذ حملة الكتاب له: إعراض قرّائه عن تدبّر ما فيه والعمل به، وتناسي حفظته أيضاً: تعاميهم عن أمره ونواهيه وتغافلهم عن اتّباعها.

وقوله: فالكتاب. إلى قوله: وإن اجتمعا.

فأهل الكتاب الملازمون للعمل به. وحيث كان أهل ذلك الزمان المشار إليه غير ملتفتين إلى الكتاب كانوا أيضاً غير ملتفتين إلى أهله ومن يعمل به بل مؤذون لهم فيما يخالفونهم فيه مما يقتضيه أحكام الكتاب ويوجبه اتباعه فكان إعراضهم عنهم إبعاداً له ونفياً وطرداً، والطريق الذي اصطحب فيه الكتاب وأهله هو طريق الله الواحد. وصدق إذن أنه لا يأويهما مؤوٍ من أهل ذلك الزمان.

اللهم إلاّ إذا وافقتا غرضه لكن ذلك ليس للكتاب وللعامل به بل لموافقتهما الغرض. وكونهما في الناس: أي بوجودهما، وكونهما ليسا فيهم لعدم اتباعهما وإلغاء

فائدتهما فأشبها ما ليس بموجود، ولأن فائدة الموجود أن ينتفع به. وكذلك معهم بالمصاحبة الاتفاقية في الوجود، وليس معهم لأن ضلالتهم لا تجامع هدى الكتاب وأهله فكانا مضادين لهم وإن اجتمعا في الوجود.

وقوله: فاجتمع القوم على الفرقة.

أي اتفقوا على مفارقة الاجتماع وما عليه الجماعة أما في وقته عليه السلام فكالخوارج والبغاة، وأما فيما يستقبل من الزمان بعده فكالآخذين بالآراء والمذاهب المتفرقة المحدثة في الدين. والاجتماع على الفرقة يلازم الافتراق عن الجماعة.

وقوله: كأنهم أئمة الكتاب.

تشبيه لهم بالأئمة له في الجرأة على مخالفة ظواهره والاختلاف فيه وتفريعه على حسب أغراضهم. إذ شأن الإمام مع المأموم ذلك مع أنه إمامهم الذي يجب أن يتّبعوه ويقتفوا أثره، وإذ خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم فلم يبق معهم من تمسّكهم به إلاّ اسمه وعلم خطه وزبره دون اتباع مقاصده.

وقوله: ومن قبل ما مثلوا بالصالحين.

إشارة إلى زمن بني أُمية الكائن قبل زمن من يخبر عنهم. وتمثيل بني أُمية بالصالحين من الصحابة والتابعين، وحملهم لهم على المكروه، ونسبتهم لهم إلى الكذب على الله، وجعلهم لهم في الحسنة عقوبة السيئة ظاهر منهم. ووصفه لمن سيأتي في ذلك الزمان بالأوصاف المذكورة لا ينافي وصف من قبلهم من بني أمية بمثل تلك الأوصاف. وما - مع الفعل في حكم المصدر ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها - من قبل -.

وقوله: وإنما هلك. إلى آخره.

تنبيه على وجوب تقصير الآمال في الدنيا لاستلزام طلبها الهلاك الأخروي، وأشار إلى القرون الماضية من قبل، وأراد الهلاك الأخروي، وجعل سبب هلاكهم طول آمالهم في الدنيا الموجب للاستغراق في لذاتها المبعدة عن الله تعالى مع تغيّب آجالهم عنهم: أي غفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها وعدم علمهم بتعيينها فإن استشعار الأجل موجب للإقلاع عن الانهماك في اللذات الحاضرة، ومنغّص لها.

وقوله: حتى نزل بهم الموعود. إلى آخره.

ذكر غاية طول آمالهم. والموعود هو الموت، وتردّ عنه المعذرة: أي لا تقبل فيه معذرة معتذر، وترفع عنه التوبة: أي ينسد بابها حين نزوله كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ﴾ [النساء: ١٨] الآية، وتحلّ معه القارعة: أي تنزل بمن نزلت به الشدائد والأهوال وتتبعها العقوبات الأُخروية. ثم عاد إلى الرأي الصالح للسامعين فأيّه بهم ونبّههم على وجوب استنصاحه: أي اتخاذه ناصحاً في قبول أوامره ونواهيه واتخاذ قوله دليلاً إلى المطالب المهمة. فإنّ استنصاحه يستلزم التوفيق، واتخاذه دليلاً يستلزم الهدى للتي هي أقوم: أي للطريق التي هي أقوم الطرق. ثم نبّه على حسن جوار الله بالأمن الذي هو غاية الجوار، وعلى قبح عداوته بذكر الخوف الذي هو غاية عداوة الملوك خصوصاً جبّار الجبابرة، وملك الدنيا والآخرة، وأراد بجواره القرب منه بالطاعة، وبعداوته البعد عنه بالمعصية ومخالفة أوامره. ولا شك في كون الأول أمناً من أهوال الآخرة، وفي كون الثاني في محل الخوف والخطر.

وقوله: وإنّه لا ينبغي لمن عرف. إلى آخره.

إرشاد لهم إلى التواضع لله ولمن أُرشد إلى طريقه، ونهي عن التكبّر عليهم، والنفار عن قبول الحق منهم. وخاطب من يعرف عظمة الله لاحتقاره نفسه عند ملاحظته لنفسه ونسبته لها إلى جلال الله فهو أسرع انفعالاً وأحقر في نفسه أن يتكبّر على الله، ونبّه على حسن التواضع له بذكر عظمته ورفعه للعالمين بعظمته. فإنّه لما كان هو العظيم المطلق وكلّ عظمة ورفعة لعظيم فمستفادة من جوده والقرب منه، وكانت العادة جارية من الملوك في حق من يتواضع لهم ويوفيهم حقهم من الإجلال والإكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه ويعظّموه فبالحري أن يكون رفعة المتواضع للملك المطلق والعظيم المطلق لازمة عن التواضع له، وكذلك العادة جارية منهم بسلامة من استسلم لهم عن معرفته باقتدارهم

فبالحري أن يكون سلامة المستسلم لله عن العلم بغلبة قدرته واستيلاء سلطانه لازمة من استسلامه له. وإذ أدّبهم بالتواضع لله ولأوليائه ندبهم إلى قبول الحق منهم وعدم النفار منه الشبيه بنفار الصحيح من الأجرب، والبارئ من السقيم، ووجه الشبه هو شدة النفار.

ثم عاد إلى تنفيرهم عن أئمة الضلال، وذلك بتنبيههم على أنهم ليسوا عارفين بالرشد والمعرفة الصحيحة، ولا آخذين بميثاق الكتاب، ولا متمسكين به الأخذ والتمسك التام ما لم يعرفوا أُولئك الضالين. وإنما شرط معرفتهم للرشد بمعرفتهم لتاركه لأن المعرفة التامة للرشد بل لكل شيء تستدعي معرفة ما عليها من الشكوك والشبهات التي هي سبب التشكيك فيها، وترك العمل على وفقها. ولما كان الرشد وهو الحق الذي هو عليه وتابعوه، وكان التارك لذلك هم مخالفوه وخصومه في الأمر من أئمة الضلال لا جرم كان من تمام معرفة الحق الذي في يده والرشد الذي يدعو إليه معرفة خصومه وأنهم على شبهة إذا عرفها طالب الحق تمّت معرفته بطريق الرشد فسلكها ونفر عمّن نكب، وكذلك شرطه لأخذهم بميثاق الكتاب والعمل بما فيه بمعرفتهم لمن نقضه من خصومه: أي إن أخذهم بما يعمل به عليه السلام منه لا يتم منهم إلا أن يعرفوا شبهة ناقضه وهو العامل بخلاف حكمه عليه السلام على وفق الكتاب لشبهة حتى إذا اطّلعوا على كيفية فسادها وضلاله بها أخذوا بميثاق الكتاب على بصيرة، وعلموا أنه ناقض له فنفروا عنه، وكذلك شرطه لتمسّكهم بالكتاب ولزومهم بميثاقه بمعرفة نابذه وأنه ضالّ لتحصل النفرة عنه فيتمّ التمسك به ويتأكد لزوم ميثاقه. وغاية كل ذلك التنفير عن أئمة الضلال بمعرفتهم ومعرفة ما هم عليه من الشبه والتبرئ منهم.

ثم بعد أن نبّه على تلك المعرفة أمر بالتماسها من عند أهلها، والإشارة بهم إلى نفسه وأهل بيته عليهم السلام، واستعار لهم وصفي. عيش العلم: أي حياته، وموت الجهل. ووجه الاستعارة الأولى: أن بهم يكون وجود العلم والانتفاع به كما يكون بحياة الشيء الانتفاع به، ووجه الثانية: أن بهم يكون عدم الجهل وعدم التضرّر به. كما يكون بموت الشرير عدمه وعدم مضرته.

وقوله: هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم.

أي يدلكم منطقهم بالحكمة، وسيرتهم على وفقها على كمال نفوسهم بالعلوم، وصمتهم عن منطقهم فإنّ لصمت المنطيق اللسن ذي الحكمة الغزيرة وقتاً وهيئة وحالة تكون قرائن دالّة على حسن منطقه وعلمه بما يقول، وكذلك ظاهرهم عن باطنهم.

وقوله: لا يخالفون الدين.

إشارة إلى لزومهم لأوامر الله وطريق شريعته. ولا يختلفون فيه. إشارة إلى اتفاق آرائهم على أحكامه عن كمال علومهم به. فإنّه لما كان طريقاً واحداً واتفقوا على معرفته وجب أن لا يختلفوا فيه ولا يضلّ أحدهم عن حكم من أحكامه حتى يخالف صاحبه فيه.

وقوله: فهو بينهم شاهد صادق.

أي شاهد يستدلّون به على الأحكام والوقائع النازلة بهم وبغيرهم. لا يكذب من حيث هو شاهد، وصامت ناطق لكونه حروفاً وأصواتاً. وإنما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة الناطق. واللفظان استعارة، وجهها الإفادة مع النطق به وعدمها مع السكوت عنه كإفادة الناطق وعدم إفادة الصامت.

١٤٨ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر أهل البصرة:

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لا يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ، وَلا يَمُدَّانِ إِلَيهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هٰذا نَفْسَ هٰذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هٰذَا عَلَى هٰذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ. وَاللهِ لا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ، وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ!

أقول: متّ إليه بكذا: أي تقرّب إليه به. والضبّ: الحقد والغلّ. والمحتسبون: طالبوا الأجر والثواب. واللدم: ضرب الصدر باليد فعل الحزين، والضمير في منهما راجع إلى طلحة والزبير، والأمر: أمر الخلافة، وذلك حين خرجا إلى البصرة مع عائشة، ويعطفه إليه: يجذبه إلى نفسه ويزعم أنه أحق به من صاحبه.

وقوله: لا يمتّان. إلى قوله: بسبب.

أي لا حجة يعتذران إلى الله تعالى بها في قتالهما له عليه السلام وهلاك المسلمين فيما بينهم.

وقوله: كل واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه.

أي في صدره غلّ عليه وعما قليل يظهر وينكشف، واستعار لفظ القناع لظاهره الساتر لباطنه، وذلك مثل يضرب لمن ينافق صاحبه ويظهر له الصداقة مع حسده، وعقوقه له في الباطن. والعرب تضرب بالضب المثل في العقوق. فيقال: أعقّ من ضبّ. وذلك أنه ربما يأكل حسوله. ثم أقسم لئن أصابوا بغيتهم لينزعنّ هذا وليأتينّ عليه: أي يسعى كل منهم في قتل صاحبه، وهذا مما لا شك فيه فإن العادة جارية بعدم قيام الأمر برئيسين معاً، وسرّه أن الطباع البشرية متشاحة على الكمال ويتفاوت ذلك التشاح بحسب تفاوت ذلك الكمال في تصور قوته وضعفه ولا شيء في نفوس طالبي الدنيا أعظم من الملك خصوصاً في نفس من يعتقد أنه يقدر على تحصيل الآخرة فيه أيضاً. فإن تحصيل الدنيا والآخرة هي أكمل الكمالات المطلوبة للإنسان. ولا شيء يقاوم هذا المطلوب في النفوس. فهي تسعى في تحصيله بكل ممكن من قتل الولد والوالد والأخ. ولذلك قيل: الملك عقيم. وقد نقل عن هذين الرجلين الاختلاف قبل إصابتهما وقبل وقوع الحرب فاختلفا في الأحق بالتقديم في الصلاة فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير يصلّي هذا يوماً وهذا يوماً إلى أن تنقضي الحرب. ثم إن عبد الله بن الزبير ادّعى أن عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار واحتجّ على ذلك باستخلافه له في الصلاة، واحتجّ تارة بنص صريح ادّعاه. وطلب طلحة أن يسلّم الناس عليه بالإمرة وأدلى إليها بالسمية، وأدلى الزبير بأختها أسماء. فأمرت الناس أن يسلّموا عليهما بالإمرة، واختلفا في تولي القتال فطلبه كلّ واحد منهما أولاً ثم نكل عنه. وأحوالهم في ذلك ظاهرة.

فقوله: قد قامت الفئة الباغية.

إشارة إليهم وهم الناكثون الذين نقل فيما سبق فيهم الخبر: أُمرت أن أُقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

وقوله: فأين المحتسبون وقد سنّت لهم السنن.

أي أين طالبوا الثواب من الله بعد وضوح الطريق، وروي: فأين المحسنون.

وقوله: وقدم لهم الخبر.

أي: أخبرهم الرسول صلى الله عليه وآله عن خروج فئة باغية وناكثة ومارقة. فبالحري أن يحذر هؤلاء أن يكونوا ممن أخبر عنهم.

وقوله: ولكلّ ضلّة علّة.

أي: لكل خروج عن سبيل الله علّة. وأشار إلى خروج هذه الفرقة عن الدين. وتلك العلّة هي البغي والحسد، وكذلك لكل ناكث شبهة تغطي عين بصيرته عن النظر إلى وجه الحق كطلبهم بدم عثمان.

وقوله: والله لا أكون. إلى آخره.

أقسم أنّه لا يكون كذلك: أي إنّه بعد سماعه لغلبة هؤلاء وجلبهم عليه وتهديدهم إيّاه لا ينام عنهم ويصبر لهم حتى يوافوه فيكون في الغرور كمن يسمع الضرب والبكاء الذي هو مظنة الخطر ثم لا يصدق حتى يجيء لمشاهدة الحال ويحضر الباكي وقد كان الأولى به أن يكتفي بذلك السماع لظهور دلالته ويأخذ في الاستعداد للعدو والحرب منه.

١٤٩ - ومن كلام له عليه السلام

قبل موته:

أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِىءٍ لاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ. وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هٰذَا الأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ، أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللهَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ. وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ!

إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هٰذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَبِّ رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا، وَعَفَا فِي الأَرْضِ مَخَطُّهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاءً: سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي، وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلاقِي! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي.

أقول: أطردت الأيام: صيّرتها طريدة لي. وشرد الجمل: ذهب لوجهه. ودحضت القدم: زلقت. واضمحلّ: فنى. والمخط: الأثر.

وهذا الفصل محل الوعظ والاعتبار. فأيه بالناس ونبههم على لحوق ضرورة الموت المنفور منه طبعاً. وأحسن بقوله: في فراره. فإنّه لما كان الإنسان دائماً فاراً من الموت ومتوقياً له، وكان لا بد منه. لا جرم كان ضروري اللقاء له في فراره. والأجل قد يراد به غاية الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقد يراد به المدة المضروبة للإنسان وهي مدة عمره، وإيّاه عنى هٰهنا بقوله: والأجل مساق النفس فإن مدة بقائها في هذا البدن هو مساقها إلى غايتها لا محل قرارها.

وقوله: والهرب منه موافاته.

في غاية اللطف، وذلك أن الفار من الموت مثلاً بالحركات والعلاجات ونحوها يستلزم حركاته في ذلك فناء الأوقات وتصرّمها وقطع تلك الأوقات مستلزم لملاقاته وموافاته فأطلق لفظ الموافاة على الهرب مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه.

وقوله: كم أطردت الأيام.

أي: صيرتها طريدة لي أتّبع بعضها بعضاً بالبحث وتعرف مكنون هذا الأمر: أي الذي وقع له من القتل، وذلك المكنون هو وقته المعيّن بالتفصيل ومكانه فإنّ ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. وإن كان قد أخبره الرسول صلى الله عليه وآله بكيفية قتله مجملاً كما روي عنه أنه قال: ستضرب على هذه - وأشار إلى هامته - فيخضب منها هذه - وأشار إلى لحيته -. وعنه أنه قال: أتعلم من أشقى الأولين؟ قال: نعم عاقر الناقة. فقال له: أتعلم من أشقى الآخرين؟ قال: لا. قال: من يضربك هٰهنا فيخضب هذه.

وأما بحثه هو فعن تفصيل الوقت والمكان ونحوهما من القرائن المشخصة، وذلك البحث إمّا بالسؤال من الرسول صلى الله عليه وآله مدة حياته وكتمانه إيّاه أو بالفحص والتفرّس من قرائن أحواله في سائر أوقاته مع الناس. فأبى الله إلاّ أن تخفى عنه تلك الحال. هيهات: أي بعد ذلك العلم فهو علم مخزون. ثم شرع في الوصية فبدأ بالأهم فالأهم.

فالأول: هو الإخلاص لله بالإعراض عن كل ما سواه، وفي ذلك لزوم أوامره ونواهيه وسائر ما نطق به كتابه العزيز.

الثاني: لزوم سنّة محمد صلى الله عليه وآله وعدم إهمالها. وإنّما قدم اسم الله على محمد لما بيّنا أن الواجب في علم البيان تقديم الأهم. ثم أكد القول في الأمر باتباع التوحيد المطلق والسنّة النبوية، واستعار لهما لفظ العمودين ورشح بذكر الإقامة، ولفظ المصباحين ورشح بذكر الإيقاد، ووجه الاستعارة الأولى أن مدار الإسلام ونظام أمور المسلمين في معاشهم ومعادهم على توحيد

الله ولزوم ما جاء به رسوله كما أن مدار الخيمة وقيامها بالعمد.

ووجه الثانية: أن توحيد الله والاقتداء بما جاء به رسوله مستلزمان للهداية في طريقه من ظلمات الجهل قائدان إلى جواره في جنات النعيم وهو المطلوب الحقيقي كما يهدي المصباح في الظلام على الطريق إلى المطلوب.

وقوله: وخلاكم ذمّ.

أي: عداكم، وهي كلمة تجري مجرى المثل: أي عند لزومكم لتوحيد الله وسنّة رسوله لاذم عليكم، وأوّل من قالها قصير مولى جذيمة حين حثّ عمرو بن عديّ ابن أخت جذيمة على ثاره من الزباء. فقال له عمرو: كيف لي بذلك والزباء أمنع من عقاب الجو. فقال له قصير: اطلب الأمر وخلاك ذمّ.

وقوله: ما لم تشردوا.

استثناء من نفي لحوق الذم لهم: أي أوقدوا هذين المصباحين فما دمتم كذلك فلا ذمّ يلحقكم إلاّ أن تشردوا: أي تتفرقوا عما أنتم عليه. ثم لما كان قد أمرهم بلزوم هذين الأمرين اللذين يدور عليهما التكليف بيّن لهم بقوله: حمل كل امرئ منكم. إلى قوله: الجهلة. أن التكليف بذلك يتفاوت فكل امرئ من العلماء وأهل النباهة ومن هو بصدد العلم يحمل مجهوده وطاقته منه بالتنبيه على الأدلة وتعليمها.

وأما الجهّال كالنساء وأهل البادية والزنج ونحوهم من أهل الغباوة. فتكليفهم دون ذلك وهو بالمحسوس من العبادات دون الأمر بالتفكّر في مقاصدها. ثم ذكر وصف الرحمة للرب لمناسبة ما سبق من ذكر التخفيف عن الجهلة في التكليف. ودين قويم: لاعوج فيه ولا زيغ عن القصد الحقيقي. وإمام عليم: إشارة إلى الرسول ﷺ العالم بكيفيّة سلوك طريق الله ومراحلها ومنازلها، والهادي فيها بما تقتضيه حكمته من القول والعمل، أو إلى نفسه لكونه وارث علمه وسالك مسالكه. وربّ: خبر مبتدأ محذوف وتقديره وذلك المكلّف ربّ رحيم، ويجوز أن يكون فاعلاً لفعل يفسره قوله: حمل وخفّف: أي يحملكم رب كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ثم ختم الوصية بالدعاء لهم وله ويطلب المغفرة.

ثم تمّم بالتنبيه لهم على وجه الاعتبار به، وهو تصرّف حالاته بحسب الأزمان فقد كان بالأمس صاحبهم في الحرب ومنازعة الأقران وصاحب الأمر والنهي فيهم، واليوم عبرة لهم بحال مصرعه وضعفه عن الحراك، وغداً مفارقهم بالموت. وكل هذه التغييرات محلّ الاعتبار يجب التنبيه لها. وأراد بغد إمّا حقيقة إن كان قد غلب على ظنه موته في تلك الواقعة، أو ما يستقبل من الزمان وإن بعد، وهذا أرجح لقوله: إن ثبتت الوطأة في هذه المزلّة: أي إن يكن لي ثبات في الدنيا وبقاء في هذه المزلة: أي محل الزوال عن الحياة فذلك المرجو، وكنّى بثبات الوطأة عما ذكرناه، وبدحض القدم عن عدم ذلك بالموت.

وقوله في جواب الشرط: فإنّا كنا في أفياء أغصان. إلى قوله: مخطّها.

أي: وإن نمت فإنّا كنّا في كذا. وكنّى بالأمور المذكورة عن أحوال الدنيا وملذاتها وبقائه فيها ومتاعه بها، وقيل: استعار لفظ الأغصان للأركان الأربعة من العناصر، ولفظ الأفياء لما تستريح فيه النفوس من تركيبها في هذا العالم.

ووجه الاستعارة الأولى: أن الأركان في مادتها كالأغصان للشجرة.

ووجه الثانية: أن الأفياء محل الاستراحة واللذة كما أن الكون في هذا البدن حين صحة التركيب واعتدال المزاج من هذه الأركان كذلك. وكذلك استعار لفظ مهبّ الرياح للأبدان، ولفظ الرياح للأرواح والنفحات الإلهية عليها في هذه الأبدان.

ووجه الأولى: قبول الأبدان لنفحات الجود كقبول مهب الرياح لها إستعارة لفظ المحسوس للمعقول.

ووجه الثانية: أظهر من أن يذكر. وكذلك لفظ الغمام للأسباب العلوية من الحركات السماوية والاتصالات الكوكبيّة والأرزاق المفاضة على الإنسان في هذا العالم التي هي سبب بقائها، ووجهها الاشتراك في الإفاضة والسببية، وكنّى بظلها عما يستراح إليه منها

كما يقال: فلان يعيش في ظل فلان: أي في عيشه وعنايته، وكنّى باضمحلال متلفقها في الجو عن تفرّق الأسباب العلوية للبقاء وفنائها، وبعفاء مخطّها في الأرض عن فناء آثارها في الأبدان، والضمير في متلفّقها يعود إلى الغمام، وفيْ مخطّها يعود إلى مهب الرياح.

وقوله: فإنّما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً.

فيه تنبيه على أن نفسه القدسية كانت متصلة بالملأ الأعلى، ولم يكن لها ميل إلى البقاء في الدنيا ومجاورة أهلها فيها فكانت مجاورته لهم ببدنه فقط، وأيضاً فإن المجاورة من عوارض الجسمية فيحتمل أن يكون ذلك تنبيهاً منه على وجود أمر آخر غير البدن وهو النفس، وكنّى بالأيام عن مدة حياته الدنيا.

وقوله: وستعقبون.

أي: توجدون في عاقبة أمركم مني جثة خالية لا روح بها ولا حراك قد افقرت من تلك المعاني المعهودة لكم من العقل والنطق والقوة فهي متبدلة بالحراك السكون، وبالنطق السكوت. ثم عاد إلى أمرهم بالاتعاظ بذلك الهدوء، وخفوت الأطراف وسكون الأطراف بالموت.

وقوله: فإنّه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ. صاحب اللسن والفصاحة.

كلام حقّ فإنّ الطباع أكثر انفعالاً واعتباراً عن مشاهدة ما فيه العبرة من الوصف له بالقول المسموع، ولو بأبلغ عبارة. ثم أخذ عليه السلام في توديعهم.

فقوله: وداعي لكم. إنشاء لا خبر.

وقوله: وداع امرئ مرصد للتلاقي.

أي: معدّ ومهيّأ للقاء إلى الله.

وقوله: غداً ترون أيامي. إلى آخره.

تذكير لهم بفضيلته وتنبيه عليها ليثبت متّبعوه على اتباعه، والغافلون عن فضله ومحلّه بينهم إذا فارقهم وولي أمرهم الظالمون بعده فلا بدّ أن ينكشف لهم ما كان مغطى عن أعين بصائرهم من لزومه للقصد في سبيل الله، ويعرفون منزلته وفضله حين مشاهدة المنكرات ممن يقوم مقامه خلفاً في الناس. وإن وقائعه وحروبه وحرصه على هذا الأمر لم يكن لنيل دنيا بل لإقامة سنن العدل ورضا الله تعالى.

١٥٠ - ومن خطبة له عليه السلام

في الملاحم:

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ! يَا قَوْمِ، هٰذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لا تَعْرِفُونَ. أَلا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ. تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ. وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ. وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ.

أقول: إبّان الشيء. بكسر الهمزة وتشديد الباء: وقته. والربق بكسر الراء وتسكين الباء: حبل فيه عدّة عرى يشدّ به البهم. والصدع: الشق. والشعب: إصلاحه. والشحذ: التحديد. والقين: الحداد. والغبوق: الشرب بالعشي. والصبوح: الشرب بالغداة.

فقوله: وأخذوا يميناً وشمالاً. إلى قوله: الرشد.

إشارة إلى من ضلّ من فرق الإسلام عن طريق الهدى التي عليها الكتاب والسنّة وسلكوا طرفي الإفراط والتفريط منها. كما قال عليه السلام فيما قبل: اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادة. وقد سبق تفسير ذلك مستوفى. ومسالك الغي: أطراف الرذائل من الفضائل التي عددناها، كالحكمة والعفة والشجاعة والعدالة وما تحتها، ومذاهب الرشد: هي تلك الفضائل، وظعناً وتركاً مصدران قاما مقام الحال.

وقوله: فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد.

ذلك الاستعجال إشارة إلى ما كانوا يتوقّعونه من الفتن التي أخبر الرسول ﷺ عن وقوعها في المستقبل، وكانوا في أكثر الوقت يسألونه عليه السلام عنها فقال: لا تستعجلوا ما هو كائن: أي لا بد من وقوعه وهو مرصد معدّ. ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد: أي من الفتن والوقائع.

وقوله: فكم من مستعجل. إلى قوله: لم يدركه.

ذمّ للاستعجال والاستبطاء لهذا الموعود كقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وما أقرب اليوم من تباشير غد: أي من البشرى بغد. كقوله: غد ما غد ما أقرب اليوم من غد، وكقوله: وإن غداً للناظرين قريب. ثم أخذ في تقريب ذلك الموعود من الفتن فقال: هذا إبّان ورود كل موعود به أو وقت دنو ظهور ما لا تعرفون من تلك الأمور بالتفصيل.

وقوله: ألا وإن من أدركها منّا.

أي: من أدرك تلك الفتن من أهل بيته الأئمة الأطهار يسري فيها بسراج منير. واستعار لفظ السراج لكمالات نفسه التي استضاءت بها في طريق الله من العلوم والأخلاق الفاضلة، ولفظ المنير ترشيح. وهو إخبار عن معرفته للحق وتمييزه من الباطل، وأن تلك الفتن لا توقع له شبهة ولا تأثير لها في عقيدته الصادقة الصافية بل يتصرف فيها منقاداً لأنوار الله على صراطه المستقيم لا يلويه عنه ملوٍ بل يقتفي فيه أثر آبائه الصالحين، ويلتزم مكارم الأخلاق. فيحل ما انعقد فيها وأشكل على الناس من الشبه. ويفكّ ربق الشك من أعناق نفوسهم أو يفتدي فيها الأسرى فيفك ربق أسرهم ويعتقهم، ويصدع ما انشعب والتأم من ضلال يمكنه صدعه، ويشعب مما انصدع من أمر الدين ما أمكنه شعبه في سترة عن الناس لا يبصر القائف أثره ولو تابع إليه نظره، وما زالت أئمة أهل البيت عليهم السلام مغمورين في الناس لا يعرفهم إلاّ من عرّفوه أنفسهم حتى لو تعرّفهم من لا يريدون معرفته لهم لم يعرفهم، ولست أقول لم يعرف أشخاصهم بل لا يعرف أنهم أهل الحق والأحقون بالأمر.

وقوله: ثم ليشحذنّ فيها قوم.

أي: في أثناء ما يأتي من الفتن تشحذ أذهان قوم. وتعدّ لقبول العلوم والحكمة كما يشحذ الحداد النصل، ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان، ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التام النافع فهو يمضي في مسائل الحكمة والعلوم كمضي النصل فيما يقطع به، وهو وجه التشبيه المذكور. ثم أخذ في تفسير ذلك الشحذة والإعداد، فقال: تلجى بالتنزيل أبصارهم: أي تعدّ بالقرآن الكريم ودراسته وتدبّره أبصار بصائرهم لإدراك الحكمة وأسرار العلوم وذلك لاشتمال التنزيل الإلهي عليها، ويرمى التفسير في مسامعهم: أي يلقى إليهم تفسيره على وجهه من إمام الوقت. ثم عبّر عن أخذهم الحكمة ومواظبتهم على تلقّفها بعد استعدادهم لها بالغبوق والصبوح، ولفظ الصبوح والغبوق مستعاران لكونهما حقيقتين في الشرب المخصوص المحسوس. وهؤلاء المشار إليهم بالاستعداد للحكمة وأخذها هم علماء الأمّة من جاء منهم قبلنا ومن في آخر الزمان من المستجمعين لكمالات النفوس السالكين لسبيل الله المرتضين في نظره ونظر الأئمة من ولده بعده.

ومنها: وَطَالَ الأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ، حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، وَلَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ.

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلائِجِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ، عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ.

أقول: الأمد: الوقت. والاشتيال: الرفع. والوليجة: البطانة، وهي خاصة الرجل من أهله وعشيرته. ورصّ الأساس: إحكامه. وما روا: تحركوا.

وهذا الفصل يستدعي كلاماً منقطعاً قبله لم يذكره الرضي - رضوان الله عليه - قد وصف فيه فئة ضالّة قد استولت وملكت وأملى لها الله سبحانه.

وقوله: وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عِمران: ١٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقوله: حتى إذا اخلولق الأجل.

أي: صار خلقاً، وهو كناية عن بلوغهم غاية مدتهم المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ.

وقوله: واستراح قوم إلى الفتن.

إشارة إلى من يعتزل الوقائع التي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحق وأنصاره. ويستريح إليها: أي يجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة له في الانقطاع والعزلة والخمول، واشتيالهم عن لقاح حربهم: رفعهم لأنفسهم عن تهييجها، واستعار لفظ اللقاح بفتح اللام لإثارة الحرب ملاحظة لشبهها بالناقة.

وقوله: لم يمنّوا.

جواب قوله: حتى إذا اخلولق. والضمير في يمنّوا قال بعض الشارحين: إنه عائد إلى العارفين الذين تقدم ذكرهم في الفصل السابق يقول: حتى إذا ألقى هؤلاء السلم إلى هذه الفئة الضالة، وعجزوا واستراحوا من منابذتهم إلى فتنتهم تقيّة منهم أنهض الله أولئك الذين خصهم بحكمته، وأطلعهم على أسرار العلوم فنهضوا ولم يمنّوا على الله تعالى بالصبر في طاعته.

وفي رواية بالنصر: أي بنصرهم له. ولم يستعظموا ما بذلوه من نفوسهم في طلب الحق حتى إذا وافق القدر الذي هو وارد القضاء وتفصيله انقطاع مدة هذه الفئة، وارتفاع ما كان شمل الخلق من بلائهم حمل هؤلاء العارفون بصائرهم على أسيافهم، وفيه معنى لطيف يريد أنهم أظهروا عقائد قلوبهم للناس، وكشفوها وجرّدوها مع تجريد سيوفهم فكأنّهم حملوها على سيوفهم فترى في غاية الجلاء والظهور. كما ترى السيوف المجردة.

ومنهم من قال: أراد بالبصائر جمع بصيرة وهي الدم فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التي سفكتها تلك الفئة فكانت تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم المجردة للحرب، وأشار بواعظهم إلى الإمام القائم.

وأقول: يحتمل أن يريد بالضمير في يمنّوا وما بعده القوم الذين استراحوا إلى الفتنة واشتالوا عن لقاح الحرب، وذلك أنهم لم يفعلوا ذلك إلاّ لأنه لم يؤذن لهم في القيام حين استراحتهم وإلقائهم السلم لهذه الفئة، ولم يتمكنوا من مقاومتهم لعدم قيام القائم بالأمر فكانوا حين مسالمتهم صابرين على مضض من ألم المنكر الذي يشاهدونه غير مستعظمين لبذل أنفسهم في نصرة الحق، لو ظهر من يكون لهم ظهر يلجأون إليه حتى إذا ورد القضاء الإلهي بانقطاع مدة بلاء هذه الفئة وظهور من يقوم بنصر الحق. ودعا إليه حمل هؤلاء بصائرهم على أسيافهم وقاموا لربهم بأمر من يقوم فيهم واعظاً ومخوّفاً وداعياً، وهذا الحمل يرجّحه عودة الضمير إلى الأقرب وهم القوم.

وقوله: حتى إذا قبض الله رسوله. إلى آخره.

هذا الفصل منقطع عما قبله لأن صريحه ذكر غاية الاقتصاص حال حياة الرسول صلى الله عليه وآله، وحال الناس قبله وبعده ومعه، وليس في الكلام المتقدم شيء من ذلك. اللهم إلاّ أن يحمل من طال الأمد بهم في الكلام المتقدم على من كان أهل الضلال قبل الإسلام حتى إذا اخلولق أجلهم واستراح قوم منهم إلى الفتن والوقائع بالنهب والغارة واشتالوا عن لقاح حربهم: أي أعدّوا أنفسهم لها كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها للقاحها: أي برفعه، وتسمى شائلاً، ويكون الضمير في قوله: لم يمنّوا راجعاً إلى ذكر سبق للصحابة في هذه الخطبة حين قام الرسول صلى الله عليه وآله فيهم وبهم للحرب فلم يمنّوا على الله بصبرهم معه وفي نصرة الحق، ولم يستعظموا بذل أنفسهم له حتى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء

بدولة الجاهلية والكفر، حمل هؤلاء الذين لم يمنوا على الله بنصرهم بصائرهم: أي ما كانوا يخفونه من الإسلام في أوله على سيوفهم: أي كشفوا عقائدهم كما سبق القول فيه أو دماءهم وثاراتهم من الكفّار، ودانوا لربهم بأمر واعظهم وهو الرسول ﷺ وحينئذٍ يصلح قوله: حتى إذا قبض الله رسوله. غاية لذلك الكلام على هذا التأويل.

وقوله: رجع قوم على الأعقاب. إلى آخره.

أما على المذاهب الإمامية فإشارة إلى عدول الصحابة بالخلافة عنه وعن أهل بيته عليهم السلام إلى الخلفاء الثلاثة، وأمّا على مذهب من صحّح إمامة الخلفاء الثلاثة فيحتمل أن يريد بالقوم الراجعين على الأعقاب من خرج عليه في زمن خلافته من الصحابة كمعاوية وطلحة والزبير وغيرهم، وزعموا أن غيره أحقّ بها منه ومن أولاده. والرجوع على الأعقاب كناية عن الرجوع عما كانوا عليه من الانقياد للشريعة وأوامر الله ورسوله ووصيته بأهل بيته، وغيلة السبل لهم كناية عن اشتباه طرق الباطل بالحق واستراق طرق الباطل لهم وإهلاكها إيّاهم، وهي الشبه المستلزمة للآراء الفاسدة كما يقال في العرف: أخذته الطريق إلى مضيق، وهي مجاز في المفرد والمركب:

أما في المفرد فلأن سلوكهم لسبل الباطل لما كان عن غير علم منهم بكونه باطلاً ناسب الغيلة فأطلق عليه لفظها، وأما في المركب فلأن إسناد الغيلة إلى السبل ليس حقيقة. إذ الغيلة من فعل العقلاء، واتكالهم على الولائج اعتماد كل من رأى منهم رأياً فاسداً على أهله وخواصه في نصرة ذلك الرأي. ووصلوا غير الرحم: أي غير الرسول ﷺ وترك المضاف إليه للعلم به. وكذلك هجروا السبب الذي أُمروا بمودته ولزومه يريد أهل البيت أيضاً، وظاهر كونهم سبباً لمن اهتدى بهم في الوصول إلى الله سبحانه. كما قال الرسول ﷺ: خلّفت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. فاستعار لهم لفظ الحبل، والسبب في اللغة الحبل وأمرهم بمودته كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقوله: ونقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه في غير موضعه.

إشارة إلى العدول بأمر الخلافة عنه وعن أهل بيته إلى غيرهم، وصلة غير الرحم خروج عن فضيلة العدالة إلى رذيلة الظلم، وعدم مودة أُولى القربى رذيلة التفريط من تلك الفضيلة الداخلة تحت العفة، وكذلك نقل البناء عن موضعه دخول في رذيلة الظلم. ثم وصفهم وصفاً إجمالياً بكونهم معادن كل خطيئة: أي إنهم مستعدون لفعل كل خطيئة، ومهيأون لها. فهم مظانّها، ولفظ المعادن استعارة، وكذلك أبواب كل ضارب في غمرة، واستعار لفظ الأبواب لهم باعتبار أن كل من دخل في غمرة جهالة أو شبهة يثيز بها فتنة، واستعان بهم فتحوا له ذلك الباب وساعدوه وحسّنوا له رأيه فكأنهم بذلك أبواب له إلى مراده الباطل يدخل منها.

وقوله: قد ماروا في الحيرة.

أي: تردّدوا في أمرهم فهم حائرون لا يعرفون جهة الحق فيقصدونه، وذهلوا: أي غابت أذهانهم في سكرة الجهل فهم على سنّة من آل فرعون وطريقته، وإنّما نكر السنّة لأنه يريد بها مشابهتهم في بعض طرائقهم، وآل فرعون أتباعه.

وقوله: من منقطع إلى الدنيا. إلى آخره.

تفصيل لهم باعتبار كونهم على سنة من آل فرعون فمنهم المنقطع إلى الدنيا المنهمك في لذاتها المكبّ على تحصيلها، ومنهم المفارق للدين المباين له وإن لم يكن له دنيا، والمنفصلة مانعة الخلو بالنسبة إلى المشار إليهم، ويحتمل أن يريد مانعة الجمع، ويشير بمفارق الدين إلى من ليس براكن إلى الدنيا ككثير ممّن يدعي الزهد مع كونه جاهلاً بالطريق فتراه ينفر من الدنيا ويحسب أنه على شيء، مع أن جهله بكيفية سلوك سبيل الله يقوده يميناً وشمالاً عنها. وبالله التوفيق.

١٥١ - ومن خطبة له عليه السلام

يحذّر من الفتن

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ،

وَالاعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ. لا يُوَازَى فَضْلُهُ، وَلا يُجْبَرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلادُ بَعْدَ الضَّلالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ! ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ. فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا وَمَدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلامِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلامِ، تَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ، يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ. وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذٰلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلامَةٍ، وَتَخْتَلِفُ الأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا! يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلامُ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!

أقول: المداحر: جمع مدحر. وهي الأمور التي بها يدحر: أي يطرد. ومخاتلها: محال غروره التي يخيّل إلى الناس بها ويوهمهم أنها نافعة. والبوائق: جمع بائقة، وهي الداهية. والقتام بفتح القاف: الغبار. والعشوة بكسر العين: الأمر على غير بيان ووضوح. والفظاعة: تجاوز الأمر الشديد الحد والمقدار. والسلام بالكسر: الحجارة الصمّ واحدها سلمة بكسر السين. والمريحة: المنتنة. ويتزايلون: يتفارقون. ونجومها: طلوعها. وأشرف لها: أي انتصب لدفعها. والتكادم: التعاض بأدنى الفم. والعانة: القطيع من حمر الوحش. والمسحل: المبرد، والمسحل: حلقة تكون في طرف شكيمة اللجام مدخلة في مثلها. والوحدان: جمع واحد. والعبيط: الخالص الطري.

وصدر هذا الفصل باستعانة الله تعالى على ما يدحر الشيطان ويزجر به. وذلك هو العبادات والأعمال الصالحة المستلزمة لطرده وزجره وتطويعه، وعلى الاعتصام من حبائله ومخاتله. وهي الشهوات واللذات الدنيوية، واستعار لها لفظ الحبائل وهي إشراك الصائد لمشابهتها إيّاها في استلزام الحصول فيهما للبعد عن السلامة والحصول في العذاب، ومن ممادح الرسول ﷺ كونه نجيباً لله: أي مختاراً، وروي نجيّه. وصفوة له من خلقه لا يوازي فضله: أي لا يحصل مثله في أحد. إذ كان كماله في قوّتيه النظرية والعملية غير مدرك لأحد من الخلق، ومن كان كذلك لم يجبر فقده إلاّ بقيام مثله من الناس، وإذ لا مثل له فيهم فلا جبران لفقده.

وقوله: أضاءت به البلاد بعد الضلالة.

أي: ضلالة الكفر، ووصفها بالظلمة لعدم الاهتداء فيها للحق. والوصف مستعار وكذلك وصف الإضاءة به مستعار لاهتداء الخلق به في معاشهم ومعادهم، وإسناد الإضاءة إلى البلاد مجاز. أو الجهالة الغالبة على أكثر الخلق، وأراد الجهل بالطريق إلى الله تعالى وبكيفية نظام المعاش مما بيّنه هو وكشفه بشريعته. والجفوة الجافية يريد غلظة العرب، وما كانوا عليه من قساوة القلوب وسفك الدماء، ووصفها بما اشتقّ منها مبالغة وتأكيداً

لها، وأراد الجفوة القوية. والناس يستحلّون الحريم الواو للحال والعامل أضاءت ويستذلّون الحكيم، وظاهر من عادة العرب إلى الآن استذلال من عقل منهم، وحلم عن الغارة والنهب وإثارة الفتن، واستنهاضه بنسبته إلى الجبن والضعف. ويحيون على فترة: أي على حالة انقطاع الوحي والرسل، وتلك حال انقطاع الخير وموت النفوس بداء الجهل. ويموتون على كفرة وهي الفعلة من الكفر لأهل كل قرن حيث لا هادي لهم.

ثم أخذ عليه السلام في إنذار السامعين باقتراب حوادث الوقائع المستقبلة التي يرمون بها كما يرمى الغرض بالسهام، واستعار لفظ الغرض لهم، ولما كانت الفتن الحادثة كتدمير قوم وإهلاكهم مثلاً بحسب استعدادهم لذلك، وكان أكبر الأسباب المعدّة له هي الغفلة عن ذكر الله بالانهماك في نعم الدنيا ولذاتها استعار للغفلات لفظ السكرات. ثم أمر باتقائها، وحذّر من دواهي النقمات بسبب كفران النعم.

ثم أمر بالتثبّت أو التبيّن على الروايتين عند اشتباه الأمور عليهم وظهور الشبهة المثيرة للفتن كشبهة قتل عثمان التي نشأت منها وقائع الجمل وصفّين والخوارج، واستعار لفظ القتام لذلك الأمر المشتبه، ووجه المشابهة كون ذلك الأمر مما لا يهتدي فيه خائضوه كما لا يهتدي القائم في القتام عند ظهوره وخوضه، واعوجاج الفتنة إتيانها على غير وجهها، ولفظ الجنين يحتمل أن يكون حقيقة: أي عند طلوع ما اجتنّ منها وخفي عليكم، وكذلك كمينها: أي ما كمن منها واستتر، ويحتمل أن يكون استعارة، وعنى بقطبها من تدور عليه من البغاة المنافرين استعارة. وانتصابه: قيامه لذلك الأمر، وكذلك استعار لفظ مدار الرحى لدورانها على من تدور عليه من أنصار ذلك القطب وعسكره الذين تدور عليهم الفتنة.

ثم أخبر أنها تبدأ في مدارج خفية، وأراد بالمدارج صدور من ينوي القيام فيها ويقصد [يعقد على خ] إثارتها، وكان هذا إشارة إلى فتنة بني أمية، وقد كان مبدأها شبهة قتل عثمان، ولم يكن أحد من الصحابة يتوهم خصوصية هذه الفتنة وإنّما كانوا علموا من الرسول صلى الله عليه وآله حدوث وقائع وفتن غير معينة الأزمان، ولا من يثيرها ويكون قطباً لها. فخفاء مدارجها كتمان معاوية وطلحة والزبير وغيرهم لأمورهم وما عزموا عليه من إقامة الفتنة والطمع في الملك والدولة حتى آل ذلك الطمع إلى الأمور القطعية الواضحة بعد الخفاء، واستعار لفظ الشباب لقيامها وظهورها في الناس، ووجه المشابهة السرعة في الظهور، ولذلك أكدها بتشبيه ذلك الظهور بشباب الغلام: أي في السرعة، ومع سرعتها لها آثار في هدم الإسلام كآثار الحجارة الصلب في الجلد، ووجه الشبه إفسادها للبين ولنظام المسلمين كإفساد الحجر ما يقع عليه بالرض والكسر، وأشار بالظلمة التي يتوارثونها إلى بني أميّة بعهد الأب لابنه إلى آخرهم، وذكر قود أولهم لآخرهم إلى النار، والدخول في الظلم والضلالة وإثارة تلك الفتن، واستعار لفظ القود لتهيئة الأول منهم أسباب الملك لمن بعده واقتداء آخرهم بأوّلهم في ذلك، وضمير المفعول في يتوارثونها يرجع إلى تلك الفتنة.

ثم أشار إلى صفة حالهم في إثارة تلك الفتن وتوارثها وهي المناقشة في الدنيا الدنيّة في نظر العقلاء، واستعار لفظ التكالب لمجاذبة بعضهم لبعض عليها كالمجاذبة بين الكلاب على الميتة. واستعار لها لفظ الجيفة، ورشّح بذكر المريحة للتنفير عنها، ووجهها كونها مستلزمة لأذى طالبها مهروباً منها العقلاء كالهرب من الجيفة المنتنة والانزواء عنها. ثم أخبر بانقضائها عن قليل، وكنّى عن ذلك بتبرؤ التابع من المتبوع والقائد من المقود: أي يتبرأ كل من الفريقين من الآخر كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]. وقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤].

وذلك التبرؤ قيل عند ظهور الدولة العباسية فإن العادة جارية بتبرؤ الناس من الولاة المعزولين خصوصاً عند الخوف ممن تولى عزل أولئك أو قتلهم فيتباينون بالبغضاء إذ لم تكن ألفتهم ومحبتهم إلاّ لغرض دنيوي زال، ويتلاعنون عند اللقاء. وقيل ذلك يوم القيامة.

قوله: وعن قليل. إلى قوله: عند اللقاء.

جملة اعتراضية مؤكد بها معنى تعجبه منهم فكأنه قال: إنهم على تكالبهم عليها عن قليل يتبرأ بعضهم من بعض، وذلك أدعى لهم إلى ترك التكالب عليها.

وقوله: ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف، وكانت هذه الفتنة هي فتنة التتار إذ الدائرة فيها على العرب. وقال بعض الشارحين: بل ذلك إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزمان كفتنة الدجال، وكنى عن أهوالها واضطراب أمر الإسلام فيها بكونها رجوفاً: أي كثيرة الرجف، وطالعها مقدماتها وأوائلها، وكنّى بقصمها عن إهلاك الخلق فيها، واستعار لها لفظ الزحوف ملاحظة لشبهها بالرجل الشجاع كثير الزحف في الحرب إلى أقرانه: أي يمشي إليهم قدماً.

ثم شرع في بيان أفعال تلك الفتنة بالناس من إزاغة قلوب قوم عن سبيل الله تعالى بعد استقامتها عليه، وضلال رجال: أي هلاكهم في الآخرة بالمعاصي بعد سلامة منها، واختلاف الأهواء عن إرادة الله بهجومها، والتباس الآراء الصحيحة بالفاسدة عند ظهورها على الناس فلا يعرفون وجه المصلحة من غيره، ومن يطلع إلى مقاومتها وسعى في دفعها هلك، واستعار لفظ التكادم، إما لمغالبة مثيري هذه الفتنة بعضهم لبعض أو مغالبتهم لغيرهم. وشبه ذلك بتكادم الحمر في العانة.

ووجه التشبيه المغالبة مع الإيماء: أي خلعهم ربق التكليف من أعناقهم وكثرة غفلتهم عمّا يراد بهم في الآخرة، واستعار معقود الحبل لما كان انبرم من دولة الإسلام واستعار لفظ الحبل للدين، وكنّى باضطرابه عن عدم استقرار قواعد الدين عند ظهور أول هذه الفتنة، وعمى وجه هذا الأمر: أي عدم الاهتداء إلى وجه المصلحة، وأشار بالحكمة التي تغيض فيها إلى الحكمة الخلقيّة التي عليها مدار الشريعة وتعليمها، واستعار لفظ الغيض لعدم ظهورها والانتفاع بها، وينطق فيها الظلمة بالأمر والنهي، وما يقتضيه آراؤهم الخارجة عن العدل، واستعار لفظ المسحل لما تؤذي به العرب وأهل البادية، ووجه المشابهة اشتراك المبرد أو شكيمة اللجام وما تؤذي به العرب من هذه الفتنة في الإيذاء فكأنّها شجاع ساق عليهم فدقّهم بشكيمة فرسه أو نحو ذلك، وكذلك استعار لفظ الكلكل لما يدهم البدو منها ملاحظة لشبهها بالناقة التي تبرك على الشيء فتسحقه.

وقوله: يضيع في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان.

كناية عن عظمتها: أي لا يقاومها أحد ولا يخلص منها الوحدان والركبان، ولفظ الغبار مستعار للقليل اليسير من حركة أهلها: أي أن القليل من الناس إذا أرادوا دفعها هلكوا في غبارها من دون أن يدخلوا في غمارها، وأما الركبان وكنّى بهم عن الكثير من الناس، فإنّهم يهلكون في طريقها وعند خوضها، وقيل: أراد بالوحدان فضلاء الوقت. إذ يقال: فلان واحد وقته، وبالغبار الشبه التي تغطي الحق عن أعينهم، ويكون الركبان كناية عن الجماعة أهل القوة، وإذا كان هؤلاء يهلكون في طريقها: أي عند الخوض لغمراتها فكيف بغيرهم، وكنّى بمرّ القضاء عن القتل والأسر ونحوهما، وظاهر كون الواردات المؤذية أو النافعة واردة عن القضاء الإلهي معلومة الكون، وكذلك استعار وصف الحلب لها ملاحظة لشبهها بالناقة، وكنّى بذلك عن سفك الدماء فيها، ومنار الدين أعلامه وهم علماؤه ويحتمل أن يريد قوانينه الكلية، وثلمها عبارة عن قتل العلماء، وهدم قواعد الدين وترك العمل به، وعقد اليقين هو الاعتقاد الموصل إلى علم اليقين أو إلى عين اليقين، وهو اعتقاد الشريعة وإيصال ذلك إلى جوار الله تعالى والقرب منه ونقضه هو ترك العمل على وفقه من تغيّره وتبدّله، والأكياس الهاربون منها هم العلماء وأهل العقول السليمة وكل هذه الإشارات معلومة من فتنة من ذكرنا، وظاهر كونهم أرجاس النفوس يرجس الشيطان أنجاسها بالهيئات البدنية، والملكات الرديئة أنجاس الأبدان بحكم الشريعة، وكنى عن شدتها وكونها محل المخاوف بوصفي المرعاد والمبراق المستعارين ملاحظة لشبهها بالسحابة كثيرة البروق والرعود وبوصف كشفها عن ساق عن إقبالها مجردة كالمشمر للحرب أو لأمر مهمّ، وظاهر كونها تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام.

وأشار بريّها إلى من يعتقد في هذه الدولة أنه ذو

صلاح بريء من المعاصي والآثام مع كونه ليس كذلك. إذ من الظاهر أن السالم في هذه الفتنة من معصية الله قليل بل أقلّ من القليل، ولعله عند الاستقراء لا يوجد، وأشار بظاعنها إلى من يعتقد أنه متخلّف عنها، وغير داخل فيها وظاهر كونه غير منحرف عنها، ويحتمل أن يريد أن من ارتحل عنها خوفاً لا ينجو منها، وبالله التوفيق.

ومنها: **بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يُخْتَلُونَ بِعَقْدِ الأَيْمَانِ وبِغُرُورِ الإِيمَانِ؛ فَلا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلامَ الْبِدَعِ، وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ، وَاقْدَمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ، وَلا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ، وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ، وَلا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.**

أقول: يقال: طل دم فلان فهو مطلول: إذا هدر ولم يطلب به. ويختلون: يخدعون، واللعق: جمع لعقة، وهي اسم لما تتناوله الملعقة مرة.

فقوله: بين قتيل. إلى قوله: مستجير.

يشبه أن يكون صفة حال المتمسكين بالدين في زمان الفتنة الأولى.

وقوله: يختلون. إلى قوله: وبغرور الإيمان.

صفة حال استجلاب هؤلاء المقتولين: أي أنهم يخدعون بإعطاء الأقسام والعهود الكاذبة وذلك كخداع الحسين عليه السلام عن نفسه وأصحابه، روي يختلون بالبناء الفاعل فيكون وصف حال أهل الفتنة وأتباعهم. ثمّ أخذ في نهي السامعين أن يكونوا أنصاراً للفتن التي يدركونها، وأعلاماً للبدع: أي رؤساء يشار إليهم فيها، ويقتدى بهم كما يشار إلى الأعلام البيّنة ويقتدى بها، وفي الخبر كن في الفتنة كابن لبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب.

وقوله: وأقدموا على الله مظلومين.

ليس المراد منه الأمر بالانظلام فإنّ ذلك طرف التفريط من فضيلة العدالة، وهي رذيلة بل المراد إنكم إذا كانت لكم مكنة من الظلم فلا تظلموا ولو استلزم ترك الظلم انظلامكم، وهو كسر للنفوس عن رذيلة الظلم خصوصاً نفوس العرب فإنها أكثر تطاولاً إلى الظلم وأمنع عن قبول الانظلام والانفعال عنه وإن استلزم الظلم كما أشار إليه العربي.

ومن لم يذد عن حوضه بسهامه
يهدم ومن لا يظلم القوم يظلم

ومدارج الشيطان: طرقه، وهي الرذائل التي يحسّنها ويقود إليها، وكذلك مهابط العدوان محالّه التي يهبط فيها. وهي من طرق الشيطان أيضاً، ولعق الحرام كناية عما يكتسبه الإنسان من الدنيا، ومتاعها على غير الوجه الشرعي، ونبّه باللعق على قلّتها وحقارتها بالنسبة إلى متاع الآخرة، ونبّه على وجوب الانتهاء عما نهى عنه بقوله: فإنّكم بعين من حرم عليكم. إلى آخره يقال: فلان من فلان بمرأىً ومسمع وبعين منه إذا كان مطلعاً على أمره: أي فإن الذي حرّم عليكم المعصية وأوجب عليكم طاعته مطلع عليكم وعالم بما تفعلون، وذلك أردع لهم من النهي المجرد، ولفظ العين مجاز في العلم.

١٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام

في صفات الله جلّ جلاله وصفات أئمة الدين

الْحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ. وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ. وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لا شَبَهَ لَهُ. لا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ. الأَحَدِ بلا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لا بِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لا بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لا بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لا بِلَطَافَةٍ. بَانَ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا. وَبَانَتِ الأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ

أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ؟ فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ؟ فَقَدْ حَيَّزَهُ. وَعَالِمٌ إِذْ لا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لا مَرْبُوبٌ. وَقَادِرٌ إِذْ لا مَقْدُورٌ.

أقول: المشاعر: الحواس. إذ هي محل الشعور.

وقد حمد الله تعالى باعتبارات من أوصافه، وفي الفصل أبحاث من العلم الإلهي:

الأول: الإشارة إلى وجوده تعالى الواجب، وللناس في إثباته طريقان:

إحديهما: إثبات وجوده بالنظر في نفس الوجود، وقسمته إلى أقسام حاصرة، وتقرير هذه الطريقة أن يقال: لا شك في وجود موجود فذلك الموجود إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإن كان ممكناً افتقر إلى مؤثر بناء على أنّ العلة المحوجة إلى المؤثر هي الإمكان، وذلك الموجود إن كان ممكناً افتقر إلى غيره ولزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطلان:

أما الأول: فلأنه لو افتقر كل واحد من الأمرين إلى الآخر باعتبار واحد لزم تقدم كل منهما على المتقدم على نفسه فيلزم تقدمه على نفسه بمراتب.

وأما الثاني: فلأنه ولو كانت سلسلة من علل ومعلولات لا نهاية لها في الوجود لكان مجموعها ممكناً لافتقاره إلى الأجزاء التي هي غيره وبمجموعها علّة تامة فهي إما نفسه وهو محال بالبديهة أو أمر داخل فيه وهو باطل. لأن العلة التامة للمركب علّة أولاً لأجزائه وإلاّ لتوقف على علّة أجزائه فلم تكن علّة تامة له. بل هي مع علّة أجزائه هذا خلف، وإذا كانت علة المركب علّة أولاً لأجزائه لزم كون ذلك الجزء المؤثر في المجموع مؤثراً في نفسه أولاً، وفي علله السابقة فيلزم تقدمه على نفسه بمراتب غير متناهية، وذلك باطل بالبديهة فبقي أن يكون المؤثر في ذلك المجموع إما أمراً خارجاً عنه أو ما يتركب من الداخل والخارج عنه لكن القسم الثاني أيضاً باطل لأن الداخل لما كان جزءاً من العلة المركبة فله تقدم عليها، وهي متقدمة على مجموع الممكنات فلها تقدم عليه وعلى أجزائه، فجزؤها كذلك فله تقدم على نفسه وعلى علله، وهو باطل فبقي الأول لكن الموجود الخارج عن كل الممكنات لا يكون ممكناً. بل واجب الوجود، وهو المطلوب، وهذه طريق العلّيين الذين يستدلون به على مخلوقاته ويسمونه برهان اللمّ.

وأما الطريقة الثانية: فهي الاستدلال بالنظر في المخلوقات وطبائعها وإمكانها وتكثّرها وقبولها للتغيّر والتركيب على مبادئها. ثم على المبدئ الأول - جلت عظمته - وهي طريق الطبيعيين وهي التي أشار إليها عليه السلام بقوله: الدال على وجوده بخلقه، والمتكلمون فرعوا هذه الطريق إلى أربع طرق:

أحدها: أنهم استدلوا بحدوث هذه الذوات على إمكانها وبإمكانها على حاجتها إلى موجد ومؤثر، وهي طريق الأشعري وأبي الحسين البصري والمتأخرين من المتكلمين.

الثانية: استدلوا بحدوث هذه الذوات فقط على وجود محدث لها من غير نظر إلى الإمكان فقالوا: الأجسام محدثة وكل محدث فله محدث، والمقدمة الأولى استدلالية، والثانية عندهم بديهية.

الثالثة: استدلالهم بإمكان الصفات، وذلك أن بيّنوا أن الأجسام الفلكية والعنصرية متماثلة، ثم قالوا: رأينا بعضها قد اختصّ بصفات ليست للآخر فذلك التخصيص ليس للجسمية ولا للوازمها، وإلاّ لوجب في كل جسم كذلك، ولا لعارض من عوارضها لأنَّ الكلام في تخصيص ذلك العارض كالكلام في الأول، ويلزم التسلسل، ولا للطبيعة كما يقول بعض الناس لأنها لا تفعل في المادة البسيطة كالنقطة مثلاً فعلاً مختلفاً فبقي أن يكون ذلك التخصيص لمدبر حكيم وهو مرادنا بالصانع.

الرابعة: الاستدلال بحدوث الصفات وهو ظاهر، وتقرير هذه الطرق وما لها وعليها في الكتب الكلامية، وينبغي أن يخصص المتكلم قوله عليه السلام: الدال على وجوده بخلقه الطريقة الأولى لهم، والثالثة فإنه عليه السلام جعل الحدوث دليلاً على الأزلية.

البحث الثاني: في أزليته، وبيانه ما ذكره عليه السلام بقوله: وبمحدث خلقه على أزليته، وتقرير هذه الدلالة أنه قد ثبت في موضعه أن جميع المحدثات صادرة عن

قدرته تعالى ومنتهية عندها فلو كان هو محدثاً لكان محدثاً لنفسه وهو باطل بالضرورة.

البحث الثالث: أنه لا مثل له ولا شبيه، وإليه الإشارة بقوله: وباشتباههم على أنه لا شبيه له، وأراد اشتباههم في الحاجة إلى المؤثر والمدبر، وتقرير هذه الطريق أن نقول: إن كان تعالى غنياً عن المؤثر فلا شبيه له في الحاجة إليه لكن المقدم حقّ. فالتالي مثله، وقيل: أراد اشتباههم في الجسمية، والجنس والنوع والأشكال والمقادير والألوان ونحو ذلك، وإذ ليس داخلاً تحت جنس لبراءته عن التركيب المستلزم للإمكان، ولا تحت النوع لافتقاره في التخصيص بالعوارض إلى غيره، ولا بذي مادة لاستلزامها التركيب أيضاً فليس بذي شبيه في شيء من الأمور المذكورة، والأول أعمّ في نفي الشبيه.

البحث الرابع: أن المشاعر لا تستلمه، وبيانه أن استلام المشاعر مستلزم للجسمية والأعراض القائمة بها، وإذ قد تنزّه قدسه تعالى عن الجسمية ولواحقها فقد تنزّه عن إدراك المشاعر ولمسها.

البحث الخامس: أن السواتر لا تحجبه، وبيانه أن الحجاب والستر من لواحق ذي الجهة والجسمية، وإذ تنزّه قدسه عنها فقد تنزه عن الحجب والستر المحسوسين.

وقوله: لافتراق الصانع والمصنوع. إلى قوله: والمربوب.

التعليل راجع إلى الجمل المتقدمة كلها. إذ كان لكل من الصانع والمصنوع صفات تخصّه ويتميّز بها وهي أليق به، وبها يفارق الآخر فالمخلوقية والحدوث والاشتباه والملموسية بالمشاعر والحجب بالسواتر من لواحق الأمور الممكنة المصنوعة، ومما ينبغي لها ويليق بها، والوجود الأزلي الذي لا شبيه له المنزّه عن المشاعر وحجب السواتر من لواحق الصانع الأول الواجب، وهو الذي ينبغي له ويليق به، ويضاد ما سبق من أوصاف الممكنات، وأراد بالحاد خالق الحدود والنهايات وهو الصانع، واعتبار الصانع غير اعتبار الرب لدخول المالكية في مفهوم الربوبية دون الصنع.

البحث السادس: في وحدانيّته وقد سبق برهانها، وأراد بقوله: ليس بمعنى العدد أن وحدانيته ليس بمعنى كونه مبدءً لكثرة تعدّ به كما يقال في أول العدد واحد، وقد علمت فيما سبق أن الواحد يقال بالاشتراك اللفظي على معانٍ عديدة عرفتها وعرفت إطلاق الواحد عليه تعالى بأي معنى هو، وأنّه لا يجوز أن يكون مبدئاً للعدد بل هو تعالى واحد بمعنى أنه لا ثاني له في الوجود بمعنى أنه لا كثرة في ذاته بوجه لا ذهناً ولا خارجاً، وبمعنى أنه لم يفته من كماله شيء بل كل ما ينبغي أن يكون له فهو بالذات والفعل.

البحث السابع: في كونه تعالى في خالقيته منزهاً عن الحركات والمتاعب، وقد عرفت لميّة ذلك في الخطبة الأولى، وهو كونهما من لواحق الأجسام المنزّه قدسه عنها.

البحث الثامن: كونه سميعاً لا بأداة: أي لا بسمع، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى.

البحث التاسع: كونه بصيراً لا بتفريق الآلة، وتفريقها إما عبارة عن بعث القوة الباصرة وتوزيعها على المبصرات، وهذا المعنى على قول من جعل الإبصار بآلة الشعاع الخارج من العين المتصل بسطح المرئي أظهر. فإن توزيعه أوضح من توزيع الآلة على قول من يقول: إن الإدراك يحصل بانطباع صورة المرئي في العين، ومعنى التفريق على القول الثاني هو تقليب الحدقة وتوجيهها مرة إلى هذا المبصر، ومرة إلى ذاك كما يقال: فلان مفرّق الهمة والخاطر إذا وزع فكره على حفظ أشياء متباينة ومراعاتها كالعلم وتحصيل المال، وظاهر تنزيهه تعالى عن الإبصار بآلة الحس لكونها من توابع الجسمية ولواحقها.

البحث العاشر: كونه تعالى شاهداً: أي حاضراً لا بمماسة شيء، والمراد تنزيه حضوره عن مماثلة حضور الجسمانيات المستلزم للقرب المستلزم لمماسة الأجسام وتقارب أين من أين فهو تعالى الحاضر لعلمه عند كل شيء والشاهد لكل شيء من غير قرب ولا مماسة ولا أين مطلقاً لتنزهه عن الجسمية ولواحقها.

البحث الحادي عشر: أنه تعالى مبائن للأشياء لا بتراخي مسافة: أي أن مباينته للأشياء لا تستدعي التميز

بالوضع والأين بل بذاته فقط، وقد سبق تقرير ذلك في الخطبة الأولى أيضاً.

البحث الثاني عشر: أنه الظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، وذلك أن الظاهر من الأجسام ما كان منها مرئياً بحاسة البصر والباطن منها ما كان لطيفاً إمّا لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء؛ وظهوره تعالى وبطونه منزّه من هاتين الكيفيتين، وقد شرحنا هذين الوصفين غير مرة.

البحث الثالث عشر: كونه بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها. إلى قوله: إليه. ذكر في بينونته تعالى من مخلوقاته ما ينبغي له من الصفات، وفي بينونتها منه ما ينبغي لها فالذي ينبغي له كونه قاهراً لها غالباً عليها ومستولياً، وكونه قادراً على إيجادها وإعدامها، والذي ينبغي لها كونها خاضعة في ذلّ الإمكان والحاجة لعزّته وقهره وراجعة في وجودها وكمالاتها إلى وجوده، وبذلك حصل التباين بينها وبينه.

البحث الرابع عشر: تنزيهه عن الصفات الزائدة بالقياس الذي ذكره بقوله: من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، وقد مرّ هذا القياس بعينه في الخطبة الأولى بأتم تقرير وأبلغ تحقيق غير أنه قال هناك: ومن أشار إليه فقد حدّه، وقال هٰهنا: ومن وصفه فقد حدّه لكن المراد بوصفه هنا هو إشارة الوهم إليه، واستثباته بكيفيات وصفات فيكون معنى العبارتين واحد.

وقوله: ومن عدّه فقد أبطل أزله.

لما كان عدّه عبارة عن جعله مبدأ لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة، وكان ذلك من لواحق الممكنات والمحدثات غير المستحقّة للأزلية بالذات لا جرم كان من عدّه بأحد الاعتبارين مبطلاً أزله الذي يستحقه لذاته.

البحث الخامس عشر: تنزيهه أن يسأل عنه بكيف لأنها سؤال عن الكيفية والصفة وهو معنى قوله: قد استوصفه، وقد بيّنا تنزيهه تعالى عن الكيفيّات والصفات.

البحث السادس عشر: تنزيهه عن السؤال عنه بأين، وذلك لأنها سؤال عن الحيّز والجهة اللذين هما من لواحق الأجسام، وقد بيّنا تنزيهه تعالى عن الجسميّة وما ينبغي لها فليس هو سبحانه في مكان وهو في كل مكان بعلمه وإحاطته.

البحث السابع عشر: كونه تعالى عالماً. إذ لا معلوم. إلى قوله: مقدور.

وقد علمت معنى علمه وربوبيّته وقدرته، وعلمت أن الإشارة بإذ إلى اعتبار تقدّمه بذاته على معلوماته ومعلولاته، وظاهر عند ذلك الاعتبار أنه لا معلوم في الوجود سوى ذاته لذات ولا مربوب ولا مقدور موجود هناك. بل هي واجبة التأخر عن ذلك الاعتبار سواء كانت بعد ذلك محدثة كلها كما عليه المتكلّمون أو بعضها كما عليه الأوائل، وبالله التوفيق والعصمة.

ومنها: قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لامِعٌ، وَلاحَ لائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ، وَاسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً، وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ. وَإِنَّمَا الأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ إِلاّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالإِسْلامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذٰلِكَ لأَنَّهُ اسْمُ سَلامَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ. اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكَمٍ. لا تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلاّ بِمَفَاتِيحِهِ، وَلا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاّ بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفِي، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي.

أقول: العرفاء: جمع عريف وهو النقيب، وهو دون الرئيس.

وأشار بطلوع الطالع إلى ظهور الإمرة والخلافة عليه، وانتقالها إليه، وبلموع اللامع إلى ظهورها من حيث هي حق له، وسطوع أنوار العدل بصيرورتها إليه، وبلوح اللائح إلى ما يلحق انتقالها إليه من الفتن والحروب الموعودة التي لاحت أماراتها يومئذٍ، وقال

بعض الشارحين: المراد بالثلاثة معنى واحد؛ وهو انتقال الخلافة إليه.

فقوله: واعتدل مائل.

فالمائل الخلافة فيمن كان قبله في نظره. إذ كان اعتقاده أنه أولى بها وأن العدل أن يكون فيها، واعتدل ذلك المائل بانتقالها إليه، واستبدل الله بقوم: أي من سبق عليه قوماً: أي وهو وتابعوه، وبيوم يوماً كناية عن زمانها بزمانهم.

وقوله: وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر.

إشارة إلى ما كان يتوقعه من انتقال هذا الأمر إليه، وأراد بالغير تغيّرات الدهر وتقلبات الأحوال.

فإن قلت: أليس هو المطلق للدنيا فأين هذا القول من طلاقها ثلاثاً؟

قلت: إنّه يطلّقها من حيث هي دنيا، ولم يردها لذاتها، ولم يطلّقها من حيث يعمر بها الآخرة بإنكار المنكرات، وإظهار العدل وإقامة عمود الدين وحراسته. فإنّ طلبه لها إنما كان لذلك كما سبق في قوله لابن عباس بذي قار وهو يخصف نعله، وشبّه انتظاره للغير بانتظار المجدب للمطر، ووجه الشبه شدّة التوقع وانتظاره، ويمكن أن يلاحظ في وجه الشبه لواحق الأمرين المنتظرين. إذ من لواحق ما انتظره هو عن الغير وانتقال الأمر إليه شمول العدل وظهور الحق في موارده المشبه لوقع المطر في الأرض المجدبة، واستلزامه للخير والبركة. ثم شرع في تعريف حال الأئمة وما نصبوا له.

وقوله: لا يدخل الجنة إلاّ من عرفهم وعرفوه.

معناه أن أهل كل عصر لا يدخلون الجنة إلاّ بمعرفة إمامهم ومعرفته لهم، وأراد الأئمة من ولده عليهم السلام ومعرفتهم معرفة حق ولايتهم وصدق إمامتهم، وبيان الحصر من وجهين:

أحدهما: أن دخول الجنّة لا يمكن لأحد من هذه الأمّة إلاّ باتباع الشريعة ولزوم العمل بها، ولا يمكن ذلك إلاّ بمعرفتها ومعرفة كيفيّة العمل بها، ولا يمكن ذلك إلاّ ببيان صاحب الشريعة والقائم بها، وإرشاده وتعليمه، وذلك لا يمكن إلاّ بمعرفة المأموم للإمام وحقيّة إمامته وصدق ولائه له ليقتدي به، ومعرفة الإمام للمأموم ليهديه. فإذن دخول الجنة مستلزم لمعرفة الإمام للمأمومين ومعرفتهم له.

الثاني: إنّ معرفة هؤلاء الأئمة على رأيه عليه السلام كما هو المشهور المنقول عنه، ومعرفة حقيّة إمامتهم وصدق ولايتهم ركن من أركان الدين فلا يدخل الجنة إلاّ من أقامه، ومن عرفهم كذلك وجب معرفتهم له بذلك.

فإن قلت: فنحن نرى كثيراً من شيعة هؤلاء الأئمة ومحبيهم لا تعرفهم الأئمة ولا يرون أشخاصهم.

قلت: لا يشترط في معرفتهم لمحبّيهم ومعرفة محبّيهم لهم المعرفة الشخصيّة العينيّة بل الشرط المعرفة على وجه كلي، وهو أن يعلموا أن كل من اعتقد حق إمامتهم واهتدى بما انتشر من هديهم فهو وليّ له، ومقيم لهذا الركن من الدين فيكونون عارفين بمن يتولاّهم على هذا الوجه، ومن يتولاّهم عارفاً بهم لمعرفته بحقيّة ولايتهم، واعتقاد ما يقولون وإن لم يشترط المشاهدة والمعرفة الشخصية. وأما أنه لا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وأنكروه فهو أيضاً حق وذلك أن دخول الجنة مستلزم لمعرفتهم على الوجه الذي قرّرناه، ومنحصر فيه فكل واحد ممن يدخل الجنة عارف بهم، وذلك يستلزم أنه لا واحد ممن يدخل الجنة بمنكر لهم لأن معرفتهم وإنكارهم مما لا يجتمعان في ملزوم واحد.

إذا عرفت ذلك فنقول: إن من أنكرهم فأنكروه لا يجوز أن يكون أعمّ ممن يدخل النار: أما أولاً فللخبر المشهور من مات ولم يعرف إمام وقته مات ميتة جاهلية دلّ الخبر على أن إنكارهم مستلزم للميتة الجاهلية المستلزمة لدخول النار.

وأما ثانياً فلأنه لو كان أعم لصدق على بعض من يدخل الجنة فبعض المنكر لهم يدخل الجنة فينعكس بعض من يدخل الجنة منكر لهم، وقد بيّنا أنه لا واحد ممّن يدخل الجنة بمنكر لهم هذا خلف، وكذلك لا يجوز أن يكون أخصّ وإلاّ لصدق على بعض من يتولاّهم ويعترف بصدق إمامتهم أنه يدل النار لكن ذلك باطل لقول الرسول صلى الله عليه وآله: يحشر المرء مع من أحبّ،

ولقوله: لو أحب رجل حجراً لحشر معه دل الخبر على أن محبة الإنسان لغيره مستلزمة لحشره معه.

وقد ثبت أنهم عليهم السلام إلى الجنة يحشرون فكذلك من أحبّهم واعترف بحقيّة إمامتهم، ودخول الجنة مع دخول النار مما لا يجتمعان فثبت أنه لا واحد ممن يحبهم ويعترف بحقهم يدخل النار فقد ظهر إذن صدق هذه الكلية أيضاً، ووجه الحصر فيها. ثم أخذ في إظهار منّة الله تعالى عليهم بالقرآن الكريم وتخصيصهم به من سائر الكتب واستخلاصهم له، وإعدادهم لقبوله من سائر الأمم. ثم نبّه على بعض أسباب إكرامه تعالى لهم به أما من جهة اسمه فلأنه مشتق من السلامة بالدخول في الطاعة، وأما من معناه فمن وجوه:

أحدها: أنه مجموع كرامة من الله لخلقه لأن مدار جميع آياته على هداية الخلق إلى سبيل الله القائدة إلى جنّته.

الثاني: أن الله تعالى اصطفى منهجه؛ وهو طريقته الواضحة المؤدية للسالكين بأيسر سعي إلى رضوان الله.

الثالث: أنه تعالى بيّن حججه، وهي الأدلّة والأمارات، ومن للتمييز والتقسيم هنا تقسيم الحجج إلى ظاهر علم، وأشار إلى ظواهر الشريعة وأحكامها الفقهية وأدلّة تلك الأحكام، وباطن حكم وأشار به إلى ما يشتمل عليه الكتاب العزيز من الحكمة الإلهية وأسرار التوحيد وعلم الأخلاق والسياسات وغيرها.

الرابع: أنه لا تفنى عزائمه [غرائبه خ] وأراد بالعزائم هنا آياته المحكمة وبراهينه العازمة: أي القاطعة، وعدم فنائها إشارة إمّا إلى ثباتها واستقرارها وطول المدة وتغيّر الأعصار، وإمّا إلى كثرتها عند البحث والتفتيش عنها.

الخامس: ولا تنقضي عجائبه؛ وذلك أنه كلما تأمله الإنسان استخرج منه بفكره لطائف معجبة من أنواع العلوم لم يكن عنده من قبل.

السادس: فيه مرابيع النعم، واستعار لفظ المرابيع؛ وهي الأمطار تأتي زمن الربيع فتحيي الأرض وتنبت الكلأ لما يحصل عليه الإنسان من النعم ببركة القرآن، ولزوم أوامره ونواهيه وحكمه وآدابه: أمّا في الدنيا فالنعم التي تحصل ببركته لحامليه من القراء والمفسرين وغيرهم ظاهرة الكثرة، وأما بالنسبة إلى الآخرة فما يحصل عليها مقتبسو أنواره من الكمالات المسعدة في الآخرة من العلوم والأخلاق الفاضلة أعظم نعمة وأتمّ فضل، ووجه الاستعارة ظاهر.

السابع: أن فيه مصابيح الظلم؛ واستعار لفظ المصابيح لقوانينه وقواعده الهادية إلى الله في سبيله كما يهدي المصباح في الطريق المظلمة.

الثامن: أنه لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتيحه، وأراد الخيرات الحقيقية الباقية، واستعار لفظ المفاتيح لمناهجه وطرقه الموصلة إلى تلك الخيرات، ووجه الاستعارة كونها أسباباً موصلة إليها. كما أن المفاتيح أسباب موصولة إلى خيرات الخزائن مثلاً.

التاسع: ولا تكشف الظلمات إلاّ بمصابيحه، وأراد ظلمات الجهل، وبالمصابيح قوانينه كما سبق استعارة.

العاشر: كونه قد أحمى حماه: أي هيأه وعرّضه لأن يحمى كما يقال: أقتلت فلاناً وأضربته إذا هيأته للقتل وعرّضته للضرب، واستعار لفظ الحمى لحفظه وتدبّره والعمل بقوانينه، ووجه الاستعارة أن بذلك يكون حفظ الشخص وحراسته: أما في الدنيا فمن أيدي كثير من الظالمين لاحترامهم حملة القرآن ومفسّريه، ومن يتعلّق به، وأمّا في الآخرة فلحمايته حفظته ومتدبّريه والعامل به من عذاب الله كما يحمي الحمى من يلوذ به، ونسبة الإحماء إليه مجاز إذ المعرض له أن يتدبر ويعمل به هو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وحملته، وقيل: أراد بحماه محارمه، وأحماه: أي منع بنواهيه وزواجره أن تستباح محارمه، وهو أخص مما قلناه أولاً.

الحادي عشر: وكذلك أرعى مرعاه: أي هيّأه لأن يرعى، واستعار لفظ المرعى للعلوم والحكم والآداب التي يشتمل عليها القرآن، ووجه المشابهة أن هذه مراعي النفوس الإنسانية، وغذاؤها الذي به يكون نشؤها العقلي ونماؤها الفعلي. كما أن المراعي المحسوسة من النبات والعشب غذاء للأبدان الحيوانية التي بها يقوم وجودها.

الثاني عشر: فيه شفاء المشتفي: أي طالب الشفاء منه: أما في الأبدان فبالتعوذ به مع صدق النية فيه

وسلامة الصدور، وأما في النفوس فلشفائها به من أمراض الجهل.

الثالث عشر: وكفاية المكتفي، وأراد بالمكتفي طالب الكفاية: أما من الدنيا فلأن حملة القرآن الطالبين به المطالب الدنيوية هم أقدر أكثر الناس على الاحتيال به في تحصيل مطالبهم وكفايتهم بها، وأما في الآخرة فلأن طالب الكفاية منها يكفيه تدبّر القرآن ولزوم مقاصده في تحصيل مطلوبه منها، وبالله التوفيق.

١٥٣ - ومن خطبة له عليه السلام

في صفة الضالّ

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ. بِلا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلا إِمَامٍ قَائِدٍ.

أقول: هذا الفصل يشتمل على صفة مطلق الضال، وأشار بالمهلة إلى مدة عمره المضروبة له من الله تعالى، وبهويه مع الغافلين إلى سقوطه وانخراطه في سلكهم بسبب جهله وغفلته عما يراد به، واستعار لفظ الهوى لذلك الانخراط وتلك المتابعة، ووجه المشابهة أن المنهمك في مجاري الغفلة ومسالك الجهل ينحط بها عن درجة أهل السلامة، ويهوي في مهابط الهلاك وهي الرذائل المبعدة عن الله تعالى كما أن الهاوي من علوّ كذلك، ويغدو مع المذنبين موافقته لهم فيما هم فيه، ومسارعته إلى المعاصي من غير أن يسلك سبيلاً قاصداً للحق ويتّبع إماماً يقوده إليه من أُستاذ مرشد أو كتاب أو سنة، وبالله التوفيق.

ومنها: **حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ. وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلابِيبِ غَفْلَتِهِمْ، اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ. إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلالَ فِي الْمَغَاوِي، وَلا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ. فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لا بُدَّ مِنْهُ وَلا مَحِيصَ عَنْهُ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَكَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.**

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى.

أقول: الجلباب: الملحفة. والوطر: الحاجة. والجدد: الطريق الواضح.

وصدر هذا الفصل صفة غاية الغافلين عن أحوال الآخرة المشمّرين في طلب الدنيا، وفاعل كشف ضمير يعود إلى اسم الله تعالى فيما سبق من الكلام، وقد علمت أنّ النفس ذا جهتين: جهة تدبير أحوالها البدنية بما لها من القوة العملية، وجهة استكمالها بقوتها النظرية التي تتلقى بها من العاليات كمالها، وعلمت أن بقدر خروجها عن حدّ العدل في استكمال قوتها العمليّة تنقطع عن الجهة الأُخرى، وتكشفها الهيئات البدنية فتكون في أغطية منها وجلابيب من الغفلة عن الجهة الأُخرى بالانصباب إلى ما يقتنيه مما يعدّ خيراً في الدنيا، وبحسب انصبابها في هذه الجهة، وتمكن تلك الهيئات البدنية منها يكون بعدها عن بارئها ونزولها في دركات الجحيم عن درجات النعيم، وبالعكس كما قال عليه السلام: الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من إحديهما تبعد عن الأخرى، وظاهر أن بالموت تنقطع تلك الغفلة، وتنكشف تلك الحجب فيومئذٍ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى، ويكون ما أُنبه يومئذٍ من تعلّق

تلك الهيئات بنفسه، وحطها له عن درجات الكمال وما شاهده من السلاسل والأغلال هو جزاء معصيتهم المنكشف لهم، ولفظ الجلابيب استعارة لفظ المحسوس للمعقول، ووجه المشابهة حجب الغفلة لأعين بصائرهم عن التنوّر بأنوار الله كحجب الوجه بالجلباب، والمدبر الذي استقبلوه هو العذاب الأخروي، والأهوال التي كانت غائبة عنهم، والمقبل الذي استدبروه هو ما كانوا فيه من مأمولاتهم وأحوالهم الدنيوية، وظاهر أنهم لم ينتفعوا إذن بما أدركوا من طلباتهم الدنيوية، ولا بما قضوا من أوطارهم وحاجاتهم الحاضرة فيها. ثم عاد إلى التحذير من هذه المنزلة: أي الحالة التي هؤلاء الموصوفون عليها من الغفلة. فإنّها مقام صعب ومزلّة قدم، وشرك نفسه في التحذير لأنه أدخل في جذب نفوس السامعين إلى طاعته. ثم أمر كلاً بالانتفاع بنفسه، وشرح كيفية الانتفاع بشرح حال البصير لأنه لا ينتفع بنفسه إلاّ البصير، وذكر أموراً:

فالأول: أن يتفكّر فيما يسمعه من كلام الله ورسوله والمواعظ البالغة فإنه لا ينتفع بها بدون الفكر كما علمته.

الثاني: أن ينظر بعين حسّه، وببصيرته فيتوخى المقاصد النافعة فيبصرها ويدرك بعقله منها العبر.

الثالث: أن ينتفع بما يدركه من العبر وذلك بالعمل على وفق ما علم وأدرك.

الرابع: أن يسلك الصراط المستقيم الذي وردت به الشريعة وهو الجدد الواضح، ويتجنّب فيه العدول والانحراف بأنه من انحرف عنه ولو باليسير انصرع في مهواة وضل في مغواة، وقد نبّهناك فيما سلف على ذلك بالمثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: ضرب الله مثلاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط أبواب مفتّحة، وعليه ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داع يقول: جوزوا ولا تعرّجوا. قال: فالصراط هو الدين، وهو الجدد الواضح هنا، والداعي هو القرآن، والأبواب المفتّحة محارم الله، وهي المهاوي والمغاوي هنا، والستور المرخاة هي حدود الله ونواهيه. ثم نهى أن يعين الإنسان على نفسه الغواة بأحد أمور: أن يتعسّف في حق: أي لا يحملهم على مرّ الحق وصعبه فإنّ الحق له درجات بعضها أسهل من بعض، فالاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النفرة عمّن يقوله ويأمر به، والعداوة له والقول فيه، ويحتمل أن يريد بالتعسف في الحق التكلّف في العمل به مع نوع من التقصير فيه. فإنّ الغواة هم تاركو الحق فإذا وجدوا ركيكاً فيه أو متكلفاً للعمل به مقصّراً طمعوا في إلانته للباطل. فكان قد أعانهم على نفسه بذلك، وكذلك إذا آنسوا منه الكذب والتحريف في القول أو التخوّف من الصدق كأن ادعى لهم من الطمع في انفعاله لباطلهم، وإدخاله فيه فكان معيناً لهم على إغواء نفسه بذلك. ثم عاد إلى أمر السامع بأوامر:

أحدها: الإفاقة من سكرة الجهل والتيقّظ من الغفلة في الدنيا، ولفظ السكرة مستعار، ووجه المشابهة كون الغفلة مستلزمة لترك أعمال العقل كما أن السكر كذلك.

الثاني: بالاختصار من العجلة، وأراد بالعجلة سرعة الحركة في طلب الدنيا والاهتمام بها، وباختصارها تخفيف تلك الحركة وتقليلها.

الثالث: بإنعام الفكر فيما دار على لسان الرسول صلى الله عليه وآله والإكثار من ذكر الموت وعرض النفوس على ديّانها، وإنعام الفكر في ذلك تدقيق النظر في حال الموت وما بعده، والاعتبار بما لا بدّ منه ولا محيص عنه من ذلك.

الرابع: بمخالفة من خالف ذلك ونظر في غيره مما عنه بدّ من أحوال الدنيا وزينتها، وأن يدع ذلك المخالف، وما رضي لنفسه من التعوّض بالأمور الفانية عن الأمور الباقية، وما يستلزم ذلك من الشقاوة الأخروية.

الخامس: أن يضع الفخر ويحطّ الكبر، وقد سبق بيان ما في الكبر من الآفات، والفخر مستلزم للكبر. إذ كل مفتخر متكبّر أو متلازمان.

السادس: أن يذكر قبره لأن في ذكره عبرة تامّة.

وقوله: فإن عليه ممرّك.

تنبيه له على وجوب الذكر له فإنّ السالك لطريق لا بدّ من سلوكها إذا كان فيها منزل موحش مظلم وجب

الاستعداد له بحمل الضوء للاستنارة فيه، والإنسان في سلوكه لطريق الآخرة لا بدّ له من المرور بالقبر وأحكام الشارع أكثرية، ثمّ نبّه بالمثلين المشهورين: كما تدين تُدان على وجوب حسن المعاملة مع الله سبحانه. إذ كان حسن جزائه بقدر حسن معاملة العبد، وقبحه بقبحها، وكذلك قوله: كما تزرع تحصد، ولفظ الزرع مستعار لما يفعله الإنسان فيكسب نفسه ملكة خيريّة أو شرّية، وكذلك لفظ الحصد للحصول على ما تثمره تلك الآثار، وتستلزمه من ثواب أو عقاب، ووجه الاستعارتين ظاهر.

وقوله: وكما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً.

ظاهر فإن الهيئات النفسانية التي هي ثمرات الأفعال المستلزمة للسعادة أو الشقاوة، وإن كانت مستصحبة للنفس مدة بقائها في الدنيا أيضاً إلاّ أنها لا تنكشف لها إلاّ بعد المفارقة كما سبق بيانه فتكون حينئذٍ حالة الانكشاف بمنزلة من قدم على أمر لم يكن معه، وإذا كان كذلك فينبغي للإنسان أن يمهد لقدمه: أي يوطئ موضع قدمه في الآخرة بطيب الأعمال، ويقدم صالحها ليوم قيامته. ثم عاد إلى تحذيره من حيث هو مستمع للموعظة، وإلى أمره بالجدّ في العمل لما بعد الموت واليقظة من الغفلة، ونبّه باقتباس الآية على أن الواعظ له خبير بأحوال طريق الآخرة وأهوالها ولا يخبر بحقائق الأمور كالعارف بها. ثم عاد إلى التحذير من بعض الكبائر التي نصّ القرآن المجيد أنها مستلزمة للعقاب لا محالة، والذكر الحكيم هو القرآن، وقد سبق بيان معنى العزائم منه، وقيل: هو اللوح المحفوظ.

وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لا يَنْفَعُ عَبْداً - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاكِ نَفْسٍ، أَوْ يُقِرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اِعْقِلْ ذٰلِكَ، فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا. وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ.

اسم إن أنّه لا ينفع، والضمير في أنه ضمير الشأن، وفاعل ينفع أن يخرج، ولاقياً نصب على الحال، وأراد أن من جملة نصوص الله سبحانه التي هي في محكم كتابه العزيز التي باعتقادها والعمل على وفقها يثيب ويرضى، وبتركها يعاقب ويسخط أنه لا ينفع عبداً خروجه من الدنيا لاقياً ربه بأحد الخصال المذكورة وإن أجهد نفسه في العمل وأخلص فيه:

أحدها: الشرك بالله تعالى، وقد سبق منّا بيان درجات الشرك، وبقدر قوته وضعفه يكون قوة العقاب وضعفه، والنص الدالّ على مضرته المستلزم لعدم نفعه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]. وقوله: فيما افترض عليه من عبادته يفهم منه أنه أراد الشرك بالرياء في العبادة لا اتّخاذ إله ثانٍ، وهذه الآية تلحق النفس تارة من غلبة الجهل عليها واستيلاء الغفلة وترك النظر في المعرفة والتوحيد وتارة من غلبة الشهوة كما تلحق نفس المرائي بعبادته لطلب الدنيا.

الثانية: أن يشفي غيظه بهلاك نفس، وفي نسخة نفسه، ونفس أعمّ وذلك الهلاك تارة في الدنيا كما يستلزمه السعي بالنميمة إلى الملوك ونحوه، وتارة في الآخرة باكتساب الآثام المستلزم لشفاء الغيظ، والنص فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] الآية، وهذه الآفة تلحقها بواسطة القوة الغضبيّة.

الثالثة: أن يقرّ بأمر فعله غيره: أي يتم على غيره بأمر فعله ذلك الغير فيستلزمه إهلاكه وأذاه فيدخل فيمن يسعى في الأرض فساداً، والنص عليه قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية.

وروى بعض الشارحين يعرّ بالعين المهملة، قال: ومعناه أن يقذف غيره بأمر قد فعله هو فيكون غيره

منصوباً مفعولاً به، والعامل يعرّ يقال عرّه يعرّه عرّاً: أي غابه ولحظه (لطخه خ) فعلى هذا يكون داخلاً في جملة الفاسقين والكاذبين والمؤذين للمؤمنين بغير ما اكتسبوا، وهذه الآفة تلحق النفس بشركة من الشهوة والغضب.

الرابعة: أن يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه كشاهد الزور لغاية يصل إليها، والمرتشي في الحكم والقضاء.

الخامسة: أن يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين: أي يلقى كلاً من الصديقين مثلاً بغير ما يلقى به الآخر ليفرّق بينهم أو بين العدوّين ليضري بينهما، وبالجملة أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه فيدخل في زمرة المنافقين، ووعيد المنافقين في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. ومطابقة ذلك من العقل أن من انتقش لوح نفسه بهيئات السوء ولم يمحها بالتوبة الحقة فهو من أصحاب النار.

وقوله: اعقل ذلك.

أي: اعقل ما أضربه لك من المثل، واحمل عليه ما يشبهه فإنّ المثل دليل على شبهه وذلك المثل قوله: إنّ البهائم. إلى قوله: والفساد فيها.

فقوله: إنّ البهائم همّها بطونها.

إشارة إلى أن الإنسان المتّبع لشهوته بمنزلة البهيمة في اتباع قوته الشهوية، والاهتمام بالطعام والشراب دون المطالب الحقيقية.

وقوله: إنّ السباع همّها العدوان على غيرها.

إشارة إلى أنّ متّبع القوة الغضبيّة بمنزلة السبع في اتباعها ومحبّة الانتقام والغلبة على الغير.

وقوله: وإن النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها.

إشارة إلى أن النساء متّبعة للقوّتين: الشهوية ولها كان همّهنّ زينة الحياة الدنيا، والغضبيّة ولها كان همّهنّ الفساد في الدنيا فالتابع لشهوته وغضبه لاحق بالنساء في ذلك. ثم لما حصر منابع الشر في قوّتي الشهوة والغضب ذكر المؤمنين بصفات ثلاث كل منها يستلزم كسر تينك القوّتين؛ وهي الاستكانة لله والخضوع له. ثم الإشفاق من غضبه. ثم الخوف من عقابه، وظاهر كون كل واحد من هذه الصفات جاذباً لهم عن طرف الإفراط في القوتين والخروج عن حدّ العدل فيهما، وغاية هذا المثل التنفير عن طاعة الشهوة والغضب بالتنبيه على أن الخارج فيهما عن حدّ العدل إلى ما لا ينبغي إمّا أن يشبه البهيمة أو السبع أو المرأة، وكل منهما مما يرغب العاقل عنه، وهو الذي أمر بعقليّته فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا الكلام من الإشارة اللطيفة الذي يشهد عليه عليه السلام بمشاهدة الحق كما هو، وإذا اعتبرت ذلك وأمثاله من الحكم البالغة ونظرت إلى أنه عليه السلام لم يرجع فيه إلى مطالعة كتاب أو استفادة بحث علمت أنه فيض ربّاني بواسطة إعداد سيّد البشر والأستاذ المرشد صلى الله عليه وآله وسلم قال الشارح الفاضل عبد الحميد ابن أبي الحديد - رحمه الله - إنّما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل. لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه، وإهلاك غيره من المسلمين وعيّروه عليه السلام بأمرٍ هم فعلوه، وهو التأليب على عثمان وحصره واستنجحوا حوائجهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة ولقوا الناس بوجهين ولسانين لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به. ثم نكثوا من وجه آخر فجعل ذنوبهم هذه بمنزلة الشرك في أنها لا تغفر إلاّ بالتوبة. قال: وهذا معنى قوله: اعقل ذلك فإنّ المثل دليل على شبهه. وبالله التوفيق.

١٥٤ - ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها فضائل أهل البيت

وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ. دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ.

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشِّعَارُ وَالأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ، لا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلاّ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً.

أقول: الأمد: الغاية. وغوره ونجده: منخفضه ومرتفعه. وأرز بفتح الراء: أي انقبض وانجمع.

وناظر قلب اللبيب: عين بصيرته. وظاهر أنه يبصر بها طريقه وغايته التي هي متوجه إليها ومطلوبه منها، وغوره ونجده طريقاه للخير والشر وهما النجدان في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وعبارة القرآن المجيد أخصر، وهذه العبارة أنسب إلى المعنى فإنّ الغور هو المنخفض والمستفل أنسب إلى أن يعبّر به عن رتبة النازلين في دركات الجحيم من النجد، وأشار بالداعي إلى الرسول ﷺ وما جاء به القرآن الكريم والسنّة، وبالراعي إلى نفسه، والأمر بالاستجابة للأول والاتباع للثاني، وظاهر وجوب الاستجابة لله ورسوله لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فيجب اتباع من أوجبا اتباعه.

وقوله: قد خاضوا بحار الفتن.

يحتمل أن يكون التفاتاً إلى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج، ويحتمل أن يكون منقطعاً عما قبله متصلاً بكلام لم يحكه الرضي - رضوان الله عليه - وإليه ذهب بعض الشارحين. قال: وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمّهم وعيبهم، ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب، وقد عرفت وجه الاستعارة قبل، ورشح بذكر الخوض، والبدعة قد يراد بها ترك السنّة، وقد يراد بها أمر آخر يفعل مع ترك السنّة، وهو الأظهر في العرف. ثم التفت إلى ذكر فصيلته فاستعار لفظ الشعار لنفسه وأهل بيته، ووجه المشابهة ملازمتهم للرسول ﷺ واختصاصهم به كما يلزم الشعار الجسد.

ثم ذكر كونهم أصحاباً له. ثم كونهم خزنة علمه كما نقل عن الرسول ﷺ هو خازن علمي، وفي رواية عيبة علمي، وقيل: خزنة الجنة على معنى أن من جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنة، وإلاّ فلا، ولفظ الخزن على التقديرين مستعار، ووجه المشابهة تصرّفهم بمنع العلم وإعطائه أو بمنع الجنة بسببهم، وإعطائها كما أن الخازن للشيء كذلك. ثم كونهم الأبواب: أي أبواب العلم كما قال ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها وأبواب الجنة على الاستعارة السابقة.

وقوله: لا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، وذلك لوجوه:

أحدها: العادة الجارية على وفق الحكمة.

الثاني: النص ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

الثالث: العرف وهو أنه من أتاها من غير أبوابها سميّ سارقاً، والتقبيح العرفيّ يستلزم الترك، ومراده أن من طلب العلم والحكمة وأسرار الشريعة فليرجع إلينا وبالله التوفيق.

ومنها: **فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ. إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ. فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ إِلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ!**

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ. وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ. وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَكُلُّ نَبَاتٍ لا غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ. فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ.

أقول: الإشارة إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام فالأولى: فيهم كرائم الإيمان: أي نفائسه المستلزمة لأشديّة القرب من الله تعالى كالأخلاق الفاضلة والاعتقادات الحقّة المطابقة لما عليه الأمر نفسه.

الثانية: وهم كنوز الرحمن: أي خزائن علمه وسائر ما أمر به من مكارم الأخلاق.

الثالثة: ملازمة منطقهم للصدق.

الرابعة: اختصاصهم بالحكمة التي لا يتمكن غيرهم من النطق بها والسبق إليها حال سكوتهم فهم إن نطقوا فبحكمة وإن صمتوا فحكمة ووضع للصمت في موضعه، وإنما ذكر هذه الفضائل لنفسه وأهل بيته جذباً إلى سماع قوله ودعوته إلى الله ولذلك عقب بالمثل فليصدق رائد أهله، وأشار به إلى من يحضرنا طلباً لاختيارنا فليصدق من يعينه أمره. إننا أهل الحق وينابيع العلوم والحكمة والأدلاء إلى الله. كما يصدق الرائد لطلب الكلأ والماء أهله مبشراً بهما، وليحضر عقله لما يقوله ليعرف صحة ما ادّعيناه. ثم شرع فيما ينبغي أن يقوله أمثاله، وهو التنبيه على أحوال الآخرة، وأن يكون العاقل من أبنائها، ووجه استعارة البنوة هٰهنا.

قوله: فإنّه منها قدم وإليها ينقلب.

أي: كما أن الابن ينقلب عن الأمّ وإليها ولهه ورجوعه كذلك الإنسان. مبدؤه الحضرة الإلهية فعنها ينقلب وإليها يعود فينبغي أن يكون من أبنائها بالرغبة فيها والوله إليها والعمل لها. ثم نبّه العاقل ذا الفكر السليم الناظر بعين بصيرته على ما ينبغي له أن يبدأ به في حركاته وسكناته وهو أن يتفقد أحوال نفسه فيما يهمّ به، وينبعث في طلبه أو تركه، ويعلم أذلك الخاطر أو تلك الحركة مقربة له من الله تعالى فيكون له، فينبغي أن يمضي فيها أو مبعّدة له عن رضاه ومستلزمة لسخطه فيكون عليه فيقف عنها. ثم شبّه الجاهل في حركاته وسكناته بالسائر على غير طريق وأشار إلى وجه التشبيه بقوله: فلا يزيده بعده عن الطريق إلاّ بعداً عن حاجته. إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب، وبضدّه العامل بالعلم في سلوكه وقربه من مطلوبه، ونفر بذلك التشبيه عن الجهل وزاد في التنفير بقوله: فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع فإنّه إذا علم أنه سائر وجب أن يعلم كيف يسير ويشعل مصباح العلم ليسلم من الضلال والصرعة في مهاوي الهلاك.

وقوله: واعلم أن لكل ظاهر باطناً. إلى قوله: ويبغض بدنه.

فاعلم أن هذه القضيّة الكليّة صادقة وذلك أنه لما صدر عن الجود الإلهي عالماً الغيب والشهادة وإن شئت عالم الخلق والأمر وإن شئت العالم الروحاني والجسماني اقتضت الحكمة الإلهية كون عالم الشهادة طريقاً للنفوس البشرية إلى عالم الغيب ولولاها لتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهية وانسدّ طريق الترقي إلى الله. فكان جميع ما ظهر في عالم الشهادة مثالاً مناسباً لأمر باطن من عالم الغيب هو الطريق إليه. والدليل عليه غير أن المفهوم من كلامه عليه السلام هنا تخصيص تلك الكلية بأحد أمرين فإنّه إمّا أن يشير بالظاهر إلى أشخاص الناس أو إلى أفعالهم الظاهرة، والباطن إشارة إلى الأخلاق وأعمال القلوب، وما في الأمزجة المختلفة من الخير والشر.

وقيل: إشارة إلى ما يخفى من الثواب والعقاب في الآخرة، وقد دلّ الاستقراء والقياس على أن حسن الصورة أو حسن الأعمال الظاهرة التي تبدو من الإنسان، حسن الأخلاق طيّب العشرة مستقيم السيرة، وعلى أن قبيحها سيء الأخلاق شرير، أما الاستقراء فظاهر، وأما القياس فلأن حسن الأخلاق وقرب النفس من الاستقامة على طلب الحق مقتضي قرب المزاج من الاعتدال، وكذلك حسن الصورة فيترتب قياس هكذا: حسن الصورة معتدل المزاج وكل معتدل المزاج حسن الأخلاق فحسن الصورة حسن الأخلاق، وإن شئت هكذا: معتدل المزاج حسن الصورة ومعتدل المزاج حسن الأخلاق والقضيّتان أكثريتان فإن بعض حسن الصورة قبيح الباطن، وبعض خبيث الظاهر حسن الباطل، ولذلك استشهد بما رواه عن الرسول صلى الله عليه وآله. فإن الله يحبّ العبد من حيث صورته الحسنة لكونها مقتضى الحكمة الإلهية وأنسب إلى الوجود من القبيحة

التي هي أنسب إلى العدم الذي هو الشرّ المحض، ويبغض عمله من جهة ما هو شر.

وكذلك يحبّ العمل الحسن الباطن الطيب، ويبغض بدنه القبيح لنسبته إلى العدم الذي هو شر، وأما النص في دلالة الظاهر على الباطن فما نطق به القرآن الكريم: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] أي عسراً مشوماً. قال ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر بالأرض العذبة التربة وبالأرض السبخة المالحة، وشبّه فيه المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به فبان أثره عليه بحسن الأعمال وطيّبها بالبلد الطيب.

إذ كان البلد الطيب يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه، وشبّه الكافر الذي يسمع القرآن فلا يؤثر فيه أثراً محموداً بالبلد الخبيث. إذ كان لا يمرع ولا يخصب ولا يتبيّن أثر المطر فيه، وأما البغض والمحبة فقد علمت أنهما يعودان في الله سبحانه إلى إرادته وكراهيته فما كان خيراً محضاً أو الخير غالب عليه فهو مراد له بالذات، وما كان شراً محضاً أو غالباً فهو مراد له بالعرض مكروه له بالذات.

وقوله: وأعلم أن لكل عمل نباتاً.

استعار لفظ النبات لزيادة الأعمال ونموها، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الماء. وكنّى به عن المادة القلبيّة للأعمال، ووجه المشابهة أن الحركات في العبادة، إنما تكون بالميول القلبية والنيّات كما أن حركة النمو للنبات إنّما تكون بالماء، وظاهر أن اختلاف المياه في الحلاوة والملوحة سبب لاختلاف استعداد النبات لطيب المغارس والثمار فما طاب سقيه: أي نصيبه من الماء طابت ثمرته، وما خبثت ثمرته فكذلك ما يشبه النباتات وهي الأعمال يكون طيب ثمارها، وهي ثمار الجنّة وأنواع لذاتها بحسب طيب مادتها من الإخلاص لله، وخبثها بحسب خبث مادتها من الرياء وحب الشهرة وتكون ثمرتها أمرّ الثمار. إذ لا أمر مذاقاً من عذاب النار. وبالله التوفيق.

١٥٥ - ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها بديع خلقة الخفاش:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ، هُوَ اللهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً، خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلا مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ. وَيَبْسُطُهَا الظَّلامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ. وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلَ بِعَلانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَعَهَا بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ائْتِلاقِهَا، فَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ فِي وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً! وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلا قَصَبٍ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا. وَلَمْ يَغْلُظَا

فَيَثْقُلا. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاصِقٌ بِهَا لاجِىءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ. فَسُبْحَانَ الْبَارِي لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلا مِنْ غَيْرِهِ!

أقول: الخفاش: مفرد جمعه خفافيش، وهو من الخفش وهو ضعف البصر خلقةً. وانحسرت: كلت. وردعت: كفّت. والمساغ: المسلك. وسبحات إشراقها: جلالته وبهاؤه. والبلج: جمع بلجة وهو أول ضوء الصبح، وقد يكون مصدراً. والائتلاق: اللمعان. والإسداف: مصدر أسدف الليل ظلم. وغسق الدجنّة: ظلام الليل. ووضح النهار: ضوؤه. ووجار الضبّ: بيته. والشظايا: القطع.

وقد حمد الله تعالى باعتبارات:

الأول: انحسار الأوصاف عن كنه معرفته، ولما كانت ذاته تعالى بريئةً من أنحاء التراكيب لم يمكن العقول إدراكها بشيء من الأوصاف بالكنه، وقد سبق ذلك مراراً.

الثاني: ردع عظمته العقول عن بلوغ غاية ملكوته، وذلك ظاهر لأن الإدراك للأشياء بحقائقها إنّما يتم بإدراك حقائق عللها، وإذا استلزمت عظمته وارتفاعه عن إدراك العقول ردعها عن معرفة كنهه فظاهر أنها لا تجد مسلكاً إلى غاية ملكوته، وما عليه نظام الوجود الأعلى والأسفل كما هو.

الثالث: قوله: هو فهو الهوية المطلق، وهو الذي لا تكون هويته موقوفة على غيره ومستفادة منه فإن كل ما كان مستفاداً من الغير فما لم يعتبر غيره لم يكن هو فلم يكن هو هو المطلق، وكل ما كان هو هو لذاته فسواء اعتبر غيره أو لم يعتبر فهو هو لكن كل ممكن فوجوده من غيره فكل ما كان وجوده من غير فخصوصية وجوده وتعيّنه من غيره، وهو الهوية فإذن كل ممكن فهويته من غيره فلا يكون هو هو لذاته لكن المبدئ الأول هو هو لذاته فلا يكون من غيره فلا يكون ممكناً فهو واجب لذاته فإذن واجب الوجود هو الذي لذاته هو هو بل ذاته أنه هو البراءة عن التركيب المستلزم للإمكان.

الرابع: تعقيبه لذكر الهوية باسم الله، وذلك لأنه لما كانت تلك الهوية والخصوصية عديمة الاسم لا يمكن شرحها إلاّ بلوازمها، واللوازم منها إضافية ومنها سلبية، واللوازم الإضافية أشد تعريفاً والأكمل في التعريف هو اللازم الجامع لنوعي الإضافة والسلب، وذلك هو كون تلك الهوية إلهاً. فإن الإله هو الذي ينسب إليه غيره ولا ينسب هو إلى غيره فانتساب غيره إليه إضافي، وعدم انتسابه إلى غيره سلبيّ فلا جرم عقب ذكر الهوية. بما يدل على ذلك اللازم لأكمليته في التعريف من غيره ليكون كالكاشف لما دلّ عليه لفظ هو، وفيه سرّ آخر، وهو أنه لما عرف تلك الهوية بلازمها، وهو الإلهية نبّه على أنه لا جزء لتلك الهوية وإلاّ لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قصور.

الخامس: ذكر الحق، وهو الثابت الموجود فإنّه لما أشار إلى الهوية وشرح اسمها عقّب ذلك بالإشارة إلى كونها حقاً موجوداً وجودها عند العقول أحقّ وأبين مما [عمّا خ] ترى العيون، وذلك ظاهر فإن العلم بوجود الصانع - جلّت عظمته - فطري للعقول وإن احتاج إلى بيّنةٍ ما. والعلوم التي مستندها الحس قد يقع الخلل فيها بسبب ما يقع للوهم من اشتباه المحسوسات وعدم ضبطها أو بسبب تقصير الحس في كيفية الأداء لصورة المحسوس فكانت المعقولات الصرفة أحق لإدراك العقل لها بذاته.

السادس: أن العقول لم تبلغه بتحديد فيكون مشبهاً، وفيه إشارة لطيفة تدل على كمال علمه عليه السلام، وذلك أنّك علمت في المقدمات أن العقول إذا قويت على الاتصال بالأمور المجردة، وكانت القوة المتخيّلة بحيث تقوى على استخلاص الحسّ المشترك وضبطه عن الحواس الظاهرة. فإن النفس والحال هذه إذا توجهت لاقتناص أمر معقول وانجذبت القوى النفسانية إثرها انتقشت بذلك المعقول. ثم إنها تستعين في ضبط ذلك الأمر بالقوة المتخيّلة فتحاكيه بما يشبهه من الأمور المحسوسة. ثم تحطه إلى خزانة الخيال فيصير مشاهداً ممثلاً.

إذا عرفت ذلك فنقول: لو كان الباري تعالى مما

تدركه العقول وتشتبه بحد وصفه لكان استثباتها له على النحو المذكور فيلزم أن يكون مشبّهاً بغيره من الأجسام، والجسمانيات ليثبت صورته عند الذهن، وقد تنزّه قدس الله عن التشبيه بشيء منها.

السابع: وكذلك لم تقع الأوهام عليه بتقدير فيكون ممثلاً. إذ الوهم لا يدرك إلاّ المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، ولا بدّ له في إدراك ذلك المدرك من بعث المتخيّلة على تشبيهه بمثال من الصور الجسمانية. فلو وقع عليه وهم لمثّله في صورة حسية حتى أن الوهم إنّما يدرك نفسه في مثال من صورة وحجم ومقدار.

الثامن: خلقه [خلق خ] الخلق على غير مثال. إلى قوله: معين، وقد سبق أيضاً بيانه في الخطبة الأولى وغيرها، وتمام خلقه بأمره بلوغه إلى غايته في الكمال الممكن له إذ [إذا خ] نطقت البراهين العقلية، أن كل ما أمكن لشيء وصل إليه من الجود الإلهي المنزّه عن البخل والمنع من جهته، وإذعانه لطاعته دخوله تحت القدرة الإلهية، وكذلك إجابته من غير مدافعة وانقياده من غير منازعة. ثم شرع في مقصود الخطبة، وهو حمد الله تعالى باعتبار بعض لطائف صنعه وعجائب خلقه، والتنبيه على غوامض حكمته في خلقة هذا الحيوان المخصوص.

وبدأ بالتعجب من مخالفتها لسائر الحيوان في قبض الضياء لإبصارها مع بسطها لسائر إبصار الحيوانات وإعداده لانبساط النبات ونموه وغيره. ثم من بسط الظلام لإبصارها مع قبضه لسائر الإبصار. ثم نبّه على العلة الطبيعية لذلك وهو عشاء أعينها وضعفها أن تستمد من نور الشمس المضيئة نوراً تهتدي به، والذي ذكر في علّة ذلك الضعف هو إفراط التحلّل في الروح الحامل للقوة الباصرة من هذا الحيوان إذا لقي حرّ النهار فيصيبه لذلك التحلل ضعف يحتاج معه إلى التعوض عما يتحلّل فيرجع عن العضو الباصر منها طلباً لبدل ما يتحلّل فيستكمل البدل بقرب الليل لمكان برده وضعف حرارة النهار فيعود الإبصار، ووصفه عليه السلام بهذه الخاصية منها وكيفيّة حالها فيها إلى قوله: ظلم لياليها. وصف لا مزيد على فصاحته.

وقوله: وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها.

في غاية الفصاحة. ومعارفها ما تعرفه من مذاهبه ووجوه تصرفاتها، وتتصل عطف على قوله: تستمد، وأما إسدالها لجفونها على أحداقها فلأن تحلّل الروح الحامل للقوة الباصرة سبب للنوم أيضاً فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم وكثيراً ما يلحق كثيراً من الحيوان وسببه ما ذكرناه، واستعار لفظ القناع للشمس ملاحظة لشبهها بالمرأة ذات القناع، وكنّى بإلقائه عن بروزها من حجاب الأرض. ثم ثنّى بتسبيح الله وتعظيمه باعتبار أمر آخر لها على سبيل التعجب وهو خلق أجنحتها من لحم بلا ريش ولا قصب كسائر أجنحة الطير. بل من عروق ورقّ تبسطه وتقبضه على مفاصل مخصوصه من غير رقة توجب له الانشقاق عند الطيران، ولا غلظ يوجب له الثقل. ثم ثلث بعجيب حالها مع ولدها، وذلك أنه يلصق بها فيرتضعها ولا يفارقها في حالتي وقوعها وطيرانها حتى يشتد ويمكنه الطيران والتصرف بنفسه، وذلك أمر يخالف به أيضاً سائر الحيوان وهو محل التعجّب.

ثم ختم الفصل بتسبيح الله تعالى باعتبار خلقه لكل شيء من غير مثال سبق من غيره، ومن الأمثال العامة: قيل للخفّاش: لماذا لا جناح لك؟ قال: لأني تصوير مخلوق. قيل: فلماذا لا تخرج نهاراً؟ قال: حياء من الطيور. يريدون أن المسيح عليه السلام صوّره. وإن إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] وفي الطير عجائب لا تهتدي لها العقول. بل وفي كل ذرّة من ذرّات مبدعاته ومكوّناته لطائف وأسرار كالنحل والبعوض والنمل تعجز عن إدراكها واستقصاء أوصافها ألباب الألباء وحكمة الحكماء فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه.

١٥٦ - ومن خطبة له عليه السلام

خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم:

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ،

عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

أقول: اعتقل نفسه: أي ضبطها وحبسها. والضغن: الحقد. والمرجل: القدر.

وقوله: عند ذلك.

يقتضي أنه سبق منه قبل هذا الفصل ذكر فتن وحروب تقع بين المسلمين وجب على من أدركها أن يحبس نفسه على طاعة الله دون مخالطتها والدخول فيها، وسبيل الجنّة هو الدين القيّم، وظاهر شرط حمله لهم عليه بالطاعة. إذ لا رأي لمن لا يطاع، ونبّه على أن من الدين الحق ما هو ذو مشقّة شديدة ومذاقة مريرة كالجهاد، وكذلك سائر التكاليف لها مشقّة، وفلانة كناية عن عائشة وإدراك رأي النساء لها في حربه بالبصرة، وقد علمت أن رأي النساء يرجع إلى أفن وضعف. وفي الخبر: لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة، وجاء: إنّهنّ قليلات عقل ودين. كما سبق بيان أخلاقهنّ. وأما الضغن فقد نقل له أسباب عدة:

منها ما كان بينها وبين فاطمة عليها السلام بسبب تزويج الرسول صلى الله عليه وآله لها عقيب موت خديجة أم فاطمة، وإقامتها مقامها، ومن المعلوم المعتاد ما يقع بين المرأة وابنة زوجها من غيرها من الكدر، وكان سبب البغض من المرأة لبنت الزوج حركة المتخيلة بإقامة البنت مقام الأم التي هي ضرّة لها وتشبيهها بها. فتقيمها مقام الضرّة، وتتوهم فيها العداوة والبغضاء ثم ينشأ ذلك الخيال ويقوى بأسباب أُخرى فيتأكد البغض خصوصاً إن كان الزوج أكرم لبنته كما هو المنقول من الرسول صلى الله عليه وآله في حق فاطمة عليها السلام.

وأما من جهة البنت فلتخيّلها أنها ضرّة أُمّها وتوهمها بسبب ذلك بغضها لها، والباغض للأم باغض للبنت لا محالة، ويتأكد ذلك بالميل المنقول عن الرسول صلى الله عليه وآله في حق عائشة وإيثارها على سائر نسائه، والنفوس البشرية خصوصاً نفوس النساء تغيظ على ما دون ذلك فكيف بذلك منه صلى الله عليه وآله، ولا شك في تعدّي ذلك إلى نفس بعلها عليه السلام، فإن النساء كثيراً ما يحصل بسببهنّ الأحقاد في قلوب الرجال، وعن بعض الحكماء: إذا رأيت في الدنيا خصومة ليست بسبب امرأة فاحمد الله تعالى فإنها أمر عجيب، وكثيراً ما كانت فاطمة عليها السلام تشكو إلى بعلها من عائشة. ومنها ما كان من أمر قذف عائشة، ونقل إن علياً عليه السلام كان من المشيرين بطلاقها تنزيهاً لعرض الرسول صلى الله عليه وآله من أقوال المنافقين.

وقال له لما استشاره: إن هي إلاّ شسع نعلك، وقال: اسئل الخادمة وخوّفها. فإن أقامت على الجحود فاضربها. وبلغها كل ذلك الكلام وسمعت أضعافه من الغير مما جرت عادة الناس أن يتداولونه في مثل هذه الواقعة، ونقل إليها النساء: أن علياً عليه السلام وفاطمة سرّا بذلك. فتفاقم الأمر وغلظ. ثم لما نزلت براءتها وصالحها الرسول صلى الله عليه وآله ظهر منها ما جرت العادة بظهوره ممن انتصر بعد ظلمه وينتصر بعد غلبه من بسط اللسان والتبجّح بالبراءة من العيب، وفلتات القول في أثناء ذلك.

وبلغ ذلك علياً وفاطمة عليهما السلام، ومنها كون النبي صلى الله عليه وآله سدّ باب أبي بكر من المسجد، وفتح باب صهره، ومنها بعثه إيّاه بسورة براءة، ثم أخذها منه ودفعها إلى علي عليه السلام. إلى غير ذلك من الأسباب الجزئية التي تشهد بها قرائن الأحوال ولا تكاد تتبيّن بالأقوال. فإن كل ذلك مما يثير الأحقاد ويؤكد الأضغان.

وقوله: ولو دعيت. إلى آخره.

كلام حق لمكان الباعث لها في حقه دون غيره.

وقوله: ولها بعد حرمتها الأولى.

وجه اعتذاره في الكفّ عن أذاها بعد استحقاقها للأذى في نظره، وحرمتها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وآله وكونها زوجة له.

وقوله: والحساب على الله.

تنبيه على أنه وإن سامحها في الدنيا بما فعلت فإن الله تعالى هو المتولي لحسابها في الآخرة، ولعل هذا الكلام منه عليه السلام قبل إظهارها للتوبة وعلمه بذلك لأنه في معنى إظهار الوعيد لها من الله.

ومنه: **سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ. فَبِالإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الإِيمَانِ، وَبِالإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى.**

أقول: [أُزلفت خ]. قدمت وقربت. والإرقال: ضرب من الخبب. ولا مقصر له عن كذا: أي لا محبس.

يبدأ الفصل في وصف الإيمان، والمراد بالإيمان التصديق القلبي بالتوحيد وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله ولا شك في كونه سبيلاً أبلج واضح المسلك إلى الجنة أنوار السراج في ظلمات الجهل، ولفظ السراج مستعار، والصالحات هي الأعمال الصالحات من سائر العبادات ومكارم الأخلاق التي وردت بها الشريعة، وظاهرٌ كونها معلولات للإيمان، وثمرات له يستدل بوجوده في قلب العبد على ملازمته لها استدلالاً بالعلّة على المعلول، ويستدل بصدورها من العبد على وجود الإيمان في قلبه استدلالاً بالمعلول على العلّة، وأما قوله: وبالإيمان يعمر العلم. فلأن الإيمان بالتفسير المذكور إذا عضده البرهان كان علماً وهو روح العلوم، ويطلق اسم الإيمان عليه مع ثمراته، وهي الأعمال الصالحة لأنها من كمالاته ولا تمام له ولا منفعة بدونها. فإن العلم إذا لم يعضد بالعمل فهو قليل الفائدة في الآخرة. بل لا ثمرة له فهو كالخراب غير الصالح للاقتناء. فكما لا يصلح الخراب للسكنى فكذلك العلم الخالي عن الأعمال الصالحة فلذلك قال عليه السلام في موضع آخر:

العلم مقرون بالعمل، والعلم يهتف بالعمل فإن جاء به وإلاّ ارتحل، وأما قوله: وبالعلم يرهب الموت. فلأن العلم بالله تعالى وغاية خلقه للإنسان وملاحظة نسبة الدنيا إلى الآخرة، والعلم بأحوال المعاد يستلزم ذكر الموت ودوام ملاحظته وذلك مستلزم لرهبته والعمل له ولما بعده.

وقوله: وبالموت يختم الدنيا.

ظاهر إذ الدنيا عبارة عما فيه الإنسان قبل الموت من التصرفات البدنية.

وقوله: وبالدنيا تحرز الآخرة.

إشارة إلى أن الدنيا محل الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد، وفيها يحصل كمال النفوس الذي تحرز به سعادة الآخرة. وقد سبق بيانه.

وقوله: [بالقيامة تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين خ].

إشارة لطيفة ذكرناها غير مرّة. وهو أن بالموت وطرح جلباب البدن يتبيّن ما للإنسان وما عليه مما قدّم من خير أو شر. وإن كانت ثمرة ذلك أثراً حاصلاً للنفس في الدنيا لأن التألم به والالتذاذ إنّما يحصل لها بعد طرح البدن. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. ولفظ الإزلاف والبروز يشهد بذلك لأن فيه معنى الظهور: أي ظهور الإدراك إذن.

وقوله: وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة. إلى آخره.

كلام في غاية الحسن مع غزارة الفائدة، وهو إشارة إلى أنه لا بدّ لهم من ورود القيامة. ومضمارها: مدة الحياة الدنيا. وهو لفظ مستعار، ووجه المشابهة كون تلك المدة محل استعداد النفوس للسباق إلى حضرة الله كما أن المضمار محل استعداد الخيل للسباق، وقد سبق بيان ذلك في قوله: ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق، ومرقلين: حال. وإرقالهم كناية عن سيرهم المتوهم في مدة أعمارهم إلى الآخرة وسرعة حثيث الزمان بهم في إعداد أبدانهم للخراب، والغاية القصوى هي السعادة والشقاوة الأخروية.

ومنها: قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا لا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلا يُنْقَلُونَ عَنْهَا؛ وَإِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّهُمَا لا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، «فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ». وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، «وَلا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ»، وَوُلُوجُ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

وقام إليه رجل وقال: أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام:

لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لا تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هٰذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ هٰذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلٰكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ. فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ. وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ».

أقول: صدر هذا الفصل صفة حال أهل القبور في القيامة. ومصائر الغايات: الجنة والنار، وظاهر أن لكل دار منهما أهل لا يستبدلون بها، ويجب أن يعني بأهل النار الكفّار ليتم قوله: لا يستبدلون بها ولا ينقلون عنها فإن العصاة من أهل القبلة وإن صحّ أنهم يعذّبون لكن ثبت أنهم ينتقلون عنها.

وقوله: وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إلى قوله: من رزق.

حثّ عليهما، يذكر كونهما خلقين من خلق الله. واعلم أن إطلاق لفظ الخلق على الله استعارة لأن حقيقة الخلق أنه ملكة نفسانية تصدر عن الإنسان بها أفعال خيريّة أو شرّية. وإذا قد تنزّه قدسه تعالى عن الكيفيّات والهيئات لم يصدق هذا اللفظ عليه حقيقة لكن لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأخلاق الفاضلة أشبه ما نعتبره له تعالى من صفات الكمال ونعوت الجلال التي ينسب إليها ما يصدر عنه، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأفعال الخيرية التي بها نظام العالم وبقاؤه كحكمته وقدرته وجوده وعنايته وعدم حاجته ما يتعارف من الأخلاق الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الخيرية والشريّة فاستعير لها لفظ الأخلاق، وأطلق عليه.

فأما كونهما لا يقرّبان الأجل ولا ينقصان الرزق فلأن كثيراً من ضعفاء الاعتبار العقلي يمنعهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توهّم أحد الأمرين، وخصوصاً ترك نهي الملوك من المنكرات. ثم شرع في الحث على لزوم كتاب الله بأوصاف نبّه بها على فضيلته.

الأول: كونه الحبل المتين، ولفظ الحبل مستعار له، ووجه المشابهة كونه سبباً لنجاة المتمسك به من الهوى في دركات الجحيم كالحبل في نجاة المتمسك به، ورشّح بذكر المتانة.

الثاني: كونه نوراً مبيناً، ولفظ النور أيضاً استعارة له باعتبار الاهتداء به إلى المقاصد الحقيقية في سلوك سبيل الله.

الثالث: كونه الشفاء النافع: أي من ألم الجهل، وكذلك الري الناقع: أي للعطشان من ماء الحياة الأبدية كالعلوم والكمالات الباقية.

الرابع: كونه عصمة للمتمسك ونجاة للمتعلق، ومعناه كالذي سبق في كونه حبلاً.

الخامس: لا يعوجّ فيقام. إذ ليس هو كسائر الآلات المحسوسة.

السادس: ولا يزيغ فيستعتب: أي يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحق كما يفعله سائر الحكام من الناس.

السابع: كونه ولا تخلقه كثرة الردّ: أي الترديد في الألسنة وولوج الأسماع وهو من خصائص القرآن الكريم فإن كل كلام نثر أو نظم إذا كثرت تلاوته مَجَّتْهُ الأسماع واستهجن إلاّ القرآن الكريم فإنه لا يزال غضاً طرياً يزداد على طول التكرار في كرور الأعصار محبة في القلوب وحسناً، والذي يلوح من سرّ ذلك كثرة أسراره وغموضها التي لا يطلع عليها إلاّ الأفراد مع كونه في غاية من فصاحة الألفاظ وعذوبة المسمع.

فأما ما حكاه من سؤاله الرسول ﷺ وجواب الرسول له: فقد روى كثير من المحدثين عنه عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين كما كتب عليّ جهاد المشركين. قال: فقلت: يا رسول الله وما هذه الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله وهم مخالفون للسنّة. فقلت: يا رسول الله: فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث في الدين ومخالفة الأمر. فقلت: يا رسول الله إنك كنت وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجّلها لي بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أما إني وعدتك الشهادة وستستشهد تضرب على هذا فتخضب هذه فكيف صبرك إذن؟

فقلت: يا رسول الله ليس ذا [هذا خ] بموطن صبر هذا موطن شكر. قال: أجل أصبت فأعد لخصومة فإنك مخاصم. فقلت: يا رسول الله لو بيّنت لي قليلاً. فقال: إنّ أُمتِي ستفتن من بعدي فتتأول القرآن وتعمل بالرأي وتستحل الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع وتحرّف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال فكن حلس بيتك حتى تقلّدها فإذا قلّدتها جاشت عليك الصدور، وقلبت لك الأمور فقاتل حينئذٍ على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله فليست حالهم الثانية دون حالهم الأولى. فقلت: يا رسول الله فبأي المنازل هؤلاء المفتونين أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة؟ فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلت: يا رسول الله أيدركهم العدل منّا أم من غيرنا؟ قال: بل منّا فبنا فتح وبنا يختم وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشرك.

فقلت: الحمد لله على ما وهب لنا من فضله. وليس في هذا الفصل غريب ينبّه عليه سوى قوله: ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر. فإنّك علمت فيما سلف أن الصبر والشكر من أبواب الجنّة والمقامات العالية للسالك إلى الله تعالى لكن علمت أن مقام الشكر أرفع من مقام الصبر، ولما كان هو عليه السلام سيد العارفين بعد سيد المرسلين ﷺ لا جرم كان أولى من صدرت عنه هذه الإشارة، فأما إخبار الرسول ﷺ بأن الناس سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربهم ويتمنّون رحمته ويأمنون سطوته وسائر ما أخبر به. إلى قوله: بالبيع، فكل ذلك مشاهد في زماننا وقبله بقرون، وأما كون ذلك منزلة فتنة لا منزلة ردّة فلبقائهم على الإقرار بالشهادتين وإن ارتكبوا من المحارم ما ارتكبوا لشبه غطّت على أعين أبصارهم. وبالله التوفيق.

١٥٧ - ومن خطبة له عليه السلام

يحثّ الناس على التقوى

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلاً عَلَى آلائِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ. آخِرُ فِعَالِهِ كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي

الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ.

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورُ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى.

عِبَادَ اللهِ، اللَّهَ اللَّهَ فِي أَعَزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ لازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لأَيَّامِ الْبَقَاءِ. فَقَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالْمَسِيرِ.

أَلا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ! عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الأَطْفَالُ.

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ. لا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ، وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ.

يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لاحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

أقول: الشول: النوق التي جفّ لبنها وارتفع ضرعها وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر. الواحدة شائلة على غير قياس. والارتباك: الاختلاط. وحمة العقرب: إبرتها، وهي محل سمّها. والرتاج: الغلق.

وقد حمد الله تعالى باعتبارات:

أحدها: جعله الحمد مفتاحاً لذكره في عدة سور.

الثاني: كونه سبباً للمزيد من فضله، والمراد بالحمد هنا الشكر لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وقد عرفت إعداده لزيادة النعم.

الثالث: ودليلاً على آلائه. لاختصاص الشكر بمولى النعم، وعلى عظمته، لاختصاصه باستحقاق ذلك لذاته. إذ هو مبدئ لكل نعمة، ولأن الحمد لا ينبغي إلاّ له، ثمّ أخذ في الموعظة فنبّه السامعين على فعل الدهر بالماضين ليتذكروا أنهم أمثالهم ولاحقون بهم فيتقهقروا عن غيّهم ويعملوا لما بعد الموت، ثم نبّه على حاله في تقضيه بأن كل وقت مضى منه لا يعود، وأن كل وقت منه له أهل ومتاع من الدنيا إنما يكون في الوجود بوجود ذلك الوقت، وظاهر أنه تنقضي بتقضّيه ولا يبقى سرمداً ما فيه، وأن آثاره متشابهة آخرها كأولها: أي يوجد ما يكون بإعداد وقت منه بوجود ذلك الوقت وينقضي بانقضائه فحاله دائماً على وتيرة واحدة، وكذلك قوله: متشابهة أموره فإنه كما كان أولاً يعدّ قوماً للفقر وقوماً للغنى، وقوماً للضعة وقوماً للرفعة، وقوماً للوجود وآخرين للعدم كذلك هو آخراً.

وقوله: متظاهرة أعلامه.

أي: دلالاته على شيمته وطبيعته وأفعاله التي يعامل الناس بها قديماً وحديثاً متعاضدة يتبع بعضها بعضاً، ونسبة هذه الأمور إلى الدهر جرياً على ما في أوهام العرب وإن كان الفاعل هو الله تعالى. وإنّما للدهر الإعداد كما سبق. ثم نبّه على قرب الساعة وشبّه

حدوها: أي سوقها لهم بسوق الزاجر للنوق في حثّه لها، وقد عرفت كيفية ذلك السوق ووجه الاستعارة فيه وفي قوله: وإنّ الساعة من ورائكم تحدوكم.

فأما وجه الشبه فهو السرعة والحث، وإنما خصّ الشول من النوق لخلوّها من العشار فيكون سوقها بعنف وأسرع، ولما نبّههم على قربها وأنها تحدوهم نبّههم على وجوب اشتغال كل بنفسه. إذ كل مشغل نفسه بغير نفسه غير محصل لنور يهتدي به في ظلمات طريق الآخرة. بل إنما يحصل على أغطية وأغشية من الهيئات البدنية اكتسبها عما اشتغل به من متاع الدنيا والعمل بها، وعلمت أن تلك الأغطية مغشية لنور البصيرة فلا جرم يتحيّر في تلك الظلمات ويرتبك في مهالك تلك الطريق ومغاويها، وتمدّ به شياطينه ونفسه الأمارة في طغيانه، وتزين له سيء أعماله. ثم ذكر غاية وجود الإنسان فخصّ الجنة بالسابقين، والنار بالمفرّطين، وقد كان ذكر الجنة كافياً في الجذب إليها، والنار كافياً في الجذب عنها فقرن ذكر الجنة بذكر فضيلة السبق، وذكر النار برذيلة التفريط ليقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين والهرب من أخسّهما.

وأيضاً فلأن السبق والتفريق علّتان للوصول إلى غايتيهما المذكورتين فهدى إلى طلب إحديهما، والهرب من الأخرى بذكر سببها. ثم عاد إلى التنبيه على فضيلة التقوى، واستعار له لفظ الدار الحصينة التي تعزّ من تحصن بها، ووجه الاستعارة كونها تحصن النفس أما في الدنيا فمن الرذائل الموبقة المنقّصة الموجبة لكثرة من الهلكات الدنيوية. وأما في الآخرة فمن ثمرات الرذائل ملكات السوء المستلزمة للعذاب الأليم. ثم على رذيلة الفجور، وهو طرف الإفراط من فضيلة العفّة، واستعار لفظ الدار بقيد كونه حصناً ذليلاً، ووجه الاستعارة كونه مستلزماً لضد ما استلزم التقوى، ويجب أن يخصص التقوى هنا بفضيلة القوة البهيمية وهي العفّة والزهد لمقابلة الفجور للعفة.

ثم نبّه على فضيلة أخرى للتقوى وهي كونها قاطعاً لحمة الخطايا ولفظ الحمة مستعار لها باعتبار كونها أسباباً مستلزمة للأذى في الآخرة كما يستلزم إبرة العقرب أو سمّها للأذى، ومن روى حمّة مشددة أراد شدة الخطايا وبأسها لأن حمة الحر معظمه، وظاهر كون التقوى قاطعاً لبأس الخطايا وماحياً لآثارها، ولما أشار إلى كون التقوى حاسماً لمادة الخطايا، وكان بذلك إصلاح القوة العملية أشار إلى أن اليقين الذي به إصلاح القوة النظرية سبب لإدراك الغاية القصوى. فإن الإنسان إذا حصل على كمال القوة النظرية باليقين وعلى كمال القوة العملية بالتقوى بلغ الغاية القصوى من الكمال الإنساني.

ثم عقّب بتحذير السامعين من الله تعالى في أعزّ الأنفس عليهم وأحبّها إليهم. وفي الكلام إشارة إلى أن للإنسان نفوساً متعددة وهي باعتبار مطمئنة، وأمارة بالسوء، ولوّامة. وباعتبار عاقلة، وشهوية، وغضبيّة. والإشارة إلى الثلاث الأخيرة، وأعزّها النفس العاقلة، إذ هي الباقية بعد الموت، ولها الثواب وعليها العقاب، وفيها الوصية، وغاية هذا التحذير حفظ كل نفس مما يوبقها في الآخرة، وذلك بالاستقامة على سبيل الله، ولذلك قال: فقد أوضح لكل سبيل الحق وأبان طرقه. وروي وأنار طرقه: أي بالآيات والنذر.

ثم نبّه على غايتي سبيل الحق وسبيل الباطل بقوله: فشقوة لازمة أو سعادة دائمة. ثم عاد إلى الحث على اتخاذ الزاد بعد أن ذكر التقوى تنبيهاً على أن الزاد هو التقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وأيام البقاء الحال التي بعد الموت، ودلالتهم على الزاد في الآية التي دلّهم الله تعالى بها عليه وأمرهم بالظعن كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] الآية. وقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وبالجملة فكل أمر بالإعراض عن الدنيا والتنفير عنها فهو مستلزم للحق على الظعن والأمر بالمسير عن الدنيا بالقلوب لأن الظعن هنا هو قطع درجات المعارف والأعمال في سبيل الله وصراطه المستقيم والمسير فيها، ويحتمل أن يريد بالحثّ على المسير حثّ الليل والنهار بتعاقبها على الأعمار فهما سابقان حثيثان عنيفان فيجب التنبيه لسوقهما على اتخاذ الزاد لما يسوقان إليها.

وقوله: وإنّما أنتم كركب. إلى آخره.

فوجه التشبيه ظاهر فالإنسان هو النفس، والمطايا هي الأبدان والقوى النفسانية، والطريق هي العالم الحسي والعقلي، والسير الذي ذكره قبل الموت هو تصرّف النفس في العالمين لتحصيل الكمالات المسعدة وهي الزاد لغاية السعادة الباقية، وأما المسير الثاني الذي هو وقوف ينتظرون ولا يدرون متى يؤمرون به فهو الرحيل إلى الآخرة من دار الدنيا وطرح البدن، وقطع عقبات الموت والقبر إذ الإنسان لا يعرف وقت ذلك.

وحينئذٍ يتبيّن لك من سرّ هذا الكلام أن قوله: وأُمرتم بالظعن مع قوله: لا تدرون متى تؤمرون بالسير، غير متنافيين كما ظنه بعضهم. ثم أخذ في تزهيد الدنيا والتنفير عنها بذكر أن الإنسان غير مخلوق لها، بل لغيرها ومقتضى العقل أن يعمل الإنسان لما خلق له، وفي تزهيد المال بتذكير سلبه عن قليل بالموت وبقاء الحساب عليه وتبعاته من عقارب الهيئات الحاصلة بسبب محبّته وجمعه، والتصرف الخارج عن العدل فيه لا سعة لمقتنيه. ثم عقب بالترغيب في وعد الله بأنه ليس منه مترك: أي ليس منه عوض وبدل في النفاسة بالتنفير عما نهى الله عنه بكونه لا مرغب فيه: أي ليس فيه مصلحة ينبغي أن يجعلها العاقل غاية مقصوده له. إذ هو تعالى أعلم بالمصالح فلا يليق بجوده أن ينهى العبد عما فيه مصلحة راجحة.

ثم عقب بالتحذير من يوم الوعيد ووصفه بالصفات التي باعتبارها يجب الخوف منه والعمل له وهي فحص الأعمال فيه ونقاش الحساب عليه كقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] وظهور الزلزال كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وشيب الأطفال كقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

واعلم أن هذه الصفات في يوم القيامة ظاهرة في الشريعة، وقد سلّط التأويل عليها بعض من تحذلق فقال: أما الفحص عن الأعمال فيرجع إلى إحاطة اللوح المحفوظ بها وظهورها للنفس عند مفارقتها للبدن أو إلى انتقاش النفوس بها كما تقدم شرحه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية.

وأما ظهور الزلزال فيحتمل أن يريد التغيّر الذي لا بد منه والاضطراب العارض للبدن عند مفارقة النفس والتشويش لها. أيضاً على ما تقدم من الإشارة إلى أن الدنيا هي مقبرة النفوس وأجداثها، وأما مشيب الأطفال فكثيراً ما يكنى بذلك عن غاية الشدة يقال هذا أمر تشيب فيه النواصي وتهرم فيه الأطفال إذا كان صعباً. ولا أصعب على النفس من حال المفارقة وما بعدها.

ثم عقّب بالتحذير من المعاصي بالتنبيه على الرصد القريب الملازم، وأشار بالرصد إلى الجوارح كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فُصّلت: ٢١] الآية. والشهادة هنا بلسان الحال والنطق به فإن كل عضو لما كان مباشراً لفعل من الأفعال كان حضور ذلك العضو وما صدر عنه في علم الله تعالى بمنزلة الشهادة القولية بين يديه وأكد في الدلالة، وأشار بحفّاظ الصدق إلى الكرام الكاتبين، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الخطبة الأولى، وظاهر كونهم لا يستر منهم ساتر.

ثم بالتحذير بقرب غد، وكنى به عن وقت الموت. ثم ببلوغ منزل الوحدة، وكنى به عن القبر، ووصفه بالأوصاف الموحشة المنفرة المستلزمة للعمل لحلوله ولما بعده. ثم بالصيحة وهي الصيحة الثانية إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون، والنفخة الثانية ونفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم بالقيامة الكبرى والبروز لفصل القضاء وهو حال استحقاق كل نفس ما لا بد لها منه من دوام عذاب أو دوام نعيم بحكم القضاء الإلهي، وذلك بعد زوال الهيئات الباطلة الممكنة الزوال من النفوس التي لها استكمالٌ ما ولحوقها بعالمها واضمحلال العلل الباطلة للنفوس واستحقاق الحقائق بالخلق ورجوع كل امرئ إلى ثمرة ما قدم.

ثم عاد إلى الموعظة الجامعة الكلية فأمر بالاتعاظ بالعبر وكل ما يفيد تنبيهاً على أحوال الآخرة فهو عبرة، وبالاعتبار بالغير وهي جمع غيرة فعلة من التغيّر،

واعتبارها طريق الاتعاظ والانزجار. ثم بالانتفاع بالنذر جمع نذير وهو أعمّ من الإنسان بل كل أمر أفاد تخويفاً بأحوال الآخرة فهو نذير والانتفاع به حصول الخوف منه. وبالله التوفيق.

١٥٨ - ومن خطبة له عليه السلام

ينبّه فيها على فضل الرسول الأعظم، وفضل القرآن، ثم حال دولة بني أمية

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ. ذٰلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

أقول: الهجعة: النومة. والمبرم. الحبل المحكم الفتل.

وثمرة الفصل التنبيه على فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله والفترة الزمان بين الرسولين، وكنّى بالهجعة من الأمم عن رقدتهم في مراقد الطبيعة ونوم الغفلة عما خلقوا لأجله في مدة زمان الفترة، وأشار بالمبرم إلى ما كان الخلق عليه من نظام الحال بالشرائع السابقة وانبرام أُمورهم بوجودها، وانتقاضها فساد ذلك النظام بتغيّر الشرائع واضمحلالها، والذي صدّقه بين يديه هو التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ٤٨]. ولكل أمر منتظر أو قريب يقال إنه جار بين اليدين، واستعار لفظ النور للقرآن، ووجه الاستعارة ظاهر.

ثم أمر باستنطاقه وفسّر ذلك الاستنطاق باستماع العبارة عنه. إذ هو لسان الكتاب والسنّة، وكسر أوهامهم التي عساها تستنكر أمره باستنطاقه بقوله: فلن ينطق، ونبّه على ما فيه من علم الأولين والحديث عن القرون الماضية وعلم ما يأتي من الفتن وأحوال القيامة وأن فيه دواء دائهم، وذلك الداء هو الرذائل المنقصة، ودواء ذلك الداء هو لزوم الفضائل العلمية والعملية التي اشتمل عليها القرآن الكريم ونظام ما بينهم إشارة إلى ما اشتمل عليه من القوانين الشرعية والحكمة السياسية التي بها نظام العالم واستقامة أموره.

ومنها: **فَعِنْدَ ذٰلِكَ لا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلاَّ وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلا فِي الأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الآثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لا تَذُوقُهَا وَلا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ.**

أقول: الترحة: الحزن. والمقر: المرّ. والزاملة: الجمل يستظهر به الإنسان في حمل متاعه. وتنخمت النخامة: لفظتها.

وسياق الكلام الإخبار عن حال بني أُمية وما يحدث في دولتهم من الظلم، وكنّى ببيت المدر والوبر عن البدو والحضر، وعن استحقاقهم عند فعلهم ذلك للتغيّر وزوال الدولة بعدم العاذر في السماء والناصر في الأرض. ثم عقب بتوبيخ السامعين على إصفائهم بأمر الخلافة غير أهله، والخطاب عام خصّه العقل بمن هو راضٍ بدولة معاوية وذريته، وربما أُلحق من تقاعد عن القيام معه في قتاله لأن القعود عن ردع الظالم، وقتاله مستلزم لقوته ويجري مجرى نصرته وإعانته على ظلمه وإن لم يقصد القاعد منه ذلك.

ثم أخبر أن الله سينتقم منهم. ومأكلاً ومشرباً منصوبان بفعل مضمر والتقدير ويبدّلهم مأكلاً بمأكل، واستعار لفظ العلقم والصبر والمقر لما يتجرعونه من شدائد القتل وأهوال العدو ومرارات زوال الدولة، وكذلك لفظ الشعار للخوف، ورشّح بذكر اللباس ولفظ الدثار للسيف، ووجه الاستعارة الأولى ظاهر. ووجه الثانية ملازمة الخوف لهم كملازمة الشعار للجسد،

وأفاد بعض الشارحين أنه إنما خصّص الخوف بالشعار لأنه باطن في القلوب، والسيف بالدثار لأنه ظاهر في البدن كما أن الشعار ما كان يلي الجسد والدثار ما كان فوقه، واستعار لهم لفظ المطايا والزوامل.

ووجه الاستعارة حملهم للآثام. وأتى بلفظ إنما إشارة إلى أن جميع حركاتهم وتصرفاتهم على غير قانون شرعي فيكون خطيئة وإثماً. ثم أقسم لتنخمنّها أمية من بعده. فاستعار لفظ التنخّم لزوال الخلافة عنهم فكأنهم قاؤوها وقذفوها من صدورهم ملاحظة لشبهها بالنخامة، وكنّى بعدم ذوقها وتطعمها عن عدم رجوعها إليهم، وما هنا بمعنى المدة، والجديدان الليل والنهار، وكنّى بذلك عن الأمد. وهو إخبار منه عما سيكون.

وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه أخبر أن بني أمية تملك الخلافة بعده مع ذمّ منه لهم نحو ما روي عنه صلى الله عليه وآله في تفسير قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال المفسرون: تلك الرؤيا أنه رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، وبهذا اللفظ فسّر صلى الله عليه وآله الآية وساءه ذلك. ثم قال: الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة، وروي عنه أنه قال: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، وكما روي عنه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] قال: ألف شهر يملك فيها بنو أمية، ونحو قوله: أبغض الأسماء إلى الله الحكم والهشام والوليد. وإلى غير ذلك.

١٥٩ - ومن خطبة له عليه السلام

يبيّن فيها حسن معاملته لرعيّته

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

أقول: إحاطته بجهده من ورائهم إشارة إلى حفظه وحراسته لهم، وإعتاقُهُمْ من ربق الذل وحلق الضيم حمايتهم من عدوّهم واعتزازهم به. ثم نبّههم على شكره للقليل من برّهم: أي مقدار طاعتهم لله في طاعته، وإطراقه عن كثير منكرهم مما شاهده منّاً عليهم بالمسامحة والعفو.

فإن قلت: فكيف يجوز له أن يسكت عن إنكار المنكر مع مشاهدته له.

قلت: يحمل ذلك منه على عدم التمكن من إزالته بالعنف والقهر لجواز أن يستلزم ذلك مفسدة أكبر مما هم عليه من المنكر، وظاهر أنهم غير معصومين ومحال أن تستقيم دولة أو يتم ملك بدون الإحسان إلى المحسنين من الرعية والتجاوز عن بعض المسيئين. وبالله التوفيق.

١٦٠ - ومن خطبة له عليه السلام

يصف فيها عظمة الله

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ. اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لا يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلا يَقْصُرُ دُونَكَ. حَمْداً لا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلا يَفْنَى مَدَدُهُ. فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ. لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ». وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ

أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

أقول: أمره هو حكم قدرته الإلهية، وكونه قضاء كونه حكماً لازماً لا يرد، وكونه حكمة كونه على وفق الحكمة الإلهية وانتظام الأكمل، ورضاه يعود إلى علمه بطاعة العبد له على وفق أمره ونهيه.

وقوله: يقضي بعلم.

إعادة لمعنى قوله: أمره قضاء وحكمة. يجري مجرى التفسير له.

وقوله: ويعفو بحلم.

فالعفو يعود إلى الرضا بالطاعة بعد تقدّم الذنب، وإنّما يتحقق العفو مع تحقّق القدرة على العقاب. إذ العجز لا يسمى عفواً فلذلك قال: يعفو بحلم. ثم عقب بخطاب الله بالاعتراف بنعمته والحمد له باعتبار ضروب من السراء والضراء. إشارة إلى حمده على كل حال وهي الأخذ والإعطاء والعافية والابتلاء. ثم باعتبار كيفيته وهو كونه أرضى الحمد وأحبه إليه وأفضله عنده: أي أشدّه وقوعاً على الوجه اللائق المناسب لعظمته. ثم باعتبار كميته وهو كونه يملأ ما خلق ويبلغ ما أراد كثرة. ثم باعتبار غايته وهو كونه لا يحجب عنه ولا يقصر دونه. ثم باعتبار مادته وهو كونه لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده، وقد يكون التفصيل في القول في بعض المواضع أبلغ وقعاً في النفوس وألذ، وقد يكون الإجمال أو الاختصار أنفع وأبلغ. ثم شرع في الاعتراف بالعجز عن إدراكه كنه عظمته.

وفي بيان وجه معرفته الممكنة للخلق، وهي إما بالصفات الحقيقية أو الاعتبارات السلبية أو الإضافية. وأشار إلى الاعتبارات الثلاثة فكونه حياً قيوماً إشارة إلى الصفات الحقيقية. وقد عرفت أنهما يستلزمان الوجود. إذ كل حي موجود والقيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره وكل قائم بذاته فهو موجود واجب الوجود، وكونه لا تأخذه سنة ولا نوم ولا ينتهي إليه نظر عقلي أو بصري ولا يدركه بصر اعتبارات سلبية، وكونه مدركاً للأبصار محصياً للأعمال آخذاً بالنواصي والأقدام: أي محيط القدرة بها. اعتبارات إضافية.

ثم عاد إلى استحقار ما عدّه مما أدركه بالنسبة إلى ما لم يدركه من عظيم ملكوته، وما في قوله: وما الذي. استفهامية على سبيل الاستحقار لما استفهم عنه. وما الثانية في قوله: وما يغيب عنّا منه، بمعنى الذي محلها الرفع بالابتداء وخبره أعظم، والواو فيها للحال. ثم عقّب بالحكم على من فرّغ قلبه وأعمل فكره ليصل إلى كنه معرفته وعلم كيفية نظامه للعالم الأعلى والأسفل برجوع كل من آلات إدراكه حسيراً مقهوراً عن إدراك ما كلّفه من ذلك. وقد سبقت الإشارة إلى براهين هذه الأحكام غير مرّة. وبالله التوفيق.

ومنها: **يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلاَّ رَجَاءَ اللهِ تَعَالَى - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ إِلاَّ خَوْفَ اللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ. يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لا يُعْطِي الرَّبَّ! فَمَا بَالُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟ وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِمْ ضِمَاراً وَوَعْداً. وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا من قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا.**

وَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكَ فِي الأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا، وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وَاللهِ، مَا سَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ

الأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ، وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى. وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلاَّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً للهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ. وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فُلانَةُ - لإِحْدَى أَزْوَاجِهِ - غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَلا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عنِ الْبَصَرِ. وَكَذلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ.

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَاللهِ الْعَظِيمِ - بِالإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلاَّ فَلا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ - عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى.

أقول: المدخول: الذي فيه شبهة وريبة، وكذلك المعلول: غير الخالص. والضّمار: الذي لا يرجى من الموعود، والمقتصّ للأثر: أي المتّبع له. والقضم: الأكل بأدنى الفم. والهضيم: الخميص لقلة الأكل. والمحادة: المعاداة. والرياش: الزينة. والمدرعة: الدرّاعة. وأغرب: أي تباعد.

ومساق الكلام يقتضي ذم من يدّعي رجاء الله ولا يعمل له وتنبيهه أن رجاءه ليس بخالص بتكذيبه وبيان تقصيره في العمل.

فقوله: يدّعي بزعمه أنه يرجو الله.

ذكر صورة الدعوى الحالية أو المقاليّة.

وقوله: كذب والعظيم.

ردّ لتلك الدعوى مؤكداً بالقسم البار، وإنّما قال: والعظيم دون الله لأن ذكر العظمة هنا أنسب للرجاء.

وقوله: ما باله. إلى قوله: عرف رجاءه في عمله.

قياس من الشكل الثاني بيّن فيه أنه غير راج. وتلخيصه أن هذا المدّعي للرجاء غير راج، ومراده الرجاء التام الذي يجتهد في العمل له ولذلك قال: إلاّ رجاء الله فإنّه مدخول فنبّه بأن فيه دخلاً على وجوده إلاّ أنه غير خالص، وبيان الدليل أن كل من رجا أمراً من سلطان أو غيره. فإنّه يخدمه بخدمته التامة ويبالغ في طلب رضاه ويكون عمله له بقدر قوّة رجائه له وخلوصه، ويرى هذا المدّعي للرجاء غير عامل فيستدل بتقصيره في الأعمال الدينية على عدم رجائه الخالص في الله، وكذلك قوله: وكلّ خوف محقق إلاّ خوف الله فإنّه معلول.

توبيخ للسامعين في رجاء الله تعالى مع تقصيرهم في الأعمال الدينية، وتقدير الاستثناء الأول مع المستثنى منه: وكل رجاء لراج يعرف في عمله أي يعرف خلوص رجائه فيما يرجوه إلاّ رجاء الراجي لله فإنّه غير خالصه.

وروي كلّ رجاء إلاّ رجاء الله فإنه مدخول، والتقدير وكل رجاء محقق أو خالص. لتطابق الكليتين على مساق واحد، وينبّه على الإضمار في الكلية الأولى قوله في الثانية: محقق فإنّه تفسير المضمر هناك.

وقوله: يرجو الله في الكبير. إلى قوله: يعطي الرب.

في قوة قياس ضمير صغراه قوله: يرجو. إلى قوله: الصغير، وتدير كبراه وكل من كان كذلك فينبغي أن يعطي الله الذي هو ربه من رجائه، والعمل له ما لا يعطي المخلوقين والذين هم عباده، والصغرى مسلّمة، فإنّ الحسّ يشهد بأكثرية أعمال الخلق لما يرجوه بعضهم من بعض بالنسبة إلى أعمالهم لما يرجونه من الله تعالى، وأما الكبرى فبيانها أن المقرر في الفطرة أن المرجو الكبير يستدعي ما يناسبه مما هو وسيلة إليه كميّةً وكيفيّةً.

وقوله: فيعطي العبد ما يعطي الرب.

نقض للكبرى.

وقوله: فما بال الله. إلى قوله: لعباده.

توبيخ وتشنيع على من يخالف العمل بالنتيجة المذكورة.

وقوله: أتخاف. إلى قوله: موضعاً.

استفسار عن علّة التفسير المذكور في الرجاء لله والعمل له بالنسبة إلى رجاء العباد والعمل لهم استفساراً على سبيل الإنكار وتقريعاً على ما عساه يدّعي من إحدى العلّتين المذكورتين، وهما خوف الكذب في رجاء الله أو ظنّه غير أهل للرجاء. والأمر الأول خطأ عظيم لزم عن التقصير في معرفة الله. والثاني كفر صراح، وإنّما خصّص هاتين العلّتين بالذكر لأنهما المشهورتان في عدم رجاء الخلق بعضهم لبعض أو ضعفه، وانتفاؤهما في حق الله تعالى ظاهر فإنه تعالى الغني المطلق الذي لا بخل فيه ولا منع من جهته. فإن العبد إذا استعد بقوة الرجاء له والعمل لما يرجوه منه وجبت إفاضة الجود عليه ما يرجوه فلا يكذب رجاؤه وهو الله تعالى الموضع التام له.

وقوله: وكذلك إن هو خاف. إلى قوله: يعطي ربّه.

قياس ضمير استثنائي بيّن فيه قصور خوف الخائف من الله بالنسبة إلى خوفه من بعض عبيده، والضمير في عبيده لله، وفي خوفه للخائف. ويحتمل عوده إلى العبد. والملازمة في الشرطية ظاهرة، وكبرى القياس استثناء غير المقدم لينتج عين التالي.

وقوله: فجعل. إلى قوله: وعداً.

توبيخ وتشنيع على من لزمه ذلك الاحتجاج وأنه من القبيح المشهور المذكور أن يجعل الإنسان خوفه من عبد مثله نقداً حاضراً وخوفه من خالقه وعداً غير حاضر.

وقوله: وكذلك من عظمت الدنيا. إلى آخره.

إشارة إلى علّة إيثار الناس للحياة الدنيا على ما عند الله مما وعد به وانقطاعهم إليها وصيرورتهم عبيداً لها، وذكر جزء العلّة القريبة وهي عظمة الدنيا في أعينهم، وتمام هذه العلة حقارة ما تصوّروه من الوعد الأخروي

بالنسبة إلى الدنيا، وعلّة هذه العلّة ميلهم للذات العاجلة كما هي، وغيبوبة اللذات الموعودة وتصوّرها الضعيف بحسب الوصف، الذي غايته أن يوجب في أذهانهم مشابهة ما وعدوا به لما حضر لهم الآن.

فلذلك كانت العاجلة أعظم في نفوسهم وأكبر وقعاً في قلوبهم، ولذلك آثروها وانقطعوا إليها فاستعبدتهم. وغاية هذا التوبيخ التنفير عن الدنيا والجذب عنها إلى الرغبة فيما وعد الله، ولذلك عقّب بالتنبيه على ترك الدنيا من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء والمرسلين الذين هم القدوة للخلق وإعراضهم عنها، وعلى كونهم محل الأُسوة الكافية لهم في ذلك وهو كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] الآية. والدليل التام على ذمّها وعيبها وكثرة مساوئها ومخازيها.

وأشار بقوله: إذ قبضت عنه أطرافها. إلى مقدمة من مقدمات الدليل على حقارتها وخبثها وذلك إلى قوله: وخادمه يداه. وقب أطرافها عنه كناية عن منعها عنه بالكلية لعدم استعداده لها وقبوله إيّاها، وتوطية جوانبها لغيره كناية عن إعطائه إيّاها وتذليلها له كالملوك. واستعار لفظ الفطم لمنعه منها، وكذلك لفظ الرضاع لها ملاحظة لمشابهتها للأُم وله بالابن، ووجه المشابهة ظاهر. والذي ذكره عليه السلام : والله ما سأله إلاّ خبزاً. هو تفسير الآية كما نقله المفسرون أيضاً، وصفاق بطنه: هو الجلد الباطن. وشفيفه: ما رقّ منه فلم يحجب البصر عن إدراك ما رآه. وتشذّب لحمه: تفرقه. واستعار لفظ المزامير لأصوات داود عليه السلام ولفظ الإدام للجوع، والسراج للقمر، والظلال لمشارق الأرض ومغاربها، والفاكهة والريحان لما تنبت الأرض، والدابّة للرجلين، والخادم لليدين.

ووجه الأولى مشاركة صوته عليه السلام للمزمار وهي الآلة التي يزمّر بها في الحس روي أن الوحش والطير كانت تقع عليه حال القراءة في محرابه لاستغراقها في لذة صوته ونغمته.

ووجه الثانية قيام بدنه عليه السلام بالجوع كقيامه بالإدام.

ووجه الثالثة مشاركة القمر للسراج في الضوء.

ووجه الرابعة استتاره عن البرد بالمشارق والمغارب كاستتاره بالظلال.

ووجه الخامسة التذاذ ذوقه وشمه بما تنبت الأرض كما يلتذّ غيره بالفاكهة والريحان.

ووجه السادسة والسابعة قيام انتفاعه برجليه ويديه كقيامه بالدابة والخادم.

وبالجملة فحال الأنبياء المذكورين - سلام الله عليهم أجمعين - في التقشف وترك الدنيا والإعراض عنها ظاهر معلوم بالتواتر، وأما كون داوُد قاري أهل الجنة - كما ورد في الخبر - فلأن كل أمر حسن ينسب إلى الجنة في العرف أو لأنه مع حسنه جاذب إلى الجنة وداعٍ إلى الله تعالى. ولما وصف حالهم عاد إلى الأمر بالتّأسي بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم المأمورون بوجوب الاقتداء به مطلقاً وفيه الأُسوة الكافية لمن تأسى به ولأنه أقرب عهداً ممّن سبق، وحث على التأسي به يكون المتأسي به المقتص لأثره أحب العباد إلى الله، وذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]. ثم عاد إلى اقتصاص من حاله صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الدنيا والاقتصار منها على قدر الضرورة ليتبيّن ما يكون فيه التأسي به، وكنّى عن ذلك بقضمها. ثم كنّى عن عدم إلتفاتاً إلى مأكلها ومشربها بكونه أخمصهم خاصرة وبطناً.

روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم : أنه كان إذا اشتد جوعه يربط حجراً على بطنه ويسميه المشبّع مع ملكه قطعة واسعة من الدنيا، وروي: أنه ما شبع آل محمد من لحم قطّ، وأن فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يصومون على أقراص من الشعير كانوا يعدّونها لإفطارهم وربما آثروا بها السائلين وطووا. روي أنهم فعلوا ذلك ثلاث ليالٍ طووا في أيامها حتى كان ذلك سبب نزول سورة هل أتى في حقهم كما هو المشهور في التفاسير، وأما قوله: وعرضت عليه فأبى أن يقبلها فكما روي [ورد خ] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: عرضت عليّ كنوز الأرض ورفعت إليّ مفاتيح خزائنها فكرهتها واخترت الدار الآخرة.

وقوله: وعلم أن الله أبغض شيئاً. إلى قوله: فصغّر.

فبغض الله لها عدم إرادتها لأوليائه داراً، أو إشارة إلى أنها مقصود وجودها بالعرض وتحقيرها وتصغيرها بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة. ثم نفر عن محبتها بعد أن أشار إلى بغض الله لها وتصغيره إيّاها بجملة اعتراضية يتلخّص منها قياس هكذا: أقل معايبنا محبّتنا لما أبغض الله وتعظيمنا لما صغّر وكلّ محبة وتعظيم كذلك فكفى به شقاقاً له ومحادّة عن أمره. فينتج أن أقلّ ما فينا من المعائب يكفينا في مشاقة الله ومحادّته. ثم أردف ذلك بتمام أوصافه في ترك الدنيا والتكلّف لها.

فقوله: ولقد كان ﷺ يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد.

كما روي عنه ﷺ أنه قال: إنّما أنا عبد آكل أكل العبيد، وأجلس جلسة العبيد. وغاية ذلك هو التواضع، وكذلك غاية خصف نعله بيده وترقيع ثوبه بيده وركوبه للحمار العاري وإردافه خلفه.

وأما أمره بتغييب التصاوير فمحافظة من حركة الوسواس الخنّاس، وكما أن الأنبياء عليهم السلام كانوا كاسرين للنفس الأمارة بالسوء وقاهرين لشياطينهم كانوا أيضاً محتاجين إلى مراعاتهم ومراقبتهم وتفقّد أحوال نفوسهم في كل لحظة وطرفة فإنها كاللصوص المخادعين للنفوس المطمئنة، مهما تركت وغفل عن قهرها والتحفّظ منها عادت إلى طباعها.

وقوله: فأعرض عن الدنيا بقلبه. إلى قوله: وأن يذكر عنده.

إشارة إلى الزهد الحقيقي وهو حذف الموانع الداخلية النفسيّة عن النفس. وما قبله من الأوصاف إشارة إلى زهده الظاهري وهو حذف الموانع الخارجية عنه. ثم عاد إلى التذكير بالمقدمة السابقة للدليل على حقارة الدنيا وخبثها فأعاد ذكر جوعه وهو وخاصة من أهل بيته مع عظيم زلفته ورفعة منزلته عند الله وإزوائها عنه.

ولما ذكر تلك المقدمة شرع في الاستدلال بقوله: فلينظر ناظر. إلى قوله: أقرب الناس إليه وهو بقياس شرطي متّصل مقدمه حمليّة وتاليه قضية شرطية منفصلة وتلخيصه: إذا كان محمد ﷺ جاع في الدنيا مع خاصته وزوى الله عنه زخارفها مع عظيم زلفته عنده فلا يخلو فعله بذلك، إما أن يكون إكراماً له أو إهانة، والقسم الثاني ظاهر البطلان إذ ثبت أنه ﷺ أخصّ خواص الله، وإذا كان أحقر ملك في الدنيا لا يقصد بأحد من خاصتّه إذا كان مطيعاً له الإهانة فكيف يصدر ذلك من جبّار الجبابرة ومالك الدنيا والآخر حكيم الحكماء ورحيم الرحماء في حقّ أحقّ خواصه وأشدهم طاعة له، ولأجل وضوح ذلك اقتصر على تكذيب من قال به وأكّده بالقسم البارّ.

وأما القسم الأول وهو أنه أكرمه بذلك فمن المعلوم أن الشيء إذا كان عدمه إكراماً وكمالاً كان وجوده نقصاً وإهانة فكان وجود الدنيا في حق غيره ﷺ وإزواؤها عنه مع قرب منزلته إهانة لذلك الغير وذلك يستلزم حقارتها ويبعث العاقل على النفار عنها.

ثم عاد إلى الأمر بالتأسي به ﷺ في ترك الدنيا تأكيداً لما سبق بعد بيان وجوه التأسي وهو أمر في صورة الخبر مع زيادة تنبيه على أن الميل إليها يحلّ الهلكة فمن لم يتأس بالنبي ﷺ في أحواله في الدنيا وخالفه في الميل إلى شيء منها لم يأمن الهلكة. إذ قد عرفت أن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة وهي الجاذبة عن درجات دار النعيم إلى دركات دار الجحيم.

وقوله: فإنّ الله جعل محمداً. إلى قوله: داعي ربّه.

صورة احتجاج على قوله: وإلاّ فلا يأمن الهلكة. وتقريره أن الله تعالى جعله علماً للساعة وأمارة على قربها ومبشراً بالجنة ومنذراً بالعقوبة واطلعه على أحوال الآخرة. ثم خرج من الدنيا بهذه الأحوال المعدودة المستلزمة للنفار عنها والبغض لها والحذر منها فلو لم يكن الركون إليها وارتكاب أضداد هذه الأحوال منها مظنّة الهلكة لما نفر النبي ﷺ عنها ويركن إليها لكنه نفر عنها فكانت مظنّة الهلكة فوجب التأسي به في نفاره عنها وإلاّ لم يأمن غير المتأسي به الهلكة فيها. وروي علماً للساعة بكسر العين وهو مجاز إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب. إذ هو ﷺ سبب للعلم بالساعة، وكنّى بوضع الحجر على الحجر عن البناء. ثم عقب بتعظيم منّة الله تعالى على الناس حين أنعم عليهم

به سلفاً يتّبعونه وقائداً يقتفون أثره، وأردف ذلك بذكر بعض أحواله التي تأسّى به (عليه السلام) فيها من ترك الدنيا والإعراض عن الاستمتاع بها إلى غاية ترقيع مدرعته حتى استحيا من راقعها وقول من قال له: ألا تنبذها وتلقيها وجوابه الحسن.

وقوله: فعند الصباح يحمد القوم السرى.

مثل يضرب لمحتمل المشقة ليصل إلى الراحة فأصله أن القوم يسيرون في الليل فيحمدون عاقبة ذلك بقرب المنزل إذا أصبحوا. ومطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أو لإعراضها عنه واتصالها بالملأ الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة وإشراق أنوار العالم العلوي عليها التي عنده تحمد عواقب الصبر على مكاره الدنيا وترك لذاتها ومعاناة شدائدها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها.

وروي أنه سُئِل (عليه السلام) لم رقعت قميصك فقال: يخشع لها القلب ويقتدي بها المؤمنون. ومما نقل في زهده (عليه السلام) ما رواه أحمد في مسنده عن أبي النور الحرّام بالكوفة قال: جاءني علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى السوق ومعه غلام له وهو خليفة فاشترى منّي قميصين وقال لغلامه: اختر أيهما شئت فأخذ أحدهما وأخذ عليّ الآخر. ثم لبسه ومدّ يده فوجد كمّه فاضلة فقال: اقطع الفاضل فقطعه، ثم كفّه وذهب. وروى أحمد أيضاً قال: لما أرسل عثمان إلى عليّ وجدوه مؤتزراً بعباءة محتجراً بعقالٍ وهو يهنأ بعيراً له: أي يمسحه بالقطران وهو الهناء، والأخبار في ذلك كثيرة. وبالله التوفيق.

١٦١ - ومن خطبة له (عليه السلام)

في صفة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليه السلام) وأتباع دينه، وفيها يعظ بالتقوى

بَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي، وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ. عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ. فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُونُ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً. رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ، وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ - عِبَادَ اللهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

أقول: أسرته: أهله. والمتهدلة: المتدلّية. وطيبة: اسم للمدينة سمّاها به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد كان اسمها يثرب، وروي أن يزيد بن معاوية سمّاها خيبة. وتلافيت الشيء: استدركته. والكبوة: العثرة. والوبيل: المهلك. والكدح: السعي والعمل.

وخلاصة الفصل ذكر ممادح النبي (صلى الله عليه وآله). ثم الموعظة الحسنة والتنفير عن الدنيا. والنور المضيء نور النبوة، والبرهان الجليّ المعجزات والآيات الموضحة

لنبوته، والمنهاج البادي هو شريعته ودينه الواضح، والكتاب الهادي القرآن لهديه إلى سبيل الجنة، وظاهر كون أُسرته خير الأُسرة. ولفظ الشجرة مستعار لأصله، وظهر كون قريش أفضل العرب، ولفظ الأغصان مستعار لأشخاص بيته عليهم السلام كعلي وأولاده وزوجته وأعمامه وإخوانه، واعتدال هذه الأغصان تقاربهم في الفضل والشرف، وثمارها مستعار لفضائلهم العلمية والعملية، وتهدّلها كناية عن ظهورها وكثرتها وسهولة الانتفاع بها، وذكر مولده بمكة وهجرته بالمدينة في معرض مدحته لشرف مكة بالبيت العتيق وشرف المدينة بأهلها حيث آووه ونصروه حين هاجر إليها فعلا بها ذكره وانتشر فيها صيته وامتدّت دعوته، ولأنه هاجر إليها وهي بلدة مجدب قليل الخصب ضعيف الأهل مع غلبة خصومه وقوة المشركين عليه في ذلك الوقت.

ثم إنه مع ذلك علا بها ذكره وانتشر فيها صيته فكان ذلك من آيات نبوته أيضاً، والحجّة الكافية ما جاء به من الآيات التي قهر بها أعداء الله، والموعظة الشافية ما اشتمل عليه القرآن العظيم، والسنّة الكريمة من الوعد والوعيد وضرب الأمثال والتذكير بالقرون الماضية والآراء المحمودة الجاذبة للناس في أرشد الطرق إلى جناب ربهم، وكفى بها شفاء للقلوب من أدواء الجهل، والدعوة المتلافية فإنّه استدرك بها ما فسد من نظام الخلق وتلافى بها ما هلك من قلوبهم واسودّ من ألواح نفوسهم، والشرائع المجهولة طرائق دينه وقوانين شريعته التي لم يكن ليهتدي إليها إلاّ بظهوره، والبدع ما كانت عليه أهل الجاهلية من الآثام والفساد في الأرض، والأحكام المفصولة ما فصّله وبيّنه لنا من أحكام دين الإسلام الذي من ابتغى غيره ديناً ضلّ عن سواء طريق النجاة فتحقّقت شقوته في الآخرة وانفصمت عروته: أي انقطع متمسَّك النجاة في يده فعظمت عثرته في سفره إلى الآخرة، وكان مرجعه إلى الحزن الطويل على ما فرّط في جنب الله ومصيره إلى العذاب المهلك في دار البوار.

ثم أنشأ يتوكل على الله توكل المنيب إليه: أي الملتفت بقلبه عن غيره المسلم بجميع أموره إليه، ويسأله الإرشاد إلى سبيله القاصدة إلى جنّته التي هي محل الرغبة إليه. ثم عقّب بالموعظة فبدأ بالوصية بتقوى الله وطاعته وأطلق عليها لفظ النجاة مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب المادي لكونها معدّة لإفاضة النجاة من عذاب يوم القيامة. وقيل: النجاة الناقة التي ينجى عليها فاستعار لفظها للطاعة لأنها كالمطية ينجو بها المطيع من العطب، ولفظ المنجاة إذ هي محلّ النجاة دائماً، والضمير في رهب ورغّب لله: أي فأبلغ في وعيده وأسبغ الترغيب فأتمّه، ووصف الدنيا بالأوصاف الموجبة للرغبة عنها.

ثم أمر عليه السلام بالإعراض عن زينتها، وعلل حسن ذلك الإعراض بقلّة ما يستصحب الإنسان منها إلى الآخرة، وأراد الإعراض بالقلب الذي هو الزهد الحقيقي، وإنما قال: لقلّة ذلك ولم يقل لعدمه لأن السالكين لا بد أن يستصحبوا منها شيئاً، وهو ما يكتسبه أحدهم من الكمالات إلى الآخرة لكن القدر الذي يكتسبه المترفون من الكمالات إذا قصدوا بأموالهم وسائر زينة الحياة الدنيا الوصول إلى الله تعالى قليل نور، ومع ذلك فهم في غاية الخطر من مزلّة القدم في كل حركة وتصرّف بخلاف أهل القشف الذين اقتصروا منها على مقدار الضرورة البدنية، ويحتمل أن يريد بالقليل الذي يصحبهم منها كالكفن ونحوه. وإنما كانت أقرب دار من سخط الله وأبعدها من إطاعة الله لأن الميل فيها إلى اللهو واللعب والاستمتاع بزينتها المستلزم لسخط الله أغلب من الانتفاع بها في سلوك سبيل الله.

وقوله: فغضّوا.

أي فكفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها والاشتغال بها لما تيقنتم من فراقها لأن الغم إنما ينبغي أن يوجه نحو ما يبقى. ثم حذّر منها حذر الشفيق على نفسه الناصح المجد الكادح لها. ثم أخذ في الأمر باعتبار ما هو مشاهد من مصارع القرون الماضية وأحوالها الخالية من تفرق أوصالهم وزوال أسماعهم وأبصارهم إلى سائر ما عدّده من الأحوال التي نزلت بهم واستبدلوها من الأحوال الدنيوية التي كانوا عليها. ثم حذر منها حذر الغالب لنفسه الأمارة بالسوء الناظر بعين عقله مقابح

شهوته المانع لها عن العبور إلى حد الإفراط من فضيلة العفّة. فإن أمر الدنيا والآخرة واضح لمن اعتبر حالهما، وعلم الشريعة الهادي إلى الحق قائم، والطريق إلى الله سهل مستقيم قاصد: أي فلا يكن أمركم عليكم غمّة.

١٦٢ - ومن كلام له عليه السلام

لبعض أصحابه وقد سأله، كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟

فقال:

يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهٰذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَالأَشَدُّونَ بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالْحَكَمُ اللّٰهُ، وَالْمَعُودُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ.

ودَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ. وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ، وَلا غَرْوَ وَاللهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الأَوَدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

أقول: الوضين: بطان القتب وحزام السرج. والغلق: الإضطراب. والذمامة بالكسر: الحرمة، ويروى ماتة الصهر: أي وسيلته وهي المصاهرة، والنوط: التعلق. والأثرة بالتحريك: الاستبداد والاستيثار. والحجرة بفتح الحاء: الناحية، والجمع حجرات بفتح الجيم وسكونها. وهلّم: يستعمل بمعنى تعالى كقوله تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] وقد يستعمل بمعنى هات كما هي هنا فيتعدى كما قال تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الانعام: ١٥٠]. ولا غرو: أي لا عجب والأود: الاعوجاج. والجدح بالجيم بعدها الحاء: الخلط والتخويض والتكدير. والشرب بالكسر: الحظ من الماء. والوبيء: ذو الوباء الممرض.

فأما جوابه للأسدي فإنه يقال للرجل إذا لم يكن ذا ثبات في عقله وأموره بحيث يسأل عمّا لا يعنيه أو يضع سؤاله في غير موضعه ويستعجل: إنه قلق الوضين، وأصله أن الوضين إذا قلق اضطرب القتب فلم يثبت فطابق حال من لا يثبت في مقاله وحركاته فضرب مثلاً له، وكذلك قوله: وترسل في غير سددٍ: أي تتكلم في غير موضع الكلام لا على استقامة. وهذا تأديب له.

وقوله: ولك بعد. إلى قوله: استعملت.

إبداء للعذر في حسن جوابه فإن للمصاهرة حق وللسائل على المسؤول حق الاسترشاد والسؤال. فأما كونه صهراً فلأن زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسدية. وهي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر ابن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن ذوذان بن أسد بن خزيمة وأُمّها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فهي بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله. قالوا: والمصاهرة المشار إليها هي هذه، ونقل القطب الراوندي أن علياً عليه السلام كان متزوجاً في بني أسد. وأنكره الشارح ابن أبي الحديد معتمداً على أنه لم يبلغنا ذلك، والإنكار لا معنى له. إذ ليس كل ما لم يبلغنا من حالهم لا يكون حقاً ويلزم أن لا يصل إلى غيرنا.

وقوله: أما الاستبداد.

شروع في الجواب والضمير في إنها يعود إلى معنى الأثرة في الاستبداد، والقوم الذين شحّوا عليها فعند الإمامية من تقدم عليه في الإمامة، وعند غيرهم فربما قالوا المراد بهم أهل الشورى بعد مقتل عمر.

وقوله: والحكم الله والمعود إليه.

أي المرجع في يوم القيامة في معنى التظلّم والتشكي، والمعود مبتدأ خبره القيامة. فأمّا البيت فهو لامرئ القيس، وأصله أنه تنقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه فنزل على رجل من خذيلة طي يقال له طريف

فأحسن جواره. فمدحه وأقام معه. ثم إنّه خاف أن لا يكون له منعة فتحوّل عنه ونزل على خالد بن سدوس بن اسمع النبهاني فأغارت بنو خذيلة عليه وهو في جوار خالد فذهبوا بإبله فلما أتاه الخبر ذكر ذلك لخالد فقال له: أعطني رواحلك ألحق عليها فأردّ عليك إبلك، ففعل فركب خالد في أثر القوم حتى أدركهم فقال: يا بني خذيلة أغرتم على إبل جاري. قالوا: ما هو لك بجار. قال: بلى والله وهذه رواحله. فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ وبالإبل. فقال امرؤ القيس القصيدة التي أوّلها البيت:

فدع عنك نهباً صيح في حجراته
ولكن حديث ما حديث الرواحل

والنهب هنا ما ينهب وحجراته جوانبه، وحديث الثاني مبتدأ والأول خبره وما للتنكير وهي التي إذا دخلت على اسم زادته إبهاماً كقوله: لأمرٍ ما جدع قصير أنفه. والمعنى دع ذكر الإبل فإنه مفهوم، ولكن حديث الرواحل حديثٌ ما: أي حديث مبهم لا يدري كيف هو، وذلك أنه قيل: إن خالداً هو الذي ذهب بالرواحل. فكان عنده لبس في أمرها. فأما استشهاده عليه السلام به فالمروي في استشهاده النصف الأول من البيت، ووجه مطابقته لما هو فيه أن السابقين من الأئمة وإن كانوا قد استبدّوا بهذا الأمر فحديثهم مفهوم. إذ لهم الاحتجاج بالقدمة في الإسلام والهجرة وقرب المنزلة من الرسول وكونهم من قريش. فدع ذكرهم وذكر نهبهم هذا المقام فيما سبق، ولكن هات ما نحن فيه الآن من خطب معاوية بن أبي سفيان، والخطب هو الحادث الجليل، وأراد هات ذكر خطبه فحذف المضاف للعلم به، وأشار به إلى الأحوال التي أدّت إلى أن كان معاوية منازعاً له في هذا الأمر مع بعده عنه حتى صار قائماً عند كثير من الناس مقامه.

وقوله: فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه.

إشارة إلى غبنه ممّن تقدم عليه في هذا الأمر، وضحكه بعد ذلك تعجّب مما حكمت به الأوقات واعتبار. ثم قال ولا عجب: أي ذلك أمر يجلّ عن التعجب. ثم أخذ في استعظامه فقال: يا له خطباً يستفرغ العجب: أي يفنيه حتى صار كلا عجب وهو من باب الإغراق والمبالغة كقوله ابن هاني:

قد سرت في الميدان يوم طرادهم
فعجبت حتى كدت لا أتعجّب

ويحتمل أن يكون قوله: ولا غرو والله: أي إذا نظر الإنسان إلى حقيقة الدنيا وتصرّف أحوالها، فيكون قوله بعد ذلك: فيا له، استئناف لاستعظام هذا الأمر. وكونه يكثر الاعوجاج ظاهر فإن كل امرئ بعد عن الشريعة ازداد الأمر به اعوجاجاً.

وقوله: حاول القوم. إلى قوله: ينبوعه.

فالقوم قريش، ومصباح أنوار الله استعارة لخاصة الرسول صلى الله عليه وآله من أهل بيته، وكذلك ينبوعه استعارة لهم باعتبار كونهم معدناً لهذا الأمر ولوازمه، ووجه الاستعارتين ظاهر. يريد أنهم حاولوا إزالة هذا الأمر عن مستقره ومعدنه الأحق به وهو بيت الرسول صلى الله عليه وآله. ثم استعار لفظ الشرب الوبيء لذلك الأمر، ولفظ الجدح للكدر الواقع بينهم والمجاذبة لهذا الأمر، واستعار لفظ الوبيء له باعتبار كونه سبباً للهلاك والقتل بينهم.

وقوله: فإن ترتفع. إلى آخره.

أي: فإن يجتمعوا عليّ ويرتفع بيني وبينهم ما ابتلينا به من هذه المحن والإحن أسلك بهم محض الحق، وإن أبوا إلاّ البقاء على ما هم عليه فلا أسف عليهم. واقتبس الآية المشتملة على تأديب نفسه وتوطينها على ترك الأسف عليهم إن لم يؤمنوا وعلى تهديدهم ووعيدهم باطلاع الله على أعمالهم السيئة.

١٦٣ - ومن خطبة له عليه السلام

الخالق جل وعلا

الْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ، وَمُسِيلِ الْوِهَادِ، وَمُخْصِبِ النِّجَادِ. لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلا لأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلا أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ الأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا. لا تُقَدِّرُهُ

الأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلا بِالْجَوَارِحِ وَالأَدَوَاتِ. لا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى؟» وَلا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لا يُقَالُ: «فِيمَ؟». لا شَبَحٌ فَيَتَقَصَّى، وَلا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَلا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلا ازْدِلافُ رَبْوَةٍ، وَلا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الأُفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقَلُّبِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ الأَقْطَارِ، وَتَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ الأَمَاكِنِ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ، لَمْ يَخْلُقِ الأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلا أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمٰوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى.

أقول: الساطح: الباسط. والمهاد: الأرض. والوهاد: جمع وهدة وهي المكان المطمئن. والنجاد: جمع نجد، وهو المكان المرتفع. وازدلاف الربوة: تقدمها. والساجي: الساكن. وتفيؤ القمر: ذهابه ومجيئه حالتي أخذه في التبدر وأخذه في النقصان إلى المحاق. ومجد مؤثّل وبيت مؤثل: أصيل قديم.

وقد اشتملت الخطبة من علم التوحيد على مباحث قدّم الحمد لله تعالى باعتباراتها:

الأول: قوله: خالق العباد. إلى قوله: النجاد.

إشارة إلى كونه مبدئاً لجميع الموجودات، وبيانه: أن لفظ العباد مشتمل على من في السماوات ومن في الأرض لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وتدخل في ذلك الأجسام الفلكية لكونها أجساماً للملائكة، وسطح المهاد إشارة إلى خلق الأرض وجعلها مهاداً لما خلق من الحيوان، ومسيل الوهاد ومخصب النجاد إشارة إلى إيجاده لسائر ما ينتفع به الخلق في الدنيا.

إذا عرفت ذلك فقد اشتملت هذه الألفاظ على إيجاده لجميع الموجودات الممكنة. وقد ثبت أن خالق جميع الموجودات الممكنة لا يكون ممكناً فاستلزم ذلك كونه تعالى واجب الوجود.

الثاني: من الاعتبارات المسلبية: كونه تعالى لا ابتداء لأوليته: أي لا حدّ لكونه أولاً للأشياء تقف عنده أوّليته وتنتهي به وإلاّ لكان محدثاً فكان ممكناً فلم يكن واجب الوجود. هذا خلف.

الثالث: ولا انقضاء لأزليّته: أي لا غاية ينتهي عندها وينقضي وإلاّ لقابل العدم فلم يكن واجب الوجود. هذا خلف.

وقوله: هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل.

تأكيد للاعتبارين الثاني والثالث بعبارة الإثبات.

الرابع: خرّت له الجباه ووحدته الشفاه. وهو إشارة إلى كمال ألوهيّته واستحقاقه للعبادة.

الخامس: أنه لا يشبهه شيء. إذ كل شيء ما عداه محدود يقدّره العقل والوهم ويشار إليه بحدود يحيطان به منها، ولا شيء منه تعالى كذلك. إذ كل وهم قدّره بحدّ أو بحركة أو جارحة أو أداة كما هو مقتضى الوهم في إدراكه لمدركاته فقد ضلّ ضلالاً بعيداً عن تصوّره. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

السادس: أنّه منزّه عن لحوق الزمان فلا يسأل عنه بمتى، وعن غاية الزمان فلا يضرب له أمد بحتى.

السابع: كونه ظاهراً ومع غاية ظهوره لا مادة له ولا أصل يستفاد منه فلا يقال مما هو موجود.

الثامن: كونه باطناً ومع غاية بطونه وخفائه لا حيّز له فيقال فيه بطن وخفيّ كسائر الخفيّات من الأجسام

والجسمانيات. وقد سبق بيان كونه تعالى باطناً وظاهراً غير مرّة.

التاسع: كونه وليس بشخص فيلحقه التغيّر والانقضاء.

العاشر: ولا محجوب فيحويه الحجاب. إذ الشخص للناظر والحجاب من لواحق الأجسام التي تنزّه قدسه عنها.

الحادي عشر: من الاعتبارات الإضافية كونه تعالى قريباً من الأشياء لا بالالتصاق.

الثاني عشر: كونه بعيداً منها بالافتراق. وقد عرفت معنى قربه وبعده في الخطبة الأولى، ولما كان الالتصاق والافتراق من لواحق الأجسام لا جرم تنزّه قربه وبعده من الأشياء عنها.

الثالث عشر: كونه لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة. إلى قوله: وإدبار نهار مدبر. إشارة إلى إحاطة علمه بكل المعلومات، وشخوص اللحظة مدّ البصر بلا حركة جفن، وكرور اللفظة رجوعها، وازدلاف الربوة تقدمها وأراد الربوة المتقدمة: أي في النظر والبادية عند مدّ العين فإن الربى أول ما يقع في العين من الأرض، والضمير في عليه للغسق.

وقوله: وتعقّبه الشمس: أي تتعقّبه فحذف إحدى التاءين كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧] وروى تعقبه، والضمير المنصوب فيه للقمر.

وقوله: من إقبال ليل.

متعلق بالتقليب، والمعنى أن الشمس تعاقب القمر فتطلع عند أُفوله، ويطلع عند أُفولها.

الرابع عشر: كونه قبل كل غاية ومدة وإحصاء وعدّة لأن تعالى خالق الكل ومبدؤه فوجب تقدمه وقبليّته.

الخامس عشر: تنزهه وتعاليه عما تصفه به المشبهة والمتبعون لحكم أوهامهم في جنابه المقدس من صفات المقادير كالأقطار والنهايات والجوانب وإصالة البيوت وقدمها والاستقرار في المساكن وسائر ما هي حدود ولواحق يتقيّد بها ذوات الأعيان. فإن كل تلك الحدود مضروبة منه لخلقه ومنسوبة إليهم دونه.

السادس عشر: كون مخلوقاته صادرة عنه من غير أصول أزلية ولا أوائل أبدية: أي أولية سابقة ومعنى هذا الكلام أنه لم يخلق ما خلق على مثال سبق يكون أصلاً لا أول له حذا حذوه، وقيل: معناه أنه ليس لما خلق أصل أزليّ أبدي خلق منه من مادة وصورة كما زعمت الفلاسفة، وروي: ولا من أوائل أبدية.

وقوله: بل خلق ما خلق فأقام حدّه.

أي بل هو المخترع لإقامة حدوده، وهي من المقادير والأشكال والنهايات والآجال والغايات على وفق الحكمة الإلهية، وكذلك صوّر ما صوّر فأحسن صورته: أي أتى به على وجه الإحكام والإتقان.

السابع عشر: كونه ليس لغيره منه امتناع، إشارة إلى كمال قدرته وإحاطة علمه.

الثامن عشر: كونه لا انتفاع له بطاعة شيء لأن الانتفاع من لوازم الحاجة الممتنعة عليه، وهو إشارة إلى وصف الغنى.

التاسع عشر: كون علمه تعالى بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى، وهو إشارة إلى أن علمه غير مستفاد من غيره ولا يلحقه تغيّر وتجدّد فلا يتجدّد له علم لم يكن بل علمه تعالى أزلي أبدي تام لا يلحقه نقصان، نسبة جميع الممكنات إليه على سواء. وقد علمت تحقيقه في المباحث الإلهية في مظانها. وبالله التوفيق.

ومنها: أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الأَسْتَارِ. بُدِئْتَ ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وَوُضِعْتَ ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لا تُحِيرُ دُعَاءً، وَلا تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ

وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ. وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!

أقول: السوي: المستوي: والمرعي: المعتنى بأمره.

والخطاب للإنسان. ونبّهه بكونه سوياً مرعيّاً على وجود خالقه الحكيم اللطيف. وقد عرفت كيفية تخليق الإنسان وتصويره شيئاً فشيئاً إلى حال كماله ووضعه، وكذلك نبّهه بتقلّبه في حالاته وأطوار خلقته وباستفهامه عمّن هداه لاجترار غذائه من ثدي أمّه وعمن عرّفه عند الحاجة مواضع طلبه، وهي الأثداء على وجود خالق هداه إلى جميع حاجته.

فهذا القدر من العلم بالصانع أمر ضروري في النفوس وإن احتاج إلى أدنى تنبيه. وما وراء ذلك بمعنى صفات الكمال ونعوت الجلال أمور لا تطّلع عليها العقول البشرية بالكنه، وإنّما تطلع منها على اعتبارات ومقايسات له إلى خلقه، ويحتاج فيها إلى الدليل والبرهان. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. ونبّه على بعد إدراكها والعجز عنها بقوله: هيهات. إلى قوله: والأدوات: أي من يعجز من صفات نفسه في حال تخليقه والاطلاع على منافع جزئيات أعضائه مع كونها محسوسة مشاهدة له فهو عن صفات خالقه التي هي أبعد الأشياء عنه مناسبةً أعجز، ومن إدراكه بالمقايسة والتشبيه بحدود المخلوقين وصفاتهم أبعد. وبالله العصمة والتوفيق.

١٦٤ - ومن كلام له عليه السلام

لما اجتمع الناس عليه وشكوا مما نقموه على عثمان، وسألوه، مخاطبته عنهم واستعتابه لهم، فدخل عليه فقال:

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلا ابْنُ الْخَطَّابِ أَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالا. فَاللَّهَ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، وَلا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ. فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا». وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ لا تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ الأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هٰذِهِ الأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً. فَلا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلالِ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ!!

فقال له عثمان رضي الله عنه: كلّم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم، فقال عليه السلام:

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

أقول: استسفروني: اتّخذوني سفيراً: أي رسولاً. والوشيجة: عروق الشجرة. والسيقة بتشديد الياء: ما يسوقه العدو في الغارة من الدواب. وجلال السنّ: علوّه.

وحاصل الكلام استعتابه باللين من القول. فأثبت له منزلته من العلم: أي بأحكام الشريعة والسنن المتداولة بينهم في زمان الرسول ﷺ والظهور على كل ما ظهر عليه منها من مرئي ومسموع والصحبة المماثلة لصحبته، وذكر أن الشيخين ليسا بأولى منه بعمل الحق. ثم فخّمه عليهما بقرب الوشيجة من رسول الله ﷺ والصهورة من دونهما، ولفظ الوشيجة مستعار لما بينه وبينهم من القرابة.

فأما كونه أقرب وشيجةً منهما فلكونه من ولد عبد مناف دونهما. ثم حذّره الله وعقّب التحذير بتنبيهه على أنه غير محتاج إلى تعليم فيما يراد منه مع وضوح طريق الشريعة وقيام أعلام الدين. ثم تنبيهه على أفضلية الإمام العادل بالصفات المذكورة، وعلى قيام أعلام السنن، وعلى قيام أعلام البدع ليقتدي بتلك وينكب عن هذه. ثم على حال الإمام الجائر يوم القيامة بما نقل من الخبر عن سيد البشر ﷺ. ثم ناشده الله تعالى محذّراً له أن يكون الإمام المقتول في هذه الأمّة وقد كان الرسول ﷺ أخبر بذلك بهذه العبارة التي نقلها بعد قوله: يقال: أو بما يناسبها. ثم نهاه أن يكون سيقةً لمروان بن الحكم: أي بصرفه حسب مقاصده بعد بلوغه معظم السن وتقضي العمر. وقد كان مروان من أقوى الأسباب الباعثة على قتل عثمان، وكان بعكس الآراء التي يشار على عثمان بها من علي عليه السلام وغيره [يشار بها بين علي وغيره خ] مع كونه بغيضاً إلى المعتبرين من الصحابة وكونه طريد الرسول ﷺ.

وقوله في جوابه: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه. إلى آخره.

كلام جزل حاسم لما عساه يكون مماطلة من طلب التأجيل لأنّ الحاضر لا معنى لتأجيله، والغائب لا عذر في تأخيره بعد بلوغ أمره إليك كالذي أعطاه أقرباؤه من أموال بيت المال على غير وجهه. وقد سبق في الفصول المتقدمة من أمر عثمان مع الصحابة، وما نقموه عليه ما فيه كفاية. وبالله التوفيق.

١٦٥ - ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس:

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَرَوَاسِيَ أَعْلامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي السَّمَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدُفُّ دَفِيفاً. وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلافِهَا فِي الأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلاً عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ. يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ. يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمَلاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ، لا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ. وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لَمَا

كَانَ ذٰلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ! تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ. يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ.

فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلاسِيَّةِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ. وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ، وَمَغْرَزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ. إِلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأُقْحُوَانِ، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صِبْغٌ إِلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلا شُمُوسُ قَيْظٍ. وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلاحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ! وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً. فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ، وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ. وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ! وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لا يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلاَّ وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

أقول: نعقت: صاحت. والأخاديد: شقوق الأرض وشعابها. والفجاج: جمع فجّ، وهي الطريق بين الجبلين. والعبالة: امتلاء الجسد. ونسقها: نظمها. ويختال: يصيبه الخيلاء. وزيفانه: تمايله وتبختره. والأرّ: النكاح والحركة فيه. وملاقحه: آلات اللقاح وأعضاء التناسل. والاغتلام: شدة الشبق. والقلع الداري: الشراع المنسوب إلى دارين، وهي جزيرة من سواحل القطيف من بلاد البحرين يقال: إنّ الطيب كان يجلب إليها من الهند، وهي الآن خراب لا عمار بها ولا سكنى، وفيها آثار قديمة. وعنجه: عطفه. والنوتي: ربّان السفينة. وضفتي جفونه: جانباها. والمنبجس: المنفجر. والمداري: جمع مدرى، وهي خشبة ذات أطراف كأصابع الكف محددة الرؤوس ينقى بها الطعام. وداراته: الخطوط المستديرة بقصبه. والعقيان: الذهب. وفلذ: جمع فلذة، وهي القطعة. والزبرجد: قيل: هو الزمرد، وقيل: يطلق على البلخش. والجنيّ: فعيل بمعنى المجني، وهو الملتقط. والعصب: برود تعمل باليمن. والمضاهاة: المشابهة. والحمش: الدقاق. ونطقت باللجين: أي شدّت فيه ورصعت. والوشاح: سير ينسج من أديم ويرصّع بالجواهر فتجعله المرأة على عاتقها إلى كشحيها. وزقا: صاح. والمعول: الصارخ. والديكة الخلاسية: هي المتولدة بين الدجاج الهندي والفارسي. ونجمت: ظهرت. والظنبوب: حرف الساق. والصيصية: الهنة التي في

مؤخّر رجل الديك. والقنزعة: الشعر المجتمع في موضع من الرأس. والوسمة بكسر السين وسكونها: شجر العظلم يخضب به. والأسحم: الأسود. والتلفّع: التلحف. واليقق: خالص البياض. ويأتلق: يلمع. والبصيص: البريق. وتترى: تسقط منها شيء عقيب شيء. وأدمجه: أحكمه. والذرة: النملة الصغيرة. والهمجة: ذبابة صغيرة كالبعوضة.

ومقصود الخطبة التنبيه على عجائب صنع الله لغاية الالتفات إليه والتفكر في ملكوته، وقد عرفت معنى الابتداع. وأراد بالموت ما لا حياة له، والساكن كالأرض، وذو الحركات كالأفلاك وشاهد [شواهد خ] البيّنات ما ظهر للعقول من لطائف المخلوقات فاستدلت بها على لطف صنعته وكمال قدرته فانقادت لتلك الدلائل والطرق الواضحة إلى معرفته والإقرار به والتسليم لأمره، واستعار لفظ نعيق في الأسماء لظهور تلك الدلائل في صماخ العقل، وما الأولى مفعول لأقام، والضمير في له يرجع إلى ما، وفي به وله الثانية إلى الله، وفي دلائله يحتمل العود إلى كل واحد منهما. وما الثانية محلّها الجر بالعطف على الضمير المضاف إلى في دلائله: أي نعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيّته ودلائل ما خلق، وقد عرفت فيما سبق كيفية الاستدلال بكثرة ما خلق واختلافه في وحدانيته، والأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض كالقطاة والصدى، والتي أسكنها خروق فجاجها كالقبج، والتي أسكنها رؤوس الجبال كالعقبان والصقور.

ثم أخذ يصف اختلافها بالأجنحة في هيئاتها وكيفيات خلقها تحت تصريف قدرته وحكمته. ثم أشار إلى اعتبار تكوينها وإحداثها في عجائب صورها وألوانها وتركيب خلقها في عبل الجثة تمنع سمّوه في الهواء كالنعام. ثم نبّه على لطيف حكمته في تنسيقها مختلفة الألوان والأصباغ فمنها مغموس في قالب لونٍ واحد، قد طوّق بخلاف ما صبغ به كالفواخت، وشرع في التنبيه بحال الطاووس على لطف الصنع لاشتماله على جميع الألوان، وكفى بوصفه عليه السلام شارحاً فإنّه لا أبلغ منه ولا أجمع لتفاصيل الحكمة الموجودة في هذا الموصوف غير أنه قد يحتاج بعض ألفاظه عليه السلام إلى بيان. فأراد بقصبه قصب ريش ذنبه وجناحيه وإشراجها ضبط أصولها بالأعصاب والعظام وشرج بعضها لبعض، ووصفه عليه السلام لهيئة درجه إلى الأنثى حال إرادة السفاد وصف من شاهد واستثبت الهيئة وأحسن بتشبيهه لذنبه عند إرادة السفاد بالقلع الداري. فإنه في تلك الحالة يبسط ريشه وينشره.

ثم يرفعه وينصبه فيصير كهيئة الشراع المرفوع، ووجه التشبيه زيادة على ذلك أشار إليها بقوله: عنجه نوتيّه، وذلك أن الملاحين يصرفون الشراع تارة بالجذب، وتارة بالإرخاء، وتارة بتحويله يميناً وشمالاً وذلك بحسب انصرافهم من بعض الجهات إلى بعض فأشبههم هذا الطائر عند حركته لإرادة السفاد، وزيفانه في تصريف ذنبه وتحويله، وله في ذلك هيئة لا يستثبت وجه الشبه فيها كما هو إلاّ من شاهدها مع مشاهدة المشبه به، ولذلك قال: أحيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيلك على ضعيف إسناده. وإنّما خصّ دارين بالذكر لأنها كانت المرسى القديم في زمانه عليه السلام حيث كانت معمورة.

وقوله: ولو كان من يزعم. إلى قوله: المنبجس.

أي: لو كان حاله في النكاح كزعم من يزعم، وهو إشارة إلى زعم قوم أن الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين أجفانه فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة، وروي تنجشها مدامعه: أي تغص بها وتحار فيها، وهو عليه السلام لم يقل ذلك، وإنما قال: ليس ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد. ومن أمثالهم أخفى من سفاد الغراب، ويزعمون أن اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى وإيصال جزء من الماء الذي فيه في قانصته إليها، وهي أن يضع كل منهما منقاره في منقار صاحبه ويتزاقا وذلك مقدمة للسفاد في كثير من الطير كالحمام وغيره، وهذا وإن كان ممكناً في بعض الطير كالطاووس والغراب غير أن ذلك بعيد. على أنه قد نقل الشيخ في الشفاء أن القبجة تحبلها ريح تهب من ناحية الحجل ومن سماع صوته، قال: والنوع المسمى ما لاقيا يتلاصق بأفواهها ثم يتشابك فذلك سفادها، ونقل الجاحظ في كتاب الحيوان أن الطاووسة

قد تبيض من الريح بأن تكون في سفالة الريح وفوقها الذكر فتحمل ريحه فتبيض منها.

قال: وبيض الريح قلّ أن يفرخ. وأقول: قد يوجد في الدجاج ذلك إلاّ أنه قلّ ما يفرخ كما ذكره.

ثم شبّه عليه السلام قصب ذنبه بالمداري من الفضة، ومن شاهد صورة قيام ذنبه مع بياض أُصول ريشه وتفرّقها عند نشره للسفاد عرف موضع التشبيه المذكور ووقوعه موقعه، وكذلك شبّه الخطوط الصفرة المستديرة على رؤوس ريش الذنب بخالص العقيان في الصفرة الفاقعة مع ما يعلوها من البريق، وما في وسط تلك الدارات من الدوائر الخضر بقطع الزبرجد في الخضرة، واستعار لها لفظ الشموس ملاحظة لمشابهتها لها في الاستدارة والاستنارة. ثم قال: وإن شبّهته بما أنبتت الأرض. إلى قوله: كل ربيع، ووجه الشبه اجتماع الألوان مع نضارتها وبهجتها. وكذلك وجه الشبه في تشبيهه بموشي الحلل أو المعجب من برود اليمن، وكذلك إن شاكلته بالحلي، ووجه شبهه بالفصوص المختلفة الألوان المنطقة في الفضة: أي المرصعة في صفائح الفضّة والمكلّل الذي جعل كالأكليل بذلك الترصيع. ثم حكى صورة مشيته وصوته كالقهقهة عند نظره إلى حسن سرباله وإعجابه بجمال كسوته، ولفظ الضحك والقهقهة والسربال مستعار وكذلك حاله في نظره إلى قوائمه فإنه يصيح كالمتوجع من قبح ساقيه ودقّتها ويخضع وينقمع بعد تعظّمه ونفخه لنفسه، ووجه تشبيه قوائمه بقوائم الديكة الخلاسيّة الدقة والطول والتشظي ونتوّ العرقوب.

ثم أخذ في وصف صيصيته وقنزعته وهي رويشات يسيرة طوال في مؤخر رأسه نحو الثلث بارزة عن ريش رأسه خضر موشاة. ثم أخذ في وصف عنقه، وشبّه مخرجه بالإبريق ووجه الشبه الهيئة المعلومة بالمشابهة، وكذلك مغرزه من رأسه إلى حيث بطنه يشبه في لونه صبغ الوسمة في السواد المشرق أو الحريرة السوداء الملبسة مرآة ذات صقال في سرابها ومخالطة بصيص المرآة لها أو المعجر الأسود. إلاّ أن ذلك السواد لكثرة مائه وشدّة بريقه يخيّل للناظر أنه ممتزج بخضرة ناضرة. ثم وصف الخلط الأبيض عند محل سمعه، وشبّهه في دقته واستوائه بخط القلم الدقيق، وفي بياضه بلون الأقحوان. ثم أجمل في تعديد الألوان فقال: وقلّ صبغ إلاّ وقد أخذ منه بقسط وعلاه: أي وزاد على الصبغ بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه، ولفظ الديباج مستعار لريشه.

ثم رجع إلى تشبيهه بالأزاهير المبثوثة، ونبّه على كمال قدرة صانعها بأنها مع ذلك لم تربّها أمطار الربيع: أي لم تعدها لتلك الألوان أمطار ربيع ولا شموس قيظ لأنه لما خيّل أنها أزاهير، وكان من شأن الأزاهير المختلفة أنها لا تتكوّن إلاّ في زمن الربيع بأمطاره وحرارة الشمس المعدة لتنويره أراد أن يبيّن عظمة صانعها بأنها مع كونها أزاهير خلقها بغير مطر ولا شمس.

ثم أخبر عن حالة له أُخرى هي محل الاعتبار في حكمة الصانع وقدرته، وهو أنه يتحسّر ويعرى من ذلك الريش الحسن شيئاً بعد شيء، ثم ينبت جميعاً كل ريشة موضع ريشة بلونها الأول من غير زيادة أو نقصان حتى كأنها هي، وشبّهه في سقوطه ونباته بتحات أوراق الشجر من الأغصان ونباتها. ثم نبّه على وجود حكمة الصانع في الشعرة الواحدة من شعرات ريشه بأنك إذا تأمّلتها أرتك من شفافيتها وشدة بصيصها تارة حمرة كحمرة الورد، وتارة خضرة كخضرة الزبرجد. وتارة صفرة كصفرة الذهب. ثم عقب ذلك الوصف البليغ باستبعاد وصول الفطن العميقة إلى صفة هذا، وأراد العجز عن وصف علل هذه الألوان واختلافها واختصاص كل من مواضعها بلون غير الآخر، وعلل هيئاتها وسائر ما عدّده. فإن أقل جزء منه مما يتحيّر الأوهام في درك علّته وتقصر الألسن عن وصفه، ويحتمل أن يريد العجز عن استثبات جزئيات أوصافه الظاهرة وتشريحه. فإن ما ذكره عليه السلام وإن كان في غاية البلاغة إلاّ أن فيه وراء ذلك جزئيات لم يستثبتها الوصف. وهو الأقرب، ويؤيده تنزيهه لله تعالى باعتبار قهره للعقول عن وصف هذا المخلوق الذي جلاّه وأظهره للعيون فأدركته محدوداً ملوّناً ومؤلفاً مكوّناً وأعجز الألسن عن تلخيص وصفه وتأدية نعته.

ثم نزّهه باعتبار أمر آخر وهو إحكامه قوائم الذرّة والهمجة وسائر ما فوقها كالحيتان وكبار حيوان البر كالفيلة. ثم باعتبار حكمه وتقديره على كل حي منها ضرورة الموت، وفيه تنبيه على ذكر هادم اللذات.

واعلم أنه قد ذكرت للطاووس أحوال أُخرى تخصه أكثرها قالوا: إنه غاية ما يعيش خمساً وعشرين سنة، وتبيض أنثاه في السنة الثالثة من عمرها، وتبيض في السنة مرة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام، وتحضنها ثلاثين يوماً فتفرخ، وتحتّ ريشه عند سقوط ورق الشجر وينبت مع ابتداء نبات ورقه.

منها في صفة الجنة:

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا. جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

أقول: عزفت: زهدت وانصرفت. والكبائس: جمع كباسة وهي العذق. والعساليج: الغصون واحدها عسلوج، وكذلك الأفنان جمع فنن. والأكمام جمع كمامة بكسر الكاف: وهي غلاف الطلع. والعسل المصفّق: المصفى.

وقوله: فلو رميت ببصر قلبك.

استعارة لطيفة: أي لو نظرت بعين بصيرتك وفكرت في معنى ما وصف لك من متاع الجنة لم تجد لشيء من بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من متاعها إلى شيء من متاع الجنة إلاّ نسبة وهمية، إذا لاحظتها نفسك عزفت وأعرضت عن متاع الدنيا وما يعدّ فيها لذة، وغابت بفكرها في اصطفاق الأشجار الموصوفة فيها وتمايل أغصانها. ثم وصف أشجارها وأنهارها وسائر ما عدّده من متاع الجنة وصفاً لا مزيد عليه.

فهذه هي الجنة المحسوسة الموعودة، وأنت بعد معرفتك بقواعد التأويل وحقائق ألفاظ العرب ومجازاتها واستعاراتها، وتشبيهاتها، وتمثيلاتها وسائر ما عددناه لك في صدر الكتاب من قواعد علم البيان، وكان لك مع ذلك ذوق طرف من العلم الإلهي أمكنك أن تجعل هذه الجنة المحسوسة سلّماً ومثالاً لتعقل الجنة المعقولة ومتاعها كتأويلك مثلاً أشجار الجنة استعارة للملائكة السماوية والاصطفاق ترشيح تلك الاستعارة، وكثبان المسك استعارة للمعارف والكمالات التي لهم من واهب الجود وهم مغمورون فيها وقد وجدوا لها، ومنها كما تنبت الأشجار في الكثبان، ولفظ الأنهار استعارة للملائكة المجردين عن التعلق بالأجرام الفلكية باعتبار كون هذه الملائكة أُصولاً، ومبادئ للملائكة السماوية كما أن الأنهار مبادئ ممدة لحياة الأشجار وأسباب لوجودها، واللؤلؤ الرطب والثمار استعارة لما يفيض من تلك الأرواح من العلوم والكمالات على النفوس القابلة لها من غير بخل ولا منع. فهي ثمارها تأتي على منية مجتنيها بحسب استعداده لكل منها. والقوة المتخيّلة تحكي تلك الإفاضات في هذه العبارات، والظواهر المحسوسة المعدودة وتكسوها صورة ما هو مشتهى للمتخيّل كل بحسب شهوته. ولذلك كان في الجنة كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ويتأهّل لحضوره فيحضر لها عند إرادتها إيّاه، وكذلك لفظ العسل والخمر استعارة لتلك الإفاضات المشتهاة الملذّة للنفس بحسب محاكاة المتخيّلة لها في صورة هذا المشروب المحسوس المشتهى لبعض النفوس فتصوره بصورته.

وقوله: ثم قوم لم تزل الكرامة. إلى قوله: الأسفار.

استعار لفظ التمادي الذي هو من أفعال العقلاء لتأخر الكرامة عنهم وانتظارهم لها في الدنيا إلى غاية حلولهم دار القرار، وحصول الكرامة لهم هناك وأمنهم من نقلة الأسفار. ثم عقب بتشويق المستمع إلى ما هناك.

وقوله: فلو شغلت قلبك.

أي أخذت في إعداد نفسك للوصول إلى ما يهجم عليك: أي يفاض عليك من تلك الصور البهيّة المعجبة لزهقت نفسك: أي متّ شوقاً إليها، ورحلت إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً لقربهم إلى ما يشتاق إليه. ثم ختم الخطبة بالدعاء لنفسه وللسامعين أن يعدّهم الله تعالى لسلوك سبيله وقطع منازل طريقه الموصلة إلى منازل الأبرار وهي درجات الجنة ومقاماتها. وبالله التوفيق.

١٦٦ - ومن كلام له عليه السلام

الحثّ على التآلف

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً!!

أقول: قيض البيض: كسره. تقول: قضت البيضة: كسرتها، وانقاضت: تصدّعت من غير كسر، وتقيضت: تكسّرت فلقاً. والأداح: جمع أدحى أفعول من الدحو وهو الموضع الذي تفرخ فيه النعامة.

وقد أمر عليه السلام صغيرهم بالتأسي بكبيرهم لأن الكبير أكثر تجربة وعلماً وأكيس وأحزم فكان بالقدوة أولى، وأمر كبيرهم أن يرأف بصغيرهم لأن الصغير بمظنة الضعف. وأهل لأن يرحم ويعذر لقلة عقليته للأمور، وإنّما بدأ بأمر الصغير لأنه أحوج إلى التأديب. والغاية من هذا الأمر انتظام أمورهم وحصول أُلفتهم بما أمرهم به. ثم نهاهم أن يشبهوا جفاة الجاهلية في عدم تفقههم في الدين وعدم عقليّتهم لأوامر الله فيشبهون إذن ببيض الأفاعي في أعشاشها، ووجه الشبه أنها إن كسرها كاسر أثم لتأذّي الحيوان به، وقيل: لأنه يظنّ القطا فيأثم كاسره، وإن لم يكسر يخرج حضانها شراً إذ تخرج أفعى قاتلاً فكذلك هؤلاء إذا أشبهوا جفاة الجاهلية لا يحلّ لأحد أذاهم وإهانتهم لحرمة ظاهر الإسلام عليهم وإن أهملوا وتركوا على ما هم عليه من الجهل وقلة الأدب خرجوا شياطين. وبالله التوفيق.

ومنها: افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ. عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ! يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحَابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلا حِدَابُ أَرْضٍ. يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَأَيْمُ اللهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ. لٰكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الأَعْنَاقِ.

أقول: القزع: قطع السحاب المتفرقة.

ومستثارهم: موضع ثورانهم. والقارة: المستقر الثابت من الأرض. والأكمة: التلّ. والحداب: جمع حدب وهو ما ارتفع من الأرض. والذعذعة بالذال المعجمة مرتين: التفريق. وتهنوا. تضعفوا. وتوهين الباطل: إضعافه. والفادح: المثقل.

والإشارة في هذا الفصل إلى أصحابه، وأصلهم الذي تشتتوا عنه هو عليه السلام، وافتراقهم بعد ألفتهم هو افتراقهم إلى خوارج وغيرهم بعد اجتماعهم عليه.

وقوله: فمنهم آخذ بغصن.

أي يكون منهم من يتمسك بمن أخلفه بعدي من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله أينما سلك سلك معه كالشيعة، وتقدير الكلام: ومنهم من ليس كذلك. إلاّ أنه استغنى بالقسم الأول لدلالته على الثاني.

وقوله: على أن الله تعالى سيجمعهم.

أي من كان على عقيدته فينا ومن لم يكن لشر يوم لبني أميّة، وشبّه جمعه لهم وتأليفه بينهم بجمعه لقزع السحاب في الخريف لتراكمهم بذلك الجمع كتراكم ذلك القزع، ووجه الشبه الاجتماع بعد التفرق. والأبواب التي يفتحها لهم إشارة إما إلى وجوه الآراء التي تكون أسباب الغلبة والانبعاث على الاجتماع أو أعمّ منها كسائر الأسباب للغلبة من إعانة بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وغير ذلك، واستعار لخروجهم لفظ السيل، وشبّهه بسيل جنّتي مأرب وهما جنتا سبأ المحكي عنهما في القرآن الكريم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] الآية، ووجه الشبه الشدة في الخروج وإفساد ما يأتون إليه كقوة ذلك السيل حيث لم يسلم عليه مرتفع من الأرض، ولم يردّ طريقه وجريه جبل مرصوص: أي شديد الالتصاق.

ثم قال: يذعذعهم الله في بطون أوديته ثم يسلكهم ينابيع في الأرض، وهو من ألفاظ القرآن، والمراد كما أن الله ينزل من السماء ماء فيكنّه في أعماق الأرض ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها كذلك هؤلاء القوم يفرّقهم الله في بطون الأودية وغوامض الأرض. ثم يظهرهم بعد الاختفاء فيأخذ بهم من قوم حقوق آخرين، ويمكن قوماً من ملك قوم وديارهم. ثم أقسم ليذوبنّ ما في أيدي بني أميّة بعد علوّهم وتمكنهم كما تذوب الألية على النار، ووجه الشبه الفناء والاضمحلال. ومصداق هذه الأخبار ما كان من أمر الشيعة الهاشمية واجتماعها على إزالة ملك بني أمية من كان منهم ثابتاً على ولاء عليّ وأهل بيته عليهم السلام، ومن حاد منهم عن ذلك في أواخر أيام مروان الحمار عند ظهور الدعوة الهاشمية.

ثم عاد إلى توبيخ السامعين بالإشارة إلى سبب الطمع فيهم ممن دونهم في القوة والمنزلة وقوته عليهم، والإشارة إلى معاوية وأصحابه، وذلك السبب هو تخاذلهم عن نصرة الحق وتضاعفهم عن إضعاف الباطل، وهو في معرض التوبيخ واللائمة لهم.

ثم شبّه تيههم بمتاه بني إسرائيل، ووجه الشبه لحوق الضعف والمذلّة والمسكنة لهم حيث لم يجتمعوا على العمل بأوامر الله فرماهم بالتيه، وضرب عليهم الذلة والمسكنة. ثم أخبرهم بعاقبة أمرهم في التخاذل، وهو إضعاف التيه والتفرق بعده لالتفاتهم عن الحق ومقاطعة بعضهم له مع دنوّه وقربه من الرسول صلى الله عليه وآله ووصلهم لمعاوية وغيره مع بعده عنه. ثم أخذ في إرشادهم وجذبهم إلى اتباعه.

فقال: إن اتّبعهم الداعي - وعنى نفسه - سلك بكم منهاج الرسول صلى الله عليه وآله وطريقه، وكفيتم مؤونة الاعتساف في طرق الضلال، وألقيتم ثقل الأوزار في الآخرة عن أعناق نفوسكم. وظاهر كونهم فادحة. ويحتمل أن يريد بالثقل الفادح الأيام مع ما يلحقهم في الدنيا من الخطوب الفادحة بسبب عصيان الأنام والخروج عن أمره. وبالله التوفيق.

١٦٧ - ومن خطبة له عليه السلام

في أول خلافته:

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا؛ الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ

الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالإِخْلاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَلا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلاَّ بِمَا يَجِبُ، بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ. اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ. أَطِيعُوا اللهَ وَلا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

أقول: اصدفوا: أعرضوا. وتقصدوا: تعدلوا. ومعاقدها: مواضعها.

وصدر الفصل بالتنبيه على فضيلة الكتاب، وهي كونه هادياً إلى طريق الخير والشر. ثم أمر بأخذ طريق الخير لكونه طريق الهدى إلى المطالب الحقيقية الباقية، وبالإعراض عن طريق الشر وسمته لاستلزام الإعراض عنه لزوم طريق الحق والاستقامة فيه. ثم أمر بأداء الفرائض لأنها أقوى طرق الخير، ولذلك قال: تؤدّكم إلى الجنة لأن الجنة منتهى الخير كله. ثم بيّن أن الله حرّم حراماً غير مجهول بل هو في غاية الوضوح، وكذلك أحلّ حلالاً غير مدخول: أي لا عيب فيه ولا شبهة فلا عذر لمن تركه، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها، وهذا لفظ الخبر النبوي: حرمة المسلم فوق كل حرمة دمه وعرضه وماله. وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها: أي ربطها بهما وأوجب على المخلصين المعترفين بوحدانيّته المحافظة على حقوق المسلمين ومراعاة مواضعها، وقرن توحيده بذلك حتى صار فضله كفضل التوحيد. ثم عرف المسلم ببعض صفات المسلم الحق، وهو من سلم المسلمون من يده ولسانه إلاّ أن تكون يد حقّ أو لسان حق. وهو لفظ الخبر النبوي أيضاً.

وقوله: لا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب.

كقوله: إلاّ بالحق. أورده تأكيداً له. ثم عقّب بتنبيههم على أمر العامة وخاصة أحدهم وهو الموت: أي ذلك الأمر هو الموت؛ وإنما كان مع عمومه لكل الحيوان خاصة أحدهم لأن له مع كل شخص خصوصية وكيفية مخالفة لحاله مع غيره، وأمر بمبادرته. أي بمبادرة العمل له ولما بعده قبل سبقه إليهم، ونبّههم على أن الناس أمامهم: أي قد سبقوهم إلى الآخرة والساعة تحدوهم من خلفهم، وأمر بالتخفيف للّحاق بهم، وحثّهم على ذلك بقوله: فإنما ينتظر بأوّلكم آخركم: أي السابقين إلى الآخرة اللاحقين منكم ليبعث الكل جميعاً، وقد سبقت هذه الألفاظ بعينها وشرحها مستوفى.

ثم أمر بتقوى الله في عباده وذلك بلزوم خوفه في مراعاة ما ينبغي لكل أحد مع غيره، وفي بلاده بترك الفساد في الأرض، ونبّه على وجود ذلك باستعقاب كل عمل، وإن قلّ للسؤال عنه، ومناقشة الحساب عليه حتى عن البقاع. فيقال: لم استوطنتم هذا المكان وزهدتم في ذلك؟ وعن البهائم. فيقال: لم ضربتم هذه وقتلتم هذه ولم أوجعتموها؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قيل: هو شبع البطن وبارد الشراب ولذة النوم وظلال المساكن واعتدال الخلق، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فيقال: لم أشغلت قلبك وسمعك؟ وفي الخبر النبوي الصحيح إنّ الله عذّب إنساناً بهرّة حبسها في بيت وأجاعها حتى هلكت. ثم أجمل القول بعد تفصيله وأمر بطاعة الله ونهى عن معصيته وأرشد إلى الأخذ بالخير عند رؤيته، والإعراض عن الشر عند رؤيته.

١٦٨ - ومن كلام له عليه السلام

بعدما بويع بالخلافة، وقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان؟ فقال عليه السلام:

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلا نَمْلِكُهُمْ! وَهَا هُمْ هٰؤُلاءِ قَدْ ثَارَتْ

مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هٰذا الأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهٰؤُلاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هذَا الأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لا تَرَى هٰذَا وَلا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً؛ فَاهْدَأُوا عَنِّي، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ.

أقول: أجلب عليه: جمع. وشوكتهم: قوّتهم. والعبدان بتشديد الدال وتخفيفها وكسر العين وضمها: جمع عبد. والتفّت: انضمت. ويسومونكم: يكلّفونكم. ومسمحة: مسهلة، والألف في إخوتاه هي المنقلبة عن ياء النفس المضاف إليه، والهاء للسكت.

واعلم أن هذا الكلام اعتذار منه عليه السلام في تأخير القصاص عن قتلة عثمان.

وقوله: إنّي لست أجهل ما تعلمون.

دليل على أنه كان ذلك في نفسه، وحاصل هذا العذر عدم التمكن كما ينبغي، ولذلك قال: وكيف لي بقوة والقوم على حدّ شوكتهم. وصدقه عليه السلام ظاهر فإنّ أكثر أهل المدينة كانوا من المجلبين عليه، وكان من أهل مصر ومن الكوفة خلق عظيم حضروا من بلادهم وقطعوا المسافة البعيدة لذلك وانضمّ إليها أعراب أجلاف من البادية وعبدان المدينة. فكانوا في غاية من شدة الشوكة حال اجتماعهم، وثاروا ثورة واحدة، ولذلك قال: والقوم مجلبون. إلى قوله: يسومونكم ما شاؤوا.

وروي أنه عليه السلام جمع الناس ووعظهم. ثم قال: لتقم قتلة عثمان فقام الناس بأسرهم إلاّ القليل، وكان ذلك الفعل منه استشهاداً على صدق قوله عليه السلام: والقوم على حد شوكتهم.

ومع تحقّق هذه الحال لا يبقى له موضع قدرة على شيء من أمرهم. ثم قال على سبيل قطع لجاج الطالبين مخاطباً لهم: إنّ هذا الأمر أمر الجاهلية. يريد أمر المجلبين عليه إذ لم يكن قتلهم إيّاه بمقتضى الشريعة. إذ الصادر عنه من الأحداث لا يجب فيها قتل. وإن لهؤلاء القوم مادة: أي معنيين وناصرين. ثم قسم حال الناس على تقدير الشروع في أمر القصاص إلى ثلاثة أقسام، وهو احتجاج منه على الطالبين، وتضعيف لرأيهم بقياس ضمير من الشكل الأول مركب من شرطيتين متصلتين صغراهما قوله: إن هذا الأمر إذا حرّك كان الناس فيه على أمور، وتقدير الكبرى وإذا كان الناس فيه على أمور لم يتمكن من إتمامه وفعله. فينتج أن هذا الأمر إذا حرّك لا يتم فعله.

ثم عدّ تلك الأمور، وهي أن فرقة ترى كونه مصيباً كما رأى الطالبون، وفرقة ترى أنه مخطئ وهم أنصار المقتص منهم، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، بل تتوقف كما جرى ذلك في أمر التحكيم. ثم أمرهم بالصبر إلى غاية هدوء الناس. إذ بيّن لهم أنه لا مصلحة في تحريك الأمر حينئذٍ فإنّ الحقوق عند هدوء الناس واستقرار القلوب أسهل مأخذاً.

وقوله: فاهدأوا عنّي وانظروا ماذا يأتيكم به من أمري.

يدل على ترصده وانتظاره للفرصة من هذا الأمر. ثم خوّفهم من الاستعجال بفعل يضعف شوكة الدين ويورث وهنه فإنه لو شرع في عقوبة الناس والقبض عليهم لم يؤمن من تجدّد فتنة أُخرى أعظم من الأولى، وهو غالب الظن. فكان الأصوب في التدبير والذي يقتضيه العقل والشرع الإمساك إلى حين سكون الفتنة وتعرق أولئك الشعوب ورجوع كل قوم إلى بلادهم، وربما كان عليه السلام ينتظر مع ذلك أن يحضر بنو عثمان للطلب بدمه، ويعيّنون قوماً بأعيانهم بعضهم للقتل وبعضهم للحصار كما جرت عادة المتظلّمين إلى الإمام ليتمكن من العمل بحكم الله. فلم يقع الأمر كذلك، وعصى معاوية وأهل الشام والتجأ إليه ورثة عثمان، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعياً، وإنما طالبوه مغالبة، وجعلها معاوية عصبية جاهلية، ولم يأت

أحد منهم الأمر من بابه، وقيل: ذلك ما كان من أمر طلحة والزبير ونقضهما للبيعة ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتلهما للصالحين من أهلها، وكل تلك الأمور التي جرت مانعة للإمام عن التصدي للقصاص، ولذلك قال عليه السلام لمعاوية في بعض كلامه: فأما طلبك بدم عثمان فادخل في الطاعة وحاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله وسنّة رسوله.

فأما قوله: وسأمسك الأمر ما استمسك. إلى آخره.

فاعلم أن هذا الكلام إنّما صدر عنه عليه السلام بعد إكثار القول عليه في أمر عثمان واضطراب الأمر من قبل طلحة والزبير، ونكثهما للبيعة بسبب هذه الشبهة مع كونهما من أكابر الصحابة، وتشتّت قلوب كثير من المسلمين عنه. فحينئذٍ أشار بعض الصحابة بأخذ القصاص من قتلة عثمان تسكيناً لفتنة طلحة والزبير ومعاوية لغلبة الظن حينئذٍ بمخالفته واضطراب أمر الشام فقال الكلام: أي قد أبديت هذا العذر فإنْ لم يقبلوا منّي فسأمسك الأمر: أي أمر الخلافة بجهدي فإذا لم أجد بداً: أي من قتال من يبغي وينكث فآخر الدواء الكيّ: أي الحرب والقتال لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها ومداواة أمراض قلوبهم كما تنتهي مداواة المريض إلى أن يكوى. وبالله التوفيق.

١٦٩ - ومن خطبة له عليه السلام

عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة:

إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلاَّ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللهِ عِصْمَةً لأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَاللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الإِسْلامِ، ثُمَّ لا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

إِنَّ هٰؤُلاءِ قَدْ تَمَالأُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ: فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هٰذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

أقول: يأرز: ينحاز وينقبض. وتمالأوا: اجتمعوا. والفيالة: الضعف. والنعش: الرفع.

وقوله: إن الله بعث. إلى قوله: هالك.

تصدير للفصل بالأمور الجامعة للمسلمين التي هي أُصول دولتهم وتذكير لهم بها ليرجعوا إليها. وأمر قائم: مستقيم.

وقوله: لا يهلك عنه إلاّ هالك.

أي لا يهلك من مخالفته إلاّ أعظم هالك كما تقول لا يعلم هذا الفن من العلم إلاّ عالم: أي من بلغ الغاية من العلم.

وقوله: وإن المبتدعات المشبهات هنّ المهلكات إلاّ ما حفظ الله.

لمخالفتها الكتاب والسنة الجامعين لحدود الله وخروجها عنهما، وأراد الهلاك الأُخروي.

وقوله: إلاّ من حفظ الله.

استثناء من المهلكات: أي إلاّ ما حفظ الله منها بالعصمة عن ارتكابها. إذ لا تكون مهلكة إلاّ لمن ارتكبها، والمشبهات ما أشبه السنن وليس منها، وروي المشبّهات بتشديد الباء وفتحها، وهو ما شبّه على الناس وليس. وروي المشتبهات: أي الملتبسات، وسلطان الله هو سلطان الإسلام؛ وأراد سلطان دين الله فحذف المضاف، ويحتمل أن يريد بسلطان الله نفسه لكونه خليفة له في أرضه، وإنما أضافها إليه اعتزازاً به، وظاهر أن فيه منعة وعصمة لهم فإن الذي نصرهم وهم قليلون حيّ قيوم فبالأولى أن ينصرهم على كثرتهم بشرط طاعته الخالصة والدخول في أمر سلطانه. ولذلك قال: فأعطوه طاعتكم غير ملوّمة: أي غير ملوم صاحبها بالنسبة إلى النفاق والرياء ولا مستكره بها: ويروى غير ملويّة: أي

معوجة. ثم أخذ في وعيدهم إن لم يطيعوا بنقل الله عنهم سلطان الإسلام من غير أن يرّده إليهم أبداً حتى يصير الأمر إلى غيرهم، وأراد أمر الخلافة. ثم إن جعلنا حتى وما بعدها غاية لنقل السلطان عنهم لم يفهم منها عوده إليهم، وإن جعلناها غاية من عدم نقله إليهم فهم منها ذلك.

فإن قلت: لم قال لا يرجع إليهم أبداً وقد عاد بالدولة العباسية؟

قلت: أُجيب من وجوه:

الأول: إنّ القوم الذين خاطبهم من أصحابه بهذا الخطاب لم ترجع الدولة إليهم أبداً فإن أولئك بعد انقضاء دولة بني أمية لم يبق منهم أحد. ثم لم يرجع إلى أحد من أولادهم أصلاً.

الثاني: أنه قيّد بالغاية فقال: لا يصير إليكم حتى يصير في قوم آخرين، وظاهر أنه كذلك بانتقاله إلى بني أميّة.

الثالث: قال بعض الشارحين: إنما عاد لأن الشرط لم يقع وهو عدم الطاعة فإن أكثرهم أطاعه طاعة غير ملومة ولا مستكره بها.

الرابع: قال قوم: أراد بقوله: أبداً: المبالغة كما تقول لغريمك: لأحبسنّك أبداً، والمراد بالقوم الذين يأرز إليهم هذا الأمر بنو أمية كما هو الواقع.

وقوله: إن هؤلاء قد تمالأوا.

إشارة إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم، وأومى إلى أن مسيرهم لسخطهم من أمارته لا ما أظهروه من الطلب بدم عثمان. ثم وعد بالصبر عليهم ما دام لا يخاف على حوزة الجماعة، وأخبر أنهم إن بقوا على ضعف رأيهم في مسيرهم ومخالفتهم قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم.

وقوله: إنما طلبوا. إلى قوله: عليه.

بيان لعلّة سخطهم لإمارته وهي الحسد على الدنيا لمن أفاء الله عليه، والإشارة إلى بيت الرسول صلى الله عليه وآله.

وقوله: فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها.

أي أرادوا إخراج هذا الأمر عن أهل بيت الرسول آخراً كما أخرجوه أولاً، أو صرف هذا الأمر عنهم بعد إقباله إلى ما كان عليه من إدباره عنهم. ثم أخبر بما عليه من الحق، إن أطاعوه الطاعة غير المدخولة، وهي أن يعمل فيهم بكتاب الله ويسير سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والقيام بحقوقه التي أوجبها وإقامة سننه، وذلك هو الواجب على الإمام. وبالله التوفيق.

١٧٠ - ومن كلام له عليه السلام

كلّم به بعض العرب، وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق. ثم قال له: بايغ. فقال: إني رسول قوم ولا أُحدث حدثاً دونهم حتى أرجع إليهم. كذا في أكثر النسخ لكن في آخر بعضها بعد قول الرجل «فبايعته عليه السلام». والرجل يعرف بكليب الجرمي.

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْث، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلإِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى الْكَلإِ وَالْمَاءِ. فَقَالَ عليه السلام:

فَامْدُدْ إذاً يَدَكَ! فقال الرجل: فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي، فبايعته عليه السلام.

أقول: الجرمي: منسوب إلى بني جرم، وكان قوم من أهل البصرة بعثوه إليه عليه السلام ليستعلم حاله أهو على حجة أم على شبهة؟ فلما رآه وسمع لفظه لم يتخالجه شك في صدقه فبايعه، وكان بينهما الكلام المنقول. ولا ألطف من التمثيل الذي جذبه به عليه السلام فالأصل في هذا التمثيل هو حالة هذا المخاطب في وجدانه للماء والكلأ على تقدير كونه رائداً لهما، والفرع هو حاله في وجدانه للعلم والفضائل والهداية عنده، والحكم في الأصل هو مخالفته لأصحابه إلى الماء والكلأ على تقدير وجدانه لهما ومخالفة أصحابه له، وعلّة ذلك الحكم في الأصل هو وجدانه للكلأ والماء، ولما كان المشبّه لهذه العلّة

وهو وجدانه للفضائل والعلوم التي هي غذاء النفوس ومادة حياتها كما أن الكلأ والماء غذاء للأبدان ومادة حياتها موجود لهذا الرائد في الفرع، وهو حالة وجدانه للعلم والفضل الهداية وجب عن تلك العلّة مثل الحكم في الأصل وهو مخالفة أصحابه إلى الفضل والعلم، الهداية عنده عليه السلام ولزوم أن يبايع.

ولذلك قال له: فامدد إذن يدك. وهو تمثيل لا تكاد النفس السليمة عند سماعه أن تقف دون الانفعال عنه والإذعان له، ولذلك أقسم الرجل أنه لم يستطع الامتناع عند قيام هذه الحجة فبايع. وبالله التوفيق.

١٧١ - ومن كلام له عليه السلام

لما عزم على لقاء القوم بصِفّين:

اللَّهُمَّ رَبَّ ٱلسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلائِكَتِكَ، لا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ، وَرَبَّ هٰذِهِ الأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالأَنْعَامِ، وَمَا لا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمِمَّا لا يُرَى، وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! الْعَارُ وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

أقول مغيضاً لهما: أي مغيباً. والسبط: القبيلة.

وقد عاد الله سبحانه باعتبار كونه رباً للسماء والأرض وباعتبار ما فيهما من الآيات المنبّهة على كمال عظمته ولطفه بخلقه، وهذا الدعاء مما تستعدّ به القلوب والأبدان لاستفاضة الغلبة والنصر على العدو. والسقف المرفوع: السماء. وكذلك الجو المكفوف، وقد مرت الإشارة إلى ذلك في الخطبة الأولى، وكونه مغيضاً لليل والنهار لأن الفلك بحركته المستلزمة لحركة الشمس إلى وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل، واستلزام حركته لحركاتها عن وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة النهار فكن كالمغيض لهما فاستعار له لفظ المغيض. وكونه محلاً لجري الشمس والقمر ومحلّ اختلاف النجوم السيارة ظاهر. وليس فيه دلالة على أن النجوم تتحرك فيه بذاتها من دون حركته.

والطائفة من الملائكة إشارة إلى الأرواح الفلكية المحركة لأجرامها، وقد سبقت الإشارة إليهم وبيان أنهم لا يسأمون من العبادة في الخطبة الأولى. ثم دعاه باعتبار كونه رباً للأرض، وباعتبار ما بسطها لأجله من كونها قراراً للأنام ومدرجاً للهوام والأنعام وما لا يحصى مما يرى ولا يرى من أنواع الحيوان.

قال بعض العلماء: من أراد أن يعرف حقيقة قوله عليه السلام: ما يرى وما لا يرى فليوقد ناراً صغيرة في فلاة في ليلة صيفية وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره. وأقول: يحتمل أن يريد بقوله: وما لا يرى ما ليس من شأنه أن يرى إمّا لصغره أو لشفافيته. ثم باعتبار كونه ربًّا للجبال، وقد علمت معنى كونها أوتاداً للأرض. فأما كونها اعتماداً للخلق فلأنهم قد يبنون بها المساكن، ويقوم فيها من المنافع ما لا يقوم في الأودية لكثير من الأشجار والثمار، ولأنها معادن الينابيع ومنابع المعادن، وظاهر كونها إذن معتمداً للخلق في مراتعهم ومنافعهم.

ثم سأل على تقدير نصره أن يجنّبه البغي وهو العبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل ثم التسديد والاستقامة على فضيلة العدل وهو الحق، وعلى تقدير إظهار عدوّه عليه الشهادة والعصمة من فتنة الغبن والانقهار فإن المغلوب إذا كان معتقداً أنه على الحق قلّما يسلم من التسخط على البخت، والتعتّب على ربه، وربما كفر كثير من الناس عند نزول البلاء بهم. وظاهر كونه فتنة: أي صارفاً عن الله. واعتصم عليه السلام من تلك الفتنة وأمثالها استثباتاً لنفسه على الحق، وتأديباً للسامعين. ثم أخذ فيما العادة أن يستحمي به الإنسان أصحابه في الحرب، ويستثير به طباعه: من الاستفهام

عن حامي الذمار، والذي تصيبه الغيرة من أهل المحافظة عند نزول الحقائق: أي عظائم الأمور وشدائدها.

ثم قال: النار وراءكم: أي إن رجوعكم القهقرى هرباً من العدو مستلزم لدخولكم النار واستحقاقكم لها، والجنة أمامكم: أي في إقدامكم على العدو والتقدم إلى مناجزته، وهو كلام في غاية الوجازة والبلاغة.

١٧٢ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلا أَرْضٌ أَرْضاً.

أقول: حمد الله تعالى باعتبار إحاطة علمه بالسماوات والأرضين، واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن وصف المخلوقين. إذ كانوا في إدراكهم لبعض الأجرام السماوية والأرضية محجوبين عما ورائها، وعلمه تعالى هو المحيط بالكل الذي لا يحجبه السواتر ولا تخفى عليه السرائر.

ومنها: **وَقَدْ وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هٰذَا الأَمْرِ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلإِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!**

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِينُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

أقول: هذا الفصل من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جرى له يوم الشورى بعد مقتل عمر، والذي قال له هذا القول هو سعد بن أبي وقاص مع روايته فيه: أنت مني بمنزلة هارون من موسى. وهو محل التعجب. فأجابه بقوله: بل أنتم والله أحرص وأبعد: أي أحرص على هذا الأمر وأبعد من استحقاقه. وهو في صورة احتجاج بقياس ضمير من الشكل الأول مسكت للقائل صغراه ما ذكر، وتقدير كبراه: وكل من كان أحرص على هذا الأمر وأبعد منه فليس له أن يعيّر الأقرب إليه بالحرص عليه.

وقوله: وأنا أخصّ وأقرب.

صغرى قياس ضمير احتجّ به على أولويّته بطلب هذا الأمر، وتقدير كبراه: وكل من كان أخصّ وأقرب إلى هذا الأمر فهو أولى بطلبه، ورووي أن هذا الكلام قاله يوم السقيفة، وأن الذي قال له: إنّك على هذا الأمر لحريص. هو أبو عبيدة بن الجرّاح، والرواية الأولى أظهر وأشهر. ورووي عوض بهت هبّ: أي انتبه كأنه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجة فاستيقظ من غفلته. ثم أخذ في استعانة الله تعالى على قريش ومن أعانهم عليه، وشكا أموراً: منها قطع رحمه فإنهم لم يراعوا قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنها تصغير عظيم منزلته بعدم التفاتهم إلى ما ورد من النصوص النبوية في حقه، ومنها اتفاقهم على منازعته أمر الخلافة الذي يرى أنه أحقّ به منهم.

وقوله: ثم قالوا: إلى آخره.

أي إنهم لم يقتصروا على أخذ حقي ساكتين عن دعوى كونه حقاً لهم ولكنهم أخذوه مع دعواهم أن الحق لهم، وأنه يجب عليّ أن أترك المنازعة فيه. فليتهم أخذوه معترفين أنه حقّ لي فكانت المصيبة أهون. ورووي نأخذه ونتركه بالنون في الكلمتين، وعليه نسخة الرضي - رضوان الله عليه - والمراد إنّا نتصرف فيه كما نشاء بالأخذ والترك دونك، وهذه شكاية ظاهرة لا تأويل فيها.

منها في ذكر أصحاب الجمل:

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجَرُّ الأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ

مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطَائِفَةً غَدْراً. فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذٰلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلا بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

أقول: جرّه: جناه.

ومقصود الفصل إظهار عذره في قتال أصحاب الجمل. وذكر لهم ثلاث كبائر من الذنوب تستلزم إباحة قتالهم وقتلهم:

الأولى: خروجهم بحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وحبيسه يجرّونها كما تجر الأمة عند شرائها مع حبسهما لنسائهما ومحافظتهما عليهنّ، وضمير التثنية في حبسا لطلحة والزبير، ووجه الشبه انتهاك الحرمة ونقصانها في إخراجها، وفي ذلك جرأة على رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوماً لنسائه وهنّ عنده جميعاً: ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجمل الأرب تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثير كلهم في النار وتنجو بعدما كادت، وروى حبيب بن عمير قال: لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة طرقت ماء الحوأب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة - فنبحتهم الكلاب فنفرت صعاب إبلهم. فقال قائل منهم: لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها. فلما سمعت عائشة ذكر الحوأب قالت: أهذا ماء الحوأب؟ قال: نعم. قالت: ردّوني. فسألوها ما شأنها وما بدا لها. قالت: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كأني بكلاب الحوأب قد نبحت بعض نسائي ثم قال لي: يا حميراء إيّاك أن تكونيها. فقال الزبير: مهلاً يرحمك الله فإنّا قد جزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة. فقالت: أعندك من يشهد بأن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟ فلفّق لها الزبير وطلحة وطلبا خمسين أعرابياً جعلا لهم جعلاً فحلفوا لها وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوأب. فكانت هذه أول شهادة زور علمت في الإسلام. فسارت عائشة لوجهها. فأما قوله في الخبر: وتنجو بعدما كادت. فقالت الإمامية: معناه تنجو من القتل بعدما كادت أن تقتل، وقال المعتذرون لها معناه تنجو من النار بالتوبة بعدما كادت أن تدخلها بما فعلت.

الثانية: نكثهم لبيعته وخروجهم عليه بعد الطاعة في جماعة ما منهم إلاّ من أخذ بيعته.

الثالثة: قتلهم لعامله بالبصرة وخزّان بيت مال المسلمين بها بعض صبراً: أي بعد الأسر وبعض غدراً: أي بعد إعطائهم الأمان. وخلاصة القصة ما روي أن طلحة والزبير وعائشة لما انتهوا في مسيرهم إلى حفر أبي موسى قريب البصرة كتبوا إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو يومئذٍ عامل عليّ على البصرة: أن أخل لنا دار الأمارة. فلما قرأ كتابهم بعث إلى الأحنف بن قيس وإلى حكيم بن جبلة العبدي فاقرأهما الكتاب. فقال الأحنف: إنهم إن حاولوا بهذا الطلب بدم عثمان، وهم الذين أكبّوا على عثمان وسفكوا دمه فأراهم والله لا يزايلونا حتى يلقوا العداوة بيننا ويسفكوا دماءنا، وأظنهم سيركبون منك خاصة ما لا قبل لك به، والرأي أن تتأهب لهم بالنهوض إليهم في من معك من أهل البصرة. فإنك اليوم الوالي عليهم وأنت فيهم مطاع فسرْ إليهم بالناس وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة فيكون الناس لهم أطوع منهم لك.

وقال حكيم مثل ذلك. فقال عثمان بن حنيف: الرأي ما رأيتما لكني أكره الشر وأن أبدأهم به رأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به. فقال له حكيم: فأذن لي حتى أسير إليهم بالناس فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين وإلاّ نابذتهم إلى سواء.

فقال عثمان: ولو كان ذلك لي لسرت إليهم بنفسي.

فقال حكيم أما والله لئن دخلوا عليك هذا المصر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم وليزيلنّك عن مجلسك هذا، وأنت أعلم. فأبى عثمان. ثم كتب علي عليه السلام إلى عثمان بن حنيف لما بلغه مسير القوم إلى البصرة: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف، أما

بعد، فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا وتوجّهوا إلى مصرك وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به، والله أشد بأساً وأشدّ تنكيلاً فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه فإن أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك، وإن أبوا إلاّ التمسك بحبل النكث والخلاف فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين. وكتبت كتابي هذا من الربذة وأنا معجّل السير إليك إن شاء الله، وكتب عبيد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين.

فلما وصل الكتاب إلى عثمان بعث أبا الأسود الدؤلي، وعمران ابن الحصين إليهم فدخلا على عائشة فسألاها عما جاء بهم، فقالت لهما: إلقيا طلحة والزبير. فقاما ولقيا الزبير فكلّماه فقال: جئنا لنطلب بدم عثمان وندعو الناس أن يردّوا أمر الخلافة شورى ليختار الناس لأنفسهم. فقالا له: إن عثمان لم يقتل بالبصرة لتطلبا دمه فيها، وأنت تعلم قتلة عثمان وأين هم، وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشد الناس عليه وأعظمهم إغراء بدمه فأقيدوا أنفسكم. وأما إعادة أمر الخلافة شورى فكيف وقد بايعتم علياً طائعين وغير مكرهين، وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله ﷺ وأنت آخذ قائم سيفك تقول: ما أحد أحق بالخلافة منه. وامتنعت من بيعة أبي بكر. فأين ذلك الفعل من هذا القول؟ فقال لهما: اذهبا إلى طلحة. فقاما إلى طلحة فوجداه خشن الملمس شديد العريكة قوي العزم في إثارة الفتنة. فانصرفا إلى عثمان بن حنيف فأخبراه بما جرى، وقال له أبو الأسود: يا ابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر وابرز لهما مستلئماً وشمّر.

فقال ابن حنيف: إي والحرمين لأفعلنّ، وأمر مناديه فنادى في الناس: السلاح السلاح. فاجتمعوا إليه وأقبلوا حتى انتهوا إلى المربد. فملأ مشاةً وركباناً فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكوت ليخطب فسكتوا بعد جهد فقال:

أما بعد فإن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة ومن المهاجرين الأولين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ونزل القرآن ناطقاً بفضلهم وأحد الأئمة الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله، وقد كان أحدث أحداثاً نقمناها عليه فأتيناه واستعتبناه فأعتبنا فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرها غصباً بغير رضى ولا مشورة فقتله وساعده على ذلك قوم غير أتقياء ولا أبرار فقتل محرماً بريئاً تائباً، وقد جئناكم أيها الناس نطلب بدمه وندعوكم إلى الطلب بدمه فإن نحن أمكننا الله قتلهم قتلناهم به، وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين. وكانت خلافته رحمةً للأمّة جميعاً فإن كل من أخذ الأمر من غير رضى العامة ولا مشورة منها ابتزازاً كان ملكه ملكاً عضوضاً وحدثاً كبيراً.

ثم قام الزبير فتكلم بمثل كلام طلحة. فقام إليهما ناس من أهل البصرة فقالوا لهما: ألم تبايعا علياً فيمن بايعه ففيم بايعتما ثم نكثتما؟ فقالا: ما بايعناه وما لأحد في أعناقنا بيعة، وإنّما استكرهنا على بيعته. فقال ناس: قد صدقا ونطقا بالصواب، وقال آخرون: ما صدقا ولا أصابا. حتى ارتفعت الأصوات فأقبلت عائشة على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس أقلّوا الكلام واسكتوا. فسكت الناس لها.

فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل. ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط وتأميره الشبّان، وحمايته موضع الغمامة فقتلوه محرماً في حرمة الشهر، وحرمة البلد ذبحاً كما يذبح الجمل، ألا وإن قريشاً رمت غرضها بنبالها وأدمت أفواهها بأيديها، وما نالت بقتلها إيّاه شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس، وليسلطنّ عليهم قوم لا يرحمونهم، يسومونهم سوء العذاب.

أيها الناس إنه ما بلغ من ذنب عثمانه ما يستحلّ به دمه مصّتموه كما يماصّ الثوب الرحيض، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ابتزازاً وغصباً، أتراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم. ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط

الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

قال: فماج الناس واختلطوا فمن قائل يقول: القول ما قالت: ومن قائل يقول: وما هي من هذا الأمر إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها. وارتفعت الأصوات وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال وتراموا بالحصا. ثم تمايزوا فرقتين فرقة مع عثمان بن حنيف وفرقة مع طلحة والزبير. ثم أقبلا من المربد يريدان عثمان بن حنيف فوجدوه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك فمضوا حتى انتهوا إلى مواضع الدبّاغين فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح فحمل عليهم حكيم بن جبلة فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالأحجار فأخذوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها ملياً حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مسنّاة البصرة حتى انتهوا إلى الرابوقة. ثم أتوا سبخة دار الرزق فنزلوها فأتاهما عبد الله بن حكيم التميمي لما نزلا السبخة بكتب كتباها إليه فقال لطلحة:

يا أبا محمد أما هذه كتبك إلينا؟ فقال: بلى. قال: فكنت أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه، فلعمري ما هذا رأيك ولا تريد إلاّ هذه الدنيا. مهلاً إذا كان هذا رأيك. قبلت من علي ما عرض عليك من البيعة فبايعته طائعاً راضياً ثم نكثت بيعتك وجئتنا لتدخلنا في فتنتك. فقال: إن علياً دعاني إلى بيعته بعدما بايع الناس فعلمت أني لو لم أقبل ما عرضه عليّ لا يتم لي ثم يغري بي من معه. ثم أصبحا من غد فصفا للحرب وخرج إليهما عثمان في أصحابه فناشدهما الله والإسلام وأذكرهما بيعتهما ثلاثاً. فشتماه شتماً قبيحاً وذكرا أُمه.

فقال للزبير: أما والله لولا صفيّة ومكانها من رسول الله صلى الله عليه وآله فإنها أذرتك إلى الظل، وإن الأمر بيني وبينك يا ابن الصعبة يعني طلحة أعظم من القول لأعلمتكما من أمركما ما يسوؤكما.

اللهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين. ثم حمل عليهم فاقتتل الناس قتالاً شديداً. ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح. فكتب: هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة علي بن أبي طالب، وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما أن لعثمان بن حنيف الأنصاري دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة ولا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق ولا سوق ولا فرضة ولا مشرعة ولا مرفق حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فإن أحبّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة وإن أحبّوا ألحق كل قوم بهواهم، وما أحبّوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه وأشد ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وذمّة.

وختم الكتاب، ورجع عثمان حتى دخل دار الإمارة وأمر أصحابه أن يلحقوا بأهلهم ويداووا جراحاتهم فمكثوا كذلك أياماً. ثم خاف طلحة والزبير من مقدم علي عليه السلام وهما على تلك القلة والضعف فراسلوا القبائل يدعونهم إلى الطلب بدم عثمان وخلع علي عليه السلام فبايعهم على ذلك الأزد وضبّة وقيس غيلان كلّها إلاّ الرجل والرجلين من القبيلة كرهوا أمرهم فتواروا عنهم، وبايعهما هلال بن وكيع بمن معه من بني عمرو بن تميم وأكثر بني حنظلة وبني دارم. فلما استوسق لهما أمرهما، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر في أصحابهما، وقد ألبسوهم الدروع، وظاهروا فوقها بالثياب فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه وأُقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلي بهم فأخّره أصحاب طلحة والزبير، وقدموا الزبير فجاءت الشرط - حرس بيت المال - وأخّروا الزبير وقدموا عثمان فغلبهم أصحاب الزبير فقدّموه وأخّروا عثمان فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس أن تطلع فصاح بهم أهل المسجد، ألا تتقون الله أصحاب محمد قد طلعت الشمس فغلب الزبير فصلّى بالناس فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المتسلّحين أن خذوا عثمان فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفهما فلما أسر ضُرب ضَرْب الموت ونتفت حاجباه

وأشفار عينيه وكل شعرة في رأسه ووجهه، وأخذوا السيالحة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم، وبعثمان بن حنيف إلى عائشة فأشارت إلى أحد أولاد عثمان أن اضرب عنقه، فإن الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله. فنادى عثمان يا عائشة، ويا طلحة ويا زبير إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة وأُقسم بالله إن قتلتموني ليضعنّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يبقى منكم أحداً. فكفّوا عنه وخافوا من قوله فتركوه، وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتل السيالحة فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك قبل. فذبحهم والله كما يذبح الغنم. ولى ذلك عبد الله ابنه وهم سبعون رجلاً، وبقيت منهم بقيّة متمسكون ببيت المال قالوا: لا نسلّمه حتى يقدم أمير المؤمنين. فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً وأوقع بهم وأخذ منهم خمسين أسيراً فقتلهم صبراً.

فحكي أن القتلى من السيالحة يومئذٍ أربعمائة رجلاً، وكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف بعد غدرهم في بيعة علي غدراً في غدر، وكانت السيالحة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً، وخيّروا عثمان بن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي، فاختار الرحيل فخلّوا سبيله فلحق بعلي عليه السلام فلما رآه بكى وقال له شيخ وجئتك أمردا.

فقال علي عليه السلام: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قالها ثلاثاً. فذلك معنى قوله: فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين إلى آخره. ثم أقسم عليه السلام إنهم لو لم يصيبوا أي يقتلوا من المسلمين إلاّ رجلاً واحداً متعمّدين قتله بغير ذنب جناه لحل له قتل ذلك الجيش كله، و- إن - زائدة.

فإن قلت: المفهوم من هذا الكلام تعليل جواز قتله لذلك الجيش كل بعدم إنكارهم للمنكر فهل يجوز قتل من لم ينكر المنكر؟

قلت: أجاب الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد عنه. فقال: إنه تجوّز قتلهم لأنهم اعتقدوا ذلك القتل مباحاً مع أنه مما حرمه الله فجرى ذلك مجرى اعتقادهم لإباحة الزنا وشرب الخمر.

وأجاب القطب الراوندي بأن جواز قتلهم لدخولهم في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. وإن هؤلاء القوم قد حاربوا رسول الله لقوله صلى الله عليه وآله: حربك يا علي حربي، وسعوا في الأرض بالفساد، واعترض المجيب الأول عليه. فقال: الإشكال إنما هو في تحليله لقتل الجيش المذكور لكونه لم ينكر على من قتل رجلاً واحداً من المسلمين فالتعليل بعدم إنكار المنكر لا بعموم الآية.

وأقول: الجواب الثاني أسد، والأول ضعيف. لأن القتل وإن وجب على من اعتقد إباحة ما علم تحريمه من الدين ضرورة كشرب الخمر والزنا فلم قلت إنه يجب على من اعتقد إباحة ما علم تحريمه من الدين بالتأويل كقتل هؤلاء القوم لمن قتلوا وخروجهم لما خرجوا له فإن جميع ما فعلوه كان بتأويل لهم وإن كان معلوم الفساد. فظهر الفرق بين اعتقاد حلّ الخمر والزنا وبين اعتقاد هؤلاء لإباحة ما فعلوه.

وأما الاعتراض على الجواب الثاني فضعيف أيضاً. لأن له أن يقول: إن قتل المسلم الذي لا ذنب له عمداً إذا صدر من بعض الجيش ولم ينكر الباقون مع تمكّنهم وحضورهم كان ذلك قرينة دالّة على الرضا من جميعهم، والراضي بالقتل شريك القاتل خصوصاً إذا كان معروفاً بصحبته والاتحاد به كاتحاد بعض الجيش ببعض. فكان خروج ذلك الجيش على الإمام العادل محاربة لله ورسوله، وقتلهم لعامله وخزّان بيت مال المسلمين ونهبهم له، وتفريق كلمة أهل المصر وفساد نظامهم سعي في الأرض بالفساد، وذلك عين مقتضى الآية.

وقوله: دع. إلى آخره.

أي لو كان من قتلوه من المسلمين واحداً لحلّ لي قتلهم فكيف وقد قتلوا منهم عدة مثل عدّتهم التي دخلوا بها البصرة. وما بعد - دع - زائد، والمماثلة هنا في الكثرة. وصدق عليه السلام فإنهم قتلوا من أوليائه وخزّان بيت المال بالبصرة خلقاً كثيراً كما ذكرناه على الوجه الذي ذكره بعض غدراً وبعض صبراً. وبالله التوفيق.

١٧٣ - ومن خطبة له عليه السلام

في رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هو جدير بأن يكون للخلافة، وفي هوان الدنيا

أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهٰذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ. فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلٌ، وَلٰكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ.

أَلا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الأُمُورِ عِنْدَ اللهِ. وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلا يَحْمِلُ هٰذَا الْعَلَمَ إِلاَّ أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَمَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَلا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

أَلا وَإِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلا مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا، وَلا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلا وَإِنَّهُ لا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلا وَإِنَّهُ لا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

أقول: صدر هذا الفصل من ممادح الرسول صلى الله عليه وآله فشهادة كونه أميناً على التنزيل من التحريف والتبديل العصمة، وشهادة ختامه للرسل قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وكونه بشير رحمته بالثواب الجزيل ونذير نقمته بالعذاب الوبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]. ثم أردفه ببيان أحكام:

الأول: بيان أحكام الذي هو أحق الناس بأمر الخلافة، وحصر الأحق به في أمرين:

أحدهما: أقوى الناس عليه وهو الأكمل قدرة على السياسة والأكمل علماً بمواقعها وكيفياتها وكيفية تدبير المدن والحروب، وذلك يستلزم كونه أشجع الناس.

والثاني: أعلمهم بأوامر الله فيه، ومفهوم الأعمال بأوامر الله يستلزم الأعلم بأصول الدين وفروعه ليضع الأعمال مواضعها، ويستلزم أشد حفاظاً على مراعاة حدود الله والعمل بها، وذلك يستلزم كونه أزهد الناس وأعفهم وأعدلهم. ولما كانت هذه الفضائل مجتمعة له عليه السلام كانت إشارة إلى نفسه، وروي عوض أعلمهم أعلمهم.

الثاني: في بيان حكم المشاغب للإمام بعد انعقاد بيعته، وهو أنه يستعتب: أي أنه في أول مشاغبته يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحق والطاعة بلين القول فإن أبى قوتل وذلك الحكم مقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] الآية.

الثالث: بيان كيفية انعقاد الإمامة بالإجماع فبيّن بقوله: ولعمري. إلى قوله: ما إلى ذلك سبيل. أن الإجماع لا يعتبر فيه دخول جميع الناس حتى العوام. إذ

لو كان ذلك شرطاً لأدى إلى أن لا ينعقد إجماع قط فلم تصح إمامة أحد أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين بأسرهم من أطراف الأرض. بل المعتبر في الإجماع اتفاق أهل الحل والعقد من أمّة محمد ﷺ على بعض الأمور، وهم العلماء، وقد كانوا بأسرهم مجتمعين حين بيعته عليه السلام فليس لأحد منهم بعد انعقادها أن يرجع، ولا لمن عداهم من العوام ومن غاب عنها أن يختاروا غير من أجمع هؤلاء عليه.

فإن قلت: إنه عليه السلام إنما احتج على القوم بالإجماع على بيعته، ولو كان متمسك آخر من نصّ أو غيره لكان احتجاجه بالنص أولى فلم يعدل إلى دعوى الإجماع.

قلت: احتجاجه بالإجماع لا يتعرض لنفي النص ولا لإثباته بل يجوز أن يكون النص موجوداً. وإنما احتجّ عليهم بالإجماع لاتفاقهم على العمل به فيمن سبق من الأئمة، ولأنه يحتمل أن يكون سكوته عنه لعلمه بأنه لا يلتفت إلى ذكره على تقدير وجوده لأنه لما لم يلتفت إليه في بادئ الأمر حين موت الرسول ﷺ فبالأولى أن لا يلتفت إليه الآن، وقد طالت المدة وبعد العهد فلم تكن في ذكره فائدة.

الرابع: بيان من يجب قتاله وهو أحد رجلين:

الأول: رجل خرج على الإمام العادل بعد تمام بيعته وادّعى أن الإمامة حق له وقد ثبت بالإجماع على غيره أنها ليست له.

والثاني: رجل خرج على الإمام ولم يمتثل له في شيء من الأحكام. والأول إشارة إلى أصحاب الجمل، والثاني إلى معاوية وأصحابه. ثم عقّب بالوصية بتقوى الله فإنها خير زاد عند الله يستعقبه الإنسان من حركاته وسكناته ولما كان كذلك كان خير ما تواصى به عباد الله.

وقوله: وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة. إلى قوله: غيراً.

إعلام لأصحابه بحكم البغاة من أهل القبلة على سبيل الإجمال، وأحال التفصيل على أوامره حال الحرب، وقد كان الناس قبل حرب الجمل لا يعرفون كيفية قتال أهل القبلة ولا كيف السنّة فيهم إلى أن علموا ذلك منه عليه السلام. ونقل عن الشافعي أنه قال: لولا عليّ ما عرفت شيئاً من أحكام أهل البغي.

وقوله: ولا يحمل هذا العلم إلاّ أهل البصر.

أي أهل البصائر، والعقول الراجحة، والصبر: أي على المكاره وعن التسرّع إلى الوساوس، والعلم بمواضع الحق. وذلك أنّ المسلمين عظم عندهم حرب أهل القبلة وأكبروه، والمقدمون منهم على ذلك إنما أقدموا على خوف وحذر. فقال عليه السلام: إن هذا العلم لا يدركه كل أحد بل من ذكره.

وروي العلم بفتح اللام، وذلك ظاهر فإنّ حامل العلم عليه مدار الحرب وقلوب العسكر منوطة به فيجب أن يكون بالشرائط المذكورة ليضع الأشياء مواضعها. ثم أمرهم بقواعد كليّة عند عزمه على المسير للحرب وهي أن يمضوا فيما يؤمرون به ويقفوا عندما ينهون عنه ولا يعجلوا في أمر إلى غاية أن يتبيّنوه: أي لا يتسرعوا إلى إنكار أمر فعله أو يأمرهم به حتى سألوه عن فائدته وبيانه. فإن له عند كل أمر ينكرونه تغييراً: أي قوّة على التغيير إن لم يكن في ذلك الأمر مصلحة في نفس الأمر وفائدة أمرهم بالتبيّن عند استنكار أمر أنه يحتمل أن لا يكون ما استنكروه منكراً في نفس الأمر فيحكمون بكونه منكراً لعدم علمهم بوجهه، ويتسرّعون إلى إنكاره بلسان أو يدٍ فيقعون في الخطأ.

قال بعض الشارحين: وفي قوله: فإنّ لنا عند كل أمر ينكرونه تغييراً. إيماء إلى أنه ليس كعثمان في صبره على ارتكاب الناس لما كان ينهاهم عنه بل يغيّر كل ما ينكره المسلمون ويقتضي العرف والشرع تغييره. ثم أخذ في التنفير عن الدنيا بأمور:

الأول: التنفير عن تمنّيها والرغبة فيها وعن الغضب لفوتها والرضى بحصولها بكونها ليست الدار والمنزل الذي خلقوا له ودعوا إليه، واستلزم ذلك التنفير التنبيه على ما ورائها والعمل له.

الثاني: نفّر عنها بفنائها عنهم وفنائهم عنها.

الثالث: بأنه لا فائدة فيها فإنّها وإن كانت تغرّ وتخدع بما فيها ممّا يعتقد خيراً وكمالاً، فإنّ فيها ما يقابل ذلك وهو التحذير بما فيها من الآفات والتغيّرات

المتعددة شراً فينبغي أن يتركوا خيرها القليل لشرها الكثير، وإطماعها لتخويفها، ويسابقوا إلى الخير الخالص والدار التي دعوا إليها وخلقوا لأجلها، وينصرفوا بقلوبهم عنها: أي يزهدوا الزهد الحقيقي فيها فإنّ الزهد الظاهري مع الحنين إلى ما زوي منها عن أحدكم غير منتفع وبه خصّ حنين الأمة لأن الحنين أكثر ما يسمع من الأمة. لأن العادة أن تضرب وتؤذي فيكثر حنينها.

وروي خنين بالخاء المعجمة. والخنين كالبكاء في الأنف. وإذ أمر بالزهد الحقيقي أمر بالصبر على طاعة الله وعبادته والمحافظة على أوامر كتابه ونواهيه إذ بالزهد يكون حذف الموانع الداخلة والخارجة، وبالطاعة والعبادة يكون تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة. وهما جزاء الرياضة والسلوك لسبيل الله. ورغب في الصبر على طاعة الله بأن فيه استتماماً لنعمة الله. وظاهر أن طاعة الله سبب عظيم لإفاضة نعمه الدنيوية والأخروية. ثم أكد الأمر بالمحافظة على ما قام من الدين بأنه لا مضرّة في ترك شيء من الدنيا وتضييعها مع المحافظة على الدين لما في المحافظة على الدين من الخير الدائم التام الأخروي الذي لا نسبة لخير الدنيا إليه، وبأنه لا منفعة في المحافظة على ما فيها: أي في الدنيا مع تضييع الدين وإهماله. وذلك أمر مفروغ عنه ومستغنى عن بيانه.

ثم ختم بالدعاء لهم ولنفسه بأخذ الله بقلوبهم إلى الحق: أي إلهامهم لطلبه وهدايتهم إليه وجذبهم إلى سلوك سبيله، ثم إلهامهم الصبر: أي على طاعته وعن معصيته. وبالله التوفيق.

١٧٤ - ومن خطبة له عليه السلام

في طلحة بن عبيد الله:

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ. وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصَ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ. وَوَاللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَيُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

أقول: هذا الفصل من كلام قاله حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة. وتهديدهم بالحرب.

ونهنه عنه: كفّ وزجر. والمعذرين بالتخفيف: المتعذّرين عنه. وبالتشديد المظهرين للعذر مع أنه لا عذر. وركد: سكن.

فقوله: وقد كنت. إلى قوله: النصر.

جواب لتهديدهم. وقد مرت هذه الألفاظ بعينها مشروحة إلاّ أن هناك: وإنّي على يقين من ربي. وهنا: وأنا على ما قد وعدني ربي من النصر. وذلك الذي هو عليه هو اليقين بالنصر على لسان الرسول صلى الله عليه وآله، والواو في قوله: وما أهدّد للحال. وكان تامة.

وقوله: والله ما استعجل. إلى قوله: ويقع الشك.

إشارة إلى شبهتهم في الخروج إلى البصرة. وهي الطلب بدم عثمان، ثم إلى معارضة هذه الشبهة وهي أن خروجه ليس إلاّ خوفاً من أن يطلب بدمه لأنه مظنة ذلك. وقد سبقت منّا الإشارة إلى دخول طلحة في تحريض الناس على قتل عثمان وجمعه لهم في داره.

وروي أنه منع الناس من دفنه ثلاثة أيام، وأن حكيم بن حزام وجبير بن مطعم استنجدا بعلي في دفنه فأقعد لهم طلحة في الطريق أناساً يرمونهم بالحجارة فخرج به نفر من أهله يريدون به حائطاً في المدينة يعرف بحشّ كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلما صار هناك

رجم سريره فهمّوا بطرحه فأرسل إليهم علي عليه السلام فكفّهم عنه حتى دفن بحشّ كوكب.

وروي أنه جادل في دفنه بمقابر المسلمين وقال: ينبغي أن يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود. وبالجملة فهو كما قال عليه السلام: لم يكن في القوم أحرص منه على قتله لكنه أراد أن يغالط بما أجلب في الطلب بدمه ليلتبس الأمر، ويقع الشك في دخوله في قتله.

وقوله: ووالله ما صنع في أمر عثمان. إلى آخره.

صورة احتجاج عليه وقطع لعذره في الخروج والطلب بدمه بقياس شرطي منفصل، وتقريره أن حاله في أمر عثمان وخروجه في طلب دمه لا تخلو من أمور ثلاثة فإنه إما أن يعلم أنه كان ظالماً أو يعلم أنه كان مظلوماً أو يشك في الأمرين ويتوقف فيهما فإن كان الأول فقد كان الواجب عليه أن يساعد قاتليه ويوازرهم وينابذ ناصريه لوجوب إنكار المنكر عليه. وهو قد عكس الحال لأنه نابذ قاتليه وثار في طلب دمه مع ناصريه ممن توهم فيه ذلك. وإن كان الثاني فقد كان يجب عليه أن يكون ممّن يكف الناس عنه ويعتذر عنه فيما فعل لوجوب إنكار المنكر أيضاً مع أنه ممّن وازر عليه الناس، وأظهر أحداثه وعظّمها كما هو المنقول المشهور عنه، وإن كان الثالث فقد كان الواجب عليه أن يعتزله ويسكن عن الخوض في أمره ولم يفعل ذلك. بل ثار في طلب دمه. فكان في هذه الأحوال الثلاثة محجوباً في خروجه ونكثه للبيعة. فإذن ما جاء به من ذلك أمر لا يعرف بابه: أي وجه دخوله فيه، ولم يسلم فيه عذر. وبالله التوفيق.

١٧٥ - ومن خطبة له عليه السلام

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعَىً وَبِيٍّ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ، وإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلٰكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَلا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذٰلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هٰذَا الأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللّهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

أقول: السائم: الراعي. والوبي: محل الوباء. والدويّ: محل الداء. والمدى: جمع مدية، وهي السكين.

والخطاب عام. وكونهم غافلين: أي عما يراد بهم من أمر الآخرة، وغير مغفول عنهم: أي أن أعمالهم محصلة في اللوح المحفوظ. وتاركين: أي لما أمروا به من الطاعة، المأخوذ منهم: أي منتقص من أعمارهم وقيناتهم الدنيوية من مال وأهل. ثم نبّههم على ذهابهم عن الله وهو التفاتهم عن طاعته ورغبتهم في غيره وهو الحياة الدنيا وزينتها. ثم شبّههم في ذلك بالنعم التي أراح بها راعيها إلى مرعى كثير الوباء والداء.

ووجه الشبه أنهم لغفلتهم كالنعم ونفوسهم الأمارة بالسوء القائدة لهم إلى المعاصي كالراعي القائد إلى المرعى الوبي ولذات الدنيا ومشتهياتها، وكون تلك اللذات والمشتهيات محل الآثام التي هي مظنّة الهلاك الأُخروي والداء الدوي تشبه المرعى الوبي والمشرب الدوي.

وقوله: وإنما هي كالمعلوفة.

تشبيه آخر لهم بمعلوفة النعم، ووجه الشبه أنهم لعنايتهم بلذات الدنيا من المطاعم والمشارب كالنعم المعتنى بعلفها، وكون ذلك التلذذ غايته الموت تشبه غاية المعلوفة وهي الذبح، وكونهم غافلين من غاية الموت وما يراد بهم يشبه غفلة النعم عن غايتها من

الذبح، وكونهم يظنّون أن الإحسان إليهم ببسط اللذات الدنيويّة في بعض الأوقات دائم في جميع أوقاتهم، وأن شبعهم في هذه الحياة وريّهم هو غايتهم التي خلقوا لأجلها وتمام أمرهم يشبه غفلة النعم في حال حضور علفها في بعض الأوقات عما بعده من الأوقات وتوهمها أن ذلك غايتها التي خلقت لأجلها، ووجه هذا الشبه مركب من هذه الوجوه. ثم أقسم أنه لو شاء لأخبر كل رجل منهم بمواضع تصرفاته وحركاته وجميع أحواله. وهو كقول المسيح عليه السلام: وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم. وقد علمت إمكان ذلك العلم وسببه في حق الأنبياء والأولياء في مقدمة الكتاب.

وقوله: ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله.

أي أخاف أن تغلوا في أمري، وتفضلوني على رسول الله. بل كان يخاف أن يكفروا فيه بالله كما ادّعت النصارى في المسيح حيث أخبرهم بالأمور الغائبة. ثم قال: ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصة: أي أهل العلم والثبات من أصحابه ممن يؤمن ذلك الكفر منه، وهكذا شأن العلماء وأساطين الحكمة رأيهم أن لا يضعوا العلم إلاّ في أهله. هذا مع أن من الناس من يدّعي فيه النبوة وأنه شريك محمد في الرسالة، ومنهم من ادعى أنه إله، وهو الذي أرسل محمداً، إلى غير ذلك من الضلال. وفيه يقول بعض شعرائهم:

ومن أهلك عاداً وثمود بدواهيه
ومن كلّم موسى فوق طور إذ يناديه
ومن قال على المنبر يوماً وهو راقيه
سلوني أيها الناس فحاروا في معانيه

وقول الآخر:

إنما خالق الخلائق من
زعزع أركان خيبر جذبا
قد رضينا به إماماً ومولى
وسجدنا له إلهاً وربا

ثم أقسم أنه ما نطق إلاّ صادقاً فيما يخبر به من هذه الأمور، وأخبر أن الرسول صلى الله عليه وآله عهد إليه بذلك ويهلك من يهلك. إلى قوله: وأفضى به إليّ: أي ألقاه إليّ وأعلمني به. وذلك التعليم منه ما يكون على وجه جزئي أعني أن يخبره بواقعة واقعة، ومنه ما يكون على وجه كلّي: أي يلقي إليه أصولاً كليّة يعدّ ذهنه بها لاستفاضته الصور الجزئية من واهب الصور كما سبق تقريره. ومما نقل عنه من ذلك في بعض خطبته التي يشير فيها إلى الملاحم يومئ به إلى القرامطة: ينتحلون لنا الحب والهوى ويضمرون لنا البغض والقلى وآية ذلك قتلهم ورّاثنا وهجرهم أحداثنا. وصحّ ما أخبر عنه لأن القرامطة قتلت من آل أبي طالب خلقاً كثيراً. وأسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الإصبهاني.

قال بعض الشارحين: ومن هذه الخطبة - وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة -: كأني بالحجر الأسود منصوباً هٰهنا ويحهم إنّ فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه وأنه يمكث هٰهنا مدّة ثم هٰهنا مدة - وأشار إلى مواضع - ثم يعود إلى ما وراءه ويأمّ مثواه. ووقع من القرامطة في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام.

وأقول: في هذا النقل نظر لأن المشهور أن القرامطة نقلوا الحجر الأسود إلى أرض البحرين، وبنوا له موضعاً وضعوه فيه يسمى إلى الآن بالكعبة، وبقي هناك مدّة ثم أعيد إلى مكة، وروي أنه مات في المجيء به خمسة وعشرون بعيراً وعاد به إلى مكة بعير ليس بالقويّ، وذلك من أسرار دين الله تعالى، ولم ينقل أنهم نقلوه مرتين، والله أعلم.

١٧٦ - ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يعظ ويبيّن فضل القرآن وينهى عن البدعة

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هٰذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ

الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ». وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللهُ آمْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَإِنَّهَا لا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً.

وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلاَّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيداً لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ: قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هٰذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدىً، أَوْ نُقْصَانٍ فِي عَمىً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلا لأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلالُ. فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ بِمِثْلِهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ. الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالاسْتِقَامَةَ الاسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ! «إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلإِسْلامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ. وَاخْرُجُوا إِلَى اللهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

أَلا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ» فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ، ثُمَّ لا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الأَخْلاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هٰذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ» فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ، وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلٰكِنَّ الْحَلالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ الأَمْثَالُ لَكُمْ،

وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ الْوَاضِحِ، فَلا يَصَمُّ عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ، وَلا يَعْمَى عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ. وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلا ضِيَاءُ حُجَّةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ» وَسَبَبُهُ الأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ وَالْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَا ابْنَ آدَمَ اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

أَلا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لا يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جُرْحاً بِالْمُدَى وَلا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلٰكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذٰلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلا مِمَّنْ بَقِيَ.

يا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ» وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

أقول: الظنون: المتهمة. والزاري: العائب. وتقويض البناء: نقضه. واللأواء: الشدة. ومحل به السلطان: كاده وقال فيه ما يضره. وتورّدت الخيل البلدة: دخلتها قطعة قطعة. وتهزيع الأخلاق: تكسيرها وتفريقها. وضرست الأمر: أحكمته تجربة.

وقد أمر السامعين أن ينتفعوا ببيان الله في كتابه وعلى لسان رسوله، ويتّعظوا بمواعظه ويقبلوا نصيحته فيما لأجله خلقوا، وإنما عدد اسم الله صريحاً دون الضمير للتعظيم. ثم أشار إلى وجه وجوب الامتثال عليهم وهو إعذاره إليهم بالجليّة: أي إظهار ما هو صورة العذر من الآيات والنذر الجليّة الواضحة، واتّخاذ الحجة ببعث الرسل، وبيان محابّه من الأعمال الصالحات ومكارهه من المحرمات في كتابه العزيز لغاية اتباع محابّه واجتناب مكارهه.

ثم نبّه على ما في الطاعة وامتثال التكليف من الشدة والمكروه فذكر الخبر، ونعم ما تضمنه الخبر وأنّه لم ينبّه على الشدة مجرّدة. بل قرنه بذكر الجنة وجعلها محجوبة بها لتحصل الرغبة في الجنة فيتمّ السعي في قطع تلك الحجب المكروهة، وكذلك قرن ذكر الشهوات بذكر كونه محفوفة بها بالنار تنفيراً عنها. ثم بعد تسهيل المكاره التي يشتمل عليها الطاعات بذكر الجنة، وتحقير الشهوات التي يريد الجذب عنها بذكر النار صرّح بأنه لا تأتي طاعة إلاّ في كره ولا معصية إلاّ في شهوة.

وقد عرفت سرّ ذلك، وأن النفس للقوة الشهوية أطوع منها للعقل خصوصاً فيما هو أقرب إليها من اللذات المحسوسة التي يلحقها العقاب عليها. ثم عقب ذلك بدعاء الله أن يرحم امرءاً نزع عن شهوته: أي امتنع من الانهماك فيها وقمع نفسه الأمارة بالسوء فإنها أبعد شيء منزعاً عن الله. ثم فسّر منزعه الذي ينزع إليه وهو المعصية في هواها، وما تميل إليه. ثم نبّه على حال المؤمن الحق وتهمته نفسه في جميع أوقاته من صباح ومساء، وأنه لا يزال عائباً عليه ومراقباً لأحوالها، ومؤاخذاً لها بالزيادة في الأعمال الصالحة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ثم أمرهم أن يكونوا كالسابقين من أكابر الصحابة، والماضين أمامهم إلى الجنة في الإعراض عن الدنيا، واستعار لفظ التقويض والطي

لقطعهم علائق الدنيا ورحيلهم إلى الآخرة كما يقوّض الراحل متاعه للسفر، ويطوي خيامه للرحيل.

ثم عقب بذكر القرآن وممادحه ترغيباً في الاقتداء به، واستعار وصف الناصح له، ووجه الاستعارة أن القرآن يرشده إلى وجوه المصالح كما أن الناصح كذلك، ورشح بكونه لا غشّ معه وكذلك كونه هادياً لا يضلّ: أي طريق الله، وروي لا يضلّ: أي لا يضلّ غيره، وكذلك استعار وصف المحدث له، ورشّح بكونه لا يكذب، ووجه الاستعارة اشتماله على الأخبار والقصص الصحيحة، وفهمه واستفادته عنه كالمحدث الصادق، وكنّى بمجالسة القرآن عن مجالسة حملته وقرّائه لاستماعه منهم، وتدبره عنهم فإن فيه من الآيات الباهرة والنواهي الزاجرة ما يزيد بصيرة المستبصر من الهدى، وينقص من عمى الجهل. ثم نبههم على أنه ليس بعده على أحد فقر: أي ليس بعد نزوله للناس وبيانه الواضح حاجة بالناس إلى بيان حكم في إصلاح معاشهم ومعادهم، ولا لأحد قبله من غنى؛ أي قبل نزوله لا غنى عنه للنفوس الجاهلة، وإذا كان بهذه الصفة أمرهم بأخذ الشفاء عنه لأدوائهم: أي أدواء الجهل، وأن يستعينوا به على شدتهم وفقرهم إلى أن يستحلوا منه وجوه المصالح الدنيوية والأخروية. ثمّ عدّ أكبر أدواء الجهل وأعاد ذكر كونه شفاء منها:

أولها: الكفر بالله وهو عمى القوة النظرية من قوى النفس عن معرفة صانعها ومبدعها إلى غاية إنكاره أو اتخاذ ثانٍ له أو الحكم عليه بصفات المخلوقين المحدثين.

والثاني: النفاق وهو مستلزم لرذيلة الكذب المقابلة لفضيلة الصدق. ثم لرذيلة الغدر المقابلة لفضيلة الوفاء، وقد سبق بيان حال النفس في هاتين الرذيلتين.

الثالث: الغيّ وهو رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة.

الرابع: الضلال وهو الانحراف عن فضيلة العدل، وإلى كونه شفاءً الإشارة بقوله ﷺ: إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: يا رسول الله ما جلاؤها؟ قال: قراءة القرآن وذكر الموت، وقد علم اشتماله على ذكر الموت في مواضع كثيرة.

ثم أمرهم أن يسألوا الله به، والمراد أنكم أعدّوا أنفسكم وكمّلوها لاستنزال المطالب من الله. بما اشتمل عليه القرآن من الكمالات النفسانية، وتوجّهوا إليه بحبه لأن من أحبّه استكمل بما فيه فحسن توجهه إلى الله.

وقوله: ولا تسألوا به خلقه.

أي لا تجعلوا تعلّمكم له لطلب الرزق به من خلق مثلكم فإنه لم ينزل لذلك.

وقوله: إنّه [فإنه خ] ما توجه العباد إلى الله بمثله.

وذلك لاشتماله على جميع الكمالات النفسانية من العلوم، ومكارم الأخلاق والنهي عن جميع الرذائل الموبقة. ثم استعار لفظي الشافع والمشفّع. ووجه الاستعارة كون تدبّره، والعمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الرديئة من المعاصي، وذلك مستلزم لمحو غضب الله كما يمحو الشفيع المشفّع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه، وذلك سرّ الخبر المرفوع ما من شفيع من ملك ولا نبيّ ولا غيرهما أفضل من القرآن، وكذلك لفظ القائل المصدّق، ووجه الاستعارة كونه ذا ألفاظ إذا نطق بها لا يمكن تكذيبها كالقائل الصادق.

ثم أعاد معنى كونه شافعاً مشفعاً يوم القيامة. ثم استعار لفظ المحل للقرآن، ووجه الاستعارة أن لسان حال القرآن شاهد في علم الله وحضرة ربوبيته على من أعرض عنه بعدم اتباعه ومخالفته لما اشتمل عليه، وتلك شهادة لا يجوز عليها الكذب فبالواجب أن يصدق فأشبه الساعي إلى السلطان في حق غيره بما يضرّه.

وقوله: فإنّه لا ينادي منادٍ يوم القيامة. إلى آخره.

فالمنادي هو لسان حال الأعمال، والحرث كل عمل تطلب به غاية وتستخرج منه ثمرة، والابتلاء هٰهنا ما يلحق النفس على الأعمال وعواقبها من العذاب بقدر الخروج فيها عن طاعة الله، وظاهر أن حرث القرآن، والبحث عن مقاصده لغاية الاستكمال به بريء من لواحق العقوبات. ثم حثّهم على أن يكونوا من حرثته وأتباعه، وأن يستدلّوه: أي يتّخذوه دليلاً قائداً إلى ربهم، وأن يستنصحوه على أنفسهم: أي يتّخذوه ناصحاً على نفوسهم الأمارة بالسوء لكونها هي الغاشية لهم يقودها إلى معصية الله، وكون القرآن زاجراً لهم عما

تأمرهم به تلك النفوس فيجب أن تقبل نصيحته عليها، وكذلك اتّهموا عليه آراءكم: أي إذا رأيتم رأياً يخالف القرآن فاتّهموا ذلك الرأي فإنه صادر عن النفس الأمارة بالسوء.

وكذلك قوله: واستغشّوا فيه أهواءكم، وإنّما قال هنا: استغشّوا، وقال في الآراء: اتّهموا لأن الهوى هو ميل النفس الأمارة من غير مراجعة العقل فإذا حكمت النفس عن متابعتها بحكم فهو غشّ صراح، وأما الرأي فقد يكون بمراجعة العقل وحكمه، وقد يكون بدونه فجاز أن يكون حقاً، وجاز أن يكون باطلاً فكان بالتهمة أولى. ثم أمر بلزوم العمل الصالح. ثم بحفظ النهاية المطلوبة منهم بالعمل والوصول إليها منه: أي راعوا عاقبتكم ونهاية أعمالكم وغايتها فإن الأمور بخواتيمها. ثم أمر بالاستقامة: أي على العمل. ثم بالصبر عليه، وحقيقته مقاومة الهوى لئلا ينقاد إلى قبائح اللذات فيخرج عن الصراط. ثم بالورع، وهو لزوم الأعمال الجميلة، وإنما عطف النهاية والصبر بثمّ لتأخر نهاية العمل عنه، وكون الصبر أمراً عدمياً فهو في معنى المتراخي والمنفك عن العمل الذي هو معنى وجودي بخلاف الاستقامة على العمل فإنه كيفية له، والورع فإنّه جزء منه، وكرر تلك الألفاظ للتأكيد، والنصب في جميعها على الإغراء.

ثم أشار إلى أن تلك النهاية هي النهاية التي لهم وأمرهم بالانتهاء إليها، وهو الأمر الذي خلقوا لأجله أعني الوصول إلى الله طاهرين عن رجس الشيطان، وهو لفظ الخبر النبوي أيها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم فإن المراد بالغاية والنهاية واحد، والمراد بالمعالم حظائر القدس ومنازل الملائكة، وكذلك إن لكم علماً فاهتدوا بعلمكم: أي إلى تلك النهاية. واستعار لفظ العلم لنفسه. ثم أخبر أن للإسلام غاية وأمرهم بالانتهاء إليها، تلك الغاية هي النهاية المشار إليها.

وقوله: وأخرجوا إلى الله. إلى قوله: وظائفه.

فالتقدير أخرجوا من حقه فيما افترض عليكم، وحقّه في فرائضه ووظائفه الإخلاص بها لوجهه. ثم رغّبهم في طاعته واتباع أوامره بكونه شاهداً لهم يوم القيامة ومحتجّاً. قال بعض الشارحين: وإنّما ذكر الاحتجاج وإن كان ذلك الموقف ليس موقف محاجة لأنه إذا شهد لهم فكأنه أثبت الحجّة لهم فأشبه المحاجّ، وأقول: لما كان إمام كل قوم هو المخاطب عنهم والشهيد لهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥] وكان ذلك الموقف هو موقف السؤال والجواب كان ذلك معنى المحاجّة والمجادلة. فالخلوص من الأسئلة بأجوبتها يشبه غلب المسؤول بالحجة وهو البرهان المطلوب، وجرت العادة بأن البرهان يكون عند المحاجة، وكذلك الانقطاع عن الجواب يشبه كون المسؤول محجوجاً، وهذا الاحتجاج والشهادة مقاليّة عند القائلين بحشر الأجساد، وحالية عند غيرهم. ثم أخبر أن القدر السابق في علم الله قد وقع، والقضاء الماضي: أي النافذ قد تورّد: أي دخل في الوجود شيئاً فشيئاً، وقد علمت فيما سلف أن القضاء هو العلم الإلهي بما يكون وما هو كائن، وأن القدر تفصيله الواقع على وفقه لكنه أشار بوقوع القدر هنا إلى وقع خاص وهو خلافته وما يلزمها من الفتن والوقائع.

وروي أن هذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان. قال بعض الشارحين: وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله أخبره أن الأمر سيصل إليه في آخر وقته، وأقول: لا شك أن وقوع هذا الأمر من القدر السابق على وفق القضاء، وليس للفظ إشعار بما قال هذا الفاضل. إذ كان عليه السلام عالماً بأن كل واقع في الوجود فبقضاء من الله وقدر.

وقوله: وإنّي متكلم بعدة الله وحجته.

أي لما وقع هذا الأمر إليّ فإنّي أتكلم بكذا، وعدة الله ما وعد به عباده الذين اعترفوا بربوبيّته واستقاموا على سلوك سبيله بطاعته من تنزّل الملائكة عليهم بذهاب الخوف والحزن والبشارة بالجنة، وأما حجته التي تكلم بها فقوله: وقد قلتم ربنا الله: أي اعترفتم بربوبيّته فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته: أي التي هي عن علم والخالصة من

الرياء والنفاق من غير أن يمرقوا منها: أي يخرجوا فيها بالتحذلق والتشدد إلى طرف الإفراط الذي هو ثمرة الجهل، ولا تحدثوا فيها بدعة ولا تخالفوا عنها وتحيدوا يميناً وشمالاً فتقعوا في مهاوي الهلاك فإنكم متى فعلتم ذلك فقد تمّ شرط استحقاقكم لإنجاز عدته المذكورة فإن ذلك الشرط مركب من الاعتراف بربوبيته، والاستقامة على الأُمور المذكورة فحينئذٍ يجب أن تفاض تلك العدة، ومع فوات جزء من ذلك الشرط لا يقع المشروط فلم يتحقق الموعود به، وذلك معنى كون أهل المروق منقطعاً بهم: أي لا يجدون بلاغاً يوصلهم إلى المقصد لأن الشرط هو البلاغ إلى المقصد الحقيقي.

ثم شرع في النهي عن النفاق لأن تهزيع الأخلاق تغييرها ونقلها من حال إلى حال، وهو معنى تصريفها، وذلك هو النفاق. إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً بل تارة يكون صادقاً، وتارة كاذباً، وتارة وفياً، وأُخرى غادراً، ومع الظالمين ظالم، ومع أهل العدل عادل، ولذلك قال: واجعلوا اللسان واحداً، وهو شروع في الوصية بحال اللسان وعد له: أي لا يكوننّ أحدكم ذا لسانين وهو النافق. ثم أمر بخزنه واستلزم النهي عن أُمور. وهي الفضل من القول ووضعه في غير مواضعه والغيبة والنميمة والسعاية والمسابة والقذف ونحوه، وكلّها رذائل في طرف الإفراط من فضيلة العدل.

وقوله: فإن اللسان جموح بصاحبه.

تعليل لذلك النهي، وإشارة إلى خروجه بصاحبه عن فضيلة العدل إلى الرذائل التي هي موارد الهلكة في الآخرة والدنيا. كما أن الفرس الجموح مخرج بصاحبه إلى الهلاك، ولفظ الجموح مستعار له بهذا الاعتبار. ثم أقسم أنه لا متقى ينفعه تقواه إلاّ بخزن لسانه، وهو حق لأن التقوى النافع هو تقوى التام، وخزن اللسان وكفّه عن الرذائل المذكورة جزء عظيم من التقوى لا يتم بدونه فهي إذن لا تنفع إلاّ به. ثم نبّه على ما ينبغي عند إرادة القول من التثبت والتأمل ما يراد النطق به وعلى ما لا ينبغي من القول بغير مراجعة الفكر، وقرن الأول بالإيمان ترغيباً فيه. والثاني: بالنفاق تنفيراً عنه.

وقوله: لأن المؤمن. إلى قوله: وماذا عليه.

بيان لمعنى كون اللسان وراءً وأماماً، وتلخيص هذا البيان أن الوراء في الموضعين كناية عن التبعيّة لأن لسان المؤمن تابع لقلبه فلا ينطق إلاّ بعد تقديم الفكر فيما ينبغي أن يقوله، وقلب المنافق وذكره متأخر عن نطقه فكان لفظ الوراء. استعارة من المعنى المحسوس للمعقول فأما الخبر النبوي المذكور فهو استشهاد على أن الإيمان لا يتمّ إلاّ باستقامة اللسان على الحق وخزنه عن الرذائل التي عددناها وذلك عين ما ادّعاه في قوله: إن التقوى لا تنفع العبد حتى يخزن لسانه.

فأما برهان الخبر فهو أن استقامة القلب عبارة عن التصديق بالله ورسوله واعتقاد حقيّة ما وردت به الشريعة من المأمورات والمنهيّات، وذلك عين الإيمان وحقيقته فإذن لا يستقيم الإيمان حتى يستقيم القلب، وأما أنه لا يستقيم القلب حتى يستقيم اللسان فلأن استقامة اللسان على الإقرار بالشهادتين ولوازمها وعلى الإمساك عما لا ينبغي من الأمور المعدودة من لوازم استقامة القلب لحكمنا على غير المقرّ بتلك الأمور والقائل بها بعدم الإيمان الكامل، ولا يستقيم أمر من دون لازمه.

وقوله: فمن استطاع. إلى قوله: فليفعل.

أمر بالإجتهاد في لقاء الله تعالى على أحوال، وهي نقاء الراحة من دماء المسلمين وأراد السلامة من قتل النفس، وأموالهم وأراد السلامة من الظلم، وأن يكون الإنسان سليم اللسان من أعراضهم وأراد الكفّ عن الغيبة والسبّ، وشرط ذلك بالاستطاعة لعسره وشدته وإن كان واجب الترك على كل حال، وأشدّها الكفّ عن الغيبة فإنّه يكاد أن لا يستطاع، وإلى نحو هذا إشارة الرسول ﷺ المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه. فسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم، وسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم، وأعمّ من ذلك قال بعض الحكماء: من علم أن لسانه جارحة من جوارحه أقلّ من إعمالها واستقبح إدامة تحريكها كما يستقبح أن يحرّك رأسه أو منكبه دائماً.

وقوله: واعلموا. إلى قوله: حرّم عليكم.

قال بعض الشارحين: هو إشارة إلى أن ما ثبت من طريق النص أو العادة التي شهد بها النص في زمان

الرسول ﷺ لا يجوز أن ينقض بالقياس والاجتهاد بل كل ما ورد به النص فيتبع فيه مورد النص. فما كان حلالاً بمقتضى النص وعمومه العام الماضي فهو في هذا العام حلال، وكذا في الحرام، وعموم هذا الكلام يقتضي عدم جواز نسخ النص وتخصيصه بالقياس وهو مذهب الإمامية لاعتقادهم بطلان القول بالقياس المتعارف، ومذهب جماعة من الأصوليين مع اعترافهم بصحة القياس، ومن يجوز تخصيصه به يحمل هذا الكلام على عدم قبول القياس في نسخ النص من كتاب أو سنّة، وما أحدثه الناس إشارة إلى القياس.

وقوله: ولكن الحلال ما أحلّ الله والحرام ما حرّم الله.

تأكيد لاتباع النص وما كان عليه الصحابة من الدين مما هو معلوم بينهم دون ما أحدث من الآراء والمذاهب.

وقوله: وقد جرّبتم الأمور وضرّستموها. إلى قوله: الأمر الواضح.

إشارة إلى وجوه العلم ومأخذه، ووجه اتصاله بما قبله أنهم إذا كانوا قد أحكموا الأمور تجربة، ووعظوا بمن كان قبلهم، وضربت لهم الأمثال ودعوا إلى الأمر الواضح وهو الدين وطريقه فلا بدّ أن تكون نفوسهم قد استعدت بذلك لعلم الأحكام الشرعية ومقاصدها من الكتاب والسنّة وعادات الرسول والصحابة، ولا يخفى عليهم ما ابتدع بعدها، وأن كل بدعة حرام فضلاً أن ترفع حكم نص أو سنّة سبق العلم بها، ولا يصمّ عن هذه المواعظ والأمثال والدعوة إلى الدين إلاّ أصمّ. أي من هو شديد الصمم كما يقال: ما يجهل بهذا الأمر إلاّ جاهل: أي أشد الناس جهلاً، وكذلك لا يعمى عنه: أي لا يعمى عنه بصيرة إلاّ بصيرة اشتد عماها.

وقوله: من لم ينفعه. إلى قوله: من أمامه.

كلامٌ حقّ، وذلك أن الإنسان في مبدأ الفطرة خالٍ عن العلوم، وإنّما خلقت له هذه الآلات البدنية ليتصفح بها صور المحسوسات، ومعانيها ويتنبّه لمشاركات بينها ومباينات فيحصل له التجربة وسائر العلوم الضرورية، والمكتسبة فمن لم ينتفع بالبلاء: أي بامتحان الأمور وتجاريبها.

وهو إشارة إلى اعتبار الأمور والتفكّر فيها والابتلاء بها كالوقوع في المكاره ومعاناة الأعمال ولم يستفد منها علماً فظاهر أنه لا ينفعه العظة لأن العظة فرع تصفّح الأمور واعتبار آيات الله منها، ومحال أن يحصل فرع من دون أصله وحينئذٍ يأتيه النقص في كمال نفسه ووجوه مصالحه، ويحتمل أن لا يريد بالعظة الاتعاظ بل الموعظة، وظاهر أن الموعظة أيضاً لا ينفعه لأن البلاء بالمكاره والوقائع النازلة أقوى فعلاً في النفس وأكثر تأثيراً فإذا لم ينتفع بها ولم يستفد منها علماً فبالأولى أن لا ينتفع بالموعظة.

وقوله: من أمامه.

لأن الكمالات التي يتوجه إليها بوجه عقله تفوته لنقصان تجربته ووقوف عقله عنها فأشبه فوتها له مع طلبه لها إتيان النقصان له من أمامه.

وقوله: حتى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف.

إشارة إلى غاية نقصانه، وهي الاختلاط والحكم على غير بصيرة فتارة يتخيّل فيما أنكره وجهله أنه عارف بحقيقته، وتارة ينكر ما كان يعرفه ويحكم بصحته لخيال يطرأ عليه. ثم قسّم لهم الناس إلى قسمين: فقسم متبع شرعة: أي طريقة ومنهاجاً وهو منهاج الدين، وقسم مبتدع بدعة بغير برهان سنّة من الله يعتمد عليه، ولا ضياء حجة يقوده في ظلمات الجهل ليلحقوا بأفضل القسمين.

وقوله: إن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن.

رجوع إلى ممادح القرآن، واستعار له ألفاظاً:

الأول: لفظ الحبل، ورشّح بالمتين، وقد عرفت وجه هذه الاستعارة مراراً.

الثاني: وكذلك سببه الأمين.

الثالث: لفظ الربيع، ووجهها أن القلوب تحيا به كما تحيا الأنعام بالربيع.

الرابع: لفظ الينابيع، ووجهها أن العلوم عند تدبره والتفهم عنه تغيض عنه وينتفع بها كما يغيض الماء عن الينابيع.

الخامس: لفظ الجلاء، ووجهها أن الفهم عنه

يكشف عن القلوب صدأ الجهل كما يجلو الصيقل المرآة.

فإن قلت: فلم قال: وليس للقلب جلاء غيره مع أن سائر العلوم جلاء له؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن العلوم الجالية للقلب هي المعدة لسلوك سبيل الله والوصول إلى الغاية من الكمال النفساني كالعلوم الإلهية، وعلم الأخلاق وأحوال المعاد، ولا علم منها إلاّ وفي القرآن أصله ومادته وهو مقتبس من القرآن.

الثاني: أن هذا الكلام صدر عنه عليه السلام ولم يكن في ذلك الزمان علم مدوّن ولا استفادة للمسلمين إلاّ من القرآن الكريم فلم يكن إذن جلاء للقلب غيره.

وقوله: مع أنه قد ذهب المتذكّرون: أي المتدبرون لمقاصد القرآن، وبقي الناسون له والمتناسون المعتمدون للتشاغل والنسيان للجواذب إلى الله، وهو في معنى التوبيخ لهم. ثم أمرهم بإعانة من يعمل الخير على فعله، ووجوه الإعانة كثيرة. ثم بالإعراض عن الشر وإنكاره عند رؤيته واستشهد على وجوب امتثال أمره بالخبر النبوي، وقد نبّه الخبر على وجوب عمل الخير والانتهاء عن الشر باستلزام ذلك لكون فاعله جواداً قاصداً، واستعار وصفي الجواد القاصد، ووجه المشابهة أن العامل للخير المنتهي عن الشر مستقيم على طريق الله فلا تعريج في طريقه ولا اعوجاج فيكون سيره في سلوك سبيل الله أسرع سير كالجواد من الخيل المستقيم على الطريق. ثم قسّم عليه السلام الظلم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الظلم الذي لا يغفر أصلاً. وهو ظلم النفس بالشرك بالله، وبرهانه النص والمعقول: أما النص فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] وأما المعقول فلأن المغفرة عبارة إما عن محو آثار الجرائم عن ألواح النفوس أو عما يلزم ذلك من ستر الله على النفوس أن تحترق بنار جهنّم، والهيئات البدنية التي حجبت نفوس المشركين عن معرفة الله هيئات متمكنة من تلك النفوس قد صارت ملكات لا يمكن زوالها مع عدم مسكتهم بالمعارف الإلهية فهم في العذاب ماكثون، وفي سلاسل تلك الهيئات وأغلالها مكبّلون فإذن لا تتحقق المغفرة في حقهم لعدم مخلصهم منها وجاذبهم عنها وهي عصمة المعرفة.

الثاني: ظلم لا يترك: أي لا بد من أخذ فاعله بالعقوبة والقصاص به، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض، وإليه الإشارة بقوله: يوم يقتصّ للجماء من القرناء، وهذا الظالم إن كانت له مسكة ببعض عصم النجاة من المعارف الإلهية وجب خلاصه من العذاب بعد حين لكن يتفاوت مكثه بحسب تفاوت شدة تمكن تلك الهيئات الرديئة من نفسه وضعفها، وإليه أشار الخبر النبوي يخرجون من النار بعدما يصيرون حمماً وفحماً.

والثالث: الظلم الذي يغفر ولا يطلب وهو ظلم العبد نفسه عند ارتكابه بعض صغائر الزلاّت، وهي التي لا تكسب النفس هيئة رديئة باقية بل حالة يسرع زوالها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] أي في حال كونهم ظالمين. ثم أخذ في التحذير من الظلم بذكر شدة القصاص في الآخرة، وصدق أنه ليس جرحاً بمدية ولا ضرباً بسوط كقصاص الدنيا، ولكنه ما يستصغر ذلك معه من العقوبات بالنار المشهورة أوصافها.

وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه كان جالساً في أصحابه فسمع هدّة. فقال: هذا حجر أرسله الله تعالى من شفير جهنم فهو يهوي فيها منذ سبعين خريفاً حتى بلغ الآن قعرها فهذا بعض أوصافها المحسوسة.

واعلم أن لهذا الخبر تماماً ما يكشف سرّه، وهو أن الراوي قال: فسمعنا بعد ذلك صيحة وصراخاً فقلنا: ما هذا؟ فقالوا: فلان المنافق مات وكان عمره يومئذٍ سبعين سنة. قال بعض من تلطّف: إنّ المراد بجهنّم المشار إليها هي الدنيا ومتاعها. وبالحجر هو ذلك المنافق استعارة، ووجه المشابهة أن ذلك المنافق لم ينتفع بوجوده مدّة حياته ولم تكسب نفسه خيراً فأشبه الحجر في ذلك، وإرسال الله تعالى له هو إفاضته عليه ما استعدّ له من اتباع هواه فيها والانهماك في شهوتها والتيه عن سبيله المشار إليه بقوله: «يضل من يشاء» وشفيرها

هو أوّلها بالنسبة إليه وذلك حين استعداده للانهماك فيها، وأول الأمور القائدة له في طرق الضلال من متاعه ولذاتها، وهويّه فيها سبعين خريفاً هو انهماكه فيها مدة عمره، وبلوغه قعرها هو وصوله بموته إلى غاية العذاب بسبب ما اكتسب منها من ملكات السوء كما أومأنا إليه غير مرة.

ثم نهى عن التلوّن في دين الله، وكنّى به عن منافقة بعضهم لبعض فإن ذلك يستلزم الفرقة ولذلك قال: فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبّون من الباطل: أي فإن الاجتماع على الحق المكروه إليكم كالحرب مثلاً خير لكم من الافتراق في الباطل المحبوب عندكم كمتاع الدنيا. ثم تمّم النهي عن الفرقة وقال: فإن الله لم يعط أحداً بفرقة خيراً لا من الماضين ولا من الباقين، ولما كان الخير في الاجتماع والأُلفة والمحبة حتى يصير الناس كرجل واحد ويتمّ نظام العالم بذلك كان في الفرقة أضداد ذلك، وكذلك ما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وقد سبق بيان فضيلة الاجتماع. ثم أعاد النهي عن الغيبة للناس بذكر معائبهم ونبّه من عساه أن يستحي من نفسه بأن لكل عيباً ينبغي أن يشتغل به، وطوبى فعلى من الطيب، والواو منقلبة عن الياء، وقيل: هي اسم شجرة في الجنّة، وعلى التقديرين مبتدأ. ثم نبّه على فضل العزلة ولزوم البيت للاشتغال بطاعة الله والبكاء على الخطيئة والندم عليها.

وقوله: وكان من نفسه في شغل. إلى آخر ما ذكره ثمرة العزلة.

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أن العزلة أفضل أم المخالطة؟ ففضّل جماعة من مشاهير الصوفية والعارفين العزلة منهم إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري، وداوُد الطائي والفضيل بن عياض وسليمان الخواص وبشر الحافي، وفضّل الآخرين المخالطة ومنهم الشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وابن عيينة وابن المبارك، واحتجّ الأولون بالنقل والعقل: أما النقل فقوله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عامر الجهني لما سأله عن طريق النجاة. فقال: ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك. وقيل له صلى الله عليه وآله: أي الناس أفضل؟ فقال: رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شرّه، وقال صلى الله عليه وآله: يحبّ التقي النقي الخفي.

وأما العقل فهو أن في العزلة فوائد مطلوبة لله لا توجد في المخالطة فكانت أشرف منها الفراغ لعبادة الله والذكر له والاستئناس بمناجاته والاستكشاف لأسراره في أمور الدنيا والآخرة من ملكوت السماوات والأرض، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعبّد بجبل حراء ويعتزل به حتى أتته النبوة، واحتج الآخرون بالقرآن والسنة: أما القرآن فقوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] . وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥] ومعلوم أن العزلة تنفي تألّف القلوب وتوجب تفرّقها.

وأما السنّة فقوله صلى الله عليه وآله: من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه. وما روي أن رجلاً أتى جبلاً يعبد الله فيه فجاء به أهله إلى الرسول صلى الله عليه وآله فنهاه عن ذلك. وقال له: إنّ صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة، وأقول: إنّ كلا الاحتجاجين صحيح لكنه ليس أفضليّة العزلة مطلقاً ولا أفضلية المخالطة مطلقاً. بل كل في حق بعض الناس بحسب مصلحته، وفي بعض الأوقات بحسب ما يشتمل عليه من المصلحة.

واعلم أنه من أراد أن يعرف مقاصد الأنبياء عليهم السلام في أوامرهم وتدبيراتهم فينبغي أن يتعرف طرفاً من قوانين الأطباء. ومقاصدهم من العبارات المطلقة لهم. فإنه كما أن الأطباء هم المعالجون للأبدان بأنواع الأدوية والعلاجات لغاية بقائها على صلاحها أو رجوعها إلى العافية من الأمراض البدنية كذلك الأنبياء عليهم السلام، ومن يقوم مقامهم فإنّهم أطباء النفوس والمبعوثون لعلاجها من الأمراض النفسانية كالجهل وسائر رذائل الأخلاق بأنواع الكلام من الآداب والمواعظ والنواهي والضرب والقتل. وكما أن الطبيب قد يقول الدواء الفلاني نافع من المرض الفلاني، ولا يعني به في كل الأمزجة بل في بعضها، كذلك الأنبياء والأولياء إذا أطلقوا القول في

شيء أنه نافع كالعزلة مثلاً، فإنهم لا يريدون أنها نافعة لكل إنسان، وكما أن الطبيب قد يصف لبعض المرضى دواء ويرى شفاءه فيه ويرى أن ذلك الدواء بعينه لمريض آخر كالسمّ القاتل ويعالجه بغيره كذلك الأنبياء عليهم السلام قد يرون أن بعض الأمور دواء لبعض النفوس فيقتصرون عليه، وقد يرون أن بعض الأوامر علاج لبعض النفوس فيقتصرون عليه، وقد يرون أن بعض الأوامر علاج لبعض النفوس كالأمر بالعزلة والحثّ عليها لبعض الناس. وقد يرون أن ذلك العلاج بعينه مضرّ لغير تلك النفس فيأمرونها بضد ذلك كالأمر بالمخالطة والمعاشرة، وأكثر ما يختارون العزلة لمن بلغ رتبة من الكمال في قوتيه النظرية والعملية، واستغنى عن مخالطة كثير من الناس لأن أكثر الكمالات الإنسانية من العلوم والأخلاق إنما تحصل بالمخالطة خصوصاً إذا كان ذلك الإنسان أعني المأمور بالعزلة خالياً عن عائلة يحتاج أن يتكسب لهم، وأكثر ما يختارون المخالطة والاجتماع لتحصّل الألفة والاتحاد بالمحبة، وللاتحاد غايتان كليتان:

إحديهما: حفظ أصل الدين وتقويته بالجهاد.

والثانية: تحصيل الكمالات التي بها نظام أمر الدارين لأن أكثر العلوم والأخلاق يستفاد من العشرة والمخالطة كما بيّناه. وبالله التوفيق.

١٧٧ - ومن كلام له عليه السلام

في معنى الحكمين:

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنِ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالاعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

أقول: هذا الفصل من خطبة خطبها بعدما بلغه أمر الحكمين. والإجماع: تصميم العزم. ويجعجعا: يحبسا نفسيهما على القرآن، والخطاب لمن أنكر عليه رضاه بالتحكيم بعد الرضا به، وقد حكى فيه إجماع رأي جماعتهم على اختيار الرجلين وهما أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص وأخذه عليهما أن يحبسا نفسيهما على العمل بالقرآن ولا يجاوزاه، وتكون ألسنتهما وقلوبهما معه، وأطلق لفظ القلوب على الميول الإرادية مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] وذلك هو شرط رضاه عليه السلام بالتحكيم. ثم حكى خروجهما عما اشترط عليهما وتيههما عن الكتاب وتركهما للحق مع إبصارهما له، وخروجهما عن فضيلة العدل بحسب الهوى إلى رذيلة الجور والاعوجاج عن طريقة الحق.

وقوله: وقد سبق استثناؤنا.

إعادة لذكر سبق الشرط في الحكم بالعدل، وسوء رأيهما منصوب لأنه مفعول سبق.

وقوله: والثقة في أيدينا لأنفسنا.

أي إنّا على برهان وثقة من أمرنا، وليس بلازم لنا حكمهما لأنهما خالفا الشرط وأتيا بما لا يعرف من الحكم المعكوس، وقد حكينا فيما سبق طرفاً من حال التحكيم وخداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري. وبالله التوفيق.

١٧٨ - ومن خطبة له عليه السلام

لا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ، وَلا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الأَحْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ غَيْرَ

مَعْدُولٍ بِهِ، وَلا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلائِقِهِ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاتِهِ، وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا، وَلا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَايْمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ «بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ». وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ!

أقول: هذه الخطبة خطب بها بعد مقتل عثمان في أول خلافته.

والدخلة بالكسر والضم: باطن الشيء. والمعتام: المختار. وعقائل الشيء: نفائسه. وأشراط الهدى: علاماته. والغربيب: الأسود. والمخلد إليها: المسلّم إليها أموره. ولا تنفس: لا تضنّ ولا تبخل. وغضّ النعمة: طريفها.

وصدر الخطبة بالإشارة إلى اعتبارات توحيدية:

الأول: أنه لا يشغله شأن عن شأن: وذلك لأن الشغل عن الشيء، إما لقصور القدرة أو العلم، وقدرته تعالى وعلمه المحيطان بكل مقدور ومعلوم فإذن لا يشغله مقدور عن مقدور، ولا معلوم عن معلوم، وتقرير هاتين المسألتين في الكتب الكلامية والحكمية.

الثاني: ولا يغيّره زمان: وإذ ثبت أنه تعالى خالق الزمان، ولا زمان يلحقه، فلا تغيّر يلحقه، ولأنه واجب الوجود، ولا شيء من المتغيّر في ذاته أو صفاته بواجب الوجود، فلا شيء منه يلحقه التغيّر.

الثالث: ولا يحويه مكان: لبراءته عن الجسمية ولواحقها، وكلما كان كذلك فهو بريء عن المكان ولواحقه فينتج أنه بريْء من المكان ولواحقه.

الرابع: ولا يصفه لسان: أي لا يعبّر اللسان عن حقيقة وصفه، وبيان ما هو ذلك أنه تعالى منزّه عن ركوب [وجوه خ] التراكيب فمحال أن تقع العقول على حقيقة وصفه فكيف باللسان الذي هو المعبّر عنها.

الخامس: ولا يعزب عنه عدد قطر الماء. إلى قوله: الأحداق، وهو إشارة إلى إحاطة علمه المقدس بكلّيات الأمور وجزئياتها، وهذه مسألة عظيمة حارت العقول، وقد أشرنا إليها في المختصر المرسوم بالقواعد الإلهية. ثم عقّب هذا التنزيه بالشهادة بكلمة التوحيد، وذكر لله تعالى أحوالاً شهد بوحدانيّته عليها:

الأول: كونه غير معدول به: أي لا عديل له ولا مثل.

الثاني: ولا مشكوك فيه: أي في وجوده فإنّ ذلك ينافي الشهادة بوحدانيته.

الثالث: ولا مكفور دينه: لأن الجحود لدينه يستلزم النقصان في معرفته فكان الاعتراف به كمالاً لمعرفته وللشهادة بوحدانيته.

الرابع: ولا مجحود تكوينه: أي إيجاده للموجودات وكونه ربّاً لها. ثم عقب وصف المشهود له حال تلك الشهادة بأوصاف الشاهد بها باعتبار شهادته: وهي كونه صادق النية في تلك الشهادة: أي باعتقاد جازم، وصافي الدخلة: أي نقي الباطن من الرياء والنفاق، وخالص اليقين بوجود المشهود أو كمال وحدانيته من الشكوك والشبهات فيه، وثقيل الموازين بكمال تلك الشهادة والقيام بحقوقها من سائر الأعمال الصالحات، وأردفها بأختها وذكر للمشهود بحقيّة رسالته أوصافاً:

أحدها: كونه مجتبى من الخلائق ومصطفى منهم، وذلك يعود إلى إكرامه بإعداد نفسه لقبول أنوار النبوة.

الثاني: والمعتام لشرح حقائقه: أي لإيضاح ما خفي من الحقائق الإلهية والشرعية التي بيّنها.

الثالث: المختص بنفائس كرامته: وهي الكمالات النفسانية من العلوم ومكارم الأخلاق التي اقتدر معها على تكميل الناقصين.

الرابع: والمصطفى لكرائم رسالاته: أي لرسالاته الكريمة. وتعديدها باعتبار تعداد نزول الأوامر عليه فإن كل أمر أُمر بتبليغه إلى الخلق رسالة كريمة.

الخامس: الموضحة به أشراط الهدى: وهي قوانين الشريعة ودلالات الكتاب والسنّة.

السادس: والمجلوّ به غربيب العمى: واستعار لفظ الغربيب لشدة ظلمة الجهل، ولفظ الجلاء لزوال تلك الظلم بأنوار النبوة. ثم أيّه بالناس منبهاً لهم على مقابح الدنيا ومذامها. منها: تغرّ المؤمل لها والراكن إليها. وذلك أن المؤمّل لبعض مطالبها لا يزال يتجدد له أمارات خيالية على مطالب وهمية وأنها ممكنة التحصيل نافعة فتوجب له مدّ الأمل، وقد يخترم دون بلوغها، وقد ينكشف بطلان تلك الأمارات بعد العناء الطويل، ومنها: أنها لا تنفس على من نافس فيها وأحبها بل تسمح به للمهالك، وترميه بغرائب من النوائب، ومنها: أنها تغلب على من غلب عليها: أي من ملكها وأخذها بالغلبة فعن قريب تقهره وتهلكه، والأوصاف المذكورة التي من شأنها أن تكون للعدو القوي الداهي، وهي كونها تغرّ المؤمل لها وتغلب مغالبها ولا تبقى على محبّها مستعارة، ووجه المشابهة استلزام الكون فيها والاغترار بها ومحبتها والتملّك لها الهلاك فيها وفي الآخرة كاستلزام الغرور بالعدو الداهي الذي لا يحب أحداً والركون إليه الهلاك.

ثم أخذ عليه السلام في التنبيه على وجوب شكر المنعم واستدراكها بالفزع إلى الله، وأقسم أن زوالها عنهم ليس إلاّ بذنوب اجترحوها، وذلك إشارة إلى أن الذنوب تعدّ لزوال النعم وحلول النقم لأنهم لو استحقّوا إفاضة النعم مع الذنوب لكان منعهم إيّاها منعاً للمستحق المستعد، وذلك عين الظلم وهو من الجود الإلهي محال كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] أي يستعدوا للتغيّر بالمعاصي.

وقوله: ولو أن الناس. إلى قوله: كل فاسد.

إشارة إلى أن الفزع إلى الله بصدق النية ووله القلب وتحيّره وذهوله عن كل شيء سوى الله يعدّ الإعداد التام لإفاضة المطالب سواء كانت عود نعمة أو استحداثها أو زوال نقمة أو استنزالها على عدو. وردّ الشارد: أي من النعم، وإصلاح الفاسد: أي من سائر الأحوال.

وقوله: وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة.

كنّى بالفترة عن أمر الجاهلية كناية بالمجاز إطلاقاً لاسم الظرف على المظروف: أي أخشى أن تكون أحوالهم [لكم خ] أحوال الجاهلية في التعصبات الباطلة بحسب الأهواء المختلفة.

وقوله: وقد كانت أمور. إلى قوله: محمودين.

قالت الإمامية: تلك الأمور التي مالوا فيها هي تقديمهم عليه من سبق من الأئمة، وقال غيرهم: هي حركاتهم وميلهم عليه في تقديم عثمان وقت الشورى، واختيارهم له وما جرى فيها من الأقوال والأفعال.

وقوله: ولئن ردّ عليكم أمركم.

أي صلاح أحوالكم واستقامة سيرتكم التي كنتم عليها في زمن الرسول صلى الله عليه وآله إنّكم لسعداء عند الله وفي الدنيا. وما عليّ إلاّ الجهد: أي في عود ذلك الأمر عليكم.

وقوله: ولو أشاء أن أقول لقلت.

يفهم منه أنه لو قال لكان مقتضى قوله نسبة من تقدم عليه إلى الظلم له وتخطئتهم في التقدم عليه، وذكر معائب يقتضي وجوب تأخرهم في نظره. وتقدير الكلام: ولكني لا أقول فلم أكن مريداً للقول.

وقوله: عفا الله عمّا سلف.

إشارة إلى مسامحته لهم بما سبق منهم. إذ العادة جارية بأن يقول الإنسان مثل ذلك فيما تسامح به غيره من الذنوب، وأحسن العبارات في ذلك لفظ القرآن الكريم فيقتبس في الكلام. وبالله التوفيق.

١٧٩ - ومن كلام له عليه السلام

وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال:

لا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الأَشْيَاءِ غَيْرُ مُلامِسٍ - مُلابِسٍ - بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرُ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لا بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لا بِجَارِحَةٍ. لَطِيفٌ لا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ. تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

أقول: تعنو: تخضع. وتجب القلوب: تخفق.

والفصل فصل شريف من التوحيد والتنزيه.

فقوله: أفأعبد ما لا أرى؟

استفهام على سبيل الإنكار لعبادة ما لا يدرك، وفيه إزراء على السائل.

وقوله: لا تدركه العيون. إلى آخره.

تنزيه له عن الرؤية بحاسة البصر وشرح لكيفية الرؤية الممكنة، ولما كان تعالى منزّهاً عن الجسمية ولواحقها من الجهة وتوجيه البصر إليه وإدراكه به. وإنما يرى ويدرك بحسب ما يمكن لبصيرة العقل لا جرم نزهه عن تلك وأثبت له هذه. فقال: لا تدركه العيون. إلى قوله: بحقائق الإيمان. وأراد بحقائق الإيمان أركانه. وهي التصديق بوجود الله ووحدانيّته وسائر صفاته واعتبارات أسمائه الحسنى، وعدّ من جملتها اعتبارات يدركها بها:

أحدها: كونه قريباً من الأشياء ولما كان المفهوم من القرب المطلق الملامسة والالتصاق وهما من عوارض الجسميّة نزّه قربه تعالى عنها. فقال: غير ملامس فأخرجت هذه القرينة ذلك اللفظ عن حقيقته إلى مجازه وهو اتصاله بالأشياء وقربه منها بعلمه المحيط وقدرته التامة.

الثاني: كونه بعيداً منها، ولما كان البعد يستلزم المباينة وهي أيضاً من لواحق الجسمية نزّهه عنها بقوله: غير مبائن. وقد سبق بيان ذلك مراراً فكان بعده عنها إشارة إلى مباينته بذاته الكاملة عن مشابهة شيء منها.

الثالث: وكذلك قوله: متكلّم بلا روية. وكلامه يعود إلى علمه بصور الأوامر والنواهي وسائر أنواع الكلام عند قوم، وإلى المعنى النفساني عند الأشعري، وإلى خلقه الكلام في جسم النبي عند المعتزلة.

وقوله: بلا رويّة [لا بروية خ].

تنزيه له عن كلام الخلق لكونه تابعاً للأفكار والتروّي.

الرابع: وكذلك مريد بلا همّة تنزيه لإرادته عن مثليّة إرادتنا في سبق العزم والهمة لها.

الخامس: صانع بلا جارحة. وهو تنزيه لصنعه عن صنع المخلوقين لكونه بالجارحة التي هي من لواحق الجسمية.

السادس: وكذلك لطيف لا يوصف بالخفاء، واللطيف يطلق ويراد به رقيق القوام، ويراد به صغير الحجم المستلزمين للخفاء، وعديم اللون من الأجسام، والمحكم من الصنعة. وهو تعالى منزّه عن إطلاقه بأحد هذه المعاني لاستلزام الجسمية والإمكان فبقي إطلاقها عليه باعتبارين:

أحدهما: تصرفه في الذوات والصفات تصرفاً خفيّاً بفعل الأسباب المعدة لها لإفاضة كمالاتها. والثاني: جلالة ذاته وتنزيهها عن قبول الإدراك البصري.

السابع: رحيم لا يوصف بالرقة. تنزيه لرحمته عن رحمة أحدنا لاستلزامها رقّة الطبع والانفعال النفساني، وقد سبق بيان كونه تعالى رحيماً.

الثامن: كونه عظيماً تخضع الوجوه لعظمته. إذ هو الإله المطلق لكل موجود وممكن فهو العظيم المطلق الذي تفرّد باستحقاق ذلّ الكل وخضوعه له، ووجيب القلوب واضطرابها من هيبته عند ملاحظة كل منها ما يمكن له من تلك العظمة.

١٨٠ - ومن كلام له عليه السلام

في ذم أصحابه:

أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلائِي بِكُمْ أَيَّتُها الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ. وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلَيَأْتِيَنِّي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ. لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الإِسْلامِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَو طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ!

أقول: الخور: الضعف، ويحتمل أن يكون من الخوار وهو الصياح. وأُجئتم: جذبتم، ودعيتم. ونكص: رجع على عقبه. والقالي: المبغض. والطغام: أوغاد الناس. والتريكة: بيضة النعام. ومجّه: ألقاه من فيه.

وقد حمد الله تعالى على ما قضى وقدّر، ولما كان القضاء هو الحكم الإلهي بما يكون قال: على ما قضى من الأمر. لأن الأمر أعمّ أن يكون فعلاً، ولما كان القدر هو تفصيل القضاء وإيجاد الأشياء على وفقه قال: وقدّر من فعل.

وقوله: وعلى ابتلائي بكم.

تخصيص لبعض ما قضى وقدّر.

وقوله: إذا أمرت. إلى قوله: نكصتم.

شرح لوجوه الابتلاء بهم، وحاصلها يعود إلى مخالفتهم له في جميع ما يريده منهم مما ينتظم به حالهم.

وقوله: إلى مشاقة.

أي إلى مشاقة عدوه.

وقوله: لا أبا لغيركم.

دعاء بالذل لغيرهم، وفيه نوع تلطّف لهم، والأصل لا أب، والألف مزيدة إما لاستثقال توالي أربع حركات فأشبعوا الفتحة فانقلبت ألفاً أو لأنهم قصدوا الإضافة وأتوا باللام للتأكيد. ثم أقسم إن جاء يومه: أي وقت موته ليفرقنّ بينهم وبينه وهو تهديد لهم بفراقه وانشعاب أمورهم بعده.

وقوله: وليأتيني.

حشوة لطيفة وأتى به مؤكد لأن إتيان الموت أمر محقق، وكأنه ردّ بها ما يقتضيه إن من الشكّ فحسنت هذه الحشوة بعدها. ثم أخذ في التضجّر منهم، وأخبرهم أنه لصحبتهم مبغض، وأنه غير كثير بهم لأن الكثرة إنّما تراد للمنفعة فحيث لا منفعة فكأنه لا كثرة.

وقوله: لله أنتم.

جملة اسمية فيها معنى التعجب من حالهم، ومثله لله أبوك ولله درّك. ثم أخذ في استفهامهم عمّا يدعون أنه موجود فيهم، وهو الدين والحمية والأنفة، ومن شأن الدين أن يجمع على إنكار المنكر، والحميّة أن تشحذ وتثير القوة الغضبية لمقاومة العدو استفهاماً على سبيل العيب والإنكار عليهم.

وقوله: أوليس عجباً. إلى قوله: وتختلفون عليّ.

استفهام لتقرير التعجب من حاله معهم في تفرّقهم عنه حتى عند الدعوة إلى العطاء، ومن حال معاوية مع قومه في اجتماعهم عليه من غير معونة ولا عطاء.

فإن قلت: المشهور أن معاوية إنما استجلب من استجلب من العرب بالأموال والرغائب فلم قال: فيتّبعونه على غير معونة ولا عطاء؟

قلت: إن معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة والعطاء المتعارف بين الجند، وإنما كان يعطي رؤساء القبائل من اليمن والشام، الأموال الجليلة ليستعبدهم بها وأولئك الرؤساء يدعون أتباعهم من العرب فيطيعونهم. فصادق إذن أنهم يتّبعونه على غير معونة وعطاء.

وأما هو عليه السلام فإنه كان يقسّم بيوت الأموال بالسوية بين الأتباع والرؤساء على وجه الرزق والعطاء، لا يرى لشريف على مشروف فضلاً، وكان أكثر من يقعد عن نصرته من الرؤساء لما يجدونه في أنفسهم من أمر المساواة بينهم وبين الأتباع، وإذا أحس الأتباع بذلك تخاذلوا أيضاً متابعة لرؤسائهم. والمعونة هي ما يعطى للجند في وقت الحاجة لترميم أسلحتهم وإصلاح دوابهم وهو خارج عن العطاء المفروض شهراً فشهراً، واستعار لهم لفظ التريكة، ووجه المشابهة أنهم خلف الإسلام وبقيّة أهله كالبيضة التي تتركها النعامة.

وقوله: إنّه لا يخرج. إلى قوله: فترضونه.

أي إنه يخرج إليكم من أمري أمر من شأنه أن يرضى به أو يسخط منه فترضونه وتجتمعون عليه بل لا بدّ لكم من التفرّق والمخالفة على الحالين. ثم نبّههم على سوء صنيعهم معه بأن أحبّ الأشياء إليه الموت. وقد لاحظ هذه الحال أبو الطيب فقال:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً
وحسب المنايا أن تكون أمانيا
تمنّيتها لما تمنّيت أن أرى
صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

وقوله: قد دارستكم الكتاب. إلى قوله: مججتم.

إشارة إلى وجوه الامتنان عليهم وهي مدارستهم الكتاب: أي تعليمه، ومفاتحتهم الحجاج: أي مماراتهم وتعريفهم وجوه الاحتجاج، وتعريفهم ما أنكروه: أي الأمور المجهولة لهم، وتسويغهم ما مجّوه. واستعار وصف التسويغ إمّا لإعطائه لهم العطيات والأرزاق التي كانوا يحرمونها من يد غيره لو كان كمعاوية، وإمّا لإدخاله العلوم في أفواه أذهانهم، وكذلك لفظ المجّ إمّا لحرمانهم من يد غيره أو لعدم العلوم عن أذهانهم ونبوّ أفهامهم عنها فكأنّهم ألقوها لعدم صلوحها للإساغة، ووجه الاستعارتين ظاهر.

وقوله: لو كان الأعمى. إلى قوله: يستيقظ.

إشارة إلى أنّهم جهال لا يلحظون بأعين بصائرهم ما أفادهم من العلوم، وغافلون لا يستيقظون من سنة غفلتهم بما أيقظهم به من المواعظ أو غيرها، ولفظ الأعمى والنائم مستعاران، والقوم في قوله: وأقرب بقوم. هم أهل الشام. وهو تعجّب من شدة قربهم من الجهل بالله. إذ كان قائدهم في الطريق معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة: أي عمرو بن العاص وهو رئيسهم رئيس المنافقين وأهل الغدر والخداع، وإذا كان الرئيس القائد والمؤدّب في تلك الطريق من الجهل والفجور بحال الرجلين المشار إليهما فما أقرب أتباعهما من البعد عن الله والجهل به. وأقرب: صيغة التعجب. وقائدهم معاوية: جملة اسميّة محلّها الجر صفة لقوم. وفصّل بين الموصوف والصفة بالجار والمجرور كما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١] فمحل مردوا الرفع صفة المنافقون، وفصّل بينهما بقوله: ومن أهل المدينة، والغرض من ذكرهم ووصفهم بما وصف التنفير عنهم.

١٨١ - ومن كلام له عليه السلام

وقد أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة قد هموا باللحاق بالخوارج، وكانوا على خوف منه عليه السلام، فلما عاد إليه الرجل قال له: أأمنوا فقطنوا أم جبنوا فظعنوا؟؟ فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين. فقال:

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ

نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفَلَّهُمْ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ، وَمُتَخَلٍّ عَنْهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلالِ وَالْعَمَى، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ.

أقول: قطنوا: أقاموا. وبعدت بالكسر: هلكت. وأشرعت الرمح: سددته وصوبته نحو من تريد ضربه. واستفلّهم: أي طلب منهم التفرق والهزيمة وزيّنها لهم. والفلّ: التفريق والانهزام. والارتكاس: الرجوع في الشيء مقلوباً.

والفصل مشتمل على السؤال عن ظعنهم وإقامتهم وعلّتهما وهما الأمن والجبن. ثم على الدعاء عليهم بالهلاك. وانتصب بعداً على المصدر. ثم على ما لو فعل لكان سبباً لندمهم على ما فعلوا وهو الهجوم عليهم بالقتل والإذلال على ما كان منهم من اللحوق بأولياء الشيطان. ثم على علّة لحوقهم بهم وهي استفلال الشيطان لهم وتفريقه لجماعتهم، وروي استفزّهم: أي استخفهم، وروي استقبلهم: أي تقبّلهم ورضي عنهم. وهي أقوى القرينة.

قوله: وهو غداً متبرّئ منهم ومتخلّ عنهم.

أي تارك لهم فإنّ التبرئ في مقابلة الاستقبال وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقوله: فحسبهم بخروجهم من الهدى.

أي يكفيهم ذلك عذاباً وشراً، والباء في بخروجهم زائدة كهي في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وارتكاسهم في الضلال والعمى رجوعهم إلى الضلال القديم وعمى الجهل الذي كانوا عليه بعد خروجهم منه بهدايته، وصدّهم عن الحق بالخروج عن طاعته وجماحهم في تيه الجهل والهوى بعد الاستقرار في مدينة العلم والعقل، ولفظ الجماح مستعار لخروجهم عن فضيلة العدل إلى رذيلة الإفراط منها كما سبق والغلوّ في طلب الحق إلى حدّ الجور عن الصراط المستقيم. وبالله التوفيق.

١٨٢ - ومن خطبة له عليه السلام

روي عن نوف البكالي قال: خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي، وعليه مدرعة من صوف، وحمائل سيفه ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وكأنّ جبينه ثفنة بعير. فقال عليه السلام:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً: لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً. وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ.

وَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلا سَنَدٍ. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلا مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْلا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، وَلا مَسْكَناً لِمَلائِكَتِهِ، وَلا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ. جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الأَقْطَارِ. لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. وَلا اسْتَطَاعَتْ جَلابِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ. فَسُبْحَانَ مَنْ لا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ

دَاجٍ، وَلا لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ، وَلا فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ، وَمَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الأُنْثَى فِي بَطْنِهَا.

والْحَمْدُ للَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ. لا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، وَلا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَلا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، وَلا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَلا يُحَدُّ بِأَيْنٍ، وَلا يُوصَفُ بِالأَزْوَاجِ، وَلا يُخْلَقُ بِعِلاَجٍ، وَلا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً، بِلاَ جَوَارِحَ وَلا أَدَوَاتٍ، وَلاَ نُطْقٍ وَلا لَهَوَاتٍ بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالأَدَوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ، فَلا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا بِالأُلُوفِ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ؟!

أقول: نقل الجوهري في الصحاح أن نوفاً البكالي بفتح الباء وتخفيف الكاف كان صاحب علي عليه السلام، ونقل عن ثعلب أنه منسوب إلى بكالة قبيلة. وقال القطب الراوندي: وهو منسوب إلى بكال، وبكيل وبكال شيء واحد وهو اسم حيّ من همدان. قال: وبكيل أكثر، وقال الشارح عبد الحميد بن أبي الحديد: والصواب غير ما قالاه، وإنّما هو بكال بكسر الباء من حمير فمنهم هذا الشخص وهو نوف بن فضالة صاحب علي عليه السلام. والأقوال محتملة.

وأما جعدة بن هبيرة فهو ابن أخت أمير المؤمنين عليه السلام أم هاني بنت أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عامد ابن عمران بن مخزوم وهو صحابي. وثفنة البعير: واحدة الثفنات وهي ما يقع على الأرض من أعضائه. والخنوع: الخضوع. ويتعاوره. يختلف عليه، وموطّدات: ممهدات. والتلكؤ: التوقف. والطواعية: الطاعة. والفجاج: الطرق بين الجبال. والادلهمام: شدة الظلمة. والسجف: الستور. والحندس بكسر الحاء: الليل شديد الظلمة. والسفع: الجبال. والسفعة: سواد مشرب بحمرة ولون الجبال في الأكثر. واليفاع: المرتفع من الأرض. والجلجلة: صوت الرعد. وتلاشى: اضمحلّ. والأنواء: جمع نوء، وهو سقوط نجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً. وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً. ومرجحنّين: مائلين إلى جهة تحت. والرياش: اللباس. والطعمة: المأكلة.

فقوله: الحمد لله. إلى قوله: الأمر.

حمد له باعتبار كونه منتهى جميع آثاره في عالمي الخلق والأمر انتهاءً في أوليتها بالصنع والإبداع وانتهاءً في آخريتها لأنه غاية مطلوب السالكين، وهو الباقي بعد كل شيء منها باعتبار وجوب وجوده فهو مستحق البقاء لذاته، وهي الممكنة والمستحقة للفناء باعتبار كونه ممكناً لها، ولما كان الحمد قد يكون لأداء حق ما سبق من النعمة، وقد يكون للاستزادة منها كان قوله: نحمده. إلى قوله: أداءً. نظراً إلى ما سبق من أنواع نعم الله وهي عظيم إحسانه بالخلق والإيجاد على وفق الحكمة والمنفعة. ثم بإنارة برهانه في متقن صنعه ومحكمه. وعلى ألسنة رسله لسوقنا في صراطه المستقيم إلى جنّات النعيم وهدايتنا إليها. ثم بإفاضة نوامي فضله وامتنانه بكفايتنا في حياتنا الدنيا. ثم بإفاضة أسباب معاشنا ومعادنا، وكان قوله: وإلى ثوابه. إلى قوله: موجباً إشارة إلى ما يستزاد منها وهو القرب من ثوابه الأخروي لاستكمال النفس بذلك وحسن مزيده من نعمه الحاضرة كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ثم أردف ذلك الشكر بطلب المعونة منه استعانة بالصفات المعدودة. إلى قوله: والقول:

فإن استعانة من هذه صفته تكون أقرب الاستعانات إلى إجابة المستعان بالعون لقوّتها باستجماعها قوة الرجاء، والأمل له تعالى، وحسن اليقين في قدرته على بذل النفع ودفع الضرّ، والشكر والإذعان بالطاعة العملية والقولية. ثم أردف ذلك بالإقرار بالإيمان الكامل، وهو إيمان من استكمل الأوصاف المعدودة آنفاً وهي رجاء المطالب العالية منه حال اليقين التام بأنه أهلها، والرجوع إليه عن جميع الفرطات وفي سائر المهمّات حال الإيمان به، والخضوع حال انقياده لعزّته، ثم الإخلاص له حال توحيده، ثم تعظيمه حال تمجيده، واللوذ به حال الرغبة إليه والاجتهاد فيها. وظاهر أن ذلك الإيمان كامل. ثم أخذ في تنزيهه تعالى باعتبارات سلبية وإضافية هي غاية الواصفين:

منها: أنه لم يكن له والد فيكون له شريك في العزّ. إذ العادة أن يكون والد العزيز عزيزاً.

ومنها: أنه لم يلد فيكون موروثاً هالكاً. وهو تنزيه له عن صفات البشر. إذ العادة أن الإنسان يهلك فيرثه ولده، وبرهانهما أنهما من لواحق الحيوانية المستلزمة للجسميّة المنزّه قدسه عنها.

ومنها: أنه لم يتقدمه وقت ولا زمان والوقت جزء الزمن وإذا كان خالق الوقت والزمان فبالحري أن يتقدمهما.

ومنها: أنه لم يختلف عليه الزيادة والنقصان لأن الزيادة والنقصان من لواحق الممكنات لاستلزامهما التغيّر المستلزم للإمكان المنزّه قدسه عنه.

ومنها: أنه ظاهر للعقول في علامات التدبير، وهي الإحكام والإتقان في مصنوعاته الموجودة على وفق القضاء المحكم فمن جملتها خلق السماوات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الآية، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقد مرّ بيان كونهما بلا عمد وقيامهما بلا سند في الخطبة الأولى، ودعاؤهنّ حكم سلطان القدرة الإلهيّة عليهنّ، وإجابتهنّ دخولهنّ في الوجود عن ذلك الحكم وطوعهنّ وإذعانهنّ من غير تلكؤ ولا تباطؤ في إجابتهنّ، وخضوعهنّ في رقّ الحاجة والإمكان لواجب وجوده وسلطانه.

وقوله: ولولا إقرارهنّ. إلى قوله: والعمل الصالح من خلقه.

كلام حقّ فإنّ الإقرار بالربوبيّة له راجع إلى شهادة لسان حال الممكن بالحاجة إلى الرب والانقياد لحكم قدرته، وظاهر أنه لولا إمكانها وانفعالها عن قدرته وتدبيره لم يكن فيها عرش ولم يكن أهلاً لقبول تدبير أحوال الملائكة وسكناها، ولم تكن قابلة لصعود الملائكة بالكلم الطيب والأعمال الصالحة للخلق، وقد سبقت الإشارة إلى بيان الصعود بالأعمال وغيرها في الخطبة الأولى بحسب الإمكان، ولفظ الدعاء والإقرار والإذعان مستعارة ويحتمل أن تكون حقائقاً نظراً إلى أن لها أرواحاً مدبّرة عاقلة.

وقوله: وجعل نجومها. إلى قوله: الأقطار.

إشارة إلى بعض غايات وجود النجوم، وقد سبق بيان ذلك.

وقوله: لم يمنع. إلى قوله: القمر.

استعار لفظ السجف والجلابيب للساتر من سواد الليل، ووجه الاستعارة ظاهر، وخصّ القمر بالذكر لكونه من الآيات العظيمة، المقابلة بين الضياء والظلم مقابلة العدم والملكة. وكل منهما يوجد بوجود سببه ويعدم بعدم سببه فلا يكون رفع أحدهما بالآخر، وظاهر إذن أن نور القمر والنجوم لا يمنعه من الوجود والتحقق ظلمة ليل. بل يتعاقبان بحسب تعاقب أسبابهما المنتهية إلى قدرة الصانع الحكيم - جلّت قدرته -.

وقوله: فسبحان. إلى قوله: في بطنها.

تنزيه له بحسب إحاطة علمه بحسب كليات الأشياء وجزئياتها. والمطأطئات: مهابط الأرض، وما يتجلجل به الرعد إشارة إلى تسبيحه في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] وذلك التسبيح يعود إلى شهادته بلسان حاله في ذلك الصوت على كمال قدرة مسخّر السحاب ومؤلفه والمقدر لتصويته، وقد عرفت سببه، وما تلاشت عنه بروق الغمام إشارة إلى ما ينكشف للأبصار بإضائتها، وإنّما خصّ ذلك دون ما أضاءته لأن العلم هناك أشرف لتعلقه بما لا يدركه أبصار المخلوقين دون ما تضيئه لإدراك الكل له.

وإنما أضاف العواصف إلى الأنواء لأن العرب تضيف الآثار العلوية من الرياح والأمطار والحرّ والبرد إليها. ثم عاد إلى حمده تعالى باعتبار تقدمه في الوجود على سائر مخلوقاته، وقد عرفت ما يقال في الكرسي والعرش، ثم نزّهه تعالى باعتبارات سلبيّة:

الأول: أنه لا يدرك بوهم.

الثاني: أنه لا يقدر بفهم: أي لا يحدّ بفهم، والفهم من صفات العقل وقد مرّت الإشارة إلى عجز العقول والأوهام عن وصفه تعالى.

الثالث: ولا يشغله سائل لإحاطة علمه وقدرته. وقد سبق بيانه أيضاً.

الرابع: ولا ينقصه نائل لأن النقصان يتوجه نحو ذي الحاجة، وقد تنزّه قدسه تعالى عنها.

الخامس: كونه لا يبصر بعين: أي أن إدراكه ليس بحاسة البصر وإن كان بصيراً وذلك لتنزّه قدسه عن الحواس.

السادس: ولا يحد بأين: أي لا تحدّه العقول بالأمكنة ولا تحيط به باعتبارها لبراءته عن التحيّز وهو نفي الكمية المتصلة عنه.

السابع: ولا يوصف بالأزواج وهو نفي الكم المنفصل عنه: أي ليس فيه اثنينيّة وتعدّد.

والثامن: ولا يخلق بعلاج تنزيه لصنعه عن وساطة الآلة والحيلة كما تزاوله أصحاب الصنائع.

التاسع: ولا يدرك بالحواس لتخصيص إدراكها بالأجسام وكيفياتها وتنزهه تعالى عن الجسمية ولواحقها.

العاشر: ولا يقاس بالناس تنزيه له عن التشبّه بخلقه في كمالاتهم كما يتوهمه أهل التجسيم.

الحادي عشر: كونه متكلماً بلا جارحة نطق ولا لهوات، وهو تنزيه له عن حال البشرية. وعلمت في المقدمات كيفية سماع الأنبياء عليهم السلام للوحي. فأما قوله: وأراه من آياته عظيماً. فقيل: أراد آياته في كلامه لئلا يصير بين قوله: تكليماً. وقوله: بلا جوارح. اعتراض غير مناسب، والذي رآه من تلك الآيات ما روي أنه كان يسمع الصوت من جهاته الست ليس على حدّ سماع البشر من جهة مخصوصة وله دويّ كوقع السلاسل العظيمة على الحصى الأصم، وفي هذه الكيفية سرّ لطيف، وكونه يسمع من الجهات الست إشارة إلى أن الكلام كان يأتيه فينتقش في لوح خياله لا من جهة بل نسبة الجهات الست إليه على سواء في عدم سماعه منها فلا جرم قيل: يسمع من الجهات الست وهو أولى من أن يقال: يسمع لا من جهة لبعد ذلك عن أوهام الخلق. فأما كونه كوقع السلاسل في القوة فأشار إلى عظمته بالنسبة إليه فشبّهه بأشد الأصوات جرساً.

وقيل: أراد بها الآيات التسع كانشقاق البحر وقلب العصا ثعباناً وغيرهما.

ثم نبّه على عجز القوة البشرية عن وصف كماله تعالى بقوله: بل إن كنت صادقاً إلى قوله: أحسن الخالقين. وهي صورة قياس استثنائي متصل نبّه به على عجز من يدعي وصف ربه كما هو، وتقديره إن كنت صادقاً أيها المتكلّف لوصف ربك في وصفه فصف بعض خلقه وهو جبرائيل وميكائيل وجنود ملائكته المقرّبين، وينتج باستثناء نقيض تاليه: أي لكنك لا يمكنك وصف هؤلاء بالحقيقة فلا يمكنك وصفه تعالى.

بيان الملازمة أن وصفه تعالى إذا كان ممكناً لك فوصف بعض آثاره أسهل عليك، وأما بطلان التالي فلأن حقيقة جبرائيل وميكائيل وسائر الملائكة المقربين غير معلومة لأحد من البشر، ومن عجز عن وصف بعض آثاره فهو عن وصفه أعجز، وحجرات القدس: مقار الطهارة عن الهيئات البدنية والتعلقات الخالية عن شوائب النفس الأمارة بالسوء، واستعار لفظ المرجحنّين لخضوعهم تحت سلطان هيبته وعظمته، وتولّه عقولهم: حيرتها وتشتّتها عن إدراك حقيقته بحد تقف عنده عظمته. ثم نبه على ما يدرك من جهة الوصف وهو ذوو الهيئات والآلات التي يحترف بها وتحيط بها الأفهام من جهتها، وما يلحقه الفناء فينقضي إذا بلغ أمد حدّه، وتقف الأفهام على ذلك الحد وتحلّله إلى أجزائه فتطلع على كنهه منها. ثم عقّب ذلك التنزيه بتوحيده ونفي الكثرة عنه.

وقوله: أضاء بنوره كل ظلام.

فالظلام إمّا محسوس فأضاء بأنوار الكواكب، أو معقول وهو ظلام الجهل فأضاءه بأنوار العلم والشرائع.

وقوله: وأظلم بنوره كل نور.

إذ جميع الأنوار المحسوسة أو المعقولة لغيره متلاشية مضمحلة في نور علمه، وظلام بالنسبة إلى ضياء براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة على وجوده وكمال جوده. ثم شرع في الموعظة فبدأ بالوصية بتقوى الله باعتبار سلب أمرين هما سبب البقاء في الحياة الدنيا وهما الملبوس والمطعوم، ويحتمل أن يريد بالمعاش سائر أسباب البقاء، وثنّى بذكر أنه لا سبيل إلى البقاء ودفع الموت تخويفاً به، واحتجّ عليه بقياس استثنائي تلخيصه: لو أن أحداً يجد سبيلاً إلى دفع الموت لوجده سليمان عليه السلام وتقدير الاستثناء: لكنه لم يجده فلن يجده أحد بعده.

أما الملازمة فلأن سليمان عليه السلام كان أقوى سلطان وجد في العالم لاستيلاء حكمه على ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة عند الله فكان أولى بدفعه لو كان يمكن دفعه، وأما بطلان التالي فلأنه عليه السلام لما استوفى طعمته واستكمل مدته مات فلو وجد مدفعاً لدفعه عن نفسه.

فقوله: فلو أن. إلى قوله: سبيلاً.

هو مقدّم الشرطية.

وقوله: لكان ذلك. إلى قوله: عليه السلام

هو التالي.

وقوله: الذي. إلى قوله: الزلفة.

بيان لوجه الملازمة.

وقوله: فلما استوفى. إلى قوله: قوم آخرون.

هو بيان بطلان التالي، ولفظ القسي والنبال استعارة لمرامي الأمراض وأسبابها التي هي نبال الموت، ووجهها ظاهر. ثم شرع في التنبيه على الاعتبارات بأحوال القرون السالفة واستفهم عن قرن قرن تنبيهاً على فنائهم استفهاماً على سبيل التقرير. والعماليق أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح وكان باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم فمن أولاده عملاق وطسم وجديس، وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم فلما ملكهم عملاق بن طسم بغى وأكثر العبث والفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة اهدائها إلى بعلها، وإن كانت بكراً افتضّها قبل وصولها إليه ففعل ذلك بامرأة من جديس. فغضب لها أخوها وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته فصنع أخوها طعاماً ودعا [دخل خ] عملاق الملك إليه. ثم وثب به وبطسم فأتى على رؤسائهم ونجا منهم رياح بن مرّ فصار إلى ذي جيشان بن تبّع الحميري ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جديس وأتى ذو جيشان في حمير بلاد جوّ وهي قصبة اليمامة فاستأصل جديساً وأخرب اليمامة.

فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلاّ اليسير منهم. ثم ملك بعد طسم وجديس وباز بن أميم بن لاوذ بن إرم بولده وأهله فنزل بأرض وباز وهي المعروفة الآن برمل عالج فبغوا في الأرض حيناً ثم أفناهم الله. ثم ملك بعد وباز عبد ضخم [صمم خ] بن آسف بن لاوذ فنزلوا بالطائف حيناً. ثم بادوا.

وأما الفراعنة فهم ملوك مصر فمنهم الوليد بن ريّان فرعون يوسف، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى، ومنهم فرعون الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس. وأما أصحاب مدائن الرسّ، فقيل: إنهم أصحاب شعيب النبي عليه السلام وكانوا عبدة أوثان ولهم مواشي وآبار يستقون منها، والرس بئر عظيمة جداً انخسفت بهم وهم حولها، وقيل: الرس قرية باليمامة كان يسكنها قوم من بقايا ثمود فبغوا فأهلكوا، وقيل الرس: أصحاب الأخدود وهو الرسّ الأخدود، وقيل: الرس نهر عظيم في إقليم الباب والأبواب يبدأ من مدينة طرار وينتهي إلى نهر كبير فيختلط به حتى يصبّ في بحر الخزر، وكان هناك ملوك أولو بأس وقدرة فأهلكهم الله ببغيهم. وبالله التوفيق.

ومنها: **قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإِسْلامُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلائِفِ أَنْبِيَائِهِ.**

ثم قال عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا. لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟.

أَلا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لاَ يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لا يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ - وَهُمْ بِصِفِّينَ - أَلاَّ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنَقَ! قَدْ - وَاللَّهِ - لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ.

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام:

أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ.

ثم نادى بأعلى صوته:

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هٰذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ!

قال نوف: وعقد للحسين - عليه السلام - في عشرة آلاف، ولقيس ابن سعد رحمه الله في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله، فتراجعت العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان.

أقول: جرانه: صدره. وعسيب ذنبه: طرفه. واستوسق الأمر: انتظم واجتمع. وأزمع: صمم عزمه. والرنق بالسكون: الكدر. وأبرد: أرسل. وأوه: ساكنة الواو مكسورة الهاء كلمة توجّع. والاختطاف والتخطف: الأخذ بسرعة.

والإشارة إلى العارف مطلقاً، وقال بعض الإمامية: الإشارة إلى الإمام المنتظر، وليس بواضح من هذا الكلام، ولفظ الجنة مستعار في الاستعداد للحكمة

بالزهد والعبادة الحقيقيتين والمواظبة على العمل بأوامر الله، ووجه الاستعارة أن بذلك الاستعداد يأمن إصابة سهام الهوى وثوران دواعي الشهوات القائدة إلى النار كما يأمن لابس الجنة من أذى الضرب والجرح. وأخذه لها بجميع آدابها من الإقبال عليها والمعرفة بها: أي بقدرها والتفرغ لها عن العلائق الدنيوية بالزهد من جملة الاستعداد لها أيضاً، واستعار لها لفظ الضالّة لمكان إنشاده وطلبه كما تطلب الضالّة من الإبل، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: الحكمة ضالّة المؤمن.

وقوله: فهو مغترب إذا اغترب الإسلام.

إشارة إلى إخفائه نفسه وإيثاره العزلة عند اغتراب الإسلام وضعفه وظهور البدع والمنكرات كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، واستعار لفظ العسيب والذنب والجران ملاحظة لشبهه بالبعير البارك، وكنّى بذلك عن ضعفه وقلّة نفعه فإنّ البعير أقل ما يكون نفعه حال بروكه.

وقوله: بقيّة من بقايا حجته.

أي على خلقه. إذ العلماء والعارفون حجج الله في الأرض على عباده، وظاهر كونه خليفة من خلفاء أنبيائه لقوله صلى الله عليه وآله: العلماء ورثة الأنبياء.

وقوله: أيها الناس. إلى قوله: تستوسقوا.

تذكير بموعظته لهم، وإعذار إليهم بأداء ما كلّف به في حقهم مما كلّفت به الأنبياء مع أممهم والأوصياء إلى من بعدهم، ومعاتبة لهم، وتوبيخ على عدم استقامتهم واجتماعهم على أوامره مع تأديبه لهم بالضرب والتحذير بالزواجر.

وقوله: لله أنتم. إلى قوله: السبيل.

استفهام لهم عن توقّعهم إماماً هادياً مرشداً غيره استفهاماً على سبيل الإنكار لوجود سبيل ذلك الإمام، وأكد ذلك الإنكار المفهوم من الاستفهام بقوله: الا إنّه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً: أي من الخير وصلاح أهلها، وأقبل منها ما كان مدبراً: أي من الشرور التي أدبرت بمقدم الرسول صلى الله عليه وآله وظهور الإسلام، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار المتوقع فيهم إمام كمثله عليه السلام في الهداية لسبيل الله، وإزماعهم للترحال كناية عن اقتضاء الزمان لفنائهم من الدنيا والرحيل عنها. ثم استعار لفظ البيع لتعويضهم بالقليل الفاني من متاع الدنيا والكثير الباقي من متاع الآخرة.

ثم أخذ في التذكير بنفي ضرر الموت وعدم الحياة عن إخوانه من الصحابة الذين قتلوا بصفين، وزهّد في تلك الحياة بكونها محلّ تجرع الغصص وشرب الكدر من الآلام والأعراض ومشاهدة المنكرات، ولما زهّد في تلك الحياة نبّه على مالهم في عدمها من الفائدة وهي لقاء الله، وتوفيته لأجورهم على الأعمال الصالحة، وحلولهم في دار الأمن: أي الجنة بعد خوفهم من فتن أهل الضلال. ثم أخذ في استفهام عمّن ركب طريق الحق ومضى عليه مستصحباً له استفهاماً على سبيل التوجه لفقدهم والتوحش لفراقهم، ثم عن أعيان أكابرهم فذكر عمار بن ياسر. وفضله في الصحابة مشهور وأبوه عربي قحطاني وأمّه كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي ولدت عمّاراً فأعتقها أبو حذيفة فمن هناك كان عمّار مولى لبني مخزوم، وأسلم هو وأمّه سمية فعذّبهما بنو مخزوم في الله فأعطاهم عمّار ما أرادوا بلسانه مع اطمئنان قلبه بالإيمان فنزلت فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وهاجر إلى أرض الحبشة، وصلّى القبلتين، وهو من المهاجرين الأولين، وشهد بدراً والمشاهد كلها، وأبلي بلاء حسناً، ثم شهد اليمامة فأبلي فيها أيضاً ويومئذٍ قطعت أذنه. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال: هو عمّار بن ياسر، وعن عائشة أنها قالت: ما من أحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أشاء أن أقول فيه إلاّ قلت إلاّ عمّار بن ياسر فإني سمعته صلى الله عليه وآله يقول: إنه ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه. وعنه صلى الله عليه وآله: عمّار جلدة ما بين عيني تقتله الفئة الباغية لا أنا لها الله شفاعتي. وعنه صلى الله عليه وآله من أبغض عمّاراً أبغضه الله.

وأما ابن التيّهان بياء مشدّدة مفتوحة بنقطتين من تحت، ويروى مخففة ساكنة فهو من الأنصار كنيته أبو الهيثم واسمه مالك بن مالك، وقيل: بل اسم أبيه عمرو

بن الحرب وهو - ابن التيّهان - كان أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدراً، والمشهور أنه أدرك صفين مع علي عليه السلام وقتل بها، وقيل: توفي في زمان الرسول صلى الله عليه وآله.

وأما ذو الشهادتين فكنيته أبو عمارة واسمه خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من الأوس. جعل رسول الله صلى الله عليه وآله شهادته بشهادة رجلين لقصة مشهورة، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وكانت راية بني خطمة من الأوس يوم الفتح بيده، وشهد صفين مع علي عليه السلام. فلما قتل عمّار قاتل هو حتى قتل معه. ونظراؤهم من إخوانه: أي الذين قتلوا بصفين معه من الصحابة كابن بديل وهاشم بن عتبة ونحوهما، وتعاقدهم على المنية اتفاقهم على المقاتلة إلى غاية أن يقتلوا.

وروي: تعاهدوا. والفجرة الذين حملت رؤوسهم إليهم أُمراء الشام. ثم أخذ في التشكي والتوجّع على فقدهم. ثم أشار إلى فضائلهم التي هي غاية الشريعة المطلوبة منهم وهي تلاوة القرآن وإحكامه بفهم مقاصده ومعانيه، والتدبّر للفرض: أي فهم ما لأجله العبادات وإقامتها والمواظبة عليها نظراً إلى أسرارها، وإحياء السنن النبوية، وإماتة البدع المخالفة لها، وإجابتهم للدعوة إلى الجهاد لإقامة الدين، ووثوقهم إليه في سبيل الله يعني نفسه واتّباعهم له، والرواح إلى الله الخروج إلى الجهاد الذي هو سبيله الموصلة إليه وإلى ثوابه. وقيس بن سعد الخزرجي صحابي كنيته أبو عبد الملك روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث وأبوه سعد من رؤساء الخزرج وهو سعد بن عبادة الذي حاولت قومه إقامته خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وكان قيس هذا من كبار شيعة علي ومحبّيه، وشهد معه حروبه كلها، وكان مع الحسن ابنه ونقم عليه صلحه لمعاوية. وأما أبو أيوب الأنصاري فهو خالد بن سعد ابن كعب الخزرجي من بني النجّار شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجراً فلم يزل عنده حتى بنى مسجده ومساكنه ثم انتقل إليها، وشهد مع علي مشاهده كلها الجمل وصفين، وكان على مقدمته يوم النهروان. وبالله التوفيق.

١٨٣ - ومن خطبة له عليه السلام

في قدرة الله وفي فضل القرآن وفي الوصية بالتقوى

الْحَمْدُ للَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ. خَلَقَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِن جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

أقول: المنصبة: التعب.

وحمد الله باعتبار كونه معروفاً بآيات آثار عند العقول المعرفة المنزّهة عن إدراك البصر المختص بالأجسام ولواحقها. ثم باعتبار كونه خالقاً وموجداً الإيجاد المنزه عن المتاعب لاستلزامها الآلات المستلزمة للجسمية التي من شأنها الضعف والنهاية في القوة. ثم نبّه على استناد الخلائق والنعم المفاضة إلى قدرته ليعتبر السامعون نسبتهم إليه، وباعتبار استعباده الأرباب على كمال عزّه المطلق الواجبي المستلزم لخضوع كل موجود في ذلّ الإمكان والحاجة إليه، وبسيادته للعظماء على كمال عظمة وجوده الواجبي المطلق المستلزم لفقر كل إليه وتعبّده له، ثم بنسبة إسكانهم الدنيا وبعثه رسله إلى الجن والإنس منهم كما قال: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية. على كمال لطفه بخلقه وحكمته في إيجادهم في

الدنيا. وغاية ذلك أن يكشفوا لهم ما يغطّي بحجب الدنيا عن أعين بصائرهم من أحوال الآخرة التي خلقوا لها، وأن يجذبوهم بالتحذير من ضرّ الدنيا وعواقبها وضرب الأمثال بنسبتها كما في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يونس: ٢٤] الآية. وأمثالها، وأن يبصروهم عيوبها، وأن يهجموا عليهم بما في تصاريفها من العبرة وهي الصحة والسقم وما أحل وحرم على طريق الابتلاء به. وحلالها عطف على تصرف، ويحتمل أن يكون عطفاً على أسقامها باعتبار أن الحلال والحرام من تصاريف الدنيا، وبيانه أن كثيراً من المحرّمات لنبيّ كانت حلالاً لنبي قبله، وبالعكس وذلك تابع لمصالح الخلق بمقتضى تصاريف أوقاتهم وأحوالهم التي هي تصاريف الدنيا.

وقوله: وما أعدّ الله.

إما عطف على معتبر أو على عيوبها: أي ويبصرونهم ما أعد الله للمطيعين والعصاة. إلى آخره.

وقوله: أحمده إلى نفسه كما استحمد إلى خلقه.

أي أحمده حمداً يكون في الكيفية والكمية على الوجه الذي طلب الحمد لنفسه من خلقه.

وقوله: جعل لكل شيء قدراً.

كقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. أي مقداراً من الكيفية والكمية ينتهي إليه وحداً يقف عنده، ولكل قدر أجلاً: أي ولكل مقدار وقت يكون، انقضاؤه فيه وفناؤه ولكل أجل كتاباً وأراد بالكتاب العلم الإلهي المعبر عنه بالكتاب المبين واللوح المحفوظ المحيط بكل شيء وفيه رقم كل شيء. وبالله التوفيق.

منها: **فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ، أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ. فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ.**

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ. وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. وَإِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذٰلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً. وَاعْلَمُوا «أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلائِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالإِرْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهٰذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا. أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ!

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ

أَنتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. فَاللَّهَ اللَّهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا. أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ اضعافاً كثيرة﴾ فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ لَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ ﴿يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ. رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً: ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!

أقول: اليفن. الشيخ الكبير. والقتير: الشيب. ولهزه: خالطه. والجوامع: جمع جامعة وهي الغل لجمعها الأيدي إلى الأعناق. واللغوب: التعب.

وقد وصف القرآن الكريم بالأضداد المتعادية لاختلاف الاعتبارات: فالآمر مع الزاجر، وإطلاقهما عليه مجاز من باب إطلاق اسم السبب على المسبّب. إذ الآمر والناهي هو الله تعالى، والصامت مع الناطق. وإطلاق لفظ الناطق عليه مجاز. إذ الناطق هو المتكلم به من باب إطلاق اسم المتعلق على المتعلق، وكونه حجة الله على خلقه لاشتماله على وعدهم ووعيدهم، وبيان غاية وجودهم والمطلوب منهم والإعذار إليهم ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولأنه خلاصة ما بعث به الرسول صلى الله عليه وآله وقد بعث رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولأنه أقوى المعجزات التي احتج بها الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق في صدقه.

وقوله: أخذ عليهم ميثاقه.

الضمير في أخذ الله وفي ميثاقه للكتاب، وذلك الأخذ هو خلقهم وبعثهم إلى الوجود إلى أن يعملوا بما اشتمل عليه الكتاب من مطالب الله الحقة، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، والتقدير أخذ عليهم ميثاق بما فيه.

وقوله: وارتهن عليه أنفسهم.

أي جعل أنفسهم رهناً على العمل بما فيه والوفاء به ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، وأتم به نوره: أي نور هدايته للخلق، والنور المتمم هو نور النبوة وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]. وإطفاؤه بما كانوا يقولونه من كونه صلى الله عليه وآله معلّم مجنون وساحر كذّاب، وكون القرآن أساطير الأوّلين اكتتبها. وكذلك أكرم به دينه.

وقوله: وقبض نبيّه. إلى قوله: به.

كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، وأحكام الهدى بيان طرقه وكيفية سلوكها وتثبيتها في قلوب المؤمنين. ثم أمر بتعظيم الله سبحانه وتعالى. يقال: عظمت من فلان. كما يقال: عظمته، وما هنا مصدرية: أي عظّموه كتعظيمه نفسه: أي اطلبوا المناسبة في تعظيمكم له كتعظيمه نفسه. ثم أشار إلى وجه وجوب تعظيمنا له وهو قوله: لم يخف عنكم شيئاً من دينه بل كشفه لنا وبيّنه بأجمعه بقدر الإمكان، ولم يترك شيئاً من مراضيه ومكارهه إلاّ نصب عليه علماً ظاهراً أو آية

واضحة من كتابه يشتمل على أمر بما يرضيه أو زجر عما يكرهه.

وقوله: فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد. إشارة إلى أن المرضي له من الأحكام أو المسخوط فيما مضى هو المرضي أو المسخوط فيما بقي من الأوقات واستقبل من الزمان، وحكمه في كونه مرضياً أو مسخوطاً واحد في جميع الأوقات لا يتغيّر ولا ينقض، وفيه إيماء إلى أن رفع شيء من الأحكام السابقة بالقياس والرأي لا يجوز كما سبق بيان مذهبه عليه السلام في ذلك.

وقوله: أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم. إلى قوله: قبلكم.

تأكيد وتقرير لما سبق: أي أن ما سخطه ونهى عنه الصحابة مثلاً فلن يرضى عنكم بفعله فليس لكم أن تجوّزوه وتحلّوه باجتهاد، وكذلك مارضيه لهم وأمرهم به فلن يسخط عليكم بفعله حتى تحرّموه باجتهاد منكم. ويحتمل أن يريد بقوله: فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد: أي فيما بقي من الأحكام الجزئية التي لم يدلّ النص عليها بالمطابقة. بل يحتاج إلى اجتهاد في إلحاقها بالمنصوص وإدراجها تحت النصوص. ومعنى وحدة رضاه وسخطه فيها أن الحكم المطلوب أو المكروه فيها واحد لا يجوز الاختلاف فيه حتى يحكم أحد المجتهدين في الشيء الواحد بالحل ويحكم الآخر فيه بالحرمة، وتختلف الفتاوى في تلك القضية.

لأنها إما مسخوطة أو مرضيّة. ويكون ذلك نهياً منه عليه السلام عن الاختلاف في الفتيا. كما علمت ذمّه لذلك فيما سبق من الفصول، ويكون قوله: واعلموا أنه لن يرضى عنكم. إلى قوله: قبلكم. في معنى النهي عن رفع الأحكام الشرعية بالاجتهاد والقياس كما قرّرناه، وقيل: معناه النهي عن الاختلاف في الفتيا أيضاً: أي أنه لن يرضى عنكم بالاختلاف الذي سخطه ممن كان قبلكم كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وكذلك ليس يسخط عليكم بالاتفاق والاجتماع المرضي ممن كان قبلكم، وقيل: بل المراد أنه لم يرض عنكم بشيء سخطه ممن كان قبلكم من الاعتقادات الباطلة في المسائل الإلهية، ولم يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم من الاعتقادات الحقّة فيها، ويكون ذلك مختصاً بالأصول دون الفروع.

وقوله: وإنّما تسيرون في أثر بيّن. إلى قوله: قبلكم.

إشارة إلى أن الأدلة لكم واضحة قد تداولها الأوّلون قبلكم. فأنتم المتكلمون بها وتردّدونها رجع القول المردّد منهم.

وقوله: قد كفاكم مؤونة دنياكم.

كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وتلك الكفاية إما بخلقها وإيجادها، وإمّا برزقه بكل ما كتب له في اللوح المحفوظ، وحثّه على الشكر في تكرار أوامره به. ونقل عن الحسن البصري أنه قال: إن الله كفانا مؤونة دنيانا وحثّنا على القيام بوظائف ديننا، وهو إشارة منه إلى شدة التحفّظ في الدين والاحتراز عليه.

وقوله: وافترض من ألسنتكم الذكر.

لما كان لكل من الجوارح عبادة كانت العبادة المفروضة باعتبار اللسان الذكر، وقد علمت أنه باب عظيم من أبواب السلوك إلى الله بل هو روح العبادات كلها. إذ كل عبادة لم تشفع بالذكر فهي خداج. ثم نبّه على التقوى بوصية الله تعالى فيها، ثم بكونها منتهى رضاه وحاجته من خلقه، ولفظ الحاجة مستعار. إذ تنزّه قدسه تعالى عنها، ووجه مشابهته للمحتاج هو الحثّ والطلب المتكرر منه حتى كأنه محتاج إلى عبادة العباد وتقواهم.

ولما استلزمت التقوى الحقيقية الوصول إلى الله لا جرم كانت منتهى رضاه من خلقه. ثم أمرهم بها بعد التنبيه عليها. ونبّه على الوجوه التي لأجلها تحصل تقوى الله وخشيته وهي كونهم بعينه: أي بحيث يعلم ما يعملون، ولفظ العين مجاز في العلم إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب لاستلزامها إيّاه، وكون نواصيهم بيده: أي في قدرته. وإنّما خصّ الناصية إشارة إلى أن أعظم جوارح الإنسان وأشرف ما فيه مملوك. واليد

مجاز في القدرة إطلاقاً لاسم السبب القابلي على المسبب، وكذلك كون تقلبهم في قبضته: أي تصرفهم في حركاتهم وسكناتهم بحسب تصريف قدرته وحكمه لا خروج عنه في شيء.

وقوله: إن أسررتم.

كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

وقوله: إن أعلنتم كتبه. إلى قوله: باطلاً.

قد سبقت الإشارة إلى الكتبة غير مرة. ثم أكد القول في التقوى بقوله: واعلموا. إلى قوله: من الفتن. وهو لفظ القرآن.

وقوله: من الفتن.

تفسير لقوله: مخرجاً. ونوراً من الظلم: أي من ظلم الجهل بأنوار العلوم الحاصلة عن الاستعداد بالتقوى.

وقوله: ويخلده فيما اشتهت نفسه.

كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، ومنزل الكرامة هو المنزل المبارك المأمور بطلبه في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] والدار التي اصطنعها لنفسه كناية عن الجنة، ونسبها إلى نفسه تعظيماً لها وترغيباً فيها. وظاهر حسن تلك النسبة فإن الجنة المحسوسة أشرف دار رتّبت لأشرف المخلوقات.

وأما المعقولة فيعود إلى درجات الوصول والاستغراق في المعارف الإلهية التي بها السعادة والبهجة واللذة التامة وهي جامع الاعتبار العقلي لمنازل أولياء الله وخاصته ومقامات ملائكته ورسله. ومن المتعارف أن الملك العظيم إذا صرف عنايته إلى بناء دار يسكنها هو وخاصته أن يقال إنها تخص بالملك وأنه بناها. وظاهر الكلام يدل على أنها في السماوات وأن العرش عليها، وفي هذه الكلمة لطيفة وذلك أنك علمت أن العرش يطلق ويراد به الفلك التاسع، ويطلق ويراد به العقل الأول باعتبار إحاطة علمه بجميع الموجودات وباعتبار حمله لمعرفة صانعه الأول - جلّت عظمته -، ويطلق ويراد به سلطانه وعظمته. واستعار لفظ الظلّ للعرش بالمعنى الأول باعتبار أن حركة الفلك من الأسباب المعدة لوصول النفوس البشرية والفلكية إلى كمالها بالمعارف الإلهية التي بها الراحة الكبرى من حرارة نار الجهل. كما أن بالظل تكون الراحة من حرارة الشمس.

وبالمعنى الثاني أيضاً هو أن المعارف الإلهية المفاضة على أسرار المستعدين من قبل ذلك الملك المقدس تكون بها الراحة الكبرى كما تكون بالظل أيضاً. وبالمعنى الثالث أن سلطانه تعالى وعلوه هو المستولي على كل سلطان والعالي عليه العلوّ المطلق.

وإذ هو مبدأ راحة جميع النفوس بجميع كمالاتها العقليّة فهو ظلها الذي إليه يلجأ. وإطلاق لفظ الظل على النعمة والسلطان في العرف ظاهر يقال: أنا في ظلّ فلان وفي ظل الملك وعدله إذا كان في نعمة منه وعنايته.

وقوله: ونورها بهجته.

فبهجته تعالى تعود إلى بهائه وكماله المشرق في أقطار العالمين على أسرار النفوس. وظاهر كونه نور الجنة الذي تعشى فيه أبصار البصائر، ويستغرق في الابتهاج به الملائكة المقرّبون.

وقوله: وزوّارها ملائكته ورفقاؤها رسله.

فيه لطيفة: وذلك أنه لما كانت النفوس البشرية متحدة كانت متقاربة المنازل في الكمال، وممكن لها ذلك. فعبّر عن الرسل بالرفقاء في الجنة لسكانها. ولما خالفت أنواع الملائكة السماوية والمجرّدين عن علائق الأجسام في الحقائق وتفاوتت في الكمالات لا جرم خصص الملائكة بكونهم زوّارها: أي زوّار ساكنيها. إذ كان الرفيق ألصق وأقرب من الزائر.

وعبّر بتلك الزيارة عن حضور الملأ الأعلى عند النفوس الكاملة عند [حين خ] انقطاعها عن العلائق الحسية والتفاتها عنها. ولما كان ذلك الحضور غير دائم بل بحسب فلتات النفس أشبه الزيارة فاستعير له لفظها.

وإنما كان الملك هو الزائر دون النفس لأن صورته ومثاله هو الواصل إلى النفس عند استعدادها لتصوره من فيض واهب الصور. ثم عاد إلى التذكير بأمر المعاد فأمر

بمبادرته إلى المعاجلة إلى ما يصلحه ويخلص من أهواله من سائر القربات إلى الله. وكذلك مسابقة الآجال.

وقوله: فإن الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل.

أي أمل الدنيا والبقاء فيها. ولأجل ذلك الانقطاع وقربه يجب أن يلتفت إلى صلاح المعاد. ويرهقهم الأجل: أي يلحقهم. فلأجل ذلك اللحوق يجب أن يسارع إلى العمل لما يبقى. ويسدّ عنهم باب التوبة بإدراك الأجل فيجب مبادرتها.

وقوله: فقد أصبحتم. إلى قوله: قبلكم.

أي أصبحتم في حال الحياة والصحة والأمن وسائر الأسباب التي يتمنى من كان قبلكم الرجعة إليها، ويمكنكم معها العمل.

وقوله: وأنتم بنو سبيل. إلى قوله: بالزاد.

فالواو في أنتم للحال، واستعار لهم وصف بنو السبيل لكونهم في هذه الدار بالعرض تقصد بهم العناية الإلهية غاية أخرى، وتحثّهم بالشريعة على الرحيل عن الدنيا فهم فيها كالمسافرين. فأبواب مدينتهم جود الله. وأقرب الأبواب إلى الدنيا الأرحام التي منها يخرجون إليها. وأبواب الخروج منها هي الموت. ولفظ السفر مستعار مشهور يقرب من الحقيقة. وظاهر أن داراً لا يبقى الإنسان فيها بل تكون مرافقاً لطريق دار أخرى ليست بدار للسالك إلى تلك الدار، ونبّه على إيذانهم فيها بالرحيل منها تنفيراً عن الركون إليها واتخاذها وطناً، وعلى أمرهم باتخاذ الزاد فيها تنبيهاً على أن هناك غاية لها. يجب أن يستعد للسلوك إليها فيها. ولفظ الزاد مستعار لتقوى الله وطاعته التي هي زاد النفوس إلى حضرة ربّ العالمين.

وقوله: واعلموا. إلى قوله: نفوسكم.

تذكير بالوعيد على المعاصي، وأمر لهم برحمة نفوسهم. وذلك بالأعمال الصالحة واتباع أوامر الله.

وقوله: فإنكم قد جرّبتموها. إلى قوله: شيطان.

في قوة احتجاج على وجوب تلك الرحمة. وتلخيصه أنكم جربتم أنفسكم في هذه الأمور الحقيرة فجزعتم، وكل من جزع من أمثال هذه فبالأولى أن يجزع من كونه بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان، وقد علمت فيما سلف أن للنار سبع طبقات وهي دركاتها، وضجيع حجر من قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقرين شيطان من قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٥] وهم الشياطين، وقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] إلى قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وقوله: أعلمتم أن مالكاً. إلى قوله: زجرته.

من صفات النار المحسوسة ذكرها للتخويف والتحذير.

وقوله: أيها اليفن الكبير. إلى قوله: السواعد.

خطاب للشيخ الكبير لأنه أولى بالإقلاع عن المعصية لقربه من الآخرة. وسؤاله عن حاله سؤال تقريع وتوبيخ على المعصية. وأطواق النار المحسوسة ظاهرة، وأطواقها المعقولة تمكن الهيئات البدنية من أعناق النفوس، وأغلالها من سواعدها. ثم أخذ في التحذير من الله لغاية العمل. بما يرضيه حال الصحة والفسحة قبل لحوق ضدّيهما.

ثم في الأمر بالسعي لغاية فكاك رقابهم من النار. قبل أن تغلق رهانتها بآثامها. وقد علمت وجه الاستعارة هنا للرهن. ثم في الأمر بالسهر، وكنّى به عن قطع الليل بالعبادة كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]. وإنما خصّ الليل لأنه مظنّة الخلوة بالله والفراغ من الناس، ولأن النهار محل عبادة أخرى كالجهاد والكدح للعيال.

ثم بتضمير البطون، وكنّى به عن صيام النهار. ثم باستعمال أقدامهم، وكنّى به عن القيام في الصلاة. ثم بإنفاق أموالهم، وكنّى به عن الصدقات والزكاة في سبيل الله. ثم بالأخذ من أجسادهم، وكنّى به عن إذابتها بالصيام والقيام للصلاة وإيثار القشف المستلزم للإعراض عن تربيته هذه الأجساد لاستلزام ذلك حبّ

الدنيا والإقبال على لذاتها. ولا شك أن الأخذ من الجسد بهذه العبادات جود على النفس بملكات الخير والقرب من الله تعالى، ولذلك قال: فجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها.

وفي ذكر أن إتعاب الجسد جود على النفس ترغيب فيه. ثم استشهد بالآيتين على وعد الله بالنصر لمن نصره، وبمضاعفة الأجر لمن أقرضه بعد أمره بنصر الله بامتثال أوامره وبقرضه بالصدقات، ووجه استعارة لفظ القرض كثرة الأوامر الإلهية الطالبة للصدقات فأشبهت طلب المحتاج المستقرض، وفائدة هذا الاستشهاد إلى قوله: أيكم أحسن عملاً. إعلامهم بأنه الغني المطلق عن عباده فيما طلبه منهم من نصرة وقرض، وبيان غاية العناية الإلهية منهم بذلك وهو الابتلاء، وقد علمت ابتلاء الله تعالى لخلقه غير مرة. ثم أعاد الأمر بالمبادرة إلى أعمال الآخرة لغاية الكون مع خزّان الله [جيران الله - خ -] في جنّته مرافقين لرسله كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ومرافقة رسله كقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. ومزارين للملائكة كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]. وتكرمة أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] وصيانة أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً كقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

وقوله: ذلك فضل الله الآية.

اقتباس للآية ووجه الاقتباس ظاهر.

وقوله: أقول. إلى آخره.

خاتمة الخطبة، وفيها الاستعانة بالله على النفوس الأمارة بالسوء في قهرها وتطويعها للنفوس المطمئنة فإنه نعم المعين ونعم الوكيل.

١٨٤ - ومن كلام له عليه السلام

قاله للبرج بن مسهر الطائي، وقد قال له بحيث يسمعه:

«لا حكم إلا لله» وكان من الخوارج:

أُسْكُتْ! قَبَّحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

أقول: هو البرج بالباء المضمومة والجيم. وقبحه الله: نحّاه عن الخير. وأثرم: ساقط الثنية. والضئيل: الصغير الحقير النحيف. ونعر: صاح. ونجم: طلع.

وكان البرج شاعراً مشهوراً من شعراء الخوارج نادى بشعارهم بحيث يسمعه عليه السلام فزجره وقبحه ودعاه بآفته إهانة له وانتقاصاً كما هو العادة في إهانة ذوي العاهات بذكر آفاتهم، وكنّى بضآلة شخصه عند ظهور الحق عن حقارته في زمن العدل بين الجماعة وخمول ذكره - وظهور الحق زمان قوة الإسلام وقبل ظهور الفتن وقوة الباطل -، وبخفاء صوته عن عدم الالتفات إلى أقواله وحقارته، واستعار لفظ النعير لظهور الباطل ملاحظة لشبهه في قوته وظهوره بالرجل الصائل الصائح بكلامه عن جرأة وشجاعة، وشبّه ظهوره بين الناس وارتفاع ذكره عند ظهور الباطل وقوته بظهور قرن الماعز في السرعة بغتة:

أي طلعت بلا شرف ولا شجاعة ولا قدم بل على غفلة كنبات قرن الماعز، ومن البلاغة تشبيه من يراد إهانته بالمهين الحقير وتشبيه من يراد تعظيمه بالعظيم الخطير، وبالله التوفيق.

١٨٥ - ومن خطبة له عليه السلام

روي أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام - يقال له: همام - كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم! فتثاقل عليه السلام عن جوابه، ثم قال:

يَا هَمَّامُ اتَّقِ اللهَ وَأَحْسِنْ فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال:

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ: يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلاً. يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا: وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ: لا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي.

اللَّهُمَّ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ: أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ،

لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

قال: فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ! ثُمَّ قَالَ: أَهٰكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟.

فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام:

وَيْحَكَ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لا يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لا يَتَجَاوَزُهُ. فَمَهْلاً، لاَ تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!!.

أقول: ومن هٰهنا اختلفت نسخ النهج فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أول المجلد الثاني منه بعد الخطبة المسمّاة بالقاصعة، ويكون عقيب كلامه للبرج بن مسهر الطائي قوله: ومن خطبة له عليه السلام الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد، وكثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متصلة بكلامه عليه السلام للبرج بن مسهر وتتأخر تلك الخطبة فتكون بعد قوله: ومن كلام له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله ويتصل ذلك إلى تمام الخطبة المسماة بالقاصعة.

ثم يليه قوله: باب المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله، وعليه جماعة الشارحين كالإمام قطب الدين أبي الحسن الكيدري والفاضل عبد الحميد ابن أبي الحديد، ووافقتهم هذا الترتيب لغلبة الظن باعتمادهم على النسخ الصحيحة.

فأما همام هذا فهو همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابر بن عوف الأصهب، وكان من شيعة علي عليه السلام، وأوليائه ناسكاً عابداً، وتثاقله عليه السلام عن جوابه لما رأى من استعداد نفسه لأثر الموعظة، وخوفه عليه أن يخرج به خوف الله إلى انزعاج نفسه وصعوقها. فأمره بتقوى الله: أي في نفسه أن يصيبها فادح بسبب سؤاله، وأحسن: أي أحسن إليها بترك تكليفها فوق طوقها، ولذلك قال عليه السلام حين صعق همام: أما والله لقد كنت أخافها عليه. فحيث لم يقنع هما إلاّ بما سأل، وعزم عليه بذلك: أي ألحّ عليه في السؤال وأقسم، أجابه.

فإن قلت: كيف جاز منه عليه السلام أن يجيبه مع غلبة ظنه بهلاكه وهو كالطبيب إنّما يعطي كلاًّ من المرضى بحسب احتمال طبيعته من الدواء.

قلت: إنه لم يكن يغلب على ظنه عليه السلام إلاّ الصعقة عن الوجد الشديد فأمّا أن تلك الصعقة فيها موته فلم يكن مظنوناً له. وإنّما قدّم بيان كونه تعالى غنياً عن الخلق في طاعتهم وآمناً منهم في معصيتهم لأنه لما كانت أوامره تعالى بأسرها أو أكثرها يعود إلى الأمر بتقواه وطاعته وكان أشرف ما يتقرّب إليه البشر بالتقوى، وهو في معرض صفة المتقين فربما خطر ببعض أوهام الجاهلين أن لله تعالى في تقواه وطاعته منفعة، وله بمعصيته مضرّة فصدره الخطبة بتنزيهه عن الانتفاع والتضرر. وقد مرّ برهان ذلك غير مرّة.

وقوله: فقسم. إلى قوله: مواضعهم.

تقرير وتأكيد لكمال غناه عنهم لأنه إذا كان وجوده هو مبدأ خلقهم وقسمة معائشهم ووضعهم في الدنيا في مراتبهم ومنازلهم من غني وفقير وشريف ووضيع فهو الغني المطلق عنهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] . ثم أخذ في غرض الخطبة، وهو وصف المتقين فوصفهم بالوصف المجمل. فقال: فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: أي الذين استجمعوا الفضائل المتعلقة بإصلاح قوتي العلم والعمل، ثم شرع في تفصيل تلك الفضائل ونسقها:

فالأولى: الصواب في القول وهو فضيلة العدل المتعلقة باللسان، وحاصله أن لا يسكت عما ينبغي أن يقال فيكون مفرطاً، ولا يقول ما ينبغي أن يسكت عنه فيكون مفرطاً بل يضع كلاً من الكلام في موضعه اللائق به، وهو أخصّ من الصدق لجواز أن يصدق الإنسان فيما لا ينبغي من القول.

الثانية: وملبسهم الاقتصاد وهو فضيلة العدل في الملبوس فلا يلبس ما يلحقه بدرجة المترفين، ولا ما يلحقه بأهل الخسة، والدناءة مما يخرج به عن عرف الزاهدين في الدنيا.

الثالثة: مشي التواضع، والتواضع ملكة تحت العفة تعود إلى العدل بين رذيلتي المهانة والكبر، ومشي التواضع مستلزم للسكون والوقار عن تواضع نفسهم.

الرابعة: غضّ الأبصار عما حرم الله، وهو ثمرة العفة.

الخامسة: وقوفهم أسماعهم على سماع العلم النافع، وهو فضيلة العدل في قوة السمع، والعلوم النافعة ما هو كمال القوة النظرية من العلم الإلهي وما يناسبه، وما هو كمال للقوة العملية وهي الحكمة العملية كما سبق بيانها.

السادسة: نزول أنفسهم منهم في البلاء كنزولها في الرخاء: أي لا تقنط من بلاء ينزل بها ولا تبطر برخاء يصيبها بل مقامها في الحالين مقام الشكر. والذي صفة مصدر محذوف، والضمير العائد إليه محذوف أيضاً، والتقدير نزلت كالنزول الذي نزلته في الرخاء، ويحتمل أن يكون المراد بالذي. الذين محذوف النون. كما في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓا﴾ [التوبة: ٦٩] ويكون المقصود تشبيههم حال نزول أنفسهم منهم في البلاء بالذين نزلت أنفسهم منهم في الرخاء، والمعنى واحد.

السابعة: غلبة الشوق إلى ثواب الله والخوف من عقابه على نفوسهم إلى غاية أن أرواحهم لا تستقر في أجسادهم من ذلك لولا الآجال التي كتبت لهم، وهذا الشوق والخوف إذا بلغ إلى حدّ الملكة فإنه يستلزم دوام الجدّ في العمل والإعراض عن الدنيا، ومبدءهما تصوّر عظمة الخالق، وبقدر ذلك يكون تصوّر عظمة وعده ووعيده، وبحسب قوة ذلك التصور يكون قوة الخوف والرجاء، وهما بابان عظيمان للجنة.

الثامنة: عظم الخالق في أنفسهم، وذلك بحسب الجواذب الإلهية إلى الاستغراق في معرفته ومحبته، وبحسب تفاوت ذلك الاستغراق يكون تفاوت تصور العظمة، وبحسب تصوّر عظمته تعالى يكون تصوّرهم لأصغرية ما دونه ونسبته إليه في أعين بصائرهم.

وقوله: فهم والجنة كمن رآها. إلى قوله: معذّبون.

إشارة إلى أن العارف وإن كان في الدنيا بجسده فهو في مشاهدته بعين بصيرته لأحوال الجنة وسعادتها أحوال النار وشقاوتها كالذين شاهدوا الجنة بعين حسهم وتنعموا فيها، وكالذين شاهدوا النار وعذبوا فيها. وهي مرتبة عين اليقين. فحسب هذه المرتبة كانت شدة شوقهم إلى الجنة وشدّة خوفهم من النار.

التاسعة: حزن قلوبهم، وذلك ثمرة خوف الغالب.

العاشرة: كونهم مأموني الشر، وذلك أن مبدأ الشرور محبة الدنيا وأباطيلها والعارفون بمعزل عن ذلك.

الحادية عشر: نحافة أجسادهم، ومبدأ ذلك كثرة الصيام والسهر وجشوبة المطعم وخشونة الملبس وهجر الملاذ الدنيوية.

الثانية عشرة: خفة حاجتهم، وذلك لاقتصارهم من حوائج الدنيا على القدر الضروري من ملبس ومأكل، ولا أخف من هذه الحاجة.

الثالثة عشرة: عفّة أنفسهم، وملكة العفّة فضيلة القوة الشهوية، وهي الوسط بين رذيلتي خمود الشهوة والفجور.

الرابعة عشرة: الصبر على المكاره أيام حياتهم من ترك الملاذ الدنيوية، واحتمال أذى الخلق، وقد عرفت

أن الصبر مقاومة النفس الأمارة بالسوء لئلا ينقاد إلى قبائح اللذات، وإنما ذكر قصر مدّة الصبر واستعقابه للراحة الطويلة ترغيباً فيه، وتلك الراحة بالسعادة في الجنة كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢] الآية.

وقوله: تجارة مربحة.

استعار لفظ التجارة لأعمالهم الصالحة، وامتثال أوامر الله، ووجه المشابهة كونهم متعوضين بمتاع الدنيا وبحركاتهم في العبادة متاع الآخرة، ورشح بلفظ الربح لأفضلية متاع الآخرة وزيادته في النفاسة على ما تركوه، وظاهر أن ذلك بتيسير الله لأسبابه وإعدادهم له بالجواذب الإلهية.

الخامسة عشرة: عدم إرادتهم للدنيا مع إرادتها لهم، وهو إشارة إلى الزهد الحقيقي، وهو ملكة تحت العفة، وكنّى بإرادتها عن كونهم أهلاً لأن يكونوا فيها رؤساءَ، وأشرافاً كقضاة ووزراء ونحو ذلك، وكونها بمعرض أن تصل إليهم لو أرادوها، ويحتمل أن يريد أرادهم أهل الدنيا فحذف المضاف.

السادسة عشرة: افتداء من أسرته لنفسه منها، وهو إشارة إلى من تركها وزهد فيها بعد الانهماك فيها والاستمتاع بها ففكّ بذلك الترك والإعراض والتمرّن على طاعة الله أغلال الهيئات الرديئة المكتسبة منها من عنقه، ولفظ الأسر استعارة في تمكن تلك الهيئات من نفوسهم، ولفظ الفدية استعارة لتبديل ذلك الاستمتاع بها بالإعراض عنها والمواظبة على طاعة الله، وإنّما عطف بالواو في قوله: ولم يريدوها، وبالفاء في قوله: ففدوا. لأن زهد الإنسان في الدنيا كما يكون متأخراً عن إقبالها عليه كذلك قد يكون متقدماً عليه لقوله ﷺ: ومن جعل الآخرة أكبر همه جمع الله عليه همه وأتته الدنيا وهي راغمة. فلم يحسن العطف هنا بالفاء، وأما الفدية فلما لم يكن إلاّ بعد الأسر لا جرم عطفها بالفاء.

السابعة عشرة: كونهم صافّين أقدامهم بالليل يتلون القرآن ويرتّلونه. إلى قوله: آذانهم. وذلك إشارة إلى تطويع نفوسهم الأمارة بالسوء بالعبادات، وشرح لكيفية استثارتهم للقرآن العزيز في تلاوته وغاية ترتيلهم له بفهم مقاصده وتحزينهم لأنفسهم به عند ذكر الوعيدات من جملة استثارتهم لأدواء دائهم، ولما كان داؤهم هو الجهل وسائر رذائل العملية كان دواء الجهل بالعلم، ودواء كل رذيلة الحصول على الفضيلة المضادة. فهم بتلاوة القرآن يستثيرون بالتحزين الخوف من وعيد الله المضاد للانهماك في الدنيا، ودواؤه العلم الذي هو دواء الجهل، وكذلك كل فضيلة حثّ القرآن عليها فهي دواء لما يضادّها من الرذائل، وباقي الكلام شرح لكيفية التحزين والتشويق.

وقوله: فهم حانون على أوساطهم.

ذكر لكيفية ركوعهم.

وقوله: مفترشون لجباههم. إلى قوله: أقدامهم.

إشارة إلى كيفية سجودهم، وذكر الأعضاء السبعة.

وقوله: يطلبون. إلى قوله: رقابهم.

إشارة إلى غايتهم من عبادتهم تلك.

الثامنة عشرة: - من صفات النهار - كونهم حكماء، وأراد الحكمة الشرعية وما فيها من كمال القوة العلمية والعملية لكونها المتعارفة بين الصحابة والتابعين، وروي: حلماء. والحلم فضيلة تحت ملكة الشجاعة هي الوسط بين رذيلتي المهانة والإفراط في الغضب، وإنما خصّ الليل بالصلاة لكونها أولى بها من النهار كما سبق.

التاسعة عشرة: كونهم علماء، وأراد كمال القوة النظرية بالعلم النظري وهو معرفة الصانع وصفاته.

العشرون: كونهم أبرار، والبر يعود إلى العفيف لمقابلته الفاجر.

الحادية والعشرون: كونهم أتقياء، والمراد بالتقوى هٰهنا الخوف من الله. وقد مر ذكر العفّة والخوف، وإنما كرّرها هنا في إعداد صفاتهم بالنهار وذكرها هناك في صفاتهم المطلقة.

قوله: وقد براهم الخوف. إلى قوله: عظيم.

شرح لفعل الخوف الغالب بهم، وإنما يفعل الخوف ذلك لاشتغال النفس المدبرة للبدن به عن النظر في صلاح البدن، ووقوف القوة الشهويّة والغاذية عن أداء

بدل ما يتحلّل، وشبّه بري الخوف لهم ببري القداح ووجه التشبيه شدّة النحافة، ويتبع ذلك تغيّر السحنات والضعف عن الانفعالات النفسانية من الخوف والحزن حتى يحسبهم الناظر مرضى وإن لم يكن بهم مرض، ويقول قد خولطوا إشارة إلى ما يعرض لبعض العارفين عند اتصال نفسه بالملأ الأعلى واشتغالها عن تدبير البدن وضبط حركاته من أن يتكلم بكلام خارج عن المتعارف مستبشع بين أهل الشريعة الظاهرة. فينسب ذلك منه إلى الاختلاط والجنون وتارة إلى الكفر والخروج عن الدين كما نقل عن الحسين بن منصور الحلاّج وغيره.

وقوله: ولقد خالطهم أمر عظيم.

وهو اشتغال أسرارهم بملاحظة جلال الله ومطالعة أنوار الملأ الأعلى.

الثانية والعشرون: كونهم لا يرضون القليل. إلى قوله: الكثير، وذلك لتصوّرهم شرف غايتهم المقصودة بأعمالهم.

وقوله: فهم لأنفسهم متهمون. إلى قوله: ما لا يعلمون.

فتهمتهم لأنفسهم وخوفهم من أعمالهم يعود إلى شكّهم فيما يحكم به أوهامهم من حسن عبادتهم، وكونها مقبولة أو واقعة على الوجه المطلوب الموصل إلى الله تعالى فإن هذا الوهم يكون مبدأً للعجب بالعبادة والتقاصر عن الازدياد من العمل. والتشكك في ذلك وتهمة النفس بانقيادها في ذلك الحكم للنفس الأمارة يستلزم خوفها أن تكون تلك الأعمال قاصرة عن الوجه المطلوب وغير واقعة عليه فيكون باعثاً على العمل وكاسراً للعجب به، وقد عرفت أن العجب من المهلكات كما قال عليه السلام: ثلاث مهلكات:

شحّ مطاع وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه. وكذلك خوفهم من تزكية الناس لهم هو الدواء لما ينشأ عن تلك التزكية من الكبر والعجب بما يزكون به. فيكون جواب أحدهم عند تزكيته: إنّي أعلم بنفسي من غيري. إلى آخره.

ثم شرع بعد ذلك في علاماتهم التي بجملتها يعرف أحدهم. والصفات السابقة وإن كان كثير منها مما يخصّ أحدهم ويعرف به إلاّ أن بعضها قد يدخله الرياء فلا يدخل على التقوى الحقة فجمعها هٰهنا ونسقها:

فالأولى: القوة في الدين، وذلك أن يقاوم في دينه الوسواس الخنّاس ولا يدخل فيه خداع الناس، وهذا إنّما يكون في دين العالم.

الثانية: الحزم في الأمور الدنيوية والتثبّت فيها ممزوجاً باللين للخلق وعدم الفظاظة عليهم كما في المثل: لا تكن حلواً فتسترط ولا مراً فتلفظ. وهي فضيلة العدل في المعاملة مع الخلق، وقد علمت أن اللين قد يكون للتواضع المطلوب بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقد يكون عن مهانة وضعف يقين، والأول هو المطلوب وهو المقارن للحزم في الدين ومصالح النفس، والثاني رذيلة ولا يمكن معه الحزم لانفعال المهين عن كل جاذب.

الثالثة: الإيمان في اليقين، ولما كان الإيمان عبارة عن التصديق بالصانع وبما وردت به الشريعة، وكان ذلك التصديق قابلاً للشدة والضعف، فتارة يكون عن التقليد وهو الاعتقاد المطابق لا لموجب، وتارة يكون عن العلم وهو الاعتقاد المطابق لموجب هو الدليل، وتارة عن العلم به مع العلم بأنه لا يكون إلاّ كذلك، وهو علم اليقين - ومحقّقو السالكين لا يقفون عند هذه المرتبة. بل يطلبون اليقين بالمشاهدة بعد طرح حجب الدنيا والإعراض عنها - أراد أن عملهم علم يقين لا يتطرق إليه احتمال.

الرابعة: الحرص في العلم والازدياد منه.

الخامسة: مزج العلم وهو فضيلة القوة الملكية بالحلم، وهو من فضائل القوة السبعيّة.

السادسة: القصد في الغنى، وهو فضيلة العدل في استعمال متاع الدنيا وحذف الفضول عن قدر الضرورة.

السابعة: الخشوع في العبادة وهو من ثمرة الفكر في جلال المعبود وملاحظة عظمته الذي هو روح العبادة.

الثامنة: التحمّل في الفاقة، وذلك بترك الشكوى إلى الخلق والطلب منهم، وإظهار الغنى عنهم. وذلك ينشأ

عن القناعة والرضا بالقضاء وعلو الهمة، ويعين على ذلك ملاحظة الوعد الأجل وما أعد للمتقين.

التاسعة: وكذلك الصبر في الشدة.

العاشرة: الطلب في الحلال، وينشأ عن العفة.

الحادية عشرة: النشاط في الهدى وسلوك سبيل الله، وينشأ عن قوة الاعتقاد فيما وعد المتقون وتصوّر شرف الغاية.

الثانية عشرة: عمل الصالحات على وجل: أي من أن يكون على غير الوجه اللائق فلا يقبل كما روي عن زين العابدين عليه السلام أنه كان في التلبية وهو على راحلته فخرّ مغشياً عليه فلما أفاق قيل له ذلك. فقال: خشيت أن يقول لي ربي: لا لبيّك ولا سعديك.

الثالثة عشر: أن يكون همّهم عند المساء الشكر على ما رزقوا بالنهار وما لم يرزقوا، ويصبحوا وهمّهم الذكر لله ليذكرهم فيرزقهم من الكمالات النفسانية والبدنية كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الرابعة عشرة: أن يبيت حذراً ويصبح فرحاً. إلى قوله: الرحمة. تفسير للمحذور وما به الفرح، وليس مقصوده تخصيص البيات بالحذر والصباح بالفرح كما يقول أحدنا يمسي فلان ويصبح حذراً فرحاً، وكذلك تخصيصه الشكر بالمساء والذكر بالصباح يحتمل أن لا يكون مقصوداً.

الخامسة عشرة: قوله إن استصعبت. إلى قوله: تحبّ. إشارة إلى مقاومته لنفسه الأمّارة بالسوء عند استصعابها عليه، وقهره لها على ما تكره وعدم مطاوعته لها في ميولها الطبيعية ومحابّها.

السادسة عشرة: أن يرى قرة عينه فيما لا يزول من الكمالات النفسانية الباقية كالعلم والحكمة ومكارم الأخلاق المستلزمة للذات الباقية والسعادة الدائمة، وقرة عينه كناية عن لذته وابتهاجه لاستلزامها لقرار العين وبردها برؤية المطلوب، وزهادته فيما لا يبقى من متاع الدنيا.

السابعة عشرة: أن يمزج بالحلم العلم فلا يجهل ويطيش، والقول بالعمل فلا يقول ما لا يفعل فلا يأمر بمعروف ويقف دونه ولا ينهى عن منكر ثم يفعله، ولا يعد فيخلف فيدخل في مقت الله كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

الثامنة عشرة: قصر أمله وقربه، وذلك لكثرة ذكر الموت والوصول إلى الله.

التاسعة عشرة: قلّة زلله. قد عرفت أن زلل العارفين يكون من باب ترك الأولى لأن صدور الخيرات عنهم صادر ملكة والجواذب فيهم إلى الزلل والخطيئات نادرة تكون لضرورة منهم أو سهو، ولا شك في قلّته.

العشرون: خشوع قلبه عن تصوّر عظمة المعبود وجلاله.

الحادية والعشرون: قناعة نفسه، وينشأ عن ملاحظة حكمة الله في قدرته وقسمته الأرزاق، ويعين عليها تصور فوائدها الحاضرة وغايتها في الآخرة.

الثانية والعشرون: قلة أكله، وذلك لما يتصور في البطنة من ذهاب الفطنة وزوال الرقة وحدوث القسوة والكسل عن العمل.

الثالثة والعشرون: سهولة أمره: أي لا يتكلّف لأحد ولا يكلّف أحداً.

الرابعة والعشرون: حرز دينه فلا يهمل منه شيئاً ولا يطرق إليه خللاً.

الخامسة والعشرون: موت شهوته، ولفظ الموت مستعار لخمود شهوته عمّا حرّم عليه. ويعود إلى العفة.

السادسة والعشرون: كظم غيظه، وهو من فضائل القوة الغضبيّة.

السابعة والعشرون: كونه مأمول الخير وذلك لأكثرية خيراته، مأمون الشرور وذلك لعلم الخلق بعدم قصده للشرور.

الثامنة والعشرون: قوله: إن كان في الغافلين. إلى قوله: الغافلين: أي إن رآه الناس في عداد الغافلين عن ذكر الله لتركه الذكر باللسان كتب عند الله من الذاكرين لاشتغال قلبه بالذكر وإن تركه بلسانه، وإن كان من

الذاكرين بلسانه بينهم فظاهر أنه لا يكتب من الغافلين. ولذكر الله ممادح كثيرة وهو باب عظيم من أبواب الجنة والاتصال لجناب الله، وقد أشرنا إلى فضيلته وأسراره.

التاسعة والعشرون: عفوه عمن ظلمه، والعفو فضيلة تحت الشجاعة، وخصّ من ظلمه ليتحقق عفوه مع قوة الداعي إلى الانتقام.

الثلاثون: ويعطي من حرمه، وهي فضيلة تحت السخاء.

الحادية والثلاثون: ويصل من قطعه، والمواصلة فضيلة تحت العفة.

الثانية والثلاثون: بعد فحشه، وأراد ببعد الفحش عنه أنه قلما يخرج في أقواله إلى ما ينبغي.

الثالثة والثلاثون: لينه في القول عند محاورة الناس ووعظهم ومعاملتهم، وهو من أجزاء التواضع.

الرابعة والثلاثون: غيبة منكره وحضور معروفه، وذلك للزومه حدود الله.

الخامسة والثلاثون: إقبال خيره وإدبار شرّه، وهو كقوله: الخير منه مأمول والشر منه مأمون، ويحتمل بإقبال خيره أخذه في الازدياد من الطاعة وتشميره فيها، وبقدر ذلك يكون إدباره عن الشر لأن من استقبل أمراً وسعى فيه بعد عما يضاده وأدبر عنه.

السادسة والثلاثون: وقاره في الزلازل، وكنّى به عن الأمور العظام والفتن الكبار المستلزمة لاضطراب القلوب وأحوال الناس. والوقار ملكة تحت الشجاعة.

السابعة والثلاثون: كثرة صبره في المكاره، وذلك عن ثباته وعلو همته عن أحوال الدنيا.

الثامنة والثلاثون: كثرة شكره في الرخاء، وذلك لمحبة المنعم الأول - جلّت قدرته - فيزداد شكره في رخائه وإن قلّ.

التاسعة والثلاثون: كونه لا يحيف على من يبغض، وهو سلب للحيف والظلم مع قيام الداعي إليهما وهو البغض لمن يتمكن من حيفه وظلمه.

الأربعون: كونه لا يأثم فيمن يحب، وهو سلب لرذيلة الفجور عنه باتبّاع الهوى فيمن يحبّ إمّا بإعطائه ما لا يستحق أو دفع ما يستحق عليه عنه كما يفعله قضاة السوء وأمراء الجور. فالمتقي لا يأثم بشيء من ذلك مع قيام الداعي إليه وهو المحبة لمن يحبّه. بل يكون على فضيلة العدل في الكل على السواء.

الحادية والأربعون: اعترافه بالحق قبل أن يشهدوا عليه، وذلك لتحرّزه في دينه من الكذب، إذ الشهادة إنما يحتاج إليها مع إنكار الحق، وذلك كذب.

الثانية والأربعون: كونه لا يضيع أماناته ولا يفرط فيما استحفظه الله من دينه وكتابه، وذلك لورعه ولزومه حدود الله.

الثالثة والأربعون: ولا ينسى ما ذكر من آيات الله وعبره وأمثاله ولا يترك العمل بها، وذلك لمداومته ملاحظتها، وكثرة إخطارها بباله والعمل بها لغايته المطلوبة منه.

الرابعة والأربعون: ولا ينابز بالألقاب، وذلك لملاحظته النهي في الذكر الحكيم ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] ولسرّ ذلك النهي وهو كون ذلك مستلزماً لإثارة الفتن والتباغض بين الناس، والفرقة المضادة لمطلوب الشارع.

الخامسة والأربعون: ولا يضارّ بالجار لملاحظة وصيّة الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] ووصية رسول الله ﷺ في المرفوع إليه: أوصاني ربي بالجار حتى ظننت أنه يورّثه، ولغاية ذلك وهي الألفة والاتحاد في الدين.

السادسة والأربعون: ولا يشمت بالمصائب، وذلك لعلمه بأسرار القدر، وملاحظته لأسباب المصائب، وأنه في معرض أن تصيبه فيتصور أمثالها في نفسه فلا يفرح بنزولها على غيره.

السابعة والأربعون: أنه لا يدخل الباطل ولا يخرج عن الحق: أي لا يدخل فيما يبعد عن الله تعالى من باطل الدنيا ولا يخرج عما يقرّب إليه من مطالبه الحقة، وذلك لتصور شرف غايته.

الثامنة والأربعون: كونه لا يغمّه صمته لوضعه كلاً من الصمت، والكلام في موضعه، وإنما يستلزم الغم الصمت عما ينبغي من القول هو صمت في غير موضعه.

التاسعة والأربعون: كونه لا يعلو ضحكه، وذلك لغلبة ذكر الموت وما بعده على قلبه، ومما نقل من صفات الرسول صلى الله عليه وآله: كان أكثر ضحكه التبسم، وقد يفتر أحياناً، ولم يكن من أهل القهقهة والكركرة. وهما كيفيّتان للضحك.

الخمسون: صبره في البغي عليه إلى غاية انتقام الله له، وذلك منه نظراً إلى ثمرة الصبر وإلى الوعد الكريم ذلك: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] الآية. وقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

الحادية والخمسون: كون نفسه منه في عناء: أي نفسه الأمارة بالسوء لمقاومته لها وقهرها ومراقبته إياها، والناس من أذاه في راحة لذلك.

الثانية والخمسون: كون بعده عمن تباعد عنه لزهده فيما في أيدي الناس ونزاهته عنه لا عن كبر وتعظيم عليهم، وكذلك دنوه ممن دنا منه عن لين ورحمة منه لهم لا بمكر بهم وخديعة لهم عن بعض المطالب. كما هو عادة الخبيث المكّار. وهذه الصفات والعلامات قد يتداخل بعضها بعضاً، ولكن تورد بعبارة أخرى أو تذكر مفردة ثم تذكر ثانياً مركبة مع غيرها. وبالجملة فهذه الخطبة من جليل وبليغ وصفه ولذلك فعلت بهمام ما فعلت.

فأما جوابه عليه السلام لمن سأله بقوله: ويحك إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه: أي ينتهي إليه ويكون غاية له لا يتجاوزها ولا يتأخر عنها، والضمير في يعدوه للأجل. وسبباً لا يتجاوزه: أي ولذلك الأجل سبب أي علّة فاعلة لا يتعداها إلى غيرها من الأسباب فمنها ما يكون موعظة بالغة كهذه. فهو جواب مقنع للسامع مع أنه حق وصدق، وهو إشارة إلى السبب الأبعد لبقائه عليه السلام عند سماع المواعظ البالغة وهو الأجل المحكوم به للقضاء الإلهي.

وأما السبب القريب للفرق بينه وبين همّام ونحوه فقوّة نفسه القدسية على قبول الواردات الإلهية وتعوّده بها وبلوغ رياضته حدّ السكينة عند ورود أكثرها وضعف نفس همّام عما ورد عليه من خوف الله ورجائه. ولم يجب عليه السلام بمثل هذا الجواب لاستلزامه تفضيل نفسه، أو لقصور فهم السائل. ونهيه له عن مثل هذا السؤال والتنفير عنه كونه من نفثات الشيطان لوضعه في غير موضعه وهو من آثار الشيطان. وبالله العصمة والتوفيق.

١٨٦ - ومن خطبة له عليه السلام

يصف فيها المنافقين:

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ. وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ. وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ. حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَمُؤَكِّدُ الْبَلاءِ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ. لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ: إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا. قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنَفِّقُوا بِهِ أَعْلاقَهُمْ. يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ

الشَّيْطَانِ، وَحَمَةُ النِّيرَانِ ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أقول: ذاد: طرد. والغمرة من كل شيء: معظمه. وأسحق المزار: أبعده. والسحق بضم السين: البعد، وكذلك بضم الحاء. ويعمدونكم: يهدّونكم ويفدحونكم. والعماد: الأمر الفادح. يرصدونكم: يقعدون لكم المراصد وينتظرونكم. والضراء: ما واراك من الشجر الملتف. والإلحاف: الاستقصاء في السؤال. والشجو: الحزن. والأعلاق: جمع علق وهي السلعة الثمينة. والتمويه: التزيين والتلبيس. وأضلعوا المضيق إضلاعاً: أي عوّجوه وأمالوه. وهو ضلع: أي مائل. وضلع بفتح اللام: أي معوج خلقة. واللمة بالتخفيف: الجماعة. وحمّة النيران بالتشديد: معظم حرّها. وبالتخفيف سمّ العقرب.

وقد حمد الله تعالى باعتبارين: وهما التوفيق لطاعته التي هي سبب الفوز الأكبر والطرد عن معصيته التي هي سبب الخسران الأخسر، وذلك الذود إما بالنواهي أو بحسم أسباب المعاصي وعدم الإعداد لها والكل منه سبحانه.

ثم سأله أمرين: التمام لما شكره من النعمة نظراً إلى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والاعتصام بحبله المتين وهو الدين القويم العاصم لمن تمسّك له عن الهوى في مهاوي الهلاك ودركات الجحيم، وأردف ذلك بشهادة الرسالة وشرح حال المرسل ﷺ في أداء رسالته، واستعار لفظ الغمرة لمعظم الشرور والمكاره المتكافئة المجتمعة حين بعثته ﷺ ملاحظة لشبهها بغمرة الماء، ورشح بذكر الخوض، وكنّى به عن مقاساته للمتاعب الكثيرة وملاقاته للنوائب من المشركين في بدء دعوته، وكنّى بالغصص عن عوارض العموم له من ملاقاة تلك المكاره، وكنّى بتلوّن الأدنين له عن تغيّر قلوب أقربائه عليه حينئذٍ بضروب التغيّرات، وتألب الأقصين عليه اجتماع الأباعد عنه من العرب وانضمامهم من أقصى البلاد إلى حربه.

وقوله: وخلعت إليه العرب. إلى قوله: رواحلها. مثلان كنّى بهما عن المسارعة إلى حربه لأن أقوى عدوّ الخيل إذا خلعت أعنّتها، وأقوى عدو الرواحل إذا ضربت بطونها، وفيه إيماء إلى أنهم أتوه فرساناً وركباناً متسرعين إلى حربه.

وقوله: حتى أنزلت بساحته عداوتها.

أي حروبها وشرورها التي هي ثمرة العداوة، وأطلق لفظ العداوة على الحرب مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب. ومن طالع كتب السير يطّلع على ما لاقى رسول الله ﷺ في ذات الله سبحانه من المشاق كاستهزاء قريش به في أول الدعوة، ورميهم إيّاه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، وصياح الصبيان به، وفرث الكرش على رأسه، وفتلهم الثوب في عنقه، وحصره هو وأهله في شعب بني هاشم سنين عدة محرمة معاملتهم، ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يتلفون جوعاً لولا بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب آخر فكان يسترق لهم القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم لأصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق في الشمس وطردهم إيّاهم عن شعاب مكة حتى خرج بعضهم إلى الحبشة وخرج هو ﷺ مستجيراً منهم تارة بثقيف وتارة ببني عامر وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم، ثم أجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج تاركاً لأولاده وأهله ناجياً بحشاشة نفسه حتى وصل إلى المدينة فناصبوا الحرب ورموه بالكتايب وضربوا إليه آباط الإبل حتى أكرمه الله تعالى ونصره وأيّد دينه وأظهره.

ثم عقب ﷺ بالوصية بتقوى الله والتحذير من المنافقين وتعديد مذاقهم ليعرفوا فيجتنبوا ويحصل النفار عنهم فإنّهم الضالّون: أي المنحرفون عن سبيل الله لعدم الاهتداء إليها، المضلّون لغيرهم عنها بالشبهات الباطلة. وكذلك الزالّون المزلّون. وكنّى بتلوّنهم ألواناً عن تغيّراتهم في أقوالهم وأفعالهم من حال إلى حال بحسب أغراضهم الفاسدة فيلقون كلاً بوجه ولسان غير الآخر. وكذلك تفتّنهم: أي تشعب أقوالهم وحالاتهم بحسب تشعب أغراضهم. وأراد بعمدهم لهم قصدهم لهم بكل مكروه على وجه الحيلة والخدعة، وترصدهم لهم بكل مرصاد تتبع وجوه الحيل في هلاكهم بكل

مكروه على وجه الحيلة. وأراد بقلوبهم دويّة وصفاحهم نقية اشتمال نفوسهم على الداء النفساني من الحسد والحقد والمكر والخديعة وإعمال الحيلة مع إظهار البشاشة والصداقة والمحبة والنصيحة لهم، وهذا هو الضابط في النفاق، وهو أن يظهر الإنسان بلسانه أمراً حسناً محموداً ويبطن خلافه، وأراد بصفاحهم وجوههم، وبنقائها سلامتها عن شر ظاهر.

وقوله: يمشون الخفاء.

كناية عن كون حركاتهم القولية والفعلية فيما يريدونه في خفاء إفهام الناس، وكذلك قوله: ويدبّون الضراء. والخفاء والضراء منصوبان على الظرف.. وهما مثلان لمن يختل غيره ويخدعه.

وقوله: وصفهم دواء. إلى قوله: العياء.

أي أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين من الموعظة والأمر بالتقوى وطاعة الله الذي هو دواء الغي والضلال وشفاء منهما، وأفعالهم أفعال الفاسقين الضالين من معصية الله التي هي الداء الأكبر. والعياء: المعيي للأطباء.

وقوله: حسدة الرخاء.

أي إن رأوا لامرىءٍ رخاءً حسدوه، ومؤكّدو البلاء: أي إن رأوا به بلاء أكدوه بالسعاية والتأليب عليه. وروي: ومولّدو. وهو ظاهر. ومقنطو الرجاء: أي إذا رجا راجٍ أمراً ففي طباعهم أن يقنطوه ويؤيسوه. وهكذا شأن المنافق الكذّاب أن يبعد القريب ويقرّب البعيد.

وقوله: لهم بكل طريق صريع.

كناية عن كثرة من يقتلونه أو يؤذونه بخديعتهم ومكرهم. وكنّى بالطريق إما عن كل مقصد قصدوه، أو عن كل حيلة احتالوها ومكر مكروه فإنّه لا بدّ أن يستلزم أذى.

وقوله: إلى كل قلب شفيع.

أي إن من شأن المنافق أن يتخذ إلى كل قلب ذريعة ووجهاً غير الآخر فيكون صديق الكل حتى المعتادين ليتوصل بذلك إلى إثارة الفتن وإيقاع الشرّ بينهم وهو في نفس الأمر عدوّ الكل، وكذلك لهم لكل شجو دموع كناية عن توجّعهم لكل شجو وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم وإن كانوا لأهل الشجو أعداءً.

وقوله: يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء.

أي يثني أحدهم على الآخر ليثني الآخر عليه، ويترقّب كل منهم الجزاء من صاحبه على ثنائه.

وقوله: إن سألوا ألحفوا.

أي ألحّوا في السؤال وهو من المذام كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقوله: وإن عذلوا كشفوا.

أي إذا عذلك أحدهم كشف لك عيوبك في ذلك العذل وجبَهك بها وربما ذكرها بمحضر من لا تحب ذكرها معه وليسوا كالناصحين الذين يعرضون بالذنب عند العتاب تعريضاً لطيفاً دون التصريح، وإذا حكموا أسرفوا: أي إذا ولى أحدهم ولاية أسرف فيها بالظلم والانهماك في مأكله ومشربه وعبر في قينات الدنيا إلى حد الإفراط من فضيلة العدل. وذلك لجهله بالعواقب وتصوّره أن لا غاية أشرف مما هو فيه، قد أعدّوا لكل حق باطلاً: أي من الشبه يموّهون عليه ويغطونه بها، ولكل حي قاتلاً: أي سبباً يميتونه به. والحي أعم من الإنسان هنا. بل كل أمر يحيا ويقوم إذا أرادوا فساده، ولكل باب مفتاحاً من الحيل والخديعة ولفظ المفتاح مستعار، ولكل ليل مصباحاً ولفظ الليل مستعار لما أشكل من الأمور وأظلم. وكذلك لفظ المصباح للرأي الذي يدخلون به في ذلك الأمر ويهتدون إلى وجهه به كرأي عمرو بن العاص على معاوية ليلة الهرير برفع المصاحف ودعوتهم أهل العراق أن يحاكموهم إلى كتاب الله فلم يكن لذلك المشكل إلاّ ذلك الرأي الصعب، ويتوصلون إلى الطمع باليأس: أي بإظهار اليأس عما في أيدي الناس والزهد فيه كما يفعله كثير من زهاد الوقت. ووصفهم بأخذ الشيء بضده أبلغ ما يكون في وصف النفاق والحيلة.

وقوله: ليقيموا به أسواقهم.

استعار لفظ الأسواق لأحوالهم في معاملة الخلق من أخذ وإعطاء فإن فعلهم ذلك يقيمها بين الناس ويروّجها عليهم. وكذلك ينفقوا به أعلاقهم. ولفظ الأعلاق

مستعار لما يزعمون أنه نفيس من آرائهم وحركاتهم الخارجة عن أوامر الله.

وقوله: يقولون. إلى قوله: فيوهمون.

أي يوقعون بأقوالهم الشبه في القلوب ويوهمون عليهم الباطل بصورة الحق.

وقوله: قد هوّنوا الطريق.

أي قد عرفوا كيف يسلكون في مقاصدهم من الآراء والحيل، وأضلعوا الطريق: عوّجوا مضائقها. وكنّى بمضائقها عن دقائق المداخل في الأمور. وبتعويجها عن أنهم إذا أرادوا الدخول في أمر مضيق أظهروا أنهم يريدون غيره تعمية على الغير وتلبيساً أن يقف على وجه الحيلة فيفسد مقصودهم.

وقوله: فهم لمة الشيطان.

أي جماعته وأتباعه. وحمّة النيران مستعار لمعظم شرورهم. ووجه المشابهة استلزامها للأذى البالغ. وكذلك حمة بالتخفيف.

١٨٧ - ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله ويثني على نبيه ويعظ

الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُيُونِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلاَصٍ وَإِذْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ، وَاسْتَنْجِحُوهُ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لا يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ، وَلا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ، وَلا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَى، وَعَلا فَدَنا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَأ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلالٍ. أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ، فِي «يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ»، وَتُظْلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ. وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلا شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلا حَمِيمٌ يَدْفَعُ، وَلا مَعْذِرَةٌ تَنْفَعُ.

أقول: مقلة العين: شحمتها. والهمهمة: حديث النفس مع صوت خفي لا يفهم. والطامسة: كالدارسة. والحباء: النوال. وذرأ: خلق. والمعقل: الملجأ. والصروم: جمع صرم وصرمة وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين. والعشار: النوق أتى عليها بعد طروق الفحل عشرة أشهر. والشم الشوامخ: الجبال العالية. ومعهدها: ما كان مسكوناً منها. وقاعاً: خالياً. والسملق: الصفصف المستوي ليس بعضه أرفع من بعض.

وقد حمد الله تعالى باعتبار إظهاره من آثار ملكه وسلطانه ما أظهره من ملكوت السماوات والأرض، وترتيب العالمين على وجه النظام الأتم مما هو محلّ العجب العجيب الذي تحار أبصار البصائر في كيفية وقوعه من القدرة الإلهية، وفي ترتيبه على النظام

الأكمل. بل كل مخلوق منها فهو محلّ ذلك العجب والحيرة، ولفظ المقل مستعار ونسبة ذلك إلى جلال كبريائه مناسب لما أن السلطان والعظمة والكبرياء يناسب صدور الآثار العظيمة العجيبة المحكمة عنها. وردع خطرات هماهم النفوس: أي ما يخطر للنفوس فيهمهم به، وردعه لها استلزام كماله المطلق عجزها عن إدراك حقيقته. وقد سبق ذلك غير مرة. ثم شهد بكلمة التوحيد معتبراً فيها أربعة أمور:

أحدها: كونها شهادة إيمان: أي يطابق القول فيها للعقد القلبي.

الثاني: وإيقان: أي يكون اعتقادها يقيناً وهو اعتقاد أن لا إله إلاّ هو مع اعتقاد أنه لا يمكن أن يكون ذلك المعتقد إلاّ كذلك.

الثالث: وإخلاص: وهي أن يحذف عن ذلك المعتقد كل أمر عن درجة الاعتبار ولا يلاحظ معه غيره.

الرابع: وإذعان: والإذعان ثمرة ذلك الإخلاص وكماله، ويتفاوت بتفاوته ويعود إلى سائر الطاعات والعبادات التي هي من حقوق تلك الكلمة وتوابعها. ثم أردفها بأُختها. وذكر الأحوال التي كان العالم عليها حين الرسالة مما هي شرور تنبيهاً على فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله، واستعار أعلام الهدى لأئمة الدين الهادين إلى سبيل الله. ولفظ المناهج لقوانين الشريعة التي يسلك فيها جزئيات الأحكام. ولفظ دروسها وطموسها لاضمحلالها قبل النبوة. والواو في وأعلام للحال. فصدع بما جاء به من الحق ما طلب من الباطل، ونصح الخلق ليردّهم عن غوايتهم إلى صراط الله، وهداهم إلى الرشد في سلوكه، وأمرهم بالعدل والاستقامة عليه.

ثم نبه السامعين إجمالاً على أن خلق الله تعالى لهم ليس خالياً عن غاية وأنهم لم يرسلوا في الدنيا مهملين عن أمر يراد بهم كإهمال البهيمة. ثم على علمه بمبلغ نعمه عليهم كمية وكيفية وإحصائه لها عداً ليبعثهم على شكرها، ولذلك قال فاستفتحوه: أي أطلبوا منه أن يفتح عليكم أبواب بركاته ونصره، واستنجحوه: أي اطلبوا منه نجاح حاجاتكم، واطلبوا إليه: أي اطلبوا الهداية إلى حضرته ووجوه مرضاته، واستمنحوه أن يعطيكم كمالكم. كل ذلك بالشكر وسائر العبادات التي بها الاستعداد لإفاضة رحمته.

وقوله: فما قطعكم عنه حجاب إلى قوله: إنس وجانّ.

إظهار لوجود كماله وعظمته، وتنزيه له عن صفات المخلوقين المحدثين، وتقريب له من عباده ليطلبوا منه ويتقربوا إليه ويستنجحوه وتنفتح آمالهم منه، وإذ لم يكن تعالى متحيّزاً فلا حجاب دونه ولا ناب، وكان بكل مكان في حالة واحدة: أي بعلمه المحيط لاستحالة ذلك التحيّز، وفي كل حين وأوان بمعنى مساوقة وجوده لوجود الزمان لا بمعنى الظرفيّة له لتنزهه تعالى عن لحوق الزمان المتأخر عنه بمراتب من المعلومات، ومع كل إنس وجان بعلمه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: لا يثلمه العطاء. إلى قوله: نائل.

فاستقصاء النائل له بلوغ الجود منه أقصى مقدوره، وبرهان تلك الأحكام أن الثلم والنقصان، والاستنفاد والاستقصاء على المقدور يستلزم النهاية والحاجة المستلزمين للإمكان، ولا شيء من واجب الوجود بممكن، وكل من لحقته هذه الأحوال ممكن فواجب الوجود لا تلحقه هذه الأحوال، وكذلك قوله: لا يلويه شخص عن شخص: أي لا يصرفه. إلى قوله: عقاب.

وبرهان هذه الأحكام أن الصرف واللهو يستلزمان الغفلة عن أمر والفطنة لغيره بعد الغفلة عنه، وكذلك حجز الهبة ومنعها عن سلب نعمة أُخرى وشغل الغضب له عن الرحمة مستلزمان قصور القدرة وضعفها وتعلّقها بمحل جسماني، وذلك مستلزم للنقصان المستلزم للحاجة والإمكان المنزّه قدس الله تعالى عنه، وكذلك توليهه الرحمة عن العقاب يستلزم رقة الطبع ورحمة النفوس البشرية المستلزمة لعوارض الجسمية. وجلال الله منزّه عنها.

وقوله: ولا تجنّه البطون عن الظهور.

يحتمل وجهين:

أحدهما: لا يخفيه بطون حقيقته عن العقول وخفاؤه عن العيون عن ظهوره للبصائر في صور آثاره وملكوت قدرته.

الثاني: أنه ليس في شيء حتى يخفى فيه عن الظهور على الأشياء والاطلاع عليها. ولا يقطعه الظهور عن البطون: أي لا يقطعه كونه ظاهراً أو عالماً بالأمور الظاهرة عن أن يكون باطناً لا يطلع العقل عليه أو عن علمه ببواطن الأمور وحقائقها.

وقوله: قرب. أي بعلمه وقدرته من الأشياء قرب العلة من المعلول. فنأى: أي بعد بحقيقته عن إدراك العقول والحواس.

وقوله: وعلا فدنا. فعلوّه شرفه بالقياس إلى آثاره شرف العلة على المعلول ودنوّه منها قربه.

وقوله: وظهر فبطن وبطن فعلن.

تأكيد لما قبله، وقد سبق بيانه غير مرة.

وقوله: لم يذرأ الخلق باحتيال إلى قوله: الكلال.

تنزيه لإيجاده لآثاره عن استخراج الحيل وإجالة وجوه الآراء في استخراجها. ثم عن الاستعانة بغيره في شيء من آثاره. ثم عن مبدأ الاستعانة وهو الكلال والإعياء لاستلزام ذلك تناهي القوة المستلزمة للجسمية، وإذ قدّم تنزيه الحق سبحانه عما لا ينبغي له، ووصفه بما ينبغي له شرع في الوصية بتقواه. ثم في التنبيه على فضائلها، واستعار لفظ الزمام لها باعتبار كونها قائدة للعبد إلى طريق الحق مانعة له عن الجور إلى طرف الباطل كالزمام للناقة، وأراد بكونها قواماً كونها مقيمة للعبد في سلوك سبيل الله أيضاً إقامة للمصدر مقام اسم الفاعل.

وقوله: فتمسكوا بوثائقها.

أي بما به يوثق منها وهو سائر أنواع العبادات التي هي أجزاؤها، والتمسك بها يقود إلى لزومها والمواظبة عليها. واعتصموا بحقائقها: أي بالخالص منها دون المشوب بالرياء والنفاق فإن الالتجاء إلى خالصها هو المخلص من عذاب الله.

وقوله: تؤل بكم.

انجزم تؤل لكونه جواب الأمر بالتمسك والاعتصام. وأكنان الدعة مواطن الراحة من الآلام الحسية والعقلية. وهي غرفات الجنة ومنازلها وهي أوطان السعة أيضاً من ضيق الأبدان وضنك بيوت النيران، وهي معاقل الحرز المانعة من عذاب الله. وهي منازل العز في جوار الله.

وقوله: في يوم.

متعلق بتؤل، واليوم القيامة وسائر ما عدّده من صفات ذلك اليوم مما نطق به الكتاب الكريم كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٦] الآية. وقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١] وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧]. فهذه بعض أهوال القيامة المحسوسة. وأما المعقولة فقال بعض السالكين: إن الإنسان إذا حضرته الوفاة شخص بصر عقله إلى ما انكشف له من الأطوار الأخروية، وأظلمت عليه أقطار الدنيا، وغاب منها ما كان يشاهده، وتعطلت عنه عشاره، وناداه داعي الأجل إلى الآخرة فزهقت نفسه.

وأجابت الداعي، وبكمت لهجته، وذلّت شوامخ الجبال ورواسخها في نظره لعظمة الله عند مشاهدة كبريائه فتصير لا نسبة لها في نظره إلى ما شاهد من عظيم ملكوته فكأنها اضمحلت وغابت وصارت في نظره كالسراب المترقرق الذي لا أصل له بعدما كان يراها عليه من العلو والعظمة، وكذلك ينقطع نظره عن عالم الأجسام والجسمانيات عند التوجه إلى عالم الملكوت، وكذلك يرى ما كان معهوداً منها كالقاع الصفصف المستوي تحت سلطان الله وقهره، وحينئذٍ تنقطع عن الشفيع الشافع والصديق الدافع والعذر النافع. وبالله التوفيق.

١٨٨ - ومن خطبة له عليه السلام

بَعَثَهُ حِينَ لا عَلَمٌ قَائِمٌ، وَلا مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَلا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ: أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ!!

عِبَادَ اللَّهِ، الآنَ فَاعْمَلُوا، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ!

أقول: الساطع: المرتفع. والوبق: الهالك. واللدن: الناعم: والإرهاق: الإلحاق.

وقد ذكر البعثة حين ظهور الأحوال التي كان العالم عليها تنبيهاً على فضلها وفضيلة الرسول صلى الله عليه وآله.

فقوله: حيث لا علم قائم.

استعار لفظ العلم والمنار للهداة إلى الله الداعين إليه، وعدم قيامه وسطوعه لعدمهم زمان الفترة.

وقوله: ولا نهج واضح.

أي لا طريق إلى الله خالص عن شوب الأباطيل يتبع. ثم عقب بالوصية بتقوى الله. ثم بالتحذير من الدنيا، وقرنها بذكر عيوبها للتنفير عنها. وكونها دار شخوص إشارة إلى ضرورة الارتحال عنها بالموت، ومحلّة تنغيص: أي تنغيص لذاتها بالآلام والأمراض حتى قيل: إن اللذة فيها إنما هي الخلاص عن الألم.

وقوله: ساكنها ظاعن وقاطنها بائن. كالتفسير لقوله: دار شخوص.

وقوله: تميد بأهلها إلى قوله: إلى مهلك.

ضربه لها ولأحوال أهلها فيها. فمثلها بالسفينة عند عصف الريح، ومثل تصرفاتها وتغيّراتها بميدان السفينة، ورميهم فيها بالأمراض والحوادث التي هي مظنة الهلاك بالأحوال التي تلحق أهل السفينة عند هبوب الريح العاصف حال كونها في لجج البحار، ومثل انقسامهم عند بعض تلك الحوادث ونزولها بهم إلى ميت لا يرجى له عودة وإلى مستدرك متفارط بانقسام ركاب السفينة عند عصف الريح عليها إلى غريق هالك وإلى ناج، ومثل الناجي من بعض الأمراض الذي تأخر موته إلى مرض آخر فلاقى من أهوال الدنيا في تلك المدة ما لاقى ثم لحقه الموت بالآخرة. بالناجي من الغرق الذي تحمله الأمواج وتدفعه الرياح ويقاسي أهوال البحر وشدائده. ثم بعد خلاصه منه لا بد له من وقت هو أجله ومرض هو المهلك: أي محل هلاكه. ثم أمر بالعمل وذكر الأحوال التي يمكن فيها ومعها العمل تنبيهاً على انتهاز الفرصة، وتلك الأحوال صحة الألسن وإمكان ذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وسائر التكاليف المتعلقة بها.

وكذلك صحة الأبدان ولدنة الأعضاء ومطاوعتها للعمل قبل يبسها بالسقم والأمراض، وفسح المنقلب وهو محل التصرف والتقلّب، وكنّى به عن وقت الصحة والشبيبة، ويقرب منه عرض المجال، وذكر إرهاق الأجل وحلول الموت تحذيراً منه وجذباً إلى العمل لما بعده. ثم أمرهم أن يتحققوا نزوله قبل نزوله: أي يتذكّروه ويخطر بالهم أنه حق ويقدّروا أنه واقع ليكون آكد في العمل. ولذلك قال صلى الله عليه وآله: أكثروا من ذكر هادم اللذات. ونهاهم عن انتظار قدومه لاستلزام انتظارهم له توهمهم لبعده عنهم، وذلك يوقعهم في التكاسل عن العمل. وبالله التوفيق.

١٨٩ - ومن خطبة له عليه السلام

ينبه فيها فضيلته لقبول قوله وأمره ونهيه

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلا عَلَى

رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا.

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْمَلائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ: مَلأٌ يَهْبِطُ، وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً؟ فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

أقول: الهينمة: صوت خفي يسمع ولا يفهم.

وحاصل الفصل: التنبيه على فضيلته لغاية قبول قوله فيما يأمرهم به.

فذكر منها: أنه لم يرد على الله وعلى رسوله في وقت قط فيما صدر من الأمر عنهما، واستشهد على ذلك بما علمه منه المستحفظون من الصحابة وهم العلماء وأهل الدين الذين استحفظوا كتاب الله ودينه: أي جعلوا حفظة له وأودعوا إيّاه، وقال بعض الشارحين: وفيه إيماء إلى ما كان يفعله بعض الصحابة من التسرع بالقول والاعتراض على الرسول ﷺ في مواضع كما نقل عن عمر يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح أنه أنكر ذلك وقال لرسول الله: ألسنا على الحق قال: بلى. قال: أوليسوا الكاذبين. قال: بلى. قال: فكيف تعطي الريبة في ديننا. فقال ﷺ: أنا أعمل بما أُمِر به. فقام عمر فقال لقوم من الصحابة: ألم يكن قد وعدنا الله بدخول مكة وها نحن قد صددنا عنها ثم ننصرف بعد أن أُعطينا الريبة في ديننا والله لو وجدت أعواناً لم أعط الريبة أبداً.

فقال له أبو بكر: ويحك إلزم غزوه فوالله إنه لرسول الله ﷺ وإن الله لا يضيعه. ثم قال له: أقال لك: إنه سيدخل مكة هذا العام؟ فقال: لا. قال: فسيدخلها. فلما فتح النبي ﷺ مكة وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه. فقال: هذا الذي وعدتم به.

ومنها: **مواساته لرسول الله ﷺ** بنفسه وهو مما اختص به عليه السلام، وذلك في مواطن: فثبت معه يوم أحد وفرّ الناس. روى المحدثون أن رسول الله ﷺ لما ارتثّ يوم أُحد، ونادى الناس قتل محمد رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى إلاّ أنه حي فصمدت له. فقال لعلي: اكفني هذه. فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها: ثم صمدت له أُخرى. فقال يا علي: اكفني هذه فحمل عليها وقتل رئيسها. ثم صمدت له ثالثة فكذلك.

فكان رسول الله ﷺ يقول: قال لي جبرائيل حينئذٍ: يا محمد هذه المواساة. فقلت: وما يمنعه؟ وهو مني وأنا منه. فقال جبرائيل: وأنا منكما وروى المحدثون أيضاً أن المسلمين سمعوا ذلك اليوم هاتفاً من قبل السماء ينادي: لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي. فقال الرسول ﷺ: ألا تسمعون؟ هذا صوت جبرائيل. وكذلك ثبت معه يوم حنين في نفر يسير من بني هاشم بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامى عنه، وقتل قوماً من هوازن بين يديه حتى ثابت إليه الأنصار وانهزمت هوازن وغنمت أموالها، وأما يوم خيبر فقصته مشهورة، وذلك قوله: ولقد واسيته إلى قوله: الأقدام.

وقوله: نجدة أكرمني الله بها. فالنجدة فضيلة تحت الشجاعة، وقد يعبّر بها عن الشجاعة.

ومنها: **حاله عندما قبض رسول الله ﷺ** من تولي أمره ومباشرة ما يختص به من الأحوال حالة وفاته من وضع رأسه على صدره، وقيل: أراد بذلك أن رأسه حينئذٍ كان على ركبتيه، وعلى ذلك يكون في صدره عند إكبابه عليه. والأشبه أنه أراد تسنيده حين اشتداد علّة موته.

ثم سيلان نفسه في كفه وإمرارها على وجهه، وأراد بنفسه دمه يقال: إن رسول الله ﷺ قاء وقت موته دماً

يسيراً، وأن علياً عليه السلام مسح بذلك الدم وجهه، ولا ينافي ذلك نجاسة الدم لجواز أن يخصص دم الرسول صلى الله عليه وآله كما روي أن أبا طيبة الحجّام شرب دمه صلى الله عليه وآله حين حجمه. فقال: إذن لا يتجع بطنك، وكذلك تولّيه لغسله بإعانة الملائكة، وكان هو الذي يغسله والفضل بن عباس يصبّ الماء عليه، روي أنه عصب عيني الفضل حين صبّه الماء، ونقل عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: لا يبصر عورتي غيرك أحد إلاّ عُمي.

وروي أنه عليه السلام قال: ما قلّبت عضواً إلاّ وانقلب لا أجد له ثقلاً كأن معي من يساعدني عليه، وما ذلك إلاّ الملائكة، وحياً وميتاً منصوبان على الحال من الضمير المجرور في به. وأما دفنه فتنازع الصحابة في أنه يلحد أو يضرح فأرسل العباس إلى عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح لهم على عادتهم، وأرسل إلى أبي طلحة الأنصاري وكان يلحد لأهل المدينة على عادتهم فقال: اللهم اختر لنبيك فجاء أبو طلحة فلحد له، وتنازعوا فيمن يدخل القبر معه فقال علي عليه السلام: لا ينزل معه أحد غيري وغير العباس. ثم أذن في نزول الفضل وأسامة بن زيد. ثم ضجت الأنصار وسألوا أن ينزل منهم رجل فأنزلوا أوس بن خولى وكان بدرياً، وقد يعبّر بالضريح عن القبر فيكون أعمّ من الشق واللحد. فأما ضجيج الدار والأفنية بأصوات الملائكة ملأ يهبط منهم، وملأ يصعد بحيث لا يفارق هينمتهم سمعه في حال صلاتهم عليه إلى أن واراه في ضريحه. فقد عرفت كيفية سماع البشر لأصوات الملائكة في مقدمات الكتاب، وكذلك صلاتهم تعود إلى وساطتهم في إفاضة الرحمة من الله تعالى على العباد، وكذلك علمت معنى الصعود والهبوط منهم فيما سبق.

واعلم أن حمل الكلام على ظاهره عند الإمكان أولى من التعسف في التأويل، وذكر هذه الفضيلة بهذه المقامات تجري مجرى صغرى قياس ضمير من الشكل الأول استدل به على أنه لا أحق منه به. وتقدير كبراه: وكل من كان ذلك معه صلى الله عليه وآله فهو أحق به. وحينئذٍ يتبيّن أنه لا أحق به منه، وأراد أنه لا أحق بالمنزلة والقرب منه. ففي حياته بالأخوة والوزارة، وبعد موته بالوصية والخلافة إذ لا يريد أنه أحق بذاته فبقي أن يريد كونه أحق به في المنزلة وولاية أمره بعده.

ثم عقّب ذكر فضيلته بأمرهم أن يمضوا في جهاد عدوهم على بصائرهم: أي عقائدهم أنهم على الحق وأن عدوّهم على الباطل، وأكد تلك العقائد بالقسم البار أنه فيما يأمرهم به على طريق الحق، وأن خصومه على مزلة الباطل، وذكر الجادة للحق جذباً إليه، والمزلة للباطل تنفيراً عنه، ولأن الباطل لا طريق واضحة له بعلم حق أو برهان صدق كما عليه الطريق الحق، وباقي الكلام خاتمة الخطبة. وبالله التوفيق.

١٩٠ - ومن خطبة له عليه السلام

ينبه على إحاطة علم الله بالجزئيات، ثم يحث على التقوى، ويبين فضل الإسلام والقرآن

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلافَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللَّهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ

حِرزٌ مِنْ مَتالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوارِ نِيرانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بالتَّقْوى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَه الأُمُورُ بَعْدَ مَرارَتِهَا، وَانفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَراكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَه الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذاذِهَا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسالَتِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طاعَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ هٰذَا الإِسْلامَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَأَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ. ثُمَّ جَعَلَهُ لا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلا انْهِدَامَ لأَسَاسِهِ، وَلا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلا انْقِلاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلا جَذَّ لِفُروعِهِ، وَلا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ، وَلا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَلا سَوَادَ لِوَضَحِهِ، وَلا عِوَجَ لانْتِصَابِهِ، وَلا عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلا وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلا مَرَارَةَ لِحَلاوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وَثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا، وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا، وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا، وَأَعْلامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ. فَشَرِّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الإِنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الإِطِّلاعُ. وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلامِهَا، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا. جَعَلَهُ اللهُ بَلاغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لأَنْصَارِهِ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَفُرْقَاناً لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الإِسْلامِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلامٌ لا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ. جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً

لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلأَمَ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى.

أقول: العجيج: رفع الصوت، والنينان: جمع نون وهو الحوت. والجأش: القلب. والأوار: حر النار. والشمس عزبت: غابت. وإنصابها: إتعابها. وتحدّبت: عطفت وحنّت. والرذاذ: ضعيف المطر. وعبّدوا: ذلّلوا. والمحاد: المشاق. وأثاق الحياض: ملأها. والمواتح: المستقون. والوعوثة: كثرة في سهولة توجب صعوبة المشي كما في الرمل. والوضح: البياض. والعوج: بالفتح فيما له ساق ينتصب كالنخلة، وبالكسر فيما ليس كذلك كالطريق. والعصل: الاعوجاج. وساخ: غاص. والسنخ: الأصل. وأزف: دنا. وبحبوحة الدار: وسطها. والغيطان: المواضع المطمئنة من الأرض. والمحاج: جمع محجّة وهي جادة الطريق. والمعقل: الملجأ. والفلج: الفوز. والمتوسم: المتفرّس. واستلأم: لبس لامة الحرب وهي الدرع.

وصدر الفصل تنبيه على إحاطة علمه بجزئيات الموجودات على اختلافها وكثرتها، ونبّه بعجيج الوحوش على أنه تعالى يعلمها حين يجأر إليه من جدب الأرض وقلة العشب فكأنها تضرع إليه بالعجيج ليكون الإنسان أولى بذلك النزع [الفزع - خ -] إليه، وبعلمه بمعاصي العباد في الخلوات تنفيراً عنها في الخلوة التي هي مظنتها، واختلاف النينان بالمجيء والذهاب وقطع البحار طولاً وعرضاً.

ثم عقب بشهادة الرسالة. ثم بالوصية بتقوى الله، وقرنها باعتبارات من صفاته تعالى توجب الفزع إليه وهي كونه سبحانه مبدأً لخلقهم ومنتهى لمعادهم الحسيّ والعقلي كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصّلت: ٢١] وقد نبهنا عليه مراراً، وأنّ به نجاح طلباتهم، وإليه منتهى رغباتهم، ونحوه قصدهم وسلوكهم فإنّه تعالى غاية الكل، وإليه مرامي مفزعهم يقال: فلان مرمى قصدي: أي إليه مفزعي في المهمّات، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. ثم باعتبارات من صفة التقوى توجب الفزع إليها.

أ - وهي كونها دواء داء قلوبكم، وقد عرفت كونها دواءً لأدواء الرذائل النفسانية الموبقة.

ب - وبصر عمى أفئدتكم: أي أبصار أفئدتكم من عمى الجهل.

ج - وشفاء مرض أجسادكم، وذلك أن التقوى تستلزم قلّة الأكل والشرب واستعمالهما بقدر الحاجة كما قال في صفات المتقين: منزوراً أكله. وقد علمت ما تحدث البطنة من الأمراض البدنية، ولذلك قال عليه السلام: المعدة بيت الأدواء.

د - وصلاح فساد صدوركم: أي من الغل والحسد والخبث والنيات المخالفة لأوامر الله. فإن التقوى تستلزم نفي ذلك كله. وصلاح الصدور منه لأن مبادئ تلك الشرور كلها محبة الدنيا وباطلها، والمتقون بمعزل عن ذلك.

هـ - وكذلك طهور دنس أنفسكم: أي من نجاسات الرذائل المهلكة وهو كقوله: دواء قلوبكم. لكن اعتبار كونها دواء يخالف اعتبار كونها طهوراً إذ في الأول ملاحظة كون الرذائل أمراضاً ضارّة تؤدي إلى الهلاك السرمدي.

وفي الثاني اعتبار كونها نجاسات تمنع من دخول حظيرة القدس ومقعد الصدق.

و - وجلاء عشا أبصاركم، وفيه استعارة لفظ العشا لما يعرض عن ظلمة الجهل، وسائر الرذائل من عدم إدراك الحقائق، ويروى غشاء بالغين المعجمة وهو الظلمة المتوهمة من الجهل التي هي حجاب الغفلة، وبهذا الاعتبار ففي التقوى جلاء لتلك الظلمة لما تستلزمه من إعداد النفس للكمال، وكونها نفسها هي الجلاء مجاز إطلاقاً لاسم المسبب على السبب.

ز - وأمن فزع جأشكم. إذ قد علمت أن بها الأمان من عذاب الآخرة، وقد يكون بها الأمان من فزع الدنيا. لأن أكبر مخاوف الدنيا الموت وما يؤدي إليه، والمتقون العارفون بمعزل عن تقية الموت. بل عسى يكون محبوباً لهم لكونه وسيلة لهم إلى اللقاء الخالص لمحبوبهم

الأقصى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]. دلّت الآية على أن الصادق في دعوى الولاية يتمنى الموت، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

ح - ضياء سواد ظلمكم، واستعار لفظ الظلمة للجهل، وتغطية القلب، ورشح بذكر السواد لاستلزام الظلمة السواد، وهو كقوله: وجلاء عشا أبصاركم، وراعى في هذه القرائن كلها المضادة. ثم أكد الوصية بطاعة الله تعالى بآداب:

أحدها: أن يجعلوها شعارهم، وكنّى بذلك عن ملازمتهم لها كما يلزم الشعار الجسد. ثم عن كونها في الباطن دون الظاهر لقلّة فائدته وهو المشار إليه بقوله: دون دثاركم.

الثاني: أكد أمرهم بإبطانهم: بأمرهم باتخاذها دخيلاً تحت الشعار لإمكان ذلك فيها دون الشعار المحسوس. ثم فسّر ذلك فقال: ولطيفاً بين أضلاعكم. وكنّى بلطفها عن اعتقادها وعقليتها ويكون بين أضلاعهم عن إيداعها القلوب.

الثالث: أن يجعلوها أميراً، واستعار لها لفظ الأمير باعتبار إكرامهم لها وتقديمها على سائر مهمّاتهم.

الرابع: أن يجعلوها منهلاً لحين ورودهم: أي يوم القيامة، واستعار لفظ المنهل لها، ووجه المشابهة أن التقوى والطاعة لله مظنة التروّي من شراب الأبرار يوم القيامة كما أن موارد الإبل مظنة ريّها.

الخامس: أن يجعلوها شفيعاً إلى الله ووسيلة إلى مطالبهم منه، وظاهر كون المطيع يستعد بطاعته لدرك بغيته من الله تعالى ولفظ الشفيع مستعار للوسيلة والقربة.

السادس: وجنة ليوم فزعهم، وظاهر كون الطاعة ساتراً يوم القيامة من الفزع الأكبر من عذاب الله.

السابع: ومصابيح لبطون قبورهم، وقد عرفت كيفية إعداد الطاعة لقبول الأنفس الأنوار العلوية والأسرار الإلهية المخلّصة من ظلمة القبور والعذاب الأخروي. وفي الخبر: أن العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة. واستعار لها لفظ المصابيح لاستلزامها الإنارة.

الثامن: وكذلك سكناً لطول الوحشة في القبور تستأنس به النفوس كما روي: أن العمل الصالح والخلق الفاضل يراه صاحبه بعد الموت في صورة شابّ حسن الصورة والثياب طيب الريح فيسلّم عليه فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا خلقك الحسن أو عملك الحسن. وحاصله يعود إلى كون الطاعة سبباً للاستئناس من وحشة الآخرة، وذلك أن الوحشة إنما تعرض في المكان لمن كان غافلاً عنه وغير متوقع له ولا متهيّء للانتقال إليه، ومطمئناً بوطنه الأول وبأهله وجاعلهم كل الأنس.

فأما أهل الطاعة فإنّهم أبداً متفكرون فيما ينتقلون إليه ومتذكّرون له واثقون بأنس ربهم وملتفتون إليه. فأنسهم أبداً به وفرحهم دائماً بلقائه، واعتقادهم في الدنيا: أنهم لأهلها بأبدانهم مجاورون. فمنهم يهربون وإلى العزلة ينقطعون. فبالحري أن لا تعرض لهم وحشة وأن تكون أعمالهم سبباً لعدم الوحشة التي عساها تعرض لهم، ولما كان الإنسان في الدنيا لا يتصور ما بعد الموت بالحقيقة لا جرم لا بدّ له من وحشةٍ ما إلاّ أن الأنوار الإلهية والأنس بالرفيق الأعلى مزيل لها.

التاسع: وكذلك ونفساً لكرب مواطنكم: أي سعة وروحاً لما يعرض من كرب منازل الآخرة وأهوالها.

العاشر: كونها حرزاً من متالف مكتنفة. وتلك المتالف هي الرذائل الموبقة التي هي محال الهلاك والتلف. واكتنافها إحاطتها بالنفس بحيث لا يكفّها إلاّ طاعة الله وسلوك سبيله، والمخاوف المتوقعة مخاوف الآخرة وحرّ نيرانها.

الحادي عشر: كون التقوى مستلزمة لبعد الشدائد عن المتقي بعد دنوها منه، وكثيراً ما يعبّر بالتقوى عن الطاعة وإن كانت أخصّ في بعض المواضع. أما في بعد شدائد الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا فلأن المتّقين هم أسلم الناس من شرور الناس لبعدهم عن مخالطاتهم ومجاذباتهم لمتاع الدنيا، وبغضهم لها. إذ كانت محبتها والحرص عليها منبعاً لجميع الشرور والشدائد.

الثاني عشر: كونها مستلزمة لحلاوة الأمور بعد مرارتها. أما أمور الآخرة فكالتكليف الوارد عليهم لها بالعبادات، وظاهر أنها عند المتقين أحلى وألذّ من كل شيء بعد مرارتها في ذوقهم في مبدأ سلوكهم وثقلها عليهم وعلى غيرهم من الجاهلين، وأما المرّ من أمور الدنيا فكالفقر والعري والجوع، وكل ذلك شعار المتقين، وهو أحلى في نفوسهم وآثر من كل شعار وإن كان مراً في ذوقهم في مبدأ السلوك، وقبل وصولهم إلى ثمرات التقوى.

الثالث عشر: وانفراج الأمواج عنه بعد تراكمها. واستعار لفظ الأمواج للهيئات البدنية الرديئة وملكات السوء التي إذا تكاثفت وتوالت على النفس أغرقتها في بحار عذاب الله. وظاهر كون لزوم التقوى سبباً ينفرج باستعداد النفوس به عنها تلك الهيئات وينمحي من لوحها وإن كثرت.

الرابع عشر: كون لزومها سبباً لتسهيل صعاب الأمور على النفس بعد إتعابها لها، وذلك أن المتقين عند ملاحظة غايتهم من نفوسهم يسهل عليهم كل صعب من أمور الدنيا مما يشتد على غيرهم كالفقر والمرض وكل شديد، وكذلك يسهل عليهم كل صعب من مطالب الآخرة بعد إتعاب تلك المطالب لهم قبل تصورها التام في أول التكليف.

الخامس عشر: كونه سبباً لهطل الكرامة عليهم، والكرامة تعود إلى الكمالات النفسانية الباقية والإلتذاذ بها. ولاحظ في إفاضتها عليهم مشابهتها بالغيث فاستعار لها لفظ الهطل وأسنده إليها، وكذلك لفظ القحوط، وكنّى به عن منعهم إيّاها قبل استعدادهم بالتقوى لها.

السادس عشر: كونه سبباً لتعطف الرحمة الإلهية بإفاضة الكمالات عليهم بعد نفورها عنهم لعدم الاستعداد أيضاً، ولفظ التحدب مستعار للإرادة أو لأثر الرحمة، وكذلك لفظ النفور لعدم أثرها في حقهم قبل ذلك.

السابع عشر: كونه سبباً لتفجّر النعم بعد نضوبها، ولفظ التفجّر مستعار لانتشار وجوه إفاضات النعم الدنيوية والأخروية كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وكذلك لفظ النضوب لعدمها قبل الاستعداد لها ملاحظة لشبه النعم بالماء في الاستعارتين.

الثامن عشر: كونه سبباً لوبل البركة بعد رذاذها، ولفظ الوبل مستعار للفيض الكثير من البركة بعد الاستعداد بالتقوى، ولفظ الرذاذ للقليل قبل ذلك الاستعداد ملاحظة لشبهها بالغيث أيضاً، وظاهر كون التقوى سبباً لمزيد الفيض على كل من كان له بعض الكمالات كمن يستعد بالعلوم دون الزهد، والعبادة ثم يسلك بهما. ثم بعد الفراغ من فضائلها، والترغيب فيها من تلك الجهة أعاد الأمر بها ورغّب فيها باعتبارات أُخر من إنعام المنعم، وهي كونه تعالى نافعاً لهم بموعظته: أي جاذباً لهم إلى جنته، مرغّباً لهم في كرامته، وواعظاً لهم برسالته إليهم، وممتناً عليهم بنعمته كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣١] في غير موضع من كتابه. ثم أمرهم بتعبيد أنفسهم وتذليلها لعبادته والخروج إليه من حقه الذي يطلبه منهم وهو طاعته. ثم ذكر الإسلام وفضائله مرغباً فيه. وهو كالتفسير لطاعته وعبادته فكأنه قال: واخرجوا إليه من حق طاعته الذي هو الإسلام فإنه ذكر له فضائل:

أ - كونه اصطفاه لنفسه: أي طريقاً إلى معرفته ونيل ثوابه.

ب - كونه اصطنعه على عينه وهي كلمة تقال لما يهتم به، وكأنه للصنعة التي يختارها من عملت له ويشاهدها بعينه. ولفظ العين مجاز في العلم. وعلى تفيد الحال: أي على علم منه بشرفه وفضيلته ووجه الحكمة فيه، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

ج - واصطفاه خير خلقه: أي اصطفى للبعثة به وإليه خير خلقه محمد وآله.

د - وأقام دعائمه على محبته. ولفظ الدعائم مستعار إما لأهل الإسلام أو لأركانه. ووجه المشابهة قيامه بها في الوجود كقيام الشيء المدعوم بدعائمه، وكلمة على للحال، والضمير في محبته للإسلام: أي أقام دعائمه

حال المحبة له، وقيل بل الله كما تقول طبع الله قلبي على محبته.

هـ - أذلّ الأديان بعزّه، وذلّة الأديان تعود إلى عدم الالتفات إليها فيكون مجازاً من باب إطلاق اسم السبب على المسبب، أو ذلّة أهلها. فيكون من باب حذف المضاف. وظاهر أن عزّ الإسلام سبب للأمرين.

و - وكذلك إطلاق وضع الملل برفعه.

ز - وكذلك إهانة أعدائه وهم المشركون والمكذبون له من الملل السابقة إهانتهم بالقتل وأخذ الجزية والصغار لهم، وكرامته إجلاله وإجلال أهله وتعظيمهم في النفوس.

ح - وخذل محاديه بنصره: أي بنصر أهله. وفي القرائن الأربع التضاد: فالعزّ للذل، والرفع للوضع، والكرامة للإهانة، والنصر للخذلان.

ط - وهدم أركان الضلالة بركنه وقوته، وأركان الضلالة تعود إلى العقائد المضلة في الجاهلية، وإلى أهل الضلالة وهو مستعار. ووجه الاستعارة قيام الضلالة بتلك العقائد أو بأهلها كقيام ذي الأركان بها، وكذلك لفظ الهدم لزوال الضلالة بقوة الإسلام وأهله.

ي - وسقى من عطش من حياضه. فاستعار السقي لإفاضة علوم الدين على نفوسهم وكمالها بها، ولفظ العطش لما كانوا عليه من الجهل البسيط وعدم العلم. وكذلك استعار لفظ الحياض لعلماء الإسلام الذين هم أوعيته وحياضه التي ترده العطاش من العلوم والحكمة الدينية.

يا - وأتاق الحياض لمواتحه، واستعار لفظ المواتح إما للأئمة من القرن الأول الآخذين للإسلام من الرسول ﷺ الذي هو الينبوع، أو لأفكار العلماء وسؤالاتهم وبحثهم عن الدين وأحكامه واستفادتهم بها، ووجه الاستعارتين كونهم مستخرجين للعلم والدين عن مظانه كما يستخرج الماتح الماء من البئر. ولفظ الحياض للمستفيدين.

يب - جعله له بحيث لا ينفصم عروته، ولفظ العروة مستعار لما يتمسك الإنسان به منه، ورشح بذلك الانفصام. ولما كان المتمسك به ناجياً من الهلاك الأخروي والشرور اللاحقة للملل السابقة وكان عدم الانفصام مظنة سلامة المتمسك عن الهلاك كنّى به عن دوام السلامة.

يج - ولا فك لحلقته، كناية عن عدم انقهار أهله وجماعته.

يد - ولا انهدام لأساسه. استعار لفظ الأساس للكتاب والسنّة الذين هما أساس الإسلام، ولفظ الانهدام لاضمحلالهما.

يه - ولا زوال لدعائمه، استعار لفظ الدعائم لعلمائه أو للكتاب والسنّة وقوانينهما وأراد بعدم زوالهما عدم انقراض العلماء أو عدم القوانين الشرعية.

يو - ولا انقلاع لشجرته، استعار لفظ الشجرة لأصله وأركانه، وهو كقوله: ولا انهدام لأساسه.

يز - ولا انقطاع لمدته، إشارة إلى بقائه إلى يوم الدين.

يح - ولا عفاء لشرائعه، وشرائعه قوانينه وأصوله وهو كقوله: لا انقلاع لشجرته.

يط - ولا جذّ لفروعه: أي لا ينقطع التفريع عليه. بل كل ذهن سليم فكر في أصوله وهي الكتاب والسنّة استخرج منها ما لم يستخرجه غيره.

ك - ولا ضنك لطرقه، وكنّى بعدم الضيق عن عدم صعوبة قوانينه على أهل التكليف، أو لازم الضيق وهو مشقة السالكين به إلى الله كما قال ﷺ: بعثت بالحنيفية السهلة السمحة.

كا - ولا وعوثة لسهولته، كناية عن كونه في غاية العدل بين الصعوبة وبين السهولة المفرطة كما عليه أكثر الأديان السابقة من التشبيه والتجسيم فإن سلوكها مع ذلك وتصوّرها في غاية السهولة لكنها طرق يبعد حصول المطالب الحقيقية والوصول إلى التوحيد الخالص منها فكانت في سهولها هذه الوعوثة.

كب - ولا سواد لوضحه، استعار لفظ الوضح لصفائه عن كدر الباطل الذي هو سواد ألواح نفوس الكافرين والمنافقين.

كج - ولا عوج لانتصابه، واستعار لفظ الإنتصاب

لاستقامته في أدائه إلى الله تعالى. إذ هو الصراط المستقيم في الدنيا.

كد - وكذلك ولا عصل في عوده.

كه - ولا وعث لفجّه.

كو - ولا انطفاء لمصابيحه، عبّر بالمصابيح عن العلماء استعارة، وبعدم انطفائها عن عدم خلوّ الأرض منهم.

كز - ولا مرارة لحلاوته، وذلك أن حلاوة الإسلام الحقيقي في قلوب المتقين لا يشوبها مرارة من مشقة تكليف ونحوها لما يتصورونه من شرف غايتهم.

كح - فهو دعائم: أي فالإسلام دعائم، وذلك إشارة إلى تعريفه بأجزائه وهي كالشهادتين والعبادات الخمس كما ورد في الخبر: بني الإسلام على خمس.

وقوله: أساخ في الحق اسناخها إشارة إلى كونه تعالى بناها على أسرار من الحق عميقة لا يهتدي إليها إلاّ آحاد الخلق وهو أسرار العبادات.

كط - **قوله**: وينابيع غزرت عيونها، إشارة إلى تعريفه من قبل مادته وهي الكتاب والسنّة، واستعار لهما لفظ الينابيع نظراً إلى فيضان العلوم الإسلامية النقلية والعقلية عنهما كفيضان الماء عن الينابيع، ولفظ العيون لما صدرا عنه، وهو علم الله تعالى ونفوس ملائكته ونبيه صلى الله عليه وآله، وظاهر غزارة تلك العلوم وكثرتها.

ل - ومصابيح شبّت نيرانها إشارة إلى مادته أيضاً باعتبار أن في الكتاب والسنّة أدلة أحكامها وبراهينها، واستعار لها لفظ المصابيح باعتبار كونها تضيء الطريق لخابطها إلى الله. ورشّح بذكر إضرام نيرانها، وعبّر به عن غاية إضاءتها.

لا - ومنار اقتدى بها سفّارها وأعلام قصد بها فجاجها. إشارة إلى تلك المادة باعتبار أن فيها أمارات على أحكام الله الظنية يقتدي بها المسافرون السالكون إلى قصدها والقاصدون لطرقها التي هي منصوبة عليها.

لب - ومناهل روي بها ورّادها، استعار لفظ المناهل لتلك المواد أيضاً باعتبار كونها من العلم لوارديها ومقتبسيه منها كما تروي ورّدا الحياض بمائها.

لج - جعل الله فيه منتهى رضوانه، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] .ولأن فيه أتمّ وسيلة إلى غاية الكمالات الإنسانية التي هي منتهى ما يرضاه الله ويحبّه من عباده.

لد - وذروة دعائمه، والضمير في دعائمه لله: أي الدعائم التي جعلها الله عمدة له في إصلاح خلقه وهي الشرائع وقوانينها، وظاهر أن الأنوار التي جاء بها الإسلام والهداية التي به أشرف وأعلى منها في سائر الشرائع فهو كالذروة لها.

له - وسنام طاعته، ولفظ السنام مستعار لمجموع ما اشتمل عليه من البيانات والهدايات. ووجه المشابهة شرفها أيضاً وعلوها بالنسبة إلى الطاعات السابقة عليه كشرف السنام بالنسبة إلى باقي الأعضاء.

لو - فهو عند الله وثيق الأركان، وأركانه أجزاؤه، ووثاقتها تعود إلى بنائها على الأسرار الحقيقية والعلم التام لواضعها بكيفية وضعها وكمال فائدتها بحيث لا يمكن انتقاضها ولا زوالها.

لز - رفيع البنيان: أي ما ارتقى إليه أهله من المجد والفضيلة، وظاهر علو قدره وقدر أهله وتعظيمهم في النفوس على سائر الأديان وأهلها.

لج - منير البرهان، وأراد برهانه الذي دعى الخلق إليه وهو القرآن وسائر المعجزات، ولا شك في إنارتها وإضاءتها في أقطار العالم واهتداء أكثر الخلق بها.

لط - مضيء النيران، واستعار لفظ النيران لأنواره من العلوم والأخلاق المضيئة على علمائه وأئمته.

م - عزيز السلطان، وأراد قوته وعزّة أهله ودولته ومنعة من التجأ إليه به.

ما - مشرف المنار، وكنّى به عن علو قدر علمائه وأئمته وانتشار فضلهم والهداية بهم.

مب - معوز المثار: أي يعجز الخلق إثارة دفائنه وما فيه من كنوز الحكمة ولا يمكنهم استقصاء ذلك منه، وروي المنال: أي يعجز الناس إمّا بالإتيان بمثله أو باستقصاء حكمه وثمراته، وروي المثال وهو ظاهر. ثم

لما بيّن فضيلته أمر بتعظيمه واتباعه وأداء حقه وهو العمل به مع اعتقاد شرفه وكونه مؤدياً إلى الجنة. ثم بوضعه مواضعه وهي القلوب لا الألسن والشعار الظاهر فقط. ثم لما فرغ من ذلك شرع في فضائل من بعث به ليذكرهم نعمة من الله بعد نعمة، وقرن ذكره بذكر أحوال الدنيا حين البعثة ليظهر شرفها:

فا - كونها قد دنا انقطاعها وإقبال الآخرة وإطلاعها، وقد بيّنا ذلك في قوله: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وعلى الجملة فيحتمل أن يريد قرب انقطاع الدنيا وزوالها بالكلية وحضور الآخرة والقيامة الكبرى كما عليه ظاهر الشريعة ويحتمل أن يريد قرب انقطاع دنيا كل أمة منهم وحضور آخرتهم بموتهم وانقراضهم ولفظ الاطلاع استعارة كما سبق.

ب - كونها قد أظلمت بهجتها بعد إشراق، وأراد إشراق بهجتها بأنوار الأنبياء السابقين وضياء الشرائع، وإظلامها حين بعثة الرسول ﷺ باندراس تلك الآثار وفسادها.

ج - قيامها بأهلها على ساق، كناية عن ظهوره شدائدها وإثارة الفتن بين أهلها وما كانت العرب عليه من الخبط والاختلاف في الحروب والغارات المؤدية إلى الفناء.

د - خشونة المهاد منها، وكنّى به عن عدم الاستقرار بها وطيب العيش فإن ذلك إنما يتم ويعتدل بنظام الشرائع والنواميس الإلهية.

هـ - وأزف منها قياد: أي قرب منها انقياد للانقطاع والزوال والانخراط في سلك التقضّي واقتراب علامات ذلك منها، وعلامات زوالها هي علامات الساعة وأشراطها، وكذلك تصرّم أهلها وانفصام حلقتها، وكنّى بالحلقة عن نظامها واجتماع أهلها بالنواميس والشرائع وبانفصامها عن فساد ذلك النظام بانتشار سببها عن فساد أسباب ذلك النظام فإنّ أسباب التصرف النافع فيها إنما يتم بالنواميس الشرعية وقوانينها، واستعار لفظ أعلامها للعلماء والصلحاء بها وكان عليهم العفاء حينئذٍ، وكذلك بعوراتها عن وجوه الفساد فيها، وبتكشفها عن ظهورها بعد اختفاء، وكذلك القصر من طولها فإن الدنيا إنّما يكون طوله ودوامها عند صلاحها بالشرائع فإذن قصرها يكون عند فسادها وعدم النظام الشرعي. ثم رجع إلى تعديد فوائد بعثة الرسول ﷺ.

فا - إن الله تعالى جعله بلاغاً لرسالته وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية.

ب - وكرامة لأمته لكونه داعياً لهم إلى الكرامة الباقية التامة وسبب للكرامة.

ج - وربيعاً لأهل زمانه، واستعار لفظ الربيع له، ووجه المشابهة كونه بهجة للمسلمين وعلمائهم وسبباً لبطنتهم من العلم والحكمة كما أن الربيع سبب لبهجة الحيوان بمراعيها وبطنتهم وسمنهم.

د - ورفعة لأعوانه: أي لأعوان الله وأنصاره وهم المسلمون وظاهر كونه ﷺ سبب رفعتهم وشرفهم. ثم عقب بذكر بعض الأنوار التي بعث بها ﷺ وهو الكتاب العزيز وعدّ فضائل:

فا - كونه نوراً لا تطفأ مصابيحه، وأراد نور العلم والأخلاق المشتمل عليها، واستعار لفظ المصابيح إما لما انتشر من علومه وحكمه فاقتدى بها الناس، وإما لعلمائه وحاملي فوائده.

ب - كونه سراجاً لا يخبو توقده، وأراد أنه لا تنقطع هداية الناس بنوره فهو كالأول.

ج - وبحر لا يدرك قعره، لفظ البحر مستعار له باعتبارين:

أحدهما: عمق أسراره بحيث لا يحيط بها الأفهام ولا تصل إلى أغوارها العقول كما لا يدرك الغائص قعر البحر العميق.

والثاني: كونه معدناً لجواهر العلوم النفسية والفضائل كما أن البحر معدن للجواهر.

د - ومنهاجاً لا يضل نهجه، وظاهر كونه طريقاً واضحاً من سلك به إلى الله ومن تفهم مقاصده لا يضل قصده.

هـ - وشعاعاً لا يظلم ضوؤه: أي لا يغطي الحقّ

الوارد به ظلامُ شبهة ولا تلبيس باطل، ولفظ الشعاع والضوء والظلمة مستعار.

و - وفرقاناً لا يخمد برهانه: أي فيه براهين تفرق بين الحق والباطل لا تخمد، ولفظ الخمود مستعار ملاحظة لشبه البرهان بالنار في الإضاءة فنسب إليه وصفها.

ز - وبنياناً لا تهدم أركانه، واستعار لفظ البنيان لما انتظم من الكتاب ورسخ في القلوب، ورشح بذكر الأركان لاستلزام البنيان لها.

ح - وشفاء لا يخشى سقامه كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وظاهر كون تدبره وأسراره شفاء للنفوس من أعراض الجهل ورذائل الأخلاق، وذلك شفاء لا يخاف استعقابه بمرض وذلك أن الفضائل النفسانية إذا صارت ملكات لم تزل ولم يتبدل بأضدادها وإن كان أيضاً شفاء للأبدان كما سبق.

ط - وعزاً لا تهزم أنصاره.

ي - وحقاً لا تخذل أعوانه وأنصاره، وأعوانه هم المسلمون المعتزّون به [المعترفون به خ] والملتجئون إليه العاملون على وفقه السالكون به إلى الله، وظاهر أن أولئك الأنصار والأعوان لا يهزمهم أحد ولا يخذلهم الله أبداً.

يا - فهو معدن الإيمان الذي يستنار منه الإيمان الكامل بالله ورسوله وبما جاء به وبحبوحته، وظاهر كون اعتقاد حقيته وتفهّم مقاصده والعمل بها واسطة عقد الإيمان.

يب - وينابيع العلم وبحوره، واللفظان استعارة له باعتبار كونه محل فيض العلوم النفيسة واستفادتها.

يج - ورياض العدل وغدرانه، واللفظان مستعاران أيضاً باعتبار كونه مورداً يؤخذ عنه العدل بكليته فهو مورده الذي لا يجور عن سنن الحق إلى أن يبلغ به صاحبه السالك به إلى الله.

يد - وأثافي الإسلام وبنيانه، واللفظان مستعاران له باعتبار كونه أصلاً للإسلام يبتني عليه، وبه يقوم، كما أن الأثافي للقدر والبنيان لما يحمل عليه كذلك.

يه - وأوديه الحق وغيطانه، واللفظان مستعاران له باعتبار كونه معدناً للحق ومظنة له كما أن الأودية والغيطان مظان الكلأ والماء.

يو - وبحر لا يستنزفه المستنزفون.

يز - وعيون لا ينضبها الماتحون، إنما كرّر استعارة البحر والعيون له باعتبار آخر وهو كونه لا ينتهي فوائده والمقاصد المستنبطة منه.

يح - وكذلك ومناهل لا يغيضها الواردون وخصّص النضوب بالعيون لإمكان ذلك فيها دون البحر والورد بالمناهل لكون النهل وهوى الري لغاية وارد الماء.

يط - منازل لا يضل نهجها المسافرون: أي مقامات من العلوم إذا نزلتها العقول المسافرة إلى الله لا تضل لاستنارتها وشدة إضاءتها.

ك - وكذلك وأعلام لا يعمى عنها السائرون.

كا - وكذلك وآكام لا يجور عنها القاصدون، استعار لفظ الأعلام والآكام للأدلة والأمارات فيه على طريق إلى معرفته وأحكامه باعتبار كونه هادية إليها كما تهدي الأعلام والجبال على الطرق.

كب - جعله الله رياً لعطش العلماء، استعار لفظ الري له باعتبار كونه دافعاً لألم الجهل عن النفوس كما يدفع الماء ألم العطش، ولفظ العطش للجهل البسيط أو لاستعداد الطالبين للعلوم واشتياقهم إلى الاستفادة، وأطلق لفظ الري على المروي مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه.

كج - وربيعاً لقلوب الفقهاء، ولفظ الربيع مستعار له باعتبار كونه مرعى لقلوب الفقهاء يستثمرون منه الأحكام، وبهجة لها كالربيع للحيوان.

كد - ومحاجّ لطرق الصلحاء، وظاهر كونه طريقاً واضحاً للصالحين إلى الله.

كه - ودواءً ليس بعده داء كقوله: شفاء لا يخشى سقامه.

كو - ونوراً ليس معه ظلمة: أي لا تبقى مع هدايته إلى الأحكام ظلمة على البصيرة، وهو كقوله: وشعاعاً لا يظلم نوره.

كز - وحبلاً وثيقاً عروته، استعار لفظ الحبل والعروة لما يتمسك به منه، وكنّى بوثاقة عروته عن كونه منجياً لمن تمسك به.

كح - ومعقلاً منيعاً ذروته، استعار لفظ المعقل باعتبار كونه ملجأ من الجهل ولوازمه وهو العذاب، ورشح بذكر الذروة، وكنّى بمنعتها عن كونه عزيزاً يمنع من لجأ إليه.

كط - وعزاً لمن تولاّه: أي اتخذه ولياً يلقي إليه مقاليد أموره ولا يخالفه، وظاهر كونه سبب عزّه في الدارين.

ل - وسلماً لمن دخله: أي أمناً. ودخوله: الخوض في تدبر مقاصده واقتباسها، وبذلك الاعتبار يكون مأمناً من عذاب الله ومن الوقوع في الشبهات التي هي مهاوي الهلاك.

لا - وهدى لمن ائتمّ به، وهو ظاهر.

لب - وعذراً لمن انتحله: أي من نسبه إلى نفسه بدعوى حفظه أو تفسيره ونحو ذلك معتذراً بذلك من تكلف لا يليق به أو يشق عليه كان ذلك عذراً منجياً له. وهذا كما لو تقول لمن يقصد إنساناً بأذى: لا ينبغي لك أن تؤذيه فإنه من حملة القرآن الكريم أو ممن يعلم علومه فيكون ذلك سبباً لترك أذاه.

لج - وبرهاناً لمن تكلم به.

لد - وشاهداً لمن خاصم به.

له - وفلجاً لمن حاجّ به. الثلاثة متقاربة، وأطلق لفظ الفلج عليه من جهة ما يحتج به إطلاقاً لاسم الغاية على ذي الغاية إذ غاية الإحتجاج به الفوز. والشاهد والحجة أعمّ من البرهان.

لو - وحملاً لمن حمله: أي يحمل يوم القيامة حملته وحفظته الآن، وعبّر بحمله لهم عن إنجائه لهم من العذاب إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

لز - ومطيةً لمن أعمله، استعار له لفظ المطيّة باعتبار كونه منجياً لهم كقوله: حاملاً ولفظ الإعمال لاتّباع قوانينه والمواظبة عليها المنجية من العذاب كما ينجي إعمال المطيّة في الطريق البعيد.

لح - وآيةً لمن توسم، وذلك باعتبار تدبّر أمثاله وقصصه فإنّ فيها آياتاً وعبراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

لط - وجنّة لمن استلام: أي لمن استلأمه ولبسه كالدرع، واستعار له لفظ الجنة لوقايته من استعد بعلمه من عذاب الله، وكنّى باستلأمه عن ذلك الاستعداد به.

م - وعلماً لمن وعى: أي لمن حفظه وفهم مقاصده.

ما - وحديثاً لمن روى، وذلك باعتبار ما فيه من القصص وأخبار القرون الماضية فإن أصدق حديث يروى منها ما اشتمل عليه القرآن، ويحتمل أن يريد بكونه حديثاً كونه قولاً وكلاماً ليس لمن نقله كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] الخ، وتكون فائدة هذا الوصف أن فيه غنية لمن أراد أن يتحدث بحديث غيره مما لا يفيد فائدته فينبغي أن يعدل إليه ويشتغل بتلاوته والتحدث به.

مب - وحكماً لمن قضى: أي فيه الأحكام التي يحتاج إليها القضاة، وروي حكماً: أي حاكماً ترجع إليه القضاة ولا يخرجون عن حكمه. وبالله التوفيق.

١٩١ - ومن كلام له عليه السلام

كان يوصي به أصحابه:

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾. أَلا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾. وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاقَ الرِّبَقِ، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلا

مَالٍ. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَصِباً بِالصَّلاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ.

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاةِ قُرْبَاناً لأَهْلِ الإِسْلامِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً. فَلا يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ.

ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، وَالأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلا أَطْوَلَ وَلا أَعْرَضَ، وَلا أَعْلَى وَلا أَعْظَمَ مِنْهَا. وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لامْتَنَعْنَ، وَلٰكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الإِنْسَانُ ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

أقول: الربق: جمع الربقة وهي الحلقة في الحبل. والجمة بالجيم: الحفيرة يجمع فيها الماء، وروي بالحاء والمعنى واحد. والدرن: الوسخ. والنصب: التاعب. والاقتراف: الاكتساب.

وحاصل الفصل الوصية بالمحافظة على أمور ثلاثة والحث عليها:

أولها: الصلاة فأمر بتعاهد أمرها والمحافظة عليها وذلك بافتقار الإنسان لأحوال نفسه حال الصلاة ومراقبتها حذراً أن تشوبها نزعات الشيطان برياء فيها أو التفات عنها. ثم بالمحافظة على أوقاتها وأداء أركانها كما هي. ثم بالاستكثار منها والتقرّب بها إلى الله لكونها أفضل العبادات والقرب إليه. ثم أشار إلى فضيلتها ووجه وجوبها:

أحدها: قوله: فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً وهو لفظ القرآن الكريم. وموقوتاً: مفروضاً، وقيل منجماً في كل وقت صلاة معينة.

الثاني: التحذير لتاركها بالتنبيه على استلزام تركها لدخول النار بقوله: لا تسمعون. إلى قوله: من المصلين.

الثالث: أنها تحتّ الذنوب حتّ الورق، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس ووجه الشبه ظاهر، وكذلك وتطلقها إطلاق الربق: أي وتطلق أعناق النفوس من أغلالها كما تطلق الربقة من عنق الشاة.

الرابع: تشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله لها بالحمة تكون على باب الرجل. وصورة الخبر عنه صلى الله عليه وآله: أيسرّ أحدكم أن يكون على بابه حمة يغتسل منها كل يوم خمس مرات فلا يبقى عليه من درنه شيء؟ فقالوا: نعم. قال: فإنها الصلوات الخمس.

الخامس: تنبيهه بذكر عرفان رجال من المؤمنين وهم الموصوفون في الآية بقدرها.

السادس: نصب الرسول صلى الله عليه وآله فيها وأمر الله تعالى بالمواظبة عليها بعد تبشّره له بالجنة وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] وامتثاله لذلك الأمر في نفسه وأمره أهله، وروي أنه صلى الله عليه وآله قام في الصلاة حتى تورّمت قدماه. فقيل له في ذلك. فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وذلك من أوضح الدلائل على كثرة فوائدها وقوّة فضيلتها، واعلم أنه قد ورد في فضلها أخبار كثيرة بعد تأكيد القرآن للأمر بها، وقد بيّنا ذلك وأشرنا إلى فضيلتها إشارة مستوفاة في الفصل الذي أوله: إن أفضل ما يتوسل به المتوسلون إلى الله سبحانه الإيمان به وبرسوله.

الثانية: مما أمر بالمحافظة عليه: الزكاة وهي قرينة

الصلاة في الذكر في الكتاب العزيز وفي الفضيلة فلذلك قال: جعلت مع الصلاة. ثم أشار إلى سرّها وهو كونها قرباناً لأهل الإسلام. وسنبيّن ذلك، وأشار بقوله: فمن أعطاها. إلى قوله: طويل الندم إلى شرط كونها مقرّبة إلى الله تعالى وبيان كون قبولها مشروطاً بطيب النفس ببيان سرها، وقد عرفته أيضاً في ذلك الفصل وعلمت أن من أقسام المستنزلين عن المال من اقتصر منه على أداء الواجب من الزكاة من غير زيادة ولا نقصان وهم العوام لجهلهم بسر البذل وبخلهم بالمال من غير زيادة ولا نقصان وهم العوام لجهلهم بسر البذل وبخلهم بالمال وميلهم إليه من ضعف حبهم للآخرة قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ [محمد: ٣٧] وطهارة الفرق الذين ذكرناهم ممن استنزل عن المال، ومحابهّم وقربهم من الله وبعدهم بقدر طيب أنفسهم عن بذل المال والإعراض عنه ومحبته، وهذه الفرقة أعني من اقتصر منهم على أداء الواجب فقط تنقسم إلى مؤدّ لذلك الحق بطيب نفس ومسامحة، وإلى مؤد له مع بقاء محبته وتكدير لنفس ببذله وتلهّف عليه أو انتظار جزاء له، وباعتبار القسمين الأولين مع القسم الأول من هذه الفرقة يكون بذل المال والزكاة قربة إلى الله تعالى، وهو الذي أشار إليه أمير المؤمنين بقوله: إنّ الزكاة. إلى قوله: ووقاية.

وإن كان قد خصص الزكاة هنا، وإنّما يكون قربة لاستلزامه رفض هذا المحبوب الذي يتصور باذله أن جميع الكمالات الدنيوية يستفاد منه رغبة عنه ومحبة لله ورغبة فيما عنده، وتكون كفارة ماحية لرذيلة البخل وما يستلزمه من الذنوب، ويكون حجاباً بين العبد وبين عذاب الله. إذ قد علمت أن مبدأ العذاب في الآخرة حبّ الدنيا وأعظمه حب المال فإذا كان بذل المال مستلزماً لزوال حبه كان بذلك الاعتبار حجاباً من العذاب ووقاية منه.

وأما إيتاء الزكاة على الوجه الثاني فهو المذموم والمنهي عنه بقوله: ولا يكثرن عليها لهفه. بعد أمره بها في قوله: فلا يتبعنّها أحد نفسه ويلزم باذلها على ذلك الوجه النقائص المذكورة: وهي الجهل بالسنّة فإنّ السنّة في أدائها أن يؤدي بطيب نفسه ومسامحة، وأن يكون مغبوناً في الأجر. فإن إيتاءها على وجه توقع جزاء لها لا على وجه القربة إلى الله غير مستلزمة لرضوانه وذلك هو الغبن، وإن حصل له جزاء غير رضوان الله فإنّ الحصول على كل جزاء غير رضوانه جزاء ناقص وغبن فاحش بالنسبة إليه، وأن يكون ضالّ العمل وهو إعطاؤه ذلك المال وبذله على غير وجهه وقصده به غير سبيل الهدى إلى رضوان الله، وأن يكون طويل الندم: أي في محبة المال وفيما يرجوه به من الجزاء.

الثالثة: مما أوصى به: أداء الأمانة وهي التي أشار القرآن الكريم إليها بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، وقد بيّنا فيما سلف أنها تعود إلى العبادة والطاعة المطلوبة من الإنسان بما هو إنسان، وظاهر أن تلك العبادة لا يمكن من غيره فإنه إنّما حملها من حيث خلق مستصلحاً للدارين، وبيان ذلك أن مخلوقات الله تعالى إما جمادات أو ذات حياة، وذوات الحياة، إما الملائكة والحيوان الأرضي، والحيوان الأرضي. إما أعجم أو ناطق.

فالحيوان منها وهو الإنسان هو المتأهل لعمارة الدارين والكون فيها، وهو الواسطة بين خلقين وضيع وهو الحيوان الأعجم وشريف وهو الملك، وقد استجمع قوتي العاملين فهو كالحيوان في الشهوة والغضب وقوة التناسل وسائر القوى البدنية المختصة بالحيوان، وكالملك في القوة المجردة والعقل والعلم والعبادة وسائر الكمالات النفسانية، ووجه الحكمة في ذلك أنه تعالى لما اقتضت عنايته إيجاده لهذه العبادة المخصوصة أن يجعل في الأرض خليفة لعمارتها جمع له بين القوتين فإنّه لو كان كالبهيمة خالياً عن العقل لم يتأهل لمعرفته وعبادته الخاصة، ولو خلق كالملك معرّى عن الشهوة والغضب وسائر القوى البدنية لم يصلح لعمارة أرضه وخلافته فيها ولذلك قال للملائكة: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإذن هذه العبادة الخاصة وهي الأمانة المشار إليها لا يصلح لها إلاّ الإنسان ولا يمكن من غيره، وقد علمت أيضاً فيما سلف أن إباء السماوات والأرض والجبال عن حملها يعود إلى امتناع

قبولها بلسان حال قصورها وعدم صلاحيتها لها، وإشفاقها من عقوبة الله على التقصير عن أداء حقوقها كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: أشفقنَ من العقوبة. ولم يكن ذلك إباء واستكبار لخضوعها تحت ذلّ الحاجة إليه، ولفظ الإشفاق مجاز في ثمرته ولازمه وذلك أن السلطان مثلاً إذا كلّف بعض رعيته حمل أمانة تكليف تخيير فخاف ذلك المكلّف العقوبة على تقصيره في أداء تلك الأمانة فإن خوفه يستلزم تركه وامتناعه من حملها فكان الامتناع من الأمانة مسبباً عن الإشفاق فأطلق الإشفاق هنا على إباء السماوات والأرض. بلسان حالها مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب وقيل: إن ذلك الإباء والإشفاق على وجه التقدير، وإنما جيء بلفظ الواقع لأن الواقع أبلغ من المقدر: أي لو كانت هذه الأجرام عاقلة ثم عرضت عليها وظائف الدين عرض تخيير لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها، وشدتها ولامتنعت من حملها إشفاقاً من القصور عن أداء حقها.

ثم إنّ مخاطبة الجماد والإخبار عنها نظراً إلى قرينة الحال طريقة مشهورة للعرب ومستحسنهم في تعارفهم كقولهم: يا دار ما صنعت بك الأيام؟ ونحوه. بل مخاطبة بعض الجمادات لبعض بلسان أحوالها كقولهم: قال الحائط للوتد: لم تشقني؟ قال: سل من يدقّني، ونحو ذلك كثير.

فأما قوله عليه السلام: وقد خاب من ليس من أهلها. فتلك الخيبة تعود إلى حرمان ثمرة هذه العبادة وما يستلزمه من الحصول على الكمالات. إذ ليست من أهلها، وذكر كون السماوات مبنيّة والأرض مدحوة والجبال بأطوالها وعروضها وعلوها وعظمتها تنبيه للإنسان على جرأته على المعاصي وتضييع هذه الأمانة. إذ أهّل لها وحملها، وتعجب منه في ذلك. فكأنه يقول: إذا كانت هذه الأجرام العلوية التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها.

وقوله: ولو امتنع شيء. إلى قوله: لامتنعنّ.

إشارة إلى أن امتناعهنّ لم يكن لعزة وعظمة أجساد ولا استكبار عن الطاعة له، وأنّه لو كان كذلك لكانت أولى بالمخالفة عن كل شيء لأعظمية أجرامها عن كل المخلوقات. بل إنما ذلك عن ضعف وإشفاق من خشية الله، وعقلن ما جهل الإنسان. قيل: إن الله تعالى عند خطابها خلق فيها فهماً وعقلاً، وقيل: إن إطلاق العقل مجاز في مسببه وهو الامتناع عن قبول هذه الأمانة كلفظ الإشفاق فإن عقلية المكلّف العقوبة على التقصير في تكليف يخيّر فيه، ويخاف التقصير يستلزم تركه لذلك التكليف واستقالته منه، وإذا لم يكن لها عقل من جهة ما هي أجرام أُطلق لفظ العقل على لازمه وثمرته وهو الامتناع والإباء مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب كاطلاق لفظ الإرادة على ميل الحائط في قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] وأقول: يحتمل أن يعود الضمير في أشفقنَ وعقلنَ إلى من يعقل من الملائكة السماوية. إذ لكل جرم سماوي ملك يدبره هو كالبدن له لإمكان ذلك فيها دون سائر الأجرام الأرضية، وما جهله الإنسان هو عظمة الله، وغاية هذه الأمانة، وتقصيره في أداء واجباتها المستلزم لعقوبته واستحقاق سخط الله، وكونه ظلوماً: أي كثير الظلم لنفسه لعدم محافظته على هذه الأمانة، وكونه جهولاً: أي كثير الجهل بأسرار هذه الأمانة والغفلة عما يستلزمه فعلها وتركها وعن الوعيدات الواردة على التقصير فيها.

وقوله: إن الله لا يخفى عليه. إلى آخره.

تنبيه لهذا الظلوم الجهول على إحاطة علم الله تعالى بجميع أحواله واكتساباته في ليله ونهاره وأنه لطيف الخبر والمعرفة بها ينفذ علمه في البواطن كما يقع على الظواهر.

وقوله: أعضاؤكم شهوده.

أي شهود له عليكم من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وجوارحكم جنوده، وذلك باعتبار كونها معينة عليهم، وضمائركم عيونه: أي طلائعه وجواسيسه كقوله تعالى:

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، وتلك الشهادة والإعانة بلسان الحال وقد عرفت كيفية إنطاق الجوارح وشهادة النفوس على أنفسها، وكنّى بالخلوات عما يفعل فيها من معاصي الله مجازاً، وإنّما خصصها

لأنها مظنّة المعصية، ويحتمل أن يريد بالخلوة مصدر قولك: خلوت خلواً. لا المكان. فيكون حقيقة وظاهراً كونها عياناً لله: أي معاينة له، وكل ذلك تحذير وتنفير عن تحريك الجوارح والخلوة بها فيما لا ينبغي من المعاصي. وبالله التوفيق والعصمة.

١٩٢ - ومن كلام له عليه السلام

وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلٰكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالمَكِيدَةِ، وَلا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

أقول: الدهاء: استعمال العقل والرأي الجيد فيما يراد فعله مما لا ينبغي مع إظهار إدارة غيره. ويسمى صاحبه داهياً، وداهية للمبالغة، وخبيثاً ومكاراً وحيّالاً. وهو داخل تحت رذيلة الجربزة وهي طرف الإفراط من فضيلة الحكمة العملية ويستلزم رذائل كثيرة كالكذب. والغدر: هو الرذيلة المقابلة لفضيلة الوفاء بالعهود التي هي ملكة تحت العفّة. والفجور: المقابل لفضيلة العفة.

فقوله عليه السلام: ما معاوية بأدهى مني.

أي ليس بأقدر مني على فعل الدهاء، وأكد ذلك بالقسم البار.

وقوله: ولكنه يغدر ويفجر.

إشارة إلى لوازم الدهاء التي لأجلها تركه وهو الغدر، وبواسطته الفجور. فإن الوفاء لما كان نوعاً تحت العفة كان الغدر الذي هو رذيلته نوعاً تحت ما يقابل العفة، وهو الفجور، ولذلك نفى الدهاء عن نفسه لكراهيته للغدر، ونفيه له عن نفسه. لأن نفي اللازم مستلزم لنفي الملزوم.

ثم جعل الغدر أوسط في إثبات الفجور لمعاوية بقياس ضمير من الشكل الأول فقوله: ولكنه يغدر. في قوة صغرى القياس، وقوله: ويفجر. في قوة النتيجة فكأنه قال: ولكنه يغدر فهو يفجر، ونبّه على الكبرى بقوله: وكل غدرة فجرة. فصار الترتيب هكذا: ولكنه يغدر وكل من يغدر يفجر والنتيجة فهو إذن يفجر.

ثم نبّه على الزوم الكفر له بقياس آخر من الشكل الأول نبّه على صغراه بقوله: وكل غدرة فجرة، وعلى كبراه بقوله: وكل فجرة كفرة، وإذ ثبت في القياس الأول أنه فاجر واستلزم قوله: وكل فجرة كفرة أن كل فاجر كافر ثبت بهاتين المقدّمتين أنه كافر.

وروي: غدرة، وفجرة، وكفرة. وهو كثير الغدر والفجور والكفر وذلك أصرح في إثبات المطلوب، قال بعض الشارحين: ووجه لزوم الكفر أن هنا الغادر على وجه استباحة ذلك واستحلاله كما كان هو المشهور من حال عمرو بن العاص ومعاوية في استباحة ما علم تحريمه بالضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله وجحده وهو معنى الكفر، ويحتمل أنه يريد كفر نعم الله وسترها بإظهار معصيته كما هو المفهوم اللغوي من لفظ الكفر.

وإنّما وحد الكفر ليتعدد الكفر بحسب تعدد الغدر فيكون أدعى إلى النفار عن الغدر. إذ هو في معرض التنفير عنه.

وقوله: ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة.

لفظ الخبر النبوي، وفيه تنفير عن رذيلة الغدر.

وقوله: والله ما استغفل بالمكيدة.

تقرير وتأكيد لما ذكره في معرفته بوجوه الآراء وكيفية الدهاء للداهي فإن من يكون كذلك لا يلحقه غفلة عما يعمل عليه من الحيلة والمكيدة.

وقوله: ولا أُستغمز. بالزاء المعجمة.

أي لا يطلب غمزي وإضعافي فإني لا أضع عما أُرمى به عن الشدائد، وروي بالراء أي لا أُستجهل بشدائد المكائد. هذا القول صدر منه عليه السلام كالجواب لما كان يسمعه من أقوال الجاهلين بحاله ونسبتهم له إلى قلة التدبير وسوء الرأي ونسبة معاوية إلى استخراج وجوه المصالح والآراء الصحيحة في الحرب وغيرها.

واعلم أن الجواب عن هذا الخيال يستدعي فهم حاله عليه السلام وحال معاوية وغيره ممن ينسب إلى جودة الرأي، وبيان التفاوت بينهم وبينه ذلك راجع إلى حرف

واحد وهو أنه عليه السلام كان ملازماً في جميع حركاته قوانين الشريعة مدفوعاً إلى اتباعها، ورفض ما العادة أن يستعمل في الحروب. فالتدابير من الدهاء والخبث والمكر والحيلة والاجتهادات في النصوص وتخصيص عموماتها بالآراء وغير ذلك مما لم ترخص فيه الشريعة، وكان غيره يعتمد جميع ذلك سواء وافق الشريعة أو لم يوافق. فكانت وجوه الحيل والتدبير عليهم أوسع، وكان مجالها عليه أضيق. ونقل عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في هذا المعنى كلام طويل خلاصته أن قال: إني ربما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل والعلم، وأنه من الخاصة وهو من العامة، ويزعم أن معاوية كان أبعد غوراً وأصح فكراً وأجود مسلكاً من علي وليس الأمر كذلك وسأومئ إلى موضع غلطه، وذلك أن علياً عليه السلام كان لا يستعمل في حروبه إلاّ ما يوافق الكتاب والسنّة.

وكان معاوية يستعمل ما يخالفهما كاستعماله ما يوافقهما ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وكان علي يقول لأصحابه: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً. هذه سيرته في ذي الكلاع وفي أبي الأعور السلمي وفي عمرو بن العاص وفي حبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤوساء كسيرته في الحاشية والأتباع، وأصحاب الحروب إنما يقصدون الوجه الذي به هلاك الخصم وينتظرون وجه الفرصة سواء كان مخالفاً للشريعة كالحريق والغريق ودفق السموم والتضريب بين الناس بالكذب وإلقاء الكتب في العسكر أو موافقاً لها فمن اقتصر في التدبير على الكتاب والسنّة فقد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكائد، والصدق والكذب أكثر من الصدق وحده والحلال والحرام أكثر من الحلال وحده فعلي كان ملجماً بلجام الورع من جميع القول. إلاّ ما فيه لله رضى، وممنوع اليدين من كل بطش إلاّ بما دلّ عليه الكتاب والسنّة دون أصحاب الدهاء والمكر والمكائد فلما رأت العوام نوادر معاوية في المكائد وكثرة معايبه في الخديعة، وما تهيأ له ولم يروا مثل ذلك من علي ظنوا القصور فظنهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان في علي. ثم انظر بعد ذلك كله هل يعد لمعاوية من الخداع أكبر من رفع المصاحف؟ ثم انظر هل خدع بها إلاّ من عصى رأي عليّ وخالف أمره من أصحابه؟ فإنْ زعمت أنه قد نال ما أراد بخداعه من الاختلاف على علي فقد صدقت، ولكن ليس ذلك محل النزاع ولم يختلف في غرارة أصحاب علي وعجلتهم وتسرعهم وتنازعهم، وإنّما كانت البحث في التمييز بينه وبين معاوية في الدهاء والمكر وصحة العقل والرأي. فهذه خلاصة كلامه، ومن تأمله بعين الإنصاف علم صحته وصدقه، ومن هذا يتبيّن لك الجواب عن كل ما نسب إليه من التقصير في خلافته كعدم إقراره لمعاوية على الولاية في أول خلافته ثم يعزله بعد ذلك لما يستلزم تقريره من الظلم، وكشبهة التحكيم، وكنسبتهم له إلى التوحش لبعض أصحابه حتى فارقوه إلى معاوية كأخيه عقيل وشاعره النجاشي ومصقلة بن هبيرة، وكتركه لطلحة والزبير حتى فارقاه وخرجا إلى مكة وأذن لهما في العمرة، وذهب عنه الرأي في ارتباطهما عنده ومنعه لهما من البعد عنه، وأمثال ذلك فإنّ الإنصاف عند اعتبار حاله في جميع ما نسب إليه يقتضي موافقته للشريعة وعدم خروجه عنها. وتفصيل الأجوبة عن ذلك مما يخرج عن الغرض، وبالله التوفيق.

١٩٣ - ومن كلام له عليه السلام

أَيُّهَا النَّاسُ لا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ!!

أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الأَرْضِ الْخَوَّارَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ.

أقول: السكة: الحديدة تكون في رأس خشبة الفدان تثار بها الأرض. وخوارها: صوتها في الأرض. والأرض الخوّارة: الضعيفة.

وحاصل الفصل ترغيب أصحابه السالكين لطريق الهدى في البقاء على ما هم عليه بذكر كونه طريق الهدى، من العادة أن يستوحش الناس من الوحدة وقلّة الرفيق في الطريق الطويل الصعب فنهى عن الاستيحاش في تلك الطريق، وكنّى به عما عساه يعرض لبعضهم من الوسوسة بأنهم ليسوا على حق لقلّتهم وكثرة مخالفيهم. لأن قلّة العدد في الطريق مظنة الهلاك والسلامة مع الكثرة، ونحو ذلك فنبّههم على أنهم في طريق الهدى وإن كانوا قليلين.

وقوله: فإنّ الناس اجتمعوا. إلى قوله: طويل.

تنبيه على علّة قلة أهل الهدى وهو اجتماع الناس على الدنيا، واستعار لها لفظ المائدة ملاحظة لشبهها بها في كونها مجتمع اللذات، وكنّى عن قصر مدتها بقصر شبعها، وعن استعقاب الانهماك فيها للعذاب الطويل في الآخرة بطول جوعها، ولفظ الجوع مستعار للحاجة الطويلة بعد الموت إلى المطاعم الحقيقية الباقية من الكمالات النفسانية الفانية بسبب الغفلة في الدنيا فلذلك نسب الجوع إليها، ويحتمل أن يكون مستعاراً لما تتلهف عليه النفس وتتأسف بعد المفارقة من اللذات الدنيوية التي لا تحصل عليها بعد الموت أبداً فيطول جوعها منها، وراعي المقابلة فالجوع بإزاء الشبع والطول بإزاء القصر.

وقوله: أيها الناس. إلى قوله: السخط.

أي إنما يجمع الناس في عذاب الله رضاهم بالمنكرات ومعاصي الله وإن لم يباشرها أكثرهم وسخطهم لمحابه من الأعمال، ومصداق ذلك قصة ثمود في عموم العذاب لهم بفعل عاقر الناقة. فإنهم بأسرهم ما فعلوا ذلك مع نسبة الفعل إلى جميعهم كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ الآية. وعمتهم العقولة لما عمّوه بالرضى، والضمير في عمّوه يعود إلى الرجل أو إلى العقر الذي دلّ عليه قوله: عقر: أي لما عمّوا فعله برضاهم به، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وظاهر أن الراضي بفعل شريك فاعله وفي قوته، وكذلك إنما يجمع الله الناس في رحمته باجتماعهم على الرضا بمحابه والسخط لمكارهه.

فقوله: فما كان إلاّ أن خارت أرضهم. إلى قوله: الخوّارة.

تفسير للعذاب اللاحق لهم المشار إليه بقوله: فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب، وقد فسّره القرآن الكريم أيضاً في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] فبيّن عليه السلام كيفية ذلك وشبّه صوت أرضهم في خسوفها، وذهابها في الأرض بصوت السكة المحماة في الأرض عند الحرث بها، وإنّما زادها صفة المحماة تنبيهاً على قوة تصويتها وسرعة غوصها لأن المحماة يكون لها في الأرض نشيش زائد على ما تقتضيه حركتها ويعينها الحمى على النفوذ.

فأما قصة ثمود فالمنقول أنهم خلف عاد في الأرض بعد هلاكهم عنها فكثروا وعمّروا أعماراً طويلة حتى كان الرجل يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته فنحتوا البيوت في الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش فعتوا عن أمر الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان. فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلاّ قليل منهم مستضعفون فحذّرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال: أية آية تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم من السنة تدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتّبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا. فقال: نعم. فخرج معهم ودعوا أربابهم وسألوها فلم تجب.

فقال كبيرهم وأشار إلى صخرة مفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاثبة: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء. فإن فعلت صدّقناك وأجبناك. فأخذ عليهم المواثيق بذلك. ثم صلّى ودعا ربه فتمخّضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء

جوفاء وبراء كما يطلبون، وعظماؤهم ينظرون. ثم نتجت ولداً مثلها في العظم. فآمن به رئيسهم ونفر من قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤوسائهم أن يؤمنوا. فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غباً فإذا كان يوم شربها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها. ثم تفجّج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلي أوانيهم فيشربون ويدّخرون. فإذا وقع الحر تصيّفت بظهر الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم، وزيّنت لهم عقرها امرأتان: عنيزة أمّ غنم وصدقة بنت المختار كانتا كثيرتي المواشي لما أضرت بمواشيهما. فعقرها قدار الأحمر واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلاً يقال له غارة فرغا ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة وبعد غد وهي محمّرة واليوم الثالث وهي مسودة.

ثم يغشاكم العذاب فلما رأوا العلامات همّوا بقتله فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. فلما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة وخسف شديد وزلزال فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

١٩٤ - ومن كلام له عليه السلام

روي عنه أنه قاله عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبره.

السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ! قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إلاَّ أَنَّ لِي فِي التَّأَسِّي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هٰذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلامُ عَلَيْكُمَا سَلامَ مُوَدِّعٍ، لا قَالٍ وَلا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلا عَنْ مَلالَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ.

أقول: مسهّد: مورق. وأحفها السؤال: استقص عليها فيه. فأمّا قول السيّد (رضي الله تعالى عنه) سيّدة النساء، فقد جاء في الخبر أنّه رآها تبكي عند موته فقال لها: أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة، وروي أنّه قال: سادات نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران. والسلام منه عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وآله كعادة الزائرين لكن الزيارة هنا قلبيّة، وعنها كالمستأذن لها في الدخول عليه، وجوارها له: أي في منازل الجنّة وأمّا سرعة لحاقها به ففائدة ذكرها التشكّي إليه من سرعة تواتر المصائب عليه بموته ولحوقها عقيبه، والمنقول أنّ مدة حياتها بعده صلى الله عليه وآله أربعة أشهر، وقيل: ستة أشهر.

ثمّ أخذ في التشكّي إليه كالمخاطب له من قلّة صبره ورقّة تجلّده وتحمّله للمصيبة بها.

وفي قوله: صفيّتك.

إشارة إلى ما كان لرسول الله ﷺ من التبجيل والمحبّة والإكرام.

وقوله: إلاّ أنّ لي. إلى قوله: موضع تعزّ.

كالعذر والتسلية وإن كانت هذه المصيبة عظيمة يقلّ لها الصبر ويرقّ لها التجلّد فإنّ المصيبة بفراقك أعظم، وكما صبرت في تلك على كونها أشدّ فلإن أصبر على هذه أولى. والتأسي الإقتداء بالصبر في هذه المصيبة كالصبر في تلك.

وقوله: فلقد وسّدتك. إلى قوله: نفسك.

كالشرح للمصيبة به ﷺ ومقاساتها عند تلحيده وعند فيضان نفسه وهي دمه بين صدره ونحره، وكالتذكير لنفسه بها.

وقوله: فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

امتثال لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

وقوله: فلقد استرجعت الوديعة. إلى قوله: الرهينة.

استعار لفظ الوديعة والرهينة لتلك النفس، ووجه الإستعارة الأولى أنّ النفوس في هذه الأبدان تشبه الودائع والأمانات في كونها تسترجع إلى عاملها في وجوب المحافظة عليها من المهلكات، ويحتمل أن يريد ما هو المتعارف بين الناس من كون المرأة وديعة الرجل كما يقال: النساء ودائع الكرام، ووجه الثانية أنّ كل نفس رهينة على الوفاء بالميثاق الذي واثقها الله تعالى به، والعهد الذي أخذ عليها حين الإهباط إلى عالم الحسّ والخيال أن ترجع إليه سالمة من سخطه، عاملة بأوامره غير منحرفة من صراطه الوضوح على لسان رسوله ﷺ فإن وفيت بعهدها خرجت من وثاق الرهن وضوعف لها الأجر كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] وإن نكثت وارتكبت بما نهيت عنه بقيت رهينة بعملها كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] والرهينة تصدق على الذكر والأنثى وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقوله: أمّا حزني. إلى قوله: مقيم.

صورة حاله بعدهما على سبيل الشكاية، وكنّى بالدار عن الجنّة لأنّه ممّن بشّر بها.

وقوله: وستنبّك ابنتك. إلى قوله: الذكر.

رمز للتشكّي إلى الرسول ﷺ من أمّته بعده فيما كان يعتقده حقّاً له من الخلافة ونحلة فدك لفاطمة عليها السلام فزحزحا عنهما مع نوع من الاهتضام له، والغلظة عليه في القول على قرب عهدهم بالرسول ﷺ وطراوة الذكر الذي هو القرآن الآمر بمودّة القربى.

وقوله: والسلام عليكما. إلى آخره.

صورة وداع المحبّين الناصحين بجاري العادة.

وقوله: وإن أقم. إلى قوله: الصابرين.

تنزيه لنفسه عمّا عساه يعرض لبعض من يلازم القبور لشدّة الجزع والأسف عن وهم أنّه لا عوض عن ذلك الفائت والأجر على التعزّي والصبر عنه، وما وعد الله به الصابرين على نزول المصائب هو صلاته ورحمته في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]. وبالله التوفيق.

١٩٥ - ومن كلام له عليه السلام

في التزهيد من الدنيا والترغيب في الآخرة

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً، وَلا تُخَلِّفُوا كُلاً فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ.

أقول: حاصل الفصل التنفير عن الدنيا والترغيب في الآخرة بذكر الغاية من وجودهما فتكون الدنيا مجازاً: أي يسلك بها إلى الآخرة سلوكاً اختيارياً كسلوك عباد الله الصالحين إليه، واضطرارياً كعبور الكلّ إلى الآخرة بالموت، وأراد هنا الاضطراريّ، وهاتان القرينتان كالمقدّمة لقوله: فخذوا من ممرّكم لمقرّكم.

وقوله: ولا تهتكوا. إلى قوله: أسراركم.

أي لمجاهرته بالمعصية فإنّه إذا كان يعلم أسراركم فهو بعلم ظواهركم أولى.

وقوله: وأخرجوا، إلى قوله: أبدانكم.

أمر لهم بالزهد في الدنيا قبل الموت، وكنّى عنه بإخراج القلوب منها. يقال: خرج فلان عن كذا، وأخرج نفسه من كذا إذا أعرض عنه وتبرّأ منه.

وقوله: ففيها اختبرتم.

إشارة إلى قصد العناية الإلهيّة منها، وقد عرفت معنى الاختبار، ولغيرها خلقتم: أي لنيل السعادة في الآخرة بالذات، أو الشقاوة لمن حرمها بالعرض.

وقوله: إنّ المرء. إلى قوله: قدّم.

أي ما ترك من متاع الدنيا أو ما قدّم من الأعمال الصالحة، وإنّما قرن ذكر الناس وما يُسألون عنه بذكر الملائكة وما يُسألون عنه لينبّه على شرف الأعمال المسعدة في الآخرة على متاع الدنيا لكون الأوّل مطلوب الملائكة وما تعتنون بالفحص عنه، وكون الثاني معتنى الناس الغافلين، وفي لفظ ما ترك وما قدّم لطف شبيه (تنبيه خ) على أنّ متاع الدنيا مفارق متروك والأعمال الصالحة مقدّمة باقية نافعة للمرء في معاده فينبغي أن تكون العناية بها دون المفارق المتروك.

وقوله: لله آباؤكم.

كلمة تقولها العرب لتعظيم المخاطب بنسبته أو بنسبة أبيه إلى الله يقال: لله أنت ولله أبوك، وقيل: اللام للعاقبة: أي إلى الله تصير آباؤكم لكن بذلك يخرج الكلام عن معنى التعجّب والاستعظام.

وقوله: فقدّموا بعضاً. إلى آخره.

أي فقدّموا بعضاً من متاع الدنيا كالصدقات ونحوها يكن لكم ثوابها في الآخرة كقوله صلى الله عليه وآله: يا ابن آدم ليس لك من دنياك إلاّ ثلاث: ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأبقيت، ولا تخلّفوها بأسرها لغيركم فيكون عليكم وزرها، وقد علمت كيفيّة استلزام الصدقة والزكاة ونحوها للملكات الفاضلة والثواب الأخروي، واستلزام البخل وإدخار المال للشقاوة الأخرويّة، وإنّما خصّص البعض بالتقديم لأنّ حرمان الورثة لا يجوز، ونهى عن تخليف الكلّ لأنّ ترك الزكاة والصدقة لا يجوز، وروي: يكن لكم قرضاً ويكن عليكم كلاّ وهو كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] ولفظ القرض مستعار، ووجه الاستعارة أنّ القرض يستلزم في العادة الطلب من المقترض وشكره لمقرضه وأداه إليه فأشبه ذلك تكرر أوامر الله الطالبة للزكاة والصدقة وشكر الله للمنفقين في سبيله وجزاؤه للمتصدّقين في الآخرة بأضعاف ما بذلوه وأنفس كميّة وكيفيّة من الكلّ الذي لا منفعة فيه من وجود مضرّته، ولمّا كان حفظ المال وتخليفه بعد الموت كذلك لا جرم كان كلاًّ. وبالله التوفيق.

١٩٦ - ومن كلام له عليه السلام

كان كثيراً ما ينادي به أصحابه:

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ، وَمُعْضِلاتُ الْمَحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عَلائِقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم، بخلاف هذه الرواية.

أقول: العرجة والتعريج: الإقامة على المكان

والاحتباس به. وعقبة كؤود: شاقة المصاعد. والملاحظ: جمع ملحظ وهو مصدر أو محلُّ اللحظ وهو النظر بمؤخّر العين. ودانية: مجدّدة. ومفظعات الأمور: عظائمها وشدائدها المجاوزة حدّ المقدار المعتاد. ومعضلات المحذور: ما ثقل منها وأمال.

ومدار الفصل على الأمر بالتجهيز من الدنيا وهو الاستعداد للسفر إلى الله بما يحتاج إليه المسافرون إلى حضرته من الزاد المبلغ وهو التقوى، والرحيل يحتمل أن يريد به السفر بالموت فيكون المنادى هو حوادث الأيّام الداعية بضرورتها للأمزجة إلى الانهدام، ويحتمل أن يريد به السفر إلى الله بالرياضة الكاملة، والمنادى بذلك هو الرسول ﷺ والكتاب العزيز وأولياء الله. ثمّ على الأمر بإقلال التعريج على الدنيا: أي بقلة الالتفات إليها إلاّ على القدر الضروري منها وهو الزهد. ثمّ بالانقلاب عنها بصالح ما يحضرهم في الدنيا ويمكنهم إعداده والاستعداد به وهو الأعمال الصالحة والتقوى.

وقوله: فإنّ أمامكم عقبة كؤوداً.

استعار لفظ العقبة بوصف الكؤود، ووجه المشابهة شدّة الملاقاة وقطع منازله في حال تألم النفوس إلى آخر الموت، وأراد بالمنازل المخوفة المهولة منازل الآخرة بعد من القبر وسائر درجات النفوس في الشقاوة والأهوال الأخرويّة وظاهر أنّه لا بدّ من ورود تلك المنازل والوقوف عندها إلى حين عبورها خصوصاً أصحاب الملكات الرديئة والعلائق الدنيّة البدنيّة فإنّ وقوفهم بتلك المنازل أطول وشدائدهم فيها أهول.

وقوله: واعلموا. إلى قوله: فيكم.

أخذ بعض لوازم المستعار وهو الملاحظة وذويها، وكنّى بذلك عن كونها هم بالرصد لا تنقطع عنهم، وروى دانية: أي قريبة منهم، وكذلك المخالب ونشبتها كناية عن لحوق الآفات والأمراض المهلكة لهم، ومعنى التشبيه هٰهنا تشبيه المقدّر القريب وقوعه وهو لحوق الموت لهم، ونسبة مخالب المنية فيهم بوقوع ذلك في السرعة، والباء في بمخالبها للالصاق، والواوان في قوله: وقد للحال.

وقوله: وقد دهمتكم. إلى قوله: المحذور.

كناية عن لحوق شدائد الموت ومثقلات الظهور المحذورة وهي الذنوب.

وقوله: فقطّعوا علائق الدنيا.

أمر بالزهد الحقيقيّ فيها والتخفيف منها بترك الفضول والاستكثار من متاعها، واستظهروا بزاد التقوى: أي اتّخذوه ظهيراً لكم على مشاقّ السفر إلى الآخرة، وبالله التوفيق.

١٩٧ - ومن كلام له عليه السلام

كلّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتهما، والاستعانة في الأمور بهما:

لَقَدْ نَقِمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً. أَلا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللّٰهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلافَةِ رَغْبَةٌ، وَلا فِي الْوِلايَةِ إِرْبَةٌ، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلا عَنْ غَيْرِكُمَا. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلا وَلِيتُهُ هَوىً مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللّٰهِ، عِنْدِي وَلا لِغَيْرِكُمَا فِي هٰذَا عُتْبَى. أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام : رَحِمَ اللّهُ امْرَءاً رأىٰ حقّاً فَأعَانَ عَلَيْهِ، أوْ رأىٰ جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

أقول: أرجأتما: أخرتما. واستأثر: استبدّ. الإربة: الحاجة. وأفضت: وصلت. والعتبى: الرجوع عن الإساءة.

واعلم أنّ الرجلين كانا يؤمّلان الأمر لنفسيهما فلمّا صار إليه عليه السلام عادا إلى رجاء أن يداخلهما في أمره وأن يزد لهما في العطاء على غيرهما كما فضّل بعض الأئمّة من قبله وأن يشاركهما في أكثر الآراء المصلحيّة محبّة منهما للجاه ونظراً إلى محلّهما وشرفهما لكنّ الرجل لمّا جعل دليله الكتاب العزيز والسنّة النبويّة وكان هو القويّ على تفريع الأحكام منهما دون غيره وصاحب أسرارهما كما علمت رجوع أكابر الصحابة والخلفاء السابقين إليه في كثير من الأحكام لا جرم لم يكن به حاجة إلى الاستشارة فيما يقع إليه من الوقائع، وأشار باليسير الذي نقماه إلى ترك مشورتهما وتسويتهما بغيرهما في العطاء وإن كان عندهما صعباً فهو لكونه عنده غير حقّ في غاية من السهولة، والكسير الذي أرجاه ما أخّراه من حقّه ولم يوفياه إيّاه، وروي كثيراً بالثاء بثلاث نقط، وأشار به إلى ما يعود إلى صلاح المسلمين من الآراء التي ينبغي أن يتحدّث فيها، ويحتمل أن يريد أنّ الذي أبدياه ونقماه بعض ممّا في أنفسيهما، وقد دلّ ذلك على أنّ في أنفسيهما أشياء كثيرة وراء ما ذكراه لم يقولاه.

وقوله: ألا تخبراني. إلى قوله: بابه.

استفسار عن الحقّ الذي نقما تركه، وأشار إلى وجوه الحقّ وجهاته المتعارفة المعتادة، وتلخيصه أنّ الحقّ الذي تنقمان على تركه إمّا أن يكون متعلّقاً بكما أو بغيركما من المسلمين، والأوّل إمّا أن يكون قسماً استأثرت به أو غيره من الحقوق دفعتكما عنه ظلماً، والثاني إمّا أن يكون تركه منّي ضعفاً أو جهلاً به أو خطأً لدليل الحكم فيه، والاستفهام في الأقسام كلّها استفهام إنكار لها ومستند منعه وإنكاره لها ظاهر فإنّ التسوية في العطاء سنّة الرسول فيجب اتّباعها، والاستشارة في الحوادث ونحوها إنّما يجب مع عدم الحكم في الواقعة أو مع جهله ولم يكن عادماً لأحكام الوقائع الواردة عليه ولا جاهلاً بها، وكذلك لم يترك حقّاً لأحد من المسلمين عن ضعف منه لأنّه كان خليفة الوقت ولا عن جهل بحكم ولا بدليله لأنّه كان أعلم الأمّة بأحكام الله، ولمّا كان الذي نقماه عليه في تلك الحال من الأقسام المذكورة إنّما هو ترك مشورتهما والتسوية في العطاء بينهما وبين غيرهما أشار إلى الجواب عن الأوّل بقوله: والله ما كانت. إلى قوله: ولا عن غيركما.

فقوله: والله. إلى قوله: حملتموني عليها.

كالمقدّمة في الجواب المكاسرة من توهّمها رغبته في الخلافة ومحبّته للملك والسلطان للاستئثار عليهما ونحو ذلك فإنّه إذا انكسر ذلك الوهم لم يبق علّة طلبه للولاية إلاّ نصرة الحقّ وإقامته كما صرّح هو به في غير موضع وحينئذ تندفع شبهتها عنه.

وقوله: فلمّا أفضت. إلى قوله: فاقتديته.

وجه الجواب دلّ به على صغرى القياس فيه، وخلاصته: أي إنّما أحكم بالكتاب فأتّبعه وأقتدي بالسنّة، وتقدير الكبرى وكلّ من فعل ذلك فلا حاجة به في الحكم إلى الرأي.

وقوله: فلم أحتج. إلى قوله: غيركما.

كالنتيجة.

وقوله: ولا وقع حكم جهلته.

أحد الأقسام التي استفهم عنها على سبيل الإنكار أوّلاً قد صرّح بإنكاره هٰهنا ومنعه على تقدير دعواهم له. ثمّ بتسليمه تسليم جدل أنّه لو وقع لم يكن يرغب عنهما ولا عن غيرهما من المسلمين والاستشارة فيه. ثم ذكر الأمر الثاني ممّا نقماه عليه فقال: وأمّا ما ذكرتما من الأمر الأسوة: أي أسوتكما بغيركما في العطاء، وأجاب عنه بقوله: فإنّ ذلك أمر. إلى قوله: حكمه.

فقوله: ولا ولّيته هوى منّي.

أي لم أجعل الحاكم في ذلك هواي، وروي ولا ولّيته هوىً منّي على أن يكون هوى مفعولاً له:

وخلاصته أنّ حكمي بالتسوية في القسمة لم يكن عن رأي منّي ولا هوى اتبعته ولكن وجدته أنا وأنتم قد فرغ الله منه: أي من القضاء به في اللوح المحفوظ وإنزاله، ويقال للأمر الثابت الذي لا يحتاج إلى إيجاد أو تكميل مفروغ منه، ونسبة الفراغ إلى الله مجاز لمناسبته ما قضاه بفعل العبد الذي فرغ من عمله.

وقوله: فلم أحتج إليكما. إلى قوله: حكمه.

أي لمّا وجدته كذلك لم أمل إليكما بما يرضيكما مع مخالفته لما جاء به الرسول ﷺ، وروي فلم أحتجّ إليكما: أي في الإرشاد إلى أحكام الله بعد فراغه منها.

وقوله: فليس لكما. إلى قوله: عتبى.

لازم بنتيجتي قياسيّة في الجوابين فإنّه لمّا ثبت أنّه لا حقّ لهما فيما نقماه عليه لم يكن عليه أن يعتب. ثمّ أخذ في الدعاء لهما ولنفسه بأخذ الله قلوبهم إلى الحقّ وإلهامهم الصبر عن الميول الباطلة وعلى الحقّ. ثمّ دعا برحمة الله لرجل رأى حقاً وعدلاً وأعان على العمل به، أو رأي جوراً وظلماً فردّه وأعان على صاحبه جذباً لهما إلى ذلك. وبالله التوفيق.

١٩٨ - ومن كلام له عليه السلام

وقد سمع قوماً من أصحابه يسبُّون أهل الشام أيام حربهم بصفين.

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلٰكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.

أقول: لهج به. أولع وحرص عليه.

وحاصل الفصل تأديب قومه وإرشادهم إلى السيرة الحسنة وجذب لهم عن تعويدها وتمرينها بكلام الصالحين، ونبّه بكراهته للسبّ والنهي عنه على تحريمه، ونحوه إشارة الرسول ﷺ بقوله: ما بعثت لعّاناً ولا سبّاباً. وقوله: اللهم إنّي بشر فإذا دعوت على إنسان فاجعل دعائي له لا عليه واهده إلى الصراط المستقيم.

وقوله: لو وصفتم. إلى قوله: في العذر.

أي لو عدلتم عن السباب إلى وصف أعمالهم وتذكيرهم بكونهم ظالمين لكم وضالّين عن السبيل ذكراً على وجه النصيحة والهداية لهم. ثمّ قلتم مكان سبّكم إيّاهم هذا الدعاء لكان أصوب في القول ممّا ذكرتموه من رذيلة السباب ولأنّ في تذكيرهم بأحوالهم ونصيحتهم إيّاهم فائدة وهي رجاء أن يعودوا إلى الحقّ ولأنّ ذلك أبلغ في العذر إليهم من غيره. إذ لكم أن تقولوا بعد ذلك إنّكم نصحتموهم وطلبتم منهم العتبى فلم يستعتبوا.

وقوله: وقلتم.

عطف على قوله: وصفتم ولو مقدّرة عليه وجوابها مقدّر بعد تمام الدعاء وحذفا لدلالة الأولى عليهما، والتقدير لو قلتم هذا الدعاء لكان أصوب وأبلغ في العذر، والدعاء الذي علّمهم عليه السلام إيّاه مطابق لصورة حال الحرب، واشتمل على طلب حقن الدماء أولاً لأنّ سفك الدماء هو الخوف الحاضر، وعلى طلب علّته وهي إصلاح ذات البين: أي ما بيننا وبينهم من الأحوال الموجبة للافتراق حتّى تكون أحوال أُلفة واتّفاق، ولمّا كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: ذات البيت كقولك: اسقني ذا إنائك: أي ما في إنائك من الشراب، وقيل ذات البين حقيقة الفرقة: أي صلح حقيقة الفرقة بيننا وبينهم وبدّلها بالألفة. ثمّ على طلب العلّة الحاسمة للفرقة الموجبة لاصلاحها وهي هداهم من ضلالتهم بمعرفة من جهل الحقّ له وارعوى به من غباوته، وهي طرف التفريط من فضيلة الحكمة، وعداوته وهو طرف الإفراط من فضيلة العدل، وقد كانت الرذيلتان في اصحاب معاوية فإنّه لما قصرت وطأتهم عن وجه الحق وغلبت عليهم الشبهة بغوا وتعدّوا ولهجوا بعدوانهم، وروي عوض الغيّ العمى وهو عمى البصيرة وغباوتها.

١٩٩ - وقال عليه السلام

في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن عليه السلام يتسرّع إلى الحرب.

امْلِكُوا عَنِّي هٰذَا الْغُلَامَ لا يَهُدَّنِي، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ بِهٰذَيْنِ - يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ - عَلَى الْمَوْتِ لِئَلاَّ يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -.

قال الرضي أبو الحسن: قوله عليه السلام: «املكوا عني هذا الغلام» من أعلى الكلام وأفصحه.

أقول: املكوه: شدّوه واضبطوه. ويهدّني: يكسرني. ونفست بالكسر أنفس بالفتح: أي أضنّ وأبخل.

ولمّا كان وجود الولد المنتفع ممّا يشدّ القوّة وتقوى به النفس خصوصاً مثل الحسن عليه السلام كنّى بقوله: لا يهدّني على تقدير هلاكه عن إضعافه لركنه وانكسار نفسه بذلك. ثمّ على علّة أخرى لوجوب المحافظة عليه مع أخيه عليه السلام وهي المحافظة على نسل الرسول صلى الله عليه وآله.

٢٠٠ - وقال عليه السلام

لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ. حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!

أقول: نهكتكم: خلقتكم.

فقوله: على ما أحب.

أي من الطاعة لي، ولفظ النهك واستناده إلى الحرب استعارة لإضعافها لهم ملاحظة لشبههم بالثوب الذي أخلقه اللبس، وتشبّهها بمستعملة في كونها سبباً لذلك الإضعاف: أي لم أزل كذلك إلى تلك الغاية.

وقوله: والله أخذت منكم وتركت.

كناية عن تصرّفها فيهم بوجوه التصرّف وهو كالعذر لهم، وإرادته بقوله: وهي لعدوّكم أنهك لكي لا يتعاجزوا بعذر إنهاكها لهم. ثمّ أخذ في التشكّي منهم إليهم وعتابهم على عصيانهم له وحكمهم عليه بالرجوع إلى التحكيم حتّى صار مأموراً لهم ومنهيّاً بعد كونه آمراً فيهم وناهياً، وذلك من معكوس الحكم ومضادّ لما ينبغي لهم.

وقوله: وقد أحببتم البقاء.

أي بترك القتال وهو كالتوبيخ لهم على ذلك.

وقوله: وليس. إلى آخره.

أي ليس لي قدرة على ذلك وإن كان له ذلك بحسب المصلحة والشرع.

٢٠١ - ومن كلام له عليه السلام

بالبصرة، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي - وهو من أصحابه - يعوده، فلما رأى سعة داره قال:

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هٰذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟ وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكر إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: عليّ به، فلما جاء قال:

يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذٰلِكَ!

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هٰذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ!

قَالَ: وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ

عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك! قال:

أقول: استهام بك: أي أذهبك لوجهك، وزيّن لك الهيام، وهو الذهاب في التيه. وجشوبة المأكل: غلظته وخشونته، وقيل: الطعام الجشب: الذي لا إدام معه. وتبيّغ: تهيّج.

وقد استفهمه عن غرضه في توسعة داره استفهام توبيخ وإنكار لما أنّ ذلك ينافي الزهد في الدنيا والحرص في الآخرة. ثمّ عن كونه أحوج إليها في الآخرة استفهام تثبيت وتقرير، وأراد أنّك لو كنت أنفقت ما أخرجته على بنائها من المال في سبيل الله لكان أولى ولكنت إليه أحوج منها، وفي رواية بإثبات الهمزة مع ما في قوله: ما أنت.

وقوله: وبلى. إلى آخره.

هداية له إلى وجوه استعمالها في مرضاة الله والتقرّب بها إليه بعد التفريط في بنائها، وعدّ وجوه المبارّ المتعلّقة بها. ومطالع الحقوق وجوهها الشرعيّة المتعلّقة به كالزكاة والصدقة وغيرهما، وظاهر كونها مبلّغة إلى الآخرة عند إخراج تلك الحقوق منها وفيها، ومقرّبة إلى الله.

وقوله: عليّ به.

ينوب مناب فعل الأمر: أي جيئوا به، وعديّ تصغير عدوّ، وأصله عديو فحذفوا إحدى الواوين وقلبوا الثانية ياء تخفيفاً وأدغموا فيها ياء التصغير، وإنّما صغّره استصغاراً له باعتبار أن شيطانه لم يعدّه إلى كبيرة بل قاده إلى أمر وإن كان خارجاً به عن الشريعة إلاّ أنّه قريب من السلامة، ودخل عليه بالخدعة في رأي الصالحين، وكان شيطانه بذلك الاعتبار صغيراً بالنسبة إلى شيطان آخر وهو باعتبار القيادة لذلك الوسواس عديّ نفسه، وقيل: بل صغّره من جهة حقارة فعله ذلك لكونه عن جهل منه وإنّما منعه من هذه الطريقة لكونه لم يترك الدنيا على وجه الترك بل كان لمشاركة هواه لعقله، وكان تركه ذلك مستلزماً لإهمال حقوق تجب عليه في الشريعة وتلزمه فنبّه بقوله: لقد استهام بك الخبيث على أنّ فعله ذلك عن مشاركة الشيطان ولم يكن عقليّة خالصة، وبقوله: أما رحمت أهلك وولدك على الحقوق اللازمة له من قبلهم، وقد أهملها بفعله ذلك.

فقوله: أترى الله. إلى قوله: ذلك.

في مقام التوبيخ له على ذلك الترك وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] الآية، والحاصل أنّ ترك الدنيا بالكليّة ليس هو مطلوب الشارع من الزهد فيها والتخلّي عنها لأنّ الشارع يراعي نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح بقاء النوع الإنساني وترك الدنيا وإهمالها بالكليّة يعدم ذلك النظام وينافيه بل الذي يأمر به الشارع القصد في الدنيا واستعمال متاعها على القوانين التي وردت بها الرسل والوقوف فيها عند الحدود المضروبة في شرايعهم دون تعدّيها كما أشار إليها عليه السلام من منع هذا الرجل، وأمّا السالكون من الصوفيّة بعد عصر الصحابة فهم على الطريقين: فمنهم من يختار التقشّف وترك الطيّبات وهجر اللذّات رأساً، ومنهم من يؤثر الترف، والذي يفعله المحقّقون من السالكين من التقشّف فلا ينافي الشريعة لعلمهم بأسرارها وطريقتهم تلك أقرب إلى السلامة من طريق المترفين لكون الترف مجال الشيطان، وقد كان سلوك الرسول صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وجماعة من أكابر الصحابة أميل إلى طريق التقشّف لكن مع مشاركتهم لأهل الدنيا في تدبير أحوال المدن وصلاح العالم غير منقطعين عن أهلها ولا منعزلين فأما اعتراض عاصم على علي عليه السلام في نهيه له فحاصله أنّه قاس نفسه في ترك الدنيا عليه، وتقديره إنّك إذا نهيتني عن ذلك فكيف بك؟ أي فكيف بما أرى من هذه الحال وأنت المقتدى به، أو فكيف أصنع بك مع الحال التي أنت عليها، وإنّما ينبغي لي أن أقتدي بك فأجابه عليه السلام بجواب إقناعيّ بيّن فيه الفرق بينه وبينه، وهو إنّي إنّما فعلت ذلك لكوني إماماً وكلّ إمام فرض الله عليه أن يقدّر نفسه بضعفة الناس: أي ليسوّيها بهم في حالهم كيلا يهيّج بالفقير فقره فيضعف

عن حمله فيكفر أو يفسق وقد كان عليه السلام قبل الخلافة كذلك، والجواب المحقّق هو ما قلناه من كون هذه الطريق أسلم، وأمّا الفرق بينهما فيرجع إلى أنّ عاصماً سلك سلك على غير علم بكيفيّة السلوك مع ترك الحقوق التي تلزمه لأهله وولده فكانت حاله التي فارقها أولى له. وبالله التوفيق.

٢٠٢ - ومن كلام له عليه السلام

وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال عليه السلام:

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً. وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالإِسْلامِ، لا يَتَأَثَّمُ وَلا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلٰكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلالَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوْهُمُ الأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللّٰهُ، فَهٰذَا أَحَدُ الأَرْبَعَةِ.

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذٰلِكَ لَرَفَضَهُ!.

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللّٰهِ، وَلا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الْكَلامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلامٌ خَاصٌّ، وَكَلامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللّٰهُ، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلا مَا عَنَى رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لا يَمُرُّ بِي مِنْ ذٰلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ. فَهٰذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلافِهِمْ، وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

أقول: أحاديث البدع: أي الأحاديث المبتدعة بعد الرسول ﷺ المنقولة عنه، وما يبتني عليها من الأفعال المبتدعة في الدين بدعة أيضاً. وتبوّء مقعده: نزله واستقرّ فيه. ولقف عنه: تناول بسرعة. ووهم بالكسر: غلط، وبالفتح ذهب وهمه إلى شيء وهو يريد غيره. وجنّب عنه: أخذ عنه جانباً.

وقوله: إنّ في أيدي الناس. إلى قوله: وحفظاً ووهماً.

تعديد لأنواع الكلام الواقع إلى الناس نقلاً عن الرسول ﷺ والصدق والكذب من خواصّ الخبر، والحقّ والباطل أعمّ منهما لصدقهما على الأفعال وعلى الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمتشابه، وقد مضى تفسير هذه المفهومات، وأمّا الحفظ فهو ما حفظ عن رسول الله كما هو، والوهم ما غلط فيه ووهم مثلاً أنّه عامّ وهو خاصّ أو أنّه ثابت وهو منسوخ إلى غير ذلك.

وقوله: قد كذب على رسول الله ﷺ على عهده. إلى قوله: النار.

فذلك الكذب نحو ما روي أنّ رجلاً سرق رداء الرسول ﷺ وخرج إلى قوم وقال هذا رداء محمّد أعطانيه لتمكّنوني من تلك المرأة واستنكروا ذلك فبعثوا من سأل الرسول ﷺ عن ذلك فقام الرجل الكاذب فشرب ماء فلدغته حيّة فمات، وكان النبيّ ﷺ حين سمع بتلك الحال قال لعليّ: خذ السيف وانطلق فإن وجدته وقد كفيت فاحرقه بالنار فجاءه وأمر بإحراقه فكان ذلك سبب الخبر المذكور، واعلم أنّ العلماء ذكروا في بيان أنّه لا بدّ أن يكذّب عليه دليلاً فقالوا: قد نقل عنه ﷺ أنّه قال: سيكذّب عليّ فإن كان الخبر صدقاً فلا بد أن يكذّب عليه، وإن كان كذباً فقد كذّب عليه، ثمّ شرع في قسمة رجال الحديث وقسّمهم إلى أربعة أقسام، ودلّ الحصر بقوله: ليس لهم خامس، ووجه الحصر في الأقسام الأربعة أنّ الناقل للحديث عنه ﷺ المتّسمين بالإسلام إمّا منافق أو لا، والثاني إمّا أن يكون قد وهم فيه أو لا، والثاني إمّا أن لا يكون قد عرف ما يتعلّق به من شرائط الرواية أو يكون. فالأول وهو المنافق ينقل كما أراد سواء كان أصل الحديث كذباً أو أنّ له أصلاً حرّفه وزاد فيه ونقص بحسب هواه فهو ضالّ مضلّ تعمّداً وقصداً، والثاني يرويه كما فهم ووهم فهو ضالّ مضلّ سهواً، والثالث يروي ما سمع فضلاله وإضلاله عرضي، والرابع يؤدّيه كما سمعه وكما هو فهو هادٍ مهديّ فأشار عليه السلام إلى القسم الأوّل بقوله: رجل منافق. إلى قوله: فهذا أحد الأربعة.

فقوله: متصنّع بالإسلام.

أي يظهره شعاراً له.

وقوله: لا يتأثّم.

أي: لا يعرف بالإثم ولزوم العقاب عليه في الآخرة فلا يحذر منه، ووجه دخول الشبهة في قبوله قوله: كونه ظاهر الإسلام والصحبة للرسول ﷺ وسماع قوله مع كون الناس لا يعلمون باطنه ونفاقه وما أخبر به الله تعالى عن المنافقين كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء: ١٤٥] وما وصفهم به كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[المنافقون: ١] الآية دلّت على وصفهم بالكذب في مطابقة عقائدهم لألسنتهم في الشهادة بأنّه رسول حقّ ومن كان يعتقد أنّه غير رسول فإنّه مظنّة الكذب عليه، وأئمّة الضلالة بنو أميّة، ودعاتهم إلى النار دعاتهم إلى اتّباعهم فيما يخالف الدين، وذلك الإتّباع مستلزم لدخول النار، والزور والبهتان إشارة إلى ما كانوا يتقربون به إلى بني أُميّة من وضع الأخبار عن الرسول ﷺ في فضلهم وأخذهم على ذلك الأجر من أولئك الأئمّة وتوليتهم الأعمال والإمرة على الناس.

وقوله: وإنّما الناس. إلى قوله: إلاّ من عصم.

إشارة إلى علّة فعل المنافق لما يفعل فظاهر أنّ حبّ الدنيا هو الغالب على الناس من المنافقين وغيرهم لقربهم من المحسوس وجهلهم بأحوال الآخرة وما يراد بهم من هذه الحياة إلاّ من هدى الله فعصمه بالجذب في طريق هدايته إليه عن محبّة الأمور الباطلة، وفيه إيماء إلى قلّة الصالحين كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص: ٢٤] وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبإ: ١٣] وإنّما قال: ثمّ بقوا بعده عليه السلام ثم

حكي حالهم مع أئمة الضلال وإن كانت الأئمة المشار إليهم لم يوجدوا بعد إمّا تنزيلاً لما لا بدّ منه من ذلك المعلوم له منزلة الواقع أو إشارة إلى من بقي منهم بعد الرسول صلى الله عليه وآله وتقرّب إلى معاوية لأنّه إذ ذاك إمام ضلالة، وأشار إلى القسم الثاني بقوله: ورجل سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً لم يحفظه. إلى قوله: لرفضه، وذلك أن يسمع من الرسول صلى الله عليه وآله كلاماً فيتصوّر منه معنى غير ما يريده الرسول. ثمّ لا يحفظ اللفظ بعينه فيورده بعبارته الدالّة على ما تصوّره من المعنى فلا يكون قد حفظه وتصوّره على وجهه المقصود للرسول فوهم فيه ولم يتعمّد كذباً لوهمه فهو في يديه يرويه ويعمل به على وفق ما تصوّر منه ويسنده إلى الرسول صلى الله عليه وآله وعلّة دخول الشبهة على المسلمين فيه هي عدم علمهم بوهمه، وعلّة دخولها عليه في الرواية والعمل هو وهمه حين السماع حتّى لو علم ذلك لترك روايته والعمل به، وأشار إلى القسم الثالث بقوله: ورجل سمع. إلى قوله: لرفضه، وعلّة دخول الشبهة على الراوي وعلى المسلمين واحدة وهو عدم علمهم بأنّه منسوخ، وأشار إلى القسم الرابع بقوله: وآخر رابع. إلى قوله: ومحكمه.

فقوله: وعرف الخاصّ والعامّ فوضع كلّ شيء موضعه.

أي عمل بالعامّ فيما عدا صورة التخصيص.

وقوله: وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى آخره.

تنبيه على صحة القسم الثالث وداخل فيه فإنّ منهم من كان يسمع الكلام ذي الوجهين منه خاصّ ومنه عامّ فلا يعرف أنّ أحدهما مخصّص الآخر أو يسمع العامّ دون الخاصّ فينقل العامّ بوجهه على غير معرفة معناه أو أنّه خرج على سبب خاصّ فهو مقصور عليه وانتقل سببه فيعتقده عاماً أو أنّه عامّ فيعتقده مقصوراً على السبب ولا يعمل به فيما عدا صورة السبب فيتبعه الناس في ذلك. وكان قوله: وليس كلّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله. إلى آخره جواب سؤال مقدّر كأن يقال: فكيف يقع الاشتباه عليهم في قوله مع كثرتهم وتواضعه لهم فلا يسألونه فأجاب أنّهم ليسوا بأسرهم كانوا يسألونه لاحترامهم له وتعظيمه في قلوبهم، وإنّما كان يسأله آحادهم حتّى كانوا يحبّون أن يجيء الأعرابي أو الطارىء فيسأله حتّى يسمعوا ويفتح لهم باب السؤال، ونبّه على أنّه صلى الله عليه وآله كان يستقصي في سؤاله صلى الله عليه وآله عن كلّ ما يشتبه ويحفظ جوابه ليرجع الناس إلى فضيلته والاقتباس من أنواره.

٢٠٣ - ومن خطبة له عليه السلام

في عجيب صنعة الكون

وَكَانَ مِنَ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمٰوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ. وَأَرْسَى أَرْضاً يَحْمِلُهَا الأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ. قَدْ ذَلَّ لأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ. وَجَبَلَ جَلامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَتَهَا، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لا يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ؛ ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

أقول: تعاصفه: تراد أمواجه وتلاطمها وكسر بعضها بعضاً. والمثعنجر: السيال الكثير الماء. والقمقام: البحر. قيل: سمّي بذلك لاجتماعه. وجبل: خلق. وجلاميدها: صخورها. وأنهد: رفع. وأساخ:

أدخل. وأنصابها: جمع نصب وهو ما انتصب فيها. والأنشاز: جمع نشز وهو العوالي منها. وأرّزها فيها: أي وكّرها وغرزها، وروي أرزها مخفّفة: أي أثبتها، وعليه نسخة الرضي والأولى أصحّ وأظهر. وأكنافها: أقطارها. وتكركره: تردّده وتصرّفه.

وقد أشار في هذا الفصل إلى أنّ أصل الأجرام الأرضية والسماويّة ومادّتها هو الماء، ووصف كيفيّة خلقتها عنه وكيفيّة خلقة الأرض والسماوات والجبال، وقد مرّ بيان كل ذلك مستقصى في الخطبة الأولى، وفي هذا الفصل فوائد:

الأولى: أنّه لمّا كانت هذه الأجرام في غاية القوّة والعظمة ومع ذلك ففيها من عجائب الصنع وبدائعه ما يبهر العقول ويعجزها عن كيفيّة شرحه لا جرم نسبها إلى اقتدار جبروته وعظمته وبديع لطائف صنعته تنبيهاً بالاعتبار الأولى على أنّه الأعظم المطلق، وبالثاني على لطفه وحكمته التامّة، وكنّى باليبس الجامد عن الأرض.

الثانية: الضمير في منه للبحر وفي حدّه إمّا لله أو لأمره وقيامها على حدّه كناية عن وقوفها على ما حدّه من المقدار والشكل والهيئة والنهايات ونحوها وعدم خروجها عن ذلك وتجاوزها له، والضمير المنصوب في يحملها لمعنى اليبس الجامد وهو الأرض، وكذلك في جلاميدها وما بعده في أرساها وما بعده للجبال، وفي جبالها وسهولها وأقطارها للأرض، وفي قواعدها وقلالها وأنشازها للجبال، وقد عرفت كيفيّة ذلك الخلق فيما حكاه عليه السلام في الخطبة الأولى من ثوران الزبد بالريح وارتفاعه إلى الجوّ الواسع وتكوين السماوات عنه.

الثالثة: ذلّة البحر لأمره وإذعانه لهيبته دخوله تحت الإمكان والحاجة إلى قدرته وتصريفها لهو وهو من باب الاستعارة.

الرابعة: قوله: على حركتها: أي حال حركتها لأن على تفيد الحال، وقوله: تسيخ بحملها يفهم منه أنّه لولا الجبال كونها أوتاداً للأرض لمادت وساخت بأهلها. فأمّا كونها مانعة لها من الميدان فقد عرفت وجهه في الخطبة الأولى وأمّا كونها تسيخ لولاها فلأنها إذا مادت انقلبت بأهلها فغاص الوجه الذي هم عليه وذلك مراده بسيخها فالمانع بها من الميدان هو المانع بها أن تسيخ أو تزول عن موضعها.

الخامسة: أشار بإجمادها بعد رطوبة أكنافها إلى أنّ أصلها من زبد الماء كما أشير إليه من قبل، ويحتمل أن يشير بذلك إلى ما كان مغموراً بالماء منها. ثم سال الماء عنه إلى مواضع أسفل منه فخلا وجفّ وهي مواضع كثيرة مسكونة وغير مسكونة.

السادسة: قوله: تمخضه الغمام الذوارف إشارة إلى أنّ البحر إذا وقع فيه المطر يريح ويتمخض ويضطرب كثيراً وذلك لتحريك أوقع المطر له بكثرته وقوّته أو لكثرة اقتران المطر بالرياح فتموّجه، وأغلبها تحريكاً له الرياح الجنوبيّة لانكشافه لها، وقد شاهدنا ذلك كثيراً.

السابعة: لمّا عدّد المخلوقات المذكورة وتصريف القدرة الربّانيّة لها قال: إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى تنبيهاً على وجوه الاعتبار بها لمن يخشى الله، وأراد العلماء لانحصار الخشية فيهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وبالله التوفيق.

٢٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام

كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد أهل الشام في زمانه

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُصْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمٰوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

أقول: النكوص: الرجوع على الأعقاب.

وهذا الفصل من خطبة كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد أهل الشام قال بعد تقاعد أكثرهم عن نصرته: استشهد فيه الله تعالى وملائكته وعباده على من سمع

مقالته العادلة المستقيمة التي هي طريق الله القائدة للناس إلى الرشاد في دينهم ودنياهم المصلحة غير المفسدة لهم وهي دعوته إيّاهم إلى جهاد أعداء الدين والبغاة عليه. ثمّ أعرض عنها وقعد عن نصرته وتباطىء عن إعزاز دينه وأبى إلاّ التأخّر عن طاعته، وفي ذلك الاستشهاد ترغيب إلى الجهاد وتنفير عن التأخّر عنه. إذ كان كأنّه إعلام لله بحال المتخاذلين عن نصرة دينه وقعودهم عمّا أمرهم به من الذبّ عنه فتتحرّك أوهامهم لذلك بالفزع إلى طاعته، وكذلك في وصفه لمقالته بالعدل والإصلاح ترغيب في سماعها وجذب إليها. وفي قوله: ثمّ أنت بعد: أي بعد تلك الشهادة عليه المغني لنا عن نصرته تنبيه على عظمة ملك الله، وتحقير للنفوس المتخاذلة عن نصرة الدين، وفي ذلك الأخذ بالذنب تذكير بوعيد الله وأنّ في ذلك التخاذل ذنب عظيم يؤخذ به العبد. وبالله التوفيق.

٢٠٥ - ومن خطبة له عليه السلام

في تمجيد الله وتعظيمه

الْحَمْدُ للّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، والْبَاطِنِ بِجَلالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلا اكْتِسَابٍ وَلا ازْدِيَادٍ، وَلا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بِلا رَوِيَّةٍ وَلا ضَمِيرٍ، الَّذِي لا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَلا يَسْتَضِيءُ بالأَنْوَارِ، وَلا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالإِبْصَارِ، وَلا عِلْمُهُ بِالإِخْبَارِ.

أقول: حمد الله تعالى باعتبارات إضافية وسلبيّة:

أولها: العليّ عن شبه المخلوقين: أي في ذاته وصفاته وأفعاله وأقواله، وقد علمت كيفيّة ذلك من غير مرّة.

الثاني: الغالب لمقال الواصفين، وذلك الغلب إشارة إلى تعاليه عن إحاطة الأوصاف به وفوته لها وعدم القدرة على ذلك منه، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً.

الثالث: الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين بأعين بصايرهم وأبصارهم.

الرابع: الباطن بجلال عزّته عن فكر المتوهّمين. وقد مرّ بيان هذين الوصفين وفائدة قوله: بجلال عزّته تنزيه بطونه عن الفكر باعتبار جلالته وعزّته عن أن تناله لا باعتبار حقارة وصغر، وإنّما قال: فكر المتوهّمين لأنّ النفس الإنسانيّة حال التفاتها إلى استحالة الأمور العلويّة المجرّدة لا بدّ أنّ يستعين بالقوّة المتخيّلة بباعث الوهم في أن تصوّر تلك الأمور بصورة خياليّة مناسبة لتشبيهها بها وتحطّها إلى الخيال، وقد علمت أنّ الوهم إنّما يدرك ما كان متعلّقاً بمحسوس أو متخيّل من المحسوسات فكلّ أمر يتصوّره الإنسان وهو في هذا العالم سواء كان ذات الله سبحانه أو صفاته أو غير ذلك فلا بدّ أن يكون مشوباً بصورة خياليّة أو معلّقاً بها وهو تعالى منزّه بجلال عزّته عن تكيّف ذلك الفكر له وباطن عنه.

الخامس: العالم المنزّه في كيفيّة علمه عن اكتساب له بعد جهل أو ازدياد منه بعد نقصان أو استفادة له عن غير كما عليه علم المخلوقين.

السادس: المقدّر لجميع الأمور: أي الموجد لجميع الأمور على وفق قضائه كلاًّ بمقدار معلوم تنزّه فيه عن التفكّر والضمير، وأراد بالضمير ما أُضمر من الرويّة.

السابع: الذي لا تغشاه الظلم، ولا يستضيء بالأنوار لتنزّهه عن الجسميّة ولواحقها.

الثامن: ولا يرهقه: أي لا يدركه ليل. ولا يجري عليه نهار، وذلك لتنزّهه عن إحاطة الزمان.

التاسع: ليس إدراكه بالأبصار لتقدّس ذاته عن الحاجة إلى الآلة في الإدراك وغيره.

العاشر: ولا علمه بالأخبار: أي كما عليه كثير من علومنا لتقدّسه عن حاسّة السمع. وبالله التوفيق.

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي الإِصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ،

وَسَهَّل بِهِ الْحُزُونَةَ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلالَ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

أقول: المساورة: المواثبة. وسرّح: فرّق.

وقد أشار إلى بعض فضائل النبي ﷺ وبعض فوائده. فمن فضائله إرساله بالضياء، ولفظ الضياء مستعار لأنوار الإسلام الهادية في سبيل الله إليه، ومنها تقديمه على سائر الأنبياء في الفضيلة وإن كان الكلّ منهم مصطفى، وذكر من فوائده كونه رتق به المفاتق، وكنّى بها عن أمور العالم المتفرّقة وتشتت مصالحه زمان الفترة، ورتقها به كناية عن نظمها به بعد تفرّقها كناية بالمستعار، ومنها كونه ساور به المغالب، وأسند المساورة إلى الله مجازاً باعتبار بعثه للنبيّ بالدين عن أمره لمواثبة مغالبه من المشركين وغيرهم، ومنها كونه ذلّل به الصعوبة: أي صعوبة أهل الجاهليّة وأعداء دين الله، ومنها كونه سهّل به الحزونة: أي حزونة طريق الله بهدايته فيها إلى غاية أن سرّح الضلال والجهل عن يمين النفوس وشمالها، وهو إشارة إلى إلقائه رذيلتي التفريط والإفراط عن ظهور النفوس كسريح جنبتي الحمل عن ظهر الدابة، وهو من ألطف الاستعارات وأبلغها، وبالله التوفيق.

٢٠٦ - ومن خطبة له عليه السلام

يصف جوهر الرسول، ويصف العلماء، ويعظ بالتقوى

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ فَصَلَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً. وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ الأَفْئِدَةَ. فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلايَةِ، وَيَتَلاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ، لا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ. عَلَى ذٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ. فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ، فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ، فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ. فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

أقول: نسخ: أزال وغيّر. والعاهر: الزاني ويصدق على الذكر والأنثى وكذلك الفاجر. والكفاء: الكفاية والمكافأة. والريّة بالكسر: الفعلة منه الري وهي الهيئة التي عليها المرتوي. والريبة: الدغل والغلّ. والتمحيص: الابتلاء والاختبار. والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر. ويرديه: يوقعه في الردى. وأماط: أزال. والحوبة: الإثم.

وأطلق لفظ العدل على العادل مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه، والباري تعالى عادل بالنظر إلى علمه وقضائه: أي لا يقضي في ملكه بأمر إلاّ وهو على وفق النظام الكليّ والحكمة البالغة، ويدخل في ذلك جميع أقواله وأفعاله فإنّه لا يصدر منها شيء إلاّ وهو كذلك، وأمّا الجزئيّات المعدودة شروراً وصورة جور في هذا العالم فإنّها إذا اعتبر كانت شروراً بالنسبة ومع ذلك فهي من لوازم الخير والعدل لا بدّ منها ولا يمكن أن يكون العدل والخير من دونها كما لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً إلاّ وهو ذو شهوة وغضب تلزمها الفساد والشرّ الجزئيّ، ولمّا كان الخير أكثر وكان ترك الخير الكثير لأجل الشرّ القليل شرّاً كثيراً في الجود والحكمة

وجب وجود تلك الشرور الجزئيّة لوجود ملزوماتها، وأشار بقوله: في وصف الرسول صلى الله عليه وآله: سيّد عباده إلى قوله: أنا سيّد ولد آدم ولا فخر.

وقوله: كلّما نسخ الخلق فرقتين.

فنسخ الخلق قسمة كلّ قرن وفرقة إلى خيار وأشرار، والقسمة تغيّر للمقسوم وإزالة عن حال اتحاده.

وقوله: جعله في خيرهما.

إشارة إلى ما روي عنه صلى الله عليه وآله قال المطّلب ابن أبي وداعة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم. ثمّ جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم. ثمّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم. ثمّ جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً.

وقوله: لم يسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر.

أي لم يضرب فيه العاهر بسهم ولم يكن للفجور في أصله شركة يقال: ضرب في كذا بنصيب إذا كان له فيه شرك، وهو إشارة إلى طهارته من قبل أصله عن الزنا كما روي عنه صلى الله عليه وآله لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، وقال صلى الله عليه وآله: لمّا خلق الله آدم أودع نوري في جبينه فما زال ينقله من الآباء الأخاير إلى الأمهات الطواهر حتّى انتهى إلى عبد المطّلب، وقال صلى الله عليه وآله: ولدت من نكاح لا من سفاح.

وقوله: ألا وإنّ الله. إلى قوله: عصما.

ترغيب للسامعين أن يكونوا أهل الجنّة ودعائم الحقّ وعصم الطاعة، وكذلك قوله: وإنّ لكم. إلى قوله: من الله. جذب لهم إلى طاعته بذكر العون منه وكأنّه عنى بالعون القرآن الكريم.

وقوله: يقول على الألسنة، ويثبّت الأفئدة.

تفصيل لوجوه العون منه تعالى، وعونه من جهة القول على الألسنة وعده المطيعين بالثواب العظيم على الطاعة، ومدحه لهم، وتبشيرهم بالجنّة والرضوان منه على ألسنة الرسل فإنّ كلّ ذلك مقوّ على الطاعة ومعين عليها، وأمّا تثبيت الأفئدة فمن جهة الاستعداد لطاعة الله واستلاحة أنواره من كتابه العزيز واستكشاف أسراره كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] وإنّ في القرآن الكريم من المواعظ والزواجر المخوّفة ما يوجب الفزع إلى الله وتثبّت القلوب على طاعته للخلاص منها.

وقوله: فيه كفاء لمكتف.

أي في ذلك القول كفاية لطالبي الاكتفاء: أي الكمالات النفسانيّة، وشفاء لمن طلب الشفاء من أمراض الرذائل الموبقة. ثمّ نبّه على عباد الله الصالحين وصفاتهم ليقتفوا آثارهم ويكونوا منهم فأعلمهم أنّهم هم الذين استحفظهم علمه وأسرار خلقه فمن صفاتهم أمور:

أحدهما: أنّهم يصرفون ما وجب صرفه من غير أهله، ولا يضعون أسراره إلاّ في أهله.

الثاني: يفجّرون عيونه، ولفظ العيون مستعار إمّا لمعادنه وهي أذهان الأنبياء والأولياء وأئمة العلماء، وإمّا لأصوله الطيّبة وحملته التي علموها، ويكون لفظ التفجير مستعار لافادتها وتفريقها وتفصيلها.

الثالث: ويتواصلون بالولاية التي هي نصرة بعضهم لبعض في دين الله وإقامة ناموس شريعته.

الرابع: يتلاقون بالمحبّة فيه التي هي مطلوب الشارع من شريعته حتى يصيروا كنفس واحدة.

الخامس: ويتساقون بكأس رويّة. واستعار لفظ الكأس للعلم: أي يستفيد بعضهم من بعض. ورشّح بذكر الرويّة، وأراد بها تمام الإفادة.

السادس: ويصدرون بريّة: أي يصدر كلّ منهم عن الآخر بفائدة قد ملأت نفسه كمالاً. ولفظ الريّة مستعار.

السابع: كونهم لا تشوبهم الريبة؛ أي لا يتداخل بعضهم شك في بعض، ولا يهمّه بنفاق أو بسوء باطن له من غلّ أو حسد.

الثامن: ولا تسرع فيهم الغيبة. وإنّما نفى عنهم سرعة الغيبة لأنّ فيهم من ليس بمعصوم فلم يكن نفيها عنهم بالكليّة بل استبعد وقوعها منهم، ويحتمل أن يريد أنّهم لقلّة عيوبهم لا يكاد أحد يتسرّع فيهم بغيبة.

التاسع: كونهم على ذلك عقد الله خلقهم: أي على

ذلك الوصف والكمال قد خلقهم على وفق قضائه لهم بذلك وأوجدهم. فعليه: أي فعلى ما عقد خلقهم عليه من الكمال يتحابّون، وبه يتواصلون.

العاشر: كونهم في ذلك كتفاضل البذر. أي فكانوا في فضلهم بالقياس إلى الناس كتفاضل البذر، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: ينتقي. إلى قوله: التمحيص، وتقريره أنّهم خلاصة الناس ونقاوتهم الذين صفاهم منهم وميّزهم عنهم تخليص عناية الله لهم بإفاضة رحمته وهدايته إلى طريقه، وخلّصهم ابتلاؤه واختباره بأوامره.

وقوله: فليقبل أمرؤ كرامةً بقبولها. إلى آخره.

عود إلى النصيحة والموعظة، وأراد كرامة الله بطاعته وما استلزمه من المواهب الجليلة، وأراد بقبولها قبولها الحقّ التامّ على الوجه الذي ينبغي من مراعاة مصلحتها ومراقبتها عن آثار النفاق كما قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وبالقارعة التي حذّر منها قبل حلولها قارعة الموت. ثمّ أمر أن يعتبر المرء قصر أيّام حياته وقلّة مقامه في منزل يستلزم الإقامة القليلة فيه هذه العناية وهي أن يستبدل به منزلاً آخر: أي يحلّ محلّ عبرته إقامته القصيرة في الدنيا المستلزمة لانتقاله منها إلى الآخرة فإنّ في تصوّره قلّة المقام في هذا المنزل للعبور إلى منزل آخر عبرة تامّة، ويحتمل أن تكون حتى غاية من أمره بالنظر في الاعتبار: أي فلينظر في ذلك المنزل يستبدل به غيره، وإذا كان كذلك فينبغي أن يعمل لذلك المنزل المتحوّل إليه، ولمعارف منتقلة: أي للمواضع التي يعرف انتقاله إليها. وطوبى فعلى من الطيب قلبوا ياءها واواً للضمّة قبلها، وقيل: هي اسم شجرة في الجنّة، وقلب سليم: أي لم يتدنس برذيلة الجهل المركّب ولا بنجاسات الأخلاق الرديئة، ومن يهديه إشارة إلى نفسه عليه السلام وأئمّة الدين، ومن يرديه في مهاوي الهلاك المنافقون وأئمّة الضلالة، وإصابته لسبيل السلامة وقوفه على سبيل الله عند حدوده بهداية من هداه وطاعته لها وأمره بسلوكها، ومبادرته للهدى مسارعته إليه قبل غلق أبوابه، واستعار لفظ الأبواب له ولأئمّة الدين من قبله، ورشّح بذكر الغلق وأراد به عدمهم أو موت الطالب، وكذلك استعار لفظ الأسباب لهم، ووجه الاستعارة كونهم وصلا إلى المراد كالجبال، ورشّح بذكر القطع وأراد به أيضاً موتهم، واستفتاح التوبة استقبالها والشروع فيها، وإماطة الحوبة إزالة الإثم عن لوح نفسه بتوبته.

وقوله: فقد أقيم. إلى آخره.

إشعار منه بإقامة أعلام الله وهم العلماء والكتاب المنزل والسنّة النبويّة والهداية بها إلى واضح سبيله ليقتدي الناس بها ويسلكوا على بصيرة. وبالله التوفيق والعصمة.

٢٠٧ - ومن دعائه عليه السلام

كان يدعو به كثيراً

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلا سَقِيماً، وَلا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ، وَلا مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَلا مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَلا مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلا مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلا مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلا حُجَّةَ لِي. ولا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاَّ مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلا أَتَّقِيَ إِلاَّ مَا وَقَيْتَنِي. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالأَمْرُ لَكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

أقول: الدابر: بقيّة الرجل وولده ونسله. والدابر: الظهر. والالتباس: الاختلاط. وأضطهد: أظلم. والتتابع: التهافت في الشرّ وإلقاء النفس فيه.

وقد حمد الله تعالى باعتبار ضروب من النعم اعترف بها وعدّ منها عشرة: وهي الحياة، والصحّة، والسلامة من آفات العروق وأمراضها، ومن الأخذ بالجريمة، وقطع النسل، ويحتمل أن يريد بالدابر الظهر، وكنّى بالقطع عن الرمي بالدواهي العظيمة التي من شأنها قصم الظهر وقطع القوّة، ثمّ عن الارتداد، ثمّ عن جحود ربوبيّة الله، ثمّ عن الاستيحاش من الإيمان واستثقاله والنفرة عنه، ثم من اختلاط العقل، ثمّ من التعذيب بعذاب الأمم السالفة بالصواعق والخسف ونحوها. وعقّب ذلك الحمد بالإقرار على نفسه وصفات الخضوع والذلّة المستلزمة لاستنزال الرحمة وعدّ منها خمسة: وهي كونه عبداً مملوكاً لله تعالى. ثمّ كونه ظالماً لنفسه. ثمّ كونه معترفاً بحجّة الله عليه مقطوع الحجّة في نفسه. ثمّ كونه معترفاً بعدم استطاعة أن يأخذ إلاّ ما قسّم الله له وسبّب له الوصول إليه، وأنّه لا يقدر أن يتّقي من المضارّ إلاّ ما وقاه الله إيّاه. ثمّ لمّا أعدّ نفسه بهذه الإقرارات بقبول الرحمة من الله استعاذ به من أموره: وهي أن يفتقر في غناه تعالى: أي أن يفتقر مع أنّه الغنيّ المطلق، وأن يضلّ في هداه: أي مع أنّ له الهدى الذي لا اختلال معه، وأن يظلم في سلطانه: أي مع أنّ له السلطان الظاهر، وأن يضطهد وله الأمر القاهر. ثمّ سأله أن يجعل نفسه أول كريمة ينتزعها من كرائمه. وأراد بكرائمه قواه النفسانيّة والبدنيّة وأعضاءه، وغرض السؤال تمتعه بجميعها سليمة من الآفات إلى حين الممات فتكون نفسه أوّل منتزع من كرائمه قبل أن يفقد شيئاً منها. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله اللهم متّعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني: أي اجعلهما باقيين صحيحين إلى حين وفاتي. واستعار لفظ الوديعة للنفس باعتبار أنّها في معرض الاسترجاع كالوديعة. ثمّ استعاذ به من الذهاب عن قوله تعالى: والافتتان عن دينه. وقد روى الرضي - رضوان الله عليه - يفتتن بالبناء للفاعل على أن تكون الفتنة من النفس الأمّارة. وروى ويفتتن بالبناء للمفعول المستعار منه الفتنة بالغير. ثمّ من الانخراط في سلك الأهواء وتتابعها في مرامي الشقاوات دون الهدى الذي جاءت به الكتب الإلهيّة من عند الله. وبالله التوفيق.

٢٠٨ - ومن خطبة له عليه السلام

خطبها بصفين

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لا يَجْرِي لأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ لَكَانَ ذٰلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

ثُمَّ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاحِ الْوُلاةِ، وَلا تَصْلُحُ الْوُلاةُ إِلاَّ بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذٰلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ

مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ. فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ. فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذٰلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ - وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ - بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلٰكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ - وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ - بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلا امْرُؤٌ - وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ - بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذٰلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلالُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ - لِعِظَمِ ذٰلِكَ - كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذٰلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ ازْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً. وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاتِ الْوُلاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ. وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ - بِحَمْدِ اللّٰهِ - كَذٰلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلاءِ، فَلا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلا تَظُنُّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لا رَبَّ غَيْرُهُ. يَمْلِكُ مِنَّا مَا لا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلالَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى.

أقول: أذلالها: وجوهها وطرقها. وأجحف بهم: ذهب بأصلهم. والإدغال: الإفساد. واقتحمته: دخلت فيه بالاحتقار والازدراء. وأسخف: أضعف وأصغر. والبادرة: الحدّة.

وغرض الفصل جمع كلمتهم واتّفاقهم على أوامره فأشار أوّلاً إلى أنّ لكلّ منه ومنهم على الآخر حقّ يجب أن يخرج إليه منه فحقّه عليهم هو حقّ ولايته لأمرهم، وحقّهم عليه حقّ الرعيّة على الوالي، وهو مثله في وجوب مراعاته وفي استلزامه اللوازم التي سيذكرها.

وقوله: فالحقّ أوسع. إلى قوله: قضائه.

تقرير لوجوب حقّه عليهم، وكالتوبيخ لهم على قلّة الإنصاف فيه. ومعناه أنّه إذا أخذ الناس في وصف الحقّ وبيانه كان له في ذلك مجال واسع لسهولته على ألسنتهم، وإذا حضر الناصف بينهم وطلب منهم ضاق عليهم المجال لشدّة العمل بالحقّ وصعوبة الانصاف لاستلزامه ترك بعض المطالب المحبوبة لهم، وإطلاق السعة والضيق على الحقّ استعارة ملاحظة لتشبيه ما يتوهّم فيه من اتّساعه للقول وضيقه عن العمل بالمكان الذي يتّسع لشيء أو يضيق عمّا هو أعظم منه.

وقوله: لا يجري لأحد إلاّ جرى عليه.

تقرير للحقّ عليهم وتوطين لنفوسهم عليه، ولا يجري عليه إلاّ جرى له تسكين لنفوسهم بذكر الحقّ لهم. ثمّ أعاد تقرير الحقّ عليهم بحجّة في صورة متّصلة؛ وهي لو كان لأحد أن يجري له الحقّ ولا يجري عليه لكان الله تعالى هو الأولى بخلوص ذلك له دون خلقه. ثمّ بيّن الملازمة بقوله: لقدرته. إلى قوله: صروف قضائه: أي لكونه قادراً على عباده وعلى الانتصاف منهم مع كونه لا يستحقّ عليه شيء لهم لعدله فيهم في كلّ ما جرت به مقاديره التي هي صروف قضائه فكان أولى بخلوص ذلك دونهم، وبيّن استثناء نقيض التالي باستثناء ملزومه وهو قوله: ولكنّه تعالى جعل. إلى قوله: أهله، ومعناه لكنّه تعالى جعل لنفسه على عباده حقّاً هو طاعتهم له ليثبت لهم بذلك حقّاً يكون جزاء طاعتهم له فقد ثبت أنّه لم يخلص ذلك لله تعالى بل كما أوجب على عباده حقّاً له أوجب لهم على نفسه بذلك حقّاً. فإذن لا يجري لأحد حقّ إلاّ جرى عليه وهو نقيض المقدّم. وفي قوله: مضاعفة الثواب. إلى قوله: أهله تنبيه لهم على أنّ الحقّ الذي أوجبه على نفسه أعظم ممّا أوجب لها مع أنه ليس بحقّ وجب عليه بل بفضل منه عليهم ممّا هو أهله من مزيد النعمة ليتخلّقوا بأخلاق الله في أداء ما وجب عليهم من الحقّ بأفضل وجوهه ويقابلوا ذلك التفضّل بمزيد الشكر، وتلك المضاعفة كما في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ونحوه.

وقوله: ثمّ جعل سبحانه. إلى قوله: ببعض.

كالمقدّمة لما يريد أن ينبّه من كون حقّه عليهم واجباً من قبل الله تعالى وهو حقّ من حقوقه ليكون أدعى لهم إلى أدائه. وبيّن فيها أنّ حقوق الخلق بعضهم على بعض من حقّ الله تعالى من حيث إنّ حقه على عباده هو الطاعة، وأداء تلك الحقوق طاعات لله كحقّ الوالد على ولده وبالعكس، وحقّ الزوج على الزوجة، وحقّ الوالي على الرعيّة وبالعكس.

وقوله: فجعلها تتكافأ في وجوهها.

أي جعل كلّ وجه من تلك الحقوق مقابلاً لمثله فحقّ الوالي وهو الطاعة من الرعيّة مقابل لمثله منه وهو العدل فيهم وحسن السيرة، ولا يستوجب كلّ من الحقّين إلا بالآخر. ثمّ قال: وأعظم ما افترض الله من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعيّة وحقّ الرعيّة على الوالي لأنّ هذين الحقّين أمرين كليّين تدور عليها أكثر المصالح في المعاش والمعاد، وأكّد ذلك بقوله: فريضة فرضها الله سبحانه لكلّ على كلّ: أي ذلك فريضة.

وقوله: فجعلها نظاماً. إلى قوله: عند العباد.

إشارة إلى لوازم حقّ الوالي على الرعيّة وحقّ الرعيّة على الوالي:

(أ) أنّ الله تعالى جعل تلك الحقوق سبباً لألفتهم إن أدّى كلّ إلى كلّ حقّه، وقد بيّنا فيما سلف غير مرّة أنّ ألفتهم من أعزّ مطالب الشارع، وأنّها مطلوبة من اجتماع الخلق على الصلاة في المساجد: في كلّ يوم خمس مرّات، وفي كلّ أسبوع مرّة في الجمعة، وفي كلّ سنة مرّتين في الأعياد. والتناصف والاجتماع في طاعة الإمام العادل من موجبات الأنس والألفة والمحبّة في الله حتّى يكون الناس كلهم كرجل واحد عالم بما يصلحه ومتّبع له وبما يفسده ومجتنب عنه.

(ب) أنّه جعل تلك الحقوق عزّاً لدينهم، وظاهر أنّ الاجتماع إذا كان سبباً للألفة والمحبّة كان سبباً عظيماً للقوّة ولقهر الأعداء وإعزاز الدين. ثمّ أكّد القول في أنّ صلاح الرعيّة منوط بصلاح الولاة، وهو أمر قد شهدت به العقول وتوافقت عليه الآراء الحقّة، وإليه أشار القائل: تهدى الرعيّة ما استقام الرئيس. وقول الآخر:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

وكذلك صلاح حال الولاة منوط بصلاح الرعيّة واستقامتهم في طاعتهم، وفساد أحوالهم بعصيانهم ومخالفتهم. فإذا أدّى كل من الوالي والرعيّة الحقّ إلى صاحبه عزّ الحقّ بينهم ولم يكن له مخالف.

(ج) من لوازم ذلك قيام مناهج الدين وطرقه بالاستقامة على قوانينه والعمل بها.

(د) واعتدال معالم العدل ومظانّه بحيث لا جور فيها.

(هـ) وجريان السنن على وجوهها ومسالكها بحيث لا تحريف فيها.

(و) صلاح الزمان بذلك ونسبة الصلاح إليه مجاز. إذ الصلاح في الحقيقة يعود إلى حال أهل الزمان وانتظام أمورهم في معاشهم ومعادهم، وإنّما يوصف بالصلاح والفساد باعتبار وقوعهما فيه وكونه من الأسباب المعدّة لهما.

(ز) من لوازم ذلك الطمع في بقاء الدولة ويأس مطامع الأعداء في فسادها وهدمها.

وقوله: فإذا غلبت. إلى قوله: عند العباد.

إشارة إلى ما يلزم عصيان الرعيّة للإمام أو حيفه هو عليهم وإجحافه بهم في الفساد:

(أ) إختلاف الكلمة، وكنّى به عن اختلاف الآراء والتفرّق بسببه.

(ب) ظهور معالم الجور وعلامته، وهو ظاهر لعدم العدل والتفرّق بسببه.

(ج) كثرة الفساد في الدين، وذلك لتبدّد الأهواء وتفرّقها عن رأي الإمام العادل الجامع لها، وأخذ كل فيما يشتهيه ممّا هو مفسد للدين ومخالف له.

(د) ترك محاجّ السنن وطرقها. فمن الإمام لجوره، ومن الرعيّة لتبدّد نظام آرائها.

(هـ) العمل بالهوى. وعلّته ما مرّ.

(و) تعطيل الأحكام الشرعيّة، وهو لازم للعمل بالهوى.

(ز) وكثرة علل النفوس، وعللها أمراضها بملكات السوء كالغلّ والحسد والعداوات والعجب والكبر ونحوها، وقيل: عللها وجوه ارتكابها للمنكرات فيأتي في كلّ منكر بوجه وعلّة ورأي فاسد.

(ح) فلا يستوحش بعظيم حقّ عطّل، وذلك للأنس بتعطيله، ولا بعظيم باطل فعل، وذلك لاعتياده والاتّفاق عليه وكونه مقتضى الأهوية.

(ط) فهنالك تذلّ الأبرار لذلّة الحقّ المعطّل الذي هم أهله وكان غيرهم بغيره.

(ي) وتعزّ الأشرار لعزّة الباطل الذي هم عليه بعد ذلّهم بعزّة الحقّ.

(يا) وتعظم تبعات الله على العباد: أي عقوباته بسبب خروجهم عن طاعته. ولمّا بيّن لوازم طاعته وعصيانه قال: فعليكم بالتناصح في ذلك: أي في ذلك الحقّ، وحسن التعاون عليه.

وقوله: فليس أحد. إلى قوله: من الطاعة له.

تأكيد لأمره بالمبالغة في طاعة الله: أي قليل من الناس يبلغ بطاعته لله تعالى ما هو أهله منها وإن اشتدّ حرصه على إرضائها بالعمل وطال فيه اجتهاده، ولكن على العباد من ذلك مبلغ جهدهم في النصيحة والتعاون على إقامة حقّ الله بينهم بقدر الإمكان لا بقدر ما يستحقّه هو تعالى فإنّ ذلك غير ممكن.

وقوله: وليس امرؤ وإن عظمت. إلى قوله: حمّله الله تعالى من حقه.

أي أنه وإن بلغ المرء أي درجة كانت من طاعة الله فهو محتاج إلى أن يعان عليها، وليس هو بأرفع من أن يعان على ما حمّله الله منها، وذلك أنّ تكليف الله تعالى بطاعته بحسب وسع المكلّف، والوسع في بعض العبادات قد يكون مشروطاً بمعونة الغير فيها فلا يستغني أحد منها.

وقوله: ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس. إلى قوله: أو يعان عليه.

إشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يزدري أحد عن الاستعانة في طاعة الله أو أن يعان عليها فإنّه وإن احتقرته النفوس فليس بدون أن يعين على طاعة الله وأداء حقّه ولو بقبول الصدقات ونحوها أو تعاونوا عليها بإعطاء ما يسدّ خلّتهم أو يدفع عنهم ضرراً كالجاه، ولفظ الاقتحام استعارة، ووجهها أنّ الذي تحتقره النفوس تجبّراً عليه وتعبره العيون عبور الاحتقار فكأنّها قد اقتحمته. وغرض هذا الكلام الحثّ على استعانة بعض ببعض وعلى الألفة والاتّحاد في الدين، وأن لا يزدري فقير لفقره ولا ضعيف لضعفه، وأن لا يستغني غنيّ عن فقير فلا يلتفت إليه ولا قويّ عن ضعيف فيحتقره بل أن يكون الكلّ كنفس واحدة. وأمّا قوله لمن أكثر عليه الثناء

فحاصله التأديب على الإطراء أو النهي عن الغلوّ في الثناء على الإنسان في وجهه بالفضائل وإن كانت حقّه، وسرّه أنّ ذلك يستلزم في كثير من الناس الكبر والعجب بالنفس والعمل.

فقوله: إنّ من حقّ من عظم. إلى قوله: إحسانه إليه.

مقدّمة في الجواب بيّن فيها أنّ من عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه فحقّه أن يصغر عنده كل ما سواه بقياس من الشكل الأوّل، وتقدير صغراه أنّ من عظمت نعم الله عليه ولطف إحسانه إليه فهو أحقّ الناس بتعظيم جلال الله في نفسه وإجلال موضعه من قلبه، وتقدير كبراه وكلّ من كان أحقّ بذلك فمن حقّه أن يصغر كل ما سواه عنده، ودلّ على الكبرى بقوله: لعظم ذلك: أي لعظم جلال الله في قلبه يجب أن يصغر عنده كل شيء سواه، وهذه المقدّمة وإن كانت عامّة إلا أنّ الإشارة الحاضرة بها إلى نفسه، وذلك أنّ أعظم نعمة الله في الدنيا خلافة المسلمين، وفي الآخرة ما هو عليه من الكمالات النفسانيّة فكان أحقّ الناس بتعظيم جلال الله في نفسه، وكان بذلك من حقّه أن يصغر كلّ ما سوى الله في قلبه. ثمّ قال: ومن أسخف حالات الولاة. إلى قوله: والكبرياء. فكأنه قال: ومن كان حقّه أن يصغر كل ما سوى الله في قلبه فكيف يليق به أن يحبّ الفخر أو يصنع أمره على الكبر الذين لا يليقان إلاّ بعظمة الله، أو يظنّ به ذلك ويعامل بما يعامل به الجبابرة من الخطاب به، وصرّح بأن المراد نفسه في قوله: وقد كرهت، إلى آخره.

وقوله: ولو كنت أُحبّ أن يقال فيّ ذلك.

يجري مجرى تسليم الجدل: أي، وهب إنّي أُحبّ أن يقال ذلك فيّ باعتبار ما فيه اللذّة لكني لو كنت كذلك لتركته باعتبار آخر، وهو الانحطاط والتصاغر عن تناول ما هو الله أحقّ به من العظمة والكبرياء، ونبّه في ذلك على أنّ الإطراء يستلزم التكبّر والتعظيم فكان تركه له وكراهته لكونه مستلزماً لهما.

وقوله: وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء.

يجري مجرى تمهيد العذر لمن أثنى عليه فكأنّه يقول: وأنت معذور في ذلك حيث رأيتني أُجاهد في الله وأحثّ الناس على ذلك. ومن عادة الناس أن يستحلوا الثناء عند من يبلو بلاءً حسناً في جهاد أو غيره من سائر الطاعات. ثمّ أجاب عن هذا العذر في نفسه بقوله: فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء، إلى قوله: من إمضائها، وأراد فلا تثنوا عليّ لأجل ما ترونه منّي من طاعة الله فإنّ ذلك إنّما هو إخراج لنفسي إلى الله من الحقوق الباقية عليّ لم أفرغ بعد من أدائها وهي حقوق نعمه، ومن فرائضه التي لا بدّ من المضي فيها، وكذلك إليكم من الحقوق التي أوجبها الله عليّ لكم من النصيحة في الدين والإرشاد إلى الطريق الأقصد والتعليم لكيفيّة سلوكه، وفي خطّ الرضي (رحمه الله) من التقيّة بالتاء، والمعنى فإنّ الذي أفعله من طاعة الله إنما هو إخراج لنفسي إلى الله وإليكم من تقيّة الحقّ فيما يجب عليّ من الحقوق إذ كان عليه السلام إنّما يعبد الله غير ملتفت في شيء من عبادته وأداء واجب حقه إلى أحد سواه خوفاً منه أو رغبة إليه، وكأنه قال: لم أفعل شيئاً إلاّ وهو ذا حقّ وجب عليّ وإذا كان كذلك فكيف استحقّ أن يثنى عليّ لأجله بثناء جميل وأُقابل بهذا التعظيم، وهو من باب التواضع لله وتعليم كيفيّته وكسر النفس عن محبّة الباطل والميل إليه.

وقوله: فلا تكلّموني. إلى قوله: بعدل.

إرشاد لهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من السيرة عنده ونهاهم من أمور:

(أ) أن لا يكلّموه بكلام الجبابرة لما فيه من إغراء النفس، ولأنّه عليه السلام ليس بجبّار فيكون ذلك منهم وصفاً للشيء في غير موضعه.

(ب) أن لا يتحفظّوا منه بما يتحفّظ به عند أهل البادرة وسرعة الغضب من الملوك وغيرهم، وذلك التحفّظ كتكلّف ترك المساورة والحديث إجلالاً وخوفاً منه أو كترك مشاورته أو إعلامه ببعض الأمور أو كالقيام بين يديه فإنّ ذلك التحفّظ قد يفوت به مصالح كثيرة، ولأنّه ممّا يغري النفس بحبّ الفخر والعجب، ولأنّه وضع للشيء في غير موضعه.

(ج) أن لا يخالطوه بالمصانعة والنفاق لما فيه من فساد الدين والدنيا.

(د) أن لا يظنّوا به استثقالاً لحقّ يقال له وإن كان فيه مرارة، واستعار لفظ المرار لشدّة الحقّ وصعوبته فإنّ عدله عليه السلام وما يستلزمه من قبول الحقّ كيف كان يرشد إلى أن لا يظنّوا به أنّه يلتمس الإعظام لنفسه، وذلك لمعرفته بمن هو أهله دونه وهو الله تعالى.

وقوله: فإنّه من استثقل. إلى قوله: أثقل.

قياس ضمير من الشكل الثاني بيّن فيه أنّه لا يستثقل قول الحقّ له وعرض العدل عليه ليزول ظنّ من ظنّ ذلك به، والمذكور هو صغرى القياس وتلخيصها أنّ من استثقل قول الحقّ له وعرض العدل عليه كان العمل الحقّ والعدل عليه ثقيلاً بطريق أولى، وتقدير الكبرى ولا شيء من العمل بهما بثقيل عليّ أمّا الصغرى فظاهرة لأنّ تكلّف فعل الحقّ أصعب على النفس من سماع وصفه، وأمّا الكبرى فلأنّه عليه السلام يعمل بهما من غير تكلّف واستثقال كما هو معلوم من حاله فينتج أنّه لا شيء من قول الحقّ له وعرض العدل عليه بثقيل.

(هـ) أن لا يكفّوا عن قول حقّ ومشورة بعدل لما في الكفّ عن ذلك من المفسدة.

وقوله: فإنّي لست. إلى قوله: منّي.

من قبيل التواضع الباعث لهم على الانبساط معه بقول الحق، وفي قوله: إلاّ أن يكفي الله من نفسي: أي من نفسي الأمّارة بالسوء ما هو أقوى منّي على دفعه وكفايته من شرورها، وهو إسناد العصمة إلى الله تعالى.

وقوله: فإنّما أنا وأنتم. إلى آخره.

تأديب في الانقياد لله وتذلي لعظمته، وظاهر كونه تعالى يملك من أنفسنا وميولها وخواطرها. إذ الكلّ منه وهو مبدئ فيضه والاستعداد له.

وقوله: وأخرجنا ممّا كنّا فيه.

أي من الضلالة في الجاهليّة وعمى الجهل فيها عن إدراك الحقّ وسلوك سبيل الله إلى ما صلحنا عليه: أي من الهدى بسبيل الله والبصيرة لما ينبغي من مصالح الدارين، وذلك ببعثة الرسول صلى الله عليه وآله وظهور نور النبوّة عنه.

٢٠٩ - ومن كلام له عليه السلام

في التظلّم والتشكّي من قريش

اللّهُمَّ إِنّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَأُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا: أَلا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلا ذَابٌّ وَلا مُسَاعِدٌ، إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ. فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ.

قال الرضي: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة إلا أني كررته ههنا لاختلاف الروايتين.

أقول: أستعديك. أستعينك. والاسم العدى وهي الإعانة، وأكفأت الإناء وكفأته: كببته. والرافد المعاون. والقذى: ما يسقط في العين فيؤذيها. والشجى: ما يعرض في الحلق عند الغمّ والحزن من الأثر فيكون الإنسان كالمغتصّ بلقمة ونحوها. والعلقم: شجر مرّ. والشفار: جمع شفرة وهي السكّين.

وغرض الفصل التظلّم والتشكّي والاستعانة بالله على قريش فيما دفعوه عنه من حقّ الإمامة الذي هو أولى به، وكنّى عن ذلك بقطع الرحم، وكذلك كنّى بقلب إنائه عن إعراضهم وتفرّقهم عنه فإنّ ذلك من لوازم قلب الإناء كما إنّ من لوازم نصبهم له وتعديله إقبالهم واجتماعهم عليه.

وقوله: وأجمعوا. إلى قوله: غيري.

قالت الشيعة: الإشارة بالمجتمعين إلى قريش حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وذلك الغير الذي كان هو أولى منه هم الخلفاء الثلاثة قبله، وقال غيرهم: بل أشار بالمجمعين إليهم وقت الشورى واتّفاقهم بعد الترديد الطويل على عثمان فلا يدخل الشيخان الأوّلان في هذه الشكاية، والقول الثاني ضعيف. إذ صرّح بمثل هذه الشكاية من الأئمّة الثلاثة قبله في الخطبة الشقشقيّة كما

بيّناه، وبالجملة مراده من هذا الكلام وأمثاله بعد استقراء أقواله وتصفّح أحواله لا يخفى على عاقل، ويشبه أن يكون صدور هذا الكلام منه حين خروج طلحة الزبير إلى البصرة تظلّماً عليهما فيكون المفهوم من قوله: وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري إنكاراً لإجماعهم منازعته ذلك الحقّ فإنّه إذا كان أولى به ممّن سبق من الأئمّة على جلالة قدرهم وتقدّمهم في الإسلام فكيف بهؤلاء مع كونهم أدون حالاً منهم، وهو كقوله فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتّى صرت أقرن إلى هذه النظائر.

وقوله: وقالوا: ألا إنّ في الحقّ. إلى قوله: متأسّفاً.

حكاية لقولهم بلسان حال فعلهم لا أنّهم قالوا له ذلك.

وقوله: فنظرت. إلى آخره.

قد مضى تفسير من الآلام الحسيّة من حز السكين وغيره.

ومن طالع الفصلين المتقدّمين علم التفاوت في الرواية لهما ولهذا الفصل.

٢١٠ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدِي، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ. وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً؛ وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللّٰهَ صَادِقِينَ.

أقول: عضّوا على أسيافهم: أي لزموها، وأشار بالمصر إلى البصرة، وبالذين قدموا على عمّاله إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم فأمّا حالهم مع عمّاله وما فعلوا بهم وبخزّان بيت المال بالبصرة فقد مرّ ذكره مستوفى، وبالله التوفيق.

٢١١ - ومن كلام له عليه السلام

لما مر بطلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهٰذَا الْمَكَانِ غَرِيباً! أَمَا وَاللّٰهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحَ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ.

أقول: هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ابن أبي العاص بن أميّة شهد واقعة الجمل وقتل بها، وروي أنّ عقاباً احتمل كفّه فأُصيب باليمامة في ذلك اليوم، وعرفت بخاتمه وكان يدعى يعسوب قريش. وأعيان: جمع عين: هم سادات القوم وأوتادهم. وجمح: قبيلة، وأتلعوا: مدّوا أعناقهم كالمتطلّعين إلى الأمر. ووقصوا: كسرت أعناقهم. وأبو محمّد كنية طلحة. وفي الفصل إشارات:

فالأولى: أنّ قتله عليه السلام لمن قتل من مخالفيه ومن قتل من عسكره لم يكن إلاّ إقامة للدين ونظام العالم.

فإن قلت: إنّ قتل هؤلاء على كثرتهم فساد حاضر.

قلت: إنّه وإن كان فساداً إلاّ أنّه جرى بالنسبة إلى صلاح جميع المسلمين في مصرٍ جزئيّة بالنسبة إلى صلاح أكثر بلاد المسلمين، وفعل ما هو بصورة جزئيّة من الفساد لمصلحة كليّة واجب في الحكمة فهو كقطع عضو فاسد لإصلاح باقي البدن.

الثانية: قوله: تحت بطون الكواكب كناية لطيفة عن الفلوات، وأراد أنّي كنت أكره أن يكونوا بهذه الحالة في الفلوات لا كنّ ولا ظلّ يواريهم.

الثالثة: لقائل أن يقول: لم قال عليه السلام: أدركت وتري من بني عبد مناف؟ والوتر الحقد وهو رذيلة فكيف يجوز منه عليه السلام أن ينسبه إلى نفسه ويقول: قد أدركته. والجواب أن الحقد تعود حقيقته إلى ثبات الغضب وبقائه ببقاء صورة المؤذي في الخيال، ومن حيث إنّ ثبات

ذلك الغضب بتصوّر المؤذي في الدين لا يكون رذيلة، فلا يكون أخذ الحقّ به ونصرته مكروهة.

الرابعة: أنّ طلحة والزبير كانا من بني عبد مناف من قبل الأمّ دون الأب فإنّ أبا الزبير من بني عبد العزّى بن قصي بن كلاب، وأمّا طلحة من بني جعد بن تميم بن مرّة، وكان في زمن أمير المؤمنين عليه السلام من بني جمح عبد الله بن صفوان بن أُميّة بن خلف، وعبد الرحمن بن صفوان، وقيل: كان مروان بن الحكم منهم أخذ أسيراً يوم الجمل واستشفع بالحسين إلى أبيه عليه السلام، وروي عوض أعيان أغيار بني جمح وهم السادات أيضاً.

والخامسة: إتلاع رقابهم استعارة كنّى بها عن تطاولهم لأمر الخلافة مع كونهم ليسوا أهلاً لها. ووقصهم كناية عن قتلهم دون ذلك الأمر وقصورهم عنه.

٢١٢ - ومن كلام له عليه السلام

في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلامَةِ، وَدَارِ الإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

أقول: هذا الفصل من أجلّ كلام له في وصف السالك المحقّق إلى الله، وفي كيفيّة سلوكه المحقّق وأفضل أموره. فأشار بإحياء عقله إلى صرف همّته في تحصيل الكمالات العقلية من العلوم والأخلاق وإحياء عقله النظري والعملي بها بعد الرياضة بالزهد والعبادة، وأشار بإماتة نفسه إلى قهر نفسه الأمّارة بالسوء، وتطويعها بالعبادة للنفس المطمئنة بحيث لا يكون لها تصرّف على حدّ طباعها إلاّ بإرسال العقل وباعثه فكانت في حكم الميّت عن الشهوات والميول الطبيعية الذي لا تصرّف له من نفسه.

وقوله: حتّى دقّ جليله.

أي حتّى انتهت به إماتته لنفسه الشهويّة إلى أن دقّ جليله، وكنّى بجليله عن بدنه فإنّه أعظم ما يرى منه، ولطف غليظه إشارة إلى لطف بدنه أيضاً، ويحتمل أن يشير به إلى لطف قواه النفسانيّة بتلك الرياضة وكسر الشهوة فإنّ إعطاء القوّة الشهويّة مقتضى طباعها من الانهماك في المآكل والمشارب ممّا يثقل البدن ويكدّر الحواسّ، ولذلك قيل: البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة والغلظة. فإذا قصرت على حدّ العقل لطفت الحواسّ عن قلّة الأبخرة المتولّدة عن التملّؤ بالطعام والشراب، ولطف بلطف ذلك ما غلظ من جوهر النفس بالهيئات البدنيّة المكتسبة من متابعة النفس الأمّارة بالسوء كلطف المرآة بالصقال حتّى يصير ذلك اللطف مسبّباً لاتّصالها بعالمها واستشراقها بأنوار من الملأ الأعلى.

وقوله: ويرق له لامع كثير البرق.

أشار باللامع إلى ما يعرض للسالك عند بلوغ الإرادة بالرياضة به حدّاً من الخلسات إلى الجناب الأعلى فيظهر له أنوار إلهيّة لذيذة شبيهة بالبرق في سرعة لمعانه واختفائه، وتلك اللوامع مسمّاة بالأوقات عند أهل الطريقة، وكلّ وقت فإنّه محفوف بوجد إليه قبله ووجد عليه بعده لأنّه لمّا ذاق تلك اللذّة ثمّ فارقها وصل فيه حنين وأنين إلى ما فات منها. ثمّ إنّ هذه اللوامع في بادئ الأمر تعرض له قليلاً فإذا أمعن في الارتياض كثرت، فأشار باللامع إلى نفس ذلك النور، وبكثرة برقه إلى كثرة عروضه بعد الإمعان في الرياضة. ويحتمل أن يكون قد استعار لفظ اللامع للعقل الفعّال، ولمعانه ظهوره للعقل الإنسانيّ، وكثرة بروقه إشارة إلى كثرة فيضان تلك الأنوار الشبيهة بالبروق عند الإمعان في الرياضة.

وقوله: فأبان له الطريق.

أي ظهر له بسبب ذلك أنّ الطريق الحقّ إلى الله هي ما هو عليه من الرياضة، وسلك به السبيل: أي كان سبباً لسلوكه في سبيل الله إليه.

وقوله: وتدافعته الأبواب.

أي أبواب الرياضة، وهي أبواب الجنّة أعني تطويع النفس الأمّارة، والزهد الحقيقيّ، والأسباب الموصلة إليهما كالعبادات وترك الدنيا فإنّ كلّ تلك أبواب يسير منها السالك حتّى ينتهي إلى باب السلامة وهو الباب الذي إذا دخله السالك تيقّن فيه السلامة من الانحراف عن سلوك سبيل الله بمعرفته أنّ تلك هي الطريق وذلك الباب هو الوقت الذي أشرنا إليه، وهو أوّل منزل من منازل الجنّة العقليّة.

وقوله: وثبتت رجلاه. إلى قوله: والراحة.

ففي قرار الأمن متعلّق ثبتت، وهو إشارة إلى الطور الثاني للسالك بعد طور الوقت ويسمّى طمأنينة وذلك أنّ السالك ما دام في مرتبة الوقت فإنّه يعرض لبدنه عند لمعان تلك البروق في سرّه اضطراب وقلق يحسّ بها خلسة لأنّ النفس إذا فاجأها أمر عظيم اضطربت وتقلقلت فإذا كثرت تلك الغواشي ألفتها بحيث لا تنزعج عنها ولا تضطرب لورودها عليها بل تسكن وتطمئنّ لثبوت قدم عقله في درجة أعلى من درجات الجنّة التي هي قرار الأمن والراحة من عذاب الله.

وقوله: بما استعمل. إلى آخره.

فالجار والمجرور متعلّق بثبتت أيضاً: أي وثبتت رجلاه بسبب استعمال قلبه ونفسه في طاعة الله وإرضائه بذلك الإستعمال، وبالله التوفيق.

٢١٣ - ومن كلام له عليه السلام

قاله بعد تلاوته: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢]:

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ. وَلأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الأَرْضِ ضُلاَّلاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً، تَطَأُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً. سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلاً سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لا يُوجَدُونَ؛ لا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الأَهْوَالِ، وَلا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الأَحْوَالِ، وَلا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّباً لا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَآلافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلٰكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ. جِيرَانٌ لا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لا يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلاَّءُ، لا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلا لِنَهَارٍ مَسَاءً. أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا. وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ،

وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ. فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ الأَجْسَادُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً! فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلىً سَمَّجَهَا، وَسَهَّلَ طُرُقَ الآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لا تَنْجَلِي. فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِىءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ، وَنَقَضَتِ الأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ، فَخَالَطَهُ بَثٌّ لا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِىءْ بِبَارِدٍ إِلاَّ ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلاَّ هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلاَّ أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذٰلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

أقول: المرام: المطلوب. والزور: الزائرون. والخطر: الإشراف على الهلاك. والفظيع: الشديد الذي جاوز الحدّ في شدّته. واستحلوا: أي اتّخذوا تحلية الذكر دأبهم وشأنهم، وقيل: استخلوا: أي وجدوه خالياً. والتناوش: التنازل. وأحجى: أولى بالحجى وهو العقل. والعشوة: ركوب الأمر على جهل به. وترتعون: تتنعمون. ولفظوا: أرموا وتركوا. والفارط: السابق إلى الماء والمورد. وحلبات الفخر: جماعاته. والسوق: جمع سوقة وهي الرعيّة. والبرزخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث. والفجوات: جمع فجوة وهي المتّسع من الأرض. والضمار: الغايب الذي لا يرجى إيابه. ويحفلون: يبالون. والرواجف: الزلازل. ويأذنون: يسمعون. وارتجال الصفة: انتشاؤها. والسبات: النوم، وأصله الراحة. وأفظع: أشدّ. والمباءة: الموضع يبوء الإنسان إليه: أي يرجع. وعيّ عن الكلام: أي عجز عنه. والكلوخ: تكشّر في عبوس. والأهدام: جمع هدم، وهو الثوب البالي. وتكاءدنا: شقّ علينا وصعب. وتهكّمت: تهدّمت. وارتسخت: ثبتت في قرارها الهوام. واستكّت: انسدّت. وذلاقة اللسان: حدّته وسهولة الكلام به. وهمدت: سكنت وبليت. وعاث: انسدّ. وسمّجها: قبّحها. والأشجان: الأحزان. والأنيق: العجب للناظر. وغضارة العيش: طيّبه.

والكثب: القرب. والبثّ: الحال من همّ وحزن. والقارّ والقرور: الماء البارد.

وفي الفصل فوائد:

فالأولى: اللام في قوله: يا له. لام الجرّ للتعجّب كقولهم: يا للدواهي، والجارّ والمجرور في محلّ النصب لأنّه المنادى ويروى: يا مراما. ومراماً وزوراً وخطراً منصوبات على التميز لمعنى التعجّب من بعد ذلك المرام وهو التكاثر فإنّ الغاية المطلوبة منه لا يدركها الإنسان لأنّ كل غاية بلغها ففوقها غاية أخرى قد أدركها غيره فنفسه تطمح إليها، وذلك التعجب من شدّة غفلة الزور: أي الزائرين للمقابر لأنّ الكلام خرج بسبب الآية، وظاهر أنّ غفلة الإنسان عمّا يزور ويقدم بعد تلك الزيارة عليه غفلةٌ عظيمةٌ وهي محلّ التعجّب، وكذلك التعجّب من فظاعة الخطر والاشراف على شدائد الآخرة فإنّ كل خطر دنيائي يستحقر في جنبه، والضمير في قوله: استحلوا للأحياء، وفي منهم للأموات، وعنّى بالذكر عمّا خلّفوه من الآثار التي هي محلّ العبرة.

وقوله: أيّ مذّكر.

استفهام على سبيل التعجّب من ذلك المذّكر في أحسن إفادته للعبر لأولي الأبصار، وتناوشوهم من مكان بعيد: أي تركهم ما ينتفعون به وهو المذّكر من جهة الاعتبار به وتناولوهم من جهة بعيدة، والذي تناولوه هو افتخار كل منهم بأبيه وقبيلته، ومكاثرته بالماضين من قومه الذين هم بعد الموت أبعد الناس عنه أو الذين كمالاتهم أبعد الكمالات عنه، وكنّى بالمكان البعيد عن ذلك الاعتبار فإنّ الأموات وكمالاتهم في أبعد الاعتبارات عن الأحياء والأبناء، ولذلك استفهم عن ذلك استفهام إنكار وتوبيخ فقال: أفبمصارع آبائهم يفخرون. إلى قوله: سكنت، وذلك الإرتجاع بالمفاخرة بهم فكأنّهم بذكرهم لهم في الفخر قد ارتجعوهم بعد موتهم، ويحتمل أن يكون ذلك مستفهماً عنه أيضاً على سبيل الإنكار وإن لم يكن حرف الاستفهام، والتقدير أيرتجعون منهم بفخرهم لهم أجساداً خوت.

وقوله: ولأن يكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً.

مؤكّد لتوبيخه لهم ترك العبرة بالمذّكر الذي هو وجه النفع وأخذهم بالوجه البعيد وهو الافتخار، وكشف لمعناه. وكذلك قوله: لأن يهبطوا بهم جناب ذلّة: أي بالاعتبار بمصارعهم فإنّه يستلزم الخشوع لعزّة الله والخشية منه. وذلك أولى بالعقل والتدبير من أن يقوموا بهم مقام عزّة بالمفاخرة والمكاثرة، وأضاف الأبصار إلى العشوة لنسبتها إليها: أي نظروا إليها بأبصار قلوب غطّى عليها الجهل بأحوالهم فساروا في تلك الأحوال بجهالة غامرة لهم.

وقوله: ولو استنطفوا. إلى قوله: لقالت.

أي لو طلبت منها النطق لقالت بلسان حالها كذا وكذا. إلى قوله: وتسكنون فيما خرّبوا، ويحتمل أن يكون باقي الفصل كلّه مقولاً بلسان حال تلك الديار، والنصب في قوله: ضلالاً وجهّالاً على الحال: أي ذهبوا في الأرض هالكين وذهبتم بعدهم جاهلين بأحوالهم تطأون رؤوسهم وتستنبتون الأشجار في أجسادهم وذلك في المواضع التي بليت فيها الأجساد، واستعار لفظ البواكي والنوائح لأيّام الحياة ملاحظة لشبهها في مفارقتهم لها بالأمّهات التي فارقها أولادها بالموت.

وقوله: أولئك سلف غايتكم وفرّاط مناهلكم.

السابقون لكم إلى غايتكم وهي الموت وما بعده، وإلى مناهلكم وهي تلك الموارد أيضاً، ومقاوم: جمع مقام لأنّ ألفه عن واو، وملوكاً وسوقاً نصب على الحال، وبطون البرزخ ما غاب وبطن منه عن علومنا ومشاهداتنا، والسبيل فيه هي مسلك القدر بهم إلى غاياتهم الأخروية من سعادة أو شقاوة، ونسبة الأكل والشرب إلى الأرض مجاز يقارب الحقيقة في كثرة الاستعمال، وإنّما سلب عنهم النموّ والفزع من ورود أهوال الأرض عليهم، والحزن من تغيّر الأحوال بهم، والحفلة بزلازل الأرض وسماع الرياح القاصفة، لكون انتظار ذلك من توابع الحياة وصفاتها.

فإن قلت: فهذا ينافي ما نقل من عذاب القبر فإنّه يستلزم الفزع والحزن.

قلت: إنّما سلب عنهم الفزع والحزن من أحوال

الدنيا المشاهدة لنا، وكذلك الحافلة بأهوالها وسماعها. وعذاب القبر ليس من ذلك القبيل بل من أحوال الآخرة وأهوالها، ولا يلزم من سلب الفزع الخاصّ سلب العامّ، ونبّه على أنّ غيبتهم وشهودهم ليس كغيبة أهل الدنيا وشهودهم. إذ كان الغائب في الدنيا من شأنه أن ينتظر والشاهد فيها حاضر وهم شاهدون بأبدانهم مع صدق الغيبة عليهم عنّا: أي بأنفسهم، ولمّا امتنع ذلك العود لا جرم صدق أنّهم غيّب لا ينتظرون وشهود لا يحضرون.

وقوله: وما من طول عهدهم. إلى قوله: سكونا.

أي عدم علمنا بأخبارهم وصمم ديارهم عند ندائنا ليس لأجل طول عهد بيننا وبينهم ولا بعد محلّتهم ومستقرّهم فإنّ الميّت حال موته وهو بعد مطروح الجسد مشاهد لنا تعمى علينا أخباره ولا يسمع نداءنا دياره، ولكن ذلك لأجل أنّهم سقوا كأس المنيّة فبدلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً وإسناد العمى إلى الأخبار والصمم إلى الديار مجاز كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

وقوله: فكأنّهم. إلى قوله: سبات.

أي إذا أراد أحد ينشئ صفة حالهم، شبّههم بالصرعى عن النوم، ووجه الشبه عدم الحركات والسماع والنطق مع الهيئة المشاهدة من المستغرق في نومه. ثمّ نبّه على أنّهم في أحوالهم الأخروية من تجاورهم مع وحدتهم وتهاجرهم ليس كتلك الأحوال في الدنيا. إذ من شأن الجيران فيها أن يأنس بعضهم ببعض، والأحياء أن يتزاوروا، والواحد أن لا يكون في جماعة. وأشار بالجوار إلى تقارب أبدانهم في القبور، وبالمحابّة إلى ما كانوا عليه من التحابّ في الدنيا، وبهجرهم إلى عدم تزاورهم، وكذلك خلالهم إلى ما كانوا عليه من المودّة في الدنيا، وكونهم لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساءً لكون الليل والنهار من لواحق الحركات الدنيويّة الفانية عنهم فتساوى الليل والنهار بالنسبة إليهم، وكذلك قوله: أيّ الجديدين. إلى قوله: سرمداً، والجديدان الليل والنهار لتجدّد كل منهما أبداً. واستعار وصف الظعن لانتقالهم إلى الدار الآخرة، وكون ذلك الجديد الذي ظعنوا فيه سرمداً عليهم ليس حقيقة لعدم عوده بعينه بل إسناد السرمديّة إليه لكونه جزءاً من الزمان الذي يلزمه السرمديّة لذاته حقيقة.

وقوله: شاهدوا. إلى قوله: عاينوا.

إشارة إلى صعوبة أهوال الآخرة وعظمة أحوالها بالنسبة إلى ما يخاف منها في الدنيا، وذلك أمر عرف بأخبار الشريعة الحقّة وتأكّد باستقراء اللذّات والآلام العقليّة ونسبتها إلى الحسيّة. ثم إنّ الخوف والرجاء لأمور الآخرة إنّما يبعثان منّا بسبب وصف تلك الأمور، وإنما يفعل من تلك الأوصاف ما كان فيه مناسبة وتشبّه بالأمور المخوفة والمرجوّة في الدنيا فنحن نتصور تلك على قياس هذه فذلك سبب سهولتها علينا وضعف خوفنا منها ورجائنا لها حتى لو شاهدنا أخطار تلك الدار لشاهدنا أشد ممّا نخافه الآن ونتصوره ونقدره بأوهامنا. فلا جرم لما وصل السابقون شاهدوا أفظع مما خافوا، ولو أمكنهم النطق لعيّوا بصفة ما شاهدوا منها وعجزوا عن شرحها.

وقوله: فكلتا الغايتين.

أي غاية المؤمنين والكافرين من سعادة وشقاوة مدّت: أي مدّ لهم أجل ينتهون فيه إلى غاية ومرجع وهو الجنة أو النار، وذلك المرجع يفوت مبالغ خوفنا ورجائنا: أي هو أعظم ممّا نخافه ونرجوه، وأسند المدّ إلى الغاية مجازاً.

وقوله: لقد رجعت، إلى قوله: النطق.

من أفصح الكلام وأبلغه، وأبصار العبر أبصار البصائر التي يعتبر بها، وآذان العقول مجاز في علمها بأحوالهم التي من شأنها أن تسمع إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

وقوله: وتكلّموا من غير جهات النطق.

أي من غير أفواه وألسنة لحمانيّة ولكن بألسنة أحواليّة.

وقوله: فقالوا. إلى قوله: متّسعاً.

إشارة إلى ما تنطق به ألسنة أحوالهم وتحكيه منها في

القبور، وروي عوض خلت خوت، واستعار لفظ الأهدام للتغيّر والتقشّف والتمزيق العارض لجسم الميّت لمشابهتها العظم البالي، ويحتمل أن يريد بها الأكفان، والمضجع: القبر. وتوارث الوحشة: أي وحشة القبر، واستعار لفظ التوارث لكون تلك الوحشة كانت لآبائهم قبلهم فحصلت لهم بعدهم، والربوع الصموت: أيضاً القبور. وكذلك مساكن الوحشة. ومعارف صورهم: ما كان معروفاً منها في الدنيا.

وقوله: فلو مثّلتهم بعقلك.

أي تخيّلت صورهم واستحضرتها في خيالك وكشف عنهم محجوب الغطاء لك: أي ما حجب بأغطية التراب والسواتر لأجسادهم عن بصرك. والواو في قوله: وقد ارتسخت. للحال، ويقظة قلوبهم استعارة لحياتهم وحركاتها، وإسناد العبث إلى جديد البلى مجاز، ومستسلمات حال للجوارح والعامل عاث وسهل، واللام في قوله: لرأيت. جواب لو، وأحسن بقوله: لهم في كلّ فظاعة صفة حال لا تنتقل وغمرة لا تنجلي، وصفاً إجماليّاً، فإنّه لا مزيد عليه في البلاغة اللذيذة، وأراد بالغمرة من الفظاعة ما يغمرهم من الشدائد، والغذيّ فعيل بمعنى مفعول: أي مغذى بالترف.

وقوله: ويفزع إلى السلوة.

أي عن المصيبة النازلة له إلى المسرات والمتنزهات، وضحكه إلى الدنيا كناية عن ابتهاجه بها وما فيها من القينات وغاية إقباله عليه لأنّ غاية المبتهج بالشيء أن يضحك له، وكذلك ضحك الدنيا مجاز في إقبالها عليه إطلاقاً لاسم السبب الغائب على مسبّبه، وأصل بينا بين والألف عن إشباع الفتحة، والعيش الغفول الذي يكثر الغفلة فيه لطيبه. واستعار لفظ الحسك للآلام والأمراض ومصائب الدهر، ووجه المشابهة استلزامها للأذى كاستلزام الحسك له، ورشح بذكر الوطي، وكذلك استعار وصف النظر لإقبال الحتوف إليه لاستعداد لها فشابهت في ذلك الراصد للشيء المصوب إليه نظره ليقتنصه، والبثّ والنجي من الهمّ الحال التي يجدها الانسان عند وهم الموت من الوسواس والتخيّلات والغموم والأحزان التي لم تكن تعرض له.

وقوله: فتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحّته.

وانتصاب آنس على الحال، وما بمعنى الزمان، وكان تامّة، وبصحّته متعلّق بآنس: أي حال ما هو آنس زمان مدّة صحّته، وقيل: ما مصدريّة، والتقدير آنس كونه على أحواله لصحّته.

وقوله: فلم يطفىء ببارد إلاّ ثور حرارة. إلى قوله: ذات داء.

إشارة إلى لوازم العلاج عند سقوطه العلّة من المرض الحار والبارد المقاوم لها، وليس العلاج بالبارد هو المثوّر للحرارة ولا بالعكس لأنّ الدواء معين للطبيعة على مقاومة المرض فلا يكون مثوراً له، ولكن ما كان مع ذلك العلاج وتلك الإعانة لغلب الحرارة والبرودة ويظهر بسبب ذلك: أي الدواء، وكذلك قوله: ولا اعتدل بممازج لتلك الطبايع إلاّ أمدّ منها كلّ ذات داء: أي ولا اعتدل المريض في علاجه نفسه بما يمازج تلك الطبايع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة إلاّ كان مادّة لداء، وليس مادّة على الحقيقة ولكن لمّا كان يغلب معه المرض على القوة فكأنّه مادّة له فنسب إليه وهي أُمور عرفيّة يقال كثيراً، والكلام فيها على المتعارف.

وقوله: حتى فتر معلّله.

غاية تلك اللوازم. ومعلّله: طبيبه وممرّضه. وخرس أهله عن جواب السائل: إشارة إلى سكوتهم عند السؤال من حاله، وذلك أنهم لا يخبرون عن عافية لعدمها، وتكره نفوسهم الإخبار عنه بما هو عليه من الحال لشدّتها عليهم، فيكون شأنهم في ذلك السكوت عن حاله المشبه للخرس في جوابه. فذلك استعارة له.

وقوله: وتنازعوا. إلى قوله: من قبله.

إشارة إلى ما يتحاوره أهل المريض المشرف على الموت من أحواله وصوره بما العادة جارية أن يقولوه.

وقوله: فبينا هو كذلك.

صفة حال الأخذ في الموت المعتاد للناس.

وقوله: إنّ للموت. إلى آخره.

تلك الغمرات وكونها، أفظع من أن يحيط بها وصف الإنسان أو يستقيم شرحها على الإنسان كما يخبر عليه السلام. ويعلم ذلك على سبيل الجملة وبالحدس والقياس إلى الأمراض الصعبة التي يمارسها الناس ويشتدّ عليهم فيعرف عند مقاساتها ومعاناة شدائدها. وكان صلى الله عليه وآله يقول في سكرات موته: اللهم أعني على سكرات الموت. وما يستعين عليه الرسول صلى الله عليه وآله مع كمال اتّصاله بالعلم الأعلى فلا شكّ في شدّته. وبالله التوفيق.

٢١٤ - ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوته: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النّور: ٣٧].

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ جَعَلَ الذِّكْرَ جَلاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ لله - عَزَّتْ آلاؤُهُ - فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ. مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ. وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ. وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذٰلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذٰلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لا يَسْمَعُونَ. فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَنْ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلامَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجًى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ. رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ. فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

أقول: الوقرة: الغفلة من الوقر وهو الصمم. والعشوة: الغفلة من العشاء وهو ظلمة العين بالليل دون النهار. والبرهة: المدّة الطويلة من الزمان. ويهتفون: يصيحون. والبرزخ: ما بعد الموت من مكان وزمان. والنشج: الصوت في ترديد النفس عند البكاء. والمنادح: جمع مندح وهو المتّسع.

فقوله: إنّ الله سبحانه. إلى قوله: بعد المعاندة.

إنّما يتضح بالإشارة إلى الذكر وفضيلته وفائدته: الذكر هو القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ونحوه، وقيل: هو إشارة إلى

تحميده تعالى وتسبيحه وتكبيره وتهليله والثناء عليه ونحو ذلك، وأمّا فضيلته فمن القرآن قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١] وقوله ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٨] الآية، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] الآية. وأمّا من الأخبار فقوله صلى الله عليه وآله: ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل في الفارين. وقوله صلى الله عليه وآله: يقول الله: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه، وقوله: ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله. قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك إلى أن ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع - ثلاثاً - وقوله: من أحب أن يرتع في رياض الجنّة فليكثر من ذكر الله. ونحو ذلك. فأمّا فائدته: فاعلم أنّ المؤثّر من الذكر والنافع منه ما كان على الدوام أو في أكثر الأوقات مع حضور القلب، وبدونهما فهو قليل الجدوى. وبذينك الاعتبارين هو المقدم على ساير العبادات بل هو روح العبادات العمليّة وغاية ثمرتها، وله أوّل يوجب الأنس بالله وآخر يوجبه الأنس بالله، وذلك أنّ المريد في بادئ أمره قد يكون متكلّفاً لذكر أمر ليصرف إليه قلبه ولسانه عن الوسواس فإنّ وفّق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حبّ المذكور، وممّا ينبّه على ذلك أنّ أحدنا يمدح بين يديه شخص ويذكر بحميد الخصال فيحبّه ويعشقه بالوصف وكثرة الذكر ثمّ إذا عشق بكثرة الذكر اضطرّ إلى كثرة الذكر آخراً بحيث لا يصبر عنه فإنّ من أحبّ شيئاً أكثر ذكره ومن أكثر من ذكر شيء وإن كان متكلّفاً أحبّه؛ وقد شاهدنا ذلك كثيراً. كذلك أوّل ذكر الله متكلّف إلى أن يثمر الأنس به والحبّ له.

ثمّ يمتنع الصبر عنه آخراً فيثمر الثمرة، ولذلك قال بعضهم: كابدت القرآن عشرين سنة. ثمّ تنعّمت به عشرين سنة. ولا يصدر التنعّم إلا عن الأنس والحبّ ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة حتّى يصير التكلّف طبعاً. ثمّ إذا حصل الأنس بالله انقطع عن غير الله، وما سوى الله يفارقه عند الموت فلا تبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلاّ المحبوب المذكور فيتمتّع به ويتلذّذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه من أسباب الدنيا ومحبوباتها.

إذا عرفت ذلك فقوله: جعله جلاء. إشارة إلى فائدته وهي استعداد النفوس بمداومته على الوجه الذي ذكرناه لمحبّة المذكور والإعراض عمّا سواه، واستعار لفظ الجلاء لإزالة كل ما سوى المذكور عن لوح القلب بالذكر كما يزال خبث المرآة بالصقال، وتجوّز بلفظ السمع في إقبالها على ما ينبغي أن يسمع من أوامر الله ونواهيه وساير كلامه، والوقرة لإعراضها عنها، وكذلك بلفظ البصر في إدراكها للحقايق وما ينبغي لها، ولفظ العشوة لعدم ذلك الإدراك اطلاقاً في المجازات الأربعة لاسم السبب على المسبّب. وانقيادها له: أي للحقّ، وسلوك طريقه بعد المعاندة فيه والانحراف عنه.

وقوله: وما برح. إلى قوله: عقولهم.

إشارة إلى أنّه لم يخلو المُدد وأزمان الفترات قطّ من عباد الله وأولياء له وألهمهم معرفته وأفاض على أفكارهم وعقولهم صور الحقّ وكيفيّة الهداية إليه مكاشفة، وتلك الإفاضة والإلهام هو المراد بالمناجاة والتكلّم منه.

وقوله: فاستصبحوا. إلى قوله: والأفئدة.

أي استضاؤا بمصباح نور اليقظة، واليقظة في الأفئدة فطانتها واستعدادها الكامل لما ينبغي لها من الكمالات العقليّة، ونور تلك اليقظة هو ما يفاض عليها بسبب استعدادها بتلك الفطانة ويقظة الأبصار والأسماع بتتبّعها لإبصار الأمور النافعة المحصّلة منها عبرة وكمالاً نفسانياً وسماع النافع من الكلام، وأنوار اليقظة فيهما ما يحصل بسبب ذلك الإبصار والسماع من أنوار الكمالات النفسانيّة.

ثمّ شرع في وصف حالهم في هديهم لسبيل الله بأيّامه، وهي كناية عن شدايده النازلة بالماضين من الأمم، وأصله أنّها تقع في الأيّام، ويحتمل أن يكون مجازاً إطلاقاً لاسم المحلّ على الحال، ومقام الله كناية عن عظمته وجلالته المستلزمة للهيبة والخوف. وشبّههم بالأدلة في الفلوات، ووجه الشبه كونهم هادين لسبيل الله

كما تهدى الأدلّة، وكما أن الأدلّة تحمد من أخذ القصد في الطريق طريقه وتبشّره بالنجاة ومن انحرف عنها يميناً وشمالاً ذمّوا إليه طريقه وقصد فيها حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من المهالك، ومن انحرف عنها يميناً وشمالاً: أي سلك أحد طرفي الإفراط والتفريط ذمّوا إليه مسلكه وحذّروه من الهلاك الأبدي.

وقوله: وكانوا كذلك.

أي كما وصفناهم، واستعار لفظ المصابيح باعتبار إضاءتهم بكمالاتهم بطريق الله، ولفظ الأدلّة باعتبار هداهم إلى الحقّ وتمييزه عن شبهات الباطل.

وقوله: وإن للذكر لأهلاً. إلى قوله: أيّام الحياة.

فأهله هو من ذكرنا أنّهم اشتغلوا به حتّى أحبّوا المذكور ونسوا ما عداه من المحبوبات الدنيويّة، وإنّ من حبّ محبّة المذكور محبّة ذكره وملازمته حتّى اتخذوه بدلاً من متاع الدنيا وطيّباتها ولم يشغلهم عنه تجارة ولا بيع وقطعوا به أيّام حياتهم الدنيا.

وقوله: ويهتفون. إلى قوله: ويتناهون عنه.

إشارة إلى وجوه طاعتهم لله وعبادتهم له وهي من ثمرات الذكر ومحبّة المذكور لأنّ من أحبّ محبوباً سلك مسلكه ولم يخالف رسمه وكان له في ذلك الابتهاج واللذّة.

وقوله: فكأنّما قطعوا. إلى قوله: عداتها.

تشبيه لهم في ثقتهم بالله وبما جاءت به كتبه ورسله، وتحقّقهم لأحوال القيامة ووعدها ووعيدها بعين اليقين عن قطع الدنيا من أحوال أهل البرزخ وطول إقامتهم فيه فكشفوا غطاء تلك الأحوال لأهل الدنيا بالعبادات الواضحة والبيانات اللايحة حتّى كأنّهم في وصفهم لها عن صفاء سرائرهم وصقال جواهر نفوسهم بالرياضة التامّة يرون بأبصارهم ما لا يرى الناس، ويسمعون بآذانهم ما لا يسمعون الناس. إذ يخبرون عن مشاهدات ومسموعات لا يدركها الناس، ولمّا كان السبب في قصور النفوس عن إدراك أحوال الآخرة هو تعلّقها بهذه الأبدان واشتغالها بتدبيرها والانغماس في الهيئات الدنيوية المكتسبة عنها، وكان هؤلاء الموصوفون قد غسلوا درن تلك الهيئات عن ألواح نفوسهم بمداومة ذكر الله وملازمة الرياضة التامّة حتّى صارت نفوسهم كمرآة مجلوّة حوذي بها شطر الحقائق الإلهيّة فتجلّت وانتقشت بها لا جرم شاهدوا بعين اليقين سبيل النجاة وسبيل الهلاك وما بينهما فسلكوا على بصيرة وهدوا الناس على يقين وأخبروا عن أمور شاهدوها بأعين بصائرهم وسمعوا بآذان عقولهم فكأنّهم في وضوح ذلك لهم وظهوره وإخبارهم عنه قد شاهدوا ما شاهده الناس بحواسّهم فشاهدوا ما لم يشاهده الناس وسمعوا ما لم يسمعوه.

وقوله: فلو مثّلتهم بعقلك.

أي استحضرت صورهم وأعمالهم في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهورة وهي مقامات العبادة ومجالسها. ودواوين أعمالهم: أذهانهم وما ثبت فيها من أفعالهم. ونشرها: تتّبع نفوسهم بأفكارها وتخيّلاتها لصور تلك الأعمال وتصفّحها لها المشبّهة لتصفّح الأوراق. والواو في قوله: وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة للبيان. ليستدعي بيان معنى المحاسبة، ولمّا كان معناها ليستدعي محاسباً حتى يكون النظر معه في رأس المال في الربح والخسران ليبيّن له الزيادة والنقصان، وإن كان من فضل حاصل استوفاه وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلّفه تداركه في المستقبل فكذلك العبد معامله نفسه الأمّارة بالسوء، ورأس ماله الفرائض وربحه النوافل والفضائل، والخسران المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار فينبغي أن يكون للعبد في آخره ساعة يطالب بها نفسه ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها فإن كان قد أدّى الفرائض على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبّها في مثلها، وإن فوتها من أصلها كلّفها بالقضاء، وإن أدّتها ناقصة كلّفها بالجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعذيبها ومعاتبتها واستوفى منها ما يتدارك به تفريطها كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنّه ينقش في حساب الدنيا عن الحبّة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان كذلك ينبغي أن تتقي خدعة النفس ومكرها فإنّها مخادعة مكّارة فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عمّا تكلّم به طول نهاره وليتولى من

حسابها بنفسه ما سيتولاه غيره في محفل القيامة، وكذلك عن نظره وخواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه، وحتّى عن سكونه وسكوته. فإذا عرف أنّها أدّت الحقّ في الجميع كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر بها الباقي ويقرّره عليها ويكتبه على صحيفة قلبه. ثمّ إنّ النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أمّا بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلاّ بعد تحقّق الحساب وتميّز باقي الحقّ الواجب عليه.

ثم يشتغل بعده بالمطالبة. وينبغي أن يحاسب الإنسان النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقّة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً فإذا هو ستّين سنة فحسب أيّامها فإذا أحد وعشرون ألف يوم وخمس مائة يوم فصرخ فقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب. ثمّ خرّ مغشيّاً عليه فإذا هو ميّت فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى. فهكذا ينبغي أن تكون المحاسبة، ولو رمى العبد بكل معصية حصاة في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة من عمره ولكنّه يتساهل في حفظها والملكان يحفظان عليه كما قال تعالى ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

إذا عرفت ذلك فقوله: وفرغوا لمحاسبة أنفسهم. إلى قوله: ندم واعتراف. إشارة إلى حال وجدانهم عند محاسبة أنفسهم لتقصيرها والخسران في رؤوس أموالهم التي هي الطاعات ونشيجهم ونحيبهم وعجّهم في الندم والاعتراف بالذنب إشارة إلى حالهم في تدارك ذلك الخسران بالشروع في الجبران. فأوّل مقاماته التوبة ولوازمها المذكورة، ثمّ العمل.

وقوله: لرأيت. إلى قوله: الراغبون.

صفات أحوالهم المحمودة، واللام في قوله: لرأيت. جواب لو في قوله: فلو مثّلهم، واستعار لهم لفظة الأعلام والمصابيح باعتبار كونهم أدلّة إلى طريق الله وذوي أنوار يستضاء بها فيها، وحفوف الملائكة بهم كناية عن إحاطة عنايتهم به، وذلك لكمال استعدادهم لقبول الأنوار عن الله بواسطة الملائكة الكروبيّة ووجوب فيضها عليهم عنهم، وفي ذلك الإشارة إلى إكرامهم بذلك.

وقوله: وتنزّلت عليهم السكينة.

إشارة إلى بلوغ استعداد نفوسهم لإفاضة السكينة عليها وهي المرتبة الثالثة من أحوال السالك بعد الطمأنينة، وذلك أن تكثّر تلك البروق واللوامع التي كانت تغشاه حتّى يصير ما كان مخوفاً منها مألوفاً، وكانت تحصل لا لمشيئة السالك فيصير حصولها بمشيئته وإرادته. وفتح أبواب السماء لهم إشارة إلى فتح أبواب سماء الجود الإلهي بإفاضة الكمالات عليهم كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] ومقاعد الكرامات مراتب الوصول إليه. وتلك المقاعد التي اطّلع الله تعالى عليهم فيها فرضي سعيهم بالأعمال الصالحة المبلّغة إليها، وحمد مقامهم فيها.

وقوله: يتنسّمون بدعائه روح التجاوز.

أي يدعونه ويتوقعون بدعائه تجاوزه عن ذنوبهم، وأن لا يجعل تقصيرهم فيما عساهم قصروا فيه سبباً لانقطاع فيضه، وقد علمت أنّ سيئات هؤلاء يعود إلى ترك الأولى بهم. ثمّ استعار لهم لفظ الرهائن لكونهم في محلّ الحاجة إلى فضله لا معدول ولا ملجأ لهم عنه كالرهائن في يد المسترهن، وكذلك لفظ الأسارى، ووجه المشابهة كونهم في مقام الذلّة بحسب عظمته كالأسير بالنظر إلى عظمة من أسره.

وقوله: جرح. إلى قوله: عيونهم.

فذلك الجرح من لوازم اطلاعهم على خيانة أنفسهم وخسرانهم في معاملتهم لها بعد محاسبتها.

وقوله: لكلّ باب. إلى قوله: يد قارعة.

أشار بقرعهم لكل باب من أبواب الرغبة إلى الله إلى توجيه أسرارهم وعقولهم إلى القبلة الحقيقية استشراقاً لأنوار الله واستسماحاً لجوده.

وقوله: يسألون. إلى قوله: المنادح.

إشارة إلى سعة جوده وفضله وأنّه أكرم الأكرمين ليتبيّن أنّه أحقّ مسؤول بإعطاء سؤل وأولى مرغوب إليه بإسداء مرغوب.

وقوله: فحاسب نفسك. إلى آخره.

أي فتولّ أنت حساب نفسك. فإنّ حساب غيرها من النفوس وهي التي لم يحاسبها صاحبها يتولاّه غيرك وهو أسرع الحاسبين، وذلك في معنى تهديد الإنسان على ترك محاسبة نفسه. وبالله التوفيق.

٢١٥ - ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوته ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّةً. وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ. يا أَيُّهَا الإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا آنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ! فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ، وَكُنْ للهِ مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً. وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ. فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ، فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ. فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ؟ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِىءِ الأَعْمَالِ. وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلٰكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتُ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ. وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ. وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ بِكَ! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلاً! وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ، فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لا تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ؛ وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ؛ وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

أقول: حجّة داحضة: باطلة. وأبرح جهالةً بنفسه: أي بالغ في تحصيل جهالتها وأعجبه ذلك. والبلول: الصحّة. والضاحي: البارز للشمس. والممضّ: المؤلم. والسطوة: البطش والقهر، والسطوة المرّة منه والجمع سطوات. والتجلّد: التقوى والتصبّر. والورطة: الهلاك. وتعمّدك: قصدك. والكنف: الحياطة. والكنف: الجانب. وآذنك: أعلمك. والمنسك: موضع العبادة، وأصله كل موضع يتردّد إليه ويقصد. والتحرّي: طلب الأحرى والأولى. وشم برق النجاة: أي أنظر إليه.

فقوله: أدحض.

خبر مبتدأ محذوف والتقدير الإنسان عند سؤال ربّه له ما غرّك بربّك الكريم أدحض مسؤول حجّة، وأشدّه

انقطاعاً في عذره. ومبالغته في تجهيل نفسه: كثرة إمهالها في متابعة هواها وتركها عن الإصلاح، والمنصوبات الثلاث مميّزات.

وقوله: يا أيها الإنسان. إلى قوله: بهلكة نفسك.

استفهامات عن أسباب جرأته على الذنوب وأسباب غرّته بربّه وغفلته عن شدّة بأسه وعن أسباب أنسه بهلكة نفسه بتوريطها في المعاصي معها استفهاماً على سبيل التقريع والتوبيخ، ويحتمل أن يكون قوله: ما آنسك: تعجّباً، وكذلك الاستفهام عن بلوله من داء الجهل ويقظته من نوم الغفلة ورحمته لنفسه كما يرحم غيرها إلاّ أنّ الاستفهامات الثلاثة الأولى يطلب فيها تصوّر تلك الأسباب وفهم حقيقتها على سبيل تجاهل العارف، وفي هذه الثلاثة الأخيرة يطلب فيها التصديق. ثمّ نبّه على وجوب رحمته لنفسه كما يرحم غيرها بقوله: فلربّما ترى الضاحي. إلى قوله: رحمة له، وهي في قوّة صغرى قياس احتجّ به، ووجه ذلك أنّك قد ترحم من تراه في حرّ الشمس فتظلّه أو مبتلى بألم فتبكي رحمةً له، وكلّ من كان كذلك فأولى أن يرحم لنفسه بانقاذها من بلاء تقع فيه. ينتج إنّك أولى أن ترحم نفسك من دائها.

وقوله: فما صبّرك. إلى قوله: الأنفس عليك.

استفهام عن أسباب صبره على دائه وتجلّده على مصائبه التي تلحقه بسبب ذلك الداء وتعزّيه عن البكاء على نفسه وعلى أعزّ الأنفس عليه استفهام توبيخ ولائمة حسنها بعد ذلك الاحتجاج ظاهر، ونبّه بقوله: وكيف لا يوقظك. إلى قوله: سطواته. على بعض أسباب اليقظة لعظمة الله عن الغفلة عنها وهي خوف بيات نقمة أن يوقعها به ليلاً كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] ومدارج سطواته مجاري بطشه وقهره وهي محالّ المعاصي وأسبابها. والتورّط فيها: الحصول فيها المستلزم للهلاك الأخروي.

وقوله: فتداو. إلى قوله: بيقظة.

تنبيه على الدواء من الفترة في القلب عن ذكر الله وهو العزيمة على طاعته والإجماع على ملازمة ذكره، ومن نوم الغفلة في ناظر القلب عن ذلك باليقظة له. ثمّ أمر بما ينبغي أن يكون تلك العزيمة عليه وتلك اليقظة له وهما طاعة الله وتحصيل الأنس بدوام ذكره.

وقوله: وتمثّل. إلى قوله: يصرفها عنك.

تنبيه له على ضروب نعم الله عليها ومقابلته لها بالكفران والمعصية لعله يتذكر أو يخشى فأمره أن يتمثل في ذهنه في حال إعراضه عن ربّه وانهماكه في معصيته إقباله عليه بضروب نعمه من دعوته له بكلامه على ألسنة خواص رسله إلى عفوه وتعمّده إياه بفضله وإقامته في كنف ستره وتقلّبه في سعة فضله لم يمنعه فضله ولا هتك عنه ستره لمقابلته تلك النعم بالكفران والمعصية بل لم يخل من لطفه مقدار طرفة عين، وذلك اللطف في نعمة يحدثها له أو سيئة يسترها عليه أو بليّة يصرفها عنه. فأحسن بهذا التنبيه فإنّ استحضار ذهن العاقل بضروب هذه النعم في حال الإقبال على المعصية من أقوى الجواذب إلى الله عنها، وإنّما قال: وتمثّل. لأنّ الحاضر في الذهن ليس هو نفس إقبال الله على العبد بل معناه ومثاله. ويدعوه: في موضع الحال، وكذلك الواو في قوله: وأنت. والملازمة أنّ فضله كان عليك حال معصيتك له كثيراً كما تقدّم بيانه فبالطريق الأولى أن يتم فضله عليك حال طاعتك إيّاه وحسن ظنّك به.

وقوله: وأيم الله. إلى قوله: الأعمال.

أي لو كان هذا الوصف الذي ذكرناه من إقبال الله عليك بضروب نعمه ومقابلتك له بالإعراض عنه والإقبال على معاصيه وصف مثلين من الناس في القوّة والقدرة والمنزلة وكنت أنت المسيء منهما لكان فيما ينبغي لك من الحياء والأنفة أن تكون أول حاكم على نفسك بتقصيرها وذميم أخلاقها ومقابح أعمالها. وهو صورة احتجاج يقرر عليه مساوىء أعماله ويجذبه بذلك إلى تبديلها بمحاسنها في قياس ضمير من الشكل الأول ذكر في الكلام صغراه. تلخيصها: أنّك أوّل حاكم على نفسك بتقصيرها على تقدير أن يكون موليك هذه النعم مثلاً لك، وتقدير الكبرى وكل من كان كذلك فأولى به أن يكون أوّل حاكم عليها بتقصيرها على تقدير أن يكون موليه تلك النعم خالقه ومالك رقّه، وينتج أنّ الأولى بك

أن يكون أوّل حاكم على نفسك بتقصيرها على تقدير أن يكون مولى تلك النعم خالقك ومالك رقّك.

وقوله: وحقاً أقول: ما الدنيا غرّتك ولكن بها اغتررت.

تقدير منع لما عساه أن يجيب به الناس سؤاله تعالى إياهم بقوله: ما غرّك بربّك، وهو كثير في كلامهم: إنّ الدنيا هي الغارة، وكما نسب القرآن الكريم إليها ذلك بقوله ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] وكلامه عليه السلام حقّ من وجهين: أحدهما: أنّ الاستغرار من لواحق العقل وليست الدنيا لها العقل، والثاني: أنّها لم تخلق لأنّ يستغر بها. إذ كان مقصد العناية الإلهية بوجود الإنسان فيها فلا يجوز أن ينسب إليها الاستغرار حقيقة لكن لمّا كانت سبباً مادّياً للاغترار بها جاز أن ينسب إليها الاستغرار مجازاً، وصدق قوله أيضاً: ولكن بها اغتررت.

وقوله: ولقد كاشفتك العظات.

تقرير لمنع نسبة الاستغرار إليها بنسبة ضدّه إليها وهو النصيحة له بما كاشفته بالمواعظ وهي محال الاتعاظ من تصاريفها وعبرها، وبمجاهرتها وإعلامها على عدل منها. إذ حلقت لذلك التغيير والإعلام وعلى ذلك التصريف ولم يمكن أن يكون إلا كذلك فلم يكن تصاريفها بك جوراً عليك.

وقوله: ولهي بما تعدك. إلى قوله: تغرّك.

زيادة تأكيد لنصيحتها وتخويف منها، واستعار لفظ الوعد لإشعارها في تغييراتها بما يتوقّع من مصائبها كما أنّ الوعد إشعار بإعطاء مطلوب، واستعمل الوعد في مكان الوعيد مجازاً إطلاقاً لاسم أحد الضدين على الآخر كتسمية السيئة جزاء، وكذلك استعار لها لفظ الصدق والوفاء ملاحظة لشبهها بالصادق الوفي في أنه لا بدّ إيقاع ما وعد به.

وقوله: أصدق وأوفى. مع قوله: من أن تكذبك أو تغرك.

من باب اللف والنشر وفيه المقابلة

وقوله: ولربّ. إلى قوله: مكذّب.

تقرير لبعض لوازم الغفلة عليه وهي تهمته للمناصح منها وتكذيبه لصادق خبرها، وأطلق لفظ التهمة والتكذيب مجازاً في عدم الالتفات إلى نصيحتها بتصاريفها وما يعلم من صادق تغيّراتها وعدم اعتبار ذلك منها إطلاقاً لاسم ذي الغاية على غايته، وكانت غاية التهمة والتكذيب عدم الالتفات إلى المتهم والمكذّب والإعراض عنها.

وقوله: ولئن تعرفتها. إلى قوله: الشحيح بك.

صورة احتجاج نبّه فيه على صدقها في نصيحتها كي تستنصح ولا تتّهم، وهو بقياس شرطيّ متّصل، وتقريره ولئن تعرفتها: أي طلبت معرفة حالها في نصيحتها وغشها من الديار الخاوية والربوع الخالية للأمم السالفة والقرون الماضية لتعرفتها بمنزلة الشفيق عليك والشحيح بك، ووجه شبهها بذلك حسن تذكرها لك وبلاغ موعظتك وعبرتك منها كما أنّ الناصح الشفيق عليك، وبيان الملازمة بحال الوجدان بعد تعرفها. والاستثناء في هذه المتصلة لعين المقدّم لينتج عين التالي.

وقوله: ولنعم. إلى قوله: محلاً.

مدح للدنيا باعتبار استعمالها على الوجه المقصود بالعناية الإلهية وهو الاعتبار بها دون الرضى بها لذاتها واتّخاذها وطناً ودار إقامة واسم نعم هو دار من لم يرض، والمخصوص بالمدح هو الدنيا، وداراً ومحلاً منصوبان على التميز يقومان مقام اسم الجنس الذي هو اسم نعم إذا حذف، وههنا مسألتان:

إحديهما: أنّ اسم الجنس الذي هو اسم نعم وبئس تضاف في العادة إلى ما فيه الألف واللام كقولك: نعم صاحب القوم، وقد أضافه ههنا إلى ما ليس فيه الألف واللام، وقد جاء مثله في الشعر كقوله: فنعم صاحب قوم لا سلاح لهم.

الثانية: أنّه جمع بين اسم الجنس والنكرة التي تبدل منه، وقد جاء مثله في قوله: فنعم الزاد زاد أبيك زاداً، وإنّما أضاف داراً إلى من لم يرض بها، ومحلاً إلى من لم يوطنها لأنّ الدنيا إنّما يكون داراً ممدوحة باعتبار كونها دار من لم يرض بها ولم يوطنها لاستلزام عدم رضاهم بها الانتفاع بالعبر بها واتّخاذ زاد التقوى،

وأولئك هم المتّقون السعداء بها. ويحتمل أن يكون داراً ومحلاً منصوبين على التميز عن قوله: لم يرض بها ولم يوطّنها.

وقوله: وإنّ السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم.

فوجه سعادتهم بها استثمارهم للكمالات المسعدة في الآخرة منها، ولن يحصل ذلك إلا بالهرب منها اليوم، وكنّى بالهرب منها عن الإعراض الحقيقي عن لذّاتها، والتباعد من اقتنائها ولذّاتها لاستلزام الهرب عن الشيء التباعد عنه والزهد فيه، وظاهر أنّ التباعد منها بالقلوب إلاّ ما دعت الضرورة إليه واتّخاذها مع ذلك سبباً إلى الآخرة من أسباب السعادة ومستلزماتها كما أشار إليها سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله من حاله فيها بقوله: ما أنا والدنيا إنّما مثلي فيها كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقعد في ظلّها ساعة ثمّ راح وتركها. ودلّ بقوله: إذا رجفت. على الوقت المذكور المدلول عليه بقوله: غداً. وهو يوم القيامة لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦] قال المفسّرون: الراجفة: هي النفخة الأولى في الصور وهي صيحة عظيمة فيها تردّد واضطراب كالرعد يصعق فيها الخلائق «وتتبعها الرادفة» وهي النفخة الثانية تردف الأولى. وجلائل القيامة: محنها الجليلة العظيمة.

وقوله: ولحق بكل منسك أهله.

إشارة إلى لحوق كل نفس يوم القيامة لمعبودها ومطاعها وما ألفته وأحبّته من أمر دنيوي أو أخروي فأقبلت عليه وعملت له، ونحوه أشار الرسول صلى الله عليه وآله: يحشر المرء مع من أحبّ، ولو أحبّ أحدكم حجراً لحشر معه.

وقوله: فلم يجز. إلى قوله: بحقّه.

تقرير لعدله تعالى في ذلك اليوم. والمعنى أن كل حركة ولو طرفة عين في الهواء أو همس قدم في الأرض فإنّها لا تجري في عدله إلا بحقّها لا يزاد عليه ولا ينقص عنه. ثمّ أشار إلى كثرة الحجج الباطلة يومئذ والأعذار المنقطعة ترغيباً في تحصيل الكمالات البرهانيّة ولزوم آثار المرسلين والأولياء الأبرار في سلوك سبيل الله، وإنّما ذكر مخاوف ذلك اليوم وأهواله بعد ذكر السعداء فيه وتعيين أنّهم هم الهاربون من الدنيا اليوم ليرغب إلى الاقتداء بهم في ذلك الهرب لغاية تلك السعادة. ثم أمر أن يطلب الإنسان من أموره وأحواله أحراها وأولاها ممّا يقوم به عذره في ذلك اليوم وتثبت به حجتّه في محفل القيامة، وذلك الأمر هو ما أشرنا إليه من البرهان واقتفاء أثر المرسلين، وكذلك أمره أن يأخذ ما يبقى له من الكمالات المسعدة في الآخرة ممّا لا يبقى له وهو الدنيا ومتاعها، وقد بيّنا كيفيّة ذلك الأخذ غير مرّة، وأن تيسّر لسفره: أي يستعد لسفره إلى الله بالرياضة، بالزهد والعبادة، وأن يشيم برق النجاة: أي يوجه سرّه إلى الله تعالى بعد الزهد الحقيقي والعبادة الكاسرة للنفس الأمّارة بالسوء لتشرق لوامع الأنوار الإلهية وبروقها التي هي بروق النجاة وأبواب السلامة كما أشار إليه فيما قبل هذا الفصل بفصلين بقوله: وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، وأن يرحل مطايا التشمير وهو إشارة إلى الجدّ في سلوك سبيل الله والاجتهاد في العمل لما بعد الموت، واستعار لفظ المطايا لآلات العمل، ولفظ الإرحال لإعمالها، وبالله التوفيق.

٢١٦ - ومن كلام له عليه السلام

يتبرأ من الظلم

وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟!.

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي،

وَأَتْبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيْسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلا أَئِنُّ مِنْ لَظًى؟! وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لا ذَا وَلا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

أقول: السعدان: نبت شوكيّ ذو حسك لها ثلاث أرؤس محدّدة على أي وجه وقعت من الأرض كان لها رأسان قائمان. والمصفّد: الموثوق شدّاً بغل أو قيد ونحوهما. والقفول: الرجوع من السفر. والإملاق: الافتقار. والاستماحة: طلب المنح وهو العطاء. والعظلم: نبت وهو بالعربيّة النيل، وقيل: نبت آخر يصبغ به. والدنف: شدّة المرض. والميسم: المكواة. وسجّرها: وقدها وأحماها. وشنئتها: أبغضتها. وهبلته الهبول: ثكلته الثواكل. والخباط: مرض كالجنون وليس به، والمختبط: الذي يطلب معروفك من غير سبب سابق بينكما من رحم أو معروفة سابقة أو سابقة معروف لك عنده. والجنّة: الجنون. والهجر: الهذيان. وجلب الشعيرة: قشرها.

وغرض الفصل التبرّي من الظلم، وذلك أنّ أحدهم كان يأتيه فيسأله العطاء وهو عليه السلام لم يكن ليستبقي لنفسه شيئاً ولا يرى أن يعطي من بيت المال أحداً دون غيره. فيحرمه، وربّما كان في غاية الحاجة فينسبه إلى الظلم والتخصيص بالمال دونه. فتبرأ بهذا الكلام مما نسب إليه من ذلك.

فقوله: والله. إلى قوله: الحطام.

بيان لمقدار نفرته عن الظلم وغايتها. وعلّة ترجيحه أو اختياره لأحد الأمرين المذكورين على الظلم مع ما يستلزمانه من التألّم والعذاب أنّ ما يستلزمه الظلم من عذاب الله أشدّ خصوصاً في حقّ من نظر بعين بصيرته تفاوت العذابين، مؤكداً لذلك البيان بالقسم البارّ. ولفظ الحطام مستعار لمتاع الدنيا باعتبار حقارته، وأصله ما تكسر من نبت الأرض. وظالماً وغاصباً حالان.

وقوله: وكيف. إلى قوله: حلولها.

استفهام عن وجه ظلمه لأحد استفهام إنكار على من نسب إليه ذلك مع ذكر سببين يمنعان العاقل من الظلم؛ وهما الرجوع إلى البلى من السفر في الدنيا، وطول الحلول في الثرى.

وقول: والله لقد رأيت إلى قوله: لظى.

تنبيه لنفي الظلم عنه ببلوغه في المحافظة على بيت المال ومراعاة العدل إلى الحدّ الذي فعله مع أخيه عقيل على شدّة فاقته وفاقة عياله وكونه ذا حقّ في بيت المال، ومعلوم أنّ من لم تدعه هذه الأسباب الثلاثة؛ وهي الأخوة والفاقة والحقّ الموجود لذي الفاقة إلى أن يدفعه إليه أو بعضه خوفاً من شبهة الظلم فهو أنزه الناس أن يظلم أو يحوم حول الظلم بوجه، واستعار لفظ السمع لما يوهم من استعاضة لذّة العطاء للأخ الفقير بما يفوت من الدين لسبب الظلم في عطيّته على غير الوجه الشرعيّ، وقيادة ما يقوده به من الاستعطاف والرحم عن طريقة العدل، وإنّما أحمى له الحديدة لينبّهه بها على النار الأخرويّة، ولذلك احتجّ عند أنينه من حرّها بقوله: أتئنّ من حديدة. إلى قوله: لغضبه، ووجه الاحتجاج أنّك إذا كنت تئنّ من هذه فبالأولى أن تئنّ من تلك النار، وغاية ذلك أن تترك الظلم بطلب ما لا تستحقّه لاستلزام الأنين من نار الله ترك الظلم، ولمّا أثبت عليه وجوب ترك الظلم بذلك الطلب أعقبه بالاحتجاج لنفسه

على وجوب تركها للظلم باعطائه بقوله: أتئنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى: أي إذا كنت تئنّ من الأذى فبالأولى أن أئنّ من لظى. وإنّما قال: ولا أئنّ من لظى مع أنّ لظى غير حاصلة الآن تنزيلاً للمتوقّع الذي لا بدّ منه بسبب الظلم منزلة الواقع ليكون أبلغ في الموعظة، وإنّما أضاف الإنسان إلى الحديدة لأنّه أراد إنساناً خاصّاً هو المتولي لأمر تلك الحديدة فعرّفه بإضافته إليها، وكذلك الإضافة في جبّارها، وإنّما قال: للعبه، استسهالاً وتحقيراً لما فعل لغرض أن يكبّر فعل الحارّ من سجر النار، وكذلك جعل العلّة الحاملة على سجر النار هو غضب الجبّار تعظيماً لشأنه.

وقوله: وأعجب من ذلك. إلى قوله: أم تهجر.

أي وأعجب من عقيل وحاله طارق طرقنا. والطارق: الآتي ليلاً، وكنّى بالملفوفة في وعائها عن الهديّة. وقيل: كان شيئاً من الحلواء كالفالوذج أو الخبيص ونحوه، ونبّه بقول: شنئتها على بغضه للأمور اللذيذة الدنيويّة ونفرته عنها زهداً فيها، ووجه تشبيهها بما عجن بريق الحيّة أو قيئها هو ما في تصوّره في قبولها من الفساد وما قصد بها مهديها في طلب الميل إليه المستلزم للظلم والجور عن سبيل الله فإنّ القصد الذي اشتمل عليه كالسمّ المهلك، وأمّا كون وجه كون المهدي أعجب من عقيل فإنّ عقيلاً جاء بثلاث وسايل كل منها يستلزم العاطفة عليه: وهي الأخوة والفاقة وكونه ذا حقّ في بيت المال، وهذا المهدي إنّما أدلى بهديته. فأمّا قوله في جوابه: فقلت له. إلى قوله: أهل البيت. فإنّه أراد به حصر وجوب البر في العرف لأن التقرب إلى الله ببذل المال لعباده إمّا صلة رحم أولا، والثاني فإما على وجه الصدقة أو الزكاة الواجبة ولم يذكر الهديّة لأنّه لم يكن في وهم عاقل قبول عليّ عليه السلام لها خصوصاً زمان خلافته، وذلك أنّ مطلوب العاقل منه بالهديّة إمّا حقّ أو باطل، والحقّ لا يحتاج فيه إلى الهديّة والباطل لا يفعله بوجه، ولذلك لمّا قال له الطارق: إنّها هديّة. دعا عليه ونسبه إلى الجنون والهذيان، ولمّا قسّم عليه وجوب البرّ أبطل قسمين منها بقوله: فذلك محرّم علينا أهل البيت. وأراد الصدقة والزكاة.

وأمّا صلة الرحم فلم يحتج إلى إبطالها لأن الطارق لم يكن ذا رحم له، وقول الطارق: لا هذا ولا ذاك، يجري في مجرى إبطال الحصر بإبراز قسم رابع هو الهديّة.

وقوله: هبلتك الهبول. إلى قوله: تهجر.

جواب لقوله: ولكنّها هديّة. قررّ عليه فيه ما فهمه من غرضه بالهديّة، وهو خداعه عن دينه. إذ الهديّة لغرض حرام صورة استغرار وخداع، وذكر الخداع عن الدين تنفيراً لصاحب الهدية عن فعله ذلك، ولمّا كان ذلك الأمر لو تمّ الغرض به يستلزم نقصان الدين كالخداع عن الدين فأطلق عليه لفظة الخداع استعارة.

وقوله: أمختبط أم ذو جنّة أم تهجر.

استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ على ذلك الخداع بعد تقريره عليه. إذ كان المخادع لمثله عليه السلام عن دينه لا يكون إلاّ على أحد الوجوه المذكورة غالباً ولا يتصور أن يصدر منه ذلك الخداع عن رويّة صحيحة، وقد ذكر وجوه الخروج عن الصواب ممّا يتعلّق بالعقل.

وقوله: والله. إلى قوله: ما فعلت.

يحتمل أن يكون ردّاً لوهم الطارق فيه أنّه يفعل مطلوبه الحرام بتلك الهديّة، وإبطال لذلك الوهم عنه. والأقاليم السبعة: أقسام الأرض، وهو دليل منه على غاية العدل.

وقوله: وإنّ دنياكم. إلى قوله: تقضمها.

دليل على غاية الزهد منه في الدنيا كقوله في الشقشقيّة: ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندي من عفطة عنز.

وقوله: ما لعلي! ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى.

استفهام إنكار لملامته نعيم الدنيا ولذّاتها الفانية، والمعنى أنّ حال عليّ ينافي ذلك النعيم، واختياره يضادّ تلك اللذّة. ثمّ تعوّذ بالله من سبات العقل وهي اختياراته لتلك اللذّات ولذلك النعيم وميله في مطاوعة النفس الأمّارة بالسوء، ومن قبح الزلل وهو الإنحراف عن سبيل الله الموقع في مهاوي الهلاك، واستعان به على دفع ما تعوّذ به منه. وبالله التوفيق والعصمة.

٢١٧ - ومن دعاء له عليه السلام

يلتجئ إلى الله أن يشفيه

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلا تَبْذُلْ جَاهِي بِالإِقْتَارِ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أقول: اليسار بالفتح: الغنى. والإقتار: ضيق الرزق والفقر.

وحاصل الفصل التجاء إلى الله في طلب الغنى وعدم الابتلاء بالفقر ولوازمه.

واعلم أنّ الغنى المطلوب لمثله عليه السلام هو ما دفع ضرورة حاجته بحسب الاقتصاد والقناعة لا المفهوم المتعارف بين أرباب الدنيا من جمع المال وادّخاره والاتساع به فوق الحاجة، وطلب الغنى على ذلك الوجه محمود، وعلى الوجه الثاني هو المذموم، والفقر هو ما احتاج الإنسان معه إلى سؤال الناس ويلزمه بذلك الاعتبار لوازم صارفة عن وجه الله وعبادته:

أوّلها: ابتذال الجاه ونقصان الحرمة، ولمّا كان الجاه والغنى كالمتلازمين لا يليق أحدهما إلاّ بالآخر جعل مزيل الجاه الفقر لأنّه مزيل الغنى، وإلى وجوب تلازمهما أشار أبو الطيّب بقوله:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله

ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

والجاه أيضاً له اعتبارات فما أريد لله منه كان شرفاً به واعتزازاً بدينه، وما أريد الاستعانة به على أداء حقوق الله وطاعته فهو الوجه المحمود الذي سأل الله حفظه عليه بالغنى عن الناس، وهو الذي امتن الله تعالى به على الأنبياء في قوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] وما أريد به الفخر والترؤس في الدنيا فهو المذموم.

الثاني: من لوازمه استرزاق الخلق الذين من شأنهم أن يسألوا الرزق لا أن يطلب منهم وفي ذلك من الذلّ والخضوع للمطلوب منه ومهانة النفس واشتغالها عن التوجّه إلى المعبود ما يجب أن يستعاذ بالله منه، ومن أدعية زين العابدين عليه السلام: تمدّحت بالغنى عن خلقك وأنت أهل الغنى عنهم، ونسبتهم إلى الفقر وهم أهل الفقر إليك فمن حاول سدّ خلّته من عندك ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته من مظانّها وأتى طلبته من وجهها، ومن توجّه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك فقد تعرّض للحرمان واستحقّ من عندك فوت الإحسان. وإنّما حكم عليه باستحقاق فوت الإحسان لعدم استعداده لنفحات الله بالتوجه إلى غيره واشتغال نفسه بذلك الغير، ونبّه بقوله: طالبي رزقك على عدم أهليتهم لأن يطلب منهم.

الثالث: استعطاف شرار خلقه، وظاهر أنّ الحاجة قد تدعو إلى ذلك، والتجربة تقضي بأنّ طلب العاطفة من الأشرار والحاجة إليهم يستلذّ معه ذو المروّة طعم العلقم ويستحلي مذاق الصبر.

الرابع: الإبتلاء بحمد المعطي والافتتان بذمّ المانع، وذلك مستلزم للصرف عن الله والتوجّه إلى القبلة الحقيقيّة، والواو في قوله: وأنت. للحال: أي لا تبذل جاهي بالإقتار فيلحقني بسببه ما يلحقني من المكاره المعدودات وأنت من وراء ذلك كلّه أولى من أعطى ومنع بأن تعطى وتمنع لقدرتك على كل شيء، ومفهوم كونه وراء ذلك كلّه إحاطته وكونه مستند الغنى وأهله المحتاج إليهم من الخلق وأولى بإزالة الفقر ولوازمه لقدرتك على صرفه والإغناء عن الخلق لأنّ كونه محيطاً وكونه مستنداً مستلزمان للورائيّة فالمستند الوراء المعقول للمعقول والمحسوس للمحسوس، وبالله التوفيق.

٢١٨ - ومن خطبة له عليه السلام

في التنفير من الدنيا

دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا، أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالأَمَانُ فِيهَا

مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً. فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ، وَالْقُبُورَ اللاَّطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ، وَلا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ. وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى؟ وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذٰلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذٰلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أقول: التارة: المرّة. والمستهدفة: التي جعلت هدفاً نصبت لترمى. وعفت الآثار: انمحت. والنمارق: جمع نمرق ونمرقة، وهي وسادة صغيرة. والكلكل: الصدر. وبعثرت القبور، وبعثرتها: إخراج ما فيها ونبشها. يقال: بعثر الرجل متاعه إذا فرّقه وقلّب أعلاه أسفله.

وغرض الفصل التحذير من الدنيا والاشتغال بها عن الله، والتنفير عن ذلك بذكر معايبها، والجذب به إلى استعمالها على الوجه المطلوب الذي لأجله وجدت.

فقوله: دار. خبر متبدأ محذوف هو الدنيا، وذكر من معايبها عدّة:

أحدها: كونها مقرونة بالبلاء وملازماً لها فكنّى عن ذلك بالحفوف الذي هو الإحاطة من الجوانب لأنّه أبلغ.

الثاني: كونها معروفة بالغدر، واستعار لفظ الغدر لغيرها عمّا يتوهّم الإنسان دوامها عليه في حقّه من أحوالها المعجبة له كالمال والصحّة والشباب فكأنّه في مدّة بقاء تلك الأحوال عليه قد أخذ منها عهداً فكان التغيّر العارض لها المستلزم لزوال تلك الأحوال عنه أشبه شيء بالغدر ولمّا كان كثر منها ذلك صارت معروفة به.

وثالثها: كونها لا تدوم أحوالها.

ورابعها: لا تسلم نزّالها من آفاتها.

وخامسها: اختلاف أحوالها، وأحوال خبر مبتدأ محذوف تقديره: أحوالها أحوال كذلك.

وسادسها: تصرّف تاراتها؛ وهو تغيّر أحوالها تارة بعد أُخرى.

وسابعها: كون العيش فيها مذموماً، ولمّا كان العيش فيها كناية عن الالتذاذ بها والتنعّم فيها واستلزم ذلك العاقبة المهلكة لا جرم لزم الذمّ، ولأنّه مشوب بتكدير الأمراض والأعراض فلا يزال مذموماً في الألسنة حتّى في لسان صاحبه والمستريح إليه عند معاناته بعض مراتب الكدر.

وثامنها: عدم الأمان فيها: أي من مخاوفها، وما يلزم تصرّفاتها من البلاء وكل ذلك من ضرورتها واختلاف استعدادات القوابل فيها عن حركات الأفلاك وكواكبها، وكون المبادي المفارقة مفيضة على كل قابل منها ما استعد له.

وتاسعها: كون أهلها فيها أغراضاً مستهدفة، واستعار لفظ الأغراض، ورشّح بذكر الاستهداف، كذلك استعار لفظ الرمي لإيقاع المصائب بهم ورشّح بذكر السهام.

وعاشرها: كونها معهم على سبيل من قد مضى من

القرون الخالية ممّن كان أطول أعماراً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً: أي كانت آثارهم لا يقدر عليها ولا تنال لعظمها، وكونها معهم على ذلك السبيل إشارة إلى إقبالها لهم كإفناء أولئك وإلحاقهم بأحوالهم.

وقوله: أصبحت أصواتهم. إلى قوله: والثرى.

تفصيل لأحوال أولئك ووعيد للسامعين بلحوقها لهم. إذ كان سبيل الدنيا مع الجمع واحداً، وركود رياحهم كناية عن سكون أحوالهم وخمول ذكرهم بعد العظمة في الصدور.

وقوله: قد بني بالخراب فناؤها.

أي على خراب ما كان معموراً من الأبدان والمساكن، وظاهر أنّ القبور أسّست على ذلك وبنيت عليه، وراعى في قوله: فناؤها وبناؤها ومغترب ومقترب السجع المتوازي مع المطابقة في القرينتين الأخريين، وأراد أنّ ساكنها وإن اقترب محلّه فهو غريب عن أهله، ونبّه بقوله: موحشين ومتشاغلين وكونهم لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على أن أحوالهم من تجاورهم وفراغهم ليس كأحوال الدنيا المألوفة لهم ليخوف بها وينفر عنها. ثم أشار إلى عدم علّة المزاورة، واستعار لفظ الطحن لإفساد البلى لأجسادهم ورشّح بلفظ الكلكل، وكذلك استعار لفظ الأكل لإفنائها.

وقوله: وكأن قد صرتم. إلى قوله: المستودع.

فكأن المخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والتقدير فيشبه أنّكم قد صرتم إلى مصيرهم وأحوالهم ويقرب من ذلك لأنّ مشابهة الأحوال يستلزم قرب بعضها من بعض، وارتهنكم ذلك المضجع: أي صار لكم دار إقامة واتّخذكم سكّانه المقيمين به، وأطلق عليه لفظ المستودع باعتبار كونهم سيخرجون منه يوم القيامة.

وقوله: فكيف بكم. إلى قوله: القبور.

سؤال لهم عن كيفية حالهم عند تناهي أمورهم وأحوالهم في يوم البعث سؤالاً على سبيل التذكير بتلك الأحوال والتخويف بتلك الأهوال ليذكروا شدّتها فيفزعوا إلى العمل، وذكر منها أمراً واحداً وهو اطّلاع النفوس على ما قدّمت وأسلفت في الدنيا من خير وشرّ والرّد إلى المولى الحق الذي ضل مع الرجوع إليه كلّ ما كان يفترى من دعوى حقيقة سائر الأباطيل المعبودة. وبالله التوفيق.

٢١٩ - ومن دعاء له عليه السلام

يلجأ فيه إلى الله ليهديه إلى الرشاد

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الاسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

اللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ وَلا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

أقول: الفهامة: العيّ. والعمه: التحيّر.

وقد ضرع إلى الله تعالى باعتبارات من الصفات الإضافية والحقيقيّة:

الأوّل: كونه آنس الآنسين لأوليائه. وقد علمت أن أولياءهم السالكون لطريقه عن المحبّة الصادقة له والرغبة التامّة عمّا عداه، ولمّا كان الأنيس هو الذي يرفع الوحشة وتسكن إليه النفس في الوحدة والغربة وكانت أولياء الله في الحياة الدنيا غرباء في أبنائها منفردين عنهم في سلوك سبيل الله مولّين وجوههم شطر كعبة وجوب وجوده مبتهجين بمطالعة أنوار كبريائه لا جرم كان أشدّ الآنسين لهم أنساً. إذ ما من عبد تعبّد لغير الله واستأنس به كالولد بوالده وبالعكس إلاّ كان لكل واحد منهما مع صاحبه نفرة من وجه واستيحاش باعتبار. فلم يكن لهم

أنيس في الحقيقة إلا هو إن كانوا في الالتفات إليه منقطعين عمّا عداه مستوحشين من غيره.

الثاني: كونه تعالى أحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليه. إذ كان تعالى هو الغني المطلق والجواد الذي لا بخل من جهته ولا منع، والعالم المطلق بحاجة المتوكّلين وحسن استعدادهم فإذا استعدّ المتوكلون عليه لحسن توكّلهم لقبول رحمته أفاض على كل منهم قدر كفايته من الكمالات النفسانيّة والبدنيّة بلا تعويق عائق أو تردّد في استحقاق مستحق أو مقدار كفايته أو حاجة إلى تحصيل ذلك المقدار، إلى غير ذلك ممّا هو منسوب إلى غيره تعالى من سلوك الدنيا. فلا جرم أقوم من توكّل عليه بكفاية المتوكّلين وأسرعهم إحضاراً لما استعدّ كل منهم له من الكمال.

الثالث: كونه تعالى يشاهدهم. إلى قوله: مكشوفة. إشارة إلى علمه تعالى بأحوالهم الباطنة الذي هو من لوازم كونه أحضر لكفايتهم كما بيّناه. واطّلاعه عليهم في ضمائرهم اعتبار لكمال علمه تعالى وبراءته عن النقصان، وكذلك علمه بمبلغ بصائرهم: أي بمقادير عقولهم وتفاوت استعداد نفوسهم لدرك الكمالات، وأكّد بقوله: فأسرارهم لك مكشوفة. ما سبق من الإشارة إلى إحاطة علمه تعالى بأحوالهم الباطنة في معرض الإقرار بكمال العبوديّة والخضوع له والاعتراف بأنّه لا يخفى عليه منهم شيء، ولهف قلوبهم إليه تحسّرها على الوصول إليه والحضور بين يديه، وهو اعتبار لكمال محبّتهم له ورغبتهم فيما عنده.

وقوله: إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك.

أي الغربة في هذه الدار كما هنا، وهو اعتبار لحصول الاستيناس من جهتهم به، والأول اعتبار لكونه تعالى أنيساً لهم.

وقوله: وإن صبّت. إلى قوله: بك.

اعتبار لتحقّق توكّلهم عليه تعالى في دفع ما يكرهون من مصائب الدنيا عند نزولها بهم. إذ سبق اعتبار كونه تعالى أحضر من توكل عليه لكفاية المتوكّلين، ولجوئهم إلى الاستجارة به يعود إلى توجيه وجوه نفوسهم إليه تعالى في دفع ذلك المكروه دون غيره وهو التوكّل الخالص.

وقوله: علماً. إلى قوله: قضائك.

فعلماً مفعول له: أي لأجل علمهم بأنّ الأمور كلها مربوطة بأسبابها تحت تصريف قدرتك، وأنّ مصادرها وهي أسبابها القريبة منتهية إلى قضائك، وهو حكم علمك، إذ به ومنه كانت أسباباً ومصادر لتلك المصائب كان لجوؤهم في الاستجارة بك. ويحتمل أن يكون علماً مصدراً سدّ مسدّ الحال، وهو يستلزم كونهم في عباداتهم وأحوالهم مقطوعي النظر عن غيره تعالى، ولفظ الأزمّة مستعار لأسباب الأمور، ووجه المشابهة كونها ضابطة لها وبها يحرز نظام وجودها كالأزمّة، ولفظ اليد مجاز في القدرة.

وقوله: اللهم. إلى آخره.

شروع في المطلب على وجه كليّ، وهو طلب دلالته على مصالحه في أي أمر كان وجذب قلبه بالهداية إلى مواضع رشده من العقائد والآراء الصحيحة التامّة على تقدير إن عيّ عن مسألته أو تحيّر في وجه معرفة مصالحه.

وقوله: فليس ذلك. إلى قوله: كفاياتك.

استعطاف بما في العادة أن يستعطف به أهل العواطف والرحمة من الكلام: أي أنّ هداياتك لخلقك إلى وجوه مصالحهم وكفاياتك لهم ما يحتاجون إليه أمور متعارفة جرت عادتك بها، وألفها منك عبادك.

وقوله: اللهمّ احملني. إلى آخره.

سؤال أن يحمله تعالى على عفوه عمّا عساه صدر عنه من ذنب، ولا يحمله على عدله فيحرمه بما فعل حرماناً أو عقوبة، وهو من لطيف ما تستعدّ به النفس لاستنزال الرحمة الإلهيّة، وبالله التوفيق.

٢٢٠ - ومن كلام له عليه السلام

يريد به بعض أصحابه

لِلّهِ بَلاءُ فُلانٍ، فَلَقَدْ قَوَّمَ الأَوَدَ، وَدَاوَى الْعَمَدَ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ خَلَّفَ الْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ

الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّى إِلَى اللهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لا يَهْتَدِي فِيهَا الضَّالُّ، وَلا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي.

أقول: الأود: العرج. والعمد: مرض، وهو انسداخ داخل سنام البعير من الحمل ونحوه مع صحّة ظاهرة.

وقوله: لله بلاء فلان.

لفظ يقال في معرض المدح كقولهم: لله درّه، ولله أبوه. وأصله أنّ العرب إذا أرادوا مدح شيء وتعظيمه نسبوه إلى الله تعالى بهذا اللفظ، وروي: لله بلاء فلان: أي عمله الحسن في سبيل الله، والمنقول أنّ المراد بفلان عمر، وعن القطب الراوندي أنه إنما أراد بعض أصحابه في زمن رسول الله ﷺ ممّن مات قبل وقوع الفتن وانتشارها، وقال ابن أبي الحديد رحمه الله: إنّ ظاهر الأوصاف المذكورة في الكلام يدلّ على أنّه أراد رجلاً ولي أمر الخلافة قبله. لقوله: قوّم الأود وداوى العمد. ولم يرد عثمان لوقوعه في الفتنة وتشعّبها بسببه، ولا أبا بكر لقصر مدّة خلافته وبعد عهده عن الفتن فكان الأظهر أنّه أراد عمر، وأقول: إرادته لأبي بكر أشبه من إرادته لعمر لما ذكره في خلافة عمر وذمّها به في خطبته المعروفة بالشقشقية كما سبقت الاشارة إليه.

وقد وصفه بأمور:

أحدها: تقويمه للأود، وهو كناية عن تقويمه لاعوجاج الخلق عن سبل الله إلى الاستقامة فيها.

الثاني: مداواته للعمد، واستعار لفظ العمد للأمراض النفسانيّة باعتبار استلزامها للأذى كالعمد، ووصف المداواة لمعالجة تلك الأمراض بالمواعظ البالغة والزواجر القارعة القوليّة والفعليّة.

الثالث: إقامته للسنّة ولزومها.

الرابع: تخليفه للفتنة. أي موته قبلها. ووجه كون ذلك مدحاً له هو اعتبار عدم وقوع بسببه وفي زمنه لحسن تدبيره.

الخامس: ذهابه نقيّ الثوب، واستعار لفظ الثوب لعرضه، ونقاه لسلامته عن دنس المذامّ.

السادس: قلّة عيوبه.

السابع: إصابة خيرها وسبق شرّها، والضمير في الموضعين يشبه أن يرجع إلى المعهود ممّا هو فيه من الخلافة أي أصاب ما فيها من الخير المطلوب وهو العدل وإقامة دين الله الذي به يكون الثواب الجزيل في الآخرة والشرف الجليل في الدنيا، وسبق شرّها: أي مات قبل وقوع الفتنة فيها وسفك الدماء لأجلها.

الثامن: أداؤه إلى الله طاعته.

التاسع: اتّقاه بحقّه. أي أدّى حقّه خوفاً من عقوبته.

العاشر: رحيله إلى الآخرة تاركاً للناس بعده في طرق متشعبة من الجهالات لا يهتدي فيها من ضلّ عن سبيل الله ولا يستيقن المهتدي في سبيل الله أنّه على سبيله لاختلاف طرق الضلال وكثرة المخالف له إليها. والواو في قوله: وتركهم. للحال.

واعلم أنّ الشيعة قد أوردوا هنا سؤالاً فقالوا: إنّ هذه الممادح التي ذكرها عليه السلام في حقّ أحد الرجلين تنافي ما أجمعنا عليه من تخطئتهم وأخذهما لمنصب الخلافة. فإمّا أن لا يكون هذا الكلام من كلامه عليه السلام أو أن يكون إجماعنا خطأ. ثمّ أجابوا من وجهين:

أحدهما: لا نسلّم التنافي المذكور فإنّه جاز أن يكون ذلك المدح منه عليه السلام على وجه استصلاح من يعتقد صحّة خلافة الشيخين واستجلاب قلوبهم بمثل هذا الكلام.

الثاني: أنّه جاز أن يكون مدحه ذلك لأحدهما في معرض توبيخ عثمان بوقوع الفتنة في خلافته واضطراب الأمر عليه واستئثاره ببيت مال المسلمين هو وبنو أبيه حتّى كان ذلك سبباً لثوران المسلمين من الأمصار إليه وقتلهم له، ونبّه ذلك بقوله: وخلّف الفتنة وذهب نقيّ الثوب قليل العيب أصاب خيرها وسبق شرّها.

وقوله: وتركهم في طرق متشعبّة. إلى آخره.

فإنّ مفهوم ذلك يستلزم أنّ الوالي بعد هذا الموصوف قد اتّصف بأضداد هذه الصفات، والله أعلم.

٢٢١ - ومن كلام له عليه السلام

في وصف بيعته بالخلافة، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة.

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وُرُودِهَا، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ.

أقول: التداك: الازدحام القويّ. والهيم: العطاش. والتحامل: تكلّف المشي مع مشقّة. والكعاب: الجارية نهد ثديها. وحسرت: كشفت وجهها.

وحاصل الفصل الاحتجاج على من خالفه من أهل البغي فذكر حال الناس في بيعتهم له وكيفيّتها الدالة على شدّة حرصهم عليه واجتماعهم عن رضى واختيار على تسليم الأمر إليه، وشبّه ازدحامهم عليه بازدحام الإبل العطاش يوم ورودها على الحياض، ووجه الشبه شدّة الازدحام، ويمكن أن يلاحظ في وجه هذا الشبه كون ما عنده من الفضائل الجمّة العلميّة والعمليّة تشبه الماء وكون المزدحمين عليه في حاجتهم وتعطّشهم إلى استفادة تلك الفضائل النافعة لغليلهم كالعطاش من الإبل حين ورودها.

وقوله: حتّى. إلى قوله: وطىء الضعيف.

كقوله: في الشقشقيّة حتّى لقد وطىء الحسنان وشقّ عطفاي. وباقي الفصل ظاهر. وهو في قوّة صغرى قياس ضمير من الشكل الأول، وتلخيصها أنكم بلغتم في طلبكم لي وحرصكم على بيعتي إلى هذه الغاية حتّى أجبتكم. وتقدير الكبرى وكلّ من كان كذلك فليس له أن ينكث ويغدر، وبالله التوفيق.

٢٢٢ - ومن خطبة له عليه السلام

في مقاصد اخرى

فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ، فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ، وَالأَقْلامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ. قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ. فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ، وَجُشُوبَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ، وَعَفَّى آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ. فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ. وَلا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً. لا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ، غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ. لا يَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا، وَلا يَرْكُدُ بَلاؤُهَا.

أقول: الحابس: المانع. والخالس: المختطف. والتكنّف: الإحاطة والطيّات: جمع طيّة بالكسر؛ وهو

منزل السفر. والواتر: الذي يوجب لغيره الوتر وهو الذحل والحقد. والغوائل: المصايب تأتي على غرّة، جمع غائلة. والمعابل: جمع معبل بكسر الميم وهي نصل طويل عريض. وعدوته بفتح العين: ظلمه. ونبا السيف: إذا لم يؤثّر في الضربة. والظلل: جمع ظلّة، وهو السحاب. والاحتدام: شدّة الحدّة والغيظ. والإرهاق: الإعجال، ويروى بالزاي. والجشوبة بالجيم: غلظ الطعام. والنجيّ: القوم يتناجون. والنديّ: القوم يجتمعون في النادي، وهو المجتمع. ولا يحفلون: لا يبالون، والاحتفال بالشيء: الاعتناء به.

وفي الفصل مقاصد:

الأوّل التنبيه على فضيلة تقوى الله بأوصاف:

الأول: كونها مفتاح سداد، ولمّا كان السداد هو الصواب والعدل في القول والعمل، وكان ذلك هو غاية الدين والطريق المسلوك إلى الله، وكانت تقوى الله تعود إلى خشيته المستلزمة للإعراض عن مناهيه استعار لها لفظ المفتاح باعتبار كونها سبباً للاستقامة على الصواب والقصد في صراط الله المستقيم إلى ثوابه المقيم الذي هو أفضل المطالب كما أنّ المفتاح سبب الوصول إلى ما يحزن من الأموال النفيسة.

الثاني: كونها ذخيرة معاد، وظاهر أنّ الاستعداد لخشية الله وما يستلزمه من الكمالات النفسانيّة من أنفس الذخائر المشفّع بها في المعاد.

الثالث: كونا عتقاً من كل ملكة. استعار لفظ العتق لخلاص النفس العاقلة من استيلاء حكم شياطينها المطيفة بها كخلاص العبد من استيلاء سيده. ثم جعل التقوى نفسها عتقاً مجازاً إطلاق لاسم السبب على المسبّب. إذ كانت التقوى سبباً لذلك الخلاص المستعار له لفظ العتق.

الرابع: ونجاة من كل هلكة. أطلق عليها لفظ النجاة مجازاً كالعتق لكونها سبباً لنجاة الناس من المهلكات الأخرويّة وعقوبات الآثام، وربّما كانت التقوى سبباً للنجاة من مخاوف دنيويّة لولاها لحقّت.

الخامس: بها ينجح الطالب. أمّا لثواب الله في الآخرة فظاهر، وأمّا في الدنيا فلما نشاهده من اتّخاذ كثير من الناس شعار المتّقين ذريعة إلى مطالبها ونجاح مساعيهم، وإقبال الدنيا عليهم.

السادس: وينجو الهارب: أي من عذاب الله وهو ظاهر.

والسابع: وتنال الرغائب، وهو كقوله: وينجح الطالب، وفي كلّ قرينتين من القرائن الستّ من أوّل الفصل السجع المتوازي.

المقصد الثاني: التنبيه على وجوب العمل الصالح المطلوب لله. ومبادرته باعتبارات:

الأول: أنهم في وقت العمل وإمكان رفعه إلى الله دون ما بعد الموت، والواو في قوله: والعمل للحال.

الثاني: في وقت قبول التوبة منهم والإقلاع من موبقات الآثام.

الثالث: في وقت استماع الدعاء وقبوله فإنّ شيئاً من ذلك لا ينفع بل لا يمكن بعد الموت.

الرابع: والحال هادئة. أي حال الإنسان في الدنيا فإنّ حاله حين الموت وما بعده في غاية الإضطراب.

الخامس: والأقلام جارية: أي أقلام الحفظة، وفائدة الإعلام بالعمل في حال جريان الأقلام التنبيه على وقت الأعمال الخيريّة وإمكانها حين تكتب وترفع إلى الله: أي فاعملوا في الحال المذكورة ما دامت أقلام الكرام الكاتبين جارية لتكتب أعمالكم.

المقصد الثالث: حثّهم على المبادرة إلى الأعمال الخيريّة باعتبارات:

أحدها: أنّ أعمارهم التي هي محل الأعمال في معرض الانتكاس والرجوع إلى الحالة المنافية للتكليف وهي الهرم المستلزم لضعف العقل والبنية ونقصانهما والرجوع إلى حال الطفل في ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨] فينبغي أن يبادر ذلك بالأعمال الصالحة الممكنة فيه.

الثاني: أنّ أبدانهم في معرض التغيير والتبديل بالصحة التي هي مظنّة العمل مرضاً وهو مظنّة بطلان العمل وامتناعه فينبغي أن يبادر الصحّة بالعمل قبل الحبس عنه بالمرض.

الثالث: أن يبادر ما هو أعظم من ذلك وهو الموت الذي لا بدّ منه، واستعار لفظ الخالس له باعتبار أخذه للأعمار على غرّة وغفلة من أهلها كالمختلس للشيء عن يد غيره. ثمّ نبّه على وجوب العمل للموت ولما بعده بأوصافه المخوّفة:

أحدها: كونه هادم لذاتهم الدنيوية وهو ظاهر، ونحوه، قول الرسول صلى الله عليه وآله: أكثروا من ذكر هادم اللذات.

الثاني: كونه مكدّر شهواتهم.

الثالث: كونه مباعد طيّاتهم، واستعار لفظ الطيّات لمنازل السفر إلى الآخرة بالموت عن الدنيا و أهلها فإنّ الآخرة أبعد منزل عن الدنيا.

الرابع: استعار لفظ الزائر باعتبار هجومه على الإنسان، ولمّا كان من شأن الزائر أن يكون محبوباً ميّزه بكونه غير محبوب لتصل النفرة عنه وتفرغ إلى العمل له.

الخامس: استعار له لفظ القرن بوصف كونه غير مغلوب ليهتمّ بالاستعداد له.

السادس: استعار لفظ الواتر بوصف كونه غير مطلوب: أي من شأنه أن يوتر القلوب ولا يمكن أن يطلب بوتر ولا ينتصف منه ملاحظة لشبهه بالرجل البالغ في الشجاعة بحيث لا يغلب.

السابع: استعار لفظ الحبائل للأوصاب والأمراض البدنيّة التي هي داعية الموت ومؤدّية إليه كحبالة الصايد، ورشّح بوصف الإعلاق.

الثامن: وتكنّفتكم غوائله: أي أحاطت بكم مصائبه.

التاسع: استعار لفظ المعابل للآفات الداعية إلى الموت أيضاً باعتبار كونها مؤذية أو قاتلة كالنصال، ورشّح بذكر الإقصاد.

العاشر: استعار لفظ السطوة له ملاحظة لشبهه بالسلطان القاهر أو السبع الضاري في قوة أخذه وشدّة بطشه.

الحادي عشر: كذلك لفظ العدوة له باعتبار كون أخذه على غير حقّ له كالظالم.

فإن قلت: إذا كانت حقيقة الظلم هي الأخذ بغير حقّ وهذا الحدّ صادق في محل الموت فوجب أن يكون لفظ العدوة هنا حقيقة لا استعارة.

قلت: لفظ الأخذ إنّما يصدق حقيقة على ذي الحياة وإن سلّمنا صدقه على غيره لكنّ الأخذ بغير حقّ ليس هو حقيقة الظلم بل الأخذ بغير حقّ لمن يكون من شأنه أن يكون له حقّ، وذلك مختصّ بالعقلاء فسلب الحقّ عمّن له اللفظ حقيقة هو سلب الملكة. وعمّا له اللفظ مستعاراً هو السلب المطلق.

الثاني عشر: وكذلك لفظ النبوة لعدم تأثيره ملاحظة لشبهه بالسيف القاطع ووصفها بالقلّة. وراعى في كل ثلاث قرائن من هذه التسع السجع المتوازي.

الثالث عشر: استعار لفظ الظلّ للأمراض والعلل الداعية إلى الموت استعارة لفظ المحسوس بالبصر للمتخيّل ملاحظة لشبهها بالسحاب المظلّ واصفاً بالدواجي.

إذ كان الكلام في معرض التخويف، والسحاب المظلم أشدّ رهبة في القلوب من غيره ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ [لقمان: ٣٢] وهو شروع في التخويف بنزول الموت.

الرابع عشر: وكذلك استعار وصف الاحتدام لعلله ملاحظة لشبهها في نزولها بالرجل المستشيط غضباً في قوّة الأخذ.

الخامس عشر: استعار لفظ الحنادس لما يتوهمّه الإنسان من الظلم في غمرات الموت وسكراته.

السادس عشر: وكذلك لفظ الغواشي لما يعرض عند سكرات الموت من العوارض المانعة من الإدراك، المغشية لآلاته.

السابع عشر: وأليم إرهاقه: أي إعجاله المؤلم.

الثامن عشر: ودجوّ إطباقه. استعار لفظ الإطباق لحالاته المتزايدة وسكراته المتضاعفة التي بتضاعفها تزداد آلات إدراكه بعداً وانقطاعاً عن المدركات الدنيويّة، وباعتبار انقطاع الإدراك بسبب تلك الحالات

وصفها بالدجّو وشدّة الظلمة، ويحتمل أن يريد بإطباقه إطباق القبور.

التاسع عشر: استعار لفظ مذاقه لوجدانه باعتبار المشاركة في الإدراك، وباعتبار شدّة إيلامه وصفه بالجشوبة.

العشرون: التخويف بإتيانه بغتةً، وكأن هي المخفّفة من كأنّ والاسم ضمير الشأن، ولمّا كانت كأنّ للتشبيه وكان التشبيه يستلزم المقاربة بين المشبّه والمشبّه به في وصف ما هو وجه الشبه كان المشبّه هنا هو حال الموت من جهة ما هو منتظر لا بدّ منه، والمشبّه به هو باعتبار إتيانه وموافاته لهم، ووجه الشبه هو القرب: أي قرب المنتظر الذي لا بدّ منه من الواقع الموجود. إذ كل ما هو آت قريب. ثمّ أردف التخويف منه بذكر لوازمه المخوّفة، وهي إسكات المتناجين، وتفريق المجتمعين، وتعفية الآثار. وتعطيل الديار، وبعث الوارث لاقتسام التراث. وأسند إليه البعث باعتبار أنّه سبب يلزمه انبعاث دواعي الورثة إلى اقتسام التراث لزوماً عرضيّاً.

وقوله: بين حميم.

متعلّق بأتاكم بغتةً مع ما بعده من الأفعال: أي كأنّه قد أتاكم بغتةً ففعل بكم ما فعل من إسكات المتناجين وغيره بين خاصّ لأحدكم لا تنفع صداقته حينئذ؛ وقريب محزون لا ينفع حزنه ولا يقدر على المنع عنه، وآخر عدو شامت لا يجزع عليه. ثمّ أردف ذكر الموت ولوازمه بالحثّ على العمل والجدّ فيه والتأهّب والاستعداد لنزول الموت وما بعده والتزوّد: أي بالتقوى في منزل الزاد والدنيا لأنها المنزل الذي لا يمكن تحصيلُ الزاد إلى الآخرة إلا فيه، ولذلك أضافه إليه، ثمّ بالنهي عن الانخداع لغرور الدنيا كانخداع السابقين والقرون الماضين، واستعار لفظ الدرّة لمنافع الدنيا وخيراتها، ولفظ الاحتلاب لجمعها واقتنائها: أي الذين فازوا بخيراتها وحصلوا عليها، ولذلك استعار لفظ الغرّة لعدم وصول حوادثها إليهم في مدّة استمتاعهم بها فكأنّها غافلة عنهم لا ترميهم بشيء من المصائب فلما وجدوا ذلك منها أخذوا ما أخذوا وحصّلوا على ما حصّلوا.

وإفناؤهم لما تعدد فيها من مأكول وملبوس وغيرهما مما يستمتع به فيفني، وكذلك إخلاقهم لجدّتها كناية عن استمتاعهم بما أخذوا منها من صحّة ومال وغيرهما إلى انقضائه وانتهاء مدّته حتّى كأنّهم لم يبقوا من محاسنها شيئاً إلاّ أخلقوه. ولمّا وصف حالهم فيها بما وصف أردف ذلك بذكر غايتهم منها وهي الأحوال المذكورة بقوله: أصبحت مساكنهم أجداثاً. إلى قوله: دعاهم. وخلاصة الكلام أنّكم لا تغترّوا بالدنيا كما اغترّ بها من كان قبلكم فإنّ أولئك مع أنّهم كانوا قد صادفوا غرّتها وحصّلوا منها على ما حصّلوا من خيراتها كانت غايتهم منها أن وصلوا إلى ما وصلوا من العدم فكذلك أنتم بطريق أولى. ثمّ أكّد التحذير منها بذكر أوصافها المنفرة عنها فاستعار لها لفظ الغرارة باعتبار كونها سبباً مادياً للاغترار كما سبق.

ولمّا كان الخداع هو المشورة بأمر ظاهره مصلحة وباطنه مفسدة وكان ظهور زينة الحياة الدنيا للناس يشبه الرأي المحمود في الظاهر اتّباعها، وكانت تلك الزينة واتّباعها لما فيها من الفتنة بها عن سبيل الله الذي هو عين المفسدة تشبه المفسدة في باطن الرأي لا جرم أشبه ظهور زينتها الخداع فاستعار لها لفظ الخدوع بذلك الاعتبار، وكذلك استعار لفظ المعطية، ولفظ المنوع باعتبار كونها سبباً مادياً للانتفاع بما فيها من خيراتها وسبباً مادياً لمنعه، وكذلك لفظ الملبسة النزوع، وراعى في هاتين القرينتين المقابلة، وفائدتها ههنا التنفير عمّا يتوهّم فيها خيراً ممّا تعطيه وتلبسه بذكر استعقابها لمقابلتهما من منعها لما تعطيه ونزعها ممّا تلبسه، ولذلك أكّد بقوله: لا يدوم رخاؤها. إلى آخره، ولمّا كان رخاؤها من صحّة وشباب ومال وجاه ونحوها من سائر الملذّات البدنيّة حوادث مشروطة باستعدادات سابقة عليها ومعدّات غير مضبوطة كثيرة حادثة وغير حادثة سريعة التغيّر أو بطيئة لا جرم كان من شأن ذلك الرخاء التغيّر والانقطاع، وظاهر أنّ انقطاع رخائها حالاً فحالاً مستلزم لعدم انقضاء عنائها ومتاعبها، وتواتر بلائها. واستعار لبلاء الدنيا وصف عدم الركود ملاحظة لشبهه بالريح دائمة الحركة لكونه دائماً.

منها في صفة الزهاد:

كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الآخِرَةِ، يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

أقول: ظهراني: بفتح النون. والإشارة إلى بعض أصحابه الذين درجوا قبله وقوله: كانوا قوماً. إلى قوله: أهلها.

قضيتان ظاهرهما التناقض لكن قد علمت أنّ المطلقتين لا يتناقضان، واختلافهما يحتمل أن يكونا بالموضوع أو بالإضافة فإنّهم من أهل الدنيا بأبدانهم ومشاركتهم الضروريّة لأهلها في الحاجة إليها وليسوا من أهلها بقلوبهم. إذ خرجوا عن ملاذّها ونعيمها واستغرقوا في محبّة الله وما أعدّ لأوليائه الأبرار في دار القرار فهم أبداً متطلّعون إليه وشاهدون لأحوال الآخرة بعيون بصائرهم كما قال عليه السلام فيما قبل في صفتهم: فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها متنعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون. ومن كان كذلك فحضوره القلبيّ إنّما هو في تلك الدار فكان بالحقيقة من أهلها.

وقوله: عملوا فيها بما يبصرون.

أي كان سعيهم وحركاتهم البدنية والنفسانيّة في سبيل الله ببصيرة ومشاهدة لأحوال تلك الطريق وما تفضي إليه من السعادة الباقية، وعلم بما يستلزمه الإنحراف عنها من الشقاوة اللازمة الدائمة، والباء للتسبّب. وما مصدريّة، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي: أي بالذي يبصرونه ويشاهدونه من تلك الأحوال فإن علمهم اليقين بها هو السبب القائد والحامل لهم في تلك الطريق وعلى سلوكها. وقوله: وبادروا فيها ما يحذرون.

والمبادرة المسابقة والمعاجلة وهي من الطرفين، والمراد أنّهم سابقوا ما يحذرون من عذاب الله المتوعّد في الآخرة كأنّه سابق لهم إلى أنفسهم وهم مسابقوه إلى خلاصها فسبقوه إلى النجاة. إذا كانوا راكبين لمطاياها، ومتمسّكين بعصمها وهي أوامر الله وحدوده.

وقوله: تقلّب. إلى قوله: الآخرة.

أي تتقلّب. فحذف إحدى التائين تخفيفاً. فالمعنى أنّ دأبهم معاشرة أهل الآخرة والعاملين لها دون أهل الدنيا. وقيل: يحتمل أن يريد بأهل الآخرة سائر الناس لأنّ مستقرّهم الأصلي ودار قرارهم هي الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] والمعنى على هذا الوجه أنّهم مع الناس بأبدانهم فقط تتقلّب بينهم وأرواحهم في مقام آخر.

وقوله: يرون. إلى آخره.

الغرض الفرق بينهم وبين أهل الدنيا. إذ كان أهل الدنيا لا يرون أنّ وراء أبدانهم كمالاً آخر فكانوا غافلين عن أحوال الآخرة من سعادة أو شقاوة فكان أعظم محبوباتهم بقاء أجسادهم وتكميلها، وأعظم منفور عنه لهم نقصانها وموتها: أما المتّقون فهم وإن كانوا يرونهم بتلك الحال إلا أنهم يرون أفضل ممّا يرون، وهو أنّ موت قلوبهم وفقدانها للحياة بالعلم والحكمة أعظم من موت أجسادهم، وذلك لعلمهم بفساد الحياة البدنيّة وانقطاعها وكدرها بعوارض الأمراض وسائر المغضبات الدنيويّة، وبقاء الحياة النفسانيّة وشرف كمالها وصفاء لذّاتها عن الأقدار والأكدار. وإنّما قال: قلوب أحيائهم، ولم يقل: قلوبهم لأنّ موت القلوب قد يكون حقيقة بموت الأجساد، وقد يكون مجازاً وهو موتها بفقدان العلم ونور الحكمة مع حياة أجسادها فكان ذكر الأحياء كالقرينة المعيّنة لمراده بذلك الموت مجازاً، والضمير في قوله: أحيائهم يعود إلى أهل الدنيا لأنّ موت القلوب هو الواقع بهم حال حياة أبدانهم، ويحتمل عوده إلى قوله: وهم. الذي هو ضمير المتّقين. وبالله التوفيق.

٢٢٣ - ومن خطبة له عليه السلام

خطبها بذي قار، وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدي في كتاب الجمل.

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ

ذَوِي الأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

أقول: ذو قار: موضع قريب من البصرة، وفيه كانت وقعة العرب مع الفرس قبل الإسلام. والصدع: الشقّ. والواغرة: ذات الوغرة. وهي شدّة توقّد الحر، وفي صدره وغر: أي عداوة وضغن توقد من الغيظ. وعداوة واغرة: شديدة. والضغائن: الأحقاد.

والإشارة إلى أوصاف الرسول ﷺ.

فالأول: استعار له لفظ الصدع بما أمر به من تبليغ الوحي، ووجه المشابهة أنه شقّ بما جاء به الرسالة عصا الكفر وكلمة أهله، وفرّق ما اتصل من أغشية الجهل على رؤوس الكافرين وحجب الغفلة التي رانت على قلوبهم كما يصدع الحجر بالمعول ونحوه.

الثاني: ذكر تبليغه لرسالة ربّه في معرض مدحه لكونه أداء أمانة عظم تبليغها وقدرها، وذلك فضيلة تحت ملكة العفّة.

الثالث: كونه قد لمّ الله به الصدع، ورتق به الفتق، واستعار لفظي الصدع والرتق لما كان بين العرب من الافتراق وتشتت الأهواء واختلاف الكلمة والعداوات والأحقاد حتّى أن أحدهم كان يقتل أباه وابنه وذوي رحمه لهوى يقوده أو ضغن يحمله فجمع الله بمقدمه ﷺ أشتاتهم وألف بين قلوبهم حتى جعل ذلك في معرض امتنانه عليه. إذ يقول: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وكذلك استعار لفظ القادحة للضغائن لاستلزامها إثارة الغضب والفتن والشرور كما يثير القادح النار. وبالله التوفيق.

٢٢٤ - ومن كلام له عليه السلام

كلم به عبد الله بن زمعة، وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام:

إِنَّ هٰذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلاَّ فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

أقول: هو عبد الله بن زمعة بفتح الميم بن أسود بن المطّلب ابن أسود بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلام. وكان من أصحاب عليّ وشيعته. والجلب: المال المجلوب، وروي بالخا. وجناة الثمر: ما يجنى منه.

وظاهر الكلام يقتضي أنّه استماحه عليه السلام مالاً فاعتذر إليه، ووجه العذر أنّه لم يكن ليجمع لنفسه مالاً يخصّه وإنّما يجمع له معه ما كان لبيت مال المسلمين من فيئهم؛ وهو جلبة أسيافهم من مال الكفّار غنيمة، ونطق القرآن الكريم بقسمة خمسه بين من ذكر في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] والأقسام الأربعة الباقية للقائمين الذين باشروا القتال. فعند الشافعي للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم، وعند أبي حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم، وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام. ويحمل منعه عليه السلام له من الخمس على أنّه طلب من مال المقاتلة أو على أنّ الخمس كان قد قسّم أو على أنّه لم يكن من المساكين وهم أهل الفاقة والفقر ولا ابن السبيل وهو المنقطع في سفره، وأمّا سهم الله فأجمع المفسّرون على أنّ ذكر الله هنا للتعظيم وإن اختلفوا في قسمة الخمس. فمنهم من قال: يقسّم خمسة أقسام لأنّ سهم الله وسهم الرسول للرسول فهو قسم واحد، وهو المروي عن ابن عبّاس وقتادة وجماعة من أهل التفسير، ومنه من قال: يقسّم أربعة أقسام، ومنهم من قال: ثلاثة أقسام. والمرويّ عن أهل البيت عليهم السلام أنّه ينقسم ستّة أقسام فسهم الله وسهم رسوله للرسول ﷺ وهما بعده مع سهم ذوي القربى للقائم مقامه ينفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم.

والثلاثة الأسهم الباقية لليتامى والمساكين وأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لا يشركهم فيها باقي الناس عوضاً من الصدقات المحرّمة عليهم. والأئمة الأربعة على أنّ سهم الرسول ﷺ كان تصرف بعد عهده إلى ما أهمّ به من مصالح المسلمين من السلاح والكراع. فإذن لم يكن أن يعطيه من سهم الرسول ﷺ وظاهر

أنّه ليس من أولي القربى ولا اليتامى، وأمّا منعه من الأخماس الأربعة فلأنّها كانت للمقاتلة خاصّة ولم يكن هو منهم، ولذلك قال له: وإنّما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظّهم، وقد نطق كلامه عليه السلام هنا بأنّ الفيء والغنيمة واحد وإن كان قد يختصّ الفيء عند بعضهم بما أخذ من مال الكفّار بغير قتال وهو قول الشافعي والمرويّ في أخبار الإماميّة.

وقوله: وإلاّ: أي وإن لا تكن قد شركتهم، واستعار لفظ الجناة لما اكتسبوه بأيديهم من ذلك المال ملاحظة لمشابهته باقتطاف الثمرة واجتنائها وهو من أفصح الاستعارات، ويجري مجرى المثل يضرب لمن يطلب مشاركة غيره في ثمرة فعل فعله ذلك الغير وتعب فيه، ولمّا كان قوله: وإلاّ. دالاً على مقدّم شرطيّة متّصلة تقديره وإلاّ تكن قد شركتهم في حربهم. ونبّه بقوله: فجناة أيديهم. إلى آخره على تاليها. إذ كان مفهوم هذا القول دالاً على عدم استحقاق غير الجاني نصيباً ممّا جنته يد الجاني فكأنّه قال: وإلاّ شركتهم في حربهم فلا يكون لك نصيب فيما كسبته أيديهم. والفاء لجواب الشرط المقدّر. وبالله التوفيق.

٢٢٥ - ومن كلام له عليه السلام

بعد أن أقدم أحدهم على الكلام فحصر، وهو في فضل أهل البيت، ووصف فساد الزمان

أَلا إِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الإِنْسَانِ، فَلا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ. وَإِنَّا لأُمَرَاءُ الْكَلامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ.

وَاعْلَمُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللاَّزِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الإِدْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ. لا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

أقول: روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال هذا الكلام في واقعة اقتضت ذلك، وهي أنّه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي يوماً أن يخطب الناس فصعد المنبر فحصر فلم يستطع الكلام فقام عليه السلام: وتسنّم المنبر. ثمّ خطب خطبة طويلة. ذكر الرضي رحمه الله منها هذا الفصل.

والبضعة: القطعة. ونشّبت: تعلّقت. وتهدّلت: تدلّت. والعارم: الشرس سيء الأخلاق. والمماذق: الذي يمزج الودّ ولا يخلصه، وهو نوع من النفاق. والضمير في يسعده ويمهله للسان، وفي امتنع واتّسع للإنسان.

والمعنى أنّ اللسان لمّا كان آلة للإنسان يتصرّف بتصريفه إيّاه فإذا امتنع الإنسان عن الكلام لشاغل أو صارف لم يسعد اللسان القول ولم يواته، وإذا دعاه الداعي إلى الكلام وحضره واتّسع الإنسان له لم يمهله النطق بل يسارع إليه، ويحتمل أن يعود الضمير في امتنع إلى القول، وفي اتّسع إلى النطق: أي فلا يسعد القول اللسان إذا امتنع القول من الإنسان ولم يحضره لوهم أو نحوه أوجب حصره وعيّه ولم يمهله النطق إذا اتّسع عليه وحضره.

وقوله: وإنّا لأمراء الكلام.

استعار لفظ الأمراء لنفسه وأهل بيته ملاحظة لكونهم مالكين لأزمّة الكلام يتصرّفون فيه تصرّف الأمراء في ممالكهم، واستعار لفظ العروق لموادّ الكلام وأصوله وملكاته المتمكّنة في قلوبهم، واستعار لفظ التنشّب، وكذلك استعار لفظ الغصون لما أمكنهم من تناوله، ورشّح بذكر التهدّل لأنّ من شأن الغصن ذلك. ثمّ عقّب بذكر الزمان وأهله، ويشبه أن يكون هذا فصلاً منقطعاً عمّا قبله، وذكر أوصافاً.

أحدها: قلّة القائلين فيه بالحقّ، وذلك من الشرور اللاحقة لأهل الزمان فيه، وقد علمت ما قلناه في وصف كون الزمان سبباً ما للشرّ والخير عند قوله: أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود.

الثاني: كون اللسان فيه كليلاً عن الصدق، والسبب القريب للوصفين استيلاء الجهل والظلم على أكابره وأهل الدنيا فيه.

الثالث: ذلّ اللازمين للحقّ فيه، وهو لازم قلّتهم وضعفهم بالنسبة إلى الباقين.

الرابع: كون أهله معتكفين على العصيان، وأراد الأكثرين من الناس.

الخامس: كونهم مصطلحين على الإدهان: أي المصانعة باللسان دون الإتفاق بالقلوب، ويحتمل أن يريد بالإدهان الغشّ، وهو لغة قوم.

السادس: وصفهم بحسب أصنافهم: فشابّهم شرس الأخلاق لنشوئه على غير أدب، وشائبهم آثم لجهله وغفلته عمّا يراد به، وعالمهم منافق لاستعماله فطنته في طرف الشرّ وإعراضه عن أوامر الله وطريق الآخرة، وقارئهم مماذق يظهر التودّد إلى الناس وليس به.

السابع: كونهم لا يعظّم صغيرهم كبيرهم، وذلك لنشوئهم على قلّة الآداب الشرعيّة وعدم التفاتهم إليها.

الثامن: ولا يعول غنيّهم فقيرهم وصف لهم بالجفاوة والبخل. وبالله التوفيق.

٢٢٦ - ومن كلام له عليه السلام

روى أبو محمد اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر عنده اختلاف الناس فقال:

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِىءُ طِينِهِمْ، وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ.

أبو محمّد ذعلب اليمانيّ وأحمد وعبد الله ومالك من رجال الشيعة ومحدّثيهم. والفلقة: القطعة، والشقّ من الشيء. والرواء: المنظر الجميل. وسبرت الرجل أسبره: اختبرت باطنه وغوره. والضريبة: الخلق والطبيعة. والجليبة: ما يجلبه الإنسان ويتكلّفه.

والكلام إشارة إلى السبب الماديّ لاختلاف الناس في الصور والأخلاق.

فقوله: إنّما فرّق بينهم. إلى قوله: يتفاوتون.

فطينهم إشارة إلى التربة التي أشار إلى جمع الله لها في قوله: في الخطبة الأولى: ثمّ جمع سبحانه من سهل الأرض وحزنها وسبخها وعذبها تربة. إلى قوله: وأصلدها حتّى استمسكت. والمعنى أنّ تقاربهم في الصور والأخلاق تابع لتقارب طينهم وتقارب مبادئه وهي السهل والحزن والسبخ والعذب، وتفاوتهم فيها تابع لتفاوت طينهم ومبادئه المذكورة. قال أهل التأويل: إضافة المبادي هنا إلى الطين إضافة بمعنى اللام: أي المبادي لطينهم، والإشارة بطينهم إلى أصولهم، وهي الممتزجات المتنقلة في أطوار الخلقة كالنطفة وما قبلها من موادّها وما بعدها من العلقة والمضغة والعظم، والمزاج الإنسانيّ القابل للنفس المدبّرة. وقالوا: ولمّا كانت مبادي ذلك الطين في ظاهر كلامه عليه السلام هي السبخ والعذب والسهل والحزن كان ذلك كناية عن الأجزاء العنصريّة التي هي مبادي الممتزجات ذوات الأمزجة كالنبات والغذاء والنطفة وما بعدها. إذ كلّ ممتزج منها لا بدّ فيه من أجزاء متفاعلة فيحصل بواسطتها استعداداتها، وتفاعلها ذو مزاج هو نطفة وغيرها فتلك الأجزاء المتفاعلة المستعدّة لمزاج مزاجٍ هي مبادىء تلك الأمزجة والممتزجات، ولمّا كانت السبخيّة والعذوبة والسهولة والحزونة أموراً تلحق الممتزجات الأرضيّة التي هي مبادىء الطين ولها أثر في اختلاف مزاجه وسائر الأمزجة المركبة منه، وكان اختلاف استعدادات تلك الأمور الممتزجة لقبول الأمزجة التي هي السبب في اختلاف الأمزجة واستعداداتها لقبول الأخلاق والصور هو السبب في اختلاف الأخلاق والصور لا جرم كان السبب في تفرق الناس في أخلاقهم وخلقهم إنما هو اختلاف مبادىء

طينهم، وقد علمت ممّا سلف في الخطبة الأولى لميّة تخصيصه عليه السلام بعض الأجزاء العنصريّة بالتركّب عنها، ويحتمل أن يشير بالسبخ والعذب والسهل والحزن إلى الأجزاء الأرضيّة من حيث هي ذوات أمزجة متعادلة الكيفيّات. فالسبخ كناية عن الحارّ اليابس منها، والعذب كناية عن الحارّ الرطب، والسهل كناية عن البارد الرطب، والحزن كناية عن البارد اليابس قالوا: وعلى هذا حمل قول الرسول صلى الله عليه وآله إنّ الله سبحانه لمّا أراد خلق آدم أمر أن يؤخذ قبضة من كلّ أرض فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والسهل والحزن والطيّب والخبيث. فالقبضة من كل أرض إشارة إلى الأجزاء الأرضية المذكورة، وكون الناس مختلفين عنها بالأبيض والأحمر إشارة إلى اختلاف خلقهم، وكونهم مختلفين بالسهولة والحزونة والطيّب والخبيث إشارة إلى اختلاف تلك الاستعدادات السابقة على كلّ مزاج في أطوار خلقهم قالوا: وقد بان بذلك معنى قوله: فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون: أي على حسب قرب مبادىء طينهم المذكورة وتشابهها في استعداداتها وإعدادها يتقاربون ويتشابهون في الصور والأخلاق، وعلى قدر اختلاف تلك المبادىء وتباينها في ذلك يتفاوتون وتتضادّ أخلاقهم وتتباين خلقهم. قالوا: ويجب التأويل هنا لأنّا لو حملنا الكلام على ظاهره لاقتضى أنّ كلاًّ منهم قد خلق من الطين.

قوله: فتامّ الرواء. إلى آخره.

تفصيل لهم في تفاوتهم. وذكر أقساماً سبعة فبدأ بالأقسام التي تضادّ خلقها لأخلاقها أو بعض أخلاقها لبعض وهي خمسة:

الأوّل: من استعد مزاجه لقبول صورة كاملة حسنة وعقل ناقص فهو داخل في رذيلة الغباوة.

الثاني: المستعدّ لامتداد القامة وحسنها أيضاً لكنّه ناقص في همّته فهو داخل في رذيلة الجبن، وكلاهما يشتركان في مخالفة ظاهرهما لباطنهما، ويتفاوتان في الاستعداد الباطن.

الثالث: المستعدّ لقبح صورته الظاهرة وحسن باطنه باعتدال مزاج ذهنه المستلزم للأعمال الذاكية.

الرابع: قريب القعر: أي قصير بعيد السبر: أي داهية ببعد اختيار باطنه والوقوف على أسراره، ومخالفة ظاهر هذين القسمين لباطنهما ظاهر.

الخامس: معروف الضريبة منكر الجليبة: أي يكون له خلق معروف يتكلّف ضدّه فيستنكر منه، ويظهر عليه تكلّفه كأن يكون مستعداً للجبن فيتكلّف الشجاعة أو بخيلاً فيتكلّف السخاوة فيستنكر منه ما لم يكن معروفاً منه. فهذه هي الأقسام الخمسة، والقسم الأوّل والثالث قليلان فإنّ الأغلب على المستعدّ لحسن الصورة وجمالها واعتدال الخلقة أن يكون فطناً ذكيّاً لدلالة تلك العوارض على استواء التركيب واعتدال المزاج، والأغلب على المستعد لقبح الصورة عكس ذلك، وأما القسم الثاني والرابع فهو أكثر فإنّ الأغلب على طويل القامة نقصان العقل والبلادة ويتبع ذلك فتور العزم وقصور الهمة، وعلى القصير الفطنة والذكاء وحسن الآراء والتدابير، وقد نبّه بعض الحكماء على علّة ذلك فقال حين سئل ما بال القصار من الناس أدهى وأحذق؟: لقرب قلوبهم من أدمغتهم. ومراده أنّ القلب لمّا كان مبدأً للحار الغريزيّ وكانت الأعراض النفسانية من الفطنة والفهم والإقدام والوقاحة وحسن الظنّ وجودة الرأي والرجاء والنشاط ورجوليّة الأخلاق وقلّة الكسل وقلّة الإنفعال عن الأشياء كلّ ذلك يدلّ على الحرارة وتوفرها، وأضداد هذه الأمور يدلّ على البرودة لا جرم كان قرب القلب من الدماغ في القصير لكونه سبباً لتوفّر الحرارة في الدماغ وجودة استعداد القوى النفسانيّة فيه للأعراض المذكورة، وكان بعده منه في الطويل سبباً لقلّة الحرارة فيه وضعف استعداد القوى النفسانيّة فيه للأعراض المذكورة، واستعدادها لأضدادها وإن كانت الحرارة ليست هي كمال السبب الماديّ، والقسم الخامس أكثري وذلك لمحبّة النفوس للكمالات فترى البخيل يحبّ أن يعدّ كريماً فيتكلف الكرم، والجبان يحبّ أن يعدّ شجاعاً فيتكلّف الشجاعة، وقد راعى في هذه القرائن المطابقة فالتامّ بإزاء الناقص، وماذّ القامة بإزاء القصير، والذكي بإزاء القبيح، والقريب بإزاء البعيد، والمعروف بإزاء المنكر، وأمّا القسمان الباقيان

فأحدهما: تائه القلب متفرّق اللبّ، وهو العوام. والعامة أتباع كل ناعق التائهون في تيه الجهل المتفرقة أهواؤهم بحسب كل سانح من المطالب الدنيوية والخواطر الشيطانية، والثاني: طليق اللسان حديد الجنان، وهو اللسن الذكي، وهذان القسمان مخالفان للأقسام الأولى في مناسبة ظاهرهما لباطنهما، وراعى في كلّ قرينتين من هذين القسمين السجع المتوازي. وبالله التوفيق.

٢٢٧ - ومن كلام له عليه السلام

وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه.

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً.

وَلَوْلا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلاَّ لَكَ! وَلٰكِنَّهُ مَا لا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ.

أقول: روي عوض الأنباء الأنبياء، وهي الأخبار. والشؤون: مواصل قطع الرأس المشعوب بعضها مع بعض، وملتقاها. والعرب تقول: إنّ الدموع تجيء منها. وقال ابن السكّيت: الشأنان: عرقان ينحدران من الرأس إلى الحاجبين ثمّ العينين. والكمد: الحزن المكتوم. والمحالف: الملازم. والبال: القلب.

وقوله: بأبي أنت وأمي يتعلّق بمحذوف تقديره أفديك. وإنّما قال له: لقد انقطع بموتك. إلى قوله: السماء لأنّه صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء، وأراد بأخبار السماء الوحي، قال أهل التأويل: ولفظ السماء مستعار لما علا في المعنى من سماء عالم الغيب ومقامات الملأ الأعلى.

وقوله: خصصت. إلى قوله: سواء.

أي خصصت في مصيبتك من حيث إنها مصيبة خاصة عظيمة لا يصاب الناس في الحقيقة بمثلها فلذلك كانت مسليّة لهم عن المصائب بمن سواك وعمّمتهم بمصيبتك حتى استووا فيها. وأضاف الخصوص والعموم إليه وإن كانا للمصيبة لكونها بسببه.

وقوله: ولولا. إلى قوله: وقلاّلك.

إشارة إلى العذر في ترك البكاء الكثير ومماطلة الداء وملازمة الحزن، وهو أمره صلى الله عليه وآله بالصبر في مواطن المكروه والنهي عن الجزع عند نزول الشدائد. وكنى عن كثرة البكاء بإنفاد ماء الشؤون، وبالداء عن ألم الحزن بفقده صلى الله عليه وآله واستعار له لفظ المماطلة كأنّ الحزن وألمه لثباته وتمكّنه لا يكاد يفرق مع أنّ من عادته أن يفارق فهو كالمماطل بالمفارقة، والضمير في قوله: وقلاّلك يعود إلى إنفاد ماء الشؤون الذي دلّ عليه أنفدنا، وإلى الكمد المخالف. ولمّا كان هو الداء المماطل أتى بضمير الإثنين، ويحتمل أن يعود إلى الداء المماطل والحزن الملازم ترجيحاً للقرب، والضمير في قوله: ولكنّه ما لا يملك يعود إلى الموت في قوله: بموتك، وتقديره ولكنّ الموت الذي لأجله البكاء والحزن ما لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه فلم يكن في البكاء والجزع فائدة وكان لزوم الصبر أولى. ثمّ عاد إلى التفدية وهي كلمة معتادة للعرب تقال لمن يعزّ عليهم.

فإن قلت: كيف تحسن التفدية هنا بعد الموت وهي غير ممكنة.

قلت: إنّه لا يشترط في إطلاقها في عرفهم إمكان الفدية. إذ ليس الغرض منها تحقيق الفدية بل تخييل الفدية وإيهامها للاسترقاق وتخييل المقول له أنّه عزيز في نفس القائل إلى غاية أنّه أرجح من أبيه وأمّه بحيث يفديه بهما، وظاهر أنّها ممّا يعقل (أنها ممّا يفعل خ) في الطبع ميلاً من المقول. ثمّ سأله أن يذكره عند ربّه وأن يجعله من باله. إذ هو السابق إليه مع كونه رئيس الخلق ومقدّمهم فكان أولى من سئل ذلك منه، وأراد: اذكرنا عنده بما نحن عليه من طاعته. فهو كأمير بعثه الملك إلى أهل مدينة ليصلح حالهم وينظّمهم في سلك طاعة الملك بالترهيب من وعيده والترغيب فيما عنده من الكرامة فلا

بدّ أن يعلمه طاعة المطيع وعصيان العاصي إذا حان رجوعه إلى خدمة الملك، أحبّ عقلاؤهم وأهل الطاعة منهم أن يذكر طاعتهم عند الملك بين يديه فيتقرّبون إلى قلب أميرهم ويسألونه أن يجعلهم من باله: أي من مهمّاته. يقال: هذا من بال فلان: أي مما يباليه ويهتّم به، ويحتمل أن يريد من مهمّات بالك فحذف المضاف، وقبض عليه السلام بعد الهجرة بعشر سنين، وكان مولده عام الفيل، وبعث وهو ابن أربعين سنة بعد بنيان الكعبة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وكان سنّه يوم قبض ثلاث وستين سنة، ويقال: إنّه ولد يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، وقبض يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء بحجرة عائشة وفيها قبض، وتولى تغسيله عليّ عليه السلام والعبّاس بن عبد المطّلب وولده الفضل. وقد أشرنا إلى ذلك في كيفيّة دفنه عليه السلام في قوله: ولقد علم المستحفظون، وبالله التوفيق.

٢٢٨ - ومن خطبة له عليه السلام

الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي لا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لا شَبَهَ لَهُ، الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لا بِعَدَدٍ، وَدَائِمٌ لا بِأَمَدٍ، وَقَائِمٌ لا بِعَمَدٍ. تَتَلَقَّاهُ الأَذْهَانُ لا بِمُشَاعَرَةٍ وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لا بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطَاناً.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ، وَإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِها، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالاًّ عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلامَ الاهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الإِسْلامِ مَتِينَةً، وَعُرَا الإِيمَانِ وَثِيقَةً.

أقول: المشاهد: المحاضر والمجالس. والمرائي: جمع مرآة بفتح الميم وهي المنظر يقال: فلان حسن في مرآة العين وفي رأي العين: أي في المنظر. والفلج: الظفر وأصله بسكون اللام. والأمراس: جمع مرس بفتح الراء وهي جمع مرسة وهي الحبل.

وقد حمد الله تعالى باعتبارات من التنزيه:

الأول: كونه لا تدركه الشواهد وأراد الحواسّ، وسمّاها شواهد لكونها تشهد ما تدركه وتحضر معه، وقد علمت تنزيهه عن إدراك الحواسّ غير مرّة.

الثاني: ولا تحويه المشاهد، وقد علمت تنزيهه تعالى عن الأمكنة والأحياز.

الثالث: ولا تراه النواظر: أي نواظر الأبصار، وإنّما خصّص البصر بالذكر بعد ذكر الشواهد لظهور تنزيهه تعالى عن سائر الحواسّ ووقوع الشبهة وقوّتها في أذهان كثير من الخلق في جواز إدراكه تعالى بهذه الحاسة حتى أنّ مذهب كثير من العوام أن تنزيهه تعالى عن ذلك ضلال بل كفر. تعالى الله عمّا تعرض للأجسام وعوارضها، وعلمت تنزيهه تعالى عن ذلك.

الرابع: ولا تحجبه السواتر، وقد علمت أنّ السواتر الجسمانيّة إنّما تعرض للأجسام وعوارضها، وعلمت تنزيهه تعالى عن ذلك.

الخامس: كونه دالاً على قدمه بحدوث خلقه، واعلم أنّه عليه السلام جعل حدوث خلقه هنا دالاً على الأمرين:

أحدهما: قدمه تعالى.

والثاني: وجوده. وقد سبق تقرير ذلك في قوله عليه السلام الحمد لله الدال على وجوده بخلقه وبحدوث خلقه على أزليّته. غير أنّه جعل هناك الدليل على الوجود هو نفس الخلق وجعله هنا هو الحدوث، ولمّا كان

مجرّد الوجود للممكنات وخلقها يدلّ على وجود صانع لها فأولى أن يدلّ حدوثها عليها. وقدمه وأزليّته واحد.

السادس: وكذلك مرّ تقرير قوله: وباشتباههم على أن لا شبيه له في الفصل المذكور.

السابع: الذي صدق في ميعاده، وصدقه تعالى يعود إلى مطابقة ما نطقت به كتبه على ألسنة رسله الصادقين عليهم السلام للواقع في الوجود ممّا وعد به أمّا في الدنيا كما وعد به رسوله والمؤمنين بالنصر أو الاستخلاف في الأرض كقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾[الفتح: ٢٠] الآية، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٥٥] وأمّا في الآخرة كما وعد عباده الصالحين بما أعدّ لهم في الجنّة من الثواب الجزيل، والخلف في الوعد كذب وهو على الله سبحانه محال، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[آل عمران: ٩].

الثامن: وارتفع عن ظلم عباده وهو تنزيه له عن حال ملوك الأرض الذين من شأنهم ظلم رعيّتهم إذا رأوا أنّ ذلك أولى بهم، وأنّ فيه منفعة ولذة أو في تركه ضرر وتألّم، وكلّ ذلك من توابع الأمزجة وعوارض البشريّة المحتاج إلى تحصيل الكمال الحقيقي أو الوهميّ. وجناب الحقّ تعالى منزّه عن ذلك.

التاسع: وقام بالقسط في خلقه فقيامه بالقسط وهو العدل فيهم وإجراؤه لأحكامه في مخلوقاته على وفق الحكمة والنظام الأكمل وهو أمر ظاهر وكذلك عدله عليهم في حكمه.

العاشر: كونه يستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته. والاستشهاد الاستدلال، وكرّره هنا تأكيداً باختلاف العبارة.

الحادي عشر: وبما وسمها به من العجز عن قدرته. العجز عبارة عن عدم القدرة عما من شأنه أن يقدر. إذ لا يقال مثلاً للجدار: إنّه عاجز، وقد علمت أنّ كل موجود سواه فهو موصوف وموسوم بعدم القدرة على ما يختصّ به قدرته تعالى من الموجودات بل بعدم القدرة على شيء أصلاً إذ كل موجود فهو منته في سلسلة الحاجة إليه وهو تعالى مبدأ وجوده. وسائر ما يعدّ سبباً له فإنّما هو واسطة معدّة كما علم تحقيقه في موضع آخر فإذن لا قدرة في الحقيقة إلا له ومنه. ووجه الاستدلال أنّه لو كان موسوماً بالعجز عن شيء لما كان مبدأ له لكنّه مبدأ لكل موجود فهو ثابت القدرة تامّها.

الثاني عشر: وبما اضطرها إليه من الفناء دوامه. واضطراره لها إلى الفناء حكم قدرته القاهرة على ما استعدّ منها للعدم بإفاضة صورة العدم عليه حين استعداده لذلك على وفق قضائه تعالى بذلك، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨] ووجه الاستدلال أنّه تعالى لو كان مضطراً إلى الفناء كسائر الأشياء لكان جائز الفناء فكان ممكناً لكن التالي باطل فهو واجب الوجود دائماً.

الثالث عشر: كونه تعالى واحداً لا بعدد: أي أنّه ليس واحداً بمعنى أنّه مبدأ لكثرة يكون عاداً لها ومكيالاً، وقد سبق بيان ذلك، وبيان إطلاق وجه الوحدة عليه، وبأي معنى غير مرّة. فلا معنى لإعادته.

الرابع عشر: كونه دائماً لا بأمد، وقد سبق أيضاً بيان أنّ كونه دائماً بمعنى أنّ وجوده مساوق لوجود الزمان. إذ كان تعالى هو موجد الزمان بعد مراتب من خلقه، ومساوقة الزمان لا يقتضي الكون في الزمان، ولمّا كان الأمد هو الغاية من الزمان ومنتهى المدّة المضروبة لذي الزمان من زمانه، وثبت أنّه تعالى ليس بذي زمان يعرض له الأمد ثبت أنّه دائم لا أمد له.

الخامس عشر: كونه قائماً لا بعمد: أي بعمد ثابت الوجود من غير استناد إلى سبب يعتمد عليه ويقيمه في الوجود كسائر الموجودات الممكنة، وذلك هو معنى كونه واجب الوجود، وقد أشرنا إلى برهان ذلك في قوله: الحمد لله الدال على وجوده بخلقه. وكثير من قرائن هذا الفصل موجود هناك.

السادس عشر: كونه تتلقّاه الأذهان لا بمشاعرة، وتلقّي الأذهان له يعود إلى استقبالها وتقبّلها لما يمكنها أن يتصوره به من صفاته السلبيّة والإضافيّة، وكون ذلك لا بمشاعرة: أي ليس تلقّيها لتلك التصورات من طريق

المشاعرة وهي الحواسّ، ولا على وجه شعورها بما يشعر به منها؛ بل تتلقّاها على وجه أعلى وأشرف بتعقّل صرف بريّ عن علائق الموادّ مجرّد عن إدراك الحواسّ وتوابع إدراكاتها من الوضع والأين والمقدار والكون وغير ذلك.

السابع عشر: كونه وتشهد له المرائي لا بمحاضرة. إشارة إلى كون المرائي والنواظر طرقاً للعقول إلى الشهادة بوجوده تعالى في آثار قدرته ولطائف صنعته وما يدرك بحسّ البصر منها، ولوضوح العلم به تعالى وشهادة العقول بوجوده في المدركات بهذه الآلة صار كأنّه تعالى مشاهد مرئي فيها وإن لم تكن هذه الآلة محاصرة له ولا يتعلّق إدراكها به، ويحتمل أن يريد بالمرائي المرئيّات التي هي مجال أبصار الناظرين ومواقعها. وذلك أنّ وجودها وما اشتملت عليه من الحكمة شاهد بوجود الصانع سبحانه من غير حضور ومحاضرة حسيّة كما عليه الصنّاع في صنايعهم من محاضرتها ومباشرتها.

الثامن عشر: كونه تعالى لم تحط به الأوهام. لمّا كان تعالى غير مركب لم يمكن الإحاطة به بعقل أو وهم البتّة، والأوهام أولى بذلك. إذ كانت إنّما يتعلّق بالمعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات والمواد الجسمانيّة فيترتب في تنزيهه تعالى عن إحاطة الأوهام به قياس هكذا: لا شيء من مسمّى واجب الوجود بمدرك بمادّة ووضع. وكل مدرك للوهم فهو متعلّق بذي مادّة ووضع. ينتج لا شيء ممّا هو واجب الوجود بمدرك للأوهام أصلاً فضلاً أن يحيط به ويطّلع على حقيقته. وقد مر ذلك مراراً.

التاسع عشر: كونه تعالى تجلّى لها. ولمّا ثبت أنّها لا تدرك إلاّ ما كان معنى جزئياً في محسوس فمعنى تجلّيه لها هو ظهوره لها في صورة وجود سائر مدركاتها من جهة ما هو صانعها وموجدها. إذ كانت الأوهام عند اعتبارها لأحوال أنفسها من وجوداتها وعوارض وجوداتها والتغيّرات اللاحقة لها مشاهدة لحاجتها إلى موجد ومقيم ومغيّر ومساعدة للعقول على ذلك. وأنّ إدراكها لذلك في أنفسها على وجه جزئيّ مخالف لإدراك العقول، وكانت مشاهدة له بحسب ما طبعت عليه وبقدر إمكانها وهو متجلّي لها كذلك. والباء في - بها - للسببيّة. إذ وجودها هو السبب الماديّ في تجليه لها، ويحتمل أن يكون بمعنى في: أي تجلّى لها في وجودها. وبل هنا للإضراب عمّا امتنع منها من الإحاطة به، والإثبات لما أمكن ووجب في تجليه لها.

العشرون: وبها امتنع منها: أي لمّا خلقت قاصرة عن إدراك المعاني الكلية وعن التعلّق بالمجرّدات كانت بذلك مبدءاً لامتناعه عن إدراكها له وإن كان لذلك الامتناع اسباب أخر أولها: كونه بريئاً عن أنحاء التراكيب، ويحتمل أن يريد بقوله بها: أي أنّها لمّا خلقت على ذلك القصور وكان هو تعالى ممتنع الإدراك بالكنه اعترفت عند توجهها إليه وطلبتها لمعرفته بالعجز عن إدراكه وأنّه ممتنع عنها فيها: أي باعترافها امتنع منها.

الحادي والعشرون: كونه إليها حاكمها: أي جعلها حكماً بينها وبينه عند رجوعها من توجهها في طلبه منجذبة خلف العقول حسرة معترفة بأنّه لا تنال بجود الاعتساف كنه معرفته، ولا يخطر ببال أولي الرويّات خاطر من تقدير جلاله مقرّة بحاجتها واستغنائه ونقصانها وكماله ومخلوقيّتها وخالقيّته. إلى غير ذلك بما لها من صفات المصنوعيّة، وله من صفات الصانعيّة موافقة للعقول في تلك الأحكام. واستناد المحاكمة إليها مجاز لمناسبته ما ذكرناه، وقال بعض الشارحين: أراد بالأوهام هٰهنا العقول، وظاهر أنّها لا تحيط به، لكونه غير مركّب محدود. وتجلّيه لها هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافيّة والسلبيّة.

وقوله: وبها امتنع منها.

أي بالعقول ونظرها علم أنّها لا تدركه.

وقوله: إليها حاكمها: أي جعل العقول المدّعية أنّها أحاطت به وأدركته كالخصوم له سبحانه. ثمّ حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة. فحكمت له العقول السليمة على المدّعية لما ليست أهلاً له. وما ذكره هذا الفاضل محتمل إلاّ أنّ إطلاق لفظ الأوهام على العقول إن صحّ فمجاز بغير قرينة وعدول عن الحقيقة من غير

ضرورة، وقال غيره: أراد لم تحط به أهل الأوهام، فحذف المضاف. وعند تأمّل ما بيّناه يلوح أنّه هو مراده عليه السلام أو قريب منه، وهذه الألفاظ اليسيرة من لطائف إشاراته عليه السلام وإطلاقه على أسراره الحكمة.

الثاني والعشرون: كونه تعالى ليس بذي كبر. إلى قوله: تجسيماً. الكبير يقال لعظيم الحجم والمقدار، ويقال لعالي السنّ من الحيوان، ويقال لعظيم القدر ورفيعه. ومراده نفي الكبر عنه بالمعنى الأوّل. إذ من لوازم ذلك كون الكبر ممتداً في الجهات الثلاث طولاً وعرضاً وعمقاً فيحصل الكبير الجسميّ، وقد تقدّس تعالى عن ذلك، وتقدّسه عن الكبر بالمعنى الثاني ظاهر. وتجسيماً مصدر في موضع الحال: أي فكبّرته مجسّماً له أو مجسّمة، وإنّما أسند الامتداد به إلى النهايات لأنّها غاية الطبيعة بالامتداد يقف عندها وينتهي بها فكانت من الأسباب الغائية فلذلك أسند إليها، وكذلك إسناد التكبير إليها. إذ كان التكبير من لوازم الامتداد إليها.

الثالث والعشرون: ولا بذي عظم، إلى قوله: تجسيداً، والعظيم يقال على الكبير بالمعنى الأوّل والثالث دون الثاني، ومراده سلب العظيم عنه بالمعنى الأوّل لما مرّ، وإسناد التناهي إلى الغايات ظاهر. إذ كانت سبباً لوقوفه وبها انقطع وإليها يبلغ، وكذلك إسناد التعظيم إليها كإسناد التكبير وإن أسند التناهي إليه بها جاز.

الرابع والعشرون: كونه كبر شأناً.

الخامس والعشرون: كونه عظم سلطاناً. لمّا سلب الكبر والعظم عنه بالمعنيين الأوّلين أشار إلى أنّ إطلاقهما عليه بالمعنى الثالث. ونصب شأناً وسلطاناً على التميز. فهو الكبير شأناً إذ لا شأن أعلى من شأنه، والعظيم سلطاناً إذ لا سلطان أرفع من سلطانه، وهو مبدأ شأن كل ذي شأن، ومنتهى سلطان كل ذي سلطان لا إله إلا هو الكبير المتعال ذو الكبرياء والعظمة والجلال. ثمّ أردف تمجيده تعالى بما هو أهله بالكلمة المتمّمة لكلمة الإخلاص والشهادة التي هي مبدأ لكمال القوّة العلميّة من النفوس البشريّة بعد كمال قوّتها النظريّة بالشهادة الأولى.

وظاهره كونه عليه السلام صفيّاً لله وأميناً على وحيه ومرتضى لذلك. ثمّ أردف ذلك بالإشارة إلى كونه رسولاً، وإلى وجوه ما أرسل به وهو وجوب الحجج، وأراد بها إمّا المعجزات أو ما هو أعمّ من ذلك وهو ما يكون حجّة لله على خلقه في تكليفهم أن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك. ويدخل في ذلك دلائل الأحكام وطرق الدين التفصيليّة. وكونه أرسل بوجوبها: أي وجوب قبولها على الخلق ووجوب العمل على وفقها، وظهور الفلج وهو الظهور على سائر الأديان والظفر بأهلها وبالعادلين بالله والجاحدين له، وإيضاح المنهج وهي طريق الله وشريعته. وظاهر كونه موضحاً لها ومبيّناً، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] فالهدى هو إيضاح المنهج، وقوله: ليظهره على الدين كلّه إشارة إلى بعض غايات بعثته وهي المراد بظهور الفلج، وروي بضمّ الفاء واللام وهو بضمّ الفاء وسكون اللام للفوز، ويجوز ضمّ اللام للشاعر والخطيب.

وقوله: فبلّغ الرسالة. إلى آخره.

إشارة إلى أدائه الأمانة فيما حمّل من الوحي، وصدعه بالرسالة إظهارها والمجاهرة بها، وقد علمت أن أصل الصدع الشقّ فكأنّه شقّ بالمجاهرة بها عصا المشركين وفرّق ما اجتمع من شرّهم، وحمله على المحجّة - وهي طريق الله الواضحة وشريعته - دعوته إليها وجذبه للخلق إلى سلوكها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ثمّ بالسيف لمن لم تنفعه المجادلة. وأراد بأعلام الاهتداء أدلّته وهي المعجزات وقوانين الدين الكليّة، وكذلك منار الضياء وإقامته له إظهارها وإلقاؤها إلى الخلق، ولفظ المحجّة والأعلام والمنار مستعارة كما سبق غير مرة. وصادعاً ودالاً نصب على الحال. واستعار لفظ الأمراس والعرى لما يتمسّك به من الدين والإيمان، ورشّح بذكر المتانة والوثاقة، وأشار بجعله كذلك إلى تثبيت قواعد الإسلام وغرسها في قلوب الخلق واضحة جليّة بحيث تكون عصمة للتمسّك بها في طلب النجاة من مخاوف

الدارين، وسبباً لا ينقطع دون الغاية القصوى. وبالله التوفيق.

منها: في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوانات:

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلٰكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ! أَلا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ؟

انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لاَ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ فِي خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ. وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ. وَكَذٰلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ. فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هٰذِهِ الْقِلالِ وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ اللُّغَاتِ، وَالأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلا لاخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ!

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

فَتَبَارَكَ اللهُ الَّذِي ﴿يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً! فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِهِ؛ أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسِ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبَسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهٰذَا غُرَابٌ وَهٰذَا عُقَابٌ. وَهٰذَا حَمَامٌ وَهٰذَا نَعَامٌ. دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ. وَأَنْشَأَ ﴿السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

أقول: الدخل: العيب. والبشرة: ظاهر الجلد. والجامس: الجامد. والشراسيف: أطراف الأضلاع المشرفة على البطن. والضرب في الأرض: السياحة فيها. والحدقة: سواد العين. والقمر: بياضها وضياؤها، يقال: حدقة قمراء: مضيئة. وأجلبوا: جمعوا. والنزوات: الوثبات. والتعفير: التمريغ في العفر وهو التراب.

وقوله: ولو فكّروا. إلى قوله: مدخولة.

وضع حرف لو ليدلّ على امتناع الشيء لامتناع غيره لكن الأغلب عليه أن يستعمل للدلالة على امتناع اللازم لامتناع ملزومه، وذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك اللازم مساوياً لملزومه إمّا حقيقة أو وضعاً.

والثاني: أن يكون الملزوم علّة لذلك ليلزم من رفع الملزوم رفع اللازم ويمكن الاستدلال به فأمّا إذا لم يكونا كذلك جاز أن يدلّ به على امتناع الملزوم لامتناع لازمه كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقد استعمله عليه السلام هنا بالوجه الثاني من الوجهين الأوّلين، واستدلّ على أنّ الخلق لم يرجعوا إلى طريق الله عن غيّهم وجهالاتهم ولم يخافوا من وعيده بعذاب الحريق في الآخرة لأنّهم لم يفكّروا فيما عظم من قدرته في خلق مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وما جسم من نعمته على عباده، ويحتمل أن يريد بالقدرة المقدور مجازاً إطلاقاً لاسم المتعلّق على المتعلّق، وكان ذلك من باب الاستدلال بعدم العلّة على عدم المعلول. إذ كان الفكر في ذلك سبباً عظيماً في الجذب لهم إلى اتّباع شريعته وسلوك سبيله إليها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦] الآية ونحوه.

وقوله: ولكن القلوب. إلى قوله: مدخولة.

بيان لعدم العلّة المذكورة منهم وهو الفكر، وأشار إلى عدمها بوجود ما ينافي وجود شرطها. إذ كان كون القلوب عليلة وكون الأبصار معيبة ينافيان صحتها وسلامتها اللذين هما شرطان في وجود الفكر الصحيح، ومع وجود المنافي لصحّة قلوبهم وسلامة إبصار بصائرهم لا يحصل الصحّة التي هي شرط الفكر فلا يحصل الفكر فلا يحصل معلوله وهو الرجوع إلى الله، وعلل القلوب وما يلحق إبصار البصائر من العيوب يعود إلى الجهل وأغشية الهيئات البدنية والأخلاق الرديئة المكتسبة من جواذب الشهوات إلى خسائس اللذّات المغطية لأنوار البصائر الحاجبة عن إدراك واضح الطريق الحقّ.

وقوله: ألا ينظرون. إلى قوله: البشر.

تنبيه لهم على بعض مخلوقاته تعالى ومقدوراته التي أشار إلى عظمة القدرة فيها. وأحسن بهذا الترتيب والتدريج الحسن فإنّك علمت من آداب الخطيب إذا أراد القول في أمر نبّه عليه أوّلاً على سبيل الإجمال بقول كلّيّ ليستعدّ السامعون بذلك لما يريد قوله وبيانه. ثمّ يشرع في تفصيله، ولمّا أراد عليه السلام أن ينبّه على عظمة الله بتفصيل بعض مخلوقاته كالنمل والجراد ونحوه أشار أوّلاً إلى عظيم القدرة، ووبّخ السامعين على إغفالهم الفكر فيها ليعلم أنّه يريد أن ينبّه على تفصيل أمر. ثمّ تلاه بالتنبيه على لطيف الصنع في صغير ما خلق وكيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه على صغره وفلق له البصر وسوّى له العظم ولم يعيّن إلى أن استعدّت بذلك لتعظيم الله القلوب وأقبلت بإفهامها النفوس فتلاه بذكر النملة.

وذلك قوله: انظروا إلى النملة. إلى قوله: تعباً. وهيئتها: كيفيّتها التي عليها صورتها وصورة أعضائها، وظاهر أنّ الإنسان لا يدركها بلحظ البصر إلى أن يعيد إليها بعناية، ولا يكاد عند مراجعة فكره واستدراك أوّله وباديه يعلم حقيقتها وكيفيّة خلقتها وتشريح أعضائها؛ بل بإمعان فيه وتدقيق لا بدّ أن ينظر في ذلك. والباء في قوله: بمستدرك يتعلّق بتنال.

ولا ينبغي أن يفهم من قوله: ولا ينال بمستدرك الفكر: أي في صورتها الظاهرة التي يدركها البصر فربّما يسبق ذلك إلى بعض الأفهام لمكان العطف بل ما ذكرناه من شرح حقيقتها فإنه ليس حظّ الفكر أن يدرك صورتها المحسوسة بالبصر بل أن يبحث عن عجائب صنعتها ليستدلّ بذلك على حكمة صانعها - جلّت عظمته - ومحلّ قوله: لا تكاد تنال يحتمل أن يكون نصباً على الحال والعامل أنظروا، ويحتمل أن يكون مستأنفاً، وكيف في محلّ الجرّ بدل من النملة، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً وفيه معنى التعجّب. وكيف صبّت: أي ألقيت على رزقها وبعثت عليه بهداية وإلهام، وقيل: ذلك على العكس: أي صبّ عليها رزقها، ولفظ الصبّ

مستعار لحركتها في طلبه ملاحظاً لشبهها بالماء المصبوب.

فإن قلت: كيف جعل دبيبها على الأرض محلّ التعجّب والفكر مع سهولته ووجوده لسائر الحيوان؟

قلت: لم يجعل محلّ التعجّب هو دبيبها من حيث هو دبيب فقط بل مع الاعتبارات الأخر المذكورة فإنّك إذا اعتبرتها من حيث هي في غاية اللطافة ثمّ اعتبرت قوائمها وحركات مفاصلها وخفضها ورفعها وبعد ذلك من استثبات الحسّ لها ونسبتها إلى جرمها وإلى أجزاء المسافة التي تقطعها بل جزء من حركتها، وكذلك انصبابها على رزقها بهداية تامّة إليه ونقلها إلى جحرها وغير ذلك من الاعتبارات المذكورة فإنّك إذا اعتبرت ذلك منها وجدت لنفسك منه تعجّباً وتفكّراً في لطف جزئيّات صنعتها وحكمة خالقها ومدبّرها.

وقوله: تجمع في حرّها لبردها: أي في الصيف للشتاء، وفي ورودها لصدرها: أي في أيّام ورودها وتمكنها من الحركة لأيام صدورها ورجوعها عن الحركة للعجز فإنّها تعجز في أيام الشتاء عن ملاقاة البرد فتطلب بطن الأرض لكمون الحرارة فيه.

ومن العجائب التي حكاها أهل التجارب من أفعال النمل وإلهاماتها ما حكاه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب «الحيوان» بفصيح عباراته. قال: إن النملة تدّخر في الصيف للشتاء فتقدم في أيّام المهلة ولا تضيّع أوقات إمكان الحزم، وتبلغ من تفقّدها وصحّة تميزها والنظر في عواقب أمورها أنّها تخاف على الحبوب التي ادّخرتها للشتاء أن تعفّن وتسوس في بطن الأرض، فتخرجها إلى ظهرها لتنشرها وتعيد إليها جفافها ويضر بها النسيم فينفى عنها العفن والفساد. قال: وربما تختار في الأكثر أن يكون ذلك العمل ليلاً ليكون أخفى، وفي القمر لأنّها فيه أبصر. فإن كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت الحبّة نقرت موضع الطمير من وسطها لعلمها أنّها من ذلك الموضع تنبت، وربّما فلقت الحبّة بنصفين. فأمّا إن كان الحبّ من الكزبرة فإنّها تفلقه أرباعاً لأنّ أنصاف حبّ الكزبرة ينبت من بين جمع الحبّ. فهي بهذا الاعتبار مجاوزة لفطنة جميع الحيوان. قال: ونقل إليّ بعض من أثق به أنّه احتفر بيت النمل فوجد الحبوب التي جمعتها كل نوع وحده. قال: ووجدنا في بعضها أنّ بعض الحبوب فوق بعض وبينها فواصل حائلة من التبن ونحوه. ثمّ إنّ لها مع لطافة شخصها وخفّة حجمها في الشمّ والاسترواح ما ليس لسائر الحيوان، وذلك أنّه ربما سقط من يد الإنسان جرادة أو عضو منها مثلاً في موضع ليس بقربه ذرّ ولا عهد لذلك المنزل به فلا يلبث أن يقبل ذرّة قاصدة إلى تلك الجرادة فتروم حملها فإذا أعجزتها بعد أن تبلى عذراً مضت إلى حجرها راجعة فلا يلبث الإنسان أن يجدها وقد أقبلت وخلفها كالخيط الأسود من أخواتها حتى يتعاون عليها ليحملنها فأعجب من صدق شمّها لما يشمّه الإنسان الجائع. ثمّ انظر إلى بعد همّتها في ذلك وجرأتها على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة وأضعافها، وليس من الحيوان ما يحمل أضعاف وزنه مراراً كثيرة كالنملة. قال: والذي ينبّه على إعلامها لأخواتها وإشعارها بمثل ما أشرنا إليه قصة سليمان عليه السلام مع النمل حيث حكى القرآن الكريم عنها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨-١٩] فإنّ القول المشار إليه منها وإن لم يحمل على حقيقته فهو محمول على مجازه، وهو إشعارها، لأخواتها بالحال المخوّفة للنمل من سليمان وجنوده. قال: ومن عجيب ما يحكى عن النمل ما حكى عن بعض من يعمل الأصطرلاب أنّه أخرج طوقاً من صفر من الكير بحرارته فرمى به على الأرض ليبرد فاشتمل على نملة فكانت كلما طلبت جانباً منه لتخرج منعتها الحرارة فكانت مقتضى هروبها من الجوانب أن استقرّت ثم ماتت فوجدها قد استقرّت في موضع رجل البركار من نقطة المركز وما ذاك إلا للطف حسّها وقوّة وهمها أنّ ذلك الموضع هو أبعد الأمكنة عن الخط المحيط. قال: ومن عجائبها إلهامها أنّها لا تعرض لجعل ولا جرادة ولا خنفساء ولا نحوها ما لم يكن بها خبل أو عقر أو قطع يد أو رجل فإذا وجد شيئاً من ذلك وثبت عليها حتّى لو أنّ حيّة بها ضربة أو خدش ثمّ كانت من

ثعابين مصر لو ثبت عليها الذروة حتى تأكلها، ولا تكاد الحيّة تسلم من الذّر إذا كان بها أدنى عقر. وكل ذلك من الإلهامات التي إذا فكّر اللبيب فيها كاد أن يحكم بكونها أعلم بقوانين معاشها وتدبير أحوال وجودها من كثير من الناس فإنّ الإنسان قد يهمل ذلك التدبير فلا يضبطه، ويستمر فيه على قانون واحد.

وقوله: مكفولة ومرزوقة. نصب على الحال.

وقوله: رزقها ووفقها: أي موافق ومطابق لقوّتها وعلى قدر كفايتها. ويروى مكفول برزقها مرزوقة لوفقها. ثمّ ذكر نسبة ذلك إلى ربّها. فأشار إلى أنّه لا يغفلها: أي لا يتركها من لطفه وعنايته فإنّه باعتبار ما هو منّان على خلقه لا يجوز في حكمته إهمال بعضها من رزق يقوم به في الوجود، وكذلك لا يحرمها باعتبار كونه ديّاناً: أي مجازياً، ووجه ذكر المجازاة هنا أنّها حيث دخلت في الوجود طائعة لأمره وقامت فيه منقادة لتسخيره وجب في الحكمة الإلهيّة جزاؤها ومقابلتها بما يقوم بوجودها فلا تكون محرومة من مادّة بقائها على وفق تدبيره، ولو كانت في الصفا اليابس والحجر الجامس؛ بل يفتح لها أبواب معاشها في كل مكان. ثمّ نبّه على محال أطرى للفكر في النملة: فمنها مجاري أكلها ما تأكله وتلك المجاري كالحلق والأمعاء، ومنها علوها وسفلها وعلوها بسكون اللام نقيض سفلها وهو رأسها وما يليه إلى الجزء المتوسط منها وسفلها هو ما جاوز الجزء من طرفها الآخر، ومنها ما اشتمل عليه جوفها من شراسيف بطنها أو ما يقوم مقامه فأطلق عليه أنّه شراسيف بالمجاز، ومنها ما في رأسها من عينها وأذنها وهي محل القوة السامعة منها فإنّ كل ذلك على غاية صغره ولطافته محلّ العجب ومحلّ النظر اللطيف المستلزم للشهادة بحكمة الصانع ولطف تدبيره الذي يقضي الإنسان من تأمله عجباً، والقضاء هٰهنا بمعنى الأداء: أي لأدّيت عجباً، ويحتمل أن يكون بمعنى الموت: أي لقضيت نحبك من شدّة تعجّبك، ويكون عجباً نصب على المفعول له؛ ثمّ لمّا نبّه على محال الفكر ووجوه الحكمة فيها أردف ذلك بتنزيه صانعها وتعظيمه تعالى، وقرن ذلك التعظيم والتنزيه بنسبته إلى بعض صنعه بها؛ وهو إقامته لها على قوائمها وبناها على دعائمها، وأراد بدعائمها ما يقوم به بدنها من الأمور التي مقام العظام والعصب والأوتار ونحوها ليحصل التنبيه على عظمته من لطف تلك القوائم واعتبار ضعف تلك الدعائم مع ما ركّب فيها من لطائف الصنعة وأودعها من عجائب الحكمة من غير أن يشركه في فطر تلك الفطرة فاطر أو يعينه على لطيف خلقها قادر فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه.

وقوله: ولو ضربت. إلى قوله: النخلة.

أي لو سارت نفسك في طرق فكرها ومذاهب نظرها، وهي الأدلة وأجزاء الأدلّة من المقدّمات وأجزائها المستنبطة من عالم الخلق والأمر لتصل إلى غايات فكرك في الموجودات لم يمكن أن يدلّك دليل إلاّ على أنّ خالق النملة على غاية صغرها وخالق النخلة على عظمها وطولها واحد وهو المدبّر الحكيم.

وقوله: لدقيق تفصيل كل شيء. إلى قوله: حيّ.

إشارة إلى أوسط الحجّة على ما ادّعاه من اشتراك النملة والنخلة في الاستناد إلى صانع واحد مدبر حكيم، ومعنى ما ذكر أنّ لكل شيء من الموجودات الممكنة تفصيل لطيف دقيق واختلاف شكل وهيئة ولون ومقدار ووجوه من الحكمة تدلّ على صانع حكيم خصّصه بها دون غيره، وتقرير الحجّة أن وجود النملة والنخلة اشتمل كل منهما على دقيق تفصيل الخلقة وغامض اختلاف شكل وهيئة وكل ما اشتمل على ذلك فله صانع مدبّر حكيم خصّصه بذلك فينتج أنّهما يشتركان في الحاجة إلى صانع مدبّر حكيم خصّ كلاً منهما بما يشتمل عليه، وهذه الحجّة هي المسمّاة في عرف المتكلمين بالاستدلال بإمكان الصفات كما بيّناه قبل في قوله: الحمد لله الدال على وجوده بخلقه.

وقوله: وما الجليل واللطيف. إلى قوله: سواء.

مؤكّد لما سبق من الدعوى، وكاسر لما عساه يعرض لبعض الأوهام من استبعاد نسبة الخلقة العظيمة والخلقة اللطيفة الحقيرة كالنملة إلى صانع واحد. فأشار إلى أنّ كل المخلوقات وإن تباينت أوصافها وتضادّت صورها وأشكالها فإنه لا تفاوت بالنظر إلى قدرته وكمالها بين أن

يفيض عن صورة النخلة أو صورة الذرّة، وليس بعضها بالنسبة إليه أولى وأقرب من بعض، ولا هو أقوى بعضها من بعض وإلاّ لكان ناقصاً في ذاته، وكان بما هو أولى به مستفيداً كما لا يفوته بعدمه عنه، وقد ثبت تنزيه جنابه المقدّس عن ذلك في مظانه من الكتب الحكميّة والكلاميّة بل إن كان فيهما تفاوت واختلاف فمن جانب القابل واختلاف استعدادات الموادّ بالشدّة والضعف والأقدم والأحدث على ما أشرنا إليه غير مرّة، واللطيف كما يراد به صغر الخلقة كذلك قد يراد به دقيق الصفة، وقد يراد به الشفّاف كالهواء، والأوّل هو مراده ولذلك جعله مقابلاً للجليل.

وقوله: وكذلك السماء. إلى قوله: والماء.

فالمشبّه به هو الأمور المضادّة السابقة والمشبّه هو السماء والهواء والرياح والماء، ووجه الشبه هو حاجتها في خلقها وتركيبها وأحوالها المختلفة والمتّفقة إلى صانع حكيم، وأشار إلى الأمور الأولى المتضادّة أولاً ونسبها إلى قدرته تعالى باعتبار كليّتها ومن جهة تضادّها لأنّها أدلّ على كمال قدرته، وأشار إلى الثانية وهي السماء وما عدّه معها لا لاعتبار تضادّها بل باعتبار ما اشتمل عليه كل منها من الحكمة والمنفعة وكونها موادّ الأجسام المركّبات، والهواء أعمّ من الرياح لتخصيص مسمّى الرياح بالحركة دون الهواء.

وقوله: فانظروا. إلى قوله: المختلفات.

أمر باعتبار حال ما عدّد من المخلوقات وما اختص به كل منها من الصفات والأشكال والمقادير والأضواء والألوان والمنافع إلى غير ذلك ممّا يدلّ على حاجة كل منها إلى مخصّص حكيم يخصّصه بما هو أليق به وأوفق للحاجة اللازمة له وأنسب إلى استعداده بعد اشتراك جميعها في الجسميّة، وهو أمر بتقرير الحجّة التي ذكرناها في كل واحد من الأمور المذكورة، ولمّا كان حال أكثر الأمور المذكورة مفتقراً إلى تقديم النظر البصري لغاية التفكر والاعتبار فيها أمر به، وأمّا وجوه الاعتبارات فأكثر من أن يحصر فإنك إذا اعتبرت حال الشمس والقمر في عظم أجرامهما والضياء الصادر عنهما وحركاتهما وتنقّلهما في منازلهما، وما تستلزمه تلك الحركات من التاثيرات والإعدادات لوجود المركّبات العنصريّة من المعدن والنبات والحيوان ثمّ اعتبرت ما ينفصل به أحدهما عن الآخر من الجرم وزمان السير وكون القمر مستفيداً للنور من الشمس وغير ذلك ممّا لا يعلم تفصيله رلا الله سبحانه وكذلك إذا نظرت إلى النبات والشجر وجواهرهما وأشكالهما واختلاف أجزائهما في الألوان والمقادير والثمار وما يستلزمه من المنفعة لوجود الحيوان والمضرّة لبعضها إلى غير ذلك ممّا علمته فيما سلف، وكذلك الماء في كونه على غاية من الرقّة واللطافة وكون الحجر بعكس الوصفين مع أنّ أكثر المياه إنّما تنبع من الأحجار ثمّ نظرت إلى المنافع الموجودة فيهما والمضار العارضة عنهما، وكذلك النظر إلى هذا الليل والنهار واختلافهما في هذا العالم وتعاقبهما، وما يستلزمانه من المنفعة المختصّة بكل منهما ممّا امتنّ الله تعالى على عباده بها حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] وقال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾ [النحل: ١١] الآية. وقال: ﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]. إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣] وقال: إلى غير ذلك من الآيات وقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ١٠-١١] إلى قوله: ﴿أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٦] وكذلك إذا اعتبرت تفجير هذه البحار وما تستلزمه من المنفعة كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٩] وقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٢٢] وكذلك إذا اعتبرت كثرة الجبال وقلالها وعروضها وأطوالها وما اشتملت عليه من معادن الجواهر وغيرها، وكذلك تفرّق اللغات واختلاف الألسنة وجدت ذلك النكر والاختلاف شاهداً بوجود صانع حكيم. وتقريرها كما علمت أن تقول: إنّ هذه الأجسام كلّها مشتركة في الجسميّة واختصاص كل منها بما يميّز به من الصفات المتعددة ليس للجسمية ولوازمها وإلاّ وجب لكلّ منها ما وجب للآخر ضرورة اشتراكها في علّة الاختصاص فلا مميّز له. هذا خلف، ولا لشيء

من عوارض الجسميّة لأن الكلام في اختصاص كلّ منها بذلك العارض كالكلام في الأوّل ويلزم التسلسل فيبقى أن يكون لأمر خارج عنها هو الفاعل الحكيم المخصّص لكل منها بحدّ من الحكمة والمصلحة، وقد مر تقرير هذه الحجّة مراراً. ثمّ لمّا نبّه على وجود الصانع سبحانه أردف ذلك بالدعاء على من جحده، أو الإخبار عن لحوق الويل له. قال سيبويه: الويل مشترك بين الدعاء والخبر، ونقل عن عطاء بن يسار أنّ الويل واد في جهنّم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حرّه. ورفعها بالإبتداء، والخبر لمن أنكر، والمدبّر: هو العالم بعاقبة الأمر وما يشتمل عليه من المصلحة ويعود إلى القضاء، والقدر: هو الموجد على وفق ذلك العلم كما سبق بيانه، وتأخير الدعاء على الجاحدين بعد إيضاح الحجّة عليهم هو الترتيب الطبيعي، والإشارة بالجاحدين إلى صنف من العرب أنكروا الخالق والبعث، وقالوا بالدهر المفنى. كما حكيناه عنهم في الخطبة الأولى، وهم الذين أخبر القرآن المجيد عنهم بقوله: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله: زعموا. إلى قوله: صانع.

إشارة إلى شبهتهم وهي من باب التمثيل فالأصل فيها هو النبات، والفرع أنفسهم، والحكم هو ما توهموه من كونهم بلا صانع كما أنّ النبات بلا زارع، ولعل الجامع في اعتبارهم هو اختلاف الحياة والموت عليهم كما أشار إليه القرآن الكريم حكاية عنهم «نموت ونحيى» أو نحوه من الأمور المشتركة وإن كانوا لا يلتفتون لفتاً إلى هذا الجامع. إذ مراعاة هذه الأمور وتحقيق أجزاء التمثيل من صناعة هم عنها بمعزل، وقد علمت أنّ التمثيل بعد تمام أجزائه إنّما يفيد ظنّاً يختلف بالشدّة والضعف، وعلمت وجوه الفساد فيه.

وقوله: ولم يلجأوا. إلى قوله: جان.

إنكار ومنع لما ادّعوه وأنّهم لم يأتوا فيه بحجّة ولا تحقيق برهان، ويحتمل أن يكون قوله: وهل يكون. إلى قوله: جان. تنبيهاً على وجود نقيض الحكم المدّعى، وهو كون خلقهم وخلقة النبات شاهدة بوجود صانع لها، وذلك التنبيه بالإشارة إلى أوسط قياس من الشكل الأوّل، وكبراه في صورة الاستفهام.

وتقرير القياس: أنّهم صنعة ولا شيء ممّا هو صنعة بلا صانع ينتج فلا شيء منها بلا صانع وهو نقيض المدّعى، ولمّا كانت الكبرى ضروريّة اقتصر على التنبيه عليها بامتناع وجود البناء من غير بان والجناية من غير جان فإنّ ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر من غير مرجّح محال بالبديهة وممتنع في فطن الصبيان والبهائم. إذ كان الحمار عند صوت الخشبة يعدو خوفاً من الضرب، وذلك لما تقرّر في فطرته أنّ حصول صوت الخشبة بدونها محال. ثمّ لو سلّم لهم ثبوت الحكم في الأصل وهو كون النبات بلا زارع فلم كان عدم الزارع يدلّ على أنّ النبات لا فاعل له؟. وإنّما يلزم ذلك أن لو كان الفاعل إنّما هو الزارع وذلك من الأوهام الظاهرة كذبها بأدنى تأمل إذا استعقب بالبذر. إذ كان الزارع ليس إلا إعداداً ما للأرض والبذر، وأما وجود الزرع والنبات فمستند إلى مدبّر حكيم متعال عن الحسّ والمحسوس لا تدركه الأبصار ولا تكتنفه الأوهام والأفكار سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

وقوله: إن شئت قلت في الجرادة. إلى قوله: مستدقّة.

تنبيه آخر على وجود الصانع الحكيم - جلّت عظمته - في وجود بعض جزئيّات مخلوقاته وصغيرها وهي الجرادة: أي وإن شئت قلت فيها ما قلت في النملة وغيرها قولاً بيّناً. كاشفاً عن وجوه الحكمة فيها بحيث يشهد ذلك بوجود صانع حكيم لها فنبّه على بعض دقائق الحكمة في خلقها وهي خلق العينين الحمراوين مع كون حدقتها قمراوين، واستعار لفظ السراج للحدقتين باعتبار الحمرة النارية والإضاءة.

ثم خلق السمع الخفيّ: أي عن أعين الناظرين، وقيل: أراد بالخفي اللطيف السامع لخفيّ الأصوات فوصفه بالخفاء مجازاً إطلاقاً لاسم المقبول على قابله. ثمّ فتح الفم السويّ. السويّ: فعيل بمعنى مفعول: أي المسوّى. والتسوية: التعديل بحسب المنفعة الخاصّة بها. ثمّ خلق الحسّ القويّ، وأراد بحسّها قوتها الوهميّة

وبقوّته (بقوّة خ) حذقها فيما ألهمت إيّاه من وجوه معاشها وتصرّفها. يقال: لفلان حسّ حاذق إذا كان ذكيّاً فطناً درّاكاً. ثم خلق النابين، واستعار لفظ المنجلين ليديها، ووجه المشابهة تعوّجهما وخشونتهما، وقرن بذكر النابين والمنجلين ذكر غايتهما وهما القرض والقبض، ومن لطيف حكمته تعالى في الرجلين أن جعل نصفهما اللذين تقع عليها اعتمادها وجلوسها شوكاً كالمنشار ليكون لها معيناً على الفحص ووقاية لذنبها عند جلوسها وعمدة لها عند الطيران.

وقوله: يرهبها الزرّاع. إلى قوله: شهواتها.

أي أنّها إذا توجّهت بعساكرها من أبناء نوعها إلى بقعة وهجمت على زرعها وأشجارها أمحته ولم يستطع أحد دفعها حتّى لو أنّ ملكاً من الملكوت أجلب عليها بخيله ورجله ليحمي بلاده منها لم يتمكّن من ذلك، وفي ذلك تنبيه على عظمة الخالق سبحانه وتدبير حكمته. إذ كان يبعث أضعف خلقه على أقوى خلقه ويهيىء الضعيف من أسباب الغلبة ما لا يستطاع دفعه معها حتى ترد ما تريد وروده وتقضي منه شهواته فيحل باختيار منه وترحل باختيار، ومن عجائب الخواصّ المودعة في الجراد أنّها تلتمس لبيضها الموضع الصلد والصخور الملس ثقة بأنّها إذا ضربت فيها بأذنابها انفرجت لها، ومعلوم أنّ ذلك ليس بقوّة إذ ليس في ذنب الجرادة من القوّة أن يخرق الحجر الذي يعجز عنه المعول بمجرّد قوّته لولا خاصيّة لها هناك ثمّ إذا ضربت في تلك البقاع وألقت بيضها وانضمّت عليها تلك الأخاديد التي أحدثتها وصارت لها كالأفاحيص صارت حاضنة لها ومربيّة وحافظة وواقية حتى إذا جاء وقت دبيب الروح خرجت من البيض صهباً إلى البياض. ثم تصفرّ وتتلوّن فيه خطوط إلى السواد. ثمّ يصير فيه خطوط سود وبيض، ثمّ يبدو حجم جناحيه. ثمّ يستقل فيموج بعضه في بعض، وقيل: إنّ الجراد إذا أراد الخضرة ودونه نهر جار صار بعضه جسر البعض ليعبر إليها فمن الناس من جعل ذلك حيلة لها ألهمت إيّاها. وأباه قوم وقالوا: بل الزحف الأول من الدبى إذا أراد الخضرة ولا يقدر عليها إلا بالعبور إليها عبر فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافية صارت للزحف الثاني الذي يريد الخضرة كالأرض، وربّما نقل لها خواصّ أخرى لا تعلّق لها بما نحن بصدده.

وقوله: وخلقها كلّه لا يكون إصبعاً مستدقّة.

الواو للحال: أي أنّه تعالى خلقها على ما وصفت وأودعها من عجائب الصنع ما ذكرت بحيث يخاف منها الزراع مع أنّ خلقها كلّه دون الإصبع المستدقّة، وهذه الكلمة مستلزمة لتمام التعجب من خلق الله فيها الأمور الموصوفة حتى لو قدّرنا أنها وصفت لمن لم يرها فربّما اعتقد أنّ لها خلقاً عظيماً تستند إليه هذه الأوصاف ولم يكن عنده تعجّب حتّى نتبيّن مقدار خلقها وصغر صورتها. ثمّ لما بيّن بعض مبدعاته ومكوناته نوّه بزيادة عظمته تعالى وبركته باعتبار كونه معبوداً لمن في السماوات ومن في الأرض فله يسجدون طوعاً وكرهاً كل بعبادة تخصّه وسجود لا يمكن من غيره مع اشتراك الكل في الدخول تحت ذلّ الحاجة إلى كمال قدرته وخضوع الإمكان بين يدي رحمته. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] وكذلك قوله: ويعفّر له خدّاً ووجهاً. فما كان ذا وجه وخدّ حقيقة فلفظ التعفير صادق عليه حقيقة، وما لم يكن السجود صادق عليه استعارة لخضوعه الخاصّ به، ولفظ التعفير والخدّ والوجه ترشيحات على أنّ موضوع السجود في اللغة هو الخضوع وكذلك إطلاق إعطاء القياد ووصف الرهبة والخوف، ونصبهما على المفعول له.

وقوله: فالطير مسخرة لأمره.

كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] وكونها مسخرة يعود إلى دخولها تحت حكم تصرّفه العامّ فيها قدرة وعلماً والخاصّ تخصيصاً وتعييناً، وإحصاء الريش منها والنفس باعتبار تسخيرها تحت تصرّفه العام بعلمه تعالى. وإرساؤها: أي تثبّتها على قوائمها في الندى كطير الماء واليبس كطير البرّ باعتبار دخولها تحت قدرته وخلقها كذلك، وتقديره لأقواتها وما يصلح منها وما يكفيه باعتبار دخولها تحت قدرته وعلمه معها. إذ كان

التقدير هو إنزال تلك المقادير وإعدادها على وفق العلم الإلهيّ، وإحصاء أجناسها باعتبار علمه تعالى.

وقوله: فهذا غراب. إلى قوله: نعام.

تفصيل لأنواعها، ولم يرد الجنس بالاصطلاح الخاصّ بل اللغويّ وهو النوع في المصطلح العلميّ، وراعى في كل قرينتين من الأربع السجع المتوازي.

وقوله: دعا كل طائر باسمه.

فالدعاء استعارة في أمر كل نوع بالدخول في الوجود، وقد عرفت أنّ ذلك الأمر يعود إلى حكم القدرة الإلهيّة العظيمة عليه بالدخول في الوجود، ووجه الاستعارة ما يشترك فيه معنى الدعاء، والأمر من طلب دخول مهية المطلوب بالدعاء والأمر في الوجود وهو كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ﴾ [فصلت: ١١-١٢] الآية، ولما استعار لفظ الدعاء رشّح بذكر الاسم لأنّ الشيء إنّما يدعى باسمه، ويحتمل أن يريد الاسم اللغويّ وهو العلامة فإنّ لكل نوع من الطير خاصّة وسمة ليست للآخر، ويكون المعنى أنّه تعالى أجرى عليها حكم القدرة بما لها من السمات والخواصّ في العلم الإلهيّ واللوح المحفوظ، وقال بعض الشارحين: أراد أسماء الأجناس، وذلك أن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ كلّ لغة تواضع عليها العباد في المستقبل، وذكر الأسماء التي يتواضعون عليها، وذكر لكلّ اسم مسمّاه فعند إرادة خلقها نادى كل نوع باسمه فأجاب دعواه وأسرع في إجابته، واعلم أنّك إذا تأمّلت حكمة الصانع في خلق الطائر شاهدت عجباً. حين اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون طائراً في الجوّ خفّف جسمه وأدمج خلقه فاقتصر من القوائم على اثنتين ومن الأصابع على أربع من منفذين للزبل والبول على منفذ. ثمّ خلقه تعالى على جؤجؤ محدّب ليسهل عليه خرق الهواء كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشقّ الماء، وخلق في جناحيه وذنبه ريشات طوال لينهض بها إلى الطيران، وكسا جسمه كلّه ريشاً ليتداخله الهواء فيقيله، ولمّا كان طعامه الحبّ أو اللحم يبلعه بلعاً من غير مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقاراً صلباً، وأعانه بفضل حرارته في جوفه يستغني بها عن المضغ. ثمّ خلقه تعالى يبيض بيضاً ولا يلد لكيلا يثقل بكون الفراخ في جوفه عن الطيران، وجعل عوض استعداد الولد في البطن استعداده في البيضة بحرارة الحضن بمشاركة من الذكر والأنثى في ذلك، ومن العناية الإلهية بدوام نسله وبقائه أن ألهمه العطف على فراخه فيلتقط الحبّ فيغذو به فراخه بعد استقراره في حوصلته ليلين، وإذا فكّرت في الحوصلة وجدتها كالمخلاة المعلّقة أمامه فهو يعبّي فيها ما أراد من الطعم بسرعة ثمّ ينفذ إلى القانصة على مهل، وذلك أنّ مسلك الطعم إلى القانصة ضيّق لا ينفذ فيه الطعم إلاّ قليلاً فلو كان هذا الطائر لا يلتقط حبّة ثانية حتى تصير الأولى إلى القانصة لطال ذلك عليه فخلق تعالى له الحوصلة لذلك. ثم انظر إلى الريش الذي تراه في الطواويس والدراريج وغيرها عن استواء ومقابلة على نحو ما يخطّ بالأقلام، وكذلك انظر إلى العمود الجامع للريشة الذي يجري مجرى الجدول الممدّ للريشة والمغذّي لها، وخلق عصبيّ الجوهر صلباً متيناً ليحفظ الريش ويمسكه لصلابته. فسبحان الذي خلق الأزواج كلّها، وأحصى كل شيء عدداً، وأحاط بكل شيء علماً.

وقوله: وأنشأ السحاب. إلى آخره.

إشارة إلى كمال قدرته باعتبار خلقه السحاب الثقال بالماء، وإرسال ديمها وهي أمطارها، وتعديد قسمها وهو ما يصيب كل بلد وأرض منها من القسم. وظاهر أنه تعالى يعدّ الأرض بتلك البلّه بعد الجفاف لأن يخرج منها النبات بعد الجدب وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧] وبالله التوفيق.

٢٢٩ - ومن خطبة له عليه السلام

في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة.

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ

وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ. غَنِيٌّ لا بِاسْتِفَادَةٍ. لاَ تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلا تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ، سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِدَاءَ أَزَلُهُ.

بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لاَ يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الآلاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا.

مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا قَدُ الأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا «لَوْلاَ» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، ولا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلامْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ.

الَّذِي لا يَحُولُ، وَلا يَزُولُ، وَلا يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ. وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلامَسَةِ النِّسَاءِ. لا تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ. وَلا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. ولا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلاَ يَتَبَدَّلُ فِي الأَحْوَالِ. وَلا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ، وَلا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلامُ. وَلا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلا بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، وَلا بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ، وَلا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالأَبْعَاضِ. وَلاَ يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلا نِهَايَةٌ، وَلا انْقِطَاعٌ وَلاَ غَايَةٌ.

وَلا أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلا يُضْمِرُ. يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: «كُنْ فَيَكُونُ»، لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلٰهاً ثَانِياً.

لا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ وَالإِعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالإِنْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ.

هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلالِهِ وَعِزَّتِهِ. لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلا كُفْؤَ لَهُ

فَيُكَافِئَهُ، وَلا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ. هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا.

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ لَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا.

وَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لا شَيْءَ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلا وَقْتٍ وَلا مَكَانٍ، وَلا حِينٍ وَلا زَمَانٍ. عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ. فَلا شَيْءَ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ. بِلا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلا لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ، وَلا لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلا لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا. ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَمْ يُمِلَّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلاَ اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلا لانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ. وَلا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ، وَلا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

أقول: صمده: أي قصده. وترفده: تعينه. والوضوح والوضح: البياض. والبهمة: السواد. والحرور هنا: الحرارة. والصرد: البرد. والأفوال: الغيبة. والوالد: الداخل. وخلا: مضى وسبق. والأود: الأعوجاج. والتهافت: التساقط. والأسداد: جمع سدّ - وقد يضمّ - وهو كلّ ما حال وحجز بين شيئين. وخدّ: شقّ. ومراحها: ما يراح منها في مرابطها ومعاطنها. وسائمها: ما أرسل منها للرعى. وأسناخها: أصولها. والمتبلّدة: ذو البلادة وهي ضدّ الذكاء. والأكياس: ذوو الذكاء والفهم. وتكاءده الأمر: شقّ عليه وصعب. وآده: أثقله. والمثاور: المواثب.

واعلم أنّ مدار هذه الخطبة على التوحيد المطلق والتنزيه المحقّق، وقد أشار إلى توحيده تعالى وتنزيهه باعتبارات من الصفات الإضافيّة والسلبيّة:

فالأوّل: قوله: ما وحّده من كيّفه. دلّت هذه الكلمة بالمطابقة على سلب التوحيد له تعالى عمّن وصفه بكيفيّة، وبالالتزام على أنه لا يجوز تكيّفه لمنافاة ذلك التوحيد الواجب له تعالى. ولنشر إلى معنى الكيفية ليتبيّن وصفه بها. فنقول: أمّا رسمها فقيل: إنّها هيئة قارّة في المحلّ لا يوجب اعتبار وجودها فيه نسبة إلى أمر خارج عنه ولا قسمة في ذاته ولا نسبة واقعة في أجزائه. وبهذه القيود يفارق سائر الأعراض، وأقسامها أربعة: فإنّها إمّا أن تكون مختصة بالكمّ من جهة ما هو كمّ كالمثلثيّة والمربعيّة وغيرها من الأشكال للسطوح. وكالاستقامة والانحناء للخطوط وكالفرديّة والزوجيّة للأعداد، وإمّا أن لا تكون مختصّة به وهي إمّا أن تكون محسوسة كالألوان والطعوم والحرارة والبرودة، وهذا ينقسم إلى راسخة كصفرة الذهب وحلاوة العسل، وتسمّى كيفيّات انفعالية إمّا لانفعال الحواسّ عنها وإمّا

لانفعالات حصلت في الموضوعات عنها، أو غير راسخة إمّا سريعة الزوال كحمرة الخجل وتسمّى انفعالات لكثرة انفعالات موضوعاتها بسببها بسرعة، وهذا قسم ثاني، وإمّا أن لا تكون محسوسة، وهي إمّا لاستعدادات ما لكمالات كالاستعداد للمقاومة والدفع، وإمّا لانفعال ويسمّى قوّة طبيعيّة كالمصحاحيّة والصلابة، أو لنقائص مثل الاستعداد بسرعة الإذعان والانفعال، ويسمّى ضعفاً ولا قوّة طبيعية كالممراضية، وإمّا أن لا يكون استعداد لكمالات أو نقائص بل يكون في أنفسها كمالات أو نقائص، وهي مع ذلك غير محسوسة بذواتها فما كان منها ثابتاً يسمّى ملكة كالعلم والعفّة والشجاعة، وما كان سريع الزوال يسمّى حالاً كغضب الحليم ومرض الصحاح. فهذه أقسام الكيف. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّما قلنا: إنّه يلزم من وصفه بالكيفيّة عدم توحيده لما نبّه في الخطبة الأولى من قوله عليه السلام في وصف الله سبحانه: فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه. وكما سبق تقريره فينتج أنّ من وصف الله سبحانه فقد ثنّاه. وحينئذ تبيّن أنّ من كيّفه لم يوحّده لأنّ توحيده وتثنيته ممّا لا يجتمعان.

الثاني: ولا حقيقته أصاب من مثّله. أي جعل له مثلاً، وذلك أنّ كلّ ماله مثل فليس بواجب الوجود لذاته لأنّ المثليّة إمّا أن يتحقّق من كلّ وجه فلا تعدّد إذن لأنّ يقتضي المغايرة بأمرٍ ما وذلك ينافي الاتحاد والمثليّة من كل وجه هذا خلف، وإمّا أن يتحقّق من بعض الوجوه وحينئذ ما به التماثل إمّا الحقيقة أو جزؤها أو أمر خارج عنها فإن كان الأوّل كان ما به الامتياز عرضيّاً للحقيقة لازماً أو زائلاً لكن ذلك باطل لأنّ المقتضي لذلك العرضيّة إمّا المهيّة فيلزم أن يكون مشتركاً بين المثلين لأنّ مقتضى المهيّة الواحدة لا يختلف فما به الامتياز لأحد المثلين عن الآخر حاصل للآخر هذا خلف. أو غيرها فتكون ذات واجب الوجود مفتقرة في تحصيل ما يميزّها من غيرها إلى غير خارجي هذا محال، وإن كان ما به التماثل والاتّحاد جزء من المثلين لزم كون كلّ منهما مركّباً فكلّ منهما ممكن هذا خلف. وبقي أن يكون التماثل بأمر خارج عن حقيقتهما مع اختلاف الحقيقتين لكن ذلك باطل أمّا أوّلاً فلامتناع وصف واجب الوجود بأمر خارج عن حقيقته لاستلزام إثبات الصفة له تثنيته وتركّبه على ما مرّ، وأمّا ثانياً فلأنّ ذلك الأمر الخارجي المشترك إن كان كمالاً لذات واجب الوجود فواجب الوجود لذاته مستفيد للكمال من غيره هذا خلف، وإن لم يكن كمالاً كان إثباته له نقصاً لأنّ الزيادة على الكمال نقص. فثبت أنّ كل ما له مثل فليس بواجب الوجود لذاته فالطالب لمعرفته إذا أصاب ماله مثل فقد أصاب ما ليس بواجب الوجود لذاته فلم يصب صانع العالم، ومقصود الكلمة نفي المثل له تعالى في مقام التوجّه إليه والنظر لطلب معرفته.

الثالث: ولا إيّاه عنى من شبّهه، ومعنى هذه القرينة كالتي قبله.

الرابع: ولا صمده من أشار إليه وتوهّمه، وذلك لأنّ الإشارة إليه إمّا حسيّة أو عقليّة. والأولى مستلزمة للوضع والهيئة والشكل والتحيّز كما علم في غير هذا الموضع، وذلك على واجب الوجود محال، وأمّا الثانية فقد علمت أنّ النفس الإنسانية ما دامت في عالم الغربة إذا توجّهت لاقتناص أمر معقول من عالم الغيب فلا بدّ أن تستتبع القوّة الخيالية والوهميّة للاستعانة بهما على استثبات المعنى المعقول وضبطه فإذن يستحيل أن يشير العقل الإنسانيّ إلى شيء من المعاني الإلهية إلاّ بمشاركة من الوهم والخيال واستثباته حدّاً وكيفيّة يكون عليها لكن قد علمت تنزيهه تعالى عن الكيفيّات والصفات والحدود والهيئة فكان المشير إليه والمدّعى لإصابة حقيقته قاصداً في تلك الإشارة إلى ذي كيفيّة وحال ليس هو واجب الوجود فلم يكن قاصداً لواجب الوجود، وقد بيّنا فيما سلف امتناع الإشارة إليه.

الخامس: قوله: كل معروف بنفسه مصنوع. صغرى ضمير من الشكل الأول استغنى معها عن ذكر الدعوى لدلالتها عليها، وهي أنّه تعالى ليس معلوماً بنفسه: أي ليس معلوم الحقيقة بالكنه. وتقدير الكبرى: ولا شيء مما هو مصنوع بإله للعالم واجب الوجود لذاته دائماً. ينتج أنه لا شيء من المعلوم بنفسه بواجب الوجود وإله العالم دائماً، وينعكس لا شيء من واجب الوجود معلوم

بنفسه. أو من الشكل الثاني، ويكون تقدير الكبرى: ولا شيء مما هو واجب الوجود بمصنوع. وينتج النتيجة المذكورة، وينعكس. ويحتمل أن تكون المقدمة المذكورة هي الكبرى من الشكل الأوّل ولا حاجة إلى العكس المذكورة. ويحتمل أن يبيّن المطلوب المذكور بقياس استثنائي متصل وتكون المقدمة المذكورة تنبيهاً على ملازمة المتّصلة وبياناً لها وتقديرها: لو كان تعالى معلوماً بنفسه لكان مصنوعاً لأنّ كل معلوم بنفسه مصنوع لكن التالي باطل فالمقدم كذلك فأمّا بيان أنّ كل معلوم بنفسه مصنوع فهو أنّ كلّ معلوم بحقيقته فإنّما يعلم من جهة أجزائه، وكل ذي جزء فهو مركّب فكلّ مركّب فمحتاج إلى مركّب يركبه وصانع يصنعه فإذن كل معلوم الحقيقة فهو مصنوع، وأمّا بطلان التالي فلأنّه تعالى لو كان مصنوعاً لكان ممكناً مفتقراً إلى الغير فلا يكون واجب الوجود لذاته هذا خلف.

السادس: وكلّ قائم في سواه معلول كالمقدمة التي قبلها في أنّها يحتمل أن تكون صغرى قياس ضمير من الشكل الأوّل أو الثاني دلّ به على أنّه تعالى ليس بقائم في سواه: أي ليس لعرض فيحتاج إلى محلّ يقوم. تقديره أنّ كل قائم سواه فهو معلول، ولا شيء من المعلول بواجب الوجود أولاً شيء من واجب الوجود بمعلول فينتج أنّه لا شيء من القائم في سواه بواجب الوجود، وينعكس كنفسها لا شيء من واجب الوجود بقائم في سواه. ويحتمل أن يكون كبرى القياس ولا حاجة إلى عكس النتيجة، ويحتمل أن يكون ذكرها تنبيهاً على ملازمة قياس استثنائي: أي لو كان قائماً في سواه لكان معلولاً ولكن التالي باطل فالمقدم كذلك، وبيان الملازمة أنّ القائم بغيره مفتقر إلى محلّ وكل مفتقر إلى غيره ممكن وكل ممكن معلول في وجوده وعدمه، وأمّا بطلان التالي فلأنّه لو كان معلولاً لما كان واجب الوجود.

السابع: فاعل لا باضطراب آلة. أمّا أنه فاعل فلأنه موجد العالم، وأمّا أنه منزّه في فاعليته عن اضطراب الآلة فلتنزّهه عن الآلة التي هي من عوارض الأجسام، وقد سبق بيانه.

الثامن: مقدّر لا بحول فكرة، ومعنى كونه مقدّراً كونه معطياً لكلّ موجود المقدار الذي يستحقه من الكمال من الوجود ولواحق الوجود كالأجل والرزق ونحوهما على وفق القضاء الإلهي، وكون ذلك لا بحول فكرة لأنّ الفكر من لواحق النفوس البشرية بآلة بدنيّة، وقد تنزّه قدسه تعالى عن ذلك.

التاسع: كونه غنيّاً لا باستفادة، وكونه غنيّاً يعود إلى عدم حاجته في شيء ما إلى شيءٍ ما. إذ لو حصل له شيء باستفادة من خارج كسائر الأغنياء لزم كونه ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ذلك المستفاد موقوفاً على حصول سببه فكان ممكناً هذا خلف وهو تنزيه له عن الغنى المشهور المتعارف.

العاشر: كونه لا تصحبه الأوقات، وذلك أنّ الصحبة الحقيقية تستدعي المعيّة والمقارنة اللذين هما من لواحق الزمان الذي هو من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم المتأخر وجوده عن وجود بعض الملائكة المتأخر وجوده عن وجود الصانع الأول - جلّت عظمته - فكان وجود الزمان والوقت متأخراً عن وجودها تعالى بمراتب من الوجود فلم تصدق صحبة الأوقات لوجوده ولا كونها ظرفاً له وإلاّ لكان مفتقراً إلى وجود الزمان فكان يمتنع استغناؤه عنه لكنّه سابق عليه فوجب استغناؤه عنه. نعم قد يحكم الوهم بصحبة الزمان للمجردات ومعيّته لها حيث تقسمها إلى الزمانيّات. إذ كان لا تعقل المجردات إلا كذلك.

الحادي عشر: كونه لا ترفده الأدوات، وظاهر أنّ المفتقر إلى المعونة بأداة وغيرها ممكن لذاته فلا يكون واجب الوجود لأنّه تعالى خالق الأدوات فكان سابقاً عليها في تأثيره فكان غنيّاً عنها فيمتنع عليه الحاجة إلى الاستعانة بها.

الثاني عشر: سبق الأوقات كونه: أي وجوده. وقد مرّ بيانه.

الثالث عشر: والعدم وجوده: أي وسبق وجوده العدم، وبيانه أنّه تعالى مخالف لسائر الموجودات الممكنة فإنّها محدثة فيكون عدمها سابقاً على وجودها. ثمّ إن لم تكن كذلك، وجودها وعدمها بالنسبة إلى

ذواتها على سواء كما بيّن في مظانّه ولها من ذواتها أنّها لا تستحق وجوداً وعدماً لذواتها وذلك عدم سابق على وجودها. فعلى كل تقدير فوجودها يكون مسبوقاً بعدم. بخلاف الموجود الأوّل - جلّت عظمته - فإنّه لمّا كان واجب الوجود لذاته كان لما هو موجوداً فكان لحوق العدم له محالاً فكان وجوده سابقاً على العدم المعتبر لغيره من الممكنات، ولأنّ عدم العالم قبل وجوده كان مستنداً إلى عدم الداعي إلى إيجاده المستند إلى وجوده فكان وجوده تعالى سابقاً على عدم العالم. ثم تبيّن.

الرابع عشر: والابتداء أزله، وذلك أنّ الأزل عبارة عن عدم الأوليّة والابتداء وذلك أمر يلحق واجب الوجود لما هو هو بحسب الاعتبار العقليّ وهو ينافي لحوق الابتداء والأوليّة لوجوده تعالى فاستحال أن يكون له مُبدئ لامتناع اجتماع النقيضين بل سبق في الأزليّة ابتداء ما كان له ابتداء وجود من الممكنات إذ هو مُبدؤها ومصدرها.

الخامس عشر: بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وذلك أنّه تعالى لمّا خلق المشاعر وأوجدها وهو المراد بتشعيره لها امتنع أن يكون له مشعر وحاسّة وإلاّ لكان وجودها له إمّا من غيره وهو محال: أمّا أوّلاً فلأنّه مشعّر المشاعر وأمّا ثانياً فلأنّه يكون محتاجاً في كماله إلى غيره فهو ناقص بذاته هذا محال، وإمّا منه وهو أيضاً محال لأنّها إن كانت من الكمالات الوهميّة كان موجداً لها من حيث هو فاقد كمالاً فكان ناقصاً بذاته هذا محال، وإن لم يكن كمالاً كان إثباتها له نقصاً لأنّ الزيادة على الكمال نقصان فكان إيجادها لها مستلزماً لنقصانه وهو محال.

السادس عشر: وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له لأنّه لمّا كان خالق الأضداد فلو كان له ضدّ لكان خالقاً لنفسه ولضدّه وذلك محال، ولأنّك لمّا علمت أنّ المضادّة من باب المضاف وعلمت أنّ المضاف ينقسم إلى حقيقيّ وغير حقيقي فالحقيقي هو الذي لا تعقل مهيّته إلا بالقياس إلى غيره، وغير الحقيقي هو الذي له في ذاته مهيّة غير الإضافة تعرض لها الإضافة وكيف ما كان لا بدّ من وجود الغير حتى يوجد المضاف من حيث هو مضاف فيكون وجود أحد المضافين متعلّقاً بوجود الآخر فلو كان لواجب الوجود ضدّ لكان متعلّق الوجود بالغير فلم يكن واجب الوجود لذاته هذا خلف، ولأنّ الضدّين هما الأمران الثبوتيان اللذان يتعاقبان على محل واحد، ويمتنع اجتماعهما فيه فلو كان بينه وبين غيره مضادّة لكان محتاجاً إلى محلّ يعاقب ضدّه عليه، وقد ثبت أنّه تعالى غني من كل شيء.

السابع عشر: وبمقارنته ين الأشياء عرف أن لا قرين له، وبرهانه أمّا أوّلاً فلأنّه تعالى خلق المقترنات ومبدأ المقارنة بينها فلو كان تعالى مقارناً لغيره لكان خالقاً لنفسه ولقرينه وذلك محال، ولأنّ المقارنة من باب المضاف ويمتنع أن يلحقه. على ما تقدّم.

الثامن عشر: كونه تعالى مضاداً بين الأمور. المضادة تأكيد لقوله: ولمضادّته للأشياء. فمنها النور والظلمة وفي كونهما ضدّين خلاف بين العلماء مبني على كون الظلمة أمراً وجودياً أو عدمياً والأقرب أنّها أمر وجودي مضادّ للنور، وقال بعضهم: إنّها عبارة عن عدم الضوء عما من شأنه أن يضيء وليست على هذا القول عدماً صرفاً فجاز أن يطلق عليها أنّها ضدّ مجازاً، ومنها البياض والسواد والجمود والبلل: أي اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة. ومضادّته بينها خلقه لها على ما هي عليه من الطبائع المتضادة.

التاسع عشر: كونه مؤلّفاً بين متعادياتها في أمزجة المركّبات من العناصر الأربعة فإنّه جمع بينها على وجه الامتزاج حتى حصل بينها كيفيّة متوسطة على ما مرّ بيانه في الخطبة الأولى.

العشرون: كونه مقارناً بين متبايناتها.

الحادي والعشرون: كونه مقرّباً بين متباعداتها، ومرّ نظير هاتين الفقرتين في الخطبة الأولى.

الثاني والعشرون: كونه مفرّقاً بين متدانياتها: أي بالموت والفناء لهذه المركّبات في هذا العالم. وأشار إلى استناد فسادها إليه أيضاً إذ هو مسبّب الأسباب. وقد طاوعته عليه السلام المطابقة في هذه القرائن فالتأليف بإزاء المعاداة، والمقارنة بإزاء المباينة، والقرب بإزاء البعد، والتفريق بإزاء التداني.

الثالث والعشرون: كونه تعالى لا يشمله حدّ، والمراد: إمّا الحدّ الاصطلاحي وظاهر كونه تعالى لا حدّ له، إذ لا أجزاء له فلا تشمل وتحاط حقيقة بحدّ، وإما الحدّ اللغوي وهي النهاية التي تحيط بالجسم مثلاً فيقف عندها وينتهي بها وذلك من لواحق الكمّ المتصل والمنفصل وهما من الأعراض ولا شيء من واجب الوجود سبحانه بعرض أو محلّ له فامتنع أن يوصف بالنهاية. وأمّا وصفه باللانهاية فعلى سبيل سلب النهاية عنه مطلقاً بسلب معروضها كالمقدار مثلاً لا على سبيل العدول بمعنى أنّه معروض النهاية واللانهاية لكن ليست النهاية حاصلة له.

الرابع والعشرون: كونه لا يحسب بعدّ: أي لا يلحقه الحساب والعدّ فيدخل في جملة المحسوبات المعدودة، وذلك أنّ العدّ من لواحق الكمّ المنفصل الذي هو العدد كما هو معلوم في مظانّه والكمّ عرض، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بعرض ولا محلّ له، واستحال أن يكون معدوداً.

وقوله: وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها.

فالأدوات إشارة إلى الآلات البدنيّة والقوى الجسمانيّة، وقد ثبت أنّها لا يتعلّق إدراكها إلاّ بما كان جسماً أو جسمانياً على ما علم في موضعه فمعنى قوله: وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها. أي إنّما تدرك الأجسام والجسمانيّات ما هو مثلها من الأجسام والجسمانيّات، ومثل الشيء هو هو في النوع أو الجنس، ويحتمل أن يدخل في ذلك النوع الفكر لامتناع انفكاكه عن الوهم والخيال حين توجّهه إلى المعقولات لما بيّناه من حاجته إليهما في التصوير والشبح فكان لا يتعلّق إلاّ بمماثل ممكن، ولا يحيط إلاّ بما هو في صورة جسم أو جسمانيّ، وكذلك قوله: وتشير الأشياء إلى نظائرها.

وقوله: منعتها منذ القدميّة وحمتها قد الأزليّة وجنّبتها لولا التكملة.

الضمائر المتّصلة بالأفعال الثلاثة تعود إلى الآلات والأدوات وهي مفعولات أولى. والقدميّة والأزلية والتكملة مفعولات ثانية، ومنذ وقد ولولا محلّها الرفع بالفاعليّة، ومعنى الكلمة الأولى أنّ إطلاق لفظة - منذ - على الآلات والأدوات في مثل قولنا: هذه الآلات وجدت منذ كذا يمنع كونها قديمة. إذ كان وضعها لابتداء الزمان وكانت لإطلاقها عليها متعيّنة الابتداء ولا شيء من القديم بمتعيّن الابتداء فينتج أنّه لا شيء من هذه الأدوات والآلات بقديم، وكذلك إطلاق لفظة - قد - عليها يحميها ويمنعها من كونها أزلية إذ كانت - قد - تفيد تقريب الماضي من الحال فإطلاقها عليها كما في قولك: قد وجدت هذه الآلة وقت كذا. يحكم بقربها من الحال وعدم أزليّتها ولا شيء من الأزلي بقريب من الحال فلا شيء من هذه الآلات بأزلي. وكذلك إطلاق لفظ - لولا - على هذه الآلات تجنّبها التكملة. إذ كان وضع لولا دالاً على امتناع الشيء لوجود غيره فإطلاقها عليها في مثل قولك عند نظرك إلى بعض الآلات المستحسنة والخلقة العجيبة والأذهان المتوقّدة: ما أحسنها وأكملها لولا أنّ فيها كذا. فيدلّ بها على امتناع كمالها لوجود نقصان فيها فهي مانعة لها من الكمال المطلق، وإنّما أشار إلى حدوثها ونقصانها ليؤكّد كونها غير متعلّقة بتحديده سبحانه، وأنّها في أبعد بعيد من تقديره والإشارة إليه. إذ كان القديم الكامل في ذاته التامّ في صفاته أبعد الأشياء عن مناسبته المحدث الناقص في ذاته فكيف يمكن أن يدركه أو يليق أن يطمع في ذلك، وقال بعض الشارحين: المراد بالأدوات والآلات أهلها. وقد روي برفع القدميّة والأزليّة والتكملة على الفاعلية. والضمائر المتصلة بالأفعال مفعولات أولى، ومنذ وقد ولولا مفعولات ثانية، ويكون المعنى أنّ قدمه تعالى وأزليته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق منذ وقد ولولا عليه سبحانه لدلالتها على الحدوث والابتداء المنافيين لقدمه وأزليته وكماله. والرواية الأولى أولى لوجودها في نسخة الرضي رحمه الله بخطّه.

وقوله: بها تجلّى صانعها للعقول.

أي بوجود هذه الآلات ظهور وجوده تعالى للعقول. إذ كان وجودها مستلزماً لوجود صانعها بالضرورة، وإحكامها وإتقانها شاهد بعلمه وحكمته شهادة تضطر إلى الحكم بها العقول، وكذلك تخصيصها بما تخصّصت به من الكمالات شاهد بإرادته وكمال عنايته

فيكون ما شهد به وجودها من وجود صانعها أجلى وأوضح من أن يقع فيه شك أو تلحقه شبهة، ويتفاوت ذلك الظهور والتجلي بحسب تفاوت صقال النفوس وجلائها فمنها من يراه بعد، ومنها من يراه مع، ومنها من يراه قبل، ومنها من يراه لا شيء معه وأولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة أولئك هم المهتدون.

وقوله: وبها امتنع عن نظر العيون.

أي بإيجادها وخلقها بحيث تدرك بحاسّة البصر علم أنّه تعالى يمتنع أن يكون مرئيّاً مثلها، وبيانه أنّ تلك الآلات إنّما كانت متعلّقة حسّ البصر باعتبار أنّها ذات وضع وجهة ولون وغيره من شرائط الرؤية، ولمّا كانت هذه الأمور ممتنعة في حقّه تعالى لا جرم امتنع أن يكون محلاً لنظر العيون، وقال بعض الشارحين في بيان ذلك: إنّه لمّا كان بالمشاعر والحواسّ التي هي الآلات المشار إليها أكملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدليل على أنّه لا يصحّ رؤيته فإذن بخلق هذه الأدوات والآلات لنا عرفناه عقلاً وعرفناه أنّه يستحيل أن يعرف بغير العقل.

الخامس والعشرون: كونه تعالى منزّهاً أن يجري عليه السكون والحركة، وقد أشار عليه السلام إلى بيان امتناعهما عليه من أوجه:

أحدها: قوله: وكيف يجري عليه. إلى قوله: أحدثه، وهو استفهام على سبيل الاستنكار لجريان ما أجراه عليه وعود ما أبداه وأنشأه إليه وحدوث ما أحدثه فيه. وبيان بطلان ذلك أنّ الحركة والسكون من آثاره سبحانه في الأجسام وكلّ ما كان من آثاره يستحيل أن يجري عليه ويكون من صفاته: أمّا المقدّمة الأولى فظاهرة، وأمّا الثانية فلأنّ المؤثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر فذلك الأثر إمّا أن يكون معتبراً في صفات الكمال فيلزم أن يكون تعالى باعتبار ما هو موجد له، ومؤثّر فيه ناقصاً بذاته مستكملاً بذلك الأثر، والنقص عليه تعالى محال، وإن لم يكن معتبراً في صفات كماله فله الكمال المطلق بدون ذلك الأثر فكان إثباته صفة له نقصاً في حقّه لأنّ الزيادة على الكمال المطلق نقصان وهو عليه تعالى محال.

الثاني: لو كان كذلك للزم التغيّر في ذاته تعالى ولحوق الإمكان له، ودلّ على ذلك بقوله: إذن لتفاوتت ذاته: أي تغيّرت بطريان الحركة عليها تارة والسكون أخرى لأنّ الحركة والسكون من الحوادث المتغيّرة فيكون تعالى بقوله: لتعاقبهما محلاً للحوادث في التغيّرات فكان متغيّراً لكن التغيّر مستلزم للإمكان فالواجب لذاته ممكن لذاته هذا خلف.

الثالث: لو كان كذلك للزم حقيقته التجزية والتركيب لكنّ التالي باطل والمقدّم كذلك. أمّا الملازمة فلأنّ الحركة والسكون من عوارض الجسم الخاصّة به فلو يوصف تعالى بها لكان جسماً وكلّ جسم فهو مركّب قابل للتجزية، وأمّا بطلان التالي فلأنّ كل مركّب مفتقر إلى أجزائه وممكن فالواجب ممكن هذا خلف.

الرابع: أنّه لو كان كذلك للزم أن يبطل من الأزل معناه: أمّا على طريق المتكلّمين فظاهر لأنّ الحركة والسكون من خواصّ الأجسام الحادثة فكان الموصوف بهما حادثاً فلو كان تعالى موصوفاً بهما لبطل من الأزل معناه ولم يكن أزليّا. وأمّا على رأي الحكماء فلأنّه تعالى لكونه واجب الوجود لذاته يستحق الأزليّة، ولكون الممكن ممكناً لذاته فهو إنّما يستحقّ الأزليّة لا لذاته بل لأزليّة علّته وتمامها أزلاً حتى لو توقفت علّته على أمر ما في مؤثريّتها لزم حدوث الممكن ولم يكن له من ذاته إلا كونه لا يستحقّ لذاته وجوداً ولا عدماً وهو معنى الحدوث الذاتيّ عندهم. فعلى هذا لو كان تعالى قابلاً للحركة والسكون لكان جسماً ممكناً لذاته فكان مستحقّاً للحدوث الذاتيّ بذاته فلم يكن مستحقّاً للأزليّة بذاته فيبطل من الأزليّة معناه وهو استحقاقه الأزليّة بذاته لكن التالي باطل لما مرّ.

الخامس: أنّه لو كان كذلك للزم أن يكون له وراء إذ وجد له أمام، ووجه الملازمة أنّه لو جرت عليه الحركة لكان له أمام يتحرّك إليه وحينئذ يلزم أن يكون له وراء إذ له أمام لأنّهما إضافيّتان لا تنفكّ إحديهما عن الأخرى لكن ذلك محال لأنّ كل ذي وجهين فهو منقسم وكلّ منقسم فهو ممكن على ما مرّ.

السادس: لو كان كذلك لالتمس التمام إذ لزمه النقصان، وبيان الملازمة أنّ جريان الحركة عليه مستلزم

لتوجّهه بها إلى غاية إمّا جلب منفعة أو دفع مضرّة. إذ من لوازم حركات العقلاء ذلك، وعلى التقديرين فهما كمال مطلوب له لنقصان لازم لذاته لكنّ النقصان بالذات والاستكمال بالغير مستلزم الإمكان فالواجب ممكن. هذا خلف.

السابع: لو كان كذلك لقامت آية المصنوع فيه، وبيان الملازمة أنّه حينئذ يكون قادراً على الحركة والسكون فقدرته عليهما ليست من خلقه وإلاّ لافتقر إيجاده لها إلى قدرة أخرى سابقة عليها ولزم التسلسل وكان قادراً قبل أن كان قادراً وهما محالان فهي إذن من غيره فهو إذن مفتقر في كماله إلى غيره فهو مصنوع وفيه آيات الصنع وعلامات التاثير فليس هو بواجب الوجود. هذا خلف.

الثامن: لو كان كذلك لتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وذلك أن يكون مصنوعاً على ما مرّ وكل مصنوع فيستدلّ به على صانعه كما هو المشهور في الاستدلال بوجود العالم وحدوثه على وجود صانعه، ولأنّه يكون جسماً فيكون مصنوعاً فكان دليلاً على الصانع لكنّه هو الصانع الأوّل للكلّ وهو المدلول عليه فاستحال أن يكون دليلاً من جهة آثار الصنع فيه فاستحال أن يكون قابلاً للحركة والسكون فاستحال أن يجريا عليه. فانظر إلى هذه النفس الملكيّة له عليه السلام كيف يفيض عنها هذه الأسرار الإلهية فيضاً. من غير تقدّم مزاولة الصنائع العقلية وممارسة البحث في هذه الدقائق الإلهية. وأما قوله: وخرج بسلطان الامتناع. إلى قوله: غيره. فقد يسبق إلى الوهم عطفه على الأدلة المذكورة، وظاهر أنه ليس كذلك؛ بل هو عطف على قوله: امتنع. أي بها امتنع عن نظر العيون وخرج ذلك الامتناع: أي امتناع أن يكون مثلها في كونها مرئيّة للعيون ومحلاً للنظر إليها عن أن يؤثّر في غيره عن المرئيّات، وهي الأجسام والجسمانيّات، وظاهر أنّه تعالى لمّا امتنع عن نظر العيون إذ لم يكن جسماً ولا قائماً به فخرج بسلطان استحقاق ذلك الامتناع عن أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره من الأجسام والجسمانيّات وعن قبول ذلك. وقال بعض الشارحين: إنّه عطف على قوله: تجلّى: أي بها تجلّى للعقول وخرج بسلطان الامتناع كونه مثلاً لها: أي يكون واجب الوجود ممتنع العدم عن أن يكون ممكناً فيقبل أثر غيره كما يقبل الممكنات.

السادس والعشرون: كونه تعالى لا يحول: اي لا ينتقل ويتغيّر من حال إلى حال لما علمت من استلزام التغيّر للإمكان الممتنع عليه.

السابع والعشرون: وكذلك لا يزول.

الثامن والعشرون: وكذلك لا يجوز عليه الأفول والغيبة بعد الظهور لما يستلزم من التغيّر أيضاً.

التاسع والعشرون: كونه لم يلد فيكون مولوداً ولم يولد فيكون محدوداً. فالجملة الأولى تشتمل على دعوى والإشارة إلى البرهان، وهو في صورة قياس استثنائيّ تقديره: لو كان له ولد لكان مولوداً وحينئذ تكون الجملة الثانية وهي قوله: ولم يولد. في قوّة استثناء نقيض التالي، وقوله: فيكون محدوداً في قوّة قياس استثنائيّ يدل على بطلان التالي، وتقديره: لأنّه لو كان مولوداً لكان محدوداً. واعلم أنّه يحتمل أن يريد بقوله: مولوداً. ما هو المتعارف فيكون قد سلك في ذلك مسلك المعتاد الظاهر في بادىء النظر بحسب الاستقراء أنّ كل ما له ولد فإنه يكون مولوداً وإن لم يجب ذلك في العقل، وقد علمت أنّ الاستقراء ممّا يستعمل في الخطابة ويحتجّ به فيكون مقنعاً. إذ كانت غايتها الاقناع، ويحتمل أن يريد به ما هو أعمّ من المفهوم المتعارف أعني التولّد عن آخر مثله من نوعه فإنّ ذلك غير واجب كما في أصول أنواع الحيوان الحادثة، وحينئذ يكون بيان الملازمة الأولى على الاحتمال الأوّل ظاهر، وأمّا على تقدير الثاني فنقول في بيانها: إنّ مفهوم الولد هو الذي يتولّد وينفصل عن آخر مثله من نوعه لكن أشخاص النوع الواحد لا يتعيّن في الوجود مشخصّاً إلا بواسطة المادّة وعلاقتها على ما علم ذلك في مظانّه من الحكمة، وكل ما كان ماديّاً وله علاقة بالمادّة كان متولّداً عن غيره وهو مادّته وصورته وأسباب وجوده وتركيبه، وأمّا بيان الملازمة الثانية في برهان بطلان التالي فلأنّه لمّا لزم من كونه ذا ولد أن يكون مشاركاً في النوع لغيره ثبت أنّه متولّد من مادة وصورة ومركّب عنهما وعن

جزءين بأحدهما يشارك نوعه وبالآخر ينفصل. فهو إذن منته إلى حدود وهي أجزاؤه التي يقف عندها وينتهي في التحليل إليها. فثبت أنّه تعالى لو كان مولوداً لكان محدوداً لأنّه لو كان مولوداً لكان محاطاً ومحدوداً بالمحل المتولّد منه لكن كلّ محدود على الاعتبارين مركّب وكلّ مركّب ممكن. هذا خلف. فإذن ليس هو بمحدود فليس هو بمولود فليس هو بذي ولد، وإن شئت أن تجعل المقدمتين في قوّة قياس حمليّ مركّب من شرطيّتين متصلتين والشركة بينهما في جزء تام، وتقديره: لو كان تعالى ذا ولد لكان مولوداً ولو كان مولوداً لكان محدوداً، والنتيجة لو كان ذا ولد لكان محدوداً. ثم يستنتج من استثناء نقيض تالي هذه النتيجة عن المطلوب. وبيان الملازمتين ونقيض تالي النتيجة ما سبق.

الثلاثون: كونه جلّ عن اتّخاذ الأبناء: أي علا وتقدّس عن ذلك، وهو تأكيد لما سبق. وبيانه أنّه يستلزم لحوق مرتبته بمراتب الأجسام التي هي في معرض الزوال وقبول التغيّر والاضمحلال.

الحادي والثلاثون: كونه طهر عن ملامسة النساء، وذلك لما تستلزمه الملامسة من الجسميّة والتركيب الذي تنزّه قدسه عنه، وطهارته تعود إلى تقدّسه عن الموادّ وعلائقها من الملامسة والمماسّة وغيرها.

الثاني والثلاثون: كونه لا تناله الأوهام فتقدّره: أي لو نالته الأوهام لقدّرته لكنّ التالي باطل فالمقدّم كذلك. بيان الملازمة: أنّك علمت أنّ الوهم إنّما يدرك المعاني المتعلّقة بالمادة ولا يرتفع إدراكه عن المعاني المتعلّقة بالمحسوسات، وشأنه فيما يدركه أن يستعمل المتخيّلة في تقديره بمقدار مخصوص وكميّة معيّنة وهيئة معيّنة ويحكم بأنّها مبلغه ونهايته. فلو أدركته الأوهام لقدّرته بمقدار معيّن وفي محل معيّن. فأمّا بطلان التالي فلأنّ المقدار محدود ومركّب ومحتاج إلى المادّة والتعلّق بالغير، وقد سبق بيان امتناعه.

الثالث والثلاثون: ولا يتوهّمه الفطن فتصوره. وفطن العقول: سرعة حركتها في تحصيل الوسط في المطالب، وإنّما قال: لا يتوهّمه الفطن لأنّ القوّة العقليّة عند توجّهها في تحصيل المطالب العقليّة المجرّدة لا بدّ لها من استتباع الوهم والمتخيّلة والاستعانة بها في استثباتها بالشبح والتصوير بصورة يحطّها إلى الخيال على ما علم ذلك في موضعه. ولذلك ما كانت رؤيتها لجبرئيل في صورة دحية الكلبيّ. وكذلك المعاني المدركة للنفوس في النوم من الحوادث فإنّها لا يتمكّن من استثباتها عند اقتناصها من عالم التجريد وبقائها إلى حال اليقظة في صورة خياليّة مشاهدة كما علمت ذلك في صدر الكتاب. فظهر إذن معنى قوله: لا يتوهّمه الفطن فتصوّره: أي لو أدركته لكان ذلك بمشاركة الوهم فكان يلزم أن يصوّره بصورة خياليّة لكنّه تعالى منزّه عن الصورة فكان منزّهاً عن إدراكها.

الرابع والثلاثون: لا تدركه الحواس فتحسّه. وأراد لو أدركته الحواسّ لصدق عليه أنّها تحسّه ولزم كونه محسوساً، وبيان ذلك أنّ الإدراك وإن كان أعمّ من الإحساس لكن بإضافته إلى الحواسّ صار مساوياً وملازماً له.

فإن قلت: إنّه لا معنى للإحساس إلا. إدراك الحواسّ فيكون كأنّه قال: لا تحسّه الحواسّ فتحسه. وذلك تكرار غير مفيد.

قلت: ليس مقصوده أنّه يلزم من معنى الإدراك معنى الإحساس بل مراده أنّ الذي يصدق عليه أنّه إدراك الحواسّ هو المسمّى بالإحساس فيكون التقدير أنّ الحواس لو أدركته لصدق أنّها أحسّته اي لصدق هذا الاسم ولزم من صدقه عليها أن يصدق عليه كونه محسوساً، وإنّما ألزم ذلك كون الإحساس أشهر وأبين في الاستحالة عليه تعالى من الإدراك فجعله كالأوسط في نفي إدراكها عنه لشنعته، وأمّا بيان أنّه تعالى ليس بمحسوس فلأنّه تعالى ليس بجسم ولا جسمانيّ وكلّ محسوس فإمّا جسم أو جسمانيّ فينتج أنّه تعالى ليس بمحسوس.

الخامس والثلاثون: كونه تعالى لا تلمسه الأيدي فتمسّه: أي لو صدق عليها أنّها تلمسه لصدق أنّها تمسّه وهو ظاهر. إذ كان المسّ أعم من اللمس، وكلاهما ممتنعان عليه لاستلزامهما الجسميّة الممتنعة عليه تعالى.

السادس والثلاثون: كونه لا يتغيّر بحال: أي أبداً والبتّة وعلى وجه من الوجوه.

السابع والثلاثون: ولا يتبدل في الأحوال: أي لا ينتقل من حال إلى حال. وقد سبق بيان ذلك.

الثامن والثلاثون: كونه لا تبليه الليالي والأيّام: أمّا أوّلاً فلأنّه تعالى ليس بزمانيّ يدخل تحت تصريف الزمان حتّى تبليه، وأمّا ثانياً فلأنّ لحوق الإبلاء له تغيّر في ذاته. وقد علمت امتناع التغيّر عليه، وأمّا ثالثاً فلأنّ البالي من الأمور الماديّة. وكلّ ذي مادّة فهو مركّب على ما مرّ.

التاسع والثلاثون: كونه لا يغيّره الضياء والظلام، وذلك لامتناع التغيّر عليه.

الأربعون: كونه لا يوصف بشيء من الأجزاء لأنّ كل ذي جزء مفتقر إلى جزء الذي هو غيره فكان مفتقراً إلى غيره فكان ممكناً في ذاته. هذا خلف.

الحادي والأربعون: ولا بالجوارح والأعضاء لما يلزم من الجسميّة والتركيب والتجزية.

الثاني والأربعون: ولا بعرض من الأعراض. أقول: الأعراض تنحصر في تسعة أجناس كما هو معلوم في مظانّه، وذلك أن كل الموجودات سوى الله تعالى مقسوم بعشرة أقسام واحد منها جوهر والتسعة الباقية أعراض، ويظهر بتقسيم هكذا: كلّ ما عداه سبحانه فوجوده زايد على مهيّته بالبراهين القاطعة فمهيّته إمّا أن تكون بحيث إذا وجدت كان وجودها لا في موضوع، وهذا المعنيّ بالجوهر، أو يكون وجودها في موضوع وهو المعنيّ بالعرض. ونعني بالموضوع المحل الذي لا يتقوّم بما يحلّ فيه بل تبقى حقيقته كما كانت قبل حلوله كالجسم الذي يحلّه السواد. ثمّ العرض ينقسم إلى أقسامه التسعة وهي الكم والكيف والمضاف وأين ومتى والوضع والملك وأن يفعل وأن ينفعل. وتسمّى هذه الأقسام مع القسم العاشر وهو الجوهر المقولات العشر والأجناس العالية، ولنرسم كل واحد منها ليظهر أنّه تعالى منزّه عن الوصف بشيء منها. فنقول، أمّا الجوهر فقد عرفت رسمه، وأمّا الكمّ فرسم بأنّه العرض الذي يقبل لذاته المساواة واللا مساواة والتجزّي، ويقبل الجوهر بسببه هذه الصفات، وأمّا الكيف فقد عرفته وعرفت اقسامه، وأمّا الإضافة فهي حالة للجوهر تعرض بسبب كون غيره في مقابلته ولا يعقل وجودها إلاّ بالقياس إلى ذلك الغير كالأبوة والبنوّة وقد عرفتها وعرفت أيضاً أقسامها من قبل، وأمّا الأين فهي حالة وهيئة تعرض للجسم بسبب نسبته إلى المكان وكونه فيه وليس مجرّد النسبة إليه، وأمّا متى فهي حالة تعرض للشيء بسبب نسبته إلى زمانه وكونه فيه أو في طرفه وهو الآن، وأمّا الوضع فهو هيئة تعرض للجسم بسبب نسبة أجزائه بعضها إلى بعض نسبة يختلف الأجزاء لأجلها بالقياس إلى سائر الجهات كالقيام والقعود، وأمّا الملك فقد عرفت بأنّه نسبة إلى ملاصق ينقل بانتقال ما هو منسوب إليه كالتسلّخ والتقمّص، وأمّا أن يفعل فهو كون الشيء بحيث يؤثّر في غيره ما دام مؤثّراً فيه كالتقطيع حالة التأثير، وأمّا أن ينفعل وهو كون الشيء متأثراً عن غيره ما دام متأثّراً كالقطيع.

إذا عرفت ذلك فنقول: أمّا البرهان الجمليّ على امتناع اتّصافه تعالى بهذه الأعراض واستحالة كونه موضوعاً لها فما سبق بيانه عليه السلام بقوله: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه، وكذلك ما بيّناه من استلزام وصفه بشيء حصول التغيّر في ذاته وامتناع التغيّر عليه، وأمّا التفصيليّ فأمّا امتناع وصفه بالكمّ فلأنّه لو صدق عليه الكمّ لصدق عليه قبول المساواة والمقارنة والتجزّي وكلّما قبل التجزية كان متكثّراً وقابلاً للكثرة وقد ثبت أنّه تعالى واحد من كل وجه فيمتنع عليه الكمّ، وأمّا امتناع وصفه بالكيف فقد علمته في أوّل الخطبة، وكذلك امتناع وصفه بالمضاف، وأمّا وصفه بالأين فلأنّه يستلزم أن يكون متحيّزاً محويّاً لكن كونه كذلك محال فكونه في المكان محال، وأمّا وصفه بمتى فقد عرفته أنّه تعالى ليس بزمانيّ فاستحال أن يوصف بالنسبة إلى زمان يكون له، وأمّا وصفه بالوضع فلأن الوضع من خواصّ المحيّزات فإنّ الجسم المتناهي يحيط به سطح لا محالة أو سطوح ينتهي عندها فيكتنف حدّا وحدوداً ونهايات ويكون له شكل وهيئة لكنّه تعالى ليس بمتحيّز فاستحال أن يكون ذا وضع، وأمّا الملك فلأنّه أيضاً من خواصّ

الأجسام المحاط بها إذ ما ليس بجسم ولا يحاط به بشيء ينتقل بانتقاله وقد تنزّه تعالى عن الجسميّة وأن يحيط به شيء، وأمّا أن يفعل فلأنّ الفعل لا يصدق عليه إلا بطريق الإبداع ومحض الاختراع والإبداع هو أن يكون للشيء وجود من غيره متعلّق به فقط دون توسّط مادّة أو آلة أو زمان والفعل أعمّ من الإبداع إذ المفهوم من الفعل هو أن يوجد بسبب وجوده شيء آخر سواء كان ذلك لسبب حركة من الفاعل أو آلة أو مادّة أو زمان أو قصد اختياري فيقال للنجار: إنّه فاعل وللسرير إنّه فعل، ويقال: لا بتوسط شيء من ذلك بل بطبع وتولّد كالشمس فإنها فاعلة للنور والنور فعلها فالفعل إذن ينقسم إلى ما يكون بقصد واختيار وإلى ما لا يكون كذلك بل يصدر عنه لأنّه ذات يفيض عنها ذلك الشيء. ثمّ إن كان عالماً بفيضان الشيء عنه سميّت تلك الإفاضة جوداً والفاعل بذلك الاعتبار جواداً وإن لم يكن عالماً به تسمّى تلك الإفاضة طبعاً وتولّداً كفيضان النور عن الشمس فالفاعل إمّا أن يفعل بالقصد والغرض أو بالجود المحض أو بالطبع المحض، والباري تعالى لا يجوز أن يفعل لغرض لأنّ الغرض والقصد إن كان أولى به لذاته كانت ذاته مستكملة بتلك الأولية ناقصة بعدمها وهذا محال، وإن لم تكن أولى به كان ترجيحاً من غير مرجّح. ثمّ لا يجوز أن يكون أولى بالنظر إلى العبد لأنّ تلك الأوليّة وعدمها إن كانا بالنسبة إليه على سواء فلا ترجيح أو لا على سواء فيعود حديث النقصان والكمال فكان تعالى منزّهاً عن الفعل بهذا الوجه بل إنّما يصدر منه على وجه الإبداع بجوده المحض. وفي هذه المسألة بحث طويل ليس هذا موضعه، وأمّا وصفه بأن ينفعل فلأنّ الانفعال يستلزم التغيّر في ذاته المستلزم للإمكان وقد تنزّه قدسه عنه.

الثالث والأربعون: ولا بالغيريّة والأبعاض: أي ليس له أبعاض يغاير بعضها بعضاً لأنّ ذلك مستلزم للتجزية والتركيب الممتنعين عليه وامتناع اللازم يستلزم امتناع الملزوم.

الرابع والأربعون: ولا يقال له حدّ ولا نهاية لأنّ الحدود والنهايات من عوارض الأجسام ذوات الأوضاع ولواحقها. على ما سبق.

الخامس والأربعون: وكذلك ولا انقطاع ولا غاية: أي لا انقطاع لوجوده ولا غاية له، وذلك لأنّ الانقطاع عند الغايات من لواحق الأمور الزمانيّة المحدثة الكائنة الفاسدة، وقد بيّنا امتناع كونه تعالى زمانياً وكونه مادياً، ولأنّه تعالى واجب الوجود فيستحيل أن يلحقه العدم أو يتناهى وجوده وينقطع عند غاية.

السادس والأربعون: ولا أنّ الأشياء تحويه فتقلّه أو تهويه. روي ما بعد الفاء منصوباً وعليه نسخة الرضي (رحمه الله) وذلك بإضمار أن عقيبها في جواب النفي، وروي مرفوعاً على العطف. والمعنى أنّه ليس بذي مكان يحويه فيرتفع بارتفاعه وينخفض بانخفاضه لما أنّ ذلك من لواحق الجسميّة، وكذلك أو أنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدله.

السابع والأربعون: ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج لأنّ الدخول والخروج من لواحق الأجسام أيضاً فما ليس بجسم ولا جسمانيّ فهما مسلوبان عنه سلباً مطلقاً لا السلب المقابل للملكة.

الثامن والأربعون: كونه يخبر بلا لسان ولهوات لأنّ اللسان واللهوات من لواحق الأجسام الحيوانيّة المنزّه قدسه عنها، والسلب هٰهنا كالذي قبله. والإخبار هو النوع الأكثر من الكلام ولذلك خصّه هنا بالذكر، وزعمت الأشعريّة أنّ الخبر هو أصل الكلام كلّه وإليه يرجع أنواعه كالأمر والنهي والاستفهام والتمنيّ والترجيّ وغيرها. ثمّ اختلف المتكلّمون في حقيقة الكلام فاتّفقت المعتزلة على أنّه المركّب من الحرف والصوت، وجمهور الأشعريّة على أنّ وراء الكلام اللسانيّ معنى قائم بالنفس يعبّر عنه بالكلام النفسانيّ ولفظ الكلام حقيقة فيه وفي اللسانيّ مجاز، ومنهم من جعله حقيقة في اللسانيّ مجاز في النفسانيّ، ومنهم من جعله مشتركاً فيهما فكون الله تعالى متكلّماً يعود إلى خلقه الكلام في جسم الشيء عند المعتزلة، وعند الأشعرية أنّه معنى قائم بذاته وهذه الأصوات والحروف المسموعة دلالات عليه. وسيفسّر عليه السلام معنى كلامه تعالى.

التاسع والأربعون: يسمع بلا خروق وأدوات: أي ليس سمعه بأداة هي الأذن والصماخات كما يسمع

الإنسان لتنزهه تعالى عن الآلات الجسمانيّة، وقد كان هذا البرهان كافياً في منع إطلاق السميع عليه تعالى لكن لمّا ورد الإذن الشرعيّ بإطلاقه عليه ولم يمكن حمله على ظاهره وحقيقته وجب صرفه إلى مجازه وهو العلم بالمسموعات إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب. إذ كان السمع من أسباب العلم فإذن كونه تعالى سميعاً يعود إلى علمه بالمسموعات.

الخمسون: يقول ولا يلفظ. وإطلاق لفظ القول عليه كإطلاق الكلام. وأمّا التلّفظ فلمّا كان عبارة عن إخراج الحرف من آلة النطق وهي اللسان والشفة لا جرم لم يصدق في حقّه لعدم الآلة هنالك وكان الشارع لم يأذن في إطلاقه عليه تعالى لما أنّ دلالته على الآلة المذكورة أقوى من الكلام والقول.

الحادي والخمسون: كونه يحفظ ولا يتحفّظ. وحفظه يعود إلى علمه بالأشياء، ولمّا كان المعروف من العادة أنّ الحفظ يكون بسبب التحفّظ وكان ذلك في حقّه تعالى محالاً لاستلزامه الآلات الجسمانيّة لا جرم احترز عنه. وقال بعض الشارحين: إنّما يريد بالحفظ أنّه يحفظ عباده ويحرسهم ولا يتحفّظ منهم: أي لا يحتاج إلى حراسة نفسه منهم. وهذا بعيد الإرادة هنا.

الثاني والخمسون: يريد ولا يضمر فإرادته تعالى تعود إلى اعتبار كونه تعالى عالماً بما في الفعل من الحكمة والمصلحة الذي هو مبدأ فعله، ولا فرق في حقّه تعالى بين الإرادة والداعي، ولمّا كان المتعارف من الإرادة أنّها ميل القلب نحو ما يتصوّر كونه نافعاً ولذيذاً وذلك الميل من المضمرات المستكنّة في القلب لا جرم كان إطلاق الإرادة في حقّه يستلزم تصوّر الإضمار ولمّا تنزّه سبحانه عن الإضمار لا جرم احترز عنه في إطلاق المريد عليه تعالى فكان ذلك الاحتراز كالقرينة الصارفة للفظ عن حقيقته إلى مجازه وهو الاعتبار المذكور.

الثالث والخمسون: كونه يحبّ ويرضى من غير رقّة. فالمحبّة منه تعالى إرادة هي مبدأ فعل ما فمحبّته للعبد إرادته لثوابه وتكميله وما هو خير له، وأمّا من العبد فهي إرادة تقوى وتضعف بحسب تصوّر المنفعة واللذّة واعتقاد كمالها ونقصانها، ومحبّته لله هي إرادة طاعته، وأمّا الرضا فقريب من المحبّة ويشبه أن يكون أعمّ منها أنّ كلّ محبّ راض عمّا أحبّه ولا ينعكس. فرضاه تعالى عن العبد يعود إلى عمله تعالى بموافقته لأمره وطاعته له، والمفهوم منه في حقّ العبد هو سكون نفسه بالنسبة إلى موافقة وملائمة عند تصوّر كونه موافقاً وملائماً، ولمّا كان الرضا والمحبّة من الإنسان لغيره يستلزم الرقّة القلبيّة له والإنفعال النفسانيّ عن تصوّر المعنى الذي لأجله حصلت المحبّة والميل إليه والداعي إلى الرضا عنه وكان الباري سبحانه منزّهاً عن الرقّة والانفعال لتنزّهه عن قوابلها لا جرم احترز بقوله: من غير رقّة.

الرابع والخمسون: ويبغض ويغضب من غير مشقّة. فالبغض منه تعالى للعبد يضادّ محبّته له ويعود إلى كراهته لثوابه، وكراهته يعود إلى علمه بعدم استحقاقه للثواب وأنّه لا مصلحة في ثوابه ويلزمها إرادة إهانته وتعذيبه، والبغض من العبد هو كراهته للغير وميل نفسه عنه لتصوّر كونه مضرّاً ومؤلماً ويلزم ذلك النفرة الطبعيّة منه وثوران القوّة الغضبيّة عليه وإرادة إهانته. وأمّا الغضب فيعود من الله تعالى إلى علمه بمخالفة أوامره وعدم طاعته له، والمفهوم منه في حقّ العبد ثوران النفس وحركة قوّتها الغضبيّة عن تصوّر المؤذي والضارّ لإرادة مقاومته ورفعه. ولمّا كان البغض والغضب يستلزمان ثوران دم القلب وكان ذا النفس يستلزم مشقّة وكلفة لا جرم احترز عنها في إطلاق لفظ البغض والغضب عليه فقال: من غير مشقّة. واعلم أنّ إطلاق لفظ المحبّة والرضا على ما ذكرناه من الاعتبارات في حقّه مجاز. إذ كانت حقيقة الرضا هي سكون النفس الإنسانيّة والمحبّة ميلها إلى النافع فإطلاقهما على العلم إطلاق لاسم اللازم على الملزوم، وكذلك إطلاق لفظي البغض والغضب في حقّه تعالى على علمه المخصوص.

الخامس والخمسون: يقول لما أراد كونه كن فيكون. فإرادته لكونه هو عمله بما في وجوده من الحكمة، وقوله: كن. إشارة إلى حكم قدرته الأزليّة عليه بالإيجاد ووجوب الصدور عن تمام مؤثريّته، وقوله: فيكون. إشارة إلى وجوده. ودلّ على اللزوم

وعدم التأخر والتراخي بالفاء المقتضية للتعقيب بلا مهلة.

السادس والخمسون: لا بصوت يقرع: أي ليس بذي حاسّة للسمع فيقرعها الصوت، وذلك أنّ الصوت كيفيّة يحدث في الهواء عن قلع أو قرع وقوعه لما يصل إليه من الصماخ أو جسم آخر هو وقع عليه بشدّة وعنف، وذلك حال تعرض الأجسام فلو كان له تعالى آلة سمع لكان جسماً لكن التالي باطل فالمقدّم كذلك.

السابع والخمسون: ولا بنداء يسمع: أي لمّا بيّن في القرينة الأولى أنّه لا سمع له يقرع بصوت بيّن في الثانية أنّه لا يخرج منه الصوت لأنّ النداء صوت مخصوص والصوت مستلزم المصوّت وهو جسم لما مرّ من استلزام الصوت القرع أو القلع المستلزمين الجسميّة.

وقوله: وإنّما كلامه تعالى. إلى قوله: كايناً.

فاعلم أنّ هذا الكلام ممّا استفادت المعتزلة منه كون كلامه تعالى محدثاً، وفيه تصريح بغير ما ذهبوا إليه. فمعنى قوله: فعل منه أنشأه: أي أوجده في لسان النبيّ. فأمّا قوله: ومثله. فأراد صوّره في لسان النبيّ وسوّى مثاله في ذهنه. وقال بعض الشارحين: مثله لجبرئيل في اللوح المحفوظ حتّى بلّغه محمّداً صلى الله عليه وآله وسائر الرسل عليهم السلام ودلّ بقوله: لم يكن من قبل ذلك كائناً. على أنّه محدث مسبوق الوجود بالعدم، وأشار بقوله: ولو كان. إلى قوله: ثانياً، إلى برهان حدوثه وهو قياس استثنائيّ وتقريره: لو كان كلامه تعالى قديماً لكان كلامه إلهاً ثانياً لكن التالي باطل فالمقدم كذلك. فأمّا بيان الملازمة فلأنّه لو كان قديماً لكان إمّا واجب الوجود وإمّا ممكن الوجود. والتالي باطل لأنّه لو كان ممكناً مع أنّه موجود في الأزل لكان وجوده مفتقراً إلى مؤثّر فذلك المؤثر إن كان غير ذاته فهو محال لوجهين:

أحدهما: أنّه يلزم افتقاره تعالى في تحصيل صفته إلى غيره فهو محال.

الثاني: أنّه يلزم أن يكون في الأزل مع الله غيره يكون مستنداً إليه في حصول تلك الصفة فيكون إلهاً ثانياً بل هو أولى بالإلهيّة هذا محال. وإن كان المؤثر في كلامه ذاته فهو محال أيضاً لأنّ المؤثّر واجب التقدم بالوجود على الأثر فالكلام إمّا أن يكون من صفات كماله أو لا يكون فإن كان الأول فتأثيره فيه إن كان - وكلّ كمال له حاصلاً له بالفعل - فقد كان وصف الكلام حاصلاً له قبل أن كان حاصلاً هذا خلف. وإن كان تأثيره في حال ما هو خال عن صفة الكلام فقد كان خالياً عن صفة كماله فكان ناقصاً بذاته وهذا محال، وأمّا إن لم يكن الكلام من صفات كماله كان إثباته له في الأزل إثباتاً لصفة زائدة على الكمال والزيادة على الكمال نقصان. فتعيّن أنّه لو كان قديماً لكان واجب الوجود لذاته فكان إلهاً ثانياً، وأمّا بطلان التالي فلمّا بيّنا من كونه تعالى واحداً. فثبت بهذا الدليل الواضح أنّه لا يجوز أن يكون كلامه قديماً.

الثامن والخمسون: لا يقال. إلى قوله: لم يكن. إشارة إلى أنّه ليس بمحدث لأنّ كون الشيء بعد أن لم يكن هو معنى حدوثه.

وقوله: فتجرى عليه الصفات المحدثات.

فالفاء في جواب النفي لتقدير الشرط: أي لو صدق عليه أنّه محدث للحقته الصفات المحدثة وإلاّ لكانت صفاته قديمة فكان الموصوف بها قديماً. هذا خلف. والتقدير لكن لحوق الصفات المحدثة له باطل فكونه محدثاً باطل، وأشار إلى بطلان التالي بقوله: ولا يكون بينها وبينه فصل. إلى قوله: والبديع. والتقدير أنّه لو لحقته الصفات المحدثات وجرت عليه على تقدير كونه محدثاً لكانت ذاته مساوية لها في الحدوث المستلزم للإمكان المستلزم للحاجة إلى الصانع فلم يكن بينها وبينه فصل في ذلك، ولا له عليها فضل لاشتراكه معها في الحاجة.

وقوله: فيستوي. إلى قوله: المبتدع.

إشارة إلى ما يلزم تلك المساواة من المحال. إذ كان استواء الصانع ومصنوعه ظاهر الفساد. وأصل البديع من الفعل ما لم يسبق فاعله إلى مثله، وسمّى الفعل الحسن بديعاً لمشابهته ما لم يسبق إليه في كونه محلّ التعجب منه، والمبدع هو فاعل البديع، والمصدر الإبداع. وقد عرفت معناه فيما قبل. وفي نسخة الرضي المبدع بفتح الدال، وهو البديع بالمعنى الذي ذكرناه، ويكون مراده

بالبديع الصانع وهو فعيل بمعنى فاعل كقوله تعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] وإذا ثبت أنّه لا تجري عليه الأمور المحدثة ولواحق الحدوث من سبق العدم والتغيّر والإمكان والحاجة إلى المؤثّر وغير ذلك وإلاّ يلزم المحال المذكور أوّلاً. والنسخة الأولى بخط الرضي رحمه الله.

التاسع والخمسون: كونه تعالى خلق الخلق. إلى قوله: غيره، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى، وهو تنزيه له عن صفات الصانعين من البشر فإنّ صنائعهم تحذو حذو أمثلة سبقت من غيرهم أو حصلت في أذهانهم.

الستون: كونه لم يستعن على خلق ما خلق بأحد من خلقه وإلاّ لكان ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ما كان هو مفتقراً إليه وهو محال.

الحادي والستون: كونه أنشأ الأرض فأمسكها: أي أوجدها فقامت في حيّزها بمساك قدرته، ولمّا كان شأن من تمسك شيئاً ويحفظه من سائر الفاعلين لا يخلو عن كلفة ومشقّة في حفظه واشتغال بحفظه عن غيره من الأفعال نزّه حفظه تعالى لها عمّا يلزم حفظ غيره لما يحفظه من تلك الكلفة والاشتغال بحفظها.

الثاني والستون: كونه أرساها: أي أثبتها في حيّزها على غير قرار اعتمدت عليه فأمسكها، وكذلك رفعه لها بغير دعائم؛ بل بحسب قدرته التامّة.

الثالث والستون: كونه حصّنها من الأود والاعوجاج: أي من الميل إلى أحد جوانب العالم عن المركز الحقيقيّ وذلك ممّا ثبت في موضعه من الحكمة.

الرابع والستون: كونه منعها عن التهافت والانفراج: أي جعلها كرة واحدة ثابتة في حيّزها، ومنعها أن تتساقط قطعاً أو ينفرج بعضها عن بعض.

الخامس والستون: كونه أرسى أوتادها: أي أثبتها فيها. وأوتادها: جبالها. وقد بيّنا في الخطبة الأولى معنى كونها أوتاداً لها.

السادس والستون: كونه ضرب أعدادها. وأراد بأعدادها ما أحاط بها من الجبال أو التي يحجز بين بقاعها وبلادها.

السابع والستون: كون استفاض عيونها. واستفاض بمعنى أفاض كما قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

الثامن والستون: كونه خدّ أوديتها: أي شقّها وبيّن جبالها وتلالها.

وقوله: فلم يهن ما بناه ولا ضعف ما قوّاه.

بعد تعديد ما عدد من الآثار العظيمة إشارة إلى كمال هذه المخلوقات وقوّتها ليبيّن عظمة الله سبحانه بالقياس إليها.

التاسع والستون: كونه هو الظاهر عليها سلطانه وعظمته. فأشار بقوله: هو. إلى هويته التي هي محض الوجود الحقّ الواجب، ولمّا لم يكن تعريف تلك الهوية إلاّ بالاعتبارات الخارجة عنها إشار إلى تعريفها بكونه ظاهراً عليها: أي غالباً قاهراً لها، ولمّا كان الظهور يحتمل الظهور الحسيّ لا جرم قيّده بسلطانه وعظمته. إذ كان ظهوره عليها ليس ظهوراً مكانيّاً حسيّاً بل بمجرد ملكه واستيلاء قدرته وعظمة سلطانه.

السبعون: قوله: وهو الباطن لها: أي الداخل في بواطنها بعلمه، ولمّا كان البطون يحتمل الحسّي قيّده بعلمه تنزيهاً له عن سوء الأفهام وأحكام الأوهام. والضمائر في قوله: عليها ولها يعود إلى الأرض وما فيها ممّا بناه وسوّاه.

الحادي والسبعون: كونه عالياً على كلّ شيء: أي من الأرض وسائر مخلوقاته بها بجلاله وعزّته: فجلاله وعزّته بالنسبة إليها هو اعتبار كونه تعالى منزّهاً عن كل ما لها من الصفات المحدثة والكمالات المستفادة من الغير المستلزمة للنقصان الذاتيّ، ولمّا كانت هذه الاعتبارات التي تنزّه عنها في حضيض النقصان كان هو باعتبار تنزيهه عنها في أوج الكمال الأعلى فكان عالياً عليها بذلك الاعتبار ولأنّه تعالى خالقها وموجدها فعلوّه عليها بجلال سلطان، وعزّته عن خضوع الحاجة وذلّتها.

الثاني والسبعون: كونه لا يعجزه شيء منها طلبه. إلى قوله: فيسبقه، وذلك لكونه تعالى واجب الوجود تامّ العلم والقدرة لا نقصان فيه باعتبار، وكون كلّ ما عداه مفتقراً في وجوده وجميع أحوال وجوده إليه فلا جرم لم

يتصوّر أن يعجزه شيء طلبه أو يمتنع عليه شيء بقوّة فيغلبه، أو يفوته سريع بحركته فيسبقه لما يستلزمه ذلك العجز عن الحاجة والإمكان الممتنعين عليه.

الثالث والسبعون: وكذلك كونه لا يحتاج إلى ذوي المال فيرزقه لما يستلزمه الحاجة من الإمكان. وكلّ ذلك نفي الأحوال البشريّة عنه.

الرابع والسبعون: قوله: خضعت له الأشياء. إلى قوله: لعظمته فخضوعها وذلّها يعود إلى دخولها في ذلّ الإمكان تحت سلطانه وانقيادها في أسر الحاجة إلى كمال قدرته، وبذلك الاعتبار لم يستطع الهرب من سلطانه للزوم الحاجة لذواتها إليه واستناد كمالاتها إلى وجوده. فهو النافع لها بإفاضة كمالاتها والضارّ لها بمنع ذلك.

فإن قلت: إنّ النفع لا يهرب منه ولا يمتنع فكيف ذكره هنا.

قلت: المراد منه سلب قدرته عليها على تقدير امتناعها منه، وهذا كما تقول لمن عجز عنك: إنّ فلاناً لا يقدر على نفع ولا ضرّ، ولأنّ النفع جاز أن يمتنع منه لأنفة واستغناء بالغير، ولا شيء من الموجودات يمتنع من سلطانه ونفعه باستغناء عنه وأنفة ونحوها.

الخامس والسبعون: كونه لا كفء له فيكافئه: أي ليس له مثل فيقابله ويفعل بإزاء فعله، وقد علمت تنزيهه تعالى عن المثل، وكذلك لا تظهير له فيساويه.

السادس والسبعون: هو المفني لها. إلى قوله: كمفقودها. عرّف هويته باعتبار كونه معدماً للأشياء بعد وجودها، وقد ورد في القرآن الكريم إشارات إلى ذلك كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ومعلوم أنّ الإعادة إنّما تكون بعد العدم، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ١-٢] وأمثالها. وقد أجمعت الأنبياء على ذلك، وعلم التصريح من دين محمد صلى الله عليه وآله بأنّه سيكون، وهو الذي عليه جمهور المتكلّمين والخلاف في جواز خراب العالم مع الحكماء فإنّهم اتفقوا على أنّ الأجرام العلويّة والعقول والنفوس الملكيّة، وكذلك هيولى العالم العنصريّ وأجرام العناصر، وما ثبت قدمه امتنع عدمه لا لذاته بل لدوام علّة وجوده، وما عدا ذلك فهو حادث وليس كلّه ممّا يعاد بالاتّفاق؛ بل الخلاف في المعاد الإنساني البدني فأنكره بعضهم. والإسلاميون منهم قالوا: ليس للعقل في الحكم بوجوده أو لا وجوده مجال؛ بل إنّما بالسمع. هذا مع اتفاقهم على القول بامتناع إعادة المعدوم فليكن على ما ذهب إليه أبو الحسين البصري من المعتزلة وهو قوله: إنّ الأجزاء تتشذب وتتفرق بحيث تخرج عن حدّ الانتفاع بها ولا تدخل في العدم الصرف. لكن في ذلك نظر لأنّ بدن زيد مثلاً ليس عبارة عن تلك الأجزاء المتشذّبة والمتفرّقة فقط فإنّ القول بذلك مكابرة للعقل بل عنها مع سائر الأعراض والتأليفات المخصوصة والأوضاع فإذا شذب البدن وتفرّق فلا بدّ أن يعدم تلك الأعراض وتفنى وحينئذ يلزم فناء البدن من حيث هو ذلك البدن فعند الإعادة إن أعيد بعينه وجب إعادة تلك الأعراض بعينها فلزمت إعادة المعدوم، وإن لم يعد بعينه عاد غيره فيكون الثواب والعقاب على غيره وذلك مكذّب للقرآن الكريم في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] اللهم إلاّ أن يقال: إنّ الإنسان المثاب والمعاقب إنّما هو النفس الناطقة وهذا البدن كالآلة فإذا عدم لم يلزم عوده بعينه بل جاز عود مثله. لكن هذا إنّما يستقيم على مذهب الحكماء القائلين بالنفس الناطقة، وأمّا على رأي أبي الحسن البصري فلا، ومذهب أكثر المحقّقين من علماء الإسلام يؤول إلى هذا القول.

وقوله: وليس فناء الدنيا. إلى قوله: اختراعها.

رفع لما يعرض لبعض الأذهان من التعجّب بفناء هذا العالم بعد ابتداعه وخلقه بالتنبيه على حال إنشائه واختراعه: أي ليس صيرورة ما خلق إلى العدم بقدرته بعد الوجود بأعجب من صيرورته إلى الوجود بعد العدم عنها. إذ كانت كلّها ممكنة قابلة للوجود والعدم لذواتها؛ بل صيرورتها إلى الوجود المشتمل على أعاجيب الخلقة وأسرار الحكمة التي لا يهتدى لها ولا يقدر على شيء منها أعجب وأغرب من عدمها الذي لا كلفة فيه.

وقوله: وكيف لو اجتمع. إلى قوله: إفنائها.

تأكيد لنفي كون عدمها بعد وجودها أعجب من إيجادها بالتنبيه على عظم مخلوقاته تعالى ومكوّناته وما اشتملت عليه من أسرار الحكمة المنسوبة إلى قدرته. والمعنى وكيف يكون عدمها أعجب وفي إيجاده أضعف حيوان وأصغره ممّا خلق كالبعوضة من العجائب والغرائب والإعجاز ما يعجز عن تكوينه وإحداثه قدرة كل من تنسب إليه القدرة، وتقصر عن معرفة الطريق إلى إيجادها ألباب الألبّاء، ويتحيّر في كيفيّة خلقها حكمة الحكماء، ويقف دون علم ذلك ويتناهى عقول العقلاء، وترجع خاسئة حسيرة مقهورة معترفة بالعجز عن الاطلاع على كنه صنعه في إنشائها مقرّة بالضعف عن إفنائها.

فإن قلت: كيف تقرّ العقول بالضعف عن إفناء البعوضة مع إمكان ذلك وسهولته؟.

قلت: إنّ العبد إذا نظر إلى نفسه بالنسبة إلى قدرة الصانع الأوّل - جلّت عظمته - وجد نفسه عاجزة عن كل شيء إلاّ بإذن إلهيّ، وأنّه ليس له إلاّ الإعداد لحدوث ما ينسب إليه من الآثار. فأما نفس وجود الأثر فمن واهب العقل - عزّ سلطانه - فالعبد العاقل لما قلنا يعترف بالضعف عن إيجاد البعوضة وإعدامها، وما هو أيسر من ذلك عند مقايسة نفسه إلى موجده وواهب كماله كما عرفت ذلك في موضعه، وأيضاً فإنّ الله سبحانه كما خلق للعبد قدرة على الفعل والترك والإيذاء والإضرار بغيره كذلك خلق للبعوضة قدرة على الامتناع والهرب من ضرره بالطيران وغيره بل أن تؤذيه ولا يتمكّن من دفعها عن نفسه فكيف يستسهل العاقل إفناءها من غير معونة صانعها له عليه.

وقوله: وإنّه سبحانه يعود. إلى قوله: الأمور.

إشارة إلى كونه تعالى باقياً أبداً فيبقى بعد فناء الأشياء وحده لا شيء معه منها كما كان قبل وجوده كذلك بريئاً عن لحوق الوقت والمكان والحيّز والزمان.

وقوله: يعود بعد.

إشعار بتغيّر من حالة سبقت إلى حالة لحقت، وهما يعودان إلى ما يعتبره أذهاننا له من حالة تقدّمه على وجودها وحالة تأخّره عنها بعد عدمها، وهما اعتباران ذهنيّان يلحقانه بالقياس إلى مخلوقاته.

وقوله: عدمت عند ذلك. إلى قوله: الساعات.

ظاهر لأنّ كل ذلك أجزاء للزمان الذي هو من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم فيلزم من عدم الأجسام عدم عوارضه.

وقوله: فلا شيء. إلى قوله: الأمور.

أي لا شيء يبقى بعد فناء العالم إلاّ هو، وذكر الواحد لبقائه كذلك، والقهّار باعتبار كونه قاهراً لها بالعدم والفناء، وكونه إليه مصير جميع الأمور فمعنى مصيرها إليه أخذه لها بعد هبته لوجودها.

وقوله: بلا قدرة. إلى قوله: فناؤها.

إشارة إلى أنّه لا قدرة لشيء منها على إيجاده نفسه، ولا على الامتناع من لحوق الفناء له.

وقوله: ولو قدرت. إلى قوله: بقائها.

استدلال بقياس شرطي متّصل على عدم قدرة شيء منها على الامتناع من الفناء، وإنّما خصّ الحكم بالاستدلال دون الأوّل لكون الأوّل ضروريّاً. وبيان الملازمة أنّ الفناء مهروب منه لكل موجود فإمكان الامتناع منه مستلزم للداعي إلى الامتناع المستلزم للامتناع منه المستلزم للبقاء، وأمّا بطلان التالي فلمّا ثبت أنّه تعالى يفنيها فلزم أن لا يكون لها قدرة على الامتناع.

وقوله: لم يتكاءده. إلى قوله: خلقه.

ظاهر لأنّ المشقّة في الفعل وثقله إنّما يعرض لذي القدرة الضعيفة من الحيوان لنقصانها. وقدرته تعالى بريّة عن أنحاء النقصان لاستلزامه الإمكان والحاجة إلى الغير.

وقوله: ولم يكوّنها. إلى آخره.

إشارة إلى تعديد وجوه الأعراض المتعارفة للفاعلين في إيجاد ما يوجدونه وإعدامه. ونفي تلك الأعراض عن فعله في إيجاده ما أوجده وإعدامه ما أعدمه من الأشياء: أمّا الأعراض المتعلّقة بالإيجاد فهو إمّا جلب منفعة كتشديد السلطان وجمع الأموال والقينات وتكثير الجند

والعدّة والازدياد في الملك بأخذ الحصون والقلاع ومكابرة الشريك في الملك كما يكابر الإنسان غيره ممّن يشاركه في الأموال والأولاد أو رفع مضرّة كالتخوّف من العدم والزوال فخلقها ليتحصّن بها من ذلك أو خوف النقصان فخلقها ليستكمل بها أو خوف الضعف عن مثل تكاثره فخلقها ليستعين بها عليه أو خوف ضدّ يقاومه فأوجدها ليختزل منه ويدفع مضرّته أو لوحشة كانت له قبل إيجادها فأوجد ليدفع ضرر استيحاشه بالأنس بها، وكذلك الأعراض المتعلّقة بعدمها: إمّا إلى دفع المضرّة كرفع السأم اللاحق له من تصريفها وتدبيرها والثقل في شيء منها عليه والملال من طول بقائها فيدعوه ذلك إلى افنائها، أو جلب المنفعة كالراحة الواصلة إليه فإن جلب المنفعة ودفع المضرّة من لواحق الامكان الذي تنزّه قدسه عنه.

وقوله: لكنّه سبحانه. إلى قوله: لقدرته.

فتدبيرها بلطفه إشارة إلى إيجاده لها على وجه الحكمة والنظام الأتمّ الأكمل الذي ليس في الإمكان أن يكون جملتها على أتمّ منه ولا ألطف، وإمساكه لها بأمره قيامها في الوجود بحكم سلطانه، وإتقانها بقدرته إحكامها على وفق منفعتها وإن كان عن قدرته فعلى وفق علمه بوجوه الحكمة. كلّ ذلك بمحض الجود من غير غرض من الأغراض المذكورة تعود إليه.

وقوله: ثمّ يعيدها بعد الفناء.

تصريح بإعادة الأشياء بعد فنائها. وفناؤها إمّا عدمها كما هو مذهب من جوّز إعادة المعدوم، أو تشذّبها وتفرّقها وخروجها عن حدّ الانتفاع بها كما هو مذهب أبي الحسين البصريّ من المعتزلة.

وقوله: من غير حاجة. إلى آخره.

ذكر وجوه الأغراض الصالحة في الإعادة، والإشارة إلى نفيها عنه تعالى، وهو أيضاً كالحاجة إليها والإستعانة ببعضها على بعض، أو لانصراف من حال وحشة إلى حال استيناس. أو انصراف من حال جهل وعمى فيه إلى حال علم وبصيرة، وكذلك من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة ومن ذلّ وضعة إلى عزّ وقدرة. وقد عرفت أنّ كل هذه الأغراض من باب دفع المضرّة المنزّه قدسه تعالى عنها، وقد بيّنا فيما سلف البرهان الاجماليّ على تنزيهه تعالى في أفعاله من الأغراض بل إيجاده لما يوجد لمحض الجود الإلهي الذي لا بخل فيه ولا منع من جهته. فهو الجواد المطلق والملك المطلق الذي يفيد ما ينبغي لا لغرض ويوجد ما يوجد لا لفائدة تعود إليه ولا غرض. وهو مذهب جمهور أهل السنة والفلاسفة، والخلاف فيه مع المعتزلة.

فإن قلت: ظاهر كلامه عليه السلام مشعر بأنّ الدنيا كما تفنى تعاد، والذي وردت به الشريعة، وفيه الخلاف بين جمهور المتكلّمين والحكماء هو إعادة الأبدان البشريّة.

قلت: الضمير في قوله: تعيدها. سواء كان راجعاً إلى الدنيا أو إلى الأمور في قوله: مصير جميع الأمور. فإنّه مهمل كما يرجع إلى الكلّ جاز أن يرجع إلى البعض وهي الأبدان البشرية. قال بعضهم: إنّ للسالكين في هذا الكلام تأويلاً عقلياً وإن جزموا بكون مراده عليه السلام هو ما ذكرناه من الظاهر فإنّهم قالوا يحتمل أن يشار بقوله: وإنّه يعود سبحانه. إلى قوله: الأمور. إلى حال العارف إذا حقّ له الوصول التامّ حتى غاب عن نفسه فلحظ جناب الحقّ سبحانه بعد حذف كلّ قيد دنيوي أو أخروي عن درجة الاعتبار فإنّه صحّ كما يفنى هو عن كل شيء كذلك يفنى عنه كل شيء حتى نفسه فلا يبقى بعد فنائها عنه إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام فكما كانت الأشياء عند اعتبار ذواتها غير مستحقّة للوجود ولواحقه كذلك يكون عند حذفها عن درجة الاعتبار وملاحظة جلال الواحد القهّار ليس إلاّ هو.

وقوله: ثمّ يعيدها بعد الفناء.

فدلّ عودها إلى اعتبار أذهان العارفين لها عند عروجهم من الجناب المقدّس إلى الجنبة السافلة واشتغالهم بمصالح أبدانهم. والكلّ منسوب إلى تصريف قدرته تعالى بحسب استعداد الأذهان لقبولها وحذفها. وقد علمت من بيانها لهذه الخطبة صدق كلام السيّد الرضي رضي الله عنه في مدحها حيث قال: وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه غيرها. فإنّها بالغة في علم التوحيد كاملة في علم التنزيه والتقديس لجلال الواحد الحقّ - جلّت عظمته - وبالله التوفيق والعصمة.

٢٣٠ - ومن خطبة له عليه السلام

يختص بذكر الملاحم:

أَلا بِأَبِي وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وَصَلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ.

ذَاكَ حَيْثُ تَكُون ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي. ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هٰذَا الْعَنَاءَ وَأَبْعَدَ هٰذَا الرَّجَاءَ!

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هٰذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ. وَلا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ.

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

أقول: أحرجه: ألجاه وضيّق عليه، وتصدّعوا: تفرّقوا. وغبّ كل شيء: عاقبته. وفور النار: تلهبها وشدّة حرّها. وأمطت عن كذا ومطت: تنحيّت عنه. والسنن: القصد. والاقتحام: الدخول في الشيء بشدّة.

فقوله: بأبي وأمي. تسمّى البأباة، والجار والمجرور في تقدير خبر المبتدأ وهو قوله: هم. وقد سبقت الإشارة إلى مثله في قوله مخاطباً للرسول صلى الله عليه وآله عند توليه غسله، والضمير إشارة إلى أولياء الله فيما يستقبل من الزمان بالنسبة إلى زمانه عليه السلام وقالت الشيعة: إنّه أراد الأئمة من ولده عليهم السلام.

وقوله: أسماؤهم في السماء معروفة.

إشارة إلى علوّ درجتهم في الملأ الأعلى وإثبات أسمائهم وصفاتهم الفاضلة في ديوان الصدّيقين، وفي الأرض مجهولون بين أهل الدنيا الذين يرون أنّه ليس وراءها كمال. ومن سيماء الصالحين بمجرى العادة القشف والإعراض عن الدنيا وذلك يستلزم قلّة مخالطة أهلها ومكاثرتهم وهو مستلزم لجهلهم بهم وعدم معرفتهم لهم. ثمّ شرع في التنبيه على الأحوال الرديئة المستقبلة المضادّة لمصالح العالم التي يجمعها سوء التدبّر وتفرّق الكلمة وهي إدبار ما أقبل من أمورهم وانقطاع ما اتصل من وصلهم وأسبابهم.

والوصل: جمع وصلة وهي الانتظامات الحاصلة لأسبابهم في المعاش والمعاد بوجود الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره. ثمّ استعمال صغارهم وأراذلهم فإنّه من جملة أسباب الفساد، ومن أسباب صلاح العالم استعمال أهل الشرف وأكابر الناس على الأعمال، ومن كلامه عليه السلام في ذلك قوله لمالك الأشتر في عهده إليه يشير إلى العمّال: وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدّمة فإنّهم أكرم أخلاقاً وأصحّ أعراضاً وأقلّ في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً. وصغار الناس مظنّة أضداد الأمور المذكورة وبسببها يكون خراب العالم وفساد نظامه. ثمّ أشار إلى أوقاتها وعلامات وقوعها:

فمنها: حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون وأقلّ عنده مشقّة من المشقّة الحاصلة في اكتساب درهم حلال. وذلك لأنّ المكاسب حينئذ تكون قد اختلطت وغلب الحرام الحلال فيها، وأراد بقوله: من الدرهم: أي من كسب الدرهم فحذف المضاف.

ومنها: حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي، وذلك لأنّ أكثر من يعطي حينئذ ويتصدّق يكون ماله مشوباً بالحرام فيقلّ أجره، ولأنّ أكثرهم يعطي ويقصد بإعطائه الرئاء والسمعة أو لهوى نفسه أو لخطرة من خطرات وسواسه من غير خلوص لله سبحانه في

ذلك، وأمّا المعطى فقد يكون فقيراً مستحقاً للزكاة ذا عيال لا يلزمه أن يبحث عن أصل ما يعطاه فإذا أخذه لسدّ خلّته كان في ذلك أعظم أجراً ممن يعطيه، أو لأنّ المعطي قد يكون أكثر ما ينفق ماله في غير طاعة له في الوجوه المحظورة فإذا أخذ الفقير منه على وجه الصدقة فوّت على المعطي صرف ماله في تلك الوجوه فكان للفقير بذلك المنّة عليه. إذ كان سبباً في منعه عن صرف ماله فيما لا ينبغي فكان أعظم أجراً منه.

ومنها: حيث يسكرون من غير شراب. فاستعار وصف السكر لهم باعتبار غفلتهم عمّا ينبغي لهم اللازمة عن استغراقهم في اللذّات الحاضرة كما يلزم السكر الغفلة عن المصالح، وقرينة الاستعارة قوله: من غير شراب بل من النعمة فإنّ السكر حقيقة إنّما يكون عن الشراب.

ومنها: حيث يحلفون من غير اضطرار إلى اليمين بل غفلة عن عظمة الله سبحانه حتى يتوصّلوا باليمين به إلى أخسّ المطالب.

ومنها: حيث يكذبون من غير إحراج: أي من غير أن يلجئهم إلى الكذب ضرورة، بل يصير الكذب ملكة وخلقاً.

ومنها: إذا عضّكم البلاء، واستعار لفظ العضّ لإيلام البلاء الذي ينزل بقلوبهم وشبّهه بعض القتب لغارب البعير، ووجه المشابهة هو شدّة الإيلام وهذا الشبه هو وجه استعارة. العضّ للبلاء.

وقوله: ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء.

كلام منقطع عمّا قبله هو عادة الرضي رحمه الله في التقاط الوصول وإلحاق بعضها ببعض. ووجدت هذا الفصل بخطّه في حاشية نسخة الأصل. وظاهره يقتضي أنّه ذكر فيما كان متصلاً بالكلام ما ينال شيعته من البؤس والقنوط ومشقّة انتظار الفرج. وأنّ قوله: ما أطول. إلى قوله: الرجاء. كلام شيعته. فعلى هذا يكون المعنى أنّهم يصابون بالبلاء حتى يقولوا: ما أطول التعب الذي نحن فيه وما أبعد رجاءنا للخلاص منه بقيام القائم المنتظر. ويحتمل أن يكون الكلام متصلاً، ويكون قوله: ما أطول هذا العناء. كلاماً مستأنفاً في معنى التوبيخ لهم على إعراضهم عنه وإقبالهم على الدنيا وإتعابهم أنفسهم في طلبها. والتنفير لهم عنها بذكر طول العناء في طلبهم وبعد الرجاء لما يرجى منها: أي ما أطول هذا العناء اللاحق لكم في طلب الدنيا وما أبعد هذا الرجاء الذي يرجونه منها، وظاهر أنّ متاعب الدنيا لطالبها أطول المتاعب ومطالبها لراحتها أبعد المطالب كما قال عليه السلام من قبل: من ساعاها فاتته وكما قال الرسول صلى الله عليه وآله: من جعل الدنيا أكبر همه فرّق الله عليه همّه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته منها إلاّ ما كتب له. وهذا الكلام يقتضي أنّ المتجرّد لطلب الدنيا لا يزال ملاحظاً لفقره مستحضراً له فهو حامل له على التعب في تحصيلها والكدح لها، ويحتمل أن يريد بالعناء المشار إليه عناؤه في جذبهم إلى الله ودعوته لهم إلى الآخرة في أكثر أوقاته فإنّهم لا يرجعون إلى دعوته ولا يتّفقون على كلمته، وظاهر أنّه عناء طويل وتعب عظيم. وبالرجاء المشار إليه رجاؤه لصلاحهم واستبعده ثمّ أيد بهم. واستعار لفظ الأزمّة للآراء الفاسدة المتّبعة والأهواء القائدة لهم إلى المآثم. ووجه المشابهة كونها قائدة لهم كما تقود الأزمّة الجمال، ولفظ الألقاء للإعراض عن تلك الآراء الباطلة وترك العمل لها. ولفظ الظهور لأنفسهم، ولفظ الأثقال للمعقول من أثقال الذنوب، ووجه المشابهة الأولى كونها حاملة لأثقال الخطايا والأوزار كما تحمل الظهور الأثقال المحسوسة كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ووجه الاستعارة الثانية أنّ الملكات الرديئة الحاصلة من اقتراف المآثم تثقل النفوس عن النهوض إلى حظائر القدس ومنازل الأبرار كما تثقّل الأثقال المحسوسة الظهور الحاملة لها. ولمّا استعار لفظ الإلقاء والأزمّة اللذين من شأنهما أن يكونا باليد وفي اليد رشّح بذكر الأيدي فقال: من أيديكم. والحاصل أنّه أمرهم بترك الآراء الفاسدة ونهاهم عن متابعتها، ونبّه على وجوب تركها بأنّهم إذا ألزموها وعملوا على وفقها قادتهم إلى حمل أثقال الخطايا. ثمّ أردف ذلك بالنهي عن التفرّق عنه بعد تقديم النهي عن اتّباع الآراء الفاسدة المستلزمة

للهلاك تنبيهاً على أنّ آراءهم في التصدّع عنه من تلك الآراء غير المحمودة.

وقوله: فتذمّوا غبّ فعالكم.

تنفير عن التفرّق عنه بذكر ما يلزمه من العاقبة المذمومة، وهي غلبة العدوّ عليهم واستيلائه على أحوالهم وتعوّضهم عن عزّتهم ذلاً، ورخائهم ونعمتهم بؤساً ونقمةً. والفاء هي التي في جواب النهي: أي إن تصدّعتم عن سلطانكم ذممتم غبّ فعالكم. ثمّ أردف النهي عن التفرّق عنه بالنهي عن اقتحام ما استقبلوا من الفتنة المنتظرة تشبيهاً على أنّ التفرّق عنه سبب للدخول في نار الفتنة، وتنفيراً عن مخالفته بكونها اقتحاماً لنار الفتنة وتسرّعاً إلى دخولها، ولفظ النار مستعار لأحوال الفتنة من الحروب والقتل والظلم، ووجه المشابهة كونها مستلزمة للأذى كالنار. ووصف الاقتحام لمخالفته والتفرّق عنه، ووجه الاستعارة إسراع تفرّقهم عنه إلى الوقوع في الفتنة كإسراع المقتحم. ورشّح باستعارة النار بالفور مبالغة في التنفير. ثمّ أمرهم بالنهي عن قصدها وطريقها وتخلية قصد السبيل لها: أي خلوّها لقصد سبيلها ولا تتعرضوا لها وتقتحموها فتكونوا حطباً لنارها.

ثمّ أقسم ليهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم. وذلك ظاهر الصدق، وهو من كراماته عليه السلام وإخباره عمّا سيكون فإنّ الدائرة في دولة بني أميّة كانت على من لزم دينه واشتغل بعبادة ربّه دون من وافقهم على أباطيلهم وأجاب دعوتهم وتقرّب إلى قلوبهم بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وظلم العباد كما تقف عليه من أخبارهم في قتل كثير من أولياء الله وذريّة رسوله صلى الله عليه وآله وصحابته رضي الله عنهم وتقريبهم للمنافقين وتوليتهم الأعمال. واعلم أنّه ليس مراده أنّه يهلك فيها كل مؤمن ولا يسلم فيها إلاّ غير مسلم؛ بل القضيّتان مهملتان. والغرض منهما أن أكثر من يهلك فيها المؤمنون وأكثر من سلم فيها المنافقون ومن ليس له قوّة في الإسلام. ولفظ اللهب ترشيح لاستعارة لفظ النار. ثمّ مثّل نفسه بينهم بالسراج في الظلمة. وأشار إلى وجه مشابهته للسراج بقوله: فيستضيء به من ولجها. وتقديره أنّ الطالبين للهداية منه عليه السلام والمتّبعين له يستضيئون بنور علومه وهدايته إلى الطريق الأرشد كما يهتدي السالكون في الظلمة بالسراج. وهذا التمثيل يستلزم تشبيه أحوالهم بالظلمة ونسبتهم بالمغمورين فيها لولا وجوده عليه السلام فيهم.

وقد علمت في المقدّمات حقيقة التمثيل. ثمّ لمّا قدّم فضيلته في التمثيل المذكور أردفه أمرهم بسماع قوله، وأن يحضروا قلوبهم لفهم ما بلغت إليهم من الحكمة والموعظة الحسنة كما هو المعلوم من حال الخطيب. واستعار لفظ الآذان هنا للقلوب. ووجه الاستعارة أنّ الأذن لمّا كانت مدركاً للأقوال أشبهتها أفهام القلوب المدركة لأقواله، وطلب إحضارها إذ كان هو المنتفع به دون إحضار الآذان المحسوسة. وظاهر أنّ إحضار العقول وتوجّهها إلى الفكر في المسموع مستلزم لحصول الفهم. وبالله التوفيق.

٢٣١ - ومن خطبة له عليه السلام

في الوصية بأمور

أُوصِيكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - بِتَقْوَى اللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلائِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ لأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ، وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ. حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا، لا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً، وَلا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً. أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ. فَسَابِقُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ

فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

أقول: أعورتُم: أبديتم عوارتكم. والعورة: السوءة وكلّ ما يستحيى منه. والفصل يشتمل على الوصيّة بأمور:

أولها: تقوى الله تعالى فإنّها العمدة الكبرى فيما يوصي به، ثمّ بكثرة حمده تعالى على آلائه إليهم ونعمائه عليهم وبلائه لديهم. وقد علمت معنى بلائه وأنّه يكون بالخير والشرّ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وأردف ذلك بتقرير تخصيصهم بنعمته تعالى عليهم وتذكيرهم برحمته. والرحمة كما يراد بها صفة الله تعالى كذلك يراد بها آثاره الحسنة الخيريّة كما هو مراده هنا في حقّ عباده. وأتى بلفظ كم للتكثير. ثمّ أردفه بذكر ضروب الرحمة والنعمة فمنها ستره عليهم حيث مجاهرتهم له بالمعصية التي ينبغي أن يستحيوا منها وموافقتهم لها بمرأى منه ومسمع. ومنها إمهالهم أن يبادرهم بالنقمة ويعاجلهم بالعقوبة حيث تعرّضوا لأخذه بارتكاب مناهيه ومخالفة أوامره.

الثاني: ممّا أوصاهم به ذكر الموت وإقلال الغفلة عنه. وذلك لما يستلزم ذكره من الانزجار عن المعاصي، وذكر المعاد إلى الله سبحانه ووعده ووعيده، والرغبة عن الدنيا وتنقيص لذّاتها كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: أكثروا من ذكر هادم اللذّات. وإنّما استلزم ذكره ذلك لكونه ممّا يساعد العقل فيه الوهم على ضرورة وقوعه مع مساعدته على ما فيه من المشقّة الشاقّة. ثمّ استفهمهم عن غفلتهم عنه وطمعهم فيه مع كونه لا يغفلهم ولا يمهلهم، استفهام توبيخ على ذلك. ولأجل ما فيه من شدّة الاعتبار قال: فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم. إلى قوله: فصرعتهم. وفي هذا القول زيادة موعظة على ذكر الموت وهي شرح أحوال من عاينوه من الموتى. وذكر منها أحوالاً:

أحدها: كيفيّة حملهم إلى قبورهم غير راكبين مع كونهم في صورة ركوب منفور عنه.

الثانية: إنزالهم إلى القبور على غير عادة النزول المتعارف المقصود فكأنّهم في تلك الحال مع طول مددهم في الدنيا وعمارتهم لها وركونهم إليها لم يكونوا لها عمّاراً وكأن الآخرة لم تزل داراً. ووجه التشبيه الأوّل انقطاعهم عنها بالكليّة وعدم خيرهم فيها فأشبهوا لذلك من لم يكن فيها. ووجه الثاني كون الآخرة هي مستقرّهم الدائم الثابت الذي لا معدل عنه فأشبهت في ذلك المنزل الذي لم يزل له داراً.

الثالثة: ايحاشهم ما كانوا يوطنون من منازل الدنيا ومسالكها.

الرابعة: ايطانهم ما كانوا يوحشون من القبور التي هي أوّل منازل الآخرة.

الخامسة: اشتغالهم بما فارقوا. وذلك أنّ النفوس الراكنة إلى الدنيا العاشقة لها المقبلة على الاشتغال بلذّاتها يتمكّن في جواهرها ذلك العشق لها وتصير محبّتها ملكة وخلقاً فيحصل لها بعد المفارقة لما أحبّته من العذاب به والشقا الأشقى بالنزوع إليه وعدم التمكّن من الحصول عليه أعظم شغل وأقوى شاغل وأصعب بلاء هائل بل تذهل فيه كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع فيه كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد.

السادسة: إضاعتهم ما إليه انتقلوا وهي دار الآخرة. ومعنى إضاعتهم لها تركهم الأسباب الموصلة إلى ثوابها والمبعّدة من عقابها.

السابعة: كونهم لا يستطيعون الانتقال عمّا حصلوا عليه من الأفعال القبيحة التي ألزمتهم العذاب وأكسبت نفوسهم ملكات السوء. وذلك ظاهر. إذ الانتقال عن ذلك لا يمكن إلا في دار العمل وهي الدنيا.

الثامنة: وكذلك لا من حسن يستطيعون ازدياداً: أي من الأعمال الحسنة الموجبة للملكات الخيريّة والثواب الدائم كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] الآية.

التاسعة: أنّهم أنسوا بالدنيا حتى غرّتهم.

العاشرة: كونهم وثقوا بها حتى صرعتهم. والسبب في الاغترار بها وغرورها هم حصول لذّاتها المحسوسة مع قربهم من المحسوس وهو مستلزم للأنس بها المستلزم للغرور بها والغفلة عمّا وراءها وهو مستلزم للوثوق وهو مستلزم لصرعتهم في مهاوي الهلاك حيث لا يقال عثرة ولا ينفع ندامة.

وأعلم أنّ ذكر الموت وإن كان يستلزم الاتّعاظ والانزجار إلا أنّ شرح الأحوال التي تعرض للإنسان في موته أبلغ في ذلك لما أنّ كلّ حال فيها منفور عنها طبعاً وإن كانت إنّما تحصل النفرة عنها لكونها حالة تعرض للميّت والمقرون بالمؤلم والمكروه مكروه ومؤلم ومنفور عنه طبعاً.

الثالث: ممّا أمرهم به على طريق الوصيّة أن يسابقوا إلى منازلهم التي أمروا أن يعمّروها والتي رغبّوا فيها ودعوا إليها وهي منازل الجنّة ومراتب الأبرار فيها. وعمارتها بالأعمال الصالحة الموافقة لمقتضى النواميس الإلهيّة وتحصيل الكمالات النفسانيّة عنها. والمعنى ليسابق بعضكم بعضاً إلى منازلكم ومراتب درجاتكم من الجنّة وعمارتها بتحصيل الكمالات النفسانيّة وموافقة الشرع الإلهيّة. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والترغيب فيها لقوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] ونحوه.

الرابعة: ممّا أمرهم به الصبر على طاعة الله وعلى مجانبة المعصية. ورغّب بكونه سبباً يستتم به نعمة الله عليهم. ولمّا كان استلزامه لها كالثمرة له وكانت ثمرة الصبر حلاوة قدّمها ليحلو الصبر بذكرها.

وقوله: فإن غداً من اليوم قريب.

تخويف من الساعة وقربها. ولم يرد بغد ولا اليوم حقيقتهما بل أراد بغد القيامة وباليوم مدّة الحياة كقوله فيما سبق: ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق. وهو يجري مجرى المثل كقولهم: غد ما غدا، قرب اليوم من غد.

وقوله: ما أسرع الساعات في اليوم. إلى آخره.

بيان لقرب الغد الذي كنّى به عن القيامة من اليوم فإنّ الساعات سريعة الإتيان والإنقضاء. وسرعتهما مستلزم لسرعة مجيء اليوم وانقضائه. وسرعتهما مستلزم لسرعة مجيء الشهر وانقضائه المستلزمين لسرعة مجيء السنة وانقضائها المستلزمين لسرعة انقضاء عمر العاملين فيه لكنّ انقضاؤه بالقيامة. فإذن الساعات مستلزمة لسرعة انقضاء العمر وقرب غده من يومه. وأتى في الكلّ بلفظ التعجّب تأكيداً لبيان تلك السرعة. وهو كلام شريف بالغ في الفصاحة والموعظة. وبالله التوفيق.

٢٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام

في الإيمان ووجوب الهجرة

فَمِنَ الإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، «إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ». فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ. وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الإِمَّةِ وَمُعْلِنِهَا. لا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلا يَقَعُ اسْمُ الاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لا يَحْمِلُهُ إِلاَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلا يَعِي حَدِيثَنَا إِلاَّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ وَأَحْلامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبُ بِأَحْلامِ قَوْمِهَا.

أقول: العواريُّ بالتشديد: جمع عارية قيل: كأنّها

منسوبة إلى العار. إذ في طلبها عار. والبراءة: التبري. وشغرت البلدة: إذا خلت عن مدبّرها.

وفي الفصل مسائل:

الأولى: قوله: فمن الإيمان إلى قوله: أجل معلوم. قسمة للإيمان إلى قسمين، ووجه الحصر فيهما أنّ الإيمان لمّا كان عبارة عن التصديق بوجود الصانع سبحانه وما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، والاعتراف بصدق الرسول صلى الله عليه وآله وما جاء به. فتلك الاعتقادات إن بلغت حدّ الملكات في النفوس فهي الإيمان الثابت المستقرّ في القلب، وإن لم يبلغ حدّ الملكلة بل كانت بعد حالات في معرض التغيّر والانتقال فهي العواري المتزلزلة. واستعار لها لفظ العواري باعتبار كونها في معرض الزوال كما أنّ العواري في معرض الاسترجاع والردّ. وكنّى بكونها بين القلوب والصدور عن كونها غير مستقرّة في القلوب ولا متمكّنة من جواهر النفوس، وقال بعض الشارحين: أراد أنّ من الإيمان ما يكون على سبيل الإخلاص ومنه ما يكون على سبيل النفاق.

وقوله: إلى أجل معلوم.

ترشيح لاستعارة العواري. إذ كانت من شأنها أن تستعار إلى وقت معلوم ثمّ ترد فكذلك ما كان بمعرض الزوال والتغيّر من الإيمان. وهذه القسمة إلى هذين القسمين هي الموجودة في نسخة الرضيّ رحمه الله بخطّه وفي نسخ كثير من الشارحين ونسخ كثيرة معتبرة، ونقل الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد - رضي الله رحمه الله في النسخة التي شرح الكتاب عليها ثلاثة أقسام هكذا: فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب، ومنه ما يكون عواري في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم. ثمّ قال في بيانها ما هذه خلاصته: إنّ الإيمان إمّا أن يكون ثابتاً مستقرّاً في القلوب بالبرهان وهو الإيمان الحقيقي، أو ليس بثابت بالبرهان بل بالدليل الجدليّ كإيمان كثير ممّن لم تحقّق العلوم العقليّة ويعتقد ما يعتقده من أقيسة جدليّة لا تبلغ درجة البرهان وقد سمّاه عليه السلام عواري في القلوب: أي أنّه وإن كان في القلب الذي هو محلّ الإيمان الحقيقي إلاّ أنّ حكمه حكم العارية في البيت فإنّها بعرضة الخروج منه، وإمّا أن لا يكون مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدليّ بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف أو بإمام يحسن الظنّ به وقد جعله عليه السلام عواري بين القلوب والصدور لأنّه دون الثاني فلم يجعله حالاً في القلب لكونه أضعف ممّا قبله وأقرب إلى الزوال. ثمّ ردّ قوله: إلى أجل معلوم. إلى القسمين الأخيرين لأنّ من ثبت إيمانه بالقياس الجدلي قد يبلغ إلى درجة البرهان إذا أنعم النظر ورتّب المقدّمات اليقينيّة ترتيباً منتجاً، وقد يضعف مقدّماته في نظره فينحطّ إلى درجة المقلّد فيكون إيمان كلّ منهما إلى أجل معلوم لكونه في معرض الزوال. وأقول: إن صحّت هذه الرواية فالمعنى يعود إلى ما قلناه من القسمة فإنّ العلم بما يستلزمه البرهان أو غيره من الإيمان إن بلغ إلى حدّ الملكة فهو الثابت المستقرّ، وإلاّ فهو العارية. والذي أراه أنّ القسم الثاني تكرار وقع من قلم الناسخ سهواً. والله أعلم.

الثانية: قوله: فإذا كانت لكم براءة. إلى قوله: حدّ البراءة. معناه أنّكم إذا أردتم التبرؤ من أحد من أهل الكبائر فقفوه: أي اجعلوه موقوفاً إلى حال الموت ولا تسارعوا إلى البراءة منه قبل الموت فإنّ أشدّ الكبائر وأعظمها الكفر وجائز من الكافر أن يسلم فإذا بلغ منتهى الحياة وحدّها ولم يقلع عن كبيرته فذلك الحدّ هو حدّ البراءة الذي يجوز أن يوقعوها معه. إذ ليس بعد الموت حالة ترجى وتنتظر. قال بعض الشارحين: والبراءة التي أشار عليه السلام إليها هي البراءة المطلقة لا كل براءة، إذ يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وصاحب الكبيرة في حياته براءة مشروطة: أي ما دام مصرّاً على كبيرته.

الثالثة: قوله: والهجرة قائمة على حدّها الأوّل. لمّا كانت حقيقة الهجرة ترك منزل إلى منزل آخر لم تكن تخصيصها عرفاً بهجرة الرسول صلى الله عليه وآله ومن تبعه وهاجر إليه من مكّة إلى المدينة مخرجاً لها عن حقيقتها وحدّها اللغويّ: إذ كان أيضاً كل من ترك منزله إلى منزل آخر مهاجراً. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ مراده عليه السلام من بقاء الهجرة على حدّها بقاء صدقها على من هاجر إليه وإلى

الأئمة من أهل بيته في طلب دين الله وتعرّف كيفيّة السلوك لصراطه المستقيم كصدقها على من هاجر إلى الرسول ﷺ. وفي معناها ترك الباطل إلى الحقّ. وبيان هذا الحكم بالمنقول والمعقول: أمّا المنقول فمن وجهين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] فقد سمّى من فارق وطنه وعشيرته في طلب دين الله وطاعته مهاجراً. وقد علمت في أصول الفقه أنّ من للعموم فوجب أن يكون كلّ من سافر لطلب دين الله من معادنه مهاجراً.

الثاني: قول الرسول ﷺ: المهاجر من هاجر ما حرّم الله عليه. وظاهر أنّ من هاجر معصية الأئمّة عليهم السلام إلى طاعتهم والاقتداء بهم فقد هاجر ما حرّم الله عليه فكان اسم الهجرة صادقاً عليه.

وأمّا المعقول فلأنّ المفارق لوطنه إلى الرسول ﷺ مهاجر فوجب أن يكون المفارق لوطنه إلى من يقوم مقامه من ذريّته الطاهرين مهاجراً لصدق حدّ الهجرة في الموضعين، ولأنّ المقصود من الهجرة ليس إلاّ اقتباس الدين وتعرّف كيفيّة سبيل الله. وهذا المقصود حاصل ممّن يقوم مقام الرسول ﷺ من الأئمّة الطاهرين عليهم السلام بحيث لا فرق إلا النبوّة والإمامة. ولا مدخل لأحد هذين الوصفين في تخصيص مسمّى الهجرة بمن قصد الرسول ﷺ دون من قصد الأئمّة عليهم السلام فوجب عموم صدقه على من قصدهم.

فإن قلت: هذا معارض بقوله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح حتّى شفّع عمّه العبّاس في نعيم بن مسعود الأشجعي أن يستثنيه فاستثناه.

قلت: يحمل ذلك على أنّه لا هجرة من مكّة بعد فتحها إلى المدينة توفيقاً بين الدليلين. وسلب الخاصّ لا يستلزم سلب العامّ. فاعلم أنّ فائدة هذا القول الدعوة إلى الدين واقتباسه منه ومن أهل بيته عليهم السلام بذكر الهجرة، والتنبّه بها وما يستلزمه من الفضيلة على أنّ التارك لأهله ووطنه إليهم طلباً للدين منهم يلحق بالمهاجرين الأوّلين في مراتبهم وثوابهم.

الرابعة: قوله: ما كان في الأرض. إلى قوله: ومعانيها. قال قطب الدين الراوندي رحمه الله ما هٰهنا نافية: أي لم يكن لله في أهل الأرض ممّن أسرّ دينه أو أعلنه وأظهره حاجة. ومن هنا لبيان الجنس. وأنكر الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد كون ما نافية. وقال: يلزم منه كون الكلام منقطعاً بين كلامين متواصلين وجعلها هو بمعنى المدّة: أي والهجرة قائمة على حدّها ما دام لله في أهل الأرض ممّن أسرّ دينه أو أعلنه حاجة: أي ما دامت العبادة مطلوبة لله تعالى من أهل الأرض بالتكليف وهو كقولك في الدعاء: اللهمّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي.

ويكون لفظ الحاجة مستعاراً في حقّه تعالى باعتبار طلبه للعبادة بالأوامر وغيرها كطلب ذي الحاجة لها. وأقول: إنّه غير بعيد أن تكون ما نافية مع اتّصال الكلام بما قبله، ووجهه أنّه لمّا رغّب الناس في طلب الدين والعبادة فكأنّه أراد أن يرفع حكم الوهم بما عساه يحكم به عند تكرار طلب الله للدين والعبادة من حاجته تعالى إليهما من خلقه حيث كرّر طلبه منهم بتواتر الرسل والأوامر الشرعيّة، ويصير معنى الكلام أنّ الهجرة باقية على حدّها الأول في صدقها على المسافرين لطلب الدين فينبغي للناس أن يهاجروا في طلبه إلى أئمّة الحقّ وليس ذلك لأنّ لله تعالى إلى أهل الأرض ممن أسرّ دينه أو أظهره حاجة فإنّه تعالى الغني المطلق الذي لا حاجة به إلى شيء.

الخامسة: قوله: لا تقع اسم الهجرة. إلى قوله: قلبه. إشارة بالحجّة في الأرض إلى إمام الوقت لأنه حجة الله في أرضه على عباده يوم القيامة وشاهده عليهم. وهذا الكلام تفسير لمواقع اسم الهجرة وبيان لمن تصدق عليه فشرط صدقها على الانسان بمعرفته لإمام وقته وذلك لأن الإمام هو الحافظ للدين ومعدنه الذي يجب أخذه عنه فيكون قصده لذلك مشروطاً بمعرفته. فإذن إطلاق اسم الهجرة عليه مشروط بمعرفة إمام الوقت فلذلك قال: لا يقع اسم الهجرة على أحد إلاّ بعد معرفة الحجّة في الأرض.

وقوله: فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر.

يحتمل أن يريد به أنّ شرط إطلاق اسم المهاجرة

على الإنسان مشروط بمعرفة إمام الوقت المستلزمة للسفر إليه كما هو الظاهر من لفظ المهاجرة. ويحتمل أن يريد أنّ مجرد معرفة الإمام والإقرار بوجوب اتّباعه والأخذ عنه وإن كان بالإخبار عنه دون المشاهدة كاف في إطلاق اسم الهجرة على من عرفه كذلك دون السفر إليه كما كفى في إطلاقه على ترك ما حرّم الله بمقتضى قول الرسول صلى الله عليه وآله: والمهاجر من ترك ما حرّم الله عليه.

وقوله: ولا يصدق (يقع خ) اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة.

أي أخبار الحجّة فحذف المضاف. ويحتمل أن يريد بالحجّة نفس الأخبار التي ينقل عن الإمام ويجب العمل بها. قال قطب الدين الراوندي: يمكن أن يشير بهذا الكلام إلى أحدى آيتين:

إحديهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٧] فيكون مراده عليه السلام على هذا أنّه لا يصدق اسم الاستضعاف على من عرف الإمام وبلغته أحكامه ووعاها قلبه وإن بقي في وطنه ولم يتجشّم السفر إلى الإمام كما لا يصدق على هؤلاء المذكورين في الآية.

والثانية: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٨-٩٩] فيكون مراده على هذا أنّ من عرف الإمام وسمع مقالته ووعاها قلبه لا يصدق عليه الاستضعاف كما صدق على هؤلاء. إذ كان المفروض على الموجودين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله المهاجرة بالأبدان دون من بعدهم بل يقنع منه بمعرفته والعمل بقوله بدون المهاجرة إليه بالبدن: وأقول: يحتمل أن يريد بقوله ذلك أنّه لا عذر لمن بلغته دعوة الحجّة وسمعها في تأخره عن النهوض والمهاجرة إليه مع قدرته على ذلك ولا يصدق عليه اسم الاستضعاف كما يصدق المستضعفين من الرجال والنساء والولدان حتى يكون ذلك عذراً له بل يكون في تأخره ملوماً مستحقاً للعذاب كالذين قالوا إنّا كنّا مستضعفين في الأرض، ويكون مخصوصاً بالقادرين على النهوض كما قلناه دون العاجزين فإنّ اسم الاستضعاف صادق عليهم. وهذا الاحتمال إنّما يكون جائز الإرادة من هذا الكلام على تقدير أن يكون إطلاق اسم المهاجر على الإنسان في الكلام المقدّم مشروطاً بمعرفة الإمام بالمشاهدة والسفر إليه. إذ لو جاز عليه أن يطلق عليه المهاجرة مع عدم السفر إلى الإمام لما كان ملوماً في تأخره عنه.

السادسة: قوله: إنّ أمرنا صعب مستصعب. فأمرهم شأنهم وما هم عليه من الكمال الخارج عن كمالات من عداهم من الأمّة والأطوار التي تختصّ بها عقولهم وراء عقول غيرهم فيكون لهم عن ذلك القدرة على ما لا يقدر عليه غيرهم والإدراكات الغيبيّة بالنسبة إلى غيرهم والإخبار عنه كالوقائع التي حكى عنها عليه السلام ثمّ وقعت على وفق قوله وكالأحكام والقضايا التي اختصّ بها ونقلت عنه فإنّ هذا الشأن صعب في نفسه لا يقدر عليه إلاّ الأنبياء عليهم السلام وأوصياء الأنبياء ومستصعب الفهم على الخلق معجوز عن احتمال ما يلقى منه من الإشارات والإخبارات عمّا سيكون والقدرة على ما يخرج عن وسع مثلهم ولا تحتمله ولا تقبله إلاّ نفس عبد امتحنها الله للإيمان كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحُجرَات: ٣] أي أعدّها بالامتحان والابتلاء بالتكاليف العقليّة والنقليّة لحصول الإيمان الكامل اليقيني بالله ورسوله وكيفيّة سلوك سبيله، وتجلّت بالكمالات العلميّة والفضائل الخلقيّة حتى عرفت مبادىء كمالاتهم ومقاديرها وكيفيّة صدور مثل هذه الغرائب عنها فلا يستنكر ما يأتون به من قول أو فعل ولا يلقاه بالتكذيب كما كانت جماعة من أصحابه عليه السلام يفعلون ذلك معه فيما كان يخبر به الفتى حتى فهم ذلك منهم فقال: يقولون: يكذب. قاتلهم الله تعالى فعلى من أكذب؟ أعلى الله وأنا أوّل من آمن به أو على رسوله وأنا أوّل من صدّقه؟ كما حكينا ذلك فيما سبق؛ بل يحتمل كل ما يأتون به على وجهه ويستنده إلى مبدئه ويفرح بوصول ما يرد عليها من أسرارهم الإلهيّة، فأولئك وأمثالهم هم أصحاب الصدور الآمنة التي تعي ما يلقى

إليها من تلك الأسرار ويصونها عن الإذاعة إلى من لا ينتفع بها وليس بأهل لها فهي مأمونة عليها، وأولو الأحلام الرزينة التي لا يستفزها سماع تلك الغرائب ومشاهدتها منهم فيحملهم ذلك على إذاعتها عن معرفتها ثبتت فيها وآمنت بها على سبيل الإجمال وفوّضت علم كنهها إلى الله سبحانه. وأراد قلوب صدور أمينة أو أصحاب صدور أمينة وأصحاب أحلام مجازاً عن أهلها إطلاقاً لاسم المتعلّق على المتعلّق. ونقل عنه عليه السلام مثل هذا الكلام في غير هذا الموضع من جملة خطبة له: أنّ قريشاً طلبت السعادة فشقيت. وطلبت النجاة فهلكت. وطلبت الهدى فضلّت ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فأين العدل والنزع عن ذريّة الرسول صلى الله عليه وآله الذين شيّد الله بنيانهم فوق البنيان وأعلى رؤوسهم واختارهم عليهم؟.

إلاّ أنّ الذريّة أفنان أنا شجرتها ودوحة أنا ساقها. وإنّي من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء كنّا أظلالاً تحت العرش قبل خلق البشر وقبل خلق الطينة التي كان منها البشر أشباحاً عالية لا أجساماً نامية. إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يعرف كنهه إلاّ ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان فإذا انكشف لكم سرّ أو وضح لكم أمر فاقبلوه وإلاّ فأمسكوا تسلموا وردّوا علمها إلى الله فإنّكم في أوسع ما بين السماء والأرض.

وفي قوله: وإنّي من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء، وقوله: كنّا أظلالاً. إلى قوله: نامية إشارة لطيفة: أمّا الأوّل: فأشار إلى أنّ الكمالات التي حصلت لنفسه القدسيّة بواسطة كمالات نفس النبي صلى الله عليه وآله أشبه الأشياء بصدور الضوء عن الضوء كشعلة مصباح اقتبست من شعلة مصباح أكبر وأعلى. ومن العادة في عرف المجرّدين وأولياء الله وكتابه تمثيل النفوس الشريفة والعلوم بالأنوار والأضواء لمكان المشابهة بينهما في حصول الهداية عنها مع لطفها وصفائها، وأمّا الثاني فيحمل أن يكون قد أشار بكونهم أظلّة تحت العرش قبل خلق البشر أشباحاً بلا أجسام إلى وجودهم في العلم الكلي فإنّه قد يعبّر عنه في بعض المواضع بالعرش واستعار لفظ الأظلال لهم باعتبار كونهم مرجعاً للخلق وملجأ كالأظلال، وقد سبق الإشارة إلى ذلك أو ما قرب منها ببيان أوضح في الخطبة الأولى.

السابعة: أيّه بالناس. وقال: سلوني قبل أن تفقدوني. إلى قوله: الأرض. وأجمع الناس على أنّه لم يقل أحد من الصحابة وأهل العلم: سلوني غير علي عليه السلام. ذكر ذلك ابن عبد البرّ في كتاب الاستيعاب. وأراد بطرق السماء وجوه الهداية إلى معرفة منازل سكّان السماوات من الملأ الأعلى ومراتبهم من حضرة الربوبيّة ومقامات أنبياء الله وخلفائه من حظائر القدس، وانتقاش نفسه القدسيّة عنهم بأحوال الفلك ومدبّراتها والأمور الغيبيّة ممّا يتعلّق بالفتن والوقائع المستقبلية إذ كان له عليه السلام الاتّصال التامّ بتلك المبادىء. فبالحري أن يكون علمه بما هناك أتمّ وأكمل من علمه بطرق الأرض إلى منازلها. وقد سبق مثله لقوله: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فتنة تضلّ مائة وتهدي مائة إلاّ أنبأتكم بسائقها وقائدها. وقد حمله قوم على وجه آخر وقالوا: أراد بطرق السماء الأحكام الشرعيّة والفتاوى الفقهيّة: أي أنا أعلم بها من الأمور الدنيوية فعبّر عن تلك بطرق السماء لكونها أحكاماً إلهيّة، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنّها من الأرضيّة. ونحوه ما نقل عن الإمام الوبري: أنّه قال: أراد أنّ علمه بالدين أوفر من علمه بالدنيا.

وقوله: قبل أن تشغر برجلها فتنة. إلى آخره.

أراد فتنة بني أميّة وأحكامهم العادلة عن العدل وما يلحق الناس في دولتهم من البلاء. وكنّى بشغر رجلها عن خلوّ تلك الفتنة عن مدبّر يدبّرها ويحفظ الأمور وينتظم الدين حين وقوع الجور.

وقوله: تطأ في خطامها.

استعارة لوصف الناقة التي أرسل خطامها وخلت عن القائد في طريقها فهي تخبط في خطامها وتعثر فيه وتطأ من لقيت من الناس على غير نظام عن حالها، وهذا هو وجه الاستعارة. إذ كانت هذه الفتنة تقع في الناس على غير قانون شرعي ولا طريق مرضي. ولا قائد ينتظم أمور الخلق فيها.

وقوله: ويذهب بأحلام قومها.

قال بعض الشارحين: أي تحيّر أهل زمانها وتذهلهم بشدّتها حتى لا يثبتون فيها بل تطيش ألبابهم فلا يهتدون إلى طريق التخلّص عنها ووجه السلامة فيها. ويحتمل أن يريد بذلك أنّها تستخفّ أهل زمانها فيأتون إليها سراعاً ويجيئون الناعق بها والداعي إليها رغبة ورهبة فلا يبالون في ذلك ولا يفحصون عن كونها فتنة لغفلتهم عن وجه الحقّ فيها وشدّة وقوعها على الناس وبالله التوفيق.

٢٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله على نبيه ويعظ بالتقوى

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَلَى دِينِهِ، لا يَثْنِيهِ عَنْ ذٰلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ. فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ. وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ: فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ؛ وَكَفَى بِذٰلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ! وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الإِبْلاسِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ الْفَزَعِ، وَاخْتِلافِ الأَضْلاعِ، وَاسْتِكَاكِ الأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

فَاللَّهَ اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ. وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلازِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلاكِلِهَا، وَانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى، أَوْ شَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً. فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا، عَالٍ لَجَبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ وَقُودُهَا، مُخِيفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾. قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً وَاسْتِغْفَاراً؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً، تَوَحُّشاً وَانْقِطَاعاً. فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، وَالْجَزَاءَ ثَوَاباً، «وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا» فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَارْعَوْا - عِبَادَ اللهِ - مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ. وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلا رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلا عَثْرَةً تُقَالُونَ. اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ. الْزَمُوا الأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلاءِ. وَلا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلاَ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ. وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاتِهِ لِسَيْفِهِ. فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً.

أقول: الوظيفة: ما يقدر للإنسان في كلّ يوم من طعام أو رزق أو عمل ويثنيه: يصرفه. والمعقل: الملجأ. وذروته: أعلاه. ومهّد له: أي اتّخذ له مهاداً وهو الفراش. والأرماس: جمع رمس وهو القبر. والإبلاس: الإنكسار والحزن. والمطلع: الاطّلاع من

إشراف إلى أسفل. وهوله: خوفه وفزعه. والروعة: الفزعة. واستكاك الأسماع: صممها. والصفيح: الحجارة العراض. وردمها: سدّ القبر بها. والسنن: الطريقة. والقرن: الحبل يقرن به البعيران. وأشراطها: علاماتها. وأزفت: دنت. وأفراطها: مقدّماتها. ومنه أفراط الصبح أوائل تباشيره. والرثّ: الخلق. والغثّ: المهزول. والضنك: الضيق. والكلب: الشرّ. واللجب: الصوت. والساطع: المرتفع. وسعيرها: لهبها. وتأجّجه: إشتداد حرّه. ووقودها بضمّ الواو: إيقادها وهو الحدث. وذكاه - مقصوراً -: اشتعاله. وفظاعة الأمر: شدّته ومجاوزته للمقدار. والزمر: الجماعات، واحدتها زمرة. وزحزحوا: بعدوا. واطمأنت: سكنت. والمثوى: المقام. والمآب: المرجع. والمدينون: مجزيّون. وإصلاته لسيفه. تجرّده له.

واعلم أنّه عليه السلام أنشأ حمد الله على نعمائه. ونصب شكراً على المصدر عن قوله: أحمد. من غير لفظه. إذ المراد بالحمد هنا الشكر بقرينة ذكر الإنعام. ثمّ أردفه بطلب المعونة على ما وظف عليه من حقوقه: واجباتها ونوافلها كالصوات والعبادات التي ارتضاها منهم شكراً لنعمائه، وإذا اعتبرت كانت نعماً تستحق الشكر لما يستلزمه المواظبة عليها من السعادة الحقيقيّة الباقية كما سبق بيانه.

وقوله: عزيز الجند.

نصب على الحال والإضافة غير محضة والعامل أستعينه، وكذلك قوله: عظيم المجد: أي أستعينه على أداء حقوقه حال ما هو بذينك الإعتبارين فإنّه باعتبار ما هو عزيز الجند عظيم المجد يكون مالك الملك قديراً على ما يشاء فكان مبدأ استعانة به على أداء وظائف حقوقه. ثمّ أردفه بشهادته برسالة نبيّه صلى الله عليه وآله وذكر أحواله التي كانت مبادىء لظهور الدين الحقّ ليقتدي السامعون به صلى الله عليه وآله في تلك الأحوال. وهي دعوته إلى الدين ومقاهرته لأعدائه وهم الكفّار على أصنافهم، ونصب جهاداً على أنّه مصدر سدّ مسدّ الحال، أو نصب المصادر عن قوله: قاهر. من غير لفظه. إذ في قاهر معنى جاهد. وعن دينه متعلّق بجهاداً إعمالاً للأقرب، ويحتمل التعلّق بقاهر.

وقوله: لا يثنيه.

أي لا يصرفه عن دعوته ومقاهرته لأعدائه اجتماع الخلق على تكذيبه والتماسهم لإطفاء نوره، ولفظ النور مستعار لما جاء به من الكمالات الهادية إلى سبيل الله. ثمّ لمّا نبّههم على تلك الأحوال التي مبدؤها تقوى الله تعالى أمرهم بالاعتصام بها بقوله: **فاعتصموا بتقوى الله** كما اعتصم نبيّكم بها في إظهار دينه ومواظبته على ذلك، ولا تخافوا من عدوّ مع كثرتكم كما لا يخاف هو مع وحدته فإنّ للتقوى حبلاً وثيقاً عروته من تمسّك به واعتصم لم يضرّه عدوّ، ومعقلاً منيعاً ذروته من لجأ إليه لم يصل إليه سوء. ولفظ الحبل والمعقل مستعاران للتقوى، وقد سبق بيان هذه الاستعارات. ثمّ أكد ذلك الأمر بالأمر بمبادرة الموت وغمراته ومعنى مبادرته مسابقته إلى الاستعداد بالأعمال الصالحة كأنّهم يسابقون الموت وغمراته وما يلحقهم من العذاب فيه وفيما بعده إلى الاستعداد بالأعمال الصالحة فيحصّلوا بها ملكات صالحة تكون مهاداً له قبل حلوله بهم كيلا يقدحهم قدحاً، ويجعلونها عدّة لأنفسهم قبل نزوله عليهم يلتقونه بها كيلا يؤثّر في نفوسهم كثير أثر كأنّه يسابقهم إلى أنفسهم ليقطعهم عن ذلك الاستعداد فيكون سبباً لوقوع العذاب بهم.

وقوله: فإنّ الغاية القيامة.

تحذير بذكر الغاية وتذكير بأهوالها الموعودة: أي فإنّ غايتكم القيامة لا بدّ لكم منها. ولمّا كانت تلك الغاية هي لازم الموت كما قال عليه السلام: من مات فقد قامت قيامته. كان أمره بالاستعداد للموت أمر بالاستعداد لها، ولذلك أتى بعد الأمر بالاستعداد له بقوله: فإنّ منبّهاً على وجوب ذلك الاستعداد بضمير ذكر صغراه، وتقدير الكبرى: وكلّ من كانت غايته القيامة فواجب أن يستعدّ لها.

وقوله: وكفى بذلك.

أي بذكر الموت وغمراته والقيامة وأحوالها، وخصّص من عقل لكونه المقصود بالخطاب الشرعي،

ومعتبراً: أي محلاً للاعتبار والعلم، وظاهر كون الموت ونزوله بهذه البنية التامّة التي أحكم بنيانها ووضعت بالوضع العجيب والترتيب اللطيف وهدمه لها واعظاً بليغاً يزجر النفوس عن متابعة هواها ومعتبراً تقف منه على أن وراء هذا الوجود وجوداً أعلى وأشرف منه لولاه لما عطّلت هذه البنية المحكمة المتقنة ولكان ذلك بعد إحكامها وإتقانها سفهاً ينافي الحكمة كما أنّ الإنسان إذا بنى داراً وأحكمها وزيّنها بزينة الألوان المعجبة فلمّا تمّت وحصلت غايتها عمد إليها فهدمها فإنّه يعدّ في العرف سفيهاً عابثاً. أمّا لو كان غرضه من ذلك الوصول إلى غاية يحصل بوجودها وقتاً ما ثمّ يستغني عنها جاز هدمها. فكذلك هذه البنية لمّا كانت الغرض منها استكمال النفوس البشريّة بالكمالات التي يستفاد من جهتها وهي العلوم ومكارم الأخلاق ثمّ الانتقال منها إلى عالمها جاز لذلك خرابها وفسادها بعد حصول ذلك الغرض منها.

وقوله: قبل بلوغ الغاية ما تعلمون.

عطف على قوله: قبل نزوله.

وقوله: من ضيق الأرماس. إلى قوله: الصفيح.

تفصيل لما يعلمونه من أحوال الموت وأهواله، وظاهر أنّ القبور ضيّقة بالقياس إلى مواطن الدنيا، وأنّ للنفوس عند مفارقتها غمّاً شديداً وحزناً قويّاً على ما فارقته وممّا لاقته من الأهوال التي كانت غافلة عنها، وأنّ لما أشرفت عليه من أحوال الآخرة هولاً وفزعاً تطير منه الألباب وفي المرفوع: وأعوذ بك من هول المطّلع.

وإنّما حسن إضافة روعات إلى الفزع وإن كان الروع هو الفزع باعتبار تعدّدها وهي من حيث هي آحاد مجموع أفراد مهيّة الفزع فجازت إضافتها إليها. واختلاف الأضلاع كناية عن ضغطة القبر. إذ يحصل بسببها تداخل الأضلاع واختلافها، واستكاك الأسماع ذهابها بشدّة الأصوات الهائلة ويحتمل أن يريد ذهابها بالموت وإنّما قال: خيفة الوعد، لأنّ الوعد قد يستعمل في الشرّ والخير عند ذكرهما. قال: ولا تعداني، الخير والشرّ مقبلٌ. فإذا أسقطوا ذكرهما قالوا في الخير: العدة والوعد، وفي الشرّ الإيعاد والوعيد. وهٰهنا وإن سقط ذكرهما إلاّ أنّ قوله: خيفة تدلّ على وجود الشرّ فكان كالقرينة، وغمّ الضريح: الغم الحاصل والوحشة المتوهّمة فيه. إذ كان للنفوس من الهيئات المتوهّمة كونها مقصورة مضيّقاً عليها بعد فسح المنازل الدنيويّة وسائر ما ذكره عليه السلام من الأهوال، وإنّما عدّد هذه الأهوال لكون الكلام في معرض الوعظ والتخويف وكون هذه الأمور مخوفة منفوراً عنها طبعاً. ثمّ أكد ذلك التخويف بالتحذير من الله وعلّل ذلك التحذير بكون الدنيا ماضية على سنن: أي على طريقة واحدة لا يختلف حكمها فكما كان من شأنها أن أهلكت القرون الماضية وفعلت بهم وبآثارهم ما فعلت وصيّرتهم إلى الأحوال التي عدّدناها فكذلك فعلها بكم.

وقوله: وأنتم والساعة في قرن.

كناية عن قربها القريب منهم حتى كأنّهم معها في قرن واحد.

وقوله: وكأنّها قد جاءت بأشراطها.

تشبيه لها في سرعة مجيئها بالتي جاءت وحضرت. وأكّد ذلك التشبيه بقد المفيدة لتحقيق المجيء. وعلاماتها كظهور الدجال، ودابّة الأرض، وظهور المهديّ وعيسى عليه السلام إلى غير ذلك. وكذلك قوله: وأزفتِ بأفراطها ووقفت بكم على صراطها. إلى قوله: وسمينها غثّاً: أي وتحقّق وقوفها بكم على صراطها وهو الصراط المعهود فيها.

وقوله: وكأنّها قد أشرفت بزلازلها.

أي أشبهت فيما يتوقّع منها من هذه الأحوال في حقّكم حالها في إيقاعها بكم وتحقيقها فيكم، واستعار لفظ الكلاكل لأهوالها الثقيلة. ووصف الإناخة لهجومها بتلك الأهوال عليهم ملاحظاً في ذلك تشبّهها بالناقة. وإنّما حسن تعديد الكلاكل لها باعتبار تعدّد أهوالها الثقيلة النازلة بهم. ولمّا كانت الأفعال من قوله: وأناخت. إلى قوله: فصار سمينها غثّاً. معطوفاً بعضها على بعض دخلت في حكم الشبه: أي وكانت الدنيا قد انصرفت بأهلها وكأنّكم قد أخرجتم من حصنها إلى آخر الأفعال.

والمشبّه الأول: هو الدنيا باعتبار حالها الحاضرة

والمشبّه به انصرافها بأهلها وزوالهم ووجه الشبه سرعة المضي أي كأنّها من سرعة أحوالها الحاضرة كالتي وقع انصرافها. وكذلك الوجه في باقي التشبيهات. واستعار لفظ الحضن لها ملاحظة لشبهها بالأم التي تحضن ولدها فينتزع من حضنها. والسمين والغثّ تحتمل أن يريد بهما الحقيقة ويحتمل أن يكنّى به عن ما كثر من لذّاتها وخيراتها وتغيّر ذلك بالموت وزواله.

وقوله: في موقف.

يتعلّق بصار. والموقف هو موقف القيامة. وظاهر أنّ كل جديد للدنيا يومئذ رثّ. وكل سمين كان بها غثّ. وضيق الموقف إمّا لكثرة الخلق يومئذ وازدحامهم أو لصعوبة الوقوف به وطولهم مع ما يتوقع الظالمون لأنفسهم من إنزال المكروه بهم والأمور المشتبهة العظام أهوال الآخرة. واشتباهها كونها ملبسة يتحير في وجه الخلاص منها. والاعتبار يحكم بكونها عظيمة. وظاهر كون النار شديدة الشرّ وقد نطق القرآن الكريم بأكثر ممّا وصفها عليه السلام به هٰهنا من علوّ أصواتها، وسطوح لهبها، وتغيّظ زفيرها كقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧-٨] وقوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] ولفظ التغيّظ مستعار للنار باعتبار حركتها بشدّة وعنف كالغضبان أو باعتبار استلزام حركتها ظاهر للأذى والشرّ.

وقوله: عم قرارها.

أسند العمى إلى قرارها مجازاً باعتبار أنّه لا يهتدى فيه لظلمته أو لأنّ عمقها لا يوقف عليه لبعده، ولمّا استعار لفظ الحمى رشّح بذكر القدور، وظاهر فظاعة تلك الأمور وشدّتها. وكلّ تلك الأمور عدّدها في معرض التخويف لكونها مخوفة تنفيراً لما يلزم عنه من ترك التقوى واتّباع الهوى ثمّ ساق الآية اقتباساً ونسق بعدها أحوال المتقين في الآخرة اللازمة عن تقويهم وهي أمنهم من العذاب وانقطاع العقاب عنهم وإبعادهم عن النار واطمئنان الدار التي هي الجنة بهم ورضاهم بها مثوى وقراراً ترغيباً في التقوى بذكر لوازمها. ثم أردف ذلك بصفات المتّقين أيضاً عمّا عساه لا يعرفها فقال: هم الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية: أي طاهرة من الرياء والشرك الخفيّ، وأعينهم باكية: أي من خشية الله وخوف عقابه وحرمانه، وكان ليلهم في دنياهم نهاراً في كونه محلّ حركاتهم في عبادة ربّهم وتخشّعهم له واستغفارهم إيّاه فأشبه النهار الذي هو محلّ حركات الخلق. ولهذا الشبه استعار لفظ النهار للّيل وكذلك استعار لفظ الليل للنهار، ووجه الاستعارة كون النهار محلاً لتوحّشهم من الخلق وانقطاعهم عنه واعتزالهم إيّاهم كالليل الذي هو محلّ انقطاع الناس بعضهم عن بعض وافتراقهم، وفي نسخة الرضي (رحمه الله) بخطّه: كأنّ للتشبيه رفع نهاراً في القرينة الأولى، ورفع ليلاً في الثانية. ووجه التشبيه هو ما ذكرناه. وكأنّه يقول: فلمّا استعدّوا بتلك الصفات للحصول على الفضائل والكمالات واستوجبوا رضى الله تعالى عنهم جعل الله لهم الجنّة مرجعاً ومآباً أعدّ فيها من جزاء النعيم ثواباً وكانوا أحقّ بها وأهلها. وهو اقتباس.

وقوله: في ملك. إلى قوله: قائم.

أي مقيم، تفسير للجزاء. ثمّ أكّد الأمر بالتقوى برعايتها في عبارة أخرى نبّه فيها على بعض لوازمها، وذلك أنّ فوز الفائزين إنّما يكون بالتقوى ولزوم الأعمال الصالحات، والمبطلون هم الذين لا حقّ معهم فهم الخارجون عن التقوى الحقّة. وإنّما يلحقهم الخسران بالخروج عنها.

وقوله: بادروا آجالكم بأعمالكم.

كقوله: بادروا الموت: أي وسابقوا آجالكم بالأعمال الصالحات إلى الاستعداد بها قبل أن يسبقكم إلى أنفسكم فيقطعكم عن الاستعداد بتحصيل الأزواد ليوم المعاد، ونبّههم بقوله: فإنّكم. إلى قوله: قدّمتم. على ارتهانهم بذنوبهم السالفة والجزاء عليها في القيامة ليسارعوا إلى فكاكها بالأعمال الصالحة والسلامة من الجزاء عليها، ولفظ المرتهن مستعار للنفوس الآثمة باعتبار تقيّدها بالسيئة وإطلاقها بالحسنة كتقيّد الرهن المتعارف بما عليه من المال وافتكاكه بأدائه وإطلاق لفظ الجزاء على العقاب مجاز إطلاقاً لاسم أحد الضدّين على الآخر.

وقوله: وكأن قد نزل.

هي المخفّفة من كأنّ للتشبيه، واسمها ضمير الشأن، والمقصود تشبيه حالهم وشأنهم الحاضر بحال نزول المخوف وهو الموت وتحقّقه في حقّهم الذي يلزمه ويترتّب عليه عدم نيلهم للرجعة وإقالتهم للعثرة. ثمّ عقّب بالدعاء لنفسه ولهم باستعمال الله إيّاهم في طاعته وطاعة رسوله، وذلك الاستعمال بتوفيقهم لأسباب الطاعة وإعدادهم لها وإفاضة صورة الطاعة على قواهم العقليّة والبدنية وجوارحهم التي بسببها تكون السعادة القصوى، ثمّ بما يلزم ذلك الاستعمال من العفو عن جرائمهم. وإنّما نسبها إلى فضل رحمته لكونه مبدءاً للعفو والمسامحة من جهة ما هو رحيم وذلك من الاعتبارات التي تحدثها عقولنا الضعيفة وتجعلها من صفات كماله كما سبق بيانه في الخطبة الأولى. ثمّ عقّب وعظهم وتحذيرهم والدعاء لهم بأمرهم أن يلزموا الأرض ويصبروا على ما يلحقهم من بلاء أعدائهم ومخالفيهم في العقيدة كالخوارج والبغاة على الإمام بعده من ولده والخطاب خاصّ بمن يكون بعده بدلالة سياق الكلام. ولزوم الأرض كناية عن الصبر في مواطنهم وقعودهم عن النهوض لجهاد الظالمين في زمن عدم قيام الإمام الحقّ بعده عليه السلام.

وقوله: ولا تحرّكوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم.

نهى عن الجهاد من غير أمر أحد من الأئمّة من ولده بعده، وذلك عند عدم قيام من يقوم منهم لطلب الأمر فإنّه لا يجوز إجراء هذه الحركات إلاّ بإشارة من إمام الوقت. وهوى ألسنتهم ميلها إلى السبّ والشتم موافقة لهوى النفوس. والباء في بأيديكم زائدة. ويحتمل أن يكون مفعول تحرّكوا محذوفاً تقديره شيئاً: أي ولا تتحركوا لهوى ألسنتكم ولا تستعجلوا بما لم يعجّله الله لكم من ذلك الجهاد.

وقوله: فإنّه من مات منكم. إلى قوله: لسيفه.

بيان لحكمهم في زمن عدم قيام الإمام الحقّ بعده لطلب الأمر وتنبيه لهم على ثمرة الصبر، وهو أنّ من مات منهم على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وأهل بيته والاعتراف بكونهم أئمّة الحقّ والاقتداء بهم لحق بدرجة الشهداء ووقع أجره على الله بذلك واستحقّ الثواب منه على ما أتى به من الأعمال والصبر على المكاره من الأعداء، وقامت نيّته أنّه من أنصار الإمام لو قام لطلب الأمر وأنّه معينه مقام تجرّده بسيفه معه في استحقاق الأجر.

وقوله: فإنّ لكل شيء مدّة وأجلاً.

تنبيه على أنّ لكلّ من دولة العدو الباطلة ودولة الحقّ العادلة مدّة تنقضي بانقضائها وأجل تنتهي به فإذا حضرت مدّة دولة عدو فليس ذلك وقت قيامكم في دفعها فلا تستعجلوا به. هذا هو المتبادر إلى الفهم من هذا الكلام. والخطبة من فصيح خطبه عليه السلام وقد أخذ ابن نباتة الخطيب كثيراً من ألفاظها في خطبته كقوله: شديد كلبها عال لجبها ساطعاً لهبها متغيّظ زفيرها متأجّج سعيرها. إلى قوله: فظيعة أورها، وكقوله: هول المطّلع، وروعات الفزع. إلى قوله: وردم الصفيح. فإنّه أخذ كلّ هذه الألفاظ ورصّع بها كلامه. وبالله التوفيق والعصمة.

٢٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله ويثني على نبيه ويوصي بالزهد والتقوى

الْحَمْدُ للَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ. أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَامِ، وَآلاَئِهِ الْعِظَامِ. الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلا اقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ، وَلا احْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَلا إِصَابَةِ خَطَإٍ، وَلا حَضْرَةِ مَلإٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

أُوصِيكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي

الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَالْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولٰئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً، وَإِلَى الآخِرَةِ وُلاَّهاً. وَلا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا. وَلا تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلا تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلاَ وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ. حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرَبٍ وَسَلَبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا؛ فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ، فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ. وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، «وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ». وَهَيْهَاتَ، ثُمَّ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

أقول: الفاشي: الذائع والمنتشر. والجدّ هيهنا: العظمة؛ ومنه حديث أنس: كان أحدنا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا: أي عظم، والتؤام: جمع توأم؛ وحقيقته الولد يقارنه ولد آخر في بطن واحد. قال الخليل: أصله ووأم على وزن فوعل فأبدلوا من إحدى الواوين تاء كما قالوا: تولج من وولج. والآلاء: النعم واحدتها ألى بالفتح، وقد يكسر كحرف الجرّ. والضرب: السير. والغمرة: ما يغمر العقل من الجهل، والغمرة: الشدّة أيضاً. والحين بالفتح: الهلاك. والرين: الطبع. وغلبة الذنوب حتى تتغطى عن البصيرة. والغابر: الباقي والماضي أيضاً. وأسدى: أرسل معروفه. وأهطع: أسرع. وواكظ على كذا: واظب عليه وداوم. والمواكظة: المداومة. وروي: كظّوا: أي ألزموا، ولزوم الشيء في معنى المداومة عليه. والشعار: ما يلي الجسد تحت الدثار، وهو العلامة أيضاً. والرحض: الغسل. والنزّاه: جمع نازه وهو المباعد عمّا يوجب الذّم. والولاّه: جمع واله وهو المتحيّر من شدّة الوجد. والشيم: النظر إلى البرق أين تمطر سحائبه. والناعق: الصائح. وأعلاقها: نفائسها؛ جمع علق وهو الشيء النفيس. وبرق خالب وخلب: لا مطر معه. ومال محروب: مأخوذ بكليّته. والمتصديّة: المتعرّضة. والعنون: كثيرة العنن وهو الاعتراض. والعنون أيضاً: الدابّة المتقدمّة في السير. والجموح: الدابة التي تغلب الفارس فلا يملكها. والحرون: الذي إذا اشتد به السوق وقف. والمائنة: الكاذبة. والكنود: الكفور للنعمة. والعنود: المائلة عن الطريق وعن المرعى. والصدود: المعرضة. والحيود: أيضاً المائلة. والميود: المتمائلة. والحرب بفتح الحاء: سلب المال. والسلب: ما يسلب من درع ونحوه في الحرب. والعطب: الهلاك. والساق: الشدّة. والسياق: نزع الروح، والسياق مصدر ساقه سوقاً وسياقاً. والمعاقل:

الحصون وما يلجأ إليه. ولفظتهم: ألقتهم. والمحاول: جمع محاولة وهي الحيلة. ومعقور: مجروح. والمجزور: المقطوع. والشلو: العضو من اللحم بعد الذبح؛ وأشلاء الإنسان: أعضاؤه المتفرّقة بعد البلى. ومسفوح: مسفوك. والغيلة: الأخذ على غرّة. والمناص: مصدر قولك ناص ينوص نوصاً، أي فرّ وراغ. ولات: حرف سلب؛ قال الأخفش: شبهوها بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل؛ قال: ولا يكون لات إلاّ مع حين وقد تحذف حين كما حذفت في قول مازن بن مالك: حنت ولات حنت. فحذف حين وهو يريده؛ وقال: قرأ بعضهم ولات حين مناص برفع حين وأضمر الخبر. وقال أبو عبيد: هي لا، والتاء إنّما زيدت في حين وإن كتبت مفردة كما قال أبو وجرة: العاطفون تحين ما من عاطف. وقال المورّج: زيدت التاء في لات كما زيدت في ثمّت وربّت. والبال: الحال والشأن والأمر. والبال أيضاً: القلب.

وقد حمد الله سبحانه باعتبارات لا ينبغي إلا له:

أحدها: الفاشي حمده: أي في جميع خلقه ومخلوقاته. إذ كان شيء منها لا يخلو من نعمة له أظهرها وجوده فلا يخلو من حمده بلسان الحال أو المقال. وله الحمد في السماوات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون.

الثاني: الغالب جنده: وجند الله ملائكته وأعوان دينه من أهل الأرض كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] وقوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] وظاهر كونه غالباً لقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] وفي هذه القرينة جذب للسامعين إلى نصرة الله ليكونوا من جنده وتثبيت لهم على ذلك.

الثالث: المتعالي جدّه: أي علاؤه وعظمته كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣] وهذه القرينة تناسب ما قبلها لما في تلك من إيهام الحاجة إلى الجند والنصرة، وفي الثانية تعاليه وعظمته عن كل حال يحكم بها في حقّه الرافع لذلك الإيهام، ثمّ عقّب بذكر سبب الحمد وهو نعمه التؤام وآلاؤه العظام، ومعنى كونها تؤاماً ترادفها على العبد وتواترها فإنّه ما من وقت يمرّ عليه إلا وعنده أنواع من نعمة الله تعالى لا تكافأ بحمد.

الرابع: من الاعتبارات الذي عظم حلمه فعفا. فالحلم في الإنسان فضيلة تحت الشجاعة يعسر معها انفعال النفس عن الواردات المكروهة المؤذية له، أمّا في حق الله تعالى فتعود إلى اعتبار عدم انفعاله عن مخالفة عبيده لأوامره ونواهيه، وكونه لا يستفزه عند مشاهدة المنكرات منهم غضب ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام منهم مع قدرته التامّة على كلّ مقدور غيظ ولا طيش. والفرق بينه تعالى وبين العبد في هذه الوصف أنّ سلب الانفعال عنه سلب مطلق وسلبه عن العبد عمّا من شأنه أن يكون له ذلك الشيء فكان عدم الانفعال عنه تعالى أبلغ وأتمّ من عدمه عن العبد، وبذلك الاعتبار كان أعظم، ولمّا كان الحلم يستلزم العفو عن الجرائم والصفح عنها سمّي إمهاله تعالى للعبد وعدم مؤاخذته بجرائمه عفواً فلذلك أردف وصفه لعظمة الحلم بذكر العفو، وعطفه بالفاء لاستعقاب الملزوم لازمه بلا مهلة.

الخامس: وعدل في كل ما قضى. ولمّا كان العدل عبارة عن التوسّط في الأفعال والأقوال بين طرفي التفريط والإفراط. وكان كلّ ما قضاه تعالى وحكم عليه بوقوعه أو عدم وقوعه جارياً على وفق الحكمة والنظام الأكمل لما بيّن ذلك في مظانّة من العلم الإلهيّ لا جرم لم يكن أن يقع في الوجود شيء من أفعاله أو أقواله منسوباً إلى أحد طرفي التفريط والإفراط بل كان على حاقّ الوسط منهما وهو العدل. وقيل: قضى بمعنى أمر كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وهو داخل فيما قلناه فإنّ ما أمر بإيجاده أو نهى عنه داخل فيما حكم عليهم بوقوعه أو عدم وقوعه.

السادس: وعلم ما يمضي وما مضى. إشارة إلى إحاطة علمه بكلّ الأمور مستقبلها وماضيها وكلّيّها وجزئيّها، وقد أشرنا إلى ذلك فيما قبل.

السابع: مبتدع الخلائق بعلمه ظاهر كلامه عليه السلام ناطق بأنّ العلم هنا سبب لما ابتدع من خلقه ولا شكّ أنّ

السبب له تقدّم على المسبّب من جهة ما هو سبب وهذا هو مذهب جمهور الحكماء، والخلاف فيه مع المتكلّمين. إذ قالوا: إنّ العلم تابع للمعلوم والتابع يمتنع أن يكون سبباً. فالباء على رأيهم إذن للاستصحاب، وعلى الرأي الأوّل للتسبّب. ونحن إذا حققنا القول وقلنا: إنّه لا صفة له تعالى تزيد على ذاته وكانت ذاته وعلمه وقدرته وإرادته شيئاً واحداً وإنّما تختلف بحسب اعتبارات تحدثها عقولنا الضعيفة بالقياس إلى مخلوقاته كما سبق بيانه في الخطبة الأولى لم يبق تفاوت في أن يستند المخلوقات إلى ذاته أو إلى علمه أو إلى قدرته أو غيرهما. وأمّا بيان أنّ العلم تابع للمعلوم حتى يمتنع أن يكون سبباً له أو متبوعاً حتى لا يمتنع ذلك فممّا حقق في مظانّه. والمسألة ممّا طال الخبط فيها بينهم، ويحتمل أن يريد بالإبداع إحكام الأشياء وإتقانها بحيث يكون محلّ التعجب يقال: هذا فعل بديع ومنظر بديع: أي معجب حسن. فظاهر أنّ ذلك منسوب إلى العلم ولذلك يستدلّ بإحكام الفعل وإتقانه على علم فاعله.

الثامن: ومنشئهم بحكمه: أي بحكمته وهو قريب من الذي قبله، ويحتمل أن يريد حكم قدرته على الموجودات بالوجود. وهو ظاهر.

وقوله: بلا اقتداء ولا تعليم.

أي لم يكن إبداعه وإنشاؤه للخلق على وجه اقتدائه بغيره ممن سبقه إلى ذلك، ولا على وجه التعلّم منه. والاقتداء أعمّ من التعلّم.

وقوله: ولا إصابة خطأ.

أي لم يكن إنشاؤه للخلق أوّلاً اتّفاقاً على سبيل الإضطراب والخطأ من غير علم منه ثمّ علمه بعد ذلك فاستدرك فعله وأحكمه فأصاب وجه المصلحة فيه. والإضافة بمعنى اللام لما أنّ الإصابة من لواحق ذلك الخطأ. وبمثل هذا اعترض المتكلّمون على أنفسهم حيث استدلوا على كونه تعالى عالماً بكل معلوم فقالوا: إنّه تعالى علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً لا من حسّ ولا نظر واستدلال فوجب أن يعلم سائرها كذلك لأنّه لا تخصيص، ثمّ سألوا أنفسهم فقالوا: لم زعمتم ذلك ولم لا يجوز أن يكون قد فعل أفعاله مضطربة ثم أدركها فعلم كيفيّة صنعها بطريق كونه مدركاً لها فأحكمها بعد اختلافها واضطرابها؟ ثمّ أجابوا عن ذلك بأنّه لا بدّ أن يكون قبل ذلك عالماً بمفرداتها من غير طريق فوجب أن يعلمها بأسرها كذلك لعدم التخصيص. وهذا الجواب فاسد لأنّ مفرداتها إن لم تكن من فعله كالأجزاء التي لا يتجزى على رأي المثبتين فليس كلامنا في علمه بها بل فيما كان من فعله ولا يلزم من العلم بمفردات الفعل العلم بالفعل، وإن كانت من فعله فقولكم: لا بدّ أن يكون عالماً بمفرداتها قبل فعلها مصادرة على المطلوب. والجواب الحقّ أنّه لو علمها بعد أن لم يعلمها لكان علمه بها حادثاً في ذاته فكان محلاً للحوادث وهو محال لما سبق.

وقوله: ولا حضرة ملأ.

أي ولم يكن خلقه لما خلق بحضرة جماعة من العقلاء بحيث يشير كل منهم عليه برأي ويعينه بقول في كيفيّة خلقه حتى يكون أقرب إلى الصواب لأنّ كل جماعة فرضت فهي من خلقه فلا بدّ أن تصدر عنه الأمور لا بحضرة أحد، ولأنّ ذلك يستلزم حاجته إلى المعين والظهير والحاجة تستلزم الإمكان المنزّه قدسه عنه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] وكلّ ذلك تنزيه لفعله عن كيفيّات أفعال عباده. ثمّ أردف ذلك باقتصاص أحوال الخلق حال انبعاث الله رسوله ﷺ. والواو في قوله: والناس. للحال: أي والناس يسيرون عند مقدمه في جهالة. وهو كناية عن تصرّفاتهم على جهل منهمْ بما ينبغي لهم من وجوه التصرّف، ويحتمل أن يريد ويسيرون في شدّة وذلك أنّ العرب كانت حينئذ في شدائد من ضيق المعاش والنهب والغارات وسفك الدماء كما قال عليه السلام فيما قيل: إنّ الله بعث محمداً ﷺ نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار. الفصل. وكذلك قوله: ويموجون في حيرة. كناية عن تردّدهم في حيرة الضلال والجهل أو في حيرة من الشدائد المذكورة.

وقوله: قد قادتهم أزمّة الحين.

أي قد تداعوا للموت والفناء من كثرة الغارات وشدائد سوء المعاش وظلم بعضهم لبعض لأنّ الناس إذا لم يكن بينهم نظام عدليّ ولم يجر في أمورهم قانون شرعيّ أسرع فيهم ظلم بعضهم البعض واستلزم ذلك فناؤهم، ولمّا استعار لفظ الأزمّة رشّح بذكر القود.

وقوله: واستغلقت. إلى قوله: الرين.

أراد رين الجهل وتغطيته لقلوبهم عن أنوار الله تعالى والاستضاءة بأضواء الشريعة. واستعار لفظ الأقفال لغواشي الجهل والهيئات الرديئة المكتسبة من الإقبال على الدنيا، ووجه المشابهة أنّ تلك مانعة للقلب وحاجبة له عن قبول الحقّ والاهتداء به كما تمنع الأقفال ما يغلق عليه من التصرف، ورشّح بذكر الاستغلاق وإنّما أتى بلفظ الاستفعال لأنّ ذلك الرين كان أخذ في الزيادة ومنتقلاً من حال إلى حال فكأنّ فيه معنى الطلب للتمام. ثمّ عقّب بالوصيّة بتقوى الله على جري عادته لأنّها رأس كل مطلوب، ورغب فيها بكونها حقّ الله عليهم: أي الأمر المطلوب له المستحقّ عليهم، وبكونها موجبة على الله حقّهم وهو جزاء طاعتهم له الذي أوجبه على نفسه ولزم عن كمال ذاته الفيّاضة بالخيرات بحسب استعدادهم له بالتقوى. ثمّ أشار إلى ما ينبغي للمتصدي إلى التقوى وهو أن يستعين على قطع عقباتها بالله والانقطاع إليه أن يعينه عليها ويوفقه بها فإنّ الانقطاع إلى معونته والالتفات إليه مادّة كلّ مطلوب. ثمّ إلى فائدتها وهي الاستعانة بها على الله تعالى. ولمّا كان المطلوب منه الوصول إلى ساحل عزّته والنظر إلى وجهه الكريم والسلامة من غضبه ونقاش حسابه إذ هو تعالى الحاكم الأوّل كانت التقوى أجلّ ما يستعد به لحصول تلك المطالب، وكان السعيد من استعان بها على دفع شدائده تعالى في الآخرة من المناقشة فإنّه لا خلاص منها إلاّ بها. ثمّ عقّب ذكرها ببيان ما يستلزمه من الأمور المرغوب فيها: منها كونها في اليوم: أي في مدّة الحياة حرزاً وجنّة: أي من المكاره الدنيويّة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا - من أمره - وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣] وفي غد: أي في يوم القيامة الطريق إلى الجنّة. وهو ظاهر، ومنها كون مسلكها واضحاً وظاهر أنّ الشارع عليه السلام أوضح طرق التقوى وكشف سبلها حتى لا يجهلها إلا جاهل، ومنها كون سالكها رابحاً. واستعار لفظ الربح لما يحصل عليه المتقي من ثمرات التقوى في الدنيا والآخرة، ووجه الاستعارة أنّه بحركاته وتقواه التي يشبه رأس ماله يستفيد الثواب كما يستفيد التاجر مكاسبه، ومنها كون مستودعها حافظاً. والمستودع بالفتح قابل الوديعة وبكسرها فاعلها. والمراد على الرواية بالفتح كون قابلها حافظاً لنفسه بها من عذاب الله أو يكون حافظاً بمعنى محفوظ، وعلى الثانية فالمستودع لها إمّا الله سبحانه، إذ هي الأمانة التي عرضها على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان وظاهر كونه تعالى حافظاً على العبد المستودع أحواله فيها من تفريطه وتقصيره أو أمانته ومحافظته عليها، وإمّا الملائكة التي هي وسائط بين الله تعالى وبين خلقه. وظاهر كونهم حفظة كما قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقوله: لم تبرح عارضة نفسها. إلى قوله الغابرين.

كلام لطيف، واستعار وصف كونها عارضة نفسها. ووجه الاستعارة كونها مهيّأة لأن تقبل وبصدد أن ينتفع بها كالمرأة الصالحة التي تعرض نفسها للتزويج والانتفاع بها. ثمّ علل كونها لم تبرح كذلك لحاجة الخلق إليها غداً: أي يوم القيامة ترغيباً فيها بكونها محتاجاً إليها، ويحتمل أن يدخل ذلك في وجه الشبه.

وقوله: إذا أعاد. إلى قوله: أسدى.

كالقرينة المخرجة لغد عن حقيقته إلى مجازه وهو يوم القيامة، وتعيين له بأنّه الوقت الذي يعيد الله فيه ما كان أبداه من الخلق ويأخذ فيه ما كان أعطاهم من الوجود الدنيويّ ولواحقه ويقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار. وفي الحديث: إنّ الله تعالى يجمع كل ما كان في الدنيا من الذهب والفضّة فيجعله أمثال الجبال ثم يقول: هذا فتنة بني آدم. ثمّ يسوقه إلى جهنّم

فيجعله مكاوي لجباه المجرمين ويسألهم فيه عمّا أسدى إليهم فيه من نعمه فيسأل من ادّخرها لم ادّخرها ولم ينفقها في وجوهها المطلوبة لله، ويسأل من أنفقها في غير وجهها! فيقول: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها. ويجازي الأوّلين بادّخارها كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥] الآية، ويجازي الآخرين بصرفها في غير وجهها كما قال: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقوله: فما أقلّ من قبلها.

تعجّب من قلّة من قبل التقوى بينهم وحملها حقّ حملها: أي أخذها وحفظها بشرائطها واستعدّ بها ليؤدّي أمانة الله فيها. إذ هي الأمانة المعروضة. ثمّ حكم بكون قابلها وحاكمها هم أقلّ الناس عدداً، وأنّهم أهل صفة الله: أي الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. ثمّ أمرهم فيها بأوامر:

أحدها: أن يهطعوا بأسماعهم إليها: أي يسرعوا إلى سماع وصفها وشرحها ليعرفوها فيعملوا على بصيرة.

الثاني: أن يواكظوا عليها بجدّهم: أي يداوموا عليها ويلازموها باجتهاد منهم، وروي وانقطعوا بأسماعكم إليها: أي انقطعوا عن علائق الدنيا واستصحبوا أسماعكم إلى سماع وصفها. فكأنّ إحدى الروايتين تصحيف الأخرى لأنّ النون والقاف إذا تقارنا أشبها الهاء في الكتابة.

الثالث: أن يعتاضوها خلفاً عن كل محبوب في الدنيا سلفاً لهم، ونعم الخلف ممّا سلف إذ كانت المطالب الحاصلة بها أنفس المطالب وهي السعادة الأبديّة وخلفاً مصدر سدّ مسدّ الحال.

الرابع: أن يعتاضوها من كلّ مخالف لهم موافقاً. والمراد أنّ كلّ من كان موافقاً لك ثمّ خالفك في أمر من الأمور فينبغي أن يكون على طريق الحقّ والتقوى في ذلك الأمر، ولا تميل ميل مخالفك فإنّ التقوى نعم العوض ممّن خالفك. ونحوه ما قال أفلاطون الحكيم: سقراط حبيبنا والحقّ حبيبنا وإذا اختلفنا كان الحقّ أحبّ إلينا.

الخامس: أن يوقظوا بها نومهم. قال بعض الشارحين: أراد أن يوقظوا بها نوّامكم فأقام المصدر مقام اسم الفاعل مجازاً لما فيه من التضادّ في القرينة. قلت: ويحتمل أن يريد بقوله: أيقظوا: أي اطردوا بتقوى الله وعبادته نومكم في ليلكم وأحيوه بها. فاستعمل لفظ الإيقاظ لإفادته ذلك المعنى إذ كان الأمر بإيقاع أحد الضدّين في محل يستلزم الأر بنفي الضدّ الآخر عن ذلك المحل مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم على لازمه ولما فيه من التضادّ، ويحتمل أن يريد بالنوم نوم الغفلة والجهل وبإيقاظ النائمين منها بها تنبيههم بها من مراقد الطبيعة وإعدادهم بإجراء العبادة وقوانينها لحصول الكمالات العلميّة والعمليّة على سبيل الاستعارة. ووجهها ظاهر ممّا سبق.

السادس: وأن يقطعوا بها يومهم: أي يقطعوا بالاشتغال بها نهارهم.

السابع: أن يشعروها قلوبهم: أي يجعلوها شعاراً لقلوبهم ويلبسوها إيّاه كما يلبس الشعار. ولفظ الشعار مستعار لها، ووجه الاستعارة كون التقوى الحقيقيّة تلازم النفس وتتّصل بالقلب كما يتصل الشعار بالجسد، ويحتمل أن يريد اجعلوها لازمةً لقلوبكم ليتميّز بها عن قلوب الظالمين، ويحتمل أن يريد أشعروها قلوبكم: أي أعلموها بها واجعلوها شاعرة بتفاصيلها ولوازمها.

الثامن: أن يرحضوا بها ذنوبهم: أي يغسلوها بالاشتغال بالتقوى. ولفظ الرحض مستعار باعتبار كون التقوى ماحية لدرن الذنوب والهيئات البدنيّة عن ألواح النفوس كما يمحق الغسل درن الثوب وأوساخه.

التاسع: أن يداووا بها الأسقام: أي أسقام الذنوب وأمراض القلوب كالجهل والشكّ والنفاق والرياء والحسد والكبر والبخل وجميع رذائل الأخلاق التي هي في الحقيقة الأسقام المهلكة، ولاشتمال التقوى على جميع الأعمال الجميلة والملكات الفاضلة كانت دواء لهذه الأسقام وشفاء لا يعقبه داء.

العاشر: وأن يبادروا بها الحمام: أي يسارعوه ويسابقوه بها. وقد سبق بيانه في الخطبة السابقة.

الحادي عشر: أن يعتبروا بمن أضاعها: أي ينظروا إلى الأمم السابقة قبلهم ممّن أضاع التقوى، ويتفكّروا في حاله كيف أضاعها لأمر لم يبق له ففاته ما طلب ولم يدرك ما فيه رغب ثمّ حصل بعد الهلاك على سوء المنقلب فيحصّلوا من ذلك عبرة لأنفسهم فيحملوها على التقوى خوفاً ممّا نزل بمن أضاعها من الخيبة والحرمان والرجوع إلى دار الهوان.

الثاني عشر: أن لا يجعلوا أنفسهم عبرة لمن أطاعها: أي انقاد للتقوى ودخل فيها أو أطاع موجبها فحذف المضاف، والمراد نهيهم أن يدخلوا في زمرة من أضاعها فيكونوا عبرة لمن أطاعها فنهى عن لازم الإضاعة وهو اعتبار غيرهم بهم. وصورة ذلك النهي وإن كانت متعلّقة بغيرهم إلاّ أنه كناية عن نهيهم عمّا يستلزم عبرة الغير بهم وهو إضاعة التقوى لأنّ النهي عن اللازم يستلزم النهي عن الملزوم، وهذا كما تقول لمن تنصحه: لا يضحك الناس منك: أي لا تفعل ما يستلزم ذلك ويوجبه منهم.

الثالث عشر: أن يصونوها. وصيانتها شدّة التحفّظ فيها من خلطها برياء أو سمعة ومزجها بشيء من الرذائل والمعاصي.

الرابع عشر: أن يتصوّنوا بها: أي يتحفّظوا بها عن الذنوب والرذائل وثمرتها ويتحرّزوا بالاستعداد لها من لحوق العذاب في الآخرة.

الخامس عشر: أن يكونوا عن الدنيا نزّاهاً: أي متنزّهين عمّا حرّم الله عليهم وكرهه ممّا يوجب لهم الذّم عاجلاً والعقاب آجلاً وهو أمر بالتقوى أيضاً.

السادس عشر: أن يكونوا إلى الآخرة ولّاها: أي متحيّرين من شدّة الشوق إليها وذلك مستلزم للأمر بالتقوى والانقطاع عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة لأنّها هي السبب في محبّة الآخرة والرغبة التامّة فيما عند الله.

السابع عشر: أن لا يضعوا من رفعته التقوى. ووضعه إمّا بقول كذمّه والاستهزاء به، أو بفعل كضربه، أو فعل ما يستلزم إهانته، أو ترك قول، أو ترك فعل يستلزم ذلك. ولمّا كان كلّ ذلك منافياً للتقوى وداخلاً في أبواب الرذائل لا جرم نهى عن لازمه وهو وضع من رفعته التقوى لاستلزام رفع اللازم رفع الملزوم.

الثامن عشر: أن لا يرفعوا من رفعته الدنيا. وأراد من ارتفاعه وجاهته عند الخلق بسبب الدنيا واقتناء شيء منها. والتقدير: من رفعته أهل الدنيا. فحذف المضاف، أو اسند الرفع إلى الدنيا مجازاً لأنّ الرافع والمعظم له هم الناس، ولمّا كان من رفعته الدنيا عادلاً عن التقوى كان الميل إليه واحترامه ومحبّته يستلزم المحبّة للدنيا والميل إليها وكان منهيّاً عنه، وكان الانحراف عنه وعدم توقيره زهداً في الدنيا وأهلها هو من جملة التقوى فكان مأموراً به.

التاسع عشر: نهى عن شيم بارقها. استعار لفظ البارق لما يلوح للناس في الدنيا من مطامعها ومطالبها، ووصف الشيم لتوقّع تلك المطالب وانتظارها والتطلّع إليها على سبيل الكناية عن كونها كالسحابة التي يلوح بارقها فيتوقّع منها المطر.

العشرون: وعن سماع ناطقها. وكنّى بناطقها عن مادحها وما كشف وصفها وزينها من القول أو فعل أو زينة أو متاع، وبسماعه عن الإصغاء والميل إليه وتصديق مقاله وتصويب شهادته بأنّها هي التي ينبغي أن يقتني ويدّخر ويعتني بها إلى غير ذلك فإنّ كل ذلك سبب للعدول عن التقوى وطريق الآخرة إلى طرق الهلاك.

الحادي والعشرون: وعن إجابة ناعقها. وكنّى بناعقها عن الداعي إليها والجاذب مما ذكرنا، وبإجابته عن موافقته ومتابعته.

الثاني والعشرون: والاستضاءة بإشراقها. واستعار لفظ الإشراق لوجوه المصالح الداعية إليها والآراء الهادية إلى طرق تحصيلها وكيفيّة السعي فيها، ووصف الاستضاءة للاهتداء بتلك الآراء في طلبها، ووجه المشابهة أنّ تلك الآراء يهتدى بها في تحصيلها كما يهتدى بالإشراق المحسوس. وهذه القرينة قريبة المعنى من القرينتين قبلها، ويحتمل أن يريد بإشراقها ما يبتهج به من زينتها وأنوار جنابها، وبالاستضاءة ذلك الابتهاج

والالتذاذ على سبيل الاستعارة، ووجهها مشاركة زينتها للضياء في كونه سبباً ممدّاً للأرواح باسطاً لها.

الثالث والعشرون: ومن الفتنة بأعلاقها. وأعلاقها ما يعدّ فيها نفيساً من قيناتها ومتاعها، وهو مستلزم للنهي لهم عن محبّة الدنيا والانهماك في لذّاتها لأنّ ذلك هو الفاتن لهم والمضلّ عن سبيل الله وهو سبب بلائهم ومحنتهم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] قال المفسّرون: بلاء ومحنة واشتغال عن الآخرة. والإنسان بسبب المال والولد يقع في العظائم ويتناول الحرام إلاّ من عصمه الله، وعن أبي بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا يوماً فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثمّ قال: صدق الله عزّ وجل ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] نظرت إلى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى نزلت إليهما ورفعتهما. ثمّ أردف ذلك بتعداد معائب وأوصاف لها منفّرة عنها معلّلاً بها ما سبق من نواهيه عنها.

فقوله: فإنّ برقها خالب.

تعليل لنهيه عن شيم بارقها. واستعار وصف الخالب لما لاح من مطامعها، ووجه المشابهة كون مطامعها وآمالها غير مدركة وإن أدرك بعضها ففي معرض الزوال كأن لم يحصل فأشبهت البرق الذي لا ماء فيه وإن حصل معه ضعيف فغير منتفع به فلذلك لا ينبغي أن يشام بارقها.

وقوله: ونطقها كاذب.

تعليل لنهيه عن سماع نطقها: أي النطق الحاصل في معناها، وفي مدحها، وأنّها ممّا ينبغي أن يطلب ويدّخر، ووصف نفسها ولذّاتها بلسان حالها الذي تغرّ به الأوهام الفاسدة. وكونه كذباً كناية عن عدم مطابقة ذلك الوصف بحالها في نفس الأمر.

وقوله: وأموالها محروبة.

كالتعليل لنهيه عن الاستضاءة بإشراقها: أي لا ينبغي أن تستعمل الآراء الحسنة والحيل في تحصيل أموالها، أو لا ينبغي أن تحبّ زينتها وأموالها ويبتهج بها فإنّها مأخوذة.

وقوله: وأعلاقها مسلوبة.

تعليل لنهيه عن الافتتان بأعلاقها، ويحتمل أن تكون هذه القرينة مع التي قبلها تعليل للنهي عن الفتنة بأعلاقها، ثمّ أردف تلك الأوصاف بالتنبيه على أوصاف أخرى ونقائض لها مستعارة نفّر بها عنها:

أحدها: أنّها المتصدّية العنون. قال بعض الشارحين: هو استعارة وصف المرأة الفاجرة التي من شأنها التعرض للرجال لتخدعهم عن أنفسهم ويحتمل أن يكون استعارة لوصف الفرس أو الناقة التي تمشي في الطريق معترضة خابطة.

وقوله: العنون.

استعارة بوصف الدابّة المتقدّمة في السير. كنّى بهما عن لحوق الدنيا بالدابّة تكون كذلك. ووجه المشابهة في الوصف الأوّل أنّ الدنيا في تغيّراتها وأحوالها وحركاتها غير مضبوطة ولا جارية مع الإنسان على حال واحد فأشبهت الناقة التي تعترض في طريقها وتمشي على غير استقامة، ووجهها في الثاني أنّ مدّة الحياة الدنيا في غاية الإسراع وشدّة السير بأهلها إلى الآخرة فأشبهت السريعة من الدوابّ المتقدّمة في سيرها.

الثاني: الجامحة الحرون. استعار وصف الجماح لها باعتبار كونها لا تملك لأهلها ولا ينقاد لهم كما لا ينقاد الحرون لراكبها، وكذلك وصف الحرون باعتبار عدم انقياده لأهلها وعدم قدرتهم على تصريفها وهم أحوج ما يكونون إليها.

الثالث: المائنة الخؤون. فاستعار وصف الكاذبة لها باعتبار عدم مطابقة اغترارها للناس بزينتها ومتاعها وتوهّمهم عن ذلك بقاؤها ونفعها لما عليه الأمر في نفسه. إذ كان عن قليل ينكشف كذبها فيما غرتهم به وكذب أوهامهم فيها، وكذلك وصف الخؤون باعتبار عدم وفائها لمن غرّته وخدعته عن نفسه بزينتها فكأنّها لذلك أعطته عهداً بدوامها له فخانته بزوالها عنه ولم تف بعهده.

الرابع: الجحود الكنود، واستعار لها هذين الوصفين ملاحظة لشبهها بالمرأة التي تكفر نعمة زوجها وتنكر صنيعه، ويكون من شأنها الغدر، وذلك أن الدنيا

من شأنها أن تنفر عمّن رغب فيها وسعى لها واجتهد في عمارتها وإظهار زينتها، ويكون سبب هلاكه ثمّ ينتقل عنه إلى غيره.

الخامس: العنود الصدود. فاستعار وصف العنود لها باعتبار عدولها عن حال استقامتها على الأحوال المطلوبة للناس، وانحرافها عن سنن قصودهم منها كالناقة التي تنحرف عن المرعى المعتاد للإبل وترعى جانباً. وكذلك الصدود باعتبار كثرة إعراضها عمّن طلبها ورغب فيها.

السادس: والحيود الميود فاستعارة وصف الحيود ظاهرة، وأمّا وصف الميود فباعتبار تردّدها في ميلها بالنسبة إلى بعض أشخاص الناس من حال إلى آخر فتارة لهم وتارة عليهم. ويحتمل أن لا يكون قد اعتبر قيد التردّد بل أراد مطلق الحركة استعارة لكثرة تغيّرها وانتقالها.

السابع: حالها انتقال. إخبار عن حالها بأنّها انتقال: أي من شخص إلى آخر ومن حال إلى حال. وظاهر أنّها كذلك. قال بعض الشارحين: يجوز أن يريد به أنّ شيمتها وسجيّتها الانتقال والتغيّر. ويحتمل أن يعني بالحال الحاضرة من الزمان وهو الآن. ويكون مراده أنّ الذي يحكم عليه العقلاء بالحضور منها ليس بحاضر بل هو سيّال متغيّر لا ثبوت له في الحقيقة كما لا ثبوت للماضي والمستقبل.

الثامن: ووطأتها زلزال. استعار لفظ الوطأة لإصابتها ببعض شدائدها، ووجه الاستعارة استلزام إصابتها بذلك إهانة من أصابته والثقل عليه كما يستلزم وطأة الثقيل من الحيوان ذلك، واستعار لفظ الزلزال لاضطراب أحوال من تصيبه بمكروهها كاضطراب الأرض بالزلزال.

التاسع: عزّها ذلّ: أي العزّ الحاصل عنها لأهلها بسبب كثرة قيناتها كعزّة ملوكها ومنفعتهم ذلّ في الآخرة، وأطلق عليه لفظ الذلّ إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه أو تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه. إذ كان العزّ بالدنيا وأموالها مستلزماً للانحراف عن الدين والتقوى الحقّة، وذلك مستلزم للذلّ الأكبر عند لقاء الله.

وإليه الإشارة بقوله تعالى حكاية عن المنافقين ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] ونقل المفسّرون أنّ القائل لذلك عبد الله بن أبي، والأعزّ يعني نفسه والأذلّ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله فردّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨] الآية.

العاشر: وجدّها هزل. استعار لفظ الجدّ وهو القيام في الأمر بعناية واجتهاد لإقبالها على بعض أهلها بخيراتها كالصديق المعتني بحال صديقه، ولإدبارها عن بعضهم وإصابتها له بمكروهها كالعدوّ القاصد لهلاك عدوّه. واستعار لجدّها لفظ الهزل الذي هو ضدّه. ووجه الاستعارة كونها عند إقبالها على الإنسان كالمعتنية بحالها أو عند إعراضها عنه ورميه بالمصائب كالقاصدة لذلك ثمّ يسرع انتقالها عن تلك الحال إلى ضدّها فهي في ذلك كالهازل اللاعب. ويحتمل أن يريد جدّ أهلها هزل: أي عنايتهم بها واجتهادهم في تحصيلها يشبه الهزل واللعب في سرعة تغيّره والانتقال عنه بزوالها فاستعار له لفظه.

الحادي عشر: وعلوّها سفل: أي العلوّ الحاصل بسببها أو علوّ أهلها على تقدير حذف المضاف، وأخبر عنه بأنّه سفل لاستلزامه السفل وانحطاط المرتبة في الآخرة بين أهلها. وهو كقوله: وعزّها ذلّ.

الثاني عشر: كونها دار حرب. كقوله: أموالها محروبة. وأراد كونها مظنّة أن تسلب قيناتها عن أهلها بالموت وغيره. واستعار لفظ السلب لما فيها من القينات. ووجه المشابهة كون ما فيها يسلب عن أهلها في كلّ زمان ويصير إلى من بعدهم كدار حرب. وكذلك نهب وعطب.

الثالث عشر: كون أهلها على ساق: أي على شدّة. وهو ظاهر. إذ كلّ ما عدّد من أوصافها من الحرب والسلب والعطب شدائد عليها أهلها. وقال قطب الدين الراونديّ: أراد بكونها على ساق أنّ بعضهم يتبع أثر بعض إلى الآخرة فأشبه ذلك قولهم: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق: أي ليس بينهم أنثى. وأنكره ابن أبي

الحديد. وكنّى بالساق عن الأمر الشديد. قال بعض الشارحين: ويحتمل أن يكون مصدر قولك ساقه سياقاً: أي أنّهم مساقون إلى الآخرة، ولحاق - بفتح اللام - أي يلحق بعضهم بعضاً في الوجود والعدم، وفراق يفارق بعضهم بعضاً. وهو كقولهم: الدنيا مولود يولد ومفقود يفقد. ويحتمل أن يريد باللحاق لحاق الأحياء للموتى في العدم.

الرابع عشر: كونها قد تحيّرت مذاهبها، ولم يرد بمذاهبها طرقها المحسوسة ولا الاعتقادات بل الطرق العقليّة في تحصيل خيرها ودفع شرّها. وأسند الحيرة إلى المذاهب مجازاً إقامة للعلّة القابلة مقام العلّة الفاعلة. إذ الأصل تحيّر أهلها في مذاهبها.

الخامس عشر: وأعجزت مهاربها: أي وأعجزت من طلبها. فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر الإعجاز. ومهاربها مواضع الهرب من شرورها.

السادس عشر: وخابت مطالبها. استعار وصف الخيابة للمطالب، ووجه المشابهة عدم حصولها بعد ظهورها للأوهام وتعلّق الآمال بها فأشبهت من وعد بحصول شيء لم يف به. ثم عقّب بذكر بعض لوازم خيابة مطالبها، وهي إسلام المعاقل لهم، واستعار لها لفظ الإسلام باعتبار كونها لا تحفظهم من الرزايا ولا تحصنهم من سهام المنايا فأشبهت في ذلك من أسلم الملتجىء إليه وخلّى عنه لعدوّه. ولكون ذلك لازماً عطفه بالفاء. وكذلك لفظ المنازل لهم مستعار باعتبار خروجهم منها بالموت فهي كاللافظة الملقية لهم. ثمّ قسّمهم باعتبار لحوق شرّها لأحيائهم وأمواتهم إلى أصناف:

أحدها: ناج معقور. وأراد الباقين فيها، وكنّى بالمعقور عن من رمته بالمصائب فيها المشبهة للمعقور.

الثاني: ولحم مجزور، وأراد منهم من صار لحماً مجزوراً.

الثالث: وشلو مذبوح، وأراد ذي شلو مذبوح: أي قد صار بعد الذبح أشلاء متفرّقة، ويحتمل أن يكون مذبوح صفة للشلو، وأراد بالذبح مطلق الشقّ كما هو في أصل اللغة.

الرابع: ودم مسفوح: أي وذي دم مسفوح.

الخامس: وعاضّ على يديه، وهو كناية عن ندم الظالمين بعد الموت على التفريط والتقصير. إذ كان من شأن النادم ذلك.

السادس: وصافق بكفيّه: أي ضارب إحديهما على الأخرى ندماً.

السابع: و - كذلك - مرتفق لخدّيه: أي جاعل مرفقيه تحت خديّه فعل النادم.

الثامن: و - كذلك - وزار على رأيه: أي رأيه الذي اقتضى له السعي في جمع الدنيا والالتفات إليها بكليّته حتى لزم من ذلك إعراضه عن الآخرة فحاق به سيء ما كسب فإذا انكشف له بعد الموت لزوم العقاب وظهرت له سلاسل الهيئات البدنيّة وأغلالها في عنقه علم أنّ كل ذلك ثمرة ذلك الرأي الفاسد فأزرى عليه وعابه وأنكره.

التاسع: وراجع عن عزمه: أي ما كان عزم من عمارة الدنيا والسعي في تحصيلها، وبالموت تنجلي تلك العزوم ويرجع عنها.

وقوله: وقد أدبرت الحيلة.

الواو للحال من الضمير في راجع: أي وراجع عن عزمه حال ما قد أدبرت حيلته وهذه الحال مفسّرة لمثلها عن الضمائر المرفوعة في عاضّ، وصافق، ومرتفق، وزار.

وقوله: وأقبلت الغيلة.

أي أخذهم إلى جهنّم وإهلاكهم فيها على غرّة منهم بذلك الأخذ، وقال بعض الشارحين: يحتمل بالغيلة الشرّ بمعنى الغائلة.

وقوله: ولات حين مناص.

في موضع الحال والعامل أقبلت: أي وأقبل الهلاك والشرّ حال ما ليس لهم وقت فرار ولا تأخر عنه كقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] أي فنادوا مستغيثين حال ما ليس الوقت وقت مخلص ومفرّ.

وقوله: هيهات هيهات.

أي بعد الخلاص والفرار. وأتى به مكرّراً للتأكيد،

وهو في مقابلة قول الكفّار المنكرين لأحوال المعاد «هيهات هيهات لما توعدون» وكالجزاء له بعد الموت.

وقوله: وقد فات ما فات. إلى قوله: ذهب.

أي فات ما كنتم فيه من أحوال الدنيا التي يتمنون الرجعة إليها فلا رجوع لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] الآية.

وقوله: ومضت الدنيا لحال بالها.

كلمة يخبر بها عمّن مضى، أو يأمر بالمضي: أي ومضت عنهم الدنيا لحال بالها. ونحوه قوله عليه السلام: حتّى إذا مضى الأوّل لسبيله. وقوله: امض لشأنك. واللام للغرض فكأنّه استعار لها لفظ البال بمعنى القلب ملاحظةً لشبهها بمن يمضي لغرض نفسه وما يهواه قلبه، ويحتمل أن يريد بالبال الحال أيضاً وجواز الإضافة لاختلاف اللفظين، وقال بعض الشارحين: أراد بحال بالها ما كانت عليه من رخائها وسهولتها على أهلها.

وقوله: وأقبلت الاخرة.

أي بشدّتها وصعوبتها. ثمّ ختم بالآية اقتباساً. والمعنى أنّهم لمّا ركنوا إلى الدنيا فعلت بهم ما فعلت، وحصلوا على ما حصلوا عليه من البداهة، وولّت عنهم لشأنها «فما بكت عليهم السماء والأرض» قال بعض المفسّرين: أراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض فحذف المضاف. وهو كناية عن كونهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم ولا أن يبكون، وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم لأنّ العرب كانت تقول في عظيم القدر يموت: بكته السماء والأرض. فنفى عنهم ذلك، وأراد ليسوا ممّن يقال فيهم مثل هذا القول.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه لمّا قيل له: أتبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: يبكيه مصلاّه في الأرض ومصعد عمله في السماء.

فيكون نفي البكاء عنهم كناية عن أنّه لم يكن لهم في الأرض موضع عمل صالح حتى يكون له مصعد في السماء فلم تبك عليهم، ونحوه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من مسلم إلاّ وله بابان: باب يصعد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقه إلى الأرض فإذا مات بكيا عليه. فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] واعلم أنّ إطلاق لفظ البكاء على السماء والأرض مجاز في فقدهما لما ينبغي أن يكون فيهما من مساجد المؤمنين ومصاعد أعمالهم قياساً في ذلك من فقد شيئاً يحبّه ويبكي له فأطلق عليه إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. وبالله التوفيق.

٢٣٥ - ومن خطبة له عليه السلام

تسمى القاصعة:

وهي تتضمن ذم إبليس على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية، وتحذير الناس من سلوك طريقته وفيها فصول:

الفصل الأول: قوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلالِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً؟!

وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ

الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ. وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ البَلْوَى فِيهِ عَلَى المَلائِكَةِ. وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاءِ مِنْهُمْ.

أقول: نقل في سبب هذه الخطبة: أنّ أهل الكوفة كانوا في آخر خلافته عليه السلام قد فسدوا وكانوا قبائل متعدّدة فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى فيقع به أدنى مكروه فيستعدي قبيلته، وينادي باسمها مثلاً يا للنخع أو يا لكنده نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ فيتألّب عليه فتيان القبيلة التي قد مرّ بها وينادون يا لتميم يا لربيعة فيضربونه فيمرّ إلى قبيلته ويستصرخ بها وتسلّ بينهم السيوف وتثور الفتنة، ولا يكون لها أصل في الحقيقة ولا سبب يعرف إلاّ تعرّض الفتيان بعضهم ببعض، وكثر ذلك منهم فخرج عليه السلام إليهم على ناقة فخطبهم هذه الخطبة. إذا عرفت ذلك فنقول:

القصع: ابتلاع الماء والجرّة، وقصعت الرجل قصعاً: صغّرته وحقّرته، وقصعت هامته: إذا ضربتها ببسط كفّك، وقصع الله شبابه: إذا بقي قميئاً. فهو مقصوع لا يزداد. وأصل هذه الكلمة للتصغير والتحقير. والجبريّة والجبروت: الكبر. وادّرعه: لبسه كالدرع. والدحر: الطرد. وخطف بالكسر. يخطف: أخذ البصر بسرعة استلاباً. وتبهر العقول: أي يغلب نوره أنوارها وينمحق فيه. والرواء: المنظر الحسن. والعرف: الرائحة الطيّبة. والخيلاء: الكبر. والإحباط: الإبطال. والجهد بفتح الجيم: الاجتهاد. والهوادة: الصلح.

وقد ذكر الشارحون في تسمية هذه الخطبة القاصعة وجوهاً:

أحدها: وهو أقربها أنّه عليه السلام كان يخطبها على ناقته وهي تقصع بجرّتها فجاز أن يقال: إنّ هذه الحال لمّا نقلت عنه في أسناد هذه الخطبة نسبت الخطبة إلى الناقة القاصعة فقيل: خطبة القاصعة ثمّ كثر استعمالها فجعلت من صفات الخطبة نفسها، أو لأنّ الخطبة عرفت بهذه الصفة لملازمة قصع الناقة لإنشائها. والعرب يسمّي الشيء باسم لازمه.

الثاني: إنّها سمّيت بذلك لأنّ المواعظ والزواجر فيها متتابعة فأشبهت جرّات الناقة وتتابعها.

الثالث: سمّيت بذلك لأنّها هاشمة كاسرة لإبليس، ومصغّرة ومحقّرة لكل جبّار. وهو وجه حسن أيضاً.

الرابع: لأنّها تسكّن نخوة المتكبّرين وكبرهم فأشبهت الماء الذي يسكّن العطش فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه إذا سكّنه وأذهبه.

واعلم أنّ مدار هذه الخطبة على النهي عن الكبر والتوبيخ عليه وعلى ما يلزمه من الحميّة والعصبيّة لغير الله تعالى ليكون الناس ضدّ ذلك من التواضع والرفق، وقد علمت في المقدّمات أنّ من شأن الخطيب أن يورد في صدر الخطبة ما ينبّه على المطلوب الذي يورده بقول كلّي ليتنبّه السامعون لما يريده إجمالاً فلذلك صدّر عليه السلام الخطبة بنسبة العزّ والكبرياء والعظمة إلى من هو أولى به وهو الله تعالى، وأشار إلى أنّ ذلك خاصّة له وحرام على غيره، وذكر إبليس وقصّته مع آدم عليه السلام في معرض الذمّ بتكبّره عليه ليترتّب على ذكره وذمّه بتلك الرذيلة النهي والتحذير عن ارتكابها وليحصل التنفير بحاله إذ كان بذلك ملعوناً مطروداً على ألسنة الأنبياء بأسرهم. وإذ كان مدار الخطبة ذمّ الكبر والنهي عنه فلنشر إلى حقيقته في الإنسان أوّلاً ثمّ إلى ما يلزمه من الآفات وإلى المذامّ الواردة فيه.

فنقول: أمّا حقيقته فهي هيئة نفسانيّة تنشأ عن تصوّر الإنسان نفسه أكمل من غيره وأعلى رتبة وتلك الهيئة تعود إلى ما يحصل للنفس عن ذلك التصوّر من النفخ والهزّة والتعزّز والتعظّم والركون إلى ما تصوّرته من كمالاتها وشرفها على الغير، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أعوذ بك من نفخة الكبر. وهي رذيلة تحت الفجور تقابل فضيلة التواضع. وما يلزم عن ذلك التصور أعني تصوّر الإنسان فضيلته على الغير إن قطع النظر فيه عن قياسه على متكبّر عليه وعن إضافته إلى الله تعالى باعتبار أنّه منه ولم يكن خائفاً من فوت تلك الفضيلة بل كان ساكناً إليها مطمئناً فذلك هو العجب. فإذن العجب

هيئة تلزم عن تصوّر الكمال في النفس واستقطاعه عن المنعم به والركون إليه والفرح به مع الغفلة عن قياس النفس إلى الغير بكونها أفضل منه. وبهذا الفصل الأخير ينفصل عن الكبر. إذ كان لا بدّ في الكبر من أن يرى الإنسان لنفسه مرتبة وللغير مرتبة ثمّ يرى مرتبته فوق مرتبة غيره. وأمّا آفاته وهي ثمراته وما يلزم عنه من الأعمال والتروك فإنّ هذا الخلق يوجب أعمالاً إذا ظهرت على الجوارح قد تسمّى كبراً: فمنها باطنة كتحقير الغير وازدرائه، واعتقاد أنّه ليس أهلاً للمجالسة والمواكلة والأنفة عن ذلك. واعتقاد أنّه يصلح أن يكون ماثلاً بين يديه قائماً؛ بل قد يعتقد من هو أشدّ كبراً أنّ ذلك لا يصلح للمثول بين يديه، وكحسده والحقد عليه، وكنظر العالم المتكبّر إلى الجاهل العاميّ بعين الاستخفاف والإستجهال. وأمّا الظاهرة فكالتقدّم عليه في الطرق والارتفاع عليه في المجالس، وكإبعاده عن مجالسته ومؤاكلته، والعنف به في النصح، والغضب عند ردّ قوله، والغلظة على المتعلّمين وإذلالهم واستخدامهم، والغيبة والتطاول بالقول. وأمّا التروك: فكترك التواضع والاستنكاف عن مجالسة من دونه ومعاشرته وعدم الرفق بذوي الحاجات ونحو ذلك ممّا لا يحصى من الرذائل.

وأمّا المذامّ الواردة فيه: فهي كثيرة في القرآن الكريم والسنّة النبويّة كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] وقول الرسول صلى الله عليه وآله: يقول الله عزّ وجلّ: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنّم. وقوله عليه السلام: لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر. وإنّما صار حجاباً عن الجنّة لأنّه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين التي هي أبواب الجنّة. فالكبر والعجب يغلق تلك الأبواب كلّها لأنّها لا تقدر على أن يحبّ للمؤمن ما يحبّ لنفسه وفيه شيء من العزّة، ولا يتمكّن من ترك هذه الرذائل وفعل أضدادها من الفضائل كالتواضع وكظم الغيظ وقبول النصح والرفق في القول وغيرها وفيه شيء من العزّة والكبرياء. وما من خلق ذميم إلاّ وصاحب العزّة والكبر مضطّر إليه ليحفظ به عزّه. وما من خلق فاضل إلا وهو عاجز عنه خوفاً أن يفوته عزّه فلذلك لم يدخل الجنّة من في قلبه مثقال حبّة من كبر وبعض الأخلاق الذميمة مستلزم للبعض. وشرّ أنواع الكبر ما منع العلم واستعماله وقبول الحقّ والانقياد له.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّه عليه السلام حمد الله تعالى باعتبارات:

أحدها: لبسه للعزّ والكبرياء. ولمّا علمت أنّ الكبرياء لا بدّ فيه من أمرين: **أحدهما**: العلم بكمال الذات. **والثاني**: اعتبار الشرف والعلوّ على الغير فكان هذان الاعتباران صادقين عليه تعالى أتمّ من صدقهما على كل موجود لا جرم كان بالكبرياء والعظمة أحقّ من كل موجود. أمّا الأوّل: فلأنّه لمّا كان كمالات الذات عبارة عن الوجود وكماله فكان وجوده تعالى أتمّ الوجودات بحيث لم يفته من كماله شيء بل كل ما ينبغي له فهو حاصل بالفعل لا جرم صدق عليه هذا الاعتبار أتمّ صدق. وأمّا الثاني: فلأن وجوده تعالى هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود عداه، وهو تعالى عالم بجميع المعلومات كليّها وجزئيّها فهو إذن عالم بكماله وشرفه على عبيده. واستعار لفظ اللبس باعتبار إحاطة كماله بكلّ اعتبار له كما يحيط القميص والرداء بجسد لابسه.

الثاني: كونه تعالى اختارهما لنفسه دون خلقه. ومعنى اختياره هنا تفرّده باستحقاقهما لذاته فإنّ المستحقّ للعزّ والكبرياء بالذات ليس إلا هو، ودلّ على ذلك المنقول والمعقول. وأمّا المنقول: فقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] والألف واللام هنا يفيد حصر الكبرياء والعلوّ فيه، وأمّا المعقول فلأنّه تعالى لمّا استحقّ ذلك الاعتبار لذاته لا بأمر خارج وإلاّ لكان مفتقراً إلى الغير. ثم ذمّ المتكبرين وتوعدهم في كتابه العزيز وعلى لسان نبيّه صلى الله عليه وآله حيث قال حكاية عنه: الكبرياء ردائي. الخبر. علمنا أنّه قد اختار الاختصاص بهما دون خلقه.

الثالث: وجعلهما حمىً وحرماً على غيره. استعار

لفظ الحمى والحرم باعتبار اختياره لهما وتحريمهما على غيره من خلقه كما يحمي الملك المرعى والحرم.

الرابع: واصطفاهما لجلاله: أي لتقدّسه وعلوّه عن شبه مخلوقاته استحقّ الانفراد بهذين فتفرّد بهما. وهو معنى اصطفائه لهما.

الخامس: جعله اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. إشارة إلى نحو قوله في الخبر المذكور: فمن نازعني فيهما ألقيته في جهنّم. ولا شكّ أنّ الملقى في جهنّم مبعّد مطرود عن الخير والرحمة. ولفظ المنازعة في الخبر مجاز في محادّة المتكبرين ومجانبتهم له ومخالفتهم لأمره في الاتّصاف بالكبر فكأنّهم يجاذبونه ما اختص به ومن لوازم المجاذبة النازعة القوليّة فأطلقت هنا إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه.

السادس: اختباره بذلك ملائكته المقرّبين. إلى قوله: ساجدين: أي ابتلاهم بالتكبّر وعدمه. وقد علمت معنى ابتلائه واختباره تعالى لخلقه فيما سبق. ونزيده بياناً. فنقول: لما كانت حقيقة الاختبار طلب الخبر بالشيء ومعرفته لمن لا يكون عارفاً به، وكان هو تعالى عالماً بمضمرات القلوب وخفيّات القلوب فيميّز المطيعين من عبيده من العصاة لم يكن إطلاقاً هذا اللفظ في حقّه حقيقة بل على وجه الاستعارة باعتبار أنّه لمّا كان ثوابه وعقابه للخلق موقوفين على تكليفهم بما كلّفهم به فإن أطاعوه فيما أمرهم أثابهم وإن عصوه عاقبهم أشبه ذلك اختبار الإنسان لعبيده وتمييزه لمن أطاعه منهم ممّن عصاه، وأطلق عليه لفظه.

وقوله: ليميز المتواضعين منهم من المتكبّرين.

ترشيح لاستعارة الاختبار لأنّ التميز من لوازمه وعوارضه. ويحتمل أن يريد ليميز المطيعين عن العصاة بإعطاء الثواب لهم دونهم فلا يكون التميز بمعنى العلم بل الانفصال الخارجيّ لكل من المطيعين والعصاة بما يستحقّه من ثواب وعقاب.

وقوله: وهو العالم. إلى قوله: العيوب.

قرينة مخرجه للاختيار عن حقيقته، وهي جملة معترضة بين القول والمقول للملائكة وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ [الحجر: ٢٨] إلى آخره. والمختبر به هو قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] وقال بعض الشارحين: إنّما اختبرهم مع علمه بمضمراتهم لأنّ اختباره تعالى ليس ليعلم بل ليعلّم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصي قال: وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف: ١٢] وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي لتعلم أنت وغيرك. وفيه بعد. وقد شرحنا قصة الملائكة وإبليس وآدم في الخطبة الأولى بقدر الوسع فلا حاجة إلى التطويل بالإعادة غير أنّ هٰهنا الفاظاً تحتاج إلى الإيضاح. وافتخار إبليس وتعصّبه وتكبره على آدم في قوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ءَأَسجد لمن خلقت طيناً ءأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون. فكان تعصّبه عليه واستكباره نظراً إلى أصلهما، وكونه إمام المتعصّبين باعتبار كونه المنشأ لرذيلة العصبيّة في غير الحق والمعتدي به فيها. وأمّا العصبية في الحق فهي محمودة كما جاء في الخبر: العصبية في الله تورث الجنّة، والعصبيّة في الشيطان تورث النار. وكذلك كونه سلفاً للمتكبّرين باعتبار تقدّمه للمتكبّرين بالاستكبار على آدم. والسلف هو التقدّم.

وقوله: الذي وضع أساس العصبيّة.

إذ كانت عصبيّته لأصله كالأساس للخلق يبني عليه الخلق سائر العصبيّات ويقتدي به فيها.

وقوله: ونازع الله رداء الجبريّة.

أي بتجبّره وتكبّره. وقد عرفت وجه الاستعارة في المنازعة في الرداء، وكذلك قوله: وادّرع لباس التعزّز. لمّا استعار لفظ الأدراع لإبليس من جهة اشتماله وتلبّسه بالتعزّز رشّح بذكر اللباس، وكذلك قوله: وخلع قناع التذلّل استعارة للفظ الخلع، وترشيح بلفظ القناع.

وقوله: ألا ترون. إلى قوله: بترفّعه.

تنبيه على كيفيّة تصغير الله إيّاه ووضعه له بسبب تكبّره وتعظّمه، وذلك التصغير والوضع هو جعله في الدنيا مدحوراً بعد إخراجه من الجنّة بقوله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] وإعداده له في الآخرة سعيراً بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] ونحوه.

وقوله: لو أراد الله. إلى قوله: على الملائكة.

في صورة قياس اقتراني مركّب من متّصلين صغراهما قوله: ولو شاء الله. إلى قوله: لفعل. وكبراهما: قوله: ولو فعل. إلى آخره. وتالي الكبرى مركّب من جملتين عطفت إحديهما على الأخرى. ومعنى الصغرى أنّه تعالى لو أراد قبل خلق آدم أن يخلقه من نور شفّاف لطيف يخطف الأبصار ويبهر العقول حسنه، وطيب يأخذ النفاس رائحته ولم يخلقه من طين ظلمانيّ كثيف لفعل لأنّ ذلك أمر ممكن مقدور له، ويحتمل أن يريد بخلقه من النور روحانيّاً مجرّداً عن علاقة الموادّ المظلمة. وقد توصف المجرّدات بالنور فيقال: أنوار الله، وأنوار جلاله، وأنوار حضرته، وقد اضاءنا بنور علمه. ويوصف بالرائحة أيضاً فيقال: فلان لم يشمّ رائحة العلم. وبالطعم فيقال: فلان لم يذق حلاوة العلم. وكلّ ذلك استعارة لفظ المحسوس للمعقول تقريباً للأفهام. ومعنى الكبرى أنّه لو فعل ذلك وخلقه كذلك لظلّت أعناق الملائكة وإبليس خاضعة له. وذلك لشرف جوهره على الطين وفضل خلقته على ما يخلق منه ولم يكن ممّن يفسد في الأرض ويسفك الدماء حتى تقول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. ولا من طين منتن حتى يفخر عليه إبليس بأصله يقول: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، أأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون. ولخفّت البلوى فيه على الملائكة. وبيان الخفّة من وجهين: أحدهما: لشرف جوهره فإنّه من العادة أن يستنكف الشريف من الخضوع لمن هو دونه في أصله ويشقّ عليه التكليف بذلك في حقّه فأمّا إذا كان أصله مناسباً لأصله ومقارناً في الشرف فلا شكّ أنّ تكليفه بخدمته يكون عليه أسهل وأخفّ. والثاني: أنّهم ما كانوا عالمين بالسرّ الذي خلق له آدم وهو كونه صالحاً لخلافة الله سبحانه في عمارة الأرض وإصلاح أبناء نوعه وإعداده للكمالات وغير ذلك ممّا لا يعلمونه كما قال تعالى في جواب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] إلى ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وكما علّمه الأسماء وأمره بعرضها عليهم فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢] وظاهر أنّ تكليف النفس بما يطّلع على سرّه ويعلم وجه الحكمة فيه أسهل عليها من تكليفها بما تجهله. فلو خلقه تعالى من نور مناسباً لخلقهم لعلموا نوعيّته وسرّ خلقه فلم يشقّ عليهم التكليف بالسجود له. ويؤيّد هذا الوجه قوله: ولكنّ الله سبحانه مبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله وفي هذا الاستثناء تنبيه على عدم إرادة خلق آدم من نور. وذلك العدم هو نقيض مقدّم نتيجة القياس المذكور اللازم عن استثناء نقيض تاليها. وتقدير النتيجة أنّه لو أراد خلقه من نور لظلّت الأعناق له خاضعة وخفّت البلوى على الملائكة لكن لم يكن الأمر كذلك فاستلزم أنّه لم يرد خلقه من نور فكان معنى قوله: ولكنّ الله ابتلى خلقه. أنّه لم يرد خلقه من نور بل أراد أن يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله وهو تكليفهم بالسجود لآدم مع جهلهم بأصل ذلك التكليف والغرض منه أو جهلهم بآدم وسرّ خلقته الذي هو أصل لذلك التكليف.

ونصب قوله: تمييزاً ونفياً وإبعاداً على المفعول له: أي ليميّز بذلك التكليف وبما يستلزم من الذلّة والانقياد والخضوع المطيع من المعاصي، ولينفي رذيلة الكبر والخيلاء عنهم وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في أمر السامعين بالاعتبار بحال إبليس وما لزمه من اللعنة وبطلان أعماله الصالحة في المدّة المتطاولة بسبب التكبّر والعصبيّة الفاسدة، والتحذير من سلوك طريقته واقتفاء أثره في الكبر ولوازمه من الرذائل التي عدّدناها. وذلك قوله:

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لا يُدْرَى أَمْ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلاَّ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ.

وَمَا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ لَكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جِدَّكُمْ، فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلاءٍ. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً، وَلا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَلا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الأَرْضِ، مُصَارَحَةً لِلّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللّهَ اللّهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاقِحُ الشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلالَتِهِ، ذُلُلاً عَلَى سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ. أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ أَلاَ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللّهَ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لآلائِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَاتَّقُوا اللّهَ وَلا تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً. وَلاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَحْلاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِىءَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

أقول: الإحباط: الإبطال. والجهد بفتح الجيم:

الاجتهاد. والهوادة: الصلح. واستفزّه: استخفّه وأزعجه. وفوّق السهم: جعل له فوقاً وهو موضع الوتر منه. ونزع القوس نزعاً: أي مدّها. والإغراق في المدّ: استيفاؤه واستيعابه. والقذف: الرمي. والطماعية: الطمع. ونجمت: ظهرت. ودلف: مشى ودنا. وأقحموكم: أدخلوكم قهراً. والولجات: جمع ولجة بفتح الجيم وهي الموضع كالكهف ونحوه تستتر به المارّة من المطر وغيره. والورطات: جمع ورطة وهي الأرض المطمئنّة لا طريق فيها، والورطة: الهلاك أيضاً. والحزّ: القطع. والخزائم - جمع خزامة بكسر الخاء - : وهي حلقة من شعر في أنف البعير يشدّ فيها الزمام. وأورى: أفعل من الورى وهو إظهار النار. والمناصبة: المعاداة والمقابلة في الحرب لأنّ كلاً قد نصب نفسه وشرّه للآخرة. والتألّب: الإجتماع. وحسب الرجل: ما يعدّه من مفاخر آبائه. وأجلب عليه: جمع، وأصل الجلبة: الأصوات في الحرب والغارة. وحومة الشيء: معظمه، وما استدار منه على كثرة. وكذلك الحلقة للقوم. وعرصة موت: أي معرض له، وبصدده. والجولة: كالحلقة. والنخوة: الكبر. والنزع: الإفساد. والنفث: النفخ وهو أقل من التفل. والمسلحة: قوم ذو سلاح يحفظون الثغور والمراقب، وقد يطلق على تلك الأماكن أنفسها. والإمعان في الشيء: التباعد فيه، والإيصال والمصارحة: المكاشفة والمجاهرة. والملاقح: الفحول - واحدها ملقح بفتح الميم - ويحتمل أن يكون مصدراً. والشنئآن - بفتح النون وسكونها - : البغضاء. وأعنق الجمل في السير: مدّ عنقه وأوسع خطوته. والحنادس - جمع حندس بكسر الحاء والدال - : الليل شديد الظلمة. والذلل: جمع ذليلة فعيلة بمعنى مفعولة. والاعتزاء: الإنتماء، والانتساب إلى أب أو قبيلة. والأدعياء: جمع دعيّ وهو الذي يدعى إلى غير أبيه وينسب إليه. والحلس: ما يلزم الشيء. وأصله من حلس البعير وهو كساء رقيق يجعل تحت بردعته وقاية لظهره. والعقوق: مشاقّة الوالد وذي الرحم، ومنع برّه.

فقوله: فاعتبروا.

أمر للسامعين باعتبار حال إبليس في الكبر بعد شرح حاله في طاعة الله وطول مدّة عبادته له وما لزمه بسبب كبر ساعة واحدة من إحباط عمله ولعنته والبعد عن رحمة الله ليتنبّهوا للتخلي عن هذه الرذيلة. وجه الاعتبار أن يقال: إذا كان حال من تكبّر من الملائكة بعد عبادة ستّة آلاف سنة كذلك فكيف بالمتكبّرين من البشر على قصر مدّة عبادتهم وكونهم بشراً؟ فبطريق الأولى أن يكونوا كذلك وجهده الجهيد: أي اجتهاده الذي جهده وشقّ عليه.

وقوله: وكان قد عبد الله. إلى قوله: الآخرة.

فيشبه أن يكون قد أشار بسني الآخرة إلى سنين موهومة عن مثل اليوم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[الحج: ٤٧] وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤] وتقريره أنّ الأيّام في الآخرة ممّا لا يمكن حملها على حقائقها لأنّ اليوم المعهود عبارة عن زمان طلوع الشمس إلى مغيبها، وبعد خراب العالم على ما نطقت به الشريعة لا يبقى ذلك الزمان، وعلى رأي من أثبت بقاء الفلك تكون القيامة عبارة عن مفارقة النفوس لأبدانها أو عن أحوال تعرض لها بعد المفارقة، والمجرّدات المفارقات لا يكون لأحوالها زمان ولا مكان حتى تجري في يوم أو سنة فتعيّن حمل اليوم على مجازه وهو الزمان المقدّر بحسب الوهم القائس لأحوال الآخرة إلى أحوال الدنيا وأيّامها إقامة لما بالقوّة مقام ما بالفعل. وكذلك السنة. وهذه الأزمنة هي التي أشار إلى مثلها المتكلّمون بقولهم: إنّ تقدّم الباري تعالى على وجود العالم بتقدير أزمنة لا نهاية لها. إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤] وفي موضع ﴿مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[السّجدة: ٥] إشارة إلى تفاوت تلك الأزمنة الموهومة بشدّة أهوال أحوال أهل الآخرة وضعفها وطولها وقصرها وبسرعة حساب بعضهم وخفّة ظهره وثقل أوزار قوم آخرين وطول حسابهم كما روي عن ابن عباس في قوله ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج: ٤] قال: هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وأراد أنّ

أهل الموقف لشدّة أهوالهم يستطيلون بقاءهم فيها وشدّتها عليهم حتى يكون في قوّة ذلك المقدار. وعن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم القيامة كان مقداره خمسين ألف سنة: ما أطول هذا اليوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتى يكون عليه أخفّ من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا. وهذا يدلّ على أنّه يوم موهوم وإلاّ لما تفاوت في الطول والقصر إلى هذه الغاية. إذا ثبت هذا فنقول: يحتمل أن يكون مراده عليه السلام أنّ عبادة إبليس والملائكة الذين نقلنا في الخبر في الخطبة الأولى أنّهم أهبطوا إلى الأرض وطردوا الجنّ إلى البحار ورؤوس الجبال وعبدوا الله في الأرض زماناً كانت عبادة روحانيّة لا يستدعي زماناً موجوداً بل أحوالاً موهومة تشبه الزمان، وأنّ إبليس عبد الله في تقدير أزمنة مبلغها ستّة آلاف سنة قبل خلق آدم. ويحتمل أن يقال: إنّها كانت جسمانيّة في زمان من أزمنة الدنيا ولكن يكون في كميّة كمقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

فأمّا قوله: لا يدرى.

ففي نسخة الرضي بالبناء للفاعل. وفي غيرها من النسخ بالبناء للمفعول. والرواية الأولى تستلزم أنّه ممّن لا يدري أنّ تلك السنين من أي السنين والثانية يحتمل فيها كونه ممّن يدري ذلك. وبالجملة فلمّا كانت مدّة عبادة إبليس قبل آدم يحتمل أن يكون روحانيّة وأن يكون جسمانيّة، ويحتمل أن يكون بحسب ذلك في زمان موهوم أو موجود. وعلى تقدير أن يكون موجوداً يحتمل أن يكون من سنين كانت قبل ذلك مصطلحاً على تقدير كلّ منها بألف سنة أو بخمسين ألف سنة من سنين لا جرم لم يمكن الجزم بواحد من هذه الاحتمالات فلذلك قال: لا يدرى. قال بعض الشارحين: ويفهم من تقديره عليه السلام تلك المدّة بستّة آلاف سنة لا يدرى من أي السنين هي أنّه سمع فيه نصّاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجملاً ولم يفسّره له، أو أنّه سمعه وعلم تفصيله لكنّه لم يفصّله للناس بل أبهم القول عليهم في تعيينه لعلمه أنّ تعيين سني الآخرة ممّا يستعظمونه ولا تحتمله أذهانهم فإنّ عبادته إذا كانت ستّة آلاف سنة وكل يوم منها خمسين ألف سنة من سني الدنيا كان مبلغ ذلك ممّا يخرج من ضرب ستّة آلاف سنة في ثلاث مائة وستين مضروبة في خمسين ألفا وهو مائة وثمانية ألف ألف ألف - بتكرير لفظ الألف ثلاث مرات - وعلى تقدير أن يكون مقدار كلّ يوم ألف سنة يكون مبلغها ما يخرج من ضرب ستّة آلاف في ثلاث مائة وستّين ألفاً وهو ألفا ألف ألف سنة - بتكرير الألف ثلاث مرات وتثنيه الأوّل - ومائة ألف ألف - بلفظتين - وستّون ألف ألف - بلفظتين أيضاً - وذلك مما لا تحتمله أذهان السامعين. فلذلك أبهم القول فيه.

وقوله: فمن. إلى قوله: معصية.

استفهام إنكار لوجود من يسلم من لعنة الله وعقوبته ممّن يكون فيه رذيلة الكبر.

وقوله: يسلم على الله.

في معنى يرجع إليه سالماً من طرده ولعنته وعذابه. تقول: سلم على هذا الشيء إذا رجع إليك سالماً ولم يلحقه تلف. والباء في قوله: بمثل معصيته. للاستصحاب: أي فمن يرجع إلى الله سالماً من عذابه وقد استصحب مثل معصية إبليس: أي تكبّر كتكبّره وخالف أمر ربّه.

وقوله: كلاّ.

ردّ لما عساه يدّعى من تلك السلامة التي استنكر وقوعها باستفهامه. وفسّر ذلك الردّ بقوله: ما كان الله. إلى قوله: ملكاً. والباء في قوله: بأمر للاستصحاب أيضاً: أي ما كان ليدخل الجنّة بشراً مستصحباً لأمر أخرج به منها ملكاً. وذلك الأمر هو رذيلة الكبر التي يستصحبها الإنسان بعد الموت ملكة وخلقاً في جوهر نفسه. والقضيّة سالبة عرفيّة عامّة: أي لا يدخل الجنّة بشر بوصف الكبر ما دام ذلك الوصف. فإن كان ذلك الوصف يدوم كما في حقّ الكافر لم يدخل الجنّة أبداً، وإن كان لا يدوم جاز أن يدخل بعد زواله الجنّة. فإذن لا مسكة للرعية به قول القائلين بتخليد الفاسق من أهل القبلة في هذا الكلام. وأمّا حديث الإحباط فيقول: إنّما كان بسبب الكفر كما قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤].

فإن قلت: الكلام يقتضي أنّ إحباط عمله وإخراجه من الجنّة كان بسبب تكبّره لا بسبب كفره.

قلت: الأصل هو الكبر إلاّ أنّ تكبّره كان تكبّراً على الله وإباءاً لطاعته واستصغاراً لما أمر به حيث قال: أأسجد لبشر خلقته من صلصال، أأسجد لمن خلقت طيناً. وذلك محادّة لله وكفر به مصارحة فكان ذلك مستلزماً لكفره. ولا شكّ أنّ الكفر يستلزم إحباط العمل واللعن والخروج من الجنّة.

وقوله: إنّ حكمه في أهل السماء. إلى قوله: لواحد.

أي في إفاضته للخير والشرّ على من يستعدّ لأحدهما فمن استعدّ من أهل السماء أو أهل الأرض لخير أو شرّ فحكمه فيه أن يفيض على ما استعدّ له وذلك حكم لا يختلف اعتباره من جهته تعالى.

وقوله: وما بين الله. إلى قوله: العالمين.

أي ليس بينه وبين أحد من خلقه صلح فيخصّصه بإباحة حكم حرّمه على سائر خلقه فيختلف بذلك حكمه فيهم لأن الصلح من عوارض الحاجة أو الخوف المحالين عليه تعالى. وقال بعض الشارحين: كلّ ما جاء من الإحباط في القرآن والأثر فمحمول على أنّ ذلك الفعل المحبط قد أخلّ فاعله ببعض شرائطه اللازمة إذ لم يوقعه على الوجه المأمور به المرضي، أو فعله لا على بصيرة ويقين بل على ظنّ وتخمين. وبالجملة فحيث يقع لا على وجه يستحقّ به ثواباً؛ لا على أنّه استحق به شيئاً ثمّ أحبط. فإنّ ذلك ممّا قام البرهان على استحالته. ثمّ حذرهم من إبليس باعتبار كونه عدوّ الله بعد أمرهم باعتبار حاله وما لزمه من الشقاوة بسبب معصية له أن يعديهم بذلك الداء وهو الكبر الذي بسببه لزمته تلك الشقاوة. ومعنى عداوته لله مجانبته لأوامره ومجاوزته لطاعته إلى معصيته وهو مستعار. ولفظ الداء مستعار للكبر يقرب من الحقيقة فإنّ أدواء النفوس أشدّ من أدواء الأبدان. ومحلّ أن يعديكم نصب على البدل من عدوّ، ونقل عن القطب الراوندي رحمه الله أنّه مفعول ثان عن احذروا. وهو سهو. إذ هذا الفعل لا يتعدّى إلى مفعولين.

وقوله: بخيله ورجله.

كناية عن أعوانه من الضالين المضلّين الذين يستخفّون الناس بالوسوسة والدعوة إلى طرق الضلال.

وقوله: فلعمري. إلى قوله: الشديد.

استعار لفظ السهم لوساوسه وتزييناته في الوعيد المحكيّ عنه بقوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] ووجه الاستعارة كونه يرمي بتلك الوساوس وجوه نفوسهم فيكون سبباً لهلاكها في الآخرة كما يكون السهم سبباً للقتل. ورشّح بذكر التفويق والإغراق والنزع والرمي. وأمّا مكانه القريب فكما نطق به الخبر النبوي في قوله: إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. وقوله: لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات. وقرب من كان كذلك ظاهر. والكلام في قوله: فلعمري. في معرض الإغراء به. وفي الباء وما يتعلّق به وجوه:

أحدها: قال أبو عبيد: معناها القسم.

فإن قلت: كيف نسب الإغواء إليه تعالى؟ وكيف يصلح الإغواء مقسماً به؟.

قلت: على الأول لمّا كان تعالى خالق أسباب الغواية فيه كالقدرة والعلم وغيرهما كانت له تعالى سببيّة في إيجاد الغواية وإن كانت بعيدة فلذلك صحّ إسناد فعلها إليه تعالى، وعلى الثاني أنّه يجوز أن يكون ما بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف وتقديره بالذي أغويتني به لأزيننّ لهم وذلك هو الأمر بالسجود لآدم إذ كان بسببه استكبر وعصى فغوى، والقسم جائز بأمره تعالى وتكليفه. ومن جعل ما مصدريّة فله أن يقول: إنّ إبليس أطلق على الأمر والتكليف الذي حصل له بسببهما الغواية لفظ الإغواء مجازاً إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب. ثمّ أقسم به باعتبار ما هو أمر وتكليف لا باعتبار ما هو غواية.

الثاني: قال غيره: هي للسببيّة: أي بكوني غاوياً لأزيننّ كما يقول: بطاعته ليدخلنّ الجنّة وبمعصيته ليدخلنّ النار. ومفعول التزيين محذوف. أي لأزيننّ لهم الباطل حتى يقعوا فيه.

الثالث: قال بعضهم: يجوز أن يكون الباء للسببيّة ويقدّر قسم محذوف. والمعنى بسبب ما كلّفتني فاستلزم غوايتي أقسم لأزيننّ لهم.

وقوله: قذفاً بغيب بعيد.

كقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣] وهو مصدر حذف. فعله وسدّ مسدّ الحال. قال المفسّرون: والغيب هنا بمعنى الظنّ. وفيه نظر لأنّ إطلاق لفظ الغيب على الظنّ مجاز والعدل عن الحقيقة إنّما يكون بعد تعذّر حمل اللفظ عليها ولا تعذّر هٰهنا في ذلك لأنّ مفهوم الغيب هو ما غاب عن الخلق فلم يعلموه فكان القذف بكل ما لا يعلم والحكم به قذفاً بالغيب وحكماً به. ولمّا كان إبليس لا يعلم ما حكم به بأنّه يفعله في الخلق من التزيين والإغواء وهو بعيد عن علمه ثمّ حكم به كان حاكماً بما هو غائب عن علمه وعازب عنه وهو معنى قذفه بالغيب البعيد. وفي نسخة الرضي رحمه الله بظنّ مصيب. وفي أكثر النسخ غير مصيب وهو المناسب لقوله: بغيب بعيد. لأنّ ما يقال عن غيب بعيد قلما يصيب ظنّه.

فإن قلت: فلم قال غير مصيب مع أنّ إبليس صدّق ظنّه في إواء الناس وتمّ له ما ظنّ؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠] الآية.

قلت: الجواب عن وجوه.

أحدها: أنّه يريد بالظنّ المصيب العلم لأنّه المصيب الحقّ فكأنّه قال: يظنّ ليس بعلم.

الثاني: قال بعض الشارحين: إنّما كان غير مصيب لأنّه ظنّ أنّ إغواءهم يكون منه، فقال: لأغوينهم. وهذا ظنّ فاسد لأن إغواءهم كان منهم اختياراً لأنهم اختاروا العمى على الهدى فغووا عن طريق الله. وتصديق أبناء الحمية له في ذلك يعود إلى وقوع الغواية منهم وفق ظنّه لمّا ظنّ أنّه يغويهم فقد ظنّ أن الغواية تلحقهم منه فصدّقوه في الغواية وأخطأ ظنّه في تسببها إليه.

الثالث: أنّ الكلام لمّا كان في معرض ذمّ إبليس وإواء الخلق بعداوته وقف عليه السلام في الآية على قوله: أجمعين. فيكون المعنى أنّ إبليس ظنّ أنّه يغوي جميع الخلق. وأمّا استثناؤه لعباد الله المخلصين فذاك ليس بحسب ظنّه بل تصديقاً. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] ومعلوم أنّ ذلك الظنّ فاسد وغير مصيب. إذ كان إنّما قدر على إغواء البعض.

الرابع: قال بعض الشارحين: يحتمل أن يكون أراد بالإغواء الذي ظنّ أنّه يفعله بالخلق هو إغواء الشرك، وبالإخلاص في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] العصمة من المعاصي فيكون الناس إذن في ظنّه إمّا معصوم أو مشرك وهذا ظن غير مصيب إذ وجد من ليس بمشرك ولا معصوم.

وقوله: صدّقه به أبناء الحميّة.

فالحميّة لازم من لوازم الكبر لأنّها مأخوذة من قولك: حميت. إذا غضبت. فكانت حقيقتها تعود إلى الغضب عن تصور المؤذي مع الترفّع على فاعله واعتقاد الشرف عليه. واستعار لفظ الأبناء لأصحاب هذه الرذيلة وأهل الكبر من الناس. ووجه الاستعارة ملازمتهم لها كما يلازم الولد أمّه حتى صاروا كأنّهم خلقوا منها وهي أصل لهم. وتصديقهم له بذلك الظنّ هو ارتكابهم للرذائل والمعاصي اتّباعاً له وغوايتهم لها عن سبيل الله قال بعض الشارحين: والباء في قوله: به بمعنى في: أي صدّقه فيه. وصدّقه في موضع الجرّ صفة لظنّ.

وقوله: وإخوان العصبيّة.

يحتمل أن يريد إخوانها فيكون قد جعل لها إخواناً على سبيل الاستعارة وهم ملازموها كما جعل للحميّة أبناء، ويحتمل أن يريد الإخوان فيها: أي الذين عقدوا الأخوّة بينهم على العصبيّة الباطلة فيها. وكذلك فرسان الكبر والجاهليّة، ويحتمل أن يكون قد استعار لفظ الفرسان لمرتكبي الكبر والأفعال الجاهليّة. ووجه الاستعارة ظاهر، ويحتمل أن يريد فرسان الجاهليّة الموصوفين بالكبر.

وقوله: حتى. إلى قوله: الجلي.

غاية من قوله: فوّق وأغرق ورماكم. واستعار وصف الجامحة للنفوس التي كانت عاصية لإبليس آبية عن الانقياد له.

وقوله: فنجمت الحال.

أي ظهرت الحال التي كان يرومها منكم ويظنّها فيكم وهي الغواية والضلال من السرّ الخفيّ إلى الأمر الجليّ. أي من القوّة فيكم إلى الفعل.

وقوله: استفحل.

جواب الشرط. واستعار لفظ الاستفحال لشدّة سطوته وسلطانه إشارةً إلى كمال قدرته على تطويع النفوس وقهرها. وجنوده كناية عن أهل الفساد في الأرض كما علمته فيما سبق. ودلفه بهم دخولهم بالفساد على الناس وتزيينهم لهم رذائل الأخلاق وإغواؤهم إيّاهم. ومن لوازم ذلك التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر وتفرّق الكلمة، ومن لوازم تفرّق الكلمة أن يقحمهم العدوّ ولجات الذلّ ويحلّهم ورطات القتل ويوطئهم أثخان الجراحة ويحتمل أن يريد بسلطانه الذي استفحل عليه هو سلطان عدوّهم ومن خالفهم كمعاوية وغيره وقوّتهم عليهم بعد تفرّق كلمتهم وقلّة طاعتهم له عليه السلام وإضافة ذلك السلطان وجنوده إلى الشيطان ظاهرة لأنّ سلطان الحق وجنوده يقال له سلطان الله وجنود الله، وسلطان الباطل يقال له سلطان الشيطان وجنوده جنود الشيطان وأولياؤه وأعوانه. وظاهر أنهم عند تفرّق كلمتهم قد استفحل عليهم سلطان إبليس ودلف بجنوده اليهم وهم مخالفوه عليه السلام. وانتصب إثخان الجراحة على أنّه مفعول ثان لأوطأوكم. ولفظ الولجات والورطات مستعاران للأحوال التي هي مظانّ الذلّ والقتل كالأماكن التي يفرّون إليها من عدوّهم ذلاً والمواطن التي قتلوا فيها، أو لطاعتهم والاستسلام لهم، وإقحامهم وإحلالهم إيّاه إلجاؤهم لهم إلى تلك الأحوال والأماكن ولذلك استعار وصف إيطائهم إثخان الجراحة ملاحظة لمشابهة وقوعها بهم للوطء في استلزامه للأذى. وكنّى بذلك المستعار عن إيقاعهم في حرارات الجراح. وإثخان مصدر قولك: أثخن في الجراح إذا كثر فيه وبالغ حتى فشا فكأنه ثخن.

وقوله: طعناً. إلى قوله: لمقاتلكم.

جعل محلّ الطعن العيون، والحزّ الحلوق، والدقّ المناخر، والقصد المقاتل لأنّها محالها المتعارفة عند إرادة الإذلال والإهانة والإهلاك. لأنّ الطعن وإن كان قد يقع في سائر البدن إلاّ أنّه أبلغ في العيون وأفحش. وكذلك في باقيها. قال بعض الشارحين: انتصب طعناً وحزّاً ودقّاً وقصداً وسوقاً على المصادر عن أفعالها المقدّرة. ومن روى: لإثخان الجراحة - بوجود اللام - فيحتمل أن يجعل طعناً مفعولاً ثانياً لأوطأوكم، ويكون اللام في الإثخان لام الغرض: أي أوطأوكم طعناً وحزّاً ودقّاً ليثخنوا الجراحة فيكم قال: ويكون قصداً وسوقاً خالصين للمصدريّة لبعدهما عن المفعول به. والأظهر هو الوجه الأوّل أعني كون كل منها مصدراً لفعله. ولمّا كان الفاعل بهم هذه الأفعال كلّها هو إبليس وجنوده فإن كان المراد بجنوده الساعين بين الناس بالوسوسة والفساد في الأرض فمعنى فعلهم بهم هذه الأفعال كونهم أسباباً معدّة لهم بالوسوسة المستلزمة لتفريق الكلمة ومخالفة الإمام لوقوع هذه الأفعال بهم من أعدائهم ومحاربيهم ثمّ يتبع فعل العدو لهم أن يسوقوهم إلى النار بخزائم القهر. ولفظ الخزائم مستعار لما يمكن في جواهر نفوسهم من الرذائل الموبقة وملكات السوء التي لا محيص لهم من النار بسببها لمشابهتها الخزائم التي يقاد بها الإبل في كونها لا مخلص عمّا يقاد إليه بسببها. ولفظ السوق ترشيح للاستعارة. وإن كان المراد بجنوده هم المخالفون له عليه السلام والمحاربون لأصحابه ففعلهم بهم تلك الأفعال ظاهر. وأمّا السائق لهم إلى النار فيحتمل أن يكون هؤلاء وذلك بإذلالهم لهم وإدخالهم في باطلهم عن قهر وذلّة. ولا شكّ أنّ الدخول في باطلهم سبب جاذب إلى النار. ولفظ الخزائم مستعار إذن إمّا لما يتمكن من باطلهم وعبثهم في النفوس، وإمّا لأوامرهم بالباطل وحملهم على ارتكاب المنكر، ويحتمل أن يكون السائق لهم هو إبليس وجنوده من أهل الوسوسة. ثمّ رجع إلى إفراده بالفعل نظراً إلى قوله: ودلف بجنوده. فقال بعده: فأصبح أعظم في دينكم جرحاً. فاستعار لفظ الجرح للفساد المعقول الحاصل بسبب إبليس في دينهم ووجه المشابهة كون الجرح فساداً في العضو أيضاً، وكذلك استعار لفظ القدح لوساوس إبليس المستلزمة لوجود الإحن والتباغض والتحاسد بينهم الموجب لتفريق كلمتهم المستلزم لتشتّت سلطانهم

وفساد نظامهم وما هم عليه من الأبّهة واستقامة المعاش في الدنيا. ووجه المشابهة إفساد تلك الوساوس لأحوال معاشهم كإفساد قدح النار ما يقدح فيه. وجعله في حرج دينهم وإفساد دنياهم أشدّ من أعدائهم الذين هم مناصبون لهم والحكم ظاهر الصدق. إذ كانت فتنة إبليس لهم في دينهم ودنياهم أصلاً لكلّ فتنة تلحقهم من أعدائهم باعتبار أنّها سبب تفرّقهم كما سبق. ثمّ أمرهم أن يجعلوا عليه حدّهم: أي بأسهم وسطوتهم لأنّ حدّ الرجل بأسه وسطوته، أو منعهم ودفعهم. وأن يجعلوا له جدّهم: اي يجتهدوا للخلاص من فتنته بمقاومته وقهره.

وقوله: فلعمر الله. إلى قوله: بلاء.

عود إلى الإغراء بعداوته يذكر أسباب العداوة المنفّرة؛ وهي كونه فخر على أصلهم، وذلك قوله تعالى حكاية عنه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ووقع في نسبهم. وذلك قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فبيّن بذكر أصلهم وهو الصلصال والحمأ المسنون المنتن ونسبهم منه أنّه ساقط عن درجة الإفتخار به. وخيله ورجله كناية عن جنوده من أهل الباطل، وإجلابه بخيله عليهم جمعه لجنوده على محاربتهم أو على الوسوسة لهم والإضلال، وقصده لسبيلهم: أي السبيل الحقّ الذي هو سالكوه إلى الله كقوله تعالى حكاية عنه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] وهو كناية عن جذبه لهم إلى طرف الباطل عند توجّههم إلى طرف الحقّ وسبيل الدين، واقتناصهم لهم بكلّ مكان كقوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] الآية وهو كناية عن أخذه بوسوسته لهم من كلّ وجه وإغوائه لهم عن كلّ سبيل حقّ، وضربهم منهم كلّ بنان كناية أيضاً عن كونه هو وجنوده أسباباً معدّة لقتلهم وقطعهم بأيدي أعدائهم. وعلى احتمال أن يريد بجنوده هم مخالفوه عليه السلام من أهل الضلال فمعنى قصدهم لسبيلهم ابتلاؤهم بالفتن والقتل ومنعهم لهم بذلك عن إقامة حدود الله والاستقامة على سبيله، واقتناصهم بكل مكان وضربهم منهم كلّ بنان كناية عن استقصائهم وقتلهم وأذاهم، ولفظ الاقتناص مستعار، وظاهر أنّهم لا يمتنعون من أفعاله بعد استحكام طمعه فيهم واستفحال سلطانه عليهم بحيلة، ولا يدفعون عن ألفتهم بعزيمة: أي جدّ واجتهاد وصرامة في أمر لما سبق منهم من التخاذل والانفعال، والحومة والحلقة والعرصة والجولة ألفاظ كنّى بها عن الدنيا. إذ كانت محلّ ذلّهم والضيق عليهم وعرصة موتهم ومنصة بلائهم. والإضافات الأربع بمعنى اللام. ثمّ عاد إلى أمرهم بتطهير قلوبهم من رذيلة العصبيّة وأحقاد الجاهليّة، واستعار لفظ النيران لما يثور من حرارة الغضب وعنه العصبيّة، وقد علمت أنّ مبدأ تلك الحرارة القلب، ورشّح بذكر الإطفاء، ولك أن تسمي تلك النيران حميّة كما سبق فلذلك فسّرها بها فقال: وإنّما تلك الحميّة ويفهم من الحميّة أنّها خبر المبتدأ، وقوله: تكون. خبر بعد خبر، ويحتمل أن يكون صفة لتلك والخبر تكون، وظاهر أنّ الحميّة والعصبيّة الباطلة من خطرات الشيطان التي يخطرها للنفوس، ونخواته التي يحدثها فيها بتحسينه الغلبة والانتقام والترفع والترأس على الخلق، ومن نزغاته التي يفسد بها الناس، ونفثاته التي يلقيها إلى أذهانهم لغرض الإفساد والإضلال، وأراد بإضافتها إلى الشيطان التنفير عنها ثمّ أردفه بالأمر بالتذلل وأراد به التواضع وأمرهم أن يعتمدوا وضعه على رؤوسهم وهو كناية عن إعزازهم والعناية به لكونه فضيلة، وأن يلقوا التعزّز تحت أقدامهم وهو كناية عن إطراحه وعدم العناية به لكونه رذيلة، وأن يخلعوا التكبّر من أعناقهم. واستعار لفظ الخلع لطرح التكبّر ونسبه إلى الأعناق ملاحظة لشبهه بما يلبس من قميص أو طوق فأمرهم بخلعه إذ ليسوا أهلاً له وليس ممّا ينبغي لهم، وأن يلزموا التواضع واستعار له لفظ المسلحة، ووجه المشابهة أنه لما كان المتواضعون بسبب تواضعهم وتخلّقهم به حافظين لدينهم وأنفسهم من دخول إبليس وجنوده عليهم برذيلة الكبر وما يلزمها من سائر الرذائل المعدودة المهلكة أشبه تواضعهم المسلحة التي هي محلّ الحفظ بها من غارات العدوّ. ولمّا علمت ما يلزم الكبر من الرذائل فلا يخفى عليك ما يلزم التواضع من أضدادها ونقائضها.

وقوله: فإنّ له من كل أمّة. إلى قوله: فرساناً.

بيان لجنوده وإشارة إلى أنّ له من هذه الأمة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً اتّصفوا بصفته واستشعروا شعاره وهو الكبر فينبغي أن يجتنبوهم ويطرحوا شعارهم.

وقوله: ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه.

أراد بذلك المتكبّر قابيل حين قتل أخاه هابيل عن كبر وحسد، وهو نهي عن الكبر أيضاً من بعضهم على بعض. وإلى قصة قابيل وهابيل أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧] إلى قوله: ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] والمنقول في السبب أنّ حوّاء كانت تلد في بطن اثنين ذكراً وأنثى. فولدت في أوّل بطن قابيل وأخته ثمّ مكثت سنين فولدت هابيل وأخته. فلمّا أدركوا أمر الله آدم أن ينكح قابيل أخت هابيل وينكح هابيل أخت قابيل فرضي هابيل بذلك ولم يرض قابيل لأنّ أخته كانت أحسنهما فقال آدم: قرّبا قرباناً فأيّكما تقبّل قربانه زوّجتها منه. وقيل: بل قال آدم لهابيل وقابيل: إنّ ربي أوحى إليّ أنّه يكون من ذريتي من يقرّب القربان فقرّبا قرباناً حتى تقرّ عيني إذا تقبّل قربانكما. وكان قابيل صاحب زرع وهابيل صاحب ضرع. فتقرّب قابيل بأردأ قمح عنده، وتقرّب هابيل بأجود حمل عنده ووضعا قربانهما على الجبل فدعا آدم فنزلت نار بيضاء من السماء فرفعت قربان هابيل دون قابيل لأنّ نيّته لم تكن خالصة في قربانه. وقيل: لأنّه كان مصراً على كبيرة لا يقبل الله معها طاعة فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧] فحسده قابيل وكان أكبر منه سناً فقال: لأقتلنّك. قال هابيل: إنّما يتقبّل الله من المتّقين لئن بسطت إليّ يدك الآية. إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠] أي لأخيه في الدنيا وللجنّة في الآخرة. وروي أنّه بقي زماناً يحمله على ظهره لا يدري ماذا يصنع به حتّى بعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه. وروي أنّه كان غرابان قتل أحدهما الآخر واحتفر له ودفنه. فقال قابيل: يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب. الآية. إذا عرفت ذلك فنقول: قال الثعلبي: إنّما أضافه إلى الأمّ دون الأب لأنّ الولد في الحقيقة من الأمّ: أي الولد بالفعل فإنّ النطفة في الحقيقة ليست ولداً بل جزء ماديّ له ونسبة الولد إليه في الحكم دون الحقيقة. وقيل: لأنّ قابيل لقتله هابيل فإنّه قطع نسبه عن أبيه كما قال تعالى في ولد نوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] وقيل: لأنّ شفقة الأخ من الأمّ أزيد من شفقة الأخ من الأب لزيادة شفقة الأمّ. والأوّل أليق. وقد أشار بهذه الإضافة إلى جهة مساواته له في كونهما من محل واحد لتبيّن قبح تكبّره عليه ليتنبّه السامعون لنهي الإنسان عن التكبّر على غيره من أبناء نوعه. وأكّد ذلك بقوله: من غير ما فضل جعله الله فيه.

وقوله: سوى ما ألحقت العظمة. إلى قوله: ريح الكبر.

إشارة إلى تكبّره عليه وأسبابه وهي العداوة عن حسد، وجعل تلك العداوة مسبّبة عن العظمة وهو ظاهر كما علمت فإنّ المتعظّم معتقد لكمال نفسه وأنّه أولى بكلّ كمال يليق به من غيره وأنّه لا ينبغي أن يشاركه فيه أحد، وذلك يستلزم حسده للغير على ما يعتقده كمالاً يصل إليه كاعتقاد قابيل أنّه أولى بالأخت الحسناء من أخيه لكونه أكبر سناً منه إلى غير ذلك من الأسباب، وعن ذلك الحسد تكون الحميّة وثوران نار الغضب والعصبية، ولفظ النار مستعار كما سبق، ولفظ القدح ترشيح، وكذلك لفظ الريح مستعار لتلك الوساوس والخطرات التي ينفثها إبليس في روع المتكبّر من كونه أولى فأحقّ بذلك الكمال ونحوه، وكذلك لفظ النفخ لإلقاء تلك الخطرات ونفثها.

وقوله: الذي أعقبه الله.

أي الندامة المشار إليه كما ذكرناه.

وقوله: وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.

إشارة إلى مقتضى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] أي يكون عقابه في الغلظ والشدّة والتأبيد كعقاب قاتل الناس جميعاً كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] الآية، وكذلك مقتضى

قول الرسول ﷺ: من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة. وقابيل هو من أوّل من سنّ القتل فلا جرم لزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة، وكذلك قوله ﷺ: ما من نفس تقتل ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل منها. ذلك بأنّه أوّل من سنّ القتل. ثم شرع في تنبيههم على إمعانهم وتشمّرهم في البغي والإفساد في الأرض وإعلامهم بذلك من أنفسهم. والخطاب أشبه أن يكون للبغاة من أصحاب معاوية وهم الذين كاشفوا الله بمحادّة أوليائه ومعاداة دينه وبارزوا المؤمنين بالمحاربة. ومصارحة ومبارزة مصدران سدّا مسدّ الحال. ثم كرّر التحذير من الله تعالى في الكبر وأضافه إلى الحميّة ليتميّز الكبر المحمود، وكذلك إضافة الفخر إلى الجاهليّة فإنّ من التكبّر والفخر ما هو محمود كتكبّر الفقراء على الأغنياء.

ثمّ ذكر في ذكر ما نفّر عنه من الأوصاف كونه ملاقح الشنئان وهو البغض والعداوة. ولفظ الملاقح مستعار من الفحول للكبر والفخر، ووجه المشابهة كونهما مظنّة وجود البغضاء بين الناس وسبباً له كما أنّ الفحول سبب الإلقاح، وأمّا على تقدير كونه مصدراً فاستعارة لإثمار الفخر للبغضاء للمشابهة المذكورة. ثمّ إنّه أخبر بذلك المصدر نفسه عن الفخر حيث جعله خبر إنّ فكأنّه قال: فإنّ الفخر لقح الشنئان، ولقح الشنئان نفسه ليس عين الفخر بل من ثماره ولوازمه فكان إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب وهو في الدرجة الثانية، وإنّما ذكره بلفظ الجمع نظراً إلى تكثّر معنى الفخر في موارده وهي أذهان المتكبّرين. ومنافخ الشيطان. جمع منفخ مصدر نفخ، وظاهر أنّ أفراد مهيّة الفخر المنتشرة في الأدمغة نفخات ونفثات من إبليس. ويقال في العرف للمتكبّر والمترفّع قدره: قد نفخ الشيطان في أنفسه. ووصف تلك المنافخ بأنّها اللاتي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية. وصورة الخداع هٰهنا كونهم أراهم الباطل في صورة الحقّ كتزيينه الكبر وتحسينه للوازمه وتخييل أنّ ذلك هو الأصلح والأنفع مع أنّه في نفس الأمر ليس بحقّ حتى كان ذلك سبباً لارتكابهم في ظلمات الجهالات ومهاوي الضلالات، واستعار وصف الإعناق لما يتوهّم من شدّة دخولهم في ظلمات الجهالات وقوّة سيرهم فيها، وكذلك لفظ الحنادس مستعار لما يتخيّل من ظلمة الجهل، ولفظ المهاوي مستعار لما يتخيّل من كون الضلالة وطرقها محالّ للهوى عن أفق الكمال ومدارج السعادة، وأضاف الجهالة والضلالة إليه إضافة للمسبّب إلى السبب. وذلل جمع ذليل، وسلس: جمع سلس وهما سهلا الانقياد. وانتصابهما على الحال من الضمير في أعنقوا: أي أسرعوا سهلي الانقياد لسوقه.

وقوله: أمراً.

منصوب بفعل مضمر تقديره فاعتمد أمراً تشابهت قلوبهم فيه وتتابعت القرون الماضية منهم على اعتماده وهو الفخر ونفخ الشيطان والإعناق في جهالته وضلالته، وكبراً عطف عليه، وكنى بتضايق الصدور به من كثرته وعظمته. ثمّ عقّب بالتحذير من طاعة ساداتهم وكبرائهم وتذكيراً بما نبّه عليه القرآن الكريم بذمّ المطيعين لساداتهم وكبرائهم على طاعتهم فيما حرّم الله عليهم وخروجهم بذلك عن سبيل الله، وذلك قوله تعالى حكاية لما يقولونه يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨] والتابعين على متابعة متبوعهم في قوله حكاية عنهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وقوله: الذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبهم.

فحسبهم ونسبهم إشارة إلى الطين والصلصال من الحمإ المسنون والماء المهين الذي هو أصلهم، ولمّا كان من شأنه أن لا فخر فيه ولا تكبّر لمن هو أصل له ثمّ تكبّروا فقد تكبّروا عن ذلك الأصل وترفّعوا عليه وتركوا ما ينبغي لهم من النظر إليه والتواضع لحسبه، وإليه أشار القائل: ما بال من أوّله نطفة، وجيفة آخره يفخر؟ لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر.

وقوله: وألقوا الهجينة على ربّهم.

أي نسبوا ما في الإنسان من القبائح بزعمهم إلى ربّهم كما قال بعض الشارحين: كأن يقول أحدهما في

الافتخار على غيره: أنا عربيّ وأنت أعجميّ. فإنّ ذلك عيب وإزراء لخلق الله فهو عيب على الله ونسبة للقبح إليه، وهم في ذلك مقتفون لأثر إبليس حيث قال: أأسجد لبشر خلقته من صلصال. إذ كان ذلك عيباً لخلق الله ونسبة للفعل القبيح.

وقوله: وجاحدوا الله ما صنع بهم.

ووجه المجاحدة هنا أنّهم لمّا غفلوا عن الله تعالى وجحدوا حقّه لم يشكروه على نعمائه وصنيعه بهم. ولمّا كان الشكر يعود إلى الاعتراف بالنعمة كان الجحد والإنكار منهم عبارة عن عدم ذلك الاعتراف لغفلتهم، وأيضاً فإنّ الشكر كما يكون بالاعتراف بالنعمة كذلك يكون بالإتيان بما يوافق ذلك الاعتراف ويدلّ عليه من الأقوال والأفعال الصالحة المطلوبة للمنعم والموافقة لأوامره ونواهيه ويسمّيان شكراً أيضاً فكان الإصرار على تركهما وعدم الإتيان بهما جحداً لنعمة الله، وذلك هو مجاحدتهم. فأمّا مجاحدة الله لهم فيعود إلى ما يتخيّل من إنكاره عليهم جحدهم، وتقريره عليهم صنعه بهم، وتذكيره نعمته في حقّهم. وما مصدريّة. ويحتمل أن تكون بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف: أي ما صنعه بهم.

وقوله: مكابرة لقضائه.

أي مقابلة لحكمه عليهم بوجوب شكره ولزوم طاعته بردّ ذلك الحكم وإنكاره وعدم الانقياد له. وحقيقة المكابرة يعود إلى المقابلة بالقول في الأمر والمنازعة فيه على وجه المغالبة والتكبّر من الطرفين. وهي هنا ترشيح لاستعارة المجاحدة. وكذلك المغالبة لآلائه. والنصب فيهما على المفعول له. والمغالبة هنا لشبه الغاية من المجاحدة وليست غاية على الحقيقة. وبيان ذلك أنه لما كان من لوازم المجاحدة وكفران النعمة زوالها وانقطاعها كانوا بفعلهم لتلك المجاحدة وذلك الكفران كالمغالبين للنعم والقاصدين لزوالها وعدمها. إذ كان زوالها لازماً لفعلهم.

وقوله: فإنّهم. إلى قوله: الجاهلية.

تنبيه على ما يلزم ساداتهم من الرذائل المنفّرة، واستعار لفظ الأساس للكبر. إذ كان مبدأ للعصبيّة وأصلاً لها، ولفظ القواعد لهم باعتبار قيام الكبر بهم وثباته فيهم كما يقوم الأساس بقواعده وهي الصخور العظيمة ونحوها. وكذلك استعار لفظ الأركان لأجزاء الفتنة وأبعاضها، ولفظ الدعائم لهم باعتبار قيام الفتن بهم واعتمادها عليهم كما تعتمد أركان البيت وجوانبه بدعائمه. واستعار لفظ السيوف لهم باعتبار صرامة عزمهم ومضيّهم عند الاعتزاء فيما يعتزى له كمضيّ السيوف وصرامتها في مضاربها. قال بعض الشارحين: ويحتمل أن يريد وأصحاب سيوف اعتزاء الجاهليّة، وذلك عند قولهم: يا لفلان. كما نقل في سبب الخطبة. والاعتزاء منهيّ عنه لكونه مبدأً للفتن. وروي أنّ أبيّ بن كعب سمع رجلاً يقول: يا لفلان فقال: عضضت بهن أبيك. فقيل له: يا أبا المنذر ما كنت فاحشاً. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من تعزّى بعزاء الجاهليّة فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنّوا. والعزاء الاسم من الاعتزاء. ثمّ عاد إلى الأمر بتقوى الله. فقوله: ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً. نهى لهم عن ارتكاب ما يزيل نعمة الله عنهم وتضادّها فلا يجامعها من كفرانها ومقابلتها بسائر المعاصي التي يستلزم تبديل النعمة نقمة، وكذلك قوله: ولا لفضله عندكم حسّاداً. استعار لفظ الحسّاد هنا باعتبار كفرهم المزيل للنعم. فحسّاد النعمة باعتبار حسدهم المزيل لها.

وقوله: ولا تطيعوا الأدعياء.

قال بعض الشارحين: مراده بالأدعياء الذين ينسبون إلى الإسلام ظاهراً وهم منافقون. قلت: ويحتمل أن يريد بهم حقيقة الأدعياء، وهم الذين ينتسبون إلى غير آبائهم ممّن لا دين له وقد ترأس في قبيلته التي انتسب إليها. ثمّ وصفهم فقال: الذين شربتم بصفوكم كدرهم فاستعار لفظ الصفو وهو خالص الشراب إمّا لخلاص دينهم وإيمانهم أو لخالص دنياهم وصافيها، ولفظ الكدر للنفاق وسائر الرذائل النفسانيّة التي تخالط إيمان المرء كالحسد ونحوه فتكدّره وتكدّر بسبب ذلك ما صفا من دنياه لسبب ثوران الفتنة عنها، ورشّح بذكر الشرب. والمعنى أنّكم مزجتم بإيمانكم نفاقهم فشربتموه به كما يمزج بالماء الشراب فيساغ به. وإنّما قال: شربتم

بصفوكم كدرهم ولم يقل: بكدرهم صفوكم لأنّ غرضه أن يقرن عليهم شرب الكدر بالقصد الأوّل ولا يتمّ ذلك الغرض إلا بعبارته عليه السلام. والباء هنا للمصاحبة، وكذلك قوله: وخلطتم بصحتكم مرضهم. وأراد بمرضهم نفاقهم وكبرهم وسائر الرذائل النفسانيّة فيهم، وبالصحة سلامة نفوس المؤمنين بإيمانهم عن نشوب تلك الرذائل. ووبّخهم بتخليطهم إيمانهم بها، وكذلك قوله: وأدخلتم في حقّكم باطلهم. وأراد بالحقّ الإيمان والجدّ في العمل الصالح أو ما يستحقّونه من الملك والخلافة في الأرض، وبباطل أولئك الكذب والنفاق واللعب وسائر الرذائل أو ما لا يستحقّ لهم من أمر الدنيا، وذلك الخلط والإدخال بسبب تخاذلهم عن نصرته عليه السلام وعدم اجتماعهم على ما ينبغي لهم من طاعته. ثمّ عاد إلى وصف أولئك الكبراء بأوصاف:

الأول: استعار لهم لفظ الأساس باعتبار كونهم أصلاً للفسوق يقوم بهم كما يقوم البناء بأساسه.

الثاني: لفظ الأحلاس باعتبار ملازمتهم للعقوق وقطع الرحم كما يلازم حلس البعير ظهره، وروي: أسْاس - بسكون السين - بوزن أحلاس، وهو جمع أسّ كحمل وأحمال وهو الأسّ.

الثالث: كون إبليس اتّخذهم مطايا ضلال. فاستعار لهم لفظ المطايا باعتبار كونهم أسباباً موصلة إلى الضلال لمن اتّبعهم واعتمد أقوالهم نيابة عن إبليس، وكانوا في ذلك المطايا التي يركبها الناس ويقودها في طرق الضلال.

الرابع: كونهم جنداً بهم يصول على الناس، وذلك باعتبار كونهم جاذبين للخلق إلى طريقته داعين لهم إلى الهلاك الأبدي من جهته.

الخامس: كونهم تراجمة ينطق على ألسنتهم. ولفظ التراجمة مستعار لهم باعتبار نطقهم بما يرد إبليس من الوساوس للناس فأشبهوا التراجمة له. ثمّ أشار إلى كيفيّات اتّخاذهم مطايا وجنداً وتراجمة فمنها الاستراق لعقول الناس بالأقوال الكاذبة والأفعال الباطلة والعادات المضلّة جذباً إلى محبة الدنيا وباطلها والتفاتاً لهم إليها عمّا لأجله خلقوا وإليه دعوا، ومنها الدخول في عيونهم بزينة الحياة الدنيا أيضاً وسائر ما يجذب إليها من جهة حسّ البصر، ومنها النفث في أسماعهم وإلقاء الوساوس بالأقوال الواصفة للدنيا وباطلها والمنفّرة عن الآخرة وسائر ما يجذب عن الأفق الأعلى من الجواذب السمعيّة. وانتصب استراقاً ودخولاً ونفثاً على المصدر كل عن فعله: أي يسترق عقولكم استراقاً. وكذلك الآخران.

وقوله: فجعلكم مرمى نبله.

أي غرضاً، واستعار لفظ النبل لجزئيات وساوسه المردية لكلّ من أصابته إلى مهاوي الهلاك كما يردى النبل من رمى به، ولفظ المرمى باعتبار كونهم مقصداً لوساوسه كالهدف، وكذلك استعار لهم لفظ الموطىء باعتبار كونهم مظنّة إذلاله وإهانته. ورشّح بذكر القدم إذ الموطىء يستدعي موطوءاً به وهو القدم، وكذلك استعار لفظ المأخذ باعتبار كونهم مقتنصين في حبائل وساوسه، ورشّح بذكر اليد. إذ من شأن المأخوذ أن يكون أخذه باليد.

الفصل الثالث: في أمرهم بالاعتبار بحال الماضين، وما أصاب الأمم المستكبرين منهم من بأس الله وصولاته وعقوباته ومصارعهم، وبحال الأنبياء على جلالة قدرهم في التواضع لمن أرسلوا إليه من المتكبّرين، وحال اختبار الله تعالى خلقه بأحجار نصبها بيتاً لعبادته اختباراً للمتواضعين له وتمييزاً لهم من المستكبرين عن عبادته. إلى غير ذلك، وذلك قوله:

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ.

وَاسْتَعِيذُوا، بِاللّٰهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ. فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لأحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ. وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالأرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ. وَقَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ

بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ. وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالاقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ - عَلَيْهِمَا السَّلامُ - عَلَى فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ - إِنْ أَسْلَمَ - بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ: «أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ؟» إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ! وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الأَرْضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلا لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا. وَلٰكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنَىً، وَخَصَاصَةٍ تَمْلأُ الأَبْصَارَ وَالأَسْمَاعَ أَذًى.

وَلَوْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لا تُضَامُ، وَمُلْكٍ تَمْتَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الاعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الاسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَلٰكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالاسْتِكَانَةُ لأَمْرِهِ، وَالاسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً، لا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

أَلا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هٰذَا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ، وَلا تُبْصِرُ وَلا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً» ثم وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الأَوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرىً مُنْقَطِعَةٍ، لاَ يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلا حَافِرٌ وَلا ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمِّ الأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاءِ. وَلَوْ كَانَ الإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ،

وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذٰلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذٰلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

فَاللّٰهَ اللّٰهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَلا تُشْوِي أَحَداً، لا عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلا مُقِلاً فِي طِمْرِهِ. وَعَنْ ذٰلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ تَسْكِيناً لأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعاً لأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلاءِ عَنْهُمْ، لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَالْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالأَرْضِ تَصَاغُراً، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً. مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ. انْظُرُوا إِلَى مَا فِي هٰذِهِ الأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وَقَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ!

أقول: المثلات: العقوبات. والمثاوي: جمع مثوى وهو المقام. والتكابر: التعاظم. والتعفير: إلصاق الخدود بالعفر وهو التراب. والمخمصة. المجاعة: والمجهدة: المشقّة. والإقتار: الفقر. والأساورة: جمع أسورة جمع سوار، ويجوز أن يكون جمع أساور، وقال أبو عمرو بن العلاء: هو جمع أسوار، وهو السوار. والذهبان: جمع ذهب كحزب لذكر الحبارى وحزبان. والعقيان: خالص الذهب. واضمحلّ: فنى. والأنباء: الأخبار. والخصاصة: الجوع. والشوب: الخلط. والوعر بالتسكين: الصعب. والنتائق: جمع نتيقة فعيلة بمعنى مفعولة، والنتق: الجذب، وسميت المدن والأماكن المشهورة والمرتفعة نتائق لارتفاع بنائها وشهرتها وعلوّها عن غيرها من الأرض كأنّها جذبت ورفعت. والقطر: الجانب. والدمثة: الليّنة. والوشلة: قليلة الماء. والمثابة: المرجع. والمنتجع: اسم المفعول من الانتجاع وهو طلب الكلأ والماء. والمفاوز: الفلوات الواسعة. والقفار: جمع قفر وهو المفازة التي لا نبت فيها ولا ماء. وسحيقة: بعيدة. والفجاج: جمع فجّ وهي الطريق الواسع بين الجبلين. ويهلّلون: يرفعون أصواتهم بالتلبية، والإهلال: رفع الصوت. والرمل بالتحريك: الهرولة. والأشعث: أغبر الرأس متفرّق الحال. والنبذ: الإلقاء. والسرابيل: القمصان. والتشويه: تقبيح الخلقة. والتمحيص: الابتلاء والاختبار، وأصله التخليص والتمييز. والمشاعر: مواضع المناسك. والقرار: المستقرّ من الأرض. والجمّ: الكثير. والبنى: جمع بنية - بالضم - والأرياف: جمع ريف بالكسر، وهي الأرض ذات الزرع والخصب. والمحدقة: المحيطة. والمغدقة: كثيرة الماء والخصب. والمتعلج: اسم المفعول من الاعتلاج وهو التغالب والاضطراب، يقال: اعتلجت المواج: اي تلاطمت واضطربت. وفتحاً: فعُل بمعنى مفعولة: أي مفتوحة موسّعة، وكذلك ذللاً مسّهلة. ووخامة الظلم: وباله وسوء عاقبته والمصيدة - بكسر الميم - : الشبكة وما يصاد به. والمساورة: المواثبة. وأكدى الحافر: إذا بلغ في حفره إلى موضع صلب لا يمكنه حفره. وأكدت المطالب: إذا صعبت في وجه طالبها فعجز عنها. وأشوت الضربة تشوى: إذا لم تصب المقتل، يقال: أشواه يشويه: إذا رماه فلم يصب مقتله. والطمر: الثوب الخلق. وعتائق: جمع عتيقة وهي كرائم الوجوه وحسانها. والقمع: الردّ. والنواجم: الطوالع جمع ناجمة. والقدع: الكفّ.

واعلم أنه عليه السلام أمرهم بأوامر:

أحدها: الأمر بالاعتبار بما أصاب المتكبّرين من

سابق الأمم من عقوبات الله، ووجه الاعتبار أن يفكّر العاقل في حال أولئك فيرى ما أصابهم إنّما هو بسبب استعدادهم بالاستكبار عن طاعة الله والرفع على عباده كما أشار إليه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] إلى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] ونحوه في القرآن كثير فينتقل ذهنه منه إلى نفسه ويقيس حال استكباره على استكبارهم فيما يلزمه من أمثال العقوبات بهم.

الثاني: أن يتّعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم: أي يلحظوا مقاماتهم من التراب ومحال انصراعهم في القبور ليحصل لهم بذلك الانزجار عن الكبر. إذ كانت عاقبته وغايته ذلك الهوان والذلّ في تلك المثاوي والمصارع.

الثالث: أن يستعيذوا بالله من لواقح الكبر. واستعار اللواقح لما يستلزم الكبر من أسبابه، وأراد استعاذة كثيرة خالصة كاستعاذتكم من طوارق الدهر وآفاته.

وقوله: فلو رخّص الله. إلى قوله: التواضع.

استدلال على تحريم الكبر مطلقاً، وأنّه لا رخصة فيه لأحد من خلق الله بقياس شرطيّ متّصل، ووجه الملازمة فيه أنّ الأنبياء خواصّ الله وأحباؤه وأهل طاعته فلو كان له فيه رخصة لم يجعلها إلا لهم، وتقدير الاستثناء فيه لنقيض التالي: لكنّه لم يرخّص فيه لهم فينتج أنّه لم يرخّص فيه لأحد من عباده؛ لكنّه حذف هنا استثناء النقيض واستثنى بعض لوازمه وهوتكريهه التكابر إليهم، وذلك بوعيده للمستكبرين على الكبر. ثم برضى التواضع لهم، وذلك بأمرهم فيه كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] ونحوه.

وقوله: فألصقوا. إلى قوله: مستضعفين.

إشارة إلى امتثالهم لما أمرهم به من التواضع وموافقتهم له فيما رضيه لهم فإلصاق خدودهم بالأرض وتعفير وجوههم إشارة إلى معاملتهم له في عبادته مع أنفسهم وخفض أجنحتهم للمؤمنين، وكونهم أقواماً مستضعفين إشارة إلى امتثالهم ومعاملتهم له في خلقه. ولفظ الأجنحة مستعار من الطائر ليد الإنسان وجانبه باعتبار ما هو محلّ البطش والنفرة. وخفض الجناح كناية عن لين الجانب. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي ارفق بهم ولا تغلظ عليهم قال: والعرب تقول لمن كان ساكناً وقوراً: إنّه خافض الجناح.

وقوله: قد اختبرهم. إلى قوله: بالمكاره.

إشارة إلى أنّه أعدّهم بأنواع الشقاوة الدنيويّة من الجوع والمشاقّ والمخاوف والكاره، والتنفير بها عن الدنيا للإقبال عليه تعالى ومحبّة ما عنده من الثواب الجزيل وقد علمت معنى ابتلائه تعالى لعباده واختباره لهم غير مرّة.

وقوله: فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد إلى قوله: الاقتدار [الإقتارخ].

أي لا تعتبروا رضاه تعالى عن عباده بإعطائه لهم المال والولد وسخطه عليهم بمنعه لهم ذلك. وكأنّه جواب اعتراض مقدّر كأنّ قائلاً قال: فإذا كانوا هؤلاء خواصّه وأهل طاعته ورضاه فلم امتحنهم بالشدائد وابتلاهم بالمخاوف والمكاره ولم يعطهم الأموال والأولاد كما قال فرعون لموسى عليه السلام: فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب، وكما قالت كفّار قريش: أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنّة أكل منها؟ فأجاب عليه السلام بأنّ ذلك الوهم للجهل بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والإقتار: أي أنّ الاختبار كما يكون بالفقر والمشاقّ والمكاره كذلك يكون بالمال والولد، وليس المال والولد من الخيرات التي تعجّل في الدنيا لمن يعطى إيّاهما كما يزعمون، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] أي يحسبون أنّا نعجّل في تقديم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم حتى بسطناهم الرزق وأكثرنا لهم أولادهم بل لا يعلمون أنّ ذلك استدراج لهم من الله ومحنة وبلاء. وجهلاً نصب على المفعول له.

وقوله: فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين. إلى قوله: في أعينهم.

كلام منقطع يستدعي ابتداءً يكون معلّلاً به. وقد

فصل الرضيّ رحمه الله بينه وبين ما قبله بصفر لكنّه بيان لنوع آخر من ابتلاء الله تعالى عباده المستكبرين في أنفسهم واختبارهم بأوليائه المستضعفين وهم الأنبياء في أعينهم: أي في أعين المتكبّرين وهو معنى ما قبله، وفيه تنبيه على بعض أسراره تعالى في خلقه لسائر أنبيائه وأوليائه المستضعفين، وهو أن يبتلي بهم المستكبرين عن عبادته في أرضه كما سيشير إليه عليه السلام في الحكمة في خلقهم كذلك. ثمّ ضرب مثل ذلك الابتلاء في موسى وهارون عليهما السلام حين دخلا على فرعون يدعوانه إلى الله تعالى، وذلك قوله: ولقد دخل. إلى قوله: ولبسه. روى الطبري في تاريخه: أنّ موسى وهارون قدما مصر حين بعثهما الله إلى فرعون فمكثا سنتين يغدوان على بابه ويروحان يلتمسان الإذن عليه فلا يعلم بهما ولا يجتري أحد أن يخبره بشأنهما وكانا يقولان في الباب: إنّا رسولا رب العالمين إلى فرعون حتى دخل عليه بطّال له يلاعبه ويضحكه فقال: أيّها الملك إنّ ببابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، ويزعم أنّ له إلهاً غيرك. فقال: أدخلوه. فدخل وبيده عصاه ومعه أخوه هارون فقال: أنا رسول ربّ العالمين. وذكر تمام الخبر وصريح قصّتهما ومحاورتهما مستوفى في القرآن الكريم كسورة الشعراء والقصص وغيرهما، والذي ذكره عليه السلام منها واضح بيّن. وقال كعب: كان موسى عليه السلام من رجال شنوءة، وكان آدم طوالاً، وكان أخوه هارون أطول منه وأكثر لحماً وأشدّ بياضاً وأغلظ ألواحاً وأسنّ من موسى بثلاث سنين، وكانت في جبهة هارون شامة وفي طرف أرنبة موسى شامة وعلى طرف لسانه شامة، ولم يعرف أحد قبله ولا بعده كذلك. قال: وهي العقدة التي ذكرها الله تعالى. قال: وفرعون موسى هو فرعون يوسف عليه السلام عمّر أكثر من أربع مائة سنة. واسمه الوليد بن مصعب، وأنكر غيره ذلك. وقالوا: هو غيره. وقبض هارون قبل موسى وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة، وبقي موسى بعده ثلاث سنين، ومات موسى في سنّه يوم مات. فأمّا شرطهما له بقاء ملكه بإسلامه فلما علمته من كون النواميس الشرعيّة والتمسّك بها والعمل بقوانينها ناظماً لحال أبناء النوع الإنساني وسبباً لصلاح معاشهم ومعادهم. وبانتظام شمل مصلحتهم باستعمال تلك القوانين يكون بقاؤهم وثبات دولهم وملكهم ودوام عزّهم. فأمّا استنكاره لشرطهما له دوام العزّ والملك بإسلامه وتعجّبه منهما في ذلك فمستنده اعتقاده الجهل أنّ مبدأ التمكّن من ذلك الشرط والقدرة على الوفاء به هو الغنى وجمع المال فلذلك احتقرهما من حيث كانا بزي الفقر والذلّ ولبس الصوف وليس عليهما آثار الغنى والمال وهو التحلي بأساورة الذهب. فكان إعظام الذهب ولبسه الذي هو شعار الغنى واحتقار الصوف ولبسه ممّا هو شعار الفقر سبباً حاملاً له على ذلك الاستكبار والعجب.

وقوله: ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه. إلى قوله: معانيها.

قياس اقتراني من الشكل الأوّل من متّصلتين: إحديهما: قوله: ولو أراد الله. إلى قوله: لفعل.

والثانية: قوله: ولو فعل لسقط البلاء. إلى آخره، والنتيجة أنّه لو أراد الله بأنبيائه ذلك لزمت المحالات المذكورة. بيان الملازمة الصغرى أنّ الأمور المعدودة وهي فتح كنوز الذهب ومعادنه ومغارس الجنان وحشر الطير والوحش أمور ممكنة في أنفسها والله سبحانه قادر على جميع الممكنات وعالم بها فلو حصل مع قدرته عليها إرادة وقوعها عن قدرته كان مجموعها مستلزماً لوقوعها عنها، وأمّا الكبرى فإنّه جعل مقدّمتها وهو فعله لتلك الأمور ملزوماً لأمور خمسة:

أحدها: أنّه كان يسقط البلاء: أي ذلك البلاء المشار إليه وهو بلاء المتكبّرين بالمستضعفين من أولياء الله وهو ظاهر. إذ لا مستضعف يبتلون به إذن، وذلك أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا ينقطعون إلى الدنيا حينئذ عن جناب الله فينقطع عنهم الوحي كما سيشير إليه عليه السلام وحينئذ ينقطع الابتلاء بهم وبما أتوا به من التكليف، وكذلك يسقط بلاء الأنبياء بالفقر والصبر على أذى المسكنة من المكذّبين لهم بالضرب والقتل.

الثاني: وكان يبطل الجزاء: أي جزاء العبادات والطاعات إمّا لسقوط البلاء بها أو لأنّ الطاعات إذن تكون عن رهبة أو رغبة فيسقط الجزاء الأخروي عليها

وكذلك يبطل جزاء الأنبياء الذي كانوا يستحقونه بحسب فقرهم وصبرهم عليه.

الثالث: وكان تضمحل الأنبياء: أي الأخبار الواردة من قبل الله تعالى على ألسنة رسله والوحي إليهم، وذلك أنّك علمت أنّ الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد من الأخرى، والأنبياء عليهم السلام وإن كانوا أكمل الخلق نفوساً وأقواهم استعداداً لقبول الكمالات النفسانية كما أشرنا إليه إلاّ أنّهم محتاجون أيضاً إلى الرياضة التامّة بالإعراض عن الدنيا وطيّباتها وهو الزهد الحقيقي، وإلى تطويع نفوسهم الأمّارة بالسوء لنفوسهم المطمئنّة بالعبادة التامّة كما هو المشهور من أحوالهم عليهم السلام فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يربط على بطنه الحجر من الجوع ويسميه المشبع لا لأنّه كان لا يقدر على شيء يأكله، وكان يرقع ثوبه لا لعدم قدرته على ثوب يلبسه، وكان يركب الحمار العاري ويردف خلفه لا لعجزه عن فرس يركبه وغلام يمشي معه، وكيف وقد توفي وبيده هذه القطعة العظيمة من المعمورة؛ بل ذلك وأمثاله ممّا سيحكيه عنه صلى الله عليه وآله في آخر هذه الخطبة زهادة في الدنيا وإعراض عن متاعها وزينتها لأنه صلى الله عليه وآله وجد من الكمالات العقليّة والموعودة ما هو أشرف وأعلى من هذه الكمالات الحسيّة الفانية، وعلم أنّ الوصول إلى تلك الكمالات لا يتمّ ولا يتحقّق إلا بالإعراض عن هذه فرفض به ما هو أخسّ في جنب ما هو أشرف ولذلك قام صلى الله عليه وآله في العبادة حتى تورّمت قدماه. فقيل له: يا رسول الله أليس قد بشّرك الله بالجنة فلم تفعل ذلك؟ قال أفلا أكون عبداً شكوراً. وذلك لعلمه أنّ الاستعداد بالشكر يفيد كمالاً أعلى وأزيد ممّا أوتي. وإذا كان حال أشرف الأنبياء وأكملهم كذلك فما ظنّك بسائرهم؟ وحينئذ تعلم أنّ تركهم للدنيا وعدم اشتغالهم بها شرط في بلوغهم درجات الوحي والرسالة وتلقي أخبار السماء، وأنّهم لو خلقوا منغمسين في الدنيا وفتحت عليهم أبوابها فاشتغلوا بقيناتها لانقطعوا إليها عن حضرة جلال الله واضمحلّ بسبب ذلك عنهم الأنباء وانقطع عنهم الوحي وانحطّوا عن مراتب الرسالة، وقال بعض الشارحين: أراد باضمحلال الأنباء سقوط الوعد والوعيد والإخبار عن أحوال الجنّة والنار وأحوال القيامة. وهو لازم من لوازم سقوط النبوّة فيكون راجعاً إلى ما قلناه.

الرابع: ولكان لا يجب للقابلين أجور المبتلين: أي لقابلي كلام الأنبياء لأنّه إذا سقط البلاء عنهم لم يكن لهم أجر المبتلين، وكذلك لا يجب لقابلي النبوة منهم أجور المبتلين بالتكذيب والأذى.

الخامس: وكان لا يستحقّ المؤمنون ثواب المحسنين إلى أنفسهم بمجاهدة الشيطان عنها وتطهيرها عن الرذائل وتحليتها بالفضائل، وذلك لأنّ إيمانهم بهم يكون عن رغبة أو رهبة كما علمته لا عن حقيقة وإخلاص لله.

السادس: ولا لزمت الأسماء معانيها. روي بنصب الأسماء على أن تكون هي المفعول ومعانيها الفاعل، والمعنى أنّه لم تكن المعاني لازمة الأسماء فيمن سمّي بها؛ مثلاً من سمّي مؤمناً لا يكون معنى الإيمان الحقّ لازماً لاسمه فيه. إذ كان إيمانه بلسانه فقط عن رغبة أو رهبة، وكذلك من سمّي مسلماً أو زاهداً بل من سمّي نبيّاً أو رسولاً لا يكون في الحقيقة كذلك لانقطاع النبوّة والرسالة عنه، وفي نسخة الرضي رحمه الله برفع الأسماء، والمراد أنّها كانت تنفكّ عنها فتصدق الأسماء بدون مسمّياتها وهو كالأوّل. وببيان هذه اللوازم ظهرت كبرى القياس. والنتيجة إذن متصلة مقدمها قوله: لو أراد الله. إلى قوله: الأرض، وتاليها قوله: لسقط البلاء. إلى قوله: معانيها، وحاصل النتيجة أنّه كان يلزم من إرادته تعالى بأنبيائه تلك الأمور وقوع جميع هذه المفاسد. ثمّ يرجع البيان إلى استثناء نقيض تالي هذه النتيجة لاستثناء نقيض مقدّمها وهو أنّ هذه المفاسد لم توجد وليست ممّا ينبغي أن توجد فلذلك لم يرد بهم تلك الأمور.

وقوله: ولكنّ الله سبحانه جعل رسله. إلى قوله: أذى.

كاللازم لنقيض مقدّم النتيجة المذكورة ذكره بعد بيانه. إذ كان الله تعالى لمّا لم يرد بعث أنبيائه على ذلك الوجه أراد بعثهم على هذا الوجه، وهو أن جعلهم أصحاب قوّة في عزائمهم وإجماع على إنفاذ ما أمروا به

وتبليغ رسالات ربّهم، ولذلك سمّوا أولو العزم لمضاء عزائمهم وقوّتهم في دين الله بالقتال والمجاهدة والصبر على الأذى، وجعلهم مع ذلك ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم من المسكنة والذلّ والفقر والقناعة والصبر على العري والجوع. واستعار وصف الملء للقناعة باعتبار استلزامها لقوّة غناهم وقلّة حاجتهم إلى شيء من متاع الدنيا بحيث لا تميل نفوسهم ولا عيونهم إلى شيء من زينتها وقيناتها فكأنّها قد امتلأت فلا تتّسع لشيء من ذلك فتطلبه، وكذلك للخصاصة باعتبار استلزامها لقوّة الأذى في أسماعهم وأبصارهم. إذ الجوع المفرط مستلزم لأذى هاتين القوتين لتحلّل الأرواح الحاملة لهما وضعفهما فكان الأذى حشو أبصارهم وأسماعهم بحيث لا يتّسع لغيره كلّ ذلك طلب لكمال الاستعداد لما علمت أنّ البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة وتزيل الرقّة وتستلزم رذائل كثيرة لادواء لها إلاّ بالخصاصة والقناعة فضيلة تحت العفّة.

وقوله: ولو كانت الأنبياء. إلى قوله: مقتسمة.

متّصلة أخرى هي كبرى قياس من الشكل الأول أيضاً من متّصلتين مقدّم الصغرى منهما هو من مقدّم كبرى القياس الأوّل، وهو قوله: ولو فعل. ونبّه على تاليها بمقدّم هذه الكبرى، وتقدير الكلام: ولأنّه تعالى لو فعل بأنبيائه ما ذكرناه لكانوا أهل قوّة لا ترام وعزّة لا تضام وملك تمتدّ نحوه الأعناق، ولو كانوا كذلك لكان في كونهم كذلك مفاسد أخرى فينتج أنّه لو فعل بأنبيائه ما ذكرناه للزمت مفاسد أخرى:

أحدها: أنّه لكان ذلك أي ما حصلوا عليه من العزّ والملك أهون على الخلق وأسهل من حيث إنّ اعتبارهم لما يدعوهم إليه أسهل وإجابتهم إلى دعوتهم أسرع. إذ كانت الملوك في اعتبار الخلق أهلاً لأن يطاعوا فلا تصعب عليهم إجابتهم كما تصعب إجابة الفقراء على من يدعونه من المتكبّرين.

الثاني: وأبعد لهم عن الاستكبار، وهو ظاهر لأنّ الملوك أبعد من أن يتكبّر عليهم الناس ويأنفوا من طاعتهم وحينئذ لم يكن للخلق ثواب من ترك رذيلة الكبر عن مجاهدة نفسه في ترك الرذيلة.

الثالث: ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم. أي على الإيمان أو رغبة مائلة بهم إليه فلم تكن نيّاتهم ولا حسناتهم خالصة لله بل هي مشتركة ومقتسمة بعضها له وبعضها للرغبة وبعضها للرهبة، وحينئذ لا يكون لهم ثواب من جاهد إبليس فقهره وقمع نواجم وسوسته الجاذبة عن سبيل الله، واستعدّ بذلك للخيرات الباقية.

وقوله: وملك تمتدّ نحوه أعناق الرجال، وتشدّ إليه عقد الرحال.

كنايتان عن قوّته وعظمته لأنّ الملك إذا كان عظيماً قويت الآمال فيه وتوجّهت نحوه وامتدّت أعناق الرجال إليه بالرجاء وشدّت عقد الرحال إليه.

وقوله: ولكنّ الله سبحانه. إلى قوله: شائبة.

كالمقدّمة الصغرى في بيان أنّ القسم الأخير من التالي ليس ممّا ينبغي أن يكون ويراد الله تعالى. كأنّه قال لو جعل الله تعالى الأنبياء أهل الملك والعزّ لكان إيمان الخلق بهم إمّا لرغبة أو رهبة فكانت النيّات والإيمان والعبادة منهم مشتركة غير خالصة لله وذلك مفسدة ليس ممّا ينبغي أن تكون ولا أن تراد لله تعالى لأنّه تعالى إنّما أراد أن يكون إيمانهم بالرسل واتّباعهم وتصديقهم لما جاؤوا به من كتبه وأمروا به من الخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة رغبة ورهبة، وتقدير الكبرى: وكلّ ما أراد الله إخلاصه له فليس ممّا ينبغي أن يكون مشتركاً بينه وبين غيره ولا مشوباً بشائبة غيره فينتج أنّ إيمانهم بأقسامه ليس ممّا ينبغي أن يكون مشتركاً كالشائبة رغبة أو رهبة.

وقوله: وكلّما كانت البلوى. إلى قوله: أجزل.

يحتمل أن يكون كبرى قياس بيّن به أنّ الأجزاء الثلاثة للتالي وهو قوله: لكان ذلك أهون. إلى آخره ليس مما ينبغي أن يكون، وتقدير البيان أنّ ذلك مستلزم كون الاعتبار معه أهون على الخلق أنّ ذلك مستلزم كون الاعتبار معه أهون على الخلق وأن يكونوا معه أبعد عن الاستكبار وأن يؤمنوا عن رغبة أو رهبة وهذه الأمور ليس ممّا ينبغي أن تكون. وإنّما قلنا ذلك لأنّ نقائضها وهي مشقة الاعتبار على الخلق وقربهم من الاستكبار

وخلوص إيمانهم لله ممّا ينبغي أن يكون، وبيان ذلك أنّ مع هذه الأمور تكون البلوى والاختبار عليهم أعظم. وذلك هو صغرى القياس. ثمّ نقول: وكلّما كانت البلوى والاختبار لهم أعظم كانت المثوبة لهم والجزاء على الإيمان والطاعة أجزل، ويحتمل أن يكون من تمام البيان الأول كأنه قال: ولكنه تعالى أراد أن تكون هذه الأمور خالصة له ولا يشوبها شائبة، وذلك الاخلاص وإن كانت فيه مشقّة وكانت البلوى فيه عظيمة إلاّ أنّه كلما كانت البلوى أعظم كان الثواب فيها أجزل. ثم أردف ذلك بالتنبيه على صدق هذه المقدّمة بالمثال وذلك قوله: ألا ترون. إلى قوله: ووصلة إلى جنته، وأراد بالأحجار التي بني بها البيت الحرام.

وقوله: جعله للناس قياماً.

أي مقيماً لأحوالهم في الآخرة. يقال: فلان قيام أهله وقوام بيته. إذا كانت به استقامة أحوالهم، وكون مكّة أقلّ بقاع الأرض مدراً لأنّ الحجريّة أغلب عليها. وإنّما أتى بالرمال الليّنة في معرض الذمّ لأنها أيضاً ممّا لا يزكو بها الدوابّ لأنّ ذوات الحافر ترسغ فيها وتتعب في المشي بها. قال الشارحون: أراد بالخفّ والحافر والظلف دوابّها وهي الجمال والخيل والغنم والبقر مجازاً إطلاقاً لاسم الجزء على الكلّ أو على تقدير إرادة المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وأراد بكونها لا تزكو: أي لا تسمن وتزيد للجدب وخشونة الأرض، والضمير في بها راجع إلى ما دلّ عليه أوعر من الموصوف فإنّه أراد بواد أوعر بقاع الأرض حجراً كما قال: إنّي أسكنت من ذريّتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم.

وقوله: ثمّ أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه.

قد دلّ كلامه عليه السلام على أنّ البيت الحرام كان منذ آدم عليه السلام والتواريخ شاهدة بذلك. وقال الطبري: روي عن ابن عباس أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبط إلى الأرض أنّ لي حرماً حيال عرشي فانطلق فابن لي بيتاً فيه ثمّ طف به كما رأيت ملائكتي تحفّ بعرشي فهنالك استجيب دعاك ودعاء من تحفّ به من ذرّيّتك. فقال آدم: إنّي لست أقوى على بنيانه ولا أهتدي إليه. فبعث الله تعالى ملكاً فانطلق به نحو مكّة فكان آدم كلّما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزل به هنالك لتبنى فيه فيقول له الملك: ليس هٰهنا. حتى أقدمه مكّة فبنى البيت من خمسة جبال طور سيناء وطور زيتون ولبنان والجودي، وبنى قواعده من حرّاء. فلمّا فرغ من بنيانه خرج به الملك إلى عرفات وأراه المناسك كلّها التي يفعلها الناس اليوم، ثمّ قدم به مكّة وطاف بالبيت أسبوعاً، ثمّ رجع إلى أرض الهند. وقيل: إنّه حجّ على رجليه إلى الكعبة أربعين حجّة. وروي عن وهب بن منبّه أنّ آدم دعا ربّه فقال: يا ربّ أما لأرضك هذه عامر يسبّحك فيها ويقدّسك غيري؟ فقال له تعالى: إنّي سأجعل فيها من ولدك من يسبّح بحمدي ويقدّسني، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري يسبّحني فيها خلقي ويذكر فيها اسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً اختصه بكرامتي وأؤثره باسمي فأسمّيه بيتي وعليه وضعت جلالتي وعظّمته بعظمتي، وأنا مع ذلك في كل شيء ومع كل شيء، أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله وما حوله ومن تحته ومن فوقه فمن حرّمه بحرمتي استوجب كرامتي ومن أخاف أهله فقد أباح حرمتي واستحقّ سخطي وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شعثاً غبراً على كل ضامر من كلّ فجّ عميق يزجّون بالتلبية زجيجاً ويعجّون بالتكبير عجيجاً، من اعتمده لا يريد غيره ووفد إلي وزارني واستضاف بي أسعفته بحاجته، وحقّ على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه. تعمره يا آدم ما دمت حيّاً ثمّ تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمّة بعد أمّة وقرناً بعد قرن. ثمّ أمر آدم إلى أن يأتي البيت الحرام فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش. وبقي أساسه بعد طوفان نوح فبوّأه الله لإبراهيم فبناه. ولنرجع إلى المتن فنقول: إنّه كنّى بثني أعطافهم نحوه عن التفاتهم إليه وقصدهم له.

وقوله: فصار مثابة لمنتجع أسفارهم.

أي مرجعاً لما تنجع من أسفارهم: أي لطلب منه النجعة والخصب كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وكقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨] وذلك أنّه مجمع

الخلق وبه مقام الموسم أيّام الحجّ فيكون فيه التجارات والأرباح كما أشرنا إليه في الخطبة الأولى. وكذلك كونه غاية لملقى رحالهم، أي مقصداً.

وقوله: تهوي إليه ثمار الأفئدة.

أي تميل وتسقط. وهوي الأفئدة ميولها ومحبّتها إلاّ أنّه لمّا كان الذي يميل إلى الشيء ويحبّه كأنّه يسقط إليه ولا يملك نفسه استعير لفظ الهوي للحركة إلى المحبوب والسعي إليه، وأما ثمار الأفئدة فقال بعض الشارحين: ثمرة الفؤاد سويد القلب. ولذلك يقال للولد: ثمرة الفؤاد. وأقول: يحتمل أن يكون لفظ الثمار مستعاراً للخلق باعتبار أنّ كلاً منهم محبوب لأهله وآبائه فهو كالثمرة الحاصلة لأفئدتهم من حيث هو محبوب لهم كأنّ أفئدتهم ومحبّتهم له قد أثمرته من حيث إنّها أفادت تربيته والعناية به حتّى استوى إنساناً كاملاً، ويحتمل أن يريد بثمار الأفئدة الأشياء المجبيّة المعجبة من كلّ شيء كما قال تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] ووجه إضافتها إلى الأفئدة أنّها لمّا كانت محبوبة مطلوبة للأفئدة التي حصلت عن محبّتها كما تحصل الثمرة عن أصلها أضيف إليها، والإضافة يكفي فيها أدنى سبب ونحوه قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولـمّا استعار لفظ الهوي رشّح بذكر المهاوي إذ من شأن الهوي أن يكون له موضع. وعميقة صفة لفجاج كما قال تعالى: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] ووصف العمق له باعتبار طوله والإنحدار فيه من أعالي البلاد إلى مكّة، ووصف الجزائر بالانقطاع لأنّ البحر يقطعها عن سائر الأرض والبحار يحيط بها. وحتى غاية من قوله: تهوي بمعنى اللام، وكنّى بهزّ مناكبهم عن حركاتهم في الطواف بالبيت. إذ كان ذلك من شأن المتحرّك بسرعة. وذللاً: جمع ذلول. والنصب على الحال من الضمير في تهزّ. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون من مناكبهم وكذلك موضع يهلّلون النصب على الحال وكذلك شعثاً وغبراً من الضمير في يرملون. وكنّى بنبذهم للسرابيل وراء ظهورهم عن طرحها وعدم لبسها وتشويههم بإعفاء الشعور محاسن خلقهم لأنّ حلق شعر المحرم أو نتفه والتنظيف منه حرام تجب فيه الفدية. وظاهر أنّ إعفاء الشعور يستلزم تقبيح الخلقة وتشويهها وتغيير ما هو معتاد من تحسينها بحلقه وإزالته.

وقوله: ابتلاء. وامتحاناً. واختباراً. وتمحيصاً.

منصوبات على المفعول له. والعامل فيه قوله: أمر الله آدم، ويحتمل أن يكون على المصدر كلّ من فعله. وعدّد هذه الألفاظ وإن كانت مترادفة على معنى واحد تأكيداً وتقريراً لكون الله تعالى شدّد عليهم في البلوى بذلك ليكون استعدادهم بتلك القوى العظيمة للثواب أتمّ وأشدّ فيكون الجزاء لهم أفضل وأجزل فلذلك قال: جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته: أي سبباً معدّاً لإفاضة رحمة تستلزم الوصول إلى جنّته وقد تأكد بهذا المثال صدق قوله: وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كان الثواب أجزل. لأنّ الله سبحانه لمّا اختبر عباده بأمر الحجّ ومناسكه الذي يستلزم شقاء الأبدان واحتمال المشاقّ الكثيرة المتعبة في الأسفار من المسافات البعيدة وترك مفاخر الدنيا عنده ونزع التكبّر حتى كأنّه لم يوضع إلاّ لخلع التكبّر من الأعناق مع ما في جزئيّات مناسكه ومباشرته من المشاقّ المتكلّفة مع كونه كما ذكر أحجاراً لا تضرّ ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر لا جرم كان الاستعداد به لقبول آثار الله وإفاضة رحمته أتمّ من أكثر وجوه الاستعدادات لسائر العبادات فكان الثواب عليه والرحمة النازلة بسببه أتمّ وأجزل.

وقوله: ولو أراد الله. إلى قوله: ضعف البلاء.

صغرى قياس ضمير استثنائي حذف استثناؤه. وهي نتيجة قياس آخر من متصلتين تقدير صغراهما: أنّه لو أراد أن يضع بيته الحرام بين هذه المواضع الحسنة المبهجة لفعل، وتقدير الكبرى: ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء، وتقدير استثناء هذه المتصلة: لكنّه لا يجب منه ذلك ولا يجوز لأنّ مراد العناية الإلهيّة مضاعفة الثواب وبلوغ كلّ نفس غاية كمالها وذلك لا يتمّ إلا بكمال الاستعداد بالشدائد والميثاق فلذلك لم يرد أن يجعل بيته الحرام في تلك المواضع لاستلزامها ضعف البلاء. وكنّى بدنو الثمار عن سهولة تناولها وحضورها، وبالتفاف البنى عن

تقارب بعضه من بعض. والبرّة: واحدة البرّ وقد يقام مقام اسم الجنس فيقال: هذه برّة حسنة، ولا يراد بها الحبّة الواحدة واعتبار السمرة لها لأنّ وصفها بعد الخضرة السمرة.

وقوله: ولو كان الأساس. إلى قوله: من الناس.

في تقدير قياس ضمير آخر استثنائي كالذي قبله، وتلخيصه أنّه تعالى لو جعل الأساس المحمول عليها بيته الحرام بين هذه الأحجار المنيرة المضيئة لخفّف ذلك مسارعة الشكّ في الصدور. وأراد شكّ الخلق في صدق الأنبياء وعدم صدقهم وشكّهم في أن البيت بيتاً لله أو ليس. فإنّه على تقدير كون الأنبياء عليهم السلام بالحال المشهورة من الفقر والذلّ وكون البيت الحرام من هذه الأحجار المعتادة يقوي الشكّ في كونهم رسلاً من عند الله وفي كون البيت بيتاً له، وعلى تقدير كونهم في الملك والعزّ وكون البيت من الأحجار النفيسة المذكورة ينتفي ذلك الشكّ إذ يكون ملكهم ونفاسة تلك الأحجار من الأمور الجاذبة إليهم والداعية إلى محبّتهم والمسارعة إلى تصديقهم والحكم بكون البيت بيت الله لمناسبته في كماله ما ينسبه الأنبياء إلى الله سبحانه من الوصف بأكمل طرفي النقيض ولكون الخلق أميل إلى المحسوس، واستعار لفظ المسارعة هنا للمغالبة بين الشك وصدق الأنبياء والشكّ في كذبهم فإنّ كلاً منهما يترجّح على الآخر وكذلك كان وضع مجاهدة إبليس عن القلوب لأنّ الإيمان بكونه بيتاً لله ينبغي حجّه والقصد إليه لا يكون عن مجاهدة إبليس في تصديق الأنبياء في ذلك وفي وجوب عبادة الله بل لعزّة البيت وحسن بنيانه وميل النفوس إلى شريف جواهره لكن هذه الأمور وهي مسارعة الشكّ ومجاهدة إبليس ومعتلج الريب لا تخفّف ولا تنتفي لكونها مرادة من الحكمة الإلهيّة لإعداد النفوس بها لتدرك الكمالات الباقية والسعادات الدائمة فلذلك لم يجعل تعالى بنيان بيته من تلك الأحجار النفيسة.

وقوله: ولكنّ الله يختبر عباده. إلى قوله: المكاره.

استثناء لعلّة النقائض المذكورة فيقوم مقام استثناء مسارعة الشكّ ومجاهدة إبليس من جملة أنواع الشدائد وألوان المجاهد والمشاقّ واختباره لعباده بها علّة لوجودها.

وقوله: إخراجاً للتكبّر. إلى قوله: لعفوه.

إشارة إلى كونها أسباباً غائيّة من العناية الإلهيّة لإعداد النفوس لإخراج الكبر منها وإفاضة ضدّه وهو التذلل والتواضع عليها وإلى كونها أسباباً معدّة لفضله وعفوه، واستعار لفظ البواب لها باعتبار الدخول منها إلى رضوان الله وثوابه. ولفظ الذلل لكون الدخول منها إلى ذلك سهلاً للمستعدين لها. ثم عاد إلى التحذير من الله تعالى في البغي والظلم وعاقبته. وحاصل الكلام أنّه جعل عاجل البغي وآجل الهلاك عنه وسوء عاقبة الكبر محلاً للحذر من الله تعالى وذلك باعتبار وعيده تعالى عند التلبّس بالبغي والنظر في تلك الحال إلى ما يستلزم من الهلاك في الآخرة وما يستلزمه التكبّر من سوء العاقبة. والضمير في قوله: فإنّها قال السيّد فضل الله الراوندي (رحمه الله): يعود إلى الجملة من البغي والظلم والكبر وإن لم يجر لها ذكر. وقال غيره: الضمير للكبر وإنّما أنّثه باعتبار جعله مصيدة باعتبار أنّه يصير الداخل فيه من حزب إبليس وفي قبضته كالشبكة وحبائل الصائد. ووصفها بالعظم باعتبار قوّته وكثرة ما يستلزمه من الرذائل، وكذلك استعار له لفظ المكيدة الكبرى باعتبار ما هو سبب قوي في جذب الخلق إلى الباطل وضلالهم عن طريق الله كالحيلة والخدعة، واستعار وصف المساورة له باعتبار مواثبته النفوس ومغالبته لها بالكبر وذلك أنّه تارة يلقى إليها تحسين الكبر وتزيينه فتنفعل عنه وتقبل الكبر وتلك هي الوثبة من جانبه. وتارة تقوى النفس عليه فترّد وسوسته بقهره وتلك الوثبة من قبلها. ثمّ شبّه مساورته للقلوب بالكبر بمساورة السموم القاتلة للطبيعة البدنيّة، وكنّى عن وجه الشبه بقوله: فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً: أي إنّ مساورته بالكبر لا تكاد يقابلها ما يقاومها من العقول ويمنع تأثيرها في النفوس كما لا يكاد يقاوم مواثبة السموم القاتلة من طبائع الحيوان ولا تكاد تخطىء المقاتل كما لا يخطىء السموم وحركاتها في الأبدان مقاتلها. ويحتمل أن يكون وجه الشبه كون مساورته غالبة قويّة كمساورة السموم

للأبدان، ويكون قوله: لا تكدي أبداً ولا تشوي أحداً استعارتين لوصفي السمّ الذي لا يكاد يقف دون المقاتل ولا يخطئها لتلك المساورة باعتبار أنّها لا يخطىء رميتها القلوب بسهام الكبر والبغي وسائر ما يلقى من الوساوس المهلكة.

وقوله: لا عالماً لعلمه ولا مقلاً في طمره.

أي أنّ هذه الرذيلة تؤثّر في نفس العالم في علمه والفقير في فقره فلا يردّها العالم بعلمه أنّها رذيلة ولا المقلّ المفتقر في طمره لمنافاة حاله في قلّته وفقره الكبر.

وقوله: وعن ذلك ما حرس الله. إلى قوله: تذلّلاً.

تنبيه على الأمور التي حرس الله تعالى بها عباده من هذه الرذيلة وجعلها أسباباً للتحرز من نزغات الشيطان بها، وأشار إلى ثلاثة منها وهي الصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيّام المفروض صومها. أمّا الصلوات فلكونها بأجزائها وأوضاعها منافية للكبر.

إذ كان مدارها على تضرّع وخضوع وخشوع وركوع. وكلّ واحد من هذه الأجزاء بكيفيّاته وهيئاته موضوع على المذلة والتواضع والاستسلام لعزّة الله وعظمته وتصوّر كماله وتذكّر وعده ووعيده وأهوال الموقف بين يديه وكلّ ذلك ينافي التكبّر والتعظّم، وإلى ذلك أشار بقوله: تسكيناً لأطرافهم وتخشّعاً لأبصارهم. إلى قوله: تصاغراً، ونصب تسكيناً وتخشيعاً وتذليلاً وتخفيضاً وإذهاباً على المفعول له، والعامل ما دلّ عليه قوله: حرس من معنى الأمر: أي حرسهم بهذه وأمرهم بكذا وكذا. وانتصب تواضعاً وتصاغراً، والعاملان المصدران: تعفير، والتصاق.

فأمّا الزكاة فوجه منفعتها في دفع هذه الرذيلة أمران:

أحدهما: أنّها شكر للنعمة الماليّة كما أنّ العبادات البدنيّة شكر للنعمة البدنيّة، وظاهر أنّ شكر النعمة مناف للتكبّر عن المنعم والاستنكاف عن عبادته.

الثاني: أنّ من أوجبت عليه الزكاة يتصوّر قدرة موجبها وسلطانه وقهره على إخراجها فينفعل عن حكمه وينقهر تحت أوامره مع تصوّره لغناه المطلق وذلك مناف لتكبّره واستنكافه عن عبادته.

وأمّا مجاهدة الصيام فلما فيها من المشقّة الشاقّة ومكابدة الجوع والعطش في الأيّام الصيفيّة كما كنّى عنه عليه السلام بقوله: وإلصاق البطون بالمتون من الصيام. والإنسان في كلّ تلك الأحوال متصوّر لجلال الله وعظمته وأنّه إنّما يفعل ذلك امتثالاً لواجب أمره وخضوعاً تحت عزّ سلطانه، وذلك مناف للكبر والترفّع، وقد علمت ما في الصوم من كسر النفس الأمّارة بالسوء كما قال صلى الله عليه وآله: إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع وذلك أنّ وسيلة الشيطان هي الشهوات ومبدأ الشهوات وقوّتها مداومة الأكل والشرب. وبتضييق مجاريه ينقهر وينكسر نواجم وسوسته بالرذائل عن العبد، ويسكن حركات الأطراف التي مبدؤها تلك الوساس، وتخشع الأبصار، وتذلّ النفوس، وتنخفض القلوب.

وقوله: مع ما في الزكاة. إلى قوله: الفقير.

إشارة إلى سرّ آخر من أسرار الزكاة وهو ظاهر. وقد ذكرنا أسرارها مستقصاة في الفصل الذي أوّله: إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون.

قوله: أنظروا. إلى آخره. أمر باعتبار ما في هذه الأفعال: أي التي تقع في الصلاة والزكاة والصيام من تعفير عتائق الوجوه وإلصاق كرائم الجوارح وهي الأيدي والأرجل ولحوق البطون بالمتون إلى غير ذلك من الأفعال المستلزمة للتواضع والتذلل تأكيداً لما قرّره أولاً من كون هذه العبادات حارسة لعباد الله عن رذيلة الكبر. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في توبيخهم على المعصية من غير سبب يعرف أو حجّة يقبلها عقل، وأمرهم بالتعصّب لمحامد الأخلاق ومكارمها، وتحذيرهم من العقوبات النازلة بمن قبلهم من الأمم والنظر في عاقبة أمرهم، وغير ذلك من الأمور الواعظة، وذلك قوله:

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاَءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ. أَمَّا

إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: ﴿أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ﴾ وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ؛ فَقَالُوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ؛ بِالأَخْلاقِ الرَّغِيبَةِ، وَالأَحْلامِ الْعَظِيمَةِ، وَالأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالآثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ.

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ. وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ؛ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الأَيْدِي، وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلاءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً. اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلا سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وَأَئِمَّةً أَعْلاماً، وَبَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ؟؟ فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَازِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ فِيكُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ. فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأَمْثَالِ!

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الآفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، وَمَهَافِي الرِّيحِ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ، أَذَلَّ الأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا. فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاءِ أَزْلٍ، وَإِطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْؤُودَةٍ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ،

وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَعَنْ خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ!

أَلا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هٰذِهِ الأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هٰذِهِ الأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا، بِنِعْمَةٍ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وَبَعْدَ الْمُوَالاةِ أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الإِسْلامِ إِلاَّ بِاسْمِهِ. وَلا تَعْرِفُونَ مِنَ الإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ.

تَقُولُونَ «النَّارَ وَلا الْعَارَ» كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الإِسْلامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ. وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لا جَبْرَائِيلُ وَلا مِيكَائِيلُ وَلا مُهَاجِرُونَ وَلا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلاَّ الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي، أَلا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الإِسْلامِ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ.

أقول: التمويه: التلبيس. وتليط: تلتصق وتختلط. والسفه: خفّة العقل. والمجداء: جمع ماجد وهو كريم الآباء وشريفهم. والنجداء: جمع نجيد، وهو ذو النجدة وهي فضيلة تحت الشجاعة. ويعاسيب القبائل: ساداتها. وزاحت: بعدت. والتخاضّ: التحاثّ. والفقرة: الواحدة من خرزات الظهر، وروي فقرهم: جمع فقرة. والمنّة: القوّة. والتضاغن: التحاقد. والتشاحن: التعادي. والتدابر: التقاطع. والتخاذل: عدم التناصر. والعبء: الحمل. وأجهد: أشقّ وسمته كذا: أوليته إيّاه. والمرار بضمّ الميم: شجر مرّ إذا أكلت منه الإبل قلصت عنه مشافرها. والترادف: التعاضد والتعاون. وغضارة النعمة: طيبها. والاحتياز: الاقتطاع عن الشيء والأخذ عنه. والريف: الأرض ذات الزرع والخصب ومهافي الريح: جمع مهفاة وهي محلّ هفو الريح: أي حركتها وهبوبها. ونكد المعاش: قلّته وشدّته والعالة: جمع عائل وهو ذو العيلة وهي الفقر. والدبر: الجرح في ظهر البعير. والوتر: الحقد. وفي بعض النسخ: دبر ووبر. والأزل: الضيق. والموؤودة: البنت تدفن في التراب حيّة. وشنّ الغارة: فرّقها من كل جانب. والفكه: طيّب النفس المسرور، والفكه: الأشر البطر. وتربّعت: أقامت. وأصله الإقامة في الربيع، ويحتمل أن يريد تمكّنت كالمتربّع بجلسته المخصوصة بكونها ذات تمكّن. والذرى: جمع ذروة وهي أعلى الجبل. وعطف عليه وتعطّف: إذا أشفق عليه والتفت إليه بإحسانه. والخطر: المنزلة والقدر. والأعراب: سكّان البادية. وإكفاء الإناء: قلبه لوجهه.

وانتهاك الحرمة: أخذها بما لا يحلّ. والمقارعة: المضاربة.

فقوله: ولقد نظرت. إلى قوله: بمعذّبين.

في معرض التوبيخ لهم على تعصّبهم الباطل الذي تثور به الفتن مع أنّه ليس لأمر يعرف من وجه المنفعة والمصلحة الحاملة عليه. ولفظ إلاّ يقتضي حصر وجدانه لمن يتعصّب لشيء في وجدانه له متعصّباً عن علّة تحتمل تشبيه الأمر على أهل الجهل بحيث يظنّ سبباً صحيحاً للتعصّب أو عن حجّة ملتصق بعقول السفهاء فيقبلها، وهذا هو مقتضى العقل. إذ كان الترجيح من غير مرجّح محال في بداية العقول. وتقدير الكلام: فما وجدت أحداً يتعصّب إلاّ وجدته يتعصّب عن علّة.

وقوله: غيركم.

استثناء من معنى الإثبات في الجملة المفيدة للحصر كأنّه قال: وجدت كلّ أحد يتعصّب عن علّة إلاّ أنتم.

وقوله: تتعصّبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علّة.

أي سبب يحتمل التمويه على الجهلاء وعلّة ملتصق بعقول السفهاء ولم يرد نفي مطلق السبب. إذ سبب تعصّبهم وثوران الفتنة بينهم هو الإعتزاء الذي كان بينهم وكان يقع من جهّالهم كما ذكرناه في سبب الخطبة لكنّه ترك الوصف هنا لتقدّمه.

ثمّ أخذ في تفصيل وجوه العصبيّة وأسبابها فبدأ بذكر مبدأ العصبيّة لإبليس. وسبب عصبيّته لأصله اعتقاده لطف جوهره وشرفه. إذ النار أشرف من الطين مع جهله بسرّ البشريّة ووضع آدم على هذه الخلقة وخلقته التي وضع عليها فلذلك فضّل نفسه قياساً للفرع على الأصل في الشرف والخسّة فقال: أنا ناري وأنت طيني. ولذلك قيل: إنّ أوّل من قاس إبليس. ثمّ بعصبيّة الأغنياء والجهّال من مترفة الأمم لكونهم تلامذة إبليس في العصبيّة، وأشار إلى علّة تعصّبهم وهي آثار مواقع النعم، ومواقعها هي الأموال والأولاد وسائر ما ينتفع به كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبإ: ٣٥] وآثار تلك المواقع هي الغنى والترفّه بها والتنعّم واللالتذاذ، وكان تعصّبهم لذلك وفخرهم به. ويجب أن يعلم أنّ الأموال والأولاد أنفسها ليست نعماً مطلقاً لأنّ النعمة من الأمور الإضافيّة إنّما يقال بالنسبة إلى منعم ومنعم عليه وليس المال مطلقاً كذلك ولا الولد باعتبار ذاته بل إنّما يطلق عليهما لفظ النعمة باعتبار انتفاع الإنسان بهما حتى لو كانا سبباً لهلاكه وأذاه لم يكونا بذلك الاعتبار إلا نعمة عليه وفتنة له فلذلك جعلها مواقع النعم: أي محال قابلة لكونها نعماً، ويحتمل أن يريد بالنعم الأموال والأولاد وبمواقعها وقوعها فإنّه كثيراً ما يريد بمفعل المصدر وآثارها هي الغنى والترفّه كما قدّمناه. ثمّ لمّا وبّخهم على التعصّبات الباطلة نبّههم على مواقع العصبيّة وما ينبغي أن يكون له وهي مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها أهل المجد والشرف والنجدة من بيوتات العرب وسادات القبائل. والباء في قوله: بالأخلاق. متعلّقة بتفاضلت فإنّ المذكورين تفاضلوا في محاسن الأمور بالأخلاق الرغيبة: أي المرغوب فيها، وقد علمت فيما سبق أصول الأخلاق الفاضلة وما تحتها من أنواعها، والحلم ملكة تحت الشجاعة وهي الإناءة والرزانة عند الغضب وموجباته والمفاضلة بالأخطار الجليلة مراعاةً للمراتب المحمودة ومنازل الشرف بالمحافظة على تلك الأخلاق المحمودة وملازمتها، وكذلك المفاضلة بالآثار المحمودة يعود إلى ملازمة الأفعال الجميلة الموافقة للأخلاق النفسانيّة كفعل البذل عن السخاء وكقتل القريب مثلاً مراعاة للعدل والوفاء. ثمّ أمرهم بعد التنبيه على تلك المكارم بالعصبيّة لها فقال: فتعصّبوا لخلال الحمد. وأشار إلى تفصيلها: فمنها: حفظ الجوار وهي فضيلة تتشعّب عن فضيلتين لأنّ حفظه يكون بالكفّ عن أذاه وذلك فضيلة تحت العدل، ويكون بالإحسان إليه ومصادقته ومسامحته ومواساته وتلك أمور تحت العفّة. ومنها: الوفاء بالذمام وهو تحت العفّة. ومنها: الطاعة للبرّ والأولى أن يريد بالبر هنا ما أراد به القرآن الكريم بقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ... وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]. فإنّ المراد في هاتين القرينتين بالبرّ كمال الإيمان والتقوى والأعمال الجميلة، ومعنى طاعة

البرّ التلبّس بهذه الأفعال وملازمتها واعتقاد وجوبها، ويحتمل أن يريد والطاعة للأمر بالبرّ فحذف الأمر للعلم به.

وقد يطلق البرّ ويراد به العفّة وبذلك الاعتبار يقابله الفجور، ويحتمل أن يريد هٰهنا ما يقابل العقوق وهو الشفقة على ذوي الرحم والإحسان إلى الوالدين، وهو داخل تحت العفّة. ومنها: المعصية للكبر والمراد بمعصية الكبر مجانبته مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب أو معصية الأمر بالكبر وهو كناية عن التواضع وهو فضيلة تحت العفّة، والمعصية هنا في مقابلة الطاعة. ومنها: الأخذ بالفضل وأراد استكمال الفضيلة ولزومها، ويحتمل أن يريد بالفضل التفضّل على الغير والإحسان إليه والأخذ به فيكون أمراً بالإحسان والجود وهو فضيلة تحت العفّة. ومنها: الكفّ عن البغي ويعود إلى فضيلة العدل. ومنها: تعظيم القتل وهو كناية عن تركه لما يستلزمه من رذيلة الظلم ثمّ للوعيد عليه في الآخرة ويعود إلى فضيلة العدل أيضاً، وكذلك الإنصاف للخلق هو لزوم العدل في معاملاتهم. ومنها: كظم الغيظ وهو فضيلة تحت فضيلة الشجاعة. ومنها اجتناب الفساد في الأرض وهو من لوازم فضيلة العدل. ثمّ لمّا أمر بلزوم مكارم الأخلاق والأعمال الجميلة أردفه بالتنفير عن الكون على ذلك من رذائلها وذمائمها، وذلك التنفير بتذكير السامعين حال الأمم الماضين وما أصابهم من عقوبات الله بسبب سوء أفعالهم وذميم أعمالهم، وتحذيرهم أن يرتكبوا تلك الرذائل فيصيبهم ما أصاب أولئك من بأس الله. وأمرهم أن يتذكّروا حالهم في الشرّ أولاً حين كانوا في طاعة أنبيائهم والألفة الجامعة بينهم وحالهم في الشر التي انقلبوا إليها عن تلك الحال حين خالفوا صالح الأعمال وحالفوا ذميم الأفعال، وحذّرهم أن يكونوا أمثالهم: أي في ذلك الانقلاب واستبدال الشرّ بالخير وأن يلزموا عند تفكّرهم في تفاوت حاليهم كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم وأزالت الأعداء عنهم ومدّت العافية فيه بهم. والباء للاستصحاب: اي مدّت مستصحبة لهم. وفي نسخة الرضي رحمه الله ومدّت بالفتح على البناء للفاعل كقولك مدّ الماء: أي جرى وسال. وكذلك انقادت النعم لذلك الأمر معهم: أي بسببه. إذ كان سبباً معدّاً لإفاضة النعم عليهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم. واستعار لفظ الوصل لاجتماعهم عن كرامة الله لهم حال كونهم على ذلك الأمر، ورشّح بذكر الحبل.

وقوله: من الاجتناب. إلى قوله: والتواصي بها.

وظاهر أنّ لزوم الألفة سبب للأمور التي عدّدها.

وقوله: واجتنبوا إلى قوله: وتخاذل الأيدي.

أي واجتنبوا كلّ أمر استبدلوا به تلك الأمور التي أوجبت لهم العزّة والكرامة وكان سبباً لكسر فقرتهم ووهن قوّتهم وهو التضاغن والتشاحن والتقاطع والتخاذل لأنّها أمور تضادّ الألفة وتنافيها فكانت مضادّة لما يستلزمه الألفة، وأراد التخاذل المطلق. وإضافته إلى الأيدي كناية لأنّ الأغلب أن يكون التناصر بالأيدي، وهؤلاء الذين أمر باعتبار حالهم لا يريد بهم أمّة معيّنة بل الحال عامّ في كل أمّة سبقت فإنّ كل أمّة ترادفت أيديهم وتعاونوا وتناصروا كان ذلك سبباً لعزّة حالهم ودفع الأعداء عنهم، وكلّ قوم افترقوا وتقاطعوا استلزم ذلك ذلّهم وقهر الأعداء لهم.

وقوله: وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين. إلى قوله: إليه بهم.

أمر لهم باعتبار هذه الأحوال فيمن هو أخصّ وهم المؤمنون من الماضين في أزمان الأنبياء السابقين فإنّهم حيث كانوا مع كلّ نبيّ في مبدأ أمرهم في حال التمحيص والاستخلاص لقلوبهم بالبلاء أثقل أهل الأرض أعباء قد اتّخذتهم الفراعنة عبيداً يسومونهم سوء العذاب وهؤلاء كيوسف عليه السلام مع فرعون زمانه، وكموسى وهارون ومن آمن معهما من بني إسرائيل في مبدأ أمرهم فإنّهم كانوا حال التمحيص والبلاء بالصفات التي ذكرها عليه السلام قد اتخذتهم الفراعنة عبيداً يسومونهم سوء العذاب ويجرّعونهم المرار فلم يزالوا كذلك مقهورين حتى إذا رأى استعدادهم بالصبر على دينه لإفاضة رحمته عليهم أفاضها عليهم وجعل لهم من مضائق البلاء فرجاً فأبدلهم بالعزّ مكان الذلّ والأمن مكان الخوف كما امتنّ عليهم تعالى في كتابه حيث قال:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٤٩-٥٠] الآية. وقبل ذلك ما كان المؤمنون مع نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وغيرهما. فأمّا كونهم ملوكاً وحكّاماً وأئمة أعلاماً وبلوغهم الكرامة من الله لهم ما لم يذهب آمالهم إليه فإنّ موسى عليه السلام وهارون عليه السلام بعد هلاك فرعون ملكا مصر واستقرّ لهما الملك والدين وكطالوت وداود بعد مجاهدتهما بجالوت وقتله، وذلك أنّ طالوت لمّا جاوز النهر هو ومن معه لقتال جالوت كان معه داود عليه السلام فرماه من مقلاعه بحجر فقتله وانكسر أصحابه فكان الملك والغلبة لطالوت وأصحابه وكان الملك بعده لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وكذلك لم يزل الملك والنبوّة في سليمان وولده وأولادهم إلى الأعرج من ولده فطمعت الملوك في بيت المقدس لضعفه وزمنه وأنّه لم يكن نبيّاً فسار إليه ملك الجزيرة وكان يسكن بريّة سنجار وكان بخت نصر كاتبه فأرسل الله تعالى عليه ريحاً فأهلكت جيشه وأفلت هو وكاتبه فقتله ابنه فغضب له بخت نصر فاغترّه حتى قتله وملك بعده وكان ذلك أوّل ملك بخت نصر.

وقوله: فانظروا كيف كانوا. إلى قوله: للمعتبرين منكم.

أمر لهم باعتبار حالهم في ألفتهم واجتماعهم، وإشارة إلى أنّ المستلزم لتلك الخيرات كلّها إنّما كان هو الألفة والاجتماع وباعتبار ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة بينهم وتشتت ألفتهم واختلفت كلمتهم وأفئدتهم فخلع الله عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته وبقيت قصص أخبارهم عبرة للمعتبرين، وهو إشارة إلى أنّ المستلزم لتلك الشرور هو ما حصلوا عليه من تفرّق الكلمة وذلك صادق على كل قرن قرن وأمّة أمّة آمنوا ولحقتهم المجاهد من الفراعنة والجبابرة ثم صبروا فانتصروا على أعدائهم. وأراد باعتدال القلوب استقامتها على الحقّ.

وقوله: والسيوف متناصرة.

قال بعضهم: أراد أهل السيوف فحذف المضاف، ويحتمل أن يكون قد استعار وصف التناصر لها باعتبار كونها أسباباً يقوّي بعضها بعضاً فصارت كالجماعة التي ينصر بعضها بعضاً. ونفوذ البصائر خرقها حجب الشبهات عن الحقّ واصلة إليه. واتّحاد العزائم اتّفاق الإرادات الجازمة على طلب الحقّ ومختلفين ومتحاربين منصوبان على الحال، وكذلك موضع قوله: قد خلع وكذلك عبرةً.

وقوله: فاعتبروا بحال ولد اسماعيل وبني إسحاق وإسرائيل عليهم السلام. إلى قوله: صفاة.

أمر لهم باعتبار أخصّ وولد إسماعيل إشارة إلى العرب من آل قحطان وآل معد، ومن بني إسحاق أولاد روم ابن عيص بن إسحاق وبنو إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق. فأمّا حال تشتّتهم وتفرّقهم واستيلاء الأكاسرة والقياصرة عليهم وفعلهم بهم ما ذكر فتفرّق كلمة العرب قبل ظهور محمد صلى الله عليه وآله أمر ظاهر معلوم لكلّ من طالع كتب السير، وبسبب ذلك كانت الأكاسرة أرباباً لهم يحتازونهم ويبعدونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى البادية، وأمّا حال بني إسحاق وإسرائيل في ذلك فنحو ما جرى لأولاد روم بن عيص من اختلاف النسطوريّة واليعقوبيّة والملكائيّة حتى كان ذلك سبباً لضعفهم واستيلاء القياصرة عليهم في الروم وعلى بني إسرائيل في الشام وإزعاج بخت نصر لهم عن بيت المقدس حتى غزاهم المرّة الثانية كما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ [الإسراء: ٧] الآية. وقد كان غزاهم مرّة أولى حين أحدثوا وغيّروا فرغبوا إلى الله تعالى وتابوا فردّه عنهم وهي المرة الأولى التي حكى الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ [الإسراء: ٥] الآية. ثمّ أحدثوا بعد ذلك فبعث الله إليهم أرميا فقام فيهم بوحي الله فضربوه وقيّدوه وسجنوه فغضب الله عليهم فبعث إليهم عند ذلك بخت نصر فقتل منهم وصلب وأحرق وجدع وباع ذراريهم ونساءهم وسارت منهم طائفة إلى مصر ولجأوا إلى ملكها فسار إليه بخت نصر فأسره وأسر بني إسرائيل. والذين فرّوا منهم ارتحلوا إلى حدود

المدينة كيهود خيبر وبني قريظة والنضير ووادي قرى وقينقاع. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّه عليه السلام أمر باعتبار حالهم وتأمّل أمرهم في حال تشتتهم وتفرّقهم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وفعل أعدائهم ما كانوا يفعلون كيف فرّج الله عنهم من تلك الشدائد بظهور محمد صلى الله عليه وآله لهم نبيّاً. واعلم أنّ غايته عليه السلام من أمره باعتبار حال المؤمنين من الأمم الماضية قبلهم اقتداؤهم في الصبر على المكاره ولزوم الألفة والاجتماع مع ذلك وانتظار الفرج به.

وقوله: فما أشدّ اعتدال الأحوال.

أي تساويها، وأراد أنّ أحوالكم الشبه والمساواة لأحوالهم، وكذلك ما أقرب اشتباه الأمثال: أي إنّ أحوالكم شديدة المماثلة لأحوالهم لأنكم أمثالهم. وهو إشارة إلى وجه علّة الاعتبار فإنّهم إذا كانوا أمثالهم واعتدلت أحوالهم وتشابهت أمورهم وجب اعتبار حالهم بحالهم ولذلك أتى بالفاء للتعليل.

وقوله: تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم. إلى آخر الكلام.

إشارة إلى حال شدّتهم ورخائهم لتنقل أذهان السامعين إلى إثبات تلك الحال لأنفسهم. فالماضون أصل ذلك الاعتبار، والسامعون فرعه، وحكم الأصل أحوالهم الخيريّة والشريّة، وعلّة ذلك الحكم كونهم أمثالاً لهم.

وقوله: ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم.

أي مالكون لأمورهم يحتازونهم: أي كانت القياصرة يحتازون بني إسرائيل وبني إسحاق، والأكاسرة يحتازون بني إسرائيل ويمنعونهم من أعمال العراق فصار الجميع مطروداً للجميع عن خضرة الآفاق وجنان الشام وبحر العراق. وأراد دجلة والفرات.

وقوله: إلى منابت الشيح ومهافي الريح.

كنايتان عن البريّة وظاهر أنّها محلّ نكد العيش وضيقه كما وبّخهم عليه السلام بوصف معاشهم في الفصول السابقة ويختص الأكاسرة - وهو جمع كسرى - بملوك الفرس والقياصرة بملوك الروم وهو جمع على غير قياس. وكنّى بالدبر والوبر عن الجمال، وفيه إيماء إلى فقرهم وضيق معاشهم لأنّ دبر الجمال واستعمال الوبر وأكله بالدم من لوازم الفقر وضيق الحال، وعلى الرواية الأخرى فالدبر كناية عن الفقر أيضاً، وظاهر أنّهم أذلّ الأمم داراً لأنّ أهل البادية ليسوا أصحاب حصون وقلاع يعتصم بها وإن كان لبعضهم حصون فعساه يحميهم عن أمثالهم فيما يجري بينهم من الغارات، وليس ذلك ممّا يدفع عدوّاً ذا قوّة أو يحتمل حصاراً.

وقوله: وأجدبهم قراراً.

أي مستقرّاً. إذ كانت البادية لا تقاس إلى المدن في الخصب، واستعار لفظ الجناح لما ينهض به دعوتهم ويقوى إذا دعوا، وكنّى بذلك عن كونهم لا يأوون إلى من يجيب دعوتهم فيعتصمون به، وكذلك استعار لفظ الظلّ لما تستلزمه الألفة من التعاون والتعاضد والتناصر، ووجه المشابهة هو ما تستلزمه هذه الأمور من الراحة والسلامة من حرارة نار العدو والحرب كما يستلزمه الظلّ من الراحة من حرّ الشمس.

وقوله: فالأحوال مضطربة.

شرح لحالهم يومئذ وكونهم على غير نظام، وكنّى باختلاف أيديهم عن عدم اتّفاقهم على التناصر وبتفرّق كلمتهم عن عدم ألفتهم واجتماعهم على مصالحهم.

وإضافة بلاء إلى الأزل بمعنى من. وكذلك إضافة أطباق، وقد علمت أنّ للجهل صفات ودركات متراكم بعضها فوق بعض أولاها عدم العلم بالحقّ، وفوقها الاعتقاد بغير الحق، وفوقها اعتقاد شبهة يقوى ذلك ويعضده مع تجويز نقيضه، وفوقها اعتقاد تلك الشبهة جزماً. وفي نسخة الرضي (رحمه الله) وإطباق بكسر الهمزة على أنّه مصدر والمعنى وجهل مطبق عليهم.

وقوله: من بنات.

تفصيل للوازم ذلك الجهل، وذكر منها أربعة أنواع:

أحدها: وأد البنات، وأشار إليه القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۞﴾ [التكوير: ٨-٩] قيل كان ذلك في بني تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر ابن وائل. قالوا: والسبب في ذلك أنّ رسول الله دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر

بالدم كانوا يسمونه العلهز فوأدوا البنات لإملاقهم وفقرهم. ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] وقال قوم: بل كان وأدهم للبنات أنفة، وذلك أنّ تميماً منعت النعمان الإمارة سنة من السنين فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر وجلّ من معه من بكر بن وائل فاستاق النعم وسبا الذراري فوفدت بنو تميم إلى النعمان فاستعطفوه فرقّ لهم وأعاد عليهم السبي وقال: كل امرأة اختارت أباها ردّت إليه وإن اختارت صاحبها تركت عليه. فكلهنّ اخترن أباهنّ إلاّ ابنة قيس بن عاصم فإنّها اختارت من سباها. فنذر قيس بن عاصم التميمي أنّه لا تولد له بنت إلا وأدها. ففعل ذلك، ثمّ اقتدى به كثير من بني تميم.

الثاني: عبادة الأصنام، وقد كان لكل قبيلة صنم يعبدونه فكان لهذيل سواع، ولبني كلب ودّ، ولمذحج يغوث وكان بدومة الجندل، ولذي الكلاع نسر، ولهمدان يعوق، ولثقيف اللات والعزّى، ولقريش بني كنانة والأوس والخزرج مناة، وكان هبل على الكعبة وإساف ونائلة كانا على الصفا والمروة ومن نوادر جهلهم المشهورة أنّ بني حنيفة اتخذوا في الجاهليّة صنماً من خبش فعبدوه دهراً طويلاً ثمّ أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال بعضهم في ذلك:

أكلت حنيفة ربّها
زمن التقحّم والمجاعة
لم يحذروا من ربّهم
سوء العواقب والتباعة

الثالث: قطع أرحامهم وقد كان أحدهم يقتل أباه وأخاه عند الحميّة لأدنى سبب كما هو معلوم في حالهم.

الرابع: الغارات والحروب كيوم ذي قار وكأيّام حرب بكر وتغلب في بني وائل وكحرب داحس وغير ذلك من الأيام المشهورة. ومقاماتهم في الحروب والغارات أكثر من أن تحصر وكل ذلك من لوازم الجهل.

وقوله: فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم.

أمر باعتبار حالهم عند مقدم محمد صلى الله عليه وآله وبعثته فيهم بعد تلك الأحوال الشريّة. والضمير في عقد وجمع راجعان إلى الله تعالى لشهادة القرآن الكريم بنسبة الألفة بينهم إليه في قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣] ومعنى عقده لطاعتهم بملّته جمعها بعد الانتشار ونظمها بعد التفرّق. إذ كانت طاعاتهم في الجاهليّة موافقة لأهوائهم المختلفة ومنتشرة بحسب اختلافها، واستعار لفظ الجناح لما أسبغت عليهم رحمة الله من النعمة وعمّتهم به من الكرامة، ورشّح بذكر النشر، وكنّى به عن عمومهم بها. وكذلك استعار لفظ الجداول وهي الأنهار لأنواع نعيمها وسيول الخيرات التي جرت عليهم من الكمالات النفسانيّة والبدنيّة ملاحظة لشبه تلك الطرق والأسباب بالجداول في جريان الماء بها، ورشّح بذكر الإسالة.

وقوله: والتقت الملّة بهم في عوائد بركتها.

أي اجتمعت بهم ولقيتهم في منافعها التي حصلت ببركتها. يقال: التقيت بفلان في موضع كذا: اي لقيته. وقيل: قوله: في موضع عوائد نصب على الحال: أي الحال كونها كذلك. ولفظ الإلتقاء كناية عن ورود الدين عليهم وتلبّسهم به، ولذلك استعار لفظ الغرقى ملاحظة لشبههم بالغرقى في شمول نعمة الدين لهم وغمر نعمة الإسلام إيّاهم حتى كأنّهم لاستيلائها عليهم كالغرقى فاستلزم ذلك لملاحظة تشبيهها بالبحر الزاخر، وكنّى بخضرة عيشها عن سعة المعاش بسبب الملّة وطيبه وأراد بالسلطان هنا إمّا الحجّة والبرهان والاقتداء، أو الغلبة والدولة. واستعار لفظ الظلّ لما يستلزمه ذلك السلطان من النعمة: أي وتمكّنت بهم الأمور والأسباب التي أعدتهم لنعمة الله في ذلك الظلّ وكذلك قوله: وآوتهم الحال: أي ألجأتهم وضمنتهم الحال التي كانوا عليها إلى عزّ غالب، وهو عزّ الإسلام ودولته ملاحظة لشبهه بأعالي الجبل المنيع في علوّه ومنعته. وكذلك استعار لفظ التعطف لإقبال السعادات الدنيويّة والأخروية عليهم بالإسلام وهي التي عنى بالأمور. ولاحظ في ذلك مشابهة ذلك الإقبال بتعطّف ذي الرحمة والشفقة على غيره.

وقوله: فهم حكّام. إلى قوله: يمضيها فيهم. ظاهر، وكنّى بكونهم لا تغمز قناتهم عن قوّتهم وعدم انقهارهم للغير، وكذلك لا يقرع لهم صفاة. وهما يجريان مجرى المثل. ثمّ عقّب بتوبيخهم على قلّة طاعتهم، واستعار لفظ الحبل لما نظم بينهم من طاعتهم لله ورسوله، وكنّى بوصف نفض الأيدي عن خروجهم من الطاعة وشدّة اطراحهم لها بكثير من أفعالهم، وكذلك استعار لفظ الحصن للإسلام ووجه المشابهة كونه حافظاً لهم من أعدائهم الظاهرة والباطنة كالحصن المضروب على أهله، ورشّح بذكر المضروب، وكذلك استعار لفظ الثلم لكسرهم الإسلام بأحكامهم الجاهليّة ومخالفتهم لكثير من أحكامه ونفّر عن تلك المخالفة بما يستلزمه من ذلك الثلم.

قوله: وإنّ الله سبحانه قد امتنّ. إلى قوله: كلّ خطر.

ترغيب في لزوم حبل الألفة والتمسّك به. والنعمة التي امتنّ الله تعالى بها في عقد حبل الألفة التي لا يعرف أحد لها قيمة هي الألفة نفسها باعتبار ما استلزمه من المنافع العظيمة ودفع المضارّ وعلّل عدم معرفة الخلق لقيمتها بكونها أرجح من كل ثمن وأجلّ من كل خطر وهي صغرى قياس ضمير تقدير كبراه: وكل ما كان كذلك لم يعرف أحد قيمته، وصدق الصغرى ظاهر. إذ كانت تلك الألفة والاجتماع على الدين سبباً عظيماً في استعدادهم لسعادتي الدنيا والآخرة.

وقوله: وعلموا. إلى قوله: بين خلقه.

توبيخ لهم بانتقالهم عن الأحوال والأقوال الإسلاميّة إلى الأحوال الجاهليّة: أي قد صرتم بعد كونكم مهاجرين أعراباً، ولمّا كانت الأعراب أنقص رتبة من المهاجرين وأهل المدن لجفاهم وقسوتهم وبعدهم عن الفضائل النفسانيّة وتعلّمها وعن سماع ألفاظ الرسول ﷺ ومجالسته واقتباس الآداب من أهل الحضارة كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] الآية. لا جرم وبّخهم لصيرورتهم كذلك وليس كلّ الأعراب بالصفة المذكورة لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩] الآية. وكونهم بعد الموالاة أحزاباً فالأحزاب الفرق التي تنقسم لمحاربة الرسل وأوصيائهم وتجتمع لمخالفتهم وظاهر أنّ هؤلاء كذلك لانقسامهم وتشعّبهم إلى ناكثين ومارقين وقاسطين ومنافقين ومحاربتهم له حتى ليس لهم إذن جامع في الإسلام يتعلّقون به إلاّ اسم الإسلام ولا يعرفون من الإيمان إلاّ رسمه وأثره وشعاره الظاهر بالشهادتين وحضور الصلاة دون الشرائط الحقّة وما ينبغي له. وقولهم: النار ولا العار كلمة يقولها أهل الكبر والأنفة من احتمال الأذى والضيم لأنفسهم أو لقومهم في الاستنهاض إلى الفتنة. والنار والعار منصوبان بفعلين مضمرين تقديرهما ادخلوا النار ولا تحتملوا العار. ثمّ شبّههم في حالهم وقولهم ذلك بمن يقصد أن يقلّب الإسلام على وجهه، وكنّى بذلك عن إفساده كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالإناء يقلب فيخرج ما فيه عن الانتفاع به، ووجه التشبّه المذكور أنّ أفعالهم المذكورة كأفعال من يقصد ذلك من أعداء الإسلام لإرادة إفساده.

وقوله: انتهاكاً ونقضاً.

منصوبان على المفعول له والعامل قوله: تكفئوا، ويصلحان غايتين عقيب كلّ فعل نسبه إليهم يفسرهما ذكرهما هُهنا، وميثاقه ما أخذ عليهم فيه وأسلموا من جزئيّاته وهي الإيمان الصادق بالله ورسوله وما جاء به من القوانين الشرعيّة. ثمّ وصف ذلك الميثاق بكون الله تعالى قد وضعه لهم حرماً في أرضه يمنعهم من كل عدوّ وأمناً بين خلقه لمن دخله وأراد محل أمن فحذف المضاف أو تجوّز بلفظ الأمن في المأمن إطلاقاً لاسم الحال على المحل.

وقوله: وإنّكم. إلى قوله: بينكم.

تحذير من الاعتماد على غير الإسلام واللجأ إليه من شجاعة أو حميّة أو كثرة في قبيلة مع الخروج عن طاعة سلطان الإسلام والتفرّق فيه فإنّ ذلك يستلزم طمع الكفار فيهم. وعدم نصرة الملائكة والمهاجرين والأنصار حينئذٍ لهم إمّا لأنّ النصرة كانت مخصوصة بوجود الرسل والاجتماع على طاعته وقد زالت بفقده أو لأنّها مشروطة بالاجتماع على الدين والألفة فيه والذبّ عنه وإذا

التجأوا إلى غيره وحاربهم الكفّار لم يكن ناصر من الملائكة لعدم اجتماعهم على الدين، ولا من المهاجرين والأنصار لفقدهم وهذا اللازم مخوف ينبغي أن يحذر منه فالملزوم وهو الالتجاء إلى غير الإسلام يجب أن يكون كذلك. والضمير المضاف إليه في حريمه وميثاقه يعود إلى الإسلام. وقال بعض الشارحين: الضمير في قوله يعود إلى الله والأول أليق بسياق الكلام، والنصب في جبرائيل وميكائيل على أنّهما اسمان ملاحظاً فيهما التنكير ولذلك أتى عقيبهما بعد لا بالنكرتين، وينصرونكم هو خبرها مفسّراً لمثله عقيب ما يكون منها.

وقوله: إلاّ المقارعة بالسيف.

استثناء منقطع، وحكم الله الذي جعله غاية للمقارعة هو إفاضة لصورة النصر على أحد الفريقين والانقهار على الآخر.

وقوله: وإنّ عندكم الأمثال. إلى قوله: ووقائعه.

تذكير لهم بما ضرب الله لهم من الأمثال بالقرون الماضية وما أصابهم من بأس الله وقوارعه وهي الدواهي العظام وأيّامه وهي كناية عن الأيّام التي أوقع بهم فيها عقوباته وبأسه حين استعدّوا لذلك بمعصيته وتهديد لهم بذلك إن خالفوا أمره.

وقوله: فلا تستبطئوا. إلى قوله: بأسه.

تهديد لهم أيضاً وتوعيد بقرب العقوبة على المعصية، وإطلاق لفظ الاستبطاء هنا مجاز لأنّ الاستبطاء للشيء استبعاد لوقوعه مع انتظار وقوعه المستلزم لطلبه وطلب تحقيق الوعيد ليس من مقاصد العقلاء حتى ينهون عنه لكن لمّا كان الإنسان إذا هم بالمعصية قد يستبعد تحقيق الوعيد وقربه فيكون ذلك ممّا يقوى معه داعيته وشهوته لفعلها كان لذلك الاستبعاد سببيّة بوجهٍ ما للمعصية، ولمّا كان ذلك الاستبطاء أطلق عليه اطلاقاً لاسم الجزء على الكلّ فيكون التهديد والتوبيخ عليه أبلغ، ولأنّ الذي يقدم على المعصية مع علمه بما يستلزمه من الإعداد لنزول العذاب يناسب في الحقيقة من يستبطىء العقوبة ويطلب تعجيلها بفعله وكانوا بمعصيتهم كالمستبطئين للوعيد فأطلق في حقّهم لفظه الاستبطاء ونهاهم عنه. ونصب جهلاً وتهاوناً وبأساً على المفعول له لصلوح الثلاثة عللاً غائية لاستبطاء الوعيد بمعنى استبعاده لأنّ جهل العبد بكيفيّة أخذه تعالى له بالموت وأهواله وشدائد الآخرة ممّا يستبعد معه وقوع تلك الأمور في حقّه كما هي. وكذلك تهاونه ببسطه وإملائه لعدم علمه بما في ذلك البسط من الاستدراج ممّا يحمله على استبعاد وعيده، وبعزمه بالمعصية وكذلك يأسه من بأسه بسبب ذلك الجهل وذلك البسط ممّا يحمله على ذلك الاستبعاد أيضاً.

وقوله: وإنّ الله. إلى قوله: التناهي.

تنبيه لهم على أنّ لعنة الله للقرن الماضي بين أيديهم قبل الإسلام كان لازماً مساوياً لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منحصراً فيه، وكانت لعنته لسفهائهم وناقصي عقولهم لركوبهم المعاصي المنكرة، وأمّا للحكماء منهم ولذوي العقول فلعدم إنكارهم وتناهيهم عمّا يشاهدونه من ذلك المنكر. وذلك اللعن في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨] وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. ونبّههم بقوله: ألا وقد قطعتم قيد الإسلام. إلى قوله: أحكامه. على أنّهم من جملة من اتّصف بذلك الملزوم أعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وركوب المعاصي فلزمهم الدخول في زمرة من لعنه الله بذلك الترك، وغاية هذا الشبه الجذب عن ركوب المعاصي إلى الانتهاء والتناهي عنها. واستعار لفظ قيد الإسلام للألفة والاجتماع عليه وعلى امتثال أوامر الله فيه باعتبار كون ذلك حافظاً للإسلام عليهم ومانعاً له من التشرّد والذهاب كما يمنع الجمل قيده من الشرود والتشتّت. وحدود الله: أحكامه التي حدّها للناس ومنعهم من تجاوزها. وتعطيلهم لهم باطراحها وتجاوزها، وكذلك إماتة أحكامه عدم العمل بها ووصف الإماتة مستعار لتركها وإهمالها لاعتبار أنّهم أخرجوها بذلك الإهمال عن انتفاعهم بها كما أنّ مميت الشيء يخرجه عن حدّ الانتفاع. وبالله التوفيق.

الفصل الخامس: في اقتصاصه عليه السلام لحاله في تكليفه وموافقته لأوامر الله ببلائه الحسن في سبيله،

وشرح حاله مع رسول الله ﷺ والتنبيه على موضعه منه وكيفيّة تربيته له من أوّل عمره، والإشارة إلى قوّته في دين الله. وذلك قوله:

أَلاَ وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ وَرَجَّةُ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. وَلَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلاَّ مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلادِ تَشَذُّراً.

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاكِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي إِلَى فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هٰذَا الشَّيْطَانُ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلٰكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ». وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللهُ لَكُمْ ذٰلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ، وَمَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ». فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرَفْرِفَةً، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذٰلِكَ قَالُوا - عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً -: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذٰلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَالُوا - كُفْراً وَعُتُوّاً -: فَمُرْ هٰذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ؛ فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وَإِجْلالاً لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ

سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلاَّ مِثْلُ هٰذَا! (يَعْنُونِي) وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وَكَلامُهُمْ كَلامُ الأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ؛ يُحْيُونَ سُنَنَ اللهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ؛ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَلا يَعْلُونَ، وَلا يَغُلُّونَ وَلا يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ!

أقول: النكث: نقض العهد. والقسوط: الجور. ودوّخت القوم: غلبتهم وقهرتهم. والردهة: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء. والصعقة: الغشية من صيحة ونحوها. والوجبة: واحدة الوجيب وهو اضطراب القلب. والرجّة: واحدة الرجّ: وهي الحركة والزلزلة. والكرّة: الرجعة. ولأديلنّهم: أي لأقهرنّهم وأكون ذا إدالة منهم وغلبة عليهم. والتشذّر: التفرّق. والكلكل: الصدر. والنواجم: جمع ناجمة وهو الطالع والخارج. ويكنفني في فراشه: اي يحفظني فيه ويحوطني ويلفّني. وعرفه: رائحته. والخطلة: السيئة والقبيحة من قول أو فعل. والفطيم: المفطوم. وحراء - بالمدّ والكسر - : جبل بمكّة يذكّر ويؤنّث ويصرف ولا يصرف. والرنّة: صوت يصدر عند حصول المكاره كالحزن ونحوه. القليب: البئر قبل أن تطوى يذكّر ويؤنّث. وقال أبو عبيدة: هي البئر القديمة العادية. والدويّ: صوت حفيف الريح والنحل. والقصف: صوت جناح الطير وإصفاقه في الهواء. والسيما مقصوراً وممدوداً: العلامة والأثر في الشيء يعرف به. والمنار: الأعلام. وغلّ من المغنم يغلّ بالضمّ: إذا خان فيه. قال أبو عبيد: يقال منه: يغلّ - بالضم - ومن الحقد: يغلّ - بالكسر - ومن الخيانة بالمطلقة: أغلّ يغلّ.

واعلم أنّه عليه السلام نبّه في هذاالفصل على أنّ قتاله لهذه الفرق كان بأمر الله على لسان رسوله صلى الله عليه وآله، وذلك الأمر إمّا من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩] أو من السنّة بأمر خاصّ وهو من أوامر الله أيضاً. وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: سيقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. فكان الناكثون أصحاب الجمل لنكثهم بيعته عليه السلام وكان القاسطون أهل الشام، والمارقون الخوارج بالنهروان والفرق الثلاث يصدق عليهم أنّهم أهل البغي وقاسطون لخروجهم عن سواء العدل إلى طرف الظلم والجور، وتخصيص كلّ فرقة منهم بما سمّيت به عرف شرعيّ. فأمّا وصف الخوارج بالمارقين فمستنده قول الرسول صلى الله عليه وآله لذي الثدية: يخرج من ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقد ذكرناه قبل. والضئضىء: الأصل. وهذاالخبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله. ودل قوله عليه السلام: وأمّا القاسطون فقد جاهدت وأمّا المارقة فقد دوّخت. على أنّ هذه الخطبة في آخر خلافته بعد وقائع صفّين والنهروان. وأمّا شيطان الردهة فالأشبه أنّ المراد به ذو الثدية من الخوارج لما ورد الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله ذكره فقال: شيطان الردهة يحتذره رجل من بجيلة. فأمّا كونه شيطاناً فباعتبار كونه ضالاً مضلاً، وأمّا نسبته إلى الردهة فيشبه أن يكون لما روي أنّه حين طلبه عليه السلام في القتلى وجده في حفرة دالية فيها خرير الماء فنسبه رسول الله صلى الله عليه وآله إليها لما كان يعلم من كيفيّة حاله في مقتله.

وروي عن يزيد بن رويم قال: قال لي علي عليه السلام في ذلك اليوم: يقتل اليوم أربعة ألف من الخوارج أحدهم ذو الثدية فلمّا طحن القوم ورام إخراج ذي الثدية فأتعبه أمرني أن أقطع أربعة آلاف قصبة وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ أمرني أن أضع على كل رجل منهم قصبة فلم أزل كذلك وهو راكب خلفي والناس حوله حتى بقيت في يدي واحدة فنظرت إليه وقد أربدّ وجهه وهو يقول والله ما كذبت ولا كذّبت فإذا نحن بخرير الماء في حفرة عند موضع دالية. فقال لي: فتّش هذا ففتّشته فإذا قتيل قد صار في الماء وإذا رجله في يدي فجذبتها وقلت: هذه رجل إنسان. فنزل عن البغلة مسرعاً فجذب الرجل الأخرى وجررناه فإذا هو المخدج. فكبر عليه السلام ثمّ سجد وكبّر الناس بأجمعهم. وأمّا الصعقة التي أشار إليها فهي ما أصاب ذا الثدية من الغشي والموت

بضربته عليه السلام حتى استلزم ذلك ما حكاه من سماعه لرجّة صدره ووجيب قلبه. وقال بعضهم المراد بالصعقة هنا الصاعقة وهي صيحة العذاب وذلك أنّه روي أنّ عليّاً عليه السلام لمّا قابل القوم صاح القوم فكان ذو الثدية ممّن هرب من صيحته حتى وجد قتيلاً في الحفرة المذكورة. وقال بعضهم: يحتمل أن يشير بالشيطان إلى إبليس المتعارف كما أشرنا إليه في الخطبة الأولى وهو القوّة الوهميّة فاستعار لفظ الردهة وهي النقرة في الجبل للبطن الأوسط من الدماغ الذي هو محلّ هذه القوّة لمكان المشابهة، وقد يعبّر بالجبل عن الدماغ في عرف المجرّدين وعن القوى فيه، وبالجنّ الشياطين تارة وبالملائكة أخرى. ولمّا كانت الأنبياء عليهم السلام والأولياء قد يشاهدون الأمور والمجرّدة والمعاني المقبولة كالملائكة والجنّ والشياطين في صورة محسوسة باستعانة من القوّة المحصّلة كما علمت في المقدّمات وكما سنشير إليه عن قرب احتمل أن يقال أنه عليه السلام رأى الشيطان المذكور بصورة محسوسة ذات صدر وقلب وأنه عليه السلام لمّا كان في مقام العصمة وملكة للنصر على الشيطان وقهره وإبعاده وسمع من الجناب الإلهي صيحة العذاب أرسلت على الشيطان فسمع لها وجيب قلبه ورجّة صدره كما سمعت رنّته فيما يحكيه في باقي الكلام. والله أعلم.

وأمّا البقيّة من أهل البغي فمعاوية ومن بقي من جند الشام حيث وقعت الحرب بينهم وبينه بمكيدة التحكيم. وحكمه عليه السلام بأنّه إن أذن الله سبحانه في الرجوع إليهم ليغلبنّهم ولتكوننّ الدائرة عليهم ثقة بعموم توعّده تعالى في قوله ومن بغى عليه لينصرنّه الله وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣] وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وأمثاله. وكنى بإذن الله عن توفيق أسباب العود إليهم وإتمامها من الفسحة في الأجل وغيرها. واستعمل ما هٰهنا بمعنى من إطلاقاً لاسم العامّ على الخاصّ أو تكون بمعنى الذي.

وقوله: أنا وضعت في الصغر بكلكل العرب. إلى آخره.

تنبيه على فضيلته في الشجاعة والنجدة لغاية أن يخافه أعداؤه وتقوى به قلوب أوليائه لا على سبيل الفخر المجرّد فإن ذلك رذيلة قد بنى الخطبة على النهي عنها، واستعار لفظ الكلكل للجماعة من أكابر العرب الذين قتلهم في صدر الإسلام وفرّق جمعهم، ووجه المشابهة كونهم محل قوّة العرب ومقدّميهم كما أنّ الصدر من الحيوان كذلك. ومن روى كلاكل بلفظ الجمع فهو أيضاً استعارة لساداتهم وأشرافهم ممّن قاتلهم وقتلهم، ووجه الاستعارة ما ذكرناه. ويحتمل أن يكون مجازاً من باب إطلاق اسم الجزء على الكلّ. والباء في قوله: بكلكل. زائدة. والمراد بوضعهم إذلالهم وإهانتهم. يقال: وضعه فاتّضع: إذا غضّ منه وحطّ منزلته ويحتمل أن يكون للإلصاق: أي فعلت بهم الوضع والإهانة. وكذلك استعار لفظ القرون لأكابر ربيعة ومضر ممّن قاتلهم وقتلهم، ووجه الاستعارة كون كلّ واحد منهم لقبيلته كالقرن يظهر فيها فيصول به ويمنع من عدوّها كذي القرن من الحيوان بقرنه. وأراد بالنواجم من علا منهم وظهر أمره، ورشّح بذكر الكسر، وكنّى به عن قتلهم. وقتله للأكابر من مضر معلوم في بدو الإسلام فأمّا القرون من ربيعة فإشارة إلى من قتله منهم في وقائع الجمل وصفّين بنفسه وجيشه كما يقف على أسمائهم من يقف على تلك الوقائع.

وقوله: وقد علمتم موضعي. إلى آخره.

شرح لتربية الرسول صلى الله عليه وآله من أوّل عمره وإعداده بتلك التربية للكمالات النفسانيّة من العلوم والأخلاق الفاضلة. وعدّ أحواله التي هي وجوه ذلك الاستعداد وأسبابه:

أحدها: القرابة. وأشار بها إلى نسبته القريبة منه وكان عليه السلام ابن عمّه دنيا وأبواهما أخوان لأب وأمّ دون غيرهما من بني عبد المطلب إلاّ الزبير.

الثانية: منزلته الخصيصة به واشار بها إلى ما شرحه من فعله به صلى الله عليه وآله وهو وضعه له في حجره وليداً وسائر ما ذكره. ومبدأ ذلك ما روي عن مجاهد قال: كان من نعمة الله على عليّ عليه السلام ما صنعه الله له وأراد به من الخير أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّه العباس وكان

أيسر بني هاشم: يا عباس إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة فانطلق بنا لنخفّف عنه من عياله فآخذ واحداً من بنيه وتأخذ واحداً فنكفيهم عنه فانطلقا إليه وقالا له. فقال: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وأخذ العباس جعفراً فكفلاهما. وقد كان أبو طالب كفل رسول الله صلى الله عليه وآله دون غيره من أعمامه وربّاه في حجره ثمّ حماه من المشركين في مبدأ أمره ونصره عند ظهور دعوته وذلك ممّا يؤكد اختصاص منزلة عليّ عليه السلام عنده. ومن منزلته الخصيصة به ما كان بينهما من المصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار، وفي معنى قوله: فكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه ما رواه الحسن بن زيد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام قال: سمعت زيداً أبي يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمضغ اللحمة أو التمرة حتى تلين ويجعلها في فم عليّ عليه السلام وهو صغير في حجره.

الثالثة: أنّه لم يجد له كذبة في قول ولا خطلة في فعل، وذلك لما استعدّ به من تربيته صلى الله عليه وآله وسائر متمّمات الرياضة وأعراضها لاستيلاء قوّته العاقلة على قوّتي الشهويّة والغضبيّة وقهر نفسه الأمّارة التي هي مبدأ خطأ الأقوال وخطل الأفعال حتى حصلت له عن ذلك ملكة في ترك الرذائل واجتناب المآثم والمعاصي فصار له ذلك خلقاً وطبعاً. وإذا حقّق معنى العصمة في حقه عليه السلام وفي حقّ من ادّعيت له العصمة من أولاده يعود إلى هذه الملكة. فلي لاستكبارها (لاستنكارها خ) في حقّهم عليهم السلام معنى، واشار بالملك الذي قرنه به إلى جبرائيل وهو العقل الفعّال في عرف قوم. واقترانه به إشارة إلى توليه بتربية نفسه القدسيّة بإفاضة العلوم ومكارم الأخلاق وسائر الطرق المؤديّة إلى الله سبحانه من حين صغره صلى الله عليه وآله بحسب حسن استعداد مزاجه وقوّة عقله الطفوليّ. ثمّ أشار في ذكر معرض أحواله معه إلى تربية الملك له صلى الله عليه وآله ليعلم أنّه حصل بتبعيّته له على تلك المكارم، وممّا روي في حاله مع الملك وعصمته به ما روى الباقر محمد بن عليّ عليهما السلام أنه قال: وكّل الله بمحمّد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق وهو الذي كان يناديه السلام عليكم يا محمد يا رسول الله وهو شابّ لم يبلغ درجة الرسالة بعد فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض فيتأمّل فلا يرى شيئاً. وروي أنه صلى الله عليه وآله قال: أذكر وأنا ابن سبع سنين وقد بنى ابن جدعان داراً بمكّة فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدر في حجورنا فننقله فملأت حجري تراباً فانكشفت عورتي فسمعت نداء فوق رأسي يا محمّد أرخ إزارك فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً إلاّ أنّني أسمع الصوت فتماسكت ولم أرخه فكأنّ إنساناً ضربني على ظهري فخررت لوجهي فانحلّ إزاري فسترني وسقط التراب إلى الأرض فقمت إلى دار عمّي أبي طالب ولم أعد.

الرابعة: أشار إلى اتّباعه له وملازمته إيّاه بقوله: ولقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه. ووجه الشبه في اتّباعه كونه لا ينفكّ عن كالفصيل لأمّه.

الخامسة: أشار إلى ثمرة ذلك الاتّباع بقوله: يرفع لي في كلّ يوم علماً من أخلاقه ويأمرني بالاقتداء به. واستعار لفظ العلم لكلّ من أخلاقه باعتبار كونه هادياً إلى سبيل الله كما يهدي العلم.

السادسة: أنّه كان يجاور معه في كل سنة بحراء فيراه دون غيره، وروي في الصحاح: أنّه كان صلى الله عليه وآله يجاوز بحراء في كل سنة شهراً وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره انصرف إلى مكّة وطاف بها سبعاً قبل أن يدخل بيته حتّى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة فجاء في حراء في شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعليّ وخادم. وروى الطبري وغيره: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قبل مبعثه كان إذا حضرت الصلاة يخرج إلى شعاب مكّة ويخرج معه عليّ مستخفين عن أبي طالب ومن سائر أعمامه وقومه يصلّيان الصلاة فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك ما شاء الله. ثم إنّ أبا طالب عثر عليهم يوماً وهما يصليان. فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا ابن أخي ما هذا الذي أراك تدين به؟ فقال: يا عمّ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم بعثني الله رسولاً إلى العباد وأنت يا عمّ أحقّ من بذلت له

النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحقّ من أجابني إليه وأعانني عليه. فقال أبو طالب: يا ابن أخي، إنّي لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت. وروي أنه قال لعلي: يا بنيّ ما هذا الذي تدين به؟ فقال يا أبه: إنّي آمنت بالله ورسوله وصدّقته فيما جاء به وصلّيت لله معه. قال: فقال له: أما إنّه لا يدعو إلاّ إلى خير فالزمه.

السابعة: أشار إلى كونه أوّل من أسلم من الذكور بقوله: لم يجمع بيت واحد. إلى قوله: وأنا ثالثهما. وقد مضى منه عليه السلام مثل ذلك حيث قال: أأكذب على الله وأنا أوّل من آمن به؟ وقوله: فلا تتبرّوا منّي فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإسلام والهجرة. وروى الطبري في تاريخه عن عباد ابن عبد الله قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصدّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر صلّيت قبل الناس لسبع سنين، وفي رواية أخرى: أنا الصدّيق والفاروق الأوّل أسلمت قبل إسلام أبي بكر وصلّيت قبل صلاته لسبع سنين، وروي ذلك أيضاً من وجوه:

أحدها: عن ابن مسعود قال: قدمت إلى مكّة فانتهيت إلى العباس ابن عبد المطلب وهو يومئذ عطّار جالس إلى زمزم ونحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا عليه ثوبان أبيضان، عليه، وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه، أشم أقنى، أدعج العينين، كثّ اللحية، أبلج برّاق الثنايا، أبيض تعلوه حمرة، وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم حسن الوجه، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها. فقصدوا نحو الحجر فاستلمه الرجل والمرأة خلفهما فأتوا بأركان الصلاة مستوفاة فلمّا رأينا ما لا نعرفه بمكّة قلنا للعباس: إنّا لا نعرف هذا الدين فيكم. فقال: أجل والله. فسألناه عن هؤلاء فعرّفناه إيّاهم ثمّ قال: والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلاّ هؤلاء الثلاثة. وروي مثله عن عفيف ابن قيس.

الثاني: روي عن معقل بن يسار قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله فقال لي: هل لك أن تعود فاطمة؟ فقلت: نعم يا رسول الله. فقمنا فدخلنا عليها فقال لها صلى الله عليه وآله: كيف تجدينك؟ قالت: والله لقد طال سقمي واشتدّ حزني وقالت لي النساء: زوّجك أبوك فقيراً لا مال له فقال لها: أما ترضين أنّي زوجتك أقدم أمّتي سلماً وأكثرهم علماً وأفضلهم حلماً؟ قالت: بلى رضيت يا رسول الله. وروي هذا الخبر عن أبي أيّوب الأنصاري، وعن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام، والسدى، وابن عبّاس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأسماء بنت عميس، وأمّ أيمن.

الثالث: روي عن أبي رافع قال: أتيت أبا ذرّ بالربذة أودّعه. فقال لي: ستكون فتنة فاتّقوا الله وعليكم بالشيخ عليّ بن أبي طالب فاتّبعوه فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له: أنت أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني يوم القيامة وأنت الصدّيق الأكبر وأنت الفاروق الذي يفرّق بين الحق والباطل وأنت يعسوب المؤمنين.

الرابع: عن أبي أيّوب الأنصاري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين وذلك أنّه لم يصلّ معي رجل فيها غيره.

واعلم أنه ربّما اعترض بعض الجهّال فقال: إنّ إسلامه عليه السلام لم يكن معتبراً لكونه كان دون البلوغ. فجوابه من وجوه:

أحدها: لا نسلّم أنّه كان دون البلوغ ومستند هذا المنع وجوه:

أحدها: رواية شدّاد بن أوس قال: سألت خباب بن الأرتّ عن سنّ عليّ يوم أسلم؟ قال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ.

الثاني: ما رواه أبو قتادة عن الحسن أنّ أوّل من أسلم عليّ بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة.

الثالث: عن حذيفة بن اليمانيّ قال كنّا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعليّ من أبناء أربع عشرة سنة يصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وآله ليلاً ونهاراً وقريش يومئذ تسافهه ما يذبّ عنه إلاّ عليّ.

الثاني: أنّ المتبادر إلى الفهم من إطلاق لفظ المسلم والكافر إنّما هو البالغ دون الصبيّ والمبادرة إلى الذّهن دليل الحقيقة فالواجب إذن أن يرجع إلى إطلاق قولهم أسلم عليّ فإنّ ذلك يشهد بكونه بالغاً عاقلاً لما

يفعله خصوصاً في البلاد الحارّة مثل مكّة فإنّ العادة في المزاج الصحيح فيها أن يبلغ صاحبه فيما دون خمس عشرة سنة وربمّا احتلم وهو ابن اثني عشرة سنة.

الثالث: وهو الحاسم لمادّة الإشكال أنّه عليه السلام إمّا أن يكون أسلم وهو بالغ أو لم يكن فإن كان الأوّل فقد حصل الغرض وإن لم يكن فلا معنى للكفر في حقّه إذ كان عليه السلام مولوداً على الفطرة فمعنى الإسلام في حقّه إذن دخوله في طاعة الله ورسوله والاستسلام لأوامرهما فله إذن الإسلام الفطريّ والإيمان الخالص الوارد على نفس قدسيّة لم تتدنّس بأدناس الجاهليّة وعبادة الأصنام والاعتقادات الباطلة المضادّة للحقّ التي صارت ملكات في نفس من أسلم بعد علوّ السنّ. فكان إيمانه بالله ورسوله وارداً على نفس صاف لوحها عن كدر الباطل فهي المنتقشة بالحقّ متمثّلة به. وكانت غاية إسلام غيره أن يمحو على طول الرياضة من نفوسهم الآثار الباطلة وملكات السوء فأين أحدهما من الآخر؟

الثامنة: كونه عليه السلام يرى نور الوحي بالرسالة ويشمّ ريح النبوّة، وسماعه لرنّة الشيطان. وهذه أعلى مراتب الأولياء، واستعار لفظ النور لما يشاهده بعين بصيرته الباقية من أسرار الوحي والرسالة وعلوم التنزيل ودقائق التأويل وإشراقها على لوح نفسه القدسيّة، ووجه الاستعارة كون هذه العلوم والأسرار هادية في سبيل الله إليه من ظلمات الجهل كما يهدي النور من الطرق المحسوسة، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الرؤية لأنّ النور حظّ البصر، وكذلك استعار لفظ الريح لما أدركه من مقام النبوّة وأسرارها، ورشّح بذكر الشمّ لأنّ الريح حظّ القوة الشامّة، وأمّا سماعه لرنّة الشيطان فقد علمت كيفيّة سماع الإنسان لصوت الملك والشيطان وكيفيّة رؤيته لصورته وأنّ ذلك باستعانة من النفس بالقوّة المتخيّلة في اقتناص المعاني المعقولة وحطّها إلى لوح الخيال مشاهدة للحسّ المشترك مسموعة.

وقد استلزمت هذه الإشارة أنّه عليه السلام استعدّ لسماع صوت الشيطان في حزنه حين أيس من اتّباع الخلق له وانقيادهم لأمره وهو معنى عبادته إذ أصل العبادة الخضوع. وكيفيّة ذلك أنّ نفسه القدسيّة أخذت معنى الشيطان مقروناً بمعنى اليأس والحزن، وكسته المتخيّلة صورة حزين صارخ، وحطّته إلى لوح الخيال فصار مسموع الرنّة له. ويؤيّد ذلك قوله صلى الله عليه وآله حين سأله عن ذلك: إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنّك لست بنبي. فإنّه شهد له في ذلك بالوصول إلى مقام سماع الوحي وكلام الملك وصوت الشيطان وسائر ما يراه صلى الله عليه وآله ويسمعه ممّا قويت عليه نفسه القدسيّة إلا كونه نبيّاً فإنّ مقام النبوّة لا يتحقّق للإنسان إلاّ بالشرط الذي أشرنا إليه في المقدّمات وفرّقنا بين النبيّ وغيره من سائر النفوس الكاملة، وهو كون الإنسان مخاطباً من السماء بإصلاح أمر أبناء نوعه في معاشهم ومعادهم وذلك مقام أعلى وأكمل من كلّ مقام يبلغه إنسان بقوّته، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: كان عليّ عليه السلام يرى مع النبيّ صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له الرسول صلى الله عليه وآله: لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنتَ شريكاً في النبوّة فإن لا تكن نبيّاً فأنت وصيّ نبيّ ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء. ثمّ لمّا نفى عنه مقام النبوّة جبره [أخبره ح] بمقام الوزارة إشارة إلى أنّه الصالح لتدبير أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم من ورائه صلى الله عليه وآله وبعده المعين له على ذلك.

ثمّ شهد له بأنّه على خير. وأشار به إلى ما هو عليه من الطريقة المحمودة واستقامة السير في خدمته وتربيته. وذلك خير كثير. وفي مسند أحمد بن حنبل عن عليّ عليه السلام قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله الليلة التي أُسري به فيها وهو بالحجر يصلّي فلمّا قضى صلاته وقضيت صلاتي سمعت رنّة شديدة فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ قال: ألا تعلم هذه رنّة الشيطان علم أنّي أسري الليلة إلى السماء فأيس من أن يعبد في هذه الأرض. وأمّا حديث الوزارة فروي أنّه لمّا نزل قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وأمرني أن أصنع صاعاً من طعام وأجعل عليه رجل شاة وأملأ له عسّاً من لبن ففعلت ما أمرني به. ثمّ أمرني بجمع بني عبد المطّلب فجمعتهم يومئذ وهم أربعون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلمّا اجتمعوا دعا بالطعام الذي صنعه فوضعه

ثمّ تناول مضغة من لحم فشقّها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصحفة وقال: كلوا باسم الله فأكلوا حتى ما بهم إلى شيء من حاجة. والذي نفس محمّد بيده كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمته لجميعهم. ثمّ قال إسْقِ القوم يا عليّ. فجئتهم بذلك العسّ فشربوا منه حتى رووا جميعاً، وأيم الله كان الرجل الواحد ليشرب منه مثله. ثم قال لهم: يا بني عبد المطلب إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت وإنّي لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً: أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأعاد القول. فأمسكوا. وأعدت ما قلت. فأخذ برقبتي ثمّ قال لهم: هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون يقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

التاسعة: كونه معه حين أتاه الملأ من قريش وسألوه ما سألوا من دعوة الشجرة، وتصديقه عليه السلام له في ذلك وإيمانه به. وقد علمت فيما سلف أنّ نفوس الأنبياء عليهم السلام لها تصرّف في هيولى عالم الكون والفساد فيستعد عن نفوسهم لقبول الأمور الخارقة للعادات الخارجة عن وسع غيرهم من أبناء نوعهم. وصورة الحال في سؤالهم وكيفيّة دعوته صلى الله عليه وآله للشجرة وإجابتهم وتكذيبهم بذلك وتصديقه عليه السلام له مستوفى في كلامه، وذلك من قوله: ولقد كنت. إلى قوله: يعنونني. فأمّا حكمه صلى الله عليه وآله بأنّهم لا يفيؤون إلى خير وأنّ منهم من يطرح في القليب ومنهم من يحزّب الأحزاب فمن غيب الله الذي اطلعه عليه وارتضاه له فعلمه بحسب قوّته الحدسيّة القدسيّة. والقليب هو قليب بدر، ومن طرح فيه كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأميّة بن عبد شمس وأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم طرحوا فيه بعد انقضاء الحرب وكان ذلك الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ومن يحزب الأحزاب. هو أبو سفيان وعمرو ابن عبدودّ وصفوان بن أميّة وعكرمة ابن أبي جهل وسهل بن عمرو وغيرهم.

وأمّا حديث الشجرة فمشهور مستفاض رواه المحدّثون في كتبهم، وذكره المتكلّمون في معجزاته صلى الله عليه وآله ومنهم من روى ذلك مختصراً أنّه دعا شجرة فأقبلت تخدّ الأرض خدّاً. ونقله البيهقيّ في كتاب دلائل النبوّة، وأمّا نداؤه صلى الله عليه وآله للشجرة. وقوله لها: إن كنت تؤمنين بالله. إلى قوله: بإذن الله. فقد علمت أنّ الخطاب مخصوص في عرف العقلاء لمن يعقل لكنّه صلى الله عليه وآله لمّا وجّه نفسه القدسيّة من إعداد الشجرة لما يروم منها وعلم أنّه واجبة الاستعداد بذلك لقبول أمر الله بما أراد منها خاطبها خطاب من يعقل استعارة ملاحظة لشبهها بمن يعقل في إجابة ندائه وإتيانه، وفائدة ذلك الخطاب أن يكون وجود ما رام منها عقيب خطابه أغرب وفي نفوس الحاضرين أبلغ وأعجب فإذا كان وقوع تلك الحال بها غريباً كان كونها على تلك الحال وفق خطابه ودعائه لها أغرب لزيادة ايهام كونها سمعت ذلك النداء وعقلت ذلك الخطاب مع أنّها ليس من شأنها ذلك، وأعجب في نفوس السامعين. ولذلك خرج هذا عن كونه سفهاً وعبثاً.

وقال الإمام الوبريّ رحمه الله ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود: ٤٤].

واعلم أنّ ذلك على رأي الأشعريّة أمر ظاهر لأنّ البنية المخصوصة ليست شرطاً في حصول الحياة وما يكون مشروطاً بها من السمع والفهم فلذلك جاز أن يكون الله تعالى خلق في الشجرة علماً وسمعاً قبلت بها خطابه عليه السلام.

وقال الإمام الوبريّ: الخطاب في الأصل لله تعالى فكأنّه قال: اللهم إن كانت هذه الشجرة من آثارك الشاهدة بوجودك وأنت مرسل لي فاجعل ما سألت منها شاهداً على صدق دعواي. ولمّا كانت الشجرة محلّ ما سأل من الله خاطبها لذلك. فعلى هذا يكون مجازاً من باب إقامة المسبّب مقام السبب. قال: ويحتمل أن يكون الخطاب في الأصل للملائكة الموكّلين بالشجر.

قوله: وإنّي قوم. إلى قوله: لائم.

كناية عن بلوغه في طاعة الله الغاية المطلوبة منه

فإنّه عليه السلام لم يقف دون غاية منها حتى يلام على النقص فيها.

وقوله: سيماهم سيما الصدّيقين. إلى آخر الصفات.

فالقوم هم المتّقون الذين سأله همّام عن صفتهم. والصفات المذكورة بعض صفاتهم وقد سبقت مستوفاة في خطبة مفردة. وذكر هٰهنا عشراً:

إحديها: أنّ علاماتهم علامات الصدّيقين وهم الملازمون للصدق في أقوالهم وأفعالهم طاعة لله تعالى وقد عرفت علاماتهم في خطبة همّام.

الثانية: وكذلك كلامهم كلام الأبرار من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذكر الدائم لمعبودهم الحقّ.

الثالثة: كونهم عمّار الليل. وكنّى بعمارتهم له عن قيامهم فيه بالعبادة. روي أنّ أحدهم كان إذ كسل عن العمل علّق نفسه بحبل حتى يصبح عقوبة لها.

الرابعة: استعار لفظ المنار لهم بالنهار باعتبار كونهم يهدون الخلق إلى طريق الله كالمنار إلى الطريق المحسوس، وكذلك لفظ الحبل للقرآن باعتبار كونه سبباً لمتعلّميه ومتدبّريه إلى التروّي من ماء الحياة الباقية كالعلوم والأخلاق الفاضلة كالحبل الذي هو سبب الارتواء والاستقاء من الماء، أو باعتبار كونه عصمة لمن تمسّك به صاعداً من دركات الجهل إلى أقصى درجات العقل كالحبل يصعد فيه من السفل إلى العلوّ. ولفظ القرآن مجرور بعطف البيان.

الخامسة: وكذلك استعار وصف إحياء السنن لهم باعتبار إقامتها وإبقاء العمل بها.

السادسة: عدم الاستكبار والعلوّ منهم. ولمّا كان الاستكبار في الإنسان رذيلة كان عدمه عنه فضيلة.

السابعة: عدم الغلول. وهو فضيلة؛ لكون الغلول مستلزماً لرذائل كالشره والخيانة والحرص والدناءة وغيرها وكان عدمه كمالاً.

الثامنة: كونهم لا يفسدون. ولمّا كان كلّ فساد مستلزم رذيلة أو رذائل كالزنا المستلزم لرذيلة الفجور وكالقتل المستلزم لرذيلة الظلم وكذلك سائرها كان عدمه كمالاً.

التاسعة: كون قلوبهم في الجنان. وذلك أنّك علمت أنّ أعلى غرفات الجنان ودرجاتها هو المعارف الإلهيّة والقعود في مقاعد الصدق عند المليك المقتدر وذلك من مقامات العارفين وأولياء الله الصدّيقين.

العاشرة: كون أجسادهم في العمل. فالواو في قوله: وأجسادهم يحتمل أن يكون للحال أي أنّ قلوبهم في الجنان ما يكون أجسادهم مستغرقة الحركات والسكنات في الأعمال الصالحات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢٣٦ - ومن كلام له عليه السلام

قال لعبد الله بن عباس، وقد جاءه برسالة من عثمان وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع ليقل هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل، فقال عليه السلام:

يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلاَّ أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ: أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ ثُمَّ هُوَ الآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً.

أقول: ينبع: قرية صغيرة من أعمال المدينة. وهتف الناس: صياحهم ودعاؤهم باسمه. والناضح: الجمل أستقى عليه. والغرب: الدلو العظيمة.

وسبب الرسالة أنّ القوم الذين حصروه وكانوا يكثرون نداه والصياح به وتوبيخه على أحداثه من تفريق بيت المال على غير مستحقّيه ووضعه في غير مواضعه وسائر الأحداث التي ذكرنا أنّها نسبت إليه، واستعار لفظ الجمل الناضح، ورشّح بذكر الغرب، وأشار إلى وجه المشابهة بقوله أقبل وأدبر.

قوله: بعث إليّ. إلى قوله: أخرج.

شرح لكيفيّة تصريفه في حال حصره ومضايقة الناس

له وبعثه إلى الناس في أمره كما أشرنا إليه من قبل. وقد كان قصده بتلك الرسالة من بين سائر الصحابة لأحد أمرين:

أحدهما: اعتقاده أنّه كان أشرف الجماعة والناس له أطوع، وأنّ قلوب الجماعة معه حينئذ.

والثاني: أنّه كان يعتقد أنّ له شركة مع الناس في فعلهم به وكانت بينهما هناة فكان بعثه له من بين الجماعة متعيّناً لأنّهم إن رجعوا بواسطته فهو الغرض وإن لم يرجعوا حصلت بعض المقاصد أيضاً وهو تأكّد ما نسبه إليه من المشاركة في أمره، وبقاء ذلك حجّة عليه لمن بعده ممّن يطلب بدمه حتى كان لسبب هذا الغرض الثاني ما كان من الوقائع بالبصرة وصفّين وغيرهما.

وقوله: والله. إلى آخره، يحتمل وجوهاً:

أحدها: قال بعض الشارحين: إنّي بالغت في الذبّ عنه حتى خشيت لكثرة أحداثه أن أكون آثماً في الذبّ عنه والاجتهاد في ذلك.

والثاني: يحتمل أن يريد أنّي خشيت الإثم في تغريري بنفسي لأن دفع الجمع العظيم في هذا الأمر مظنّة الخوف على النفس فيكون الإقدام عليه مظنّة إثم.

الثالث: يحتمل أنّه يريد أنّه خشي الإثم من الإفراط في حقّهم كأن يضرب أحدهم بسوطه ويغلظ له في القول والشتم. وبالله التوفيق.

٢٣٧ - ومن كلام له عليه السلام

اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله، ثم لحاقه به.

فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ. (في كلام طويل)

قال الشريف: قوله عليه السلام «فأطأ ذكره» من الكلام الذي رمى به إلى غايتي الإيجاز والفصاحة، أراد إني كنت أعطي خبره، صلى الله عليه وآله من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع، فكنى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

أقول: هذا الفصل من كلام يحكي فيه عليه السلام ما كان جرى من حاله في خروجه من مكّة إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وآله. وذلك أنّه صلى الله عليه وآله لمّا عزم على الهجرة أعلم عليّاً عليه السلام بخروجه وأمره أن يبيت على فراشه خدعة للمشركين الذين كانوا عزموا على قتله في تلك الليلة وإيهاماً لهم أنّه لم يبرح فلا يطلبونه حتى يبعد مسافته عنهم، وأن يتخلّف بعده بمكّة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس فإنّ جماعة من أهل مكّة استودعوه ودائع لما رأوا من أمانته. وكانوا قد أجمعوا على أن يضربوه بأسيافهم من أيدي جماعة من بطون مختلفة ليضيّع دمه بين بطون قريش فلا يطلبه بنو عبد مناف. وكان ممّن أجمع على ذلك النضر بن الحرث من بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب - الثلاثة من بني أسد بن عبد العزى - وأبو جهل بن هشام. وأخوه الحرث، وخالد بن الوليد بن المغيرة - والثلاثة من بني مخزوم - ونُبيه ومُنية ابنا الحجّاج، وعمرو بن العاص - والثلاثة من بني سهم - وأميّة بن خلف، وأخوه أُبي من بني جمح. فنما هذا الخبر من الليل إلى عتبة بن ربيعة فلقى قوماً منهم ونهاهم عن ذلك وقال إنّ بني عبد مناف لا تسكت عن دمه ولكن صفّدوه في الحديد واحبسوه في دار من دوركم وتربّصوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء. وكان عتبة بن ربيعة سيّد بني عبد شمس فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً ثمّ تسوّروا عليه وهم يظنّونه في الدار فرأوا إنساناً مسجّى بالبرد الحضرميّ فلم يشكّوا أنّه هو فكانوا يهمّون بقتله ثمّ يحجمون لما يريد الله من سلامة علي عليه السلام. ثمّ قال بعضهم لبعض: أرموه بالحجارة. فرموه فجعل عليّ يتضوّر منها ويتأوّه تأوّهاً خفيّاً ولا يُعلمهم بحاله خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يطلب فيدرك. فلم يزالوا حتى الصباح فوجدوه عليّاً، ثمّ تخلّف عنه عليه السلام بمكة لقضاء ما أمره به. ثمّ لحق به فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورّمت قدماه وتصادف رسول الله صلى الله عليه وآله نازلاً بقبا على

كلثوم بن المقدم فنزل معه في منزله. ثمّ خرج معه من قبا حتى نزلا بالمدينة على أبي أيّوب الأنصاري.

قوله: فجعلت أتّبع مأخذ رسول الله.

أي الجهة والطريق التي أخذ فيها وسار حتى انتهيت إلى الموضع المعروف بالعرج.

وقوله: فأطأ ذكره.

استعار وصف الوطء لوقوع ذهنه على ذكره صلى الله عليه وآله وخبره من الناس في تلك الطريق كوقوع القدم على الأرض، ووجه المشابهة أنّ الخبر عنه صلى الله عليه وآله وذكره طريق حركات قدم عقله إلى معرفة حسّه صلى الله عليه وآله كما أنّ المحسوس طريق لحركات قدمه إلى الوصول إليه. وقيل: أراد بذكره ما ذكره لي ووصفه من حال الطريق والأوّل أسبق إلى الفهم. وبالله التوفيق.

٢٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام

في المسارعة إلى العمل

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ، وَيَنْقَضِيَ الأَجَلُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلائِكَةُ.

فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ. امْرُؤٌ خَافَ اللهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ. امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللهِ.

أقول: يقال: فلان في نفس من أمره: أي في سعته.

والفصل في غاية الفصاحة. وقد أمرهم بالعمل حال ما هم في مهلته على الأحوال التي أشار إليها:

أحدها: كونهم في نفس البقاء وسعته فإنّ الموت مستلزم لانقطاع العمل وعدم إمكانه.

الثاني: كون الصحف منشورة، أي صحف الأعمال فإنّها إنّما تطوى بانقطاع الأعمال بالموت. وقد عرفت وجه الإشارة إلى الصحف ونشرها.

الثالث: كون التوبة مبسوطة، واستعار لفظ البسط ملاحظة لشبهها بالبساط في كونها ممدودة القبول غير ممنوع منها في مدّة العمر يطأها من أرادها كالبساط وإنّما تطوى بالموت كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

الرابع: كون المدبر يدعى: أي حال كون المدبر عن طاعة الله المعرض عنها يدعى إليها من الأنبياء والرسل والنواميس الشرعيّة، وذلك منقطع بالموت.

الخامس: حال كون المسيء يرجى: أي يرجى صلاحه وعوده وذلك حال البقاء في الدنيا.

ولمّا ذكر هذه الأحوال للترغيب في العمل عليها والتذكير بكونها أحوالاً يمكن العمل معها أردفها بأحوال يمتنع معها العمل تنفيراً عنها وهي جمود العمل. واستعار لفظ الجمود لوقوفه ملاحظة لشبهه بالماء في جموده عن الجريان. وفي نسخة الرضي رحمه الله يخمد - بالخاء المعجمة - من خمد المريض: أي مات. والمعنى ظاهر يقرب معنى يجمد. وكذلك انقطاع المهل وانقضاء المدّة: أي مدّة البقاء وسدّ أبواب التوبة، ولفظ الأبواب مستعار لطرق الإعتبار التي يرجع منها إلى الله تعالى، وكذلك الملائكة: أي الكرام الكاتبين فإنّ الملائكة الموكّلين بضبط أعمال كل شخص يصعدون إلى السماء بعد بطلان الأعمال.

وقوله: فأخذ أمرؤ من نفسه.

أمر في صورة الخبر: أي فليأخذ المرء من نفسه: أي بعض نفسه بالاجتهاد والنصب في العبادة فإنّهما يهزلان البدن ويأخذان من النفس لذّاتها ومشتهياتها البدنيّة، ويجوز أن يريد بالنفس هنا الشخص. والأخذ منه ظاهر.

وقوله: لنفسه.

أي ليكون ذلك كمالاً لنفسه وذخراً لها في معادها.

وقوله: وأخذ من حيّ لميّت. إلى قوله: أمر.

أمر أيضاً في صورة الخبر. وفاعل أخذ هو قوله: أمرؤ. والحيّ والميّت هو المرء نفسه: أي فليأخذ امرؤ من نفسه باعتبار ما هو حيّ لنفسه باعتبار ما يصير إليه من حال الموت. وقوله: من فان لباق. أي فليأخذ من الأمر الفاني وهي دنياه ومتاعها للأمر الباقي وهو النعيم الباقي الأبديّ في الآخرة. ومعنى ذلك الأخذ أنّ الإنسان مكتسب من الدنيا ومتاعها الفاني كمالاً باقياً يوصل إلى نعيم دائم وذلك بالصدقات والزكوات والإنفاق في وجوه البرّ والقربات، وكذلك قوله: ومن ذاهب لدائم. ثمّ أخذ في وصف ذلك المرء كأنّه سئل عنه فقال: امرؤ خاف الله في حال ما هو معمّر إلى أجله ومنظور إلى عمله. ونبّهه بغاية أجله وكون عمله منظوراً إليه أي منظوراً لله ومرئيّاً له تخويفاً من هجوم الأجل وجذباً إلى صالح الأعمال لله تذكير اطّلاعه عليها وعلمه بها.

وقوله: امرؤ لجّم نفسه.

بدل من امرئ الأوّل. واستعار لفظ اللجام للزهد الحقيقيّ والعفّة. ووجه المشابهة كونهما مانعين للنفس الأمّارة من جماحها في تيه الهوى ومعاصي الله كما يمنع اللجام الدابّة عن الجماح. ورشّح بذكر الإلجام، وكنّى به عن ورع النفس بالزهد، وأشار إلى ذلك الوجه من المشابهة بقوله: فأمسكها بلجامها عن معاصي الله. وكذلك استعار لفظ الزمام للعبادة باعتبار ما هي قائدة للنفس الأمّارة بالسوء إلى موافقة النفس المطمئنّة في طاعة الله كما تقاد الناقة بزمامها إذ علمت أنّ العبادة إنّما وضعت لتطويع النفس الأمّارة للعقل وانقيادها تحت أسره وانجذابها خلفه عند توجّهه في المعارج القدسيّة إلى حضرة ذي الجلال والإكرام، وإلى ذلك الوجه من المشابهة أشار بقوله: وقادها بزمامها، ورشّح بذكر الزمام والقود، وكنّى بهما عن إيقاع العبادة وتطويع النفس لها. وبالله التوفيق.

٢٣٩ - ومن خطبة له عليه السلام

في شأن الحكمين، وذم أهل الشام:

جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ. لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ.

أَلا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ بِالأَمْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ» فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَ الأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الإِسْلامِ.

أَلا تَرَوْنَ إِلَى بِلادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى؟.

أقول: جفاة: جمع جافي وهو غليظ الطبع قاسي القلب. والطغام: أوغاد الناس وأراذلهم. والأقزام: جمع قزم - بفتح الزاء - وهو الرذل الدنيّ من الناس، ويطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى. ويقال: جاؤوا من كلّ أوب: أي من كل ناحية. والشوب: الخلط. ويدرّب: يعوّد بالعادات الجميلة ويجرّب في الأمور: وتبوّؤوا الدار: نزلوا. وشمت السيف: أغمدته.

وصدّر الفصل بذكر مذامّ أهل الشام تنفيراً عنهم، ووصفهم بكونهم عبيداً إمّا لأنّهم عبيد الدنيا وأهلها أو لأنّ منهم عبيداً، واللفظ مهمل يصدق بالبعض. والمرفوعات الأربعة الأولى أخبار لمبتدأ محذوف: أي هم جفاة. ومحلّ قوله: جمّعوا. الرفع صفة لأقزام. ويحتمل أن يكون خبراً خامساً، وكذلك قوله: ممّن ينبغي.

وقوله: يولّى عليه ويؤخذ على يديه. وقوله: ليسوا.

كناية عن كونهم سفهاء لا يصلحون لأن يلوا أمراً ويفوّض إليهم بل ينبغي أن تحجر عليهم ويمنعون من التصرّف لغباوتهم وسفههم، وذكر كونهم ليسوا من المهاجرين والأنصار في معرض الذمّ لهم لكون ذلك نقصاناً لهم من تلك الجهة بالنسبة إلى المهاجرين والأنصار، وكذلك نفى كونهم من الذين تبوّؤوا الدار. وأراد بالدار مدينة الرسول صلى الله عليه وآله والذين تبوّؤوها هم الأنصار من أهلها الذين أسلموا بها قبل هجرة الرسول إليهم بسنتين وابتنوا بها المساجد. وإليهم أشار تعالى في كتابه العزيز وأثنى عليهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وفي نسخة الرضي رحمه الله تبوؤوا الدار فقط، وفي سائر النسخ والإيمان، ووصف الإيمان بكونه متبوءاً لهم مستعار ملاحظة لشبهه بالمنزل باعتبار أنهم ثبتوا عليه واطمأنّت قلوبهم به، ويحتمل أن يكون نصب الإيمان هنا كما في قوله:

ورأيت زوجك في الوغا
متقلّداً سيفاً ورمحا

أي لازموا الإيمان كما أراد القائل ومعتقلاً رمحاً.

وقوله: ألا وإنّ القوم. إلى قوله: تكرهون.

والقوم هم أهل الشام. والذين اختاروه لأنفسهم وكان أقرب القوم ممّا يحبّون هو عمرو بن العاص فإنّهم اختاروه للحكومة وعيّنوا عليه من قبلهم. وكونه أقرب القوم ممّا يحبّون لكثرة خداعه ولميله إلى معاوية وعطائه. والذي يحبّونه ممّا هو أقرب إليه هو الانتصار على أهل العراق وصيرورة الأمر إلى معاوية والذي اختاره أهل العراق للحكومة هو أبو موسى الأشعري، وكان أقرب القوم ممّا يكرهون من صرف الأمر عنهم. وكونه أقرب إلى ذلك إمّا لغفلته وبلاهته أو لأنّه كان منحرفاً عن عليّ عليه السلام، وذلك أنّه كان في زمن الرسول صلى الله عليه وآله والياً من قبله على زبيد من أعمال اليمن ثمّ ولاّه عمر البصرة لمّا عزل المغيرة عنها فلمّا عزله عثمان سكن بالكوفة فلمّا كره أهلها سعيد ابن العاص ودفعوه عنها ولّوا أبا موسى وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيه فأقرّه على الكوفة فلمّا قتل عثمان عزله عليّ عليه السلام فلم يزل واجداً لذلك عليه حتّى كان منه ما كان في الكوفة.

وقوله وإنّما عهدكم بعبد الله إلى آخره احتجاج عليهم في اختيارهم لعبد الله بن قيس وهو أبو موسى الأشعري للحكومة. وصورة الاحتجاج: أنّ أبا موسى كان يقول لكم يا أهل الكوفة عند مسيري إلى أهل البصرة: إنّها فتنة من الفتن التي وعدنا بها وأمرنا باعتزالها فقطّعوا أوتار قسيّكم وأغمدوا سيوفكم. فلا يخلوا إمّا أن يكون صادقاً في ذلك فقد لزمه الخطأ بمسيره معنا غير مستكره إلى فتنة أمرنا بالاعتزال عنها وحضوره صفوف أهل العراق وتكثير سوادهم، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة وصار فاسقاً بكذبه، وعلى التقديرين لا ينبغي أن يعتمد عليه في هذا الأمر الجليل.

وأقول: وممّا يناسب هذا الاحتجاج ما روى عنه سويد بن غفلة قال: كنت مع أبي موسى على شاطىء الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبراً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ بني إسرائيل اختلفوا ولم يزل الاختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالّين ضلاّ وأضلاّ من اتّبعهما ولا ينفكّ أمر أمّتي تختلف حتى يبعثوا حكمين يضلاّن ويضلاّن من اتّبعهما. فقلت له: احذر أبا موسى أن تكون أحدهما. قال: فخلع قميصه وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا. فنقول: لا يخلو إمّا أن يكون صادقاً في ذلك الخبر أو كاذباً فإن كان صادقاً فقد أخطأ في دخوله في الحكومة وشهد على نفسه بالضلال والإضلال، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة فلا ينبغي أن يعتمد عليه في هذا الأمر.

وقوله: فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس.

كناية عن جعله مقابلاً له في الحكومة دافعاً له عمّا يريد. ولمّا قدح في أبي موسى وأشار إلى عدم صلاحيّته لهذا الأمر كان رأيه أن يبعث الحكم من قبله عبد الله بن عباس فأبى قومه عليه. وروي بعبارة أخرى أنّه قال لهم لما لجوا في بعث أبي موسى وتعيينه حكماً: إنّ معاوية

لم يكن ليختار لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره إلاّ عمرو بن العاص وإنّه لا يصلح للقرشي إلاّ قرشي وهذا عبد الله بن عباس فارموه به فإن عمرو لا يعقد عقدة إلاّ حلّها ولا يبرم أمراً إلاّ نقضه ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه. فقال الأشعث ومن معه: لا والله لا يحكم فيها مضريان أبداً حتى تقوم الساعة ولكن يكون رجل من مضر ورجل من اليمن. فقال عليه السلام: إنّي أخاف أن يخدع يمانيّكم وإنّ عمرو ابن العاص ليس والله قرشي. فقال الأشعث: والله لئن يحكمان بما نكره وأحدهما من اليمن أحبّ إلينا أن يكون ما نحبّ وهما مضريّان. فقال عليه السلام: وإن أبيتم إلاّ أبا موسى فاصنعوا ما شئتم. اللهم إنّي أبرأ إليك من صنيعهم.

وقوله: وخذوا مهل الأيّام.

أمر لهم باغتنام مهل الأيّام عنهم وفسحتها عمّا ينبغي أن يعملوا فيها ويدبّروه في أحوالهم على وفق الآراء الصالحة، وكذلك أمرهم بحياطة قواصي الإسلام وهي أطراف العراق والحجاز والجزيرة وما كان في يده عليه السلام من البلاد. ثمّ استثار طباعهم وجذبها إلى ذلك بتنبيههم على أنّ بلادهم تغزى وصفاتهم ترمى، وكنّى بصفاتهم عن حوزتهم التي استقرّوا عليها من بلاد الإسلام. وأصل الصفات الحجر الأسود الأملس لا ينفذ فيها السهم بل تكسره وتدفعه فأشبهتها الحوزة في منعتها. فيقال: لا ترمى صفاتهم ولا يقرع صفاتهم. ويكنّى بذلك عن منعتهم وقوّتهم فلذلك كنّى عن رمي صفاتهم بالطمع فيهم وقصد العدو لبلادهم ورميها بالكتائب. وبالله التوفيق.

٢٤٠ - ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله:

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ. لا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وهُمْ دَعَائِمُ الإِسْلامِ، وَوَلائِجُ الاعْتِصَامِ. بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلى نِصَابِهِ، وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

أقول: الولايج: جمع وليجة فعيلة بمعنى مفعولة وهي الموضع يعتصم بدخوله والنصاب: الأصل.

وذكر لهم أوصافاً:

أحدها: عيش العلم: أي حياته. وقد جعل له حياة ملاحظة لشبهه بالحيّ في وجوده والانتفاع به ثمّ أطلق عليهم لفظ الحياة مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

الثاني: وكذلك كونهم موت الجهل. جعل للجهل موتاً استعارة باعتبار عدمه بهم: وأطلق عليهم لفظه مجازاً أيضاً كالذي قبله.

الثالث: كونهم يخبر حلمهم عن علمهم بمواقع الحلم، وفي ذلك إشارة إلى تلازم فضيلتي الحلم والعلم فيهم فهم لا يحلمون إلاّ عن علم بمواقع الحلم.

الرابع: كونهم يخبر صمتهم عن حكم منطقهم إذا تكلّموا لأنّ من علم مواقع السكوت وما ينبغي أن يسكت عنه يستلزم حكمة نفوسهم في منطقهم إذا تكلّموا لأنّ من علم مواقع السكوت وما ينبغي أن يسكت عنه علم مواقع المنطق وما ينبغي أن لا يسكت عنه ولو لم يعلم ذلك لجاز أن يتكلّم بما لا ينبغي، وذلك هو موضع السكوت فلا يكون عالماً بمواضع السكوت وقد فرض كذلك. هذا خلف.

الخامس: كونهم لا يخالفون الحقّ: أي لعلمهم به وبطرقه وذوقهم له فلا يتجاوزونه إلى رذيلة الإفراط، ولا يقفون دونه في مقام رذيلة التفريط.

السادس: وكذلك لا يختلفون فيه لعلمهم بحقيقته.

السابع: كونهم دعائم الإسلام، واستعار لهم لفظ الدعائم باعتبار حفظهم له بعلمهم وحراسته وقيامه في الوجود بهم كما يحفظ البيت بالدعائم ويقوم بها.

الثامن: استعار لهم لفظ الولايج باعتبار كونهم مرجعاً للخلق يعتصمون. بعلمهم وهدايتهم واتّباعهم من

الجهل ولواحقه وعذاب الله في الآخرة كما يعتصم بالوليجة من دخلها.

التاسع: كونهم بهم عاد الحقّ إلى نصابه: أي بولايته عليه السلام وخلافته عاد الحقّ إلى أصله وانزاح الباطل عن مقامه، وهو إشارة إلى أنّ الأحكام كانت قبله في أيّام عثمان جارية على غير قانون شرعيّ لما نقل عنه من الأحداث واستيلاء بني أميّة في زمانه على بيت مال المسلمين وأكلهم له بغير حقّ كما سبق شرحه فعاد بولايته عليه السلام كلّ حقّ إلى أهله وهو أصله ومستقرّه، والحقّ إذا كان في غير أهله فهو الباطل ومقامه غير أهله. وبولايته عليه السلام انزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه: أي اللسان الناصر للباطل والناطق به. واستعار وصف الانقطاع له باعتبار سكوته ملاحظة لشبهه بالمنقطع في عدم القول، ورشّح بقوله: من منبته تأكيداً لذلك الانقطاع.

العاشر: كونهم عقلوا الدين عقل رعاية ووعاية لا عقل سماع ورواية، وذلك أنّك علمت أن للإدراك ثلاث مراتب أدناها تصوّر الشيء بحسب اسمه، وأعلاها تصوّر الشيء بحسب حقيقته وكنهه. وأوسطها بعقله بحسب صفاته ولوازمه الخاصّة به وبها مع بعض أجزائه. فكان عقلهم للدين وعلمهم به على أكمل المراتب هو معنى الرعاية، ورعايتهم له بدراسته وتذكّره والاحتياط عليه، وليس علماً به من جهة اسمه وسماع ألفاظه فقط.

وقوله: فإنّ رواة العلم كثير. إلى آخره.

أي ليس كل من روى العلم وسمعه كان عالماً به ومراعياً له فإنّ ذلك أعمّ من العالم به والعامّ لا يستلزم الخاصّ، ونبّه بذلك على قلّة مثلهم في رعاية العلم واستجماع الفضائل. وبالله التوفيق.

٢٤١ - ومن كلام له عليه السلام

يحث أصحابه على الجهاد:

وَاللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلَمَ لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ!

أقول: المضمار: المدّة تضمر فيها الخيل. قيل: إنّها أربعون يوماً، وقد سبق بيانه. والتنازع: التحازب في الخصومة. والمآزر: جمع مئزر.

والفصل في غاية من الفصاحة والجزالة، والحثّ على الاستعداد ليوم المعاد.

وقوله: والله مستأديكم شكره.

أي طالب منكم أداء شكره على نعمه، وذلك في أوامر القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] ومورثكم أمره: أي سلطانه في الأرض الذي كان فيمن سلف من أهل طاعته من الأمم السابقة كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] الآية.

وقوله: وممهلكم. إلى قوله: سبقه.

استعار لفظ المضمار لمدّة الحياة الدنيا. ووجه المشابهة أنّ الناس يستعدّون في مدّة حياتهم بالرياضات والمجاهدات في سبيل الله وتحصيل الكمالات النفسانيّة لغاية السبق إلى حضرة جلال الله كما تضمر الخيل لغاية السبق، وأشار إلى علّة ذلك الإمهال وهي تنازع السبق إليه تعالى وأراد به ما يعرض للسالكين في حال إعدادهم لأنفسهم بالرياضات وجدّهم وتشميرهم في طاعة الله من منافسة بعضهم لبعض في التقدّم بالفضيلة وسبقه بذلك وحرص كلّ امرء منهم على أن يكون هو الأكمل ليفوز بقصب السبق إلى حضرة قدسه تعالى والمنافسة في الفضائل. والغبطة بها محمودة لأدائها بالغابط إلى كماله، وذلك هو أقصى مطلوب الشارع من أمّته، ويحتمل أن يريد بالسبق ما يسبق إليه من الفضيلة أو الجنّة كما سبقت الإشارة إلى مثل ذلك، ولفظ التنازع ترشيح لاستعارة المضمار والمسابقة لأنّ من شأن ذلك

التنازع على السبق والمجاذبة على الفوز بالسبقة. وخلاصة المعنى أنّه تعالى أمهلكم في الدنيا للاستعداد فيها وتجاذب السبق إليه.

وقوله: فشدّوا عقد المآزر.

كناية عن الأمر بالتشمير والاجتهاد في طاعة الله والاستعداد بها بعد أن بيّن أنّ ذلك الغاية من الإمهال في الدنيا إذ كان من شأن من يهتمّ بالأمر ويتحرّك فيه أن يشدّ عقدة مئزره كيلا يشغله عمّا هو بصدده.

وقوله: واطووا فضول الخواصر.

كناية عن الأمر بترك ما يفضل من متاع الدنيا على قدر الحاجة من ألوان الطعام والملابس وسائر قينات الدنيا. وأصله أنّ الخواصر والبطون لها احتمال أن يتّسع لما فوق قدر الحاجة من المأكول فذلك القدر المتّسع لما فوق الحاجة هو فضول الخواصر. وكنّى بطيّها عمّا ذكرناه. إذ كان من لوازم ذلك الطيّ ترك تلك الفضول.

وقوله: لا يجتمع عزيمة ووليمة.

أراد بالعزيمة على اقتناء الفضائل واكتسابها والعزيمة هي الإرادة الجازمة للأمر بعد اختياره. وكنى بالوليمة وهي طعام العرس نحوه عن خفض العيش والدعة لاستلزام الوليمة ذلك، والمعنى أنّ العزيمة على تحصيل المطالب الشريفة وكرائم الأمور ينافي الدعة وخفض العيش ولا يحصل مع الهوينا لما يستلزمه تحصيل تلك المطالب والعزم عليها من المشاقّ وإتعاب النفس وكذا البدن بالرياضات والمجاهدات المنافية للدعة والراحة، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] ثم أكدّ ذلك بقوله: ما أنقض النوم لعزائم اليوم. وأصله أنّ الإنسان يعزم في النهار على المسير بالليل ليقرب المنزل فإذا جاء الليل نام إلى الصباح فانتقض بذلك عزمه فضربه مثلاً لمن يعزم على تحصيل الأمور في شيء وهم قومك وأنت أعلم، فحرق جارية الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً أحدهم عبد الرحمن بن عثمان القرشي، وسارت الأزد بزياد حتى أوطئوا قصر الإمارة، ومعه بيت المال وقالت له: هل بقي علينا من جوارك شيء؟ قال: لا، فانصرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أمير المؤمنين: أمّا بعد فإنّ جارية بن القدامة العبد الصالح قدم من عندك، فناهض جمع ابن الحضرمي ممّن نصره وأعانه من الأزد، فقصّه واضطره إلى دار من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج، حتى حكم الله بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق ومنهم من ألقي عليه جدار ومنهم من هدم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قتل بالسيف، وسلم منهم نفر فتابوا وأنابوا فصفح عنهم، وبعد المن عصى وغوى والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل الكتاب رآه على الناس فسرّ بذلك وسرّ أصحابه وأثنى على جارية وعلى الأزد، وذمّ البصرة فقال إنها أول القرى خراباً إمّا غرقاً وإما حرقاً حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة.

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام إلى أعدائه وأمراء بلاده

ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه

١ - من كتاب له عليه السلام

لأهل الكوفة، عند مسيره من المدينة إلى البصرة

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةِ الأَنْصَارِ، وَسَنَامِ الْعَرَبِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ، (وَأُقِلُّ عِتَابَهُ)، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ. وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: الوجيف: ضرب من السير فيه سرعة. والعنف: ضد الرفق. وحال الرجلين في التحريض على قتل عثمان مشهور في السّير. وأما الفلتة من قول عائشة، فروي أنها كانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً، وأما الغضب الذي وقع بسببه الفلتة من قولها فالسبب الظاهر هو ما نقمه المسلمون عليه.

وروي، أنه صعد المنبر يوماً وغصّ المسجد بأهله، فمدت يدها من وراء الستر وفيها نعلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقميصه، وقالت: هذان نعلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد لم تبل، وقد بدّلت دينه وغيّرت سنته، وأغلظت له في القول، وأغلظ لها، وكان ذلك من أقوى الأسباب للاغراء به. والفلتة: البغتة من غير تروّ. وأتيح: قدر. ودار الهجرة: المدينة. وقلع المنزل بأهله إذا نبا بهم فلم يصلح لاستيطانهم. والمرجل: القدر. وجيشانها: غليانها. وأراد إعلام الكوفة بنهوض أهل المدينة لقتال أصحاب الجمل لينهضوا معهم.

٢ - ومن كتاب له عليه السلام إليهم، بعد فتح البصرة

وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

أقول الكتاب إلى أهل الكوفة، والفصل واضح.

٣ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه

روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً فبلغه ذلك، فاستدعاه وقال له: بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً وأشهدت فيه شهوداً، فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين؛ قال: فنظر إليه نظر مغضب ثم قال له:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لا تَكُونُ ابْتَعْتَ هٰذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلالِكَ! فَإِذا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الآخِرَةِ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَى هٰذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هٰذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ. والنسخة هذه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«هٰذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ، وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ، وَتَجْمَعُ هٰذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هٰذِهِ الدَّارِ.

اشْتَرَى هٰذَا الْمُغْتَرُّ بِالأَمَلِ، مِنْ هٰذَا الْمُزْعَجِ بِالأَجَلِ هٰذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَكَ هٰذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ، فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَبَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ شَهِدَ عَلَى ذٰلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا».

أقول: الشاخص: الداخل وأراد بمن يأتيه ملك الموت. وحاصل الكتاب التنفير عن الدنيا. والركون إلى فضولها، وفيه نكت:

إحداها: وصف المشتري بالعبودية والذلّة كسراً لما يعرض في نفسه، من العجب والفخر بشراء هذه الدار، وصفة البايع بالميت، تنزيلاً لما بالقوة مكان ما بالفعل مجازاً للتحذير.

الثانية: أنّ قوله من جانب الفانين إلى قوله: الهالكين، ابتداء في التعيين بالأعم وانتهاء بالأخص، كما جرت العادة به في كتب البيع. والخطة بالكسر: البقعة يختطها الرجل ليبتني بها.

الثالثة: جعل الحدّ الأول دواعي الآفات، وأشار به إلى ما يلزم الدار لزوماً أولاً من كمالاتها الضرورية كالمرأة، والخادم والدّابة وما يلزم ذلك ويلحقهم من الأولاد والأتباع والقينات وهي: دواعي الآفات لأن كلاً منها في معرض الآفات.

الرابعة: جعل الحدّ الثاني دواعي المصيبات، وأشار بها إلى الأمور المذكورة باعتبارٍ آخر إذ كانت من حيث يلحقها الآفات تدعو بصاحبها إلى المصيبات بها.

الخامسة: جعل الحدّ الثالث ما ينتهي إليه من الهوى المردي. إذ كان اقتناء الدار وكمالاتها في الدنيا وخوف فواتها والمصيبة بما فيها مرّة بعد أخرى يوجب محبة النفس لها، والألفة التامة بها، وذلك هو الهوى المردي في قرار النار المهلك فيها.

السادسة: جعل الحد الرابع ما ينتهي إلى الشيطان المغري لأنه الحدّ الأبعد الذي ينتهي إليه الهوى المردي، وكونه مغوياً يعود إلى جذبه للنفس عن سبيل الله الواضح. وكونه مشرع باب هذه الدار باعتبار كونه مبدأ باغوائه للدخول في الدواعي الباحثة على شرائها، واقتناء ما يلزمها، فالشيطان كالحد وما صدر عنه وانفتح بسببه من الدخول في أمر الدار وشرائها.

السابعة: جعل الثمن هو الخروج عن عزّ القناعة والدخول في ذل الطلب والضراعة. أما خروجه بها عن القناعة فلأنها كانت فضلة في حقه عن الحاجة إلى الخلق. ولما كانت القناعة مستلزمة لأقلية الحاجة إلى الخلق المستلزمة لعزّ القناعة وغناها عنهم، كان الخروج عن ذلك خروجاً إلى ذلّ الطلب إلى الناس والضراعة.

الثامنة: علق الدرك والتبعة اللازمة في هذا المبيع بملك الموت قطعاً لأمل الدرك، والتبعة، وتذكيراً بالموت لغاية الأمل له، وكنى عنه بمبلبل أجسام الملوك، إلى قوله للولد: تنبيهاً على أن المشتري أولى بذلك. والبلبلة: الاضطراب والاختلاط وافساد الشيء. وكسرى: لقب ملوك الفرس كاسم الجنس، وكذلك

قيصر: لملوك الروم، وتبّع: لملوك اليمن وحمير: أبو قبيلة في اليمن، وهو حمير بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان. والتنجيد: تزيين الأرض بالبسط ونحوها. ونظر للولد: فكر في عاقبته فجمع له.

التاسعة: جعل الشاهد بجميع ما عدّده هو العقل المجرد من مشاركة الهوى والنفس الأمارة، وهو كلام في غاية الشرف والفصاحة.

٤ - ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ الأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

أقول: الفصل من كتاب له إلى عثمان بن حنيف، عامله على البصرة حين قدم طلحة والزبير إليها ونكث معهما جماعة من أهلها، وخرجوا عن الطاعة، واستعار لفظ الظلّ، لما يستلزمه الطاعة من الراحة عن متاعب الحرب. وتوافت بهم الأمور أي: توافقت أسباب العصيان والشقاق، حتى تمّت عِلّتاهما وَوَجبا عنهما. وانهد أي: انهض. وتقاعس: تأخر وقعد. والمتكاره للشيء: هو الذي يتعاطى كراهيته، ومغيبه خير من محضره لأنه ربما ثبّط الناس عن الحرب واقتدوا به في عدم المنفعة.

٥ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى الأشعث بن قيس، وهو عامله على آذربيجان:

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلٰكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ.

لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلا تُخَاطِرَ إِلاَّ بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ شَرَّ وُلاتِكَ لَكَ، وَالسَّلامُ.

أقول: ليس لك أن تفتات في رعية، أي: تستبدّ بحكم فيهم وتسبق إليه دون إذن ممن استرعاك. والمخاطرة: الاقدام على الأمور العظام، والاشراف فيه على الهلاك. والوثيقة: ما يوثق به في الدّين. وأتى بلفظ الترجّي اطماعاً له بعدم الايقاع به، والمواخذة له كي لا يفرّ إلى العدوّ لأنه كان خائفاً منه.

وروي أنه استقدمه إلى الكوفة فلما قدم فتّش ثقله، فوجد فيه مائة ألف درهم فأخذها فاستشفع بالحسن والحسين عليهما السلام، وبعبد الله بن جعفر، فأطلق له منها ثلاثين ألفاً، فقال: لا يكفيني، فقال: لست بزائدك درهماً واحداً وما أظنها تحلّ لك فقال الأشعث: خذ من خدعك ما اعطاك.

٦ - ومن كتابٍ له عليه السلام إلى معاوية

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ لِلهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ مِنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى.

وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلامُ.

أقول: إنما احتجّ عليه السلام على القوم بالاجماع لاعتقادهم أنه لم يكن منصوصاً عليه، فلو احتجّ بالنص لم يقبل منه ولم يسلم له. والتجنّي دعوى الجناية ممن لم يفعلها، وبالله التوفيق.

٧ - ومن كتاب له عليه السلام إليه ايضاً

أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْني مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَلالِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابُ امْرِىءٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لاغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً.

ومن هذا الكتاب: **لأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لا يُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ، وَلا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ. الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ.**

أقول: موصلة: ملتقطة من كلام الناس ملفقة لا تتناسب وصولها. ومحبّرة: مزيّنة. والتنميق: التزيين بالكتابة. والبصر هنا البصيرة، ويحتمل أن يريد الحسّ باعتبار عدم اهتدائه من جهته. والقائد: الهادي في سبيل. وهجر: هذى وأفحش في منطقه. واللغط: الأصوات المختلطة، والخبط: الحركة على غير نظام.

أقول: هذا جواب لفصل ذكره معاوية في كتابه وصورته: ولعمري ما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، ولا حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايعك، وأول الجواب. وأما ما ميّزت به بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك وبين طلحة والزبير، فلعمري ما الأمر في ذلك إلا واحداً لأنها بيعة واحدة إلى آخره.

وفي نسخة لأنها بيعة عامة... وقوله: الخارج منها، إلى آخره، قسمة لمن لم يدخل في بيعته إلى قسمين: لأنه إما خارج عنها، وهو الطاعن في صحتها، ويجب مجاهدته لمخالفة سبيل المؤمنين، وإما مُنزوٍ في ذلك ومتوقف، وحكمه أنه يداهن وهو نوع من النفاق، وبالله التوفيق.

٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى جرير بن عبد الله البجلي، لما أرسله إلى معاوية

أَمّا بَعْدُ؛ فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ، وَخُذْهُ بِالأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ، فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ، وَالسَّلامُ.

أقول: الفصل فصل الحال معه في الحرب وغيرها، لأن معاوية كان يتلون أيام المهلة ليستعد له فلا يجيبه بجواب فاصل. ومجلية: تجلى عن الوطن. وسلم مخزية: فيها ذلّ - وروي مجزية بالجيم - أي: كافية. والنبذ: الالقاء وهو كناية عن القاء الوعيد بالحرب أو عن إيقاعها.

٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ. مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الأَصْلِ. وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ. وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلٰكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ. فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لا أَعْرِفُهُ، وَلا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ. وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هٰذَا الأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ

وَلا إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلا بَحْرٍ، وَلا جَبَلٍ وَلا سَهْلٍ، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوؤُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلامُ لأَهْلِهِ.

أقول: حاصل الفصل ذكر فضيلته عليه السلام وبلائه في الإسلام، ليتبيّن قياس غيره إليه، ولذلك بنى عليه التعجب من مساواته بغيره.

وهمّوا بنا الهموم، أرادوا بنا: الارادات. وأراد بالأفاعيل: الشرور، والعذب: طيب العيش، وقيل: الماء فإن قريشاً منعتهم الطعام والشراب. والحلس: كساء رقيق يجعل تحت قتب البعير، فاستعار وصف الاحلاس لاخافتهم. والجبل الوعر: من شعاب مكة، وقد كانت قريش حين فشا الإسلام في القبائل اجتمعت وتعاهدت على أن لا يناكحوا بني هاشم وبني عبد المطلب، ولا يبايعوهم فانحاز هؤلاء إلى أبي طالب فدخلوا معه شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب وظاهر المشركين، وقطعوا عنهم الميرة، وحصروهم في ذلك الشعب في أول سنة سبع من النبوة وبقوا كذلك ثلاث سنين لا يخرجون إلا في الموسم، وعزم الله إرادته الحازمة لهم واختيارهُ أن يذبّ عن حوزة دينه وحرمته وحرمة دينه، وكافرهم يومئذٍ كحمزة والعباس وأبي طالب على قول، فإنهم كانوا يمنعون عن رسول الله صلى الله عليه وآله حميّة لأصلهم وبيتهم ومن كان يومئذٍ قد أسلم من قريش عدا بني هاشم، وعبد المطلب كانوا خالين من الخوف والجهاد، فمنهم من كان له عهد به وحلف من المشركين يمنعه، ومنهم من كان له عشيرة تحفظه، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب. وبدر: اسم بئر. واحد: اسم جبل. ومؤته بالضم: اسم أرض بأدنى البلقاء دون دمشق.

ومن لو شئت ذكره، يعني نفسه. وواقعة بدر، وأحد، ومؤته، وغيرها من وقائع الرسول صلى الله عليه وآله مع المشركين مشهورة في التواريخ، وقد نبهنا على خلاصتها.

ومن لم يَسْعَ بقدمه: كناية عمن لم يماثله في الجهاد، والسعي في اقامة الدين. والإدلاء بالشيء: التقرب به. وقوله: ولا أظن الله يعرفه، كناية عما لا أصل له فإن ما لا وجود له لا يعلمه الله موجوداً. وأما عدم تسليم قتلة عثمان إلى معاوية فلوجوه منها:

إنه لم يكن وليّ دمه. ومنها أنه لم يعيّن قَتَلَتَه ويدّعي عليهم ويحاكمهم إلى الإمام الحق. ومنها أنه لما سئل عليه السلام تسليمهم، قال وهو على المنبر: ليقم قَتَلَةُ عثمان، فقام أكثر من عشرة آلاف من المهاجرين، والأنصار وغيرهم، ومعلوم أن مثل هذا الجمع العظيم لا يتمكن عليه السلام من أخذهم وتسليمهم إلى غيره ولو أمكن ذلك مع أن فيهم من شهد النبي صلى الله عليه وآله له بالجنة كعمّار، فربما اقتضى الاجتهاد أن لا يقتل هذا الجمع العظيم من قواعد الدين برجل واحد أحدث أحداثاً نقموها عليه وقتلوه لأجلها. والزور الزائرون، وأفرد ضميره، نظراً إلى إفراد اللفظ، وقيل: هو مصدر. وبالله التوفيق.

١٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية:

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا. دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا. وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ، فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ. وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلاةَ أَمْرِ الأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ وَلا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِيُعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذٰلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذٰلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي، مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً. وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالأَثْقَالِ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

أقول: أوّل هذا الكتاب: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان سلام على من اتّبع الهدى فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد فإنّك رأيت من الدنيا وتصرّفها بأهلها فيما مضى منها، وخير ما بقي من الدنيا ما أصاب العباد الصادقون فيما مضى منها، ومن يقس الدنيا بشأن الآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً. واعلم يا معاوية أنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القدم ولا في البقيّة ولا في الولاية ولست تقول فيه بأمر بيّن يعرف لك فيه أثر ولا لك عليه شاهد من كتاب الله ولا عهد تدّعيه من رسول الله ﷺ. ثمّ يتّصل بقوله: فكيف أنت. الفصل.

والجلباب: الملحفة. وتبهّجت: تحسّنت وتزيّنت. ويوشك بالكسر: يقرب. ووقفه على ذنبه. أي اطّلعه عليه. والمجنّ: الترس. ويروى: منج. وقعس: أي تأخر. والأهبة: العدّة وهو ما يهيّأ للأمر ويستعدّ به له. وشمّر ثوبه: رفعه. والإغفال: الإهمال والترك. والمترف: الذي أطغته النعمة. والباسق: العالي. والتمادي في الأمر: تطويل المدّة فيه. والغرّة: الغفلة. والأمنيّة: ما يتمنّى. والرين: الغلبة والتغطية، والمرين على قلبه: من غلبت عليه الذنوب وغطّت عين بصيرته الملكات الرديئة. والشدخ: كسر الشيء الأجوف. والثائر: الطالب بالدم. والضجيج: الصياح. والحائدة: العادلة.

وقد استفهم عن كيفيّة صنعه عند مفارقة نفسه لبدنه استفهام تنبيه له على غفلته عمّا وراءه من أحوال الآخرة وتذكيراً بها. واستعار لفظ الجلابيب للّذات الحاصلة له في الدنيا بمتاعها وزينتها. ووجه الاستعارة كون تلك اللّذات ومتعلّقاتها أحوال ساترة بينه وبين إدراك ما وراءه من أحوال الآخرة مانعة له من ذلك كما يستر الجلباب ما وراءه، ورشّح الاستعارة بذكر التكشّف، ولفظ - ما - مجمل بيّنه بقوله: من دنيا مع سائر صفاتها وهي تحسّنها وزينتها وأسند إليها التبهّج مجازاً. إذ الجاعل لها ذات تبهّج ليس نفسها بل الله تعالى. وفي قوله: وخدعت. مجاز في الإفراد والتركيب أمّا في الإفراد فلأنّ حقيقة الخدعة أن يكون من إنسان لغيره فاستعملها هٰهنا في كون الدنيا بسبب ما فيها من اللذات موهمة لكونها مقصودة بالذات وأنها كمال حقيقي مع أنّها ليست كذلك وذلك يشبه الخدعة، وأمّا في التركيب فلأنّ كونها موهمة لذلك ليس من فعلها بل من أسباب أخرى منتهى إلى الله سبحانه. وكذلك التجوّز في قوله: دعتك وقادتك وأمرتك فإنّ الدعاء والقود والأمر لها حقائق معلومة لكن لمّا كانت تصوّرات كمالها أسباباً جاذبة لها أشبهت تلك التصوّرات الدعاء في كونها سبباً جاذباً إلى الداعي فأطلق عليها لفظ الدعاء، وكذلك أطلق على تلك التصوّرات لفظ القود والأمر باعتبار كونها أسباباً مستلزمة لاتّباعها كما أنّ الأمر والقود يوجبان الاتّباع، وأمّا في التركيب فلأن تلك التصوّرات التي أطلق عليها لفظ الدعاء والقود والأمر مجازاً ليس فاعلها وموجبها هو الدنيا بل واهب العلم، ولمّا كانت إجابة الدنيا واتّباعها وطاعتها معاصي يخرج الإنسان بها عن حدود الله ذكرها في معرض توبيخه وذمّه.

وقوله: وإنّه يوشك.

تذكير بقرب اطّلاعه على ما يخاف من أهوال الآخرة

والوصول إليه اللازم عن لزوم المعاصي وهو في معرض التحذير له والتنفير عن إصراره على معصية الله بادّعائه ما ليس له: أي يقرب أن يطّلعك مطّلع على ما لا بدّ لك منه ممّا تخاف من الموت وما تستلزمه معاصيك من لحوق العذاب، وظاهر أنّ تلك أمور غفلت عنها العصاة في الدنيا ما داموا في حجب الأبدان فإذا نزعت عنهم تلك الحجب اطّلعوا على ما قدّموا من خير أو شرّ وما أعدّ لهم بسبب ذلك من سعادة أو شقاوة كما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية وقد مرّت الإشارة إلى ذلك غير مرّة. وذلك المطّلع والموقف هو الله سبحانه. ويحتمل أن يريد به نفسه عليه السلام على سبيل التوعيد له والتهديد بالقتل المستلزم لذلك الاطّلاع إن دام على غيّه، وظاهر أنّ تلك الأمور التي تقف عليها لا ينجيه منها منج. ثمّ أردف ذلك التوبيخ والتهديد بالغرض له منهما وهو أمره بالتأخر عن أمر الخلافة. ثمّ أردف ذلك بما يستلزم التخويف والتهديد فأمر بأخذ الأهبة للحساب والاستعداد له بعدّته وهي طاعة الله وتقواه ومجانبة معاصيه، وبالتشمير لما قد نزل به. وكنّى بالتشمير عن الاستعداد أيضاً. وما نزل به إمّا الموت أو القتل وما بعده تنزيلاً لما لا بدّ من وقوعه أو هو في مظنّة الواقع منزلة الواقع، ويحتمل أن يريد الحرب التي يريد أن يوقعها به. ثم نهاه عن تمكين الغواة من سمعه، وكنّى به عن إصغائه إليهم فيما يشيرون به عليه من الآراء المستلزمة للبقاء على المعصية. إذ من شأن الغاوي الإغواء. والغواة كعمرو بن العاص ومروان ومن كان يعتضد به في الرأي.

وقوله: وإلاّ تفعل.

أي إن لم تفعل ما آمرك به أعلمك ما تركت من نفسك. ومفعول تركت ضمير - ما -.

وقوله: من نفسك.

بيان لذلك الضمير وتفسير له. وإغفاله لنفسه تركه إعدادها بما يخلصه من أهوال الحرب وعذاب الآخرة وهو ملازمة طاعة الله واقتناء الفضائل النفسانيّة، ويفهم من ذلك الإعلام الذي توعدّ به الإعلام بالفعل فإنّ مضايقته بالحرب والقتال يستلزم إعلامه ما أغفل من نفسه من طاعة الله المستلزمة للراحة.

وقوله: فإنّك. إلى قوله: الدم.

وصف له بمذام يستلزم إعلامه بالفعل [بالقول خ] ما أغفل من زمنه. فالترف مستلزم لتجاوز الحدّ الذي ينبغي ويتركه وذلك الحدّ فضيلة تحت العفّة يكون الشيطان قد أخذ منه مأخذه وبلغ فيه أمله وجرى منه مجرى الروح والدم في القرب يستلزم وصفه بكلّ الرذائل المستلزمة أضدادها من الفضائل. ثمّ أخذ في استفهامه عن وقت كون بني أميّة ساسة الرعيّة وولاة أمر الأمّة استفهاماً على سبيل الإنكار لذلك والتقريع بالخمول والقصور عن رتبة الملوك والولاة، والقدم السابق كناية عن التقدّم في الأمور والأهليّة لذلك. ونبّه بقوله: بغير قدم سابق على أنّ سابقة الشرف والتقدّم في الأمور شرط لتلك الأهلية في المتعارف وهو في قوّة صغرى ضمير من الشكل الأوّل تقديرها: وأنتم بغير قدم سابق. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فليس بأهل لسياسة الرعيّة وولاة أمر الأمّة. ينتج أنّكم لستم أهلاً لذلك. وهو عين ما استنكر نقيضه. وظاهر أنّهم لم يكن فيهم من أهل الشرف أهل لذلك. ثمّ استعاذ من لزوم ما سبق في القضاء الإلهي من الشقاء تنبيهاً على أنّ معاوية في معرض ذلك وبصدده لما هو عليه من المعصية وتنفيراً له عنها. ثمّ حذّره من أمرين:

أحدهما: تماديه في غفلة الأطماع والأماني الدنيويّة.

والثاني: كونه مختلف العلانية والسريرة. وكنّى بذلك عن النفاق. ووجه التحذير ما يستلزمانه من لزوم الشقاء في الآخرة. وقد كان معاوية دعاه إلى الحرب وأجابه بجواب مسكت، وهو قوله: فدع الناس. إلى قوله: ثائراً بعثمان وانتصب - جانباً - على الظرف، وإنّما جعل مبارزته له سبباً لعلمه بأنّه مغطّى على قلبه ويصر بصيرته بحجب الدنيا وجلابيب هيئاتها لما أن من لوازم العلم بأحوال الآخرة وفضلها على الدنيا الثبات عند المبارزة في طلبها وإن أدّى إلى القتل حتى ربّما تكون محبّة القتل من لوازم ذلك العلم أيضاً وقد

كان عليه السلام يعلم من حاله أنّه لا يثبت له محبّةً للبقاء في الدنيا فلذلك دعاه إلى المبارزة ليعلمه بإقدامه عليه وفراره منه أنّه ليس طالباً للحقّ وطريق الآخرة في قتاله وأنّ حجب الشهوات الدنيويّة قد غطّت عين بصيرته عن أحوال الآخرة وطلبها فكان فراره منه مستلزماً لعدم علمه بالآخرة المستلزم للرين على قلبه وعلامةً دالّة عليه، وفي ذلك تهديد وتحذير، وكذلك اعتزاؤه له وانتسابه، وتذكيره بكونه قاتل من قتل من أهله شدخا يوم بدر في معرض التخويف والتحذير له أن يصيبه ما أصابهم إن أصرّ على المعصية. وجدّه المقتول هو جدّه لأمّه عتبة ابن أبي ربيعة فإنّه كان أبا هند، وخاله الوليد بن عتبة، وأخوه حنظلة بن أبي سفيان. فقتلهم جميعاً عليه السلام يوم بدر، وكذلك تذكيره ببقاء ذلك السيف والقلب معه يلقى بهما عدّوه وبكونه لم يستبدل ديناً ونبيّاً وأنّه على المنهاج الذي تركوه طائعين ودخلوه مكرهين وهو طريق الإسلام الواضحة كلّ ذلك في معرض التخويف والتحذير والتوبيخ بالنفاق. ثمّ أشار إلى الشبهة التي كانت سبباً لثوران الفتن العظيمة وانشعاب أمر الدين وهي شبهة الطلب بدم عثمان التي كانت عمدته في عصيانه وخلافه، وأشار إلى الجواب عنها بوجهين:

أحدهما: أنّه عليه السلام ليس من قتلة عثمان فلا مطالبة عليه وإنّما تتوجّه المطالبة على قاتليه وهو يعلمهم.

الثاني: المنع بقوله: إن كنت طالباً. فإنّ إيقاع الشكّ هنا بإن يستلزم عدم تسليم كونه طالباً بدم عثمان. ثمّ عقّب بتخويفه بالحرب وما يستلزمه من الثقل إلى الغاية المذكورة. وهيهنا ثلاثة تشبيهات:

أحدها: المدلول عليه بقوله: فكأنّي قد رأيتك والمشبّه هٰهنا نفسه عليه السلام في حال كلامه هذا، والمشبّه به هو أيضاً نفسه لكن من حيث هي رأته رؤية محقّقة.

وتحقيق ذلك أنّ نفسه لكمالها واطّلاعها على الأمور التي ستكون كانت مشاهدة لها ووجه التشبيه بينهما بالقياس إلى حالتيها جلاء المعلوم وظهوره له في الحالتين.

الثاني: قوله: تضجّ ضجيج الجمال بالأثقال، ووجه الشبه شدّة تبرّمه وضجره من ثقله كشدّة تبرّم الجمل المثقل بالحمل. وضجيجه كناية عن تبرّمه. واستعار لفظ العضّ لفعلها ملاحظة لشبهها بالسبع العقور، ووجه المشابهة استلزام تلك الأثقال للألم كاستلزام العضّ له.

الثالث: قوله: وكأنّي بجماعتك. والمشبّه هنا أيضاً نفسه والمشبّه به ما دلّت عليه بالإلصاق كأنه قال: كأني متّصل أو ملتصق بجماعتك حاضر معهم. ومحلّ يدعونني النصب على الحال، والعامل ما في كان من معنى الفعل: أي أشبّه نفسي بالحاضر حال دعائهم له. وجزعاً مفعول له. وتجوّز بلفظ القضاء في المقضيّ من الأمور التي توجد عن القضاء الإلهي لاسم السبب على المسبّب.

وقوله: ومصارع بعد مصارع.

والمصرع هنا مصدر: أي جزعاً من مصارع يلحق بعضهم بعد بعض أو تلحقهم بعد مصارع آبائهم السابقة. وقد كان اطّلاعه عليه السلام على دعائهم له إلى كتاب الله قبل وقوعه من آياته الباهرة. والواو في قوله: وهي. للحال والعامل فيه يدعونني. والكافرة الجاحدة للحقّ من جماعته إشارة إلى المنافقين منهم وقد كان فيهم جماعة كذلك، والمبايعة الحائدة الذين بايعوه وعدلوا عن بيعته إلى معاوية. والسلام.

١١ - ومن وصية له عليه السلام

وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الأَشْرَافِ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً. وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلاَّ يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلاَئِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ

فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلاَّ غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً.

أقول: وهذا الفصل ملتقط من كتاب كتبه عليه السلام إلى زياد بن النضر الحارثي حين سرّحه على مقدّمته إلى الشام من النخيلة لمّا أراد الخروج من الكوفة إليها، وكان قد بعث معه شريح بن هاني واختلفا فكتب كلّ منهما إليه يشكو من صاحبه فكتب عليه السلام إليهما: أمّا بعد فإنّي ولّيت زياد بن النضر مقدّمتي وأمّرته عليها، وشريح على طائفة منها أمير فإن جمعكما بأس فزياد على الناس وإن افترقتما فكلّ واحد منكما أمير على الطائفة التي ولّيته عليها.

واعلما أنّ مقدّمة القوم عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم فإذا أنتما خرجتما من بلادكما ودنوتما من بلاد عدوّ كما فلا تسكنا من توجيه الطلائع ونفض الشعاب والشجر والخمر في كلّ جانب كيلا يغترّكما عدوّ أو يكون لهم كمين ولا تسيّرا الكتائب إلاّ من لدن الصباح إلى المساء إلاّ على تعبية فإن دهمكم دهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدّمتم في التعبية. ثمّ يتّصل بقوله: فإذا نزلتم.

إلى قوله: أو أمن. ثمّ يتّصل بقوله: وإيّاكم والتفرّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً وإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفّوا عسكركم بالرماح والترسة، ورماتكم تكون ترستكم ورماحكم وما أقمتم فكذلك فافعلوا كيلا يصاب لكم غفلة ولا يلقى لكم غرّة فما من قوم يحفّون عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلاّ كأنّهم في حصون، واحرسا عسكركما بأنفسكما وإيّاكما أن تذوقا النوم حتى تصبحا إلاّ غراراً أو مضمضة. ثمّ ليكن ذلك شأنكما ورأيكما إلى أن تنتهيا إلى عدوّكما وليكن عندي كلّ يوم خبركما ورسول من قبلكما فإنّي ولا شيء إلاّ ما شاء الله حثيث السير في آثاركما. وعليكما في حربكما بالتؤودة. وإيّاكما والعجلة إلاّ أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة، وإيّاكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما إلاّ أن تبدءا أو يأتيكما أمري إن شاء الله، ولنرجع إلى الشرح فنقول:

العين: الجاسوس. وطليعة الجيش: الذي يبعث ليطّلع على العدوّ. ونفض الشعاب: استقراؤها. والخمر: ما واراك من شجر أو جبل ونحوهما. والكمين: الواحد أو الجمع يستخفون في الحرب حيلة للإيقاع بالعدوّ. والكتيبة: الجيش. وتعبيته: جمعه وإعداده. والدهم: العدد الكثير. والمعسكر - بفتح الكاف - موضع العسكر. والأشراف: جمع شرف بفتح الراء وهو المكان العالي. وقبلها - بضمّتين أو ضمة وسكون -: هو قدّامها. وسفح الجبل: أسفله حيث يسفح فيه الماء. وأثناء الأنهار: جمع ثني وهو منعطفها [منقطعها خ] والردء: العون في المقاتلة. والرقباء: الحفظة على صياصي الجبال وهي أعاليها وأطرافها. والهضاب: جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض. وكفّة بالكسر: أي مستديرة. والغرار: النوم القليل. والمضمضة: حركة النعاس في العين وهو كناية عن قلّة النوم أيضاً. والترسة: جمع ترس.

واعلم أنّ صدر الكتاب ظاهر إلاّ أنّ فيه نكتة وهي أنّه كرّر لفظ إلاّ عقيب النهي عن تسيير الكتائب وهما يفيدان الحصر أمّا الأولى فتفيد حصر السير في الوقت المشار إليه، وأمّا الثانية فتفيد حصره في حال التعبية. وفي هذا الكتاب من تعليم كيفيّة الحرب قوانين كلّيّة عظيمة النفع يستلزم استعمالها الظفر بالعدوّ وتفصح عن تكذيب من ادّعى أنّه لا علم به بالحرب كما حكاه عليه السلام عن قريش فيما مضى، وفي هذا الفصل جملة منها:

أحدها: أن يختاروا لمعسكرهم عند منازلة العدوّ قدّام الأماكن العالية وسفاح الجبال وأثناء الأنهار. وكشف عن العلّة في ذلك ووجه المصلحة فيه بقوله: كيما يكون ردءاً لهم: أي تكون هذه الأماكن حافظة لكم من ورائكم مانعة من العدوّ أن يأتيكم من تلك الجهة وبذلك كانت معينة.

الثاني: أن يكون مقاتلتهم من وجه واحد فإن لم يكن فمن وجهين حيث يحفظ بعضهم ظهر بعض، وسرّه أنّه يستلزم البقاء على الجمعيّة، وأمّا المقاتلة من وجوه كثيرة فمستلزمة للتفرّق والضعف.

الثالث: أن يجعلوا لهم حفظة في الأماكن العالية وعلّته ما ذكر وهو أن لا يأتيهم العدوّ من مكان يخافون منهم، أو يأمنون على غرّة وغفلة من الاستعداد له.

الرابع: أن يعلموا أنّ مقدّمة القوم عيون لهم وعيون المقدّمة طلائعهم فلا يهملوا التأهبّ عند رؤية المقدّمة والطليعة وإن قلّ عددهم لأنّ رؤيتهم ممّا تشعر بهجوم العدوّ وقربه.

الخامس: التحذير من التفرّق، ومن لوزامه الأمر بالاجتماع حالتي النزول والارتحال، وسرّه ظاهر.

السادس: أن يجعلوا الرماح مستديرة عليهم وأن لا يستغرقوا في النوم كما يفعله القارّ المطمئنّ. وسرّهما الحراسة والتحفّظ خوف هجوم العدوّ على الغرّة وحال النوم.

١٢ - ومن وصية له عليه السلام

لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له:

اتَّقِ اللَّهَ الَّذِي لا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ، وَلا تُقَاتِلَنَّ إِلاّ مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لا ظَعْناً. فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ، وَلا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

أقول: روي أنّه عليه السلام بعثه من المدائن في ثلاثة ألف وقال له: امض على الموصل حتى توافيني بالرقّة. ثمّ قال له اتّق الله. الفصل. فخرج حتى أتى الحديثة وهي إذ ذاك منزل الناس إنّما بنى الموصل بعد ذلك محمّد بن مروان. ثمّ مضوا حتى لقوه عليه السلام بالرقّة.

والبردين: الغداة والعشيّ. وكذلك الأبردان. والتغوير: القيلولة، وغوّر: أي نزل في الغائرة وهي القائلة ونصف النهار. والترفيه: الإراحة. والسكن: ما يسكن فيه وإليه. والظعن: الإرتحال. والانبطاح: الاتّساع والانبساط. وأنشبت الشيء بالشيء: علقته به. والشنئان: البغض والعداوة.

ولمّا كان معقل بن قيس متوجّه للسفر إلى الله تعالى في جهاد أعدائه أمره بتقواه الذي هو خير زاد في الطريق إليه: وفي قوله: الذي لا بدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه فوائد:

إحديها: جذبه إلى التقوى بالتخويف من لقاء الله.

الثانية: تسهيل الجهاد عليه فإنّه لمّا كان معتقداً أنّ الجهاد طاعة مقرّبة إلى الله تعالى أشعره بوجوب لقائه ليستعدّ بتلك الطاعة التي هو بصددها لما يضطرّ إليه من لقائه.

الثالثة: أنّه أمره بتقوى الله وخوّفه بضرورة لقائه تعالى ليكون أسرع إلى ما يأمره به وينهاه عنه من الأمور المذكورة في وصيّته. فمنها: أن لا يقاتل إلاّ من قاتله فإنّ قتال غير المقاتل ظلم، ومنها: أن يسير طرفي النهار لبردهما ويغوّر في وسطه لما يستلزمه القايلة من شدّة الحرّ والمتاعب فيه، وأن يرفّه في السير ليلحق الضعيف القويّ ولا يظهر التعب على الناس لحاجتهم إلى فضل القوّة والإستجمام، وأن لا يسير في أوّل الليل لأنّ الله جعله سكناً ومناماً يستراح فيه من المتاعب ويسكن إليه بعد النفرة من أن يجعله محلّ الظعن، مجازاً إطلاقاً لاسم المظروف على الظرف، وأن يجعل سيره بعد وقوفه في ليله حين ينبطح السحر أو حين ينفجر الفجر لأنّها مظنّة طيب السير، وأن يقف من أصحابه عند لقاء العدوّ وسطاً ليكون نسبة الطرفين في الرجوع إليه والاستمداد بسماع أوامره على سواء. ومن النواهي أن لا يدنو من القوم دنوّاً قريباً يشعرهم بإرادة إيقاع الفتنة ليكون أعذر عند الله وإلى القوم في دعائهم إلى الحقّ، ولا يتباعد عنهم تباعداً يشعر بخوفه ورهبته من عدوّه لئلاّ يطمع فيه العدوّ. وضرب له في هذين النهيين غاية هي ورود أمره عليه بأحدهما، وأن لا يحملهم بغضهم

وعداوتهم على قتالهم قبل دعائهم إلى الإمام الحقّ والإعذار إليهم بذلك فيكون قتالهم على ذلك الوجه لغير الله بل بمجرّد الهوى والعداوة فيخرج عن كونه طاعة. وبالله التوفيق.

١٣ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أميرين من أمراء جيشه:

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ ابْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلا سَقْطَتُهُ وَلا بُطْؤُهُ عَمَّا الإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

أقول: الأميران المشار إليهما هما زياد بن النضر وشريح بن هاني، وذلك أنّه حين بعثهما على مقدّمة له في اثني عشر ألفاً التقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام فكتبا إليه يعلمانه بذلك. فأرسل إلى الأشتر فقال له ما قال: إنّ زياد بن النضر وشريحاً أرسلا إليّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور في جند من أهل الشام بسور الروم فنبأني الرسول أنّه تركهم متوافقين فالتجئ لأصحابك التجاء فإذا أتيتهم فأنبهم [فأنت عليهم خ]. عليهم، وإيّاك أن تبدأ القوم بقتال إلاّ أن يبدأوك حتى تلقاهم وتسمع منهم ولا يجرمنّك شنئآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ولا تدن منهم دنوَّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك فإنّي حثيث السير إليك إن شاء الله، وكتب إليهما عليه السلام: أمّا بعد فإنّي أمّرت عليكما. الفصل.

والسقطة: الزلّة. والحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بأولي الآراء وأقواها إلى الصواب. والأمثل: الأقرب إلى الخير. وقد أمرهما بأوامر: منها أن يسمعا أمر أميرهما فيما يراه أصلح، وأن يطيعا أمره في ذلك ليكون به نظام أمورهم في لقاء عدوّهم المستلزم لظفرهم، وأن يجعلاه درعا ومجنّاً في الحرب والرأي فإنّه ممّن لا يخاف ضعفه في حرب ولا زلّته في رأي ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم وأولى بالرأي من الأفعال ولا إسراعه فيما البطء عنه أولى بالتدبير وأقرب إلى الخير بل يضع كلّ شيء موضعه. ولفظ الدرع والمجنّ مستعاران باعتبار وقايته لهم من شرّ عدوّهم كما يقي الدرع والمجنّ صاحبهما. وبالله بالتوفيق.

١٤ - ومن وصية له عليه السلام

لعسكره قبل لقاء العدو بصفين:

لا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلا تُصِيبُوا مُعْوِراً، وَلا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى. وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمراءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

أقول: روي أنّه عليه السلام كان يوصي أصحابه في كلّ موطن يلقون العدوّ فيه بهذه الوصيّة.

الهزيمة: الهرب. وأعور الصيد: أمكن من نفسه، وأعور الفارس: ظهر فيه موضع خال للضرب. فهو معور. وأجهز على الجريح: قتله. وأهجت الشيء: أثرته. والفهر: الحجر المستطيل الأملس. والهراوة: خشبة كالدبوس. والعقب: الولد ذكراً وأنثى.

وقد وصيّ في هذا الفصل بأمور:

أحدها: أن لا يقاتلوهم إلى أن يبدؤوهم بالقتال، وأشار إلى أنّ ذلك يكون حجّة ثانية عليهم وأومى بالحجّة الأولى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وظاهر أنّ هؤلاء بغاة على الإمام الحقّ فوجب قتالهم.

وأمّا الثانية: فهي تركهم حتى يبدأوا بالحرب. وبيان هذه الحجّة من وجهين:

أحدهما: أنّهم إذا بدأوا بالحرب فقد تحقق دخولهم في حرب الله وحرب رسوله لقوله ﷺ: حربك يا عليّ حربي. ومحقّق سعيهم في الأرض بالفساد بقتلهم النفس التي حرّم الله ابتداء بغير حقّ وكلّ من تحقّق دخوله في ذلك دخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المائدة: ٣٣] الآية.

الثاني: أنّ البادي بالحرب معتد ابتداءاً. وكلّ معتد كذلك فيجب الاعتداء عليه لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾[البقرة: ١٩٤] الآية فوجب الاعتداء عليهم إذا بدأوا بالحرب.

الثالث: وصّاهم على تقدير وقوع الهزيمة منهم بإذن الله أن لا يقتلوا مدبراً: أي مولّياً هارباً ولا يصيبوا معوراً، وهو الذي أمكنتهم الفرصة في قتله بعد انكسار العدوّ كالمعور من الصيد. وقيل: أراد بالمعور المريب وهو الذي وقع فيه الشكّ أنّه محارب أم لا: أي لا تقتلوا إلاّ من علمتم أنّه محارب لكم.

الرابع: أن لا تجهزوا على جريح. وهذه الأمور الأربعة المنهيّ عنها هٰهنا هي من أحكام الكفّار حال الحرب. ففرّق عليه السلام بين هؤلاء البغاة وبينهم فيها وإن أوجب قتالهم وقتلهم، ويلحق بذلك من أحكامهم ما نقله نصر ابن مزاحم تماماً لهذا الفصل بعد قوله: ولا تجهزوا على جريح: ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذن ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم. ثمّ يتّصل بقوله: ولا تهيجوا النساء، والمراد بذلك أن لا تثيروا شرورهنّ بأذى وإن بلغن الغاية المذكورة من شتم الأعراض وسبّ الأمراء، وعلّل أوليّة الكفّ عنهنّ بكونهنّ ضعيفات القوى. أي ضعيفات القدر عن مقاومة الرجال وحربهم. وسلاح الضعيف والعاجز لسانه، وبكونهنّ ضعيفات الأنفس: أي لا صبر لنفوسهنّ على البلاء فيجتهدن في دفعه بما أمكن من سبّ وغيره، وبكونهنّ ضعيفات العقول: أي لا قوّة لعقولهنّ أن يرين عدم الفائدة في السبّ والشتم وأنّه من رذائل الأخلاق وأنّه يستلزم زيادة الشرور وإثارة الطبائع التي يراد تسكينها وكنّها.

وقوله: وإن كنّا. إلى آخره.

تنبيه على الأمر بالكفّ عنهنّ لأنّه إذا أمر بالكفّ عنهنّ حال كونهنّ مشركات ففي حال إظهارهنّ الإسلام أولى. والواو في وإنهنّ للحال.

وقوله: وإن كان الرجل. إلى آخر.

تنبيه على ما في أذاهنّ من المفسدة وهي السمة اللازمة لفاعله في حالتي حياته وبعد وفاته، وذلك تنفير عن أذاهنّ في معرض النهي عنه وتناولها بالفهر والهراوة كناية عن ضربها بهما، - وإن - في قوله: وإن كنّا، وفي قوله: وإن كان. هي المخفّفة من الثقيلة وتلزم اللام خبرها فرقاً بينها وبين إن النافية.

١٥ - وكان يقول عليه السلام

إذا لقي العدو محارباً:

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ.

اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

أقول: روي أنّه عليه السلام كان إذا اشتدّ القتال ذكر اسم الله حين يركب. ثمّ يقول: الحمد لله على نعمه علينا وفضله العميم، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون. ثمّ يستقبل القبلة ويرفع يديه ويقول: اللّهم إليك نقلت الأقدام. الفصل. إلى قوله: خير الفاتحين. ثمّ يقول: سيروا على بركة الله. ثمّ يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر يا الله يا

أحد يا صمد يا ربّ محمّد بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم إيّاك نعبد وإيّاك نستعين اللّهمّ كفّ عنّا أيدي الظالمين. فكان هذا شعاره بصفّين.

وأفضت القلوب: خرجت إليه عن كل شيء ووصلت إليه خالصة سرّها. وشخوص البصر: ارتفاعه نحو الشيء بحيث لا يطرف. وإنضاء الأبدان: هزالها. وصرّح: ظهر، وهو فعل لازم. والشنئان: العداوة والبغضاء. ومكتومه: المستور منه. والمراجل: القدور. وجيشها: غليانها. والضغن: الحقد. وافتح: أي احكم. والفاتح: الحاكم.

ولمّا كان مراده عليه السلام جهاداً خالصاً لله وعبادة له، ومن كمال العبادات أن تشفع بذكر الله وتوجيه السرّ إليه. إذ كان ذلك هو سرّ العبادة وفائدتها لا جرم كان دأبه في جهاده التضرّع والالتفات إلى الله بهذا الفصل وأمثاله مع ما يستلزمه من طلب النصر والإعداد له. فأشار بإفضاء القلوب إلى الإخلاص له في تلك الحال، وبمدّ الأعناق وشخوص الأبصار إلى ما يستلزمه الإخلاص من الهيئات البدنيّة، وبنقل الأقدام وإنضاء الأبدان إلى أنّ ذلك السفر وما يستلزمه من المتاعب إنّما هو لوجهه وغاية الوصول إلى مرضاته، وأشار إلى علّة قتالهم له في معرض الشكاية إلى الله تعالى وهي تصريحهم بما كان مستقراً في صدورهم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله من العداوة والبغضاء ولجيش أضغانهم السابقة ممّا فعل بهم ببدر وأحد وغيرهما من المواطن. فلفظ المراجل مستعار ووجه المشابهة غليان دماء قلوبهم عن الأحقاد كغليان المراجل، ولفظ الجيش ترشيح. ثمّ لمّا كانت غيبة النبيّ صلى الله عليه وآله وفقده هو السبب الذي استلزم تصريح الشنئان وظهور الأضغان وكثرة العدوّ وتفرّق الأهواء لا جرم شكى إلى الله من تحقّقها وما يستلزمه من هذه الشرور. ثمّ سأله أن يحكم بينه وبينهم بالحقّ اقتباساً من القرآن الكريم؛ لما أنّ إيقاع الحكم الحقّ بينهم يستلزم نصرته عليهم وظفره بهم. إذ كان هو المحقّ في جهاده. وبالله التوفيق.

١٦ - وكان عليه السلام يقول لأصحابه عند الحرب

لا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا، وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا الأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ!!

أقول: الفرّة: المرّة من الفرار. والكرّة: الفعلة من الكرّ وهو الرجوع على العدوّ. والجولة: الدورة. والمصارع: مواضع الصرع للقتلى. وذمرته أذمره: أي حثثته. والدعسيّ: منسوب إلى الدعس وهو الأثر. والطلحف: الشديد. والياء للمبالغة. والنسمة: الخلق.

وقوله: لا تشتدّنّ عليكم إلى قوله: حملة.

أي إذا رأيتم في فراركم مصلحة في خدعة العدوّ كالجذب له بذلك حيث يتمكن منه وتقع الفرصة فتكروا عليه حينئذٍ فلا تشتدّن عليكم الفرة، ووجه الشدّة هنا أنّ الفرار بين العرب صعب شديد لما يستلزمه من العار والسّبة. فأشار إلى وجه تسهيله عليهم بأنّه إذا كان بعده كرّة فلا بأس به لما فيه من المصلحة، ويحتمل أن يريد أنّكم إذا اتّفق لكم إن فررتم فرّة عقّبتموها بكرّة فلا تشتدّنّ عليكم تلك الفرّة فتنفعلوا وتستحيوا فإن تلك الكرّة كالماحية لها. وفيه تنبيه على الأمر بالكرّة على تقدير الفرّة، وكذلك قوله: ولا بجولة بعدها حملة. ويحتمل أن يريد فلا تشتدّنّ عليكم فرّة من عدوّكم بعدها كرّة منه عليكم فإنّ تلك الكرّة لمّا كانت عقيب الفرّة لم تكن إلاّ عن قلوب مدخولة ونيّات غير صحيحة. وإنّما قدّم الفرّة في هذا الاحتمال لأنّ مقصوده تحقير تلك الكرّة بذكر الفرّة، وكان ذكرها أهمّ فلذلك قدّمت، وكذلك قوله: ولا جولة بعدها حملة.

ثمّ أمرهم بأوامر:

أحدها: أن يعطوا السيوف حقوقها. وهو كناية عن الأمر بفعل ما ينبغي أن يفعل. ولفظ العطاء مستعار لما تصل إليه السيوف من الأفعال التي ينبغي أن تفعل بها.

الثاني: أن يوطّنوا لجنوبهم مصارعها: أي يتّخذوا مصارع جنوبهم أوطاناً لها. وهو كناية عن الأمر بالعزم الجازم على القتل في سبيل الله والإقدام على أهوال الحرب. إذ كان اتّخاذ المصارع أوطاناً للجنوب مستلزماً لذلك العزم والإقدام وروي: ووطّنوا - بالياء -.

الثالث: أن يحثّوا أنفسهم على الطعن الذي يظهر أثره والضرب الشديد: أي يحملوها على ذلك ويبعثوها بالدواعي الصادقة التي فيها رضى من تذكّر ما وعد الله عباده الصالحين.

الرابع: أن يميتوا الأصوات: أي لا يكثروا الصياح فإنّه من علامات الفشل فعدمه يكون علامة للثبات المنافي للجبن والصياح. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ثمّ أقسم بما يعتاده من القسم البارّ أنّ القوم لم يسلموا بقلوبهم حين أظهروا الإسلام في زمن رسول الله ﷺ بألسنتهم، ولكنّهم استسلموا خوفاً من القتل وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا عليه أعواناً أظهروه. وهو إشارة إلى المنافقين من بني أميّة كعمرو بن العاص ومروان ومعاوية وأمثالهم، وروي مثل هذا الكلام لعمّار بن ياسر رضي الله عنه. وبالله التوفيق.

١٧ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية، جواباً عن كتاب منه إليه:

فَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلاّ حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الآخِرَةِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هٰذِهِ الأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً.

أقول: روي أنّ معاوية استشار عمرو بن العاص في أن يكتب إلى عليّ كتاباً يسأله فيه الشام فضحك عمرو وقال: أين أنت يا معاوية من خدعة عليّ؟ قال: ألسنا بني عبد مناف؟ قال: بلى ولكن لهم النبوّة دونك. وإن شئت أن تكتب فاكتب. فكتب معاوية إليه مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عقبة: أمّا بعد فإنّي أظنّك لو علمت أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يجبّها بعض على بعض. وإنّا وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما يندم بها على ما مضى ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا يلزمني منك طاعة ولا بيعة وأبيت ذلك عليّ فأعطاني الله ما منعت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإنّك لا ترجو من البقاء إلاّ ما أرجو ولا أخاف من القتل إلاّ ما تخاف، وقد والله رقّت الأجناد وذهبت الرجال وأكلت الحرب العرب إلاّ حشاشات أنفس بقيت، وإنّا في الحرب والرجال سواء ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترّق به حرّ. والسلام فلمّا قرأ علي عليه السلام كتابه تعجّب منه ومن كتابه ثمّ دعا عبد الله ابن أبي رافع كاتبه وقال له: اكتب إليه: أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو

علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يحبّها بعض على بعض وأنا وإيّاك في غاية لم نبلغها بعد، وأمّا طلبك إليّ الشام. الفصل.

الحشاشة: بقيّة الروح. والطليق: الأسير الذي أطلق من أسره وخلّي سبيله. والصريح: الرجل خالص النسب. واللصيق: الدعيّ الملصق بغير أبيه. والمدغل: الذي اشتمل باطنه على فساد كنفاق ونحوه. وسلف الرجل: آباؤه المتقدّمون. وخلفه: من يجيء بعده. ونعشنا: رفعنا. والفوج: الجماعة.

وقد أجاب عليه السلام عن أمور أربعة تضمّنها كتاب معاوية:

أحدها: أنه استعطفه إلى البقية واستدرجه لوضع الحرب بقوله: إنك لو علمت. إلى قوله: ما بقي. وفيه إشعار بالجزع من عضّ الحرب والخوف من دوامها فأجابه عليه السلام بقوله: وأنا وإيّاك في غاية لم نبلغها بعد، ويفهم منه التهديد ببقاء الحرب إلى الغاية منها وهي الظفر به وهلاكه وهو مستلزم لتخويفه والتهويل عليه ومنع ما طلب من وضع الحرب.

الثاني: أنّه سأل إقراره على الشام مع نوع من التشجّع الموهم لعدم الانفعال والضراعة، وذلك في قوله: وقد كنت سألتك الشام. إلى قوله: أمس.

وقوله: فإنّك لا ترجو. إلى قوله: ما نخاف.

إشارة إلى كونهما سواء في رجاء البقاء والخوف من القتل، ومقصود ذلك أن يوهم أنه لا انفعال له عن تلك الحرب أيضاً.

وقوله: وأنا أدعوك إلى ما دعوتك إليه أمس.

أي من طلب إقراره على الشام. وذلك أنه عليه السلام حين بويع بالخلافة كان معاوية سأل منه إقراره على إمرة الشام، ونقل عن ابن عباس أنه قال له عليه السلام: ولّه شهراً واعزله دهراً فإنه بعد أن يبايعك لا يقدر على أن يعدل في إمرته ولا بدّ أن يجور فتعزله بذلك. فقال عليه السلام: كلا وما كنت متخذ المضلين عضداً. وروي: أنّ المغيرة بن شعبة قال له عليه السلام: إنّ لك حقّ الطاعة والنصيحة أقرر معاوية على عمله والعمّال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وتبعة الجنود استبدلت أو تركت. فقال عليه السلام: حتى أنظر فخرج من عنده ثم عاد إليه من الغد فقال: إنّي أشرت عليك أمس برأي وإنّ الرأي أن تعاجلهم بالنزع فيعلم السامع من غيره ويستقلّ أمرك ثمّ خرج من عنده. فجاءه ابن عباس فأخبره بما أشار إليه المغيرة من الرأيين. فقال: أمّا أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشّك. وقد كان الرأي الدنيوي الخالص في حفظ الملك ذلك لكنه عليه السلام لمّا لم يكن ليتساهل في شيء من أمر الدين أصلاً وإن قلّ وكان إقرار معاوية وأمثاله على الأعمال يستلزم العدول في كثير من تصرفاتهم عن سبيل الله لا جرم لم ير إقراره على العمل، ومنعه ما سأل. ولما كان منعه أولاً مما سأل منعاً خالصاً لله عن مشاركة الهوى والميول الطبيعية لم يكن سؤاله ثانياً واستعطافه إيّاه مقرّباً له إلى اجابته خصوصاً وقد أحدث تلك الحروب الشديدة التي أخذت من العرب ما أخذت وقتل من المهاجرين والأنصار وسائر العرب من قتل؛ بل أجابه بعين ما أجابه أولاً من الردّ والمنع في قوله: فلم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس. إذ العلّة في المنع قائمة في كل حين وزمان وهي المحافظة على دين الله.

الثالث: حفظ الرجال. والتبقية على الأجناد لحفظ الإسلام وتقويمه أمر واجب فلا جرم استعطفه واستدرجه إلى التبقية عليهم بالتنبيه على ذلك بقوله: وقد والله. إلى قوله: بقيت. فأجابه عليه السلام ألا ومن أكله الحقّ فإلى النار وهو كبرى قياس حذفت صغراه للعلم بها، وتقديرها: أنّ هؤلاء الأجناد الذين قتلناهم إنّما قتلهم الحقّ: أي كان قتلهم بحقّ لبغيهم. وتقدير هذه الكبرى: وكلّ من قتله الحقّ فمصيره إلى النار فينتج أنّ مصير من قتل من هؤلاء إلى النار. ثمّ هذه النتيجة تنبيه على الجواب وهي في قوّة صغرى قياس ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان من أهل النار فلا يجوز التبقية عليه ولا الأسف لفقده.

الرابع: أوهم بقوله: وإنّا في الحرب والرجال سواء. على أنّه ممّن لا ينفعل عن هذه الحروب وإن اشتدّت، وأنّ الضعف والهلاك إن جرى فعلى العسكرين. وفيه نوع تخويف وتهويل. فأجابه عليه السلام بقوله: فلست بأمضى. إلى قوله: الآخرة، ووجه كون

الأوّل جواباً أنّه يقول: إنّك في طلبك لما أنت طالب له على شكّ من استحقاقه وأنا على يقين في ذلك وكل من كان في شك من أمره فليس بأمضى في حربه وقيامه عليه ممّن هو على ثقة في أمره ينتج أنّك لست أمضى في أمرك على الشك مني على اليقين في أمري. ويفهم من ذلك أنّه يقول: بل أنا أمضي في أمري وأولى بالغلبة لكوني على بصيرة ويقين. وحينئذٍ تكذب المساواة بينهما لكون المتيقن أرجح في فعله من الشاكّ، ووجه كون الثاني جواباً أنّه يقول: إنّ أهل الشام يطلبون بقتالهم الدنيا وأهل العراق يطلبون بقتالهم الآخرة وليس أهل الشام بأحرص على مطلوبهم من الدنيا من أهل العراق على مطلوبهم من الآخرة. ويفهم من ذلك أنّه يقول: بل أهل العراق أحرص على الآخرة من أهل الشام على الدنيا لشرف الآخرة ولتيقّنهم حصولها، وانقطاع الدنيا وشكّ أهل الشام في حصولها كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وحينئذٍ تكذب المساواة في الحرب والرجال لشرف أهل الآخرة على أهل الدنيا ولكون الأحرص أولى بالغلبة والقهر.

الخامس: أنّه نبّه بقوله: ونحن بنو عبد مناف. إلى آخره على مساواته له في الشرف والفضيلة وهو في قوّة صغرى قياس ضمير من الأوّل. وتقدير كبراه: وكلّ قوم كانوا من بيت واحد فلا فضل لبعضهم على بعض ولا فخر. فأجابه عليه السلام بالفرق بينهما بعد أن سلم له الاشتراك بينهما في كونهما من بني عبد مناف وذكر الفرق من وجوه خمسة بدأ فيها بالأمور الخارجة أوّلا من كمالاته وفضائله ورذائل خصمه متدرجاً منها إلى الأقرب فالأقرب.

فالأوّل: شرفه من جهة الآباء المتفرّعين عن عبد مناف، وذلك أنّ سلك آبائه عليه السلام أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وسلك آباء معاوية أبو سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد مناف، وظاهر أنّ كلّ واحد من أولئك الثلاثة أشرف ممّن هو في درجته من آباء معاوية. وقد ذكرنا طرفاً من فضلهم على غيرهم.

الثاني: شرفه من جهة هجرته مع الرسول صلى الله عليه وآله وخسّة خصمه من جهة كونه طليقاً وابن طليق. وهذه الفضيلة وإن كانت خارجيّة إلاّ أنّها تستلزم فضيلة نفسانيّة وهي حسن الإسلام والنيّة الصادقة الحقّة، وكذلك ما ذكر من رذيلة خصمه بدنيّة عرضت له إلاّ أنّ هذه الفضيلة والرذيلة أقرب من الاعتبارين الأوّلين لكونهما حقيقيتين بالآباء وهميّتين بالأبناء دون هاتين.

الثالث: وكذلك شرفه من جهة صراحة النسب وخسّة خصمه من جهة كونه دعيّاً. وهذان الاعتباران أقرب ممّا قبلهما لكونهما اعتبارين لازمين لهما دون الأوّلين.

الرابع: شرفه من جهة كونه محقّاً فيما يقوله ويعتقده، ورذيلة خصمه من جهة كونه مبطلاً. وهذان الاعتباران أقرب لكونهما من الكمالات والرذائل الذاتيّة دون ما قبلهما.

الخامس: شرفه من جهة كونه مؤمناً والمؤمن الحقّ هو المستكمل للكمالات الدينيّة النفسانيّة، وخسّة خصمه من جهة كونه مدغلاً: أي خبيث الباطن مشتملاً على النفاق والرذائل الموبقة. وظاهر أنّ هذين الاعتبارين أقرب الكمالات والرذائل إلى العبد، وإنّما بدأ بذكر الكمالات والرذائل الخارجيّة لكونهما مسلّمة عند الخصم وأظهر له وللخلق من الأمور الداخليّة. ثمّ لمّا ذكر الرذائل المتعلّقة بخصمه أشار إلى كونه في أفعاله ورذائله خلفاً لسلف هوى في نار جهنّم. ثم رتّب ذمّة على ذلك.

وقوله: ولبئس الخلف. إلى قوله: جهنّم.

في قوّة كبرى قياس استغنى بمفهومها عن صغراه. وتقديرها: فأنت خلف تتبع سلفاً، وكلّ خلف تتبع في أفعاله ورذائله سلفاً هوى في نار جهنّم فهو كذلك، وكل من كان كذلكفقبئس به.

السادس: أنّ معاوية لمّا أكّد ما به علّق من المساواة في الفضل في قوله: وليس لبعضنا على بعض فضل واستثنى من ذلك فقال: إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترّق به حرّ. أشار عليه السلام إلى كبرى هي كالجواب لذلك وهو قوله: وفي أيدينا بعد فضل النبوّة. إلى قوله:

الذليل، وظاهر أنّ هذا الفضل الذي حصل في هذا البطن من هاشم هو سبب إذلالهم الأعزاء وإنعاشهم وتقويتهم الأذلاء واسترقاقهم الأحرار، وذلك فضل عريت عنه بنو أمية وغيرهم. فإذن قوله: وليس لبعضنا على بعض فضل إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز. إلى آخره قول باطل. ثم أردف هذه الفضيلة بذكر رذيلة لخصمه بالنسبة إلى فضيلة شملت كثيراً من العرب؛ وتلك هي دخولهم في الإسلام لا لله بل إما لرغبة أو رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم إلى الله وحصل المهاجرون والأنصار على ما حصلوا عليه من الفضائل المسعدة. ثمّ لمّا ظهر هذه الفرق من فضائله ورذائل خصمه نهاه عن أمرين:

أحدهما: أن لا يجعل للشيطان في نفسه نصيباً. وهو كناية عن النهي عن اتّباعه للهوى.

والثاني: أن لا يجعل له عليه سبيلاً. وهو كناية عن النهي عن انفعاله عنه وفتح باب الوسوسة عليه، وهذا النهي يفهم منه أنّه قد جعل للشيطان في نفسه نصيباً وله عليه سبيلاً وأنّ ذلك النهي في معرض التوبيخ له على ذلك. وبالله التوفيق.

١٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن عباس، وهو عامله على البصرة:

وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا. فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذٰلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلامُ.

أقول: روي أنّ ابن العباس كان قد أضرّ ببني تميم حين ولّي البصرة من قبل عليّ عليه السلام للّذي عرفهم به من العداوة يوم الجمل لأنّهم كانوا من شيعة طلحة والزبير وعائشة فحمل عليهم ابن عباس فأقصاهم وتنكّر عليهم وعيّرهم بالجمل حتى كان يسمّيهم شيعة الجمل وأنصار عسكر - وهو اسم جمل عائشة - وحزب الشيطان. فاشتدّ ذلك على نفر من شيعة عليّ عليه السلام من بني تميم منهم حارثة بن قدامة وغيره. فكتب بذلك حارثة إلى عليّ عليه السلام يشكو إليه ابن عبّاس. فكتب عليه السلام إلى ابن عباس:

أمّا بعد فإنّ خير الناس عند الله غداً أعلمهم بطاعته فيما عليه وله وأقولهم بالحقّ وإن كان مرّاً. ألا وإنّه بالحق قامت السماوات والأرض فيما بين العباد فتلكن سريرتك فعلاً وليكن حكمك واحداً وطريقتك مستقيماً. واعلم أنّ البصرة مهبط إبليس. الفصل.

والتنمّر: تنكر الأخلاق وتغيّرها. والوغم: الحقد. والماسّة: القريبة. ومأزورون: أي يلحق بنا الوزر وهو الإثم. واربع: أي توقّف وتثبّت. وفال الرأي يفيل: أي ضعف وأخطأ.

واعلم أنّه كنّى بكون البصرة مهبط إبليس عن كونها مبدأ الآراء الباطلة والأهواء الفاسدة الصادرة عن إبليس المستلزمة لإثارة الفتن وكثرتها لأنّ مهبط إبليس مستقرّه ومحلّ لذلك، وأراد مهبطه من الجنّة. واستعار لفظ المغرس للبصرة باعتبار كونها محلاً تنشأ فيه الفتن الكثيرة كما أن مغرس الشجر من الأرض محلّ لنشوئه ونمائه. قال بعضهم: وفي قوله: مهبط إبليس. نوع لطف فإنّ الوهم الذي هو إبليس النفس العاقلة إذا انفرد بحكمه عن تدبيرها العقليّ وخرج عن موافقة العقل العمليّ فيما يراه ويحكم به فقد هبط من عالم الكمال وموافقة العقل وتلقّي أوامره العالية التي هي أبواب الجنة إلى الخيبة السافلة، ومشاركة الشهوة والغضب في حكمه بأصلحيّة الآراء الفاسدة. ولمّا أحاط القضاء الإلهي بما يجري من أهل البصرة من نكث بيعته عليه السلام ومخالفته وكانوا ممّن عزلوا عقولهم عن الأراء المصلحيّة رأساً وهبط إبليس وجنوده بأرضهم فأروهم الآراء الباطلة في

صور الحقّ فلحقوا بهم فكان منهم ما كان ونزل بهم ما نزل من سوء القضاء ودرك الشقاء فكانت بلدتهم لذلك مهبط إبليس ومغرس الفتن الناشئة عن وسوسته وآرائه الفاسدة. ثمّ أمره أن يحادثهم بالإحسان إليهم: أي يعدهم بذلك، وأن يحلّ عقد الخوف عن قلوبهم. واستعار لفظ العقدة لما ألزمهم به من المخالفة [المخافة خ] بالغلظة عليهم وكثرة الأذى لهم، ووجه المشابهة كون ذلك الخوف ملازماً لهم معقوداً بقلوبهم كالعقدة للحبل ونحوه، ورشّح بلفظ الحلّ وكنّى به عن إزالة الخوف عنهم. وغرض هذه الأوامر أن لا ينفر قلوبهم منه وتثور أضغانهم فيعاودوا الخروج عن طاعته وإثارة الفتنة. ثمّ أعلمه بما يريد إنكاره عليه ممّا بلغه من تنمّره لهم، وأردف ذلك بذكر أحوال لهم يجب مراقبتهم وحفظ قلوبهم لأجلها:

أحدها: أنّه لم يمت لهم سيّد إلا قام لهم آخر مقامه، واستعار له لفظ النجم، ووجه المشابهة كون سيّد الجماعة وكبيرهم قدوة يهتدون به ويقتدون بآرائه في الطرق المصلحيّة، ورشّح بذكر المغيب والطلوع.

الثاني: أنّهم لم يسبقوا بوغم. ويحتمل وجهين:

أحدهما: أنّه لم يسبقهم أحد إلى الثوران والأحقاد وحيث كانوا، في جاهليّة أو إسلام لشرف نفوسهم وقلّة احتمالهم للأذى، وذلك أن المهين الحقير في نفسه لا يكاد يغضب ويحقد ممّا يفعل من الأذى. وإن غضب في الحال إلا أنه لا يدوم ذلك الغضب ولا يصير حقداً.

الثاني: يحتمل أن يريد أنّهم لم يسبقوا بشفاء حقد من عدوّ. وذلك لقوّتهم ونجدتهم. فحذف المضاف.

الثالث: أنّ لهم ببني هاشم قرابة قريبة إلى آخره. قيل: تلك القرابة لاتّصالهم عند إلياس بن مضر لأن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لويّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وتميم ابن مراد بن طانجة بن إلياس بن مضر، وزاد ترغيباً في مواصلتهم ومداراتهم بكون صلة الرحم مستلزمة للأجر في الآخرة، وتركها مستلزم للوزر. وقال: مأزورون. والأصل موزورون. فقلّب ليجانس قوله: مأجورون. وفي الحديث لترجعنّ مأزورات غير مأجورات. ثمّ أردف ذكر تلك الأحوال التي يقتضي الرفق بهم بالأمر بالتوقّف والتثبّت فيما يجري على يده ولسانه من فعل وقول أهو خير أو شرّ لأنّ التثبّت في الأمور أولى بإصابة وجه المصلحة، وأراد بالشرّ ما يجريه على رعيّته من عقوبة فعليّة أو قوليّة.

وقوله: فإنّا شريكان في ذلك.

كالتعليل لحسن أمره له بالتثبّت في ذلك لأنّه لما كان والياً من قبله فكلّ حسنة أو سيّئة يحدثها في ولايته فله عليه السلام شركة في إحداثها. إذ هو السبب البعيد لمسبّبها القريب، وأبو العباس كنية عبد الله بن العباس. والعرب تدعو من تكرمه بالكنى. قال: أكنّيه حين أناديه لأكرمه. ولمّا كان عليه السلام قد استصلحه للولاية ورآه أهلاً لها أمره أن يلازم ظنّه الصالح فيه ولا يكشف عن ضعف ذلك الرأي وعدم مطابقته فيه بسوء صنيعه. وبالله التوفيق.

١٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض عماله:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالإِدْنَاءِ، وَالإِبْعَادِ وَالإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: الدهقان: معرّب يحتمل الصرف إن كان نونه أصليّة وإلاّ فلا ينصرف للوصف والألف والنون الزائدتين. والقسوة: غلظ القلب وشدّته. وأقصاه: أبعده. والجفوة: ضدّ البرّ. والجلباب: الملحفة. والمداولة: تقليب كلّ واحد من القسوة والرأفة على الآخر والأخذ بكلّ منهما مرّة - من الإدالة وهي الإدارة - والمنقول أنّ هؤلاء الدهاقين كانوا مجوساً. ولمّا

شكوا إليه غلظة عامله فكّر في أمورهم فلم يرهم أهلاً للإدناء الخالص لكونهم مشركين ولا إقصائهم لكونهم معاهدين فإنّ إدناءهم وإكرامهم خالصاً هضم ونقيصة في الدين، وإقصاءهم بالكليّة ينافي معاهدتهم. فأمره بالعدل فيهم ومعاملتهم باللين المشوب ببعض الشدّة كلّ في موضعه، وكذلك استعمال القسوة مرّة والرأفة أخرى والمزج بين التقريب والإبعاد لما في طرف اللين والرأفة والتقريب من استقرار قلوبهم في أعمالهم وزراعاتهم التي بها صلاح المعاش وما في مزاجها بالشدّة والقسوة والإبعاد من كسر عاديتهم ودفع شرورهم وإهانتهم المطلوبة في الدين. واستلزم ذلك نهيه عن استعمال الشدّة والقسوة والإبعاد في حقّهم دائماً واللين والرأفة والإدناء خالصاً، واستعار لفظ الجلباب لما أمر بالاتّصاف به وهو تلك الهيئة المتوسّطة من اللين المشوب بالشدّة بين اللين الخالص والشدّة الصرفة، ورشّح بذكر اللين. وبالله التوفيق.

٢٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى زياد بن أبيه، وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة، وعبد الله خليفة أمير المؤمنين على البصرة والأهواز وفارس وكرمان.

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ ضَئِيلَ الأَمْرِ، وَالسَّلامُ.

أقول: زياد هذا هو زياد بن سميّة أمّ أبي بكر، دعي أبي سفيان، قد يعدّ في أولاده من غير صريح بنوّة، وروي أنّ أوّل من دعاه ابن أبيه عائشة حين سئلت لمن يدعى. وكان كاتباً لمغيرة بن شعبة ثمّ كتب لأبي موسى ثمّ كتب لابن عامر ثمّ كتب لابن عباس. وكان مع عليّ عليه السلام فولاّه فارس. فكتب إليه معاوية يهدّده. فكتب إليه: أتوعدني وبيني وبينك ابن أبي طالب أما والله لئن وصلت إليّ لتجدني أحمز ضراباً بالسيف. ثمّ ادّعاه معاوية أخاً له وولاّه بعد عليّ عليه السلام البصرة وأعمالها وجمع له بعد المغيرة بن شعبة العراقين. وكان أوّل من جمعا له. والشدّة: الحملة. والوفر: المال. والضئيل: الحقير.

وحاصل الفصل تحذير زياد من خيانة ما يليه من مال المسلمين ووعيده إن وقعت منه بالعقوبة عليها. وكنّى عنها بالشدة ووصف شدّة تلك الشدّة باستلزامها أموراً ثلاثة فيه سلب الكمالات الدنيويّة والأخروية:

أحدها: نقصان ماله وقلّته.

والثاني: نقصان جاهه. وكنّى عنه بقوله: ضئيل الأمر. وهما سالبان للكمال الدنيويّ.

الثالث: ثقل ظهره بالأوزار والتبعات. وهو دالّ على سلب كماله الأخروي. فإن قلت: كيف يريد ثقل الظهر بالأوزار وليس ذلك بسبب شدّته عليه السلام وإنّما الأوزار من اكتساب نفسه.

قلت: إنّ مجموع هذه الأمور الثلاثة وهي سلب ماله وجاهه مع ثقل الظهر بالأوزار حالة يدعه عليها وهي حالة مخوفة مكروهة خوّفه بها. ولا شكّ أنّ تلك الحالة من فعله وإن لم يكن بعض أجزائها من فعله، أو نقول: الثلاثة أحوال متعدّدة والحال لا يلزم أن تكون من فعل ذي الحال، ويحتمل أن يكون ثقل الظهر كناية عن الضّعف وعدم النهوض بما يحتاج إليه ويهمّه: أي يدعك ضعيف الحركة في الأمور، والله أعلم.

٢١ - ومن كتاب له عليه السلام

إليه أيضاً:

فَدَعِ الإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ.

أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالأَرْمَلَةَ - أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَالسَّلامُ.

أقول: التمرّغ: التمعّك [التملّك خ] والتقلّب.

وقد أمره في هذا الفصل بأوامر:

أحدها: ترك الإسراف وهو رذيلة الإفراط من فضيلة الاقتصاد المتوسّط بينه وبين الإجحاف بالنفس والإصرار بها وهو طرف التفريط من هذه الفضيلة. والأمر بترك الإسراف مستلزم للأمر بهذه الفضيلة لأنّ الأمر بالشيء على حالة أمر بتلك الحالة أيضاً.

الثاني: أن يذكر في اليوم غداً: أي يذكر في حاضر أوقاته مستقبلها من يوم القيامة فإنّ في ذلك زجراً للنفس وانكساراً عن الإشراف على الدنيا والاشتغال بها.

الثالث: أن يمسك من المال بقدر ضرورته. وهو تفسير للاقتصاد في تناول الدنيا وحفظها.

الرابع: أن يقدّم الفضل منها ليوم حاجته وهو يوم القيامة وما بعد الموت. وفيه استدراج لإنفاق المال في سبيل الله فإنّ كلّ عاقل يعلم أنّ إسلاف ما لا يحتاج إليه من فضول المال في سبيل الله وتقديمه لما يحتاج إليه في وقت حاجته من أكبر المصالح المهمّة. ثمّ استفهم على سبيل الإنكار عن رجائه أن يؤتيه الله ثواب المتواضعين حال ما هو مكتوب في عمله من المتكبّرين تنبيهاً منه على أنّ ثواب كلّ فضيلة إنّما ينال باكتسابها والتخلّق بها لا بالكون على ضدّها. فمن الواجب إذن التخلّق بفضيلة التواضع لينال ثوابها. ولن يحصل التخلّق بها إلاّ بعد الانحطاط عن درجات المتكبّرين فهو إذن من الواجبات، وكذلك استفهمه عن طمعه في ثواب المتصدّقين حال اقتنائه للمال وتنعّمه به ومنه ما للضعيف والأرملة استفهام منكر لذلك الطمع على تلك الحال فإنّ ثواب كلّ حسنة بقدرها ومن لوازمها، وجزاء كلّ حسنة بحسبها ومن لوازمها. ونبّه على ذلك بقوله: وإنّما المرء مجزي بما أسلف. إلى آخره، وفي قوله: قادم على ما قدّم. من محاسن الكلام، وفيه الاسقاق.

٢٢ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن العباس رحمه الله:

وكان عبد الله يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

أقول: الدرك: اللحوق. ولا تأس: ولا تحزن.

وحاصل الفصل النهي عن شدّة الفرح بما يحصل من المطالب الدنيوية وشدّة الأسف على ما يفوت منها، وبيان ما ينبغي للإنسان أن يسرّ بحصوله ويأسف لفقده ممّا لا ينبغي له. فأشار إلى الأوّل بقوله: فإنّ المرء إلى قوله: ليدركه، وهو خبر في معنى النهي، ولفظ ما في الموضعين مهمل يراد به المطالب الدنيويّة، ونبّه بقوله: ما لم يكن ليفوته. على أنّ ما يحصل من مطالب الدنيا أمر واجب في القضاء الإلهيّ وصوله إلى من يحصل له فهو كالحاصل فلا ينبغي أن يشتدّ فرحه عند حصوله، وبقوله: ما لم يكن ليدركه. على أنّ ما يفوت منها فهو أمر واجب فوته فالأسف عليه ممّا لا يجدي نفعاً بل هو ضرر عاجل. ثمّ خصّصه بالخطاب على سبيل الوصيّة والموعظة وفصّل له ما ينبغي أن يسرّ ويأسف عليه ممّا لا ينبغي له فأمّا ما ينبغي أن يسرّ به فهو ما ناله من آخرته وما ينبغي أن يأسف عليه فهو ما فاته منها، وأمّا ما ينبغي أن لا يفرح به ممّا ناله من دنياه لما عرفت من وجوب فنائها وكون القرب منها مستلزماً للبعد عن الآخرة وما ينبغي أن لا يأسف عليه ممّا لم ينله منها لكون البعد عنها مستلزماً للقرب من الآخرة.

فإن قلت: كيف قال: ما نلت من آخرتك. ومعلوم أنّه لا ينال شيء من الآخرة إلاّ بعد الموت؟

قلت: يحتمل وجهين: أحدهما: لا نسلّم أنّ من مطالب الآخرة لا يحصل إلا بعد الموت فإنّ الكمالات النفسانيّة من العلوم والأخلاق الفاضلة والفرح بها من الكمالات الأخرويّة وإن كان الإنسان في الدنيا. والثاني: يحتمل أن يريد فليكن سرورك بما نلت من أسباب آخرتك. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه

مقامه. وكذلك بيّن له ما ينبغي أن يكون همّه متوجّهاً نحوه وقصده متعلّقاً به وهو ما بعد الموت من أحوال الآخرة من سعادة دائمة يسعى في تحصيلها أو شقاوة لازمة يعمل للخلاص منها. وبالله التوفيق.

٢٣ - ومن كتاب له عليه السلام

قاله قبل موته على سبيل الوصية، لما ضربه ابن ملجم لعنه الله:

وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ!

أَنَا بِالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾؟.

وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلاَّ كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾.

قال الرضي رحمه الله، وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدم من الخطب إلا أن فيه ههنا زيادة أوجبت تكريره.

أقول: هذا الفصل قاله عليه السلام في بعض أيّام مرضه قبل موته وسيأتي شرح حال مقتله ووصيّته في فصل أطول من هذا وأليق بذكر الحال عنده إن شاء الله بعده. وفجأه الأمر: أتاه بغتة. والقارب: طالب الماء. وقيل: هو الذي يكون بينه وبين الماء ليلة. وقد وصىّ عليه السلام بأمرين هما عمود الإسلام وبهما يقوم:

أحدهما: أن لا يشركوا بالله شيئاً. وهو التوحيد الخالص، والشهادة به أوّل مطلوب بلسان الشريعة كما سبق بيانه.

والثاني: الاهتمام بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله والمحافظة على سنّته. وقد علمت أنّ من سنّته وجوب اتباع كلّما جاء والمحافظة عليه فإذن المحافظة على كتاب الله من الواجبات المأمور بها بالالتزام. وظاهر أنّ إقامة هذين الأمرين مستلزم للخلوّ عن الذمّ، ولفظ العمود مستعار لهما ملاحظة لشبههما بعمودي البيت في كونهما سببين لقيام الإسلام وعليهما مداره كالبيت على عمده، وخلاكم ذمّ. كالمثل. يقال: افعل كذا وخلاك ذمّ: أي فقد أعذرت وسقط عنك الذمّ. ثمّ نعى نفسه إليهم، وأشار إلى وجه العبرة بحاله بذكر تنقّلها وتغيّرها في الأزمان الثلاثة ففي الماضي كان صاحبهم الذي يعرفونه بالقوّة والشجاعة وقهر الأعداء وعليه مدار أمور الدنيا والدين، وفي الحاضر صار عبرة: أي محلّ عبرة. فحذف المضاف، أو معتبراً. فأطلق اسم المتعلّق على المتعلّق مجازاً، وفي المستقبل مفارق لهم. ثمّ أردف ذلك ببيان أمره مع قاتله على تقديري فنائه وبقائه، ويشبه أن يكون في الكلام تقديم وتأخير والتقدير فأنا وليّ دمي، وروي: أولى بدمي فإن شئت أقمت القصاص وإن شئت عفوت فإن أعف فالعفو لي قربة وإن أفن فالفناء ميعادي فإن شئتم فاقتلوا قاتلي وإن شئتم تعفو فالعفو لكم حسنة فاعفوا؛ لكنّه ذكر قسمي بقائه وفنائه ثمّ عقّبهما بذكر حكمهما مقترنين واقتبس الآية في معرض الندب إلى العفو ترغيباً فيه. ثمّ أقسم أنّه ما أتاه من بغتة الموت وارد كرهه ولا طالع ينكره. وصدقه في ذلك ظاهر فإنّه عليه السلام كان سيّد الأولياء بعد سيّد الأنبياء ومن خواصّ أولياء الله شدّة محبّة الله والشوق البالغ إلى ما أعدّ لأوليائه في جنّات عدن. ومن كان كذلك كيف يكره وارد الموت الذي هو باب وصوله إلى محابّه وأشرف مطالبه التي قطع وقته في السعي لها وهي المطالب الحقّة الباقية؟ وكيف ينكره وهو دائم الترصّد والاشتغال والذكر له؟ ثمّ شبّه نفسه في هجوم الموت عليه ووصوله بسببه إلى ما أعدّ له من الخيرات الباقية بالقارب الذي ورد الماء، ووجه الشبه استقرابه لتلك الخيرات ووثوقه بها واستسهاله بسببها آفات الدنيا وشدائد الموت كما يستسهل القارب عند وروده الماء ما كان يجده من شدّة العطش وتعب الطريق، وفيه إيماء إلى تشبيه تلك الخيرات بالماء. وكذلك شبّه نفسه بالطالب الواجد لما يطلبه، ووجه الشبه كونه أقرّ عيناً بما ظفر به من مطالبه

الأخرويّة كما يطيب نفس الطالب للشيء به إذا وجده، وظاهر أنّ طيب النفس وبهجتها بما تصيبه من مطالبها ممّا يتفاوت لتفاوت المطالب في العزّة والنفاسة، ولمّا كانت المطالب الأخرويّة أهمّ المطالب وأعظمها قدراً وأعزّها جوهراً أوجب أن يكون بهجة نفسه بها وقرّة عينه بما أصاب منها أتمّ كلّ بهجة بمطلوب. ثمّ اقتبس الآية في مساق إشعاره بوجدان مطلوبه منبّهاً بها على أنّ مطلوبه في الدنيا لم يكن إلاّ ما عند الله الذي هو خير لأوليائه الأبرار من كلّ مطلوب يطلب. وبالله التوفيق.

٢٤ - ومن وصية له عليه السلام

بما يعمل في أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفين:

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الأَمَنَةَ.

ومنها: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذٰلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ.

وَإِنَّ لابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذٰلِكَ إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ.

وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ، وَأَلاَّ يَبِيعَ مِنْ أَوْلاَدِ نَخِيلَ هٰذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً. وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللاَّتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ - لَهَا وَلَدٌ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسِكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أُفْرِجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ.

قال الرضي: قوله عليه السلام في هذه الوصية «أن لا يبيع من نخيلها ودية»: الودية: الفسيلة، وجمعها ودى، وقوله عليه السلام: «حتى تشكل أرضها غراسًا» هو من أفصح الكلام، والمراد به الأرض يكثر فيها غراس النخل حتى يراها الناظر على غير تلك الصفة التي عرفها بها فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها.

أقول: رويت هذه الوصيّة بروايات مختلفة بالزيادة والنقصان وقد حذف السيّد منها فصولاً ولنوردها برواية يغلب على الظنّ صدقها: عن عبد الرحمن بن الحجّاج قال: بعث إليّ بهذه الوصيّة أبو إبراهيم عليه السلام. هذا ما أوصى به وقضى في ماله عبد الله عليّ ابتغاء وجه الله ليولجني به الجنّة ويصرفني به عن النار يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. إنّ ما كان لي بينبع من مال يعرف لي فيها وما حولها صدقة، ورقيقها غير أبي رياح وأبي يبرو عتقاء ليس لأحد عليهم سبيل. فهم موالي يعملون في المال خمس حجج وفيه نفقتهم ورزقهم ورزق أهاليهم. ومع ذلك ما كان بوادي القرى كلّه مال بني فاطمة رقيقها صدقة وما كان لي لبني وأهلها صدقة غير أنّ رقيقها لهم مثل ما كتبت لأصحابهم، وما كان لي بادنية وأهلها صدقة، والقصد كما قد علمتم صدقة في سبيل الله وإنّ الذي كتبت من أموالي هذه صدقة واجبة ببكّة حيّاً أنا كنت أو ميّتاً ينفق في كلّ نفقة أبتغي بها وجه الله في سبيل الله وجهة ذوي الرحم من بني هاشم وبني المطّلب والقريب والبعيد. وإنّه يقوم بذلك الحسن بن عليّ يأكل منه بالمعروف وينفقه حيث يريد الله في كلّ محلّل لا يحرج عليه فيه، وإن أراد أن يبيع نصيباً من المال فيقضي به الدين فليفعل إن شاء لا حرج عليه فيه، وإن شاء جعله من الملك، وإنّ ولد عليّ أموالهم إلى الحسن بن علي وإن أتت دار الحسن غير دار الصدقة فبداله أن يبيعها فليبعها إن شاء لا حرج عليه فيه فإن باع فإنّه يقسمها ثلاثة أثلاث فيجعل ثلثاً في سبيل الله، ويجعل ثلثاً في بني هاشم وبني المطّلب، ويجعل الثلث في آل أبي طالب وأنّه يضعهم حيث يريد الله. ثمّ يتّصل بقوله: وإن حدث بحسن حدث وحسين حيّ فإنّه إلى حسين بن عليّ وإنّ حسيناً يفعل فيه مثل الذي أمرت به حسناً، له مثل الذي كتبت للحسن وعليه مثل الذي على الحسن. ثمّ يتّصل بقوله: وإنّ الذي لبني فاطمة. إلى قوله: وتشريفاً

لوصلته. ثمّ يقول: وإن حدث بحسن وحسين حدث فإنّ للآخر منهما أن ينظر في بني عليّ فإن وجد فيهم من يرضى بهديه وإسلامه وأمانته منهم فإنّه يجعله إليه إن شاء وإن لم ير فيهم بعض الذي يريد فإنّه يجعله في بني ابني فاطمة ويجعله إلى من يرضى بهديه وإسلامه وأمانته منهم. وإنّه شرط على الذي جعله إليه أن يترك المال على أصوله وينفق من ثمره حيث أمره الله من سبيل الله ووجوهه وذوي الرحم من بني هاشم وبني المطّلب والقريب والبعيد، وأن لا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى إلى آخره. ثمّ يقول: ليس لأحد عليها سبيل هذا ما قضى عليّ أمواله هذه يوم قدم مسكن ابتغاء وجه الله والدار الآخرة لا يباع منه شيء ولا يوهب ولا يورث والله المستعان على كلّ حال، ولا يحلّ لامرئ مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يغيّر شيئاً ممّا أوصيت به في مال ولا يخالف فيه أمري من قريب ولا بعيد. وشهد هذا أبو سمر بن أبرهة وصعصعة بن صوحان وسعيد بن قيس وهيّاج بن أبي الهيّاج، وكتب عليّ بن أبي طالب بيده لعشر خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين.

يولجني: يدخلني. والأمنة: الأمن. وحرّرها: جعلها حرّة. وأكثر هذه الوصيّة واضح عن الشرح غير أنّ فيها نكتاً:

الأولى: جواز الوصيّة والوقف على هذا الوجه، وتعليم الناس كيفيّة ذلك.

الثانية: قوله: يأكل منه بالمعروف: أي على وجه الاقتصاد الذي يحلّ له من غير إسراف وتبذير ولا بخل وتقتير وينفق منه في المعروف: أي في وجوه البرّ المتعارفة غير المنكرة في الدين.

الثالثة: قوله: فإن حدث بحسن حدث. كناية عن الموت. والأمر يحتمل أن يريد به أمره بما أمره به وقيامه به تنفيذه وإجراؤه في موارده، ويحتمل أن يريد به جنس الأمور التي أمر بالتصرّف فيها وبها.

الرابعة: الضمير في قوله: بعده. للحسن. وفي أصدره. للأمر الذي يقوم به. وأمّا الضمير الذي في - مصدره - فيحتمل وجهين:

أحدهما: عوده إلى الحسن، وتقديره وأصدر الحسين الأمر كإصدار الحسن له وقضى في المال كقضائه. والمصدر بمعنى الإصدار كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] أي إنباتاً، ويحتمل أن يكون المصدر محلّ الإصدار: أي وأصدره في محلّ إصداره.

الثاني: ويحتمل أن يعود إلى الأمر الذي وصى به عليه السلام ويكون المعنى ووضع كلّ شيء موضعه.

الخامسة: قوله: أن يترك المال على أصوله. كناية عن عدم إخراجه ببيع أو هبة أو بوجه من وجوه التمليكات.

السادسة: قوله: وأن لا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى وديّة حتى يشكل أرضها غراساً. والحكمة في ذلك وجهان:

أحدهما: أنّ الأرض قبل أن تشكل غراساً ربّما يموت فيها ما يحتاج إلى أخلاف فينبغي أن لا يباع من فسيلها شيء حتى تكمل غراساً وثبت بحيث لا يحتاج إلى شيء.

الثاني: أنّ النخلة قبل أن يشكل أرضها تكون بعد غير مستحكمة الجذع ولا مشتدّة فلو قلع فسيلها من تحتها ضعف جداً حتى لا تكاد تنتج فأمّا إذا قويت واشتدّت لم يكن عليها بقلع فسيلها كثير مضرّة وذلك حين يشكل أرضها ويتكامل غراسها وتلتبس على الناظر حسب ما فسّر السيّد رحمه الله.

السابعة: كنّى بالطواف على إمائه عن نكاحهنّ وكنّ يومئذٍ سبع عشرة منهنّ أمهات الأولاد أحياء معهنّ أولادهنّ، ومنهنّ حبالى، ومنهنّ من لا ولد لها. فقضى فيهنّ إن حدث به حادث الموت أنّ من كانت منهنّ ليس لها ولد ولا حبلى فهي عتيق لوجه الله لا سبيل لأحد عليها، ومن كان منهنّ لها ولد وهي حبلى فتمسّك على ولدها وهي من حظّه: أي تلزمه. ويحسب ثمنها من حصّته وتنعتق عليه فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيق لا سبيل لأحد عليها، وقضاؤه عليه السلام بكون أمّ الولد الحي محسوبة من حظّ ولدها وتعتق من مات ولدها من إمائه بعد موته بناءً على مذهبه عليه السلام في بقاء أمّ الولد على الرقّ بعد موت سيّدها المستولد ويصحّ بيعها. وهو مذهب الإماميّة، وقول قديم للشافعي، وفي الجديد أنّها

تنعتق بموت سيّدها المستولد ولا يجوز بيعها، وعليه اتّفاق فقهاء الجمهور حتى لو بيعت وقضى قاضٍ بصحّة بيعها فالمختار من مذهب الشافعي أنّه ينقض قضاؤه. وبالله التوفيق.

٢٥ - ومن وصية له عليه السلام

كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات، وإنما ذكرنا هنا جملاً منها ليعلم بها أنه كان يقيم عماد الحق، ويشرع أمثلة العدل: في صغير الأمور وكبيرها، ودقيقها وجليلها:

انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَلا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لا. فَلا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلا تَدْخُلْهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلا عَنِيفٍ بِهِ. وَلا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلا تُفْزِعَنَّهَا، وَلا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلا تَعَرَضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِي صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلا تَعَرَضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلا تَزَالُ كَذٰلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ. فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ، وَلا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلا هَرِمَةً وَلا مَكْسُورَةً وَلا مَهْلُوسَةً، وَلا ذَاتَ عَوَارٍ، وَلا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلاَّ مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلا تُوَكِّلْ بِهَا إِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلا مُجْحِفٍ، وَلا مُلْغِبٍ وَلا مُتْعِبٍ. ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذٰلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذٰلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللاَّغِبِ. وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ وَلا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدْناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ ذٰلِكَ أَعْظَمُ لأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: روّعه: أفزعه. ولا تخدج بالتحيّة: أي لا تنقصها. وروي يخدج التحيّة: من أخدجت السحابة إذا قلّ قطرها. وأنعم له: أي قال: نعم. والعسف: الأخذ بشدّة وعلى غير وجه. والإرهاق: تكليف العسر. والماشية: الغنم والبقر. والعنيف: الذي لا رفق له. وصدعت المال صدعين: قسّمت بقسمين. والعود: المسنّ من الإبل وهو الذي جاوز في السنّ البازل. والهرمة: العالية السنّ. والمكسورة: التي انكسرت إحدى قوائمها. والمهلوسة: التي بها الهلاس وهو السلّ. والعوار - بالفتح -: العيب، وقد يضمّ. والمجحف: الذي يسوق المال سوقاً عنيفاً يذهب بلحمه. والملغب: المتعب. واللغوب: الإعياء. وأوعزت إليه بكذا: أي أمرته به. وحال بين الشيئين: حجز. والمصر: حلب كلّ ما في الضرع من اللبن، والتمصر: حلب بقايا اللبن فيه. والترفيه: الإراحة. واستأن: أي ارفق. والنقب: البعير الذي رقّت أخفافه. والغدر: جمع غدير الماء. والنطاف: المياه القليلة: والأعشاب: جمع عشب وهو النبات. والبدن:

السمان، الواحد بادن. والمنقيات: التي صارت من سمنها ذات نقى وهو مخّ العظام وشحم العين. والنقو: كلّ عظم ذي مخّ.

وهذه الوصية مشتملة على تعليم عامله على جباية الصدقات قوانين العدل في أخذها من أهلها. ومداره وأمره له على الشفقة عليهم والرفق بهم. واعلم أنّ الرفق بالرعيّة وإن كان من أهمّ المطالب للشارع صلى الله عليه وآله لاستلزامه تألّف قلوبهم واجتماعها عليه وعلى ما جاء به من الحقّ إلاّ أنّه هٰهنا أهمّ والحاجة إليه أشدّ؛ وذلك أنّ الغرض هنا أخذ بعض ما هو أعزّ المطالب عند الناس من أيديهم وهو المال ومشاركتهم فيه فقلوبهم هنا أقرب إلى النفار ممّا يدعون إليه من سائر التكاليف وهم إلى المداراة والرفق أشدّ حاجة فلذلك أكّد عليه السلام وصيّة العامل بالرفق بهم والمساهلة منهم حفظاً لقلوبهم. وفي الوصيّة مواضع:

الأوّل: أمره بالانطلاق معتمداً على تقوى الله غير مشرك في تقواه غيره ولا موجّه نيّته في انطلاقه إلى سواه لأنّ حركته هذه حركة دينيّة من جملة العبادات فيجب توجيهها إليه بالإخلاص.

الثاني: لا يفزع مسلماً كما هو عادة الولاة الظالمين، وأن لا تختارنّ عليه كارهاً: أي لا تختار شيئاً من إبله أو ماشيته وهو كاره لاختياره، وروي ولا تجتازنّ بالجيم: أي ولا تمرّن على أرض إنسان ومواشيه وهو كاره لمرورك عليها وبها. وانتصب كارهاً على الحال من الضمير المجرور.

الثالث: أمره إذا نزل بقبيلة أن ينزل بمائهم لأنّ من عادة العرب أن تكون مياههم بارزة عن بيوتهم، وأن لا تخالط بيوتهم لما في ذلك من المشقّة عليهم والتكلّف له.

الرابع: قوله: ثمّ امض إليهم. إلى قوله: ولا تسوءنّ صاحبها. فيها تأديب له بما ينبغي أن يفعله في حقّهم ممّا يستلزم المصلحة، وتعليم لأسباب الشفقة عليهم من الأفعال كالسكينة والوقار والقيام فيهم من الأقوال كالسلام وأداء الرسالة وأحوال الأقوال كإتمام التحيّة والرفق في القول، ومن التروك كأن لا يخيف المسلم ولا يتوعّده ولا يعسفه ولا يرهقه عسراً ولا يدخل إبله وماشيته من غير إذن ولا يدخلها دخول متسلّط ولا جبّار ولا عنيف وأن لا ينفّر بهيمة ولا يفزعها ولا يسوء صاحبها فيها بضرب ونحوه لما في ذلك كلّه من أذى صاحبه وتنفير قلبه المضادّ لمطلوب الشارع.

الخامس: أنّه علّل نهيه عن دخولها بغير إذن صاحبها بأنّ أكثرها له. والكلام في قوّة صغرى قياس ضمير من الشكل الأوّل يستلزم حسن هذا النهي. وتقدير كبراه: وكلّ من كان أكثر المال له فهو أولى بالتصرّف والحكم والمال فيلزم أن لا يصحّ تصرّف غيره فيه ودخوله إلا بإذنه.

السادس: قوله: واصدع المال. إلى قوله: في ماله. تعليم لكيفيّة استخراج الصدقة التي في الإبل والماشية، وهو أن يفرّق الإبل والماشية عند اختلاط الكلّ فرقتين ثمّ يخيّره فإن اختار قسماً فلا ينازعه فيه وليس له أن يستأنف فيه نظراً آخر، وكذلك يقسّم الصدع الباقي بنصفين ولا يزال يفعل كذلك حتى ينتهي أحد الصدعين إلى مقدار الواجب من حقّ الله تعالى في ذلك المال أو فوقه بقليل فيؤخذ منه مقدار الواجب أو دونه بيسير فيتمّم ويجعل لربّ المال اختيار أحد الصدعين والإقالة إن استقال من أخذ تلك القسمة تسكيناً لقلبه وجبراً من تنقّص ماله.

السابع: نهاه أن يأخذ في مال الله ما كان بأحد الصفات المذكورة كالعود والهرمة والمكسورة والمهلوسة والمعيبة بكباد ونحوه مراعاة لحقّ الله تعالى وجبراً لحال مصارفه وهم الأصناف الثمانية الذين عدّدهم الله تعالى في كتابه الكريم من الفقراء والمساكين وغيرهم. وقال قطب الدين الراوندي رحمه الله الظاهر من كلامه عليه السلام أنّه كان يأمر بإخراج كلّ واحد من هذه الأصناف المعيّنة من المال قبل أن يصدع بصدعين.

الثامن: أنّه نهاه أن يأمن عليها ويوكّل بحفظها وسوقها إلاّ من يثق بدينه وأمانته واثقاً من نفسه بحفظه حتى يسلّمه إلى وليّهم يعني نفسه عليه السلام ويكون ناصحاً: أي لله ولرسوله، شفيقاً: أي على ما يقوم عليه، أميناً حفيظاً عليه غير ضعيف ولا مجحف ولا متعب له.

وذلك من الأمور اللازمة في حفظ الواجب في حقّ الله تعالى.

التاسع: أمره أن يحمل إليه ما يجتمع معه ولا يؤخره لأمرين:

- أحدهما: الحاجة إلى صرفه في مصارفه.
- الثاني: الخوف من تلفه بأحد أسباب التلف قبل الانتفاع به.

العاشر: أنّه عاد إلى الوصيّة بحال البهائم وهو أن يأمر أمينه عند تسليم المال أن لا يحول بين ناقة وفصيلها، ولا يحلب جميع لبنها؛ لأنّ الأمرين يضرّان بالولد، ولا يجهدنّها ركوباً وتخصّصها به دون صواحباتها لأنّ ذلك ممّا يضرّ بها والعدل بينها في ذلك ممّا يقلّ معه ضرر الركوب وهو من الشفقة الطبيعيّة، وكذلك الترفيه على اللاغب والتأني بالناقب والظالع، وكذلك أن يوردها فيما يمرّ به من الماء والكلأ، وأن يروّحها في ساعات الرواح للغاية التي ذكرها وهو أن يأتي بحال السمن والراحة. وإنّما قال: لنقسمها على كتاب الله وسنّة نبيّه وإن كان ذلك أمراً معلوماً من حاله عليه السلام لأنّه بالغ في الوصيّة بحالها فربّما سبق إلى بعض الأوهام الفاسدة أنّ ذلك لغرض يختصّ به يخالف الكتاب والسنّة ثمّ رغبه في ذلك بكونه أعظم لأجره عند الله وأقرب لهداه ورشده لطريق الله وهو ظاهر: أمّا أنّه أعظم لأجره فلكونه أكثر مشقّة وأكثريّة الثواب تابعة لأكثريّة المشقّة، وأما أنّه أقرب لرشده فلسلوكه في ذلك على أثره عليه السلام واقتدائه بهداه الذي لم يكن عارفاً به. وبالله التوفيق.

٢٦ - ومن عهد له عليه السلام

إلى بعض عماله، وقد بعثه على الصدقة:

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لا شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلا وَكِيلَ دُونَهُ. وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ؛ فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ، وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَجْبَهَهُمْ وَلا يَعْضَهَهُمْ، وَلا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

وَإِنَّ لَكَ فِي هذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبُؤْسَى لِمَنْ - خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ - الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ، وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ! وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى. وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ؛ وَالسَّلامُ.

أقول: يقال: جبهته بالمكروه: إذا استقبلته به. وعضهته عضها: رميته بالبهتان والكذب. والفاقة والبؤس والفظع: الشدّة.

وقد أمر عليه السلام بأوامر بعضها يتعلّق بأداء حقّ الله تعالى وبعضها يتعلّق بأحوال الرعيّة والشفقة عليهم لغاية نظام حالهم وتدبير أمورهم. فالذي يتعلّق بحقّ الله تعالى أمران:

أحدهما: أن يتّقيه فيما يسرّ من أموره ويخفى من أعماله وهي التقوى الحقّة المتفع بها.

وقوله: حيث.

إشارة إلى موضع إسرار العمل وإخفاء الأمور. وأتى بقوله: لا شهيد غيره ولا وكيل دونه في معرض الوعد له والتخويف باطّلاعه تعالى على سرائر العباد وخفيّات أعمالهم وتولّيه لها دون غيره. ونبّه بكونه هو الشهيد دون غيره على عظمته مع الردّ لما عسى أن يحكم به الوهم مطلقاً من أنّ السرائر والأمور الخفيّة لا يطّلع عليها غير من هي له.

الثاني: أن يوافق في طاعته لله تعالى بين ما أظهره وما أبطنه، ويخلص أعماله الظاهرة من الرياء والسمعة،

وذلك قوله: وأمره أن لا يعمل. إلى قوله: فيما أسرّ. وما في قوله: فيما. بمعنى الذي ويحتمل أن تكون مصدريّة. وفيما ظهر: أي للناس من طاعة الله.

وقوله: ومن لم يختلف. إلى قوله: العبادة.

ترغيب له فيما أمره به من عدم اختلاف السريرة والعلانية والفعل والقول بكون ذلك مستلزماً لإخلاص عبادة الله ولأداء أمانته التي كلّفها عباده على ألسنة رسله وأئمّة دينه، وظاهر كون ذلك مستلزماً لثواب الله والأمن من سخطه. وأمّا ما يتعلّق بأحوال الرعيّة والشفقة عليهم فمنه ما يتعلّق بحال أرباب الأموال التي يستحقّ عليهم الصدقة، ومنه ما يتعلق بأرباب الصدقة المستحقّين لها: أمّا الأوّل فأن لا يلقاهم بمكروه ولا يرميهم ببهتان وكذب وأن لا ينقبض عنهم ويترفّع عليهم تفضيلاً لنفسه بالإمارة. وانتصب تفضيلاً على المفعول له.

وقوله: وإنّهم الإخوان. إلى قوله: الحقوق.

إشارة إلى احتجاج بقياس ضمير من الشكل الأوّل يستلزم حسن الانتهاء عمّا أمر بالانتهاء عنه ووجوبه، والمذكور في قوّة صغرى، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان أخاً في الدّين وعوناً على استخراج الحقوق فيجب أن لا يفعل في حقّه شيء ممّا أمرت بالانتهاء عنه، وأمّا أنّهم الأعوان على استخراج الحقوق فلأنّ الحقوق المطلوبة منهم إنّما تحصل بواسطتهم، وحصولها منهم إنّما يتمّ بالشفقة عليهم وأن لا يفعل معهم شيء ممّا نهى عنه عليه السلام فإنّ كلّ تلك الأمور ممّا ينفّر طباعهم ويشتّت نظام شملهم ومنه يكون قلّة مال الصدقة المستحقّة عليهم، ويحتمل أن يدخل في هؤلاء الجند أيضاً، وأمّا ما يتعلّق بالمستحقّين للصدقة فأن يوفّيهم حقوقهم منها، وأشار إلى الحجّة على وجوب ذلك عليه بقوله: وإنّ لك. إلى قوله: وإنّا موفّوك حقّك، وهو في قوّة صغرى ضمير من الشكل الأوّل، وتقدير كبراه: وكلّ من كان له نصيب مفروض وحقّ معلوم في شيء وله شركاء فيه بصفة الفقر والمسكنة وهو مستوفٍ لحقّه منه فواجب عليه أن يوفّي شركاءه حقوقهم: أمّا الصغرى فظاهرة. وأمّا الكبرى فأشار إلى بيانها بقياس آخر من الشكل الأوّل مركّب من متّصلين. فأشار إلى الصغرى بقوله: وإلاّ. إلى قوله: إلى يوم القيامة. ونبّه على الكبرى بقوله: ولو شاء إلى قوله: وابن السبيل. وهي في قوّتها إذ الأصناف المذكورون من مستحقّي الصدقة هم الخصوم وهم أكثر الناس وكان الأوسط متّحداً، وصار تقدير القياس وإن لا توفّهم حقّهم فإنّك ممّن خصومه أكثر الناس: أي الفقراء والمساكين وسائر الأصناف يوم القيامة، وكلّ من كان خصومه أكثر الناس وهم الأصناف المذكورة فبؤساً له عند الله يوم القيامة، وينتج متّصلة مركّبة من مقدم الصغرى وتالي الكبرى وهي إن لا توفّهم حقوقهم فبؤساً لك، وهو في معرض التهديد والتنفير له عن ظلمهم والاستبداد عليهم بشيء من الصدقة، وشركاء عطف على قوله: حقّاً معلوماً. وأهل المسكنة صفة له، وبأساً نصب على المصدر.

وأمّا الأصناف المستحقّين للصدقات فهم الثمانية المعدودة في القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] إلى قوله: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فأمّا الفقير فقال ابن عباس وجماعة من المفسرين: إنّه المتعفّف الذي لا يسأل، والمسكين هو الذي يسأل. وعن الأصمعي أنّ الفقير هو الذي له ما يأكل والمسكين هو الذي لا شيء له، وأمّا العاملون عليهم فهم السعاة في جباية الصدقات. ويعطيهم الإمام منها بقدر أجور أمثالهم، وأمّا المؤلّفة قلوبهم فكانوا قوماً من أشراف العرب يتألّفهم رسول الله صلى الله عليه وآله في بدء الإسلام ويعطيهم سهماً من الزكاة ليدفعوا عنه قومهم ويعينوه على العدوّ كالعباس ابن مرداس وعيينة بن الحصن وغيرهما ثمّ استغنى المسلمون عن ذلك عند قوّتهم، وأمّا في الرقاب: أي في فداء الرقاب. فقال ابن عباس: يريد المكاتبين وكانوا يعطون سهماً ليعتقوا به، وأمّا الغارمون فهم الذين لزمتهم الديون في غير معصية ولا إسراف، وأمّا في سبيل الله فهم الغزاة والمرابطون، وأمّا ابن السبيل فهو المنقطع به في السفر ويعطى من الصدقة، وإن كان غنيّاً في بلده. وقد ذكر عليه السلام هٰهنا في معرض إيجاب الشفقة والرحمة له خمسة وهم الفقراء والمساكين ويدخل فيه السائلون ثمّ المدفوعون ويشبه أن يريد بهم العاملين عليها وسمّاهم مدفوعين باعتبار أنّهم

يدفعون لجباية الصدقات و لأنّهم إذا أتوا إلى من لا زكاة عليه فسألوه هل عليه زكاة أم لا دفعهم عن نفسه. ذكرهم هنا بهذا الوصف لكونه وصف ذلّ وانقهار وكونه عليه السلام في معرض الأمر بالشفقة عليهم. قال بعض الشارحين: أراد بهم الفقراء السائلين لكونهم يدفعون عند السؤال. ثمّ الغارم وابن السبيل. وإنّما ذكر هؤلاء الخمسة أو الأربعة لكونهم أضعف حالاً من الباقين.

وقوله: ومن استهان. إلى قوله: وأخزى.

يشبه أن يكون كبرى قياس ضمير احتجّ به في معرض الوعيد والتخويف من الخيانة على لزوم الذلّ والخزي له في الدارين على تقدير أن لا يوفّيهم حقوقهم وتقدير القياس وإن لا توفّهم حقوقهم تكن مستهيناً بالأمانة راتعاً في الخيانة غير منزّه نفسك ودينك عنها، وكلّ من كان كذلك فقد أحلّ بنفسه في الدنيا الذلّ وهو في الآخرة أذلّ وأخزى، وروي أخلّ بنفسه: أي ترك ما ينبغي لها، وروي أحلّ نفسه: أي أباحها. والذلّ على هاتين الروايتين مبتدأ خبره في الدنيا. والخيانة أعمّ من الغشّ. وهي رذيلة التفريط من فضيلة الأمانة. والغشّ رذيلة تقابل فضيلة النصيحة وهما داخلتان تحت رذيلة الفجور.

وقوله: وإنّ أعظم الخيانة. إلى آخره.

تنبيه على عظم الخيانة هٰهنا. إذ كانت خيانة كلّيّة عامّة الضرر لأكثر المسلمين، ومستلزمه لغشّ الإمام الذي هو أفضل الناس وأولاهم بالنصيحة فإذا كان مطلق الخيانة ولو في حقّ أقلّ الخلق وأحقر الأشياء منهيّاً عنها ويستحقّ العقاب والخزي عليها فبالأولى مثل هذه الخيانة العظيمة. وكلّ ذلك في معرض الوعيد والتنفير عن الخيانة والاستهانة بالأمانة. وبالله التوفيق.

٢٧ - ومن عهدٍ له عليه السلام

إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلده مصر:

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ. أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ. لا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ. فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً. فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ. الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ. وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ.

وَاعْلَمْ، يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلا تُسْخِطِ اللهَ

بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلاةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لاشْتِغَالٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاتِكَ.

أقول: قلّده الأمر: جعله في عنقه كالقلادة. واللفظ مستعار. وحظى من كذا: أي صار له منه حظوة وهي المنزلة والحظّ الوافر. والجبّار: البالغ في التكبّر. والطرداء: جمع طريدة وهو ما يطرد من صيد. والخلف: العوض.

وهذا الفصل من العهد ملتقط من كلام طويل ومداره على أمور:

الأوّل: وصيّته محمّداً رضي الله عنه بمكارم الأخلاق في حقّ رعيّته، وذكر أوامره:

أحدها: أمره بخفض الجناح. قيل: وأصله أنّ الطائر يمدّ جناحيه ويخفضهما ليجمع فراخه تحتها إيهاماً للشفقة عليها. فاستعمل كناية عن التواضع الكائن عن الرحمة والشفقة كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقد بيّنا أنّ التواضع ملكة تحت فضيلة العفّة.

الثاني: أمره بالإنة جانبه كناية عن الرفق في الأقوال والأفعال وعدم الغلظة عليهم والجفاوة في حقّهم في كلّ الأحوال. وهو قريب من التواضع، ومن لوازمه.

الثالث: أمره أن يبسط لهم وجهه وهو كناية عن لقائهم بالبشاشة والطلاقة من غير تقطيب وعبوس. وهو من لوازم التواضع أيضاً.

الرابع: أن يواسي بينهم في النظرة واللحظة وهي أخفّ من النظرة، وهو كناية عن الاستقصاء في العدل بينهم في جليل الأمور وحقيرها وقليلها وكثيرها.

وقوله: حتّى لا يطمع. إلى قوله: عليهم.

بيان وجه الحكمة في أمره بالمساواة بينهم في اللحظة والنظرة على حقارتهما. فإن قلت: فلم خصّص العظماء بالطمع في الحيف والضعفاء باليأس من العدل؟ قلت: لأنّ العادة أنّ الولاة والأمراء إنّما يخصّصون بالنظرة والإقبال بالبشاشة الأغنياء والعظماء دون الضعفاء وذلك التخصيص مستلزم لطمعهم أن يحاف لهم، والإعراض عن الضعفاء مستلزم لليأس من العدل في حقّهم. والضمير في قوله: عليهم. يرجع إلى العظماء.

الثاني: الوعيد للعباد بسؤال الله لهم عن صغير أعمالهم وكبيرها وظاهرها ومستورها، والإعلام بأنّهم مظنّة عذابه لبدئهم بمعصيته والبادي أظلم. قال الراوندي رحمه الله المراد بأظلم الظالم. قلت: ويحتمل أن يكون قد سمّي ما يجازيهم به من العدل ظلماً مجازاً لمشابهة الظلم في الكمّيّة والصورة كما سمّي في القصاص اعتداء في قوله: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ثمّ نسب إليه فعلهم فصدق إذن أفعل التفضيل باعتبار كونهم بدأوا بالمعصية وكذلك الإعلام بأنّه تعالى مظنّة الكرم بالعفو عنهم.

الثالث: إعلامهم بما ينبغي لهم من استعمال الدنيا والتنبيه على كيفيّة استعمالها الواجب بوصف حال المتّقين فيها ليقتدوا بحالهم وهي ما أخبر عنه بقوله: ذهبوا بعاجل الدنيا. إلى قوله: ولا ينقص لهم نصيب من لذّة، وخلاصة حالهم المذكورة أنّهم أكثر فائدة من أهل الدنيا. إذ حصلوا من اللذّة في دنياهم على أفضل ما حصل لأهلها من لذّاتهم بها مع زيادة الفوز الأكبر في الآخرة بما وعد فيها المتّقون، واعلم أنّ الذي يشير إليه من عاجل الدنيا في حق المتّقين الذين شاركوا أهلها فيها وحظوا به منها ممّا حظى به المترفون وأخذه الجبابرة المتكبّرون هو ما حصلوا عليه من لذّات الدنيا المباحة لهم بقدر ضرورتهم وحاجتهم كما روي عنه في صفتهم بلفظ آخر: شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم أباحهم في الدنيا ما كفاهم وبه أغناهم قال الله عزّ اسمه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] الآية سكنوا من الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم من طيّبات ما يأكلون وشربوا من طيّبات ما يشربون ولبسوا من أفضل ما يلبسون وتزوّجوا من أفضل ما يتزوّجون وركبوا من

أفضل ما يركبون أصابوا لذّة الدنيا مع أهل الدنيا وهم فيه جيران الله يتمنّون عليه فيعطيهم ما يتمنّون لا يردّ لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيباً من لذّة. فأمّا وجه كونهم أكلوها على أفضل ما أكلت وسكنوها بأفضل ما سكنت فلأنّهم استعملوها على الوجه الذي ينبغي لهم وقد أمروا باستعمالها عليه. وظاهر أنّ ذلك الوجه أفضل الوجوه، وأمّا أنّهم شاركوا أهل الدنيا في طيّباتها فظاهر؛ بل نقول: إنّ لذّتهم بما استعملوا منها أتمّ وأكمل، وذلك أنّ كلّ ما استعملوه منها من مأكول ومشروب ومنكوح ومركوب إنّما كان عند الحاجة والضرورة إليه، وقد علمت أنّ الحاجة إلى الشيء كلّما كانت أشدّ وأقوى كانت اللذّة به عند حصوله أتمّ وأعلى وذلك من الأمور الوجدانيّة. فثبت إذن أنّهم حظوا منها بما حظى به المترفون وأخذوا منها أخذة الجبابرة المتكبّرين مع ما فضّلوا به من الحصول على آجل الآخرة الذي لم يشاركهم أهل الدنيا فيه كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وأمّا الزاد المبلّغ لهم إلى ساحل العزّة وحضرة الجلال فهو التقوى الذي اتّصفوا به كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقد علمت معنى كونه زاداً غير مرّة. واستعار للتقوى والطاعة لفظ المتجر باعتبار كون الغاية المقصودة منها استعاضة ثواب الله المشبه للثمن، ورشّح بذكر المربح: أي المكسب للربح، وذلك باعتبار زيادة فضل ثواب الله في الآخرة على ما بذله العبد من نفسه من العمل.

وقوله: أصابوا لذّة زهد الدنيا.

إشارة إلى بعض ما يزود به من اللذّات في الدنيا وهو لذّة الزهد. إذ كان لهم بطرح الدنيا عن أعناق نفوسهم ووصولهم بسببه إلى ما وصلوا إليه من الكمالات العالية ابتهاجات عظيمة أجلّ وأعلى مما يعده المترفون والمتكبّرون لذّة وخيراً. وهم الذين يحقّ لهم أن يتكبّروا على المتكبّرين. إذ كان الكمال الذي به تكبّر المتكبّرون أمراً خالياً ضعيفاً بالقياس إلى الكمال الحقّ الذي حصل عليه هؤلاء.

وقوله: وتيقّنوا أنّهم جيران الله غداً.

أي يوم القيامة، وهو إشارة إلى جهة فرحهم بجوار الله والتذاذهم به المضاف إلى ما أصابوه من لذّة زهد الدنيا وتلك الجهة هي ما حصلوا عليه من اليقين بالله والوصول التامّ إليه بعد مفارقة الأبدان، وذلك معنى جواره.

وقوله: لا تردّ لهم دعوة.

إشارة إلى بعض فضائلهم التي انفردوا بها أيضاً المتفرّعة على كمال نفوسهم وكرامتهم عند الله اللازمة عن لزوم طاعته وهو كونهم مجابي الدعوة مع ما شاركوا غيرهم فيه من تمام اللذّة في الدنيا وانفردوا به من تمامها في الآخرة.

الرابع: تحذيرهم من الموت وقربه وتنبيههم على غايته من ذلك التحذير وهو أن يعدّوا له عدّته التي يلقى بها ولا يكون كثير ضرر وقد علمت أنّه التقوى والعمل الصالح، وأكّد الأمر بإعداد عدّته بالتنبيه على عظم ما يأتي به من الأمر والخطب الجليل، وأشار إلى أنّ ذلك الأمر قد يكون خيراً خالصاً دائماً وقد يكون شرّاً خالصاً دائماً لتشتدّ الرغبة وتقوى في إكمال العدّة المستلزمة لتحصيل ذلك الخير ولدفع ذلك الشرّ. ثمّ نبّه على أنّ ذلك الخير الذي يأتي به الموت هو الجنّة وذلك الشرّ هو النار وأنّ المقرّب إلى كلّ منهما والمستلزم للحصول عليه هو العمل له بقوله: فمن أقرب. إلى قوله: عاملها. ثمّ نبّه بقوله: وأنتم. إلى قوله: خلقكم. على أنّ هذا الأمر المستعقب لإحدى هاتين الغايتين العظيمتين وهو الموت لا بدّ من لقائه ليتأكّد الأمر عليهم بالاستعداد له. واستعار لهم لفظ الطرداء ملاحظة لشبههم بما يطرد من صيد ونحوه ولشبهه بالفارس المجدّ في الطلب الذي لا بدّ من إدراكه الطريدة، وظاهر أنّه ألزم لكلّ امرء من ظلّه. إذ كان ظلّ المرء قد ينفك عنه حيث لا ضوء والموت أمر لازم لا بدّ منه.

وقوله: والموت معقود بنواصيكم.

كناية عن لزومه وكونه لا بدّ منه من اقتضاء: أي مشدود ومربوط بنواصيكم وذلك الربط إشارة إلى حكم القضاء الإلهي به وكونه ضروريّاً للحيوان، وإنّما خصّ الناصية لأنّها أعزّ ما في الإنسان وأشرف، واللازم لها

أملك له وأقدر على ضبطه. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمٰن: ٤١] واستعار لفظ الطيّ لتقضّي أحوال الدنيا وأيّامها التي يقطعها الإنسان وقتاً فوقتاً ملاحظة لشبه أحوالها بما يطوى من بساط ونحوه، وظاهر أنّ ذلك الطيّ من خلفهم خلفاً خياليّاً بالنسبة إلى ما يستقبلونه من أحوالها بوجوه هممهم. ثمّ لمّا كرّر ذكر الموت وأكّد لزومه بطيّ الدنيا رجع إلى التحذير من غايته وهي النار ووصفها بأوصافها ليشتدّ الحذر منها وهي بعد قعرها. وممّا ينبّه عليه ما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله سمع هدّة فقال لأصحابه: هذا حجر أُلقي من شفير جهنّم فهو يهوي فيها منذ سبعين خريفاً والآن حين وصل إلى قعرها. وكان ذلك إشارة إلى منافق مات في ذلك الوقت وعمره سبعون سنة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وشدّة حرّها كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١] وحدّة عذابها كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وكونها ليست بدار رحمة ولا يسمع لها دعوة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧] الآية. إلى قوله: «يكلّمون» وكونها لا تفرّج فيها كربة كقوله تعالى: ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥] وقوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] إلى قوله: ﴿مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

الخامس: قوله: وإن استطعتم. إلى قوله: بينهما. أمر لهم بالجمع من شدّة الخوف من الله وحسن ظنّ به وهما بابان عظيمان من أبواب الجنّة كما علمته فيما سلف. ثمّ أشار إلى أنّهما متلازمان بقوله: فإنّ العبد. إلى قوله: خوفاً لله: أي أنّ مقدار حسن ظن العبد بربّه مطابق وملازم لمقدار خوفه منه إنّ زيادته مع زيادته ونقصانه مع نقصانه.

واعلم أنّه عليه السلام لم يجعل أحدهما علّة للآخر بل هما معلولا علّة واحدة مساوياً بها وهي معرفة الله. ثمّ لمّا كانت معرفة الله تعالى مقولة بحسب الشدّة والضعف كان حسن الظنّ به ورجاؤه وشدّة الخوف منه أيضاً ممّا يشتدّ ويضعف بحسب قوّة المعرفة وضعفها إلاّ أنّ كلّ واحد منها يستند إلى ضعف من المعرفة واعتبار خاصّ يكون هو مبدأ القريب، أمّا في حسن الظنّ والرجاء فأن يلحظ العبد من ربّه ويعتبر جميع أسباب نعمه على خلقه حتّى إذا علم لطائفها في حقّهم ممّا هو ضروري لهم كآلات الغذاء، وما لهم إليه حاجة كالأظفار، وما هو زينة كتقويس الحاجبين واختلاف ألوان العينين، وبالجملة ما ليس بضروري علم أنّ العناية الإلهيّة إذا لم يقصر في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم الموائد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك الأبديّ، بل إذا أراد اعتباراً في هذا الباب علم أنّه تعالى هيّأ لأكثر الخلق أسباب السعادة في الدنيا حتى كان الغالب على أكثرهم الخير والسلامة سنّة الله التي قد خلت في عباده وعلم أنّ الغالب في أمر الآخرة ذلك أيضاً لأنّ مدبّر الدنيا والآخرة واحد وهو اللطيف بعباده وهو الغفور الرحيم، وحينئذٍ تكون الملاحظات والاعتبارات مستلزمة لحسن الظنّ وباعثة على الرجاء. ومن هذه الاعتبارات النظر في حكمة الشريعة وسببها ومصالح الدنيا، ووجه الرحمة على العباد بها، وبالجملة أن يعتبر صفات الرحمة واللطف. وأمّا في الخوف فأقوى أسبابه أن يعرف الله تعالى وصفات جلاله وعظمته وتعاليه وسطوته واستغنائه، وأنّه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وكذلك سائر اعتبارات الصفات التي تقتضي العنف وإيقاع المكاره كالسخط والغضب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال صلى الله عليه وآله: أنا أخوفكم لله. وبحسب اشتداد المعرفة بتلك الاعتبارات يكون حال الخوف واحتراق القلب ثمّ يفيض أثر ذلك على البدن فيحصل التحوّل والصغار والغشية والرعشة والرعدة على الجوارح فيكفّها عن المعاصي ويقيّدها بالطاعات استدراكاً لما فرّط منه في الصفات فيفيد قمع الشهوات وتكدير اللذّات، ولاحتراق القلب بالخوف يحصل له ذبول وذلّة يفارقه معها كثير من الرذائل كالكبر والحسد والحقد والبخل وغيرها. ثمّ إنّ الجمع بينهما يستلزم كثيراً من الفضائل، وذلك أنّ معرفة الله تعالى واليقين به إذ حصل هيّج الخوف من عقابه والرجاء لثوابه بالضرورة، وهما يفيدان الصبر إذ حفّت الجنّة بالمكاره

فلا صبر على تحمّلها إلاّ بقوّة الرضا، وحفّت النار بالشهوات فلا صبر على قمعها إلاّ بقوّة الخوف. ولذلك قال عليّ عليه السلام: من اشتاق إلى الجنّة سلى عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرّمات. ثمّ يؤدّي مقام الصبر إلى مقام المجاهدة والتجرّد لذكر الله ودوام الفكر فيه وهي مؤدّية إلى كمال المعرفة المؤدّي إلى الأنس المؤدّي إلى المحبّة المستلزمة لمقام الرضا والتوكل. إذ من ضرورة المحبّة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته. ولمّا ثبت أنّهما معلولا علّة واحدة ثبت أنّهما متلازمان وليسا بمتضادّين وإن ظنّ ذلك في ظاهر الأمر بل ربّما غلب أحدهما على الآخر بحسب غلبة أسبابه فيشتغل القلب به ويغفل عن الآخر فيظنّ أنّه يعانده وينافيه، ولذلك أتى عليه السلام هنا بإن المقتضية للشكّ في استطاعتهم للجمع بينهما ثمّ نبّهه على إحسانه إليه بتوليته أعظم أجناده ليتبنى عن التذكير بتلك النعمة ما يريد أن يوصيه به.

السادس: نبّهه على ما ينبغي له وهو أولى به وذلك أن يخالف على نفسه الأمّارة فيما تأمر به من السوء والفحشاء وسائر مناهي الله إلى ما يحكم به العقل والشرع من طاعته وأن ينافح عن دينه ويجاهد شياطين الإنس والجنّ عنه ولو لم يكن له من الدهر إلاّ ساعة فينبغي أن لا يشغلها إلاّ بالمجاهدة عن دينه وأن لا يسخط الله برضا أحد من خلقه: أي لمتابعة أحد من خلق الله فيما يسخط الله.

وقوله: فإنّ في الله. إلى قوله: في غيره.

احتجاج على وجوب مراعاة رضاه تعالى دون غيره بقياس ضمير من الأوّل المذكور في قوّة صغرى. وتقدير الكبرى: وكلّما كان في الله خلف عن غيره وليس في غيره خلف منه فالواجب اتّباع رضاه وأن لا يسخط برضا غيره. ثم أمره أن يصلّي الصلاة لوقتها المؤقّت لها: أي المعيّن. واللام للتخصيص والتعليل وأن لا يقدّمها على وقتها لفراغه في ذلك الوقت ولا يؤخّرها عن وقتها لشغله عنها بغيرها فإنّها أهمّ من كلّ شغل وأولى. ثمّ أعلمه أنّ كلّ شيء من الأعمال الصالحة تبع للصلاة.

والمراد أنّ الإنسان إذا حافظ على صلاته وأتى بوظائفها في أوقاتها يوشك أن يكون على غيرها أولى بالمحافظة وإذا تساهل فيها فهو في غيرها أكثر تساهلاً، وذلك أنّها عمود الدين وأفضل العبادات كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد سئل عن أفضل الأعمال فقال: الصلاة لأوّل وقتها، وقال صلى الله عليه وآله: أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة فمن تمّت صلاته سهل عليه غيرها من العبادات ومن نقصت صلاته فإنّه يحاسب عليها وعلى غيرها.

واعلم أنّه ذكر أمر الصلاة في هذا العهد بكلام طويل هذه السيّد رحمه الله وفيه بيان حال الصلاة ولواحقها وأوّله أنّه قال: وانظر إلى صلاتك كيف هي فإنّك إمام لقومك إن تتمّها أو تخفّفها. فليس من إمام يصلّي بقوم يكون في صلاتهم نقصان إلاّ كان عليه ولا ينقص من صلاتهم شيء وإن تتمّها بحفظ فيها يكن لك مثل أجورهم ولا ينقص به ذلك من أجورهم شيئاً. وانظر إلى الوضوء فإنّه من تمام الصلاة تمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً، واغسل وجهك، ثمّ يدك اليمنى، ثمّ اليسرى، ثمّ امسح رأسك ورجليك فإنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يصنع ذلك. واعلم أنّ الوضوء نصف الإيمان. ثمّ ارتقب وقت الصلاة فصلّها لوقتها ولا تعجّل بها قبله لفراغ ولا تؤخّرها عنه لشغل فإنّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أوقات الصلاة فقال صلى الله عليه وآله: أتاني جبرئيل فأراني وقت صلاة الظهر حين زالت الشمس وكانت على حاجبه الإيمن، ثمّ أراني وقت العصر وكان ظلّ كلّ شيء مثله، ثمّ صلّى المغرب حين غربت الشمس، ثمّ صلّى العشاء الأخيرة حين غابت الشمس، ثمّ صلّى الصبح فأغلس بها والنجوم مشتبكة. فصلّ بهذه الأوقات والزم السنّة المعروفة والطريق الواضح. ثمّ انظر ركوعك وسجودك فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أتمّ الناس صلاتهم وأخفّهم عملاً فيها، واعلم أنّ كلّ شيء من عملك تبع لصلاتك فمن ضيّع الصلاة فإنّه لغيرها أضيع. أسأل الله الذي يرى ولا يرى وهو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا وإيّاك ممّن يحبّ أن يرضى حتّى يعيننا وإيّاك على شكره وذكره وحسن عبادته وأداء حقّه وعلى كلّ شيء اختار لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا.

ومن هذا العهد أيضاً

فَإِنَّهُ لا سَوَاءَ: إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ. وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنِّي لا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلا مُشْرِكاً؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ. وَلٰكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

أقول: هذا الفصل متّصل بقوله: وآخرتنا من فصل الصلاة، وأوّله: وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم وسرّكم علانيتكم. ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم إنّه لا يستوي. إلى قوله: تنكرون. ثمّ يتّصل به، يا محمد ابن أبي بكر اعلم أنّ أفضل العفة الورع في دين الله والعمل بطاعته وإنّي أوصيك بتقوى الله في سرّ أمرك وعلانيتك وعلى أي حال كنت عليه: الدنيا دار بلاء ودار فناء، والآخرة دار الجزاء ودار البقاء. فاعلم لما يبقى واعدل عمّا يفنى، ولا تنس نصيبك من الدنيا: إنّي أوصيك بسبع هي جوامع الإسلام: اخش الله عزّ وجلّ في الناس ولا تخش الناس في الله، وخير العلم ما صدّقه العمل، ولا تقض في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيختلف أمرك وتزوغ عن الحقّ وأحبّ لعامّة رعيّتك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك فإنّ ذلك أوجب للحجّة وأصلح للرعيّة، وخض الغمرات إلى الحقّ ولا تخف في الله لومة لائم وانصح المرء إذا استشارك واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم جعل الله مودّتنا في الدين وخلّتنا إيّاكم وخلّة المتّقين وأبقى لكم حتى يجعلنا بها إخواناً على سرر متقابلين. أحسنوا أهل مصر مؤازرة أميركم واثبتوا على طاعتكم تردوا حوض نبيّكم صلى الله عليه وآله أعاننا الله وإيّاكم على ما يرضيه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والقمع: القهر والإذلال.

واعلم أنّه لما أمرهم بترك النفاق وموافقة الفعل الجميل للقول الجميل استدرجهم إلى ذلك وجذبهم إليه بالفرق بينه وبين غيره من الأئمة فأشار بإمام الهدى ووليّ النبيّ إلى نفسه. وبإمام الردى وبعدوّ النبيّ إلى معاوية، وأسند الخبر المشهور إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، وأراد بمنافق الجنان عالم اللسان معاوية وأصحابه كلّ ذلك ليفيئوا إلى طاعته عليه السلام وينفروا عن خصمه. وأمّا سرّ الخبر فظاهر أنّ المؤمن لإيمانه لا يخاف منه على المسلمين، وأمّا المشرك فإنّ الله يقمعه ويذلّه بشركه ما دام مشركاً متظاهراً بالشرك لظهور الإسلام وغلبة المسلمين واتّفاقهم على مجانبته ومعاداته وعدم الاصغاء إلى ما يقول، وإنّما يخاف عليهم المنافق الذي من شأنه إسرار الكفر وإظهار الإسلام وتعلّم أحكامه ومخالطة أهله فهو يقول بلسان ما يقولون ويفعل ما ينكرون، ووجه المخافة منه أنّ مخالطته لأهل الإسلام مع إظهاره له يكون سبباً لاصغائهم إليه ومجالستهم له والاغترار بما يدّعيه من إصداقه. وصدق علمه اللسانيّ وقدرته على الشبه المضلّة وتنميتها بالأقوال المزوّقة يكون سبباً لانفعال كثير من عوامّ المسلمين وفتنتهم عن الدين.

وقوله: إنّ أفضل العفّة الورع.

فالورع هو لزوم الأعمال الجميلة وهو ملكة تحت فضيلة العفّة، وظاهر أنّها جماع الفضائل التي تحت العفّة فيكون أفضل من كلّ منها.

وقوله: واخش الله في الناس.

أي خف منه فيما تفعله بهم من شرّ تعصيه به.

وقوله: ولا تخش الناس في الله.

أي لا تخف أحداً منهم ولا تراقبه فيما يفعله من طاعة الله فتعدل عن طاعته لخوفك منهم. وبالله التوفيق.

٢٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية جواباً، وهو من محاسن الكتب:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاءِ اللهِ عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ

عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذٰلِكَ كَنَاقِلِ التَّمرِ إِلَى هَجَرَ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ. وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الإِسْلامِ فُلانٌ وَفُلانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ تَلْحَقْكَ ثُلْمَتُهُ. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا! أَلا تَرْبَعُ أَيُّهَا الإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلا لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ! وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ. أَلا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلٰكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ - أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلاتِهِ عَلَيْهِ! أَوَ لا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَلِكُلٍّ فَضْلٌ - حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ!» وَلَوْلا مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا. لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ! وَأَنَّى يَكُونُ ذٰلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ! فَإِسْلامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لا تُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ!

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ! وَهٰذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلٰكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ. كَلاَّ وَاللهِ لَـ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وَمَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ.

وَقَـدْ يَـسْـتَـفِـيـدُ الـظِّـنَّـةَ الْـمُـتَـنَـصِّـحُ

وَمَا أَرَدْتُ ﴿إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلأَصْحَابِي [عِنْدَكَ] إِلاَّ السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَبِالسُّيُوفِ مُخَوَّفِينَ؟!

لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

أقول: هذا الكتاب ملتقط من كتاب ذكر السيّد منه فصلاً سابقاً، وهو قوله: فأراد قومنا إهلاك نبيّنا. وقد ذكرنا كتاب معاوية الذي هو هذا الكتاب جواباً له، وذكرنا الكتاب له بأسره هناك وإن كان فيه اختلاف ألفاظ يسيرة بين الروايات.

وخبأت الشيء: سترته. وطفق: أخذ وجعل. وهجر: مدينة من بلاد البحرين. والنضال: المراماة. والمسدّد: الذي يقوّم غيره لأمر ويهديه إليه. واعتزلك: تباعد عنك. والثلم: الكسر. والطليق: من أطلق بعد الأسر. والربع: الوقوف. والظلع: العرج. والذرع: بسط اليد. والتيه: الضلال والتحيّر في المفاوز. والروّاغ: كثير الميل عن القصد. والجمّة: الكثيرة. ومجّ الماء من فيه: ألقاه. والرميّة: الصيد يرمى. والصنيعة: الحسنة. والفلج: الفوز. والشكاة والشكيّة والشكاية: ظاهرة. والظاهر: الزائل. والمخشوش: الذي جعل في أنفه خشاش وهو خشبة تدخل في أنف البعير ليقاد بها. والغضاضة: الذلّة والمنقصة. وسنح: اعترض. وأعدى: أشدّ عدواناً. والمعوّقين: المثبّطين. والظنّة: التهمة. والمنصّح: المبالغ في النصيحة. والاستعبار: البكاء. وألفيت كذا: وجدته. والنكول: التأخر جبناً. والإرقال: ضرب من السير السريع. والجحفل: الجيش العظيم. والساطع: المرتفع. والقتام: الغبار. والسرابيل: القمصان. والنصال: السيوف.

وقد أجاب عليه السلام عن كلّ فصل من كتاب معاوية بفصل. والكتاب أفصح ما اختار السيّد رحمه الله من الكتب وفيه نكت:

الأولى: أنّه استعار لفظ الخبأ لما ستره الدهر في وجود معاوية من العجب ثمّ فسّر العجب فقال: إذ طفقت. إلى قوله: النضال. ووجه العجب هنا أنّه أخبر أهل بيت النبيّ بحال النبيّ وما أنعم الله به عليه من اصطفائه له لدينه وتأييده بأصحابه مع علمهم البالغ بحاله وكونهم أولى بالإخبار عنها. وضرب له في ذلك مثلين:

أحدهما: قوله: كناقل التمر إلى هجر. وأصل هذا المثل أنّ رجلاً قدم من هجر إلى البصرة بمال اشترى به شيئاً للربح فلم يجد فيه أكسد من التمر فاشترى بماله تمراً وحمله إلى هجر وادّخره في البيوت ينتظر به السعر فلم يزدد إلاّ رخصاً حتى فسد جميعه وتلف ماله فضرب مثلاً لمن يحمل الشيء إلى معدنه لينتفع به فيه ووجه مطابقة المثل هنا أنّ معاوية حمل الخبر بما أخبر به إلى معدنه الذي هو أولى به منه كحامل التمر إلى معدنه. وهجر معروفة بكثرة التمر حتى أنّه ربما يبلغ خمسين جلّة بدينار - ووزن الجلّة مائة رطل، فذلك خمسة آلاف رطل - ولم يسمع مثل ذلك في بلاد أخرى. وهجر اسم قد يذكّر لقصد الموضع ولذلك صرفها شاعرهم حيث يقول:

وخـطّـهـا إرقـالاً وقـال قـلـى:
أولّ لا نـادمـاً أهـجـر قـرى هـجـر

الثانية: أنّه شبّه بداعي مسدّده إلى النضال، ووجه التشبيه هنا أيضاً حمل الخبر إلى من هو أولى به منه كما يدعو الإنسان مسدّده وأستاذه في الرمي إلى المراماة؛ ومسدّده أولى بأن يدعوه إلى ذلك.

الثالثة: أنّ معاوية لمّا اقتصّ حال أصحابه وذكر الأفضل فالأفضل منهم معرّضاً بأفضليّتهم عليه مع عدم مشاركتهم له في الفضل أجابه بأنّ ذلك التفضيل والترتيب إمّا أن يتمّ أو لا. فإن تمّ فهو بمعزل عنك. إذ ليس لك نصيب ولا شرك في درجاتهم ومراتبهم وسابقتهم في الإسلام فيكون إذن خوضك فيه خوضاً فيما لا يعنيك، وإن نقص فليس عليك من نقصانه عار ولا يلحقك منه وهن. فخوضك فيه أيضاً فضول.

وقوله: وما أنت. إلى وما للطلقاء.

استفهام على سبيل الاستحقار والإنكار عليه أن يخوض على صغر شأنه وحقارته في هذه الأمور الكبار. والمنقول أنّ أبا سفيان كان من الطلقاء فكذلك معاوية فهو طليق وابن طليق.

وقوله: هيهات.

استبعاد لأهليّته لمثل هذا الحكم ترتيب طبقات المهاجرين في الفضل. ثمّ ضرب له في حكميه ذلك مثلين آخرين.

أحدهما: قوله: لقد حنّ قدح ليس منها، وأصله أنّ أحد قداح الميسر. - إذ كان ليس من جوهر باقي القداح ثمّ أجاله المفيض - خرج له صوت تخالف أصواتهم فيعرف به أنّه ليس من جملتها. فضرب مثلاً لمن يمدح قوماً ويطربهم ويفتخر بهم مع أنّه ليس منهم، وتمثّل به عمر حين قال الوليد ابن عقبة ابن أبي معيط: أقبل من دون قريش. فقال عمر: حنّ قدح ليس منها.

الثاني: قوله: وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. يضرب لمن يحكم على قوم وفيهم وهو من أراذلهم، وليس للحكم بأهل بل هم أولى منه. إذ شأن الأشراف أن يكونوا حكّاماً. ومراده أنّ معاوية ليس من القوم الذين حكم بتفضيل بعضهم على بعض في شيء، وليس أهلاً للحكم فيهم.

الثالثة: قوله: ألا تربع أيّها الإنسان على ظلعك. استفهام على سبيل التنبيه له على قصوره عن درجة السابقين والتقريع له على ادّعائه لها: أي أنّه فليترفّق بنفسك ولا يكلّفها عليه وليقف بها عن مجاراة أهل الفضل حال ظلعك واستعار لفظ الظلع لقصوره ووجه المشابهة قصوره عن لحوق رتبة السابقين في الفضل كقصور الظالع عن شأو الضليع، وكذلك قوله: وتعرف قصور ذرعك، وقصور ذرعه كناية عن قصور قوّته وعجزه عن تناول تلك المرتبة. وحيث أخّره القدر إشارة إلى مرتبته النازلة التي جرى القدر بها أن تكون نازلة عن مراتب السابقين. وقد أمره بالتأخّر فيها والوقوف عندها تقريعاً وتوبيخاً بها.

وقوله: فما عليك. إلى قوله: الظافر.

في قوّة احتجاج على وجوب تأخّره بحسب هذه المرتبة بقياس ضمير من الشكل الأوّل، والمذكور في قوّة صغراه وتقديرها: فغلب المغلوب في هذا الأمر الكبير ليس عليك منه شيء، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فيجب تأخّره عنه واعتزاله إيّاه وإلاّ لكان سفيهاً بدخوله فيما لا يعنيه.

الرابعة: قوله: وإنّك لذهّاب في التيه: أي كثير الذهاب والتوغّل في الضلال عن معرفة الحقّ، كثير العدول عن العدل والصراط المستقيم في حقّنا وعن الفرق بيننا وبينكم ومعرفة فضائلنا ورذائلهم. ثمّ نبّهه على وجه الفرق بينهم وبين من عداهم من المهاجرين والأنصار بذكر أفضليّة بيته التي انفردوا بها دونهم في الحياة وبعد الممات بعد أن قرّر أنّ لكلّ من الصحابة فضلاً لتثبت الأفضلية لبيته بالقياس إليهم، وذلك قوله: ألا ترى. إلى قوله: الجناحين. فمن ذلك أفضليّتهم في الشهادة. وشهيدهم الذي أشار إليه عمّه حمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه وأشار إلى وجه أفضليّته بالنسبة إلى سائر الشهداء من وجهين:

أحدهما: قوليّ وهو تسمية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له سيّد الشهداء.

والثاني: فعليّ وهو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصّه بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه في أربع عشرة صلاة، وذلك أنّه كان كلّما كبّر عليه خمساً حضرت جماعة أخرى من الملائكة فصلّى بهم عليه أيضاً، وذلك من خصائص حمزة رضي الله عنه وشرف بني هاشم في حياتهم وموتهم، ومنه أفضليّتهم لما فعل ببعضهم من التمثيل به كما فعل بأخيه جعفر بن أبي طالب من قطع يديه فسمّاه

رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك الاعتبار ذا الجناحين والطيّار في الجنّة. ومن المنقول عن عليّ عليه السلام من الشعر فيه والفخر إلى معاوية:

وجعفر الذي يضحي ويمسي
يطير مع الملائكة ابنُ أمّي

وقد ذكرنا مقتلهما وقاتليهما من قبل. ثمّ أشار إلى أنّ له فضائل جمّة تعرفها فيه قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذانهم، وإنّما ترك تعديده وذكرها في معرض الفخر بها لنهي الله سبحانه عن تزكيته لنفسه، والذاكر يعني نفسه. وإنّما نكّره ولم يأت بالألف واللام ولم ينسبه إلى نفسه لأنّ في ذلك صريح الدلالة على تزكيته لنفسه. واستعار لفظ المجّ لكراهيّة النفس لبعض ما تكرّر سماعه وإعراضها عنه فإنّها تصير كالقاذف له من الأذن كما يقذف الماجّ الماء.

وقوله: فدع عنك من مالت به الرميّة.

أي فدع عنك أصحاب الأغراض والمقاصد المفسدة ولا تلتفت إلى ما يقولون في حقّنا كعمرو بن العاص، ويحتمل أن تكون الإشارة إليه بعينه على طريقة قولهم: إيّاك أعني فاسمعي يا جارة. واستعار لفظ الرميّة، وكنّى بها عن الأمور التي تقصدها النفوس وترميها بقصودها، ونسب الميل إليها لأنّها هي الجاذبة للإنسان والمائلة الحاملة على الفعل.

الخامسة: قوله: فإنّا صنائع ربّنا. إلى قوله: لنا.

وهذا تنبيه من وجه آخر على أفضليّتهم من جهة اختصاص الله سبحانه إيّاهم بالنعمة الجزيلة، وهي نعمة الرسالة وما يستلزمه من الشرف والفضل حتى كان الناس عيالاً لهم فيها، إذ كانت تلك النعمة ولوازمها إنّما وصلت إلى الناس بواسطتهم ومنهم. وأكرم بها فضيلة وشرفاً على سائر الخلق. وهذا التشبيه في قوّة صغرى من الشكل الأوّل في معرض الافتخار والاحتجاج على أنّه لا ينبغي لأحد أن يعارضهم في شرف أو يفاخرهم وينافسهم في فضيلة، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان بصفة أنّه صنيعة ربّه بلا واسطة والناس بعده صنائع له بواسطة فلا ينبغي لأحد من الناس أن يعارضه في فضل أو يجاريه في شرف ويجوّز بلفظ الصنائع في الموضعين إطلاقاً لاسم المقبول على القابل والحالّ على المحلّ. ثمّ كثر ذلك المجاز، يقال: فلان صنيعة فلان إذا اختصّه لموضع نعمته كقوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

وقوله: لم يمنعنا، إلى قوله: هناك.

امتنان في معرض الافتخار أيضاً. وعاديّ منسوب إلى عاد قوم هود، والنسبة إليه كناية عن القدم، ووجه الامتنان هو أنّهم لم يمتنعوا على فضلهم عليهم من خلطهم إيّاهم بأنفسهم في مناكحتهم. وفعل الأكفاء منصوب على المصدر عن فعل مضمر.

وقوله: هناك.

كناية عن مرتبة الكفاءة في النكاح: أي ولستم أهلاً لتلك المرتبة، والواو في ولستم للحال والعامل خلطناكم. ثمّ أشار إلى بيان ما ادّعاه من نفي كونهم أهلاً لمخالطتهم بالمقابلة بين حال بني هاشم وحال بني أميّة ليظهر من تلك المقابلة رذيلة كلّ واحد ممّن ذكر من بني أميّة بإزاء فضيلة كلّ واحد ممّن ذكر من بني هاشم وبظهور فضائل الأفراد ورذائلهم يتبيّن نسبة البيتين في الشرف والخسّة. فذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وقابله بالمكذّب له من بني أميّة وهو أبو جهل بن هشام. وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١] الآية. قيل: نزلت في المطلبين ببدر - وكانوا عشرة - وهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحرث، والحرث بن عامر، وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود. فذكر النبيّ صلى الله عليه وآله بفضيلته وهي النبوة وذكر أبا جهل برذيلته وهي تكذيبه. ثمّ أسد الله وهو حمزة بن عبد المطلب وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك لشجاعته وذبّه عن دين الله. وقابله بأسد الأحلاف وهو أسد بن عبد العزى والأحلاف هم عبد مناف وزهرة وأسد وتيم والحرث بن فهر، وسمّوا الأحلاف لأنّ بني قصي أرادوا أن ينتزعوا بعض ما كان بأيدي بني عبد الدار من اللواء والنداوة والحجابة والرفادة وهي كلّ شيء كان فرضه قصي على قريش لطعام الحاجّ في كلّ سنة ولم يكن لهم إلاّ السقاية فتحالفوا على حربهم وأعدّوا للقتال ثمّ

رجعوا عن ذلك ناكصين وأقرّوا ما كان بأيديهم. ثمّ سيّدا - شباب أهل الجنّة وهما الحسن والحسين عليهما السلام وقابلهما بصبية النار. وقيل: هم صبية عقبة ابن أبي معيط حيث قال صلى الله عليه وآله له: لك ولهم النار. وقيل: هم ولد مروان ابن الحكم الذين صاروا أهل النار عند البلوغ وكانوا صبية حين أخبر عليه السلام بذلك. ثمّ خير نساء العالمين وأراد فاطمة عليها السلام وقابلها منهم بحمّالة الحطب وهي أمّ جميل بنت حرب عمّة معاوية كانت تحمل حزم الشوك فتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله ليعقره. وعن قتادة أنّها كانت تمشي بالنميمة بين الناس فتلقي بينهم العداوة وتهيج نارها كما توقد النار بالحطب فاستعير لفظ الحطب لتلك النميمة للمشابهة المذكورة، ومنه قولهم: فلان يحطب على فلان. إذا كان يغري به.

وقوله: في كثير. إلى قوله: وعليكم.

أي وهذا الذي ذكرناه من فضائلنا ورذائلكم قليل في كثير ممّا لنا من الفضائل وعليكم من الرذائل. قال: عليكم من الرذائل. لأنّ الأمور بثمراتها وما تستلزمه وثمرة الرذائل على الشخص مضرّتها وتبعاتها.

وقوله: فإسلامنا. إلى قوله: لا تدفع.

إشارة إلى أنّ شرف بيته على غيره لا يختصّ به في الإسلام فقط فإنّ شرف بني هاشم في الجاهليّة أيضاً مشهور ومكارم أخلاقهم لا يدفعها دافع، وقد نبّهنا على ذلك في المقدّمات، وكما نقل عن جعفر بن أبي طالب لمّا أسلم قال له النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّ الله شكر لك ثلاث خصال في الجاهليّة فما هي؟ قال: يا رسول الله ما زنيت قطّ لأنّي قلت في نفسي: إنّ ما لا يرضاه العاقل لنفسه لا ينبغي أن يرضاه لغيره تكرّماً، ولا كذبت كذبة قطّ تأثّماً، ولا شربت الخمر قطّ تذمّماً لأنّه يذهب العقول.

وقوله: وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنّا.

أي يوجب لنا بصريح حكمه ويجمع لنا ما شذّ عنّا عن هذا الأمر وسلبناه وهو شروع في الاحتجاج على أولويّته من غيره بهذا الأمر من الخلفاء ومن يطمع في الخلافة وبيّن ذلك من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] ووجه الاستدلال أنّه عليه السلام من أخصّ أولي الأرحام بالرسول صلى الله عليه وآله وكلّ من كان كذلك فهو أولى به وبالقيام مقامه مع كمال استعداده لذلك أمّا الصغرى فظاهرة وأمّا الكبرى فللآية.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨] الآية. ووجه الاستدلال أنّه عليه السلام كان أقرب الخلق إلى اتّباع رسول الله صلى الله عليه وآله وأوّل من آمن به وصدّقه وأفضل من أخذ عنه الحكمة وفصل الخطاب كما بيّناه. وكلّ من كان كذلك فهو أولى بخلافته والقيام مقامه فيما جاء به الآية. فظهر إذن أنّه عليه السلام أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وبمنصبه تارة من جهة قرابته وتارة من جهة طاعته واتّباعه.

الثالث: قوله: ولمّا احتجّ. إلى قوله: دعواهم.

وهو إلزام لهم. وصورته أنّ الأنصار لمّا طلبوا الإمامة لأنفسهم وقالوا للمهاجرين: منّا أمير ومنكم أمير. احتجّ المهاجرون عليهم برسول الله صلى الله عليه وآله وأنّهم من شجرته التي أشار إلى كون الأئمّة منها بما رووه عنه من قوله: الأئمّة من قريش. فسلّموا لهم ذلك وغلبوا عليهم. فلا يخلو ذلك الغلب إمّا أن يكون لكونهم أقرب إليه صلى الله عليه وآله من الأنصار أو لغير ذلك، فإن كان الأوّل فأهل بيته أولى بذلك الحقّ لأنّهم أقرب إليه صلى الله عليه وآله ممّن عداهم وهم ثمرة تلك الشجرة وغايتها وإن كان بغيره فحجّة الأنصار قائمة ودعواهم للإمامة باقٍ، إذ لم يكن ما رووه من الخبر دافعاً لقولهم إلاّ من جهة كونهم من قريش الموجب لهم لقربهم وبعد الأنصار عنه وقد فرض أنّ جهة الأقربيّة غير معتبرة هنا.

السادسة: جوابه عمّا ادّعاه بزعمه من حسده عليه السلام لسائر الخلفاء وبغيه عليهم، وتقرير الجواب أنّه لا يخلو إمّا أن تكون هذه الدعوى صادقة أو كاذبة فإن كانت صادقة كما زعمت فليست جنايتي عليك حتى يكون عذري عنها إليك بل ذلك فضول منك وخوض فيما لا يعنيك. وأكّد ذلك بالمثل. والبيت لأبي ذؤيب وأوّله:

وعيّرها الواشون أنّي أحبّها
وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ويضرب لمن ينكر أمراً ليس منه في شيء ولا يلزمه إنكاره.

السابعة: جوابه عمّا ادّعاه توبيخاً له وغضاً من منصبه وهو قوده إلى البيعة للخلفاء قبله كما يقاد الجمل المخشوش قهراً وكرهاً وإذلالاً وهو وجه التشبيه فقلّب عليه السلام تلك الدعوى وبيّن أنّ ذلك ليس ذمّاً له بل مدحاً، ولا فضيحة بل على مدّعيها، وأشار إلى كونها مدحاً وليست ذمّاً بقوله: وما على المسلم. إلى قوله: بيقينه. ووجه ذلك أنّه عليه السلام لمّا كان ثابتاً على اليقين التامّ في علومه مبرّأً عن الريب والشبهة في دينه فكان ذلك هو الكمال الحقّ والفضل المبين الذي لا نقصان معه لم يكن عليه غضاضة في ظلم غيره له ولم يلحقه بذلك نقصان ولا ذمّ بل كان انفراده بالثبات على الدين الخالص مع الاجتماع على ظلمه فضيلة تخصّه فيكون ذكرها مستلزماً لمدحه وتعظيمه، وكذلك ليس في ذكرها فضيحة عليه، إذ الفضيحة هي إظهار عيب الإنسان ونقصه وحيث لا عيب فلا فضيحة، وأمّا أنّها فضيحة لمعاوية فلظهور نقصانه في عدم الفرق بين ما يمدح به ويذمّ.

وقوله: وهذه حجّتي. إلى قوله: ذكرها.

أي أنّ حجّتي هذه على كوني مظلوماً في أخذي لبيعة غيري لست أنت المقصود بها. إذ لست في هذا الأمر في شيء فتخاطب فيه بل القصد بها غيرك، وأراد الذين ظلموا وإنّما ذكرت لك منها بقدر ما دعت الحاجة إليه وسنح لي أن أذكره في جوابك.

الثامنة: جوابه عمّا ادّعاه عليه في أمر عثمان وتأليبه وخذلانه وذلك قوله: فلك أن تجاب عن هذه لرحمك. مع إنكاره عليه ما سبق من الكلام فإنّ فيه إرشاداً عظيماً لوضع الكلام مواضعه، وتنبيهاً على أنّه لا يجوز أن يخوض الإنسان فيما لا يعنيه. وقرب رحمه منه لكونه من بني أميّة. وحاصل جوابه أنّه عكس عليه ما ادّعاه وبيّن أنّه هو الذي كان عدوّه وخاذله فإنّه عليه السلام كان ناصره ومعرض نفسه للذبّ عنه فاستفهم عن أيّهما كان أعدى عليه وأهدى لمقاتله: أي لوجوه قتله ومواضعه من الآراء والحيل استفهام توبيخ له، وأراد بقوله: أمن بذل نصرته. إلى قوله: فاستقعده واستكفّه نفسه عليه السلام، وذلك أنّ عثمان كان متّهماً له عليه السلام بالدخول في أمره. فلمّا اشتدّ عليه الحصار بعث إليه وعرض نصرته. فقال: لا أحتاج إلى نصرتك لكن أقعد عنّي وكفّ شرّك. وذكر نفسه بصفة بذل النصرة ليظهر خروجه ممّا نسب إليه من دمه وهو في قوّة صغرى قياس ضمير تقديرها: إنّي بذلت له نصرتي. وتقدير كبراه: وكلّ من بذل لغيره نصرته فليس من شأنه أن يتّهم بخذلانه وينسب إلى المشاركة في دمه، وأشار إلى دخول معاوية في دمه بقوله: أمّن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه. وذلك أنّه بعث حال حصاره إلى الشام مستصرخاً بمعاوية فلم يزل يعده ويتراخى عنه لطمعه في الأمر إلى أن قتل. وذكر القدر ونسبة القتل إليه هٰهنا مناسب لتبرّيه من دمه، والكلام أيضاً في قوّة صغرى قياس ضمير احتجّ به على أنّ معاوية هو الساعي في قتله، وتقديرها أنّك ممّن استنصره واستعان به فسوّفه وقعد عنه وبثّ المنون إليه وعوّق عنه وثبّط عن نصرته، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٢٣] الآية بعد أن ردّ دعواه عن نفسه بقوله: كلاّ: أي كلاّ لم أكن أنا أعدى عليه ولا أهدى لمقاتله منك. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فهو أولى بالنسبة إلى دمه والسعي في قتله. والآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يثبّطون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنه.

التاسعة: قوله: وما كنت اعتذر. إشارة إلى ما عساه كان سبباً لتوهّم كثير من الجهّال أنّه دخل في دمه وهو إنكاره عليه ما كان نقمه الناس عليه من أحداثه التي أشرنا إليها قبل، وبيان أنّ ذلك ليس ممّا يعتذر عنه لأنّ ذلك كان إرشاداً له وهداية فإن يكن ذلك هو الذي توهّمه ذنباً إليه فلامني عليه فربّ ملوم لا ذنب له وأنا ذلك الملوم، إذ لم يكن ما فعلته ذنباً، وقد يستفيد الظنّة المتنصّح وأنا ذلك المتنصّح إذ لم يكن قصدي إلاّ إصلاح ذات البين بقدر الاستطاعة.

وقوله: فربّ ملوم لا ذنب له.

مثل لأكثم بن صيفي ويضرب لمن قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون حجّته وعذره فيه،

وكذلك قوله: وقد يستفيد الظنّة المتنصّح يضرب مثلاً لمن يبالغ في النصيحة حتى يتّهم أنّه غاش. وصدر البيت:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة
وقد يستفيد الظنّة المتنصّح

العاشرة: جوابه عن وعيده له بالحرب التي كنّى بالسيف عنها.

فقوله: فلقد أضحكت بعد استعبار.

كناية عن أنّ وعيده لمثله عليه السلام من أبلغ الأسباب المستلزمة لأبلغ عجب. إذ كان الضحك بعد البكاء إنّما يكون لتعجّب بالغ غريب وهو كالمثل في معرض الاستهزاء به. وقيل: معناه لقد أضحك من سمع منك هذا تعجّباً بعد بكائه على الدين لتصرفّك به.

وقوله: متى ألفيت. إلى آخره.

استفهام له عن وقت وجدانه لبني عبد المطلب بصفة النكول عن الحرب والخوف من السيف استفهام إنكار لوقت وجدانهم كذلك في معرض التنزيه لهم عن الجبن والفشل.

وقوله: لبّث قليلاً تلحق الهيجا حمل.

مثل يضرب للوعيد بالحرب. وأصله أنّ حمل بن بدر رجل من قشير أغير على إبل في الجاهليّة في حرب داحس وأغار واستنقذها. وقال:

لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل
ما أحسن الموت إذ الموت نزل

وقيل: أصله أنّ مالك بن زهير توعّد حمل بن بدر فقال حمل: لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل. البيت. فأرسل مثلاً. ثمّ أتى وقتل مالكاً، فظفر أخوه قيس بن زهير به وبأخيه حذيفة فقتلهما وقال:

شفيت النفس من حمل بن بدر
وسيفي من حذيفة قد شفاني

وقوله: فسيطلبك. إلى آخر.

شروع في المقابلة بالوعيد بالسير الشديد إليه في الجيش العظيم، ووصفه بأوصاف تزلزل أركان العدوّ من شدّة الزحام وسطوح القتام. إلى آخره. وشديداً ومتسربلين نصباً على الحال. وسربال مفعول به لمتسربلين. وسربال الموت كناية إمّا عن الدرع أو العدّة التي يلقون بها الموت ويخوضون في غمراته، وإمّا عن ملابسهم من الثياب أو الهيئات والأحوال التي وطّنوا أنفسهم على القتل فيها كالأكفان لهم وإنّما كان أحبّ اللقاء إليهم لقاء ربّهم لكمال يقينهم بما هم عليه من الدين الحقّ وثقتهم بالوعد الإلهي الصادق والذريّة البدريّة التي صحبتهم إشارة إلى أولاد من كان من المسلمين مع النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر، وقد ذكرنا أنّ أخاه المقتول حنظلة بن أبي سفيان وخاله الوليد بن عتبة وجدّه عتبة بن ربيعة إذ هو أبو هند أمّ معاوية، وكنّى بالظالمين في الآية عن معاوية وأصحابه. وجميع ما ذكره من أوصاف الجحفل وما يصحبه من الذريّة البدريّة والسيوف الهاشميّة والتذكير بمواقعها بمن وقعت به من أهله ووعيده أن يصيبه منها ما أصابهم من أبلغ ما يعدّ به الخطيب للانفعال والخوف. وبالله التوفيق.

٢٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل البصرة:

وَقَدْ كَانَ مِنَ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ الآرَاءِ الْجَائِرَةِ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلافِي، فَهَأَنَذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي. وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلاَّ كَلَعْقَةِ لاعِقٍ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيءٍ، وَلا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ.

أقول: غبت عن الشيء وغبته: إذا لم تفطن له، والمردية: المهلكة. والجائرة: المنحرفة عن الصواب. والمنابذة: المخالفة والمراماة بالعهد والبيعة.

وقد بدأ في هذا الفصل بوضع ذنوبهم وتقريرها عليهم ليحسن عقيبها العفو أو المؤاخذة. واستعار لفظ الحبل لبيعتهم إيّاه، ولفظ الانتشار لنكثهم. وجه الاستعارة الأولى كون البيعة سبباً جامعاً لها وناظماً لأمورهم ومتمسّكاً يوصل إلى رضاء الله كالحبل الناظم لما يربط به، ووجه الثانية ظاهر. ونبّه بقوله: ما لم تغبوا عنه. على علمهم بما فعلوه وتعهّدهم لفعله ليتأكّد عليهم الحجّة. ثمّ لمّا قرّر ذنوبهم أردفها بذكر أمور قابلها بها كرماً وهي العفو عن مجرمهم ورفع السيف عمّن أدبر منهم وقبول من أقبل إليه منهم والرضا عنه. ثمّ أردف ذلك بوعيدهم بكونه مستعدّاً لقتالهم وإيقاعه بهم وقعة يستصغر معها وقعة الجمل أن لو عادوا إلى الفتنة ثانياً. واستعار لفظ الخطو لسوق الأمور المهلكة وسفه آرائهم الجائرة بهم إلى منابذته ومحاربته ثانياً. ووجه المشابهة تأدّيها بهم إلى خلافة كتأدّي القدم بصاحبها إلى غايته. وتقدير الشرط فإن عدتم إلى خلافي فها أنا مستعدّ لكم. وكنّى بتقريب جياده وترحيل ركابه عن كونه مستعدّاً للكرّة عليهم. ورحّلتها: شدَدت الرحال على ظهورها. ويكفي ذلك في وعيدهم على خلافه لأنّ مجرّد خلافهم عليه لا يستلزم وجوب إيقاع الوقعة بهم لاحتمال أن يرجعوا ويتوبوا بوعيده أو بعلمهم ببقائه على الاستعداد لحربهم والإيقاع بهم فلذلك جعل الشرط في وعيده بالإيقاع بهم أن يلجئوه إلى المسير إليهم ومحاربتهم، وذلك بأن يعلم أنّ الأمر لا يستقيم إلاّ بالإيقاع بهم فيحمله ضرورة حفظ الدين على ذلك.

وقوله: في وصف تلك الوقعة لا يكون يوم الجمل. إلى قوله: لاعق.

كناية عن غاية شدّة إيقاعه بهم. ووجه تشبيه وقعة الجمل بالنسبة إليها باللعقة هو الحقارة والصغر. ثمّ لمّا توعّدهم بما يخشى من الوعيد أردفه بما يرجى معه من ذكر اعترافه بفضل ذي الطاعة وبحقّ ذي النصيحة منهم وأنّه غير متجاوز متّهماً بعقوبة إلى بريء ولا ناكثاً بعهده إلى وفيّ به لئلاّ تشتدّ عليهم وطأته فييئسوا من رحمته فيشتدّ نفارهم منه، ويكون ذلك داعية فسادهم.

٣٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية:

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مَطْلَبَةً، يَرِدُهَا الأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الأَنْكَاسُ، مَنْ نَكَّبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ. فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

أقول: أوّل هذا الكتاب: أمّا بعد فقد بلغني كتابك تذكر مشاغبتي وتستقبح مؤازرتي وتزعمني متجبّراً وعن حقّ الله مقصّراً. فسبحان الله كيف تستجيز الغيبة وتستحسن العضيهة. إنّي لم أشاغب إلاّ في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، ولم أتجبّر إلاّ على مارق أو ملحق أو منافق ولم آخذ في ذلك إلاّ بقول الله ورسوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] وأمّا التقصير في حقّ الله فمعاذ الله جلّ ثناؤه من أن أعطل الحقوق المؤكّدة وأركن إلى الأهواء المبتدعة وأخلد إلى الضلالة المحيّرة. ومن العجب أن تصف يا معاوية الإحسان وتخالف البرهان وتنكث الوثاق التي هي لله عزّ وجلّ طلبة وعلى عباده حجّة مع نبذ الإسلام وتضييع الأحكام وطمس الأعلام والجري في الهوى والتهوّس في الردى. ثمّ يتّصل بقوله: فاتّق الله. الفصل المذكور. ومن هذا الكتاب أيضاً: وإنّ للناس جماعة يد الله عليها غضب الله على من خالفها. فنفسك نفسك قبل حلول رمسك فإنّك إلى الله راجع وإلى حشره مهطع وسيبهضك كربه ويحلّ بك غمّه في يوم لا يغني النادم ندمه ولا يقبل من المعتذر عذره يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون.

والعضيهة: الإفك والبهتان. والطمس: إخفاء الأثر. ونهجة: واضحة. ومطّلبة بتشديد الطاء وفتح اللام: أي مطلوبة جدًّا منهم. والأكياس: العقلاء. والأنكاس: جمع نكس وهو الدنيء من الرجال. ونكب: عدل. والخبط. المشي على غير استقامة. والخسر: الخسران. والاقتحام: الدخول في الأمر بشدّة. والوعر: الشديد. والمهطع: المسرع. وبهضه الأمر: أثقله.

والفصل موعظة. فأشار عليه بتقوى الله فيما لديه من مال المسلمين وفيئهم، وأن ينظر في حقّه تعالى عليه وآثار نعمته فيقابله بالشكر والطاعة، وأن يرجع إلى معرفة ما لا عذر له في أن يجهله من وجوب طاعة الله ورسوله وطاعة الإمام الحقّ.

وقوله: فإنّ للطاعة أعلاماً واضحة.

أي الطاعة لله، واستعار لفظ الأعلام لما يدلّ على الطريق إلى الله من الكتاب والسنّة القوليّة والفعليّة ومن جملتها أئمّة الحقّ والهدى فإنّهم أصل تلك الأعلام وحاملوها. وعنى بالسبل النيّرة والمحجّة النهجة الطرق إلى الله المدلول عليها بأعلامها المذكورة، وبالغاية المطلوبة من الخلق وصولهم إلى حضرة قدس الله طاهرين مجرّدين عن الهيئات البدنيّة الدنيّة مستمعين للكمالات الإنسانيّة النفسانيّة.

واعلم أنّ الطاعة اسم لقصد تلك الأعلام وسلوك تلك المحجّة طلباً لتلك الغاية، والضمير في قوله: يردها ويخالفها وعنها راجع إلى المحجّة والأعلام الواضحة عليها، وظاهر أنّ العقلاء هم الذين يختارون ورود تلك المحجّة ويقصدون أعلامها وأنّ أدنياء الهمم يخالفون إلى غيرها فيعدلون عن صراط الله الحقّ ويخبطون في تيه الجهل ويغيّر الله بذلك نعمته عليهم ويبدّلهم بها نقمته في دار الجزاء. ثمّ لمّا أشار عليه بما أشار وأوضح له سبل السلامة وما يلزم مخالفها من تغيير نعمة الله وحلول نقمته أمره أن يحفظ نفسه بسلوك تلك السبل عمّا يلزم مخالفتها والعدول عنها من الأمور المذكورة. ثمّ أعلمه بأنّ الله بيّن له سبيله وأراد سبيل طاعته المأمور بسلوكها. وهو في قوّة قياس صغرى من الشكل الأوّل أوجب عليه به سلوك تلك السبيل. وتقديره الكبرى: وكلّ من بيّن الله له سبيله التي أوجب عليه سلوكها فقد وجب عليه حفظ نفسه بسلوكها.

وقوله: وحيث تناهت بك أمورك. فحسبك ما تناهت بك إليه. ثمّ فسّر ذلك الحيث الذي أمره بالوقوف عنده وهو غاية الخسر: أي الغاية المستلزمة للخسر التي هي منزلة من منازل الكفر، وأخبره أنّه قد أجرى إليها وكفى بها غاية شرّ. وإجراؤه إلى تلك الغاية كناية عن سعيه وعمله المستلزم لوصوله إليها. ويقال: أجرى فلان إلى غاية كذا: أي قصدها بفعله. وأصله من إجراء الخيل للسباق. ولفظ الخسر مستعار لفقدان رضوان الله والكمالات الموصلة إليه، وإنّما جعل تلك الغاية التي أجرى إليها منزلة كفر لأنّ الغايات الشرّيّة المنهيّ عن قصدها من منازل الكفّار ومقاماتهم فمن سلك إليها قصداً وبلغها اختياراً فقد لحق منازل الكفر ومحالّه.

وقوله: وإنّ نفسك قد أولجتك شرّاً.

أي أدخلتك في شرّ الدنيا والآخرة، وأراد نفسه الأمّارة بالسوء بما سوّلت له من معصية الله ومخالفة الإمام الحقّ، ويروى: قد أوحلتك: أي ألقتك في الوحل. وهو مستعار لما وقع فيه من المعصية والاختلاط عن الجهل، وأقحمتك غيّاً: أي أدخلتك في الغيّ والضلال، وأوردتك المهالك: أي الموارد المهلكة من الشبهات والمعاصي، وأوعرت عليك المسالك: أي مسالك الهدى وطرق الخير لأن النفس الأمّارة بالسوء إذا أوردت الإنسان سبل الضلالة وسهّلت عليه سلوكها بوسوستها وتحسينها للغايات الباطلة لزمه بسبب ذلك البعدُ عن طرق الهدى ومسالك الخير، واستصعاب سلوكها. وبالله التوفيق والعصمة وبه الحول والقوّة والعون والتسديد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

٣١ ـ ومن وصيةٍ له عليه السلام

للحسن بن علي عليه السلام كتبها إليه بحاضرين منصرفاً من صفين:

أقول: روى جعفر بن بابويه القمي رحمه الله أن هذه الوصية كتبها عليه السلام إلى ابنه محمد ابن الحنفية رضي الله عنه وهي من أفصح الكلام وأبلغه وأشمله [أجمعه خ] لدقائق الحكمة العملية ولطائفها، وأكمل عبارة يجذب بها إلى سبيل الله. وحاضرين: اسم موضع بالشام. وفيها فصول:

الفصل الأول: قوله:

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لا يُدْرَكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ.

أقول: الرهينة: ما يرهن. والرمية: الهدف، والتاء لنقل الاسم من الوصفية إلى الاسمية الصرفة. والحليف: المحالف. والنصب: الشيء المنصوب.

وهذا الفصل كالعنوان للوصية، وقد ذكر لنفسه أوصافاً سبعة، ولولده أربعة عشر في معرض الوعظ والتنفير عن الدنيا والركون إليها، وضاعف الأوصاف لولده لأنه المقصود بالوصية والموعظة:

فالأول: من الفان، واللفظ هنا مجاز تسمية له باسم غايته، ووقف على المنقوص بحذف الياء لمراعاة القرينة الثانية، وقد علمت جوازه.

الثاني: المقر للزمان: أي بالغلبة والقهر المعترف بالعجز في يد تصريفاته كأنه قدره خصماً ذا بأس يقرّ الأقران له.

الثالث: المدبر العمر، وذاك أنه كان عليه السلام قد ذرّف على الستين.

الرابع: المستسلم للدهر، وهو أبلغ من المقر للزمان.

الخامس: الذام للدنيا، ولم يزل عليه السلام نافراً عنها ومنفراً بذكر معايبها.

السادس: الساكن مساكن الموتى، وهو تنفير عن الركون إلى الدنيا والمقام بها بذكر كونها مساكن الموتى، إذ من كان من مساكنهم يوشك أن يلحقه ما نزل بهم، وتقرب في التنفر من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] الآية.

السابع: الظاعن عنها غداً، وهو تذكير بالمفارقة، وغداً كناية عن وقتها، ولفظ الظاعن مستعار له. وأما أوصاف المولود:

فالأول: المؤمّل ما لا يدرك، وفيه تنفير عن طول الأمل. إذ كان ينسي الآخرة، وجعل وجه التنفير تأميله ما لا يدرك، وظاهر أن الإنسان ما دام في هذه الدار موجّه أمله نحو مطالبها كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: يشيب ابن آدم ويشبّ فيه خصلتان: الحرص والأمل. وذلك يستلزم انقضاء مدته دون بلوغها.

الثاني: السالك سبيل من قد هلك، وسبيلهم سفرهم في الدنيا إلى الآخرة وقطعهم لمنازل الأعمار، وأضافها إلى من هلك تذكيراً بالموت.

الثالث: غرض الأسقام، واستعار لفظ الغرض له باعتبار كونه مرمياً بسهام الأمراض كالغرض.

الرابع: رهينة الأيام، واستعار له لفظ الرهينة باعتبار أن وجوده مربوط بالأوقات، وداخل في حكمها كما يرتبط الرهن بيد مرتهنه.

الخامس: ورميّة المصائب، وهو كقوله: غرض الأسقام.

السادس: وعبد الدنيا، ولفظ العبد مستعار لأنّ طالب الدنيا منقاد بطبعه إليها، وعامل لها كما ينقاد العبد لسيده ويعمل له.

السابع: وتاجر الغرور: أي تجارته لها غرور وغفلة عن المكاسب الحقيقية الباقية، ولفظ التاجر مستعار له باعتبار بذله لما له وأعماله في شر الدنيا على وهم أنها هي المطالب الحقة المربحة.

الثامن: وغريم المنايا، ولفظ الغريم مستعار له باعتبار طلب الموت له كالمتقاضي بالرحيل كما يتقاضى الغريم.

التاسع: استعار له لفظ الأسير باعتبار انقياده للموت وعدم تمكينه من الخلاص.

العاشر: وحليف الهموم.

الحادي عشر: وقرين الأحزان، واستعار لفظي الحليف والقرين له باعتبار، عدم انفكاكه عن الهموم والأحزان كما لا ينفك الحليف والقرين عن حليفه وقرينه.

الثاني عشر: ونصب الآفات، كقوله: ورميّة المصائب.

الثالثة عشر: وصريع الشهوات، ولفظ الصريع مستعار له باعتبار كونه مغلوباً لشهوته مقهوراً لها كالقتيل.

الرابع عشر: وخليفة الأموات، وفيه تنفير عن الدنيا بتذكير الموت لأن خليفة الأموات في معرض اللحوق بهم، ونحوه قول بعض الحكماء: إن امرءاً ليس بينه وبين آدم إلا أب ميت لمعرق النسب في الموت.

الفصل الثاني، **قوله**:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَقَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لا يَكُون فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لا يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

أقول: جمح الفرس: إذا غلب صاحبه فلم يملكه. ويزعني: يمنعني. والمحض: الخالص. وأفضى: أي انتهى. والشوب: المزج والخلط. وقابل في لفظه بين الإقبال والإدبار والآخرة والدنيا.

وقد أشرنا إلى معنى إدبار الدنيا وإقبال الآخرة في قوله: ألا وإن الدنيا قد أدبرت، واستعار لفظ الجموح للدهر باعتبار عدم تمكنه من ضبطه في تغيّراته وتصريفاته الخارجة عن اختياره كالجموح من الخيل، وما الأولى بمعنى الذي، ويحتمل أن تكون مصدرية، وعلى المعنى الأول يكون من للتبيين، وعلى الثاني لابتداء الغاية، وما الثانية بمعنى الذي ومحلها الرفع بالابتداء، وفيما تبيّنت خبره، ومستظهراً حال، ومدار الفصل على إعلامه إيّاه أنه في معرض الزوال عنه وأن ذلك الوقت هو وقت الاهتمام بحال نفسه وبحاله لينزّله منزلة نفسه وأنه شديد الاهتمام بحاله ليكون ذلك أدعى لقبول وصيته وهو كالتوطئة والتمهيد لها.

ثم أعلمه أن فيما تبيّن له عليه السلام من الأمور المذكورة قرب رحيله إلى الله وذلك هو الذي وزعه ومنعه عن ذكر ما سواه والاهتمام بما وراءه من المصالح المتعلقة بصلاح الخلق ونظام العالم. إذ كان ذلك هو وقت التضيق على الإنسان فيما هو أهمّ عليه من الاستكمال بالفضائل، والاستعداد للقاء الله دون ما سبق من أوقات الشبيبة واستقبال العمر لاتساعها لصلاح حال الغير والاشتغال بالأمور المباحة، غير أنه حين تبيّن له ذلك وتفرّد به هم نفسه دون غيرها، ومن صدقه رأيه بكشفه له عما ينبغي أن يكون اشتغاله به من أمر نفسه ووجوب العمل لها فيما يهمّها، وصرفه عن هواه فيما يخرج عنها. إذ كان أجود الآراء وأصدقها في الأمر عنده شدة الاهتمام به، وصرح له خالص أمره وما ينبغي له، وانتهى به إلى جد وصدق خالصين من شائبة اللعب والكذب. وجده عليه السلام بعضاً منه وهو كناية عن شدة اتصاله به وقربه منه ومحبته له كما قال الشاعر:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

بل وجده كله: أي عبارة عن كله. إذ كان هو الخليفة له والقائم مقامه ووارث علمه وفضائله، ودلّ على شدة قربه منه وأنه بمنزلة نفسه بذكر الغايتين في قوله: حتى. إلى قوله: أتاني، ووجه التشبيه بين ما يصيب ولده وبين ذلك الشيء وإن لم يصبه عليه السلام شدة تألمه به.

واعلم أن ذلك الوجدان وإن كان له طبعاً كما يحصل للوالد في أمر ولده لكنه مما لزم التفطن له في آخر العمر عند تذكير انقطاع الدنيا لما في طبعه من محبة بقاء الذكر الجميل والحرص على دوام الخير والآثار الصالحة في العالم ولذلك جعله لازماً لتفرّد همّ نفسه به وصدق رأيه في النصيحة.

وروي: محضُ. مرفوعاً على الفاعلية ومنصوباً بإسقاط حرف الجر، والتقدير عن محض أمري، ثم نبه على أن من لوازم وجدانه لما وجده من أمره أن عناه وأهمّه منه ما يهمّه من أمر نفسه فكتب إليه هذه الوصية لتكون له ظهراً ومستنداً يرجع إلى العمل بها في حالتي بقائه له وفنائه عنه. إذ كان ما اشتملت عليه هذه الوصية من الحكم والآداب ومكارم الأخلاق، وتعريف سلوك الله مما راض به نفسه في مدة عمره اقتفاء لأثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واقتداءً به فاقتضت عنايته به أن يحثه على العمل بها. وبالله التوفيق.

الفصل الثالث: قوله:

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ - أَيْ بُنَيَّ - وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ؟.

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ. فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ. وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ. وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ! وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ. وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْهَا صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَلا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

أقول: الغمرات: الشدائد. والمثوى: محل الثواء والإقامة. وهذا حين افتتح ما يريد أن يوصي به.

واشتمل هذا الفصل من ذلك على أمور:

أحدها: تقوى الله، وقد علمت حقيقتها فيما سلف، ويشبه أن يكون المراد بها هنا الخوف منه تعالى.

الثاني: لزوم أمره وهو من لوازم تقواه.

الثالث: عمارة قلبه بذكره، واستعار لفظ العمارة لتكميل قلبه بذكر الله، وإكثاره منه لأنه روح العبادات وكمال النفس، كما أن العمارة كمال للدار وهو داخل في لزوم ذكره لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

الرابع: الاعتصام بحبله، واستعار لفظ الحبل لما يوصل إليه من دينه فيكون التمسك به سبباً للنجاة كالحبل، وأراد بالاعتصام الامتناع بالتمسك به من عذاب الله. ثم استفهم عن سبب أوثق منه استفهام إنكار وتعجّب من وثاقته، ويدخل في لزوم أمره لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الخامس: أمره أن يحيي قلبه بالموعظة، واستعار وصف الإحياء له باعتبار تكميله لنفسه بالعلم والاعتبار الحاصل عن الموعظة كما يكمل المرء بالحياة.

السادس: قوله: أمته بالزهادة، والذي يميته هي النفس الأمارة بالسوء، وإماتتها كسرها عن ميولها المخالفة لأداء العقل بترك الدنيا والإعراض عنها وتطويعها بذلك، ويحتمل أن يريد به النفس العاقلة أيضاً، وإماتتها قطعها عن متابعة هواها.

السابع: أن يقويه باليقين: أي من ضعف الجهل للصعود إلى أُفق عليّين والنهوض إلى مقام الأبرار، ولما كان اليقين درجة اشتداد وقوة في العلم ناسب أن يجعله تقوية للقلب.

الثامن: وأن ينوره بالحكمة، واستعار لفظ التنوير بالحكمة لها باعتبار أن ذلك سبب هدايته لسبيل الله في ظلمات الجهل كحامل النار. وقد عرفت الحكمة وأقسامها.

التاسع: أن يذلله بذكر الموت، وذلك لأن كثرة إخطاره بالبال يستلزم الخوف ويسكن القلب عن جماحه في ميدان الشهوات، ويذلل من عزة الكبر وهزة العجب وحميّة الغضب.

العاشر: أن يقرّره بالفناء: أي يحمله على الإقرار به ويديم ذكره له ليتأكد علمه به.

الحادي عشر: أن يبصره فجائع الدنيا: أي يحمله على النظر بعين البصيرة والاعتبار برزايا الدنيا وآفاتها.

الثاني عشر: أن يحذره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيام، ولفظ الصولة مستعار له ملاحظة لشبهه بالسبع في أخذه وما يكون بسببه من الأذى.

الثالث عشر: أن يعرض عليه أخبار الماضين، ويذكره ما أصابهم لينظر ما فعلوا وعما انتقلوا من الآثار العظيمة والملك الجسيم، ويحصل من ذلك عبرة وقياساً لحاله بحالهم، ويستقرب لحاقه بهم وصيرورته كأحدهم فيما صاروا إليه، ووجه التشبيه قرب حاله من حال أحدهم. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩] الآية.

الرابع عشر: أن يصلح مثواه، وهو الدار الآخرة بلزوم الأعمال الصالحة ولا يبيع آخرته وما وعد فيها من الخيرات الباقية بما وجد في دنياه من اللذات الوهمية الفانية، ولفظ البيع مستعار.

الخامس عشر: أن يترك القول فيما لا يعرفه. إذ القول بغير علم يستلزم رذيلتي الكذب والجهل، ويلحق به الذم. ونحوه قول الرسول ﷺ لبعض أصحابه: كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس خرجت عهودهم وأماناتهم وصاروا هكذا: - وشبّك بين أصابعه - قال: فقلت: مرني يا رسول الله فقال ﷺ: خذ ما تعرف ودع ما لا تعرف، وعليك بحويصة نفسك. وكذلك قوله: والخطاب فيما لا تكلّف كقوله ﷺ: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

السادس عشر: أن يمسك عن طريق إذا خاف ضلالته، والمراد التوقف عند الشبهات وعدم التسرع إلى سلوك طريق يشك في تأديته إلى الحق فإنّ توقفه وتثبّته عند طلب الحق إلى أن يتضح له طريقه خير له من التعسف وركوب ما يخاف الضلال به من الطرق.

السابع عشر: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فعلاً وقولاً، ويباين من فعله بقدر إمكانه، وهو من فروض الكفاية، وعليهما مدار نظام العالم، ولذلك كان القرآن الكريم والسنّة النبوية مشحونين بهما واستدرجه إلى ذلك بقوله: تكن من أهله. لأنهم أولياء الله الأبرار المرغوب في الكون منهم.

الثامن عشر: أن يجاهد في الله أعداء دينه الجهاد الحق، وإضافة حق إلى جهاده إضافة الصفة إلى الموصوف لأن الصفة من باب الأهم.

التاسع عشر: أن لا يأخذه في الله لومة لائم، وهو

كناية عن نهيه عن التقصير في طاعة الله. إذ كان من لوازم المقصر استحقاق لوم اللائمين.

العشرون: أن يخوض الغمرات إلى الحق حيث كان، ولفظ الخوض مستعار لمعاناة الشدائد والدخول فيها لطلبه الحق.

الحادي والعشرون: أن يتفقه في الدين، ويتعلم الأحكام الشرعية ومبادئها.

الثاني والعشرون: أن يعوّد نفسه الصبر على المكروه. وقد علمت أن احتمال المكروه فضيلة تحت الشجاعة وهو من مكارم الأخلاق.

الثالث والعشرون: أن يلجىء نفسه في أموره كلها إلى الله تعالى، وهو أمر بالتوكل على الله والإنابة إليه في كل مرغوب أو مرهوب، وقد علمت حقيقة التوكل وما يستلزمه، واستدرجه إلى ذلك بقوله: فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز، واستعار لفظ الكهف له تعالى باعتبار أن من توكل عليه كفاه ومنعه مما يخاف كما يمنع الكهف من يلتجىء إليه.

الرابع والعشرون: أن يخلص في دعائه ومسألته لربه. إذ كان ذلك من شرائط الإجابة، واستدرجه إلى الإخلاص بقوله: فإنّ بيده العطاء والحرمان ليشتد الانجذاب إليه والإعراض عن غيره. والفاءات الثلاث: فنعم، وقوله: فإنّك. وقوله: فإن بيده. جواب الأوامر الثلاثة.

الخامس والعشرون: أن يكثر الاستخارة: أي الطلب إلى الله تعالى أن يخيّر له فيما يأتي ويذر.

السادس والعشرون: أن يتفهم وصيته ولا يعرض عنها، وكنى عن الإعراض وترك العمل بها بالذهاب صفحاً، وانتصب صفحاً على الحال: أي ولا تذهبنّ معرضاً، واستدرجه للإقناع بها بقوله: فإنّ خير القول ما نفع، والتقدير فإنّ وصيتي نافعة، وما نفع فهو خير القول. فإذن وصيتي خير القول.

ثم نبّهه بقوله: واعلم. إلى قوله: تعلّمه. على أن من العلوم ما لا خير فيه لئلا يتشوّق إلى معرفته فيصدّه ذلك عن سلوك سبيل الله والعلم المؤدي إليه، وتلك هي العلوم التي نهت الشريعة عن تعلمها كالسحر والكهانة والنجوم والنيرنجات ونحوها مما لا يكون سبيلاً إلى المقاصد الحقيقية التامة.

وتقدير الكلام: واعلم أن كل علم لا يحق تعلمه: أي لا يثبت في الشريعة تعلمه وجوباً ولا ندباً فهو علم لا ينتفع به في طريق الآخرة فلا خير فيه لأن الخير الحقيقي هو المنفعة الباقية عند الله فما لا منفعة فيه لا خير فيه، ولذلك استعاذ الرسول صلى الله عليه وآله منه فقال: وأعوذ بك من علم لا ينفع. فينتج أن كل علم لا يحق تعلّمه فلا خير فيه. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: قوله:

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ. وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ: مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذٰلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

أَيْ بُنَيَّ - إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي - فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ

ذٰلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلالِهِ وَحَرَامِهِ، [وَ] لا أُجَاوِزُ ذٰلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذٰلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلامِكَ إِلَى أَمْرٍ لا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ، لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هٰذِهِ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذٰلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذٰلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلُوِّ الْخُصُومَاتِ. وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذٰلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلٰهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ. فَإِذَا أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذٰلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالإِمْسَاكُ عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ.

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالابْتِلاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لا نَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ، فَإِنَّكَ أَوَّلَ مَا خُلِقْتَ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ! فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

أقول: الوهن: الضعف. والمبادرة: المسارعة والمسابقة. وأفضى: وصل. والبغية: الطلب. والتوخي: القصد. وأجمعت: صممت العزم. وأسلمته إلى كذا: خليت بينه وبينه. وأمثل: أقرب إلى الخير.

وفي هذا الفصل مقاصد:

الأول: أنه أشار إلى بعض العلل الحاملة له على هذه الوصية، وهي كونه قد بلغ سناً عالياً وأخذ ازدياداً في الضعف، وذلك أنه كان قد جاوز الستين فلزم من ذلك خوفه لأحد الخصال المذكورة فبادرها وسابقها إليه. وخصالاً مفعول به. وعدّ من تلك الخصال ثلاثاً:

الأولى: أن يعجل به أجله إلى الآخرة قبل أن يوصل إليه ما في نفسه من الحكمة.

الثانية: أن ينقص في رأيه، وذلك أن القوى النفسانية تضعف عند علو السن لضعف الأرواح الحاملة لها فينقص بسبب ذلك تصرف العقل وتحصيله للآراء الصالحة.

الثالثة: أن يسبقه إليه بعض غلبات الهوى فإن الصبي إذا لم يؤخذ بالآداب في حداثته ولم ترض قواه لمطاوعة العقل وموافقته كان بصدد أن تميل به القوى الحيوانية إلى مشتهياتها، وينجذب في قياد هواه إلى الاستعمال

بها فيفتنه ويصرفه عن الوجهة الحقيقية وما ينبغي له فيكون حينئذ كالصعب النفور من الإبل، ووجه التشبيه أنه يعسر حمله على الحق وجذبه إليه كما يعسر قود الجمل الصعب النفور وتصريفه بحسب المنفعة. ثم نبه على وجوب المبادرة إليه بالأدب، وزرعه في قلبه بضمير صغراه قوله: وإنما قلب الحدث. إلى قوله: قبلته.

وأشار إلى وجه التشبيه بقوله: وما ألقي فيها من شيء قبلته. وذلك أن قلب الحدث لما كان خالياً من الانتقاش بالعقائد وغيرها مع كونه قابلاً لما يلقى إليه من خير أو شر فينتقش به أشبه الأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يلقى فيها من البذر، وتقدير الكبرى: وكل قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب وغرس الحكمة.

فلذلك بادره بالأدب قبل أن يقسو قلبه عن الانقياد للحق والاشتغال بالأمور الباطلة. ثم أشار إلى العلة الأخرى من العلل الغائية لمبادرته بالأدب وهي أن يستقبل بجد رأيه وقوة فكره ما قد كفاه أهل التجارب بغيته من العلوم وعوفي فيه من علاج التجربة ومعاناتها فأتاه من ذلك العلم التجربي ما كان أهل التجربة يأتونه ويطلبونه، واستبان له ما ربما أظلم عليهم منه، وفرّق بين من يأتيه العلم صفواً، ويلقى إليه بيناً واضحاً، وقد كفى فيه مؤونة الاكتساب، وبين من سعى إليه وشقى في تحصيله وخاض إليه غمرات الشكوك وظلمات الشبهات. وكل ذلك من الأمور المقنعة له في قبول الوصية والعمل بما اشتملت عليه من الحكم والآداب، لأن أهل التجارب إذا كانوا قد جدّوا في تحصيله مع ما وجدوا فيه من المشقة، فلإن يجد هو ويقبله خالصاً من الكلفة أولى.

المقصود الثاني: أشار إلى فضيلة نفسه واستكمالها بالعلوم. ثم إلى كونه في غاية العناية والشفقة عليه وإلى ما رآه أصلح في تعليمه إيّاه من العلوم غير متجاوز إلى غير ذلك، وغايته من الجميع استدراجه لقبول قوله كما علمت من غرض الخطيب في ذكر فضيلته، وما يستدرج به للانفعال مما يريد أن يقنع به من الآراء وغيرها. فنبه على فضيلته بقوله: أي بنيّ، إلى قوله: مجهولة.

وقوله: وإن لم أكن.

في قوة جواب اعتراض مقدر كأن قائلاً قال له: فكيف حصلت العلوم عن تجارب الأمور مع حاجة التجربة إلى عمر طويل يشاهد فيه الإنسان تغيّرات الأمور وتقلبات الدهور؟ فقال: إني وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي وشاهدت أحوالهم لكني نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم المأثورة وسرت في آثارهم سيراً محسوساً ومعقولاً حتى صرت كأحدهم في عيان أمورهم.

وقوله: فعرفت.

عطف على قوله: وسرت.

وقوله: ذلك.

إشارة إلى ما انتهى إليه من أُمورهم. وكنى بالصفو عن الخير وبالكدر عن الشر: أي فعرفت خير أُمورهم من شرها ونفعها من ضرّها، واستخلصت لك من كل أمر جليله وهو خيره وما ينفع منه عند الله من العلوم والعبر النوافع، وروي: نخيلته أي خلاصته. وقصدت لك جميله: أي الأمر الحسن منه دون قبيحه، وصرفت عنك مجهوله: أي ما اشتبه عليك أمره والتبس الحق فيه.

وقوله: ورأيت حيث عناني. إلى آخره.

إشارة إلى كمال عنايته وشفقته عليه ووجوه اختياراته له ما هو أولى به من العلوم، وأجمعت عطف على يعني، وأن يكون في محل النصب على أنه مفعول أول لرأيت، وتكون هنا تامة، والواو في قوله: وأنت للحال، وأن ابتدئك عطف على أن يكون، والمفعول الثاني لرأيت محذوف تقديره أنفع وأصلح، وتقدير الكلام: ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق من أمر ولده من النظر في مصالحه والاهتمام بأحواله، وما صممت عزمي عليه من تأديبك أن يكون ذلك التأديب حال إقبال عمرك حال كونك ذا نيّة سليمة من الأمراض النفسانية والأخلاق الذميمة، وكونك ذا نفس صافية من كدر الباطل، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله وما يشتمل عليه من شرائع الإسلام: أي

قوانينه وأحكامه وحلاله وحرامه، وأقتصر بك على ذلك كما اقتصر عليه كثير من السلف.

وقوله: ثم أشفقت.

عطف على رأيت: أي كنت رأيت أن أقتصر بك على ذلك ولا أتجاوز بك إلى غيره من العلوم العقلية. ثم خفت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل ما التبس عليهم: أي التباساً مثل الالتباس عليهم فكان إحكام ذلك: أي ما اختلف الناس فيه على ما كرهت من شبهك له أحب إليّ من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة في الدين، وذلك الأمر هو ما اختلف الناس فيه من المسائل العقلية الإلهية التي يكثر التباس الحق فيها بالباطل، ويكتنفها الشبهات المغلطة التي هي مظنة الخطر والانحراف بها عن سبيل الحق إلى سبيل الهلاك، وإحكام ذلك الأمر ببيان وجه البرهان فيه وكيفيّة الخلاص من شبهة الباطل ومزاجه.

وقوله: ورجوت أن يوفقك.

عطف على أشفقت، والضمير المجرور بفي يعود ما إلى اختلف الناس فيه.

المقصود الثالث: الإشارة إلى بيان ما هو الأحب إليه أن يأخذ به من وصيته، والإرشاد إلى كيفية أخذه وما ينبغي أن يبدأ قبل الشروع من الاستعانة بالله والرغبة إليه في التوفيق. إلى غير ذلك من الآداب التي يتم بها الاستعداد للبحث والتعلم. فمن الأحب إليه تقوى الله الذي هو الزاد المبلّغ إليه. ثم الاقتصار على ما افترضه الله عليه من النظر في ظواهر الأدلة دون التوغل في الفكر وخوض الشبهات مما لم يكلف به أخذاً بما مضى عليه الصالحون من أهل بيته كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة بن الحرث وغيرهم من بني هاشم.

وقوله: فإنهم إلى قوله: لم يكلّفوا.

ترغيب له في الأخذ بمأخذهم، وتنفير له عن التوغل والتعمق بضمير صغراه ما ذكر، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فينبغي الاقتداء به في الأخذ بما عرف والإمساك عما لم يكلف.

وقوله: فإن أبت. إلى آخره.

بيان للكيفية التي ينبغي أن يكون عليها طلبة العلوم العقلية، والتدقيق فيها إن أبت نفسه الاقتصار على ما افترضه الله عليه: أي فليكن طلبك لما أنت طالب له من ذلك على وجوه:

أحدها: التفهم للمقاصد، والتعلم للحق، والطلب له لا على وجه تعلم الشبهات والتورط فيها والمشاغبة بها فإن ذلك مما يصد عن تعلم الحق ويمنع من قبوله.

الثاني: أن يبدأ قبل نظره في ذلك الطلب بالاستعانة بالله والرغبة إليه في توفيقه لإصابة طريق الحق والوصول إليه.

الثالث: أن يترك كل شائبة أولجته في شبهة كالعادات في نصرة المذاهب الباطلة بحسب اتباع الهوى والآراء التي يطلب بها الرئاسات فإن النفس إذا كانت فيها شائبة محبة لأمر جسماني لم يتضح لها طريق الحق. بل كانت إلى الانحراف في طرق الضلال والشبه المناسبة للمطالب الباطلة أقرب، وتلك الطرق أعرف عندها لمكان تلك الشائبة. فينبغي للسالك أن يحذف عن نفسه كل شبهة تقود إلى ضلالة، ولفظ الإسلام مستعار لإهماله وعدم جذبه عما يتورط فيه من الأمور المضلّة.

ثم قال: فإذا أيقنت. إلى آخره: أي فإذا أعددت نفسك للطلب والنظر بما ذكرت لك، وتحققت أن قد صفا قلبك من كل شائبة تنافي النظر، فخشع من خشية الله أن يؤاخذك بتركه، وتم رأيك وعزمك عليه فاجتمع متفرقه حتى لا يبقى لك إلى تركه التفات، وكان همك فيه هماً واحداً لا ينقسم إلى غيره. فانظر حينئذ فيما فسّرت لك ونبهتك عليه من المسائل العقلية الإلهية كما سيأتي، وإن أنت لم يجتمع لك ما تحب من نفسك وفراغ نظرها وفكرها عن الشوائب المنافية للعلم وطلبه ونظرت. فاعلم أنك في خوضك وطلبك له إنما تخبط خبط عشواء وتتورط الظلماء، وكل من كان كذلك فليس أهلاً لطلب الدين من أصوله. وحذف المضاف إلى العشواء وأقام المضاف إليه مقامه، واستعار وصف الخبط له باعتبار أنه طالب للعلم من غير استكمال شرائط الطلب، وعلى غير وجهه فهو متعسّف سالك

على غير طريق المطلوب كالناقة العشواء. وكذلك لفظ الظلماء للشبه باعتبار أن الذهن لا يهتدي فيها لطلب الحق كالماشي في الظلماء.

المقصود الرابع: أمره بتفهم وصيته. ونبهه على جملة من صفات الله وأفعاله التي قد يتوهم التضاد والتناهي في إسنادها إلى مبدأ واحد، وأشار إلى أنها ليست بمتضادة، وأن مبدأها واحد. فأما الصفات فهو أن القادر على الموت ومن له أن يميت فهو القادر على الحياة وله أن يحيي باعتبار أن أسباب الموت والحياة تنتهي إليه، وكذلك الخالق هو المميت فإن فاعل الخلق هو مقدّر الموت الذي ينتهي إليه أسبابهما، وإلى هذين الاعتبارين الإشارة بقوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨] فيحيي ويميت باعتبار أنه الفاعل الأول لهما وباعتبار أنه الرب المطلق هو المالك الأول لهما، وكذلك المفني هو المعيد والمبتلي هو المعافي باعتبار انتهاء أسباب الفناء والإعادة والابتلاء والمعافاة إليه.

وقد علمت أن كل هذه الأمور اعتبارات عقلية تلحق معقوليّة الواجب سبحانه بالقياس إلى مخلوقاته وآثاره كما استقصيناه في الخطبة الأولى، وأما الأفعال فهو أنه تعالى لما خلق الدنيا لم يمكن خلقها واستقرار وجودها إلا على ما خلقها الله عليه من إفاضة ما يعد نعمة في حق بعض العبيد من مال وصحة ونحوهما، والابتلاء بما يعد بلاء من الفقر والمرض ونحوهما، وإن كانت النعماء أيضاً ابتلاء كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] . ثم لزوم الجزاء في المعاد لنفوس المبتلين والمنعم عليهم بحسب طاعتهم ومعصيتهم في النعمة والابتلاء، وكذلك خلقه لها على ما شاء مما لا يعلم وجه الحكمة فيه، واعلم أنه قد ثبت في أصول الحكمة أن المقصود من العناية الإلهية بالذات. إنما هو الخير.

وأما الشرور الواقعة في الوجود فكائنة بالعرض من حيث إنه لا يمكن نزع الخير وتجريده عنها. ولما كان الخير أغلب في الوجود، وكانت الشرور أموراً لازمة أقلية لم يمكن ترك الخير الكثير لأجلها لأن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير في الجود والحكمة، وذلك معنى قوله عليه السلام: وإن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه مما عددناه مما يعلم كونه خيراً أو شراً أو لا يعلم حاله: أي لم يكن خلقها إلا على ما فيها من خير مراد بالذات وشر مراد بالعرض، ولزوم الجزاء على السيئة وعقاب النفوس في المعاد عليها من الشرور اللازمة لما حصلت عليه من الهيئات البدنية والملكات الرديئة في الدنيا كما يعلم ذلك من موضعه.

وقوله: فإن أشكل. إلى آخره.

أي فإن أشكل عليك شيء من أسرار القدر، وخفي عليك وجه الحكمة فيه فلا تتوهم خلوه عن حكمة بل احمله على جهالتك به فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم علمت كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] الآية. ونصب أول على الظرف، وجاهلاً على الحال، وروي أول مرفوعاً بالابتداء وجاهل بالرفع خبراً له.

ثم نبهه على أكثرية ما يسبق جهله به من الأمور ثم يدركه فيما بعد ليجعل ما لا يدرك وجه الحكمة فيه من ذلك القبيل. ثم أمره بالاعتصام بالله واللجوء إليه في أموره، وأن يجعل له تعبّده وإليه رغبته ومنه شفقته لأنه تعالى أحق موجود بذلك وأولاه بالأمور المذكورة.

المقصود الخامس: الإشارة إلى فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء لزيادته عليهم في إيضاح الخبر عن الله تعالى، وبيان المطالب الحقيقية التي اشتمل عليها الكتاب العزيز من أسرار التوحيد والقضاء والقدر وأمر المعاد فإن أحداً من الأنبياء السابقين عليهم السلام لم يفصح عن هذه الأمور كإفصاحه، ولذلك كانت هداية هذه الأمة بتمام ما جاء به صلى الله عليه وآله أتم وأكمل من هداية سائر الأمم السابقة عما جاءت به أنبياؤها وكانت عيون بصائرهم أبسط أنواراً وأكثر انتشاراً. وغاية ذكر فضيلته صلى الله عليه وآله هنا أن يرضى برأيه ودلالته على طريق النجاة في الآخرة، واستعار له لفظ الرائد باعتبار أنه قد اختبر ما في الآخرة من الثواب المقيم والسعادة الباقية، وبشّر به أمته كما يبشّر الرائد أهله بوجود الكلأ والماء بعد ارتياده.

ثم أردف ذلك ببيان أنه لم يزل ناصحاً له وأنه لم يبلغ نظره لنفسه وإن اجتهد في ذلك مبلغ نظره له ليتأكد الإقناع برأيه وشوره عليه فيما يراه له. ونصيحة نصب على التميز.

الفصل الخامس: قوله:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ. لا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الأَشْيَاءِ بِلا نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلاَّ بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاَّ عَنْ قَبِيحٍ.

أقول: أشار في هذا الفصل إلى الحجة على وحدانية الصانع سبحانه، وعلى جملة من صفاته. ثمّ إلى ما ينبغي أن يفعله من ملاحظة عظمته تعالى من الصفات المذكورة فإذن هاهنا أبحاث:

البحث الأول: الحجة على وحدة الصانع، وهي شرطية متصلة مقدمها قوله: لو كان لربك شريك، وتاليها لأتتك رسله. إلى قوله: ولعرفت أفعاله وصفاته، ويستنتج منها استثناء نقيض اقسام التالي لينتج نقيض المقدم. بيان الملازمة: أنه لو كان له شريك لكان شريكه إلهاً مستجمعاً لجميع شرائط الإلهية وإلا لم يصلح للشركة لكن من لوازم الإلهية أمور:

أحدها: الحكمة في وجوب بعثة الرسل إلى الخلق ووصولهم إليه لما علمت من برهان وجوب البعثة في موضعه.

الثاني: يلزم أن يكون آثار ملكه وسلطانه وصفات أفعاله ظاهرة مشاهدة.

الثالث: أن يعرف أفعاله وصفات ذاته. لكن هذه اللوازم كلها باطلة:

أما الأول: فلأنه لم يأتنا رسول ذو معجزة يدلنا على الثاني ويخبرنا عنه.

وأما الثاني: فهو أن آثار الملك والسلطان وعظمة الملك وإحكامه إنما يدل على حكيم قادر فأما على التعدد فلا.

وأما الثالث: فلأن مجرد الأفعال التي نشاهدها إنما يدل على فاعل فأما التعدد فلا، وكذلك صفات الإلهية المكتسبة بواسطة الأفعال من العلم والقدرة والإرادة وغيرها. إنما يدل على صانع موصوف بها فأما على صانعين أو أكثر كذلك فلا. فإذن القول بأن لربنا شريك قول باطل لا برهان عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] الآية.

وقوله: إله واحد كما وصف نفسه. من لوازم النتيجة لأنه إذا بطل القول بثاني الإله ثبت أنه إله واحد كما وصف هو نفسه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦] وأنه لا يضاده في ملكه أحد: أي يعانده في أفعاله وينازعه في ملكه كما هو عادة الملوك. واعلم أن هذه الحجة إقناعية كما هو غاية الخطيب من الخطابة وليست برهانية لأنه إن أريد في الشرطية أن وجود الثاني يستلزم وجود آثار وأفعال وصفات تخصه ويعلم اختصاصه به. فالملازمة ممنوعة لأن الإلهين سواء كانا متفقي الحقيقة أو مختلفي الحقيقة لا يلزم أن يختلف أفعالهما ولوازمهما بالنوع ويتخصص كل منهما بلازم خاص وفعل خاص لا يوجد للآخر بل جاز أن يتفقا في اللوازم والآثار، وإن أريد أن وجوده يستلزم أن يعرف آثار وأفعال ولوازم لا تخصّه. بل جاز أن يشاركه فيها الإله الآخر فهذا مسلم لكن لا يمكن الاستدلال ببطلان التالي هاهنا، وهو ظاهر لأنا نرى آثار ملك وأفعال ولوازم وصفات لا تدلّ على أحدية فاعلها والموصوف بها ولا على إثنينيته وإنما يدل على مطلق فاعل وملزوم ما. فلا يمكن بطلانها ورفعها لأن رفعها يستلزم رفع وجود الإله المطلق لاستلزام عدم اللازم عدم الملزوم لا رفع التالي خاصة.

البحث الثاني: كونه تعالى لا يزال أبداً وأنه لم يزل، وهو إشارة إلى دوام وجوده وثباته أزلاً وأبداً، وبرهانه أنه تعالى واجب الوجود، وكل واجب الوجود لذاته فهو دائم الوجود وثابته أزلاً وأبداً: أما الصغرى فقد مرّ برهانها، وأما الكبرى فلأنه لو جاز عليه الزوال والعدم لما كان واجب الوجود لذاته، وفساد التالي يستلزم فساد المقدم. فإذن هو دائم الوجود أزلاً وأبداً. أما الصغرى فقد مرّ برهانها، وأما الكبرى فلأنه لو جاز عليه الزوال والعدم لما كان واجب الوجود لذاته، وفساد التالي يستلزم فساد المقدم. فإذن هو دائم الوجود أزلاً وأبداً.

البحث الثالث: كونه أولاً قبل الأشياء بلا أولية لوجوده، وكونه آخراً بعد الأشياء بلا نهاية لوجوده.

أما الأول: فلأنه لو كان لوجوده أولية لكان مسبوقاً بالعدم فكان محدثاً فكان ممكناً. هذا خلف.

وأما الثاني: فلأنه لو كانت آخريته منقطعة بنهاية لكان ملحوقاً بالعدم فلم يكن واجب الوجود لذاته. هذا خلف.

البحث الرابع: كونه أعظم من أن يثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر: أي هو أعظم أن يطلع أحد بقلبه أو بصره على كمال صفات ربوبيته والاعتبارات المعتبرة فيها، ووجه الشبه على ذلك أنك علمت أن صفة الربوبية وسائر صفات الإلهية باعتبار الخارج نفس حقيقته تعالى، وباعتبار العقل أمور يعتبرها لمعقولية ذاته بالقياس إلى مخلوقاته وآثاره وعلى الوجهين فهو أعظم من أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر.

أما في الخارج فلأن صفة ربوبيته هي نفس ذاته فكانت إحاطة العلم بها موقوفة على إحاطته بكنه ذاته، وقد علمت أنها بريئة عن وجوه التركيب فيمتنع الإحاطة بها لغيرها، وأما في العقل فلأن اعتبار صفة الربوبية وإحاطة العقول بها موقوفة على الإحاطة بجميع اعتبارات صفات الكمال ونعوت الجلال. إذ اعتبار ربوبيته المطلقة مستلزم لاعتبار الإلهية المطلقة المستلزم لاعتبار جميع ماله من صفات الإلهية، وقد علمت أن تلك الإعتبارات غير متناهية فهي أعظم أن يحيط بها عقل بشري فضلاً أن يتعلق بها إدراك بصري.

البحث الخامس: اعلم أنه لما نبّهه على عظمة الله سبحانه وكمال ذاته في الاعتبارات المذكورة أمره أن يفعل كما ينبغي أن يفعله من هو مثله في النقصان بالنسبة إلى عظمة الله سبحانه فيطيعه حق طاعته ويعبده بكمال عبادته، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله، وعدد له وجوه النقصان ليعتبر حاله في كل منها بالقياس إلى كمال ذاته تعالى ليعلم صغر منزلته بالنسبة إلى عظمته تعالى، وقلّة مقدرته وكثرة عجزه بالنسبة إلى كمال قدرته. وكذلك عظم حاجته إلى ربه في كل حال من طلب توفيقه وإعداده لطاعته والرهبة من عقوبته والإشفاق من سخطه كل ذلك بالنسبة إلى غناه المطلق في كل شيء عن كل شيء.

وقوله: فإنه. إلى قوله: قبيح.

تنبيه إجمالي على وجوب طاعته تعالى في كل ما أمر به ونهى عنه. وجذبه إلى فعل كل مأمور به بكونه حسناً وإلى الانتهاء عن كل شيء منهي عنه بكونه قبيحاً. وقد علمت أن الغاية من بعثة الرسل ووضع الشرائع والسنن هي نظام أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم. فلا بد إذن في كل أمر أو نهي من سرّ وحكمة يوجب حسن المأمور به وقبح المنهي عنه، ولهذا الكلام ونحوه تعلّقت المعتزلة بمسألة الحسن والقبح العقليين، وبالله التوفيق.

الفصل السادس، قوله:

يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ أَلَماً، وَلا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ

مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلا تَظْلِمْ كَمَا لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِما تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلا تَقُلْ مَا لا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلا تَقُلْ مَا لا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ. فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

أقول: يحذو: يقتدي. والسفر: المسافرون. وأموا: قصدوا. والجناب: الفناء والمنزلة. والمريع: ذو الكلاء والخصب. ووعثاء السفر: مشقته. وجشوبة المطعم: غلظته. وهجم: وقع بغتة. والكدح: الكسب.

وفي الفصل مطلوبان:

أحدهما: أنه نبهه على حالتي الدنيا والآخرة، وذكره بما أخبره به عنهما من ضرورة زوال الدنيا وانتقالها وبقاء الآخرة، وما أعد لأهلها فيها من السعادة الباقية الذي اشتمل على تعديد أنواعها الكتاب العزيز والسنة الكريمة، وضرب لطالبهما مثلين ليكون ممن أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة. فالمثل الأول: مثل من خبر الدنيا وعرف زوالها وانتقالها، وخبر الآخرة وعرف بقاءها وما أعد فيها لأهلها، ومثلهم بقوم مسافرين فارقوا منزلاً جديباً إلى منزل خصيب، ووجه مطابقة هذا المثل أن النفوس البشرية لما كانت في عالم المجردات، وكانت الحكمة في هبوطها إلى هذا العالم ومقارنتها لهذه الهياكل الجسمانية الكثيفة في دار الغربة ومحل الوحشة من عالمها هو أن يحصل بواسطتها الكمالات العقلية التي إنما تمكن لها بواسطتها، ثم يرجع بعد الاستكمال عنها إلى عالمها الأعلى طاهرة عن علائق هذه الهياكل وهيئاتها الرديئة كما أخذ عليها في العهد القديم كانت كل نفس حفظت عهد ربها وبقيت على صراطه المستقيم وهي المدة المضروبة لها ناظرة بعين الاعتبار الى أن الدنيا كالمنزل الجديب خال عن المطاعم الحقيقية والمشارب العذبة الهنيئة فهو لذلك غير صالح للاستيطان والإقامة، وأن عالم الآخرة كالمنزل الخصيب والجناب المريع من وصل إليه مستقيماً على أوامر الله ونواهيه فاز بالمقاصد السنية واللذات الباقية فكانت أبداً في طريق السفر في منازل طريق الله والاستعداد للوصول إلى بهجة حضرته الشريفة محتملة لمشقّة ذلك السفر من معاناة الجوع والظمأ ومقاساة السهر قصداً إلى سعة الدار. ومنزل القرار لا تجد من ذلك ألماً ولا تعد ما تنفقه من المال والعمر فيه مغرماً ولا شيء أحب إليها من وسيلة تقرّبها إلى ذلك المنزل الذي أمته والجناب الذي قصدته فأشبهت في ذلك من وصل إلى منزل جديب. ثم علم أن أمامه منزلاً خصيباً فاقتضى رأيه الحسن أن يحتمل وعثاء السفر ومشقته إليه ليحصل على الراحة الكبرى.

وأما المثل الثاني: فهو مثل أهل الدنيا الذين قادتهم نفوسهم الأمارة بالسوء إليها فغفلوا فيها عما وراءها ونسوا عهد ربهم وأعرضوا عما ذكروا به من آياته، وشبّههم بقوم كانوا في منزل خصيب فنبا بهم إلى منزل جديب، فالمنزل الخصيب في هذا المثل هو الدنيا لأنها محل سعادة أهلها ونعيمهم، والمنزل الجديب هو الآخرة. إذ لم يكونوا قد استعدوا لدرك السعادة فيها، ووجه تشبيههم بالقوم هو ما ذكره من أنه ليس شيء أكره إليهم. إلى آخره: أي ليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما هم فيه من الدنيا إلى ما يهجمون عليه بغتة من الأهوال، ويصيرون إليه من مقاساة السلاسل والأغلال كما أنه ليس شيء أكره إلى القوم من مفارقة منزل خصيب كانوا فيه إلى منزل جديب يهجمون عليه، وإلى هذين المثلين أشار الرسول ﷺ، الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

المطلوب الثاني: الوصية بإصلاح معاملته مع الخلق. فأشار عليه أن يجعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره، ووجه استعارة لفظ الميزان له أنه يكون ذا عدل بين نفسه وبين الناس كالميزان، ثم شرح وجوه العدل والتسوية التي أمره أن يكون ميزاناً باعتبارها فمنها أمور ثبوتية، ومنها أمور سلبية:

فالأول: أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وفي الحديث المرفوع: لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. وسرّ الحديث أن ذلك من كمال فضيلة العدالة التي هي من كمال الإيمان.

الثاني: أن لا يظلم كما لا يحب أن يُظلم فيسلم من رذيلتي الظلم والانظلام.

الثالث: أن يحسن إلى الغير كما يحب أن يُحسن إليه، والإحسان فضيلة تحت العفة.

الرابع: أن يستقبح من نفسه ما يستقبح من غيره فينزجر عن جميع مناهي الله وهو من لوازم المروة، ولذلك قال أحنف إذ سئل عن المروة: هي أن تستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك.

الخامس: أن يرضى من الناس ما يرضاه لهم من نفسه: أي كل ما رضي أن يفعله بهم من خير أو شر إن فعله فينبغي أن يرضى بمثله منهم، وفيه تنبيه على أنه لا يجوز أن يفعل الشر لعدم لازمه وهو الرضا منهم به.

السادس: أن لا يقول ما لا يعلم وإن قلّ ما يعلم، وإنما قال: وإن قل ما يعلم لأن تصور قلة العلم قد يكون داعية لبعض الناس إلى أن يقول بغير علم لئلا ينسب إلى الجهل فيضل ويضل كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

السابع: أن لا يقول لأحد ما لا يحب أن يقال له كالمواجهة بالعيوب والألقاب المكروهة وكل كلام مؤذٍ.

الثامن: نبهه على وجوب ترك الإعجاب بأنه ضد الصواب. ولما كان الصواب هو سلوك طريق الله باستجماع مكارم الأخلاق وكان الإعجاب من رذائل الأخلاق كان مضاداً للصواب مضادة الرذيلة للفضيلة، وبأنه آفة للعقول. إذ هو من أكبر أمراض العقل وآفاته المهلكة له كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله: ثلاث مهلكات: إلى أن قال: وإعجاب المرء بنفسه.

التاسع: أن يسعى في كدحه: أي فيما ينبغي له من كسب الطاعات، وقيل: أراد بالكدح ما اكتسبه من المال وما ينبغي فيه إنفاقه في سبيل الله.

العاشر: أن يكون عند هداية الله إياه لرشده أخشع ما يكون لربه، وذلك أن الهداية للرشد هي العلم بالطريق إلى الله تعالى في جميع ما عدد من مكارم الأخلاق. والعلم بالطريق المؤدية إليه حين سلوكها يستلزم ملاحظة جلاله وعظمته وهناك يكون الخشوع الحق والخشية التامة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

الفصل السابع: قوله:

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لا غِنَى لَكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذٰلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ. وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامك عَقَبَةً كَؤُوداً، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لا مَحَالَةَ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ»، وَلا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ

قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الإِسْتِعْتَابِ؛ فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ. وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ. فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لا يَبْقَى لَكَ وَلا تَبْقَى لَهُ.

أقول: الإرتياد: الطلب. والطوق والطاقة: ما يتسع له قدرتك. والوبال: الهلاك. وكؤد: شاقة المصعد. والنزوع عن الذنب: الخروج منه. والإفضاء: الوصول. والبث: النشر والكشف. والشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر. والقنوط: اليأس. والاستعتاب: طلب العتبى وهي الرجوع إلى الرضا.

وفي الفصل مطالب:

أحدها: الوصية بالسعي في تحصيل الكمالات النفسانية الباقية.

والثاني: طرح الرذائل المنقصة فنبهه على الأول بأن أمامه: أي في سفره إلى الله طريقاً طويلاً شديداً، وظاهر أن الطريق الذي يكون لذلك لا بد لسالكه من حسن طلب القصد فيه إلى مطلوبه، ومن قدر مبلغ له من الزاد، واستعار له لفظ الطريق لما يسير فيه الإنسان من أحوال الدنيا ويعبر منها إلى الآخرة. وأشار بطولها وشدتها إلى عسر النجاة فيها والسلامة من خطرها. إذ كان ذلك إنّما يكون بلزوم القصد والثبات على سنن العدل والاستقامة على حاقّ الوسط من مكارم الأخلاق. إذ علمت أن لكل من القوة التميزية والشهوية والغضبية حدّ يجب وقوف الإنسان عنده وهو العدل، وعلمت أنه أدقّ الحدود وأصعبها. إذ هو محتوش بطرفي تفريط وإفراط قل ما يسلم الإنسان من الوقوع في أحدهما، وهما طريقا جهنم.

فالبحري أن يكون طريقاً ذا مسافة لا يصل الإنسان منها إلى غايته إلا على بعد بعيد، ولا يحصل منها على خبير إلا بجهد جهيد، واستعار لفظ الزاد للتقوى والكمالات التي هي بلاغ الإنسان في تلك الطريق إلى الله تعالى، وبهذا تكون النجاة فيها والخلاص من مهالكها، ونبهه على الثاني بقوله: مع خفة الظهر. إلى قوله: وبالاً عليك. واستعار لفظ الخفة لتقليل اكتساب الآثام وحملها على النفس، ولفظ الحمل لاكتسابها.

ووجه الاستعارة الأولى: أن مقلل الآثام سريع القطع لتلك الطريق قريب إلى النجاة فيها من مخاوفها كما قال عليه السلام: تخفّفوا تلحقوا. وكما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله: نجا المخفّون.

ووجه الثانية: أن مكتسب الآثام يثقل بها ويبطىء عن لحوق المخفّين ويهلك بها في طريقه، وكثرة تخلّفه تابعة لكثرة اكتسابه كما يكون حال المثقل في الطريق البعيدة، ولفظ الظهر ترشيح المطلوب.

الثالث: التنبيه على وجوب إنفاق المال في وجوه الصدقة والبر لمن يحتاج إليه من أهل الفاقة، وذلك

قوله: وإذا وجدت. إلى قوله: عسرتك. وجذبه وأعده لذلك بأمرين:

أحدهما: كون ذلك زاداً يحمله ذو الفاقة إلى يوم القيامة، ويلقاه به هناك في موضع الحاجة إليه. واستعار لفظ الزاد هنا لما يحصل من فضيلة السخاء والكرم بالإنفاق، ووجه الاستعارة كونه سبباً لسلامة النفس من الهلاك في طريق الآخرة ووسيلة إلى السعادة الباقية كالزاد المخلص للمسافر في طريقه والمبلغ له إلى مطالبه، واستعار للمتصدق عليه وصف الحامل لذلك الزاد باعتبار أنه سبب لحصول الفضيلة بتلك الصدقة ووصول ثوابها إلى المتصدق يوم القيامة فوجدانه لتلك الفضيلة وظهورها في صحيفة أعمال المتصدق يوم القيامة هو المشار إليه بالموافاة بها غداً.

ثم أمره أن يغتنم ذا الفاقة عند وجدانه، وأن يحمله ذلك الزاد ويكثر من تزويده وتحميله للزاد حينما هو قادر على تحصيله، وجذب إلى اغتنامه والمسارعة إلى الصدقة بقوله: فلعلك تطلبه فلا تجده. لأن الوسيلة إلى أمر عظيم إذا كان في معرض أن يطلب فلا توجد ثم وجدت في وقت فمن الواجب أن يغتنم تحصيلها ولا تهمل.

الثاني: كون الصدقة. على ذي الفاقة قرضاً للمتصدق في حال غناه بالمال يقضي له يوم عسرته وفقره، واستعار وصف المستقرض هنا لله باعتبار أنه هو المجازي بالثواب من أنفق ماله في طاعته، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ونبه بكون القرض في حال الغناء، والقضاء في حال العسرة ليكون القضاء أفضل فيرغب في القرض لغاية الربح المطلوب.

الرابع: التنبيه على شدة طريق الآخرة وعلى وجوب الاستعداد لها بالخفة من حمل الآثام والسرعة فيها قبل انقضاء الأيام، واستعار لفظ العقبة لما فيها من الصعود والارتقاء في درجات الكمال بالفضائل عن مهابط الرذائل، ووصفها بشدة الصعود باعتبار ما في ذلك الارتقاء من التعسر وكثرة الموانع.

وجذب إلى الاستعداد بأمور ثلاثة:

أحدها: كون المخفّ فيها أحسن حالاً من المثقل، وهو ظاهر كما قدمناه.

الثاني: كون المبطىء فيها أقبح حالاً من المسرع وهو أيضاً ظاهر. إذ كان المبطىء فيها واقفاً في أحد طرفي الإفراط والتفريط مشغولاً بما يلهيه ملتفتاً عما يعينه حتى إذا تصرم أجله بقي في مهاوي الهلاك أسيراً وعلى ما فاته من سرعة السير حسيراً.

الثالث: ذكر الغايتين منها وهي الجنة والنار. وأنه لا بد من تأديتها وهبوطها بسالكها على أحدهما، وهو ظاهر أيضاً. فإن خوض الإنسان في أحوال الدنيا والتصرف فيها إلى غاية انقطاعها ووصول الآخرة. إما أن يكون على وجه القصد، ولزوم سمت القبلة الحقيقية وتجنّب طريق طرفي الإفراط والتفريط وبذلك يكون هجوم تلك الطريق وهبوطها بسالكها على الجنة.

وإما أن يكون على وجه الانحراف عن ذلك القصد، والتعريج عنه إلى ما في تلك الطريق من مناهي الله وأبواب محارمه، وبذلك يكون هبوطها بسالكها على النار، ونسبة الهبوط إليها مجاز باعتبار تأدّيها إلى إحدى الغايتين كالهابط بالشيء ليوصله إلى قراره.

ثم أمره أن يرتاد لنفسه ويطلب ما يكون سبباً لنجاته فيها وحسن حاله قبل نزول أحد المنزلين اللذين هما غايتاها ليكون هبوطها به على الجنة، وأن يوطىء المنزل الذي يريد سكناه بالاستعداد له. وروي: يوطن - بالنون - أي يتخذه وطناً.

المطلوب الخامس: التنبيه على الدعاء والترغيب فيه، وسرّه دوام ملاحظة جلال الله والانقطاع إليه. إذ هو مبدأ كل محبوب ومعطي كل مطلوب.

ورغب في ذلك بأمور:

أحدها: أن بيده تعالى خزائن السماوات والأرض، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك كان أحق بالرغبة إليه من كل أحد.

الثاني: أنه تعالى أذن في الدعاء وتكفّل بالإجابة فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وتقدير الكبرى فكالأول.

الثالث: انه أمر الخلق أن يسألوه ليعطيهم في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢] وكذلك أن يطلبوا منه الرحمة ليرحمهم، وذلك أن إفاضة الرزق والرحمة وكل فضل منه إنما يوجد بعد الاستعداد له بالإخلاص في الطلب والاسترحام وغيره كما علم في مظانه، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فواجب أن يسأل ويسترحم.

الرابع: أنه لم يجعل بينه وبين الراغب إليه حاجباً ولا بواباً لتقدسه سبحانه عن الجسمية والجهة وصفات المحدثات. بل تجلى في كل شيء لكل من فتح عين بصيرته ووجهها إلى مطالعة كبريائه وعظمته، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فهو أولى من يُسأل ويسترحم.

الخامس: أنه لم يلجئه إلى من يشفع إليه لأن الشفيع إنما يضطر إليه عند تعذّر المطلوب من جهة المرغوب إليه إما لبخله أو جهله باستحقاق الطالب. والباري تعالى لا بخل فيه ولا منع من جهته، وإنّما يتوقف فيضه على استعداد الطالب له ولم يجعل سبحانه للراغبين إليه ضرورة إلى الشفعاء. إذ مكّنهم من الاستعداد لنيل مطلوباتهم منه وهيأ لهم أسبابها، وفتح لهم أبواب رحمته فإن عرضت لهم حاجة إلى شفيع فليس ذلك عن ضرورة وإلجاء منه إلى ذلك.

السادس: أنه لم يمنعه إن أساء من التوبة بل أمره بها ووعده عليها فقال: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة، وقال بعد أن عدد الكبائر وتوعد عليها: إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات الآية.

السابع: أنه لم يعاجله بالنقمة مع اطلاعه عليه حين معصيته ولم يفضحه في مقامه الذي تعرض فيه للفضيحة بل أمهله على ظلمه وأسبل عليه ستر كرمه وحلمه.

الثامن: أنه يشدّد عليه في قبول الإنابة، والرجوع إليه كما يفعله الملوك في حق من أساء وطلب الإقالة، ولم يناقشه بجريمته وذنبه فيستقصي في حسابه بل سهل عليه في ذلك وقبل توبته متى شاء لأنه تعالى لا مضرّة عليه بإساءة مسيء ولا نفع يصل إليه من انابة منيب. إذ هو الغني بالمطلق.

التاسع: أنه لم يؤيسه من الرحمة حيث قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]

العاشر: أنه جعل نزوعه عن ذنبه وتوبته منه حسنة حيث قال بعد ذكر التوبة: فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وحسب سيئته واحدة وحسنته عشراً حيث قال: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها.

الحادي عشر: كونه فتح له باب المتاب حيث قال: غافر الذنب وقابل التوب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وباب الاستعتاب حيث أمره وأرشده إلى طلب الرضا عنه بعد توبته.

الثاني عشر: كونه إذا ناداه سمع نداءه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وإذا ناجاه علم نجواه لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] فأوصل إليه حاجته إن شاء سراً وإن شاء جهراً، وطلب منه إعانته على أموره، ونشر له ما كان في نفسه من مهماته، وسأله كشف كروبه. فوهب له من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق.

الثالث عشر: أنه جعل في يديه مفاتيح خزائنه بما أدت له من مسألته، واستعار لفظ المفاتيح للأدعية باعتبار أنها أسباب لتحصيل النعمة وكمال الرحمة متى شاء استفتح بها أبواب خزائنها، وكذلك استعار لفظ الأبواب لأسباب جزئيات النعم الواصلة إلى العبد. وخزائن نعمه هي خزائن السماوات والأرض. إذ الكل منه وبيده، ويحتمل أن يشير بها إلى المعقول من سماء جوده وما تحويه قدرته من الخيرات الممكنة، واستعار وصف الاستمطار لطلب نعم الله تعالى ملاحظة لشبهها بالمطر في كونهما سببين للحياة وصلاح الحال في الدنيا ويشبه طالبيهما بالمستمطر، ورشح بذكر الشآبيب، وتقدير الكبرى في كل واحد من هذه الضمائر: وكل من كان كذلك فهو أحق بأن يرغب إليه ويوجه الطلب نحوه،

واعلم أنه لما رغّبه في الدعاء بهذه الجواذب نبهه على أن الإجابة في الدعاء قد تبطىء وتتأخر. ثم عدد ما يصلح أسباباً لتأخرها ليلحظها عند تأخرها فلا يقنط منها:

أحدها: أن العطية على قدر النية: أي أن الإجابة موقوفة على الاستعداد بإخلاص النية فإذا تأخرت الإجابة فلعل تأخرها لأن النية لم تكن خالصة.

الثاني: أنها ربما أخرت لعلم الله تعالى أن تأخيرها من أسباب استعداد السائل والمؤمل استعداداً أعلى لعطاء ما هو أعلى وأشرف مما سأل فيعطاه عند كمال استعداده لأنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وبقدر الكد يكتسب المعالي.

الثالث: أن المطلوب قد لا يكون فيه مصلحة للعبد لاشتماله على مفسدة في دينه لو أعطي إيّاه كالغنى والجاه مثلاً وسائر المطالب الدنيوية الخالصة فلا يجيب الله سؤاله فيه بل يعطيه خيراً منه إما في عاجل دنياه أو في آجل آخرته ويصرف ذلك الأمر عنه لما هو مصلحة له أو خير. ثم ختم ذلك بتعريفه مواقع مسألته لله وما ينبغي أن يسأله إياه وهو ما يبقى له جماله وينفى عنه وباله من التوفيق لأسباب السعادة الباقية وجميل الأحدوثة في الأعقاب دون المال.

الفصل الثامن: قوله:

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ. وَلا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ؛ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ؛ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!

أقول: منزل قلعة: لا يصلح للاستيطان. والبلغة: ما تبلغ به من العيش. الأزر: القوة. ويبهره: غلبه وأتعبه، وأصل البهر تتابع النفس من التعب. وأخلد إلى كذا: استند إليه. والتكالب: التواثب. والمساوي: المعائب. والضراوة: تعوّد الصيد والجرأة عليه. والمعقلة: المقيدة. والمجهول والمجهل: المفازة التي لا أعلام فيها. وواد وعث: لا يثبت به خفّ ولا حافر لكثرة سهولته. والمسيم: الراعي.

أحدها: أن العلة الغائية من خلقه ووجوده هي الآخرة دون الدنيا والموت والفناء دون الحياة والبقاء، وهذه الأمور علل عرضية من وجود الإنسان لكونها من ضرورات وجوده، وأما العلة الحقيقية الأولى من وجوده فهي استكماله ووصوله إلى حضرة ربه طاهراً عن علائق الدنيا، وذكره بهذه الغايات التي يجزم بالوصول إليها ليعمل لها ولما بعد الموت، ويقل العرجة على الدنيا وعمارتها ولا يركن إلى البقاء فيها لكونها أموراً عرضية زائلة.

الثاني: نبهه بكون الدنيا منزل قلعة على أنها منزل عبور لم تخلق للاستيطان والإقامة، وبكونها دار بلغة

على أنها إنما خلقت ليتّخذ منها الإنسان بلاغاً للوصول إلى الآخرة وزاداً لكونها طريقاً إليها.

الثالث: نبهه على أنه طريد الموت، واستعار له لفظ الطريق ملاحظة لشبهه بالصيد يطرده السبع وغيره. ثم وصف الموت بكونه لا ينجو منه هارب ولا بد أنه مدركه تحذيراً منه وجذباً إلى الاستعداد له بطاعته المقاومة لأهواله وشدائده، ولذلك قال: فكن منه على حذر. إلى قوله: نفسك: أي ببقائك على الحال السيئة تحدث نفسك فيها بالتوبة إلى أن يدركك، ويحول عطف على يدركك، وإذا للمفاجأة.

الرابع: أمره بالإكثار من ذكر الموت وما يهجم عليه فإن ذلك يستلزم العبرة والانزجار والأخذ في الأهبة والاستعداد له ولما بعده، ولذلك قال: حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك وشددت له قوتك: أي بالكمالات التي استعددت بها ولا يأتيك بغتةً فيتبعك، وقوله: ولا يأتيك عطف على قوله: حتى يأتيك، والواو في قوله: وقد للحال، وكذلك بغتة حال ويبهرك منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النفي.

الخامس: نهاه أن يغترّ باستناد أهل الدنيا إليها وتواثبهم عليها، ونبهه على أنه لا ينبغي له ذلك الاغترار بقياسات ضمير.

فقوله: فقد نبّأك الله . إلى قوله: عنها.

هو صغرى القياس الأول كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] في مواضع كثيرة من كتابه العزيز وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٢٤] الآية وأمثاله.

وقوله: ونعت لك نفسها.

صغرى القياس الثاني، وروي: ونعت. بمعنى أن الله وصفها له، ومعنى نعتها لنفسها وصفها بلسان حالها لنفسها، وبيان أنها محل الهموم والغموم والأعراض والأمراض ودار كل بلاء ومنزل كل فتنة.

وقوله: وإنما أهلها. إلى آخره.

صغرى القياس الثالث، وتقدير الكبرى في القياس الأول: وكل من أخبر الله تعالى عنه بذلك فلا ينبغي أن يغتر به، وتقديرها في الثاني: وكل من وصف نفسه كذلك فلا ينبغي أن يغتر به، وتقديرها في الثالث: وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يغترّ بفعله، واعلم أنه أشار في هذين المثلين إلى قسمة أهل الدنيا أولاً بقسمين بحسب اعتبار قواهم الغضبية والشهوية واتباعهم لها: أي فمنهم من اتبع قوته الغضبية وأعطاها مقتضاها، ومنهم من اتبع قوته الشهوية واسترسل في قيادها وغفل عما خلق لأجله، وضرب المثل للأولين بالكلاب العاوية والسباع الضارية. وأشار إلى وجه مطابقة المثل بقوله: يهر. إلى قوله: صغيرها.

ووصف الهرير مستعار لتنازعهم عليها، وكذلك لفظ الأكل لغلبة بعضهم على بعض. وضرب للآخرين مثل النعم باعتبار غفلتهم عما يراد بهم كالبهائم، ثم قسم هؤلاء إلى قسمين: معقلة ومهملة، واستعار لفظ المعقلة للذين تمسكوا بظواهر الشريعة والإمام العادل فقيّدهم بالدين عن الاسترسال في اتباع الشهوات والانهماك فيها وإن لم يعقلوا أسرار الشريعة فهم كالنعم التي عقلها راعيها. وأشار بالمهملة إلى الذين استرسلوا في اتباع شهواتهم وخرجوا عن طاعة إمامهم ولم يتعبّدوا بأوامره فهم كالبهائم المرسلة.

وأشار إلى وجه المشابهة بقوله: التي أضلت عقولها. إلى آخره، ويحتمل أن يريد بعقولها عُقُلها جمع عقال فأشبع الضمة وقلبها واواً متابعة لقوله: مجهولها، ويحتمل أن يريد به جمع عقل وهو الملجأ: أي أنها ضيّعت من يلجأ إليه، وهو إمامها، ووجه مطابقة هذا المثل أن هؤلاء في عدم انتفاعهم بعقولهم وركوبهم لأهوائهم الفاسدة وشروعهم في مشتهياتهم الدنيوية مكتسبين للرذائل والعاهات النفسانية ليس لهم إمام يقيمهم على طاعة الله في طرق الهدى إلى مكارم الأخلاق قد أشبهوا النعم المهملة التي أضلت عقلها وركبت المفازة فهي سروح مترددة متحيّرة بواد وعث ليس لها راع يرعاها ويقيمها إلى المرعى.

وروي سروح آفة: أي فهي سارحة عن آفة قد خرجت بها عن الانتفاع.

والرواية الثانية أقرب إلى الصواب وأراد بطرق

العمى طرق الجهل ومسالك الباطل التي لا يهتدى فيها لشيء كما لا يهتدي الأعمى للطريق، ونسب السلوك بهم إليها باعتبار أنها سبب لغرورهم وغفلتهم عما وراءهم، وكذلك أخذها بأبصارهم: أي بأبصار عقولهم عن منازل الهدى وهي آيات الله ومنازل الطريق إليه، وأشار بتيههم في حيرتها إلى ضلالهم عن طرق الحق، واستعار لفظ الغرق باعتبار استيلاء نعيمها على عقولهم وتملكه لها كما يستولي الماء على الغريق، واتخاذهم لها رباً باعتبار خدمتهم لها. فلعبت بهم إذ كانوا عبيداً لها، ولعبوا بها إذا اشتغلوا بها غير منتفعين، وضيّعوا ما الأولى بهم فعله، ونسوا ما وراءها مما خلقوا لأجله.

الفصل التاسع: قوله:

وَاعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً، وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لا يُنَالُ إِلاَّ بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لا يُنَالُ إِلاَّ بِعُسْرٍ؟!

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وَتَلافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدِ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ. بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً. وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ. وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ! لا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ. احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلا أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً تَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلا تُضِيعَنَّ حَقَّ

أَخِيكَ اتِّكالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلا تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ. وَلا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

أقول: تعدوه: تجاوزه. والتخفيض: التسهيل على النفس. والحرب: سلب المال. والإجمال في الطلب: التسهيل فيه حتى يكون جميلاً. وأوجفت: أسرعت. والمناهل: المعاطش. والحرفة: الضيق في الرزق والحرمان. وأهجر الرجل: إذا أفحش في منطقه. والرفق: اللين. وضده الخرق. والنوكى: الحمقى، جمع أنوك. والفرصة: وقت الإمكان. والظنين: المتهم. والصرم: القطع. ومحضه النصيحة: أخلصها له. والمغبة: العاقبة.

وقد اشتمل هذا الفصل على الوصية بلطائف من الحكمة العملية ومكارم الأخلاق التي بها ينتظم أمر المعاش والمعاد، وصدّره بالتنبيه على ضرورة الموت ليبني عليه ما يريد أن يوصيه به من مفردات الحكم. وذلك التنبيه بأمرين:

أحدهما: أن الإنسان في مدة عمره مسافر إلى الآخرة، وأن ذلك السفر ليس على مطايا محسوسة ولا في طرق محسوسة. بل المطية فيه الليل والنهار، واستعار لفظ المطية باعتبار أنهما أجزاء اعتبارية للزمان يعقب بعضها بعضاً وينقضي بانقضائها الزمان فينتقل الشخص بحسبها في منازل مدته المضروبة المقدرة له منه إلى أن تفنى مدته ويتم سفره إلى الآخرة. كما ينتقل في منازل طريقه المحسوسة إلى أن يتم سفره فيها، وكذلك لفظ المسافة مستعار لمدته المضروبة، ولذلك كان سير الزمان به سيراً اعتبارياً، وإن كان واقفاً وقوفه المتعارف ويقطع مسافة أجله راكباً تلك المطايا وإن كان وادعاً قاراً قراره الحسي.

الثاني: أمره أن يعلم يقيناً أنه لن يبلغ أمله. وذلك أن الإنسان أبداً في توجيه أمله في المطالب كلما حصل مطلوب منها أو أفسد وجه أمله فيه وجهه إلى مطلوب آخر وإن اختلفت المطالب، فالأمل أبداً متوجه إلى مطلوب ما ليس مدركاً في الحال، والإحالة في ذلك على الوجدان. فإذن ليس كل بمدرك، وكذلك لا يمكن أن يتجاوز الإنسان أجله المضروب له، وإلاّ لما كان أجلاً له. وهذان الأمران في قوة صغيرين لقياسي ضمير من الشكل الأول، وتقدير كبرى الأول: وكل من يسرى به كذلك فيوشك أن ينقطع مدته ويصل إلى الآخرة، وتقدير كبرى الثاني: وكل من لا يبلغ أمله ولا يتجاوز أجله وهو سالك بطريق من كان قبله فيوشك أن يلحق بهم، ولما نبه على ضرورة مفارقة الدنيا والوصول إلى الآخرة رتّب على ذلك الوصية بالحكم المذكورة، وذكر منها جملة:

الأولى: أن يخفض في طلب الدنيا ولا يحرص عليها بل يجعل طلبه لها بقدر حاجته إليها.

الثاني: أن يفعل الجميل فيما يكتسبه منها، وذلك أن يضع كل شيء منه موضعه فيمسك منه قدر ضرورته وينفق فاضله في وجوه البر ومصارف القربة، ويحتمل أن يريد بالمكتسب الاكتساب فأطلق اسم المفعول على المصدر مجازاً، ونحوه قول الرسول ﷺ: إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فأجملوا في الطلب.

وقوله: فإنه رب طلب. إلى قوله: محروم.

تنفير عن الخوض في الطلب بأمور ثلاثة:

أحدها: أنه قد تجرّ إلى الحرب، وذلك كما شوهد في وقتنا أن تاجراً كان رأس ماله سبعة عشر ديناراً فسافر بها إلى الهند مراراً حتى بلغت سبعة عشر ألفاً فعزم حينئذ على ترك السفر والاكتفاء بما رزقه الله فسوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء في العود، وحبّبت إليه الزيادة فعاود السفر فلم يلبث أن خرجت عليه السراق في البحر فأخذوا جميع ما كان معه فرجع وقد حرب ماله. وذلك ثمرة الحرص المذموم. وهو في تقدير صغرى ضمير، وتقدير كبراه: وكل ما جرّ إلى الحرب فلا ينبغي ان يحرص عليه.

الثاني: قوله: وليس كل طالب بمرزوق، وهو تمثيل نبه فيه على أن الطلب على الحرمان في بعض الطالبين حتى يقيس نفسه عليه فلا يحرص في الطلب.

الثالث: قوله: ولا كل مجمل بمحروم. تنبيه على تمثيل آخر كذلك نبه فيه على أن الإجمال علّة للرزق في بعض الناس ليقيس نفسه عليه فيجمل في الطلب.

الرابع: أن يكرم نفسه عن كل دنيّة وإن استلزمت وصوله إلى ما يرغب فيه ويتنافس عليه، وذلك كأن يكذب مثلاً أو يغدر ليصل إلى الملك ونحوه، والإكرام لها عن ذلك يستلزم فضائل كالسخاء والمروّة وكبر الهمة. إذ كل واحد من رذيلة البخل والنذالة وصغر الهمة يستلزم مقارفة الدنايا. فإكرام النفس عنها يستلزم الأمر بالحصول على فضائلها ونفّره عن مقارفة الدنيّة بقوله: فإنّك. إلى قوله: عوضاً: أي أن ما تبذله من نفسك من الفضيلة وتعدل عنه إلى الرذيلة لا يقاومه عند الله وعند أهل الفضائل من خلقه شيء وإن جلّ، ولا يكون لك عنه عوض. وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما لا يحصل له عوض يقابله ويساويه فلا ينبغي أن يبذل في مقارفة الدنايا.

الخامس: أن لا يكون عبد غيره: أي لا يجعل لغيره عليه فضل إحسان يسأله إياه فيسترقه به، ويستوجب بذلك على نفسه خدمته والاشتغال بشكره عن الله .

وقوله: وقد جعله الله حراً.

في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من جعله الله حراً فيقبح أن يجعل نفسه عبداً لغيره، وكذلك قوله: وخير خيره إلى قوله: إلا بعسر استفهام في معنى الاستنكار: أي لا خير في خير لا يوجد إلا بشر، ويسر لا ينال إلا بعسر، وكنّى بذلك الخير واليسر عما يطلب في مقارفة الدنايا ويصير الإنسان بسببه عبداً لغيره كالمال ونحوه، وبالشر والعسر المقارن له كبذل ماء الوجه في السؤال والذلة وغيرها من الدنايا، وهو أيضاً في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما لا خير فيه فلا ينبغي أن يطلب ويتعبد للغير من أجله.

السادس: حذّره من الطمع، واستعار لفظ المطايا لقواه الأمارة بالسوء كالوهمية والخيالية والشهوية والغضبية، ووجه المشابهة كونها حاملة لنفسه العاقلة وموصلة لها إلى المشتهيات وما يطمع فيه من متاع الدنيا كالمطايا الموصلة لراكبها إلى أغراضه، وكذلك وصف الوجيف لسرعة انقياده معها إلى المطامع الرديئة.

وقوله: فتوردك مناهل الهلكة.

فاستعار لفظ المناهل لموارد الهلاك في الآخرة كمنازل جهنم وطبقاتها، ووجه المشابهة كونها موارد شراب أهل النار المهلك كما قال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٥] والفاء في جواب النهي اللازم للتحذير المذكور، وهو في قوة متصلة هي صغرى ضمير تقديرها فإنّك إن أوجفت بك مطايا الطمع أوردتك مناهل الهلكة، وتقدير الكبرى: وكل مطية كذلك فيحرم ركوبها.

السابع: نهاه أن يجعل بينه وبين الله واسطة في وصول نعمته إليه إن استطاع ذلك وهو نهي عن مسألة الغير والتعرض لنواله بل ينتظر قسمه من رزق الله المفروض له من غير سؤال ذي نعمة يكون فيه بذل ماء الوجه والذلة والمنّة إن أعطى وبذله، والحرمان والذل إن حرم. ورغّبه في ذلك بضميرين:

أحدهما: قوله: فإنّك مدرك قسمك وآخذ سهمك: أي من رزق الله ، وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يجعل بينه وبين الله واسطة يطلب منه رزقه.

الثاني: قوله: وإن اليسير. إلى قوله: خلقه: أي ما حصل من جهة يحمد حصوله منها وهي الجهة التي أمر الله تعالى بطلب الرزق منها وإن كان يسيراً أكرم عنده وأشرف من الكثير من غير تلك الجهة كسؤال الغير والتعرض له، وتقدير الكبرى وكل ما كان أعظم فينبغي أن يكون هو المطلوب.

وقوله: وإن كان كل منه.

أي وإن كان الرزق من الخلق أيضاً من الله إلا أنه ينبغي أن يوجه الرغبة إليه ابتداء دون غيره. إذ هو مبدأ الكل وعنايته بالجميع واحدة.

الثامن: قوله: وتلافيك. إلى قوله: منطقك. تنبيه على وجوب ترجيح الصمت وتغليبه على كثرة الكلام بضمير هذه صغراه، وتقريرها أن الفارط من الصمت

وإن استلزم الخطأ كالسكوت عما ينبغي أن يقال من الحكمة أو ما يترتب عليه بعض المصالح إلا أنه يمكن استدراكه غالباً بما ينبغي من القول. وأما فارط القول فإن الخطأ فيه قد لا يمكن استدراكه.

وإن أمكن فعلى غاية من العسر. فلذلك كان تلافي فارط الصمت بالقول أسهل من تدارك فارط القول، ولقوة الخطأ في القول أكثر الناس في ذم الإكثار ومدح الصمت، والمنطق هنا يحتمل أن يريد به المصدر فيكون من لبيان الجنس، أو محل النطق فيكون لابتداء الغاية. وتقدير كبرى الضمير: وكل ما كان أيسر فهو أولى بك. ينتج أن تلافي فارط الصمت أولى بك، وذلك مستلزم لرجحان الصمت.

التاسع: نبهه على حفظ ما في يده من المال الحفظ الذي ينبغي وهو الواسطة بين التبذير والبخل. والكلام في قوة صغرى ضمير أيضاً وتقدير كبراه: وكل ما كان أحب إليّ من طلبك ما في يدي غيرك فهو أولى بك.

العاشر: نبّهه على فضيلة قطع الطمع واليأس عما في أيدي الناس بضمير أيضاً صغراه قوله: ومرارة اليأس. إلى قوله: الناس، وتقدير كبراه: وكل ما كان خيراً فهو أولى أن يلزم ويكرم النفس به، وأطلق لفظ المرارة على الألم الذي تجده النفس بسبب اليأس من المطالب إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، وكونه خيراً لما يستلزمه من إكرام النفس عن ذلّ السؤال ورذيلة المهانة. وإليه أشار الشاعر بقوله:

وإن كان طعم اليأس مرّاً فإنه
ألذ وأحلى من سؤال الأراذل

الحادي عشر: نبهه على وجوب الصبر في ضيق الرزق والحرمان إذا كان مع فضيلة العفة، وأن لزومه أولى من طلب الغنى المستلزم للفجور بضمير أيضاً صغراه ما ذكر، وتقدير كبراه: وكل ما كان خيراً من الغنى مع الفجور فلزومه أولى من طلب ذلك الغنى، وإنما كان كذلك لاستلزام تلك الحرفة الفضيلة واستلزام ذلك الغنى الرذيلة. وقد علمت أن العفة فضيلة القوة الشهوية وأنها بين رذيلتي تفريط يسمى خمود الشهوة وإفراط يسمى فجوراً.

الثاني عشر: نبهه على أنه لا يجوز إفشاء سره بتمثيله أصله المرء، والفرع هو المخاطب، والحكم كونه أحفظ لسره، والعلة كونه أكثر عناية بنفسه من غيره.

إذا ضاق صدر المرء من سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

الثالث عشر: نبهه بطريق التمثيل أيضاً على التحرز في السعي والتثبت في ارتياد المصالح بقوله: رب ساع فيما يضره. فالأصل هو الساعي، والفرع هو المخاطب، والعلة هي السعي، والحكم هو التضرر.

الرابع عشر: نبه على وجوب ترك الإكثار في القول بتمثيل أيضاً أصله المكثر، وفرعه المخاطب، وعلته الإكثار، وحكمه الهجر. والغرض أن يعتبر نفسه في لحوقها بالمكثرين في لزوم الهجر لهم فيترك الإكثار لما يلزمه من الهجر ولحوق الذم به.

الخامس عشر: نبه على فضيلة التفكر في الأمور بقوله: من تفكّر أبصر: أي أدرك بعين بصيرته حقائق الأمور وعواقبها.

السادس عشر: أمره بمقارنة أهل الخير بضمير دلّ على صغراه بقوله: تكن منهم، وتقديرها أن مقارنتهم تستلزم الكون منهم، وتقدير الكبرى: وكل ما استلزم الكون منهم فواجب أن يفعل.

السابع عشر: وكذلك أمره بمباينة أهل الشر ومفارقته لما يستلزمه المباينة لهم من عدم العداد في جملتهم في الدنيا والآخرة، ووجه الحجة كالذي قبله.

الثامن عشر: نبهه على قبح أكل الحرام لغاية اجتنابه بذمه بضمير صغراه ما ذكر، وإنما كان أقبح الظلم لكون الضعيف في محل الرحمة فظلمه لا يصدر إلا عن قلب قاس ونفس بعيدة من الرقة والرحمة والعدل، ولأنه غير مقابل من الضعيف بمدافعة وممانعة فكان أبعد عن العدل، وتقدير كبراه: وكل ما كان أفحش الظلم كان أولى أصناف الظلم بالترك والاجتناب.

التاسع عشر: نبهه على أن الرفق في بعض المواضع كالخرق في كونه مخلاً بالمصلحة غالباً ومفوّتاً للغرض فكان استعمال الخرق في ذلك الموضع كاستعمال الرفق

في استلزامه للمصلحة وحصول الغرض غالباً فكان أولى من الرفق في ذلك الموضع. ولفظا الخرق الأول والرفق الثاني مستعاران للرفق الأول والخرق الثاني لما ذكرناه من المشابهة، وإلى هذا المعنى أشار أبو الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

العشرون: نبهه على أن بعض ما فيه مصلحة ظاهرة قد يشتمل على مفسدة بقوله: ربما كان الدواء داءً، وعلى أن بعض ما هو مفسدة في الظاهر قد يستلزم مصلحة بقوله: والداء دواءً. ولفظا الدواء مستعاران للمصلحة، ولفظا الداء للمفسدة، ووجه الاستعارتين أن المصلحة من شأنها نظام حال الإنسان، ومن شأن المفسدة فساده كالدواء والداء، وإلى هذا المعنى أشار المتنبي:

فربما صحت الأجساد بالعلل.

الحادي والعشرون: نبه على أنه لا ينبغي أن يعرض عن مشورة أحد عليه بأمر هو مظنة مصلحة وإن كان من شأنه أنه غير ناصح له بل ينظر في رأيه وشوره فربما كان نصيحة، وكذلك لا ينبغي أن يركن إلى قول من يعتقده ناصحاً، إذ من الجائز أن يغشه.

الثاني والعشرون: نهاه عن الاتكال على المنى ونفره عنها بضمير صغراه قوله: إنها بضائع النوكى [الموتى خ]، واستعار لفظ البضائع لها باعتبار أن الأحمق يحصل منها لذة خيالية من الأمور المتمناة وهي فرعها كما يحصل عن البضاعة الربح. وأضافها إلى النوكى لعدم الفائدة في المنى كعدم الربح عن بضائع النوكى.

الثالث والعشرون: رسم العقل بأنه حفظ التجارب. والاشارة إلى العقل العملي وهو القوة التي للنفس بحسب حاجتها إلى تدبير بدنها الموضوع لتصرفاتها وتكميله، وهي التي بها تستنبط الآراء المصلحية مما يجب أن يفعل من الأمور. إذ كان الشروع في العمل الاختياري المختص بالإنسان إنما يتأتى بإدراك ما ينبغي أن يعمل في كل باب وهو إدراك رأي كلي أو جزئي يستنبط من مقدمات بعضها جزئية محسوسة وبعضها كلية أولية أو تجربية أو ذائعة أو ظنية يحكم بها العقل النظري من غير أن يختص بجزئي دون غيره، والعقل العملي يستعين بالنظري في ذلك ثم ينتقل منه باستعمال مقدمات جزئية إلى أن ينتقل إلى الرأي الجزئي الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعمله مقاصده في معاشه ومعاده. وإرادته لهذا العقل أظهر لأنه المتعارف ولأنه في معرض الأمر بتحصيل مكارم الأخلاق التي هي كمال هذه القوة. وحفظ التجارب إشارة إلى ضبط هذه العلوم المنتزعة عن مشاهدات متكررة منّا لأمور جزئية تتكرر فيفيد حكماً كلياً ككون السقمونيا مثلاً من شأنها الإسهال. وعرف العقل بذلك لكونه من خواصه وكمالاته.

الرابع والعشرون: نبهه على أنه ينبغي أن يقتصر من التجارب على ما وعظه: أي من شأنه أن يفيد موعظة واعتباراً كالنظر في حال من تكرر ظلمه فأسرعت عقوبة الله إليه، أو تكرر كذبه فأدركه المقت بضمير صغراه ما ذكر، وتقديرها: ما وعظك فهو خير التجارب، وتقدير الكبرى: وخير التجارب أولى بك. ينتج فما وعظك من التجارب أولى بك، ونحوه قول أفلاطون: إذا لم تعظك التجربة لم تجرّب بل أنت ساذج كما كنت.

الخامس والعشرون: أمره بانتهاز الفرصة فيما ينبغي أن يفعل، ونفره عن تركها بما يستلزمه من الأسف المغص، وأطلق اسم الغصة على الفرصة مجازاً تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه.

السادس والعشرون: نبه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت من المطالب بضمير صغراه ما في قوة هذا السلب من الإيجاب، وتقديره: بعض الطالبين لا يصيب مطلوبه، وتقدير الكبرى: وكل من لا يصيب مطلوبه فلا ينبغي أن يأسف على فواته. ليقدر السامع نفسه أنه من ذلك البعض فلا يأسف على فائت، وكذلك قوله: ولا كل غائب يؤوب.

السابع والعشرون: نبه على لزوم التقوى بضمير تقدير صغراه: إضاعة الزاد ومفسدة المعاد من الفساد، وتقدير الكبرى: وكل ما كان من الفساد وجب تركه. ولفظ الزاد مستعار للتقوى كما سبق.

الثامن والعشرون: نبه على وجوب النظر في عواقب الأمور واختيار أحسنها بضمير ذكر ما هو في قوة صغراه، وتقديرها: كل أمر له عاقبة نافعة أو ضارة، وتقدير كبراه: وكل ما له عاقبة كذلك فينبغي أن يلمح ليفعل ما يوصل إليها أو يجتنب.

التاسع والعشرون: نبه على وجوب ترك الحرص وكد النفس في طلب المال ونحوه بضمير ذكر صغراه، وتقدير كبراه: وكل ما سوف يأتيك فينبغي أن لا تحرص في طلبه.

الثلاثون: نبه على وجوب الاحتراز في المعاملات كالبيع والشراء ونحوه بضمير صغراه ما ذكر، ووجه كون التاجر مخاطراً أنه لما كان محباً للمال ومتوجهاً إلى اكتسابه كان حال البيع في مظنة أن يحيف فيأخذ راجحاً، ويعطي ناقصاً مع أن تكليفه لزوم العدل والاستقامة على سواء الصراط فلا جرم كان على خطر من وقوعه في طرف التفريط والتقصير من سواء السبيل، وتقدير الكبرى: والمخاطر يجب أن يحترز في فعله المخاطر فيه.

الحادي والثلاثون: لما نبه على وجوب الاحتراز في التجارة والتحفظ من الظلم، وكان ذلك الظلم إنما هو لغرض كثرة المال نبه في هذه الكلمة على أن من المال اليسير ما هو أنمى من الكبير ليقتصر عليه، وأراد باليسير الحلال فإنه أغنى للعاقل من الكثير الحرام في الآخرة لاستلزامه زيادة الثواب، وهي في قوة صغرى ضمير تقديره: اليسير الحلال أغنى من الكثير الحرام وتقدير الكبرى: وكل ما كان أغنى من الكثير الحرام فيجب أن يقتصر عليه.

الثاني والثلاثون: نبه على ترك الاستعانة في المهمات بالمهين من الناس بضمير تقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فالأولى اجتناب الاستعانة به، والخير المنفي عنه هو النافي في الاستعانة به، ومعلوم أنه منتف عنه لما أن مهانته تضاد النهوض في مهمات الأمور وعلياتها، ولأن ذلته تستلزم قهره وضعفه عن المقاومة، ونحوه قولهم: إذا تكفّيت بغير كاف وجدته لله م غير شاف.

الثالث والثلاثون: نبه على مجانبة الصديق المتهم بضمير تقدير صغراه كالتي قبلها، وأراد أنه لا خير فيه لصديقه. إذ كان من جهة الباطن مظنة الشر له.

الرابع والثلاثون: أمره أن يصبر على ما يقتضيه الدهر ولا يتسخّط من ذلك وإن كان دون رضاه. إذ كان ذلك هو المتمكن في الطبيعة، وما بمعنى المدة، واستعار لفظ القعود للزمان الذي تيسر فيه رزقه وتسهل فيه بعض مهماته، ووجه المشابهة أن ذلك الزمان يمكنه من بعض مهماته وحوائجه. وطلب ما لا يمكن فيه وما لم يعد لحصوله من المطالب ربما يستلزم تغيّره وامتناع ما كان ممكناً فيه كما أن القعود من شأنه أن يمكن من ظهره واقتعاده وهو بمعرض أن ينفر براكبه إذا استزاده وشدّ عليه، ولفظ الذلة مستعار لسكون الزمان وإمكان المطلوب فيه، وأراد بمساهلته الجريان معه بقدر مقتضاه من دون تشدد وتسخط عليه فإن ذلك يستلزم تعب النفس من غير فائدة، وإلى مثله أشار القائل:

إذا الدهر أعطاك العنان فسر به
رويداً ولا تعنف فيصبح شامسا

الخامس والثلاثون: نهاه أن يخاطر بما يملكه رجاء أكثر منه. إذ كان في مظنة أن لا يعود فيوشك أن يضيع الأصل، ويحمل ذلك على كون الإنسان يلقي ما في يده للغرض المذكور مع شكه في سلامته أما مع ظن السلامة فلا خطر. ونحوه قولهم: من طلب الفضل حرم الأصل.

السادس والثلاثون: حذره من اللجاج في طلب الأمر عند تعسره، ونفره عنه بأن استعار له لفظ المطية الجموح، ووجه المشابهة كونه يؤدي بصاحبه إلى غاية ليست بمجهودة [بمحمودة خ] كالجموح من المطايا.

السابع والثلاثون: أمره أن يلزم نفسه ويحملها في حق صديقه الحق على أن يقابله ويجازيه برذائله فضائل كالقطيعة بالصلة، وسائر ما ذكر ليعود إلى العتبى وتدوم المودة، وحذّره أن يضع ذلك في غير موضعه أو يفعله بغير أهله من اللئام. لأن ذلك وضع الشيء في غير موضعه وهو خروج عن العقل، وقد علمت أن الأمور

المذكورة من لوازم الصداقة الحقة. وإلى نحوه أشار الشاعر بقوله:

وإن الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني أمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي
زجرت لهم طيراً يمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

الثامن والثلاثون: نهاه أن يتخذ عدو صديقه صديقاً، ونبه على قبح ذلك بضمير استثنائي تقديره: فإنك إن فعلت ذلك عاديت صديقك، ويستدل فيه بقبح اللازم على قبح ملزومه: أي لكن معاداة الصديق قبيحة منهي عنها فاتخاذ عدوه صديقاً كذلك، ووجه الملازمة أن مصادقة عدو الصديق يستلزم نفرة الصديق عمن يصادق عدوه لنفرته عن عدوه وتوهمه مشاركة العدو وموافقته في جميع أحواله ومن جملة أحواله عداوته فهي إذن توهمه الموافقة على عداوته فيوجب له النفرة والمجانبة، وإليه أشار بذكر القائل:

تودّ عدوّي ثمّ تزعم أنني
صديقك إنّ الرأي عنك لعازب

التاسع والثلاثون: أن يخلص نصيحته لأخيه في جميع أحواله سواء كانت النصيحة حسنة أو قبيحة: أي مستقبحة في نظر المنصوح ضارة له في العاجل باعتبار استحيائه وانفعاله له من المواجهة بها. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم: ٣٦] فعدّها بالنسبة إليهم سيئة.

الأربعون: أمره بفضيلة كظم الغيظ، وقد رسمت بأنها الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه. وقد يرادفه الحلم والكرم والصفح والتثبت والعفو والتجاوز والاحتمال، وربما فرّق بعضهم بين هذه المفهومات، واستعار وصف التجرّع للتصبر على مضض الألم الموجود منه ملاحظة لما يشرب من دواء مرّ.

ثم نبه على فضيلته بضمير صغراه قوله: فإني لم أر. الى قوله: مغبّة، واستعار لفظ الحلاوة لما يستلزمه من العاقبة الحسنة، ووجه المشابهة ما يستلزمانه من اللذة. والضمير في قوله: منها يعود إلى ما دلّ عليه قوله: تجرع من المصدر، وتقدير الكبرى: وكل ما لا يرى من المتجرع أحلى منه فينبغي أن يتجرّع. وعن زين العابدين عليه السلام وصية لابنه الباقر عليه السلام يا بني عليك بتجرّع الغيظ من الرجال فإن أباك لا تسره بنصيبه من تجرّع الغيظ من الرجال حمرُ النعم.

الحادي والأربعون: أمره أن يلين لمن غالظه وخاشنه، ونبّه على حسن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنه يوشك أن يلين لك: أي بسبب لينك له حال غلظته: وتقدير كبراه: وكل من قارب أن يلين لك بسبب لينك له فالأولى بك أن تلين له، ونحوه قولهم: إذا عزّ أخوك فكن واصله وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

الثاني والأربعون: أمره أن يأخذ على عدوه بالفضل من عوارفه. ونبهه على أحسنه باستلزامه لأحد الظفرين فإن للظفر سببين:

أحدهما: الرهبة بالقوة والغلبة وهو الأظهر.

الثاني: الرغبة بالإفضال عليه بحيث يسترق به ويدخل في الطاعة بسببه.

وقوله: فإنه أحد الظفرين.

صغرى ضمير، وتقدير الكبرى: وكل ما صدق عليه أنه أحد الظفرين فينبغي أن يفعل.

الثالث والأربعون: أمره إن أراد مقاطعة أخيه أن يبقي له من نفسه بقيّة من صداقته ولا يفارقه مفارقة كلية، ونبه على ذلك بضمير أشار إلى صغراه بقوله: يرجع إليها: أي فإنه يرجع إليها لو بدا له الرجوع، وتقدير الكبرى: وكل ما يرجع به فواجب أن يبقيه له، ونحوه قولهم: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، وقولهم: إذا هويت فلا تكن غالياً، وإذا تركت فلا تكن قالياً.

الرابع والأربعون: أن يصدق من ظن به خيراً في ظنه وذلك التصديق بفعل ما ظنه فيه من الخير كأن يظن به الجود فيفضل عليه.

الخامس والأربعون: نهى أن يفعل بأهله شراً. ونفره بضمير تقدير صغراه: فإن أهلك حينئذ يكونون أسعى الخلق بك، وذلك لملازمته لهم وقربه منهم، وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فهو مذموم.

السادس والأربعون: أن لا يضيع حق أخ له اعتماداً على ما بينهما من الأخوة ونبه على ذلك بضمير قوله: فإنه. إلى قوله: حقه، والمعنى أن من أضعت حقه لا بد أن يفارقك لتضييعك حقه فلا يكون أخاً لك: وتقدير كبراه: وكل أخ يفارقك لتضييع حقه فلا ينبغي أن تضيّع حقه لتسلم لك مودته وأخوته، ونحوه قولهم: إضاعة الحقوق داعية العقوق.

السابع والأربعون: نهاه عن الرغبة فيمن زهد فيه وأراد بمن زهد فيه من ليس للصنيعة موضعاً، ولا للمودة أهلاً. وليس بأخ قديم وإلا لناقض ما قبله وما بعده من الأمر بصلة من قطعه والدنو ممن تباعد عنه والإحسان إلى من أساء إليه.

الثامن والأربعون: ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته. إلى قوله: الإحسان. وأشار إلى وجوب ذلك بالتنفير عن نقيضه بضمير صغراه شرطية متصلة تقديرها فإنك إن لا تفعل ذلك لكان أخوك أقوى على فعل الإساءة منك إلى فعل الإحسان، وبيان الملازمة أن الإساءة والشر له صوارف كثيرة تصرف عنه، والإحسان وفعل الخير له بواعث كثيرة تبعث عليه فإذا لم تفعل الإحسان مع كثرة البواعث عليه وأساء أخوك مع كثرة صوارفه عن الإساءة كان هو أقوى على الإساءة منك على الإحسان، وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فهو عاجز مذموم.

التاسع والأربعون: نهاه عن استعظام ظلم الظالمين في حقه، وهونه عنده بضمير صغراه قوله: فإنه يسعى في مضرته ونفعك أي أن سعيه في ظلمه يستلزم مضرته في الآخرة بما توعد الله به الظالمين ونفعك بما وعد الله به الصابرين على بلائهم، وتقدير الكبرى: وكل من سعى في مضرته ونفعك فلا ينبغي أن يكبر عليك صنيعه في حقك.

الخمسون: نبهه على وجوب مقابلة الاحسان بمثله دون الكفران بقوله: ليس جزاء من سرك أن تسوءه: وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها: من سرك فليس جزاؤه أن تسوءه، وتقدير كبراه: وكل من لم يكن جزاؤه ذلك فينبغي أن لا تسوءه، وقيل: إن هذه الكلمة من تمام التي قبلها، والتقدير لا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك فتقابله بسوء فإنه يسعى في مضرته ونفعك وكل من كان كذلك فليس جزاؤه أن تقابله بالإساءة.

الفصل العاشر: قوله:

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ؛ وَلا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلاَّ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَابِ، وَالْبَهَائِمُ لا تَتَّعِظُ إِلاَّ بِالضَّرْبِ. اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ. أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ. وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ

خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ فِي الْكَلامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً وَإِنْ حَكَيْتَ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِكَ. وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ. وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلاَّ يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ. وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ. وَالسَّلامُ.

أقول: المثوى: المقام. وتفلّت: تخلّص. وعزائم الصبر: ما جزمت به منه ولزمته. والعورة هنا: الإسم من أعور الصيد إذا أمكنك من نفسه، وأعور الفارس: إذا بدا منه موضع خلل الضرب. والأفن: الضعف. والقهرمانة: فارسي معرب.

وفي الفصل تنبيهات على لطائف من الحكمة ومكارم الأخلاق:

الأولى: أنه قسم مطلق الرزق إلى قسمين مطلوب وطالب، وأراد بالرزق المطلوب ما لم يجر في القضاء الإلهي كونه رزقاً له، وبالطالب عما علم الله أنه رزقه وأنه لا بد من وصوله إليه. وترك بيان أحكام القسمين للعلم به إيجازاً. والتقدير فأما الذي تطلبه فلا تدركه لكون القضاء الإلهي لم يجر به، وكل ما لا تدركه فينبغي أن لا تحرص عليه.

وأما الذي يطلبك فإنه لا محالة يأتيك وإن لم تأته، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما كان آتيك لا محالة فينبغي أن لا تحرص في طلبه.

الثانية: نبه على فضيلة عزة النفس عند الحاجة، وعلى مواصلة الإخوان في الغنى بالتعجب من قبح ضديهما، وهما الخضوع في الحاجة والجفاء في الغنى للتنفير عنهما. إذ كانا رذيلتين، وهي في قوة ضمير تقديرها: أن الذلة في الحاجة وجفاء الإخوان في الغنى قبيحان جداً، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك وجب اجتنابه.

الثالثة: نبهه على بذل المال في وجوه البر والقربات لغاية إصلاح آخرته بقوله: إنما لك. إلى قوله: مثواك، وأراد بما له من دنياه ما يملك نفعه دائماً ولذلك حصره بإنما لأنه القدر المنتفع به على الحقيقة، والذي تبقى ثمرته لاستلزام بذله تحصيل الملكات الفاضلة المستلزمة للثواب الدائم والنعيم المقيم في الآخرة، وهو صغرى ضمير تقديرها: ما أصلحت به مثواك من دنياك هو الذي يبقى لك منها، وتقدير الكبرى: وكل ما هو الباقي لك منها فينبغي أن تحضه بعنايتك، ويحتمل أن تكون هذه الكلمة تنبيهاً على ما قبلها من المواصلة في الغنى داخلة في إصلاح المثوى بالمال المنبه عليه ههنا.

الرابعة: نبهه على ترك الأسف والجزع على ما يخرج من يده من المال بقياس استثنائي، وذلك قوله: فإن جزعت. إلى قوله: إليك. وبيان الملازمة أن الذي خرج من يده كالذي لم يصل إليه في أنه ليس برزق له وليس مما قضى الله له به. وتقدير الاستثناء: لكن الجزع هناك قبيح وغير محقق فينبغي أن لا يحصل الجزع هاهنا.

الخامسة: أمره أن يستدل بقياس ما لم يكن أي ما لم يحدث من أمور الدنيا وأحوالها وتغيّراتها على ما كان وحدث منها، وذلك أن يقيس نفسه وما ترغب فيه من متاع الدنيا على ما سبق من أهلها ومتاعها فتجده مثله

فيحكم بلحوق حكمه له وهو التغيّر والزوال فيستلزم ذلك الاعتبار الرغبة عن الدنيا ومتاعها، ونبّه على إمكان ذلك بضمير صغراه قوله: فإن الأمور أشباه، وتقدير الكبرى: وكل ما هو متشابه فيمكن قياس بعضه على بعض، وكأن يقال: إذا أردت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك.

السادسة: حذّره أن يكون ممن لا تنفعه النصيحة فيما نصح به من الرأي إلا إذا بالغت النصيحة والتوبيخ في إيلامه وأذاه، وروي بالغت بالتاء المخاطب: أي في إيلامه بالقول وغيره، وضرب له العاقل مثلاً في اتعاظه بالأدب وتذكيره بالنصيحة ليقيس نفسه عليه فيتعظ بالأدب، والبهائم مثلاً في عدم اتعاظها وتذكرها إلا بالضرب ليعتبر نفسه بالقياس إليها وقد رفعه الله عنها بالعقل فيجب أن ينزه نفسه عن لازمها فلا يحتاج إلى إيلام بقول أو فعل كأن يقال: اللئيم كالعبد والعبد كالبهيمة عتبها ضربها.

السابعة: أن يحذف عن نفسه ما يرد عليها من الغموم والهموم ومصائب الدنيا بالصبر الجازم الثابت عن حسن اليقين بالله تعالى وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، وذلك أن يعلم يقيناً أن كل أمر صدر عن الله وابتلى به عباده من ضيق رزق أو سعته وكل أمر مرهوب أو مرغوب فعلى وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض في ذلك مما يعد شراً فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه. فإنّ ذلك إذا كان متيقناً استعدت النفس بعلمه للصبر ومفارقة الهوى في الغم والجزع ونحوه. والغرض من الكلمة الأمر بالصبر وهي في قوة صغرى ضمير تقديرها: إن عزائم الصبر وحسن اليقين بالله يستلزمان طرح واردات الهموم وحذفها عن النفس، وتقدير الكبرى: وكل ما استلزم ذلك فينبغي أن تستعد به وتستكمل به نفسك.

الثامنة: نبهه على لزوم القصد والعدل في أفعاله وأقواله بضمير ذكر صغراه وتقدير كبراه: ومن جاز هلك.

التاسعة: نبه على حفظ الصاحب الحق والرغبة فيه بضمير ذكر صغراه، واستعار له لفظ التنسيب باعتبار مودته وحسن معاضدته كالنسيب، وتقدير كبراه: والمناسب ينبغي أن يحمى عليه ويصطنع عنده.

العاشرة: عرَّف الصديق الحق بعلامته ليعرف بها فيصادق، وأراد بصدقه في غيبه صدقه في ضميره وما غاب من باطنه عن غيره.

الحادية عشرة: نبهه على مجانبة الهوى والميول الطبيعية بضمير صغراه قوله: الهوى شريك العمى، ووجه كونه شريكاً له استلزامه للضلال وترك القصد كالعمى، وتقدير الكبرى: وكل ما هو شريك العمى فينبغي أن يجتنب، ونحوه قولهم: حبك للشيء يعمي ويصم.

الثانية عشرة: نبه على أن في البعداء من هو أقرب وأنفع من النسيب، وفي الأقرباء من هو أبعد من البعيد وهو مشهور، وإلى المعنى الثاني أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

الثالثة عشرة: نبه على أن الحقيق باسم الغريب هو من لم يكن له نسيب: أي محب يحبه، وإليه أشار القائل:

أسـرة الـمـرء والـداه وفـي ... مـا بـين حضـنيهمـا الحياة تطيب
فـإذا ولـيـا عـن الـمـرء يـومـاً ... فـهـو فـي الـنـاس أجنـبـي غـريـب

وذلك باعتبار محبة الوالدين له.

الرابعة عشرة: نبه على لزوم الحق بما يلزم نقيضه وهو تعديه وتجاوزه إلى الباطل من ضيق المذهب ووعارة المسلك، وذلك أن طريق الحق واضح مأمور باتباعه وقد نصبت عليه أعلام الهداية، أما طريق الباطل فهي ضيقة وعرة على سالكها لما فيها من التحيّر والخبط وعدم الهداية إلى المصلحة والمنفعة مع كونها ممنوعة بحرسة طريق الحق من حاد إليها عنه أخذوا عليه مذهبه وضيّقوا عليه مسلكه حتى يعود إلى طريق الحق، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه كما في قوله: من ترك القصد جار.

الخامسة عشرة: نبهه على وجوب الاقتصار على قدره وهو مقداره ومحله في خلق الله، واقتصاره عليه مبني على معرفته وهو أن يعلم الفطرة التي فطر الإنسان عليها من الضعف والجور والنقص فيعلم أنه كذلك فيمنع نفسه حينئذ عن الترفع عن أبناء نوعه والاستطالة على أحد منهم بفضل قوة أو إعجاب بقية جسمانية أو نفسانية ويقتصر على ما دون ذلك من التواضع ولين الجانب والاعتراف بما جبل عليه من العجز والنقص، وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها: من اقتصر على قدره كان اقتصاره أبقى له، وذلك أن المتطاول إلى قدر غيره والمتجاوز لقدره في مظنة أن يهلك لقصد الناس إياه بالمكاره والنكير. قيل: من جهل قدره قتل نفسه. والاقتصار على القدر يستلزم عدم هذه الأمور فكان أبقى على صاحبه وأسلم، وتقدير الكبرى: وكل من كان اقتصاره على قدره أبقى له فواجب أن يقتصر عليه.

السادسة عشرة: نبهه على لزوم سبب بينه وبين الله تعالى وهو كل ما قرب إليه من علم وقول وعمل، ولفظ السبب مستعار لذلك باعتبار إيصاله إلى الله والقرب منه كالحبل الذي يتوصل به إلى المقصود، وظاهر أنه أوثق الأسباب لثباته دائماً ونجاة المتمسك به في الدنيا والآخرة، والكلمة صغرى ضمير تقديرها السبب بينك وبين الله تعالى هو أوثق الأسباب المأخوذ بها، وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك فينبغي أن يتمسك به. ونحوه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

السابعة عشرة: نبهه على مجانبة من لا يبالي به بضمير ذكر صغراه، وتقديرها: من لم يبالك وقت حاجتك إليه وقدرته على نفعك فهو عدوك، ولفظ العدو مستعار له باعتبار أن عدم المبالاة من لوازم العدو، وتقدير الكبرى: وكل عدو ينبغي مجانبته.

الثامنة عشرة: نبه على أن اليأس من بعض مطالب الدنيا قد يكون سبباً للسلامة من الهلاك وإدراك النجاة منه، وذلك عندما يكون الطمع في ذلك المطلوب مستلزماً للهلاك كالطمع في نيل ملك ونحوه.

التاسعة عشرة: نبه بقوله: ليس كل عورة. إلى قوله: رشده. على أن من الأمور الممكنة والفرص ما يغفل الطالب البصير عن وجه طلبه فلا يصيبه ولا يهتدي له، ويظفر به الأعمى، واستعار لفظ البصير للعاقل الذكي، والأعمى للجاهل الغبي. وغرض الكلمة التسلية عن الأسف والجزع على ما يفوت من المطالب بعد إمكانها.

العشرون: أمره بتأخير الشر وعدم الاستعجال فيه، ونبه عليه بضمير ذكر صغراه: ومعناها: أنك قادر على تعجيله أي وقت شئت، وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك فينبغي أن لا يعجل فيه. إذ لا يفوتك، ونحوه من الحكمة قولهم: إبدأ بالحسنة قبل السيئة فلست بمستطيع للحسنة في كل وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر.

الحادية والعشرون: نبه على وجوب قطيعة الجاهل بضمير ذكر صغراه، وتقدير كبراه: وكل ما يعدل صلة العاقل فينبغي أن يرغب فيها ويفعلها وإنما كانت تعدلها باعتبار استلزامها للمنفعة، ومنفعة قطيعة الجاهل بالقياس إلى ما في صحبته من المضرّة.

الثانية والعشرون: نبه على وجوب الحذر من الزمان ودوام ملاحظة تغيّراته، والاستعداد لحوادثه قبل نزولها بالأعمال الصالحة، واستعار له لفظ الخيانة باعتبار تغيّره عند الغفلة عنه والأمن فيه والركون إليه فهو في ذلك كالصديق الخائن. والكلمة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من خانه الزمان فينبغي أن يكون منه على حذر، وفي الحكمة: من أمن الزمان ضيّع ثغراً مخوفاً.

الثالثة والعشرون: نبه بقوله: من أعظمه أهانه على وجوب ترك إعظامه. ولم يرد الزمان المجرد. بل من حيث هو مشتمل على خيرات الدنيا ولذاتها ومعدّ لطيب العيش بالصحة والشباب والأمن ونحوها، وبذلك الاعتبار يكرم ويستعظم فيقال في العرف: زمان طيب وزمان عظيم.

وأما استلزام ذلك لإهانة من يستعظمه لأن إعظامه له يستلزم استنامته إليه واشتغاله بما فيه من اللذات الدنيوية فغفل بسبب محبتها عن الاستعداد لما وراءه. ثم إن الزمان مكر عليه بمقتضى طباعه فيفرّق بينه وبين ما كان يغترّ به من مال أو جاه أو رجال فيصبح حقيراً بعد أن

كان خطيراً وصغيراً بعد أن كان كبيراً وقليلاً بعد أن كان كثيراً، والكلمة في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من أهانه الزمان فينبغي له أن يستهين به ولا يعظّمه.

الرابعة والعشرون: قوله: ليس كل من رمى أصاب، وقد سبق مثله في قوله: ليس كل طالب يصيب. وغرضه التنبيه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت من المطالب والتسلي بمن أخطأ في طلبه، أو توبيخ الغير وتبكيته بأنه ليس بأهل لذلك المطلوب وأن له قوماً آخرين. وإلى نحوه أشار أبو الطيب:

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها
ولا كل الرجال فحولا

الخامسة والعشرون: نبه على أن تغيّر السلطان في رأيه ونيته وفعله في رعيته من العدل إلى الجور يستلزم تغيّر الزمان عليهم. إذ يغيّر من الإعداد للعدل إلى الإعداد للجور، وروي أن كسرى أنوشيروان جمع عمال السواد، وبيده درّة يقلّبها. فقال: أي شيء أضرّ بارتفاع الأعمال وأدعى إلى محقها، ومن أجابني بما في نفسي جعلت هذه الدرة في فيه. فقال كل منهم قولاً من احتباس المطر والجراد واختلاف الهواء. فقال لوزيره: قل أنت فإني أظن عقلك يعادل عقول الرعية ويزيد عليها. فقال: إنما يضر بارتفاعها تغيّر رأي السلطان في رعيّته، وإضمار الحيف لهم والجور عليهم. فقال: لله أبوك بهذا العقل أهّلك الملوك لما أهّلوك له. ودفع إليه الدرة فجعلها في فيه.

السادسة والعشرون: أمره بالسؤال عند إرادته لسلوك طريق عن الرفيق فيها لغاية أن يجتنبه إن كان شريراً، ويرافقه إن كان خيّراً. فإن الرفيق إما رحيق وإما حريق، وكذلك عن الجار عند إرادته لسكنى الدار للغاية المذكورة. وروي هذا الكلام مرفوعاً.

السابعة والعشرون: حذّره أن يذكر من الكلام ما كان مضحكاً سواء كان عن نفسه أو عن غيره لما يستلزم ذلك من الهوان، وقلّة الهيبة في النفوس.

الثامنة والعشرون: وصاه في النساء بأمور:

أحدها: الحذر من مشاورتهنّ، ونبه على وجوب الحذر بضمير صغراه قوله: فإنّ رأيهنّ. إلى قوله: وهنّ. وذلك لنقصان عقولهنّ، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فينبغي أن يحذر من استشارته لما أن ضعف الرأي مظنة الخطأ وعدم إصابة وجه المصلحة فيما يستشار فيه.

الثاني: أن يكف عليهنّ من أبصارهنّ بحجابه إيّاهنّ، وهو من أفصح الكنايات عن الحجب. ومن زائدة، ويحتمل أن تكون للتبعيض. ونبه على وجوب حجبهنّ بضمير صغراه قوله: فإنّ شدة الحجاب أبقى عليهنّ: أي أبقى للستر والعفة من الخروج والتبرّج وأدوم لحفظهنّ، وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك وجب فعله.

الثالث: نبه على أنه لا يجوز أن يرخص في إدخال من لا يوثق به عليهنّ، وهو أعم من الرجال والنساء، والكلام في قوة صغرى ضمير دل به على ذلك المنع، وتقديرها: إن إدخال من لا يوثق به عليهن إما مساوٍ لخروجهنّ في المفسدة أو أشد وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك فلا يجوز الرخصة فيه، وإنّما كان أشد في بعض الصور لأن دخول من لا يوثق به عليهن أمكن لخلوته بهنّ والحديث معهنّ فيما يراد من الفساد.

الرابع: أمره أن يحسم أسباب المعرفة بينه وبين غيره لكون معرفتهن لغيره مظنة المفسدة. وقرينة الحال يخرج غير أولي الإربة كالوالد والمحرم، وإنما شرط في ذلك الاستطاعة لأنه قد لا يمكن الإنسان دفع معرفتهن لغيره مطلقاً.

الخامس: نهاه أن يملك المرأة من أمرها ما خرج عن حد نفسها من مأكول أو ملبوس ونحوه، وما جاوز ذلك كالشفاعات، ونبه على عدم صلوحها بضمير صغراه قوله: فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. واستعار لفظ الريحانة باعتبار كونها محلاً للذة والاستمتاع بها، ولعل تخصيص الريحانة بالاستعارة لأن شأن نساء العرب استعمال الطيب كثيراً، وكنى بكونها غير قهرمانة عن كونها لم تخلق لتكون حاكمة متسلطة بل من شأنها أن تكون محكوماً عليها، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يجاوزونه أمر نفسه، وتمكن من التصرف في أمر غيره.

السادس: وكذلك نهيه أن يجاوز بكرامتها نفسها: أي لا تكرمها بكرامة تتعدّى صلاح نفسها، وهي كقوله: ولا يملك المرأة. إلى آخره.

السابع: وكذلك نهيه أن يطمعها في الشفاعة لغيرها لأن ذلك مجاوزة منها لحد نفسها، وقد نبّه على أنها ليست بأهل لذلك لما هي عليه من نقصان الغريزة وضعف الرأي.

الثامن: نهاه عن التغاير في غير موضع الغيرة، ونبه على ما في ذلك من المفسدة بضمير صغراه قوله: فإن ذلك. إلى قوله: السقم، وكنّى بالصحيحة عن البريئة من الخيانة والفساد، وبالسقم عنهما وإنما كان كذلك لأن المرأة حين براءتها من الفساد يستقبح ذلك ويستنكره كره المواجهة، ويستشعر خوف الفضيحة والعقاب فإذا نسبت إلى ذلك مع براءتها منه عظم عليها في أول الأمر فإذا تكرر ذلك من الرجل هان عليها أمره وصار لومه لها في قوة الإغراء بها بذلك، وقد علمت ما في الطباع الحيوانية من الحرص على الأمر الممنوع منه فكانت الغيرة في غير موضعها واللائمة بسبب التخيّل الفاسد على ما لم يفعل أمراً داعياً إلى قوله: وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك لم يجز فعله.

التاسع والعشرون: أمره أن يجعل لكل إنسان من خدمه شغلاً يخصه، ويأخذه بفعله ويؤاخذه على تركه، وذلك من الحكمة المنزلية. ونبه على سر ذلك بضمير صغراه قوله: فإنه أحرى. إلى قوله: خدمتك، وذلك أنهم إذا شركوا في التكليف بفعل واحد يقوم به كل واحد منهم فالغالب عليهم أن يكل كل واحد منهم فعله إلى الآخر فيستلزم ذلك أن لا يفعل. قال كسرى أنوشيروان لولده شيرويه: وانظر إلى كتّابك فمن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فولّه الخراج، ومن كان منهم ذا عبيد فولّه الجند، ومن كان منهم ذا سراري قد أحسن القيام عليهنّ فولّه النفقات والقهرمة، وهكذا فاصنع في خدم دارك ولا تجعل أمرك فوضى بين خدمك فيفسد عليك ملكك.

الثلاثون: أمره بإكرام عشيرته، ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّهم. إلى قوله: تقول. واستعار لهم لفظ الجناح باعتبار كونهم مبدأ نهوضه وقوته على الحركة إلى المطالب كجناح الطائر، ورشح بذكر الطيران، وكذلك لفظ اليد باعتبار كونهم محل صولته على العدو، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك وجب عليك إكرامه.

ثم ختم الوصية بوداعه واستودع الله دينه ودنياه وسؤاله خير القضاء له في عاجلته وآجلته وداريه دنياه وآخرته حسب إرادته تعالى ومشيئته ولفظ الاستيداع مجاز في طلب الحفظ من الله لما استودعه إيّاه. وبالله التوفيق والعصمة.

٣٢ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية:

وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ، إلا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ. فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ. وَالسَّلامُ.

أقول: أول هذا الكتاب: من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان أما بعد فإن الدنيا دار تجارة وربحها الآخرة. فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة، ومن رأى الدنيا بعينها وقدرها بقدرها وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مرد له دون نفاذه، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يردوا الأمانة، وأن ينصحوا الغوي والرشيد. فاتق الله ولا تكن ممن لا يرجو لله وقاراً، ومن حقّت عليهم كلمة العذاب فإن الله بالمرصاد، وإن دنياك ستدبر عنك، وستعود حسرة عليك فانتبه من الغي والضلال على كبر سنك

وفناء عمرك فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر. ثم يتصل به وقد أرديت. الفصل.

والمهيل: المتداعي في التمزق، ومنه رمل مهيل: أي ينهال ويسيل. وأرديت: أهلكت. والجيل: الصنف، وروي جبلاً: وهو الخلق. وجاروا: عدلوا. والوجهة: القصد. والنكوص: الرجوع. وعوّل على كذا: اعتمد عليه. وفاء: رجع. والموازرة: المعاونة.

وفي الكتاب مقاصد:

الأول: موعظته وتذكيره بحال الدنيا وكونها دار تجارة والغاية من التجارة فيها إما ربح الآخرة بصلاح البضاعة وهي الأعمال، وإما خسران الآخرة بفسادها.

الثاني: تنبيهه على أن يرى الدنيا بعينها: أي يعرفها بحقيقتها، أو يراها بالعين التي بها تعرف وهي عين البصيرة، ويعلم ما هي عليه من الغير والزوال وأنها خلقت لغيرها ليقدرها بمقدارها ويجعلها في نظره لما خلقت له.

الثالث: نبهه على أن لله تعالى علماً لا بد من نفاده فيه فإن ما علم الله تعالى وقوعه لا بد من وقوعه، وإنما وعظه امتثالاً لأمر الله ووفاء بعهده على العلماء أن يؤدوا أمانته، ويبلغوا أحكامه إلى خلقه وأن يَنصحوا ضالّهم ورشيدهم.

الرابع: أمره بتقوى الله، ونهاه أن يكون ممن لا يرجو لله وقاراً: أي لا يتوقع لله عظمة فيعبده ويطيعه. والوقار: الاسم من التوقير: وهو التعظيم. وقيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف فيكون مجازاً إطلاقاً لاسم أحد الضدين على الآخر، وأن يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب.

وقوله: فإنّ الله بالمرصاد.

تنبيه له على اطلاعه عليه وعلمه بما يفعل ليرتدع عن معصيته.

الخامس: نبهه على إدبار الدنيا، وعودها حسرة عليه يوم القيامة فقدها مع عشقه لها، وعدم تمسكه في الآخرة بعصم النجاة، وفناء زاده إليها.

السادس: أمره بالانتباه من رقدة الجهل والضلال على حال كبر سنه وفناء عمره فإن تلك الحال أولى الأحوال بالانتباه منها، ونبهه على أنه غير قابل للإصلاح في ذلك السن بعد استحكام جهله وتمكن الهيئات البدنية من جوهر نفسه ونهكها له فهو كالثوب الخلق لا يمكن إصلاحه بالخياطة بل كلما خيط من جانب تمزّق من آخر.

السابع: أخبره في معرض التوبيخ على ما فعل بأهل الشام من خدعته لهم وإلقائهم في موج بحره، ولما كان ضلاله عن دين الله وجهله بما ينبغي هو سبب خدعته لهم نسبها إليه، واستعار لفظ البحر لأحواله وآرائه في طلب الدنيا والانحراف عن طريق الله باعتبار كثرتها وبعد غايتها، ولفظ الموج للشبه التي ألقاها إليهم وغرقهم بها فيما يريد من الأغراض الباطلة، ومشابهتها للموج في تلعبها بأذهانهم واضطراب أحوالهم بسببها ظاهرة، وكذلك استعار لفظ الظلمات لما حجب أبصار بصائرهم عن إدراك الحق من تلك الشبهات، ولفظ الغشيان لطريانها على قلوبهم وحجبها لها. ومحل تغشاهم نصب على الحال. وكذلك لفظ التلاطم لتلعب تلك الشبهات بعقولهم.

وقوله: فجازوا.

عطف على ألقيتهم، وأراد أنهم عدلوا عن الحق بسبب ما ألقاه إليهم من الشبه واعتمدوا في قتالهم على أحسابهم حمية الجاهلية في الذب عن أصولهم ومفاخرهم دون مراعاة الدين والذب عنه إلا من رجع إلى الحق من أهل العقول فإنهم عرفوك وما أنت عليه من الضلال، فارقوك وهربوا إلى الله من مؤازرتك فيما تريده من هدم الدين حين حملتهم على الأمور الصعبة الهادمة له وعدلت بهم عن قصد الحق. وقد كان استغوى العرب بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه. فلما عرف عقلاؤهم والمتمسكون بالدين منهم أن ذلك خدعة منه لإرادة الملك فارقوه واعتزلوه.

وقوله: على أعقابهم، وعلى أدبارهم.

ترشيح لاستعارة لفظي النكوص والتولي من المحسوسين للمعقولين، والاستثناء هنا من الجيل الذين

خدعهم، ولفظ الصعب مستعار لما حملهم عليه من الأمور المستصعبة في الدين باعتبار أن ركوبهم لها يستلزم عدولهم عن صراط الله ووقوعهم في مهاوي الهلاك كما يستلزم ركوب الجمل الصعب النفور العدول براكبه عن الطريق وتقحم المهالك، وكذلك لفظ القصد مستعار للطريق المعقول إلى الحق من الطريق المحسوس. ثم كرر عليه الأمر بتقوى الله، وأن يجاذب الشيطان قياده. واستعار لفظ المجاذبة للممانعة المعقولة، ولفظ القياد لما يقوده به من الآراء الباطلة وكواذب الآمال، وممانعة الشيطان لذلك القياد بتكذيب النفس الأمارة فيما يوسوس به من تلك الآراء.

وقوله: فإن الدنيا. إلى آخره.

تنبيه له على وجوب قطع الآمال الدنيوية لانقطاع الدنيا، وعلى العمل للآخرة بقربها. وهو في قوة صغرى ضميرين تقدير كبرى الأول: وكل ما كان منقطعاً زائلاً وجب أن يقطع الأمل فيه لانقطاعه وتجاذب الشيطان في دعوته إليه، وتقدير كبرى الثاني: وكل ما كان قريباً فينبغي أن يستعد لوصوله بالعمل. وبالله التوفيق.

٣٣ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي - بِالْمَغْرِبِ - كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلىٰ الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ الأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلاَّ عَامِلُهُ، وَلا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلاَّ فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ الْمُطِيعِ لإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً.

أقول: هو قثم بن العباس بن عبد المطلب، ولم يزل والياً لعلي عليه السلام على مكة حتى قتل عليه السلام واستشهد بسمرقند في زمن معاوية، وسبب هذا الكتاب أن معاوية كان قد بعث إلى مكة في موسم الحج واجتماع العرب بها دعاة يدعون إلى طاعته ويثبطون العرب من نصرة علي عليه السلام، ويلقون في أنفسهم أنه إما قاتل عثمان أو خاذل له وعلى التقديرين فلا يصلح للإمامة، وينشرون محاسن معاوية - بزعمهم - وأخلاقه وسيرته في العطاء. فكتب عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكة ينبهه على ذلك ليعتمد عليه فيما تقتضيه السياسة، وقيل: إن الذين بعثهم بعض السرايا التي كان يبعثها ليغير على أعمال علي عليه السلام.

والعين: الجاسوس. والموسم: مجمع الحاج. والأكمه: الأعمى خلقة. والبطر: شدة المرح وكثرة النشاط. والبأساء: الشدة بني على فعلاء ولا أفعل له لأنه اسم غير صفة. والفشل: الجبن والضعف.

وحاصل الكتاب إعلامه أولاً بما كتب إليه عينه بالمغرب، وأراد الشام لأنها من البلاد المغربية، وقد كان له عليه السلام في البلاد جواسيس يخبروه بما يتجدد من الأمور عند معاوية، ولمعاوية عنده كذلك كما جرت عادة الملوك بمثله. ثم وصف أهل الشام بأوصاف يستلزم البعد عن الله لغرض التنفير عنهم.

أحدها: شمول الغفلة بهم من كل وجه عما خلقوا لأجله، واستعار لقلوبهم لفظ العمى باعتبار عدم عقليتهم للحق وإدراكهم لما ينبغي من طريق الآخرة كما لا يدرك الأعمى قصده، ولفظ الصم لأسماعهم والكمه لأبصارهم باعتبار عدم انتفاعهم من جهة الأسماع بالمواعظ والتذاكير، ومن جهة الأبصار بتحصيل العبرة بها من آثار الله سبحانه كما لا ينتفع بذلك فاقد هاتين الآلتين.

الثاني: كونهم يلبسون الحق بالباطل: أي يخلطونه ويعمونه فيه. والمراد أنهم يعلمون أنه على الحق وأن معاوية على الباطل ثم يكتمون ذلك ويغطونه بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه إلى غير ذلك من أباطيلهم، وروي يلتمسون الحق بالباطل. إذ كانوا يطلبون حقاً بحركاتهم الباطلة.

الثالث: كونهم يطيعون المخلوق: أي معاوية في معصية خالقهم.

الرابع: كونهم يحتلبون الدنيا درها بالدين، واستعار لفظ الدر لمتاع الدنيا وطيباتها، ولفظ الاحتلاب لاستخراج متاعها بوجوه الطلب من مظانه ملاحظاً لشبهها بالناقة. ودرّها منصوب بدلاً من الدنيا. وإنما كان ذلك بالدين لأن إظهارهم لشعاره وتمسكهم بظواهره لغرض تحصيل الدنيا وأخذهم ما لا يستحقونه منها فإن محاربتهم له عليه السلام إنما كانت كما زعموا للأخذ بثأر الخليفة عثمان وإنكار المنكر على قاتليه وخاذليه، ولذلك تمكنوا من تألّف قلوب العرب وأكثر جهّال المسلمين على حربه عليه السلام، وأخذ البلاد.

الخامس: شراؤهم عاجل الدنيا بآجل الأبرار، وهو ثواب الآخرة، ولفظ الشراء مستعار لاستعاضتهم ذلك العاجل من ذلك الآجل، ولما كان ذلك في شعار الإسلام هو الخسران المبين ذكره في معرض ذمهم، ثم ذكر في مقام الوعد والوعيد لهم انحصار الفوز بالخير ممن عمل الخير ترغيباً فيه والمجازاة بالشر في فاعله تنفيراً عنه. ثم ختم بأمره وتحذيره أما أمره فبأن يقيم على ما في يديه من العمل مقام من هو أهل ذلك وهو الحازم المتثبّت في آرائه، الصليب في طاعة الله، الناصح اللبيب له ولأوليائه، التابع لسلطانه، المطيع لإمامه. وأما تحذيره فمما يعتذر منه وهو كل أمر عد في الشرع معصية وتقصيراً عن أداء حقه، ويروى الكلمات مرفوعة. ثم من البطر في النعمة والفشل والضعف عند البأساء والشدة لكون ذلك معداً لزوال النعمة وحلول النقمة. والبطر رذيلة تستلزم رذيلتي الكبر والعجب، وتقابل فضيلة التواضع، والفشل رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة. وبالله التوفيق.

٣٤ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى محمد ابن أبي بكر، لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر ثم توفي الأشتر في توجهه إلى مصر قبل وصوله إليها.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ، وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجُهْدِ، وَلا ازْدِيَاداً لَكَ فِي الْجِدِّ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلايَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً، فَرَحِمَهُ اللهُ! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلاقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ، أَوْلاهُ اللهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ، فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الاسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا نَزَلَ بِكَ، والسَّلامُ.

أقول: السبب أن محمد ابن أبي بكر كان يضعف عن لقاء العدو، ولم يكن في أصحاب علي عليه السلام أقوى بأساً في الحرب من الأشتر رحمه الله وكان معاوية بعد وقائع صفين قد تجرد للإغارة على أطراف بلاد المسلمين، وقد كانت مصر جعلت طعمة لعمرو بن العاص، وعلم عليه السلام أنها لا تتحفظ إلا بالأشتر فكتب له العهد الذي يأتي ذكره ووجهه إليها فبلغه أن محمداً تألم من ذلك. ثم إن الأشتر مات قبل وصوله إليها فكتب عليه السلام إلى محمد هذا الكتاب، وهو يؤذن باقراره على عمله واسترضائه، وتعريفه وجه عذره في تولية الأشتر لعمله، وأنه لم يكن ذلك لموجدة عليه ولا تقصير منه. والموجدة ما يجده الإنسان من الغضب والتألم عنه. والتسريح: الإرسال. وأصحر له: أي أخرج له إلى الصحراء. والبصيرة هنا: الحجة والهدى في الدين.

وحاصل الفصل أمور:

الأول: فقد بلغني. إلى قوله: عملك كالاعتراف له بما يشبه الإساءة في حقه ليرتب عليه ما يشبه الاعتذار إليه.

الثاني: قوله: وإني لم أفعل ذلك. إلى قوله: ناقماً. أخذ فيما يشبه العذر فنفى عنه التقصير والاستبطاء في

الجهاد ونحوه مما عساه يتوهمه سبباً لعزله. ثم وعده على تقدير تمام عزله بولاية أمر هو أسهل عليه كلفة وأحب إليه ولاية تسكيناً لقلبه عن مصر بالترغيب فيما هو خير منها. ثم أشار إلى وجه بعثه الأشتر في معرض ذلك الثناء عليه بما استجمعه من الخصال الحميدة المذكورة، وهي كونه لإمامه ناصحاً، وعلى عدوه شديداً ناقماً: أي منكراً ومغيراً، ومحمد وإن كان له الأمر في الأول إلا أنه في الثاني ضعيف.

الثالث: قوله: فرحمه الله. إلى قوله: الثواب له. إعلام بأنه مات وهو عنه راض لأن لا يظهر به شماتته.

الرابع: قوله: فأصحر. إلى آخره. أمر له بالاستعداد للعدو، وأمره بالإصحار لإشعاره بالقوة دون الاستتار في المدينة المشعر بالضعف، وأن يمضي في محاربته على حجته في الحق واستبصاره فيه، وكنّى وصف التشمير عن الاستعداد للحرب، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وأن يكثر الاستعانة بالله فإن الرغبة إليه، والاستعانة به تعد لإفاضة النصر وكفايته ما أهم من أمر العدو ومعونته على ما نزل من الشدائد. وبالله التوفيق والعصمة.

٣٥ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن العباس، بعد مقتل محمد ابن أبي بكر:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دَافِعاً. وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلاً. أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً، فَوَاللهِ لَوْلا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ لأَحْبَبْتُ أَلاَّ أَبْقَى مَعَ هٰؤُلاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً.

أقول: احتسبت كذا عند الله: أي طلبت به الحسبة بكسر الحاء وهي الأجر. والشهادة: القتل في سبيل الله. واستشهد: كأنه استحضر إلى الله.

ومدار الكتاب على أمور:

أحدها: إعلامه بفتح مصر.

الثاني: إخباره عن قتل محمد ابن أبي بكر ليساهمه في الهم بهذه المصيبة، ومدحه في معرض التفجع عليه والتوجع له، وولداً وعاملاً وسيفاً وركناً أحوال، وتسميته ولداً مجاز باعتبار تربيته في حجره كالولد، وذلك أنه كان ربيباً له، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له محمداً وعوناً وعبد الله بالحبشة، ولما قتل جعفر تزوجها أبو بكر فولدت له محمداً هذا. فلما توفي عنها تزوّجها علي عليه السلام فولدت له يحيى بن علي، واستعار له لفظ السيف باعتبار كونه يقمع به العدو ويصال به عليه، ورشح بذكر القاطع، وكذلك لفظ الركن باعتبار كونه يستند إليه في الحوادث فتدفع به ورشح بقوله: دافعاً.

الثالث: إعلامه بحاله مع الناس في معرض التشكي منهم، وأنه قد حثّهم على لحاقه وإغاثته فلم يسمعوا، وأشار إلى وجه تقصير كل منهم، وقد كان حاله عليه السلام مع الناس كحال رسول الله صلى الله عليه وآله مع قومه فالآتون كارهين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، والمعتلّون كذباً كالذين قالوا لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون، ومن تأمل حالهما وسيرتهما إلى أن قبضا تحقق وجه الشبه بينهما في أكثر الأحوال. وهذه القسمة لهم بحسب ما وجدهم.

الرابع: سؤاله لله تعالى أن يعجّل له منهم الفرج وهو في معرض التشكي أيضاً والإشارة إلى وجه عذره في المقام بينهم على هذه الحال وهو طلبه للشهادة وتوطينه نفسه على الموت عند لقاء العدو، ولولا ذلك لفارقهم. وبالله التوفيق.

٣٦ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عقيل بن أبي طالب، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو جواب كتاب كتبه إليه.

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَكَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلإِيَابِ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاً وَلا، فَمَا كَانَ إِلاَّ كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلأياً بِلأيٍ مَا نَجَا. فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلالِ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأْيِي فِي قِتَالِ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ، لا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً. وَلا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً، وَلا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَقَعِّدِ، وَلٰكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ:

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي
صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ
فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

أقول: طفلت الشمس بالتشديد: إذا مالت للمغيب. وآبت: لغة في غابت. والجريض: المغموم الذي يبتلع ريقه على همّ وحزن بالجهد ويكاد يموت لذلك. والمخنّق بالتشديد: هو من العنق موضع الخنق بكسر النون. والرمق: بقية النفس. واللأي: الشدة والعسر. والإجماع: تصميم العزم. والجوازي: جمع جازية وهي النفوس تجزى بالسيئة. والمحلّين: من نقض البيعة، يقال لمن نقض عهده وبيعته: محل، ولمن حفظه: محرم. والمقتعد: الراكب لاقتعاده لأظهر البعير.

وحاصل الفصل أمور:

أحدها: قوله: فسرحت، إلى قوله: ما نجا. حكاية حال عدو وقد أغار على بعض أعماله فنفذ إليه جيشاً من المسلمين فهرب حين علم توجههم نحوه ثم لحقوه فقاتلوه قليلاً ثم أفلت منهم على شدة وعسر من الخلاص، وألفاظه عليه السلام أفصح العبارات عما ذكره، وهارباً ونادماً وجريضاً أحوال.

وقوله: كلا ولا.

تشبيه بالقليل السريع الفناء، وذلك لأن لا ولا لفظان قصيران سريعا الانقطاع قليلان في المسموع من المتخاطبين. فشبه بهما ما كان من محاربة العدو للجيش الذي نفذه. ونحوه قول ابن هاني المغربي:

وأسرع في العين من لحظة
وأقصر في السمع من لا ولا

وموقف مصدر أي فما كان ذلك القتال إلا كوقوف ساعة، وروي: لا وذا. ولأياً مصدر والعامل محذوف، وما مصدرية في موضع الفاعل، والتقدير: فلأيي لأياً نجاؤه أي عسر وإبطاء.

وقوله: بلأي.

أي لأياً مقروناً بلأي.

الثاني: قوله: فدع عنك إلى قوله: ابن أمي.

كالجواب لكلام ذكر فيه قريشاً ومن انضم منهم إلى معاوية فأمره عليه السلام بالإضراب عن ذكرهم على سبيل الغضب منهم، والواو في قوله: وتركاضهم. يشبه أن يكون بمعنى مع، ويحتمل أن تكون عاطفة، واستعار لهم لفظ التركاض باعتبار خبط أذهانهم في الضلال عن سبيل الله وخوضهم في الباطل يتسرع فيه من غير توقف، وكذلك لفظ التجوال، ولفظ إجماح باعتبار كثرة خلافهم للحق وحركاتهم في تيه الجهل والخروج عن طريق العدل كالفرس يجمح ويجول.

وقوله: فإنهم. إلى قوله: رسول الله صلى الله عليه وآله.

في قوة صغرى ضمير نبه به على أنه لا خير فيهم وأنه يجب الإعراض عنهم، وتقدير الكبرى، وكل من كان كذلك فينبغي تركه والإعراض عنه إذ لا خير فيه. وأما حقيقة الصغرى فظاهرة لأن قريشاً صمم عزمهم على حربه منذ بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه واتفقوا على شقاقه كما كانت حالهم في بدء الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفترق الحالان في شيء من ذلك.

وقوله: فجزت قريشاً عني الجوازي.

دعاء عليهم بأن يجازوا بمثل فعلهم به من قطيعة الرحم وسلبه سلطان الإسلام والخلافة التي هو أولى بها. وهي تجري مجرى المثل.

وقوله: فقد قطعوا رحمي.

كالتعليل لحسن الدعاء عليهم، وهو في قوة صغرى ضمير أيضاً، وتقدير كبراه: وكل من فعل ذلك فهو حقيق بالدعاء عليه، وأراد بابن أمه رسول الله صلى الله عليه وآله لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم أم عبد الله وأبي طالب، ولم يقل ابن أبي لأن غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النسب إلى عبد المطلب. وقيل: إن أمه فاطمة بنت أسد كانت تربي رسول الله صلى الله عليه وآله حين كفّله أبو طالب يتيماً فهي كالأمّ له فأطلق عليه البنوّة لها مجازاً.

الثالث: قوله: وأما ما سألت عنه. إلى آخره. فهو تقرير بسؤاله والجواب عنه، وفيه تنبيه على فضيلته من وجوه:

الأول: قوته في الدين على من أحلّ ذمة الله ونقض عهداً من عهوده.

الثاني: شجاعته التي لا يزيده معها كثرة الناس حوله عزّة ولا تفرّقهم عنه وحشة، ولا يوجد معها بالصفات المذكورة من الجبن والعجز والانقياد للعدو، ولكنه معها كالقائل. والشعر منسوب إلى العباس بن مرداس السلمي وهو في قوة تمثيل أصله القائل، وفرعه هو عليه السلام، وعلته ما ذكر من الأوصاف، وحكمه كونه شجاعاً يجب الحذر من صولته. وبالله التوفيق.

٣٧ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

فَسُبْحَانَ اللهِ ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ للهِ طِلْبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ. فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ، وَالسَّلامُ.

أقول: أول هذا الكتاب: أما بعد فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة لم يصبُ إليها أحد إلا شغلته بزينتها عما هو أنفع له منها، وبالآخرة أمرنا وعليها حثثنا. فدع يا معاوية ما يفنى، واعمل لما يبقى، واحذر الموت الذي إليه مصيرك والحساب الذي إليه عاقبتك. واعلم أن الله إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره ووفقه لطاعته، وإذا أراد بعبد شراً أغراه بالدنيا وأنساه الآخرة وبسط له أمله وعاقه عما فيه صلاحه. وقد وصلني كتابك فوجدتك ترمي غير غرضك، وتنشد غير ضالتك، وتخبط في عماية وتيه في ضلالة، وتعتصم بغير حجة، وتلوذ بأضعف شبهة. فأما سؤالك إلى المشاركة والإقرار لك على الشام؛ فلو كنت فاعلاً لذلك اليوم لفعلته أمس. وأما قولك: إن عمر ولاّكها. فقد عزل عمر من كان ولّى صاحبه، وعزل عثمان من كان عمر ولاّه، ولم ينصب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمة ما قد كان ظهر لمن كان قبله أو خفي عنهم غيبته، والأمر يحدث بعده الأمر، ولكل والٍ رأي واجتهاد. ثم يتصل بقوله: سبحان الله . الفصل إلى آخره.

والفصل مشتمل على أمرين:

أحدهما: التعجب من شدة لزومه للأهواء التي هو مبتدعها، والتحيّر فيها عن قصد الحق. وذلك أنه في كل وقت يوقع شبهة ويبتدع رأياً يغوي به أصحابه ويقرر في أذهانهم بذلك أن علياً عليه السلام لا يصلح للأمامة، فتارة يقول: إنه قتل عثمان، وتارة يزعم أنه خذله، وتارة يزعم أنه قتل الصحابة وفرق كلمة الجماعة، وتارة تصرف عنه

بالعطاء وتفريق مال المسلمين على غير الوجه الشرعي، وتارة يعترف بكونه صالحاً للإمامة، ويطلب إليه الإقرار بالشام. إلى غير ذلك مما يبتدعه في الدين من الأباطيل، ويتبع الحيرة فيها مع تضييعه لحقائق الأمور التي ينبغي أن يعتقدها من كونه عليه السلام الأحق بهذا الأمر، واطراحه لمواثيق الله وعهوده المطلوبة المرضية له وهي على عباده حجة يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

الثاني: جوابه عن خطابه في أمر عثمان وفخره بنصرته وتبكيته له عليه السلام بخذلانه إيّاه.

وقوله: فإنّك: إلى آخره.

في قوة صغرى ضمير بيانها أن معاوية لما استصرخه عثمان تثاقل عنه وهو في ذلك يعده حتى إذا اشتد به الحصار بعث إليه يزيد بن أسد القسري، وقال له: إذا أتيت ذي خشب فأقم بها ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فإني أنا الشاهد وأنت الغائب. قال: فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان. فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان معه، فكان نصره له حيث بعث لنصرته إنما كان على سبيل التعذير والتقاعد عنه ليقتل فيدعو إلى نفسه فكان ذلك النصر في الحقيقة لمعاوية. إذ كان فعله ذلك سبباً لقتله، وانتصاره هو على مطلوبه من هذا الأمر، وكان خذلانه له حيث كان محتاجاً إلى النصر، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فليس له أن يفخر بنصرته وينسب غيره إلى خذلانه. وبالله التوفيق.

٣٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل مصر، لما ولّى عليهم الأشتر رحمه الله:

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا للهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللهِ، لا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلا يَنْكُلُ عَنِ الأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، لا كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَلا نَابِي الضَّرِيبَةِ: فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لا يُقْدِمُ وَلا يُحْجِمُ، وَلا يُؤَخِّرُ وَلا يُقَدِّمُ إِلاَّ عَنْ أَمْرِي، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

أقول: السرادق: البيت من القطن. والنكول: الرجوع. والظبة بالتخفيف: حد السيف، ونبا السيف: إذا لم يقطع لضريبه. والإحجام: التأخر. وفلان شديد الشكيمة. إذا كان أبياً قوي النفس. وأصل الشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

وفي الكتاب مقاصد:

الأول: قوله: من عبد الله. إلى قوله: يتناهى عنه. صورة عنوانه، ووصف أهل مصر بالغضب لله استجلاباً لطباعهم، وإشارة إلى إنكارهم للأحداث التي نسبت إلى عثمان ومسيرهم لذلك إلى المدينة غضباً لحدود الله أن تعطل.

فإن قلت: فيلزم أن يكون عليه السلام راضياً بقتل عثمان. إذ مدح قاتله على المسير بقتله.

قلت: لا يلزم ذلك لجواز أن يكون مسيرهم إنما كان للنكير عليه دون غرض قتله. فمدحهم على ذلك النكير لأنه جهة مدح، وأما قاتلوه والذين تسوّروا عليه الدار - وكانوا قوماً قليلين - لعله لم يك فيهم من أهل مصر إلا النادر، وليس في كلامه عليه السلام ما يقتضي مدح أولئك باعتبار كونهم قتلوه، واستعار لفظ السرادق لما عمّ من الجور البرَّ والفاجر، والمقيم والمسافر كالسرادق الحاوي لأهله، وقابل بين المعروف والمنكر ولم يرد نفي المنكر بل نفي صفة التناهي عنه.

الثاني: قوله: أما بعد. إلى قوله: أخو بني مذحج.

صدر الكتاب: أعلمهم فيه ببعث الأشتر اجمالاً، ووصفه بأوصاف يستلزم رغبتهم فيه، وكنّى بكونه لا ينام أيام الخوف عن علو همته وتعلّقها حين الخوف بتدبير الحرب والاستعداد للقاء العدو، وبكونه لا ينكل عن الاعداء عن شجاعته وشدة بأسه. وأكد ذلك بوصف كونه أشد على الفجّار من حريق النار، وهو وصف صادق مع المبالغة فيه. إذ كان لقاؤه للفجّار يستلزم غلبة ظنونهم بالهلاك معه وعدم السلامة، ولا كذلك وجود الحريق لطمعهم في الفرار من النار وإطفائها.

ثم ذكره بعد تعديد أوصافه الحميدة وهو أبلغ لأن الغرض الأهم وصفه لا ذكره فقط. ومذحج بفتح الميم كمسجد: أبو قبيلة من اليمن، وهو مذحج بن جابر بن مالك بن نهلان بن سبأ. والنخع: قبيلة من هذه القبيلة، والأشتر نخعي.

الثالث: أمرهم بالمقصود وهو السمع له والطاعة لأمره لا مطلقاً بل فيما يطابق الحق ويوافقه من الأوامر، وأشار إلى حسن امتثال أمره بضمير صغراه قوله: فإنه سيف. إلى قوله: الضريبة، واستعار له لفظ السيف باعتبار كونه يصال به على العدو فيهلكه كالسيف، ورشح بذكر الظبة، وكنّى بكونه غير كليلها وغير نابي الضريبة عن كونه ماضياً في الحوادث غير واقف فيها ولا راجع عنها، والإضافة إلى الضريبة إضافة اسم الفاعل إلى المفعول: أي ولا نابٍ عن الضريبة، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فيجب أن يقدم ويمتثل أمره فيما يشير به من الحرب وغيرها.

الرابع: أمرهم أن يكون نفارهم إلى الحرب، وإحجامهم عنها على وفق أمره، ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله: فإنه. إلى قوله: أمرىء. وكنّى بذلك عن كونه لا يأمر في الحرب وغيرها بأمر إلا وهو في موضعه لأن أوامره عليه السلام كانت كذلك فمن كان على وفقها فأوامره أيضاً كذلك، ولم يرد عليه السلام أن كل ما يأمر به مالك في الأمور الكلية والجزئية فإنه من أمره عليه السلام بالتعيين والتفصيل بل أراد أنه قد علمه بقواعد كلية للسياسات وتدابير المدن والحروب وأعدّه لذلك بحيث يمكنه أن يجتهد فيها ويستخرج جزئياتها.

الخامس: أعلمهم أنه قد آثرهم به على نفسه مع حاجته إليه في الرأي والتدبير في معرض الامتنان عليهم بذلك ليشكروه، وأشار إلى علة إيثاره لهم به وهي كونه ناصحاً لهم قوي النفس شديد الوطأة على عدوهم. وكنى بشدة الشكيمة عن ذلك فأما مصلحته عليه السلام في ذلك الإيثار فهو استقامة الأمر له بصلاح حالهم. وبالله التوفيق.

٣٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عَمْرِو بنِ الْعَاصِ

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ، اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِّي اللهُ مِنْكَ وَمِنِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلاَمُ.

أقول: قد ذكر هذا الكتاب برواية تزيد على هذه، وأوله: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الأبتر بن الأبتر عمرو بن العاص شانىء محمد وآل محمد في الجاهلية والإسلام. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنك تركت مروتك لامرىء فاسق مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته. فصار قلبك لقلبه تبعاً كما وافق شنّ طبقه. فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وآخرتك، وكان علم الله بالغاً فيك. فصرت كالذئب يتبع الضرغام إذا ما الليل دجى يلتمس أن يداوسه. وكيف تنجو من القدر ولو بالحق طلبت أدركت ما رجوت، وقد يرشد من كان قائده. فإن يمكّنّي الله منك ومن ابن آكلة الأكباد ألحقكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وإن تعجزا أو تبقيا بعدي فالله حسبكما وكفى بانتقامه انتقاماً وبعقابه عقاباً.

ومدار الكتاب على توبيخ عمرو بمتابعته لمعاوية في

باطله وتنفيره عما هو عليه ووعيده لهما على ذلك. ومعنى جعله دينه تبعاً لدنيا معاوية أنه يصرفه في مرضاته بحسب ما يتصور حصوله عليه من دنياه كما أشرنا إليه قبل من بيعه دينه في المظاهرة على حربه عليه السلام بطعمة مصر. ثم ذمّ معاوية بأوصاف أربعة لغاية التنفير عنه:

أحدها: كونه ظاهراً غيّه، وضلال معاوية عن طريق الله أوضح من أن يوضح.

الثاني: كونه مهتوكاً ستره، ومن المشهور عنه أنه كان هاتكاً لستر دين الله عنه فإنه كان كثير الخلاعة به والهزل صاحب سمار وجلساء لهو ومتاع وشرب وسماع، وقد كان يتستر بذلك في زمان عمر خوفاً منه إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج ويشرب في آنية الذهب والفضة، وأما في أيام عثمان فكان شديد التهتك، وإنما قارب الوقار حيث خرج على علي عليه السلام لحاجته إلى استغواء الناس بظاهر الدين.

الثالث: يشين الكريم بمجلسه، وذاك أن الكريم هو الذي يضبط نفسه وينزهها عما يشين العرض من الرذائل، وقد كان مجلس معاوية مشحوناً ببني أمية ورذائلهم، ومجالسة الكريم لهم تستلزم نسبته إليهم ولحاقه بهم، وذلك مشين لعرضه ومقبح لذكره.

الرابع: كونه يسفه الحليم بخلطته، وذلك أنه كان دأبه هو وبنو أمية شتم بني هاشم وقذفهم والتعرض بذكر الإسلام والطعن عليه، وإن أظهروا الانتماء إليه، وذلك مما يستفزّ الحليم ويسفه رأيه في الثبات عند مخالطتهم وسماعه منهم، وكنّى باتباعه لأثره عن متابعته له فيما يفعله، وأشار بقوله: وطلبت فضله إلى غرض اتباعه، وشبه اتباعه له باتباع الكلب الأسد تحقيراً له وتنفيراً، ونبهه على وجه الشبه بقوله: يلوذ. إلى قوله: فريسته، وأراد أن اتباعه له على وجه الذلة والحقارة ودناءة الهمة للطمع فيما يعطيه من فضل ماله وانتظار ذلك منه كاتباع الكلب للأسد، وفي مثل هذا التشبيه بلاغ لعمرو في التنفير لو كان له كرم. ثم نبهه على لازم اتباعه له بقوله: فأذهبت دنياك وآخرتك، وأراد بدنياه ما كان يعيش به من الرزق والعطاء الحلال على وجه يلتذّ به في طيب نفس وأمن من الحروب التي لقيها بصفين والأهوال التي باشرها في موافقته لمعاوية، وتلك هي الدنيا الحقة. إذ الدنيا إنما يراد للذة بها والاستمتاع، وذلك مما لم يحصل عليه عمرو. وأما ذهاب آخرته فظاهر.

وقوله: ولو بالحق أخذت. إلى قوله: طلبت.

جذب له إلى لزوم الحق وترغيب فيه بذكر لازمه، وهو إدراك ما طلب من دنيا وآخرة، وظاهر أنه لو لزم الحق لوصل إلى دنيا كاملة وآخرة بالمعالي كافلة.

وقوله: فإن يمكنني الله . إلى آخره.

وعيد بعذاب واقع على تقدير كل واحد من النقيضين وذلك العذاب إما بواسطته في الدنيا بتقدير تمكين الله منهما وهو جزاؤه لهما بما قدما من معصية الله ، وإما من الله في الآخرة على تقدير أن يعجزاه ويبقيا بعده وهو عذاب النار، ونبه عليه بقوله: فما أمامكما شر لكما لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧] واستعار لفظ الأمام للآخرة باعتبار استقبال النفوس لها وتوجهها نحوها. وبالله التوفيق.

٤٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى بَعْضِ عُمَّالِهِ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهٰذِهِ الأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلا الأَمَانَةَ أَدَّيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هٰذِهِ الأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ،

وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ - لا أَبَا لِغَيْرِكَ - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحَانَ اللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ؟ أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ الإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هٰذِهِ الأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هٰذِهِ الْبِلادَ! فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هٰؤُلاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ لأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ، وَلأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلاَّ دَخَلَ النَّارَ!

وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ وَلا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ مِنْ مَظْلَمَتِهِمَا، وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

أقول: المشهور أن هذا الكتاب إلى عبد الله بن عباس حين كان والياً له على البصرة، وألفاظ الكتاب تنبه على ذلك كقوله: قلبت لابن عمك ظهر المجن وقوله: فلا ابن عمك آسيت، وكذلك ما روي أن ابن عباس كتب إليه جواباً عن هذا الكتاب: أما بعد فقد أتاني كتابك تعظم فيه ما أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إن حقي في بيت المال لأكثر مما أخذت والسلام. فكتب عليه السلام جواب ذلك: أما بعد فإن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت المال من الحق أكثر ما لرجل من المسلمين فقد أفلحت إن كان تمنّيك الباطل وادّعاك ما لا يكون تنجيك من المآثم وتحل لك المحارم. لأنت المهدي السعيد إذن. وقد بلغني أنك اتّخذت مكة وطناً. وضربت بها عطناً تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف تختارهنّ على عينك وتعطي فيهن مال غيرك فارجع هداك الله إلى رشدك وتب إلى الله ربك، واخرج إلى المسلمين من أموالهم فعما قليل تفارق من ألفت، وتترك ما جمعت وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد فارقت الأحباب وسكنت التراب وواجهت غنياً عما خلقت وفقيراً إلى ما قدمت. والسلام.

وأنكر قوم ذلك وقالوا: إن عبد الله بن عباس لم يفارق علياً عليه السلام ولا يجوز أن يقول في حقه ما قال. قال القطب الراوندي رحمه الله إذاً يكون المكتوب إليه هو عبيد الله. وحمله على ذلك أشبه وهو به أليق.

واعلم أن هذين القولين لا مستند لهما:

أما الأول: فهو مجرد استبعاد ان يفعل ابن عباس ما نسب إليه، ومعلوم أن ابن عباس لم يكن معصوماً وعلي عليه السلام لم يكن ليراقب في الحق أحداً ولو كان أعز أولاده كما تمثل بالحسن والحسين عليهما السلام في ذلك فكيف بابن عمه بل يجب أن تكون الغلظة على الأقرباء في هذا الأمر أشد ثم إن غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقته إياه لأنه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذة أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً فإذا استوفى حق الله منه أو تاب إليه مما فعل عاد في حقه إلى ما كان عليه كما قال: العزيز عندي ذليل حتى آخذ الحق منه، والذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له. فلا يلزم إذن من غلظته على ابن عباس ومقابلته إياه بما يكره مفارقته له وشقاقه على ما بينهما من المحبة الوكيدة والقرابة.

وأما القول الثاني: فإن عبيد الله كان عاملاً له عليه السلام باليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك. ولنرجع إلى المتن فنقول:

الشعار: ما يلي الجسد من الثياب. وبطانة الرجل:

خاصته. وكلب الزمان: شدته. وحرب العدو: اشتد غضبه. والفتك: القتل على غرّة. وشغرت: تفرقت. والمجنّ: الترس. والأزل: خفيف الوركين. والهوادة: المصالحة والمصانعة. وضح رويداً: كلمة يقال لمن يؤمر بالتؤودة، وأصله الرجل يطعم إبله ضحى ويسيرها مسرعاً للسير فلا يشبعها. فيقال له: ضح رويداً. والمناص: المهرب والمخلص. والنوص: الهرب والتخّلص.

وفي هذا الكتاب مقاصد:

المقصود الأول: إنه ذكر بإحسانه إليه في معرض الامتنان عليه من وجوه:

الأول: إشراكه إيّاه في أمانته التي ائتمنه الله عليها، وهي ولاية أمر الرعية والقيام بإصلاح أمورهم في معاشهم ومعادهم.

الثاني: جعله من خاصته وملازميه، واستعار له بذلك الاعتبار لفظ الشعار لمباشرته وملازمته الجسد.

الثالث: كونه أوثق أهله في نفسه وأدناهم منه لمواساته وموازرته، وأداء الأمانة إليه.

المقصود الثاني: أنه بعد تذكيره بإحسانه إليه ذكر مقابلته بذلك بالإساءة إليه في مفارقته إيّاه وخذلانه وخيانته لما تحت يديه من الأمانة عند رؤيته شدة الزمان عليه، وقيام العدو في وجهه وتفرّق كلمة الإمامة عن الحق لتبين أنه قابل إحسانه بالكفران ليحسن ذمه على ذلك وتوبيخه فيذمه ويوبخه، وأراد مفارقته له في الطريقة ولزوم حد الأمانة.

وقوله: قلبت لابن عمك ظهر المجن.

يضرب مثلاً لمن يكون مع أخيه فيتغيّر عليه ويصير خصماً له، وأصله أن الرجل إذا كان سلماً لأخيه يكون بطن ترسه إليه فإذا فارقه وصار حرباً له يقلب له ظهر ترسه ليدفع به عن نفسه ما يلقاه من شره. فجعل ذلك كناية عن العداوة بعد الصداقة. وضرب مثلاً لمن فعل ذلك.

المقصود الثالث: الأخذ في تعنيفه وتوبيخه. وحكاية حاله في خيانته في معرض التوبيخ. وذلك قوله: فلا ابن عمك. إلى قوله: هذه البلاد. وشبهه بمن لم يرد الله بجهاده بل الدنيا، وبمن لم يكن بيّنة من ربه بل هو جاهل به وبوعده ووعيده. ووجه الشبه مشاركته لطالبي غير الله والجاهلين به في طلب غيره والإعراض عنه، وكذلك شبهه بمن لم يكن له غرض من عبادته إلا خدعة المسلمين عن دنياهم، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: فلما أمكنتك الشدة. إلى قوله: الكبيرة، أي فكما أن غرض الذي يكيد غيره عن شيء أن يترصد الفرصة في أخذه وينتهزها إذا وجدها فكذلك أنت في إسراعك بالوثوب على الخيانة وشبه اختطافه لما أخذه من المال باختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة، ووجه الشبه سرعة أخذه له وخفته له في ذلك، وخصّ الذئب الأزل لأن خفة الوركين يعينه على سرعة الوثبة والاختطاف. ودامية المعزى الكسيرة لأنها أمكن للاختطاف لعدم الممانعة. ثم أخبر في معرض التوبيخ أنه حمله إلى وطنه بمكة، وكنّى بكونه رحيب الصدر به إما عن سروره وفرحه به أو عن كثرة ما حمل منه. لأن من العادة إذا أراد الإنسان حمل شيء في صدره وباعه حوى منه ما أمكنه حمله. ونصب رحيب وغير على الحال، وإضافة رحيب في تقدير الانفصال. ثم شبهه في معرض التوبيخ والتقريع في حمله بمن حمل تراثه إلى أهله من والديه، واستفهم على سبيل التعجب من حاله والإنكار عليه على أمرين:

أحدهما: عن إيمانه بالمعاد وخوفه من مناقشة الله في الحساب تذكيراً له، ونبهه على أنه كان معدوداً في نظره من ذوي العقول. وأدخله في حيز كان تنبيهاً له على أنه لم يبق عنده كذلك.

الثاني: عن كيفية إساغته للشراب والطعام مع علمه أن ما يأكله ويشربه وينكح به من هذا المال حرام لكونه مال المسلمين اليتامى منهم والمساكين والمجاهدين أفاء الله عليهم ليحرز به عباده وبلاده استفهام إنكار وتقريع بذكر معصية الله .

المقصود الرابع: أمره بعد التوبيخ الطويل بتقوى الله وردّ أموال المسلمين عليهم، وتوعده إن لم يفعل ثم أمكن الله منه أن يعذر إلى الله فيه: أي يبلغ إليه بالعذر

فيه ويقتله، وذكر الضرب بالسيف الموصوف بالصفة المذكورة أغلظ في الوعيد وأبلغ في الزجر.

المقصود الخامس: أقسم أن ولديه على قربهما منه وكرامتهما عليه لو فعلا كفعله من الخيانة لم يراقبهما في ذلك حتى يأخذ الحق منهما ويزيح الباطل عن مظلمتهما من مال أو غيره، ومراده أن غيرهم بطريق أولى في عدم المراقبة له. ثم أقسم القسم البار أنه ما يسره أن يكون ما أخذه ابن عباس من أموال المسلمين حلالاً له يخلفه ميراثاً لمن بعده لما علمت أن جمع المال وادّخاره سبب العذاب في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، وقسمه الأول كالعذر له في شدة إنكاره عليه. والثاني: لتحقير ما أخذه، وبيان أنه لو كان أخذه على وجه حلال فلا يصلح للقنية فكيف به وهو حرام، وذلك ليتركه ويخرج عنه إلى أهله.

السادس: أمره بالإمهال على سبيل التهديد بقرب الوصول إلى الغاية التي هي الموت والدفن وعرض أعماله عليه بالمحل الذي ينادي فيه الظالم بالحسرة ويتمنى فيه مضيعو أمر الله، والعمل الصالح الرجعة إلى الدنيا حين لا مخلص لهم مما هم فيه. وذلك المحل هو عرصة القيامة. وذكر النداء بالحسرة حين لا رجعة ليتأكد التخويف والتهديد بتعداد الأمور المنفرة.

وأما قوله: ولات حين مناص شبهوا لات بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل. ولا يستعمل لات إلا مع حين، وقد جاءت حين مرفوعة بأنها اسم لات، وقيل: إن التاء زائدة كهي في ثمت وربّت. وقد مرّ ذلك قبل.

٤١ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عمرو بن أبي سلمة المخزومي، وكان عامله على البحرين، فعزله. واستعمل النعمان بن عجلان الزُرقي مكانه:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلانَ الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلا ذَمٍّ لَكَ، وَلا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الوِلايَةَ، وَأَدَّيْتَ الأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ، وَلا مَلُومٍ، وَلا مُتَّهَمٍ، وَلا مَأْثُومٍ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: عمر هذا ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله وأمه أم سلمة وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم، وأما النعمان بن عجلان فمن سادات الأنصار من بني زريق. والتثريب: التعنيف واستقصاء اللوم. والظنين: المتهم. واستظهرت بفلان: اتخذته ظهيراً.

ومدار الكتاب على إعلام عمر ابن أبي سلمة بانفاذ النعمان عوضاً منه. ثم إعلامه بأن ذلك لم يكن عن ذنب صدر منه يستحق به الذم والعزل، وأنه شاكر له بكونه أحسن ولايته وأدى أمانته. ثم إعلامه بغرضه من عزله واستدعائه وهو الاستعانة به على عدوه كل ذلك ليطمئن قلبه ويفارق الولاية عن طيب نفس، ونبهه على وجه رغبته في حضوره معه بقوله: فإنك. إلى آخره، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من أستظهر به على العدو وإقامة عمود الدين فواجب أن أرغب في حضوره ويشهد معي، ولفظ العمود مستعار للأصول التي بحفظها وقيامها يقوم كالعمود للبيت: وبالله التوفيق.

٤٢ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى مصقلة بن هُبيرة الشيباني، وهو عامله على (أردشير خُرّة):

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ، وَأَغْضَبْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذٰلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً. فَلا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً.

أَلا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي

قِسْمَةِ هٰذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ.

أقول: اعتامك: اختارك من بين الناس، وقد أعلمه بما بلغه من الأمر الصادر عنه إجمالاً ليتنبه له، وأشعره أنه مكروه بما يلزمه وهو سخط إلهه وغضب إمامه، ونبه بقوله: إن كنت فعلته. على عدم تحققه لذلك. ثم بين له ذلك وهو عطاؤه مال المسلمين لمن اختاره رئيساً من أعراب قومه. ووصف ذلك الفيء بكونه حيازة رماحهم وخيولهم، وعليه أريقت دماؤهم ليتأكد في النفوس ويتبين وجه استحقاقهم له. وبقدر ذلك يتأكد قبح قسمته في غيرهم. ثم أقسم قسمه المعتاد في معرض الوعيد إن كان ذلك منه حقاً أن يلحقه به هوان وحقارة عنده ويخفّ وزنه في اعتباره، وكنّى به عن صغر منزلته. وميزاناً نصب على التميز. ثم نهاه عن استهانته بحق ربه، وعن إصلاح دنياه بفساد دينه تنبيهاً على عظمة الله ووجوب المحافظة على طاعته، ونبهه على ما يلزم من ذلك من دخوله في زمرة الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ثم نبهه على قبح ما فعل من تخصيص قومه بذلك المال بقوله: ألا وإن. إلى قوله: سواء، وهو في قوة صغرى ضمير، وقوله: يردون إليه ويصدرون عنه تأكيد لتساويهم في الاستحقاق وأنه لهم كالشريعة المشتركة، وتقدير كبراه: وكل حق سواء بين المسلمين فلا يجوز تخصيص بعضهم به. وقد ذكرنا حال مصقلة من قبل. وبالله التوفيق.

٤٣ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى زياد بن أبيه، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه:

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ: يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنَ الخطّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ: لا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ.

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابَ قَالَ: «شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ.

قَالَ الرضي: **قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْوَاغِلُ» هُوَ الَّذِي يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرَبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلاَ يَزَالُ مُدَفَّعاً مُحَاجَزاً. و «النَّوْطُ الْمُذَبْذَبُ» هُوَ مَا يُنَاطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ مِنْ قَعْبٍ أَوْ قَدَحٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَبَداً يَتَقَلْقَلُ إِذَا حَثَّ ظَهْرَهُ، وَاسْتَعْجَلَ سَيْرَهُ.**

أقول: زياد هذا هو دعي أبي سفيان، ويقال: زياد بن عبيد. فمن الناس من يقول عبيد ابن فلان الثقفي. والأكثرون على أنه كان عبداً وأنه بقي إلى أيام زياد فابتاعه وأعتقه، وأما ادعاء أبي سفيان له فروي أنه تكلم يوماً بحضرة عمر فأعجب الحاضرين كلامه فقال عمرو بن العاص: لله أبوه لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه. فقال أبو سفيان: أما والله إنه لقرشي ولو عرفته لعرفت أنه من خير أهلك. فقال: ومن أبوه؟ فقال: أنا والله وضعته في رحم أمه. قال: فهلا تستلحقه. قال: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابي - يعني عمر - ولما ولي علي عليه السلام الخلافة ولى زياداً فارس فضبطها ضبطاً صالحاً وحماها. فكتب إليه معاوية يخدعه باستلحاقه أخاً له: من أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان. أما بعد، فإن المرء ربما طرحه الهوى في مطارح العطب، وإنك للمرء المضروب به المثل قاطع الرحم وواصل العدو، حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عققت قرابتي وقطعت رحمي، وثبت نسبي وحرمتي كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي، وسيان بيني وبينك أطلب بدم أبي العاص وأنت تقاتلني، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحقة بيض أخرى جناحاً،

وقد رأيت أن أعطف عليك ولا أُؤاخذ بسوء سعيك وأن أصل رحمك وأبتغي الثواب في أمرك. واعلم أبا المغيرة أنك لو خضت البحر في طاعة القوم تضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعداً فإن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح. فارجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره فقد أصبحت ضال النسب. ولعمري ما فعل ذلك بك إلا اللجاج فدعه عنه فقد أصبحت على بينة من أمرك ووضوح من حجتك فإن أحببت جانبي ووثقت بي فأتمر بأمري وإن كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل لا عليّ ولا لي. والسلام.

وحمل الكتاب مع المغيرة بن شعبة إليه، وكان ذلك سبب فساده على الحسن بعد علي عليه السلام وانضيافه إلى معاوية. ولما بلغ علياً عليه السلام ذلك كتب إليه: أما بعد فإني وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً، وقد عرفت أن معاوية. إلى آخر الكتاب. ولنرجع إلى المتن فنقول:

غرب السيف: حدّه. والاستفلال: طلب الفل وهو ثلم الحد.

ومدار الكتاب على إعلامه بما علمه من كتاب معاوية إليه ثم تنبيهه على قصده من ذلك الكتاب، وهو أن يستزل عقله ويستغفله عما هو عليه من الرأي الصحيح في نصره الحق وولائه له عليه السلام ويكسر حدته في ذلك، واستعار لفظ الغرب لعقله ورأيه، ولفظ الاستفلال لطلب صرفه عن ذلك الرأي الصالح ملاحظة لشبهه بالسيف. ثم حذره عنه بقوله: فإنما هو الشيطان. باعتبار وسوسته وصده عن الحق على وجه الشبه بقوله: يأتي الانسان. إلى قوله: شماله. وهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾[الأعراف:١٧] إلى قوله: ﴿شَمَآئِلِهِمْ﴾[الأعراف: ١٧]. أي أنه يأتي الانسان من كل جهة كما يأتي الشيطان، وخصّ الجهات الأربع لأنها الجهات التي يعتاد الإتيان منها. وقال بعض المفسرين: من بين أيديهم يطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان، ومن خلفهم يذكرهم خلفهم ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم، وعن أيمانهم يحسن لهم الرئاسة والثناء، وعن شمائلهم يحبّب إليهم اللهو واللذات. وعن شقيق قال: ما من صباح إلا ويقعد إليّ الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي فيقول: لا تخف إن الله غفور رحيم. فاقرأ إني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

وأما من خلفي فيخوّفني الضيعة على من خلفي فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، وأما من قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء فأقرأ: والعاقبة للمتقين، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات. فأقرأ: وحيل بينهم وبين ما يشتهون، ثم نبهه على وجه فساد حيلة معاوية، وذلك أن معاوية إنما أراد استغفاله باستلحاقه إياه أخاً فنبهه عليه السلام، على أن ذلك الاستلحاق إنما يتم بصحة استلحاق أبي سفيان له إبنا ولم تصحّ تلك الدعوى، وإنما كان قوله: أنا كذا وكذا، فلتة من حديث النفس وقع منه من غير ثبت ولا روية، وإقرار بالزنا في قوله: أنا وضعته في رحم أمه. وذلك نزغة من نزغات الشيطان ألقاها على لسانه فلا يثبت بها نسب ولا يستحق بها إرث لقوله صلى الله عليه وآله: الولد للفراش وللعاهر الحجر. ثم شبه المتعلق في نسبه بهذه الفلتة والنزغة بالواغل المدفع، ووجه الشبه كونه لا يزال مدفعاً، وبالنوط المذبذب ووجه الشبه اضطراب أمره وعدم لحوقه بنسب معين وعدم استقراره كما يضطرب النوط ولا يستقر. وبالله التوفيق.

٤٤ - ومن كتاب له عليه السلام

إلَى عُثْمَانَ بن حُنَيْفٍ الأنْصَارِيِّ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ دُعِيَ إلَى وَلِيمَةِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِهَا، فَمَضَى إلَيْهَا

أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هٰذَا

الْمَقْضَم، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذٰلِكَ، وَلٰكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلاَ حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلاَّ كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهى وَأَهْوَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ. بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ، وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هٰذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هٰذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هٰذَا الْقَزِّ. وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ - أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ
وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هٰذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هٰذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ». أَلا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْبَدَوِيَّةَ أَقْوَى وُقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً. وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ [كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ] وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ. وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هٰذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ الأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! هَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ. وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمَانِي، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلاءِ، إِذْ لا وِرْدَ وَلا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلاخُهُ.

أُعْزُبِي عَنِّي! فَوَاللهِ لا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَايْمُ اللهِ - يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا

بِمَشِيئَةِ اللهِ - لأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ!

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فَاتَّقِ اللهَ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفِكَ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلاَصُكَ.

أقول: المأدبة بالضم: الطعام يدعى إليه. والعائل: الفقير. والقضم: الأكل بأدنى الفم. والطمر: الثوب الخلق. والوفر: المال الكثير. وفدك: اسم قرية كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله. والجدث: القبر. وأضغطها: ضيّقها. والقمح: الحنطة. والنسائج: جمع نسجة بمعنى منسوجة. والجشع: أشد الحرص على الطعام. والمبطان: عظيم البطن لكثرة الأكل. وغرثى: جائعة. والبطنة: الكظة وهي الامتلاء من الطعام. والتقمم: تتبع القمامة وهي الكناسة. وتكترش: تملأ كرشها. والسدى: الملقى المهمل. والروائع: الأشجار التي تروع بنضارتها. العِذْبَةَ: النباتات التي لا يسقيها إلا ماء المطر. والمركوس: المردود مقلوباً كالمنكوس. والمداحض: المزالق. وازورّ: أخذ جانباً. واعزبي: ابعدي، يقال: عزب الرجل - بالفتح -: إذا بعد. وسلس: الرجل يسلس بكسر اللام في المستقبل: سهل قياده. والرياضة: التأديب والتعويد. والربيضة: الجماعة الرابضة من الغنم. وتجافت: أي بانت وارتفعت. والهمهمة: الصوت الخفي.

وفي الكتاب مقاصد:

الأول: أشار إلى ما يريد عتابه عليه وهو اجابته إلى المأدبة مسرعاً يستطاب له الألوان وتنقل إليه الجفان، وأعلمه أنه بلغه ذلك مقراً له ليحسن توبيخه، وذلك في قوله: أما بعد. إلى قوله: الجفان.

الثاني: أشار على وجه المعاتبة إلى تخطئته في ذلك بقوله: وما ظننت أنك إلى كذا: أي كان ظني فيك من الورع أنك تنزه نفسك عن الإجابة إلى طعام قوم لا يلتفتون إلى فقرائهم، ويقصرون الدعوة والكرامة على أغنيائهم وأمرائهم، ووجه الخطأ في إجابة داعي هؤلاء أن تخصيصهم الأغنياء دون الفقراء بالكرامة والدعوة دليل واضح على أنهم إنما يريدون بذلك الدنيا والسمعة والرئاء دون وجه الله تعالى، ومن كان كذلك فإجابته موافقة له على ذلك ورضيً بفعله، وذلك خطأ كبير خصوصاً من أمراء الدين المتمكنين من إنكار المنكرات.

الثالث: أمره أن يحترز فيما يتفق له أن يقع فيه من ذلك بالنظر إلى ما يحضر من الطعام فما وجد فيه شبهة حرام ولم يحقق حاله فليتركه، وما تيقّن حله وطيب وجه اكتسابه ببراءة عن الشبهة فينال منه، وكنّى عنه بالمقضم تحقيراً له وتقليلاً، ويفهم منه بحسب التأديب الأول أن التنزّه عن هذا المباح أفضل له من تناوله.

الرابع: نبهه بعد ذلك بقوله: ألا وإن. إلى قوله: علمه. على أن له إماماً يجب أن يقتدي به، وهو تمثيل في قوة قياس كامل حذفت صغراه. فأصل التمثيل مطلق الإمام والمأموم، وعلته كونهما إماماً ومأموماً، وفرعه هو عليه السلام وعامله، وحكمه وجوب الاقتداء. وتقدير القياس: أنك مأموم لإمام، وكل مأموم لإمام فيجب عليه أن يقتدي بإمامه، ينتج أنه يجب عليك أن تقتدي بإمامك وتستضيء بنور علمه.

الخامس: أردف ذلك بالبيّنة على ما يجب أن يقتدي به فيه من حاله في دنياه وهو اكتفاؤه من ملبوسها بما يستر بدنه من طمريه: ومن مطعومها بما يسد به فورة

جوعه من قرصيه غير ملتفت فيما لبسه إلى زينته فإن طمريه كانا عمامة ومدرعة قد استحيا من راقعها، ولا مكترث فيما طعمه بلذة وطيب فإن قرصيه كانا من شعير غير منخول واحد بالغداة وواحد بالعشي.

السادس: نبه أصحابه على أن رياضته تلك لا تستطاع لهم فإنها قوة مشروطة باستعداد لم يصلوا إليه. ثم أمرهم إذ كانت الحال كذلك أن يقصروا في معونته على أنفسهم ورياضته بالورع، وأراد به هنا الكف عن المحارم ثم بالاجتهاد في الطاعة، ويحتمل أن يريد بالورع لزوم الاعمال الجميلة. ثم الاجتهاد فيها.

السابع: نبه بالقسم البار على ردّ ما عساه يعرض لبعض الأذهان الفاسدة في حقه (عليه السلام) أن زهده في الدنيا مشوب برياء وسمعة وأن وراءه محبتها وجمعها وادّخارها خصوصاً وهو إمام الوقت وخليفة الأرض فعدّد أنواع ما أفاء الله على المسلمين منها ثم أقسم أنه لم يأخذ منه إلا قوته، وشبهه في القلة والحقارة بقوت الأتان الدبرة، وخصّها لأن ضعفها بالدبر وشغلها بألمه يقلّل قوتها. ثم بالغ في وصف حقارة دنياهم عنده فأخبر أنها في نظره واعتباره أهون من عفصة مقرة، وظاهر أن من كان كذلك كيف يتصور محبته للدنيا وعمله لها.

الثامن: أنه لما قال فيما أقسم عليه من الدنيا: ولا حزت من أرضها شبراً. استثنى من ذلك فدك بقوله: بلى قد كانت لنا فدك من كل ما أظلته السماء. وذكرها في معرض حكاية حاله وحال القوم معه على سبيل التشكي والتظلم ممن أخذها منهم إلى الله سبحانه وتسليم الأمر له والرضا بكونه حكماً.

واعلم أن فدك كانت خاصة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وذلك أنه لما فرغ من أمر خيبر قذف الله في قلوب أهل فدك الرعب فبعثوا إليه (صلى الله عليه وآله) يصالحونه على النصف فقبل ذلك منهم فكانت له خاصة إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وروي أنه صالحهم على كلها. ثم المشهور بين الشيعة والمتفق عليه عندهم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعطاها فاطمة (عليها السلام)، ورووا ذلك من طرق مختلفة: منها عن أبي سعيد الخدري قال: لما أنزلت: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] أعطى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاطمة (عليها السلام) فدك فلما تولى أبو بكر الخلافة عزم على أخذها منها. فأرسلت إليه تطالبه بميراثها من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وتقول: إنه أعطاني فدكاً في حياته واستشهدت على ذلك علياً (عليه السلام) وأم أيمن فشهدا لها بها. فأجابها عن الميراث بخبر رواه هو: نحن معاشر الأنبياء لا نورث فما تركناه فهو صدقة، وعن دعوى فدك أنها لم تكن للنبي (صلى الله عليه وآله)، وإنما كانت مالاً للمسلمين في يده يحمل به الرجال وينفقه في سبيل الله وأنا أليه كما كان يليه. فلما بلغها ذلك لاثت خمارها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها حتى دخلت عليه ومعه جلّ المهاجرين والأنصار فضربت بينها وبينهم قطيفة. ثم أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء. ثم أمهلت طويلاً حتى سكتوا من فورتهم؟(١).

وقالت: أبتدىء بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد. الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم. ثم خطبت خطبة طويلة قالت في آخرها: فاتّقوا الله حق تقاته وأطيعوه فيما أمركم. فإنما يخشى الله من عباده العلماء، واحمدوا الله الذي بعظمته ونوره يبتغي من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصته ومحل قدسه، ونحن حجته في غيبه، ونحن ورثة أنبيائه. ثم قالت أنا فاطمة بنت محمد. أقول: عوداً على بدء ما أقول ذلك شرفاً ولا شططاً فاسمعوا بأسماع واعية. ثم قالت: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم. ثم قالت: ثم أنتم تزعمون أن لا إرث لأبي أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون أيهاً معشر الملة. أفي كتاب الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي؟

---

(٤) وجدت هذه الخطبة عنها عليها السلام في ج ٥ من كتاب [المنظوم والمنثور في كلام نسوان العرب من الخطب والشعر] وكان مؤلفه من متقدمي علماء العامة، والكتاب عن خزانة المتوكل العباسي منه.

لقد جئت شيئاً فريا فدونكها مخطومة مرحولة. تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب مقيم قال: ثم التفتت إلى قبر أبيها فتمثّلت بقول هند بنت أمامة:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم
لما قضيت وحالت دونك الترب.
تجهّمتنا رجال واستخفّ بنا
إذ غبت عنّا فنحن اليوم مغتصب

قال فلم ير الناس أكثر باكياً وباكية منهم يومئذ. ثم عدلت إلى مسجد الأنصار، وقالت: يا معشر الأنصار وأعضاد الملة وحضنة الإسلام ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي والغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي، أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء يحفظ في ولده. سرعان ما أحدثتم، وعجلان ما آتيتم. الآن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتم دينه. ها إن موته لعمري خطب جليل استوسع وهيه واستنهر فتقه، وفقد راتقه، وأظلمت الأرض له، وخشعت الجبال، وأكدت الآمال. أضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة وأزيلت المصونة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته وأنبأكم بها قبل وفاته فقال: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين.

أيهاً بني قيلة، أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة وتشملكم الصوت، وفيكم العدّة والعدد، ولكم الدار والجنن، وأنتم نجبة الله التي انتجب، وخيرة الله التي اختار. فأديتم العرب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رحى الإسلام، ودر حلبه وخبت نيران الحرب، وسكنت فورة الشرك، وهدأت دعوة الهرج، واستوثق نظام الدين. أفتأخرتم بعد الإقدام، وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد إيمانهم وطعنوا في دينكم. فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون. ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وركنتم إلى الدعة وجحدتم الدين ودسعتم الذي سوغتم. وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني حميد. ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم وخور القنا وضعف اليقين فدونكموها فاحتقبوها مدبرة الظهور ناقبة الخفّ باقية العار موسومة الشنار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله ما تعملون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ثم رجعت إلى بيتها وأقسمت أن لا تكلّم أبا بكر ولتدعونّ الله عليه. ولم تزل كذلك حتى حضرتها الوفاة فأوصت أن لا يصلي عليها فصلّى عليها العباس ودفنت ليلاً، وروي أنه لما سمع كلامها حمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: يا خيرة النساء وابنة خير الآباء والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عملت إلا بأمره، وإن الرائد لا يكذب أهله قد قلت فأبلغت وأغلظت فأهجرت فغفر الله لنا ولك. أما بعد، فقد دفعت آلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودابته وحذاه إلى علي عليه السلام، وأما ما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنّا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً ولكنا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة، وقد عملت بما أمرني وسمعت. فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهبها لي.

قال: فمن يشهد بذلك. فجاء علي بن أبي طالب وأم أيمن فشهدا لها بذلك فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها. فقال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله وصدق علي وصدقت أم أيمن وصدق عمر وصدق عبد الرحمن، وذلك أن لك ما لأبيك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله، ولك عليّ الله أن أصنع بها كما كان يصنع. فرضيت بذلك وأخذت العهد عليه به.

وكان يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم. ثم فعلت الخلفاء بعده كذلك إلى أن ولّيَ معاوية فأقطع مروان ثلثها بعد الحسن عليه السلام. ثم خلصت له في خلافته وتداولها أولاده إلى أن انتهت إلى عمر بن عبد العزيز

فردّها في خلافته على أولاد فاطمة عليها السلام قالت الشيعة: فكانت أول ظلامة ردّها. وقالت السنة: بل استخلصها في ملكه ثم وهبها لهم. ثم أخذت منهم بعده إلى أن أنقضت دولة بني أمية فردها عليهم أبو العباس السفاح. ثم قبضها المنصور. فردها إبنه المهدي. ثم قبضها ولداه موسى وهارون. فلم تزل في أيدي بني العباس إلى زمن المأمون فردها إليهم وبقيت إلى عهد المتوكل فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار، وروي أنه كان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله بيده فكان بنو فاطمة عليها السلام يهدون ثمرها إلى الحاج فيصلونهم عن ذلك بمال جليل فبعث البازيار رجلاً فصرمها وعاد إلى البصرة ففلج، وفي هذه القصة خبط كثير بين الشيعة ومخالفيهم، ولكل من الفريقين كلام طويل. ولنرجع إلى المتن.

فنقول: أشار بالنفوس التي شحت بها إلى أبي بكر وعمر وأتباعهما، وبالنفوس التي سمحت بها إلى وجوه بني هاشم ومن مال ميلهم.

التاسع: استفهم عما يصنع بفدك وغيرها من القينات الدنيوية استفهام إنكار لوجه حاجته إليها تسلية لنفسه عنها وجذباً له عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة بذكر غاية النفوس منها، وهي صيرورتها إلى الجدث، ولوازم تلك الغاية من انقطاع الآثار وغيبة الأخبار فيها وسائر ما عدده من صفات الجدث، وإنما عدّد هذه الأمور لأن الأوقام تنفر عنها وتخشع القلوب لذكرها. فتفزع إلى الله تعالى ويجذب إلى الأعمال الصالحة التي بها الخلاص من أهوال الموت وما بعده. والواو في قوله: والنفس. للحال.

العاشر: لما نبّه على أن فدك وغيرها من قينات الدنيا لا حاجة إليها أشار إلى حصر حاجته وغايته لنفسه وهي رياضتها بالتقوى، والضمير كهو في قوله فيما سبق: وإنما هي الكوفة. والتقدير: وإنّما همتي وحاجتي رياضة نفسي بالتقوى. واعلم أن رياضة النفس تعود إلى نهيها عن هواها وأمرها بطاعة مولاها وهي مأخوذة من رياضة البهيمة وهي منعها عن الإقدام على حركات غير صالحة لصاحبها ولا موافقة لمراده، وتمرينها على ما يوافق مراده من الحركات، والقوّة الحيوانية التي هي مبدأ الإدراكات والأفاعيل الحيوانية في الإنسان. إذا لم يكن لها طاعة القوة العاقلة ملكة كانت بمنزلة بهيمة لم ترض فهي تتبع الشهوة تارة والغضب أخرى، وغالب أحوالها أن تخرج في حركاتها عن العدل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط بحسب الدواعي المختلفة المتخيّلة والمتوهمة ويستخدم القوة العاقلة في تحصيل مراداتها فتكون هي أمارة والعاقلة مؤتمرة لها.

أما إذا راضتها القوة العاقلة ومنعتها عن التخيّلات والتوهمات والإحساسات والأفاعيل المثيرة للشهوة والغضب ومرّنتها على ما يقتضيه العقل العملي وأدّبتها على طاعته بحيث يأتمر بأمرها وينتهي لها كانت العقلية مطمئنة لا تفعل أفعالاً مختلفة المبادىء وكانت باقي القوى مؤتمرة مسالمة لها. إذا عرفت ذلك فنقول: لما كان الغرض الأقصى من الرياضة إنما هو نيل الكمال الحقيقي، وكان ذلك موقوفاً على الاستعداد له، وكان حصول ذلك الاستعداد موقوفاً على زوال الموانع الخارجية والداخلية كان للرياضة أغراض ثلاثة:

أحدها: حذف كل محبوب ومرغوب عدا الحق الأول سبحانه عن درجة الاعتبار ومستن الإيثار. وهي الموانع الخارجية.

والثاني: تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ليجذب التخيّل والتوهم عن الجانب السفلي إلى العلوي ويتبعهما سائر القوى فتزول الدواعي الحيوانية المذكورة. وهي الموانع الداخلية.

الثالث: بعث السر وتوجيهه إلى الجنة العالية لتلقي السوانح الإلهية وتهيّئه لقبولها. ويعين على الغرض الأول الزهد الحقيقي وهو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها بالقلب، وعلى الثاني العبادة المشفوعة بالفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وعظمة الخالق سبحانه والأعمال الصالحة المنوية لوجهه خالصاً. وعبر عليه السلام بالتقوى التي روّض بها نفسه عن هذه الأمور المعيّنة والأسباب المعدة، ونبه على غرضه الأقصى من الرياضة وهو الكمال الحقيقي واللذة به بذكر بعض لوازمه، وهي أن تأتي نفسه آمنة من الفزع يوم

الخوف الأكبر وهو يوم القيامة، وأن يثبت على جوانب المزلق وهو الصراط المستقيم فلا تميل به الدواعي المختلفة عنه إلى أبواب جهنم ومهاوي الهلاك. واستعار لفظ المزالق: لمظان زلل أقدام العقول في الطريق إلى الله وجذب الميول الشهوية والغضبية عنها إلى الرذائل الموبقة.

الحادي عشر: نبه على أن زهده في الدنيا واقتصاره منها على الطمرين والقرصين وترك ما سوى ذلك ليس عن عجزه عن تحصيل طيبات مطعوماتها وملبوساتها، وأنه لو شاء لاهتدى إلى تحصيل تلك الطيبات ولباب القمح ومصفى العسل لأن الهريسة والعسل من أشهر الطيبات بمكة والحجاز. وإنما تركه مع القدرة عليه رياضة لنفسه وإعداداً لها لتحصيل الكمالات الباقية. واستثنى هنا نقيض الملزوم وهو عدم غلبة هواه لعقله وعدم قود جشعه له إلى تخيّر الأطعمة، ونبه عن ذلك العدم بقوله: هيهات. فإن ما استبعد وقوعه من نفسه وأنكره فقد نفاه عنها وحكم بعدمه.

وأما أن ذلك العدم هو نقيض الملزوم بعينه فلأن الملزوم هنا هو المشيئة لتخيّر الطيبات وغلبة الهوى للعقل على مقتضى رأيه في تركها والتنزه عنها وقود الشهوة له إلى الموافقة على استعمالها، والمستثنى ههنا هو عدم ذلك بعينه، وأما جواز استثنائه لنقيض المقدم فلأن مشيئة تلك شرط مساوٍ لتخيّر الطيبات والاهتداء إليها، وكان عدمه مستلزماً لعدم مشروطه وأكثر استعمال لو في لغة العرب على وجه أن الملزوم علة للازمه أو شرط مساوله، ويستثنى نقيض الملزوم. والواو في قوله: ولعل. للحال: أي هيهات أن يغلبني هواي إلى تخيّر الأطعمة حال ما يحتمل أن يكون بالحجاز واليمامة من هو بصفة كذا.

وقوله: أو أبيت.

عطف على يقودني داخل فيما استبعده من نفسه. والواو في قوله: وحولي. للحال، والعامل أبيت، وكذلك قوله: أو أن أكون. عطف على أبيت، وهما لازمان من لوازم نتيجة القياس الاستثنائي فإن عدم إرادته لتخيّر الطيبات لما استلزمه هنا عدم تناولها واستمتاعه بها استلزم ذلك أن لا يبيت مبطاناً وحوله أكباد جائعة وأن لا يلحقه عار بذلك. والبيت تمثيل. غرضه التنفير عن العار اللازم عن الاستمتاع بالطيبات مع وجود ذوي الحاجة إلى يسير الطعام، ونبه على حسن هذه اللوازم بما قارن نقائضها من الأحوال المذكورة. والبيت لحاتم بن عبد الله الطائي من قطعة أولها:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا ابنة ذي البردين والفرس النهد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له
أكيلا فإني لست آكله وحدي
قصيا بعيداً أو قريباً فإنني
أخاف إذا مت الأحاديث من بعدي
كفى بك عاراً أن تبيت ببطنة
وحولك أكباد تحنّ إلى القد
وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً
وما فيّ لولا هذه شيمة العبد

ويروى حسبك داء. وأطلق عليه اسم الداء باعتبار أنه رذيلة تنفيراً عنه، وروي قوله: أو أبيت وقوله: أو أكون. مرفوعين، والوجه فيه أن لا يكون أو حرف عطف. بل تكون الهمزة للاستفهام. والواو بعدها متحركة كالفاء في قوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠] ويكون استفهام إنكار لبيانه مبطاناً ولكونه كما قال القائل، وكذلك الاستفهام في قوله: أأقنع من نفسي. في معرض الإنكار لرضاء نفسه بأن يدعى أمير المؤمنين ولا يشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة المطعم. والواو في قوله: ولا للحال. وأو أكون عطف على أشاركهم في حكم النفي.

الثاني عشر: نبه على بعض العلل الحاملة له على ترك الطيبات والزهد في الدنيا. وهو كونه لم يخلق ليشغله أكل الطيبات عما يراد منه، وذلك في قوله: فما خلقت. إلى قوله: المتاهة، ونفر عن الاشتغال بأكل الطيبات بذكر ما يلزم المشتغل بذلك من مشابهة البهيمة، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: همّها علفها. إلى قوله: يراد بها. وذلك أن المشتغل بها إن كان غنياً أشبه

البهيمة المعلوفة في اهتمامه بما يعتلفه من طعامه الحاضر. وإن كان فقيراً كان اهتمامه بما يكسبه ويقمّمه من حطام الدنيا ثم تعليفه، ويملأ كرشه مع غفلته عما يراد منه كالسائمة التي همّها الاكتراش لقممه من الكناسات مع غفلتها عمّا يؤول إليه حالها ويراد بها من ذبح واستخدام، واستعار لفظ الحبل وجرّه، وكنّى بذلك عن الإهمال والإرسال كما ترسل البهيمة.

الثالث عشر: أشار إلى بعض ما عساه يعرض للأذهان الضعيفة من الشبهة، وهي اعتقاد ضعفه عن قتال الأقران بسبب ذلك القوت النزر، وذلك بقوله: وكأني. إلى قوله: الشجعان. ثم نبه على الجواب عن ذلك من خمسة أوجه:

الأول: التمثيل بالشجرة البرية، وقياس نفسه عليها في القوة. فالأصل هو الشجرة البرية، والفرع هو عليه السلام، والمشترك الجامع بينهما هو قلة الغذاء وجشوبة المطعم كقلة غذاء الشجرة البرية وسوء رعيها، والحكم عن ذلك هو صلابة أعضائه وقوته كصلابة عود الشجرة البرية وقوتها. ذلك دافع للشبهة المذكورة.

الثاني: تمثيل خصومه وأقرانه كمعاوية بالروائع الخضرة وهي الأصل في هذا التمثيل، والفرع هو خصومه وأقرانه، والمشترك الجامع بينهما هو الخضرة والنضارة الحاصلة عن الترفه ولين المطعم، والحكم اللازم عن ذلك هو رقة الجلود ولينها والضعف عن المقاومة وقلة الصبر على المنازلة والميل إلى الدعة والرفاهية، والغرض أن يعلم كون أقرانه أضعف منه. فتندفع الشبهة.

الثالث: تمثيله بالنباتات البدوية وهو كتمثيله بالشجرة البرية والحكم هنا هو كونه أقوى على سعير نار الحرب وأصبر على وقدها وأبطأ فتوراً فيها وخموداً كالنباتات البدوية في النار.

الرابع: تمثيله نفسه من رسول الله صلى الله عليه وآله بالصنو من الصنو. وأصل هذا التمثيل هو الصنو من الصنو وفرعه نسبة نفسه من رسول الله صلى الله عليه وآله وعلته الجامعة هي كون علومه وكمالاته النفسانية المشرقة مستفادة ومقتبسة من مصباح علم النبوة، وكمالاتها كالمعلول من العلة والمصباح من الشعلة.

الخامس: تمثيله منه صلى الله عليه وآله بالذراع من العضد. والأصل فيه الذراع مع نسبته إلى العضد، والفرع هو عليه السلام منسوباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، والعلة الجامعة هي قربه منه وقوته به وكونه ظهيراً له ووسيلة إلى حصول مقصوده من تمام الدين وكماله، وكون الرسول صلى الله عليه وآله أصلاً في ذلك كقرب الذراع من العضد، وكون العضد أصلاً له، وكون الذراع وسيلة إلى التصرف والبطش بالعضد، والحكم في هذين التمثيلين واحد وهو كونه عليه السلام لا يضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان، ووجه لزوم هذا الحكم عن المشترك الأول أنه لما كانت علومه اليقينيّة وبصيرته في الدين يناسب بصيرة رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك أعظم أمر يشجعه ويقوّيه على قتال الأقران حمية للدين، وكذلك عن المشترك الثاني.

ثم لما أثبت ذلك الحكم ونفى عنه الضعف المتوهم فيه أكد ذلك بالقسم البار أنه لو تعاونت العرب على قتاله لما ولى عنها، ولو أمكنت الفرصة من رقابها يسارع إليها: أي حين القتال واستحقاقهم للقتل بعداوتهم للدين وقبح العفو عنهم ملاحظة تشبهه برسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك في مبدء الإسلام فإنه لم يكن ليضع العفو إلا في موضعه. وروي أنه لو قتل في يوم واحد ألف إنسان صبراً في مقام واحد لما رأى في ذلك من مصلحة الدين.

الرابع عشر: تواعد أن يجتهد في تطهير الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس، وأراد معاوية، وإنما قال: شخصاً وجسماً ترجيحاً لجانب البدن على النفس باعتبار عنايته بكمال بدنه دون كمال نفسه فكأنه جسم وشخص فقط، وأشار بكونه معكوساً ومركوساً إلى التفاته عن الجنبة العالية وانتكاسه عن تلقي الكمالات الروحانية إلى الجنبة السافلة وارتكاسه في الدنيا، وانعكاس وجه عقله إلى تحصيلها لذاتها والاعتناء بجمعها [بجميعها خ] فإن غرض العناية الإلهية من خلق الإنسان أن يترقى في مدارج الكمال بعد حفظ

فطرته الأصلية عن الدنس برذائل الأخلاق فإذا جذبته دواعي الأمارة إلى الدنيا وغرّته بحبها حتى التفت إليها لم يزل ينحط في دركات محبتها، وبحسب ذلك يكون انتكاسه عن مراتب الكمال وارتكاسه في الرذائل ومهاوي الضلال، وتقيّده فيها بالسلاسل والأغلال.

وقوله: حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد.

إشعار لفظ المدرة لمعاوية وحب الحصيد للمؤمنين، ووجه المشابهة أنه مخلص المؤمنين من وجود معاوية بينهم ليزكوا إيمانهم ويستقيم دينهم. إذ كان وجوده فيهم سبباً عظيماً لفساد عقائدهم، وهلاك دينهم كما يفعل أهل البيادر من تصفية الغلال وإخراج ما يشوبها ويفسدها من المدر وغيره. وقال الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد: كما أن الزراع يجتهدون في إخراج المدر والحجر والشوك ونحوه من بين الزرع كيلا يفسد منابته فيفسد ثمرته. وفيه نظر لأنه لا معنى لإخراج الطين من الزرع، ولأن لفظ حبّ الحصيد لا يفهم منه ذلك.

الخامس عشر: تمثّل الدنيا بصورة من يعقل، وخاطبها بخطاب العقلاء ليكون ذلك أوقع في النفوس لغرابته. ثم أمرها بالتنحي والبعد عنه كالمطلّق لها. وحبلك على غاربك كناية عن الطلاق تمثيلٌ. وأصله: أن الناقة إذا أُريد إهمالها لترعى وضع حبلها على غاربها فضرب مثلاً لكل من أهمل وأُطلق عن الحكم. ثم جعلها ذات مخالب استعارة بالكناية عن كونها كالأسد في جذبها للإنسان بما فيها من الشهوات والقينات إلى الهلاك الأبد. كما يجر الأسد فريسته، وكذلك جعلها ذات حبائل؛ وكنّى بهذا الوصف المستعار عن كونها تصيد قلوب الرجال بشهواتها الوهمية فهي لها كحبائل الصائد، واستعار لفظ مداحضها لشهواتها وملذاتها أيضاً باعتبار كونها مزالق أقدام العقول عن طريق الله ومصارع لها، وعبّر بجميع ذلك عن زهده فيها وإبعادها فيها عن نفسه.

ثم أخذ في سؤالها عن القوم الذين غرّتهم بمداعبها والأمم الذين فتنتهم بزخارفها سؤالاً على سبيل التوبيخ لها والذم على فعلها ذلك بهم في معرض التنفير عنها، وهو من قبيل تجاهل العارف، واستعار لها لفظ المداعب جمع مدعبة بمعنى دعابة، ووجه المشابهة أنها عند صفاء لذاتها للخلق واغترارهم بها ثم كرّها عليهم بعد ذلك بالأمر الجد يشبه من يمزح مع غيره، وينبسط معه بالأقوال والأفعال الليّنة ليغترّ به ثم يأتيه بعد ذلك بالأمر الجد فيؤذيه أو يهلكه، وإنما نسب الغرور إليها لكونها سبباً مادياً لذلك. وفي نسخة الرضي رحمه الله غرّرتيهم بإثبات الياء، ووجهه أنها حدثت من إشباع الكسرة.

السادس عشر: أشار إلى غايتهم التي صاروا إليها، وهي كونهم رهائن القبور ومضامين اللحود، ونبّه في ذلك على أن غرورهم وفتنتهم بما لم يخلصهم من هذه الغاية كل ذلك لغرض التنفير عنها. وها للتنبيه، واستعار لفظ الرهائن لهم باعتبار كونهم موثقين في القبور بأعمالهم كالرهن، ويحتمل أن يكون حقيقة، ويكون رهينة بمعنى راهنة وهي الأشخاص المقيمة بقبورها.

السابع عشر: أقسم أنها لو كانت شخصاً مرئياً وقالباً حسياً لأقام عليها حدود الله في عباد غرّتهم بالأماني وأوردتهم موارد البلاء حيث لا ورد ولا صدر: أي أن تلك الموارد ليس من شأنها أن يكون إليها ورود وعنها صدر. ثم لما كان في هذا الخطاب كالمعلم لها أنه قد اطلع على خداعها، وغرورها قال كالمؤيس لها من نفسه هيهات: أي بعد اغتراري بك وركوني إليك.

ثم نبه على بعض العلل الحاملة على البعد عنها والنفرة عن قربها وهي ما يلزم وطء دحضها من الزلق، وركوب لججها من الغرق، والازورار عن حبائلها من التوفيق للسلامة، وما يلزم السالم منها من عدم مبالاته بضيق مناخه، وكل مناخ أناخ به من فقر وسجن ومرض وبلاء بعد السلامة منها فهو فسيح رحب بالقياس إلى ما يستلزم التفسّح في سعتها، والجري في ميادين شهواتها من العذاب الأليم في الآخرة، وهي عنده في القصر وعدم الالتفات إليها كيوم حان انسلاخه. وألفاظ المداحض واللجج والحبال مستعار لشهواتها ولذاتها.

فالأول: باعتبار كون شهواتها مظنة أن تحب فينجر الإنسان عند استعمالها إلى الاستكثار منها أو تجاوز

القدر المعتدل إلى المحرم فتزل قدم نفسه عن صراط الله فيقع في مهاوي الهلاك والمأثم.

والثاني: باعتبار أن مطالبها والآمال فيها غير متناهية فمن لوازم المشتغل بها والمنهمك في الدنيا أن يغرق نفسه في بحر لا ساحل له منها فينقطع عن قبول رحمة الله إلى الهلاك الأبدي كالملقي نفسه في بحر لجي.

الثالث: باعتبار أن الإنسان إذا اغترّ بها وحصل في محبة مشتهياتها عاقته عن النهوض والتخلّص إلى جناب الله ومنعته أن يطير بجناحي قوته العقلية في حضرة قدس الله ومنازل أوليائه الأبرار كما تعوق حبائل الصائد جناح الطائر. ولفظ الوطي والركوب والزلق والغرق ترشيح. ثم كرر الأمر لها بالبعد عنه وأقسم أنه لا يذل لها فتستذله ولا يسلس لها قياده فتقوده، وفيه تنبيه على أنها لا يذلّ فيها إلا من أذلّ نفسه وعبدها لها ولا تملك إلا قياد من أسلس لها قياده وهو ظاهر. إذ الإنسان ما دام قامعاً لقوته الحيوانية مصرفاً لها بزمام عقله فإنه من المحال أن تذله الدنيا ويستعبده أهلها ومهما اتبع شهوته فيما تمثّل إليه فإنها تذله أشد إذلال وتستعبده أقوى استعباد كما قال عليه السلام: عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق. واستعار وصف إسلاس القياد للتسهيل في متابعة النفس العاقلة للنفس الأمارة وعدم التشدّد في ضبطها باستعمال العقل عن متابعتها.

الثامن عشر: أقسم ليوقعن ما صمم عزمه عليه وهو بصدده من رياضة نفسه. ووصف تلك الرياضة في قوتها باستلزام أمرين:

أحدهما: كون نفسه تهشّ معها إلى القرص وترضى به إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً. وتلك رياضة القوة الشهوية، ولما كانت عدواً للنفس وأكثر الفساد يلحق بسببها خصها بالذكر وقوة العزم، ويحتمل أن يريد رياضة جميع القوى وإنما وصفها بكون النفس تهش معها إلى القرص لأن ضبط الشهوة أعظم من ضبط سائر القوى وأصعب، وكانت الإشارة إلى ضبطها إلى الحد المذكور أبلغ في وصف الرياضة بالشدة، واستثنى في يمينه بمشيئة الله أدباً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]. وتنبيهاً على استناد جميع الأمور في سلسلة الحاجة إلى الله تعالى.

الثاني: كونه يدع مقلته في تلك الرياضة كعين ماء نضب ماؤها، ووجه الشبه أن يفني دموعها ويستفرغها بالبكاء شوقاً إلى الملأ الأعلى وما أُعدّ لأولياء الله من السعادة الأبدية وخوفاً من حرمانها. ومن كان في مقام الغربة ومحل الوحشة كيف لا يشتاق إلى وطنه الأصلي ومقام أُنسه الأولى. ومطعوماً ومأدوماً ومستفرغة أحوال. ثم أخذ في تمثيل نفسه بالسائمة والربيضة على تقدير أن يرضى بمثل حالهما وغايتهما من الدنيا في معرض الإنكار لذلك الرضا من نفسه، والأصل في ذلك التمثيل البهيمة، والفرع هو عليه السلام، والمشترك الجامع هو الراعي والشبع والبروك والنوم والراحة. ولما كان الأصل المقيس عليه في غاية من الخسة بالقياس إلى الإنسان الكامل استلزم ذلك التشبيه به قوة النفرة عما يستلزم التشبيه من الصفات.

وقوله: قرّت إذن عينه.

إخبار في معرض الإنكار والاستهزاء باللذة كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

التاسع عشر: نبه على أن النفس إذا كانت بالصفات المذكورة فلها استحقاق طوبى. وجمع في تلك الصفات أكثر مكارم الأخلاق.

فالأولى: القيام بواجب طاعة الله وما افترضه عليها.

الثانية: قوله: وعركت بجنبها بؤسها. كناية عن الصبر على نزول المصائب. يقال: عرك فلان بجنبه الأذى، إذا أغضى عمن يؤذيه وصبر على فعله به. ويلازم ذلك عدة فضائل كالحلم والكرم والعفو والصفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفة ونحوها.

الثالثة: أن تهجر بالليل غمضها، وهو كناية عن إحياء ليلها بعبادة ربها واشتغالها بذكره حتى إذا غلب النوم عليها افترشت أرضها وتوسدت كفّها: أي لم يكن لها كلفة في تهيئة فراش وطيب وساد. بل كانت برية عن كل كلفة عريّة عن كل قينة منزهة عن كل ترفة.

وقوله: في معشر. يصلح تعلّقه بكل من أفعال النفس المذكورة: أي فعلت هذه الأفعال في جملة معشر من شأنهم كذا. وعرفهم بصفات أربع:

إحداها: كونهم أسهر عيونهم خوف معادهم.

الثانية: وتجافت جنوبهم عن مضاجعهم. وهو كناية عن اشتغالهم ليلاً بعبادة ربهم كقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

الثالثة: وهمهمت بذكر ربهم شفاههم كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

الرابع: وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم، وهو لازم عن الثلاث الأولى أو ثمرة لها، واستعار لفظ التقشع لانمحاء ذنوبهم، ووجه المشابهة أن الذنوب والهيئات البدنية في تسويدها لألواح النفوس وتغطيتها وحجبها لها عن قبول أنوار الله يشبه المتراكم الحاجب لوجه الأرض عن قبول نور الشمس والاستعداد بها للنبات وغيره فاستعار لزوالها، وانمحائها من ألواح النفوس لفظ التقشع. كل ذلك للترغيب في طاعة الله والجذب إلى الدخول في زمرة أوليائه، وبالله التوفيق.

٤٥ - ومن كتاب له عليه السلام

إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لا تُغْنِي عَنْكَ إِلاَّ الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، وَالإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ. وَالسَّلامُ.

أقول: النخوة: الكبر. والأثيم: الآثم. والضغث: النصيب من الشيء يختلط بغيره. وأصله القبضة من الحشيش المختلط من رطبه ويابسه. واعتزم بكذا: أي لزمه وأخذ به.

وقد استماله أولاً بأمور ثلاثة أعلمه بها من نفسه وأعدّه لقبول أوامره؛ وهي كونه ممن يستظهر به على إقامة الدين، ويقمع به نخوة الأثيم، ويسدّ به الثغر المخوف. واستعار لفظ اللهاة لما عساه ينفتح من مفاسد الثغر فيحتاج إلى سده بالعسكر والسلاح ملاحظة لشبهه بالأسد الفاتح فاه للافتراس. ثم أردف ذلك بما أمره به من مكارم الأخلاق.

أولها: أن يستعين بالله على ما أهمّه من أموره فإن الفزع إليه والاستعانة به أفضل ما أعان على حصول المهمات.

الثاني: أن يمزج الشدة بضرب من اللين ويضع كلامه موضعه فيرفق ويلين ما كان الرفق أولى وأوفق له ويأخذ بالشدة حين لا يغني إلا الشدة.

الثالث: أن يخفض جناحه لرعيته، وهو كناية عن التواضع.

الرابع: أن يبسط لهم وجهه، وهو كناية عن لقائهم بالبشاشة والبشر وترك العبوس والتقطيب.

الخامس: أن يلين لهم جانبه، وهو كناية عن المساهلة معهم وعدم التشدد عليهم.

السادس: أن يواسي بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، واللحظة أخص من النظرة وهو أمر بفضيلة العدل بين الرعية لئلا يطمع عظيمهم في جيفه على الضعيف فيتسلّط عليه، ولا ييأس الضعيف من عدله على القوي فيضعف نفسه ويكلّ عما هو بصدده من الأعمال المصلحية، وبالله التوفيق.

٤٦ - ومن وصية له عليه السلام

لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ، لَعَنَهُ اللهُ

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ، وَأَلاَّ تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا،

وَقُولا بِالْحَقِّ، وَاعْمَلا لِلأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاةِ وَالصِّيَامِ».

اللَّهَ اللَّهَ فِي الأَيْتَامِ، فَلا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ، وَاللَّهَ اللَّهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ. وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الْقُرْآنِ، لا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الصَّلاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللَّهَ اللَّهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لا تُخْلُوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا. وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لا تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ ثم قَالَ:

يَا بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ، لا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ» أَلا لا تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي.

انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ».

أقول: بغيت كذا: أردته. وإغباب أفواههم: أن يطعموهم يوماً ويتركوهم يوماً. والمناظرة: المحافظة والمراقبة. والتدابر: التقاطع والتعادي. والمثلة التنكيل.

وقد أوصاهما بأمور:

أولها: تقوى الله التي هي رأس كل خير.

الثاني: الزهد في الدنيا، وأن لا يريداها وإن أرادتهما: أي أقبلت عليهما بما يعد فيها [عنها خ] خيراً، واستعار لفظ البغية لها باعتبار سهولتها عليهما عن توافق أسباب خيرها لهما فهي بذلك الاعتبار كالطالبة لها.

الثالث: أن لا يأسفا على ما قبض وغيّب عنهما من خيراتها وهو من لوازم الزهد الحقيقي فيها.

الرابع: أن لا يقولا إلا الحق وهو ما ينبغي قوله من أوامر الله ونواهيه، وأن يعملا لأجر الآخرة: أي تكون أقوالهما وأعمالهما مقصورة على هذين.

الخامس: أن يكونا للظالم خصيماً وللمظلوم عوناً، وذلك من لوازم قول الحق والعمل له. إذ من كان على حاق العدل لا بد أن يجانب الظالم المنحرف إلى طرف الجور ويخاصمه ليردّه إلى فضيلة العدل فيكون حينئذ عوناً للمظلوم. ثم عاد مؤكداً لوصيتهما مع جميع ولده وأهله ومن بلغه كتابه من عباد الله بتقوى الله مكرراً لها ومردفاً بأوامر أخرى:

أحدها: صلاح ذات البين وذات كناية عن الحالة الموجبة للبين والافتراق. وقيل: هي الحالة بين الرجلين والقبيلتين أو الرجل وأهله. أمر بإصلاح ما بينهما من فساد. وقيل: يحتمل أن يريد بالبين هنا الوصل، وبالذات النفس: أي أصلحوا نفس وصلكم من فساد يقع فيه. وقيل: إن ذات هنا مقحمة زائدة، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]. وصلاح ذات البين من لوازم الألفة والمحبة في الله، وهي فضيلة تحت العفة. ورغّب في ذلك بما رواه سماعاً عن رسول الله ﷺ من قوله: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام. ووجه الأفضلية هنا إنك علمت فيما سلف أن أهم المطالب للشارع ﷺ جمع الخلق على سلوك سبيل الله وانتظامهم في سلك دينه ولن يتم ذلك مع تنازعهم وتنافر طباعهم وثوران الفتنة بينهم فكان صلاح ذات البين مما لا يتم أهم مطالب الشارع إلا به، وهذا المعنى غير موجود في الصلاة والصيام لإمكان المطلوب المذكور بدونهما

فتحققت أفضليته من هذه الجهة. والخبر في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: كلما كان كذلك فواجب أن يفعل.

الثاني: حذّره من الله تعالى في الأيتام ونهى عن إجاعتهم: وكنّى عنها بإغباب أفواههم إذ هو مظنة جوعهم. ثم عن إضاعتهم واستلزم ذلك النهي أمرهما ببرّهم والإحسان إليهم وهو فضيلة تحت العفة.

الثالث: الوصية في الجيران والتحذير من الله فيهم، ونبه على حفظ قلوبهم وإكرامهم بوصية الرسول صلى الله عليه وآله في حقهم، وجعلهم نفس الوصية تأكيداً للمحافظة عليهم كالمحافظة على وصية رسول الله. والمجاز من باب إطلاق اسم المتعلق.

وقوله: ما زال. إلى قوله: سيورثهم. تفسير للوصية المذكورة، وهي أيضاً في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من أوصى النبي في حقه كذلك فواجب أن يحفظ.

الرابع: الوصية بما اشتمل عليه القرآن الكريم من القوانين والقواعد، والتحذير من الله سبحانه في تركه، والنهي عن أن يسبقهم بذلك غيرهم المستلزم للأمر بالمسارعة والسبق إليه.

الخامس: الوصية بأمر الصلاة والتحذير من الله في أمرها، ونبه على فضيلتها بضمير صغراه قوله: فإنها عمود الدين. وهو عين ما رويناه من الحديث قبل، وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك فواجب أن يقام الدين بإقامته.

السادس: الوصية ببيت ربهم والنهي عن ترك زيارته مدة العمر، وقد سبق سره، ونبه على فضيلة أُخرى له توجب ملازمته وهو ما يستلزمه تركه من عدم مناظرة الله لتاركيه وترك محافظته عليهم ومراقبته لأن من لا يحفظ الله في بيته ولا يراقبه في مراعاة جانبه لم يحفظه الله ولم يراقبه، ويحتمل أن يريد لن يناظركم الأعداء ولم يراقبوكم. إذ في الإجماع إلى بيت الله والمحافظة عليه عزّ بالله واعتصام به يوجب مراقبة الخلق المعتصمين به وانفعال القلوب عنهم وعن كثرتهم ومناظرتهم.

السابع: الوصية بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس واللسان والتحذير من الله في تركه وهو مما علمت فضيلته.

الثامن: الوصية بالتواصل والتباذل: أي يبذل كل منهم النصرة لصاحبه في سبيل الله.

التاسع: التحذير من التقاطع والتدابر. وسرّه ظاهر.

العاشر: النهي عن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المستلزم للأمر بهما. ونفر عن ذلك الترك بما يستلزمه ويعدّ له من تولي الأشرار عليهم وعدم استجابة دعاء الداعين منهم، ووجه إعداده لذلك أن ترك الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم ثوران المنكر وقلة المعروف من طباع الأشرار ويعد لاستيلائها وغلبتها وولاية أهلها وذلك يستلزم كثرة الشر والأشرار وقلة الصالحين، وضعف هممهم عن استنزال رحمة الله تعالى بأدعيتهم فيدعون فلا يستجاب لهم. ثم عقب ذلك بوصية أهل بيته من بني عبد المطلب بما يخصه من أمر دمه. والوصية بأمور:

أحدها: نهاهم عن إثارة الفتنة بسبب قتله فقال: لا أجدنكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، وكنّى عن كثرة القتل.

وقوله: تقولون: قتل أمير المؤمنين. حكاية ما جرت به العادة أن يقوله طالب الثأر حين هياجه إظهاراً لعذره والسبب الحامل له على إثارة الفتنة.

الثاني: نهاهم أن يقتلوا إلا قاتله. إذ ذلك هو مقتضى العدل.

الثالث: نبههم بقوله: انظروا. إلى قوله: هذه. على أنه لا يجوز قتله بمجرد ضربته إن حصل الموت بسبب غيرها إلا أن يعلم أن موته كان بسببها.

الرابع: أمرهم أن يضربوه ضربة بضربة، وذلك مقتضى عدله عليه السلام أيضاً.

الخامس: نهى عن المثلة به معللاً بما رواه سماعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك لما في المثلة من تعدي الواجب وقسوة القلب وشفاء الغيظ وكل ذلك رذائل يجب الانتهاء عنها، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنه فوجب أن لا يفعل. وبالله التوفيق.

٤٧ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ بِالْمَرْءِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ.

وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلٰكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلاَمُ.

أقول: هذا الفصل من كتاب له إليه بعد التحكيم، وتمسك معاوية بما حكم به الحكمان، ويحتمل أن يكون عند إجابته إلى التحكيم. والوتغ بالتحريك: الهلاك. وأوتغ فلان دينه بالإثم: أهلكه وأفسده، وفي نسخة الرضي رحمه الله يذيعان: أي يظهران. والبطة: السرور، والغبطة: تمنّي مثل حال الغير.

وصدر الفصل بذكر الظلم والكذب والتنفير عنهما بما يلزمهما من إهلاك دين المرء ودنياه، ويبديان خلله وعيبه لمن يعيبه. أما في دينه فلكونهما رذيلتين مضادتين للعدل والعفة ومجانبتين للإيمان والدين، وأما في دنياه فلأن أعظم مطالب الدنيا للعقلاء الذكر الجميل وإنما يحصل بظهور مكارم الأخلاق دون رذائلها، وأراد بما قضي فواته ما جعله معاوية شبهة له في محاربته، وهو الطلب بدم عثمان وهو في قوة صغرى ضمير احتجّ به على وجوب ترك المشاقّة، وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك تعيّن عليه أن يترك ذلك الطلب. ثم أعلمه بحال من طلب أمراً باطلاً وتأوّل على الله في ذلك.

والإشارة إلى أصحاب الجمل حيث كانوا طالبين للأمر والملك فتأوّلوا على الله : أي على سلطان الله وهي الخلافة الحقة فجعلوا لخروجهم وبغيهم عليها تأويلاً وهو الطلب بدم عثمان، ونحوه من الشبه الباطلة. فأكذبهم الله بنصره عليهم وردّ مقتضى شبههم. والإكذاب كما يكون بالقول كذلك يكون بالفعل. وقال القطب الراوندي - رحمه الله -: معناه وقد طلب قوم أمر هذه الأمة فتأوّلوا القرآن كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] . فسموا من نصبوه من الأمراء أولي الأمر متحكمين على الله فأكذبهم الله بكونهم ظالمين بغاة، ولا يكون الوالي من قبل الله كذلك. ثم حذّره يوم القيامة منبهاً له على ما فيه من سرور الذين حمدوا عاقبة أعمالهم بما حصلوا عليه من السعادة الباقية واغتباط غيرهم لهم وتمني مثل مراتبهم، وندم من أمكن الشيطان من قياده فصرفه كيف شاء ولم يجاذبه، واستعار لفظ التمكين من القياد لمطاوعة النفس الأمارة. وغرض التحذير أن لا يكون كمن سبق من طالبي هذا الأمر بالتأويل على الله .

وقوله: وقد دعوتنا. إلى آخره.

صورة سؤاله والجواب عنه. وكونه ليس من أهله. إذ لم يكن صالحاً للإمامة كما سبق بيانه مراراً، وحيث لم يكن أهلاً لأن يجاب إلى الرضى بالتحكيم أعلمه بذلك وأنه أجاب القرآن إلى حكمه، وذلك في قوله تعالى في حق الزوجين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] الآية. فجعل عليه السلام هذا أصلاً وقاس عليه بالطريق الأولى حال الأمة عند وقوع الشقاق بينهم. وبعين ذلك احتج ابن عباس رضي الله عنه على الخوارج حيث أنكروا التحكيم فقالوا: كيف يجوز لعلي أن يحكم في دين الله الرجال. فقال لهم: إن ذلك ليس بأمر علي عليه السلام . وإنما هو بأمر من الله تعالى في كتابه. إذ يقول في حق الزوجين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ٣] الآية. أفترون أنه أمر تعالى بذلك في حق الرجل وامرأته مراعاة لمصلحتهما ولا يأمر بذلك في حق الأمة رعياً لمصلحتهم؟ فرجع كثير منهم إلى قوله: وبالله التوفيق.

٤٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى غيره

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ

يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلاَّ فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ! وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلامُ.

أقول: اللهج: الحرص الشديد.

وصدر الكتاب بالتنبيه على معائب الدنيا ليقل الرغبة فيها، وذكر منها أموراً:

الأول: كونها مشغلة عن غيرها: أي عن الآخرة وهو ظاهر مما مر.

الثاني: كونها لم يصب صاحبها منها شيئاً إلا كان ذلك معداً للحرص عليها واللهج بها، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله: لو كان لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

الثالث: فإن حصول بعضها إذا كان معداً للفقر إليها لم يستغن طالبها أبداً منها. ثم أردف ذلك بذكر أمور للتنفير عنها أيضاً:

أحدها: استعقابها لفراق ما جمع منها.

الثاني: نقض ما أُحكم من أمورها، ثم نبه على وجوب الاعتبار بما مضى من العمر أو من أحوال الدنيا والقرون الماضية لغاية حفظ ما بقي من العمر أن يضيّع في الباطل أو حفظ ما يبقى من السعادة الأُخروية بالسعي في تحصيلها. وبالله التوفيق.

٤٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أُمَرَائِهِ عَلَى الْجُيُوشِ

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ.

أَلا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلاَّ أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلا فِي حَرْبٍ، وَلا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلاَّ فِي حُكْمٍ، وَلا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ وَجَبَتْ للهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَلاَّ تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلا تُفَرِّطُوا فِي صَلاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا عَلَى ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلا يَجِدُ فِيهَا عِنْدِي رُخْصَةً، فَخُذُوا هٰذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ.

أقول: أحتجز: أمنع. والنكوص: الرجوع على الأعقاب. والغمرة: الشدة.

واعلم أنه قدم هاهنا ما يجب على الوالي المطلق لرعيته بوجه كلي كما هو عادة الخطيب. ثم ثنى ببيان ما يجب عليه لهم تفصيلاً لذلك الكلي. ثم ما يجب عليهم. ثم أمرهم بلزوم ما أوجبه عليهم.

أما الأول: أما بعد. إلى قوله: إخوانه. وأشار فيه إلى أمرين:

أحدهما: أن لا يغيّره عنهم ما اختص به من الفضل والطول لأن تغيّره عنهم خروج عن شرائط الولاية.

الثاني: أن يزيده تلك النعمة من الله دنواً من عباده عطفاً على إخوانه لأن ذلك من تمام شكر النعمة.

وأما الثاني: فاشترط على نفسه لهم خمسة أمور:

أحدها: أن لا يحتجز دونهم سراً في الأمور المصلحية إلا في الحرب. ويحتمل ترك مشورتهم هناك أمرين:

أحدها: أن أكثرهم ربما لا يختار الحرب فلو توقف على المشورة فيه لما استقام أمره بها. ولذلك كان عليه السلام كثيراً ما يحملهم على الجهاد ويتضجّر من تثاقلهم عليه، وهم له كارهون. كما سبق.

الثاني: أن يكتم ذلك خوف انتشاره إلى العدو فيكون سبب استعداده وتأهبه للحرب، ولذلك كان

رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً إلى الحرب ورّى بغيره كما روي أنه لما نوى غزاة بدر كتب للسرية كتاباً وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلى صوب مكة يومين أو ثلاثة. ثم ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه. فلما ساروا المدة نظروا فيه فإذا هو يأمرهم فيه بالخروج إلى نخلة محمود وأن يفعلوا كذا وكذا ففعلوا وخرج النبي ﷺ خلفهم إلى بدر وكان الظفر لهم. ولو أعلمهم ﷺ حين أمرهم بالخروج أنه يسير إلى قريش لانتشر ذلك إلى قريش وكان استعدادهم لهم أقوى، وجاز أن يكون ذلك أيضاً مانعاً لبعض الصحابة عن النهوض خوفاً من أهل مكة وشوكتهم.

الثاني: أنه لا يطوي دونهم أمراً إلا في حكم. استعار لفظ الطي لكتمان الأمر: أي لا يخفي عنكم أمراً إلا أن يكون حكماً من أحكام الله فإني أقضيه دونكم من غير مراقبة ومشاورة فيه كالحدود وغيرها.

الثالث: أن لا يؤخر لهم حقاً عن محله كالعطاء وسائر الحقوق اللازمة له ولا يقف به دون مقطعه كالأحكام المتعلقة بالمتخاصمين المحتاجة إلى الفصل.

الرابع: أن يسوي بينهم في الحق. والأوّلان مقتضى فضيلة الحكمة، والثالث والرابع مقتضى فضيلة العدل.

وأما الأمر الثالث: مما يستحقه عليهم فبدأ بوجوب حق الله تعالى أولاً: إذ كان حكم قضائه بنصبه لهم إماماً وفعله بهم ما ذكر من أتم نعمه تعالى عليهم. ثم ثنى بما يجب له وذكر أموراً:

أحدها: بذل طاعته. إذ لا حجة لهم عليه يكون سبباً لعصيانهم.

الثاني: أن لا ينكصوا عن دعوة إذا دعاهم. وهو من تمام الطاعة.

الثالث: أن لا يقفوا في حيّز التفريط في مصلحة يراها أو يبدو لهم.

الرابع: أن يخوضوا الغمرات ويركبوا الشدائد في نصرة الحق وطلبه.

ثم أردف ذلك بالوعيد لهم إن لم يستقيموا له على ما وجب له عليهم مما عدده وتوعد بأمرين:

أحدهما: هوان المعوجّ منهم عن طاعته عليه وسقوط منزلته.

والثاني: إعظام العقوبة له وعدم الرخصة فيها عنده. ولما بيّن لهم ما وجب عليهم أمرهم أن يأخذوا ذلك البيان، والنصح منه ومن سائر أمراء العدل، ويعطوهم من أنفسهم ما يصلح الله به أمورهم من الطاعة وفعل ما أُمروا به. وبالله التوفيق.

٥٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إِلَى عُمّالِهِ عَلَى الْخَرَاجِ

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ.

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاءُ الأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الأَئِمَّةِ. وَلا تَحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلا تَحْبِسُوهُ عَنْ طِلْبَتِهِ، وَلا تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلا صَيْفٍ، وَلا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلا عَبْداً، وَلا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَلا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلا مُعَاهَدٍ، إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الإِسْلامِ، فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذٰلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الإِسْلامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلا دِينَ اللهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ

نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

أقول: السفير. الرسول. وحشمته واحتشمته: بمعنى: أي أغضبته وأخجلته. والشوكة: القوة. وأبليته معروفاً: أي أعطيته.

وصدر الكتاب بمقدمة كلية، وهو أن من لم يحذر ما يصير إليه من العواقب المخوفة لم يقدم لنفسه استعداداً يحرزها منها فإن الإنسان إنما يستعد للأمر المرغوب أو المرهوب إذا رغب فيه أو خافه، وهي في معرض التوبيخ على ترك الحذر لغرض تقديم طاعة وما يستعد به الإنسان مما يحرز نفسه من عذاب الله . ثم أعلمهم بكون التكليف لهم يسيراً تسهيلاً له، وكون ثوابه كثيراً ترغيباً فيه. وهو في قوة صغرى ضمير رغبهم به في القيام بالأمور المكلّف بها، وتقدير كبراه: وكل ما كان كذلك وجب القيام به والاجتهاد فيه. ثم أردفه بالتنبيه على وجوب ترك البغي والظلم بما يلزمه فعله من العقاب الأليم وتركه من الثواب العظيم الذي لا عذر في ترك طلبه لو لم يكن في فعله عقاب. والمعنى أنه لو لم يكن فيه عقاب يخاف فيترك لأجله لكان في تركه ثواب يجب لأجله فكيف؛ وفي فعله العقاب الأليم.

فبالأولى أن يجب تركه، وهو من أفصح الكلام، والغرض التحذير من الوقوع في رذيلة الظلم ثم أردف ذلك بأوامر ونواحي فمن الأوامر أمران:

أحدهما: إنصاف الرعية من أنفسهم وميولها.

الثاني: أن يصبروا لحوائجهم لينتظم أمر مصلحتهم، وعلل ذلك بكونهم خزّان الرعية ووكلاءهم على بيت مالهم وسفراء أئمتهم إليهم، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فعليه النصفة والصبر على حوائجهم.

ومن النواهي خمسة:

أحدها: أن لا يغضبوا أحداً ولا يجبهوه فيستحي عن حاجته.

الثاني: لا يمنعوا أحداً عن حاجته ويحتجبوا دونه.

الثالث: أن لا يحوجوا أحداً في طلب الخراج إلى بيع ما يضطر إليه من كسوة أو دابة ينتفع بها في عمل، ولا عبد.

الرابع: أن لا يأخذوا من مال أحد من أهل القبلة أو المعاهدين من أهل الكتاب شيئاً إلا أن يكون فرساً أو سلاحاً يعدى به على المسلمين والإسلام فإنه يجب أخذه من أيدي أعدائهم لئلا يكون شوكة عليهم وعوناً.

الخامس: أن لا يدّخروا أنفسهم عن أنفسهم نصيحة بل ينصح بعضهم لبعض، ولا عن الجند حسن سيرة، ولا عن الرعية معونة، ولا عن دين الله قوة. ثم أمرهم أن يبلوا في سبيله ويعطوا ما استوجب عليهم من شكر نعمه وطاعته. ثم علل وجوب ذلك بقوله: فإن الله . إلى آخره. وهو في قوة صغرى ضمير. والمعنى أنه تعالى جعل شكره بجهدنا ونصرته بما بلغت قوّتنا صنيعة عندنا . إذ كان شكره ونصرته من أعظم نعمه علينا كما سبق. وقيل: أراد لأن نشكره. وتقدير الكبرى: وكل من اصطنع عندنا وجب علينا شكره. وبالله التوفيق.

٥١ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أُمَرَاءِ الْبِلَادِ فِي مَعْنَى الصَّلاةِ

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبَضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عِضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مِنًى، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاةَ أَضْعَفِهِمْ، وَلا تَكُونُوا فَتَّانِينَ.

أقول: بيّن في هذا الكتاب أوقات الصلاة المفروضة:

فالأول: وقت الظهر وحده بوقت فيء الشمس: أي رجوعها وميلها إلى المغرب ثم نبه بتقديره بمربض العنز، وهو أول وقت الظهر وذلك مما يختلف باختلاف البلاد.

الثاني: وقت العصر وقدره ببقاء الشمس بيضاء لم

تصفر للمغيب، وحية. واستعار لفظ الحياة لظهورها على الأرض لمكان المشابهة، وفي عضو من النهار، وأراد القسم والقطعة منه. ثم قدّر ذلك العضو بمقدار أن يسافر فيه فرسخان السير المعتاد.

الثالث: وقت المغرب وعرّفه بأمرين:

أحدهما: حين يفطر الصائم، وذلك عند سقوط القرص.

والثاني: حين يدفع الحاج ويفيض من عرفات. ولشهرة هاتين العلامتين وتعارفهما مع المخاطبين عرّفه بهما.

الرابع: وقت العشاء الآخرة عرفه بتوارى الشفق وذلك من ناحية المغرب، وحدّ آخره بثلث الليل، وإنّما حدّ آخر هذا الوقت دون أوقات سائر الفرائض لأن الفرائض يتبيّن آخر كل وقت منها ببيان أول وقت الأخرى. ولا كذلك آخر وقت العشاء الآخرة لاتصاله بالليل الخالي عن الفرائض، وأما آخر وقت الصبح فحده بطلوع الشمس أيضاً ظاهر.

الخامس: وقت صلاة الغداة، وحدّه بحين يعرف الرجل وجه صاحبه، وذلك حين طلوع الفجر الثاني وهو الحمرة المعترضة من ناحية المشرق، والعلامة التي ذكرها أوضح لسائر الناس. ثم أوصاهم بفعل وترك: أما الفعل فأن يصلوا بالناس صلاة أضعفهم، وهو أن لا يطيلوا في القراءة وفي الفرائض كقراءة البقرة والسور الطوال فإن ذلك لا يستطيع القيام به كل الناس فيؤدي ذلك إلى المشقة وعجز بعضهم عن أداء الفريضة في الجماعة، وهو ضرر منفي في الدين، وأما الترك فأن لا يكونوا فتّانين بإطالة الصلاة، ووجه الفتنة هنا أنهم يكونون صارفين للناس عن الاتفاق والتساعد على الجماعة بإطالتها المستلزمة لتخلّف العاجزين والضعفاء. والله أعلم.

٥٢ - ومن عهد له عليه السلام

كتبه للأشتر النخعي رحمه الله، لما ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمد ابن أبي بكر وهو أطول عهد، وأجمعُ كتبهِ للمحاسن

أقول: هو مالك بن الحرث الأشتر النخعي من اليمن، وكان من أكابر أصحابه عليه السلام ذوي النجدة والشجاعة الذين عليهم عمدته في الحروب، وروي أن الطرماح لما دخل على معاوية قال له: قل لابن أبي طالب: إني جمعت من العساكر بعدد حبّ جاورس الكوفة وها أنا قاصده. فقال له الطرماح: إن لعلي عليه السلام ديكاً أشتر يلتقط جميع ذلك. فانكسر معاوية من قوله.

وفي العهد فصول:

الفصل الأول قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلادِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلا يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلاَّ مَا رَحِمَ اللهُ.

أقول: يزعها: يكفّها.

وصدر عليه السلام هذا العهد بذكر أمور هي غرض الولاية، وبها يكون نظام الأمر فمنها ما يعود إلى منفعة الوالي وهو جبوة الخراج، ومنها ما يعود إلى الرعية وهي جهاد عدوهم واستصلاحهم بالسياسة وحسن الرعي، ومنها ما يعود إليهما وهو عمارة البلاد ولواحقها. ثم أمره بأوامر خمسة يعود إلى إصلاح نفسه أولاً:

أحدها: تقوى الله وخشيته، وقد سبق بيان كونها أصلاً لكل فضيلة.

الثاني: اتباع أوامره في كتابه من فرائضه وسننه.

ورغب في ذلك بقوله: لا يسعد. إلى قوله: إضاعتها. وتكرر بيان ذلك.

الثالث: أن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه في جهاد العدو. وإنكار المنكرات. ورغب في ذلك بقوله: قد تكفل. إلى قوله: أعزه. كقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

الرابع: أن يكسر من نفسه عند الشهوات. وهو أمر بفضيلة العفة.

الخامس: أن يكفها ويقاومها عند الجمحات. وهو أمر بفضيلة الصبر عن اتباع الهوى وهو فضيلة تحت العفة، وحذّر من النفس بقوله: فإن النفس. إلى آخره، وهو من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] الآية. و - بمعنى - من - وهي نصب على الاستثناء: أي إلا نفساً رحمها الله.

الفصل الثاني: في أوامره ووصاياه بالأعمال الصالحة المتعلقة بأحوال الولاية وتدبير الملك والمدينة وذلك قوله:

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ. وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاكَ بِهِمْ. وَلا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ فَإِنَّهُ لا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَلا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذٰلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ. وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ!

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنَ

أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صَغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً، الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لاَ يَصِحُّ لَكَ، وَلا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ فَلا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ: أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلاَّ يُطْرُوكَ وَلا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

وَلا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ! وَأَلْزِمْ كُلاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

أقول: الضاري: المعتد للصيد، الجريء عليه. والصفح: الإعراض عن الذنب. والبجح - بسكون الجيم -: الفرح والسرور. والبادرة: الحدة. والمندوحة: السعة. والإدغال: إدخال الفساد في الأمر. والنهك: الضعف. والأبهة، والمخيلة: الكبر. ويطامن: يسكن. وطماح النفس: جماحها. وطمح البصر: ارتفع. وغرب الفرس: حدته، وأول جريه. والمساماة: مفاعلة من السمو. والجبروت: الكبر العظيم. وأدحض حجته: أبطلها. وينزع: يرجع. وأجحف به: ذهب به. والإلحاف: شدة السؤال. وملمّات الدهر: ما يلم من خطوبه. وجماع المسلمين:

جمعهم. والصغوة: الميل. وأشنأهم: أبغضهم. والوتر: الحقد والتغابي: التجاهل والتغافل: وبطانة الرجل: خاصته. والآصار: الآثام. وحفلاتك: أي جلساتك في المحافل والمجامع. والإطراء: المدح البالغ. والزهو: الكبر. والتدريب: التعويد. والمنافثة: المحادثة.

واعلم أن مدار هذا الفصل لما كان على أمره بالعمل الصالح في البلاد والعباد نبهه أوّلاً على بعض العلل الغائية من ذلك، وهو الذكر الجميل في العقبى والكون من الصالحين ليعمل له، وذلك بقوله: إني قد وجهتك.

إلى قوله: تقول فيهم. وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها: إنك موجه إلى بلدة حالها كذا وكذا وحال الناس في فعلك بها كذا، وتقدير الكبرى: وكل من كان وجّه إلى بلدة كذلك وكان الناس ينظرون من أمره مثل ما كان ينظر قبله من أمر الولاة ويقولون فيه مثل ما كان يقول فيهم فيجب عليه أن يكون أحب الأمور إليه العمل الصالح ليحصل منه الذكر الجميل بين الناس الدال على كون المذكور عند الله من الصالحين، ونبه على تلك الدلالة بقوله: وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. وفي نسبة إجراء القول إلى الله ترغيب عظيم في تحصيل الذكر الجميل. ثم أعقب ذلك بأمره أن يجعل العمل الصالح أحب الذخائر إليه، واستعار له لفظ الذخيرة باعتبار أن يحصله في الدنيا لغاية الانتفاع به في العقبى كالذخيرة.

ولما أمره بالعمل الصالح إجمالاً شرع في تفصيله وذكر أنواعاً:

أحدها: أن يملك هواه في شهوته وغضبه فلا يتبعهما، ويشح بنفسه عما لا يحل لها من المحرمات.

وقوله: فإن الشح. إلى قوله: كرهت.

تفسير لذلك الشح بما يلازمه وهو الإنصاف والوقوف على حد العدل في المحبوب فلا تقوده شهوته إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة الفجور، وفي دفع المكروه فلا يقوده غضبه إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل فيقع في رذيلة الظلم والتهور. وظاهر أن ذلك شح بالنفس وبخل بها عن إلقائها في مهاوي الهلاك.

الثاني: أن يشعر قلبه الرحمة للرعية والمحبة واللطف بهم. وهي فضائل تحت ملكه العفة: أي اجعل هذه الفضائل شعاراً لقلبك. ولفظا الشعار والسبع مستعاران. وأشار إلى وجه استعارة السبع بقوله: تغتنم أكلهم.

الثالث: أن يعفو ويصفح عنهم، وهو فضيلة تحت الشجاعة.

وقوله: فإنهم. إلى قوله: في الخلق.

بيان لسببين من أسباب الرحمة لهم واللطف بهم.

وقوله: يفرط منهم الزلل. إلى قوله: والخطأ.

تفسير للمثليّة وهي السبب الثاني، والكلام في قوة صغرى ضمير في حسن العفو والصفح، وأراد بالعلل التي تعرض لهم الأمور المشغلة الصارفة لهم عما ينبغي من إجراء أوامر الوالي على وجوهها.

وقوله: ويؤتى على أيديهم.

كناية عن كونهم غير معصومين بل هم ممن يؤتون من قبل العمد والخطأ، وتأتي على أيديهم أوامر الولاة والمؤاخذات فيما يقع منهم من عمد أو خطأ، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فينبغي أن يرحم ويشمل بالمحبة ذو اللطف به ويقابل خطأه بالعفو والصفح. وفي أمره بإعطاء العفو مثل الذي يجب أن يعطيه الله من عفوه أتم ترغيب في العفو وأقوى جاذب إليه، وكذلك قوله: فإنك فوقهم. إلى قوله: وابتلاك بهم. تخويف من الله في معرض الأمر بالعفو واللطف، وهو صغرى ضمير آخر في ذلك.

الرابع: نهاه أن ينصب نفسه لحرب الله وكنّى بحربه عن الغلظة على عباده وظلمهم ومبارزته تعالى فيهم بالمعصية.

وقوله: فإنه لا يدي لك. إلى قوله: ورحمته.

صغرى ضمير نبه به على أنه لا يجوز ظلم عباد الله ومحاربته، وكنّى بعدم اليدين عن عدم القدر. يقال: ما لي بهذا الأمر يد. إذا كان مما لا يطاق. وحذف النون من يدين لمضارعة المضاف، وقيل: لكثرة الاستعمال، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فلا يجوز أن ينصب لحرب الله بظلم عباده.

الخامس: نهاه عن الندم على العفو. وعن التبجّج بعقوبة الغير والتسرع إلى الغضب الذي يجد منه مندوحة. فإن ذلك كله من لوازم إعطاء القوة الغضبية قيادها. وقد علمت أنها شيطان تقود إلى النار.

السادس: نهاه أن يأمر بما لا ينبغي الأمر به ويخالف الدين، ونهى عن ما عساه يعرض في النفس من وجوب طاعة الخلق لإمرته فإن عليهم أن يسمعوا وعليه أن يأمر فإن ذلك فساد في القلب والدين، وأشار إلى ذلك الفساد بقوله: فإنه إدغال إلى قوله: الغير. وهو من وجوه ثلاثة:

أحدها: أنه إدغال في القلب وصرف له عن دين الله، وهو معنى إفساده.

الثاني: أن ذلك منهكة للدين وإضعاف له.

الثالث: أنه مقرب من الغير لكون الظلم من أقوى الأسباب المعدة باجتماع همم الخلق على زواله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: ١١] والكلام في قوة ثلاث صغريات لثلاثة ضمائر، وتقدير الكبريات فيها: وكل ما كان كذلك فلا يجوز ارتكابه.

السابع: أرشده إلى دواء داء الأُبّهة والكبر الذي عساه يعرض له في سلطانه وولايته، وذلك أن ينظر إلى عظمة الله تعالى فوقه وقدرته على ما لا يملكه من نفسه ولا يستطيعه جلباً لها أو دفعاً عنها فإن ذلك يسكن داء الكبر الذي يحدث له فيطفيه ويكسر حدة غضبه ويردّه إليه ما قهرته قوته الغضبية من عقله فغرب عند جماحها، وهذه أيضاً صغريات ثلاث لثلاثة ضمائر نبه فيها على وجوب فعل ما أرشده إليه من الدواء، وتقدير الكبريات فيه: وكلما كان كذلك فيجب عليك فعله.

الثامن: حذّره عن التعظيم والتجبّر، ونفّر عن ذلك بكونهما مساماة وتشبّهاً به، وبأن التكبر يستلزم أن يذل الله صاحبه ويهينه. وتقدير الاحتجاج: فإنك إن تجبّرت واختلتَ يذلّك الله ويهينك وهو في قوة صغرى ضمير أيضاً، وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فيجب أن يحذر من الله بترك التجبّر.

التاسع: أمره بإنصاف الله وإنصاف الناس من نفسه وأهل هواه من رعيته. فإنصاف الله العمل بأوامره والانتهاء عن زواجره مقابلاً بذلك نعمه، وإنصاف الناس العدل فيهم والخروج إليهم من حقوقهم اللازمة لنفسه ولأهل خاصته. واحتج على وجوب ذلك الإنصاف بقياس مفصول صغرى الأول قوله: فإنك إن لا تفعل تظلم: أي تظلم عباد الله. وكبراه ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. وتقدير نتيجته: فإنك إن لا تفعل كان الله خصمك دون عباده وهي صغرى لقياس آخر كبراه قوله: ومن خاصمه الله. إلى قوله: ويتوب. وتقدير نتيجته: فإنك إن لا تفعل أدحض الله حجتك عند مخاصمته وكنت له حرباً إلى أن تنزع وتتوب من ظلمك.

وقوله: وليس شيء. إلى قوله: على ظلم.

تنبيه على لازم آخر لعدم الإنصاف أو الإقامة على الظلم. وهي كونه أدعى إلى تغيير نعم الله وتعجيل نقمته من كل شيء.

وقوله: فإن الله. إلى قوله: بالمرصاد.

بيان للزوم اللازم المذكور، وذلك أن الله سبحانه إذا كان يسمع دعوة المظلوم ويطلع على فعل الظالم فإنه يسرع إلى تغيير نعمته إذ استعد لذلك.

العاشر: أمره أن يكون أحب الأمور إليه أقربها إلى حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط وهو الحق، وأعمها للعدل، وأجمعها لرضاء الرعية فإن العدل قد يوقع على وجه لا يعمّ العامة بل يتبع فيه رضاء الخاصة. ونبه على لزوم العدل العام للرعية وحفظ قلوب العامة وطلب رضاهم بوجهين:

أحدهما: أن سخط العامة لكثرتهم لا يقاومه رضاء الخاصة لقلتهم؛ بل يجحف به ولا ينتفع برضاهم عند سخط العامة، وذلك يؤدي إلى وهن الدين وضعفه أما سخط الخاصة فإنه مغتفر ومستور عند رضاء العامة فكان رضاهم أولى.

الثاني: أنه وصف الخاصة بصفات مذمومة تستلزم قلة الاهتمام بهم بالنسبة إلى العامة، ووصف العامة بصفات محمودة توجب العناية بهم. أما صفات الخاصة:

فأحدها: كونهم أثقل مؤونة على الوالي في الرخاء لتكلفه لهم ما لا يتكلفه لغيرهم.

الثاني: كونهم أقل معونة له في البلاء لمحبتهم الدنيا وعزة جانبهم.

الثالث: كونهم أكره للإنصاف لزيادة أطماعهم في الدنيا على العامة.

الرابع: وكونهم أسأل بالإلحاف لأنهم عند الحاجة إلى السؤال أشد جرأة على الوالي وأطمع في إلانة جانبه.

الخامس: كونهم أقل شكراً عند الإعطاء لاعتقادهم زيادة فضلهم على العامة وأنهم أحق بما يعطونه، واعتقادهم حاجة الوالي إليهم وتخوّفه منهم.

السادس: كونهم أبطأ عذراً للوالي إن منعهم: أي أنهم أقل مسامحة له إن اعتذر إليهم في أمر لاعتقادهم فضيلة أنفسهم وكونهم واجبي قضاء الحقوق.

السابع: كونهم أضعف صبراً عند ملمّات الدهر لتعودهم الترفه، وجزعهم على ما في أيديهم من الدنيا. وأما صفات العامة:

فأحدها: كونهم عمود الدين، واستعار لهم لفظ العمود باعتبار قيام الدين بهم كقيام البيت بعموده.

الثاني: كونهم جماع المسلمين لكونهم الأغلب والأكثر والسواد الأعظم.

الثالث: كونهم العدة للأعداء لكثرتهم أيضاً ولأنهم كانوا أهل الحرب في ذلك الزمان. وهذه الصفات للفريقين يستلزم وجوب حفظ قلوب العامة، وتقديمه على حفظ قلوب الخاصة. ولذلك أمره أن يكون صغوه وميله إلى العامة.

الحادي عشر: أمر بأن يكون أبعد رعيته منه وأبغضهم إليه أطلبهم لمعائب الناس، ونبهه على وجوب ذلك بقوله: فإن في الناس إلى قوله: سترها. وإذا كان الوالي أحق من سترها لزمه أن لا يكشف عما غاب عنه منها، وذلك بقمع أهل النميمة وإبعادهم، وأن يلزم ما يجب عليه وهو تطهير الخلق مما ظهر له من ذنوبهم دون ما غاب عنه، وأكد ذلك بالأمر بستر العورة من الغير بقدر الاستطاعة فإن كل عيب عورة، ونبه على الرغبة في ذلك بما يستلزمه من إعداده لستر الله منه ما يحب أن يستره هو بستره على رعيته من الذنوب والعيوب.

الثاني عشر: أمره بنزع الحقد وعقد ما عقده في قلبه منه لكونه من الرذائل الموبقة، وأن يقطع أسبابه من قبول السعاية وأهل النميمة.

الثالث عشر: أن يتغافل عن كل أمر لا يتضح له ولا يقوم به برهان، ونهاه أن يعجل إلى تصديق من سعى به، ونبه على ذلك بضمير صغراه: قوله: فإن الساعي. إلى قوله: الناصحين. ووجه غشه كونه مثير الأحقاد والضغائن بين الناس ويذيع الفاحشة والفساد في الأرض، وتقدير كبراه: وكل من كان غاشاً وجب أن لا يلتفت إليه.

الرابع عشر: نهاه أن يدخل في مشورته ثلاثة البخيل والجبان والحريص، ونبه على وجه المفسدة في استشارة كل أحد من الثلاثة بضمير صغرى الأول: قوله: يعدل بك. إلى قوله: الفقر. وذلك أن البخيل لا يشير إلا بما يراه مصلحة عنده وهو البخل وما يستلزمه من التخويف بالفقر، وهو يعدل بالمستشير عن الفضل. وصغرى الثاني قوله: ليضعفك عن الأمور. لأن الجبان لا يشير إلا بوجوب حفظ النفس والتخويف من العدو وهو المصلحة التي يراها، وكل ذلك مضعف عن الحرب ومقاومة العدو. وصغرى الثالث: قوله: يزين لك الشره بالجور. وذلك أن المصلحة عنده جمع المال وحفظه وهو مستلزم للجور عن فضيلة العدل والقصد. وتقدير الكبرى في الثلاثة: وكل من كان كذلك فلا يجوز استشارته.

ثم نفر عن الثلاثة بضمير آخر نبه بصغراه على مبدأ رذائلهم الثلاث وهي البخل والجبن والحرص لتعرف فتجتنب وتنفر عن أهلها فذكر أنها غرائز: أي أخلاق متفرقة يحصل للنفس عن أصل واحد ينتهي إليه وهو سوء الظن بالله، وبيان ذلك أن مبدأ سوء الظن بالله عدم معرفته تعالى فالجاهل به لا يعرفه من جهة ما هو جواد فياض بالخيرات لمن استعد بطاعته لها فيسوء ظنه به، وبأنه لا يخلف عليه عوض ما يبذله فيمنعه ذلك مع ملاحظة الفقر من [عند] البذل وتلزمه رذيلة البخل، وكذا

الجبان جاهل به تعالى من جهة لطفه بعباده وعنايته بوجودهم وغير عالم بسر قدره فيسوء ظنه بأنه لا يحفظه من التلف ويتصور الهلاك فيمنعه ذلك عن الإقدام في الحرب ونحوها فيلزمه رذيلة الجبن، وكذلك الحريص يجهله تعالى من الوجهين المذكورين فيسوء ظنه به، ويعتقد أنه إذا لم يحرص الحرص المذموم لم يوصل إليه تعالى ما يصلح حاله مما يسعى فيه ويحرص عليه فيبعثه ذلك على الحرص. وكذلك النفس. فكانت هذه الأخلاق الثلاثة المذمومة راجعة إلى ما ذكره عليه السلام.

الخامس عشر: لما كان من الأعمال الصالحة اختيار الوزراء والأعوان نبهه على من لا ينبغي استصلاحه لذلك ليجتنبه ومن ينبغي ليرغب فيه. فمن لا ينبغي هو من كان للأشرار من الولاة قبله وزيراً ومشاركاً لهم في الآثام، ونهاه عن اتخاذه بطانة وخاصة له، ونفّر عنهم بضمير صغراه قوله: **فإنهم**: إلى قوله: **الخلف**. وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فلا تتخذه بطانة.

وقوله: **ممن له مثل آرائهم**.

تميز لمن هو خير الخلف من الأشرار وهم الذين ينبغي أن يستعان بهم، وبيان لوجه خيريتهم بالنسبة إلى الأشرار، وهو أن يكون لهم مثل آرائهم ونفاذهم في الأمور، وليس عليهم مثل آصارهم ولم يعاون ظالماً على ظلمه. ثم رغب في اتّخاذ هؤلاء أعواناً بضمير صغراه قوله: **أولئك أخف**. إلى قوله: **إلفاً**. أما أنهم أخف مؤونة فلأن لهم رادعاً من أنفسهم عما لا ينبغي لهم من مال أو حال فلا يحتاج في إرضائهم أو ردعهم مما لا ينبغي إلى مزيد كلفة بخلاف الأشرار والطامعين فيما لا ينبغي. وبحسب قربهم إلى الحق ومجانبتهم للأشرار كانوا أحسن معونة وأثبت عنده قلوباً وأشد حنواً عليه وعطفاً وأقل لغيره إلفاً، وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فينبغي أن يتخذ عوناً ووزيراً ولذلك قال: **فاتخذ أولئك خاصة لخلوتك وحفلاتك**. ثم ميّز من ينبغي أن يكون أقرب هؤلاء إليه وأقواهم في الاعتماد عليه بأوصاف أخص:

أحدها: **أن يكون أقولهم بمر الحق له**.

الثاني: **أن يكون أقلهم مساعدة له فيما يكون منه، ويقع من الأمور التي يكرهها الله لأوليائه**. وانتصب قوله: **واقعاً** على الحال: أي في حال وقوع ذلك القول منه والنصيحة وقلة المساعدة حيث وقع من هواك سواء كان في هوى عظيم أو يسير، أو حيث وقع هواك: أي سواء كان ما تهواه عظيماً أو ليس، ويحتمل أن يريد واقعاً عظيماً أو ليس، ويحتمل أن يريد واقعاً ذلك الناصح من هواك ومحبتك حيث وقع: أي يجب أن يكون له من هواك موقعاً. ثم أمره في اعتبارهم واختيارهم بأوامر:

أحدها: **أن يلازم أهل الورع منهم** والأعمال الجميلة **وأهل الصدق**. وهما فضيلتان تحت العفة.

الثاني: **أن يروضهم ويؤدبهم بالنهي عن الإطراء له، أو يوجبوا له سروراً بقول ينسبونه فيه إلى فعل ما لم يفعله** فيدخلونه في ذم قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ونفره عن كثرة الإطراء بضمير صغراه قوله: **فإن كثرة الإطراء إلى قوله: الغرة**. واستلزام الإطراء للرذيلتين المذكورتين ظاهر، وتقدير الكبرى: وكلما كان كذلك فيجب اجتنابه.

الثالث: **نهاه أن يكون المحسن والمسيء عنده بمنزلة سواء**، ونفر عن ذلك ببيان وجه المفسدة في ضمير صغراه قوله: **فإن ذلك**. إلى قوله: **الإساءة**. وسرّه أن أكثر فعل الإحسان إنما يكون طلباً للمجازاة بمثله خصوصاً من الولاة وطلباً لزيادة الرتبة على الغير وزيادة الذكر الجميل مع أنواع من الكلفة في ذلك. فإذا رأى المحسن مساواة منزلته لمنزلة المسيء كان ذلك صارفاً عن الإحسان وداعياً إلى الراحة من تكلّفه، وكذلك أكثر التاركين للإساءة إنما يتركون خوفاً من الولاة وإشفاقاً من نقصان الرتبة عن النظر فإذا رأى المسيء مساواة مرتبته مع مرتبة المحسنين كان التقصير به أولى: وتقدير الكبرى: وكل ما كان فيه تزهيد للإحسان وتدريب على الإساءة فينبغي أن يجتنب.

ثم أكد ذلك بأمره أن يلزم كلاً من أهل الإحسان والإساءة بما ألزم به نفسه من الاستعداد بالإحسان والإساءة لهما فيلزم المحسن منزلة الإحسان ويلزم المسيء منزلة الإساءة.

السادس عشر: نبهه على الإحسان إلى رعيته وتخفيف المؤونات عنهم وترك استكراههم على ما ليس له قبلهم بما يستلزمه ذلك من حسن ظنه بهم المستلزم لقطع النصب عنه من قبلهم والاستراحة إليهم، وذلك أن الوالي إذا أحسن إلى رعيته قويت رغبتهم فيه وأقبلوا بطباعهم على محبته وطاعته، وذلك يستلزم حسن ظنه بهم فلا يحتاج معهم إلى كلفة في جمع أهوائهم والاحتراس من شرورهم، وأكد ذلك بقوله: وإن أحق من يحسن ظنك به. إلى قوله: عنده.

السابع عشر: نهاه أن ينقض سنّة صالحة عمل بها السلف الصالح من صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلاح الرعية، وذلك مفسدة ظاهرة في الدين.

الثامن عشر: نهاه أن يحدث سنة تضر بشيء من ماضي السنن. وأشار إلى وجه الفساد فيها بضمير صغراه قوله: فيكون. إلى قوله: سنّها. والضمير في منها يعود إلى السنن التي دخل عليها الضرر فيكون الأجر لمن سنّ السنة الماضية التي أضرّت بها سننك الحادثة والوزر عليك بما نقضت منها، وتقدير كبراه: فكل ما كان كذلك فينبغي أن يجتنب وينفر عنه.

التاسع عشر: أمره أن يكثر مدارسة العلماء. أي بأحكام الشريعة وقوانين الدين، ومنافثة الحكماء: أي العارفين بالله وبأسراره في عباده وبلاده العاملين بالقوانين الحكمية العملية التجربية والاعتبارية، ويتصفح أنواع الأخبار في تثبت القواعد والقوانين التي يصلح عليها أمر بلاده، وإقامة ما استقام به الناس قبله منها. وبالله التوفيق.

الفصل الثالث: في التنبيه على طبقات الناس الذين ينتظم بهم أمر المدينة، ووضع كل على حدة وطبقته التي يقتضي الحكمة النبوية وضعه فيها، والإشارة إلى تعلق كل طبقة بالأخرى حيث لا صلاح لبعضهم إلا بالبعض وبذلك يكون قوام المدينة، ثم بالإشارة إلى من يستصلح من كل صنف وطبقة يكون أهلاً لتلك المرتبة، والوصية في كل ما يليق به. وذلك قوله:

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ. ثُمَّ لا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لا قِوَامَ لِهٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ بِالاهْتِمَامِ وَالاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ. فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِىءُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ ٱلْصِقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ والأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وَإِنَّهُ لا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ بِسَلامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاَّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلاةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلا تَضُمَّنَّ بَلاءَ امْرِىءٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلائِهِ، وَلا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلا ضَعَةُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً.

وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ: الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لا تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ. وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَاراً، وَلا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الإِسْلامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظَراً. ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ

تَلمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لأمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاحِهِ وَصَلاحِهِمْ صَلاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلا صَلاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِن نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلابِ الْخَرَاجِ، لأَنَّ ذَلِكَ لا يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاةِ عَلَى الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ الأَخْلاقِ، مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِىءَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلإٍ، وَلا تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلا يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ. ثُمَّ لا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالأَمَانَةِ شَيْءٌ. وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ للهِ وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ. وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ لا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ.

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لا تُخْشَى غَائِلَتُهُ. وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلادِكَ. وَاعْلَمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ،

وَذٰلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاةِ. فَامْنَعْ مِنَ الاحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ مَنَعَ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ. فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ.

ثُمَّ اللّهَ اللّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لا حِيلَةَ لَهُمْ، وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هٰذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً، وَاحْفَظْ للهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الإِسْلامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، فَلا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ. فَلا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لأُولٰئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالإِعْذَارِ إِلَى اللهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هٰؤُلاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لا حِيلَةَ لَهُ، وَلا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذٰلِكَ عَلَى الْوُلاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ.

أقول: المعاقد: جمع معقد مصدراً. والمرافق: المنافع. وتفاقم الأمر: عظم. والخلوف: المتخلفون جمع - خلف بالفتح -. والحيطة: الشفقة. ويضلعك: يثقلك. والمحك: اللجاج. والحصر: العي والعجز. والتبرم: التضجر. والازدهاء: افتعال من الزهو وهو الكبر. والإطراء: كثرة المدح. والاغتيال: الأخذ على غرة. والمحاباة: المعاطاة والمقاربة فيها. والأثرة: الاستبداد. والجماع: الجمع. والتوخي: التقصد. والحدوة: الحث. والشرب: النصيب من الماء. والبالّة: القليل من الماء يبلّ به الأرض. وأحالت الأرض: تغيّرت عما كانت عليه من الاستواء فلم ينجبّ زرعها ولا أثمر نخلها. والإجمام: الإراحة. ومعتمد: قاصد. والإعواز: الفقر. واستنام إلى كذا: سكن إليه. والمترفق: طالب الرفق من التجارة. والمطارح: جمع مطرح وهي الأرض البعيدة. والبائقة الداهية. والغائلة: الشر. والاحتكار: حبس المنافع عن الناس عند الحاجة إليها. والبؤسى: الشدة. والقانع: السائل. والمعتر: الذي يتعرض للعطاء من غير سؤال. والصوافي: - جمع صافية - وهي أرض الغنيمة. والتافه: الحقير. وأشخص همه: رفعه. وتصعير الخدّ: إمالته كبراً. وتقتحمه: تزدريه. وأعذر في الأمر: صار ذا عذر فيه.

واعلم أن في الفصل أبحاثاً:

الأول: أنه قسم أهل المدينة إلى سبع طبقات، وحكم بأنه لا يصلح بعضها إلا بالبعض على ما بيّنه.

وقوله: من أهل الذمة ومسلمة الناس.

تفصيل للأهل الأول. فأهل الذمة تفسير لأهل الجزية، ومسلمة الناس تفسير لأهل الخراج، ويجوز أن يكون تفسيراً لأهل الجزية والخراج لأن للإمام أن يقبل أرض الخراج من سائر المسلمين وأهل الذمة، وأراد بالسهم الذي سماه الله لكل منهم الاستحقاق لكل من ذوي الاستحقاق في كتابه إجمالاً من الصدقات كالفقراء والمساكين وعمّال الخراج والصدقة وفصله في سنة نبيه ﷺ. وحدّه الذي وضع الله عليه عهداً منه عند أهل بيت نبيه هو مرتبته ومنزلته من أهل المدينة الذين لا يقوم إلا بهم فإن للجندي منزلة وحداً محدوداً لا يجوز له تعديه، وفريضته وقوفه عنده والعمل بما يلزم تلك المرتبة، وكذلك الكتاب والعمال والقضاة وغيرهم فإن لكل منهم حداً يقف عنده، وفريضة يلزمها عليها عهد من الله محفوظ عند نبيه وأهل بيته ﵈ اشتملت عليها الشريعة.

البحث الثاني: أنه نبه بقوله: فالجنود بإذن الله . إلى

قوله: معونتهم. على أن لكل من الأصناف المذكورة تعلق بالآخر بحيث لا يقوم إلا به، والحاجة إليه ضرورية. وبمجموعهم يقوم صورة المدينة. فبدأ بالجنود لأنهم الأصل وذكر وجه الحاجة إليهم في أربعة أوصاف:

أحدها: كونهم حصون الرعية، واستعار لهم لفظ الحصون باعتبار حفظهم للرعية وحياطتهم لهم كالحصن.

الثاني: أنهم زين الولاة فإن الوالي بلا جند كأحد الرعية لا يبالى به ولا يطاع له أمر. والمفسدة فيه ظاهرة.

الثالث: كونهم عزّ الدين، وأطلق لفظ العز عليهم إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه. إذ كان العز للدين لازماً لوجودهم.

الرابع: استعار لفظ الأمن لهم باعتبار لزوم الأمن لوجود الجند في الطرق ونحوها. والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فليس تقوم الرعية إلا به.

وقوله: وليس تقوم الرعية إلا بهم.

نتيجة القياس المذكور. وقال: بإذن الله. لينبه على أنه أراد جنود الحق الذين هم مقتضى الحكمة لا مطلق الجنود.

الثاني: أهل الخراج ومن يؤخذ منهم، وأشار إلى وجه استلزام الحاجة إلى الجند للحاجة إليهم بقوله: ثم لا قوام للجنود. إلى قوله: حاجتهم.

فقوله: لا قوام. إلى قوله: الخراج. دعوى.

وقوله: الذين يقوون. إلى قوله: حاجتهم.

في قوة صغرى ضمير نبه به عليها، وتقدير كبراه: وكل ما كان كذلك فلا قوام للجند إلا به. فينتج لا قوام للجند إلا بما يخرج الله لهم من الخراج، ولما كان الخراج إنما يحصل من جماعة من الرعية ولا يقوم الجند إلا بهم.

الثالث: القضاة والعمال والكتاب وجمعهم لأن وجه الحاجة إليهم واحد، وأشار إليه بقوله: لما يحكمون به. إلى قوله: وعوامها. فإنهم أمناء الوالي والرعية على ما يعمّهم من الأمور أو يخص كلاً منهم، وعلى أيديهم تكون أحكام العقود وجمع المنافع وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فحاجة الجند والرعية إليه ضرورية.

الرابع: التجار وذوي الصناعات، وادّعى أنه لا قوام للأصناف السابقة إلا بهم ونبه على ذلك بقوله: فيما يجتمعون عليه من مرافقهم فإن كل ما يفعله التجار من جلب الأمتعة وبيعها وشرائها ويقيمونه من الأسواق بذلك وما يفعله الصنّاع من المنفعة بأيديهم مما لا يحصل من غيرهم الانتفاع به فهي مرافق ومنافع للرعية في مقام حاجتهم وضرورتهم وهو في قوة صغرى ضمير كبراه ما سبق.

الخامس: الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة، ونبه على وجه الحاجة إليهم بقوله: الذين يحق رفدهم ومعونتهم. وبيان ذلك أن رفد هؤلاء ومعونتهم يستلزم اجتماع هممهم وتوافر دواعيهم لرافدهم ومعينهم وبهم تستنزل الرحمة وتستدر البركة من الله تعالى لأهل المدينة ويدرك الثواب الأخروي. فكانت الحاجة إليهم داعية لذلك. ولما أشار إلى وجه الحاجة إلى جميعهم قال: وفي الله لكل سعة: أي في وجود الله وعنايته. ليعتمد على الله في تدبير أمورهم. إذ هو تعالى رب العناية الأولى وقال: ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه. ليعلم أن مراعاة كل منهم واجبة عليه فيشتمل عليها. وبالله التوفيق.

البحث الثالث: في أمره باستصلاح كل صنف بأوصاف يجب أن يكون عليها، ونصبه في مقامه:

فالصنف الأول: الجند: وأشار إلى تعيين من يصلح لهذه المرتبة بأوصاف، وأمره ونهاه فيهم بأوامر ونواهي، أما الأوصاف:

فأحدها: من كان أنصح في نفسه لله ولرسوله ولإمامه جيباً أي أكثرهم أمانة في العمل بأوامر الله ورسوله وإمامه. وناصح الجيب كناية عن الأمين.

الثاني: أفضلهم حلماً. ثم وصف ذلك الأفضل فقال: ممّن يبطىء عن الغضب ويستريح إلى العذر فيقبله

إذا وجده، ويرأف بالضعفاء فلا يغلظ عليهم، وينبو على الأقوياء: أي يعلو عليهم ويتجنّب الميل إليهم على من دونهم، ممن لا يثيره العنف: أي لا يكون له عنف فيثيره كقوله: ولا أرى الضب بها فينحجر. وقيل: لا يهيّجه العنف ولا يزعجه إذا فعل، ولا يقعد به الضعف عن إقامة حدود الله وأخذ الحقوق من الظالمين أي لا يكون له ضعف فيقعده عن ذلك.

الثالث: من كان من أهل الأحساب والبيوتات الصالحة والسوابق الحسنة من الأحوال والأفعال والأقوال الخيرية.

الرابع: من يكون من أهل النجدة والشجاعة.

الخامس: من يكون من أهل السخاء والسماحة.

وأما الأوامر:

فأحدها: أن يولي من الجند من كان بهذه الصفات.

الثاني: أن يلصق بمن ذكر منهم: أي يلزمهم في هذه المرتبة. ورغب فيهم بقوله: فإنهم. إلى قوله: من العرف. ووصفهم بكونهم جماع من الكرم وشعب من العرف إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه. إذا كان الجماع من الكرم وهو الفضائل المذكورة لازمة لهم. والأمانة والسخاء والسماحة فضائل تحت العفة. والحلم والنجدة فضيلتان تحت الشجاعة. ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: فإنهم. عائداً إلى الفضائل المذكورة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] يشير إلى الأصنام.

الثالث: أن يتفقد من أُمورهم ومصالحهم ما يتفقده الوالدان، وهو كناية عن نهاية الشفقة عليهم.

الرابع: نهاه أن يعظم في نفسه شيء يقويهم به من مال أو نفع فيدعوه إلى التقاصر في حقهم.

الخامس: وأن لا يحتقر لطفاً يتعاهدهم به فيحمله احتقاره على تركه واحتجّ لأولوية فعله وإن قل بقوله: فإنه داعية. إلى قوله: الظن بك. وتقدير كبرى هذا الضمير: وكلما كان كذلك فالأولى بك فعله.

السادس: نهاه أن يدع تفقد الصغير من أمورهم اعتماداً على تفقد عظيمها. واحتجّ لأولوية فعله بقوله: فإن اليسير. إلى قوله: موقعاً لا يستغنون عنه. والمعنى ظاهر. فإن موضع اليسير المنتفع به لا يستغنى فيه عن الجسيم. وتقدير كبرى هذا الضمير: وكلما كان له موضعاً ينتفع به فالأولى فعله في موضعه لينتفع به.

السابع: أمره أن يكون آثر رؤوس جنده عنده من كان بالصفات المذكورة وهو الذي يواسي من تحت يده من الجند فيما يحصل له من المعونة، ويفضل عليهم مما في يده بما يسعهم ويسع من ورائهم من ضعفاء أهليهم وخلوفهم حتى يكون بذلك همّهم واحداً فيكونوا بمنزلة رجل واحد في جهاد العدو. ثم رغب في العطف عليهم بما يستلزمه من عطف قلوبهم عليه وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان مستلزماً لعطف قلوبهم ففعله واجب ومصلحة. وأيضاً لما كانت صحة محبتهم من أهم المطالب بيّن أنها لا تتم إلا بأمور ثلاثة:

أحدها: حيطهم ومحافظتهم ولاة أُمورهم.

الثاني: قلة استثقال دولهم.

الثالث: أن يتركوا استبطاء انقطاع مدة دولهم، وذلك في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وما لا يتم أهم المطالب إلا به كان من أهم المطالب.

الثامن: أمره أن يفسح لهم: أي يجعل لهم من نفسه طمعاً يفتسح به آمالهم فيه لأن ذلك مما لا يتم الأمور الثلاثة المذكورة إلا به ولذلك رتّب هذا الأمر عليها بالفاء.

التاسع: أمره أن يواصل من حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم واحتج لوجوب ذلك بقوله: فإن كثرة الذكر. إلى قوله: إن شاء الله. وهو ظاهر والقضية في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك كان واجباً.

العاشر: أمره أن يعرف لكل امرىء ما أبلى وينسبه إليه لأنه يهزّ الشجاع ويشجع الجبان.

الحادي عشر: نهاه أن يضم بلاء امرىء إلى غيره.

الثاني عشر: وأن يقصر به دون غاية بلائه فيذكر بعضه أو يحقّره.

الثالث عشر: وأن يدعوه شرف امرىء إلى أن يعظم

صغير بلائه، أو ضعة امرىء أن يستصغر كثير بلائه فإن كل ذلك داعية الكسل والفتور عن الجهاد.

الرابع عشر: أمره أن يرد إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب ويشتبه عليه من الأمور محتجاً بالآية. ثم فسر الرد إلى الله بالأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول بالأخذ بسنته. ووصف السنة بكونها جامعة لأن مدارها على وجوب الألفة واجتماع الخلق على طاعة الله وسلوك سلوكه.

الصنف الثاني: قضاة العدل وعينهم له بأوصاف وأمره فيهم بأوامر:

أما التعيين فأوجب أن يكون أفضل رعيته في نفسه، وميّز ذلك الأفضل بصفات:

أحدها: أن يكون ممن لا يضيق به الأمور فيحار فيها حين تورد عليه.

الثاني: وممن لا يمحكه الخصوم: أي يغلبه على الحق باللجاج. وقيل: ذلك كناية عن كونه ممن يرتضيه الخصوم فلا تلاجه ويقبل بأول قوله:

الثالث: أن لا يتمادى في زلّته إذا زلّ فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الضلال.

الرابع: أن لا يحصر من الرجوع إلى الحق إذا عرفه كما يفعله قضاة السوء حفظاً للجاه وخوفاً من شناعة الغلط.

الخامس: أن لا تشرف نفسه على طمع فإن الطمع في الناس داعية الحاجة إليهم والميل عن الحق.

السادس: أن لا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه لأن ذلك مظنة الغلط.

السابع: أن يكون أوقف الناس عند الشبهات لأنها مظنة الوقوع في المآثم.

الثامن: وآخذهم بالحجج.

التاسع: وأقلّهم تبرماً بمراجعة الخصم لما يستلزمه التبرم من تضييع الحقوق.

العاشر: وكذلك وأصبرهم على تكشف الأمور.

الحادي عشر: وأصرمهم عند اتضاح الحق فإن في التأخير آفات.

الثاني عشر: وممن لا يحدث له كثرة المدح كبراً.

الثالث عشر: وممن لا يستميله إلى غير الحق إغراء به ثم حكم بقلة من تجتمع فيه هذه الصفات تنبيهاً على أن فيها ما هو أولى دون أن يكون شرطاً في القضاء.

وأما الأوامر:

فأحدها: أن يختار من كان بالصفات المذكورة.

الثاني: أن يكثر تعاهد قضائه ليقطع طمعه في الانحراف عن الحق لو خطر بباله.

الثالث: أن يفسح له في البذل ما يزيل علته، وهو كناية عما يكفيه ويقل معه حاجته إلى الناس فلا يميل إليهم، و - ما - يحتمل أن يكون بدلاً من البذل، وأن يكون مفعولاً لفعل محذوف دلّ عليه البذل كأنه قال: فيبذل له ما يزيل علته، وأن يكون مفعولاً ليفسح: أي يوسع له ما يكفيه من المال، ويحتمل أن يكون في معنى مصدر يفسح: أي يفسح له فسحاً يزيل علّته.

الرابع: أن يعطيه من المنزلة عنده ما لا يطمع فيه معها غيره من خاصته ليأمن بذلك اغتيال الأعداء. وتقدير كبرى هذا الضمير: وكل ما كان كذلك فواجب بذله للقاضي.

الخامس: أن ينظر في اختيار من كان بهذه الصفات وفيما أمره به نظراً بالغاً ليعمل بأقصاه. وعلل ذلك بقوله: فإن هذا الدين. إلى قوله: الدنيا. واستعار لفظ الأسير باعتبار تصريفهم له كالأسير. والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فيجب النظر في اختيار من يعمل بالحق ويخرجه من أسر الأشرار. وبالله التوفيق.

الصنف الثالث: العمّال وميّزهم أيضاً بأوصاف وأمره فيهم بأوامر مصلحية.

أما الأوصاف:

فأحدها: أن يكون العامل من أهل التجربة للأعمال والولايات على علم بقواعدها. وبدأ بذلك لأنه الأصل الأكبر للعمل.

الثاني: أن يكون من أهل الحياء فلا ينتهي في الانفعال إلى حد الاستخدام، وهو طرف التفريط فيضيّع

به الحقوق والمصالح ولا يتجاوزه إلى حدّ القحة فيقع في طرف الإفراط وما يلزمه من الجفاوة ونفرة القلوب عنه.

الثالث: أن يكون من أهل البيوتات الصالحة والقدم السابقة في الإسلام، وهي كناية عن البيوت المتقدمة في الدين والخير، ولهم في ذلك أصل معرق. وأشار إلى وجه الحكمة في تولية من كان بهذه الصفات الثلاث بقوله: **فإنهم. إلى قوله: نظراً**. وذلك أن الحياء وصلاح البيوت والتقدم في الإسلام يفيدهم كرم الأخلاق ومحافظة على الأعراض من المطاعن وقلة الإشراف والتطلع إلى المطامع الدنية، والتجربة تفيدهم بلاغة النظر في عواقب الأمور. والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فهو أولى أن يقصد بالتوليه والعمل.

وأما الأوامر:

فأولها: أن ينظر في أمورهم فيستعملهم بعد التجربة والاختبار ولا يوليهم محاباة وأثرة كأن يعطونه شيئاً على الولاية فيوليهم ويستأثر بذلك دون مشاورة فيه **فإنهما**: أي المحاباة والأثرة - كما هو مصرح به في بعض النسخ عوض الضمير - **جماع من شعب الجور والخيانة**.

أما الجور فللخروج بهما عن واجب العدل المأمور به شرعاً وأما الخيانة فلأنّ التحري في اختيارهم من الدين وهو أمانة في يد الناصب لهم فكان نصبهم من دون ذلك بمجرد المحاباة والأثرة خروجاً عن الأمانة ونوعاً من الخيانة.

وثانيها: أن يقصد بالعمل من كان بالصفات المذكورة للعلل المذكورة.

الثالث: أن يسبغ عليهم الأرزاق. وبيّن المصلحة في ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمومهم بالأرزاق يكون قوة لهم على استصلاح أنفسهم الذي لا بد منه.

الثاني: أنه غنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم من مال المسلمين.

الثالث: أنه يكون حجة له عليهم إن خالفوا أمره أو ثلموا أمانته. واستعار لفظ الثلم للخيانة. والوجوه الثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها: وكلما كان كذلك كان فعله مصلحة واجبة.

الرابع: أن يتفقد أعمالهم ويبعث العيون والجواسيس من أهل الصدق والوفاء عليهم، وأشار إلى وجه المصلحة في ذلك بقوله: **فإن تعاهدك. إلى قوله: بالرعية. فإن تعهده** لأمورهم مع علمهم بذلك منه يبعثهم على أداء الأمانة فيما ولّوا من الأعمال، وعلى الرفق بالرعية. والمذكور صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فيجب فعله.

الخامس: أن يتحفظ من خيانة الأعوان من العمال. وأرشده بقوله: **فإن أحد منهم بسط. إلى قوله: التهمة**. إلى ما ينبغي من تأديبهم وإقامة سنّة الله فيهم. واستعار لفظ التقليد لتعليق نسبة التهمة إليه ملاحظة لشبهها بما يقلد به من الشعار المحسوس واللفظ في غاية الفصاحة، وهذه العقوبة مقدرة بحسب العرف ورأي الإمام أو من ارتضاه.

الصنف الرابع: أهل الخراج، وأمره فيهم بأوامر:

أحدها: أن يتفقد أمر خراجهم ويفعل فيه ما يصلح أهله مما سيشرحه. ثم أشار إلى وجه المصلحة فيه بضمير صغراه: قوله: **فإن صلاحه. إلى قوله: إلا بهم**. ونبه بقوله: **لا صلاح لمن سواهم إلا بهم** على حصر صلاح الغير فيهم تأكيداً، وتقدير الكبرى: وكل من كان لا صلاح للناس إلا به فيجب مراعاة أموره وتفقد أحواله. ثم بيّن الصغرى بقوله: **لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله**. وهو ظاهر في ذلك الوقت.

الثاني: أن يكون نظره في عمارة الأرض أبلغ من نظره في طلب الخراج واستجلابه، ونبه على وجه الحكمة فيه بقوله: **لأن ذلك**: أي الخراج **لا يدرك إلا بالعمارة**. وهو في قوة صغرى ضمير. ثم بيّنها بقوله: **ومن طلب إلى قوله: قليلاً**. وهو إشارة إلى ما يلزم نقيض المدعي وهي مفاسد ثلاث أحدها: إخراب البلاد لعدم العمارة، والثاني: إهلاك العباد لتكليفهم ما ليس في وسعهم، والثالث: عدم استقامة أمر الطالب للخراج والوالي على أهله. وهو لازم عن الأولين. وتقدير

الكبرى: وكل ما لا يدرك إلا بالعمارة وجب أن يكون النظر فيها أبلغ من النظر فيه فينتج أن النظر في العمارة يجب أن يكون أبلغ من النظر في الخراج.

الثالث: أمره أن يخفف عنهم من خراجهم ما يرجو أن يصلح به أمرهم على تقدير أن يشكوا من حالهم ما عساه يلحقهم من قبل أرضهم من ثقل خراج أو علّة سماوية أو انقطاع نصيب كان لهم من الماء أو تغيّر أرض وفسادها بسبب غرق أو عطش، ثم نهاه أن يستثقل بما يخفف عنهم به المؤونة. وأشار إلى وجه الحكمة فيه بقوله: فإنه ذخر. إلى قوله: العدل فيهم. ومعناه ظاهر - ومعتمداً - نصب على الحال والعامل خففت، و - فضل - نصب بالمفعول عن معتمداً، وقوله: والثقة. عطف على المفعول المذكور، ونبه على وجه المصلحة في اعتماد فضل قوتهم بإراحتهم والثقة بينهم بما عوّدهم من عدله بقوله: فربما حدث. إلى قوله: أنفسهم به. وتقدير الكلام خفّف عنهم معتمداً فضل قوتهم فإن ذلك يستلزم احتمالهم لما عساه يحدث من الأمور فيحتملونه إذا عوّلت عليهم فيه بطيب نفس، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فواجب أن يخفف عنهم ويعتمد فضل قوّتهم، وفي قوله: فإن العمران محتمل ما حملته. بيان الصغرى لأن التخفيف عنهم يستلزم عمران أرضهم وهو يستلزم احتمالهم لما يرد عليهم من حوادث الأمور. ثم نبه بقوله: وإنما يؤتى خراب الأرض. إلى قوله: أهلها. على سبب الخراب. وبقوله: وإنما يعوز. إلى قوله: العبر. على ذلك السبب وهو مركب من ثلاثة أجزاء:

أحدها: إشراف نفوس الولاة على الجمع.

والثاني: سوء ظن أحدهم أنه لا يبقى في العمل.

والثالث: عدم انتفاعهم بالعبر لقلة التفاتهم إليها. وظاهر أن هذه الأمور إذا اجتمعت في الوالي استلزمت جمعه للمال واستقصاءه على الرعية واستلزم ذلك إعوازهم وفقرهم فاستلزم ذلك خراب أرضهم وتعطيل عمارتها.

الصنف الخامس: الكتّاب وأمره فيهم بأوامر:

أحدها: أن يولي أموره خيرهم، وتفسير الخير هنا هو من كان تقياً قيماً بما يراد منه من مصالح العمل.

الثاني: أن يخص رسائله وأسراره ومكائده بأجمعهم لصالح الأخلاق، وقد علمت أصولها غير مرة وهي العلم بوجوه الآراء المصلحيّة والتهدي إلى وضع كل شيء موضعه ثم العفة والشجاعة والعدالة مع ما تحت الأربعة من الفضائل الخلقية ثم فسّر بعض الفضائل التي عساها أن تخفى، وذكر منها خمساً:

إحديها: عدم البطر، وهي فضيلة تلزم الشكر وهو فضيلة تحت العفة. ونفّر عن صاحب البطر بقوله: فيجترىء إلى قوله: ملإ. وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من يجترىء عليك كذلك فغير صالح لولاية أمرك.

الثانية: الفطنة والذكاء فيما هو بصدده من الأمور المذكورة، وكنّى عن ذلك بقوله: ممن لا تقصر به الغفلة. إلى قوله: منك. والذكاء: فضيلة تحت الحكمة.

الثالثة: أن لا يكون ممن يضعّف عقداً يعتقده لك من الأمور بل يجعله محكماً.

الرابعة: أن لا يعجز عن إطلاق ما اعتقده عليك خصومك من الأمور بالحيلة والخديعة، وهذان لازمان لأصالة الرأي وهو فضيلة تحت الحكمة.

الخامسة: أن لا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فيرفعها إلى فوق محلّها ومرتبتها وهي فضيلة تحت الحكمة الخلقية أيضاً، ونبه على اجتناب الجاهل بذلك بقوله: فإن الجاهل. إلى قوله: أجهل، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فيجب اجتنابه.

الثالث: نهاه أن يكون اختياره للعمال تفرساً منه وسكوناً وحسن ظن بأحدهم، وأشار إلى وجه المفسدة في ذلك بقوله: فإن الرجال. إلى قوله: شيء. والمعنى أن الرجال قد يتصنّعون بحسن الخدمة ويتعرضون لأن يتفرّس فيهم الولاة فيعرفونهم بذلك مع أنه ليس وراء ذلك التصنّع من النصيحة والأمانة شيء وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فينبغي أن لا يعتمد على اختياره بحسب الفراسة.

الرابع: لما نهى أن يوقع اختيارهم كذلك أمره أن يختبرهم بولايتهم لمن كان قبله من الصالحين إرشاداً إلى وجه الاختيار ويعضد إلى من كان بالصفات المذكورة وهو أن يكون أحسن أثراً في العامة وأعرفهم بوجه الأمانة في الدين. ورغبة في ذلك بضمير صغراه قوله: فإن ذلك. إلى قوله: أمره. وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك وجب فعله.

الخامس: أمره أن يجعل لرأس كل أمر من أموره رأساً من الكتّاب الموصوفين بكونهم مناسباً له بحيث لا يكبر عليه كبيرة فيقهره ولا يكثر عليه كثيرة فيتشتّت عن ضبطه ويقصر دونه.

السادس: نهاه أن يتغافل عما يكون في كتابه من عيب ونبهه على ذلك بقوله: ومهما. إلى قوله: ألزمته. وهو صغرى ضمير تقديره: فإن كل ما يتغافل عنه من ذلك تلزم به، وتقدير كبراه: وكل ما تلزم به فلا يجوز أن يتغافل عنه.

الصنف السادس: التجار وذوو الصناعات وأمره فيهم بأوامر:

أولها: أن يستوصي بهم خيراً.

الثاني: أن يوصي بهم كذلك بأصنافهم المقيم منهم والمضطرب في تجارته بماله والمترفق ببدنه وهم أهل الصنائع، وأشار إلى وجه الحكمة في الوصية بهم والعناية بحالهم من وجهين:

أحدهما: منفعتهم، وذلك قوله: فإنهم. إلى قوله: عليها. والضمير في قوله: مواضعها وعليها. يعود إلى المنافع وحيث: أي ومن حيث كان لا يجتمع الناس لمواضع تلك المنافع منه ولا يجترؤون عليها فيه وذلك الحيث كالبحار والجبال ونحوها.

الثاني: أنه لا مضرة فيهم وذلك قوله: فإنهم. إلى قوله: غائلته. وتقدير كبرى الضميرين: وكل من كان كذلك فيجب الاستيصاء به والوصية بالخير في حقه.

الثالث: أن يتفقد أمورهم بحضرته وفي حواشي بلاده ما عساه يعرض لهم من المظالم والموانع ليزيلها عنهم.

الرابع: أن يعلم ما فيهم من المعائب المعدودة وهي الضيق الفاحش، والشح. والضيق هنا البخل، ثم الاحتكار للمنافع التي يعم نفعها وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والملح، ثم التحكم في البياعات وهو عبارة عن البيع على حكمه بالهوى المطلق من غير تقيّد بشريعة أو عرف فإن ذلك عدول عن العدل إلى رذيلة الجور.

ثم نبه على وجه المفسدة اللازمة لتلك المعائب بقوله: وذلك. إلى قوله: الولاة: أما أنه مضرة فظاهر، وأما أنه عيب على الولاة فلأن قانون العدل بأيديهم فإذا أهملوا بترك ردّ هؤلاء عن طرق الجور توجهت اللائمة نحوهم والعيب عليهم وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فيجب إنكاره ودفعه.

الخامس: لما بين له وجه المفسدة في تلك المعائب أمره بمنع الاحتكار واحتج بمنع الرسول ﷺ.

السادس: أمره بكون البيع سهلاً سمحاً وأن يكون بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالبائع فيذهب أصل مبيعه، ولا بالمشتري فيذهب رأس ماله.

السابع: أمره بإيقاع النكال على من احتكر بعد نهيه عن ذلك، وأن يعاقبه من غير إسراف.

الصنف السابع: الطبقة السفلى وميّزهم بأوصاف وأمر فيهم بأوامر ونواهي:

أما تميّزهم فالعاجزون عن الحيلة والاكتساب والمساكين والمحتاجون وأهل البؤسى والزمنى، وهؤلاء كلهم وإن دخل بعضهم في بعض إلا أنه عددهم بحسب تعدد صفاتهم لمزيد العناية بهم كيلا يتغافل عن أحدهم وتثاقل فيه. وأما الأوامر.

فأحدها: أنه حذّر من الله فيهم، وأشار إلى وجه الحكمة في ذلك التحذير بقوله: فإن فيهم قانعاً ومعتراً، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فيجب أن يحذر الله فيه ويحفظ له ما استحفظ من حقه فيه.

الثاني: أن يجعل لهم قسماً من بيت ماله ومن صوافي الإسلام في كل بلد. وأضاف بيت المال إليه وأراد الذي يليه. ونبهه على ذلك بقوله: فإن للأقصى.

إلى قوله: حقه. وتقدير كبرى هذا الضمير: وكل من كان كذلك وجب أن يحسن الرعاية في حقه بأدائه إليه.

الثالث: نهاه أن يشغله عنهم بطر. ونفر عن الاشتغال عنهم بقوله: فإنك لا تعذر. إلى قوله: المهم. وأراد بالتافه القليل من أمورهم وأحوالهم وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من لا يعذر بذلك فلا يجوز له الشغل عنه.

الرابع: نهاه أن يشخص همه عنهم: أي يرفعه حتى لا يتناولهم.

الخامس: نهاه أن يصعّر خده لهم، وهو كناية عن التكبر عليهم.

السادس: أمره أن يتفقد أمور من لا يمكنه الوصول إليه منهم لعجزه وحقارته في عيون الأعوان والجند، وأن يفرغ لهؤلاء ثقة له من أهل الخشية والتواضع وينصبه لهم ليرفع إليه أمورهم.

السابع: أن يعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم يلقاه: أي عمل في حقهم ما أمره الله به بحيث يعذر إليه: أي يكون ذا عذر عنده إذا سأله عن فعله بهم، ونبه على وجه الحكمة من مزيد العناية بهم بقوله: فإن هؤلاء. إلى قوله: غيرهم.

الثامن: أكّد الأمر بالإعذار إلى الله في تأدية حق كل واحد من المذكورين إليه.

التاسع: أمره أن يتعهد الأيتام وذوي الرقة في السن: أي الذين بلغوا في الشيخوخة إلى أن رق جلدهم وضعف حالهم عن النهوض فلا حيلة لهم، وممن لا ينصب نفسه للمسألة حياءً مع حاجته وفقره. ثم أشار إلى ثقل التكليف بمجموع الأوامر السابقة بقوله: وذلك على الولاة ثقيل، وبقوله: والحق كله ثقيل توطيناً لنفسه على ذلك. ثم رغب فيه بقوله: وقد يخفف الله. إلى قوله: لهم. فنسب تخفيفه إلى الله ليرغب إليه فيه وشجعه على فعله واستسهاله بذكر صفات الصالحين وهم الذين طلبوا العافية من بلاء الله في الآخرة فاستسهلوا ما صعب من التكاليف الدنيوية بالقياس إليه ووثقوا بصدق موعود الله لهم في دار القرار. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في أوامر ونواهي مصلحية وآداب خلقيّة وسياسية بعضها عامة وبعضها خاصة يتعلق بعمّاله وبخاصته وببطانته وبنفسه وأحوال عبادته إلى غير ذلك، وهو قوله:

وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ للهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ». ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالأَنَفَ يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ. وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ!.

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ. وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ. وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا للهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ للهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذٰلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلا مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ. وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ. وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي

بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

وَأَمَّا بَعْدُ، فَلا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ. وَلا تُقْطِعَنَّ لأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً، وَلا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَلا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَللهِ فِيهِ رِضىً، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وَأَمْناً لِبِلادِكَ، وَلكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ. فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ. وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً - مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ - مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ. وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ. فَلا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لا يَجْتَرِىءُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلا إِدْغَالَ وَلا مُدَالَسَةَ وَلا خِدَاعَ فِيهِ، وَلا تَعْقِدْ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلَ، وَلا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ، إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ، فَلا تَسْتَقْبِلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلا آخِرَتَكَ.

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ، وَلا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا. وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ

بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ. وَلا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ. وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ. فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَالاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ. وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ. امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الاخْتِيَارَ: وَلَنْ تَحْكُمَ ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هٰذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

أقول: الشرط: قوم يعلمون أنفسهم بعلامات الخدمة يعرفون بها. والخرق: ضد الرفق. والأنف: الأنفة وهي خصلة تلازم الكبر. والأكناف: الجوانب. والإسداء: الإعطاء. والحامة: القرابة. والعقدة: الضيعة، والعقدة أيضاً: المكان كثير الشجر والنخل، واعتقد الضيعة: اقتناها. والمغبّة: العاقبة. وأصحر: أي أظهر. والدعة: الراحة. واستوبلوا الأمر: استثقلوه، والوبال: الوخم، يقال: استوبلت البلد: استوخمت فلم يوافق ساكنها وخاس بالعهد: نقضه. والختل: الخداع. وأفضاه: بسطه. واستفاض الماء: سال. والإدغال: الإفساد. والدغال: الفساد. والمدالسة: مفاعلة من التدليس في البيع وغيره كالمخادعة. ولحن القول: كالتورية والتعريض من الأمر. والوكزة: الضربة والدفعة، وقيل: هي بجمع اليد على الذقن. والفرصة: النوبة، والممكن من الأمر. وسورة الرجل: سطوته وحدة بأسه. وغرب اللسان: حدته. والبادرة: سرعة السطوة والعقوبة.

أما الأمور التي تعمّ مصلحتها.

فأحدها: أن يجعل لذوي الحاجات نصيباً من نفسه يفرّغ لهم فيه بدنه عن كل شاغل ويجلس لهم مجلساً عاماً في الأسبوع أو دونه أو فوقه حسب ما يمكن.

الثاني: أن يتواضع فيه لله. ورغبه في التواضع بنسبته إلى الله باعتبار أنه خالقه الذي من شأنه أن يكون له التواضع.

الثالث: أن يقعد عنهم جنده وأعوانه. وأبان وجه المصلحة في ذلك بقوله: حتى يكلمك متكلّمهم غير متتعتع، وأشار إلى علة وجوبه بقوله: فإني سمعت. إلى قوله: القويّ. ووجه الدليل من هذا الخبر أنه لما دلّ بالمطابقة على وعيد الأمة التي لا ينتصف فيها من قويّ بعدم طهارتها المستلزم لعذابها الأخروي دلّ بالالتزام

على وجوب أن يكون فيها ذلك. ثم لما كانت الأمور المأمور بها مما لا يتم ذلك الواجب إلا بها كانت بأسرها واجبة.

الرابع: أمور تلزمه مباشرتها وإن عمّت مصلحتها. وأمور مبتدأ حذف خبره: أي وهناك أمور. ونحوه. منها إجابة عمّاله بما يرى المصلحة في الجواب به فقد يعجز الكتّاب عن كثير من ذلك. ومنها إصدار حوائج الناس التي يضيق منها صدور أعوانه عند ورودها عليه، ولا ينبغي له أن يكلها إليهم فإن غاية قضائهم لها إذا قضيت أن يكون على غير الوجه المرضي.

الخامس: أن يمضي لكلّ يوم عمله. ونبّه على ذلك بقوله: فإن لكل يوم ما فيه. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وإذا كان لكل يوم ما فيه وجب أن يقضي فيه ماله.

السادس: أن يجعل لنفسه في معاملته لله أفضل تلك المواقيت: أي الأوقات المفروضة للأفعال، وأجزل أقسام الأفعال الموقتة. فأفضلها أبعدها عن الشواغل الدنيوية وأقربها إلى الخلوة بالله سبحانه، ونبه بقوله: وإن كانت. إلى قوله: الرعية على أن أصلح الأعمال أخلصها لله.

السابع: أن يكون في خاصة ما يخلصه لله في دينه إقامة فرائضه فيخصّها بمزيد عناية منه ورعاية.

الثامن: أن يعطي الله من بدنه في ليله ونهاره: أي طاعة وعبادة فحذف المفعول الثاني للعلم به. والقرينة كون الليل والنهار محلّين للأفعال والقرينة ذكر البدن.

التاسع: أن يوفي ما تقرب به إلى الله من ذلك. وكاملاً، وغير مثلوم، وبالغاً أحوال. وما نصب على المصدرية بقوله: بالغاً من بدنك ما بلغ من القوة على الطاعة.

العاشر: من الآداب الراجعة إلي حال الإمامة بالناس في الصلاة أن يكون متوسطاً في صلاته بين المطول المنفر للناس بتطويله وبين المقصر المضيّع لأركان الصلاة وفضيلتها، واحتج لنفي التثقيل والتطويل بالمعقول والمنقول: أما المعقول فضمير صغراه: قوله: فإن في الناس. إلى قوله: الحاجة. وتقدير كبراه: وكل من كان فيه من ذكر فيجب أن يرفق به ويخفف عنه، وأما المنقول فما رواه عن رسول الله ﷺ من الخبر، ووجه التشبيه بصلاة الأضعف تخفيف الصلاة بعد حفظ أركانها وواجباتها.

الحادي عشر: من الآداب المصلحية لتدبير المدينة النهي عن طول الاحتجاب عن الرعية. ورغّب في الانتهاء عنه من وجوه:

أحدها: أنه نوع من أنواع الضيق على الرعية. إذ كانت مشاهدتهم للوالي تفرّج عنهم ما يكربهم من الأمور المهمة لهم.

الثاني: أنه قلة علم بالأمور: أي يلزمه ذلك فأطلق اسم اللازم على ملزومه وأكد ذلك بقوله: والاحتجاب عنهم يقطع منهم: أي من الولاة علم ما احتجبوا دونه من أمور الرعية. ثم أشار إلى ما يلزم عدم علمهم من المفاسد وهو أن يصغر كبير الأمور عندهم كأن يظلم بعض حاشية الأمير فتصغّر الأعوان جريمته عنده فيصغر وكذلك يعظم صغيرها لو وقع من ضعيف صغير ذنب في حق كبيره. وكذلك يقبح عندهم الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل ويلبس به، وذلك قوله: فيصغر. إلى قوله: بالباطل. ثم نبه على وجه لزوم قطع العلم بالأمور لطول الاحتجاب بقوله: وإنما الوالي بشر. إلى قوله: الصدق والكذب. والتقدير أنه بشر والبشر من خاصته أنه لا يعرف ذلك إلا بعلامة وليس على الحق علامات يعرف بها ضروب صدق القول من كذبه.

الثالث: أنه رغب في الانتهاء عنه بضمير صغراه شرطية منفصلة وهي قوله: وإنما أنت. إلى قوله: بذلك. وتلخيصه أنك إما أن تكون مطبوعاً على السخاء بالبذل في الحق أو مبتلى بالمنع منه. وتقدير الكبرى. وكل من كان كذلك فلا يجوز له الاحتجاب. بيان الكبرى: أما إن كان سخيّاً ببذل الحق فإنه عند الطلب منه إمّا أن يعطي حقاً يجب عليه، أو يفعل فعل الكرماء وذلك لا يجوز الاحتجاب منه.

وأما إن كان مبتلى بالمنع فإذن يسرعون الكف عن مسألته إذا أيسوا من بذله وحينئذ لا معنى للاحتجاب عنهم.

الرابع: قوله: مع أن أكثر. إلى قوله: معامله. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان أكثر حاجات الناس إليه ما لا مؤونة عليه فيه من الأمور المذكورة فلا معنى لاحتجابه عنهم.

الثاني عشر: من الأمور المصلحية المتعلقة بخاصته أن يحسم مؤونتهم عن الرعية فقوله: بقطع أسباب إلى قوله: مؤونته. إرشاد إلى سبب قطعها، وأشار إلى وجه ذلك بذكر ما فيهم من الاستئثار على الرعية بالمنافع والتطاول عليهم بالأذى وقلة الإنصاف وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فيجب قطع مؤونته عنهم. والأحوال التي أمر بقطع أسبابها هي وجوه المؤونة المذكورة من الاستئثار والتطاول وقلة الإنصاف.

وقوله: ولا تقطعنّ. إلى قوله: مشترك.

تفصيل لوجوه قطع الأسباب المذكورة فإنّ إقطاع أحدهم قطيعة وطمعه في اقتناء ضيعة تضر بمن يليها من الناس في ماء أو عمل مشترك يحمل مؤونته على الناس كعمارة ونحوها هي أسباب الأحوال المذكورة من وجوه المؤونة وقطع تلك الأحوال بقطع أسبابها. ثم نفّره عن أسباب المؤونة على الناس بما يلزم تلك الأسباب من المفسدة في حقه وهي كون مهنأ ذلك لهم دونه وعيبه عليه في الدنيا والآخرة، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما كان مهنأه للغير وعيبه عليك فلا يجوز فعله.

الثالث عشر: أن يلزم الحق من يلزمه الحق من القريب والبعيد، ويكون في ذلك الإلزام صابراً لما عساه يلحق أقاربه من مرّ الحق، محتسباً له: أي مدخله في حساب ما يتقرب به إلى الله تعالى ويعدّه خالصاً لوجهه، واقعاً ذلك الإلزام من قرابته وخواصه حيث اتفق وقوعه بمقتضى الشريعة، والواو في قوله: ولكن للحال، واقعاً أيضاً حال والعامل قوله: وألزم.

الرابع عشر: أن يبتغي عاقبة ذلك الإلزام بما يثقل عليه من فعله بخاصته. كأنه يستفيض بفعله ما يلزمه في العاقبة من العافية من عيب الدنيا وعذاب الآخرة، ورغّب في ذلك بقوله: فإن مغبة ذلك محمودة وهي تلك العافية وما يلزمها من السعادة الباقية، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما كانت مغبته محمودة وجبت الرغبة في فعله.

الخامس عشر: أمره على تقدير أن تظن الرعية فيه حيفاً أن يصحر لهم عذره فيما ظنوا فيه الحيف ويعدل عنه ظنونهم بإظهاره، ورغب في ذلك بضمير صغراه قوله: فإن. إلى قوله: الحق: أي فإن في إظهار عذرك لهم أن تصير ذا عذر تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق من معرفتهم أن فعلك حق لا حيف فيه، وتقدير كبراه: وكل ما كان كذلك فينبغي فعله.

السادس عشر: نهاه أن يدفع صلحاً دعاه إليه عدوه إذا كان صلحاً يرضي الله . ونبه على وجوه المصلحة فيه بضمير صغراه. قوله: فإن في الصلح. إلى قوله: لبلادك. وهي ثلاث مصالح ظاهرة اللزوم لصلح العدو، وتقدير كبراه: وكلما كان فيه هذه المصالح فواجب قبوله.

السابع عشر: بالغ في تحذيره من العدو بعد صلحه، وأمره أن يأخذ بالحزم ويتهم في الصلح حسن ظنه الذي عساه أن ينشأ عن صلحه. ونبه على وجوب ذلك الحذر بضمير صغراه: قوله: فإن العدو ربما قارب ليتغفل: أي قارب عدوه بصلحه ليطلب غفلته فيظفر به، وله عليه السلام في ذلك شواهد التجربة وحذف المفعولين للعلم بهما. وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فواجب أن يحذر منه.

الثامن عشر: أمره على تقدير أن يعقد بينه وبين عدوه عهداً أن يحوطه بالوفاء ويرعى ذمته بالأمانة ويجعل نفسه جنة دون ما أعطى: أي حفظ ذلك بنفسه ولو أدى إلى ضررها، واستعار لفظ اللبس لإدخاله في أمان الذمة ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه. وكذلك لفظ الجنة لنفسه ملاحظة لشبهها في الحفظ بالترس ونحوه. ورغّب في ذلك بوجهين اشتمل عليهما قوله: فإنه. إلى قوله: العذر.

أحدهما: أن الناس أشد اجتماعاً على ذلك من غيره من فرائض الله الواجبة عليهم مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم.

الثاني: أن المشركين لزموا ذلك فيما بينهم واستثقلوا الغدر لما فيه من سوء العاقبة. والمذكوران صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما: وكلما كان كذلك فيجب لزومه والمحافظة عليه. ثم أكد ذلك بالنهي عن الغدر في العهد ونقض الذمة وخداع العدو بمعاهدته ثم الغدر به، ونفّر عن ذلك بوجهين:

أحدهما: قوله: فإنه. إلى قوله: الأشقى. وهو صغرى ضمير تلخيصها: فإن المجترىء على الله شقي، وتقدير كبراه: وناقض العهد والمدغل فيه مجترىء على الله، ينتج من الرابع فالشقي هو ناقض العهد والمدغل فيه. ويجوز أن يكون تقدير الصغرى: فإن ذلك جرأة على الله يستلزم الشقاوة، وتقدير الكبرى: وكلما كان كذلك وجب اجتنابه لينتج من الأول المطلوب.

الثاني: قوله: وقد جعل. إلى قوله: جواره. وأمناً: أي مأمناً واستعار لفظ الحريم للعهد، ورشح بذكر السكون إلى منعته والاستفاضة إلى جواره، ونبه بذلك على وجه الاستعارة وهو الاطمئنان إليه والأمن من الفتنة بسببه فأشبه الحريم المانع، والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فلا يجوز نقضه والإدغال فيه.

التاسع عشر: نهاه أن يعقد عقداً يجوز فيه العلل: أي الأحداث المفسدة له وهو كناية عن أمره بإحكام ما يعقد من الأمور.

العشرون: نهاه أن يعتمد على لحن القول في الإيمان والعهود بعد أن يؤكدها ويتوثق من غيره فيها أو يتوثق غيره منه فيها، ومثال لحن القول ما ادّعاه طلحة والزبير من الوليجة والتورية في بيعتهما له عليه السلام: أي لا تعتمد على ذلك من نفسك ولا تلتفت إليه من غير لو ادّعاه.

الحادي والعشرون: نهاه أن يدعوه ضيق أمر لزمه فيه عهد الله إلى أن يطلب إبطاله بغير حق، ورغب في الصبر عليه بقوله: فإن صبرك. إلى قوله: آخرتك. وهو صغرى ضمير، وأراد بتبعته ما يتبعه من العقوبة، وبالطلبة ما يطالب به يوم القيامة من لزوم العهد، وإحاطتها به كناية عن لزومها له، وبوصف الطلبة بقوله: لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك. أراد أنه لا يكون لك معها دنيا تستقبلها وتنتظر خيرها لعدم الدنيا هناك ولا آخرة تستقبلها إذ لا يستقبل في الآخرة إلا الأمور الخيرية. ومن أحاطت به طلبته من الله فلا خير له في الآخرة يستقبله.

وروى تستقيل بالياء: أي لا يكون لك من تلك الطلبة والتبعة إقالة في الدنيا ولا في الآخرة.

الثاني والعشرون: حذّره من الدخول في الدماء وسفكها بغير حق وهو كناية عن القتل، ونفّر عنه بوجهين:

أحدهما: قوله: فإنه. إلى قوله: حقها، وهو صغرى ضمير تقديرها: فإن سفك الدماء بغير حق إحدى الأشياء لحلول نقمة الله، وأعظمها في لحوق التبعة منه، وأولاها بزوال النعمة وانقطاع مدة الدولة والعمر. وظاهر أنها أقوى المعدات للأمور الثلاثة لما يستلزمه من تطابق همم الخلق ودواعيهم على زوال القاتل واستنزال غضب الله عليه لكون القتل أعظم المصائب المنفور عنها، وتقدير الكبرى: وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر فعله.

الثاني: قوله: والله سبحانه: إلى قوله: القيامة. ونبه بابتدائه تعالى بالحكم بين العباد في القتل على أنه أعظم عنده تعالى من سائر الكبائر، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما ابتدأ الله بالحكم فيه فيجب التحرّي فيه واجتناب ما يكره منه.

الثالث والعشرون: نهاه أن يقوي سلطانه ودولته بسفك الدم الحرام ونفّر عنه بقوله: فإن ذلك. إلى قوله: وينقله. وهي صغرى ضمير بيانها ما سبق فإن سفك الدم الحرام لما استلزم الأمور الثلاثة المذكورة كان ذلك مضعفاً للسلطان ومزيلاً له، وتقدير الكبرى: وكلما كان كذلك وجب اجتنابه.

الرابع والعشرون: نهاه عن قتل العمد حراماً ونفر عنه بأمرين:

أحدهما: أنه لا عذر فيه عند الله ولا عنده.

الثاني: أن فيه قود البدن. وهما صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما: وكل ما كان كذلك وجب اجتنابه.

الخامس والعشرون: نهاه أن يرتكب رذيلة الكبر عندما يبتلي بقتل خطأ أو إفراط سوطه أو يده عليه في عقوبة فتأخذه عزّة الملك والكبر على أولياء المقتول فلا يؤدي إليهم حقهم، ونبه بقوله: فإن. إلى قوله: مقتلة. على أن الضرب باليد المسمى وكزاً قد يكون فيه القتل وهو مظنة له.

السادس والعشرون: حذّره الإعجاب بنفسه، والثقة بما يعجبه منها، وحب الإطراء. والأخيران سببان لدوام الإعجاب ومادة له، ونفّر عن الثلاثة بقوله: فإن ذلك. إلى قوله: المحسنين. وفي نفسه متعلق بأوثق.

وقول: ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

يحتمل وجهين: أحدهما: أنه لما كان الإعجاب من الهلكات لم ينفع معه إحسان المحسن فإذا تمكن الشيطان من الفرصة وزيّن الإعجاب للإنسان وارتكبه محق لذلك ما يكون له من الإحسان.

والثاني: إن المعجب بنفسه لا يرى لأحد عنده إحساناً فيكون إعجابه ماحقاً لإحسان من أحسن إليه. ولما كان مبدأ الإعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبه إليه، والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان أوثق فرص الشيطان في نفسه وجب الاحتراز عنه.

السابع والعشرون: حذره رذائل ثلاث:

أحدها: المنّ على الرعية بإحسانه إليهم.

الثانية: التزيد فيما فعله في حقهم وهو أن ينسب إلى نفسه من الإحسان إليهم أزيد مما فعل.

الثالثة: أن يخلف موعوده لهم. ثم نفر عن المن بقوله: فإن المنّ يبطل الإحسان، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وعن التزيد بقوله: فإن التزيد يذهب بنور الحق. وأراد بالحق هنا الإحسان إليهم، أو الصدق في ذكره في موضع يحتاج إليه فإن على ذلك نوراً عقلياً ترتاح له النفوس وتلتذّ به. ولما كان التزيد نوعاً من الكذب وهو رذيلة عظيمة لا جرم كان مما يذهب نور ذلك الحق ويطفيه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق. ونفّر عن الخلف بقوله: يوجب المقت عند الله والناس: أما عند الناس فظاهر وأما عند الله فلقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] الآية. والثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها: وكلما كان كذلك وجب اجتنابه.

الثامن والعشرون: حذّره من إيقاع الأمور على أحد طرفي التفريط والإفراط فطرف الإفراط في الطلب العجلة بها قبل أوانها أو اللجاجة فيها عند تنكرها، وتغيّر وجوه مأخذها وعدم اتضاحها وتسهلها، وطرف التفريط التساقط فيها والقعود عنها إذا أمكنت وهو يقابل العجلة فيها أو الضعف عنها إذا استوضحت وهو يقابل اللجاجة فيها عند تنكرها. واستلزم النهي عن هذين الطرفين الأمر بإيقاعها على نقطة العدل وهي الحد الأوسط من الطرفين وموضعها الحق فلذلك قال: فيضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه.

التاسع والعشرون: حذّره من الاستئثار بما يجب تساوي الناس فيه كالذي يستحسن من مال المسلمين ونحوه.

الثلاثون: وعن التغافل عما يجب العلم والعناية به من حقوق الناس المأخوذة ظلماً مما قد وضح للعيون إهمالك له. ونفر عن ذلك بقوله: التغابي. إلى قوله: للمظلوم، وأراد ما يستأثر به من حقوق الناس ويتغافل عنها، وما في قوله: عمّا. زائدة، وأراد بالقليل مدة الحياة الدنيا، وأشار بأغطية الأمور إلى الهيئات البدنية الحاجبة لحقائق الأمور من أن يدركها بصر بصيرته. وقد علمت أن انكشاف تلك الأغطية عنه بطرح بدنه وحينئذ يشاهد ما أعد له من خير أو شر كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية.

الحادي والثلاثون: أمره أن يملك حمية أنفه: أي أنفته مما يقع من الأمور المكروهة، وسورة حدّه، وحدة لسانه وملكه لهذه الأمور إنما يكون بالاحتراس عن تعدي قوته الغضبية ووقوفه في فعلها على حاق الوسط بحيث لا يعبر فيها إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة التهور ويلزمه في تلك الرذيلة الظلم.

الثاني والثلاثون: أمره بالاحتراس من تلك الأمور

وأرشده إلى أسبابه وهو كف البادرة وتأخير السطوة إلى حين سكون الغضب ليحصل له بذلك الاختيار في الفعل والترك الذي عساه مصلحة، وأشار إلى وجه إحكام تلك الأسباب بقوله: ولن تحكم ذلك. إلى قوله: عليك. وذلك أن كثرة الهم عن ذكر المعاد والفكر في أمور الآخرة ماحٍ للرغبة في الأمور الدنيوية التي هي المشاجرات وثوران الغضب.

الثالث والثلاثون: أوجب عليه أمرين فيهما جماع ما أوصاه به في هذا العهد إجمالاً:

أحدهما: أن يتذكر ما مضى لمن تقدمه من الحكومات العادلة للولاة قبله، أو من الآثار المنقولة عن نبينا ﷺ أو من فرائض الله ليقتدي بما شاهد من عمله عليه السلام فيها.

الثاني: أن يجتهد لنفسه في اتباع ما عهد إليه في عهده هذا واستوثق به من الحجة لنفسه عليه وهي الموعظة والتذكير بأوامر الله لكيلا يكون له عليه حجة يحتج بها عند تسرع نفسه إلى هواها كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومن هذا العهد أيضاً

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وَجَمِيلِ الأَثَرِ فِي الْبِلادِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً. وَالسَّلامُ.

أقول: ختم هذا العهد بسؤال الله أن يوفقهما لما فيه رضاه، وأقسم عليه في إجابة سؤاله برحمته التي وسعت كل شيء وبقدرته العظيمة على إعطاء كل رغبة. وظاهر كونهما مبدأين لإجابة السائلين. ثم فصل ما سأله مما فيه رضا الله وهي أمور:

أحدها: الإقامة على العذر الواضح إلى الله وإلى خلقه.

فإن قلت: العذر إنما يكون عن ذنب فمن أقام على طاعة الله كيف يكون فعله عذراً؟

قلت: يحتمل أن يكون العذر إسماً من الإعذار إلى الله وهو المبالغة في الإتيان بأوامره فكأنه قال: من الإقامة على المبالغة إليه في أداء أوامره.

الثاني: حسن الثناء في العباد وجميل الأثر وهو ما يؤثر من الأفعال الحميدة في البلاد، وذلك مما سأله الأنبياء كإبراهيم عليه السلام ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] قيل هو الذكر الجميل في الناس.

الثالث: أن يتم نعمته عليهما.

الرابع: تضعيف كرامته لهما.

الخامس: الخاتمة الحسنة بالسعادة وما يوصل إليها من الشهادة، ونبه بقوله: إنا إليه راغبون. على صدق نيّته في سؤاله، ثم ختم بالسلام على رسول الله والصلاة عليه وآله.

٥٣ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى طلحة والزبير، مع عمران بن الحصين الخزاعي ذكره أبو جعفر الإسكافي في كتاب (المقامات) في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَلِمْتُمَا - وَإِنْ كَتَمْتُمَا - أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي، وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، وَلا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ، فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ. وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هٰذَا الأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلا

فِيهِ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ، بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ.

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ. فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَجَمَّعَ الْعَارُ وَالنَّارُ، وَالسَّلامُ.

أقول: خزاعة قبيلة من الأزد. وقيل: الإسكافي منسوب إلى إسكاف رستاق كبير كان بين النهروان والبصرة. وكتاب المقامات: الذي صنفه الشيخ المذكور في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وقد احتج عليه السلام عليهما في نكث بيعته بحجّتين:

إحديهما: قوله: أما بعد. إلى قوله: حاضر. وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من علمتما من حاله ذلك فليس لكما أن تنكثا بيعته وتخرجا عليه.

وقوله: وإن كتمتما.

إشارة إلى أنهما بعد نكث بيعته كتما إرادتهما لبيعته وإرادة كثير من الناس وزعما أنه إنما حملهما عليها كرهاً.

الحجة الثانية قوله: فإن كنتما. إلى قوله: إقراركما به وهي شرطي منفصل تقديرها: إنه لا يخلو إما أن تكونا بايعتماني طائعين أو كارهين.

والأول هو المطلوب: ويلزمكما ارتكاب المعصية والرجوع إلى الله بالتوبة إلى الله من قريب قبل استحكام المعصية في نفسيكما.

والثاني: باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يلزمكما النفاق حيث أظهرتما لي الطاعة وأضمرتما المعصية فجعلتما بذلك السبيل عليكما في القول والفعل.

الثاني: أنكما ما كنتما بالتقية مني والكتمان لعصيانكما أحق من المهاجرين وذلك لأنهما كانا أقوى الجماعة وأعظمهما شأناً فكان غيرهما من المهاجرين أولى منهما بالتقية عند البيعة ونكثهما بعد ذلك.

الثالث: إن دفعهما لبيعته قبل الدخول فيها أوسع لعذرهما من خروجهما منها بعد إقرارهما. وهذه الأقوال الثلاثة صغريات ضمير تقدير الكبرى في الأول: وكل ما جعلتما لي عليكما به السبيل فيحرم عليكما فعله وليس لكما أن تدّعياه، وفي الثاني: وكل من لا يكون أحق من المهاجرين بدعواه فليس له أن يدعيه إذا لم يدعوه، وفي الثالث: وكلما كان أوسع لعذرهما فليس لهما العدول عنه إلى ما هو أضيق.

وقوله: وقد زعمتما أني قتلت عثمان.

إشارة: إلى شبهتهما المشهورة في خروجهما عليه.

وقوله: فبيني: إلى قوله: احتمل.

جوابها: أي الحكم إلى من تخلّف عن نصرتي ونصرتكما من أهل المدينة ثم يلزم كل منّا من اللائمة والعقوبة بقدر ما احتمل من الإثم والبغي. ثم بعد أن أقام الحجة عليهما أمرهما بالرجوع عن رأيهما الفاسد في اختيارهما لبيعته ورغّب في الرجوع عن ذلك. بقوله: فإن الآن. إلى آخره، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: والعار أسهل من اجتماع العار والنار في الآخرة. وأراد بالعار العار بالعذر. والآن ظرف انتصب بأعظم الذي هو اسم إن، ويجوز أن يكون هو اسمها وأعظم مبتدأ خبره العار - والجملة خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف تقديره: فإن الآن أعظم أمر كما فيه العار.

٥٤ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا، وَلا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا، وَقَدِ ابْتَلانِي اللهُ بِكَ وَابْتَلاكَ بِي: فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الآخَرِ، فَعَدَوْتَ عَلَى الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلا لِسَانِي، وَعَصَيْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ،

فَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، وَاصْرِفْ إِلَى الآخِرَةِ وَجْهَكَ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ. وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الأَصْلَ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الأَقْدَارِ لا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

أقول: عصبه به: علقه به. والتأليب: التحريض. والقارعة: الداهية. والدابر المتأخر من النسل. والألية: اليمين.

فقوله: أما بعد: إلى قوله: لنبتلي بها.

إشارة إلى غرض الدنيا وغايتها ليتنبّه لذلك ويعمل له، وأراد بالسعي فيها الذي لم يؤمر به اكتسابها لها، دون غيره مما يكون للضرورة فإن ذلك مأمور به في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وقوله: وقد ابتلاني: إلى قوله: الآخر.

تعيين لبعض أغراضها، وقد علمت كيفية ابتلائه بخلقه فيما قبل ووجه ابتلائه عليه السلام بمعاوية عصيانه ومحاربته إيّاه حتى لو قصّر في مقاومته ولم يقم في وجهه كان ملوماً وكان معاوية حجة الله عليه، ووجه ابتلاء معاوية به عليه السلام دعوته له إلى الحق وتحذيره إيّاه من عواقب المعصية حتى إذا لم يجب داعي الله لحقه الذم والعقاب وكان عليه السلام هو حجة الله عليه. وذلك معنى قوله: فجعل أحدنا حجة على الآخر.

وقوله: فعدوت. إلى قوله: قاعدكم.

إشارة إلى بعض وجوه ابتلائه عليه السلام به، ومعنى ذلك أنه إنما طلب بخروجه عليه الدنيا وجعل السبب إلى ذلك تأويل القرآن كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وغيره من الآيات الدالة على وجوب القصاص فتأولها بإدخال نفسه فيها وطلب القصاص لعثمان، وإنما كان دخوله في ذلك بالتأويل لأن الخطاب خاص بمن قتل وقتل منه. ومعاوية بمعزل عن ذلك إذ لم يكن من أولياء دم عثمان ففسر الآية بالعموم ليدخل فيها. والذي لم تجنه يده ولسانه عليه السلام هو ما نسبوه إليه عليه السلام وألب بعضهم بعضاً عليه فيه وهو قتل عثمان. وأراد ألب عليكم عالمكم بحالي جاهلكم به وقائمكم في حربي قاعدكم عنه.

ثم لما نبه على غاية الدنيا وجعل الله سبحانه كلاً منهما حجة على الآخر ليعلم أيهم أحسن عملاً رجع إلى موعظته وتحذيره فأمره بتقوى الله في نفسه أن يهلكها بعصيانه ومخالفة أمره. وأن ينازع الشيطان قياده. واستعار لفظ القياد للميول الطبيعية ووجه الاستعارة كونها زمام الإنسان إلى المعصية إذا سلّمها بيد الشيطان وانهمك بها في اللذات الموبقة. ومنازعته للشيطان مقاومته لنفسه الأمارة عن طرف الإفراط إلى حاق الوسط في الشهوة والغضب، وأن يصرف إلى الآخرة وجهه: أي يولي وجهه شطر الآخرة مطالعاً ما أُعد فيها من خير وشر وسعادة وشقاوة بعين بصيرته ليعمل بها.

وقوله: فهي طريقنا وطريقك.

صغرى ضمير نبه به على وجوب صرف وجهه إلى الآخرة، وتقدير كبراه: وكلما كان طريق الإنسان فواجب أن يصرف إليها وجهه. وجعلها طريقاً مجازاً عن غاية الطريق إطلاقاً لاسم ذي الغاية عليها. ثم حذره من الله أن يصيبه بداهية يصيب أصله ويقطع نسله، وأراد بها ما نهاه من نهوضه إليه وحربه إياه ولذلك أقسم على تقدير أن يجمعهما جوامع الأقدار أن لا يزال بباحته مقيماً حتى يحكم الله بينهما، وفي ذلك غليظ الوعد بعذاب شديد.

٥٥ - ومن كلام له عليه السلام

وَصَّى بِهَا شُرَيْحَ بْنَ هَانِيءٍ، لَمَّا جَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ إِلَى الشَّامِ

اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ، وَلا تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ، مَخَافَةَ مَكْرُوهٍ، سَمَتْ بِكَ الأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ. فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً.

أقول: قد ذكرنا طرفاً من حال إنفاذه لشريح بن هاني مع زياد ابن النضير على مقدمته بالشام في إثني عشر ألفاً. والنزوة: الوثبة. والحفيظة: الغضب. والواقم: الذي يرد الشيء أقبح الرد، يقال: وقمه: أي رده بعنف وبقهر، والوقم: القهر والإذلال، وكذلك القمع.

وقد أمره بتقوى الله دائماً، ولما كانت تستلزم الأعمال الجميلة أردف ذلك بتفصيلها وهي أن يحذر على نفسه الدنيا، ونسب الغرور إليها لأنها سبب مادي له، وأن لا يأمنها على حال لما تستلزم ذلك من الغفلة عن الآخرة. ثم أعلمه أنه إن لم يردع نفسه الأمارة بالسوء عن الانهماك في كثير من مشتهياتها التي يخاف مكروهها في العاقبة ويقف بها عند حدود الله ويسلك بها صراطه المستقيم لم يزل يسمو به هواها وميولها حتى توروه موارد الهلكة. ثم أكد وصيته بمنعها وقهرها عند نزواتها وتوثبها في الغضب. وقد عرفت أن إهمالها مبدأ كل شر يلحق في الدنيا والآخرة.

٥٦ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهْلِ الْكُوفَةِ، عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ إلى الْبَصْرَةِ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هٰذَا: إِمَّا ظَالِماً، وَإِمَّا مَظْلُوماً، وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ. وَإِنِّي أُذَكِّرُ اللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هٰذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسناً أَعَانَنِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي.

أقول: غرض الكتاب إعلام أهل الكوفة بخروجه من المدينة لقتال أهل البصرة واستنفارهم إليه، وقد مر مثل ذلك، وحيّه: قبيلته.

وقوله: إما ظالماً. إلى قوله: عليه.

من باب تجاهل العارف، ولأن القضية لم تكن بعد ظهرت لأهل الكوفة وغيرهم ليعرفوا هل هو مظلوم أو غيره. ولذلك ذكرهم لينفروا إليه فيحكموا بينه وبين خصومه فيعينوه أو يطلبوا منه العتبى وهي الرجوع إلى الحق. و -أذكر - يتعدى إلى مفعول أول هو المذكر، وثان هو المذكر به وهو الله تعالى. وقد قدمه لكونه هو المقصود من التذكير. و -لما - مشددة بمعنى إلا، ومخفّفة هي ما زائدة دخل عليها لام التأكيد: أي لينفرنّ إليّ. وبالله التوفيق.

٥٧ - ومن كتاب له عليه السلام

كَتَبَهُ إلى أَهْلِ الأَمْصَارِ، يقصّ فِيهِ ما جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ صِفِّينَ

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا الْتَقَيْنَا وَالْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ، وَدَعْوَتَنَا فِي الإِسْلامِ وَاحِدَةٌ، ولا نَسْتَزِيدُهُمْ فِي الإِيمَانِ بِاللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلا يَسْتَزِيدُونَنَا: الأَمْرُ وَاحِدٌ إِلاَّ مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ! فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لا يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ، حَتَّى يَشْتَدَّ الأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعَهُ. فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ! فَأَبَوْا حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَحَمِشَتْ. فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَإِيَّاهُمْ، وَوَضَعَتْ مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ، أَجَابُوا عِنْدَ ذٰلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا، حَتَّى اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمُ الْمَعْذِرَةُ. فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذٰلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى رَأْسِهِ.

أقول: وبدء الأمر: أوله. ويروى: بديء فعيل بمعنى مبتدأ. والنائرة: العداوة. وجنحت: مالت. وركدت: ثبتت. وحمست: اشتدت. وروي بالشين المعجمة: أي التهبت غضباً. وأنقذه: خلصه. والتمادي في الشيء: الإقامة عليه وطلب الغاية فيه. والركس: رد الشيء مقلوباً. والله أركسهم: أي ردّهم إلى عقوبة

كفرهم. والرين: التغطية. والدائرة: الهزيمة، يقال: عليهم الدائرة، ويؤكد شنعتها بالإضافة إلى السوء.

والفصل من حكاية حاله مع أهل الشام وحالهم. والقوم عطف على الضمير في التقينا وفي قوله: والظاهر إيماء إلى تهمته لهم بضد ذلك كما صرح به هو وعمّار في صفين فإنه كان يقول: والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلما وجدوا عليه أعواناً أظهروه. والواو للحال.

وقوله: لا نستزيدهم.

أي لا نطلب منهم زيادة في الإيمان لتمامه منهم في الظاهر. وقد بيّن في حكاية الحال الاتحاد الذي بينهم في الأمور المذكورة التي لا يجوز الاختلاف معها ليظهر الحجة واستثنى من ذلك ما وقع الاختلاف فيه وهي الشبهة بدم عثمان والجواب عنها إجمالاً. ثم حكى وجه الرأي الأصلح في نظام أمر الإسلام وسلامة أهله وشوره عليهم وإبائهم عن قبوله إلى الغاية المذكورة. والباء في قوله: بإطفاء النائرة متعلق بقوله: نداوي ما لا يدرك: أي ما لا يمكن تلافيه بعد وقوع الحرب ولا يستدرك من القتل وهلاك المسلمين.

وقوله: فقالوا: بل نداويه بالمكابرة.

حكاية قولهم بلسان حالهم حين دعاهم إلى نظام أمر الدين بالرجوع عمّا هم عليه فكابروه وأصرّوا على الحرب، وتجوز باسم الجنوح إطلاقاً لاسم المضاف على المضاف إليه، واستعار لفظ النيران للحركات في الحرب لمشابهتهما في استلزام الأذى والهلاك، ورشّح بذكر الوقد، وكذلك لفظ الحمس والتضريس ووضع المخالب. ثم حكى إجابتهم ورجوعهم إلى رأيه الذي رآه لهم، وذلك أنهم صبيحة ليلة الهرير حين حملوا المصاحف على الأرماح كانوا يقولون لأصحابه عليه السلام: معاشر المسلمين نحن إخوانكم في الدين الله الله في البنات والنساء. كما حكيناه أولاً. وذلك عين ما كان يذكرهم به عليه السلام من حفظ دماء المسلمين وذريتهم، وأما إجابته إلى ما دعوا فإجابته إلى تحكيم كتاب الله حين دعوا إليه وظهور الحجة عليهم برجوعهم إلى عين ما كان يدعوهم إليه من حقن الدماء، وفي ذلك انقطاع عذرهم في المطالبة بدم عثمان إذا كان سكوتهم عن دم صحابي لا حق لهم فيه أسهل من سفك دماء سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان.

وقوله: فمن تم على ذلك. أي على الرضاء بالصلح وتحكيم كتاب الله وهم أكثر أهل الشام وأكثر أصحابه عليه السلام. والذين لجوّا في التمادي فهم الخوارج الذين لجّوا في الحرب واعتزلوه عليه السلام بسبب التحكيم وكانت قلوبهم في أغشية من الشبهات الباطلة حتى صارت دائرة السوء على رؤوسهم فقتلوا إلا أقلهم.

٥٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إِلى الأَسْوَدِ بْنِ قَطِيبَةَ صَاحِبِ حُلْوَانَ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذٰلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلاَّ كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَالاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ. وَالسَّلامُ.

أقول: في الفصل لطائف.

أحدها: أنه نبهه على وجوب ترك تنويع الأهوية والإعراض عن اتباع مختلفاتها بما يستلزمه من المفسدة وهي الامتناع عن كثير من العدل، ووجه الاستلزام ظاهر لأن اتباع الأهوية المختلفة يوجب الانحراف عن حاق الوسط في المطالب، ولما نبهه على مفسدة الجور أمره ببسط العدل والتسوية بين الخلق في الحق. ثم نبه على فضيلته بضمير صغراه قوله: فإنه إلى قوله: العدل وتقديرها: فإن العدل ليس في الجور عوض عنه، وتقدير

الكبرى: وكل ما لم يكن في الجور عوض عنه فيجب لزومه واتباعه.

الثانية: لما كان اتباع مختلف الأهوية مما ينكر مثله عند وقوعه في حقه أو حق من يلزمه أمره كالأذى اللاحق له مثلاً أمره باجتنابه وأن لا يقع منه في غيره ما يكره وقوع مثله في حقه. والعبارة وافية بهذا المعنى، والغرض التنفير عنه.

الثالثة: أمره بعد ذلك أن يبذل نفسه فيما افترض الله عليه حالتي رجائه لثوابه وخوفه من عقابه لكونهما داعي العمل.

الرابعة: نبهه على أن الدنيا دار ابتلاء بالعمل كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الملك: ٢] . ولما كان العمل الصالح فيها هو سبب الاستعداد للسعادة الباقية لا جرم كان الفراغ من العمل فيها تركاً لسبب سعادة لا يحصل يوم القيامة إلا به فكان من لوازم فرغته منه في الدنيا الحسرة على ثمرته يوم القيامة.

الخامسة: نبهه على ضرورته إلى عمل الحق بأنه لا يغنيه عنه شيء غيره لأن كل ما عدا الحق باطل والباطل سبب للفقر في الآخرة فلا يفيد غنى.

السادسة: نبّهه على أن من الحقوق الواجبة عليه حفظ نفسه: أي من زلّة القدم عن الصراط المستقيم والوقوع في سواء الجحيم، ثم الاحتساب على رعيته بجهده وطاقته، والأخذ على أيديهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقدم حفظ النفس لأنه الأهم، ونبه على وجوب الأمرين بقوله: فإن الذي إلى آخره وأراد أن الذي يصل إلى نفسك من الكمالات والثواب اللازم عنها في الآخرة بسبب لزومك للأمرين المذكورين أفضل مما يصل بعدلك وإحسانك إلى الخلق من النفع ودفع الضرر، وبالله التوفيق.

٥٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى العُمَّالِ الَّذِينَ يَطَأُ الْجَيْشُ عَمَلَهُمْ

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلادِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الأَذَى، وَصَرْفِ الشَّذَى. وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ، إِلاَّ مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ، لا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَباً إِلَى شِبَعِهِ. فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُم شَيْئاً ظُلْماً عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَارَّتِهِمْ، وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا اسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ. وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَا لا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلاَّ بِاللهِ وَبِي، فَأَنَا أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: الشذى: الأذى. ومعرّة الجيش: المضرة الواصلة منه، وعرّه معرّه: أي ساءه. ونكل ينكل بالضم: جبن. ونكّلوا: خوّفوا، وجبّنوا. وعراه الأمر: غشيه.

وحاصل الكتاب إعلام من على طريق الجيش من الجباة وعمّال البلاد بمسيره عليهم ليتنبّهوا ويحترزوا منه، ثم وصية الجيش بما ينبغي لهم ويجب لله عليهم من كف الأذى عمن يمرّون به ليعرفوا عموم عدله ويتأدبوا بآدابه، ثم إعلامهم أنه بريء إليهم وإلى ذمتهم التي أخذها منهم من إساءة الجيش فإنه ليس بأمره من ذلك إلا معرفة جوعة المضطر التي لا يجد عنها إلى شبعه مذهباً. وتقدير الكلام: فإني أبرأ إليكم من معرة الجيش إلا من معرة جوعة المضطر منهم فأقام المضاف إليه مقام المضاف أو أطلقه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب. ثم أمرهم أن يخوفوا ويجبّنوا من تناول من الجيش شيئاً عن ظلمه ويدفعوه الدفع الممكن لهم لئلا يكون بسطوتهم خراب الأعمال، ثم أن يكفوا أيدي سفهائهم عن مضارتهم والتعرض لهم فيما استثناه من المعرة الضرورية لئلا يثور بذلك الفتنة بينهم وبين الجيش. ثم أعلمهم أنه بين أظهر الجيش كناية عن كونه مرجع أمرهم ليدفعوا إليه مظالمهم وما غشيهم من أمر يغلب عليهم من الجيش لا يطيقون دفعه إلا بالله وبه فيغيّره بمعونة الله وخشيته.

٦٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى (كميل بن زياد النخعي)، وهو عاملة على (هيت)، ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالباً الغارة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ. وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قَرْقِيسِيَا وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا، وَلا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأْيٌ شَعَاعٌ. فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ، وَلا مَهِيبِ الْجَانِبِ، وَلا سَادٍّ ثُغْرَةً، وَلا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً، وَلا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ، وَلا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ. وَالسَّلامُ.

أقول: المتبّر: الهالك والفاسد. والشعاع: المتفرق.

وقوله: أما بعد. إلى قوله: متبّر.

اعلم أن في صدر الكتاب إجمالاً كما جرت عادة الخطيب ما يريد أن يوبخه عليه من تعاطيه أمراً مع إهماله ما هو أهم منه. ثم ذكر غرضه من الكتاب مفصلاً بقوله: وإن تعاطيك. إلى قوله: شعاع. ثم نفره عن ذلك الرأي بما فيه من المفاسد والرذائل:

أحدهما: كونه جسراً. واستعار لفظ الجسر له باعتبار عبور العدو عليه إلى غرضه، وروي: حسراً. وهو أيضاً مجاز باعتبار خلو مسالحه عن العسكر الذي يبغي به العدو فهو كالحاسر عديم اللامة.

الثاني: كونه غير شديد المنكب، وكنّى بذلك عن ضعفه، وكذلك كونه غير مهيب الجانب.

الثالث: كونه غير ساد ثغرة.

الرابع: ولا كاسر شوكة عدوه.

والخامس: ولا مجز عن أميره فيما يريده منه.

٦١ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل مصر، مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ. فَلَمَّا مَضَى عَلَيْهِ السَّلامُ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ. فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي، وَلا يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هٰذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ! فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلائِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ.

ومنه: إِنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلاعُ الأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلا اسْتَوْحَشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي. وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ، وَلٰكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً، فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي قَدْ شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ، وَجُلِدَ حَدّاً فِي الإِسْلامِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الإِسْلامِ الرَّضَائِخُ،

فَلَوْلا ذٰلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ.

أَلا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى، وَإِلَى بِلادِكُمْ تُغْزَى! انْفِرُوا - رَحِمَكُمُ الله - إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَلا تَثَّاقَلُوا إِلَى الأَرْضِ فَتَقِرُّوا بِالْخَسْفِ، وَتَبُوؤوا بِالذُّلِّ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الأَخَسَّ، وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الأَرِقُ، وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ. وَالسَّلامُ.

أقول: المهيمن: الشاهد. والروع: القلب. والانثيال: الانصباب. وراح: ذهب. وزهق: زال واضحلّ. وتنهنه: اتسع. وطلاع الأرض: ملاؤها. وآسى: أحزن. والدولة في المال - بالضم -: أن يكون مرة لهذا ومرة لذلك. والخول: العبيد. والرضخ؛ الرشوة، وأصله الرمي. والتأليب: التحريض. والتأنيب: اللوم. والونى: الضعف. وتزوى: تقبض. وتبوؤوا: ترجعوا. والخسف: النقيصة.

وصدره باقتصاص حال النبي صلى الله عليه وآله باعتبار كونه نذيراً للعالمين بعقاب أليم، وشاهداً على المرسلين بكونهم مبعوثين ومصدقاً لهم في ذلك. ثم اقتصاص حال المسلمين بعده في تنازع أمر الخلافة متدرجاً من ذلك إلى شرح حاله معهم في معرض الشكاية من إزاحة أمر الخلافة عنه مع كونه أحق بها وانصبابهم على بيعة فلان - وهو كناية عن أبي بكر - وإمساك يده عن القيام في ذلك والطلب للأمر إلى غاية ارتداد الناس في زمن أبي بكر عن الإسلام وطمعهم في محق الدين. ثم شرح حاله من الخوف على الإسلام وأهله أن ينثلم أو ينهدم فتكون المصيبة عليه في هدم أصل الدين أعظم من فوت الولاية القصيرة الأمد التي غايتها إصلاح فروع الدين ومتمّماته. وشبه زوالها بزوال السراب وتقشع الحساب، ووجه الشبه سرعة الزوال وكونها لا أصل لثباتها كما لا ثبات لحقيقة السراب ووجود السحاب، وقدم ذكر الارتداد لغرض بيان فضيلته في الإسلام، ولذلك عقبه باقتصاص حال نهوضه في تلك الأحداث التي وقعت من العرب إلى غاية زهوق الباطل واستقرار الدين وانتشاره. ثم أقسم أنه لو لقيهم وحده وهم ملء الأرض لم يكترث بهم ولم يستوحش منهم لأمرين:

أحدهما: علمه اليقين بأنهم على الضلال وأنه على الهدى.

الثاني: اشتياقه إلى لقاء ربه وانتظاره ورجاؤه لثوابه.

وهما يجريان مجرى ضميرين تقدير كبراهما: وكل من كان كذلك فلا يباليهم ولا يستوحش منهم.

وقوله: ولكنني آسى.

يجري مجرى جواب سؤال مقدر كأنه قيل: فإذا كنت تعلم أنك وإياهم على الحالين المذكورين فلم تحزن من فعلهم؟ فكأنه قال: إني لا أحزن من لقائهم وحربهم ولكن أحزن أن تلي أُمَّة محمد سفهاؤها وفجّارها. إلى قوله: حرباً، وعنى بالسفهاء بني أمية وأشياعهم. ثم نبه على أنهم مظنة أن يفعلوا ذلك لو ولّوا هذا الأمر بقوله: فإنّ منهم.

إلى قوله: الرضائخ. والذي شرب منهم في المسلمين الحرام إشارة إلى المغيرة بن شعبة لما شرب الخمرة في عهد عمر حين كان والياً من قبله على الكوفة فصلّى بالناس سكران وزاد في الركعات وقاء الخمر فشهدوا عليه وجلد الحد، وكذلك عنبسة [عتبة] ابن أبي سفيان جلده في الخمر خالد ابن عبيد الله بالطائف، والذي لم يسلم حتى رضخت له الرضائخ قيل: هو أبو سفيان وابنه معاوية وذلك أنهما كانا من المؤلفة قلوبهم الذين يستمالون إلى الدين وجهاد عدوه بالعطاء. وقيل: هو عمرو بن العاص ولم يشتهر عنه مثل ذلك إلاّ ما حكاه عليه السلام عنه من اشتراطه على معاوية طعمة مصر في مساعدته بصفين. كما مرّ ذكره. ثم نبههم على أن ما ذكره من الأسى هو السبب التام لتوبيخهم وتحريضهم على الجهاد، ولولا ذلك لتركهم إذ أبوا وضعفوا. ثم نبههم على فعل عدوّهم بهم وافتتاحه لأمصارهم وغرورهم ليستثير بذلك حمية طباعهم. ولذلك أمرهم بعده بالنفور إلى قتال عدوهم، ونهاهم عن التثاقل في ذلك ونفّرهم عنه بما يلزمه من الإقرار بالخسف والرجوع إلى الذل وخسة النصيب. ثم نبههم على من يكون أهلاً للحرب وهو الأرق، وكنّى به عن كبير الهمة. إذ كان من

لوازمه قلة النوم ونفرهم عن ضعف الهمة والتواني في الجهاد بما يلزم ذلك من طمع العدو فيهم بسكوتهم عنه، والرقدة عن مقاومته.

٦٢ - ومن كتاب له عليه السلام

إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْكُوفَةِ، وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْهُ تَثْبِيطُهُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ لَمَّا نَدَبَهُمْ لِحَرْبِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ.

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولِي عَلَيْكَ فَارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ، وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ! وَايْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ حَيْثُ أَنْتَ، وَلا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو، وَلٰكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَيُذَلَّلُ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا. فَاعْقِلْ عَقْلَكَ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ. فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ وَلا فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ، حَتَّى لا يُقَالَ: أَيْنَ فُلانٌ؟ وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ، وَمَا أُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلامُ.

أقول: روي عن أبي موسى أنه كان حين مسير علي عليه السلام إلى البصرة واستنفاره لأهل الكوفة إلى نصرته يثبط الناس عنه ويقول: إنها فتنة فلا يجوز القيام فيها، ويروي عن النبي صلى الله عليه وآله أخباراً تتضمن وجوب القعود عن الفتنة والاعتزال فيها. فكتب إليه مع ابنه الحسن عليه السلام هذا الكتاب. والقول الذي بلغه عنه هو نهي الناس وتثبيطهم عن النهوض إليه، وذلك قول هو له باعتبار ظاهر الدين ونهيه عن الخوض في الفتن، وهو عليه من وجوه:

الأول: كان معلوماً من همه أنه لم يقصد بذلك إلاّ قعود الناس عنه، وفهم منه ذلك. وهو خذلان للدين في الحقيقة وهو عائد عليه بمضرة العقوبة منه عليه السلام ومن الله تعالى في الآخرة.

الثاني: أنه لما كان عليه السلام على الحق في حربه كان تثبيط أبي موسى عنه جهلاً بحاله وما يجب من نصرته والقول بالجهل عائد إلى القائل بالمضرة.

الثالث: أنه في ذلك القول مناقض لغرضه لأنه نهى عن الدخول مع الناس ومشاركتهم في زمن الفتنة وروى خبراً يقتضي أنه يجب القعود عنهم حينئذ مع أنه كان أميراً بتهافت على الولاية، وذلك متناقض فكان عليه لا له.

ثم أمره عند قدوم رسوله عليه بأوامر على سبيل الوعيد والتهديد:

أحدها: أن يرفع ذيله ويشدّ مئزره. وهما كنايتان عن الاستعداد للقيام بواجب أمره والمسارعة إلى ذلك.

الثاني: أن يخرج من جحره. وأراد خروجه من الكوفة. واستعار له لفظ الجحر ملاحظة لشبهه بالثعلب ونحوه.

الثالث: أن يندب: أي يبعث من معه من العسكر ويدعوهم إلى الخروج.

وقوله: فإن حققت.

أي عرفت حقيقة أمري وأني على الحق فانفذ: أي فامض فيما آمرك به، وإن تفشلت: أي جبنت وضعفت عن هذا الأمر ومعرفته فاقعد عنه. ثم توعّده على تقدير قعوده وأقسم ليأتينّه بالمكان الذي هو به من لا يتركه حتى يخلط زبده بخاثره وذائبه بجامده، وهما مثلان كنى بهما عن خلط أحواله الصافية بالتكدير كعزّته بذلته وسروره بغمه وسهولة أمره بصعوبته، وحتى يعجله عن قعدته وهي هيئة قعوده وأراد غاية الإعجال، وحتى يكون حذره من أمامه كحذره من خلفه. وهو كناية عن غاية الخوف. وإنما جعل الحذر من الخلف أصلاً في التشبيه لكون الإنسان من ورائه أشد خوفاً. وقيل: أراد حتى يخاف من الدنيا كما يخاف من الآخرة.

وقوله: وما هي بالهوينا.

أي وما القصة المعهودة لك بالهيّنة السهلة التي ترجو أن تكون فيها على اختيارك ولكنها الداهية الكبرى من دواهي الدهر ومصائبه.

وقوله: يركب جملها. أي يركب فيها، ويذلّ صعبها: أي يسهل الأمور الصعاب فيها. وهو كناية عن شدتها وصعوبتها.

ثم أردف وعيده وتحذيره بنصيحته وأمره بأوامر:

أحدها: أن يعقل عقله. وعقله يحتمل النصب على المصدر وهو أمر له أن يراجع عقله ويعتبر هذه الحال العظيمة دون هواه. وقيل: هو مفعول به: أي اضبط عقلك واحبسه على معرفة الحق من الباطل ولا تفرقه فيما لا ينبغي.

الثاني: أن يملك أمره: أي شأنه وطريقته، ويصرفها على قانون العدل والحق دون الباطل.

الثالث: أن يأخذ نصيبه وحظه من طاعته والقيام بأمره في نصرته والذب عن دين الله. وقيل: أراد خذ ما قسّم لك من الحظ ولا تتجاوز إلى ما ليس لك.

ثم أردف ذلك بأمره بالتنحي عن الولاية على تقدير كراهته لما ذكر وعدم امتثاله لما أمر.

وقوله: فبالحريّ لتكفينّ.

أي فما أحذر أن يكفى هذه المؤونة وأنت نائم عن طاعة الله حتى لا يفتقد ولا يسأل عنك لعدم المبالاة بك. ثم أقسم أنه لحق: أي الأمر المعهود الذي فعله من حربه بالبصرة، مع محق: أي صاحب محق لما يدعيه، عالم به، لا يكترث بما صنع الملحدون في دين الله من مخالفته لمعرفته أنه على الحقّ دونهم.

٦٣ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية، جواباً

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلاَّ كُرْهاً، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الإِسْلامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ حِزْباً.

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ! وَذٰلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ فَلا عَلَيْكَ، وَلا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ..

ذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ
بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِيَ السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ. وَإِنَّكَ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ الأَغْلَفُ الْقَلْبِ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ، وَالأَوْلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ: إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لا لَكَ، لأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلا فِي مَعْدِنِهِ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!! وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ، وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ، عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً، بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلا مِنْهَا الْوَغَى، وَلَمْ تُمَاشِهَا الْهُوَيْنَا.

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ، وَالسَّلامُ لأَهْلِهِ.

أقول: أنف الإسلام: أوله. والتشريد: الإبعاد. واسترفه: أي نفّس عنك من الرفاهية وهي السعة.

والأغوار: المنخفضة من الأرض. وأغصصت السيف بفلان: أي جعلته يغص به وهو من المغلوب لأن المضروب هو الذي يغص بالسيف: أي لا يكاد يسيغه. ويروى بالضاد المعجمة: أي جعلته عاضاً لهم. والمقارب - بالكسر -: الذي ليس بالتمام.

وقد كان معاوية كتب إليه عليه السلام يذكره ما كانوا عليه قديماً من الألفة والجماعة، وينسب إليه بعد ذلك قتل طلحة والزبير والتشريد بعائشة ويتوعده بالحرب ويطلب منه قتلة عثمان. فأجابه عليه السلام عن كل من ذلك بجواب:

أما الأول: فسلّم دعواه من القدر المشترك بينهم وهو الألفة والجماعة قبل الإسلام ولكنه ذكر الفارق وهو من وجوه:

أحدها: أنه عليه السلام في أول الإسلام آمن في جملة من أهل بيته، ومعاوية وأهل بيته حينئذ كانوا كفّاراً.

الثاني: أنه عليه السلام وأهل بيته في آخر الأمر لم يزالوا مستقيمين على الدين ومعاوية وأهل بيته مفتونين جاهلين بفتنتهم.

الثالث: أن من أسلم من أهل بيته أسلم طوعاً، ومسلم أهل معاوية لم يسلم إلاّ كرهاً بعد أن اشتد الإسلام وصار للرسول صلى الله عليه وآله حزب قوي من أشراف العرب، واستعار لفظ أنف الإسلام لهم باعتبار كونهم أعزاء أهله. وممن أسلم كرهاً أبو سفيان، وذلك أنه لما انتهى [أتى خ] رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكة في غزوة الفتح أتى ليلاً فنزل بالبطحاء، وما حولها فخرج العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يدوّر حول مكة في طلب من يبعثه إلى قريش ليخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويعتذروا إليه فلقي أبا سفيان فقال له: كن رديفي لتمضي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ونأخذ الأمان لك منه.

فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله عرض عليه الإسلام فأبى. فقال عمر: إئذن لي يا رسول الله لأضرب عنقه. وكان العباس يحامي عنه للقرابة فقال: يا رسول الله إنه يسلم غداً. فلما جاء الغد دخل به على رسول الله صلى الله عليه وآله فعرض عليه الإسلام فأبى فقال له العباس في السر: يا أبا سفيان اشهد أن لا إله إلاّ الله واشهد أن محمداً رسول الله وإن لم يكن ذلك في قلبك فإنه يأمر الآن بقتلك إن لم تقل. فشهد الشهادتين على كره لخوف القتل وقد رأى أكثر من عشرة آلاف رجل حول رسول الله صلى الله عليه وآله قد تحزّبوا معه واجتمعوا إليه. فذلك معنى قوله: أما بعد. إلى قوله: حزباً.

الثاني: ما ادعاه عليه من قتل طلحة والزبير وتشريد عائشة، والنزول بين المصرين البصرة والكوفة؛ فأجاب عنه بقوله: وذلك. إلى قوله: إليك وهو في قوة ضمير تقديره كبراه: وكل من غاب من أمر ولم يكن فيه مدخل فليس تكليفه عليه ولا العذر من التقصير والتفريط فيه إليه.

الثالث: ما توعده به من زيارته في المهاجرين والأنصار؛ فأجابه بوجهين:

أحدهما: أنه أوهم في كلامه أنه من المهاجرين فأكذبه بقوله: وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أبوك: أي حين الفتح، وذلك أن معاوية وأباه وجماعة من أهله إنما أظهروا الإسلام بعد الفتح وقد قال صلى الله عليه وآله: لا هجرة بعد الفتح فلا يصدق عليهم إذن اسم المهاجرين. وسمّى عليه السلام أخذ العباس لأبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله غير مختار وعرضه على القتل أسراً.

وروي يوم أسر أخوك. وقد كان أسر أخوه عمرو بن أبي سفيان يوم بدر. فعلى هذه الرواية يكون الكلام في معرض التذكرة له بأن من شأنه وشأن أهله أن يؤسروا أوّلاً فيسلموا فكيف يدعون مع ذلك كالهجرة فإن الهجرة بهذا الاعتبار منقطعة عنهم. ولا يكون - يوم أسر - ظرفاً لانقطاع الهجرة لأن الهجرة انقطعت بعد الفتح.

الثاني: مقابلة وعيده بوعيد مثله وهو قوله: فإن كان. إلى قوله: مقام واحد. وأراد إن كنت مستعجلاً في مسيرك إلي فاطلب الرفاهية على نفسك في ذلك فإنك إنما تستعجل إلى ما يضرّك، ونبه على ذلك بقوله: فإني. إلى قوله: واحد، وهو في قوة صغرى ضمير ووجه التمثيل بالبيت أنّه شبه استقبال معاوية في جمعه باستقبالهم رياح الصيف، وشبه نفسه برياح الصيف وجعل وجه المشابهة كونه عليه السلام يضرب وجوههم في الحرب بالسيوف والرماح كما تضرب رياح الصيف

وجوه مستقبليها بالحصباء، وقد بيّنا أنه عليه السلام قتل جد معاوية وهو عتبة، وخاله الوليد بن عتبة، وأخاه حنظلة ابن أبي سفيان. وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فمن الواجب أن يحذر منه ولا يتوعد بحرب وقتال.

وقوله: وإنك والله. إلى قوله: الهوينا.

توبيخ مشوب بتهديد، وما في قوله: وما علمت. موصولة، واستعار لفظ الأغلف لقلبه، ووجه الاستعارة أنه محجوب بالهيئات البدنية وأغشية الباطل عن قبول الحق وفهمه فكأنه في غلاف منها، ووصف المقاربة في عقله لاختياره الباطل. ثم أعلمه على سبيل التوبيخ بما الأولى أن يقال في حاله. واستعار لفظ السلّم للأحوال التي ركبها والمنزلة التي طلبها، ورشّح بذكر الارتقاء والاطلاع. المطلع مصدر، ويجوز أن يكون اسم الموضع واحتج لصحة قوله بقوله: لأنك. إلى قوله: معدنه، واستعار الضالة والسائمة لمرتبته التي ينبغي له أن يطلبها ويقف عندها. وما هو غيرها هو أمر الخلافة. إذ ليس من أهلها. ورشح بذكر النشيد والوعي. ثم تعجّب من بعدما بيّن قوله وفعله وذلك أن مدار قوله في الظاهر على طلب قتلة عثمان وإنكار المنكر كما ادّعاه، ومدار فعله وحركاته على التغليب في الملك والبغي على الامام العادل وشتان ما هما. ثم حكم بقرب شبهه بأعمامه وأخواله. وما مصدرية والمصدر مبتدأ خبره قريب. فمن أهل الشقاوة من جهة عمومته حمّالة الحطب ومن جهة خؤولته الوليد بن عتبة.

وإنما أنكر الأعمام والأخوال لأنه لم يكن له أعمام وأخوال كثيرون والجمع المنكر جاز أن يعبر به عن الواحد والإثنين للمبالغة مجازاً في معرض الشناعة، ولا كذلك الجمع المعرّف، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: حملتهم. إلى قوله: الهوينا. وموضع قوله: حملتهم. الجر صفة لأخوال وأراد الشقاوة المكتوبة عليهم في الدنيا والآخرة التي استعدوا لها بجحود محمد صلى الله عليه وآله وتمني الباطل هو ما كانوا يتمنّونه ويبذلون أنفسهم وأموالهم فيه من قهر الرسول صلى الله عليه وآله وإطفاء نور النبوة وإقامة أمر الشرك.

وقوله: بوقع. متعلق بقوله: فصرعوا. وما خلا صفة لسيوف. ولفظ المماشاة مستعار. والمراد أن تلك السيوف لم يلحق ضربها ووقعها هون ولا سهولة ولم يجر معها. وروي لم يماسها بالسين المهمة من المماسة: أي لم يخالطها شيء من ذلك.

الرابع: طلبه لقتلة عثمان وأجابه بقوله: فادخل. إلى آخره، وأراد فيما دخل فيه الناس من الطاعة والبيعة. وصدق الجواب ظاهر لأنه لا بد للمتحاكمين من حاكم وهو عليه السلام يومئذ الحاكم الحق فليس لمعاوية أن يطلب منه إذن قوماً منهم المهاجرون والأنصار وليسلّمهم إليه حتى يقتلهم من غير محاكمة. بل يجب أن يدخل في طاعته ويجري عليه أحكامه ليحاكم القوم إليه فإمّا له وإما عليه.

وقوله: وأما تلك التي تريد:

أي الخدعة عن الشام لغرض إقراره إلى إمارتها. ووجه مشابهتها بخدعة الصبي ضعفها وظهور كونها خدعة لكل أحد. وإنما قال: والسلام لأهله. لأن معاوية لم يكن في نظره من أهله. وبالله التوفيق.

٦٤ - ومن كتاب له عليه السلام

إِلَيْهِ أَيْضاً

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الأُمُورِ، فَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلاَفِكَ بِادِّعَائِكَ الأَبَاطِيلَ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالأَكَاذِيبِ، وَبِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلا عَنْكَ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا اخْتُزِنَ دُونَكَ، فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ، وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ، وَمُلِيءَ بِهِ صَدْرُكَ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ الْمُبِينُ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلاَّ اللَّبْسُ؟ فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلاَبِيبَهَا، وَأَغْشَتِ الأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا.

وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا مِنْكَ

عِلْمٌ وَلا حِلْمٌ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ، وَالْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ، نَازِحَةِ الأَعْلاَمِ. تَقْصُرُ دُونَهَا الأَنُوقُ وَيُحَاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ.

وَحَاشَ للهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدِي صَدْراً أَوْ وِرْداً، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْداً أَوْ عَهْداً!! فَمِنَ الآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ، وَانْظُرْ لَهَا، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الأُمُورُ، وَمُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ، وَالسَّلاَمُ.

أقول: المدارج: المسالك والمذاهب جمع مدرجة. والإقحام: الدخول في الشيء بسرعة من غير روية. وانتحل الكلام: ادعاه لنفسه وليس له. والابتزاز: الاستلاب. وأغدفت المرأة جلبابها: أرسلته على وجهها. والتفنّن: التخليط والتنويع. والأساطير: الأباطيل جمع أسطورة بالضم وإسطارة بالكسر. والدهاس: المكان السهل اللّين دون الرمل. والديماس: المكان شديد الظلمة، وكالسراب ونحوه. والمرقبة: موضع مشرف يرتفع عليه الراصد، والأنوق: الرخمة. والعيوق: نجم معروف. وتنهد: تنهض. وأرتجت: أغلقت.

والكتاب جواب أيضاً.

فقوله: أما بعد. إلى قوله: الأمور.

تنبيه له على وجوب الاتعاظ والانزجار عن دعوى ما ليس له. والمراد أنه قد حضر وقت انتفاعك من عيان الأمور ومشاهدتها بلمحك الباصر. ولفظ اللمح مستعار لدرك الأمور النافعة بخفة وسرعة، وروي عيون الأمور: أي أنفسها وحقائقها التي هي موارد اللمح والاعتبار، ووصفه بالباصر مبالغة في الإبصار مبالغة في الإبصار كقولهم: ليل أليل.

وقوله: فقد سلكت. إلى قوله: اللبس.

إشارة إلى سبب حاجته إلى التنبيه المذكور وهو سلوكه طرائق أسلافه بالأمور الأربعة المذكورة فادّعاؤه الأباطيل ادّعاؤه ما ليس له بحق حقاً من دم عثمان وطلحة والزبير وغير ذلك، واقتحامه لغرور الأكاذيب دخوله في الغفلة عن سوء عاقبتها. وأكاذيبه في دعاويه ظاهرة. وما قد علا عنه هو أمر الخلافة، وما اختزن دونه فابتزّه هو مال المسلمين وبلادهم التي يغلب عليها. وأراد أنه اختزن بالاستحقاق من الله. وفراراً وجحوداً مصدران سدّا مسدّ الحال، وما هو ألزم له من لحمه ودمه مما قد وعاه سمعه عن رسول الله ﷺ وامتلأ به صدره علماً في مواطن كغدير خم وغيره، هو وجوب طاعته، وإنما كان ألزم له من لحمه ودمه لأنهما دائماً في التغيّر والتبدل ووجوب طاعته أمر لازم لنفسه لا يجوز تغيّره وتبدله، وتجوز بلفظ الصدر في القلب إطلاقاً لاسم المتعلق على المتعلّق، وأشار بالآية إلى أن الحق الذي علمته لي ليس وراءه لمن تعدّاه إلاّ الضلال والهلاك لأن الحق حدّ من تجاوزه وقع في أحد طرفي الإفراط والتفريط، وكذلك ليس بعد البيان الذي بيّن لك في أمري إلاّ اللبس.

ثم حذره الشبهة واشتمالها على لبستها. والشبهة دم عثمان. ولفظ اللبسة مستعار للداخلين فيها ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه، وعلل تحذيره إياه ووجوب وقوفه دونها بقوله: فإنّ الفتنة. إلى قوله: ظلمتها. وهو صغرى ضمير. واستعار لفظ الجلابيب لأمورها المغطية لبصائر أهلها عن الحق كما لا تبصر المرأة عند إرسال جلبابها على وجهها. وكذلك استعار لفظ الظلمة باعتبار التباس الأمور فيها وعدم الإهتداء إلى الحق كالظلمة التي لا يهتدى فيها، ورشح بذكر الإغداف والإعشاء. ثم شرع في أحوال كتابه فبدأ بذمه. ولما كان مداره على اللفظ والمعنى أشار إلى ذم اللفظ بأنه ذو أفانين من القول: أي أنه أقوال ملفّقة لا يناسب بعضها بعضاً.

وقوله: ضعفت قواها عن السلم.

أي ليس لها قوة أن يوجب صلحاً. وأشار إلى ذم المعنى بأنه أباطيل غير محكمة النسج لا من جهة العلم إذ لا علم له ولا من جهة الحلم لأن الكتاب كان فيه خشونة وتهوّر، وذلك ينافي الحلم وينافي غرضه من الصلح. ولفظ الحوك مستعار لسبك الكلام.

وقوله: أصبحت منها.

صفة لأساطير، ووجه شبهه بالخائض والخابط ضلاله وعدم هدايته إلى وجه الحق كما لا يهتدي خائض الدهاس، وخابط الديماس فيهما. ثم شرع في جوابه وكان مقصوده في كتابه أن ينص عليه بالخلافة بعده ليبايعه فوبخه أولاً على طلبه أمراً ليس من أهله بقوله: وترقيت. إلى قوله: العيوق. ولفظ المرقبة مستعار لأمر الخلافة. ورشح بلفظ الترقي والأوصاف الأربعة بعدها لأنها من شأن المرقبة التامة.

وإنما خصّ الأنوق لأنها تقصد الأماكن العالية الصعبة من رؤوس الجبال فتبني أوكارها هناك. ثم صرفه عن المطلوب بتنزيه الله سبحانه أن يلي من بعده للمسلمين خروجاً أو دخولاً في أمر من أمورهم، أو أن يجري على أحد منهم له عقداً أو عهداً. والعقد كالنكاح والبيوع والإجارة، والعهد كالبيعة والأمان واليمين والذمة: أي لا يمكنه من ذلك، ولما آيسه من المطلوب أمره بتدارك نفسه بالنظر لها فيما هو مصلحتها من طاعته، وتوعده على تقصيره في ذلك بما يلزم تقصيره من نهوض عباد الله إليه وانغلاق الأمور حينئذ ومنعه العذر الذي هو منه الآن مقبول. وبالله التوفيق.

٦٥ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبدِ اللهِ بن العباس، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، فَلا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ، وَلٰكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ. وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ، وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

أقول: قد سبق شرحه إلاّ كلمات يسيرة فيه:

منها: أنه نبهه على لزوم فضيلتي العفة والحلم بالنهي عن أن يجعل بلوغ لذته من دنياه أو شفاء غيظه اللذين هما طرفا الإفراط والتفريط من الفضيلتين المذكورتين أفضل ما نال منها في نفسه. ثم نبهه على ما ينبغي أن يكون أفضل في نفسه من دنياه وهو إطفاء الباطل وإحياء الحق. وإطفاء الباطل تنبيه على وجه استعمال قوتي الشهوة والغضب وهو أن يكون الغرض من فعلها دفع الضرورة وبقدر الحاجة.

ومنها: أنه أمره في الرواية الأولى أن يكون فرحه بما نال من آخرته، وأمره هنا أن يكون سروره بما قدم لنفسه من زاد التقوى وهو أمر بمقدمة الآخرة. وأمره في الرواية الأولى أن يكون أسفه على ما فات من آخرته، وأمره هنا أن يكون أسفه على ما خلّف: أي ترك من العلم. وبالله التوفيق.

٦٦ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكة

أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ، وَذَاكِرِ الْعَالِمَ. وَلا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلاَّ لِسَانُكَ، وَلا حَاجِبٌ إِلاَّ وَجْهُكَ. وَلا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا.

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَةِ وَالْخَلاَّتِ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا.

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ لا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ. وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ، وَالسَّلاَمُ.

أقول: ذيدت: ردّت. والخلّة: الحاجة.

وفيه مقاصد:

أحدها: أمره بإقامة الحج للناس. وإقامته القيام بأعماله، وتعليم الجاهلين كيفيته، وجمعهم عليه.

الثاني: أن يذكرهم بأيام الله: أي عقوباته التي وقعت بمن سلف من المستحقين لها كي يحترزوا بطاعته من أمثالها. وعبّر عنها بالأيام مجازاً إطلاقاً لاسم المتعلق على المتعلّق.

الثالث: أن يجلس لهم العصرين: أي الغداة والعشي لكونهما أطيب الأوقات بالحجاز، وأشار إلى أعظم فوائد جلوسه في الوقتين وهي فائدة العلم، وحصره وجوه حاجة أهلها إليها وأمره بسد تلك الوجوه، بيان الحصر أن الناس إما غير عالم أو عالم، وغير العالم إما مقلد أو متعلّم طالب، والعالم إما هو أو غيره. فهذه أقسام أربعة. فوجه حاجة القسم الأول وهو الجاهل المقلّد أن يستفتي فأمره أن يفتيه ووجه حاجة الثاني، وهو المتعلّم الجاهل أن يتعلم فأمره أن يعلّمه، ووجه حاجة الثالث هو مع الرابع وهو العالم أن يتذاكرا فأمره بالمذاكرة له.

الرابع: نهاه أن يجعل له إلى الناس سفيراً يعبر عنه إلاّ لسانه، ولا حاجباً إلاّ وجهه لأن ذلك مظنة الكبر والجهل بأحوال الناس التي يجب على الوالي الإحاطة بها بقدر الإمكان. وإلاّ للحصر وما بعدها خبر كان.

الخامس: نهاه أن يحجب أحداً عن لقائه، بحاجته مؤكداً لما سبق، ورغبه في ملاقاة ذي الحاجة بضمير صغراه قوله: فإنها إلى قوله: قضائها: أي لم تحمد فيما بعد وإن قضيتها له، وتقدير الكبرى: وكل أمر كان كذلك فلا ينبغي أن يحجب صاحبه عن لقائك به ويذاد عن أبوابك في أول ورده.

السادس: أمره أن يعتبر مال بيت المسلمين ويصرفه في مصارفه متوخّياً بذلك الأحوج فالأحوج ويحمل الباقي إليه. ومصيباً حال. وروي: مواضع المفاقر. والإضافة لتغاير اللفظين.

السابع: أمره بنهي أهل مكة عن أخذ الأجرة ممن يسكن بيوتهم واحتج لذلك بالآية مفسراً لها، وهي صغرى ضمير. وتقدير كبراه: وكلما قال الله فيه ذلك لم يجز مخالفته. ثم ختم بالدعاء لنفسه وله أن يوفقهما لمحابه. وبالله التوفيق لذلك.

٦٧ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى سلمان الفارسي رحمه الله، قبل أيام خلافته

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ: لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سُمُّهَا، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا، وَكُنْ آنَسَ ما تَكُونُ بِهَا، أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ! وَالسَّلاَمُ.

أقول: أشخصته: أذهبته.

ومدار الفصل على الموعظة وذم الدنيا، وضرب لها مثلاً، وذكر من وجوه الشبه من جانب الممثل به أمرين:

أحدهما: ليّن المس وتماثله من جانب الدنيا رفاهية العيش ولذاته.

والثاني: قتل سمها ويماثله من الدنيا هلاك المنهمكين في لذاتها يوم القيامة ثم أمره في مقامه بها بأوامر:

أحدها: أن يعرض عما يعجبه منها. وعلل وجوب إعراضه بقوله: لقلة ما يصحبك منها، وهي صغرى ضمير تقديرها: ما يصحبك منها قليل، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فينبغي أن يعرض عنه.

الثاني: أن يضع عنه هموم طلبها، وعلل وجوب ذلك بضمير صغراه قوله: لما أيقنت من فراقها: أي لأنك متيقن لفراقها. وتقدير كبراه: وكلما تيقّنت فراقه فواجب أن تضع همك عن طلبه.

الثالث: أن يكون آنس ما يكون بها أحذر ما يكون منها. وما مصدريّة، وآنس ينصب على الحال، وأحذر خبر كان: أي في حال كونك آنس بها كن أحذر ما تكون منها. والغرض أن يحذر منها بقدر جهده ولا يأنس بها. وعلّل وجوب الحذر منها بقوله: فإن صاحبها. إلى

آخره. وهو صغرى ضمير تقديرها: فإنها كلما اطمأن صاحبها فيها. إلى آخره. وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر صاحبه منه ولا يأنس إليه ينتج فالدنيا يجب أن يحذر صاحبها منها.

٦٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى الحارث الهمداني

وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَانْتَصِحْهُ، وَأَحِلَّ حَلاَلَهُ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ، وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً، وَآخِرَهَا لاَحِقٌ بِأَوَّلِهَا! وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ. وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلاَّ عَلَى حَقٍّ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلاَّ بِشَرْطٍ وَثِيقٍ. وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوِ اعْتَذَرَ مِنْهُ. وَلا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْلِ، وَلا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً. وَلا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلاً. وَاكْظِمِ الْغَيْظَ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ، تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ. وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ، وَلا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ. وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ، وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ. وَاسْكُنِ الأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ. وَاقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ. وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الأَسْوَاقِ، فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ، وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ. وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ، وَلا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلاَةَ إِلاَّ فَاصِلاً فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ. وَأَطِعِ اللهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى سِوَاهَا. وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ، وَارْفُقْ بِهَا وَلا تَقْهَرْهَا، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا، إِلاَّ مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا. وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا. وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ. وَوَقِّرِ اللهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ. وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ. وَالسَّلاَمُ.

أقول: هذا الفصل من كتاب طويل إليه. وقد أمره فيه بأوامره وزجره بزواجره مدارها على تعليم مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

أحدها: أن يتمسك بحبل القرآن. ولفظ الحبل مستعار كما سبق. وأراد لزوم العمل به.

الثاني: أن ينتصحه: أي يتخذه ناصحاً له بحيث يقبل أمره وشوره لأنه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

الثالث: أن يحل حلاله ويحرم حرامه، وذلك أن يعتقد ما فيه من الحلال والحرام حلالاً وحراماً ويقف عند اعتقاده ويعمل بمقتضاه.

الرابع: أني يصدق بما سلف من الحق مما حكاه القرآن الكريم من أحوال القرون الماضية وأحوال الأنبياء مع أممهم ليصح منه الاعتبار.

الخامس: أن يعتبر ماضي الدنيا بباقيها ويقيسه به فيجعل ما مضى أصلاً وما يبقى فرعاً ويحذر القدر المشترك بينهما من العلة وهو كونها مظنة التغيّر والزوال فيحكم في الفرع بحكم الأصل من وجوب الزوال، وقد

نبه على المشترك بقوله: فإن بعضها يشبه بعضاً. وعلى ما يلزم ذلك في الفرع بقوله: وآخرها لاحق بأولها وكلها حائل: أي زائل مفارق.

السادس: أن يعظم اسم الله ويكبره أن يذكره حالفاً إلا على حق.

السابع: أن يكثر ذكر الموت وما بعده فإن في ذكرهما أعظم واعظ وأشد زاجر عن الدنيا.

الثامن: نهاه أن يتمنى الموت إلاّ بشرط وثيق من نفسه يطمئن إليه في طاعة الله وولايته فإن تمنّيه بدون ذلك سفه وحمق.

التاسع: أمره أن يحذر كل عمل يرضاه لنفسه ويكره للمسلمين وهو في المعنى نهي عن الاستئثار عليهم بالمكاره ولنفسه بالخيرات وهو كقوله: ردْ للناس ما تريد لنفسك واكره لهم ما تكرهه لها.

العاشر: أن يحذر ما يعمله في السر ويستحي منه في العلانية. والإشارة إلى معاصي الله ومفارقة الدنايا من المباحات، وكذلك كل عمل من شأنه أن ينكره إذا سئل عنه ويعتذر منه.

الحادي عشر: أن يحفظ عرضه ونهاه أن يجعله غرضاً. واستعار لفظ الغرض والنبال لما يرمى به من القول: وقد سبق وجه الاستعارة.

الثاني عشر: أن يحدث الناس بكل ما سمع على وجه أن يقول: كان كذا وكذا دون أن يقول: سمعت فلاناً يقول: كذا. فإن بينهما فرقاً. ولذلك قال: وكفى بذلك كذباً. لأنه جاز أن يكون ما سمع في نفس الأمر كذباً فيكون قد كذب في قوله: كان كذا. وقوله: سمعت كذا. لا يكون كذباً إلاّ على وجه آخر.

الثالث عشر: أن لا يرد كل ما يحدث به الناس ويقابله بالتكذيب والإنكار لأنه جاز أن يكون حقاً فيحصل من إنكاره جهل بحق، وقوله: فكفى. في الموضعين صغرى ضمير تقدير كبرى الأول: وكلما كفى به كذباً فينبغي أن لا يتحدث به. وتقدير كبرى الثاني: وكلما كفى برده جهلاً وجب أن لا يرد.

الرابع عشر: أمره بكظم الغيظ. والحلم والتجاوز والصفح هي فضائل تحت ملكة الشجاعة وشرطها بوجود الغضب والقدرة والدولة فيسمى حلماً وتجاوزاً وصفحاً وإلاّ لم يصدق عليها الاسم.

وقوله: تكن لك العاقبة.

أي العاقبة الحسنة من ذلك، وهي صغرى ضمير تقديرها: فإن فاعل هذه الخصال تكون له العاقبة منها، وتقدير الكبرى: وكلما كانت له العاقبة الحسنة منها فيجب أن يفعلها.

الخامس عشر: أن يستصلح كل نعمة لله تعالى عليه بمداومة الشكر.

السادس عشر: أن لا يضيّع من نعمة الله تعالى نعمة: أي بالقصور عن الشكر والغفلة عنه.

السابع عشر: أن يظهر أثر نعمة الله تعالى عليه بحيث يراها الناس. فظهور أثرها عليه بإظهارها على نفسه وذويه وصرف فاضلها إلى أهل الاستحقاق. وأعلمه بدليل وجوب ذلك من وجهين.

أحدها: قوله: إن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة: أي صدقة تقدمها من نفسه بأقواله وأفعاله وأمواله، ومن أهله كذلك. وهو جذب له أن يجعل نفسه من أفضل المؤمنين بالصدقة.

الثاني: قوله: وإنك. إلى قوله: خيره: أي ما تقدمه وتؤخره من المال وتخلّفه، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما إذا قدمته كان لك ذخراً وإذا أخرّته كان لغيرك خيره. فواجب عليك تقديمه.

الثامن عشر: أن يحذر صحابة من يفيل رأيه: أي يضعف، وينكر عمله لسوئه. وعلّل ذلك الحذر بقوله: فإن. إلى قوله: بصاحبه: أي فإنك تقاس به لتنسب فعلك إلى فعله، ولأن الطبع مع الصحبة أطوع للفعل منه للقول فلو صحبه لشابه فعله فعله.

التاسع عشر: أن يسكن الأمصار العظام. والغرض الجمعية على دين الله كقوله ﷺ: عليكم بالسواد الأعظم ولذلك علّل بكونها جماع المسلمين: أي مجمعهم. وأطلق اسم المصدر على المكان مجازاً، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فينبغي أن يخص بالسكنى.

العشرون: أن يحذر منازل الغفلة والجفاء لأهل طاعة الله.

الحادي والعشرون: أن يقصر رأيه على ما يعنيه فإن فيه شغلاً عما لا يعنيه فتجازوه إليه سفه.

الثاني والعشرون: أن يحذر مقاعد الأسواق. وأشار إلى وجه المفسدة بقولها: فإنها. إلى قوله: الفتن. ومعنى كونه محاضر الشيطان كونها مجمع الشهوات ومحل الخصومات التي مبدؤها الشيطان. ومعاريض: جمع معرض وهو محل عروض الفتن. والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فلا يجوز القعود.

الثالث والعشرون: أن يكثر نظره إلى من هو دونه ممن فضل عليه في النعمة. وعلل ذلك بقوله: فإن. إلى قوله: الشكر. ووجه كونه باباً للشكر أنه يكون سبباً للدخول إليه منه. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان من أبواب الشكر فواجب ملازمته.

الرابع والعشرون: أن لا يسافر في يوم الجمعة إلاّ أن يكون في جهاد أو عذر واضح. وسرّه أن صلاة الجمعة عظيمة في الدين وهو محل التأهب لها والعبادة. فوضعه للسفر وضع للشيء في غير موضعه.

الخامس والعشرون: أن يطيع الله في جميع أموره. ورغب فيها بضمير صغراه قوله: فإن. إلى قوله: سواها. وتقدير كبراه: وكلما فضّل ما سواه فالأولى لزومه وإيثاره على ما سواه.

السادس والعشرون: أن يخادع نفسه في العبادة. فإنها لما كان شأن النفس اتباع الهوى وموافقة الطبيعة فبالحري أن تخادع عن مألوفها إلى غيره تارة بأن يذكر الوعد، وتارة الوعيد، وتارة بالاستشهاد بمن هو دونها ممن شمر في عبادة الله، وتارة باللوم لها على التفريط في جنب الله. فإذا سلك بها فينبغي أن يكون بالرفق من غير قهرها على العبادة لكون ذلك داعية الملال والانقطاع، كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض فيه إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى؛ بل تأخذ منها عفوها ونشاطها في العبادة إلاّ الفريضة فإنه لا يجوز المساهلة فيها.

السابع والعشرون: حذره أن ينزل به الموت حال ما هو آبق من ربه. واستعار له الآبق باعتبار خروجه عن أمره ونهيه في طلب الدنيا.

الثامن والعشرون: أن يحذر صحبة الفساق، ونفّر عن ذلك بضمير صغراه قوله: فإن الشر بالشر ملحق: أي فإنه يصير لك شراً كشرهم لأن القرين بالمقارن يقتدي. وتقدير كبراه: وكل ما صيّر لك كذلك فلا يجوز فعله.

التاسع والعشرون: أن يجمع بين توقير الله وتعظيمه وبين محبة أحبائه وأوليائه، وهما أصلان متلازمان.

الثلاثون: أن يحذر الغضب. ونفّر عنه بقوله: فإنه. إلى آخره، ومعنى كونه جنداً له لأنه من أعظم ما يدخل به على الإنسان فيملكه ويصير في تصريفه كالملك الداخل بالجند العظيم على المدينة، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فواجب أن يحذر منه. وبالله التوفيق.

٦٩ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى سهل بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غَيّاً، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً، فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، وقَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً.

إِنَّهُمْ ـ وَاللهِ ـ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالسَّلاَمُ.

أقول: التسلل: الذهاب واحداً بعد واحد.

والإيضاع: الإسراع. وكذلك الإهطاع. والأثرة: الاستبداد.

فقوله: أما بعد إلى قوله: معاوية.

إعلامه بعلمه بحالهم.

وقوله: فلا تأسف. إلى قوله: مددهم.

تسلية له عما فاته من عددهم ومددهم.

وقوله: فكفى. إلى قوله: العدل.

استدراج له عن الأسف على فرارهم بذكر معائبهم في ضميرين صغرى الأول منهما قوله: فكفى. إلى قوله: الجهل. وتقدير كبراه: وكل من كان كذلك فلا يجوز الأسف عليه. وفرار فاعل كفى، وغياً وشافياً تمييز. وصغرى الثاني قوله: وإنما هم أهل الدنيا: أي لما كان شأنهم ذلك وعرفوا العدل عندنا وعلموا تساوي الناس عندنا في الحق هربوا إلى الاستئثار والاستبداد عند معاوية. وتقدير كبراه: وكل من كان بهذه الحال فلا يجوز الأسف عليه، ولذلك دعا عليهم بالبعد والسحق وهما مصدران وضعا للدعاء. ثم أقسم أنهم لم يفروا من جور منه ولم يلحقوا بعدل من معاوية ليتأكد حصره لأحوالهم التي هربوا لأجلها. ثم وعده بما يطمع من الله تعالى من تذليل ما صعب من أمر الخلافة لهم، وتسهيل حزنه بمشيئته سبحانه.

٧٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى المنذر بن الجارود العبدي، وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَلا تُبْقِي لآخِرَتِكَ عَتَاداً. تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هٰذَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قال الرضي: والمنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: إنه لنظارٌ في عِطفيه، مختال في بُرْدَيْه، تَفّال في شِرَاكَيْهِ.

أقول: العتاد: العدة، والشسع: سير بين الإصبعين في النعل العربي.

ومدار الفصل على توبيخه بسبب خيانته. فذكر سبب غروره وهو قياسه في الصلاح على أبيه الجارود العبدي في أنه يتبع ما كان عليه من الهدى. ثم ذكر ما رقّي إليه عنه من الفارق من أربعة أوجه:

أحدها: انقياده لهواه في كل ما يقوده إليه.

الثاني: إعراضه عما يعتدّ به لآخرته من صالح الأعمال.

الثالث: كونه يعمر دنياه بما يستلزم خراب آخرته من تناول الحرام.

الرابع: كونه يصل عشيرته بما يقطع دينه من ذلك. وراعى السجع في القرينتين. ثم أخذ في توبيخه والحكم بنقصانه وحقارته إن حق ما نسب إليه ذلك بتفضيل جمل أهله وشسع نعله عليه. وجمل الأهل مما يتمثل به في الهوان. وأصله فيما قيل: أن الجمل يكون لأب القبيلة فيصير ميراثاً لهم يسوقه كل منهم ويصرفه في حاجته فهو ذليل حقير بينهم. ثم حكم في معرض توبيخه على من كان بصفته أنه لا يصلح لولاية عمل يراد له الوالي. وراعى في القرائن الأربع السجع المتوازي. فالقدر بإزاء الأمر والخيانة بإزاء الأمانة. وإنما قال: أو يشرك في أمانة. لأن الخلفاء أمناء الله في بلاده فمن ولّوه من قبلهم فقد أشركوه في أمانتهم.

وقوله: أو يؤمن على خيانة.

أي حال خيانتك. لأن كلمة على تفيد الحال. ثم بعد توبيخه استقدمه عليه عزلاً له. والذي حكاه رحمه الله من وصف أمير المؤمنين عليه السلام له فكناية عن تكبّره. والتفل في الشرك: نفخ الغبار عنه. والحكاية مناسبة للكتاب لاشتمالها على الذم. وبالله التوفيق.

٧١ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى عبد الله بن العباس

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ.

أقول: الفصل موعظة. ونبه فيها على دقائق:

إحديها: أنه لا يسبق أجله. ولما كان الأجل هو الوقت الذي علم الله أن زيداً يموت فيه لم يمكن أن يموت زيد دونه لأن ذلك يستلزم انقلاب علم الله جهلاً وأنه محال.

الثانية: ولا مرزوق ما ليس له: أي ما علم الله ليس رزقاً له فمحال أن يرزق إيّاه لما بيّناه.

الثالثة: أعلمه أن الدهر يومان: يوم له وهو اليوم الذي فيه المنافع كاللذة وكمالاتها، ويوم عليه وهو ما يكون عليه فيه المضرة كالألم وما يستلزمه وذلك معنى كون الدنيا دار دول كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

الرابعة: أعلمه بأن ما كان له من خير الدنيا أتاه على ضعفه وإن كان أمراً كبيراً لعلم الله سبحانه بأنه يصل إليه، وكذلك ما كان عليه من شرها لم يتمكن من دفعه وإن كان قوياً. وذكر الضعف والقوة ليعلم استناد الأمور والأرزاق إلى مدبّر حكيم هو مفيضها ومبدئ أسبابها وناظم وجودها ومقسم كمالاتها ومعطي كلاً منها ما استعد له من خير أو شر. فقد يحصل الضعف للحيوان ويرزق رزقاً واسعاً ويكون ضعفه من الأسباب المعدة لسعة رزقه. وبالعكس قد تحصل له القوة فتكون من أسباب الحرمان. والله من ورائهم محيط وهو الرازق ذو القوة المتين.

٧٢ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ، وَالاسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ، لَمُوهِّنٌ رَأْيِي، وَمُخَطِّئٌ فِرَاسَتِي. وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الأُمُورَ وَتُرَاجِعُنِي السُّطُورَ، كَالْمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تَكْذِبُهُ أَحْلامُهُ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ، لا يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ، وَلَسْتَ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ. وَأُقْسِمُ بِاللهِ إِنَّهُ لَوْلا بَعْضُ الاسْتِبْقَاءِ، لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ، تَقْرَعُ الْعَظْمَ، وَتَهْلِسُ اللَّحْمَ! وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ.

أقول: موهن: مضعف. ويبهظه: أثقله. والقوارع: الشدائد. وتهلس اللحم: تذهب به، وتسحبه، وتقرب منه النهس. وثبّطه عن كذا: شغله.

ومدار الفصل على منافرته وتوبيخه.

فقوله: أما بعد. إلى قوله: فراستي: أي مضعف رأيي وفراستي فيك لغلبة ظني أن مكاتبتك وجوابك لا فائدة فيه. ثم شبهه في محاولته أمر الشام وما يخدعه من جعل أمر الخلافة فيه بعده ومراجعته السطور أي بحذف الجار إما في أو الباء، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: تكذبه أحلامه. وأراد أن تخيّلاته وأمانيه في وصول هذا الأمر إليه تخيّلات كاذبة صادرة عن جهل غالب كالأحلام الكاذبة للمستغرق في نومه إذا استيقظ لم يجدها شيئاً، وكذلك شبّهه بالمتحيّر القائم، وأشار إلى وجهه بقوله: يبهظه. إلى قوله: عليه. وبيانه أن معاوية مجد في هذا الأمر متحيّر في تحصيله متهور في طلبه مع جهله بعاقبة سعيه هل هي خير أو شر كالقائم المتحيّر في الأمر يتعب بطول مقامه ولا يعرف غايته من قيامه. ثم لم يرض له بذلك التشبيه بل زاد مبالغة في غفلته ونومه في مرقد طبيعته وحيرته وقال: لست به: أي ولست بهذا شبيهاً فيكون هو أصلاً لك في الشبه غير أنه بك شبيه: أي إنك أصل له في ذلك الشبه. ثم أقسم لولا بعض الاستبقاء: أي للأمور المصلحية لوصلت إليه منه قوارع. وأراد شدائد الحرب، وكنّى عن شدتها بكونها تقرع العظم وتهلس اللحم.

ثم أعلمه في معرض توبيخه أن الشيطان قد ثبطه عن مراجعة أحسن أموره وهو الدخول في طاعته وترك الفتنة وأن يأذن أي يصغي أذنه لمقال نصيحة. وهو جذب له إليهما بنسبة تركه لهما إلى تثبيط الشيطان. وبالله التوفيق.

٧٣ - ومن حلف له عليه السلام

كتبه بين ربيعة واليمن، ونقل من خط هشام بن الكلبي

هٰذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ، وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، لا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً، وَلا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلاً، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ وَتَرَكَهُ، أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعْوَتُهُم وَاحِدَةٌ، لا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ، وَلا لِغَضَبِ غَاضِبٍ، وَلا لاسْتِذْلالِ قَوْمٍ قَوْماً، وَلا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً! عَلَى ذٰلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ، وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ إِنَّ عَهْدَ اللهِ كَانَ مَسْؤولاً. وَكَتَبَ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

أقول: الحلف: العهد. وفيه نكت:

الأولى: قوله: هذا. مبتدأ وما موصولة وهي صفة المبتدأ، وخبره أنهم. ويجوز أن يكون هذا مبتدأ خبره ما اجتمع عليه، ويكون قوله: أنهم. تفسيراً لهذا. كأنه قال: ما الذي اجتمعوا عليه؟ فقيل: على أنهم على كتاب الله: أي اجتمعوا على ذلك، وخبر أنهم على كتاب الله، ويدعون حال، والعامل متعلّق الجار. وحاضرها وباديها من أهل اليمن، وكذلك من ربيعة.

الثانية: كونهم لا يشترون به ثمناً كناية عن لزومهم له وللعمل به.

الثالثة: قوله: وأنهم يد واحدة: أي يتعاونون على من خالفه. فأطلق اسم اليد على المتعاون مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، وأنصار خبر ثان لأنه وبعضهم فاعله. ويجوز أن يكون بعضهم مبتدأ خبره أنصار.

الرابعة: قوله: ولا لاستذلال قوم قوماً: أي لا ينقضون عهدهم لكون القبيلة الأخرى استذلّت قومهم أو سبتهم. وروي لمشيئة قوم قوماً: أي لإرادتهم. وفي رواية - كتب علي بن أبي طالب - وهي المشهورة عنه عليه السلام ووجهها أنه جعل هذه الكنية علماً بمنزلة لفظ واحدة لا يتغيّر إعرابها.

٧٤ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية في أول (ما بويع له، ذكره الواقدي في كتاب الجمل)

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ، حَتَّى كَانَ مَا لا بُدَّ مِنْهُ وَلا دَفْعَ لَهُ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَالْكَلامُ كَثِيرٌ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ. فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ.

أقول: الوفد: الواردون على الملك.

وأعلمه أوّلاً، إعذاره فيهم إلى الله: أي إظهار عذره وذلك باجتهاده في نصيحة عثمان أوّلاً، ونصرة بني أمية بالذب عنه ثانياً، وإعراضه عنهم بعد إياسه من قبول عثمان لنصيحته وعجزه عن نصرته والدفع عنه حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له من قبله. ثم قال: والحديث طويل والكلام كثير: أي في أمره ومن قبله.

وقوله: وقد أدبر. إلى قوله: أقبل.

يحتمل أن يكن إخباراً له بأن بعض الناس أدبر عنه كطلحة والزبير ومن تابعهما وبعضهم أقبل عليه، ويحتمل أن يكن إنشاءً أي قد دخل في الإدبار من أدبر عنّي ودخل في الإقبال من أقبل عليّ. ثم أمره أن يبايع له من قبله من الجماعة ويقبل إليه، ويحتمل أن يكون

الضمير في قوله: فيكم وعنكم خطاباً لمعاوية وسائر المسلمين على سبيل التعتّب والتشكي: أي قد علمت أني أعذرت فيكم حيث لم أعاجل مسيئكم بالعقوبة وأعرضت عنكم حتى كان ما كان من خروج طلحة والزبير ومن تابعهم مما لابد من وقوعه منهم ولا دفع له. والحديث في شأنهم طويل، والكلام في شبهتهم كثير، وقد أدبر من أدبر: أي هؤلاء الخارجون، وأقبل من أقبل. وتمام الكلام بحاله. والله أعلم.

٧٥ - ومن كتاب له عليه السلام

لعبد الله بن العباس، عند استخلافه إياه على البصرة

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طِيَرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ.

أقول: الطيرة: فعلة من الطيران، ويستعمل في الخفة وما لا ثبات له. وروي: طيرة من التطير وهو التشاؤم.

وقد أمره بفضائل من الأخلاق.

أحدها: أن يسع الناس بوجهه، وكنّى بذلك عن البشر والطلاقة، وبمجلسه. وهو كناية عن التواضع، وبحكمه. وكنّى به عن العدل لأن الحكم العدل يسع كل أحد، والجور ضيق لا يحتمله الكل.

الثانية: حذّره من الغضب وهو أمر بفضيلة الثبات والحلم، ونفّره بقوله: فإنه طيرة من الشيطان: أي خفة ينشأ من الشيطان، أو أنه مما يتشاءم الناس بصاحبه ويكرهه. ونسبه إلى الشيطان لينفر عنه، وأراد الغضب المذموم. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فواجب أن يحذر. ثم رغبه فيما يقرّبه من الله بما يستلزمه من كونه مباعداً له من النار، ونفّره عما يبعده من الله بما يستلزمه من كونه مقرّباً له إلى النار. وهما صغريا ضميرين تقدير كبرى الأول منهما: وكل ما باعدك من النار فواجب أخذه، وتقدير كبرى الثاني: وكل ما يقربك من النار فواجب أن يحذره. وبالله التوفيق.

٧٦ - ومن وصيه له عليه السلام

لعبد الله بن العباس، لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج

لا تُخَاصِمْهُم بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلٰكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً.

أقول: المحيص: المعدل.

وقد نهاه أن يحاجهم بالقرآن. ونبهه على ذلك بضمير صغراه قوله: فإن القرآن. إلى قوله: ويقولون: أي إن الآيات التي يمكنه الاحتجاج بها غير ناصة في المطلوب بل لها ظاهر وتأويلات محتملة يمكنهم أن يتعلقوا بها عند المجادلة. وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك فلا يتم الغرض به في مخاصمتهم. ثم أمره أن يحاجّهم بالسنّة. ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله: فإنهم لا يجدون عنها معدلاً لكونها ناصة في المطلوب كقوله صلى الله عليه وآله: حربك يا علي حربي. ونحوه. وتقدير الكبرى: وكل ما لم يجدوا عنه معدلاً فالأولى محاجتهم به. وقد أشرنا من قبل إلى مجادلة ابن عباس.

٧٧ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى أبي موسى الأشعري جواباً في أمر الحكمين، ذكره (سعيد بن يحيى الأموي) في كتاب (المغازي)

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى. وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هٰذَا الأَمْرِ مَنْزِلاً مُعْجِباً، اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، وَأَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَلَقاً. وَلَيْسَ رَجُلٌ - فَاعْلَمْ - أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذٰلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ، وَالتَّجْرِبَةِ، وَإِنِّي لأَعْبَدُ

أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ اللهُ. فَدَعْ مَا لا تَعْرِفُ، فَإِنَّ شِرارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ. وَالسَّلاَمُ.

أقول: العلق: الدم الغليظ. وأيت: وعدت. وأعبد: أستنكف وأغضب.

وقوله: فإن الناس. إلى قوله: حظهم.

أي الحظ الذي ينبغي لهم من الدين والهدى.

وقوله: فمالوا. إلى قوله: الهوى.

بيان لأنواع تغيّرهم.

وقوله: وإني نزلت من هذا الأمر.

أي أمر الخلافة منزلاً معجباً وهو الحال التي انتهى إليها مع الصحابة وصارت محل التعجب منها وكيف صار محكوماً لهم في قبول الحكمة والرضى بالصلح وغيره.

وقوله: اجتمع به أقوام.

صفة منزل: أي أن هذا المنزل الذي أنا فيه من هذا الأمر قد اجتمع معي وشاركني في رأيي فيه أقوام أعجبتهم أنفسهم وآراؤهم فأفسدوا عليّ الأمر فأنا أداوي منهم قرحاً، واستعار لفظ القرح لما أفسد من حاله باجتماعهم على التحكيم. ولفظ المداواة لاجتهاده في إصلاحهم، وروي: أداري. وكذلك استعار لفظ العلق لما يخاف من تفاقم أمرهم من حاله.

وقوله: وليس رجل أحرص منه على ألفة جماعة محمد ﷺ للغرض المذكور.

وقوله: فاعلم. اعتراض حسن بين ليس وخبرها. ورجل يفيد العموم وإن كان مفرداً نكرة لكونه في سباق النفي على ما بيّن في أصول الفقه. ثم أخبر أنه سيفي بما وعد على نفسه من شرط الصلح على ما وقع عليه، وتوعده بلزوم الشقاوة إن تغيّر عن صالح ما فارقه عليه من وجوب الحكم بكتاب الله وعدم اتباع الهوى والاغترار بمقارنة الأشرار.

وفسر الشقي بمن حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة مشيراً بذلك إلى أنه إن خدع أو تغيّر بأمر آخر فقد حرم نفع عقله وسابقة تجربته فلزمته الشقاوة. ثم نبهه على أنه يأنف من قول الباطل، وأن يفسد أمراً أصلحه الله به وهو أمر الدين ليحترز من غضبه بلزوم الحق والصدق وحفظ جانب الله في حقه، وأكد ذلك بقوله: فدع ما لا تعرف: أي من الحكم في هذه القضية بالشبهة.

وقوله: فإن شرار الناس. إلى آخره.

أراد عمرو بن العاص ونحوه فيما كان يسرع بإلقائه إليه من الوساوس والشبه الكاذبة التي هي أقاويل السوء.

٧٨ - ومن كتاب له عليه السلام

لمّا استخلف، إلى أمراء الأجناد

أَمَّا بَعْدَ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ (فَاقْتَدَوْهُ).

أقول: نفّرهم عن منع الحق أهله، ومعاملتهم الناس بالباطل، يذكر أن ذلك هو سبب هلاك من كان قبلهم من أمثالهم.

وقوله: فاشتروه.

أي فباعوه وتعوضوا عنه بالباطل لما منعوا منه كقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، وكذلك قوله: وأخذوهم بالباطل: أي جعلوا تصرفاتهم معهم بالباطل فاقتدوه: أي اقتدوا الباطل وسلكوا فيه مسلك من أخذهم به كقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وبالله التوفيق.

تم باب الكتب والوصايا والعهود
والحمد لله حق حمده.

باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج في سائر أغراضه

١ - قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ، لا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ.

أقول: ابن اللبون ولد الناقة إذا استكمل سنتين ودخل في الثالثة لأن أمّه على الأغلب قد وضعت ولداً غيره فهي ذات لبن.

وقد أمر أصحابه في زمن الفتنة أن يتشبّه بابن اللبون، وأشار إلى وجه الشبه بقوله لا ظهر. إلى آخره. وأراد أنه يكون في زمانها خامل الذكر ضعيفاً غير مستكثر من المال كيلا يصلح لمعاونة الظالمين بنفسه ولا بماله، ولا ينتفع به في الفتنة. كابن اللبون لا ينفع بظهره ولا لبنه. وظهر مبتدأ خبره محذوف تقديره: له. ويركب عطف على الجملة. وروي منصوباً بإضمار أن في جواب النفي، وكذا قوله: فيحلب.

٢ - وقال عليه السلام: إحدى وعشرين كلمة من الأدب والحث على مكارم الأخلاق وهي قوله:

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ. الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ. وَالْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ. وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَى. وَالْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ. وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ. صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حُبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ. وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ. الصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ، نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجَالِهِمْ.

الأولى: أزرى بنفسه من استشعر الطمع. وهو تنفير عن الطمع المضاد لفضيلة القناعة بذكر ما يستلزمه من التهاون بالنفس والإزدراء بها، وذلك أن الطمع بما في أيدي الناس يستلزم الحاجة إليهم والخضوع لهم وهو يستلزم الهون عليهم وسقوط المنزلة. واستعار وصف الاستشعار لملازمة الطمع ومباشرته للقلب كالشعر للجسد.

الثانية: قوله: ورضي بالذل من كشف عن ضره، وهو أيضاً تنفير للإنسان عن شكاية فقره وضرّه للناس بذكر ما يلزم ذلك من المذلة والرضى به.

الثالثة: وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه. وهو تنفير للإنسان عن الإكثار في القول من غير تدبر ومراجعة لعقله بما يلزم ذلك من هوان نفسه عليه أما في الدنيا فلأن زيادة القول قد يكون سبباً للهلاك، وإليه أشار القائل:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنّك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران

وأما في الآخرة فلقوله عليه السلام: وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ ولاهون لنفس الإنسان عليه أعظم من هلاكها. واستعار وصف التأمير لتسليط اللسان على ما يؤذي النفس من غير مراجعتها فكأنها صارت محكومة له.

الرابعة: قوله: والبخل عار. وذلك لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الكرم. وبقدر حمد الإنسان على الكرم يكون ذمه وتعييره برذيلة البخل.

الخامسة: والجبن منقصة. لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة التي هي أصل من الكمالات النفسانية. فكان الجبن رذيلة ومنقصة.

السادسة: والفقر يخرس الفطن عن حجته. وذلك لكونه مذلة، وله في النفس فعل عظيم بالقبض والفتور والانفعال عن الغير. ومبدأ كل ذلك تصور العجز وتوهم القصور بسبب عدم المال عن مقاومة الخصوم فيحصل

التخوف من الكلام والعي عنه وإن كان صاحبه فطناً. واستعار لذلك وصف الخرس ملاحظة لشبهه به.

السابعة: والمقل غريب في بلدته: أي الفقير. واستعار له لفظ الغريب باعتبار عدم التفات الناس إليه وقلّة الأعوان، والإخوان له لإقلاله فهو كالغريب الذي لا يعرف.

الثامنة: والعجز آفة. العجز لفظ مهمل يحتمل العجز البدني وهو عدم القدرة على التصرفات البدنية عما من شأنه أن يقدر، ويحتمل العجز النفساني وهو عدم القدرة على مقاومة الهوى ودفعه. والأول آفة بدنيّة ونقصان فيه. والثاني: آفة في العقل وعاهة فيه.

التاسعة: والصبر شجاعة والصبر فضيلة تحت العفة ترسم بأنها مقاومة الهوى لئلا يقود النفس إلى قبائح اللذات. وهو جهاد مع النفس الأمارة يستلزم فضيلة الشجاعة فلذلك حمل الشجاعة عليه حمل اللازم على ملزومه.

العاشرة: والزهد ثروة. وهو فضيلة تحت العفة، ورسم بأنه إعراض النفس عن متاع الدنيا وطيباتها. ولما كانت الثروة في العرف عبارة عن الغنى بالمال وكثرته استعار لفظها للزهد لمشابهته إيّاها في استلزامهما للغنى وعدم الحاجة.

الحادية عشر: والورع. وحقيقة الورع لزوم الأعمال الجميلة فلذلك استعار لفظ الجنة لمشابهتها في الوقاية من عذاب الله في الآخرة ومن أكبر المصائب الدنيوية كما تجنّن بالترس وغيره من الصلاح.

الثانية عشر: ونعم القرين الرضا. وقد علمت أن الرضا بقضاء الله وما نزل به القدر باب عظيم من أبواب الجنة وغاية من الملكات الفاضلة، وظاهر أنه نعم القرين في الدنيا والآخرة.

الثالثة عشر: والعلم وراثة كريمة. وهو فضيلة النفس العاقلة وهو أشرف الكمالات التي يعتنى بها، وبحسب ذلك كان وراثة كريمة من العلماء؛ بل كان أكرم موروث ومكتسب. وأراد الوراثة المعنوية كقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥-٦] أي العلم والحكمة.

الرابعة عشر: والآداب حلل مجددة. وأراد الآداب الشرعية ومكارم الأخلاق، واستعار لها لفظ الحلل المجددة باعتبار دوام زينة الإنسان بها وتجدّد بهائه وحسنه وتهذيب نفسه على استمرار الزمان بلزومها واستخراج محاسنها كالحلل التي لا تزال تجدد على لابسها.

الخامسة عشر: والفكر مرآة صافية. الفكر قد يراد به القوة المفكرة، وقد يراد به حركة هذه القوة مطلقاً أية حركة كانت، وقد يراد به معنى آخر. وعنى هنا القوة نفسها، واستعار لها لفظ المرآة باعتبار أنها إذا وجهت نحو تحصيل المطالب التصورية والتصديقية أدركتها وتمثّلت بها كما يتمثل في المرآة صور ما تحاذي بها.

السادسة عشر: وصدر العاقل صندوق سره. استعار للصدر لفظ صندوق السر باعتبار حفظه كما يحفظ الصندوق ما فيه؛ وهو في المعنى أمر للإنسان بكتمان سره. ورغّبه في ذلك بذكر العاقل. فكأنه قال: العاقل من جعل صدره صندوق سره وحفظه.

السابعة عشر: والبشاشة حبالة المودة. واستعار لها لفظ الحبالة باعتبار اقتناص الإنسان بها الناس واستمالتهم إلى صداقته ومحبته كحبالة الصائد التي يقتنص بها الطير.

الثامنة عشرة: الاحتمال قبر العيوب. أراد احتمال المكروه والأذى من الإخوان وسائر الناس وهو فضيلة عظيمة تحت الشجاعة، واستعار له لفظ قبر العيوب باعتبار ستره لمعائب صاحبه عند الناس كما يستر القبر ما فيه من جيفة الميت قال السيد رحمه الله: وروي أنه عليه السلام قال في العبارة عن هذا المعنى أيضاً: المسالمة خباء العيوب. قال الجوهري: الخباء: واحد الأخبية بيت من وبر أو صوف ولا يكون من شعر ويكون على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت. والمسالمة فضيلة تحت العفة استعار لها لفظ الخباء باعتبار أنها فضيلة تستجلب المحبة وتستلزم سكوت الناس عن المعائب وسترها كالخباء. ويتبيّن استلزامها تستر العيوب باستلزام نقيضها وهو المخاصمة وعدم المسالمة لثوران الطباع على ذكر المعائب وإبرازها لغرض الإهانة والتبكيت.

التاسعة عشر: ومن رضي من نفسه كثر الساخط عليه. وذلك لوجهين:

أحدهما: أن الراضي عن نفسه معتقد لكمالها على غيرها وناظر إلى غيره بعين النقصان غير موفّ للناس حقوقهم فيكثر بذلك الساخط عليه منهم.

الثاني: أنه لاعتقاده كمال نفسه يرفعها فوق قدرها والناس يرونه بقدره فيكثر المنقص له والساخط عليه.

العشرون: والصدقة دواء منجح. استعار لفظ الدواء النافع للصداقة لمشابهتها الدواء أما في الدنيا فلقوله عليه السلام: داووا مرضاكم بالصدقة. وسرّ ذلك أنها تستجلب الهموم وتطابق القلوب على محبة المتصدق والرغبة إلى الله سبحانه في دفع المكاره عنه لبقائه فهي في ذلك سبب للشفاء كالدواء، وأما في الآخرة فلأنها سبب لدفع المكاره الأُخروية كما سبق بيانه.

الحادية والعشرون: وأعمال العباد نصب أعينهم في آجلهم: أي ظاهرة قائمة في أعينهم، وسر ذلك ما علمته من كون النفوس ما دامت في الدنيا فهي منتقش بملكات الخير والشر لكنها في أغشية بالمفارقة انكشفت لها الأمور فأدركت ما علمت من خير وما استعدت له من شر كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. وكما قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية.

٣ - وقال عليه السلام: اعْجَبُوا لِهَذَا الإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ!!

نبه على لطف خلق الإنسان ببعض أسرار حكمة الله فيه، وغايته من ذلك الاستدلال على حكمة صانعه ومبدعه. وذكر أربعة من محال النظر والاعتبار، وهي آلة البصر والكلام والسمع والتنفس، وخصّها بالذكر لكونها مع ضعفها ضرورية في وجود الإنسان على شرفه وعلّو رتبته في المخلوقات ولا يقوم إلاّ بها ليكون ذلك محل التعجب واعتبار لطف الصانع الحكيم، وأراد بالشحم الذين ينظر به الرطوبة المسماة في عرف الأطباء بالبيضة أو الرطوبة الجليدية. فإن العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها يختص في عرفهم باسم، وعنى باللحم اللسان فإنه لحم أبيض رخو تلتف به عروق صغار كثيرة فيها دم ولذلك يتبيّن أحمر وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة، وتحته فوهتان يسيل منهما اللعاب ينتهيان إلى لحم غددي رخو موضوع في أصله يسمى مولّد اللعاب، وبهاتين الفوهتين يبقى اللسان وما حوله النداوة الطبيعية، وأراد بالعظم الذي يسمع به العظم المسمى الحجري، وهو عظم صلب فيه مجرى الأذن كثير التعاريج والعطفات تمرّ كذلك إلى أن يلقى العصبة النابتة من الدماغ التي هي مجرى الروح الحامل للقوة السامعة، وأراد بالخرم ثقب الأنف. وفي هذه وأمثالها من بدن الإنسان وسائر الحيوان عبرة لمن اعتبر وكمال شهادة بوجود الصانع الحكيم لها، ومن نظر في تشريح بدن الإنسان حضرته شواهد من الحكمة الإلهية يحار فيها لبّه ويدهش فيها عقله، وقرأ الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ثم قال: وكيف لا يكون ضعيفاً وهو ينظر بشحم ويسمع بعظم وينطق بلحم؟ وقد راعى في القرائن الأربعة السجع المتوازي.

٤ - قال عليه السلام: إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ.

يريد أن الدنيا إذا أقبلت بجاهها ومالها على قوم بحسب توافق أسباب السعادة الدنيوية لهم استلزم ذلك إقبال الناس عليهم وتقربهم إليهم بكل ممكن لميلهم إلى الدنيا ومحبتهم لها وحسنوا في أعينهم فاستعاروا لهم الأوصاف الجميلة التي كانت في غيرهم وإن لم يكونوا في نفس الأمر كذلك حتى يصفوا بالعلم الجاهل، وبالكرم المبذر، وبالشجاعة المتهور، وبالظرف ولطف الأخلاق الماجن.

وربما كان إقبال الدنيا عليهم أيضاً سبباً لاستعدادهم لتحصيل الكمالات النفسانية والملكات الفاضلة التي كانت محاسن لغيرهم قبلهم وإن كانوا قبل ذلك غير أهل لشيء منها. ويحتمل أن يريد بالمحاسن محاسن الدنيا من مركوب وملبوس وأُبهة وحسن إيالة وتصرّف، وذلك

ظاهر. وكونه عارية باعتبار عدم دوامه. وكذلك إذا أدبرت عنهم بحسب توافق أسباب الشقاوة فيها قبحوا في أعين الناس حتى يكون أحدهم ذا فضيلة في نفسه فيجحدها الناس ويصفونه بضدها. فإن زهد في الدنيا نسبوه إلى الرياء والسمعة، وإن حسنت أخلاقه نسبوه إلى الخلاقة والمجون، وإن شجع نسبوه إلى التهور والجنون. وهو معنى سلبها لمحاسن أنفسهم، وربما استعد ذو الفضيلة منهم بذلك لتركها وإهمالها والتخلق بضدها حتى تسلب عنه الفضيلة بالكلية.

٥ - وقال عليه السلام: خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ.

نبه بذلك على حسن المعاشرة للناس ومعاملتهم بمكارم الأخلاق. وكنّى عن ذلك بقوله: إن متم. إلى آخره. إذ من لوازم حسن المعاشرة للمخالط الحنّة إليه في حياته وافتقاره. والبكاء عليه بعد وفاته. والجملة الشرطية في موضع نصب صفة المخالطة.

٦ - وقال عليه السلام: إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

وهو تنبيه على فضيلة العفو وجذب إليه بكونه شكراً للقدرة: أي ملازم للشكر عليه، وذلك أن القدرة على العدو نعمة من الله تعالى يجب شكرها والاعتراف لله والخضوع له، ويلزمه الرقة وفتور الغضب ويتبع ذلك العفو فأقامه مقام الشكر للملازمة بينهما. ولما كان الشكر واجباً كان العفو لازماً.

٧ - وقال عليه السلام: أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ.

الإخوان جمع أخو كخرب وخربان، وأراد الأصدقاء الصادقين، وفي الكلمة حثّ على مكارم الأخلاق لأن الإخوان لا يكتسبون إلاّ بها، وإنما جعل العاجز عن تحصيلهم أعجز الناس لأن ذلك لا يحتاج إلى إتعاب قوة بدنية ولا إعمال فكرة عقلية، وإنما يفتقر إلى كرم الأخلاق وحسن المعاشرة والملاقاة بالبشر والطلاقة وهي أمور طبيعية في أكثر الناس وهو أهون الأشياء عليهم فكان العاجز عنها أعجز الناس عما هو مقدور لهم. وإنما جعل من ظفر به منهم ثم ضيّعه أعجز لأن المتكسب لا بدّ له من كلفةٍ ما في اكتسابهم.

وأما الظافر فهو غير محتاج إلى ذلك القدر من الكلفة فكان سبب حفظ الإخوان أسهل من سبب تحصيلهم فكان المضيّع لحفظهم أعجز عن اكتسابهم لعجزه عن حفظ الأمر الأسهل.

فإن قلت: فقد قال: إنّ المضيّع لهم أعجز من أعجز الناس فلا يكون أعجز الناس أعجز الناس. هذا خلف.

قلت: لفظ الناس لفظ مطلق وإنما يلزم الخلف أن لو كان للعموم.

٨ - وقال عليه السلام: إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ.

نبه على وجوب الشكر على النعمة لغرض دوامها. ونفّر عن قلته بما يستلزمه من كونه تنفيراً لما يستقبل منها، واستعار لفظ التنفير ملاحظة لشبهها بالطير المتصل إذا سقط أوّله اتصل به آخره، وفيه إيماء إلى أن دوام الشكر مستلزم لدوامها وكثرتها كقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٩ - وقال عليه السلام: مَنْ ضَيَّعَهُ الأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الأَبْعَدُ.

أي قدّر. وأراد أن الله سبحانه جعل لكل شيء سبباً يجب معه وبه. ولما كانت منافع الإنسان وضروراته في الأغلب يقوم بها من كون أقرب إليه من أهله وعشيرته ولم يجب في الحكمة أن لا يكون له نفع له إلاّ من جهتهم لا جرم أنهم إذا ضيّعوه وأهملوه لا بدّ أن يقدر الله له من يقوم بمصالحه ومعاونته ممن هو أبعد عنه.

١٠ - وقال عليه السلام: مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ.

الفتنة قد تكون في الدين وقد تكون في الدنيا وقد تكون فيهما، وعلى التقديرات فقد تلحق الإنسان بسبب منه من جهل بسيط أو مركب وقد تلحقه بأسباب قدرية خارجية معلومة وغير معلومة. والذي يعاتب على فتنته من هؤلاء من كانت أسباب فتنته منه أو بعضها كوقوع الفتنة لمصاحبة الفساق ونحوه. هذا إذا حملنا اللفظ

على ظاهره، ويحتمل أن يريد ليس كل مفتون ينفع معه العتاب.

١١ - وقال عليه السلام: تَذِلُّ الأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ، حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ.

استعار ذلّ الأمور لمطوعتها للقدر وجريانها على وفق القضاء. ولما كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر جاز أن يكون من غايات مطاوعة الأمور للقدر كون ما يعتقده الإنسان الجاهل مصلحة ويفعله تدبراً لمنفعة سبباً لحتفه وهلاكه. وفيه إيماء إلى وجوب إسناد الأمور إلى الله وعدم التوكل على التدبير، والانقطاع إليه.

١٢ - وقال عليه السلام: عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ، وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ» فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: إِنَّمَا قَالَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ـ ذٰلِكَ وَالدِّينُ قُلٌّ، فَأَمَّا الآنَ وَقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ، فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ.

النطاق: شقة طويلة عريضة تنجرّ على الأرض إذا لبست. جران البعير: صدره. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في أول الإسلام يأمر أهل الشيب من المسلمين بتغيير شيبهم ويبدؤهم إليه، وكان ينفّرهم عن تركه بكونه تشبهاً باليهود لأن اليهود لم يكونوا يفعلون ذلك. فكانوا يخضبون السواد. وقيل: بالحنّاء. والغرض أن ينظر إليهم الكفّار بعين القوة والشبيبة فينفعلون عنهم ولا يطمعون فيهم. فسئل عليه السلام عن ذلك في زمن خلافته فجعله من المباح دون المندوب، وأشار إلى أن تلك السنّة إنما كانت حيث كان المسلمون قليلين فأما الآن وقد كثروا وضعف الكفّار فهو مباح، وكنّى عن ذلك بقوله: فامرؤ وما اختار. واستعار لفظ النطاق لمعظمه وما انتشر منه. ولفظ الضرب بالجران لثباته واستقراره وملاحظة لشبهه بالبعير البارك. وقوله: فامرؤ مبتدأ وما اختار عطف عليه، وما مصدرية وخبر المبتدأ محذوف تقديره مقرونان كقولهم كل امرئ وضيعته. وبالله التوفيق.

١٣ - وقال عليه السلام: فِي الَّذِينَ اعْتَزَلُوا الْقِتَالَ مَعَهُ: خَذَلُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ.

منهم عبد الله بن عمر وجماعة من القراء وغيرهم كأبي موسى الأشعري والأحنف بن قيس في حرب صفين. ويشبه أن يكون هذا إشارة إلى توسط درجتهم في الضلالة ويجري مجرى العذر لهم. فكأنه قال: إنهم وإن خذلوا الحق معنا لم ينصروا الباطل مع خصومنا.

١٤ - وقال عليه السلام: مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ، عَثَرَ بِأَجَلِهِ.

وهو تنفير عن تطويل الأمل بذكر بقطعه بالأجل، واستعار لفظ العنان له ملاحظة لشبهه بالفرس، ولفظ الجري للاندفاع في الأمل بحسب تطويله ولفظ العثار للامتناع عن ذلك الجري بعارض الأجل وقواطعه كعثار العادي بما يعرض له من حجر ونحوه.

١٥ - وقال عليه السلام: أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلاَّ وَيَدُ اللهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ.

رغّب في إقالة ذوي المروّات عثراتهم التي يتفق وقوعها نادراً كبيعهم لما يلحقهم الندم عليه ونحوه بذكر كون يد الله بأيديهم يرفعهم، واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأ ومن غير تثبّت. ولفظ اليد لعناية الله وقدرته. وكنّى عن تعلقاته وتدارك حاله بكون يده بيده يرفعه بذلك أن المروة فضيلة عظيمة يستجلب همم الخلق وقلوبهم ومساعداتهم، بحسب ذلك يكون استعداد العاثر من ذوي المروّات لعناية الله وقيامه من عثرته.

١٦ - وقال عليه السلام: قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ.

أراد بالهيبة الخوف من المقابل. وظاهر أن ذلك يستلزم عدم قضاء الحاجة منه والظفر بالمطلوب لعدم الانبساط في القول معه وهو معنى اقترانها بالخيبة، وكذلك الحياء بالحرمان لاستلزام الحياء ترك الطلب والتعرض له. وهو تنفير عن الهيبة والحياء المذمومين. ثم أمر بانتهاز فرص الخير: أي المبادرة إلى فعله عند حضور وقت إمكانه، ورغب في ذلك بضمير صغراه

قوله: الفرصة تمر مرّ السحاب: أي أنها سريعة الزوال، وتقدير الكبرى: وكلما كان كذلك فواجب أن يبادر إليه ويغتنم وقت إمكانه.

١٧ - وقال عليه السلام: لَنَا حَقٌّ، فَإِنْ أُعْطِينَاهُ، وَإِلاَّ رَكِبْنَا أَعْجَازَ الإِبِلِ، وَإِنْ طَالَ السُّرَى.

قال الرضي: وهذا من لطيف الكلام وفصيحه، ومعناه أنّا إن لم نعط حقنا كنا أذلاء، وذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما.

وقال الأزهري في تهذيب اللغة: قال القتيبي: أعجاز الإبل: مآخيرها - جمع عجز - وهو مركب شاق. قال: ومعناه إن منعنا حقنا ركبنا مركب المشقة وصبرنا عليه وإن طال، ولم نجز منه محلّين بحقنا. ثم قال الأزهري: لم يرد علي عليه السلام ركوب المشقة ولكنه ضرب أعجاز الإبل مثلاً لتأخره عن غيره في حقه من الإمامة وتقدّم غيره عليه فأراد إن منعنا حقنا منها وأخّرنا عن ذلك صبرنا على الأثرة فيها وإن طالت الأيام. والسرى: سير الليل. وأقول: الذي ذكره الثلاثة احتمالات حسنة وهي متقاربة لأن ركوب الأعجاز مظنة الذلّة والمشقة وتأخر المنزلة. ويحتمل أن تكون كلها مرادة له. ولم يفرق الأزهري بين المثل والكناية فإن ركوب الأعجاز كناية عن الأمور المذكورة، وكذلك طول السرى كناية عن طول المشقة لأنه مظنتها وملزومها، ويحتمل أن يكون كناية بالمثل.

١٨ - وقال عليه السلام: مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

أي من لم يكن له عمل صالح حسن فتأخر بسبب ذلك عن معالي الرتب الدنيوية والأخروية لم يسرع به حسبه وشرف بيته إليها إن كان ذا حسب. وكنّى ببطءِ عمله عن عدم وصوله إلى الخير لعدم ما يوصله إليه من زكى العمل وجعل الإسراع في مقابلة البطء.

١٩ - وقال عليه السلام: مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ: إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ.

الملهوف: المظلوم يستغيث: والتنفيس: التفريج من الغم الذي يأخذ بنفسه. وجعلها من كفارات الذنوب العظام لونها فضيلة عظيمة تستلزم فضائل كالرحمة والعدل والسخاء والمروة وغيرها. وظاهر أن حصول هذه الملكات في النفس مما يستلزم ستر الذنوب ومحوها ومنافاة ملكات السوء التي يعبّر عنها بالسيئات والذنوب كما سبقت الإشارة إليه.

٢٠ - وقال عليه السلام: يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ.

نفّر الإنسان عن معصية الله حال متابعة نعمه عليه بتحذيره منه، وذلك أنه لما كان دوام شكرها يعدّ للمزيد منها كان كفرانها ومقابلتها بالمعصية المستلزم لعدم الشكر مستلزماً لعدم الاستعداد للمزيد ومعداً للنقصان ونزول النقمة كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وهو محل الحذر منه. والواو في قوله: وأنت. للحال.

٢١ - وقال عليه السلام: مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ.

الفلتة: الأمر يقع من غير تروّ. وصفحة الوجه: بشرته. ولما كان الإنسان إنما يضمر في نفسه أمراً مهماً عنده من عداوة أو بغض أو محبة إلى غير ذلك، وكان الوجود اللساني عبارة عن الوجود النفساني ومظهراً له لم يتمكن المرء أن يحفظ ما أضمره بالكلية لأن مراعاة ذلك الحفظ إنما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة، والعقل قد يشتغل بالتصرف في مهمّ آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره فينفلت الخيال به من سرّ العقل فيبعثه في فلتات القول عن غير تروٍّ، وكذلك لما كانت التصورات والأمور النفسانية مبادئ للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل لم ينفك بعض الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين. وشاهد ذلك التجربة.

٢٢ - وقال عليه السلام: امْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ.

وفي رواية: ما حملك: أي ما دام المرض لا يبهظك ويعجزك فلا تنفعل عنه ولا تتعاجز به؛ بل كن في صورة الأصحاء. وقيل: فيه إيماء إلى ما أمر به من كتمان المرض كما قال الرسول صلى الله عليه وآله: من كنوز البر

كتمان الصدقة والمرض والمصيبة. وربما كانت فائدة ذلك كونه نوع تجلد، والتجلّد معاونة للطبيعة وتقوية لها على المرض، ومن المرض ما يتحلل بالحركات البدنية. واستعاد للمرض وصف الماشي باعتبار أنه لا يلزمه الأرض والفراش فهو كالحامل له والماشي به.

٢٣ - وقال عليه السلام: أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ.

الزهد منه ظاهر ومنه خفي وهو الزهد الحقيقي المنتفع به كما قال صلى الله عليه وآله: إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم. فلذلك كان أفضل. والمراد الزهد الخفي. فأضاف الصفة إلى الموصوف وقدمها لأنها أهم ولأن الزهد الظاهر يكاد لا ينفك عن رياء وسمعة فكان مفضولاً.

٢٤ - وقال عليه السلام: إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ، وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى!

وهو جذب بإقبال الموت ولقائه إلى الاستعداد له ولما بعده بالأعمال الصالحة، والإدبار والإقبال أمران اعتباريّان لأن الإنسان باعتبار أجزاء مدته وقتاً فوقتاً في إدبار، وبحسب ذلك يكون اعتبار فنائه في إقباله إليه، وبحسبهما يكون سرعة التقائهما. والملتقى مصدر.

٢٥ - وقال عليه السلام: اَلْحَذَرَ اَلْحَذَرَ! فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ.

حذّر من سخط الله بسبب معصيته لطول إمهاله وستره إلى الغاية المذكورة. وقوله: فوالله. إلى آخره صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من ستر على عبده إلى الغاية المذكورة فواجب أن يحذر غضبه ويجتنب معصيته ويرجع إلى طاعته التي هي الغاية من عنايته بستره.

٢٦ - وسئل عليه السلام عن الإيمان فقال: الإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ.

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ. فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ.

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ. فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الأَوَّلِينَ.

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ. فمن فهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً.

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ: فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْكَافِرِينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ للهِ، غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقال عليه السلام: والْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقَاقِ: فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلالَةِ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ.

وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى التَّمَارِي، وَالْهَوْلِ، وَالتَّرَدُّدِ، وَالاسْتِسْلامِ: فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ

الشَّيَاطِينِ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا.

قال الرضي: وبعد هذا كلام تركنا ذكره خوف الإطالة والخروج عن الغرض المقصود في هذا الباب.

أقول: الدعائم: أعمدة البيت. والشعبة: الغصن. والتبصر: التعرف. والتأويل: التفسير. والزهرة: النور. والشنآن: البغض. والتعمق: التعسف في معنى الكلام. وأعضل: اشتد. والتماري: المماراة. والهول: الفزع. والديدان: العادة. والسنابك: جمع سنبك وهو طرف حافر الفرس.

واعلم أن هذا الفصل من لطائف الحكمة. ومداره على شرح قواعد الإيمان والإشارة إلى فروع تلك القواعد ثم إلى ثمرات تلك الفروع. ولما كان الكفر مضاداً للإيمان، والشك مقابلاً له مقابلة العدم للملكة أشار إلى دعائم الكفر وشعب الشك ليتبيّن بهما الإيمان. إذ ضدها يتبيّن الأشياء: أما الإيمان فاعلم أنه عليه السلام أراد الإيمان الكامل وذلك له أصل وله كمالات بها يتم أصله فأصله لهو التصديق بوجود الصانع تعالى وماله من صفات الكمال ونعوت الجلال وبما تنزلت به كتبه وبلغته، وكمالاته المتممة هي الأقوال المطابقة ومكارم الأخلاق والعبادات.

ثم إن هذا الأصل ومتمماته هو كمال النفس الإنسانية لأنها ذات قوتين علمية وعملية وكمالها بكمال هاتين القوتين. فأصل الإيمان هو كمال القوة العلمية منها ومتمماته هي مكارم الأخلاق والعبادات هي كمال القوة العملية.

إذا عرفت هذا فنقول: لما كانت أصول الفضائل الخلقية التي هي كمال الإيمان أربعاً هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدل أشار إليها، استعار لها لفظ الدعائم باعتبار أن الإيمان الكامل لا يقوم في الوجود إلاّ بها كدعائم البيت فعبّر عن الحكمة باليقين، والحكمة منها علمية وهي استكمال القوة النظرية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية بقدر الطاقة البشرية. ولا تسمى حكمة حتى يصير هذا الكمال حاصلاً لها باليقين البرهاني. ومنها علمية وهي استكمال النفس بملكة العلم بوجوه الفضائل النفسانية الخلقية وكيفية اكتسابها، ووجوه الرذائل النفسانية وكيفية الاحتراز عنها واجتنابها، وظاهر أن العلم الذي صار ملكة هو اليقين. وعبّر عن العفة بالصبر. والعفة هي الإمساك عن الشره في فنون الشهوات المحسوسة وعدم الانقياد للشهوة وقهرها وتصريفها بحسب الرأي الصحيح ومقتضى الحكمة المذكورة، وإنما عبّر عنها بالصبر لأنها لازم من لوازمه. إذ رسمه أنه ضبط النفس وقهرها عن الانقياد لقبائح اللذات. وقيل: هو ضبط النفس عن أن يقهرها ألم مكروه ينزل بها في العقل احتماله أو يغلبها حبّ مشتهى يتوق الإنسان إليه ويلزم في حكم العقل اجتنابه حتى لا يتناوله على غير وجهه. وظاهر أن ذلك يلازم العفة، وكذلك عبر عن الشجاعة بالجهاد لاستلزامه إيّاها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. والشجاعة هي ملكة الإقدام الواجب على الأمور التي يحتاج الإنسان أن يعرض نفسه لاحتمال المكروه والآلام الواصلة إليه منها، وأما العدل فهو ملكة فاضلة تنشأ عن الفضائل الثلاث المشهورة وتلزمها.

وقد علمت فيما سلف أن كل واحدة من هذه الفضائل محتوشة برذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط منها ومقابلة برذيلة هي ضدها. وأما شعب هذه الدعائم: فاعلم أنه جعل لكل دعامة منها أربع شعب من الفضائل يتشعب منها ويتفرع عليها فهي كالفروع لها والأغصان: أما شعب الصبر الذي هو عبارة عن ملكة العفة:

فأحدها: الشوق إلى الجنة ومحبة الخيرات الباقية.

الثاني: الشفق وهو الخوف من النار وما يؤدي إليها.

الثالث: الزهد في الدنيا وهو الإعراض بالقلب عن متاعها وطيباتها.

الرابع: ترقب الموت. وهذه الأربع فضائل منبعثة عن ملكة العفة لأن كلاً منها يستلزمها.

وأما شعب اليقين:

فأحدها: تبصرة الفطنة وإعمالها. والفطنة هي سرعة هجوم النفس على حقائق ما تورده الحواس عليها.

الثاني: تأوّل الحكمة وهو تفسيرها واكتساب الحقائق ببراهينها واستخراج وجوه الفضائل ومكارم الأخلاق من مظانها ككلام يؤثر أو عبرة تعتبر.

الثالث: موعظة العبرة وهو أن يحصل من اعتبار العبر على اتعاظ وانزجار.

الرابع: أن يلحظ سنّة الأولين حتى يصير كأنه فيهم. وهذه الأربع هي فضائل تحت الحكمة كالفروع لها، وبعضها كالفرع للبعض.

وأما شعب العدل.

فأحدها: غوص الفهم: أي الفهم الغائص فأضاف الصفة إلى الموصوف وقدمها للاهتمام بها. ورسم هذه الفضيلة أنها قوة إدراك المعنى المشار إليه بلفظ أو كتابة أو إشارة ونحوها.

الثاني: غور العلم وأقصاه وهو العلم بالشيء كما هو بحقيقته وكنهه.

الثالث: نور الحكم: أي تكون الأحكام الصادرة عنه نيّرة واضحة لا لبس فيها ولا شبهة.

الرابع: ملكة الحلم. وعبّر عنها بالرسوخ لأن شأن الملكة ذلك. والحلم هو الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه. واعلم أن فضيلتي جودة الفهم وغور العلم وإن كانتا داخلتين تحت الحكمة وكذلك فضيلة الحلم داخلة تحت ملكة الشجاعة إلاّ أن العدل لما كان فضيلة موجودة في الأصول الثلاثة كانت في الحقيقة هي وفروعها شعباً للعدل. بيانه: أن الفضائل كلها ملكات متوسطة بين طرفي إفراط وتفريط وتوسطها ذلك هو معنى كونها عدلاً. فهي بأسرها شعب له وجزئيات تحته.

وأما شعب الشجاعة المعبّر عنها بالجهاد:

فأحدها: الأمر بالمعروف.

والثاني: النهي عن المنكر.

والثالث: الصدق في المواطن المكروهة. ووجود الشجاعة في هذه الشعب. الثلاث ظاهر.

الرابع: شنآن الفاسقين، وظاهر أن بغضهم مستلزم لعداوتهم في الله وثوران القوة الغضبية في سبيله لجهادهم وهو مستلزم للشجاعة.

وأما ثمرات هذه الفضائل فأشار إليها للترغيب في مثمراتها:

فثمرات شعب العفة أربع:

أحدها: ثمرة الشوق إلى الجنة وهو السلو عن الشهوات وظاهر كونه ثمرة له. إذ السالك إلى الله ما لم يشتق إلى ما وعد المتقون لم يكن له صارف عن الشهوات الحاضرة مع توفر الدواعي إليها فلم يسل عنها.

الثانية: ثمرة الخوف من النار وهو اجتناب المحرمات.

الثالثة: ثمرة الزهد وهي الاستهانة بالمصيبات لأن غالبها وعامها إنما يلحق بسبب فقد محبوب من الأمور الدنيوية فمن أعرض عنها بقلبه كانت المصيبة بها هينة عنده.

الرابعة: ثمرة ترقب الموت وهي المسارعة في الخيرات والعمل له ولما بعده.

وأما ثمرات اليقين فإن بعض شعبه ثمرة لبعض فإن تبيّن الحكمة وتعلّمها ثمرات لإعمال الفطنة والفكرة ومعرفة العبر ومواقع الاعتبار بالماضين، والاستدلال بذلك على صانع حكيم ثمرة لتبيّن وجوه الحكمة وكيفية الاعتبار.

وأما ثمرات العدل فبعضها كذلك أيضاً. وذلك أن جودة الفهم وغوصه مستلزم للوقوف على غور العلم وغامضه، والوقوف على غامض العلم مستلزم للوقوف على شرائع الحكم العادل والصدور عنها بين الخلق من القضاء الحق.

وأما ثمرة الحلم فعدم وقوع الحليم في طرف التفريط والتقصير عن هذه الفضيلة وهو رذيلة الجبن، وأن يعيش في الناس محموداً بفضيلته.

وأما ثمرات الجهاد:

فأحدها: ثمرة الأمر بالمعروف وهو شد ظهور المؤمنين ومعاونتهم على إقامة الفضيلة.

الثانية: ثمرة النهي عن المنكر. وهي إرغام أنوف المنافقين وإذلالهم بالقهر عن ارتكاب المنكرات وإظهار الرذيلة.

الثالثة: ثمرة الصدق في المواطن المكروهة وهي قضاء الواجب من أمر الله تعالى في دفع أعدائه والذب عن الحريم.

والرابعة: ثمرة بغض الفاسقين والغضب لله وهي غضب الله لمن أبغضهم وإرضاؤه يوم القيامة في دار كرامته.

وأما الكفر فرسمه أنه جحد الصانع أو إنكار أحد رسله عليهم، أو ما علم مجيئهم به بالضرورة. وله أصل هو ما ذكرناه، وكمالات ومتممات هي الرذائل الأربع التي جعلها دعائم له وهي الرذائل من الأصول الأربعة للفضائل الخلقية.

فأحدها: التعمق وهو الغلو في طلب الحق والتعسف فيه بالجهل والخروج إلى حد الإفراط وهو رذيلة الجور من فضيلة العدل ويعتمد الجهل بمظان طلب الحق. ونفر عن هذه الرذيلة بذكر ثمرتها وهي عدم الإنابة إلى الحق والرجوع إليه لكون تلك الرذيلة صارت ملكة.

والثانية: التنازع وهو رذيلة الإفراط في فضيلة العلم ويسمى جربزة يعتمد الجهل المركب ولذلك نفّر عنه بما يلزمه عند كثرته وصيرورته ملكة من دوام العمى عن الحق.

والثالثة: الزيغ ويشبه أن يكون رذيلة الإفراط من فضيلة العفة وهو الميل عن حاق الوسط منها إلى رذيلة الفجور ويعتمد الجهل، ولذلك يلزمه قبح السنة وحسن السيئة وسكر الضلالة، واستعار لفظ السكر لغفلة الجهل باعتبار ما يلزمهما من سوء التصرف وعدم وضع الأشياء مواضعها، ويحتمل أن يكون إشارة إلى رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة المسماة غباوة.

والرابعة: الشقاق وهو رذيلة الإفراط من فضيلة الشجاعة المسماة تهوراً أو مستلزماً له. ويلزمها توعر المسالك على صاحبها وضيق مخرجه من الأمور لأن مبدأ سهولة المسالك واتساع المداخل والمخارج في الأمور هو مسالمة الناس والتجاوز عما يقع منهم والحلم عنهم واحتمال مكروههم.

وأما الشك فعبارة عن التردد في اعتقاد أحد طرفي النقيض، ويقابل اليقين كما سبق. وذكر له أربع شعب:

أحدها: التماري وظاهر أن مبدأ المراء الشك ونفر من اتخذه ملكة وعادة بكونه لا يصبح ليله، وذلك كناية عن عدم وضوح الحق له من ظلمة ليل الشك والجهل.

الثاني: الهول لأن الشك في الأمور يستلزم عدم العلم بما فيها من صلاح أو فساد، وذلك يستلزم الفزع والخوف من الإقدام عليها. وثمرتها النكوص والرجوع إلى الأعقاب.

الثالث: التردد في الشك: أي الانتقال من حالة إلى حالة ومن شك في أمر إلى شك في آخر من غير ثقة بشيء. وذلك دأب من تعوّد التشكك في الأمور. ونفر عن ذلك بما يلزمه مما كنّى عنه بوطء سنابك الشياطين وهو ملك الوهم والخيال لأرض قلبه حتى يكون سلطان العقل بمعزل عن الجزم بما من شأنه الجزم به.

الرابعة: الاستسلام لهلكة الدنيا والآخرة. ولزومه عن الشك لأن الشاك في الأمور الدنيوية والأخروية المتعوّدة لذلك غير عامل لشيء منها ولا مهتم بأسبابها وبحسب ذلك يكون استسلامه لما يرد منها عليه. ولزوم هلاكه فيهم لاستسلامه ظاهر. وبالله التوفيق.

٢٧ - وقال عليه السلام: فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ.

وإنما كان كذلك لأن العلة أقوى من معلولها فكان أقوى في خيريته وشريته وتأثيرهم مما صدر عنه من خير أو شر.

٢٨ - وقال عليه السلام: كُنْ سَمْحاً وَلا تَكُنْ مُبَذِّراً، وَكُنْ مُقَدِّراً وَلا تَكُنْ مُقَتِّراً.

وهو أمر بفضيلة السماح والكرم ونهى عن الكون على طرفي الإفراط والتفريط منها فطرف الإفراط هو التبذير وطرف التفريط هو التقتير.

٢٩ - وقال عليه السلام: أَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَى.

المنى: جمع منية بمعنى التمني. ولما كان ذلك

رذيلة تلزم عن رذائل كالشره والحرص ونحوهما. وأقلها أنها اشتغال عما يعني بما لا فائدة فيه رغب في تركها بأن فسر به أشرف الغنى حتى جعله هو هو، وظاهر أن ترك المنى يستلزم القناعة. واستلزامها للغنى النفساني وعدم الحاجة ظاهر.

٣٠ - وقال عليه السلام: مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ بِمَا لا يَعْلَمُونَ.

لما كان من شأن الطبع النفرة عن الأذى وبغض المؤذي وعداوته كان من شأنه في غالب الخلق تقبيح ذكره بما يمكن من قول صادق أو كاذب أو محتمل لغرض أن يوافقهم السامعون على دفعه وأذاه.

٣١ - وقال عليه السلام: مَنْ أَطَالَ الأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ.

لما كان طول الأمل في الدنيا مستلزماً للإقبال عليها والانهماك في العمل لها والغفلة عن الآخرة كان ذلك عملاً سيئاً بالنسبة إلى الآخرة.

٣٢ - وقال عليه السلام: وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار، فترجلوا له واشتدوا بين يديه:

فقال: مَا هٰذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ فَقَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا. فَقَالَ: واللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهٰذا أُمَرَاؤُكُمْ! وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ. وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الأَمَانُ مِنَ النَّارِ.

اشتدوا: عدوا بين يديه والشقاء في الآخرة بذلك لأنه تعظيم لغير الله. وحاصله تنفيرهم عما اعتمدوه معه بضمير صغراه قوله: والله. إلى قوله: آخرتكم. ونبه على الكبرى بقوله: وما أخسر المشقة وراءها العقاب وتقديرها: وكلما كانت مشقة على النفس ويتبعها العقاب في الآخرة فهو أشد الخسارة. وجذبهم إلى ترك ذلك بما يلزمه من الدعة والراحة في الدنيا مع الأمان من النار. فكأنه قال: فينبغي أن يتركوا ذلك التكلف فإنه دعة وراحة مع الأمان من النار وكلما كان كذلك فهو أعظم الأرباح. وإنما يلزمهم الشقاء بذلك في الآخرة لكونه تعظيماً لغير الله بما لا ينبغي إلاّ لله.

٣٣ - وقال عليه السلام: يَا بُنَيَّ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً، وَأَرْبَعاً، لا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرُ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلقِ.

يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ: يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ.

إنما قال: أربعاً وأربعاً لأن الأربع الأول من باب واحد وهو اكتساب الفضائل الخلقية النفسانية، والأربع الثانية من باب المعاملة مع الخلق.

وقيل: لأن الأولى من باب الإثبات والثانية من باب النفي.

أما الأربع الأولى:

فالأولى: العقل: وأراد المرتبة الثانية من مراتب العقل النظري المسمى عقلاً بالملكة وهو أن يحصل لنفسه من العلوم البديهية والحسية والتجريبية قوة أن يتوصل بها إلى العلوم النظرية، وغاية ذلك أن يحصل على ما بعد هذه المرتبة من مراتب العقل. ورغب فيه بكون أغنى الغنى وذلك أن به يحصل الدنيا والآخرة فهو أعظم أسباب الغنى وفيه الغنى.

الثانية: الحمق وهو رذيلة الغباوة وطرف التفريط من العقل المذكور ونفر عنه بكونه أكبر الفقر لأنه سبب للفقر من الكمالات خصوصاً النفسانية التي بها الغنى التام فكان أكبر فقر.

الثالثة: العجب وهو رذيلة الكبر، وتضاد التواضع. ونفر عنها بكونها أوحش الوحشة. وظاهر كونها أقوى أسباب الوحشة ونفرة الأنيس لأن تواضع المتواضع لما

استلزم أنس الخلق به، وشدة ميلهم إليه كان ضدّه مستلزماً لنفرتهم وتوحشهم التام منه.

الرابعة: حسن الخلق ورغب فيه بكونه أكرم الحسب لكونه أشرف الكمالات الباقية. وهذه المنفرات والمرغّبات صغريات ضمائر.

وأما الأربع الثانية:

الأولى: الحذر من مصادقة الأحمق. ونفّر عنه بما يلزم حمقه من وضع المضرة موضع المنفعة عند إرادتها لعدم الفرق بينهما.

الثانية: الحذر من مصادقة البخيل. ونفر عنه بما يستلزم بخله من قعوده عن صاحبه عند الحاجة. و - أحوج - حال من الضمير في عنك.

الثالثة: الحذر من مصادقة الفاجر. والفجور رذيلة الإفراط من فضيلة العفة ونفّر عنه بما يلزم فجوره من قلة وفائه وبيعه بالتافه وهو القليل من المال.

الرابعة: الحذر من مصادقة الكذاب. ونفّر عنه بتشبيهه بالسراب. وأشار إلى وجه الشبه بقوله: يقرّب. إلى آخره. وبيانه أن الكذاب يوهم حقيقة ما يقول فيسهل الأمور العسرة البعيدة ويجعلها قريبة المتناول ويبعد الأمور السهلة القريبة ويجعلها بعيدة المتناول بحسب أغراضه وكذبه مع أنه ليس كذلك في نفس الأمر كالسراب الذي يظن ماء وليس به. والتنفيرات الأربع المقرونة بقوله: فإنه. صغريات ضمائر تقدير كبرياتها: وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر صحبته ويجتنب مصادقته. وبالله التوفيق.

٣٤ - وقال عليه السلام: لا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالْفَرَائِضِ.

والإضرار بالفرائض: تنقيص بعض أركانها وشرائطها. وقد يفعل الإنسان ذل لتعبه من الاشتغال بالنافلة أو لما يريد أن يستقبله منها. ولا قربة فيما يستلزم ترك الواجب لاستلزامه المعصية والعقاب ومتافاتهما للقربة.

٣٥ - وقال عليه السلام: لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ.

قال الرضي: وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه، إلا بعد مشاورة الروية ومؤامرة الفكرة. والأحمق تسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره ومماخضة رأيه. فكان لسان العاقل تابع لقلبه، وكان قلب الأحمق تابع للسانه.

روي عنه عليه السلام هذا المعنى بلفظ آخر، وهو قوله: قَلْبُ الأَحْمَقِ فِي فِيهِ، وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ.

وأقول: إنه استعار لفظ الوراء في الموضعين لما يعقل من تأخر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخر رويّة الأحمق وفكره فيما يقول عن بوادر مقاله من غير مراجعة لعقله. والمعنى ما أشار إليه السيد رحمه الله. وعلى الرواية الأخرى فأراد أن ما يتصوره الأحمق هو في فيه: أي يبرز على لسانه من غير فكر، وأما نطق العاقل فمخزون في عقله لا يخرج إلاّ عن روية صادقة. ولفظ القلب في الأول مجاز فيما يبرز من تصوراته في ألفاظه، ولفظ اللسان مجاز في ألفاظه الذهنية.

٣٦ - وقال لبعض أصحابه في علة اعتلها: جَعَلَ اللهُ مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطّاً لِسَيِّئَاتِكَ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لا أَجْرَ فِيهِ، وَلٰكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ، وَيَحُتُّهَا حَتَّ الأَوْرَاقِ. وَإِنَّمَا الأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ، وَالْعَمَلِ بِالأَيْدِي وَالأَقْدَامِ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ.

قال الرضي رحمه الله: وأقول صدق عليه السلام، إن المرض لا أجر فيه؛ لأنه من قبيل ما يستحق عليه العوض لأن العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك، والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد، فبينهما فرق قد بيّنه عليه السلام كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب.

وأقول: دعا عليه السلام لصاحبه بما هو ممكن وهو حط السيئات بسبب المرض ولم يدع له بالأجر عليه معللاً

ذلك بقوله: فإن المرض لا أجر فيه. والسر فيه أن الأجر والثواب إنما يستحق بالأفعال المعدة له كما أشار إليه بقوله: وإنما الأجر في القول. إلى قوله: الأقدام: وكنّى بالأقدام عن القيام بالعبادة وكذلك ما يكون كالفعل من عدمات الملكات كالصوم ونحوه على ما بيّناه قبل فأما المرض فليس هو بفعل العبد ولا عدم فعل من شأنه أن يفعله فأما حطّه للسيئات فباعتبار أمرين:

أحدهما: أن المريض تنكسر شهوته وغضبه اللذين هما مبدأ للذنوب والمعاصي ومادتها.

والثاني: أن من شأن المرض أن يرجع الإنسان فيه إلى ربه بالتوبة والندم على المعصية والعزم على ترك مثلها كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢] الآية. فما كان من السيئات حالات غير متمكنة من جوهر النفس فإنه يسرع زوالها منها وما صار ملكة فربما يزول على طول المرض ودوام الإنابة إلى الله تعالى، واستعار لزوالها لفظ الحط وشبهه في قوة الزوال والمفارقة بحط الأوراق. ثم نبه عليه السلام بقوله: وإن الله. إلى آخره. على أن العبد إذا احتسب المشقة في مرضه لله بصدق نيته مع صلاح سريرته فقد يكون ذلك معداً لإفاضة الأجر والثواب عليه ودخوله الجنة. ويدخل ذلك في أعداد الملكات المقرونة بنية القربة إلى الله . وكلام السيد رحمه الله مقتضى مذهب المعتزلة.

٣٧ - وقال عليه السلام: فِي ذِكْرِ خَبَّابِ بنِ الأرتّ: يَرْحَمُ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ، فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وَهَاجَرَ طَائِعاً، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللهِ، وَعَاشَ مُجَاهِداً. طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللهِ.

خباب بالخاء المعجمة والباء المشددة كان من المهاجرين ومن أصحابه عليه السلام ومات بعد انصرافه من صفين بالكوفة وهو أول من قبره عليه السلام . وقد مدحه بأوصاف ثلاثة من أوصاف الصالحين:

أحدها: إسلامه عن رغبة وهو الإسلام المنتفع به.

الثاني: مهاجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله طائعاً وهي الهجرة التامة عن رغبة في الله ورسوله.

الثالث: كونه عاش مجاهداً أما مع رسول الله صلى الله عليه وآله فللكفّار، وأما في وقته عليه السلام فللبغاة والخوارج والناكثين.

وقوله: طوبى. إلى آخره.

في معرض مدح خبّاب يشعر بأن خبّاباً كان كذلك. وطوبى فعلى من الطيب. قيل في التفسير: هي شجرة في الجنة. رغب بها في ذكر المعاد والحساب المستلزم للعمل لهما ولفضيلة القناعة والرضا عن الله في قضائه وقدره. والقناعة فضيلة تحت العفة، والرضا فضيلة تحت العدل.

٣٨ - وقال عليه السلام: لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هٰذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي. وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: يَا عَلِيُّ، لا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ.

الخيشوم: أصل الأنف. والجمّات: جمع جمة وهو مجتمع الماء من الأرض. ولما كان الإيمان الحق يوجب الاتحاد وصدق المحبة في الله بين المؤمنين لا جرم لم يجتمع معها البغض. ولما كان النفاق منافياً للإيمان كان منافياً لما يلزمه من المحبة في الله فلا يجتمع معه ولو ببذل أجزل مال للمنافق. واستعار لفظ الجمّات لمجامع أموال الدنيا ملاحظة لمشابهته المعقولة، نعم قد يحصل بسبب ذلك محبة عرضية فانية بفناء مادتها من بذل المال ونحوه وليس الكلام في ذلك النوع من المحبة. وذلك سر قوله صلى الله عليه وآله: لا يبغضك. إلى آخره. وأحال عليه السلام ذلك على ما قضي فانقضى أي قدّر على لسان النبي صلى الله عليه وآله .

٣٩ - وقال عليه السلام: سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ.

أراد بالسيئة التي تسوؤه كذنب يصدر عنه فيندم عليه ويحزن لفعله، وبالحسنة التي تعجبه كصلاة أو صدقة

يحصل بها إعجاب. فأما أن تلك السيئة خير عند الله من هذه الحسنة فلأن الندم المعاقب للسيئة ماح لها والحسنة المستعقبة للعجب مع إحباطها به يكون لها أثر هو سيئة ورذيلة تسود لوح النفس فكانت السيئة أهون فكانت خيراً عند الله.

٤٠ - وقال عليه السلام: **قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ.**

أشار إلى أمور أربعة وجعلها مبادئ لأمور أربعة:

أحدها: الهمة وجعلها مبدأً لقدر الرجل. وقدره هو مقداره في اعتبار الناس من رفعة رتبة وتبجيل أو خسة واحتقار وهو من لوازم علو همته أو دناءتها. فعلو الهمة هو أن لا يقتصر على بلوغ غاية من الأمور التي يزداد بها فضيلة وشرفاً حتى يسمو إلى ما وراءها مما هو أعظم قدراً وأجل خطراً ويلزم ذلك نبله وتعظيمه ومدحه، وصغرها أن يقتصر على محقرات الأمور وخسائسها ويقصر عن علياتها وبحسب ذلك يكون صغر خطره وقلة قدره.

الثاني: جعل مبدأ الصدق المروءة - والمروءة فضيلة يتعاطى معها الإنسان الأفعال الجميلة واجتناب ما يعود إليه بالنقص وإن كان مباحاً فلذلك يلزمه الصدق في مقاله، وبقدر قوة هذه الفضيلة وضعفها يكون قوة لازمها وضعفها.

الثالث: جعل الأنفة مبدأً للشجاعة. والأنفة حمية الأنف وثوران الغضب لما يتخيّل من مكروه يعرض استنكاراً له واستنكافاً من وقوعه. وظاهر كونه مبدأً للشجاعة والإقدام على الأمور وبحسبها تكون قوة الإقدام وضعفه.

الرابع: جعل الغيرة مبدأً للعفة. والغيرة نفرة طبيعية تكون من الإنسان عن تخيل مشاركة الغير في أمر محبوب له أو معتقد لوجوب حفظه. وبحسب شدة ذلك الاعتقاد والتخيّل وضعفهما وتصور وقوع مثل ذلك الفعل في نفسه أو حريمه ومثلاً يكون امتناعه عن مشاركة الغير وقوفه عن اتباع الشهوة في مشاركة الناس في الأمور المحبوبة لهم كزوجة ونحوها. وهو معنى العفة.

٤١ - وقال عليه السلام: **الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الأَسْرَارِ.**

الحزم أن يقدم العمل في الحوادث الواقعة في باب الإمكان قبل وقوعها بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور. وإجالة الرأي: إعماله. وتحصين الأسرار: كتمانها وحفظها. وأشار إلى المبدأ القريب للظفر وهو الحزم وإلى البعيد منها وهو كتمان السر وإلى الوسط منها هو إجالة الرأي. فأما سببيّة كتمان السر للرأي الصحيح فلأن إظهار السر فيما يرى من الرأي في الحرب وغيرها يستلزم ظهور العدو على ذلك والعمل فيما يعارضه ويفسده وذلك من فاسد الرأي، وأما سببيّة إجالة الرأي في اختيار المصلحة للحزم فلأنه لولاه لجاز أن يكون العمل المتقدم في الحوادث المستقبلة غير موافق فلا يحصل الحزم، وأما أن الحزم سبب للظفر فظاهر.

٤٢ - وقال عليه السلام: **احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ، وَاللئيمِ إِذَا شَبِعَ.**

أراد بالكريم شريف النفس ذا الهمة العلية. وجوعه كناية عن شدة حاجته وذلك مستلزم لثوران حميّته وغضبه عند عدم التفات الناس إليه، وحمل نفسه على المبالغة في طلب أمر كبير يصول عليهم به ويتسلط بواسطته عل قهرهم ومكافأتهم كالولاية عليهم ونحوها فلذلك أوجب الحذر منه والاحتراز من صولته بالالتفات إليه في حاجته وأوقات ضرورته بما يدفعها. وشبع اللئيم كناية عن غناه وعدم حاجته. وذلك يستلزم استمراره على مقتضى طباعه من اللؤم. وشبعه مؤكد لذلك، وأما جوعه فربما كان سبباً لتغيّر أخلاقه وتجويدها لغرض. واستمرار ذي الشبع من اللئام على مقتضى طباعه من اللؤم مستلزم لأذى من كان تحت يده ومن يحتاج إليه من الناس فمن الواجب إذن أن يحذر صولته ويحسم أسباب شبعه عند التمكن من ذلك.

٤٣ - وقال عليه السلام: **قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.**

جعل عليه السلام الوحشة هنا أصليّة وذلك باعتبار كون الألفة مكتسبة. والوحشة عدم الألفة عما من شأنه أن يألف. والمعنى ظاهر.

٤٤ - وقال عليه السلام: **عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ.**

سعادة الجد عبارة عن حسن البخت وتوافق أسباب لمصلحة في حق الإنسان ومن مصالحه ستر العيوب والرذائل وبحسب دوام ذلك يدوم سترهما.

٤٥ - وقال عليه السلام: **أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ.**

لما كانت فضيلة العفو إنما تطلق في العرف على من قدر على العقوبة ولم يعاقب وكان العفو والقدرة مقولين بالأشد والأضعف لا جرم كانت أولويّة العفو تابعة لأولوية القدرة وأشديتها: أي من كان أشد قدرة على العقوبة وعدمها كان أولى بأن يسمى عفواً.

٤٦ - وقال عليه السلام: **السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ.**

التذمّم: الاستنكاف. والسخاء: عبارة عن ملكة بذل المال لمن يستحقه بقدر ما ينبغي ابتداءً عن طيب نفس وحسن المواساة لذوي الحاجة منه، وبهذا الرسم يتبيّن أن ما كان من البذل عن مسألة فخارج عن رسم السخاء. وذكر له سببين:

أحدهما: الحياء من السائل أو من الناس فيتكلف البذل لذلك.

الثاني: الاستنكاف مما يصدر من السائل من لجاج أو مسبة بالبخل ونحوه.

٤٧ - وقال عليه السلام: أربع كلمات:

لا غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلا فَقْرَ كَالْجَهْلِ، وَلا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ، وَلا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ.

إحديها: لا غنى كالعقل. لما سبق أنه أغنى الغنى وأنه لا يكون غنى مثله.

الثانية: ولا فقر كالجهل. وذلك لما مر أن أكبر الفقر الحمق، والمراد بالجهل هنا ما يقابل العقل بالملكة وهو الحمق أو ما يلازمه.

الثالثة: ولا ميراث كالأدب. الأدب هو التحلي بمكارم الأخلاق وهو أفضل من كل موروث من مال وقنية.

الرابعة: ولا ظهير كالمشاورة. تنتج في غالب الأحوال الرأي الصحيح فيما يراد من الأمور، والرأي الصحيح أنفع في التدبير من القوة وكثرة العدد كما قال أبو الطيب: الرأي قبل شجاعة الشجعان. البيت. لا جرم لم يكن للمشاورة التي هي مظنة ما يساويها في المعونة على المنفعة من الأمور التي يستظهر بها ويستعان.

٤٨ - وقال عليه السلام: **الصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ.**

التعدد في الصبر هنا تعدّد وصفي لأن حقيقته في الموضعين واحدة على ما عرفت حقيقته.

٤٩ - وقال عليه السلام: **الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ. وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ.**

استعار لفظ الوطن للغنى في الغربة باعتبار أنه يسكن إليه ويؤنس فلا يرى أثر الغربة على الإنسان معه، واستعار لفظ الغربة للفقر في الوطن باعتبار ضيق الخلق معهما وتعسّر الأمور فيهما.

٥٠ - وقال عليه السلام: **الْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ.**

القناعة هي ضبط قوة النفس عن الاشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة من المعاش والأقوات وعدم ما يشاهد من ذلك عند الغير، واستعار لها لفظ المال بوصف عدم النفاد باعتبار دوام الغنى معها كالمال الموصوف.

٥١ - وقال عليه السلام: **الْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ.**

أي منه يكون استمدادها وزيادتها، والمادة هي الزيادة. وفي الكلمة تنفير عن لاستكثار من المال لما يلزمه من إمداد الشهوة وتقويتها على معصية العقل.

٥٢ - وقال عليه السلام: مَنْ حَذَّرَكَ كَمَنْ بَشَّرَكَ.

أراد من حذرك من الأمر كمن بشرك بالنجاة منه، ووجه الشبه ظاهر. وهو ترغيب في الإقبال على المحذر واستماع تحذيره لغرض النجاة بتشبيهه بالمبشر.

٥٣ - وقال عليه السلام: اللِّسَانُ سَبُعٌ، إِنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ.

استعار لفظ السبع للسان باعتبار أنه إن ترك عن ضبط العقل له نطق بما فيه هلاك صاحبه كالسبع إذا لم يحفظ.

٥٤ - وقال عليه السلام: الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّبْسَةِ.

اللبسة للعقرب: لسعها. واستعار للمرأة لفظ العقرب بالوصف المذكور باعتبار أن من شأنها الأذى لكن أذاها مشوب بما فيها من اللذة بها فلا يحس به وهو كأذى الجرب المشوب بلذته في زيادة حكته.

٥٥ - وقال عليه السلام: الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ.

استعار له لفظ الجناح باعتبار كونه وسيلة له إلى مطلوبه كجناح الطائر.

٥٦ - وقال عليه السلام: أَهلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ.

ووجه الشبه قوله: يسار بهم وهم نيام. وذلك أن الدنيا لأهلها طريق هم فيها سائرون إلى الآخرة حال ما هم في غفلة عن غايتهم والعمل لها حتى يوافوها. فأشبهوا الركب الذين يسيرون وهم نيام حتى يوافوا منزلهم.

٥٧ - وقال عليه السلام: فَقْدُ الأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ.

استعار لفظ الغربة لفقد الأحبة باعتبار ما يلزمهما من الوحشة وعدم الأنس.

٥٨ - وقال عليه السلام: فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا.

فغير أهلها هم اللئام ومحدثو النعمة وساقطو الأصول، وإنما كانت أهون لأن فوتها يستلزم غماً واحداً وأما طلبها إلى غير أهلها فإنها لا تحصل غالباً فيستلزم غمّ فوتها ثم ثقل الاستنكاف والندم من رفعها إليهم ثم غمّ ذلّ الحاجة إلى اللئام وله ألم عظيم كما قال: الموت أحلى من سؤال اللئام. ثم غمّ ردهم لها. وهي غموم أربعة. وكذلك إن قضيت كان فيها غمّ ثقل الاستنكاف ثم ذلّ الحاجة إليهم فكان فوتها أهون على كل حال. وهذه الكلمة تجذب إلى فضيلتي القناعة وعلو الهمة.

٥٩ - وقال عليه السلام: لا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ.

أراد بقوله: أقل منه: أي أحقر في الاعتبار وذلك أن الحرمان هو عدم العطاء عما من شأنه أن يعطى وليس ذلك العدد من باب الكم ليلحقه القلة والكثرة. ونفر عن الحياء من إعطاء القليل بضمير صغراه قوله: فإن الحرمان أقل منه. وتقدير كبراه: وكلما كان الحرمان أقل منه فينبغي أن لا يستحي منه بل من الحرمان الذي هو أقل منه.

٦٠ - وقال عليه السلام: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ.

العفاف: العفة. وقد علمت أنها فضيلة القوة الشهوية. والفقير إذا ضبط شهوته بزمام عقله من ميولها الطبيعية كملت نفسه بفضيلة العفة وزان فقره بفضيلته في أعين المعتبرين، وإذا أهملها وأسلس قيادها تقحّمت به في موارد القبح وقادته إلى الهلع والحرص والحسد والمنى والكدية وحصل بسببها في أقبح صورة.

٦١ - وقال عليه السلام: إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَلا تُبَلْ مَا كُنْتَ.

أي إذا فاتك مرادك من الأمر فلا تُبال بأي حال كنت عليه في ذلك الأمر. ومفهوم هذه الكلمة النهي عن الاهتمام والأسف على ما لم يقع من الأمور المطلوبة وذلك أن الأسف على فوات المراد يستلزم غماً وألماً وهو مضرة عاجلة لا يثمر فائدة فارتكابه سفه.

٦٢ - وقال عليه السلام: لا تَرَى الْجَاهِلَ إِلاَّ مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً.

الجهل إما بسيط وهو طرف التفريط من فضيلة ويسمى غباوة وإما مركب وهو طرف الإفراط منها وذلك أن الجاهل جهلاً مركباً قد بالغ في طلب الحق وحصل

من اجتهاده على شبهة غطت عين بصيرته من إدراكه مع جزمه بأنها برهان أصاب به الحق، وقد يسمى هذا الطرف جربزة فكان أبداً على أحد الوجهين، وبحسب جهله يكون حاله في أفعاله وأقواله على أحد طرفي الإفراط والتفريط.

٦٣ - وقال عليه السلام: إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ.

تمام العقل يستلزم كمال قوته على ضبط القوى البدنية وتصريفها بمقتضى الآراء المحمودة الصالحة، ووزن ما يبرز إلى الوجود الخارجي عنها من الأقوال والأفعال بميزان الاعتبار وفي ذلك من الكلفة والشرائط ما يستلزم نقصان الكلام بخلاف ما لا يوزن ولا يعتبر من الأقوال.

٦٤ - وقال عليه السلام: الدَّهْرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ، وَيُجَدِّدُ الْآمَالَ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ، وَيُبَاعِدُ الْأُمْنِيَّةَ: مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصِبَ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعِبَ.

إخلاقه للأبدان إعداده لضعفها وفسادها بمروره وما يلحق أجزاءه وفصوله من الحر والبرد والمتاعب المنسوبة إليه، وتجديده للآمال بحسب الغرور الحاصل بالبقاء والصحة فيه وأكثر ما يعرض ذلك للمشايخ فإن طول أعمارهم وتجاربهم لما يعرض فيه من الحاجة والفقر يغريهم بالحرص على الجمع ومدّ الأمل فيه لتحصيل الدنيا، وتقريبه للمنية بحسب إخلاقه للأبدان، وتبعيده للأمنية بحسب تقريبه للمنية، ومن ظفر به: أي بمواتاته وإعداده لما يراد فيه من متاع الدنيا نصب بها وشقي بضبطها وحفظها، ومن فاته ذلك منه تعب في تحصيلها وشقي بعدمها. وراعى عليه السلام في القرينتين الأوليين السجع المتوازن وفي المتوسطتين السجع المطرف، وفي الأخيرتين السجع المتوازي.

٦٥ - وقال عليه السلام: مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ.

أشار إلى آداب أئمة العلم ومكارم الأخلاق:

فالأول: وجب على الإمام البدء بتعليم نفسه: أي برياضتها بما يعلم من الآداب لتكون أفعاله وأقواله موافقة لعلمه وذلك لأن الناس أقرب إلى الاقتداء بما يشاهد من الأفعال والأحوال منهم بالأقوال فقط خصوصاً مع مشاهدتهم لمخالفتها بالأفعال فإن ذلك يكون سبباً لسوء الاعتقاد في الأقوال المخالفة للفعل والجرأة على مخالفة ما اشتهر منها، وإن كان ظاهر الصدق: وإلى مثل ذلك أشار القائل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

الثاني: أرشده إلى البدء في التعليم بالسيرة وحميدة الأفعال لما بيّنا أن الطباع لمشاهدة الأفعال أطوع وأسرع انفعالاً منها للأقوال ثم يطابقها بعد ذلك بالأقوال. ثم رغب في تأديب النفس بكون مؤدب نفسه أحق بالتعظيم والإجلال من مؤدب غيره وذلك لكمال مؤدب نفسه بالفضيلة وكون تأديب الغير فرعاً على تأديب النفس والأصل أشرف وأحق بالتعظيم من الفرع وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان بالإجلال أحق وجب عليه أن يبدأ بما لأجله كان أحق بالتعظيم من غيره.

٦٦ - وقال عليه السلام: نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ.

استعار للنفس لفظ الخُطا باعتبار أنه على التعاقب والتقضي فهو مقرب من الغاية التي هي الأجل كالخطا المتعاقبة الموصلة للإنسان إلى غايته من طريقه.

٦٧ - وقال عليه السلام: كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ.

والكلّيتان من المشهورات الخطابية في معرض الموعظة، والأولى إشارة إلى أنفاس العباد وحركاتهم. والثانية تخويف بما يتوقع من الموت وتوابعه.

٦٨ - وقال عليه السلام: إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا.

أي إذا التبست في مبادئها معرفة وجه تحصيلها وتعسر الدخول فيها قيس على ذلك آخرها واستدل على

أنه كذلك في العسر فيجب التوقف عنها وعدم التعسف فيها.

٦٩ - ومن خبر ضرار بن حمزة الضبائي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: فأشهدُ لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين

ويقول:

يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكِ عَنِّي، أَبِي تَعَرَّضْتِ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ؟ لا حَانَ حِينُكِ! هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي، لا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لا رَجْعَةَ فِيهَا! فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ. آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ!

أقول: كان هذا الرجل من أصحابه عليه السلام فدخل على معاوية بعد موته فقال: صف لي علياً فقال: أوتعفيني عن ذلك؟ فقال: والله لتفعلنّ. فتكلّم بهذا الفصل. فبكى معاوية حتى اخضلّت لحيته. الضباء بطن من فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. والسدول: جمع سدل وهو ما أُسيل على الهودج. والتململ: التقلقل من الألم والهم. والسليم: الملسوع. والوله: أشد الحزن. وقد نظر عليه السلام إلى الدنيا بصورة امرأة تزينت وتعرضت لوصوله إليها مع كونها مكروهة إليه. فخاطبها بهذا الخطاب. وإليك: من أسماء الأفعال: أي تنحي. وعني: متعلق بما فيه من معنى الفعل. واستفهامه عن تعرضها به وتشوقها إليه: استفهام استنكار لذلك منها واستحقار لها واستبعاد لموافقته إياها على ما تريد. ولا حان حينك: أي لا قرب وقتك: أي وقت انخداعي لك وغرورك لي. وقوله: هيهات: أي بعد ما تطلبين مني. ثم أمرها بغرور غيره وهو كناية عن أنه لا طمع لها في ذلك منه لا أنه أراد منها غرور غيره وهذا كمن يقول لمن يخدعه وقد اطلع على ذلك منه: اخدع غيري: أي أن خداعك لا يدخل عليّ. ثم خاطبها خطاب الزوجة المكرهة منافراً لها فأخبرها بعدم حاجته إليها.

ثم أنشأ طلاقها ثلاثاً لتحصل البينونة بها مؤكداً لذلك بقوله: لا رجعة فيها. وهو كناية عن غاية كراهيتها، وأكد طلاقها لميله عليه السلام إلى ضرتها التي هي مظنة الحسن والبهاء. ثم أشار إلى المعائب التي لأجلها كرهها وطلّقها وهي قصر العيش: أي مدة الحياة فيها، ويسير الخطر: أي قلة قدرها ومحلّها في نظره، ثم حقارة ما يؤمل منها. ثم تأوّه من أمور:

أحدها: قلّة الزاد في السفر إلى الله تعالى، وقد علمت أنه التقوى والأعمال الصالحة. وهكذا شأن العارفين في استحقار أعمالهم.

الثاني: طول الطريق إلى الله ولا شيء في الاعتبار أطول مما لا يتناهى.

الثالث: بعد السفر، وذلك لبعد غايته وعدم تناهيها.

الرابع: عظم المورد وأول منازله الموت، ثم البرزخ، ثم القيامة الكبرى. والله المستعان. وروي: وخشونة المضجع وهو القبر.

٧٠ - ومن كلام له عليه السلام: للسائل الشامي لمّا سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاءٍ من الله وقدر؟ بعد كلام طويل هذا مختاره:

وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لازِماً، وَقَدَراً حَاتِماً! لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ. إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً، وَكَلَّفَ يَسِيراً، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرَهاً، وَلَمْ يُرْسِلِ الأَنْبِيَاءَ لَعِباً، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكِتَابَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً، وَلا خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً: ﴿ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

أقول: روي أن السائل لما سأل أمير المؤمنين عليه السلام: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ قال عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطأنا موطئاً ولا هبطنا وادياً إلاّ بقضاء وقدر. فقال السائل: عند الله أحتسب: أي ما أرى لي من الأجر

شيئاً. فقال عليه السلام: مه أيها الشيخ، لقد أعظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين وإليها مضطرين. فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقانا؟ فقال عليه السلام: ويحك. الفصل. إلاّ أن بعد قوله: والوعيد قوله: والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشياطين وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب وهم قدريّة هذه الأمة مجوسها لأن الله تعالى أمر عباده تخييراً إلى آخره. فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذين ما سرنا إلاّ بهما؟ فقال: هو الأمر من الله تعالى والحكم. ثم قرأ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته
يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً
جزاك ربك عنا فيه إحسانا

والويح: كلمة ترحم. والحاتم: الواجب. وتقرير سؤال السائل: إن كان مسيرنا بقضاء من الله وبقدر لم يكن لنا في تعبنا ثواب وذلك أن القضاء قد يراد به في اللغة الخلق وما خلقه الله تعالى في العبد فلا اختيار له فيه وما لا اختيار له فلا ثواب له فيما فعله.

وقوله: ويحك. إلى قوله: الوعيد.

بيان لمنشأ وهمه وهو ما لعله يظنه من تفسير القضاء والقدر بمعنى العلم الملزم والإيجاد الواجب على وفقه.

وقوله: إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً.

إشارة إلى تفسير القضاء بالأمر كما صرح به في جواب السائل عن معناه مستشهداً في تفسيره بالأمر والحكم بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] الآية. ومعلوم أن أمر الله ونهيه لا ينافي اختيار العبد في فعله. وهذا الجواب إقناعي بحسب فهم السائل. وربما فسّر القضاء بأنه عبارة عن إبداع الأول تعالى لجميع صور الموجودات الكلية والجزئية التي لا نهاية لها من حيث هي معقولة في العالم العقلي ثم لما كان إيجاد ما يتعلق منها بالمادة في مادته وإخراج ما فيها من قبول تلك الصور من القوة إلى الفعل واحداً بعد واحد كان القدر عبارة عن الإيجاد لتلك الأمور وتفصيلها واحداً بعد واحد كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

واعلم أنه على هذا التفسير يمكن تقرير الجواب عن السؤال المذكور أيضاً وذلك أن القضاء بالمعنى المذكور لا ينافي اختيار العبد وحسن تكليفه وثوابه وعقابه لأن معنى الاختيار هو علم العبد بأن له قوة صالحة للفعل والترك الممكنين مهيئة لهما إذا انضم إليها الميل إلى الفعل المسمى إرادة فعل أو النفرة المسمى كراهة ترك وذلك أمر لا ينافي في علم الله تعالى بما يقع أو لا يقع من الطرفين وإن حصل عنه وجوب فهو خارج عرضي.

ثم إن التكليف لم يرد على حسب ما في علم الله تعالى بل له مبدءان:

أحدهما: فاعلي وهو حكمته تعالى أعني إيجاده الموجودات على أحكم وجه وأتقنه، وسوق ما هو ناقص منها من مبدئها إلى كمالها سوقاً ملائماً لها.

والثاني: قابلي وهو كون العبد بالصفة المذكورة من الاختيار، ولذلك ذكر من لوازم الاختيار والتكليف المقصود من الحكمة لغايته أموراً عشرة:

أحدها: أمره لعباده تخييراً. وتخييراً مصدر سدّ مسدّ الحال.

الثاني: نهيهم تحذيراً. وتحذيراً مفعول له.

الثالث: تكليفهم اليسير ليسهل عليهم العمل فيرغبوا فيه.

الرابع: عدم تكليفهم العسير لغرض أن يكونوا بحال الاختيار فلا يخرجون بالعسير إلى التكليف بما لا يطاق كما أشار إليه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الخامس: من إعطائه على القليل كثيراً في العمل. وذلك من لوازم اختيارهم أيضاً.

السادس: أنه تعالى لم يعص حال كونه مغلوباً

عنهم. إذ هو القاهر فوق عباده. بل لأنه خلّى بينهم وبين أفعالهم وهيّأهم لها وذلك من لوازم اختيارهم.

السابع: أنه لم يطع مكرهاً أي لم تكن طاعة مطيعيه له عن إكراه منه تعالى له عليهم وذلك من لوازم اختيارهم.

الثامن: ولم يرسل الأنبياء لعباً بل ليكونوا مبشرين ومنذرين لمن أطاع بالجنة ولمن عصى بالنار وذلك من لوازم الاختيار.

التاسع: ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً بل ليعرفوا منه وجوه تكليفهم وأحكام أفعالهم التي أمروا أن يكونوا عليها وبيان حدود الله التي أمرهم بالوقوف عندها وكل ذلك من لوازم اختيارهم.

العاشر: ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً بل على وجوه من الحكمة. منها: أن يحصل لعباده بما وهب لهم من الفكر في آياتها اعتبار فيتنبّهوا من ذلك للطيف حكمته ويستدلوا على كمال عظمته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآيات، ونفّر عن اعتقاد غير ذلك ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] والآية اقتباس.

٧١ - وقال عليه السلام: خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ.

أمر بتعلم الحكمة أين وجدت ولو من المنافقين ورغب من عساه ينفر من أخذها من بعض المواضع أن يأخذها من كل موضع وجدها بضمير صغراه قوله: فإن الحكمة. إلى آخره، وكنّى بتلجلجها أو اختلاجها على الروايتين عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدر المنافق وكونه ليس مظنة لها غير مستقرة فيه إلى أن تخرج إلى مظنتها وهي صدر المؤمن فيسكن إلى صواحبها من الحكم فيه. وتقدير كبراه: وكل ما كان كذلك فيجب على المؤمن أخذه إلى مظنته وإخراجه من غير مظنته.

٧٢ - وقال عليه السلام: الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ.

استعار الضالة للحكمة بالنسبة إلى المؤمن باعتبار أنها مطلوبه الذي يبحث عنه وينشده كما ينشد الضالة صاحبها.

٧٣ - وقال عليه السلام: قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ.

غرض هذه الكلمة الترغيب في أعلى ما يكتسب من الكمالات النفسانية والصناعات ونحوها. وقيمة المرء مقداره في اعتبار المعتبرين ومحله في نفوسهم من استحقاق تعظيم وتبجيل أو احتقار وانتقاص. وظاهر أن ذلك تابع لما يحسنه المرء ويكتسبه من الكمالات المذكورة فأعلاهم قيمة وأرفعهم منزلة في نفوس الناس أعظمهم كمالاً، وأنقصهم درجة أخسهم فيما هو عليه من حرفة أو صناعة وذلك بحسب اعتبار عقول الناس للكمالات ولوازمها.

٧٤ - وقال عليه السلام: أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلاً: لا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلا يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ، وَلا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لا أَعْلَمُ. وَلا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لا رَأْسَ مَعَهُ، وَلا فِي إِيمَانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ.

كنّى بضرب آباط الإبل عن الرحلة في طلبها وذلك أن الراكب للجمل يضرب إبطيه بكعبيه.

فإحدى الخمس: الرجاء لله دون غيره. ومن لوازم ذلك إخلاص العمل له ودوام طاعته.

الثانية: أن يخاف ذنبه دون غيره. وذلك أن أعظم مخوف هو عقاب الله، ولما كان إنما يلحق العبد بواسطة ذنبه فبالأولى أن يجعل الخوف من الذنب دون غيره. وهو جذب إلى الهرب عنه بذكر الخوف منه.

الثالثة: عدم استحياء من لا يعلم الشيء من قول لا أعلم. فإنّ الاستحياء من ذلك القول يستلزم القول بغير علم وهو ضلال وجهل يستلزم إضلال الغير وتجهيله وفيه هلاك الآخرة. قال صلى الله عليه وآله: من أفتى بغير علم لعنته

ملائكة السماء والأرض. وقد يكون سبباً للهلاك الدنيوي أيضاً.

الرابعة: عدم استحياء من لا يعلم الشيء من تعلمه، لما في استحياء الجاهل عن التعلم من بقائه على جهله ونقصانه وهلاك آخرته.

الخامسة: فضيلة الصبر. وأمر باقتنائها لأن كل الفضائل لا يخلو عنها وأقل ذلك الصبر على اكتسابها ثم على البقاء عليها وعن الخروج عنها ولذلك شبهها من الإيمان بالرأس من الجسد في عدم قيامه بدونه. ثم أكد التشبيه والمناسبة بينهما بقوله: لا خير في جسد. إلى آخره.

وقوله: فإن الصبر. صغرى ضمير رغب به فيه، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فواجب اقتناؤه وأخذه.

٧٥ - وقال عليه السلام: لِرَجُلٍ أَفْرَطَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَكَانَ لَهُ مُتَّهِماً: أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ.

فقوله: أنا دون ما تقول: جواب إفراطه في المدح.

وقوله: وفوق ما في نفسك.

جواب لما في نفسه مما يتهمه به من عدم فضيلته.

٧٦ - وقال عليه السلام: بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَداً وَأَكْثَرُ وَلَداً.

لا أرى ذلك إلاّ للعناية الإلهية ببقاء النوع وحفظه وإقامته وبإخلاف من قتل ممن بقي. والله أعلم.

٧٧ - وقال عليه السلام: مَنْ تَرَكَ قَوْلَ «لا أَدْرِي» أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ.

ترك هذا القول كناية عن القول بغير علم. وإصابة المقاتل كناية عن الهلاك الحاصل بسبب القول بالجهل لما فيه من الضلال والإضلال وربما يكون بسببه هلاك الدنيا والآخرة.

٧٨ - وقال عليه السلام: رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلامِ. وَرُوِيَ مِنْ مَشْهَدِ الْغُلامِ.

جلده قوته وقد مر أن الرأي مقدم على القوة والشجاعة لأصالة منفعته. وإنما خصّ الرأي بالشيخ والجلد بالغلام لأن كلاً منهما مظنة ما خصه به فإن الشيخوخة مظنة الرأي الصحيح لكثرة تجارب الشيخ وممارساته للأمور والغلام مظنة القوة والجلد، وعلى الرواية الأخرى فمشهده حضوره والمعنى ظاهر.

٧٩ - وقال عليه السلام: عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الاسْتِغْفَارُ.

القنوط: اليأس من الحرمة. ولما كان الاستغفار بإخلاص مبدءاً للرحمة بشهادة القرآن الكريم كما سيأتي كان القنوط معه محل التعجب.

٨٠ - وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام، أنه قال:

كَانَ فِي الأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا، فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ: أَمَّا الأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَأَمَّا الأَمَانُ الْبَاقِي فَالاسْتِغْفَارُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قال الرضي: (وَهذَا مِنْ مَحَاسِنِ الاسْتِخْرَاجِ وَلَطَائِفِ الاسْتِنْبَاطِ).

كون وجود الرسول صلى الله عليه وآله بين الأمة ورجوعه إلى الله في رحمة أُمته وكون الاستغفار بإخلاص معدّين لنزول رحمة الله ورفع عذابه مما يشهد به البحث العقلي. وقد أكد ذلك بصادق الشاهد السمعي كما استخرجه عليه السلام.

٨١ - وقال عليه السلام: مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ. وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ.

فإصلاح ما بينه وبين الله بتقواه المستلزم لرضاه، ولما كان من تقواه إصلاح قوتي الشهوة والغضب اللذين هما مبدءا الفساد بين الناس، ولزوم العدل فيهما كان من لوازم ذلك الإصلاح إصلاح ما بينه وبين الناس.

وكذلك من لوازم إصلاح أمر الآخرة عدم مجاذبة الناس دنياهم والكف عن الشره فيما بأيديهم منها، وذلك مع مسالمتهم ومعاملتهم بمكارم الأخلاق التي هي من إصلاح أمر الآخرة مستلزم انفعالهم وميلهم إلى من كان كذلك وإقبالهم عليه بالنفع والمعونة وكفّ الأذى وبحسب ذلك يكون صلاح دنياه، ولأن الدنيا المطلوبة لمن أصلح أمر آخرته سهلة وهي مقدار حاجته على الاقتصاد وذلك أمر قد تكفلت العناية الإلهية بتهيئه وإصلاحه مدة الحياة الدنيا.

وأما الثالثة فلأن واعظ النفس باعث على تقوى الله ولزوم العدل في قوتي الشهوة والغضب اللذين هما مبدءا الشر المستلزم للهلاك في الدارين وذلك مستلزم لحفظ الله فيهما.

٨٢ - وقال عليه السلام: **الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ.**

كنّى بقوله: كل الفقيه عن تمامه: أي الفقيه الكامل في فقهه. وذلك أن من فقه وضع الكتاب العزيز علم أن غرضه الأول جذب الناس إلى الله في سبل مخصوصة بوجوه من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والبشارة والنذارة وغيرها فمن ضرورته إذن أن لا يقنط الناس من رحمة الله بآيات وعيده ونذارته ولا يؤيسهم بذلك من روحه لما يلزم اليأس من إغراء العصاة بالمعصية، واتباع الهوى الحاضر الذي لا يرجى من نهى النفس عنه ثمرة في الآخرة ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، وأن لا يؤمنهم من مكر الله بالجزم بآيات وعده وبشارته لما يستلزم السكون إلى ذلك والاعتماد عليه من الانهماك في المعاصي واتباع الهوى ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] بل يكون تابعاً في وعظه وجذبه إلى الله مقاصد سنّته ووضع شريعته.

٨٣ - وقال عليه السلام: **أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالأَرْكَانِ.**

كنّى بالأول عن العلم الذي لا عمل معه وظهوره ووقوفه على اللسان فقط وهو أنقص درجات العلم وأراد بالثاني العلم المقرون بالعمل فإن الأعمال الصالحة لما كانت من ثمرات العلم بالله وما هو أهله كان العلم فيها ظاهراً على جوارح العبد وأركانه ظهور العلة في معلولها وذلك هو العلم المنتفع به في الآخرة.

٨٤ - وقال عليه السلام: **إِنَّ هٰذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكَمِ.**

النفوس قد يقع لها انصراف عن العلم الواحد وملال للنظر فيه بسبب مشابهة بعض أجزائه لبعض فإذا اطلعت النفس على بعضه قاست ما لم تعلم منه على ما علمت ولم يكن الباقي عندها من الغريب لتلتذّ به وتدوم على النظر فيه، ولما كان ذلك الملال والانصراف غير محمود لها أمر بطلب طرائف الحكمة لها. وأراد لطائفها وغرائبها المعجبة للنفس اللذيذة لها لتكون أبداً في اكتساب الحكمة والتذاذ في انتقالها من بعض غرائبها إلى بعض وأراد بالحكمة الحكمة العملية وأقسامها أو أعمّ منها.

٨٥ - وقال عليه السلام: **لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ» لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلٰكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. وَمَعْنَى ذٰلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلٰكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، لأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ وَيَكْرَهُ انْثِلامَ الْحَالِ.**

قال الرضي: **(وَهٰذَا مِنْ غَرِيبِ مَا سُمِعَ مِنْهُ فِي التَّفْسِيرِ).**

حاصل الكلام أن الفتنة أعم من الفتنة المستعاذ منها لصدقها على المال والبنين باعتبار ابتلاء الله تعالى عباده واختباره لهم بهما وهما غير مستعاذ منهما إذا راعى العبد فيهما أمر الله ولزم طاعته وأما الفتنة المستعاذ منها فهي التي يستلزم الوقوع فيها الضلال عن سبيل الله كالخروج في المال عن واجب العدل وصرفه في إمداد الشهوات واتباع الهوى.

٨٦ - وَسُئِلَ عَنِ الْخَيْرِ مَا هُوَ؟

فَقَالَ عليه السلام: لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ، وَلٰكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللهَ، وَإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللهَ. وَلا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ لِرَجُلَيْنِ: رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَرَجُلٌ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ. لا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ؟

أقول: الخير في العرف العامي هو كثرة المال والقينات الدنيوية، وفي عرف السالكين إلى الله هو السعادة الأخروية وما يكون وسيلة إليها من الكمالات النفسانية. وربما فسره قوم بما هو أعم من ذلك. وقد نفى عليه السلام أن يكون الأول خيراً وذلك لفنائه ومفارقته ولما عساه أن يلحق بسببه من الشر في الآخرة وفسّره بالثاني وعد فيه كمال القوى الإنسانية فكثرة العلم كمال القوى النظرية للنفس العاقلة، وعظم الحلم من كمال القوة العملية وهو فضيلة القوة الغضبية، ومباهاة الناس بعبادة ربه: أي المفاخرة بها بالكثرة والإخلاص وحمد الله على توفيقه للحسنة واستغفاره للسيئة وذلك من فضائل القوة الشهوية وكمال القوة العملية. ثم حصر خير الدنيا في أمرين، وذلك أن الإنسان إما أن يشتغل بمحو السيئات وإعدامها ويتدارك فارط ذنوبه فيعد نفسه بذلك لاكتساب الحسنات أو يشتغل بإيجاد الحسنات فيها. ولا واسطة من الخير المكتسب بين هذين الأمرين. ثم حكم بعدم قلّة العمل المقرون بتقوى الله منبهاً بذلك على أن تدارك الذنوب بمحوها والمسارعة في الخيرات مستلزم للتقوى، وإنما كان غير قليل لأنه مقبول عند الله والمقبول عنده مستلزم لثوابه العظيم. وذلك ترغيب في الأمرين المذكورين.

٨٧ - وقال عليه السلام: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاؤُوا بِهِ، ثُمَّ تَلا ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ!

ولما كان الغرض من الأنبياء عليهم السلام جذب الخلق إلى الله بطاعته فكل من كان أبلغ في الطاعة كان أشد موافقة لهم وأقرب إلى قلوبهم وأقوى نسبة إليهم. ولما لم يكن طاعتهم إلاّ بالعلم بما جاؤوا به كان أعلم الناس بذلك أقربهم إليهم وأولاهم بهم. وبرهان ذلك الآية المذكورة. وذكر حال الأنبياء ليعلم مراده الإجمالي ثم خصص الذكر بمحمد صلى الله عليه وآله كما هو عادة الخطيب. والمراد بالولي هنا الأولى. وأشار إلى أن طاعة الله علّة للأولوية بمحمد صلى الله عليه وآله، ومعصيته علّة لعداوته وإن بعدت قرابة المطيع أو قربت قرابة العاصي ليعلم أن الطاعة والمعصية علتان مستقلتان للأولوية بمحمد صلى الله عليه وآله، والعداوة له فتحصل الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية.

٨٨ - وقال عليه السلام: وقد سمع رجلاً من الحرورية يتهجد ويقرأ فقال: نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ فِي شَكٍّ.

والحرورية فرقة من الخوارج نسبوا إلى حروراء - بمدّ وبقصر - قرية بالنهروان وكان أول اجتماعهم بها. والتهجد: السهر في العبادة. وإنما كان كذلك لأن نوم العالم على يقين منه بما ينبغي تيقنه وعلمه أيضاً مما ينبغي له، وعبادة الجاهل على شك فيما ينبغي تيقّنه من أصول العبادة مما لا ينبغي لما فيه من إتعاب البدن من غير فائدة. فكان الأول أولى وخيراً من الثاني. وأراد ما هم عليه من الشك في إمامة إمام الوقت الذي هو مبدأ تعليم العبادات وكيفيتها، والعلم به ركن من أركان الدين فإن الشك فيه يستلزم عدم الاستفادة منه، والشك في

كثير مما يحتاج إليه فيه كعلم التوحيد وأسرار العبادات وكيفية السلوك إلى الله تعالى بطاعته.

٨٩ - وقال عليه السلام: اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

عقل الرعاية: ضبطه بالفهم ورعاية العلم. وعقل الرواية: ضبط ألفاظها وسماعها دون تفهم المعنى. ورغّب في ذلك بضمير صغراه قوله: فإن رواة العلم. إلى آخره. وتقديره كبراه: وكلما كان كذلك فينبغي أن يعقل عقل رعاية لتكثر رعاته.

٩٠ - وسمع رجلاً يقول: «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». فقال عليه السلام: إِنَّ قَوْلَنَا: «إِنَّا للهِ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنَا: «وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ.

والكلمة بتفسيرها ظاهر.

٩١ - ومدحه قوم في وجهه: فقال: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لَنَا مَا لا يَعْلَمُونَ.

هذا كسر لنفسه عليه السلام في مقابلة المدح الموجب للعجب. ثم سأل الله أن يعلي درجته في الخير فوق ما يظنونه فيه وأن يغفر له ما لا يعلمون من عيبه.

فإن قلت: إنه معصوم فكيف يصدر عنه عيب يطلب مغفرته؟

قلت: قد بيّنا فيما سلف أن عيب مثله عليه السلام وما يسمى ذنباً في حقه إنما هو من باب ترك الأولى وليس هو من الذنوب المتعارفة التي عصم عنها.

٩٢ - وقال عليه السلام: لا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلاَّ بِثَلاَثٍ: بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ.

اشترط في استقامة قضاء الحوائج: أي كون قضائها على ما ينبغي من العدل ثلاث شرائط:

أحدها: استصغار قاضي الحاجة لها ليعرف بالسماحة وكبر النفس فيعظم عطاؤه ويشتهر.

الثانية: أن يكتمها فإن طباع الناس أدعى إلى إظهار ما استكتم وأكثر عناية به من غيره.

الثالثة: أن يعجّلها لتهنأ: أي لتكون هنيئة يقال: هنأ الطعام يهنأ وذلك أن الإبطاء بقضاء الحاجة ينغّصها على طالبها فتكون لذتها مشوبة بتكدير بطئها.

٩٣ - وقال عليه السلام: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلاَّ الْمَاحِلُ، وَلا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلاَّ الْفَاجِرُ، وَلا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلاَّ الْمُنْصِفُ، يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنّاً، وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ! فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ النِّسَاءِ، وَإِمَارَةِ الصِّبْيَانِ، وَتَدْبِيرِ الْخِصْيَانِ!

وأقول: الماحل: الساعي بالنميمة إلى السلطان، وأصل المحل الكيد والمكر. وروي الماجن مكان الفاجر وهو المتكلم بما يشتهي من الباطل والهزل والاستهزاء. والغرم: الدين. يريد أن ذلك الزمان لسوء أهله وبعدهم عن الدين وقوانين الشريعة تجعل فيه الرذائل مكان الفضائل ويستعمل ما لا ينبغي مكان ما ينبغي فيقرب الملوك السعاة إليهم بالباطل مكان أصحاب الفضائل ومن ينبغي تقريبه، ويعدّ الفاجر وهو صاحب رذيلة الإفراط في قوته الشهوية صاحب فضيلة الظرف في حركاته.

وقوله: ولا يضعف. إلى آخره.

أي إذا رأوا إنساناً عنده ورع وإنصاف في معاملة الناس عدّوه عاجزاً ضعيفاً، ويحتمل أن يريد بقوله: يضعف أي يستصغر عقله لتركه الظلم كأنه تارك حق ينبغي له أخذه، وتعد فيه الصدقة التي ينبغي أداءها برغبة طلباً للثواب غرماً كأداء الدين في الثقل، وكذلك تعدّ صلة الرحم منّاً وفيه إبطال للفضيلة المذكورة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ويستطال بالعبادة على الناس ويترفع بها كالمانّ عليهم بذلك. ثم جعل من علامات ذلك الزمان كون السلطان والملك يدبر بمشورة الإماء،

وإمارة الصبيان وتدبير الخصيان وهي علامات زماننا وقبله بمدة.

٩٤ - ورُئي عليه إزارٌ خَلِقٌ مرقوعٌ، فقيل له في ذلك، فقال: عليه السلام **يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ.**

ذكر في لبس ذلك الخلق ثلاثة مقاصد: خشوع القلب: خضوع النفس العاقلة وانكسارها عن الفقر، وذلّة النفس: انكسار للنفس الأمارة بالسوء عنه، واقتداء المؤمنين بذلك: للقصدين الأولين.

٩٥ - وقال عليه السلام: **إِنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ، وَسَبِيلاَنِ مُخْتَلِفَانِ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلاَّهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وَعَادَاهَا، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ!**

استعار لفظ العدو لهما باعتبار ما بينهما من البعد لطالبهما، وظاهر كونهما سبيلين مختلفين. ومن لوازم ما بينهما من العداوة والاختلاف كون المحب لإحديهما مبغضاً للأخرى. ثم شبههما بالمشرق والمغرب، ووجه الشبه تباينهما واختلاف جهتيهما، وشبه الطالب لهما بالماشي بينهما ووجه الشبه قوله: كلما قرب. إلى آخره فإن الطالب للدنيا بقدر توجهه في طلبها تكون غفلته عن الآخرة، وانقطاعه عنها وكلما أمعن في تحصيلها ازداد غفلة وبعداً عن الآخرة، وبالعكس كالماشي إلى أحد جهتي المشرق والمغرب. ثم شبههما بعد ذلك بالضرتين ووجه الشبه أيضاً أن القرب من إحديهما يستلزم البعد عن الأخرى كالزوج ذي الضرتين.

٩٦ - وعن نوف البكالي قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه، فنظر في النجوم فقال لي: «يا نوف»: أراقد أنت أم رامق؟ فقلت: «بل رامق» قال: «يا نوف».

يَا نَوْفُ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ، أُولٰئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الأَرْضَ بِسَاطاً، وَتُرَابَهَا فِرَاشاً، وَمَاءَهَا طِيباً، وَالْقُرْآنَ شِعَاراً، وَالدُّعَاءَ دِثَاراً، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ.

يَا نَوْفُ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَامَ فِي مِثْلِ هٰذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً أَوْ عَرِيفاً أَوْ شُرْطِيّاً أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ (وهي الطنبور) أَوْ صَاحِبَ كُوْبَةٍ (وهي الطبل. وقد قيل أيضاً: إن العرطبة: الطبل، والكوبة: الطنبور).

أقول: البكالي بكسر الباء: منسوب إلى بكالة قرية من اليمن. والرامق: الناظر: والعريف: نقيب الشرطة.

وكان خروجه عليه السلام في ذلك الوقت لما نقله عن داود عليه السلام ولأنه محل الفراغ للاعتبار والفكر في خلق السماوات وزينتها. ثم عرف الزاهدين في الدنيا بستة أوصاف لغرض الاقتداء بهم:

أحدها: اتخاذهم الأرض بساطاً.

الثاني: وترابها فراشاً.

الثالث: وماءها طيباً، وذلك من لوازم زهدهم في متاعهم وتركها عن طيب نفس بذلك.

الرابع: اتخاذهم للقرآن شعاراً.

الخامس: والدعاء دثاراً، واستعار لفظ الشعار للقرآن باعتبار ملازمتهم لدرسه وتفهم مقاصده كالشعار الملازم للجسد. ولفظ الدثار للدعاء باعتبار احتراسهم به من عذاب الله والشدائد النازلة بهم كالاحتراس بالدثار عن البرد ونحوه.

السادس: قرضهم للدنيا: أي قطعها عنهم بأيسر ما يدفع ضرورتهم منها كما فعله المسيح عليه السلام من هذه الأوصاف. وكان قيامه عليه السلام في النصف الأخير من الليل وإنما كان مظنة الإجابة لخلو النفس فيه عن الاشتغال بشواغل النهار المحسوسة وتوفرها بعد النوم على الالتفات إلى حضرة الملأ الأعلى واستعدادها لقبول السوانح الإلهية. وإنما استثنى المذكورين لملازمتهم المعصية التي تحجب نفوسهم عن قبول رحمة الله تعالى.

٩٧ - وقال عليه السلام: إِنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ، فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً، فَلا تَعْتَدُوها، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ، فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً، فَلا تَتَكَلَّفُوها.

فرائض الله: واجبات دينه. وحدوده: نهايات ما أباحه من نعمه ورخص فيه. والأشياء المنهيّ عنها: ما جاوز حدوده من المحرمات والرذائل. وما سكت عنه كتكليف دقائق علم لا نفع له في الآخرة فإنه لم يسكت عنه نسياناً لتقدسه عن ذلك بل لعدم فائدته الأخروية، واستلزام الاشتغال به ترك الاشتغال بعلم نافع فيلزمه المضرة.

٩٨ - وقال عليه السلام: لا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لاسْتِصْلاَحِ دُنْيَاهُمْ إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ.

لما كانت مطالب الناس في الدنيا إذا فتح الباب الطلب لها غير متناهية لكون كل مطلوب يحصل معداً لطلب الزيادة فيه والاستكثار منه وتحصيل شرائطه ولوازمه، وكان بعد الإنسان عن الله بقدر قربه من الدنيا وبعد أمله فيها كان كل أمر استصلحت به الدنيا لأنها دنيا معدة لفتح باب من أبواب طلبها وإصلاحها وهو أضرّ من الأول لكونه أشد إيغالاً فيها وإبعاداً عن الله.

٩٩ - وقال عليه السلام: رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لا يَنْفَعُهُ.

أراد العلماء بما لا نفع فيه من العلوم كعلم السحر والنيرنجات بل كعلم النحو وغيره من العلوم العقلية مثلاً بمن جهل شرائع الإسلام فأفتى بغير علم أو تعدى حداً وارتكب منهياً فكان ذلك سبب هلاكه في الدنيا والآخرة، أو كعلم ما لا نفع فيه في الآخرة استلزم ترك علم مهم فيها فكان سبب هلاكه هناك مع عدم انتفاعه وخلاصه بما علم.

١٠٠ - وقال عليه السلام: لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هٰذا الإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ: وَذٰلِكَ الْقَلْبُ. وَذٰلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلاَفِهَا، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الأَسَفُ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَى نَسِيَ التَّحَفُّظَ، وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ، وَإِنِ اتَّسَعَ لَهُ الأَمْنُ اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ الْغِنَى، وَأَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الْجَزَعُ، وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلاءُ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ الْبِطْنَةُ. فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ.

أقول: النياط: عرق علق به القلب. وغاله: أخذه على غرة.

وأراد بالمواد من الحكمة الفضائل الخلقية فإنها بأسرها من الحكمة وهي العلم مما ينبغي أن يفعل وهو الأصلح في كل باب وهي مواد كمال القلب، وأشار بأضدادها المخالفة لها إلى الرذائل المضادة للفضائل وهي التي أطراف التفريط والإفراط منها:

فالأولى: الطمع وهي رذيلة الإفراط من الرجاء ونفر عنها بما يلزمها من الذلة للمطموع فيه وبما يلزم اشتداد الطمع من الحرص المهلك في الدارين.

الثانية: اليأس وهو رذيلة التفريط من الرجاء ونفر عنها بما يلزمها من شدة الأسف القاتل.

الثالثة: رذيلة الإفراط من الغضب وهي اشتداد الغيظ المسمى طيشاً. والوسط من الغضب فضيلة الشجاعة وكظم الغيظ.

الرابعة: ترك التحفظ ونسيانه وهو رذيلة الإفراط من رضا الإنسان بما يحصل عليه من دنياه.

الخامسة: رذيلة الإفراط من عروض الخوف وهي الاشتغال بالحذر عما لا ينبغي عند عروضه والذي ينبغي فيه الأخذ بالحزم وترك الإفراط في الخوف والعمل للأمر المخوف.

السادسة: رذيلة التفريط في عروض ضده وهو الأمن

وهي استلاب الغرة لعقل الأمن حتى لا يفكر في مصلحته وحفظ ما هو عليه من الأمن.

السابعة: رذيلة التفريط من فضيلة الصبر على المصيبة وهي الجزع ونفر عنه بما يلزمه من الافتضاح به.

الثامنة: رذيلة الإفراط من حصول المال وهو الطغو بكثرته والغنى منه. والطغو: تجاوز الحد.

التاسعة: رذيلة التفريط من الصبر على الجوع. وذكر لازمها وهو قعود الضعف به عما ينبغي. ونفّر به عنها.

العاشرة: رذيلة إفراط الشبع من فضيلة القصد فيه وما يلزم تلك الرذيلة من جهد البطنة. ونفّر عنها بما يلازمها. ثم ختم ذلك بالتنفير من طرف الإفراط والتفريط فيها إجمالاً بما يلزم التفريط في مضرة القلب بعدم الفضيلة ويلزم الإفراط فيها من إفساده بخروجه عنها. وبالله العصمة.

١٠١ - وقال عليه السلام: نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى، بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي.

النمرقة: الوسادة الصغيرة. واستعار لفظها له ولأهل بيته عليهم السلام بصفة الوسطى باعتبار كونهم أئمة الحق ومستنداً للخلق في تدبير معاشهم ومعادهم على وجه العدل المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ومن حق الإمام الحق المتوسط في الأمور أن يلحق به التالي أي المفرط المقصر، وأن يرجع إليه الغالي أي المفرط المتجاوز لحد العدل.

١٠٢ - وقال عليه السلام: لا يُقِيمُ أَمْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلاَّ مَنْ لا يُصَانِعُ، وَلا يُضَارِعُ، وَلا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ.

المصانعة: المصالحة برشوة ونحوها. والمضارعة: مفاعلة من الضرع وهو الذلة كُلاً منهما يضرع للآخر. وظاهر أن مصانعة الغير يستلزم طلب رضاه وذلك يمنع من إقامة حدود الله وأمره في حقه، وكذلك المضارعة واتباع المطامع من الغير فإنهما يستلزمان ترك مواجهته بما يشق عليه من أوامر الله وحدوده.

١٠٣ - وقال عليه السلام: (وقد توفي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه معه من صفين، وكان أحب الناس إليه):

لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ.

قال الرضي: معنى ذلك أن المحنة تغلظ عليه، فتسرع المصائب إليه، ولا يُفعل ذلك إلا بالأتقياء الأبرار والمصطفين الأخيار، وهذا مثل قوله:

مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَاباً.

«وقد يؤول ذلك على معنى آخر ليس هذا موضع ذكره».

أقول: تهافت: سقط قطعة قطعة، وذلك مبالغة في كثرة ما يلحقه ومحبّيه من المصائب والابتلاء.

وقوله: من أحبّنا فليستعد للفقر جلباباً.

أي يهيئ له ذلك. والجلباب مستعار لتوطين النفس على الفقر والصبر عليه، ووجه الاستعارة كونهما ساترين للمستعد بهما من عوارض الفقر وظهوره في سوء الخلق وضيق الصدر والتحيّر الذي ربما يؤدي إلى الكفر كما يستر بالملحفة، ولما كانت محبتهم عليهم السلام، بصدق يستلزم متابعتهم والاقتداء بهم والاستشعار بشعارهم ومن شعائرهم الفقر ورفض الدنيا والصبر على ذلك وجب أن يكون كل محب لهم مستشعراً للفقر ومستعداً له جلباباً من توطين النفس عليه والصبر. وقد ذكر ابن قتيبة هذا المعنى بعبارة أُخرى فقال: من أحبنا فليقصر على التعلل من الدنيا والتقنع فيها. قال: وشبه الصبر على الفقر بالجلباب لأنه يستر الفقر كما يستر الجلباب البدن، قال: ويشهد بصحة هذا التأويل ما روي أنه عليه السلام رأى قوماً على بابه فقال: يا قنبر من هؤلاء؟ فقال: شيعتك يا أمير المؤمنين. فقال: ما لي لا أرى فيهم سيما الشيعة. قال: وما سيما الشيعة؟ قال: خمص البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظماء، عمش العيون من البكاء.

وقال أبو عبيد: إنه لم يرد الفقر في الدنيا ألا ترى أن فيمن يحبهم مثل ما في سائر الناس من الغنى، وإنما أراد الفقر يوم القيامة. وأخرج الكلام مخرج الوعظ والنصيحة والحث على الطاعات فكأنه أراد من أحبنا

فليعد لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب والتقرّب إلى الله تعالى والزلفة عنده.

قال السيد المرتضى رحمه الله: والوجهان جميعاً حسنان وإن كان قول ابن قتيبة أحسن فذلك معنى قوله السيد رحمه الله وقد يؤول ذلك على معنى آخر.

وذكر القطب الراوندي احتمالاً ركيكاً لا يصلح محملاً لهذا الكلام. فلن نطول بذكره.

١٠٤ - وقال عليه السلام: سبع عشرة: لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا كَرَمَ كَالتَّقْوَى، وَلَا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ، وَلَا قَائِدَ كَالتَّوْفِيقِ، وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا رِبْحَ كَالثَّوَابِ، وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ، وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ، وَلَا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَلَا إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ، وَلَا حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ، وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ، وَلَا عِزَّ كَالْحِلْمِ، وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ.

أحدها: لا مال أعود من العقل. أي أعود بالنفع على صاحبه واستعار لفظ المال للعقل باعتبار أن به غنى النفس وهو رأس مالها الذي به يكتسب الأرباح الباقية والكمالات المستعدة كالمال الذي به الكمال الظاهر، ولما كان بين المالين من التفاوت في الشرف ما علمت لا جرم لم يكن مال أعود منه بالنفع.

الثانية: ولا وحدة أوحش من العجب. وجعل الوحدة من جنس العجب باعتبار ما يستلزمانه من الوحشة الموحشة وقد سبق بيان استلزام العجب لها.

الثالثة: ولا عقل كالتدبير. أراد بالعقل تصرف العقل العملي فأطلق عليه اسمه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب. وظاهر أن جملة تصرفاته التدبير واستخراج الآراء المصلحية في الأمور، ولما كان المقصود منه التدبير لا جرم لم يكن له تصرف يشبهه فلا عقل مثله.

الرابعة: ولا كرم كالتقوى. والمفهوم من الكرم بذل ما ينبغي بذله، ولما كانت تقوى الله عبارة عن خشيته وكان من لوازمها الزهد في الدنيا والإعراض عن متاعها كان ذلك في الحقيقة بذلاً لجميعها، وإذا كان بذل بعض قيناتها يسمى كرماً فبذلها بأسرها من ينبغي له ذلك أولى أن يكون كرماً لا يشبهه كرم كما قال عليه السلام فيما سبق في وصفها: ورأيتها محتاجة فوهبت جملتها لها.

الخامسة: ولا قرين كحسن الخلق. قد عرفت الأخلاق الحسنة، وظاهر أنه ليس فيما يعدّ قريناً أشرف منها لأن غاية سائر القرناء أن يستفاد من صحبتهم ومحبتهم حسن الخلق، وكون حسن الخلق بنفسه الذي هو الغاية قريناً أشرف من ذي الغاية الذي عساه لا يحصل منه، فلا قرين إذن يشبهه.

السادسة: ولا ميراث كالأدب. وقد مر بيانه عن قرب.

السابعة: ولا قائد كالتوفيق: أي إلى المطالب. ولما كان التوفيق عبارة عن توافق الأسباب للشيء وشرائطه حتى يكون بمجموعها مستلزمة لحصوله لا جرم لم يكن للمرء قائد إلى مطالبه كالتوفيق في سرعة وصوله إليه.

الثامنة: ولا تجارة كالعمل الصالح. استعار لفظ التجارة له باعتبار كونه مستلزماً للخير كالتجارة المستلزمة للربح. ولما كان شرف التجارة بشرف ثمرتها وربحها فكلما كان الربح أشرف كانت التجارة أشرف. ولما كان ربح هذه التجارة الثواب الدائم الأخروي الذي لا ربح أعظم منه لم يكن لتجارة العمل الصالح ما يشبهها من التجارات.

التاسعة: ولا ربح كالثواب. وهو ظاهر.

العاشرة: ولا ورع كالوقوف عند الشبهة. قد يفسر الورع بأنه الوقوف عن المناهي والمحرمات. ولما كان الوقوف عما اشتبه من الأمور في حله وحرمته أبلغ أصناف الورع وأكثرها تحرزاً به لم يكن فيها ما يشبهه.

الحادية عشرة: ولا زهد كالزهد في الحرام. ولما كان الزهد في الحرام هو المأمور به والواجب دون غيره من أصناف الزهد كان أفضل أفضلية الواجب على المندوب.

الثانية عشرة: ولا علم كالتفكر. أي كالعلم الحاصل على التفكر وذلك بالقياس إلى ما يدّعي علماً من حفظ المنقولات كالأحاديث والسير ونحوها وإلى العلوم الحاصلة عن الحواس لأن العلم الفكري كلي وهو أشرف وحكم الشارع والخطيب أكثري. وأراد التفكر فيما ينبغي من خلق السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وتحصيل العبرة منه. وأطلق اسم التفكر على العلم الحاصل عنه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب. ويحتمل أن يريد العلم بكيفية التفكر والقوانين التي تعصم مراعاتها الفكر من الضلال.

الثالثة عشرة: ولا عبادة كأداء الفرائض. لكونها واجب والواجب أشرف من غيره.

الرابعة عشرة: ولا إيمان كالحياء والصبر. أي لا إيمان كإيمان كمل بالحياء والصبر، وذلك أشرف هاتين الفضيلتين كما سبق وأطلقهما على الإيمان مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه.

الخامسة عشرة: ولا حسب كالتواضع. لما كان الحسب ما يعد من المآثر والفضائل كان التواضع أشرف ما يعد بالقياس إلى كثير منها لما يستلزم من الخيرات كما سبق بيانه.

السادس عشرة: ولا شرف كالعلم: أي كشرف العلم فأطلق اسم الملزوم على لازمه مجازاً، وظاهر أن العلم أشرف الكمالات ولا شرف كشرفه.

السابعة عشرة: ولا مظاهرة أوثق من مشاورة. أي أقوى. وقد مرّ بيانه في قوله: ولا ظهير كالمشورة.

واعلم أن الحكم في كثير من هذه الكمالات أكثري وغرضه الترغيب في العقل والتدبير والتقوى وحسن الخلق والأدب والتوفيق بالرغبة إلى الله فيه والعمل الصالح والثواب والوقوف عند الشبه والزهد في الحرام والفكر والمحافظة على الفرائض واقتناء الحياء والصبر والتواضع والعلم والمشورة في الأمور.

١٠٥ - وقال عليه السلام: إِذَا اسْتَوْلَى الصَّلاحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ! وَإِذَا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ!

قد مرّ أن الزمان من جملة الأسباب المعدة لتوافق أسباب صلاح الخلق في معاشهم ومعادهم فيسمى زمان الصلاح والخير، كذلك هو من جملة الأسباب المعدة لعدم ذلك فيقال: فسد الزمان، وزمان فاسد.

والأول: هو الزمان الذي استولى الصلاح عليه وعلى أهله وبحسب ذلك يكون مظنة فعل الخير أن يحسبن الظن بأهله فمن أساء الظن حينئذ في أحد منهم لم يظهر منه ما يخزى به عند الناس من فعل رذيلة فقد وضع إساءة ظنه في غير موضعها وهو خروج عن العدل وظلم. وروي: حوبة: أي إثم.

والثاني: هو الزمان الذي استولى الفساد عليه وعلى أهله وبحسب ذلك يكون مظنة فعل الشر وسوء الظن بأهله فمن أحسن الظن في أحدهم حينئذ فقد غرر: أي أوقع نفسه في الغرة به والغفلة عن حاله.

١٠٦ - وقيل له عليه السلام: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: كَيْفَ يَكُونَ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ!

أجاب بصورة حاله على طريق الموعظة التشكي. ولما كان البقاء عبارة عن استمرار زمان الوجود وكان استمرار الزمان وتعاقب أجزائه مقرباً للأجل كان لبقائه سببيّة في فنائه وكذلك لمّا كان من غايات الصحة السقم كان لصحته سببية في سقمه وأما كونه يؤتى من مأمنه فيشبه أن يكون المأمن هنا مصدراً والمراد أن الداخل على المرء ونزول ما يكره به من الموت وأهوال الآخرة هو أمنه في الدنيا وسكونه إليها وغفلته عما وراءها مما لا بد منه.

ويحتمل أن يكون المأمن محل الأمن وهو الدنيا، ومعنى كونه يؤتى من مأمنه: أي أن ما يدخل عليه من الأدواء التي تلحقه هو من أحوال الدنيا التي هي مأمنه وعوارضها التي يعرض له من مأمنه حال أمنه فيه بحيث لا يمكنه الاحتراز منه.

١٠٧ - وقال عليه السلام: كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ

إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلاءِ لَهُ.

المستدرج: المأخوذ على غرة. والإملاء: الإمهال وتأخير المدة.

وقد ذكر عليه السلام من الأمور التي ابتلى الله بها عباده أربعة:

أحدها: الإحسان إلى العبد بضروب النعم.

الثاني: ستر المعصية عليه.

الثالث: حسن القول فيه وثناء الخلق عليه.

الرابع: تأخير مدته وإمهاله. ولما كانت غاية الابتلاء بهذه الأمور التي كلها نعم في الحقيقة إما شكرها أو كفرها كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] الآية. وكان الشكر هو الغاية الخيرية المطلوبة بالذات نبّه المبتلى بالنعمة الأولى على وجوب شكرها بأنه كثيراً ما يستدرج بها فينبغي أن لا يغفل عنها، ونبه المبتلى بالثانية على أنها كثيراً ما تكون سبباً لغرته بالله والأمن من مكره فينهمك في المعاصي، ونبه الثالث بكون نعمته قد تكون سبباً لفتنته وصرفه عن شكر الله وارتكابه لرذيلة العجب بنفسه، ونبه الرابع يكون نعمته أعظم ما يبتلى به من النعم.

١٠٨ - **وقال عليه السلام: هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ غَالٍ وَمُبْغِضٌ قَالٍ.**

لما كانت محبة أولياء الله فضيلة نفسانية كان طرف التفريط والتقصير فيها إلى غاية مقابلتها بالبغض وطرف الإفراط إلى غاية الغلو وتجاوز ما ينبغي منها رذيلتين تستلزمان هلاك صاحبهما في الآخرة. أما رذيلة التفريط فلأن بغض أولياء الله مستلزم لعداوتهم ومن عادى ولياً من أولياء الله فقد عادى الله وكان من الهالكين، وأما رذيلة الغلو والإفراط فلأن الغلاة أخرجوه عن حدّ البشرية إلى سماء الإلهية وهو صريح الكفر المستلزم للهلاك.

١٠٩ - **وقال عليه السلام: إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ.**

أي إن تضييع الأمر وقت إمكانه من نفسه يستلزم الأسف والحزن على تفويته. وهو تنفير عن تضييع الفرصة بما يلزمه.

١١٠ - **وقال عليه السلام: مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللُّبِّ الْعَاقِلُ!**

مثّل الدنيا بالحية، ووجه التمثيل قوله: ليّن مسها. إلى آخره. وذلك أن الدنيا لذيذة المتناول سهلة في عين الناظر إليها مع أن فيما يشتهيه منها ويتناوله الشقاوة الأخروية والعذاب الأليم. فيهوى إليها الجاهل بما فيها من سوء العاقبة ويحذرها العاقل العارف بها كما أن الحية ليّن مسها حسن منظرها يحسبها الجاهل سواراً من ذهب أو فضة يهوي إليها لغرته بما فيها من سم ويحذرها من يعرفه.

١١١ - **وسئل عليه السلام: عن قريش فقال: أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ، نُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ. وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْياً، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا. وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا، وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ.**

بنو مخزوم بطن من قريش وهو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ابن لوي بن غالب. ومنهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة وآل المغيرة. وكان لمخزوم ريح طيبة كالخُزامى ولون كلونه، والولد يشبه الوالد غالباً، ولذلك كانت هذه البطن تسمى ريحانة قريش، وكان المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم تسمى بذلك. وقيل: لأنه كان في رجالهم كيس لذلك يحب الحديث إليهم وفي نسائهم لطف وتصنّع وتحبّب إلى الرجال ولذلك يحب نكاحهم.

وأما بنو عبد شمس بن عبد مناف فمنهم ربيعة وإبناه شيبة وعتبة، والأعياص، وحرب بن أمية وابنه أبو سفيان، وأسيد بن عتاب، ومروان ابن الحكم. ووصف هذا البطن ببعد الرأي وهو كناية عن جودته ويقال: فلان بعيد الرأي. إذا كان يرى المصلحة من بعيد لقوة رأيه، ثم بكونها أمنع لما وراء ظهورها وهو كناية عن الحمية.

ثم وصف أهل بيته وهم بنو هاشم بكونهم أبذل لما في أيديهم: أي أسخى ثم بكونهم أسمح عند الموت بنفوسهم: أي أشجع. ثم وصفهم بفضيلة خارجية ورذيلتين ووصف بني هاشم بثلاث فضائل بدنيّتين ونفسانية، والفضيلة فيهم هي كثرة العدد، والرذيلتان كونهم أمكر: أي أكثر حيلة وخداعاً وكونهم أنكر: أي أكثر نكراً. والنكر: المنكر. وأما فضائل بني هاشم فكونهم افصح وكونهم أصبح: أي أحسن وجوهاً وأجمل وهما فضيلتان تتعلقان بالبدن، ويحتمل أن يريد بالأصبح كونهم ألقى للناس بالطلاقة والبشر ومبدأ ذلك فضيلة نفسانية، ثم كونهم أنصح. والنصيحة لمن ينبغي نصيحته فضيلة نفسانية تحت العفة.

١١٢ - وقال عليه السلام: **شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٌ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٌ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ وَيَبْقَى أَجْرُهُ.**

وشتّان: أي افترق بينهما.

والأول: العمل للدنيا. وتبعته هو ما يتبعه من الشقاوة الأخروية.

والثاني: عمل الآخرة. وظاهر أن بينهما فرقاً عظيماً.

١١٣ - وتبع جنازة، فسمع رجلاً يضحك، **فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فقال: كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٌ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ! نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ! ثُمَّ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ، وَرُمِينَا بِكُلِّ فَادِحٍ وَجَائِحَةٍ. طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ.**

قال الرضي: أقول: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْسُبُ هَذَا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله.

الأجداث: القبور. والجائحة: الداهية المستأصلة.

وغرض الفصل التنفير عن وضع الضحك في غير موضعه والتذكير بأمر الآخرة.

وذكر تشبيهات ثلاث:

أحدها: تشبيه الموت بالمكتوب على غير الإنسان.

والثاني: تشبيه الحق الواجب عليه بما وجب على غيره دونه.

والثالث: تشبه ما يشاهد من الأموات بالمسافرين الذين يقدمون عن قريب.

ووجه الشبه في الثلاث قلة اهتمام الناس بالموت والتفاتهم إلى أداء واجب حق الله عليهم وعدم اعتبارهم بمن يموت.

وقوله: نبوّئهم. إلى قوله: جائحة.

من تمام وجه التشبيه فإن الفاعل مثل هذا الفعل بالأموات كأنه لقساوة قلبه وعدم اتعاظه لم يكتب عليه ما كتب عليهم من الموت.

وقوله: طوبى. إلى آخره. ترغيب في اقتناء الفضائل المذكورة بأن له طوبى وهي في الحقيقة الحالة الشريفة التي لأولياء الله في الآخرة من طيب الحال واللذة الباقية. وذكر ثمان فضائل:

أحدها: ذلّة النفس لله عن ملاحظة حاجتها وفقرها إليه، ونظرها إلى معادها.

الثانية: طيب الكسب بأخذه من وجوهه التي ينبغي.

الثالثة: صلاح السريرة لله وإخلاص الباطن من فساد النيات في المعاملات مع الخلق.

الرابعة: حسن الخلق واقتناء فضائله.

الخامسة: إنفاق الفاضل عن الحاجة من المال فيما ينبغي من وجوه القربات إلى الله وهي فضيلة السخاء.

السادسة: إمساك الفضل من المقال أي ما زاد منه مما لا ينبغي وهو السكوت في موضعه.

السابعة: عزل الشر عن الناس وهو العدل أو لازمه.

الثامنة: لزوم سنّة الله ورسوله وعدم الخروج عنها إلى ما يبتدع في الدين ولا ينبغي.

١١٤ - وقال عليه السلام: غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ.

أما الأول: فلأن غيرة الرجل تستلزم سخطه لما سخط الله من اشتراك رجلين في امرأة. وسخط ما سخط الله موافق لرضاه ومؤيده لنهيه. وذلك إيمان.

وأما الثاني: فلأن المرأة تقوم بغيرتها في تحريم ما أحلّ الله وهو اشتراك إمرأتين فما زاد في رجل واحد وتقابله بالرد والإنكار. وتحريم ما أحل الله وسخطه ما رضيه ردّ عليه وهو لا محالة كفر.

١١٥ - وقال عليه السلام: لأَنْسُبَنَّ الإِسْلاَمَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: الإِسْلاَمُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ، وَالإِقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ، وَالأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ.

هذا قياس مفصول مركب من قياسات طويت نتائجها. وينتج القياس

الأول: أن الإسلام هو التسليم.

والثاني: أنه اليقين.

والثالث: أنه التصديق.

والرابع: أنه الإقرار.

والخامس: أنه الأداء.

والسادس: أنه العمل.

أما المقدمة الأولى: فلأن الإسلام هو الدخول في الطاعة ويلزمه التسليم لله وعدم النزاع في ذلك. وصدق اللازم على ملزومه ظاهر.

وأما الثانية: فلأن التسليم الحق إنما يكون عن تيقن استحقاق المطاع للتسليم له فكان اليقين بذلك من لوازم التسليم لله فصدق عليه صدق اللازم على ملزومه.

وأما الثالثة: فلأن اليقين باستحقاقه للطاعة والتسليم مستلزم للتصديق بما جاء به على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله: من وجوب طاعته فصدق على اليقين به أنه تصديق له.

وأما الرابعة: فلأن التصديق لله في وجوب طاعته إقرار بصدق الله.

وأما الخامسة: فلأن الإقرار والاعتراف بوجوب أمر يستلزم أداء المقر المعترف لما أقرّ به فكان إقراره أداءاً لازماً.

وأما السادسة: وهو أن الأداء هو العمل فلأن أداء ما اعترف به لله من الطاعة الواجبة لا يكون إلاّ عملاً.

ويؤول حاصل هذا الترتيب إلى إنتاج أن الإسلام هو العمل لله بمقتضى أوامره وهو تفسير بخاصة من خواصه كما سبق بيانه.

١١٦ - وقال عليه السلام: عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ. فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ، وَيُحَاسَبُ فِي الآخِرَةِ حِسَابَ الأَغْنِيَاءِ. وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالأَمْسِ نُطْفَةً، وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً. وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللهِ، وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللهِ. وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ، وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَى. وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُولَى. وَعَجِبْتُ لِعَامِرِ دَارَ الْفَنَاءِ وَتَارِكِ دَارَ الْبَقَاءِ.

تعجب عليه السلام من ستة هم محل العجب والغرض التنفير عن رذائلهم:

الأول: البخيل وجعل محل التعجب منه ثلاثة أمور:

أحدها: أنه إنما يبخل خوف الفقر في العاقبة لو أنفق المال. وتقتيره وعدم انتفاعه به في الحال صورة فقر حاضر فكان بذلك مستعجلاً للفقر الذي هرب منه إلى البخل.

الثاني: أنه طالب للغنى ببخله وبخله أبداً سبب لفقره الحاضر المنافي لغناه والمفوّت له. فما يعتقده سبب الغنى هو المفوّت للغنى.

الثالث: أنه يعيش في الدنيا عيش الفقراء لعدم انتفاعه بماله، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء لمشاركته إيّاهم في جميع المال ومحبّته اللذين هما مبدءا الحساب. فكان منهم بهذا الاعتبار.

الثاني: المتكبر ونبه على وجه العجب منه بذكر مبدأ كونه، وهو كونه نطفة في غاية الحقارة والسخف المنافي للكبر، وغايته وهو كونه جيفة في نهاية القذارة. فجمعه بين هذين الأمرين وبين التكبر من العجب العجيب.

الثالث: الشاكّ في الله وهو يرى خلقه وذلك جمع بين الشك في وجوده وبين رؤيته ظاهراً في وجود مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وهو محل العجب.

الرابع: الناسي لموته مع رؤيته لمن يموت. وظاهر أن نسيان الموت مع رؤيته دائماً محل التعجب.

الخامس: منكر النشأة الأخرى وإعادة الأبدان بعد عدمها. وظاهر أن إنكاره لذلك مع اعترافه بالنشأة الأولى وهي الوجود الأول للخلق من العدم الصرف محل التعجب لأن الأخرى أهون كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

السادس: عامر الدنيا مع كونها فانية زائلة مع تركه لعمارة الآخرة الباقية والباقي ما فيها محل التعجب.

وغرض التعجّب من هؤلاء والإشارة إلى وجوهه تنفير الخلق من الأمور المذكورة.

١١٧ - وقال عليه السلام: مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ، وَلا حَاجَةَ للهِ فِيمَنْ لَيْسَ للهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ.

المقصر في العمل لله يكون غالب أحواله متوفراً على الدنيا مفرطاً في طلبها وجمعها وبقدر التوفر عليها يكون شدة الهمّ في جمعها وتحصيلها أولاً ثم في ضبطها والخوف على فواتها ثانياً، وفي المشهور: خذ من الدنيا ما شئت ومن الهم ضعفه. فنفر عن التقصير في الأعمال البدنية والمالية بقوله: ولا حاجة لله. إلى آخره. وكنّى بعدم حاجته فيه عن إعراضه عنه وعدم النظر إليه بعين الرحمة لعدم استعداده لذلك.

١١٨ - وقال عليه السلام: تَوَقَّوُا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الأَشْجَارِ: أَوَّلُهُ يُحْرِقُ، وَآخِرُهُ يُورِقُ.

إنما وجب اتقاؤه في أوله وهو أول الخريف لأن الصيف والخريف يشتركان في اليبس فإذا ورد البرد وحينئذ ورد على أبدان استعدت بحرارة الصيف ويبسه للتخلخل وتفتح المسام والجفاف فاشتد انفعال البدن عنه وأسرع تأثيره في قهر الحرارة الغريزية فتقوى بذلك في البدن قوّتا البرد واليبس اللتان هما طبيعة الموت فكون بذلك يبس الأشجار واحتراق الأوراق وانحسارها وضمور الأبدان وضعفها، وأما أمره بالتقائه في آخره، وهو آخر الشتاء وأول زمان الربيع فلأن الشتاء والربيع يشتركان في الرطوبة ويفترقان بأن الشتاء بارد والربيع حار فالبرد المتأخر إذا امتزج بحرارة الربيع وانكسرت سورته بها لم يكن له بعد ذلك نكاية في الأبدان فقويت لذلك الحرارة الغريزية وانتعشت فكان من اعتدالها بالبرد مع الرطوبة استعداد لمزاج هو طبيعة الحياة، وكان منه النمو وقوة الأبدان وبروز الأوراق والثمار.

وقوله: فإنه. إلى آخره.

صغرى ضمير نبه به على توقّيه وتلقّيه. وتقدير كبراه: وكل ما كان كذلك فإنه يجب توقّي أوله وتلقي آخره.

وقوله: أوله يحرق وآخره يورق.

وهو وجه التشبيه.

١١٩ - وقال عليه السلام: عِظَمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ.

هذا أمر وجده العارفون بالله فإنّ من عرف عظمة الله وجلاله ولحظ جميع المخلوقات بالقياس إليه حتى علم مالها من ذواتها وهو الإمكان والحاجة وعدم استحقاق الوجود إلاّ منه تعالى علم أنها في جنب عظمته عدم ولا أحقر من العدم. وشدّة صغر المخلوق في اعتبار العارف بحسب درجته في عرفانه. وقيل لبعض العارفين: فلان زاهد. فقال: فيما ذا؟ فقيل: في الدنيا. فقال: الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة فكيف يعتبر الزهد فيها؟ والزهد إنما يكون في شيء والدنيا عندي لا شيء.

١٢٠ - وقال عليه السلام، وقد رجع من صفين، فأشرف على القبور بظاهر الكوفة: يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ، يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ، يا أَهْلَ الْغُرْبَةِ، يا أَهْلَ الْوَحْدَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ

لاحِقٌ. أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ، وَأَمَّا الأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ، وَأَمَّا الأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ. هٰذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ؟

ثم التفت إلى أصحابه فقال: أَمَا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلامِ لأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ ﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

الفرط: الذي يتقدم الواردة فيهيئ الإرشاء والدلاء. وخاطبهم عليه السلام خطاب من يسمع إقامة لحالهم المعهودة مقام أشخاصهم الموجودة. والديار الموحشة والمحال المقفرة: القبور. وغرض الفصل ترقيق القلوب القاسية وتنبيه النفوس الغافلة عن غاية الدنيا ومتاعها لغاية العمل فيها كما ينبغي، ولما كان الحق هو أن خير الزاد التقوى كما نطق به القرآن الكريم وكان ذلك أمراً شاهد المتقون في جزائهم بتقواهم والفجّار في حرمانهم بعدمه لا جرم لو أُذن لهم في الجواب وأُعطوا آلته لكان جوابهم ما عرفوا من الحق.

١٢١ - وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا: أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا! أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا؟ أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا، أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ؟ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ! تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ، وَلا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ. لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِفَاقُكَ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ! قَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ.

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا. مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ، وَمُصَلَّى مَلائِكَةِ اللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ. اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ. فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلائِهَا الْبَلاءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلى السُّرُورِ؟! رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

أقول: المتجرم: المدعي جريمة. واستهوتك: طلبت هواك إليها وهواك فيها. ومثّلت: صوّرت.

وقوله: أيها الذام، إلى قوله: غرتك.

توبيخ له على الاغترار بها وذمها مع ذلك وكذب دعواه أنها هي ذات الجريمة عليه باستفهامه عن وقت استهوائها له استفهام منكر لذلك وموبّخ عليه وأكد ذلك باستفهام أن ذلك الغرور له منها بأي شيء كان أمن مصارع الآباء أم بمضاجع الأمهات، وذلك على وجه الاستهزاء منه والتنبيه له على ما يوجب النفرة منها وعدم الاغترار بها من سوء صنيعها بأهلها حتى كأنها قاصدة لذلك التنبيه والتنفير عنها.

وقوله: كم عللت. إلى قوله: مصرعك.

صغرى ضمير دلّ به على ما ادعاه لها من كونها منبهة من الغفلة وليس قصدها الغرور وتقديرها: قد صوّرت لك الدنيا نفسك بمن أكثرت تعليله وتمريضه من أهلك طالباً له الشفاء ومستوصفاً له الأطباء لم ينفعه ذلك منك، ومثّلت بمصرعه مصرعك. وتقدير الكبرى: وكل من مثل لك ذل وصوّره لك فليس من أهل التلبيس عليك والغرور لك. بل من نصحائك ومنبّهيك من غفلتك. ثم لما نفى عنها الذم أخذ في مدحها وذكر لها أوصافاً ثمانية:

أحدها: أنها دار صدق لمن صدقها: أي فيما أخبر به بلسان حالها من فنائها وزوالها. وتصديقه لها اعترافه بذلك منها والعمل به.

الثاني: ودار عافية لمن فهم عنها ما أخبرت عنها من عظاتها حتى احترز من آفاتها وعوفي من عذاب الله بها.

الثالث: ودار غنى لمن اتخذ فيها التقوى زاداً لسفره

إلى الله. وظاهر أن التقوى وثمرتها في الآخرة أعظم غنى للمتقين.

الرابع: ودار موعظة لمن اعتبر بها فعلم وصفها وغايتها.

الخامس: كونها مسجد أحياء الله من رسله وأوليائه.

السادس: كونها مصلى ملائكة الله الأرضية الذين سجدوا لآدم عليه السلام.

السابع: كونها مهبط وحي الله.

الثامن: كونها متجر أولياء الله الّذين اكتسبوا بعبادتهم فيها رحمته وربحوا جنته.

ثم استفهم بعد هذه الممادح عمّن يذمها منكراً عليه ومبيّناً لأحوال أُخرى لها ينافي ذمها أي فمن ذا يذمها ولها الصفات المذكورة وهي على هذه الأحوال؟ وذكر منها ستة:

إحديها: كونها آذنت أهلها وأعلمتهم بفراقها. والواو في قوله: وقد للحال.

الثاني: ونادت بفراقها.

الثالث: ونعت نفسها. كل ذلك بلسان حالها من التغيّر والانتقال المؤذن بالزوال.

الرابع: كونها مثّلت لهم ببلائها البلاء في الآخرة.

الخامس: وشوقتهم بسرورها إلى السرور في الجنة. وإنما كان كذلك لأن كل ما في هذا العالم فهو صورة ومثال له في عالم الغيب ونسخة منه يعتبر به ويقاس إليه ولولا ذلك لانسد طريق الترقي إلى الحضرة الإلهية وتعذر الوقوف على شيء من أسرارها. فالسالكون إلى الله لما شاهدوا بلاء الآخرة من بلاء الدنيا عملوا للخلاص منه وشاهدوا سرورها من سرور الدنيا وعلموا أن بينهما فرقاً عظيماً وأن الأشرف لا يحصل إلاّ برفض الأخس فاقتضت آراؤهم الصالحة بيع سرور الفاني بالباقي.

السادس: رواحها بعاقبة وابتكارها بفجيعة. وهو كناية عن سرعة انتقال أحوالها وتبدل أطوارها من رخاء إلى شدة ومن صحة إلى سقم ونسب هذه الأفعال إليها لأن لها سببية ما في ذلك.

ولما نسب إليها الأفعال الاختيارية جعل لها منها غايات وهي ترغيب الناس إلى الله وترهيبهم منها. ثم أشار إلى سبب ذمها ممن ذمها وهو ندامة المفرطين في اتخاذ زاد التقوى إلى الآخرة منها فنسبوا ذلك التفريط إلى غرورها لهم وهو باطل كما بيّنه، ثم إلى سبب مدحها ممن مدحها وهو ثلاثة:

أحدها: تذكّرها لهم بزوالها أن وراءها غاية باقية يجب العمل لها فتذكروا ما ذكرتهم وعملوا.

الثاني: حديثها لهم بذلك حتى صدقوا.

الثالث: وعظها لهم بعبرها حتى اتعظوا.

١٢٢ - وقال عليه السلام: إِنَّ للهِ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ.

ذلك النداء على وفق ما لمّ من القضاء الإلهي في طبيعة الدنيا وغايتها، والأمور الثلاثة وهي الموت والفناء والخراب غايات طبيعية. واللام فيها هي المسماة بلام العاقبة.

١٢٣ - وقال عليه السلام: الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ لاَ دَارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلانِ: رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا.

أوبقها: أهلكها. وكون الدنيا دار ممر باعتبار أنها طريق إلى الآخرة التي هي دار المقر. واستعار لفظ البيع لبائع نفسه باعتبار تسليمه لها إلى الهلاك الأُخروي واعتياضه عنها ما أصابه من اللذة الدنيوية، وكذلك لفظ الابتياع لمشتري نفسه باعتبار إنقاذها من ذلك الهلاك ببذل ما قدر عليه من حاضر اللذات والإعراض عنه. وحصر المكلفين في الرجلين المذكورين ظاهر.

١٢٤ - وقال عليه السلام: لا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلاثٍ: فِي نَكْبَتِهِ، وَغَيْبَتِهِ، وَوَفَاتِهِ.

جعل لصديق الصدق خاصة يعرف بها، وهو أن يحفظ صديقه في الأمور الثلاثة. وحفظه بالقيام مقامه فيما ينبغي فعله في صلاح حاله بقدر الإمكان.

١٢٥ - وقال عليه السلام: **مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الاسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ.**

وتصديق ذلك كتاب الله، قال الله في الدعاء: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال في الاستغفار: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وقال في الشكر: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقال في التوبة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أقول: الأمور الأربعة إذا كانت بإخلاص كانت كل منها سبباً في إعداد النفس لقبول صورة الرحمة الإلهية من واهبها. فالدعاء لإجابته، والتوبة لقبولها وإسقاط ثمرة المعصية، والاستغفار للمغفرة، والشكر للزيادة. والشواهد الإلهية ناطقة بذلك على وفق مقتضى العمل.

١٢٦ - وقال عليه السلام: **الصَّلاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ. وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ. وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصِّيَامُ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ.**

التبعل: معاشرة البعل وصحبته والكلام إشارة إلى بعض أسرار هذه العبادات: فمن أسرار الصلاة كونها قرباناً إلى الله تعالى وقد علمت أنها أعظم ما يتقرب إليه المتقون به من العبادات، ومن أسرار الحج كونه جهاداً في سبيل الله لما فيه من مشقة السفر ومجاهدة الطبيعة ومقاومة النفس الأمارة بالسوء، مع قوتها لشبهة عدم الاطلاع على أسرار الحج وفائدته مع ما في كيفيته من الأفعال التي يعجب منها الجاهلون. وإنما خصّ الضعيف بذلك جذباً له إليه ولأن للقوي جهاد آخر هو المشهور، ومن أسرار الصوم كونه زكاة للبدن لما فيه من تنقيص قوته وكسر شهوته لغاية طاعة الله والثواب الأخروي، وكما أن الزكاة تنقيص من المال مستلزم لزيادة الثواب في الآخرة، ومن أسرار التبعل حسن معاشرة البعل وطاعته في طاعة الله وفي ذلك كسر النفس الأمارة للمرأة وانقيادها في صراط الله.

١٢٧ - وقال عليه السلام: **اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ.**

ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية.

وفي الكلمة فائدتان:

إحديهما: الترغيب في الصدقة بذكر كونها سبباً لاستنزال الرزق. وقد مرّ أن الصدقة باب عظيم لذلك معدّ لحصوله، ومن وجوه إعدادها كونها نفعاً متعدياً يستلزم تألّف قلوب أهل الله والصالحين من عباده واجتماع هممهم على دعاء الله لصلاح حال المتصدق.

الثانية: التنبيه على أقوى الأسباب الباعثة عليها وعلى البذل في أكثر الخلق ليعتمد فيسهل معه البذل وهو الثقة بالله واليقين بالخلف منه كما نطق به وعده تعالى ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧] الآية.

١٢٨ - وقال عليه السلام: **تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَؤُونَةِ.**

المؤونة: التعب والشدة وهي مفعلة من الأين. والمراد أن الشدة والثقل بالعيال ونحوهم معدّ لاستنزال معونة الله برزقه وقوته على القيام بأحوالهم ودفع المؤونة من جهتهم.

١٢٩ - وقال عليه السلام: **مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ.**

العيلة: الفقر. والاقتصاد: الإنفاق بقدر الحاجة المتعارفة. وذلك معدّ لعدم الحاجة لأن قدر الحاجة من المال أمر قد تكفل الله بإدراره مدة البقاء وهو ما لا بد للمقتصد منه.

١٣٠ - وقال عليه السلام: **قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ. التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ. اَلْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ.**

أما الأول: فلأن الغنى المتعارف يكون بحصول المال وللمال اعتباران:

أحدهما: حصوله.

والثاني: عدم إنفاقه. فحصوله يسار، وعدم إنفاقه

على العيال لقلتهم يسار ثان. وأطلق اليسار على قلة العيال مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب.

وأما الثاني: فأراد العقل العملي. ولفظه مجاز في تصرفاته إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ومن جملة تصرفاته في التدبير التودد إلى الخلق. ولما كان الإنسان محتاجاً في إصلاح معاشه إلى غيره وكانت معاملته لهم في ذلك إما على وجه التودد وما يلزمه من جميل المعاشرة وحسن الصحبة والمسامحة والترغيب، وإما على وجه القهر والغلبة والترهيب لا جرم كان التودد وما يلزمه نصف العقل: أي نصف تصرفه في تدبير أمر معاشه.

وأما الثالث: فلأن الهرم إما طبيعي، وإما لسبب من خارج وهو الهم والحزن والخوف المستلزم له فهو إذن قسيم للسبب الطبيعي. وقسم من أسباب الهرم كالنصف له فاستعار له لفظ النصف وأراد: والهم نصف سبب الهرم.

١٣١ - وقال عليه السلام: يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ عَمَلُهُ.

إن الله سبحانه جعل للإنسان قوة استعداد لأن يصبر بمقدار مصيبته فمن تم استعداده أُفيض عليه ذلك المقدار من الصبر ومن قصر في الاستعداد لحصول هذه الفضيلة وارتكب ضدها وهو الجزع حبط أجره، وهو ثوابه على الصبر، وكنّى عن الجزع بما يلزمه في العادة من ضرب اليدين على الفخذين. وقيل: بل يحبط ثوابه السابق لأن شدة الجزع يستلزم كراهية قضاء الله وسخطه وعدم الالتفات إلى ما وعد به من ثواب الصابرين وهو معد لمحو الحسنات من لوح النفس وسقوط ما يلزمها من ثواب الآخرة.

١٣٢ - وقال عليه السلام: كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ، حَبَّذَا نَوْمُ الأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ!

أراد بذلك من أخلّ بشرط من شرائط صيامه وقيامه ولم يأت على وجه الإجزاء، وأعظم شرط لهما توجههما إلى المعبود الحق عزّ سلطانه، وكثرة خلل العبادة وفسادها من كثير من الخلق إنما يكون للجهل بهذا الشرط. وكنّى بالقيام عن الصلاة. وإنما مدح نوم الأكياس لأن الكيس هو الذي يستعمل ذكاءه وفطنته في طرق الخير وعلى الوجه المرضي للشارع، ويضع كل شيء موضعه. ومن كان كذلك كان نومه وإفطاره وجميع تصرفاته في عباداته موضعةً موضعها في رضاء الله ومحبته.

١٣٣ - وقال عليه السلام: سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلاءِ بِالدُّعَاءِ.

سوسوا: أي املكوا. وذلك أن الصدقة هي الإيمان التام مملكه وحفظه لا يكون بدونها، وأما تحصين المال بالزكاة فلأن منعها إنما يكون عن البخل وشدة الحرص، وذلك باعث لمستحقها على ذمه وداع للخلق إلى التسبب في أذاه فكان مانعها متعرضاً بذلك لتلف ماله وبأدائها محصناً له. واستعار لفظ الأمواج للحوادث المتواترة وقد مر أن الدعاء بإخلاص مما يعد النفس للإجابة بالمطلوب. وغرضه الحث على الصدقة والزكاة والدعاء.

١٣٤ - وقال عليه السلام: لكُمَيْل بن زياد النخعي رحمه الله، قال كُمَيْلُ: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبّان، فلما أصحر تنفس الصّعَداء، ثم قال:

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، إِنَّ هذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ:

النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ

وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. والْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُوْلُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلُ، هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ. أَلا لا ذَا وَلا ذَاكَ! أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالادِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الأَنْعَامُ السَّائِمَةُ! كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى! لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ. وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولَئِكَ؟ أُولَئِكَ ـ وَاللهِ ـ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَالأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللهِ قَدْراً. يَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ. هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى. أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ. آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ! انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.

أقول: الجبّان: الصحراء. والصعداء: نوع من النفس يصعده المتلهف والحزين. والهمج: ذباب صغيرة كالبعوض. والرعاع: الأحداث والعوام. واللقن: سريع الفهم. والأحناء: الجوانب. والمنهوم باللذة: الشره فيها الحريص عليها. والمغرم بالجمع: شديد المحبة له. وهجم: دخل بغتة.

وفي الفصل نكت:

إحداها: أنه عليه السلام أعده ونبهه للفهم عنه بقوله: إن هذه القلوب. إلى قوله: لك.

الثانية: قسم الناس إلى ثلاثة أصناف. ووجه القسم أن الناس إما عالم أو ليس. والثاني: إما طالب للعلم أو ليس. ثم قيّد كلاً من الأقسام الثلاثة بصفة أو صفات:

فالأول: العالم. ووصفه بالرباني نسبة إلى الرب تعالى على غير قياس: أي العالم علم ربوبيّته وهو العارف بالله تعالى وزيدت الألف والنون للمبالغة في النسبة، قال الله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] وقيل: سموا بذلك لأنهم يربّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها. وقيل: لأنهم يربون العلم: أي يقومون بإصلاحه.

الثاني: المتعلّم. ووصفه بكونه على سبيل النجاة. ولما كان العلم سبباً للنجاة في الآخرة وكان المتعلم في طريق تحصيله كان على سبيل النجاة ليصل إليها بالعلم الذي هو غايته المطلوبة.

الثالث: العوام. ووصفهم بأوصاف:

أحدها: استعار لهم لفظ الهمج باعتبار حقارتهم.

الثاني: وصفهم بالعامية والحداثة لكونهما مظنتي الجهل.

الثالث: كونهم أتباع كل ناعق ملاحظة لشبههم بالغنم في الغفلة والغباوة.

الرابع: كنّى بكونهم يميلون مع كل ريح عن ضعفهم عن التماسك في مذهب واحد والثبات عليه.

الخامس: كونهم لم يستضيئوا بنور العلم وهو كونهم على ظلمة الجهل.

السادس: ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. واستعار الركن الوثيق للاعتقادات الحقة البرهانية التي يعتمد عليها في دفع مكاره الآخرة.

الثالثة: في مدح العلم. وتفضله على المال من وجوه:

أحدها: أن العلم يحرس صاحبه من مكاره الدنيا والآخرة والمال يحرسه صاحبه، والفرق بين ما يكون حارساً لصاحبه وبين ما يحتاج صاحبه إلى حراسته في الفضيلة والنفع ظاهر.

الثاني: أن العلم يزكو ويزيد بإخراجه وإفادته لطالبيه لتذكر العالم بتعليمه ومذكراته لما غفل منه واستنباطه ما لم يكن عنده، والمال تنقصه النفقة والإخراج منه.

الثالث: أن صنيع المال وهو الإحسان به يزول بزوال المال، والإحسان بالعلم باق لبقائه. وصنيع: فعيل بمعنى مفعول.

الرابع: كون معرفة العلم - أي تحصيله - ديناً يدان به. وقد علمت كونه الأصل في الدين.

الخامس: كونه يكسب الإنسان طاعة الخلق له في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته. وهما من فضائله الخارجية.

السادس: كونه حاكماً على المال والمال محكوماً عليه: أي أن تصريفه في جمعه وإنفاقه إنما يكون على وفق العلم بوجوه تحصيله ومصارفه.

السابع: من أفضليته على المال كون خزّان المال هالكين في الآخرة محكوم عليهم بذلك في الدنيا وإن صدق عليهم أنهم أحياء كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، وأما العلماء فباقون أبداً، وإن فقدت أعيانهم من الدنيا فصورهم في القلوب مشاهدة موجودة.

الرابعة: أشار بعد تقرير كمال هذه الفضيلة إلى أن في صدره منها شيئاً كثيراً. وإنما يمنعه عن إظهاره عدم وجدان من يحمله عنه و - ها - للتنبيه. وجواب - لو - محذوف تقديره لأظهرته.

الخامسة: استثبت من يجده ونبه على عدم صلاحيتهم لحمل ما عنده من العلم، وأشار إلى أربعة أصناف منهم، ووجه القسم أن غير أهل العلم من الناس إما طالبون له أو غير طالبين، والطالبون إما قادرون على القيام بالحجة أو غير قادرين، وغير الطالبين له هم المشغولون بغيره عنه فاشتغالهم إما بالانهماك في لذاتهم وسهولة الانقياد لشهواتهم، وإما بمحبة جمع المال وادّخاره.

فالأول: هو الخبيث الموصوف برذيلة الجربزة، وأشار إليه بقوله: بلى أصيب لقناً. إلى قوله: على أوليائه.

وأشار إلى وجوه عدم صلاحيته لحمله:

أحدها: كونه غير مأمون عليه: أي هو مظنة أن يذيعه إلى غير أهله [أن يذيغه - خ -] ويضعه في غير مواضعه. والضمير في قوله: عليه. للعلم.

الثاني: كونه مستعملاً لآلة الدين وهو العلم في الدنيا واستعماله فيها كالتكسب به، ومستظهراً بنعم الله وهي العلم على عباده كالفخر عليهم ومغالبتهم واستعمال حجة الله وما علمه منها في مقابلة أوليائه وتلبيس الحق بالباطل.

وأما الثاني: ممن لا يصلح لحمله فهو المقلد، وأشار إليه بقوله: ومنقاداً. إلى قوله: شبهة. ومنقاداً عطف على لقناً، وأراد بالانقياد للحق الإيمان به وتسليمه إلى سبيل الجملة، وأشار إلى كونه غير صالح لحمله من وجهين:

أحدهما: كونه لا بصيرة له في جوانب العلم وتفاصيله.

الثاني: كونه ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. وذلك لعدم العلم وثباته في نفسه بالبرهان والحجة الواضحة.

وقوله: لا ذا ولا ذاك. أي من حملة العلم.

الثالث: هو المشار إليه بقوله: أو منهوماً. إلى قوله: للشهوة.

والرابع: هو المشار إليه بقوله: أو مغرماً بالجمع والادّخار. وأتبعهما في معرض الذم لهما بوصفين:

أحدهما: كونهما ليس من رعاة الدين في شيء: أي لا تعلق لهما بالدين وأهله.

الثاني: كونهما أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة

باعتبار غفلتهما عن الدين وثمرته في الآخرة. وقوله: كذلك: أي تقارب تلك الأحوال من عدم التشبيه يفيد مقاربة الأحوال، وعنى بحامله نفسه ومن عساه يكون من أهله يومئذ. ثم استدرك بقوله: اللهم بلى. عدم خلوّ الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً أو مستتراً مغموراً في الناس. وأراد بالظاهر من عساه يتمكن من إظهار العلم والعمل به من أولياء الله وخلفاء أوليائه في موضع من الأرض، وبالخائف المغمور إلى من لم يتمكن من ذلك.

قالت الشيعة: هذا تصريح منه عليه السلام. بوجوب الإمامة بين الناس في كل زمان ما دام التكليف باقياً وأن الإمام قائم بحجة الله على خلقه ويجب بمقتضى حكمته. وهو إما أن يكون ظاهراً معروفاً كالذين سبقوا إلى الإحسان ووصلوا إلى المحل الأعلى من ولده الأحد عشر، وإما أن يكون خائفاً مستوراً لكثرة أعدائه وقلة المخلص من أوليائه كالحجة المنتظر لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وقوله: وكم ذا. استبطاء لمدة غيبة صاحب الأمر وتبرّم من امتداد دولة أعدائه.

وقوله: أين هم. استقلال لعدد أئمة الدين. ولذلك نبه بقوله: أولئك والله الأقلون عدداً. وذكر في معرض مدحهم أوصافاً:

أحدها: الأقلون عدداً الأعظمون قدراً عند الله.

الثاني: أن بهم يحفظ حججه وبيّناته المشتمل عليها دينه حتى يودعوها أمثالهم ويزرعوها في قلوب أشباههم بعدهم.

الثالث: كونهم: يهجم بهم العلم على حقيقة البصيرة: أي فاجأهم ودخل على عقولهم دفعة لأن علومهم لدنيّة حدسية، وقيل: ذلك على المقلوب: أي هجمت بهم عقولهم على حقيقة العلم.

الرابع: وباشروا روح اليقين: أي وجدوا لذته.

الخامس: واستلانوا ما استوعر منه المترفون من الأمور الشاقة كجشوبة المطعم وخشونة المضجع والملبس ومصابرة الصيام والسهر. وذلك في جنب ما وجدوه من لذة اليقين وحلاوة العرفان هيّن ليّن عندهم.

السادس: وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وهو الأحوال التي ألفوها مما ذكرنا فإن الجاهل لجهله بثمرتها ينفر منها ويستوحش من أهلها.

السابع: وصحبوا الدنيا بأبدان أرواح معلقة بالمحل الأعلى عاشقة لما شاهدته من جمال الربوبية وصحبة الملأ الأعلى من الملائكة. ولما ميّزهم بالأوصاف المذكورة أشار في معرض مدحهم أيضاً إلى أن هؤلاء لما اشتملوا عليه من هذه الأوصاف هم خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه. ثم تأوّه شوقاً إلى رؤيتهم و - آه - كلمة توجع أصلها - أوه - والفصل من أفصح ما نقل عنه عليه السلام.

١٣٥ - وقال عليه السلام: الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

أي حاله مستورة في عدم نطقه فحذف المضاف للعلم به. وتحت لسانه كناية عن سكوته، وذلك أن مقداره بمقدار عقله ومقدار عقله يعرف من مقدار كلامه لدلالته عليه فإذا تكلّم بكلام الحكماء ظهر كونه حكيماً أو بكلام السفهاء عرف كونه منهم وما بين المرتبتين بالنسبة.

١٣٦ - وقال عليه السلام: هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ.

قد علمت أن قدره هو مقداره في نفس الأمر ومنزلته من الفضيلة وعدمها؛ ومن لم يعرف منزلته أو شك أن يتجاوزها فيهلك. مثلاً من لم يعرف محله من العالم أوشك أن يرفع به فوق محله أو يعني بما لا يعرف لاعتقاده كماله فيقع في الهلاك الأخروي وربّما تبعه هلاك دنياه، ولزمه من تجاوزه تلعب ألسنة الناس وأيديهم به وهلاكه بذلك.

١٣٧ - وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه:

لا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيُرَجِّي التَّوْبَةَ بِطُولِ الأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ، يَنْهَى وَلا يَنْتَهِي،

وَيَأْمُرُ بِمَا لا يَأْتِي، يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيُبْغِضُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لاهِياً، يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ، إِنْ أَصَابَهُ بَلاءٌ دَعَا مُضْطَرّاً، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرّاً، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ، وَلا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ، إِنِ اسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ، وَإِنِ افْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ، إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ. يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلا يَعْتَبِرُ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلا يَتَّعِظُ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ. يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى. يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَماً، وَالْغُرْمَ مَغْنَماً. يَخْشَى الْمَوْتَ، وَلا يُبَادِرُ الْفَوْتَ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْقِرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ، اللَّهْوُ مَعَ الأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَلا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ، يُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُغْوِي نَفْسَهُ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي، وَيَسْتَوْفِي وَلا يُوفِي، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ وَلا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ.

قال الرضي: ولو لم يكن في هذا الكتاب إلاّ هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة، وحكمة بالغة، وبصيرة لمبصر، وعبرة لناظر مفكر.

أقول: يرجّيها: يؤخرها. يزجيها - بالزا المعجمة -: أي يدفعها. القنوط: اليأس. وعرته: عرضت له. ومدل: أي أوثق.

وحاصل الفصل نهي طالب الموعظة من أربع وثلاثين رذيلة:

أحدها: رجاء الآخرة وثوابها بغير عمل فإن ذلك منى على الله، وقد علمت أن المنى بضائع النوكى.

الثانية: ترجية التوبة أو إزجاؤها بطول الأمل فإن ذلك يستلزم البقاء على المعصية والعذاب بها في الآخرة.

الثالثة: أن يجمع بين قول الزاهدين في الدنيا وعمل الراغبين فيها، وهو خداع لله. وعمله فيها عمل الراغبين يستلزم أن يصيبه ما أصابهم من عذاب الآخرة بها.

الرابعة: أن لا يشبع مما يعطى منها. وذلك رذيلة الشره والحرص.

الخامسة: أن لا يقنع إن منع. وذلك رذيلة التفريط من فضيلة القناعة.

السادسة: أن يجمع بين العجز عن شكر ما أُوتي من نعمة الله وبين طلب الزيادة من فاضلها. وهو جمع بين رذيلة التفريط من فضيلة الشكر وبين رذيلة الحرص.

السابعة: أن يجمع بين نهيه عن المعاصي وعدم تناهيه عنها وهو نفاق وخداع لله.

الثامنة: أن يأمر بما قصر عن فعله. وهو كالذي قبله.

التاسعة: أن يحب الصالحين ويقصر عن عملهم. وتقصيره النقض على محبته لهم.

العاشرة: أن يبغض المذنبين وهو أحدهم. فيكون فعله كالنقض على بغضه لهم.

الحادية عشرة: أن يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم على ما يكره الموت له من كثرة الذنوب فإقامته على ذنوبه كالنقض على كراهيته للموت لأجلها مع ما يلزمها من العذاب الأُخروي.

الثانية عشرة: أن يجمع بين ندمه حال سقمه على تفريطه في جنب الله وبين لهوه في لذته حال أمنه وهو أيضاً كالتناقض.

الثالثة عشرة: أن يعجب بنفسه حين عافيته فإن العجب من المهلكات.

الرابعة عشرة: أن يقنط إذا ما ابتلاه ربه وييأس من

رحمته. وذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

الخامسة عشرة: أن يجمع بين دعاء الله باضطرار إليه عند نزول البلاء به وبين الإعراض عنه والاغترار بالدنيا عند إصابته للرخاء فإن الأول رذيلة إفراط والثاني رذيلة تفريط.

السادسة عشرة: أن يجمع بين الانقهار لنفسه والانقياد لها إلى ما يظنه فائدة من الأمور الدنيوية وبين عدم قهرها وغلبها إلى ما يستيقنه من ثواب الآخرة وعذابها فلا يلزمها العمل لذلك فإن ذلك عند العقل سفه وجنون.

السابعة عشرة: أن يجمع بين الخوف على غيره من ذنوب هي أقل من ذنوبه وبين الرجاء لنفسه ثواباً أكثر مما يستحق على عمله فإن الحق من ذلك أن يخاف على نفسه أكثر من الخوف على غيره لأكثرية ذنوبه ويعمل لذلك الخوف.

الثامنة عشرة: أن يبطر ويفتن إن أصاب غنى فإن ذلك فجور.

التاسعة عشرة: أن يقنط ويضعف إن يفتقر وهو رذيلة تقصير وتفريط.

العشرون: أن يقصر في العمل.

الحادية والعشرون: أن يبالغ إذا سئل وهو رذيلة الإلحاف في السؤال.

الثانية والعشرون: أن يقدم المعصية إن عرضت شهوته ويؤخر التوبة منها.

الثالثة والعشرون: أن ينفرج عن شرائط الملة عند نزول المحنة به: أي يخرج من فضيلة الصبر على المصيبة الذي هو شرط الملة ويتركها.

الرابعة والعشرون: أن يجمع بين وصف العبرة وبين عدم الاعتبار.

الخامسة والعشرون: أن يبالغ في الموعظة حال ما لا يتعظ فإن ذلك يدخله في مقت الله تعالى لقوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

السادسة والعشرون: أن يجمع بين المنافسة فيما يفنى وهو الدنيا والمسامحة فيما يبقى وهو ثواب الآخرة وهو جهل وسفه ظاهر.

السابعة والعشرون: أن يرى الغنم مغرماً كالإنفاق في سبيل الله. والغرم مغنماً كالإنفاق في معصيته، وهو عكس مقتضى العقل.

الثامنة والعشرون: أن يجمع بين خشية الموت وعدم مبادرته بالأعمال الصالحة المستلزمة للخلاص من أهواله وما بعده.

التاسعة والعشرون: أن يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، وكذلك يستكثر من طاعتها ما يحقره من طاعة غيره. ويلزم من ذلك أن يكون طاعناً على الناس في أفعالهم ومداهناً لنفسه في فعلها.

الثلاثون: أن يكون اللهو مع الأغنياء أحب إليه من ذكر الله مع الفقراء. وذلك لفرط محبة الدنيا.

الحادية والثلاثون: أن يحكم لنفسه على غيره فيما يشتهيه وإن كان باطلاً ولا يحكم عليها لغيره في حق وهو ظلم.

الثانية والثلاثون: أن يجمع بين إرشاد غيره بالهادي من القول وبين إغواء نفسه بفعله: أي يعمل عمل الغاوين. ويلزم ذلك أن يطيعه غيره وهو يعصي الله.

الثالثة والثلاثون: أن يستوفي ما له على غيره ولا يوفي ما عليه من حق الله أو حق خلقه.

الرابعة والثلاثون: أن يجمع بين خشية الخلق في غير الله: أي في أمر ليس لله وبين عدم خشية الله في خلقه، ويلزم الأول أن يرضيهم بما يسخط الله، ويلزم الثاني أن يسخط الله بما يسخط خلقه، وأكثر هذه مشتملة من علم الفصاحة على التقابل والتضاد وردّ العجز على الصدر.

١٣٨ - وقال عليه السلام: لِكُلِّ امْرِىءٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ.

وأشار إلى غايتيه من حركاته الخيرية والشرية. فغاية الخيرية الجنة ولذاتها وهي العاقبة الحلوة. وغاية الشرية

النار وعذابها وهي العاقبة المرة. واستعار لفظي الحلوة والمرة للذيذ والمكروه.

١٣٩ - وقال عليه السلام: لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ، وَمَا أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ.

وأراد المقبل من لذات الدنيا في معرض التزهيد والمقبل من شدائدها في معرض تهوينها وتسهيلها. وكأنْ من أخوات إنّ مخففة واسمها محذوف.

١٤٠ - وقال عليه السلام: لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ.

فالصبور: كثير الصبر. ورغب فيه بما يلزمه من الظفر وإن تأخر. وذلك عند كمال استعداد الصبور بالصبر وقوته.

١٤١ - وقال عليه السلام: الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ. وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ: إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضَى بِهِ.

ووجه التشبيه اشتراكهم في الرضا به المستلزم للميل إليه ومناسبته لطبعه. ونفّر عن الدخول في الباطل بما يلزمه من الإثمين: أما إثم العمل فظاهر، وأما إثم الرضا فلأن الرضا بالباطل يستلزم محبته وهي رذيلة وإثم.

١٤٢ - وقال عليه السلام: اعْتَصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَادِهَا.

فالذمم: العهود والعقود والأيمان. واستعار لفظ الأوتاد لشرائط العهود وأسباب إحكامها كأنها أوتاد حافظة لها. وأراد امتنعوا من سخط الله وعذابه بحفظ الذمم في أوتادها فكأن العصمة منه تكون في أسباب حفظها و - في - متعلق باعتصموا. وروي: استعصموا.

١٤٣ - وقال عليه السلام: عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لا تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ.

يريد الله تعالى. وقيل: هو إيجاب لطاعة من يجب طاعته من أئمة الحق الذين يجب العلم بحقيّة إمامتهم ولا يعذر الناس في الجهل بهم لتعلم قوانين الدين وأحكامه منهم.

١٤٤ - وقال عليه السلام: قَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنِ اسْتَمَعْتُمْ.

أي قد بصرتم سبيل الرشاد وهديتم إليها وأسمعتهم الدلالة عليها إن كان لكم استعداد أن تبصروها وتسمعوا وتهتدوا إليها. وقد مرّ مثله.

١٤٥ - وقال عليه السلام: عَاتِبْ أَخَاكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْهِ.

أي اجعل مكان عتابه بالقول والفعل والإحسان إليه والإنعام في حقه فإنهما أنفع في عطف جانبه إليك ودفع شره عنك. والعتاب مستعار للإحسان لاستلزامهما رجوع المعاتب.

١٤٦ - وقال عليه السلام: مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ.

لأنه هو السبب في إساءة الظن بنفسه ولا لوم على من أساء به الظن لأن ظنه ذلك مستند إلى أمارة من شأنها توليد الظن.

١٤٧ - وقال عليه السلام: ثلاث كلمات:

مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، وَمَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا.

إحديها: من ملك استأثر: أي استبد. وأراد أن الملوك من شأنهم الاستبداد بالأمور المرغوب فيها والانفراد وذلك لتسلطهم وعدم المنازع لقواهم الأمارة بالسوء فيهم. وهي كالمثل يضرب لمن غلب على أمر فاختص به ومنعه غيره.

الثانية: ومن استبد برأيه هلك. لأن انفراد الإنسان برأيه وعدم قبوله للنصيحة واستشارته في الحرب ونحوها مظنة الخطأ فيه المستلزم للهلاك فكأنه قال: من استبد برأيه فهو في مظنة الهلاك فأقام الهلك مقام مظنته مجازاً إطلاقاً لما بالفعل على ما بالقوة.

الثالثة: ومن شاور الرجال شاركها في عقولها. وذلك أنه يستنتج فيها الرأي الأصلح ليعمل به فكانت عقول الرجال بأسرها حاصلة لانتفاعه بثمرتها وهو ترغيب في الاستشارة.

١٤٨ - وقال عليه السلام : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ بِيَدِهِ.

وهو ترغيب في كتمان السر: أي كان مختاراً في إذاعته وكتمانه بخلاف من أذاع سره فإنه لا يتمكن بعد ذلك من كتمانه.

١٤٩ - وقال عليه السلام : الْفَقْرُ الْمَوْتُ الأَكْبَرُ.

استعار له لفظ الموت بوصفه الأكبر. أما كونه موتاً فلانقطاع الفقير عن مشتهياته ومطلوباته التي هي مادة الحياة، وتألمه لفقدها. وأما أنه أكبر فلتعاقب آلامه على الفقير مدة حياته، وأما ألم الموت ففي وقت واحد. وهو مبالغة في شدته.

١٥٠ - وقال عليه السلام : مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَدَهُ.

أراد قضاء الحق بين الإخوان. وإنما كان كذلك لأن قضاء الغير عنه لحق من لا يقضي حقه لا يكون لوصول نفع منه ولا دفع مضرة المرء؛ بل يكون عملاً له لأنه هو أو خوفاً منه أو طمعاً فيه وذلك صورة عبادة.

١٥١ - وقال عليه السلام : لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

وذلك كالوضوء بالماء المغصوب والصلاة في الدار المغصوبة. ويحمل النفي هنا على نفي جواز الطاعة كما هو المنقول عنه وعن أهل بيته عليهم السلام. وعند الشافعي قد يصح الطاعة والنفي لفضيلتها.

١٥٢ - وقال عليه السلام : لا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ.

أخذ الحق قد يكون واجباً لمن هو له وقد يكون مندوباً، وأقله أن يكون مباحاً لا حرج في أمر المباح. وأما أخذ ما ليس له فظلم وهو من أقبح الرذائل التي يعاب بها المرء.

١٥٣ - وقال عليه السلام : الإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الازْدِيَادِ.

إعجاب المرء بفضيلته الداخلة كعلمه أو الخارجة كغناه وقينته إنما يكون عن تصور كماله فيها واعتقاده أنه قد بلغ منها الغاية، والاعتقاد يمنعه عن طلب الزيادة منها.

١٥٤ - وقال عليه السلام : الأَمْرُ قَرِيبٌ، وَالاصْطِحَابُ قَلِيلٌ.

أراد أمر الله وهو الموت والإصطحاب في الدنيا.

١٥٥ - وقال عليه السلام : قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

هو تمثيل. واستعار لفظ الصبح لسبيل الله ووصف الضياء لوضوحها وظهورها بوصف الشارع ودلالته عليها، ويحتمل أن يكون ذلك تمام وصف سبق منه للحق. كأن سائلاً سأله عن أمر فشرحه له مرة أو مراراً، وهو يستزيده فقال له هذا القول أي قد أوضحت لك الحق إن كنت تبصر.

١٥٦ - وقال عليه السلام : تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ

الترك لا كلفة فيه لكونه عدماً وطلب التوبة من الله يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبولها منه وإفاضة العفو عليه.

١٥٧ - وقال عليه السلام : كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكَلاتٍ!

وهو يجري مجرى المثل يضرب لمن يفعل فعلاً يكون سبباً لحرمانه ما كان يناله من خير سابق. وأصله أن الرجل يمتلئ من الطعام فيتخم ويمرض فيحتاج إلى الحمية والامتناع عن الأكل. وفي معناه: من يعاشر ملكاً ويسعد بالانبساط معه فيكون ذلك سبباً لبعده عنه وزوال سعادته منه.

١٥٨ - وقال عليه السلام : النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

الجهل بالشيء مستلزم لعدم تصور منفعة العلم به فيحصل الجاهل من ذلك على اعتقاد أنه لا فائدة في تعلّمه فيستلزم ذلك مجانبته له، ثم يتأكد تلك المجانبة والبعد بكون العلم أشرف فضيلة يفخر بها أهله على الجهال ويكون لهم بها الحكم عليهم وانتقاصهم وحطهم

عن درجة الاعتبار، مع اعتقاد الجهال لكمالهم أيضاً لذلك. فيشتد لذلك مجانبتهم للعلم وأهله وعداوتهم لهذه الفضيلة.

١٥٩ - وقال عليه السلام: مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَإِ.

لا شد أن المتصفّح لوجوه الآراء والمفكر في أيها أصوب لا بد أن يعرف مواقع الخطأ في الأمور ومظانها. وهو ترغيب في الاستشارة والفكر في استصلاح الأعمال قبل الوقوع فيها.

١٦٠ - وقال عليه السلام: مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ للهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ.

لما كان تعالى هو العزيز المطلق كان استناد قوة الغضب والحمية له إلى عزته. وصولة الغاضب اعتزازاً به أشد بكثير من صولته بدون ذلك الاستناد وبحسب تأكد القوة بعزة الله يكون ضعفها بالاستناد إلى الباطل المضاد لدينه. ولذلك قهر أولياء الله على قلتهم في مبدأ الإسلام أعداءَه على كثرتهم، وأطاق هو عليه السلام قلع باب خيبر على شدته أو قتل جبابرة العرب. واستعار لفظ السنان لحدة الغضب باعتبار استلزامها للكناية في العدو، ورشح بذكر أحد.

١٦١ - وقال عليه السلام: إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ.

إن للنفوس فيما يتوقع مكروهه انفعالاً كثيراً وفكراً عظيماً في كيفية دفعه والخلاص منه، وذلك أصعب بكثير من الوقوع فيه لطول زمان الخوف هناك وتأكده بتوقع الأمر المخوف. ورغب في الوقوع فيه بضمير صغراه قوله: فإن. إلى آخره. وتقدير كبراه: وكلما كان أعظم مما يخاف من الشيء فينبغي أن يعدل عنه إلى الوقوع فيه. ينتج أن شدّة توقيه ينبغي أن يعدل عنها إلى الوقوع فيه.

١٦٢ - وقال عليه السلام: آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ.

سعة الصدر فضيلة تحت الشجاعة وهي أن لا يدع الإنسان قوة التجلد عند ورود الأحداث المهمة عليه واعتلاجها ولا يحار أو يدهش فيها. بل يتحمّلها ويستعمل الواجب في معناها، وقد يسمى ذلك رحب الذراع. وهي من أعظم لوازم الرياسة الحقة التي ينبغي لها إذ الرياسة مظنة ورود الأحداث المهمة والخطوب العظيمة وأحوال الخلق المختلفة. فمن لم يكن محتملاً لهذه الأمور وسيع الصدر بها فلا بدّ أن يحار فيها ويدهش فيما يرد عليه منها فيعجز عن تدبيرها ويلزم ذلك فساد دولته وزوال رياسته.

١٦٣ - وقال عليه السلام: ازْجُرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ.

تصور المسيء جزاء المحسن بإحسانه يدعوه إلى الإحسان والرجوع عن الإساءة فكانت المجازاة بالإحسان كالزجر للمسيء في استلزامها ارتداعه وانزجاره. فاستعير لفظ الزجر لها.

١٦٤ - وقال عليه السلام: احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ.

أغلب ما ينشأ الشر في صدر العدو بسبب ما يتخيّله في عدوه من إضمار الشر له وظن ذلك فيه، وذلك التخيّل والظن لا بد أن يكون عن أمارة حركات عدوه وفلتات لسانه بالقول في حقه ما دامت عداوته وإضمار الشر له قائماً في صدره فإذا محا ما أضمر له من العداوة والشر زالت أمارات ذلك من لسانه ووجهه، وبحسب ذلك ينقص تخيّل العداوة ويضعف سوء ظن العدو به ولا يزال يتأكد بعدم تلك الأمارات وبأمارات حالية أو مقالية تظهر منه إلى أن ينمحي ذلك الظن في حقه. واستعار لفظ الحصد لإزالته ملاحظة لشبهه بالزرع في زيادته بسقي تلك الأمارات من عدوّه وتواترها، ونقصانه وعدمه بعدمها.

١٦٥ - وقال عليه السلام: اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ.

أي تأخذه وتذهب به. وذلك أن الإنسان قد يطلب شيئاً والرأي الحق هو التأني في طلبه والتثبت فيه. فيحمله طبعه على اللجاجة فيه حتى يكون ذلك سبباً لفواته، واستعار لفظ السل له ونسبه إلى اللجاجة مجازاً باعتبار أنها هي المعونة له فكأنها أخذته وغيبته.

١٦٦ - وقال عليه السلام: الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ.

استعار لفظ الرق للطمع باعتبار ما يستلزمه من التعبد للمطموع فيه والخضوع له كالرق، وتأييده باعتبار دوام التعبّد بسببه فإن الطامع دائم العبودية لمن يطمع فيه ما دام طامعاً وهو في ذلك كالدائم من الرق.

١٦٧ - وقال عليه السلام: ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلامَةُ.

التفريط إضاعة الحزم في الأمور، ولما عرفت أن الحزم عبارة عن تقديم العمل للحوادث الممكنة المستقبلة بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور لا جرم كان ذلك مظنة السلامة منها، وكانت إضاعته والتفريط في العمل لما يستقبل من الحوادث مظنة الوقوع فيها وعدم السلامة من بلائها وهو مستلزم للندامة على التفريط فيها. فكانت الندامة من ثمراته.

١٦٨ - وقال عليه السلام: لا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ.

الصمت عن النطق بالحكمة طرف تفريط من فضيلة القول، والنطق عن الجهل رذيلة مضادة لها، والحق العدل هو النطق بالحكمة وهو الفضيلة النطقيّة.

١٦٩ - وقال عليه السلام: مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلاَّ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلالَةً.

الاختلاف الحقيقي إنما يكون بين النقيضين. ولما كانت الدعوة إما إلى الحقّ وهو سلوك سبيل الله أو إلى غيره. وكان كلّ ما عدا الحق مما يدعى إليه فهو ضلال عن الحق وعدول عن سبيل الله، لا جرم لم تختلف دعوتان إلاّ كانت إحديهما حقاً والأخرى ضلالة أو مستلزمة للضلال، وهذا يستلزم بطلان كون كل مجتهد مصيباً. ومذهبه المنقول عنه عليه السلام أن الحق واحد وفي جهة والمصيب له واحد.

١٧٠ - وقال عليه السلام: مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ.

من كان له استعداد درك الحق كمثله عليه السلام، واستاذ كرسول الله صلى الله عليه وآله في إعداده وتربيته، وطول صحبة لمثل ذلك الأستاذ كصحبته فمحال أن يعرض له شك في أمر يرى برهانه ويحرم من الحق.

١٧١ - وقال عليه السلام: مَا كَذَبْتُ وَلا كُذِبْتُ، وَلا ضَلَلْتُ وَلا ضُلَّ بِي.

أما عدم كذبه وضلاله فتربيته من حين الطفولية بالصدق ومكارم الأخلاق حتى صار ذلك ملكة له تنافي الكذب والضلال وتعصم منهما. وأما كونه لم يكذب فيما أخبر به من الحوادث المستقبلة والعلوم الغيبية، ولم يضلّ به فلكون مخبره معصوماً وهو الرسول صلى الله عليه وآله والعصمة منافية للأمرين ومستلزمة لهداية المدلول وعدم زيغه.

١٧٢ - وقال عليه السلام: لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَداً بِكَفِّهِ عَضَّةٌ.

احترز بالبادي عن المجازي للظلم بمثله، وكنّى بغد عن يوم القيامة وبعض كفّه عن ندامته على تفريطه في جنب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧] والغرض التنفير عن الظلم.

١٧٣ - وقال عليه السلام: الرَّحِيلُ وَشِيكٌ.

أي قريب، وأراد الرحيل إلى الآخرة في معرض الوعظ والتخويف بالموت.

١٧٤ - عليه السلام: مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ.

أي من تجرد لنصرة الحق في مقابلة كل أحد هلك عند جهلة الناس لضعف الحق عندهم وغلبة حب الباطل على نفوسهم. وكنّى بإبداء صفحته عن إظهار نفسه ونصبها لذلك. وقد مرّ بيانه.

١٧٥ - وقال عليه السلام: مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ.

قد تكون المصيبة عظيمة تستلزم الجزع المهلك بسببها وحينئذ يجب أن يقابل الجزع فيها بصبر ينجي من الهلاك، والتقدير من لم يصبر على المصيبة لينجو فجزع هلك. ويحتمل أن يريد الهلاك الأخروي: أي من لم ينجه فضيلة الصبر هلك برذيلة الجزع. وهو تنفير عن الجزع وحث على الصبر.

١٧٦ - وقال عليه السلام: وَاعَجَبَاهُ! أَتَكُونُ الْخِلافَةُ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ؟

قال الرضي: وروي له شعر في هذا المعنى:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ
فَكَيْفَ بِهٰذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ؟
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ
فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

روي هذا القول عنه بعد بيعة عثمان وهو صورة جواب ما كان يسمعه من تعليل استحقاق عثمان للخلافة تارة بالشورى وتارة بأنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

تقريره: أن استحقاقه للخلافة إما أن يكون معللاً بالشورى أو بصحبة رسول الله أو بقرابته. فإن كان الأول فكيف يملك عثمان أمور الناس للشورى وأكثر من يستحق الاستشارة منهم لم يكونوا حاضرين؟ وذلك معنى إشارته بقوله: فإن كنت بالشورى. إلى تمام البيت، وإن كان الثاني فكيف يملك أمورهم بالصحبة بوجود من له الصحبة التامة والقرابة معاً؟ بل يكون هذا أولى، وإن كان الثالث فغيره أولى منه بالنبي وأقرب إليه. وعنى نفسه في الوجهين. وقوله: فكيف بهذا. أي فكيف يملكه بهذا.

١٧٧ - وقال عليه السلام: إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ. وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ. وَلا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ. فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ وَهٰذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً، إِلاَّ أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا؟!

الانتضال: الرمي. وهذا فصل لطيف من الموعظة وقد اشتمل على ثماني كلمات من الموعظة:

إحديها: استعار لفظ الغرض للإنسان باعتبار رميه بمقدمات المنايا وأسبابها من الأمراض والأعراض المهلكة. ووصف الانتضال لذلك الرمي كأن المنايا هي الرامية.

الثانية: استعار لفظ النهب بمعنى المنهوب باعتبار سرعة المصائب إلى أخذه.

الثالثة: كنّى عن تنغيص لذات الدنيا بما يشوبها ويخالطها من الأعراض والأمراض بقوله: مع كل جرعة. إلى قوله: غصص.

الرابعة: كون العبد لا ينال نعمة إلاّ بفراق أخرى. إذ النعمة الحقة هي اللذة وما يكون وسيلة إليها نعمة بواسطتها. وظاهر أن النفس في الدنيا لا يمكن أن تحصل على لذتين دفعة بل ما لم ينتقل عن لذة أولى ويتوجه نحو اللذة الحادثة لا يحصل لها الالتذاذ بها.

الخامسة: ولا يستقبل يوماً من عمره إلاّ بفراق آخر من أجله لأن طبيعة الزمان التقضي والسيلان.

السادسة: كوننا أعوان المنون باعتبار أن كل نفس وحركة من الإنسان فهي مقربة له إلى أجله فكأنه ساع نحو أجله ومساعد عليه.

السابعة: كون نفوسنا نصب الحتوف. ونصب بمعنى منصوبة كالغرض.

الثامنة: الاستفهام عن جهة رجاء البقاء استفهام إنكار لوجودها مع وجود الزمن الذي من شأنه أنه لم يرفع بشيء شرفاً ويجمع الأمر شملاً إلاّ أسرع العود في هدم ما رفع وتفريق ما جمع: أي أعد للثاني كما أعد للأول.

١٧٨ - وقال عليه السلام: يَا ابْنَ آدَمَ مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ، فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ.

إذ اكتساب الزيادة على القوت والمؤونة بقدر الحاجة وادّخاره غير نافع. بل مضر للمدخر. إذ من ضرورته مفارقة ما ادّخره ووصوله إلى الوارث وغيره. فهو إذن يشبه الخازن فاستعار لفظه له. وهو تنفير عن البخل بالفضل من المال عن قدر الحاجة.

١٧٩ - وقال عليه السلام: إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً وَإِدْبَاراً، فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ.

أراد بالإقبال الميل، وبالإدبار النفرة عن ملال ونحوه. وأمر بإعمال النفوس فيما ينبغي إعمالها فيه من

فكر ونظر، وحملها على ذلك حين ميلها إليه وإقبالها عليه لأن ذلك بنشاط في القوى النفسانية ومعاونة ومواتاة للنفس. ونفر عن حملها عليه مع النفرة عنه والكراهية له بضمير صغراه قوله: فإن القلب إذا أُكره عمي: أي إن إكراه النفس على الفكر في الشيء حين نفرتها عنه عن ملال أو ضعف قوة ونحوه يزيدها كراهية له ونفرة ويقوم لها بذلك مانع من الوهم، والخيال عن إدراك ما تفكر فيه فلا يدركه وإن كان واضحاً حتى يكون كالأعمى ولذلك استعار له وصف الأعمى، وتقدير كبراه: وكلما كان عماه في إكراهه على الشيء فلا يجوز كراهته.

١٨٠ - وكان عليه السلام يقول: مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ؟ أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الانتِقَامِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ عَفَوْتَ.

استفهم عن وقت جواز شفاء الغيظ استفهام إنكار لوجوده في معرض التنفير عن هذه الرذيلة: ونفّر عنها بقوله: أحين. إلى آخره، وذلك أنه إما حين العجز عن الانتقام أو حين القدرة عليه. وشفاء الغيظ في الوقت الأول لا يجوز لأنه يكون بالسب والشناعة وتقطيع العرض ونحوه وذلك مستلزم للأئمة الخلق وتعييبهم وقولهم في الحث على فضيلة الصبر: لو صبرت لكان أولى. وفي الثاني أيضاً لا يجوز لاستلزام الشروع في العقوبة لائمة الخلق والعدول عن فضيلة العفو التي هي أولى، وقول الناس عليها: لو عفوت وأن العفو بك أولى.

١٨١ - وقال عليه السلام: وقد مر بقذر على مزبلة -: هٰذَا مَا بَخِلَ بِهِ الْبَاخِلُونَ.

أشار إليه بذلك لأنه غاية ما بخل به الباخلون وتنافس الناس فيه من المال والطعام إقامة للغاية مقام ذي الغاية.

١٨٢ - وقال عليه السلام: لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ.

أي القدر الذي يذهب من مالك على طريق امتحان الله وابتلائه لك بأمر يذهبه فيحصل لك بذهابه موعظة لا يعدّ مالاً ذاهباً بل كأنه باق لبقاء منفعته وشرف ثمرته وهي الموعظة.

١٨٣ - وقال عليه السلام: لما سمع قول الخوارج «لا حُكْمَ إلاَّ لله»: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ.

وقد مرّ تفسيره.

١٨٤ - وقال عليه السلام في صفة الغوغاء: هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا. وقيل: بل قال عليه السلام: هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا. فقيل: قد عرفنا مضرّة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟ فقال: يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهَنِ إِلَى مِهْنَتِهِمْ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ، كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلَى بِنَائِهِ، وَالنَّسَّاجِ إِلَى مَنْسَجِهِ، وَالْخَبَّازِ إِلَى مَخْبَزِهِ.

المهنة: الحرفة والصناعة. والفصل ظاهر.

١٨٥ - وقال عليه السلام: وأتي بجانٍ ومعه غوغاء - فقال: لاَ مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لاَ تُرَى إِلاَّ عِنْدَ كُلِّ سَوْأَةٍ.

أي لا ترى مجتمعة. إذ العوام لا تجتمع غالباً إلاّ في مثل ذلك. فكلام الخطيب على أغلب الأحوال. والسوءة: فعلة من السوء.

١٨٦ - وقال عليه السلام: إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ.

أي إذا جاء القدر بموته على وفق القضاء الإلهي وهو كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [الأنعام: ٦١] الآية: واستعار لفظ الجنة بوصف الحصينة للأجل، وقد بيّنا ذلك في قوله: وإن علي من الله جنة حصينة.

١٨٧ - وقال عليه السلام وقد قال له طلحة والزبير: نبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر: **لا وَلٰكِنَّكُمَا شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةِ وَالاسْتِعَانَةِ، وَعَوْنَانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالأَوَدِ.**

الأود: الاعوجاج.

وقوله: وعونان على العجز والأود.

أي دفع ما يعرض منهما أو حال وجودهما لأن كلمة على تفيد الحال.

١٨٨ - وقال عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ، وَبَادِرُوا الْمَوْتَ الَّذِي إِنْ هَرَبْتُمْ أَدْرَكَكُمْ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ.

والمعنى ظاهر. رغب في تقوى الله والخشية منه باعتبار سمعه لما يقول العبد وعلمه بضميره. حذف المفعولين للعلم بهما: أي سمع مقالكم وعلم ضميركم. ورغب في مبادرة الموت ومسابقته بالأعمال الصالحة إلى حفظ النفوس بها من عذاب الآخرة وهول الموت، ونفر منه ليسارع إلى مبادرته بكونه لا ينجو منه أحد. واستعار لوروده على الإنسان لفظ الذكر في مقابلة النسيان ملاحظة لشبهه بالقاصد له عن علم به.

١٨٩ - وقال عليه السلام: لا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

نهى عن الزهد في المعروف بسبب عدم شكر المحسن إليه له ورغب فيه بضمائر ثلاثة: صغرى الأول قوله: فقد يشكرك عليه. إلى قوله: منه. وذلك لمحبة الناس للإحسان والمحسنين. وتقدير كبراه: وكلما يشكرك عليه من لم يستمتع بشيء منه فواجب أن تفعله، وصغرى الثاني قوله: وقد تدرك. إلى قوله: الكافر: أي قد يحصل لك من شكر من لم تحسن إليه أكثر مما أضاعه كافر نعمتك ومن شكر إحسانك إليه. وتقدير كبراه: وكلما أدركت من شكر الشاكر بسببه أكثر مما أضاع الكافر فواجب أن تفعله، وصغرى الثالث قوله: والله يحب المحسنين: أي لإحسانهم وتقدير كبراه: وكل من يحبه الله لفعل فواجب أن يدخل العاقل في زمرته ويتقرب إلى الله بمثل فعله.

١٩٠ - وقال عليه السلام: كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلاَّ وِعَاءَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ.

الأوعية المحسوسة لما كانت متناهية الاتساع فمن شأنها أن تضيق بما يجعل فيها، وأوعية العلم معقولة وهي النفوس وقوة إدراك العلوم فيها غير متناهية وكل مرتبة من إدراكها تعدّ لما بعدها إلى غير النهاية فبالواجب أن يتسع بالعلم ويزيد بزيادته.

١٩١ - وقال عليه السلام: أَوَّلُ عِوَضِ الْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى الْجَاهِلِ.

ويحتمل أن يريد من عدم حلمه. إذ العوض يكون عن شيء فائت كالطيش ونحوه فحذف المضاف وفيه ترغيب في هذه الفضيلة بما يلزمه من نصرة الناس لصاحبها على الجاهل عند سفهه عليه.

١٩٢ - وقال عليه السلام: إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلاَّ أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

أمر بتعلم هذه الفضيلة فإنّ مبادئ الملكات الخلقية حالات مكتسبة عن التعلم ورغب في تعلّمها بضمير صغراه قوله: فإنه قل. إلى آخره، والضمير في إنه ضمير الشأن. وتقدير الكبرى: وكل من أوشك أن يكون من أهل الحلم بتعلمه له فواجب أن يتعلّمه.

١٩٣ - وقال عليه السلام: أربع كلمات: مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ.

إحديها: من حاسب نفسه ربح. لأن المحاسب لنفسه على أعماله يعلم خسرانه من ربحه فيعمل للربح ويحترز من الترك المستلزم للخسران.

الثانية: ومن غفل عنها خسر، وذلك أن قربها من اللذات الحاضرة يستلزم ميلها إليها ما لم يجذب عنها بالجواذب الإلهية من الزواجر والمواعظ المذكرة فالغفلة عن جذبها وتنبيهها من مراقد الطبيعة بتذكير وعد الله ووعيده يستلزم إهمالها للأعمال الصالحة التي يلزمها ربح السعادة الأخروية والحصول على تركها ذلك هو الخسران.

الثالثة: ومن خاف أمن: أي أن من عذاب الله، وعمل للخلاص منه ليأمن لحوقه.

الرابعة: ومن اعتبر أبصر: أي من نظر مواقع العبرة بعين الفكر والاعتبار أبصر الطريق إلى الحق، ومن أبصرها فهم المعبور منها إليها، ومن فهم ذلك حصل له العالم النافع بالحق.

١٩٤ - وقال عليه السلام: لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا، وَتَلا عقيبَ ذٰلِكَ ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

الضروس: الناقة سيئة الخلق تعضّ حالبها ليبقى لبنها لولدها، وذلك لفرط شفقتها عليه. واستعار لفظ الشماس للدنيا باعتبار إعدادها لمنعه عليه السلام ذلك عليهم وإعدادها لتمكنهم من الحكم فيها بعطف الضروس على ولدها، ووجه الشبه شدة العطف. والاستشهاد بالآية ظاهر.

١٩٥ - وقال عليه السلام: اتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً، وَجَدَّ تَشْمِيراً، وَكَمَّشَ فِي مَهَلٍ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ الْمَوْئِلِ وَعَاقِبَةِ الْمَصْدَرِ، وَمَغَبَّةِ الْمَرْجِعِ.

أكمش: أسرع. والمهل: الإمهال. والكرة: الرجعة. والموئل: المرجع. والمغبة: العاقبة. وأراد اتقوا الله كتقية من شمر عن ساق الجد في طاعة الله، وجرّد نفسه لمرضاته تشميراً، وسارع بالأعمال الصالحة ما دام في مهلة الحياة، وبادر مغفرته في وجل من ثمرات سيئاته، وفكر في عوده إلى الملجأ الأول الذي منه بدأ وهو حضرة الربوبية، وكذلك عاقبة المصدر الذي عنه صدر في ابتداء كونه وإليه يعود، ومغبّة المرجع من خير للحصول عليه أو شر ليعمل للخلاص منه.

١٩٦ - وقال عليه السلام: ثلاث عشرة كلمة: الْجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ، وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ. وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ، وَالسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ، وَالاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ. وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَالصَّبْرُ يُنَاضِلُ الْحِدْثَانَ، وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ. وَأَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَى. وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوىً أَمِيرٍ! وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَةِ. وَالْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ. وَلا تَأْمَنَنَّ مَلُولاً.

أحدها: الجود حارس الأعراض. واستعار له لفظ الحارس باعتبار أن الجود يقي عرض صاحبه من السب كالحارس.

الثانية: والحلم فدام السفيه. والفدام: ما يسدّ به المجوسي فمه. واستعار لفظه للحلم باعتبار أن الحليم إذا قابل السفيه بحمله عن عقوبته سكت عنه وأقلع عن سفه في حقه فأشبه الفدام له.

الثالثة: والعفو زكاة الظفر. استعار لفظ الزكاة للعفو باعتبار أنه فضيلة تستلزم زيادة الثواب في الآخرة. ولحظ في ذلك شبه الظفر بالمال الواجبة زكاته. وهو ترغيب في العفو.

الرابعة: والسلوّ عوضك ممن غدر. وهو أمر للإنسان بالسلوّ عن الهم بسبب غدر من يطلب رفاه. ورغّب فيه بكونه عوضاً منه ونعم العوض.

الخامسة: والاستشارة عين الهداية. الاستشارة طلب أصلح الآراء في الأمر وهي مستلزمة للهداية إليها، وجعلها عينها تأكيداً لقوة استلزامها لها.

السادسة: وقد خاطر من استغنى برأيه: أي أشرف على الهلاك من استبد برأيه لأن ذلك مظنة الخطأ المستلزم للهلاك. وقد مرّ مثله.

السابعة: والصبر يناضل الحدثان. استعار لفظ المناضلة للصبر باعتبار دفعه الهلاك عن الجزع في المصائب.

الثامنة: والجزع من أعوان الزمان. الزمان معد للهرم والفناء، والجزع معد لذلك فكان معيناً له.

التاسعة: وأشرف الغنى ترك المنى. لأن أشرف الغنى غنى النفس بالكمالات النفسانية من الحكمة ومكارم الأخلاق وهو مستلزم لترك المنى وإلاّ لجاز اجتماعه مع المنى المستلزم للحمق إذ هو إشغال النفس بما لا ينبغي عما ينبغي وللإفراط في محبة الدنيا مع كثير

من الرذائل كالحرص والحسد والشره ونحوها. فيلزم من ذلك اجتماع الضدين الفضيلة والرذيلة.

العاشرة: وكم من عقل أسير تحت هوى أمير. العقل إما أن يقوى على قهر النفس الأمارة بالسوء ويصرفها حسب ما يراه، أو يقاومها كالمصارع لها فمرة له ومرة عليه، أو يكون مقهوراً ومغلوباً لها. والأول هو العقل المطيع لله القوي بأمره ويلحقه الثاني من وجه.

وأما الثالث فهو العاصي بانقياده لهواه فهو كالأسير له وهو القسم الأكثر في عالم الإنسان لحضور اللذات الحسية دون العقلية فلذلك أخبر عنه بكم.

الحادية عشرة: ومن التوفيق حفظ التجربة: أي لزومها ومداومتها لغاية الانتفاع بها، وظاهر أن ذلك من توفيق الله: أي تسهيله لأسبابها وتقديره لتوافقها في حق العبد.

الثانية عشرة: والمودة قرابة مستفادة لأن القرابة اسم من القرب وهو إما أن يكون أصلياً كقرب النسب أو مستفاداً أكتسب كقرب الصداقة والمودة.

الثالثة عشرة: ولا تأمننّ ملولاً. لأن الملول يصرفه ملاله عن الثبات على الصداقة والعهد وكتمان السر ونحوها. فمن الحزم إذن أن لا يؤمن على شيء من ذلك.

١٩٧ - وقال عليه السلام: عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ.

استعار له لفظ الحاسد باعتبار أنه يؤثر في منع العقل من ازدياد الفضيلة والاستكثار منها كما يؤثر الحاسد بحسده في حال المحسود وتنقيصه.

١٩٨ - وقال عليه السلام: أَغْضِ عَلَى الْقَذَى وَالأَلَمِ تَرْضَ أَبَداً.

الإغضاء على القذى كناية عن كظم الغيظ واحتمال المكروه وهو فضيلة تحت الشجاعة. ولما كانت طبيعة الدنيا معجونة بالمكاره لم يخل الإنسان في أكثر أحواله من ورودها عليه فما لم يقابلها بالاحتمال بل بالتسخط والغضب والتبرم بها لم يزل ساخطاً تاعباً بغضبه لدوام ورود المكاره عليه.

١٩٩ - وقال عليه السلام: مَنْ لانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ.

استعار لفظ العود للطبيعة، وكنّى بلينه عن التواضع، وكذلك استعار لفظ الأغصان للأعوان والأتباع، وكنّى بكثافتها عن اجتماعهم عليه وكثرته وقوته بهم. والمراد أن من كانت له فضيلة التواضع ولين الجانب كثرت أعوانه وأتباعه وقوي باجتماعهم عليه.

٢٠٠ - وقال عليه السلام: الْخِلافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ.

وأصله: أن رأي الجماعة يجتمع على أمر تكون المصلحة فيه فيقع من بعضهم خلاف فيه فيهدم ما اجتمعوا عليه ورأوه من المصلحة. كما رأى عليه السلام هو وجماعة من أصحابه عند رفع أهل الشام المصاحف صبيحة ليلة الهرير من إتمام القتال وهو المصلحة فهدم ذلك الرأي من خالف فيه من أصحابه حتى وقع بذلك ما وقع.

٢٠١ - وقال عليه السلام: مَنْ نَالَ اسْتَطَالَ.

إن من نال ما يوجب الاستطالة من جاه وسلطان أو مال استطال بسبب ذلك: أي كان في مظنة أن يستطيل على غيره بما ناله. فأقام ما بالفعل مقام ما بالقوة ويصدق بالفعل أيضاً. لأن كلام الخطيب مطلق يصدق ولو بمرة. والكلمة تجري مجرى المثل.

٢٠٢ - وقال عليه السلام: فِي تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ.

أي تقلب أحوال الدنيا على المرء كرفعته بعد اتضاعه وبالعكس، وكنزول الشدائد به يفيد العلم التجربي بأحواله الباطنة من خير وشر وجلادة وضعف وفضيلة ورذيلة. ونحوه ما قيل: الولايات مضامير الرجال.

٢٠٣ - وقال عليه السلام: حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ الْمَوَدَّةِ.

المودة الخالصة تستلزم أن يريد الإنسان لمن يوده ما يريد لنفسه ويكره له ما يكره لها. والحسد ينافي ذلك لاستلزامه إرادة زوال الخير عن المحسود. فمودة الحاسد إذن مدخولة غير صحيحة وهو المراد بسقمها.

٢٠٤ - وقال عليه السلام: **أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ.**

العقل من شأنه الذي ينبغي له أن يقاوم النفس الأمارة ويكسرها ويصرفها بحسب آرائه الصالحة، ومن شأن النفس مخادعة العقل وغروره بزينة الحياة الدنيا وقيناتها وإطماعه بها. فالعقول الضعيفة غير المؤيدة من الله أكثر ما تنخدع وتنصرع في حربها للنفوس الأمارة إذا لاح لها مطمع وهمي من الدنيا. فاستعار لفظ المصارع للعقول ملاحظة لقهرها عن النفوس وانفعالها. فأشبهت في الذلة والانقياد لها وترك مقاومتها من أخذ مصرعه من الحرب، وكذلك استعار لفظ البروق لما لاح من تصور المطموع فيه. وكثيراً ما تشبّه العلوم والخواطر الذهنية بالبروق للطفه وضيائه وسرعة حركته. وإنما قال: تحت. لأن المصارع من شأنها أن تكون تحت.

٢٠٥ - وقال عليه السلام: **لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ.**

أي من كان عندك ثقة معروفاً بالأمانة فحكمك عليه بالخيانة عن ظن خروج عن العدل وهو رذيلة الجور.

٢٠٦ - وقال عليه السلام: **بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ، الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ.**

لأن الظلم رذيلة عظيمة متعدية الأذى مستلزمة للشقاء الأشقى. فهي بئس الزاد إذن. ولفظ الزاد مستعار باعتبار حمل هذه الرذيلة في جوهر النفس إلى الآخرة كالزاد.

٢٠٧ - وقال عليه السلام: **مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ.**

أي تغافله وإغضاؤه عما يعلم من معائب الناس ومن هفواتهم. لاستلزام ذلك فضائل كاحتمال المكروه والحلم والعفو والصفح. وكلها فضائل يلزم الكرم لأنه قد يراد به إمساك الإنسان عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يغضبه وما استلزم هذه الفضائل فهو من أشرف الأفعال.

٢٠٨ - وقال عليه السلام: **مَنْ كَسَا الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ.**

استعار لفظ الثوب لما يشمل الإنسان من الحياء، ورشح بذكر الكسوة. والمراد أن فضيلة الحياء تستلزم ترك المعائب فلا يرى في صاحبه، أو إن ارتكب ما يعاب به من الرذائل كان على غاية من التستر به والاجتهاد في إخفائه وهو بمظنة أن لا يراه الناس.

٢٠٩ - وقال عليه السلام: **بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ، وَبِالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ الْمُوَاصِلُونَ، وَبِالإِفْضَالِ تَعْظُمُ الأَقْدَارُ، وَبِالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ، وَبِاحْتِمَالِ الْمُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدَدُ، وَبِالسِّيرَةِ الْعَادِلَةِ يُقْهَرُ الْمُنَاوِئُ، وَبِالْحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الأَنْصَارُ عَلَيْهِ.**

أشار عليه السلام إلى سبع فضائل ورغب في كل منها بما يستلزمه من الخير.

إحديها: كثرة الصمت وما يلزمها كون الصامت مهاباً في أعين الناس لأن الصمت من توابع العقل غالباً ومهابة أهل العقل ظاهرة. فإن عرف أن كثرة صمت الصامت عن عقل كانت مهابته أوكد، وإن لم تعرف حاله كانت لتجويز أن تكون عن كمال عقله. وقد يعرف أنه لنقصان في غريزته وعيّه في الكلام ويحترم مع ذلك لعدم اختلاطه في القول.

الثانية: النصفة وهي فضيلة العدل. ورغب فيها بما يلزمها من كثرة الواصلين لأن قلة الإنصاف مستلزمة للفرقة وقطع الألفة كما قال أبو الطيب:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة

بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

الثالثة: الإفضال على الخلق بما يحتاجون إليه. ويلزمه علو الأقدار وعظمها لتعيين الحاجة إلى المتفضل ومحبته.

الرابعة: التواضع ويلزم تمام النعمة بكثرة الإخوان وأهل المودة لأن فضيلة التواضع نعمة وما يلزمها كالتمام لها.

الخامسة: احتمال المؤن. يلزمه السؤدد لأن احتمال

مؤن الخلق يستلزمه فضيلة سعة الصدر واحتمال المكروه ويحسب ذلك تحصل مطالب الخلق من المتحمّل غير مشوبة بشيء من كدر المقابلة بردّ منّة ونحوهما. فيكثر تعبدهم له، ويقوى أمره وسؤدده فيهم.

السادسة: السيرة العادلة. ويلزمها قهر المناوي. والمناواة: المعاداة، وذلك أن العدو لا يجد لصاحب السيرة العادلة عيباً يستظهر به عليه ويسعى به في فساد أمره فيبقى مقهوراً مأموراً.

السابعة: الحلم عن السفيه. ويلزمه كثرة الأنصار عليه. وقد مرّ بيانه.

٢١٠ - وقال عليه السلام: الْعَجَبُ لِغَفْلَةِ الْحُسَّادِ، عَنْ سَلامَةِ الأَجْسَادِ!

لأن الغالب أن الحسد إنما يكون بالغنى والجاه وسائر قينات الدنيا. فترك الحساد الحسد بصحة الجسد مع كونها أكبر نعم الدنيا محل التعجب. والفرق أن تلك نعم مشاهدة تقلّ الغفلة عنها وينفرد المحسود بها، وأكثر الترفع على حسد الحاسد يكون بها. فأما نعمة الصحة فمعقولة تكثر الغفلة عنها ومشتركة.

٢١١ - وقال عليه السلام: الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلِّ.

استعار لفظ الوثائق للذل المقيد له في طاعة المطموع فيه. وقد مرّ مثله في قوله: الطمع رقّ مؤبد.

٢١٢ - وقال عليه السلام: الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ.

الأركان: هي المساجد الخمسة. وأراد الإيمان الكامل.

٢١٣ - وقال عليه السلام: مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَزِيناً فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ اللهِ سَاخِطاً، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ، وَمَنْ أَتَى غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ. وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَهُوَ مِمَّنْ كَانَ يَتَّخِذُ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا الْتَاطَ قَلْبُهُ مِنْهَا بِثَلاثٍ: هَمٌّ لا يُغِبُّهُ، وَحِرْصٍ لا يَتْرُكُهُ، وَأَمَلٍ لا يُدْرِكُهُ.

أشار إلى خمس خصال نفّر عن كل منها بما يلزمه من الشرّ:

إحديها: الحزن على فائت الدنيا. ويلزمه سخط العبد لقضاء الله لأن فوت ذلك كان بقضاء منه وسخط قضائه كفر.

الثانية: شكوى المصيبة. ويلزمها الشكوى من الله لأن الله تعالى هو المتبلي بها.

الثالثة: التواضع للغني باعتبار غناه. ويلزمه ذهاب ثلثي دين المتواضع لوجوه:

أحدها: أن مدار الدين على كمال النفس الإنسانية بالحكمة، وكمال القوة الشهوية بالعفة وقوة الغضب بالشجاعة. ولما كان التواضع للغنى من جهة غناه يسلتزم زيادة محبة الدنيا والخروج عن فضيلة الشهوة إلى طلب الفجور حتى كأنه عابد لغير الله، ويستلزم الخروج عن الحكمة التي مقتضاها وضع كل شيء موضعه وهي فضيلة النفس الناطقة كان خارجاً عن فضيلتي هاتين القوتين وهما ثلثا الدين.

الثاني: أن مدار الدين على الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان. ومن شأن المتواضع للغنى لغناه اشتغال لسانه بمدحه وشكره واشتغال جوارحه بخدمته عن طاعة الله والقيام بشكره فهو مهمل لثلثي دينه. قيل: إن التواضع للغني لغناه يستلزم حب الدنيا وحبها رأس كل خطيئة. فاستعمل عليه السلام لفظ الثلثين هنا في الأكثر مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه.

الرابعة: كون قراءة القرآن مع دخول النار مستلزماً لكون القارئ ممن كان يتخذ آيات الله هزواً، وذلك أن قراءة القرآن لله بالإخلاص والعمل بمقتضاه يستلزم دخول الجنة فعدم دخولها ودخول النار يستلزم عدم الإخلاص في قراءة القرآن وعدم العمل به فيكون في قرائته إذن كالمستهزئ بآيات الله إذ شأن المستهزئ أن يقول ما لا يعتقده ولا يعمل به. فاستعار له لفظ المستهزئ.

الخامسة: ومن لهج قلبه بحب الدنيا التاط: أي لصق واختلط منها بثلاثة. ووجه لزوم الثلاثة للحرص والولوع بها أن حبها يستلزم الجد في طلبها وجمعها،

ولما كان حصولها مشروطاً بأسباب مقدورة للعباد وأسباب غير مقدورة والمقدورة منها قد لا تكون مقدورة للطالب، وإن كانت لكنها تكون متعسرة منه لتوقفها على أسباب كثيرة أو عسرة لا جرم يلزمه الحزن غالباً في تحصيلها والهم الذي لا يغبّه: أي لا يأتيه غباً وهو يوم لا ويوم نعم ثم في حفظها وخوف فوتها والحرص على استخراجها من وجوهها وطول الأمل في وجوه مكاسبها وأرباحها وتجاراتها وعماراتها. ونبه على طوله بقوله: لا يدركه. ونفر عنه بذلك.

٢١٤ - وقال عليه السلام: كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً.

استعار لفظ الملك للقناعة لأن غاية الملك الغناء عن الخلق والترفع عليهم بذلك والالتذاذ والقناعة مستلزمة لهذه الغايات، وكذلك استعار لفظ النعيم لحسن الخلق باعتبار استلزامهما للالتذاذ.

٢١٥ - وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فَقَالَ: هِيَ الْقَنَاعَةُ.

ففسرها بلازمها وهو الحياة الطيبة.

٢١٦ - وقال عليه السلام: شَارِكُوا الَّذِي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَى، وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ الْحَظِّ عَلَيْهِ.

أخلق وأجدر: أي أولى. ولما كان إقبال الرزق بتوافق أسبابه في حق من أقبل عليه كانت مشاركته مظنة إقبال حظّ الشريك وإقبال الرزق عليه بمشاركته. ورغب فيها بضمير صغراه قوله: فإنه. إلى آخره. والضمير في قوله: فإنه يعود إلى ما دلّ عليه شاركوا من المصدر. وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك ففعله مصلحة.

٢١٧ - وقال عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾: الْعَدْلُ: الإِنْصَافُ، وَالإِحْسَانُ: التَّفَضُّلُ.

وهو تعريف لفظ بلفظ أوضح منه عند السائل.

٢١٨ - وقال عليه السلام: مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ.

وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧] واستعار لفظ اليد في الموضعين للنعمة والعطاء. وكنّى بالطول والقصر عن الكثرة والقلة.

٢١٩ - وقال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: لا تَدْعُوَنَّ إِلَى مُبَارَزَةٍ، وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ بَاغٍ، وَالْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ.

نفر عن الدعوة إلى المبارزة بقياس كامل من الشكل الأول وهو قوله: فإن الداعي. إلى قوله: مصروع. وبيانه أن الدعاء إلى المبارزة خروج عن فضيلة الشجاعة إلى طرف الإفراط منها وهو التهور وهو بغي وعدوان لأنه خروج عن فضيلة العدل في القوة الغضبية، وأما أن الباغي مصروع ففي غالب الأحوال لاستعداده ببغيه لذلك. لأن المجازاة واجبة في الطبيعة.

٢٢٠ - وقال عليه السلام: خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ: الزَّهْوُ، وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا.

الأخلاق الثلاثة المذكورة رذائل للرجال وهي فضائل للنساء، وبيان كونها فضائل هو ما ذكره عليه السلام. والمزهوة: المتكبّرة، ولا يبنى الفعل من الزهو إلاّ للمفعول. يقال: زهى الرجل وزهيت المرأة فهي مزهوة. والفرق: الخوف.

٢٢١ - وقيل له عليه السلام: صف لنا العاقل. فقال عليه السلام: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ. فقيل: فصف لنا الجاهل. فقال: قَدْ فَعَلْتُ.

قال الرضي: يَعْنِي أَنَّ الجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لاَ يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ، فَكَأَنَّ تَرْكَ صِفَتِهِ صِفَةٌ لَهُ، إِذْ كَانَ بِخِلاَفِ وَصْفِ الْعَاقِلِ.

عرف العاقل بخاصة من خواصه، ولما كان الجاهل

عديم ملكة العاقل كان تعريفه بما يقابل خاصة العاقل تعريفاً بالمناسب وهو خاصة أيضاً من خواص الجاهل.

٢٢٢ - وقال عليه السلام: وَاللّٰهِ لَدُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ.

عُراق: جمع عرق وهو جمع غريب كتؤام وتوأم وهو العظم الذي يسحت عنه اللحم، وذلك مبالغة في هون الدنيا وحقارتها في عينه ونفرته عنها لأن العرق لا خير فيه فإذا تأكد بكونه من خنزير ثم بكونه في يد مجذوم بلغت النفرة منه الغاية.

٢٢٣ - وقال عليه السلام: إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّٰهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّٰهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللّٰهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ.

قسم عليه السلام عبادة العابدين بحسب أغراضها إلى ثلاثة وهي عبادة الرغبة وعبادة الرهبة وعبادة الشكر، وجعل الأولى عبادة التجار باعتبار أنهم يستعيضون عنها ثواب الآخرة ويطلبونه بها فهم في حكم التّجار المكتسبين للأرباح، والثانية عبادة العبيد في الدنيا لأن خدمتهم لساداتهم أكثر ما تكون رهبة، والثالثة عبادة الشاكرين وهم الذين يعبدون الله لا لرغبة ولا لرهبة. بل لأنه هو مستحق العبادة وهي عبادة العارفين، وأشار عليه السلام إليها في موضع آخر فقال عليه السلام: ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك.

٢٢٤ - وقال عليه السلام: الْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا، وَشَرُّ مَا فِيهَا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْهَا!

وأراد أن أحوالها كلها شر على الرجال: أما من جهة مؤونتها فظاهر، وأما من جهة لذتها واستمتاعه بها فلاستلزام ذلك البعد عن الله تعالى والاشتغال عن طاعته. وأسباب الشر شرور وإن كانت عرضية. ولما كان كونها لا بدّ منها أعني وجوب الحاجة إليها في طبيعة الوجود الدنيوي هو السبب في تحمّل الرجل للمرأة ووقوعه في شرورها وجب أن يكون ذلك الاعتبار أقوى الشرور المتعلّقة بها لأن السبب أقوى من المسبب.

٢٢٥ - وقال عليه السلام: مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الْحُقُوقَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ.

الانقياد في سلك التواني عن الحقوق المطلوبة يخرجها عن وقت الفرصة لحصولها وذلك يستلزم تضييعها وتفويتها، وكذلك الواشي مظنة السعي بالفساد بين المتصادقين فطاعته فيما يقول مظنة وقوع الوحشة بينهما وتضييع كل منهما لصاحبه.

٢٢٦ - وقال عليه السلام: الْحَجَرُ الْغَصِيبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا.

استعار لفظ الرهن للحجر المغصوب في دار الظالم باعتبار كونه سبباً لخرابها كما أن الرهن سبب لأداء ما عليه من المال وهو كناية عن مطلق استلزام الظلم لهلاك الظالم وخراب ما يبنيه بظلم وإن تأخر أمده، وقد عرفت كون الظلم معداً لذلك. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله: اتقوا الحرام في البنيان فإنه أسباب الخراب.

٢٢٧ - وقال عليه السلام: يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ.

وأراد بيوم المظلوم يوم القيامة وخصصه به لأنه يوم إنصافه وأخذ حقه وكذلك تخصيص يوم الظالم بوقت ظلمه لأنه في الدنيا.

٢٢٨ - وقال عليه السلام: اتَّقِ اللّٰهَ بَعْضَ التُّقَى وَإِنْ قَلَّ، وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللّٰهِ سِتْراً وَإِنْ رَقَّ.

أمر بالتقوى لأنها الزاد إلى الله، ولما كان الاستكثار منها مستلزماً للقرب من الله وسرعة الوصول إليه كان الأولى كثرتها وإلاّ فالبعض منها وإن قل لأن لها الأقلية والأكثرية والأشدية والأضعفية ولا يجوز ترك الزاد بالكلية في الطريق الصعبة الطويلة. واستعار لفظ الستر لحدود الله الساترة من عذابه وأمر أن يجعلها بينه وبين الله: أي يحفظ حدوده ولا يهتكها فيقع في مهاوي الهلاك فغلظ الستر شدة المحافظة على حدود الله وعدم استيفاء المباحات لخوف الوقوع في الحرام ورقته باستيفاء الأمور الجائزة من المباحات والمكروهات.

٢٢٩ - وقال عليه السلام : إِذَا ازْدَحَمَ الْجَوَابُ، خَفِيَ الصَّوَابُ.

أي إذا سئل عن مسألة فأجاب جماعة كل بما يخطر له في المسألة أو شخص بعدد من الأجوبة خفي الصواب فيها لالتباس الحق من تلك الأجوبة وأكثر ما يكون ذلك في المسائل الاجتهادية. وازدحامه: كثرته.

٢٣٠ - وقال عليه السلام : إِنَّ للهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ حَقّاً، فَمَنْ أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْهَا، وَمَنْ قَصَّرَ عَنْهُ خَاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ.

حق الله في النعمة شكرها الواجب، وأما استلزام أدائه للمزيد منها وكون التقصير مظنة زوالها فلقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] الآية. ورغب في الشكر ونفّر عن الكفران بذكر كون ذلك حقاً لله. وقد مرّ بيانه مراراً.

٢٣١ - وقال عليه السلام : إِذَا كَثُرَتِ الْمَقْدِرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ.

لأن قليل القدرة على ما يشتهيه لا يزال مستشعراً لخوف فواته عند حصوله. فيكون ذلك الخوف معاقباً للذته به فلا يزال في قلبه دغدغة نفسانية تحمله على مشتهاه وتبعث شهوته عليه. أما إذا تمت قدرته عليه فإنه يأمن فوته وبحسب ذلك يضعف الباعث للشهوة فيقل لجاجه عليه وشهوته له.

٢٣٢ - وقال عليه السلام : احْذَرُوا نِفَارَ النِّعَمِ فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ.

استعار لفظ النفار والشرود لزوال النِّعم ملاحظة لشبهها بالنَّعم. وحذّر منه حثاً على تقييدها بالشكر، ونبه على وجوب ذلك الحذر بقوله: فما كل. إلى آخره. وهو صغرى ضمير تقديرها: الشارد جاز أن لا يرد، وتقدير كبراه: وكلما جاز أن لا يرد لم يجز تنفيره.

٢٣٣ - وقال عليه السلام : الْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ.

أي أشد عطفاً. ويفهم منه أحد معنيين:

الأول: أن الكريم بكرمه أعطف على المنعم عليه من ذي الرحم على ذي رحمه لأن عاطفة الكريم طبع وعاطفة ذي الرحم قد يكون تكلفاً وقد لا يكون أصلاً.

الثاني: أن الكرم يستلزم عاطفة الخلق على الكريم ومحبتهم له أشد من عاطفة ذي الرحم على رحمه.

٢٣٤ - وقال عليه السلام : مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ.

أي افعل ما ظنه فيك من خير، وتصديق الظن مطابقة الواقع الذي ظن وقوعه له بوقوعه. وذلك حثّ على فعل الخير.

٢٣٥ - وقال عليه السلام : أَفْضَلُ الأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ.

أراد من الأعمال الصالحة. وأفضلها أنفعها وأكثرها استلزاماً للثواب. وإنما كان كذلك لأن فائدة الأعمال الصالحة تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ورياضتها بحيث تصير مؤتمرة للعقل وإكراه النفس على الأمر يكون لشدته فكلما كان أشد كان أقوى في رياضتها وأنفع في تطويعها وكسرها، وبحسب ذلك يكون أكثر منفعة فكان أفضل، ونحوه من الحديث قوله صلى الله عليه وآله : أفضل الأعمال أحمزها بالزاي المعجمة: أي أشقها.

٢٣٦ - وقال عليه السلام : عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحَلِّ الْعُقُودِ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ.

أراد معرفة وجوده تعالى. ووجه الاستدلال أن الإنسان قد يعزم على أمر ويعقد ضميره على فعله بحسب ما يتصوره من المنفعة الداعية إليه. ثم عن قريب ينحلّ ذلك العزم وينفسخ ذلك العقد لزوال ذلك الداعي أو لخاطر معارض له.

إذا عرفت ذلك فنقول: تلك التغيّرات والخواطر المتعاقبة المرجحة لفعل الأمر المعزوم عليه أمور ممكنة محتاج في طرفي وجودها وعدمه إلى المرجح والمؤثر. فمرجّحها إن كان من العبد كان الكلام فيه كالكلام في الأول ولزم الدور أو التسلسل وهما محالان فلا بد من الانتهاء إلى الله تعالى مقلب القلوب والأبصار. وذلك هو المطلوب.

٢٣٧ - وقال عليه السلام: مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلاَوَةُ الآخِرَةِ، وَحَلاَوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الآخِرَةِ.

أي مستلزمة لها. واستعار لفظ الحلاوة والمرارة للذة والألم، وظاهر أن آلام الدنيا اللازمة عن ترك لذاتها وعدم الالتذاذ بها طلباً للآخرة، وشوقاً إلى ثوابها مستلزمة لحلاوة الآخرة ولذّاتها، وكذلك الابتهاج للذّات الدنيا يستلزم الغفلة عن الآخرة وترك العمل لها وذلك مستلزم لعذابها ومستعقب لشقاوتها.

٢٣٨ - وقال عليه السلام: فَرَضَ اللهُ الإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاَةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلاَءً لإِخْلاَصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ، وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلإِسْلاَمِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ، وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ، وَتَرْكَ الزِّنَى تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ، وَتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ، وَالشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمُجَاحَدَاتِ، وَتَرْكَ الْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ، وَالسَّلاَمَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ، وَالأَمَانَةَ نِظَاماً لِلأُمَّةِ، وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلإِمَامَةِ.

أقول: أشار عليه السلام إلى فرائض الله، ونبه على عللها الغائية في الحكمة ليكون أوقع لذكرها في النفوس. وذكر منها عشرين فريضة:

الأولى: بدأ بالإيمان. لأنه الأصل لجميع الفرائض والسنن، وجعل من أغراضه التطهير عن الشرك، ولما كان للتطهير من الشرك غاية مطلوبة للشارع وهي كمال النفس بمعرفة الله تعالى كان التطهير غاية غرضه من الإيمان.

الثانية: الصلاة. ولما كان وضعها لتطويع النفس الأمارة التي هي مبدأ الكبر للنفس المطمئنة، ورياضتها، وقهرها لا جرم كان من غاياتها تنزيه الإنسان عن الكبر.

الثالثة: الزكاة. وذكر من غايات فرضها كونها سبباً للرزق. إذ كان منها رزق الفقراء والمساكين ومن عيّنتها الشريعة حقاً له.

الرابعة: الصيام. ولمّا كان من الشدائد الشاقة على الأبدان خصه بأن غايته كونه ابتلاء من الله لإخلاص خلقه وإن كانت هذه غاية من كل العبادات.

الخامسة: الحج. وإنما جعل غايته كونه تقوية للدين لأنه عبادة تستلزم اجتماع أكثر أهل الملة في مجمع واحد على غاية من الذلة والخضوع والانقياد لله، ومشاهدة كل من الخلق الحاضرين لذلك الجمع العظيم من الملوك وغيرهم فيتأكد في قلبه قوة الدين في عظمته دون سائر العبادات.

السادسة: الجهاد. وكون غايته عزّ الإسلام وقوته ظاهر.

السابعة: الأمر بالمعروف. وغايته إصلاح أحوال العوام في معاشهم ومعادهم. وخصّ العوام لأنهم أغلب الخلق، ولأن من عداهم هم العلماء والولاة الآمرون بالمعروف الفاعلون له.

الثامنة: النهي عن المنكر. وكون غايته ردع السفهاء ظاهر. لأن السفيه ما لم يكن له ردع من سلطان الدين تكثر مفسدته المضادة لمصلحة العالم.

التاسعة: صلة الأرحام. ومن غايتها كونها منماة للعدد: أي عدد أولي الرحم. إذ زيادة عددهم باستقامة أمر معاشهم. وصلة الرحم سبب لذلك.

العاشرة: القصاص. وغايته حقن الدماء والكفّ عن سفكها لخوف المكافأة كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقولهم: القتل أنفى للقتل.

الحادية عشرة: إقامة حدود الله. وغايتها حرمات محارم الله كي لا تنتهك وينحرف الخلق إليها عن قصد السبيل فيضيّع غرض الشارع من وضع الدين.

الثانية عشرة: ترك شرب الخمر. وغايته تحصين العقل من محاصرتها وإشغاله عمّا خلق له من طلب الاستكمال لكمال الحكمة.

الثالثة عشرة: مجانبة السرقة. وغايتها إيجاب العفّة. إذ السرقة تنشأ عن كمال طاعة الشهوة والعبور فيها إلى

حدّ الإفراط والفجور. فكان من غايات تحريمها وقوف من في طباعه ذلك على حدّ العفّة.

الرابعة عشرة: ترك الزنا. ومن غاياته حفظ الأنساب وما يتبعها من المواريث. فإنّ الزنا يوجب اختلاط الأنساب وضياع الأموال التي هي قوام الخلق في الدنيا. وقد سبق سرّه.

الخامسة عشرة: ترك اللواط. وغايته تكثير النسل وتوفير مادّته على محالّه لغاية كثرة النوع وبقائه.

السادسة عشرة: الشهادات. وغايتها استظهار المستشهد على مجاهدة خصمه كي لا يضيّع لو لم يكن بينهما شاهد.

السابعة عشرة: ترك الكذب. ومن غاياته تشريف الصدق وتعظيمه بتحريم ضدّه لبناء مصلحة العالم عليه ونظام أُمور الخلق به. وقد سبق بيان مفاسد الكذب الموجب لتحريمه.

الثامنة عشرة: السلام. ومن غاياته الأمن من مخاوف الدنيا لصولة الإسلام على سائر الأديان، ومن مخاوف الآخرة وهو ظاهر. وروى: السلام. ولمّا كان سبباً للتودّد إلى الخلق كان أمناً من مخاوفهم.

التاسعة عشرة: الأمانة وغاية فرضها كونها نظاماً لأمر الأمّة. إذ الخلق متى كان لهم رئيس منبسط اليد قويّ الشوكة يردع الظالم عن ظلمه ويأخذ للمظلوم بحقّه كان بذلك صلاح أحوالهم ونظام أمورهم في معاشهم ومعادهم، ولا كذلك إذا لم يكن مثل ذلك الرئيس.

العشرون: طاعة الإمام وغاية فرضها تعظيم إمامة الإمام لغاية امتثال الخلق لقوله، والاقتداء به. وقد سبقت الإشارة إلى أسرار كثيرٍ من هذه الفرائض مفصّلة.

٢٣٩ - وقال عليه السلام يقول: أَحْلِفُوا الظَّالِمَ - إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ - بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ الْعُقُوبَةَ، وَإِذَا حَلَفَ بِاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ، لأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ اللهَ تَعَالَى.

قد يرى المجتهد تأكيد اليمين بمثل ما ذكر عليه السلام لغاية نكول الكاذب عنها وأداء الحقّ، وذلك أنّ نفس الكاذب ينفعل عن مثل هذا اللفظ لعلمه بظلمه وتوهّمه تصديق الله تعالى ومطابقته لقوله بفعل المدعوّ به بخلاف اليمين المعتادة فيستعدّ بذلك لمعالجته بالعقوبة. وروي أنّ واشياً سعى بالصادق عليه السلام إلى المنصور فاستحضره وقال: إنّ فلاناً ذكر عنك كذا وكذا. فقال عليه السلام: لم يكن ذلك منّي. وأبى الساعي إلاّ كونه منه. فحلّفه الصادق بالبراءة من حول الله وقوّته إن كان كاذباً. فحلف. فما انقطع كلامه حتى أصيب بالفالج فصار كقطعة لحم فجرّ رجله. ونجا الصادق منه.

٢٤٠ - وقال عليه السلام: يَا ابْنَ آدَمَ كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ فِي مَالِكَ، وَاعْمَلْ فِيهِ مَا تُؤْثِرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ.

أي كما توصي من بعدك أن يوضع مالك موضع القربات وانتفاع أهلك به فكن أنت ذلك الوصيّ وضعه تلك المواضع في حياتك. وهو حثّ على بذل المال في وجهه.

٢٤١ - وقال عليه السلام: الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ، لأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكِمٌ.

لمّا كان الجنون حالة مخصوصة تعرض للإنسان بسبب خروج القوى النفسانيّة عن قبول تصرّف العقل إلى طرفي الإفراط والتفريط كانت الحدّة خروج قوّة الغضب عن ضبط العقل لها على قانون العدل الإلهي إلى طرف الإفراط كانت قسماً من الجنون وتنفصل الحدّة بالرجوع في الغضب إلى طاعة العقل.

٢٤٢ - وقال عليه السلام: صِحَّةُ الْجَسَدِ، مِنْ قِلَّةِ الْحَسَدِ.

أي أنّ الحسد قد يكون أيضاً بالصحّة كما يكون بغيرها فيفعل فيها وذلك هو الحسد البالغ. فكانت صحّة الجسد دليلاً على أقليّة الحسد إذ لم يتعلّق بها.

٢٤٣ - وقال عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: يَا كُمَيْلُ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا فِي كَسْبِ الْمَكَارِمِ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ. فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْباً سُرُوراً إِلاَّ وَخَلَقَ

اللهُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ السُّرُورِ لُطْفاً. فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي انْحِدَارِهِ حَتَّى يَطْرُدَهَا عَنْهُ كَمَا تُطْرَدُ غَرِيبَةُ الإِبِلِ.

الإدلاج: السير بالليل. والنائبة: المصيبة، وأراد أنّ إدخال السرور على قلب ذي الحاجة بقضائها يجعله الله سبباً يلطف به لقاضي الحاجة ويقيه بها من مصيبة تعرض له، ويشبه أن يكون ذلك اللطف هو إخلاص ذي الحاجة ومتعلّقيه في إمداده ومعونته بدعاء الله وشكره وثنائه واستجلاب قلوب الخلق بذلك له وكلّ ذلك لطف يعدّه الله لوقايته له وطرد المصائب عنه، وشبّه جري ذلك اللطف إلى دفع المكروه عنه بجري الماء في انحداره، ووجه الشبه سرعة الانحدار للدفع والحفظ لأنّه من أمر الله. وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر، وكذلك دفع ذلك اللطف للنائبة بطرد غريبة الإبل، ووجه الشبه شدّة الطرد والإبعاد، وباقي الفصل ظاهر.

٢٤٤ - وقال عليه السلام: إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللهَ بِالصَّدَقَةِ.

والإملاق: الفقر. وقد مرّ أنّ الصدقة تعدّ للمزيد من فضل الله. فأمر الفقراء أن يتصدقوا بما عساه يقع في أيديهم ولو بشقّ تمرة ليستعدوا بذلك لإفاضة فضل الله، ورغّبهم في ذلك بذكر التجارة وهي استعارة لاستعاضة ما يحصل عمّا يبذل. والفقراء أولى باستجلاب الرزق بالصدقة من الأغنياء لانفعال القلوب لهم ورقّتها عليهم ولما يسبق إلى أذهان الخلق أنّ ذلك منهم عن إخلاص دون الأغنياء.

٢٤٥ - وقال عليه السلام: الْوَفَاءُ لأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللهِ.

وذلك أنّ من عهد الله في دينه الغدر وعدم الوفاء لهم إذا غدروا لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] قيل نزلت في يهود بني قينقاع وكان بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله عهد فعزموا على نقضه فأخبره الله تعالى بذلك وأمره بحربهم ومجازاتهم بنقض عهدهم فكان الوفاء لهم غدراً بعهد الله. والغدر بهم إذا غدروا وفاء بعهد الله.

٢٤٦ - وقال عليه السلام: لما بلغه إغارة أصحاب معاوية على الأنبار: فخرج بنفسه ماشياً حتى أتى النخيلة فأدركه الناس، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نكفيكهم، فقال: مَا تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ؟ إِنْ كَانَتِ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا، وَإِنَّنِي الْيَوْمَ لأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي، كَأَنَّنِي الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ، أَوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَزَعَةُ.

فلما قال عليه السلام هذا القول في كلام طويل قد ذكرنا مختاره في جملة الخطب، تقدم إليه رجلان من أصحابه فقال أحدهما: إني لا أملك إلا نفسي وأخي فمر بأمرك يا أمير المؤمنين ننقد له، فقال عليه السلام: وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ؟

أقول: هذا الفصل قد مرّ مشروحاً في الخطب.

وقيل إن الحارث بن حوت أتاه عليه السلام فقال: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟.

فقال عليه السلام: يَا حَارِثُ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ! إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ. فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعيد بن مالك وعبد الله بن عمر؟ فقال عليه السلام: إِنَّ سَعِيداً وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ، وَلَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ.

قوله: أتراني: استفهام إنكار لرؤيته كذلك. ورخّم حارث في بعض النسخ. وقيل في قوله: إنّك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: أي نظرت في أعمال الناكثين من أصحاب الجمل المتمسّكين بظاهر الإسلام الذين هم دونك في المرتبة لبغيهم على إمام الحقّ فاغتررت بشبهتهم واقتديت بهم ولم تنظر إلى من هو فوقك وهو إمامك الواجب الطاعة ومن معه من المهاجرين والأنصار ولا سمعت حكمهم بكون خصومهم على الباطل فكان ذلك سبب حيرتك. ويحتمل أن يكون نظره تحته كناية عن نظره إلى باطل هؤلاء وشبهتهم المكتسبة

عن محبّة الدنيا التي هي الجنبة السافلة، ونظره فوقه كناية عن نظره إلى الحقّ وتلقّيه من الله .

وقوله: إنّك: إلى آخره.

تفصيل لسبب حيرته وهو عدم معرفته للحقّ والباطل المستلزم لجهله بأهلهما ولو عرفهما لجزم باتّباع الحقّ واجتناب الباطل وهو في قوّة صغرى ضمير تقدير كبراه: كلّ من كان كذلك وقع في الحيرة والضلال. وسعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص فإنّه لمّا قتل عثمان اشترى أغناماً وانتقل إلى البادية وكان يتعيّش بتلك الأغنام حتّى مات ولم يشهد بيعة علي عليه السلام . وأمّا عبد الله بن عمر فالتجأ إلى أخته حفصة زوجة النبي صلى الله عليه وآله بعدما بايع لأمير المؤمنين عليه السلام ولكنّه لم يشهد معه حرب الجمل، وقال: قد أعجزتني العبادة عن الفروسة والمحاربة فلست مع علي ولا مع أعدائه. فأمّا قوله في جوابه: إنّ سعداً، إلى آخره فهو صغرى ضمير نبّه فيه على أنّه لا يجوز له متابعتهما في الاعتزال وهي من المخيّلات المنفّرة التي في صورة الذمّ وإن كانت صادقة. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فلا يجوز متابعته.

٢٤٧ - وقال عليه السلام: صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الأَسَدِ: يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وِهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.

أي يتمنّى موقعه وهو يعلم أنّه في غاية من المخاطرة بالنفس والتغرير بها، وذلك هو وجه الشبه براكب الأسد.

٢٤٨ - وقال عليه السلام: أَحْسِنُوا فِي عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فِي عَقِبِكُمْ.

العقب من يخلفه الإنسان من الولد وأولادهم. وإنّما كان كذلك لأنّ المجازاة واجبة في الطبيعة ولأنّ الذكر الجميل بذلك يعطف الناس على عقب المحسن من بعده.

٢٤٩ - وقال عليه السلام: إِنَّ كَلاَمَ الْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً، وَإِذَا كَانَ خَطَأً كَانَ دَاءً.

وذلك لقوّة اعتقاد الخلق فيهم وشدّة قبولهم لما يقولونه فإن كان حقّاً كان دواء من الجهل وإن كان باطلاً أوجب للخلق داء الجهل. ولذلك قيل: زلّة العالِم زلّة العالَم.

٢٥٠ - وسأله رجل أن يعرّفه الإيمان فقال عليه السلام: إِذَا كَانَ الْغَدُ فَأْتِنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ عَلَى أَسْمَاعِ النَّاسِ، فَإِنْ نَسِيتَ مَقَالَتِي حَفِظَهَا عَلَيْكَ غَيْرُكَ، فَإِنَّ الْكَلاَمَ كَالشَّارِدَةِ، يَنْقُفُهَا هٰذَا وَيُخْطِئُهَا هٰذَا.

وقد ذكرنا ما أجابه به فيما تقدم من هذا الباب وهو قوله «الإيمان على أربع شعب».

وجه تشبيه الكلام بالشاردة من الإبل قوله: ينقفها: أي يجدها في ضلالها. إلى آخره. والفصل ظاهر.

٢٥١ - وقال عليه السلام

يَا ابْنَ آدَمَ، لا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ مِنْ عُمُرِكَ يَأْتِ اللهُ فِيهِ بِرِزْقِكَ.

أي ينبغي أن يكون الاهتمام بحاجة كلّ يوم مخصوصاً بذلك اليوم. والكلمة صغرى ضمير نبّه به على ترك الاهتمام بما لم يأته من الأيّام، وتقدير الكبرى: وكلّما كان كذلك فلا ينبغي الاهتمام له.

٢٥٢ - وقال عليه السلام: أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَّا.

فائدة هذه الكلمة الأمر بالاعتدال في المحبّة والبغض وعدم الإفراط فيهما لما في الإفراط من المفسدة. والهون: السكينة والوقار وهو صفة مصدر محذوف: أي حبّاً هيّناً معتدلاً. - وما - في الموضعين يفيد شيئاً ما في الهون واليوم، وإنّ الغرض منه مقدار الإفراط ووقت من الأوقات وإن لم يكن معيّناً. ونبّه على سرّ ذلك بقوله: عسى. في الموضعين وهما صغريا ضميرين أمّا مفسدة إفراط المحبّة فلاستلزامه اطّلاع المحبّ لمحبوبه على أسراره وتوقيفه على أحواله فربّما ينقلب بعد ذلك عدوّاً له فيكون أقدر على هلاكه من غيره من الأعداء، وكذلك مفسدة إفراط البغيض وهو عدم

الإبقاء على المبغوض وذلك يستلزم دوام المعاداة. فالاعتدال في ذلك أولى لأنّه ربّما عاد العدوّ إلى الصداقة فكان المبغض قد أبقى للصداقة موضعاً، وتقدير كبرى الأوّل: وكلّ حبيب جاز أن يكون عدوّاً في وقت ما فينبغي أن لا يفرط في محبّته. وتقدير كبرى الثاني: وكلّ عدوّ جاز أن يكون صديقاً يوماً ما فينبغي أن لا يفرط في بغضه.

٢٥٣ - وقال عليه السلام: النَّاسُ لِلدُّنْيَا عَامِلانِ: عَامِلٌ عَمِلَ في الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يَخْلُفُهُ الْفَقْرَ، وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ، وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الْحَظَّيْنِ مَعاً، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ، لا يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعُهُ.

لمّا كان العمل في هذه الحياة لا بدّ منه فعمل العاقل إمّا لها أو لغيرها وغيرها هو الآخرة فإذن الناس عاملان، وأشار إلى الأوّل في معرض ذمّه بقوله: قد شغلته دنياه. إلى قوله: غيره، ومعنى ذلك أنّه يشتغل بتحصيل الدنيا خوف الفقر على ولده من بعده فيفني عمره في منفعة يتخيّلها لغيره ولا يخشى الفقر الأكبر في الآخرة من الخيرات الباقية على نفسه. وذلك ضلال مبين. وأشار إلى الثاني في معرض مدحه بقوله: وعامل. إلى قوله: فجاءه الذي له من الدنيا: أي المكتوب له في اللوح المحفوظ من رزق ونحوه.

وقوله: بغير عمل.

أي للدنيا لأنّ العمل بقدر الضرورة من الدنيا ليس من العمل لها بل للآخرة وهو مقصود من الدنيا بالعرض، وبذلك يحرز حظّيه من الدنيا والآخرة، ويكون في الدنيا ملكاً بقناعته وفي الآخرة بثمرة أعماله ووجاهته عند الله وعلوّ منزلته في استعداده بطاعته المستلزم لقبول دعوته وإجابتها فيما سأل.

□

٢٥٤ - فقال عليه السلام: وروي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر وما تصنع الكعبة بالحلي؟ فهم عمر بذلك، وسأل أمير المؤمنين عليه السلام: إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَالأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ: أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ، وَالْفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ، وَالْخُمُسُ فَوَضَعَهُ اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلَهَا، وَكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ، فَتَرَكَهُ اللهُ عَلَى حَالِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَاناً، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَاناً، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ. فقال له عمر: لولاك لافتضحنا. وترك الحلي بحاله.

القصّة مشهورة وخلاصة حجّته عليه السلام ضمير أشار إلى صغراه وتقديرها: إنّ حلي الكعبة قد أقرّه الله على حاله ورسوله من غير نسيان له و لا جهل بمكانه مع تعرّضه لجميع الأموال. وتقدير الكبرى: وكلّما أقرّه الله ورسوله على حاله وجب الاقتداء بهما في إقراره. ولذلك أمره بصورة النتيجة وهو قوله: فأقرّه الله ورسوله. ونسياناً نصب على الحال، ومكاناً على التمييز.

□

٢٥٥ - فقال عليه السلام: وروي أنه عليه السلام رفع إليه رجلان سرقا من مال الله: أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عرض الناس: أَمَّا هٰذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ اللهِ وَلا حَدَّ عَلَيْهِ، مَالُ اللهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ الشَّدِيدُ. فَقَطَعَ يَدَهُ.

عرض الناس سائرهم وعامّتهم. واحتجّ للعبد بضمير صغراه قوله: فهو مال الله أكل بعضه بعضاً. وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا قطع عليه. وأمّا المقطوع فإنّه قد كان سرق نصاباً من مال الغنيمة من حرز ولم يكن له نصيب منها، وأمّا إن كان له نصيب فإن كان المسروق فوق نصيبه نصاباً قطع وإلاّ فلا.

٢٥٦ - وقال عليه السلام: لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هٰذِهِ الْمَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ.

المداحض: المزالق. واستواء قدميه كناية عن ثباته وتمكّنه من إجراء الأحكام الشرعيّة على وجوهها في المسائل الاجتهاديّة المشكلة التي يخفى حكم الشرع فيها على غيره، وذلك أنّه في خلافته لم يتمكّن من تغيير شيء من أحكام الخلفاء قبله وكان له في بعضها رأي غير ما رأوه. واستعار لتلك المسائل لفظ المداحض باعتبار أنّها مزالق أقدام العقول ومزالّها. وأومأ بقوله: لغيّرت أشياء. إلى ما كان يرى فساده من أحكام غيره في تلك المسائل وأنّ أقدام عقولهم قد زلقت فيها عن سواء الصراط.

٢٥٧ - وقال عليه السلام: اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ - وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ طِلْبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ - أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ مَا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ. وَالْعَارِفُ لِهَذَا، الْعَامِلُ بِهِ، أَعْظَمُ النَّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ. وَالتَّارِكُ لَهُ الشَّاكُّ فِيهِ أَعْظَمُ النَّاسِ شُغُلاً فِي مَضَرَّةٍ. وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَى. وَرُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَى! فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

وفي هذا الفصل لطائف. الأولى: لمّا قام البرهان على أنّ ما علم الله تعالى وجوده فهو واجب الوقوع وما علم عدمه فهو ممتنع الوقوع لا جرم لم يكن لكلّ من القويّ والضعيف من الرزق ونحوه إلاّ ما علم الله تعالى وصوله إليه بقلم القضاء الإلهيّ في الذكر الحكيم واللوح المحفوظ ولم يبلغ عظيم الحيلة قويّ المكيدة بحيلته أكثر ممّا سمّي له، ولا قصر الضعيف بضعفه عن بلوغ ما سمّي له. ولأجل ثبوت ذلك بالبرهان أمرهم بتيقّنه، ورغّبهم في علمه والعمل به بضمير صغراه وقوله: والعارف. إلى قوله: في منفعة. أمّا راحته فلعلمه أنّ ما كتب له لا بدّ أن يصل إليه فيترك لذلك شدّة الاهتمام به والكدح له، ولمّا كانت راحته قلبيّة وبدنيّة كانت أعظم الراحات، ولمّا كانت مع منفعة بما يصل إليه تأكّد شرفها. وكذلك نفّر عن الشكّ في ذلك وترك العمل به بقوله: والتارك لهذا الشاكّ فيه. إلى آخره. وهو ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فلا ينبغي له الشكّ فيه وتركه، وإنّما كان أعظم الناس شغلاً لأنّه شغل قلبه وبدنه فيما لا فائدة فيه فيلزمه مضرّة خالصة.

فإن قلت: فهذا ينافي الأمر بالدعاء وبالسعي في طلب الرزق كقوله تعالى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] ونحوه.

قلت: قد بيّنا أنّه لا ينافي، وذكرنا سرّ الدعاء وفائدته. وحاصله أنّه قد يكون الدعاء سبباً لوجود الرزق فيعلم الله تعالى وجوده بواسطة سببه ولا تنافي بينهما.

الثانية: نبّه أهل النعمة والغنى وأهل الابتلاء على وجوب شكر الله تعالى على حاليهما أمّا أهل النعمة فنبّههم بأنّ نعمتهم قد تكون استدراجاً لهم ليشكروا الله عليها كيلا يستدرجهم بها، وأمّا أهل البلوى فنبّههم بأن بلواهم قد تكون صنعاً من الله في حقّهم ليعدّهم بها لثوابه الجزيل فيجب عليهم شكر ذلك الصنع. والمقدّمتان صغريا ضميرين تقدير الأولى منهما: بعض المنعم عليه مستدرج بالنعمى. وتقدير الكبرى: وكلّ مصنوع إليه فيجب عليه شكر صنع الله في حقّه. ولذلك أمر المستمعين مطلقاً بزيادة الشكر مع أنّ فيهم المنعم عليهم والمبتلى، ثمّ أمر بالتقصير عن العجلة في طلب الرزق والوقوف دون حدّ الإفراط على حدّ العمل.

٢٥٨ - وقال عليه السلام: لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، وَيَقِينَكُمْ شَكّاً. إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا.

نهاهم أن يجعلوا علمهم بما أهمّ علمه من أحوال الآخرة جهلاً: أي في قوّة الجهل، ويقينهم شكّاً: أي في قوّة الشكّ وبمنزلته لتركهم العمل على وفق ما علموه وتيقّنوه. ولذلك أمرهم بالعمل على وفق علمهم والإقدام عليه على وفق يقينهم.

٢٥٩ - وقال عليه السلام: إِنَّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وَضَامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ. وَرُبَّمَا شَرِقَ شَارِبُ الْمَاءِ

قَبلَ رِبِّهِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ الْمُتَنَافَسِ فِيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ. وَالأَمَانِيُّ تُعْمِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ، وَالْحَظُّ يَأْتِي مَنْ لا يَأْتِيهِ.

نفّر عن الطمع في الدنيا والحرص في طلبها وتمنّيها واقتنائها بوجوه:

الأوّل: ضمير صغراه قوله: إن الطمع. إلى قوله: وفيّ: أي يورد الطامع موارد الهلكة ولا يصدره عنها. واستعار له لفظ الضامن غير الوفيّ باعتبار أنّه يرغب في الطلب ويدعو إليه مع أنّه قد يكون كاذباً كمن يضمن شيئاً ويخلف فيه، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا ينبغي أن يتّبع ويوثق به.

الثاني: قوله: وربّما. إلى قوله: ريّه. وهو تنبيه على أنّه لا يجوز الاسترسال في طلب الدنيا بضمير كنّى عن صغراه بذلك، وتقديرها: أنّ المسترسل في طلبها قد يخترم ويقتطع دون بلوغ أمله فيها. وتقدير الكبرى: وكلّ ما كان كذلك فلا ينبغي له الاسترسال في طلبها.

الثالث: نفّر عن المنافسة فيما عظم قدره من متاعها بضمير صغراه قوله: وكلّما. إلى قوله: لفقده. والرزيّة: المصيبة. وتقدير الكبرى: وكلّما عظمت الرزيّة لفقده فلا ينبغي اقتناؤه. إذ كان من ضرورته فقده وفنائه.

الرابع: نفّر عن الأمانيّ بضمير صغراه قوله: والأمانيّ تعمي أعين البصائر وذلك أنّها تشغل الفكر بما لا يعنى عن طلب ما يعنى من الكمالات العقليّة. واستعار لفظ الأعين للأفكار باعتبار إدراكهما. وتقدير الكبرى: وكلّما كان كذلك وجب اجتنابه.

الخامس: نبّه على ترك طلب الحظّ من الدنيا بقوله: والحظّ يأتي من لا يأتيه: أي الحظّ لمن كان له حظّ يصل إليه وإن لم يسع في طلبه، وهو في قوّة صغرى ضمير، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا حاجة إلى طلبه وإتيانه.

٢٦٠ - وقال عليه السلام: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تُحَسِّنَ فِي لامِعَةِ الْعُيُونِ عَلانِيَتِي، وَتُقَبِّحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظاً عَلَى رِئَاءِ [رِئَاءِ] النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ ما أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إِلَى عِبَادِكَ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ.

أفضي: أصل. واستعاذ بالله أن يجتمع له حسن الظنّ في عيون الناس مع قبح باطنه عند الله بالرياء والتصنّع بالزهادة والعبادة الظاهرة لغاية طلب الدنيا. ولامعة العيون إضافة للصفة إلى الموصوف: أي العيون اللامعة. ومحافظاً حال. وتقرباً وتباعداً مصدران سدّا مسدّ الحال، ويحتمل نصبهما على المفعول.

٢٦١ - وقال عليه السلام: لا وَالَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِي غُبْرِ لَيْلَةٍ دَهْمَاءَ تَكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا.

فغبر الليل: بقاياه. والدهماء: السوداء. والتكشّر: التبسّم بحيث تبدو الأسنان. والأغرّ: الواضح. ولفظ التكشّر مستعار للّيلة باعتبار إسفارها عن ضوء يومها. فهي كالضاحكة. واليمين في غاية الفصاحة، وعن مثلها ينفعل الحالف والسامع.

٢٦٢ - وقال عليه السلام: قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ [مِنْهُ].

وأراد من الأفعال فإنّ القليل الدائم أكثر من الكثير المملول المنقطع وأقوى إعداداً للنفس فكان أنفع في الآخرة.

٢٦٣ - وقال عليه السلام: إِذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا.

أي إذا أخلّت ببعض شرائط الفرائض وجب تركها وقد مرّ ذلك مشروحاً.

٢٦٤ - وقال عليه السلام: مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ.

وأراد أنّ المتذكّر لبعد طريق الآخرة يلزمه الاستعداد لها بالتقوى.

٢٦٥ - وقال عليه السلام: لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ.

هذا تنبيه على وجوب إعمال الفكر فيما ينبغي، وأنّ العقل هو مستند الحواسّ وهو الناقد البصير والناصح الشفيق الذي لا يغشّ من استنصحه. واستعار لفظ الاستنصاح لمراجعته وإعماله بصدق وتوجّهه إلى استخراج الآراء الصالحة، ولفظ الغشّ لكذبه: أي لا يكذب من استنصحه وجعله رائداً له وأمّا الحواسّ فقد تكذب أهلها. واعلم أنّ البصر وغيره من الحواسّ الظاهرة لا حكم له، وأمّا الحكم ببعض المحسوسات على بعض فحكم العقل بواسطة الخيال والوهم، وكلّما عرض في تلك الأحكام من الغلط فهو من أغلاط الوهم على ما تبيّن في موضعه، وحيتئذ يكون قوله: وقد تكذب العيون أهلها: أي قد يكذب الأحكام الوهميّة على مدركات العيون كالحكم بكون القطرة النازلة خطّاً مستقيماً والشعلة التي تدار بسرعة كالدائرة ونحوه.

٢٦٦ - وقال عليه السلام: بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ.

استعار لفظ الحجاب لما يعرض للنفوس من الهيئات البدنيّة المغفلة عن النظر في العبرة وقبول الموعظة والانتفاع بها.

٢٦٧ - وقال عليه السلام: جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ، وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ.

مزداد: أي من الإثم. مسوّف: أي بالتوبة. وروي: عالمكم مسوّف.

٢٦٨ - وقال عليه السلام: قَطَعَ الْعِلْمُ عُذْرَ الْمُتَعَلِّلِينَ.

أي العلم بالدين وما بلّغه الرسول صلى الله عليه وآله من البشارة والنذارة فإنّ ذلك قاطع لعذر من عساه يقول: إنّا كنّا عن هذا غافلين. كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] الآية.

٢٦٩ - وقال عليه السلام: كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ الإِنْظَارَ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ.

وهو توبيخ على ترك العمل الصالح للمعاجل والمؤجّل.

٢٧٠ - وقال عليه السلام: مَا قَالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ «طُوبَى لَهُ» إلاَّ وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سُوءٍ.

أي ما استحسن الناس من الدنيا شيئاً إلاّ وفي قوّة الدهر إعداد لفساده وإهلاكه يوماً ما. ولا بدّ من خروج ما فيه بالقوّة إلى الفعل.

٢٧١ - وسئل عليه السلام: عن القدر. فقال: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلا تَسْلُكُوهُ، وَبَحْرٌ عَمِيقٌ فَلا تَلِجُوهُ، وَسِرُّ اللهِ فَلا تَتَكَلَّفُوهُ.

أقول: السؤال عن مهيّة القدر وكيفيّة وقوع الأفعال بحسبه. وهذه المسألة من مسائل العلم الإلهي وفيها خبط عظيم بين الحكماء والمتكلّمين، وقد نبّهنا على ما هو الحقّ فيها فيما سبق ولصعوبتها كان الخوض فيها مظنّة الضلال والتيه في بحر لا ساحل له فلذلك نفّر عليه السلام عن الخوض فيها بضمائر ثلاثة:

أحدها: أنّه طريق مظلم، وتقدير الكبرى: وكلّ طريق مظلم فلا يجوز سلوكه. وينتجه قوله: لا تسلكوه. واستعار لفظ المظلم له باعتبار كونه كثير الشبهات لا يهتدى فيه للحقّ.

الثاني: أنّه بحر عميق. واستعار لفظ البحر بصفة العمق له باعتبار غرق الأفكار فيه، وتقدير كبراه: وكلّ بحر عميق لا يجوز ولوجه. وينتجه قوله: فلا تلجوه.

الثالث: أنّه سرّ الله : أي سرّ الله قد أحبّ كتمه ومنع من الخوض فيه، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا يجوز تكلّف الخوض فيه وهتكه. وفي معناه كلّ غامض من غوامض العلم لا يجوز كشفه إلاّ للأولياء وأفراد العلماء فهو من أسرار الله .

٢٧٢ - وقال عليه السلام: إِذَا أَرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ.

وحظر العلم بإعداده لغيره وتعويق أسبابه بحيث ينصرف عنه فلا يكون له استعداده وظاهر أنّ الجهل من أشدّ الرذائل وأصعبها داء وهو طرف التفريط من فضيلة العلم والأدب كما سبقت الإشارة إليه غير مرّة.

٢٧٣ - وقال عليه السلام: كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي

اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ. وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ، فَلا يَشْتَهِي مَا لا يَجِدُ، وَلا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإِنْ قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً! فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَابٍ، وَصِلُّ وَادٍ، لا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً. وَكَانَ لا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ، حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ، وَكَانَ لا يَشْكُو وَجَعاً إِلاَّ عِنْدَ بُرْئِهِ، وَكَانَ يَقُولُ مَا يَفْعَلُ، وَلا يَقُولُ مَا لا يَفْعَلُ. وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى فَيُخَالِفُهُ، فَعَلَيْكُمْ بِهٰذِهِ الْخَلائِقِ فَالْزَمُوهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ.

أقول: ذكر هذا الفصل ابن المقفّع في أدبه ونسبه إلى الحسن ابن عليّ عليه السلام وبذّ: غلب. ونقع الغليل: سكن العطش. وأدلى بحجّته: أرسلها واحتجّ بها. وبدهه الأمر: أتاه من غير تأهّب له. والمشار إليه قيل: هو أبو ذرّ الغفاري. وقيل: هو عثمان بن مظعون. وقد وصفه باثنتي عشرة فضيلة:

إحديها: أنّه كان يستصغر الدنيا وينظر إليها بعين الاحتقار، وظاهر أنّ ذلك يستلزم عظمه في عيون أهل الله.

الثانية: أنّه كان خارجاً عن سلطان بطنه وهو كناية عن خروجه من أسر شهوته وخلاصه من رذيلة الفجور إلى فضيلة العفة. فكفّ شهوته عما لا يجد يستلزم عدم رذيلة الحرص والحسد ونحوهما، وعدم إكثاره مما يجد يستلزم نزاهته عن رذيلة الشره والنهم ونحوهما.

الثالثة: فضيلة العدل في الكلام والسكوت: أي أنّه ينطق بالحكمة في موضعها. وأمّا غلبة السكوت عليه فلقوّة عقله كما قال عليه السلام فيما قبل: إذا تمّ العقل نقص الكلام.

الرابعة: أنّه كان ضعيفاً مستضعفاً: أي فقيراً منظوراً إليه بعين الذلّة والفقر وذلك من لوازم فضيلة التواضع.

الخامسة: فضيلة الشجاعة عند الجدّ في الحرب والغضب لله، وكنّى عن ذلك بقوله: فإذا جاء الجدّ. إلى قوله: واد. واستعار لفظ الليث باعتبار سطوته وعدوانه ولفظ الصلّ باعتبار بأسه ونكايته في العدوّ، والمثل يضرب بحيّة الوادي في الشجاعة ونكاية السمّ.

السادسة: أنّه لا يدلي بحجّته حتى يجد قاضياً وهو من فضيلة العدل في وضع الأشياء مواضعها.

السابعة: كونه لا يلوم أحداً على أمر يحتمل العذر إلاّ بعد سماع الاعتذار فإن كان هناك عذر قبله. وذلك مع لوازم العدل والإنصاف وفضيلة الثبات واحتمال المكروه.

الثامنة: كونه لا يشكو ما ينزل به من الأمراض لتسليمه أحكام الله ورضاه بها بل لعله يحكيها بعد برئه على سبيل الإخبار دون الشكاية. وإنّه كان يكتم مرضه كيلا يتكلّف الناس زيارته فيشقّ عليهم ذلك.

التاسعة: كان يطابق بفعله قوله، ويحترز عن الكذب والخلف.

العاشرة: كان يترك المماراة والمجادلة والمغالبة في الأقوال ويعدل إلى السكوت إذا غولب في القول، وذلك من فضيلة الحكمة لعلمه بمواقع السكوت والكلام، ومن فضيلته لقهره قوّته الغضبيّة في المغالبة.

الحادية عشرة: وكان أحرص على الإستماع منه على الكلام ترجيحاً لجانب الاستفادة على الإفادة، والأوّل أهمّ من الثاني. وذلك من فضيلة الحكمة.

الثانية عشرة: وكان إذا خطر بباله أمران دفعة من غير سابقة فكّر في أيّهما أصلح. مثلاً كالتزويج وعدمه فكّر في أيّهما أقرب إلى الهوى وميل الشهوة كالتزويج فخالفه إلى تركه. ولمّا كان غرض الفصل أن يقتدي السامعون بالفضائل المذكورة أمرهم عليه السلام بلزومها والتنافس فيها أو في بعضها إن لم يمكن الكلّ، ورغّب في ذلك بقوله: فاعلموا. إلى آخره. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان خيراً فينبغي لزومه والتنافس فيه.

٢٧٤ - وقال عليه السلام: **لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ لا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ.**

لمّا كان شكر النعمة بالأقوال والأفعال المطابقة لها واجباً عقلاً وجب ترك المعصية الذي هو لازم للطاعة الواجبة لأنّ الواجب واجب، ومقتضى الكلمة أنّه لو لم يتوعّد الله على معصيته لكان يجب تركها شكراً له: أي لأجل شكره فكيف وقد توعّد مع ذلك عليها فبالأولى أن يجب تركها.

٢٧٥ - وقال عليه السلام: وقد عزّى الأشعث بن قيس عن ابن له -: **يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنْ عَلَى ابْنِكَ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ مِنْكَ ذٰلِكَ الرَّحِمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ. يَا أَشْعَثُ، إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ. يَا أَشْعَثُ، ابْنُكَ سَرَّكَ وَهُوَ بَلاءٌ وَفِتْنَةٌ، وَحَزَنَكَ وَهُوَ ثَوَابٌ وَرَحْمَةٌ.**

استدرجه عليه السلام أوّلاً بتحسين الحزن وأنّه في موضعه باعتبار أنّ الرحم يستحقّ من ذي رحمه ذلك. ثمّ عقّبه بما يدلّ على قبح الجزع والحزن بأنّ الصبر به أولى وذلك من وجوه:

أحدها: قوله: وإن تصبر. إلى قوله: خلف. وهي متّصلة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان في الله خلف عنه فالصبر عنه أولى. والنتيجة إن تصبر على مصيبتك فالصبر عليها أولى.

الثاني: قوله: إن صبرت. إلى قوله: وأنت مأجور: أي على صبرك وهو صغرى ضمير أيضاً تقدير كبراه: وكلّ من جرى عليه القدر وهو مأجور على صبره فالصبر به أولى.

الثالث: نفّره عن الجزع بقوله: وإن جزعت: إلى قوله: مأزور: أي على جزعه. وأصله موزور فهمّز لمناسبة القرينة الأولى. وهو ضمير أيضاً تقدير كبراه: وكلّ من جرى عليه القدر فهو مأزور، على جزعه دخل النار.

الرابع: قوله: سرّك وهو بلاء وفتنة. وهو تنفير عن إفراط السرور به. ووجه كونه بلاءً أنّ الإفراط في محبّته يستلزم رذائل خلقيّة كالجبن عمّا ينبغي من الجهاد خوف مفارقته، وكالبخل خوف فقره ونظراً له في عاقبته، وكالحزن في أمراضه وأعراضه كما قال صلى الله عليه وآله: الولد محزنة مجبنة مبخلة. وكذلك بغضه يستلزم رذيلة العقوق وقطع الرحم وصرف المال عنه في غير وجهه. فالبحري أن يبتلي الله الوالد بولده ويطلب منه الوقوف على حدّ العدل في حقّه. والواو في قوله: وهو. للحال، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فينبغي أن لا يأسف على ما فات من السرور.

الخامس: قوله: وحزنك. إلى آخره: تنفير عن الحزن عليه بما يلزم تركه من الصبر على المصيبة به من ثواب الله ورحمته وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما هو صبر عن الحزن وهو ثواب ورحمة فينبغي أن يصبر عن الحزن عليه.

٢٧٦ - وقال عليه السلام: **إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلاَّ عَنْكَ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلاَّ عَلَيْكَ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ، وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ.**

الجلل: الأمر الهيّن والأمر العظيم وهو من الأضداد، وإنّما كان الصبر غير جميل في المصيبة به صلى الله عليه وآله، والجزع عليه غير قبيح لأنّه صلى الله عليه وآله أصل الدين والقدوة فيه فالجزع في المصيبة به يستلزم دوام تذكّره المستلزم لدوام ذكر أخلاقه وسننه وسيرته فكان غير قبيح من هذا الوجه، أو لأنّ المصيبة به مصيبة عظيمة وهو أعظم فائت فيستحسن الجزع عليه، وأمّا الصبر فإنّه يؤول إلى سلوانه والغفلة عنه فكان غير جميل من هذا الوجه. وقد تعرّض لفضيلة القبح من بعض الاعتبارات ولرذيلة الحسن من وجه، وظاهر أنّ المصاب به أعظم مصاب بأحد من الناس وأنّ كلّ مصاب بأحد من قبله أو بعده فهو سهل هيّن بالنسبة إليه. وقيل: أراد أنّ المصاب به قبله عظيم على المسلمين لحذرهم منه، وبعده كذلك لاختلال أمرهم وأمر الدين بفقده. والأوّل أظهر.

٢٧٧ - وقال عليه السلام: لا تَصْحَبِ الْمَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ.

المائق: الأحمق. ونفّر عنه بضمير صغراه قوله: فإنّه. إلى آخره. وذلك لأنّه لحمقه يعتقد كمال نفسه وحسن أفعاله ووجوب الاقتداء بها فهو يزيّنها يحبّ لمن يصبحه أن يكون مثله فيها، ويدعوه إلى ذلك. وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فلا تجوز صحبته.

وقد سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب.

٢٧٨ - فقال عليه السلام: مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ.

وهو جواب واضح مقنع وغرض الخطابة الإقناع. فأمّا تحقيق ما بينهما باعتبار تعيين مساحة الأرض أو الفلك فأمر يرجع إلى علم الهيئة، ولعلّه عليه السلام إنّما عدل عن الجواب بشيء من ذلك لاستبعاد بعض العوامّ له. ولا نقول: إنّه عليه السلام ما كان يعلم ذلك.

٢٧٩ - وقال عليه السلام: أَصْدِقَاؤُكَ ثَلاثَةٌ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاثَةٌ، فَأَصْدِقَاؤُكَ: صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ. وَأَعْدَاؤُكَ: عَدُوُّكَ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ.

الحكم بأن صديق الصديق وعدوّ العدوّ صديق من القضايا المظنونة لاحتمال كون الصديق غير عالم بأنّ لصديقه صديقاً وكون العدوّ غير عالم بأنّ لعدوّه عدواً فضلاً أن يعاديه أو يصادقه، وكذلك الحكم بأنّ عدوّ الصديق وصديق العدوّ عدوّ للاحتمال المذكور.

٢٨٠ - وقال عليه السلام: لرجل رآه يسعى على عدوّ له، بما فيه إضرار بنفسه: إِنَّمَا أَنْتَ كَالطَّاعِنِ نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ.

ووجه الشبه قصده لأذى غيره بما يستلزم أذى نفسه.

٢٨١ - وقال عليه السلام: مَا أَكْثَرَ الْعِبَرَ وَأَقَلَّ الاعْتِبَارَ!

أراد بالعبر محالّ الاعتبار وهو في معرض التوبيخ للسامعين على ترك الاعتبار.

٢٨٢ - وقال عليه السلام: مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، وَلا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَنْ خَاصَمَ.

نفّر عن طرفي الإفراط والتفريط في المجادلة والمخاصمة بما يلزم رذيلة الإفراط فيها وهو الظلم من الإثم وطرف التفريط فيها من رذيلة الانظلام، وأشار إلى صعوبة الوقوف فيها على حد العدل بقوله: ولا يستطيع. إلى آخره، وهو كالتنفير عن أصل المخاصمة لما أنّها مظنّة الرذائل.

٢٨٣ - وقال عليه السلام: مَا أَهَمَّنِي ذَنْبٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ.

أي لم أحزن من ذنب أمهلني الله بعده إلى أن أصلّي ركعتين وذلك لأنّ الصلاة تكفّر الذنب فإذا أمهل إلى أن يصلّيها لم يحزن بسببه.

٢٨٤ - وسئل عليه السلام: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال عليه السلام: كَمَا يَرْزُقُهُم عَلَى كَثْرَتِهِمْ، فقيل: كيف يحاسبهم ولا يرونه؟ فقال عليه السلام: كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلاَ يَرَوْنَهُ.

شبّه كيفيّة محاسبته تعالى للخلق على كثرتهم بكيفيّة رزقه لهم على كثرتهم وجعل هذا أصلاً في التشبيه لظهوره، وعلم السائل به. وكذلك تشبيه كيفيّة محاسبته لهم مع عدم رؤيتهم له بكيفيّة رزقه لهم من غير رؤية. ووجه الشبه في الموضعين إمكان ذلك منه تعالى لشمول قدرته وعدم حاجته في شيء إلى شيء.

٢٨٥ - وقال عليه السلام: رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ!

استعار للرسول لفظ الترجمان للعقل باعتبار أنّه ينبئ عنه، وأمّا أنّ الكتاب أبلغ من ينطق عن صاحبه فلضبط مراده فيه دون لسان الرسول لأنّه ربّما لم يودّ الرسالة على وجهها سهواً أو لغرض فيقع الخلل بسبب ذلك حتى ربّما كان فيها هلاك المرسل.

٢٨٦ - وقال عليه السلام: مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلاءُ، بِأَحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ الْمُعَافَى الَّذِي لا يَأْمَنُ الْبَلاءَ!

أي أنهما سواء في الحاجة إلى دعاء الله فذاك لحاجته إلى الخلاص من بلائه وهذا لبقاء عافيته وأمنه من لحوق البلاء. وهو حث لأهل العافية على دعاء الله لغرض الالتفات إليه ودوام قصده.

٢٨٧ - وقال عليه السلام: النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلا يُلامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ.

وهو توبيخ للناس على حبّ الدنيا. ولفظ الأبناء مستعار لهم باعتبار تولّدهم منها وميلهم إليها بالطبع.

وقوله: ولا يلام. إلى آخره.

لوم لهم. وهذا كما تقول لمن توبّخه مثلاً على اللؤم: إنّ طبيعتك اللؤم ولا لوم عليك فيما جبلت عليه.

٢٨٨ - وقال عليه السلام: إِنَّ الْمِسْكِينَ رَسُولُ اللهِ، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللهَ، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللهَ.

رغّب في إعطاء المسكين بضمير صغراه ما ذكر، واستعار له لفظ رسول الله باعتبار أنّه طالب لله ويأمر الله. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فيجب إعطاؤه وإرضاؤه.

٢٨٩ - وقال عليه السلام: مَا زَنَى غَيُورٌ قَطُّ.

أي البتّه. وذلك أنّ الغيور الحق إذا همّ بالزنا تخيّل مثل ذلك في نفسه من الغير فيعارض خياله داعيه فيحجم عنه.

٢٩٠ - وقال عليه السلام: كَفَى بِالأَجَلِ حَارِساً!

استعار له لفظ الحارس باعتبار أنّ الإنسان لا يهلك ما دام أجله كالحارس.

٢٩١ - وقال عليه السلام: يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكْلِ، وَلا يَنَامُ عَلَى الْحَرَبِ.

قال الرضي: ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد ولا يصبر على سلب الأموال.

وأقول: الحرب: سلب الأموال. وإنّما كان كذلك وإن كان المال والولد محبوبين للطمع في استخلاص المال بالنهوض له والحرب عنه، دون الثكل.

٢٩٢ - وقال عليه السلام: مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاءِ، وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ.

استعار لفظ القرابة للمودّة المتأكّدة بين الأبناء فهي كالقرابة، وأخبر بها عن مودّة الآباء إخباراً باللازم عن ملزومه. إذ كانت صداقة الآباء والمودّة بينهم يستلزم تأكّدها بين الأبناء وشدّة اتّصالهم. ثمّ أشار إلى تفضيل المودّة على القرابة بكون القرابة أكثر حاجة إلى المودّة في الانتفاع بها بين الخلق والمودّة أكثر استغناء عن القرابة في الانتفاع بها.

٢٩٣ - وقال عليه السلام: اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

المؤمن لا يكاد يخطئ لصفاء نفسه وكمال استعدادها للفكر الصحيح القريب من الحدس والانتقاش بنور الحق كما قال صلى الله عليه وآله: اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله. فيفيض الله سبحانه صورة ذلك الحقّ على لسانه فينطق به.

وقوله: فإنّه. إلى آخره.

صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يتّقى ظنّه. وهو تبينه لمن عساه ينوي شرّاً للرجوع عنه خوف ظنون المؤمنين.

٢٩٤ - وقال عليه السلام: لا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ، حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ.

صدق الإيمان بالشيء يقينه وكماله. ومن كماله حسن الرجاء لله والتوكّل عليه حتى يكون أوثق بما في يد الله منه بما في يده. وذلك لتيقّن وصول رزقه من الله وجزمه بذلك الأقوى من جزمه ووثوقه بما في يده لجواز تلفه وعدم ثباته. وهي مرتبة عالية من مراتب التوكّل.

٢٩٥ - وقال عليه السلام: لأنس بن مالك، وقد كان بعثه إلى طلحة والزبير لمّا جاء إلى البصرة يذكرهما شيئاً مما سمعه من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في معناهما، فلوى عن ذلك، فرجع إليه، فقال: إِنِّي أُنْسِيتُ ذلِكَ الأَمْرَ. فقال عليه السلام إِنْ كُنْتَ

كَاذِباً فَضَرَبَكَ اللهُ بِهَا بَيْضَاءَ لامِعَةً لا تُوَارِيهَا الْعِمَامَةُ.

قال الرضي: يعني البرص، فأصاب أنساً هذا الداء فيما بعد في وجهه فكان لا يرى إلى مبرقعاً.

أقول: ما كان بعثه إليهما ليذكّرهما به هو ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لطلحة والزبير: إنّكما ستقاتلان عليّاً وأنتما له ظالمان. فلمّا بعثه لقي من صرفه ولوي رأيه عن ذلك فرجع. فدعا عليه واستجيبت دعوته. وبيضاء في محلّ الجرّ بدلاً من الضمير في بها.

٢٩٦ - وقال عليه السلام: إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ.

وقد مر معنى إقبالها وإدبارها. وخصّ إقبالها بالنوافل لاتّساعها فيه لها وللفرائض دون الإدبار.

٢٩٧ - وقال عليه السلام: وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ.

فنبأ ما قبلهم أخبار القرون الماضية، وخبر ما بعدهم ذكر أحوال الموت والقيامة والوعد والوعيد، وحكم ما بينهم بيان الأحكام الخمسة المتعلّقة بأفعالهم. وهو في معرض مدح القرآن والحثّ على قراءته وفهمه.

٢٩٨ - وقال عليه السلام: رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، فَإِنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إِلاَّ الشَّرُّ.

فالحجر كناية عن الشرّ. وردّه من حيث جاء كناية عن مقابلة الشرّ بمثله. ورغّب في ذلك بضمير صغراه: قوله: فإنّ الشرّ: إلى آخره، وتقدير الكبرى: وكلّ ما لا يقطع إلاّ بالشرّ فواجب أن يقطع به. وليس هذا أمراً عاماً. لأمره عليه السلام بالحلم في مواضع كثيرة.

٢٩٩ - وقال عليه السلام: لكاتبه عبيد الله بن أبي رافع: أَلِقْ دَوَاتَكَ، وَأَطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ، وَفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ، وَقَرْمِطْ بَيْنَ الْحُرُوفِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الْخَطِّ.

كان أبو رافع مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله. وألقت الدواة ولقتها: أصلحتها بالمداد. وجلفة القلم: سنانه. والقرمطة بين الحروف: تقريب بعضها من بعض. والصباحة: الحسن. وفائدة القيد الأوّل ظاهرة، وفائدة الثاني: أنّ الجلفة الطويلة تقبل مداداً أكثر فيستمرّ القلم في كتابة كلمات كثيرة على نهج واحد من غير تقطيع بين المدّات بخلاف الجلفة القصيرة فإنّ مدادها أقلّ والمقاطع بين مدّاتها أكثر فيكثر التفاوت بين الكلمات في أواخر كلّ مدةّ وأوّل الأخرى بعدها، وفائدة الثالث: ظهور الفصل بين السطور وتمييز بعضها عن بعض، وفائدة الرابع: كون الكلمة حسن الهيئة والحسن لها أقرب قسطاً، ولعلّ بعض هذه القيود أو كلّها شرط في حسن جنس ليس بشرط في حسن بعض أجناس الخطّ المحدثة بعده. ورغّب في ذلك بقوله: فإنّ ذلك: أي فإنّ هذه الشرائط وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان أولى بصباحة الخطّ ففعله أولى.

٣٠٠ - وقال عليه السلام: أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الْفُجَّارِ.

قال الرضي: ومعنى ذلك أن المؤمنين يتبعونني والفجار يتبعون المال كما تتبع النحل يعسوبها، وهو رئيسها.

أقول: استعار لنفسه لفظ اليعسوب، ووجه المشابهة ما ذكره السيّد رحمه الله.

□

٣٠١ - فقال عليه السلام: وقال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه؟

إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ لا فِيهِ، وَلٰكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

أراد أنّا لم نختلف في نبوّته ولم نشكّ في ذلك وإنّما وقع خلافنا عنه: أي بسبب اشتباه بعض ما جاء عنه من كتاب وسنّة على من لا يعلم ذلك منّا، وأما أنتم فقد اختلفتم في أنّ لكم صانعاً أم لا حتى قلتم لنبيّكم: اجعل لنا إلهاً. وذلك يستلزم الشكّ منكم في نبوّة نبيّكم بالأولى.

٣٠٢ - وقيل له عليه السلام: بِأَيِّ شَيْءٍ غَلَبْتَ الأَقْرَانَ؟ فقال عليه السلام: مَا لَقِيتُ رَجُلاً إِلاَّ أَعَانَنِي عَلَى نَفْسِهِ.

قال الرضي: يومئ بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب.

أراد أنّ سابق هيبته، وتخيّل الأقران ما جرت به عادته من الظفر بأمثالهم وقتلهم يوجب لنفوسهم انفعالات وضعفاً عن مقاومته. وذلك ممّا يعينه عليهم.

٣٠٣ - وقال عليه السلام: لابنه محمد بن الحنفية: يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ!

أمره بالاستعاذة من الفقر لما فيه من المكاره الثلاثة: أمّا كونه منقصة للدين فللاشتغال بهمّه وتحصيل قوام البدن عن العبادة، وكونه مدهشة للعقل: أي محلّ دهشة العقل وحيرته وضيق الصدر به ظاهر، وكذلك كونه داعية مقت الخلق لصاحبه. ورغّب في الاستعاذة منه بضمير صغراه، قوله: فإنّ الفقر. إلى آخره، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فيجب الاستعاذة بالله منه.

٣٠٤ - وقال عليه السلام: لسائل سأله عن معضلة: سَلْ تَفَقُّهاً، وَلا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً، فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعالِمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ الْمُتَعَسِّفَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ الْمُتَعَنِّتِ.

المعضلة: المسألة المشكلة. والتعنّت: طلب الأمر الشاقّ على من يطلب منه. والتعسّف: الأخذ على غير الطريق. قد كان عليه السلام فهم من السائل أنّ غرضه الامتحان فأعرض عن جوابه إلى تأديبه وإرشاده إلى ما ينبغي من وضع السؤال وغرضه وهو التفقّه دون التعنّت لحصول الفائدة بالسؤال الأول. وتفقّهاً وتعنّتاً مفعولان له أو مصدران سدّا مسدّ الحال؛ ورغّب في السؤال على وجه التعلّم بضمير صغراه قوله: فإنّ الجاهل المتعلّم شبيه بالعالم، ووجه الشبه اشتراكهما في طلب العلم وقصده. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان شبيهاً بالعالم فينبغي أن يسلك مسلكه. ثمّ نفر عن سلوك غير طريق الحقّ في السؤال والعدول به إلى غير المقصود الأصليّ بضمير ثان صغراه قوله: فإنّ العالم. إلى قوله: بالجهل، ووجه الشبه كون ذلك العالم يضع سؤاله في غير موضعه ويطلب ما لا ينبغي كالجاهل بوضع الأسئلة ومواقعها، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان شبيهاً بالجاهل فينبغي أن يجتنب طريقه ليخلص من هذا الشبه.

٣٠٥ - وقال عليه السلام: لعبد الله بن العباس، وقد أشار عليه في شيء لم يوافق رأيه: لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى، فَإِنْ عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِي.

روي أنّه أشار عليه عند انصرافه من مكّة حاجّاً وقد بايعه الناس، وقال: يا أمير المؤمنين إنّ هذا أمر عظيم يخاف غوائل الناس فيه. فاكتب لطلحة بولاية البصرة وللزبير بولاية الكوفة واكتب إلى معاوية وذكّره القرابة والصلة وأقرّه على ولاية الشام حتى يبايعك فإن بايعك وجرى على سنّتك وطاعة الله فاتركه على حاله وإن خالفك فادعه إلى المدينة وأبدله بغيره، ولا تموج بحار الفتنة. فقال عليه السلام: معاذ الله أن أفسد ديني بدنيا غيري، ولك يا ابن عباس أن تشير، وأرى. وحذف مفعول أرى للعلم به: أي أنظر في وجه المصلحة. وأوجب طاعة نفسه لأنه الإمام ولأنّه أفضل رأياً فإذا رأى المصلحة في شيء فرأيه أرجح.

٣٠٦ - وروي أنه عليه السلام:

لما ورد الكوفة قادماً من صفين مر بالشّباميين، فسمع بكاء النساء على قتلى صفين، وخرج إليه حرب بن شُرَحْبِيل الشّبامي، وكان من وجوه قومه، عليه السلام له: أَتَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ؟ أَلا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هٰذَا الرَّنِينِ، وأقبل حرب يمشي معه، وهو عليه السلام راكب، فقال عليه السلام: ارْجِعْ، فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي، وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ.

شبام بكسر الشين: حيّ من العرب. وقادماً حال، والاستفهام للإنكار دخل على النفي، وقد علمت ما في

الجزع من الرذيلة فلذلك نهى عنه، ولأنّه يجبن الرجل ويثبّطهم عن الحرب وهو في محلّ الحاجة، ونفّره عن المشي معه بضمير صغراه قوله: فإنّ مشى مثلك. إلى آخره، وتقدير الكبرى: وكلّما كان فتنة ومذلّة وجب تركه.

٣٠٧ - وقال عليه السلام: وقد مرّ بقتلى الخوارج يوم النَّهْرَوَان: بُؤساً لَكُمْ، لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ. فقيل له: مَنْ غَرَّهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقال: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ، وَالأَنْفُسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بِالأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ بِالْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمُ الإِظْهَارَ، فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ.

البؤس: الشدّة. ويفهم من تفسيره لمن ضرهم وغرّهم بالشيطان المضلّ والأنفس بالسوء أنّ الشيطان قد يراد به النفس الأمّارة. وإنّ العطف إنّما يقتضي التغاير في العبارة. والأماني التي غرّتهم بها هي أماني الغلبة والقهر، وفسحها لهم في المعاصي ترخيصها لهم وتوسيعها وتزيينها، وكذلك ما وعدتهم به من إظهارها لهم على من غالبهم. وظاهر أنّ ذلك مستلزم لدخول النار. ولفظ الاقتحام مستعار لسرعة إدخالها لهم النار.

٣٠٨ - وقال عليه السلام: اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللهِ فِي الْخَلَوَاتِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ.

أمر بالخشية من معاصي الله ونفّر عنها بضمير صغراه قوله: فإنّ الشاهد هو الحاكم. وتقدير كبراه: وكلّ من كان الشاهد عليه هو حاكمه وجب عليه أن يتّقيه.

٣٠٩ - وقال عليه السلام: لما بلغه قتل محمد بن أبي بكر: إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلاَّ أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً، وَنَقَصْنَا حَبِيباً.

قد بيّنا فيما سلف مكانه منه عليه السلام.

وقوله: فإنّ حزننا عليه على قدر سرورهم به.

أي بفقده. أراد أنّه يناسبه في الشدّة، وأشار إلى الفرق بين اعتبار نقصانه منهم ونقصانه منه وذلك في معرض التألم لفقده.

٣١٠ - وقال عليه السلام: الْعُمْرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً.

أعذر إليه: أتاه بالعذر، وإعذار الله إليه: إمهاله إيّاه المدّة المذكورة التي هي مظنّة تحصيل الزاد ليوم المعاد فإنّ ما بعد الستّين يضعف فيه القوى النفسانيّة والبدنيّة وتكلّ عن العمل فمن قصّر إلى تلك الغاية فقد توجّه اللوم عليه وانقطعت حجّته بالإعذار إليه.

٣١١ - وقال عليه السلام: مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإِثْمُ بِهِ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ.

وهو تنفير عن الظلم والبغي وذلك أنّ الظافر الحقّ هو من قهر خصمه على وجه العدل فمن لا يكون كذلك يلزمه الظالم ويقهره عند الله الإثم فيكون مغلوباً بظلمه وهو في صورة غالب، واستعار وصف الظفر لأسره في ربقة الإثم وإحاطته به.

٣١٢ - وقال عليه السلام: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ: فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ.

أراد بذلك الفرض الزكاة، وظاهر أنّ جوع الفقير إنّما يكون بما يمنعه الغنيّ من القوت أو ما هو وسيلة إليه. ورهّب الأغنياء بقوله: والله سائلهم عن ذلك. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من سائله الله فينبغي أن يحذر سؤاله.

٣١٣ - وقال عليه السلام: الاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعُذْرِ أَعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ.

أراد أنّ ترك ما يحتاج فيه إلى العذر فيستغنى بتركه عن العذر أعزّ عليك وأنفع لك من أن تأتيه ويكون لك فيه عذر صادق، ويحتمل أن يريد بقوله: أعزّ: أي أكثر عزّة لك. إذ الإتيان بالعذر يحتاج إلى ذلّة ومهانة.

٣١٤ - وقال عليه السلام: أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ للهِ أَنْ لا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وذلك أنّ العدل أن تستعينوا بنعمته على طاعته فإن لم تفعل ذلك فلا أقلّ من أن تستعمل في الأمور

المباحة، دون الاستعانة بها على معصيته فإنّ ذلك ممّا يعد لسخطه.

٣١٥ - وقال عليه السلام: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ الأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ الْعَجَزَةِ!

طاعته تعالى غنيمة الأكياس باعتبار استلزامها للنعيم المقيم في الآخرة وسبب الغنيمة غنيمة، والأكياس هم الذين استعملوا فطنهم وحركاتهم في تحصيل ما ينبغي من علم وعمل، وخصّهم الله سبحانه بهذه الغنيمة عند تفريط العجزة وهم المقصّرون عمّا ينبغي لهم. وهو في معرض ذمّهم على التقصير البالغ المشبه للعجز.

٣١٦ - وقال عليه السلام: السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ.

الوزعة: الوازع وهو الرادع المانع: أي أنّ الله وضعه في أرضه ليمنع به ما يريد منعه. وأراد السلطان العادل.

٣١٧ - وقال عليه السلام: في صفة المؤمن: الْمُؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً. يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ. طَوِيلٌ غَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ، مَشْغُولٌ وَقْتُهُ. شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الْخَلِيقَةِ، لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ! نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ.

يشنأ: يبغض. وذكر له في معرض التعريف والمدح ستّة عشر وصفاً:

أحدها: أنّ بشره في وجهه. وذلك من تمام فضيلة التواضع ولين الجانب.

الثاني: وحزنه في قلبه. وذلك من خشية الله ونظره إلى ما عساه فرّط في جنب الله.

الثالث: أوسع صدراً. وقد علمت أنّ سعة الصدر فضيلة للقوّة الغضبيّة، وقد يعبّر عنها برحب الذراع. أراد أنّه مستكمل لهذه الفضيلة.

الرابع: وأذلّ شيء نفساً: أي لتواضعه لله ونظر نفسه إلى محلّها ومقدارها من الحاجة إلى الله. وصدراً ونفساً تمييزان.

الخامس: كراهيّته للرفعة. لأنّها مبدأ الرذائل كالعجب والكبر، وكذلك بغضه للسمعة احتراز من تلك الرذائل.

السادس: طول غمّه. لنظره دائماً إلى ما بين يديه من الموت وما بعده.

السابع: وبحسب ذلك كان بعد همّته وعلوّها عن دنايا الدنيا ونظره إلى المطلوب الأكمل من السعادة الأخرويّة الباقية.

الثامن: كثير صمته. وذلك لكمال عقله فهو لا ينطق إلاّ بما يحتاج إليه ممّا فيه حكمة وصلاح.

التاسع: قد شغل وقته: أي بعبادة ربّه.

العاشر: كونه شكوراً: أي كثير الشكر لله.

الحادي عشر: صبور: أي على بلاء الله.

الثاني عشر: مغمور بفكرته في ملكوت السماوات والأرض واستنباط آيات الله وعبره منها.

الثالث عشر: ضنين بخلّته. لترصّده مواقع الخلّة وأهلها الذين هم إخوان الصدق في الله وهم قليلون فلا يضعها كيف اتّفق ومع كلّ من طلب مودّته وخلّته، ويحتمل أن يريد أنّه إذا خالّ أحداً ضنّ بخلّته أن يضيّعها أو يهمل خليله. وروي بفتح الخاء. والخلّة: الحاجة: أي إذا عرضت له حاجة ضنّ بها أن يسأل أحداً فيها.

الرابع عشر: سهل الخليقة: أي لا جفاوة في طباعه ولا خشونة.

الخامس عشر: ليّن العريكة. وهو كناية عن سهولة تناول ما يراد منه. وأصله الجلد من الأديم يكون ليّناً عند العرك من الدباغ، سهلاً على دابغه.

السادس عشر: نفسه أصلب من الصلد بشجاعته وثباته في طاعة الله، وهو أذلّ من العبد لتواضعه ومعرفته بقدره عند قدرة باريه. والواو للحال.

٣١٨ - وقال عليه السلام: لَوْ رَأَى الْعَبْدُ الأَجَلَ وَمَصِيرَهُ، لأَبْغَضَ الأَمَلَ وَغُرُورَهُ.

استعار لفظ المسير للأجل وهو زمان الحياة باعتبار

تقضّي أجزائه وانتهائه بفنائها كما يقطع السائر أجزاء المسافة وينتهي إلى غايته بفنائها، ويحتمل أن يريد بالأجل غاية الحياة، واستعار لفظ المسير لدنوّها المعقول منه، وأراد أنّه لو كان الأجل بصورة سائر محسوس فشاهد العبدُ سيره به إلى الموت، وعلم غايته لقطع آماله الدنيوية ولم يغترر بها.

٣١٩ - وقال عليه السلام: لِكُلِّ امْرِىءٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ وَالْحَوَادِثُ.

نفّر عن ادّخار المال بذكر الشريكين المكروهين.

٣٢٠ - وقال عليه السلام: الدَّاعِي بِلا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلا وَتَرٍ.

ووجه الشبه عدم إمكان الانتفاع. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله: أحمق الناس من ترك العمل وتمنّى على الله.

٣٢١ - وقال عليه السلام: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ.

أراد بالمطبوع العقل بالملكة وهو الاستعداد بالعلوم الضروريّة للانتقال منها إلى العلوم المكتسبة والمسموعة من العلماء فإنّ من لا يكون له ذلك الاستعداد لا ينتفع بما يسمعه من العلوم ولا يتمكّن من اكتسابه. وقيل: أراد بالمطبوع ما يعلم من الأصول بطبيعة العقل كالتوحيد والعدل، وبالمسموع العلوم الشرعيّة التي هي فرع العقليّة. إذ لا ينتفع بفرع من دون أصله.

٣٢٢ - وقال عليه السلام: صَوَابُ الرَّأْيِ بِالدُّوَلِ: يُقْبِلُ بِإِقْبَالِهَا، وَيَذْهَبُ بِذَهَابِهَا.

أي أنّ الدولة مستلزمة لصواب الرأي. إذ كان من تمام السعادة المقتضبة للدولة أن يلزمها رأي صواب يكون به تدبيرها. وتلك السعادة والدولة معدّة لاختيار أصلح الآراء وقائدة إليه فهو يقبل بإقبالها لإعدادها له وعند ذهابها يذهب الرأي الصواب وإن عدّ في الظاهر صواباً.

٣٢٣ - وقال عليه السلام: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

العفّة: فضيلة القوّة الشهويّة. وظاهر كونها زينة للإنسان وهي مع الفقر أجمل فإنّها تفيد الفقير بهاءً ومحبّة في قلوب الخلق ويكسبه المدح والثناء منهم ويظهر أثرها عليه بسرعة. وإن فقدها الفقير خسر الدنيا والآخرة، وكذلك الشكر من فضائل القوّة الشهويّة أيضاً وقبيح بالغنيّ مقابلة نعم الله بالكفران. فزينة غناه وتمامه إذن شكره له.

٣٢٤ - وقال عليه السلام: يَوْمُ الْعَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ عَلَى الْمَظْلُومِ!

فيوم العدل يوم القيامة، ويوم الجور وقت الظلم. وقد مرّ بيانه.

٣٢٥ - وقال عليه السلام: الأَقَاوِيلُ مَحْفُوظَةٌ، وَالسَّرَائِرُ مَبْلُوَّةٌ، وَ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ: سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَى وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ! مَعَاشِرَ النَّاسِ، اتَّقُوا اللهَ، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لا يَبْلُغُهُ، وَبَانٍ مَا لا يَسْكُنُهُ، وَجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ، أَصَابَهُ حَرَاماً، وَاحْتَمَلَ بِهِ آثَاماً، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ، وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ، آسِفاً لاهِفاً، قَدْ ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

مدخول ومدخل: أي في عقله دخل وعلّة. وتنكؤه: أي تؤثّر فيه. وتستحيله: تغيّره. وباء بثقله: رجع به وحصل عليه. واللاهف: المتحسّر.

والفصل في معرض الوعظ فنبّه السامعين أوّلاً على أنّ أقوالهم محفوظة وسرائرهم مختبرة بما كلّفوا به من طاعة الله. والسرائر ما أضمر في القلوب من العقائد والنيّات وغيرها. وعن معاذ بن جبل قال: سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] ما هذه السرائر التي تبلى يوم القيامة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة

والوضوء والغسل من الجنابة وكلّ مفروض لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفيّة فإن شاء الله قال: صلّيت ولم يصلّ، وإن شاء قال: توضّأت ولم يتوضّأ. واستعار لفظ الرهينة للنفس باعتبار وثوقها في الأسر بما كسبت من الشرّ كما يوثق الرهن بما عليه من مال. واللفظ في القرآن المجيد. وغرض ذلك التنبيه على العدل في القول وإضمار الخير واكتساب الأعمال الصالحة.

ثمّ نبّه على ما فيهم من النقصان الطبيعي المحتاج إلى التكميل المكتسب ووصف سائلهم بأنّ سؤاله خارج عمّا ينبغي لأنّ غرضه به الامتحان دون العلم، ومجيبهم بالتكلّف في جوابه لقلّة علمه، وأفضلهم رأياً بأنّه يكاد أن يردّه عن فضل رأيه ما يعرض له من أمر يرضى به أو يسخط له ويرجع عنه وإن كان يشاهد فيه المصلحة، وأصلبهم عوداً: أي أشدهم في الله وأقواهم في طاعته يؤثّر فيه اللحظة: أي ممّن ينظر إليه نظر الهيبة وتستحيله الكلمة الواحدة منه فتغيّره عن الحقّ. ويجوز أن يريد اللحظة والكلمة ممّن يستهويه للدنيا ولذّاتها. ثمّ أمرهم بتقوى الله ونفّر عن تقبيح الأمل جذباً إلى التقوى بذكر كثرة من يؤمّل ما لا يبلغه ويبني ما لا يسكنه ويجمع ما لا بدّ من تركه مع احتمال أن يكون من باطل جمعه ومن حقّ منعه أهله فأصابه حراء وحمل ثقل وزره وقدم به على ربّه حزيناً متحسّراً على ما فرّط في جنبه قد خسر الدنيا بموته والآخرة بتفريطه في اكتساب خيرها وذلك هو الخسران المبين.

٣٢٦ - وقال عليه السلام: مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ الْمَعَاصِي.

أي من أسباب العصمة، وذلك أنّ الإنسان يتعوّد بتركها حين لا يجدها حتى يصبر ذلك ملكة له وهي المراد بالعصمة.

٣٢٧ - وقال عليه السلام: مَاءُ وَجْهِكَ جَامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤَالِ، فَانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ.

استعار لفظ ماء الوجه للحياء ونوره على الوجه الذي يذهب من وجه السائل بسؤاله، ورشّح بذكر الجمود والتقطير. ويحتمل أن يكون كناية عمّا يعرض من العرق عند خجل السائل بسؤاله واستحيائه. وغرض الكلمة وضع السؤال موضعه من أهل المروّة والبيوتات، وروي: وجهك ماء جامد. فيكون استعارة للماء في الوجه باعتبار بذله فكأنه ذات وقطر كالماء الجامد.

٣٢٨ - وقال عليه السلام: الثَّنَاءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الاسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ.

فالملق: هو التلطّف الشديد بالقول والإفراط في المدح. ونفّر عن طرفي الإفراط والتفريط في الثناء فالإفراط بما يلزمه من رذيلة الملق، والتفريط بما يلزمه من العيّ عن المدح أو الحسد بالفضيلة الممدوح عليها.

٣٢٩ - وقال عليه السلام: أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ.

وذلك أنّ استهانته به يستلزم انهماكه فيه واستكثاره منه وعدم إقلاعه عنه حتى يصير ملكة بخلاف ما يستصعبه من الذنوب.

٣٣٠ - وقال عليه السلام: أربع عشرة كلمة: مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ. وَمَنْ كَابَدَ الأُمُورَ عَطِبَ، وَمَنِ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ. وَمَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ فَأَنْكَرَهَا، ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ، فَذَلِكَ الأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ. وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ. وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلاَّ فِيمَا يَعْنِيهِ.

أحدها: من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره. لأنّه إنّما يذكر عيب الغير غالباً في معرض الافتخار عليه بالبراءة من ذلك العيب فإذا نظر إلى مثله من نفسه شغله اعتبار ذلك النقصان فيها عن الاشتغال بنقصان غيره والنظر فيه.

الثانية: ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته. وذلك أنّ الحزن على ما فات مستلزم لعدم القناعة والرضى بالحاصل من الرزق فعدم ذلك اللازم مستلزم لعدم ملزومه وهو الحزن على الفائت.

الثالثة: ومن سلّ سيف البغي قتل به. وهو كناية عن الظلم، وظاهر أنّ الظلم سبب لهلاك الظالم. وقد سبق بيانه مراراً.

الرابعة: ومن كابد الأمور عطب: أي من قاساها بنفسه استعدّ بها للهلاك.

الخامسة: ومن اقتحم اللجج غرق. استعار لفظ اللجج للأمور العظام كالحروب وتدبير الدول، ولفظ الغرق للهلاك.

السادسة: ومن دخل مداخل السوء اتّهم. لأنّها مظنّة التهمة ودخولها من الأمارات الموجبة للظنّ كمعاشرة الفسّاق ونحوه.

السابعة: ومن كثر كلامه كثر خطؤه. لأنه قد مرّ أن كمال العقل مستلزم لقلة الكلام فيكون كثرة الكلام مستلزماً لنقصان المستلزم لكثرة الخطأ والقول من غير تروّ وتثبّت.

الثامنة: ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه لأنّك علمت أنّ الحياء هو أن يحسّن الارتداع عن الأمور التي يقبح تعاطيها والإقدام عليها لملاحظته ما ينتج من ارتكابها من قبح الأحدوثة. والإقدام على الخطأ بكثرة الكلام ينافي الارتداع عن تلك الأمور وهو من جملتها.

التاسعة: ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه. لأنّ الورع هو لزوم الأعمال الجميلة والوقوف على حدودها دون الرذائل والحياء منها. فقلّة الحياء مستلزم لقلّة الورع. وربّما فسّر الورع بالوقوف عن المحارم، وظاهر أنّ قلّة الحياء أيضاً مظنّة للإقدام على المحارم فكانت مظنّة لقلّة الورع فأقام الشيء مقام مظنّة الشيء وحكم به.

العاشرة: ومن قلّ ورعه مات قلبه: أي لمّا كانت الفضيلة هي حياة القلب استعار لعدمها أو قلّتها فيه لفظ الموت باعتبار عدم انتفاعه بها كخروج الميّت عن الانتفاع بالحياة.

الحادية عشرة: ومن مات قلبه دخل النار. لأنّ المزحزح له عنها إلى الجنّة هو استكماله بالفضيلة فإذا فقدها فالنار موعده، والكلام في صورة قياس مفصول نتيجته أنّ من كثر كلامه دخل النار. وهو تنفير عن كثرة الكلام.

الثانية عشرة: ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثمّ رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه. ووجه الحمق أنّ كونه منكراً لها من غيره يستلزم كون الرأي الحقّ أن لا يفعلها، ورضاه بها لنفسه مخالفة للرأي الحقّ له وخروج عن المصلحة لنفسه وذلك حمق ونقصان ظاهر في العقل. والألف واللام في الحمق يفيد حصره في المشاركة إليه، ولذلك أكّده بعينه.

الثالثة عشرة: ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. لأنّ الغرض من طلب الكثير منه الاستمتاع والالتذاذ به وذكر الموت كاسر لذلك الالتذاذ مبغّض له.

الرابعة عشرة: ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه. وذلك أنّ العلم بذلك يرتّب قياساً هكذا: الكلام عمل، والأعمال مؤاخذ على ما لا يعني منها. فينتج أنّ الكلام مؤاخذ على ما لا يعني منه. وذلك موجب للاقتصار على ما يعني منه.

٣٣١ - وقال عليه السلام: لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلاثُ عَلامَاتٍ: يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ.

فظلمه لمن فوقه عصيان الله وتعدّيه لحدوده العادلة. والثانية مستلزمة للأولى والثالثة مستلزمة للأولين.

٣٣٢ - وقال عليه السلام: عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الْفُرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ الْبَلاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ.

تناهي الشدّة للخلاص منها وهو المراد بالفرج وكذلك تضايق الحلق وهو وقت الفزع الخالص إلى الله والرجاء الحقّ له وذلك معدّ للفرج منه، واستعار لفظ الحلق للأمور الشديدة المحيطة بالإنسان لا يجد عنها محيصاً ملاحظة لشبهها بالحلقة في البطان والحزام.

٣٣٣ - وقال عليه السلام: لبعض أصحابه: لا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغُلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ: فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللهِ، فَمَا هَمُّكَ وَشُغُلُكَ بِأَعْدَاءِ اللهِ؟!

نهى عن كثرة الاشتغال بالأهل والولد لصرف ذلك عن طاعة الله، ونبّه على عدم جوازه بما هو في قوّة قياس شرطيّ منفصل تقديره: أنّ أهلك لا يخلو إمّا أن يكونوا من أولياء الله أو أعدائه وعلى التقديرين لا يجوز الاشتغال بهم أمّا الأولياء فلأنّ الله تعالى يكفيهم مؤونتهم فلا حاجة بهم إلى اهتمام غيره، وأمّا أعداؤه فلا يجوز الاهتمام بحالهم. و - ما - في قوله: فما همّك. استفهام على سبيل التقريع والتوبيخ.

٣٣٤ - وقال عليه السلام: أَكْبَرُ الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ.

وقد مرّ أن ذلك حمق وهو أكبر العيوب.

٣٣٥ - وهنأ بحضرته رجل رجلاً بغلام ولد له فقال له: لِيَهْنِئْكَ الْفَارِسُ فقال عليه السلام: لا تَقُلْ ذٰلِكَ، وَلٰكِنْ قُلْ: شَكَرْتَ الْوَاهِبَ، وَبُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ، وَرُزِقْتَ بِرَّهُ.

وهذا إرشاد منه للتهنئة بالولد فيها أربع فوائد:

أحدها: تذكير الوالد بشكر الله والفاته إليه.

والثانية: استنزال البركة منه بالدعاء فيما وهب له.

والثالثة: الدعاء للموهوب بالبقاء وبلوغ الأشدّ وهو كمال القوّة لغاية الانتفاع به.

الرابعة: الدعاء بثمرته والانتفاع به وهي أن يرزقه برّه ونفعه.

٣٣٦ - وبنى رجل من عماله بناء فخماً فقال عليه السلام: أَطْلَعَتِ الْوَرِقُ رُؤُوسَهَا! إِنَّ الْبِنَاءَ يَصِفُ لَكَ الْغِنَى.

الفخم: العظيم. وكنّى بطلوع الورق لرؤوسها عن ظهور أثرها في البناء ملاحظة لشبهها بالحيوانات في ظهوره، وكذلك استعار لفظ الوصف ونسبه إلى البناء باعتبار أنّه ينبئ عن الغنى كما ينبئ الوصف عن موصوفه.

٣٣٧ - وقيل له عليه السلام: لو سد على رجل باب بيته وترك فيه من أين كان يأتيه رزقه؟ فقال عليه السلام: مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ.

قاس الرزق على الأجل لاشتراكهما في مبدإ واحد وهو قدرة الصانع تعالى. وأشار إلى ذلك بقوله: من حيث.

٣٣٨ - وَعَزَّى قوماً عن ميت مات لهم فقال عليه السلام: إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدَأَ، وَلا إِلَيْكُمُ انْتَهَى، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هٰذَا يُسَافِرُ، فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلاَّ قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ.

فعدّوه: أي افترضوا أنّه كذلك. والتعزية فصيحة العبارة جزيلة المعنى مفيدة للاقناع والسلو.

٣٣٩ - وقال عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، لِيَرَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ! إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ اسْتِدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ اخْتِيَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً.

الاستدراج: الأخذ على غرّة. وأمر بالوجل من نعمة الله حال إفاضتها خوف الاستدراج بها كما يخاف من النقمة وذلك أنّ النعمة بلاء يجب مقابلته بالشكر كما أنّ النقمة بلاء يجب مقابلته بالصبر. والغرض الحثّ على فضيلتي الشكر والصبر. وحذّر من الركون إلى النعم والغفلة عن الله بقوله: إنّه. إلى قوله: أمن مخوفاً، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من أمن مخوفاً فهو مغرور. وكذلك تضييع المأمول، وذلك أنّه يستعدّ باعتقاد أنّه اختبار من الله للصبر عليه ويؤمل منه تعالى الأجر الجزيل في الآخرة وإذا لم يعتقد ذلك بطل استعداده به فيضيّع مأموله منه.

٣٤٠ - وقال عليه السلام: يَا أَسْرَى الرَّغْبَةِ أَقْصِرُوا فَإِنَّ الْمُعَرِّجَ عَلَى الدُّنْيَا لا يَرُوعُهُ مِنْهَا إِلاَّ صَرِيفُ

أَنْيَابِ الْحِدْثَانِ. أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَلَّوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا، وَاعْدِلُوا بِهَا عَنْ ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا.

الضراوة: الجرأة على الصيد والولوع به. والضراية - بالفتح -: لغة. والضراية - بالكسر -: مصدر ضرى به. والثلاث نسخ وردت بها الرواية، واستعار لفظ الأسرى لمن ملكته رغبته في الدنيا وحبّه لها. وأمرهم بالإقصار عن الإفراط في طلبها ونفّر عن التعريج والانعطاف عليها بقوله: فإنّ المعرّج، إلى قوله: والحدثان، واستعار لفظ الصريف والأنياب ملاحظة لشبهه الموت عند قدومه بالبعير الهائج. ثمّ أيّه بالناس وأمرهم أن يتولّوا من أنفسهم تأديبها ورياضتها والوقوف بها على حدّ العدل من الحركات والأفعال وأن يعدلوا بها عن جرأتها وإقدامها على الانهماك في المشتهيات. وقد عرفت معنى الرياضة.

٣٤١ - وقال عليه السلام: لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءاً، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلاً.

أي ما دمت تجد لكلام الغير محملاً وتأويلاً فلا تظنّنّ به سوءاً فإنّ النفوس السليمة أقرب إلى الله من غيرها. والواو للحال.

٣٤٢ - وقال عليه السلام: إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ، فَإِنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ، فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الأُخْرَى.

أمر بتقديم سؤال الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله في طلب الحاجة للاستعداد به، ورغّب فيه بقوله: فإنّ الله سبحانه. إلى آخره: أي أنّ المسألة الأولى مجابة من الله بالاتّفاق فيجب من كرمه إجابة الثانية وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان أكرم من ذلك فينبغي أن يسأل المسألتين ليقضي الحاجة.

٣٤٣ - وقال عليه السلام: مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ الْمِرَاءَ.

وذلك أنّه داعية ثوران القوّة الغضبيّة، من الممارين ومبدأ المشاتمة والمسابّة.

٣٤٤ - وقال عليه السلام: مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ، وَالأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ.

الخرق: الحمق. والمعاجلة: طلب الحاجة والإسراع إليها قبل وقت إمكانها، إفراط في طلبها، والأناة فيها إذا أمكنت تفريط فيه وهما مذمومان وصاحبهما واضع للطلب في غير مواضعه وهو حمق ظاهر ونقصان في عقل وجوه التدبير. والحقّ العدل هو وضع الطلب في وقت الإمكان والفرصة.

٣٤٥ - وقال عليه السلام: لا تَسْأَلْ عَمَّا لا يكونُ، فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغُلٌ.

أمر بالسلو عن ما لا يكون من زيادة رزق ونحوه من المطالب الدنيويّة بما قد كان ووقع من المطالب التي أعطيها الإنسان. ورغّب فيما أمر به من السلو بقوله: ففي الذي. إلى آخره: أي ففي ذلك شغل لك عمّا تتوقّع من غيره، وأراد الشغل بضبط ما في يده من النعمة وما ينبغي من الاشتغال بشكرها واستعمالها في طاعة الله وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يشتغل به عمّا وراءه ولا يطلب الزيادة عليه.

٣٤٦ - وقال عليه السلام: ثلاث كلمات: الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، وَالاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ. وَكَفَى أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ.

إحديها: الفكر مرآة صافية.

واستعار له لفظ المرآة باعتبار أنّه يرى به المعقولات كما يرى الأشباح في المرآة. وقد سبق بيانه.

الثانية: الاعتبار منذر ناصح. استعار لفظ المنذر الناصح للاعتبار وذلك أنّه يذكّر الآخرة ويفيد الانزجار والاتّعاظ عن المناهي كالمنذر الناصح.

الثالثة: وكفى أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك. أشار أنّ تجنّب المرء لما يكره لغيره من الرذائل المهلكة أدب كاف له. ونفّر عنه بكونه مكروهاً للغير ورغّب في تجنّبه بكونه أدباً كافياً للنفس.

٣٤٧ - وقال عليه السلام: الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ: فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ. وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ.

أراد أنّه مقرون به في الوضع الذي ينبغي بمقتضى الحكمة الإلهيّة، وذلك أنه تعالى جعل للنفس العاقلة قوّتين علميّة وعمليّة وجعل كمالها باستكمال هاتين القوتين بالعلم والعمل ولا كمال لها بالعلم دون اقترانه بالعمل.

وقوله: فمن علم عمل.

أي من علم ما ينبغي لزمه في الحكمة أن يعمل بمقتضى العلم وكان ذلك داعياً له إلى العمل مستلزماً لوجوده منه، ويحتمل أن يكون قوله: عمل. خبراً في معنى الأمر: أي فمن علم فليعمل.

وقوله: والعلم يهتف بالعمل. إلى آخره.

فالهتف: النداء وإن لم يرَ المنادي، واستعار لفظه للمعقول من طلب العلم لمقارنة العمل الذي ينبغي له وجذبه الطبيعي له فكأنّه يصيح به ويدعوه إلى مقارنته ليكون منهما كمال الإنسان. ومعنى قوله: فإن أجابه وإلاّ ارتحل. أنّ العلم الذي ينبغي إذا قارنه العمل تأكّد به حتى يصير العلم كأنّه برز إلى عالم الحسّ في صورة الفعل. مثلا إذا علم الإنسان وجود الصانع وما ينبغي من طاعته ثمّ قرن ذلك بعبادته استلزمت تلك العبادة منه دوام ملاحظته تعالى وإخطار ذكره بالبال حتى لا يصير منسيّاً له في وقت. فأمّا إذا ترك العمل لله فلا بدّ أن يشتغل بغيره عن ذكره وينقطع ملاحظته له حتى يكون ذلك سبباً لنسيانه والغفلة عنه. واستعار لفظ الارتحال لزوال العلم باعتبار عدم استعداد تلك وصلاحيّتها، كالراحل عن وطن لا يصلح لاستيطانه. وقيل: أراد بالارتحال عدم المنفعة مجازاً إطلاقاً لاسم ذي الغاية على غايته. إذ كانت الغاية من الارتحال عدم المنفعة بالمرتحل.

٣٤٨ - وقال عليه السلام: يا أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ! قُلْعَتُهَا أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا، وَبُلْغَتُهَا أَزْكَى مِنْ ثَرْوَتِهَا. حُكِمَ عَلَى مُكْثِرٍ مِنْهَا بِالْفَاقَةِ، وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ. مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهاً، وَمَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَاناً، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وَغَمٌّ يَحْزُنُهُ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ، مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ، هَيِّناً عَلَى اللهِ فَنَاؤُهُ، وَعَلَى الإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ. وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ، وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الاضْطِرَارِ، وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالإِبْغَاضِ، إِنْ قِيلَ أَثْرَى قِيلَ أَكْدَى! وَإِنْ فُرِحَ لَهُ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ لَهُ بِالْفَنَاءِ! هٰذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴿يَوْمٌ فِيهِ يُبْلِسُونَ﴾.

أقول: القلعة: الرحلة. والحظوة: المنفعة. وراقه: أعجبه. والكمه: العمى خلقة. والأشجان: العوارض المهمّة. والرقص: الغليان والاضطراب. والأبهران عرقان متعلّقان بالقلب. وأكدى: قلّ خيره. والإبلاس: اليأس من الرحمة.

وفي الفصل فائدتان:

الفائدة الأولى: نفّر عن الدنيا بأمور:

أحدها: أنّ حطامها موبئ: أي مهلك، واستعار لفظ الحطام لمتاعها باعتبار سرعة زواله وقلّة الانتفاع به كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٢٤] الآية. وكونه موبئاً استلزام اقتنائه والاعتناء بجمعه للهلاك في الآخرة ولذلك أمر بتجنّب مرعاه: أي رعيه أو محلّ رعيه وهو الدنيا.

الثاني: قلعتها وعدم القرار بها أنفع من الطمأنينة إليها لما يستلزمه من الشقاوة في الآخرة بمحبّتها والسكون إليها.

الثالث: أنّ الاقتصار على البلغة في العيش فيها أزكى من الثروة بها لما تستلزمه من الثروة بها من الشقاء الأخرويّ. فالاقتصار على القدر الضروريّ منها أطهر وأسلم من غوائلها.

الرابع: حكم بالفاقة على مكثرها. أمّا فيها فلأنّ كلّ زيادة منها موجبة للحاجة إلى أخرى فلذلك كان أكثر

الناس حاجة فيها الملوك ثمّ من دونهم على اختلاف درجاتهم فيها، وأمّا في الآخرة فلفقر المكثر فيها المشتغل بها من ملكات الخير والفضائل.

الخامس: أنّ من غنى عنها بزهده فيها أعين من الله بالراحة منها.

السادس: أنّ من أعجبته زينتها فانصب إليها عمي عمّا فيها من العبر عمّا وراءها من أحوال الآخرة، واستعار لفظ الكمه للمعقول من عمى البصيرة عن الاعتبار لأنّ ذلك أشدّ من العمى كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

السابع: أنّ من اتّخذ محبّتها شعاراً ملأت قلبه هموماً وغموماً وأحزاناً على ما لم يحصل منها بطلبه، وعلى ما فات منها بالأسف عليه. واستعار لفظ الرقص لتعاقب تلك الأحزان والهموم، واضطرابها في قلبه إلى غاية الأخذ بكظمه، وكنّى به عن الموت، وبإلقائه بالفضاء عن دفنه. ومنقطعاً وهيّناً حالان.

والفائدة الثانية: أنّه أرشد إلى صفات المؤمن في صحبة الدنيا:

إحديها: أنّه إنّما ينظر إليها بعين الاعتبار ليحصل منها عبرة، وذلك هو الذي خلق لأجله.

الثانية: ويقتات منها ببطن الاضطرار. وكنّى به عن كونه لا يتناول منها إلاّ بلغته ومقدار ضرورته.

الثالثة: ويسمع فيها بأذن المقت والإبغاض. وكنّى به عن بغضه لها فهو لا يسمع ما تمدح به؛ بل معايبها.

وقوله: إن قيل أثرى. إلى قوله: الفناء. أراد أنّ الإنسان فيها منغّص اللذّة مكدّر العيشة بينا هو مثر إذ لحقه الإكداء والفقر، وفرح ببقاء حبيب إذ لحقه الحزن عليه. وهذا الكلام لاحق بالفائدة الأولى في وصف حال الإنسان في الدنيا ومن تمامه، ووصف المؤمن هنا اعتراض.

وقوله هذا ولم يأتهم: أي هذا البلاء ولم يأتِ الناس يوم القيامة الذي لشدّة هوله ييأسون فيه من الرحمة.

٣٤٩ - وقال عليه السلام: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِيَاشَةً لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ.

الذودة: الدفع والمنع. وأشار إلى غايتي الحكمة الإلهيّة من وضع الثواب والعقاب وهما ردّ عباد الله عن نقمته وجمعهم إلى جنّته.

٣٥٠ - وقال عليه السلام: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلاَّ رَسْمُهُ، وَمِنَ الإِسْلامِ إِلاَّ اسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ، خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، سُكَّانُهَا وَعُمَّارُهَا شَرُّ أَهْلِ الأَرْضِ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا. يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ، وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ.

رسم القرآن: أثره، وهو تلاوته. ولا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه: أي دون العمل. وسكّان المساجد وعمّارها: القرّاء السوء وأئمّة الضلال الذين وصفهم عليه السلام في صدر الكتاب بقوله: إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان. إلى آخره وبقوله في فصل آخر ذامّاً لاختلاف الناس في الفتيا: ترد على أحدهم القضيّة. إلى آخره. وظاهر أنّ أولئك وأمثالهم شرّ أهل الأرض لكونهم مبدأ الفتنة في الدين وإليهم ترجع خطايا الخلق. إذ بهم يقتدون وعنهم يأخذون. ومن كان كذلك فقد استعدّ للفتنة التي يحار فيها الحليم رزين العقل، وروي: الحكيم. وإذا سأل عليه السلام من الله تعالى إقالة عثرة الغفلة فيجب الاقتداء به في ذلك السؤال. اللّهم أقلنا من عثرة الغفلة.

٣٥١ - وروي أنه عليه السلام: قلّما اعتدل به المنبر إلا قال أمام الخطبة: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ فَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُوَ، وَلا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُوَ! وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ، وَمَا الْمَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا

بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كَالآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ.

أقول: السدى: المهمل. والسهمة النصيب. ولمّا كان تقوى الله والتزوّد بها إليه وهو المطلوب من خلق الإنسان لا جرم صدّر عليه السلام بالأمر بها عامّة خطبه، ونبّه على ذلك المطلوب وأنّ الغاية هو الآخرة منه، وأنّه ليست الدنيا وإن تحسّنت له بخلف من غايته وإن قبّحها سوء نظره لها ومعرفته بها، على أنّه لا مناسبة بين من ظفر من الدنيا بأعلى مطالبه منها وبين من ظفر من الآخرة بأدنى نصيب لشرف متاع الآخرة فكيف من يظفر منها بأعلى قسط. ونفّر طالب الدنيا والمدّعي للظفر بها بكونه مغروراً. والفصل ظاهر.

٣٥٢ - وقال عليه السلام عشر كلمات: لا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الإِسْلامِ، وَلا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى، وَلا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ، وَلا مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ. وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ. وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ، وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ، وَالشَّرُّ جَامِعُ مَسَاوِىءِ الْعُيُوبِ.

إحديها: لا شرف أعلى من الإسلام لاستلزامه شرف الدنيا والآخرة.

الثانية: ولا عزّ أعزّ من التقوى لأن التقوى تستلزم جميع مكارم الأخلاق الجامعة لعزّ الدنيا والآخرة فكان عزّها أكبر عزّاً من غيرها.

الثالثة: ولا معقل أحصن من الورع. واستعار له لفظ المعقل باعتبار تحصّن الإنسان به من عذاب الله، ولمّا كان عبارة عن لزوم الأعمال الجميلة فلا معقل أحصن منه.

الرابعة: ولا شفيع أنجح من التوبة. وذلك لاستلزامها العفو عن جريمة التائب قطعاً دون سائر الشفعاء بشفاعتهم. ولفظ الشفيع مستعار لها.

الخامسة: ولا كنز أغنى من القناعة. وذلك لكونها فضيلة مستلزمة لسكون نفس الإنسان، ورضاه بما قسم له، وغناه عمّا وراءه. ولا شيء من سائر الكنوز لأبناء الدنيا كذلك. ولفظ الكنز مستعار لها.

السادسة: ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت. وهو قريب ممّا قبله.

السابعة: ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة: أي في سلك الراحة من الهمّ بطلب الدنيا ومجاذبة أهلها وتبوّأ خفض الدعة: أي اتّخذ لين السكون مباءة ومرجعاً.

الثامنة: والرغبة مفتاح النصب ومطيّة التعب. استعار للرغبة في الدنيا لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الراغب، وكذلك لفظ المطيّة باعتبار استلزامها له كالمطيّة المتعب ركوبها.

التاسعة: والحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحّم في الذنوب. التقحّم: الدخول بسرعة فالحرص على الدنيا داع إلى الظلم والكذب والفجور والجبن والبخل ونحوها من الرذائل، والكبر داع إلى قلّة الإنصاف وعدم التواضع والعجب والتهوّر وعدم الاحتمال ونحوها، والحسد داع إلى الظلم والكذب والفساد في الأرض وغيرها من الآثام.

العاشرة: والشرّ جامع لمساوئ العيوب الشرّ كلّي كالجنس لمساوئ العيوب ومقابحها. إذ كلّ منها يصدق عليه أنّه شرّ مخصوص وهو المعنيّ بكون الشرّ جامعاً لها.

٣٥٣ - وقال عليه السلام: لجابر بن عبد الله الأنصاري: يَا جَابِرُ، قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ للهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا

عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ.

الدنيا إنّما تقوم بالمال، ثمّ بالعلم لوضعه في مواضعه ومعرفة وجوه اكتسابه التي ينبغي أو لا ينبغي من حلال وحرام وهو علم الفقه وأصوله وتفسير كتاب الله وسنّة رسوله اللذين منهما تعلم الأحكام، ثمّ ما يلزم ذلك من علم العربيّة ونحوه. ولمّا كان العلم لا بدّ له من حال والمال لا بدّ له من قان وجب أن يكون من شرط الأوّل أن يعمل بعلمه، ومن شرط الثاني أن يستعمل ماله في مصارفه التي ينبغي وإلاّ لم يكن لهما فائدة ولا قامت بهما أحوال الخلق التي هي الدنيا، ولمّا كان الموت ضرورياً للعلماء وغيرهم ووجب قيام الدنيا وبقاء نظامها أن يدوم العلم في قرن من الناس بعد قرن وجب أن يكون هناك جهّال لا يستنكفون عن تعلّمه ولمّا كانت حاجة البعض إلى البعض في قوام الدنيا ضرورية ولم تجرِ في نظامها أن يستغني كلّ عن كلّ لأسباب معلومة وغير معلومة وجب أن يكون هناك من لا مال له ليحصل الانتفاع به فيما هو بصدده ومرشّح له من الأعمال الضرورية بالجود عليه فإذن قوام الدنيا لا يحصل بدون الأربعة. وإنما شرط في الفقير أن لا يبيع آخرته بدنياه لأن بايع آخرته بدنياه ظالم خارج عن العدل فلا تقوم به الدنيا ولا يصلح لعمارتها.

ثمّ لمّا بيّن ما به قوام الدنيا أشار إلى ما يلزم ضدّ ذلك من الفساد تنفيراً عنه بقوله: فإذا ضيّع. إلى قوله: بدنياه فلأنّ تضييع العلم يستلزم عدم الانتفاع به واستنكاف الجاهل عن تعلّمه لسوء اعتقاده في العلم وأهله لما يراه من تضييعهم له وعدم عملهم على وفقه فيبقى على الجهل بمنفعته، وبخل الغني بمعروفه مستلزم لعدم المنفعة بالمال ويلزم من ذلك شدّة حاجة الفقير وبيع آخرته بدنياه فيلزمه الفساد المنافي لمصلحة المعاش والمعاد. ثمّ أشار إلى ما يلزم كثرة نعمة الله على العبد من كثرة حوائج الخلق إليه ليوضح له وجوب الشكر عليها والقيام بما يجب لله فيها من الإحسان إلى المحتاجين إليه. ورغّب في ذلك بما يلزمه من تعريض العبد بذلك نعمة الله عنده للدوام والمزيد. ونفّر عن تضييع ذلك بما يلزمه من تعريضها لزوالها.

٣٥٤ - وروى ابن جرير الطبري في تاريخه عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه - وكان ممن خرج لقتال الحجاج مع ابن الأشعث - انه قال فيما كان يحض به الناس على الجهاد: إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول يوم لقينا أهل الشام: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ وَمُنْكَراً يُدْعَى إِلَيْهِ، فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِىءَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى، فَذٰلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينُ.

لمّا كان إنكار المكر واجباً على كلّ مكلّف بحسب تمكّنه وكان لتمكّنه من ذلك طرف أدنى وهو الإنكار بالقلب لإمكانه من كلّ أحد، وطرف أعلى وهو الإنكار باليد وهو الغاية، ووسط وهو الإنكار باللسان كانت درجاته في استحقاق الأجر به مترتّبة على درجات إنكاره. وإنّما خصّص المنكر بقلبه بالسلامة والبراءة: أي من عذاب الله لأنّه لم يحمل إثماً وإنّما لم يذكر له أجراً وإن كان كلّ واجب عليه لأنّ غاية إنكار المنكر دفعه والإنكار بالقلب ليس له في الظاهر تأثير في دفع المنكر فكأنّه لم يفعل ما يستحقّ به أجراً وإنّما قال: لتكون كلمة الله هي العليا. لأنّه إن لم يكن ذلك مقصود المنكر بل كان مقصوده مثلاً الرياء أو الغلبة الدنيويّة لا يكون قد أصاب سبيل الهدى، واستعار لفظ التنوير لوضوح الحقّ في قلبه وجلائه من شبه الباطل.

٣٥٥ - ومن كلام آخر له يجري هذا المجرى

فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَذٰلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ. وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ، فَذٰلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً. وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ،

وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَذٰلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلاثِ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ. وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ، فَذٰلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ. وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، عِنْدَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، إِلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ. وَإِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ.

أقول: إنّه عليه السلام جرى في هذه القسمة على الوجه الطبيعي المعتاد، وذلك أنّ العادة جارية بأن ينكر الإنسان أوّلاً بقلبه، ثمّ بلسانه، ثمّ بيده إذا تمكّن وقد يرد القسمة على غير هذا الوجه فيكون الناس على أقسام ستّة وهي المنكر بقلبه فقط أو بلسانه فقط أو بيده فقط أو بقلبه ولسانه أو بقلبه ويده أو بلسانه ويده.

واعلم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلازمان لأنّ المعروف والمنكر قد يكونان نقيضين أو في قوّتهما فيكون النهي عن المنكر مستلزماً للأمر بالمعروف والأمر بالمعروف مستلزماً للنهي عن المنكر. واستجماعهما لخصال الخير ظاهر لأنّ كلّ خصلة منه معروف فالأمر بالمعروف مطلقاً أمر بها وترك كلّ واحدة من خصال الخير منكر فإنكاره يستلزم الأمر بها. ولمّا كانت هذه الأنواع الثلاثة من إنكار المنكر فضائل تحت فضيلة العدل وجب عدادها من خصال الخير، ولمّا كانت مستلزمة لسائر الفضائل كما أشرنا إليه وجب أن يكون المنكر للمنكر مطلقاً مستكملاً لجميع خصال الخير وأن يكون التارك له بيده تاركاً لخصلة ومتمسكاً بخصلتين، والتارك بيده ولسانه مضيّعاً لأشرف الخصلتين من الثلاث وإنما كانتا أشرف لكونهما يستلزمان دفع المنكر أو بضعه غالباً بخلاف الثالثة، ووجب أن يستحقّ تارك الثلاث اسم الميّت في حياته لخلوّه عن جميع الفضائل. ولفظ الميّت استعارة.

وقوله: وما أعمال البرّ. إلى قوله: لجّيّ. تعظيم لهاتين الفضيلتين، وشبّه أعمال البرّ كلّها بالنسبة إليهما النفثة في البحر اللجيّ، ووجه الشبه أنّ كلّ خصلة من أعمال البرّ جزئيّ بالنسبة إليهما كالنفثة بالنسبة إلى البحر وعموم الخير منهما [فيهما - خ -].

وقوله: فإنّ الأمر. إلى قوله: رزق.

صغرى ضمير رغّب به فيهما، وتقدير الكبرى: وكلّما لا يقرّب من أجل ولا ينقص من رزق فلا ينبغي أن يحذر منه. ثمّ أشار إلى أفضل أصنافهما وهو كلمة العدل عند الإمام الجائر لغرض ردّه عن جوره.

٣٥٦ - وعن أبي جحيفة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: أَوَّلُ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً، وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلاهُ.

الجهاد باليد واللسان والقلب وهو إنكار المنكر بها. وإنّما كان باليد أوّل مغلوب عليه لأن الغرض الأول للعدوّ إزالة سلطان اليد ومقاومته فإذا تمكّن من ذلك كان زوال سلطان اللسان سهلاً.

فإن قلت: لم قال: ثمّ بقلوبكم. ومعلوم أنّ القلب لا يطّلع عليه العدوّ ولا يتمكّن من إزالة الجهاد به؟.

قلت: أراد أنّهم إذا غلبوا على الجهاد باليد واللسان وطالت المدّة عليهم ألفوا المنكر وتكرّر على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فلم يبق إنكاره وهو معنى غلبهم عليه.

وقوله: فمن لم يعرف بقلبه إلى آخره.

نفّر عن ترك الخصلتين بما يلزمه من قلب أعلى التارك أسفله، واستعار لفظ القلب للانتكاس في مهاوي الرذائل ودركات الجحيم. وإنّما خصّص إنكار القلب بذلك لإمكانه في كلّ وقت وخلوّه عن المضارّ المخوّفة التي يخشى في الإنكار باليد واللسان.

٣٥٧ - وقال عليه السلام: إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ.

استعار للحقّ وصف الثقل باعتبار صعوبته على من يكون عليه فيؤخذ منه، ولفظ المريء باعتبار استلزامه

للراحة في الآخرة. وللباطل وصف الخفّة باعتبار سهولته على أهله، ولفظ الوبيء باعتبار استلزامه لإهلاكهم في الآخرة.

٣٥٨ - وقال عليه السلام: لا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هٰذِهِ الأُمَّةِ عَذَابَ اللهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وَلا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هٰذِهِ الأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ اللهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

أدّب السامع بهذين الأدبين محتجّاً بعموم الآيتين، ولفظ المكر المستعار لإمهال الله، ثمّ أخذه مهو في صورة المكر والخداع. والمراد ظاهر.

٣٥٩ - وقال عليه السلام: الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِيءِ الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ.

البخل: رذيلة التفريط من فضيلة السخاء وهي مستلزمة للجهل لأنّ البخيل غير عالم بوضع المال موضعه، وللفجور لعبوره في شهوته ومحبّته للدنيا إلى طرف الإفراط فيها، وللجبن لأنّ من بخل بماله فهو بنفسه أبخل، وللانظلام والظلم لقصوره عن فضيلة العدل في ماله، ثمّ للحرص والحسد والشره ودناءة الهمّة والكذب والغدر والخيانة وقطع الرحم وعدم المواساة. وكلّ طرف تفريط لفضيلة من الفضائل فإنّه من توابع البخل ولواحقه وهي مساوئ العيوب التي أخبر عن استجماعه لها، وأنّه زمام إلى كلّ منها. واستعار له لفظ الزمام باعتبار أنّه يدعو إلى هذه المساوئ ويقود إليها كالزمام.

٣٦٠ - وقال عليه السلام: الرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. فَلا تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ! كَفَاكَ كُلَّ يَوْمٍ مَا فِيهِ، فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالْهَمِّ لِمَا لَيْسَ لَكَ، وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ، وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ، وَلَنْ يُبْطِىءَ عَنْكَ مَا قُدِّرَ لَكَ.

قال الرضي: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم من هذا الباب، إلا أنه هاهنا أوضح وأشرح، فلذلك كررناه على القاعدة المقررة في أول الكتاب.

وأقول: قد مضى أكثر هذا الكلام. وغرضه التنفير عن الاهتمام بالدنيا والاشتغال بما يرجى منها عن ذكر الله وطاعته. ونهاه أن يحمل همّ السنة على همّ اليوم لئلاّ تجتمع عليه أحزان متضاعفة يكفى واحدة منها شغلاً. واحتجّ لذلك بضميرين صغرى الأوّل: قوله: فإن يكن السنة وتقديرها إنّ سنتك التي تهتمّ لها إمّا أن يكون من عمرك أو ليس، وتقدير الكبرى: وكلّما كان على هذين التقديرين فلا ينبغي الاهتمام به أمّا على التقدير الأول فإنّ الله يؤتيك في كلّ يوم منها ما قسم لك لا محالة وما لا بدّ منه لا يجوز الاهتمام به، وأمّا على التقدير الثاني فلأنّه ليس من العقل أن يهتمّ المرء بما ليس له. وصغرى الثاني: قوله: ولن يسبقك إلى قوله: قدّر لك. وتقديرها أنّ رزقك لن يسبقك إليه طالب، وتقدير الكبرى وكلّما كان كذلك فلا ينبغي أن يهتمّ به.

٣٦١ - وقال عليه السلام: رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ، وَمَغْبُوطٍ فِي أَوَّلِ لَيْلِهِ، قَامَتْ بَوَاكِيهِ فِي آخِرِهِ.

وغرض الكلمة التنبيه من رقدة الغفلة عن الموت لغاية العمل ولما بعده والمعنى ظاهر.

٣٦٢ - وقال عليه السلام: الْكَلامُ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ، فَاخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً.

الوثاق: الحبل، وأمر بخزن اللسان عمّا لا ينبغي من القول وفي غير موضعه وشبّه خزنه بخزن الذهب، ووجه الشبه شدّة الخزن. ونفّر عن قول ما لا ينبغي بضميرين صغرى أحدهما: الكلام. إلى قوله: وثاقه، وتقدير الكبرى: وكلّ كلام كان كذلك فلا ينبغي أن يتكلّم منه إلاّ بما ينبغي، ولفظ الوثاق مستعار، وصغرى الثاني: قوله: فربّ كلمة سلبت نعمة: وتقدير الكبرى:

وكلّ كلمة كذلك فيجب الاحتراز منها بقلّة القول والتثبّت فيه.

٣٦٣ - وقال عليه السلام: **لا تَقُلْ مَا لا تَعْلَمُ، بَلْ لا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.**

نهى عن قول ما لا يعلم لأنّه كذب أو محتمل للكذب ولأنّه قول بالجهل فيجب الاحتراز فيه، وأمّا النهي عن قول كلّ ما يعلم فلجواز أن يكون فيه مضرّة لنفسه أو لغيره كإذاعة سرّ يستلزم أذاه أو أذى من أسرّه إليه، ونفّر عن ذلك بقوله: فإنّ لله. إلى آخره، وهو صغرى ضمير. والفرائض التي افترضها الله على كلّ جارحة هو ما أوجبه على اللسان مثلاً من قول ما ينبغي في موضعه وكذلك ما يتعلّق بالعين من النظر الذي ينبغي ونحو ذلك في سائر الجوارح. وتقدير الكبرى: وكلّ من فرض الله على جوارحه فرائض كذلك يحتجّ بها عليه يوم القيامة في تركها والعمل بها فيجب عليه المحافظة عليها.

٣٦٤ - وقال عليه السلام: **احْذَرْ أَنْ يَرَاكَ اللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ، فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ.**

حذّر من الأمرين بما يلزمه من دخوله في زمرة الخاسرين لثواب الله يوم القيامة. ثم أمر بالقوّة على طاعة الله ليتمّ الاستعداد بها لرحمته وبالضعف عن معصيته ليضعف الاستعداد بها عن قبول سخط الله ونقمته.

٣٦٥ - وقال عليه السلام ثلاث كلمات: **الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا - مَعَ مَا تُعَايِنُ مِنْهَا - جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ الْعَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاخْتِبَارِ لَهُ عَجْزٌ.**

إحديها: الركون إلى الدنيا مع ما تعاين منها جهل: أي بما ينبغي أن يركن إليه ممّا لا ينبغي.

الثانية: والتقصير في حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن: أي مستلزم للغبن وهو ترك ما يوفّق به من الثواب الكثير في مقابله العمل اليسير له، وفيه إيماء إلى أنّ مبدأ التقصير في حسن العمل عدم الوثوق بالثواب الموعود في الآخرة.

الثالثة: والطمأنينة إلى كلّ أحد قبل الاختبار عجز: أي عن البحث عمّن ينبغي السكون إليه وعن وضعه موضعه. ونفّر عن الركون إلى الدنيا بما يلزمه من الجهل، وعن التقصير في حسن العمل بما يلزمه من الغبن، ومن الطمأنينة إلى كلّ أحد بما يلزمها من العجز.

٣٦٦ - وقال عليه السلام: **مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللهِ أَنَّهُ لا يُعْصَى إِلاَّ فِيهَا، وَلا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِتَرْكِهَا.**

نفّر عن الدنيا بذكر هوانها على الله من الوجهين المذكورين.

٣٦٧ - وقال عليه السلام: **مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نَالَهُ أَوْ بَعْضَهُ.**

كقولهم: من طلب شيئاً وجدّ وجد، ومن قرع باباً ولجّ ولج. وظاهر أنّ الطلب معدّ لحصول المطلوب فإنْ تمّ الاستعداد له نال الكلّ وإلاّ فبقدر نقصان الاستعداد يكون نقصان المطلوب.

٣٦٨ - وقال عليه السلام: **مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ.**

نفى عمّا يقود إلى النار وإن عدّ في الدنيا خيراً ولذّة استحقاق اسم الخير تحقيراً له وتنفيراً عنه بما يلزمه من غايته التي هي النهاية في الشرّ وهي النار، وكذلك نفى عمّا يقود إلى الجنّة من الطاعات الشاقّة وإن عدّ في الدنيا شرّاً وألماً استحقاق اسم الشرّ ترغيباً فيه بما يلزمه من غايته التي هي دخول الجنّة. والتقدير: ما خير بعده النار بخير، وما شرّ بعده الجنّة بشرّ.

وقوله: وكلّ نعيم دون الجنّة محقور.

تفسير للأوّل.

وقوله: وكلّ بلاء دون النار عافية.

تفسير للثاني. وأراد عافية نسبيّة.

٣٦٩ - وقال عليه السلام: أَلا وَإِنَّ مِنَ الْبَلاءِ الْفَاقَةَ، وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ، أَلا وَإِنَّ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ.

أشار إلى درجات البلاء وتفاوتها بالشدّة والضعف وإلى ما يقابلها من درجات النعمة وتفاوتها كذلك. وإنّما كان مرض القلب بالرذائل أشدّ من مرض البدن لاستلزامه في الآخرة فوات أكمل السعادات وهو الموت الذي لا حياة معه وبحسب ذلك كان تقوى القلب واستكماله بالفضائل أفضل من صحّة البدن لاستلزامه السعادة الباقية والحياة الأبديّة.

٣٧٠ وقال عليه السلام: لِلْمُؤْمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ. وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلاَّ فِي ثَلاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

أقول: رمّ المعاش: إصلاحه. والشاخص: الذاهب من بلد إلى بلد. وقسّم زمان المؤمن العاقل إلى ثلاثة أقسام بحسب ما ينبغي بمقتضى الحكمة العمليّة والرأي الحقّ. فقسم يتوفّر فيه على عبادة الله ومناجاته وهذا القسم هو المطلوب الأوّل، وقسم يصلح فيه ما لا بدّ منه في تحصيل القسم الأوّل من معاشه، وقسم يخلّي فيه بين نفسه ولذّاتها المباحة التي يجمل ويحسن دون المحرّمة والمباحة المستهجنة. وهذان القسمان مرادان للأوّل إذ لا يمكن بدونهما.

وقوله: وليس للعاقل. إلى آخره.

أي ليس له بحسب مقتضى العقل العمليّ أن يستعمل نفسه إلاّ في الأمور الثلاثة.

٣٧١ - وقال عليه السلام: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوْرَاتِهَا، وَلا تَغْفَلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ!

لمّا كانت محبّة الدنيا مستلزم لاستتار عيوبها عن إدراك محبّيها كما قيل: حبّك الشيء يعمي ويصمّ. كان بغضها والزهد فيها رافعاً لذلك الستر كاشفاً لما تحته من عيوبها وعوراتها فأمر بالزهد فيها لهذه الغاية المنفّرة عنها. ثمّ نفّر عن الغفلة فيها عمّا وراءها بضمير صغراه قوله: فلست بمغفول عنك، وتقدير الكبرى: وكلّ من ليس بمغفول فلا ينبغي أن يغفل عمّا يراد به.

٣٧٢ - وقال عليه السلام: تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

وقد مرّ تفسير هذه الكلمة؛ لكنّه جعلها هنا صغرى ضمير رغّب به في الكلام عند الحاجة لغاية أن يعرفها المتكلّم، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان مخبوءاً تحت لسانه فينبغي أن يظهر نفسه في كلامه ليعرف.

٣٧٣ - وقال عليه السلام: خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.

أمر بالقناعة أوّلاً بما تيسّر من الدنيا لمن تمكّن منها وقوى عليها، وبالإجمال في الطلب لمن لم يتمكّن منها. والإجمال في طلب الدنيا طلبها برفق من الوجه الذي ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي.

٣٧٤ - وقال عليه السلام: رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ.

أي قد يبلغ الإنسان بالقول ما لا يبلغه بالشدّة والصولة فيكون القول أنفذ في غرضه. ويصلح مثلاً يضرب للرفق واللين الذي يبلغ به ما لا يبلغ بالعنف. وروي عوض أنفذ أشدّ. والمعنى: ربّ قول يقوله الإنسان فيكون ضرره عليه أشدّ من صولة عدوّه، أو ربّ قول يسمعه من غيره كقذف أو هجر يكون أشدّ عليه من صولة العدوّ. والمعنيان منقولان عن ابن آدم الهروي.

٣٧٥ وقال عليه السلام: كُلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كَافٍ.

إنّه لا يقتصر الإنسان إلاّ على مقدار يمكنه دفع الضرورة والحاجة به وذلك كاف ومغنٍ للقانع عمّا سواه. وفيه إيماء إلى الأمر بالاقتصار على اليسير من الدنيا.

٣٧٦ - وقال عليه السلام كلمات أربعا: الْمَنِيَّةُ وَلا الدَّنِيَّةُ! وَالتَّقَلُّلُ وَلا التَّوَسُّلُ. وَمَنْ لَمْ يُعْطَ قَاعِداً لَمْ

يُعطَ قَائِماً، وَالدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ!

إحديها: المنيّة ولا الدنيّة. فالمنيّة مبتدأ دلّ على خبره بقوله: ولا الدنيّة. أي أسهل من الدنيّة، ويحتمل أن يكون التقدير يحتمل المنيّة ولا يحتمل الدنيّة وهي الخسيسة من الأمر ترتكب في طلب الدنيا. وكثير من الكرام يختارون الموت على ذلك.

الثانية: والتقلّل ولا التوسّل: أي القناعة بالقليل من العيش والتبلّغ به خير من التوسّل إلى أهل الدنيا في طلبها.

الثالثة: ومن لم يعط قاعداً لم يعط قائماً. كنّى بالقعود عن الطلب السهل وبالقيام عن الطلب الصعب بتعسّف: أي من لم يرزق بالطلب السهل لم ينفعه التشديد في الطلب. وهذا الحكم أكثريّ كما هو حكم الخطيب حثّ به على الإجمال في الطلب.

الرابعة: والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر. فاليوم الذي هو زمان الضيق والبلاء يجب فيه الصبر للاستعداد به لقبول رحمة الله تعالى كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية.

٣٧٧ - وقال عليه السلام: مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ.

الغايلة: الحقد، وذلك أنّ مباعدة الناس في أخلاقهم تستلزم منافرتهم وعداوتهم وأحقادهم. فالعدول عنها إلى المقاربة والمشاكلة لأخلاقهم يستلزم الأمن من ذلك منهم.

٣٧٨ - وقال عليه السلام: لبعض مخاطبيه، وقد تكلم بكلمة يستصغر عن مثله: لَقَدْ طِرْتَ شَكِيراً، وَهَدَرْتَ سَقْباً.

فالشكير: هو الفرخ قبل النهوض. واستعار له لفظ الشكير والسقب باعتبار صغر قدره عمّا تكلّم به في حضرته، ووصف الطيران والهدير له باعتبار نهوضه إلى ذلك الكلام الذي هو فرق محلّه وليس أهلاً له كما أنّ الطيران ليس من شأن الشكير، ولا الهدير من شأن السقب.

٣٧٩ - وقال عليه السلام: مَنْ أَوْمَأَ إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الْحِيَلُ.

المتفاوت: كالأمور المتضادة أو التي يتعذّر الجمع منها في العرف والعادة. واستعار وصف الخذلان للحيل باعتبار أنّها لا تؤاتيه ولا يمكنه الجمع بين ما يرومه من تلك الأمور.

٣٨٠ - وقال عليه السلام: وقد سئل عن معنى قولهم: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِالله»: إِنَّا لا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئاً، وَلا نَمْلِكُ إِلاَّ مَا مَلَّكَنَا، فَمَتَى مَلَّكَنَا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنَا، وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا.

برهان قوله: إنّا لا نملك مع الله شيئاً. قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١] الآية، وظاهر أنّ التكليف تابع لما ملّكنا إيّاه من الجوارح والقوى والعقل وسائر متعلّقات التكليم وعند أخذه لشيء منها يضع التكليف المتعلّق به عنّا. وسئل الصادق عليه السلام عن هذه الكلمة فقال: لا حول على ترك المعاصي ولا قوّة على فعل الطاعات إلاّ بالله.

٣٨١ - وقال عليه السلام: لعمار بن ياسر، وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاماً: دَعْهُ يَا عَمَّارُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلاَّ مَا قَارَبَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَعَلَى عَمْدٍ لَبَسَ عَلَى نَفْسِهِ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِهِ.

أراد أنّه لا يعمل من الدين إلاّ بما يستلزم دنيا ويقرب به منها كعدل أو صدق يستلزم منفعة دنيويّة دون ما ليس كذلك. وهو صغرى ضمير نفّر به عن مخاطبته، تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يعرض عن مراجعته ومكالمته.

٣٨٢ - وقال عليه السلام: مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الأَغْنِيَاءِ

لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللهِ! وَأَحْسَنَ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الأَغْنِيَاءِ اتِّكَالاً عَلَى اللهِ.

تيه الفقراء على الأغنياء أصعب عليهم وأشقّ من تواضع الأغنياء لهم. إذ كان تيههم يستدعي كمال التوكّل على الله وهو درجة عالية في الطريق إليه فلذلك كان أفضل وأحسن لقوله عليه السلام: أفضل الأعمال أحمزها.

٣٨٣ - وقال عليه السلام: مَا اسْتَوْدَعَ اللهُ امْرَأً عَقْلاً إِلاَّ اسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْماً مَا!

إمّا من بلاء الدنيا بالحيلة، أو من بلاء الآخرة بالطاعة.

٣٨٤ - وقال عليه السلام: مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ.

استعار لفظ المصارعة للمقاومة، وذلك أنّ الله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله والصالحين من عباده أعوان الحقّ ولا مقاوم لهم.

٣٨٥ - وقال عليه السلام: الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَرِ.

أراد بالقلب النفس أو الذهن، واستعار له لفظ المصحف أنّ كلّ تصوّر في الذهن أريد التعبير عنه فلا بدّ أن يتصوّر حروف العبارة عنه في لوح الخيال والحسّ البصريّ يشاهدها من هناك ويقرؤها. فالقلب إذن كالمصحف الذي يشاهد فيه الحروف والألفاظ ويقرأ منه بالبصر فلذلك أضافه إلى البصر.

٣٨٦ - وقال عليه السلام: التُّقَى رَئِيسُ الأَخْلاقِ.

استعار لفظ الرئيس للتقوى باعتبار أفضليّته لرضوان الله وحصول السعادة الباقية ولا شيء من الأخلاق بانفراده يستلزم ذلك.

٣٨٧ - وقال عليه السلام: لا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ، وَبَلاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ.

ذرب اللسان: حدّته. وهو أدب يجري مجرى المثل يضرب لمن يحصّل من إنسان علماً وفائدة فيستعين بها عليه. كأن يتفاصح على من علّمه الفصاحة.

٣٨٨ - وقال عليه السلام: كَفَاكَ أَدَباً لِنَفْسِكَ اجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ.

وأراد بما يكرهه من غيره الرذائل فإنّها مكروهة إلى كلّ أحد من غيره ومن نفسه أيضاً إذا عقل أنّه رذيلة ولذلك إذا عبّر بها أنف منها؛ إلاّ أنّ بعض الرذائل قد يخفى على من هي فيه فلا يتصور قبحها من نفسه أو أنه قد يتصوّر ذلك لكن يحمله عليها حامل آخر من شهوة أو غضب. ولمّا كان اجتناب الرذائل يستلزم الوقوف على فضيلة العدل في كلّ شيء لا جرم كان اجتنابها أدباً كافياً لمن يجتنبها.

٣٨٩ - وقال عليه السلام: مَنْ صَبَرَ صَبْرَ الأَحْرَارِ، وَإِلاَّ سَلا سُلُوَّ الأَغْمَارِ.

وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال للأشعث بن قيس معزياً:

والأغمار: الجهّال جمع غمر. وجذب إلى فضيلة الصبر في المصائب بإضافته إلى الأحرار والأكارم، وبما يلزم عدمه من الغاية وهي السلوّ المشبه لسلوّ الغافلين أو البهائم، وأصل إلاّ - إن لا - أي وإن لا تصبر.

٣٩٠ - وقال عليه السلام في صفة الدنيا:

نفر عنها بثلاثة ضمائر: **تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لأَوْلِيَائِهِ، وَلا عِقَاباً لأَعْدَائِهِ، وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ بَيْنَا هُمْ حَلُّوا إِذْ صَاحَ بِهِمْ سَائِقُهُمْ فَارْتَحَلُوا.**

أحدها: الدنيا تضرّ: أي بمحنتها، وتغرّ: أي بزينتها. وتمرّ: أي بفراقها. إذ من طبيعتها ذلك. واستعار لها وصف الإمرار باعتبار ما يستلزمه فراقها من ألم الجزع والحزن كالمرارة. وروي: وتمرّ - بفتح التاء - أي تذهب.

الثاني قوله: إنّ الله. إلى قوله: لأعدائه. إذ لو رضيها كذلك لأعطاها أولياءه وحرمها أعداءه.

الثالث: قوله: وإنّ أهل الدنيا. إلى آخره فقوله: بيناهم. إلى آخره. في تقدير صفة لركب: أي كركب من شأنه كذا، ووجه الشبه بالركب الذي شأنه ذلك سرعة ارتحالهم إلى الآخرة كسرعة ارتحال الركب، وتقدير الكبرى في الضميرين الأوّلين: وكلّما كان كذلك فينبغي

أن يجتنب ولا يحرص على طلبه، وتقديرها في الثالث: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يستعدّ فيه للرحيل والسفر.

٣٩١ - وقال لابنه الحسن عليه السلام: لا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّكَ تُخَلِّفُهُ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، فَكُنْتَ عوناً لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَلَيْسَ أَحَدُ هٰذَيْنِ حَقِيقاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ.

أدّبه عليه السلام بالنهي عن ادّخار المال، ونفره عن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّك. إلى آخره.

وقوله: بما شقيت به.

أي شقاء الدنيا بجمعه، وشقاء الآخرة بادّخار لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣٤] الآية، وتقدير الكبرى وكل من يخلّف مالاً لأحد هذين وليس أحدهما حقيقاً يؤثره على نفسه فلا يجوز أن يخلّفه.

قال الرضي: ويروى هذا الكلام على وجه آخر وهو: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدِكَ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى أَهْلٍ بَعْدَكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطَاعَةِ اللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، أَوْ رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَشَقِيتَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، وَلَيْسَ أَحَدُ هٰذَيْنِ أَهْلاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَلا أَنْ تَحْمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ، فَارْجُ لِمَنْ مَضَى رَحْمَةَ اللهِ، وَلِمَنْ بَقِيَ رِزْقَ اللهِ.

أقول: في هذه الرواية تنفير عن الدنيا بضميرين: أحدهما: قوله: فإنّ الذي في يدك. إلى قوله: بعدك، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فليس لك أن تحبّه وتعتمد عليه. الثاني: قوله: وإنّما أنت. إلى قوله: ظهرك، وكبراه ما مرّ في الرواية الأولى واستعار لفظ الحمل لاكتساب آثام جمع المال، ورشّح بذكر الظهر. ثمّ أرشده إلى ما هو خير من المال لمن مضى وهو رجاء رحمة الله، ولمن بقي وهو رجاء رزق الله الموعود لكلّ حيّ.

٣٩٢ - وقال عليه السلام: لقائل قال بحضرته «أَسْتَغْفِرُ اللهَ»: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الاسْتِغْفَارُ؟ الاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً، وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ. وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأَحْزَانِ، حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ».

أقول: ظاهر كلامه عليه السلام يقتضي أنّ اسم الاستغفار الحقّ الذي له درجة العليّين ويستحقّها صاحبها به واقع على مجموع المعاني الستّة التي أشار إليها وذكرها ليتعرّف حقيقته منها. ويكون إرادة هذا المعنى من لفظ الاستغفار بعرف جديد شرعيّ إذ مفهومه اللغويّ أنّه طلب المغفرة؛ إلاّ أنّه لمّا كان طلبها مشروطاً بحصول المعاني المذكورة أطلق لفظ المشروط على الشرط واستعمله فيه، ويحتمل أن لا يكون غرضه تفسير مهيّة الاستغفار بل الإشارة إلى شرائطه التي لا ينبغي إيقاعه من دونها وهي المعاني الستّة ويكون معنى قوله: أتدري ما الاستغفار: أي الاستغفار التامّ بشرائطه وأعرض عن مهيّته للعلم بها، وأشار إلى تمامه من الشرائط وقصد بالإشارة إلى صدق لفظه على شرائطه تأكيد أنه لا يتم بدونها حتى كان مجموعها نفس حقيقة الاستغفار، واستعار لفظ الأملس لنقاء الصحيفة من الآثام.

٣٩٣ - وقال عليه السلام: الْحِلْمُ عَشِيرَةٌ.

استعار لفظ العشيرة للحلم باعتبار أنّه يحمي صاحبه ممّن ينافره ويعاديه كما تحميه عشيرته.

٣٩٤ - وقال عليه السلام: مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ: مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ.

ذكر كونه مسكيناً وبيّن ذلك بضمير عدّد فيه وجوه المسكنة والضعف صغراه قوله: مكتوم الأجل. إلى آخره. وهي ظاهرة، وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فهو مسكين. ومسكين خبر المبتدأ قدّم عليه لأنّ ذكره أهمّ، وحذف تنوينه تخفيفاً. وغرض الكلام كسر النفوس من سورة الكبر والعجب والفخر وأمثالها عن الرذائل.

٣٩٥ - وروي أنه عليه السلام: كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: إِنَّ أَبْصَارَ هٰذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذٰلِكَ سَبَبُ هَبَابِهَا، فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلَامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَامْرَأَتِهِ. فقال رجل من الخوارج: «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: رُوَيْداً إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ!

الرمق: النظر. وطموح البصر: ارتفاعه. والهبيب والهباب: صوت التيس عند هياجه وطلبه للشاة. واستعار الفحول لهم، ولفظ الهباب لطلبهم للنكاح. وأرشدهم إلى الخلاص من فتنة النظر بملامسة الأهل. ورغّب في ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّما هي امرأة كامرأة: أي فإنّما أهل الرجل امرأة تشبه المرأة المرئية، وتقدير الكبرى: وكلّ من يشبهها ففيه عوض منها. وإنّما أطلق الخارجي لفظ الكافر عليه لأنه عليه السلام عند الخوارج مخطئ وكل خطيئة عندهم كفر. وقوله: إنما هو سبّ مقتضى فضيلة العدل.

٣٩٦ - وقال عليه السلام: كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ ما أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ.

أمر بفعل الخير ونهى عن احتقار شيء منه وإن قلّ، ورغّب فيه بضمير صغراه قوله: فإنّ صغيره كبير وقليله كثير: أي في الاعتبار وبالنسبة إلى من يحتاج إليه. ثمّ نهى أن يقول أحد: إنّ غيره أولى بفعل الخير منه. وهو كناية عن ترك المرء الخير اعتماداً على أنّ غيره بفعله أولى.

وقوله: فيكون والله كذلك. لأنّ ذلك القول من القائل التارك للخير يكون باعثاً لمن توسّم فيه فعل ذلك الخير ونسبه إليه. فيصدّق قوله وظنّه فيه بفعله له فيكون أولى به منه.

وقوله: إنّ للخير والشر أهلا. إلى آخره.

ترغيب في الخير وتنفير عن الشرّ بذكر أنّ لكلّ منهما أهلاً يكتفى فيه إن تركه من ليس أهله فيكون السامعون من أهل الخير يفعله ويترك الشرّ لأهله.

٣٩٨ - وقال عليه السلام: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَحْسَنَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

فصلاح باطن الإنسان وسرّه بالأخلاق الفاضلة معدّ لإضافة الله عليه صلاح أقواله وأفعاله الظاهرة لأنّها كالثمرات للباطن، وكذلك عمل الإنسان لدينه وإقامته لحدود الله معدّ لصلاح حاله في معاشه ومهيّئ لعواطف الخلق عليه لاشتغاله بالله عن مجاذبتهم للدنيا. وفي معناه الكلمة الثالثة فإنّ إخلاص العبودية لله وإصلاح معاملته قاطع عن محبّة الدنيا والحرص عليها الذي هو سبب الفساد بين الناس فكان معدّاً لرفع الفساد ودفعه.

٣٩٩ - وقال عليه السلام: الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ.

استعار لفظ الغطاء للحلم باعتبار أنّه يستر سورة الغضب وقبيح ما يصدر عنه من الأفعال بسببها، ورشّح بذكر الساتر، وكذلك استعار لفظ الحسام للعقل باعتبار رفعه لبوادر النفس الأمّارة وإفراطها، ورشّح بذكر القاطع ولذلك أمر بمقاتلة هواه به.

٤٠٠ - وقال عليه السلام: إِنَّ للهِ عِبَاداً يَخْتَصُّهُمُ اللهُ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ.

أي من عباد الله من يكون مقصوداً بالعناية الإلهيّة بإفاضة النعمة عليه وإقرارها في يديه لوصول النفع إلى الغير. ويكون ذلك شرطاً فيها فإذا لم يوجد ذلك

ارتفعت تلك النعمة بارتفاع شرطها إلى غيرهم. وغرض الكلمة الحثّ على النفع المتعدّي لتجويز كلّ عاقل أنعم الله عليه أن تكون نعمته كذلك.

٤٠١ - وقال عليه السلام: **لا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ والْغِنَى، بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافَىً إِذْ سَقِمَ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيّاً إِذِ افْتَقَرَ.**

نهى عن الوثوق بالخصلتين المذكورتين لكونهما مع ما يقابلهما من السقم والفقر أموراً غير مقدورة للعبد ولا معلومة الأسباب وهي في معرض التعاقب فالوثوق بما كان كذلك جهل فلا ينبغي أن يثق بالخصلتين المذكورتين.

٤٠٢ - وقال عليه السلام: **مَنْ شَكَا الْحَاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّمَا شَكَاهَا إِلَى اللهِ، وَمَنْ شَكَاهَا إِلَى كَافِرٍ، فَكَأَنَّمَا شَكَا اللَّهَ.**

شكاية المؤمن إلى المؤمن شكاية في موضعها. إذ كانت ثمرة الشكاية المعاونة على دفع الأمر المشكوّ منه. والمؤمن شأنه ذلك؛ بخلاف الشكاية إلى الكافر. ورغّب في الأوّل بتشبيهها بالشكاية إلى الله، ووجه الشبه أنّ المؤمن كالصديق لله فإذا شكى المؤمن إليه أمراً من الله فكأنّه جعله وسيلة إلى الله في شكواه فأشبه الشكوى إليه. ونفّر عن الثانية بتشبيهها بشكوى الله، ووجه الشبه أنّ الكافر عدوّ الله فمن شكى إليه أمراً فكأنّما شكى من الله إلى عدوّه.

٤٠٣ - وقال عليه السلام في بعض الأعياد: **إِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللهُ صِيَامَهُ وَشَكَرَ قِيَامَهُ، وَكُلُّ يَوْمٍ لا يُعْصَى اللهُ فِيهِ فَهُوَ عِيدٌ.**

غرض الكلمة الجذب إلى عبادة الله وطاعته، وكسر النفوس عن الفرح بما ليس لله فيه نصيب سواء كان زماناً أو مكاناً أو غيرهما. ولمّا كان العيد عبارة عن يوم تسرّ فيه الناس وتفرح فيه فكلّ يوم لا يعصى الله فيه فهو أولى بالفرح والسرور فيه وأن يسمّى عيداً في عرف أولياء الله والطالبين لما عنده.

٤٠٤ - وقال عليه السلام: **إِنَّ أَعْظَمَ الْحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ، فَوَرِثَهُ رَجُلٌ فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَدَخَلَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَدَخَلَ الأَوَّلُ بِهِ النَّارَ.**

غرض الكلمة الجذب عن الكسب الحرام، وادّخار المال والتنفير عنه بما ذكر.

وقوله: أعظم الحسرات.

لا يقتضي أن يكون كلّ ما هو أعظمها. وإنّما كان ذلك حسرة عظيمة لعدم منفعته بالمال في الدنيا، وعذابه في الآخرة، ومشاهدته لانتفاع الغير به هناك.

٤٠٥ - وقال عليه السلام: **إِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً، وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً، رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ الْمَقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ.**

استعار وصف الأخسر صفقة لمن ذكر باعتبار استعاضته للدنيا عن الآخرة ومع عدم موافقة القدر له في حصول آماله الدنيويّة. وظاهر أنّه أخسر من اتّجر. وتبعته ما يلحقه من عقوبات الآلام المكتسبة له من سعيه.

٤٠٦ - وقال عليه السلام: **الرِّزْقُ رِزْقَانِ: طَالِبٌ، وَمَطْلُوبٌ. فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ الْمَوْتُ، حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا، وَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ رِزْقَهُ مِنْهَا.**

استعار للرزق وصف الطالب باعتبار أنّه لا بدّ من وصوله فهو كالطالب لصاحبه. ونفّر عن طلب الدنيا بما يلزمها من الغاية المقدّرة وهي الموت فكأنه طالب للمرء لغاية إخراجه من الدنيا بسبب طلبه لها، ورغّب في طلب الآخرة بما يلزمه من طلب الدنيا وأهله لمن انقطع عنها حتى يصل إليه رزقه منها وهو محمود. وقد بيّنا فيما سلف وجه إقبال الناس على من ينقطع عنهم.

٤٠٧ - وقال عليه السلام: **إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاشْتَغَلُوا بِآجِلِهَا إِذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا**

مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ، وَرَأَوْا اسْتِكْثَارَ غَيْرِهِمْ مِنْهَا اسْتِقْلالاً، وَدَرَكَهُمْ لَهَا فَوْتاً، أَعْدَاءُ مَا سَالَمَ النَّاسُ، وَسِلْمُ مَا عَادَى النَّاسُ! بِهِمْ عُلِمَ الْكِتَابُ وَبِهِ عُلِمُوا، وَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابِ وَبِهِ قَامُوا، لا يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ مَا يَرْجُونَ، وَلا مَخُوفاً فَوْقَ مَا يَخَافُونَ.

أقول: ميّز أولياء الله بصفات تسع:

إحداها: أنهم نظروا إلى باطن الدنيا: أي حقيقتها، وغرض الحكمة الإلهية من وجودها فعملوا فيها على حسب علمهم إذا نظر الناس إلى ظاهرها من زينتها وقيناتها.

الثانية: واشتغلوا بآجلها وهو ما جعله الله نصب أعينهم غرضاً مقصوداً منها ثمرة للاستعداد بها وهو ثواب الله ورضوانه إذا اشتغل الناس بعاجلها وحاضر لذّاتها.

الثالثة: فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم. وهو نفوسهم الأمّارة بالسوء التي يخشى من غلبتها واستيلائها على العقل موته وهلاكه في الآخرة، ويحتمل أن يريد بما أماتوه منها قيناتها استعارة. فكأنّهم لمّا رفضوها ولم يلتفتوا إليها قد أماتوا ولم يبق لها حياة عندهم.

الرابعة: وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم. وهو زينتها وقيناتها التاركة لهم بالموت عنها. و - من - في الموضعين لبيان الجنس.

الخامسة: ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً - ودركها لها فوتاً: أي استقلالاً من الخير الباقي وفوتاً له إذ كان دركها والاستكثار بها سبباً لذلك.

السادسة: أعداء ما سالم الناس وهي الدنيا، وسلم ما عادى الناس وهي الآخرة.

السابعة: بهم علم الكتاب. لحفظهم إيّاه وتفقّههم له وإفادتهم به، وبه علموا لاشتهارهم به عند الناس.

الثامنة: وبهم قام الكتاب: أي صارت أحكامه قائمة في الخلق معمولاً بها، وبه قاموا: أي بأوامره ونواهيه وبما ينبغي له. ويحتمل أن يريد أنّ قيامهم في معاشهم ومعادهم ببركته.

التاسعة: لا يرون مرجوّاً فوق ما يرجون من ثواب الله، ولا يخافون مخوفاً فوق ما يخافون من عذاب الله والحجب عنه. وذلك لعلمهم بالمرجوّ والمخوف هناك.

٤٠٨ - وقال عليه السلام: اذْكُرُوا انْقِطَاعَ اللَّذَّاتِ، وَبَقَاءَ التَّبِعَاتِ.

والغرض التنفير عن الدنيا.

٤٠٩ - وقال عليه السلام: اخْبُرْ تَقْلِهْ.

قال الرضي: ومن الناس من يروي هذا للرسول صلى الله عليه وآله ومما يقوّي أنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي، قال المأمون: لولا أن علياً قال: «أخبر تقله» لقلت: أَقْلِهْ تَخْبُرْ. قلاه يقليه قِلىً.

بالكسر - وقلاءً - بالفتح - أبغضه. والهاء مزيدة للسكت وهو أمر في معنى الخبر يجري مجرى المثل، والمعنى من خبرت باطنه قليته. والحكم أكثري لكثرة ما عليه الناس من حيث السريرة ورذائل الأخلاق. وما نقل عن المأمون من العكس يريد به أنّ إظهار البغض للشخص يكشف عنه باطنه لأنّه إمّا أن يقابل بمثل ذلك أو يترك فيعرف خيره من شرّه. ونقل مثله عن أبي بكر الإصفهاني قال: لولا أنّ الاعتراض على السلف من الجهالة والسرف لقلت: القلى ثمّ الخبر؛ حتى لا يكون الإنسان مضيّعاً وقته، واضعاً في غير موضعه مقته.

٤١٠ - وقال عليه السلام: مَا كَانَ اللهُ لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الزِّيَادَةِ، وَلا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الإِجَابَةِ، وَلا لِيَفْتَحَ لِعَبْدٍ بَابَ التَّوْبَةِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابِ الْمَغْفِرَةِ.

أشار إلى استلزام أمور ثلاثة وهي الشكر للمزيد والدعاء للإجابة والتوبة للمغفرة. فمن فتح الله له باب إحدى هذه الملزومات فأعدّه له وألهمه إيّاه وجب في جوده أن يفتح له باب لازمه ويفيضه عليه. إذ لا بخل في وجوده ولا منع في سلطانه. ووصف فتح الباب مستعار لتيسير الله تعالى العبد لذلك وإعداده له.

٤١١ - وسئل عليه السلام: أيهما أفضل: العدل، أو

الجود؟ فقال عليه السلام: **الْعَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا.**

أشار إلى أفضليّة العدل بضميرين صغرى الأول: قوله: العدل إلى قوله: جهتها. يريد أنّ طليعة الجود يقتضي من صاحبها إخراج كلّ ما يملكه عن مواضعه ومواضع حاجته التي هي أولى به بمقتضى العدل. الثاني: قوله: والعدل. إلى قوله: خاص. واستعار له لفظ السائس باعتبار أنّ به نظام العالم والجود عارض خاصّ بمن يصل إليه من بعض الناس. وتقدير الكبرى فيهما: وكلّ أمرين كانا كذلك فالعدل أشرفهما وأفضلهما.

وقوله: فالعدل. إلى آخره هو النتيجة.

٤١٢ - وقال عليه السلام: **النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.**

وقد مرّ بيانه.

٤١٣ - وقال عليه السلام: **الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ: قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي، وَلَمْ يَفْرَحْ بِالآتِي، فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ.**

الأمران المذكوران في الآية غايتان من الزهد والإعراض عن الدنيا في قوة خاصّة مركّبة تلزم الزهد، ونبّه عليها لتعريفه بها، وكنّى بقوله: فقد أخذ الزهد بطرفيه. عن استكمال حقيقة الزهد وكمالاتها حينئذ وظاهر أنّ وجود الخاصّة المذكورة مستلزم للإعراض عن الدنيا وطيّباتها بالقلب وهو الزهد الحقيقيّ.

٤١٤ - وقال عليه السلام: **الْوِلايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ.**

أراد بالمضامير مظانّ معرفة جودة الفرس وهي الأمكنة التي يقرن فيها الخيل للسباق، واستعار لفظها للولايات باعتبار أنّها مظانّ ظهور جودة الوالي من خسّته ورداءته كما أنّ المضامير للخيل كذلك.

٤١٥ - وقال عليه السلام: **مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ!**

أقول: - ما - هاهنا للتعجّب. وهذه الكلمة تجري مجرى المثل يضرب لمن يعزم على أمر فيغفل عنه أو يتهاون فيه ويتراخى عن فعله حتى ينتقض عزمه عنه. وأصله أنّ الإنسان قد ينوي السفر مثلاً أو الحركة بقطعة من الليل ليتوفّر في نهاره على سيره فغلبه النوم إلى الصباح فيفوت وقت عزمه فينتقض ما كان عزم عليه في يومه.

٤١٦ - وقال عليه السلام: **لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلادِ مَا حَمَلَكَ.**

أقول: ما حملك: أي ما وجدت فيه قيام حالك وصلاح معاشك فأمكنك الإقامة به. واستعار الحمل له باعتبار حمل مؤونته ملاحظة لشبهه بالجمل ونحوه. وإلى ذلك أو قريب منه أشار أبو الطيّب: وفي بلاد اختها بدل. وكذلك عليّ بن مقرب البحراني في قوله:

لي عن بلاد الأذى والهون متّسع
ما بين حرّ وبين الدار من نسب

٤١٧ - وقال عليه السلام: وقد جاءه نعي الأشتر رحمه الله: **مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ! لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً، وَلَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً، لا يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ، وَلا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ.**

وقد جاءه نعي الأشتر رحمه الله: قال الرضي: والفند: المنفرد من الجبال.

ومالك مبتدأ أو فاعل: أي مات مالك. وما استفهاميّة في معرض التعجّب من مالك - رحمه الله - وقوّته في الدين.

٤١٨ - وقال عليه السلام: **قَلِيلٌ مَدُومٌ عَلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.**

وذلك من الأمور التي ينبغي أن يفعل. وإنّما كان كذلك لأنّ الدوام على القليل منها يفيد النفس ملكة الطاعة والخير وصيرورتهما خلقاً بخلاف الكثير المملول منه. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله: إنّ هذا الدين متين

فأوغل فيه برفق فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. وقد مرّ هذا الكلام بعينه.

٤١٩ - وقال عليه السلام: إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا.

والرائقة: المعجبة: أي إذا كان في الإنسان خلق فاضل فإنّ طبعه مظنّة أن يكون فيه جملة من الأخلاق الفاضلة المناسبة لذلك الخلق ويتوقّع وينتظر منه. كمن يكون من شأنه الصدق فإنّه ينتظر الوفاء وحسن الصحبة وبالعكس، وكمن يكون من شأنه العفّة فإنّه يتوقّع منه الكرم والمسامحة والبذل والصداقة والمحبّة ونحوها، وكمن يكون شجاعاً فإنّه يتوقّع منه عظمة الأئمّة والحلم والثبات، وكذلك من كان فيه ضدّ ذلك من الرذائل.

٤٢٠ - وقال عليه السلام: لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق، في كلام دار بينهما: مَا فَعَلَتْ إِبِلُكَ الْكَثِيرَةُ؟ قَالَ: ذَعْذَعَتْهَا الْحُقُوقُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فقال عليه السلام: ذٰلِكَ أَحْمَدُ سُبُلِهَا.

الكلام الذي دار بينهما أنّ غالباً دخل على علي عليه السلام وهو شيخ كبير معه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ فقال له عليه السلام: من الشيخ؟ فقال: أنا غالب بن صعصعة. قال ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: ما فعلت إبلك؟ قال ذعذعتها الحقوق وأذهبتها الحالات والنوائب. فقال: ذاك أحمد سبلها. فقال: من هذا الغلام؟ فقال: هذا ابني همام روّيته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعراً ميداً. قال: أقرئهُ القرآن فهو خير. فكان الفرزدق يروي هذا الحديث ويقول: ما زالت كلمته في نفسي حتى قيّد نفسه بقيد وآلى أن لا يفكه حتى يحفظ القرآن فما فكه حتى حفظه. وذعذعتها - بالذال المعجمة مكررة -: فرّقتها.

٤٢١ - وقال عليه السلام: مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا.

ارتطم في الوحل ونحوه: وقع فيه فلم يمكنه الخلاص. وهو وصف مستعار لغير الفقيه باعتبار أنّه لا يتمكن من الخلاص من الربا وذلك لكثرة اشتباه مسائل الربا بمسائل البيع حتى لا يفرق بينهما إلاّ أكابر الفقهاء مع وقوع الخلاف الشديد بينهم فيها كبيع لحم البقر بالغنم متفاضلاً فجوّزه أبو حنيفة قائلاً إنّهما جنسان مختلفان ومنع منه الشافعي. إلى غيرها من المسائل.

٤٢٢ - وقال عليه السلام: مَنْ عَظَّمَ صِغَارَ الْمَصَائِبِ ابْتَلاهُ اللهُ بِكِبَارِهَا.

وإنّما لزمه ذلك لاستعداده بتضجّره وتسخّطه من قضاء الله لزيادة البلاء ولو قد حمد الله على بلائه لاستعدّ بذلك لدفعه.

٤٢٣ - وقال عليه السلام: مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ.

وذلك لكونهما عدوّان فإكرام أحدهما يستلزم إهانة الأخرى فمن كرمت عليه نفسه لزمه حفظها وحمايتها من عذاب الله وذلك مستلزم لهوان شهوته عليه وعدم مراعاته لأنّها تقتضي ضدّ ذلك.

٤٢٤ - وقال عليه السلام: مَا مَزَحَ امْرُؤٌ مَزْحَةً إِلاَّ مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً.

وذلك لأنّ العقل يقتضي صيانة العرض والبقاء على حدّ توقر معه صاحبه ولا يستخفّ به. والمزاح الذي لا ينبغي يقتضي أضداد ذلك فهو مستلزم لمخالفة العقل وتركه. فاستعار لفظ المجّ لما يطرحه الإنسان من عقله في مزحه أو مزحاته. فكأنّه قد مجّه كما مجّ الماء من فيه ويلقيه.

٤٢٥ - وقال عليه السلام: زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْسٍ.

أمّا الأوّل فلأنّ من تمام الحظّ كثرة الإخوان للإعانة على صلاح أمر المعاش والمعاد. فالزهد فيهم يستلزم نقصان الحظّ، ولأنّ مجازاة الرغبة بمثلها فضيلة من تمام الحظّ النفسانيّ فعدمها يستلزم نقصانه. وأمّا الثاني فاستلزام الرغبة الزاهد فيك للذلّ والخضوع له ظاهر. والكلمتان صغريا ضمير نفّر به عن الزهد في الراغب فيك والرغبة فيمن يزهدك.

٤٢٦ - وقال عليه السلام: مَا لاِبْنِ آدَمَ وَالْفَخْرَ: أَوَّلُهُ

نُطْفَةٌ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ، وَلا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلا يَدْفَعُ حَتْفَهُ.

استفهم تعجّباً من وجه الجمع بين الإنسان والفخر ونبّه على عدم المناسبة بينهما بضمير صغراه قوله: أوّله. إلى آخره. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فلا مناسبة بينه وبين الفخر. وروي: الفخر - منصوباً - على المفعول معه.

٤٢٧ - وقال عليه السلام: الْغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللهِ.

وأراد الغنى الحقيقي بالثواب، والفقر بعدمه في الآخرة.

٤٢٨ - وسئل عليه السلام: عن أشعر الشعراء؟ فقال عليه السلام: إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا، فَإِنْ كَانَ وَلا بُدَّ فَالْمَلِكُ الضِّلِّيلُ. (يريد امرأ القيس).

أراد أنهم لم يقولوا الشعر على منهاج واحد حتى يفاضل بينهم بل كان لكلّ منهم حالة خاصّة يجيد فيها وتنبعث فيها قريحته. فواحد يجيد في الرغبة، وآخر في الرهبة، وآخر في النشاط والطرب. ولذلك قيل: أشعر العرب امرؤ القيس إذا ركب، والأعشى إذا رغب، والنابغة إذا رهب. واستعار لفظ الحلبة وهي القطعة من الخيل يقرن للسباق للطريقة الواحدة، ورشّح بذكر الإجراء والغاية وقصبتها وذلك أنّ عادة العرب أن يضع قصبة في آخر المدى فمن سبق إليها وأخذها فاز بالسبق والغلب.

وقوله: فإن كان ولا بدّ.

أي من الحكم. وإنما حكم له بذلك باعتبار جودة شعره في أكثر حالاته دون غيره كما روي عنه برواية أخرى أن أبا الأسود سأله عن أشعر العرب. فقال: لو رفعت للقوم غاية علمنا من السابق منهم ولكن إن لم يكن فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة وهو الملك الضليل. وسمّي ضليلاً لكثرة ضلالته وقوّتها، وقيل: لأنه تنصّر في آخر عمره. وقيل: لأنّه كان كثير التهتّك وإعلان الفسق كما في شعره. وروي عن المتنبي: أنّ إمرأ القيس استدرّ الناقة وركبها، وأخذ طرفة ما طاب من لحمها، وأخذ لبيد بأمعائها وأكبدها، وبقيت عظامها وأروائها فاقتسمناها نحن. قيل للبيد بين ربيعة: من أشعر العرب؟ فقال: الملك الضليل. فقيل: ثمّ من؟ قال: الفتى القليل يعني طرفة. فقيل: ثمّ من؟ فقال: الشيخ أبو عقيل يعني نفسه.

٤٢٩ - وقال عليه السلام: أَلا حُرٌّ يَدَعُ هٰذِهِ اللُّمَاظَةَ لأَهْلِهَا؟ إِنَّهُ لَيْسَ لأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ، فَلا تَبِيعُوهَا إِلاَّ بِهَا.

اللماظة - بضم اللام - ما يبقى في الفم من الطعام. ولفظها مستعار للدنيا باعتبار قلّتها وحقارتها. ودعا إلى تركها ثمّ جذب عنها بضمير صغراه قوله: فإنّه. إلى قوله: الجنّة. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وتقدير الكبرى: وكلّما كان ليس لأنفسكم ثمن إلاّ هو فينبغي أن لا تبيعوها إلاّ به.

٤٣٠ - وقال عليه السلام: عَلامَةُ الإِيمَانِ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ، عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، وَأَلاَّ لا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ، وَأَنْ تَتَّقِيَ اللهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ.

أشار من علامات الإيمان إلى ثلاث:

أحدها: أن يؤثر الصدق الضارّ على الكذب النافع محبّة للفضيلة وكراهة للرذيلة.

الثانية: أن لا يكون في حديثه فضل وزيادة عن علمه وهو العدل في القول والاحتراز من رذيلة الكذب.

الثالثة: أن يتّقي الله في حديث غيره فلا يخوض في عرضه بغيبة أو سماعها. وقيل: أراد أن يحتاط في الرواية فيروي عنه حديثه كما هو.

٤٣١ - وقال عليه السلام: يَغْلِبُ الْمِقْدَارُ عَلَى التَّقْدِيرِ، حَتَّى تَكُونَ الآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ.

المقدار: القدر. ولمّا كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر كان بناء تقديره وتدبيره لنفسه على أوهام لا ثقة بها

فجاز فيما دبّره هو لنفسه واعتقده سبباً للمصلحة أن يكون من أسباب مفسدته وهلاكه. وقد مرّ بيان ذلك.

٤٣٢ - وقال عليه السلام: **الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ.**

استعار لهاتين الفضيلتين لفظ التوأمين باعتبار استلزام علوّ الهمّة وصدروهما بواسطتها وذلك أنّ عالي الهمّة يستحقر كلّ ذنب ومذنب في حقّه فيحلم عنه ويتأنّى عن المبادرة إلى مقابلته.

٤٣٣ - وقال عليه السلام: **الْغِيبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ.**

أكثر ما تصدر الغيبة عن الأعداء والحسّاد الذين يعجزون عن بلوغ أغراضهم وشفاء صدورهم فيعدلون إلى إظهار معايب أعدائهم لما يجدون فيه من اللذة. ونفّر عنها بنسبة فاعلها إلى العجز، وأنّها غاية جهده ليأنف من ذلك النقصان ولا يرضى به.

٤٣٤ - وقال عليه السلام: **رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ.**

وأصل الفتنة: الانصراف: أي ربّ مصروف عن تحصيل الفضيلة والطاعة وإكمالها وبالمدح والإطراء كمن يمدح بكثرة العبادة مثلاً فيقوده ذلك إلى الاقتصار على ذلك القدر منها.

وقال السيد رحمه الله: وهذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قطع المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حامدين لله سبحانه على ما منّ به من توفيقنا لضمّ ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بعد من أقطاره. وتقرّر العزم كما شرطنا أوّلاً على تفضيل أوراق من البياض في آخر كلّ باب من الأبواب ليكون لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع إلينا بعد الشذوذ. وما توفيقنا إلاّ بالله عليه توكّلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أقول: إنّه - رضوان الله عليه - بلغ في اختيار كلامه عليه السلام إلى هذه الغاية وقطعه عليها. ثمّ كتبت على عهده زيادةً من محاسن الكلمات إمّا باختياره هو أو بعض من كان يحضره من أهل العلم وتلك الزيادة تارة توجد خارجة عن المتن وتارة موضوعة فيه ملحقة بمنقطع اختياره، وروي أنّها قرئت عليه وأمر بإلحاقها بالمتن. وأوّلها.

٤٣٥ - وقال عليه السلام: **الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا، وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا.**

وأراد أنّها خلقت للاستعداد فيها وبها لدرك ثواب الله في الآخرة لا ليلتذّ بها الجاهلون.

٤٣٦ - وقال عليه السلام: **إِنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَادَتْهُمُ الضِّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ.**

قال الرضي: والمرود هنا مفعل من الإرواد، وهو الإمهال والإنظار، وهذا من أفصح الكلام أغربه، فكأنه عليه السلام شبه المهلة التي هم فيها بالمضمار الذي يجرون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا منقطعها انتقض نظامهم بعدها.

أقول: استعار لفظ المرود لمدّة دولتهم، ووجه المشابهة هو ما ذكره السيّد. والكلام ظاهر الصدق فإنّ دولتهم لم تزل على الاستقامة إلى حين اختلافهم وذلك حين ولي الوليد بن يزيد فخرج عليه يزيد بن الوليد فخرج عليه إبراهيم بن الوليد وقامت حينئذ دعاة بني العباس بخراسان وأقبل مروان بن محمد من الجزيرة يطلب الخلافة فخلع إبراهيم بن الوليد وقتل قوماً من بني أميّة واضطرب أمر دولتهم وكان زوالها على يد أبي مسلم وكان في بدو أمره أضعف خلق الله وأشدّهم فقراً. وفي ذلك تصديق قوله عليه السلام: ثمّ كادتهم الضباع لغلبتهم. ولفظ الضباع قد يستعار للأراذل والضعفاء. وهذا من كراماته.

٤٣٧ - وقال عليه السلام: في مدح الأنصار: **هُمْ وَاللهِ رَبَّوُا الإِسْلاَمَ كَمَا يُرَبَّى الْفِلْوُ مَعَ غَنَائِهِمْ، بِأَيْدِيهِمُ السِّبَاطِ، وَأَلْسِنَتِهِمُ السِّلاطِ.**

والفلو: المهر. والسباط: السماح، ويقال للحاذق في الطعن: إنّه لسبط اليدين يريد أنّه ثقيف فيه. والسلاط: الحديد الفصيح، وشبّه تربيتهم للإسلام وحمايتهم له بتربية الفلو، ووجه الشبه شدّة عنايتهم به وحسن مراعاته إلى حين كماله.

٤٣٨ - وقال عليه السلام : «الْعَيْنُ وِكَاءُ السَّهِ».

قال الرضي: وهذه من الاستعارات العجيبة، كأنه يشبه السه بالوعاء، والعين بالوكاء، فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء، وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي صلى الله عليه وآله، وقد رواه قوم لأمير المؤمنين عليه السلام، وذكر ذلك المبرد في كتاب «المقتضب» في باب «اللفظ بالحروف» وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بـ«مجازات الآثار النبوية».

وأقول: إنّه استعار لفظ الوكاء وهو رباط القربة للعين باعتبار حفظ الإنسان في يقظته لنفسه من أن يخرج منه ريح ونحوها كما يحفظ الوكاء ما يوكى به، وفي ذلك ملاحظة تشبيه السه بالوعاء كالقربة، ومن تمام الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: فإذا نامت العينان استطلق الوكاء.

٤٣٩ - وقال عليه السلام : في كلام له: وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَاسْتَقَامَ، حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ.

المنقول: أنّ الوالي هو عمر بن الخطاب. والكلام من خطبة طويلة له عليه السلام في أيّام خلافته يذكر فيها قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله واختصاصه له وإفضاءه بأسراره إليه إلى أن قال فيها: فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم فقارب وسدّد حسب استطاعته عل ضعف وجدّ كانا فيه. ثمّ وليهم بعده وال فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه على عسف وعجز كانا فيه. ثمّ استخلفوا ثالثاً لم يكن يملك أمر نفسه شيئاً، غلب عليه أهله فقادوه إلى أهوائهم كما يقود الوليدة البعير المحطوم، ولم يزل الأمر بينه وبين الناس يبعد تارة ويقرب أخرى حتى نزوا عليه فقتلوه. ثمّ جاؤوا في مدبّ الدبى يريدون بيعتي. في كلام طويل. والجران: مقدّم عنق البعير. وضربه بجرانه كناية بالوصف المستعار عن استقراره وتمكّنه كتمكن البعير البارك من الأرض.

٤٤٠ - وقال عليه السلام : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ الْمُوسِرُ فِيهِ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذٰلِكَ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. تَنْهَدُ فِيهِ الأَشْرَارُ، وَتُسْتَذَلُّ الأَخْيَارُ، وَيُبَايِعُ الْمُضْطَرُّونَ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّينَ.

تنهد: أي ترتفع وتعلو. وذكر للزمان مذاماً:

أحدها: استعار له لفظ العضوض باعتبار شدّته وأذاه كالعضوض من الحيوان. وفعول للمبالغة.

الثانية: يعضّ الموسر فيه على ما في يديه. وهو كناية عن بخله بما يملك. ونبّه على صدق قوله: ولم يؤمر بذلك. بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] فإنه يفيد الندب إلى بذل الفضل من المال وذلك ينافي الأمر بالبخل.

الثالثة: أنّه تعلو فيه درجة الأشرار وتستذلّ الأخيار.

الرابعة: ويبايع فيه المضطرون: أي كرهاً لأئمّة الجور. ونبّه على قبح ذلك بنهي الرسول صلى الله عليه وآله.

٤٤١ - وقال عليه السلام : يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ.

قال الرضي: وهذا مثل قوله: فالمحبّ المطري بكثرة المدح كالغلاة هم في طرف الإفراط، والذي يبهته ويفتري عليه بأنّه كافر ومخطئ كالخوارج هم في طرف التفريط. وكلاهما رذيلتان خارجتان عن فضيلة العدل فيه. وقد علمت أنّ الرذائل مهاوي الهلاك الأخروي. وقد سبق مثله.

٤٤٢ - وسئل عن التوحيد والعدل فقال عليه السلام : التَّوْحِيدُ أَنْ لا تَتَوَهَّمَهُ، وَالْعَدْلُ أَنْ لا تَتَّهِمَهُ.

وهاتان الكلمتان على وجازتهما في غاية الشرف، وعليهما مدار العلم الإلهي. والكلمة الأولى أجلّ كلمة ربّي بها على التوحيد والتنزيه، وقد بيّنا مفهومها في أول الخطبة الأولى من الكتاب. وجملة القول فيها هاهنا أنه لما كان الوهم إنّما يدرك المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوس ولا بدّ أن يستعين في إدراكه وضبطه بالقوّة المتخيّلة حتى يصوّره ويلحقه بالأمور المحسوسة وكان الباري تعالى منزّهاً بمقتضى العقل الصرف عن المحسوسات وما يتعلّق بها لا جرم لم يجز أن يوجّه الوهم في تصوّره تعالى ويجري على ذاته المقدّسة أحكامه. إذ لا يكون في حقّه إلاّ كاذبة لاقتضائها كونه

محسوساً أو متعلّقاً بالمحسوس الذي من شأنه الكثرة والتركيب المنافيان للوحدة المطلقة. فيكون قد عرّف التوحيد بخاصّة من خواصّه وهي لازم سلبيّ.

وأمّا الكلمة الثانية: فالمراد من العدل اعتقاد جريان العدل في جميع أفعاله تعالى وأقواله ومن لوازم ذلك الخاصّة به أن لا يتّهمه العبد أنّه يجبره على القبيح ثمّ يعاقبه عليه، أو أنّه يكلّفه ما لا يطيقه، ونحو ذلك من مسائل أصول الدين التي اعتمد فيها المعتزلة على ظواهر كلامه تعالى.

٤٤٣ - وقال عليه السلام: لا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ.

الصمت عن الحكمة رذيلة تفريط من فضيلة القول. والقول بالجهل رذيلة إفراط ولا خير فيهما بل فيما يتوسّطهما من القول بالحكمة.

٤٤٤ - وقال عليه السلام: في دعاء استسقى به: اللَّهُمَّ اسْقِنَا ذُلُلَ السَّحَابِ دُونَ صِعَابِهَا.

قال الرضي: وهذا من الكلام العجيب الفصاحة، وذلك أنه عليه السلام شبه السحاب ذوات الرعود والبوارق والرياح والصواعق بالإبل الصعاب التي تقمص برحالها وتقص بركبانها، وشبه السحاب خالية من تلك الروائع بالإبل الذلل التي تحتلب طيعة وتقتعد مسمحة.

وأقول: إنّ لفظي الذلل والصعاب مستعاران للسحب لمكان المشابهة التي ذكرها السيّد. وقصت به راحلته: رمت به. وتتوقصّ بركبانها: أي تنزو بهم نزواً يقارب الخطو. والروائع: الأمور المخوفة.

٤٤٥ - وقيل له عليه السلام: لو غيّرت شيبك يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: الْخِضَابُ زِينَةٌ، وَنَحْنُ قَوْمٌ فِي مُصِيبَةٍ! (يريد وفاة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

وهو ظاهر.

٤٤٦ - وقال عليه السلام: مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا.

النهم بالفتح: إفراط الشهوة في الطعام، ولفظه مستعار لشدّة طلب المتعلّم وحرصه على العلم وطلب صاحب الدنيا، وكذلك وصف عدم الشبع بهما. والكلمة مرويّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم.

٤٤٧ - وقال عليه السلام: «الْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ».

قال الرضي: وقد روى بعضهم هذا الكلام لرسول الله صلى الله عليه وآله.

واستعار لفظ المال للقناعة بوصف عدم النفاد باعتبار أنّ بها الغنى الدائم كالمال الباقي أبداً.

٤٤٨ - وقال عليه السلام: لزياد بن أبيه - وقد استخلفه لعبد الله بن العباس على فارس وأعمالها، في كلام - طويل كان بينهما نهاه فيه عن تقدم الخراج: اسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ، وَاحْذَرِ الْعَسْفَ وَالْحَيْفَ، فَإِنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بِالْجَلاءِ، وَالْحَيْفَ يَدْعُو إِلَى السَّيْفِ.

أمره باستعمال العدل وحذّره من حيف الناس وعسفهم وهو حملهم على مكاره. ونفّر عن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّ العسف. إلى آخره: أي يعود بجلاء المعسوف بهم عن أوطانهم، وظاهر أنّ الظلم معدّ لذلك، أو لقيام السيف على الظالم من غيره. وتقدير الكبرى: وكلّما كان كذلك فيجب اجتنابه.

٤٤٩ - وقال عليه السلام: أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَخَفَّ بِهِ صَاحِبُهُ.

وذلك أنه يدوم عليه لاستسهاله إيّاه حتى يصير ملكة وخلقاً لا ينفك عنه بخلاف ما يستصعبه فإنّه يوشك أن يقلع عنه قبل استحكامه. وقد مرّ تفسيره.

٤٥٠ - وقال عليه السلام: مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا، حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا.

لمّا كان التعلّم على الجاهل فريضة ولا يمكن إلاّ بمعلّم عالم كان وجوب التعلّم على الجاهل مستلزماً لوجوب التعليم على العالم، وفي الخبر المرفوع: من تعلّم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار.

وروى معاذ بن جبل عن الرسول ﷺ أنّه قال: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله حسنة، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنّه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنّة، والمونس في الوحشة، والمحدّث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السرّاء، والمعين على الضرّاء، والزين عند الأخلاّء. والسلاح على الأعداء.

٤٥١ - وقال عليه السلام: شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ.

أي من أحوج إلى الكلفة له. وذلك أنّ الأخوة الصادقة تستلزم الانبساط بين الإخوان وترك التكلّف من بعضهم لبعض. فكان عدم هذا اللازم ووجود التكلّف مستلزماً لعدم ملزومه وهو صدق الإخاء ومن لا يكون أخ صدق فهو شرّ الإخوان. والكلمة في قوّة صغرى نبّه به على اجتناب أخ كذلك، وتقديرها: من أحوج إلى التكلّف له فهو شرّ الإخوان، وتقدير الكبرى: ومن كان شرّاً لزم مجانبته.

٤٥٢ - وقال عليه السلام: إِذَا احْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ.

حشمه، أحشمه: بمعنى أغضبه، وقيل: أخجله.

والكلام صغرى ضمير نفّر به عن احتشام الأخ لأخيه، وذلك أنّ احتشامه له على كلى المعنيين يوجب نفرته وعدم أنسه به وهو من دواعي مفارقته وموجباتها وتقدير ما هو في قوّة الكبرى: ومفارقة الأخ لا يجوز فاحتشامه لا يجوز. وبالله التوفيق والعصمة.

□

هذا آخر ما وجدناه من اختيار السيّد رحمه الله من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وإذ وفّقني الله تعالى لإتمام شرحه فله الحمد سبحانه على ما أعدّ لي له من مننه الجزيلة وأفاضه عليّ من نعمه الجليلة، ومنه أطلب وإليه أرغب أن يجعل ما كتبته حجّة لي لا علي إنّه المنّان ذو الفضل والإحسان. وكتب عبد الله الملتجئ إلى رحمته، المستعيذ من ذنوبه بعفوه وكرمه ميثم بن علي بن ميثم البحراني في منتصف ليلة السبت سادس شهر الله المبارك رمضان - عمّت بركته - من سنة سبع وسبعين وستمائة. والحمد لله كما هو أهله وصلّى الله على سيّدنا محمد النبي الأميّ وعلى آله الطاهرين الأكرمين وسلّم تسليماً.

فصل نذكر فيه شيئاً من اختيار غريب كلامه المحتاج إلى التفسير

١ - في حديثه عليه السلام: فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ.

قال الرضي: اليعسوب: السيد العظيم المالك لأمور الناس يومئذ، والقزع: قطع الغيم التي لا ماء فيها.

أقول: أومأ بقوله ذلك إلى علامات ذكرها في آخر الزمان لظهور صاحب الأمر، واستعار له لفظ اليعسوب وهو في الأصل أمير النحل ملاحظة لشبهه به فأما ضربه بذنبه فقيل فيه أقوال:

أحدها: أنّ الضرب هو السير في الأرض، وذنبه استعارة في أعوانه وأتباعه والباء للاستصحاب.

الثاني: لمّا كان ضرب النحل بذنبه لسعه كنّى بذلك عن نصب سيوفه وسهامه في أعدائه لقتلهم وأذاهم.

الثالث: أنّه كناية عن ثورانه وغضبه لدين الله ملاحظة لشبهه بالسبع حال صولته وغضبه، وهذا الوجه أشبه الثلاثة.

وشبّه اجتماع المؤمنين وأهل طاعة الله باجتماع قطع الغيم المتفرّقة. ووجه الشبه سرعة الاجتماع لأنّ قزع الخريف سريع التأليف.

٢ - وفي حديثه عليه السلام: هٰذَا الْخَطِيبُ الشَّحْشَحُ.

يريد الماهر بالخطبة الماضي فيها، وكل ماض في كلام أو سير فهو شحشح؛ والشحشح في غير هذا الموضع: البخيل الممسك.

يروى أنّه رأى خطيباً يخطب فقال: ما هذا الخطيب الشحشح: أي الماهر في خطبته.

٣ - وفي حديثه ﷺ: إنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً.

يريد بالقحم المهالك؛ لأنها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف في الأكثر، ومن ذلك «قحمة الأعراب» وهو أن تصيبهم السنة فتتعرق أموالهم فذلك تقحمها فيهم. وقيل فيه وجه آخر، وهو أنها تقحمهم بلاد الريف، أي: تحوجهم إلى دخول الحضر عند محول البدو.

هذا ما قاله السيد رحمه الله وأقول: يروى أنّه ﷺ وكّل أخاه في خصومة، وقال: إنّ لها لقحماً وإنّ الشيطان يحضرها. والقحم: المهالك. وذلك أنّها مظنّة ثوران الفتنة الغضبيّة والخروج عن حدّ العدل فيها إلى رذيلة الإفراط التي هي مظنّة الهلاك.

٤ - وفي حديثه ﷺ: إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ الْحِقَاقِ فَالْعَصَبَةُ أَوْلَى.

والنص: منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السير لأنه أقصى ما تقدر عليه الدابة. وتقول: نصصت الرجل عن الأمر؛ إذا استقصيت مسألته عنه لتستخرج ما عنده فيه. فنص الحقاق يريد به الإدراك لأنه منتهى الصغر والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبير، وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر وأغربها، يقول: فإذا بلغ النساء ذلك فالعصبة أولى بالمرأة من أمّها إذا كانوا محرماً مثل الأخوة والأعمام، وبتزويجها إن أرادوا ذلك والحقاق محاقة الأم للعصبة في المرأة وهو الجدال والخصومة وقول كل واحد منهما للآخر «أنا أحق منك بهذا» يقال منه: حاققته حقاقاً، مثل جادلته جدالاً. وقد قيل: إن «نص الحقاق» بلوغ العقل، وهو الإدراك؛ لأنه ﷺ إنما أراد منتهى الأمر الذي تجب فيه الحقوق والأحكام، ومن رواه «نص الحقائق» فإنما أراد جمع حقيقة.

هذا معنى ما ذكره أبو عبيد [القاسم بن سلام] والذي عندي أن المرأة بنصب الحقاق ههنا بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في حقوقها، تشبيها بالحقاق من الإبل، وهي جمع حقة وحق، وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة، وعند ذلك يبلغ إلى الحد الذي يتمكن فيه من ركوب ظهره، ونصه في السير، والحقائق أيضاً: جمع حقة. فالروايتان جميعاً ترجعان إلى معنى واحد، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور.

وأقول: الذي ذكره السيّد أنسب إلى كلام العرب كما قال. غير أنّ نصّ الحقاق استعارة لا تشبيه وإن كانت الإستعارة تعتمد التشبيه. والعصبة: بنو الرجل وقرابته لأبيه سمّوا بذلك لأنّهم عصبوا به وعلّقوا عليه. وقيل: يحتمل أن يراد بالنصّ الارتفاع. يقال: نصّت الضبّة رأسها: إذا رفعته، ومنه منصّة العروس لارتفاعها عليها. ويكون قد استعار لفظ الحقاق لأثداء الصغيرة إذا نهدت وارتفعت لشبهها بالحقة صورة: أي إذا بلغن حدّ ارتفاع أثدائهنّ كانت العصبة أولى بهنّ من الأمّ لأنّه وقت إدراكهنّ وعلامة صلاحيّتهنّ للتزويج.

٥ - وفي حديثه ﷺ: إِنَّ الإِيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً فِي الْقَلْبِ، كُلَّمَا ازْدَادَ الإِيمَانُ ازْدَادَت اللُّمْظَة.

واللمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض. ومن قيل: فرس ألمظ، إذا كان بجحفلته شيء من البياض. وأقول: أراد أنّ الإيمان وهو التصديق بوجود الصانع تعالى أوّل ما يكون في النفس يكون حالة ثمّ لا يزال يتأكّد بالبراهين والأعمال الصالحة إلى أن يصير ملكة تامّة، ولفظ اللمظة استعارة لما يبدو من نور الإيمان في النفس أوّل كونه ملاحظة لشبهه باللمظة من البياض والنكتة من نور الشمس. ونصب لمظة على التميز. والجحفلة من الفرس هي المسمّاة من الإنسان شفة.

٦ - وفي حديثه ﷺ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ - لِمَا مَضَى - إِذَا قَبَضَهُ.

فالظنون الذي لا يعلم صاحبه أيقضيه من الذي هو عليه أم لا، فكأنه الذي يظن به فمرة يرجوه ومرة لا يرجوه. وهذا من أفصح الكلام؛ وكذلك كل أمر تطلبه

ولا تدري أي شيء أنت منه فهو ظنون وعلى ذلك قول الأعشى.

مَـا يُـجْـعَـلُ الْـجُـدُّ الـظَّـنُـونُ الَّـذِي
جُـنِّـبَ صَـوْبَ الـلَّـجِـبِ الْـمَـاطِـرِ
مِـثْـلُ الْـفُـراتِـي إذا مَـا طَـمَـا
يَـقْـذِفُ بِـالْـبُـوصِـيِّ وَالْـمَـاهِـرِ

الجد: البئر والظنون: التي لا يعلم هل فيها ماء أم لا.

قيل: يقول عليه السلام: إذا كان لك مثلاً عشرون ديناراً ديناً على رجل، وقد أخذها منك ووضعها كما هي من غير تصرّف فيها وأنت تظنّ إن استرددتها منه ردّها إليك فإذا مضى عليها أحد عشر شهراً واستهلّ هلال الثاني عشر وجبت زكاتها عليك. واللجب في قول الأعشى هو السحاب المصوّت ذو الرعد. وأراد بالفراتيّ الفرات، والياء للتأكيد كقولهم: والدهر بالإنسان دواريّ: أي دوّار. ويحتمل أن يريد نهر الفراتي. والبوصيّ: ضرب من صغار السفن. والماهر: السابح، ومراده أنّه لا يقاس البئر الذي يتشكّك هل فيه ماء أم لا لبعده بالفرات إذا ما طما. وهو كالمثل لعدم مساواة البخيل للكريم.

٧ - وفي حديثه عليه السلام: **أَنَّهُ شَيَّعَ جَيْشاً بِغزية فَقَالَ: اعْذِبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ.**

ومعناه اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحمية ويقدح في معاقد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، وكل من امتنع من شيء فقد أعذب عنه. والعاذب والعذوب: الممتنع من الأكل والشرب.

قوله: يفتّ في عضد الحميّة: كناية عن كسرها.

٨ - وفي حديثه عليه السلام: **كَالْيَاسِرِ الْفَالِجِ يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ.**

الياسرون: هم الذين يتضاربون بالقداح على الجزور، والفالج: القاهر والغالب، يقال: فلج عليهم، وفلجهم، وقال الزاجر:

لـمـا رأيـت فـالـجـاً قـد فـلـجـا

وأقول: قد مرّ شرحه في قوله: أمّا بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر.

٩ - وفي حديثه عليه السلام: **كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ.**

ومعنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقوله: «إذا احمر البأس» كناية عن اشتداد الأمر، وقد قيل في ذلك أقوال أحسنها: أنه شبه حمى الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها، ومما يقوي ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رأى مجتلد الناس يوم حنين وهي حرب هوازن: «الآن حمي الوطيس» فالوطيس: مستوقد النار، فشبه رسول الله صلى الله عليه وآله ما استحر من جلاد القوم باحتدام النهار وشدة التهابها.

وأقول: استعار وصف احمرار البأس لشدّته ملاحظة لشبهه بالنار الموقدة. وقد مرّ مثل ذلك في بعض كتبه عليه السلام.

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

الفهرس

الجزء الثاني

مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

باب المختار من كتب مولانا
أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com